

(فهرست الجزء السادس من تفسير الفخر الرازي رحمه الله تعالى)

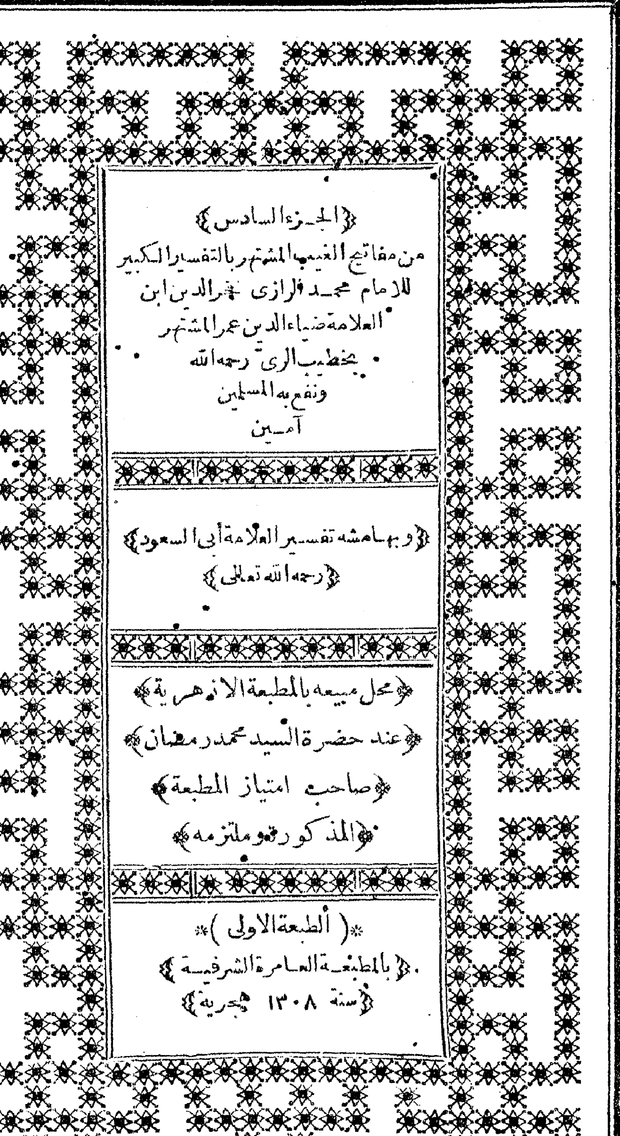
صحيفه

صحيفة

(تمت)

{فهرسة ما بالهامش من تفسير العلامة أبي السعود العمادي رحمه الله تعالى}

(تمت)



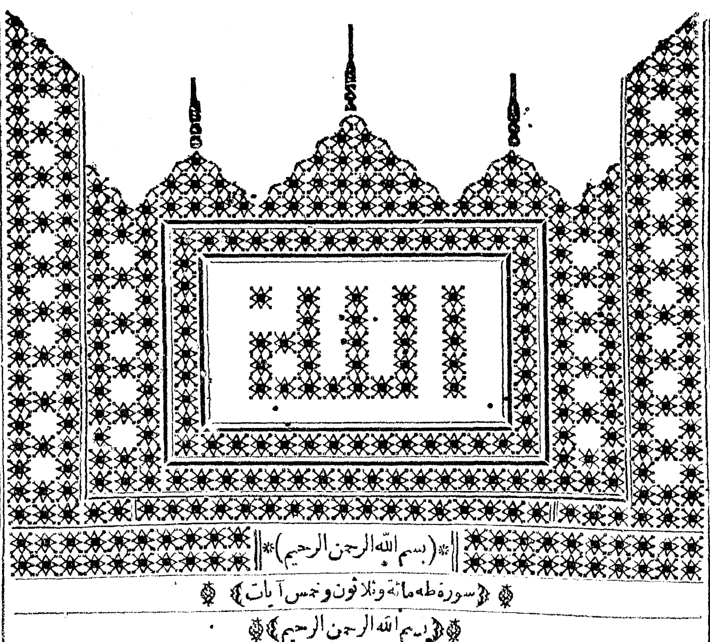
﴿الجزء السادس﴾

من مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير
للامام محمد الرازي فخر الدين ابن
العلامة ضياء الدين عمر المشتهر
بخطيب الري رحمه الله
ونفع به المسلمين
آمين

﴿وبهامشه تفسير العلامة أبي السعود﴾
﴿رحمه الله تعالى﴾

﴿محل بيعه بالمطبعة الازهرية﴾
﴿عند حضرة السيد محمد رمضان﴾
﴿صاحب امتياز المطبعة﴾
﴿المذكورة وملتزمه﴾

﴿الطبعة الاولى﴾
﴿بالمطبعة العامرة الشرفية﴾
﴿سنة ١٣٠٨ هجرية﴾



﴿سورة طه مائة وثلاثون وخمس آيات﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى له ما فى السموات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى﴾ اعلم ان قوله طه فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ أبو عمرو بفتح الطاء وكسر الهاء وقرأ أهل المدينة بين الفتح والكسر وقرأ ابن كثير وابن عامر بفتح الطاء والهاء وقرأ حمزة والكسائى بكسر الطاء والهاء قال الزجاج وقرئ طه بفتح الطاء وسكون الهاء وكلها لغات قال الزجاج من فتح الطاء والهاء فلان ما قبل الالف مفتوح ومن كسر الطاء والهاء فأمال الكسرة لان الحرف مقصور والمقصور يغلب عليه الامالة الى الكسرة (المسئلة الثانية) للمفسرين فيه قولان (أحدهما) انه من حروف التهجى والآخر أنه كلمة مفيدة أما على القول الاول فقد تقدم الكلام فيه فى أول سورة البقرة والذى زادوه ههنا أمور (أحدها) قال الثعلبى طا شجرة طوبى والهاء الهاوية فكأنه أقسم بالجنة والنار (وثانيها) يحكى عن جعفر الصادق رضى الله عنه الطاء طهارة أهل البيت والهاء هدايتهم (وثالثها) يا مطمع الشفاعة للامة ويا هادى الخلق الى الملة (ورابعها) قال سعيد بن جبير هو افتتاح اسمه الطيب الطاهر الهادى (وخامسها) الطاء من الطهارة والهاء من الهداية كأنه قيل يا طاهرا من الذنوب ويا هاديا الى علام الغيوب (وسادسها) الطاء طول القراء والهاء هيبتهم فى قلوب الكفار قال الله تعالى سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب (وسابعها) الطاء تسعة فى الحساب والهاء خمسة تكون أربعة عشر ومعناه يا أيها البدر وقد عرفت فيما تقدم أن أمثال هذه الاقوال لا يجب أن يعتمد عليها (القول الثانى) قول من قال انها كلمة مفيدة وعلى هذا القول ذكروا وجهين (أحدهما) معناه يا رجل وهو مروى عن ابن عباس والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبى رضى الله عنهم ثم قال سعيد بن

(وما أنا بطارد الذين آمنوا) جواب عما لوحوا به بقولهم وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا من أنه لو اتبعه الاشراف لوافقوهم وأن اتباع الفقراء مانع لهم عن ذلك كما صرحوا به فى قولهم أنؤمن لك واتبعك الارذلون فكان ذلك التماسا منهم لطردهم وتعليقا لايمانهم به عليه الصلاة والسلام بذلك أنفة من الانتظام معهم فى سلك واحد (انهم ملاقو ربهم) تعليل لامتناعه عليه السلام عن طردهم أى انهم فائزون فى الآخرة بلقاء الله عز وجل كأنه قيل لا أطردهم ولا أبعدهم عن مجلسى لانهم مقربون فى حضرة القدس والتعرض لوصف الربوبية لتربية وجوب رعايتهم وتحتم الامتناع عن طردهم أو مصدقون فى الدنيا بلقاء ربهم موقنون به عالمون انهم ملاقوه لا محالة فكيف أطردهم وحمله على معنى أنهم يلاقونه فيجازيهم على ما فى قلوبهم من ايمان صحيح ثابت كما ظهر لى

أو على خلاف ذلك مما تعرفونهم به من بناء إيمانهم على بادي الرأي من غير نظر وتفكر وما على أن أشق عن قلوبهم وأتعرف سر ذلك منهم حتى أطردهم إن كان الأمر كما تزعمون بأباه الحزم بترتب غضب الله عز وجل على طردهم كما سيأتي وايضا فهم إنما قالوا إن اتباعهم لك إنما هو بحسب بادي الرأي بلا تأمل وتفكر وهذا لا يكاد يصلح مدارا للطرد في الدنيا ٣ ولا للمؤاخذة في الآخرة غايته أن لا يكونوا في مرتبة الموقنين وادعاء أن بناء الإيمان على ظاهر الرأي يؤدي إلى الرجوع عنه عند التأمل فكأنهم قالوا إنهم اتبعوك بلا تأمل فلا يثبتون على دينك بل يرتدون عنه تعسف لا يخفى (ولكني أراكم قوما تجهلون) بكل ما ينبغي أن يعلم ويدخل فيه جهلهم بلقاء الله عز وجل وبمنزلتهم عنده وباستيجاب طردهم لغضب الله كما سيأتي وبركاكة رأيهم في التماس ذلك وتوقيف إيمانهم عليه وأنفتهم عن الانتظام معهم في سلك واحد وزعمهم أن الرذالة بالفقر والشرف بالغنى وإيثار صيغة الفعل للدلالة على التجدد والاستمرار أو تسافهون على المؤمنين بنسبتهم إلى الخساسة (ويا قوم من ينصرني من الله) بدفع حلول سخطه عني (إن طردتهم) فإن ذلك أمر لا مرد له لكون الطرد ظلما موجبا لحلول السخط قطعا وإنما لم يصرح به إشعارا بأنه غني عن البيان لا سيما غب ما قدم ما يلوح به من أحوالهم فكأنه قيل من يدفع عني غضب الله تعالى إن طردتهم وهم بتلك المثابة من الكرامة والزلفى كما ينبئ عنه قوله تعالى (أفلا تذكرون) أي أتستمرون على ما أنتم عليه من الجهل المذكور فلا تتذكرون ما ذكر من حالهم حتى تعرفوا أن ما تأتونه بمعزل عن الصواب ولكون هذه العلة مستقلة بوجه مخصوص من ظاهر الدلالة على وجوب الامتناع عن الطرد أفردت عن التعليل السابق

جبير بلسان النبطية وقال قتادة بلسان السريانية وقال عكرمة بلسان الحبشية وقال الكلبي بلغة عك وأنشد الكلبي لشاعرهم

إن السفاهة طه في خلائقكم ❊ لا قدس الله أرواح الملاعين

وقد تكلم الناس على هذا القول من وجهين (الأول) أنه يعني يا رجل في اللغة حمل عليه لكنه لا يجوز أن ثبت على هذا المعنى إلا في لغة العرب إذ القرآن بهذه اللغة نزل فيحتمل أن تكون لغة العرب في هذه اللفظة موافقة لسائر اللغات التي حكينا فأما على غير هذا الوجه فلا يحتمل ولا يصح (الثاني) قال صاحب الكشاف إن كان طه في لغة عك بمعنى يا رجل فلعلهم تصرفوا في يا هذا فقلبوا الياء طاء فقالوا طا واختصروا في هذا واقتصروا على ها فقوله طه بمعنى يا هذا واعترض بعضهم عليه وقال لو كان كذلك لوجب أن يكتب أربعة أحرف طاها (وثانيها) أنه عليه السلام كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه فأمر أن يطأ الأرض بقدميه معا وكان الأصل طأ فقلبت همزته هاء كما قالوا هياك في إياك وهرقت في أرقت ويجوز أن يكون الأصل من وطئ على ترك الهمزة فيكون أصله طا يا رجل ثم أثبت الهاء فيه للوقف والوجهان ذكرهما الزجاج ❊ أما قوله تعالى ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ففيه مسائل (المسئلة الأولى) قال صاحب الكشاف إن جعلت طه تعديدا لأسماء الحروف فهذا ابتداء كلام وإن جعلتها اسما للسورة احتمل أن يكون قوله ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى خبرا عنها وهي في موضع المبتدأ والقرآن ظاهر أوقع موقع المضمر لأنها قرآن وأن يكون جوابا لها وهي قسم (المسئلة الثانية) قرئ ما نزل عليك القرآن لتشقى (المسئلة الثالثة) ذكروا في سبب نزول الآية وجوها (أحدها) قال مقاتل إن أبا جهل والوليد بن المغيرة ومطعم بن عدي والنضر بن الحرث قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم إنك لتشقى حيث تركت دين آبائك فقال عليه السلام بل بعثت رحمة للعالمين قالوا بل أنت تشقى فأنزل الله تعالى هذه الآية ردا عليهم وتعريفا لمحمد صلى الله عليه وسلم بأن دين الإسلام هو السلام وهذا القرآن هو السلام إلى نيل كل فوز والسبب في إدراك كل سعادة وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها (وثانيها) أنه عليه السلام صلى بالليل حتى تورمت قدماه فقال له جبريل عليه السلام أبق على نفسك فإن لها عليك حقا أي ما أنزلنا لتنهك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة العظيمة وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة وروي أيضا أنه عليه السلام كان إذا قام من الليل ربط صدره بحبل حتى لا ينام وقال بعضهم كان يقوم على رجل واحدة وقال بعضهم كان يسهر طول الليل فأراد بقوله لتشقى ذلك قال القاضي هذا بعيد لأنه عليه السلام إن فعل شيأ من ذلك فلا بد وأن يكون قد فعله بأمر الله تعالى وإذا فعله بأمره فهو من باب السعادة فلا يجوز أن يقال له ما أمرناك بذلك (وثالثها) قال بعضهم يحتمل أن يكون المراد لا تشق على نفسك ولا تعذبها بالأسف على كفر هؤلاء فإنا إنما أنزلنا عليك القرآن لتذكر به فمن آمن وأصلح فلنفسه ومن كفر فلا يحزنك كفره فما عليك إلا البلاغ وهو كقوله تعالى لعلك باخع نفسك الآية ولا يحزنك قولهم (ورابعها) إنك لا تلام على كفر قومك كقوله تعالى لست عليهم بمسيطر وما أنت عليهم بوكيل أي ليس عليك كفرهم إذا بلغت ولا تؤاخذ بذنبهم (وخامسها) أن هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة وفي ذلك الوقت كان عليه السلام مقهورا تحت ذل أعدائه فكأنه سبحانه قال له لا تظن أنك تبقى على هذه الحالة أبدا بل يعلو أمرك ويظهر قدرك فإنا ما أنزلنا عليك مثل هذا القرآن لتبقى شقيا فيما بينهم بل تصير معظما مكرما ❊ وأما قوله تعالى إلا تذكرة لمن يخشى ففيه مسائل (المسئلة الأولى) في كلمة إلا ههنا قولان (أحدهما) أنه استثناء منقطع بمعنى لكن (والثاني) التقدير ما أنزلنا عليك القرآن لتحمل متاعب التبليغ إلا ليكون تذكرة كما يقال ما شافهناك بهذا الكلام لتتأذى إلا ليعتبر بك غيرك (المسئلة الثانية)

. وصـدرت ياقوم (ولا أقول لكم) حين أدعي النبوّة (عندي خزائن الله) أي رزقه وأمواله حتى تستدلوا بعدمها على كذبي بقولكم وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين فان النبوّة أعز من أن تنال باسباب دنيوية ودعواها بمعزل عن ادعاء المال والجاه (ولا أعلم الغيب) أي لا ادعي في قولي اني لكم نذير مبين اني أخاف عليكم عذاب يوم أليم علم الغيب حتى تسارعوا الى الانكار والاستبعاد (ولا أقول اني ملك) حتى تقولوا ما نراك الا بشرا مثلنا فان البشرية ليست من موانع النبوّة بل من مباديها يعني انكم اتخذتم فقد ان هذه الامور الثلاثة ذريعة الى تكذيبي والحال اني لا ادعي شيأ من ذلك ولا الذي أدعيه يتعلق بشئ منها وانما يتعلق بالفضائل النفسانية التي بها تتفاوت مقادير البشر (ولا أقول) مساعدة لكم كما تقولون (للذين تزدري أعينكم) أي تقتحمهم وتحتقرهم من زراه اذا عابه واسناد الازدراء الى أعينهم بالنظر الى قولهم وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا واما للاشعار بأن ذلك لقصور نظرهم ولو تدبروا في شأنهم ما فعلوا ذلك أي لا أقول في شأن الذين استرذلتموهم لفقرهم من المؤمنين (لن يؤتيهم الله خيرا) في الدنيا أو في الآخرة فعسى الله أن يؤتيهم خيري الدارين ان قلت هذا القول ليس مما تستنكره الكفرة ولا مما يتوهمون صدوره عنه عليه السلام أصالة أو استتباعا كادعاء الملكية وعلم الغيب وحيازة الخزائن مما نفاه عليه الصلاة والسلام عن نفسه بطريق

جميع

التبرؤ والتنزه عنه فمن أي وجه عطف نفيه على نفيها قلت من جهة أن كلا النفيين رد لقياسهم الباطل الذي تمسكوا به فيما سلف فانهم زعموا أن النبوّة تستتبع الامور المذكورة وأنها لا تتسنى لمن ليس على تلك الصفات فان العثور على مكانها واغتنام مغانمها ليس من دأب

انما خص من يخشى بالتذكرة لانهم المنتفعون بها وان كان ذلك عاما في الجميع وهو كقوله هدى للمتقين وقال سبحانه وتعالى تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا وقال لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون وقال وتنذر به قوما لدا وقال وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين ﴿المسئلة الثالثة﴾ وجه كون القرآن تذكرة انه عليه السلام كان يعظهم به وببيانه فيدخل تحت قوله لمن يخشى الرسول صلى الله عليه وسلم لانه في الخشية والتذكرة بالقرآن كان فوق الكل وأما قوله تعالى تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى ففيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ ذكروا في نصب تنزيلا وجوها (أحدها) تقديره نزل تنزيلا ممن خلق الارض فنصب تنزيلا بمضمر (وثانيها) أن ينصب بأنزلنا لان معنى ما أنزلناه الا تذكرة أنزلناه تذكرة (وثالثها) أن ينصب على المدح والاختصاص (ورابعها) أن ينصب بيخشى مفعولا به أي انزله الله تعالى تذكرة لمن يخشى تنزيل الله وهو معنى حسن واعراب بين وقرئ تنزيل بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف ﴿المسئلة الثانية﴾ فائدة الانتقال من لفظ التكلم الى لفظ الغيبة أمور (أحدها) ان هذه الصفات لا يمكن ذكرها الا مع الغيبة (وثانيها) انه قال أولا أنزلنا ففخم بالاسناد الى ضمير الواحد المطاع ثم ثنى بالنسبة الى المختص بصفات العظمة والتمجيد فتضاعفت الفخامة من طريقين (وثالثها) يجوز أن يكون أنزلنا حكاية لكلام جبريل عليه السلام والملائكة النازلين معه ﴿المسئلة الثالثة﴾ انه تعالى عظم حال القرآن بأن نسبه الى أنه تنزيل ممن خلق الارض وخلق السموات على علوها وانما قال ذلك لان تعظيم الله تعالى يظهر بتعظيم خلقه ونعمه وانما عظم القرآن ترغيبا في تدبره والتأمل في معانيه وحقائقه وذلك معتاد في الشاهد فانه تعظم الرسالة بتعظيم حال المرسل ليكون المرسل اليه أقرب الى الامتثال ﴿المسئلة الرابعة﴾ يقال سماء عليا وسموات علا وفائدة وصف السموات بالعلا الدلالة على عظم قدرة من يخلق مثلها في علوها وبعد مرتقاها ✻ أما قوله تعالى الرحمن على العرش استوى ففيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قرئ الرحمن مجرورا صفة لمن خلق والرفع أحسن لانه اما أن يكون رفعا على المدح والتقدير هو الرحمن واما أن يكون مبتدأ مشارا بلامه الى من خلق فان قيل الجملة التي هي على العرش استوى ما محلها اذا جررت الرحمن أو رفعته على المدح قلنا اذا جررت فهو خبر مبتدا محذوف لا غير وان رفعت جاز أن يكون كذلك وأن يكون مع الرحمن خبرين للمبتدا ﴿المسئلة الثانية﴾ المشبهة تعلقت بهذه الآية في ان معبودهم جالس على العرش وهذا باطل بالعقل والنقل من وجوه (أحدها) انه سبحانه وتعالى كان ولا عرش ولا مكان ولما خلق الخلق لم يحتج الى مكان بل كان غنيا عنه فهو بالصفة التي لم يزل عليها الا أن يزعم زاعم أنه لم يزل مع الله عرش (وثانيها) ان الجالس على العرش لا بد وأن يكون الجزء الحاصل منه في يمين العرش غير الحاصل في يسار العرش فيكون في نفسه مؤلفا مركبا وكل ما كان كذلك احتاج الى المؤلف والمركب وذلك محال (وثالثها) أن الجالس على العرش اما أن يكون متمكنا من الانتقال والحركة أولا يمكنه ذلك فان كان الاول فقد صار محل الحركة والسكون فيكون محدثا لا محالة وان كان الثاني كان كالمربوط بل كان كالزمن بل أسوأ حالا منه فان الزمن اذا شاء الحركة في رأسه وحدقته أمكنه ذلك وهو غير ممكن على معبودهم (ورابعها) هو ان معبودهم اما أن يحصل في كل مكان أو في مكان دون مكان فان حصل في كل مكان لزمهم أن يحصل في مكان النجاسات والقاذورات وذلك لا يقوله عاقل وان حصل في مكان دون مكان افتقر الى مخصص يخصصه بذلك المكان فيكون محتاجا وهو على الله محال (وخامسها) ان قوله ليس كمثله شئ يتناول نفي المساواة من جميع الوجوه بدليل صحة الاستثناء فانه يحسن أن يقال ليس كمثله شئ الا في الجلوس والا في المقدار والا في اللون وصحة الاستثناء تقتضي دخول

جميع هذه الامور تحته فلو كان جالسا لحصل من عائله فى الجلوس فحينئذ يبطل معنى الآية (وسادسها) قوله تعالى ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية فاذا كانوا حاملين للعرش والعرش مكان معبودهم فيلزم أن تكون الملائكة حاملين لخالقهم ومعبودهم وذلك غير معقول لان الخالق هو الذى يحفظ المخلوق أما المخلوق فلا يحفظ الخالق ولا يحمله (وسابعها) انه لو جاز أن يكون المستقر فى المكان الها فكيف يعلم ان الشمس والقمر ليس باله لانه طريقنا الى نفى الهية الشمس والقمر أنهما موصوفان بالحركة والسكون وما كان كذلك كان محدثا ولم يكن الها فاذا أبطلتم هذا الطريق انسد عليكم باب القدح فى الهية الشمس والقمر (وثامنها) ان العالم كرة فالجهة التى هى فوق بالنسبة الينا هى تحت بالنسبة الى ساكنى ذلك الجانب الآخر من الارض وبالعكس فلو كان المعبود مختصا بجهة فتلك الجهة وان كانت فوقا لبعض الناس لكنها تحت لبعض آخرين وباتفاق العقلاء لا يجوز أن يقال المعبود تحت جميع الاشياء (وتاسعها) أجمعت الامة على ان قوله قل هو الله أحد من المحكمات لا من المتشابهات فلو كان مختصا بالمكان لكان الجانب الذى منه يلى ما على يمينه غير الجانب الذى منه يلى ما على يساره فيكون مركبا منقسما فلا يكون أحدا فى الحقيقة فيبطل قوله قل هو الله أحد (وعاشرها) أن الخليل عليه السلام قال لا أحب الآفلين ولو كان المعبود جسما لكان آفلا أبدا غائبا أبدا فكان يندرج تحت قوله لا أحب الآفلين فثبت بهذه الدلائل ان الاستقرار على الله تعالى محال وعند هذا للناس فيه قولان (الاول) انا لا نشتغل بالتأويل بل نقطع بأن الله تعالى منزه عن المكان والجهة ونترك تأويل الآية وروى الشيخ الغزالى عن بعض أصحاب الامام أحمد بن حنبل انه أوّل ثلاثة من الاخبار قوله عليه السلام الحجر الاسود يمين الله فى الارض وقوله عليه السلام قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن وقوله عليه السلام انى لاجد نفس الرحمن من قبل اليمن واعلم ان هذا القول ضعيف لوجهين (الاول) انه ان قطع بأن الله تعالى منزه عن المكان والجهة فقد قطع بأنه ليس مراد الله تعالى من الاستواء الجلوس وهذا هو التأويل وان لم يقطع بتنزيه الله تعالى عن المكان والجهة بل بقى شاكا فيه فهو جاهل بالله تعالى اللهم الا أن يقول انا قاطع بأنه ليس مراد الله تعالى ما يشعر به ظاهره بل مراده به شئ آخر ولكنى لا أعين ذلك المراد خوفا من الخطا فهذا يكون قريبا وهو أيضا ضعيف لانه تعالى لما خاطبنا بلسان العرب وجب أن لا يريد باللفظ الا موضوعه فى لسان العرب واذا كان لا معنى للاستواء فى اللغة الا الاستقرار والاستيلاء وقد تعذر حمله على الاستقرار فوجب حمله على الاستيلاء والا لزم تعطيل اللفظ وانه غير جائز (والثانى) وهو دلالة قاطعة على انه لا بد من المصير الى التأويل وهو أن الدلائل العقلية لما قامت على امتناع الاستقرار ودل ظاهر لفظ الاستواء على معنى الاستقرار فاما أن نعمل بكل واحد من الدليلين واما أن نتركهما معا واما أن نرجح النقل على العقل واما ان نرجح العقل ونؤوّل النقل (والاول) باطل والا لزم أن يكون الشئ الواحد منزها عن المكان وحاصلا فى المكان وهو محال (والثانى) أيضا محال لانه يلزم رفع النقيضين معا وهو باطل (والثالث) باطل لان العقل أصل النقل فانه مالم يثبت بالدلائل العقلية وجود الصانع وعلمه وقدرته وبعثته للرسل لم يثبت النقل فالقدح فى العقل يقتضى القدح فى العقل والنقل معا فلم يبق الا أن نقطع بصحة العقل ونشتغل بتأويل النقل وهذا برهان قاطع فى المقصود واذا ثبت هذا فنقول قال بعض العلماء المراد من الاستواء الاستيلاء قال الشاعر

قد استوى بشر على العراق ❊ من غير سيف ودم مهراق

(فان قيل) هذا التأويل غير جائز لوجوه (أحدها) ان الاستيلاء معناه حصول الغلبة بعد العجز وذلك فى

الاراذل فأجاب عليه الصلاة والسلام بنفى ذلك جميعا فكأنه قال لا أقول وجود تلك الاشياء من مواجب النبوّة ولا عدم المال والجاه من موانع الخير (الله أعلم بما فى أنفسهم) من الايمان وانما اقتصر على نفى القول المذكور مع أنه عليه الصلاة والسلام جازم بأن الله سبحانه سيؤتيهم خيرا عظيما فى الدارين وأنهم على يقين راسخ فى الايمان جريا على سنن الانصاف مع القوم واكتفاء بمخالفة كلامهم وارشادا لهم الى مسلك الهداية بان اللائق لكل أحد أن لا يبت القول الا فيما يعلمه يقينا ويبنى أموره على الشواهد الظاهرة ولا يجازف فيما ليس فيه على بينة ظاهرة (انى اذا) أى اذا قلت ذلك (لمن الظالمين) لهم بحط مرتبتهم ونقص حقوقهم أو من الظالمين لانفسهم بذلك فان وباله راجع الى أنفسهم وفيه تعريض بأنهم ظالمون فى ازدرائهم واسترذالهم وقيل اذا قلت شيأ مما ذكر من ادعاء الملكية وعلم الغيب وحيازة الخزائن وهو بعيد لان تبعة تلك الاقوال منفية عن التعليل بلزوم الانتظام فى زمرة الظالمين (قالوا يا نوح قد جادلتنا) خاصمتنا (فأكثرت جدالنا) أى أطلته أو أتيته بأنواعه فان اكثار الجدال يتحقق بعد وقوع أصله فلذلك عطف عليه بالفاء أو أردت ذلك فأكثرته كما فى قوله تعالى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ولما حجهم عليه الصلاة والسلام وأبرزلهم بينات واضحة المدلول وحججا تتلقاها العقول بالقبول وألقمهم الحجر برد شبههم الباطلة ضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وقالوا (فأتنا بما تعدنا) من العذاب المعجل أو العذاب الذى أشير اليه فى قوله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم على تقدير أن لا يكون المراد باليوم يوم القيامة (ان كنت من الصادقين) فيما تقول (قال انما يأتيكم به الله ان شاء) يعنى ان ذلك ليس موكولا

الى ولا هو مما يدخل تحت قدرتى واغما هو لله الذى كفرتم به وعصيتموه يأتيكم به عاجلا أوآجلا ان تعلق به مشيئته التابعة للحكمة وفيه مالايخفى من تهويل الموعود فكأنه قيل الاتيان به أمر خارج عن دائرة القوى البشرية وانما يفعله الله عز وجل (وما أنتم بمعجزين) بالهرب أو بالمدافعة ٦ كما تدافعوننى فى الكلام (ولا ينفعكم نصحى) النصح كلمة جامعة لكل مايدور عليه الخير من قول أوفعل وحقيقته امحاض ارادة الخير والدلالة عليه ونقيضه الغش وقيل هواعلام موقع الغى ليتقى وموضع الرشد ليقتفى (ان أردت أن أنصح لكم) شرط حذف جوابه لدلالة ماسبق عليه والتقدير ان أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحى وهذه الجملة دليل على ماحذف من جواب قوله تعالى (ان كان الله يريد أن يغويكم) والتقدير ان كان الله يريد أن يغويكم فان أردت أن أنصح لكم لا ينفعكم نصحى هذا على ماذهب اليه البصريون من عدم تقديم الجزاء على الشرط وأما على ماذهب اليه الكوفيون من جوازه فقوله عز وعلا ولا ينفعكم نصحى جزاء للشرط الاول والجملة جزاء الشرط الثانى وعلى التقديرين فالجزاء متعلق بالشرط الاول وتعلقه به معلق بالشرط الثانى وهذا الكلام متعلق بقولهم قد جادلتنا فأكثرت جدالنا صدر عنه عليه الصلاة والسلام اظهارا للعجز عن الزامهم بالحجج والبينات لتماديهم فى العناد وايذانا بان ماسبق منه ليس بطريق الجدال والخصام بل بطريق النصيحة لهم والشفقة بشئ عليهم و بأنه لم يأل جهدا فى ارشادهم الى الحق وهدايتهم الى سبيله المستبين وامحاض النصح لهم ولكن لا ينفعهم ذلك عند ارادة الله تعالى لاغوائهم وتقييد عدم نفع النصح بارادته مع أنه محقق لامحالة للايذان بأن ذلك النصح منه مقارن للارادة والاهتمام به ولتحقيق المقابلة

حق الله تعالى محال (وثانيها) انه انما يقال فلان استولى على كذا اذا كان له منازع ينازعه وكان المستولى عليه موجودا قبل ذلك وهذا فى حق الله تعالى محال لان العرش انما حدث بتخليقه وتكوينه (وثالثها) الاستيلاء حاصل بالنسبة الى كل المخلوقات فلا يبقى لتخصيص العرش بالذكر فائدة (والجواب) انا اذا فسرنا الاستيلاء بالاقتدار زالت هذه المطاعن بالكلية قال صاحب الكشاف لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك لايحصل الامع الملك جعلوه كناية عن الملك فقالوا استوى فلان على البلد يريدون ملك وان لم يقعد على السرير البتة وانما عبروا عن حصول الملك بذلك لانه أصرح وأقوى فى الدلالة من أن يقال فلان ملك ونحوه قولك يد فلان مبسوطة ويد فلان مغلولة بمعنى انه جواد و بخيل لافرق بين العبارتين الافيما قلت حتى ان من لم تبسط يده قط بالنوال أولم يكن له يد رأسا قيل فيه يده مبسوطة لانه لافرق عندهم بينه و بين قوله جواد ومنه قوله تعالى وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم أي هو بخيل بل يداه مبسوطتان أى هو جواد من غير تصور يد ولا غل ولا بسط والتفسير بالنعمة والتمحل للتثنية من ضيق العطن * وأقول انا لو فتحنا هذا الباب لانفتحت تأويلات الباطنية فانهم أيضا يقولون المراد من قوله فاخلع نعليك الاستغراق فى خدمة الله تعالى من غير تصور فعل وقوله يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم المراد منه تخليص ابراهيم عليه السلام من يد ذلك الظالم من غير أن يكون هنالك نار وخطاب البتة وكذا القول فى كل ماورد فى كتاب الله تعالى بل القانون انه يجب حمل كل لفظ ورد فى القرآن على حقيقته الا اذا قامت دلالة عقلية قطعية توجب الانصراف عنه وليت من لم يعرف شيأ لم يخض فيه فهذا تمام الكلام فى هذه الآية ومن أراد الاستقصاء فى الآيات والاخبار المتشابهات فعليه بكتاب تأسيس التقديس و بالله التوفيق * أما قوله تعالى له مافى السموات ومافى الارض وما بينهما وما تحت الثرى فاعلم انه سبحانه لما شرح ملكه بقوله الرحمن على العرش استوى والملك لا ينتظم الا بالقدرة والعلم لاجرم عقبه بالقدرة ثم بالعلم أما القدرة فهى هذه الآية والمراد انه سبحانه مالك لهذه الاقسام الاربعة فهو مالك لما فى السموات من ملك ونجم وغيرهما ومالك لما فى الارض من المعادن والفلوات ومالك لما بينهما من الهواء ومالك لما تحت الثرى * فان قيل الثرى هو السطح الاخير من العالم فلا يكون تحته شئ فكيف يكون الله مالكه * قلنا الثرى فى اللغة التراب الندى فيحتمل أن يكون تحته شئ وهو اما الثور أو الحوت أو الصخرة أو البحر أو الهواء على اختلاف الروايات أما العلم فقوله تعالى وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى وفيه قولان (أحدهما) ان قوله وأخفى بناء المبالغة وعلى هذا القول نقول انه تعالى قسم الاشياء الى ثلاثة أقسام الجهر والسر والاخفى فيحتمل أن يكون المراد من الجهر القول الذى يجهر به وقد يسر فى النفس وان ظهر البعض وقد يسر ولا يظهر على ماقال بعضهم ويحتمل أن يكون المراد بالسر وبالاخفى ما ليس بقول وهذا أظهر فكأنه تعالى بين انه يعلم السر الذى لا يسمع وماهو أخفى منه فكيف لا يعلم الجهر والمقصود منه زجر المكلف عن القبائح ظاهرة كانت أو باطنة والترغيب فى الطاعات ظاهرة كانت أو باطنة فعلى هذا الوجه ينبغى أن يحمل السر والاخفى على مافيه ثواب أو عقاب والسر هو الذى يسره المرء فى نفسه من الامور التى عزم عليها والاخفى هو الذى لم يبلغ حد العزيمة ويحتمل أن يفسر الاخفى بما عزم عليه وما وقع فى وهمه الذى لم يعزم عليه ويحتمل مالم يقع فى سره بعد فيكون أخفى من السر ويحتمل أيضا ماسيكون من قبل الله تعالى من الامور التى لم تظهر وان كان الاقرب ماقدمناه مما يدخل تحت الزجر والترغيب (القول الثانى) ان أخفى فعل يعنى انه يعلم أسرار العباد وأخفى عنهم مايعلمه وهو كقوله يعلم ما بين أيديهم وماخلفهم ولا يحيطون

شئ من علمه فان قيل كيف يطابق الجزاء الشرط قلنا معناه ان تجهر بذكر الله تعالى من دعاء أو غيره فاعلم انه غني عن جهرك واما أن يكون نهيا عن الجهر كقوله واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول واما تعليما للعباد ان الجهر ليس لاستماع الله تعالى وانما هو لغرض آخر واعلم ان الله تعالى لذاته عالم وانه عالم بكل المعلومات في كل الاوقات بعلم واحد وذلك العلم غير متغير وذلك العلم من لوازم ذاته من غير أن يكون موصوفا بالحدوث أو الامكان والعبد لا يشارك الرب الا في السدس الاول وهو أصل العلم ثم هذا السدس بينه وبين عباده أيضا نصفان لخمسة دوانيق ونصف جزء من العلم مسلم له والنصف الواحد لجملة عباده ثم هذا الجزء الواحد مشترك بين الخلائق كلهم من الملائكة الكروبية والملائكة الروحانية وحملة العرش وسكان السموات وملائكة الرحمة وملائكة العذاب وكذا جميع الانبياء الذين أولهم آدم وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين وكذا جميع الخلائق كلهم في علومهم الضرورية والكسبية والحرف والصناعات وجميع الحيوانات في ادراكاتها وشعوراتها والاهتداء الى مصالحها في أغذيتها ومضارها ومنافعها والحاصل لك من ذلك الجزء أقل من الذرة المؤلفة ثم انك بتلك الذرة عرفت أسرار الهيته وصفاته الواجبة والجائزة والمستحيلة فاذا كنت بهذه الذرة عرفت هذه الاسرار فكيف يكون علمه بخمس دوانيق ونصف أفلا يعلم بذلك العلم أسرار عبوديتك فهذا تحقيق قوله وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى بل الحق ان الدينار بتمامه له لان الذي علمته فانما علمته بتعليمه على ما قال أنزله بعلمه وقال الا يعلم من خلق ولهذا مثال وهو الشمس فان ضوءها يجعل العالم مضيئا ولا ينتقص البتة من ضوئها شئ فكذا ههنا فكيف لا يكون عالما بالسر والاخفى فان من تدبيراته في خلق الاشجار وأنواع النبات انها ليس لها فم ولا سائر آلات الغذاء فلا جرم أصولها مركوزة في الارض تمتص بها الغذاء فيتأدى ذلك الغذاء الى الاغصان ومنها الى العروق ومنها الى الاوراق ثم انه تعالى جعل عروقها كالاطناب التي بها يمكن ضرب الخيام وكما انه لا بد من مد الطنب من كل جانب لتبقى الخيمة واقفة كذلك العروق تذهب من كل جانب لتبقى الشجرة واقفة ثم لو نظرت الى كل ورقة وما فيها من العروق الدقيقة المبثوثة فيها ليصل الغذاء منها الى كل جانب من الورقة ليكون ذلك تقوية لجرم الورقة فلا يتمزق سريعا وهي شبه العروق المخلوقة في بدن الحيوان لتكون مسالك للدم والروح فتكون مقوية للبدن ثم انظر الى الاشجار فان أحسنها في المنظر الدلب والخلاف ولا حاصل لهما وأقبحها شجرة التين والعنب وانظر الى منفعتهما فهذه الاشياء وأشباهها اتظهر أنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض* أما قوله تعالى الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى فالكلام فيه على قسمين (الاول) في التوحيد اعلم أن دلائل التوحيد ستأتي ان شاء الله في تفسير قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وانما ذكرنا ههنا ليبين ان الموصوف بالقدرة وبالعلم على الوجه الذي تقدم واحد لا شريك له وهو الذي يستحق العبادة دون غيره ولنذكر ههنا نكتا متعلقة بهذا الباب وفيه أبحاث (البحث الاول) اعلم أن مراتب التوحيد أربع (أحدها) الاقرار باللسان (والثاني) الاعتقاد بالقلب (والثالث) تأكيد ذلك الاعتقاد بالحجة (والرابع) أن يصير العبد مغمورا في بحر التوحيد بحيث لا يدور في خاطره شئ غير عرفان الاحد الصمد أما الاقرار باللسان فان وجد خاليا عن الاعتقاد بالقلب فذلك هو المنافق وأما الاعتقاد بالقلب اذا وجد خاليا عن الاقرار باللسان ففيه صور (الصورة الاولى) ان من نظر وعرف الله تعالى وكما عرفه مات قبل أن يمضي عليه من الوقت ما يمكنه التلفظ بكلمة الشهادة فههنا قال قوم انه لا يتم ايمانه والحق انه يتم لانه أدى ما كلف به وعجز عن التلفظ به فلا يبقى مخاطبا ورأيت في الكتب ان ملك الموت

بين ذلك وبين ما وقع بازائه من ارادته تعالى لاغوائهم وانما اقتصر في ذلك على مجرد ارادة الاغواء دون نفسه حيث لم يقل ان كان الله يغويكم مبالغة في بيان غلبة جنابه عز وعلا حيث دل ذلك على أن نصحه المقارن للاهتمام به لا يجديهم عند مجرد ارادة الله سبحانه لاغوائهم فكيف عند تحقيق ذلك وخلقه فيهم وزيادة كان للاشعار بتقدم ارادته تعالى زمانا كتقدمها رتبة وللدلالة على تجددها واستمرارها وانما قدم على هذا الكلام ما يتعلق بقولهم فأتنا بما تعدنا من قوله تعالى انما يأتيكم به الله ان شاء ردا عليهم من أول الامر وتسجيلا عليهم بحلول العذاب مع ما فيه من اتصال الجواب بالسؤال وفيه دليل على أن ارادته تعالى يصح تعلقها بالاغواء وان خلاف مراده غير واقع وقيل معنى أن يغويكم أن يهلككم من غوى الفصيل غوى اذا بشم وهلك (هو ربكم) خالقكم ومالك أمركم (واليه ترجعون) فيجازيكم على أعمالكم لا محالة (أم يقولون افتراه) قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يعني نوحا عليه الصلاة والسلام ومعناه بل أي يقول قوم نوح ان نوحا افترى ما جاء به مسندا الى الله عز وجل (قل) يا نوح (ان افتريته) بالفرض البحت (فعلي اجرامي) أي وبال اجرامي وهو كسب الذنب وقرئ بلفظ الجمع وينصره أن فسره الاولون بآثامي (وأنا بريء مما تجرمون) من اجرامكم في اسناد الافتراء الي فلا وجه لاعراضكم عني ومعاداتكم لي وقال مقاتل يعني محمدا عليه الصلاة والسلام ومعناه بل أيقول مشركو مكة افترى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر نوح فكأنه انما جيء به في تضاعيف القصة عند سوق طرف منها فيقالها تحقيقها وتأكيدا لوقوعها وتشويقا للسامعين الى استماعها لاسيما وقد قص منها طائفة متعلقة بما جرى بينه عليه السلام وبين قومه

من الحاجة وبقيت طائفة مستقلة متعلقة بعذابهم (وأوحي الى نوح أنه لن يؤمن من قومك) أى المصرين على الكفر وهو اقناط له عليه السلام من ايمانهم واعلام لكونه كالمحال الذى لا يصح توقعه (الا من قد آمن) الا من قد وجد منه ما كان يتوقع من ايمانه وهذا الاستثناء على طريقة قوله تعالى الا ما قد سلف (فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) أى لا تحزن حزن بائس مستكين ولا تغتم بما كانوا يتعاطونه من التكذيب والاستهزاء والايذاء فى هذه المدة الطويلة فقد انتهى أفعالهم وحان وقت الانتقام منهم (واصنع الفلك) ملتبسا (باعيننا) أى بحفظنا وكلاءتنا كأن معه من الله عز وجل حفاظا وحراسا يكلؤنه باعينهم من التعدى من الكفرة ومن الزيغ فى الصنعة (ووحينا) اليك كيف تصنعها وتعليمنا والهامنا * عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما لم يعلم كيف صنعة الفلك فأوحى الله تعالى اليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر والامر للوجوب اذ لا سبيل الى صيانة الروح من الغرق الا به فيجب كوجوبها واللام اما للعهد بأن يحمل على أن هذا مسبوق بوحى الله تعالى اليه عليه السلام أنه سيهلكهم بالغرق وينجيه ومن معه بشئ سيصنعه بأمره تعالى ووحيه من شأنه كيت وكيت واسمه كذا واما للجنس قيل صنعها عليه الصلاة والسلام فى سنتين وقيل فى أربعمائة سنة وكانت من خشب الساج وجعلت ثلاثة بطون حمل فى البطن الاول الوحوش والسباع والهوام وفى البطن الاوسط الدواب والانعام وفى البطن الاعلى جنس البشر هو ومن معه مع ما يحتاجون اليه من الزاد وحمل معه جسد آدم عليه الصلاة والسلام وقيل جعل فى الاول الدواب والوحوش وفى الثانى الانس وفى الاعلى الطير قيل كان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها

كلمة

مكتوب على جبهته لا اله الا الله لكى اذا رآه المؤمن تذكر كلمة الشهادة فيكفيه ذلك التذكر عن الذكر (الصورة الثانية) ان من عرف الله ومضى عليه من الوقت ما يمكنه التلفظ بالكلمة ولكنه قصر فيه قال الشيخ الغزالى يحتمل أن يقال اللسان ترجمان القلب فاذا حصل المقصود فى القلب كان امتناعه من التلفظ جاريا مجرى امتناعه من الصلاة والزكاة وكيف يكون من أهل النار وقد قال عليه السلام يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الايمان وقلب هذا الرجل مملوء من الايمان وقال آخرون الايمان والكفر أمور شرعية نحن نعلم ان الممتنع من هذه الكلمة كافر (الصورة الثالثة) من أقر باللسان واعتقد بالقلب من غير دليل فهو مقلد والاختلاف فى صحة ايمانه مشهور (أما المقام الثالث) وهو اثبات التوحيد بالدليل والبرهان فقد بينا فى تفسير قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا انه يمكن اثبات هذا المطلوب بالدلائل العقلية والسمعية واستقصينا القول فيها هنالك (أما المقام الرابع) وهو الفناء فى بحر التوحيد فقال المحققون العرفان مبتدأ من تفريق ونقض وترك ورفض ممكن فى جميع صفات هى من صفات الحق للذات المريدة بالصدق منتهاه الى الواحد القهار ثم وقوف هذه الكلمات محيطة بأقصى نهايات درجات السائرين الى الله تعالى (البحث الثانى) فى الاخبار الواردة فى التهليل (أولها) عن النبى صلى الله عليه وسلم قال أفضل الذكر لا اله الا الله وأفضل الدعاء أستغفر الله ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات (وثانيها) قال عليه السلام ان الله تعالى خلق ملكا من الملائكة قبل أن خلق السموات والارض وهو يقول أشهد أن لا اله الا الله مادا بها صوته لا يقطعها ولا يتنفس فيها ولا يتمها فاذا أتمها أمر اسرافيل بالنفخ فى الصور وقامت القيامة تعظيما لله عز وجل (وثالثها) عن أنس رضى الله عنه قال قال عليه السلام ما زلت أشفع الى ربى ويشفعنى وأشفع اليه ويشفعنى حتى قلت يارب شفعنى فيمن قال لا اله الا الله قال يا محمد هذه ليست لك ولا لاحد وعزتى وجلالى لا أدع أحدا فى النار قال لا اله الا الله (ورابعها) قال سفيان الثورى سألت جعفر بن محمد عن حم عسق قال الحاء حكمه والميم ملكه والعين عظمته والسين سناؤه والقاف قدرته يقول الله جل ذكره بحكمى وملكى وعظمتى وسنائى وقدرتى لا أعذب بالنار من قال لا اله الا الله محمد رسول الله (وخامسها) ان عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قام فى السوق فقال لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شئ قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة وبنى له بيتا فى الجنة (البحث الثالث) فى النكت (أحدها) ينبغى لاهل لا اله الا الله أن يحصلوا أربعة أشياء حتى يكونوا من أهل لا اله الا الله التصديق والتعظيم والحلاوة والحرية فمن ليس له التصديق فهو منافق ومن ليس له التعظيم فهو مبتدع ومن ليس له الحلاوة فهو مراء ومن ليس له الحرية فهو فاجر (وثانيها) قال بعضهم قوله ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة انه لا اله الا الله اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه لا اله الا الله وتواصوا بالحق لا اله الا الله قل انما أعظكم بواحدة لا اله الا الله وقفوهم انهم مسؤلون عن قول لا اله الا الله بل جاء بالحق وصدق المرسلين هو لا اله الا الله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة هو لا اله الا الله ويضل الله الظالمين عن قول لا اله الا الله (وثالثها) ان موسى بن عمران عليه السلام قال يارب علمنى شيأ أذكرك به قال قل لا اله الا الله قال كل عبادك يقولون لا اله الا الله فقال قل لا اله الا الله قال انما أردت شيأ تخصنى به قال ياموسى لو أن السموات السبع ومن فيهن فى كفة ولا اله الا الله فى كفة لمالت بهن لا اله الا الله (البحث الرابع) فى اعرابه قالوا

خمسين ذراعا وسمكها اثلاثين ذراعا وقال الحسن كان طولها ألفا ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع وقيل ان الحواريين قالوا لعيسى عليه الصلاة والسلام لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها فانطلق بهم حتى انتهى الى كثيب من تراب فأخذ كفا من ذلك التراب فقال أتدرون من هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا كعب بن حام قال فضرب بعصاه فقال قم باذن الله تعالى فاذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه وقد شاب فقال له عيسى عليه الصلاة والسلام أهكذا هلكت قال لا مت وأنا شاب ولكني ظننت أنها الساعة فمن ثمة شبت فقال حدثنا عن سفينة نوح قال كان طولها ألفا ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات طبقة للدواب والوحش وطبقة للانس وطبقة للطير ثم قال عد باذن الله تعالى كما كنت فعاد ترابا (ولا تخاطبني في الذين ظلموا) أي لا تراجعني فيهم ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم وفيه من المبالغة ما ليس فيما لو قيل ولا تدعني فيهم وحيث كان فيه ما يلوح بالسببية أكد التعليل فقيل (انهم مغرقون) أي محكوم عليهم بالاغراق قد مضى به القضاء وجف القلم فلا سبيل الى كفه ولزمتهم الحجة فلم يبق الا أن يجعلوا عبرة للمعتبرين ومثلا للآخرين (ويصنع الفلك) حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها العجيبة وقيل تقديره وأخذ يصنع الفلك أو أقبل يصنعها فاقتصر على يصنع وأيا ما كان ففيه ملاءمة للاستمرار المفهوم من الجملة الواقعة حالا من ضميره أعني قوله تعالى (وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) أي استهزؤا به لعمله السفينة اما لانهم ما كانوا يعرفونها ولا كيفية استعمالها والانتفاع بها فتعجبوا من ذلك وسخروا منه واما لانه كان يصنعها في برية بهماء في أبعد موضع من الماء وفي وقت عزته عزة شديدة وكانوا يتضاحكون و يقولون

كلمة لا ههنا دخلت على الماهية فانتفت الماهية واذا انتفت الماهية انتفت كل افراد الماهية وأما الله فانه اسم علم للذات المعينة اذ لو كان اسم معنى لكان كليا محتملا للكثرة فلم تكن هذه الكلمة مفيدة للتوحيد فقالوا لا استحقت على ان اشابهتم الهامين وجهين (أحدهما) ملازمة الاسماء (والآخر) تناقضهما فان أحدهما التأكيد الثبوت والآخر لتأكيد النفي ومن عادتهم تشبيه أحد الضدين بالآخر في الحكم اذا ثبت هذا فنقول لما قالوا ان زيدا ذاهب كان يجب أن يقولوا لا رجلا ذاهب الا أنهم بنوا الاسم ما دخل عليه من الاسم المفرد على الفتح أما البناء فلشدة اتصال حرف النفي بما دخل عليه كأنهما صارا اسما واحدا وأما الفتح فلانهم قصدوا البناء على الحركة المستحقة توفيقا بين الدليل الموجب للاعرب والدليل الموجب للبناء (الثاني) خبره محذوف والاصل لا اله في الوجود ولا حول ولا قوة لنا وهذا يدل على ان الوجود زائد على الماهية (البحث الخامس) قال بعضهم تصور الثبوت مقدم على تصور السلب فان السلب ما لم يضف الى الثبوت لا يمكن تصوره فكيف قدم ههنا السلب على الثبوت وجوابه أنه لما كان في هذا السلب من مؤكدات الثبوت لا جرم قدم عليه (القسم الثاني) من الكلام في الآية البحث عن أسماء الله تعالى وفيه ابحاث (البحث الاول) قال عليه السلام اذا كان يوم القيامة نادى مناد أيها الناس أنا جعلت لكم نسبا وأنتم جعلتم لانفسكم نسبا أنا جعلت أكرمكم عندي أتقاكم وأنتم جعلتم أكرمكم أغناكم فالآن أرفع نسبي وأضع نسبكم أين المتقون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون واعلم أن الاشياء في قسمة العقول على ثلاثة أقسام كامل لا يحتمل النقصان وناقص لا يحتمل الكمال وثالث يقبل الامرين أما الكامل الذي لا يحتمل النقصان فهو الله تعالى وذلك في حقه بالوجوب الذاتي وبعده الملائكة فان من كمالهم أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ومن صفاتهم انهم عباد مكرمون ومن صفاتهم أنهم يستغفرون للذين آمنوا وأما الناقص الذي لا يحتمل الكمال فهو الجمادات والنبات والبهائم وأما الذي يقبل الامرين جميعا فهو الانسان تارة يكون في الترقي بحيث يخبر عنه بأنه في مقعد صدق عند مليك مقتدر وتارة في التسفل بحيث يقال ثم رددناه أسفل سافلين واذا كان كذلك استحال أن يكون الانسان كاملا لذاته وما لا يكون كاملا لذاته استحال أن يصير موصوفا بالكمال الى أن يصير منتسبا الى الكامل لذاته لكن الانتساب قسمان قسم يعرض للزوال وقسم لا يكون يعرض للزوال أما الذي يكون يعرض للزوال فلا فائدة فيه ومثاله الصحة والمال والجمال وأما الذي لا يكون يعرض للزوال فعبودية لله تعالى فانه كما يمتنع زوال صفة الالهية عنه يمتنع زوال صفة العبودية عنك فهذه النسبة لا تقبل الزوال والمنتسب اليه وهو الحق سبحانه لا يقبل الخروج عن صفة الكمال ثم اذا كنت من بلد أو منتسبا الى قبيلة فانك لا تزال تبالغ في مدح تلك البلدة والقبيلة بسبب ذلك الانتساب العرضي فلأن تشتغل بذكر الله تعالى ونعوت كبريائه بسبب الانتساب الذاتي كان أولى فلهذا قال ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وقال الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى (البحث الثاني) في تقسيم أسماء الله تعالى اعلم أن اسم كل شئ اما أن يكون واقعا عليه بحسب ذاته أو بحسب أجزاء ذاته أو بحسب الامور الخارجة عن ذاته (أما القسم الاول) فقد اختلفوا في أنه هل لله تعالى اسم على هذا الوجه وهذه المسئلة مبنية على ان حقيقة الله تعالى هل هي معلومة للبشر أم لا فمن قال انها غير معلومة للبشر قال ليس لذاته المخصوصة اسم لان المقصود من الاسم أن يشار به الى المسمى واذا كانت الذات المخصوصة غير معلومة امتنعت الاشارة العقلية اليها فامتنع وضع الاسم لها وقد تكلمنا في تحقيق ذلك في تفسير اسم الله وأما الاسم الواقع عليه بحسب أجزاء ذاته فذلك محال لانه ليس لذاته شئ من الاجزاء لان كل مركب ممكن وواجب الوجود لا يكون ممكنا

يانوح صرت نجارا بعدما كنت نبيا وقيل لانه عليه الصلاة والسلام كان ينذرهم الغرق فلما طال مكثه فيهم ولم يشاهدوا منه عينا ولا أثرا عدوه من باب المحال ثم لما رأوا اشتغاله بأسباب الخلاص من ذلك فعلوا ما فعلوا ومدار الجميع انكار أن يكون لعمله عليه الصلاة والسلام عاقبة حميدة مع ما فيه من تحمل ١٠ المشاق العظيمة التى لا تكاد تطاق واستجهاله عليه السلام فى ذلك (قال ان تسخروا منا)

مستجهلين لنا فيما نحن فيه (فانا نسخر منكم) أى نستجهلكم فيما أنتم عليه واطلاق السخرية عليه للمشاكلة وجمع الضمير فى منا اما لان سخريتهم منه عليه الصلاة والسلام سخرية من المؤمنين أيضا أو لانهم كانوا يسخرون منهم أيضا الا أنه اكتفى بذكر سخريتهم منه عليه الصلاة والسلام ولذلك تعرض الجميع للمجازاة فى قوله تعالى فانا نسخر منكم الخ فتكافأ الكلام من الجانبين وتعليق استجهاله عليه الصلاة والسلام اياهم بما فعلوا من السخرية باعتبار اظهاره ومشافهته عليه الصلاة والسلام اياهم بذلك والا فعده عليه الصلاة والسلام اياهم جاهلين فيما يأتون ويذرون أمر مطرد لا تعلق له بسخريتهم منهم لكنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يتصدى لاظهاره جريا على نهج الاخلاق الجميدة وانما أظهره جزاء عما صنعوا بعد اللتيا والتى فان سخريتهم كانت مستمرة ومتجددة حسب تجدد مرورهم عليه ولم يكن يجيبهم فى كل مرة والا لقيل ويقول ان تسخروا منا الخ بل انما أجابهم بعد بلوغ اذاهم الغاية كما يؤذن به الاستئناف فكأن سائلا سأل فقال فما صنع نوح عند بلوغهم منه هذا المبلغ فقيل قال ان تسخروا منا أى ان تنسبونا فيما نحن بصدده من التأهب والمباشرة لاسباب الخلاص من العذاب الى الجهل وتسخروا منا لاجله فانا ننسبكم اليه فيما أنتم فيه من الاعراض عن استدفاعه بالايمان والطاعة ومن الاستمرار على الكفر والمعاصى والتعرض لاسباب حلول سخط الله تعالى التى من جملتها

فلا يكون مركبا وأما الاسم الواقع بحسب الصفات الخارجة عن ذاته فالصفات اما أن تكون ثبوتية حقيقية أو ثبوتية اضافية أو سلبية أو ثبوتية مع اضافية أو ثبوتية مع سلبية أو اضافية مع سلبية أو ثبوتية واضافية وسلبية ولما كانت الاضافات الممكنة غير متناهية وكذا السلوب غير متناهية أمكن أن يكون للبارى تعالى أسماء متباينة لا مترادفة غير متناهية فهذا هو التنبيه على المأخذ (البحث الثالث) يقال ان لله تعالى أربعة آلاف اسم ألف لا يعلمها الا الله تعالى وألف لا يعلمها الا الله والملائكة وألف لا يعلمها الا الله والملائكة والانبياء وأما الالف الرابع فان المؤمنين يعلمونه فثلثمائة منها فى التوراة وثلثمائة فى الانجيل وثلثمائة فى الزبور ومائة فى الفرقان تسع وتسعون منها ظاهرة وواحد مكتوم فمن أحصاها دخل الجنة (البحث الرابع) الاسماء الواردة فى القرآن منها ما ليس بانفراده ثناء ومدحا كقوله جاعل وخالق وصانع فاذا قيل فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا صار مدحا وأما الاسم الذى يكون مدحا فذكره مع ما اذا قرن بغيره صار أبلغ نحو قولنا حى فاذا قيل الحى القيوم أو الحى الذى لا يموت كان أبلغ وأيضا قولنا بديع فانك اذا قلت بديع السموات والارض ازداد المدح ومن هذا الباب ما كان اسم مدح ولكن لا يجوز افراده كقولك دليل وكاشف فاذا قيل يا دليل المتحيرين ويا كاشف الضر والبلوى جاز ومنه ما يكون اسم مدح مفردا أو مقرونا كقولنا الرحمن الرحيم (البحث الخامس) من الاسماء ما يكون مقارنته أحسن كقولك الاول الآخر المبدئ المعيد الظاهر الباطن ومثاله قوله تعالى فى حكاية قول المسيح ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم وبقية الابحاث قد تقدمت فى تفسير بسم الله الرحمن الرحيم (البحث السادس) فى النكت رأى بشر الحافى كاغدا مكتوبا فيه بسم الله الرحمن الرحيم فرفعه وطيبه بالمسك وبلعه فرأى فى النوم قائلا يقول يا بشر طيبت اسمنا فنحن نطيب اسمك فى الدنيا والآخرة (وثانيها) قوله تعالى ولله الاسماء الحسنى وليس حسن الاسماء لذواتها لانها ألفاظ وأصوات بل حسنها الحسن معانيها ثم ليس حسن أسماء الله حسنا يتعلق بالصورة والخلقة فان ذلك محال على من ليس بجسم بل حسن يرجع الى معنى الاحسان مثلا اسم الستار والغفار والرحيم انما كانت حسناء لانها دالة على معنى الاحسان وروى أن حكيما ذهب اليه قبيح وحسن والتمسا الوصية فقال للحسن أنت حسن والحسن لا يليق به الفعل القبيح وقال للآخر أنت قبيح والقبيح اذا فعل الفعل القبيح عظم قبحه فنقول الهنا أسماؤك حسنة وصفاتك حسنة فلا تظهر لنا من تلك الاسماء الحسنة والصفات الحسنة الا الاحسان الهنا يكفينا قبح أفعالنا وسيرتنا فلا تضم اليه قبح العقاب ووحشة العذاب (وثالثها) قوله عليه السلام اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه الهنا حسن الوجه عرض أما حسن الصفات والاسماء فهو لى فلا تردنا عن احسانك خائبين خاسرين (ورابعها) ذكر أن صيادا كان يصيد السمك فصاد سمكة وكان له ابنة فأخذتها ابنته فطرحتها فى الماء وقالت انها ما وقعت فى الشبكة الا لغفلتها الهنا تلك الصبية رحمت غفلة تلك السمكة وكانت تلقيها مرة أخرى فى البحر ونحن قد اصطادتنا وسوسة ابليس وأخرجتنا من بحر رحمتك فارحمنا بفضلك وخلصنا منها وألقنا فى بحار رحمتك مرة أخرى (وخامسها) ذكرت من الاسماء خمسة فى الفاتحة وهى الله والرب والرحمن والرحيم والملك فذكرت الالهية وهى اشارة الى القهارية والعظمة فعلم أن الارواح لا تطيق ذلك القهر والعلو فذكرت بعده أربعة أسماء تدل على اللطف الرب وهو يدل على التربية والمعتاد أن من ربى أحدا فانه لا يهمل أمره ثم ذكر الرحمن الرحيم وذلك هو النهاية فى اللطف والرأفة ثم ختم الامر بالملك والملك العظيم لا ينتقم من الضعيف العاجز ولان عائشة قالت للنبى عليه السلام ما ملكت فاسجح فأنت أولى بأن تعفو عن هؤلاء

الضعفاء

الضعفاء (وسادسها) عن محمد بن كعب القرظى قال موسى عليه السلام الهى أى خلقك أكرم عليك قال الذى لا يزال لسانه رطبا من ذكرى قال فأى خلقك أعلم قال الذى يلتمس الى علمه علم غيره قال فأى خلقك أعدل قال الذى يقضى على نفسه كما يقضى على الناس قال فأى خلقك أعظم جرما قال الذى يتهمنى وهو الذى يسألنى ثم لا يرضى بما قضيته له الهنا انا لا نتهمك فانا نعلم ان كل ما أحسنت به فهو فضل وكل ما تفعله فهو عدل فلا تؤاخذنا بسوء أعمالنا (وسابعها) قال الحسن اذا كان يوم القيامة نادى مناد سيعلم الجمع من أولى بالكرم أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون فيتخطون رقاب الناس ثم يقال أين الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ثم ينادى مناد أين الحامدون الله على كل حال ثم تكون التبعة والحساب على من بقى الهنا فنحن حمدناك وأثنينا عليك بمقدار قدرتنا ومنتهى طاقتنا فاعف عنا بفضلك ورحمتك ومن أراد الاستقصاء فى الاسماء والصفات فعليه بكتابنا لوامع البينات فى الاسماء والصفات وبالله التوفيق ﴿ قوله تعالى ﴿ وهل أتاك حديث موسى اذ رأى نارا فقال لاهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى فلما أتاها نودى ياموسى انى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى ﴾ اعلم أنه تعالى لما عظم حال القرآن وحال الرسول فيما كلفه أتبع ذلك بما يقوى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذكر أحوال الانبياء عليهم السلام تقوية لقلبه فى الابلاغ كقوله وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وبدأ بموسى عليه السلام لان المحنة والفتنة الحاصلة له كانت أعظم ليسلى قلب الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك ويصبره على تحمل المكاره فقال وهل أتاك حديث موسى وههنا مسائل ﴿ المسئلة الاولى ﴾ قوله وهل أتاك يحتمل أن يكون هذا أول ما أخبر به من أمر موسى عليه السلام فقال وهل أتاك أى لم يأتك الى الآن وقد أتاك الآن فتنبه له وهذا قول الكلبى ويحتمل أن يكون قد أتاه ذلك فى الزمان المتقدم فكأنه قال أليس قد أتاك وهذا قول مقاتل والضحاك عن ابن عباس ﴿ المسئلة الثانية ﴾ قوله وهل أتاك وان كان على لفظ الاستفهام الذى لا يجوز على الله تعالى لكن المقصود منه تقرير الجواب فى قلبه وهذه الصيغة أبلغ فى ذلك كما يقول المرء لصاحبه هل بلغك خبر كذا فيتطلع السامع الى معرفة ما يومى اليه ولو كان المقصود هو الاستفهام لكان الجواب يصدر من قبل النبى عليه السلام لا من قبل الله تعالى ﴿ المسئلة الثالثة ﴾ قوله تعالى اذ رأى نارا أى هل أتاك حديثه حين رأى نارا قال المفسرون استأذن موسى عليه السلام شعيبا فى الرجوع الى والدته فاذن له فخرج فولد له ابن فى الطريق فى ليلة شاتية مثلجة وكانت ليلة الجمعة وقد حاد عن الطريق فقدح موسى عليه السلام النار فلم تور المقدحة شيأ فبيناه فى مزاولة ذلك اذ نظر نارا من بعيد عن يسار الطريق قال السدى ظن انها نار من نيران الرعاة وقال آخرون انه عليه السلام رآها فى شجرة وليس فى لفظ القرآن ما يدل على ذلك واختلفوا فقال بعضهم الذى رآه لم يكن نارا بل تخيله نارا والصحيح انه رأى نارا ليكون صادقا فى خبره اذ الكذب لا يجوز على الانبياء قيل النار أربعة أقسام نار تأكل ولا تشرب وهى نار الدنيا ونار تشرب ولا تأكل وهى نار الشجر لقوله تعالى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا ونار تأكل وتشرب وهى نار المعدة ونار لا تأكل ولا تشرب وهى نار موسى عليه السلام وقيل أيضا النار على أربعة أقسام (أحدها) نار لها نور بلا حرقة وهى نار موسى عليه السلام (وثانيها) حرقة بلا نور وهى نار جهنم (وثالثها) الحرقة والنور وهى نار الدنيا (ورابعها) لا حرقة ولا نور وهى نار الاشجار فلما أبصر النار توجه نحوها فقال لاهله امكثوا فيجوز أن يكون الخطاب للمرأة وولدها والخادم الذى معها ويجوز أن يكون للمرأة وحدها ولكن خرج على ظاهر لفظ الاهل فان

استعجالكم ايانا وسخر يتكم منا والتشبيه فى قوله تعالى (كما تسخرون) اما فى مجرد التحقق والوقوع أو فى التجدد والتكرر حسبما صدر عن ملاغيهم لا فى الكيفيات والاحوال التى لا تليق بشأن النبى عليه الصلاة والسلام فكلا الامرين واقع فى الحال وقيل نسخر منكم فى المستقبل سخرية مثل سخريتكم اذا وقع عليكم الغرق فى الدنيا والحرق فى الآخرة ١١ ولعل مراده نعاملكم معاملة من يفعل ذلك لان نفس السخرية مما لا يكاد يليق بمنصب النبوة ومع ذلك لا سداد له لان حالهم اذ ذاك ليس مما يلائمه السخرية أو ما يجرى مجراها فتأمل (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) وهو عذاب الغرق (ويحل عليه) حلول الدين المؤجل (عذاب مقيم) هو عذاب النار الدائم وهو تهديد بليغ ومن عبارة عنهم وهى اما استفهامية فى حيز الرفع أو موصولة فى محل النصب بتعلمون وما فى حيزها ساد مسد مفعولين أو مفعول واحد ان جعل العلم بمعنى المعرفة ولما كان مدار سخريتهم استجهالهم اياه عليه الصلاة والسلام فى مكابدة المشاق الفادحة لدفع ما لا يكاد يدخل تحت الصحة على زعمهم من الطوفان ومقاساة الشدائد فى بناء السفينة وكانوا يعدونه عذابا قيل بعد استجهالهم فسوف تعلمون من يأتيه العذاب يعنى أن ما أباشره ليس فيه عذاب لاحق بى فسوف تعلمون من المعذب ولقد أصاب العلم باستجهالهم بخزيه ووصف العذاب بالاخزاء لما فى الاستهزاء والسخرية من لحوق الخزى والعار عادة والتعرض لحلول العذاب المقيم للمبالغة فى التهديد وتخصيصه بالمؤجل وايراد الاول بالاتيان فى غاية الجزالة (حتى اذا جاء أمرنا) حتى هى التى يبتدأ بها الكلام دخلت على الجملة الشرطية وهى مع ذلك غاية لقوله ويصنع وما بينهما حال من الضمير فيه وسخروا منه جواب لكلما وقال استئناف على تقدير

سؤال سائل كما ذكرناه وقيل هو الجواب وحضروا منه بدل من مرّ أو صفة للا وقد عرفت أن الحق هو الاول لان المقصود بيان تناهيهم في ايذائه عليه الصلاة والسلام وتحمله لاذيتهم لا مسارعته عليه الصلاة والسلام الى جوابهم كما وقع منهم ما يؤذيه من الكلام (وفار التنور) نبع منه الماء وارتفع بشدة كما تفور القدر بغليانها والتنور تنور الخبز وهو قول الجمهور روى أنه قيل لنوح عليه الصلاة والسلام اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب ومن معك في السفينة فلما نبع الماء أخبرته امرأته فركب وقيل كان تنور آدم عليه الصلاة والسلام وكان من حجارة فصار الى نوح وانما نبع منه وهو أبعد شئ من الماء على خرق العادة وكان في الكوفة في موضع مسجدها عن يمين الداخل مما يلي باب كندة وكان عمل السفينة في ذلك الموضع أو في الهند أو في موضع بالشام يقال له عين وردة وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وعكرمة والزهري أن التنور وجه الارض وعن قتادة أشرف موضع في الارض أي أعلاه وعن علي رضي الله تعالى عنه فار التنور طلع الفجر (قلنا احمل فيها) أي في السفينة وهو جواب اذا (من كل) أي من كل نوع لا بد منه في الارض (زوجين) الزوج ما له مشاكل من نوعه فالذكر زوج للانثى كما هي زوج له وقد يطلق على مجموعهما فيقابل الفرد ولازالة ذلك الاحتمال قيل (اثنين) كل منهما زوج للآخر وقرئ على الاضافة وانما قدم ذلك على أهله وسائر المؤمنين لكونه عريقا فيما وجود أمر به من الحمل لانه يحتاج الى مزاولة الاعمال منه عليه الصلاة والسلام في تمييز بعضه من بعض وتعيين الازواج فانه روى أنه عليه الصلاة والسلام قال يا رب كيف أحمل من كل زوجين اثنين فحشر الله تعالى اليه السباع والطير وغيرها فجعل يضرب بيديه في كل

الاهل يقع على الجمع وأيضا فقد يخاطب الواحد بلفظ الجماعة تفخيما أي أقيموا في مكانكم اني آنست نارا أي أبصرت والايناس الابصار البين الذي لا شبهة فيه ومنه انسان العين فانه يبين به الشئ والانس لظهورهم كما قيل الجن لاستتارهم وقيل هو ايضا ما يؤنس به ولما وجد منه الايناس وكان منتفيا حقيقة لهم أتى بكلمة اني لتوطين أنفسهم ولما كان الاتيان بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين بني الامر فيهما على الرجاء والطمع فقال لعلي آتيكم ولم يقطع فيقول اني آتيكم لئلا يعد ما لم يتيقن الوفاء به والنكتة فيه ان قوما قالوا كذب ابراهيم للمصلحة وهو محال لان موسى عليه السلام قبل نبوته احترز عن الكذب فلم يقل آتيكم ولكن قال لعلي آتيكم ولم يقطع فيقول اني آتيكم لئلا يعد ما لم يتيقن الوفاء به والقبس النار المقتبسة في رأس عود أو فتيلة أو غيرهما أو أجد على النار هدى والهدى ما يهتدى به وهو اسم مصدر فكأنه قال أجد على النار ما أهتدي به من دليل أو علامة ومعنى الاستعلاء على النار أن أهل النار يستعلون المكان القريب منها ولان المصطلين بها اذا أحاطوا بها كانوا مشرفين عليها فلما أتاها أي أتى النار قال ابن عباس رأى شجرة خضراء من أسفلها الى أعلاها كأنها نار بيضاء فوقف متعجبا من شدة ضوء تلك النار وشدة خضرة تلك الشجرة فلا النار تغير خضرتها ولا كثرة ماء الشجرة تغير ضوء النار فسمع تسبيح الملائكة ورأى نورا عظيما قال وهب فظن موسى عليه السلام انها نار أوقدت فأخذ من دقاق الحطب ليقتبس من لهبها فمالت اليه كأنها تريده فتأخر عنها وهابها ثم لم تزل تطمعه ويطمع فيها ثم لم يكن أسرع من خمودها فكأنها لم تكن ثم رمى موسى بنظره الى فرعها فاذا خضرته ساطعة في السماء واذا نور بين السماء والارض له شعاع تكل عنه الابصار فلما رأى موسى ذلك وضع يده على عينيه فنودي يا موسى قال القاضي الذي يروى من أن الزند ما كان يوري فهذا جائز وأما الذي يروى من أن النار كانت تتأخر عنه فان كانت النبوة قد تقدمت له جاز ذلك والا فهو ممتنع الا أن يكون معجزة لغيره من الانبياء عليهم السلام وفي قوله وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى دلالة على أن في هذه الحالة أوحى الله اليه وجعله نبيا وعلى هذا الوجه يبعد ما ذكروه من تأخر النار عنه وبين فساد ذلك قوله تعالى فلما أتاها نودي يا موسى وان كانت تتأخر عنه حالا بعد حال لما صح ذلك ولما بقي لفاء التعقيب فائدة قلنا القاضي انما بنى هذا الاعتراض على مذهبه في أن الارهاص غير جائز وذلك عندنا باطل فبطل قوله وأما التمسك بفاء التعقيب فقريب لان تخلل الزمان القليل فيما بين المجيء والنداء لا يقدح في فاء التعقيب (المسئلة الرابعة) قرأ أبو عمرو وابن كثير اني بالفتح أي نودي بأني أنا ربك والباقون بالكسر أي نودي فقيل يا موسى أو لان النداء ضرب من القول فعومل معاملته (المسئلة الخامسة) قال الاشعري ان الله تعالى أسمعه الكلام القديم الذي ليس بحرف ولا صوت وأما المعتزلة فانهم أنكروا وجود ذلك الكلام فقالوا انه سبحانه خلق ذلك النداء في جسم من الاجسام كالشجرة أو غيرها لان النداء كلام الله تعالى والله قادر عليه ومتى شاء فعله وأما أهل السنة من أهل ما وراء النهر فقد أثبتوا الكلام القديم الا أنهم زعموا أن الذي سمعه موسى عليه السلام صوت خلقه الله تعالى في الشجرة واحتجوا بالآية على أن المسموع هو الصوت المحدث قالوا انه تعالى رتب النداء على أنه أتى النار والمرتب على المحدث محدث فالنداء محدث (المسئلة السادسة) اختلفوا في أن موسى عليه السلام كيف عرف أن المنادي هو الله تعالى فقال أصحابنا يجوز أن يخلق الله تعالى له علما ضروريا بذلك ويجوز أن يعرفه بالمعجزة قالت المعتزلة أما العلم الضروري فغير جائز لانه لو حصل العلم الضروري بكون هذا النداء كلام الله تعالى لحصل العلم الضروري بوجود الصانع العالم القادر لاستحالة أن تكون الصفة معلومة بالضرورة والذات تكون معلومة بالاستدلال ولو كان

وجود الصانع تعالى معلوماً له بالضرورة لخرج موسى عن كونه مكلفاً لأن حصول العلم الضروري ينافي التكليف وبالاتفاق لم يخرج موسى عن التكليف فعلمنا أن الله تعالى عرفه ذلك بالمعجز ثم اختلفوا في ذلك المعجز على وجوه (أولها) منهم من قال نعلم قطعاً أن الله تعالى عرفه ذلك بواسطة المعجز ولا حاجة بنا الى أن نعرف ذلك المعجز ما هو (وثانيها) يروى أن موسى عليه السلام لما شاهد النور الساطع من الشجرة الى السماء وسمع تسبيح الملائكة وضع يديه على عينيه فنودي يا موسى فقال لبيك اني أسمع صوتك ولا أراك فأين أنت قال أنا معك وأمامك وخلفك ومحيط بك وأقرب اليك منك ثم ان ابليس أخطر بباله هذا الشك وقال ما يدريك أنك تسمع كلام الله فقال لأني أسمعه من فوقي ومن تحتي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي كما أسمعه من قدامي فعلمت أنه ليس بكلام المخلوقين ومعنى اطلاقه هذه الجهات اني أسمعه بجميع أجزائي وأبعاضي حتى كأن كل جارحة مني صارت أذناً (وثالثها) لعله سمع النداء من جماد كالحصى وغيرها فيكون ذلك معجزاً (ورابعها) انه رأى النار في الشجرة الخضراء بحيث ان تلك الخضرة ما كانت تطفئ تلك النار وتلك النار ما كانت تضر تلك الخضرة وهذا لا يقدر عليه أحد الا الله سبحانه ﴿المسألة السابعة﴾ قالوا ان تكرير الضمير في اني أنا ربك كان لتوكيد الدلالة وازالة الشبهة ﴿المسألة الثامنة﴾ ذكروا في قوله فاخلع نعليك وجوهاً (أحدها) كانتا من جلد حمار ميت فلذلك أمر بخلعهما صيانة للوادي المقدس ولذلك قال عقيبه انك بالوادي المقدس طوى وهذا قول علي رضي الله عنه وقول مقاتل والكلبي والضحاك وقتادة والسدي (والثاني) انما أمر بخلعهما لينال قدميه بركة الوادي وهذا قول الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد (وثالثها) أن يحمل ذلك على تعظيم البقعة من أن يطأها الا حافياً ليكون معظماً لها وخاضعاً عند سماع كلام ربه والدليل عليه أنه تعالى قال عقيبه انك بالواد المقدس وهذا يفيد التعليل فكأنه قال تعالى اخلع نعليك لأنك بالواد المقدس طوى وأما أهل الاشارة فقد ذكروا فيه وجوهاً (أحدها) ان النعل في النوم يفسر بالزوجة والولد فقوله اخلع نعليك اشارة الى أن لا يلتفت خاطره الى الزوجة والولد وأن لا يبقى مشغول القلب بأمرهما (وثانيها) المراد بخلع النعلين ترك الالتفات الى الدنيا والآخرة كأنه أمره بأن يصير مستغرق القلب بالكلية في معرفة الله تعالى ولا يلتفت بخاطره الى ما سوى الله تعالى والمراد من الوادي المقدس قدس جلال الله تعالى وطهارة عزته يعني انك لما وصلت الى بحر المعرفة فلا تلتفت الى المخلوقات (وثالثها) ان الانسان حال الاستدلال على الصانع لا يمكنه أن يتوصل اليه الا بمقدمتين مثل أن يقول العالم المحسوس محدث أو ممكن وكل ما كان كذلك فله مدبر ومؤثر وصانع وهاتان المقدمتان يشبهان النعلين لأن بهما يتوصل العقل الى المقصود وينتقل من النظر في الخلق الى معرفة الخالق ثم بعد الوصول الى معرفة الخالق وجب أن لا يبقى ملتفتاً الى تينك المقدمتين لأن بقدر الاشتغال بالغير يبقى محروماً عن الاستغراق فيه فكأنه قيل له لا تكن مشتغل القلب والخاطر بتينك المقدمتين فانك وصلت الى الوادي المقدس الذي هو بحر معرفة الله تعالى ولجة ألوهيته ﴿المسألة التاسعة﴾ استدلت المعتزلة بقوله اخلع نعليك على ان كلام الله تعالى ليس بقديم اذ لو كان قديماً لكان الله قائلاً قبل وجود موسى اخلع نعليك يا موسى ومعلوم ان ذلك سفه فان الرجل في الدار الخالية اذا قال يا زيد افعل ويا عمرو لا تفعل مع ان زيداً وعمراً لا يكونان حاضرين بعد ذلك يعد ذلك جنوناً وسفهاً فكيف يليق ذلك بالاله سبحانه وتعالى * وأجاب أصحابنا عنه من وجهين (الاول) ان كلامه تعالى وان كان قديماً الا أنه في الازل لم يكن أمراً ولا نهياً (والثاني) انه كان أمراً معنى انه وجد في الازل شيء لما استمر الى ما لا يزال صار الشخص به مأموراً من غير

جنس فيقع الذكر في يده اليمنى والانثى في اليسرى فيجعلهما في السفينة وأما البشر فانما يدخل الفلك باختياره فيخف فيه معنى الحمل أو لأنها انما تحمل بمباشرة البشر وهم انما يدخلونها بعد حملهم اياها (وأهلك) عطف على زوجين أو على اثنين والمراد امرأته وبنوه ونساؤهم (الا من سبق عليه القول) بأنه من المغرقين بسبب ظلمهم في قوله تعالى ولا تخاطبني في الذين ظلموا الآية والمراد به ابنه كنعان وأمه واعلة فانهما كانا كافرين والاستثناء منقطع ان أريد بالأهل الأهل ايماناً وهو الظاهر كما ستعرفه أو متصل ان أريد به الأهل قرابة ويكفي في صحة الاستثناء المعلومية عند المراجعة الى أحوالهم والتفحص عن أعمالهم وجيء بعلى لكون السابق ضاراً لهم كما جيء باللام فيما هو نافع لهم من قوله عز وجل ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين وقوله ان الذين سبقت لهم منا الحسنى (ومن آمن) من غيرهم وافراد الأهل منهم للاستثناء المذكور وايثار صيغة الافراد في آمن محافظة على لفظ من للايذان بقلتهم كما أعرب عنه قوله عز قائلاً (وما آمن معه الا قليل) قيل كانوا ثمانية نوح عليه الصلاة والسلام وأهله وبنوه الثلاثة ونساؤهم وعن ابن اسحق كانوا عشرة خمسة رجال وخمس نسوة وعنه أيضاً أنهم كانوا عشرة سوى نسائهم وقيل كانوا اثنين وسبعين رجلاً وامرأة وأولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم فالجميع ثمانية وسبعون نصفهم رجال ونصفهم نساء واعتبار المعية في ايمانهم للايماء الى المعية في مقر الامان والنجاة (وقال) أي نوح عليه الصلاة والسلام لمن معه من المؤمنين كما ينبئ عنه قوله تعالى ان ربي لغفور رحيم ولو رجع الضمير الى الله تعالى لناسب أن يقال ان ربكم واعل ذلك بعد ادخال ما أمر بحمله في الفلك من الازواج كأنه قيل فحمل الازواج

وقوع التغيير في ذلك الشئ كمان القدرة تقتضي صحة الفعل ثم انها كانت موجودة في الازل من غير هذه الصحة فلما استمرت الى مالا يزال حصلت الصحة كذا ههنا وهذا الكلام فيه غموض و بحث دقيق ﴿المسئلة العاشرة﴾ ليس في الآية دلالة على كراهة الصلاة والطواف في النعل والصحيح عدم الكراهة وذلك لانا ان عللنا الامر بخلع النعلين بتعظيم الوادي وتعظيم كلام الله كان الامر مقصورا على تلك الصورة وان عللناه بان النعلين كانا من جلد حمار ميت فجائز أن يكون قد كان محظورا لبس جلد الحمار الميت وان كان مدبوغا فان كان كذلك فهو منسوخ بقوله عليه السلام أيما اهاب دبغ فقد طهر وقد صلى النبي صلى الله عليه وسلم في نعليه ثم خلعهما في الصلاة فخلع الناس نعالهم فلما سلم قال مالكم خلعتم نعالكم قالوا خلعت فخلعنا قال فان جبريل أخبرني أن فيهما قذرا فلم يكره النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة في النعل وأنكر على الخالعين خلعهما وأخبرهم بأنه انما خلعهما لما فيهما من القذر ﴿المسئلة الحادية عشرة﴾ قرئ طوى بالضم والكسر منصرفا وغير منصرف فمن نونه فهو اسم الوادي ومن لم ينونه ترك صرفه لانه معدول عن طاوي فهو مثل عمر المعدول عن عامر ويجوز أن يكون اسما للبقعة ﴿المسئلة الثانية عشرة﴾ في طوى وجوه (الاول) انه اسم للوادي وهو قول عكرمة وابن زيد (والثاني) معناه مرتين نحو مثنى أي قدس الوادي مرتين أو نودي موسى عليه السلام نداءين يقال ناديته طوى أي مثنى (والثالث) طوى أي طيا قال ابن عباس رضي الله عنهما انه مر بذلك الوادي ليلا فطواه فكان المعنى بالوادي المقدس الذي طويته طيا أي قطعته حتى ارتفعت الى أعلاه ومن ذهب الى هذا قال طوى مصدر خرج عن لفظه كأنه قال طويته طوى كما يقال هدى يهدي هدى والله أعلم ﴿قوله تعالى﴾ ﴿وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى انني أنا الله لا اله الا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾ قرأ حمزة وانا اخترناك وقرأ أبي بن كعب واني اخترتك وههنا مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ معناه اخترتك للرسالة وللكلام الذي خصصتك به وهذه الآية تدل على أن النبوة لا تحصل بالاستحقاق لان قوله وأنا اخترتك يدل على ان ذلك المنصب العلي انما حصل لان الله تعالى اختاره له ابتداء لا انه استحقه على الله تعالى ﴿المسئلة الثانية﴾ قوله فاستمع لما يوحى فيه نهاية الهيبة والجلالة فكأنه قال لقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهب له واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفا اليه فقوله وأنا اخترتك يفيد نهاية اللطف والرحمة وقوله فاستمع يفيد نهاية الهيبة فيحصل له من الاول نهاية الرجاء ومن الثاني نهاية الخوف ﴿المسئلة الثالثة﴾ قوله انني أنا الله لا اله الا أنا فاعبدني يدل على ان علم الاصول مقدم على علم الفروع لان التوحيد من علم الاصول والعبادة من علم الفروع وأيضا الفاء في قوله فاعبدني تدل على ان عبادته انما لزمت لالهيته وهذا هو تحقيق العلماء ان الله هو المستحق للعبادة ﴿المسئلة الرابعة﴾ انه سبحانه بعد أن أمره بالتوحيد أولا ثم بالعبادة ثانيا أمره بالصلاة ثالثا احتج أصحابنا بهذه الآية على ان تأخير البيان عن وقت الحاجة جائز من وجهين (الاول) انه أمره بالعبادة ولم يذكر كيفية تلك العبادة فثبت انه يجوز ورود المجمل منفكا عن البيان (الثاني) انه قال وأقم الصلاة لذكري ولم يبين كيفية الصلاة قال القاضي لا يمتنع ان موسى عليه السلام قد عرف الصلاة التي تعبد الله تعالى بها شعيبا عليه السلام وغيره من الانبياء فصار الخطاب متوجها الى ذلك ويحتمل انه تعالى بين له في الحال وان كان المنقول في القرآن لم يذكر فيه الا هذا القدر * والجواب أما العذر الاول فانه لا يتوجه في قوله تعالى فاعبدني وأيضا فحمل مثل هذا الخطاب العظيم على فائدة جديدة أولى من حمله على أمر معلوم لان موسى عليه السلام ما كان يشك في وجوب الصلاة التي جاء بها شعيب عليه السلام فلو حملنا قوله وأقم الصلاة على ذلك لم يحصل من هذا الخطاب

* أو ادخلوها في الفلك وقال للمؤمنين (اركبوا فيها) كما سيأتي مثله في قوله تعالى وهي تجري بهم والركوب العلو على شئ متحرك و يتعدى بنفسه واستعماله ههنا بكلمة في ليس لان المأمور به كونهم في جوفها لا فوقها كما ظن فان أظهر الروايات أنه عليه السلام جعل الوحوش ونظائرها في البطن الاسفل والانعام في الاوسط وركب هو ومن معه في الاعلى بل لرعاية جانب المحلية والمكانية في الفلك والسر فيه ان معنى الركوب العلو على شئ له حركة اما ارادية كالحيوان أو قسرية كالسفينة والعجلة ونحوهما فاذا استعمل في الاول يوفر له حظ الاصل فيقال ركبت الفرس وعليه قوله عز من قائل والخيل والبغال والحمير لتركبوها وان استعمل في الثاني يلوح بمحلية المفعول بكلمة في فيقال ركبت في السفينة وعليه الآية الكريمة وقوله عز قائلا فاذا ركبوا في الفلك وقوله تعالى فانطلقا حتى اذا ركبا في السفينة خرقها (بسم الله) متعلق باركبوا حال من فاعله أي اركبوا مسمين الله تعالى أو قائلين بسم الله (مجريها ومرساها) نصب على الظرفية أي وقت اجرائها وارسائها على انهما اسما زمان أو مصدران كالاجراء والارساء بحذف الوقت كقولك آتيك خفوق النجم أو اسما مكان انتصبا بما في بسم الله من معنى الفعل أو ارادة القول ويجوز أن يكون بسم الله مجريها ومرساها مستقلة من مبتدا وخبر في موضع الحال من ضمير الفلك أي اركبوا فيها مجراة ومرساة باسم الله بمعنى التقدير كقوله تعالى ادخلوها خالدين أو جملة مقتضبة على أن نوحا أمرهم بالركوب فيها ثم أخبرهم بان اجراءها وارساءها باسم الله تعالى فيكونان كلامين له عليه الصلاة والسلام قيل كان عليه السلام اذا أراد أن يجريها يقول بسم الله فتجري واذا أراد أن يرسيها يقول بسم الله فترسو ويجوز أن يكون

الاسم مقحما كما في قوله * الى الحول ثم اسم السلام عليكما * ويراد بالله اجراؤها وارساؤها أي بقدرته وأمره وقرئ مجريها ومرسيها على صيغة الفاعل مجروري المحل صفتين لله عز وجل ومجراها ومرساها بفتح الميم مصدرين أو زمانين أو مكانين من جرى ورسا (ان ربي لغفور) للذنوب والخطايا (رحيم) لعباده ولذلك نجاكم من هذه الطامة والداهية العامة ١٥ ولولا ذلك لما فعله وفيه دلالة على

انه طالب العظيم فائدة زائدة أما لو حملناه على صلاة أخرى لحصلت الفائدة الزائدة فقوله لعل الله تعالى بينه في ذلك الموضع وان لم يحكه في القرآن قلنا لا شك ان البيان أكثر فائدة من المجمل فلو كان مذكورا لكان أولى بالحكاية (المسألة الخامسة) في قوله لذكري وجوه (أحدها) لذكري يعني لتذكرني فان ذكري أن أعبد ويصلى لي (وثانيها) لتذكرني فيها لاشتمال الصلاة على الاذكار عن مجاهد (وثالثها) لاني ذكرتها في الكتب وأمرت بها (ورابعها) لان أذكرك بالمدح والثناء واجعل لك لسان صدق (وخامسها) لذكري خاصة لا تشوبه بذكر غيري (وسادسها) لاخلاص ذكري وطلب وجهي لا ترائي بها ولا تقصد بها غرضا آخر (وسابعها) لتكون لي ذاكرا غير ناس فعل المخلصين في جعلهم ذكر ربهم على بال منهم كما قال تعالى لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله (وثامنها) لاوقات ذكري وهي مواقيت الصلاة لقوله تعالى ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا (وتاسعها) أقم الصلاة حين تذكرها أي انك اذا نسيت صلاة فاقضها اذا ذكرتها روى قتادة عن أنس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من نسي صلاة فليصلها اذا ذكرها لا كفارة لها الا ذلك ثم قرأ وأقم الصلاة لذكري قال الخطابي يحتمل هذا الحديث وجهين (أحدهما) انه لا يكفرها غير قضائها والآخر انه لا يلزم في نسيانها غرامة ولا كفارة كما تلزم الكفارة في ترك صوم رمضان من غير عذر وكما يلزم المحرم اذا ترك شيأ من نسكه فدية من اطعام أو دم وانما يصلي ما ترك فقط فان قيل حق العبارة أن يقول أقم الصلاة لذكرها كما قال عليه السلام فليصلها اذا ذكرها قلنا قوله لذكري معناه للذكر الحاصل بخلقي أو بتقدير حذف المضاف أي لذكر صلاتي (المسألة السادسة) لو فاتته صلوات يستحب أن يقضيها على ترتيب الاداء فلو ترك الترتيب في قضائها جاز عند الشافعي رحمه الله ولو دخل عليه وقت فريضة وتذكر فائتة نظران كان في الوقت سعة استحب أن يبدأ بالفائتة ولو بدأ بصلاة الوقت جاز وان ضاق الوقت بحيث لو بدأ بالفائتة فات الوقت يجب أن يبدأ بصلاة الوقت حتى لا تفوت ولو تذكر الفائتة بعد ما شرع في صلاة الوقت أتمها ثم قضى الفائتة ويستحب أن يعيد صلاة الوقت بعدها ولا يجب وقال أبو حنيفة رحمه الله يجب الترتيب في قضاء الفوائت ما لم تزد على صلاة يوم وليلة حتى قال لو تذكر في خلال صلاة الوقت فائتة تركها اليوم يبطل فرض الوقت فيقضي الفائتة ثم يعيد صلاة الوقت الا أن يكون الوقت ضيقا فلا تبطل حجة أبي حنيفة رحمه الله الآية والخبر والاثر والقياس أما الآية فقوله تعالى أقم الصلاة لذكري أي لتذكرها واللام بمعنى عند كقوله أقم الصلاة لدلوك الشمس أي عند دلوكها فمعنى الآية أقم الصلاة المتذكرة عند تذكرها وذلك يقتضي رعاية الترتيب وأما الخبر فقوله عليه السلام من نسي صلاة فليصلها اذا ذكرها والفاء للتعقيب وأيضا روى جابر بن عبد الله قال جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنهما الى النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق فجعل يسب كفار قريش ويقول يا رسول الله ما صليت صلاة العصر حتى كادت تغيب الشمس قال النبي صلى الله عليه وسلم وأنا والله ما صليتها بعد قال فنزل الى البطحاء وصلى العصر بعد ما غابت الشمس ثم صلى المغرب بعدها وهذا الحديث مذكور في الصحيحين قالت الحنفية والاستدلال به من وجهين (أحدهما) انه عليه الصلاة والسلام قال صلوا كما رأيتموني أصلي فلما صلى الفوائت على الولاء وجب علينا ذلك (والثاني) ان فعل النبي صلى الله عليه وسلم اذا خرج مخرج البيان للمجمل كان حجة وهذا الفعل خرج بيانا لمجمل قوله أقيموا الصلاة ولهذا قلنا ان الفوائت اذا كانت في حد القلة يجب مراعاة الترتيب فيها واذا دخلت في حد الكثرة يسقط الترتيب وأما الاثر فما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما انه قال من فاتته صلاة فلم يذكرها الا في صلاة الامام فليمض في

أن نجاتهم ليست بسبب استحقاقهم لها بل بمحض فضل الله سبحانه وغفرانه ورحمته على ما عليه رأي أهل السنة (وهي تجري بهم) متعلق بمحذوف دل عليه الامر بالركوب أي فركبوا فيها مسمين وهي تجري ملتبسة بهم (في موج كالجبال) وهو ما ارتفع من الماء عند اضطرابه كل موجة من ذلك كجبل في ارتفاعها وتراكمها وما قيل من أن الماء طبق ما بين السماء والارض وكانت السفينة تجري في جوفه كالحوت فغير ثابت والمشهور أنه علا شوامخ الجبال خمسة عشر ذراعا أو أربعين ذراعا ولئن صح ذلك فهذا الجريان انما هو قبل أن يتفاقم الخطب كما يدل عليه قوله تعالى (ونادى نوح ابنه) فان ذلك انما يتصور قبل أن تنقطع العلاقة بين السفينة والبر اذ حينئذ يمكن جريان ما جرى بين نوح عليه الصلاة والسلام وبين ابنه من المفاوضة بالاستدعاء الى السفينة والجواب بالاعتصام بالجبل وقرئ ابنها وابنه بحذف الالف على أن الضمير لامرأته وكان ربيبه وما يقال من أنه كان لغير رشدة لقوله تعالى فخانتاهما فارتكاب عظيمة لا يقادر قدرها فان جناب الانبياء صلوات الله تعالى عليهم وسلامه أرفع من أن يشار اليه باصبع الطعن وانما المراد بالخيانة الخيانة في الدين وقرئ ابناه على الندبة ولكونها حكاية سوغ حذف حرفها وأنت خبير بأنه لا يلائمه الاستدعاء الى السفينة فانه

صريح في أنه لم يقع في حياته يأس بعد (وكان في معزل) أي في مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وإخوته وقومه بحيث لم يتناوله الخطاب باركبوا واحتاج الى النداء المذكور وقيل في معزل عن الكفار قد انفرد عنهم وظن نوح أنه يريد مفارقتهم ولذلك دعاه الى السفينة وقيل كان ينافق أباه فظن أنه مؤمن وقيل كان يعلم أنه كافر الى ذلك الوقت لكنه عليه الصلاة والسلام ظن أنه عند مشاهدة تلك الاهوال ينزجر عما كان عليه ويقبل الايمان وقيل لم يكن الذي تقدم من قوله تعالى الا من سبق عليه القول نصا في كونا بنه داخلا تحته بل كان كالمجمل فحملته شفقة الابوة على ذلك (يا بني) بفتح الياء اقتصارا عليه من الالف المبدلة من ياء الاضافة في قولك يا بنيا وقرئ بكسر الياء اقتصارا عليه من ياء الاضافة أو سقطت الياء والالف لالتقاء الساكنين لان الراء بعدهما ساكنة (اركب معنا) قرأ أبو عمرو والكسائي وحفص بادغام الباء في الميم لتقاربهما في المخرج وانما أطلق الركوب عن ذكر الفلك لتعينها وللايذان بضيق المقام حيث حال الجريض دون القريض مع اغناء المعية عن ذلك (ولا تكن مع الكافرين) أي في المكان وهو وجه الارض خارج الفلك لا في الدين وان كان ذلك مما يوجبه كما يوجب ركوبه معه عليه الصلاة والسلام كونه معه في الايمان لانه عليه الصلاة والسلام بصدد التحذير عن المهلكة فلا يلائمه النهي عن الكفر (قال سآوي الى جبل) من الجبال (يعصمني) بارتفاعه (من الماء) زعما منه أن ذلك كسائر المياه في أزمنة السيول المعتادة التي ربما يتقى منها بالصعود الى الربا وأنى له ذلك وقد بلغ السيل الزبى وجهلا بأن ذلك انما كان لاهلاك الكفرة وان لا محيص من ذلك سوى الالتجاء الى ملجأ المؤمنين فلذلك أراد عليه الصلاة واشكلته

صلاته فاذا قضى صلاته مع الامام يصلي ما فاته ثم يعيد التي صلاها مع الامام وقد يروى هذا مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم * وأما القياس فهو أنهما صلاتان فريضتان جمعهما واحد في اليوم والليلة فاشبهتا صلاتي عرفة والمزدلفة فلما لم يجب اسقاط الترتيب فيهما وجب أن يكون حكم الفوائت فيما دون اليوم والليلة كذلك حجة الشافعي رحمه الله انه روي في حديث أبي قتادة أنهم لما ناموا عن صلاة الفجر ثم انتبهوا بعد طلوع الشمس أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يقودوا رواحلهم ثم صلاها ولو كان وقت التذكر معينا للصلاة لما جاز ذلك فعلمنا أن ذلك الوقت وقت لتقرر الوجوب عليه لكن لا على سبيل التضييق بل على سبيل التوسع اذا ثبت هذا فنقول ايجاب قضاء الفوائت وايجاب أداء فرض الوقت الحاضر يجري مجرى التخيير بين الواجبين فوجب أن يكون المكلف مخيرا في تقديم أيهما شاء ولانه لو كان الترتيب في الفوائت شرطا لما سقط بالنسيان ألا ترى أنه اذا صلى الظهر والعصر بعرفة في يوم غيم ثم تبين انه صلى الظهر قبل الزوال والعصر بعد الزوال فانه يعيدهما جميعا ولم يسقط الترتيب بالنسيان لما كان شرطا فيهما فههنا أيضا لو كان شرطا فيهما لما كان يسقط بالنسيان * قوله تعالى ﴿ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى﴾ اعلم أنه تعالى لما خاطب موسى عليه السلام بقوله فاعبدني وأقم الصلاة لذكري أتبعه بقوله ان الساعة آتية أكاد أخفيها وما أليق هذا بتأويل من تأول قوله لذكري أي لأذكرك بالامانة والكرامة فقال عقيب ذلك ان الساعة آتية لانها وقت الاثابة ووقت المجازاة ثم قال أكاد أخفيها وفيه سؤالان ﴿السؤال الاول﴾ هو ان كاد نفيه اثبات واثباته نفي بدليل قوله وما كادوا يفعلون أي وفعلوا ذلك فقوله أكاد أخفيها يقتضي انه ما أخفاها وذلك باطل لوجهين (أحدهما) قوله ان الله عنده علم الساعة (والثاني) ان قوله لتجزى كل نفس بما تسعى انما يليق بالاخفاء لا بالاظهار (والجواب) من وجوه (أحدها) ان كاد موضوع للمقاربة فقط من غير بيان النفي والاثبات فقوله أكاد أخفيها معناه قرب الامر فيه من الاخفاء وأما انه هل حصل ذلك الاخفاء أو ما حصل فذلك غير مستفاد من اللفظ بل من قرينة قوله لتجزى كل نفس بما تسعى فان ذلك انما يليق بالاخفاء لا بالاظهار (وثانيها) ان كاد من الله واجب فمعنى قوله أكاد أخفيها أي أنا أخفيها عن الخلق كقوله عسى أن يكون قريبا أي هو قريب قاله الحسن (وثالثها) قال أبو مسلم أكاد بمعنى أريد وهو كقوله كذلك كدنا ليوسف ومن أمثالهم المتداولة لا أفعل ذلك ولا أكاد أي ولا أريد أن أفعله (ورابعها) معناه أكاد أخفيها من نفسي وقيل انها كذلك في مصحف أبي وفي حرف ابن مسعود أكاد أخفيها من نفسي فكيف أعلنها لكم قال القاضي هذا بعيد لان الاخفاء انما يصح فيمن يصح له الاظهار وذلك مستحيل على الله تعالى لان كل معلوم معلوم له فالاظهار والاسرار منه مستحيل ويمكن أن يجاب عنه بأن ذلك واقع على التقدير يعني لو صح مني اخفاؤه على نفسي لاخفيته عني والاخفاء وان كان محالا في نفسه الا أنه لا يمتنع أن يذكر ذلك على هذا التقدير مبالغة في عدم اطلاع الغير عليه قال قطرب هذا على عادة العرب في مخاطبة بعضهم بعضا يقولون اذا بالغوا في كتمان الشئ كتمته حتى من نفسي فالله تعالى بالغ في اخفاء الساعة فذكره بأبلغ ما تعرفه العرب في مثله (وخامسها) أكاد صلة في الكلام والمعنى ان الساعة آتية أخفيها قال زيد الخيل

سريع الى الهيجاء شاك سلاحه * فما ان يكاد قرنه يتنفس

والمعنى فما ان يتنفس قرنه (وسادسها) قال أبو الفتح الموصلي أكاد أخفيها تأويله أكاد أظهرها وتلخيص هذه اللفظة أكاد أزيل عنها اخفاءها لان أفعل قد يأتي بمعنى السلب والنفي كقولك أعجمت الكتاب

وأشكلته أى أزلت عجمته واشكاله واشكيته أى أزلت شكواه (وسابعها) قرئ أخفيها بفتح الالف أى أكاد أظهرها من خفاه اذا أظهره أى قرب اظهارها كقوله اقتربت الساعة قال امرؤ القيس

فان تدفنوا الداء لانخفه ٭ وان تبعثوا الحرب لا نقعد

أى لا نظهره قال الزجاج وهذه القراءة أبين لان معنى أكاد أظهرها يفيد أنه قد أخفاها (وثامنها) أراد أن الساعة آتية أكاد وانقطع الكلام ثم قال أخفيها ثم رجع الكلام الاول الى أن الاولى الاخفاء لتجزى كل نفس بما تسعى وهذا الوجه بعيد والله أعلم (السؤال الثانى) ما الحكم فى اخفاء الساعة واخفاء وقت الموت (الجواب) لان الله تعالى وعد قبول التوبة فلو عرف وقت الموت لاشتغل بالمعصية الى قريب من ذلك الوقت ثم يتوب فيتخلص من عقاب المعصية فتعريف وقت الموت كالاغراء بفعل المعصية وانه لا يجوز ٭ أما قوله لتجزى كل نفس بما تسعى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى لما حكم بمجىء يوم القيامة ذكر الدليل عليه وهو انه لولا القيامة لما تميز المطيع عن العاصى والمحسن عن المسىء وذلك غير جائز وهو الذى عناه الله تعالى بقوله أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض أم نجعل المتقين كالفجار (المسئلة الثانية) احتجت المعتزلة بهذه الآية على أن الثواب مستحق على العمل لان الباء للالصاق فقوله بما تسعى يدل على أن المؤثر فى ذلك الجزاء هو ذلك السعى (المسئلة الثالثة) احتجوا بها على ان فعل العبد غير مخلوق لله تعالى وذلك لان الآية صريحة فى اثبات سعى العبد ولو كان الكل مخلوقا لله تعالى لم يكن للعبد سعى البتة ٭ أما قوله فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها فالصد المنع وههنا مسائل (المسئلة الاولى) فى هذين الضميرين وجهان (أحدهما) قال أبو مسلم لا يصدنك عنها أى عن الصلاة التى أمرتك بها من لا يؤمن بها أى بالساعة فالضمير الاول عائد الى الصلاة والثانى الى الساعة ومثل هذا جائز فى اللغة فالعرب تلف الخبرين ثم ترمى بجوابهما جملة ليرد السامع الى كل خبر حقه (وثانيهما) قال ابن عباس فلا يصدنك عن الساعة أى عن الايمان بمجيئها من لا يؤمن بها فالضميران عائدان الى يوم القيامة قال القاضى وهذا أولى لان الضمير يجب عوده الى أقرب المذكورين وههنا الاقرب هو الساعة وما قاله أبو مسلم فانما يصار اليه عند الضرورة ولا ضرورة ههنا (المسئلة الثانية) الخطاب فى قوله فلا يصدنك يحتمل أن يكون مع موسى عليه السلام وان يكون مع محمد صلى الله عليه وسلم والأقرب انه مع موسى لان الكلام أجمع خطاب له وعلى كلا الوجهين فلا معنى لقول الزجاج انه ليس بمراد وانما أريد به غيره وذلك لانه ظن أن النبى صلى الله عليه وسلم لما لم يجز عليه مع النبوة أن يصده أحد عن الايمان بالساعة لم يجز أن يكون مخاطبا بذلك وليس الامر كما ظن لانه اذا كان مكلفا بأن لا يقبل الكفر بالساعة من أحد وكان قادرا على ذلك جاز أن يخاطب به ويكون المراد هو وغيره ويحتمل أيضا أن يكون المراد بقوله فلا يصدنك عنها النهى له عن الميل اليهم ومقاربتهم (المسئلة الثالثة) المقصود نهى موسى عليه السلام عن التكذيب بالبعث ولكن ظاهر اللفظ يقتضى نهى من لم يؤمن عن صد موسى عليه السلام وفيه وجهان (أحدهما) ان صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب فذكر السبب ليدل على المسبب (والثانى) ان صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل فى الدين فذكر المسبب ليدل حمله على السبب كقوله لا أرينك ههنا المراد نهيه عن مشاهدته والكون بحضرته فكذا ههنا كأنه قيل لا تكن رخوا بل كن فى الدين شديدا صلبا (المسئلة الرابعة) الآية تدل على ان تعلم علم الاصول واجب لان قوله فلا يصدنك يرجع معناه الى الصلابة فى الدين وتلك الصلابة ان كان المراد بها التقليد لم يتميز المبطل فيه من المحق فلابد وأن يكون المراد بهذه الصلابة كونه

والسلام ان يبين له حقيقة الحال ويصرفه عن ذلك الفكر المحال وكان مقتضى الظاهر أن يجيب بما ينطبق عليه كلامه ويتعرض لنفى ما أثبته للجبل من كونه عاصما له من الماء بأن يقول لا يعصمك منه مفيد النفى وصف العصمة عنه فقط من غير تعرض لنفيه عن غيره ولا لنفى الموصوف أصلا لكنه عليه الصلاة والسلام حيث (قال لا عاصم اليوم من أمر الله) سلك طريقة نفى الجنس المنتظم لنفى جميع أفراد العاصم ذاتا وصفة كما فى قولهم ليس فيه داع ولا مجيب أى أحد من الناس للمبالغة فى نفى كون الجبل عاصما بالوجهين المذكورين وزاد اليوم للتنبيه على انه ليس كسائر الايام التى تقع فيها الوقائع وتلم فيها الملمات المعتادة التى ربما يتخلص من ذلك بالالتجاء الى بعض الاسباب العادية وعبر عن الماء فى محل اضماره بامر الله أى عذابه الذى أشير اليه حيث قيل حتى اذا جاء أمرنا تفخيما لشأنه وتهويلا لامره وتنبيها لابنه على خطئه فى تسميته ماء وتوهم انه كسائر المياه التى يتفصى منها بالهرب الى بعض المهارب المعهودة وتعليلا للنفى المذكور فان أمر الله لا يغالب وعذابه لا يرد وتمهيدا لحصر العصمة فى جناب الله عز جاره بالاستثناء كأنه قيل لا عاصم من أمر الله الا هو وانما قيل (الا من رحم) تفخيما لشأنه الجليل بالابهام ثم التفسير وبالاجمال ثم التفصيل واشعارا بعلية رحمته فى ذلك بموجب سبقها على غضبه وكل ذلك لكمال عنايته عليه الصلاة والسلام بتحقيق ما يتوخاه من نجاة ابنه ببيان شأن الداهية وقطع اطماعه الفارغة وصرفه عن التعلل بما لا يغنى عنه شيأ وارشاده الى المعاذ بالمعاذ الحق عز جاره وقيل لا مكان يعصم من أمر الله الا مكان من رحمه الله وهو الفلك وقيل معنى لا عاصم لا ذا عصمة الا من رحمه الله تعالى (وحال بينهما

الموج) أى بين نوح و بين ابنه فانقطع ما بينهما من المجاوبة لا بين ابنه و بين الجبـل لقوله تعالى (فكان من المغرقين) اذ هو انما يتفرع
على حيلولة الموج بينه عليه الصلاة والسـلام و بين ابنه لا بينه و بين الجبل لانه بمعزل من كونه عاصما وان لم يحل بينه و بين الملتجئ اليه
موج وفيه دلالة على هلاك سائر الكفرة ١٨ عـلى أبلغ وجـه فكان ذلك أمرا مقرر الوقوع غـير مفتقر الى البيان وفى ايراد كان
دون صار مبالغة فى كونه
منهـم (وقيـل يا أرض
ابلعى) أى انشفى استعير
له من ازدراد الحيـوان
ما يأكله للدلالة عـلى
أن ذلك ليس كالنشـف
المعتاد التدريجى (ماءك)
أى ما عـلى وجهك من
ماء الطوفان دون المياه
المعهودة فيها من العيون
والانهار وعبر عنه بالماء
بعد ما عبر عنه فيما سلف
بامر الله تعالى لان المقام
مقام النقص والتقليـل
لا مقام التفخيم والتهويل
(ويا سماء أقلـعى) أى
امسكى عن ارسال المطر
يقال أقلعت السماء اذا
انقطع مطـرها وأقلعت
الحمى أى كفت (وغيض
الماء) أى نقص ما بين
السماء والارض من الماء
(وقضى الامر) أى أنجز
ما وعـد الله تعالى نوحا
من اهلاك قومه وانجائه
بأهـــله أو أتم الامر
(واستوت) أى استقرت
الفلك (على الجودى) هو
جبل بالموصل أو بالشام
أو بآمل روى أنه عليه
الصلاة والسـلام ركب
فى الفلك فى عاشر رجب
ونزل عنها فى عاشر المحرم
فصام ذلك اليوم شكرا فصار سنة (وقيل بعدا للقوم الظالمين) أى هلاكا لهم والتعرض لوصف الظلم للاشعار بعليته لما
للهلاك ولتذكير ما سبق من قوله تعالى ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون ولقد بلغت الآية الكريمة من مراتب الاعجاز قاصيتها
وملكت من غرر المزايا ناصيتها وقد تصـدى لتفصيلها المهرة المتقنون ولعمرى ان ذلك فوق ما يصـفه الواصـفون ونحن نرى أن نوجز

قويا فى تقرير الدلائل وازالة الشبهات حتى لا يتمكن الخصم من ازالته عن الدين بل هو يكون متمكنا من ازالة المبطل عن بطلانه (المسئلة الخامسة) قال القاضى قوله فلا يصدنك يدل على أن العباد هـم الذين يصدون ولو كان تعالى هو الخالق لافعالهـم لكان هو الصاد دونهـم فدل ذلك على بطلان القول بالجـبر والجواب المعارضة بمسئلة العلم والداعى والله أعـلم أما قوله تعالى واتبع هواه فالمعـنى ان منكر البعث انما أنكره اتباعا للهوى لا للدليل وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد لان المقلد متبـع للهوى لا للحجة أما قوله فتردى فهو يعنى ولا يصدنك فتردى وان صدوك وقبلت فليس الا الهلاك بالنار واعلم ان المتوغلين فى أسرار المعرفة قالوا المقام مقامان (أحدهـما) مقام المحو والفناء عما سوى الله تعالى (والثانى) مقام البقاء بالله والاول مقدم على الثانى لان من أراد أن يكتب شيأ فى لوح مشغول بكتابة أخرى فلا سـبيل له اليه الا بازالة الكتابة الاولى ثم بعد ذلك يمكن اثبات الكتابة الثانية والحق سبحانه راعى هذا الترتيب الحسـن فى هذا الباب لانه قال لموسى عليه السلام أولا فاخلع نعليك وهو اشارة الى تطهير السر عما سوى الله تعالى ثم بعد ذلك أمره بتحصيل ما يجب تحصيله واصول هذا الباب ترجع الى ثلاثة علم المبدا وعلم الوسط وعلم المعاد فعلم المبدا هو معرفة الحق سبحانه وتعالى وهو المراد بقوله انى أنا الله لا اله الا أنا وأما علم الوسط فهو علم العبودية ومعناه الامر الذى يجب أن يشتغل الانسان به فى هذه الحياة الجسمانية وهو المراد بقوله فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى ثم فى هذا أيضا نكتة لان قوله فاعبدنى اشارة الى الاعمال الجسمانية وقوله لذكرى اشارة الى الاعمال الروحانية والعبودية أولها الاعمال الجسمانية وآخرها الاعمال الروحانية وأما علم المعاد فهو قوله ان الساعة آتية أكاد أخفيها ثم انه تعالى افتتح هذه التكاليف بمحض اللطف وهو قوله انى أنا ربك واختتمها بمحض القهر وهو قوله فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى تنبيها على ان رحمته سبقت غضبه واشارة الى أن العبد لا بد له فى العبودية من الرغبة والرهبة والرجاء والخوف وعند الوقوف على هذه الجملة تعرف ان هذا الترتيب هو النهاية فى الحسن والجودة وان ذلك لا يتأتى الا من العالم بكل المعلومات ﴿ قوله تعالى ﴿وما تلك بيمينك يا موسى قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى قال ألقها يا موسى فألقاها فاذا هى حية تسعى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الاولى﴾ اعلم أن قوله وما تلك بيمينك لفظتان فقوله وما تلك اشارة الى العصا وقوله بيمينك اشارة الى اليد وفى هذا نكت (احداها) انه سبحانه لما أشار اليهما جعل كل واحدة منهما معجزا قاهرا وبرهانا باهرا ونقله من حد الجمادية الى مقام الكرامة فاذا صار الجماد بالنظر الواحد حيوانا وصار الجسم الكثيف نورانيا لطيفا ثم انه تعالى ينظر كل يوم ثلثمائة وستين نظرة الى قلب العبد فاى عجب لو انقلب قلبه من موت العصيان الى سعادة الطاعة ونور المعرفة (وثانيها) ان بالنظر الواحد صار الجماد ثعبانا يبتلع سحر السحرة فاى عجب لو صار القلب بمدد النظر الالهى بحيث يبتلع سحر النفس الامارة بالسوء (وثالثها) كانت العصا فى يمين موسى عليه السلام فبسبب بركة يمينه انقلبت ثعبانا وبرهانا وقلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن فاذا حصلت ليمين موسى عليه السلام هذه الكرامة والبركة فأى عجب لو انقلب قلب المؤمن بسبب اصبعى الرحمن من ظلمة المعصية الى نور العبودية (ثم ههنا سؤالات) * الاول قوله وما تلك بيمينك يا موسى سؤال والسؤال انما يكون لطلب العلم وهو على الله تعالى محال فما الفائدة فيه * والجواب فيه فوائد (احداها) ان من أراد أن يظهر من الشئ الحقير شيأ شريفا فانه يأخذه ويعرضه على الحاضرين ويقول لهم هذا ما هو فيقولون هذا هو الشئ الفلانى ثم انه بعد اظهار صفته الفائقة فيه يقول لهم خذوا منه كذا وكذا فالله تعالى

الكلام في هذا الباب ونفوض الامر الى تأمل أولى الالباب والله عنده علم الكتاب (ونادى نوح ربه) أى أراد ذلك بدليل الفاء فى قوله تعالى (فقال رب ان ابنى من أهلى) وقد وعدتنى انجاءهم فى ضمن الامر بحملهم فى الفلك أو النداء على الحقيقة والفاء لتفصيل ما فيه من الاجمال (وان وعدك الحق) أى وعدك ذلك أو ان كل وعد تعده حق لا يتطرق اليه خلف فيدخل فيه الوعد المعهود دخولا أوليا (وأنت أحكم الحاكمين) لانك أعلمهم وأعدلهم أو أنت أكثر حكمة من ذوى الحكم على ان الحاكم من الحكمة كالدارع من الدرع وهذا الدعاء منه عليه الصلاة والسلام على طريقة دعاء أيوب عليه الصلاة والسلام اذ نادى ربه انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين (قال يانوح) لما كان دعاؤه عليه الصلاة والسلام تذكير وعده جل ذكره مبنيا على كون كنعان من أهله نفى أولا كونه منهم بقوله تعالى (انه ليس من أهلك) أى ليس منهم أصلا لان مدار الاهلية هو القرابة الدينية ولا علاقة بين المؤمن والكافر أو ليس من أهلك الذين أمرتك بحملهم فى الفلك لخروجه عنهم بالاستثناء وعلى التقديرين ليس هو من الذين وعد بانجائهم ثم علل عدم كونه منهم على طريقة الاستئناف التحقيقى بقوله تعالى (انه عمل غير صالح) أصله انه ذو عمل غير صالح فجعل نفس العمل مبالغة كما فى قول الخنساء * فانما هى اقبال وادبار * وايثار غير صالح على فاسد اما لان الفاسد ربما يطلق على ما فسد ومن شأنه الصلاح فلا يكون نصا فيما هو من قبيل الفاسد المحض كالقتل والمظالم واما للتلويح بان نجاة من نجا انما هى لصلاحه وقرأ الكسائى ويعقوب انه عمل غير صالح أى عملا غير صالح ولما كان دعاؤه عليه الصلاة والسلام مبنيا على ما ذكر من اعتقاد كون كنعان من أهله وقد نفى ذلك

لما أراد أن يظهر من العصا تلك الآيات الشريفة كانقلابها حية وكضربه البحر حتى انفلق وفى الحجر حتى انفجر منه الماء عرضه أولا على موسى فكأنه قال له ياموسى هل تعرف حقيقة هذا الذى بيدك وانه خشبة لا تضر ولا تنفع ثم انه قلبه ثعبانا عظيما فيكون بهذا الطريق قد نبه العقول على كمال قدرته ونهاية عظمته من حيث انه أظهر هذه الآيات العظيمة من أهون الاشياء عنده فهذا هو الفائدة من قوله وما تلك بيمينك ياموسى (وثانيها) انه سبحانه لما أطلعه على تلك الانوار المتصاعدة من الشجرة الى السماء وأسمعه تسبيح الملائكة ثم أسمعه كلام نفسه ثم انه مزج اللطف بالقهر فلاطفه أولا بقوله وأنا اخترتك ثم قهره بايراد التكاليف الشاقة عليه والزامه علم المبدا والوسط والمعاد ثم ختم كل ذلك بالتهديد العظيم تحير موسى ودهش وكاد لا يعرف اليمين من الشمال فقيل له وما تلك بيمينك ياموسى ليعرف موسى عليه السلام ان يمينه هى التى فيها العصا أولانه لما تكلم معه أولا بكلام الالهية وتحير موسى من الدهشة تكلم معه بكلام البشر ازالة لتلك الدهشة والحيرة والنكتة فيه انه لما غلبت الدهشة على موسى فى الحضرة أراد رب العزة ازالتها فسأله عن العصا وهو أمر لا يقع الغلط فيه كذلك المؤمن اذا مات ووصل الى حضرة ذى الجلال فالدهشة تغلبه والحياء يمنعه عن الكلام فيسألونه عن الامر الذى لم يغلط فيه فى الدنيا وهو التوحيد فاذا ذكره زالت الدهشة والوحشة عنه (وثالثها) انه تعالى لما عرف موسى كمال الالهية أراد أن يعرفه نقصان البشرية فسأله عن منافع العصا فذكر بعضها فعرفه الله تعالى ان فيها منافع أعظم مما ذكر تنبيها على ان العقول قاصرة عن معرفة صفات الشئ الحاضر فلولا التوفيق والعصمة كيف يمكنهم الوصول الى معرفة أجل الاشياء وأعظمها (ورابعها) فائدة هذا السؤال أن يقرر عنده انه خشبة حتى اذا قلبها ثعبانا لا يخافها (السؤال الثانى) قوله وما تلك بيمينك ياموسى خطاب من الله تعالى مع موسى عليه السلام بلا واسطة ولم يحصل ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم فيلزم أن يكون موسى أفضل من محمد (الجواب) من وجهين (الاول) انه تعالى كما خاطب موسى فقد خاطب محمدا عليه السلام فى قوله فأوحى الى عبده ما أوحى الا أن الفرق بينهما ان الذى ذكره مع موسى عليه السلام أفشاه الى الخلق والذى ذكره مع محمد صلى الله عليه وسلم كان سرا لم يستأهل له أحد من الخلق (والثانى) ان كان موسى تكلم معه وهو مع موسى فأمة محمد صلى الله عليه وسلم يخاطبون الله فى كل يوم مرات على ما قال صلى الله عليه وسلم المصلى يناجى ربه والرب يتكلم مع آحاد أمة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة بالتسليم والتكريم والتكلم فى قوله سلام قولا من رب رحيم (السؤال الثالث) ما اعراب قوله وما تلك بيمينك ياموسى * الجواب قال صاحب الكشاف تلك بيمينك كقوله وهذا بعلى شيخا فى انتصاب الحال بمعنى الاشارة ويجوز أن يكون تلك اسما موصولا وصلته بيمينك قال الزجاج معناه وما التى بيمينك قال الفراء معناه ما هذه التى فى يمينك واعلم انه سبحانه لما سأل موسى عليه السلام عن ذلك أجاب موسى عليه السلام بأربعة أشياء ثلاثة على التفصيل وواحد على الاجمال (الاول) قوله هى عصاى قرأ ابن أبى اسحق هى عصى ومثله يابشرى وقرأ الحسن هى عصاى بسكون الياء والنكت ههنا ثلاثة (أحدها) أنه قال هى عصاى فذكر العصا ومن كان قلبه مشغولا بالعصا ومنافعها كيف يكون مستغرقا فى بحر معرفة الحق ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم عرض عليه الجنة والنار فلم يلتفت الى شئ ما زاغ البصر وما طغى ولما قيل له امدحنا قال لا أحصى ثناء عليك ثم نسى نفسه ونسى ثناءه فقال أنت كما أثنيت على نفسك (وثانيها) لما قال عصاى قال الله سبحانه وتعالى ألقها فلما ألقاها فاذا هى حية تسعى ليعرف ان كل ما سوى الله فالالتفات اليه شاغل وهو كالحية المهلكة لك ولهذا قال الخليل عليه السلام فانهم

وحقق ببيان علته فرع على ذلك النهي عن سؤال انجائه الا أنه جيء بالنهي على وجه عام يندرج فيه ذلك اندراجا أوليا فقيل (فلا تسألني) أي اذا وقفت على جلية الحال فلا تطلب مني (ما ليس لك به علم) أي مطلبا لا تعلم يقينا أن حصوله صواب وموافق للحكمة على تقدير كون ما عبارة عن المسؤل الذي هو مفعول ٢٠ للسؤال أو طلبا لا تعلم أنه صواب على تقدير كونه عبارة عن المصدر الذي هو مفعول مطلق فيكون النهي واردا بصريحه في كل من معلوم الفساد ومشتبه الحال ويجوز أن يكون المعنى ما ليس لك علم بأنه صواب أو غير صواب فيكون النهي واردا في مشتبه الحال ويفهم منه حال معلوم الفساد بالطريق الاولى وعلى التقديرين فهو عام يندرج تحته ما نحن فيه كما ذكرناه وهذا كما ترى صريح في أن نداءه عليه الصلاة والسلام ربه عز وعلا ليس استفسارا عن سبب عدم انجاء ابنه مع سبق وعده بانجاء أهله وهو منهم كما قيل فان النهي عن استفسار ما لم يعلم غير موافق للحكمة اذ عدم العلم بالشيء داع الى الاستفسار عنه لا الى تركه بل هو دعاء منه لانجاء ابنه حين حال الموج بينهما ولم يعلم بهلاكه بعد اما بتقريبه الى الفلك بتلاطم الامواج أو بتقريبها اليه وقيل أو بانجائه في قلة الجبل وبأباه تذكير الوعد في الدعاء فانه مخصوص بالانجاء في الفلك وقوله تعالى لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم وبمجرد حيلولة الموج بينهما لا يستوجب هلاكه فضلا عن العلم به لظهور امكان عصمة الله آلة

تعالى اياه برحمته وقد وعد بانجاء أهله ولم يكن ابنه مجاهرا بالكفر كما ذكرناه حتى لا يجوز عليه عليه السلام أن يدعوه الى الفلك أو يدعو ربه لانجائه واعتزاله عنه عليه الصلاة والسلام وقصده الالتجاء الى الجبل ليس بنص في الاصرار على الكفر لظهور جواز أن يكون ذلك لجهله

عد ولي الا رب العالمين وفي الحديث يجاء يوم القيامة بصاحب المال الذي لم يؤد زكاته ويؤتى بذلك المال على صورة شجاع أقرع الحديث بتمامه (وثالثها) أنه قال هي عصاي فقد تم الجواب الا أنه عليه السلام ذكر الوجوه الاخر لانه كان يحب المكالمة مع ربه فجعل ذلك كالوسيلة الى تحصيل هذا الغرض (الثاني) قوله أتوكأ عليها والتوكي والاتكاء واحد كالتوقي والاتقاء ومعناه أعتمد عليها اذا أعييت أو وقفت على رأس القطيع أو عند الطفرة فجعل موسى عليه السلام نفسه متوكئا على العصا وقال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم اتكئ على رحمتي بقوله تعالى يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين وقال والله يعصمك من الناس فان قيل أليس قوله ومن اتبعك من المؤمنين يقتضي كون محمد يتوكأ على المؤمنين قلنا قوله ومن اتبعك من المؤمنين معطوف على الكاف في قوله حسبك الله والمعنى الله حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين (الثالث) قوله وأهش بها على غنمي أي أخبط بها فأضرب أغصان الشجر ليسقط ورقها على غنمي فتأكله وقال أهل اللغة هش على غنمه يهش بضم الهاء في المستقبل وهششت الرجل أهش بفتح الهاء في المستقبل وهش الرغيف يهش بكسر الهاء قاله ثعلب وقرأ عكرمة وأهس بالسين غير المنقوطة والهس زجر الغنم واعلم ان غنمه رعيته فبدأ بمصالح نفسه في قوله أتوكأ عليها ثم بمصالح رعيته في قوله وأهش بها على غنمي فكذلك في القيامة يبدأ بنفسه فيقول نفسي نفسي ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يشتغل في الدنيا الا باصلاح أمر الامة وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون فلا جرم يوم القيامة يبدأ أيضا بامته فيقول أمتي أمتي (والرابع) قوله ولي فيها مآرب أخرى أي حوائج ومنافع واحدتها مأربة بفتح الراء وضمها وحكى ابن الاعرابي وقطرب بكسر الراء أيضا والارب بفتح الراء والاربة بكسر الالف وسكون الراء الحاجة وانما قال أخرى لان المآرب في معنى جماعة فكأنه قال جماعة من الحاجات أخرى ولو جاءت أخر لكان صوابا كما قال فعدة من أيام أخر ثم ههنا نكت (احداها) انه لما سمع قول الله تعالى وما تلك بيمينك عرف ان لله فيه أسرارا عظيمة فذكر ما عرف وعبر عن البواقي التي ما عرفها اجمالا لا تفصيلا بقوله ولي فيها مآرب أخرى (وثانيها) ان موسى عليه السلام أحس بانه تعالى انما سأله عن أمر العصا لمنافع عظيمة فقال موسى الهي ما هذه العصا الا كغيرها لكنك لما سألت عنها عرفت أن لي فيها مآرب أخرى ومن جملتها أنك كلمتني بسببها فوجدت هذا الامر العظيم الشريف بسببها (وثالثها) ان موسى عليه السلام أجمل رجاء أن يسأله ربه عن تلك المآرب فيسمع كلام الله مرة أخرى ويطول أمر المكالمة بسبب ذلك (ورابعها) انه بسبب اللطف انطلق لسانه ثم غلبته الدهشة فانقطع لسانه وتشوش فكره فأجمل مرة أخرى ثم قال وهب كانت ذات شعبتين كالمحجن فاذا طال الغصن حناه بالمحجن واذا حاول كسره لواه بالشعبتين واذا سار وضعها على عاتقه يعلق فيها أدواته من القوس والكنانة والثياب واذا كان في البرية ركزها وألقى كساءه عليها فكانت ظلا وقيل كان فيها من المعجزات أنه كان يستقي بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلوا وتصيران شمعتين في الليالي واذا ظهر عدو حاربت عنه واذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت وكان يحمل عليها زاده وماءه وكانت تماشيه ويركزها فينبع الماء فاذا رفعها نضب وكانت تقيه الهوام واعلم ان موسى عليه السلام لما ذكر هذه الجوابات أمره الله تعالى بالقاء العصا فقال ألقها يا موسى وفيه نكت (احداها) انه عليه السلام لما قال ولي فيها مآرب أخرى أراد الله أن يعرفه أن فيها مأربة أخرى لا يفطن لها ولا يعرفها وانها أعظم من سائر مآربه فقال ألقها يا موسى فألقاها فاذا هي حية تسعى (وثانيتها) كان في رجله شيء وهو النعل وفي يده شيء وهو العصا والرجل آلة الهرب واليد

آلة الطلب فقال أولا اخلع نعليك اشارة الى ترك الهرب ثم قال ألقها يا موسى وهو اشارة الى ترك الطلب كأنه سبحانه قال انك مادمت في مقام الهرب والطلب كنت مشتغلا بنفسك وطالبا لحظك فلا تكون خالصا لمعرفتي فكن تاركا للهرب والطلب لتكون خالصا لي (وثالثها) أن موسى عليه السلام مع علو درجته وكمال منقبته لما وصل الى الحضرة ولم يكن معه الا النعلان والعصا أمره بالقائهما حتى أمكنه الوصول الى الحضرة فأنت مع ألف وقر من المعاصي كيف يمكنك الوصول الى جنابه (ورابعها) أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان مجردا عن الكل ما زاغ البصر فلا جرم وجد الكل لعمرك أما موسى لما بقي معه تلك العصا لا جرم أمره بالقاء العصا واعلم ان الكعبي تمسك به في أن الاستطاعة قبل الفعل فقال القدرة على القاء العصا اما أن توجد والعصا في يده أو خارجة من يده فان أتته القدرة وهي في يده فذاك قولنا وان الله ليس بظلام للعبيد واذا أتته وليست في يده وانما استطاع أن يلقي من يده ما ليس في يده فذلك محال أما قوله فألقاها فاذا هي حية تسعى ففيه أسئلة (السؤال الاول) ما الحكمة في قلب العصا حية في ذلك الوقت * الجواب فيه وجوه (أحدها) انه تعالى قلبها حية لتكون معجزة لموسى عليه السلام يعرف بها نبوة نفسه وذلك لانه عليه السلام الى هذا الوقت ما سمع الا النداء والنداء وان كان مخالفا للعادات الا أنه لم يكن معجزا لاحتمال أن يكون ذلك من عادات الملائكة أو الجن فلا جرم قلب الله العصا حية ليصير ذلك دليلا قاهرا والعجب أن موسى عليه السلام قال أتوكأ عليها فصدقه الله تعالى فيه وجعلها متكأ له بأن جعلها معجزة له (وثانيها) ان النداء كان اكراما له فقلب العصا حية مزيدا في الكرامة ليكون توالي الخلع والكرامات سببا لزوال الوحشة عن قلبه (وثالثها) أنه عرض عليه ليشاهده أولا فاذا شاهده عند فرعون لا يخافه (ورابعها) أنه كان راعيا فقيرا ثم انه نصب للمنصب العظيم فلعله بقي في قلبه تعجب من ذلك فقلب العصا حية تنبيها على اني لما قدرت على ذلك فكيف يستبعد مني نصرة مثلك في اظهار الدين (وخامسها) أنه لما قال هي عصاي أتوكأ عليها الى قوله ولي فيها مآرب أخرى فقيل له ألقها فلما ألقاها وصارت حية فر موسى عليه السلام منها فكأنه قيل له ادعيت أنها عصاك وأن لك فيها مآرب أخرى فلم تفر منها تنبيها على سر قوله ففروا الى الله وقوله قل الله ثم ذرهم (السؤال الثاني) قال ههنا حية وفي موضع آخر ثعبان وجان أما الحية فاسم جنس يقع على الذكر والانثى والصغير والكبير وأما الثعبان والجان فبينهما تناف لان الثعبان العظيم من الحيات والجان الدقيق وفيه وجهان (أحدهما) أنها كانت وقت انقلابها حية صغيرة دقيقة ثم تورمت وتزايد جرمها حتى صارت ثعبانا فأريد بالجان أول حالها وبالثعبان مآلها (والثاني) انها كانت في شخص الثعبان وسرعة حركة الجان والدليل عليه قوله تعالى فلما رآها تهتز كأنها جان (السؤال الثالث) كيف كانت صفة الحية * الجواب كان لها عرف كعرف الفرس وكان بين لحييها أربعون ذراعا وابتلعت كل ما مرت به من الصخور والاشجار حتى سمع موسى صرير الحجر في فمها وجوفها أما قوله تعالى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الاولى ففيه سؤالات (السؤال الاول) لما نودي موسى وخص بتلك الكرامات العظيمة وعلم أنه مبعوث من عند الله تعالى الى الخلق فلم خاف (والجواب) من وجوه (أحدها) ان ذلك الخوف كان من نفرة الطبع لانه عليه السلام ما شاهد مثل ذلك قط وأيضا فهذه الاشياء معلومة بدلائل العقول وعند الفزع الشديد قد يذهل الانسان عنه قال الشيخ أبو القاسم الانصاري رحمه الله تعالى وذلك الخوف من أقوى الدلائل على صدقه في النبوة لان الساحر يعلم أن الذي أتى به تمويه فلا يخافه البتة (وثانيها) قال بعضهم خافها لانه عليه السلام عرف ما لقي آدم منها (وثالثها) ان مجرد قوله

بانحصار النجاة في الفلك وزعمه أن الجبل أيضا يجري مجراه أو لكراهة الاحتباس في الفلك بل قوله سآوي الى جبل يعصمني من الماء بعدما قال له نوح عليه الصلاة والسلام ولا تكن مع الكافرين ربما يطمعه عليه السلام في ايمانه حيث لم يقل أكون معهم أو سنأوي أو يدعو معنا فان افراد نفسه بنسبة الغاوين المذكورين ربما يشعر بانفراده ٢١ من الكافرين واعتزاله عنهم وامتثاله بعض ما أمره به نوح عليه الصلاة والسلام الا أنه عليه الصلاة والسلام لو تأمل في شأنه حق التأمل وتفحص عن أحواله في كل ما يأتي ويذر لما اشتبه عليه أنه ليس بمؤمن وأنه المستثنى من أهله ولذلك قيل (اني أعظك أن تكون من الجاهلين) فعبر عن ترك الاولى بذلك وقرئ فلا تسألن بغير ياء الاضافة وبالنون الثقيلة بياء وبغير ياء (قال رب اني أعوذ بك أن أسألك) أي أطلب منك من بعد (ما ليس لي به علم) أي مطلوبا لا أعلم أن حصوله مقتضى الحكمة أو طلبا لا أعلم أنه صواب سواء كان معلوم الفساد أو مشتبه الحال أو لا أعلم أنه صواب أو غير صواب على ما مر وهذه توبة منه عليه السلام مما وقع منه وانما لم يقل أعوذ بك منه أو من ذلك مبالغة في التوبة واظهارا للرغبة والنشاط فيها وتبركا بذكر ما لقنه الله تعالى وهو أبلغ من أن يقول أتوب اليك أن أسألك لما فيه من الدلالة على كون ذلك أمرا هائلا محذورا لا محيص منه الا بالعوذ بالله تعالى وأن قدرته قاصرة عن النجاة من المكاره الا بذلك (والا تغفر لي) ما صدر عني من السؤال المذكور (وترحمني) بقبول توبتي (أكن من الخاسرين) أعمالا بسبب ذلك فان الذهول عن شكر الله تعالى لا سيما عند وصول مثل هذه النعمة الجليلة التي هي النجاة وهلاك الاعداء والاشتغال بما لا يعني خصوصا بمبادي خلاص من قيل في شأنه انه عمل غير صالح والتضرع

لا تخف لا يدل على حصول الخوف كقوله تعالى ولا تطع الكافرين لا يدل على وجود تلك الطاعة لكن قوله فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا يدل عليه ولكن ذلك الخوف انما ظهر ليظهر الفرق بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم فانه عليه السلام أظهر تعلق القلب بالعصا والنفرة عن الثعبان وأما محمد عليه السلام فما أظهر الرغبة فى الجنة ولا النفرة عن النار ﴿السؤال الثانى﴾ متى أخذها بعد انقلابها عصا أو قبل ذلك (والجواب) روى أنه أدخل يده بين اسنانها فانقلبت خشبة والقرآن يدل عليه أيضا بقوله سنعيدها سيرتها الاولى وذلك يقع فى الاستقبال وأيضا فهذا أقرب للكرامة لانه كما أن انقلاب العصا حية معجزة فكذلك ادخال يده فى فمها من غير ضرر معجزة وانقلابها خشبا معجزا آخر فيكون فيه توالى المعجزات فيكون أقوى فى الدلالة ﴿السؤال الثالث﴾ كيف أخذه أمع الخوف أو بدونه (والجواب) روى مع الخوف ولكنه بعيد لان بعد توالى الدلائل بعد ذلك واذا علم موسى عليه السلام أنه تعالى عند الاخذ سيعيدها سيرتها الاولى فكيف يستمر خوفه وقد علم صدق هذا القول وقال بعضهم لما قال له ربه لا تخف بلغ من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه الى أن أدخل يده فى فمها وأخذ بلحييها ﴿السؤال الرابع﴾ ما معنى سيرتها الاولى (والجواب) قال صاحب الكشاف السيرة من السير كالركبة من الركوب يقال سار فلان سيرة حسنة ثم اتسع فيها فنقلت الى معنى المذهب والطريقة ﴿السؤال الخامس﴾ علام انتصب سيرتها (الجواب) فيه وجهان (أحدهما) بنزع الخافض يعنى الى سيرتها (وثانيهما) أن يكون سنعيدها مستقلا بنفسه غير متعلق بسيرتها بمعنى انها كانت أولا عصا فصارت حية فسنجعلها عصا كما كانت فنصب سيرتها بفعل مضمر أى تسير سيرتها الاولى يعنى سنعيدها سائرة بسيرتها الاولى حيث كنت تتوكأ عليها ولك فيها المآرب التى عرفتها ۞ قوله تعالى ﴿واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى لنريك من آياتنا الكبرى اذهب الى فرعون انه طغى﴾ اعلم أن هذا هو المعجزة الثانية وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ يقال لكل ناحيتين جناحان كجناحى العسكر لطرفيه وجناحا الانسان جنباه والاصل المستعار منه جناحا الطائر لانه يجنحهما عند الطيران وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما الى جناحك الى صدرك والاول أولى لان يدى الانسان يشبهان بجناحى الطائر لانه قال تخرج بيضاء ولو كان المراد بالجناح الصدر لم يكن لقوله تخرج معنى ٭ واعلم ان معنى ضم اليد الى الجناح ما قال فى آية أخرى وأدخل يدك فى جيبك لانه اذا أدخل يده فى جيبه كان قد ضم يده الى جناحه والله أعلم ﴿المسئلة الثانية﴾ السوء الرداءة والقبح فى كل شئ فكنى به عن البرص كما كنى عن العورة بالسوأة والبرص أبغض شئ الى العرب فكان جديرا أن يكنى عنه يروى أنه عليه السلام كان شديد الادمة فكان اذا أدخل يده اليمنى فى جيبه وأدخلها تحت ابطه الايسر وأخرجها كانت تبرق مثل البرق وقيل مثل الشمس من غير برص ثم اذا ردها عادت الى لونها الاول بلا نور ﴿المسئلة الثالثة﴾ بيضاء وآية حالان معا ومن غير سوء من صلة البيضاء كما تقول ابيضت من غير سوء وفى نصب آية وجه آخر وهو أن يكون باضمار نحو خذ ودونك وما أشبه ذلك حذف لدلالة الكلام وقد تعلق بهذا المحذوف لنريك أى خذ هذه الآية أيضا بعد قلب العصا لنريك بهاتين الآيتين بعض آياتنا الكبرى أو لنريك بهما الكبرى من آياتنا أو لنريك من آياتنا الكبرى فعلنا ذلك فان قيل الكبرى من نعت الآيات فلم يقل الكبر قلنا بل هى نعت الآية والمعنى لنريك الآية الكبرى ولئن سلمنا ذلك فهو كما قدمنا فى قوله مآرب أخرى والاسماء الحسنى ﴿المسئلة الرابعة﴾ قال الحسن اليد أعظم فى الاعجاز من العصا لانه تعالى ذكر لنريك من آياتنا الكبرى عقيب ذكر اليد وهذا ضعيف لانه ليس فى اليد الا تغير اللون وأما العصا ففيه تغير اللون

الى الله تعالى فى أمر منام لتغير رابحة وخسران مبين وتأخير ذكر هذا النداء عن حكاية الامر الوارد على الارض والسماء وما يتلوه من زوال الطوفان وقضاء الامر واستواء الفلك على الجودى والدعاء بالهلاك على الظالمين مع أن حقه أن يذكر عقيب قوله تعالى فكان من المغرقين حسبما وقع فى الخارج اذ حينئذ يتصور الدعاء بالانجاء لا بعد العلم بالهلاك ليس لما قيل من استقلاله بغرض مهم هو جعل قرابة الدين غامرة لقرابة النسب وأن لا يقدم فى الامور الدينية الاصولية الا بعد اليقين قياسا على ما وقع فى قصة البقرة من تقديم ذكر الامر بذبحها على ذكر القتيل الذى هو أول القصة وكان حقها أن يقال واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة فاضربوه ببعضها كما قرر فى موضعه فان تغيير الترتيب هنالك للدلالة على كمال سوء حال اليهود بتعديد جناياتهم المتنوعة وتثنية التقريع عليهم بكل نوع على حدة فقوله تعالى واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة الخ لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة الى الامتثال وما يتبع ذلك وقوله تعالى واذ قتلتم نفسا الخ للتقريع على قتل النفس المحرمة وما يتبعه من الامور العظيمة ولو قصت القصة على ترتيبها لفات الغرض الذى هو تثنية التقريع وأظن أن المجموع تقريع واحد وأما ما نحن فيه فليس مما يمكن أن يراعى فيه مثل تلك النكتة أصلا وما ذكر من جعل القرابة الدينية غامرة للقرابة النسبية الخ لا يفوت على تقدير سوق الكلام على ترتيب الوقوع أيضا بل لان ذكر هذا النداء كما ترى مستتبع لذكر ما مر من الجواب المستتبع لذكر ما مر من توبته عليه الصلاة والسلام المؤدى ذكرها الى ذكر قبولها فى ضمن الامر الوارد بنزوله عليه الصلاة والسلام من الفلك بالسلام والبركات الفائضة عليه وخلق

وخلق الزيادة في الجسم وخلق الحياة والقدرة والاعضاء المختلفة وابتلاع الحجر والشجر ثم عاد عصا بعد ذلك فقد وقع التغير مرة أخرى في كل هذه الامور فكانت العصا أعظم وأما قوله لنريك من آياتنا الكبرى فقد بينا انه عائد الى الكل وانه غير مختص باليد ﴿المسئلة الخامسة﴾ انه سبحانه وتعالى لما أظهر له هذه الآية عقبها بأن أمره بالذهاب الى فرعون وبين العلة في ذلك وهي أنه طغى وانما خص فرعون بالذكر مع ان موسى عليه السلام كان مبعوثا الى الكل لانه ادعى الالهية وتكبر وكان متبوعا فكان ذكره أولى قال وهب قال الله تعالى لموسى عليه السلام اسمع كلامي واحفظ وصيتي وانطلق برسالتي فانك بعيني وسمعي وان معك يدي وبصري واني ألبستك جنة من سلطاني لتستكمل بها القوة في أمري أبعثك الى خلق ضعيف من خلقي بطر نعمتي وأمن مكري وغرته الدنيا حتى جحد حقي وأنكر ربوبيتي واني أقسم بعزتي لولا الحجة والعذر الذي وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار ولكن هان علي وسقط من عيني فبلغه عني رسالتي وادعه الى عبادتي وحذره نقمتي وقل له قولا لينا لا يغتر بلباس الدنيا فان ناصيته بيدي لا يطرف ولا يتنفس الا بعلمي في كلام طويل قال فسكت موسى سبعة أيام لا يتكلم ثم جاءه ملك فقال أجب ربك فيما أمرك به ﴿قوله تعالى﴾ ﴿قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيرا من أهلي هرون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا انك كنت بنا بصيرا﴾ اعلم أن الله تعالى لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب الى فرعون وكان ذلك تكليفا شاقا فلا جرم سأل ربه أمورا ثمانية ثم ختمها بما يجري مجرى العلة لسؤال تلك الاشياء ﴿المطلوب الاول﴾ قوله رب اشرح لي صدري * واعلم أنه يقال شرحت الكلام أي بينته وشرحت صدره أي وسعته والاول يقرب منه لان شرح الكلام لا يحصل الا ببسطه والسبب في هذا السؤال ما حكى الله تعالى عنه في موضع آخر وهو قوله ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فسأل الله تعالى أن يبدل ذلك الضيق بالسعة وقال رب اشرح لي صدري فافهم عنك ما أنزلت علي من الوحي وقيل شجعني لاجترئ به على مخاطبة فرعون ثم الكلام فيه يتعلق بامور (أحدها) فائدة الدعاء وشرائطه (وثانيها) ما السبب في أن الانسان لا يذكر وقت الدعاء من أسماء الله تعالى الا الرب (وثالثها) ما معنى شرح الصدر (ورابعها) بماذا يكون شرح الصدر (وخامسها) كيف كان شرح الصدر في حق موسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم (وسادسها) صفة صدر موسى عليه السلام هل كان منشرحا أو لم يكن منشرحا فان كان منشرحا كان طلب شرح الصدر تحصيلا للحاصل وهو محال وان لم يكن منشرحا فهو باطل من وجهين (الاول) انه سبحانه بين له فيما تقدم كل ما يتعلق بالاديان من معرفة الربوبية والعبودية وأحوال المعاد وكل ما يتعلق بشرح الصدر في باب الدين فقد حصل ثم انه سبحانه تلطف له بقوله وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ثم كلمه على سبيل الملاطفة بقوله وما تلك بيمينك يا موسى ثم أظهر له المعجزات العظيمة والكرامات الجسيمة ثم أعطاه منصب الرسالة بعد ان كان فقيرا وكل ما يتعلق به الاعزاز والاكرام فقد حصل ولو أن ذرة من هذه المناصب حصلت لادون الناس لصار منشرح الصدر فبعد حصولها للكليم الله تعالى يستحيل أن لا يصير منشرح الصدر (والثاني) انه لما لم يصر منشرح الصدر بعد هذه الاشياء لم يجز من الله تعالى تفويض النبوة اليه فان من كان ضيق القلب مشوش الخاطر لا يصلح للقضاء على ما قال عليه السلام لا يقضي القاضي وهو غضبان فكيف يصلح للنبوة التي أقل مراتبها القضاء فهذا مجموع الامور التي لا بد من البحث عنها في هذه الآية ﴿أما البحث الاول﴾ وهو فائدة الدعاء وشرائطه فقد تقدم في تفسير قوله ربنا

وعلى المؤمنين حسبما سيجيء مفصلا ولا ريب في أن هذه المعاني آخذ بعضها بحجزة بعض بحيث لا يكاد يفرق في الآيات الكريمة المنطوية عليها بعضها من بعض وان ذلك انما يتم بتمام القصة ولا ريب أن ذلك انما يكون بتمام الطوفان فلا جرم اقتضى الحال ذكر تمامها قبل هذا النداء وذلك انما يكون عند ذكر كون كنعان من المغرقين ولهذه النكتة ازداد حسن موقع الايجاز البليغ وفيه فائدة أخرى هي التصريح بهلاكه من أول الامر ولو ذكر النداء الثاني عقيب قوله تعالى فكان من المغرقين لربما توهم من أول الامر الى أن يرد قوله انه ليس من أهلك أنه ينجو بدعائه عليه الصلاة والسلام فنص على هلاكه من أول الامر ثم ذكر الامر الوارد على الارض والسماء الذي هو عبارة عن تعلق الارادة الربانية الازلية بما ذكر من الغيض والاقلاع وبين بلوغ أمر الله محله وجريان قضائه ونفوذ حكمه عليهم بهلاك من هلك ونجاة من نجا بتمام ذلك الطوفان واستواء الفلك على الجودي فقصت القصة الى هذه المرتبة وبين ذلك أي بيان ثم تعرض لما وقع في تضاعيف ذلك مما جرى بين نوح عليه السلام وبين رب العزة جلت حكمته فذكر بعد توبته عليه الصلاة والسلام قبولها بقوله (قيل يا نوح اهبط) أي انزل من الفلك وقرئ بضم الباء (بسلام) ملتبسا بسلامة من المكاره كائنة (منا) أو بسلام وتحية منا عليك كما قال سلام على نوح في العالمين (وبركات عليك) أي خيرات نامية في نسلك وما يقوم به معاشك ومعاشهم من أنواع الارزاق وقرئ بركة وهذا اعلام وبشارة من الله تعالى بقبول توبته وخلاصه من الخسران بفيضان أنواع الخيرات عليه في كل ما يأتي وما يذر (وعلى أمم) ناشئة (ممن معك) الى يوم القيامة متشعبة منها فمن ابتدائية والمراد الامم المؤمنة المتناسلة ممن معه الى يوم القيامة

(وأمم سنمتعهم) أي ومنهم أمم على أنه خبر حذف لدلالة ما سبق عليه فان ايراد الامم المبارك عليهم المتشعبة منهم نكرة يدل على ان بعض من يتشعب منهم ليسوا على صفتهم يعني ليس جميع من تشعب منهم مسلما ومباركا عليه بل منهم أمم ممتعون في الدنيا معذبون في الآخرة وعلى هذا لا يكون الكائنون مع نوح عليه السلام مسلما ومباركا عليهم صريحا وانما يفهم ذلك من كونهم مع نوح عليه الصلاة والسلام ومن كون ذرياتهم كذلك بدلالة النص ويجوز ان تكون من بيانية أي وعلى أمم هم الذين معك وانما سموا أمما لانهم أمم متحزبة وجماعات متفرقة أولان جميع الامم انما تشعبت منهم فحينئذ يكون المراد بالامم المشار اليهم في قوله تعالى وأمم سنمتعهم بعض الامم المتشعبة منهم وهي الامم الكافرة المتناسلة الى يوم القيامة ويبقى أمر الامم المؤمنة الناشئة منهم مبهما غير متعرض له ولا مدلول عليه ومع ذلك ففي دلالة المذكور على خبره المحذوف خفاء لان من المذكورة بيانية والمحذوفة تبعيضية أو ابتدائية فتأمل (ثم يمسهم) اما في الآخرة أو في الدنيا أيضا (منا عذاب أليم) عن محمد بن كعب القرظي دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر وعن ابن زيد هبطوا والله عنهم راض ثم أخرج منهم نسلا منهم من رحم ومنهم من عذب وقيل المراد بالامم الممتعة قوم هود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام وبالعذاب ما نزل بهم (تلك) الى

اشارة الى ما قص من قصة نوح عليه الصلاة والسلام اما لكونها بتقضيها في حكم البعيد أو للدلالة على بعد منزلتها وهي مبتدأ خبره (من أنباء الغيب) أي من جنسها أي ليست من قبيل سائر الانباء بل هي نسيج وحدها منفردة عما عداها أو بعضها (نوحيها اليك) خبر ثان

لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا الا أنه يذكر منها ههنا بعض الفوائد المتعلقة بهذا الموضع فنقول * اعلم أن للكمال مراتب ودرجات وأعلاها أن يكون كاملا في ذاته مكملا لغيره أما كونه كاملا في ذاته فكل ما كان كذلك كان كماله من لوازم ذاته وكل ما كان كذلك كان كاملا في الازل ولكنه يستحيل أن يكون مكملا في الازل لان التكميل عبارة عن جعل الشئ كاملا وذلك لا يتحقق الا عند عدم الكمال فانه لو كان حاصلا في الازل لاستحال التأثير فيه فان تحصيل الحاصل محال وتكوين الكائن ممتنع فلا جرم انه سبحانه وان كان كاملا في الازل الا أنه يصير مكملا فيما لا يزال * فان قيل اذا كان التكميل من صفات الكمال فحيث لم يكن مكملا في الازل فقد كان عاريا عن صفات الكمال فيكون ناقصا وهو محال * قلنا النقصان انما يلزم لو كان ذلك ممكنا في الازل لكنا بينا ان الفعل الازلي محال فالتكميل الازلي محال فعدمه لا يكون نقصانا كما أن قولنا انه لا يقدر على تكوين مثل نفسه لا يكون نقصانا الا انه غير ممكن الوجود في نفسه وكقولنا انه لا يعلم عددا مفصلا كحركات أهل الجنة لان كل ماله عدد مفصل فهو متناه وحركات أهل الجنة غير متناهية فلا يكون له عدد مفصل فامتنع ذلك لا لقصور في العلم بل لكونه في نفسه ممتنع الحصول اذا ثبت هذا فنقول انه سبحانه وتعالى لما قصد الى التكوين وكان الغرض منه تكميل الناقصين لان الممكنات قابلة للوجود وصفة الوجود صفة كمال فاقتضت قدرة الله تعالى على التكميل وضع مائدة الكمال للممكنات فاجلس على هذه المائدة بعض المعدومات دون البعض لاسباب (أحدها) أن المعدومات غير متناهية فلو أجلس الكل على مائدة الوجود لدخل ما لا نهاية له في الوجود (وثانيها) انه لو أوجد الكل لما بقي بعد ذلك قادرا على الايجاد لان ايجاد الموجود محال فكان ذلك وان كان كمالا للناقص لكنه يقتضي نقصان الكامل فانه ينقلب القادر من القدرة الى العجز (وثالثها) انه لو دخل الكل في الوجود لما بقي فيه تمييز فلا يتميز القادر عن الموجب والقدرة كمال والايجاب بالطبع نقصان فلهذه الاسباب أخرج بعض الممكنات الى الوجود (فان قيل) عليه سؤالان (أحدهما) ان الموجودات متناهية والمعدومات غير متناهية ولا نسبة للمتناهي الى غير المتناهي فتكون أيضا الضيافة ضيافة للاقل وأما الحرمان فانه عدم لما لا نهاية له وهذا لا يكون جودا (الثاني) ان البعض الذي خصه بهذه الضيافة ان كان لاستحقاق حصل فيه دون غيره فذلك الاستحقاق ممن حصل وان كان لا لهذا الاستحقاق كان ذلك عبثا وهو محال كما قيل * يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما * وانه لا يليق بأكرم الاكرمين (والجواب) عن الكل ان هذه الشبهات انما تدور في العقول والخيالات لان الانسان يحاول قياس فعله على فعلنا وذلك باطل لانه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون اذا عرفت هذا فهذا الوجود الفائض من نور رحمته على جميع الممكنات هو الضيافة العامة والمائدة الشاملة وهو المراد من قوله ورحمتي وسعت كل شئ ثم ان الموجودات انقسمت الى الجمادات والى الحيوانات ولا شك أن الجماد بالنسبة الى الحيوان كالعدم بالنسبة الى الوجود لان الجماد لا خبر عنده من وجوده فوجوده بالنسبة اليه كالعدم وعدمه كالوجود وأما الحيوان فهو الذي يميز بين الموجود والمعدوم ويتفاوتان بالنسبة اليه ولان الجماد بالنسبة الى الحيوان آلة لان الحيوانات تستعمل الجمادات في اغراض أنفسها ومصالحها وهي كالعبد المطيع المسخر والحيوان كالمالك المستولي فكانت الحيوانية أفضل من الجمادية فكما ان احسان الله ورحمته اقتضيا وضع مائدة الوجود لبعض المعدومات دون البعض كذلك اقتضيا وضع مائدة الحياة لبعض الموجودات دون البعض فلا جرم جعل بعض الموجودات أحياء دون البعض والحياة بالنسبة الى الجمادية كالنور بالنسبة الى الظلمة والبصر بالنسبة الى العمى والوجود بالنسبة

والضمير لها أي موحاة اليك أو هو الخبر ومن أنبائه متعلق به فالتعبير بصيغة المضارع لاستحضار الصورة أو حال من أنباء الغيب أي موحاة اليك (ما كنت تعلمها أنت ولا قومك) خبر آخر أي مجهولة عندك وعند قومك (من قبل هذا) أي من قبل ايحائنا اليك واخبارك بها أو من قبل هذا العلم الذي كسبته بالوحي أو من قبل هذا الوقت ٢٥ أو حال من الهاء في نوحيها أو الكاف في اليك أي جاهلا أنت وقومك بها وفي ذكر جهلهم تنبيه على أنه عليه الصلاة والسلام لم يتعلمها اذ لم يخالط غيرهم وأنهم مع كثرتهم لما لم يعلموه فكيف بواحد منهم (فاصبر) متفرع على الايحاء أو العلم المستفاد منه المدلول عليه بقوله ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا أي واذ قد أوحيناها اليك أو علمتها بذلك فاصبر على مشاق تبليغ الرسالة وأذية قومك كما صبر نوح على ما سمعته من أنواع البلايا في هذه المدة المتطاولة وهذا ناظر الى ما سبق من قوله تعالى فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك الخ (ان العاقبة) بالظفر في الدنيا وبالفوز في الآخرة (للمتقين) كما شاهدته في نوح عليه الصلاة والسلام وقومه ولك فيه أسوة حسنة فهي تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعليل للأمر بالصبر فان كون العاقبة الحميدة للمتقين وهو في أقصى درجات التقوى والمؤمنون كلهم متقون مما يسليه عليه الصلاة والسلام ويهون عليه الخطوب ويذهب عنه ما عسى يعتريه من ضيق صدره وهذا على تقدير أن يراد بالتقوى الدرجة الاولى منه أعني التوقي من العذاب المخلد بالتبرؤ من الشرك وعليه قوله تعالى وألزمهم كلمة التقوى ويجوز أن يراد الدرجة الثالثة منه وهي أن يتنزه عما يشغل سره عن الحق ويتبتل اليه بشراشره وهو التقوى الحقيقي المطلوب

الى العدم فعند ذلك صار بعض الموجودات حيا مدركا للمنافي والملائم واللذة والألم والخير والشر فمن ثم قالت الأحياء عند ذلك يا رب الأرباب أناوان وجدنا خلعة الوجود وخلعة الحياة وشرفتنا بذلك لكن ازدادت الحاجة لانا حال العدم وحال الجمادية ما كنا نحتاج الى الملائم والمرافق وما كنا نخاف المنافي والمؤذي ولما حصل الوجود والحياة احتجنا الى طلب الملائم ودفع المنافي فان لم تكن لنا قدرة على الهرب والطلب والدفع والجذب لبقينا كالزمن المقعد على الطريق عرضة للآفات وهدفا لسهام البليات فأعطنا من خزائن رحمتك القدرة والقوة التي بها نتمكن من الطلب تارة والهرب أخرى فاقتضت الرحمة التامة تخصيص بعض الاحياء بالقدرة كما اقتضت تخصيص بعض الموجودات بالحياة وتخصيص بعض المعدومات بالوجود فقال القادرون عند ذلك الهنا الجواد الكريم ان الحياة والقدرة بلا عقل لا تكون الا أحد القسمين اما للمجانين المقيدين بالسلاسل والاغلال واما للبهائم المستعملة في حمل الاثقال وكل ذلك من صفات النقصان وأنت قد رقيتنا من حضيض النقصان الى أوج الكمال فأفض علينا من العقل الذي هو أشرف مخلوقاتك وأعز مبدعاتك الذي شرفته بقولك بك أهين وبك أثيب وبك أعاقب حتى نفوز من خزائن رحمتك بالخلع الكاملة والفضيلة التامة فأعطاهم العقل وبعث في أرواحهم نور البصيرة وجوهر الهداية فعند هذه الدرجة فازوا بالخلع الاربعة الوجود والحياة والقدرة والعقل و... ثم لى خاتم الكل والخاتم يجب أن يكون أفضل الاترى ان رسولنا صلى الله عليه وسلم لما كان خاتم النبيين كان أفضل الانبياء عليهم الصلاة والسلام والانسان لما كان خاتم المخلوقات الجسمانية كان أفضلها فكذلك العقل لما كان خاتم الخلع الفائضة من حضرة ذي الجلال كان أفضل الخلع وأكملها ثم نظر العقل في نفسه فرأى نفسه كالجفنة المملوأة من الجواهر النفيسة بل كأنها سماء مملوأة من الكواكب الزاهرة وهي العلوم الضرورية البديهية المركوزة في بدائه العقول وصرائح الاذهان وكما أن الكواكب المركوزة في السموات علامات يهتدي بها في ظلمات البر والبحر فكذلك الجواهر المركوزة في سماء العقل كواكب زاهرة يهتدي بها السائرون في ظلمات عالم الاجسام الى أنوار العالم الروحانية وفسحة السموات وأضوائها فلما نظر العقل الى تلك الكواكب الزاهرة والجواهر الباهرة رأى رقم الحدوث على تلك الجواهر وعلى جميع تلك الخلع فاستدل بتلك الارقام على راقم وبتلك النقوش على ناقش وعند ذلك عرف أن النقاش بخلاف النقش والباني بخلاف البناء فانفتح له من أعلى سماء عالم المحدثات روازن الى أضواء لوائح عالم القدم وطالع عالم القدم الازلية والجلال وكان العقل اغا نظر الى أضواء عالم الازلية من ظلمات عالم الحدوث والامكان فغلبته دهشة أنوار الازلية فعميت عيناه فبقي متحيرا فالتجأ بطبعه الى مفيض الانوار فقال رب اشرح لي صدري فان البحار عميقة والظلمات متكاثفة وفي الطريق قطاع من الاعداء الداخلة والخارجة وشياطين الانس والجن كثيرة فان لم تشرح لي صدري ولم تكن لي عونا في كل الامور انقطعت وصارت هذه الخلع سببا لنيل الآفات لا للفوز بالدرجات فهذا هو المراد من قوله رب اشرح لي صدري ثم قال ويسر لي أمري وذلك لان كل ما يصدر من العبد من الافعال والاقوال والحركات والسكنات فما لم يصر العبد مريدا له استحال أن يصير فاعلا له فهذه الارادة صفة محدثة ولا بد لها من فاعل وفاعلها ان كان هو العبد افتقر في تحصيل تلك الارادة الى ارادة أخرى ولزم التسلسل بل لا بد من الانتهاء الى ارادة يخلقها مدبر العالم فيكون في الحقيقة هو الميسر للامور وهو المتمم لجميع الاشياء وتمام التحقيق ان حدوث الصفة لا بد له من قابل وفاعل فعبر عن استعداد القابل بقوله رب اشرح لي صدري

بقوله تعالى اتقوا الله حق تقاته فان التقوى بهذا المعنى منطو على الصبر المذكور فكأنه قيل فاصبر فان العاقبة للصابرين (والى عاد) متعلق بمضمر معطوف على قوله تعالى أرسلنا في قصة نوح وهو الناصب لقوله تعالى (أخاهم) أي وأرسلنا الى عاد أخاهم أي واحدا منهم في النسب كقولهم يا أخا العرب وتقديم المجرور على المنصوب ههنا للحذار عن الاضمار قبل الذكر وقيل متعلق بالفعل المذكور فيما سبق وأخاهم معطوف على نوحا وقد مر في سورة الاعراف وقوله تعالى (هودا) عطف بيان لاخاهم وكان عليه الصلاة والسلام من جلتهم فانه هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود ابن العوص بن ارم بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام وقيل هود بن شالخ بن ارفخشذ ابن سام بن نوح ابن عم أبي عاد وانما جعل منهم لانهم أفهم لكلامه وأعرف بحاله وأرغب في اقتفائه (قال) لما كان ذكر ارساله عليه الصلاة والسلام اليهم مظنة للسؤال عما قال لهم ودعاهم اليه أجيب عنه بطريق الاستئناف فقيل قال (يا قوم اعبدوا الله) أي وحده كما ينبئ عنه قوله تعالى (ما لكم من اله غيره) فانه استئناف يجري مجرى البيان للعبادة المأمور بها والتعليل للامر بها كأنه قيل خصوه بالعبادة ولا تشركوا به شيأ اذ ليس لكم من اله سواه وغيره بالرفع صفة لاله باعتبار محله وقرئ بالجر حملا له على لفظه (ان أنتم) ما أنتم باتخاذكم الاصنام شركاء له او بقولكم ان الله أمرنا الفاء بعبادتها (الا مفترون) عليه تعالى عن ذلك علوا كبيرا (يا قوم لا أسألكم عليه أجرا ان أجري الا على الذي فطرني) خاطب به كل نبي قومه ازاحة لما عسى يتوهمونه وامحاضا للنصيحة فانها ما دامت مشوبة بالمطامع بمعزل عن التأثير وايراد الموصول للتفخيم وجعل الصلة فعل

وعبر عن حصول الفاعل بقوله ويسر لي أمري وفيه التنبيه على أنه سبحانه وتعالى هو الذي يعطي القابل قابليته والفاعل فاعليته ولهذا كان السلف رضي الله عنهم يقولون يا مبتدئا بالنعم قبل استحقاقها ومجموع هذين الكلامين كالبرهان القاطع على ان جميع الحوادث في هذا العالم واقعة بقضائه وقدره وحكمته وقدرته ويمكن أن يقال أيضا كأن موسى عليه السلام قال الهي لا أكتفي بشرح الصدر ولكن أطلب منك تنفيذ الامر وتحصيل الغرض فلهذا قال ويسر لي أمري أو يقال انه سبحانه وتعالى لما أعطاه الخلع الاربع وهي الوجود والحياة والقدرة والعقل فكأنه قال له يا موسى أعطيتك هذه الخلع الاربع فلابد في مقابلتها من خدمات أربع لتقابل كل نعمة بخدمة فقال موسى عليه السلام ما تلك الخدمات فقال وأقم الصلاة لذكري فان فيها أنواعا أربعة من الخدمة القيام والقراءة والركوع والسجود فاذا أتيت بالصلاة فقد قابلت كل نعمة بخدمة ثم انه تعالى لما أعطاه الخلعة الخامسة وهي خلعة الرسالة قال رب اشرح لي صدري حتى أعرف أني بأي خدمة أقابل هذه النعمة فقيل له بأن تجتهد في أداء هذه الرسالة على الوجه المطلوب فقال موسى يا رب ان هذا لا يتأتى مني مع عجزي وضعفي وقلة آلاتي وقوة خصمي فاشرح لي صدري ويسر لي أمري ﴿الفصل الثاني في قوله رب اشرح لي صدري﴾ اعلم ان الدعاء سبب القرب من الله تعالى وانما اشتغل موسى بهذا الدعاء طلبا للقرب فنفتقر الى بيان أمرين الى بيان ان الدعاء سبب القرب ثم الى بيان أن موسى عليه السلام طلب القرب بهذا الدعاء أما بيان ان الدعاء سبب القرب فيدل عليه وجوه (الاول) ان الله تعالى ذكر السؤال والجواب في كتابه في عدة مواضع منها أصولية ومنها فروعية أما الاصولية (فأولها) في البقرة يسألونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج (وثانيها) في بني اسرائيل ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي (وثالثها) ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا (ورابعها) ويسألونك عن الساعة أيان مرساها وأما الفروعية فستة منها في البقرة على التوالي (أحدها) يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والاقربين (وثانيها) يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير (وثالثها) يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير (ورابعها) ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو (وخامسها) ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير (وسادسها) ويسألونك عن المحيض قل هو أذى (وسابعها) يسألونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول (وثامنها) ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا (وتاسعها) ويستنبئونك أحق هو قل اي وربي انه لحق (وعاشرها) يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة (والحادية عشرة) واذا سألك عبادي عني فاني قريب اذا عرفت هذا فنقول جاءت هذه الاسئلة والاجوبة على صور مختلفة فالاغلب فيها أنه سبحانه وتعالى لما ذكر السؤال قال لمحمد صلى الله عليه وسلم قل وفي صورة أخرى جاء الجواب بصيغة فقل مع فاء التعقيب وفي صورة ثالثة ذكر السؤال ولم يذكر الجواب وهو قوله تعالى يسألونك عن الساعة أيان مرساها وفي صورة رابعة ذكر الجواب ولم يذكر فيه لفظ قل ولا لفظ فقل وهو قوله تعالى واذا سألك عبادي عني فاني قريب ولابد لهذه الاشياء من الفائدة فنقول ﴿أما الاجوبة الواردة بلفظ قل﴾ فلا اشكال فيها لان قوله تعالى قل كالتوقيع المحدد في ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وكالتشريف المحدد في كونه مخاطبا من الله تعالى باداء الوحي والتبليغ ﴿وأما الصورة الثانية﴾ وهي قوله فقل ينسفها ربي نسفا فالسبب ان قوله ويسألونك عن الجبال سؤال اما عن قدمها أو عن وجوب بقائها وهذه المسئلة من أمهات مسائل أصول الدين فلاجرم أمر الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم ان يجيب بلفظ

الفاء المفيد للتعقيب كانه سبحانه قال يا محمد أجب عن هذا السؤال في الحال ولا تقتصر فان الشك فيه كفر ولا تمهل هذا الامر لئلا يقعوا في الشك والشبهة ثم كيفية الجواب انه قال فقل ينسفها ربي نسفا ولا شك ان النسف ممكن لانه ممكن في حق كل جزء من أجزاء الجبل والحس يدل عليه فوجب أن يكون ممكنا في حق كل الجبل وذلك يدل على انه ليس بقديم ولا واجب الوجود لان القديم لا يجوز عليه التغير والنسف قان قيل انهم قالوا أخبرنا عن الهك أهو ذهب أو فضة أو حديد فقال قل هو الله أحد ولم يقل فقل هو الله أحد مع ان هذه المسئلة من المهمات فانا انه تعالى لم يحك في هذا الموضع سؤالهم وحرف الفاء من الحروف العاطفة فيستدعي سبق الكلام فلما لم يوجد ترك الفاء بخلاف ههنا فانه تعالى حكى سؤالهم فحسن عطف الجواب عليه بحرف الفاء ﴿وأما الصورة الثالثة﴾ فانه تعالى لم يذكر الجواب في قوله يسئلونك عن الساعة أيان مرساها فالحكمة فيه أن معرفة وقت الساعة على التعيين مشتملة على المفاسد التي شرحناها فيما سبق فلهذا لم يذكر الله تعالى ذلك الجواب وذلك يدل على ان من الاسئلة ما لا يجاب عنها ﴿وأما الصورة الرابعة﴾ وهي قوله فاني قريب ولم يذكر في جوابه قل ففيه وجوه (أحدها) ان ذلك يدل على تعظيم حال الدعاء وانه من أعظم العبادات فكانه سبحانه قال يا عبدي أنت انما تحتاج الى الواسطة في غير الدعاء أما في مقام الدعاء فلا واسطة بيني وبينك يدل عليه أن كل قصة وقعت لم تكن معرفتها من المهمات قال لرسوله صلى الله عليه وسلم اذكر لهم تلك القصة كقوله تعالى واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها واذكر في الكتاب موسى واذكر في الكتاب اسمعيل واذكر في الكتاب ادريس ونبئهم عن ضيف ابراهيم ثم قال في قصة يوسف نحن نقص عليك أحسن القصص وفي أصحاب الكهف نحن نقص عليك نبأهم بالحق وما ذاك الا لما في هاتين القصتين من العجائب والغرائب والحاصل كانه سبحانه وتعالى قال يا محمد اذا سئلت عن غيري فكن أنت المجيب واذا سئلت عني فاسكت حتى أكون أنا القائل (وثانيها) ان قوله واذا سألك عبادي عني يدل على ان العبد له وقوله فاني قريب يدل على ان الرب قريب من العبد (وثالثها) لم يقل فالعبد مني قريب بل قال أنا منه قريب وهذا فيه سر نفيس فان العبد ممكن الوجود فهو من حيث هو هو في مركز العدم وحضيض الفناء فكيف يكون قريبا بل القريب هو الحق سبحانه وتعالى فانه بفضله واحسانه جعله موجودا وقربه من نفسه فالقرب منه لا من العبد فلهذا قال فاني قريب (ورابعها) ان الداعي ما دام يبقى خاطره مشغولا بغير الله تعالى فانه لا يكون داعيا لله تعالى فاذا فنى عن الكل وصار مستغرقا بمعرفة الله الاحد الحق امتنع أن يبقى في مقام الفناء عن غير الله مع الالتفات الى غير الله تعالى فلا جرم رفعت الواسطة من البين فما قال فقل اني قريب بل قال فاني قريب فثبت بما تقرر فضل الدعاء وانه من أعظم القربات ثم من شأن العبد اذا أراد أن يتحف مولاه ان لا يتحفه الا بأحسن التحف والهدايا فلا جرم أول ما أراد موسى ان يتحف الحضرة الالهية بتحف الطاعات والعبادات أتحفها بالدعاء فلا جرم قال رب اشرح لي صدري ﴿والوجه الثاني﴾ في بيان فضل الدعاء قوله عليه السلام الدعاء مخ العبادة ثم ان أول شيء أمر الله تعالى به موسى عليه السلام العبادة لان قوله انني أنا الله اخبار وليس بأمر انما الامر قوله فاعبدني فلما كان أول ما أورد على موسى من الاوامر هو الامر بالعبادة لا جرم أول ما أتحف به موسى عليه السلام حضرة الربوبية من تحف العبادة هو تحفة الدعاء فقال رب اشرح لي صدري ﴿والوجه الثالث﴾ وهو ان الدعاء نوع من أنواع العبادة فكما انه سبحانه وتعالى أمر بالصلاة والصوم فكذلك أمر بالدعاء ويدل عليه قوله تعالى واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب وقال ربكم ادعوني استجب لكم

الفطرة لكونه أقدم النعم الفائضة من جناب الله تعالى المستوجبة للشكر الذي لا يتأتى الا بالجريان على موجب أمره الغالب معرضا عن المطالب الدنيوية التي من جملتها الاجر (أفلا تعقلون) أي أتغفلون عن هذه القضية أو الا تتفكرون فيها فلا تعقلونها أو اتجهلون كل شيء فلا تعقلون شيأ أصلا فان هذا مما لا ينبغي أن يخفى على أحد من العقلاء (ويا قوم استغفروا ربكم) أي اطلبوا مغفرته لما سلف منكم من الذنوب بالايمان والطاعة (ثم توبوا اليه) أي توسلوا اليه بالتوبة وأيضا التبرؤ من الغير انما يكون بعد الايمان بالله تعالى والرغبة فيما عنده (يرسل السماء) أي المطر (عليكم مدرارا) أي كثير الدرور (ويزدكم قوة) مضافة ومنضمة (الى قوتكم) أي يضاعفها لكم وانما رغبهم بكثرة المطر لانهم كانوا أصحاب زروع وعمارات وقيل حبس الله تعالى عنهم القطر وأعقم أرحام نسائهم ثلاث سنين فوعدهم عليه الصلاة والسلام كثرة الامطار وتضاعف القوة بالتناسل على الايمان والتوبة (ولا تتولوا) أي لا تعرضوا عما دعوتكم اليه (مجرمين) مصرين على ما كنتم عليه من الاجرام (قالوا يا هود ما جئتنا ببينة) أي بحجة تدل على صحة دعواك وانما قالوه لفرط عنادهم وعدم اعتدادهم بما جاءهم من البينات الفائتة للحصر (وما نحن بتاركي آلهتنا) أي بتاركي عبادتها (عن قولك) أي صادرين عنه أي صادرا تركنا عن ذلك باسناد حال الوصف الى الموصوف ومعناه التعليل على أبلغ وجه لدلالته على كونه علة فاعلية ولا يفيده الباء واللام وهذا كقولهم المنقول عنهم في سورة الاعراف أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا (وما نحن لك بمؤمنين) أي بمصدقين في شيء مما تأتي وتذر فيندرج تحته ما دعاهم اليه من التوحيد وترك عبادة الآلهة وفيه من الدلالة على شدة الشكيمة

وتجاوز الحد فى العتو ما لا يخفى (ان نقول الا اعتراك) أى ما نقول الا قولنا اعتراك أى أصابك (بعض آلهتنا بسوء) بجنون لسبك اياها
وصدك عن عبادتها وسطك لها عن رتبة الالوهية والمعبودية بما مر من قولك ما لكم من اله غيره ان أنتم الا مفترون والتنكير فى سوء
للتقليل كأنهم لم يبالغوا فى السوء كما ينبئ عنه نسبة ذلك الى بعض آلهتهم دون كلها والجملة مقول القول والا لغو لان الاستثناء
مفرغ وهذا الكلام مقرر لما مر من قولهم وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين فان اعتقادهم بكونه عليه الصلاة والسلام كما قالوا وحاشاه عن ذلك يوجب عدم الاعتداد بقوله وعده من قبيل الخرافات فضلا عن التصديق والعمل بمقتضاه يعنون انا لا نعد كلامك الا من قبيل ما لا يحتمل الصدق والكذب من الهذيانات الصادرة عن المجانين فكيف نصدقه ونؤمن به ونعمل بموجبه ولقد سلكوا فى طريقة المخالفة والعناد الى سبيل الترقى من الادنى الى الاعلى حيث أخبروا أولا عن عدم مجيئه بالبينة مع احتمال كون ما جاء به عليه الصلاة والسلام حجة فى نفسه وان لم تكن واضحة الدلالة على المراد وثانيا عن ترك الامتثال بقوله عليه الصلاة والسلام بقولهم وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك مع امكان تحقق ذلك بتصديقهم له عليه الصلاة والسلام فى كلامه ثم نفوا
تصديقهم له عليه الصلاة والسلام بقولهم وما نحن لك بمؤمنين مع كون كلامه عليه الصلاة والسلام مما يقبل التصديق
ثم نفوا عنه تلك المرتبة أيضا حيث قالوا ما قالوا قاتلهم الله أنى يؤفكون (قال انى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه)
أى من اشراككم من دون الله أى من غير أن ينزل به سلطانا كما قال فى سورة الاعراف أتجادلونني فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل

وادعوه خوفا وطمعا ادعوا ربكم تضرعا وخفية هو الحى لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين قل ادعوا
الله أو ادعوا الرحمن واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة وقال صلى الله عليه وسلم ادعوا بياذا الجلال
والاكرام فبهذه الآيات عرفنا أن الدعاء عبادة قال بعض الجهال الدعاء على خلاف العقل من وجوه
(أحدها) انه علام الغيوب يعلم ما فى الانفس وما تخفى الصدور فأى حاجة بنا الى الدعاء (وثانيها) ان
المطلوب ان كان معلوم الوقوع فلا حاجة الى الدعاء وان كان معلوم اللاوقوع فلا فائدة فيه (وثالثها) الدعاء
يشبه الامر والنهى وذلك من العبد فى حق المولى سوء أدب (ورابعها) المطلوب بالدعاء ان كان من المصالح
فالحكيم لا يهمله وان لم يكن من المصالح لم يجز طلبه (وخامسها) فقد صح ان أعظم مقامات الصديقين
الرضا بقضاء الله تعالى وقد ندب اليه والدعاء ينافى ذلك لانه اشتغال بالالتماس والطلب (وسادسها) قال
عليه السلام رواية عن الله تعالى من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين فدل على
ان الاولى ترك الدعاء والآيات التى ذكرتموها تقتضى وجوب الدعاء (وسابعها) ان ابراهيم عليه السلام
لما ترك الدعاء واكتفى بقوله حسبى من سؤالى علمه بحالى استحق المدح العظيم فدل على أن الاولى ترك
الدعاء (والجواب عن الاول) انه ليس الغرض من الدعاء الاعلام بل هو نوع تضرع كسائر التضرعات
(وعن الثانى) انه يجرى مجرى أن تقول للجائع والعطشان ان كان الشبع معلوم الوقوع فلا حاجة الى
الاكل والشرب وان كان معلوم اللاوقوع فلا فائدة فيه (وعن الثالث) ان الصيغة وان كانت صيغة الامر
الا ان صورة التضرع والخشوع تصرفه عن ذلك (وعن الرابع) يجوز أن يصير مصلحة بشرط سبق الدعاء
(وعن الخامس) انه اذا دعا اظهارا للتضرع ثم رضى بما قدره الله تعالى فذلك أعظم المقامات وهو الجواب
عن البقية اذا ثبت انه من العبادات ثم انه تعالى أمره بالعبادة وبالصلاة أمرا وردمجملا لاجرم شرع فى أجل
العبادات وهو الدعاء (الوجه الرابع) فى فضل الدعاء انه سبحانه لم يقتصر فى بيان فضل الدعاء على الامر به
بل بين فى آية أخرى انه يغضب اذا لم يسئل فقال فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين
لهم الشيطان ما كانوا يعملون وقال عليه السلام لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لى ان شئت ولكن يجزم فيقول
اللهم اغفر لى فلهذا السر جزم موسى عليه السلام بالدعاء وقال رب اشرح لى صدرى (الوجه الخامس) فى
فضل الدعاء قوله تعالى وقال ربكم ادعونى أستجب لكم وفيه كرامة عظيمة لامتنا لان بنى اسرائيل فضلهم
الله تفضيلا عظيما فقال فى حقهم وانى فضلتكم على العالمين وقال أيضا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين
ثم مع هذه الدرجة العظيمة قالوا لموسى عليه السلام ادع لنا ربك يبين لنا ما هى وان الحواريين مع جلالتهم
فى قولهم نحن أنصار الله سألوا عيسى عليه السلام أن يسأل لهم مائدة تنزل من السماء ثم انه سبحانه وتعالى
رفع هذه الواسطة فى أمتنا فقال مخاطبا لهم من غير واسطة ادعونى أستجب لكم وقال واسألوا الله من فضله
فلهذا السبب لما حصلت هذه الفضيلة لهذه الامة وكان موسى عليه السلام قد عرفها لاجرم قال اللهم
اجعلنى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فلاجرم رفع يديه ابتداء فقال رب اشرح لى صدرى واعلم أنه تعالى قال
واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ثم انه تعالى جعل العباد على سبعة أقسام (أحدها) عبد العصمة ان عبادى
ليس لك عليهم سلطان وموسى عليه السلام كان مخصوصا بمزيد العصمة واصطنعتك لنفسى فلاجرم طلب
زوائد العصمة فقال رب اشرح لى صدرى (وثانيها) عبد الصفوة وسلام على عباده الذين اصطفى وموسى
عليه السلام كان مخصوصا بمزيد الصفوة ياموسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فلاجرم
أراد مزيد الصفوة فقال رب اشرح لى صدرى (وثالثها) عبد البشارة فبشر عبادى الذين يستمعون القول

فيتبعون

فيتبعون أحسنه وكان موسى عليه السلام مخصوصا بذلك وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى فاراد مزيد البشارة فقال رب اشرح لي صدري (ورابعها) عبد الكرامة يا عبادي لا خوف عليكم وموسى عليه السلام كان مخصوصا بذلك لا تخافا انني معكما فأراد الزيادة عليها فقال رب اشرح لي صدري (وخامسها) عبد المغفرة نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وكان موسى عليه السلام مخصوصا بذلك رب اغفر لي فغفر له فأراد الزيادة فقال رب اشرح لي صدري (وسادسها) عبد الخدمة اعبدوا ربكم وموسى عليه السلام كان مخصوصا بذلك واصطنعتك لنفسي فطلب الزيادة فيها فقال رب اشرح لي صدري (وسابعها) عبد القربة واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان وموسى عليه السلام كان مخصوصا بالقرب وناديناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجيا فاراد كمال القرب فقال رب اشرح لي صدري (الفصل الثالث) في قوله رب اشرح لي صدري وفيه وجوه (أحدها) أنه تعالى لما خاطبه بالاشياء الستة (أحدها) معرفة التوحيد انني أنا الله لا اله الا أنا (وثانيها) أمره بالعبادة والصلاة فاعبدني وأقم الصلاة لذكري (وثالثها) معرفة الآخرة ان الساعة آتية (ورابعها) حكمة أفعاله في الدنيا وما تلك بيمينك يا موسى (وخامسها) عرض المعجزات الباهرة عليه لنريك من آياتنا الكبرى (وسادسها) ارساله الى أعظم الناس كفرا وعتوا فكانت هذه التكاليف الشاقة سببا للقهر فأراد موسى عليه السلام جبر هذا القهر بالمعجزة فعرفه ان كل من سأله قرب منه فقال رب اشرح لي صدري فأراد جبر القهر الحاصل من هذه التكاليف بالقرب منه فقال رب اشرح لي صدري أو يقال خاف شياطين الانس والجن فدعا ليصل بسبب الدعاء الى مقام القرب فيصير مأمونا من غوائل شياطين الجن والانس (وثانيها) ان المراد أنه أراد الذهاب الى فرعون وقومه فأراد أن يقطع طمع الخلق عن نفسه بالكلية فعرف ان من دعا ربه قربه له وقربه لديه فحينئذ تنقطع الاطماع بالكلية فقال رب اشرح لي صدري (وثالثها) الوجود كالنور والعدم كالظلمة وكل ما سوى الله تعالى فهو عدم محض فكل شئ هالك الا وجهه فالكل كانهم في ظلمات العدم واظلال عالم الاجسام والامكان فقال رب اشرح لي صدري حتى يجلس قلبي في بهى ضوء المعرفة ووسادة شرح الصدر والجالس في الضوء لا يرى من كان جالسا في الظلمة فمن جلس في ضوء شرح الصدر لا يرى أحدا في الوجود فلهذا عقبه بقوله ويسر لي أمري فان العبد في مقام الاستغراق لا يتفرغ لشئ من المهمات (ورابعها) رب اشرح لي صدري فان عين العقل ضعيفة فأطلع يا الهي شمس التوفيق حتى أرى كل شئ كما هو وهذا في معنى قول محمد صلى الله عليه وسلم أرنا الاشياء كما هي واعلم أن شرح الصدر مقدمة لسطوع الانوار الالهية في القلب والاستماع مقدمة الفهم الحاصل من سماع الكلام فالله تعالى أعطى موسى عليه السلام المقدمة الثانية وهي قوله فاستمع لما يوحى فلا جرم نسج موسى على ذلك المنوال فطلب المقدمة الاخرى فقال رب اشرح لي صدري ولما آل الامر الى محمد صلى الله عليه وسلم قيل له وقل رب زدني علما والعلم هو المقصود فلما كان موسى عليه السلام كالمقدمة لمقدم محمد صلى الله عليه وسلم لا جرم أعطى المقدمة ولما كان محمد كالمقصود لا جرم أعطى المقصود فسبحانه ما أدق حكمته في كل شئ (وسادسها) الداعي له صفتان (احداهما) أن يكون عبدا للرب واذا سألك عبادي عني فاني قريب (وثانيتهما) أن يكون الرب له وقال ربكم ادعوني أستجب لكم أضاف نفسه الينا وما أضافنا الى نفسه والمشتغل بالدعاء قد صار كاملا من هذين الوجهين فأراد موسى عليه السلام أن يرتع في هذا البستان فقال رب اشرح لي صدري (وسابعها) ان موسى عليه السلام شرفه الله تعالى بقوله وقربناه نجيا فكأن موسى عليه السلام قال الهي لما قلت وقربناه نجيا صرت قريبا منك

الله بها من سلطان أو مما اشركونه من آلهة غير الله أجاب بعين مقالتهم الحمقاء المبنية على اعتقاد كون آلهتهم مما يضر أو ينفع وانها بمعزل من ذلك ولما كان ما وقع أولا منه عليه الصلاة والسلام في حق آلهتهم من كونها بمعزل عن الالوهية انما وقع في ضمن الامر بعبادة الله تعالى واختصاصه بها وقد شق عليهم ذلك وعدوه مما يورث شينا حتى زعموا أنها اصابته عليه الصلاة والسلام بسوء مجازاة لصنيعه معها صرح عليه الصلاة والسلام بالحق وصدع به حيث أخبر ببراءته القديمة عنها بالجملة الاسمية المصدرة بان واشهد الله على ذلك وأمرهم بأن يسمعوا ذلك ويشهدوا باستهانته بهم ثم أمرهم بالاجتماع والاحتشاد مع آلهتهم جميعا دون بعض منها حسبما يشعر به قولهم بعض آلهتنا والتعاون في ايصال الكيد اليه عليه الصلاة والسلام ونهاهم عن الانظار والامهال في ذلك فقال (فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون) أي ان صح ما لوحتم به من كون آلهتكم مما يقدر على اضرار من ينال منها ويصد عن عبادتها ولو بطريق ضمني فاني برئ منها فكونوا أنتم معها جميعا وباشروا كيدي ثم لا تمهلوني ولا تسامحوني في ذلك فالفاء لتفريع الامر على زعمهم في قدرة آلهتهم على ما قالوا وعلى البراءة كليهما وهذا من أعظم المعجزات فانه عليه الصلاة والسلام كان رجلا مفردا بين الجم الغفير والجمع الكثير من عتاة عاد الغلاظ الشداد وقد خاطبهم بما خاطبهم وحقرهم وآلهتهم وهيجهم على مباشرة مبادي المضادة والمضارة وحثهم على التصدي لاسباب المعازة والمعارة فلم يقدروا على مباشرة شئ مما كلفوه وظهر عجزهم عن ذلك ظهورا بينا كيف لا وقد التجأ الى ركن منيع رفيع واعتصم بحبل متين حيث قال (اني توكلت على الله ربي وربكم) يعني انكم وان بذلتم في مضارتي

بجهودكم لا تقدرون على شئ مما تريدون بي فاني متوكل على الله تعالى واغا جيء بلفظ الماضي لكونه أدل على الانشاء المناسب للمقام وواثق بكلاءتي وحفظي عن غوائلكم وهو مالكي ومالككم لا يصدر عنكم شئ ولا يصيبني أمر الا بارادته ومشيئته ثم برهن عليه بقوله (ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها) أي الا هو ٣٠ مالك لها قادر عليها يصرفها كيف يشاء غير مستعصية عليه فان الاخذ بالناصية تمثيل لذلك (ان ربي على صراط مستقيم) تعليل لما يدل عليه التوكل من عدم قدرتهم على اضراره أي هو على الحق والعدل فلا يكاد يسلطكم علي اذ لا يضيع عنده معتصم ولا يفتات عليه ظالم والاقتصار على اضافة الرب الى نفسه اما بطريق الاكتفاء لظهور المراد واما لان فائدة كونه تعالى مالكا لهم أيضا راجعة اليه عليه الصلاة والسلام (فان تولوا) أي تتولوا بحذف احدى التاءين أي ان تستمروا على ما كنتم عليه من التولي والاعراض (فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم) أي لم اعاتب على تفريط في الابلاغ وكنتم محجوجين بان بلغكم الحق فأبيتم الا التكذيب والجحود (ويستخلف ربي قوما غيركم) استئناف بالوعيد لهم بأن الله تعالى يهلكهم ويستخلف في ديارهم وأموالهم قوما آخرين أو عطف على الجواب بالفاء ويؤيده قراءة ابن مسعود رضي الله عنه بالجزم عطفا على الموضع كأنه قيل فان تولوا يعذرني ويهلككم ويستخلف مكانكم آخرين وفي اقتصار اضافة الرب عليه عليه الصلاة والسلام رمز الى اللطف به التضرع والتدمير للمخاطبين (ولا تضرونه) بتوليكم (شيأ) من الضرر لاستحالة ذلك عليه ومن جزم ويستخلف أسقط منه النون (ان ربي على كل شئ حفيظ) أي رقيب مهيمن فلا تخفى عليه أعمالكم فيجازيكم بحسبها أو حافظ مستول على كل شئ فكيف يضره شئ وهو الحافظ

ولكن أريد قربك مني فقال يا موسى أما سمعت قولي واذا سألك عبادي عني فاني قريب فاشتغل بالدعاء حتى أصير قريبا منك فعند ذلك قال رب اشرح لي صدري (وثامنها) قال موسى عليه السلام رب اشرح لي صدري وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم ألم نشرح لك صدرك ثم انه تعالى ما تركه على هذه الحالة بل قال وسراجا منيرا فانظر الى التفاوت فان شرح الصدر هو أن يصير الصدر قابلا للنور والسراج المنير هو أن يعطي النور فالتفاوت بين موسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم كالتفاوت بين الآخذ والمعطي ثم نقول الهنا ان دينناوهو كلمة لا اله الا الله نور والوضوء نور والصلاة نور والقبر نور والجنة نور فبحق أنوارك التي أعطيتنا في الدنيا لا تحرمنا أنوار فضلك واحسانك يوم القيامة (الفصل الرابع في قوله رب اشرح لي صدري) سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شرح الصدر فقال نور يقذف في القلب فقيل وما أمارته فقال التجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل النزول ويدل على ان شرح الصدر عبارة عن النور قوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه * واعلم أن الله تعالى ذكر عشرة أشياء ووصفها بالنور (أحدها) وصف ذاته بالنور الله نور السموات والارض (وثانيها) الرسول قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين (وثالثها) القرآن واتبعوا النور الذي أنزل معه (ورابعها) الايمان يريدون أن يطفؤا نور الله بأفواههم (وخامسها) عدل الله وأشرقت الارض بنور ربها (وسادسها) ضياء القمر وجعل القمر فيهن نورا (وسابعها) النهار وجعل الظلمات والنور (وثامنها) البينات انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور (وتاسعها) الانبياء نور على نور (وعاشرها) المعرفة مثل نوره كمشكاة فيها مصباح اذا ثبت هذا فنقول كأن موسى عليه السلام قال رب اشرح لي صدري بمعرفة أنوار جلالك وكبريائك (وثانيها) رب اشرح لي صدري بالتخلق بأخلاق رسلك وأنبيائك (وثالثها) رب اشرح لي صدري باتباع وحيك وامتثال أمرك ونهيك (ورابعها) رب اشرح لي صدري بنور الايمان والايقان بالهيتك (وخامسها) رب اشرح لي صدري بالاطلاع على أسرار عدلك في قضائك وحكمك (وسادسها) رب اشرح لي صدري بالانتقال من نور شمسك وقمرك الى أنوار جلال عزتك كما فعله ابراهيم عليه السلام حيث انتقل من الكوكب والقمر والشمس الى حضرة العزة (وسابعها) رب اشرح لي صدري من مطالعة نهارك وليلك الى مطالعة نهار فضلك وليل عدلك (وثامنها) رب اشرح لي صدري بالاطلاع على مجامع آياتك ومعاقد بيناتك في أرضك وسمواتك (وتاسعها) رب اشرح لي صدري في أن أكون خلف صور الانبياء المتقدمين ومتشبها بهم في الانقياد لحكم رب العالمين (وعاشرها) رب اشرح لي صدري بأن تجعل سراج الايمان في قلبي كالمشكاة التي فيها المصباح واعلم أن شرح الصدر عبارة عن ايقاد النور في القلب حتى يصير القلب كالسراج وذلك النور كالنار ومعلوم أن من أراد أن يستوقد سراجا احتاج الى سبعة أشياء زند وحجر وحراق وكبريت ومسرجة وفتيلة ودهن فالعبد اذا طلب النور الذي هو شرح الصدر افتقر الى هذه السبعة (فأولها) لا بد من زند المجاهدة والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا (وثانيها) حجر التضرع ادعوا ربكم تضرعا وخفية (وثالثها) حراق منع الهوى ونهى النفس عن الهوى (ورابعها) كبريت الانابة وأنيبوا الى ربكم ملطخا رؤس تلك الخشبات بكبريت توبوا الى الله (وخامسها) مسرجة الصبر واستعينوا بالصبر والصلاة (وسادسها) فتيلة الشكر لئن شكرتم لازيدنكم (وسابعها) دهن الرضا واصبر لحكم ربك أي ارض بقضاء ربك فاذا اصلحت هذه الادوات فلا تعول عليها بل ينبغي أن لا تطلب المقصود الا من حضرته ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ثم اطلبها بالخشوع والخضوع وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا فعند ذلك ترفع يد

التضرع وتقول رب اشرح لى صدرى فهنالك تسمع قد أوتيت سؤلك يا موسى ثم نقول هذا النور الروحانى المسمى بشرح الصدر أفضل من الشمس الجسمانية لوجوه (أحدها) الشمس تحجبها غمامة وشمس المعرفة لا تحجبها السموات السبع اليه يصعد الكلم الطيب (وثانيها) الشمس تغيب ليلا وتعود نهارا قال ابراهيم عليه السلام لا أحب الآفلين أما شمس المعرفة فلا تغيب ليلا ان ناشئة الليل هى أشد وطأ والمستغفرين بالاسحار بل أكمل الخلع الروحانية تحصل فى الليل سبحان الذى أسرى بعبده ليلا (وثالثها) الشمس تفنى اذا الشمس كورت وشمس المعرفة لا تفنى سلام قولا من رب رحيم (ورابعها) الشمس اذا قابلها القمر انكسفت أما ههنا فشمس المعرفة وهى معرفة أشهد أن لا اله الا الله ما لم يقابلها قمر أشهد أن محمدا رسول الله لم يصل نورها الى عالم الجوارح (وخامسها) الشمس تسود الوجوه والمعرفة تبيضها يوم تبيض وجوه وتسود وجوه (وسادسها) الشمس تحرق والمعرفة تنجى من الحرق جز يا مؤمن فان نورك قد أطفأ لهبى (وسابعها) الشمس تصدع والمعرفة تصعد اليه يصعد الكلم الطيب (وثامنها) الشمس منفعتها فى الدنيا والمعرفة منفعتها فى العقبى والباقيات الصالحات خير (وتاسعها) الشمس فى السماء زينة لاهل الارض والمعرفة فى الارض زينة لاهل السماء (وعاشرها) الشمس فوقانى الصورة تحتانى المعنى وذلك يدل على الحسد مع التكبر والمعارف الالهية تحتانية الصورة فوقانية المعنى وذلك يدل على التواضع مع الشرف (وحادى عشرها) الشمس تعرف أحوال الخلق وبالمعرفة يصل القلب الى الخالق (وثانى عشرها) الشمس تقع على الولى والعدو والمعرفة لا تحصل الا للولى فلما كانت المعرفة موصوفة بهذه الصفات النفيسة لا جرم قال موسى رب اشرح لى صدرى * وأما النكت (فأحدها) الشمس سراج استوقدها الله تعالى للفناء كل من عليها فان والمعرفة استوقدها للبقاء فالتى خلقها للفناء لو قرب الشيطان منها لاحترق شهابا رصدا والمعرفة التى خلقها للبقاء كيف يقرب منها الشيطان رب اشرح لى صدرى (وثانيها) استوقد الله الشمس فى السماء وانها تزيل الظلمة عن بيتك مع بعدها عن بيتك وأوقد شمس المعرفة فى قلبك أفلا تزيل ظلمة المعصية والكفر عن قلبك مع قربها منك (وثالثها) من استوقد سراجا فانه لا يزال يتعهده ويمده والله تعالى هو الموقد لسراج المعرفة ولكن الله حبب اليكم الايمان أفلا يمده وهو معنى قوله رب اشرح لى صدرى (ورابعها) اللص اذا رأى السراج يوقد فى البيت لا يقرب منه والله قد أوقد سراج المعرفة فى قلبك فكيف يقرب الشيطان منه فلهذا قال رب اشرح لى صدرى (وخامسها) المجوس أوقدوا نارا فلا يريدون اطفاءها والملك القدوس أوقد سراج الايمان فى قلبك فكيف يرضى باطفائه * واعلم انه سبحانه وتعالى أعطى قلب المؤمن تسع كرامات (أحدها) الحياة أومن كان ميتا فأحييناه فلما رغب موسى عليه السلام فى الحياة الروحانية قال رب اشرح لى صدرى ثم النكتة انه عليه السلام قال من أحيا أرضا ميتة فهى له فالعبد لما أحيا أرضا فهى له فالرب لما خلق القلب وأحياه بنور الايمان فكيف يجوز أن يكون لغيره فيه نصيب قل الله ثم ذرهم وكما أن الايمان حياة القلب فالكفر موته أموات غير أحياء وما يشعرون (وثانيها) الشفاء ويشف صدور قوم مؤمنين فلما رغب موسى فى الشفاء رفع الايدى قال رب اشرح لى صدرى والنكتة انه تعالى لما جعل الشفاء فى العسل بقى شفاء أبدا فههنا لما وضع الشفاء فى الصدر فكيف لا يبقى شفاء أبدا (وثالثها) الطهارة أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى فلما رغب موسى عليه السلام فى تحصيل طهارة التقوى قال رب اشرح لى صدرى والنكتة ان الصائغ اذا امتحن الذهب مرة فبعد ذلك لا يدخله فى النار فههنا لما امتحن الله قلب المؤمن فكيف يدخله النار ثانيا ولكن الله يدخل فى النار قلب

لأكمل (ولما جاء أمرنا) أى نزل عذابنا وفى التعبير عنه بالامر مضافا الى ضميره جل جلاله وعن نزوله بالمجىء ما لا يخفى من التفخيم والتهويل أو ورد أمرنا بالعذاب (نجينا هودا والذين آمنوا معه) وكانوا أربعة آلاف (برحمة) عظيمة كائنة له (منا) وهى الايمان الذى أنعمنا به عليهم بالتوفيق له والهداية اليه (ونجيناهم من عذاب غليظ) أى كانت تلك التنجية تنجية من عذاب غليظ وهى السموم التى كانت تدخل أنوف الكفرة وتخرج من أدبارهم فتقطعهم اربا اربا وقيل أريد بالثانية التنجية من عذاب الآخرة ولا عذاب أغلظ منه وأشد وهذه التنجية وان لم تكن مقيدة بمجىء الامر لكن جىء بها تكملة للنعمة عليهم وتعريضا بان المهلكين كما عذبوا فى الدنيا بالسموم فهم معذبون فى الآخرة بالعذاب الغليظ (وتلك عاد) أنث اسم الاشارة باعتبار القبيلة أو لان الاشارة الى قبورهم وآثارهم (جحدوا بآيات ربهم) كفروا بها بعد ما استيقنوها (وعصوا رسله) جمع الرسل مع انه لم يرسل اليهم غير هود عليه الصلاة والسلام تفظيعا لحالهم واظهارا لكمال كفرهم وعنادهم ببيان أن عصيانهم له عليه الصلاة والسلام عصيان لجميع الرسل السابقين واللاحقين لاتفاق كلمتهم على التوحيد لا نفرق بين أحد من رسله فيجوز أن يراد بالآيات ما أتى به هود وغيره من الانبياء عليهم السلام وفيه زيادة ملاءمة لما تقدم من جميع الآيات وما تأخر من قوله (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) من كبرائهم ورؤسائهم الدعاة الى الضلال والى تكذيب الرسل فكأنه قيل عصوا كل رسول واتبعوا أمر كل جبار وهذا الوصف ليس كما سبق من جحود الآيات وعصيان الرسل فى الشمول لكل فرد فرد منهم فان الاتباع للامر من أوصاف الاسافل دون الرؤساء وعنيد فعيل من

عند عنادا وعندا اذا طغوا والمعنى عصوا من دعاهم الى الهدى وأطاعوا من دعاهم الى الردى (وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة) ابعادا عن الرحمة وعن كل خير أى جعلت اللعنة لازمة لهم وعبر عن ذلك بالتبعية للمبالغة فكانها لا تفارقهم وان ذهبوا كل مذهب بل تدور معهم حيثما داروا ولوقوعه فى صحبة اتباعهم رؤساءهم يعنى انهم لما اتبعوهم أتبعوا ذلك جزاء لصنيعهم جزاء وفاقا (ويوم القيامة) أى أتبعوا يوم القيامة أيضا لعنة وهى عذاب النار المخلد حذفت لدلالة الاولى عليها وللايذان بكون كل من اللعنتين نوعا برأسه لم يجتمعا فى قرن واحد بأن يقال وأتبعوا فى هذه الدنيا ويوم القيامة لعنة كما فى قوله تعالى واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة ايذانا باختلاف نوعى الحسنتين فان المراد بالحسنة الدنيوية نحو الصحة والكفاف والتوفيق للخير وبالحسنة الاخروية الثواب والرحمة (ألا ان عادا كفروا ربهم) أى بربهم أونعمة ربهم جملاله على تقيضه الذى هو الشكر أو جحدوه (ألا بعدا لعاد) دعاء عليهم بالهلاك مع كونهم هالكين أى هلاك تسجيلا عليهم باستحقاق الهلاك واستيجاب الدمار وتكرير حرف التنبيه واعادة عاد للمبالغة فى تفظيع حالهم والحث على الاعتبار بقصتهم (قوم هود) عطف بيان لعاد فائدته التمييز عن عاد الثانية عادارم والايماء الى أن استحقاقهم للبعد بسبب ماجرى بينهم وبين هود عليه الصلاة والسلام وهم قومه (والى ثمود أخاهم صالحا) اما عطف على ما سبق من قوله تعالى والى عاد أخاهم هودا وثمود قبيلة من العرب سموا باسم أبيهم الاكبر ثمود بن عابر بن ارم بن سام وقيل انما سموا بذلك لقلة مائهم من الثمد وهو الماء القليل وصالح عليه الصلاة والسلام هو ابن عبيد بن آسف بن ماشح بن عبيد بن حادر بن

الكافر ليميز الله الخبيث من الطيب (ورابعها) الهداية ومن يؤمن بالله يهد قلبه فرغب موسى عليه السلام فى طلب زوائد الهداية فقال رب اشرح لى صدرى والنكتة أن الرسول يهدى نفسك والقرآن يهدى روحك والمولى يهدى قلبك فلما كانت الهداية من الكفر من محمد صلى الله عليه وسلم لاجرم تارة تحصل وأخرى لاتحصل انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهداية الروح لما كانت من القرآن فتارة تحصل وأخرى لاتحصل يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا أما هداية القلب فلما كانت من الله تعالى فانها لاتزول لان الهادى لايزول ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم (وخامسها) الكتابة أولئك كتب فى قلوبهم الايمان فلما رغب موسى عليه السلام فى تلك الكتابة قال رب اشرح لى صدرى ٭ وفيه نكت (الاولى) ان الكاغدة ليس لها خطر عظيم واذا كتب فيها القرآن لم يجز احراقها فقلب المؤمن كتب فيه جميع أحكام ذات الله تعالى وصفاته فكيف يليق بالكريم احراقه (الثانية) بشر الحافى أكرم كاغدا فيه اسم الله تعالى فنال سعادة الدارين فاكرام قلب فيه معرفة الله تعالى أولى بذلك (والثالثة) كاغد ليس فيه خط اذا كتب فيه اسم الله الاعظم عظم قدره حتى انه لايجوز للجنب والحائض ان يمسه بل قال الشافعى رحمه الله تعالى ليس له ان يمس جلد المصحف وقال الله تعالى لايمسه الا المطهرون فالقلب الذى فيه أكرم المخلوقات ولقد كرمنا بنى آدم كيف يجوز للشيطان الخبيث أن يمسه والله أعلم (وسادسها) السكينة هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين فلما رغب موسى عليه السلام فى طلب السكينة قال رب اشرح لى صدرى والنكتة ان أبا بكر رضى الله عنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان خائفا فلما نزلت السكينة عليه قال لاتحزن فلما نزلت سكينة الايمان فرحوا أن يسمعوا خطاب ان لاتخافوا ولا تحزنوا وأيضا لما نزلت السكينة صار من الخلفاء وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض اى ان يصيروا خلفاء الله فى أرضه ٭ (وسابعها) المحبة والزينة ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم والنكتة ان من ألقى حبة فى أرض فانه لا يفسدها ولا يحرقها فهو سبحانه وتعالى ألقى حبة المحبة فى أرض القلب فكيف يحرقها (وثامنها) وألف بين قلوبكم والنكتة أن محمدا صلى الله عليه وسلم ألف بين قلوب أصحابه ثم انه ما تركهم غيبة ولا حضورا سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فالرحيم كيف يتركهم (وتاسعها) الطمأنينة ألا بذكر الله تطمئن القلوب وموسى طلب الطمأنينة فقال رب اشرح لى صدرى والنكتة ان حاجة العبد لانهاية لها فلو انه أعطى كل ما فى العالم من الاجسام فانه لايكفيه لان حاجته غير متناهية والاجسام متناهية والمتناهى لايصير مقابلا لغير المتناهى بل الذى يكفى فى الحاجة الغير المتناهية الكمال الذى لانهاية له وما ذاك الا الحق سبحانه وتعالى فلهذا قال ألا بذكر الله تطمئن القلوب ولما عرفت حقيقة شرح الصدر للمؤمنين فاعرف صفات قلوب الكافرين لوجوه (أحدها) فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم (وثانيها) ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم (وثالثها) فى قلوبهم مرض (ورابعها) جعلنا قلوبهم قاسية (وخامسها) انا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه (وسادسها) ختم الله على قلوبهم (وسابعها) أم على قلوب أقفالها (وثامنها) كلا بل ران على قلوبهم (وتاسعها) أولئك الذين طبع الله على قلوبهم الهنا وسيدنا بفضلك واحسانك أغلق هذه الابواب التسعة من خذلانك عنا واجبرنا باحسانك وافتح لنا تلك الابواب التسعة من احسانك بفضلك ورحمتك انك على ما تشاء قدير ﴿الفصل الخامس﴾ فى حقيقة شرح الصدر ذكر العلماء فيه وجهين (الاول) أن لايبقى للقلب التفات الى الدنيا لا بالرغبة ولا بالرهبة

ثم ردوا لما كان الاخبار بارساله اليهم مظنة لان يسئل ويقال ماذا قال لهم قيل لمجيوا باعثه بطريق الاستئناف (قال ياقوم اعبدوا الله) أي وحده وعلل ذلك بقوله (ما لكم من اله غيره) ثم زيد فيما بينهم على الايمان والتوحيد ويحثهم على زيادة الاخلاص فيه بقوله (هو نشأكم من الارض) أي هو كونكم وخلقكم منها الا غيره قصر قلب أو قصر افراد فان ٢٣ خلق آدم عليه الصلاة والسلام منها خلق لجميع أفراد البشر منها لما مر مرارا من أن خلقه عليه الصلاة والسلام لم تكن مقصورة على نفسه بل كانت أنموذجا منطويا على خلق جميع ذرياته التي ستوجد الى يوم القيامة انطواء اجماليا وقيل ان خلق آدم عليه الصلاة والسلام وانشاء مواد النطف التي منها خلق نسله من التراب انشاء لجميع الخلق من الارض فتدبر (واستعمركم) من العمر أي عمركم واستبقاكم (فيها) أو من العمارة أي أقدركم على عمارتها أو أمركم بها وقيل هو من العمرى بمعنى أعمركم فيها دياركم ويرثها منكم بعد انصرام أعماركم أو جعلكم معمرين دياركم تسكنونها مدة عمركم ثم تتركونها لغيركم (فاستغفروه ثم توبوا اليه) فان ما فصل من فنون الاحسان داع الى الاستغفار عما وقع منهم من التفريط والتوبة عما كانوا يباشرونه من القبائح وقد زيد في بيان ما يوجب ذلك فقيل (ان ربي قريب) أي قريب الرحمة كقوله تعالى ان رحمة الله قريب من المحسنين (مجيب) لمن دعاه وسأله وقد روعي في النظم الكريم نكتة حيث قدم ذكر العلة الباعثة المقدمة على الامر بالاستغفار والتوبة وأخر عنه ذكر الغائية المتأخرة عنهما في الوجود أعني الاجابة (قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا) أي كنا نرجو منك لما كنا نرى منك من دلائل السداد ومخايل الرشاد أن تكون لنا

أما الرغبة فهي أن يكون متعلق القلب بالاهل والولد وبتحصيل مصالحهم ودفع المضار عنهم وأما الرهبة فهي أن يكون خائفا من الاعداء والمنازعين فاذا شرح الله صدره صغر كل ما يتعلق بالدنيا في عين همته فيصير كالذباب والبق والبعوض لا تدعوه رغبة اليها ولا تمنعه رهبة عنها فيصير الكل عنده كالعدم وحينئذ يقبل القلب بالكلية نحو مرضاة الله تعالى فان القلب في المثال كينبوع من الماء والقوة البشرية لضعفها كالينبوع الصغير فاذا فرقت ماء العين الواحدة على الجداول الكثيرة ضعفت الكل فأما اذا انصب الكل في موضع واحد قوي فسأل موسى عليه السلام ربه أن يشرح له صدره بان يوقفه على معايب الدنيا وقبح صفاتها حتى يصير قلبه نفورا عنها فاذا حصلت النفرة توجه الى عالم القدس ومنازل الروحانيات بالكلية (الثاني) ان موسى عليه السلام لما نصب لذلك المنصب العظيم احتاج الى تكاليف شاقة منها ضبط الوحي والمواظبة على خدمة الخالق سبحانه وتعالى ومنها اصلاح العالم الجسداني فكأنه صار مكلفا بتدبير العالمين والالتفات الى أحدهما يمنع من الاشتغال بالآخر ألا ترى ان المشتغل بالابصار يصير ممنوعا عن السماع والمشتغل بالسماع يصير ممنوعا عن الابصار والخيال فهذه القوى متجاذبة متنازعة وان موسى عليه السلام كان محتاجا الى الكل ومن استأنس بجمال الحق استوحش من جمال الخلق فسأل موسى ربه أن يشرح صدره بان يفيض عليه كمالا من القوة لتكون قوته وافية بضبط العالمين فهذا هو المراد من شرح الصدر * وذكر العلماء لهذا المعنى أمثلة (المثال الاول) اعلم ان البدن بالكلية كالمملكة والصدر كالقلعة والفؤاد كالقصر والقلب كالتخت والروح كالملك والعقل كالوزير والشهوة كالعامل الكبير الذي يجلب النعم الى البلدة والغضب كالاسفهسالار الذي يشتغل بالضرب والتأديب أبدا والحواس كالجواسيس وسائر القوى كالخدم والعملة والصناع ثم ان الشيطان خصم لهذه البلدة ولهذه القلعة ولهذا الملك فالشيطان هو الملك والهوى والحرص وسائر الاخلاق الذميمة جنوده فأول ما أخرج الروح وزيره وهو العقل فكذا الشيطان أخرج في مقابلته الهوى فجعل العقل يدعو الى الله تعالى والهوى يدعو الى الشيطان ثم ان الروح أخرج الفطنة اعانة للعقل فأخرج الشيطان في مقابلة الفطنة الشهوة فالفطنة توقفك على معايب الدنيا والشهوة تحركك الى لذات الدنيا ثم ان الروح أمد الفطنة بالفكر لتقوى الفطنة بالفكرة فتقف على الحاضر والغائب من المعايب على ما قال عليه السلام تفكر ساعة خير من عبادة سنة فأخرج الشيطان في مقابلة الفكرة الغفلة ثم أخرج الروح الحلم والثبات فان العجلة ترى الحسن قبيحا والقبيح حسنا والحلم يوقف العقل على قبح الدنيا فأخرج الشيطان في مقابلته العجلة والسرعة فلهذا قال عليه السلام ما دخل الرفق في شئ الا زانه ولا الخرق في شئ الا شانه ولهذا خلق السموات والارض في ستة أيام ليتعلم منه الرفق والثبات فهذه هي الخصومة الواقعة بين الشخصين وقلبك ملك وصدرك هو القلعة ثم ان لهذا الصدر الذي هو القلعة خندقا وهو الزهد في الدنيا وعدم الرغبة فيها وله سور وهو الرغبة في الآخرة ومحبة الله تعالى فان كان الخندق عظيما والسور قويا عجز عسكر الشيطان عن تخريبه فرجعوا وراءهم وتركوا القلعة كما كانت وان كان خندق الزهد غير عميق وسور حب الآخرة غير قوي قدر الخصم على استفتاح قلعة الصدر فيدخلها ويبيت فيها جنوده من الهوى والعجب والكبر والبخل وسوء الظن بالله تعالى والنميمة والغيبة فيحصر الملك في القصر ويضيق الامر عليه فاذا جاءه مدد التوفيق وأخرج هذا العسكر من القلعة انفسح الامر وانشرح الصدر وخرجت ظلمات الشيطان ودخلت أنوار هداية رب العالمين وذلك هو المراد بقوله رب اشرح لي صدري (المثال الثاني) اعلم ان معدن النور هو القلب واشتغال الانسان

سيدا ومستشارا فى الامور عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما فاضلا خيرا نقدمك على جميعنا وقيل كنا نرجو أن تدخل فى ديننا وتوافقنا على مانحن عليه (قبل هذا) الذى باشرته من الدعوة الى التوحيد وترك عبادة الآلهة أو قبل هذا الوقت فكانهم لم يكونوا الى الآن على يأس من ذلك ولو بعد ٣٤ الدعوة الى الحق فالآن قد انصرم عنك رجاؤنا وقرأ طلحة مرجوا بالمد والهمزة (أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا) أى عبدوه والعدول الى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية (واننا لفى شك مما تدعونا اليه) من التوحيد وترك عبادة الاوثان وغير ذلك من الاستغفار والتوبة (مريب) أى موقع فى الريبة من ارابه أى أوقعه فى الريبة أى قلق النفس وانتفاء الطمأنينة أو من اراب اذا كان ذا ريبة وأيهما كان فالاسناد مجازى والتنوين فيه وفى شك للتفخيم (قال ياقوم أرأيتم) أى أخبرونى (ان كنت) فى الحقيقة (على بينة) أى حجة ظاهرة وبرهان وبصيرة (من ربى) مالكى ومتولى أمرى (وآتانى منه) من جهته (رحمة) نبوة وهذه الامور وان كانت محققة الوقوع لكنها صدرت بكلمة الشك اعتبارا لحال المخاطبين ورعاية لحسن المحاورة لاستنزالهم عن المكابرة (فمن ينصرنى من الله) أى ينجينى من عذابه والعدول الى الاظهار لزيادة التهويل والفاء لترتيب انكار النصرة على ماسبق من ايتاء النبوة وكونه على بينة من ربه على تقدير العصيان حسبما الله يعرب عنه قوله تعالى (ان عصيته) أى بالمساهلة فى تبليغ الرسالة والمجاراة معكم فيما تأتون وتذرون فان العصيان ممن ذلك شأنه أبعد والمؤاخذة عليه ألزم وانكار نصرته أدخل (فما تزيدوننى) اذن باستتباعكم اياى كما ينبئ عنه قولهم قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أى

بالزوجة والولد والرغبة فى مصاحبة الناس والخوف من الاعداء هو الحجاب المانع من وصول نور شمس القلب الى فضاء الصدر فاذا قوى الله بصيرة العبد حتى طالع عجز الخلق وقلة فائدتهم فى الدارين صغروا فى عينه ولا شك فى أنهم من حيث هم عدم محض على ماقال تعالى كل شئ هالك الا وجهه فلا يزال العبد يتأمل فيما سوى الله تعالى الى أن يشاهد انهم عدم محض فعند ذلك يزول الحجاب بين قلبه وبين أنوار جلال الله تعالى واذا زال الحجاب امتلأ القلب من النور فذلك هو انشراح الصدر (الفصل السادس) فى الصدر اعلم انه يجئ والمراد منه القلب أفمن شرح الله صدره للاسلام رب اشرح لى صدرى وحصل مافى الصدور يعلم خائنة الاعين وماتخفى الصدور وقد يجئ والمراد الفضاء الذى فيه الصدر فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور واختلف الناس فى ان محل العقل هل هو القلب أو الدماغ وجمهور المتكلمين على انه القلب وقد شرحنا هذه المسئلة فى سورة الشعراء فى تفسير قوله نزل به الروح الامين على قلبك وقال بعضهم المراد أربعة الصدر والقلب والفؤاد واللب فالصدر مقر الاسلام أفمن شرح الله صدره للاسلام والقلب مقر الايمان ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم والفؤاد مقر المعرفة ما كذب الفؤاد مارأى ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا واللب مقر التوحيد انما يتذكر أولوا الالباب واعلم أن القلب أول ما بعث الى هذا العالم بعث خاليا عن النقوش كاللوح الساذج وهو فى عالم البدن كاللوح المحفوظ ثم انه تعالى يكتب فيه بقلم الرحمة والعظمة كل ما يتعلق بعالم العقل من نقوش الموجودات وصور الماهيات وذلك يكون كالسطر الواحد الى آخر قيام القيامة لهذا العالم الاصغر وذلك هو الصورة المجردة والحالة المطهرة ثم ان العقل يركب سفينة التوفيق ويلقيها فى بحار أمواج المعقولات وعوالم الروحانيات فيحصل من مهاب رياح العظمة والكبرياء رخاء السعادة تارة ودبور الادبار أخرى فربما وصلت سفينة النظر الى جانب مشرق الجلال فتسطع عليه أنوار الالهية ويتخلص العقل عن ظلمات الضلالات وربما توغلت السفينة فى جنوب الجهالات فتنكسر وتغرق فحينما تكون السفينة فى ملتطم أمواج العزة يحتاج حافظ السفينة الى التماس الانوار والهدايات فيقول هنالك رب اشرح لى صدرى واعلم ان العقل اذا أخذ فى الترقى من سفل الامكان الى علو الوجوب كثر اشتغاله بمطالعة الماهيات ومقارنة المجردات والمفارقات ومعلوم ان كل ماهية فهى اماهى معه أو هى له فان كانت هى معه امتلأت البصيرة من أنوار جلال العزة الالهية فلا يبقى هنالك مستطلع لمطالعة سائر الانوار فيضمحل كل ماسواه من بصره وبصيرته وان وقعت المطالعة لما هو له حصلت هنالك حالة عجيبة وهى انه لو وضعت كرة صافية من البلور فوقع عليها شعاع الشمس فينعكس ذلك الشعاع الى موضع معين فذلك الموضع الذى اليه ينعكس الشعاعات يحترق فجميع الماهيات الممكنة كالبلور الصافى الموضوع فى مقابلة شمس القدس ونور العظمة ومشرق الجلال فاذا وقع للقلب التفات اليها حصلت للقلب نسبة اليها بأسرها فينعكس شعاع كبرياء الالهية عن كل واحد منها الى القلب فيحترق القلب ومعلوم أنه كلما كان المحرق أكثر كان الاحتراق أتم فقال رب اشرح لى صدرى حتى أقوى على ادراك درجات الممكنات فأصل الى مقام الاحتراق بأنوار الجلال وهذا هو المراد بقوله عليه السلام أرنا الاشياء كما هى فلما شاهد احتراقها بأنوار الجلال قال لا أحصى ثناء عليك (الفصل السابع) فى بقية الابحاث انما قال رب اشرح لى صدرى ولم يقل يقل رب اشرح صدرى ليظهر ان منفعة ذلك الشرح عائدة الى موسى عليه السلام لا الى الله وأما كيفية شرح صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمفاضلة بينه وبين شرح صدر موسى عليه السلام فنذكره ان شاء

لا تفيدونني اذلم يكن فيه أصل الخسران حتى يزيدوه (غير تخسير) أى غير ان تجعلوني خاسرا بابطال أعمالى وتعريضى لسخط الله تعالى أوفما تزيدونني بما تقولون غير أن أنسبكم الى الخسران وأقول لكم انكم الخاسرون فالزيادة على معناها والفاء لترتيب عدم الزيادة على انتفاء الناصر المفهوم من انكاره على تقدير العصيان مع تحقق ما ينفيه من كونه

عليه الصلاة والسلام على بينة من ربه وايتائه

الله فى تفسير قوله ألم نشرح لك صدرك والله أعلم بالصواب (المطلوب الثانى) قوله ويسرلى أمرى والمراد منه عند أهل السنة خلقها وعند المعتزلة تحريك الدواعى والبواعث بفعل الالطاف المسهلة فان قيل كل ما أمكن من اللطف فقد فعله الله تعالى فأى فائدة فى هذا السؤال قلنا يحتمل أن يكون هناك من الالطاف ما لا يحسن فعلها الا بعد هذا السؤال ففائدة السؤال حسن فعل تلك الالطاف (المطلوب الثالث) قوله واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان النطق فضيلة عظيمة ويدل عليه وجوه (أحدها) قوله تعالى خلق الانسان علمه البيان ولم يقل وعلمه البيان لانه لو عطفه عليه لكان مغايرا له أما اذا ترك الحرف العاطف صار قوله علمه البيان كالتفسير لقوله خلق الانسان كأنه انما يكون خالقا للانسان اذا علمه البيان وذلك يرجع الى الكلام المشهور من ان ماهية الانسان هى الحيوان الناطق (وثانيها) اتفاق العقلاء على تعظيم أمر اللسان قال زهير

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ✽ فلم يبق الاصورة اللحم والدم

وقال على ما الانسان لولا اللسان الابهيمة مهملة أو صورة ممثلة والمعنى انا لو أزلنا الادراك الذهنى والنطق اللسانى لم يبق من الانسان الا القدر الحاصل فى البهائم وقالوا المرء بأصغريه قلبه ولسانه وقال صلى الله عليه وسلم المرء مخبوء تحت لسانه (وثالثها) ان فى مناظرة آدم مع الملائكة ما ظهرت الفضيلة الا بالنطق حيث قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض (ورابعها) ان الانسان جوهر مركب من الروح والقالب وروحه من عالم الملائكة فهو يستفيد أبدا صور الغيبيات من عالم الملائكة ثم بعد تلك الاستفادة يفيضها على عالم الاجسام وواسطته فى تلك الاستفادة هى الفكر الذهنى وواسطته فى هذه الافادة هى النطق اللسانى فكما ان تلك الواسطة أعظم العبادات حتى قيل تفكر ساعة خير من عبادة سنة فكذلك لواسطة فى الافادة يجب أن تكون أشرف الاعضاء فقوله رب اشرح لى صدرى اشارة الى طلب النور الواقع فى الروح وقوله ويسرلى أمرى اشارة الى تحصيل ذلك وتسهيل ذلك التحصيل وعند ذلك يحصل الكمال فى تلك الاستفادة الروحانية فلا يبقى بعد هذا الا المقام البيانى وهو افاضة ذلك الكمال على الغير وذلك لا يكون الا باللسان فلهذا قال واحلل عقدة من لسانى (وخامسها) وهو ان العلم أفضل المخلوقات على ما ثبت والجود والاعطاء أفضل الطاعات وليس فى الاعضاء أفضل من اليد فاليد لما كانت آلة فى العطية الجسمانية قيل اليد العليا خير من اليد السفلى فالعلم الذى هو خير من المال لما كانت آلة اعطائه اللسان وجب أن يكون أشرف الاعضاء ولا شك أن اللسان هو الآلة فى اعطاء المعارف فوجب أن يكون أشرف الاعضاء ومن الناس من مدح الصمت لوجوه (أحدها) قوله عليه السلام الصمت حكمة وقليل فاعله ويروى ان الانسان تفكر أعضاؤه اللسان ويقلن اتق الله فينا فانك ان استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا (وثانيها) ان الكلام على أربعة أقسام منه ما ضرره خالص أو راجح ومنه ما يستوى الضرر والنفع فيه ومنه ما نفعه راجح ومنه ما هو خالص النفع أما الذى ضرره خالص أو راجح فواجب الترك والذى يستوى الامران فيه فهو عبث فبقى القسمان الاخيران وتخليصهما عن زيادة الضرر عسر فالاولى ترك الكلام (وثالثها) ان ما من موجود أو معدوم خالق أو مخلوق معلوم أو موهوم الا واللسان يتناوله ويتعرض له باثبات أو نفى فان كل ما يتناوله الضمير يعبر عنه اللسان بحق أو باطل وهذه خاصية لا توجد فى سائر الاعضاء فان العين لا تصل الى غير الالوان والصور والآذان لا تصل الا الى الاصوات والحروف واليد لا تصل الى غير الاجسام وكذا سائر الاعضاء بخلاف اللسان فانه رحب الميدان

النبوة (وياقوم هذه ناقة الله) الاضافة للتشريف والتنبيه على أنها مفارقة لسائر ما يجانسها من حيث الخلقة ومن حيث الخلق (لكم آية) معجزة دالة على صدق نبوتى وهى حال من ناقة الله والعامل ما فى هذه من معنى الفعل ولكم حال من آية متقدمة عليها لكونها نكرة ولو تأخرت لكانت صفة لها ويجوز أن يكون ناقة الله بدلا من هذه أو عطف بيان ولكم خبرا وعاملا فى آية (فذروها) خلوها وشأنها (تأكل فى أرض الله) ترع نباتها وتشرب ماءها واضافة الارض الى الله تعالى لتربية استحقاقها لذلك وتعليل الامر بتركها وشأنها (ولا تمسوها بسوء) بولغ فى النهى عن التعرض لها بما يضرها حيث نهى عن المس الذى هو من مبادى الاصابة ونكر السوء أى لا تضربوها ولا تطردوها ولا تقربوها بشئ من السوء فضلا عن عقرها وقتلها (فيأخذكم عذاب قريب) أى قريب النزول

روى أنهم طلبوا منه أن يخرج من صخرة تسمى الكاثبة ناقة عشراء مخترجة جوفاء وبراء وقالوا ان فعلت ذلك صدقناك فأخذ صالح عليه الصلاة والسلام عليهم مواثيقهم لئن فعلت ذلك لتؤمنن فقالوا نعم فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها فانصدعت عن ناقة عشراء كما وصفوا وهم ينظرون ثم أنتجت ولدا مثلها فى العظم فآمن به جندع بن عمرو فى جماعة ومنع الباقين من

الايمان دواب بن عمرو والحباب صاحب أوثانهم ورباب كاهنهم فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وترد الماء غبا فما ترفع رأسها من البئر حتى تشرب كل ما فيها ثم تتفحج فيحلبون ما شاؤا حتى تمتلئ أوانيهم فيشربون ويدخرون وكانت تصيف بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم الى بطنه وتشتو ببطنه فتهرب ٣٦ مواشيهم الى ظهره فشق عليهم ذلك (فعقروها) قيل زينت عقرها لهم عنيزة أم غنم وصدقة بنت المختار فعقروها واقتسموا لحمها فرقي سقبها جبلا اسمه قارة فرغا ثلاثا فقال صالح لهم ادركوا الفصيل عسى ان يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه وانفجرت الصخرة بعد رغائه فدخلها (فقال) لهم صالح (تمتعوا) أي عيشوا (في داركم) أي في منازلكم أو في الدنيا (ثلاثة أيام) قيل قال لهم تصبح وجوهكم غدا مصفرة وبعد غد محمرة واليوم الثالث مسودة ثم يصبحكم العذاب (ذلك) اشارة الى ما يدل عليه الامر بالتمتع ثلاثة أيام من نزول العذاب عقيبها والمراد بما فيه من معنى البعد تفخيمه (وعد غير مكذوب) أي غير مكذوب فيه فحذف الجار للاتساع المشهور كقوله

ويوم شهدناه سليما وعامرا

أو غير مكذوب كأن الواعد قال له أفي بك فان وفى به صدقه والا كذبه أو وعد غير كذب على أنه مصدر كالمجلود والمعقول (فلما جاء أمرنا) أي عذابنا أو أمرنا بنزوله وفيه ما لا يخفى من التهويل (نجينا صالحا والذين آمنوا معه) متعلق بنجينا أو بآمنوا (برحمة) بسبب رحمة عظيمة والتظاهر (منا) وهي بالنسبة الى صالح النبوة والى المؤمنين الايمان كما مر أو ملتبسين برحمة ورأفة منا (ومن خزي يومئذ) أي ونجيناهم من خزي يومئذ وهو هلاكهم بالصيحة كقوله تعالى ونجيناهم من عذاب غليظ على معنى أنه كانت تلك التنجية تنجية من خزي يومئذ أي من ذلته

ليس له نهاية ولا حد فله في الخير مجال رحب وله في الشر مجال رحب وانه خفيف المؤنة سهل التحصيل بخلاف سائر المعاصي فانه يحتاج فيها الى مؤن كثيرة لا يتيسر تحصيلها في الاكثر فلذلك كان الاولى ترك الكلام (ورابعها) قالوا ترك الكلام له أربعة أسماء الصمت والسكوت والانصات والاصاغة فأما الصمت فهو أعمها لانه يستعمل فيما يقوى على النطق وفيما لا يقوى عليه ولهذا يقال مال ناطق وصامت وأما السكوت فهو ترك الكلام ممن يقدر على الكلام والانصات سكوت مع استماع ومتى انفك أحدهما عن الآخر لا يقال له انصات قال تعالى فاستمعوا له وأنصتوا والاصاغة استماع الى ما يصعب ادراكه كالسر والصوت من المكان البعيد واعلم ان الصمت عدم ولا فضيلة فيه بل النطق في نفسه فضيلة والرذيلة في محاورته ولولاه لما سأل كليم الله ذلك في قوله تعالى واحلل عقدة من لساني (المسئلة الثانية) اختلفوا في تلك العقدة التي كانت في لسان موسى عليه السلام على قولين (الاول) كان ذلك التعقد خلقة الله تعالى فسأل الله تعالى ازالته (الثاني) السبب فيه انه عليه السلام حال صباه أخذ لحية فرعون ونتفها فهم فرعون بقتله وقال هذا هو الذي يزول ملكي على يده فقالت آسية انه صبي لا يعقل وعلامته ان تقرب منه التمرة والجمرة فقربا اليه فأخذ الجمرة فجعلها في فيه وهؤلاء اختلفوا فمنهم من قال لم تحترق اليد ولا اللسان لان اليد آلة أخذ العصا وهي الحجة واللسان آلة الذكر فكيف يحترق ولان ابراهيم عليه السلام لم يحترق بنار نمروذ وموسى عليه السلام لم يحترق حين ألقي في التنور فكيف يحترق هنالك ومنهم من قال احترقت اليد دون اللسان لئلا يحصل حق المواكلة والمملحة (الثالث) احترق اللسان دون اليد لان الصولة ظهرت باليد أما اللسان فقد خاطبه بقوله يا أبت (والرابع) احترقا معا لئلا تحصل المواكلة والمخاطبة (المسئلة الثالثة) اختلفوا في أنه عليه السلام لم طلب حل تلك العقدة على وجوه (أحدها) لئلا يقع في أداء الرسالة خلل البتة (وثانيها) لازالة التنفير لان العقدة في اللسان قد تفضي الى الاستخفاف بقائلها وعدم الالتفات اليه (وثالثها) اظهارا للمعجزة فكما ان حبس لسان زكريا عليه السلام عن الكلام كان معجزا في حقه فكذا اطلاق لسان موسى عليه السلام معجز في حقه (ورابعها) طلب السهولة لان ايراد مثل هذا الكلام على مثل فرعون في جبروته وكبره عسر جدا فاذا انضم اليه تعقد اللسان بلغ العسر الى النهاية فسأل ربه ازالة تلك العقدة تخفيفا وتسهيلا (المسئلة الرابعة) قال الحسن رحمه الله ان تلك العقدة زالت بالكلية بدليل قوله تعالى قد أوتيت سؤلك يا موسى وهو ضعيف لانه عليه السلام لم يقل واحلل العقدة من لساني بل قال واحلل عقدة من لساني فاذا حل عقدة واحدة فقد آتاه الله سؤله والحق انه انحل أكثر العقد وبقي منها شيء قليل لقوله حكاية عن فرعون أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين أي يقارب أن لا يبين وفي ذلك دلالة على انه كان يبين مع بقاء قدر من الانعقاد في لسانه وأجيب عنه من وجهين (أحدهما) المراد بقوله ولا يكاد يبين أي لا يأتي ببيان ولا حجة (والثاني) ان كاد بمعنى قرب ولو كان المراد هو البيان اللساني لكان معناه أنه لا يقارب البيان فكان فيه نفي البيان بالكلية وذلك باطل لانه خاطب فرعون في الجمع وكانوا يفقهون كلامه فكيف يمكن نفي البيان أصلا بل انما قال ذلك تمويها ليصرف الوجوه عنه قال أهل الاشارة انما قال واحلل عقدة من لساني لان حل العقد كلها نصيب محمد صلى الله عليه وسلم وقال تعالى ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن فلما كان ذلك حقا اليتيم أبي طالب لا جرم ما دار حوله والله أعلم (المطلوب الرابع) قوله واجعل لي وزيرا من أهلي واعلم ان طلب الوزير اما أن يكون لانه خاف على نفسه العجز عن القيام بذلك الامر فطلب المعين أو لانه رأى أن للتعاون على الدين

ومهانته أوذلهم وفضيحتهم يوم القيامة كما فسربه العذاب الغليظ فيما سبق فيكون المعنى ونجيناهم من عذاب يوم القيامة بعد تنجيتنا
اياهم من عذاب الدنيا وعن نافع بالفتح على اكتساب المضاف البناء من المضاف اليه هنا وفي المعارج في قوله تعالى من عذاب يومئذ
وقرئ بالتنوين ونصب يومئذ (ان ربك) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ٣٧ (هو القوي العزيز) القادر على كل شئ
والغالب عليه لا غيره
ولكون الاخبار بتنجية
الاولياء لاسيما عند
الانباء بحلول العذاب
أهم ذكرها أولا ثم أخبر
بهلاك الاعداء فقال
(وأخذ الذين ظلموا)
عدل عن المضمر الى
المظهر تسجيلا عليهم
بالظلم واشعارا بعليته
لنزول العذاب بهم
(الصيحة) أي صيحة
جبريل عليه الصلاة
والسلام وقيل أتتهم من
السماء صيحة فيها صوت
كل صاعقة وصوت كل
شئ في الارض فتقطعت
قلوبهم في صدورهم وفي
سورة الاعراف
فأخذتهم الرجفة ولعلها
وقعت عقيب الصيحة
المستتبعة لتموج الهواء
(فأصبحوا) أي صاروا
(في ديارهم) أي بلادهم
أومساكنهم (جاثمين)
هامدين موتى لا يتحركون
والمراد كونهم كذلك
عند ابتداء نزول العذاب
بهم من غير اضطراب
وحركة كما يكون ذلك عند
الموت المعتاد ولا يخفى
ما فيه من الدلالة على
شدة الاخذ وسرعته
اللهم انا نعوذبك من حلول غضبك قيل لما رأوا العلامات التي بينها صالح من اصفرار وجوههم واحمرارها واسودادها عمدوا الى
قتله عليه الصلاة والسلام فنجاه الله تعالى الى أرض فلسطين ولما كان ضحوة اليوم الرابع وهو يوم السبت تحنطوا وتكفنوا بالانطاع
فأتتهم الصيحة فتقطعت قلوبهم فهلكوا (كأن لم يغنوا) أي كأنهم لم يقيموا (فيها) في بلادهم أوفي مساكنهم وهو في موقع الحال أي

والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة مزية عظيمة في أمر الدعاء الى الله ولذلك قال عيسى بن مريم من
أنصاري الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم حسبك الله ومن اتبعك من
المؤمنين وقال عليه السلام ان لي في السماء وزيرين وفي الارض وزيرين فاللذان في السماء جبريل
وميكائيل واللذان في الارض أبو بكر وعمر وههنا مسائل (المسئلة الاولى) الوزير من الوزر لانه يتحمل عن
الملك أوزاره ومؤنه أومن الوزر وهو الجبل الذي يتحصن به لان الملك يعتصم برأيه في رعيته ويفوض اليه
أموره أومن الموازرة وهي المعاونة والموازرة مأخوذة من ازار الرجل وهو الموضع الذي يشده الرجل اذا
استعد لعمل أمر صعب قاله الاصمعي وكان القياس أزيرا فقلبت الهمزة الى الواو (المسئلة الثانية) قال
عليه السلام اذا أراد الله بالملك خيرا قيض له وزيرا صالحا ان نسي ذكره وان نوى خيرا أعانه وان أراد
شرا كفه وكان أنوشروان يقول لا يستغنى أجود السيوف عن الصقل ولا أكرم الدواب عن الصوت ولا أعلم
الملوك عن الوزير (المسئلة الثالثة) ان قيل الاستعانة بالوزير انما يحتاج اليها الملوك أما الرسول المكلف
بتبليغ الرسالة والوحي من الله تعالى الى قوم على التعيين فمن أين ينفعه الوزير وأيضا فانه عليه السلام سأل
ربه أن يجعله شريكا له في النبوة فقال وأشركه في أمري فكيف يكون وزيرا والجواب عن الاول ان
التعاون على الامر والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة له مزية عظيمة في تأثير الدعاء الى الله تعالى
فكان موسى عليه السلام واثقا بأخيه هرون فسأل ربه أن يشد به أزره حتى يتحمل عنه ما يمكن من الثقل
في الابلاغ (المطلوب الخامس) أن يكون ذلك الوزير من أهله أي من أقاربه (المطلوب السادس) أن
يكون الوزير الذي من أهله هو أخوه هرون وانما سأل ذلك لوجهين (أحدهما) أن التعاون على الدين
منقبة عظيمة فأراد أن لا تحصل هذه الدرجة الا لاهله أولان كل واحد منهما كان في غاية المحبة لصاحبه
والموافقة له وقوله هرون في انتصابه وجهان (أحدهما) انه مفعول الجعل على تقدير اجعل هرون أخي
وزيرا لي (والثاني) على البدل من وزيرا وأخي نعت لهرون أوبدل واعلم ان هرون عليه السلام كان مخصوصا
بأمور منها الفصاحة لقوله تعالى عن موسى وأخي هرون هو أفصح مني لسانا ومنها انه كان فيه رفق قال يا ابن
أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ومنها انه كان أكبر سنا منه (المطلوب السابع) قوله اشدد به أزري وفيه
مسائل (المسئلة الاولى) القراءة العامة اشدد به وأشركه على الدعاء وقرأ ابن عامر وحده أشدد وأشركه
على الجزاء والجواب حكاية عن موسى عليه السلام أي أنا أفعل ذلك ويجوز لمن قرأ على لفظ الامر أن يجعل
أخي مرفوعا على الابتداء واشدد به خبره ويوقف على هرون (المسئلة الثانية) الازر القوة وآزره قواه قال
تعالى فآزره أي أعانه قال أبو عبيدة أزري أي ظهري وفي كتاب الخليل الازر الظهر (المسئلة الثالثة) انه
عليه السلام لما طلب من الله تعالى أن يجعل هرون وزيرا له طلب منه أن يشد به أزره ويجعله ناصرا له لانه
لا اعتماد على القرابة (المطلوب الثامن) قوله وأشركه في أمري والامر ههنا النبوة وانما قال ذلك لانه عليه
السلام علم انه يشد به عضده وهو أكبر منه سنا وأفصح منه لسانا ثم انه سبحانه وتعالى حكى عنه ما لاجله دعا
بهذا الدعاء فقال كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا والتسبيح يحتمل أن يكون باللسان وأن يكون بالاعتقاد
وعلى كلا التقديرين فالتسبيح تنزيه الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله عما لا يليق به وأما الذكر فهو عبارة
عن وصف الله تعالى بصفات الجلال والكبرياء ولا شك ان النفي مقدم على الاثبات أما قوله تعالى انك
كنت بنا بصيرا ففيه وجوه (أحدها) انك عالم بانا لا نريد بهذه الطاعات الا وجهك ورضاك ولا نريد
بها أحدا سواك (وثانيها) كنت بنا بصيرا لان هذه الاستعانة بهذه الاشياء لاجل حاجتي في النبوة اليها

أصبحوا جاثمين مماثلين لمن لم يوجد ولم يقم في مقام قط (ألا ان ثمود) وضع موضع الضمير لزيادة البيان ونونه أبو بكر هنا وفي النجم وقرأ حفص هنا وفي الفرقان والعنكبوت بغير تنوين (كفروا ربهم) صرح بكفرهم مع كونه معلوما مما سبق من أحوالهم تقبيحا لحالهم وتعليلا لاستحقاقهم بالدعاء ٣٨ عليهم بالبعد والهلاك في قوله تعالى (ألا بعدا لثمود) وقرأ الكسائي بالتنوين (ولقد جاءت رسلنا ابراهيم) وهم الملائكة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم جبريل وملكان وقيل هم جبريل وميكائيل واسرافيل عليهم السلام وقال الضحاك كانوا تسعة وعن محمد بن كعب جبريل ومعه سبعة وعن السدي أحد عشر على صور الغلمان الوضاء وجوههم وعن مقاتل كانوا اثني عشر ملكا وانما أسند اليهم مطلق المجيء بالبشرى دون الارسال لانهم لم يكونوا مرسلين اليه عليه السلام بل الى قوم لوط لقوله تعالى انا أرسلنا الى قوم لوط وانما جاؤه لداعية البشرى ولما كان المقصود في السورة الكريمة ذكر سوء صنيع الامم السالفة مع الرسل المرسلة اليهم ولحوق العذاب بهم بسبب ذلك ولم يكن جميع قوم ابراهيم عليه الصلاة والسلام ممن لحق بهم العذاب بل انما لحق بقوم لوط منهم خاصة غير الاسلوب المطرد فيما سبق من قوله تعالى والى عاد أخاهم هودا والى ثمود أخاهم صالحا ثم رجع اليه حيث قيل والى مدين أخاهم شعيبا (بالبشرى) أي ملتبسين بها قيل هي مطلق البشرى المنتظمة للبشارة بالولد من سارة لقوله تعالى اوحى فبشرناها باسحق الآية وقوله تعالى وبشرناه بغلام حليم وقوله وبشروه بغلام عليم وللبشارة بعدم لحوق الضرر به لقوله تعالى فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى اظهور تفرع المجادلة على مجيئها كما سيأتي وقيل هي البشارة بهلاك قوم لوط ويأباه مجادلته عليه

(وثالثها) انك بصير بوجوه مصالحنا فأعطنا ما هو أصلح لنا وانما قيد الدعاء بهذا الجلالة لربه عن أن يتحكم عليه وتفويضا للامر بالكلية اليه ﴿قوله تعالى﴾ ﴿قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ولقد مننا عليك مرة أخرى اذ أوحينا الى أمك ما يوحى أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني اذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك الى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى واصطنعتك لنفسي اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري اذهبا الى فرعون انه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾ اعلم ان السؤل هو الطلب فعل بمعنى مفعول كقولك خبز بمعنى مخبوز وأكل بمعنى مأكول واعلم ان موسى عليه السلام لما سأل ربه تلك الامور الثمانية وكان من المعلوم ان قيامه بما كلف به تكليف لا يتكامل الا باجابته اليها لا جرم أجابه الله تعالى اليها ليكون أقدر على الابلاغ على الحد الذي كلف فقال قد أوتيت سؤلك يا موسى وعد ذلك من النعم العظام عليه لما فيه من وجوه المصالح ثم قال ولقد مننا عليك مرة أخرى فنبه بذلك على أمور (أحدها) كأنه تعالى قال اني راعيت مصلحتك قبل سؤالك فكيف لا أعطيك مرادك بعد السؤال (وثانيها) اني كنت قد ربيتك فلو منعتك الآن مطلوبك لكان ذلك ردا بعد القبول واساءة بعد الاحسان فكيف يليق بكرمي (وثالثها) انا لما أعطيناك في الازمنة السالفة كل ما احتجت اليه ورقيناك من حالة نازلة الى درجة عالية دل هذا على أنا نصبناك لمنصب عال ومهم عظيم فكيف يليق بمثل هذه الرتبة المنع من المطلوب وههنا سؤالان ﴿السؤال الاول﴾ لم ذكر تلك النعم بلفظ المنة مع ان هذه اللفظة لفظة مؤذية والمقام مقام التلطف (والجواب) انما ذكر ذلك ليعرف موسى عليه السلام أن هذه النعم التي وصلت اليه ما كان مستحقا لشيء منها بل انما خصه الله تعالى بها بمحض التفضل والاحسان ﴿السؤال الثاني﴾ لم قال مرة أخرى مع أنه تعالى ذكر مننا كثيرة (والجواب) لم يعن بمرة أخرى مرة واحدة من المنن لان ذلك قد يقال في القليل والكثير واعلم ان المنن المذكورة ههنا ثمانية ﴿المنة الاولى﴾ قوله اذ أوحينا الى أمك ما يوحى أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له أما قوله اذ أوحينا فقد اتفق الاكثرون على ان أم موسى عليه السلام ما كانت من الانبياء والرسل فلا يجوز أن يكون المراد من هذا الوحي هو الوحي الواصل الى الانبياء وكيف لا نقول ذلك والمرأة لا تصلح للقضاء والامامة بل عند الشافعي رحمه الله لا تمكن من تزويجها نفسها فكيف تصلح للنبوة ويدل عليه قوله تعالى وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحي اليهم وهذا صريح في الباب وأيضا فالوحي قد جاء في القرآن لا بمعنى النبوة قال تعالى وأوحى ربك الى النحل وقال واذ أوحيت الى الحواريين ثم اختلفوا في المراد بهذا الوحي على وجوه (أحدها) المراد رؤيا رأتها أم موسى عليها السلام وكان تأويلها وضع موسى عليه السلام في التابوت وقذفه في البحر وأن الله تعالى يرده اليها (وثانيها) ان المراد عزيمة جازمة وقعت في قلبها دفعة واحدة فكل من تفكر فيما وقع اليه ظهر له الرأي الذي هو أقرب الى الخلاص ويقال لذلك الخاطر انه وحي (وثالثها) المراد منه الالهام لكنا متى بحثنا عن الالهام كان معناه خطور رأي بالبال وغلبته على القلب فيصير هذا هو الوجه الثاني وهذه الوجوه الثلاثة يعترض عليها بأن الالقاء في البحر قريب من الاهلاك وهو مساو للخوف الحاصل من القتل المعتاد من فرعون فكيف يجوز الاقدام على أحدهما لاجل الصيانة عن الثاني * والجواب لعلها عرفت بالاستقراء صدق رؤياها فكان افضاء الالقاء في البحر الى السلامة أغلب على ظنها من وقوع الولد في يد فرعون (ورابعها) لعله

الصلاة والسلام في شأنهم والاظهر أنها البشارة بالولد وستعرف سر تفرع المجادلة على ذلك ولما كان الاخبار بمجيئهم بالبشرى مظنة لسؤال السامع بأنهم ماقالوا أجيب بأنهم (قالوا سلاما) أي سلمنا أو نسلم عليك سلاما ويجوز أن يكون نصبه بقالوا أي قالوا قولا ذا سلام أو ذكروا سلاما (قال سلام) أي عليكم سلام أو سلام عليكم حياهم بأحسن من تحيتهم وقرئ سلم كحرم في حرام وقرأ ابن أبي عبلة قال سلاما وعنه أنه قرأ بالرفع فيهما (فما لبث) أي ابراهيم (أن جاء بعجل) أي في المجيء به أو ما لبث مجيئه بعجل (حنيذ) أي مشوي بالرضف في الاخدود وقيل سمين يقطر ودكه لقوله بعجل سمين من حنذت الفرس اذا عرقته بالجلال (فلما رأى أيديهم لا تصل اليه) لا يمدون اليه أيديهم للأكل (نكرهم) أي أنكرهم يقال نكره وأنكره واستنكره بمعنى وانما أنكرهم لانهم كانوا اذا نزل بهم ضيف ولم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يجئ بخير وقد روى أنهم كانوا ينكتون بقداح كانت في أيديهم في اللحم ولا تصل اليه أيديهم وهذا الانكار منه عليه الصلاة والسلام راجع الى فعلهم المذكور وأما انكاره المتعلق بأنفسهم فلا تعلق له برؤية عدم أكلهم وانما وقع ذلك عند رؤيته لهم لعدم كونهم من جنس ما كان يعهده من الناس ألا يرى الى قوله تعالى في سورة الذاريات سلام قوم منكرون (وأوجس منهم) أي أحس أو أضمر من جهتهم (خيفة) لما ظن أن نزولهم لامر أنكره الله تعالى عليه أو لتعذيب قومه وانما أخر المفعول الصريح عن الظرف لان المراد الاخبار بانه عليه الصلاة والسلام أوجس من جهتهم شيأ هو الخيفة لا أنه أوجس الخيفة من جهتهم لا من جهة غيرهم وتحقيقه أن تأخير ما حقه التقديم يوجب ترقب النفس اليه فيتمكن عند وروده عليها افضل تمكن (قالوا لا تخف)

أوحى الى بعض الانبياء في ذلك الزمان كشعيب عليه السلام أو غيره ثم ان ذلك النبي عرفها اما مشافهة أو مراسلة واعترض عليه بأن الامر لو كان كذلك لما لحقها من أنواع الخوف ما لحقها والجواب ان ذلك الخوف كان من لوازم البشرية كما أن موسى عليه السلام كان يخاف فرعون مع ان الله تعالى كان يأمره بالذهاب اليه مرارا (وخامسها) لعل الانبياء المتقدمين كابراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام أخبروا بذلك وانتهى ذلك الخبر الى تلك المرأة (وسادسها) لعل الله تعالى بعث اليها ملكا لا على وجه النبوة كما بعث الى مريم في قوله فتمثل لها بشرا سويا وأما قوله ما يوحى فمعناه وأوحينا اليها أمك ما يجب أن يوحى وانما وجب ذلك الوحي لان الواقعة واقعة عظيمة ولا سبيل الى معرفة المصلحة فيها الا بالوحي فكان الوحي واجبا أما قوله تعالى أن اقذفيه ففيه مسائل (المسئلة الاولى) أن هي المفسرة لان الوحي بمعنى القول (المسئلة الثانية) القذف مستعمل في معنى الالقاء والوضع ومنه قوله تعالى وقذف في قلوبهم الرعب (المسئلة الثالثة) روى أنها اتخذت تابوتا وجعلت فيه قطنا محلوجا ووضعت فيه موسى عليه السلام وقيرت رأسه وشقوقه بالقار ثم ألقته في النيل وكان يشرع منه نهر كبير في دار فرعون فبيناهو جالس على رأس البركة مع امرأته آسية اذ بتابوت يجيء به الماء فلما رآه فرعون أمر الغلمان والجواري باخراجه فاخرجوه وفتحوا رأسه فاذا صبي من أصبح الناس وجها فلما رآه فرعون أحبه وسيأتي تمام القصة في سورة القصص قال مقاتل ان الذي صنع التابوت حزقيل مؤمن آل فرعون (المسئلة الرابعة) اليم هو البحر والمراد به ههنا نيل مصر في قول الجميع واليم اسم يقع على البحر وعلى النهر العظيم (المسئلة الخامسة) قال الكسائي الساحل فاعل بمعنى مفعول سمي بذلك لان الماء يسحله أي يقذفه الى أعلاه (المسئلة السادسة) قال صاحب الكشاف الضمائر كلها راجعة الى موسى عليه السلام ورجوع بعضها اليه وبعضها الى التابوت يؤدي الى تنافر النظم فان قيل المقذوف في البحر هو التابوت وكذا الملقى الى الساحل قلنا لا بأس بأن يقال المقذوف والملقى هو موسى عليه السلام في جوف التابوت حتى لا تتفرق الضمائر ولا يحصل التنافر (المسئلة السابعة) لما كان تقدير الله تعالى أن يجري ماء اليم ويأتي بذلك التابوت الى الساحل سلك في ذلك سبيل المجاز وجعل اليم كأنه ذو تمييز أمر بذلك ليطيع الامر ويمتثل رسمه فقيل فليلقه اليم بالساحل أما قوله يأخذه عدو لي وعدو له ففيه أبحاث (البحث الاول) قوله يأخذه جواب الامر أي اقذفيه يأخذه (البحث الثاني) في كيفية الاخذ قولان (أحدهما) ان امرأة فرعون كانت بحيث تستقي الجواري فبصرت بالتابوت فأمرت به فأخذت التابوت فيكون المراد من أخذ فرعون التابوت قبوله له واستحبابه اياه (الثاني) ان البحر ألقى التابوت بموضع من الساحل فيه فوهة نهر فرعون ثم أداه النهر الى بركة فرعون فلما رآه أخذه (البحث الثالث) قوله يأخذه عدو لي وعدو له فيه اشكال وهو ان موسى عليه السلام لم يكن ذلك الوقت بحيث يعادي وجوابه اما كونه عدو الله من جهة كفره وعتوه فظاهر وأما كونه عدوا لموسى عليه السلام فيحتمل من حيث انه لو ظهر له حاله لقتله ويحتمل انه من حيث يؤول أمره الى ما آل اليه من العداوة (المنة الثامنة) قوله وألقيت عليك محبة مني وفيه قولان (الاول) وألقيت عليك محبة هي مني قال الزمخشري مني لا يخلو اما أن يتعلق بألقيت فيكون المعنى على اني أحببتك ومن أحبه الله أحبته القلوب واما أن يتعلق بمحذوف وهذا هو القول الثاني ويكون ذلك المحذوف صفة لمحبة اي وألقيت عليك محبة حاصلة مني واقعة بخلق فلذلك أحبتك امرأة فرعون حتى قالت قرة عين لي ولك لا تقتلوه يروى انه كانت على وجهه مسحة جمال وفي عينيه ملاحة لا يكاد يصبر عنه من رآه وهو كقوله تعالى سيجعل لهم الرحمن ودا قال القاضي هذا الوجه أقرب لانه في حال صغره لا يكاد يوصف بمحبة الله

ماقالوه بمجرد ما رأوا منه مخايل الخوف ازالة له منه بل بعد اظهاره عليه الصلاة والسلام له قال تعالى فى سورة الحجر قال انا منكم وجلون ولم يذكر ذلك ههنا اكتفاء بذلك (انا أرسلنا) ظاهره أنه استئناف فى معنى التعليل للنهى المذكور كما أن قوله تعالى انا نبشرك تعليل لذلك فان ارسالهم الى قوم آخرين يوجب أمنهم ٤٠ من الخوف أى أرسلنا بالعذاب (الى قوم لوط) خاصة الا انه ليس كذلك فان قوله تعالى قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين صريح فى انهم قالوه جوابا عن سؤاله عليه الصلاة والسلام وقد أوجز الكلام اكتفاء بذلك (وامرأته قائمة) وراء الستر بحيث تسمع محاورتهم أو على رؤسهم للخدمة حسبما هو المعتاد والجملة حال من ضمير قالوا أى قالوه وهى قائمة تسمع مقالتهم (فضحكت) سرورا بزوال الخوف أو بهلاك أهل الفساد أو بهما جميعا وقيل بوقوع الامر حسبما كانت تقول فيما سلف فانها كانت تقول لابراهيم اضمم اليك لوطا فانى أرى أن العذاب نازل بهؤلاء القوم وقيل ضحكت حاضت ومنه ضحكت الشجرة اذا سال صمغها وهو بعيد وقرئ بفتح الحاء (فبشرناها باسحق) أى عقبنا سرورها بسرور أتم منه على ألسنة رسلنا (ومن وراء اسحق يعقوب) بالنصب على أنه مفعول لما دل عليه قوله بشرناها أى ووهبنا لها من وراء اسحق يعقوب وقرئ بالرفع على الابتداء خبره الظرف أى من بعد اسحق يعقوب مولود أو موجود وكلا الاسمين داخل فى البشارة كيحيى أو واقع فى الحكاية بعد أن ولد فسميا بذلك وتوجيه البشارة فى ههنا اليها مع أن الاصل فى ذلك ابراهيم عليه الصلاة والسلام قد وجهت اليه حيث قيل وبشرناه بغلام حليم وبشروه بغلام عليم للايذان بأن ما بشر به يكون منهما ولكونها عقيمة حريصة على الولد (قالت) استئناف ورد جوابا عن سؤال من سأل وقال فماذا قالت اذ بشرت بذلك

تعالى التى ظاهرها من جهة الدين لان ذلك انما يستعمل فى المكلف من حيث استحقاق الثواب والمراد ان ما ذكرنا من كيفيته فى الخلقة يستحلى و يغتبط به فكذلك كانت حاله مع فرعون وامرأته وسهل الله تعالى له منهما فى التربية ما لامزيد عليه ويمكن أن يقال بل الاحتمال الاول أرجح لان الاحتمال الثانى يحوج الى الاضمار وهو أن يقال والقيت عليك محبة حاصلة منى وواقعة بتخليقى وعلى التقدير الاول لاحاجة الى هذا الاضمار بقى قوله انه حال صباه لا يحصل له محبة الله تعالى قلنا لا نسلم فان محبة الله تعالى يرجع معناها الى ايصال النفع الى عباده وهذا المعنى كان حاصلا فى حقه فى حال صباه وعلم الله تعالى أن ذلك يستمر الى آخر عمره فلا جرم أطلق عليه لفظ المحبة المنة الثالثة قوله ولتصنع على عينى قال القفال لترى على عينى أى على وفق ارادتى ومجازه هذا ان من صنع لانسان شيأ وهو حاضر ينظر اليه صنعه له كما يحب ولا يمكنه أن يفعل ما يخالف غرضه فكذا ههنا وفى كيفية المجاز قولان (الاول) المراد من العين العلم أى ترى على علم منى ولما كان العالم بالشئ يحرسه عن الآفات كما أن الناظر اليه يحرسه عن الآفات أطلق لفظ العين على العلم لاشتباههما من هذا الوجه (الثانى) المراد من العين الحراسة وذلك لان الناظر الى الشئ يحرسه عما يؤذيه فالعين كأنها سبب الحراسة فاطلق اسم السبب على المسبب مجازا وهو كقوله تعالى اننى معكما أسمع وأرى ويقال عين الله عليك اذا دعا لك بالحفظ والحياطة قال القاضى ظاهر القرآن يدل على أن المراد من قوله ولتصنع على عينى الحفظ والحياطة كقوله تعالى اذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك الى أمك كى تقر عينها ولا تحزن فصار ذلك كالتفسير لحياطة الله تعالى له * بقى ههنا بحثان (الاول) الواو فى قوله ولتصنع على عينى فيه ثلاثة أوجه (أحدها) كأنه قيل واتصنع على عينى ألقيت عليك محبة منى ثم يكون قوله اذ تمشى أختك متعلقا بأول الكلام وهو قوله ولقد مننا عليك مرة أخرى اذ أوحينا الى أمك ما يوحى واذ تمشى أختك (وثانيها) يجوز أن يكون قوله ولتصنع على عينى متعلقا بما بعده وهو قوله اذ تمشى وذكرنا مثل هذين الوجهين فى قوله وليكون من الموقنين (وثالثها) يجوز أن تكون الواو مقحمة أى والقيت عليك محبة منى لتصنع وهذا ضعيف (الثانى) قرئ ولتصنع بكسر اللام وسكونها والجزم على انه أمر وقرئ ولتصنع بفتح التاء والنصب أى وليكون عملك وتصرفك على علم منى (المنة الرابعة) قوله اذ تمشى أختك واعلم أن العامل فى اذ تمشى ألقيت أو تصنع يروى أنه لما فشا الخبر بمصر ان آل فرعون أخذوا غلاما فى النيل وكان لا يرتضع من ثدى كل امرأة يؤتى بها لان الله تعالى قد حرم عليه المراضع غير أمه اضطروا الى تتبع النساء فلما رأت ذلك أخت موسى جاءت اليهم متنكرة فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ثم جاءت بالام فقبل ثديها فرجع الى أمه بما لطف الله تعالى له من هذا التدبير أما قوله تعالى فرجعناك الى أمك أى رددناك وقال فى موضع آخر فرددناه الى أمه وهو كقوله قال رب ارجعون أى ردونى الى الدنيا أما قوله كى تقر عينها ولا تحزن فالمراد أن المقصود من ردك اليها حصول السرور لها وزوال الحزن عنها * فان قيل لو قال كى لا تحزن وتقر عينها كان الكلام مفيدا لانه لا يلزم من نفى الحزن حصول السرور لها وأما لما قال أولا كى تقر عينها كان قوله بعد ذلك ولا تحزن فضلا لانه متى حصل السرور وجب زوال الغم لا محالة * قلنا المراد انه تقر عينها بسبب وصولك اليها ويزول عنها الحزن بسبب عدم وصول لبن غيرها الى باطنك (والمنة الخامسة) قوله وقتلت نفسا فنجيناك من الغم فالمراد به وقتلت بعد كبرك نفسا وهو الرجل الذى قتله خطأ بأن وكزه حيث استغاثه الاسرائيلى عليه وكان قبطيا فحصل له الغم من وجهين (أحدهما) من عقاب الدنيا وهو اقتصاص فرعون منه على ما حكى الله تعالى عنه فأصبح

فقيل قالت (ياويلتا) أصل الويل الخزى ثم شاع فى كل أمر فظيع والالف مبدلة من ياء الاضافة كما فى يالهفا وياعجبا وقرأ الحسن على الاصل
وأمالها أبو عمرو وعاصم فى رواية ومعناه ياويلتى احضرى فهذا أوان حضورك وقيل هى ألف الندبة ويوقف عليها بهاء السكت (أألد
وأنا عجوز) بنت تسعين أو تسع وتسعين سنة (وهذا) الذى تشاهدونه (بعلى) ٤١ أى زوجى وأصل البعل القائم بالامر (شيخا)

وكان ابن مائة وعشرين
سنة ونصبه على الحال
والعامل معنى الاشارة
وقرئ بالرفع على انه خبر
مبتدا محذوف أى هو شيخ
أو خبر بعد خبر أو هو
الخبر وبعلى بدل من اسم
الاشارة أو بيان له وكلتا
الجملتين وقعت حالا من
الضمير فى أألد لتقرير
ما فيه من الاستبعاد وتعليله
أى أألد وكلانا على حالة
منافية لذلك وانما قدمت
بيان حالها على بيان حاله
عليه الصلاة والسلام
لان مباينة حالها لما ذكر
من الولادة أكثر اذ ربما
يولد للشيوخ من الشواب
أما العجائز داؤهن عقام
ولان البشارة متوجهة
اليها صريحا ولان العكس
فى البيان ربما يوهم من
أول الامر نسبة المانع
من الولادة الى جانب
ابراهيم عليه الصلاة
والسلام وفيه ما لا يخفى
من المحذور واقتصارها
الاستبعاد على ولادتها
من غير تعرض لحال
النافلة لانها المستبعد
وأما ولادة ولدها فلا
يتعلق بها استبعاد (ان
هذا) أى ما ذكر من
حصول الولد من هرمين

مثلا (لشئ عجيب) بالنسبة الى سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده وهذه الجملة لتعليل
الاستبعاد بطريق الاستئناف التحقيقى ومقصدها استعظام نعمة الله تعالى عليها فى ضمن الاستعجاب العادى لا استبعاد ذلك بالنسبة الى
قدرته سبحانه وتعالى (قالوا أتعجبين من أمر الله) أى قدرته وحكمته أو تكوينه أو شأنه أنكروا عليها تعجبها من ذلك لانها كانت ناشئة فى

فى المدينة خائفا يترقب (والآخر) من عقاب الله تعالى حيث قتله لا بأمر الله فنجاه الله تعالى من الغمين
أما من فرعون فحين وفقه للمهاجرة الى مدين وأما من عقاب الآخرة فلأنه سبحانه وتعالى غفر له
ذلك (المنة السادسة) قوله وفتناك فتونا وفيه أبحاث (البحث الاول) فى قوله فتونا وجهان (أحدهما)
أنه مصدر كالعكوف والجلوس والمعنى وفتناك حقا وذلك على مذهبهم فى تأكيد الاخبار بالمصادر كقوله
تعالى وكلم الله موسى تكليما (والثانى) أنه جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بتاء التأنيث كحجوز
وبدور فى حجزة وبدرة أى فتناك ضروبا من الفتن وههنا سؤالان (السؤال الاول) أن الله تعالى عدد
أنواع منته على موسى عليه السلام فى هذا المقام فكيف يليق بهذا الموضع قوله وفتناك فتونا (الجواب) عنه
من وجهين (أحدهما) أن الفتنة تشديد المحنة يقال فتن فلان عن دينه اذا اشتدت عليه المحنة حتى رجع
عن دينه قال تعالى فاذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله وقال تعالى ألم أحسب الناس أن يتركوا
أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين وقال
أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول
الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله فالزلزلة المذكورة فى الآية وهى البأساء والضراء هى الفتنة
والفتون ولما كان التشديد فى المحنة مما يوجب كثرة الثواب لا جرم عده الله تعالى من جملة النعم (وثانيهما)
فتناك فتونا أى خلصناك تخليصا من قولهم فتنت الذهب من الفضة اذا أردت تخليصه وسأل سعيد بن
جبير ابن عباس عن الفتون فقال نستأنف له نهارا يا ابن جبير ثم لما أصبح أخذ ابن عباس يقرأ عليه
الآيات الواردة فى شأن موسى عليه السلام من ابتداء أمره فذكر قصة فرعون وقتله أولاد بنى اسرائيل
ثم قصة القائه موسى عليه السلام فى اليم والتقاط آل فرعون اياه وامتناعه من الارتضاع من الاجانب ثم قصة
أن موسى عليه السلام أخذ لحية فرعون ووضعه الجمرة فى فيه ثم قصة قتل القبطى ثم هربه الى مدين
وصيرورته أجيرا لشعيب عليه السلام ثم عوده الى مصر وأنه أخطأ الطريق فى الليلة المظلمة واستئناسه بالنار
من الشجرة وكان عند تمام كل واحدة منها يقول هذا من الفتون يا ابن جبير (السؤال الثانى) هل يصح
اطلاق اسم الفتان عليه سبحانه اشتقاقا من قوله وفتناك فتونا (والجواب) لا لانه صفة ذم فى العرف وأسماء
الله تعالى توقيفية لا سيما فيما يوهم ما لا ينبغى (المنة السابعة) قوله تعالى فلبثت سنين فى أهل مدين ثم
جئت على قدر ياموسى واعلم أن التقدير وفتناك فتونا فخرجت خائفا الى أهل مدين فلبثت سنين فيهم
أما مدة اللبث فقال أبو مسلم انها مشروحة فى قوله تعالى ولما توجه تلقاء مدين الى قوله فلما قضى موسى
الاجل وهى اما عشرة واما ثمان لقوله تعالى على أن تأجرنى ثمانى حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وقال
وهب لبث موسى عليه السلام عند شعيب عليه السلام ثمانيا وعشرين سنة منها عشر سنين مهر امرأته والآية
تدل على أنه عليه السلام لبث عنده عشر سنين وليس فيها ما ينفى الزيادة على العشر واعلم أن قوله فلبثت
سنين فى أهل مدين بعد قوله وفتناك فتونا كالدلالة على أن لبثه فى مدين من الفتون وكذلك كان فانه
عليه السلام تحمل بسبب الفقر والغربة محنا كثيرة واحتاج الى أن آجر نفسه أما قوله تعالى ثم جئت على
قدر ياموسى فلا بد من حذف فى الكلام لانه على قدر أمر من الامور وذكروا فى ذلك المحذوف وجوها
(أحدها) أنه سبق فى قضائى وقدرى أن أجعلك رسولا لى فى وقت معين عينته لذلك فما جئت الا على ذلك
القدر لا قبله ولا بعده ومنه قوله انا كل شئ خلقناه بقدر (وثانيها) على مقدار من الزمان يوحى فيه الى
الانبياء وهو رأس أربعين سنة (وثالثها) ان القدر هو الموعد فان ثبت أنه تقدم هذا الموعد صح حمله عليه

ولا يمتنع ذلك لاحتمال أن شعيباً عليه السلام أو غيره من الأنبياء كانوا قد عينوا ذلك الموعد فإن قيل كيف ذكر الله تعالى مجيء موسى عليه السلام في ذلك الوقت من جملة مننه عليه قلنا لأنه لولا توفيقه له لما تهيأ له شيء من ذلك ﴿المنة الثامنة﴾ قوله تعالى واصطنعتك لنفسي والاصطناع اتخاذ الصنعة وهي افتعال من الصنع يقال اصطنع فلان فلاناً أي اتخذه صنيعة فإن قيل إنه تعالى غني عن الكل فما معنى قوله لنفسي والجواب عنه من وجوه (الأول) أن هذا تمثيل لأنه تعالى لما أعطاه من منزلة التقريب والتكريم والتكليم مثل حاله بحال من يراه بعض الملوك لجوامع خصال فيه أهلاً لأن يكون أقرب الناس منزلة إليه وأشدهم قرباً منه (وثانيها) قالت المعتزلة إنه سبحانه وتعالى إذا كلف عباده وجب عليه أن يلطف بهم ومن جملة الألطاف ما لا يعلم إلا سمعاً فلو لم يصطنعه بالرسالة لبقي في عهدة الواجب فصار موسى عليه السلام كالنائب عن ربه في أداء ما وجب على الله تعالى فصح أن يقول واصطنعتك لنفسي قال القفال واصطنعتك أصله من قولهم اصطنع فلان فلاناً إذا أحسن إليه حتى يضاف إليه فيقال هذا صنيع فلان وجريح فلان وقوله لنفسي أي لأصرفك في أوامري لئلا تشتغل بغير ما أمرتك به وهو إقامة حجتي وتبليغ رسالتي وأن تكون في حركاتك وسكناتك لي لا لنفسك ولا لغيرك واعلم أنه سبحانه وتعالى لما عدد عليه المنن الثمانية في مقابلة تلك الالتماسات الثمانية رتب على ذكر ذلك أمراً ونهياً أما الأمر فهو أنه سبحانه وتعالى أعاد الأمر بالأول فقال اذهب أنت وأخوك بآياتي واعلم أنه سبحانه وتعالى لما قال واصطنعتك لنفسي عقبه بذكر ما له اصطنعه وهو الإبلاغ والأداء ثم ههنا مسائل ﴿المسألة الأولى﴾ الباء ههنا بمعنى مع وذلك لأنهما لو ذهبا إليه بدون آية معهما لم يلزمه الإيمان وذلك من أقوى الدلائل على فساد التقليد ﴿المسألة الثانية﴾ اختلفوا في الآيات المذكورة ههنا على ثلاثة أقوال (أحدها) أنها اليد والعصا لأنهما اللذان جرى ذكرهما في هذا الموضع وفي سائر المواضع التي اقتص الله تعالى فيها حديث موسى عليه السلام فإنه تعالى لم يذكر في شيء منها أنه عليه السلام قد أوتي قبل مجيئه إلى فرعون ولا بعد مجيئه حتى أتى فرعون فالتمس منه آية غير هاتين الآيتين قال تعالى عنه قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين وقال فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه فإذا قيل لهؤلاء كيف يطلق لفظ الجمع على الاثنين أجابوا بوجوه (الأول) أن العصا ما كانت آية واحدة بل كانت آيات فإن انقلاب العصا حيواناً آية ثم إنها في أول الأمر كانت صغيرة لقوله تعالى تهتز كأنها جان ثم كانت تعظم وهذه آية أخرى ثم كانت تصير ثعباناً وهذه آية أخرى ثم إن موسى عليه السلام كان يدخل يده في فيها فما كانت تضره وهي عليه السلام فهذه آية أخرى ثم كانت تنقلب خشبة فهذه آية أخرى وكذلك اليد فإن بياضها آية وشعاعها آية أخرى ثم زوالهما بعد حصولهما آية أخرى فصح أنهما كانتا آيات كثيرة لا آيتين (الثاني) هب أن العصا أمر واحد لكن فيها آيات كثيرة لأن انقلابها حية يدل على وجود إله قادر على الكل عالم بالكل حكيم ويدل على نبوة موسى عليه السلام ويدل على جواز الحشر حيث انقلب الجماد حيواناً فهذه آيات كثيرة ولذلك قال إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً إلى قوله فيه آيات بينات مقام إبراهيم فإذا وصف الشيء الواحد بأن فيه آيات فالشيئان أولى بذلك (الثالث) من الناس من قال أقل الجمع اثنان على ما عرفت في أصول الفقه ﴿القول الثاني﴾ أن قوله اذهبا بآياتي معناه إني أمدكما بآياتي وأظهر على أيديكما من الآيات ما تزاح به العلل من فرعون وقومه فاذهبا فإن آياتي معكما كما يقال اذهب فإن جندي معك أي إني أمدك بهم متى احتجت ﴿القول الثالث﴾ أن الله تعالى آتاه العصا واليد وحل عقدة لسانه وذلك أيضاً معجز فكانت

بيت النبوة ومهبط الوحي والآيات ومظاهر المعجزات والأمور الخارقة للعادات فكان حقها أن تتوقر ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء من أمثال هذه الخوارق من ألطاف الله تعالى الخفية ولطائف صنعه الفائضة على كل أحد مما يتعلق بذلك مشيئته الأزلية لاسيما على أهل بيت النبوة الذين ليست مرتبتهم عند الله سبحانه كمراتب سائر الناس وأن تسبح الله تعالى وتحمده وتمجده وإلى ذلك أشاروا بقوله تعالى (رحمة الله) التي وسعت كل شيء واستتبعت كل خير وإنما وضع المظهر موضع المضمر لزيادة تشريفها (وبركاته) أي خيراته النامية المتكاثرة في كل باب التي من جملتها هبة الأولاد وقيل الرحمة النبوة والبركات الأسباط من بني إسرائيل لأن الأنبياء منهم وكلهم من ولد إبراهيم عليه الصلاة والسلام (عليكم أهل البيت) نصب على المدح أو الاختصاص لأنهم أهل بيت خليل الرحمن وصرف الخطاب من صيغة الواحدة إلى جمع المذكر لتعميم حكمه لإبراهيم عليه الصلاة والسلام أيضاً ليكون جوابهم لها جواباً له أيضاً إن خطر بباله مثل ما خطر ببالها والجملة كلام مستأنف علل به إنكار تعجبها كأنه قيل ليس المقام مقام التعجب فإن الله تعالى على كل شيء قدير ولستم يا أهل بيت النبوة والكرامة والزلفى كسائر الطوائف بل رحمته المستتبعة لكل خير الواسعة لكل شيء وبركاته أي خيراته النامية الفائضة منه بواسطة تلك الرحمة الواسعة لازمة لكم لا تفارقكم

الآيات

(إنه حميد) فاعل ما يستوجب الحمد (مجيد) كثير الخير والإحسان إلى عباده والجملة لتعليل ما سبق من قوله رحمة الله وبركاته عليكم (فلما ذهب عن إبراهيم الروع) أي ما أوجس منهم من الخيفة واطمأن قلبه بعرفانهم وعرفان سبب مجيئهم والفاء لربط بعض أحوال إبراهيم

عليه الصلاة والسلام بعض غم انفصال انها جاء البس بأجنبي من كل وجه بل له مدخل تام في السياق والسباق وتأخير الفاعل عن الظرف لانه محط الفائدة فان بتأخير ما حقه التقديم تبقى النفس منتظرة الى وروده فيتمكن فيها عند وروده اليها فضل تمكن (وجاءته البشرى) أن فسرت البشرى بقولهم لا تخف فسببية ذهاب الخوف ومجيء السرور للمجادلة المدلول عليها بقوله تعالى (يجادلنا في قوم لوط) أي جادل رسلنا في شأنهم وعدل الى صيغة الاستقبال لاستحضار صورتها أو طفق يجادلنا ظاهرة وأما ان فسرت ببشارة الولد أو بما يعمهما فلعل سببيتها لها من حيث انها تفيد زيادة اطمئنان قلبه بسلامته وسلامة أهله كافة ومجادلته اياهم أنه قال لهم حين قالوا انا مهلكو أهل هذه القرية أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلا من المؤمنين أتهلكونها قالوا لا قال فأربعون قالوا لا قال فثلاثون قالوا لا حتى بلغ العشرة قالوا لا قال أرأيتم ان كان فيها رجل مسلم أتهلكونها قالوا لا فعند ذلك قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله وان قيل المتبادر من هذا الكلام أن يكون ابراهيم عليه السلام قد علم أنهم مرسلون لاهلاك قوم لوط قبل ذهاب الروع عن نفسه ولكن لم يقدر على مجادلتهم في شأنهم لاشتغاله بشأن نفسه فلما ذهب عنه الروع فرغ لها مع أن ذهاب الروع انما هو قبل العلم بذلك لقوله تعالى قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط * قلنا كان لوط عليه السلام على شريعة ابراهيم عليه السلام وقومه مكلفين بها فلما رأى من الملائكة ما رأى خاف على نفسه وعلى كافة أمته التي من جملتهم قوم لوط ولا ريب في تقدم هذا الخوف على قولهم لا تخف وأما الذي علمه عليه السلام بعد النهي عن الخوف فهو اختصاص قوم لوط بالهلاك لادخولهم تحت العموم فتأمل والله الموفق (ان ابراهيم لحليم) غير

الآيات ثلاثة هذا هو شرح الامر أما النهي فهو قوله تعالى ولا تنيا في ذكري الونى الفتور والتقصير وقرئ ولا تنيا بكسر حرف المضارعة للاتباع ثم قيل فيه أقوال (أحدها) المعنى لا تنيا بل اتخذا ذكري آلة لتحصيل المقاصد واعتقدا ان أمرا من الامور لا يتمشى لاحد الا بذكري والحكمة فيه ان من ذكر جلال الله استحقر غيره فلا يخاف أحدا ولان من ذكر جلال الله تقوى روحه بذلك الذكر فلا يضعف في المقصود ولان ذاكر الله تعالى لا بد وأن يكون ذاكرا لاحسانه وذاكر احسانه لا يفتر في أداء أوامره (وثانيها) المراد بالذكر تبليغ الرسالة فان الذكر يقع على كل العبادات وتبليغ الرسالة من أعظمها فكان جديرا بان يطلق عليه اسم الذكر (وثالثها) قوله ولا تنيا في ذكري عند فرعون وكيفية الذكر هو أن يذكرا لفرعون وقومه ان الله تعالى لا يرضى منهم بالكفر ويذكرا لهم أمر الثواب والعقاب والترغيب والترهيب (ورابعها) أن يذكرا لفرعون آلاء الله ونعماءه وأنواع احسانه اليه ثم قال بعد ذلك اذهبا الى فرعون انه طغى وفيه سؤالان الاول ما الفائدة في ذلك بعد قوله اذهب أنت وأخوك بآياتي قال القفال فيه وجهان (أحدهما) أن قوله اذهب أنت وأخوك بآياتي يحتمل أن يكون كل واحد منهما مأمورا بالذهاب على الانفراد فقيل مرة أخرى اذهبا ليعرفا ان المراد منه أن يشتغلا بذلك جميعا لا أن ينفرد به هرون دون موسى (والثاني) ان قوله اذهب أنت وأخوك بآياتي أمر بالذهاب الى كل الناس من بني اسرائيل وقوم فرعون ثم ان قوله اذهبا الى فرعون أمر بالذهاب الى فرعون وحده السؤال الثاني قوله اذهبا الى فرعون خطاب مع موسى وهرون عليهما السلام وهذا مشكل لان هرون عليه السلام لم يكن حاضرا هناك وكذا في قوله تعالى قالا ربنا اننا نخاف ان يفرط علينا أو أن يطغى * أجاب القفال عنه من وجوه (أحدها) أن الكلام كان مع موسى عليه السلام وحده الا أنه كان متبوع هرون فجعل الخطاب معه خطابا مع هرون وكلام هرون على سبيل التقدير فالخطاب في تلك الحالة وان كان مع موسى عليه السلام وحده الا أنه تعالى أضافه اليهما كما في قوله واذ قتلتم نفسا وقوله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل وحكى ان القائل هو عبد الله بن أبي وحده (وثانيها) يحتمل أن الله تعالى لما قال قد أوتيت سؤلك يا موسى سكت حتى لقي أخاه ثم ان الله تعالى خاطبهما بقوله اذهبا الى فرعون (وثالثها) أنه حكى انه في مصحف ابن مسعود وحفصة قال ربنا اننا نخاف أي قال موسى أنا وأخي نخاف فرعون * أما قوله تعالى فقولا له قولا لينا ففيه سؤالان (الاول) لم أمر الله تعالى موسى عليه السلام باللين مع الكافر الجاحد * الجواب لوجهين (الاول) أنه عليه السلام كان قد رباه فرعون فأمره أن يخاطبه بالرفق رعاية لتلك الحقوق وهذا تنبيه على نهاية تعظيم حق الابوين (الثاني) ان من عادة الجبابرة اذا غلظ لهم في الوعظ أن يزدادوا عتوا وتكبرا والمقصود من البعثة حصول النفع لا حصول زيادة الضرر فلهذا أمر الله تعالى بالرفق (السؤال الثاني) كيف كان ذلك الكلام اللين * الجواب ذكروا فيه وجوها (أحدها) ما حكى الله تعالى بعضه فقال هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فتخشى وذكر أيضا في هذه السورة بعض ذلك فقال فأتياه فقولا انا رسولا ربك الى قوله والسلام على من اتبع الهدى (وثانيها) ان تعدا شبابا لا يهرم بعده وملكا لا ينزع منه الا بالموت وان يبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح الى حين موته (وثالثها) كنياه وهو من ذوي الكنى الثلاث أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة (ورابعها) حكى عن عمرو بن دينار قال بلغني ان فرعون عمر أربعمائة سنة وتسع سنين فقال له موسى عليه السلام ان أطعتني عمرت مثل ما عمرت فاذا مت فلك الجنة واعترضوا على هذه الوجوه الثلاثة الاخيرة (أما الاول) فقيل لو حصلت له هذه الامور الثلاثة في هذه المدة الطويلة لصار ذلك كالالجاء الى معرفة الله تعالى وذلك

يجول على الانتقام ممن أساء اليه (أواه) كثير التأوه على الذنوب والتأسف على الناس (منيب) راجع الى الله تعالى والمقصود بتعداد صفاته الجميلة المذكورة بيان ما حمله عليه السلام على ما صدر عنه من المجادلة (يا ابراهيم) أي قالت الملائكة يا ابراهيم (أعرض عن هذا) الجدال (انه) أي الشأن (قد جاء أمر ربك) أي قدره الجاري على وفق قضائه الازلي الذي هو عبارة عن الارادة الازلية والعناية الالهية المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاص حسب تعلقها بالاشياء في أوقاتها وهو المعبر عنه بالقدر (وانهم آتيهم عذاب غير مردود) لا بجدال ولا بدعاء ولا بغيرهما (ولما جاءت رسلنا لوطا) قال ابن عباس رضي الله عنهما انطلقوا من عند ابراهيم عليه السلام الى لوط عليه السلام وبين القريتين أربعة فراسخ ودخلوا عليه في صور غلمان مرد حسان الوجوه فلذلك (سيء بهم) أي ساءه مجيئهم لظنه أنهم أناس فخاف أن يقصدهم قومه ويعجز عن مدافعتهم وقرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو عمرو سيء وسيئت باشمام السين الضم * روي أن الله تعالى قال للملائكة لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات فلما مشى معهم منطلقا بهم الى منزله قال لهم أما بلغكم أمر هذه القرية قالوا وما أمرها قال أشهد بالله انها لشر قرية في الارض عملا يقول ذلك أربع مرات فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد فخرجت امرأته فأخبرت به قومها وقالت ان في بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط (وضاق بهم ذرعا) أي ضاق بمكانهم صدره أو قلبه أو وسعه وطاقته وهو كناية عن شدة الانقباض للعجز عن مدافعة المكروه والاحتيال فيه وقيل ضاقت نفسه عن هذا الحادث وذكر الذرع مثل وهو المساحة وكأنه قدر البدن مجازا أي ان بدنه ضاق قدره من احتمال ما وقع وقيل الذراع

لا يصح مع التكليف (وأما الثاني) فلان خطابه بالكنية أمر سهل فلا يجوز أن يجعل ذلك هو المقصود من قوله فقولا له قولا لينا بل يجوز أن يكون ذلك من جملة المراد (وأما الثالث) فالاعتراض عليه كما في الاول أما قوله تعالى لعله يتذكر أو يخشى فاعلم أنه ليس المراد أنه تعالى كان شاكا في ذلك لان ذلك محال عليه تعالى وانما المراد فقولا له قولا لينا على أن تكونا راجيين لان يتذكر هو أو يخشى * واعلم ان أحوال القلب ثلاثة (أحدها) الاصرار على الحق (وثانيها) الاصرار على الباطل (وثالثها) التوقف في الامرين وان فرعون كان مصرا على الباطل وهذا القسم أردأ الاقسام فقال تعالى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى فيرجع من انكاره الى الاقرار بالحق وان لم ينتقل من الانكار الى الاقرار لكنه يحصل في قلبه الخوف فيترك الانكار وان كان لا ينتقل الى الاقرار فان هذا خير من الاصرار على الانكار واعلم أن هذا التكليف لا يعلم سره الا الله تعالى لانه تعالى لما علم انه لا يؤمن قط كان ايمانه ضد الذلك العلم الذي يمتنع زواله فيكون سبحانه عالما بامتناع ذلك الايمان واذا كان عالما بذلك فكيف أمر موسى عليه السلام بذلك الرفق وكيف بالغ في ذلك الامر بتلطيف دعوته الى الله تعالى مع علمه باستحالة حصول ذلك منه ثم هب ان المعتزلة ينازعون في هذا الامتناع من غير أن يذكروا شبهة قادحة في هذا السؤال ولكنهم سلموا أنه كان عالما بانه لا يحصل ذلك الايمان وسلموا ان فرعون لا يستفيد ببعثة موسى عليه السلام الا استحقاق العقاب والرحيم الكريم كيف يليق به أن يدفع سكينا الى من علم قطعا انه يمزق بها بطن نفسه ثم يقول اني ما أردت بدفع السكين اليه الا الاحسان اليه يا أخي العقول قاصرة عن معرفة هذه الاسرار ولا سبيل فيها الا التسليم وترك الاعتراض والسكوت بالقلب واللسان ويروى عن كعب انه قال والذي يحلف به كعب انه لمكتوب في التوراة فقولا له قولا لينا وسأقسي قلبه فلا يؤمن ۞ قوله تعالى ﴿قالا ربنا اننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا انني معكما أسمع وأرى فأتياه فقولا انا رسولا ربك فأرسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى انا قد أوحي الينا أن العذاب على من كذب وتولى﴾ اعلم أن قوله قالا ربنا اننا نخاف فيه أسئلة ﴿السؤال الاول﴾ قوله قالا ربنا يدل على ان المتكلم بذلك موسى وهرون عليهما السلام وهرون لم يكن حاضرا هذا المقال فكيف ذلك وجوابه قد تقدم ﴿السؤال الثاني﴾ أن موسى عليه السلام قال رب اشرح لي صدري فأجابه الله تعالى بقوله قد أوتيت سؤلك يا موسى وهذا يدل على انه قد انشرح صدره وتيسر أمره فكيف قال بعده اننا نخاف فان حصول الخوف يمنع من حصول شرح الصدر (والجواب) ان شرح الصدر عبارة عن تقويته على ضبط تلك الاوامر والنواهي وحفظ تلك الشرائع على وجه لا يتطرق اليه السهو والتحريف وذلك شئ آخر غير زوال الخوف ﴿السؤال الثالث﴾ اما علم موسى وهرون وقد حملهما الله تعالى الرسالة انه تعالى يؤمنهما من القتل الذي هو مقطعة عن الاداء (الجواب) قد أمنا ذلك وان جوزا أن ينالهما السوء من قبل تمام الاداء أو بعده وأيضا فانهما استظهرا بأن سألا ربهما ما يزيد في ثبات قلبهما على دعائه وذلك بان ينضاف الدليل النقلي الى العقلي زيادة في الطمأنينة كما قال ولكن ليطمئن قلبي ﴿السؤال الرابع﴾ لما تكرر الامر من الله تعالى بالذهاب فعدم الذهاب والتعلل بالخوف هل يدل على المعصية (الجواب) لو اقتضى الامر الفور لكان ذلك من أقوى الدلائل على المعصية لا سيما وقد أكثر الله تعالى من أنواع التشريف وتقوية القلب وازالة الغم ولكن ليس الامر على الفور فزال السؤال وهذا من أقوى الدلائل على ان الامر لا يقتضي الفور واذا ضممت اليه ما يدل على ان المعصية غير جائزة على الرسل أما قوله تعالى أن يفرط علينا أو أن يطغى فاعلم أن في أن يفرط وجوها (احدها)

اسم للجارحة من المرفق الى الانامل والذرع مدها ومعنى ضيق الذرع فى قوله تعالى ضاق بهم ذرعا قصرها كما أن معنى سعتها وبسطها طولها ووجه التمثيل بذلك أن القصير الذراع اذا مدها لا يتناول ما يتناوله الطويل الذراع تقاصر عنه وعجز عن تناوله فضرب مثلا للذى قصرت طاقته دون بلوغ الامر (وقال هذا يوم عصيب) شديد من عصبه اذا شده (وجاءه) ٤٥ أى لوطا وهو فى بيته مع أضيافه (قومه يهرعون اليه) أى يسرعون كأنما يدفعون دفعا لطلب الفاحشة من أضيافه والجملة حال من قومه وكذا قوله تعالى (ومن قبل) أى من قبل هذا الوقت (كانوا يعملون السيآت) أى جاؤا مسرعين والحال أنهم كانوا منهمكين فى عمل السيآت فضروا بها وتمرنوا فيها حتى لم يبق عندهم قباحتها ولذلك لم يستحيوا مما فعلوا من مجيئهم مهرعين مجاهرين (قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) فتزوجوهن وكانوا يطلبونهن من قبل ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم لا لعدم مشروعيته فان تزويج المسلمات من الكفار كان جائزا وقد زوج النبى عليه الصلاة والسلام ابنتيه من عتبة بن أبى لهب وأبى العاص بن الربيع قبل الوحى وهما كافران وقيل كان لهم سيدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ابنتيه وأياما كان فقد أراد به وقاية ضيفه وذلك غاية الكرم وقيل ما كان ذلك القول منه مجرى على الحقيقة من ارادة النكاح بل كان ذلك مبالغة فى التواضع لهم واظهار الشدة امتعاضه مما أوردوا عليه طمعا فى أن يستحيوا منه ويرقوا له اذا سمعوا ذلك فينزجروا عما أقدموا عليه مع ظهور الامر واستقرار العلم عنده وعندهم جميعا بأن لا مناكحة بينهم وهو الانسب بقولهم لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق كما ستقف عليه (فاتقوا الله) بترك الفواحش أو بايثارهن عليهم (ولا تخزون فى ضيفى)

(أحدها) فرط سبق وتقدم ومنه الفارط الذى يتقدم الواردة وفرس فرط يسبق الخيل والمعنى نخاف أن يعجل علينا بالعقوبة (وثانيها) انه مأخوذ من أفرط غيره اذا حمله على العجلة فكان موسى وهرون عليهما السلام خافا من أن يحمله حامل على المعاجلة بالعقوبة وذلك الحامل هو اما الشيطان أو ادعاؤه للربوبية أو حبه للرياسة أو قومه وهم القبط المتمردون الذين حكى الله تعالى عنهم قال الملأ من قومه (وثالثها) يفرط من الافراط فى الاذية أما قوله أو أن يطغى فالمعنى يطغى بالتخطى الى أن يقول فيك ما لا ينبغى لجراءته عليك ❊ واعلم أن من أمر بشئ فحاول دفعه باعذار يذكرها فلا بد وأن يختم كلامه بما هو الاقوى وهذا كما أن الهدهد ختم عذره بقوله وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله فكذا ههنا بدأ موسى بقوله أن يفرط علينا وختم بقوله أو أن يطغى لما أن طغيانه فى حق الله تعالى أعظم من افراطه فى حق موسى وهرون عليهما السلام أما قوله قال لا تخافا اننى معكما أسمع وأرى فالمراد لا تخافا مما عرض فى قلبكما من الافراط والطغيان لان ذلك هو المفهوم من الكلام يبين ذلك أنه تعالى لم يؤمنهما من الرد ولا من التكذيب بالآيات ومعارضة السحرة أما قوله اننى معكما فهو عبارة عن الحراسة والحفظ وعلى هذا الوجه يقال الله معك على وجه الدعاء وأكد ذلك بقوله أسمع وأرى فان من يكون مع الغير وناصرا له وحافظا يجوز أن لا يعلم كل ما يناله وانما يحرسه فيما يعلم فبين سبحانه وتعالى انه معهما بالحفظ والعلم فى جميع ما ينالهما وذلك هو النهاية فى ازالة الخوف قال القفال قوله أسمع وأرى يحتمل أن يكون مقابلا لقوله أن يفرط علينا أو أن يطغى والمعنى يفرط علينا بأن لا يسمع منا أو أن يطغى بأن يقتلنا فقال الله تعالى اننى معكما أسمع كلامه معكما فأسخره للاستماع منكما وأرى أفعاله فلا أتركه حتى يفعل بكما ما تكرهانه ❊ واعلم أن هذه الآية تدل على أن كونه سميعا وبصيرا صفتان زائدتان على العلم لان قوله اننى معكما دل على العلم فقوله أسمع وأرى لو دل على العلم لكان ذلك تكريرا وهو خلاف الاصل ثم انه سبحانه أعاد ذلك التكليف فقال فأتياه لانه سبحانه وتعالى قال فى المرة الاولى لنريك من آياتنا الكبرى اذهب الى فرعون وفى الثانية اذهب أنت وأخوك وفى الثالثة قال اذهبا الى فرعون وفى الرابعة قال ههنا فأتياه ❊ فان قيل انه تعالى أمرهما فى المرة الثانية بأن يقولا له قولا لينا وفى هذه المرة الرابعة أمرهما أن يقولا انا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل وفيه تغليظ من وجوه (أحدها) ان قوله انا رسولا ربك فيه ابحاث (البحث الاول) انقياده اليهما والتزامه لطاعتهما وذلك يعظم على الملك المتبوع (البحث الثانى) قوله فأرسل معنا بنى اسرائيل فيه ادخال النقص على ملكه لانه كان محتاجا اليهم فيما يريده من الاعمال من بناء أو غيره (البحث الثالث) قوله ولا تعذبهم (البحث الرابع) قوله قد جئناك بآية من ربك فما الفائدة فى اللين أولا والتغليظ ثانيا قلنا لان الانسان اذا ظهر لجاجه فلا بد له من التغليظ فان قيل أليس كان من الواجب أن يقولا انا رسولا ربك قد جئناك بآية فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم لان ذكر المعجز مقرونا بادعاء الرسالة أولى من تأخيره عنه ❊ قلنا بل هذا أولى من تأخيره عنه لانهم ذكروا مجموع الدعاوى ثم استدلوا على ذلك المجموع بالمعجزة أما قوله قد جئناك بآية من ربك ففيه سؤال وهو أنه تعالى أعطاه آيتين وهما العصا واليد ثم قال اذهب أنت وأخوك بآياتى وذلك يدل على ثلاث آيات وقال ههنا جئناك بآية وهذا يدل على انها كانت واحدة فكيف الجمع أجاب القفال بان معنى الآية الاشارة الى جنس الآيات كأنه قال قد جئناك ببيان من عند الله ثم يجوز أن يكون ذلك حجة واحدة أو حججا كثيرة وأما قوله والسلام على من اتبع الهدى فقال بعضهم هو من قول الله تعالى لهما كأنه قال فقولا انا رسولا ربك وقولا له والسلام على من اتبع الهدى وقال آخرون

بل كلام الله تعالى قد تم عند قوله قد جئناك بآية من ربك فقوله بعد ذلك والسلام على من اتبع الهدى وعد لمن قبلهما لمن آمن وصدق بالسلامة له من عقوبات الدنيا والآخرة والسلام بمعنى السلامة كما يقال رضاع ورضاعة واللام وعلى ههنا بمعنى واحد كما قال لهم اللعنة ولهم سوء الدار على معنى عليهم وقال تعالى من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وفي موضع آخر ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وان أسأتم فلها أما قوله انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى فاعلم أن هذه الآية من أقوى الدلائل على أن عقاب المؤمن لا يدوم وذلك لان الالف واللام في قوله العذاب تفيد الاستغراق او تفيد الماهية وعلى التقديرين يقتضي انحصار هذا الجنس فيمن كذب وتولى فوجب في غير المكذب المتولي أن لا يحصل هذا الجنس أصلا وظاهر هذه الآية يقتضي القطع بانه لا يعاقب أحدا من المؤمنين بترك العمل به في بعض الاوقات فوجب أن يبقى على أصله في نفي الدوام لان العقاب المتناهي اذا حصل بعده السلامة مدة غير متناهية صار ذلك العقاب كانه لا عقاب فالذلك يحسن مع حصول ذلك القدر أن يقال انه لا عقاب وأيضا فقوله والسلام على من اتبع الهدى وقد فسرنا السلام بالسلامة فظاهره يقتضي حصول السلامة لكل من اتبع الهدى والعارف بالله قد اتبع الهدى فوجب أن يكون صاحب السلامة ﴿قوله تعالى ﴿قال فمن ربكما ياموسى قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى قال فما بال القرون الاولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى الذى جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم ان في ذلك لآيات لاولى النهى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ اعلم أنهما عليهما السلام لما قالا انا رسولا ربك قال لهما فمن ربكما ياموسى وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ ان فرعون كان شديد القوة عظيم الغلبة كثير العسكر ثم ان موسى عليه السلام لما دعاه الى الله تعالى لم يشتغل معه بالبطش والايذاء بل خرج معه في المناظرة لما أنه لو شرع أولا في الايذاء لنسب الى الجهل والسفاهة فاستنكف من ذلك وشرع أولا في المناظرة وذلك يدل على أن السفاهة من غير الحجة شئ ما كان يرتضيه فرعون مع كمال جهله وكفره فكيف يليق ذلك بمن يدعي الاسلام والعلم ثم ان فرعون لما سأل موسى عليه السلام عن ذلك قبل موسى ذلك السؤال واشتغل باقامة الدلالة على وجود الصانع وذلك يدل على فساد التقليد ويدل أيضا على فساد قول التعليمية الذين يقولون نستفيد معرفة الاله من قول الرسول لان موسى عليه السلام اعترف ههنا بأن معرفة الله تعالى يجب أن تكون مقدمة على معرفة الرسول ويدل على فساد قول الحشوية الذين يقولون نستفيد معرفة الله والدين من الكتاب والسنة ﴿المسئلة الثانية﴾ تدل الآية على انه يجوز حكاية كلام المبطل لانه تعالى حكى كلام فرعون في انكاره الاله وحكى شبهات منكري النبوة وشبهات منكري الحشر الا أنه يجب أنك متى أوردت السؤال فاقرنه بالجواب لئلا يبقى الشك كما فعل الله تعالى في هذه المواضع ﴿المسئلة الثالثة﴾ دلت الآية على أن المحق يجب عليه استماع كلام المبطل والجواب عنه من غير ايذاء ولا ايحاش كما فعل موسى عليه السلام بفرعون ههنا وكما أمر الله تعالى رسوله في قوله ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وقال وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴿المسئلة الرابعة﴾ اختلف الناس في أن فرعون هل كان عارفا بالله تعالى فقيل انه كان عارفا الا أنه كان يظهر الانكار تكبرا وتجبرا وزورا وبهتانا واحتجوا عليه بستة أوجه (أحدها) قوله لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض فمن نصب التاء في علمت كان ذلك خطابا من موسى عليه السلام مع فرعون فدل ذلك على أن فرعون كان عالما بذلك وكذا قوله تعالى وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما

أى لا تفضحوني في شأنهم فان اخزاء ضيف الرجل وجاره اخزاء له أو لا تخجلوني من الخزاية وهي الحياء (أليس منكم رجل رشيد) يهتدى الى الحق الصريح ويرعوى عن الباطل القبيح (قالوا) معرضين عما نصحهم به من الامر بتقوى الله والنهى عن اخزائه مجيبين عن أول كلامه (لقد علمت ما لنا في بناتك من حق) مستشهدين بعلمه بذلك ٤٦ يعنون انك قد علمت أن لا سبيل الى المناكحة بيننا وبينك وما عرضت الا عرض سابري ولا مطمع لنا في ذلك (وانك لتعلم ما نريد) من اتيان الذكران ولما يئس عليه السلام من ارعوائهم عما هم عليه من الغي (قال لو أن لي بكم قوة) أى لفعلت بكم ما فعلت وصنعت ما صنعت كقوله تعالى ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى (أو آوى الى ركن شديد) عطف على أن لي بكم الى آخره لما فيه من معنى الفعل أى لو قويت على دفعكم بنفسي أو أويت الى ناصر عزيز قوى أتمنع به عنكم شبهه بركن الجبل في الشدة والمنعة وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم رحم الله أخي لوطا كان يأوى الى ركن شديد وروى أنه عليه السلام أغلق بابه دون أضيافه وأخذ يجادلهم من وراء الباب فتسوروا الجدار فلما رأت الملائكة ما على لوط من الكرب (قالوا) أى الرسل لما شاهدوا عجزه عن مدافعة قومه (يالوط انا رسل ربك لن يصلوا اليك) بضرر ولا مكروه فافتح الباب ودعنا واياهم ففتح الباب فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه رب العزة وعلوا جل جلاله في عقوبتهم فأذن له فقام في الصورة التي يكون فيها فنشر جناحه وله جناحان وعليه وشاح من در منظوم وهو براق الثنايا فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم كما قال عز وعلا فطمسنا أعينهم فصاروا لا يعرفون الطريق فخرجوا وهم يقولون

وعلموا (وثانيها) انه كان عاقلا والا لم يجز تكليفه وكل من كان عاقلا قد علم بالضرورة انه وجد بعد العدم وكل من كان كذلك افتقر الى مدبر وهذان العلمان الضروريان يستلزمان العلم بوجود المدبر (وثالثها) قول موسى عليه السلام ههنا ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وكلمة الذي تقتضي وصف المعرفة بجملة معلومة فلا بد وأن تكون هذه الجملة قد كانت معلومة له (ورابعها) قوله في سورة القصص في صفة فرعون وقومه وظنوا أنهم الينا لا يرجعون فذلك يدل على انهم كانوا عالمين بالمبدا الا أنهم كانوا منكرين للمعاد (وخامسها) ان ملك فرعون لم يتجاوز القبط ولم يبلغ الشام ولما هرب موسى عليه السلام الى مدين قال له شعيب لا تخف نجوت من القوم الظالمين فمع هذا كيف يعتقد انه اله العالم (وسادسها) انه لما قال وما رب العالمين قال موسى عليه السلام رب السموات والأرض وما بينهما قال ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون يعني أنا أطلب منه الماهية وهو يشرح الوصف فهو لم ينازع موسى في الوجود بل طلب منه الماهية فدل هذا على اعترافه بأصل الوجود ومن الناس من قال انه كان جاهلا بربه واتفقوا على ان العاقل لا يجوز أن يعتقد في نفسه انه خالق هذه السموات والارضين والشمس والقمر وانه خالق نفسه لانه يعلم بالضرورة عجزه عنها ويعلم بالضرورة انها كانت موجودة قبله فيحصل العلم الضروري بانه ليس موجدا لها ولا خالقا لها واختلفوا في كيفية جهله بالله تعالى فيحتمل انه كان دهريا نافيا للمؤثر أصلا ويحتمل انه كان فلسفيا قائلا بالعلة الموجبة ويحتمل انه كان من عبدة الكواكب ويحتمل انه كان من الحلولية المجسمة واما ادعاؤه الربوبية لنفسه فبمعنى انه يجب عليهم طاعته والانقياد له وعدم الاشتغال بطاعة غيره (المسئلة الخامسة) انه سبحانه حكى عنه في هذه السورة انه قال فمن ربكما يا موسى وقال في سورة الشعراء وما رب العالمين فالسؤال ههنا عن الكيفية وفي سورة الشعراء عن الماهية وهما سؤالان مختلفان والواقعة واحدة والاقرب أن يقال سؤال من كان مقدما على سؤال ما لانه كان يقول اني أنا الله والرب فقال فمن ربكما فلما أقام موسى الدلالة على الوجود وعرف أنه لا يمكنه أن يقاومه في هذا المقام لظهوره وجلائه عدل الى المقام الثاني وهو طلب الماهية وهذا أيضا مما ينبه على أنه كان عالما بالله لانه ترك المنازعة في هذا المقام لعلمه بغاية ظهوره وشرع في المقام الصعب لان العلم بماهية الله تعالى غير حاصل للبشر (المسئلة السادسة) انما قال فمن ربكما ولم يقل فمن الهكما لانه أثبت نفسه ربا في قوله ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين فذكر ذلك على سبيل التعجب كأنه قال له أنا ربك فلم تدعي ربا آخر وهذا الكلام شبيه بكلام نمروذ لان ابراهيم عليه السلام لما قال ربي الذي يحيي ويميت قال نمروذ له أنا أحيي وأميت ولم يكن الاحياء والاماتة اللتين ذكرهما ابراهيم عليه السلام هما اللذين عارضه بهما نمروذ الا في اللفظ فكذا ههنا لما ادعى موسى ربوبية الله تعالى ذكر فرعون هذا الكلام ومراده اني أنا الرب لاني ربيتك ومعلوم أن الربوبية التي ادعاها موسى لله سبحانه وتعالى غير هذه الربوبية في المعنى وانه لا مشاركة بينهما الا في اللفظ (المسئلة السابعة) اعلم أن موسى عليه السلام استدل على اثبات الصانع بأحوال المخلوقات وهو قوله ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وهذه الدلالة هي التي ذكرها الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم في قوله سبح اسم ربك الاعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى وقال ابراهيم عليه السلام فانهم عدو لي الا رب العالمين الذي خلقني فهو يهدين وان موسى عليه السلام في أكثر الامور يعول على دلائل ابراهيم عليه السلام وسيأتي تقرير ذلك في سورة الشعراء ان شاء الله تعالى واعلم أنه يشبه أن يكون الخلق عبارة عن تركيب القوالب والابدان والهداية عبارة عن ابداع القوى المدركة والمحركة في تلك الاجسام وعلى هذا

الضياء الضياء فان في بيت لوط قوما بصرة (فأسر بأهلك) بالقطع من الاسراء وقرأ ابن كثير ونافع بالوصل حيث جاء في القرآن من السرى والفاء لترتيب الامر بالاسراء على الاخبار برسالتهم المؤذنة بورود الامر والنهي من جنابه عز وجل اليه عليه السلام (بقطع من الليل) بطائفة منه (ولا يلتفت منكم) أي لا يتخلف أولا ينظر الى ورائه (أحد) منك ومن ٤٧ أهلك وانما نهوا عن ذلك ليجدوا في السير فان من يلتفت الى ما وراءه لا يخلو عن أدنى وقفة أو لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم (الا امرأتك) استثناء من قوله تعالى فأسر بأهلك ويؤيده أنه قرئ فاسر بأهلك بقطع من الليل الا امرأتك وقرئ بالرفع على البدل من أحد فالالتفات بمعنى التخلف لا بمعنى النظر الى الخلف كيلا يلزم التناقض بين القراءتين المتواترتين فان النصب يقتضي كونه عليه السلام غير مأمور بالاسراء بها والرفع كونه مأمورا بذلك والاعتذار بأن مقتضى الرفع انما هو مجرد كونها معهم وذلك لا يستدعي الامر بالاسراء بها حتى يلزم المناقضة لجواز أن تسري هي بنفسها كما يروى أنه عليه السلام لما أسرى بأهله تبعتهم فلما سمعت هدة العذاب التفتت وقالت يا قوماه فأدركها حجر فقتلها وأن يسري بها عليه السلام من غير أمر بذلك اذ موجب النصب انما هو عدم الامر بالاسراء بها لا النهي عن الاسراء بها حتى يكون عليه السلام بالاسراء بها مخالفا للنهي لا يجدي نفعا لان انصراف الاستثناء الى الالتفات يستدعي بقاء الاهل على العموم ويكون الاسراء بها مأمورا به قطعا وفي حمل الاهلية في احدى القراءتين على الاهلية الدينية وفي الاخرى على النسبية مع أن فيه ما لا يخفى من التحكم والاعتساف كر على ما فر منه من المناقضة فالاولى حينئذ جعل الاستثناء على القراءتين من قوله لا يلتفت مثل الذي في قوله تعالى

ما فعلوه الا قليل منهم قال ابن عامر قرأه بالنصب وان كان الافصح الرفع على البدل ولا بعد في كون أكثر القراء على غير الافصح ولا يلزم
من ذلك أمرها بالالتفات بل عدم نهيها عنه بطريق الاستصلاح ولذلك علله على طريقة الاستئناف بقوله (انه مصيبها ما أصابهم) من
العذاب وهو امطار الحجارة وان لم يصبها الخسف والضمير في انه للشأن وقوله تعالى مصيبها خبر وقوله ما أصابهم مبتدأ أو الجملة

التقدير بكون الخالق مقدما على الهداية ولذلك قال فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فالتسوية راجعة الى
القالب ونفخ الروح اشارة الى ابداع القوى وقال ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين الى أن قال ثم
أنشأناه خلقا آخر فظهر ان الخلق مقدم على الهداية والشروع في بيان عجائب حكمة الله تعالى في الخلق
والهداية شروع في بحر لا ساحل له ولنذكر منه أمثلة قريبة الى الافهام (أحدها) ان الطبيعي يقول الثقيل
هابط والخفيف صاعد وأشد الاشياء ثقلا الارض ثم الماء وأشدها خفة النار ثم الهواء فلذلك وجب أن تكون
النار أعلى العنصريات والارض أسفلها ثم انه سبحانه قلب هذا الترتيب في خلقة الانسان فجعل أعلى
الاشياء منه العظم والشعر وهما أيبس ما في البدن وهما بمنزلة الارض ثم جعل تحته الدماغ الذي هو بمنزلة
الماء وجعل تحته النفس الذي هو بمنزلة الهواء وجعل تحته الحرارة الغريزية التي في القلب التي هي بمنزلة
النار فجعل مكان الارض من البدن الاعلى وجعل مكان النار من البدن الاسفل ليعرف ان ذلك بتدبير
القادر الحكيم الرحيم لا باقتضاء العلة والطبيعة (وثانيها) انك اذا نظرت الى عجائب النحل في تركيب
البيوت المسدسة وعجائب أحوال البق والبعوض في اهتدائها الى مصالح أنفسها لعرفت أن ذلك لا يمكن الا
بالهام مدبر عالم بجميع المعلومات (وثالثها) انه تعالى هو الذي أنعم على الخلائق بما به قوامهم من المطعوم
والمشروب والملبوس والمنكوح ثم هداهم الى كيفية الانتفاع بها ويستخرجون الحديد من الجبال واللآلي
من البحار ويركبون الادوية والدرياقات النافعة ويجمعون بين الاشياء المختلفة فيستخرجون لذات
الاطعمة فثبت انه سبحانه هو الذي خلق كل الاشياء ثم أعطاهم العقول التي بها يتوصلون الى كيفية
الانتفاع بها وهذا غير مختص بالانسان بل عام في جميع الحيوانات فأعطى الانسان انسانة والحمار حمارة
والبعير ناقة ثم هداه لها ليدوم التناسل وهدى الاولاد لثدي الامهات بل هذا غير مختص بالحيوانات بل
هو حاصل في أعضائها فانه خلق اليد على تركيب خاص وأودع فيها قوة الاخذ وخلق الرجل على تركيب
خاص وأودع فيها قوة المشي وكذا العين والاذن وجميع الاعضاء ثم ربط البعض بالبعض على وجوه
يحصل من ارتباطها مجموع واحد وهو الانسان وانما دلالات هذه الاشياء على وجود الصانع سبحانه لان
اتصاف كل جسم من هذه الاجسام بتلك الصفة أعني التركيب والقوة والهداية اما أن يكون واجبا أو
جائزا والاول باطل لانا نشاهد تلك الاجسام بعد الموت منفكة عن تلك التراكيب والقوى فدل على أن
ذلك جائز والجائز لا بد له من مرجح وليس ذلك المرجح هو الانسان ولا أبواه لان فعل ذلك يستدعي قدرة عليه
وعلما بما فيه من المصالح والمفاسد والامران نائيان عن الانسان لانه بعد كمال عقله يعجز عن تغيير شعرة واحدة
وبعد البحث الشديد عن كتب التشريح لا يعرف من منافع الاعضاء ومصالحها الا القدر القليل فلا بد أن
يكون المتولي لتدبيرها وترتيبها موجودا آخر وذلك الموجود لا يجوز أن يكون جسما لان الاجسام متساوية
في الجسمية فاختصاص ذلك الجسم بتلك المؤثرية لا بد وأن يكون جائزا وان كان جائزا افتقر الى سبب آخر
والدور والتسلسل محالان فلا بد من الانتهاء في سلسلة الحاجة الى موجود مؤثر ومدبر ليس بجسم ولا جسماني
ثم تأثير ذلك المؤثر اما أن يكون بالذات أو بالاختيار والاول محال لان الموجب لا يميز مثلا عن مثل وهذه
الاجسام متساوية في الجسمية فلم اختص بعضها بالصورة الفلكية وبعضها بالصورة العنصرية وبعضها
بالنباتية وبعضها بالحيوانية فثبت أن المؤثر والمدبر قادر والقادر لا يمكنه مثل هذه الافعال العجيبة الا اذا
كان عالما ثم ان هذا المدبر الذي ليس بجسم ولا جسماني لا بد وأن يكون واجب الوجود في ذاته وفي صفاته
والا لافتقر الى مدبر آخر ويلزم التسلسل وهو محال واذا كان واجب الوجود في قادريته وعالميته

خبر لان الذي اسمه ضمير الشأن وفيه ما لا يخفى من تفخيم شأن ما أصابهم ولا يحسن جعل الاستثناء منقطعا على قراءة الرفع (ان موعدهم الصبح) أي موعد عذابهم وهلاكهم تعليل للامر بالاسراء والنهي عن الالتفات المشعر بالحث على الاسراع (أليس الصبح بقريب) تأكيد للتعليل فان قرب الصبح داع الى الاسراع في الاسراء للتباعد عن مواقع العذاب وروي أنه قال للملائكة متى موعد هلاكهم قالوا الصبح قال أريد أسرع من ذلك فقالوا له ذلك وانما جعل ميقات هلاكهم الصبح لانه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذ أفظع ولانه أنسب بكون ذلك عبرة للناظرين (فلما جاء أمرنا) أي وقت عذابنا وموعده وهو الصبح (جعلنا عاليها) أي عالي قرى قوم لوط وهي التي عبر عنها بالمؤتفكات وهي خمس مدائن فيها أربعمائة ألف ألف (سافلها) أي قلبناها

على تلك الهيئة وجعل عاليها مفعولا أول للجعل وسافلها مفعولا ثانيا له وان تحقق القلب بالعكس أيضا لتهويل الامر والواجب
وتفظيع ما أتاه بل لان جعل عاليها الذي هو مقارهم ومساكنهم سافلها أشد عليهم وأشق من جعل سافلها عاليها وان كان مستلزما له
روي أنه جعل جبريل عليه السلام جناحه في أسفلها ثم رفعها الى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ثم قلبها

عليهم واسناد الجعل والامطار الى ضميره سبحانه باعتبار أنه المسبب لتفخيم الامر وتهويل الخطب (وأمطرنا عليهم) على أهل المدائن أو شذاذهم (حجارة من سجيل) من طين متحجر كقوله حجارة من طين وأصله سنك كل فعرب وقيل هو من أسجله اذا أرسله أو أدر عطيته والمعنى من مثل الشئ المرسل أو مثل العطية فى الادرار أو من السجل أى مما كتب الله

تعالى أن يعذبهم به وقيل أصله من سجين أى من جهنم فأبدلت نونه لاما (منضود) نضد فى السماء نضدا معدا للعذاب وقيل يرسل بعضه اثر بعض كقطار الامطار (مسومة) معلمة للعذاب وقيل معلمة ببياض وحمرة أو بسيما تتميز به عن حجارة الارض أو باسم من ترمى به (عند ربك) فى خزائنه التى لا يتصرف فيها غيره عز وجل (وما هى) أى الحجارة الموصوفة (من الظالمين) من كل ظالم (ببعيد) فانهم بسبب ظلمهم مستحقون لها وملابسون بها وفيه وعيد شديد لاهل الظلم كافة وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سأل جبريل عليه السلام فقال يعنى ظالمى أمتك ما من ظالم منهم الا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة الى ساعة وقيل الضمير للقرى أى هى قريبة من ظالمى مكة يمرون بها فى مسايرهم وأسفارهم الى الشام وتذكير البعيد على تأويل الحجارة بالحجر أو اجرائه على موصوف مذكر أى بشئ بعيد أو بمكان فانها وان كانت فى السماء وهى فى غاية البعد من الارض الا انها حين هوت منها فهى أسرع شئ لحوقا بهم فكأنها بمكان قريب منهم أو لانه على زنة المصدر كالزفير والصهيل والمصادر يستوى فى الوصف بها المذكر والمؤنث (والى مدين) أى أولاد مدين بن ابراهيم عليه السلام أو جعل اسما للقبيلة بالغلبة أو أهل مدين وهو بلد بناه مدين فسمى باسمه (أخاهم) أى نسيبهم

والواجب لذاته لا يتخصص ببعض الممكنات دون البعض وجب أن يكون عالما بكل ما صح أن يكون معلوما وقادرا على كل ما صح أن يكون مقدورا فظهر بهذه الدلالة التى تمسك بها موسى عليه السلام وتنبيهه على تقريرها استناد العالم الى مدبر ليس بجسم ولا جسمانى وهو واجب الوجود فى ذاته وفى صفاته عالم بكل المعلومات قادر على كل المقدورات وذلك هو الله سبحانه وتعالى ﴿المسئلة الثامنة﴾ ان فرعون خاطب الاثنين بقوله فمن ربكما ثم وجه النداء الى أحدهما وهو موسى عليه السلام لانه الاصل فى النبوة وهرون وزيره وتابعه واما لان فرعون كان لخبثه يعلم الرتة التى فى لسان موسى عليه السلام فأراد استنطاقه دون أخيه لما عرف من فصاحته والرتة التى فى لسان موسى عليه السلام ويدل عليه قوله أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ﴿المسئلة التاسعة﴾ فى قوله الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى وجهان (أحدهما) التقديم والتأخير أى أعطى خليقته كل شئ يحتاجون اليه ويرتفقون به (وثانيهما) أن يكون المراد من الخلق الشكل والصورة المطابقة للمنفعة فكأنه سبحانه قال أعطى كل شئ الشكل الذى يطابق منفعته ومصلحته وقرئ خلقه صفة للمضاف أو للمضاف اليه والمعنى أن كل شئ خلقه الله لم يخله من اعطائه وانعامه وأما قوله تعالى قال فما بال القرون الاولى فاعلم أن فى ارتباط هذا الكلام بما قبله وجوه (أحدها) أن موسى عليه السلام لما قرر على فرعون أمر المبدا والمعاد قال فرعون ان كان اثبات المبدا فى هذا الحد من الظهور فما بال القرون الاولى ما أثبتوه وتركوه فكأن موسى عليه السلام لما استدل بالدلالة القاطعة على اثبات الصانع قدح فرعون فى تلك الدلالة بقوله ان كان الامر فى قوة هذه الدلالة على ما ذكرت وجب على أهل القرون الماضية أن لا يكونوا غافلين عنها فعارض الحجة بالتقليد (وثانيها) ان موسى عليه السلام هدد بالعذاب أولا فى قوله انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى فقال فرعون فما بال القرون الاولى فانها كذبت ثم انهم ما عذبوا (وثالثها) وهو الاظهر أن فرعون لما قال فمن ربكما يا موسى فذكر موسى عليه السلام دليلا ظاهرا وبرهانا باهرا على هذا المطلوب فقال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى فخاف فرعون أن يزيد فى تقرير تلك الحجة فيظهر للناس صدقه وفساد طريق فرعون فأراد أن يصرفه عن ذلك الكلام وأن يشغله بالحكايات فقال فما بال القرون الاولى فلم يلتفت موسى عليه السلام الى ذلك الحديث بل قال علمها عند ربى فى كتاب ولا تعلق غرضى بأحوالهم فلا اشتغل بها ثم عاد الى تتميم كلامه الاول وايراد الدلائل الباهرة على الوحدانية فقال الذى جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وهذا الوجه هو المعتمد فى صحة هذا النظم ثم ههنا مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اختلفوا فى قوله علمها عند ربى فى كتاب فان العلم الذى يكون عند الرب كيف يكون فى الكتاب وتحقيقه هو أن علم الله تعالى صفته وصفة الشئ قائمة به فاما أن تكون صفة الشئ حاصلة فى كتاب فذلك غير معقول فذكروا فيه وجهين (الاول) معناه انه سبحانه أثبت تلك الاحكام فى كتاب عنده لكون ما كتبه فيه يظهر للملائكة فيكون ذلك زيادة لهم فى الاستدلال على أنه تعالى عالم بكل المعلومات منزه عن السهو والغفلة ولقائل أن يقول قوله فى كتاب يوهم احتياجه سبحانه وتعالى فى ذلك العلم الى ذلك الكتاب وهذا وان كان غير واجب لا محالة ولكنه لا أقل من أنه يوهمه فى أول الامر لاسيما الكافر فكيف يحسن ذكره مع معاند مثل فرعون فى وقت الدعوة (الوجه الثانى) ان تفسير ذلك بأن بقاء تلك المعلومات فى علمه سبحانه كبقاء المكتوب فى الكتاب فيكون الغرض من هذا الكلام تأكيد القول بأن أسرارها معلومة لله تعالى بحيث لا يزول شئ منها عن علمه وهذا التفسير مؤكد بقوله بعد ذلك لا يضل ربى ولا ينسى ﴿المسئلة الثانية﴾

(شعيبا) وهو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين وكان يقال له خطيب الانبياء لحسن مراجعته قومه والجملة معطوفة على قوله تعالى وإلى ثمود أخاهم صالحا أي وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبا (قال) استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عن صدر الكلام فكأنه قيل فماذا قال لهم فقيل قال كما قال من قبله من الرسل ٥٠ عليهم السلام (يا قوم اعبدوا الله) وحده ولا تشركوا به شيأ (ما لكم من إله غيره) تحقيق للتوحيد وتعليل للامر به وبعد ما أمرهم بما هو ملاك أمر الدين وأول ما يجب على المكلفين نهاهم عن ترتيب مبادي ما اعتادوه من البخس والتطفيف عادة مستمرة فقال (ولا تنقصوا المكيال والميزان) كي تتوسلوا بذلك إلى بخس حقوق الناس (إني أراكم بخير) أي ملتبسين بثروة وسعة تغنيكم عن ذلك أو بنعمة من الله تعالى حقها أن تقابل بغير ما تأتونه من المسامحة والتفضل على الناس شكرا عليها أو أراكم بخير فلا تزيلوه بما أنتم عليه من الشر وهو على كل حال علة للنهي عقبت بعلة أخرى أعني قوله عز وجل (وإني أخاف عليكم) ان لم تنتهوا عن ذلك (عذاب يوم محيط) لا يشذ منه شاذ منكم وقيل عذاب يوم مهلك من قوله تعالى وأحيط بثمره وأصله من احاطة العدو والمراد عذاب يوم القيامة أو عذاب الاستئصال ووصف اليوم بالاحاطة وهي حال العذاب على الاسناد المجازي وفيه من المبالغة ما لا يخفى فان اليوم زمان يشتمل على ما وقع فيه من الحوادث فاذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمعذب ما اشتمل عليه منه كما اذا أحاط بنعيمه ويجوز أن يكون هذا تعليلا للامر والنهي جميعا (ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط) أي بالعدل من غير زيادة ولا نقصان فان الزيادة في الكيل والوزن وان كانت تفضلا مندوبا اليه لكنها في الآلة محظورة

اختلفوا في قوله لا يضل ربي ولا ينسى فقال بعضهم معنى اللفظين واحد أي لا يذهب عليه شيء ولا يخفى عليه وهذا قول مجاهد والاكثرون على الفرق بينهما ثم ذكروا وجوها (أحدها) وهو الاحسن ما قاله القفال لا يضل عن الاشياء ومعرفتها وما علم من ذلك لم ينسه فاللفظ الاول اشارة إلى كونه عالما بكل المعلومات واللفظ الثاني وهو قوله ولا ينسى دليل على بقاء ذلك العلم أبد الآباد وهو اشارة إلى نفي التغير (وثانيها) قال مقاتل لا يخطئ ذلك الكتاب ربي ولا ينسى ما فيه (وثالثها) قال الحسن لا يخطئ وقت البعث ولا ينساه (ورابعها) قال أبو عمرو أصل الضلال الغيبوبة والمعنى لا يغيب عن شيء ولا يغيب عنه شيء (وخامسها) قال ابن جرير لا يخطئ في التدبير فيعتقد في غير الصواب كونه صوابا واذا عرفه لا ينساه وهذه الوجوه متقاربة والتحقيق هو الاول ﴿المسئلة الثالثة﴾ انه لما سأله عن الاله وقال فمن ربكما يا موسى وكان ذلك مما سبيله الاستدلال أجاب بما هو الصواب بأوجز عبارة وأحسن معنى ولما سأله عن شأن القرون الاولى وكان ذلك مما سبيله الاخبار ولم يأته في ذلك خبر وكله إلى عالم الغيوب واعلم ان موسى عليه السلام لما ذكر الدلالة الاولى وهي دلالة عامة تتناول جميع المخلوقات من الانسان وسائر الحيوانات وأنواع النبات والجمادات ذكر بعد ذلك دلائل خاصة وهي ثلاثة (أولها) قوله تعالى الذي جعل لكم الارض مهدا وفيه أبحاث ﴿البحث الاول﴾ قرأ أهل الكوفة ههنا وفي الزخرف مهدا والباقون قرؤا مهادا فيهما قال أبو عبيدة الذي اختاره مهادا وهو اسم والمهد اسم الفعل وقال غيره المهد الاسم والمهاد الجمع كالفرش والفراش أجاب أبو عبيدة بأن الفراش اسم والفرش فعل وقال المفضل هما مصدران لمهد اذا وطأ له فراشا يقال مهده مهدا ومهادا وفرش فرشا وفراشا ﴿البحث الثاني﴾ قال صاحب الكشاف الذي جعل مرفوع لانه خبر مبتدا محذوف أو لانه صفة لربي أو منصوب على المدح وهذا من مظانه ومجازه واعلم أنه يجب الجزم بكونه خبر المبتدا المحذوف اذ لو حملناه على الوجهين الباقيين لزم كونه من كلام موسى عليه السلام ولو كان كذلك لفسد النظم بسبب قوله فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى على ما سيأتي بيانه ان شاء الله تعالى ﴿البحث الثالث﴾ المراد من كون الارض مهدا انه تعالى جعلها بحيث يتصرف العباد وغيرهم عليها بالقعود والقيام والنوم والزراعة وجميع وجوه المنافع وقد ذكرناه مستقصى في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء (وثانيها) قوله تعالى وسلك لكم فيها سبلا قال صاحب الكشاف سلك من قوله ما سلككم في سقر كذلك سلكناه في قلوب المجرمين أي جعل لكم فيها سبلا ووسطها بين الجبال والاودية والبراري (وثالثها) قوله وأنزل من السماء ماء والكلام فيه قد مر في سورة البقرة أما قوله فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ففيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قوله فأخرجنا فيه وجوه (أحدها) أن يكون هذا من تمام كلام موسى عليه السلام كأنه يقول ربي الذي جعل لكم كذا وكذا فأخرجنا نحن معاشر عباده بذلك الماء بالحراثة أزواجا من نبات شتى (وثانيها) ان عند قوله وأنزل من السماء ماء تم كلام موسى عليه السلام ثم بعد ذلك أخبر الله تعالى عن صفة نفسه متصلا بالكلام الاول بقوله فأخرجنا به ثم يدل على هذا الاحتمال قوله كلوا وارعوا أنعامكم (وثالثها) قال صاحب الكشاف انتقل فيه من لفظ الغيبة إلى لفظ المتكلم المطاع للايذان بأنه سبحانه وتعالى مطاع تنقاد الاشياء المختلفة لامره ومثله قوله تعالى وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها أمن خلق السموات والارض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة واعلم ان قوله فأخرجنا اما أن يكون من كلام موسى عليه السلام أو

من كلام الله تعالى والاول باطل لان قوله بعد ذلك كلوا وارعوا أنعامكم ان في ذلك لآيات لاولى النهى منها خلقناكم وفيها نعيدكم لا يليق بموسى عليه السلام وأيضا فقوله فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى لا يليق بموسى لان أكثر ما في قدرة موسى عليه السلام صرف المياه الى سقي الاراضي وأما اخراج النبات على اختلاف ألوانها وطبائعها فليس من موسى عليه السلام فثبت ان هذا كلام الله تعالى ولا يجوز أن يقال كلام الله ابتداء من قوله فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى لان الفاء يتعلق بما قبله فلا يجوز جعل هذا كلام الله تعالى وجعل ما قبله كلام موسى عليه السلام فلم يبق الا أن يقال ان كلام موسى عليه السلام تم عند قوله لا يضل ربي ولا ينسى ثم ابتدئ كلام الله تعالى من قوله الذي جعل لكم الارض مهدا ويكون التقدير هو الذي جعل لكم الارض مهدا فيكون الذي خبر مبتدا محذوف ويكون الانتقال من الغيبة الى الخطاب التفاتا (المسئلة الثانية) ظاهر الآية يدل على أنه سبحانه انما يخرج النبات من الارض بواسطة انزال الماء فيكون للماء فيه أثر وهذا بتقدير ثبوته لا يقدح في شئ من أصول الاسلام لانه سبحانه وتعالى هو الذي أعطاها هذه الخواص والطبائع لكن المتقدمين من المتكلمين ينكرونه ويقولون لا تأثير له فيه البتة (المسئلة الثالثة) قوله تعالى أزواجا أى أصنافا سميت بذلك لانها مزدوجة مقرونة بعضها مع بعض شتى صفة للازواج جمع شتيت كمريض ومرضى ويجوز أن يكون صفة للنبات والنبات مصدر سمي به النابت كما سمي بالنبت فاستوى فيه الواحد والجمع يعني انها شتى مختلفة النفع والطعم والطبع بعضها يصلح للناس وبعضها يصلح للبهائم أما قوله كلوا وارعوا أنعامكم فهو حال من الضمير في أخرجنا والمعنى أخرجنا أصناف النبات آذنين في الانتفاع بها مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها وقد تضمن قوله كلوا اسائر وجوه المنافع فهو كقوله ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وقوله ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما وقوله كلوا أمر اباحة ان في ذلك أي فيما ذكرت من هذه النعم لآيات أي لدلالات لذوي النهى أي العقول والنهية العقل قال أبو علي الفارسي النهى يجوز أن يكون مصدرا كالهدى ويجوز أن يكون جمعا أما قوله منها خلقناكم فاعلم أنه سبحانه لما ذكر منافع الارض والسماء بين أنها غير مطلوبة لذاتها بل هي مطلوبة لكونها وسائل الى منافع الآخرة فقال منها خلقناكم وفيه سؤالان (السؤال الاول) ما معنى قوله منها خلقناكم مع انه سبحانه وتعالى خلقنا من نطفة على ما بين ذلك في سائر الآيات * والجواب من وجهين (الاول) انه لما خلق أصلنا وهو آدم عليه السلام من التراب على ما قال كمثل آدم خلقه من تراب لا جرم أطلق ذلك علينا (الثاني) ان تولد الانسان انما هو من النطفة ودم الطمث وهما يتولدان من الاغذية والغذاء اما حيواني أو نباتي والحيواني ينتهي الى النبات والنبات انما يحدث من امتزاج الماء والتراب فصح انه تعالى خلقنا منها وذلك لا ينافي كوننا مخلوقين من النطفة (والثالث) ذكرنا في قوله تعالى هو الذي يصوركم في الارحام خبر ابن مسعود ان الله يأمر ملك الارحام ان يكتب الاجل والرزق والارض التي يدفن فيها وانه يأخذ من تراب تلك البقعة ويذره على النطفة ثم يدخلها في الرحم (السؤال الثاني) ظاهر الآية يدل على أن الشئ قد يكون مخلوقا من الشئ وظاهر قول المتكلمين يأباه * والجواب ان كان المراد من خلق الشئ من الشئ ازالة صفة الشئ الاول عن الذات واحداث صفة الشئ الثاني فيه فذلك جائز لانه لا منافاة فيه أما قوله تعالى وفيها نعيدكم فلا شبهة في أن المراد الاعادة الى القبور حتى تكون الارض مكانا وظرفا لكل من مات الا من رفعه الله الى السماء ومن هذا حاله يحتمل أن يعاد اليها أيضا بعد ذلك أما قوله تعالى ومنها نخرجكم تارة أخرى ففيه وجوه (أحدها)

كالنقص فاعل الزائد للاستعمال عند الاكتيال والناقص للاستعمال وقت الكيل وانما أمر بتسويتهما وتعديلهما مصرحا بعد النهي عن نقصهما مبالغة في الحمل على الايفاء والمنع من البخس وتنبيها على انه لا يكفيهم مجرد الكف عن النقص والبخس بل يجب عليهم اصلاح ما أفسدوه وجعلوه معيارا لظلمهم وقانونا لعدوانهم (ولا تبخسوا الناس) بسبب نقصهما وعدم اعتدالهما (أشياءهم) التي يشترونها بهما وقد صرح بالنهي عن البخس بعد ما علم ذلك في ضمن النهي عن نقص المعيار والامر بايفائه اهتماما بشأنه وترغيبا في ايفاء الحقوق بعد الترهيب والزجر عن نقصها ويجوز أن يكون المراد بالامر بايفاء المكيال والميزان الامر بايفاء المكيلات والموزونات ويكون النهي عن البخس عاما للنقص في المقدار وغيره تعميما بعد التخصيص كما في قوله تعالى (ولا تعثوا في الارض مفسدين) فان العثي يعم نقص الحقوق وغيره من أنواع الفساد وقيل البخس المكس كأخذ العشور في المعاملات قال زهير بن أبي سلمى

أفي كل أسواق العراق اتاوة
وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم

والعثي في الارض السرقة وقطع الطريق والغارة وفائدة الحال اخراج ما يقصد به الاصلاح كما فعله الخضر عليه السلام من خرق السفينة وقتل الغلام وقيل معناه ولا تعثوا في الارض مفسدين أمر آخرتكم ومصالح دينكم (بقيت الله) أي ما أبقاه لكم من الحلال بعد التنزه عن تعاطي المحرمات (خير لكم) مما تجمعون بالبخس والتطفيف فان ذلك هباء منثور بل شر محض وان زعمتم أن فيه خيرا كقوله تعالى يمحق الله الربا ويربي الصدقات (ان كنتم مؤمنين) بشرط أن تؤمنوا فان خيريتها باستتباع الثواب مع النجاة وذلك مشروط بالايمان لا محالة أو ان كنتم مصدقين لي في مقالتي لكم وقبلي

البقية الطاعة كقوله عز وجل والباقيات الصالحات خير عند ربك وقرئ تقية الله بالفوقانية وهي تقواه عن المعاصي (وما أنا عليكم بحفيظ) أحفظكم من القبائح أو أحفظ عليكم أعمالكم فأجازيكم وانما أنا ناصح مبلغ وقد أعذرت اذ أنذرت ولم آل في ذلك جهدا أو ما أنا بحافظ ومستبق عليكم نعم الله تعالى ٥٢ ان لم تتركوا ما أنتم عليه من سوء الصنيع (قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا) من الاوثان أجابوا بذلك أمره عليه السلام اياهم بعبادة الله وحده المتضمن انهيهم عن عبادة الاصنام ولقد بالغوا في ذلك وبلغوا أقصى مراتب الخلاعة والمجون والضلال حيث لم يكتفوا بانكار الوحي الآمر بذلك حتى ادعوا أن لا آمر به من العقل واقتب أصلاواته من أحكام الوسوسة والجنون وعلى ذلك بنوا استفهامهم وقالوا بطريق الاستهزاء أصلاتك التي هي من نتائج الوسوسة وأفاعيل المجانين تأمرك بأن نترك عبادة الاوثان التي توارثناها أبا عن جد وانما جعلوه عليه السلام مأمورا مع ان الصادر عنه انما هو الامر بعبادة الله تعالى وغير ذلك من الشرائع لانه عليه السلام لم يكن يأمرهم بذلك من تلقاء نفسه بل من جهة الوحي وأنه كان يعلمهم بانه مأمور بتبليغه اليهم وتخصيصهم باسناد الامر الى الصلاة من بين سائر أحكام النبوة لانه عليه الصلاة والسلام كان كثير الصلاة معروفا بذلك وكانوا اذا رأوه يصلي يتغامزون ويتضاحكون فكانت هي من بين سائر شعائر الدين ضحكة لهم وقرئ أصلواتك (أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء) جواب عن أمره عليه السلام بايفاء الحقوق ونهيه عن البخس والنقص معطوف على ما أي أو أن نترك أن نفعل في أموالنا ما نشاء من الاخذ والاعطاء والزيادة والنقص وقرئ بالتاء في الفعلين عطفا على مفعول تأمرك أي وبينك

وهو الاقرب ومنها نخرجكم يوم الحشر والبعث (وثانيها) ومنها نخرجكم ترابا وطينا ثم نحييكم بعد الاخراج وهذا مذكور في بعض الاخبار (وثالثها) المراد عذاب القبر عن البراء قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الانصار فذكر عذاب القبر وما يخاطب به المؤمن والكافر وانه ترد روحه في جسده ويرد الى الارض وأنه تعالى يقول عند اعادتهم الى الارض اني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى واعلم أن الله تعالى عدد في هذه الآيات منافع الارض وهي انه تعالى جعلها لهم فراشا ومهادا يتقلبون عليها وسوى لهم فيها مسالك يترددون فيها كيف أرادوا وأنبت فيها أصناف النبات التي منها أقواتهم وعلف دوابهم وهي أصلهم الذي منه يتفرعون ثم هي كفاتهم اذا ماتوا ومن ثم قال عليه السلام بروا بالارض فانها بكم برة ﴿ قوله تعالى ﴿ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى﴾ اعلم أنه تعالى بين انه أرى فرعون الآيات كلها ثم انه لم يقبلها واختلفوا في المراد بالآيات فقال بعضهم أراد كل الادلة ما يتصل بالتوحيد وما يتصل بالنبوة أما التوحيد فما ذكر في هذه السورة من قوله ربنا الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى وقوله الذي جعل لكم الارض مهدا الآية وما ذكر في سورة الشعراء قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والارض الآيات وأما النبوة فهي الآيات التسع التي خص الله بها موسى عليه السلام وهي العصا واليد وفلق البحر والحجر والجراد والقمل والضفادع والدم ونتق الجبل وعلى هذا التقرير معنى أريناه عرفناه صحتها وأوضحنا له وجه الدلالة فيها ومنهم من حمل ذلك على ما يتصل بالنبوة وهي هذه المعجزات وانما أضاف الآيات الى نفسه سبحانه وتعالى مع ان المظاهر لها موسى عليه السلام لانه أجراها على يديه كما أضاف نفخ الروح الى نفسه فقال فنفخنا فيها من روحنا مع ان النفخ كان من جبريل عليه السلام فان قيل قوله كلها يفيد العموم والله تعالى ما أراه جميع الآيات لان من جملة الآيات ما أظهرها على الانبياء عليهم السلام الذين كانوا قبل موسى عليه السلام والذين كانوا بعده قلنا لفظ الكل وان كان للعموم لكن قد يستعمل في الخصوص عند القرينة كما يقال دخلت السوق فاشتريت كل شئ أو يقال ان موسى عليه السلام أراه آياته وعدد عليه آيات غيره من الانبياء عليهم السلام فكذب فرعون بالكل أو يقال تكذيب بعض المعجزات يقتضي تكذيب الكل فحكى الله تعالى ذلك على الوجه الذي يلزم ثم انه سبحانه وتعالى حكى عنه انه كذب وأبى قال القاضي الاباء الامتناع وانه لا يوصف به الا من يتمكن من الفعل والترك ولان الله تعالى ذمه بأنه كذب وبأنه أبى ولو لم يقدر على ما هو فيه لم يصح واعلم ان هذا السؤال مر في سورة البقرة في قوله الا ابليس أبى واستكبر والجواب مذكور هناك ثم حكى الله تعالى شبهة فرعون وهي قوله أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى وتركيب هذه الشبهة عجيب وذلك لانه ألقى في مسامعهم ما يصيرون به مبغضين له جدا وهو قوله أجئتنا لتخرجنا من أرضنا وذلك لان هذا مما يشق على الانسان في النهاية ولذلك جعله الله تعالى مساويا للقتل في قوله ان اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ثم لما صاروا في نهاية البغض له أورد الشبهة الطاعنة في نبوته عليه السلام وهي ان ما جئتنا به سحر لا معجز ولما علم ان المعجز انما يتميز عن السحر لكون المعجز مما يتعذر معارضته والسحر مما يمكن معارضته قال فلنأتينك بسحر مثله أما قوله تعالى فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت فاعلم ان الموعد يجوز أن يكون مصدرا ويجوز أن يكون اسما للمكان الوعد كقوله وان جهنم لموعدهم أجمعين وأن يكون اسما لزمان الوعد كقوله ان موعدهم الصبح والذي في هذه الآية يعني المصدر أي اجعل بيننا

وبينك وعد الا تخلفه لان الوعد هو الذي يصح وصفه بالخلف أما الزمان والمكان فلا يصح وصفهما بذلك ومما يؤكد ذلك ان الحسن قرأ يوم الزينة بالنصب وذلك لا يطابق المكان والزمان وانما نصب مكانا لانه هو المفعول الثاني للجعل والتقدير اجعل مكان موعد لا نخلفه مكانا سوى أما قوله سوى فاعلم انه قرأ عاصم وحمزة وابن عامر سوى بضم السين والباقون بكسرها وهما لغتان مثل طوى وطوى وقرئ أيضا منونا وغير منون وذكروا في معناه وجوها (أحدها) قال أبو علي مكانا تستوي مسافته على الفريقين وهو المراد من قول مجاهد قال قتادة منصفا بيننا (وثانيها) قال ابن زيد سوى أي مستو بالا يحجب العين ما فيه من الارتفاع والانخفاض فسوى على التقدير الاول صفة المسافة وعلى هذا التقدير صفة المكان والمقصود انهم طلبوا موضعا مستويا لا يكون فيه ارتفاع ولا انخفاض حتى يشاهد كل الحاضرين كل ما يجري (وثالثها) مكانا يستوي حالنا في الرضا به (ورابعها) قال الكلبي مكانا سوى هذا المكان الذي نحن فيه الآن ﴿قوله تعالى ﴿قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى﴾ اعلم أن في الآية مسائل (المسئلة الاولى) يحتمل أن قوله تعالى قال موعدكم أن يكون من قول فرعون فبين الوقت ويحتمل أن يكون من قول موسى عليه السلام قال القاضي والاول أظهر لانه المطالب بالاجتماع دون موسى عليه السلام وعندي الاظهر أنه من كلام موسى عليه السلام لوجوه (أحدها) انه جواب لقول فرعون فاجعل بيننا وبينك موعدا (وثانيها) وهو ان تعيين يوم الزينة يقتضي اطلاع الكل على ما سيقع فتعيينه انما يليق بالمحق الذي يعرف ان اليد له لا بالمبطل الذي يعرف أنه ليس معه الا التلبيس (وثالثها) أن قوله موعدكم خطاب للجمع فلو جعلناه من فرعون الى موسى وهرون لزم اما حمله على التعظيم وذلك لا يليق بحال فرعون معهما أو على ان أقل الجمع اثنان وهو غير جائز أما لو جعلناه من موسى عليه السلام الى فرعون وقومه استقام الكلام (المسئلة الثانية) يوم الزينة قرأ بعضهم بضم الميم وقرأ الحسن بالنصب قال الزجاج اذا رفع فعلى خبر المبتدا والمعنى وقت موعدكم يوم الزينة ومن نصب فعلى الظرف معناه موعدكم يقع يوم الزينة وقوله وأن يحشر الناس ضحى معناه موعدكم حشر الناس ضحى فموضع أن يكون رفعا ويجوز فيه الخفض عطفا على الزينة كأنه قال موعدكم يوم الزينة ويوم يحشر الناس ضحى فان قيل ألستم قلتم في تفسير قوله اجعل بيننا وبينك موعدا ان التقدير اجعل مكان موعد لا نخلفه مكانا سوى فهذا كيف يطابقه الجواب بذكر الزمان قلنا هو مطابق معنى وان لم يطابق لفظا لانهم لا بد لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة في مكان معين مشهور باجتماع الناس في ذلك اليوم فبذكر الزمان علم المكان (المسئلة الثالثة) ذكر المفسرون في يوم الزينة وجوها (أحدها) انه يوم عيد لهم يتزينون فيه (وثانيها) قال مقاتل يوم النيروز (وثالثها) قال سعيد بن جبير يوم سوق لهم (ورابعها) قال ابن عباس يوم عاشوراء وانما قال يحشر فانهم يجتمعون ذلك اليوم بأنفسهم من غير حاشر لهم وقرئ وأن يحشر الناس بالياء والتاء يريد وأن تحشر الناس يا فرعون وأن يحشر الناس ويجوز أن يكون فيه ضمير فرعون ذكره بلفظ الغيبة اما على العادة التي تخاطب بها الملوك أو خاطب القوم بقوله موعدكم وجعل ضمير يحشر لفرعون وانما أوعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله تعالى وظهور دينه وكبت الكافر وزهوق الباطل على رؤس الاشهاد في المجمع العام ليكثر المحدث بذلك الامر العجيب في كل بدو وحضر ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر قال القاضي انه عين اليوم بقوله يوم الزينة ثم عين من اليوم وقتا معينا بقوله وأن يحشر الناس ضحى أما قوله فتولى فرعون فجمع

أصلاتك تأمرك أن تفعل أنت في أموالنا ما تشاء وتجويز العطف على ما قيل يستدعي أن يراد بالترك معنيان متخالفان والمراد بفعله عليه السلام ايجاب الايفاء والعدل في معاملاتهم لا نفس الايفاء فان ذلك ليس من أفعاله عليه السلام بل من أفعالهم وانما لم نقل عطفا على أن نترك لان الترك ليس مأمورا به على الحقيقة بل المأمور به تكليفه عليه السلام ٥٣ اياهم وأمره بذلك والمعنى أصلاتك تأمرك أن تكلفنا أن نترك ما يعبد آباؤنا وحمله على معنى أصلاتك تأمرك بما ليس في وسعك وعهدتك من أفاعيل غيرك ليكون ذلك تعريضا منهم بركاكة رأيه عليه السلام واستهزاء به من تلك الجهة يأباه دخول الهمزة على الصلاة دون الامر ويستدعي أن يصدر عنه عليه السلام في أثناء الدعوة ما يدل على ذلك أو يوهمه وأنى ذلك فتأمل وقرئ بالنون في الاول والتاء في الثاني عطفا على أن نترك أي أو أن نفعل نحن في أموالنا عند المعاملة ما تشاء أنت من التسوية والايفاء (انك لانت الحليم الرشيد) وصفوه عليه السلام بالوصفين على طريقة التهكم وانما أرادوا بذلك وصفه بضديهما كقول الخزنة ذق انك أنت العزيز الكريم ويجوز أن يكون تعليلا لما سبق من استبعاد ما ذكروه على معنى انك لانت الحليم الرشيد على زعمك وأما وصفه بهما على الحقيقة فيأباه مقام الاستهزاء اللهم الا أن يراد بالصلاة الدين كما قيل (قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة) أي حجة واضحة وبرهان نير عبر بها عما آتاه الله تعالى من النبوة والحكمة ردا على مقالتهم الشنعاء في جعلهم أمره ونهيه غير مستند الى سند (من ربي) ومالك أموري وايراد حرف الشرط مع جزمه عليه السلام بكونه على ما هو عليه من البينات والحجج لاعتبار حال المخاطبين ومراعاة حسن المحاورة معهم كما ذكرناه في نظائره (ورزقني

كيده ثم أتى فاعلم أن التولي قد يكون اعراضا وقد يكون انصرافا والظاهر ههنا أنه بمعنى الانصراف وهو مفارقته موسى عليه السلام على الموعد الذي تواعدوا للاجتماع قال مقاتل فتولى أي أعرض وثبت على اعراضه عن الحق ودخل تحت قوله فجمع كيده السحرة وسائر من يجتمع لذلك ويدخل فيه الآلات وسائر ما أورده السحرة ثم أتى دخل تحته أتى الموضع بالسحرة وبالقوم وبالآلات قال ابن عباس كانوا اثنين وسبعين ساحرا مع كل واحد منهم حبل وعصا وقيل كانوا أربعمائة وقيل أكثر من ذلك ثم ضربت لفرعون قبة فجلس فيها ينظر اليهم وكان طول القبة سبعين ذراعا ثم بين تعالى أن موسى عليه السلام قدم قبل كل شئ الوعيد والتحذير عما قالوه وأقدموا عليه فقال ويلكم لا تفتروا على الله كذبا بأن تزعموا بأن الذي جئت به ليس بحق وانه سحر فيمكنكم معارضتي قال الزجاج يجوز في انتصاب ويلكم أن يكون المعنى ألزمهم الله ويلا ان افتروا على الله كذبا ويجوز على النداء كقوله يا ويلتا أألد وأنا عجوز يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا وقوله فيسحتكم بعذاب أي يعذبكم عذابا يهلككم ويستأصلكم وقرأ حمزة وعاصم والكسائي برفع الياء من الاسحات والباقون بفتحها من السحت والاسحات لغة أهل نجد وبني تميم والسحت لغة أهل الحجاز فكأنه تعالى قال من افترى على الله كذبا حصل له أمران (أحدهما) عذاب الاستئصال في الدنيا أو العذاب الشديد في الآخرة وهو المراد من قوله فيسحتكم بعذاب (والثاني) الخيبة والحرمان عن المقصود وهو المراد بقوله وقد خاب من افترى ثم بين سبحانه وتعالى انه لما قال موسى عليه السلام ذلك أعرضوا عن قوله وتنازعوا أمرهم بينهم وفي تنازعوا قولان (أحدهما) تفاوضوا وتشاوروا واستقروا على شئ واحد (والثاني) قال مقاتل اختلفوا فيما بينهم ثم قال بعضهم دخل في التنازع فرعون وقومه ومنهم من يقول بل هم السحرة وحدهم والكلام محتمل وليس في الظاهر ما يدل على الترجيح وذكروا في قوله وأسروا النجوى وجوها (أحدها) انهم أسروها من فرعون وعلى هذا التقدير فيه وجوه (الاول) قال ابن عباس رضي الله عنهما ان نجواهم قالوا ان غلبنا موسى اتبعناه (والثاني) قال قتادة ان كان ساحرا فسنغلبه وان كان من السماء فله أمر (الثالث) قال وهب لما قال ويلكم الآية قالوا ما هذا بقول ساحر (القول الثاني) انهم أسروا النجوى من موسى وفرعون ونجواهم هو قولهم ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم وهو قول السدي (الوجه الثالث) انهم أسروا النجوى من موسى وهرون ومن فرعون وقومه أيضا وكان نجواهم انهم كيف يجب تدبير أمر الحبال والعصي وعلى أي وجه يجب اظهارها فيكون أوقع في القلوب وأظهر للعيوب وهو قول الضحاك ﴿ قوله تعالى ﴿ قالوا ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ وفي الآية مسائل ﴿ المسئلة الاولى ﴾ القراءة المشهورة ان هذان لساحران ومنهم من ترك هذه القراءة وذكروا وجوها أخر (أحدها) قرأ أبو عمرو وعيسى بن عمر ان هذين لساحران وقالوا هي قراءة عثمان وعائشة وابن الزبير وسعيد بن جبير والحسن رضي الله عنهم واحتج أبو عمرو وعيسى على ذلك بما روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها انها سئلت عن قوله ان هذان لساحران وعن قوله ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى في المائدة وعن قوله لكن الراسخون في العلم منهم الى قوله والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة فقالت يا ابن أخي هذا خطأ من الكاتب وروى عن عثمان انه نظر في المصحف فقال أرى فيه لحنا وستقيمه العرب بألسنتها وعن أبي عمرو انه قال اني لاستحيي أن أقرأ ان هذان لساحران (وثانيها) قرأ ابن كثير ان هذان بتخفيف ان وتشديد نون هذان (وثالثها) قرأ حفص

منه) أي من لدنه (رزقا حسنا) هو النبوة والحكمة أيضا عبر عنهما بذلك تنبيها على أنهما مع كونهما بينة رزق حسن كيف لا وذلك مناط الحياة الابدية له ولامته، وجواب الشرط محذوف يدل عليه فحوى الكلام أي أتقولون في شأني ما تقولون والمعنى انكم نظمتموني في سلك السفهاء والغواة وعددتم ٥٤ ما صدر عني من الاوامر والنواهي من قبيل ما لا يصح أن يتفوه به عاقل وجعلتموه من أحكام الوسوسة والجنون واسندتموه الى وبأفعالى حتى قلتم ان ما أمرتكم به من التوحيد وترك عبادة الاصنام والاجتناب عن البخس والتطفيف ليس مما يأمر به آمر العقل ويقضي به قاضي الفطنة وانما يأمر به صلاتك التي هي من أحكام الوسوسة والجنون فاخبروني ان كنت من جهة ربي ومالك أموري ثابتا على النبوة والحكمة التي ليس وراءها غاية للكمال ولا مطمح لطامح ورزقني بذلك رزقا حسنا أتقولون في شأني وشأن أفعالي ما تقولون مما لا خير فيه ولا شر وراءه هذا هو الجواب الذي يستدعيه السياق والسباق ويساعده النظم الكريم وأما ما قيل من أن المحذوف أيصح لي أن لا آمركم بترك عبادة الاوثان والكف عن المعاصي أو هل يسع لي مع هذا الانعام الجامع للسعادات الروحانية والجسمانية أن أخون في وحيه وأخالفه في أمره ونهيه فبمعزل من ذلك وانما يناسب تقديره ان حمل كلامهم على الحقيقة وأريد بالصلاة الدين على معنى أدينك يأمرك أن تكلفنا ترك عبادة آلهتنا عن القديمة وترك التصرف المطلق في أموالنا وتخالفنا في ذلك وتشق عصانا وهذا مما لا ينبغي أن يصدر عنك فانك أنت المشهور بالحلم الفاضل والرشد الكامل فيما بيننا كما كان قول قوم صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا مرسودا على ذلك النمط فأجيبوا بما أجيبوا به وعلى هذا الوجه

يكون المراد بالرزق الحسن الحلال الذي آتاه الله تعالى والمعنى حينئذ أخبروني ان كنت نبيا من عند الله تعالى ورزقني مالا حلالا أستغني به عن العالمين أيصح أن أخالف أمره وأوافقكم فيما تأتون وما تذرون (وما أريد) بنهيي اياكم عما أنهاكم عنه من البخس والتطفيف (أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه) أي أقصد بعد ما وليتم عنه وأستبد به دونكم يقال ٥٥ خالفت زيدا الى كذا اذا قصدته وهو مول عنه وخالفته عن كذا اذا كان الامر على العكس (ان أريد) أي ما أريد بما أباشره من الامر والنهي (الا الاصلاح) الا أن أصلحكم بالنصيحة والموعظة (ما استطعت) أي مقدار ما استطعته من الاصلاح والتقييد به للاحتراز عن الاكتفاء بالاصلاح في الجملة لا عن ارادة ما ليس في وسعه منه (وما توفيقي) أي كوني موفقا لتحقيق ما نحيه من اصلاحكم (الا بالله) أي بتأييده ومعونته بل الاصلاح من حيث الخلق مستند اليه سبحانه وانما أنا من مباديه الظاهرة قاله عليه السلام تحقيقا للحق وازاحة لما عسى يوهمه اسناد الاستطاعة اليه بارادته من استبداده بذلك (عليه توكلت) في ذلك معرضا عما عداه فانه القادر على كل مقدور وما عداه عاجز محض في حد ذاته بل معدوم ساقط عن درجة الاعتبار بمعزل عن مرتبة الاستمداد به والاستظهار (واليه أنيب) أي أرجع فيما أنا بصدده ويجوز ان يكون المراد وما كوني موفقا لاصابة الحق والصواب في كل ما آتي وأذر الا بهدايته ومعونته عليه توكلت وهو اشارة الى محض التوحيد الذاتي والفعلي واليه أنيب أي عليه أقبل بشراشر نفسي في مجامع أموري وايثار صيغة الاستقبال على الماضي الانسب للتقرر والتحقق كما في التوكل لاستحضار الصورة والدلالة على الاستمرار ولا يخفى ما في جوابه عليه السلام من مراعاة لطف المراجعة ورفق الاستنزال

عن عاصم ان هذان بتخفيف النونين (ورابعها) قرأ عبد الله بن مسعود وأسروا النجوى أن هذان ساحران بفتح الالف وجزم نونه ساحران بغير لام (وخامسها) عن الاخفش ان هذان لساحران خفيفة في معنى ثقيلة وهي لغة قوم يرفعون بها و يدخلون اللام ليفرقوا بينها وبين التي تكون في معنى ما (وسادسها) روى عن أبي بن كعب ما هذان الا ساحران وروى عنه أيضا ان هذان الا ساحران وعن الخليل مثل ذلك وعن أبي أيضا ان ذان الا ساحران فهذه هي القراآت الشاذة المذكورة في هذه الآية واعلم ان المحققين قالوا هذه القراآت لا يجوز تصحيحها لانها منقولة بطريق الآحاد والقرآن يجب أن يكون منقولا بالتواتر اذ لو جوزنا اثبات زيادة في القرآن بطريق الآحاد لما أمكننا القطع بأن هذا الذي هو عندنا كل القرآن لانه لما جاز في هذه القراآت انها مع كونها من القرآن ما نقلت بالتواتر جاز في غيرها ذلك فثبت ان تجويز كون هذه القراآت من القرآن يطرق جواز الزيادة والنقصان والتغيير الى القرآن وذلك يخرج القرآن عن كونه حجة ولما كان ذلك باطلا فكذلك ما أدى اليه وأما الطعن في القراءة المشهورة فهو أسوأ مما تقدم من وجوه (أحدها) انه لما كان نقل هذه القراءة في الشهرة كنقل جميع القرآن فلو حكمنا ببطلانها جاز مثله في جميع القرآن وذلك يفضي الى القدح في التواتر والى القدح في جميع القرآن وانه باطل واذا ثبت ذلك امتنع صيرورته معارضا بخبر الواحد المنقول عن بعض الصحابة (وثانيها) ان المسلمين أجمعوا على ان ما بين الدفتين كلام الله تعالى وكلام الله تعالى لا يجوز أن يكون لحنا وغلطا فثبت فساد ما نقل عن عثمان وعائشة رضي الله عنهما ان فيه لحنا وغلطا (وثالثها) قال ابن الانباري ان الصحابة هم الائمة والقدوة فلو وجدوا في المصحف لحنا لما فوضوا اصلاحه الى غيرهم من بعدهم مع تحذيرهم من الابتداع وترغيبهم في الاتباع حتى قال بعضهم اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم فثبت انه لا بد من تصحيح القراءة المشهورة واختلف النحويون فيه وذكروا وجوها (الوجه الاول) وهو الاقوى ان هذه لغة لبعض العرب وقال بعضهم هي لغة بلحارث بن كعب والزجاج نسبها الى كنانة وقطرب نسبها الى بلحارث بن كعب ومراد وخثعم وبعض بني عذرة ونسبها ابن جني الى بعض بني ربيعة أيضا وأنشد الفراء على هذه اللغة

فأطرق اطراق الشجاع ولو يرى * مساغا لناباه الشجاع لصمما

وأنشد غيره

تزود منا بين أذناه ضربة * دعته الى هابي التراب عقيم

قال الفراء وحكى بعض بني أسد انه قال هذا خط يدا أخي أعرفه وقال قطرب هؤلاء يقولون رأيت رجلان واشتريت ثوبان قال رجل من بني ضبة جاهلي

أعرف منها الجيد والعينانا * ومنخرين أشبها ظبيانا

وقوله ومنخرين على اللغة الفاشية وما وراء ذلك على لغة هؤلاء وقال آخر

طاروا علاهن فطر علاها * واشدد بمثنى حقب حقواها

وقال آخر

كأن صريف ناباه اذا ما * أمرهما صرير الاخطبان

قال بعضهم الاخطبان ذكر الصردان فصيرهما واحدا في الاستدلال بقوله صريف ناباه قال وأنشدني يونس لبعض بني الحرث

كأن عيناه حسل ومصيفه * مراق دم ان يبرح الدهر ثاويا

وأنشدوا أيضا

ان أباها وأبا أباها * قد بلغا في المجد غايتاها

وقال ابن جني روينا عن قطرب

والمحافظة على قواعد حسن المجاراة والمحاورة وتمهيد معاقد الحق بطلب التوفيق من جناب الله تعالى والاستعانة به فى أموره وحسم اطماع الكفار واظهار الفراغ عنهم وعدم المبالاة بعاداتهم وأما تهديدهم بالرجوع الى الله تعالى للجزاء كما قيل فلا لان الانابة انما هى الرجوع الاختيارى بالفعل الى الله تعالى لا الرجوع الاضطرارى للجزاء أو ما يعمه ٥٦ (ويا قوم لا يجرمنكم) أى لا يكسبنكم

من جرمته ذنبا مثل كسبته مالا (شقاق) معاداتى وأصلهما ان أحد المتعادين يكون فى عدوة وشق والآخر فى آخر (أن يصيبكم) مفعول ثان ليجرمنكم أى لا يكسبنكم معاداتكم لى أن يصيبكم (مثل ما أصاب قوم نوح) من الغرق (أو قوم هود) من الريح (أو قوم صالح) من الصيحة والرجفة وقرأ ابن كثير بضم الياء من أجرمته ذنبا اذا جعلته جارما له أى كاسبا وهو منقول من جرم المتعدى الى مفعول واحد كما نقل أكسبه المال من كسب المال فكما لا فرق بين كسبته مالا وأكسبته اياه لا فرق بين جرمته ذنبا وأجرمته اياه فى المعنى الا أن الاول أصح وأورد على ألسنة الفصحاء وقرأ أبو حيوة مثل ما أصاب بالفتح لاضافته الى غير متمكن كقوله

لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت
حمامة فى غصون ذات أوقال

وهذا وان كان بحسب الظاهر نهيا للشقاق عن كسب اصابة العذاب لكنه فى الحقيقة نهى للكفرة عن مشاقته عليه السلام على ألطف أسلوب وأبدعه كما مر لا انا فى سورة المائدة عند قوله تعالى ولا يجرمنكم شنآن قوم الآية (وما قوم لوط منكم ببعيد) زمانا أو مكانا فان لم تعتبروا بمن قبلكم من الامم المعدودة فاعتبروا بهم فكأنه انما غير أسلوب التحذير بهم ولم يصرح بما أصابهم بل اكتفى بذكر قربهم ايذانا بان ذلك مغن عن ذكره

هنالك أن تبكى بشعشعان * رحب الفؤاد طائل اليدان

ثم قال الفراء وذلك وان كان قليلا أقيس لان ما قبل حرف التثنية مفتوح فينبغى أن يكون ما بعده ألفا ولو كان ما بعده ياء ينبغى أن تنقلب ألفا لانفتاح ما قبلها وقطرب ذكر أنهم يفعلون ذلك فرارا الى الالف التى هى أخف حروف المد فهذا أقوى الوجوه فى هذه الآية ويمكن أن يقال أيضا الالف فى هذا من جوهر الكلمة والحرف الذى يكون من جوهر الكلمة لا يجوز تغييره بسبب التثنية والجمع لان ما بالذات لا يزول بالعرض فهذا الدليل يقتضى أن لا يجوز أن يقال ان هذين فلما جوزناه فلا أقل من أن يجوز معه أن يقال ان هذان (الوجه الثانى) فى الجواب أن يقال ان ههنا بمعنى نعم قال الشاعر

ويقلن شيب قد علا * ك وقد كبرت فقلت انه

أى فقلت نعم فالهاء فى انه هاء السكت كما فى قوله تعالى هلك عنى سلطانيه وقال أبو ذؤيب

شاب المفارق ان ان من البلى * شيب القذال مع العذار الواصل

أى نعم ان من البلى فصار كأنه قال نعم هذان لساحران واعترضوا عليه فقالوا اللام لا تدخل فى الخبر على الاستحسان الا اذا كانت ان داخلة فى المبتدا فاما اذا لم تدخل ان على المبتدا فجعل اللام للمبتدا أولى يقال لزيد أعلم من عمرو ولا يقال زيد لأعلم من عمرو وأجابوا عن هذا الاعتراض من وجهين (الاول) لا نسلم ان اللام لا يحسن دخولها على الخبر والدليل عليه قوله

أم الحليس لعجوز شهربه * ترضى من اللحم بعظم الرقبة

وقال آخر
خالى لانت ومن جرير خاله * ينل العلاء ويكرم الاخوالا

وأنشد قطرب
ألم تكن حلفت بالله العلى * ان مطاياك لمن خير المطى

وان رويت ان بالكسر لم يبق الاستدلال الا ان قطربا قال سمعناه مفتوح الهمزة وأيضا فقد أدخلت اللام فى خبر امسى قال ابن جنى أنشدنا أبو على

مروا عجالى فقالوا كيف صاحبكم * فقال من سألوا أمسى لمجهودا

وقال قطرب وسمعنا بعض العرب يقول أراك لشالبى وانى رأيته لشيخا وزيد والله لواثق بك وقال كثير

وما زلت من ليلى لدن أن عرفتها * لكالهائم المقصى بكل بلاد

وقال آخر * ولكننى من حبها لعميد * وقال المعترض هذه الاشعار من الشواذ وانما جاءت كذا الضرورة الشعر وجل كلام الله تعالى من الضرورة وانما نقرر هذا الكلام اذا بينا ان المبتدأ اذا لم يدخل عليه ان وجب ادخال اللام عليه لا على الخبر وتحقيقه ان اللام تفيد تأكيد موصوفية المبتدا بالخبر واللام تدل على حالة من حالات المبتدا وصفة من صفاته فوجب دخولها على المبتدا لان العلة الموجبة لحكم فى محل لا بد وأن تكون مختصة بذلك المحل لا يقال هذا مشكل بما اذا دخلت ان على المبتدا فان ههنا يجب ادخال اللام على الخبر مع ان ما ذكرتموه حاصل فيه لانا نقول ذلك لاجل الضرورة وذلك لان كلمة ان للتأكيد واللام للتأكيد فلو قلنا ان لزيدا قائم لكنا قد أدخلنا حرف التأكيد على حرف التأكيد وذلك ممتنع فلما تعذر ادخالها على المبتدا لا جرم أدخلناها على الخبر لهذه الضرورة وأما اذا لم يدخل حرف ان على المبتدا كانت هذه الضرورة زائلة فوجب ادخال اللام على المبتدا لا يقال اذا جاز ادخال حرف النفى على حرف النفى فى قوله

ما ان رأيت ولا سمعت به * كاليوم طالبى انيق أجرب

والغرض به تأكيد النفى فلم لا يجوز ادخال حرف التأكيد على حرف التأكيد والغرض به تأكيد الاثبات

اشـ هرة كونه منظوما فى سـلك ماذكر من دواهى الامم المرقومة أوليسوا ببعيـد منكم فى الكفر والمعاصى فلا يبعـد أن يصيبكم مثـل ما أصابهم وافراد البعيـد مع تذكيره لان المراد وما اهلاكهم على نيـة المضاف أو وما هـم بشئ بعيد لان المقصود افادة عدم بعدهـم على الاطلاق لا من حيث خصوصـية كونهم قوما أو وما هـم فى زمان بعيد أو مكان بعيد ولا يبعد أن يكون ذلك لكونه عـلى زنة المصادر كالنهيق والشهيق ولما أنذرهم عليه السلام بسوء عاقبـة صنيعهـم عقبه طمعا فى ارعوائهم عما كانوا فيه يعمهون من طغيانهـم بالحمـل على الاستغفار والتوبة فقال (واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه) مر تفسـيره مثله فى أول السـورة (ان ربى رحـيم) عظـيم الرحمـة للتائبين (ودود) مبالغ فى فعل ما يفعل البليغ المودة بمـن يوده مـن اللطف والاحسان وهذا تعليل للامر بالاستغفار والتوبة وحث عليهـما (قالوا يا شعيب ما نفـقه كثيرا مما تقول) الفقـه معـرفة غرض المتكلم من كلامه أى ما نفهـم مرادك وانما قالوه بعـد ما سمعوا منه دلائل الحق المبين على أحسـن وجه وأبلغه وضاقت عليهـم الحيل وعيت بهـم العلل فلم يجـدوا الى محاورته سبيلا سوى الصدود عن منهاج الحق والسلوك الى سبيل الشـقاء كما هو ديدن المفحـم المحجوج يقابل البينات بالسب والابراق والارعاد فجعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ وأنواع العلوم والمعارف من قبيل ما لا يفهم معناه ولا يدرك فحواه وادمجوا فى ضمن ذلك أن فى تضاعيفه ما يستوجب أقصى ما يكون من المؤاخذة والعقاب واصـل ذلك ما فيه من التحذير من عواقب الامم السالفـة ولذلك قالوا (وانا لنراك فينا) فيما بيننا (ضعيفا) لا قوة لك ولا قدرة عـلى شئ من الضر والنفع والايقاع والدفع (ولولا رهطك) لولا مراعاة جانبهـم

لانا نقول الفرق بـين البابين ان قولك زيد قائم يدل على الحكم بموصوفية زيد بالقيام فاذا قلت ان زيدا قائم فكلمة ان تفيد تأكيد ذلك الحكم فلو ذكرت مؤكدا آخر مع كلمة ان صار عبثا أما لو قلت رأيت فلانا فهـذا للثبوت فاذا أدخلت عليه حرف النفى أفاد حرف النفى معنى النفى ولا يفيد التأكيد لانه مستقل بافادة الاصل فكيف يفيد الزيادة فاذا ضممت اليه حرف نفى آخر صار الحرف الثانى مؤكدا للاول فلا يكون عبثا فهـذا هو الفرق بين البابين فهذا منتهى تقرير هذا الاعتراض وهو عندى ضعيف لان الكل اتفقوا على انه اذا اجتمع النقل والقياس فالنقـل أولى ولان هذه العلل فى نهاية الضعف فكيف يدفع بها النقـل الظاهر (والوجه الثانى) فى الجواب عن قولهم اللام لا يحسن دخولها على الخبر الا اذا دخلت كلمـة ان على المبتدا كما ذكره الزجاج فقال ان وقعت موقع نعم واللام فى موقعها والتقدير نعم هذان لهما ساحران فكانت اللام داخلة على المبتدا لا على الخبر قال وعرضت هذا القول على محمد بن يزيد وعلى اسمعيـل بن اسحق فارتضياه وذكرا أنه أجود ما سمعناه فى هـذا قال ابن جنى هذا القول غـير صحيح لوجوه (الوجه الاول) ان الاصل أن المبتدا انما يجوز حذفه لو كان أمرا معلوما جليا ولولا ذلك لكان فى حذفه مع الجهـل به ضرب من تكليف علم الغيب للمخاطب واذا كان معروفا فقد استغنى بمعرفته عن تأكيده باللام لان التأكيد انما يحتاج اليـه حيث لم يكن العلم به حاصلا (الوجه الثانى) ان الحـذف من باب الاختصار والتأكيد من باب الاطناب فالجمع بينهما غير جائز ولان ذكر المؤكد وحذف التأكيد أحسن فى العقول من العكس (الوجـه الثالث) امتناع أصحابنا البصريين من تأكيد الضمير المحـذوف العائد على المبتدا فى نحو قولك زيد ضربته فـلا يجيزون زيد ضربت نفسـه على أن يجعل النفس توكيدا للهاء المؤكدة المقدرة فى ضربت أى ضربته لان الحذف لا يكون الا بعد التحقيق والعـلم به واذا كان كذلك فقد استغنى عن تأكيده فكذا ههنا (الوجه الرابع) ان جميع النحويين حملوا قول الشاعر * أم الحليس لعجوز شهربه * على أن الشاعر أدخل اللام على الخبر ضرورة ولو كان ما ذهب اليـه الزجاج جائزا لما عدل عنه النحويون ولما حملوا الكلام عليه على الاضطرار اذا وجدوا له وجها ظاهرا ويمكن الجواب عن اعتراض ابن جنى بأنه انما يحسن حذف المبتدا لان فى اللفظ ما يدل عليـه وهو قوله هذان أما لو حـذف التأكيد فليس فى اللفظ ما يدل عليه فلا جرم كان حذف المبتدا أولى من حـذف التأكيد وأما امتناعهـم من تأكيد الضمير فى قولهم زيد ضربت نفسه فذلك انما كان لان اسناد الفعل الى المظهر أولى من اسناده الى المضمر فاذا قال زيد ضربت نفسـه كان قوله نفسه مفعولا فلا يمكن جعله تأكيدا للضمير فتأكيد المحذوف انما امتنع ههنا لهذه العلة لا لان تأكيد المحذوف مطلقا ممتنع وأما قوله النحويون حملوا قول الشاعر * أم الحليس لعجوز شهربه * على ان الشاعر أدخـل اللام على الخبر ضرورة فلو جاز ما قاله الزجاج لما عـدل عنه النحويون فهذا اعـتراض فى نهاية السقوط لان ذهول المتقدمين عن هذا الوجه لا يقتضى كونه باطـلا فـا أكثر ما ذهل المتقدم عنه وأدركه المتأخر فهذا تمام الـكلام فى شرح هذا (الوجه الثالث) فى الجواب ان كلمة ان ضعيفة فى العمل لانها تعمل بسبب مشابهة الفعل فوجب كونها ضعيفة فى العمل واذا ضعفت جاز بقاء المبتدا على اعرابه الاصلى وهو الرفع (المقدمة الاولى) انها اشبهت الفعل وهـذه المشابهة حاصـلة فى اللفظ والمعنى أما اللفظ فلانها تركبت من ثلاثة أحرف وانفتح آخرها ولزمت الاسماء كالافعال واما المعنى فلانها تفيد حصول معـنى فى الاسم وهو تأكيد موصوفيته بالخبر كما انك اذا قلت قام زيد فقولك قام أفاد حصول معنى فى الاسم (المقدمة الثانية) انها لما أشبهت الافعال وجب ان تشبهها فى العمل فذلك ظاهر بناء على الدوران (المقدمة الثالثة) انها لم

لا لولا هم عما نعوننا ويد افعوننا (لرجناك) فان مجانعة الرهط وهو اسم للثلاثة الى السبعة أو الى العشرة لهم وهم ألوف مؤلفة مما لا يكاد يتوهم وقد أيد ذلك بقوله عز وجل (وما أنت علينا بعزيز) مكرم محترم حتى تمتنع من رجمك وانما نكف عنه للمحافظة على حرمة رهطك الذين ثبتوا على ديننا ولم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا وايلاء الضمير حرف النفي وان لم يكن الخبر فعليا غير خال عن الدلالة على رجوع النفي الى الفاعل دون الفعل لا سيما مع قرينة قوله ولولا رهطك كأنه قيل وما أنت علينا بعزيز بل رهطك هم الاعزة علينا وحيث كان غرضهم من عظيمتهم هذه عائدا الى نفي ما فيه عليه السلام من القوة والعزة الربانيين حسبما يوجبه كونه على بينة من ربه مؤيدا من عنده ويقتضيه قضية طلب التوفيق منه والتوكل عليه والانابة اليه والى اسقاط ذلك كله عن درجة الاعتداد به والاعتبار (قال) عليه السلام في جوابهم (يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله) فان الاستهانة بمن لا يتعزز الا به عز وجل استهانة بجنابه العزيز وانما أنكر عليهم أعزية رهطه منه تعالى مع أن ما أثبتوه انما هو مطلق عزة رهطه لا أعزيتهم منه عز وجل مع الاشتراك في أصل العزة لتثنية التقريع وتكرير التوبيخ حيث أنكر عليهم أولا ترجيح جنبة الرهط على جنبة الله تعالى وثانيا نفي العزة بالمرة والمعنى أرهطي أعز عليكم من الله فانه مما لا يكاد يصح والحال انكم لم تجعلوا له تعالى حظا من العزة أصلا (واتخذتموه) على سبب عدم اعتدادكم بمن لا يرد ولا يصدر الا بأمره (وراءكم ظهريا) أي شيأ منبوذا وراء الظهر منسيا لا يبالى به منسوب الى الظهر والكسر لتغيير النسب كالامسي في النسبة الى الامس (ان ربي بما تعملون) من الاعمال السيئة التي من جملتها عدم مراعاتكم لجانبه

تنصب الاسم وترفع الخبر فتقريره ان يقال انها لما صارت عاملة فاما ان ترفع المبتدا والخبر معا أو تنصبهما معا أو ترفع المبتدا أو تنصب الخبر أو بالعكس (والاول باطل) لان المبتدأ والخبر كانا قبل دخول ان عليهما مرفوعين فلو بقيا كذلك بعد دخولها عليهما لما ظهر له اثر البتة ولانها أعطيت عمل الفعل والفعل لا يرفع الاسمين فلا معنى للاشتراك (والقسم الثاني) أيضا باطل لان هذا أيضا مخالف لعمل الفعل لان الفعل لا ينصب شيأ مع خلوه عما يرفعه (والقسم الثالث) أيضا باطل لانه يؤدي الى التسوية بين الاصل والفرع فان الفعل يكون عمله في الفاعل أولا بالرفع وفي المفعول بالنصب فلو جعل النصب ههنا كذلك لحصلت التسوية بين الاصل والفرع ولما بطلت الاقسام الثلاثة تعين القسم الرابع وهو انها تنصب الاسم وترفع الخبر وهذا مما ينبه على أن هذه الحروف دخيلة في العمل لا أصلية لان تقديم المنصوب على المرفوع في باب العمل عدول عن الاصل فذلك يدل على أن العمل بهذه الحروف ليس بثابت بطريق الاصالة بل بطريق عارض (المقدمة الرابعة) لما ثبت أن تأثيرها في نصب الاسم بسبب هذه المشابهة وجب جواز الرفع أيضا وذلك لان كون الاسم مبتدا يقتضي الرفع ودخول ان على المبتدا لا يزيل عنه وصف كونه مبتدأ لانه يفيد تأكيد ما كان لا زوال ما كان اذا ثبت هذا فنقول وصف كونه مبتدا يقتضي الرفع وحرف ان يقتضي النصب ولكن المقتضي الاول أولى بالاقتضاء من وجهين (أحدهما) ان وصف كونه مبتدا صفة أصلية للمبتدا ودخول ان عليه صفة عرضية والاصل راجح على العارض (والثاني) ان اقتضاء وصف المبتدا للرفع أصلي واقتضاء حرف ان للنصب صفة عارضة بسبب مشابهتها بالفعل فيكون الاول أولى فثبت بمجموع ما قررنا ان الرفع أولى من النصب فان لم تحصل الاولوية فلا أقل من أصل الجواز ولهذا السبب اذا جئت بخبران ثم عطفت على الاسم اسما آخر جاز فيه الرفع والنصب معا (الوجه الرابع) في الجواب قال الفراء هذا أصله ذا زيدت الهاء لان ذا كلمة منقوصة فكملت بالهاء عند التنبيه وزيدت الفا للتثنية فصارت هذاان فاجتمع ساكنان من جنس واحد فاحتيج الى حذف واحد ولا يمكن حذف ألف الاصل لان أصل الكلمة منقوصة فلا تجعل أنقص فحذف ألف التثنية لان النون يدل عليه فلا جرم لم تعمل ان لان عملها في ألف التثنية وقال آخرون الالف الباقي اما ألف الاصل أو ألف التثنية فان كان الباقي ألف الاصل لم يجز حذفها لان العامل الخارجي لا يتصرف في ذات الكلمة وان كان الباقي ألف التثنية فلا شك أنهم أنابوها مناب ألف الاصل وعوض الاصل أصل لا محالة فهذا الالف أصل فلا يجوز حذفه ويرجع حاصل هذا الى الجواب الاول (الوجه الخامس) في الجواب حكى الزجاج عن قدماء النحويين ان الهاء ههنا مضمرة والتقدير انه هذان لساحران وهذه الهاء كناية عن الامر والشان فهذا ما قيل في هذا الموضع فأما من خفف فقرأ ان هذان لساحران فهو حسن فان ما بعد الخفيفة رفع واللام بعدها في الخبر لازمة واجبة وان كانت في ان الثقيلة جائزة ليظهر الفرق بين ان المؤكدة وان النافية قال الشاعر

وان مالك لمرتجى ان تضعضعت * رحا الحرب أو دارت علي خطوب

وقال آخر

ان القوم والحي الذي أنا منهم * لاهل مقامات وشاء وجامل

الجامل جمع جمل ثم من العرب من يعمل ان ناقصة كما يعملها تامة اعتبارا بكان فانها تعمل وان نقصت في قولك لم يكن لبقاء معنى التأكيد وان زال الشبه اللفظي بالفعل لان العبرة للمعنى وهذه اللغة تدل على ان العبرة في باب الاعمال الشبه المعنوي بالفعل وهو اثبات التوكيد دون الشبه اللفظي كما أن التعويل في باب كان على المعنى دون اللفظ لكونه فعلا محضا وأما اللغة الظاهرة وهي ترك اعمال ان الخفيفة دالة

(محيط) لايخفى منها عليه خافية وان جماعتموه منسيا فيجازيكم عليها ويحتمل أن يكون الانكار للرد والتكذيب فانهم لما ادعوا أنهم لا يكفون
عن رجمه عليه السلام لقوته وعزته بل لمراعاة جانب رهطه رد عليهم ذلك بأنكم ما قدرتم الله حق قدره العزيز ولم تراعوا جانبه القوي
فكيف تراعون جانب رهطه الاذلة (وياقوم اعملوا) لما رأى عليه السلام اصرارهم على الكفر وأنهم لا يرعوون عما هم عليه من

على ان الشبه اللفظي في ان الثقيلة أحد جزأي العلة في حق عملها وعند الخفة زال الشبه فلم تعمل بخلاف
لكن فانه عامل بمعناه لكونه فعلا محضا ولا عبرة للفظه (المسئلة الثانية) أنه سبحانه وتعالى لما
ذكر ما أسروه من النجوى حكى عنهم ما أظهروه ومجموعه يدل على التنفير عن موسى عليه السلام ومتابعة
دينه (فأحدها) قولهم هذان لساحران وهذا طعن منهم في معجزات موسى عليه السلام ثم مبالغة في
التنفير عنه لما أن كل طبع سليم يقتضي النفرة عن السحر وكراهة رؤية الساحر ومن حيث
ان الانسان يعلم ان السحر لا بقاء له فاذا اعتقدوا فيه السحر قالوا كيف نتبعه فانه لا بقاء له ولا لدينه ولا لمذهبه
(وثانيها) قوله يريدان أن يخرجاكم من أرضكم وهذا في نهاية التنفير لان المفارقة عن المنشا والمولد شديدة على
القلوب وهذا هو الذي حكاه الله تعالى عن فرعون في قوله أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى
وكان السحرة تلقفوا هذه الشبهة من فرعون ثم أعادوها (وثالثها) قوله ويذهبا بطريقتكم المثلى وهذا
أيضا له تأثير شديد في القلب فان العدو اذا جاء واستولى على جميع المناصب والاشياء التي يرغب فيها فذلك
يكون في نهاية المشقة على النفس فهم ذكروا هذه الوجوه للمبالغة في التنفير عن موسى والترغيب في دفعه
وابطال أمره وههنا بحثان (البحث الاول) قال الفراء الطريقة الرجال الاشراف الذين هم قدوة لغيرهم
يقال هم طريقة قومهم ويقال للواحد أيضا هو طريقة قومه وجعل الزجاج الآية من باب حذف
المضاف أي ويذهبا بأهل طريقتكم المثلى وعلى التقديرين فالمراد انهم كانوا يحرضون القوم بأن موسى
وهرون عليهما السلام يريدان ان يذهبا بأشراف قومكم وأكابركم وهم بنو اسرائيل لقول موسى عليه السلام
أرسل معنا بني اسرائيل وانما سموا بني اسرائيل بذلك لانهم كانوا أكثر القوم يومئذ عددا وأموالا ومن
المفسرين من قال الطريقة المثلى بالذين سواد منهم بالطريقة المثلى وكل حزب بما لديهم فرحون ومنهم من
فسرها بالجاه والمنصب والرياسة (البحث الثاني) المثلى مؤنثة لتأنيث الطريقة واختلفوا في أنه لم سمي
الافضل بالامثل فقال بعضهم الامثل الاشبه بالحق وقيل الامثل الاوضح والاظهر ثم انه تعالى لما حكى
عنهم مبالغتهم في التنفير عن موسى عليه السلام والترغيب في ابطال أمره حكى عنهم انهم قالوا فأجمعوا
كيدكم ثم ائتوا صفا قرأ أبو عمرو بوصل الالف وفتح الميم من أجمعوا يعني لا تدعوا شيأ من كيدكم الا جئتم به
دليله قوله فجمع كيده وقرأ الباقون بقطع الالف وكسر الميم وله وجهان (أحدهما) قال الفراء الاجماع
الاحكام والعزيمة على الشئ يقال أجمعت على الخروج مثل أزمعت (والثاني) بمعنى الجمع وقد مضى
الكلام في هذا عند قوله فأجمعوا أمركم وشركاءكم قال الزجاج ليكن عزمكم كلكم كالكيد مجمعا عليه لا تختلفوا
ثم ائتوا صفا ذكر أبو عبيدة والزجاج وجهين (أحدهما) ان الصف موضع الجمع والمعنى ائتوا الموضع
الذي تجتمعون فيه لعيدكم وصلاتكم والمعنى ائتوا مصلى من المصليات أو كان الصف علما للمصلى بعينه فأمروا
بأن يأتوه (والثاني) أن يكون الصف مصدرا والمعنى ثم ائتوا مصطفين مجتمعين لكي يكون أنظم لامركم
وأشد لهيبتكم وهذا قول عامة المفسرين وقوله وقد أفلح اليوم من استعلى اعتراض يعني وقد فاز من غلب
فكانوا يقوون بذلك أنفسهم فيما اجمعوا عليه من اظهار ما يظهرونه من السحر ﴿ قوله تعالى ﴿ قالوا ياموسى
اما أن تلقي واما أن نكون أول من ألقى قال بل ألقوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى
فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف انك أنت الاعلى وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا انما صنعوا
كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ اعلم أنه لما تقدم ذكر الموعد وهو يوم الزينة وتقدم أيضا قوله ثم
ائتوا صفا صار ذلك مغنيا عن قوله فحضروا هذا الموضع وقالوا اما أن تلقي لدلالة ما تقدم عليه وقوله اما أن

المعاصي حتى اجترؤا على العظيمة التي هي الاستهانة به والعزيمة على رجمه ولولا حرمة رهطه قال لهم على طريقة التهديد اعملوا (على مكانتكم) أي على غاية تمكنكم واستطاعتكم يقال مكن مكانة اذا تمكن أبلغ التمكن وانما قاله عليه السلام ردا لما ادعوا أنهم أقوياء قادرون على رجمه وأنه ضعيف فيما بينهم لاعزة له أو على ناحيتكم وجهتكم التي أنتم عليها من قولهم مكان ومكانة كمقام ومقامة والمعنى اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والمشاقة لي وسائر ما أنتم عليه مما لا خير فيه وابذلوا جهدكم في مضارتي وايقاع ما في نيتكم واخراج ما في أمنيتكم من القوة الى الفعل (اني عامل) على مكانتي حسبما يؤيدني الله ويوفقني بأنواع التأييد والتوفيق (سوف تعلمون) لما هددهم عليه السلام بقوله اعملوا على مكانتكم اني عامل كان مظنة أن يسأل منهم سائل فيقول فماذا يكون بعد ذلك فقيل سوف

تعلمون (من يأتيه عذاب يخزيه) وصف العذاب بالاخزاء تعريضا بما أوعدوه عليه السلام به من الرجم فانه مع كونه عذابا فيه مخزي
ظاهر حيث لايكون الا بجناية عظيمة توجبه (ومن هو كاذب) عطف على من يأتيه لا على أنه قسيم له بل حيث أوعدوه بالرجم وكذبوه قيل
سوف تعلمون من المعذب ومن الكاذب وفيه تعريض بكذبهم في ادعائهم القوة والقدرة على رجمه عليه السلام وفي نسبته الى الضعف

والهوان وفي ادعائهم الابتلاء عليه لرعاية جانب الرهط والاختلاف بين المعطوفين بالفعلية والاسمية لان كذب الكاذب ليس بمرتقب كاتيان العذاب بل انما المرتقب ظهور الكذب الشاق المستمر ومن اما استفهامية معلقة للعلم عن العمل كانه قيل سوف تعلمون أينا يأتيه عذاب يخزيه وأينا كاذب ٦٠ واما موصولة أي سوف تعرفون الذي يأتيه عذاب والذي هو كاذب (وارتقبوا) وانتظروا مآل ما أقول (اني معكم رقيب) منتظر فعيل بمعنى الراقب كالصريم أو المراقب كالعشير أو المرتقب كالرفيع وفي زيادة معكم اظهار منه عليه السلام لكمال الوثوق بأمره (ولما جاء أمرنا) أي عذابنا كما ينبئ عنه قوله تعالى سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه أو وقته فان الارتقاب مؤذن بذلك (نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا) وهي الايمان الذي وفقناهم له أو برحمة كائنة منا لهم وانما ذكر بالواو كما في قصة عاد لما انه لم يسبقه فيها ذكر وعد يجري مجرى السبب المقتضي لدخول الفاء في معلوله كما في قصتي صالح ولوط فانه قد سبق هناك سابقة الوعد بقوله ذلك وعد غير مكذوب وقوله ان موعدهم الصبح (وأخذت الذين ظلموا) عدل اليه عن الضمير تسجيلا عليهم بالظلم واشعارا بأن ما أخذهم انما أخذهم بسبب ظلمهم الذي فصل فيما سبق فنونه (الصيحة) قيل صاح بهم جبريل عليه السلام فهلكوا وفي سورة الاعراف فأخذتهم الرجفة وفي سورة العنكبوت فأخذتهم الرجفة أي الزلزلة ولعلها من روادف الصيحة المستتبعة لتموج الهواء المفضي اليها كما مر فيما قبل (فأصبحوا في ديارهم جاثمين) ميتين لازمين لاماكنهم لا براح لهم منها وايا لم يجعل متعلق العلم في قوله تعالى سوف تعلمون من يأتيه عذاب الخ نفس مجيء العذاب بل من يجيئه ذلك جعل مجيئه بعد ذلك أمرا

وهرون

تلقي واما أن نكون أول من ألقى معناه اما أن تلقي ما معك قبلنا واما أن نلقي ما معنا قبلك وهذا التخيير مع تقدمه في الذكر حسن أدب منهم وتواضع له فلا جرم رزقهم الله تعالى الايمان ببركته ثم ان موسى عليه السلام قابل أدبهم بادب فقال بل ألقوا أما قوله بل ألقوا ففيه سؤالان ﴿السؤال الاول﴾ كيف يجوز أن يقول موسى عليه السلام بل ألقوا فأمرهم بما هو سحر وكفر لانهم اذا قصدوا بذلك تكذيب موسى عليه السلام كان كفرا والجواب من وجوه (أحدها) لانسلم ان نفس الالقاء كفر ومعصية لانهم اذا ألقوا وكان غرضهم ان يظهر الفرق بين ذلك الالقاء وبين معجزة الرسول عليه السلام وهو موسى كان ذلك الالقاء ايمانا وانما الكفر هو القصد الى تكذيب موسى وهو عليه السلام انما أمر بالالقاء لا بالقصد الى التكذيب فزال السؤال (وثانيها) ذلك الامر كان مشروطا والتقدير ألقوا ما أنتم ملقون ان كنتم محقين كما في قوله تعالى فأتوا بسورة من مثله ان كنتم صادقين أي ان كنتم قادرين (وثالثها) انه لما تعين ذلك طريقا الى كشف الشبهة صار ذلك جائزا وهذا كالمحق اذا علم ان في قلب واحد شبهة وانه لو لم يطالبه بذكرها وتقريرها بأقصى ما يقدر عليه لبقيت تلك الشبهة في قلبه ويخرج بسببها عن الدين فان للمحق أن يطالبه بتقريرها على أقصى الوجوه ويكون غرضه من ذلك ان يجيب عنها ويزيل أثرها عن قلبه فطلبه بذكر الشبهة لهذا الغرض تكون جائزة فكذا ههنا (ورابعها) أن لا يكون ذلك أمرا بل يكون معناه انكم ان أردتم فعله فلا مانع منه حسا لكي ينكشف الحق (وخامسها) أن موسى عليه السلام لا شك انه كان كارها لذلك ولا شك انه نهاهم عن ذلك بقوله ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب واذا كان الامر كذلك استحال أن يكون قوله أمرا لهم بذلك لان الجمع بين كونه ناهيا وآمرا بالفعل الواحد محال فعلمنا ان قوله غير محمول على ظاهره وحينئذ يزول الاشكال ﴿السؤال الثاني﴾ لم قدمهم في الالقاء على نفسه مع ان تقديم استماع الشبهة على استماع الحجة غير جائز فكذا تقديم ايراد الشبهة على ايراد الحجة وجب أن لا يجوز لاحتمال أنه ربما أدرك الشبهة ثم لا يتفرغ لادراك الحجة بعده فيبقى حينئذ في الكفر والضلال وليس لاحد أن يقول ان ذلك كان بسبب أنهم لما قدموه على أنفسهم فهو عليه السلام قابل ذلك بان قدمهم على نفسه لان أمثال ذلك انما يحسن فيما يرجع الى حظ النفس فأما ما يرجع الى الدليل والشبهة فغير جائز والجواب أنه عليه السلام كان قد أظهر المعجزة مرة واحدة فما كان به حاجة الى اظهارها مرة أخرى والقوم انما جاؤا للمعارضة فقال عليه السلام لو أني بدأت باظهار المعجزة أولا لكنت كالسبب في اقدامهم على اظهار السحر وقصد ابطال المعجزة وذلك غير جائز ولكني أفوض الامر اليهم حتى انهم باختيارهم يظهرون ذلك السحر ثم أنا أظهر المعجز الذي يبطل سحرهم فيكون على هذا التقدير سببا لازالة الشبهة وأما على التقدير الاول فانه يكون سببا لوقوع الشبهة فكان ذلك أولى أما قوله فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى ففيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما ألقوا حبالهم وعصيهم مملاء من هذا الجانب ومملاء من هذا الجانب فخيل الى موسى عليه السلام ان الارض كلها حيات وأنها تسعى فخاف فلما قيل له ألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا ألقى موسى عصاه فاذا هي أعظم من حياتهم ثم أخذت تزداد عظما حتى ملأت الوادي ثم صعدت وعلت حتى علقت ذنبها بطرف القبة ثم هبطت فأكلت كل ما عملوا في الميلين والناس ينظرون اليها لا يحسبون الا أنه سحر ثم أقبلت نحو فرعون لتبتلعه فاتحة فاها ثمانين ذراعا فصاح بموسى عليه السلام فأخذها فاذا هي عصا كما كانت ونظرت السحرة فاذا هي لم تدع من حبالهم وعصيهم شيأ الا أكلته فعرفت السحرة أنه ليس بسحر وقالوا أين حبالنا وعصينا ولم تكن سحرا لبقيت فخروا سجدا وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى

مسلم الوقوع غنيا عن الاخبار به حيث جعل شرطا وجعل تنجية شعيب عليه السلام واهلاك الكفرة جوابا له ومقصودا الافادة واغا قدم تنجيته اهتماما بشأنها وايذانا بسبق الرحمة التي هي مقتضى الربوبية على الغضب الذي يظهر أثره بموجب جرائرهم وجرائمهم (كأن لم يغنوا) أي لم يقيموا (فيها) متصرفين في أطرافها متقلبين في أكنافها (ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود) العدول عن الاضمار الى الاظهار ليكون أدل على طغيانهم الذي أداهم الى هذه المرتبة وليكون أنسب عن شبه هلاكهم بهلاكهم أعني ثمود وانما شبه هلاكهم بهلاكهم لانهما أهلكتا بنوع من العذاب وهو الصيحة غير ان هؤلاء صيح بهم من فوقهم وأولئك من تحتهم وقرئ بعدت بالضم على الاصل فان الكسر تغيير لتخصيص معنى البعد بما يكون سبب الهلاك والبعد مصدر لهما والبعد مصدر للمكسور (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا) هي الآيات التسع المفصلات التي هي العصا واليد البيضاء والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص الثمرات والانفس ومنهم من جعلهما آية واحدة وعد منها اظلال الجبل وليس كذلك فانه لقبول أحكام التوراة حين أباه بنو اسرائيل والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا من مفعول أرسلنا أو نعتا لمصدره المؤكد أي ارسلناه حال كونه ملتبسا بآياتنا أو أرسلناه ارسالا ملتبسا بها (وسلطان مبين) هو المعجزات الباهرة منها أو هو العصا والافراد بالذكر لاظهار شرفها لكونها أبهرها أو المراد بالآيات ما عداها أو هما عبارتان عن شيء واحد أي أرسلناه بالجامع بين كونه آياتنا وبين كونه سلطانا على نبوته واضحا في نفسه أو موضحا اياها من أبان لازما ومتعديا أو هو الغلبة والاستيلاء كقوله تعالى ونجعل لكما سلطانا ويجوز أن يكون المراد ما بينه عليه السلام في تضاعيف دعوته حين قال له فرعون من ربكما

وهرون (المسألة الثانية) اختلفوا في عدد السحرة قال القاسم بن سلام كانوا سبعين ألفا مع كل واحد عصا وحبل وقال السدي كانوا بضعة وثلاثين ألفا مع كل واحد عصا وحبل وقال وهب كانوا خمسة عشر ألفا وقال ابن جريج وعكرمة كانوا تسعمائة ثلثمائة من الفرس وثلثمائة من الروم وثلثمائة من الاسكندرية وقال الكلبي كانوا اثنين وسبعين ساحرا اثنان منهم من القبط وسبعون من بني اسرائيل أكرههم فرعون على ذلك واعلم ان الاختلاف والتفاوت واقع في عدد كثير وظاهر القرآن لا يدل على شيء منه والاقوال اذا تعارضت تساقطت (المسألة الثالثة) قال صاحب الكشاف يقال في اذا هذه اذا المفاجأة والتحقيق فيها انها اذا الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصبا لها وجملة تضاف اليها خصت في بعض المواضع بان تكون ناصبا فعلا مخصوصا وهو فعل المفاجأة والجملة ابتدائية لا غير فتقدير قوله تعالى فاذا حبالهم وعصيهم ففاجأ موسى وقت تخيل سعي حبالهم وعصيهم وهذا تمثيل والمعنى على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة اليه السعي اه (المسألة الرابعة) قرئ عصيهم بالضم وهو الاصل والكسر اتباع نحو دلي ودلي وقسي وقسي وقرئ تخيل بالتاء المنقوطة من فوق باسناد الفعل الى الحبال والعصي وقرئ بالضم بالياء المنقطة من تحت باسناد الفعل الى الكيد والسحر وقال الفراء أي يخيل اليه سعيها (المسألة الخامسة) الهاء في قوله يخيل اليه كناية عن موسى عليه السلام والمراد انهم بلغوا في سحرهم المبلغ الذي صار يخيل الى موسى عليه السلام أنها تسعى كسعي ما يكون حيا من الحيات لا أنها كانت حية في الحقيقة ويقال انهم حشوها بما اذا وقعت الشمس عليه يضطرب ويتحرك ولما كثرت واتصل بعضها ببعض فمن رآها كان يظن انها تسعى فأما ما روي عن وهب انهم سحروا أعين الناس وعين موسى عليه السلام حتى تخيل ذلك مستدلا بقوله تعالى فلما ألقوا سحروا أعين الناس وبقوله تعالى يخيل اليه من سحرهم انها تسعى فهذا غير جائز لان ذلك الوقت وقت اظهار المعجزة والادلة وازالة الشبهة فلو صار بحيث لا يميز الموجود عن الخيال الفاسد لم يتمكن من اظهار المعجزة فحينئذ يفسد المقصود فاذن المراد انه شاهد شيأ لولا علمه بانه لا حقيقة لذلك الشيء لظن فيها انها تسعى أما قوله تعالى فأوجس في نفسه خيفة موسى فالايجاس استشعار الخوف أي وجد في نفسه خوفا فان قيل انه لا مزيد في ازالة الخوف على ما فعله الله تعالى في حق موسى عليه السلام فانه كلمه أولا وعرض عليه المعجزات الباهرة كالعصا واليد ثم انه تعالى صيرها كما كانت بعد أن كانت كاعظم ثعبان ثم انه أعطاه الاقتراحات الثمانية وذكر ما أعطاه قبل ذلك من المنن الثمانية ثم قال له بعد ذلك كله انني معكما أسمع وأرى فمع هذه المقدمات الكثيرة كيف وقع الخوف في قلبه والجواب عنه من وجوه (أحدها) ان ذلك الخوف انما كان لما طبع الآدمي عليه من ضعف القلب وان كان قد علم موسى عليه السلام انهم لا يصلون اليه وان الله ناصره وهذا قول الحسن (وثانيها) أنه خاف أن تدخل على الناس شبهة فيما يرونه فيظنوا انهم قد ساووا موسى عليه السلام ويشتبه ذلك عليهم وهذا التأويل متأكد بقوله لا تخف انك أنت الاعلى وهذا قول مقاتل (وثالثها) انه خاف حيث بدؤا وتأخر القاؤه ان ينصرف بعض القوم قبل مشاهدة ما ألقيه فيدوموا على اعتقاد الباطل (ورابعها) لعله عليه السلام كان مأمورا بان لا يفعل شيأ الا بالوحي فلما تأخر نزول الوحي عليه في ذلك الوقت خاف ان لا ينزل عليه الوحي في ذلك الوقت فيبقى في الخجالة (وخامسها) لعله عليه السلام خاف من انه لو أبطل سحر أولئك الحاضرين فلعل فرعون قد أعد أقواما آخرين فيأتيهم فيحتاج مرة أخرى الى ابطال سحرهم وهكذا من غير ان يظهر له مقطع وحينئذ لا يتم الامر ولا يحصل المقصود ثم انه تعالى أزال ذلك الخوف بالاجمال أولا وبالتفصيل ثانيا أما الاجمال فقوله تعالى قلنا لا تخف

انك أنت الاعلى ودلالته على أن خوفه كان لامر يرجع الى ان أمره لا يظهر للقوم فآمنه الله تعالى بقوله انك أنت الاعلى وفيه أنواع من المبالغة (أحدها) ذكر كلمة التأكيد وهي ان (وثانيها) تكرير الضمير (وثالثها) لام التعريف (ورابعها) لفظ العلو وهو الغلبة الظاهرة وأما التفصيل فقوله وألق ما في يمينك وفيه سؤال وهو انه لم يقل وألق عصاك والجواب جاز أن يكون تصغيرا لها أي لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الفرد الصغير الجرم الذي بيمينك فانه بقدرة الله تعالى يتلقفها على وحدته وكثرتها وصغره وعظمها وجائز أن يكون تعظيما لها أي لا تحتفل بهذه الاجرام الكثيرة فان في يمينك شيأ أعظم منها كلها وهذه على كثرتها أقل شئ عندها فألقه يتلقفها باذن الله تعالى ويمحقها أما قوله تلقف أي فانك اذا ألقيتها فانها تلقف ما صنعوا وقراءة العامة تلقف بالجزم والتشديد أي فألقها تتلقفها وقرأ ابن عامر تلقف بالتشديد وضم الفاء على معنى الحال أي ألقها متلقفة أو بالرفع على الاستئناف وروى حفص عن عاصم بسكون اللام مع التخفيف أي تأخذ بفيها ابتلاعا بسرعة واللقف والتلقف جميعا يرجعان الى هذا المعنى وصنعوا ههنا بمعنى اختلقوا وزوروا والعرب تقول في الكذب هو كلام مصنوع وموضوع وصحة قوله تلقف انه اذا ألقى ذلك وصارت حية تلقفت ما صنعوا وفي قوله فألقى السحرة سجدا دلالة على أنه ألقى العصا وصارت حية وتلقفت ما صنعوه وفي التلقف دلالة على ان جميع ما ألقوه تلقفته وذلك لا يكون الا مع عظم من جسدها وشدة قوتها وقد حكى عن السحرة انهم عند التلقف أيقنوا بان ما جاء به موسى عليه السلام ليس من مقدور البشر من وجوه (أحدها) ظهور حركة العصا على وجه لا يكون مثله بالحيلة (وثانيها) زيادة عظمه على وجه لا يتم ذلك بالحيلة (وثالثها) ظهور الاعضاء عليه من العين والمنخرين والفم وغيرها ولا يتم ذلك بالحيلة (ورابعها) تلقف جميع ما ألقوه على كثرته وذلك لا يتم بالحيلة (وخامسها) عوده خشبة صغيرة كما كانت وشئ من ذلك لا يتم بالحيلة ثم بين سبحانه وتعالى ان ما صنعوا كيد ساحر والمعنى ان الذي معك يا موسى معجزة الهية والذي معهم تمويهات باطلة فكيف يحصل التعارض وقرئ كيد ساحر بالرفع والنصب فمن رفع فعلى ان ما موصولة ومن نصب فعلى انها كافة وقرئ كيد سحر بمعنى ذي سحر أو ذوي سحر أوهم لتوغلهم في سحرهم كانهم السحر بعينه وبذاته أو بين الكيد لانه يكون سحرا وغير سحر كما يبين المائة بدرهم ونحوه علم فقه وعلم نحو بقي سؤالات (السؤال الاول) لم وحد الساحر ولم يجمع * الجواب لان القصد في هذا الكلام الى معنى الجنسية لا الى معنى العدد فلو جمع تخيل ان المقصود هو العدد ألا ترى الى قوله ولا يفلح الساحر حيث أتى أي هذا الجنس (السؤال الثاني) لم نكر أولا ثم عرف ثانيا * الجواب كأنه قال هذا الذي أتوا به قسم واحد من أقسام السحر وجميع أقسام السحر لا فائدة فيه ولا شك ان هذا الكلام على هذا الوجه أبلغ (السؤال الثالث) قوله ولا يفلح الساحر حيث أتى يدل على ان الساحر لا يحصل له مقصوده بالسحر خيرا كان أو شرا وذلك يقتضي نفي السحر بالكلية * الجواب الكلام في السحر وحقيقته قد تقدم في سورة البقرة فلا وجه للاعادة والله أعلم * قوله تعالى ﴿فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هرون وموسى قال آمنتم له قبل ان آذن لكم انه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى﴾ اعلم ان في قوله فألقى السحرة سجدا دلالة على انه ألقى ما في يمينه وصار حية وتلقف ما صنعوا وظهر الامر فخروا عند ذلك سجدا وذلك لانهم كانوا في الطبقة العليا من علم السحر فلما رأوا ما فعله موسى عليه السلام خارجا عن صناعتهم عرفوا انه ليس من السحر البتة ويقال قال رئيسهم كنا نغالب الناس بالسحر وكانت الآلات تبقى علينا لو غلبنا فلو كان هذا سحرا فأين ما ألقيناه

فما بال القرون الاولى من الحقائق الرائقة والدقائق الأنيقة وجعل عبارة عن التوراة أو ادراجها في جملة الآيات يرده قوله عز وجل (الى فرعون وملئه) فان نزولها انما كان بعد هلاك فرعون وقومه قاطبة ليعمل بها بنو اسرائيل فيما يأتون وما يذرون وأما فرعون وقومه فانما كانوا مأمورين بعبادة رب العالمين عز سلطانه وترك العظيمة الشنعاء التي كان يدعيها الطاغية ويقبلها منه فئته الباغية وبارسال بني اسرائيل من الاسر والقسر وتخصيص ملئه بالذكر مع عموم رسالته عليه السلام لقومه كافة لاصالتهم في الرأي وتدبير الامور واتباع غيرهم لهم في الورود والصدور وانما لم يصرح بكفر فرعون بآيات الله تعالى وانهماكه فيما كان عليه من الضلال والاضلال بل اقتصر على ذكر شأن ملئه فقيل (فاتبعوا أمر فرعون) أي أمره بالكفر بما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين للايذان بوضوح حاله فكان كفره وأمر ملئه بذلك أمر محقق الوجود غير محتاج الى الذكر صريحا وانما المحتاج الى ذلك شأن ملئه المترددين بين هاد الى الحق وداع الى الضلال فنعى عليهم سوء اختيارهم وايراد الفاء في اتباعهم المترتب على أمر فرعون المبني على كفره المسبوق بتبليغ الرسالة للاشعار بمفاجأتهم في الاتباع ومسارعة فرعون الى الكفر وأمرهم به فكان ذلك كله من الارسال والتبليغ بل وقع جميع ذلك في وقت واحد فوقع اثر ذلك اتباعهم ويجوز أن يراد بامر فرعون شأنه المشهور وطريقته الزائغة فاستدلوا فيكون معنى فاتبعوا فاستمروا على الاتباع والفاء مثل ما في قولك وعظته فلم يتعظ وصحت به فلم ينزجر فان الاتيان بالشئ بعد ورود ما يوجب الاقلاع عنه وان كان استمرارا عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث فتأمل وترك الاضمار لدفع توهم الرجوع الى موسى

عليه السلام من أول الامر وزيادة تقبيح حال المتبعين فان فرعون علم في الفساد والافساد والضلال والاضلال فاتباعه لفرط الجهالة وعدم الاستبصار وكذا الحال في قوله تعالى (وما أمر فرعون برشيد) الرشد ضد الغي وقد يراد به محمودية العاقبة فهو على الاول بمعنى المرشد أو ذى الرشد حقيقة لغوية والاسناد مجازى وعلى الثانى مجاز والاسناد حقيقى (يقدم قومه) جميعا من الاشراف وغيرهم (يوم القيامة) أى يتقدمهم من قدمه بمعنى تقدمه وهو استئناف لبيان حاله في الآخرة أى كما كان قدوة لهم في الضلال كذلك يتقدمهم الى النار وهم يتبعونه أو لتوضيح عدم صلاح مآل أمره وسوء عاقبته (فأوردهم النار) أى يوردهم وايثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع لا محالة شبه فرعون بالفارط الذى يتقدم الواردة الى الماء وأتباعه بالواردة والنار بالماء الذى يردونه ثم قيل (وبئس الورد المورود) أى بئس الورد الذى يردونه النار لان الورد انما يراد لتسكين العطش وتبريد الاكباد والنار على ضد ذلك (وأتبعوا) أى الملأ الذين اتبعوا أمر فرعون (فى هذه) أى فى الدنيا (لعنة) عظيمة حيث يلعنهم من بعدهم من الامم الى يوم القيامة (ويوم القيامة) أيضا حيث يلعنهم أهل الموقف قاطبة فهى تابعة لهم حيثما ساروا دائرة معهم أينما داروا فى الموقف فكما اتبعوا فرعون اتبعتهم اللعنة فى الدارين جزاء وفاقا واكتفى ببيان حالهم الفظيع وشأنهم الشنيع عن بيان حال فرعون اذ حين كان حالهم هكذا فما ظنك بحال من أغواهم وألقاهم فى هذا الضلال البعيد وحيث كان شأن الاتباع أن يكونوا أعوانا للمتبوع جعلت اللعنة رفدا لهم على طريقة التهكم فقيل (بئس الرفد المرفود) أى بئس العون المعان وقد فسر الرفد بالعطاء ولا يلائمه المقام وأصله ما يضاف الى غيره ليعمده

فاستدلوا بتغير أحوال الاجسام على الصانع العالم القادر وبظهورها على يد موسى عليه السلام على كونه رسولا صادقا من عند الله تعالى فلا جرم تابوا وآمنوا وأتوا بما هو النهاية فى الخضوع وهو السجود أما قوله تعالى فألقى السحرة سجدا فليس المراد منه أنهم أجبروا على السجود والا لما كانوا محمودين بل التأويل فيه ما قال الاخفش وهو أنهم من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا وقال صاحب الكشاف ما أعجب أمرهم قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ثم ألقوا رؤسهم بعد ساعة للشكر والسجود فما أعظم الفرق بين الالقاءين وروى انهم لم يرفعوا رؤسهم حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها وعن عكرمة لما خروا سجدا أراهم الله فى سجودهم منازلهم التى يصيرون اليها فى الجنة قال القاضى هذا بعيد لانه تعالى لو أراهم عيانا لصاروا ملجئين وذلك لا يليق به قولهم انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وجوابه لما جاز لابراهيم عليه السلام مع قطعه بكونه مغفورا له أن يقول والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى فلم لا يجوز مثله فى حق السحرة واعلم ان هذه القصة تنبه على أسرار عجيبة من أمور الربوبية ونفاذ القضاء الالهى وقدره فى جملة المحدثات وذلك لان ظهور تلك الادلة كانت بمرأى من الكل ومسمع فكان وجه الاستدلال فيها جليا ظاهرا وهو انه حدثت أمور فلا بد لها من مؤثر والعلم بذلك ضرورى وذلك المؤثر اما الخلق واما غيرهم والاول بديهى البطلان لان كل عاقل يعلم بالضرورة من نفسه انه لا يقدر على ايجاد الحيوانات وتعظيم جثتها دفعة واحدة ثم يصغرها مرة أخرى كما كانت وهذه العلوم الجلية متى حصلت فى العقل أفادت القطع بانه لا بد من مدبر لهذا العالم فماذا يقول ألا ترى ان أولئك المنكرين جهلوا صحة هذه المقدمات وهذا فى نهاية البعد لانا بينا ان كل واحد منها بحيث لا يمكن ارتياب العاقل فيه واذا عرفوا صحتها لكنهم أصروا على الجهل وكرهوا تحصيل العلم والسعادة لانفسهم وأحبوا تحصيل الجهل والشقاوة لانفسهم فما أرى ان عاقلا يرضى بذلك لنفسه قط فلم يبق الا أن يقال العقل والدليل لا يكفى بل لا بد من مدبر يخلق هذه المقدمات فى القلوب ويخلق الشعور بكيفية ترتيبها وبكيفية استنتاجها للنتيجة حتى انه متى فعل ذلك حصلت النتائج فى القلوب وذلك يدل على ان الكل بقضائه وقدره فانه لا اعتماد على العقول والقلوب فى مجاريها وتصرفاتها ومن طرح التعصب عن قلبه ونظر الى أحوال نفسه فى مجارى أفكاره وانظاره ازداد وثوقا بما ذكرناه أما قوله قالوا آمنا برب هرون وموسى فاعلم ان المعطلية احتجوا بهذه الآية وقالوا انهم آمنوا بالله الذى عرفوه من قبل هرون وموسى فدل ذلك على ان معرفة الله لا تستفاد من الامام وهذا القول ضعيف بل فى قولهم آمنا برب هرون وموسى فائدتان سوى ما ذكروه (الفائدة الاولى) وهى ان فرعون ادعى الربوبية فى قوله أنا ربكم الاعلى والالهية فى قوله ما علمت لكم من اله غيرى فلو أنهم قالوا آمنا برب العالمين لكان فرعون يقول انهم آمنوا بى لا بغيرى فلقطع هذه التهمة اختاروا هذه العبارة والدليل عليه انهم قدموا ذكر هرون على موسى لان فرعون كان يدعى ربوبيته لموسى بناء على أنه رباه فى قوله ألم نربك فينا وليدا فالقوم لما احترزوا عن ايهامات فرعون لا جرم قدموا ذكر هرون على موسى قطعا لهذا الخيال (الفائدة الثانية) وهى انهم لما شاهدوا أن الله تعالى خصهما بتلك المعجزات العظيمة والدرجات الشريفة لا جرم قالوا رب هرون وموسى لاجل ذلك ثم ان فرعون لما شاهد منهم السجود والاقرار خاف أن يصير ذلك سببا لاقتداء سائر الناس بهم فى الايمان بالله تعالى وبرسوله فى الحال ألقى شبهة أخرى فى البين فقال آمنتم له قبل ان آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر وهذا الكلام مشتمل على شبهتين (احداهما) قوله آمنتم له قبل أن آذن لكم وتقريره أن الاعتماد على الخاطر الاول غير جائز بل لا بد فيه من البحث والمناظرة والاستعانة

والمخصوص بالذم محذوف أي رفدهم وهي اللعنة في الدارين وكونه مرفودا من حيث ان كل لعنة منها معينة وممدة لصاحبتها ومؤيدة لها (ذلك) اشارة الى ماقص من أنباء الامم وبعده باعتبار تقضيه في الذكر والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ خبره (من أنباء القرى) المهلكة بما جنته أيدي ٦٤ أهلها (نقصه عليك) خبر بعد خبر أي ذلك النبأ بعض أنباء القرى مقصوص عليك (منها) أي من تلك القرى (قائم وحصيد) أي ومنها حصيد حذف لدلالة الاول عليه شبه مابقي منها بالزرع القائم على ساقه وما عفا وبطل بالحصيد والجملة مستأنفة لامحل لها من الاعراب (وما ظلمناهم) بان أهلكناهم (ولكن ظلموا أنفسهم) بأن جعلوها عرضة للهلاك باقتراف مايوجبه (فما أغنت عنهم) فما نفعتهم ولادفعت بأس الله تعالى عنهم (آلهتهم التي يدعون) أي يعبدونها (من دون الله) أوثر صيغة المضارع حكاية للحال الماضية أودلالة على استمرار عبادتهم لها (من شئ) في موضع المصدر أي شيأ من الاغناء (لما جاء ربك) أي حين مجيء عذابه وهو منصوب باغنت وقرئ آلهتهم اللاتي ويدعون على البناء للمجهول (وما زادوهم غير تتبيت) أي اهلاك وتخسير فانهم انما هلكوا وخسروا بسبب عبادتهم لها (وكذلك) ومثل ذلك الاخذ الذي مر بيانه وهو رفع على الابتداء وخبره قوله (أخذ ربك) وقرئ أخذ ربك فمحل الكاف النصب على انه مصدر مؤكد (اذا أخذ القرى) أي أهلها وانما أسند اليها للاشعار بسريان أثره اليها حسبما ذكر وقرئ اذ أخذ (وهي ظالمة) حال من القرى وهي في الحقيقة لاهلها لكنها لما أقيمت مقامهم في الاخذ أجريت الحال عليها وفائدتها الاشعار بانهم انما أخذوا بظلمهم ليكون ذلك عبرة لكل

بالخواطر فلما لم تفعلوا شيأ من ذلك بل في الحال آمنتم له دل ذلك على ان ايمانكم ليس عن البصيرة بل عن سبب آخر (وثانيها) قوله انه لكبيركم الذي علمكم السحر يعني انكم تلامذته في السحر فاصطلحتم على ان تظهروا العجز من أنفسكم ترويجا لامره وتفخيما لشأنه ثم بعد ايراد الشبهة اشتغل بالتهديد تنفيرا لهم عن الايمان وتنفير الغير هم عن الاقتداء بهم في ذلك فقال لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف قرئ لاقطعن ولاصلبن بالتخفيف والقطع من خلاف أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى لان كل واحد من العضوين خلاف الآخر فان هذا يد وذاك رجل وهذا يمين وذاك شمال وقوله من خلاف في محل النصب على الحال أي لاقطعنها مختلفات لانها اذا خالف بعضها بعضا فقد اتصفت بالاختلاف ثم قال ولأصلبنكم في جذوع النخل فشبه تمكن المصلوب في الجذع بتمكن الشئ الموعى في وعائه فلذلك قال في جذوع النخل والذي يقال في المشهوران في بمعنى على فضعيف ثم قال ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى أراد بقوله أينا نفسه لعنه الله لان قوله أينا يشعر بانه أراد نفسه وموسى عليه السلام بدليل قوله آمنتم له وفيه تصلف باقتداره وقهره وما ألفه من تعذيب الناس بأنواع العذاب واستضعاف موسى عليه السلام مع الهزء به لان موسى عليه السلام قط لم يكن من التعذيب في شئ * فان قيل ان فرعون مع قرب عهده بمشاهدة انقلاب العصا حية بتلك العظمة التي شرحتموها وذكرتم انها قصدت ابتلاع قصر فرعون وآل الامر الى أن استغاث بموسى عليه السلام من شر ذلك الثعبان فمع قرب عهده بذلك وعجزه عن دفعه كيف يعقل أن يهدد السحرة ويبالغ في وعيدهم الى هذا الحد ويستهزئ بموسى عليه السلام في قوله أينا أشد عذابا وأبقى * قلنا لم لا يجوز أن يقال انه كان في أشد الخوف في قلبه الا أنه كان يظهر تلك الجلادة والوقاحة تمشية لناموسه وترويجا لامره ومن استقرأ أحوال أهل العالم علم أن العاجز قد يفعل أمثال هذه الاشياء ومما يدل على صحة ذلك أن كل عاقل يعلم بالضرورة ان عذاب الله أشد من عذاب البشر ثم انه أنكر ذلك وأيضا فقد كان عالما بكذبه في قوله انه لكبيركم الذي علمكم السحر لانه علم ان موسى عليه السلام ماخالطهم البتة وما لقيهم وكان يعرف من سحرته ان أستاذ كل واحد من هو وكيف حصل ذلك العلم ثم انه مع ذلك كان يقول هذه الاشياء فثبت ان سبيله في كل ذلك ماذكرناه وقال ابن عباس رضي الله عنهما كانوا في أول النهار سحرة وفي آخره شهداء ﴿قوله تعالى﴾ ﴿قالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضي هذه الحياة الدنيا انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيي ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى﴾ اعلم أنه تعالى لما حكى تهديد فرعون لاولئك المؤمنين حكى جوابهم عن ذلك بما يدل على حصول اليقين التام والبصيرة الكاملة لهم في أصول الدين فقالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات وذلك يدل على ان فرعون طلب منهم الرجوع عن الايمان والافعل بهم ما أوعدهم فقالوا لن نؤثرك جوابا لما قاله وبينوا العلة وهي ان الذي جاءهم بينات وأدلة والذي يذكره فرعون محض الدنيا ومنافع الدنيا ومضارها لاتعارض منافع الآخرة ومضارها أما قوله والذي فطرنا ففيه وجهان (الاول) ان التقدير لن نؤثرك يافرعون على ماجاءنا من البينات وعلى الذي فطرنا أي وعلى طاعة الذي فطرنا وعلى عبادته (الوجه الثاني) يجوز أن يكون خفضا على القسم * واعلم أنهم لما علموا انهم متى أصروا على

الايمان

الالم (ان أخذه أليم شديد) وجيع صعب على المأخوذ لا يرجى منه الخلاص وفيه مالا يخفى من التهديد والتحذير (ان فى ذلك) أى فى أخذه تعالى للامم المهلكة أو فى قصصهم (لآية) لعبرة (لمن خاف عذاب الآخرة) فانه المعتبر به حيث يستدل بما حاق بهم من العذاب الشديد بسبب ما عملوا من السيآت على أحوال عذاب الآخرة وأما من أنكر ٦٥ الآخرة وأحال فناء العالم وزعم أن ليس هو ولا شئ من أحواله مستندا الى الفاعل المختار وأن ما يقع فيه من الحوادث فانما يقع لاسباب تقتضيه من أوضاع فلكية تتفق فى بعض الاوقات لا لما ذكر من المعاصى التى يقترفها الامم الهالكة فهو بمعزل من هذا الاعتبار تبا لهم ولما لهم من الافكار (ذلك) اشارة الى يوم القيامة المدلول عليه بذكر الآخرة (يوم مجموع له الناس) أى يجمع له الناس للمحاسبة والجزاء والتغيير للدلالة على ثبات معنى الجمع وتحقق وقوعه لا محالة وعدم انفكاك الناس عنه فهو أبلغ من قوله تعالى يوم يجمعكم ليوم الجمع (وذلك) أى يوم القيامة مع ملاحظة عنوان جمع الناس له (يوم مشهود) أى مشهود فيه حيث يشهد فيه أهل السموات والارضين فاتسع فيه باجراء الظرف مجرى المفعول به كما فى قوله * فى محفل من نواصى الناس مشهود * أى كثير شاهدوه ولو جعل نفس اليوم مشهودا لفات ما هو الغرض من تعظيم اليوم وتهويله وتمييزه عن غيره فان سائر الايام أيضا كذلك (وما نؤخره) أى ذلك اليوم الملحوظ بعنوانى الجمع والشهود (الا لاجل معدود) الا لانقضاء مدة قليلة مضروبة حسبما تقتضيه الحكمة (يوم يأت) أى حين يأتى ذلك اليوم المؤخر بانقضاء أجله كقوله تعالى أن تأتيهم الساعة

الايمان فعل فرعون ما أوعدهم به فقالوا اقض ما أنت قاض لا على معنى أنهم أمروه بذلك لكن أظهروا أن ذلك الوعيد لا يزيلهم البتة عن ايمانهم وعما عرفوه من الحق علما وعملا ثم بينوا ما لأجله يسهل عليهم احتمال ذلك فقالوا انما تقضى هذه الحياة الدنيا وقرئ تقضى هذه الحياة الدنيا ووجهها ان الحياة فى القراءة المشهورة منتصبة على الظرف فاتسع فى الظرف باجرائه مجرى المفعول به كقولك فى صمت يوم الجمعة صيم يوم الجمعة والمعنى ان قضاءك وحكمك انما يكون فى هذه الحياة الدنيا وهى كيف كانت فانية وانما مطلبنا سعادة الآخرة وهى باقية والعقل يقتضى تحمل الضرر الفانى للتوصل به الى السعادة الباقية ثم قالوا انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ولما كان أقرب خطاياهم عهدا ما أظهروه من السحر قالوا وما أكرهتنا عليه من السحر وذكروا فى ذلك الاكراه وجوها (أحدها) ان الملوك فى ذلك الزمان كانوا يأخذون البعض من رعيتهم ويكلفونهم تعلم السحر فاذا شاخ بعثوا اليه أحداثا ليعلمهم ليكون فى كل وقت من يحسنه فقالوا هذا القول لاجل ذلك أى كنا فى التعلم أولا والتعليم ثانيا مكرهين قاله ابن عباس (وثانيها) ان رؤساء السحرة كانوا اثنين وسبعين اثنان من القبط والباقى من بنى اسرائيل فقالوا لفرعون أرنا موسى نائما فرأوه فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا ما هذا بساحر الساحر اذا نام بطل سحره فأبى الا أن يعارضوه (وثالثها) قال الحسن ان السحرة حشروا من المدائن ليعارضوا موسى عليه السلام فأحضروا بالحشر وكانوا مكرهين فى الحضور وربما كانوا مكرهين أيضا فى اظهار السحر (ورابعها) قال عمرو بن عبيد دعوة السلطان اكراه وهذا ضعيف لان دعوة السلطان اذا لم يكن معها خوف لم تكن اكراها ثم قالوا والله خير ثوابا لمن أطاعه وأبقى عقابا لمن عصاه وهذا جواب لقوله ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى قال الحسن سبحان الله القوم كفار وهم أشد الكافرين كفرا ثبت فى قلوبهم الايمان فى طرفة عين فلم يتعاظم عندهم أن قالوا اقض ما أنت قاض فى ذات الله تعالى والله ان أحدكم اليوم ليصحب القرآن ستين عاما ثم انه يبيع دينه بثمن حقير ثم ختموا هذا الكلام بشرح أحوال المؤمنين وأحوال المجرمين فى عرصة القيامة فقالوا فى المجرمين انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الهاء فى قوله انه ضمير الشأن يعنى ان الامر والشأن كذا وكذا (المسئلة الثانية) استدلت المعتزلة بهذه الآية فى القطع على وعيد أصحاب الكبائر قالوا صاحب الكبيرة مجرم وكل مجرم فان له جهنم لقوله انه من يأت ربه مجرما وكلمة من فى معرض الشرط تفيد العموم بدليل انه يجوز استثناء كل واحد منها والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل واعترض بعض المتكلمين من أصحابنا على هذا الكلام فقال لا نسلم ان صاحب الكبيرة مجرم والدليل عليه انه تعالى جعل المجرم فى مقابلة المؤمن فانه قال فى هذه الآية ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات وقال ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وأيضا فانه قال فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى والمؤمن صاحب الكبيرة وان عذب بالنار لا يكون بهذا الوصف وفى الخبر الصحيح يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الايمان واعلم أن هذه الاعتراضات ضعيفة أما قوله تعالى ان الله تعالى جعل المجرم فى مقابلة المؤمن فهذا مسلم لكن هذا انما ينفع لو ثبت ان صاحب الكبيرة مؤمن ومذهب المعتزلة انه ليس بمؤمن فهذا المعترض كأنه بنى هذا الاعتراض على مذهب نفسه وذلك ساقط قوله ثانيا انه لا يليق بصاحب الكبيرة أن يقال فى حقه ان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى قلنا لا نسلم فان عذاب جهنم فى غاية الشدة قال تعالى ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته وأما الحديث فنقول القرآن متواتر فلا يعارضه خبر الواحد ويمكن أن يقال ثبت فى أصول الفقه انه يجوز تخصيص القرآن بخبر الواحد وللخصم

وقيل يوم يأتي الجزاء الواقع فيه وقيل أي الله عز وجل فإن المقام مقام تفخيم شأن اليوم وقرئ بإثبات الياء على الأصل (لا تكلم نفس) أي لا تتكلم بما ينفع وينجي من جواب أو شفاعة وهو العامل في الظرف أو الانتهاء المحذوف في قوله تعالى إلا لأجل معدود أي ينتهي الأجل يوم يأتي أو المضمر المعهود ٦٦ أعني أذكر (إلا بإذنه) في التكلم كقوله تعالى لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن

وهذا في موطن من مواطن ذلك اليوم وقوله عز وجل هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون في موقف آخر من مواقفه كما أن قوله سبحانه يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها في آخر منها والمأذون فيه الجوابات الحقة والممنوع عنه الأعذار الباطلة نعم قد يؤذن فيها أيضا لإظهار بطلانها كما في قول الكفرة والله ربنا ما كنا مشركين ونظائره (فمنهم شقي) وجبت له النار بموجب الوعيد (وسعيد) أي ومنهم سعيد حذف الخبر لدلالة الأول عليه وهو من وجبت له الجنة بمقتضى الوعد والضمير لأهل الموقف المدلول عليهم بقوله لا تكلم نفس أو للناس وتقديم الشقي على السعيد لأن المقام مقام التحذير والإنذار (فأما الذين شقوا) أي سبقت لهم الشقاوة (ففي النار) أي مستقرون فيها (لهم فيها زفير وشهيق) الزفير إخراج النفس والشهيق رده واستعمالهما في أول النهيق وآخره قال الشماخ يصف حمار الوحش

بعيد مدى التطريب أول صوته * زفير ويتلوه شهيق محشرج والمراد بهما وصف شدة كربهم وتشبيه حالهم بحال من استولت على قلبه الحرارة وانحصر فيه روحه أو تشبيه صراخهم بأصوات الحمير وقرئ شقوا بالضم والجملة مستأنفة كأن سائلا قال ما شأنهم فيها فقيل لهم فيها كذا وكذا أو منصوبة المحل على الحالية من النار أو من الضمير في الجار والمجرور كقوله عز اسمه (خالدين فيها)

أن يجب فيقول ذلك يفيد الظن ويجوز الرجوع إليه في العمليات وهذه المسئلة ليست من العمليات بل من الاعتقادات فلا يجوز المصير إليها ههنا فإن اعترض إنسان آخر وقال أجمعنا على أن هذه الآية مشروطة بنفي التوبة وبأن لا يكون عقابه محبطا بثواب طاعته والقدر المشترك بين الصورتين هو أن لا يوجد ما يحبط ذلك العقاب ولكن عندنا العفو محبط للعقاب وعندنا أن المجرم الذي لا يوجد في حقه العفو لابد وأن يدخل جهنم واعلم أن هذا الاعتراض أيضا ضعيف أما شرط نفي التوبة فلا حاجة إليه لأنه قال من يأت ربه مجرما أي حال كونه مجرما والتائب لا يصدق عليه أنه أتى ربه حال كونه مجرما وأما صاحب الصغيرة فلأنه لا يسمى مجرما لأن المجرم اسم للذم فلا يجوز إطلاقه على صاحب الصغيرة بل الاعتراض الصحيح أن نقول عموم هذا الوعيد معارض بما جاء بعده من عموم الوعد وهو قوله تعالى ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى وكلامنا فيمن أتى بالإيمان والأعمال الصالحة ثم أتى بعد ذلك ببعض الكبائر * فإن قيل عقاب المعصية يحبط ثواب الطاعة * قلنا لم لا يجوز أن يقال ثواب الإيمان يدفع عقاب المعصية فإن قالوا لو كان كذلك لوجب أن لا يجوز لعنه وإقامة الحد عليه قلنا أما اللعن فغير جائز عندنا وأما إقامة الحد عليه فقد تكون على سبيل المحنة كما في حق التائب وقد تكون على سبيل التنكيل قالت المعتزلة قوله تعالى والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله فالله تعالى نص على أنه يجب عليه إقامة الحد على سبيل التنكيل وكل من كان كذلك استحال أن يكون مستحقا للمدح والتعظيم وإذا لم يبق ذلك لم يبق الثواب كما قلنا فدل هذا ذلك على أن عقاب الكبيرة أولى بإزالة ثواب الطاعة المتقدمة من الطاعات بدفع عقاب الكبيرة الطارئة هذا منتهى كلامهم في مسئلة الوعيد * قلنا حاصل الكلام يرجع إلى أن النص الدال على إقامة الحد عليه على سبيل التنكيل صار معارضا للنصوص الدالة على كونه مستحقا للثواب فلم كان ترجيح أحدهما على الآخر أولى من العكس وذلك لأن المؤمن كان ينقسم إلى السارق وغير السارق فالسارق ينقسم إلى المؤمن وإلى غير المؤمن فلم يكن لأحدهما مزية على الآخر في العموم والخصوص فإذا تعارضا تساقطا ثم نقول لا نسلم أن كلمة من في إفادة العموم قطعية بل ظنية ومسئلتنا قطعية فلا يجوز التعويل على ما ذكرتم وتمام الكلام فيه مذكور في كتاب المحصول في الأصول (المسئلة الثالثة) تمسكت المجسمة بقوله إنه من يأت ربه مجرما فقالوا الجسم إنما يأتي ربه لو كان الرب في المكان وجوابه أن الله تعالى جعل إتيانهم موضع الوعد إتيانا إلى الله مجازا كقول إبراهيم عليه السلام إني ذاهب إلى ربي سيهدين (المسئلة الرابعة) الجسم الحي لابد وأن يبقى إما حيا أو يصير ميتا فخلوه عن الوصفين محال فمعناه في الآية أنه يكون في جهنم بأسوأ حال لا يموت موتة مريحة ولا يحيا حياة ممتعة ثم ذكر حال المؤمنين فقال ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى * واعلم أن قوله قد عمل الصالحات يقتضي أن يكون آتيا بكل الصالحات وذلك بالاتفاق غير معتبر ولا ممكن فينبغي أن يحمل ذلك على أداء الواجبات ثم ذكر أن من أتى بالإيمان والأعمال الصالحات كانت له الدرجات العلى ثم فسرها فقال جنات عدن تجري من تحتها الأنهار وفي الآية تنبيه على حصول العفو لأصحاب الكبائر لأنه تعالى جعل الدرجات العلى من الجنة لمن أتى ربه بالإيمان والأعمال الصالحة فسائر الدرجات التي هي غير عالية لابد وأن تكون لغيرهم وما هم إلا العصاة من أهل الإيمان أما قوله وذلك جزاء من تزكى فقال ابن عباس يريد من قال لا إله إلا الله وأقول لما دلت هذه الآية على أن الدرجات العالية هي جزاء من تزكى أي تطهر عن الذنوب وجب بحكم ذلك الخطاب أن الدرجات التي لا تكون عالية أن لا تكون جزاء من

تزكى

تزكى فهى لغيرهم ممن يكون قد أتى بالمعاصى وعفا الله بفضله ورحمته عنهم واعلم أنه ليس فى القرآن أن فرعون فعل بأولئك القوم المؤمنين ما أوعدهم به ولكن ثبت ذلك فى الأخبار ﴿قوله تعالى ﴿ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى﴾ اعلم أن فى قوله ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادى دلالة على ان موسى عليه السلام فى تلك الحالة كثر مستجيبوه فأراد الله تعالى تمييزهم من طائفة فرعون وخلاصهم فأوحى اليه أن يسرى بهم ليلا والسرى اسم لسير الليل والاسراء مثله * فان قيل ما الحكمة فى أن يسرى بهم ليلا * قلنا لوجوه (أحدها) أن يكون اجتماعهم لا بمشهد من العدو فلا يمنعهم عن استكمال مرادهم فى ذلك (وثانيها) ليكون عائقا عن طلب فرعون ومتبعيه (وثالثها) ليكون اذا تقارب العسكران لا يرى عسكر موسى عسكر فرعون فلا يهابونهم أما قوله فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا ففيه وجهان (الاول) أى فاجعل لهم من قولهم ضرب له فى ماله سهما وضرب اللبن عمله (والثانى) بين لهم طريقا فى البحر بالضرب بالعصا وهو أن يضرب البحر بالعصا حتى ينفلق فعدى الضرب الى الطريق والحاصل انه أريد بضرب الطريق جعل الطريق بالضرب يبسا ثم بين تعالى ان جميع أسباب الامن كان حاصلا فى ذلك الطريق (أحدها) انه كان يبسا وقرئ يبسا ويبسا بفتح الباء وتسكين الباء فمن قال يبسا جعله نعتا للطريق ومن قال يبسا بتحريك الباء فاليبس واليابس شئ واحد والمعنى طريقا اذا يبس ومن قال يبسا بتسكين الباء فهو مخفف عن اليبس والمراد انه ما كان فيه وحل ولا نداوة فضلا عن الماء (وثانيها) قوله لا تخاف دركا ولا تخشى أى لا تخاف أن يدركك فرعون فانى أحول بينك وبينه بالتأخير قال سيبويه قوله لا تخاف رفعه على وجهين (أحدهما) على الحال كقولك غير خائف ولا خاش (والثانى) على الابتداء أى أنت لا تخاف وهذا قول الفراء قال الاخفش والزجاج المعنى لا تخاف فيه كقوله واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس أى لا تجزى فيه نفس وقرأ حمزة لا تخف وفيه وجهان (أحدهما) انه نهى (والثانى) قال أبو على جعله جواب الشرط على معنى ان تضرب لا تخف وعلى هذه القراءة ذكروا فى قوله ولا تخشى ثلاثة أوجه (أحدها) أن يستأنف كأنه قيل وأنت لا تخشى أى ومن شأنك انك آمن لا تخشى (وثانيها) أن لا تكون الالف هى الالف المنقلبة عن الياء التى هى لام الفعل ولكن زائدة للاطلاق من أجل الفاصلة كقوله تعالى وأضلونا السبيلا وتظنون بالله الظنونا (وثالثها) أن يكون مثل قوله * كأن لم ترى قبلى أسيرا يمانيا * (وثالثها) قوله ولا تخشى والمعنى انك لا تخاف ادراك فرعون ولا تخشى الغرق بالماء أما قوله فأتبعهم فرعون بجنوده قال أبو مسلم زعم رواة اللغة أن أتبعهم وتبعهم واحد وذلك جائز ويحتمل أن تكون الباء زائدة والمعنى أتبعهم فرعون جنوده كقوله تعالى لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى أسرى بعبده وقال الزجاج قرئ فأتبعهم فرعون وجنوده أى ومعه جنوده وقرئ بجنوده ومعناه ألحق جنوده بهم ويجوز أن يكون معنى معهم أما قوله فغشيهم فالمعنى علاهم وسترهم وما غشيهم تعظيم للامر أى غشيهم ما لا يعلم كنهه الا الله تعالى وقرئ فغشاهم من اليم ما غشيهم وفاعل غشاهم اما الله سبحانه وتعالى أو ما غشيهم أو فرعون لانه الذى ورط جنوده وتسبب فى هلاكهم أما قوله وأضل فرعون قومه وما هدى فاحتج القاضى به وقال لو كان الضلال من خلق الله تعالى لما جاز أن يقال وأضل فرعون قومه بل وجب أن يقال الله تعالى أضلهم ولان الله تعالى ذمه بذلك فكيف يجوز أن يكون خالقا للكفر لان من ذم غيره بشئ لا بد وأن يكون هو غير فاعل لذلك الفعل والا لاستحق ذلك الذم وقوله وما هدى تهكم به فى قوله وما أهديكم الا سبيل الرشاد ولنذكر القصة

بلا انه ان أريد حدوث كونهم فى النار فالحاصل مقدرة (ما دامت السموات والارض) أى مدة دوامهما وهذا التوقيت عبارة عن التأبيد ونفى الانقطاع بناء على منهاج قول العرب ما دام تعار وما أقام ثبير وما لاح كوكب وما اختلف الليل والنهار وما طما البحر وغير ذلك من كلمات التأبيد لا تعليق قرارهم فيها بدوام هذه السموات والارض فان النصوص القاطعة دالة على تأبيد قرارهم فيها وانقطاع دوامهما وان أريد التعليق فالمراد سموات الآخرة وأرضها كما يدل على ذلك النصوص كقوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وقوله تعالى وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء وجزم كل أحد بان أهل الآخرة لا بد لهم من مظلة ومقلة دائمتين يكفى فى تعليق دوام قرارهم فيها بدوامهما ولا حاجة الى الوقوف على تفاصيل أحوالهما وكيفياتهما (الا ما شاء ربك) استثناء من الخلود على طريقة قوله تعالى لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى وقوله ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف وقوله تعالى حتى يلج الجمل فى سم الخياط غير أن استحالة الامور المذكورة معلومة بحكم العقل واستحالة تعلق المشيئة بعدم الخلود معلومة بحكم النقل يعنى انهم مستقرون فى النار فى جميع الازمنة الا فى زمان مشيئة الله تعالى لعدم قرارهم فيها واذ لا امكان لتلك المشيئة ولا لزمانها بحكم النصوص القاطعة الموجبة للخلود فلا امكان لانتهاء مدة قرارهم فيها ولدفع ما عسى يتوهم من كون استحالة تعلق مشيئة الله تعالى بعدم الخلود بطريق الوجوب على الله تعالى قال (ان ربك فعال لما يريد) يعنى انه فى تخليد الاشقياء فى النار بحيث يستحيل وقوع خلافه فعال بموجب ارادته قاض بمقتضى مشيئته الجارية على سنن حكمته الداعية الى ترتيب الاجزية على

أفعال العباد والعدول من الاضمار الى الاظهار لتربية المهابة وزيادة التقرير وقيل هو استثناء من الخلود في عذاب النار فانهم لا يخلدون فيه بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع أخر من العذاب وبما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله تعالى عليهم وخسؤه لهم واهانته اياهم وأنت تدري أنا وان سلمنا أن المراد بالنار ليس مطلق دار العذاب المشتملة على أنواع العذاب بل نفس النار فاخلا عذاب الزمهرير من تلك الانواع مقارن لعذاب النار فلا مصداق في ذلك للاستثناء ولك أن تقول انهم ليسوا بخالدين في العذاب الجسماني الذي هو عذاب النار بل لهم من أفانين العذاب ما لا يعلمه الا الله سبحانه وهو العقوبات والآلام الروحانية التي لا يقف عليها في هذه الحياة الدنيا المنغمسون في أحكام الطبيعة القصور ادراكهم على ما ألفوا من الاحوال الجسمانية وليس لهم استعداد لتلقي ما وراء ذلك من الاحوال الروحانية اذا ألقي اليهم ولذلك لم يتعرض لبيانه واكتفى بهذه المرتبة الاجمالية المنبئة عن التهويل وهذه العقوبات وان كانت تعتريهم وهم في النار لكنهم ينسون بها عذاب النار ولا يحسون به وهذه المرتبة كافية في تحقيق معنى الاستثناء هذا وقد قيل الا بمعنى سوى وهو أوفق بما ذكر وقيل ما بمعنى من على ارادة معنى الوصفية فالمعنى ان الذين شقوا في النار مقدرين الخلود فيها الا الذين شاء الله عدم خلودهم فيها وهم عصاة المؤمنين (وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والارض) الكلام فيه كالكلام فيما سبق خلا أنه لم يذكر ههنا أن لهم فيها بهجة وسرورا كما ذكر في أهل النار من أنه لهم فيها زفير وشهيق لان المقام مقام التحذير والانذار (الا ما شاء ربك) ان حمل على طريقة التعليق بالمحال فقوله سبحانه (عطاء غير مجذوذ) نصب على المصدر به من معنى

وما فيها من المباحث قال ابن عباس رضي الله عنهما لما أمر الله تعالى موسى أن يقطع بقومه البحر وكان موسى عليه السلام وبنو اسرائيل استعاروا من قوم فرعون الحلي والدواب لعيد يخرجون اليه فخرج بهم ليلا وهم ستمائة ألف وثلاثة آلاف ونيف ليس فيهم ابن ستين ولا عشرين وقد كان يوسف عليه السلام عهد اليهم عند موته أن يخرجوا بعظامه معهم من مصر فلم يعرفوا مكانها فتحير القوم حتى دلتهم عجوز على موضع العظام فأخذوها فقال موسى عليه السلام للعجوز احتكمي فقالت أكون معك في الجنة وذكر ابن عباس أن محمدا صلى الله عليه وسلم وأبا بكر هبطوا على رجل من العرب وامرأته ليس لهم الا عنز فذبحوها لهما فقال عليه السلام اذا سمعت برجل قد ظهر بيثرب فأته فلعل الله يرزقك منه خيرا فلما سمع بظهور الرسول صلى الله عليه وسلم أتاه مع امرأته فقال أتعرفني قال نعم عرفتك فقال له احتكم فقال ثمانون ضائنة فأعطاه اياها وقال له أما ان عجوز بني اسرائيل خير منك وخرج فرعون في طلب موسى عليه السلام وعلى مقدمته ألف ألف وخمسمائة ألف سوى الجنبين والقلب فلما انتهى موسى الى البحر قال ههنا أمرت ثم قال موسى عليه السلام للبحر انفرق فأبى فأوحى الله اليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فقال لهم موسى عليه السلام ادخلوا فيه فقالوا كيف وأرضه رطبة فدعا الله فهبت عليه الصبا فجفت فقالوا نخاف الغرق في بعضنا فجعل بينهم كوى حتى يرى بعضهم بعضا ثم دخلوا حتى جاوزوا البحر فأقبل فرعون الى تلك الطرق فقال قومه له ان موسى قد سحر البحر فصار كما ترى وكان على فرس حصان وأقبل جبريل عليه السلام على فرس أنثى في ثلاثة وثلاثين من الملائكة فصار جبريل عليه السلام بين يدي فرعون وأبصر الحصان الفرس الحجرة فتقدم بفرعون على أثرها وصاحت الملائكة في الناس الحقوا الملك حتى اذا دخل آخرهم وكاد أولهم أن يخرج التقى البحر عليهم فغرقوا فسمع بنو اسرائيل خفقة البحر عليهم فقالوا ما هذا يا موسى قال قد أغرق الله فرعون وقومه فرجعوا لينظروا اليهم فقالوا يا موسى ادع الله أن يخرجهم لنا حتى ننظر اليهم فدعا فلفظهم البحر الى الساحل وأصابوا من سلاحهم وذكر ابن عباس ان جبريل عليه السلام قال يا محمد لو رأيتني وأنا أدس فرعون في الماء والطين مخافة أن يتوب فهذا معنى قوله فغشيهم من اليم ما غشيهم وفي القصة أبحاث (البحث الاول) روي في الاخبار ان موسى عليه السلام لما ضرب بعصاه البحر حصل اثنا عشر طريقا يابسا بينها أطروقة وبقي الماء قائما بين الطريق والطريق كالطود العظيم وهو الجبل فأخذ كل سبط من بني اسرائيل في طريق من هذه الطرق ومنهم من قال بل حصل طريق واحد وحجة القول الاول الاخبار ومن القرآن قوله تعالى فصار كل فرق كالطود العظيم وذلك لا يحصل الا اذا حصل هنالك طرق حتى يكون الماء القائم بين الطريقين كالطود العظيم وحجة القول الثاني ظاهر قوله فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا وذلك يتناول الطريق الواحد وان أمكن حمله على الطرق نظرا الى الجنس (البحث الثاني) روي ان بني اسرائيل بعد أن أظهر موسى عليه السلام لهم الطريق وبينها لهم تعنتوا وقالوا نريد أن يرى بعضنا بعضا وهذا كالبعيد وذلك ان القوم لما أبصروا مجيء فرعون صاروا في نهاية الخوف والخائف اذا وجد طريق الفرار والخلاص كيف يتفرغ للتعنت البارد (البحث الثاني) ان فرعون كان عاقلا بل كان في نهاية الدهاء فكيف اختار القاء نفسه الى التهلكة فانه كان يعلم من نفسه ان انفلاق البحر ليس بأمره فعند هذا ذكروا وجهين (أحدهما) ان جبريل عليه السلام كان على الرمكة فتبعه فرس فرعون ولقائل أن يقول هذا بعيد لانه يبعد أن يكون خوض الملك في أمثال هذه المواضع مقدما على خوض جميع العسكر وما ذكره اغا يتم اذا كان الامر كذلك وأيضا فلو كان الامر على ما قالوه لكان

فرعون في ذلك الدخول كالمجبور وذلك مما يزيده خوفا ويحمله على الامساك في أن لا يدخل وأيضا فأي حاجة لجبريل عليه السلام الى هذه الحيلة وقد كان يمكنه أن يأخذه مع قومه ويرميه في الماء ابتداء بل الاولى أن يقال انه أمر مقدمة عسكره بالدخول فدخلوا وما غرقوا فغلب على ظنه السلامة فلما دخل الكل أغرقهم الله تعالى (البحث الرابع) ان الذي نقل عن جبريل عليه السلام انه كان يدسه في الماء والطين خوفا من أن يؤمن فبعيد لان المنع من الايمان لا يليق بالملائكة والانبياء عليهم السلام (البحث الخامس) الذي روى أن موسى عليه السلام كلم البحر وقال له انفلق لي لاعبر عليك فقال البحر لا يمر على رجل عاص فهو غير ممتنع على أصولنا لان عندنا البنية ليست شرطا للحياة وعند المعتزلة ان ذلك على لسان الحال لا على لسان المقال والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿يا بني اسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الايمن ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى﴾ اعلم أنه تعالى لما أنعم على قوم موسى عليه السلام بأنواع النعم ذكرهم اياها ولا شك أن ازالة المضرة يجب أن تكون متقدمة على ايصال المنفعة ولا شك ان ايصال المنفعة الدينية أعظم في كونه نعمة من ايصال المنفعة الدنيوية فلهذا بدأ الله تعالى بقوله أنجيناكم من عدوكم وهو اشارة الى ازالة الضرر فان فرعون كان ينزل بهم من أنواع الظلم كثيرا من القتل والاذلال والاخراج والاتعاب في الاعمال ثم ثنى بذكر المنفعة الدينية وهي قوله وواعدناكم جانب الطور الايمن ووجه المنفعة فيه انه أنزل في ذلك الوقت عليهم كتابا فيه بيان دينهم وشرح شريعتهم ثم ثلث بذكر المنفعة الدنيوية وهي قوله ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ثم زجرهم عن العصيان بقوله ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ثم بين ان من عصى ثم تاب كان مقبولا عند الله بقوله واني لغفار لمن تاب وهذا بيان المقصود من الآية ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائي قد أنجيتكم وواعدتكم الى قوله من طيبات ما رزقتكم كلها بالتاء الا قوله ونزلنا عليكم المن والسلوى فانها بالنون وقرأ الباقون كلها بالنون وقرأ نافع وعاصم وواعدناكم وقرأ حمزة والكسائي وواعدتكم (المسئلة الثانية) قال الكلبي لما جاوز موسى عليه السلام ببني اسرائيل البحر قالوا له أليس وعدتنا أن تأتينا من ربنا بكتاب فيه الفرائض والاحكام قال بلى ثم تعجل موسى الى ربه ليأتيهم بالكتاب ووعدهم أن يأتيهم الى أربعين ليلة من يوم انطلق وانما قال وواعدناكم لانه انما واعد موسى أن يأتيه التوراة لاجلهم وقال مقاتل انما قال واعدناكم لان الخطاب له وللسبعين المختارة والله أعلم (المسئلة الثالثة) قال المفسرون ليس للجبل يمين ولا يسار بل المراد ان طور سيناء عن يمين من انطلق من مصر الى الشام وقرئ الايمن بالجر على الجوار نحو جحر ضب خرب وانتفاع القوم بذلك اما لان الله تعالى أنزل فيه التوراة عليهم وفيها شرح دينهم واما لان الله تعالى لما كلم موسى على الطور حصل للقوم بسبب ذلك شرف عظيم (المسئلة الرابعة) قوله كلوا ليس أمر ايجاب بل أمر اباحة كقوله واذا حللتم فاصطادوا (المسئلة الخامسة) في الطيبات قولان (أحدهما) اللذائذ لان المن والسلوى من لذائذ الاطعمة (والثاني) وهو قول الكلبي ومقاتل الحلال لانه شئ أنزله الله تعالى اليهم ولم تمسه يد الآدميين ويجوز الجمع بين الوجهين لان بين المعنيين معنى مشتركا وتمام القول في هذه القصة تقدم في سورة البقرة (المسئلة السادسة) في قوله تعالى ولا تطغوا فيه وجوه (أحدها) قال ابن عباس رضي الله عنهما لا تطغوا أي لا يظلم بعضكم بعضا فيأخذه من صاحبه (وثانيها) قال مقاتل والضحاك لا تظلموا فيه أنفسكم بأن تتجاوزوا حد الاباحة (وثالثها) قال الكلبي لا تكفروا النعمة أي لا تستعينوا بنعمتي

الجملة لان قوله ففي الجنة خالدين فيها يقتضي اعطاء وانعاما فكأنه قيل يعطيهم عطاء وهو اما اسم مصدر هو الاعطاء أو مصدر بحذف الزوائد كقوله تعالى أنبتكم من الارض نباتا وان حمل على ما أعد الله لعباده الصالحين من النعيم الروحاني الذي عبر عنه بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فهو نصب على الحالية من المفعول المقدر للمشيئة أو تمييز فان نسبة مشيئة الخروج الى الله تعالى يحتمل أن تكون على جهة عطاء مجذوذ وعطاء على جهة غير مجذوذ فهو رافع للابهام عن النسبة قال ابن زيد أخبرنا الله تعالى بالذي يشاء لاهل الجنة فقال عطاء غير مجذوذ ولم يخبرنا بالذي يشاء لاهل النار ويجوز أن يتعلق بكلا النعيمين أو بالاول دفعا لما يتوهم من ظاهر الاستثناء من انقطاعه (فلا تك في مرية) أي في شك والفاء لترتيب النهي على ما قص من القصص وبين في تضاعيفها من العواقب الدنيوية والاخروية (مما يعبد هؤلاء) أي من جهة عبادة هؤلاء المشركين وسوء عاقبتها أو من حال ما يعبدونه من الاوثان من عدم نفعه لهم ولما كان مساق النظم الكريم قبيل الشروع في القصص لبيان غاية سوء حال الكفرة وكمال حسن حال المؤمنين وقد ضرب لهم مثل فقيل مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون وقد قص عقيب ذلك من أنباء الامم السالفة مع رسلهم المبعوثة اليهم ما يتسلى به ويتذكر نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كونه في شك من مصير أمر هؤلاء المشركين في العاجل والآجل ثم علل ذلك بطريق الاستئناف فقيل (ما يعبدون الا كما يعبد آباؤهم) الذين قصت عليك قصصهم (من قبل) أي هم وآباؤهم سواء في الشرك ما يعبدون عبادة الا كعبادتهم أو ما يعبدون شيأ الا مثل ما عبدوه من الاوثان

والعدول الى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها أو مثل ما كانوا يعبدون فحذف كان لدلالة قوله من قبل عليه
ولقد بلغك ما لحق بآبائهم فسيلحقهم مثل ذلك وان تماثل الاسباب يقتضي تماثل المسببات (وانا لموفوهم) أى هؤلاء الكفرة (نصيبهم)
أى حظهم المعين لهم حسب جرائمهم وجرائرهم من العذاب عاجلا وآجلا كما وفينا آباءهم انصباءهم المقدرة لهم أو من الرزق
المقسوم لهم فيكون بيانا
لوجه تأخر العذاب
عنهم مع تحقق ما يوجبه
(غير منقوص) حال
مؤكدة من النصيب
كقوله تعالى ثم وليتم
مدبرين وفائدته دفع
توهم التجوز وجعلها
مقيدة له لدفع احتمال
كونه منقوصا فى حد نفسه
مبنى على الذهول عن
كون العامل هو التوفية
فتأمل (ولقد آتينا
موسى الكتاب) أى
التوراة (فاختلف فيه)
أى فى شأنه وكونه من
عند الله تعالى فآمن به
قوم وكفر به آخرون فلا
تبال باختلاف قومك
فيما آتيناك من القرآن
وقولهم لولا أنزل عليه
كنز أو جاء معه ملك
وزعمهم انك افتريته
(ولولا كلمة سبقت من
ربك) وهى كلمة القضاء
بانظارهم الى يوم القيامة
على حسب الحكمة
الداعية الى ذلك (لقضى
بينهم) أى لأوقع القضاء
بين المختلفين من قومك
بانزال العذاب الذى
يستحقه المبطلون ليتميزوا
به عن المحقين وقيل بين
قوم موسى وليس بذاك
(وانهم) أى وان كفار
قومك أريد به بعض من رجع اليهم ضمير بينهم للامن من الالباس (لفى شك) عظيم (منه) أى من القرآن وان لم
يجر له ذكر فان ذكر ايتاء كتاب موسى ووقوع الاختلاف فيه لا سيما بصدد التسلية ينادى به نداء غير خفى (مريب) موقع فى الريبة
(وان كلا) التنوين عوض عن المضاف اليه وان كل المختلفين فيه المؤمنين منهم والكافرين وقرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر بالتخفيف مع

على هذا الفتى ولا تعرضوا عن الشكر ولا تعدلوا عن الحلال الى الحرام (المسئلة السابعة) قرأ الاعمش والكسائى فيحل ومن يحلل كلاهما بالضم وروى الاعمش عن أصحاب عبد الله فيحل بالكسر ومن يحلل بالرفع وقراءة العامة بالكسر فى الكلمتين اما من كسر فمعناه الوجوب من حل الدين يحل اذا وجب أداؤه ومنه قوله تعالى حتى يبلغ الهدى محله والمضموم فى معنى النزول وقوله فقد هوى أى شقى وقيل فقد وقع فى الهاوية يقال هوى يهوى هويا اذا سقط من علو الى أسفل (المسئلة الثامنة) اعلم أن الله تعالى وصف نفسه بكونه غافرا وغفورا وغفارا وبأن له غفرانا ومغفرة وعبر عنه بلفظ الماضى والمستقبل والامر أما انه وصف نفسه بكونه غافرا فقوله غافر الذنب وأما كونه غفورا فقوله وربك الغفور ذو الرحمة وأما كونه غفارا فقوله وانى لغفار لمن تاب وأما الغفران فقوله غفرانك ربنا وأما المغفرة فقوله وان ربك لذو مغفرة للناس وأما صيغة الماضى فقوله فى حق داود عليه السلام فغفرنا له ذلك وأما صيغة المستقبل فقوله ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقوله ان الله يغفر الذنوب جميعا وقوله فى حق محمد صلى الله عليه وسلم ليغفر لك الله وأما لفظ الاستغفار فقوله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات وفى حق نوح عليه السلام فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا وفى الملائكة ويستغفرون لمن فى الارض واعلم أن الانبياء عليهم السلام كلهم طلبوا المغفرة أما آدم عليه السلام فقال وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وأما نوح عليه السلام فقال والا تغفر لى وترحمنى وأما ابراهيم عليه السلام فقال والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين وطلبها لابيه سأستغفر لك ربى وأما يوسف عليه السلام فقال فى اخوته لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وأما موسى عليه السلام فى قصة القبطى رب اغفر لى ولاخى وأما داود عليه السلام فاستغفر ربه وأما سليمان عليه السلام رب اغفر لى وهب لى ملكا وأما عيسى عليه السلام وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم وأما محمد صلى الله عليه وسلم فقوله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات وأما الامة فقوله والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا * واعلم أن بسط الكلام ههنا أن نبين أولا حقيقة المغفرة ثم نتكلم فى كونه تعالى غافرا وغفورا وغفارا ثم نتكلم فى أن مغفرته عامة ثم نبين ان مغفرته فى حق الانبياء عليهم السلام كيف تعقل مع انه لا ذنب لهم ويتفرع على هذه الجملة استدلال أصحابنا فى اثبات العفو وتقريره ان الذنب اما أن يكون صغيرا أو كبيرا بعد التوبة أو قبل التوبة والقسمان الاولان يقبح من الله عندهم ماوجب عليه التجاوز عنهما وترك القبيح لا يسمى غفرانا فتعين أن لا يتحقق الغفران الا فى القسم الثالث وهو المطلوب فان قيل هذا يناقض صريح الآية لانه أثبت الغفران فى حق من استجمع أمورا أربعة التوبة والايمان والعمل الصالح والاهتداء قلنا ان من تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ثم أذنب بعد ذلك كان تائبا ومؤمنا وآتيا بالعمل الصالح ومهتديا ومع ذلك يكون مذنبا فحينئذ يستقيم كلامنا وههنا نكتة وهى ان العبد له أسماء ثلاثة الظالم والظلوم والظلام فالظالم فلهم ظالم لنفسه والظلوم لانه كان ظلوما جهولا والظلام اذا كثر ذلك منه ولله فى مقابلة كل واحد من هذه الاسماء اسم فكأنه تعالى يقول ان كنت ظالما فأنا غافر وان كنت ظلوما فأنا غفور وان كنت ظلاما فأنا غفار وانى لغفار لمن تاب وآمن (المسئلة التاسعة) كثر اختلاف المفسرين فى قوله تعالى ثم اهتدى وسبب ذلك ان من تاب وآمن وعمل صالحا فلا بد وأن يكون مهتديا فما معنى قوله ثم اهتدى بعد ذكر هذه الاشياء والوجوه الملخصة فيه ثلاثة (أحدها) المراد منه الاستمرار على تلك الطريقة اذ المهتدى فى الحال لا يكفيه ذلك فى الفوز بالنجاة حتى يستمر عليه فى المستقبل ويموت عليه ويؤكده قوله تعالى ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وكلمة ثم

ثم للتراخي في هذه الآية وليست لتباين المرتبتين بل لتباين الوقتين فكأنه تعالى قال الاتيان بالتوبة والايمان والعمل الصالح مما قد يتفق لكل أحد ولا صعوبة في ذلك انما الصعوبة في المداومة على ذلك والاستمرار عليه (وثانيها) المراد من قوله ثم اهتدى أي علم ان ذلك بهداية الله وتوفيقه وبقي مستعينا بالله في ادامة ذلك من غير تقصير عن ابن عباس (وثالثها) المراد من الايمان الاعتقاد المبني على الدليل والعمل الصالح اشارة الى أعمال الجوارح بقي بعد ذلك ما يتعلق بتطهير القلب من الاخلاق الذميمة وهو المسمى بالطريقة في لسان الصوفية ثم انكشاف حقائق الاشياء له وهو المسمى بالحقيقة في لسان الصوفية فهاتان المرتبتان هما المرادتان بقوله ثم اهتدى (المسألة العاشرة) منهم من قال تجب التوبة عن الكفر أولا ثم الاتيان بالايمان ثانيا واحتج عليه بهذه الآية فانه تعالى قدم التوبة على الايمان واحتج أصحابنا بهذه الآية على ان العمل الصالح غير داخل في الايمان لانه تعالى عطف العمل الصالح على الايمان والمعطوف مغاير للمعطوف عليه * قوله تعالى (وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثري وعجلت اليك رب لترضى) اعلم ان في قوله وما أعجلك عن قومك يا موسى دلالة على انه قد تقدم قومه في المسير الى المكان ويجب أن يكون المراد ما تقدم عليه في قوله تعالى وواعدناكم جانب الطور الايمن في هذه السورة وفي سائر السور كقوله وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ويريد الميقات عند الطور وعلى الآية سؤالات (السؤال الاول) قوله وما أعجلك استفهام وهو على الله محال (الجواب) انه انكار في صيغة الاستفهام ولا امتناع فيه (السؤال الثاني) أن موسى عليه السلام لا يخلو اما أن يقال انه كان ممنوعا عن ذلك التقدم أو لم يكن ممنوعا عنه فان كان ممنوعا كان ذلك التقدم معصية فيلزم وقوع المعصية من الانبياء وان قلنا انه ما كان ممنوعا كان ذلك الانكار غير جائز من الله تعالى (والجواب) لعله عليه السلام ما وجد نصا في ذلك الا أنه باجتهاده تقدم فأخطأ في ذلك الاجتهاد فاستوجب العتاب (السؤال الثالث) قال وعجلت والعجلة مذمومة (والجواب) انها ممدوحة في الدين قال تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة (السؤال الرابع) قوله لترضى يدل على انه عليه السلام انما فعل ذلك لتحصيل الرضا لله تعالى وذلك باطل من وجهين (أحدهما) انه يلزم تجدد صفة لله تعالى والآخر انه تعالى قبل حصول ذلك الرضا وجب أن يقال انه تعالى ما كان راضيا عن موسى لان تحصيل الحاصل محال ولما لم يكن راضيا عنه وجب أن يكون ساخطا عليه وذلك لا يليق بحال الانبياء عليهم السلام (الجواب) المراد تحصيل دوام الرضا كما ان قوله ثم اهتدى المراد دوام الاهتداء (السؤال الخامس) قوله وعجلت اليك يدل على انه ذهب الى الميعاد قبل الوقت الذي عينه الله تعالى له والا لم يكن ذلك تعجلا ثم ظن ان مخالفة أمر الله تعالى سبب لتحصيل رضاه وذلك لا يليق بأجهل الناس فضلا عن كليم الله تعالى (والجواب) ما ذكرنا ان ذلك كان بالاجتهاد وأخطأ فيه (السؤال السادس) قوله اليك يقتضي كون الله في الجهة لان الى لانتهاء الغاية (الجواب) توافقنا على ان الله تعالى لم يكن في الجبل فالمراد الى مكان وعدك (السؤال السابع) ما أعجلك سؤال عن سبب العجلة فكان جوابه اللائق به أن يقول طلبت زيادة رضاك والشوق الى كلامك وأما قوله هم أولاء على أثري فغير منطبق عليه كما ترى * والجواب من وجهين (الاول) ان سؤال الله تعالى يتضمن شيئين (أحدهما) انكار نفس العجلة (والثاني) السؤال عن سبب التقدم فكان أهم الامرين عند موسى عليه السلام بالجواب هذا الثاني فقال لم يوجد مني الا تقدم يسير لا يحتفل به في العادة وليس بيني وبين من سبقته الا تقدم يسير يتقدم بمثله الوفد عن قومهم ثم عقبه بجواب السؤال عن العجلة فقال وعجلت اليك

الاعمال اعتبار الاصل (لما ليوفينهم ربك أعمالهم) أي أجزية أعمالهم واللام الاولى موطئة للقسم والثانية جواب للقسم المحذوف ولما مركبة من من الجارة وما الموصولة أو الموصوفة وأصلها لمن ما فقلبت النون ميما للادغام فاجتمع ثلاث ميمات فحذفت أولاهن والمعنى لمن الذي أو لمن خلق أو لمن فريق والله ليوفينهم ربك وقرئ لما بالتخفيف على أن ما مزيدة للفصل بين اللامين والمعنى وان جميعهم والله ليوفينهم الآية وقرئ لما بالتنوين أي جميعا كقوله سبحانه أكلا لما وقرأ أبي وان كل لما ليوفينهم على أن ان نافية ولما بمعنى الا وقد قرئ به (انه بما يعملون) أي بما يعمله كل فرد من المختلفين من الخير والشر (خبير) بحيث لا يخفى عليه شئ من جلائله ودقائقه وهو تعليل لما سبق من توفية أجزية أعمالهم فان الاحاطة بتفاصيل أعمال الفريقين وما استوجبه كل عمل بمقتضى الحكمة من الجزاء المخصوص توجب توفيته كل ذي حق حقه ان خيرا فخير وان شرا فشر (فاستقم كما أمرت) لما بين في تضاعيف القصص المحكية عن الامم الماضية سوء عاقبة الكفر وعصيان الرسل وأشير الى أن حال هؤلاء الكفرة في الكفر والضلال واستحقاق العذاب مثل أولئك المعذبين وأن نصيبهم من العذاب واصل اليهم من غير نقص وأن تكذيبهم للقرآن مثل تكذيب قوم موسى عليه السلام للتوراة وانه لولم تسبق كلمة القضاء بتأخير عقوبتهم العامة ومؤاخذتهم التامة الى يوم القيامة لفعل بهم ما فعل بآبائهم من قبل وانهم يوفون نصيبهم غير منقوص وأن كل واحد من المؤمنين والكافرين يرى جزاء عمله أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاستقامة كما أمر به في العقائد والاعمال المشتركة بينه وبين سائر المؤمنين ولا سيما الاعمال الخاصة

به عليه السلام من تبليغ الأحكام الشرعية والقيام بوظائف النبوة وتحمل أعباء الرسالة بحيث يدخل تحته ما أمر به فيما سبق من قوله تعالى فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وضائق به صدرك الآية وبالجملة فهذا الامر منتظم لجميع محاسن الاحكام الاصلية والفرعية والكمالات النظرية والعملية والخروج عن عهدته في غاية ما يكون من الصعوبة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شيبتني سورة هود (ومن تاب معك) أى تاب من الشرك والكفر وشاركك في الايمان وهو المعنى بالمعية وهو معطوف على المستكن في قوله فاستقم وحسن من غير تأكيد لمكان الفصل القائم مقامه وفي الحقيقة هو من عطف الجملة على الجملة اذ المعنى وليستقم من تاب معك وقيل هو منصوب على أنه مفعول معه كما قاله أبو البقاء والمعنى استقم مصاحبا لمن تاب معك (ولا تطغوا) ولا تنحرفوا عما حد لكم بافراط أو تفريط فان كلا طرفي قصد الامور ذميم وانما سمى ذلك طغيانا وهو تجاوز الحد تغليظا أو تغليبا لحال سائر المؤمنين على حاله عليه السلام (انه بما تعملون بصير) فيجازيكم على ذلك وهو تعليل للامر والنهي وفي الآية دلالة على وجوب اتباع المنصوص عليه من غير انحراف بمجرد الرأى فانه طغيان وضلال وأما العمل بمقتضى الاجتهاد التابع لعلل النصوص فذلك من باب الاستقامة كما أمر على موجب النصوص الآمرة بالاجتهاد (ولا تركنوا) أى لا تميلوا أدنى ميل (الى الذين ظلموا) أى الى الذين وجد منهم الظلم في الجملة ومدار النهي هو الظلم والجمع باعتبار جمعية المخاطبين وما قيل من أن ذلك للمبالغة في النهي من حيث ان كونهم جماعة مظنة الرخصة في مداهنتهم انما يتم أن لو كان المراد النهي عن الركون اليهم من حيث انهم جماعة وليس كذلك (فتمسكم)

رب لترضى (الثاني) أنه عليه السلام لما ورد عليه من هيبة عتاب الله تعالى ما ورد ذهل عن الجواب المنطبق المرتب على حدود الكلام واعلم ان في قوله وما أعجلك عن قومك ياموسى دلالة على انه تعالى أمره بحضور الميقات مع قوم مخصوصين واختلفوا في المراد بالقوم فقال بعضهم هم النقباء السبعون الذين قد اختارهم الله تعالى ليخرجوا معه الى الطور فتقدمهم موسى عليه السلام شوقا الى ربه وقال آخرون القوم جملة بني اسرائيل وهم الذين خلفهم موسى مع هرون وأمره أن يقيم فيهم خليفة له الى أن يرجع هو مع السبعين فقال هم أولاء على أثرى يعني بالقرب مني ينتظرونني وعن أبي عمرو ويعقوب اثرى بالكسر وعن عيسى بن عمر أثرى بالضم وعنه أيضا أولى بالقصر والاثر أفصح من الاثر وأما الاثر فمسموع في فرند السيف وهو بمعنى الاثر غريب ﴿ قوله تعالى ﴿قال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري فرجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فاخلفتم موعدى قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا الهكم واله موسى فنسى أفلا يرون الا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا﴾ اعلم انه تعالى لما قال لموسى وما أعجلك عن قومك وقال موسى في جوابه وعجلت اليك رب لترضى عرفه الله تعالى ما حدث من القوم بعد أن فارقهم مما كان بعد أن يحدث لو كان معهم فقال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة لا يجوز أن يكون المراد ان الله تعالى خلق فيهم الكفر لوجهين (الوجه الاول) الدلائل العقلية الدالة على انه لا يجوز من الله أن يفعل ذلك (الثاني) انه قال وأضلهم السامري ولو كان الله خلق الضلال فيهم لم يكن لفعل السامري فيه أثر وكان يبطل قوله وأضلهم السامري وأيضا فلان موسى عليه السلام لما طالبهم بذكر سبب تلك الفتنة قال أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فلو حصل ذلك بخلق الله تعالى لكان لهم أن يقولوا السبب فيه ان الله خلقه فينا لا ما ذكرت فكان يبطل تقسيم موسى عليه السلام وأيضا فقال أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ولو كان ذلك بخلقه لاستحال أن يغضب عليهم فيما هو الخالق له ولما بطل ذلك وجب أن يكون لقوله فتنا معنى آخر وذلك لان الفتنة قد تكون بمعنى الامتحان يقال فتنت الذهب بالنار اذا امتحنته بالنار لكي يتميز الجيد من الردىء فههنا شدد الله التكليف عليهم وذلك لان السامري لما أخرج لهم ذلك العجل صار وا مكلفين بأن يستدلوا بحدوث جملة العالم والاجسام على ان لها الها ليس بجسم وحينئذ يعرفون ان العجل لا يصلح للالهية فكان هذا التعبد تشديدا في التكليف فكان فتنة والتشديد في التكليف موجود قال تعالى أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون هذا تمام كلام المعتزلة قال الاصحاب ليس في ظهور صوت عن عجل متخذ من الذهب شبهة أعظم مما في الشمس والقمر والدليل الذي ينفي كون الشمس والقمر الها أولى بأن ينفي كون ذلك العجل الها فحينئذ لا يكون حدوث ذلك العجل تشديدا في التكليف فلا يصح حمل الآية عليه فوجب حمله على خلق الضلال فيهم قولهم أضاف الاضلال الى السامري قلنا أليس ان جميع المسببات العادية تضاف الى أسبابها في الظاهر وان كان الموجد لها هو الله تعالى فكذا ههنا وأيضا قرئ وأضلهم السامري أى وأشدهم ضلالا السامري وعلى هذا لا يبقى للمعتزلة الاستدلال ثم الذي يحسم مادة الشغب التمسك بفصل الداعي على ما سبق تقريره في هذا الكتاب مرارا كثيرة (المسئلة الثانية) المراد بالقوم ههنا هم الذين خلفهم مع هرون عليه السلام على ساحل البحر وكانوا ستمائة ألف افتتنوا بالعجل غير اثنى عشر ألفا (المسئلة الثالثة)

الثالثة) قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية سعيد بن جبير كان السامري علجاً من أهل كرمان وقع الى مصر وكان من قوم يعبدون البقر والذي عليه الاكثرون انه كان من عظماء بني اسرائيل من قبيلة يقال لها السامرة قال الزجاج وقال عطاء عن ابن عباس بل كان رجلا من القبط جارا لموسى عليه السلام وقد آمن به (المسئلة الرابعة) روي في القصة أنهم أقاموا بعد مفارقته عشرين ليلة وحسبوها أربعين مع أيامها وقالوا قد أكملنا العدة ثم كان أمر العجل بعد ذلك والتوفيق بين هذا وبين قوله لموسى عند مقدمه فانا قد فتنا قومك من بعدك من وجهين (الاول) انه تعالى أخبر عن الفتنة المترقبة بلفظ الموجودة الكائنة على عادته (الثاني) ان السامري شرع في تدبير الامر لما غاب موسى عليه السلام وعزم على اضلالهم حال مفارقة موسى عليه السلام وكأنه قدر الفتنة موجودة (المسئلة الخامسة) انما رجع موسى عليه السلام بعد ما استوفى الاربعين ذا القعدة وعشر ذي الحجة (المسئلة السادسة) ذكروا في الأسف وجوها (أحدها) انه شدة الغضب وعلى هذا التقدير لا يلزم التكرار لان قوله غضبان يفيد أصل الغضب وقوله أسفا يفيد كماله (وثانيها) قال الاكثرون حزينا وجزعا يقال أسف يأسف أسفا اذا حزن فهو آسف (وثالثها) قال قوم الآسف المغتاظ وفرقوا بين الاغتياظ والغضب بأن الله تعالى لا يوصف بالغيظ ويوصف بالغضب من حيث كان الغضب ارادة الاضرار بالمغضوب عليه والغيظ تغير يلحق المغتاظ وذلك لا يصح الا على الاجسام كالضحك والبكاء ثم ان الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام انه عاتبهم بعد رجوعه اليهم قالت المعتزلة وهذا يدل على انه ليس المراد من قوله فانا قد فتنا قومك من بعدك انه تعالى خلق الكفر فيهم والا لما عاتبهم بل يجب أن يعاتب الله تعالى قال الاصحاب وقد فعل ذلك بقوله ان هي الا فتنتك ومجموع تلك المعاتبات أمور (أحدها) قوله يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا وفيه سؤالان (السؤال الاول) قوله ألم يعدكم ربكم هذا الكلام انما يتوجه عليهم لو كانوا معترفين باله آخر سوى العجل أما لما اعتقدوا انه لا اله سواه على ما أخبر الله تعالى عنهم انهم قالوا هذا الهكم واله موسى كيف يتوجه عليهم هذا الكلام (الجواب) انهم كانوا معترفين بالاله لكنهم عبدوا العجل على التأويل الذي يذكره عبدة الاصنام (السؤال الثاني) ما المراد بذلك الوعد الحسن (الجواب) ذكروا وجوها (أحدها) ان المراد ما وعدهم من انزال التوراة عليهم ليقفوا على الشرائع والاحكام ويحصل لهم بسبب ذلك مزيد فضيلة بين الناس وهو الذي ذكره الله تعالى فيما تقدم من قوله وواعدناكم جانب الطور الايمن (وثانيها) ان الوعد الحسن هو الوعد الصدق بالثواب على الطاعات (وثالثها) الوعد هو العهد وهو قول مجاهد وذلك العهد هو قوله تعالى ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي الى قوله ثم اهتدى والدليل عليه قوله بعد ذلك أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فكأنه قال أفنسيتم ذلك الذي قال الله لكم ولا تطغوا فيه (ورابعها) الوعد الحسن ههنا يحتمل أن يكون وعدا حسنا في منافع الدين وأن يكون في منافع الدنيا اما منافع الدين فهو الوعد بانزال الكتاب الشريف الهادي الى الشرائع والاحكام والوعد بحصول الثواب العظيم في الآخرة وأما منافع الدنيا فهو أنه تعالى قبل اهلاك فرعون كان قد وعدهم أرضهم وديارهم وقد فعل ذلك ثم قال أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فالمراد أفنسيتم ذلك العهد أم تعمدتم المعصية واعلم ان طول العهد يحتمل أمورا (أحدها) أفطال عليكم العهد بنعم الله تعالى من انجائه اياكم من فرعون وغير ذلك من النعم المعدودة المذكورة في أول سورة البقرة وهذا كقوله فطال عليهم الامد فقست قلوبهم (وثانيها) يروى انهم عرفوا ان الاجل أربعون ليلة فجعلوا كل يوم بازاء ليلة وردوه الى عشرين قال القاضي هذا ركيك لان

بسبب ذلك (النار) واذا كان حال الميل في الجملة الى من وجد منه ظلم ما في الافضاء الى مساس النار هكذا فما ظنك بمن يميل الى الراسخين في الظلم والعدوان ميلا عظيما ويتهالك على مصاحبتهم ومنادمتهم ويلقي شراشره على مؤانستهم ومعاشرتهم ويبتهج بالتزيي بزيهم ويمد عينيه الى زهرتهم الفانية ويغبطهم بما أوتوا من القطوف الدانية وهو في الحقيقة من الحبة طفيف ومن جناح البعوض خفيف بمعزل عن أن تميل اليه القلوب ضعف الطالب والمطلوب والآية أبلغ ما يتصور في النهي عن الظلم والتهديد عليه وخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين للتثبيت على الاستقامة التي هي العدل فان الميل الى أحد طرفي الافراط والتفريط ظلم على نفسه أو على غيره وقرئ تركنوا على لغة تميم وتركنوا على صيغة البناء للمفعول من أركنه (وما لكم من دون الله من أولياء) أي من أنصار ينقذونكم من النار والجملة نصب على الحالية من قوله فتمسكم النار ونفي الاولياء ليس بطريق نفي أن يكون لكل واحد منهم أولياء حتى يصدق أن يكون له ولي بل لكان لكم بطريق انقسام الآحاد على الآحاد لكن لا على معنى نفي استقلال كل منهم بنصير بل على معنى نفي أن يكون لواحد منهم نصير بقرينة المقام (ثم لا تنصرون) من جهته سبحانه اذ قد سبق في حكمه أن يعذبكم بركونكم اليهم ولا يبقي عليكم وثم

لتراخي رتبة كونهم غير منصورين من جهة الله بعد ما أوعدهم بالعذاب وأوجبه عليهم ويجوز أن يكون منزلا منزلة الفاء بمعنى الاستبعاد فانه لما بين أن الله تعالى معذبهم وأن غيره لا ينقذهم أنتج أنهم لا ينصرون أصلا (وأقم الصلوة طرفي النهار) أي غدوة وعشية وانتصابه على الظرفية لكونه مضافا الى الوقت (وزلفا من الليل) أي ساعات منه قريبة من النهار

فانه من أزلفه اذا قربه جمع زلفه عطف على طرفي النهار والمراد بصلاتهما صلاة الغداة والعصر وقيل الظهر موضع العصر لان ما بعد الزوال عشي وبصلاة الزلف المغرب والعشاء وقرئ زلفا بضمتين وضمة وسكون كبسر وبسر وزلفى بمعنى زلفة كقربى بمعنى قربة (ان الحسنات) التي من جملتها بل عمدتها ما أمرت به من الصلوات (يذهبن السيآت) التي قلما يخلو منها البشر أي يكفرنها وفي الحديث ان الصلاة الى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنب الكبائر وقيل نزلت في أبي اليسر الانصاري اذ قبل امرأة ثم ندم فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما فعل فقال عليه السلام أنتظر أمر ربي فلما صلى صلاة العصر نزلت قال عليه السلام نعم اذهب فانها كفارة لما عملت أو يمنعن من اقترافها كقوله تعالى ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر (ذلك) اشارة الى قوله تعالى فاستقم فما بعده وقيل الى القرآن (ذكرى للذاكرين) أي عظة للمتعظين (واصبر) على مشاق ما أمرت به في تضاعيف الاوامر السابقة وأما ما نهي عنه من الطغيان والركون الى الذين ظلموا فليس في الانتهاء عنه مشقة فلا وجه لتعميم الصبر له اللهم الا أن يراد به ما لا يمكن عادة خلو البشر عنه من أدنى ميل بحكم الطبيعة عن الاستقامة المأمور بها ومن يسير ميل بحكم البشرية الى من وجد منه ظلم ما فان في الاحتراز عن أمثاله من المشقة ما لا يخفى (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) أي يوفيهم أجور أعمالهم من غير بخس أصلا وانما عبر عن ذلك بنفي الاضاعة مع أن عدم اعطاء الاجر ليس باضاعة حقيقة كيف لا والاعمال غير موجبة للثواب حتى يلزم من تخلفه عنها ضياعها لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يمتنع صدوره عنه سبحانه من القبائح وابراز الضال

ذلك لا يكاد يشتبه على أحد (وثالثها) ان موسى عليه السلام وعدهم ثلاثين ليلة فلما زاد الله تعالى فيها عشرة أخرى كان ذلك طول العهد وأما قوله أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فهذا لا يمكن اجراؤه على الظاهر لان أحدا لا يريد ذلك ولكن المعصية لما كانت توجب ذلك ومريد السبب مريد للمسبب بالعرض صح هذا الكلام واحتج العلماء بذلك على ان الغضب من صفات الافعال لا من صفات الذات لان صفة ذات الله تعالى لا تنزل في شيء من الاجسام أما قوله فأخلفتم موعدي فهذا يدل على موعد كان منه عليه السلام مع القوم وفيه وجهان (أحدها) ان المراد ما وعدوه من اللحاق به والمجيء على أثره (والثاني) ما وعدوه من الاقامة على دينه الى أن يرجع اليهم من الطور فعند هذا قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا وفي أن قائل هذا الجواب من هو وجهان (الاول) انهم الذين لم يعبدوا العجل فكأنهم قالوا انا ما أخلفنا موعدك بملكنا أي بأمر كنا نملكه وقد يضيف الرجل فعل قريبه الى نفسه كقوله تعالى واذ فرقنا بكم البحر واذ قتلتم نفسا وان كان القاتل لذلك آباءهم لاهم فكأنهم قالوا الشبهة قويت على عبدة العجل فلم نقدر على منعهم عنه ولم نقدر أيضا على مفارقتهم لانا خفنا أن يصير ذلك سببا لوقوع الفرقة وزيادة الفتنة (الوجه الثاني) ان هذا قول عبدة العجل والمراد ان غيرنا أوقع الشبهة في قلوبنا وفاعل السبب فاعل المسبب ومخلف الوعد هو الذي أوقع الشبهة فانه كان كالمالك لنا فان قيل كيف يعقل رجوع قريب من ستمائة ألف انسان من العقلاء المكلفين عن الدين الحق دفعة واحدة الى عبادة العجل الذي يعرف فسادها بالضرورة ثم ان مثل هذا الجمع لما فارقوا الدين وأظهروا الكفر فكيف يعقل رجوعهم دفعة واحدة عن ذلك الدين بسبب رجوع موسى عليه السلام وحده اليهم قلنا هذا غير ممتنع في حق البله من الناس واعلم ان في بملكنا ثلاث قرا آت قرأ حمزة والكسائي بضم الميم ونافع وعاصم بفتح الميم وأبو عمرو وابن عامر وابن كثير بالكسر أما الكسر والفتح فهما واحد وهما لغتان مثل رطل ورطل وأما الضم فهو السلطان ثم ان القوم فسروا ذلك العذر المجمل فقالوا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر حملنا مخففة من الحمل وقرأ ابن كثير ونافع وحفص وابن عامر حملنا مشددة فمن قرأ بالتخفيف فمعناه حملنا مع أنفسنا ما كنا استعرناه من القوم ومن قرأ بالتشديد ففيه وجوه (أحدها) ان موسى عليه السلام حملهم على ذلك أي أمرهم باستعارة الحلي والخروج بها فكأنه ألزمهم ذلك (وثانيها) جعلنا كالضامن لها الى أن نؤديها الى حيث يأمرنا الله (وثالثها) ان الله تعالى حملهم ذلك على معنى انه ألزمهم فيه حكم الغنم أما الاوزار فهي الاثقال ومن ذلك سمي الذنب وزرا لانه ثقل ثم فيه احتمالات (أحدها) انه لكثرتها كانت أثقالا (وثانيها) ان الغنائم كانت محرمة عليهم فكان يجب عليهم حفظها من غير فائدة فكانت أثقالا (وثالثها) المراد بالاوزار الآثام والمعنى حملنا آثاما روي في الخبر ان هرون عليه السلام قال انها نجسة فتطهروا منها وقال السامري ان موسى عليه السلام انما احتبس عقوبة بالحلي فيجوز أن يكونوا أرادوا هذا القول وقد يقول الانسان للشيء الذي يلزمه رده هذا كله اثم وذنب (ورابعها) ان ذلك الحلي للقبط يتزينون به في مجامع لهم يجري فيها الكفر لاجرم انها وصفت بكونها أوزارا كما يقال مثله في آلات المعاصي أما قوله فقذفناها ففيه وجوه في أنهم أين قذفوها (الوجه الاول) قذفوها في حفرة كان هرون عليه السلام أمرهم بجمع الحلي فيها انتظارا لعود موسى عليه السلام (والوجه الثاني) قذفوها في موضع أمرهم السامري بذلك (والوجه الثالث) في موضع جمع فيه النار ثم قالوا فكذلك ألقى السامري أي فعل السامري مثل ما فعلنا أما قوله فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فاختلفوا في أنه هل كان ذلك الجسد حيا أم لا فالقول الاول لا لانه لا يجوز اظهار خرق العادة على يد

الاثابة فى معرض الامور الواجبة عليه وانما عدل عن الضمير ليكون كالبرهان على المقصود مع افادة فائدة عامة لكل من يتصف به وهو تعليل للامر بالصبر وفيه ايماء الى أن الصبر على ماذكر من باب الاحسان (فلولا كان) فهلا كان (من القرون) الكائنة (من قبلكم) على رأى من جوز حذف الموصول مع بعض صلته أو كائنة من قبلكم (أولو بقية) من الرأى والعقل وأولو فضل وخير وسميا بها لان الرجل انما يستبقى مما يخرجه عادة أجوده وأفضله فصار مثلا فى الجودة والفضل ويقال فلان من بقية القوم أى من خيارهم ومنه ما قيل فى الزوايا خبايا وفى الرجال بقايا ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى كالتقية بمعنى التقوى أى فهلا كان منهم ذو وابقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله تعالى وعقابه ويؤيده أنه قرئ أولو بقية وهى المرة من مصدر بقاه يبقيه اذا راقبه وانتظره أى أولو مراقبة وخشية من عذاب الله تعالى كأنهم ينتظرون نزوله لاشفاقهم (ينهون عن الفساد فى الارض) الواقع منهم حسبما حكى عنهم (الا قليلا ممن أنجينا منهم) استثناء منقطع أى لكن قليلا منهم أنجيناهم لكونهم على تلك الصفة على أن من للبيان لا للتبعيض لان جميع الناجين ناهون ولا صحة للاتصال على ظاهر الكلام لانه يكون تحضيضا لاولى البقية على النهى المذكور الا للقليل من الناجين منهم كما اذا قلت هلا قرأ قومك القرآن الا الصلحاء منهم مريدا الاستثناء الصلحاء من المحضضين على القراءة نعم يصح ذلك ان جعل استثناء من النفى اللازم للتحضيض فكأنه قيل ما كان من القرون أولو بقية الا قليلا منهم لكن الرفع هو الافصح حينئذ على البدلية (واتبع الذين ظلموا) بمباشرة الفساد وترك النهى عنه (ما أترفوا فيه) أى أنعموا من الشهوات

الضال بل السامرى صور صورة على شكل العجل وجعل فيها منافذ ومخارق بحيث تدخل فيها الرياح فيخرج صوت يشبه صوت العجل (والقول الثانى) انه صار حيا وخار كما يخور العجل واحتجوا عليه بوجوه (أحدها) قوله فقبضت قبضة من أثر الرسول ولو لم يصر حيا لما بقى لهذا الكلام فائدة (وثانيها) انه تعالى سماه عجلا والعجل حقيقة فى الحيوان وسماه جسدا وهو انما يتناول الحى (وثالثها) أثبت له الخوار وأجابوا عن حجة الاولين بان ظهور خوارق العادة على يد مدعى الالهية جائز لانه لا يحصل الالتباس وههنا كذلك فوجب أن لا يمتنع وروى عكرمة عن ابن عباس أن هرون عليه السلام مر بالسامرى وهو يصنع العجل فقال ما تصنع فقال أصنع ما ينفع ولا يضر فادع لى فقال اللهم أعطه ما سأل فلما مضى هرون قال السامرى اللهم انى أسألك أن يخور فخار وعلى هذا التقدير يكون ذلك معجز النبى * أما قوله فقالوا هذا الهكم واله موسى ففيه اشكال وهو ان القوم ان كانوا فى الجهالة بحيث اعتقدوا ان ذلك العجل المعمول فى تلك الساعة هو الخالق للسموات والارض فهم مجانين وليسوا عكلفين ولان مثل هذا الجنون على مثل ذلك الجمع العظيم محال وان لم يعتقدوا ذلك فكيف قالوا هذا الهكم واله موسى وجوابه لعلهم كانوا من الحلولية فجوزوا حلول الاله أو حلول صفة من صفاته فى ذلك الجسم وان كان ذلك أيضا فى غاية البعد لان ظهور الخوار لا يناسب الالهية ولكن لعل القوم كانوا فى نهاية البلادة والجلافة وأما قوله فنسى ففيه وجوه (الاول) انه كلام الله تعالى كأنه أخبر عن السامرى انه نسى الاستدلال على حدوث الاجسام وان الاله لا يحل فى شئ ولا يحل فيه شئ ثم انه سبحانه بين المعنى الذى يجب الاستدلال به وهو قوله أفلا يرون أن لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا أى لم يخطر ببالهم ان من لا يتكلم ولا يضر ولا ينفع لا يكون الها ولا يكون للاله تعلق به فى الحالية والمحلية (الوجه الثانى) ان هذا قول السامرى وصف به موسى عليه السلام والمعنى ان هذا الهكم واله موسى فنسى موسى ان هذا هو الاله فذهب يطلبه فى موضع آخر وهو قول الاكثرين (الوجه الثالث) فنسى وقت الموعد فى الرجوع أما قوله أن لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا فهذا استدلال على عدم الهيتها بانها لا تتكلم ولا تنفع ولا تضر وهذا يدل على ان الاله لا بد وأن يكون موصوفا بهذه الصفات وهو كقوله تعالى فى قصة ابراهيم عليه السلام لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيأ وان موسى عليه السلام فى أكثر الامر لا يعول الا على دلائل ابراهيم عليه السلام * بقى ههنا بحثان (البحث الاول) قال الزجاج الاختيار أن لا يرجع بالرفع بمعنى أنه لا يرجع وهذا كقوله وحسبوا أن لا تكون فتنة فعموا وصموا بمعنى انه لا تكون وقرئ بالنصب أيضا على أن أن هذه هى الناصبة للافعال (البحث الثانى) هذه الآية تدل على وجوب النظر فى معرفة الله تعالى وقال فى آية أخرى ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا وهو قريب فى المعنى من قوله فى ذم عبدة الاصنام ألهم أرجل يمشون بها وليس المقصود من هذا ان العجل لو كان يكلمهم لكان الها لان الشئ يجوز أن يكون مشروطا بشروط كثيرة ففوات واحد منها يقتضى فوات المشروط ولكن حصول الواحد فيها لا يقتضى حصول المشروط (الثالث) قال بعض اليهود لعلى عليه السلام ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم فقال انما اختلفنا عنه وما اختلفنا فيه وأنتم ما جفت أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم لنبيكم اجعل لنا الها كما لهم آلهة * قوله تعالى ﴿ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى﴾ اعلم ان هرون عليه السلام انما قال ذلك شفقة منه على نفسه وعلى الخلق أما شفقته على نفسه فلانه كان مأمورا من عند الله بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر وكان مأمورا من عند أخيه موسى عليه السلام بقوله اخلفنى فى قومى وأصلح ولا

واهتموا بتحصيلها اما المباشرون فظاهر وأما المساهلون فلما لهم في ذلك من نيل حظوظهم الفاسدة وقيل المراد بهم تاركو النهي وأنت خبير بأنه يلزم منه عدم دخول مباشري الفساد في الظلم والاجرام عبارة (وكانوا مجرمين) أي كافرين فهو بيان لسبب استئصال الامم الهالكة وهو فشو الظلم واتباع الهوى فيهم وشيوع ترك النهي عن المنكرات مع الكفر وقوله واتبع عطف على مضمر

دل عليه الكلام أي لم ينهوا واتبع الخ فيكون العدول الى المظهر لادراج المباشرين معهم في الحكم والتسجيل عليهم بالظلم وللاشعار بعلية ذلك لما حاق بهم من العذاب أو على استئناف يترتب على قوله الا قليلا أي الا قليلا عن أنجينا منهم نهوا عن الفساد واتبع الذين ظلموا من مباشري الفساد وتاركي النهي عنه فيكون الاظهار مقتضى الظاهر وقوله وكانوا مجرمين عطف على أترفوا أي اتبعوا الاتراف وكونهم مجرمين لان تابع الشهوات مغمور بالآثام أو أريد بالاجرام اغفالهم للشكر أو على اتبع أي اتبعوا شهواتهم وكانوا بذلك الاتباع مجرمين ويجوز أن يكون اعتراضا وتسجيلا عليهم بأنهم قوم مجرمون وقرئ وأتبع أي اتبعوا جزاء ما أترفوا فتكون الواو للحال ويجوز أن يفسر به المشهورة ويعضده تقدم الانجاء (وما كان ربك ليهلك القرى) أي ما صح وما استقام بل استحال في الحكمة أن يهلك القرى

التي أهلكها حسبما بلغك أنباؤها ويعلم من ذلك حال باقيها من القرى الظالمة واللام لتأكيد النفي وقوله (بظلم) أي ملتبسا به قيل هو حال من الفاعل أي ظالما لها والتنكير للتفخيم والايذان بأن اهلاك المصلحين ظلم عظيم والمراد تنزيه الله تعالى عن ذلك بالكلية بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى والا فلا ظلم فيما فعله الله تعالى بعباده كائنا ما كان لما تقرر من قاعدة

تتبع سبيل المفسدين فلو لم يشتغل بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر لكان مخالفا لامر الله تعالى ولامر موسى عليه السلام وذلك لا يجوز أوحى الله تعالى الى يوشع بن نون اني مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم وستين ألفا من شرارهم فقال يارب هؤلاء الاشرار فما بال الاخيار فقال انهم لم يغضبوا لغضبي وقال ثابت البناني قال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصبح وهمه غير الله تعالى فليس من الله في شئ ومن أصبح لا يهتم بالمسلمين فليس منهم وعن الشعبي عن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى وقال أبو علي الحسن الغوري كنت في بعض المواضع فرأيت زورقا فيه دنان مكتوب عليها لطيف فقلت للملاح ايش هذا فقال أنت صوفي فضولي وهذه خمور المعتضد فقلت له أعطني ذلك المدري فقال لغلامه أعطه حتى نبصر ايش يعمل فأخذت المدري وصعدت الزورق فكنت أكسرها دنا دنا والملاح يصيح حتى بقي واحد فامسكت فجاء صاحب السفينة فأخذني وحملني الى المعتضد وكان سيفه قبل كلامه فلما وقع بصره علي قال من أنت قلت المحتسب قال من ولاك الحسبة قلت الذي ولاك الخلافة قال لم كسرت هذه الدنان قلت شفقة عليك اذ لم تصل يدي الى دفع مكروه عنك قال فلم أبقيت هذا الواحد قلت اني لما كسرت هذه الدنان فاني انما كسرتها حمية في دين الله فلما وصلت الى هذا أعجبت فأمسكت ولو بقيت كما كنت لكسرته فقال اخرج ياشيخ فقد وليتك الحسبة فقلت كنت أفعله لله تعالى فلا أحب أن أكون شرطيا وأما الشفقة على المسلمين فلان الانسان يجب أن يكون رقيق القلب مشفقا على أبناء جنسه وأي شفقة أعظم من أن يرى جماعة يتهافتون على النار فيمنعهم منها وعن أبي سعيد الخدري عنه عليه السلام يقول الله تعالى اطلبوا الفضل عند الرحماء من عبادي تعيشوا في أكنافهم فاني جعلت فيهم رحمتي ولا تطلبوها في القاسية قلوبهم فان فيهم غضبي وعن عبد الله بن أبي أوفى قال خرجت أريد النبي صلى الله عليه وسلم فاذا أبو بكر وعمر ومعه غلام صغير فبكى فقال لعمر ضم الصبي اليك فانه ضال فأخذه عمر فاذا امرأة تولول كاشفة عن رأسها جزعا على ابنها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أدرك المرأة فناداها فجاءت فأخذت ولدها وجعلت تبكي والصبي في حجرها فالتفتت فرأت النبي صلى الله عليه وسلم فاستحيت فقال عليه السلام عند ذلك أترون هذه رحيمة بولدها قالوا يارسول الله كفى بهذه رحمة فقال والذي نفسي بيده ان الله أرحم بالمؤمنين من هذه بولدها ويروى أنه بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ومعه أصحابه اذ نظر الى شاب على باب المسجد فقال من أراد أن ينظر الى رجل من أهل النار فلينظر الى هذا فسمع الشاب ذلك فولى فقال الهي وسيدي هذا رسولك يشهد علي بأني من أهل النار وأنا أعلم أنه صادق فاذا كان الامر كذلك فأسألك أن تجعلني فداء أمة محمد صلى الله عليه وسلم وتشغل النار بي حتى تبر يمينه ولا تشغل النار بأحد آخر فهبط جبريل عليه السلام وقال يامحمد بشر الشاب باني قد أنقذته من النار بتصديقه لك وفدائه أمتك بنفسه وشفقته على الخلق اذا ثبت ذلك فاعلم ان الامر بالمعروف والشفقة على المسلمين واجب ثم ان هرون عليه السلام رأى القوم متهافتين على النار ولم يبال بكثرتهم ولا بقوتهم بل صرح بالحق فقال ياقوم انما فتنتم به الآية وههنا دقيقة وهي ان الرافضة تمسكوا بقوله عليه السلام لعلي أنت مني بمنزلة هرون من موسى ثم ان هرون ما منعته التقية في مثل هذا الجمع بل صعد المنبر وصرح بالحق ودعا الناس الى متابعة نفسه والمنع من متابعة غيره فلو كانت أمة محمد صلى الله عليه وسلم على الخطأ لكان يجب على علي عليه السلام أن يفعل ما فعله هرون عليه السلام وأن يصعد على المنبر من غير تقية وخوف وأن يقول فاتبعوني وأطيعوا أمري فلما لم يفعل ذلك

علمنا

علمنا أن الامة كانوا على الصواب واعلم ان هرون عليه السلام سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه لانه زجرهم عن الباطل أولا بقوله انما فتنتم به ثم دعاهم الى معرفة الله تعالى ثانيا بقوله وان ربكم الرحمن ثم دعاهم ثالثا الى معرفة النبوة بقوله فاتبعوني ثم دعاهم الى الشرائع رابعا بقوله وأطيعوا أمري وهذا هو الترتيب الجيد لانه لا بد قبل كل شيء من اماطة الاذى عن الطريق وهو ازالة الشبهات ثم معرفة الله تعالى فانها هي الاصل ثم النبوة ثم الشريعة فثبت ان هذا الترتيب على أحسن الوجوه وانما قال وان ربكم الرحمن فخص هذا الموضع باسم الرحمن لانه كان ينبههم بأنهم متى تابوا قبل الله توبتهم لانه هو الرحمن الرحيم ومن رحمته أن خلصهم من آفات فرعون ثم انهم لجهلهم قابلوا هذا الترتيب الحسن في الاستدلال بالتقليد والجحود فقالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى كأنهم قالوا لا نقبل حجتك ولكن نقبل قول موسى وعادة المقلد ليس الا ذلك ﴿قوله تعالى﴾ ﴿قال يا هرون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن أفعصيت أمري قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي اني خشيت أن تقول فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي﴾ اعلم ان الطاعنين في عصمة الانبياء عليهم السلام يتمسكون بهذه الآية من وجوه (أحدها) ان موسى عليه السلام اما أن يكون قد أمر هرون باتباعه أو لم يأمره فان أمره به فاما أن يكون هرون قد اتبعه أو لم يتبعه فان اتبعه كانت ملامة موسى لهرون معصية وذنبا لان ملامة غير المجرم معصية وان لم يتبعه كان هرون تاركا للواجب فكان فاعلا للمعصية وأما ان قلنا ان موسى عليه السلام ما أمره باتباعه كانت ملامته اياه بترك الاتباع معصية فثبت أن على جميع التقديرات يلزم اسناد المعصية اما الى موسى أو الى هرون (وثانيها) قول موسى عليه السلام أفعصيت أمري استفهام على سبيل الانكار فوجب أن يكون هرون قد عصاه وأن يكون ذلك العصيان منكرا والا لكان موسى عليه السلام كاذبا وهو معصية فاذا فعل هرون ذلك فقد فعل المعصية (وثالثها) قوله يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي وهذا معصية لان هرون عليه السلام قد فعل ما قدر عليه من النصيحة والوعظ والزجر فان كان موسى عليه السلام قد بحث عن الواقعة وبعد أن علم أن هرون قد فعل ما قدر عليه كان الاخذ برأسه ولحيته معصية وان فعل ذلك قبل تعرف الحال كان ذلك أيضا معصية (ورابعها) ان هرون عليه السلام قال لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي فان كان الاخذ بلحيته وبرأسه جائزا كان قول هرون لا تأخذ منعا له عما كان له أن يفعله فيكون ذلك معصية وان لم يكن ذلك الاخذ جائزا كان موسى عليه السلام فاعلا للمعصية فهذه أسئلة لطيفة في هذا الباب والجواب عن الكل اذا بينا في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى فأزلهما الشيطان عنها أنواعا من الدلائل الجلية في أنه لا يجوز صدور المعصية من الانبياء وحاصل هذه الوجوه تمسك بظواهر قابلة للتأويل ومعارضة ما يبعد عن التأويل بما يتسارع اليه التأويل غير جائز اذا ثبتت هذه المقدمة فاعلم ان لنا في الجواب عن هذه الاشكالات وجوها (أحدها) انا وان اختلفنا في جواز المعصية على الانبياء لكن اتفقنا على جواز ترك الاولى عليهم واذا كان كذلك فالفعل الذي يفعله أحدهما ويمنعه الآخر وأعني بهما موسى وهرون عليهما السلام لعله كان أحدهما أولى والآخر كان ترك الاولى فلذلك فعله أحدهما وتركه الآخر فان قيل هذا التأويل غير جائز لان كل واحد منهما كان جازما فيما يأتي به فعلا كان أو تركا وفعل المندوب وتركه لا يجزم به قلنا تقييد المطلق بالدليل غير ممتنع فنحن نحمل ذلك الجزم في الفعل والترك على أن المراد افعل ذلك أو اتركه ان كنت تريد الاصلح وقد يترك ذلك الشرط اذا كان تواطؤهما على رعايته معلوما متقررا (وثانيها) ان موسى عليه السلام أقبل وهو غضبان على قومه فأخذ برأس أخيه وجره اليه كما يفعل الانسان بنفسه مثل ذلك عند الغضب فان

أهل السنة وقد مر تفصيله في سورة آل عمران عند قوله تعالى وان الله ليس بظلام للعبيد وقوله تعالى (وأهلها مصلحون) حال من المفعول والعامل عامله ولكن لا باعتبار تقييده بما وقع حالا من فاعله أعني بظلم لدلالته على تقييد نفي الاهلاك ظلما بحال كون أهلها مصلحين ولا ريب في فساده بل مطلقا عن ذلك وقيل المراد بالظلم الشرك والباء للسببية أي لا يهلك القرى بسبب اشراك أهلها وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمون الى شركهم فسادا آخر وذلك لفرط رحمته ومسامحته في حقوقه تعالى ومن ذلك قدم الفقهاء عند تزاحم الحقوق حقوق العباد الفقراء على حقوق الله تعالى الغني الحميد وقيل الملك يبقى مع الشرك ولا يبقى مع الظلم وأنت تدري أن مقام النهي عن المنكرات التي أقبحها الاشراك بالله لا يلائمه فان الشرك داخل في الفساد في الارض دخولا أوليا ولذلك كان ينهى كل من الرسل الذين قصت أنباؤهم أمته أولا عن الاشراك ثم عن سائر المعاصي التي كانوا يتعاطونها فالوجه حمل الظلم على مطلق الفساد الشامل للشرك وغيره من أصناف المعاصي وحمل الاصلاح على اصلاحه والاقلاع عنه بكون بعضهم متصدين للنهي عنه وبعضهم متوجهين الى الاتعاظ غير مصرين على ما هم عليه من الشرك وغيره من أنواع الفساد (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) مجتمعة على الحق ودين الاسلام بحيث لا يكاد يختلف فيه أحد ولكن لم يشأ ذلك فلم يكونوا متفقين على الحق (ولا يزالون مختلفين) في الحق أي مخالفين له كقوله تعالى وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم (الا من رحم ربك) الا قوما قد هداهم الله تعالى بفضله الى الحق فاتفقوا عليه ولم يختلفوا فيه أي لم يخالفوه وحمله على

مطلق الاختلاف الشامل لما يصدر من المحق والمبطل إياه الاستثناء المذكور (ولذلك) أى ولما ذكر من الاختلاف (خلقهم) أى الذين يقوا بعد الثنيا وهم المختلفون فاللام للعاقبة أو للترحم فالضمير لمن واللام فى معناها أو لهما معا فالضمير للناس كافة واللام بمعنى مجازى عام لكلا المعنيين (وتمت كلمة ربك)

أى وعيده أو قوله للملائكة (لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) أى من عصاتهما أجمعين أو منهما أجمعين لا من أحدهما (وكلا) أى وكل نبأ فالتنوين عوض عن المضاف اليه (نقص عليك) نخبرك به وقوله تعالى (من أنباء الرسل) بيان لكلا وقوله تعالى (ما نثبت به فؤادك) بدل منه والاظهر أن يكون المضاف اليه المحذوف فى كلا المفعول المطلق لنقص أى كل اقتصاص أى كل أسلوب من أساليبه نقص عليك من أنباء الرسل وقوله تعالى ما نثبت به فؤادك مفعول نقص وفائدته التنبيه على أن المقصود بالاقتصاص زيادة يقينه عليه السلام وطمأنينة قلبه وثبات نفسه على أداء الرسالة واحتمال أذية الكفار بالوقوف على تفاصيل أحوال الامم السالفة فى تماديهم فى الضلال وما لقى الرسل من جهتهم من مكابدة المشاق (وجاءك فى هذه) السورة أو الانباء المقصوصة عليك (الحق) الذى لا محيد عنه (وموعظة وذكرى للمؤمنين) أى الجامع بين كونه حقا فى نفسه وكونه موعظة وذكرى للمؤمنين ولكون الوصف الاول حالا له لقولك فى نفسه حلى باللام دون ما هو وصف له بالقياس الى غيره وتقديم الظرف أعنى فى هذه على الفاعل لان المقصود بيان منافع السورة أو الانباء المقصوصة فيها واشتمالها على ما ذكر من المنافع المفصلة لا بيان كون ذلك فيها لا فى غيرها ولان عند تأخير ما حقه التقديم

الغضبان المتفكر قد يعض على شفتيه ويفتل أصابعه ويقبض على لحيته فأجرى موسى عليه السلام أخاه هرون مجرى نفسه لانه كان أخاه وشريكه فصنع به ما يصنع الرجل بنفسه فى حال الفكر والغضب فأما قوله لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى فلا يمتنع أن يكون هرون عليه السلام خاف من أن يتوهم بنو اسرائيل من سوء ظنهم أنه منكر عليه غير معاون له ثم أخذ فى شرح القصة فقال انى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل (وثالثها) ان بنى اسرائيل كانوا على نهاية سوء الظن بموسى عليه السلام حتى ان هرون غاب عنهم غيبة فقالوا لموسى عليه السلام أنت قتلته فلما وعد الله تعالى موسى عليه السلام ثلاثين ليلة وأتمها بعشر وكتب له فى الالواح من كل شئ ثم رجع فرأى فى قومه ما رأى فأخذ برأس أخيه ليدنيه فيتفحص عن كيفية الواقعة فخاف هرون عليه السلام أن يسبق الى قلوبهم ما لا أصل له فقال اشفاقا على موسى لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى لئلا يظن القوم ما لا يليق بك (ورابعها) قال صاحب الكشاف كان موسى عليه السلام رجلا حديدا مجبولا على الحدة والخشونة والتصلب فى كل شئ شديد الغضب لله تعالى ولدينه فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون عجلا من دون الله تعالى من بعد ما رأوا من الآيات العظام ان ألقى ألواح التوراة لما غلب على ذهنه من الدهشة العظيمة غضبا لله تعالى وحمية وعنف بأخيه وخليفته على قومه فأقبل عليه اقبال العدو المكاشر واعلم أن هذا الجواب ساقط لانه يقال هب انه كان شديد الغضب لكن ذلك الغضب الشديد هل كان يبقى معه عاقلا مكلفا أم لا فان بقى عاقلا مكلفا فالاسئلة باقية بتمامها أكثر ما فى الباب انك ذكرت انه أتى بغضب شديد وذلك من جملة المعاصى فقد زدت اشكالا آخر فان قلتم بأنه فى ذلك الغضب لم يبق عاقلا ولا مكلفا فهذا مما لا يرتضيه مسلم البتة فهذه أجوبة من لم يجوز الصغائر وأما من جوزها فلا شك فى سقوط السؤال والله أعلم أما قوله ما منعك اذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعنى ففيه وجهان (الاول) أن لا صلة والمراد ما منعك أن تتبعنى (والثانى) أن يكون المراد ما دعاك الى أن لا تتبعنى فأقام منعك مقام دعاك وفى الاتباع قولان (أحدهما) ما منعك من اتباعى بمن أطاعك واللحوق بى وترك المقام بين أظهرهم وهذا قول ابن عباس فى رواية عطاء (والثانى) ان تتبعنى فى وصيتى اذ قلت لك اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين فلم تركت قتالهم وتأديبهم وهذا قول مقاتل ثم قال أفعصيت أمرى ومعناه ظاهر وهذا يدل على ان تارك المأمور به عاص والعاصى مستحق للعقاب لقوله ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها ولقوله ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها فمجموع الآيتين يدل على ان الامر للوجوب فأجاب هرون عليه السلام وقال يا ابن أم قيل انما خاطبه بذلك ليدفعه عنه فيتركه وقيل كان أخاه لامه لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى واعلم انه ليس فى القرآن دلالة على انه فعل ذلك فان النهى عن الشئ لا يدل على كون المنهى فاعلا للمنهى عنه كقوله ولا تطع الكافرين والمنافقين وقوله لئن أشركت ليحبطن عملك والذى فيه انه أخذ برأس أخيه يجره اليه وهذا القدر لا يدل على الاستخفاف به بل قد يفعل ذلك لسائر الاغراض على ما بيناه ومن الناس من يقول انه أخذ ذؤابته بيمينه ولحيته بيساره ثم قال انى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى ولقائل أن يقول ان قول موسى عليه السلام ما منعك أن لا تتبعنى أفعصيت أمرى يدل على انه أمره بشئ فكيف يحسن فى جوابه ان يقال انما لم أمتثل قولك خوفا من أن تقول ولم ترقب قولى فهل يجوز مثل هذا الكلام على العاقل (والجواب) لعل موسى عليه السلام انما أمره بالذهاب اليه بشرط أن لا يؤدى ذلك الى فساد القوم فلما قال موسى ما منعك أن لا تتبعنى قال لانك انما أمرتنى باتباعك اذا لم يحصل الفساد فلو جئتك مع حصول الفساد ما كنت مراقبا

تبقى النفس مترقبة اليه فيتمكن فيها عند الورود فضل تمكن ولان في المؤخر نوع طول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم (وقل للذين لا يؤمنون) بهذا الحق ولا يتعظون به ولا يتذكرون (اعملوا على مكانتكم) على حالكم وجهتكم التي هي عدم الايمان (انا عاملون) على حالنا وهو الايمان به والاتعاظ والتذكر به (وانتظروا) بنا الدوائر ٧٩ (انا منتظرون) أن ينزل بكم نحو ما نزل بامثالكم من الكفرة (ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله) فيرجع لا محالة أمرك وأمرهم اليه وقرئ على البناء للفاعل من رجع رجوعا (فاعبده وتوكل عليه) فانه كافيك والفاء لترتيب الامر بالعبادة والتوكل على كون مرجع الامور كلها الى الله تعالى وفي تأخير الامر بالتوكل عن الامر بالعبادة اشعار بانه لا ينفع دونها (وما ربك بغافل عما يعملون) فيجازيهم بموجبه وقرئ تعملون على تغليب المخاطب أي أنت وهم فيجازي كلا منك ومنهم بموجب الاستحقاق ‌* عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة هود أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق كل واحد من الانبياء المعدودين فيها عليهم الصلاة والسلام و بعدد من كذبهم وكان يوم القيامة من السعداء بفضل الله سبحانه وتعالى

﴿سورة يوسف عليه السلام وهي مائة واحدى عشرة آية﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ (الر) الكلام فيه وفي محله وفيما أريد بالاشارة والآيات والكتاب في قوله تعالى (تلك آيات الكتاب) عين ما سلف في مطلع سورة يونس (المبين) من أبان بمعنى بان أي الظاهر أمره في كونه من عند الله تعالى وفي اعجازه بنوعيه لا سيما الاخبار عن الغيب أو الواضح معانيه للعرب بحيث لا يشتبه عليهم حقائقه

لقولك ‌* قال الامام أبو القاسم الانصاري الهداية أنفع من الدلالة فان السحرة كانوا أجانب عن الايمان وما رأوا الا آية واحدة فآمنوا وتحملوا العذاب الشديد في الدنيا ولم يرجعوا عن الايمان وأما قوم موسى فانهم رأوا انقلاب العصا ثعبانا والتقم كل ما جمعه السحرة ثم عاد عصا ورأوا اعتراف السحرة بأن ذلك ليس بسحر وانه أمر الهي ورأوا الآيات التسع مدة مديدة ثم رأوا انفراق البحر اثنى عشر طريقا وان الله تعالى أنجاهم من الغرق وأهلك أعداءهم مع كثرة عددهم ثم ان هؤلاء مع ما شاهدوا من هذه الآيات لما خرجوا من البحر ورأوا قوما يعبدون البقر قالوا اجعل لنا الها كما لهم آلهة ولما سمعوا صوتا من عجل عكفوا على عبادته وذلك يدل على انه لا يحصل الغرض بالدلائل بل بالهداية قرأ حمزة والكسائي يا ابن أم بكسر الميم والاضافة ودلت كسرة الميم على الياء والباقون بالفتح وتقديره يا ابن أماه والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿قال فما خطبك يا سامري قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي قال فاذهب فان لك في الحياة أن تقول لا مساس وان لك موعدا لن تخلفه وانظر الى الهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا انما الهكم الله الذي لا اله الا هو وسع كل شيء علما﴾ اعلم أن موسى عليه السلام لما فرغ من مخاطبة هرون عليه السلام وعرف العذر له في التأخير أقبل على السامري ويجوز أن يكون قد كان حاضرا مع هرون عليه السلام فلما قطع موسى الكلام مع هرون أخذ في التكلم مع السامري ويجوز أن يكون بعيدا ثم حضر السامري من بعد أو ذهب اليه موسى ليخاطبه فقال موسى عليه السلام ما خطبك يا سامري والخطب مصدر خطب الامر اذا طلبه فاذا قيل لمن يفعل شيأ ما خطبك فمعناه ما طلبك له والغرض منه الانكار عليه وتعظيم صنعه ثم ذكر السامري عذره في ذلك فقال بصرت بما لم يبصروا به وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرئ بصرت بما لم يبصروا به بالكسر وقرأ حمزة والكسائي بما لم تبصروا بالتاء المعجمة من فوق والباقون بالياء أي بما لم يبصر به بنو اسرائيل (المسئلة الثانية) في الابصار قولان قال أبو عبيدة علمت بما لم يعلموا به ومنه قولهم رجل بصير أي عالم وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما وقال الزجاج في تقريره أبصرته بمعنى رأيته وبصرت به بمعنى صرت به بصيرا عالما وقال آخرون رأيت ما لم يروه فقوله بصرت به بمعنى أبصرته وأراد انه رأى دابة جبريل عليه السلام فأخذ من موضع حافر دابته قبضة من تراب ثم قال فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ الحسن قبضة بضم القاف وهي اسم للمقبوض كالغرفة والمضغة وأما القبضة فالمرة من القبض واطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر كضرب الامير وقرئ أيضا فقبصت قبصة بالصاد والصاد بالصاد بجميع الكف والصاد باطراف الاصابع ونظيرهما الخضم والقضم الخاء بجميع الفم والقاف بمقدمه وقرأ ابن مسعود من أثر فرس الرسول (المسئلة الثانية) عامة المفسرين قالوا المراد بالرسول جبريل عليه السلام وأراد باثره التراب الذي أخذه من موضع حافر دابته ثم اختلفوا انه متى رآه فقال الاكثرون انما رآه يوم فلق البحر وعن علي عليه السلام ان جبريل عليه السلام لما نزل ليذهب بموسى عليه السلام الى الطور أبصره السامري من بين الناس واختلفوا في ان السامري كيف اختص برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته من بين سائر الناس فقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية الكلبي انما عرفه لانه رآه في صغره وحفظه من القتل حين أمر فرعون بذبح أولاد بني اسرائيل فكانت المرأة تلد وتطرح ولدها حيث لا يشعر به آل فرعون فتأخذ الملائكة الولدان فيربونهم حتى يترعرعوا ويختلطوا بالناس فكان السامري ممن أخذه جبريل عليه السلام وجعل كف نفسه في فيه وارتضع منه العسل واللبن فلم يزل يختلف اليه حتى عرفه فلما

ولا يلتبس لديهم دقائقه لنزوله على لغتهم أو بمعنى بين أى المبين لما فيه من الاحكام والشرائع وخفايا الملك والملكوت وأسرار النشأتين فى الدارين وغير ذلك من الحكم والمعارف والقصص وعلى تقدير كون الكتاب عبارة عن السورة فابانتها انباؤه عن قصة يوسف عليه السلام فانه قد روى أن أحبار اليهود قالوا لرؤساء المشركين سلوا محمدا صلى الله عليه وسلم لما ذا انتقل آل يعقوب من الشام

رآه عرفه قال ابن جريج فعلى هذا قوله بصرت بما لم يبصروا به يعنى رأيت ما لم يروه ومن فسر الكلمة بالعلم فهو صحيح ويكون المعنى علمت ان تراب فرس جبريل عليه السلام له خاصية الاحياء قال أبو مسلم الاصفهانى ليس فى القرآن تصريح بهذا الذى ذكره المفسرون فههنا وجه آخر وهو أن يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام وبأثره سنته ورسمه الذى أمر به فقد يقول الرجل فلان يقفو أثر فلان ويقبض أثره اذا كان يمتثل رسمه والتقدير ان موسى عليه السلام لما أقبل على السامرى باللوم والمسألة عن الامر الذى دعاه الى اضلال القوم فى باب العجل فقال بصرت بما لم يبصروا به أى عرفت أن الذى أنتم عليه ليس بحق وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول أى شيئا من سنتك ودينك فقذفته أى طرحته فعند ذلك أعلمه موسى عليه السلام بما له من العذاب فى الدنيا والآخرة وانما أورد بلفظ الاخبار عن غائب كما يقول الرجل لرئيسه وهو مواجه له ما يقول الامير فى كذا وبماذا يأمر الامير وأما دعاؤه موسى عليه السلام رسولا مع جحده وكفره فعلى مثل مذهب من حكى الله تعالى عنه قوله يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون وان لم يؤمنوا بالانزال واعلم ان هذا القول الذى ذكره أبو مسلم ليس فيه الا مخالفة المفسرين ولكنه أقرب الى التحقيق لوجوه (أحدها) ان جبريل عليه السلام ليس بمشهور باسم الرسول ولم يجر له فيما تقدم ذكر حتى تجعل لام التعريف اشارة اليه فاطلاق لفظ الرسول لارادة جبريل عليه السلام كانه تكليف بعلم الغيب (وثانيها) أنه لا بد فيه من الاضمار وهو قبضة من أثر حافر فرس الرسول والاضمار خلاف الاصل (وثالثها) انه لا بد من التعسف فى بيان أن السامرى كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته ثم كيف عرف ان التراب حافر فرسه هذا الاثر والذى ذكروه من ان جبريل عليه السلام هو الذى رباه فبعيد لان السامرى ان عرف جبريل حال كمال عقله عرف قطعا ان موسى عليه السلام نبى صادق فكيف يحاول الاضلال وان كان ما عرفه حال البلوغ فاى منفعة لكون جبريل عليه السلام مربيا له حال الطفولية فى حصول تلك المعرفة (ورابعها) أنه لو جاز اطلاع بعض الكفرة على تراب هذا شأنه لكان لقائل أن يقول فلعل موسى عليه السلام اطلع على شئ آخر يشبه ذلك فلاجله أتى بالمعجزات ويرجع حاصله الى سؤال من يطعن فى المعجزات ويقول لم لا يجوز أن يقال انهم لاختصاصهم بمعرفة بعض الادوية التى لها خاصية أن تفيد حصول تلك المعجزة أتوا بتلك المعجزة وحينئذ ينسد باب المعجزات بالكلية أما قوله وكذلك سولت لى نفسى فالمعنى فعلت ما دعتنى اليه نفسى وسولت مأخوذ من السؤال فالمعنى لم يدعنى الى ما فعلته أحد غيرى بل اتبعت هواى فيه ثم ان موسى عليه السلام لما سمع ذلك من السامرى أجابه بان بين حاله فى الدنيا والآخرة وبين حال الهه أما حاله فى الدنيا فقوله فاذهب فان لك فى الحياة أن تقول لا مساس وفيه وجوه (أحدها) ان المراد انى لا أمس ولا أمس فانوا اذا مسه أحد حم الماس والممسوس فكان اذا أراد أحد أن يمسه صاح خوفا من الحمى وقال لا مساس (وثانيها) ان المراد بقوله لا مساس المنع من أن يخالط أحدا أو يخالطه أحد وقال مقاتل ان موسى عليه السلام أخرجه من محلة بنى اسرائيل وقال له اخرج أنت وأهلك نخرج طريدا الى البرارى * اعترض الواحدى عليه فقال الرجل اذا صار مهجورا فلا يقول هو لا مساس وانما يقال له ذلك وهذا الاعتراض ضعيف لان الرجل اذا بقى طريدا فريدا فاذا قيل له كيف حالك فله أن يقول لا مساس أى لا يماسنى أحد ولا أماس أحدا والمعنى انى أجعلك يا سامرى فى المطرودية بحيث لو أردت أن تخبر غيرك عن حالك لم تقل الا انه لا مساس وهذا الوجه أحسن وأقرب الى نظم الكلام من الاول (وثالثها) ما ذكره أبو مسلم وهو أنه يجوز فى حمله ما أريد مس النساء فيكون من تعذيب الله اياه انقطاع

الى مصر وعن قصة يوسف عليه السلام ففعلوا ذلك فيكون وصف الكتاب بالابانة من قبيل براعة الاستهلال لما سيأتى ولما وصف الكتاب بما يدل على الشرف الذاتى عقب ذلك بما يدل على الشرف الاضافى فقيل (انا أنزلناه) أى الكتاب المنعوت بما ذكر من النعوت الجليلة فان كان عبارة عن الكل وهو الاظهر الانسب بقوله تعالى (قرآنا عربيا) اذ هو المشهور بهذا الاسم المعروف بهذا النعت المتسارع الى الفهم عند اطلاقهما فالامر ظاهر وان جعل عبارة عن السورة فتسميتها قرآنا لما عرفته فيما سلف والسر فى ذلك انه اسم جنس فى الاصل يقع على الكل والبعض كالكتاب أو لانه مصدر بمعنى المفعول أى أنزلناه حال كونه مقروا بلغتكم (لعلكم تعقلون) أى لكى تفهموا معانيه طرا وتحيطوا بما فيه من البدائع خبرا وتطلعوا على أنه خارج عن طوق البشر منزل

نسله

من عند خلاق القوى والقدر (نحن نقص عليك) أى نخبرك ونحدثك واشتقاقه من قص أثره اذا اتبعه لان من يقص الحديث يتبع ما حفظ منه شيئا فشيئا كما يقال تلا القرآن لانه يتبع ما حفظ منه آية بعد آية (أحسن القصص) أى أحسن الاقتصاص

نسل له فلا يكون له ولد يؤنسه فيخليه الله تعالى من زينتي الدنيا اللتين ذكرهما بقوله المال والبنون زينة الحياة الدنيا وقرئ لا مساس بوزن فجار وهو اسم علم للمرة الواحدة من المس وأما شرح حاله في الآخرة فهو قوله وان لك موعدا لن تخلفه والموعد بمعنى الوعد أي هذه عقوبتك في الدنيا ثم لك الوعد بالمصير الى عذاب الآخرة فأنت ممن خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين قرأ أهل المدينة والكوفة لن تخلفه بفتح اللام أي لن تخلف ذلك الوعد أي سيأتيك به الله ولن يتأخر عنك وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والحسن بكسر اللام أي تجيء اليه ولن تغيب عنه ولن تتخلف عنه وفتح اللام اختيار أبي عبيد كأنه قال موعدا حقا لا خلف فيه وعن ابن مسعود لن نخلفه بالنون فكأنه عليه السلام حكى قول الله تعالى بلفظه كما مر بيانه في قوله لأهب لك وأما شرح حال الهه فهو قوله وانظر الى الهك الذي ظلت عليه عاكفا قال المفضل في ظلت انه يقرأ بفتح الظاء وكسرها وكذلك فظلتم تفكهون وأصله ظللت فحذفت اللام الاولى وذلك انما يكون اذا كانت اللام الثانية ساكنة تستثقل العرب طرح الاولى ومن كسر الظاء نقل كسرة اللام الساقطة اليها ومن فتحها ترك الظاء على حالها وكذلك يفعلون في المضاعف يقولون مسته ومسسته ثم قال لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا وفي قوله لنحرقنه وجهان (أحدهما) المراد احراقه بالنار وهذا أحد ما يدل على أنه صار لحما ودما لان الذهب لا يمكن احراقه بالنار وقال السدي أمر موسى عليه السلام بذبح العجل فذبح فسال منه الدم ثم أحرق ثم نسف رماده وفي حرف ابن مسعود لنذبحنه ولنحرقنه (وثانيهما) لنحرقنه أي لنبردنه بالمبرد يقال حرقه يحرقه اذا برده وهذه القراءة تدل على انه لم ينقلب لحما ولا دما فان ذلك لا يصح أن يبرد بالمبرد ويمكن أن يقال انه صار لحما فذبح ثم بردت عظامه بالمبرد حتى صارت بحيث يمكن نسفها قراءة العامة بضم النون وتشديد الراء ومعناه لنحرقنه بالنار وقرأ أبو جعفر وابن محيصن لنحرقنه بفتح النون وضم الراء خفيفة يعني لنبردنه واعلم أن موسى عليه السلام لما فرغ من ابطال ما ذهب اليه السامري عاد الى بيان الدين الحق فقال انما الهكم أي المستحق للعبادة والتعظيم الله الذي لا اله الا هو وسع كل شيء علما قال مقاتل يعلم من يعبده ومن لا يعبده ﴿قوله تعالى ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا من أعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزرا خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا يتخافتون بينهم ان لبثتم الا عشرا نحن أعلم بما يقولون اذ يقول أمثلهم طريقة ان لبثتم الا يوما﴾ اعلم أنه سبحانه وتعالى لما شرح قصة موسى عليه السلام مع فرعون أولا ثم مع السامري ثانيا أتبعه بقوله كذلك نقص عليك من سائر أخبار الامم وأحوالهم تكثيرا لشأنك وزيادة في معجزاتك وليكثر الاعتبار والاستبصار للمكلفين بها في الدين وقد آتيناك من لدنا ذكرا يعني القرآن كما قال تعالى وهذا ذكر مبارك أنزلناه وانه لذكر لك والقرآن ذي الذكر ما يأتيهم من ذكر يا أيها الذي نزل عليه الذكر ثم في تسمية القرآن بالذكر وجوه (أحدها) أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج اليه الناس من أمر دينهم ودنياهم (وثانيها) أنه يذكر أنواع آلاء الله تعالى ونعمائه ففيه التذكير والمواعظ (وثالثها) فيه الذكر والشرف لك ولقومك على ما قال وانه لذكر لك ولقومك واعلم أن الله تعالى سمى كل كتبه ذكرا فقال فاسألوا أهل الذكر وكما بين نعمته بذلك بين شدة الوعيد لمن أعرض عنه ولم يؤمن به من وجوه (أولها) قوله من أعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزرا والوزر هو العقوبة الثقيلة سماها وزرا تشبيها في ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها الذي يثقل على الحامل وينقض ظهره أو لانها جزاء الوزر وهو الاثم وقرئ يحمل ثم بين تعالى صفة ذلك الوزر من وجهين (أحدهما) انه يكون خالدا مؤبدا (والثاني) قوله وساء لهم يوم القيامة حملا أي وما

قصصه على المصدرية وفيه مع بيان الواقع ايهام لما في اقتصاص أهل الكتاب من القبح والخلل وترك المفعول اما للاعتماد على انفهامه من قوله عز وجل (بما أوحينا) أي بايحائنا (اليك هذا القرآن) أي هذه السورة فان كونها موحاة منبئ عن كون ما في ضمنها مقصوصا والتعرض لعنوان قرآنيتها لتحقيق أن الاقتصاص ليس بطريق الالهام أو الوحي غير المتلو واما لظهوره من سؤال المشركين بتلقين علماء اليهود وأحسنيته لانه قد اقتص على أبدع الطرائق الرائعة الرائقة وأعجب الاساليب الفائقة اللائقة كما لا يكاد يخفى على من طالع القصة من كتب الاولين والآخرين وان كان لا يميز الغث من السمين ولا يفرق بين الشمال واليمين وفي كلمة هذا ايماء الى مغايرة هذا القرآن لما في قوله تعالى قرآنا عربيا بأن يكون المراد بذلك المجموع فتأمل أو نقص عليك أحسن ما نقص من الانباء وهو قصة آل يعقوب عليه السلام على أن القصص فعل بمعنى المفعول كالنبأ والخبر أو مصدر سمي به المفعول كالخلق والصيد ونصب أحسن على المفعولية وأحسنيتها لتضمنها من الحكم والعبر ما لا يخفى كمال حسنه (وان كنت) ان مخففة من الثقيلة وضمير الشأن الواقع اسما لها محذوف واللام فارقة والجملة خبر والمعنى وان الشأن كنت (من قبله) من قبل ايحائنا اليك هذه السورة (لمن الغافلين) عن هذه القصة لم تخطر ببالك ولم تقرع سمعك قط وهو تعليل لكونه موحى والتعبير عن عدم العلم بالغفلة لاجلال شأن النبي عليه السلام وان غفل عنه بعض الغافلين (اذ قال يوسف) نصب باضمار اذكر وشروع في القصة انجازا للوعد بأحسن الاقتصاص أو بدل من أحسن القصص على تقدير كونه مفعولا بدل اشتمال فان اقتصاص الوقت المشتمل على المقصوص من

اسوأ هذا الوزر حملا أى محمولا وحملا منصوب على التمييز (وثانيها) يوم ينفخ فى الصور فالمراد بيان ان يوم القيامة هو يوم ينفخ فى الصور وفيه مسائل {المسئلة الاولى} قرأ أبو عمرو ننفخ بفتح النون كقوله ونحشر وقرأ الباقون ينفخ على مالم يسم فاعله ونحشر بالنون لان النافخ ملك التقم الصور والحاشر هو الله تعالى وقرئ يوم ينفخ بالياء المفتوحة على الغيبة والضمير لله تعالى أو لاسرافيل عليه السلام واما يحشر المجرمين فلم يقرأ به الا الحسن وقرئ فى الصور بفتح الواو جمع صورة {المسئلة الثانية} فى الصور قولان (أحدهما) انه قرن ينفخ فيه يدعى به الناس الى المحشر (والثانى) انه جمع صورة والنفخ نفخ الروح فيه ويدل عليه قراءة من قرأ الصور بفتح الواو والاول أولى لقوله تعالى فاذا نقر فى الناقور والله تعالى يعرف الناس أمور الآخرة بأمثال ما شوهد فى الدنيا ومن عادة الناس النفخ فى البوق عند الاسفار وفى العساكر {المسئلة الثالثة} المراد من هذا النفخ هو النفخة الثانية لان قوله بعد ذلك ونحشر المجرمين يومئذ زرقا كالدلالة على ان النفخ فى الصور كالسبب لحشرهم فهو نظير قوله يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا أما قوله ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ففيه مسائل {المسئلة الاولى} قالت المعتزلة قوله المجرمين تتناول الكفار والعصاة فيدل على عدم العفو عن العصاة وقال ابن عباس رضى الله عنهما يريد بالمجرمين الذين اتخذوا مع الله الها آخر وقد تقدم هذا الكلام {المسئلة الثانية} اختلفوا فى المراد بالزرقة على وجوه (أحدها) قال الضحاك ومقاتل يعنى زرق العيون سود الوجوه وهى زرقة تتشوه بها خلقتهم والعرب تتشاءم بذلك فان قيل أليس ان الله تعالى أخبر انهم يحشرون عميا فكيف يكون أعمى وأزرق قلنا لعله يكون أعمى فى حال وأزرق فى حال (وثانيها) المراد من الزرقة العمى قال الكلبى زرقا أى عميا قال الزجاج يخرجون بصراء فى أول مرة ويعمون فى المحشر وسواد العين اذا ذهب تزرق فان قيل كيف يكون أعمى وقد قال تعالى انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار وشخوص البصر من الاعمى محال وقد قال فى حقهم اقرأ كتابك والاعمى كيف يقرأ فالجواب أن أحوالهم قد تختلف (وثالثها) قال أبو مسلم المراد بهذه الزرقة شخوص أبصارهم والازرق شاخص لانه لضعف بصره يكون محدقا نحو الشئ يريد ان يتبينه وهذه حال الخائف المتوقع لما يكره وهو كقوله انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار (ورابعها) زرقا عطاشا هكذا رواه ثعلب عن ابن الاعرابى قال لانهم من شدة العطش يتغير سواد عيونهم حتى تزرق ويدل على هذا التفسير قوله تعالى ونسوق المجرمين الى جهنم وردا (وخامسها) حكى ثعلب عن ابن الاعرابى قال طامعين فيما لا ينالونه {الصفة الثالثة} من صفات الكفار يوم القيامة قوله تعالى يتخافتون بينهم ان لبثتم الا عشرا وفيه مسائل {المسئلة الاولى} يتخافتون أى يتسارون يقال خفت يخفت وتخافت مخافتة والتخافت السرار وهو نظير قوله تعالى فلا تسمع الا همسا وانما يتخافتون لانه امتلأت صدورهم من الرعب والهول أو لانهم صاروا بسبب الخوف فى نهاية الضعف فلا يطيقون الجهر {المسئلة الثانية} اختلفوا فى ان المراد بقوله ان لبثتم اللبث فى الدنيا أو فى القبر فقال قوم أرادوا به اللبث فى الدنيا وهذا قول الحسن وقتادة والضحاك واحتجوا عليه بقوله تعالى قال كم لبثتم فى الارض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين فان قيل اما أن يقال انهم نسوا قدر لبثهم فى الدنيا أو ما نسوا ذلك والاول غير جائز اذ لو جاز ذلك لجاز أن يبقى الانسان خمسين سنة فى بلد ثم ينساه والثانى غير جائز لانه كذب وأهل الآخرة لا يكذبون لا سيما وهذا الكذب لا فائدة فيه قلنا وجوه (أحدها) لعلهم اذا حشروا فى أول الامر وعاينوا تلك الاهوال فلشدة وقعها عليهم ذهلوا عن مقدار عمرهم فى الدنيا وما ذكروا الا القليل فقالوا ليتنا ما عشنا الا تلك الايام القليلة فى الدنيا حتى لا نقع فى هذه

الاهوال

حيث اشتماله عليها اقتصادى للقصوص و يوسف اسم عبرى لا عربى لخلوه عن سبب آخر غير التعريف وفتح السين وكسرها على بعض القرآآت بناء على التلعب به لا على أنه مضارع بنى للمفعول أو الفاعل من آسف لشهادة المشهورة بعجمته (لابيه) يعقوب ابن اسحق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام وقد روى عنه عليه السلام ان الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب ابن اسحق بن ابراهيم (ياأبت) أصله ياأبى فعوض عن الياء تاء التأنيث لتناسبهما فى الزيادة فلذلك قلبت هاء فى الوقف على قراءة ابن كثير وأبى عمرو ويعقوب وكسرتها لانها عوض عن حرف يناسبها وفتحها ابن عامر فى كل القرآن لانها حركة أصلها أو لان الاصل ياأبتا فحذف الالف وبقى الفتحة وانما لم يجز ياأبتى لانه جمع بين العوض والمعوض وقرئ بالضم اجراء لها مجرى الالفاظ المؤنثة بالتاء من غير اعتبار التعويض وعدم تسكينها كأصلها لانها حرف صحيح منزل منزلة الاسم فيجب تحريكها ككاف الخطاب (انى رأيت) من الرؤيا لا من الرؤية لقوله لا تقصص رؤياك هذا تأويل رؤياى ولان الظاهر أن وقوع مثل هذه الامور البديعة فى عالم الشهادة لا يختص برؤية راء دون راء فيكون طامة كبرى لا يخفى على أحد من الناس (أحد عشر كوكبا والشمس والقمر) روى عن جابر رضى الله عنه أن يهوديا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أخبرنى يا محمد عن النجوم التى رآهن يوسف عليه السلام فسكت النبى عليه السلام فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك فقال عليه السلام اذا أخبرتك بذلك هل تسلم فقال نعم قال عليه السلام جريان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين رآها يوسف عليه

الاهوال والانسان عند الهول الشديد قد يذهل عن أظهر الاشياء وتمام تقديره مذكور في سورة الانعام في قوله ثم لم تكن فتنتهم الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين (وثانيها) انهم عالمون بمقدار عمرهم في الدنيا الا أنهم لما قابلوا أعمارهم في الدنيا بأعمار الآخرة وجدوها في نهاية القلة فقال بعضهم ما لبثنا في الدنيا الا عشرة أيام وقال أعقلهم بل ما لبثنا الا يوما واحدا أي قدر لبثنا في الدنيا بالقياس الى قدر لبثنا في الآخرة كعشرة أيام بل كاليوم الواحد بل كالعدم وانما خص العشرة والواحد بالذكر لان القليل في أمثال هذه المواضع لا يعبر عنه الا بالعشرة والواحد (وثالثها) انهم لما عاينوا الشدائد تذكروا أيام النعمة والسرور وتأسفوا عليها فوصفوها بالقصر لان أيام السرور قصار (ورابعها) ان أيام الدنيا قد انقضت وأيام الآخرة مستقبلة والذاهب وان طالت مدته قليل بالقياس الى الآتي وان قصرت مدته فكيف والامر بالعكس ولهذه الوجوه رجح الله تعالى قول من بالغ في التقليل فقال اذ يقول أمثلهم طريقة ان لبثتم الا يوما (القول الثاني) ان المراد منه اللبث في القبر ويعضده قوله تعالى ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث فأما من جوز الكذب على أهل القيامة فلا اشكال له في الآية وأما من لم يجوز قال ان الله تعالى لما أحياهم في القبر وعذبهم ثم أماتهم ثم بعثهم يوم القيامة لم يعرفوا أن قدر لبثهم في القبر كم كان فخطر ببال بعضهم انه في تقدير عشرة أيام وقال آخرون انه يوم واحد فلما وقعوا في العذاب مرة أخرى تمنوا زمان الموت الذي هو زمان الخلاص لما نالهم من هول العذاب (المسئلة الثالثة) الاكثرون على ان قوله ان لبثتم الا عشرا أي عشرة أيام فيكون قول من قال ان لبثتم الا يوما أقل وقال مقاتل ان لبثتم الا عشرا أي عشر ساعات كقوله كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها وعلى هذا التقدير يكون اليوم أكثر والله أعلم واعلم أنه سبحانه وتعالى بين بهذا القول عظم ما نالهم من الحيرة التي دفعوا عندها الى هذا الجنس من التخافت ﴿قوله تعالى ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ورضي له قولا يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما﴾ اعلم انه تعالى لما وصف أمر يوم القيامة حكى سؤال من لم يؤمن بالحشر فقال ويسألونك عن الجبال وفي تقرير هذا السؤال وجوه (أحدها) ان قوله يتخافتون وصف من الله تعالى لكل المجرمين بذلك فكأنهم قالوا كيف يصح ذلك والجبال حائلة ومانعة من هذا التخافت (وثانيها) قال الضحاك نزلت في مشركي مكة قالوا يا محمد كيف تكون الجبال يوم القيامة وكان سؤالهم على سبيل الاستهزاء (وثالثها) لعل قومه قالوا يا محمد انك تدعي ان الدنيا ستنقضي فلو صح ما قلته لوجب أن تبتدئ أولا بالنقصان ثم تنتهي الى البطلان لكن أحوال العالم باقية كما كانت في أول الامر فكيف يصح ما قلته من خراب الدنيا وهذه شبهة تمسك بها جالينوس في ان السموات لا تفنى قال لانها لو فنيت لابتدأت في النقصان أولا حتى ينتهي نقصانها الى البطلان فلما لم يظهر فيها النقصان علمنا ان القول بالبطلان باطل ثم أمر الله تعالى رسوله بالجواب عن هذا السؤال وضم الى الجواب أمورا أخر في شرح أحوال القيامة وأهوالها (الصفة الاولى) قوله فقل ينسفها ربي نسفا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انما قال فقل مع فاء التعقيب لان مقصودهم من هذا السؤال الطعن في الحشر والنشر فلا جرم أمره بالجواب مقرونا بفاء التعقيب لان تأخير البيان في مثل هذه

السلام والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له فقال اليهودي اي والله انها لاسماؤها وقيل الشمس والقمر أبواه وقيل أبوه وخالته والكواكب اخوته وانما أخر الشمس والقمر عن الكواكب لاظهار مزيتهما وشرفهما على سائر الطوالع بعطفهما عليها كما في عطف جبريل وميكائيل على الملائكة عليهم السلام وقد جوز أن تكون الواو بمعنى مع ٨٣ أي رأيت الكواكب مع الشمس والقمر ولا يبعد أن يكون ذلك اشارة الى تأخر ملاقاته عليه السلام لهما عن ملاقاته لاخوته وعن وهب ان يوسف عليه السلام رأى وهو ابن سبع سنين أن احدى عشرة عصا طوالا كانت مركوزة في الارض كهيئة الدارة واذا عصا صغيرة تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها فوصف ذلك لابيه فقال اياك أن تذكر هذا لاخوتك ثم رأى وهو ابن ثنتي عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له فقصها على أبيه فقال لا تقصها عليهم فيبغوا لك الغوائل وقيل كان بين رؤيا يوسف ومصير اخوته اليه أربعون سنة وقيل ثمانون (رأيتهم لي ساجدين) استئناف لبيان حالهم التي رآهم عليها كأن سائلا سأل فقال كيف رأيتهم فأجاب بذلك وانما أجريت مجرى العقلاء في الضمير لوصفها بوصف العقلاء أعني السجود وتقديم الجار والمجرور لاظهار العناية والاهتمام بما هو الاهم مع ما في ضمنه من رعاية الفاصلة (قال يا بني) صغره للشفقة أو لصغر السن وهو ابن ثنتي عشرة سنة وأيضا الاستئناف مبني على سؤال من قال فماذا قال يعقوب بعد سماع هذه الرؤيا العجيبة ولما عرف يعقوب عليه السلام من هذه الرؤيا أن يوسف يبلغه الله تعالى مبلغا جليلا من الحكمة ويصطفيه للنبوة وينعم عليه بشرف الدارين كما فعل بآبائه الكرام خاف عليه حسد الاخوة وبغيهم فقال صيانة لهم من ذلك وله من معاناة المشاق ومقاساة

المسئلة الاصولية غير جائز أما فى المسائل الفروعية فجائز فلذلك ذكر ههنا قل من غير حرف التعقيب (المسئلة الثانية) الضمير فى قوله ينسفها عائد الى الجبال والنسف التذرية أى تصير الجبال كالهباء المنثور تذرى تذرية فاذا زالت الجبال زالت الحوائل فيعلم صدق قوله يتخافتون قال الخليل ينسفها أى يذهبها ويطيرها أما الضمير فى قوله فيذرها فهو عائد الى الارض فاستغنى عن تقديم ذكرها كما فى عادة الناس من الاخبار عنها بالاضمار كقولهم ما عليها أكرم من فلان وقال تعالى ما ترك على ظهرها من دابة وانما قال فيذرها قاعا صفصفا ليبين أن ذلك النسف لا يزيل الاستواء لئلا يقدر انها لما زالت من موضع الى موضع آخر صارت هناك حائلة هذا كله اذا كان المقصود من سؤالهم الاعتراض على كيفية المخافتة أما لو كان الغرض من السؤال ما ذكرنا من انه لا نقصان فيها فى الحال فوجب أن لا ينتهى أمرها الى البطلان كان تقرير الجواب أن بطلان الشئ قد يكون بطلانا يقع توليدا فحينئذ يجب تقديم النقصان على البطلان وقد يكون بطلانا يقع دفعة واحدة وههنا لا يجب تقديم النقصان على البطلان فبين الله تعالى انه يفرق تركيبات هذا العالم الجسمانى دفعة بقدرته ومشيئته فلا حاجة ههنا الى تقديم النقصان على البطلان (المسئلة الثالثة) انه تعالى وصف الارض ذلك الوقت بصفات (احداها) كونها قاعا وهو المكان المطمئن وقيل مستنقع الماء (وثانيها) الصفصف وهو الذى لا نبات عليه وقال أبو مسلم القاع الارض الملساء المستوية وكذلك الصفصف (وثالثها) قوله لا ترى فيها عوجا ولا أمتا وقال صاحب الكشاف قد فرقوا بين العوج والعوج فقالوا العوج بالكسر فى المعانى والعوج بالفتح فى الاعيان. فان قيل الارض عين فكيف صح فيها المكسور العين قلنا اختيار هذا اللفظ له موقع بديع فى وصف الارض بالاستواء ونفى الاعوجاج وذلك لانك لو عمدت الى قطعة أرض فسويتها وبالغت فى التسوية فاذا قابلتها بالمقاييس الهندسية وجدت فيها أنواعا من العوج خارجة عن الحس البصرى قال فذلك القدر من الاعوجاج لما لطف جدا الحق بالمعانى فقيل فيه عوج بالكسر واعلم أن هذه الآية تدل على أن الارض تكون ذلك اليوم كرة حقيقية لان المضلع لا بد وأن يتصل بعض سطوحه بالبعض لا على الاستقامة بل على الاعوجاج وذلك يبطله ظاهر الآية (ورابعها) الامت النتوء اليسير يقال مد حبله حتى ما فيه أمت. وتحصل من هذه الصفات الاربع أن الارض تكون ذلك اليوم ملساء خالية عن الارتفاع والانخفاض وأنواع الانحراف والاعوجاج (الصفة الثانية) ليوم القيامة قوله يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له وفى الداعى قولان (الاول) ان ذلك الداعى هو النفخ فى الصور وقوله لا عوج له أى لا يعدل عن أحد بدعائه بل يحشر الكل (الثانى) انه ملك قائم على صخرة بيت المقدس ينادى ويقول أيتها العظام النخرة والاوصال المتفرقة واللحوم المتمزقة قومى الى ربك للحساب والجزاء فيسمعون صوت الداعى فيتبعونه ويقال انه اسرافيل عليه السلام يضع قدمه على الصخرة فان قيل هذا الدعاء يكون قبل الاحياء أو بعده قلنا ان كان المقصود بالدعاء اعلامهم وجب أن يكون ذلك بعد الاحياء لان دعاء الميت عبث وان لم يكن المقصود اعلامهم بل المقصود مقصودا آخر مثل أن يكون لطفا للملائكة ومصلحة لهم فذلك جائز قبل الاحياء (الصفة الثالثة) قوله وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا وفيه وجوه (أحدها) خشعت الاصوات من شدة الفزع وخضعت وخفيت فلا تسمع الا همسا وهو الذكر الخفى قال أبو مسلم وقد علم الانس والجن بان لا مالك لهم سواه فلا يسمع لهم صوت يزيد على الهمس وهو أخفى الصوت ويكاد يكون كلاما يفهم بتحريك الشفتين لضعفه وحق لمن كان الله محاسبه أن يخشع طرفه ويضعف صوته ويختلط قوله ويطول غمه (وثانيها) قال ابن عباس رضى الله عنهما والحسن وعكرمة وابن زيد الهمس

الاحزان وان كان واثقا بأن الله تعالى سيحقق ذلك لا محالة وطامعا فى حصوله بلا مشقة (لا تقصص رؤياك) هى ما فى المنام كما أن الرؤية ما فى اليقظة فرق بينهما بحرفى التأنيث كما فى القربى والقربة وحقيقتها ارتسام الصورة المنحدرة من أفق المتخيلة الى الحس المشترك والصادقة منها انما تكون باتصال النفس بالملكوت لما بينهما من التناسب عند فراغها من تدبير البدن أدنى فراغ فتصور بما فيها مما يليق من المعانى الحاصلة هنالك ثم ان المتخيلة تحاكيه بصورة تناسبه فترسلها الى الحس المشترك فتصير مشاهدة ثم اذا كانت شديدة المناسبة لذلك المعنى بحيث لا يكون التفاوت الا بالكلية والجزئية استغنت الرؤيا عن التعبير والا احتاجت اليه (على اخوتك فيكيدوا) نصب باضمار أن أى فيفعلوا (لك) أى لاجلك ولاهلاكك (كيدا) متينا راسخا لا تقدر على التفصى عنه أو خفيا عن فهمك لا تتصدى لمدافعته وهذا أوفق بمقام التحذير وان كان يعقوب عليه السلام يعلم أنهم ليسوا بقادرين على تحويل ما دلت الرؤيا على وقوعه وهذا الاسلوب آكد من أن يقال فيكيدوك كيدا اذ ليس فيه دلالة على كون نفس الفعل مقصود الايقاع وقد قيل انما جئ باللام لتضمينه معنى الاحتيال المتعدى باللام ليفيد معنى المضمن والمضمن فيه للتأكيد أى فيحتالوا لك ولاهلاكك حيلة وكيدا والمراد باخوته ههنا الذين يخشى غوائلهم ومكايدهم بنو علاته الاحد عشر وهم يهوذا وروبيل وشمعون ولاوى وربالون ويشجر ودينة بنو يعقوب من ليا بنت خالته ودان ونفتالى وجاد وآشر بنوه من سريتين زلفة وبلهة وهؤلاء هم المشار اليهم بالكواكب الاحد عشر وأما بنيامين الذى هو شقيق يوسف عليه السلام وأمهما راحيل التى تزوجها يعقوب

وطء الاقدام فالمعنى انه لاتسمع الاخفق الاقدام ونقلها الى المحشر ﴿الصفة الرابعة﴾ قوله يومئذ لاتنفع الشفاعة الامن أذن له الرحمن ورضى له قولا قال صاحب الكشاف من يصلح أن يكون مرفوعا ومنصوبا فالرفع على البدل من الشفاعة بتقدير حذف المضاف اليه أى لاتنفع الشفاعة الاشفاعة من أذن له الرحمن والنصب على المفعولية *وأقول الاحتمال الثانى أولى لوجوه (الاول) ان الاول يحتاج فيه الى الاضمار وتغيير الاعراب والثانى لايحتاج فيه الى ذلك (والثانى) ان قوله تعالى لاتنفع الشفاعة يراد به من يشفع بها والاستثناء يرجع اليهم فكأنه قال لاتنفع الشفاعة أحدا من الخلق الا شخصا مرضيا (والثالث) وهو أن من المعلوم بالضرورة ان درجة الشافع درجة عظيمة فهى لاتحصل الا لمن أذن الله له فيها وكان عند الله مرضيا فلو حملنا الآية على ذلك صارت جارية مجرى ايضاح الواضحات أما لو حملنا الآية على المشفوع له لم يكن ذلك ايضاح الواضحات فكان ذلك أولى اذا ثبت هذا فنقول المعتزلة قالوا الفاسق غير مرضى عند الله تعالى فوجب أن لايشفع الرسول فى حقه لان هذه الآية دلت على ان المشفوع له لابد وأن يكون مرضيا عند الله تعالى واعلم ان هذه الآية من أقوى الدلائل على ثبوت الشفاعة فى حق الفساق لان قوله ورضى له قولا يكفى فى صدقه أن يكون الله تعالى قد رضى له قولا واحدا من أقواله والفاسق قد ارتضى الله تعالى قولا واحدا من أقواله وهو شهادة أن لا اله الا الله فوجب أن تكون الشفاعة نافعة له لان الاستثناء من النفى اثبات *فان قيل انه تعالى استثنى عن ذلك النفى بشرطين (أحدهما) حصول الاذن (والثانى) أن يكون قد رضى له قولا فهب ان الفاسق قد حصل فيه أحد الشرطين وهو انه تعالى قد رضى له قولا لكن لم قلتم انه اذن فيه وهذا أول المسألة *قلنا هذا القيد وهو انه رضى له قولا كاف فى حصول الاستثناء بدليل قوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى فاكتفى هنالك بهذا القيد ودلت هذه الآية على انه لابد من الاذن فظهر من مجموعهما انه اذا رضى له قولا يحصل الاذن فى الشفاعة واذا حصل القيدان حصل الاستثناء وتم المقصود (الصفة الخامسة) قوله يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما وفيه مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ الضمير فى قوله بين أيديهم عائد الى الذين يتبعون الداعى ومن قال ان قوله لمن أذن له الرحمن المراد به الشافع قال ذلك الضمير عائد اليه والمعنى لاتنفع شفاعة الملائكة والانبياء الا لمن أذن له الرحمن فى ان تشفع له الملائكة والانبياء ثم قال يعلم ما بين أيديهم يعنى ما بين أيدى الملائكة كما قال فى آية الكرسى وهذا قول الكلبى ومقاتل وفيه تقريع لمن يعبد الملائكة ليشفعوا له قال مقاتل يعلم ما كان قبل ان يخلق الملائكة وما كان منهم بعد خلقهم ﴿المسألة الثانية﴾ ذكروا فى قوله تعالى يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وجوها (أحدها) قال الكلبى ما بين أيديهم من أمر الآخرة وما خلفهم من أمر الدنيا (وثانيها) قال مجاهد ما بين أيديهم من أمر الدنيا والاعمال وما خلفهم من أمر الآخرة والثواب والعقاب (وثالثها) قال الضحاك يعلم ما مضى وما بقى ومتى تكون القيامة ﴿المسألة الثالثة﴾ ذكروا فى قوله ولا يحيطون به علما وجهين (الاول) انه تعالى بين انه يعلم ما بين أيدى العباد وما خلفهم ثم قال ولا يحيطون به علما أى العباد لايحيطون بما بين أيديهم وما خلفهم علما (الثانى) المراد ولا يحيطون بالله علما والاول أولى لوجهين (أحدهما) ان الضمير يجب عوده الى أقرب المذكورات والاقرب ههنا قوله ما بين أيديهم وما خلفهم (وثانيهما) انه تعالى أورد ذلك مورد الزجر ليعلم ان سائر ما يقدمون عليه وما يستحقون به المجازاة معلوم لله تعالى ﴿الصفة السادسة﴾ قوله وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما ومعناه ان ذلك اليوم تعنو الوجوه أى تذل ويصير الملك والقهر لله تعالى دون غيره ومن لفظ العنو أخذوا

عليه السلام بعد وفاة أختها اليا أو فى حياتها اذ لم يكن جمع الاختين اذ ذاك محرما فليس بداخل تحت هذا النهى اذ لا يتوهم مضرته ولا يخشى معرته ولم يكن معدودا معهم فى الرؤيا اذ لم يكن معهم فى السجود ليوسف والمراد نهيه عن اقتصاص الرؤيا عليهم كلا أو بعضا (ان الشيطان للانسان عدو مبين) ظاهر العداوة فلا يألو جهدا فى اغواء اخوتك واضلالهم وحملهم على ما لا خير فيه وهو استئناف كأن يوسف عليه السلام قال كيف يصدر ذلك عن اخوتى الناشئين فى بيت النبوة فقيل ان الشيطان يحملهم على ذلك ولما نبهه عليهما السلام على ان لرؤياه شأنا عظيما يستتبع منافع وحذره اشاعتها المؤدية الى أن يحول اخوته بينها وبين ظهور آثارها وحصولها أو يعروا سبيل وصولها شرع فى تعبيرها وتأويلها على وجه اجمالى فقال (وكذلك) أى ومثل ذلك الاجتباء البديع الذى شاهدت آثاره فى عالم المثال من سجود تلك الاجرام العلوية النيرة لك وخضوعها على وفقه (يجتبيك ربك) يختارك لجناب كبريائه ويستنبئك افتعال من حباه اذا جمعه ويصطفيك على أشراف الخلائق وسراة الناس قاطبة ويبرز مصداق تلك الرؤيا فى عالم الشهادة حسبما عاينته من غير قصور والمراد بالتشبيه بيان المشابهة المحققة بين الصور المرئية فى عالم المثال وبين ما وقعت هى صورا وأشباحا له من الكائنات الظاهرة بحسبها فى عالم الشهادة أى كما خضعت لك تلك الاجرام العظام يسخرلك وجوه الناس ونواصيهم مذعنين لطاعتك خاضعين لك على وجه الاستكانة ومراده بيان اطاعة أبويه واخوته له لكنه انما لم يصرح به حذرا من اذاعته (ويعلمك) كلام مبتدأ غير داخل تحت التشبيه أراد به عليه السلام تأكيد مقالته وتحقيقها وتوطين نفس يوسف عليه السلام بما أخبر به

على طريقة التعبير والتأويل كأنه قال وهو يعلمك (من تأويل الاحاديث) أى ذلك الجنس من العلوم أو طرفا صالحا منه فتطلع على حقيقة ما أقول ولا يخفى ما فيه من تأكيد ما سبق والبعث على تلقى ما سيأتى بالقبول والمراد بتأويل الاحاديث تعبير الرؤيا اذ هى أحاديث الملك ان كانت صادقة ٨٦ أو أحاديث النفس أو الشيطان ان لم تكن كذلك والاحاديث اسم جمع للحديث كالاباطيل

العانى وهو الاسير يقال عنا يعنو عناء اذا صار أسيرا وذكر الله تعالى الوجوه وأراد به المكلفين أنفسهم لان قوله وعنت من صفات المكلفين لا من صفات الوجوه وهو كقوله وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية وانما خص الوجوه بالذكر لان الخضوع بها يبين وفيها يظهر وتفسير الحى القيوم قد تقدم وروى أبو امامة الباهلى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اطلبوا اسم الله الاعظم فى هذه السور الثلاث البقرة وآل عمران وطه قال الراوى فوجدنا المشترك فى السور الثلاث الله لا اله الا هو الحى القيوم فبين تعالى على وجه التحذير ان ذلك اليوم لا يصح الامتناع عما ينزل بالمرء من المجازاة وان حاله مخالفة لحال الدنيا التى يختار فيها المعاصى ويمتنع من الطاعات أما قوله تعالى وقد خاب من حمل ظلما فالمراد بالخيبة الحرمان أى حرم الثواب من حمل ظلما والمراد به من وافى بالظلم ولم يتب عنه واستدلت المعتزلة بهذه الآية فى المنع من العفو فقالوا قوله وقد خاب من حمل ظلما يعم كل ظالم وقد حكم الله تعالى فيه بالخيبة والعفو ينافيه والكلام على عمومات الوعيد قد تقدم مرارا واعلم انه تعالى لما شرح أحوال يوم القيامة ختم الكلام فيها بشرح أحوال المؤمنين فقال ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما يعنى ومن يعمل شيأ من الصالحات والمراد به الفرائض فكان عمله مقرونا بالايمان وهو كقوله ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فقوله فلا يخاف فى موضع جزم لكونه فى موضع جواب الشرط والتقدير فهو لا يخاف ونظيره ومن عاد فينتقم الله منه فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا وقرأ ابن كثير فلا يخف على النهى وهو حسن لان المعنى فليأمن والنهى عن الخوف أمر بالامن والظلم هو أن يعاقب لا على جريمة أو يمنع من الثواب على الطاعة والهضم أن ينقص من ثوابه والهضيمة النقيصة ومنه هضيم الكشح أى ضامر البطن ومنه طلعها هضيم أى لازق بعضه ببعض ومنه انهضم طعامى وقال أبو مسلم الظلم أن ينقص من الثواب والهضم أن لا يوفى حقه من الاعظام لان الثواب مع كونه من اللذات لا يكون ثوابا الا اذا قارنه التعظيم وقد يدخل النقص فى بعض الثواب ويدخل فيما يقارنه من التعظيم فنفى الله تعالى عن المؤمنين كلا الامرين ﴿قوله تعالى ﴿وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقل رب زدنى علما﴾ اعلم أن قوله وكذلك عطف على قوله كذلك نقص أى ومثل ذلك الانزال وعلى نهجه أنزلنا القرآن كله ثم وصف القرآن بأمرين (أحدهما) كونه عربيا لنفهمه العرب فيقفوا على اعجازه ونظمه وخروجه عن جنس كلام البشر (والثانى) قوله وصرفنا فيه من الوعيد أى كررناه وفصلناه ويدخل تحت الوعيد بيان الفرائض والمحارم لان الوعيد فعل يتعلق فتكريره يقتضى بيان الاحكام فلذلك قال لعلهم يتقون والمراد اتقاء المحرمات وترك الواجبات ولفظ لعل قد تقدم تفسيره فى سورة البقرة فى قوله والذين من قبلكم لعلكم تتقون أما قوله أو يحدث لهم ذكرا ففيه وجهان (الاول) أن يكون المعنى انا انما أنزلنا القرآن لاجل أن يصيروا متقين أى محترزين عما لا ينبغى أو يحدث القرآن لهم ذكرا يدعوهم الى الطاعات وفعل ما ينبغى وعليه سؤالات (السؤال الاول) القرآن كيف يكون محدثا للذكر (الجواب) لما حصل الذكر عند قراءته أضيف الذكر اليه (السؤال الثانى) لم أضيف الذكر الى القرآن وما أضيفت التقوى اليه (الجواب) ان التقوى عبارة عن أن لا يفعل القبيح وذلك استمرار على العدم الاصلى فلم يجز اسناده الى القرآن أما حدوث الذكر فأمر حدث بعد أن لم يكن فجازت اضافته الى القرآن (السؤال الثالث) كلمة أو للمنافاة ولا منافاة بين التقوى وحدوث الذكر بل لا يصح الاتقاء الامع الذكر فما معنى كلمة أو (الجواب) هذا كقولهم جالس الحسن أو ابن سيرين أى لا تكن خاليا منهما فكذا

اسم جمع للباطل لا جمع أحدوثة وقيل كأنهم جمعوا حديثا على أحدثة ثم جمعوا الجمع على أحاديث كقطيع وأقطعة وأقاطيع وقيل هو تأويل غوامض كتب الله تعالى وسنن الانبياء عليهم السلام والاول هو الاظهر وتسمية التعبير تأويلا لانه جعل المرئى آئلا الى ما يذكره المعبر بصدد التعبير ورجعه اليه فكأنه عليه الصلاة والسلام أشار بذلك الى ما سيقع من يوسف عليه السلام من تعبيره لرؤيا صاحبى السجن ورؤيا الملك وكون ذلك ذريعة الى ما بلغه الله تعالى اليه من الرياسة العظمى التى عبر عنها باتمام النعمة وانما عرف يعقوب عليه السلام ذلك منه من جهة الوحى أو أراد كون هذه الخصلة سببا لظهور أمره عليه السلام على الاطلاق فيجوز حينئذ أن تكون معرفته عليه السلام لذلك بطريق الفراسة والاستدلال من الشواهد والدلائل والامارات والمخايل بان من وفقه الله تعالى لمثل هذه الرؤيا لابد من توفيقه لتعبيرها وتأويل أمثالها وتمييز ما هو آفاقى منها عما هو أنفسى ههنا كيف لا وهى تدل على كمال تمكن نفسه عليه السلام فى عالم المثال وقوة تصرفاتها فيه فيكون أقبل لفيضان المعارف المتعلقة بذلك العالم وبما يحاكيه من الامور الواقعة بحسبها فى عالم الشهادة وأقوى وقوفا على النسب الواقعة بين الصور المعاينة فى أحد ذينك العالمين وبين

هنا (الوجه الثاني) أن يقال انا أنزلنا القرآن ليتقوا فان لم يحصل ذلك فلا أقل من أن يحدث القرآن لهم ذكرا وشرفا وصيتا حسنا فعلى هذين التقديرين يكون انزاله تقوى ثم انه تعالى لما عظم أمر القرآن أردفه بان عظم نفسه فقال فتعالى الله الملك الحق تنبيها على ما يلزم خلقه من تعظيمه وانما وصفه بالحق لان ملكه لا يزول ولا يتغير وليس بمستفاد من قبل الغير ولا غيره أولى به فلهذا وصف بذلك وتعالى تفاعل من العلو وقد ثبت ان علوه وعظمته وربوبيته بمعنى واحد وهو اتصافه بنعوت الجلال وانه لا تكيفه الاوهام ولا تقدره العقول وهو منزه عن المنافع والمضار فهو تعالى انما أنزل القرآن ليحترزوا عما لا ينبغي وليقدموا على ما ينبغي وانه تعالى منزه عن التكمل بطاعاتهم والتضرر بمعاصيهم فالطاعات انما تقع بتوفيقه وتيسيره والمعاصي انما تقع عدلا منه وكل ميسر لما خلق له أما قوله ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه ففيه مسائل (المسئلة الاولى) في تعلقه بما قبله وجهان (الوجه الاول) قال أبو مسلم ان من قوله ويسألونك عن الجبال الى ههنا يتم الكلام وينقطع ثم قوله ولا تعجل بالقرآن خطاب مستأنف فكأنه قال ويسألونك ولا تعجل بالقرآن (الوجه الثاني) روى انه عليه السلام كان يخاف من أن يفوته منه شئ فيقرأ مع الملك فأمره بأن يسكت حال قراءة الملك ثم يأخذ بعد فراغه في القراءة فكأنه تعالى شرح كيفية نفع القرآن للمكلفين وبين انه سبحانه متعال عن كل ما لا ينبغي وانه موصوف بالاحسان والرحمة ومن كان كذلك وجب أن يصون رسوله عن السهو والنسيان في أمر الوحي واذا حصل الامان عن السهو والنسيان قال ولا تعجل بالقرآن (المسئلة الثانية) قوله ولا تعجل بالقرآن يحتمل أن يكون المراد لا تعجل بقراءته في نفسك ويحتمل أن لا تعجل في تأديته الى غيرك ويحتمل في اعتقاد ظاهره ويحتمل في تعريف الغير ما يقتضيه ظاهره وأما قوله من قبل أن يقضى اليك وحيه فيحتمل أن يكون المراد من قبل أن يقضى اليك تمامه ويحتمل أن يكون المراد من قبل أن يقضى اليك بيانه لان هذين الامرين لا يمكن تحصيلهما الا بالوحي ومعلوم انه عليه السلام لا ينهى عن قراءته لكي يحفظه ويؤديه فالمراد اذن ان لا يبعث نفسه ولا يبعث غيره عليه حتى يتبين بالوحي تمامه أو بيانه أوهما جميعا لانه يجب التوقف في معنى الكلام ما لم يأت عليه الفراغ لما يجوز أن يحصل عقيبه من استثناء أو شرط أو غيرهما من المخصصات فهذا هو التحقيق في تفسير الآية ولنذكر أقوال المفسرين (أحدها) ان هذا كقوله تعالى لا تحرك به لسانك لتعجل به وكان عليه السلام يحرص على أخذ القرآن من جبريل عليه السلام فيعجل بقراءته قبل استتمام جبريل مخافة النسيان فقيل له لا تعجل به الى ان يستتم وحيه فيكون أخذك اياه عن تثبت وسكون والله تعالى يزيدك فهما وعلما وهذا قول مقاتل والسدي ورواه عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما (وثانيها) ولا تعجل بالقرآن فتقرأه على أصحابك قبل أن يوحى اليك بيان معانيه وهذا قول مجاهد وقتادة (وثالثها) قال الضحاك ان أهل مكة وأسقف نجران قالوا يا محمد أخبرنا عن كذا وكذا وقد ضربنا لك أجلا ثلاثة أيام فأبطأ الوحي عليه وفشت المقالة بأن اليهود قد غلبوا محمدا فانزل الله تعالى هذه الآية ولا تعجل بالقرآن أي بنزوله من قبل أن يقضى اليك وحيه من اللوح المحفوظ الى اسرافيل ومنه الى جبريل ومنه اليك وقل رب زدني علما (ورابعها) روى الحسن أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت زوجي لطم وجهي فقال بينكما القصاص فنزل قوله ولا تعجل بالقرآن فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القصاص حتى نزل قوله تعالى الرجال قوامون على النساء وهذا بعيد والاعتماد على التفصيل الاول أما قوله تعالى وقل رب زدني علما فالمعنى انه سبحانه وتعالى أمره بالفزع الى الله سبحانه في زيادة العلم التي تظهر بتمام القرآن أو بيان ما نزل عليه

الكائنات الظاهرة على وفقها في العالم الآخر وأن هذا الشأن البديع لا بد أن يكون انموذجا لظهور أمر من اتصف به ومدار الجريان أحكامه فان لكل نبي من الانبياء عليهم الصلاة والسلام معجزة بها تظهر آثاره وتجري أحكامه (ويتم نعمته عليك) بأن يضم الى النبوة المستفادة من الاجتباء الملك ويجعله تتمة لهما وتوسيط ذكر التعليم المذكور بينهما لكونه من لوازم النبوة والاجتباء ولرعاية ترتيب الوجود الخارجي ولما أشرنا اليه من كونه أثره ووسيلة الى تمام النعمة ويجوز أن يعد نفس الرؤيا من نعم الله تعالى عليه فيكون جميع النعم الواصلة اليه بحسبها مصداقا لها تماما لتلك النعمة (وعلى آل يعقوب) وهم أهله من بنيه وغيرهم فان رؤية يوسف عليه السلام اخوته كواكب يهتدى بانوارها من نعم الله تعالى عليهم لدلالتها على مصير أمرهم الى النبوة فيقع كل ما يخرج من القوة الى الفعل من كمالاتهم بحسب ذلك تماما لتلك النعمة لا محالة وأما اذا أريد بتمام تلك النعمة الملك فكونه كذلك بالنسبة اليهم باعتبار أنهم يغتنمون آثاره من العز والجاه والمال (كما أتمها على أبويك) نصب على المصدرية أي ويتم نعمته عليك اتماما كائنا كاتمام نعمته على أبويك وهي نعمة الرسالة والنبوة واتمامها على ابراهيم عليه السلام باتخاذه خليلا وانجائه من النار ومن ذبح الولد وعلى اسحق بانجائه من الذبح وفدائه بذبح عظيم وباخراج يعقوب والاسباط من صلبه وكل ذلك نعم جليلة وقعت تتمة لنعمة النبوة ولا يجب في تحقيق التشبيه كون ذلك في جانب المشبه بمثل ما وقع في جانب المشبه به من كل وجه (من قبل) أي من قبل هذا الوقت أو من قبلك (ابراهيم واسحق) عطف بيان لابويك والتعبير عنهما بالاب مع كونهما أبا جده وأبا أبيه للاشعار بكمال ارتباطه بالانبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام

وتذكير معنى الولد سر أبيه ليطمئن قلبه بما أخبر به في ضمن التعبير الاجمالي لرؤياه والاقتصار في المشبه به على ذكر اتمام النعمة من غير تعرض للاجتباء من باب الاكتفاء فان اتمام النعمة يقتضي سابقة النعمة المستدعية للاجتباء لا محالة (ان ربك) استئناف لتحقيق مضمون الجمل المذكورة أي يفعل ماذكر لانه (عليم) بكل شيء فيعلم من يستحق الاجتباء وما يتفرع عليه من التعليم ٨٨ المذكور واتمام النعمة العامة على الوجه المذكور (حكيم) فاعل لكل شيء حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة فيفعل ما يفعل كما يفعل جريا على سنن علمه وحكمته والتعرض لعنوان الربوبية في الموضعين لتربية تحقق وقوع ماذكر من الافاعيل هذا وقد قيل في تفسير الآية الكريمة أي وكما اجتباك لمثل هذه الرؤيا الدالة على شرف وعز وكمال نفس يجتبيك ربك للنبوة والملك أو لامور عظام ويتم نعمته عليك بالنبوة أو بان يصل نعمة الدنيا بنعمة الآخرة حيث جعلهم في الدنيا أنبياء وملوكا ونقلهم عنها الى الدرجات العلا في الجنة كما أتمها على أبويك بالرسالة فتأمل والله الهادي (لقد كان في يوسف واخوته) أي في قصتهم والمراد بهم ههنا اما جميعهم فان لبنيامين أيضا حصة من القصة أو بنو علاته المعدودون فيما سلف اذ عليهم يدور رحاها (آيات) علامات عظيمة الشأن دالة على قدرة الله تعالى القاهرة وحكمته الباهرة (للسائلين) لكل من سال عن قصتهم وعرفها أو الطالبين للآيات المعتبرين بها فانهم الواقفون عليها والمنتفعون بها دون من عداهم ممن اندرج تحت قوله تعالى وكاين من آية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون فالمراد بالقصة نفس المقصوص أو على نبوته عليه السلام لمن سأله من المشركين أو اليهود عن قصتهم فاخبرهم بذلك على ما هي عليه من غير

{المسئلة الثالثة} الاستعجال الذي نهي عنه ان كان فعله بالوحي فكيف نهي عنه (الجواب) لعله فعله بالاجتهاد وكان الاولى تركه فلهذا نهي عنه ❁ قوله تعالى ﴿ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ اعلم ان هذا هو المرة السادسة من قصة آدم عليه السلام في القرآن أولها في سورة البقرة ثم في الاعراف ثم في الحجر ثم في الاسراء ثم في الكهف ثم ههنا واعلم ان في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوها (أحدها) انه تعالى لما قال كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ثم انه عظم أمر القرآن وبالغ فيه ذكر هذه القصة انجازا للوعد في قوله كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق (وثانيها) انه لما قال وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا أردفه بقصة آدم عليه السلام كأنه قال ان طاعة بني آدم للشيطان وتركهم التحفظ من وساوسه أمر قديم فانا عهدنا الى آدم من قبل أي من قبل هؤلاء الذين صرفنا لهم الوعيد وبالغنا في تنبيهه حيث قلنا له ان هذا عدو لك ولزوجك ثم انه مع ذلك نسي وترك ذلك العهد فأمر البشر في ترك التحفظ من الشيطان أمر قديم (وثالثها) انه لما قال لمحمد صلى الله عليه وسلم وقل رب زدني علما ذكر بعده قصة آدم عليه السلام فانه بعد ما عهد الله اليه وبالغ في تجديد العهد وتحذيره من العدو نسي فقد دل ذلك على ضعف القوة البشرية عن التحفظ فيحتاج حينئذ الى الاستعانة بربه في ان يوفقه لتحصيل العلم ويجنبه عن السهو والنسيان (ورابعها) ان محمدا صلى الله عليه وسلم لما قيل له ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه دل على انه كان في الجد في أمر الدين بحيث زاد على قدر الواجب فلما وصفه بالافراط وصف آدم بالتفريط في ذلك فانه تساهل في ذلك ولم يتحفظ حتى نسي فوصف الاول بالتفريط والآخر بالافراط ليعلم ان البشر لا ينفك عن نوع زلة (وخامسها) ان محمدا صلى الله عليه وسلم لما قيل له ولا تعجل ضاق قلبه وقال في نفسه لولا اني أقدمت على ما لا ينبغي والا لما نهيت عنه فقيل له ان كنت فعلت ما نهيت عنه فانما فعلته حرصا منك على العبادة وحفظا لاداء الوحي وان أباك أقدم على ما لا ينبغي للتساهل وترك التحفظ فكان أمرك أحسن من أمره أما قوله تعالى ولقد عهدنا الى آدم من قبل فلا شك ان المراد بالعهد أمر من الله تعالى أو نهي منه كما يقال في أوامر الملوك ووصاياهم أشار الملك اليه وعهد اليه قال المفسرون عهدنا اليه أن لا يأكل من الشجرة ولا يقربها وفي قوله تعالى من قبل وجوه (أحدها) من قبل هؤلاء الذين صرفنا لهم الوعيد في القرآن (وثانيها) قال ابن عباس من قبل أن يأكل من الشجرة عهدنا اليه أن لا يأكل منها (وثالثها) أي من قبل محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وهو قول الحسن أما قوله فنسي فقد تكلمنا فيه على سبيل الاستقصاء في سورة البقرة ونعيد ههنا منه شيأ قليلا وفي النسيان قولان (أحدهما) المراد ما هو نقيض الذكر وانما عوتب على ترك التحفظ والمبالغة في الضبط حتى تولد منه النسيان وكان الحسن رحمه الله يقول والله ما عصى قط الا بنسيان (والثاني) أن المراد بالنسيان الترك وانه ترك ما عهد اليه من الاحتراز عن الشجرة وأكل ثمرتها وقرئ فنسي أي فنساه الشيطان وعلى هذا التقدير يحتمل أن يقال أقدم على المعصية من غير تأويل وان يقال أقدم عليها مع التأويل والكلام فيه قد تقدم في سورة البقرة وأما قوله ولم نجد له عزما ففيه ابحاث {الاول} الوجود يجوز أن يكون بمعنى العلم ومنه ولم نجد له عزما وأن يكون نقيض العدم كأنه قال وعدمنا له عزما {البحث الثاني} العزم هو التصميم والتصلب ثم قوله ولم نجد له عزما يحتمل ولم نجد له عزما على القيام على المعصية فيكون الى المدح أقرب ويحتمل أن يكون المراد ولم نجد له عزما على ترك

المعصية

سماع من أحد ولا ممارسة شئ من الكتب فالمراد بها اقتصاصها وجمع الآيات حينئذ للاشعار بان اقتصاص كل طائفة من القصة آية بينة كافية في الدلالة على نبوته عليه السلام على نحو ماذكر في قوله تعالى مقام ابراهيم على تقدير كونه عطف بيان لقوله تعالى آيات بينات لا لما قيل من انه لتعدد جهة الاعجاز لفظا ومعنى وقرأ ابن كثير آية وفي بعض المصاحف عبرة وقيل انما قص الله تعالى على النبي صلى الله عليه وسلم خبر يوسف وبغي اخوته عليه لما رأى من بغي قومه عليه ليتأسى به (اذ قالوا ليوسف وأخوه) أي شقيقه بنيامين وانما لم يذكر باسمه تلويحا بأن مدار المحبة اخوته ليوسف من الطرفين ألا يرى الى أنهم كيف اكتفوا باخراج يوسف من البين من غير تعرض له حيث قالوا اقتلوا يوسف (أحب الى أبينا منا) وحد الخبر مع تعدد المبتدا لان أفعل من كذا لا يفرق فيه بين الواحد وما فوقه ولا بين المذكر والمؤنث نعم اذا عرف وجب الفرق واذا أضيف جاز الامران وفائدة لام الابتداء في يوسف تحقيق مضمون الجملة وتأكيده (ونحن عصبة) أي والحال أنا جماعة قادرون على الحل والعقد أحقاء بالمحبة والعصبة والعصابة العشرة من الرجال فصاعدا سموا بذلك لان الامور تعصب بهم (ان أبانا) في ترجيحهما علينا في المحبة مع فضلنا عليهما وكونهما بمعزل من كفاية الامور بالصغر والقلة (لفي ضلال) أي ذهاب عن طريق التعديل اللائق وتنزيل كل منا منزلته (مبين) ظاهر الحال روى أنه كان أحب اليه لما يرى فيه من مخايل الخير وكانت اخوته يحسدونه فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة بحيث لم يصبر عنه فتضاعف حسدهم حتى حملهم على مباشرة ما قص عنهم (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا) من جملة ما حكى بعد قوله اذ قالوا وقد قاله بعض

المعصية أولم نجد له عزما على التحفظ والاحتراز عن الغفلة أولم نجد له عزما على الاحتياط في كيفية الاجتهاد اذا قلنا انه عليه السلام انما أخطأ بالاجتهاد * وأما قوله واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى فهذا يشتمل على مسائل (احداها) ان المأمورين كل الملائكة أو بعضهم (وثانيتها) انه ما معنى السجود (وثالثتها) أن ابليس هل كان من الملائكة أم لا وان لم يكن فكيف صح الاستثناء وبأي شئ صار مأمورا بالسجود (ورابعتها) ان هذا هل يدل على ان آدم أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم أم لا (وخامستها) ان قوله في صفة ابليس انه أبى كيف لزم الكفر من ذلك الاباء وانه هل كان كافرا ابتداء أو كفر بسبب ذلك واعلم ان هذه المسائل مرت على سبيل الاستقصاء في سورة البقرة * أما قوله فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ففيه سؤالات (الأول) ما سبب تلك العداوة (الجواب) من وجوه (أحدها) ان ابليس كان حسودا فلما رأى آثار نعم الله تعالى في حق آدم عليه السلام حسده فصار عدوا له (وثانيها) ان آدم كان شابا عالما لقوله وعلم آدم الاسماء كلها وابليس كان شيخا جاهلا لانه أثبت فضله بفضيلة أصله وذلك جهل والشيخ الجاهل أبدا يكون عدوا للشاب العالم (وثالثها) ان ابليس مخلوق من النار وآدم مخلوق من الماء والتراب فبين أصليهما عداوة فبقيت تلك العداوة * (السؤال الثاني) لم قال فلا يخرجنكما من الجنة مع أن المخرج لهما من الجنة هو الله تعالى (الجواب) لما كان بوسوسته هو الذي فعل ما ترتب عليه الخروج صح ذلك * (السؤال الثالث) لم أسند الى آدم وحده فعل الشقاء دون حواء مع اشتراكهما في الفعل * الجواب من وجهين (أحدهما) ان في ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم كما أن في ضمن سعادته سعادتهم فاختص الكلام باسناده اليه دونها مع المحافظة على رعاية الفاصلة (الثاني) أريد بالشقاء التعب في طلب القوت وذلك على الرجل دون المرأة وروى انه أهبط الى آدم ثور أحمر وكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه * أما قوله ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرئ وانك بالفتح والكسر ووجه الفتح العطف على ان لا تجوع فيها فان قيل ان لا تدخل على أن فلا يقال ان ان زيدا منطلق والواو نائبة عن ان وقائمة مقامها فلم أدخلت عليها قلنا الواو لم توضع لتكون أبدا نائبة عن ان انما هي نائبة عن كل عامل فلما لم تكن حرفا موضوعا للتحقيق خاصة كان لم يمتنع اجتماعهما كما امتنع اجتماع ان وان (المسئلة الثانية) الشبع والري والكسوة والاكتنان في الظل هي الاقطاب التي يدور عليها أمر الانسان فذكر الله تعالى حصول هذه الاشياء له في الجنة من غير حاجة الى الكسب والطلب وذكرها بلفظ النفي لاضدادها التي هي الجوع والعري والظمأ والضحى ليطرق سمعه شيأ من أصناف الشقوة التي حذره منها حتى يبالغ في الاحتراز عن السبب الذي يوقعه فيها وهذه الاشياء كلها كأنها تفسير الشقاء المذكور في قوله فتشقى ﴿ قوله تعالى ﴿فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى﴾ واعلم انه سبحانه بين انه عظم آدم عليه السلام بأن جعله مسجود الملائكة وبين انه عرفه شدة عداوة ابليس له ولزوجه وانه لعداوته يدعوهم الى المعصية التي اذا وقعت زالت تلك النعم بأسرها ثم انه مع ذلك اتفق منه ومن حواء من الاقدام على الزلة ما اتفق والعجب ما روى عن أبي امامة الباهلي قال لو ان أحلام بني آدم الى قيام الساعة وضعت في كفة ميزان ووضع حلم آدم في الاخرى لرجح حلمه باحلامهم ولكن المكابدة مع قضاء الله تعالى ممتنعة واعلم ان واقعة آدم عجيبة وذلك لان الله تعالى رغبه في دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله فلا

منهم مخاطبا للباقين بقضية الصيغة فكأنهم رضوا بذلك كما روى أن القائل شمعون أو دان والباقون كانوا راضين الا من قال لا تقتلوا الخ فعلوا كأنهم القائلون وادرجوا تحت القول المسند الى الجميع أو قاله كل واحد منهم مخاطبا للبقية وهو أدل على مسارعتهم الى ذلك القول وتنكير أرضا واخلاؤها من الوصف للابهام أي أرضا منكورة مجهولة بعيدة من العمران ولذلك نصبت نصب الظروف المبهمة (يخل) بالجزم جواب للامر أي يخلص (لكم وجه أبيكم) فيقبل عليكم بكليته ولا يلتفت عنكم الى غيركم ولا يساهمكم في محبته أحد فذكر الوجه لتصوير معنى اقباله عليهم (وتكونوا) بالجزم عطفا على يخل أو بالنصب على اضمار أن أو الواو بمعنى مع مثل قوله وتكتموا الحق وايثار الخطاب في لكم وما بعده للمبالغة في حملهم على القبول فان اعتناء المرء بشأن نفسه واهتمامه بتحصيل منافعه أتم وأكمل (من بعده) من بعد يوسف أي من بعد الفراغ من أمره أو قتله أو طرحه (قوما صالحين) تائبين الى الله تعالى عما جنيتم أو صالحين مع أبيكم باصلاح ما بينكم وبينه بعذر تمهدونه أو صالحين في أمور دنياكم بانتظامها بعده بخلو وجه أبيكم (قال قائل منهم) هو يهوذا وكان أحسنهم فيه رأيا وهو الذي قال فلن أبرح الأرض الخ وقيل روبيل وهو استئناف مبني على سؤال من سأل وقال اتفقوا على ما عرض عليهم من خصلتي الضيم أم خالفهم في ذلك أحد فقيل قال قائل منهم (لا تقتلوا يوسف) أظهره في مقام الاضمار استجلابا لشفقتهم عليه أو استعظاما لقتله وهو هو فانه يروى أنه قال لهم القتل عظيم ولم يصرح بنهيهم عن الخصلة الاخرى وأحاله على أولوية ما عرضه عليهم بقوله (وألقوه في غيابت الجب) أي في قعره وغوره سمي بها لغيبته عن عين الناظر والجب البئر التي لم تطو بعد

يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ورغبه ابليس أيضا في دوام الراحة بقوله هل أدلك على شجرة الخلد وفي انتظام المعيشة بقوله وملك لا يبلى فكان الشئ الذي رغب الله آدم فيه هو الذي رغبه ابليس فيه الا أن الله تعالى وقف ذلك على الاحتراس عن تلك الشجرة وابليس وقفه على الاقدام عليها ثم ان آدم عليه السلام مع كمال عقله وعلمه بأن الله تعالى مولاه وناصره ومربيه وأعلمه بان ابليس عدوه حيث امتنع من السجود له وعرض نفسه للعنة بسبب عداوته كيف قبل في الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول ابليس مع علمه بكمال عداوته له وأعرض عن قول الله تعالى مع علمه بانه هو الناصر والمربي ومن تأمل في هذا الباب طال تعجبه وعرف آخر الامر ان هذه القصة كالتنبيه على انه لا دافع لقضاء الله ولا مانع منه وان الدليل وان كان في غاية الظهور ونهاية القوة فانه لا يحصل النفع به الا اذا قضى الله تعالى ذلك وقدره وأما قوله فوسوس اليه الشيطان فقد تقدم في سورة البقرة انه كيف وسوس وعماذا وسوس فان قيل كيف عدى وسوس تارة باللام في قوله فوسوس لهما الشيطان وأخرى بالى قلنا قوله فوسوس له معناه لاجله وقوله وسوس اليه معناه أنهى اليه الوسوسة كقوله حدث له وأسر اليه ثم بين ان تلك الوسوسة كانت بتطميعه في أمرين (أحدهما) قوله هل أدلك على شجرة الخلد أضاف الشجرة الى الخلد وهو الخلود لان من أكل منها صار مخلدا بزعمه (الثاني) قوله وملك لا يبلى أي من أكل من هذه الشجرة دام ملكه قال القاضي ليس في الظاهر ان آدم قبل ذلك منه بل لو وجدت هذه الوسوسة حال كون آدم عليه السلام نبيا لاستحال أن يكون آدم عليه السلام قبل ذلك منه لانه لا بد وأن تحصل بين حال التكليف وحال المجازاة فترة بالموت وبالمعنى فآدم لما كان نبيا امتنع أن لا يعلم ذلك قلنا لا نسلم بانه لا بد من حصول هذه الفترة بين حال التكليف وحال المجازاة ولم لا يجوز أن يقال لا حاجة الى الفترة أصلا وان كان ولا بد فيكفي حصول الفترة بغشي أو نوم خفيف ثم ان كان ولا بد من حصول الفترة بالموت فلم قلت النبي لا بد وأن يعلم ذلك أليس قوم منكم يقولون ان موسى عليه السلام انما سأل الرؤية لانه ما كان يعرف امتناعها على الله تعالى فاذا جاز ذلك الجهل فلم لا يجوز هذا الجهل ثم ما الدليل على ان آدم كان نبيا في ذلك الوقت فان مذهبنا ان واقعة الزلة انما حصلت قبل رسالته لا بعدها ثم ان الذي يدل على ان آدم عليه السلام قبل ذلك قوله تعالى عقيب ذكر الوسوسة فأكلا منها وهذا الترتيب مشعر بالعلية كقولهم زنى ماعز فرجم وسها رسول الله فسجد فان هذه الفاء تدل على ان الرجم كالمسبب للزنا والسجود كالمسبب للسهو فكذلك ههنا يجب أن يكون الاكل كالمعلل باستماع قوله هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى وانما يحصل هذا التعليل لو قبل آدم ذلك منه فانه لو رد قوله لما أقدم على الاكل بناء على قوله فثبت ان آدم عليه السلام قبل ذلك من ابليس ثم انه سبحانه بين انهما لما أكلا بدت لهما سوآتهما قال ابن عباس عريا من النور الذي كان الله ألبسهما حتى بدت فروجهما وانما جمع وقيل سوآتهما كما قال صغت قلوبكما فان قيل هل كان ظهور سوآتهما كالجزاء على معصيتهما قلنا لا شك ان ذلك كالمعلق على ذلك الاكل لكن يحتمل أن لا يكون عقابا عليه بل انما ترتب عليه لمصلحة أخرى أما قوله وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ففيه أبحاث (الاول) قال صاحب الكشاف طفق يفعل كذا مثل جعل يفعل وأخذ وأنشأ وحكمها حكم كاد في وقوع الخبر فعلا مضارعا وبينها وبينه مسافة قصيرة وهي للشروع في أول الامر وكاد لمقاربته والدنو منه (البحث الثاني) قرئ يخصفان للتكثير والتكرير من خصف النعل وهو أن يخرز عليها الخصاف أي يلزقان الورقة على سوآتهما للستر وهو ورق التين أما قوله

لانها أرض جبت جبها من غير أن يزاد على ذلك شئ وقرأ نافع في غيابات الجب في الموضعين كأن لتلك الجب غيابات أو أراد بالجب الجنس
أي في بعض غيابات الجب وقرئ غيابات وغيبة (يلتقطه) يأخذه على وجه الصيانة عن الضياع والتلف فان الالتقاط أخذ شئ
مشرف على الضياع (بعض السيارة) أي بعض طائفة تسير في الارض واللام في السيارة ٩١ كما في الجب وما فيهما وفي البعض
من الابهام لتحقيق ما يتوخاه من ترويج كلامه بموافقته لغرضهم الذي هو تنائي يوسف عنهم بحيث لا يدرى أثره ولا يروى خبره وقرئ تلتقطه على التأنيث لان بعض السيارة سيارة كقوله

كما شرقت صدر القناة من الدم

ومنه قطعت بعض أصابعه (ان كنتم فاعلين) بمشورتي لم يبت القول عليهم بل انما عرض عليهم ذلك تأليفا لقلبهم وتوجيها لهم الى رأيه وحذرا من نسبتهم له الى التحكم والافتيات أو ان كنتم فاعلين ما أزمعتم عليه من ازالته من عند أبيه لا محالة ولما كان هذا مظنة لسؤال سائل يقول فما فعلوا بعد ذلك هل قبلوا ذلك منه أولا أجيب بطريق الاستئناف على وجه أدرج في تضاعيفه قبولهم له بما سيجيء من قوله وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب فقيل (قالوا يا أبانا) خاطبوه بذلك تحريكا لسلسلة النسب
بينه وبينهم وتذكيرا لرابطة الاخوة بينهم وبين يوسف عليه الصلاة والسلام ليتسببوا بذلك الى استنزاله عليه السلام عن رأيه في حفظه
منهم لما أحس منهم بأمارات الحسد والبغي فكأنهم قالوا (ما لك) أي أي شئ لك (لا تأمنا) أي لا تجعلنا أمناء (على يوسف) مع أنك أبونا
ونحن بنوك وهو أخونا (وانا له لناصحون) مريدون له الخير مشفقون عليه ليس فينا ما يخل بالنصيحة والمقة قط والقراءة المشهورة

وعصى آدم ربه فغوى فمن الناس من تمسك بهذا في صدور الكبيرة عنه من وجهين (الاول) ان العصيان
اسم للذم فلا ينطلق الا على صاحب الكبيرة لقوله تعالى ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا
خالدا فيها ولا معنى لصاحب الكبيرة الا من فعل فعلا يعاقب عليه (والوجه الثاني) ان الغواية والضلالة
اسمان مترادفان والغي ضد الرشد ومثل هذا الاسم لا يتناول الا الفاسق المنهمك في فسقه أجاب قوم على
الكلام الاول فقالوا المعصية مخالفة الامر والامر قد يكون بالواجب والندب فانهم يقولون أشرت عليه
في أمر ولده في كذا فعصاني وأمرته بشرب الدواء فعصاني واذا كان الامر كذلك لم يمتنع اطلاق اسم
العصيان على آدم لا لكونه تاركا للواجب بل لكونه تاركا للمندوب فأجاب المستدل عن هذا الاعتراض
بأنا بينا ان ظاهر القرآن يدل على أن العاصي مستحق للعقاب والعرف يدل على انه اسم ذم فوجب
تخصيص اسم العاصي بتارك الواجب ولانه لو كان تارك المندوب عاصيا لوجب وصف الانبياء بأسرهم
بأنهم عصاة في كل حال لانهم لا ينفكون من ترك المندوب فان قيل وصف تارك المندوب بأنه عاص مجاز
والمجاز لا يطرد قلنا لما سلمت كونه مجازا فالاصل عدمه أما قوله أشرت عليه في أمر ولده في كذا فعصاني
وأمرته بشرب الدواء فعصاني قلنا لا نسلم ان هذا الاستعمال مروي عن العرب ولئن سلمنا ذلك ولكنهم
انما يطلقون ذلك اذا جزموا على المستشير بأنه لابد وأن يفعل ذلك الفعل وأنه لا يجوز الاخلال بذلك الفعل
وحينئذ يكون معنى الايجاب حاصلا وان لم يكن الوجوب حاصلا وذلك يدل على ان لفظ العصيان لا يجوز
اطلاقه الا عند تحقق الايجاب لكنا أجمعنا على أن الايجاب من الله تعالى يقتضي الوجوب فيلزم أن يكون
اطلاق لفظ العصيان على آدم عليه السلام انما كان لكونه تاركا للواجب ومن الناس من سلم ان الآية
تدل على صدور المعصية منه لكنه زعم أن المعصية كانت من الصغائر لا من الكبائر وهذا قول عامة
المعتزلة وهو أيضا ضعيف لانا بينا ان اسم العاصي اسم للذم ولان ظاهر القرآن يدل على انه يستحق العقاب
وذلك لا يليق بالصغيرة وأجاب أبو مسلم الاصفهاني بأنه عصى في مصالح الدنيا لا فيما يتصل بالتكاليف
وكذلك القول في غوى وهذا أيضا بعيد لان مصالح الدنيا تكون مباحة ومن يفعلها لا يوصف بالعصيان
الذي هو اسم للذم ولا يقال فيه انه غوى وأما التمسك بقوله تعالى فغوى فأجابوا عنه من وجوه (أحدها)
انه خاب من نعيم الجنة وذلك لانه لما أكل من تلك الشجرة ليصير ملكه دائما ثم لما أكل زال فلما خاب
سعيه وما نجح قيل انه غوى وتحقيقه ان الغي ضد الرشد والرشد هو أن يتوصل بشئ الى شئ يوصل الى
المقصود فمن توصل بشئ الى شئ فحصل له ضد مقصوده كان ذلك غيا (وثانيها) قال بعضهم غوى أي
بشم من كثرة الاكل قال صاحب الكشاف هذا وان صح على لغة من يقلب الياء المكسور ما قبلها ألفا
فيقول في فني وبقي فنا وبقا وهم بنو طيئ فهو تفسير خبيث * واعلم أن الاولى عندي في هذا الباب
والاحسم للشغب أن يقال هذه الواقعة كانت قبل النبوة وقد شرحنا ذلك في سورة البقرة * وههنا بحث
لابد منه وهو ان ظاهر القرآن وان دل على ان آدم عصى وغوى ولكن ليس لاحد أن يقول ان آدم
كان عاصيا غاويا ويدل على صحة قولنا أمور (أحدها) قال العتبي يقال لرجل قطع ثوبا وخاطه
قد قطعه وخاطه ولا يقال خائط ولا خياط حتى يكون معاودا لذلك الفعل معروفا به ومعلوم ان هذه الزلة
لم تصدر عن آدم عليه السلام الا مرة واحدة فوجب أن لا يجوز اطلاق هذا الاسم عليه (وثانيها) ان على
تقدير أن تكون هذه الواقعة انما وقعت قبل النبوة لم يجز بعد أن قبل الله توبته وشرفه بالرسالة والنبوة
اطلاق هذا الاسم عليه كما لا يقال لمن أسلم بعد الكفر انه كافر يعني انه كان كافرا بل وبتقدير أن يقال هذه

الواقعة وقعت بعد النبوة لم يجز أيضا أن يقال ذلك لانه عليه السلام تاب عنها وكان الرجل المسلم اذا شرب الخمر أو زنى ثم تاب وحسنت توبته لا يقال له بعد ذلك انه شارب خمر أو زان فكذا ههنا (وثالثها) ان قولنا عاص وغاو يوهم كونه عاصيا في أكثر الاشياء وغاويا عن معرفة الله تعالى ولم ترد هاتان اللفظتان في القرآن مطلقتين بل مقرونتين بالقصة التي عصى فيها فكأنه قال عصى في كيت وكيت وذلك لا يوهم التوهم الباطل الذي ذكرناه (ورابعها) انه يجوز من الله تعالى ما لا يجوز من غيره كما يجوز للسيد في عبده وولده عند معصيته من اطلاق القول ما لا يجوز لغير السيد في عبده وولده أما قوله ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى فالمعنى ثم اصطفاه فتاب عليه أي عاد عليه بالعفو والمغفرة وهداه رشده حتى رجع الى الندم والاستغفار وقبل الله منه ذلك روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لو جمع بكاء أهل الدنيا الى بكاء داود كان بكاؤه أكثر ولو جمع كل ذلك الى بكاء نوح لكان بكاء نوح أكثر وانما سمي نوحا لنوحه على نفسه ولو جمع كل ذلك الى بكاء آدم لكان بكاء آدم على خطيئته أكثر وقال وهب انه لما كثر بكاؤه أوحى الله تعالى اليه وأمره أن يقول لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوأ وظلمت نفسي فاغفر لي انك أنت خير الغافرين فقالها آدم عليه السلام ثم قال قل لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوأ وظلمت نفسي فارحمني انك أنت أرحم الراحمين ثم قال قل لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوأ وظلمت نفسي فتب على انك أنت التواب الرحيم قال ابن عباس رضي الله عنهما هذه الكلمات هي التي تلقاها آدم عليه السلام من ربه ﴿ قوله تعالى ﴿قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾ اعلم أن على أول هذه الآية سؤالا وهو ان قوله اهبطا اما أن يكون خطابا مع شخصين أو أكثر فان كان خطابا لشخصين فكيف قال بعده فاما يأتينكم مني هدى وهو خطاب الجمع وان كان خطابا لاكثر من شخصين فكيف قال اهبطا وذكروا في جوابه وجوها (أحدها) قال أبو مسلم الخطاب لآدم ومعه ذريته ولابليس ومعه ذريته فلكونهما جنسين صح قوله اهبطا ولاجل اشتمال كل واحد من الجنسين على الكثرة صح قوله فاما يأتينكم (ثانيها) قال صاحب الكشاف لما كان آدم وحواء عليهما السلام أصلا للبشر والسببين اللذين منهما تفرعوا جعلا كأنهما البشر أنفسهم فخوطبا مخاطبتهم فقال فاما يأتينكم على لفظ الجماعة أما قوله بعضكم لبعض عدو فقال القاضي يكفى في توفية هذا الظاهر حقه أن يكون ابليس والشياطين أعداء للناس والناس أعداء لهم فاذا انضاف الى ذلك عداوة بعض الفريقين لبعض لم يمتنع دخوله في الكلام وقوله فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداى فيه دلالة على أن المراد الذرية وقد اختلفوا في المراد بالهدى فقال بعضهم الرسل وبعضهم قال الآيات والادلة وبعضهم قال القرآن والتحقيق ان الهدى عبارة عن الدلالة فيدخل فيه كل ذلك وفي قوله فلا يضل ولا يشقى دلالة على أن المراد بالهدى الذي ضمن الله على اتباعه ذلك اتباع الادلة واتباعها لا يتكامل الا بأن يستدل بها وبأن يعمل بها ومن هذا حاله فقد ضمن الله تعالى له أن لا يضل ولا يشقى وفيه ثلاثة أوجه (أحدها) لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة (وثانيها) لا يضل ولا يشقى في الآخرة لانه تعالى يهديه الى الجنة ويمكنه فيها (وثالثها) لا يضل ولا يشقى في الدنيا فان قيل المتبع لهدى الله قد يلحقه الشقاء في الدنيا قلنا المراد لا يضل في الدين ولا يشقى بسبب الدين فان حصل الشقاء بسبب آخر فلا بأس

بالادغام والاشمام وعن نافع رضي الله عنه ترك الاشمام ومن الشواذ ترك الادغام (أرسله معنا غدا) الى الصحراء (يرتع) أي يتسع في أكل الفواكه ونحوها فان الرتع هو الاتساع في الملاذ (ويلعب) بالاستباق والتناضل ونظائرهما مما يعد من باب التأهب للغزو وانما عبروا عن ذلك باللعب لكونه على هيئته تحقيقا لما راموه من استصحاب يوسف عليه السلام بتصويرهم له بصورة ما يلائم حاله عليه السلام وقرئ نرتع ونلعب بالنون وقرأ ابن كثير نرتع من ارتعى ونافع بالكسر والياء فيه وفي يلعب وقرئ يرتع من أرتع ماشيته ويرتع بكسر العين ويلعب بالرفع على الابتداء (وانا له لحافظون) من أن يناله مكروه أكدوا مقالتهم بأصناف التأكيد من ايراد الجملة اسمية وتحليتها بان واللام واسناد الحفظ الى كلهم وتقديم له على الخبر احتيالا في تحصيل مقصدهم (قال) استئناف مبني على سؤال من يقول فماذا قال يعقوب عليه السلام فقيل قال (انى ليحزننى) اللام للابتداء كما في قوله عز وجل ان ربك ليحكم بينهم (أن تذهبوا به) لشدة مفارقته على وقلة صبري عنه (و) مع ذلك (أخاف أن يأكله الذئب) لان الارض كانت مذأبة والحزن ألم القلب بفوت المحبوب والخوف انزعاج النفس لنزول المكروه ولذلك أسند الاول الى الذهاب به المفوت لاستمرار مصاحبته ومواصلته ليوسف والثاني الى ما يتوقع نزوله من أكل الذئب وقيل رأى في المنام أنه قد شد عليه الذئب وكان يحذره فقال ذلك وقد لقنهم العلة ان البلاء موكل بالمنطق وقرأ ابن كثير ونافع في رواية البزي بالهمز على الاصل وأبو عمرو به وقفا وعاصم وابن عامر وحمزة درجا وقيل اشتقاقه من تذاءبت الريح اذا هاجت من كل جانب وقال الاصمعي الامر بالعكس ولما

وهو أظهر لفظا ومعنى (وأنتم عنه غافلون) لاشتغالكم بالرتع واللعب أو لقلة اهتمامكم بحفظه (قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة) أي والحال أنا جماعة كثيرة جديرة بأن يعصب بنا الامور العظام وتكفى الخطوب بآرائنا وتدبيراتنا واللام الداخلة على الشرط موطئة للقسم وقوله (انا اذا لخاسرون) جواب مجزئ عن الجزاء أي لهالكون ضعفا

وخورا وعجزا أو مستحقون للهلاك اذ لاغناء عندنا ولا جدوى في حياتنا أو مستحقون لان يدعى علينا بالخسار والدمار ويقال خسرهم الله تعالى ودمرهم حيث أكل الذئب بعضهم وهم حضور وقيل ان لم نقدر على حفظه وهو أعز شيء عندنا فقد هلكت مواشينا اذن وخسرناها وانما اقتصروا على جواب خوف يعقوب عليه السلام من أكل الذئب لانه السبب القوي في المنع دون الحزن لقصر مدته بناء على أنهم يأتون به عن قريب (فلما ذهبوا به وأجمعوا) أي أزمعوا (أن يجعلوه) مفعول لاجمعوا يقال أجمع الامر ومنه فأجمعوا أمركم ولا يستعمل ذلك الا في الافعال التي قويت الدواعي اليها (في غيابة الجب) قيل هي بئر بأرض الاردن وقيل بين مصر ومدين وقيل على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب عليه السلام بكنعان التي هي من نواحي الاردن كما أن مدين كذلك وأما ما يقال من أنها بئر بيت المقدس فيرده التعليل بالتقاط السيارة ومجيئهم أباهم عشاء ذلك اليوم فان بين منزل يعقوب عليه السلام وبين بيت المقدس مراحل وجواب لما محذوف ايذانا بظهوره واشعارا بأن تفصيله مما لا يحويه فلك العبارة ومجمله فعلوا به من الاذية ما فعلوا روي أنهم لما برزوا الى الصحراء أخذوا يؤذونه ويضربونه حتى كادوا يقتلونه فجعل يصيح ويستغيث فقال يهوذا أما عاهدتموني أن لا تقتلوه فأتوا به الى البئر فدلوه فيها فتعلق بثيابهم فنزعوها من

ولما وعد تعالى من يتبع الهدى أتبعه بالوعيد فيمن أعرض فقال ومن أعرض عن ذكري والذكر يقع على القرآن وعلى سائر كتب الله تعالى على ما تقدم بيانه ويحتمل أن يراد به الادلة وقوله فان له معيشة ضنكا فالضنك أصله الضيق والشدة وهو مصدر ثم يوصف به فيقال منزل ضنك وعيش ضنك فكأنه قال معيشة ذات ضنك واعلم أن هذا الضيق المتوعد به اما أن يكون في الدنيا أو في القبر أو في الآخرة أو في الدين أو في كل ذلك أو أكثره (أما الاول) فقال به جمع من المفسرين وذلك لان المسلم لتوكله على الله يعيش في الدنيا عيشا طيبا كما قال فلنحيينه حياة طيبة والكافر بالله يكون حريصا على الدنيا طالبا للزيادة أبدا فعيشته ضنك وحالته مظلمة وأيضا فمن الكفرة من ضرب الله عليه الذلة والمسكنة لكفره قال تعالى وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله وقال ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم وقال تعالى ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض وقال استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين وقال وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا (وأما الثاني) وهو عذاب القبر فهذا قول عبد الله بن مسعود وأبي سعيد الخدري وعبد الله بن عباس ورفعه أبو هريرة الى النبي صلى الله عليه وسلم قال ان عذاب القبر للكافر قال والذي نفسي بيده انه ليسلط عليه في قبره تسعة وتسعون تنينا قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما نزلت الآية في الاسود بن عبد العزى المخزومي والمراد ضغطة القبر تختلف فيها أضلاعه (وأما الثالث) وهو الضيق في الآخرة في جهنم فان طعامهم فيها الضريع والزقوم وشرابهم الحميم والغسلين فلا يموتون فيها ولا يحيون وهذا قول الحسن وقتادة والكلبي (وأما الرابع) وهو الضيق في أحوال الدين فقال ابن عباس رضي الله عنهما المعيشة الضنك هي أن تضيق عليه أبواب الخير فلا يهتدي لشيء منها وسئل الشبلي عن قوله عليه الصلاة والسلام اذا رأيتم أهل البلاء فاسألوا الله العافية فقال أهل البلاء هم أهل الغفلات عن الله تعالى فعقوبتهم أن يردهم الله تعالى الى أنفسهم وأي معيشة أضيق وأشد من أن يرد الانسان الى نفسه وعن عطاء قال المعيشة الضنك هي معيشة الكافر لانه غير موقن بالثواب والعقاب (وأما الخامس) وهو أن يكون المراد الضيق في كل ذلك أو أكثره فروي عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عقوبة المعصية ثلاثة ضيق المعيشة والعسر في الشدة وأن لا يتوصل الى قوته الا بمعصية الله تعالى * أما قوله تعالى ونحشره يوم القيامة أعمى ففيه وجوه (أحدها) هذا مثل قوله ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما وكما فسرت الزرقة بالعمى ثم قيل انه يحشر بصيرا فاذا سيق الى المحشر عمي والكلام فيه وعليه قد تقدم في قوله زرقا (وثانيها) قال مجاهد والضحاك ومقاتل يعني أعمى عن الحجة وهي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال القاضي هذا القول ضعيف لان في القيامة لابد أن يعلمهم الله تعالى بطلان ما كانوا عليه حتى يتميز لهم الحق من الباطل ومن هذا حاله لا يوصف بذلك الا مجازا والمراد به أنه كان من قبل ذلك كذلك ولا يليق بهذا قوله وقد كنت بصيرا ولم يكن كذلك في حال الدنيا * أقول ومما يؤكد هذا الاعتراض أنه تعالى علل ذلك العمى بأن المكلف نسي الدلائل في الدنيا فلو كان العمى الحاصل في الآخرة عين ذلك النسيان لم يكن للمكلف بسبب ذلك ضرر كما أنه ما كان له في الدنيا بسبب ذلك ضرر واعلم أن تحقيق الجواب عن هذا الاعتراض مأخوذ من أمر آخر وهو أن الارواح الجاهلة في الدنيا المفارقة عن أبدانها على جهالتها تبقى على تلك الجهالة في الآخرة وان تلك الجهالة تصير هناك سببا لاعظم الآلام الروحانية وبين هذه الطريقة وبين

يديه فدلوه فيها فتعلق بشفيرها فربطوا يديه ونزعوا قميصه لما عزموا عليه من تلطيخه بالدم احتيالا لابيه فقال يا اخوتاه ردوا على قميصي لأتوارى به فقالوا ادع الشمس والقمر والاحد عشر كوكبا تؤانسك فدلوه فيها فلما بلغ نصفها ألقوه ليموت وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم أوى الى صخرة فقام عليها وهو يبكي فنادوه وظن أنها رحمة أدركتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه فمنعهم يهودا وكان يأتيه بالطعام كل يوم ويروى أن ابراهيم عليه السلام حين ألقي في النار وجرد عن ثيابه أتاه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة فألبسه اياه فدفعه ابراهيم الى اسحق واسحق الى يعقوب فجعله يعقوب في تميمة وعلقها في عنق يوسف فجاءه جبريل عليه السلام فأخرجه من التميمة فألبسه اياه (وأوحينا اليه) عند ذلك تبشيرا له بما يؤول اليه أمره وازالة لوحشته وايناسا له قيل كان ذلك قبل ادراكه كما أوحي الى يحيى وعيسى وقيل كان اذذاك مدركا قال الحسن رضي الله عنه كان له سبع عشرة سنة (لتنبئنهم بأمرهم هذا) أي لتتخلصن مما أنت فيه من سوء الحال وضيق المجال ولتحدثن اخوتك بما فعلوا بك (وهم لا يشعرون) أنك يوسف لتباين حاليك حالك هذا وحالك يومئذ لعلو شأنك وكبرياء سلطانك وبعد حالك عن أوهامهم وقيل لبعد العهد المبدل للهيآت المغير للأشكال والاول أدخل في التسلية روي انهم حين دخلوا عليه ممتارين فعرفهم وهم له منكرون لذلك دعا بالصواع فوضعه على يده ثم نقره فطن فقال انه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يقال له يوسف وكان يدنيه دونكم وانكم انطلقتم به وألقيتموه في غيابة الجب وقلتم لابيكم أكله الذئب وبعتموه بثمن بخس ويجوز ان يتعلق وهم لا يشعرون بالايحاء على معنى أنا

طريقة القاضي المبنية على أصول الاعتزال بون شديد (وثالثها) قال الجبائي المراد من حشره أعمى أنه لا يهتدي يوم القيامة الى طريق ينال منه خيرا بل يبقى واقفا متحيرا كالاعمى الذي لا يهتدي الى شيء أما قوله قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ففي تقرير هذا الجواب وجهان (أحدهما) انه تعالى انما أنزل به هذا العمى جزاء على تركه اتباع الهدى والاعراض عنه (والثاني) هو ان الارواح البشرية اذا فارقت أبدانها جاهلة ضالة عن الاتصال بالروحانيات بقيت على تلك الحالة بعد المفارقة وعظمت الآلام الروحانية فلهذا علل الله تعالى حصول العمى في الآخرة بالاعراض عن الدلائل في الدنيا ومن فسر المعيشة الضنك بالضيق في الدنيا قال انه تعالى بين ان من أعرض عن ذكره فله في الدنيا المعيشة الضنك في الدنيا والعمى في الآخرة أما قوله وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه فقد اختلفوا فيه فبعضهم قال أشرك وكفر وبعضهم قال أسرف في أن عصى الله وقد بين تعالى المراد بذلك بقوله ولم يؤمن بآيات ربه لان ذلك كالتفسير لقوله أسرف وبين أنه يجزي من هذا حاله بما تقدم ذكره من المعيشة الضنك والعمى وبين بعد ذلك أن عذاب الآخرة أشد وأبقى أما الاشد فلعظمه وأما الابقى فلانه غير منقطع ﴿ قوله تعالى ﴿ أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ان في ذلك لآيات لاولي النهى ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح واطراف النهار لعلك ترضى ﴾ اعلم أنه تعالى لما بين ان من أعرض عن ذكره كيف يحشر يوم القيامة أتبعه بما يعتبر به المكلف من الاحوال الواقعة في الدنيا بمن كذب الرسل فقال أفلم يهد لهم والقراءة العامة أفلم يهد بالياء المعجمة من تحت وفاعله هو قوله كم أهلكنا قال القفال جعل كثرة ما أهلك من القرون مبينا لهم كما جعل مثل ذلك واعظا لهم وزاجرا وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي أفلم نهد لهم بالنون قال الزجاج يعني أفلم نبين لهم بيانا يهتدون به لو تدبروا وتفكروا وأما قوله كم أهلكنا فالمراد به المبالغة في كثرة من أهلكه الله تعالى من القرون الماضية وأراد بقوله يمشون في مساكنهم ان قريشا يشاهدون تلك الآيات العظيمة الدالة على ما كانوا عليه من النعم وما حل بهم من ضروب الهلاك والمشاهدة في ذلك من الاعتبار ما ليس لغيره وبين ان في تلك الآيات آيات لاولي النهى أي لاهل العقول والاقرب ان النهى مزية على العقل والنهى لا يقال الا فيمن له عقل ينتهي به عن القبائح كما أن لقولنا أولو العزم مزية على أولو الحزم فلذلك قال بعضهم أهل الورع وأهل التقوى ثم بين تعالى الوجه الذي لاجله لا ينزل العذاب معجلا على من كذب وكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى وفيه تقديم وتأخير والتقدير ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما ولا شبهة في أن الكلمة هي اخبار الله تعالى ملائكته وكتبه في اللوح المحفوظ ان أمته عليه الصلاة والسلام وان كذبوا فسيؤخرون ولا يفعل بهم ما يفعل بغيرهم من الاستئصال واختلفوا فيما لاجله لم يفعل ذلك بأمة محمد صلى الله عليه وسلم قال بعضهم لانه علم أن فيهم من يؤمن وقال آخرون علم أن في نسلهم من يؤمن ولو أنزل بهم العذاب لعمهم الهلاك وقال آخرون المصلحة فيه خفية لا يعلمها الا هو وقال أهل السنة له بحكم المالكية أن يخص من شاء بفضله ومن شاء بعذابه من غير علة اذ لو كان فعله لعلة لكانت تلك العلة ان كانت قديمة لزم قدم الفعل وان كانت حادثة افتقرت الى علة أخرى ولزم التسلسل فلهذا قال أهل التحقيق كل شيء صنعه ولا علة لصنعه وأما الاجل المسمى ففيه قولان (أحدهما) ولولا أجل مسمى في الدنيا لذلك العذاب وهو يوم بدر (والثاني) ولولا أجل مسمى في الآخرة

أنبأناه بالوحي وأزلنا عن قلبه الوحشة التي أورثوه وهم لا يشعرون بذلك ويحسبون أنه مرهق ومستوحش لا أنيس له وقرئ لننبئنهم بالنون
على أنه وعيد لهم فقوله تعالى وهم لا يشعرون متعلق بأوحينا لا غير (وجاؤا أباهم عشاء) آخر النهار وقرئ عشيا وهو تصغير عشي وعشى
بالضم والقصر جمع أعشى أي عشوا من البكاء (يبكون) متباكين روي أنه لما سمع ٩٥ يعقوب عليه السلام بكاءهم فزع وقال
ما لكم يا بني وأين يوسف (قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق) أي متسابقين في العدو والرمي وقد يشترك الافتعال والتفاعل كالانتضال والتناضل ونظائرهما (وتركنا يوسف عند متاعنا) أي ما يتمتع به من الثياب والأزواد وغيرهما (فأكله الذئب) عقيب ذلك من غير مضي زمان يعتاد فيه التفقد والتعهد وحيث لا يكاد يطرح المتاع عادة إلا في مقام يؤمن فيه الغوائل لم يعد تركه عليه السلام عنده من باب الغفلة وترك الحفظ الملتزم لا سيما إذا لم يبعدوا ولم يغيبوا عنه فكأنهم قالوا إنا لم نقصر في محافظته ولم نغفل عن مراقبته بل تركناه في مأمننا ومجمعنا بمرأى منا لأن ميدان السباق لا يكون عادة إلا بحيث يتراءى غايتاه وما فارقناه إلا ساعة يسيرة بيننا وبينه مسافة قصيرة فكان ما كان (وما أنت بمؤمن لنا) بمصدق لنا في هذه المقالة الدالة على عدم تقصيرنا في أمره
(ولو كنا) عندك وفي اعتقادك (صادقين) موصوفين بالصدق والثقة لشدة محبتك ليوسف فكيف وأنت سيء الظن بنا غير واثق بقولنا
وكلمة لو في أمثال هذه المواقع لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق من الحكم الموجب أو المنفي على كل حال مفروض من الأحوال المقارنة له على الإجمال بإدخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع غيره من الأحوال بطريق

لذلك العذاب وهو أقرب ويكون المراد ولولا كلمة سبقت تتضمن تأخير العذاب إلى الآخرة كقوله بل
الساعة موعدهم لكان العقاب لازما لهم فيما يقدمون عليه من تكذيب الرسول وأذيتهم له ثم إنه تعالى
لما أخبر نبيه بأنه لا يهلك أحدا قبل استيفاء أجله أمره بالصبر على ما يقولون ولا شبهة في أن المراد أن يصبر
على ما يكرهه من أقوالهم فيحتمل أن يكون ذلك قول بعضهم إنه ساحر أو مجنون أو شاعر إلى غير ذلك ويحتمل
أن يكون المراد تكذيبهم له فيما يدعيه من النبوة ويحتمل أيضا تركهم القبول منه لأن كل ذلك مما يغمه
ويؤذيه فرغبه تعالى في الصبر وبعثه على الإدامة على الدعاء إلى الله تعالى وإبلاغ ما حمل من الرسالة وأن
لا يكون ما يقدمون عليه صارفا له عن ذلك ثم قال الكلبي ومقاتل هذه الآية منسوخة بآية القتال ثم قال
فسبح بحمد ربك وهو نظير قوله واستعينوا بالصبر والصلاة وفيه مسائل (المسألة الأولى) بحمد ربك في
موضع الحال أي وأنت حامد لربك على أن وفقك للتسبيح وأعانك عليه (المسألة الثانية) إنما أمر عقيب
الصبر بالتسبيح لأن ذكر الله تعالى يفيد السلوة والراحة إذ لا راحة للمؤمنين دون لقاء الله تعالى (المسألة
الثالثة) اختلفوا في التسبيح على وجهين فالأكثرون على أن المراد منه الصلاة وهؤلاء اختلفوا على ثلاثة
أوجه (أحدها) أن الآية تدل على الصلوات الخمس لا أزيد ولا أنقص فقال ابن عباس رضي الله
عنهما دخلت الصلوات الخمس فيه فقبل طلوع الشمس هو صلاة الفجر وقبل غروبها هو الظهر والعصر
لأنهما جميعا قبل الغروب ومن آناء الليل فسبح المغرب والعشاء الأخيرة ويكون قوله وأطراف النهار
كالتوكيد للصلاتين الواقعتين في طرفي النهار وهما صلاة الفجر وصلاة المغرب كما اختصت في قوله
والصلاة الوسطى بالتوكيد (القول الثاني) أن الآية تدل على الصلوات الخمس وزيادة أما دلالتها على
الصلوات الخمس فلأن الزمان إما أن يكون قبل طلوع الشمس أو قبل غروبها فالليل والنهار داخلان في
هاتين العبارتين فأوقات الصلوات الواجبة دخلت فيهما بقي قوله ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار
لعلك ترضى وأطراف النهار للنوافل (القول الثالث) أنها تدل على أقل من الخمس فقوله قبل طلوع
الشمس للفجر وقبل غروبها للعصر ومن آناء الليل للمغرب والعتمة فبقي الظهر خارجا والقول الأول أقوى
وبالاعتبار أولى هذا كله إذا حملنا التسبيح على الصلاة قال أبو مسلم لا يبعد حمله على التنزيه والإجلال والمعنى
اشتغل بتنزيه الله تعالى في هذه الأوقات وهذا القول أقرب إلى الظاهر وإلى ما تقدم ذكره وذلك لأنه تعالى
صبره أولا على ما يقولون من تكذيبه ومن إظهار الشرك والكفر والذي يليق بذلك أن يأمر بتنزيهه تعالى
عن قولهم حتى يكون دائما مظهرا لذلك وداعيا إليه فلذلك قال ما يجمع كل الأوقات (المسألة الرابعة)
أفضل الذكر ما كان بالليل لأن الجمعية فيه أكثر وذلك لسكون الناس وهدوء حركاتهم وتعطيل الحواس
عن الحركات وعن الأعمال ولذلك قال سبحانه وتعالى إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا وقال أمن
هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ولأن الليل وقت السكون والراحة فإذا صرف إلى العبادة
كانت على النفس أشق وللبدن أتعب فكانت أدخل في استحقاق الأجر والفضل (المسألة الخامسة)
لقائل أن يقول النهار له طرفان فكيف قال وأطراف النهار بل الأولى أن يقول كما قال وأقم الصلاة طرفي
النهار وجوابه من الناس من قال أقل الجمع اثنان فسقط السؤال ومنهم من قال إنما جمع لأنه يتكرر في
كل نهار ويعود أما قوله تعالى لعلك ترضى ففيه وجوه (أحدها) أن هذا كما يقول الملك الكبير يا فلان
اشتغل بالخدمة فلعلك تنتفع به ويكون المراد أني أوصلك إلى درجة عالية في النعمة وهو إشارة إلى قوله
ولسوف يعطيك ربك فترضى وقوله عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا (وثانيها) لعلك ترضى ما تنال من

الاولوية لما أن الشيء متى تحقق مع المنافي القوي فلأن يتحقق مع غيره أولى ولذلك لا يذكر معه شيء من سائر الاحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملة لجميع الاحوال المغايرة لها عند تعددها وقد مر تفصيله في سورة البقرة عند قوله تعالى أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيأ ولا يهتدون وفي سورة الاعراف عند قوله تعالى أولو كنا كارهين (وجاؤا على قميصه) محله النصب على الظرفية من قوله (بدم) أي جاؤا فوق قميصه بدم كما تقول جاء على جماله بأحمال أو على الحالية منه والخلاف في تقدم الحال على المجرور فيما اذا لم يكن الحال ظرفا (كذب) مصدر وصف به الدم مبالغة أو مصدر بمعنى المفعول أي مكذوب فيه أو بمعنى ذي كذب أي ملابس الكذب وقرئ كذبا على أنه حال من الضمير أي جاؤا كاذبين أو مفعول له وقرأت عائشة رضي الله تعالى عنها بغير المعجمة أي كدر وقيل طري قال ابن جني أصله من الكدب وهو الفوف أي البياض الذي يخرج على أظفار الاحداث كأنه دم قد أثر في قميصه روي أنهم ذبحوا سخلة ولطخوه بدمها وزل عنهم أن يمزقوه فلما سمع يعقوب بخبر يوسف عليهما السلام صاح بأعلى صوته وقال أين القميص فأخذه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال تالله ما رأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا أكل ابني ولم يمزق عليه قميصه وقيل لأن كان في قميص يوسف عليه السلام ثلاث آيات كان دليلا ليعقوب على كذبهم وألقاه على وجهه فارتد بصيرا ودليلا على براءة يوسف عليه السلام حين قد من دبر (قال) استئناف مبني على سؤال فكأنه قيل ما قال يعقوب هل صدقهم فيما قالوا أم لا فقيل قال لم يكن ذلك (بل

الثواب (وثالثها) لعلك ترضى ما تنال من الشفاعة وقرأ الكسائي وعاصم لعلك ترضى بضم التاء والمعنى لا يختلف لأن الله تعالى اذا أرضاه فقد رضيه واذا رضيه فقد أرضاه ﴿قوله تعالى ﴿ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الاولى ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى﴾ اعلم أنه تعالى لما صبر رسوله عليه السلام على ما يقولون وأمره بأن يعدل الى التسبيح أتبع ذلك بنهيه عن مد عينيه الى ما متع به القوم فقال تعالى ولا تمدن عينيك وفيه مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ في قوله ولا تمدن عينيك وجهان (أحدهما) المراد منه نظر العين وهؤلاء قالوا مد النظر تطويله وأن لا يكاد يرده استحسانا للمنظور اليه واعجابا به كما فعل نظارة قارون حيث قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون انه لذو حظ عظيم حتى واجههم أولو العلم والايمان بقولهم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه وذلك كما اذا نظر الانسان الى شيء مرة ثم غض ولما كان النظر الى الزخارف كالمركوز في الطباع قيل ولا تمدن عينيك أي لا تفعل ما أنت معتاد له ولقد شدد المتقون في وجوب غض البصر عن أبنية الظلمة وعدد الفسقة في اللباس والمركوب وغير ذلك لأنهم اتخذوا هذه الاشياء لعيون النظارة فالناظر اليها محصل لغرضهم وكالمغري لهم على اتخاذها (القول الثاني) قال أبو مسلم الذي نهي عنه بقوله ولا تمدن عينيك ليس هو النظر بل هو الاسف أي لا تأسف على ما فاتك مما نالوه من حظ الدنيا ﴿المسألة الثانية﴾ قال أبو رافع نزل ضيف بالنبي صلى الله عليه وسلم فبعثني الى يهودي ليبيع أو يسلف فقال والله لا أفعل ذلك الا برهن فأخبرته بقوله فأمرني أن أذهب بدرعه اليه فنزل قوله تعالى ولا تمدن عينيك وقال عليه السلام ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى أموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم والى أعمالكم وقال أبو الدرداء الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له وعن الحسن لولا حمق الناس لخربت الدنيا وعن عيسى بن مريم عليه السلام قال لا تتخذوا الدنيا ربا فتتخذكم لها عبيدا وعن عروة بن الزبير أنه كان اذا رأى ما عند السلاطين يتلو هذه الآية ويقول الصلاة رحمكم الله أما قوله عز وجل الى ما متعنا به أي ألذذنا به والامتاع الالذاذ بما يدرك من المناظر الحسنة ويسمع من الاصوات المطربة ويشم من الروائح الطيبة وغير ذلك من الملابس والمناكح يقال أمتعه امتاعا ومتعه تمتيعا والتفعيل يقتضي التكثير أما قوله أزواجا منهم أي أشكالا وأشباها من الكفار وهي من المزاوجة بين الاشياء وهي المشاكلة وذلك لأنهم أشكال في الذهاب عن الصواب وقال ابن عباس رضي الله عنهما أصنافا منهم وقال الكلبي والزجاج رجالا منهم أما قوله زهرة الحياة الدنيا ففي انتصابه أربعة أوجه (أحدها) على الذم وهو النصب على الاختصاص أو على تضمين متعنا معنى أعطينا وكونه مفعولا ثانيا له أو على ابداله من محل الجار والمجرور أو على ابداله من أزواجا على تقدير ذوي فان قيل ما معنى الزهرة فيمن حرك قلنا معنى الزهرة بعينه وهو الزينة والبهجة كما جاء في الجهرة قرئ أرنا الله جهرة وأن يكون جمع زاهر وصفا لهم بأنهم زهرة هذه الدنيا لصفاء ألوانهم وتهلل وجوههم بخلاف ما عليه الصلحاء من شحوب الالوان والتقشف في الثياب أما قوله لنفتنهم فيه فذكروا فيه وجوها (أحدها) لنعذبهم به كقوله فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا (وثانيها) قال ابن عباس رضي الله عنهما لنضلهم (وثالثها) قال الكلبي ومقاتل تشديدا في التكليف عليهم

لان الاعراض عن الدنيا عند حضورها والاقبال الى الله أشد من ذلك عند عدم حضورها ولذلك كان رجوع الفقراء الى خدمة الله تعالى والتضرع اليه أكثر من تضرع الاغنياء ولان على من أوتى الدنيا ضروبا من التكاليف لولاها لما لزمتهم تلك التكاليف ولان القادر على المعاصى يكون الاجتناب عن المعاصى أشق عليه من العاجز الفقير فمن هذه الجهات تكون الزيادة فى الدنيا تشديدا فى التكاليف ثم قال لرسوله ورزق ربك خير وأبقى والاظهر أن المراد ما هو لك الذى تجده من الثواب خير من مطلوبهم وأبقى لانه يدوم ولا ينقطع وليس كذلك حال ما أوتوه من الدنيا ويحتمل أن يكون المراد ما أوتيته من يسير الدنيا اذا قرنته بالطاعة خير لك من حيث العاقبة وأبقى فذكر الرزق فى الدنيا ووصفه بحسن عاقبته اذا رضى به وصبر عليه ويحتمل ان يكون المراد ما أعطى من النبوة والدرجات الرفيعة وأما قوله وأمر أهلك بالصلاة فمنهم من حمله على أقاربه ومنهم من حمله على كل أهل دينه وهذا أقرب وهو كقوله وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وان احتمل ان يكون المراد من يضمه المسكن اذ التنبيه على الصلاة والامر بها فى أوقاتها يمكن فيهم دون سائر الامة يعنى كما أمرناك بالصلاة فأمر أنت قومك بها أما قوله واصطبر عليها فالمراد كما تأمرهم فحافظ عليها فعلا فان الوعظ بلسان الفعل أتم منه بلسان القول وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية يذهب الى فاطمة وعلى عليهما السلام كل صباح ويقول الصلاة وكان يفعل ذلك أشهرا ثم بين تعالى انه انما يأمرهم بذلك لمنافعهم وانه متعال عن المنافع بقوله لا نسألك رزقا نحن نرزقك وفيه وجوه (أحدها) قال أبو مسلم المعنى انه تعالى انما يريد منه ومنهم العبادة ولا يريد منه أن يرزقه كما تريد السادة من العبيد الخراج وهو كقوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون (وثانيها) لا نسألك رزقا لنفسك ولا لاهلك بل نحن نرزقك ونرزق أهلك ففرغ بالك لامر الآخرة وفى معناه قول الناس من كان فى عمل الله كان الله فى عمله (وثالثها) المعنى انا انما أمرناك بالصلاة فليس ذلك لانا ننتفع بصلاتك فعبر عن هذا المعنى بقوله لا نسألك رزقا بل نحن نرزقك فى الدنيا بوجوه النعم وفى الآخرة بالثواب قال عبد الله بن سلام كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا نزل بأهله ضيق أو شدة أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية واعلم أنه ليس فى الآية رخصة فى ترك التكسب لانه تعالى قال فى وصف المتقين رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله أما قوله والعاقبة للتقوى فالمراد والعاقبة الجميلة لاهل التقوى بتقوى الله تعالى ثم انه سبحانه بعد هذه الوصية حكى عنهم شبهتهم فكأنه من تمام قوله فاصبر على ما يقولون وهى قولهم لولا يأتينا بآية من ربه أرهموا بهذا الكلام انه يلزمهم الايمان من غير آية وقالوا فى موضع آخر فليأتنا بآية كما أرسل الاولون فأجاب الله تعالى عنه بقوله أولم تأتهم بينة ما فى الصحف الاولى وفيه وجوه (أحدها) ان ما فى القرآن اذا وافق ما فى كتبهم مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يشتغل بالدراسة والتعلم وما رأى أستاذا البتة كان ذلك اخبارا عن الغيب فيكون معجزا (وثانيها) ان بينة ما فى الصحف الاولى ما فيها من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وبنبوته وبعثته (وثالثها) ذكر ابن جرير والقفال المعنى أولم تأتهم بينة ما فى الصحف الاولى من أنباء الامم التى أهلكناهم لما سألوا الآيات وكفروا بها كيف عاجلناهم بالعقوبة فماذا يؤمنهم أن يكون حالهم فى سؤال الآيات كحال أولئك وانما أتاهم هذا البيان فى القرآن فلهذا وصف القرآن بكونه بينة ما فى الصحف الاولى واعلم أنه انما ذكر الضمير الراجع الى البينة لانها فى معنى البرهان والدليل ثم بين انه تعالى أزاح لهم كل عذر وعلة فى التكليف فقال ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا والمراد كان لهم أن يقولوا ذلك فيكون عذرا لهم فأما الآن

سولت لكم أنفسكم) أى زينت وسهلت قاله ابن عباس رضى الله عنهما والتسويل تقدير شئ فى النفس مع الطمع فى اتمامه قال الأزهرى كأن التسويل تفعيل من سؤال الانسان وهو أمنيته التى يطلبها فتزين لطالبها الباطل وغيره وأصله مهموز وقيل من السول وهو الاسترخاء (أمرا) من الامور منكرا لا يوصف ولا يعرف (فصبر جميل) أى فأمرى صبر جميل أو فصبر جميل أجمل أو أمثل وفى الحديث الصبر الجميل الذى لا شكوى فيه أى الى الخلق والا فقد قال يعقوب عليه السلام انما أشكو بثى وحزنى الى الله وقيل سقط حاجباه على عينيه فكان يرفعهما بعصابة فقيل له ما هذا قال طول الزمان وكثرة الاحزان فأوحى الله عز وجل اليه يا يعقوب أتشكونى قال يا رب خطيئة فاغفرها لى وقرأ أبى فصبرا جميلا (والله المستعان) أى المطلوب منه العون وهو انشاء منه عليه السلام للاستعانة المستمرة (على ما تصفون) على اظهار حال ما تصفون وبيان كونه كذبا واظهار سلامته فانه علم فى الكذب قال سبحانه سبحان ربك رب العزة عما يصفون وهو الاليق بما سيجىء من قوله تعالى فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا وتفسير المستعان عليه باحتمال ما يصفون من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه يأباه تكذيبه عليه السلام لهم فى ذلك ولا يساعده الصيغة فانها

قد غلبت فى وصف الشئ بما ليس فيه كما أشير اليه (وجاءت) شروع فى بيان ما جرى على يوسف فى الجب بعد الفراغ من ذكر ما وقع بين اخوته وبين أبيه والتعبير بالمجئ عليس بالنسبة الى مكانهم فان كنعان ليس بالجانب المصرى من مدين بل الى مكان يوسف وفى ابشارة على المرور أو الاتيان أو نحوهما ايماء الى كونه عليه السلام فى الكرامة والزلفى عند مالك مقتدر وانه رأس

وقد أرسلناك وبينا على لسانك لهم ما عليهم وما لهم فلا حجة لهم البتة بل الحجة عليهم ومعنى من قبله يحتمل من قبل ارساله ويحتمل من قبل ما أظهره من البينات فان قيل فما معنى قوله ولو أنا أهلكناهم لقالوا والهالك لا يصح أن يقول قلنا المعنى لكان لهم أن يقولوا اذ ذلك يوم القيامة ولذلك قال من قبل أن نذل ونخزى وذلك لا يليق الا بعذاب الآخرة روى أن أبا سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال قال عليه الصلاة والسلام يحتج على الله تعالى يوم القيامة ثلاثة الهالك فى الفترة يقول لم يأتنى رسول والا كنت أطوع خلقك لك وتلا قوله لولا أرسلت الينا رسولا والمغلوب على عقله يقول لم تجعل لى عقلا أنتفع به ويقول الصبى كنت صغيرا لا أعقل فترفع لهم نار ويقال لهم ادخلوها فيدخلها من كان فى علم الله تعالى أنه شقى ويبقى من فى علمه انه سعيد فيقول الله تعالى لهم عصيتم اليوم فكيف برسلى لو أتوكم والقاضى طعن فى الخبر وقال لا يحسن العقاب على من لا يعقل واعلم أن فى هذه الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال الجبائى هذه الآية تدل على وجوب فعل اللطف اذ المراد انه يجب أن يفعل بالمكلفين ما يؤمنون عنده ولو لم يفعل لكان لهم أن يقولوا هلا فعلت ذلك بنا لنؤمن وهلا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك وان كان فى المعلوم أنهم لا يؤمنون ولو بعث اليهم الرسول لم يكن فى ذلك حجة فصح انه انما يكون حجة لهم اذا كان فى المعلوم انهم يؤمنون عنده اذا أطاعوه ﴿المسئلة الثانية﴾ قال الكعبى قوله لولا أرسلت الينا رسولا أوضح دليل على انه تعالى يقبل الاحتجاج من عباده وانه ليس قوله لا يسئل عما يفعل كما ظنه أهل الجبر من ان ما هو جور منا يكون عدلا منه بل تأويله انه لا يقع منه الا العدل فاذا ثبت انه تعالى يقبل الحجة فلو لم يكونوا قادرين على ما أمروا به لكان لهم فيه أعظم حجة ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال أصحابنا الآية تدل على أن الوجوب لا يتحقق الا بالشرع اذ لو تحقق العقاب قبل مجىء الشرع لكان العقاب حاصلا قبل مجىء الشرع والآية تنفى تحقق العقاب قبل مجىء الشرع ثم انه سبحانه ختم السورة بضرب من الوعيد فقال قل كل متربص أى كل منا ومنكم منتظر عاقبة أمره وهذا الانتظار يحتمل أن يكون قبل الموت اما بسبب الامر بالجهاد أو بسبب ظهور الدولة والقوة ويحتمل أن يكون بالموت فان كل واحد من الخصمين ينتظر موت صاحبه ويحتمل أن يكون بعد الموت وهو ظهور أمر الثواب والعقاب فانه يتميز فى الآخرة المحق من المبطل بما يظهر على المحق من أنواع كرامة الله تعالى وعلى المبطل من أنواع اهانته فستعلمون عند ذلك من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى اليه وليس هو بمعنى الشك والترديد بل هو على سبيل التهديد والزجر للكفار والله أعلم

﴿سورة الانبياء عليهم السلام مائة واثنتا عشرة آية مكية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا الا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون﴾ اعلم أن قوله تعالى اقترب للناس حسابهم فيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ القرب لا يعقل الا فى المكان والزمان والقرب المكانى ههنا ممتنع فتعين القرب الزمانى والمعنى اقترب للناس وقت حسابهم ﴿المسئلة الثانية﴾ لقائل أن يقول كيف وصف بالاقتراب وقد عبر بعد هذا القول قريب من ستمائة عام (الجواب) من ثلاثة أوجه (أحدها) انه مقترب عند الله تعالى والدليل عليه قوله تعالى ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون (وثانيها) أن كل آت قريب وان طالت أوقات ترقبه وانما

الجب كان فى أمم المشاة فان المتبادر من اسناد المجىء الى السيارة مطلقا فى قوله عز وجل وجاءت (سيارة) أى رفقة تسير من جهة مدين الى مصر وقوعه باعتبار سيرهم المعتاد وهو الذى يقتضيه قوله تعالى فيما سلف يلتقطه بعض السيارة وقد قيل انه كان فى قفرة بعيدة من العمران لم تكن الا للرعاة فأخطؤا الطريق فنزلوا قريبا منه وقيل كان ماؤه ملحا فعذب حين ألقى فيه عليه السلام (فأرسلوا واردهم) الذى يرد الماء ويستقى لهم وكان ذلك مالك بن ذعر الخزاعى وانما لم يذكر منتهى الارسال كما لم يذكر منتهى المجىء أعنى الجب للايذان بان ذلك معهود لا يضرب عنه الذكر صفحا (فأدلى دلوه) أى أرسلها الى الجب والحذف لما عرفته فتدلى بها يوسف فخرج (قال) استئناف مبنى على سؤال يقتضيه الحال (يا بشرى هذا غلام) كأنه نادى البشرى وقال تعالى فهذا أوانك حيث فاز بنعمة نادرة وأى نعمة مكان ما يجده صاحبا من الماء وقيل اسم صاحب له ناداه ليعينه على اخراجه وقرأ غير الكوفيين يا بشراى وأمال فتحة الراء حمزة والكسائى وقرأ ورش بين اللفظين وقرئ يا بشرى بالادغام وهى لغة وبشراى على قصد الوقف (وأسروه) أى أخفاه الوارد وأصحابه عن بقية الرفقة وقيل أخفوا أمره ووجدانهم له فى الجب وقالوا لهم دفعه الينا أهل الماء لنبيعه لهم بمصر وقيل الضمير لاخوة يوسف وذلك أن يهودا كان يأتيه كل يوم بطعام فأتاه يومئذ فلم يجده فيها فأخبر اخوته فأتوا الرفقة وقالوا هذا غلام أبق منا فاشتروه منهم وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه ولا يخفى ما فيه من البعد (بضاعة) نصب على الحالية أى أخفوه حال كونه بضاعة أى متاع التجارة فانهم اذ لقطوه من المنزل بضمنت عنه أى قطعت لتجارة (والله عليم بما يعملون) وعيد لهم على ما صنعوا من جعلهم

مثل يوسف وهو عرضة للابتذال بالبيع والشراء وما دبروا في ذلك من الحيل (وشروه) أي باعوه والضمير للوارد وأصحابه (بثمن بخس) زيف ناقص العيار (دراهم) بدل من ثمن أي لا دنانير (معدودة) أي غير موزونة فهو بيان لقلته ونقصانه مقدارا بعد بيان نقصانه في نفسه اذ المعتاد فيما لا يبلغ أربعين العد دون الوزن فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها كانت عشرين درهما وعن السدي رضي الله عنه أنها كانت اثنين وعشرين درهما (وكانوا) أي البائعون (فيه) في يوسف (من الزاهدين) من الذين لا يرغبون فيما بأيديهم فلذلك باعوه بما ذكر من الثمن البخس وسبب ذلك أنهم التقطوه والملتقط للشيء متهاون به أو غير واثق بأمره يخاف أن يظهر له مستحق فينتزعه منه فيبيعه من أول مساوم بأوكس ثمن ويجوز أن يكون معنى شروه اشتروه من اخوته على ما حكي وهم غير راغبين في شرائه مخافة ذهاب مالهم لما طن في آذانهم من الاباق والعدول عن صيغة الافتعال المنبئة عن الاتخاذ لما مر من أن أخذهم انما كان بطريق المضاعة دون الاجتباء والاقتناء وفيه متعلق بالزاهدين ان جعل اللام للتعريف وبيان لما زهدوا فيه ان جعلت موصولة كأنه قيل في أي شيء زهدوا فقيل زهدوا فيه لان ما يتعلق بالصلة لا يتقدم على الموصول (وقال الذي اشتراه من مصر) وهو العزيز الذي كان على خزائنه واسمه قطفير أو اطفير وبيان كونه من مصر لتربية ما يتفرع عليه من الامور مع الاشعار بكونه غير من اشتراه من الملتقطين بما ذكر من الثمن البخس وكان الملك يومئذ الريان بن الوليد العمليقي ومات في حياة يوسف عليه السلام بعد أن آمن به فملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه الى الاسلام فأبى وقيل كان الملك في أيامه فرعون موسى عليه السلام

البعيد هو الذي انقرض قال الشاعر

فلا زال ما تهواه أقرب من غد ٭ ولا زال ما تخشاه أبعد من أمس

(وثالثها) أن المعاملة اذا كانت مؤجلة الى سنة ثم انقضى منها شهر فانه لا يقال اقترب الاجل أما اذا كان الماضي أكثر من الباقي فانه يقال اقترب الاجل فعلى هذا الوجه قال العلماء ان فيه دلالة على قرب القيامة ولهذا الوجه قال عليه السلام بعثت أنا والساعة كهاتين ولهذا الوجه قيل انه عليه السلام ختم به النبوة كل ذلك لاجل أن الباقي من مدة التكليف أقل من الماضي (المسئلة الثالثة) انما ذكر تعالى هذا الاقتراب لما فيه من المصلحة للمكلفين فيكون أقرب الى تلافي الذنوب والتحرز عنها خوفا من ذلك والله أعلم (المسئلة الرابعة) انما لم يعين الوقت لاجل أن كتمانه أصلح كما أن كتمان وقت الموت أصلح (المسئلة الخامسة) الفائدة في تسمية يوم القيامة بيوم الحساب ان الحساب هو الكاشف عن حال المرء فالخوف من ذكره أعظم (المسئلة السادسة) يجب أن يكون المراد بالناس من له مدخل في الحساب وهم المكلفون دون من لا مدخل له ثم قال ابن عباس المراد بالناس المشركون وهذا من اطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم وهو ما يتلوه من صفات المشركين أما قوله تعالى وهم في غفلة معرضون فاعلم أنه تعالى وصفهم بأمرين الغفلة والاعراض أما الغفلة فالمعنى انهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون في عاقبتهم مع اقتضاء عقولهم أنه لابد من جزاء المحسن والمسيء ثم اذا انتبهوا من سنة الغفلة ورقدة الجهالة مما يتلى عليهم من الآيات والنذر أعرضوا وسدوا أسماعهم أما قوله ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن أبي عبلة محدث بالرفع صفة للمحل (المسئلة الثانية) انما ذكر الله تعالى ذلك بيانا لكونهم معرضين وذلك لان الله تعالى يجدد لهم الذكر وقتا فوقتا ويظهر لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة ليكرر على أسماعهم التنبيه والموعظة لعلهم يتعظون فما يزيدهم ذلك الا لعبا واستسخارا (المسئلة الثالثة) المعتزلة احتجوا على حدوث القرآن بهذه الآية فقالوا القرآن ذكر والذكر محدث فالقرآن محدث بيان ان القرآن ذكر قوله تعالى في صفة القرآن ان هو الا ذكر للعالمين وقوله وانه لذكر لك ولقومك وقوله ص والقرآن ذي الذكر وقوله انا نحن نزلنا الذكر وقوله ان هو الا ذكر وقرآن مبين وقوله وهذا ذكر مبارك أنزلناه وبيان ان الذكر محدث قوله في هذا الموضع ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث وقوله في سورة الشعراء ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث ثم قالوا فصار مجموع هاتين المقدمتين المنصوصتين كالنص في أن القرآن محدث والجواب من وجهين (الاول) أن قوله ان هو الا ذكر للعالمين وقوله وهذا ذكر مبارك اشارة الى المركب من الحروف والاصوات فاذا ضممنا اليه قوله ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث لزم حدوث المركب من الحروف والاصوات وذلك مما لا نزاع فيه بل حدوثه معلوم بالضرورة وانما النزاع في قدم كلام الله تعالى بمعنى آخر (الثاني) ان قوله ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث لا يدل على حدوث كل ما كان ذكرا بل على ذكر ما محدث كما ان قول القائل لا يدخل هذه البلدة رجل فاضل الا يبغضونه فانه لا يدل على ان كل رجل يجب أن يكون فاضلا بل على ان في الرجال من هو فاضل واذا كان كذلك فالآية لا تدل الا على ان بعض الذكر محدث فيصير نظم الكلام هكذا القرآن ذكر وبعض الذكر محدث وهذا لا ينتج شيأ كما ان قول القائل الانسان حيوان وبعض الحيوان فرس لا ينتج شيأ فظهر ان الذي ظنوه قاطعا لا يفيد ظنا ضعيفا فضلا عن القطع أما قوله الا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ان ذلك ذم للكفار وزجر لغيرهم عن مثله لان الانتفاع بما يسمع لا يكون الا

عبارة ترجع إلى القلب من تدبر وتفكر وإذا كانوا عند استماعه لاعبين حصلوا على مجرد الاستماع الذي قد تشارك البهيمة فيه الإنسان ثم أكد تعالى ذمهم بقوله لاهية قلوبهم واللاهية من لهى عنه إذا ذهل وغفل وإنما ذكر اللعب مقدما على اللهو كما في قوله تعالى إنما الحياة الدنيا لعب ولهو تنبيها على أن اشتغالهم باللعب الذي معناه السخرية والاستهزاء معلل باللهو الذي معناه الذهول والغفلة فإنهم أقدموا على اللعب للهوهم وذهولهم عن الحق والله أعلم بالصواب (المسألة الثانية) قال صاحب الكشاف وهم يلعبون لاهية قلوبهم حالان مترادفان أو متداخلان ومن قرأ لاهية بالرفع فالحال واحدة لأن لاهية قلوبهم خبر بعد خبر لقوله وهم أما قوله وأسروا النجوى الذين ظلموا ففيه سؤالان (الأول) النجوى وهي اسم من التناجي لا تكون إلا خفية فما معنى قوله وأسروا النجوى (الجواب) معناه بالغوا في إخفائها وجعلوها بحيث لا يفطن أحد لتناجيهم (السؤال الثاني) لم قال وأسروا النجوى الذين ظلموا (الجواب) أبدل الذين ظلموا من أسروا إشعارا بأنهم هم الموسومون بالظلم الفاحش فيما أسروا به أو جاء على لغة من قال أكلوني البراغيث أو هو منصوب المحل على الذم أو هو مبتدأ خبره أسروا النجوى قدم عليه والمعنى وهؤلاء أسروا النجوى فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلا على فعلهم بأنه ظلم أما قوله هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ففيه مسائل (المسألة الأولى) قال صاحب الكشاف هذا الكلام كله في محل النصب بدلا من النجوى أي وأسروا هذا الحديث ويحتمل أن يكون التقدير وأسروا النجوى وقالوا هذا الكلام (المسألة الثانية) إنما أسروا هذا الحديث لوجهين (أحدهما) أنه كان ذلك شبه التشاور فيما بينهم والتحاور في طلب الطريق إلى هدم أمره وعادة المتشاورين أن يجتهدوا في كتمان سرهم عن أعدائهم (الثاني) يجوز أن يسروا نجواهم بذلك ثم يقولوا للرسول والمؤمنين إن كان ما تدعونه حقا فأخبرونا بما أسررناه (المسألة الثالثة) أنهم طعنوا في نبوته بأمرين (أحدهما) أنه بشر مثلهم (والثاني) أن الذي أتى به سحر وكلا الطعنين فاسد (أما الأول) فإن النبوة تقف صحتها على المعجزات والدلائل لا على الصور إذ لو بعث الملك إليهم لما علم كونه نبيا لصورته وإنما كان يعلم بالعلم فإذا ظهر ذلك على من هو بشر فيجب أن يكون نبيا بل الأولى أن يكون المبعوث إلى البشر بشرا لأن المرء إلى القبول من أشكاله أقرب وهو به آنس (وأما الثاني) وهو أن ما أتى به الرسول عليه السلام سحر وأنهم يرون كونه سحرا فجهل أيضا لأن كل ما أتى به الرسول من القرآن وغيره ظاهر الحال لا تمويه فيه ولا تلبيس فيه فقد كان عليه السلام يتحداهم بالقرآن حالا بعد حال مدة من الزمان وهم أرباب الفصاحة والبلاغة وكانوا في نهاية الحرص على إبطال أمره وأقوى الأمور في إبطال أمره معارضة القرآن فلو قدروا على المعارضة لامتنع أن لا يأتوا بها لأن الفعل عند توفر الدواعي وارتفاع الصارف واجب الوقوع فلما لم يأتوا بها دلنا ذلك على أنه في نفسه معجزة وأنهم عرفوا حاله فكيف يجوز أن يقال إنه سحر والحال على ما ذكرناه وكل ذلك يدل على أنهم كانوا عالمين بصدقه إلا أنهم كانوا يموهون على ضعفائهم بمثل هذا القول وإن كانوا فيه مكابرين ﴿ قوله تعالى ﴿قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون﴾ أما قوله قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم ففيه مسائل (المسألة الأولى) قرئ قال ربي حكاية لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي قراءة حمزة والكسائي وحفص عن عاصم وقرأ الباقون قل بضم القاف وحذف الألف وسكون اللام (المسألة الثانية) أنه تعالى لما أورد هذا الكلام عقيب ما حكى عنهم وجب أن يكون كالجواب لما قالوه فكأنه قال

عاش أربعمائة سنة لقوله عز وجل ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات وقيل فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف والآية من قبيل خطاب الأولاد بأحوال الآباء واختلف في مقدار ما اشتراه به العزيز فقيل بعشرين دينارا وزوجي نعل وثوبين أبيضين وقيل أدخلوه في السوق يعرضونه فترافعوا في ثمنه حتى بلغ ثمنه وزنه مسكا ووزنه ورقا ووزنه حريرا فاشتراه قطفير بذلك المبلغ وكان سنه إذ ذاك سبع عشرة سنة وأقام في منزله مع ما مر عليه من مدة لبثه في السجن ثلاث عشرة سنة واستوزره الريان وهو ابن ثلاثين سنة وآتاه الله العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة (لامرأته) راعيل أو زليخا وقيل اسمها هو الأول والثاني لقبها واللام متعلقة بقال لا باشتراه (أكرمي مثواه) اجعلي محل إقامته كريما مرضيا والمعنى أحسني تعهده (عسى أن ينفعنا) في ضياعنا وأموالنا ونستظهر به في مصالحنا (أو نتخذه ولدا) أي نتبناه وكان ذلك لما تفرس فيه من مخايل الرشد والنجابة ولذلك قيل أفرس الناس ثلاثة عزيز مصر وابنة شعيب التي قالت يا أبت استأجره وأبو بكر حين استخلف عمر رضي الله عنهما (وكذلك) نصب على المصدرية وذلك إشارة إلى ما يفهم من كلام العزيز وما فيه من معنى البعد لتفخيمه أي مثل ذلك التمكين البديع (مكنا ليوسف في الأرض) أي جعلنا له فيها مكانا يقال مكنه فيه أي أثبته فيه ومكن له فيه أي جعل له فيه مكانا ولتقاربهما وتلازمهما انكم يستعمل كل منهما في محل الآخر قال عز وجل وكم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم أي ما لم نمكنكم فيها أو مكنا لهم في الأرض الخ والمعنى كما جعلنا له مثوى كريما في منزل العزيز أو مكانا عليا في قلبه حتى أمر امرأته دون سائر حواشيه بإكرام مثواه

جعلنا له مكانة رفيعة في أرض مصر واعلاه عبارة عن جعله وجيها بين أهلها ومحببا في قلوبهم كافة كما في قلب العزيز لانه الذي يؤدي الى الغاية المذكورة في قوله تعالى (ولنعلمه من تأويل الاحاديث) أي نوفقه لتعبير بعض المنامات التي عمدتها رؤيا الملك وصاحبي السجن لقوله تعالى ذلكما مما علمني ربي سواء جعلناه معطوفا على غاية مقدرة ينساق اليها الكلام ويستدعيها النظام كأنه قيل

انكم وان أخفيتم قولكم وطعنكم فان ربي عالم بذلك وانه من وراء عقوبته فتوعدوا بذلك لكي لا يعودوا الى مثله (المسألة الثالثة) قال صاحب الكشاف فان قلت فهلا قيل يعلم السر لقوله وأسروا النجوى قلت القول عام يشمل السر والجهر فكان في العلم به العلم بالسر وزيادة فكان آكد في بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول يعلم السر كما ان قوله تعالى يعلم السر آكد من أن يقول يعلم سرهم فان قلت فلم ترك الآكد في سورة الفرقان في قوله قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والارض قلت ليس بواجب أن يجيء بالآكد في قوله في كل موضع ولكن يجيء بالتوكيد مرة وبالآكد مرة أخرى ثم الفرق انه قدم ههنا انهم أسروا النجوى فكأنه أراد أن يقول ان ربي يعلم ما أسروه فوضع القول موضع ذلك للمبالغة وثمة قصد وصف ذاته بان قال أنزله الذي يعلم السر في السموات والارض فهو كقوله علام الغيوب عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة (المسألة الرابعة) انما قدم السميع على العليم لانه لابد من سماع الكلام أولا ثم من حصول العلم بمعناه أما قوله بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الاولون فاعلم أنه تعالى عاد الى حكاية قولهم المتصل بقوله هل هذا الا بشر مثلكم أفتأتون السحر ثم قال بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فحكى عنهم هذه الاقوال الخمسة فترتيب كلامهم كانهم قالوا ندعي ان كونه بشرا مانع من كونه رسولا لله تعالى سلمنا انه غير مانع ولكن لا نسلم ان هذا القرآن معجز ثم اما أن نساعد على ان فصاحة القرآن خارجة عن مقدور البشر قلنا لم لا يجوز أن يكون ذلك سحرا وان لم نساعد عليه فان ادعينا كونه في نهاية الركاكة قلنا انه أضغاث أحلام وان ادعينا انه متوسط بين الركاكة والفصاحة قلنا انه افتراه وان ادعينا انه كلام فصيح قلنا انه من جنس فصاحة سائر الشعراء وعلى جميع هذه التقديرات فانه لا يثبت كونه معجزا ولما فرغوا من تعديد هذه الاحتمالات قالوا فليأتنا بآية كما أرسل الاولون فالمراد انهم طلبوا آية جلية لا يتطرق اليها شيء من هذه الاحتمالات كالآيات المنقولة عن موسى وعيسى عليهما السلام ثم ان الله تعالى بدأ بالجواب عن هذا السؤال الاخير بقوله ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون والمعنى انهم في العتو أشد من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات وعهدوا انهم يؤمنون عندها فلما جاءتهم نكثوا وخالفوا فأهلكهم الله فلو أعطيناهم ما يقترحون لكانوا أشد نكثا قال الحسن رحمه الله تعالى انهم لم يجابوا الان حكم الله تعالى ان من كذب بعد الاجابة الى ما اقترحه من الآيات فلابد من أن ينزل به عذاب الاستئصال وقد مضى حكمه في أمة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة بخلاف ذلك فلذلك لم يجبهم ﴿ قوله تعالى ﴿وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحي اليهم فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون﴾ اعلم انه تعالى أجاب عن سؤالهم الاول وهو قولهم هل هذا الا بشر مثلكم بقوله وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحي اليهم فبين ان هذه عادة الله تعالى في الرسل من قبل محمد صلى الله عليه وسلم ولم يمنع ذلك من كونهم رسلا للآيات التي ظهرت عليهم فاذا صح ذلك فيهم فقد ظهر على محمد مثل آياتهم فلا معنى للطعن عليه في كونه بشرا فأما قوله تعالى فاسئلوا أهل الذكر فالمعنى انه تعالى أمرهم أن يسألوا أهل الذكر وهم أهل الكتاب حتى يعلموهم ان رسل الله الموحى اليهم كانوا بشرا ولم يكونوا ملائكة وانما أحالهم على هؤلاء لانهم كانوا يتابعون المشركين في معاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعالى ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا فان قيل اذا لم يوثق باليهود والنصارى فكيف يجوز أن يأمرهم بأن يسألوهم عن الرسل قلنا اذا تواتر خبرهم وبلغ حد الضرورة جاز ذلك

ومثل ذلك التمكين مكنا ليوسف في الارض وجعلنا قلوب أهلها كافة مجال محبته ليترتب عليه ما ترتب مما جرى بينه وبين امرأة العزيز ولنعلمه بعض تأويل الاحاديث وهو تأويل الرؤيا المذكورة فيؤدي ذلك الى الرياسة العظمى ولعل ترك المعطوف عليه للاشعار بعدم كونه مرادا بالذات أو جعلناه علة لعلل محذوفة كأنه قيل ولهذه الحكمة البالغة فعلنا ذلك التمكين دون غيرها مما ليس له عاقبة حميدة هذا ولا يخفى عليك أن الذي عليه تدور هذه الامور انما هو التمكين في جانب العزيز وأما التمكين في جانب الناس كافة فتأديته الى ذلك انما هي باعتبار اشتماله على ذلك التمكين فاذن الحق أن يكون ذلك اشارة الى مصدر قوله تعالى مكنا ليوسف على أن يكون هو عبارة عن التمكين في قلب العزيز أو في منزله وكون ذلك تمكينا في الارض بملابسة انه عزيز فيها لا عن تمكين آخر يشبه به كما مر في قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا من أن ذلك اشارة الى مصدر الفعل المذكور بعده لا الى جعل آخر يقصد تشبيه هذا الجعل به فالكاف مقحم للدلالة على فخامة شأن المشار اليه اقحاما لا يكاد يترك في لغة العرب ولا في غيرها ومن ذلك قولهم مثلك لا يبخل وهكذا ينبغي أن يحقق المقام وأما التمكين بمعنى جعله ملكا يتصرف في أرض مصر بالامر والنهي فهو من آثار ذلك التعليم ونتائجه المتفرعة

كما قد يعمل بخبر الكفار اذا تواتر مثل ما يعمل بخبر المؤمنين ومن الناس من قال المراد بأهل الذكر أهل القرآن وهو بعيد لانهم كانوا طاعنين في القرآن وفي الرسول صلى الله عليه وسلم فاما تعلق كثير من الفقهاء بهذه الآية في أن للعامي أن يرجع الى فتيا العلماء وفي أن للمجتهد أن يأخذ بقول مجتهد آخر فبعيد لان هذه الآية خطاب مشافهة وهي واردة في هذه الواقعة المخصوصة ومتعلقة باليهود والنصارى على التعيين ثم بين تعالى انه لم يجعل الرسل قبله جسدا لا يأكلون الطعام وفيه أبحاث (الاول) قوله لا يأكلون الطعام صفة جسدا والمعنى وما جعلنا الانبياء ذوي جسد غير طاعمين (الثاني) وحد الجسد لارادة الجنس كانه قال ذوي ضرب من الاجساد (الثالث) انهم كانوا يقولون ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا فأجاب الله بقوله وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام فبين تعالى ان هذه عادة الله تعالى في الرسل من قبل وانه لم يجعلهم جسدا الا يأكلون بل جسدا يأكلون الطعام ولا يخلدون في الدنيا بل يموتون كغيرهم ونبه بذلك على أن الذي صاروا به رسلا غير ذلك وهو ظهور المعجزات على أيديهم وبراءتهم عن الصفات القادحة في التبليغ أما قوله تعالى ثم صدقناهم الوعد فقال صاحب الكشاف هو مثل قوله واختار موسى قومه سبعين رجلا والاصل في الوعد ومن قومه ومنه صدقوهم القتال ومن نشاء هم المؤمنون قال المفسرون المراد منه أنه تقدم وعده جل جلاله بأنه انما يهلك بعذاب الاستئصال من كذب الرسل دون نفس الرسل ودون من صدق بهم وجعل الوفاء بما وعد صدقا من حيث يكشف عن الصدق ومعنى وأهلكنا المسرفين أي بعذاب الاستئصال وليس المراد عذاب الآخرة لانه اخبار عما مضى وتقدم ثم بين تعالى بقوله لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم عظيم نعمته عليهم بالقرآن في الدين والدنيا فلذلك قال فيه ذكركم وفيه ثلاثة أوجه (أحدها) ذكركم شرفكم وصيتكم كما قال وانه لذكر لك ولقومك (وثانيها) المراد فيه تذكرة لكم لتحذروا ما لا يحل وترغبوا فيما يجب ويكون المراد بالذكر الوعد والوعيد كما قال وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين (وثالثها) المراد ذكر دينكم ما يلزم وما لا يلزم لتفوزوا بالجنة اذا تمسكتم به وكل ذلك محتمل وقوله أفلا تعقلون كالبعث على التدبر في القرآن لانهم كانوا غافلين لان الخوض من لوازم الغفلة والتدبر دافع لذلك الخوض ودفع الضرر عن النفس من لوازم العقل فمن لم يتدبر فكأنه خرج عن العقل ﴿ قوله تعالى ﴿وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسئلون قالوا يا ويلنا انا كنا ظالمين فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين﴾ اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم تلك الاعتراضات وكانت تلك الاعتراضات ظاهرة السقوط لان شرائط الاعجاز لما تمت في القرآن ظهر حينئذ لكل عاقل كونه معجزا وعند ذلك ظهر ان اشتغالهم بايراد تلك الاعتراضات كان لاجل حب الدنيا وحب الرياسة فيها فبالغ سبحانه في زجرهم عن ذلك فقال وكم قصمنا من قرية قال صاحب الكشاف القصم أفظع الكسر وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الاجزاء بخلاف الفصم وذكر القرية وانها ظالمة وأراد أهلها توسعا لدلالة العقل على انها لا تكون ظالمة ولا مكلفة ولدلالة قوله تعالى وأنشأنا بعدها قوما آخرين فالمعنى أهلكنا قوما وأنشأنا قوما آخرين وقال فلما أحسوا بأسنا الى قوله قالوا يا ويلنا انا كنا ظالمين وكل ذلك لا يليق الا بأهلها الذين كلفوا بتصديق الرسل فكذبوهم ولولا هذه الدلائل لما جاز منه سبحانه ذكر المجاز لانه يكون ذلك موهما للكذب واختلفوا في هذا الاهلاك فقال ابن عباس المراد منه القتل بالسيوف والمراد بالقرية حضور وهي وسحول قريتان باليمن ينسب اليهما

عليه كما عرفته لا من مباديه المؤدية اليه فلا سبيل الى جعله غاية له ولم يعهد منه عليه السلام في تضاعيف قضايا ما العمل بموجب المنامات المنبئة على الحوادث قبل وقوعها عدا ما صح عليه الجعل غاية لولايته وما وقع من التدارك في أمر السنين فانما هو عمل بموجب الرؤيا السابقة المعهودة اللهم الا أن يراد بتعليم تأويل الاحاديث ما سبق من تفهيم غوامض أسرار الكتب الالهية ودقائق سنن الانبياء عليهم السلام فيكون المعنى حينئذ مكناله في أرض مصر ليتصرف فيها بالعدل ولنعلمه معاني كتب الله تعالى وأحكامها ودقائق سنن الانبياء عليهم السلام فيقضي بها فيما بين أهلها والتعليم الاجمالي لتلك المعاني والاحكام وان كان غير متأخر عن تمكينه بذلك المعنى الا أن تعليم كل معنى شخصي يتفق في ضمن الحوادث والارشاد الى الحق في كل نازلة من النوازل متأخر عن ذلك صالح لأن يكون غاية له (والله غالب على أمره) لا يستعصي عليه أمر ولا يمانعه شئ بل انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون فيدخل في ذلك شؤنه المتعلقة بيوسف دخولا أوليا أو متولي على أمر يوسف لا يكله الى غيره وقد أريد به من الفتنة ما أريد مرة بعد مرة فلم يكن الا ما أراد الله له من العاقبة الحميدة (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن الامر كذلك فيأتون ويذرون زعما منهم أن لهم من الامر شيأ وأنى لهم ذلك وان الامر كله لله عز وجل أو لا يعلمون لطائف صنعه وخفايا فضله (ولما بلغ أشده) أي منتهى اشتداد جسمه وقوته وهو سن الوقوف ما بين الثلاثين الى الاربعين وقيل سن الشباب ومبدأ بلوغ الحلم والاول هو الاظهر لقوله تعالى (آتيناه حكما) حكمة وهو العلم المؤيد بالعمل أو حكما بين الناس وفقها أو نبوة (وعلما) أي تفقها في الدين وتنكيرهما للتفخيم أي حكما وعلما لا يكتنه

الثياب وفي الحديث كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثوبين سحوليين وروى حضور بن عدي بعث الله إليهم نبيا فقتلوه فسلط الله عليهم بختنصر كما سلطه على أهل بيت المقدس فاستأصلهم وروى أنه لما أخذتهم السيوف نادى مناد من السماء يا لثارات الأنبياء فندموا واعترفوا بالخطأ وقال الحسن المراد عذاب الاستئصال واعلم أن هذا أقرب لأن إضافة ذلك إلى الله تعالى أقرب من إضافته إلى القاتل ثم بتقدير أن يحمل ذلك على عذاب القتل فما الدليل على قول ابن عباس ولعل ابن عباس ذكر حضور بأنها إحدى القرى التي أرادها الله تعالى بهذه الآية وأما قوله تعالى فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون فالمعنى لما علموا شدة عذابنا وبطشنا علم حس ومشاهدة ركضوا في ديارهم والركض ضرب الدابة بالرجل ومنه قوله تعالى اركض برجلك فيجوز أن يكونوا ركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب ويجوز أن يشبهوا في سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين أما قوله لا تركضوا قال صاحب الكشاف القول محذوف فإن قلت من القائل فلنا يحتمل أن يكون بعض الملائكة ومن ثم من المؤمنين أو يكونوا خلقاء بأن يقال لهم ذلك وإن لم يقل أو يقوله رب العزة ويسمعه ملائكته لينفعهم في دينهم أو يلهمهم ذلك فيحدثون به نفوسهم أما قوله وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم أي من العيش والرفاهية والحال الناعمة والإتراف إبطار النعمة وهي الترفه أما قوله تعالى لعلكم تسئلون فهو تهكم بهم وتوبيخ ثم فيه وجوه (أحدها) أي ارجعوا إلى نعمكم ومساكنكم لعلكم تسئلون غدا عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة (وثانيها) ارجعوا كما كنتم في مجالسكم حتى تسألكم عبيدكم ومن ينفذ فيه أمركم ونهيكم ويقول لكم بم تأمرون وماذا ترسمون كعادة المخدومين (وثالثها) تسألكم الناس في أنديتكم لتعاونوهم في نوازل الخطوب ويستشيرونكم في المهمات ويستضيئون بآرائكم (ورابعها) يسألكم الوافدون عليكم والطامعون فيكم إما لأنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رئاء الناس وطلب الثناء أو كانوا بخلاء فقيل لهم ذلك تهكما إلى تهكم وتوبيخا إلى توبيخ أما قوله تعالى فما زالت تلك دعواهم فقال صاحب الكشاف تلك إشارة إلى يا ويلنا لأنها دعوى كأنه قيل فما زالت تلك الدعوى دعواهم والدعوى بمعنى الدعوة قال تعالى وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين فإن قلت لم سميت دعوى قلت لأنهم كانوا دعوا بالويل فقالوا يا ويلنا أي يا ويل احضر فهذا وقتك وتلك مرفوع أو منصوب اسما أو خبرا وكذلك دعواهم قال المفسرون لم يزالوا يكررون هذه الكلمة فلم ينفعهم ذلك كقوله تعالى فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا أما قوله حتى جعلناهم حصيدا خامدين فالحصيد الزرع المحصود أي جعلناهم مثل الحصيد شبههم به في استئصالهم كما تقول جعلناهم رمادا أي مثل الرماد فإن قيل كيف ينصب جعل ثلاثة مفاعيل قلت حكم الاثنين الآخرين حكم الواحد والمعنى جعلناهم جامعين لهذين الوصفين والمراد أنهم أهلكوا بذلك العذاب حتى لم يبق لهم حس ولا حركة وجفوا كما يجف الحصيد وخمدوا كما تخمد النار ﴿ قوله تعالى ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون﴾ اعلم أن فيه مسائل ﴿المسئلة الأولى﴾ في تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان (الأول) أنه تعالى لما بين إهلاك أهل القرية لأجل تكذيبهم أتبعه بما يدل على أنه فعل ذلك عدلا منه ومجازاة على ما فعلوا فقال وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين أي وما سوينا هذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من العجائب والغرائب كما تسوي الجبابرة سقوفهم وفروشهم للهو واللعب وإنما سويناها

كنزهما ولا يقادر قدرهما فهما ما آتاه الله تعالى عند تكامل قواه سواء كانا عبارة عن النبوة والحكم بين الناس أو غيرهما كيف لا وقد جعل إيتاؤهما جزاء له عليه السلام حيث قيل (وكذلك) أي مثل ذلك الجزاء العجيب (نجزي المحسنين) أي كل من يحسن في عمله فيجب أن يكون ذلك بعد انقضاء أعماله الحسنة التي من جملتها معاناة الأحزان والشدائد وقد فسر العلم بعلم تأويل الأحاديث ولا صحة له إلا أن يخص بعلم تأويل رؤيا الملك فإن ذلك حيث كان عند تناهي أيام البلاء صح أن يعد إيتاؤه من جملة الجزاء وأما رؤيا صاحبي السجن فقد لبث عليه السلام بعد تعبيرها في السجن بضع سنين وفي تعليق الجزاء المذكور بالمحسنين إشعار بعلية الإحسان له وتنبيه على أنه سبحانه إنما آتاه ما آتاه لكونه محسنا في أعماله متقيا في عنفوان أمره هل جزاء الإحسان إلا الإحسان (وراودته التي هو في بيتها) رجوع إلى شرح ما جرى عليه في منزل العزيز بعد ما أمر امرأته بإكرام مثواه وقوله تعالى وكذلك مكنا ليوسف إلى هنا اعتراض جيء به أنموذجا للقصة ليعلم السامع من أول الأمر أن ما لقيه عليه السلام من الفتن التي ستحكى بتفاصيلها له غاية جميلة وعاقبة حميدة وأنه عليه السلام محسن في جميع أعماله لم يصدر عنه في حالتي السراء والضراء ما يخل بنزاهته ولا يخفى أن مدار حسن التخلص إلى هذا الاعتراض قبل تمام الآية الكريمة إنما هو التمكين البالغ المفهوم من كلام العزيز فإدراج الإيتاء السابق تحت الإشارة بذلك في قوله تعالى وكذلك مكنا كما فعله الجمهور ناء من التقريب فتأمل والمراودة المطالبة من راد يرود إذا جاء وذهب لطلب شيء ومنه الرائد لطالب الماء والكلأ وهي مفاعلة من واحد نحو مطالبة الدائن ومماطلة المديون ومداواة الطبيب ونظائرها مما يكون من أحد

لفوائد دينية ودنيوية أما الدينية فليتفكر المتفكرون فيها على ما قال تعالى ويتفكرون في خلق السموات والارض وأما الدنيوية فلما يتعلق بها من المنافع التي لا تعد ولا تحصى وهذا كقوله وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا وقوله ما خلقناهما الا بالحق (والثاني) ان الغرض منه تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والرد على منكريه لانه أظهر المعجزة عليه فان كان محمد كاذبا كان اظهار المعجزة عليه من باب اللعب وذلك منفي عنه وان كان صادقا فهو المطلوب وحينئذ يفسد كل ما ذكروه من المطاعن (المسئلة الثانية) قال القاضي عبد الجبار دلت الآية على ان اللعب ليس من قبله تعالى اذ لو كان كذلك لكان لاعبا فان اللاعب في اللغة اسم لفاعل اللعب فنفي الاسم الموضوع للفعل يقتضي نفي الفعل (والجواب) يبطل ذلك بمسئلة الداعي على ما مر غير مرة أما قوله لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين فاعلم أن قوله لاتخذناه من لدنا معناه من جهة قدرتنا وقيل اللهو الولد بلغة اليمن وقيل المرأة وقيل من لدنا أي من الملائكة لا من الانس ردا لمن قال بولادة المسيح وعزير أما قوله تعالى بل نقذف بالحق على الباطل فاعلم أن قوله بل اضراب عن اتخاذ اللهو واللعب وتنزيه منه لذاته كانه قال سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب بل من عادتنا وموجب حكمتنا أن نغلب اللعب بالجد وندحض الباطل بالحق واستعار لذلك القذف والدمغ تصويرا لابطاله فجعله كانه جرم صلب كالصخرة مثلا قذف به على جرم رخو فدمغه فأما قوله تعالى ولكم الويل مما تصفون يعني من تمسك بتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم ونسب القرآن الى أنه سحر وأضغاث أحلام الى غير ذلك من الاباطيل وهو الذي عناه بقوله مما تصفون ﴿ قوله تعالى ﴿وله من في السموات والارض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان (الاول) انه تعالى لما نفي اللعب عن نفسه ونفي اللعب لا يصح الا بنفي الحاجة ونفي الحاجة لا يصح الا بالقدرة التامة لا جرم عقب تلك الآية بقوله وله من في السموات والارض لدلالة ذلك على كمال الملك والقدرة (الثاني) وهو الاقرب انه تعالى لما حكى كلام الطاعنين في النبوات وأجاب عنها وبين أن غرضهم من تلك المطاعن التمرد وعدم الانقياد بين في هذه الآية انه تعالى منزه عن طاعتهم لانه هو المالك لجميع المحدثات والمخلوقات ولاجل ان الملائكة مع جلالتهم مطيعون له خائفون منه فالبشر مع نهاية الضعف أولى أن يطيعوه (المسئلة الثانية) قوله وله من في السموات والارض معناه ان كل المكلفين في السماء والارض فهم عبيده وهو الخالق لهم والمنعم عليهم بأصناف النعم فيجب على الكل طاعته والانقياد لحكمه (المسئلة الثالثة) دلالة قوله ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته على ان الملك أفضل من البشر من ثلاثة أوجه قد تقدم بيانها في سورة البقرة (المسئلة الرابعة) قوله ومن عنده المراد بهم الملائكة باجماع الامة ولانه تعالى وصفهم بانهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهذا لا يليق بالبشر وهذه العندية عندية الشرف والرتبة لا عندية المكان والجهة فكأنه تعالى قال الملائكة مع كمال شرفهم ونهاية جلالتهم لا يستكبرون عن طاعته فكيف يليق بالبشر الضعيف التمرد عن طاعته (المسئلة الخامسة) قال الزجاج ولا يستحسرون ولا يتعبون ولا يعيون قال صاحب الكشاف فان قلت الاستحسار مبالغة في الحسور فكان الابلغ في وصفهم أن ينفي عنهم أدنى الحسور قلت في الاستحسار بيان ان ما هم فيه يوجب غاية الحسور وأقصاه وانهم أحقاء لتلك العبادات الشاقة بان يستحسروا فيما يفعلون أما قوله تعالى يسبحون الليل والنهار لا يفترون فالمعنى ان تسبيحهم متصل دائم في جميع أوقاتهم لا يتخلله فترة بفراغ أو بشغل آخر روى عن عبد الله بن الحرث بن نوفل قال قلت لكعب

الجانبين الفعل ومن الآخر سببه فان هذه الافعال وان كانت صادرة عن أحد الجانبين لكن لما كانت أسبابها صادرة عن الجانب الآخر جعلت كأنها صادرة عنهما وهذا باب لطيف المسلك مبني على اعتبار دقيق تحقيقه أن سبب الشئ يقام مقامه ويطلق عليه اسمه كما في قولهم كما تدين تدان أي كما تجزي تجزى فان فعل البادئ وان لم يكن جزاء لكنه لكونه سببا للجزاء أطلق عليه اسمه وكذلك ارادة القيام الى الصلاة وارادة قراءة القرآن حيث كانتا سببا للقيام والقراءة عبر عنهما بهما فقيل اذا قمتم الى الصلاة فاذا قرأت القرآن وهذه قاعدة مطردة مستمرة ولما كانت أسباب الافعال المذكورة فيما نحن فيه صادرة عن الجانب المقابل لجانب فاعلها فان مطالبة الدائن للمماطلة التي هي من جانب الغريم وهي منه للمطالبة التي هي من جانب الدائن وكذا مداواة الطبيب للمرض الذي هو من جانب المريض وكذلك مراودتها فيما نحن فيه لجمال يوسف عليه السلام نزل صدورها عن محالها بمنزلة صدور مسبباتها التي هي تلك الافعال فبني الصيغة على ذلك وروعي جانب الحقيقة بان أسند الفعل الى الفاعل وأوقع على صاحب السبب فتأمل ويجوز أن يراد بصيغة المغالبة مجرد المبالغة وقيل الصيغة على بابها بمعنى أنها طلبت منه الفعل وهو منها الترك ويجوز أن يكون من الرويد وهو الرفق والتمحل وتعديتها بعن لتضمينها معنى المخادعة فالمعنى خادعته (عن نفسه) أي فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن شئ لا يريد اخراجه من يده وهو يحتال أن يأخذه منه وهي عبارة عن التمحل في مواقعته اياها والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على الستر أو للاستهجان بذكره وايراد الموصول لتقرير المراودة فان كونه في بيتها مما يدعو الى

أرأيت

أرأيت قول الله تعالى يسبحون الليل والنهار لا يفترون ثم قال جاعل الملائكة رسلا أفلا تكون تلك الرسالة مانعة لهم عن هذا التسبيح وأيضا قال أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين فكيف يشتغلون باللعن حال اشتغالهم بالتسبيح أجاب كعب الأحبار فقال التسبيح لهم كالتنفس لنا فكما أن اشتغالنا بالتنفس لا يمنعنا من الكلام فكذا اشتغالهم بالتسبيح لا يمنعهم من سائر الأعمال فان قيل هذا القياس غير صحيح لأن الاشتغال بالتنفس انما لم يمنع من الكلام لأن آلة التنفس غير آلة الكلام أما التسبيح واللعن فهما من جنس الكلام فاجتماعهما محال والجواب أي استبعاد في أن يخلق الله تعالى لهم ألسنة كثيرة ببعضها يسبحون الله وببعضها يلعنون أعداء الله أو يقال معنى قوله لا يفترون أنهم لا يفترون عن العزم على أدائه في أوقاته اللائقة به كما يقال ان فلانا يواظب على الجماعات لا يفتر عنها لا يراد به أنه أبدا مشتغل بها بل يراد به أنه مواظب على العزم على أدائها في أوقاتها ۞ قوله تعالى ﴿أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون﴾ اعلم أن الكلام من أول السورة الى ههنا كان في النبوات وما يتصل بها من الكلام سؤالا وجوابا وأما هذه الآيات فانها في بيان التوحيد ونفي الأضداد والأنداد أما قوله تعالى أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ففيه مسائل (المسئلة الأولى) قال صاحب الكشاف أم ههنا هي المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة قد آذنت بالاضراب عما قبلها والانكار لما بعدها والمنكر هو اتخاذهم آلهة من الأرض ينشرون الموتى ولعمري ان من أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعض الموات فان قلت كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة ينشرون وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم بل كانوا في نهاية البعد عن هذه الدعوى فانهم كانوا مع اقرارهم بالله وبأنه خالق السموات والأرض منكرين للبعث ويقولون من يحيي العظام وهي رميم فكيف يدعونه للجماد الذي لا يوصف بالقدرة البتة قلت لأنهم لما اشتغلوا بعبادتها ولا بد للعبادة من فائدة هي الثواب فاقدامهم على عبادتها يوجب عليهم الاقرار بكونهم قادرين على الحشر والنشر والثواب والعقاب فذكر ذلك على سبيل التهكم بهم والتجهيل يعني اذا كانوا غير قادرين على أن يحيوا ويميتوا ويضروا وينفعوا فأي عقل يجوز اتخاذهم آلهة (المسئلة الثانية) قوله من الأرض كقولك فلان من مكة أو من المدينة تريد مكي أو مدني اذ معنى نسبتها الى الأرض الايذان بأنها الأصنام التي تعبد في الأرض لأن الآلهة على ضربين أرضية وسماوية ويجوز أن يراد آلهة من جنس الأرض لأنها اما أن تكون منحوتة من بعض الحجارة أو معمولة من بعض جواهر الأرض (المسئلة الثالثة) النكتة في هم ينشرون معنى الخصوصية كأنه قيل أم اتخذوا آلهة من الأرض لا يقدر على الانشار الا هم وحدهم (المسئلة الرابعة) قرأ الحسن ينشرون وهما لغتان أنشر الله الموتى ونشرها أما قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ففيه مسئلتان (المسئلة الأولى) قال أهل النحو الا ههنا بمعنى غير أي لو كان يتولاهما ويدبر أمورهما شيء غير الواحد الذي هو فاطرهما لفسدتا ولا يجوز أن يكون بمعنى الاستثناء لأنا لو حملناه على الاستثناء لكان المعنى لو كان فيهما آلهة ليس معهم الله لفسدتا وهذا يوجب بطريق المفهوم أنه لو كان فيهما آلهة معهم الله أن لا يحصل الفساد وذلك باطل لأنه لو كان فيهما آلهة فسواء لم يكن الله معهم أو كان فالفساد لازم ولما بطل حمله على الاستثناء ثبت أن المراد ما ذكرناه (المسئلة الثانية) قال المتكلمون القول بوجود الهين يفضي الى المحال فوجب

ذلك قيل لواحدة ما حملك على ما أنت عليه مما لا خير فيه قالت قرب الوساد وطول السواد ولاظهار كمال نزاهته عليه السلام فان عدم ميله اليها مع دوام مشاهدته لمحاسنها واستعصائه عليها مع كونه تحت ملكتها ينادي بكونه عليه السلام في أعلى معارج العفة والنزاهة (وغلقت الأبواب) قيل كانت سبعة ولذلك جاء الفعل بصيغة التفعيل دون الافعال وقيل للمبالغة في الايثاق والاحكام (وقالت هيت لك) قرئ بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء وبنائه كبناء أين وعيط وهيت كجير وهيت كحيث اسم فعل معناه أقبل وبادر واللام للبيان أي لك أقول هذا كما في هلم لك وقرئ هئت لك على صيغة الفعل بمعنى تهيأت يقال هاء يهيء كجاء يجيء اذا تهيأ وهيئت لك واللام صلة للفعل (قال معاذ الله) أي أعوذ بالله معاذا مما تدعينني اليه وهذا اجتناب منه على أتم الوجوه واشارة الى التعليل بأنه منكر هائل يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه وما ذاك الا لأنه عليه السلام قد شاهد مما أراه الله تعالى من البرهان النير على ما هو عليه في حد ذاته من غاية القبح ونهاية السوء وقوله عز وجل (انه ربي أحسن مثواي) تعليل للامتناع ببعض الأسباب الخارجية مما عسى يكون مؤثرا عندها وداعيا لها الى اعتباره بعد التنبيه على سببه الذاتي الذي لا تكاد تقبله لما سولته لها نفسها والضمير للشأن ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره وفائدة تصدير الجملة به الايذان بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقريره في الذهن فان الضمير لا يفهم منه من أول الأمر الا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن فكأنه قيل ان الشأن الخطير هذا وهو ربي أي سيدي العزيز أحسن مثواي أي أحسن تعهدي حيث أمرك باكرامي

فكيف يمكن أن أسيء اليه بالخيانة في حرمه وفيه ارشاد لها الى رعاية حق العزيز بألطف وجه وقيل الضمير لله عز وجل ربي خبر ان
وأحسن مثواي خبر ثان أو هو الخبر والاول بدل من الضمير والمعنى ان الحال هكذا فكيف أعصيه بارتكاب تلك الفاحشة الكبيرة وفيه
تحذير لها من عقاب الله عز وجل

وعلى التقديرين ففي الاقتصار على ماذكر من هذه الحالة من غير تعرض لاقتضائها الامتناع
عما دعته اليه ايذان بأن هذه المرتبة من البيان كافية في الدلالة على استحالته وكونه مما لا يدخل تحت الوقوع أصلا وقوله تعالى (انه لا يفلح الظالمون) تعليل للامتناع المذكور غب تعليل والفلاح الظفر وقيل البقاء في الخير ومعنى أفلح دخل فيه كأصبح واخواته والمراد بالظالمين كل من ظلم كائنا من كان فيدخل في ذلك المجازون للاحسان بالاساءة والعصاة لامر الله تعالى دخولا أوليا وقيل الزناة لانهم ظالمون لانفسهم وللمزني بأهله (ولقد همت به) بمخالطته اذ الهم لا يتعلق بالاعيان أي قصدتها وعزمت عليها عزما جازما لا يلويها عنه صارف بعد ما باشرت مباديها وفعلت ما فعلت من المراودة وتغليق الابواب ودعوته عليه السلام الى نفسها بقولها هيت لك ولعلها تصدت هنالك لافعال أخر من بسط يدها اليه وقصد المعانقة وغير ذلك مما يضطره عليه السلام
الى الهرب نحو الباب والتأكيد لدفع ما عسى يتوهم من احتمال اقلاعها عما كانت عليه بما في مقالته
عليه السلام من الزواجر (وهم بها) بمخالطتها أي مال اليها بمقتضى الطبيعة البشرية وشهوة الشباب وقرمه ميلا جبليا لا يكاد يدخل
تحت التكليف لا انه قصدها قصدا اختياريا ألا يرى الى ما سبق من استعصامه المنبئ عن كمال كراهيته له ونفرته عنه وحكمه بعدم افلاح

أن يكون القول بوجود الهين محالا انما قلنا انه يفضي الى المحال لانا لو فرضنا وجود الهين فلا بد وأن
يكون كل واحد منهما قادرا على كل المقدورات لو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادرا على تحريك
زيد وتسكينه فلو فرضنا ان أحدهما أراد تحريكه والا آخر تسكينه فاما أن يقع المرادان وهو محال لاستحالة
الجمع بين الضدين أو لا يقع واحد منهما وهو محال لان المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر فلا
يمتنع مراد هذا الا عند وجود مراد ذلك و بالعكس فلو امتنعا معا لوجدا معا وذلك محال أو يقع مراد أحدهما
دون الثاني وذلك محال أيضا لوجهين (أحدهما) انه لو كان كل واحد منهما قادرا على ما لا نهاية له امتنع
كون أحدهما أقدر من الآخر بل لا بد وأن يستويا في القدرة واذا استويا في القدرة استحال أن يصير
مراد أحدهما أولى بالوقوع من مراد الثاني والا لزم ترجيح الممكن من غير مرجح (وثانيهما) أنه اذا وقع
مراد أحدهما دون الآخر فالذي وقع مراده يكون قادرا والذي لم يقع مراده يكون عاجزا والعجز نقص وهو
على الله محال فان قيل الفساد انما يلزم عند اختلافهما في الارادة وأنتم لا تدعون وجوب اختلافهما في
الارادة بل أقصى ما تدعونه أن اختلافهما في الارادة ممكن فاذا كان الفساد مبنيا على الاختلاف في الارادة
وهذا الاختلاف ممكن والمبني على الممكن ممكن فكان الفساد ممكنا لا واقعا فكيف جزم الله تعالى بوقوع
الفساد قلنا الجواب من وجهين (أحدهما) ان الله سبحانه أجرى الممكن مجرى الواقع بناء على الظاهر
من حيث ان الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب (والثاني) وهو الاقوى أن نبين
لزوم الفساد لا من الوجه الذي ذكرناه بل من وجه آخر فنقول لو فرضنا الهين لكان كل واحد منهما قادرا
على جميع المقدورات فيفضي الى وقوع مقدور من قادرين مستقلين من وجه واحد وهو محال لان استناد
الفعل الى الفاعل لامكانه فاذا كان كل واحد منهما مستقلا بالايجاد فالفعل لكونه مع هذا يكون واجب
الوقوع فيستحيل اسناده الى هذا لكونه حاصلا منهما جميعا فيلزم استغناؤه عنهما معا واحتياجه اليهما معا
وذلك محال وهذه حجة تامة في مسألة التوحيد فنقول القول بوجود الالهين يفضي الى امتناع وقوع المقدور
لواحد منهما واذا كان كذلك وجب أن لا يقع البتة وحينئذ يلزم وقوع الفساد قطعا أو نقول لو قدرنا الهين
فاما ان يتفقا أو يختلفا فان اتفقا على الشيء الواحد فذلك الواحد مقدور لهما ومراد لهما فيلزم وقوعه بهما
وهو محال وان اختلفا فاما أن يقع المرادان أو لا يقع واحد منهما أو يقع أحدهما دون الآخر والكل محال
فثبت ان الفساد لازم على كل التقديرات فان قلت لم لا يجوز أن يتفقا على الشيء الواحد ولا يلزم الفساد
لان الفساد انما يلزم لو أراد كل واحد منهما أن يوجد هو وهذا الاختلاف أما اذا أراد كل واحد منهما أن
يكون الموجد له أحدهما بعينه فهنالك لا يلزم وقوع مخلوق بين خالقين قلت كونه موجدا له اما أن يكون
نفس القدرة والارادة أو نفس ذلك الاثر أو أمرا ثالثا فان كان الاول لزم الاشتراك في القدرة والارادة
والاشتراك في الموجدية ان كان الثاني فليس وقوع ذلك الاثر بقدرة أحدهما وارادته أولى من وقوعه
بقدرة الثاني لان لكل واحد منهما ارادة مستقلة بالتأثير وان كان الثالث وهو أن يكون الموجد له أمرا ثالثا
فذلك الثالث ان كان قديما استحال كونه متعلق الارادة وان كان حادثا فهو نفس الاثر ويصير هذا القسم
هو القسم الثاني الذي ذكرناه واعلم انك لما وقفت على حقيقة هذه الدلالة عرفت ان جميع ما في هذا العالم
العلوي والسفلي من المحدثات والمخلوقات فهو دليل على وحدانية الله تعالى بل وجود كل واحد من
الجواهر والاعراض دليل تام على التوحيد من الوجه الذي بيناه وهذه الدلالة قد ذكرها الله تعالى في
مواضع من كتابه واعلم ان ههنا أدلة أخرى على وحدانية الله تعالى (أحدها) وهو الاقوى أن يقال لو فرضنا

موجودين

الظالمين وهل هو الا تسجيل باستحالة الصدور الهم منه عليه السلام تسجيلا محكما وانما عبر عنه بالهم لمجرد وقوعه في صحبة همها في الذكر بطريق المشاكلة لا لشبهه به كما قيل ولقد أشير الى تباينهما حيث لم يلزا في قرن واحد من التعبير بأن قيل ولقد هما بالمخالطة أو هم كل منهما بالآخر وصدر الأول بما يقرر وجوده من التوكيد القسمي وعقب الثاني ١٠٧ بما يعفو أثره من قوله عز وجل (لولا أن رأى برهان ربه) أي حجته الباهرة الدالة على كمال قبح الزنا وسوء سبيله والمراد برؤيته لها كمال ايقانه بها ومشاهدته لها مشاهدة واصلة الى مرتبة عين اليقين الذي تتجلى هناك حقائق الاشياء بصورها الحقيقية وتنخلع عن صورها المستعارة التي بها تظهر في هذه النشأة على ما نطق به قوله عليه السلام حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وكأنه عليه السلام قد شاهد الزنا بموجب ذلك البرهان النير على ما هو عليه في حد ذاته أقبح ما يكون وأوجب ما يجب أن يحذر منه ولذلك فعل ما فعل من الاستعصام والحكم بعدم افلاح من يرتكبه وجواب لولا محذوف يدل عليه الكلام أي لولا مشاهدته برهان ربه في شأن الزنا لجرى على موجب ميله الجبلي ولكنه حيث كان مشاهدا له من قبل استمر على ما هو عليه من قضية البرهان وفائدة هذه الشرطية بيان أن امتناعه عليه السلام لم يكن لعدم مساعدة من جهة الطبيعة بل لمحض العفة والنزاهة مع وفور الدواعي الداخلية وترتب المقدمات الخارجية الموجبة لظهور الاحكام الطبيعية هذا وقد نص أئمة الصناعة على ان لولا في أمثال هذه المواقع جار من حيث المعنى لا من حيث الصيغة مجرى التقييد للحكم المطلق كما في مثل قوله تعالى ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا ان صبرنا عليها فلا يتحقق هناك هم

موجودين واجبي الوجود لذاتيهما فلا بد وأن يشتركا في الوجود ولا بد وأن يمتاز كل واحد منهما عن الآخر بنفسه وما به المشاركة غير ما به الممايزة فيكون كل واحد منهما مركبا مما به يشارك الآخر ومما به امتاز عنه وكل مركب فهو مفتقر الى جزئه وجزؤه غيره فكل مركب فهو مفتقر الى غيره وكل مفتقر الى غيره ممكن لذاته فواجب الوجود لذاته ممكن الوجود لذاته هذا خلف فاذن واجب الوجود ليس الا الواحد وكل ما عداه فهو ممكن مفتقر اليه وكل مفتقر في وجوده الى الغير فهو محدث فكل ما سوى الله تعالى محدث ويمكن جعل هذه الدلالة تفسيرا لهذه الآية لانا اعتمدنا على انه يلزم من فرض موجودين واجبين أن لا يكون شيء منهما واجبا واذا لم يوجد الواجب لم يوجد شيء من هذه الممكنات وحينئذ يلزم الفساد فثبت انه يلزم من وجود الهين وقوع الفساد في كل العالم (وثانيها) انا لو قدرنا الهين لوجب أن يكون كل واحد منهما مشاركا للآخر في الالهية ولا بد وأن يتميز كل واحد منهما عن الآخر بأمر ما والا لما حصل التعدد فما به الممايزة اما أن يكون صفة كمال أو لا يكون فان كان صفة كمال فالخالي عنه يكون خاليا عن الكمال فيكون ناقصا والناقص لا يكون الها وان لم يكن صفة كمال فالموصوف به يكون موصوفا بما لا يكون صفة كمال فيكون ناقصا ويمكن أن يقال ما به الممايزة ان كان معتبرا في تحقق الالهية فالخالي عنه لا يكون الها وان لم يكن معتبرا في الالهية لم يكن الاتصاف به واجبا فيفتقر الى المخصص فالموصوف به مفتقر ومحتاج (وثالثها) أن يقال لو فرضنا الهين لكان لا بد وأن يكونا بحيث يتمكن الغير من التمييز بينهما لكن الامتياز في عقولنا لا يحصل الا بالتباين في المكان أو في الزمان أو في الوجوب والامكان وكل ذلك على الاله محال فيمتنع حصول الامتياز (ورابعها) ان أحد الالهين اما أن يكون كافيا في تدبير العالم أو لا يكون فان كان كافيا كان الثاني ضائعا غير محتاج اليه وذلك نقص والناقص لا يكون الها (وخامسها) ان العقل يقتضي احتياج المحدث الى الفاعل ولا امتناع في كون الفاعل الواحد مدبرا لكل العالم فأما ما وراء ذلك فليس عدد أولى من عدد فيفضي ذلك الى وجود أعداد لا نهاية لها وذلك محال فالقول بوجود الآلهة محال (وسادسها) أن أحد الالهين اما أن يقدر على ان يخص نفسه بدليل يدل عليه ولا يدل على غيره أو لا يقدر عليه والاول محال لان دليل الصانع ليس الا بالمحدثات وليس في حدوث المحدثات ما يدل على تعيين أحدهما دون الثاني والثاني محال لانه يفضي الى كونه عاجزا عن تعريف نفسه على التعيين والعاجز لا يكون الها (وسابعها) ان أحد الالهين اما ان يقدر على أن يستر شيأ من أفعاله عن الآخر أو لا يقدر فان قدر لزم أن يكون المستور عنه جاهلا وان لم يقدر لزم كونه عاجزا (وثامنها) لو قدرنا الهين لكان مجموع قدرتيهما أقوى من قدرة كل واحد منهما وحده فيكون كل واحد من القدرتين متناهيا والمجموع ضعف المتناهي فيكون الكل متناهيا (وتاسعها) العدد ناقص لاحتياجه الى الواحد والواحد الذي يوجد من جنسه عدد ناقص لان العدد أزيد منه والناقص لا يكون الها فالاله واحد لا محالة (وعاشرها) انا لو فرضنا معدوما ممكن الوجود ثم قدرنا الهين فان لم يقدر واحد منهما على ايجاده كان كل واحد منهما عاجزا والعاجز لا يكون الها وان قدر أحدهما دون الآخر فهذا الآخر لا يكون الها وان قدرا جميعا فاما ان يوجداه بالتعاون فيكون كل واحد منهما محتاجا الى اعانة الآخر وان قدر كل واحد على ايجاده بالاستقلال فاذا أوجده أحدهما فاما أن يبقى الثاني قادرا عليه وهو محال لان ايجاد الموجود محال وان لم يبق فحينئذ يكون الاول قد أزال قدرة الثاني وعجزه فيكون مقهورا تحت تصرفه فلا يكون الها فان قيل الواحد اذا أوجد مقدوره فقد زالت قدرته عنه فيلزمكم العجز قلنا الواحد اذا أوجد فقد نفذت قدرته ونفاذ القدرة لا يكون عجزا

أصلا وقد جوزان يكون وهم بها جواب لولا جريا على قاعدة الكوفيين في جواز التقديم فالهم حينئذ على معناه الحقيقي فالمعنى لولا أنه قد شاهد برهان ربه لهم بها كما همت به ولكن حيث انتفى عدم المشاهدة بدليل استحالة همه وما يتفرع عليه انتفى الهم رأسا هذا وقد فسر همه عليه السلام بأنه عليه السلام حل الهميان وجلس مجلس الختان وبأنه حل تكة سراويله وقعد بين شعبها الأربع وبرؤيته

للبرهان بأنه سمع صوتا اياك واياها فلم يكترث ثم وثم الى أن تمثل له يعقوب عليه السلام عاضا على أنملته وقيل ضرب على صدره فخرجت شهوته من أنامله وقيل بدت كف فيما بينهما ليس فيها عضد ولا معصم مكتوب فيها وان عليكم لحافظين كراما كاتبين فلم ينصرف ثم رأى فيها ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا فلم ينته ثم رأى فيها واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله فلم ينجع فقال الله عز وجل لجبريل ادرك عبدي قبل أن يصيب الخطيئة فانحط جبريل عليه السلام وهو يقول يا يوسف أتعمل عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء وقيل رأى تمثال العزيز وقيل وقيل ان كل ذلك الا خرافات وأباطيل تمجها الآذان وتردها العقول والأذهان ويل لمن لاكها ولفقها أو سمعها وصدقها (كذلك) الكاف منصوب المحل وذلك اشارة الى الاراءة المدلول عليها بقوله تعالى لولا أن رأى برهان ربه أي مثل ذلك التبصير والتعريف عرفناه برهاننا فيما قبل أو الى التثبيت اللازم له أي مثل ذلك التثبيت ثبتناه (لنصرف عنه السوء) على الاطلاق فيدخل فيه خيانة السيد دخولا أوليا (والفحشاء) والزنا لأنه مفرط في القبح وفيه آية بينة وحجة قاطعة على أنه عليه السلام لم يقع منه هم بالمعصية ولا توجه اليها قط والا لقيل لنصرفه عن

أما الشريك فانه لما نفذت قدرته لم يبق لشريكه قدرة البتة بل زالت قدرته بسبب قدرة الأول فيكون تعجيزا (الحادي عشر) أن نقرر هذه الدلالة على وجه آخر وهو أن نعين جسما ونقول هل يقدر كل واحد منهما على خلق الحركة فيه بدلا عن السكون وبالعكس فان لم يقدر كان عاجزا وان قدر فنسوق الدلالة الى أن نقول اذا خلق أحدهما فيه حركة امتنع على الثاني خلق السكون فالأول أزال قدرة الثاني وعجزه فلا يكون الها وهذان الوجهان يفيدان العجز نظرا الى قدرتيهما والدلالة الأولى انما تفيد العجز بالنظر الى ارادتيهما (وثاني عشرها) انهما لما كانا عالمين بجميع المعلومات كان علم كل واحد منهما متعلقا بعين معلوم الآخر فوجب تماثل علميهما والذات القابلة لأحد المثلين قابلة للمثل الآخر فاختصاص كل واحد منهما بتلك الصفة مع جواز اتصافه بصفة الآخر على البدل يستدعي مخصصا يخصص كل واحد منهما بعلمه وقدرته فيكون كل واحد منهما عبدا فقيرا ناقصا (وثالث عشرها) ان الشركة عيب ونقص في الشاهد والفرد انية والتوحد صفة كمال ونرى الملوك يكرهون الشركة في الملك الحقير المختصر أشد الكراهية ونرى انه كلما كان الملك أعظم كانت النفرة عن الشركة أشد فما ظنك بملك الله عز وجل وملكوته فلو أراد أحدهما استخلاص الملك لنفسه فان قدر عليه كان المغلوب فقيرا عاجزا فلا يكون الها وان لم يقدر عليه كان في أشد الغم والكراهة فلا يكون الها (ورابع عشرها) انا لو قدرنا الهين لكان اما أن يحتاج كل واحد منهما الى الآخر أو يستغني كل واحد منهما عن الآخر أو يحتاج أحدهما الى الآخر والآخر يستغني عنه فان كان الأول كان كل واحد منهما ناقصا لأن المحتاج ناقص وان كان الثاني كان كل واحد منهما مستغنيا عنه والمستغنى عنه ناقص ألا ترى ان البلد اذا كان له رئيس والناس يحصلون مصالح البلد من غير رجوع منهم اليه ومن غير التفات منهم اليه عد ذلك الرئيس ناقصا فالاله هو الذي يستغنى به ولا يستغنى عنه وان احتاج أحدهما الى الآخر من غير عكس كان المحتاج ناقصا والمحتاج اليه هو الاله واعلم أن هذه الوجوه ظنية اقناعية والاعتماد على الوجوه المتقدمة أما الدلائل السمعية فمن وجوه (أحدها) قوله تعالى هو الأول والآخر والظاهر والباطن فالأول هو الفرد السابق ولذلك لو قال أول عبد اشتريته فهو حر فلو اشترى أولا عبدين لم يحنث لأن شرط الأول أن يكون فردا وهذا ليس بفرد فلو اشترى بعد ذلك واحدا لم يحنث أيضا لأن شرط الفرد أن يكون سابقا وهذا ليس بسابق فلما وصف الله تعالى نفسه بكونه أولا وجب أن يكون فردا سابقا فوجب أن لا يكون له شريك (وثانيها) قوله تعالى وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو فالنص يقتضي أن لا يكون أحد سواه عالما بالغيب ولو كان له شريك لكان عالما بالغيب وهو خلاف النص (وثالثها) ان الله تعالى صرح بكلمة لا اله الا هو في سبعة وثلاثين موضعا من كتابه وصرح بالوحدانية في مواضع نحو قوله والهكم اله واحد وقوله قل هو الله أحد وكل ذلك صريح في الباب (ورابعها) قوله تعالى كل شيء هالك الا وجهه حكم بهلاك كل ما سواه ومن عدم بعد وجوده لا يكون قديما ومن لا يكون قديما لا يكون الها (وخامسها) قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وهو كقوله ولعلا بعضهم على بعض وقوله اذا لابتغوا الى ذي العرش سبيلا (وسادسها) قوله وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير ولو كان له شريك لكان ذلك الشريك جالبا النفع ودافعا الضر فيبطل الحصر المذكور في الآية وقال في آية أخرى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله وقال في آية أخرى قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ان أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته (وسابعها) قوله تعالى قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم

على قلوبكم من اله غير الله يأتيكم به وهذا الحصر يدل على نفي الشريك (وثامنها) قوله تعالى الله خالق كل شيء فلو وجد الشريك لم يكن خالقا فلم يكن فيه فائدة واعلم أن كل مسئلة لا تتوقف معرفة صدق الرسل عليها فانه يمكن اثباتها بالسمع والوحدانية لا تتوقف معرفة صدق الرسل عليها فلا جرم يمكن اثباتها بالدلائل السمعية واعلم أن من طعن في دلالة التمانع فسر الآية بأن المراد لو كان في السماء والارض آلهة تقول بالهيتها عبدة الاوثان لزم فساد العالم لانها جمادات لا تقدر على تدبير العالم فيلزم فساد العالم قالوا وهذا أولى لانه تعالى حكى عنهم قوله أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون ثم ذكر الدلالة على فساد هذا فوجب أن يختص الدليل به وبالله التوفيق أما قوله تعالى فسبحان الله رب العرش عما يصفون ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) انه سبحانه لما أقام الدلالة القاطعة على التوحيد قال بعده فسبحان الله رب العرش عما يصفون أي هو منزه لاجل هذه الادلة عن وصفهم بأن معه الها وهذا تنبيه على ان الاشتغال بالتسبيح انما ينفع بعد اقامة الدلالة على كونه تعالى منزها وعلى أن طريقة التقليد طريقة مهجورة (المسئلة الثانية) لقائل أن يقول أي فائدة لقوله فسبحان الله رب العرش عما يصفون ولم يكتف بقوله فسبحان الله عما يصفون وجوابه ان هذه المناظرة انما وقعت مع عبدة الاصنام الا أن الدليل الذي ذكره الله تعالى يعم جميع المخالفين ثم انه تعالى بعد ذكر الدليل العام نبه على نكتة خاصة بعبدة الاصنام وهي انه كيف يجوز للعاقل أن يجعل الجماد الذي لا يعقل ولا يحس شريكا في الالهية لخالق العرش العظيم وموجد السموات والارضين ومدبر الخلائق من النور والظلمة واللوح والقلم والذات والصفات والجماد والنبات وأنواع الحيوانات أجمعين أما قوله تعالى لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فاعلم أنه مشتمل على بحثين (أحدهما) ان الله تعالى لا يسئل عن شيء من أفعاله ولا يقال له لم فعلت (والثاني) أن الخلائق مسؤلون عن أفعالهم أما البحث الاول ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) وجه تعلق هذه الآية بما قبلها ان عبدة من أثبت لله شريكا ليست الا طلب اللمية في أفعال الله تعالى وذلك لان الثنوية والمجوس وهم الذين أثبتوا الشريك لله تعالى قالوا رأينا في العالم خيرا وشرا ولذة وألما وحياة وموتا وصحة وسقما وغنى وفقرا وفاعل الخير خير وفاعل الشر شرير ويستحيل أن يكون الفاعل الواحد خيرا وشريرا معا فلابد من فاعلين ليكون أحدهما فاعلا للخير والآخر فاعلا للشر ويرجع حاصل هذه الشبهة الى أن مدبر العالم لو كان واحدا لما خص هذا بالحياة والصحة والغنى وخص ذلك بالموت والالم والفقر فيرجع حاصله الى طلب اللمية في أفعال الله تعالى فلما كان مدار أمر القائلين بالشريك على طلب اللمية لا جرم أنه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر الدليل على التوحيد ذكر ما هو النكتة الاصلية في الجواب عن شبهة القائلين بالشريك لان الترتيب الجيد في المناظرة أن يقع الابتداء بذكر الدليل المثبت للمطلوب ثم يذكر بعده ما هو الجواب عن شبهة الخصم (المسئلة الثانية) في الدلالة على انه سبحانه لا يسئل عما يفعل أما أهل السنة فانهم استدلوا عليه بوجوه (أحدها) انه لو كان كل شيء معللا بعلة لكانت عليته تلك العلة معللة بعلة أخرى ويلزم التسلسل فلابد في قطع التسلسل من الانتهاء الى ما يكون غنيا عن العلة وأولى الاشياء بذلك ذات الله تعالى وصفاته وكما أن ذاته منزهة عن الافتقار الى المؤثر والعلة وصفاته مبرأة عن الافتقار الى المبدع والمخصص فكذا فاعليته يجب أن تكون مقدسة عن الاستناد الى الموجب والمؤثر (وثانيها) أن فاعليته لو كانت معللة بعلة لكانت تلك العلة اما أن تكون واجبة أو ممكنة فان كانت واجبة لزم من وجوبها وجوب كونه فاعلا وحينئذ يكون موجبا بالذات لا فاعلا بالاختيار وان كانت ممكنة كانت تلك العلة فعلا لله تعالى أيضا فتفتقر فاعليته لتلك العلة الى علة أخرى ولزم التسلسل وهو محال (وثالثها) ان علة

السوء والفحشاء واغلق توجه اليه ذلك من خارج فصرفه الله تعالى بما فيه من موجبات العفة والعصمة فتأمل وقرئ ليصرف على اسناد الصرف الى ضمير الرب (انه من عبادنا المخلصين) تعليل لما سبق من مضمون الجملة بطريق التحقيق والمخلصون هم الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته بأن عصمهم عما هو قادح فيها وقرئ على صيغة الفاعل وهم الذين أخلصوا دينهم لله سبحانه وعلى كلا المعنيين فهو منتظم في سلكهم داخل في زمرتهم من أول أمره بقضية الجملة الاسمية لا أن ذلك حدث له بعد أن لم يكن كذلك فانحسم مادة احتمال صدور الهم بالسوء منه عليه السلام بالكلية (واستبقا الباب) متصل بقوله ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه وقوله كذلك الى آخره اعتراض جيء به بين المعطوفين تقريرا لنزاهته عليه السلام كقوله تعالى وكذلك نري ابراهيم ملكوت السموات والارض والمعنى لقد همت به وأبى هو واستبقا الباب أي تسابقا الى الباب البراني الذي هو المخلص ولذلك وحد بعد الجمع فيما سلف وحذف حرف الجر وأوصل الفعل الى المجرور نحو واذا كالوهم أو ضمن الاستباق معنى الابتدار واسناد السبق في ضمن الاستباق اليها مع أن مرادها مجرد منع يوسف وذا لا يوجب الانتهاء الى الباب لانها لما رأته يسرع الى الباب ليتخلص منها أسرعت هي أيضا لتسبقه اليه وتمنعه عن الفتح والخروج أو عبر عن اسراعها أثر ذلك مبالغة (وقدت قميصه من دبر) اجتذبته من ورائه فانشق طولا وهو القد كما أن الشق عرضا هو القط وقد قيل في وصف علي رضي الله عنه انه كان اذا اعتلى قد واذا اعترض قط واسناد القد اليها خاصة مع أن لقوة يوسف أيضا دخلا فيه اما لانها الجزء الاخير للعلة التامة واما للايذان بمبالغتها في منعه عن الخروج وبذل مجهودها في ذلك لفوت المحبوب

أرلحوف الافتضاح (وألفيا سيدها) أي صادفا زوجها وإذ لم يكن ملكه ليوسف عليه السلام صحيحا لم يقل سيدهما قيل ألفياه مقبلا وقيل كان جالسا مع ابن عم للمرأة (لدى الباب) أي البراني كما روي كعب رضي الله عنه أنه لما هرب يوسف عليه السلام جعل فراش القفل يتناثر ويسقط حتى خرج من الابواب (قالت) استئناف مبني على سؤال سائل يقول فماذا كان حين ألفيا العزيز عند الباب فقيل قالت (ما جزاء من أراد بأهلك سوأ) من الزنا ونحوه (الا أن يسجن أو عذاب أليم) ما نافية أي ليس جزاؤه الا السجن أو العذاب الاليم قيل المراد به الضرب بالسياط أو استفهامية أي أي شيء جزاؤه غير ذلك أو ذلك ولقد أتت في تلك الحالة التي تدهش فيها الفطن حيث شاهدها العزيز على تلك الهيئة المريبة بحيلة جمعت فيها غرضيها وهما تبرئة ساحتها مما يلوح من ظاهر الحال واستنزال يوسف عن رأيه في استعصائه عليها وعدم مواتاته على مرادها بالقاء الرعب في قلبه من مكرها طمعا في مواقعته اياها كرها عند يأسها عن ذلك اختيارا كما قالت ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ثم انها جعلت صدر الارادة المذكورة عن يوسف عليه السلام أمرا محققا مفروغا عنه غنيا عن الاخبار بوقوعه وأن ما هي عليه من الافاعيل لاجل تحقيق جزائها فهي تريد ايقاعه حسبما يقتضيه قانون الايالة وفي ابهام المريد تهويل لشأن الجزاء المذكور بكونه قانونا مطردا في حق كل أحد كائنا من كان وفي ذكر نفسها بعنوان أهلية العزيز اعظام للخطب واغراء له على تحقيق ما يتوخاه بحكم الغضب والحمية العقاب (قال) استئناف وجواب عما يقال فماذا قال يوسف حينئذ فقيل قال (هي راودتني عن نفسي) أي طالبتني للمواتاة لا اني أردت بها سوأ كما

فاعلية الله تعالى للعالم ان كانت قديمة لزم أن تكون فاعليته للعالم قديمة فيلزم قدم العالم وان كانت محدثة افتقرت الى علة أخرى ولزم التسلسل (ورابعها) ان من فعل فعلا لغرض فاما أن يكون متمكنا من تحصيل ذلك الغرض بدون تلك الواسطة أو لا يكون متمكنا منه فان كان متمكنا منه كان توسط تلك الواسطة عبثا وان لم يكن متمكنا منه كان عاجزا والعجز على الله تعالى محال أما العجز علينا فغير ممتنع فلذلك كانت أفعالنا معللة بالاغراض وكل ذلك في حق الله تعالى محال (وخامسها) انه لو كان فعله معللا بغرض لكان ذلك الغرض اما أن يكون عائدا الى الله تعالى أو الى العباد والاول محال لانه منزه عن النفع والضر واذا بطل ذلك تعين أن الغرض لابد وأن يكون عائدا الى العباد ولا غرض للعباد الا حصول اللذات وعدم حصول الآلام والله تعالى قادر على تحصيلها ابتداء من غير شيء من الوسايط واذا كان كذلك استحال أن يفعل شيأ لاجل شيء (وسادسها) هو انه لو فعل فعلا لغرض لكان وجود ذلك الغرض وعدمه بالنسبة اليه اما أن يكون على السواء أو لا يكون فان كان على السواء استحال أن يكون غرضا وان لم يكن على السواء لزم كونه تعالى ناقصا لذاته كاملا بغيره وذلك محال * فان قلت وجود ذلك الغرض وعدمه وان كان بالنسبة اليه على السواء اما بالنسبة الى العباد فالوجود أولى من العدم قلنا تحصيل تلك الاولوية للعبد وعدم تحصيلها له اما أن يكون بالنسبة اليه على السوية أو لا على السوية ويعود التقسيم الاول (وسابعها) وهو ان الموجود اما هو سبحانه أو ملكه وملكه ومن تصرف في ملك نفسه لا يقال له لم فعلت ذلك (وثامنها) وهو أن من قال لغيره لم فعلت ذلك فهذا السؤال انما يحسن حيث يحتمل أن يقدر السائل على منع المسؤل منه عن فعله وذلك من العبد في حق الله تعالى محال فانه لو فعل أي فعل شاء فالعبد كيف يمنعه عن ذلك اما بان يهدده بالعقاب والايلام وذلك على الله تعالى محال أو بان يهدده باستحقاق الذم والخروج عن الحكمة والاتصاف بالسفاهة على ما يقوله المعتزلة وذلك أيضا محال لان استحقاقه للمدح واتصافه بصفات الحكمة والجلال أمور ذاتية له وما ثبت للشيء لذاته يستحيل أن يتبدل لاجل تبدل الصفات العرضية الخارجية فثبت بهذه الوجوه انه لا يجوز أن يقال لله في أفعاله لم فعلت هذا الفعل فان كل شيء صنعه ولا علة لصنعه وأما المعتزلة فانهم سلموا انه لا يجوز أن يقال لله لم فعلت هذا الفعل ولكنهم بنوا ذلك على أصل آخر وهو انه تعالى عالم بقبح القبائح وعالم بكونه غنيا عنها ومن كان كذلك فانه يستحيل أن يفعل القبيح واذا عرفنا ذلك عرفنا اجمالا أن كل ما يفعله الله تعالى فهو حكمة وصواب واذا كان كذلك لم يجز للعبد أن يقول لله لم فعلت هذا (أما البحث الثاني) وهو قوله تعالى وهم يسئلون فهذا يدل على كون المكلفين مسؤلين عن أفعالهم وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ان الكلام في هذا السؤال اما في الامكان العقلي أو في الوقوع السمعي أما الامكان العقلي فالخلاف فيه مع منكري التكاليف واحتجوا على قولهم بوجوه (أحدها) قالوا التكليف اما أن يتوجه على العبد حال استواء داعيته الى الفعل والترك أو حال رجحان أحدهما على الآخر والاول محال لان حال الاستواء يمتنع الترجيح وحال امتناع الترجيح يكون التكليف بالترجيح تكليفا بالمحال والثاني محال لان حال الرجحان يكون الراجح واجب الوقوع والمرجوح ممتنع الوقوع والتكليف بايقاع ما يكون واجب الوقوع عبث وبايقاع ما هو ممتنع الوقوع تكليف بما لا يطاق (وثانيها) قالوا كل ما علم الله وقوعه فهو واجب الوقوع فيكون التكليف به عبثا وكل ما علم الله تعالى عدمه كان ممتنع الوقوع فيكون التكليف به تكليفا بما لا يطاق (وثالثها) قالوا سؤال العبد اما أن يكون لفائدة أو لا لفائدة فان كان لفائدة فتلك الفائدة ان عادت الى الله تعالى كان محتاجا وهو محال وان عادت الى العبد فهو محال لان سؤاله لما كان سببا لتوجيه

قالت وانما قاله عليه السلام لتنزيه نفسه عما أسندته اليه من الخيانة وعدم معرفة حق السيد ودفع ما عرضته له من الأمرين وفي التعبير عنها بالضمير الغيبة دون الخطاب أو اسم الاشارة مراعاة لحسن الادب مع الايماء الى الاعراض عنها (وشهد شاهد من أهلها) قيل هو ابن عمها وقيل هو الذي كان جالسا مع زوجها الذي الباب وقيل كان حكيما يرجع اليه الملك ويستشيره وقد جوّز أن يكون بعض أهلها قد بصر بها من حيث لا تشعر فأغضبه الله تعالى ليوسف عليه السلام بالشهادة له والقيام بالحق وانما ألقى الله سبحانه الشهادة الى من هو من أهلها ليكون أدل على نزاهته عليه السلام وأنفى للتهمة وقيل كان الشاهد ابن خال لها صبيا في المهد أنطقه الله تعالى ببراءته وهو الاظهر فانه روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال تكلم أربعة وهم صغار ابن ماشطة بنت فرعون وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى عليه السلام رواه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه وقال صحيح على شرط الشيخين وذكر كونه من أهلها لبيان الواقع اذ لا يختلف الحال في هذه الصورة بين كون الشاهد من أهلها أو من غيرهم (ان كان قميصه قد من قبل) أي ان علم أنه قد من قبل من قبل ونظيره ان أحسنت الي فقد أحسنت اليك فيما قبل فان معناه ان تعتد باحسانك الي فاعتد باحساني السابق اليك (فصدقت) بتقدير قد لانها تقرب الماضي الى الحال أي فقد صدقت وكذا الحال في قوله فكذبت وهي وان لم تصرح بانه عليه السلام أرادها بسوء الا ان كلامها حيث كان واضح الدلالة عليه أسند اليها الصدق والكذب بذلك الاعتبار فانهما كما يعرضان للكلام باعتبار منطوقه يعرضان له باعتبار ما يستلزمه وبذلك الاعتبار يعترضان للانشاآت (وهو من الكاذبين) وهذه

العقاب عليه لم يكن هذا نفعا عائدا الى العبد بل ضررا عائدا اليه وان لم يكن في السؤال فائدة كان عبثا وهو غير جائز على الحكيم بل كان اضرارا وهو غير جائز على الرحيم والجواب عنها من وجهين (الاول) أن غرضكم من ايراد هذه الشبهة النافية للتكليف أن تلزمونا نفي التكليف فكأنكم تكلفونا بنفي التكليف وهو متناقض (والثاني) وهو أن مدار كلامكم في هذه الشبهات على حرف واحد وهو أن التكاليف كلها تكاليف بما لا يطاق فلا يجوز من الحكيم أن يوجهها على العباد فيرجع حاصل هذه الشبهات الى أنه يقال له تعالى لم كلفت عبادك الا أنا قد بينا أنه سبحانه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فظهر بهذا ان قوله لا يسئل عما يفعل كالاصل والقاعدة لقوله وهم يسئلون فتأمل في هذه الدقائق العجيبة لتقف على طرف من أسرار علم القرآن وأما الوقوع السمعي فلقائل أن يقول ان قوله وهم يسئلون وان كان مثبتا كذا بقوله فوربك لنسئلنهم أجمعين وبقوله وقفوهم انهم مسؤلون الا أنه يناقضه قوله فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان والجواب ان يوم القيامة يوم طويل وفيه مقامات فيصرف كل واحد من السلب والايجاب الى مقام آخر دفعا للتناقض (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة فيه وجوه (أحدها) انه تعالى لو كان هو الخالق للحسن والقبيح لوجب أن يسئل عما يفعل بل كان يذم بما حقه الذم كما يحمد بما حقه المدح (وثانيها) أنه كان يجب أن لا يسئل عن الامور اذا كان لا فاعل سواه (وثالثها) انه كان لا يجوز أن يسئلوا عن عملهم اذ لا عمل لهم (ورابعها) ان أعمالهم لا يمكنهم أن يعدلوا عنها من حيث خلقها وأوجدها فيهم (وخامسها) انه تعالى صرح في كثير من المواضع بانه يقبل حجة العباد عليه كقوله رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وهذا يقتضي ان لهم عليه الحجة قبل بعثة الرسل وقال ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ونظائر هذه الآيات كثيرة وكلها تدل على ان حجة العبد متوجهة على الله تعالى (وسادسها) قال ثمامة اذا وقف العبد يوم القيامة فيقول الله تعالى ما حملك على معصيتي فيقول على مذهب الجبر يا رب انك خلقتني كافرا وأمرتني بما لا أقدر عليه وحلت بيني وبينه ولا شك انه على مذهب الجبر يكون صادقا وقال الله تعالى هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم فوجب أن ينفعه هذا الكلام فقيل له ومن يدعه يقول هذا الكلام أو يحتج فقال ثمامة أليس اذا منعه الله الكلام والحجة فقد علم انه منعه مما لو لم يمنعه منه لانقطع في يده وهذا نهاية الانقطاع (والجواب) عن هذه الوجوه أنها معارضة بمسئلة الداعي ومسئلة العلم ثم بالوجوه الثمانية التي بينا فيها انه يستحيل طلب لمية أفعال الله تعالى وأحكامه وأما قوله تعالى أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم فاعلم انه سبحانه كرر قوله أم اتخذوا من دونه آلهة استعظاما لكفرهم أي وصفتم الله بأن له شريكا فهاتوا برهانكم على ذلك اما من جهة العقل أو من جهة النقل فانه سبحانه لما ذكر دليل التوحيد أولا وقرر الاصل الذي عليه تخرج شبهات القائلين بالتثنية ثانيا أخذ يطالبهم بذكر شبهتهم ثالثا أما قوله تعالى هذا ذكر من معي وذكر من قبلي ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) في تفسيره وفيه أقوال (أحدها) هذا ذكر من معي أي هذا هو الكتاب المنزل على من معي وهذا ذكر من قبلي أي الكتاب المنزل على من تقدمني من الانبياء وهو التوراة والانجيل والزبور والصحف وليس في شيء منها أني أذنت بأن تتخذوا الها من دوني بل ليس فيها الا أني أنا الله لا اله الا أنا كما قال بعد هذا وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون وهذا قول ابن عباس واختيار القفال والزجاج (الثاني) وهو قول سعيد بن جبير وقتادة ومقاتل والسدي ان قوله وذكر من قبلي صفة للقرآن فانه كما يشتمل على أحوال هذه الامة فكذا

يشتمل على أحوال الامم الماضية (الثالث) ما ذكره القفال وهو ان المعنى قل لهم هذا الكتاب الذي جئتكم
به قد اشتمل على بيان أحوال من معي من المخالفين والموافقين وعلى بيان أحوال من قبلي من المخالفين
والموافقين فاختاروا لانفسكم كأن الغرض منه التهديد (المسألة الثانية) قال صاحب الكشاف
قرئ هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بالتنوين ومن مفعول منصوب بالذكر كقوله أو اطعام في يوم ذي
مسغبة يتيما وهو الاصل والاضافة من اضافة المصدر الى المفعول كقوله غلبت الروم في أدنى الارض
وهم من بعد غلبهم سيغلبون وقرئ من معي ومن قبلي بكسر ميم من على ترك الاضافة في هذه القراءة
وادخال الجار على مع غريب والعذر فيه أنه اسم هو ظرف نحو قبل وبعد فدخل من عليه كما يدخل
على اخواته وقرئ ذكر معي وذكر قبلي ﴿ وأما قوله بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ففيه
مسألتان (المسألة الاولى) انه سبحانه لما ذكر دلائل التوحيد وطالبهم بالدلالة على ما ادعوه وبين انه
لا دليل لهم البتة عليه لا من جهة العقل ولا من جهة السمع ذكر بعده أن وقوعهم في هذا المذهب الباطل
ليس لاجل دليل ساقهم اليه بل ذلك لان عندهم ما هو أصل الشر والفساد كله وهو عدم العلم ثم ترتب على
عدم العلم الاعراض عن استماع الحق وطلبه (المسألة الثانية) قال صاحب الكشاف قرئ الحق بالرفع
على توسط التوكيد بين السبب والمسبب والمعنى ان اعراضهم بسبب الجهل هو الحق لا الباطل أما قوله تعالى
وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون فاعلم أن يوحي ونوحي قراءتان
مشهورتان وهذه الآية مقررة لما سبقها من آيات التوحيد ﴿ قوله تعالى ﴾ (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا
سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا
لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم اني اله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي
الظالمين) اعلم أنه سبحانه وتعالى لما بين بالدلائل الباهرة كونه منزها عن الشريك والضد والند أردف
ذلك ببراءته عن اتخاذ الولد فقال وقالوا اتخذ الرحمن ولدا نزلت في خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله
وأضافوا الى ذلك انه تعالى صاهر الجن على ما حكى الله تعالى عنهم فقال وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ثم انه
سبحانه وتعالى نزه نفسه عن ذلك بقوله سبحانه لان الولد لا بد وان يكون شبيها بالوالد فلو كان لله ولد لاشبهه من
بعض الوجوه ثم لا بد وان يخالفه من وجه آخر وما به المشاركة غير ما به الممايزة فيقع التركيب في ذات الله
سبحانه وتعالى وكل مركب ممكن فاتخاذه للولد يدل على كونه ممكنا غير واجب وذلك يخرجه عن حد الالهية
ويدخله في حد العبودية ولذلك نزه نفسه عنه أما قوله بل عباد مكرمون فاعلم انه سبحانه لما نزه نفسه عن الولد
أخبر عنهم بأنهم عباد والعبودية تنافي الولادة الا أنهم مكرمون مفضلون على سائر العباد وقرئ مكرمون
لا يسبقونه من سابقته فسبقته أسبقه والمعنى انهم يتبعونه في قوله ولا يقولون شيأ حتى يقوله فلا يسبق قولهم
قوله وكما ان قولهم تابع لقوله فعملهم أيضا كذلك مبني على أمره لا يعملون عملا ما لم يؤمروا به ثم انه سبحانه
ذكر ما يجري مجرى السبب لهذه الطاعة فقال يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم والمعنى انهم لما علموا كونه سبحانه
عالما بجميع المعلومات علموا كونه عالما بظواهرهم وبواطنهم فكان ذلك داعيا لهم الى نهاية الخضوع
وكمال العبودية وذكر المفسرون فيه وجوها (أحدها) قال ابن عباس يعلم ما قدموا وما أخروا من
أعمالهم (وثانيها) ما بين أيديهم الآخرة وما خلفهم الدنيا وقيل على عكس ذلك (وثالثها) قال مقاتل يعلم
ما كان قبل أن يخلقهم وما يكون بعد خلقهم وحقيقة المعنى انهم يتقلبون تحت قدرته في ملكوته وهو محيط
بهم واذا كانت هذه حالتهم فكيف يستحقون العبادة وكيف يتقدمون بين يدي الله تعالى فيشفعون

الشرطية حيث لا ملازمة عقلية ولا عادية بين مقدميها وتاليها البتة من الشهادة في شيء وانما ذكرت توسيعا للدائرة وارخاء للعنان الى جانب
المرأة باجراء ما عسى يحتمله الحال في الجملة بأن يقع القد من قبل بدافعتها اياه عليه السلام عن نفسها عند ارادته المخالطة والتكشف مجرى
الظاهر الغالب الوقوع تقريبا لما هو المقصود باقامة الشهادة أعني مضمون الشرطية الثانية التي هي قوله عز وجل (وان
كان قميصه قد من دبر
فكذبت وهو من
الصادقين) الى التسليم
والقبول عند السامع
لكونه أقرب الى الوقوع
وأدل على المطلوب وان لم
يكن بين طرفيها أيضا
ملازمة وحكاية الشرطية
بعد فعل الشهادة لكونها
من قبيل الاقوال
أو بتقدير القول أي شهد
قائلا الخ وتسميتها شهادة
مع انه لا حكم فيها بالفعل
بالصدق والكذب
لتأديتها مؤداها بل لانها
شهادة على الحقيقة وحكم
بصدقه وكذبها أما على
تقدير كون الشاهد هو
الصبي فظاهر اذ هو اخبار
بهما من قبيل علام
الغيوب والتصوير بصورة
الشرطية للايذان بأن
ذلك ظاهر من الكلام
أيضا وأما على تقدير كونه
غيره فلان الظاهر أن
صورة الحال معلومة له
على ما هي عليه اما مشاهدة
أو اخبارا فهو متيقن بعدم
مقدم الشرطية الاولى
وبوجود مقدم الشرطية
الثانية ومن ضرورته
الجزم بانتفاء تالي الاولى
وبوقوع تالي الثانية
فاذن هو اخبار بكذبها
وصدقه عليه السلام لكنه
ساق شهادته مساق أمر ناص عن الجرح والطعن حيث صورها بصورة الشرطية المترددة ظاهرا بين نفعها ونفعه

لمن

وأما حقيقة فلا تردد فيها قطعا لان الشرطية الاولى تعليق لصدقها بما يستحيل وجوده من قد القميص من قبل فيكون محالا لا محالة ومن
ضرورته تقرر كذبها والثانية تعليق لصدقه عليه السلام بأمر محقق الوجود وهو القد من دبر فيكون محققا البتة وهذا كما قيل فيمن قال لامرأة

تزوجيني نفسك فقالت لي زوج فكذبها في ذلك فقالت ان لم يكن لي زوج فقد زوجتك نفسي فقبل الرجل فاذا الازوج لها فهو نكاح اذ
تعليق الشئ بأمر مقرر تحقيق له وقرئ من قبل ومن دبر بالضم لانهما قطعا عن الاضافة كقبل وبعد وبالفتح كأنهما جعلا علمين للجهتين
فمنعهما الصرف للتأنيث والعلمية وقرئ بسكون العين (فلما رأى قميصه قد من دبر) ١١٣ كأنه لم يكن رأى ذلك بعد أو لم يتدبره

ان لم يأذن الله تعالى له ثم كشف عن هذا المعنى فقال ولا يشفعون الا لمن ارتضى أي لمن هو عند الله مرضى
وهم من خشيته مشفقون أي من خشيتهم منه فأضيف المصدر الى المفعول ومشفقون خائفون ولا يأمنون
مكره وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج ساقطا كالحلس من خشية
الله تعالى ونظيره قوله تعالى لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن أما قوله تعالى ومن يقل منهم اني اله من دونه
فذلك نجزيه جهنم فالمعنى أن كل من يقول من الملائكة ذلك القول فانا نجازي ذلك القائل بهذا الجزاء وهذا
لا يدل على انهم قالوا ذلك أو ما قالوه وهو قريب من قوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك وههنا مسائل
﴿المسألة الاولى﴾ هذه الصفات تدل على العبودية وتنافي الولادة لوجوه (أحدها) انهم لما بالغوا في
الطاعة الى حيث لا يقولون قولا ولا يعملون عملا الا بأمره فهذه صفات للعبيد لا صفات الاولاد (وثانيها) أنه
سبحانه لما كان عالما بأسرار الملائكة وهم لا يعلمون أسرار الله تعالى وجب أن يكون الاله المستحق للعبادة
هو لا هؤلاء الملائكة وهذه الدلالة هي نفس ما ذكره عيسى عليه السلام في قوله تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في
نفسك (وثالثها) انهم لا يشفعون الا لمن ارتضى ومن يكن الها أو ولدا للاله لا يكون كذلك (ورابعها) انهم
على نهاية الاشفاق والوجل وذلك ليس الا من صفات العبيد (وخامسها) نبه تعالى بقوله ومن يقل منهم
اني اله من دونه فذلك نجزيه جهنم على ان حالهم حال سائر العبيد المكلفين في الوعد والوعيد فكيف يصح
كونهم آلهة ﴿المسألة الثانية﴾ احتجت المعتزلة بقوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى على أن الشفاعة في
الآخرة لا تكون لاهل الكبائر لانه لا يقال في أهل الكبائر ان الله يرتضيهم (والجواب) قال ابن عباس
رضي الله عنهما والضحاك الا لمن ارتضى أي لمن قال لا اله الا الله واعلم أن هذه الآية من أقوى الدلائل لنا
في اثبات الشفاعة لاهل الكبائر وتقريره هو ان من قال لا اله الا الله فقد ارتضاه الله تعالى في ذلك ومتى صدق
عليه أنه ارتضاه الله تعالى في ذلك فقد صدق عليه انه ارتضاه الله لان المركب متى صدق فقد صدق لا محالة
كل واحد من أجزائه واذا ثبت ان الله قد ارتضاه وجب اندراجه تحت هذه الآية فثبت بالتقرير الذي
ذكرناه ان هذه الآية من أقوى الدلائل لنا على ما قرره ابن عباس رضي الله عنهما ﴿المسألة الثالثة﴾ هذه
الآية تدل على أمور ثلاثة (أحدها) تدل على كون الملائكة مكلفين من حيث قال لا يسبقونه بالقول وهم
بأمره يعملون وهم من خشيته مشفقون ومن حيث الوعيد (وثانيها) تدل أيضا على ان الملائكة معصومون
لانه قال وهم بأمره يعملون (وثالثها) قال القاضي عبد الجبار قوله كذلك نجزي الظالمين يدل على أن كل
ظالم يجزيه الله جهنم كما توعد الملائكة به وذلك يوجب القطع على انه تعالى لا يغفر لاهل الكبائر في
الآخرة (والجواب) أقصى ما في الباب ان هذا العموم مشعر بالوعيد وهو معارض بعمومات الوعد
﴿ قوله تعالى ﴿أولم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شئ
حي أفلا يؤمنون وجعلنا في الارض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون وجعلنا السماء
سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون﴾
اعلم أنه سبحانه وتعالى شرع الآن في الدلائل الدالة على وجود الصانع وهذه الدلائل أيضا دالة على كونه
منزها عن الشريك لانها دالة على حصول الترتيب العجيب في العالم ووجود الالهين يقتضي وقوع الفساد
فهذه الدلائل تدل من هذه الجهة على التوحيد فتكون كالتوكيد لما تقدم وفيها أيضا رد على عبدة الاوثان
من حيث ان الاله القادر على مثل هذه المخلوقات الشريفة كيف يجوز في العقل أن يعدل عن عبادته الى
عبادة حجر لا يضر ولا ينفع فهذا وجه تعلق هذه الآية بما قبلها واعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر ههنا ستة أنواع من

فلما تنبه له وعلم حقيقة
الحال (قال انه) أي الامر
الذي وقع فيه التشاجر
وهو عبارة عن ارادة
السوء التي أسندت الى
يوسف وتدبير عقوبته
بقولها ما جزاء من أراد
بأهلك سوأ الى آخره
لكن لا من حيث صدور
تلك الارادة والاسناد عنها
بل مع قطع النظر عن
ذلك لئلا يخلو قوله تعالى
(من كيدكن) أي من
جنس حيلتكن ومكركن
أيتها النساء لا من غيركن
عن الافادة وتدبير العقوبة
وان لم يكن تجريده عن
الاضافة اليها الا أنها لما
صورته بصورة الحق أفاد
الحكم بكونه من كيدهن
افادة ظاهرة فتأمل
وتعميم الخطاب للتنبيه
على أن ذلك خلق لهن
عريق
ولا تحسبها عند الهما الغدر
وحدها
سجية نفس كل غانية هند
ورجع الضمير الى قولها
ما جزاء من أراد بأهلك
سوأ فقط عدول عن البحث
عن أصل ما وقع فيه النزاع
من أن ارادة السوء عن
هي الى البحث عن شعبة
من شعبه وحمله للسوء أو

للامر المعبر به عن طمعها في يوسف عليه السلام بأباه الخبر فان الكيد يستدعي أن يعتبر مع ذلك هنات أخر من
قبلها كما أشرنا اليه (ان كيدكن عظيم) فانه ألطف وأعلق بالقلب وأشد تأثيرا في النفس وعن بعض العلماء اني أخاف من النساء ما لا
أخاف من الشيطان فانه تعالى يقول ان كيد الشيطان كان ضعيفا وقال للنساء ان كيدكن عظيم ولان الشيطان يوسوس مسارقة وهن

يواجهن به الرجال (يوسف) حذف منه حرف النداء لقربه وكمال تفطنه للحديث وفيه تقريب له وتلطيف لمحله (أعرض عن هذا) أي عن هذا الامر وعن التحدث به واكتمه فقد ظهر صدقك ونزاهتك (واستغفري) أنت ياهذه (لذنبك) الذي صدر عنك وثبت عليك (انك كنت) بسبب ذلك (من الخاطئين) من جملة القوم المتعمدين للذنب أو من جنسهم يقال خطئ اذا أذنب عمدا وهو تعليل للامر بالاستغفار والتذكير لتغليب الذكور على الاناث وكان العزيز رجلا حليما فاكتفى بهذا القدر من مؤاخذتها وقيل كان قليل الغيرة (وقال نسوة) أي جماعة من النساء وكن خمسا امرأة الساقي وامرأة الخباز وامرأة صاحب الدواب وامرأة صاحب السجن وامرأة الحاجب والنسوة اسم مفرد لجمع المرأة وتأنيثه غير حقيقي كتأنيث اللمة وهي اسم لجماعة النساء والثبة وهي اسم لجماعة الرجال ولذلك لم يلحق فعله تاء التأنيث (في المدينة) ظرف لقال أي أشعن الامر في مصر أو صفة لنسوة (امرأة العزيز) أي الملك يردن قطفير واضافتهن لها اليه بذلك العنوان دون أن يصرحن باسمها واسمه ليست لقصد المبالغة في اشاعة الخبر بحكم أن النفوس الى سماع أخبار ذوي الاخطار أميل كما قيل اذ ليس مرادهن تفضيح العزيز بل هي لقصد الاشباع في لومها بقولهن (تراود فتاها) أي تطالبه بمواقعته لها وتتمحل في ذلك وتخادعه (عن نفسه)

التأويل

وقيل تطلب منه الفاحشة وايثارهن لصيغة المضارع للدلالة على دوام المراودة والفتى من الناس الشاب وأصله فتي لقولهم فتيان والفتوة شاذة وجمعه فتية وفتيان ويستعار للمملوك وهو المراد ههنا وفي الحديث لا يقل أحدكم عبدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي وتعبيرهن عن

الدلائل (النوع الاول) قوله أولم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن كثير ألم ير بغير الواو والباقون بالواو وادخال الواو يدل على العطف لهذا القول على أمر تقدمه قال صاحب الكشاف قرئ رتقا بفتح التاء وكلاهما في معنى المفعول كالخلق والنقض أي كانتا مرتوقتين فان قلت الرتق صالح أن يقع موقع مرتوقتين لانه مصدر فما بال الرتق قلت هو على تقدير موصوف أي كانتا شيأ رتقا (المسئلة الثانية) لقائل أن يقول المراد من الرؤية في قوله تعالى أولم ير الذين كفروا الرؤية واما العلم والاول مشكل أما أولا فلان القوم ما رأوهما كذلك البتة وأما ثانيا فلقوله سبحانه وتعالى ما أشهدتهم خلق السموات والارض وأما العلم فمشكل لان الاجسام قابلة للفتق والرتق في أنفسها فالحكم عليها بالرتق أولا وبالفتق ثانيا لا سبيل اليه الا السمع والمناظرة مع الكفار الذين ينكرون الرسالة فكيف يجوز التمسك بمثل هذا الاستدلال (والجواب) المراد من الرؤية هو العلم وما ذكروه من السؤال فدفعه من وجوه (أحدها) انا نثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بسائر المعجزات ثم نستدل بقوله ثم نجعله دليلا على حصول النظام في العالم وانتفاء الفساد عنه وذلك يؤكد الدلالة المذكورة في التوحيد (وثانيها) أن يحمل الرتق والفتق على امكان الرتق والفتق والعقل يدل عليه لان الاجسام يصح عليها الاجتماع والافتراق فاختصاصها بالاجتماع دون الافتراق أو بالعكس يستدعي مخصصا (وثالثها) ان اليهود والنصارى كانوا عالمين بذلك فانه جاء في التوراة ان الله تعالى خلق جوهرة ثم نظر اليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم خلق السموات والارض منها وفتق بينهما وكان بين عبدة الاوثان وبين اليهود نوع صداقة بسبب الاشتراك في عداوة محمد صلى الله عليه وسلم فاحتج الله تعالى عليهم بهذه الحجة بناء على انهم يقبلون قول اليهود في ذلك (المسئلة الثالثة) انما قال كانتا رتقا ولم يقل كن رتقا لان السموات لفظ الجمع والمراد به الواحد الدال على الجنس قال الاخفش السموات نوع والارض نوع ومثله ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا ومن ذلك قولهم أصلحنا بين القومين ومرت بنا غنمان أسودان لان هذا القطيع غنم وذلك غنم (المسئلة الرابعة) الرتق في اللغة السد يقال رتقت الشئ فارتتق والفتق الفصل بين الشيئين المتصلين قال الزجاج الرتق مصدر والمعنى كانتا ذواتي رتق قال المفضل انما لم يقل كانتا رتقين كقوله وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام لان كل واحد جسد كذلك فيما نحن فيه كل واحد رتق (المسئلة الخامسة) اختلف المفسرون في المراد من الرتق والفتق على أقوال (أحدها) وهو قول الحسن وقتادة وسعيد بن جبير ورواية عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهم ان المعنى كانتا شيأ واحدا ملتزقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء الى حيث هي وأقر الارض وهذا القول يوجب ان خلق الارض مقدم على خلق السماء لانه تعالى لما فصل بينهما ترك الارض حيث هي وأصعد الاجزاء السماوية قال كعب خلق الله السموات والارض ملتصقتين ثم خلق ريحا توسطهما ففتقهما بها (وثانيها) وهو قول أبي صالح ومجاهد ان المعنى كانت السموات مرتتقة فجعلت سبع سموات وكذلك الارضون (وثالثها) وهو قول ابن عباس والحسن وأكثر المفسرين ان السموات والارض كانتا رتقا بالاستواء والصلابة ففتق الله السماء بالمطر والارض بالنبات والشجر ونظيره قوله تعالى والسماء ذات الرجع والارض ذات الصدع ورجحوا هذا الوجه على سائر الوجوه بقوله بعد ذلك وجعلنا من الماء كل شئ حي وذلك لا يليق الا وللماء تعلق بما تقدم ولا يكون كذلك الا اذا كان المراد ما ذكرنا فان قيل هذا الوجه مرجوح لان المطر لا ينزل من السموات بل من سماء واحدة وهي سماء الدنيا قلنا انما أطلق عليه لفظ الجمع لان كل قطعة منها سماء كما يقال ثوب أخلاق وبرمة أعشار واعلم أن على هذا

التأويل يجوز حمل الرؤية على الابصار (ورابعها) قول أبي مسلم الاصفهاني يجوز أن يراد بالفتق الايجاد والاظهار كقوله فاطر السموات والارض وكقوله قال بل ربكم رب السموات والارض الذي فطرهن فأخبر عن الايجاد بلفظ الفتق وعن الحال قبل الايجاد بلفظ الرتق أقول وتحقيقه أن العدم نفي محض فليس فيه ذوات مميزة وأعيان متباينة بل كأنه أمر واحد متصل متشابه فاذا وجدت الحقائق فعند الوجود والتكون يتميز بعضها عن بعض وينفصل بعضها عن بعض فبهذا الطريق حسن جعل الرتق مجازا عن العدم والفتق عن الوجود (وخامسها) ان الليل سابق على النهار لقوله تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه النهار وكانت السموات والارض مظلمة أولا ففتقهما الله تعالى باظهار النهار المبصر * فان قيل فأي الاقاويل أليق بالظاهر * قلنا الظاهر يقتضي ان السماء على ما هي عليه والارض على ما هي عليه كانتا رتقا ولا يجوز كونهما كذلك الا وهما موجودان والرتق ضد الفتق فاذا كان الفتق هو المفارقة فالرتق يجب أن يكون هو الملازمة وبهذا الطريق صار الوجه الرابع والخامس مرجوحا ويصير الوجه الاول أولى الوجوه ويتلوه الوجه الثاني وهو ان كل واحد منهما كان رتقا ففتقهما بان جعل كل واحد منهما سبعا ويتلوه الثالث وهو انهما كانا صلبين من غير فطور وفرج ففتقهما لينزل المطر من السماء ويظهر النبات على الارض (المسئلة السادسة) دلالة هذه الوجوه على اثبات الصانع وعلى وحدانيته ظاهرة لان أحدا لا يقدر على مثل ذلك والاقرب انه سبحانه خلقهما رتقا لما فيه من المصلحة للملائكة ثم لما أسكن الله الارض أهلها جعلهما فتقا لما فيه من منافع العباد (النوع الثاني من الدلائل) قوله تعالى وجعلنا من الماء كل شئ حي أفلا يؤمنون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف قوله وجعلنا لا يخلو اما أن يتعدى الى واحد أو اثنين فان تعدى الى واحد فالمعنى خلقنا من الماء كل حيوان كقوله والله خلق كل دابة من ماء أو انما خلقناه من الماء لفرط احتياجه اليه وحبه له وقلة صبره عنه كقوله خلق الانسان من عجل وان تعدى الى اثنين فالمعنى صيرنا كل شئ حي بسبب من الماء لا بد له منه ومن هذا نحو من في قوله عليه السلام ما أنا من دد ولا الدد مني وقرئ حيا وهو المفعول الثاني (المسئلة الثانية) لقائل أن يقول كيف قال وخلقنا من الماء كل حيوان وقد قال والجان خلقناه من قبل من نار السموم وجاء في الاخبار ان الله تعالى خلق الملائكة من النور وقال تعالى في حق عيسى عليه السلام واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني فتنفخ فيها فتكون طيرا باذني وقال في حق آدم خلقه من تراب (والجواب) اللفظ وان كان عاما الا أن القرينة المخصصة قائمة فان الدليل لا بد وأن يكون مشاهدا محسوسا ليكون أقرب الى المقصود وبهذا الطريق تخرج عنه الملائكة والجن وآدم وقصة عيسى عليهم السلام لان الكفار لم يروا شيأ من ذلك (المسئلة الثالثة) اختلف المفسرون فقال بعضهم المراد من قوله كل شئ حي الحيوان فقط وقال آخرون بل يدخل فيه النبات والشجر لانه من الماء صار ناميا وصار فيه الرطوبة والخضرة والنور والثمر وهذا القول أليق بالمعنى المقصود كأنه تعالى قال ففتقنا السماء لانزال المطر وجعلنا منه كل شئ في الارض من النبات وغيره حيا حجة القول الاول ان النبات لا يسمى حيا قلنا لا نسلم والدليل عليه قوله تعالى كيف يحيي الارض بعد موتها أما قوله تعالى أفلا يؤمنون فالمراد أفلا يؤمنون بأن يتدبروا هذه الادلة فيعلموا بها الخالق الذي لا يشبهه غيره ويتركوا طريقة الشرك (النوع الثالث) قوله تعالى وجعلنا في الارض رواسي أن تميد بهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) أن تميد بهم كراهة أن تميد بهم أو لئلا تميد بهم فحذف لا واللام الاولى وانما جاز حذف لا لعدم الالتباس كما ترى ذلك في قوله لئلا يعلم أهل الكتاب (المسئلة الثانية) الرواسي الجبال والراسي هو الداخل في الارض (المسئلة الثالثة) قال ابن عباس رضي

يوسف عليه السلام بذلك مضافا اليه الا الى العزيز الذي لا تستلزم الاضافة اليه الهوان بل ربما يشعر بنوع عزة لابانة ما بينهما من التباين البين الناشئ عن المالكية والمملوكية وكل ذلك لتربية ما مر من المبالغة والاشباع في اللوم فان من لا زوج لها من النساء أو لها زوج دنيء قد تعذر في مراودة الاخدان لا سيما اذا كان فيهم علو الجناب وأما التي لها زوج وأي زوج عزيز مصر فراودتها الغيره لا سيما لعبدها الذي لا كفاءة بينها وبينه أصلا وتماديها في ذلك غاية الغي ونهاية الضلال (قد شغفها حبا) أي شق حبه شغاف قلبها وهو حجابه أو جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب حتى وصل الى فؤادها وقرئ شعفها بالعين من شعف البعير اذا هنأه فأحرقه بالقطران وعن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما الشغف الحب القاتل والشعف حب دون ذلك وكان الشعبي يقول الشغف حب والشعف جنون والجملة خبر ثان أو حال من فاعل تراود أو من مفعوله وأيا ما كان فهو تكرير للوم وتأكيد للعذل ببيان اختلال أحوالها القلبية كأحوالها القالبية وجعلها تعليلا لدوام المراودة من حيث الانية مصير الى الاستدلال على الاجلى بالاخفى ومن حيث اللمية ميل الى تمهيد العذر من قبلها وليس بذلك المقام وانتصاب حبا على التمييز لنقله عن الفاعلية اذ الاصل قد شغفها حبه كما أشير اليه (انا لنراها) أي نعلمها علما متاخما للمشاهدة والعيان فيما صنعت من المراودة والمحبة المفرطة مستقرة (في ضلال) عن طريق الرشد والصواب أو عن سنن العقل (مبين) واضح لا يخفى كونه ضلالا على أحد أو مظهر لامرها بين الناس فالجملة مقررة لمضمون الجملتين السابقتين المسوقتين للوم والتشنيع وتسجيل عليها بانها في أمرها على خطأ عظيم وانما لم يقل انها لفي ضلال مبين

اشعارا بأن ذلك الحكم غير صادر عنهن مجازفة بل عن علم ورأى مع التلويح بأنهن متنزهات عن أمثال ما هي عليه (فلما سمعت بمكرهن) باغتيابهن وسوء قالتهن وقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني وهو مقتها وتسميته مكرا لكونه خفية منها كمكر الماكر وان كان ظاهره الغير هاوقيل استكتمتهن سرها فأفشينه عليها وقيل انما قلن ذلك لتريهن يوسف عليه السلام (أرسلت اليهن) تدعوهن قيل دعت اربعين امرأة منهن الخمس المذكورات (وأعتدت) أي أحضرت وهيأت (لهن متكأ) أي ما يتكئن عليه من النمارق والوسائد أو رتبت لهن مجلس طعام وشراب لانهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين ولذلك نهى الرجل أن يأكل متكئا وقيل متكأ طعاما من قولهم اتكأنا عند فلان أي طعمنا قال جميل

فظللنا بنعمة واتكأنا وشربنا الحلال من قلله

وعن مجاهد متكأ طعاما يحز حزا كان المعنى يعتمد بالسكين عند القطع لان القاطع يتكئ على المقطوع بالسكين وقرئ بغير همز وقرئ بالمد باشباع حركة الكاف كمنتزاح في منتزح وينباع في ينبع وقرئ متكا وهو الاترج وأنشدوا

وأهدت متكة لبني أبيها تخب بها العثمثمة الوقاح

أو ما يقطع من متك الشيء اذا بتكه ومتكأ من تكئ اذا اتكى (وآتت كل واحدة منهن سكينا) لتستعمله في قطع ما يعهد قطعه مما قدم بين أيديهن وقرب اليهن من اللحوم والفواكه ونحوها وهن متكئات وتقريره وغرضها من ذلك ما سيقع من تقطيع أيديهن (وقالت) ليوسف وهن مشغولات بمعالجة السكاكين وأعمالها فيما بأيديهن من الفواكه وأضرابها والعطف بالواو مشعر بأن قولها (اخرج عليهن) أي ابرز لهن لم يكن عقيب ترتيب أمورهن ليتم غرضها من

الله عنهما ان الارض بسطت على الماء فكانت تتكفى بأهلها كما تتكفى السفينة لانها بسطت على الماء فارساها الله تعالى بالجبال الثقال (النوع الرابع) قوله تعالى وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف الفج الطريق الواسع فان قلت في الفجاج معنى الوصف فما لها قدمت على السبل ولم تؤخر كما في قوله تعالى لتسلكوا منها سبلا فجاجا قلت لم تقدم وهي صفة ولكنها جعلت حالا كقوله * لعزة موحشا طلل قديم * والفرق من جهة المعنى ان قوله سبلا فجاجا اعلام أنه سبحانه جعل فيها طرقا واسعة وأما قوله فجاجا سبلا فهو اعلام بأنه سبحانه حين خلقها جعلها على تلك الصفة فهذه الآية بيان لما أبهم في الآية الاولى (المسئلة الثانية) في قوله فيها قولان (أحدهما) انها عائدة الى الجبال أي وجعلنا في الجبال التي هي رواسي فجاجا سبلا أي طرقا واسعة وهو قول مقاتل والضحاك ورواية عطاء عن ابن عباس وعن ابن عمر قال كانت الجبال منضمة فلما أغرق الله قوم نوح فرقها فجاجا وجعل فيها طرقا (الثاني) انها عائدة الى الارض أي وجعلنا في الأرض فجاجا وهي المسالك والطرق وهو قول الكلبي (المسئلة الثالثة) قوله لعلهم يهتدون معناه لكي يهتدوا والشك لا يجوز على الله تعالى (المسئلة الرابعة) في يهتدون قولان (الاول) ليهتدوا الى البلاد (والثاني) ليهتدوا الى وحدانية الله تعالى بالاستدلال قالت المعتزلة وهذا التأويل يدل على أنه تعالى أراد من جميع المكلفين الاهتداء والكلام عليه قد تقدم وفيه قول ثالث وهو ان الاهتداء الى البلاد والاهتداء الى وحدانية الله تعالى يشتركان في مفهوم واحد وهو أصل الاهتداء فيحمل اللفظ على ذلك المشترك وحينئذ تكون الآية متناولة للامرين ولا يلزم منه كون اللفظ المشترك مستعملا في مفهوميه معا (النوع الخامس) قوله تعالى وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) سمى السماء سقفا لانها للارض كالسقف للبيت (المسئلة الثانية) في المحفوظ قولان (أحدهما) انه محفوظ من الوقوع والسقوط اللذين يجري مثلهما على سائر السقوف كقوله ويمسك السماء أن تقع على الارض الا باذنه وقال ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره وقال تعالى ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا وقال ولا يؤده حفظهما (الثاني) محفوظا من الشياطين قال تعالى وحفظناها من كل شيطان رجيم ثم ههنا قولان (أحدهما) انه محفوظ بالملائكة من الشياطين (والثاني) انه محفوظ بالنجوم من الشياطين والقول الاول أقوى لان حمل الآيات عليه مما يزيد هذه النعمة عظما لانه سبحانه كالمتكفل بحفظه وسقوطه على المكلفين بخلاف القول الثاني لانه لا يخاف على السماء من استراق سمع الجن (المسئلة الثالثة) قوله تعالى وهم عن آياتها معرضون معناه عما وضع الله تعالى فيها من الأدلة والعبر في حركاتها وكيفية حركاتها وجهات حركاتها ومطالعها ومغاربها واتصالات بعضها ببعض وانفصالاتها على الحساب القويم والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة (المسئلة الرابعة) قرئ عن آيتها على التوحيد والمراد الجنس أي هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية كالاستضاءة بقمرها والاهتداء بكواكبها وحياة الارض بأمطارها وهم عن كونها آية بينة على وجود الخالق ووحدانيته معرضون (النوع السادس) قوله تعالى وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه سبحانه لما قال وهم عن آياتها معرضون فصل تلك الآيات ههنا لانه تعالى لو خلق السماء والارض ولم يخلق الشمس والقمر ليظهر بهما الليل والنهار ويظهر بهما من المنافع بتعاقب الحر والبرد لم تتكامل نعم الله تعالى على عباده بل انما يكون ذلك بسبب حركاتها في أفلاكها فلهذا قال كل في فلك يسبحون

استعظامهن (فلما رأينه) عطف على مقدر يستدعيه الامر بالخروج وينسحب عليه الكلام أى فخرج عليهن فرأينه وانما حذف تحقيقا لمفاجأة رؤيتهن كأنها تفوت عند ذكر خروجه عليهن كما حذف لتحقيق السرعة فى قوله عز وجل فلما رآه مستقرا عنده بعد قوله أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك وفيه ايذان بسرعة امتثاله عليه السلام بأمرها فيما لا يشاهد بحضرته من الافاعيل (أكبرنه) عظمنه وهبن حسنه الفائق وجماله الرائع الرائق فان فضل جماله على جمال كل جميل كان كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب * عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال رأيت يوسف ليلة المعراج كالقمر ليلة البدر وقيل كان يرى تلألؤ وجهه على الجدران كما يرى نور الشمس على الماء وقيل معنى أكبرن حضن والهاء للسكت أو ضمير راجع الى يوسف عليه السلام على حذف اللام أى حضن له من شدة الشبق كما قال المتنبى

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع
فان لحت حاضت فى الخدور العواتق

(وقطعن أيديهن) أى جرحنها بما فى أيديهن من السكاكين لفرط دهشتهن وخروج حركات جوارحهن عن منهاج الاختيار والاعتياد حتى لم يعلمن بما فعلن وفى التعبير عن الجرح بالقطع ما لا يخفى من الدلالة على كثرة جرحهن ومع ذلك لم يبالين بذلك ولم يشعرن به (وقلن حاش لله) تنزيها له سبحانه عن صفات النقص والعجز وتعجبا من قدرته على مثل ذلك الصنع البديع وأصله حاشا كما قرأه أبو عمرو فى الدرج فحذفت ألفه الاخيرة تخفيفا وهو حرف جر يفيد معنى التنزيه فى باب الاستثناء فلا يستثنى به الا ما يكون موجبا للتنزيه فوضع موضعه فمعنى حاشا الله تنزيه الله وبراءة الله وهى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه واللام لبيان المنزه والمبرأ كما

وتقريره أن تقول قد ثبت بالارصاد أن للكواكب حركات مختلفة فمنها حركة تشملها بأسرها آخذة من المشرق الى المغرب وهى حركة الشمس اليومية ثم قال جمهور الفلاسفة وأصحاب الهيئة وههنا حركة أخرى من المغرب الى المشرق قالوا وهى ظاهرة فى السبعة السيارة خفية فى الثابتة واستدلوا عليه بأنا وجدنا الكواكب السيارة كل ما كان منها أسرع حركة اذا قارن ما هو أبطأ حركة فانه بعد ذلك يتقدمه نحو المشرق وهذا فى القمر ظاهر جدا فانه يظهر بعد الاجتماع بيوم أو يومين من ناحية المغرب على بعد من الشمس ثم يزداد كل ليلة بعدا منها الى أن يقابلها على قريب من نصف الشهر وكل كوكب كان شرقيا منه على طريقته فى ممر البروج يزداد كل ليلة قربا منه ثم اذا أدركه ستره بطرفه الشرقى وتنكسف تلك الكواكب عنه بطرفه الغربى فعرفنا أن لهذه الكواكب السيارة حركة من المغرب الى المشرق وكذلك وجدنا للكواكب الثابتة حركة بطيئة على توالى البروج فعرفنا أن لها حركة من المغرب الى المشرق هذا ما قالوه ونحن خالفناهم فيه وقلنا ان ذلك محال لان الشمس مثلا لو كانت متحركة بذاتها من المغرب الى المشرق حركة بطيئة ولا شك انها متحركة بسبب الحركة اليومية من المشرق الى المغرب لزم كون الجرم الواحد متحركا حركتين الى جهتين مختلفتين دفعة واحدة وذلك محال لان الحركة الى الجهة تقتضى حصول المتحرك فى الجهة المنتقل اليها فلو تحرك الجسم الواحد دفعة واحدة الى جهتين لزم حصوله دفعة واحدة فى مكانين وهو محال فان قيل لم لا يجوز أن يقال الشمس حال حركتها الى الجانب الشرقى تنقطع حركتها الى الجانب الغربى وبالعكس وأيضا فما ذكرتموه ينتقض بحركة الرحى الى جانب والنملة التى تكون عليها تتحرك الى خلاف ذلك الجانب قلنا أما الاول فلا يستقيم على أصولكم لان حركات الافلاك مصونة عن الانقطاع عندكم وأما الثانى فهو مثال محتمل وما ذكرناه برهان قاطع فلا يتعارضان أما الذى احتجوا به على أن للكواكب حركة من المغرب الى المشرق فهو ضعيف فانه يقال لم لا يجوز أن يقال ان جميع الكواكب متحركة من المشرق الى المغرب الا أن بعضها أبطأ من البعض فيتخلف بعضها عن بعض بسبب ذلك التخلف فيظن أنها تتحرك الى خلاف تلك الجهة مثلا الفلك الاعظم استدارته من أول اليوم الاول الى أول اليوم الثانى دورة تامة وفلك الثوابت استدارته من أول اليوم الاول الى أول اليوم الثانى دورة تامة الا مقدار ثانية فيظن ان فلك الثوابت تحرك من الجهة الاخرى مقدار ثانية ولا يكون كذلك بل ذلك لانه تخلف بمقدار ثانية وعلى هذا التقدير فجميع الجهات شرقية وأسرعها الحركة اليومية ثم يليها فى السرعة فلك الثوابت ثم يليها زحل وهكذا الى أن ينتهى الى فلك القمر فهو أبطأ الافلاك حركة وهذا الذى قلناه مع ما يشهد له البرهان المذكور فهو أقرب الى ترتيب الوجود فان على هذا التقدير تكون نهاية الحركة الفلك المحيط وهو الفلك الاعظم ونهاية السكون الجرم الذى هو فى غاية البعد وهو الارض ثم ان كل ما كان أقرب الى الفلك المحيط كان أسرع حركة وما كان منه أبعد كان أبطأ فهذا ما نقوله فى حركات الافلاك فى أطوالها وأما حركاتها فى عروضها فظاهرة وذلك بسبب اختلاف ميولها الى الشمال والجنوب اذا ثبت هذا فنقول لو لم يكن للكواكب حركة فى الميل لكان التأثير مخصوصا بقعة واحدة فكانت سائر الجوانب تخلو عن المنافع الحاصلة منه وكان الذى يقرب منه متشابه الاحوال وكانت القوة هناك لكيفية واحدة فان كانت حارة أفنت الرطوبات فأحالتها كلها الى النارية وبالجملة فيكون الموضع المحاذى لممر الكواكب على كيفية وخط ما لا يحاذيه على كيفية أخرى وخط المتوسط بينهما على كيفية أخرى فيكون فى موضع شتاء دائم ويكون فيه الهواء والفجاجة وفى موضع آخر صيف دائم يوجب الاحتراق وفى موضع آخر ربيع أو خريف لا يتم فيه النضج ولو لم تكن

في سقيا لك والدليل على وضعه موضع المصدر قراءة أبي السمال حاشا بالتنوين وقراءة أبي عمرو بحذف الالف الاخيرة وقراءة الاعمش بحذف الاولى فان التصرف من خصائص الاسم فيدل على تنزيله منزلته وعدم التنوين اراعاة أصله كما في قولك جلست من عن يمينه وقوله غدت من عليه منقلب الالف الى الياء مع الضمير وقرئ حاش لله بسكون الشين اتباعا الفتحة الالف في الاسقاط وحاش الاله وقيل حاشا فاعل من الحشا الذي هو الناحية وفاعله ضمير يوسف أي صار في ناحية من أن يقارف ما رمته به لله أي لطاعته أو لمكانه أو جانب المعصية لاجل الله (ما هذا بشرا) على اعمال ما بمعنى ليس وهي لغة أهل الحجاز لمشاركتهما في نفي الحال وقرئ بشر على لغة تميم وبشرى أي بعبد مشترى لئيم نفين عنه البشرية لما شاهدن فيه من الجمال العبقري الذي لم يعهد مثاله في البشر وقصرن على الملكية بقولهن (ان هذا الا ملك كريم) بناء على ما ركز في العقول من أن لا حي أحسن من الملك كما ركب فيها أن لا أقبح من الشيطان ولذلك لا يزال يشبه بهما كل متناه في الحسن والقبح وغرضهن وصفه بأقصى مراتب الحسن والجمال (قالت فذلكن) الفاء فصيحة والخطاب للنسوة والاشارة الى يوسف بالعنوان الذي وصفنه به الآن من الخروج في الحسن والجمال عن المراتب البشرية والاقتصار على الملكية فاسم الاشارة مبتدأ والموصول خبره والمعنى ان كان الامر كما قلتن فذلك الملك الكريم الناشئ عن المراتب البشرية (الذي لمتنني فيه) أي عيرتنني في الافتتان به حيث قلتن فيّ ما قلتن امرأة العزيز قد شغفها فتاها ونحوه مما يعتذر به عن مراودته ومن قدرها بكونه من المماليك أو بالعنوان الذي وصفنه به فيما سبق بقولهن امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني فهو خبر لمبتدأ محذوف أي فهو ذلك العبد

عودات متتالية وكان الكوكب يتحرك بعدا الكان الميل دلم يل المنفعة والتأثير شديد الافراط وكان يعرض قريبا مما لو لم يكن ميل ولو كانت الكواكب أسرع حركة من هذه لما كملت المنافع وما تمت وأما اذا كان هناك ميل يحفظ الحركة في جهة مدة ثم ينتقل الى جهة أخرى بمقدار الحاجة ويبقى في كل جهة برهة تم بذلك تأثيره بحيث يبقى مصونا عن طرفي الافراط والتفريط وبالجملة فالعقول لا تقف الا على القليل من اسرار المخلوقات فسبحان الخالق المدبر بالحكمة البالغة والقدرة الغير المتناهية (المسئلة الثانية) انه لا يجوز أن يقول وكل في فلك يسبحون الا ويدخل في الكلام مع الشمس والقمر النجوم ليثبت معنى الجمع ومعنى الكل فصارت النجوم وان لم تكن مذكورة أولا كأنها مذكورة لعود هذا الضمير اليها والله أعلم (المسئلة الثالثة) الفلك في كلام العرب كل شئ دائر وجمعه أفلاك واختلف العقلاء فيه فقال بعضهم الفلك ليس بجسم وانما هو مدار هذه النجوم وهو قول الضحاك وقال الاكثرون بل هي أجسام تدور النجوم عليها وهذا أقرب الى ظاهر القرآن ثم اختلفوا في كيفيته فقال بعضهم الفلك موج مكفوف تجري الشمس والقمر والنجوم فيه وقال الكلبي ماء مجموع تجري فيه الكواكب واحتج أن السباحة لا تكون الا في الماء قلنا لا نسلم فانه يقال في الفرس الذي عد يديه في الجري سابح وقال جمهور الفلاسفة وأصحاب الهيئة انها أجرام صلبة لا ثقيلة ولا خفيفة غير قابلة للخرق والالتئام والنمو والذبول فاما الكلام على الفلاسفة فهو مذكور في الكتب اللائقة به والحق انه لا سبيل الى معرفة صفات السموات الا بالخبر (المسئلة الرابعة) اختلف الناس في حركات الكواكب والوجوه الممكنة فيها ثلاثة فانه اما أن يكون الفلك ساكنا والكواكب تتحرك فيه كحركة السمك في الماء الراكد واما أن يكون الفلك متحركا والكواكب تتحرك فيه أيضا اما مخالفا لجهة حركته أو موافقا لجهته اما بحركة مساوية لحركة الفلك في السرعة والبطء أو مخالفة واما أن يكون الفلك متحركا والكوكب ساكنا أما الرأي الاول فقالت الفلاسفة انه باطل لانه يوجب خرق الافلاك وهو محال وأما الرأي الثاني فحركة الكواكب ان فرضت مخالفة لحركة الفلك فذلك أيضا يوجب الخرق وان كانت حركتها الى جهة الفلك فان كانت مخالفة لها في السرعة والبطء لزم الانخراق وان استويا في الجهة والسرعة والبطء فالخرق أيضا لازم لان الكواكب تتحرك بالعرض بسبب حركة الفلك فتبقى حركته الذاتية زائدة فيلزم الخرق فلم يبق الا القسم الثالث وهو أن يكون الكوكب مغروزا في الفلك واقفا فيه والفلك يتحرك فيتحرك الكوكب بسبب حركة الفلك واعلم ان مدار هذا الكلام على امتناع الخرق على الافلاك وهو باطل بل الحق ان الاقسام الثلاثة ممكنة والله تعالى قادر على كل الممكنات والذي يدل عليه لفظ القرآن أن تكون الافلاك واقفة والكواكب تكون جارية فيها كما تسبح السمكة في الماء (المسئلة الخامسة) قال صاحب الكشاف كل التنوين فيه عوض عن المضاف اليه أي كلهم في فلك يسبحون والله أعلم (المسئلة السادسة) احتج أبو علي بن سينا على كون الكواكب أحياء ناطقة بقوله يسبحون قال والجمع بالواو والنون لا يكون الا للعقلاء وبقوله تعالى والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين والجواب انما جعل واو الضمير للعقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة قال صاحب الكشاف فان قلت الجملة ما محلها قلت النصب على الحال من الشمس والقمر أو لا محل لها لاستئنافها فان قلت لكل واحد من القمرين فلك على حدة فكيف قيل جميعهم يسبحون في فلك قلت هذا كقوله كساهم الامير حلة وقلدهم سيفا أي كل واحد منهم ﴿قوله تعالى﴾ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الا هزوا أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون)

الكنعاني الذي صورتن في أنفسكن وقلتن فيه وفي ما قلتن فالآن قد عاينتن من هو وما قولكن فيه وأما بيانه فهي انكن لم تصورنه بحق صورته ولو صورتنه بما عاينتن لعذرتني في الافتتان به فلا يلائم المقام فان مراده ابداء عذرهن وتمهيد ما مهدته لهن تبكيتهن وتنديمهن على ما صدر عنهن من اللوم وقد فعلت ذلك بما الأمر بدا عليه وما ذكر من المقال خرق المتقدم ١٠٩ قبل ظهور معذرته وقد قيل في تعليل الملكية ان الجمع بين الجمال الرائق والكمال الفائق والعصمة البالغة من الخواص الملكية وهو أيضا لا بأس ثم قولها فذلكن الذي لمتنني فيه فان عذران العصمة مما ينافي عشقه مراعيها ثم بعد ما اقامت عليهن الحجة واوضحت لديهن عذرها وقد أصابهن من قبله عليه السلام ما أصابها باحت لهن بحقيقة سرها فقالت (ولقد راودته عن نفسه) حسبما قلتن وسمعتن (فاستعصم) امتنع طالبا للعصمة وهو بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها كما في استمسك واستجمع الرأي وفيه برهان نير على انه لم يصدر عنه عليه السلام شيء مخل باستعصامه بقوله معاذ الله من الهم وغيره اعترفت لهن أولا بما كن يسمعنه من مراودتها اياه وأكدته اظهارا لابتهاجها بذلك ثم زادت على ذلك أنه أعرض عنها على أبلغ ما يكون ولم يمل اليها قط ثم زادت عليه أيضا أنها مستمرة على ما كانت عليه غير مرعوية عنه لا بلوم العواذل ولا باعراض الحبيب فقالت (ولئن لم يفعل ما آمره) أي آمر به فيما سيأتي كما لم يفعل فيما مضى فحذف الجار وأوصل الفعل الى الضمير كما في أمرتك الخير فالضمير للموصول أو أمري اياه أي موجب أمري ومقتضاه فما مصدرية والضمير ليوسف وعبرت عن مراودتها بالأمر اظهارا لجريان حكومتها عليه واقتضاء للامتثال بأمرها (ليسجنن) بالنون المثقلة

كافرون﴾ اعلم أنه سبحانه وتعالى لما استدل بالاشياء الستة التي شرحناها في الفصل المتقدم وكانت تلك الاشياء من أصول النعم الدنيوية أتبعه بما نبه به على ان هذه الدنيا جعلها كذلك لا لتبقى وتدوم أو يبقى فيها من خلقت الدنيا له بل خلقها سبحانه وتعالى للابتلاء والامتحان ولكي يتوصل بها الى الآخرة التي هي دار الخلود فأما قوله تعالى وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ففيه ثلاثة أوجه (أحدها) قال مقاتل ان ناسا كانوا يقولون ان محمدا صلى الله عليه وسلم لا يموت فنزلت هذه الآية (وثانيها) كانوا يقدرون انه سيموت فيشمتون بموته فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذا أي قضى الله تعالى أن لا يخلد في الدنيا بشرا فلا أنت ولا هم الا عرضة للموت أفان مت أنت أيبقى هؤلاء لا وفي معناه قول القائل

فقل للشامتين بنا أفيقوا ❊ سيلقى الشامتون كما لقينا

(وثالثها) يحتمل أنه لما ظهر انه عليه الصلاة والسلام خاتم الانبياء جاز أن يقدر مقدر انه لا يموت اذ لو مات لتغير شرعه فنبه الله تعالى على ان حاله كحال غيره من الانبياء عليهم السلام في الموت أما قوله تعالى كل نفس ذائقة الموت ففيه أبحاث (الأول) ان هذا العموم مخصوص فانه تعالى نفس لقوله تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك مع أن الموت لا يجوز عليه وكذا الجمادات لها نفوس وهي لا تموت والعام المخصوص حجة فيبقى معمولا به فيما عدا هذه الاشياء وذلك يبطل قول الفلاسفة في أن الارواح البشرية والعقول المفارقة والنفوس الفلكية لا تموت (والثاني) الذوق ههنا لا يمكن اجراؤه على ظاهره لان الموت ليس من جنس المطعوم حتى يذاق بل الذوق ادراك خاص فيجوز جعله مجازا عن أصل الادراك وأما الموت فالمراد منه ههنا مقدماته من الآلام العظيمة لان الموت قبل دخوله في الوجود يمتنع ادراكه وحال وجوده يصير الشخص ميتا والميت لا يدرك شيأ (والثالث) الاضافة في ذائقة الموت في تقدير الانفصال لانه لما يستقبل كقوله غير محلي الصيد وهدياً بالغ الكعبة❊ أما قوله تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون ففيه مسائل (المسألة الاولى) الابتلاء لا يتحقق الا مع التكليف فالآية دالة على حصول التكليف وتدل على انه سبحانه وتعالى لم يقتصر بالمكلف على ما أمر ونهى وان كان فيه صعوبة بل ابتلاه بأمرين (أحدهما) ما سماه خيرا وهو نعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور والتمكين من المرادات (والثاني) ما سماه شرا وهو المضار الدنيوية من الفقر والآلام وسائر الشدائد النازلة بالمكلفين فبين تعالى ان العبد مع التكليف يتردد بين هاتين الحالتين لكي يشكر على المنح ويصبر في المحن فيعظم ثوابه اذا قام بما يلزم (المسألة الثانية) انما سمى ذلك ابتلاء وهو عالم بما سيكون من أعمال العاملين قبل وجودهم لانه في صورة الاختبار (المسألة الثالثة) قال صاحب الكشاف فتنة مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه (المسألة الرابعة) احتجت التناسخية بقوله والينا ترجعون فان الرجوع الى موضع مسبوق بالكون فيه (والجواب) انه مذكور مجازا (المسألة الخامسة) المراد من قوله والينا ترجعون انهم يرجعون الى حكمه ومحاسبته ومجازاته فبين بذلك بطلان قولهم في نفي البعث والمعاد واستدلت التناسخية بهذه الآية وقالوا ان الرجوع الى موضع مسبوق بالكون فيه وقد كنا موجودين قبل دخولنا في هذا العالم واستدلت المجسمة بانا أجسام فرجوعنا الى الله تعالى يقتضي كون الله تعالى جسما والجواب عنه قد تقدم في مواضع كثيرة أما قوله تعالى واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الا هزوا قال السدي ومقاتل نزلت هذه الآية في أبي جهل مر به النبي صلى الله عليه وسلم وكان أبو سفيان مع أبي جهل فقال أبو جهل لابي سفيان هذا نبي بني عبد مناف فقال أبو سفيان وما تنكر أن يكون نبيا في بني عبد مناف فسمع النبي صلى الله عليه وسلم قولهما فقال لابي جهل ما أراك تنتهي

آثرت بناء الفعل للمفعول جرياً على رسم الملوك أو ايهاماً لسرعة ترتب ذلك على عدم امتثاله لامرها كأنه لا يدخل بينهما فعل فاعل (وليكونا) بالخفيفة (من الصاغرين) أي الاذلاء في السجن وقد قرئ الفعلان بالتثقيل ولكن المشهورة أولى لان النون كتبت في المصحف ألفاً على حكم الوقف والاام الداخلة على حرف الشرط موطئة للقسم وجوابه ساد مسد الجوابين ولقد أتت بهذا الوعيد المنطوى على فنون التأكيد بمحضر منهن ليعلم يوسف عليه السلام أنها ليست في أمرها على خفية ولا خيفة من أحد فتضيق عليه الحيل وتعيا به العلل وينصحن له ويرشدنه الى موافقتها ولما كان هذا الابراق والارعاد مظنة لسؤال سائل يقول فما صنع يوسف حينئذ قيل (قال) مناجياً لربه عز سلطانه (رب السجن) الذى اوعدتنى بالالقاء فيه وقرأ يعقوب بالفتح على المصدر (أحب الىّ) أى آثر عندى لانه مشقة قليلة نافذة آثارها راحات جليلة أبدية (مما يدعوننى اليه) من مواتاتها التى تؤدى الى الشقاء والعذاب الاليم وهذا الكلام منه عليه السلام مبنى على ما مر من انكشاف الحقائق لديه وبروز كل منها بصورتها اللائقة بها فصيغة التفضيل ليست على بابها اذ ليس له شائبة محبة لما دعته اليه وانما هو والسجن شران أهونهما وأقربهما الى الايثار السجن والتعبير عن الايثار بالمحبة لحسم مادة طمعها عن المساعدة خوفاً من الحبس والاقتصار على ذكر السجن من حيث أن الصغار من فروعه ومن متبعاته واسناد الدعوة اليهن جميعاً لان النسوة رغبنه في مطاوعتها وخوفنه من مخالفتها وقيل دعونه الى أنفسهن وقيل انما ابتلى عليه السلام بالسجن لقوله هذا وكان الاولى به أن يسأل الله تعالى العافية ولذلك رد رسول الله صلى الله عليه وسلم

حتى ينزل لك ما نزل بعمك الوليد بن المغيرة وأما أنت يا أبا سفيان فانما قلت ما قلت حمية فنزلت هذه الآية ثم فسر الله تعالى ذلك بقوله أهذا الذى يذكر آلهتكم والذكر يكون بخير وبخلافه فاذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد كقولك لرجل سمعت فلاناً يذكرك فان كان الذاكر صديقاً فهو ثناء وان كان عدواً فهو ذم ومنه قوله تعالى سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم والمعنى انه يبطل كونها معبودة ويقبح عبادتها وأما قوله تعالى وهم بذكر الرحمن هم كافرون فالمعنى أنهم يعيبون عليه ذكر آلهتهم التى لا تضر ولا تنفع بالسوء مع انهم بذكر الرحمن الذى هو المنعم الخالق المحيى المميت كافرون ولا فعل أقبح من ذلك فيكون الهزؤ واللعب والذم عليهم يعود من حيث لا يشعرون ويحتمل أن يراد بذكر الرحمن القرآن والكتب والمعنى فى اعادة هم ان الاولى اشارة الى القوم الذين كانوا يفعلون ذلك الفعل والثانية ابانة لاختصاصهم به وايضافان فى اعادتها تأكيدا وتعظيما لفعلهم ﴿قوله تعالى﴾ ﴿خلق الانسان من عجل سأريكم آياتى فلا تستعجلون ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن﴾ أما قوله تعالى خلق الانسان من عجل ففيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ فى المراد من الانسان قولان (أحدهما) انه النوع والثانى انه شخص معين ﴿أما القول الاول﴾ فتقريره انهم كانوا يستعجلون عذاب الله تعالى وآياته الملجئة الى العلم والاقرار ويقولون متى هذا الوعد فاراد زجرهم عن ذلك فقدم أولا ذم الانسان على افراط العجلة ثم نهاهم وزجرهم كأنه قال لا يبعد منكم أن تستعجلوا فانكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم * فان قيل مقدمة الكلام لا بد وأن تكون مناسبة للكلام وكون الانسان مخلوقا من العجل يناسب كونه معذورا فيه فلم رتب على هذه المقدمة قوله فلا تستعجلون * قلنا لان العائق كلما كان أشد كانت القدرة على مخالفته أكمل فكأنه سبحانه نبه بهذا على ان ترك الاستعجال حالة شريفة عالية مرغوب فيها ﴿أما القول الثانى﴾ وهو ان المراد شخص معين فهذا فيه وجهان (أحدهما) ان المراد آدم عليه السلام وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدى والكلبى ومقاتل والضحاك وروى ابن جريج وليث بن أبى سليم عن مجاهد قال خلق الله آدم عليه السلام بعد كل شئ من آخر نهار الجمعة فلما دخل الروح رأسه ولم يبلغ أسفله قال يارب استعجل خلقى قبل غروب الشمس قال ليث فذلك قوله تعالى خلق الانسان من عجل وعن السدى لما نفخ فيه الروح فدخل فى رأسه عطس فقالت له الملائكة قل الحمد لله فقال ذلك فقال الله له يرحمك ربك فلما دخل الروح فى عينيه نظر الى ثمار الجنة ولما دخل الروح فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه الى ثمار الجنة وهذا هو الذى أورث أولاده العجلة (وثانيهما) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء نزلت هذه الآية فى النضر بن الحرث والمراد بالانسان هو واعلم أن القول الاول أولى لان الغرض ذم القول وذلك لا يحصل الا اذا حملنا لفظ الانسان على النوع ﴿المسئلة الثانية﴾ من المفسرين من أجرى هذه الآية على ظاهرها ومنهم من قلبها أما الاولون فلهم فيها أقوال (أحدها) قول المحققين وهو أن قوله خلق الانسان من عجل أى خلق عجولا وذلك على المبالغة كما قيل للرجل الذكى هو نار تشتعل والعرب قد تسمى المرء بما يكثر منه فتقول ما أنت الا أكل ونوم وما هو الا اقبال وادبار قال الشاعر

أما اذا ذكرت حتى اذا غفلت * فانما هى اقبال وادبار

وهذا الوجه متأكد بقوله تعالى وكان الانسان عجولا قال المبرد خلق الانسان من عجل أى من شأنه العجلة

كقوله خلقكم من ضعف أى ضعفاء (وثانيها) قال أبو عبيدة العجل الطين بلغة حمير وأنشدوا

* والنخل ينبت بين الماء والعجل * (وثالثها) قال الاخفش من عجل أى من تعجيل من الامر وهو قوله كن (ورابعها) من عجل أى من ضعف عن الحسن أما الذين قلبوه فقالوا المعنى خلق العجل من الانسان كقوله ويوم يعرض الذين كفروا على النار أى تعرض النار عليهم والقول الاول أقرب الى الصواب وأبعد الاقوال هذا القلب لانه اذا أمكن حمل الكلام على معنى صحيح وهو على ترتيبه فهو أولى من أن يحمل على انه مقلوب وأيضا فان قوله خلقت العجلة من الانسان فيه وجوه من المجاز فما الفائدة فى تغيير النظم الى ما يجرى مجراه فى المجاز (المسئلة الثالثة) لقائل أن يقول القوم استعجلوا الوعد على وجه التكذيب ومن هذا حاله لا يكون مستعجلا على الحقيقة قلنا استعجالهم على هذا الوجه أدخل فى الذم لانه اذا ذم المرء على استعجال الامر المعلوم فبأن يذم على استعجال ما لا يكون معلوما له كان أولى وأيضا فان استعجالهم بما توعدهم من عقاب الآخرة أو هلاك الدنيا يتضمن استعجال الموت وهم عالمون بذلك فكانوا مستعجلين فى الحقيقة أما قوله تعالى سأريكم آياتى فلا تستعجلون فقد اختلفوا فى المراد بالآيات على أقوال (أحدها) أنها هى الهلاك المعجل فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ولذلك قال فلا تستعجلون أى انها ستأتى لا محالة فى وقتها (وثانيها) انها أدلة التوحيد وصدق الرسول (وثالثها) انها آثار القرون الماضية بالشام واليمن والاول أقرب الى النظم أما قوله تعالى ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين فاعلم أن هذا هو الاستعجال المذموم المذكور على سبيل الاستهزاء وهو كقوله ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب فبين تعالى انهم يقولون ذلك لجهلهم وغفلتهم ثم انه سبحانه ذكر فى دفع هذا الحزن عن قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهين (الاول) بأن بين ما لصاحب هذا الاستهزاء من العقاب الشديد فقال لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون قال صاحب الكشاف جواب لو محذوف وحين مفعول به ليعلم أى لو يعلمون الوقت الذى يسألون عنه بقولهم متى هذا الوعد وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من قدام ومن خلف فلا يقدرون على دفعها عن أنفسهم ولا يجدون أيضا ناصرا ينصرهم لقوله تعالى فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكن جهلهم به هو الذى هونه عليهم وانما حسن حذف الجواب لان ما تقدم يدل عليه وهذا أبلغ ومثله ولو يرى الذين ظلموا ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا ولو أن قرآنا سيرت به الجبال وانما خص الوجوه والظهور لان مس العذاب لهما أعظم موقعا ولكثرة ما يستعمل ذكرهما فى دفع المضرة عن النفس ثم انه تعالى لما بين شدة هذا العذاب بين ان وقت مجيئه غير معلوم لهم بل تأتيهم الساعة بغتة وهم لها غير محتسبين ولا لامرها مستعدين فتبهتهم أى تدعهم حائرين واقفين لا يستطيعون حيلة فى ردها ولا يتمكنون اذا أتتهم منها مصرفا ولا هم ينظرون أى لا يمهلون لتوبة ولا معذرة واعلم ان الله تعالى انما لم يعلم المكلفين وقت الموت والقيامة لما فيه من المصلحة لان المرء مع كتمان ذلك أشد حذرا وأقرب الى التلافى ثم انه سبحانه ذكر الوجه الثانى فى دفع الحزن عن قلب رسوله فقال ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن والمعنى ولقد استهزئ برسل من قبلك يا محمد كما استهزأ بك قومك فحاق أى نزل وأحاط بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن أى عقوبة استهزائهم وحاق وحق بمعنى كزال وزل وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم والمعنى فكذلك يحيق بهؤلاء وبال استهزائهم ﴿ قوله تعالى ﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون أم لهم آلهة تمنعهم من

لى من كان يسأل الهجر (والا تصرف) أى ان لم تصرف (عنى كيدهن) فى تحبيب ذلك الى وتحسينه لدى بأن تثبتنى على ما أنا عليه من العصمة والعفة (أصب اليهن) أى أمل الى اجابتهن أو الى أنفسهن على قضية الطبيعة وحكم القوة الشهوية وهذا فزع منه عليه السلام الى ألطاف الله تعالى جريا على سنن الانبياء والصالحين فى قصر نيل الخيرات والنجاة عن الشرور على جناب الله عز وجل وسلب القوى والقدر عن أنفسهم ومبالغة فى استدعاء لطفه فى صرف كيدهن باظهار أن لا طاقة له بالمدافعة كقول المستغيث أدركنى والا هلكت لا أنه يطلب الاجبار والالجاء الى العصمة والعفة وفى نفسه داعية تدعوه الى هواهن والصبوة الميل الى الهوى ومنه الصبا لان النفوس تصبو اليها لطيب نسيمها وروحها وقرئ أصب اليهن من الصبابة وهى رقة الشوق (وأكن من الجاهلين) الذين لا يعملون بما يعلمون لان من لا جدوى لعلمه فهو والجاهل سواء أو من السفهاء بارتكاب ما يدعوننى اليه من القبائح لان الحكيم لا يفعل القبيح (فاستجاب له ربه) دعاءه الذى تضمنه قوله والا تصرف عنى كيدهن الخ فان فيه استدعاء لصرف كيدهن على أبلغ وجه وألطفه كما مر وفى اسناد الاستجابة الى الرب مضافا اليه عليه السلام ما لا يخفى من اظهار اللطف (فصرف عنه كيدهن) حسب دعائه وثبته على العصمة والعفة (انه هو السميع) لدعاء المتضرعين اليه (العليم) بأحوالهم وما يصلحهم (ثم بدا لهم) أى ظهر للعزيز وأصحابه المتصدين للحل والعقد ريثما اكتفوا بأمر يوسف بالكتمان والاعراض عن ذلك (من بعد ما رأوا الآيات) الصارفة لهم عن ذلك البداء وهى الشواهد الدالة على براءته عليه السلام وفاعل بدا ما مصدره أو الرأى المفهوم من السياق أو المصدر

المدلول عليه بقوله (ليسجننه) والمعنى بدالهم بداء ورأى أو سجنه المحتوم قائلين والله ليسجننه فالقسم المحذوف وجوابه معمول للقول المقدر حالا من ضميرهم وما كان ذلك البداء الا باستنزال المرأة لزوجها وفتلها منه في الذروة والغارب وكان مطواعا لها تقوده حيث شاءت قال السدي انها قالت للعزيز ١٢٢ ان هذا العبد العبراني قد فضحني في الناس يخبرهم باني راودته عن نفسه فاما أن تأذن لي فأخرج فأعتذر الى الناس واما أن تحبسه فحبسه ولقد أرادت بذلك تحقيق وعيدها لتلين به عريكته وتنقاد لها قرونته لما انصرمت حبال رجائها عن استتباعه بعرض الجمال والترغيب بنفسها وباعوانها وقرئ لتسجننه على صيغة الخطاب بأن خاطب بعضهم العزيز ومن يليه أو العزيز وحده على وجه التعظيم أو خاطب به العزيز ومن عنده من أصحاب الرأى المباشرين للسجن والحبس (حتى حين) الى حين انقطاع قالة الناس وهذا بادى الرأى عند العزيز وذويه وأما عندها فحتى يذلله السجن ويسخره لها ويحسب الناس أنه المجرم وقرئ عتى حين بلغة هذيل (ودخل معه) أى في صحبته (السجن فتيان) من فتيان الملك ومماليكه أحدهما شرابيه والآخر خبازه روى أن جماعة من أهل مصر ضمنوا لهما مالا ليسما الملك في طعامه وشرابه فأجاباهم الى ذلك ثم ان الساقى نكل عن ذلك ومضى عليه الخباز فسم الخبز فلما احضر الطعام قال الساقى لا تأكل أيها الملك فان الخبز مسموم وقال الخباز لا تشرب أيها الملك فان اهلها
الشراب مسموم فقال الملك للساقى اشربه فشربه فلم يضره وقال للخباز كله فأبى فجرب بدابة فهلكت فأمر بحبسهما فاتفق أن أدخلا معه وتأخير الفاعل عن المفعول لما مر غير مرة من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر ليتمكن عند النفس حين وروده عليها فضل

دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتى الارض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون﴾ اعلم انه تعالى لما بين ان الكفار فى الآخرة لا يكفون عن وجوههم النار وسائر ما وصفهم به أتبعه بأنهم فى الدنيا أيضا لولا أن الله تعالى يحرسهم ويحفظهم لما بقوا فى السلامة فقال لرسوله قل لهؤلاء الكفار الذين يستهزؤن ويغترون بما هم عليه من يكلؤكم بالليل والنهار وهذا كقول الرجل لمن حصل فى قبضته ولا مخلص له منه الى أين مفرك منى هل لك محيص عنى والكالئ الحافظ وأما قوله من الرحمن ففيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ فى معناه وجوه (أحدها) من يكلؤكم من الرحمن أى مما يقدر على انزاله بكم من عذاب تستحقونه (وثانيها) من بأس الله فى الآخرة (وثالثها) من القتل والسبى وسائر ما أباحه الله لكفرهم فبين سبحانه انه لا حافظ لهم ولا دافع عن هذه الامور لو أنزلها بهم ولولا تفضله بحفظهم لما عاشوا ولما متعوا بالدنيا ﴿المسئلة الثانية﴾ انما خص ههنا اسم الرحمن بالذكر تلقينا للجواب حتى يقول العاقل أنت الكالئ يا الهنا لكل الخلائق برحمتك كما فى قوله ما غرك بربك الكريم انما خص اسم الكريم بالذكر تلقينا للجواب ﴿المسئلة الثالثة﴾ انما ذكر الليل والنهار لان لكل واحد من الوقتين آفات تختص به والمعنى من يحفظكم بالليل اذا نمتم وبالنهار اذا تصرفتم فى معايشكم أما قوله بل هم عن ذكر ربهم معرضون فالمعنى انه تعالى مع انعامه عليهم ليلا ونهارا بالحفظ والحراسة فهم عن ذكر ربهم الذى هو الدلائل العقلية والنقلية ولطائف القرآن معرضون فلا يتأملون فى شئ منها ليعرفوا أنه لا كالئ لهم سواه ويتركوا عبادة الاصنام التى لا حظ لها فى حفظهم ولا فى الانعام عليهم أما قوله تعالى أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون فاعلم أن الميم صلة يعنى ألهم آلهة تكلؤهم من دوننا والتقدير ألهم آلهة من دوننا تمنعهم وتم الكلام ثم وصف آلهتهم بالضعف فقال لا يستطيعون نصر أنفسهم وهذا خبر مبتدا محذوف أى فهذه الآلهة لا تستطيع حماية أنفسها عن الآفات وحماية النفس أولى من حماية الغير فاذا لم تقدر على حماية نفسها فكيف تقدر على حماية غيرها وفى قوله ولا هم منا يصحبون قولان (الاول) قال المازنى أصحبت الرجل اذا منعته فقوله ولا هم منا يصحبون من ذلك لا من الصحبة (والثانى) ان الصحبة ههنا بمعنى النصرة والمعونة وكلاهما سواء فى المعنى يقال صحبك الله ونصرك الله ويقال للمسافر فى صحبة الله وفى حفظ الله فالمعنى ولا هم منا فى نصرة ولا اعانة والحاصل أن من لا يكون قادرا على دفع الآفات ولا يكون مصحوبا من الله بالاعانة كيف يقدر على شئ ثم بين سبحانه تفضله عليهم مع كل ذلك بقوله بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر يعنى ما حملهم على الاعراض الا الاغترار بطول المهلة يعنى طالت أعمارهم فى الغفلة فنسوا عهدنا وجهلوا موقع نعمتنا واغتروا بذلك أما قوله تعالى أفلا يرون أنا نأتى الارض ننقصها فالمعنى أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله المستعجلون بالعذاب آثار قدرتنا فى اتيان الارض من جوانبها نأخذ الواحد بعد الواحد ونفتح البلاد والقرى مما حول مكة ونزيدها فى ملك محمد صلى الله عليه وسلم ونميت رؤساء المشركين الممتعين بالدنيا وننقص من الشرك باهلاك أهله أما كان لهم فى ذلك عبرة فيؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلموا أنهم لا يقدرون على الامتناع من أمر الله وارادته فيهم ولا يقدرون على مغالبته ثم قال أفهم الغالبون أى فهؤلاء هم الغالبون أم نحن وهو استفهام بمعنى التقرير والتقريع والمعنى بل نحن الغالبون وهم المغلوبون وقد مضى الكلام فى هذه الآية فى سورة الرعد وفى تفسير النقصان وجوه (أحدها) قال ابن عباس ومقاتل والكلبى رضى الله عنهم ننقصها بفتح البلدان (وثانيها) قال ابن عباس فى رواية أخرى يريد نقصان

أهلها وبركتها (وثالثها) قال عكرمة تخرب القرى عند موت أهلها (ورابعها) بموت العلماء وهذه الرواية ان صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يعدل عنها والا فالاظهر من الاقاويل ما يتعلق بالغلبة ولذلك قال أفهم الغالبون والذي يليق بذلك انه ينقصها عنهم ويزيدها في بلاد الاسلام قال القفال نزلت هذه الآية في كفار مكة فكيف يدخل فيها العلماء والفقهاء فبين تعالى ان كل ذلك من العبر التي لو استعملوا عقولهم فيها لاعرضوا عن جهلهم ﴿ قوله تعالى ﴿قل انما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء اذا ما ينذرون ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن ياويلنا انا كنا ظالمين ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيأ وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ اعلم انه سبحانه لما كرر في القرآن الادلة وبالغ في التنبيه عليها على ما تقدم أتبعه بقوله قل انما أنذركم بالوحي أي بالقرآن الذي هو كلام ربكم فلا تظنوا ان ذلك من قبلي بل الله آتيكم به وأمرني بانذاركم فاذا قمت بما ألزمني ربي فلم يقع منكم القبول والاجابة فالوبال عليكم يعود ومثلهم من حيث لم ينتفعوا بما سمعوا من انذاره مع كثرته وتواليه بالصم الذين لا يسمعون أصلا اذ الغرض بالانذار ليس السماع بل التمسك به في اقدام على واجب وتحرز عن محرم ومعرفة بالحق فاذا لم يحصل هذا الغرض صار كأنه لم يسمع قال صاحب الكشاف قرئ ولا تسمع الصم الدعاء بالتاء والياء أي لا تسمع أنت أولا يسمع رسول الله أولا يسمع الصم من أسمع فان قلت الصم لا تسمع دعاء المبشر كما لا يسمعون دعاء المنذر فكيف قال اذا ما ينذرون قلت اللام في الصم اشارة الى هؤلاء المنذرين كائنة للعهد لا للجنس والاصل ولا يسمعون الدعاء اذا ما ينذرون فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدهم أسماعهم اذا أنذروا أي هم على هذه الصفة من الجراءة والجسارة على التصام عن آيات الانذار ثم بين تعالى أن حالهم سيتغير الى أن يصيروا بحيث اذا شاهدوا اليسير مما أنذروا به فعنده يسمعون ويعتذرون ويعترفون حين لا ينتفعون وهذا هو المراد بقوله ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن ياويلنا انا كنا ظالمين وأصل النفح من الريح اللينة والمعنى ولئن مسهم شئ قليل من عذاب الله كالرائحة من الشئ دون جسمه لتنادوا بالويل واعترفوا على أنفسهم بالظلم قال صاحب الكشاف في المس والنفحة ثلاث مبالغات لفظ المس وما في النفح من معنى القلة والنزارة يقال نفحته الدابة وهو رمح يسير ونفحه بعطية رضخه ولفظ المرة ثم بين سبحانه وتعالى ان جميع ما ينزل بهم في الآخرة لا يكون الا عدلا فهم وان ظلموا أنفسهم في الدنيا فلن يظلموا في الآخرة وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى ونضع الموازين القسط وصفها الله تعالى بذلك لان الميزان قد يكون مستقيما وقد يكون بخلافه فبين ان تلك الموازين تجري على حد العدل والقسط وأكد ذلك بقوله فلا تظلم نفس شيأ وههنا مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ معنى وضعها احضارها قال الفراء القسط صفة الموازين وان كان موحدا وهو كقولك للقوم أنتم عدل وقال الزجاج ونضع الموازين ذوات القسط وقوله ليوم القيامة قال الفراء في يوم القيامة وقيل لاهل يوم القيامة ﴿المسئلة الثانية﴾ في وضع الموازين قولان (أحدهما) قال مجاهد هذا مثل والمراد بالموازين العدل ويروى مثله عن قتادة والضحاك والمعنى بالوزن القسط بينهم في الاعمال فمن أحاطت حسناته بسيآته ثقلت موازينه يعني ان حسناته تذهب بسيآته ومن أحاطت سيآته بحسناته فقد خفت موازينه أي ان سيآته تذهب بحسناته حكاه ابن جرير هكذا عن ابن عباس رضي الله عنهما (الثاني) وهو قول أئمة السلف انه سبحانه يضع الموازين الحقيقية فتوزن بها الاعمال وعن الحسن هو ميزان له كفتان ولسان وهو بيد جبريل عليه السلام ويروى ان داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان فلما رآه غشي عليه فلما أفاق قال يا الهي من الذي يقدر

تمكن ونظيره تقديم الظرف على المفعول الصريح في قوله تعالى فأوجس في نفسه خيفة وتأخير السجن عن الظرف لايهام العكس أن يكون الظرف خبرا مقدما على المبتدا وتكون الجملة حالا من فاعل دخل فتأمل (قال أحدهما) استئناف مبني على سؤال من يقول ماصنعا بعد ما دخلا معه السجن فأجيب بانه قال أحدهما وهو الشرابي (اني أراني) أي رأيتني والتعبير بالمضارع لاستحضار الصورة الماضية (أعصر خمرا) أي عنبا سماه بما يؤول اليه لكونه المقصود من العصر وقيل الخمر بلغة عمان اسم للعنب وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه أعصر عنبا (وقال الآخر) وهو الخباز (اني أراني أحمل فوق رأسي خبزا) تأخير المفعول عن الظرف لما مر آنفا وقوله (تأكل الطير منه) أي تنهس منه صفة للخبز أو استئناف مبني على السؤال (نبئنا بتأويله) بتأويل ما ذكر من الرؤيين أو ما رؤي باجراء الضمير مجرى ذلك بطريق الاستعارة فان اسم الاشارة يشار به الى متعدد كما في قوله

فيها خطوط من سواد وبلق
كأنه في الجلد توليع البهق

أي كان ذلك والسر في المصير الى اجراء الضمير مجرى اسم الاشارة مع أنه لا حاجة اليه بعد تأويل المرجع بما ذكر أو بما رؤي أن الضمير انما يتعرض لنفس المرجع من حيث هو من غير تعرض لحال من أحواله فلا يتسنى تأويله باحد الاعتبارين الا باجرائه مجرى اسم الاشارة الذي يدل على المشار اليه بالاعتبار الذي يجري عليه في الكلام فتأمل هذا اذا قالاه معا أو قاله أحدهما من جهتهما معا وأما اذا قاله كل منهما اثر ما قص ما رآه فالخطاب المذكور ليس عبارتهما ولا عبارة أحدهما من جهتهما لتعدد المرجع بل عبارة كل منهما نبئني بتأويله مستفسرا لما رآه وصيغة المتكلم مع الغير واقعة في الحكاية دون المحكي على طريقة قوله عز وجل يا أيها

أن علا كفته حسنات فقال ياداود انى اذا رضيت عن عبدى ملأتها بتمرة ثم على هذا القول فى كيفية وزن الاعمال طريقان (أحدهما) أن توزن صحائف الاعمال (والثانى) يجعل فى كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة وفى كفة السيآت جواهر سود مظلمة فان قيل أهل القيامة اما أن يكونوا عالمين بكونه سبحانه وتعالى عادلا غير ظالم أولا يعلمون ذلك فان علموا ذلك كان مجرد حكمه كافيا فى معرفة أن الغالب هو الحسنات أو السيآت فلا يكون فى وضع الميزان فائدة البتة وان لم يعلموا لم تحصل الفائدة فى وزن الصحائف لاحتمال انه سبحانه جعل احدى الصحيفتين أثقل أو أخف ظلما فثبت ان وضع الميزان على كلا التقديرين خال عن الفائدة وجوابه على قولنا قوله تعالى لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وأيضا فيه ظهور رجحان الولى من العدو فى جميع الخلائق فيكون لاحد القبيلين فى ذلك أعظم السرور وللآخر أعظم الغم ويكون ذلك بمنزلة نشر الصحف وغيره اذا ثبت هذا فنقول الدليل على وجود الموازين الحقيقيات حمل هذا اللفظ على مجرد العدل مجاز وصرف اللفظ عن الحقيقة الى المجاز من غير ضرورة غير جائز لاسيما وقد جاءت الاحاديث الكثيرة بالاسانيد الصحيحة فى هذا الباب (المسئلة الثالثة) قال قوم ان هذه الآية يناقضها قوله تعالى فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا والجواب انه لا يكرمهم ولا يعظمهم (المسئلة الرابعة) انما جمع الموازين لكثرة من توزن أعمالهم وهو جمع تفخيم ويجوز أن يرجع الى الموزونات أما قوله تعالى وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها فالمعنى انه لا ينقص من احسان محسن ولا يزاد فى اساءة مسىء وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ مثقال حبة على كان التامة كقوله تعالى وان كان ذو عسرة وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما آتينا بها وهى مفاعلة من الاتيان بمعنى المجازاة والمكافأة لانهم أتوه بالاعمال وأتاهم بالجزاء وقرأ حميد أثبنا بها من الثواب وفى حرف أبى جئنا بها (المسئلة الثانية) لم أنث ضمير المثقال قلنا لاضافته الى الحبة كقولهم ذهبت بعض أصابعه (المسئلة الثالثة) زعم الجبائى ان من استحق مائة جزء من العقاب فأتى بطاعة يستحق بها خمسين جزأ من الثواب فهذا الاقل يحبط بالاكثر ويبقى الاكثر كما كان واعلم ان هذه الآية تبطل قوله لان الله تعالى تمدح بأن اليسير من الطاعة لا يسقط ولو كان الامر كما قال الجبائى لسقطت الطاعة من غير فائدة (المسئلة الرابعة) قالت المعتزلة قوله فلا تظلم نفس شيأ فيه دلالة على ان مثل ذلك لو ابتدأه الله تعالى لكان قد ظلم فدل هذا الوجه على انه تعالى لا يعذب من لا يستحق ولا يفعل المضار فى الدنيا الا لمنافع والمصالح (والجواب) الظلم هو التصرف فى ملك الغير وذلك فى حق الله تعالى محال لانه المالك المطلق ثم الذى يدل على استحالة الظلم عليه عقلا ان الظلم عند الخصم مستلزم للجهل أو الحاجة المحالين على الله تعالى ومستلزم المحال محال فالظلم على الله تعالى محال وأيضا فان الظالم سفيه خارج عن الالهية فلو صح منه الظلم لصح خروجه عن الالهية فحينئذ يكون كونه الها من الجائزات لا من الواجبات وذلك يقدح فى الالهية (المسئلة الخامسة) ان قيل الحبة أعظم من الخردلة فكيف قال حبة من خردل قلنا الوجه فيه أن تفرض الخردلة كالدينار ثم تعتبر الحبة من ذلك الدينار والغرض المبالغة وان شيأ من الاعمال صغيرا كان أو كبيرا غير ضائع عند الله تعالى أما قوله تعالى وكفى بنا حاسبين فالغرض منه التحذير فان المحاسب اذا كان فى العلم بحيث لا يمكن أن يشتبه عليه شئ وفى القدرة بحيث لا يعجز عن شئ حقيق بالعاقل أن يكون فى أشد الخوف منه ويروى عن الشبلى رحمه الله تعالى انه رؤى فى المنام فقيل له ما فعل الله بك فقال حاسبونا فدققوا ثم منوا فاعتقوا ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون﴾ اعلم انه سبحانه لما تكلم

الرسل كلوا من الطيبات فانهم لم يخاطبوا بذلك دفعة بل خوطب كل منهم فى زمانه بصيغة مفردة خاصة به (انا نراك) تعليل لعرض رؤياهما عليه واستفسارهما منه عليه السلام (من المحسنين) من الذين يجيدون عبارة الرؤيا لما رأياه يقص عليه بعض أهل السجن رؤياه فيؤولها له تأويلا حسنا أو من العلماء لما سمعاه يذكر للناس ما يدل على علمه وفضله أو من المحسنين الى أهل السجن أى فأحسن الينا بكشف غمتنا ان كنت قادرا على ذلك روى أنه عليه السلام كان اذا مرض منهم رجل قام عليه واذا ضاق مكانه أوسع له واذا احتاج جمع له وعن قتادة رضى الله الله عنه كان فى السجن ناس قد انقطع رجاؤهم وطال حزنهم فجعل يقول أبشروا واصبروا تؤجروا فقالوا بارك الله عليك ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك لقد بورك لنا فى جوارك فمن أنت يافتى فقال أنا يوسف بن صفى الله يعقوب ابن ذبيح الله اسحق ابن خليل الله ابراهيم فقال له عامل السجن لو استطعت لخليت سبيلك ولكنى أحسن جوارك فكن فى أى بيوت السجن شئت وعن الشعبى أنهما تحالما له ليمتحناه فقال الشرابى أرانى فى بستان فاذا بأصل حبلة عليها ثلاثة عناقيد من عنب فقطفتها وعصرتها فى كأس الملك وسقيته وقال الخبازانى أرانى وفوق رأسى ثلاث سلال فيها أنواع الأطعمة واذا سباع الطير تنهس منها (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه) فى منامكما هذا حسب عادتكما المطردة (الا نبأتكما بتأويله) استثناء مفرغ من أعم في
الأحوال أى لا يأتيكما طعام فى حال من الأحوال الا حال ما نبأتكما به بأن بينت لكما ماهيته وكيفيته وسائر أحواله (قبل أن يأتيكما) واطلاق التأويل عليه اما بطريق الاستعارة فان ذلك بالنسبة الى مطلق الطعام المبهم بمنزلة التأويل بالنظر الى ما رؤى فى المنام وشبيه له

في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد شرع في قصص الانبياء عليهم السلام تسلية للرسول عليه السلام فيما يناله من قومه وتقوية لقلبه على أداء الرسالة والصبر على كل عارض دونها وذكر ههنا منها قصصا (القصة الاولى) قصة موسى عليه السلام ووجه الاتصال انه تعالى لما أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول انما أنذركم بالوحي أتبعه بان هذه عادة الله تعالى في الانبياء قبله فقال ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين واختلفوا في المراد بالفرقان على أقوال (أحدها) انه هو التوراة فكان فرقانا اذ كان يفرق به بين الحق والباطل وكان ضياء اذ كان لغاية وضوحه يتوصل به الى طرق الهدى وسبل النجاة في معرفة الله تعالى ومعرفة الشرائع وكان ذكرى أي موعظة أو ذكر ما يحتاجون اليه في دينهم ومصالحهم أو الشرف أما الواو في قوله وضياء فروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قرأ ضياء بغير واو وهو حال من الفرقان وأما القراءة المشهورة فالمعنى آتيناهم الفرقان وهو التوراة وآتينا به ضياء وذكرى للمتقين والمعنى انه في نفسه ضياء وذكرى أو آتيناهما بما فيه من الشرائع والمواعظ ضياء وذكرى (القول الثاني) ان المراد من الفرقان ليس التوراة ثم فيه وجوه (أحدها) عن ابن عباس رضي الله عنهما الفرقان هو النصر الذي أوتي موسى عليه السلام كقوله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يعني يوم بدر حين فرق بين الحق وغيره من الاديان الباطلة (وثانيها) هو البرهان الذي فرق به دين الحق عن الاديان الباطلة عن ابن زيد (وثالثها) فلق البحر عن الضحاك (ورابعها) الخروج عن الشبهات قال محمد بن كعب واعلم انه تعالى انما خص الذكر بالمتقين في قوله هدى للمتقين أما قوله تعالى الذين يخشون ربهم بالغيب فقال صاحب الكشاف محل الذين جر على الوصفية أو نصب على المدح أو رفع عليه وفي معنى الغيب وجوه (أحدها) يخشون عذاب ربهم فيأتمرون بأوامره وينتهون عن نواهيه وايمانهم بالله غيبي استدلالي فالعباد يعملون لله في الغيب والله لا يغيب عنه شيء عن ابن عباس رضي الله عنهما (وثانيها) يخشون ربهم وهم غائبون عن الآخرة وأحكامها (وثالثها) يخشون ربهم في الخلوات اذا غابوا عن الناس وهذا هو الاقرب والمعنى ان خشيتهم من عقاب الله لازمة لقلوبهم الا أن ذلك مما يظهرونه في الملا دون الخلاء وهم من عذاب الساعة وسائر ما يجري فيها من الحساب والسؤال مشفقون فيعدلون بسبب ذلك الاشفاق عن معصية الله تعالى ثم قال وكما أنزلت عليهم الفرقان فكذلك هذا القرآن انزل عليك وهو معنى قوله وهذا ذكر مبارك بركته كثرة منافعه وغزارة علومه وقوله أفأنتم له منكرون فالمعنى انه لا انكار في انزاله وفي عجائب ما فيه فقد آتينا موسى وهرون التوراة ثم هذا القرآن معجز لاشتماله على النظم العجيب والبلاغة البديعة واشتماله على الادلة العقلية وبيان الشرائع فمثل هذا الكتاب مع كثرة منافعه كيف يمكنكم انكاره (القصة الثانية) لابراهيم عليه السلام ﴿قوله تعالى ﴿ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين اذ قال لابيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين﴾ اعلم ان قوله تعالى ولقد آتينا ابراهيم رشده فيه مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ في الرشد قولان (الاول) انه النبوة واحتجوا عليه بقوله وكنا به عالمين قالوا لانه تعالى انما يخص بالنبوة من يعلم من حاله انه في المستقبل يقوم بحقها ويجتنب ما لا يليق بها ويحترز عما ينفر قومه من القبول (والثاني) انه الاهتداء لوجوه الصلاح في الدين والدنيا قال تعالى فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم وفيه قول ثالث وهو ان تدخل النبوة والاهتداء تحت الرشد اذ لا يجوز أن يبعث نبي الا وقد دله الله تعالى على ذاته وصفاته ودله أيضا على مصالح نفسه ومصالح قومه وكل ذلك من الرشد

وأما طريق المشاكلة حسبما وقع في عبارتهما من قولهما نبئنا بتأويله ولا يبعد أن يراد بالتأويل الشيء الآيل لا المآل فانه في الاصل جعل شيء آيلا الى شيء آخر فكما يجوز أن يراد به الثاني يجوز أن يراد به الاول فالمعنى الا نبأتكما بما يؤول اليه من الكلام والخبر المطابق للواقع وكان عليه السلام يقول له ما اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت فيجدانه كذلك ومراده عليه السلام بذلك بيان كل ما يهمهما من الامور المترقبة قبل وقوعها وانما تخصيص الطعام بالذكر لكونه عريقا في ذلك بحسب الحال مع ما فيه من مراعاة حسن التخلص اليه مما استعبراه من الرؤيين المتعلقتين بالشراب والطعام وقد جعل الضمير لما قصا من الرؤيين على معنى لا يأتيكما طعام ترزقانه حسب عادتكما الا أخبرتكما بتأويل ما قصصتما علي قبل أن يأتيكما ذلك الطعام الموقت مرادا به الاخبار بالاستعجال في التنبئة وأنت خبير بان النظم الكريم ظاهر في تعدد اتيان الطعام والاخبار بالتأويل وتجددهما وأن المقام مقام اظهار فضله في فنون العلوم بحيث يدخل في ذلك تأويل رؤياهما دخولا أوليا وانما لم يكتف عليه السلام بمجرد تأويل رؤياهما مع أن فيه دلالة على فضله لانهما لما نعتاه عليه السلام بالانتظام في سمط المحسنين وأنهما قد علما ذلك حيث قالا انا نراك من المحسنين توسم عليه السلام فيهما خيرا وتوجها الى قبول الحق فأراد أن يخرج آثر ذي أثير عما في عهدته من دعوة الخلق الى الحق فمهد قبل الخوض في ذلك مقدمة تزيدهما علما بعظم شأنه وثقة بأمره وقوفا على علو طبقته في بدائع العلوم توسلا بذلك الى تحقيق ما يتوخاه وقد تخلص اليه من كلامهما فكأنه قال تأويل ما قصصتماه علي في طرفي الثمام حيث رأيتماه مثاله في المنام وأنى أبين لكما كل

ـايل ودقايق من الامور المستقبلة وان لم يكن هناك مقدمة المنام حتى ان الطعام الموظف الذي يأتيكما كل يوم أبينه لكما قبل اتيانه ثم أخبرهما بأن علمه ذلك ليس من قبيل علوم الكهنة والعرافين بل هو فضل الهي يؤتيه من يشاء ممن يصطفيه للنبوة فقال (ذلكما) أى ذلك التأويل والاخبار بالمغيبات ومعنى البعد في ذلك للاشارة الى علو درجته وبعد منزلته (مما علمني ربي) بالوحي والالهام أى بعض منه أو من ذلك الجنس الذي لا يحوم حول ادراكه العقول ولقد دلهما بذلك على ان له علوما جمة ما سمعاه قطعة من جملتها وشعبة من دوحتها ثم بين أن نيل تلك الكرامة بسبب اتباعه ملة آبائه الانبياء العظام وامتناعه عن الشرك فقال (انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله) وهو استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من قوله ذلكما مما علمني ربي وتعليل له لا لتعليم الواقع عله للوصول لما دبته الى معنى انه مما علمني ربي لهذا السبب دون غيره ولا تضمون الجملة الخبرية لان ما ذكر بصدد التعليل ليس دليلا لكون التأويل المذكور بعضا مما علمه ربه أو لكونه من جنسه بل لنفس تعليم ما علمه ذكأنه قيل لماذا علمك ربك تلك العلوم البديعة فقيل لاني تركت ملة الكافرة أى دينهم الذي اجتمعوا عليه من الشرك وعبادة الاوثان والمراد بتركها الامتناع عنها رأسا كما يفصح عنه قوله ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء لا تركها بعد ملابستها وانما عبر عنه بذلك لكونه أدخل بحسب الظاهر في اقتدائهما به عليه السلام أولا والتعبير عن كفرهم بالله تعالى بسلب الايمان به للتنصيص على أن عبادتهم له تعالى مع عبادة الاوثان ليست بايمان به تعالى كما هو زعمهم الباطل على ما مر في قوله تعالى انه عمل غير صالح (وهم بالآخرة) وما فيها من الجزاء (هم كافرون) على الخصوص دون غيرهم

(المسئلة الثانية) احتج أصحابنا في ان الايمان مخلوق لله تعالى بهذه الآية فانه لو كان الرشد هو التوفيق والبيان فقد فعل الله تعالى ذلك بالكفار فيجب أن يكون قد آتاهم رشدهم أجاب الكعبي بان هذا يقال فيمن قبل لا فيمن رد وذلك كمن أعطى المال لولدين فقبله أحدهما وثمره ورده الآخر أو أخذه ثم ضيعه فيقال أغنى فلان ابنه فيمن أثمر المال ولا يقال مثله فيمن ضيع (والجواب عنه) هذا الجواب لا يتم الا اذا جعلنا قبوله جزأ من مسمى الرشد وذلك باطل لان المسمى اذا كان مركبا من جزأين ولا يكون أحدهما مقدور الفاعل لم يجز اضافة ذلك المسمى الى ذلك الفاعل فكان يلزم أن لا يجوز اضافة الرشد الى الله تعالى بالمفعولية لكن النص وهو قوله ولقد آتينا ابراهيم رشده صريح في أن ذلك الرشد انما حصل من الله تعالى فبطل ما قالوه (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف قرئ رشده كالعدم والعدم ومعنى اضافته اليه انه رشد مثله وانه رشد له شأن أما قوله تعالى من قبل ففيه وجوه (أحدها) آتينا ابراهيم نبوته واهتداءه من قبل موسى عليه السلام عن ابن عباس وابن جرير (وثانيها) في صغره قبل بلوغه حين كان في السرب وظهرت له الكواكب فاستدل بها وهذا على قول من حمل الرشد على الاهتداء والا لزمه أن يحكم بنبوته عليه السلام قبل البلوغ عن مقاتل (وثالثها) يعني حين كان في صلب آدم عليه السلام حين أخذ الله ميثاق النبيين عن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية الضحاك أما قوله تعالى وكنا به عالمين فالمراد انه سبحانه علم منه أحوالا بديعة وأسرارا عجيبة وصفات قد رضيها حتى أهله لان يكون خليلا له وهذا كقولك في رجل كبير أنا عالم بفلان فان هذا الكلام في الدلالة على تعظيمه أدل مما اذا شرحت جلال كماله أما قوله تعالى اذ قال لابيه وقومه فقال صاحب الكشاف اذ اما أن تتعلق بآتينا أو برشده أو بمحذوف أى اذكر من أوقات رشده هذا الوقت أما قوله ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) التمثال اسم للشيء المصنوع مشبها بخلق من خلق الله تعالى وأصله من مثلت الشيء بالشيء اذا شبهته به واسم ذلك الممثل تمثال (المسئلة الثانية) ان القوم كانوا عباد أصنام على صور مخصوصة كصورة الانسان أو غيره فعل عليه السلام هذا القول منه ابتداء كلامه لينظر فيما عساهم يوردونه من شبهة فيبطلها عليهم (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف لم ينو للعاكفين مفعولا وأجراه مجرى ما لا يتعدى كقولك فاعلون للعكوف أو واقفون لها قال فان قلت هلا قيل عليها عاكفون كقوله يعكفون على أصنام لهم قلت لو قصد التعدية لعداه بصلته التي هي على أما قوله قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين فاعلم ان القوم لم يجدوا في جوابه الا طريقة التقليد الذي يوجب مزيد النكير لانهم اذا كانوا على خطأ من أمرهم لم يعصمهم من هذا الخطأ أن آباءهم أيضا سلكوا هذا الطريق فلا جرم أجابهم ابراهيم عليه السلام بقوله لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين فبين ان الباطل لا يصير حقا بسبب كثرة المتمسكين به فلما حقق عليه السلام ذلك عليهم ولم يجدوا من كلامه مخلصا ورأوه ثابتا على الانكار قوي القلب فيه وكانوا يستبعدون أن يجري مثل هذا الانكار عليهم مع كثرتهم وطول العهد بمذهبهم فعند ذلك قالوا له أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين موهمين بهذا الكلام انه يبعد أن يقدم على الانكار عليهم جادا في ذلك فعنده عدل صلى الله عليه وسلم الى بيان التوحيد ﴿ قوله تعالى ﴿قال بل ربكم رب السموات والارض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم﴾ اعلم ان القوم لما أرهموا انه انما مازح بما خاطبهم به في أصنامهم أظهر عليه السلام ما يعلمون به انه مجد في اظهار الحق الذي هو التوحيد وذلك بالقول

لافراطهم في الكفر (واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحق ويعقوب) يعني أنه انما فاز بهذه الكمالات وفاز بتلك الكرامات بسبب أنه اتبع ملة آبائه الكرام ولم يتبع ملة قوم كفروا بالمبدا والمعاد وانما قاله عليه السلام ترغيبا لصاحبيه في الايمان والتوحيد وتنفيرا لهما عما كانا عليه من الشرك والضلال وقدم ذكر تركه لملتهم على ذكر اتباعه لملة آبائه لان التخلية ١٢٧ متقدمة على التحلية (ما كان) أى ما صح وما استقام فضلا عن الوقوع (لنا) معاشر الانبياء لقوة نفوسنا ووفور علومنا (أن نشرك بالله من شئ) أى شئ كان من ملك أو جنى أو انسى فضلا عن الجماد البحت (ذلك) أى التوحيد المدلول عليه بقوله ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ (من فضل الله علينا) أى ناشئ من تأييده لنا بالنبوة وترشيحه ايانا لقيادة الامة وهدايتهم الى الحق وذلك مع كونه من موجبات التوحيد ودواعيه نعمة جليلة وفضل عظيم علينا بالذات (وعلى الناس) كافة بواسطتنا وحيث عبر عن ذلك بذلك العنوان عبر عن التوحيد الذى يوجبه بالشكر فقيل (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) أى لا يوحدون فان التوحيد مع كونه من آثار ما ذكر من التأييد شكر لله عز وجل على تلك النعمة وانما وضع الظاهر موضع الضمير الراجع الى الناس لزيادة توضيح وبيان ولقطع توهم رجوعه الى المجموع الموهم لعدم اختصاص غير الشاكر بالناس وقيل ذلك التوحيد من فضل الله علينا حيث نصب لنا أدلة ننظر فيها ونستدل بها على الحق وقد نصب مثل تلك الأدلة لسائر الناس أيضا ولكن أكثرهم لا ينظرون ولا يستدلون بها اتباعا لاهوائهم فيبقون كافرين غير شاكرين ولك أن تقول ذلك التوحيد من فضل الله علينا حيث أعطانا عقولا ومشاعر نستعملها في دلائل التوحيد التى مهدها في

أولا ثم بالفعل ثانيا أما الطريقة القولية فهى قوله بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن وهذه الدلالة تدل على أن الخالق الذى خلقها لمنافع العباد هو الذى يحسن أن يعبد لان من يقدر على ذلك يقدر على أن يضر وينفع في الدار الآخرة بالعقاب والثواب فيرجع حاصل هذه الطريقة الى الطريقة التى ذكرها لابيه في قوله يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيأ قال صاحب الكشاف الضمير في فطرهن للسموات والارض أو للتماثيل وكونه للتماثيل أدخل في الاحتجاج عليهم أما قوله وأنا على ذلكم من الشاهدين ففيه وجهان (الاول) ان المقصود منه المبالغة في التأكيد والتحقيق كقول الرجل اذا بالغ في مدح أحد أو ذمه أشهد أنه كريم أو ذميم (والثانى) انه عليه السلام عنى بقوله وأنا على ذلكم من الشاهدين ادعاء انه قادر على اثبات ما ذكره بالحجة وانى لست مثلكم فأقول ما لا أقدر على اثباته بالحجة كما لم تقدروا على الاحتجاج لمذهبكم ولم تزيدوا على أنكم وجدتم عليه آباءكم وأما الطريقة الفعلية فهى قوله وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فان القوم لما لم ينتفعوا بالدلالة العقلية عدل الى أن أراهم عدم الفائدة في عبادتها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف قرأ معاذ بن جبل رضى الله عنه وبالله وقرئ تولوا بمعنى تتولوا ويقويها قوله فتولوا عنه مدبرين فان قلت ما الفرق بين الباء والتاء قلت ان الباء هى الاصل والتاء بدل من الواو المبدل منها والتاء فيها زيادة معنى وهو التعجب كأنه تعجب من تسهيل الكيد على يده لان ذلك كان أمرا مقنوطا منه لصعوبته (المسئلة الثانية) ان قيل لماذا قال لأكيدن أصنامكم والكيد هو الاحتيال على الغير في ضرر لا يشعر به وذلك لا يتأتى في الاصنام وجوابه قال ذلك توسعا لما كان عندهم ان الضرر يجوز عليها وقيل المراد لأكيدنكم في أصنامكم لانه بذلك الفعل قد أنزل بهم الغم (المسئلة الثالثة) في كيفية أول القصة وجهان (أحدهما) قال السدى كانوا اذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الاصنام فسجدوا لها ثم عادوا الى منازلهم فلما كان هذا الوقت قال آزر لابراهيم عليه السلام لو خرجت معنا فخرج معهم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال انى سقيم اشتكى رجلى فلما مضوا وبقى ضعفاء الناس نادى وقال تالله لأكيدن أصنامكم واحتج هذا القائل بقوله تعالى قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم (وثانيهما) قال الكلبى كان ابراهيم عليه السلام من أهل بيت ينظرون في النجوم وكانوا اذا خرجوا الى عيدهم لم يتركوا الا مريضا فلما هم ابراهيم بالذى هم به من كسر الاصنام نظر قبل يوم العيد الى السماء فقال لاصحابه أرانى أشتكى غدا فذلك قوله فنظر نظرة في النجوم فقال انى سقيم وأصبح من الغد معصوبا رأسه فخرج القوم لعيدهم ولم يتخلف أحد غيره فقال أما والله لأكيدن أصنامكم وسمع رجل منهم هذا القول فحفظه عليه ثم ان ذلك الرجل أخبر غيره وانتشر ذلك في جماعة فلذلك قال تعالى قالوا سمعنا فتى يذكرهم واعلم أن كلا الوجهين ممكن ثم تمام القصة ان ابراهيم عليه السلام لما دخل بيت الاصنام وجد سبعين صنما مصطفة وثم صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب وكان في عينيه جوهرتان تضيئان بالليل فكسرها كلها بفاس في يده حتى لم يبق الا الكبير ثم علق الفاس في عنقه أما قوله تعالى فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ان قيل لم قال فجعلهم جذاذا وهذا جمع لا يليق الا بالناس جوابه من حيث اعتقدوا فيها انها كالناس في انها تعظم ويتقرب اليها ولعل كان فيهم من يظن انها تضر وتنفع (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف جذاذا قطاعا من الجذ وهو القطع وقرئ بالكسر والفتح وقرئ جذذا جمع جذيذ وجذذا جمع جذة (المسئلة الثالثة) ان قيل ما معنى الا كبيرا لهم قلنا يحتمل الكبير في الخلقة ويحتمل في التعظيم ويحتمل في الامرين وأما قوله لعلهم اليه يرجعون فيحتمل

رجوعهم الى ابراهيم عليه السلام ويحتمل رجوعهم الى الكبير أما الاول فتقريره من وجهين (الاول) ان المعنى انهم لعلهم يرجعون الى مقالة ابراهيم ويعدلون عن الباطل (والثاني) انه غلب على ظنه انهم لا يرجعون الا اليه لما تسامعوه من انكاره لدينهم وسبه لآلهتهم فبكتهم بما أجاب به من قوله بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم أما اذا قلنا الضمير راجع الى الكبير ففيه وجهان (الاول) ان المعنى لعلهم يرجعون اليه كما يرجع الى العالم في حل المشكلات فيقولون ما لهؤلاء مكسورة وما لك صحيح والفاس على عاتقك وهذا قول الكلبي وانما قال ذلك بناء على كثرة جهالاتهم فلعلهم كانوا يعتقدون فيها انها تجيب وتتكلم (والثاني) انه عليه السلام قال ذلك مع علمه انهم لا يرجعون اليه استهزاء بهم وان قياس حال من يسجد له ويؤهل للعبادة أن يرجع اليه في حل المشكلات (المسئلة الرابعة) ان قيل أولئك الاقوام اما أن يقال انهم كانوا عقلاء أو ما كانوا عقلاء فان كانوا عقلاء وجب أن يكونوا عالمين بالضرورة ان تلك الاصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر فأي حاجة في اثبات ذلك الى كسرها أقصى ما في الباب أن يقال القوم كانوا يعظمونها كما يعظم الواحد منا المصحف والمسجد والمحراب وكسرها لا يقدح في كونها معظمة من هذا الوجه وان قلنا انهم ما كانوا عقلاء وجب أن لا تحسن المناظرة معهم ولا بعثة الرسل اليهم والجواب انهم كانوا عقلاء وكانوا عالمين بالضرورة انها جمادات ولكن لعلهم كانوا يعتقدون فيها انها تماثيل الكواكب وانها طلسمات موضوعة بحيث ان كل من عبدها انتفع بها وكل من استخف بها ناله منها ضرر شديد ثم ان ابراهيم عليه السلام كسرها مع انه ما ناله منها البتة ضرر فكان فعله دالا على فساد مذهبهم من هذا الوجه أما قوله تعالى قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين أي من فعل هذا الكسر والحطام لشديد الظلم معدود في الظلمة اما لجراءته على الآلهة الحقيقة بالتوقير والاعظام واما لانهم رأوا افراطا في كسرها وتماديا في الاستهانة بها أما قوله تعالى قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال الزجاج ارتفع ابراهيم على وجهين (أحدهما) على معنى يقال هو ابراهيم (والثاني) على النداء على معنى يقال له يا ابراهيم قال صاحب الكشاف والصحيح انه فاعل يقال لان المراد الاسم دون المسمى (المسئلة الثانية) ظاهر الآية يدل على ان القائلين جماعة لا واحد فكأنهم كانوا من قبل قد عرفوا منه وسمعوا ما يقوله في آلهتهم فغلب على قلوبهم انه الفاعل ولو لم يكن الا قوله ما هذه التماثيل الى غير ذلك لكفى

قوله تعالى ﴿قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رؤسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾ اعلم أن القوم لما شاهدوا كسر الاصنام وقيل ان فاعله ابراهيم عليه السلام قالوا فيما بينهم فأتوا به على أعين الناس قال صاحب الكشاف على أعين الناس في محل الحال أي فأتوا به مشاهدا أي بمرأى منهم ومنظر فان قلت ما معنى الاستعلاء في على قلت هو وارد على طريق المثل أي يثبت اتيانه في الاعين ثبات الراكب على المركوب أما قوله تعالى لعلهم يشهدون ففيه وجهان (أحدهما) انهم كرهوا أن يأخذوه بغير بينة فأرادوا أن يجيئوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون عليه بما قاله فيكون حجة عليه بما فعل وهذا قول الحسن وقتادة والسدي وعطاء وابن عباس رضي الله عنهم (وثانيهما) وهو قول محمد بن اسحق أي يحضرون فيبصرون ما يصنع به فيكون ذلك زاجرا لهم عن الاقدام على مثل فعله وفيه قول ثالث وهو قول مقاتل والكلبي ان المراد مجموع الوجهين فيشهدون عليه بفعله

ويشهدون

الانفس والآفاق وقد أعطى سائر الناس أيضا مثلها ولكن أكثرهم لا يشكرون أي لا يصرفون تلك القوى والمشاعر الى ما خلقت له ولا يستعملونها فيما ذكر من أدلة التوحيد الآفاقية والانفسية والعقلية والنقلية (يا صاحبي السجن) أي يا صاحبي في السجن كما تقول يا سارق الليلة ناداهما بعنوان الصحبة في مدار الأشجان ودار الأحزان التي تصفو فيها المودة وتخلص النصيحة ليقبلا عليه ويقبلا مقالته وقد ضرب لهما مثلا يتضح به الحق عندهما حق اتضاح فقال (أأرباب متفرقون) لا ارتباط بينهم ولا اتفاق يستعبدكما كل منهم حسبما أراد غير مراقب للآخرين مع عدم استقلاله (خير أم الله) المعبود بالحق (الواحد) المتفرد بالالوهية (القهار) الغالب الذي لا يغالبه أحد وبعدما نبههما على فساد تعدد الارباب بين لهما سقوط آلهتهما عن درجة الاعتبار رأسا فضلا عن الالوهية فقال معمما للخطاب ايهما ولمن على دينهما (ما تعبدون من دونه) أي من دون الله شيئا (الا أسماء) فارغة لا مطابق لها في الخارج لان ما ليس فيه مصداق اطلاق الاسم عليه لا وجود له أصلا فكانت عبادتهم لتلك الاسماء فقط (سميتموها) جعلتموها أسماء وانما لم يذكر المسميات تربية لما يقتضيه المقام من اسقاطها عن مرتبة الوجود وايذانا بأن تسميتهم في البطلان حيث كانت بلا مسمى كعبادتهم حيث كانت بلا معبود (أنتم وآباؤكم) بمحض جهلكم وضلالكم (ما أنزل الله بها) أي بتلك التسمية المستتبعة للعبادة (من سلطان) من حجة تدل على صحتها (ان الحكم) في أمر العبادة المتفرعة على تلك التسمية (الا لله) عز سلطانه لانه المستحق لها بالذات اذ هو الواجب بالذات الموجد للكل والمالك لأمره (أمر) استئناف مبني

على سؤال ناشئ من قوله ان الحكم الا لله فكأنه قيل فماذا حكم الله في هذا الشأن فقيل أمر على ألسنة الأنبياء عليهم السلام (ألا تعبدوا) أي بأن لا تعبدوا (الا اياه) حسبما تقضي به قضية العقل أيضا (ذلك) أي تخصيصه تعالى بالعبادة (الدين القيم) الثابت المستقيم الذي تعاضدت عليه البراهين عقلا ونقلا (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن ذلك هو الدين القيم لجهلهم بتلك البراهين أو لا يعلمون شيئا أصلا فيعبدون أسماء سموها من تلقاء أنفسهم معرضين عن البرهان العقلي والسلطان النقلي وبعد تحقيق الحق ودعوتهما اليه وبيانه لهما مقداره الرفيع ومرتبة علمه الواسع شرع في تفسير ما استفسراه ولكونه بحثا مغايرا لما سبق فصله عنه بتكرير الخطاب فقال (يا صاحبي السجن أما أحدكما) وهو الشرابي وانما لم يعينه ثقة بدلالة التعبير وتوسلا بذلك الى ابهام أمر صاحبه حذار مشافهته بما يسوءه (فيسقي ربه) أي سيده (خمرا) روي أنه عليه السلام قال له ما رأيت من الكرمة وحسنها الملك وحسن حالك عنده وأما القضبان الثلاثة فثلاثة أيام تمضي في السجن ثم تخرج وتعود الى ما كنت عليه وقرأ عكرمة فيسقى ربه على البناء للمفعول أي يسقى ما يروى به (وأما الآخر) وهو الخباز (فيصلب فتأكل الطير من رأسه) روي أنه عليه السلام قال له ما رأيت من السلال الثلاث ثلاثة أيام تمر ثم تخرج فتقتل (قضي) أي تم وأحكم (الامر الذي فيه تستفتيان) وهو ما رأياه من الرؤيين قطعا لا مآله الذي هو عبارة عن نجاة أحدهما وهلاك الآخر كما يوهمه اسناد القضاء اليه اذ الاستفتاء انما يكون في الحادثة لا في حكمها يقال استفتى الفقيه في الحادثة أي طلب منه بيان حكمها ولا يقال استفتاه في حكمها وكذا الافتاء فانه يقال أفتى

ويشهدون عقابه أما قوله تعالى قالوا أأنت فعلت هذا فاعلم ان في الكلام حذفا وهو فأتوا به وقالوا أأنت فعلت طلبوا منه الاعتراف بذلك ليقدموا على ايذائه فظهر منه ما انقلب الامر عليهم حتى تمنوا الخلاص منه فقال بل فعله كبيرهم هذا وقد علق الفأس على رقبته لكي يورد هذا القول فيظهر جهلهم في عبادة الاوثان (فان قيل) قوله بل فعله كبيرهم كذب (والجواب) للناس فيه قولان (أحدهما) وهو قول كافة المحققين انه ليس بكذب وذكروا في الاعتذار عنه وجوها (أحدها) ان قصد ابراهيم عليه السلام لم يكن الى أن ينسب الفعل الصادر عنه الى الصنم وانما قصد تقريره لنفسه واثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من الزامهم الحجة وتبكيتهم وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتابا بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط أأنت كتبت هذا وصاحبك أمي لا يحسن الخط ولا يقدر الا على خرمشة فاسدة فقلت له بل كتبته أنت كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك واثباته للامي أو المخرمش لان اثباته والامر دائر بينهما للعاجز منهما استهزاء به واثبات للقادر (وثانيها) ان ابراهيم عليه السلام غاظته تلك الاصنام حين أبصرها مصطفة مزينة وكان غيظه من كبيرها أشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له فاسند الفعل اليه لانه هو السبب في استهانته بها وحطمه لها والفعل كما يسند الى مباشره يسند الى الحامل عليه (وثالثها) أن يكون حكاية لما يلزم على مذهبهم كأنه قال لهم ما تنكرون أن يفعله كبيرهم فان من حق من يعبد ويدعى الها أن يقدر على هذا وأشد منه وهذه الوجوه الثلاثة ذكرها صاحب الكشاف (ورابعها) انه كناية عن غير مذكور أي فعله من فعله وكبيرهم هذا ابتداء الكلام ويروى عن الكسائي انه كان يقف عند قوله بل فعله ثم يبتدئ كبيرهم هذا (وخامسها) انه يجوز أن يكون فيه وقف عند قوله كبيرهم ثم يبتدئ فيقول هذا فاسألوهم والمعنى بل فعله كبيرهم وعنى نفسه لان الانسان أكبر من كل صنم (وسادسها) أن يكون في الكلام تقديم وتأخير كأنه قال بل فعله كبيرهم هذا ان كانوا ينطقون فاسألوهم فتكون اضافة الفعل الى كبيرهم مشروطا بكونهم ناطقين فلما لم يكونوا ناطقين امتنع أن يكونوا فاعلين (وسابعها) قرأ محمد بن السميفع فعله كبيرهم أي فلعل الفاعل كبيرهم (القول الثاني) وهو قول طائفة من أهل الحكايات ان ذلك كذب واحتجوا بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات كلها في ذات الله تعالى قوله اني سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله لسارة هي أختي وفي خبر آخر ان أهل الموقف اذا سألوا ابراهيم الشفاعة قال اني كذبت ثلاث كذبات ثم قرروا قولهم من جهة العقل وقالوا الكذب ليس قبيحا لذاته فان النبي عليه السلام اذا هرب من ظالم واختفى في دار انسان وجاء الظالم وسأل عن حاله فانه يجب الكذب فيه واذا كان كذلك فأي بعد في أن يأذن الله تعالى في ذلك لمصلحة لا يعرفها الا هو واعلم ان هذا القول مرغوب عنه أما الخبر الاول وهو الذي رووه فلأن يضاف الكذب الى رواته أولى من أن يضاف الى الانبياء عليهم الصلاة والسلام والدليل القاطع عليه انه لو جاز أن يكذبوا لمصلحة ويأذن الله تعالى فيه فلنجوز هذا الاحتمال في كل ما أخبروا عنه وفي كل ما أخبر الله تعالى عنه وذلك يبطل الوثوق بالشرائع وتطرق التهمة الى كلها ثم ان ذلك الخبر لو صح فهو محمول على المعاريض على ما قال عليه السلام ان في المعاريض لمندوحة عن الكذب فأما قوله تعالى اني سقيم فلعله كان به سقم قليل واستقصاء الكلام فيه يجيء في موضعه وأما قوله بل فعله كبيرهم فقد ظهر الجواب عنه أما قوله لسارة انها أختي فالمراد انها أخته في الدين واذا أمكن حمل الكلام على ظاهره من غير نسبة الكذب الى الانبياء عليهم السلام فحينئذ لا يحكم بنسبة الكذب اليهم الا

فلان في الواقعة الفلانية كذا ولا يقال أفتى في حكمه وأوجوابها كذا وممـا هو علم في ذلك قوله تعالى يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي ومعنى استفتائهما فيه طلبهما تأويله بقولهما نبئنا بتأويله وانما عبر عن ذلك بالامر وعن طلب تأويله بالاستفتاء تهويلا لامره وتفخيما لشأنه اذ الاستفتاء انما يكون في النوازل المشكلة الحكم المبهمة الجواب وايثار صيغة الاستقبال مع سبق استفتائهما في ذلك لما أنهما بصدده الى أن يقضى عليه السلام من الجواب وطره واسناد القضاء اليه مع أنه من أحوال مآله لانه في الحقيقة عين ذلك المآل وقد ظهر في عالم المثال بتلك الصورة وأما توحيده مع تعدد رؤياهما فوارد على حسب ما وحداه في قولهما نبئنا بتأويله لا لان الامر ما اتهمابه وهما الاجله من سم الملك فانهما لم يستفتيا فيه ولا فيما هو صورته بل فيما هو صورة لمآله وعاقبته فتأمل وانما أخبرهما عليه السلام بذلك تحقيقا لتعبيره وتأكيداله وقيل لما عبر رؤياهما جحدا وقالا ما رأينا شيأ فأخبرهما ان ذلك كائن صدقتما أو كذبتما ولعل الجحود من الخباز اذ لاداعي الى جحود الشراب الا أن يكون ذلك لمراعاة جانبه (وقال) أى يوسف عليه السلام (للذى ظن أنه ناج) أوثر على صيغة المضارع مبالغة في الدلالة على تحقق النجاة حسبما يفيده قوله تعالى قضى الامر الذى فيه تستفتيان وهو السر في ايثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال للذى ظنه ناجيا (منهما) من صاحبيه وانما ذكر بوصف النجاة تمهيدا لمناط التوصية بالذكر عند الملك وعنوان التقرب المفهوم من التعبير المذكور وان كان أدخل في ذلك وأدعى الى تحقيق ما وصاه به لكنه ليس بوصف فارق يدور عليه الامتياز بينه وبين صاحبه المذكور بوصف الهلاك والظان هو يوسف عليه السلام لا صاحبه لان التوصية

زنديق أما قوله تعالى فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون ففيه وجوه (الاول) ان ابراهيم عليه السلام لما نبههم بما أورده عليهم على قبح طريقهم تنبهوا فعلموا ان عبادة الاصنام باطلة وانهم على غرور وجهل في ذلك (والثانى) قال مقاتل فرجعوا الى أنفسهم فلاموها وقالوا انكم أنتم الظالمون لابراهيم حيث تزعمون انه كسرها مع ان الفأس بين يدى الصنم الكبير (وثالثها) المعنى انكم أنتم الظالمون لانفسكم حيث سألتم منه عن ذلك حتى أخذ يستهزئ بكم فى الجواب والاقرب هو الاول أما قوله تعالى ثم نكسوا على رؤسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون فقال صاحب الكشاف نكسه قلبه فجعل أسفله أعلاه وفيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ في المعنى وجوه (أحدها) ان المراد استقاموا حين رجعوا الى أنفسهم وأتوا بالفكرة الصالحة ثم انتكسوا فقلبوا عن تلك الحالة فأخذوا في المجادلة بالباطل وأن هؤلاء مع تقاصر حالها عن حال الحيوان الناطق آلهة معبودة (وثانيها) قلبوا على رؤسهم حقيقة لفرط اطراقهم خجلا وانكسارا وانخذالا مما بهتهم به ابراهيم فما أحاروا جوابا الا ما هو حجة عليهم (وثالثها) قال ابن جرير ثم نكسوا على رؤسهم فى الحجة عليهم لابراهيم حين جادلهم أى قلبوا فى الحجة واحتجوا على ابراهيم بما هو الحجة لابراهيم عليهم فقالوا لقد علمت ما هؤلاء ينطقون فأقروا بهذه للحيرة التى لحقتهم قال والمعنى نكست حجتهم فأقيم الخبر عنهم مقام الخبر عن حجتهم ﴿المسئلة الثانية﴾ قرئ نكسوا بالتشديد ونكسوا على لفظ ما لم يسم فاعله أى نكسوا أنفسهم على رؤسهم وهى قراءة رضوان بن عبد المعبود أما قوله تعالى قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيأ ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون فالمعنى ظاهر قال صاحب الكشاف أف صوت اذا صوت به علم ان صاحبه متضجر وأن ابراهيم عليه السلام أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم وبعد وضوح الحق وزهوق الباطل فتأفف بهم ثم يحتمل أنه قال لهم ذلك وقد عرفوا صحة قوله ويحتمل أنه قال لهم ذلك وقد ظهرت الحجة وان لم يعقلوا وهذا هو الاقرب لقوله أفتعبدون ولقوله أفلا تعقلون

﴿ قوله تعالى ﴿قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين ونجيناه ولوطا الى الارض التى باركنا فيها للعالمين﴾ اعلم أنه تعالى لما بين ما أظهره ابراهيم عليه السلام من دلائل التوحيد وابطال ما كانوا عليه من عبادة التماثيل أتبعه بما يدل على جهلهم وانهم قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم وههنا مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ ليس فى القرآن من القائل لذلك والمشهور انه نمروذ بن كنعان بن سنجاريب بن نمروذ بن كوش بن حام بن نوح وقال مجاهد سمعت ابن عمر يقول انما أشار بتحريق ابراهيم عليه السلام رجل من الكرد من أعراب فارس وروى ابن جريج عن وهب عن شعيب الجبائى قال ان الذى قال حرقوه رجل اسمه هيزن فخسف الله تعالى به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة ﴿المسئلة الثانية﴾ أما كيفية القصة فقال مقاتل لما اجتمع نمروذ وقومه لاحراق ابراهيم حبسوه فى بيت وبنوا بنيانا كالحظيرة وذلك قوله قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم ثم جمعوا له الحطب الكثير حتى ان المرأة لو مرضت قالت ان عافانى الله لاجمعن حطبا لابراهيم ونقلوا له الحطب على الدواب أربعين يوما فلما اشتعلت النار اشتدت وصار الهواء بحيث لو مر الطير فى أقصى الهواء لاحترق ثم أخذوا ابراهيم عليه السلام ورفعوه على رأس البنيان وقيدوه ثم اتخذوا منجنيقا ووضعوه فيه مقيدا مغلولا فصاحت السماء والارض ومن فيهما من الملائكة الا الثقلين صيحة واحدة أى ربنا ليس فى أرضك أحد يعبدك غير ابراهيم وانه يحرق فيك فأذن لنا فى نصرته فقال سبحانه ان استغاث بأحد منكم فأغيثوه وان لم يدع غيرى فانا أعلم به وأنا وليه فخلوا بينى وبينه فلما أرادوا القاءه فى النار أتاه خازن الرياح فقال ان شئت طيرت

المذكورة لاتدور على ظن الناجى بل على ظن يوسف وهو بمعنى اليقين كما فى قوله تعالى ظننت أنى ملاق حسابيه فالتعبير بالوحى كما ينبئ عنه قوله تعالى قضى الامر الخ وقيل هو بمعناه والتعبير بالاجتهاد والحكم بقضاء الامر أيضا اجتهادى (اذكرنى) بما أنا عليه من الحال والصفة (عند ربك) سيدك وصفنى له بصفتى التى شاهدتها (فأنساه الشيطان) أى أنسى الشرابى ١٣١ بوسوسته والقائه فى قلبه أشغالا تعوقه عن الذكر والا فالانساء فى الحقيقة لله عز وجل والفاء للسببية فان توصيته عليه السلام المتضمنة للاستعانة بغيره سبحانه كانت باعثة لما ذكر من الانساء (ذكر ربه) أى ذكر الشرابى له عليه السلام عند الملك والاضافة لادنى ملابسة أو ذكر اخبار ربه (فلبث) أى يوسف عليه السلام بسبب ذلك الانساء أو القول (فى السجن بضع سنين) البضع ما بين الثلاث الى التسع من البضع وهو القطع وأكثر الاقاويل انه لبث فيه سبع سنين وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم رحم الله أخى يوسف لولم يقل اذكرنى عند ربك لما لبث فى السجن سبعا بعد الخمس والاستعانة بالعباد وان كانت مرخصة لكن اللائق بمناصب الانبياء عليهم السلام الاخذ بالعزائم (وقال الملك) أى الريان (انى أرى) أى رأيت وايثار صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية (سبع بقرات سمان) جمع سمين وسمينة ككرام فى جمع كريم وكريمة يقال رجال كرام ونسوة كرام (يأكلهن) أى أكلهن والعدول الى المضارع لاستحضار الصورة تعجيبا والجملة حال من البقرات أو صفة لها (سبع عجاف) أى سبع بقرات عجاف وهى جمع عجفاء والقياس عجف لان فعلاء وأفعل لا يجمع على فعال ولكن عدل به عن القياس حملا لاحد النقيضين على الآخر وانما لم يقل سبع عجاف بالاضافة لان التمييز موضوع

طيرت النار فى الهواء فقال ابراهيم عليه السلام لا حاجة لى اليكم ثم رفع رأسه الى السماء وقال اللهم أنت الواحد فى السماء وأنا الواحد فى الارض ليس فى الارض أحد يعبدك غيرى حسبنا الله ونعم الوكيل وقيل انه حين ألقى فى النار قال لا اله الا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك ثم وضعوه فى المنجنيق ورموا به فى النار فأتاه جبريل عليه السلام وقال يا ابراهيم هل لك حاجة قال أما اليك فلا قال فاسأل ربك قال حسبى من سؤالى علمه بحالى فقال الله تعالى يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم وقال السدى انما قال ذلك جبريل عليه السلام قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية مجاهد ولو لم يتبع بردا سلاما لمات ابراهيم من بردها قال ولم يبق يومئذ فى الدنيا نار الا طفئت ثم قال السدى فأخذت الملائكة بضبعى ابراهيم وأقعدوه فى الارض فاذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس ولم تحرق النار منه الا وثاقه وقال المنهال ابن عمرو أخبرت ان ابراهيم عليه السلام لما ألقى فى النار كان فيها اما أربعين يوما أو خمسين يوما وقال ما كنت أياما أطيب عيشا منى اذ كنت فيها وقال ابن اسحق بعث الله ملك الظل فى صورة ابراهيم فقعد الى جنب ابراهيم يؤنسه وأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة وقال يا ابراهيم ان ربك يقول أما علمت ان النار لا تضر أحبابى ثم نظر نمروذ من صرح له وأشرف على ابراهيم فرآه جالسا فى روضة ورأى الملك قاعدا الى جنبه وما حوله نار تحرق الحطب فناداه نمروذ يا ابراهيم هل تستطيع أن تخرج منها قال نعم قال قم فاخرج فقام يمشى حتى خرج منها فلما خرج قال له نمروذ من الرجل الذى رأيته معك فى صورتك قال ذاك ملك الظل أرسله ربى ليؤنسنى فيها فقال نمروذ انى مقرب الى ربك قربانا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك فانى ذابح له أربعة آلاف بقرة فقال ابراهيم عليه السلام لا يقبل الله منك ما دمت على دينك فقال نمروذ لا أستطيع ترك ملكى ولكن سوف أذبحها له ثم ذبحها له وكف عن ابراهيم عليه السلام ورويت هذه القصة على وجه آخر وهى انهم بنوا لابراهيم بنيانا وألقوه فيه ثم أوقدوا عليه النار سبعة أيام ثم أطبقوا عليه ثم فتحوا عليه من الغد فاذا هو غير محترق يعرق عرقا فقال لهم هاران أبو لوط ان النار لا تحرقه لانه سحر النار ولكن اجعلوه على شئ وأوقدوا تحته فان الدخان يقتله فجعلوه فوق بئر وأوقدوا تحته فطارت شرارة فوقعت فى لحية أبى لوط فأحرقته ﴿المسألة الثالثة﴾ انما اختاروا المعاقبة بالنار لانها أشد العقوبات ولهذا قيل ان كنتم فاعلين أى ان كنتم تنصرون آلهتكم نصرا شديدا فاختاروا أشد العقوبات وهى الاحراق أما قوله تعالى قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم ففيه مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ قال أبو مسلم الاصفهانى فى تفسير قوله تعالى قلنا يا نار كونى بردا المعنى انه سبحانه جعل النار بردا وسلاما لا ان هناك كلاما كقوله أن يقول له كن فيكون أى يكونه وقد احتج عليه بان النار جماد فلا يجوز خطابه والاكثرون على انه وجد ذلك القول ثم هؤلاء لهم قولان (أحدهما) وهو قول السدى ان القائل هو جبريل عليه السلام (والثانى) وهو قول الاكثرين ان القائل هو الله تعالى وهذا هو الاليق الاقرب بالظاهر وقوله النار جماد فلا يكون فى خطابها فائدة قلنا لم لا يجوز أن يكون المقصود من ذلك الامر مصلحة عائدة الى الملائكة ﴿المسألة الثانية﴾ اختلفوا فى أن النار كيف بردت على ثلاثة أقوال (أحدها) أن الله تعالى أزال عنها ما فيها من الحر والاحراق وأبقى ما فيها من الاضاءة والاشراق والله على كل شئ قدير (وثانيها) ان الله تعالى خلق فى جسم ابراهيم كيفية مانعة من وصول أذى النار اليه كما يفعل بخزنة جهنم فى الآخرة وكما أنه ركب بنية النعامة بحيث لا يضرها ابتلاع الحديدة المحماة وبدن السمندل بحيث لا يضره المكث فى النار (وثالثها) أنه سبحانه خلق بينه وبين النار حائلا يمنع من وصول أثر النار اليه قال المحققون والاول أولى لان ظاهر قوله

لبيان الجنس والصفة ليست بصالحة لذلك فلا يقال ثلاثة ضخام وأربعة غلاظ وأما قولك ثلاثة فرسان وخمسة ركبان فلجريان الفارس والراكب مجرى الاسماء روى انه رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس وخرج عقيبهن سبع بقرات عجاف في غاية الهزال فابتلعت العجاف السمان (وسبع سنبلات خضر) قد انعقد حبها (وأخر يابسات) أى وسبعا أخر يابسات قد أدركت والتوت على الخضر حتى غلبتها على ما روى واهل عدم التعرض لذكره للاكتفاء بما ذكر من حال البقرات (يا أيها الملأ) خطاب للاشراف من العلماء والحكماء (أفتونى في رؤياى) هذه أى عبروها وبينوا حكمها وما تؤول اليه من العاقبة والتعبير عن التعبير بالافتاء لتشريفهم وتفخيم أمر رؤياه (ان كنتم للرؤيا تعبرون) أى تعلمون عبارة جنس الرؤيا علما مستمرا وهى الانتقال من الصور الخيالية المشاهدة في المنام الى ما هى صور وأمثلة لها من الامور الآفاقية أو الانفسية الواقعة في الخارج من العبور وهو المجاوزة تقول عبرت النهر اذا قطعته وجاوزته ونحوه أولتها أى ذكرت مآلها وعبرت الرؤيا عبارة أثبت من عبرتها تعبيرا والجمع بين الماضى والمستقبل للدلالة على الاستمرار كما أشير اليه واللام للبيان أو لتقوية العامل المؤخر لرعاية الفواصل أو لتضمين تعبرون معنى فعل متعد باللام كأنه قيل ان كنتم تنتدبون لعبارتها ويجوز أن يكون للرؤيا خبر كان كما يقال فلان لهذا الامر اذا كان مستقلا به متمكنا منه وتعبرون خبرا آخر (قالوا) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا قال الملأ للملك فقيل قالوا هى (أضغاث أحلام) أى تخاليطها جمع ضغث وهو في الاصل ما جمع من أخلاط النبات وحزم ثم استعير لما تجمعه القوة المتخيلة من أحاديث النفس ووساوس

يا نار كونى بردا أن نفس النار صارت باردة حتى سلم ابراهيم من تأثيرها الا أن النار بقيت كما كانت فان قيل النار جسم موصوف بالحرارة واللطافة فاذا كانت الحرارة جزأ من مسمى النار امتنع كون النار باردة فاذا وجب أن يقال المراد من النار الجسم الذى هو أحد أجزاء مسمى النار وذلك مجاز فلم كان مجازكم أولى من المجازين الآخرين قلنا المجاز الذى ذكرناه يبقى معه حصول البرد وفى المجازين اللذين ذكرتموهما لا يبقى ذلك فكان مجازنا أولى أما قوله تعالى كونى بردا وسلاما على ابراهيم فالمعنى ان البرد اذا أفرط أهلك كالحر بل لابد من الاعتدال ثم فى حصول الاعتدال ثلاثة أوجه (أحدها) أنه يقدر الله تعالى بردها بالمقدار الذى لا يؤثر (وثانيها) ان بعض النار صار بردا وبقى بعضها على حرارته فتعادل الحر والبرد (وثالثها) انه تعالى جعل فى جسمه مزيد حر فسلم من ذلك البرد بل قد انتفع به والتذ ثم ههنا سؤالات {السؤال الاول} أو كل النار زالت وصارت بردا (الجواب) ان النار هو اسم الماهية فلابد وأن يحصل هذا البرد فى الماهية ويلزم منه عمومه فى كل افراد الماهية وقيل بل اختص بتلك النار لان الغرض انما تعلق ببرد تلك النار وفى النار منافع للخلق فلا يجوز تعطيلها والمراد خلاص ابراهيم عليه السلام لا ايصال الضرر الى سائر الخلق {السؤال الثانى} هل يجوز ما روى عن الحسن من انه سلام من الله تعالى على ابراهيم عليه السلام (الجواب) الظاهر كما أنه جعل النار بردا جعلها سلاما عليه حتى يخلص فالذى قاله بعيد وفيه تشتيت الكلام المرتب {السؤال الثالث} أفيجوز ما روى من انه لو لم يقل وسلاما لاتى البرد عليه (والجواب) ذلك بعيد لان برد النار لم يحصل منها وانما حصل من جهة الله تعالى فهو القادر على الحر والبرد فلا يجوز أن يقال كان البرد يعظم لولا قوله سلاما {السؤال الرابع} أفيجوز ما قيل من انه كان فى النار أنعم عيشا منه فى سائر أحواله (والجواب) لا يمتنع ذلك لما فيه من مزيد النعمة عليه وكمالها ويجوز أن يكون انما صار أنعم عيشا هناك لعظم ما ناله من السرور بخلاصه من ذلك الامر العظيم ولعظم سروره بظفره باعدائه وبما أظهره من دين الله تعالى أما قوله تعالى وأرادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين أى أرادوا أن يكيدوه فما كانوا الا مغلوبين غالبوه بالجدال فلقنه الله تعالى الحجة المبكتة ثم عدلوا الى القوة والجبروت فنصره وقواه عليهم ثم انه سبحانه أتم النعمة عليه بان نجاه ونجى لوطا معه وهو ابن أخيه وهو لوط بن هاران الى الارض التى باركنا فيها للعالمين وفى الاخبار ان هذه الواقعة كانت فى حدود بابل فنجاه الله تعالى من تلك البقعة الى الارض المباركة ثم قيل انها مكة وقيل أرض الشام لقوله تعالى الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله والسبب فى بركتها أما فى الدين فلان أكثر الانبياء عليهم السلام بعثوا منها وانتشرت شرائعهم وآثارهم الدينية فيها وأما فى الدنيا فلان الله تعالى بارك فيها بكثرة الماء والشجر والثمر والخصب وطيب العيش وقيل ما من ماء عذب الا وينبع أصله من تحت الصخرة التى ببيت المقدس ۞ قوله تعالى {ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلوة وايتاء الزكوة وكانوا لنا عابدين} اعلم انه تعالى بعد ذكره لانعامه على ابراهيم وعلى لوط بان نجاهما الى الارض المباركة أتبعه بذكر غيره من النعم وانما جمع بينهما لان فى كون لوط معه مع ما كان بينهما من القرابة والشركة فى النبوة مزيد انعام ثم انه سبحانه ذكر النعم التى أفاضها على ابراهيم عليه السلام ثم النعم التى أفاضها على لوط أما الاول فمن وجوه (أحدها) ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة واعلم ان النافلة العطية خاصة وكذلك النفل ويسمى الرجل الكثير العطايا نوفلا ثم للمفسرين ههنا قولان (الاول) انه ههنا مصدر من وهبنا له مصدر من غير لفظه ولا فرق بين ذلك وبين قوله ووهبنا له هبة أى وهبنا له عطية وفضلا من غير أن يكون جزاء مستحقا وهذا قول مجاهد وعطاء

(والثانى) وهو قول أبى بن كعب وابن عباس وقتادة والفراء والزجاج ان ابراهيم عليه السلام لما سأل الله ولدا قال رب هب لى من الصالحين فأجاب الله دعاءه ووهب له اسحق وأعطاه يعقوب من غير دعاء فكان ذلك نافلة كالشئ المتطوع به من الآدميين فكأنه قال ووهبنا له اسحق اجابة لدعائه ووهبنا له يعقوب نافلة على ما سأل كالصلاة النافلة التى هى زيادة على الفرض وعلى هذا النافلة يعقوب خاصة والوجه الاول أقرب لانه تعالى جمع بينهما ثم ذكر قوله نافلة فاذا صلح أن يكون وصفا لهما فهو أولى ﴿النعمة الثانية﴾ قوله تعالى وكلا جعلنا صالحين أى وكلا من ابراهيم واسحق ويعقوب جعلنا أنبياء مرسلين هذا قول الضحاك وقال آخرون عاملين بطاعة الله عز وجل مجتنبين محارمه والوجه الثانى أقرب لان لفظ الصلاح يتناول الكل لانه سبحانه قال بعد هذه الآية وأوحينا اليهم فعل الخيرات فلو حملنا الصلاح على النبوة لزم التكرار واحتج أصحابنا بهذه الآية على ان أفعال العباد مخلوقة لله تعالى لان قوله وكلا جعلنا صالحين يدل على ان ذلك الصلاح من قبله أجاب الجبائى بانه لو كان كذلك لما وصفهم بكونهم صالحين وبكونهم أئمة وبكونهم عابدين ولما مدحهم بذلك ولما أثنى عليهم واذا ثبت ذلك فلابد من التأويل وهو من وجهين (الاول) أن يكون المراد أنه سبحانه آتاهم من لطفه وتوفيقه ما صلحوا به (والثانى) أن يكون المراد انه سماهم بذلك كما يقال زيد فسق فلانا وضلله وكفره اذا وصفه بذلك وكان مصدقا عند الناس وكما يقال فى الحاكم زكى فلانا وعدله وجرحه اذا حكم بذلك فيه واعلم ان هذه الوجوه مختلة أما اعتمادهم على المدح والذم (فالجواب) المعهود ان نعارضه بمسئلتى الداعى والعلم وأما الحمل على اللطف فباطل لان فعل الالطاف عام فى المكلفين فلابد فى هذا التخصيص من مزيد فائدة وأيضا فلان قوله جعلته صالحا كقوله جعلته متحركا فحمله على تحصيل شئ سوى الصلاح ترك للظاهر وأما الحمل على التسمية فهو أيضا مجاز أقصى ما فى الباب انه قد صار اليه عند الضرورة فى بعض المواضع وههنا لا ضرورة الا أن يرجعوا مرة أخرى الى فصل المدح والذم فحينئذ نرجع أيضا الى مسئلتى الداعى والعلم ﴿النعمة الثالثة﴾ قوله تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وفيه قولان (أحدهما) أى جعلناهم أئمة يدعون الناس الى دين الله تعالى والخيرات بأمرنا واذننا (والثانى) قول أبى مسلم ان هذه الامامة هى النبوة والاول أولى لئلا يلزم التكرار واحتج أصحابنا بهذه الآية على أمرين (أحدهما) على خلق الافعال بقوله وجعلناهم أئمة وتقريره ما مضى (والثانى) على ان الدعوة الى الحق والمنع عن الباطل لا يجوز الا بأمر الله تعالى لان الامر لو لم يكن معتبرا لما كان فى قوله بأمرنا فائدة ﴿النعمة الرابعة﴾ قوله تعالى وأوحينا اليهم فعل الخيرات وهذا يدل على انه سبحانه خصهم بشرف النبوة وذلك من أعظم النعم على الاب قال الزجاج حذف الهاء من اقامة الصلاة لان الاضافة عوض عنه وقال غيره الاقام والاقامة مصدر وقال أبو القاسم الانصارى الصلاة أشرف العبادات البدنية وشرعت لذكر الله تعالى والزكاة أشرف العبادات المالية ومجموعهما التعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله واعلم انه سبحانه وصفهم أولا بالصلاح لانه أول مراتب السائرين الى الله تعالى ثم ترقى فوصفهم بالامامة ثم ترقى فوصفهم بالنبوة والوحى واذا كان الصلاح الذى هو العصمة أول مراتب النبوة دل ذلك على ان الانبياء معصومون فان المحروم عن أول المراتب أولى بان يكون محروما عن النهاية ثم انه سبحانه لما بين أصناف نعمه عليهم بين بعد ذلك اشتغالهم بعبوديته فقال وكانوا لنا عابدين كأنه سبحانه وتعالى لما وفى بعهد الربوبية فى الاحسان والانعام فهم أيضا وفوا بعهد العبودية وهو الاشتغال بالطاعة والعبادة ﴿القصة الثالثة﴾ قصة لوط عليه السلام ﴿قوله تعالى ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث انهم كانوا قوم

الشيطان وتريها فى المنام والاحلام جمع حلم وهى الرؤيا الكاذبة التى لا حقيقة لها والاضافة بمعنى من أى هى أضغاث من أحلام أخرجوها من جنس الرؤيا التى لها عاقبة تؤل اليها ويعتنى بأمرها وجمعوها وهى رؤيا واحدة مبالغة فى وصفها بالبطلان كما فى قولهم فلان يركب الخيل ويلبس العمائم لمن لا يملك الا فرسا واحدا وعمامة فردة أو لتضمنها أشياء مختلفة من البقرات السبع السمان والسبع العجاف والسنابل السبع الخضر والاخر اليابسات فتأمل حسن موقع الاضغاث مع السنابل فلله در شأن التنزيل (وما نحن بتأويل الاحلام) أى المنامات الباطلة التى لا أصل لها (بعالمين) لا لان لها تأويلا ولكن لا نعلمه بل لانه لا تأويل لها وانما التأويل للمنامات الصادقة ويجوز أن يكون ذلك اعترافا منهم بقصور علمهم وأنهم ليسوا بنحارير فى تأويل الاحلام مع أن لها تأويلا كما يشعر به عدولهم عما وقع فى كلام الملك من العبارة المعربة عن مجرد الانتقال من الدال الى المدلول حيث لم يقولوا بتعبير الاحلام أو عبارتها الى التأويل المنبئ عن التصرف والتكلف فى ذلك لما بين الآيل والمآل من البعد ويؤيده قوله عز وجل أنا أنبئكم بتأويله (وقال الذى نجا منهما) أى من صاحبى يوسف وهو الشرابى (وادكر) بغير المعجمة وهو الفصيح وعن الحسن بالمعجمة أى تذكر يوسف عليه السلام وشؤونه التى شاهدها ووصيته بتقريب رؤيا الملك واشكال تأويلها على الملا (بعد أمة) أى مدة طويلة وقرئ امة بالكسر وهى النعمة أى بعد ما أنعم عليه بالنجاة وأمه أى نسيان والجملة حال من الموصول أو من ضميره فى الصلة وقيل معطوفة على نجا وليس بذاك لان حق كل من الصفة والصلة أن تكون معلومة الانتساب الى الموصوف والموصول عند المخاطب كما عند المتكلم

ولذلك قيل ان الصفات قبل العلم بها أخبار والاخبار بعد العلم بها صفات وأنت تدرى أن تذكره بعد أمة غاعلم بهذه الجملة فلا مجال لنظمه مع شاكلة المعلومة قبل في سلك الصلة (أنا أنبئكم بتأويله) أى أخبركم به بالتلقى عمن عنده علمه لامن تلقاء نفسي ولذلك لم يقل أنا أفتيكم فيها وعقبه بقوله (فأرسلون) أى الى يوسف وانما لم يذكره ثقة بما سبق من التذكر وما لحق من قوله (يوسف أيها الصديق) أى ارسل اليه فأتاه فقال يا يوسف ووصفه بالمبالغة في الصدق حسبما شاهده وذاق أحواله وجربها لكونه بصدد اغتنام آثاره واقتباس أنواره فهو من باب براعة الاستهلال (أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) أى في رؤيا ذلك وانما لم يصرح به لوضوح مرامه بقرينة ما سبق من معاملتهما ولدلالة مضمون الحادثة عليه حيث لا امكان لوقوعه في عالم الشهادة أى بين لنا مآلها وحكمها وحيث عاين علو رتبته عليه السلام في الفضل عبر عن ذلك بالافتاء ولم يقل كما قال هو وصاحبه أولا نبئنا بتأويله وفي قوله أفتنا مع أنه المستفتى وحده اشعار بأن الرؤيا ليست له بل لغيره ممن له ملابسة بأمور العامة وأنه في ذلك معبر وسفير كما آذن بذلك حيث قال (لعلى أرجع الى الناس) أى الى الملك ومن عنده أو الى أهل البلد ان كان السجن في الخارج كما قيل فأنبئهم بذلك (لعلهم يعلمون) ذلك ويعملون بمقتضاه أو يعلمون فضلك ومكانك مع ما أنت فيه من الحال فتتخلص منه وانما لم يبت القول في ذلك مجاراة معه على نهج الادب واحترازا عن المجازفة اذ لم يكن على يقين من الرجوع فربما اخترم دونه * لعل المنايا دون ما تعدانى * ولا من علمهم بذلك فربما لم يعلموه (قال) استئناف مبنى على السؤال

سوء فاسقين وأدخلناه في رحمتنا انه من الصالحين﴾ اعلم انه سبحانه بعد بيان ما أنعم به على ابراهيم عليه السلام أتبعه بذكر نعمه على لوط عليه السلام لما جمع بينهما من قبل وههنا مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ في الواو في قوله ولوطا قولان (أحدهما) وهو قول الزجاج انه عطف على قوله وأوحينا اليهم (والثانى) قول أبى مسلم انه عطف على قوله آتينا ابراهيم رشده ولا بد من ضمير في قوله ولوطا فكأنه قال وآتينا لوطا فاضمر ذكره ﴿المسئلة الثانية﴾ في أصناف النعم وهى أربعة وجوه (أحدها) الحكم أى الحكمة وهى التى يجب فعلها أو الفصل بين الخصوم وقيل هى النبوة (وثانيها) العلم واعلم ان ادخال التنوين عليهما يدل على علو شأن ذلك العلم وذلك الحكم (وثالثها) قوله ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث والمراد أهل القرية لانهم هم الذين يعملون الخبائث دون نفس القرية ولان الهلاك بهم نزل فنجاه الله تعالى من ذلك ثم بين سبحانه وتعالى بقوله انهم كانوا قوم سوء فاسقين ما أراده بالخبائث وأمرهم فيما كانوا يقدمون عليه ظاهر (ورابعها) قوله وأدخلناه في رحمتنا انه من الصالحين وفي تفسير الرحمة قولان (الاول) انه النبوة أى انه لما كان صالحا للنبوة أدخله الله في رحمته لكى يقوم بحقها عن مقاتل (الثانى) انه الثواب عن ابن عباس والضحاك ويحتمل أن يقال انه عليه السلام لما آتاه الله الحكم والعلم وتخلص عن جلساء السوء فتحت عليه أبواب المكاشفات وتجلت له أنوار الالهية وهى بحر لا ساحل له وهى الرحمة في الحقيقة ﴿القصة الرابعة﴾ قصة نوح عليه السلام ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ونوحا اذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين﴾ أما قوله تعالى اذ نادى من قبل ففيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ لا شبهة في ان المراد من هذا النداء دعاؤه على قومه بالعذاب ويؤكده حكاية الله تعالى عنه ذلك تارة على الاجمال وهو قوله فدعا ربه انى مغلوب فانتصر وتارة على التفصيل وهو قوله وقال نوح رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا ويدل عليه أيضا ان الله تعالى أجابه بقوله فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم وهذا الجواب يدل على ان الانجاء المذكور فيه كان هو المطلوب في السؤال فدل هذا على ان نداءه ودعاءه كان بان ينجيه مما يلحقه من جهتهم من ضروب الاذى بالتكذيب والرد عليه وبان ينصره عليهم وان يهلكهم فلذلك قال بعده ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴿المسئلة الثانية﴾ أجمع المحققون على ان ذلك النداء كان بأمر الله تعالى لانه لو لم يكن بأمر لم يؤمن أن يكون الصلاح أن لا يجاب اليه فيصير ذلك سببا لنقصان حال الانبياء ولان الاقدام على امثال هذه المطالب لو لم يكن بالامر لكان ذلك مبالغة في الاضرار وقال آخرون انه عليه السلام لم يكن مأذونا له في ذلك وقال أبو أمامة لم يتحسر أحد من خلق الله تعالى كحسرة آدم ونوح فحسرة آدم على قبول وسوسة ابليس وحسرة نوح على دعائه على قومه فأوحى الله تعالى اليه أن لا تتحسر فان دعوتك وافقت قدرى أما قوله تعالى فنجيناه وأهله من الكرب العظيم فالمراد بالاهل ههنا أهل دينه وفي تفسير الكرب وجوه (أحدها) انه العذاب النازل بالكفار وهو الغرق وهو قول أكثر المفسرين (وثانيها) انه تكذيب قومه اياه وما لقى منهم من الاذى (وثالثها) انه مجموع الامرين وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما وهو الاقرب لانه عليه السلام كان قد دعاهم الى الله تعالى مدة طويلة وكان قد ينال منهم كل مكروه وكان الغم يتزايد بسبب ذلك وعند اعلام الله تعالى اياه انه يغرقهم وأمره باتخاذ الفلك كان أيضا على غم وخوف من حيث لم يعلم من الذى يتخلص من الغرق ومن الذى يغرق فأزال الله تعالى عنه الكرب العظيم بان خلصه من جميع ذلك وخلص جميع من آمن به معه أما قوله تعالى ونصرناه من القوم فقراءة أبى بن كعب

ونصرناه

ونصرناه على القوم ثم قال المبرد تقديره ونصرناه من مكروه القوم وقال تعالى فمن ينصرنا من بأس الله أي يعصمنا من عذابه قال أبو عبيدة من بمعنى على وقال صاحب الكشاف انه نصر الذي مطاوعه انتصر وسمعت هذليا يدعو على سارق اللهم انصرهم منه أي اجعلهم منتصرين منه أما قوله تعالى انهم كانوا قوم سوء فالمعنى انهم كانوا قوم سوء لاجل ردهم عليه وتكذيبهم له فاغرقناهم أجمعين فبين ذلك الوجه الذي به خلصه منهم ﴿القصة الخامسة﴾ قصة داود وسليمان عليهما السلام ﴿قوله تعالى ﴿وداود وسليمان اذ يحكمان في الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره الى الارض التي باركنا فيها وكنا بكل شئ عالمين ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين﴾ اعلم ان قوله تعالى وداود وسليمان وأيوب وزكريا وذا النون كله نسق على ما تقدم من قوله ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل ومن قوله ولوطا آتيناه حكما وعلما واعلم ان المقصود ذكر نعم الله تعالى على داود وسليمان فذكر أولا النعمة المشتركة بينهما ثم ذكر ما يختص به كل واحد منهما من النعم أما النعمة المشتركة فهي القصة المذكورة وهي قصة الحكومة ووجه النعمة فيها ان الله تعالى زينهما بالعلم والفهم في قوله وكلا آتينا حكما وعلما ثم في هذا تنبيه على ان العلم أفضل الكمالات وأعظمها وذلك لان الله تعالى قدم ذكره ههنا على سائر النعم الجليلة مثل تسخير الجبال والطير والريح والجن واذا كان العلم مقدما على أمثال هذه الاشياء فما ظنك بغيرها وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال ابن السكيت النفش ان تنتشر الغنم بالليل ترعى بلا راع وهذا قول جمهور المفسرين وعن الحسن انه يجوز ذلك ليلا ونهارا ﴿المسئلة الثانية﴾ أكثر المفسرين على ان الحرث هو الزرع وقال بعضهم هو الكرم والاول أشبه بالعرف ﴿المسئلة الثالثة﴾ احتج من قال أقل الجمع اثنان بقوله تعالى وكنا لحكمهم شاهدين مع أن المراد داود وسليمان (جوابه) ان الحكم كما يضاف الى الحاكم فقد يضاف الى المحكوم له فاذا أضيف الحكم الى المتحاكمين كان المجموع أكثر من الاثنين وقرئ كنا لحكمهما شاهدين ﴿المسئلة الرابعة﴾ في كيفية القصة وجهان (الاول) قال أكثر المفسرين دخل رجلان على داود عليه السلام أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الحرث ان غنم هذا دخلت حرثي وما أبقت منه شيأ فقال داود عليه السلام اذهب فان الغنم لك فخرجا فمرا على سليمان فقال كيف قضى بينكما فأخبراه فقال لو كنت أنا القاضي لقضيت بغير هذا فأخبر بذلك داود عليه السلام فدعاه وقال كيف كنت تقضي بينهما فقال أدفع الغنم الى صاحب الحرث فيكون له منافعها من الدر والنسل والوبر حتى اذا كان الحرث من العام المستقبل كهيئته يوم أكل دفعت الغنم الى أهلها وقبض صاحب الحرث حرثه (الثاني) قال ابن مسعود وشريح ومقاتل رحمهم الله ان راعيا نزل ذات ليلة بجنب كرم فدخلت الاغنام الكرم وهو لا يشعر فأكلت القضبان وأفسدت الكرم فذهب صاحب الكرم من الغد الى داود عليه السلام فقضى له بالغنم لانه لم يكن بين ثمن الكرم وثمن الغنم تفاوت فخرجوا ومروا بسليمان فقال لهم كيف قضى بينكما فأخبراه به فقال غير هذا أرفق بالفريقين فأخبر داود عليه السلام بذلك فدعا سليمان وقال له بحق الابوة والبنوة الا أخبرتني بالذي هو أرفق بالفريقين فقال تسلم الغنم الى صاحب الكرم حتى يرتفق بمنافعها ويعمل الراعي في اصلاح الكرم حتى يصير كما كان ثم ترد الغنم الى صاحبها فقال داود عليه السلام انما القضاء ما قضيت وحكم بذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما حكم سليمان بذلك وهو ابن احدى عشرة سنة ❊ وههنا أمور لا بد من البحث عنها

كأنه قيل فماذا قال يوسف عليه السلام في التأويل فقيل قال (تزرعون سبع سنين دأبا) قرئ بفتح الهمزة وسكونها وكلاهما مصدر دأب في العمل اذا جد فيه وتعب وانتصابه على الحالية من فاعل تزرعون أي دائبين أو تدأبون دأبا على أنه مصدر مؤكد لفعل هو الحال أوّل عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب والعجاف واليابسات ١٣٥ بسنين مجدبة فأخبرهم بأنهم يواظبون سبع سنين على الزراعة ويبالغون فيها اذ بذلك يتحقق الخصب الذي هو مصداق البقرات السمان وتأويلها ودلهم في تضاعيف ذلك على أمر نافع لهم فقال (فما حصدتم) أي في كل سنة (فذروه في سنبله) ولا تذروه كيلا يأكله السوس كما هو شأن غلال مصر ونواحيها ولعله عليه السلام استدل على ذلك بالسنبلات الخضر وانما أمرهم بذلك اذ لم يكن معتادا فيما بينهم وحيث كانوا معتادين للزراعة لم يأمرهم بها وجعلها أمرا محقق الوقوع وتأويلا للرؤيا ومصداقا لما فيها من البقرات السمان (الا قليلا مما تأكلون) في تلك السنين وفيه ارشاد منه عليه السلام لهم الى التقليل في الاكل والاقتصار على الاستثناء المأكول دون البذر لكون ذلك معلوما من قوله تزرعون سبع سنين وبعد اتمام ما أمرهم به شرع في بيان بقية التأويل التي يظهر منها حكمة الامر المذكور فقال (ثم يأتي) وهو عطف على تزرعون فلا وجه لجعله بمعنى الامر حثا لهم على الجد والمبالغة في الزراعة على أنه يحصل بالاخبار بذلك أيضا (من بعد ذلك) أي من بعد السنين السبع المذكورات وانما لم يقل من بعدهن قصدا الى الاشارة الى وصفهن فان الضمير ساكت عن أوصاف المرجع بالكلية (سبع شداد) أي سبع سنين صعاب على الناس (يأكلن ما قدمتم لهن) من الحبوب المتروكة في سنابلها وفيه

تنبيه على أن أمره عليه السلام بذلك كان لوقت الضرورة واسناد الاكل اليهن مع انه حال الناس فيهن مجازى كما فى نهاره صائم وفيه تلويح بأنه تأويل لا كل العجاف السمان واللام فى لهن ترشيح لذلك فكأن ما ادخر فى السنابل من الحبوب شئ قد هيئ وقدم لهن كالذى يقدم للنازل والا فهو فى الحقيقة مقدم للناس فيهن (الا قليلا مما تحصنون) تحرزون مبذور الزراعة (ثم يأتى من بعد ذلك) أى من بعد السنين الموصوفة بما ذكر من الشدة وأكل الغلال المدخرة (عام) لم يعبر عنه بالسنة تحاشيا عن المدلول الاصلى لها من عام القحط وتنبيها من أول الامر على اختلاف الحال بينه وبين السوابق (فيه يغاث الناس) من الغيث أى يمطرون يقال غيثت البلاد اذا مطرت فى وقت الحاجة أومن الغوث يقال أغاثنا الله تعالى أى أمدنا برفع المكاره حين أظلتنا (وفيه يعصرون) أى ما من شأنه أن يعصر من العنب والقصب والزيتون والسمسم ونحوها من الفواكه لكثرتها والتعرض لذكر العصر مع جواز الاكتفاء عنه بذكر الغيث المستلزم له عادة كما اكتفى به عن ذكر تصرفهم فى الحبوب اما لان استلزام الغيث له ليس كاستلزامه للحبوب اذ المذكورات يتوقف صلاحها على مباد أخرى غير المطر واما لمراعاة جانب المستفتى باعتبار حالته الخاصة به بشارة له وهى التى يدور عليها احسن موقع تغليبه على الناس فى القراءة بالفوقانية وقيل معنى يعصرون يحلبون الضروع وتكرير فيه اما للاشعار باختلاف أوقات ما يقع فيه من الغيث والعصر زمانا وهو ظاهر وعنوانا فان الغيث والغوث من فضل الله تعالى والعصر من فعل الناس واما لان المقام مقام تعداد منافع ذلك العام ولاجله قدم فى الموضعين على العاملين فان المقصود الاصلى بيان أنه

(السؤال الاول) هل فى الآية دلالة على انهما عليهما السلام اختلفا فى الحكم أم لا فان أبا بكر الاصم قال انهما لم يختلفا البتة وانه تعالى بين لهما الحكم لكنه بينه على لسان سليمان عليه السلام (الجواب) الصواب انهما اختلفا والدليل اجماع الصحابة والتابعين رضى الله عنهم على ما رويناه وأيضا فقد قال الله تعالى وكنا لحكمهم شاهدين ثم قال ففهمناها سليمان والفاء للتعقيب فوجب أن يكون ذلك الحكم سابقا على هذا التفهيم وذلك الحكم السابق اما أن يقال اتفقا فيه أو اختلفا فيه فان اتفقا فيه لم يبق لقوله ففهمناها سليمان فائدة وان اختلفا فيه فذلك هو المطلوب (السؤال الثانى) سلمنا انهما اختلفا فى الحكم ولكن هل كان الحكمان صادرين عن النص أو عن الاجتهاد (الجواب) الامران جائزان عندنا وزعم الجبائى انهما كانا صادرين عن النص ثم انه تارة يبنى ذلك على أن الاجتهاد غير جائز من الانبياء وأخرى على ان الاجتهاد وان كان جائزا منهم فى الجملة ولكنه غير جائز فى هذه المسئلة أما المأخذ الاول فقد تكلمنا فيه فى الجملة فى كتابنا المسمى بالمحصول فى الاصول ولنذكر ههنا أصول الكلام من الطرفين احتج الجبائى على أن الاجتهاد غير جائز من الانبياء عليهم السلام بأمور (أحدها) قوله تعالى قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ان أتبع الا ما يوحى الى وقوله تعالى وما ينطق عن الهوى (وثانيها) ان الاجتهاد طريقه الظن وهو قادر على ادراكه يقينا فلا يجوز مصيره الى الظن كالمعاين للقبلة لا يجوز له أن يجتهد (ثالثها) ان مخالفة الرسول توجب الكفر لقوله تعالى فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ومخالفة المظنون والمجتهدات لا توجب الكفر (ورابعها) لو جاز أن يجتهد فى الاحكام لكان لا يقف فى شئ منها ولما وقف فى مسئلة الظهار واللعان الى ورود الوحى دل على أن الاجتهاد غير جائز عليه (وخامسها) أن الاجتهاد انما يجوز المصير اليه عند فقد النص لكن فقدان النص فى حق الرسول كالممتنع فوجب أن لا يجوز الاجتهاد منه (وسادسها) لو جاز الاجتهاد من الرسول لجاز أيضا من جبريل عليه السلام وحينئذ لا يحصل الامان بأن هذه الشرائع التى جاء بها أهى من نصوص الله تعالى أو من اجتهاد جبريل (والجواب عن الاول) ان قوله تعالى قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ان أتبع الا ما يوحى الى لا يدل على قولكم لانه وارد فى ابدال آية بآية لانه عقيب قوله قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله ولا مدخل للاجتهاد فى ذلك وأما قوله تعالى وما ينطق عن الهوى فبعيد لان من يجوز له الاجتهاد يقول ان الذى اجتهد فيه هو عن وحى على الجملة وان لم يكن كذلك على التفصيل وان الآية واردة فى الاداء عن الله تعالى لا فى حكمه الذى يكون بالعقل (والجواب عن الثانى) ان الله تعالى اذا قال له اذا غلب على ظنك كون الحكم معللا فى الاصل بكذا ثم غلب على ظنك قيام ذلك المعنى فى صورة أخرى فاحكم بذلك فههنا الحكم مقطوع به والظن غير واقع فيه بل فى طريقه (والجواب عن الثالث) انا لا نسلم ان مخالفة المجتهدات جائزة مطلقا بل جواز مخالفتها مشروط بصدورها من غير المعصوم والدليل عليه انه يجوز على الامة أن يجمعوا والمجتهدا ثم تمتنع مخالفتهم وحال الرسول أوكد (والجواب عن الرابع) انه عليه السلام كان ممنوعا من الاجتهاد فى بعض الانواع أو كان مأذونا مطلقا لكنه لم يظهر له فى تلك الصورة وجه الاجتهاد فلا جرم انه توقف (والجواب عن الخامس) لم لا يجوز أن يحبس النص عنه فى بعض الصور فحينئذ يحصل شرط جواز الاجتهاد (والجواب عن السادس) ان هذا الاحتمال مدفوع باجماع الامة على خلافه فهذا هو الجواب عن شبه المنكرين والذى يدل على جواز الاجتهاد عليهم وجوه (أحدها) انه عليه السلام اذا غلب على ظنه أن الحكم فى الاصل معلل بمعنى ثم علم أو ظن قيام ذلك المعنى فى صورة أخرى فلا بد وأن يغلب على ظنه أن حكم الله تعالى فى هذه الصورة مثل ما فى

يقع في ذلك العام هذا النفع وذلك النفع لا لبيان أتم ما يقعان في ذلك العام كما يفيده التأخير ويجوز أن يكون التقديم للقصر على معنى أن غيثهم وعصرهم في سائر السنين بمنزلة العدم بالنسبة الى عامهم ذلك وأن يكون ذلك في الاخير لمراعاة الفواصل وفي الاول لرعاية حاله وقرئ يعصرون على البناء للمفعول من عصره اذا أنجاه وهو المناسب للاغاثة ويجوز أن يكون المبني للفاعل أيضا منه كأنه

الاصل وعنده مقدمة يقينية وهي أن مخالفة حكم الله تعالى سبب لاستحقاق العقاب فيتولد من هاتين المقدمتين ظن استحقاق العقاب لمخالفة هذا الحكم المظنون وعند هذا اما أن يقدم على الفعل والترك معا وهو محال لاستحالة الجمع بين النقيضين أو يتركهما وهو محال لاستحالة الخلو عن النقيضين أو يرجح المرجوح على الراجح وهو باطل ببديهة العقل أو يرجح الراجح على المرجوح وذلك هو العمل بالقياس وهذه النكتة هي التي عليها التعويل في العمل بالقياس وهي قائمة أيضا في حق الانبياء عليهم السلام وهذا يتوجه على جواز الاجتهاد من جبريل عليه السلام (وثانيها) قوله تعالى فاعتبروا أمر للكل بالاعتبار فوجب اندراج الرسول عليه السلام فيه لانه امام المعتبرين وأفضلهم (وثالثها) أن الاستنباط أرفع درجات العلماء فوجب أن يكون للرسول فيه مدخل والا لكان كل واحد من آحاد المجتهدين أفضل منه في هذا الباب فان قيل هذا انما يلزم لو لم تكن درجة أعلى من الاعتبار وليس الامر كذلك لانه كان يستدرك الاحكام وحيا على سبيل اليقين فكان أرفع درجة من الاجتهاد الذي ليس قصاراه الا الظن قلنا لا يمتنع أن لا يجد النص في بعض المواضع فلو لم يتمكن من الاجتهاد لكان أقل درجة من المجتهد الذي يمكنه أن يعرف ذلك الحكم من الاجتهاد وأيضا فقد بينا أن الله تعالى لما أمره بالاجتهاد كان ذلك مفيدا للقطع بالحكم (ورابعها) قال عليه السلام العلماء ورثة الانبياء فوجب أن يثبت للانبياء درجة الاجتهاد ليرث العلماء عنهم ذلك هذا تمام القول في هذه المسئلة (وخامسها) أنه تعالى قال عفا الله عنك لم أذنت لهم فذلك الاذن ان كان باذن الله تعالى استحال أن يقول لم أذنت لهم وان كان بهوى النفس فهو غير جائز وان كان بالاجتهاد فهو المطلوب (المأخذ الثاني) قال الجبائي لو جوزنا الاجتهاد من الانبياء عليهم السلام ففي هذه المسئلة يجب أن لا يجوز لوجوه (أحدها) أن الذي وصل الى صاحب الزرع من در الماشية ومن منافعها مجهول المقدار فكيف يجوز في الاجتهاد جعل أحدهما عوضا عن الآخر (وثانيها) ان اجتهاد داود عليه السلام ان كان صوابا لزم أن لا ينتقض لان الاجتهاد لا ينتقض بالاجتهاد وان كان خطأ وجب أن يبين الله تعالى توبته كسائر ما حكاه عن الانبياء عليهم السلام فلما مدحهما بقوله وكلا آتينا حكما وعلما دل على أنه لم يقع الخطأ من داود (وثالثها) لو حكم بالاجتهاد لكان الحاصل هناك ظنا لا علما لان الله تعالى قال وكلا آتينا حكما وعلما (ورابعها) كيف يجوز أن يكون عن اجتهاد مع قوله ففهمناها سليمان (والجواب عن الاول) ان الجهالة في القدر لا تمنع من الاجتهاد كالجعالات وحكم المصراة (وعن الثاني) لعله كان خطأ من باب الصغائر (وعن الثالث) بينا أن من تمسك بالقياس فالظن واقع في طريق اثبات الحكم فاما الحكم فمقطوع به (وعن الرابع) انه اذا تأمل واجتهد فأداه اجتهاده الى ما ذكرناه كان الله تعالى فهمه من حيث بين له طريق ذلك فهذا جملة الكلام في بيان انه لا يمتنع أن يكون اختلاف داود وسليمان عليهما السلام في ذلك الحكم انما كان بسبب الاجتهاد وأما بيان انه لا يمتنع أيضا أن يكون اختلافهما فيه بسبب النص فطريقه أن يقال ان داود عليه السلام كان مأمورا من قبل الله تعالى في هذه المسئلة بالحكم الذي حكم به ثم انه سبحانه نسخ ذلك بالوحي الى سليمان عليه السلام خاصة وأمره أن يعرف داود ذلك فصار ذلك الحكم حكمهما جميعا فقوله ففهمناها سليمان أي أوحينا اليه فان قيل هذا باطل لوجهين (الاول) لما أنزل الله تعالى الحكم الاول على داود وجب أن ينزل نسخه أيضا على داود لا على سليمان (الثاني) ان الله تعالى مدح كلا منهما على الفهم ولو كان ذلك على سبيل النص لم يكن في فهمه كثير مدح انما المدح الكثير على قوة الخاطر والحذاقة في الاستنباط (السؤال الثالث) اذا أثبتم أنه يجوز أن يكون اختلافهما لاجل النص وأن يكون لاجل الاجتهاد فأي القولين أولى

قيل فيه يغاث الناس وفيه يغيثون أي يغيثهم الله ويغيث بعضهم بعضا وقيل معنى يعصرون يمطرون من أعصرت السحابة اما بتضمين أعصرت معنى مطرت وتعديته واما بحذف الجار وايصال الفعل على أن الاصل أعصرت عليهم وأحكام هذا العام المبارك ليست مستنبطة من رؤيا الملك وانما تلقاها عليه السلام من جهة الوحي فبشرهم بها بعدما أول الرؤيا بما أول وأمرهم بالتدبير اللائق في شأنه ابانة لعلو كعبه ورسوخ قدمه في الفضل وأنه محيط بما لم يخطر ببال أحد فضلا عما يرى صورته في المنام على نحو قوله لصاحبيه عند استفتائهما في منامهما لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله واتماما للنعمة عليهم حيث لم يشاركه عليه السلام في العلم بوقوعها أحد ولو برؤية ما يدل عليها في المنام (وقال الملك) بعدما جاءه السفير بالتعبير وسمع منه ما سمع من نقير وقطمير (ائتوني به) لما علم من علمه وفضله (فلما جاءه) أي يوسف (الرسول) واستدعاه الى الملك (قال ارجع الى ربك) أي سيدك (فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن) أي ففتشه عن شأنهن وانما لم يقل فاسأله أن يفتش عن ذلك حثا للملك على الجد في التفتيش لتتبين براءته ويتضح نزاهته اذ السؤال مما يهيج الانسان على الاهتمام في البحث للتفصي عما توجه اليه وأما

الطلب فيما قد يتسامح ويتساهل فيه ولا يبالى به واغا لم يتعرض لامرأة العزيز مع ما لقى منها ما لقى من مقاساة الاحزان ومعاناة الاشجان محافظة على مواجب الحقوق واحترازا عن مكرها حيث اعتقدها مقيمة فى عدوة العداوة وأما النسوة فقد كان يطمع فى صدعهن بالحق وشهادتهن باقرارها بانها راودته عن نفسه فاستعصم ولذلك اقتصر على وصفهن بتقطيع الايدى ولم يصرح بمراودتهن له وقولهن أطع مولاتك واكتفى بالايماء الى ذلك بقوله (ان ربى بكيدهن عليم) مجاملة معهن واحترازا عن سوء قالتهن عند الملك وانتصابهن للخصومة مدافعة عن أنفسهن متى سمعن نسبته لهن الى الفساد (قال) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل فماذا كان بعد ذلك فقيل قال الملك اثر ما بلغه الرسول الخبر وأحضرهن (ما خطبكن) أى شأنكن وهو الامر الذى يحق لعظمه أن يخاطب المرء فيه صاحبه (اذ راودتن يوسف) وخادعتنه (عن نفسه) ورغبتنه فى طاعة مولاته هل وجدتن فيه شيأ من سوء وريبة (قلن حاش لله) تنزيها له وتعجبا من نزاهته وعفته (ما علمنا عليه من سوء) بالغن فى نفى جنس السوء عنه بالتنكير وزيادة من (قالت امرأت العزيز) وكانت حاضرة فى المجلس وقيل أقبلت النسوة عليها يقررنها وقيل خافت أن يشهدن عليها بما قالت لهن ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين فأقرت قائلة (الآن حصحص الحق) أى ثبت واستقر بعض أو تبين وظهر بعد خفاء قاله الخليل وقيل هو مأخوذ من الحصة وهى القطعة من الجملة أى تبين حصة الحق من حصة الباطل كما تتبين حصص الارض وغيرها وقيل بان وظهر من حص شعره اذا استأصله بحيث ظهرت بشرة رأسه وقرئ على البناء للمفعول من حصحص

(والجواب) الاجتهاد أرجح لوجوه (أحدها) انه روى فى الاخبار الكثيرة ان داود عليه السلام لم يكن قد بت الحكم فى ذلك حتى سمع من سليمان ان غير ذلك أولى وفى بعضها ان داود عليه السلام ناشده لكى يورد ما عنده وكل ذلك لا يليق بالنص لانه لو كان نصا لكان يظهره ولا يكتمه (السؤال الرابع) بينوا انه كيف كان طريق الاجتهاد (الجواب) ان وجه الاجتهاد فيه ماذكره ابن عباس رضى الله عنهما من أن داود عليه السلام قوم قدر الضرر بالكرم فكان مساويا لقيمة الغنم فكان عنده ان الواجب فى ذلك الضرر أن يزال بمثله من النفع فلا جرم سلم الغنم الى المجنى عليه كما قال أبو حنيفة رحمه الله فى العبد اذا جنى على النفس يدفعه المولى بذلك أو يفديه وأما سليمان عليه السلام فان اجتهاده أدى الى أنه يجب مقابلة الاصول بالاصول والزوائد بالزوائد فأما مقابلة الاصول بالزوائد فغير جائز لانه يقتضى الحيف والجور ولعل منافع الغنم فى تلك السنة كانت موازية لمنافع الكرم فحكم به كما قال الشافعى رضى الله عنه فيمن غصب عبدا فأبق من يده انه يضمن القيمة لينتفع بها المغصوب منه بازاء ما فوته الغاصب من منافع العبد فاذا ظهر ترادا (السؤال الخامس) على تقدير ان ثبت قطعا ان تلك المخالفة كانت مبنية على الاجتهاد فهل تدل هذه القصة على ان المصيب واحد أو الكل مصيبون (الجواب) أما القائلون بأن المصيب واحد فمنهم من استدل بقوله تعالى ففهمناها سليمان قال ولو كان الكل مصيبا لم يكن لتخصيص سليمان عليه السلام بهذا التفهيم فائدة وأما القائلون بأن الكل مصيبون فمنهم من استدل بقوله وكلا آتينا حكما وعلما ولو كان المصيب واحدا ومخالفه مخطئا لما صح أن يقال وكلا آتينا حكما وعلما واعلم أن الاستدلالين ضعيفان (أما الاول) فلان الله تعالى لم يقل انه فهمه الصواب فيحتمل انه فهمه الناسخ ولم يفهم ذلك داود عليه السلام لانه لم يبلغه وكل واحد منهما مصيب فيما حكم به على ان أكثر ما فى الآية دلالة على ان داود وسليمان عليهما السلام ما كانا مصيبين وذلك لا يوجب أن يكون الامر كذلك فى شرعنا (وأما الثانى) فلانه تعالى لم يقل ان كلا آتيناه حكما وعلما بما حكم به بل يجوز أن يكون آتيناه حكما وعلما بوجوه الاجتهاد وطرق الاحكام على انه لا يلزم من كون كل مجتهد مصيبا فى شرعهم أن يكون الامر كذلك فى شرعنا (السؤال السادس) لو وقعت هذه الواقعة فى شرعنا ما حكمها (الجواب) قال الحسن البصرى هذه الآية محكمة والقضاة بذلك يقضون الى يوم القيامة واعلم أن كثيرا من العلماء يزعمون انه منسوخ بالاجماع ثم اختلفوا فى حكمه فقال الشافعى رحمه الله ان كان ذلك بالنهار لا ضمان لان لصاحب الماشية تسييب ماشيته بالنهار وحفظ الزرع بالنهار على صاحبه وان كان ليلا لزمه الضمان لان حفظها بالليل عليه وقال أبو حنيفة رحمه الله لا ضمان عليه ليلا كان أو نهارا اذا لم يكن متعديا بالارسال لقوله صلى الله عليه وسلم جرح العجماء جبار واحتج الشافعى رحمه الله بما روى عن البراء بن عازب انه قال كانت ناقة ضارية فدخلت حائطا فأفسدته فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى ان حفظ الحوائط بالنهار على أهلها وان حفظ الماشية بالليل على أهلها وان على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل وهذا تمام القول فى هذه الآية ثم ان الله تعالى ذكر بعد ذلك من النعم التى خص بها داود عليه السلام أمرين (الاول) قوله تعالى وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين وفيه مسائل (المسألة الاولى) فى تفسير هذا التسبيح وجهان (أحدهما) ان الجبال كانت تسبح ثم ذكروا وجوها (أحدها) قال مقاتل اذا ذكر داود عليه السلام ربه ذكرت الجبال والطير ربها معه (وثانيها) قال الكلبى اذا سبح داود أجابته الجبال (وثالثها) قال سليمان بن حيان كان داود عليه السلام اذا وجد فترة أمر الله تعالى الجبال فسبحت فيزداد نشاطا واشتياقا (القول الثانى) وهو اختيار

البعير مباركه أى ألقاها فى الارض للاناخة قال فخص فى صم الصفا ثفناته * وناء بسلمى نوأة ثم صمما والمعنى أقر الحق فى مقره ووضع فى موضعه ولم ترد بذلك مجرد ظهور ما ظهر بشهادتهن من مطلق نزاهته عليه السلام فيما أحاط به علمهن من غير تعرض لنزاهته فى سائر المواطن خصوصا فيما وقع فيه التشاجر بحضر العزيز ولا بحث عن حال نفسها وما صنعت فى ذلك بل أرادت ظهور ما هو متحقق فى نفس الامر وثبوته من نزاهته عليه السلام فى محل النزاع وخيانتها فقالت (أنا راودته عن نفسه) لا أنه راودنى عن نفسى (وانه لمن الصادقين) أى فى قوله حين افتريت عليه هى راودتنى عن نفسى وأرادت بالآن زمان تكلمها بهذا الكلام لا زمان شهادتهن فتأمل أيها المنصف هل ترى فوق هذه المرتبة نزاهة حيث لم تتمالك الخصماء من الشهادة بها

* والفضل ما شهدت به الخصماء *

وانما تصدى عليه السلام لتمهيد هذه المقدمة قبل الخروج ليظهر براءة ساحته عما قذف به لا سيما عند العزيز قبل أن يحل ما عقده كما يعرب عنه قوله عليه السلام لما رجع اليه الرسول وأخبره بكلامهن (ذلك) أى ذلك التثبت المؤدى الى ظهور حقيقة الحال (ليعلم) أى العزيز (أنى لم أخنه) فى حرمته كما زعمه لا علما مطلقا فان ذلك لا يستدعى تقديم التفتيش على الخروج من السجن بل قبل ما ذكر من نقض ما أبرمه واهله لمراعاة حقوق السيادة لان المباشرة للخروج من حبسه قبل ظهور بطلان ما جعله سببا له وان كان ذلك بأمر الملك مما يوهم الافتيات على رأيه وأما أن يكون ذلك لئلا يتمكن من تقبيح أمره عند الملك تمحلا لامضاء ما قضاه فلا يليق بشأنه عليه السلام فى الوثوق بأمره والتوكل على ربه جل جلاله (بالغيب) أى بظهر الغيب وهو حال من الفاعل أو المفعول أى لم

بعض أصحاب المعانى أنه يحتمل أن يكون تسبيح الجبال والطير بمثابة قوله تعالى وان من شئ الا يسبح بحمده وتخصيص داود عليه السلام بذلك انما كان بسبب أنه عليه السلام كان يعرف ذلك ضرورة فيزداد يقينا وتعظيما والقول الاول أقرب لانه لا ضرورة فى صرف اللفظ عن ظاهره وأما المعتزلة فقالوا لو حصل الكلام من الجبل لحصل اما بفعله أو بفعل الله تعالى فيه (والاول) محال لان بنية الجبل لا تحتمل الحياة والعلم والقدرة وما لا يكون حيا عالما قادرا يستحيل منه الفعل (والثانى) أيضا محال لان المتكلم عندهم من كان فاعلا للكلام لا من كان محلا للكلام فلو كان فاعل ذلك الكلام هو الله تعالى لكان المتكلم هو الله تعالى لا الجبل فثبت أنه لا يمكن اجراؤه على ظاهره فعند هذا قالوا فى وسخرنا مع داود الجبال يسبحن وجوها أحدها قوله تعالى يا جبال أوبى معه معناه تصرفى معه وسيرى بأمره ويسبحن من السبح الذى هو السباحة خرج اللفظ فيه على التكثير ولو لم يقصد التكثير لقيل يسبحن فلما كثر قيل يسبحن معه أى يسرى وهو كقوله ان لك فى النهار سبحا طويلا أى تصرفا ومذهبا اذا ثبت هذا فنقول ان سيرها هو التسبيح لدلالته على قدرة الله تعالى وعلى سائر ما تنزه عنه واعلم أن مدار هذا القول على أن بنية الجبل لا تقبل الحياة وهذا ممنوع وعلى أن المتكلم من فعل الكلام وهو أيضا ممنوع (المسئلة الثانية) أما الطير فلا امتناع فى أن يصدر عنها الكلام ولكن أجمعت الامة على أن المكلفين اما الجن أو الانس أو الملائكة فيمتنع فيها أن تبلغ فى العقل الى درجة التكليف بل تكون على حالة كحال الطفل فى أن يؤمر وينهى وان لم يكن مكلفا فصار ذلك معجزة من حيث جعلها فى الفهم بمنزلة المراهق وأيضا فيه دلالة على قدرة الله تعالى وعلى تنزهه عما لا يجوز فيكون القول فيه كالقول فى الجبال (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف يسبحن حال بمعنى مسبحات أو استئناف كأن قائلا قال كيف سخرهن فقال يسبحن والطير اما معطوف على الجبال واما مفعول معه فان قلت لم قدمت الجبال على الطير قلت لان تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة وأدخل فى الاعجاز لانها جماد والطير حيوان ناطق أما قوله وكنا فاعلين فالمعنى انا قادرون على أن نفعل هذا وان كان عجبا عندكم وقيل نفعل ذلك بالانبياء عليهم السلام (الانعام الثالث) قوله تعالى وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اللبوس اللباس قال البس لكل حالة لبوسها (المسئلة الثانية) لتحصنكم قرئ بالنون والياء والتاء وتخفيف الصاد وتشديده فالنون لله عز وجل والتاء للصنعة أو اللبوس على تأويل الدرع والياء لله تعالى أو لداود أو للبوس (المسئلة الثالثة) قال قتادة أول من صنع الدرع داود عليه السلام وانما كانت صفائح قبله فهو أول من سردها واتخذها حلقا ذكر الحسن أن لقمان الحكيم عليه السلام حضره وهو يعمل الدرع فأراد أن يسأل عما يفعل ثم سكت حتى فرغ منها ولبسها على نفسه فقال الصمت حكمة وقليل فاعله قالوا ان الله تعالى ألان الحديد له يعمل منه بغير نار كأنه طين (المسئلة الرابعة) البأس ههنا الحرب وان وقع على السوء كله والمعنى ليمنعكم ويحرسكم من بأسكم أى من الجرح والقتل والسيف والسهم والرمح (المسئلة الخامسة) فيه دلالة على أن أول من عمل الدرع داود ثم تعلم الناس منه فتوارث الناس عنه ذلك فعمت النعمة بها كل المحاربين من الخلق الى آخر الدهر فلزمهم شكر الله تعالى على النعمة فقال فهل أنتم شاكرون أى اشكروا الله على ما يسر عليكم من هذه الصنعة * واعلم أنه سبحانه لما ذكر النعم التى خص داود بها ذكر بعده النعم التى خص بها سليمان عليه السلام وقال قتادة ورث الله تعالى سليمان من داود ملكه ونبوته وزاده عليه أمرين سخر له الريح والشياطين (الانعام الاول) قوله تعالى ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره أى جعلنا ها طائعة منقادة له بمعنى انه ان أرادها

أخذه وأنا غائب عنه أو وهو غائب عني أو ظرف أي بمكان الغيب وراء الأستار والأبواب المغلقة وأياما كان فالمقصود بيان كمال نزاهته عن الخيانة وغاية اجتنابه عنها عند تعاضد أسبابها (وأن الله) أي وليعلم أنه تعالى (لا يهدي كيد الخائنين) أي لا ينفذه ولا يسدده بل يبطله ويزهقه أو لا يهديهم في كيدهم إيقاعا للفعل على الكيد مبالغة كما في قوله تعالى يضاهئون قول الذين كفروا أي يضاهئونهم في قولهم وفيه تعريض بامرأته في خيانتها أمانته وبه في خيانة أمانة الله تعالى حين ساعدها على سجنه بعد ما رأوا آيات نزاهته عليه السلام ويجوز أن يكون ذلك لتأكيد أمانته وأنه لو كان خائنا لما هدى الله عز وجل أمره وأحسن عاقبته (وما أبرئ نفسي) أي لا أنزهها عن السوء قاله عليه السلام هضما لنفسه الكريمة البريئة عن كل سوء وربأ بمكانها عن التزكية والإعجاب بحالها عند ظهور كمال نزاهتها على أسلوب قوله عليه السلام أنا سيد ولد آدم ولا فخر أو تحديثا بنعمة الله عز وجل عليه وإبرازا لسره المكنون في شأن أفعال العباد أي لا أنزهها عن السوء من حيث هي هي ولا أسند هذه الفضيلة إليها بمقتضى طبعها من غير توفيق من الله عز وعلا (إن النفس) البشرية التي من جملتها نفسي في حد ذاتها (لأمارة بالسوء) مائلة إلى الشهوات مستعملة للقوى والآلات في تحصيلها بل إنما ذلك بتوفيق الله تعالى وعصمته ورحمته كما يفيده قوله (إلا ما رحم ربي) من النفوس التي يعصمها من لكون الوقوع في المهالك ومن جملتها نفسي أو هي أمارة بالسوء في كل وقت إلا وقت رحمة ربي وعصمته لها وقيل الاستثناء منقطع أي لكن رحمة ربي هي التي تصرف عنها السوء كما في قوله تعالى ولا هم ينقذون إلا رحمة (إن ربي غفور رحيم) عظيم المغفرة لما يعتري النفوس

عاصفة كانت عاصفة وإن أرادها لينة كانت لينة والله تعالى مسخرها في الحالتين (فإن قيل) العاصف الشديدة الهبوب وقد وصفها الله تعالى بالرخاوة في قوله رخاء حيث أصاب فكيف يكون الجمع بينهما (والجواب) من وجهين (الأول) أنها كانت في نفسها رخية طيبة كالنسيم فإذا مرت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة على ما قال غدوها شهر ورواحها شهر وكانت جامعة بين الأمرين رخاء في نفسها وعاصفة في عملها مع طاعتها لسليمان عليه السلام وهبوبها على حسب ما يريد ويحكم آية إلى آية معجزة إلى معجزة (الثاني) أنها كانت في وقت رخاء وفي وقت عاصفة لأجل هبوبها على حكم إرادته (المسئلة السادسة) قرئ الريح والرياح بالرفع والنصب فيهما فالرفع على الابتداء والنصب للعطف على الجبال فإن قيل قال في داود وسخرنا مع داود الجبال وقال في حق سليمان ولسليمان الريح فذكره في حق داود عليه السلام بكلمة مع وفي حق سليمان عليه السلام باللام وراعى هذا الترتيب أيضا في قوله يا جبال أوبي معه والطير وقال فسخرنا له الريح تجري بأمره فما الفائدة في تخصيص داود عليه السلام بلفظ مع وسليمان باللام قلنا يحتمل أن الجبل لما اشتغل بالتسبيح حصل له نوع شرف فما أضيف إليه بلام التمليك أما الريح فلم يصدر عنه إلا ما يجري مجرى الخدمة فلا جرم أضيف إلى سليمان بلام التمليك وهذا إقناعي أما قوله إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين أي إلى المضي إلى بيت المقدس قال الكلبي كانت تسير من إصطخر إلى الشام يركب عليها سليمان وأصحابه أما قوله وكنا بكل شيء عالمين أي لعلمنا بالأشياء صح منا أن ندبر هذا التدبير في رسلنا وفي خلقنا وأن نفعل هذه المعجزات القاهرة (الإنعام الثاني) قوله تعالى ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين وفيه مسائل (المسئلة الأولى) المراد أنهم يغوصون له في البحار فيستخرجون الجواهر ويتجاوزون ذلك إلى الأعمال والمهن وبناء المدن والقصور واختراع الصنائع العجيبة كما قال يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان وأما الصناعات فكاتخاذ الحمام والنورة والطواحين والقوارير والصابون (المسئلة الثانية) قوله ومن الشياطين من يغوصون له يعني وسخرنا لسليمان من الشياطين من يغوصون له فيكون في موضع النصب نسقا على الريح قال الزجاج ويجوز أن يكون في موضع رفع من وجهين (أحدهما) النسق على الريح وأن يكون المعنى ولسليمان الريح وله من يغوصون له من الشياطين ويجوز أن يكون رفعا على الابتداء ويكون له هو الخبر (المسئلة الثالثة) يحتمل أن يكون من يغوص منهم هو الذي يعمل سائر الأعمال ويحتمل أنهم فرقة أخرى ويكون الكل داخلين في لفظة من وإن كان الأول هو الأقرب (المسئلة الرابعة) ليس في الظاهر إلا أنه سخرهم لكنه قد روي أنه تعالى سخر كفارهم دون المؤمنين وهو الأقرب من وجهين (أحدهما) إطلاق لفظ الشياطين (والثاني) قوله وكنا لهم حافظين فإن المؤمن إذا سخر في أمر لا يجب أن يحفظ لئلا يفسد وإنما يجب ذلك في الكافر (المسئلة الخامسة) في تفسير قوله وكنا لهم حافظين وجوه (أحدها) أنه تعالى وكل بهم جمعا من الملائكة أو جمعا من مؤمني الجن (وثانيها) سخرهم الله تعالى بأن حبب إليهم طاعته وخوفهم من مخالفته (وثالثها) قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد وسلطانه مقيم عليهم يفعل بهم ما يشاء فإن قيل وعن أي شيء كانوا محفوظين قلنا فيه ثلاثة أوجه (أحدها) أنه تعالى كان يحفظهم عليه لئلا يذهبوا ويتركوه (وثانيها) قال الكلبي كان يحفظهم من أن يهيجوا أحدا في زمانه (وثالثها) كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا فكان دأبهم أنهم يعملون بالنهار ثم يفسدونه في الليل (المسئلة السادسة) سأل الجبائي نفسه وقال كيف يتهيأ لهم هذه الأعمال وأجسامهم رقيقة لا يقدرون على عمل الثقيل وإنما يمكنهم الوسوسة وأجاب بأنه سبحانه كثف أجسامهم خاصة وقواهم وزاد في عظمهم

ليكون ذلك معجزا لسليمان عليه السلام فلما مات سليمان ردهم الله الى الخلقة الاولى لانه لو بقاهم على الخلقة الثانية لصار شبهة على الناس ولو ادعى متنبي النبوة وجعله دلالة لكان كمعجزات الرسل فلذا ردهم الى خلقتهم الاولى واعلم أن هذا الكلام ساقط من وجوه (أحدها) لم قلت ان الجن من الاجسام ولم لا يجوز وجود محدث ليس بمتحيز ولا قائم بالمتحيز ويكون الجن منهم فان قلت لو كان الامر كذلك لكان مثلا للبارى تعالى قلت هذا ضعيف لان الاشتراك فى اللوازم الثبوتية لا يدل على الاشتراك فى الملزومات فكيف اللوازم السلبية سلمنا أنه جسم لكن لم لا يجوز حصول القدرة على هذه الاعمال الشاقة فى الجسم اللطيف وكلامه بناء على أن البنية شرط وليس فى يده الا الاستقراء الضعيف سلمنا أنه لا بد من تكثيف أجسامهم لكن لم قلت بأنه لا بد من ردها الى الخلقة الاولى بعد موت سليمان عليه السلام فان قال لئلا يفضى الى التلبيس قلنا التلبيس غير لازم لان المتنبي اذا جعل ذلك معجزة لنفسه فللمدعو أن يقول لم لا يجوز أن يقال ان قوة أجسادهم كانت معجزة لنبي آخر قبلك ومع قيام هذا الاحتمال لا يتمكن المتنبي من الاستدلال به واعلم أن أجسام هذا العالم اما كثيفة أو لطيفة أما الكثيف فأكثف الاجسام الحجارة والحديد وقد جعلهما الله تعالى معجزة لداود عليه السلام فأنطق الحجر ولين الحديد وكل واحد منهما كما يدل على التوحيد والنبوة يدل على صحة الحشر لانه لما قدر على احياء الحجارة فأى بعد فى احياء العظام الرميمة واذا قدر على أن يجعل فى اصبع داود عليه السلام قوة النار مع كون الاصبع فى نهاية اللطافة فأى بعد فى أن يجعل التراب اليابس جسما حيوانيا وألطف الاشياء فى هذا العالم الهواء والنار وقد جعلهما الله معجزة لسليمان عليه السلام أما الهواء فقوله تعالى فسخرنا له الريح وأما النار فلان الشياطين مخلوقون منها وقد سخرهم الله تعالى له فكان يأمرهم بالغوص فى المياه والنار تنطفى بالماء وهم ما كان يضرهم ذلك وذلك يدل على قدرته على اظهار الضد من الضد

(القصة السادسة) قصة أيوب عليه السلام ﴿قوله تعالى ﴿وأيوب اذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾ اعلم أن فى أمر أيوب عليه السلام ما ذكره الله تعالى من شأنه هو وفى غيره من القرآن من العبر والدلائل ما ليس فى غيره لانه تعالى مع عظيم فضله أنزل به من المرض العظيم ما أنزله بما كان عبرة له ولغيره ولسائر من سمع بذلك وتعريفا لهم أن الدنيا مزرعة الآخرة وأن الواجب على المرء أن يصبر على ما يناله من البلاء فيها ويجتهد فى القيام بحق الله تعالى ويصبر على حالتى الضراء والسراء وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال وهب بن منبه كان أيوب عليه السلام رجلا من الروم وهو أيوب بن أنوص وكان من ولد عيصو بن اسحق وكانت أمه من ولد لوط وكان الله تعالى قد اصطفاه وجعله نبيا وكان مع ذلك قد أعطاه من الدنيا حظا وافرا من النعم والدواب والبساتين وأعطاه أهلا وولدا من رجال ونساء وكان رحيما بالمساكين وكان يكفل الايتام والارامل ويكرم الضيف وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وعرفوا فضله قال وهب وان لجبريل عليه السلام بين يدى الله تعالى مقاما ليس لاحد من الملائكة مثله فى القربة والفضيلة وهو الذى يتلقى الكلام فاذا ذكر الله عبدا بخير تلقاه جبريل عليه السلام ثم تلقاه ميكائيل عليه السلام ثم من حوله من الملائكة المقربين فاذا شاع ذلك فيهم يصلون عليه ثم صلت ملائكة السموات ثم ملائكة الارض وكان ابليس لم يحجب عن شئ من السموات وكان يقف فيهن حيثما أراد ومن هناك وصل الى آدم عليه السلام حتى أخرجه من الجنة ولم يزل على ذلك حتى رفع عيسى عليه السلام فحجب عن أربع فكان يصعد بعد ذلك الى ثلاث الى زمان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فحجب عند ذلك عن جميع السموات الا من استرق السمع

بوجوب طاعتها ومبالغ فى الرحمة لها بعصمتها من الجريان بمقتضى ذلك وايثار الاظهار فى مقام الاضمار مع التعرض لعنوان الربوبية لتربية مبادى المغفرة والرحمة وقيل الى هنا من كلام امرأة العزيز والمعنى ذلك الذى قلت ليعلم يوسف عليه السلام انى لم أخنه ولم أكذب عليه فى حال الغيبة وجئت بما هو الحق الواقع وما أبرئ نفسى مع ذلك من الخيانة حيث قلت فى حقه ما قلت وفعلت به ما فعلت ان كل نفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربى أى الا نفسا رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف ان ربى غفور لمن استغفر لذنبه واعترف به رحيم له فعلى هذا يكون تأنيه عليه السلام فى الخروج من السجن لعدم رضاه عليه السلام بملاقاة الملك وأمره بين بين فعل ما فعل حتى يتبين نزاهته وأنه انما سجن بظلم عظيم مع ما له من الفضل ونباهة الشان ليتلقاه الملك بما يليق به من الاعظام والاجلال وقد وقع (وقال الملك ائتونى به أستخلصه) أجعله خالصا (لنفسى) وخاصا بى (فلما كلمه) أى فأتوا به حذف للايذان بسرعة الاتيان به فكأنه لم يكن بين الامر باحضاره والخطاب معه زمان أصلا والضمير المستكن فى كلمه ليوسف والبارز للملك أى فلما كلمه يوسف اثر ما أتاه فاستنطقه وشاهد منه ما شاهد (قال انك اليوم لدينا مكين) ذو مكانة ومنزلة رفيعة (أمين) مؤتمن على كل شئ واليوم ليس بمعيار لمدة المكانة والامانة بل هو آن التكلم والمراد تحديد مبدئهما احترازا عن احتمال كونهما بعد حين روى أنه عليه السلام لما جاءه الرسول خرج من السجن ودعا لاهله واغتسل ولبس ثيابا جددا فلما دخل على الملك قال اللهم انى أسألك بخيرك من خيره وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره وشر غيره ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية فقال ما هذا اللسان قال لسان آبائى وكان الملك يعرف سبعين لسانا فكلمه بها فأجابه بجميعها

فتعجب منه فقال أحب أن أسمع منك رؤياى شفاها ونعت له البقرات والسنابل وأماكنها على ما رآها فأجلسه على السرير وفوض اليه أمره وقيل توفى قطفير فى تلك الليالى فنصبه منصبه وزوجه راعيل فوجدها عذراء وولدت له افرايم وميشا وأمل ذلك انما كان بعد تعيينه عليه السلام لما عين له من ١٤٢ أمر الخزائن كما يعرب عنه قوله عز وجل (قال اجعلنى على خزائن الارض) أى أرض مصر أى ولنى أمرها من الايراد والصرف (انى حفيظ) لها ممن لا يستحقها (عليم) بوجوه التصرف فيها وفيه دليل على جواز طلب الولاية اذا كان الطالب ممن يقدر على اقامة العدل واجراء أحكام الشريعة وان كان من يد الجائر أو الكافر وعن مجاهد أنه أسلم الملك على يده عليه السلام ولعل ايثاره عليه السلام لتلك الولاية خاصة انما كان للقيام بما هو أهم أمور السلطنة اذ ذاك من تدبير أمر السنين حسبما فصل فى التأويل لكونه من فروع تلك الولاية لا لمجرد عموم الفائدة وجموم العائدة كما قيل وانما لم يذكر اجابة الملك الى ما سأله عليه السلام من جعله على خزائن الارض ايذانا بأن ذلك أمر لا مرد له غنى عن التصريح لا سيما بعد تقديم ما يندرج تحته من أحكام السلطنة بحذافيرها من قوله انك اليوم لدينا مكين أمين والتنبيه على أن كل ذلك من الله عز وجل وانما الملك آلة فى ذلك قيل (وكذلك) أى مثل ذلك التمكين البالغ (مكنا ليوسف) أى جعلنا له مكانا (فى الارض) أى أرض مصر ان روى أنها كانت أربعين فرسخا فى أربعين وفى التعبير عن الجعل المذكور بالتمكين فى الارض مسندا الى ضميره عز سلطانه من تشريفه عليه السلام والمبالغة فى كمال ولايته والاشارة الى حصول ذلك من أول الامر لا أنه حصل بعد السؤال ما لا يخفى (يتبوأ منها) ينزل من

قال فسمع ابليس تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب فأدركه الحسد فصعد سريعا حتى وقف من السماء موقفا كان يقفه فقال يارب انك أنعمت على عبدك أيوب فشكرك وعافيته فحمدك ثم لم تجربه بشدة ولا بلاء وأنا لك زعيم لئن ضربته بالبلاء ليكفرن بك فقال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ماله فانقض اللعين حتى وقع الى الارض وجمع عفاريت الشياطين وقال لهم ماذا عندكم من القوة فانى سلطت على مال أيوب قال عفريت أعطيت من القوة ما اذا شئت تحولت اعصارا من نار فأحرقت كل شئ آتى عليه فقال ابليس فأت الابل ورعاءها فذهب ولم يشعر الناس حتى ثار من تحت الارض اعصار من نار لا يدنو منها شئ الا احترق فلم يزل يحرقها ورعاءها حتى أتى على آخرها فذهب ابليس على شكل بعض أولئك الرعاة الى أيوب فوجده قائما يصلى فلما فرغ من الصلاة قال يا أيوب هل تدرى ما صنع ربك الذى اخترته بابلك ورعائها فقال أيوب انها ماله أعارنيه وهو أولى به اذا شاء نزعه قال ابليس فان ربك أرسل عليها نارا من السماء فاحترقت ورعاؤها كلها وتركت الناس مبهوتين متعجبين منها فمن قائل يقول ما كان أيوب يعبد شيأ وما كان الا فى غرور ومن قائل يقول لو كان اله أيوب يقدر على شئ لمنع من وليه ومن قائل آخر يقول بل هو الذى فعل ما فعل ليشمت عدوه به ويفجع به صديقه فقال أيوب عليه السلام الحمد لله حين أعطانى وحين نزع منى عريانا خرجت من بطن أمى وعريانا أعود فى التراب وعريانا أحشر الى الله تعالى ولو علم الله فيك أيها العبد خيرا لنقل روحك مع تلك الارواح وصرت شهيدا وآجرنى فيك ولكن الله علم منك شرا فأخرك فرجع ابليس الى أصحابه خاسئا فقال عفريت آخر عندى من القوة ما اذا شئت صحت صوتا لا يسمعه ذو روح الا خرجت روحه فقال ابليس فأت الغنم ورعاءها فانطلق فصاح بها فماتت ومات رعاؤها فخرج ابليس متمثلا بقهرمان الرعاة الى أيوب فقال له القول الاول ورد عليه أيوب الرد الاول فرجع ابليس صاغرا فقال عفريت آخر عندى من القوة ما اذا شئت تحولت ريحا عاصفة أقلع كل شئ أتيت عليه قال فاذهب الى الحرث والثيران فأتاهم فأهلكهم ثم رجع ابليس متمثلا حتى جاء أيوب وهو يصلى فقال مثل قوله الاول فرد عليه أيوب الرد الاول فجعل ابليس يصيب أمواله شيأ فشيأ حتى أتى على جميعها فلما رأى ابليس صبره على ذلك وقف الموقف الذى كان يقفه عند الله تعالى وقال يا الهى هل أنت مسلطى على ولده فانها الفتنة المضلة فقال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ولده فأتى أولاد أيوب فى قصرهم فلم يزل يزلزله بهم من قواعده حتى قلب القصر عليهم ثم جاء الى أيوب متمثلا بالمعلم وهو جريح مشدوخ الرأس يسيل دمه ودماغه فقال لو رأيت بنيك كيف انقلبوا منكوسين على رؤسهم تسيل أدمغتهم من أنوفهم لتقطع قلبك فلم يزل يقول هذا ويرققه حتى رق أيوب عليه السلام وبكى وقبض قبضة من التراب ووضعها على رأسه فاغتنم ذلك ابليس ثم لم يلبث أيوب عليه السلام حتى استغفر واسترجع فصعد ابليس ووقف موقفه وقال يا الهى انما يهون على أيوب خطر المال والولد لعلمه انك تعيد له المال والولد فهل أنت مسلطى على جسده وانى لك زعيم لو ابتليته فى جسده ليكفرن بك فقال تعالى انطلق فقد سلطتك على جسده وليس لك سلطان على عقله وقلبه ولسانه فانقض عدو الله سريعا فوجد أيوب عليه السلام ساجدا لله تعالى فأتاه من قبل الارض فنفخ فى منخره نفخة اشتعل منها جسده وخرج به من فرقه الى قدمه ثآليل وقد وقعت فيه حكة لا يملكها وكان يحك بأظفاره حتى سقطت أظفاره ثم حكها بالمسوح الخشنة ثم حكها بالفخار والحجارة ولم يزل يحكها حتى تقطع لحمه وتغير وانتن فأخرجه أهل القرية وجعلوه على كناسة وجعلوا له عريشا ورفضه الناس كلهم غير امرأته رحمة بنت افرايم بن يوسف عليه السلام فكانت تصلح أموره

بلادها (حيث يشاء) و يتخذه مباءة وهو عبارة عن كمال قدرته على التصرف فيها ودخولها تحت ملكه وسلطانه فكأنها منزله يتصرف
فيها كما يتصرف الرجل في منزله وقرأ ابن كثير بالنون روي أن الملك توجه وختمه بخاتمه ورداه بسيفه ووضع له سريرا من ذهب مكللا
بالدر والياقوت فقال عليه السلام أما السرير فاشد به ملكك وأما الخاتم فادبر به أمرك وأما التاج فليس من لباسي ولا
لباس آبائي فقال قد
وضعته اجلالا لك واقرارا
بفضلك فجلس على السرير
ودانت له الملوك وفوض
اليه الملك أمره وأقام
العدل بمصر وأحبته
الرجال والنساء وباع
من أهل مصر في سني
القحط الطعام في السنة
الاولى بالدنانير والدراهم
وفي الثانية بالحلي
والجواهر وفي الثالثة
بالدواب ثم بالضياع
والعقار ثم برقابهم حتى
استرقهم جميعا فقالوا
ما رأينا كاليوم ملكا
أجل وأعظم منه ثم
أعتقهم ورد اليهم أموالهم
وكان لا يبيع من أحد
من الممتارين أكثر من
حمل بعير تقسيطا بين
الناس (نصيب برحمتنا)
بعطائنا في الدنيا من
الملك والغنى وغيرهما
من النعم (من نشاء)
بمقتضى الحكمة الداعية
الى المشيئة (ولا نضيع
أجر المحسنين) بل نوفيه
بكماله وفيه اشعار بان
مدار المشيئة المذكورة
احسان من تصيبه
الرحمة المرقومة وانها أجر
له ولدفع توهم انحصار
ثمرات الاحسان فيما
ذكر من الاجر العاجل قيل على سبيل التوكيد (ولأجر الآخرة) أي أجرهم في الآخرة فالاضافة للملابسة وهو النعيم المقيم الذي لا نفاد
له (خير) لهم أي للمحسنين المذكورين وانما وضع موضعه الموصول فقيل (للذين آمنوا وكانوا يتقون) تنبيها على أن المراد بالاحسان
انما هو الايمان والثبات على التقوى المستفاد من جمع صيغتي الماضي والمستقبل (وجاء اخوة يوسف) ممتارين لما أصاب أرض كنعان

ان وهبا طول في الحكاية الى أن قال ان أيوب عليه السلام أقبل على الله تعالى مستغيثا متضرعا اليه فقال
يارب لاي شئ خلقتني ياليتني كنت حيضة ألقتني أمي و ياليتني كنت عرفت الذنب الذي أذنبته والعمل
الذي عملت حتى صرفت وجهك الكريم عني ألم أكن للغريب دارا وللمسكين قرارا ولليتيم وليا وللارملة
قيما الهي أنا عبد ذليل ان أحسنت فالمن لك وان أسأت فبيدك عقوبتي جعلتني للبلاء غرضا وللفتنة نصبا
وسلطت على ما لو سلطته على جبل لضعف من حمله الهي تقطعت أصابعي وتساقطت لهواتي وتناثر شعري
وذهب المال وصرت أسأل اللقمة فيطعمني من يمن بها علي ويعيرني بفقري وهلاك أولادي قال الامام أبو
القاسم الانصاري رحمه الله وفي جملة هذا الكلام ليتك لو كرهتني لم تخلقني ثم قال ولو كان ذلك صحيحا لاغتنمه
ابليس فان قصده أن يحمله على الشكوى وأن يخرجه عن حلية الصابرين والله تعالى لم يخبر عنه الا قوله
اني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ثم قال انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب واختلف العلماء في السبب
الذي قال لاجله اني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين وفي مدة بلائه (فالرواية الاولى) روى ابن شهاب عن
أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أيوب عليه السلام بقي في البلاء ثماني عشرة سنة
فرفضه القريب والبعيد الا رجلين من اخوانه كانا يغدوان و يروحان اليه فقال أحدهما للآخر ذات يوم
والله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين فقال له صاحبه وما ذاك فقال منذ ثماني عشرة سنة لم
يرحمه الله تعالى ولم يكشف ما به فلما راحا الى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك لايوب عليه السلام فقال
أيوب ما أدري ما تقولان غير ان الله تعالى يعلم اني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله عز وجل
فارجع الى بيتي فاكفر عنهما كراهية أن يذكرا الله الا في حق وفي رواية أخرى ان الرجلين لما دخلا عليه
وجدا ريحا فقالا لو كان لايوب عند الله خير ما بلغ الى هذه الحالة قال فما شق على أيوب شئ مما ابتلي به
أشد مما سمع منهما فقال اللهم ان كنت تعلم اني لم أبت شبعانا وأنا أعلم مكان جائع فصدقني فصدقه وهما
يسمعان ثم خر أيوب عليه السلام ساجدا ثم قال اللهم اني لا أرفع رأسي حتى تكشف ما بي قال فكشف الله
ما به (الرواية الثانية) قال الحسن رحمه الله مكث أيوب عليه السلام بعد ما ألقي على الكناسة سبع سنين
وأشهرا ولم يبق له مال ولا ولد ولا صديق غير امرأته رحمة صبرت معه وكانت تأتيه بالطعام وتحمد الله تعالى
مع أيوب وكان أيوب مواظبا على حمد الله تعالى والثناء عليه والصبر على ما ابتلاه فصرخ ابليس صرخة جزعا
من صبر أيوب فاجتمع جنوده من أقطار الارض وقالوا له ما خبرك قال أعياني هذا العبد الذي سألت الله
أن يسلطني عليه وعلى ماله وولده فلم أدع له مالا ولا ولدا ولم يزدد بذلك الا صبرا وحمدا لله تعالى ثم سلطت على
جسده فتركته ملقى في كناسة وما يقربه الا امرأته وهو مع ذلك لا يفتر عن الذكر والحمد لله فاستغثت بكم
لتعينوني عليه فقالوا له أين مكرك أين عملك الذي أهلكت به من مضى قال بطل ذلك كله في أيوب فأشيروا
علي قالوا أدليت آدم حين أخرجته من الجنة من أين أتيته قال من قبل امرأته قالوا فشأنك بأيوب من
قبل امرأته فانه لا يستطيع أن يعصيها لانه لا يقربه أحد غيرها قال أصبتم فانطلق حتى أتى امرأته فتمثل
لها في صورة رجل فقال أين بعلك يا أمة الله قالت هو هذا يحك قروحه وتتردد الدواب في جسده فلما
سمعها طمع أن يكون ذلك كلمة جزعا فوسوس اليها وذكرها ما كان لها من النعم والمال وذكرها جمال
أيوب وشبابه قال الحسن رحمه الله فصرخت فلما صرخت علم أنها قد جزعت فأتاها بسخلة وقال ليذبح هذه
لي أيوب و يبرأ قال فجاءت تصرخ الى أيوب يا أيوب حتى متى يعذبك ربك الا يرحمك أين المال أين الماشية
أين الولد أين الصديق أين اللون الحسن أين جسمك الذي قد بلي وصار مثل الرماد وتردد فيه الدواب اذبح

وبلاد الشام ما أصاب أرض مصر وقد كان أرسلهم يعقوب عليه السلام جميعا غير بنيامين (فدخلوا عليه) أي على يوسف وهو في مجلس ولايته (فعرفهم) لقوة فهمه وعدم مباينة أحوالهم السابقة لحالهم يومئذ لمفارقته إياهم وهم رجال وتشابه هيآتهم وزيهم في الحالين ولكون همته معقودة بهم وبمعرفة أحوالهم لاسيما في زمن القحط وعن الحسن ما عرفهم حتى تعرفوا له (وهم له منكرون) أي والحال أنهم منكرون له لطول العهد وتباين ما بين حاليه عليه السلام في نفسه ومنزلته وزيه ولاعتقادهم أنه هلك وحيث كان إنكارهم له أمرا مستمرا في حالتي الحضور والغيبة أخبر عنه بالجملة الاسمية بخلاف عرفانه عليه السلام إياهم (ولما جهزهم بجهازهم) أي أصلحهم بعدتهم من الزاد وما يحتاج إليه المسافر وأوقر ركائبهم بما جاؤا له من الميرة وقرئ بكسر الجيم (قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم) لم يقل بأخيكم مبالغة في إظهار عدم معرفته لهم ولعله عليه السلام إنما قال لما قيل من أنهم سألوه عليه السلام حملا زائدا على المعتاد لبنيامين فأعطاهم ذلك وشرطهم أن يأتوا به لا لما قيل من أنه لما رأوه وكلموه بالعبرية قال له من أنتم فإني أنكركم فقالوا له نحن قوم من أهل الشام رعاة أصابنا الجهد فجئنا نمتار فقال لهم لعلكم جئتم عيونا فقالوا معاذ الله نحن إخوة بنو أب واحد وهو شيخ كبير صديق نبي من الأنبياء اسمه يعقوب قال كم أنتم قالوا كنا اثني عشر فهلك منا واحد فقال كم أنتم ههنا قالوا عشرة قال فأين الحادي عشر قالوا هو عند أبيه يتسلى به عن الهالك قال فمن يشهد لكم أنكم لستم عيونا وأن ما تقولون حق قالوا نحن ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا قال فدعوا بعضكم عندي رهينة وائتوني بأخيكم من أبيكم وهو يحمل رسالة

هذه السخلة واسترح فقال أيوب عليه السلام أتاك عدو الله ونفخ فيك فأجبته ويلك أترين ما تبكين عليه مما تذكرين مما كنا فيه من المال والولد والصحة من أعطانا ذلك قالت الله قال فكم متعنا به قالت ثمانين سنة قال فمنذ كم ابتلانا الله بهذا البلاء قالت منذ سبع سنين وأشهر قال ويلك والله ما أنصفت ربك ألا صبرت في البلاء ثمانين سنة كما كنا في الرخاء ثمانين سنة والله لئن شفاني الله لأجلدنك مائة جلدة أمرتيني أن أذبح لغير الله وحرام علي أن أذوق بعد هذا شيئا من طعامك وشرابك الذي تأتيني به فطردها فذهبت فلما نظر أيوب في شأنه وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق وقد ذهبت امرأته خر ساجدا وقال رب إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فقال ارفع رأسك فقد استجبت لك اركض برجلك فركض برجله فنبعت عين ماء فاغتسل منها فلم يبق في ظاهر بدنه دابة إلا سقطت منه ثم ضرب برجله مرة أخرى فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق في جوفه داء إلا خرج وقام صحيحا وعاد إليه شبابه وجماله حتى صار أحسن ما كان ثم كسي حلة فلما قام جعل يلتفت فلا يرى شيئا مما كان له من الأهل والولد والمال إلا وقد ضعفه الله تعالى حتى صار أحسن مما كان حتى ذكر أن الماء الذي اغتسل منه تطاير على صدره جرادا من ذهب قال فجعل يضمه بيده فأوحى الله إليه يا أيوب ألم أغنك قال بلى ولكنها بركتك فمن يشبع منها قال فخرج حتى جلس على مكان مشرف ثم إن امرأته قالت هب أنه طردني أفأتركه حتى يموت جوعا وتأكله السباع لأرجعن إليه فلما رجعت ما رأت تلك الكناسة ولا تلك الحال وإذا بالأمور قد تغيرت فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكي وذلك بعين أيوب عليه السلام وهابت صاحب الحلة أن تأتيه وتسأله عنه فأرسل إليها أيوب عليه السلام ودعاها وقال ما تريدين يا أمة الله فبكت وقالت أردت ذلك المبتلى الذي كان ملقى على الكناسة فقال لها أيوب عليه السلام ما كان منك فبكت وقالت بعلي فقال أتعرفينه إذا رأيتيه قالت وهل يخفى على أحد يراه فتبسم وقال أنا هو فعرفته بضحكه فاعتنقته ثم قال إنك أمرتيني أن أذبح سخلة لإبليس وإني أطعت الله وعصيت الشيطان ودعوت الله تعالى فرد علي ما ترين (الرواية الثالثة) قال الضحاك ومقاتل بقي في البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات وقال وهب رحمه الله بقي في البلاء ثلاث سنين فلما غلب أيوب إبليس لعنه الله ذهب إبليس إلى امرأته على هيئة ليست كهيئة بني آدم في العظم والجسم والجمال على مركب ليس كمراكب الناس وقال لها أنت صاحبة أيوب قالت نعم قال فهل تعرفيني قالت لا قال أنا إله الأرض أنا صنعت بأيوب ما صنعت وذلك أنه عبد إله السماء وتركني فأغضبني ولو سجد لي سجدة واحدة رددت عليك وعليه جميع ما لكما من مال وولد فإن ذلك عندي قال وهب وسمعت أنه قال لو أن صاحبك أكل طعاما ولم يسم الله تعالى لعوفي مما هو فيه من البلاء وفي رواية أخرى بل قال لها لو شئت فاسجدي لي سجدة واحدة حتى أرد عليك المال والولد وأعافي زوجك فرجعت إلى أيوب فأخبرته بما قال لها فقال لها أيوب أتاك عدو الله ليفتنك عن دينك ثم أقسم لئن عافاني الله لأجلدنك مائة جلدة وقال عند ذلك مسني الضر يعني من طمع إبليس في سجودي له وسجود زوجتي ودعائه إياها وإياي إلى الكفر (الرواية الرابعة) قال وهب كانت امرأة أيوب عليه السلام تعمل للناس وتأتيه بقوته فلما طال عليه البلاء سئمها الناس فلم يستعملوها فالتمست ذات يوم شيئا من الطعام فلم تجد شيئا فجزت قرنا من رأسها فباعته برغيف فأتته به فقال لها أين قرنك فأخبرته بذلك فحينئذ قال مسني الضر (الرواية الخامسة) قال إسمعيل السدي لم يقل أيوب مسني الضر إلا لأشياء ثلاث (أحدها) قول الرجلين له لو كان عملك الذي كنا نرى لله تعالى لما أصابك الذي أصابك (وثانيها) كان لامرأته ثلاث ذوائب فعمدت إلى

احداها

من أبيكم شئ أصدقكم فاشتروا فأصاب القرعة شمعون فخلفوه عنده اذ لا يساعده ورود الأمر بالاتيان به عند التجهيز ولا الحث عليه بايفاء الكيل ولا الاحسان فى الانزال ولا الاقتصار على منع الكيل على تقدير عدم الاتيان به ولا جعل بضاعتهم فى رحالهم لاجل رجوعهم ولا عدتهم بالاتيان به بطريق المراودة ولا تعليلهم عند أبيهم ارسال أخيهم بمنع الكيل من غير ذكر الرسالة على

احداها وقطعتها وباعتها فاعطوها بذلك خبزا ولحما فجاءت الى أيوب عليه السلام فقال من أين هذا فقالت كل فانه حلال فلما كان من الغد لم تجد شيأ فباعت الثانية وكذلك فعلت فى اليوم الثالث وقالت كل فانه حلال فقال لا آكل ما لم تخبريني فأخبرته فبلغ ذلك من أيوب ما الله به عليم وقيل انما باعت ذوائبها لان ابليس تمثل لقوم فى صورة بشر وقال لئن تركتم أيوب فى قريتكم فانى أخاف أن يعدى اليكم ما به من العلة فأخرجوه الى باب البلد ثم قال لهم ان امرأته تدخل فى بيوتكم وتعمل وتمس زوجها أما تخافون أن تعدى اليكم علته فحينئذ لم يستعملها أحد فباعت ضفيرتها (وثالثها) حين قالت له امرأته ما قالت فحينئذ دعا (الرواية السادسة) قيل سقطت دودة من فخذه فرفعها وردها الى موضعها وقال قد جعلنى الله تعالى طعمة لك فعضته عضة شديدة فقال مسنى الضر فأوحى الله تعالى اليه لولا انى جعلت تحت كل شعرة منك صبرا لما صبرت (المسئلة الثانية) اعلم ان المعتزلة قد طعنوا فى هذه القصة من وجوه (أحدها) قال الجبائى ذهب بعض الجهال الى أن ما كان به من المرض كان فعلا للشيطان سلطه الله عليه لقوله تعالى حكاية عنه مسنى الشيطان بنصب وعذاب وهذا جهل أما أولا فلانه لو قدر على احداث الامراض والاسقام وضدها من العافية لتم له فعل الاجسام ومن هذا حاله يكون الها وأما ثانيا فلان الله تعالى أخبر عنه وعن جنوده بانه قال وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى والواجب تصديق خبر الله تعالى دون الرجوع الى ما يروى عن وهب بن منبه رضى الله عنه واعلم أن هذا الاعتراض ضعيف لان المذكور فى الحكاية أن الشيطان نفخ فى منخره فوقعت الحكة فيه فلم قلتم ان القادر على النفخة التى تولد مثل هذه الحكة لا بد وأن يكون قادرا على خلق الاجسام وهل هذا الا محض التحكم وأما التمسك بالنص فضعيف لانه انما يقدم على هذا الفعل متى علم انه لو أقدم عليه لما منعه الله تعالى عنه وهذه الحالة لم تحصل الا فى حق أيوب عليه السلام على ما دلت الحكاية عليه من انه استأذن الله تعالى فاذن له فيه ومتى كان كذلك لم يبق بين ذلك النص وبين هذه الحكاية مناقضة (وثانيها) قالوا ما روى انه عليه السلام لم يسأل الا عند أمور مخصوصة فبعيد لان الثابت فى العقل انه يحسن من المرء أن يسأل فى ذلك ربه ويفزع اليه كما يحسن منه المداواة واذا جاز أن يسأل ربه عند الغم مما يراه من اخوانه وأهله جاز أيضا أن يسأل ربه من قبل نفسه فان قيل أفلا يجوز انه تعالى تعبده بان لا يسأل الكشف الا فى آخر أمره قلنا يجوز ذلك بان يعلمه أن انزال ذلك به مدة مخصوصة من مصالحه ومصالح غيره لا محالة فعلم عليه السلام انه لا وجه للمسئلة فى هذا الامر الخاص فاذا قرب الوقت جاز أن يسأل ذلك من حيث يجوز أن يدوم ويجوز أن ينقطع (وثالثها) قالوا انتهاء ذلك المرض الى حد التنفير عنه غير جائز لان الامراض المنفرة من القبول غير جائزة على الانبياء عليهم السلام فهذا جملة ما قيل فى هذه الحكاية (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف قوله تعالى انى مسنى الضر أى ناداه بانى مسنى الضر وقرئ انى بالكسر على اضمار القول أو لتضمين النداء معناه والضر بالفتح الضرر فى كل شئ وبالضم الضرر فى النفس من مرض وهزال (المسئلة الرابعة) أنه عليه السلام ألطف فى السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة وذكر ربه بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب فان قيل أليس أن الشكوى تقدح فى كونه صابرا (الجواب) قال سفيان بن عيينة رحمه الله من شكا الى الله تعالى فانه لا يعد ذلك جزعا اذا كان فى شكواه راضيا بقضاء الله تعالى اذ ليس من شرط الصبر استحلاء البلاء ألم تسمع قول يعقوب عليه السلام انما أشكو بثى وحزنى الى الله أما قوله وأنت أرحم الراحمين فالدليل على انه سبحانه أرحم الراحمين أمور (أحدها) ان كل من رحم غيره فاما أن يرحمه طلبا للثناء فى الدنيا أو الثواب فى

أن استبقاء شمعون لو وقع لكان ذلك طامة ينسى عندها كل قيل وقال (ألا ترون انى أوف الكيل) أتمه لكم وايثار صيغة الاستقبال مع كون هذا الكلام بعد التجهيز للدلالة على ان ذلك عادة له مستمرة (وأنا خير المنزلين) جملة حالية أى ألا ترون أنى أوفى الكيل لكم ايفاء مستمرا والحال انى فى غاية الاحسان فى انزالكم وضيافتكم وقد كان الامر كذلك وتخصيص الرؤية بالايفاء لوقوع الخطاب فى أثنائه وأما الاحسان فى الانزال فقد كان مستمرا فيما سبق ولحق ولذلك أخبر عنه بالجملة الاسمية ولم يقله عليه السلام بطريق الامتنان بل لحثهم على تحقيق ما أمرهم به والاقتصار فى الكيل على ذكر الايفاء لان معاملته عليه السلام معهم فى ذلك كمعاملته مع غيرهم فى مراعاة مواجب العدل وأما الضيافة فليس للناس فيها حق فخصهم فى ذلك بما شاء (فان لم تأتونى به

(فلا كيل لكم عندى) من بعد فضلا عن ايفائه (ولا تقربون) بدخول بلادى فضلا عن الاحسان فى الانزال والضيافة وهو اما نهى أو نفى معطوف على محل الجزاء وفيه دليل على أنهم كانوا على نية الامتيار مرة بعد أخرى وأن ذلك كان معلوما له عليه السلام (قالوا سنراود عنه أباه) أى سنخادعه عنه ونحتال فى انتزاعه من يده ونجتهد فى ذلك وفيه تنبيه على عزة المطلب وصعوبة

منا له (وانا لفاعلون) ذلك غير مفرطين فيه ولا متوانين أو لقادرون عليه لا نتعانى به (وقال) يوسف (لفتيانه) غلمانه الكيالين جمع فتى وقرئ لفتيته وهي جمع قلة له (اجعلوا بضاعتهم في رحالهم) فانه وكل بكل رحل رجلا يعبي فيه بضاعتهم التي شروا بها الطعام وكانت نعالا وأدما وانما فعله عليه السلام تفضلا عليهم وخوفا من أن لا يكون عند أبيه ما يرجعون به مرة أخرى وكل ذلك لتحقيق

الآخرة أو دفعا للرقة الجنسية عن الطبع وحينئذ يكون مطلوب ذلك الراحم منفعة نفسه أما الحق سبحانه فانه يرحم عباده من غير وجه من هذه الوجوه ومن غير أن يعود اليه من تلك الرحمة زيادة ولا نقصان من الثناء ومن صفات الكمال فكان سبحانه أرحم الراحمين (وثانيها) ان كل من يرحم غيره فلا يكون ذلك الا بمعونة رحمة الله تعالى لان من أعطى غيره طعاما أو ثوبا أو دفع عنه بلاء فلولا انه سبحانه خلق الطعوم والملبوس والادوية والاغذية والا لما قدر أحد على اعطاء ذلك الشئ ثم بعد وصول تلك العطية اليه فلولا انه سبحانه جعله سببا للراحة لما حصل النفع بذلك فاذا رحمة العباد مسبوقة برحمة الله تعالى وملحوقة برحمته بل رحمتهم فيما بين الطرفين كالقطرة في البحر فوجب أن يكون تعالى هو أرحم الراحمين (وثالثها) ان الله تعالى لو لم يخلق في قلب العبد تلك الدواعي والارادات لاستحال صدور ذلك الفعل عنه فكان الراحم هو الحق سبحانه من حيث انه هو الذي أنشأ تلك الداعية فثبت انه أرحم الراحمين (فان قيل) كيف يكون أرحم الراحمين مع انه سبحانه ملأ الدنيا من الآفات والاسقام والامراض والآلام وسلط البعض على البعض بالذبح والكسر والايذاء وكان قادرا على أن يغني كل واحد عن ايلام الآخر وايذائه (والجواب) ان كونه سبحانه ضارا لا ينافي كونه نافعا بل هو الضار النافع فاضراره ليس لدفع مشقة وانفاعه ليس لجلب منفعة بل لا يسئل عما يفعل أما قوله تعالى فاستجبنا له فانه يدل على انه دعا ربه لكن هذا الدعاء قد يجوز أن يكون واقعا منه على سبيل التعريض كما يقال ان رأيت أو أردت أو أحببت فافعل كذا ويجوز أن يكون على سبيل التصريح وان كان الاليق بالادب وبدلالة الآية هو الاول ثم انه سبحانه بين انه كشف ما به من ضر وذلك يقتضي اعادته الى ما كان في بدنه وأحواله وبين الله تعالى انه آتاه أهله ويدخل فيه من ينسب اليه من زوجة وولد وغيرهما ثم فيه قولان (أحدهما) وهو قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومقاتل والكلبي وكعب رضي الله عنهم ان الله تعالى أحيا له أهله يعني أولاده بأعيانهم (والثاني) روى الليث رضي الله عنه قال أرسل مجاهد الى عكرمة وسأله عن الآية فقال قيل له ان أهلك لك في الآخرة فان شئت عجلناهم لك في الدنيا وان شئت كانوا لك في الآخرة وآتيناك مثلهم في الدنيا فقال يكونون لي في الآخرة وأوتى مثلهم في الدنيا والقول الاول أولى لان قوله وآتيناه أهله يدل بظاهره على أنه تعالى أعادهم في الدنيا وأعطاه معهم مثلهم أيضا وأما قوله وذكرى للعابدين ففيه دلالة على أنه تعالى فعل ذلك لكي يتفكر فيه فيكون داعية للعابدين في الصبر والاحتساب وانما خص العابدين بالذكر لانهم يختصون بالانتفاع بذلك (القصة السابعة) قوله تعالى ﴿واسمعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين وأدخلناهم في رحمتنا انهم من الصالحين﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر صبر أيوب عليه السلام وانقطاعه اليه أتبعه بذكر هؤلاء فانهم كانوا أيضا من الصابرين على الشدائد والمحن والعبادة أما اسمعيل عليه السلام فلانه صبر على الانقياد للذبح وصبر على المقام ببلد لا زرع فيه ولا ضرع ولا بناء وصبر في بناء البيت فلا جرم أكرمه الله تعالى وأخرج من صلبه خاتم النبيين وأما ادريس عليه السلام فقد تقدمت قصته في سورة مريم عليها السلام قال ابن عمر رضي الله عنهما بعث الى قومه داعيا لهم الى الله تعالى فأبوا فأهلكهم الله تعالى ورفع ادريس الى السماء الرابعة وأما ذو الكفل ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فيه بحثان (الاول) قال الزجاج الكفل في اللغة الكساء الذي يجعل على عجز البعير والكفل أيضا النصيب واختلفوا في أنه لم سمي بهذا الاسم على وجوه (أحدها) وهو قول المحققين أنه كان له ضعف عمل الانبياء عليهم السلام في زمانه وضعف ثوابهم (وثانيها) قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية ان نبيا من أنبياء بني اسرائيل آتاه الله الملك

ما يتوخاه من رجوعهم بالشيء كما يؤذن به قوله (لعلهم يعرفونها) أي يعرفون حق ردها والتكرم في ذلك أو لكي يعرفوها وهو ظاهر التعلق بقوله (اذا انقلبوا الى أهلهم) فان معرفتهم لها مقيدة بالرجوع وتفريغ الاوعية قطعا وأما معرفة حق التكرم في ردها فهي وان كانت في ذاتها غير مقيدة بذلك لكن لما كان ابتداؤها حينئذ قيدت به (لعلهم يرجعون) حسبما أمرتهم به فان التفضل عليهم باعطاء البدلين ولا سيما عند اعوازالبضاعة من أقوى الدواعي الى الرجوع وما قيل انما فعله عليه السلام لما علم ان من الكرم ان يأخذ من أبيه واخوته ثمنا فكلام حق في نفسه ولكن يأباه التعليل المذكور وأما ان علة الفعل المذكور تسبب رجوع من حيث ان ديانتهم تحملهم على رد البضاعة لانهم لا يستحلون امساكها فمداره حسبانهم أنها بقيت في رحالهم نسيانا وظاهر أن ذلك مما لا يخطر ببال أحد أصلا فان هيئة التعبية تنادي بان ذلك بطريق التفضل الا يرى انهم كيف جزموا بذلك والنبوة حين رأوها وجعلوا ذلك دليلا على التفضلات السابقة كما سيحيط به خبرا (فلما رجعوا الى أبيهم قالوا) قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع (يا أبانا منع منا الكيل) أي فيما بعد وفيه ما لا يخفى من الدلالة على كون الامتيار مرة بعد مرة معهودا فيما بينهم وبينه عليه السلام (فأرسل معنا

أخانا) بنيامين الى مصر وفيه ايذان بأن مدار المنع عدم كونه معهم (نكتل) بسببه من الطعام ما نشاء وقرأ حمزة والكسائى بالياء على اسناده
الى الاخ لكونه سببا للاكتيال أو يكتل لنفسه مع اكتيالنا (وانا له لحافظون) من أن يصيبه مكروه (قال هل آمنكم عليه الا كما أمنتكم
على أخيه) يوسف (من قبل) وقد قلتم فى حقه أيضا ما قلتم ثم فعلتم به ما فعلتم فلا أثق بكم ولا بحفظكم وانما أفوض الامر
الى الله (فالله خير حافظا) وقرئ حفظا وانتصابهما على التمييز والحالية على القراءة الاولى توهم تقييد الخيرية بتلك الحالة (وهو أرحم الراحمين) فأرجو أن يرحمنى بحفظه ولا يجمع على مصيبتين وهذا كما ترى ميل منه عليه السلام الى الاذن والارسال لما رأى فيه من المصلحة (ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت اليهم) أى تفضلا وقد علموا ذلك بما مر من دلالة الحال وقرئ بنقل حركة الدال المدغمة الى الراء كما قيل فى قيل وكيل (قالوا) استئناف مبنى على السؤال كأنه قيل ماذا قالوا حينئذ فقيل قالوا لابيهم ولعله كان حاضرا عند الفتح (يا أبانا ما نبغى) اذا فسر البغى بالطلب فما استفهامية منصوبة به فالمعنى ماذا نبتغى وراء ما وصفنا لك من احسان الملك الينا وكرمه الداعى الى امتثال أمره والمراجعة اليه فى الحوائج وقد كانوا أخبروه بذلك وقالوا له انا قدمنا على خير رجل
أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلا من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته وقوله تعالى (هذه بضاعتنا ردت الينا) جملة مستأنفة موضحة لما دل
عليه الانكار من بلوغ اللطف غايته كأنهم قالوا كيف لا وهذه بضاعتنا ردها الينا تفضلا من حيث لا ندرى بعد ما من علينا من المنن العظام
هل من مزيد على هذا فنطلبه ولم يريدوا به الاكتفاء بذلك مطلقا أو التقاعد عن طلب نظائره بل أرادوا الاكتفاء به فى استيجاب الامتثال

والنبوة ثم أوحى الله اليه انى أريد قبض روحك فاعرض ملكك على بنى اسرائيل فمن تكفل لك أنه يصلى
بالليل حتى يصبح ويصوم بالنهار فلا يفطر ويقضى بين الناس فلا يغضب فادفع ملكك اليه ففعل ذلك
الذى فى بنى اسرائيل وأخبرهم بذلك فقام شاب وقال أنا أتكفل لك بهذا فقال فى القوم من هو أكبر منك
فاقعد ثم صاح الثانية والثالثة فقام الرجل وقال أتكفل لك بهذه الثلاث فدفع اليه ملكه ووفى بما ضمن
فحسده ابليس فأتاه وقت ما يريد أن يقيل فقال ان لى غريما قد مطلنى حقى وقد دعوته اليك فأبى
فأرسل معى من يأتيك به فأرسل معه وقعد حتى فاتته القيلولة وعاد الى صلاته وصلى ليله الى الصباح ثم أتاه
من الغد عند القيلولة فقال ان الرجل الذى استأذنتك له هو فى موضع كذا فلا تبرح حتى آتيك به فذهب
وبقى هو منتظرا حتى فاتته القيلولة ثم أتاه فقال له هرب منى فمضى ذو الكفل الى صلاته فصلى ليلته حتى
أصبح فأتاه ابليس وعرفه نفسه وقال له حسدتك على عصمة الله اياك فأردت أن أخرجك حتى لا تفى
بما تكفلت به فشكره الله تعالى على ذلك ونبأه فسمى ذا الكفل وعلى هذا فالمراد بالكفل هنا الكفالة
(وثالثها) قال مجاهد لما كبر اليسع عليه السلام قال لو أنى استخلفت رجلا على الناس فى حياتى حتى أنظر
كيف يعمل فجمع الناس وقال من يتقبل منى حتى استخلفه ثلاثا يصلى بالليل ويصوم بالنهار ويقضى
فلا يغضب وذكر على كرم الله وجهه نحو ما ذكره ابن عباس رضى الله عنه من فعل ابليس وتفويته عليه
القيلولة ثلاثة أيام وزاد أن ذا الكفل قال للبواب فى اليوم الثالث قد غلب على النعاس فلا تدعن أحدا
يقرب هذا الباب حتى أنام فانى قد شق على النعاس فجاء ابليس فلم يأذن له البواب فدخل من كوة فى
البيت وتسور فيها فاذا هو يدق الباب من داخل فاستيقظ الرجل وعاتب البواب فقال أما من قبلى فلم
تؤت فقام الى الباب فاذا هو مغلق وابليس على صورة شيخ معه فى البيت فقال له أتنام والخصوم على
الباب فعرفه فقال أنت ابليس قال نعم أعييتنى فى كل شئ ففعلت هذه الافعال لاغضبك فعصمك الله منى
فسمى ذا الكفل لانه قد وفى بما تكفل به (المسئلة الثانية) قال أبو موسى الاشعرى رضى الله عنه ومجاهد
ذو الكفل لم يكن نبيا ولكن كان عبدا صالحا وقال الحسن والاكثرون انه من الانبياء عليهم السلام
وهذا أولى لوجوه (أحدها) أن ذا الكفل يحتمل أن يكون لقبا وأن يكون اسما والاقرب أن يكون مفيدا
لان الاسم اذا أمكن حمله على ما يفيد فهو أولى من اللقب اذا ثبت هذا فنقول الكفل هو النصيب والظاهر
أن الله تعالى انما سماه بذلك على سبيل التعظيم فوجب أن يكون ذلك الكفل هو كفل الثواب فهو انما
سمى بذلك لان عمله وثواب عمله كان ضعف عمل غيره وضعف ثواب غيره ولقد كان فى زمنه أنبياء على ماروى
ومن ليس بنبى لا يكون أفضل من الانبياء (وثانيها) انه تعالى قرن ذكره بذكر اسمعيل وادريس
والغرض ذكر الفضلاء من عباده ليتأسى بهم وذلك يدل على نبوته (وثالثها) ان السورة ملقبة بسورة
الانبياء فكل من ذكره الله تعالى فيها فهو نبى (المسئلة الثالثة) قيل ان ذا الكفل زكريا وقيل يوشع وقيل
الياس ثم قالوا خمسة من الانبياء سماهم الله تعالى باسمين اسرائيل ويعقوب الياس وذو الكفل عيسى
والمسيح يونس وذو النون محمد وأحمد وأما قوله تعالى كل من الصابرين أى على القيام بامر الله تعالى واحتمال
الاذى فى نصرة دينه وقوله وأدخلناهم فى رحمتنا قال مقاتل الرحمة النبوة وقال آخرون بل يتناول جميع
أعمال البر والخير (القصة الثامنة) قصة يونس عليه السلام ﴿قوله تعالى ﴿وذا النون اذ ذهب مغاضبا
فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين فاستجبنا له
ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين﴾ اعلم أن ههنا مسائل (المسئلة الاولى) انه لا خلاف فى أن ذا النون

لامره والالتجاء اليه في استجلاب المزيد كما أشرنا اليه وقوله تعالى ردت الينا حال من بضاعتنا والعامل معنى الاشارة وايثار صيغة البناء للمفعول للايذان بكمال الاحسان الناشئ عن كمال الاخفاء المفهوم من كمال غفلتهم عنه بحيث لم يشعروا به ولا بفاعله وقوله عز وجل (ونمير أهلنا) أي نجلب اليهم الطعام من عند

الملك معطوف على مقدر ينسحب عليه رد البضاعة أي فنستظهر بها ونمير أهلنا

هو يونس عليه السلام لان النون هو السمكة وقد ذكرنا أن الاسم اذا دار بين أن لقبا محضا وبين أن يكون مفيدا فحمله على المفيد أولى خصوصا اذا علمت الفائدة التي يصلح لها ذلك الوصف (المسئلة الثانية) اختلفوا في ان وقوعه عليه السلام في بطن السمكة كان قبل اشتغاله باداء رسالة الله تعالى أو بعده (أما القول الاول) فقال ابن عباس رضي الله عنه كان يونس عليه السلام وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك وسبي منهم تسعة أسباط ونصفا وبقي سبطان ونصف فاوحى الله تعالى الى شعيب النبي عليه السلام أن اذهب الى حزقيل الملك وقل له حتى يوجه نبيا قويا أمينا فاني ألقي في قلوب أولئك أن يرسلوا معه بني اسرائيل فقال له الملك فمن ترى وكان في مملكته خمسة من الانبياء فقال يونس بن متى فانه قوي أمين فدعا الملك يونس وأمره أن يخرج فقال يونس هل أمرك الله باخراجي قال لا قال فهل سماني لك قال لا قال فههنا أنبياء غيري فألحوا عليه فخرج مغاضبا للملك ولقومه فأتى بحر الروم فوجد قوما هيؤا سفينة فركب معهم فلما لججت السفينة تكفأت بهم وكادوا أن يغرقوا فقال الملاحون ههنا رجل عاص أو عبد آبق لان السفينة لا تفعل هذا من غير ريح الا وفيها رجل عاص ومن رسمنا انا اذا ابتلينا بمثل هذا البلاء ان نقترع فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه في البحر ولان يغرق أحد خير من أن تغرق السفينة فاقترعوا ثلاث مرات فوقعت القرعة فيها كلها على يونس عليه السلام فقال أنا الرجل العاصي والعبد الآبق وألقى نفسه في البحر فجاء حوت فابتلعه فأوحى الله تعالى الى الحوت لا تؤذ منه شعرة فاني جعلت بطنك سجنا له ولم أجعله طعاما لك ثم لما نجاه الله تعالى من بطن الحوت نبذه بالعراء كالفرخ المنتوف ليس عليه شعر ولا جلد فأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى اشتد فلما يبست الشجرة حزن عليها يونس عليه السلام فقيل له أتحزن على شجرة ولم تحزن على مائة ألف أو يزيدون حيث لم تذهب اليهم ولم تطلب راحتهم ثم أوحى الله اليه وأمره أن يذهب اليهم فتوجه يونس عليه السلام نحوهم حتى دخل أرضهم وهم منه غير بعيد فأتاهم يونس عليه السلام وقال لملكهم ان الله تعالى أرسلني اليك لترسل معي بني اسرائيل فقالوا ما نعرف ما تقول ولو علمنا انك صادق لفعلنا ولقد أتيناكم في دياركم وسبيناكم فلو كان كما تقول لمنعنا الله عنكم فطاف ثلاثة أيام يدعوهم الى ذلك فأبوا عليه فأوحى الله تعالى اليه قل لهم ان لم تؤمنوا جاءكم العذاب فابلغهم فأبوا فخرج من عندهم فلما فقدوه ندموا على فعلهم فانطلقوا يطلبونه فلم يقدروا عليه ثم ذكروا أمرهم وأمر يونس للعلماء الذين كانوا في دينهم فقالوا انظروا واطلبوه في المدينة فان كان فيها فليس مما ذكر من نزول العذاب شيء وان كان قد خرج فهو كما قال فطلبوه فقيل لهم انه خرج العشي فلما أيسوا أغلقوا باب مدينتهم فلم يدخلها بقرهم ولا غنمهم وعزلوا الوالدة عن ولدها وكذا الصبيان والامهات ثم قاموا ينتظرون الصبح فلما انشق الصبح رأوا العذاب ينزل من السماء فشقوا جيوبهم ووضعت الحوامل ما في بطونها وصاح الصبيان وثغت الاغنام والبقر فرفع الله تعالى عنهم العذاب فبعثوا الى يونس عليه السلام فآمنوا به وبعثوا معه بني اسرائيل فعلى هذا القول كانت رسالة يونس عليه السلام بعد ما نبذه الحوت ودليل هذا القول قوله تعالى في سورة الصافات فنبذناه بالعراء وهو سقيم وأنبتنا عليه شجرة من يقطين وأرسلناه الى مائة ألف أو يزيدون وفي هذا القول رواية أخرى وهي ان جبريل عليه السلام قال ليونس عليه السلام انطلق الى أهل نينوى وأنذرهم ان العذاب قد حضرهم فقال يونس عليه السلام ألتمس دابة فقال الامر أعجل من ذلك فغضب وانطلق الى السفينة وباقي الحكاية كما مرت الى أن التقمه الحوت فانطلق الى أن وصل الى نينوى فألقاه هناك (أما القول الثاني) وهو ان قصة الحوت كانت بعد دعائه أهل نينوى

(ونحفظ أخانا) من المكاره حسبما وعدنا فما يصيبه من مكروه (ونزداد) أي بواسطته ولذلك وسط الاخبار بحفظه بين الاصل والمزيد (كيل بعير) أي وسق بعير زائدا على أوساق أباعرنا على قضية التقسيط (ذلك) أي ما يحمله أباعرنا (كيل يسير) أي مكيل قليل لا يقوم بأودنا فهو استئناف وقع تعليلا لما سبق كأنه قيل أي حاجة الى الازدياد فقيل ما قيل أو ذلك الكيل الزائد شيء قليل لا يضايقنا فيه الملك أو سهل عليه لا يتعاظمه أو أي مطلب طلب من مهماتنا والجملة الواقعة بعده توضيح وبيان لما يشعر به الانكار من كونهم فائزين ببعض المطالب أو متمكنين من تحصيله فكأنهم قالوا بضاعتنا حاضرة فنستظهر بها ونمير أهلنا ونحفظ أخانا فما يصيبه شيء من المكاره ونزداد بسببه غير ما نكتاله لانفسنا كيل بعير فأي شيء نبتغي وراء هذه المباغي وقرئ ما تبغي على خطاب يعقوب

عليه السلام أي أي شيء تبغي وراء هذه المباغي المشتملة على سلامة أخينا وسعة ذات أيدينا أو وراء ما فعل بنا الملك   وتبليغه
من الاحسان داعيا الى التوجه اليه والجملة الاستئنافية موضحة لذلك أو أي شيء تبغي شاهدا على صدقنا فيما وصفنا لك من احسانه
والجملة المذكورة عبارة عن الشاهد المدلول عليه بفحوى الانكار واما نافية فالمعنى ما نبغي شيئا غير ما رأينا من احسان الملك في وجوب

المراجعة اليه أو ما نبغي غير هذه المباغي وقيل ما نطلب منك بضاعة أخرى والجملة المستأنفة تعليل له وأما اذا فسر البغي بمجاوزة الحد فما نافية فقط والمعنى ما نبغي في القول وما نتزيد فيما وصفنا لك من احسان الملك الينا وكرمه الموجب لما ذكر والجملة المستأنفة لبيان ما ادعوا من عدم البغي وقوله وغير أهلنا عطف على ما نبغي أي ما نبغي فيما ذكرنا من احسانه وتحصيل أمثاله من مير أهلنا ونحفظ أخينا فان ذلك أهون شيء بواسطة احسانه وقد جوز أن يكون كلاما مبتدأ أي جملة اعتراضية تذييلية على معنى وينبغي أن نمير أهلنا وشبه ذلك بقولك سعيت في حاجة فلان ويجب أن أسعى وأنت خبير بأن شأن الجمل التذييلية أن تكون مؤكدة لمضمون الصدر ومقررة له كما في المثال المذكور وقولك فلان ينطق بالحق فالحق أبلج وان قوله وغير الخ وان ساعدنا في حمله على معنى ينبغي أن نمير أهلنا بمعزل من ذلك أو ما نبغي في الرأي وما نعدل عن الصواب فيما نشير به عليك من ارسال أخينا معنا والجمل الى آخرها تفصيل وبيان لعدم بغيهم واصابة رأيهم أي بضاعتنا حاضرة نستظهر بها ونمير أهلنا ونصنع كيت وكيت فتأمل (قال لن أرسله معكم) بعدما عاينت منكم ما عاينت (حتى تؤتون موثقا من الله) أي ما أتوثق به من جهة الله عز وجل وانما جعله موثقا منه تعالى لأن تأكيد العهود به مأذون فيه من جهته تعالى فهو اذن منه عز وجل (لتأتنني به) جواب القسم اذ المعنى حتى تحلفوا بالله لتأتنني به (الا أن يحاط بكم) أي الا أن تغلبوا فلا تطيقوا به أو الا أن تهلكوا وأصله من احاطة العدو فان من أحاط به العدو فقد هلك غالبا وهو استثناء من أعم الأحوال أو أعم العلل على تأويل الكلام بالنفي الذي ينساق اليه أي لتأتنني به ولا تمتنعن منه في حال من الأحوال أو لعلة من العلل

وتبليغه رسالة الله اليهم قالوا انهم لما لم يؤمنوا وعدهم بالعذاب فلما كشف العذاب عنهم بعدما توعدهم به خرج منهم مغاضبا ثم ذكروا في سبب الخروج والغضب أمورا (أحدها) انه استحيى أن يكون بين قوم قد جربوا عليه الكذب (وثانيها) انه كان من عادتهم قتل الكاذب (وثالثها) انه دخلته الانفة (ورابعها) لما لم ينزل العذاب بأولئك وأكثر العلماء على القول بأن قصة الحوت وذهاب يونس عليه السلام مغاضبا بعد أن أرسله الله تعالى اليهم وبعد رفع العذاب عنهم (المسألة الثالثة) احتج القائلون بجواز الذنب على الانبياء عليهم السلام بهذه الآية من وجوه (أحدها) ان أكثر المفسرين على أنه ذهب يونس مغاضبا لربه ويقال هذا قول ابن مسعود وابن عباس والحسن والشعبي وسعيد بن جبير ووهب واختيار ابن قتيبة ومحمد بن جرير فاذا كان كذلك فيلزم ان مغاضبته لله تعالى من أعظم الذنوب ثم على تقدير أن هذه المغاضبة لم تكن مع الله تعالى بل كانت مع ذلك الملك أو مع القوم فهو أيضا كان محظورا لان الله تعالى قال فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت وذلك يقتضي ان ذلك الفعل من يونس كان محظورا (وثانيها) قوله تعالى فظن أن لن نقدر عليه وذلك يقتضي كونه شاكا في قدرة الله تعالى (وثالثها) قوله اني كنت من الظالمين والظلم من أسماء الذم لقوله تعالى ألا لعنة الله على الظالمين (ورابعها) أنه لو لم يصدر منه الذنب فلم عاقبه الله بان ألقاه في بطن الحوت (وخامسها) قوله تعالى في آية أخرى فالتقمه الحوت وهو مليم والمليم هو ذو الملامة ومن كان كذلك فهو مذنب (وسادسها) قوله ولا تكن كصاحب الحوت فان لم يكن صاحب الحوت مذنبا لم يجز النهي عن التشبه به وان كان مذنبا فقد حصل الغرض (وسابعها) انه قال ولا تكن كصاحب الحوت وقال فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل فلزم أن لا يكون يونس من أولي العزم وكان موسى من أولي العزم ثم قال في حقه لو كان ابن عمران حيا ما وسعه الا اتباعي وقال في يونس لا تفضلوني على يونس بن متى وهذا خارج عن تفسير الآية (والجواب عن الاول) انه ليس في الآية من غاضبه لكنا نقطع على انه لا يجوز على نبي الله أن يغاضب ربه لان ذلك صفة من يجهل كون الله مالكا للامر والنهي والجاهل بالله لا يكون مؤمنا فضلا عن أن يكون نبيا وأما ما روي انه خرج مغاضبا لامر يرجع الى الاستعداد وتناول النفل فمما يرتفع حال الانبياء عليهم السلام عنه لان الله تعالى اذا أمرهم بشيء فلا يجوز أن يخالفوه لقوله تعالى وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم وقوله فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم الى قوله ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت فاذا كان في الاستعداد مخالفة لم يجز أن يقع ذلك منهم واذا ثبت انه لا يجوز صرف هذه المغاضبة الى الله تعالى وجب أن يكون المراد انه خرج مغاضبا لغير الله والغالب انه انما يغاضب من يعصيه فيما يأمره به فيحتمل قومه أو الملك أوهما جميعا ومعنى مغاضبته لقومه انه أغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العذاب عليهم عندها وقرأ أبو شرف مغضبا أما قوله مغاضبة القوم أيضا كانت محظورة لقوله تعالى ولا تكن كصاحب الحوت قلنا لا نسلم انها كانت محظورة فان الله تعالى أمره بتبليغ تلك الرسالة اليهم وما أمره بان يبقى معهم أبدا فظاهر الامر لا يقتضي التكرار فلم يكن خروجه من بينهم معصية وأما الغضب فلا نسلم انه معصية وذلك لانه لما لم يكن منهيا عنه قبل ذلك فظن ان ذلك جائز من حيث انه لم يفعله الا غضبا لله تعالى وأنفة لدينه وبغضا للكفر وأهله بل كان الاولى له أن يصابر وينتظر الاذن من الله تعالى في المهاجرة عنهم ولهذا قال تعالى ولا تكن كصاحب الحوت كان الله تعالى أراد لمحمد صلى الله عليه وسلم أفضل المنازل وأعلاها (والجواب عن الشبهة الثانية) وهي التمسك بقوله تعالى فظن أن لن نقدر عليه أن نقول من ظن عجز الله تعالى

الاحال الاحاطة بكم أو الاحاطة الاحاطة بكم ونظيره قولهم أقسمت عليك لما فعلت والافعلت أى ما أريد منك الا فعلك وقد جوز الاول بلا تأويل أيضا أى لتأتنني به على كل حال الاحال الاحاطة بكم وأنت تدرى أنه حيث لم يكن الاتيان به من الافعال الممتدة الشاملة للاحوال على سبيل المعية كما فى قولك لالزمنك الاأن تعطينى حقى أولم يكن مراده عليه السلام مقارنته على سبيل البدل لما عدا الحال المستثناة كما اذا قلت صل الاأن تكون محدثا بل مجرد تحققه ووقوعه من غير اخلال به كما فى قولك لاحسن العام الا أن أحصر فان مرادك انما هو الاخبار بعدم منع ماسوى حال الاحصار عن الحج الا الاخبار بمقارنته لتلك الاحوال على سبيل البدل كما هو مرادك فى مثال الصلاة كان اعتبار الاحوال معه من حيث عدم منعها منه فآل المعنى الى التأويل المذكور (فلما آتوه موثقهم) عهدهم من الله حسبما أراد يعقوب عليه السلام (قال الله على مانقول) أى على ماقلنا فى أثناء طلب الموثق وايتائه من الجانبين وايثار صيغة الاستقبال لاستحضار صورته المؤدى الى تثبتهم ومحافظتهم على تذكره ومراقبته (وكيل) مطلع رقيب يريد به عرض ثقته بالله تعالى وحثهم على مراعاة ميثاقهم (وقال) ناصحا لهم لما أزمع على ارسالهم جميعا (يابنى لاتدخلوا) مصر (من باب واحد) نهاهم عن ذلك حذارا من اصابة العين فانهم كانوا ذوى جمال وشارة حسنة وقد كانوا تجملوا فى هذه الكرة أكثر مما فى المرة الاولى وقد اشتهروا فى مصر بالكرامة والزلفى لدى الملك بخلاف النوبة الاولى فكانوا مئنة لدنو كل ناظر وطموح كل طامح واصابة العين بتقدير العزيز الحكيم ليست مما ينكر وقد ورد عنه عليه السلام ان العين حق وعنه عليه السلام ان العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر وقد كان

فهو كافر ولا خلاف انه لا يجوز نسبة ذلك الى آحاد المؤمنين فكيف الى الانبياء عليهم فاذن لابد فيه من التأويل وفيه وجوه (أحدها) فظن أن لن نقدر عليه أى لن نضيق عليه وهو كقوله تعالى الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر أى يضيق ومن قدر عليه رزقه أى ضيق وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه أى ضيق ومعناه أن لن نضيق عليه واعلم ان على هذا التأويل تصير الآية حجة لنا وذلك لان يونس عليه السلام ظن انه مخير ان شاء أقام وان شاء خرج وأنه تعالى لا يضيق عليه فى اختياره وكان فى المعلوم ان الصلاح فى تأخر خروجه وهذا من الله تعالى بيان لما يجرى مجرى العذر له من حيث خرج لا على تعمد المعصية لكن لظنه ان الامر فى خروجه موسع يجوز أن يقدم و يؤخر وكان الصلاح خلاف ذلك (وثانيها) أن يكون هذا من باب التمثيل بمعنى فكانت حالته ممثلة بحالة من ظن أن لن نقدر عليه فى خروجه من قومه من غير انتظار لامر الله تعالى (وثالثها) ان تفسر القدرة بالقضاء فالمعنى فظن أن لن نقضى عليه بشدة وهو قول مجاهد وقتادة والضحاك والكلبي ورواية العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهم واختيار الفراء والزجاج قال الزجاج نقدر بمعنى نقدر يقال قدر الله الشئ قدرا وقدره تقديرا فالقدر بمعنى التقدير وقرأ عمر بن عبد العزيز والزهرى فظن أن لن نقدر عليه بضم النون والتشديد من التقدير وقرأ عبيد بن عمير بالتشديد على المجهول وقرأ يعقوب يقدر عليه بالتخفيف على المجهول وروى انه دخل ابن عباس رضى الله عنهما على معاوية رضى الله عنه فقال معاوية لقد ضربتنى أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها فلم أجد لنفسى خلاصا الا بك فقال وما هى قال يظن نبى الله أن لن يقدر الله عليه فقال ابن عباس رضى الله عنهما هذا من القدر لامن القدرة (ورابعها) فظن أن لن نقدر أى فظن أن لن نفعل لان بين القدرة والفعل مناسبة فلا يبعد جعل أحدهما مجازا عن الآخر (وخامسها) انه استفهام بمعنى التوبيخ معناه أفظن أن لن نقدر عليه عن ابن زيد (وسادسها) ان على قول من يقول هذه الواقعة كانت قبل رسالة يونس عليه السلام كان هذا الظن حاصلا قبل الرسالة ولا يبعد فى حق غير الانبياء والرسل أن يسبق ذلك الى وهمه بوسوسة الشيطان ثم انه يرده بالحجة والبرهان (والجواب عن الثالث) وهو التمسك بقوله انى كنت من الظالمين فهو أن نقول انا لو حملناه على ماقبل النبوة فلا كلام ولو حملناه على مابعدها فهى واجبة التأويل لانا لو أجريناها على ظاهرها لوجب القول بكون النبى مستحقا للعن وهذا لا يقوله مسلم واذا وجب التأويل فنقول لاشك انه كان تاركا للافضل مع القدرة على تحصيل الافضل فكان ذلك ظلما (والجواب عن الرابع) انا لانسلم أن ذلك كان عقوبة اذ الانبياء لايجوز أن يعاقبوا بل المراد به محنة لكن كثير من المفسرين يذكرون فى كل مضرة تفعل لاجل ذنب أنها عقوبة (والجواب عن الخامس) ان الملامة كانت بسبب ترك الافضل (المسئلة الرابعة) قال صاحب الكشاف فى الظلمات أى فى الظلمة الشديدة المتكاثفة فى بطن الحوت كقوله تعالى ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات وقوله يخرجونهم من النور الى الظلمات ومنهم من اعتبر أنواعا مختلفة من الظلمات فان كان النداء فى الليل فهناك ظلمة الليل والبحر وبطن الحوت وان كان فى النهار أضيف اليه ظلمة أمعاء الحوت أو أن حوتا ابتلع الحوت الذى هو فى بطنه أو لان الحوت اذا عظم غوصه فى قعر البحر كان مافوقه من البحر ظلمة فى ظلمة أما قول من قال ان الحوت الذى ابتلعه غاص فى الارض السابعة فان ثبت ذلك بخبر فلا كلام وان قيل بذلك لكى يقع نداؤه فى الظلمات فما قدمناه يغنى عن ذلك أما قوله ان لا اله الا أنت فالمعنى بانه لا اله الا أنت او بمعنى أى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال مامن مكروب يدعو بهذا الدعاء الا استجيب له وعن الحسن مانجاه الله تعالى الا باقراره على نفسه بالظلم أما قوله

سبحانك فهو تنزيه عن كل النقائص ومنها العجز وهذا يدل على انه ما كان مراده من قوله فظن أن لن نقدر عليه انه ظن العجز وانما قال سبحانك لان تقديره سبحانك أن تفعل ذلك جوارا أو شهوة للانتقام أو عجزا عن تخليصي عن هذا الحبس بل فعلته بحق الالهية وبمقتضى الحكمة أما قوله انى كنت من الظالمين فالمعنى ظلمت نفسى بفرارى من قومي بغير اذنك كانه قال كنت من الظالمين وأنا الآن من التائبين النادمين فاكشف عنى المحنة يدل عليه قوله فاستجبنا له وفيه وجه آخر وهو انه عليه السلام وصفه بقوله لا اله الا أنت بكمال الربوبية ووصف نفسه بقوله انى كنت من الظالمين بضعف البشرية والقصور فى أداء حق الربوبية وهذا القدر يكفى فى السؤال على ما قال المتنبى

وفى النفس حاجات وفيك فطانة * سكوتى كلام عندها وخطاب

وروى عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لما أراد الله حبس يونس عليه السلام أوحى الى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحما ولا تكسر له عظما فأخذه وهوى به الى أسفل البحر فسمع يونس عليه السلام حسا فقال فى نفسه ما هذا فأوحى الله اليه هذا تسبيح دواب البحر قال فسبح فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا امتثاله وأما قوله فنجيناه من الغم أى من غمه بسبب كونه فى بطن الحوت وبسبب خطيئته وكذلك ننجى المؤمنين ونجينا يونس عليه السلام من كرب الحبس اذ دعانا كذلك ننجى المؤمنين من كربهم اذا استغاثوا بنا روى سعد بن أبى وقاص عن النبى صلى الله عليه وسلم قال دعوة ذى النون فى بطن الحوت لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين ما دعا بها عبد مسلم قط وهو مكروب الا استجاب الله دعاءه قال صاحب الكشاف قرئ نجى ونجى وننجى والنون لا تدغم فى الجيم ومن تمحل لصحته فجعله فعل وقال نجى النجاء المؤمنين فارسل الياء وأسنده الى مصدره ونصب المؤمنين بالنجاء فمتعسف بارد التعسف ﴿القصة التاسعة﴾ قصة زكريا عليه السلام ﴿ قوله تعالى ﴿وزكريا اذ نادى ربه رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين﴾ اعلم أنه تعالى بين انقطاع زكريا عليه السلام الى ربه تعالى لما مسه الضر بتفرده وأحب من يؤنسه ويقويه على أمر دينه ودنياه ويكون قائما مقامه بعد موته فدعا الله تعالى دعاء مخلص عارف بانه قادر على ذلك وان انتهت الحال به وبزوجته من كبر وغيره الى اليأس من ذلك بحكم العادة وقال ابن عباس رضى الله عنهما كان سنه مائة وسن زوجته تسعا وتسعين أما قوله وأنت خير الوارثين ففيه وجهان (أحدهما) أنه عليه السلام انما ذكره فى جملة دعائه على وجه الثناء على ربه لكشفه عن علمه بان مآل الامور الى الله تعالى (والثانى) كأنه عليه السلام قال ان لم ترزقنى من يرثنى فلا أبالى فانك خير وارث وأما قوله تعالى فاستجبنا له أى فعلنا ما أراده لاجل سؤاله وفى ذلك اعظام له فلذلك تقول العلماء بأن الاستجابة ثواب لما فيه من الاعظام وأما قوله تعالى ووهبنا له يحيى فهو كالتفسير للاستجابة وفى تفسير قوله وأصلحنا له زوجه ثلاثة أقوال (أحدها) أصلحها للولادة بان أزال عنها المانع بالعادة وهذا أليق بالقصة (والثانى) أنه أصلحها فى أخلاقها وقد كانت على طريقة من سوء الخلق وسلاطة اللسان تؤذيه ويجعل ذلك من نعمه عليه (والثالث) أنه سبحانه جعلها مصلحة فى الدين فان صلاحها فى الدين من أكبر أعوانه فى كونه داعيا الى الله تعالى فكأنه عليه السلام سأل ربه المعونة على الدين والدنيا بالولد والاهل جميعا وهذا كأنه أقرب الى الظاهر لانه اذا قيل أصلح الله فلانا فالاظهر فيه ما يتصل بالدين واعلم أن قوله ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه يدل على ان الواو لا تفيد الترتيب لان اصلاح الزوج مقدم على هبة الولد مع أنه تعالى أخره فى اللفظ وبين تعالى

عليه السلام يعوذ الحسنين رضى الله عنهما بقوله أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة وكان عليه السلام يقول كان أبو كما يعوذ بها اسمعيل واسحق عليهم السلام رواه البخارى فى صحيحه وقد شهدت بذلك التجارب ولما لم يكن عدم الدخول من باب واحد مستلزما للدخول من أبواب متفرقة وكان فى دخولهم من بابين أو ثلاثة بعض ما فى الدخول من باب واحد من نوع اجتماع مصحح لوقوع المحذور قال (وادخلوا من أبواب متفرقة) بيانا لما هو المراد بالنهى وانما لم يكتف بهذا الامر مع كونه مستلزما له اظهارا لكمال العناية وايذانا بأنه المراد بالامر المذكور لا تحقيق لشئ آخر (وما أغنى عنكم) أى لا أنفعكم ولا أدفع عنكم بتدبيرى (من الله من شئ) أى شيأ مما قضى عليكم فان الحذر لا يمنع القدر ولم يرد به عليه السلام الغاء الحذر بالمرة كيف لا وقد قال عز قائلا ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة وقال خذوا حذركم بل أراد بيان أن ما وصاهم به ليس مما يستوجب المراد لا محالة بل هو تدبير فى الجملة وانما التأثير وترتيب المنفعة عليه من العزيز القدير وأن ذلك ليس مدافعة للقدر بل هو استعانة بالله تعالى وهرب منه اليه (ان الحكم) مطلقا (الا لله) لا يشاركه أحد ولا يمانعه شئ (عليه) لا على أحد سواه (توكلت) فى كل ما آتى وأذر وفيه دلالة على أن ترتيب الاسباب غير مخل بالتوكل (وعليه) دون غيره (فليتوكل المتوكلون) جمع بين الحرفين فى عطف الجملة على الجملة مع تقديم الصلة للاختصاص مفيدا بالواو عطف فعل غيره من تخصيص التوكل بالله عز وجل على فعل نفسه وبالفاء سببية فعله لكونه نبيا لفعل غيره من المقتدين به فيدخل فيهم بنوه دخولا أوليا وفيه ما لا يخفى من حسن هدايتهم وارشادهم الى التوكل فيما هم بصدده على الله عز وجل غير مغترين بما وصاهم به من التدبير

(ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) من الابواب المتفرقة من البلد قيل كانت له أربعة أبواب فدخلوا منها وانما اكتفى بذكره لاستلزامه الانتهاء عما نهوا عنه (ما كان) ذلك الدخول (يغني) فيما سيأتي عند وقوع ماوقع (عنهم) عن الداخلين لان المقصود به استدفاع الضرر عنهم والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل لتحقيق المقارنة الواجبة بين جواب لما ومدخوله فان عدم

مصداق ماذكرناه فقال انهم كانوا يسارعون في الخيرات وأراد بذلك زكريا وولده وأهله فبين انه آتاهم ما طلبوه وعند بعضهم بعض من حيث كانت طريقتهم أنهم يسارعون في الخيرات والمسارعة في طاعة الله تعالى من أكبر ما يمدح المرء به لانه يدل على حرص عظيم على الطاعة أما قوله تعالى ويدعوننا رغبا ورهبا فقرئ رغبا ورهبا وهو كقوله يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه والمعنى انهم ضموا الى فعل الطاعات والمسارعة فيها أمرين (أحدهما) الفزع الى الله تعالى لمكان الرغبة في ثوابه والرهبة من عقابه (والثاني) الخشوع وهو المخافة الثابتة في القلب فيكون الخاشع هو الحذر الذي لا ينبسط في الامور خوفا من الاثم (القصة العاشرة) قصة مريم عليها السلام ﴿قوله تعالى ﴿والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ اعلم أن التقدير واذكر التي أحصنت فرجها ثم فيه قولان (أحدهما) انها أحصنت فرجها احصانا كليا من الحلال والحرام جميعا كما قالت ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا (والثاني) من نفخة جبريل عليه السلام حيث منعته من جيب درعها قبل أن تعرفه والاول أولى لانه الظاهر من اللفظ وأما قوله فنفخنا فيها من روحنا فلقائل أن يقول نفخ الروح في الجسد عبارة عن احيائه قال تعالى فاذا سويته ونفخت فيه من روحي أي أحييته واذا ثبت ذلك كان قوله فنفخنا فيها من روحنا ظاهر الاشكال لانه يدل على احياء مريم عليها السلام (والجواب) من وجوه (أحدها) معناه فنفخنا الروح في عيسى فيها أي أحييناه في جوفها كما يقول الزمار نفخت في بيت فلان أي في المزمار في بيته (وثانيها) فعلنا النفخ في مريم عليها السلام من جهة روحنا وهو جبريل عليه السلام لانه نفخ في جيب درعها فوصل النفخ الى جوفها ثم بين تعالى بأخصر الكلام ما خص به مريم وعيسى عليهما السلام من الآيات فقال وجعلناها وابنها آية للعالمين أما مريم فآياتها كثيرة (أحدها) ظهور الحبل فيها لا من ذكر فصار ذلك آية ومعجزة خارجة عن العادة (وثانيها) ان رزقها كان يأتيها به الملائكة من الجنة وهو قوله تعالى أنى لك هذا قالت هو من عند الله (وثالثها ورابعها) قال الحسن انها لم تلتقم ثديا يوما قط وتكلمت هي أيضا في صباها كما تكلم عيسى عليه السلام وأما آيات عيسى عليه السلام فقد تقدم بيانها فبين سبحانه أنه جعلهما آية للناس يتدبرون فيما خصا به من الآيات ويستدلون به على قدرته وحكمته سبحانه وتعالى فان قيل هلا قيل آيتين كما قال وجعلنا الليل والنهار آيتين قلنا لان حالهما بمجموعهما آية واحدة وهي ولادتها اياه من غير فحل وهو آخر القصص. ﴿قوله تعالى ﴿ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون وتقطعوا أمرهم بينهم كل الينا راجعون﴾ قال صاحب الكشاف الامة الملة وهو اشارة الى ملة الاسلام أي ان ملة الاسلام هي ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها لا تنحرفون عنها يشار اليها ملة واحدة غير مختلفة وأنا الهكم اله واحد فاعبدون ونصب الحسن أمتكم على البدل من هذه ورفع أمة خبرا وعنه رفعهما جميعا خبرين أو نوى للثاني مبتدأ أما قوله تعالى وتقطعوا أمرهم بينهم والاصل وتقطعتم الا أن الكلام صرف الى الغيبة على طريق الالتفات كأنه ينقل عنهم ما أفسدوه الى آخرين ويقبح عندهم فعلهم ويقول لهم ألا ترون الى عظيم ما ارتكب هؤلاء والمعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا كما تتوزع الجماعة الشئ ويقتسمونه فيصير لهذا نصيب ولذلك نصيب تمثيلا لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقا وأحزابا شتى أما قوله تعالى كل الينا راجعون فقد توعدهم بان هؤلاء الفرق المختلفة الينا يرجعون فهو محاسبهم ومجازيهم وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال تفرقت بنو اسرائيل على احدى وسبعين فرقة فهلكت سبعون وخلصت فرقة وان أمتي ستفترق على اثنين وسبعين فرقة فتهلك احدى وسبعون فرقة وتخلص فرقة واحدة قالوا يا رسول

الاغناء بالفعل انما يتحقق عند نزول المحذور لا وقت الدخول وانما المتحقق حينئذ ما أفاده الجمع المذكور من عدم كون الدخول المذكور مغنيا فيما سيأتي فتأمل (من الله) من جهته (من شئ) أي شيأ مما قضاه عليهم مع كونه مظنة لذلك في بادي الرأي حيث وصاهم به يعقوب عليه السلام وعملوا بموجبه واتقين بعدوا عن فضل الله تعالى فليس المراد بيان سببية الدخول المذكور لعدم الاغناء كما في قوله تعالى فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا فان مجيء النذير هناك سبب لزيادة نفورهم بل بيان عدم سببيته للاغناء مع كونها متوقعة في بادي الرأي كما في قولك حلف أن يعطيني حقي عند حلول الاجل فلما حل لم يعطني شيأ فان المراد بيان عدم سببية حلول الاجل للاعطاء مع كونه مرجو الوجوب الحلف لا بيان سببيته لعدم الاعطاء فالمآل بيان عدم ترتب الغرض المقصود على التدبير المعهود مع كونه مرجو الوجود لا بيان ترتب عدمه عليه ويجوز أن يراد ذلك أيضا بناء على ماذكره عليه السلام في تضاعيف وصيته من أنه لا يغني عنهم من الله شيأ فكأنه قيل ولما فعلوا ما وصاهم به لم يفد ذلك شيأ ووقع الامر حسبما قال عليه السلام فلقوا ما لقوا فيكون من باب وقوع المتوقع فتأمل (الا حاجة) استثناء منقطع أي ولكن حاجة وحزازة كائنة في نفس (يعقوب

الله من تلك الفرقة الناجية قال الجماعة الجماعة الجماعة فتبين بهذا الخبر أن المراد بقوله تعالى وأن هذه أمتكم الجماعة المتمسكة بما بينه الله تعالى في هذه السورة من التوحيد والنبوات وأن في قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الناجية انها الجماعة اشارة الى أن هذه أشار بها الى أمة الايمان والا كان قوله في تعريف الفرقة الناجية انها الجماعة لغوا اذ لا فرقة تمسكت بباطل أو بحق الا وهي جماعة من حيث العدد وطعن بعضهم في صحة هذا الخبر فقال ان أراد بالثنتين والسبعين فرقة أصول الاديان فلم يبلغ هذا القدر وان أراد الفروع فانها تتجاوز هذا القدر الى أضعاف ذلك وقيل أيضا قد روى ضد ذلك وهو انها كلها ناجية الا فرقة واحدة (والجواب) المراد ستفترق أمتي في حال ما وليس فيه دلالة على افتراقها في سائر الاحوال لا يجوز أن يزيد وينقص ﴿قوله تعالى ﴿فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له كاتبون وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين﴾ اعلم أنه سبحانه لما ذكر أمر الامة من قبل وذكر تفرقهم وانهم أجمع راجعون الى حيث لا أمر الا له أتبع ذلك بقوله فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه بين ان من جمع بين أن يكون مؤمنا وبين أن يعمل الصالحات فيدخل في الاول العلم والتصديق بالله ورسوله وفي الثاني فعل الواجبات وترك المحظورات فلا كفران لسعيه أي لا بطلان لثواب عمله وهو كقوله تعالى ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا فالكفران مثل في حرمان الثواب والشكر مثل في اعطائه وقوله فلا كفران المراد نفي الجنس ليكون في نهاية المبالغة لان نفي الماهية يستلزم نفي جميع افرادها وأما قوله تعالى وانا له كاتبون فالمراد وانا لسعيه كاتبون فمثل المراد حافظون لنجازي عليه وقيل كاتبون اما في أم الكتاب أو في الصحف التي تعرض يوم القيامة والمراد بذلك ترغيب العباد في التمسك بطاعة الله تعالى أما قوله وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون فاعلم أن قوله وحرام خبر فلا بد له من مبتدأ وهو اما قوله أنهم لا يرجعون أو شئ آخر أما الاول فالتقدير ان عدم رجوعهم حرام أي ممتنع واذا كان عدم رجوعهم ممتنعا كان رجوعهم واجبا فهذا الرجوع اما أن يكون المراد منه الرجوع الى الآخرة أو الى الدنيا (أما الاول) فيكون المعنى ان رجوعهم الى الحياة في الدار الآخرة واجب ويكون الغرض منه ابطال قول من ينكر البعث وتحقيق ما تقدم انه لا كفران لسعي أحد فانه سبحانه سيعطيه الجزاء على ذلك يوم القيامة وهو تأويل أبي مسلم بن بحر (وأما الثاني) فيكون المعنى ان رجوعهم الى الدنيا واجب لكن المعلوم انهم لم يرجعوا الى الدنيا فعند هذا ذكر المفسرون وجهين (الاول) ان الحرام قد يجئ بمعنى الواجب والدليل عليه الآية والاستعمال والشعر أما الآية فقوله تعالى قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيأ وترك الشرك واجب وليس بمحرم وأما الشعر فقول الخنساء

وان حراما لا أرى الدهر باكيا ٭ على شجوه الا بكيت على عمرو

يعني وان واجبا وأما الاستعمال فلان تسمية أحد الضدين باسم الآخر مجاز مشهور كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها اذا ثبت هذا فالمعنى انه واجب على أهل كل قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ثم ذكروا في تفسير الرجوع أمرين (أحدهما) انهم لا يرجعون عن الشرك ولا يتولون عنه وهو قول مجاهد والحسن (وثانيهما) لا يرجعون الى الدنيا وهو قول قتادة ومقاتل (الوجه الثاني) أن يترك قوله وحرام على ظاهره ويجعل لا في قوله لا يرجعون صلة زائدة كما انه صلة في قوله ما منعك أن لا تسجد والمعنى وحرام على قرية أهلكناها

قضاها) أي أظهرها ووصاهم بها دفعا للخاطر غير معتقد أن للتدبير تأثيرا في تغيير التقدير وقد جعل ضمير الفاعل في قضاها للدخول على معنى ان ذلك الدخول قضى حاجة في نفس يعقوب وهي ارادته أن يكون دخولهم من أبواب متفرقة فالمعنى ما كان ذلك الدخول يغني عنهم من جهة الله تعالى شيأ ولكن قضى حاجة حاصلة في نفس يعقوب بوقوعه حسب ارادته فالاستثناء منقطع أيضا وعلى التقديرين لم يكن للتدبير فائدة سوى دفع الخاطر وأما اصابة العين فانها لم تقع لكونها غير مقدرة عليهم لا لانها اندفعت بذلك مع كونها مقتضية عليهم (وانه لذو علم) جليل (لما علمناه) لتعليمنا اياه بالوحي ونصب الادلة حيث لم يعتقد أن الحذر يدفع القدر وأن التدبير له حظ من التأثير حتى يتبين الخلل في رأيه عند تخلف الاثر وحيث بت القول بأنه لا يغني عنهم من الله شيأ فكان الحال كما قال وفي تأكيد الجملة بان واللام وتنكير العلم وتعليله بالتعليم المسند الى ذاته سبحانه من الدلالة على جلالة شأن يعقوب عليه السلام وعلو مرتبة علمه وفخامته ما لا يخفى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أسرار القدر ويزعمون انه يغني عنه الحذر وأما ما يقال من أن المعنى لا يعلمون ايجاب الحذر مع انه لا يغني شيأ من القدر فيأباه مقام بيان تخلف المطلوب عن المبادي (ولما دخلوا على يوسف آوى اليه أخاه) بنيامين أي ضمه اليه في الطعام أو في المنزل أو فيهما روي أنهم لما دخلوا عليه قالوا له هذا أخونا قد جئناك به فقال لهم أحسنتم وستجدون ذلك عندي فأكرمهم ثم أضافهم وأجلسهم مثنى مثنى فبقي بنيامين وحيدا فبكى وقال لو كان أخي يوسف حيا لاجلسني معه فقال يوسف بقي أخوكم فريدا وأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله ثم أنزل كل اثنين منهم بيتا فقال

رجوعهم الى الدنيا وهو كقوله فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون أو يكون المعنى وحرام عليهم رجوعهم عن الشرك وترك الايمان وهذا قول طائفة من المفسرين هذا كله اذا جعلنا قوله وحرام خبرا لقوله أنهم لا يرجعون أما اذا جعلناه خبرا لشئ آخر فالتقدير وحرام على قرية أهلكناها ذاك وهو المذكور في الآية المتقدمة من العمل الصالح والسعي المشكور وغير المكفور ثم علل فقال انهم لا يرجعون عن الكفر فكيف لا يمتنع ذلك هذا على قراءة انهم بالكسر والقراءة بالفتح يصح حملها أيضا على هذا أى انهم لا يرجعون ﴿ أما قوله تعالى حتى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ففيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ ان حتى متعلقة بحرام فاما على تأويل أبي مسلم فالمعنى ان رجوعهم الى الآخرة واجب حتى ان وجوبه يبلغ الى حيث انه اذا فتحت يأجوج ومأجوج واقترب الوعد الحق فاذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا والمعنى انهم يكونون أول الناس حضورا في محفل القيامة فحتى متعلقة بحرام وهي غاية له ولكنه غاية من جنس الشئ كقولك دخل الحاج حتى المشاة حتى ههنا هي التي يحكى بعدها الكلام والكلام المحكي هو هذه الجملة من الشرط والجزاء أعني قوله اذا فتحت يأجوج ومأجوج واقترب الوعد الحق فهنالك يتحقق شخوص أبصار الذين كفروا فان قيل الشرط هو مجموع فتح يأجوج ومأجوج واقتراب الوعد الحق والجزاء هو شخوص أبصار الذين كفروا وذلك غير جائز لان الشرط انما يحصل في آخر أيام الدنيا والجزاء انما يحصل في يوم القيامة والشرط والجزاء لا بد وان يكونا متقاربين قلنا التفاوت القليل يجري مجرى المعدوم وأما على التأويلات الباقية فالمعنى ان امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم القيامة ﴿المسئلة الثانية﴾ قوله حتى اذا فتحت المعنى فتح سد يأجوج ومأجوج فحذف المضاف وأدخلت علامة التأنيث في فتحت لما حذف المضاف لان يأجوج ومأجوج مؤنثان بمنزلة القبيلتين وقيل حتى اذا فتحت جهة يأجوج ﴿المسئلة الثالثة﴾ هما قبيلتان من جنس الانس يقال الناس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج يخرجون حين يفتح السد ﴿المسئلة الرابعة﴾ قيل السد يفتحه الله تعالى ابتداء وقيل بل اذا جعل الله تعالى الارض دكا زالت الصلابة عن أجزاء الارض فحينئذ ينفتح السد أما قوله تعالى وهم من كل حدب ينسلون فحشو في أثناء الكلام والمعنى اذا فتحت يأجوج واقترب الوعد الحق شخصت أبصار الذين كفروا والحدب النشز من الارض ومنه حدبة الارض ومنه حدبة الظهر وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما من كل جدث ينسلون اعتبارا بقوله فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون وقرئ بضم السين ونسل وعسل أسرع ثم فيه قولان قال أكثر المفسرين انه كناية عن يأجوج ومأجوج وقال مجاهد هو كناية عن جميع المكلفين أي يخرجون من قبورهم من كل موضع فيحشرون الى موقف الحساب والاول هو الوجه والا لتفكك النظم وان يأجوج ومأجوج اذا كثروا على ما روى في الخبر فلا بد من أن ينتشروا فيظهر اقبالهم على الناس من كل موضع مرتفع أما قوله تعالى واقترب الوعد الحق فلا شبهة أن الوعد المذكور هو يوم القيامة أما قوله فاذا هي فاعلم أن اذا ههنا للمفاجأة فسمى الموعود وعدا تجوزا وهي تقع في المجازاة سادة مسد الفاء كقوله اذا هم يقنطون فاذا جاءت الفاء معها تعاونتا على وصل الجزاء بالشرط فيتأكد ولو قيل اذا هي شاخصة أو فهي شاخصة كان سديدا أما لفظة هي فقد ذكر النحويون فيها ثلاثة أوجه (أحدها) أن تكون كناية عن الابصار والمعنى فاذا أبصار الذين كفروا شاخصة أبصارهم كنى عن الابصار ثم أظهر (والثاني) أن تكون عمادا ويصلح في موضعها هو فيكون كقوله انه أنا الله ومثله فانها لا تعمى الابصار وجاز التأنيث لان الابصار مؤنثة وجاز التذكير للعماد

هذا الاثاني معه فيكون معي فبات يوسف يضمه اليه ويشم رائحته حتى أصبح وسأله عن ولده فقال لي عشرة بنين اشتققت أسماءهم من اسم أخ لي هلك فقال له أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك قال من يجد أخا مثلك ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وقام اليه وعانقه وتعرف اليه وعند ذلك (قال اني أنا أخوك) يوسف (فلا تبتئس) أى فلا تحزن (بما كانوا يعملون) بنا فيما مضى فان الله تعالى قد أحسن الينا وجمعنا بخير ولا تعلمهم بما أعلمتك قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وعن وهب انه لم يتعرف اليه بل قال له أنا أخوك بدل أخيك المفقود ومعنى فلا تبتئس لا تحزن بما كنت تلقى منهم من الحسد والاذى فقد أمنتهم وروى أنه قال له فأنا لا أفارقك قال قد علمت باغتمام والدي بي فاذا حبستك يزداد غمه ولا سبيل الى ذلك الا أن أنسبك الى ما لا يجمل قال لا أبالي فافعل ما بدا لك قال أدس صاعي في رحلك ثم أنادي عليك بأنك سرقته ليتهيأ لي ردك بعد تسريحك معهم قال افعل (فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية) أي المشربة قيل كانت مشربة جعلت صاعا يكال به وقيل كانت تسقى بها الدواب ويكال بها الحبوب وكانت من فضة وقيل من ذهب وقيل من فضة مموهة بالذهب وقيل كانت اناء مستطيلة تشبه المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه يستعمله الاعاجم وقيل كانت مرصعة بالجواهر (في رحل أخيه) بنيامين وقرئ وجعل على حذف جواب لما تقديره أمهلهم حتى انطلقوا (ثم أذن مؤذن) نادى مناد (أيتها العير) وهي الابل التي عليها الاحمال لانها تعير أي تذهب وتجيء وهو وقيل هي قافلة الحمير ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير كأنها جمع عير وأصلها فعل مثل سقف وسقف فعل به ما فعل ببيض وغيد والمراد

وهو قول الفراء وقال سيبويه الضمير للقصة بمعنى فاذا القصة شاخصة يعنى ان القصة ان أبصار الذين كفروا تشخص عند ذلك ومعنى الكلام ان القيامة اذا قامت شخصت أبصار هؤلاء من شدة الاهوال فلا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم ومن توقع ما يخافونه ويقولون يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا يعنى فى الدنيا حيث كذبناه وقلنا انه غير كائن بل كنا ظالمين أنفسنا بتلك الغفلة وبتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وعبادة الأوثان واعلم أنه لا بد قبل قوله يا ويلنا من حذف والتقدير يقولون يا ويلنا ﴿قوله تعالى ﴿انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون﴾ اعلم أن قوله انكم خطاب لمشركى مكة وعبدة الاوثان أما قوله تعالى وما تعبدون من دون الله روى انه عليه السلام دخل المسجد وصناديد قريش فى الحطيم وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنما فجلس اليهم فعرض له النضر بن الحرث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأفحمه ثم تلا عليهم انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم الآية فأقبل عبد الله بن الزبعرى فرآهم يتهامسون فقال فيم خوضكم فأخبره الوليد بن المغيرة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبد الله أما والله لو وجدته لخصمته فدعوه فقال ابن الزبعرى أأنت قلت ذلك قال نعم قال قد خصمتك ورب الكعبة أليس اليهود عبدوا عزيرا والنصارى عبدوا المسيح وبنو مليح عبدوا الملائكة ثم روى فى ذلك روايتان (احداهما) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سكت ولم يجب فضحك القوم فنزل قوله تعالى ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون ونزل فى عيسى والملائكة ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية هذا قول ابن عباس (الرواية الثانية) انه عليه السلام أجاب وقال بل هم عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك فانزل الله سبحانه ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية يعنى عزيرا والمسيح والملائكة واعلم ان سؤال ابن الزبعرى ساقط من وجوه (أحدها) أن قوله انكم خطاب مشافهة وكان ذلك مع مشركى مكة وهم كانوا يعبدون الاصنام فقط (وثانيها) انه لم يقل ومن تعبدون بل قال وما تعبدون وكلمة ما لا تتناول العقلاء أما قوله تعالى والسماء وما بناها وقوله لا أعبد ما تعبدون فهو محمول على الشئ ونظيره ههنا أن يقال انكم والشئ الذى تعبدون من دون الله لكن لفظ الشئ لا يفيد العموم فلا يتوجه سؤال ابن الزبعرى (وثالثها) ان من عبد الملائكة لا يدعى انهم آلهة وقال سبحانه لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها (ورابعها) هب انه ثبت العموم لكنه مخصوص بالدلائل العقلية والسمعية فى حق الملائكة والمسيح وعزير لبراءتهم من الذنوب والمعاصى ووعد الله اياهم بكل مكرمة وهذا هو المراد من قوله سبحانه ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون (وخامسها) الجواب الذى ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو انهم كانوا يعبدون الشياطين فان قيل الشياطين عقلاء ولفظ ما لا يتناولهم فكيف قال الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك قلنا كأنه عليه السلام قال لو ثبت لكم انه يتناول العقلاء فسؤالكم أيضا غير لازم من هذا الوجه وأما ما قيل انه عليه السلام سكت عند ايراد ابن الزبعرى هذا السؤال فهو خطأ لانه لا أقل من انه عليه السلام كان يتنبه لهذه الاجوبة التى ذكرها المفسرون لانه عليه السلام كان أعلم منهم باللغة وبتفسير القرآن فكيف يجوز أن تظهر هذه الاجوبة لغيره ولا يظهر شئ منها له عليه السلام فان قيل جوزوا أن يسكت عليه السلام انتظارا للبيان قلنا لما كان البيان حاضرا معه لم يجز عليه السكوت لكى لا يتوهم فيه الانقطاع عن سؤالهم ومن الناس من أجاب عن سؤال ابن الزبعرى فقال ان الله تعالى يصورهم فى النار ملكا على صورة من عبدوه وحينئذ تبقى الآية على ظاهرها واعلم أن هذا ضعيف من وجهين

أصحابها كما فى قوله عليه السلام يا خيل الله اركبى روى انهم ارتحلوا وامهلهم يوسف حتى انطلقوا منزلا وقيل خرجوا من العمارة ثم أمر بهم فأدركوا ونودوا (انكم لسارقون) هذا الخطاب ان كان بأمر يوسف فلعله أريد بالسرقة أخذهم له من أبيه ودخول بنيامين فيه بطريق التغليب والا فهو من قبل المؤذن بناء على زعمه والاول هو الاظهر الاوفق للسباق وقرأ اليمانى سارقون بلا لام (قالوا) أى الاخوة (وأقبلوا عليهم) جملة حالية من ضمير قالوا جىء بها للدلالة على انزعاجهم مما سمعوه لمباينته لحالهم (ماذا تفقدون) أى تعدمون تقول فقدت الشئ اذا عدمته بأن ضل عنك لا بفعلك والمآل ماذا ضاع عنكم وصيغة المستقبل لاستحضار الصورة وقرئ تفقدون من أفقدته اذا وجدته فقيدا وعلى التقديرين فالعدول عما يقتضيه الظاهر من قولهم ماذا سرق منكم لبيان كمال نزاهتهم باظهار أنه لم يسرق منهم شئ فضلا أن يكونوا هم السارقين له وانما الممكن أن يضيع منهم شئ فيسألونهم انه ماذا وفيه ارشادهم الى مراعاة حسن الادب والاحتراز عن المجازفة ونسبة البرآء الى ما لا خير فيه لا سيما بطريق التوكيد فلذلك غيروا كلامهم حيث (قالوا) فى جوابهم (نفقد صواع الملك) ولم يقولوا سرقتموه أو سرق وقرئ صاع وصوع وصوع بفتح الصاد وضمها وباهمال العين واعجامها من الصياغة ثم قالوا تربية لما تلقوه من قبلهم وازاحة لاعتقادانه انما بقى فى رحلهم اتفاقا (ولمن جاء به) من عند نفسه مظهرا له قبل التفتيش (حمل بعير) من الطعام جعلا له لا على نية تحقيق الوعد لجزمهم بامتناع وجود الشرط وعزمهم على ما لا يخفى من أخذ من وجد فى رحله (وأنا به زعيم) كفيل أؤديه اليه وهو قول المؤذن (قالوا تالله) الجمهور على أن التاء بدل من الواو ولذلك لا تدخل الا على

الجلالة المعظمة أو الرب المضاف الى الكعبة أو الرحمن فى قول ضعيف ولو قلت تالرحيم لم يجز وقيل من الباء وقيل أصل بنفسها وأياما
كان ففيه تعجب (لقد علمتم) علما جازما مطابقا للواقع (ما جئنا لنفسد فى الارض) أى لنسرق فانه من أعظم أنواع الافساد أو لنفسد فيها
أى افساد كان مما عز أوهان فضلا عما نسبتمونا اليه من السرقة ونفى المجىء للافساد وان لم يكن مستلزما لما هو مقتضى
المقام من نفى الافساد مطلقا لكنهم جعلوا المجىء الذى يترتب عليه ذلك ولو بطريق الاتفاق مجيئا لغرض الافساد مفعولا لاجله ادعاء اظهارا لكمال قبحه عندهم وتربية لاستحالة صدوره عنهم كما قيل فى قوله تعالى ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد الدال بظاهره على نفى المبالغة فى الظلم دون نفى الظلم فى الجملة الذى هو مقتضى المقام من أن المعنى اذا عذبت من لا يستحق التعذيب كنت ظلاما مفرطا فى الظلم فكأنهم قالوا ان صدر عنا افساد كان مجيئنا لذلك مريدين به تقبيح حاله واظهار كمال نزاهتهم عنه يعنون انه قد شاع بينكم فى كرتى مجيئنا ما نحن عليه وقد كانوا على غاية ما يكون من الديانة والصيانة فيما يأتون ويذرون حتى روى أنهم دخلوا مصر وأفواه رواحلهم مكعومة لئلا تتناول زرعا أو طعاما لاحد وكانوا مثابرين على فنون الطاعات وعلمتم بذلك أنه لا يصدر
عنا افساد (وما كنا سارقين) أى ما كنا نوصف بالسرقة قط وانما حكموا بعلمهم ذلك لان العلم بأحوالهم الشاهدة لا
يستلزم العلم بأحوالهم الغائبة وانما لم يكتفوا بنفى الامرين المذكورين بل استشهدوا بعلمهم بذلك الزاما للحجة عليهم وتحقيقا للتعجب
المفهوم من تاء القسم (قالوا) أى أصحاب يوسف عليه السلام (فما جزاؤه) الضمير للصواع على حذف المضاف أى فما جزاء سرقته عندكم

(الاول) أن القوم لم يعبدوا تلك الصورة وانما عبدوا أشياء آخر لم يحصل معهم فى النار (الثانى) وهو أن
الملك لا يصير حصب جهنم فى الحقيقة وان صح أن يدخلها فان خزنة النار يدخلونها مع أنهم ليسوا حصب
جهنم (المسئلة الثانية) الحكمة فى أنهم قرنوا بآلهتهم أمور (أحدها) انهم لا يزالون لمقارنتهم فى زيادة
غم وحسرة لانهم ما وقعوا فى ذلك العذاب الا بسببهم والنظر الى وجه العدو باب من العذاب (وثانيها) ان
القوم قدروا انهم يشفعون لهم فى الآخرة فى دفع العذاب فاذا وجدوا الامر على عكس ما قدروا لم يكن
شئ أبغض اليهم منهم (وثالثها) ان القاءها فى النار يجرى مجرى الاستهزاء بعبادها (ورابعها) قيل ما كان
منها حجرا أو حديدا يحمى ويلزق بعبادها وما كان خشبا يجعل جمرة يعذب بها صاحبها أما قوله تعالى
حصب جهنم فالمراد يقذفون فى نار جهنم فشبههم بالحصباء التى يرمى بها الشئ فلما رمى بهم كرمى الحصباء
جعلهم حصب جهنم تشبيها قال صاحب الكشاف الحصب الرمى وقرئ بسكون الصاد وصفا بالمصدر
وقرئ حطب وحضب بالضاد المنقوطة متحركا وساكنا أما قوله تعالى أنتم لها واردون فانما جاز مجىء اللام
فى لها لتقدمها على الفعل تقول أنت لزيد ضارب كقوله تعالى والذين هم لاماناتهم وعهدهم والذين هم
لفروجهم أى أنتم فيها داخلون والمعنى أنه لابد وأن تردوها ولا معدل لكم عن دخولها أما قوله تعالى
لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها فاعلم أن قوله انكم وما تعبدون من دون الله بالاصنام أليق لدخول لفظة
ما وهذا الكلام بالشياطين أليق لقوله هؤلاء ويحتمل أن يريد الشياطين والاصنام فيغلب بأن يذكروا
بعبارة العقلاء ونبه الله تعالى على ان من يرمى الى النار لا يمكن أن يكون الها وههنا سؤال وهو ان قوله
لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها لكنهم وردوها فهم ليسوا آلهة حجة وهذه الحجة اما أن يكون ذكرها لنفسه
أو لغيره فان ذكرها لنفسه فلا فائدة فيه لانه كان عالما بأنها ليست آلهة وان ذكرها لغيره فاما أن يذكرها
لمن يصدق بنبوته أو لمن يكذب بنبوته فان ذكرها لمن صدق بنبوته فلا حاجة الى هذه الحجة لان كل من
صدق بنبوته لم يقل بالهية هذه الاصنام وان ذكرها لمن كذب بنبوته فذلك المكذب لا يسلم أن تلك
الآلهة يردون النار ويكذبونه فى ذلك فكان ذكر هذه الحجة ضائعا كيف كان وأيضا فالقائلون بالهيتها
لم يعتقدوا فيها كونها مدبرة للعالم والا لكانوا مجانين بل اعتقدوا فيها كونها تماثيل الكواكب أو صور
الشفعاء وذلك لا يمنع من دخولها فى النار وأجيب عن ذلك بأن المفسرين قالوا المعنى لو كان هؤلاء يعنى
الاصنام آلهة على الحقيقة ما وردوها أى ما دخل عابدوها النار ثم انه سبحانه وصف ذلك العذاب بأمور ثلاثة
(أحدها) الخلود فقال وكل فيها خالدون يعنى العابدين والمعبودين وهو تفسير لقوله انكم وما تعبدون من
دون الله (وثانيها) قوله لهم فيها زفير قال الحسن الزفير هو اللهيب أى يرتفعون بسبب لهب النار حتى اذا
ارتفعوا وأرادوا الخروج ضربوا بمقامع الحديد فهووا الى أسفلها سبعين خريفا قال الخليل الزفير أن يملأ
الرجل صدره غما ثم يتنفس قال أبو مسلم وقوله لهم عام لكل معذب فنقول لهم زفير من شدة ما ينالهم
والضمير فى قوله وهم فيها لا يسمعون يرجع الى المعبودين أى لا يسمعون صراخهم وشكواهم ومعناه انهم
لا يغيثونهم وشبهه سمع الله لمن حمده أى أجاب الله دعاءه (وثالثها) قوله وهم فيها لا يسمعون وفيه وجهان
(أحدهما) أنه محمول على الاصنام خاصة على ما حكيناه عن أبى مسلم (والثانى) أنها محمولة على الكفار
ثم هذا يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) ان الكفار يحشرون صما كما يحشرون عميا زيادة فى عذابهم
(وثانيها) انهم لا يسمعون ما ينفعهم لانهم انما يسمعون أصوات المعذبين أو كلام من يتولى تعذيبهم من
الملائكة (وثالثها) قال ابن مسعود ان الكفار يجعلون فى توابيت من نار والتوابيت فى توابيت أخر فلذلك

لا يسمعون شيأ والاول ضعيف لان أهل النار يسمعون كلام أهل الجنة فلذلك يستغيثون بهم على ما ذكره الله تعالى فى سورة الاعراف ﴿قوله تعالى ﴿ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الاكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون﴾ اعلم أن من الناس من زعم ان ابن الزبعرى لما أورد ذلك السؤال على الرسول صلى الله عليه وسلم بقى ساكتا حتى أنزل الله تعالى هذه الآية جوابا عن سؤاله لان هذه الآية كالاستثناء من تلك الآية وأما نحن فقد بينا فساد هذا القول وذكرنا ان سؤاله لم يكن واردا وانه لا حاجة فى دفع سؤاله الى نزول هذه الآية واذا ثبت هذا لم يبق ههنا الا أحد أمرين (الاول) أن يقال ان عادة الله تعالى انه متى شرح عقاب الكفار أردفه بشرح ثواب الابرار فلهذا السبب ذكر هذه الآية عقيب تلك الآية فهى عامة فى حق كل المؤمنين (الثانى) ان هذه الآية نزلت فى تلك الواقعة لتكون كالتأكيد فى دفع سؤال ابن الزبعرى ثم من قال العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وهو الحق أجراها على عمومها فتكون الملائكة والمسيح وعزير عليهم السلام داخلين فيها الا أن الآية مختصة بهم ومن قال العبرة بخصوص السبب خصص قوله ان الذين بهؤلاء فقط أما قوله تعالى سبقت لهم منا الحسنى فقال صاحب الكشاف الحسنى الخصلة المفضلة والحسنى تأنيث الاحسن وهى اما السعادة واما البشرى بالثواب واما التوفيق للطاعة والحاصل ان مثبتى العفو حملوا الحسنى على وعد العفو ومنكرى العفو حملوه على وعد الثواب ثم انه سبحانه وتعالى شرح من أحوال ثوابهم أمورا خمسة (أحدها) قوله أولئك عنها مبعدون فقال أهل العفو معناه أولئك عنها مخرجون واحتجوا عليه بوجهين (الاول) قوله وان منكم الا واردها أثبت الورود وهو الدخول فدل على أن هذا الابعاد هو الاخراج (الثانى) ان ابعاد الشئ عن الشئ لا يصح الا اذا كانا متقاربين لانهما لو كانا متباعدين استحال ابعاد أحدهما عن الآخر لان تحصيل الحاصل محال واحتج القاضى عبد الجبار على فساد هذا القول الاول بامور (أحدها) أن قوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى يقتضى ان الوعد بثوابهم قد تقدم فى الدنيا وليس هذا حال من يخرج من النار لو صح ذلك (وثانيها) أنه تعالى قال أولئك عنها مبعدون وكيف يدخل فى ذلك من وقع فيها (وثالثها) قوله تعالى لا يسمعون حسيسها وقوله لا يحزنهم الفزع الاكبر يمنع من ذلك (والجواب) عن الاول لا نسلم أن المراد من قوله ان الذين سبقت لهم منا الحسنى هو أن الوعد بثوابهم قد تقدم ولم لا يجوز أن يكون المراد من الحسنى تقدم الوعد بالعفو سلمنا ان المراد من الحسنى تقدم الوعد بالثواب لكن لم قلتم ان الوعد بالثواب لا يليق بحال من يخرج من النار فان عندنا المحابطة باطلة ويجوز الجمع بين استحقاق الثواب والعقاب (وعن الثانى) انا بينا ان قوله أولئك عنها مبعدون لا يمكن اجراؤه على ظاهره الا فى حق من كان فى النار (وعن الثالث) أن قوله لا يسمعون حسيسها مخصوص بما بعد الخروج أما قوله لا يحزنهم الفزع الاكبر فالفزع الاكبر هو عذاب الكفار وهذا بطريق المفهوم يقتضى أنهم يحزنهم الفزع الاصغر فان لم يدل عليه فلا أقل من أن لا يدل على ثبوته ولا على عدمه ﴿الوجه الثانى فى تفسير قوله أولئك عنها مبعدون﴾ ان المراد الذين سبقت لهم منا الحسنى لا يدخلون النار ولا يقربونها البتة وعلى هذا القول بطل قول من يقول ان جميع الناس يردون النار ثم يخرجون الى الجنة لان هذه الآية مانعة منه وحينئذ يجب التوفيق بينه وبين قوله وان منكم الا واردها وقد تقدم ﴿الصفة الثانية﴾ قوله تعالى لا يسمعون حسيسها والحسيس الصوت الذى يحس وفيه سؤالان (الاول) أى وجه فى أن لا يسمعوا حسيسها من البشارة ولو

وفى شريعتكم (ان كنتم كاذبين) لا فى دعوى البراءة عن السرقة فانهم صادقون فيها بل فيما يستلزمه ذلك من نفى كون الصواع فيهم كما يؤذن به قوله عز وجل (قالوا جزاؤه من وجد) أى أخذ من وجد الصواع (فى رحله) حيث ذكر بعنوان الوجدان فى الرحل دون عنوان السرقة وان كان ذلك مستلزما لها فى اعتقادهم المبنى على قواعد العادة ولذلك أجابوا بما أجابوا فان الاخذ والاسترقاق سنة انما هو جزاء السارق دون من وجد فى يده مال غيره كيفما كان فتأمل واحمل كلام كل فريق على ما لا يزاحم رأيه فانه أقرب الى معنى الكيد وأبعد من الافتراء وقوله تعالى (فهو جزاؤه) تقرير لذلك الحكم أى فأخذه جزاؤه كقولك حق الضيف أن يكرم فهو حقه ويجوز أن يكون جزاؤه مبتدأ والجملة الشرطية كما هى خبره على اقامة الظاهر مقام المضمر والاصل جزاؤه من وجد فى رحله فهو هو على أن الاول لمن والثانى للظاهر الذى وضع موضعه (كذلك) أى مثل ذلك الجزاء الاوفى (نجزى الظالمين) بالسرقة تأكيد للحكم المذكور غب تأكيد وبيان لقبح السرقة ولقد فعلوا ذلك ثقة بكمال براءتهم عنها وهم عما فعل بهم غافلون (فبدأ) يوسف بعد ما رجعوا اليه للتفتيش (بأوعيتهم) بأوعية الاخوة العشرة أى بتفتيشها (قبل) تفتيش (وعاء أخيه) بنيامين لنفى التهمة روى أنه لما بلغت النوبة الى وعائه قال ما أظن هذا أخذ شيأ فقالوا والله لا نتركه حتى تنظر فى رحله فانه أطيب لنفسك وأنفسنا (ثم استخرجها) أى السقاية أو الصواع فانه يذكر ويؤنث (من وعاء أخيه) لم يقل منه على رجع الضمير الى الوعاء أو من وعائه على رجعه الى أخيه قصدا الى زيادة كشف وبيان وقرئ بضم الواو وبقلبها همزة كما فى اشاح فى وشاح (كذلك) نصب على

المصدر بها والكاف مقحمة للدلالة على فخامة المشار إليه وكذا ما في ذلك من معنى البعد أي مثل ذلك الكيد العجيب وهو عبارة عن إرشاد الإخوة إلى الإفتاء المذكور بإجرائه على ألسنتهم وبحملهم عليه بواسطة المستفتين من حيث لم يحتسبوا وفي قوله عز وجل (كدنا ليوسف) صنعنا له ودبرنا لأجل تحصيل غرضه من المقدمات التي رتبها من دس الصواع وما يتلوه فاللام ليست كما في قوله فيكيدوا لك كيدا فإنها داخلة على المتضرر على ما هو الاستعمال الشائع وقوله تعالى (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) استئناف وتعليل لذلك الكيد وصنعه لا تفسير وبيان له كأنه قيل لماذا فعل ذلك فقيل لأنه لم يكن ليأخذ أخاه بما فعله له في دين الملك في أمر السارق أي في سلطانه قاله ابن عباس أو في حكمه وقضائه قاله قتادة إلا به لأن جزاء السارق في دينه إنما كان ضربه وتغريمه ضعف ما أخذ دون الاسترقاق والاستعباد كما هو شريعة يعقوب عليه السلام فلم يكن يتمكن بما صنعه من أخذ أخيه بالسرقة التي نسبها إليه في حال من الأحوال (إلا أن يشاء الله) أي إلا حال مشيئته التي هي عبارة عن إرادته لذلك الكيد أو إلا حال مشيئته للأخذ بذلك الوجه ويجوز أن يكون الكيد عبارة عنه وعن مباديه المؤدية إليه جميعا من إرشاد يوسف وقومه إلى ما صدر عنهم من الأفعال والأقوال حسبما شرح مرتبا لكن لا على أن يكون القصر المستفاد من تقديم المجرور مأخوذا بالنسبة إلى غيره مطلقا على معنى مثل ذلك الكيد كدنا لا كيدا آخر إذ لا معنى له لتعلق بحجز يوسف عن أخذ أخيه في دين الملك في شأن السارق قطعا إذ لا علاقة بين مطلق الكيد وبين الملك في أمر السارق أصلا بل بالنسبة إلى بعضه على معنى مثل ذلك الكيد البالغ إلى هذا الحد كدنا له ولم نكتف ببعض

سمعوه ولم يتغير حالهم قلنا المراد تأكيد بعدهم عنها لأن من لم يدخلها وقرب منها قد يسمع حسيسها (السؤال الثاني) أليس أن أهل الجنة يرون أهل النار فكيف لا يسمعون حسيس النار (الجواب) إذا حملناه على التأكيد زال هذا السؤال (الصفة الثالثة) قوله وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون والشهوة طلب النفس اللذة يعني نعيمها مؤبد قال العارفون للنفوس شهوة وللقلوب شهوة وللأرواح شهوة وقال الجنيد سبقت العناية في البداية فظهرت الولاية في النهاية (الصفة الرابعة) قوله لا يحزنهم الفزع الأكبر وفيه وجوه (أحدها) أنها النفخة الأخيرة لقوله تعالى ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض (وثانيها) أنه الموت قالوا إذا استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بعث الله تعالى جبريل عليه السلام ومعه الموت في صورة كبش أملح فيقول لأهل الدارين أتعرفون هذا فيقولون لا فيقول هذا الموت ثم يذبحه ثم ينادي يا أهل الجنة خلود ولا موت أبدا وكذلك لأهل النار واحتج هذا القائل بأن قوله لا يحزنهم الفزع الأكبر إنما ذكر بعد قوله وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون فلا بد وأن يكون لأحدهما تعلق بالآخر والفزع الأكبر الذي هو ينافي الخلود هو الموت (وثالثها) قال سعيد بن جبير هو إطباق النار على أهلها فيفزعون لذلك فزعة عظيمة وقال القاضي عبد الجبار الأولى في ذلك أنه الفزع من النار عند مشاهدتها لأنه لا فزع أكبر من ذلك فإذا بين تعالى أن ذلك لا يحزنهم فقد صح أن المؤمن آمن من أهوال يوم القيامة وهذا ضعيف لأن عذاب النار على مراتب فعذاب الكفار أشد من عذاب الفساق وإذا كانت مراتب التعذيب بالنار متفاوتة كانت مراتب الفزع منها متفاوتة فلا يلزم من نفي الفزع الأكبر نفي الفزع من النار (الصفة الخامسة) قوله وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون قال الضحاك هم الحفظة الذين كتبوا أعمالهم وأقوالهم ويقولون لهم مبشرين هذا يومكم الذي كنتم توعدون ۞ قوله تعالى ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ اعلم أن التقدير لا يحزنهم الفزع الأكبر يوم نطوي السماء أو وتتلقاهم الملائكة يوم نطوي السماء وقرئ يوم تطوى السماء على البناء للمفعول والسجل بوزن العتل والسجل بوزن الدلو وروي فيه الكسر وفي السجل قولان (أحدهما) أنه اسم للطومار الذي يكتب فيه والكتاب أصله المصدر كالبناء ثم يوقع على المكتوب ومن جمع فمعناه للمكتوبات أي لما يكتب فيه من المعاني الكثيرة فيكون معنى طي السجل للكتاب كون السجل ساترا لتلك الكتابة ومخفيا لها لأن الطي ضد النشر الذي يكشف والمعنى نطوي السماء كما يطوى الطومار الذي يكتب فيه (القول الثاني) أنه ليس اسما للطومار ثم قال ابن عباس رضي الله عنهما السجل اسم ملك يطوي كتب بني آدم إذا رفعت إليه وهو مروي عن علي عليه السلام وروى أبو الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه اسم كاتب كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا بعيد لأن كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا معروفين وليس فيهم من سمي بهذا وقال الزجاج هو الرجل بلغة الحبشة وعلى هذه الوجوه فهو على نحو ما يقال كطي زيد الكتاب واللام في للكتاب زائدة كما في قوله ردف لكم وإذا قلنا المراد بالسجل الطومار فالمصدر وهو الطي مضاف إلى المفعول والفاعل محذوف والتقدير كطي الطاوي السجل وهذا الأخير هو قول الأكثرين أما قوله تعالى كما بدأنا أول خلق نعيده ففيه مسائل (المسألة الأولى) قال الفراء انقطع الكلام عند قوله الكتاب ثم ابتدأ فقال كما بدأنا ومنهم من قال إنه تعالى لما قال وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون عقبه بقوله يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب فوصف اليوم بذلك ثم وصفه بوصف آخر

فقال

من ذلك لانه لم يكن يأخذ أخاه في دين الملك به الاحال مشيئتنا له بايجاد ما يجري مجرى الجزاء الصوري من العلة التامة وهو ارشاد اخوته الى الافتاء المذكور وعلى هذا ينبغي أن يحمل القصر في تفسير من فسر قوله تعالى كذلك كدنا ليوسف بقوله علمناه اياه وأوحينا اليه أي مثل ذلك التعليم المستتبع لما شرح مرتبا علمناه دون بعض من ذلك فقط الخ وعلى كل حال فالاستثناء من أعم الاحوال كما أشير اليه ويجوز أن يكون من أعم العلل والاسباب أي لم يكن ليأخذ أخاه لعلة من العلل أو بسبب من الاسباب الا لعلة مشيئته تعالى أو الا بسبب مشيئته تعالى وأيا ما كان فهو متصل لان أخذ السارق اذا كان ممن يرى ذلك ويعتقده دينا لاسيما عند رضاه وافتائه به ليس مخالفا لدين الملك وقد قيل معنى الاستثناء الا أن يشاء الله أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك وأنت تدري أن المراد بدينه ما عليه حينئذ فتغييره مخل بالاتصال وارادة مطلق ما يتدين به أعم منه ومما يحدث تفضي الى كون الاستثناء من قبيل التعليق بالمحال اذ المقصود بيان عجز يوسف عليه السلام عن أخذ أخيه حينئذ ولم تتعلق المشيئة بالجعل المذكور اذ ذاك وارادة تجويزه مطلقا تؤدي الى خلاف المراد فان استثناء حال المشيئة المذكورة من أحوال عجزه عليه الصلاة والسلام مما يشعر بعدم الحاجة الى الكيد المذكور فتدبر وقد جوز الانقطاع أي لكن أخذه بمشيئة الله تعالى واذنه في دين غير دين الملك (نرفع درجات) أي رتبا كثيرة عالية من العلم وانتصابها على المصدرية أو الظرفية أو على نزع الخافض أي الى درجات والمفعول قوله تعالى (من نشاء) أي نشاء رفعه حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة كما رفعنا يوسف وايثار

فقال كما بدأنا أول خلق نعيده (المسألة الثانية) قال صاحب الكشاف رحمه الله أول خلق مفعول نعيد الذي يفسره نعيده والكاف مكفوفة بما والمعنى نعيد أول الخلق كما بدأناه تشبيها للاعادة بالابتداء فان قلت ما بال خلق منكرا قلت هو كقولك أول رجل جاءني زيد تريد أول الرجال ولكنك وحدته ونكرته ارادة تفصيلهم رجلا رجلا فكذلك معنى أول خلق أول الخلق بمعنى أول الخلائق لان الخلق مصدر لا يجمع (المسألة الثالثة) اختلفوا في كيفية الاعادة فمنهم من قال ان الله تعالى يفرق أجزاء الاجسام ولا يعدمها ثم انه يعيد تركيبها فذلك هو الاعادة ومنهم من قال انه تعالى يعدمها بالكلية ثم انه يوجدها بعينها مرة أخرى وهذه الآية دالة على هذا الوجه لانه سبحانه شبه الاعادة بالابتداء ولما كان الابتداء ليس عبارة عن تركيب الاجزاء المتفرقة بل عن الوجود بعد العدم وجب أن يكون الحال في الاعادة كذلك واحتج القائلون بالمذهب الاول بقوله تعالى والسموات مطويات بيمينه فدل هذا على ان السموات حال كونها مطوية تكون موجودة وبقوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض وهذا يدل على أن أجزاء الارض باقية لكنها جعلت غير الارض أما قوله تعالى وعدا علينا ففيه قولان (أحدهما) ان وعدا مصدر مؤكد لان قوله نعيده عدة للاعادة (الثاني) أن يكون المراد حقا علينا بسبب الاخبار عن ذلك وتعلق العلم بوقوعه مع أن وقوع ما علم الله وقوعه واجب ثم انه تعالى حقق ذلك بقوله انا كنا فاعلين أي سنفعل ذلك لا محالة وهو تأكيد لما ذكره من الوعد أما قوله تعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ففيه مسائل (المسألة الاولى) قرأ حمزة بضم الزاي والباقون بفتحها يعني المزبور كالحلوب والركوب يقال زبرت الكتاب أي كتبته والزبور بضم الزاي جمع زبر كقشر وقشور ومعنى القراءتين واحد لان الزبر هو الكتاب (المسألة الثانية) في الزبور والذكر وجوه (أحدها) وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد والكلبي ومقاتل وابن زيد الزبور هو الكتب المنزلة والذكر الكتاب الذي هو أم الكتاب في السماء لان فيها كتابة كل ما سيكون اعتبارا للملائكة وكتب الانبياء عليهم السلام من ذلك الكتاب تنسخ (وثانيها) الزبور هو القرآن والذكر هو التوراة وهو قول قتادة والشعبي (وثالثها) الزبور زبور داود عليه السلام والذكر هو الذي روي عنه عليه السلام قال كان الله تعالى ولم يكن معه شيء ثم خلق الذكر وعندي فيه وجه رابع وهو أن المراد بالذكر العلم أي كتبنا ذلك في الزبور بعد أن كنا عالمين علما لا يجوز السهو والنسيان علينا فان من كتب شيئا والتزمه ولكنه يجوز السهو عليه فانه لا يعتمد عليه أما من لم يجز عليه السهو والخلف فاذا التزم شيئا كان ذلك الشيء واجب الوقوع أما قوله تعالى أن الارض يرثها عبادي الصالحون ففيه وجوه (أحدها) الارض أرض الجنة والعباد الصالحون هم المؤمنون العاملون بطاعة الله تعالى فالمعنى ان الله تعالى كتب في كتب الانبياء عليهم السلام وفي اللوح المحفوظ انه سيورث الجنة من كان صالحا من عباده وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدي وأبي العالية وهؤلاء أكدوا هذا القول بأمور (أما أولا) فقوله تعالى وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين (وأما ثانيا) فلانها الارض التي يختص بها الصالحون لانها لهم خلقت وغيرهم اذا حصل معهم في الجنة فعلى وجه التبع فأما أرض الدنيا فلانها للصالح وغير الصالح (وأما ثالثا) فلان هذه الارض مذكورة عقيب الاعادة وبعد الاعادة الارض التي هذا وصفها لا تكون الا الجنة (وأما رابعا) فقد روي في الخبر انها أرض الجنة فانها بيضاء نقية (وثانيها) أن المراد من الارض أرض الدنيا فانه سبحانه وتعالى سيورثها المؤمنين في الدنيا وهو قول الكلبي وابن عباس في بعض الروايات ودليل هذا القول قوله سبحانه وعد الله الذين آمنوا الى قوله ليستخلفنهم في الارض وقوله تعالى قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا

ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده (وثالثها) هى الارض المقدسة يرثها الصالحون ودليله قوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التى باركنا فيها ثم بالآخرة يورثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم عند نزول عيسى بن مريم عليه السلام أما قوله تعالى ان فى هذا لبلاغا لقوم عابدين فقوله هذا اشارة الى المذكور فى هذه السورة من الاخبار والوعد والوعيد والمواعظ البالغة والبلاغ الكفاية وما تبلغ به البغية وقيل فى العابدين انهم العالمون وقيل بل العاملون والاولى انهم الجامعون بين الامرين لان العلم كالشجر والعمل كالثمر والشجر بدون الثمر غير مفيد والثمر بدون الشجر غير كائن أما قوله تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ففيه مسائل (المسألة الاولى) انه عليه السلام كان رحمة فى الدين وفى الدنيا أما فى الدين فلانه عليه السلام بعث والناس فى جاهلية وضلالة وأهل الكتابين كانوا فى حيرة من أمر دينهم لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف فى كتبهم فبعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم حين لم يكن لطالب الحق سبيل الى الفوز والثواب فدعاهم الى الحق وبين لهم سبيل الثواب وشرع لهم الاحكام وميز الحلال من الحرام ثم انما ينتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق فلا يركن الى التقليد ولا الى العناد والاستكبار وكان التوفيق قرينا له قال الله تعالى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء الى قوله وهو عليهم عمى وأما فى الدنيا فلانهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب ونصروا ببركة دينه * فان قيل كيف كان رحمة وقد جاء بالسيف واستباحة الاموال * قلنا الجواب من وجوه (أحدها) انما جاء بالسيف لمن استكبر وعاند ولم يتفكر ولم يتدبر ومن أوصاف الله الرحمن الرحيم ثم هو منتقم من العصاة وقال وأنزلنا من السماء ماء مباركا ثم قد يكون سببا للفساد (وثانيها) ان كل نبى قبل نبينا كان اذا كذبه قومه أهلك الله المكذبين بالخسف والمسخ والغرق وانه تعالى أخر عذاب من كذب رسولنا الى الموت أو الى القيامة قال تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم لا يقال أليس أنه تعالى قال قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم وقال تعالى ليعذب الله المنافقين والمنافقات لانا نقول تخصيص العام لا يقدح فيه (وثالثها) أنه عليه السلام كان فى نهاية حسن الخلق قال تعالى وانك لعلى خلق عظيم وقال أبو هريرة رضى الله عنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ادع على المشركين قال انما بعثت رحمة ولم أبعث عذابا وقال فى رواية حذيفة انما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر فأيما رجل سببته أو لعنته فاجعلها اللهم عليه صلاة يوم القيامة (ورابعها) قال عبد الرحمن بن زيد الا رحمة للعالمين يعنى المؤمنين خاصة قال الامام أبو القاسم الانصارى والقولان يرجعان الى معنى واحد لما بينا أنه كان رحمة للكل لو تدبروا فى آيات الله وآيات رسوله فأما من أعرض واستكبر فانما وقع فى المحنة من قبل نفسه كما قال وهو عليهم عمى (المسألة الثانية) قالت المعتزلة لو كان الله تعالى أراد من الكافرين الكفر ولم يرد منهم القبول من الرسول بل ما أراده منهم الا الرد عليه وخلق ذلك فيهم ولم يخلقهم الا لذلك كما يقوله أهل السنة لوجب أن يكون ارساله نقمة وعذابا عليهم لا رحمة وذلك على خلاف هذا النص لا يقال ان رسالته عليه السلام رحمة للكفار من حيث لم يعجل عذابهم فى الدنيا كما عجل عذاب سائر الامم لانا نقول ان كونه رحمة للجميع على حد واحد وما ذكرتموه للكفار فهو حاصل للمؤمنين أيضا فاذا يجب أن يكون رحمة للكافرين من الوجه الذى صار رحمة للمؤمنين وأيضا فان الذى ذكروه من نعم الدنيا كانت حاصلة للكفار قبل بعثته صلى الله عليه وسلم كحصولها بعده بل كانت نعمهم فى الدنيا قبل بعثته أعظم لان بعد بعثته نزل بهم الغم والخوف منه ثم أمر بالجهاد الذى فنى أكثرهم فيه فلا يجوز أن يكون هذا هو المراد (والجواب) أن نقول لما علم الله سبحانه وتعالى ان أبا لهب لا يؤمن البتة وأخبر عنه أنه لا يؤمن كان أمره اياه بالايمان

امرا

صيغة الاستقبال للاشعار بان ذلك سنة مستمرة غير مختصة بهذه المادة والجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب (وفوق كل ذى علم) من أولئك المرفوعين (عليم) لا ينالون شأوه واعلم أنه ان جعل الكيد عبارة عن المعنيين الاولين فالمراد برفع يوسف عليه السلام ما اعتبر فيه بالشرطية أو الشطرية من ارشاده عليه السلام الى دس الصواع فى رحل أخيه وما يتفرع عليه من المقدمات المرتبة لاستبقاء أخيه بما يتم من قبله والمعنى أرشدنا اخوته الى الافتاء المذكور لانه لم يكن متمكنا من أخذ أخيه بدونه أو أرشدنا كلا منهم ومن يوسف وأصحابه الى ما صدر عنهم ولم تكتف بما تم من قبل يوسف فقط لانه لم يكن متمكنا من أخذ أخيه بذلك فقوله تعالى نرفع درجات الى قوله تعالى عليم توضيح لذلك على معنى أن الرفع المذكور لا يوجب تمام مرامه اذ ليس ذلك بحيث لا يعزب عن علمه شئ بل انما نرفع كل من نرفع حسب استعداده وفوق كل واحد منهم عليم لا يقادر قدر علمه ولا يكتنه كنهه يرفع كلا منهم الى ما يليق به من معارج العلم ومدارجه وقد رفع يوسف الى ما يليق به من الدرجات العالية وعلم أن ما حواه دائرة علمه لا يفى بمرامه فارشد اخوته الى الافتاء المذكور فكان ما كان وكأنه عليه السلام لم يكن على يقين من صدور الافتاء المذكور عن اخوته وان كان على طمع منه فوض ذلك الى الله عز وجل وجودا وعلما والتعرض لوصف العلم لتعيين جهة الفوقية وفى صيغة المبالغة مع التنكير والالتفات الى الغيبة من الدلالة على فخامة شأنه عز وعلا وجلالة مقدار علمه المحيط ما لا يخفى وأما ان جعل عبارة عن التعليم المستتبع للافتاء المذكور فالرفع

أمراً يقلب علمه جهلاً وخبره الصدق كذباً وذلك محال فكان قد أمره بالمحال وان كانت البعثة مع هذا القول رحمة فلم لا يجوز أن يقال البعثة رحمة مع انه خلق الكفر في الكافر ولأن قدرة الكافر ان لم تصلح الا للكفر فقط فالسؤال عليهم لازم وان كانت صالحة للضدين توقف الترجيح على مرجح من قبل الله تعالى قطعاً للتسلسل وحينئذ يعود الالزام ثم نقول لم لا يجوز أن يكون رحمة للكافر بمعنى تأخير عذاب الاستئصال عنه قوله أولاً لما كان رحمة للجميع على حد واحد وجب أن يكون رحمة للكفار من الوجه الذي كان رحمة للمؤمنين * قلنا ليس في الآية أنه عليه السلام رحمة للكل باعتبار واحد أو باعتبارين مختلفين فدعواك يكون الوجه واحداً تحكم قوله نعم الدنيا كانت حاصلة للكفار من قبل * قلنا نعم ولكنه عليه السلام لكونه رحمة للمؤمنين لما بعث حصل الخوف للكفار من نزول العذاب فلما اندفع ذلك عنهم بسبب حضوره كان ذلك رحمة في حق الكفار ﴿المسئلة الثالثة﴾ تمسكوا بهذه الآية في أنه أفضل من الملائكة قالوا لأن الملائكة من العالمين فوجب بحكم هذه الآية أن يكون عليه السلام رحمة للملائكة فوجب أن يكون أفضل منهم (والجواب) أنه معارض بقوله تعالى في حق الملائكة ويستغفرون للذين آمنوا وذلك رحمة منهم في حق المؤمنين والرسول عليه السلام داخل في المؤمنين وكذا قوله تعالى ان الله وملائكته يصلون على النبي ۞ قوله تعالى ﴿قل انما يوحى الى أنما الهكم اله واحد فهل أنتم مسلمون فان تولوا فقل آذنتكم على سواء وان أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون انه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون وان أدرى لعله فتنة لكم ومتاع الى حين قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾ اعلم أنه تعالى لما أورد على الكفار الحجج في أن لا اله سواه من الوجوه التي تقدم ذكرها وبين أنه أرسل رسوله رحمة للعالمين أتبع ذلك بما يكون اعذاراً وانذاراً في مجاهدتهم والاقدام عليهم فقال قل انما يوحى الى وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال صاحب الكشاف انما يقصر الحكم على شئ أو يقصر الشئ على حكم كقولك انما زيد قائم أو انما يقوم زيد وقد اجتمع المثالان في هذه الآية لان انما يوحى الى مع فاعله بمنزلة انما يقوم زيد وانما الهكم اله واحد بمنزلة انما زيد قائم وفائدة اجتماعهما الدلالة على أن الوحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصور على اثبات وحدانية الله تعالى وفي قوله فهل أنتم مسلمون أن الوحى الوارد على هذا السنن يوجب أن تخلصوا التوحيد له وأن تخلصوا من نسبة الانداد وفيه أنه يجوز اثبات التوحيد بالسمع * فان قيل لو دلت انما على الحصر لزم أن يقال انه لم يوح الى الرسول شئ الا التوحيد ومعلوم ان ذلك فاسد * قلنا المقصود منه المبالغة أما قوله فان تولوا فقل آذنتكم على سواء فقال صاحب الكشاف آذن منقول من أذن اذا علم ولكنه كثر استعماله في الجرى مجرى الانذار ومنه قوله فأذنوا بحرب من الله ورسوله اذا عرفت هذا فنقول المفسرون ذكروا فيه وجوهاً (أحدها) قال أبو مسلم الايذان على السواء الدعاء الى الحرب مجاهرة لقوله تعالى فانبذ اليهم على سواء وفائدة ذلك أنه كان يجوز أن يقدر على من أشرك من قريش أن حالهم مخالف لسائر الكفار في المجاهدة فعرفهم بذلك أنهم كالكفار في ذلك (وثانيها) ان المراد فقد أعلمتكم ما هو الواجب عليكم من التوحيد وغيره على سواء فلم أفرق في الابلاغ والبيان بينكم لاني بعثت معلماً والغرض منه ازاحة العذر لئلا يقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولاً (وثالثها) على سواء على اظهار واعلان (ورابعها) على مهل والمراد انى لا أعاجل بالحرب الذى آذنتكم به بل أمهل وأؤخر رجاء الاسلام منكم أما قوله وان أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون ففيه وجوه (أحدها) أقريب أم بعيد ما توعدون من يوم القيامة ومن عذاب الدنيا ثم قيل نسخه قوله واقترب الوعد الحق يعنى منهما فان مثل هذا الخبر لا يجوز نسخه (وثانيها) المراد ان الذى آذنتهم فيه من الحرب لا أدرى هو

عبارة عن ذلك التعليم والافتاء وان لم يكن داخلاً تحت قدرته عليه السلام لكنه كان داخلاً تحت علمه بواسطة الوحى والتعليم والمعنى مثل ذلك التعليم البالغ الى هذا الحد علمناه ولم نقتصر على تعليم ما عدا الافتاء الذى سيصدر عن اخوته اذ لم يكن متمكناً من أخذ أخيه الا بذلك فقوله نرفع درجات من نشاء توضيح لقوله كذنا وبيان لان ذلك من باب الرفع الى الدرجات العالية من العلم ومدح ليوسف برفعه اليها وقوله وفوق كل ذى علم عليم تذييل له أى نرفع درجات عالية من العلم من نشاء رفعه وفوق كل منهم عليم هو أعلى درجة قال ابن عباس رضى الله عنهما فوق كل عالم عالم الى أن ينتهى العلم الى الله تعالى والمعنى ان اخوة يوسف كانوا علماء الا أن يوسف عليه السلام أفضل منهم وقرئ درجات من نشاء بالاضافة والاول أنسب بالتذييل حيث نسب فيه الرفع الى من نسب اليه الفوقية لا الى درجته ويجوز أن يكون العليم في هذا التفسير أيضاً عبارة عن الله عز وجل أى وفوق كل من أولئك المرفوعين عليم يرفع كلا منهم الى درجته اللائقة به والله تعالى أعلم (قالوا ان يسرق) يعنون بنيامين (فقد سرق أخ له من قبل) يريدون به يوسف عليه السلام وما جرى عليه من جهة عمته على ما قيل من انها كانت تحضنه فلما شب أراد يعقوب عليه السلام انتزاعه منها وكانت لا تصبر عنه ساعة وكانت لها منطقة ورثتها من أبيها اسحق عليه السلام فاحتالت لاستبقاء يوسف عليه السلام فعمدت الى المنطقة فحزمتها عليه من تحت ثيابه ثم قالت فقدت منطقة اسحق عليه السلام فانظروا من أخذها فوجدوها محزومة على يوسف فقالت انه لى سلم أفعل به ما أشاء فخلاه يعقوب عليه السلام عندها حتى ماتت وقيل كان أخذ فى صباه صنماً لابى أمه فكسره وألقاه فى الجيف وقيل دخل كنيسة

قريب أم بعيد لئلا يقدرانه يتأخر كأنه تعالى أمره بأن ينذرهم بالجهاد الذى يوحى اليه أن يأتيه من بعد ولم يعرفه الوقت فلذلك أمره أن يقول انه لا يعلم قربه أم بعده وتبين بذلك ان السورة مكية وكان الامر بالجهاد بعد الهجرة (وثالثها) أن ما يوعدون به من غلبة المسلمين عليهم كائن لا محالة ولا بد أن يلحقهم بذلك الذل والصغار وان كنت لا أدرى متى يكون وذلك لان الله تعالى لم يطلعنى عليه أما قوله تعالى انه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون فالمقصود منه الامر بالاخلاص وترك النفاق لانه تعالى اذا كان عالما بالضمائر وجب على العاقل أن يبالغ فى الاخلاص أما قوله تعالى وان أدرى لعله فتنة لكم ومتاع الى حين ففيه وجوه (أحدها) لعل تأخير العذاب عنكم (وثانيها) لعل ابهام الوقت الذى ينزل بكم العذاب فيه فتنة لكم أى بلية واختبار لكم ليرى صنعكم وهل تحدثون توبة ورجوعا عن كفركم أم لا (وثالثها) قال الحسن لعل ما أنتم فيه من الدنيا بلية لكم والفتنة البلوى والاختبار (ورابعها) لعل تأخير الجهاد فتنة لكم اذا أنتم دمتم على كفركم لان ما يؤدى الى الضرر العظيم يكون فتنة وانما قال لا أدرى لتجويز أن يؤمنوا فلا يكون تبقيتهم فتنة بل ينكشف عن نعمة ورحمة (وخامسها) أن يكون المراد وان أدرى لعل ما بينت وأعلمت وأوعدت فتنة لكم لانه زيادة فى عذابكم ان لم تؤمنوا لان المعرض عن الايمان مع البيان حالا بعد حال يكون عذابه أشد واذا متعه الله تعالى بالدنيا يكون ذلك كالحجة عليه أما قوله تعالى قال رب احكم بالحق ففيه مسائل ﴿ المسئلة الاولى ﴾ قرئ قل رب احكم بالحق على الاكتفاء بالكسرة ورب احكم على الضم وربى أحكم على أفعل التفضيل وربى أحكم من الاحكام ﴿ المسئلة الثانية ﴾ رب احكم بالحق فيه وجوه (أحدها) أى ربى اقض بينى وبين قومى بالحق أى بالعذاب كأنه قال اقض بينى وبين من كذبنى بالعذاب وقال قتادة أمره الله تعالى أن يقتدى بالانبياء فى هذه الدعوة وكانوا يقولون ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق فلا جرم حكم الله تعالى عليهم بالقتل يوم بدر (وثانيها) افصل بينى وبينهم بما يظهر الحق للجميع وهو أن تنصرنى عليهم أما قوله تعالى وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ففيه وجهان (أحدهما) أى من الشرك والكفر وما تعارضون به دعوتى من الاباطيل والتكذيب كأنه سبحانه قال قل داعيا الى رب احكم بالحق وقل متوعدا للكفار وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون قرأ ابن عامر بالياء المنقوطة من تحت أى قل لاصحابك المؤمنين وربنا الرحمن المستعان على ما يصف الكفار من الاباطيل أى من العون على دفع أباطيلهم (وثانيها) كانوا يطمعون أن تكون لهم الشوكة والغلبة فكذب الله ظنونهم وخيب آمالهم ونصر رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وخذلهم قال القاضى انما ختم الله هذه السورة بقوله قل رب احكم بالحق لانه عليه السلام كان قد بلغ فى البيان الغاية لهم وبلغوا النهاية فى أذيته وتكذيبه فكان قصارى أمره تعالى بذلك تسلية له وتعريفا أن المقصود مصلحتهم فاذا أبوا الا التمادى فى كفرهم فعليك بالانقطاع الى ربك ليحكم بينك وبينهم بالحق اما بتعجيل العقاب بالجهاد أو بغيره واما بتأخير ذلك فان أمرهم وان تأخر فما هو كائن قريب وما روى انه عليه السلام كان يقول ذلك فى حروبه كالدلالة على انه تعالى أمره أن يقول هذا القول كالاستعجال للامر بمجاهدتهم وبالله التوفيق وصلاته على خير خلقه محمد النبى وآله وصحبه وسلم تسليما آمين

﴿ سورة الحج سبعون وست آيات وهى مكية الا ثلاث آيات هذان خصمان الى قوله صراط الحميد ﴾

فأخذتنا الاصغيرا من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه (فأسرها يوسف) أى أكن الحزازة الحاصلة مما قالوا (فى نفسه) لا أنه أسرها لبعض أصحابه كما فى قوله تعالى وأسررت لهم اسرارا (ولم يبدها لهم) لا قولا ولا فعلا صفحا عنهم وحلما وهو تأكيد لما سبق (قال) أى فى نفسه وهو استئناف مبنى على سؤال نشأ من الاخبار بالاسرار المذكور كأنه قيل فماذا قال فى نفسه فى تضاعيف ذلك الاسرار فقيل قال (أنتم شر مكانا) أى منزلة حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ثم طفقتم تفترون على البرىء وقيل بدل من أسرها والضمير للمقالة المفسرة بقوله أنتم شر مكانا (والله أعلم بما تصفون) أى عالم علما بالغا الى أقصى المراتب بان الامر ليس كما تصفون من صدور السرقة منا بل انما هو افتراء علينا فالصيغة لمجرد المبالغة لا لتفضيل علمه عز وجل على علمهم كيف لا وليس لهم بذلك من علم (قالوا) عندما شاهدوا مخايل أخذ بنيامين مستعطفين (يا أيها العزيز ان له أبا) لم يريدوا بذلك الاخبار بان له أبا فان ذلك معلوم مما سبق وانما أرادوا الاخبار بان له أبا (شيخا كبيرا) فى السن لا يكاد يستطيع فراقه وهو علالة يتعلل عن شقيقه الهالك (فخذ أحدنا مكانه) فليس أحد عنده بمنزلته من المحبة والشفقة (انا نراك من المحسنين) الينا فأتمم احسانك بهذه التتمة أو المتعودين بالاحسان فلا تغير عادتك (قال معاذ الله) أى نعوذ بالله معاذا من (أن نأخذ) فحذف الفعل وأقيم مقامه المصدر مضافا الى المفعول به بعد حذف الجار (الا من وجدنا متاعنا عنده) لان أخذنا له انما هو بقضية فتواكم فليس لنا الاخلال بموجبها وايثار صيغة التكلم مع الغير مع كون الخطاب من جانب اخوته على التوحيد من باب السلوك الى سنن الملوك أو للاشعار بأن الاخذ والاعطاء ليس مما يستبد به بل هو منوط بآراء أولى الحل والعقد وايثار (بسم

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ اعلم أنه تعالى أمر الناس بالتقوى فدخل فيه أن يتقي كل محرم ويتقي ترك كل واجب وانما دخل فيه الامران لان المتقي انما يتقي ما يخافه من عذاب الله تعالى فيدع لاجله المحرم ويفعل لاجله الواجب ولا يكاد يدخل فيه النوافل لان المكلف لا يخاف بتركها العذاب وانما يرجو بفعلها الثواب فاذا قال اتقوا ربكم فالمراد اتقوا عذاب ربكم أما قوله ان زلزلة الساعة شيء عظيم ففيه مسائل ﴿ المسئلة الاولى ﴾ الزلزلة شدة حركة الشيء قال صاحب الكشاف ولا تخلو الساعة من أن تكون على تقدير الفاعلة لها كأنها هي التي تزلزل الاشياء على المجاز الحكمي فتكون الزلزلة مصدرا مضافا الى فاعله أو على تقدير المفعول فيها على طريقة الاتساع في الظرف واجرائه مجرى المفعول به كقوله تعالى بل مكر الليل والنهار وهي الزلزلة المذكورة في قوله اذا زلزلت الارض زلزالها ﴿ المسئلة الثانية ﴾ اختلفوا في وقتها فعن علقمة والشعبي ان هذه الزلزلة تكون في الدنيا وهي التي يكون معها طلوع الشمس من مغربها وقيل هي التي تكون معها الساعة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث الصور انه قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات نفخة الفزع ونفخة الصعقة ونفخة القيام لرب العالمين وان عند نفخة الفزع يسير الله الجبال وترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة وتكون الارض كالسفينة تضربها الامواج أو كالقنديل المعلق ترجرجه الرياح وقال مقاتل وابن زيد هذا في أول يوم من أيام الآخرة واعلم أنه ليس في اللفظ دلالة على شيء من هذه الاقسام لان هذه الاضافة تصح وان كانت الزلزلة قبلها وتكون من أماراتها وأشراطها وتصح اذا كانت فيها ومعها كقولنا آيات الساعة وأمارات الساعة ﴿ المسئلة الثالثة ﴾ روى ان هاتين الآيتين نزلتا بالليل والناس يسيرون فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمع الناس حوله فقرأهما عليهم فلم يرباكيا أكثر من تلك الليلة فلما أصبحوا لم يحطوا السرج ولم يضربوا الخيام ولم يطبخوا القدور والناس بين باك وجالس حزين متفكر فقال عليه السلام أتدرون أي ذلك اليوم قالوا الله ورسوله أعلم قال ذلك يوم يقول الله لآدم عليه السلام قم فابعث بعث النار من ولدك فيقول آدم وما بعث النار يعني من كم فيقول الله عز وجل من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين الى النار وواحد الى الجنة فعند ذلك يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى فكبر ذلك على المؤمنين وبكوا وقالوا فمن ينجو يا رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام أبشروا وسددوا وقاربوا فان معكم خليقتين ما كانتا في قوم الا كثرتاه يأجوج ومأجوج ثم قال اني لارجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا ثم قال اني لارجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبروا وحمدوا الله ثم قال اني لارجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنة ان أهل الجنة مائة وعشرون صفا ثمانون منها أمتي وما المسلمون في الكفار الا كالشامة في جنب البعير أو كالشعرة البيضاء في الثور الاسود ثم قال ويدخل من أمتي سبعون ألفا الى الجنة بغير حساب فقال عمر سبعون ألفا قال نعم ومع كل واحد سبعون ألفا فقام عكاشة ابن محصن فقال يا رسول الله ادع الله ان يجعلني منهم فقال أنت منهم فقام رجل من الانصار فقال مثل قوله فقال سبقك بها عكاشة فخاض الناس في السبعين ألفا فقال بعضهم هم الذين ولدوا على الاسلام وقال بعضهم هم الذين آمنوا وجاهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قالوا فقال هم الذين لا يكتوون ولا يكوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون ﴿ المسئلة

من وجدنا متاعنا عنده دون من سرق متاعنا لتحقيق الحق والاحتراز عن الكذب في الكلام مع تمام المرام فانهم لا يحملون وجدان الصواع في الرحل على محمل غير السرقة (انا اذا) أخذنا غير من وجدنا متاعنا عنده ولو برضاه (لظالمون) في مذهبكم وما لنا ذلك وهذا المعنى هو الذي أريد بالكلام في أثناء الحوار وله معنى باطن هو أن الله عز وجل انما أمرني بالوحي أن آخذ بنيامين لمصالح علمها الله في ذلك فلو أخذت غيره كنت ظالما وعاملا بخلاف الوحي (فلما استيأسوا منه) أي يئسوا من يوسف واجابته لهم أشد يأس بدلالة صيغة الاستفعال وانما حصلت لهم هذه المرتبة من اليأس لما شاهدوه من عوذه بالله مما طلبوه الدال على كون ذلك عنده في أقصى مراتب الكراهة وانه مما يجب أن يحترز عنه ويعاذ منه بالله عز وجل ومن تسميته ظلما بقوله انا اذا لظالمون (خلصوا) اعتزلوا وانفردوا عن الناس (نجيا) أي ذوي نجوى على أن يكون بمعنى النجوى والتناجي أو فوجا نجيا على أن يكون بمعنى المناجي كالعشير والسمير بمعنى المعاشر والمسامر ومنه قوله تعالى وقربناه نجيا ويجوز أن يقال هم نجي كما يقال هم صديق لانه بزنة المصادر من الزفير والزئير (قال كبيرهم) في السن وهو روبيل أو في العقل وهو يهوذا أو رئيسهم وهو شمعون (ألم تعلموا) كأنهم أجمعوا عند التناجي على الانقلاب جملة ولم يرض به فقال منكرا عليهم ألم تعلموا (ان أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله) عهدا يوثق به وهو حلفهم بالله تعالى وكونه من الله لاذنه فيه وكون الحلف باسمه الكريم (ومن قبل) أي ومن قبل هذا (ما فرطتم في يوسف) قصرتم في شأنه ولم تحفظوا عهد أبيكم وقد قلتم وانا له لناصحون وانا له لحافظون وما مزيدة أو مصدرية ومحل المصدر النصب عطفا على مفعول تعلموا أي ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقا

الرابعة ﴾ انه سبحانه أمر الناس بالتقوى ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها بأهول صفة والمعنى ان التقوى تقتضى دفع مثل هذا الضرر العظيم عن النفس ودفع الضرر عن النفس معلوم الوجوب فيلزم أن تكون التقوى واجبة ﴿ المسئلة الخامسة ﴾ احتجت المعتزلة بقوله تعالى ان زلزلة الساعة شئ عظيم وصفها بانها شئ مع أنها معدومة واحتجوا أيضا بقوله تعالى ان الله على كل شئ قدير فالشئ الذى قدر الله عليه اما أن يكون موجودا أو معدوما والاول محال والالزم كون القادر قادرا على ايجاد الموجود واذا بطل هذا ثبت ان الشئ الذى قدر الله عليه معدوم فالمعدوم شئ واحتجوا أيضا بقوله تعالى ولا تقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا أطلق اسم الشئ فى الحال على ما يصير مفعولا غدا والذى يصير مفعولا غدا يكون معدوما فى الحال فالمعدوم شئ والله أعلم ﴿ والجواب عن الاول ﴾ ان الزلزلة عبارة عن الاجسام المتحركة وهى جواهر قامت بها أعراض وتحقق ذلك فى المعدوم محال فالزلزلة يستحيل أن تكون شيأ حال عدمها فلا بد من التأويل بالاتفاق ويكون المعنى انها اذا وجدت صارت شيأ وهذا هو الجواب عن البواقى ﴿ المسئلة السادسة ﴾ وصف الله تعالى الزلزلة بالعظيم ولا عظيم أعظم مما عظمه الله تعالى أما قوله تعالى يوم ترونها فهو منصوب بتذهل أى تذهل فى ذلك اليوم والضمير فى ترونها يحتمل ان يرجع الى الزلزلة وأن يرجع الى الساعة لتقدم ذكرهما والاقرب رجوعها الى الزلزلة لان مشاهدتها هى التى توجب الخوف الشديد واعلم انه سبحانه وتعالى ذكر من أهوال ذلك اليوم أمورا ثلاثة (أحدها) قوله تذهل كل مرضعة عما أرضعت أى تذهلها الزلزلة والذهول الذهاب عن الامر مع دهشة فان قيل لم قال مرضعة دون مرضع قلت المرضعة هى التى فى حال الارضاع وهى ملقمة ثديها الصبى والمرضع شأنها أن ترضع وان لم تباشر الارضاع فى حال وصفها به فقيل مرضعة ليدل على ان ذلك الهول اذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته من فيه لما يلحقها من الدهشة وقوله عما أرضعت أى عن ارضاعها أو عن الذى أرضعته وهو الطفل فتكون ما بمعنى من على هذا التأويل (وثانيها) قوله وتضع كل ذات حمل حملها والمعنى انها تسقط ولدها لتمام أو لغير تمام من هول ذلك اليوم وهذا يدل على ان هذه الزلزلة انما تكون قبل البعث قال الحسن تذهل المرضعة عن ولدها لغير فطام وألقت الحوامل ما فى بطونها لغير تمام وقال القفال يحتمل أن يقال من ماتت حاملا أو مرضعة بعثت حاملا أو مرضعة تضع حملها من الفزع ويحتمل أن يكون المراد من ذهول المرضعة ووضع الحمل على جهة المثل كما قد تأول قوله يوما يجعل الولدان شيبا (وثالثها) قوله وترى الناس سكارى وفيه مسائل ﴿ المسئلة الاولى ﴾ قرئ وترى بالضم تقول أريتك قائما وأرأيتك قائما والناس بالنصب والرفع أما النصب فظاهر وأما الرفع فلانه جعل الناس اسم ما لم يسم فاعله وأنثه على تأويل الجماعة وقرئ سكرى وسكارى وهو نظير جوعى وعطشى فى جوعان وعطشان سكارى وسكارى نحو كسالى وعجالى وعن الاعمش سكرى وسكرى بالضم وهو غريب ﴿ المسئلة الثانية ﴾ المعنى وتراهم سكارى على التشبيه وما هم بسكارى على التحقيق ولكن ما أرهقهم من هول عذاب الله تعالى هو الذى أذهب عقولهم وطير تمييزهم وقال ابن عباس والحسن وتراهم سكارى من الخوف وما هم بسكارى من الشراب فان قلت لم قيل أولا ترون ثم قيل ترى على الافراد قلنا لان الرؤية أولا علقت بالزلزلة فجعل الناس جميعا رائين لها وهى معلقة آخرا بكون الناس على حال السكر فلا بد وأن يجعل كل واحد منهم رائيا لسائرهم ﴿ المسئلة الثالثة ﴾ ان قيل أتقولون ان شدة ذلك اليوم تحصل لكل أحد أو لاهل النار خاصة قلنا قال قوم ان الفزع الاكبر وغيره يختص بأهل النار وان أهل الجنة يحشرون وهم آمنون وقيل بل يحصل للكل لانه سبحانه لا اعتراض لاحد عليه فى شئ من أفعاله وليس

لاحد

وتفريطكم السابق فى شأن يوسف عليه السلام ولا ضير فى الفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف وقد جوز النصب عطفا على اسم أن والخبر فى يوسف أو من قبل على معنى ألم تعلموا ان تفريطكم السابق وقع فى شأن يوسف عليه السلام وان تفريطكم الكائن وكائنا فى شأن يوسف عليه السلام وقع من قبل وفيه أن مقتضى المقام اغناؤه والاخبار بوقوع ذلك التفريط لا بكون تفريطهم السابق واقعا فى شأن يوسف كما هو مفاد الاول ولا بكون تفريطهم الكائن فى شأنه واقعا من قبل كما هو مفاد الثانى على أن الظرف المقطوع عن الاضافة لا يقع خبرا ولا صفة ولا صلة ولا حالا عند البعض كما تقرر فى موضعه وقيل محله الرفع على الابتداء والخبر من قبل وفيه ما فيه وقيل ما موصولة أو موصوفة ومحلها النصب أو الرفع والحق هو النصب عطفا على مفعول تعلموا أى ما فرطتموه بمعنى قدمتموه فى حقه من الخيانة وأما النصب عطفا على اسم أن أو الرفع على الابتداء فقد عرفت حاله (فلن أبرح الارض) متفرع على ما ذكره وذكره اياهم من ميثاق أبيه وقوله لتأتننى به الا أن يحاط بكم أى فلن أفارق أرض مصر جريا على قضية الميثاق (حتى يأذن لى أبى) فى البراح بالانصراف اليه وكأن أيمانهم كانت معقودة على عدم الرجوع بغير اذن يعقوب عليه السلام (أو يحكم الله لى) بالخروج منها على وجه لا يؤدى الى نقض الميثاق أو بخلاص أخى بسبب من الاسباب روى انهم كلموا العزيز فى اطلاقه فقال روبيل أيها الملك لتردن الينا أخانا أو لاصيحن صيحة لا تبقى بمصر حامل الا ألقت ولدها ووقفت كل شعرة فى جسده فخرجت من ثيابه وكان بنو يعقوب اذا غضبوا لا يطاقون خلا انه اذا مس من غضب واحد منهم سكن غضبه فقال يوسف لابنه قم الى جنبه فمسه فقال

روبيل من هذاك فى هذا البلد بذرامن بذر يعقوب (وهوخيرالحاكمين) اذلايحكم الابالحق والعدل (ارجعوا) أنتم (الى أبيكم فقولوا ياأبانا ان ابنك سرق) على ظاهرالحال وقرئ سرق اى نسب الى السرقة (وماشهدنا) عليه (الابما علمنا) وشاهدنا ان الصواع استخرجت من وعائه (وماكناللغيب) أى باطن الحال (حافظين) فماندرى أن حقيقة الامر كما شاهدنا أم بخلافه أووما كنا عالمين حين أعطيناك الموثق أنه سيسرق أوأنا نبتلى بهذا الأمر أوانك تصاب به كما أصبت بيوسف (وأسأل القرية التى كنا فيها) أى مصر أوقرية بقرب ما لحقهم المنادى عندها أى أرسل الى أهلها واسألهم عن القصة (والعيرالتى أقبلنا فيها) أى أصحابها فان القصة معروفة فيما بينهم وكانواقومامن كنعان من جيران يعقوب عليه السلام وقيل من صنعاء (وانالصادقون) تأكيد فى محل القسم (قال) أى يعقوب عليه السلام وهو استئناف مبنى على سؤال نشأمماسبق فكأنه قيل فماذا كان عند قول المتوقف لاخوته ماقال فقيل قال يعقوب عند مارجعوا اليه فقالوا له ماقالوا وانما حذف للايذان بأن مسارعتهم الى قبوله ورجوعهم به الى أبيهم أمر مسلم غنى عن البيان وانما المحتاج اليه جواب أبيهم (بل سولت) أى زينت وسهلت وهو اضراب لا عن صريح كلامهم فانهم صادقون فى ذلك بل عما يتضمنه من ادعاء البراءة عن التسبب فيما نزل به وانه لم يصدر عنهم ما يؤدى الى ذلك من قول أوفعل كأنه قيل لم يكن الامر كذلك بل زينت (لكم أنفسكم أمرا) من الامور فأتيتموه يريد بذلك فتياهم بأخذ السارق بسرقته (فصبرجميل) أى فأمرى صبرجميل أوفصبرجميل أجمل (عسى الله أن يأتينى بهم جميعا) بيوسف وأخيه والمتوقف بمصر (انه هوالعليم) بحالى وحالهم (الحكيم) الذى لم يبتلنى الا لحكمة بالغة (وتولى) أى أعرض (عنهم)

لاحد عليه حق ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ومن الناس من يجادل فى الله بغيرعلم ويتبع كل شيطان مريد كتب عليه انه من تولاه فانه يضله ويهديه الى عذاب السعير﴾ وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ فى كيفية النظم وجهان (الاول) أخبرتعالى فيما تقدم عن أهوال يوم القيامة وشدتها ودعا الناس الى تقوى الله ثم بين فى هذه الآية قومامن الناس الذين ذكروا فى الاول وأخبرعن مجادلتهم (الثانى) انه تعالى بين انه مع هذا التحذير الشديد بذكر زلزلة الساعة وشدائدها فان من الناس من يجادل فى الله بغيرعلم ثم فى قوله ومن الناس وجهان (الاول) انهم الذين ينكرون البعث ويدل عليه قوله أولم يرالانسان أناخلقناه من نطفة الى آخر الآية وأيضافان ماقبل هذه الآية فى وصف البعث ومابعدها فى الدلالة على البعث فوجب أن يكون المرادمن هذه المجادلة هوالمجادلة فى البعث (والثانى) انها نزلت فى النضر بن الحرث كان يكذب بالقرآن ويزعم انه أساطيرالاولين ويقول ما يأتيكم به محمد كما كنت أحدثكم به عن القرون الماضية وهوقول ابن عباس رضى الله عنهما ﴿المسئلة الثانية﴾ هذه الآية بمفهومها تدل على جوازالمجادلة الحقة لان تخصيص المجادلة مع عدم العلم بالدلائل يدل على ان المجادلة مع العلم جائزة فالمجادلة الباطلة هى المراد من قوله ماضربوه لك الاجدلا والمجادلة الحقة هى المرادمن قوله وجادلهم بالتى هى أحسن ﴿المسئلة الثالثة﴾ فى قوله ويتبع كل شيطان مريد قولان (أحدهما) يجوزأن يريد شياطين الانس وهم رؤساء الكفار الذين يدعون من دونهم الى الكفر (والثانى) أن يكون المراد بذلك ابليس وجنوده قال الزجاج المريد والمارد المرتفع الاملس يقال صخرة مرداء اى ملساء ويجوزأن يستعمل فى غيرالشيطان اذاجاوزحد مثله أماقوله كتب عليه ففيه وجهان (أحدهما) ان الكتبة عليه مثل أى كأنما كتب اضلال من يتولاه عليه ورقم به لظهور ذلك فى حاله (والثانى) كتب عليه فى أم الكتاب واعلم ان هذه الهاء بعدذكر من يجادل وبعدذكر الشيطان يحتمل أن يكون راجعا الى كل واحد منهما فان رجع الى من يجادل فانه يرجع الى لفظه الذى هو موحد فكأنه قال كتب على من يتبع الشيطان أنه من تولى الشيطان أضله عن الجنة وهداه الى النار وذلك زجرمنه تعالى فكأنه تعالى قال كتب على من هذا حاله انه يصير أهلا لهذا الوعيد فان رجع الى الشيطان كان المعنى ويتبع كل شيطان مريد قد كتب عليه أنه من يقبل منه فهو فى ضلال وعلى هذا الوجه أيضا يكون زجراعن اتباعه وفى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال القاضى عبدالجبار اذاقيل المراد بقوله كتب عليه قضى عليه فلا جائزأن يرد الا الى من يتبع الشيطان لانه تعالى لايجوزأن يقضى على الشيطان انه يضل ويجوزأن يقضى على من يقبله بقوله قد أضله عن الجنة وهداه الى النار قال أصحابنا رحمهم الله لما كتب ذلك عليه فلولم يقع لانقلب خبرالله الصدق كذبا وذلك محال ومستلزم المحال محال فكان لاوقوعه محالا ﴿المسئلة الثانية﴾ دلت الآية على ان المجادل فى الله ان كان لايعرف الحق فهو مذموم معاقب فيدل على أن المعارف ليست ضرورية ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال القاضى فيه دلالة على ان المجادلة فى الله ليست من خلق الله تعالى وبارادته والالما كانت مضافة الى اتباع الشيطان وكان لايصح القول بان الشيطان يضله بل كان الله تعالى قد أضله (والجواب) المعارضة بمسئلة العلم وبمسئلة الداعى ﴿المسئلة الرابعة﴾ قرئ أنه بالفتح والكسر فمن فتح فلان الاول فاعل كتب والثانى عطف عليه ومن كسر فعلى حكاية المكتوب كما هو كأنما كتب عليه هذا الكلام كما يقول كتبت ان الله هوالغنى الحميد أوعلى تقديرقيل أوعلى أن كتب فيه معنى القول ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ياأيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فاناخلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغيرمخلقة لنبين لكم ونقرفى الارحام مانشاء الى أجل

كراهة لما سمع منهم (وقال يا أسفا على يوسف) الأسف أشد الحزن والحسرة أضافه إلى نفسه والألف بدل من الياء فناداه أي يا أسفي تعال
فهذا أوانك وإنما تأسف على يوسف مع أن الحادث مصيبة أخويه لأن رزأه كان قاعدة الأرزاء غضا عنده وإن تقادم عهده آخذا
بمجامع قلبه لا ينساه ولأنه كان واثقا بحياتهما عالما بمكانهما طامعا في إيابهما وأما يوسف فلم يكن في شأنه ما يحرك سلسلة
رجائه سوى رحمة الله تعالى وفضله وفي الخبر لم تعط أمة من الأمم إنا لله وإنا إليه راجعون إلا أمة محمد عليه الصلاة والسلام ألا يرى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع بل قال ما قال والتجانس بين لفظي الأسف ويوسف مما يزيد النظم الكريم بهجة كما في قوله عز وجل وهم ينهون عنه وينأون عنه وقوله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم وقوله ثم كلي من كل الثمرات وجئتك من سبأ بنبأ يقين ونظائرها (وابيضت عيناه من الحزن) الموجب للبكاء فإن العبرة إذا كثرت محقت سواد العين وقلبته إلى بياض كدر قيل قد عمي بصره وقيل كان يدرك إدراكا ضعيفا وروي أنه ما جفت عينا يعقوب من يوم فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاما وما على وجه الأرض أكرم على الله عز وجل من يعقوب عليه السلام وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سأل جبريل عليه السلام ما بلغ من
وجد يعقوب عليه السلام على يوسف قال وجد سبعين ثكلى قال فما كان له من الأجر قال أجر مائة شهيد وما واحتجوا
ساء ظنه بالله ساعة قط وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند النوائب فإن الكف عن ذلك مما لا يدخل تحت التكليف فإنه قل من
يملك نفسه عند الشدائد ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده إبراهيم وقال القلب يحزن والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب

مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد
علم شيأ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق
وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾ القراءة
قرأ الحسن من البعث بالتحريك ونظيره الجلب والطرد في الجلب والطرد ومخلقة وغير مخلقة بجر التاء
والراء وقرأ ابن أبي عبلة بنصبهما القراءة المعروفة بالنون في قوله لنبين وفي قوله ونقر وفي قوله ثم نخرجكم
طفلا ابن أبي عبلة بالياء في هذه الثلاثة أما القراءة بالنون ففيها وجوه (أحدها) القراءة المشهورة (وثانيها)
روى السيرافي عن داود عن يعقوب ونقر بفتح النون وضم القاف والراء وهو من قر الماء إذا صبه وفي رواية
أخرى عنه كذلك إلا أنه بنصب الراء (وثالثها) ونقر ونخرجكم بنصب الراء والجيم أما القراءة بالياء ففيها
وجوه (أحدها) يقر ويخرجكم بفتح القاف والراء والجيم (وثانيها) يقر ويخرجكم بضم القاف والراء والجيم
(وثالثها) بفتح الياء وكسر القاف وضم الراء أبو حاتم ومنكم من يتوفى بفتح الياء أي يتوفاه الله تعالى ابن
عمرة والأعمش العمر بإسكان الميم القراءة المعروفة ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر وفي
حرف عبد الله ومنكم من يتوفى ومنكم من يكون شيوخا بغير القراءة المعروفة وربت أبو جعفر وربأت أي
ارتفعت وروى العمري عنه بتليين الهمزة وقرئ وأنه باعث ﴿المعاني﴾ اعلم أنه سبحانه لما حكى عنهم الجدال
بغير العلم في إثبات الحشر والنشر وذمهم عليه فهو سبحانه أورد الدلالة على صحة ذلك من وجهين (أحدهما)
الاستدلال بخلقة الحيوان أولا وهو موافق لما أجمله في قوله قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وقوله فسيقولون
من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فكأنه سبحانه وتعالى قال إن كنتم في ريب مما وعدناكم من البعث
فتذكروا في خلقتكم الأولى لتعلموا أن القادر على خلقكم أولا قادر على خلقكم ثانيا ثم إنه سبحانه ذكر من
مراتب الخلقة الأولى أمورا سبعة ﴿المرتبة الأولى﴾ قوله فإنا خلقناكم من تراب وفيه وجهان (أحدهما)
إنا خلقنا أصلكم وهو آدم عليه السلام من تراب لقوله كمثل آدم خلقه من تراب وقوله منها خلقناكم
(والثاني) أن خلقة الإنسان من المني ودم الطمث وهما إنما يتولدان من الأغذية والأغذية إما حيوان
أو نبات وغذاء الحيوان ينتهي قطعا للتسلسل إلى النبات والنبات إنما يتولد من الأرض والماء فصح قوله
إنا خلقناكم من تراب ﴿المرتبة الثانية﴾ قوله ثم من نطفة والنطفة اسم للماء القليل أي ماء كان وهو ههنا ماء
الفحل فكأنه سبحانه يقول أنا الذي قلبت ذلك التراب اليابس ماء لطيفا مع أنه لا مناسبة بينهما البتة
﴿المرتبة الثالثة﴾ قوله ثم من علقة والعلقة قطعة الدم الجامدة ولا شك أن بين الماء وبين الدم الجامد
مباينة شديدة ﴿المرتبة الرابعة﴾ قوله ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء فالمضغة
اللحمة الصغيرة قدر ما يمضغ والمخلقة المسواة الملساء السالمة من النقصان والعيب يقال خلق السواك والعود
إذا سواه وملسه من قولهم صخرة خلقاء إذا كانت ملساء ثم للمفسرين فيه أقوال (أحدها) أن يكون المراد
من تمت فيه أحوال الخلق ومن لم تتم كأنه سبحانه قسم المضغة إلى قسمين (أحدهما) تامة الصور والحواس
والتخاطيط (وثانيهما) الناقصة في هذه الأمور فبين أن بعد أن صيره مضغة منها ما خلقه إنسانا تاما بلا نقص
ومنها ما ليس كذلك وهذا قول قتادة والضحاك فكان الله تعالى يخلق المضغ متفاوتة منها ما هو كامل الخلقة
أملس من العيوب ومنها ما هو على عكس ذلك فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم
وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم (وثانيها) المخلقة الولد الذي يخرج حيا وغير المخلقة السقط وهو قول
مجاهد (وثالثها) المخلقة المصورة وغير المخلقة أي غير المصورة وهو الذي يبقى لحما من غير تخطيط وتشكيل

وإنا عليك يا ابراهيم لمحزونون وانما الذى لا يجوز ما يفعله الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الخدود والصدور وشق الجيوب وتمزيق الثياب وعن النبي عليه السلام انه بكى على ولد بعض بناته وهو يجود بنفسه فقيل يارسول الله تبكى وقد نهيتنا عن البكاء فقال ما نهيتكم عن البكاء وانما نهيتكم عن صوتين أحمقين صوت عند الفرح وصوت عند الترح ١٦٧ (فهو كظيم) مملوء من الغيظ على أولاده ممسك له فى قلبه لا يظهره فعيل بمعنى مفعول بدليل قوله تعالى وهو مكظوم من كظم السقاء اذا شده على ملئه أو بمعنى فاعل كقوله والكاظمين الغيظ من كظم الغيظ اذا اجترعه وأصله كظم البعير جرته اذا ردها فى جوفه (قالوا تالله تفتؤ) أى لا تفتؤ ولا تزال (تذكر يوسف) فحذف حرف النفى كما فى قوله

فقلت يمين الله أبرح قاعدا

لعدم الالتباس بالاثبات فان القسم اذا لم يكن معه علامة الاثبات يكون على النفى البتة (حتى تكون حرضا) مريضا مشفيا على الهلاك وقيل الحرض من أذابه هم أو مرض وهو فى الاصل مصدر ولذلك لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع والنعت منه بالكسر كدنف وقد قرئ به وبضمتين كجنب وغرب (أو تكون من الهالكين) أى الميتين (قال انما أشكو بثى) البث أصعب الهم الذى لا يصبر عليه صاحبه فيبثه الى الناس أى ينشره فكأنهم قالوا له ماقالوا بطريق التسلية والاشكاء فقال لهم انى لا أشكو ما بى اليكم أو الى غيركم حتى تتصدوا لتسليتى وانما أشكو همى (وحزنى الى الله) تعالى ملتجئا الى جنابه متضرعا لدى بابه فى دفعه وقرئ بفتحتين وضمتين (وأعلم من الله مالا تعلمون) من لطفه ورحمته فأرجو أن يرحمنى ويلطف بى ولا يخيب رجائى أو أعلم وحيا أو الهاما من جهته مالا تعلمون من حياة يوسف قيل رأى ملك الموت فى المنام فسأله عنه فقال

واحتجوا بما روى علقمة عن عبد الله قال اذا وقعت النطفة فى الرحم بعث الله ملكا وقال يارب مخلقة أو غير مخلقة فان قال غير مخلقة مجتها الارحام دما وان قال مخلقة قال يارب فما صفتها أذكر أم أنثى ما رزقها ما أجلها أشقى أم سعيد فيقول الله سبحانه انطلق الى أم الكتاب فاستنسخ منه صفة هذه النطفة فينطلق الملك فينسخها فلا يزال معه حتى يأتى على آخر صفتها (ورابعها) قال القفال التخليق مأخوذ من الخلق فما تتابع عليه الاطوار وتوارد عليه الخلق بعد الخلق فذلك هو المخلق لتتابع الخلق عليه فما تم فهو المخلق وما لم يتم فهو غير المخلق لانه لم يتوارد عليه التخليقات والقول الاول أقرب لانه تعالى قال فى أول الآية فانا خلقناكم وأشار الى الناس فيجب أن تحمل مخلقة وغير مخلقة على من سيصير انسانا وذلك يبعد فى السقط لانه قد يكون سقطا ولم يتكامل فيه الخلقة فان قيل هلا حملتم ذلك على السقط لاجل قوله ونقر فى الارحام ما نشاء وذلك كالدلالة على أن فيه ما لا يقره فى الرحم وهو السقط قلنا ان ذلك لا يمنع من صحة ما ذكرنا فى كون المضغة مخلقة وغير مخلقة لانه بعد أن تم خلقة البعض ونقص خلقة البعض لا يجب أن يتكامل ذلك بل فيه ما يقره الله فى الرحم وفيه ما لا يقره وان كان قد أظهر فيه خلقة الانسان فيكون من هذا الوجه قد دخل فيه السقط أما قوله تعالى لنبين لكم ففيه وجهان (أحدهما) لنبين لكم ان تغيير المضغة الى المخلقة هو باختيار الفاعل المختار ولولاه لما صار بعضه مخلقا وبعضه غير مخلق (وثانيهما) التقدير ان كنتم فى ريب من البعث فانا أخبرناكم انا خلقناكم من كذا وكذا لنبين لكم ما يزيل عنكم ذلك الريب فى أمر بعثكم فان القادر على هذه الاشياء كيف يكون عاجزا عن الاعادة أما قوله تعالى ونقر فى الارحام ما نشاء الى أجل مسمى فالمراد منه من بلغه الله تعالى حد الولادة والاجل المسمى هو الوقت المضروب للولادة وهو آخر ستة أشهر أو تسعة أو أربع سنين أو كما شاء وقدر الله تعالى فان كتب ذلك صار أجلا مسمى (المرتبة الخامسة) قوله ثم نخرجكم طفلا وانما وحد الطفل لان الغرض الدلالة على الجنس ويحتمل أن نخرج كل واحد منكم طفلا كقوله والملائكة بعد ذلك ظهير (المرتبة السادسة) قوله ثم لتبلغوا أشدكم والاشد كمال القوة والعقل والتمييز وهو من ألفاظ الجموع التى لم يستعمل لها واحد وكأنها شدة فى غير شئ واحد فبنيت لذلك على لفظ الجمع والمراد والله أعلم ثم نسهل فى تربيتكم وأغذيتكم أمورا لتبلغوا أشدكم فنبه بذلك على الاحوال التى بين خروج الطفل من بطن أمه وبين بلوغ الاشد ويكون بين الحالتين وسائط وذكر بعضهم انه ليس بين حال الطفولية وبين ابتداء حال بلوغ الاشد واسطة حتى يجوز أن يبلغ فى السن ويكون طفلا كما يكون غلاما ثم يدخل فى الاشد (المرتبة السابعة) قوله ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيأ والمعنى أن منكم من يتوفى على قوته وكماله ومنكم من يرد الى أرذل العمر وهو الهرم والخرف فيصير كما كان فى أول طفوليته ضعيف البنية سخيف العقل قليل الفهم فان قيل كيف قال لكيلا يعلم من بعد علم شيأ مع انه يعلم بعض الاشياء كالطفل قلنا المراد انه يزول عقله فيصير كأنه لا يعلم شيأ لان مثل ذلك قد يذكر فى النفى لاجل المبالغة ومن الناس من قال هذه الحالة لا تحصل للمؤمنين لقوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهو ضعيف لان معنى قوله ثم رددناه أسفل سافلين هو دلالة على الذم فالمراد به ما يجرى مجرى العقوبة ولذلك قال الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون فهذا تمام الاستدلال بحال خلقة الحيوان على صحة البعث (الوجه الثانى) الاستدلال بحال خلقة النبات على ذلك وهو قوله سبحانه وتعالى وترى الارض هامدة وشهودها يبسها وخلوها عن النبات والخضرة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت والاهتزاز الحركة على سرور فلا يكاد

قال اهتزت لان الكيت وكبت الا اذا كان الامر من المحاسن والمنافع فقوله اهتزت وربت أى تحركت بالنبات وانتفخت أما قوله وأنبتت من كل زوج بهيج فهو مجاز لان الارض ينبت منها والله تعالى هو المنبت لذلك لكنه يضاف اليها توسعا ومعنى من كل زوج بهيج من كل نوع من أنواع النبات من زرع وغرس والبهجة حسن الشئ ونضارته والبهيج بمعنى المبهج قال المبرد وهو الشئ المشرق الجميل ثم انه سبحانه لما قرر هذين الدليلين رتب عليهما ما هو المطلوب والنتيجة وذكر أمورا خمسة (أحدها) قوله ذلك بأن الله هو الحق والحق هو الموجود الثابت فكأنه سبحانه بين ان هذه الوجوه دالة على وجود الصانع وحاصلها راجع الى ان حدوث هذه الاعراض المتنافية وتواردها على الاجسام يدل على وجود الصانع (وثانيها) قوله تعالى وأنه يحيي الموتى فهذا تنبيه على انه لما لم يستبعد من الاله ايجاد هذه الاشياء فكيف يستبعد منه اعادة الاموات (وثالثها) قوله وانه على كل شئ قدير يعنى ان الذى يصح منه ايجاد هذه الاشياء لابد وأن يكون واجب الاتصاف لذاته بالقدرة ومن كان كذلك كان قادرا على جميع الممكنات ومن كان كذلك فانه لابد وان يكون قادرا على الاعادة (ورابعها) قوله وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور والمعنى انه لما أقام الدلائل على ان الاعادة فى نفسها ممكنة وأنه سبحانه وتعالى قادر على كل الممكنات وجب القطع بكونه قادرا على الاعادة فى نفسها واذا ثبت الامكان والصادق أخبر عن وقوعه فلابد من القطع بوقوعه واعلم ان تحرير هذه الدلالة على الوجه النظرى أن يقال الاعادة فى نفسها ممكنة والصادق أخبر عن وقوعها فلابد من القطع بوقوعها أما بيان الامكان فالدليل عليه ان هذه الاجسام بعد تفرقها قابلة لتلك الصفات التى كانت قائمة بها حال كونها حية عاقلة والبارئ سبحانه عالم بكل المعلومات قادر على كل المقدورات الممكنة وذلك يقتضى القطع بامكان الاعادة لما قلنا ان تلك الاجسام بعد تفرقها قابلة لتلك الصفات لانها لو لم تكن قابلة لها فى وقت لما كانت قابلة لها فى شئ من الاوقات لان الامور الذاتية لا تزول ولو لم تكن قابلة لها فى شئ من الاوقات لما كانت حية عاقلة فى شئ من الاوقات لكنها كانت حية عاقلة فوجب أن تكون قابلة أبدا لهذه الصفات وأما ان البارئ سبحانه يمكنه تحصيل ذلك الممكن فلأنه سبحانه عالم بكل المعلومات فيكون عالما بأجزاء كل واحد من المكلفين على التعيين وقادرا على كل الممكنات فيكون قادرا على ايجاد تلك الصفات فى تلك الذوات فثبت ان الاعادة فى نفسها ممكنة وأنه سبحانه يمكنه تحصيل ذلك الممكن فثبت ان الاعادة ممكنة فى نفسها فاذا أخبر الصادق عن وقوعها فلابد من القطع بوقوعها فهذا هو الكلام فى تقرير هذا الاصل فان قيل فأى منفعة لذكر مراتب خلقة الحيوانات وخلقة النبات فى هذه الدلالة قلنا انها تدل على انه سبحانه قادر على كل الممكنات وعالم بكل المعلومات ومتى صح ذلك فقد صح كون الاعادة ممكنة فان الخصم لا ينكر المعاد الا بناء على انكار أحد هذين الاصلين ولذلك فان الله تعالى حيثما أقام الدلالة على البعث فى كتابه ذكر معه كونه قادرا عالما كقوله قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم فقوله قل يحييها الذى أنشأها بيان للقدرة وقوله وهو بكل خلق عليم بيان للعلم والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ القراءة ثانى عطفه بكسر العين الحسن وحده بفتح العين ليضل قرئ بضم الياء وفتحها القراءة المعروفة ونذيقه بالنون وقرأ زيد بن على وأذيقه * المعانى فى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اختلفوا فى أن المراد بقوله ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد من هم على وجوه

هو حبى وقيل علم من رؤيا يوسف عليه السلام انه سيخر له أبواه واخوته سجدا (يابنى اذهبوا فتحسسوا) أى تعرفوا وهو تفعل من الحس وقرئ بالجيم من الجس وهو الطلب أى تطلبوا (من يوسف وأخيه) أى من خبرهما ولم يذكر الثالث لان غيبته اختيارية لا يعسر ازالتها (ولا تيأسوا من روح الله) لا تقنطوا من فرجه وتنفيسه وقرئ بضم الراء أى من رحمته التى يحيى بها العباد وهذا ارشاد لهم الى بعض ما أبهم فى قوله وأعلم من الله مالا تعلمون ثم حذرهم عن ترك العمل بموجب نهيه بقوله (انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) لعدم علمهم بالله تعالى وصفاته فان العارف لا يقنط فى حال من الاحوال (فلما دخلوا عليه) أى على يوسف بعدما رجعوا الى مصر بموجب أمر أبيهم وانما لم يذكر ذلك ايذانا بمسارعتهم الى ما أمروا به واشعارا بأن ذلك أمر محقق لا يفتقر الى الذكر والبيان (قالوا يا أيها العزيز) أى الملك القادر الممتنع (مسنا وأهلنا الضر) الهزال من شدة الجوع (وجئنا ببضاعة مزجاة) مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقارا لها من أزجيته اذا دفعته وطردته والريح تزجى السحاب قيل كانت بضاعتهم من متاع الاعراب صوفا وسمنا وقيل الصنوبر وحبة الخضراء وقيل سويق المقل والاقط وقيل دراهم زيوفا لا تؤخذ الا بوضيعة وانما قدموا ذلك ليكون ذريعة الى اسعاف مرادهم ببعث الشفقة وهز العطف والرأفة وتحريك سلسلة المرحمة ثم قالوا (فأوف لنا الكيل) أى أتممه لنا (وتصدق علينا) برد أخينا الينا قاله الضحاك وابن جريج وهو الانسب بحالهم نظرا الى أمر أبيهم أو بالايفاء أو بالمسامحة وقبول المزجاة أو بالزيادة على ما يساويها قيل انما سموه تصدقا تواضعا أو أرادوا التصدق فوق ما يعطيهم (احدها)

بالثمن بناء على اختصاص حرمة الصدقة بنبينا عليه الصلاة والسلام وانما لم يبدؤا بما أمروا به تخجلا بالرأفة والشفقة ليبعثوا بما قدموا من رقة الحال رقة القلب والحنو على أن ما ساقوه كلام ذو وجهين فان قوله وتصدق علينا (ان الله يجزي المتصدقين) يحتمل الحمل على الحملين فلعله عليه السلام حمله على المحمل الاول ولذلك (قال) مجيبا عما عرضوا به

وضمنوه كلامهم من طلب رد أخيهم

(أحدها) قال أبو مسلم الآية الاولى وهي قوله ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد واردة في الاتباع المقلدين وهذه الآية واردة في المتبوعين المقلدين فان كلا المجادلين جادل بغير علم وان كان أحدهما تبعا والآخر متبوعا وبين ذلك قوله ولا هدى ولا كتاب منير فان مثل ذلك لا يقال في المقلد وانما يقال فيمن يخاصم بناء على شبهة فان قيل كيف يصح ما قلتم والمقلد لا يكون مجادلا قلنا قد يجادل تصويبا لتقليده وقد يورد الشبهة الظاهرة اذا تمكن منها وان كان معتمده الاصلي هو التقليد (وثانيها) ان الآية الاولى نزلت في النضر بن الحرث وهذه الآية في أبي جهل (وثالثها) ان هذه الآية نزلت أيضا في النضر وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما وفائدة التكرير المبالغة في الذم وأيضا ذكر في الآية الاولى اتباعه للشيطان تقليدا بغير حجة وفي الثانية مجادلته في الدين واضلاله غيره بغير حجة والوجه الاول أقرب لما تقدم ﴿المسئلة الثانية﴾ الآية دالة على ان الجدال مع العلم والهدى والكتاب المنير حق حسن على ما مر تقريره ﴿المسئلة الثالثة﴾ المراد بالعلم العلم الضروري وبالهدى الاستدلال والنظر لانه يهدي الى المعرفة وبالكتاب المنير الوحي والمعنى أنه يجادل من غير مقدمة ضرورية ولا نظرية ولا سمعية وهو كقوله ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وقوله ائتوني بكتاب من قبل هذا أما قوله ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله فاعلم أن ثني العطف عبارة عن الكبر والخيلاء كتصعير الخد ولي الجيد وقوله ليضل عن سبيل الله فاما القراءة بضم الياء فدلالة على أن هذا المجادل فعل الجدال وأظهر التكبر لكي يتبعه غيره فيضله عن طريق الحق فجمع بين الضلال والكفر واضلال الغير وأما القراءة بفتح الياء فالمعنى أنه لما أدى جداله الى الضلال جعل كأنه غرضه ثم انه سبحانه وتعالى شرح حاله في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فيوم بدر وروينا عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها نزلت في النضر بن الحرث وأنه قتل يوم بدر وأما الذين لم يخصصوا هذه الآية بواحد معين قال المراد بالخزي في الدنيا أمر المؤمنين بذمه ولعنه ومجاهدته وأما في الآخرة فقوله ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ثم بين تعالى أن هذا الخزي المعجل وذلك العقاب المؤجل لاجل ما قدمت يداه قالت المعتزلة هذه الآية تدل على مطالب (الاول) دلت الآية على أنه انما وقع في ذلك العقاب بسبب عمله وفعله فلو كان فعله خلقا لله سبحانه وتعالى لكان حين ما خلقه الله سبحانه وتعالى استحال منه أن ينفك عنه وحين ما لا يخلقه الله تعالى استحال منه أن يتصف به فلا يكون ذلك العقاب بسبب فعله فاذا عاقبه عليه كان ذلك محض الظلم وذلك على خلاف النص (الثاني) أن قوله بعد ذلك وأن الله ليس بظلام للعبيد دليل على أنه سبحانه انما لم يكن ظالما بفعل ذلك العذاب لاجل أن المكلف فعل فعلا استحق به ذلك العقاب وذلك يدل على أنه لو عاقبه لا بسبب فعل يصدر من جهته لكان ظالما وهذا يدل على أنه لا يجوز تعذيب الاطفال بكفر آبائهم (الثالث) أنه سبحانه تمدح بأنه لا يفعل الظلم فوجب أن يكون قادرا عليه خلاف ما يقوله النظام وأن يصح ذلك منه خلاف ما يقوله أهل السنة (الرابع) وهو أن لا يجوز الاستدلال بهذه الآية على أنه تعالى لا يظلم لان عندهم صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم موقوفة على نفي الظلم فلو أثبتنا ذلك بالدليل السمعي لزم الدور (والجواب) عن الكل المعارضة بالعلم والداعي ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير﴾ القراءة قرئ خاسر الدنيا والآخرة

(هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه) وكان الظاهر أن يتعرض لما فعلوا بأخيه فقط وانما تعرض لما فعلوا بيوسف لاشتراكهما في وقوع الفعل عليهما فان المراد بذلك افرادهم له عن يوسف واذلاله بذلك حتى كان لا يستطيع أن يكلمهم الا بعجز وذلة أي هل تبتم عن ذلك بعد علمكم بقبحه فهو سؤال عن الملزوم والمراد لازمه (اذ أنتم جاهلون) بقبحه فلذلك أقدمتم على ذلك أو جاهلون عاقبته وانما قاله نصحا لهم وتحريضا على التوبة وشفقة عليهم لما رأى عجزهم وتمسكنهم لا معاتبة وتثريبا ويجوز أن يكون هذا الكلام منه عليه السلام منقطعا عن كلامهم وتنبيها لهم على ما هو حقهم ووظيفتهم من الاعراض عن جميع المطالب والتمحض في طلب بنيامين بل يجوز أن يقف عليه السلام بطريق الوحي أو الالهام على وصية أبيه وارساله اياهم للتحسس منه ومن

أخيه فلما رآهم قد اشتغلوا عن ذلك قال ما قال وقيل أعطوه كتاب يعقوب عليه السلام وقد كتب فيه

كتاب من يعقوب اسرائيل الله ابن اسحق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله الى عزيز مصر أما بعد فانا أهل بيت موكل بنا البلاء أما جدي فشدت يداه ورجلاه فرمي به في النار فجعلها الله تعالى عليه بردا وسلاما وأما أبي فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله تعالى

وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي الي فذهب به اخوته الى البرية ثم أتوني بقميصه ملطخا بالدم فقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناي من بكائي عليه ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا انه سرق وانك حبسته وانا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقا فان رددته علي والا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك والسلام فلما قرأ لم يتمالك وعيل صبره فقال لهم قال وقيل لما قرأه بكى وكتب الجواب اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا (قالوا أئنك لأنت يوسف) استفهام تقرير ولذلك أكدوه بان واللام قالوه استغرابا وتعجبا وقرئ انك بالايجاب قيل عرفوه بروائه وشمائله حين كلمهم به وقيل تبسم فعرفوه بثناياه قيل رفع التاج عن رأسه فرأوا علامة بقرنه تشبه الشامة البيضاء وكان لسارة ويعقوب مثلها وقرئ أئنك أو أنت يوسف على معنى أئنك يوسف وأنت يوسف فحذف الاول لدلالة الثاني عليه وفيه زيادة استغراب (قال أنا يوسف) جوابا عن مسئلتهم وقد زاد عليه قوله (وهذا أخي) أي من أبوي مبالغة في تعريف نفسه وتفخيما لشأن أخيه وتكملة لما أفاده قوله هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه حسبما يفيده قوله (قد من الله علينا) فكأنه قال هل علمتم ما فعلتم بنا من التفريق والاذلال فأنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا بالخلاص عما ابتلينا به والاجتماع بعد الفرقة والعزة بعد الذلة والانس بعد الوحشة ولا يبعد أن يكون فيه اشارة الى الجواب عن طلبهم لرد بنيامين بأنه أخي لا أخوكم فلا وجه لطلبكم ثم علل ذلك بطريق الاستئناف التعليلي بقوله (انه من يتق) أي يفعل التقوى في جميع أحواله أو يتق نفسه عما يوجب سخط الله تعالى قوله

بالنصب والرفع فالنصب على الحال والرفع على أنه خبر مبتدا محذوف وفي حرف عبد الله من ضره بغير لام واعلم أنه تعالى لما بين حال المظاهرين للشرك المجادلين فيه على ما ذكرنا عقبه بذكر المنافقين فقال ومن الناس من يعبد الله على حرف وفي تفسير الحرف وجهان (الاول) ما قاله الحسن وهو أن المرء في باب الدين معتمده القلب واللسان فهما حرفا الدين فاذا وافق أحدهما الآخر فقد تكامل في الدين واذا أظهر بلسانه الدين لبعض الاغراض وفي قلبه النفاق جاز أن يقال فيه على وجه الذم يعبد الله على حرف (الثاني) قوله على حرف أي على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم لا على سكون وطمأنينة كالذي يكون على طرف من العسكر فان أحس بغنيمة قر واطمأن والا فر وطار على وجهه وهذا هو المراد فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه لان الثبات في الدين انما يكون لو كان الغرض منه اصابة الحق وطاعة الله والخوف من عقابه فأما اذا كان غرضه الخير المعجل فانه يظهر الدين عند السراء ويرجع عنه عند الضراء فلا يكون الا منافقا مذموما وهو مثل قوله تعالى مذبذبين بين ذلك وكقوله فان كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم (المسئلة الثانية) قال الكلبي نزلت هذه الآية في أعراب كانوا يقدمون على النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة مهاجرين من باديتهم فكان أحدهم اذا صح بها جسمه ونتجت فرسه مهرا حسنا وولدت امرأته غلاما وكثر ماله وماشيته رضي به واطمأن اليه وان أصابه وجع وولدت امرأته جارية أو أجهضت رماكه وذهب ماله وتأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان وقال له ما جاءتك هذه الشرور الا بسبب هذا الدين فينقلب عن دينه وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد وقتادة (وثانيها) وهو قول الضحاك نزلت في المؤلفة قلوبهم منهم عيينة بن بدر والاقرع بن حابس والعباس بن مرداس قال بعضهم لبعض ندخل في دين محمد فان أصبنا خيرا عرفنا أنه حق وان أصبنا غير ذلك عرفنا أنه باطل (وثالثها) قال أبو سعيد الخدري أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده فقال يا رسول الله أقلني فاني لم أصب من ديني هذا خيرا اذهب بصري وولدي ومالي فقال صلى الله عليه وسلم ان الاسلام لا يقال ان الاسلام ليسبك كما تسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة فنزلت هذه الآية وأما قوله وان أصابته فتنة انقلب على وجهه ففيه سؤالات (الاول) كيف قال وان أصابته فتنة انقلب على وجهه والخير أيضا فتنة لانه امتحان وقال تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة (والجواب) مثل هذا كثير في اللغة لان النعمة بلاء وابتلاء لقوله فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ولكن انما يطلق اسم البلاء على ما يثقل على الطبع والمنافق ليس عنده الخير الا الخير الدنيوي وليس عنده الشر الا الشر الدنيوي لانه لا دين له فلذلك وردت الآية على ما يعتقدونه وان كان الخير كله فتنة لكن أكثر ما يستعمل فيما يشتد ويثقل (السؤال الثاني) اذا كانت الآية في المنافق فما معنى قوله انقلب على وجهه وهو في الحقيقة لم يسلم حتى ينقلب ويرتد (والجواب) المراد أنه أظهر بلسانه خلاف ما كان أظهره فصار يذم الدين عند الشدة وكان من قبل يمدحه وذلك انقلاب في الحقيقة (السؤال الثالث) قال مقاتل الخير هو ضد الشر فلما قال فان أصابه خير اطمأن به كان يجب أن يقول وان أصابه شر انقلب على وجهه (الجواب) لما كانت الشدة ليست بقبيحة لم يقل تعالى وان أصابه شر بل وصفه بما لا يفيد به القبح أما قوله تعالى خسر الدنيا والآخرة فذلك لانه يخسر في الدنيا العز والكرامة واصابة الغنيمة وأهلية الشهادة والامامة والقضاء ولا يبقى ماله ودمه مصونا وأما في الآخرة فيفوته الثواب الدائم ويحصل له العقاب الدائم وذلك هو الخسران المبين أما

قوله تعالى يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه فالاقرب أنه المشرك الذي يعبد الاوثان وهذا كالدلالة على أن الآية لم ترد في اليهودي لانه ليس ممن يدعو من دون الله الاصنام والاقرب أنها واردة في المشركين الذين انقطعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه النفاق وبين تعالى أن ذلك هو الضلال البعيد وأراد به عظم ضلالهم وكفرهم ويحتمل أن يعني بذلك بعد ضلالهم عن الصواب لان جميعه وان كان يشترك في أنه خطأ فبعضه أبعد من الحق من البعض واستعير الضلال البعيد من ضلال من أبعد في التيه ضالا وطالت وبعدت مسافة ضلاله أما قوله تعالى يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ففيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ اختلفوا في تفسيره على وجهين (أحدهما) أن المراد رؤساؤهم الذين كانوا يفزعون اليهم لانه يصح منهم أن يضروا وحجة هذا القول أن الله تعالى بين في الآية الاولى أن الاوثان لا تضرهم ولا تنفعهم وهذه الآية تقتضي كون المذكور فيها ضارا نافعا اذ لو كان المذكور في هذه الآية هو الاوثان لزم التناقض (القول الثاني) أن المراد الوثن وأجابوا عن التناقض بأمور (أحدها) أنها لا تضر ولا تنفع بأنفسها ولكن عبادتها سبب الضرر وذلك يكفي في اضافة الضرر اليها كقوله تعالى رب انهن أضللن كثيرا من الناس فاضاف الاضلال اليهم من حيث كانوا سببا للضلال فكذا ههنا نفي الضرر عنهم في الآية الاولى بمعنى كونها فاعلة وأضاف الضرر اليهم في هذه الآية بمعنى أن عبادتها سبب الضرر (وثانيها) كأنه سبحانه وتعالى بين في الآية الاولى أنها في الحقيقة لا تضر ولا تنفع ثم قال في الآية الثانية لو سلمنا كونها ضارة نافعة لكن ضررها أكثر من نفعها (وثالثها) كان الكفار اذا أنصفوا علموا أنه لا يحصل منها نفع ولا ضرر في الدنيا ثم انهم في الآخرة يشاهدون العذاب العظيم بسبب عبادتها فكأنهم يقولون لها في الآخرة ان ضرركم أعظم من نفعكم ﴿المسئلة الثانية﴾ اختلف النحويون في اعراب قوله لمن ضره أقرب أما قوله لبئس المولى ولبئس العشير فالمولى هو الولي والناصر والعشير الصاحب والمعاشر واعلم أن هذا الوصف بالرؤساء أليق لان ذلك لا يكاد يستعمل في الاوثان فبين تعالى أنهم يعدلون عن عبادة الله تعالى الذي يجمع خير الدنيا والآخرة الى عبادة الاصنام والى طاعة الرؤساء ثم ذم الرؤساء بقوله لبئس المولى والمراد ذم من انتصر بهم والتجأ اليهم

﴿قوله تعالى ﴿ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار ان الله يفعل ما يريد من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ وكذلك أنزلناه آيات بينات وأن الله يهدي من يريد﴾ اعلم أنه سبحانه لما بين في الآية السابقة حال عبادة المنافقين وحال معبودهم بين في هذه الآية صفة عبادة المؤمنين وصفة معبودهم أما عبادتهم فقد كانت على الطريق الذي لا يمكن صوابه وأما معبودهم فلا يضر ولا ينفع وأما المؤمنون فعبادتهم حقيقة ومعبودهم يعطيهم أعظم المنافع وهو الجنة ثم بين كمال الجنة التي تجمع بين الزرع والشجر وأن تجري من تحتها الانهار وبين تعالى أنه يفعل ما يريد بهم من أنواع الفضل والاحسان زيادة على أجورهم كما قال تعالى فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله واحتج أصحابنا في خلق الافعال بقوله سبحانه ان الله يفعل ما يريد قالوا أجمعنا على أنه سبحانه يريد الايمان ولفظة ما للعموم فوجب أن يكون فاعلا للايمان اقوله ان الله يفعل ما يريد أجاب الكعبي عنه بأن الله تعالى يفعل ما يريد أن يفعله لا ما يريد أن يفعله غيره والجواب أن قوله ما يريد أعم من قولنا ما يريد أن يفعله ومن قولنا ما يريد أن يفعله غيره فالتقييد خلاف النص أما قوله من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فالهاء الى ماذا يرجع فيه وجهان ﴿الاول﴾ وهو قول ابن عباس والكلبي ومقاتل والضحاك وقتادة وابن زيد والسدي واختيار الفراء

وعذابه (ويصبر) على المحن أو على مشقة الطاعات أو عن المعاصي التي تستلذها النفس (فان الله لا يضيع أجر المحسنين) أي أجرهم وانما وضع المظهر موضع المضمر تنبيها على أن المنعوتين بالتقوى والصبر موصوفون بالاحسان (قالوا تالله لقد آثرك الله علينا) اختارك وفضلك علينا بما ذكرت من النعوت الجليلة (وان كنا) وان الشأن كنا (لخاطئين) لمتعمدين للذنب اذ فعلنا بك ما فعلنا ولذلك أعزك وأذلنا وفيه اشعار بالتوبة والاستغفار ولذلك قال (لا تثريب) أي لا عتب ولا تأنيب (عليكم) وهو تفعيل من الثرب وهو الشحم الغاشي للكرش ومعناه ازالته كما أن التجليد ازالة الجلد والتقريع ازالة القرع لانه اذا ذهب كان ذلك غاية الهزال فضرب مثلا للتقريع الذي يذهب بماء الوجه وقوله عز وعلا (اليوم) منصوب بالتثريب أو بالمقدر خبرا للا أي لا أثربكم أو لا تثريب مستقر عليكم اليوم الذي هو مظنة له فما ظنكم بسائر الايام أو بقوله (يغفر الله لكم) لانه حينئذ صفح عن جريمتهم وعفا عن جريرتهم بما فعلوا من التوبة (وهو أرحم الراحمين) يغفر الصغائر والكبائر ويتفضل على التائب بالقبول ومن كرمه عليه الصلاة والسلام أن اخوته أرسلوا اليه انك تدعونا الى طعامك بكرة وعشيا ونحن نستحي منك بما فرط منا فيك فقال عليه الصلاة والسلام ان أهل مصر وان ملكت فيهم كانوا ينظرون الي بالعين الاولى ويقولون سبحان من بلغ عبدا بيع بعشرين درهما ما بلغ ولقد شرفت بكم الآن وعظمت في العيون حيث علم الناس أنكم اخوتي وأني من حفدة ابراهيم عليه الصلاة والسلام (اذهبوا بقميصي هذا) قيل هو الذي كان عليه حينئذ وقيل هو القميص المتوارث الذي كان في التعويذ بأمر جبريل بارساله اليه وأوحى اليه أن فيه ريح الجنة لا يقع على مبتلى الا عوفي (فألقوه على وجه أبي

والزجاج انه يرجع الى محمد صلى الله عليه وسلم يريد أن من ظن ان لن ينصر الله محمدا صلى الله عليه وسلم في الدنيا باعلاء كلمته واظهار دينه وفي الآخرة باعلاء درجته والانتقام ممن كذبه والرسول صلى الله عليه وسلم وان لم يجر له ذكر في الآية ففيها ما يدل عليه وهو ذكر الايمان في قوله ان الله يدخل الذين آمنوا والايمان لا يتم الا بالله ورسوله فيجب البحث ههنا عن أمرين (أحدهما) انه من الذي كان يظن أن الله تعالى لا ينصر محمدا صلى الله عليه وسلم (والثاني) انه ما معنى قوله فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع أما الاول فذكروا فيه وجوها (أحدها) كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطئون ما وعد الله رسوله من النصر فنزلت هذه الآية (وثانيها) قال مقاتل نزلت في نفر من أسد وغطفان قالوا نخاف ان الله لا ينصر محمدا فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من اليهود فلا يميروننا (وثالثها) ان حساده وأعداءه كانوا يتوقعون ان لا ينصره الله وان لا يعليه على أعدائه فتى شاهدوا أن الله نصره غاظهم ذلك (وأما البحث الثاني) فاعلم ان في لفظ السبب قولين (أحدهما) أنه الحبل وهؤلاء اختلفوا في السماء فمنهم من قال هو سماء البيت ومنهم من قال هو السماء في الحقيقة فقالوا المعنى من كان يظن ان لن ينصره الله ثم يغيظه انه لا يظفر بمطلوبه فليستقص وسعه في ازالة ما يغيظه بان يفعل ما يفعل من بلغ منه الغيظ كل مبلغ حتى مد حبلا الى سماء بيته فاختنق فلينظر أنه ان فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يغيظه وعلى هذا القول اختلفوا في القطع فقال بعضهم سمى الاختناق قطعا لان المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه وسمى فعله كيدا لانه وضعه موضع الكيد حيث لم يقدر على غيره أو على سبيل الاستهزاء الا أنه لم يكد به محسوده وانما كاد به نفسه والمراد ليس في يده الا ما ليس بمذهب لما يغيظ وهذا قول الكلبي ومقاتل وقال ابن عباس رضي الله عنه يشد الحبل في عنقه وفي سقف البيت ثم ليقطع الحبل حتى يختنق ويهلك هذا كله اذا حملنا السماء على سقف البيت وهو قول كثير من المفسرين وقال آخرون المراد منه نفس السماء فانه يمكن حمل الكلام على نفس السماء فهو أولى من حمله على سماء البيت لان ذلك لا يفهم منه الا مقيدا ولان الغرض ليس الامر بان يفعل ذلك بل الغرض أن يكون ذلك صارفا له عن الغيظ الى طاعة الله تعالى واذا كان كذلك فكل ما كان المذكور أبعد من الامكان كان أولى بان يكون هو المراد ومعلوم ان مد الحبل الى سماء الدنيا والاختناق به أبعد في الامكان من مده الى سقف البيت لان ذلك ممكن أما الذين قالوا السبب ليس هو الحبل فقد ذكروا وجهين (الاول) كأنه قال فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع بذلك السبب المسافة ثم لينظر فانه يعلم ان مع تحمل المشقة فيما ظنه خاسر الصفقة كأن لم يفعل شيأ وهو قول أبي مسلم (والثاني) كأنه قال فليطلب سببا يصل به الى السماء فليقطع نصر الله لنبيه ولينظر هل يتهيأ له الوصول الى السماء بحيلة وهل يتهيأ له أن يقطع بذلك نصر الله عن رسوله فاذا كان ذلك ممتنعا كان غيظه عديم الفائدة واعلم ان المقصد على كل هذه الوجوه معلوم فانه زجر للكفار عن الغيظ فيما لا فائدة فيه وهو في معنى قوله فان استطعت أن تبتغي نفقا في الارض أو سلما في السماء مبينا بذلك انه لا حيلة له في الآيات التي اقترحوها (القول الثاني) ان الهاء في قوله لن ينصره الله راجع الى من في أول الآية لانه المذكور ومن حق الكناية أن ترجع الى مذكور اذا أمكن ذلك ومن قال بذلك حمل النصرة على الرزق وقال أبو عبيدة وقف علينا سائل من بني بكر فقال من ينصرني نصره الله أي من يعطيني أعطاه الله فكأنه قال من كان يظن أن لن يرزقه الله في الدنيا والآخرة فلهذا الظن يعدل عن التمسك بدين محمد صلى الله عليه وسلم كما وصفه تعالى في قوله وان أصابته فتنة انقلب على وجهه فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق فان ذلك لا يغلب القسمة ولا يجعله مرزوقا

يأت بصيرا) يكن بصيرا أو يأت الي بصيرا وينصره قوله (وأتوني بأهلكم أجمعين) أي بأبي وغيره ممن ينتظمه لفظ الاهل جميعا من النساء والذراري قيل ان حامل القميص يهوذا وقال أنا أحزنته بحمل القميص ملطخا بالدم اليه فافرحه كما أحزنته وقيل حمله وهو حاف حاسر من مصر الى كنعان وبينهما مسيرة ثمانين فرسخا (ولما فصلت العير) خرجت من عريش مصر يقال فصل من البلد فصولا اذا انفصل منه وجاوز حيطانه وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما انفصل العير (قال أبوهم) يعقوب عليه الصلاة والسلام لمن عنده (اني لأجد ريح يوسف) أوجده الله سبحانه ما عبق بالقميص من ريح يوسف من ثمانين فرسخا من أقبل به يهوذا (لولا أن تفندون) أي تنسبوني الى الفند وهو الخرف وانكار العقل وفساد الرأي من هرم يقال شيخ مفند ولا يقال عجوز مفندة اذ لم تكن في شبيبتها ذات رأي فتفند في كبرها وجواب لولا محذوف أي لصدقتموني (قالوا) أي الحاضرون عنده (تالله انك لفي ضلالك القديم) لفي ذهابك عن الصواب قدما في افراط محبتك ليوسف ولهجك بذكره ورجائك للقائه وكان عندهم انه قد مات (فلما أن جاء البشير) وهو يهوذا (ألقاه) أي ألقى البشير القميص (على وجهه) أي وجه يعقوب أو ألقاه يعقوب على وجه نفسه (فارتد) عاد (بصيرا) لما انتعش فيه من القوة (قال ألم أقل لكم) يعني قوله اني لأجد ريح يوسف فالخطاب لمن كان عنده بكنعان أما قوله ولا تيأسوا من روح الله فالخطاب لبنيه وهو الانسب بقوله (اني أعلم من الله ما لا تعلمون) فان مدار النهي المذكور اعلامه والعلم الذي أوتي يعقوب من جهة الله سبحانه وعلى هذا يجوز أن يكون هذا مقول القول أي ألم أقل لكم حين أرسلتكم الى مصر وأمرتكم بالتحسس

أما قوله وكذلك أنزلناه آيات بينات فمعناه ومثل ذلك الانزال أنزلنا القرآن كله آيات بينات أما قوله وأن الله يهدي من يريد فقد احتج أصحابنا به فقالوا المراد من الهداية إما وضع الأدلة أو خلق المعرفة والأول غير جائز لأنه تعالى فعل ذلك في حق كل المكلفين ولأن قوله يهدي من يريد يدل على أن الهداية غير واجبة عليه بل هي معلقة بمشيئته سبحانه ووضع الأدلة عند الخصم واجب فبقي أن المراد منه خلق المعرفة قال القاضي عبد الجبار في الاعتذار هذا يحتمل وجوها (أحدها) يكلف من يريد لأن من كلف أحدا شيئا فقد وصفه وبينه له (وثانيها) أن يكون المراد يهدي إلى الجنة والاثابة من يريد ممن آمن وعمل صالحا (وثالثها) أن يكون المراد أن الله تعالى يلطف بمن يريد ممن علم أنه إذا زاده هدى ثبت على إيمانه كقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى وهذا الوجه هو الذي أشار الحسن إليه بقوله إن الله يهدي من قبل لا من لم يقبل والوجهان الأولان ذكرهما أبو علي (والجواب عن الأول) أن الله تعالى ذكر ذلك بعد بيان الأدلة والجواب عن الشبهات فلا يجوز حمله على محض التكليف وأما الوجهان الأخيران فمدفوعان لأنهما عندك واجبان على الله تعالى وقوله يهدي من يريد يقتضي عدم الوجوب ﴿قوله تعالى ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء﴾ القراءة قرئ حق بالضم وقرئ حقا أي حق عليه العذاب حقا وقرئ مكرم بفتح الراء بمعنى الاكرام واعلم أنه تعالى لما قال وأن الله يهدي من يريد أتبعه في هذه الآية ببيان من يهديه ومن لا يهديه واعلم أن المسلم لا يخالفه في المسائل الأصولية إلا طبقات ثلاثة (أحدها) الطبقة المشاركة له في نبوة نبيه كالخلاف بين الجبرية والقدرية في خلق الأفعال البشرية والخلاف بين مثبتي الصفات والرؤية ونفاتها (وثانيها) الذين يخالفونه في النبوة ولكن يشاركونه في الاعتراف بالفاعل المختار كالخلاف بين المسلمين واليهود والنصارى في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعيسى وموسى عليهما السلام (وثالثها) الذين يخالفونه في الإله وهؤلاء هم السوفسطائية المتوقفون في الحقائق والدهرية الذين لا يعترفون بوجود مؤثر في العالم والفلاسفة الذين يثبتون مؤثرا موجبا لا مختارا فإذا كانت الاختلافات الواقعة في أصول الأديان محصورة في هذه الأقسام الثلاثة ثم لا يشك أن أعظم جهات الخلاف هو من جهة القسم الأخير منها وهذا القسم الأخير بأقسامه الثلاثة لا يوجدون في العالم متظاهرين بعقائدهم ومذاهبهم بل يكونون مستترين أما القسم الثاني وهو الاختلاف الحاصل بسبب الأنبياء عليهم السلام فقسمه أن يقال القائلون بالفاعل المختار إما أن يكونوا معترفين بوجود الأنبياء أو لا يكونوا معترفين بذلك أما المعترفون بذلك فإما أن يكونوا أتباعا لمن كان نبيا في الحقيقة أو لمن كان متنبئا أما أتباع الأنبياء عليهم السلام فهم المسلمون واليهود والنصارى وفرقة أخرى بين اليهود والنصارى وهم الصابئون وأما أتباع المتنبئ فهم المجوس وأما المنكرون للأنبياء على الاطلاق فهم عبدة الأصنام والأوثان وهم المسمون بالمشركين ويدخل فيهم البراهمة على اختلاف طبقاتهم فثبت أن الأديان الحاصلة بسبب الاختلافات في الأنبياء عليهم السلام هي هذه الستة التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية قال قتادة ومقاتل الأديان ستة واحد لله تعالى وهو الإسلام وخمسة للشيطان وتمام الكلام في هذه الآية قد تقدم في سورة البقرة أما قوله إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ففيه مسئلتان (المسئلة الأولى) قال الزجاج هذا خبر لقول الله تعالى إن الذين آمنوا كما تقول إن

وينهيكم عن اليأس من روح الله تعالى وأعلم من الله ما لا تعلمون من حياة يوسف عليه الصلاة والسلام وروي أنه سأل البشير كيف يوسف فقال هو ملك مصر قال ما أصنع بالملك على أي دين تركته قال على دين الإسلام قال الآن تمت النعمة (قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) ومن حق من اعترف بذنبه أن يصفح عنه ويستغفر له فكأنهم كانوا على ثقة من عفوه عليه الصلاة والسلام ولذلك اقتصروا على استدعاء الاستغفار وأدرجوا ذلك في الاستغفار (قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم) وهذا مشعر بعفوه قيل أخر الاستغفار إلى وقت السحر وقيل إلى ليلة الجمعة ليتحرى به وقت الإجابة وقيل أخره إلى أن يستحل لهم من يوسف عليه الصلاة والسلام أو يعلم أنه قد عفا عنهم فإن عفو المظلوم شرط المغفرة ويعضده أنه روي عنه أنه استقبل القبلة قائما يدعو وقام يوسف خلفه يؤمن وقاموا خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة حتى بلغ جهدهم وظنوا أنها الهلكة نزل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال إن الله قد أجاب دعوتك في ولدك وعقد مواثيقهم بعدك على النبوة فإن صح ثبتت نبوتهم وإن ما صدر عنهم إنما صدر قبل الاستنباء وقيل المراد الاستمرار على الدعاء فقد روي أنه كان يستغفر كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة وقيل أقام إلى الصلاة في وقت السحر فلما فرغ رفع يديه فقال اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه واغفر لولدي ما أتوا إلى أخيهم فأوحى الله إليه إن الله قد غفر لك ولهم أجمعين (فلما دخلوا على يوسف) روي أنه وجه يوسف إلى أبيه جهازا ومائتي راحلة ليتجهز إليه بمن معه فاستقبله يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر بأجمعهم فتلقوا يعقوب عليه الصلاة والسلام وهو يمشي متوكئا على يهوذا فنظر إلى الخيل والناس

أخال ان الدين عليه لكثير قال جرير

ان الخليفة ان الله سربله ☆ سربال ملك به ترجى الخواتيم

(المسألة الثانية) الفصل مطلق فيحتمل الفصل بينهم في الاحوال والاماكن جميعا فلا يجازيهم جزاء واحدا بغير تفاوت ولا يجمعهم في موطن واحد وقيل يفصل بينهم يقضي بينهم أما قوله تعالى ان الله على كل شيء شهيد فالمراد أنه يفصل بينهم وهو عالم بما يستحقه كل منهم فلا يجري في ذلك الفصل ظلم ولا حيف أما قوله سبحانه وتعالى ألم تر أن الله يسجد له ففيه أسئلة (السؤال الاول) ما الرؤية ههنا (الجواب) انها العلم أي ألم تعلم أن الله يسجد له من في السموات ومن في الارض وانما عرف ذلك بخبر الله لا انه رآه (السؤال الثاني) ما السجود ههنا قلنا فيه وجوه (أحدها) قال الزجاج أجود الوجوه في سجود هذه الامور انها تسجد مطيعة لله تعالى وهو كقوله ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين أن نقول له كن فيكون وان منها لما يهبط من خشية الله وان من شيء الا يسبح بحمده وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والمعنى ان هذه الاجسام لما كانت قابلة لجميع الاعراض التي يحدثها الله تعالى فيها من غير امتناع البتة أشبهت الطاعة والانقياد وهو السجود فان قيل هذا التأويل يبطله قوله وكثير من الناس فان السجود بالمعنى الذي ذكرته عام في كل الناس فاسناده الى كثير منهم يكون تخصيصا من غير فائدة والجواب من وجوه (أحدها) ان السجود بالمعنى الذي ذكرناه وان كان عاما في حق الكل الا ان بعضهم تمرد وتكبر وترك السجود في الظاهر فهذا الشخص وان كان ساجدا بذاته لكنه متمرد بظاهره أما المؤمن فانه ساجد بذاته وبظاهره فلاجل هذا الفرق حصل التخصيص بالذكر (وثانيها) أن نقطع قوله وكثير من الناس عما قبله ثم فيه ثلاثة أوجه (الاول) أن نقول تقدير الآية ولله يسجد من في السموات ومن في الارض ويسجد له كثير من الناس فيكون السجود الاول بمعنى الانقياد والثاني بمعنى الطاعة والعبادة وانما فعلنا ذلك لانه قامت الدلالة على أنه لا يجوز استعمال اللفظ المشترك في معنييه جميعا (الثاني) أن يكون قوله وكثير من الناس مبتدأ وخبره محذوف وهو مثاب لان خبر مقابله يدل عليه وهو قوله حق عليه العذاب (والثالث) أن يبالغ في تكثير المحقوقين بالعذاب فيعطف كثير على كثير ثم يخبر عنهم بحق عليهم العذاب كانه قيل وكثير من الناس وكثير حق عليهم العذاب (وثالثها) أن من يجوز استعمال اللفظ المشترك في مفهوميه جميعا يقول المراد بالسجود في حق الاحياء العقلاء العبادة وفي حق الجمادات الانقياد ومن ينكر ذلك يقول ان الله تعالى تكلم بهذه اللفظة مرتين فعنى بها في حق العقلاء الطاعة وفي حق الجمادات الانقياد (السؤال الثالث) قوله ولله يسجد من في السموات ومن في الارض لفظه لفظ العموم فيدخل فيه الناس فلم قال مرة أخرى وكثير من الناس (الجواب) لو اقتصر على ما تقدم لاوهم ان كل الناس يسجدون كما ان كل الملائكة يسجدون فبين ان كثيرا منهم يسجدون طوعا دون كثير منهم فانه يمتنع عن ذلك وهم الذين حق عليهم العذاب (القول الثاني في تفسير السجود) أن كل ما سوى الله تعالى فهو ممكن لذاته والممكن لذاته لا يترجح وجوده على عدمه الا عند الانتهاء الى الواجب لذاته كما قال وان الى ربك المنتهى وكما أن الامكان لازم للممكن حال حدوثه وبقائه فافتقاره الى الواجب حاصل حال حدوثه وحال بقائه وهذا الافتقار الذاتي اللازم للماهية أدل على الخضوع والتواضع من وضع الجبهة على الارض فان ذلك علامة وضعية للافتقار الذاتي وقد يتطرق اليها الصدق والكذب أما نفس الافتقار الذاتي فانه ممتنع التغير والتبدل فجميع الممكنات ساجدة بهذا المعنى

فقال يا يهوذا هذا قرعون مصر قال لا بل ولدك فلما لقيه قال عليه الصلاة والسلام السلام عليك يا مذهب الاحزان وقيل قال له يوسف يا أبت بكيت علي حتى ذهب بصرك ألم تعلم أن القيامة تجمعنا فقال بلى ولكني خشيت أن يسلب دينك فيحال بيني وبينك وقيل ان يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ما بين رجل وامرأة وكانوا حين خرجوا مع موسى ستمائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعين رجلا سوى الذرية والهرمى وكانت الذرية ألف ألف ومائتي ألف (آوى اليه أبويه) أي أباه وخالته وتنزيلها منزلة الام كتنزيل العم منزلة الاب في قوله عز وجل واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق أولان يعقوب عليه الصلاة والسلام تزوجها بعد أمه وقال الحسن وابن اسحق كانت أمه في الحياة فلا حاجة الى التأويل ومعنى آوى اليه ضمهما اليه واعتنقهما وكأنه عليه الصلاة والسلام ضرب في الملتقى مضربا فنزل به فدخلوا عليه فآواهما اليه (وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين) من الشدائد والمكاره قاطبة والمشيئة متعلقة بالدخول على الامن (ورفع أبويه) عند نزولهم بمصر (على العرش) على السرير تكرمة لهما فوق ما فعله لاخوته (وخروا له) أي أبواه واخوته (سجدا) تحية له فانه كان السجود عندهم جاريا مجرى التحية والتكرمة كالقيام والمصافحة وتقبيل اليد ونحوها من عادات الناس الفاشية في التعظيم والتوقير وقيل ما كان ذلك الا انحناء دون تعفير الجباه وأباه الخرور وقيل خروا لاجله لله سجدا لله شكرا وهو يرده قوله تعالى (وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي) التي رأيتها وقصصتها عليك (من قبل) في زمن الصبا (قد جعلها ربي حقا) صدقا واقعا بعينه والاعتذار بجعل يوسف بمنزلة القبلة وجعل اللام كما في قوله ☆ أليس أول من صلى لقبلتكم ☆ تعسف

الله تعالى أي خاضعة منذللة معترفة بالفاقة اليه والحاجة الى تخليقه وتكوينه وعلى هذا تأولوا قوله وان من شئ الا يسبح بحمده وهذا قول القفال رحمه الله ﴿القول الثالث﴾ ان سجود هذه الاشياء سجود ظلها كقوله تعالى يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون وهو قول مجاهد وأما قوله كثير من الناس وكثير حق عليه العذاب فقال ابن عباس في رواية عطاء وكثير من الناس يوحده وكثير حق عليه العذاب ممن لا يوحده وروى عنه أيضا انه قال وكثير من الناس في الجنة وهذه الرواية تؤكد ما ذكرنا أن قوله وكثير من الناس مبتدأ وخبره محذوف وقال آخرون الوقف على قوله وكثير من الناس ثم استأنف فقال وكثير حق عليه العذاب أي وجب بابائه وامتناعه من السجود وأما قوله تعالى ومن يهن الله فماله من مكرم فالمعنى أن الذين حق عليهم العذاب ليس لهم أحد يقدر على ازالة ذلك الهوان عنهم فيكون مكرما لهم ثم بين بقوله أن الله يفعل ما يشاء انه الذي يصح منه الاكرام والهوان يوم القيامة بالثواب والعقاب والله أعلم

﴿قوله تعالى ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد﴾ القراءة روى عن الكسائي خصمان بكسر الخاء وقرئ قطعت بالتخفيف كان الله يقدر لهم نيرانا على مقادير جثثهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة وقرأ الاعمش كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم ردوا فيها الحسن يصهر بتشديد الهاء للمبالغة وقرئ ولؤلؤا بالنصب على تقدير ويؤتون لؤلؤا كقوله وحورا عينا ولولوا بقلب الهمزة الثانية واوا واعلم انه سبحانه لما بين ان الناس قسمان منهم من يسجد لله ومنهم من حق عليه العذاب ذكرههنا كيفية اختصامهم وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ احتج من قال أقل الجمع اثنان بقوله هذان خصمان اختصموا (والجواب) الخصم صفة وصف بها الفوج أو الفريق فكأنه قيل هذان فوجان أو فريقان يختصمان فقوله هذان للفظ واختصموا للمعنى كقوله ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا ﴿المسئلة الثانية﴾ ذكروا في تفسير الخصمين وجوها (أحدها) المراد طائفة المؤمنين وجماعتهم وطائفة الكفار وجماعتهم وان كل الكفار يدخلون في ذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما يرجع الى اهل الاديان الستة في ربهم أي في ذاته وصفاته (وثانيها) روى ان أهل الكتاب قالوا نحن أحق بالله وأقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم وقال المؤمنون نحن أحق بالله آمنا بمحمد وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب وأنتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسدا فهذه خصومتهم في ربهم (وثالثها) روى قيس بن عبادة عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه انه كان يحلف بالله ان هذه الآية نزلت في ستة نفر من قريش تبارزوا يوم بدر حمزة وعلي وعبيدة بن الحرث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة وقال علي عليه السلام أنا أول من يجثو للخصومة بين يدي الله تعالى يوم القيامة (ورابعها) قال عكرمة هما الجنة والنار قالت النار خلقني الله لعقوبته وقالت الجنة خلقني الله لرحمته فقص الله من خبرهما على محمد صلى الله عليه وسلم ذلك والاقرب هو الاول لان السبب وان كان خاصا فالواجب حمل الكلام على ظاهره وقوله هذان كالاشارة الى من تقدم ذكره وهم أهل الاديان الستة وأيضا ذكر صنفين أهل طاعته وأهل معصيته ممن حق عليه العذاب فوجب أن يكون رجوع ذلك اليهما فمن خص به مشركي العرب أو اليهود من حيث قالوا في كتابهم ونبيهم ما حكيناه فقد أخطأ وهذا هو الذي يدل على أن قوله ان الله يفصل بينهم

لا يخفى وتأخيره عن الرفع على العرش ليس بنص في ذلك لان الترتيب الذكري لا يجب كونه على وفق الترتيب الوقوعي فلعل تأخيره عنه ليتصل به ذكر كونه تعبير الرؤيا وما يتصل به من قوله (وقد أحسن بي) المشهور استعمال الاحسان بالى وقد يستعمل بالباء أيضا كما في قوله عز اسمه وبالوالدين احسانا وقيل هذا يتضمن لطف وهو الاحسان الخفي. ١٧٥ كما يؤذن به قوله تعالى ان ربي لطيف لما يشاء وفيه فائدة لا تخفى أي لطف بي محسنا الي غير هذا الاحسان (اذ أخرجني من السجن) بعد ما ابتليت به ولم يصرح بقصة الجب حذارا من تثريب اخوته لان الظاهر حضورهم لوقوع الكلام عقيب خرورهم سجدا واكتفاء بما يتضمنه قوله تعالى (وجاء بكم من البدو) أي البادية (من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي) أي افسد بيننا بالاغواء وأصله من نخس الرائض الدابة وحملها على الجري يقال نزغه ونسغه اذا نخسه ولقد بالغ عليه الصلاة والسلام في الاحسان حيث أسند ذلك الى الشيطان (ان ربي لطيف لما يشاء) أي لطيف التدبير لاجله رفيق حتى يجيء على وجه الحكمة والصواب ما من صعب الا وهو بالنسبة الى تدبيره سهل (انه هو العليم) بوجوه المصالح (الحكيم) الذي يفعل كل شئ على قضية الحكمة روى أن يوسف أخذ بيد يعقوب عليهما الصلاة والسلام فطاف به في خزائنه فأدخله في خزائن الورق والذهب وخزائن الحلي وخزائن الثياب وخزائن السلاح وغير ذلك فلما أدخله خزائن القراطيس قال يا بني ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت الي على ثماني مراحل قال أمرني جبريل قال أوما تسأله قال أنت أبسط اليه مني فسأله قال جبريل الله تعالى أمرني بذلك لقولك أخاف أن يأكله الذئب قال فهلا خفتني وروى أن يعقوب عليه الصلاة والسلام أقام

معه أربعا وعشرين سنة ثم مات وأوصى أن يدفنه بالشام الى جنب أبيه اسحق فمضى بنفسه ودفنه ثمة ثم عاد الى مصر وعاش بعد أبيه ثلاثا وعشرين سنة فلما تم أمره وعلم أنه لا يدوم له تاقت نفسه الى الملك الدائم الخالد فتمنى الموت فقال (رب قد آتيتني من الملك) أي بعضا منه عظيما وهو ملك مصر (وعلمتني من تأويل الاحاديث) أي بعضا من ذلك كذلك ان أريد بتعليم تأويل الاحاديث تفهيم غوامض أسرار الكتب الالهية ودقائق سنن الانبياء عليهم الصلاة والسلام فالترتيب ظاهر وأما ان اريد به تعليم تعبير الرؤيا كما هو الظاهر فلعل تقديم ايتاء الملك عليه في الذكر لانه بمقام تعداد النعم الفائضة عليه من الله سبحانه والملك أعرق في كونه نعمة من التعليم المذكور وان كان ذلك أيضا نعمة جليلة في نفسه ولا يمكن تمشية هذا الاعتذار فيما سبق لان التعليم هنالك وارد على نهج العلة الغائية للتمكين فان حمل على معنى التمليك لزم تأخره عنه وأما الواقع ههنا فمجرد التأخير في الذكر والعطف بحرف الواو لا يستدعي ذلك الترتيب في الوجود (فاطر السموات والارض) مبدعهما وخالقهما نصب على أنه صفة للمنادى أو منادى آخر وصفه تعالى به بعد وصفه بالربوبية مبالغة في ترتيب مبادي ما يعقبه من قوله (أنت وليي) مالك أمري (في الدنيا والآخرة) أو الذي يتولاني بالنعمة فيهما وقد أتممت على نعمة الدنيا (توفني) اقبضني مسلما (وألحقني بالصالحين) من آبائي أو بعامة الصالحين في الرتبة والكرامة فانما تم استقرار النعمة بذلك قيل لما دعا توفاه الله تعالى طيبا طاهرا فتخاصم أهل مصر في دفنه وتشاحوا في ذلك حتى هموا بالقتال فرأوا أن يصنعوا له تابوتا من مرمر فجعلوه فيه ودفنوه في النيل ليمر عليه ثم يصل الى مصر ليكونوا شرعا واحدا في التبرك به وولد له افرايم وميشا ولافرايم نون

أراد به الحكم لان ذكر اختصامهم يقتضي ان لواقع بعده يكون حكما فبين الله تعالى حكمه في الكفار وذكر من أحوالهم أمورا ثلاثة (أحدها) قوله قطعت لهم ثياب من نار والمراد بالثياب احاطة النار بهم كقوله لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش عن أنس وقال سعيد بن جبير من نحاس أذيب بالنار أخذا من قوله تعالى سرابيلهم من قطران وأخرج الكلام بلفظ الماضي كقوله تعالى ونفخ في الصور وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد لان ما كان من امر الآخرة فهو كالواقع (وثانيها) قوله يصب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود الحميم الماء الحار قال ابن عباس رضي الله عنهما لو سقطت منه قطرة على جبال الدنيا لاذابتها يصهر أي يذاب أي اذا صب الحميم على رؤسهم كان تأثيره في الباطن نحو تأثيره في الظاهر فيذيب امعاءهم وأحشاءهم كما يذيب جلودهم وهو أبلغ من قوله وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم (وثالثها) قوله ولهم مقامع من حديد المقامع السياط وفي الحديث لو وضعت مقمعة منها في الارض فاجتمع عليها الثقلان ما أقلوها واما قوله كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها فاعلم ان الاعادة لا تكون الا بعد الخروج والمعنى كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم يخرجوا أعيدوا فيها ومعنى الخروج ما يروى عن الحسن ان النار تضربهم بلهبها فترفعهم حتى اذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفا وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق والحريق الغليظ من النار العظيم الاهلاك ثم انه سبحانه ذكر حكمه في المؤمنين من اربعة أوجه (أحدها) المسكن وهو قوله ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الانهار (وثانيها) الحلية وهو قوله يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير فبين تعالى انه موصلهم في الآخرة الى ما حرمه عليهم في الدنيا من هذه الامور واما كان من أحله لهم أيضا شاركهم فيه لان الحلال للنساء في الدنيا يسير بالاضافة الى ما يحصل لهم في الآخرة (وثالثها) الملبوس وهو قوله ولباسهم فيها حرير (ورابعها) قوله وهدوا الى الطيب من القول وفيه وجوه (أحدها) أن شهادة أن لا اله الا الله هو الطيب من القول لقوله ومثل كلمة طيبة وقوله اليه يصعد الكلم الطيب وهو صراط الحميد لقوله وانك لتهدي الى صراط مستقيم (وثانيها) قال السدي وهدوا الى الطيب من القول وهو القرآن (وثالثها) قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء هو قولهم الحمد لله الذي صدقنا وعده (ورابعها) أنهم اذا ساروا الى الدار الآخرة هدوا الى البشارات التي تأتيهم من قبل الله تعالى بدوام النعيم والسرور والسلام وهو معنى قوله والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وعندي فيه وجه خامس وهو أن العلاقة البدنية جارية مجرى الحجاب للارواح البشرية في الاتصال بعالم القدس فاذا فارقت أبدانها انكشف الغطاء ولاحت الانوار الالهية وظهرت تلك الانوار والمراد من قوله وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد والتعبير عنها هو المراد من قوله وهدوا الى الطيب من القول

﴿قوله سبحانه وتعالى ﴿ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾ اعلم أنه تعالى بعد أن فصل بين الكفار والمؤمنين ذكر عظم حرمة البيت وعظم كفر هؤلاء فقال ان الذين كفروا بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام وذلك بالمنع من الهجرة والجهاد لانهم كانوا يأتون ذلك وفيه اشكال وهو أنه كيف عطف المستقبل وهو قوله ويصدون عن سبيل الله على الماضي وهو قوله كفروا (والجواب) عنه من وجهين (الاول) انه يقال فلان يحسن الى الفقراء ويعين الضعفاء لا يراد به حال ولا استقبال وانما يراد

وانون يوشع فتى موسى عليه الصلاة والسلام ولقد توارثت الفراعنة من العمالقة بعده بمصر ولم يزل بنو اسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه الى أن بعث الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام (ذلك) اشارة الى ما سبق من نبأ يوسف وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا من الدلالة على بعد منزلته أو لكونه بالانقضاء في حكم البعيد والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وهو مبتدأ خبره

استمرار وجود الاحسان منه في جميع أزمنته وأوقاته فكأنه قيل ان الذين كفروا من شأنهم الصد عن سبيل الله ونظيره قوله الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله (وثانيهما) قال أبو علي الفارسي التقدير ان الذين كفروا فيما مضى وهم الآن يصدون ويدخل فيه أنهم يفعلون ذلك في الحال والمستقبل أما قوله والمسجد الحرام يعني ويصدونهم أيضا عن المسجد الحرام قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت الآية في أبي سفيان بن حرب وأصحابه حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية عن المسجد الحرام عن ان يحجوا ويعتمروا وينحروا الهدي فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قتالهم وكان محرما بعمرة ثم صالحوه على ان يعود في العام القابل أما قوله الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال أبو علي الفارسي أي جعلناه للناس منسكا ومتعبدا وقوله سواء العاكف فيه والباد رفع على أنه خبر مبتدأ مقدم أي العاكف والبادي فيه سواء وتقدير الآية المسجد الحرام الذي جعلناه للناس منسكا فالعاكف والبادي فيه سواء وقرأ عاصم ويعقوب سواء بالنصب بايقاع الجعل عليه لان الجعل يتعدى الى مفعولين والله أعلم (المسئلة الثانية) العاكف المقيم به الحاضر والبادي الطارئ من البدو وهو النازع اليه من غربته وقال بعضهم يدخل في العاكف القريب اذا جاور ولزمه للتعبد وان لم يكن من أهله (المسئلة الثالثة) اختلفوا في أنهما في أي شيء يستويان قال ابن عباس رضي الله عنهما في بعض الروايات أنهما يستويان في سكنى مكة والنزول بها فليس أحدهما أحق بالمنزل الذي يكون فيه من الآخر الا ان يكون واحد سبق الى المنزل وهو قول قتادة وسعيد بن جبير ومن مذهب هؤلاء أن كراء دور مكة وبيعها حرام واحتجوا عليه بالآية والخبر أما الآية فهي هذه قالوا ان أرض مكة لا تملك فانها لو ملكت لم يستو العاكف فيها والبادي فلما استويا ثبت أن سبيلها سبيل المساجد وأما الخبر فقوله عليه السلام مكة مباح لمن سبق اليها وهذا مذهب ابن عمر وعمر بن عبد العزيز ومذهب أبي حنيفة واسحق الحنظلي رضي الله عنهم وعلى هذا المراد بالمسجد الحرام الحرم كله لان اطلاق لفظ المسجد الحرام والمراد منه البلد جائز بدليل قوله تعالى سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام وههنا قد دل الدليل وهو قوله العاكف لان المراد منه المقيم اقامة واقامته لا تكون في المسجد بل في المنازل فيجب أن يقال ذكر المسجد واراد مكة (القول الثاني) المراد جعل الله الناس في العبادة في المسجد سواء ليس للمقيم أن يمنع البادي وبالعكس قال عليه السلام يا بني عبد مناف من ولي منكم من أمور الناس شيأ فلا يمنعن أحدا طاف بهذا البيت أو صلى أية ساعة من ليل أو نهار وهذا قول الحسن ومجاهد وقول من أجاز بيع دور مكة وقد جرت مناظرة بين الشافعي واسحق الحنظلي بمكة وكان اسحق لا يرخص في كراء بيوت مكة واحتج الشافعي رحمه الله بقوله تعالى الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق فاضيفت الدار الى مالكها والى غير مالكها وقال عليه السلام يوم فتح مكة من أغلق بابه فهو آمن وقال صلى الله عليه وسلم هل ترك لنا عقيل من ربع وقد اشترى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما دار السجن أترى أنه اشتراها من مالكها أو من غير مالكها قال اسحق فلما علمت أن الحجة قد لزمتني تركت قولي أما الذي قالوه من حمل لفظ المسجد على مكة بقرينة قوله العاكف فضعيف لان العاكف قد يراد به الملازم للمسجد المعتكف فيه على الدوام أو في الاكثر فلا يلزم ما ذكروه ويحتمل أن يراد بالعاكف المجاور للمسجد المتمكن في كل وقت من التعبد فيه فلا وجه لصرف الكلام عن ظاهره مع هذه الاحتمالات أما قوله ومن يرد فيه بالحاد بظلم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ يرد بفتح الياء من الورود ومعناه من أتى فيه بالحاد وعن الحسن ومن يرد الحاده بظلم والمعنى ومن يرد الحاده فيه فالاضافة صحيحة على الاتساع في

(من أنباء الغيب) الذي لا يحوم حوله أحد وقوله (نوحيه اليك) خبر بعد خبر أو حال من الضمير في الخبر ويجوز أن يكون ذلك اسما موصولا ومن أنباء الغيب صلته ويكون الخبر نوحيه اليك (وما كنت لديهم) يريد اخوة يوسف عليه الصلاة والسلام (اذ أجمعوا أمرهم) وهو جعلهم اياه في غيابة الجب (وهم يمكرون) به ويبغون له الغوائل حتى تقف على ظواهر أسرارهم وبواطنها وتطلع على سرائرهم طرا وتحيط بما لديهم خبرا وليس المراد مجرد نفي حضوره عليه الصلاة والسلام في مشهد اجتماعهم ومكرهم فقط بل في سائر المشاهد أيضا وانما تخصيصه بالذكر لكونه مطلع القصة وأخفى أحوالها كما ينبئ عنه قوله وهم يمكرون والخطاب وان كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم لكن المراد الزام المكذبين والمعنى ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك اذ لا سبيل الى

معرفتك اياه سوى ذلك اذ عدم سماعك ذلك من الغير وعدم مطالعتك للكتب أمر
لا يشك فيه المكذبون أيضا ولم تكن بين ظهرانيهم عند وقوع الامر حتى تعرفه كما هو فتبلغه اليهم وفيه تهكم بالكفار فكأنهم يشكون في ذلك فيدفع شكهم وفيه أيضا ايذان بأن ما ذكر من النبأ هو الحق المطابق للواقع وما ينقله أهل الكتاب ليس على ما هو عليه يعني

أن مثل هذا التحقيق بلا وحى لا يتصور الا بالحضور والمشاهدة واذا ليس ذلك بالحضور فهو بالوحى ومثله قوله تعالى وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وقوله وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الامر (وما أكثر الناس) يريد به العموم أو أهل مكة (ولو حرصت) أى على ايمانهم وبالغت فى اظهار الآيات القاطعة الدالة على صدقك (بمؤمنين) لتصميمهم على الكفر واصرارهم على العناد روى أن اليهود وقريشا لما سألوا عن قصة يوسف وعدوا أن يسلموا فلما أخبرهم بها على موافقة التوراة فلم يسلموا حزن النبى صلى الله عليه وسلم فقيل له ذلك (وما تسألهم عليه) أى على الانباء أو على القرآن (من أجر) من جعل كما يفعله حملة الاخبار (ان هو الا ذكر) عظة من الله تعالى (للعالمين) كافة لا أن ذلك مختص بهم (وكأين من آية) أى كأى عدد شئت من الآيات والعلامات الدالة على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته وحكمته غير هذه الآية التى جئت بها (فى السموات والارض) أى كائنة فيهما من الاجرام الفلكية وما فيها من النجوم وتغير أحوالها ومن الجبال والبحار وسائر ما فى الارض من العجائب الفائتة للحصر (يمرون عليها) أى يشاهدونها ولا يعبؤن بها وقرئ برفع الارض على الابتداء ويمرون خبره وقرئ بنصبها على معنى ويطؤن الارض يمرون عليها وفى مصحف عبد الله والارض يمشون عليها والمراد ما يرون فيها من آثار الامم الهالكة وغير ذلك من الآيات والعبر (وهم عنها معرضون) غير ناظرين اليها ولا متفكرين فيها (وما يؤمن أكثرهم بالله) فى اقرارهم بوجوده وخالقيته (الا وهم مشركون) بعبادتهم لغيره أو باتخاذهم الاحبار والرهبان أربابا أو بقولهم باتخاذه تعالى ولدا سبحانه وتعالى

الظرف كذكر الليل والنهار ومعناه ومن يرد أن يلحد فيه ظالما ﴿المسئلة الثانية﴾ الالحاد العدول عن القصد وأصله الحاد الحافر وذكر المفسرون فى تفسير الالحاد وجوها (أحدها) أنه الشرك يعنى من لجأ الى حرم الله ليشرك به عذبه الله تعالى وهو احدى الروايات عن ابن عباس وقول عطاء بن أبى رباح وسعيد بن جبير وقتادة ومقاتل (وثانيها) قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت فى عبد الله بن سعد حيث استسلمه النبى صلى الله عليه وسلم فارتد مشركا وفى قيس بن ضبابة وقال مقاتل نزلت فى عبد الله بن خطل حين قتل الانصارى وهرب الى مكة كافرا فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بقتله يوم الفتح كافرا (وثالثها) قتل ما نهى الله تعالى عنه من الصيد (ورابعها) دخول مكة بغير احرام وارتكاب ما لا يحل للمحرم (وخامسها) أنه الاحتكار عن مجاهد وسعيد بن جبير (وسادسها) المنع من عمارته (وسابعها) عن عطاء قول الرجل فى المبايعة لا والله وبلى والله وعن عبد الله بن عمر أنه كان له فسطاطان أحدهما فى الحل والآخر فى الحرم فاذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم فى الحل فقيل له فقال كنا نحدث أن من الالحاد فيه أن يقول الرجل لا والله وبلى والله (وثامنها) وهو قول المحققين أن الالحاد بظلم عام فى كل المعاصى لان كل ذلك صغر أم كبر يكون هناك أعظم منه فى سائر البقاع حتى قال ابن مسعود رضى الله عنه لو أن رجلا بعدن هم بأن يعمل سيئة عند البيت أذاقه الله عذابا أليما وقال مجاهد تضاعف السيئات فيه كما تضاعف الحسنات فان قيل كيف يقال ذلك مع أن قوله نذقه من عذاب أليم غير لائق بكل المعاصى قلنا لا نسلم فان كل عذاب يكون أليما الا أنه تختلف مراتبه على حسب اختلاف المعصية ﴿المسئلة الثالثة﴾ الباء فى قوله بالحاد فيه قولان (أحدهما) وهو الاولى وهو اختيار صاحب الكشاف أن قوله بالحاد بظلم حالان مترادفان ومفعول يرد متروك ليتناول كل متناول كأنه قال ومن يرد فيه مرادا ما عادلا عن القصد ظالما نذقه من عذاب أليم يعنى أن الواجب على من كان فيه أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل فى جميع ما يهم به ويقصده (الثانى) قال أبو عبيدة مجازه ومن يرد فيه الحادا والباء من حروف الزوائد ﴿المسئلة الرابعة﴾ لما كان الالحاد بمعنى الميل من أمر الى أمر بين تعالى أن المراد بهذا الالحاد ما يكون ميلا الى الظلم فلهذا قرن الظلم بالالحاد لانه معصية كبرت أم صغرت الا وهو ظلم ولذلك قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم أما قوله تعالى نذقه من عذاب أليم فهو بيان الوعيد وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ من قال الآية نزلت فى ابن خطل قال المراد بالعذاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله يوم الفتح ولا وجه للتخصيص اذا أمكن التعميم بل يجب أن يكون المراد بالعذاب فى الآخرة لانه من أعظم ما يتوعد به ﴿المسئلة الثانية﴾ أن هذه الآية تدل على أن المرء يستحق العذاب بارادته للظلم كما يستحقه على عمل جوارحه ﴿المسئلة الثالثة﴾ ذكروا قولين فى خبر ان المذكور فى أول الآية (الاول) التقدير ان الذين كفروا ويصدون ومن يرد فيه بالحاد نذقه من عذاب فهو عائد الى كلتا الجملتين (الثانى) أنه محذوف لدلالة جواب الشرط عليه تقديره ان الذين كفروا ويصدون عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم وكل من ارتكب فيه ذنبا فهو كذلك ﴿قوله تعالى﴾ ﴿واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيأ وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ اعلم أن قوله واذ بوأنا أى واذكر حين جعلنا لابراهيم مكان البيت مباءة أى مرجعا يرجع اليه للعمارة والعبادة وكان قد رفع البيت الى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء فأعلم الله تعالى ابراهيم عليه السلام

عن ذلك علوا كبيرا أو بالنور والظلمة وهي جملة حالية أى لايؤمن أكثرهم الا فى حال شركهم قيل نزلت الآية فى أهل مكة وقيل فى المنافقين وقيل فى أهل الكتاب (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله) أى عقوبة تغشاهم وتشملهم (أو تأتيهم الساعة بغتة) فجأة من غير سابقة علامة (وهم لايشعرون) باتيانها غير مستعدين لها (قل هذه سبيلى) وهى الدعوة الى التوحيد والايمان بالاخلاص وفسرها بقوله (أدعو الى الله على بصيرة) بيان وحجة واضحة غير عمياء أوهى حال من الضمير فى سبيلى والعامل فيها معنى الاشارة (أنا) تأكيد للمستكن فى أدعو أو على بصيرة لانه حال منه أو مبتدأ خبره على بصيرة (ومن اتبعنى) عطف عليه (وسبحان الله وما أنا من المشركين) مؤكد لما سبق من الدعوة الى الله (وما أرسلنا من قبلك الا رجالا) رد لقولهم لو شاء الله لانزل ملائكة (نوحى اليهم) كما أوحينا اليك وقرئ بالياء (من أهل القرى) لانهم أعلم وأحلم وأهل البوادى فيهم الجهل والجفاء والقسوة (أفلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من المكذبين بالرسل والآيات فيحذروا تكذيبك (ولدار الآخرة) أى الساعة أو الحياة الآخرة (خير للذين اتقوا) الشرك والمعاصى (أفلا تعقلون) فتستعملوا عقولكم لتعرفوا خيرية دار الآخرة وقرئ بالياء على انه غير داخل تحت قل (حتى اذا استيأس الرسل) غاية لمحذوف دل عليه السياق أى لايغرنهم تماديهم فيما هم فيه من الدعة والرخاء فان من قبلهم قد أمهلوا حتى أيس الرسل عن النصر عليهم فى الدنيا أو عن ايمانهم لانهماكهم فى الكفر وتماديهم فى الطغيان من غير وازع (وظنوا أنهم قد كذبوا) كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بانهم ينصرون عليهم

السلام مكانه بريح أرسلها فكشفت ما حوله فبناه على وضعه الاول وقيل أمر ابراهيم بأن يأتى موضع البيت فمضى فانطلق فخفى عليه مكانه فبعث الله تعالى على قدر البيت الحرام فى العرض والطول غمامة وفيها رأس يتكلم وله لسان وعينان فقال يا ابراهيم ابن على قدرى وحيالى فاخذ فى البناء وذهبت السحابة وههنا سؤالات (السؤال الاول) لاشك أن أن فى المفسرة فكيف يكون النهى عن الشرك والامر بتطهير البيت تفسيرا للتبوئة (الجواب) أنه سبحانه لما قال جعلنا البيت مرجعا لابراهيم فكأنه قيل ما معنى كون البيت مرجعا له فأجيب عنه بأن معناه أن يكون بقلبه موحدا لرب البيت عن الشريك والنظير وبقالبه مشتغلا بتنظيف البيت عن الاوثان والاصنام (السؤال الثانى) أن ابراهيم لما لم يشرك بالله فكيف قال أن لاتشرك بى (الجواب) المعنى لاتجعل فى العبادة لى شريكا ولا تشرك بى غرضا آخر فى بناء البيت (السؤال الثالث) البيت ما كان معمورا قبل ذلك فكيف قال وطهر بيتى (الجواب) لعل ذلك المكان كان صحراء وكانوا يرمون اليها الاقذار فأمر ابراهيم ببناء البيت فى ذلك المكان وتطهيره من الاقذار أو كانت معمورة فكانوا قد وضعوا فيها أصناما فأمره الله تعالى بتخريب ذلك البناء ووضع بناء جديد وذلك هو التطهير عن الاوثان أو يقال المراد أنك بعد أن تبنيه فطهره عما لاينبغى من الشرك وقول الزور وأما قوله للطائفين والقائمين فقال ابن عباس رضى الله عنهما للطائفين بالبيت من غير أهل مكة والقائمين أى المقيمين بها والركع السجود أى من المصلين من الكل وقال آخرون القائمون هم المصلون لان المصلى لابد وأن يكون فى صلاته جامعا بين القيام والركوع والسجود والله أعلم أما قوله تعالى وأذن فى الناس بالحج ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن محيصن وآذن بمعنى أعلم (المسئلة الثانية) فى المأمور قولان (أحدهما) وعليه أكثر المفسرين أنه هو ابراهيم عليه السلام قالوا لما فرغ ابراهيم عليه السلام من بناء البيت قال سبحانه وأذن فى الناس بالحج قال يارب وما يبلغ صوتى قال عليك الاذان وعلى البلاغ فصعد ابراهيم عليه السلام الصفا وفى رواية أخرى أبا قبيس وفى رواية أخرى على المقام قال ابراهيم كيف أقول قال جبريل عليه السلام قل لبيك اللهم لبيك فهو أول من لبى وفى رواية أخرى أنه صعد الصفا فقال يا أيها الناس ان الله كتب عليكم حج البيت العتيق فسمعه ما بين السماء والارض فما بقى شئ سمع صوته الا أقبل يلبى يقول لبيك اللهم لبيك وفى رواية أخرى ان الله يدعوكم الى حج البيت الحرام ليثيبكم به الجنة ويخرجكم من النار فأجابه يومئذ من كان فى أصلاب الرجال وأرحام النساء وكل من وصل اليه صوته من حجر أو شجر أو مدر أو أكمة أو تراب قال مجاهد فما حج انسان ولا يحج أحد حتى تقوم الساعة الا وقد أسمعه ذلك النداء فمن أجاب مرة حج مرة ومن أجاب مرتين أو أكثر فالحج مرتين أو أكثر على ذلك المقدار وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال لما أمر ابراهيم عليه السلام بالاذان تواضعت له الجبال وخفضت وارتفعت له القرى قال القاضى عبد الجبار يبعد قولهم أنه أجابه الصخر والمدر لان الاعلام لايكون الا لمن يؤمر بالحج دون الجماد فاما من يسمع من أهل المشرق والمغرب نداءه فلا يمتنع اذا قواه الله تعالى ورفع الموانع ومثل ذلك قد يجوز فى زمان الانبياء عليهم السلام (القول الثانى) ان المأمور بقوله وأذن هو محمد صلى الله عليه وسلم وهو قول الحسن واختيار أكثر المعتزلة واحتجوا عليه بأن ما جاء فى القرآن وأمكن حمله على أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو المخاطب به فهو أولى وتقدم قوله واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت لايوجب أن يكون قوله وأذن يرجع اليه اذ قد بينا أن معنى قوله واذ بوأنا أى واذكر يا محمد اذ بوأنا فهو فى حكم المذكور فاذا قال تعالى وأذن فاليه يرجع الخطاب وعلى هذا القول ذكروا فى تفسير قوله تعالى وأذن وجوها (أحدها) أن الله تعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يعلم

أ وكذبهم رجاؤهم فانه يوصف بالصدق والكذب والمعنى ان مدة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله تعالى قد تطاولت وتمادت حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم في الدنيا (جاءهم نصرنا) فجأة وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وظنوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من ١٨٠ النصر فان صح ذلك عنه فلعله أراد بالظن ما يخطر بالبال من شبه الوسوسة وحديث النفس وانما عبر عنه بالظن تهويلا للخطب وأما الظن الذي هو ترجيح أحد الجانبين على الآخر فلا يتصور ذلك من آحاد الامة فما ظنك بالانبياء عليهم الصلاة والسلام وهم هم ومنزلتهم في معرفة شؤن الله سبحانه منزلتهم وقيل الضميران للرسل اليهم وقيل الاول لهم والثاني للرسل وقرئ بالتشديد أي ظن الرسل أن القوم كذبوهم فيما وعدوهم وقرئ بالتخفيف على بناء الفاعل على أن الضمير للرسل أي ظنوا أنهم كذبوا عند قومهم فيما حدثوا به لما تراخى عنهم ولم يروا له أثرا أو على أن الاول لقومهم (فنجي من نشاء) هم الرسل والمؤمنون بهم وقرئ فنجي على لفظ المستقبل بالتخفيف والتشديد وقرئ فنجا (ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) اذا نزل بهم وفيه بيان لمن تعلق بهم المشيئة (لقد كان في قصصهم) أي قصص الانبياء وأممهم ويعضده قراءة من قرأ بكسر القاف أو قصص يوسف واخوته (عبرة لاولي الالباب) لذوي العقول المبرأة من شوائب أحكام الحس (ما كان) أي القرآن المدلول عليه بما سبق دلالة واضحة (حديثا يفترى ولكن) كان (تصديق الذي بين يديه) من الكتب السماوية وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أي ولكن هو تصديق الذي بين يديه (وتفصيل كل شئ) مما يحتاج اليه في الدين اذ ما من أمر ديني الا وهو يستند الى القرآن بالذات أو

الناس بالحج (وثانيها) قال الجبائي أمر الله تعالى أن يعلن التلبية فيعلم الناس أنه حاج فيحجوا معه قال وفي قوله يأتوك دلالة على أن المراد أن يحج فيقتدى به (وثالثها) أنه ابتداء فرض الحج من الله تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم أما قوله يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ففيه مسائل (المسئلة الاولى) الرجال المشاة واحدهم راجل كنيام ونائم وقرئ رجال بضم الراء مخفف الجيم ومثقله ورجال كعجال عن ابن عباس رضي الله عنهما وقوله وعلى كل ضامر أي ركبانا والضمور الهزال ضمر يضمر ضمورا والمعنى أن الناقة صارت ضامرة لطول سفرها وانما قال يأتين أي جماعة الابل وهي الضوامر لان قوله وعلى كل ضامر معناه على ابل ضامرة فجعل الفعل بمعنى كل ولو قال يأتي على اللفظ صح وقرئ يأتون صفة للرجال والركبان والفج الطريق بين الجبلين ثم يستعمل في سائر الطرق اتساعا والعميق البعيد وقرأ ابن مسعود معيق يقال بئر بعيدة العمق والمعق (المسئلة الثانية) المعنى وأذن ليأتوك رجالا وعلى كل ضامر أي وأذن ليأتوك على هاتين الصفتين أو يكون المراد وأذن فانهم يأتوك على هاتين الصفتين (المسئلة الثالثة) بدأ الله بذكر المشاة تشريفا لهم وروى سعيد بن جبير باسناده عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الحاج الراكب له بكل خطوة تخطوها راحلته سبعون حسنة وللماشي سبعمائة حسنة من حسنات الحرم قيل يارسول الله وما حسنات الحرم قال الحسنة بمائة ألف حسنة (المسئلة الرابعة) انما قال يأتوك رجالا لانه هو المنادي فمن أتى مكة حاجا فكأنه أتى ابراهيم عليه السلام لانه يجيب نداءه أما قوله ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ففيه مسائل (المسئلة الاولى) أنه تعالى لما أمر بالحج في قوله وأذن في الناس بالحج ذكر حكمة ذلك الامر في قوله ليشهدوا منافع لهم واختلفوا فيها فبعضهم حملها على منافع الدنيا وهي أن يتجروا في أيام الحج وبعضهم حملها على منافع الآخرة وهي العفو والمغفرة عن محمد الباقر عليه السلام وبعضهم حملها على الامرين جميعا وهو الاولى (المسئلة الثانية) انما نكر المنافع لانه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات (المسئلة الثالثة) كنى عن الذبح والنحر بذكر اسم الله تعالى لان أهل الاسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه اذا نحروا وذبحوا وفيه تنبيه على أن الغرض الاصلي فيما يتقرب به الى الله تعالى أن يذكر اسم الله تعالى وان يخالف المشركين في ذلك فانهم كانوا يذبحونها للنصب والاوثان قال مقاتل اذا ذبحت فقل بسم الله والله أكبر اللهم منك واليك وتستقبل القبلة وزاد الكلبي فقال ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين قال القفال وكان المتقرب بها وباراقة دمائها متصور بصورة من يفدي نفسه بما يعادلها فكأنه يبذل تلك الشاة بذل مهجته طلبا لمرضاة الله تعالى واعترافا بأن تقصيره كاد يستحق مهجته (المسئلة الرابعة) أكثر العلماء صاروا الى أن الايام المعلومات عشر ذي الحجة والمعدودات أيام التشريق وهذا قول مجاهد وعطاء وقتادة والحسن ورواية سعيد بن جبير عن ابن عباس واختيار الشافعي وأبي حنيفة رحمهم الله واحتجوا بانها معلومة عند الناس لحرصهم على علمها من أجل أن وقت الحج في آخرها ثم للمنافع أوقات من العشر معروفة كيوم عرفة والمشعر الحرام وكذلك الذبائح لها وقت منها وهو يوم النحر وقال ابن عباس في رواية عطاء انها يوم النحر وثلاثة أيام بعده وهو اختيار أبي مسلم قال لانها كانت معروفة عند العرب بعدها وهي أيام النحر وهو قول أبي يوسف ومحمد رحمهما الله أما قوله بهيمة الانعام فقال صاحب الكشاف البهيمة مبهمة في كل ذات أربع في البر والبحر فبينت بالانعام وهي الابل والبقر والضأن والمعز أما قوله تعالى فكلوا منها فمن الناس من قال انه أمر وجوب لان أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون منها

ترفعا على الفقراء فأمر المسلمون بذلك لما فيه من مخالفة الكفار ومساواة الفقراء واستعمال التواضع وقال الأكثرون انه ليس على الوجوب ثم قال العلماء من أهدى أو ضحى فحسن أن يأكل النصف ويتصدق بالنصف لقوله تعالى فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ومنهم من قال يأكل الثلث ويدخر الثلث ويتصدق بالثلث ومذهب الشافعي رحمه الله ان الأكل مستحب والاطعام واجب فان أطعم جميعها أجزأه وان أكل جميعها لم يجزه هذا فيما كان تطوعا فأما الواجبات كالنذور والكفارات والجبرانات لنقصان مثل دم القران ودم التمتع ودم الاساءة ودم القلم والحلق فلا يأكل منها أما قوله وأطعموا البائس الفقير فلا شبهة في أنه أمر ايجاب والبائس الذي أصابه بؤس أي شدة والفقير الذي أضعفه الاعسار وهو مأخوذ من فقار الظهر قال ابن عباس البائس الذي ظهر بؤسه في ثيابه وفي وجهه والفقير الذي لا يكون كذلك فتكون ثيابه نقية ووجهه وجه غني أما قوله ثم ليقضوا تفثهم قال الزجاج ان أهل اللغة لا يعرفون التفث الا من التفسير وقال المبرد أصل التفث في كلام العرب كل قاذورة تلحق الانسان فيجب عليه نقضها والمراد ههنا قص الشارب والاظفار ونتف الابط وحلق العانة والمراد من القضاء ازالة التفث وقال القفال قال نفطويه سألت أعرابيا فصيحا ما معنى قوله ثم ليقضوا تفثهم فقال ما أفسر القرآن ولكنا نقول للرجل ما أتفثك وما أدرنك ثم قال القفال وهذا أولى من قول الزجاج لان القول قول المثبت لا قول النافي أما قوله وليوفوا نذورهم فقرئ بتشديد الفاء ثم يحتمل ذلك ما أوجبه الدخول في الحج من أنواع المناسك ويحتمل أن يكون المراد ما أوجبوه بالنذر الذي هو القول وهذا القول هو الأقرب فان الرجل اذا حج أو اعتمر فقد يوجب على نفسه من الهدى وغيره ما لولا ايجابه لم يكن الحج يقتضيه فأمر الله تعالى بالوفاء بذلك أما قوله وليطوفوا بالبيت العتيق فالمراد الطواف الواجب وهو طواف الافاضة والزيارة اما كون هذا الطواف بعد الوقوف ورمي الجمار والحلق ثم هو في يوم النحر أو بعده ففيه تفصيل وسمي البيت بالعتيق لوجوه (أحدها) العتيق القديم لانه أول بيت وضع للناس عن الحسن (وثانيها) لانه أعتق من الجبابرة فكم من جبار سار اليه ليهدمه فمنعه الله تعالى وهو قول ابن عباس وقول ابن الزبير ورووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما قصده أبرهة فعل به ما فعل * فان قيل فقد تسلط الحجاج عليه (فالجواب) قلنا ما قصد التسلط على البيت وانما تحصن به عبد الله بن الزبير فاحتال لاخراجه ثم بناه (وثالثها) لم يملك قط عن ابن عيينة (ورابعها) أعتق من الغرق عن مجاهد (وخامسها) بيت كريم من قولهم عتاق الطير والخيل واعلم أن اللام في ليقضوا وليوفوا وليطوفوا لام الأمر وفي قراءة ابن كثير ونافع والأكثرين تخفيف هذه اللامات وفي قراءة أبي عمرو تحريكها بالكسر ﴿قوله تعالى ﴿ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام الا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب﴾ قال صاحب الكشاف ذلك خبر مبتدأ محذوف أي الأمر والشأن ذلك كما يقدم الكاتب جملة من كلامه في بعض المعاني فاذا أراد الخوض في معنى آخر قال هذا وقد كان كذا والحرمة ما لا يحل هتكه وجميع ما كلفه الله تعالى بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها فيحتمل أن يكون عاما في جميع تكاليفه ويحتمل أن يكون خاصا فيما يتعلق بالحج وعن زيد بن أسلم الحرمات خمس الكعبة الحرام والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمشعر الحرام وقال المتكلمون ولا تدخل النوافل في حرمات الله تعالى فهو خير له عند ربه أي فالتعظيم خير له للعلم بأنه يجب القيام بمراعاتها وحفظها وقوله عند ربه يدل

يوسف (وهدى) من الضلالة (ورحمة) ينال بها خير الدارين (لقوم يؤمنون) أي يصدقونه لانهم المنتفعون به وأما من عداهم فلا يهتدون بهداه ولا ينتفعون بجدواه * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم علموا أرقاءكم سورة يوسف فانه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه القوة أن لا يحسد مسلما

﴿سورة الرعد مدنية وقيل مكية الا قوله ويقول الذين كفروا الآية وآيها خمس وأربعون﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

(المر) اسم السورة ومحله اما الرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف أي هذه السورة مسماة بهذا الاسم وهو أظهر من الرفع على الابتداء اذ لم يسبق العلم بالتسمية كما مر مرارا وقوله تعالى (تلك) على الوجه الأول مبتدأ مستقل وعلى الوجه الثاني مبتدأ ثان أو بدل من الأول أشير به اليه ايذانا بفخامته وأما النصب بتقدير فعل يناسب المقام نحو اقرأ أو اذكر فتلك مبتدأ كما اذا جعل المر مسرودا على نمط التعديد أو بمعنى أنا الله أعلم وأرى على ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما والخبر على التقادير قوله تعالى (آيات الكتاب) أي الكتاب العجيب الكامل الغني عن الوصف به المعروف بذلك من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به فهو عبارة عن جميع القرآن أو عن جميع المنزل حينئذ حسبما مر في مطلع سورة يونس اذ هو المتبادر من مطلق الكتاب المستغني عن النعت وبه يظهر ما أريد من وصف الآيات بوصف ما أضيفت اليه من نعوت الكمال بخلاف ما اذا جعل عبارة عن السورة فان اتصافها بتلك المثابة من الشهرة في الاتصاف بذلك المغنية عن التصريح بالوصف على انها عبارة عن جميع آياتها فلا بد من جعل تلك اشارة الى كل واحدة منها وفيه ما لا يخفى من التعسف الذي مر تفصيله في سورة يونس

(والذى أنزل اليك من ربك) أى الكتاب المذكور بكماله لا هذه السورة وحدها (الحق) الثابت المطابق للواقع فى كل ما نطق به الحقيق بأن يخص به الحقية لعراقته فيها وليس فيه ما يدل على أن ما عداه ليس بحق أصلا على أن حقيته مستتبعة لحقية سائر الكتب السماوية لكونه مصدقا لما بين يديه ومهيمنا عليه وفى التعبير عنه بالموصول واسناد الانزال اليه بصيغة المبنى للمفعول والتعرض لوصف الربوبية مضافا الى ضميره عليه السلام من الدلالة على فخامة المنزل التابعة لجلالة شأن المنزل وتشريف المنزل اليه والايماء الى وجه بناء الخبر ما لا يخفى (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) بذلك الحق المبين لاخلالهم بالنظر والتأمل فيه فعدم ايمانهم متعلق بعنوان حقيته لانه المرجع للتصديق والتكذيب لا بعنوان كونه منزلا كما قيل ولانه وارد على طريقة الوصف دون الاخبار (الله الذى رفع السموات) أى خلقهن مرتفعات على طريقة قولهم سبحان من كبر الفيل وصغر البعوض لانه رفعها بعد أن لم تكن كذلك والجملة مبتدأ وخبر كقوله وهو الذى مد الارض (بغير عمد) أى بغير دعائم جمع عماد كاهاب وأهب وهو ما يعمد به أى يسند يقال عمدت الحائط أى أدعمته وقرئ عمد على جمع عمود يعنى عماد كرسل ورسول وايراد صيغة الجمع لجمع السموت لا لان المنفى عن كل واحدة منها عمد لا عماد (ترونها) استئناف استشهد به على ما ذكر من رفع السموات بغير عمد وقيل صفة العمد جىء بها ايهاما لان لها عمدا غير مرئية هى قدرة الله تعالى (ثم استوى) أى استولى (على العرش) بالحفظ والتدبير أو استوى أمره وعن أصحابنا أن الاستواء

المكاس

على الثواب المدخر لانه لا يقال عند ربه فيما قد حصل من الخيرات قال الاصم فهو خير له من التهاون بذلك ثم انه تعالى عاد الى بيان حكم الحج فقال وأحلت لكم الانعام فقد كان يجوز أن يظن أن الاحرام اذا حرم الصيد وغيره فالانعام أيضا تحرم فبين الله تعالى ان الاحرام لا يؤثر فيها فهى محللة واستثنى منه ما يتلى فى كتاب الله من المحرمات من النعم وهو المذكور فى سورة المائدة وهو قوله تعالى غير محلى الصيد وأنتم حرم وقوله حرمت عليكم وقوله ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ثم انه سبحانه لما حث على تعظيم حرماته وحمد من يعظمها أتبعه بالامر باجتناب الاوثان وقول الزور لان توحيد الله تعالى وصدق القول أعظم الخيرات وانما جمع الشرك وقول الزور فى سلك واحد لان الشرك من باب الزور لان المشرك زاعم أن الوثن تحق له العبادة فكأنه قال فاجتنبوا عبادة الاوثان التى هى رأس الزور واجتنبوا قول الزور كله ولا تقربوا منه شيئا لتماديه فى القبح والسماجة وما ظنك بشئ من قبيله عبادة الاوثان وسمى الاوثان رجسا لا للنجاسة لكن لان وجوب تجنبها أوكد من وجوب تجنب الرجس ولان عبادتها أعظم من التلوث بالنجاسات ثم قال الاصم انما وصفها بذلك لان عادتهم فى المتقربات أن يتعمدوا سقوط الدماء عليها وهذا بعيد وقيل انه انما وصفها بذلك استحقارا واستخفافا وهذا أقرب وقوله من الاوثان بيان للرجس وتمييز له كقوله عندى عشرون من الدراهم لان الرجس لما فيه من الابهام يتناول كل شئ فكأنه قال فاجتنبوا الرجس الذى هو الاوثان وليس المراد أن بعضها ليس كذلك والزور من الزور والازورار وهو الانحراف كما أن الافك من أفكه اذا صرفه والمفسرون ذكروا فى قول الزور وجوها (أحدها) أنه قولهم هذا حلال وهذا حرام وما أشبه ذلك من افترائهم (وثانيها) شهادة الزور عن النبى صلى الله عليه وسلم انه صلى الصبح فلما سلم قام قائما واستقبل الناس بوجهه وقال عدلت شهادة الزور الاشراك بالله وتلا هذه الآية (وثالثها) الكذب والبهتان (ورابعها) قول أهل الجاهلية فى تلبيتهم لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك أما قوله تعالى حنفاء لله فقد تقدم ذكر تفسير ذلك وأنه الاستقامة على قول بعضهم والميل الى الحق على قول البعض والمراد فى هذا الموضع ما قيل من أنه الاخلاص فكأنه قال تمسكوا بهذه الامور التى أمرت ونهيت على وجه العبادة لله وحده لا على وجه اشراك غير الله به ولذلك قال غير مشركين به وهذا يدل على أن الواجب على المكلف أن ينوى بما يأتيه من العبادة الاخلاص فبين تعالى مثلين للكفر لا مزيد عليهما فى بيان أن الكافر ضار بنفسه غير منتفع بها وهو قوله ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق قال صاحب الكشاف ان كان هذا تشبيها مركبا فكأنه قيل من أشرك بالله فقد أهلك نفسه اهلاكا ليس وراءه اهلاك بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرقت أجزاؤه فى حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المهالك البعيدة وان كان تشبيها مفرقا فقد شبه الايمان فى علوه بالسماء والذى ترك الايمان وأشرك بالله كالساقط من السماء والاهواء التى تتوزع أفكاره بالطير المختطفة والشيطان الذى يطرحه فى وادى الضلالة بالريح التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المتلفة وقرئ بكسر الخاء والطاء وبكسر الفاء مع كسرهما وهى قراءة الحسن وأصلها تختطفه وقرئ الرياح ثم انه سبحانه أكد ما تقدم فقال ذلك ومن يعظم شعائر الله واختلفوا فقال بعضهم يدخل فيه كل عبادة وقال بعضهم بل المناسك فى الحج وقال بعضهم بل المراد الهدى خاصة والاصل فى الشعائر الاعلام التى بها يعرف الشئ فاذا فسرنا الشعائر بالهدايا فتعظيمها على وجهين (أحدهما) أن يختارها عظام الاجسام حسانا جساما سمانا غالية الاثمان ويترك المكاس فى شرائها فقد كانوا يتغالون فى ثلاثة ويكرهون

المناسك فيهن الهدى والاضحية والرقبة روى عن ابن عمر رضى الله عنهما عن أبيه أنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشترى بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك وقال بل اهدها وأهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فيها جمل لابى جهل فى أنفه برة من ذهب ﴿والوجه الثانى﴾ فى تعظيم شعائر الله تعالى أن يعتقد أن طاعة الله تعالى فى التقرب بها واهدائها الى بيته المعظم أمر عظيم لابد وأن يحتفل به ويتسارع فيه فانها من تقوى القلوب أى فان تعظيمها من أفعال ذوى تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات ولا يستقيم المعنى الا بتقديرها لانه لابد من راجع من الجزاء الى من ارتبط به وانما ذكرت القلوب لان المنافق قد يظهر التقوى من نفسه ولكن لما كان قلبه خاليا عنها لاجرم لا يكون مجدا فى أداء الطاعات أما المخلص الذى تكون التقوى متمكنة فى قلبه فانه يبالغ فى أداء الطاعات على سبيل الاخلاص فان قال قائل ما الحكمة فى أن الله تعالى بالغ فى تعظيم ذبح الحيوانات هذه المبالغة فالجواب قوله تعالى ﴿لكم فيها منافع الى أجل مسمى ثم محلها الى البيت العتيق ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على مارزقهم من بهيمة الانعام فالهكم اله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾ اعلم أن قوله تعالى لكم فيها منافع الى أجل مسمى لا يليق الا بأن يحمل الشعائر على الهدى الذى فيه منافع الى وقت النحر ومن يحمل ذلك على سائر الواجبات يقول لكم فيها أى فى التمسك بها منافع الى أجل ينقطع التكليف عنده والاول هو قول جمهور المفسرين ولاشك انه أقرب وعلى هذا القول فالمنافع مفسرة بالدر والنسل والاوبار وركوب ظهورها فأما قوله الى أجل مسمى ففيه قولان (أحدهما) ان لكم أن تنتفعوا بهذه البهائم الى أن تسموها ضحية وهديا فاذا فعلتم ذلك فليس لكم أن تنتفعوا بها وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة والضحاك وقال آخرون لكم فيها أى فى البدن منافع مع تسميتها هديا بأن تركبوها ان احتجتم اليها وأن تشربوا ألبانها اذا اضطررتم اليها الى أجل مسمى يعنى الى أن تنحروها وهذه هى الرواية الثانية عن ابن عباس رضى الله عنهما وهو اختيار الشافعى وهذا القول أولى لانه تعالى قال لكم فيها منافع أى فى الشعائر ولا تسمى شعائر قبل أن تسمى هديا وروى أبو هريرة انه عليه السلام مر برجل يسوق بدنة وهو فى جهد فقال عليه السلام اركبها فقال يارسول الله انها هدى فقال اركبها ويلك وروى جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال اركبوا الهدى بالمعروف حتى تجدوا ظهرا واحتج أبو حنيفة رحمه الله على أنه لا يملك منافعها بأن لا يجوز له أن يؤجرها للركوب فلو كان مالكا لمنافعها لملك عقد الاجارة عليها كمنافع سائر المملوكات وهذا ضعيف لان أم الولد لا يمكنه بيعها ويمكنه الانتفاع بها فكذا ههنا أما قوله تعالى ثم محلها الى البيت العتيق فالمعنى ان لكم فى الهدايا منافع كثيرة فى دنياكم ودينكم وأعظم هذه المنافع محلها الى البيت العتيق أى وجوب نحرها أو وقت وجوب نحرها منتهية الى البيت كقوله هديا بالغ الكعبة وبالجملة فقوله محلها يعنى حيث يحل نحرها وأما البيت العتيق فالمراد به الحرم كله ودليله قوله تعالى فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا أى الحرم كله فالنحر على هذا القول كل مكة ولكنها تنزهت عن الدماء الى منى ومنى من مكة قال عليه السلام كل فجاج مكة منحر وكل فجاج منى منحر قال القفال هذا انما يختص بالهدايا التى بلغت منى فأما الهدى المتطوع به اذا عطب قبل بلوغ مكة فان محله موضعه أما قوله تعالى ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله فالمعنى شرعنا لكل أمة من الامم السالفة من عهد ابراهيم عليه السلام الى من بعده ضربا من القربان وجعل العلة فى ذلك أن يذكروا اسم الله تقدست أسماؤه على المناسك وما كانت

على العرش صفة لله عز وجل بلا كيف وأيا ما كان فليس المراد به القصد الى ايجاد العرش وخلقه فلا حاجة الى حمل كلمة ثم للتراخى فى الرتبة (وسخر الشمس والقمر) ذللهما وجعلهما طائعين لما أريد منهما من الحركات وغيرها (كل) من الشمس والقمر (يجرى) حسبما أريد منهما (لاجل مسمى) لمدة معينة فيها تتم دورته كالسنة للشمس والشهر للقمر فان كلا منهما يجرى كل يوم على مدار معين من المدارات اليومية أو لمدة ينتهى فيها حركاتهما ويخرج جميع ما أريد منهما من القوة الى الفعل أو لغاية يتم عندها ذلك والجملة بيان لحكم تسخيرهما (يدبر) بما صنع من الرفع والاستواء والتسخير أى يقضى ويقدر حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة (الامر) أمر الخلق كله وأمر ملكوته وربوبيته (يفصل الآيات) الدالة على كمال قدرته وبالغ حكمته أى يأتى بها مفصلة وهى ما ذكر من الافعال العجيبة وما يتلوها من الاوضاع الفلكية الحادثة شيأ فشيأ المستتبعة للآثار الغريبة فى السفليات على موجب التدبير والتقدير فالجملتان اما حالان من ضمير استوى وقوله وسخر الشمس والقمر من تتمة الاستواء واما مفسرتان له والاولى حال منه والثانية من الضمير فيها أو كلاهما من ضمائر الافعال المذكورة وقوله كل يجرى لاجل مسمى من تتمة التسخير أو تبيان عن قوله الله خبر بعد خبر والموصول صفة للمبتدا جىء به للدلالة على تحقق الخبر وتعظيم شأنه كما فى قول الفرزدق

ان الذى سمك السماء بنى لنا ✻ بيتا دعائمه أعز وأطول

(لعلكم) عند معاينتكم لها وعثوركم على تفاصيلها (بلقاء ربكم) بملاقاته للجزاء (توقنون) فان من تدبرها حق التدبر أيقن أن من قدر على ابداع هذه الصنائع البديعة على كل شىء قدير وأن لهذا التدبير اسه

الدنيوية عواقب وغايات لا بد من وصولها وقد بينت على ألسنة الانبياء عليهم السلام أن ذلك ابتداء المكلفين ثم جزاؤهم حسب أعمالهم
فاذن لا بد من الايقان بالجزاء ولما قرر الشواهد العلوية أردفها بذكر الدلائل السفلية فقال (وهو الذي مد الارض) أي بسطها طولا
وعرضا فالاسم المد هو البسط الى ما لا يدرك منتهاه ففيه دلالة على بعد مداها وسعة أقطارها (وجعل فيها رواسي) أي
جبالا ثوابت في أحيازها من الرسو وهو ثبات الاجسام الثقيلة ولم يذكر الموصوف لاغناء غلبة الوصف بها عن ذلك واختصار مجيء فواعل جمع الفاعل في فوارس وهوالك ونواكس انما هو في صفات العقلاء وأما في غيرهم فلا يراعى ذلك أصلا كما في قوله تعالى أياما معدودات وقوله الحج أشهر معلومات الى غير ذلك فلا حاجة الى أن يجعل مفردها صفة لجمع القلة أعني أجبلا ويعتبر في جمع الكثرة أعني جبالا انتظامها الطائفة من جموع القلة وتنزيل كل منها منزلة مفردها كما قيل على أنه لا مجال لذلك فان جمعية كل من صيغتي الجمعين انما هي باعتبار الافراد التي تحتها لا باعتبار انتظام جمع القلة للافراد وجمع الكثرة لجموع القلة فكل منهما جمع جبل لا أن جبالا جمع أجبل كما أن طوائف جمع طائفة ولا الى أن يلتجأ الى جعل الوصف المذكور بالغلبة في عداد الاسماء التي تجمع على فواعل كما ظن
على انه لا وجه له اما أن الغلبة انما هي في الجمع دون المفرد والتعبير عن الجبال بهذا العنوان لبيان تفرع قرارها لا ان لها عمدا
على ثباتها (وأنهارا) مجاري واسعة والمراد ما يجري فيها من المياه وفي نظمها مع الجبال في مفعولية فعل واحد منا ان الاستواء
للانهار وبيان افائدة أخرى للجبال غير كونها حافظة للارض عن الاضطراب المخل بثبات الاقدام وتقلب

العرب تذبحه للصنم يسمى العير والعتيرة كالذبح والذبيحة وقرأ أهل الكوفة الا عاصما منسكا بكسر السين
وقرأ الباقون بالفتح وهو مصدر بمعنى النسك والمكسور بمعنى الموضع أما قوله تعالى فالهكم اله واحد ففي
كيفية النظم وجهان (أحدهما) ان الاله واحد وانما اختلفت التكاليف باختلاف الازمنة والاشخاص
لاختلاف المصالح (الثاني) فالهكم اله واحد فلا تذكروا على ذبائحكم غير اسم الله فله أسلموا أي أخلصوا
له الذكر خاصة بحيث لا يشوبه اشراك البتة والمراد الانقياد لله تعالى في جميع تكاليفه ومن انقاد له كان
مخبتا فلذلك قال بعده وبشر المخبتين والمخبت المتواضع الخاشع قال أبو مسلم حقيقة المخبت من صار في خبت
من الارض يقال أخبت الرجل اذا صار في الخبت كما يقال انجد وأشام وأتهم والخبت هو المطمئن من
الارض وللمفسرين فيه عبارات (أحدها) المخبتين المتواضعين عن ابن عباس وقتادة (وثانيها) المجتهدين
في العبادة عن الكلبي (وثالثها) المخلصين عن مقاتل (ورابعها) المطمئنين الى ذكر الله تعالى والصالحين
عن مجاهد (وخامسها) هم الذين لا يظلمون واذا ظلموا لم ينتصروا عن عمرو بن أوس ثم وصفهم الله تعالى
بقوله الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم فيظهر عليهم الخوف من عقاب الله تعالى والخشوع والتواضع
لله ثم لذلك الوجل أثران (أحدهما) الصبر على المكاره وذلك هو المراد بقوله والصابرين على ما أصابهم
وعلى ما يكون من قبل الله تعالى لانه الذي يجب الصبر عليه كالامراض والمحن والمصائب فاما ما يصيبهم من
قبل الظلمة فالصبر عليه غير واجب بل ان أمكنه دفع ذلك لزمه الدفع ولو بالمقاتلة (والثاني) الاشتغال
بالخدمة وأعز الاشياء عند الانسان نفسه وماله أما الخدمة بالنفس فهي الصلاة وهو المراد بقوله والمقيمي
الصلاة وأما الخدمة بالمال فهو المراد من قوله ومما رزقناهم ينفقون قرأ الحسن والمقيمي الصلاة بالنصب
على تقدير النون وقرأ ابن مسعود والمقيمين الصلاة على الاصل ﴿قوله تعالى ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر
الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر
كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها
لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين﴾ اعلم أن قوله تعالى والبدن فيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾
البدن جمع بدنة كخشب وخشبة سميت بذلك اذا أهديت للحرم لعظم بدنها وهي الابل خاصة ولكن رسول
الله صلى الله عليه وسلم الحق البقر بالابل حين قال البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة ولانه قال فاذا وجبت
جنوبها وهذا يختص بالابل فانها تنحر قائمة دون البقر وقال قوم البدن الابل والبقر التي يتقرب بها الى الله
تعالى في الحج والعمرة لانه انما سمي بذلك لعظم البدن فالاولى دخولها فيه أما الشاة فلا تدخل وان كانت
تجوز في النسك لانها صغيرة الجسم فلا تسمى بدنة ﴿المسئلة الثانية﴾ قرأ الحسن والبدن بضمتين كثمر في جمع
ثمرة وابن أبي اسحق بالضمتين وتشديد النون على لفظ الوقف وقرئ بالنصب والرفع كقوله والقمر قدرناه
منازل والله أعلم ﴿المسئلة الثالثة﴾ اذا قال لله علي بدنة هل يجوز له نحرها في غير مكة قال أبو حنيفة ومحمد
رحمهما الله يجوز وقال أبو يوسف رحمه الله لا يجوز الا بمكة واتفقوا فيمن نذر هديا أن عليه ذبحه بمكة ولو قال
لله علي جزور انه يذبحه حيث شاء وقال أبو حنيفة رحمه الله البدنة بمنزلة الجزور فوجب أن يجوز له نحرها
حيث يشاء بخلاف الهدي فانه تعالى قال هديا بالغ الكعبة فجعل بلوغ الكعبة من صفة الهدي واحتج أبو
يوسف رحمه الله بقوله تعالى والبدن جعلناها لكم من شعائر الله فكان اسم البدنة يفيد كونها قربة فكان
كاسم الهدي أجاب أبو حنيفة رحمه الله بأنه ليس كل ما كان ذبحه قربة اختص بالحرم فان الاضحية قربة
وهي جائزة في سائر الاماكن أما قوله تعالى جعلناها لكم فاعلم أنه سبحانه لما خلق البدن وأوجب أن

المحاس

تهدى فى الحج جاز أن يقول جعلناها لكم من شعائر الله أما قوله لكم فيها خير فالكلام فيه ما تقدم فى قوله لكم فيها منافع واذا كان قوله لكم فيها خير كالترغيب فالاولى أن يراد به الثواب فى الآخرة وما أخلق العاقل بالحرص على شئ شهد الله تعالى بأن فيه خيرا وبأن فيه منافع أما قوله فاذكروا اسم الله عليها ففيه حذف أى اذكروا اسم الله على نحرها قال المفسرون هو أن يقال عند النحر أو الذبح بسم الله والله أكبر اللهم منك واليك أما قوله صواف فالمعنى قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن وقرئ صوافن من صفون الفرس وهو أن تقوم على ثلاث وتنصب الرابعة على طرف سنبكه لان البدنة تعقل احدى يديها فتقوم على ثلاث وقرئ صوافى أى خوالص لوجه الله تعالى لا تشركوا بالله فى التسمية على نحرها أحدا كما كان يفعله المشركون وعن عمرو بن عبيد صوافنا بالتنوين عوضا من حرف الاطلاق عند الوقف وعن بعضهم صوافى نحو قول العرب أعط القوس باريها ولا يبعد أن تكون الحكمة فى اصطفافها ظهوركثرتها للناظرين فتقوى نفوس المحتاجين ويكون التقرب بنحرها عند ذلك أعظم أجرا وأقرب الى ظهور التكبير واعلاء اسم الله وشعائر دينه وأما قوله فاذا وجبت جنوبها فاعلم أن وجوب الجنوب وقوعها على الارض من وجب الحائط وجبة اذا سقط ووجبت الشمس وجبة اذا غربت والمعنى اذا سقطت على الارض وذلك عند خروج الروح منها فكلوا منها وقد ذكرنا اختلاف العلماء فيما يجوز أكله منها وأطعموا القانع والمعتر القانع السائل يقال قنع يقنع قنوعا اذا سأل قال أبو عبيد هو الرجل يكون مع القوم يطلب فضلهم ويسأل معروفهم وشبهه وقال الفراء والمعنى الثانى القانع هو الذى لا يسأل من القناعة يقال قنع يقنع قناعة اذا رضى بما قسم له وترك السؤال أما المعتر فقيل انه المتعرض بغير سؤال وقيل انه المتعرض بالسؤال قال الازهرى قال ابن الاعرابى يقال عروت فلانا وأعررته وعروته واعتريته اذا أتيته تطلب معروفه ونحوه قال أبو عبيد والاقرب ان القانع هو الراضى بما يدفع اليه من غير سؤال والحاح والمعتر هو الذى يتعرض ويطلب ويعتريهم حالا بعد حال فيفعل ما يدل على أنه لا يقنع بما يدفع اليه أبدا وقرأ الحسن والمعترى وقال أبو رجاء القنع وهو الراضى لا غير يقال قنع فهو قنع وقانع أما قوله كذلك سخرناها لكم فالمعنى انها أجسم وأعظم وأقوى من السباع وغيرها مما يمتنع علينا التمكن منه فالله تعالى جعل الابل والبقر بالصفة التى يمكننا تصريفها على ما نريد وذلك نعمة عظيمة من الله تعالى فى الدين والدنيا ثم لما بين تعالى هذه النعمة قال بعده لعلكم تشكرون والمراد لكى تشكروا وقالت المعتزلة هذا يدل على انه سبحانه أراد من جميعهم أن يشكروا فدل هذا على أنه يريد كل ما أمر به من أطاع وعصى لا كما يقوله أهل السنة من أنه تعالى لم يرد ذلك الا من المعلوم أنه يطيع والكلام عليه قد تقدم غير مرة * أما قوله تعالى لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ففيه مسائل (المسئلة الاولى) لما كانت عادة الجاهلية على ما روى فى القربان انهم يلوثون بدمائها ولحومها الوثن وحيطان الكعبة بين تعالى ما هو المقصد من النحر فقال لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم فبين أن الذى يصل اليه تعالى ويرتفع اليه من صنيع المهدى من قوله ونحره وما شاكله من فرائضه هو تقوى الله دون نفس اللحم والدم ومعلوم ان شيأ من الاشياء لا يوصف بأنه يناله سبحانه فالمراد وصول ذلك الى حيث يكتب يدل عليه قوله اليه يصعد الكلم الطيب (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة دلت هذه الآية على أمور (أحدها) ان الذى ينتفع به المرء فعله دون الجسم الذى ينتفع بنحره (وثانيها) انه سبحانه غنى عن كل ذلك وانما المراد أن يجتهد العبد فى امتثال أوامره (وثالثها) انه لما لم ينتفع بالاجسام التى هى اللحوم والدماء وانتفع بتقواه وجب أن تكون تقواه فعلا له والا لكانت تقواه بمنزلة اللحوم (ورابعها) انه

وثقله وهى تنشق بالماء وامكالا (ومن كل الثمرات) متعلق بجعل فى قوله تعالى (جعل فيها زوجين اثنين) أى اثنينية حقيقية وهما الفردان اللذان كل منهما زوج الآخر وأكد به الزوجين لئلا يفهم أن المراد بذلك الشفعان اذ يطلق الزوج على المجموع ولكن اثنينية ذلك اثنينية اعتبارية أى جعل من كل نوع من أنواع الثمرات الموجودة فى الدنيا ضربين وصنفين اما فى اللون كالابيض والاسود أو فى الطعم كالحلو والحامض أو فى القدر كالصغير والكبير أو فى الكيفية كالحار والبارد وما أشبه ذلك ويجوز أن يتعلق بجعل الاول ويكون الثانى استئنافا لبيان كيفية ذلك الجعل (يغشى الليل النهار) استعارة تبعية تمثيلية مبنية على تشبيه ازالة نور الجو بالظلمة بتغطية الاشياء الظاهرة بالاغطية أى يستر النهار بالليل والتركيب وان احتمل العكس أيضا بالحمل على تقديم المفعول الثانى على الاول فان ضوء النهار أيضا ساتر لظلمة الليل الا أن الانسب بالليل أن يكون هو الغاشى وعدم هذا فى تضاعيف الآيات السفلية وان كان تعلقه بالآيات العلوية ظاهرا باعتبار أن ظهوره فى الارض فان الليل انما هو ظلها وفيما فوق موقع ظلها لا ليل أصلا ولان الليل والنهار لهما تعلق بالثمرات من حيث العقد والانضاج على أنهما أيضا زوجان متقابلان مثلها وقرئ يغشى من التغشية (ان فى ذلك) أى فيما ذكر من مد الارض وايتادها بالرواسى واجراء الانهار وخلق الثمرات واغشاء الليل النهار وفى الاشارة بذلك تنبيه على عظم شأن المشار اليه فى بابه (لآيات) باهرة وهى آثار تلك الافاعيل البديعة جلت حكمة صانعها ففى على معناها فان تلك الآثار مستقرة فى تلك الافاعيل منوطة بها ويجوز أن يشار بذلك الى تلك الآثار المدلول عليها بتلك الافاعيل

وفى تجريديه (لقوم يتفكرون) فان التفكر فيها يؤدى الى الحكم بأن تكوين كل من ذلك على هذا النمط الرائق والاسلوب اللائق لا بد له من مكون قادر حكيم يفعل ما يشاء ويختار ما يريد لا معقب لحكمه وهو الحميد المجيد (وفى الارض قطع) جملة مستأنفة مشتملة على طائفة أخرى من الآيات أى بقاع كثيرة مختلفة فى الاوصاف فمن طيبة الى سبخة وكريمة الى زهيدة وصلبة الى رخوة الى غير ذلك (متجاورات) أى متلاصقات وفى بعض المصاحف قطعا متجاورات أى جعل فى الارض قطعا (وجنات من أعناب) أى بساتين كثيرة منها (وزرع) من كل نوع من أنواع الحبوب وافراده لمراعاة أصله ولعل تقديم ذكر الجنات عليه مع كونه عمود المعاش لظهور حالها فى اختلافها ومباينتها لسائرها ورسوخ ذلك فيها وتأخير قوله تعالى (ونخيل) لئلا يقع بينها وبين صفتها وهى قوله تعالى (صنوان وغير صنوان) فاصلة والصنوان جمع صنو كقنوان وقنو وهى النخلة التى لها رأسان وأصلها واحد وقرئ بضم الصاد على لغة بنى تميم وقيس وقرئ جنات بالنصب عطفا على زوجين وبالجر على كل الثمرات ولعل عدم نظم قوله تعالى وفى الارض قطع متجاورات فى هذا السلك مع أن اختصاص كل من تلك القطع بما لها من الاحوال والصفات بمحض جعل الخالق الحكيم جلت قدرته حين مد الارض ودحاها للايماء الى كون تلك الاحوال صفات راسخة لتلك القطع وقرئ وزرع ونخيل بالجر عطفا على أعناب أو جنات (يسقى) أى ما ذكر من القطع والجنات والزرع والنخيل وقرئ بالتأنيث مراعاة للفظ والاول أوفق بمقام بيان اتحاد الكل فى حالة السقى (بماء واحد) لا اختلاف فى طبعه سواء كان السقى بماء الامطار أو بماء الانهار

لما شرط القبول بالتقوى وصاحب الكبيرة غير متق فوجب ان لا يكون عمله مقبولا وانه لا ثواب له (والجواب) أما الاول فخفان وأما الثالث فمعارض بالداعى والعلم وأما الرابع فصاحب الكبيرة وان لم يكن متقيا مطلقا ولكنه متق فيما أتى به من الطاعة على سبيل الاخلاص فوجب أن تكون طاعته مقبولة وعند هذا تنقلب الآية حجة عليهم (المسئلة الثالثة) كلهم قرؤا ينال الله وينال بالياء الا يعقوب فانه قرأ بالتاء فى الحرفين فمن أنث فقد رده الى اللفظ ومن ذكر فللحائل بين الاسم والفعل ثم قال كذلك سخرها لكم والمراد انما سخرها كذلك لتكبروا الله وهو التعظيم بما نفعله عند النحر وقبله وبعده على ما هدانا ودلنا عليه وبينه لنا ثم قال بعده على وجه الوعد لمن امتثل أمره وبشر المحسنين كما قال من قبل وبشر المخبتين والمحسن هو الذى يفعل الحسن من الاعمال ويتمسك به فيصير محسنا الى نفسه بتوفير الثواب عليه ﴿قوله تعالى ﴿ان الله يدافع عن الذين آمنوا ان الله لا يحب كل خوان كفور أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز الذين ان مكناهم فى الارض أقاموا الصلوة وآتوا الزكوة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور﴾ اعلم أنه تعالى لما بين ما يلزم فى الحج ومناسكه وما فيه من منافع الدنيا والآخرة وقد ذكرنا من قبل أن الكفار صدوهم اتبع ذلك ببيان ما يزيل الصد ويؤمن معه التمكن من الحج فقال ان الله يدافع عن الذين آمنوا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ أبو جعفر وشيبة ونافع بالالف ومثله ولولا دفع الله وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بغير ألف فيهما وقرأ حمزة والكسائى وعاصم ان الله يدافع بالالف ولولا دفع بغير ألف فمن قرأ يدافع فمعناه يبالغ فى الدفع عنهم وقال الخليل يقال دفع الله المكروه عنك دفعا ودافع عنك دفاعا والدفاع أحسنهما (المسئلة الثانية) ذكر ان الله يدافع عن الذين آمنوا ولم يذكر ما يدفعه حتى يكون أفخم وأعظم وأعم وان كان فى الحقيقة أنه يدافع بأس المشركين فلذلك قال بعده ان الله لا يحب كل خوان كفور فنبه بذلك على أنه يدفع عن المؤمنين كيد من هذا صفته (المسئلة الثالثة) قال مقاتل ان الله يدافع كفار مكة عن الذين آمنوا بمكة هذا حين أمر المؤمنين بالكف عن كفار مكة قبل الهجرة حين آذوهم فاستأذنوا النبى صلى الله عليه وسلم فى قتلهم سرا فنهاهم (المسئلة الرابعة) هذه الآية بشارة للمؤمنين باعلائهم على الكفار وكف بوائقهم عنهم وهى كقوله لن يضروكم الا أذى وقوله انا لننصر رسلنا والذين آمنوا وقال انهم لهم المنصورون وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب أما قوله تعالى ان الله لا يحب كل خوان كفور فالمعنى أنه سبحانه جعل العلة فى أنه يدافع عن الذين آمنوا ان الله لا يحب ضدهم وهو الخوان الكفور أى خوان فى أمانة الله كفور لنعمته ونظيره قوله تعالى لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم قال مقاتل أقروا بالصانع وعبدوا غيره فأى خيانة أعظم من هذا أما قوله تعالى أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ أهل المدينة والبصرة وعاصم فى رواية حفص أذن بضم الالف والباقون بفتحها أى أذن الله لهم فى القتال وقرأ أهل المدينة وعاصم يقاتلون بنصب التاء وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى أذن بنصب الالف ويقاتلون بكسر التاء قال الفراء والزجاج يعنى أذن الله للذين يحرصون على قتال المشركين فى المستقبل ومن قرأ بفتح التاء فالتقدير أذن للذين يقاتلون فى القتال (المسئلة الثانية) فى الآية محذوف والتقدير أذن للذين يقاتلون فى القتال فحذف المأذون فيه لدلالة يقاتلون عليه أما قوله بأنهم ظلموا فالمراد أنهم أذنوا فى القتال بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان

مشركو

(ونفضل) مع تأخذ أسباب التشابه بعض قدرتنا واختيارنا (بعضها على بعض) آخر منها (في الاكل) فيما يحصل منها من الثمر والطعم وقرئ بالياء على بناء الفاعل رداعلى يدبر ويفصل ويغشي وعلى بناء المفعول وفيه ما لا يخفى من الفخامة والدلالة على أن عدم احتمال استنادا لفعل الى فاعل آخر مغن عن بناء الفعل للفاعل (ان في ذلك) الذي ١٨٧ فصل من أحوال القطع والجنات (لآيات) كثيرة عظيمة ظاهرة (لقوم يعقلون) يعملون على قضية عقولهم فان من عقل هذه الاحوال العجيبة لا يتلعثم في الجزم بأن من قدر على ابداع هذه البدائع وخلق تلك الثمار المختلفة في الاشكال والالوان والطعوم والروائح في تلك القطع المتباينة المتجاورة وجعلها حدائق ذات بهجة قادر على اعادة ما أبداه بل هي أهون في القياس وهذه الاحوال وان كانت هي الآيات أنفسها لا انها فيها الا انه قد جردت عنها أمثالها مبالغة في كونها آية في تجريدة مثالها في قوله تعالى لهم فيها دار الخلد أو المشار اليه الاحوال الكلية والآيات أفرادها الحادثة شيأ فشيأ في الازمنة وآحادها الواقعة في الاقطار والامكنة المشاهدة لأهلها في على مثالها وحيث كانت دلالة هذه الاحوال على مدلولاتها أظهر مما سبق علق كونها آيات بمحض التعقل ولذلك لم يتعرض لغير تفضيل بعضها على بعض في الاكل الظاهر لكل عاقل مع تحقق ذلك في الخواص والكيفيات مما يتوقف العثور عليه على نوع تأمل وتفكر كأنه لا حاجة في ذلك الى التفكر أيضا وفيه تعريض بأن المشركين غير عاقلين (وان تعجب) يا محمد من شئ (فعجب) لا أعجب منه حقيق بأن يقصر عليه التعجب (قولهم) بعد مشاهدة ما عدد ذلك من الآيات الشاهدة بأنه تعالى على كل شئ قدير (أئذا كنا ترابا) على طريقة الاستفهام الانكاري المفيد لكمال

مشركو مكة يؤذونهم أذى شديدا وكانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين مضروب ومشجوج يتظلمون اليه فيقول لهم اصبروا فاني لم أومر بقتال حتى هاجر فأنزل الله تعالى هذه الآية وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهي عنه في نيف وسبعين آية وقيل نزلت في قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم مشركو مكة فاذن في مقاتلتهم أما قوله تعالى وان الله على نصرهم لقدير فذلك وعد منه تعالى بنصرهم كما يقول المرء لغيره ان أطعتني فانا قادر على مجازاتك لا يعني بذلك القدرة بل يريد أنه سيفعل ذلك أما قوله تعالى الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق فاعلم أنه تعالى لما بين أنهم انما أذن في القتال لاجل أنهم ظلموا فسر ذلك الظلم بقوله الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله فبين تعالى ظلمهم لهم بهذين الوجهين (أحدهما) أنهم أخرجوا من ديارهم (والثاني) أنهم أخرجوهم بسبب أنهم قالوا ربنا الله وكل واحد من الوجهين عظيم في الظلم فان قيل كيف استثنى من غير حق قولهم ربنا الله وهو من الحق قلنا تقدير الكلام انهم أخرجوا بغير موجب سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجب الاقرار والتمكين لا موجب الاخراج والتسيير ومثله هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله ثم بين سبحانه بقوله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت ان عادته جل جلاله أن يحفظ دينه بهذا الامر فأنا فع لهدمت بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما المراد بهذا الدفاع الذي أضافه الى نفسه (الجواب) هو اذنه لاهل دينه بمجاهدة الكفار فكأنه قال تعالى ولولا دفاع الله الناس أهل الشرك بالمؤمنين من حيث يأذن لهم في جهادهم وينصرهم على أعدائهم لاستولى أهل الشرك على أهل الاديان وعطلوا ما يبنونه من مواضع العبادة ولكنه دفع عن هؤلاء بأن أمر بقتال أعداء الدين ليتفرغ أهل الدين للعبادة وبناء البيوت لها ولهذا المعنى ذكر الصوامع والبيع والصلوات وان كانت لغير أهل الاسلام وذكر المفسرون وجوها أخر (أحدها) قال الكلبي يدفع الله بالنبيين عن المؤمنين وبالمجاهدين عن القاعدين عن الجهاد (وثانيها) روى أبو الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال يدفع الله بالمحسن عن المسيء وبالذي يصلي عن الذي لا يصلي وبالذي يتصدق عن الذي لا يتصدق وبالذي يحج عن الذي لا يحج وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله يدفع بالمسلم الصالح عن مائة من أهل بيته ومن جيرانه ثم تلا هذه الآية (وثالثها) قال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما يدفع بدين الاسلام وبأهله عن أهل الذمة (ورابعها) قال مجاهد يدفع عن الحقوق بالشهود وعن النفوس بالقصاص (السؤال الثاني) لماذا جمع الله بين مواضع عبادات اليهود والنصارى وبين مواضع عبادة المسلمين (الجواب) لاجل ما سألت عنها اختلفوا على وجوه (أحدها) قال الحسن المراد بهذه المواضع أجمع مواضع المؤمنين وان اختلفت العبارات عنها (وثانيها) قول الزجاج ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت في شرع كل نبي المكان الذي يصلى فيه فلولا ذلك الدفع لهدم في زمن موسى الكنائس التي كانوا يصلون فيها في شرعه وفي زمن عيسى الصوامع وفي زمن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم المساجد فعلى هذا انما دفع عنهم حين كانوا على الحق قبل التحريف وقبل النسخ (وثالثها) بل المراد لهدمت هذه الصوامع في أيام الرسول صلى الله عليه وسلم لانها على كل حال يجري فيها ذكر الله تعالى فليست بمنزلة عبادة الاوثان (السؤال الثالث) ما الصوامع والبيع والصلوات والمساجد (الجواب) ذكروا فيها وجوها (أحدها) الصوامع للنصارى والبيع لليهود والصلوات للصابئين والمساجد للمسلمين عن أبي العالية رضي الله عنه (وثانيها) الصوامع للنصارى وهي التي بنوها في الصحارى والبيع لهم أيضا وهي التي يبنونها في البلد والصلوات لليهود وقال

الاستبعاد والاستنكار وهو في محل الرفع على الابتداء من قولهم على أنه بمعنى المقول أو في محل النصب على المفعولية منه على أنه مصدر
فالعجب على الأول كلامهم وعلى الثاني تكلمهم بذلك والعامل في إذا ما دل عليه قوله (أئنا لفي خلق جديد) وهو نبعث أو نعاد وتقديم
الظرف لتقوية الإنكار بالبعث بتوجيهه إليه في حالة منافية له وتكرير الهمزة في قولهم أئنا لتأكيد الإنكار وليس مدار
إنكارهم كونهم ثابتين في الخلق الجديد بالفعل عند كونهم ترابا بل كونهم بعرضية ذلك واستعدادهم له وفيه من الدلالة على عتوهم وتماديهم في النكير ما لا يخفى وقيل وإن تعجب من قولهم في إنكار البعث فعجب قولهم والمآل وإن تعجب فقد تعجبت في موضع التعجب وقيل وإن تعجب من إنكارهم البعث فعجب قولهم الدال عليه فتأمل وقد جوز كون الخطاب لكل من يصلح له أي إن تعجب يا من ينظر في هذه الآيات من قدرة من هذه أفعاله فازدد تعجبا ممن ينكر مع هذه الدلائل قدرته تعالى على البعث وهو أهون من هذه والأنسب بقوله ويستعجلونك بالسيئة هو الأول وقوله تعالى فعجب خبر قدم على المبتدأ للقصر والتسجيل من أول الأمر بكون قولهم ذلك أمرا عجيبا ويجوز أن يكون مبتدأ لكونه موصوفا بالوصف المقدر كما أشير إليه فالمعنى وإن تعجب فالعجب الذي لا عجب وراءه قولهم هذا فاعجب منه وعلى الأول
وإن تعجب فقولهم هذا عجب لا عجب فوقه (أولئك) مبتدأ والموصول خبره أي أولئك المنكرون (وإن
لقدرته تعالى على البعث بعد ما عاينوا ما فصل من الآيات الباهرة الملجئة لهم إلى الإيمان لو كانوا يبصرون (الذين كفروا بربهم) وتمادوا
في ذلك فإن إنكارهم لقدرته عز وجل كفر به وأي كفر (وأولئك) مبتدأ خبره قوله (الأغلال في أعناقهم) أي مقيدون بقيود الضلال

الزجاج وهي بالعبرانية صلوثا (وثالثها) الصوامع للصابئين والبيع للنصارى والصلوات لليهود عن
قتادة (ورابعها) أنها بأسرها أسماء المساجد عن الحسن أما الصوامع فلأن المسلمين قد يتخذون
الصوامع وأما البيع فأطلق هذا الاسم على المساجد على سبيل التشبيه وأما الصلوات فالمعنى أنه لولا
ذلك الدفع لانقطعت الصلوات ولخربت المساجد (السؤال الرابع) الصلوات كيف تهدم خصوصا
على تأويل من تأوله على صلاة المسلمين (الجواب) من وجوه (أحدها) المراد بهدم الصلاة إبطالها
وإهلاك من يفعلها كقولهم هدم فلان إحسان فلان إذا قابله بالكفر دون الشكر (وثانيها) بل المراد مكان
الصلوات لأنه الذي يصح هدمه كقوله واسأل القرية أي أهلها (وثالثها) لما كان الأغلب فيما ذكر
ما يصح أن يهدم جاز ضم ما لا يصح أن يهدم إليه كقوله * متقلدا سيفا ورمحا * وإن كان الرمح لا يتقلد
(السؤال الخامس) قوله يذكر فيها اسم الله كثيرا مختص بالمساجد أو عائد إلى الكل (الجواب)
قال الكلبي ومقاتل عائد إلى الكل لأن الله تعالى يذكر في هذه المواضع كثيرا والأقرب أنه مختص
بالمساجد تشريفا لها بأن ذكر الله يحصل فيها كثيرا (السؤال السادس) لم قدم الصوامع والبيع
في الذكر على المساجد (الجواب) لأنها أقدم في الوجود وقيل أخرها في الذكر كما في قوله ومنهم سابق
بالخيرات بإذن الله ولأن أول الفكر آخر العمل فلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الرسل وأمته
خير الأمم لا جرم كانوا آخرهم ولذلك قال عليه السلام نحن الآخرون السابقون أما قوله تعالى ولينصرن
الله من ينصره فقال بعضهم من ينصره يتناول الجهاد بالقبول نصرة لدين الله تعالى وقال آخرون بل
المراد من يقوم بسائر دينه وإنما قالوا ذلك لأن نصرة الله على الحقيقة لا تصح وإنما المراد من نصرة الله نصرة
دينه كما يقال في ولاية الله وعداوته مثل ذلك وفي قوله ولينصرن الله من ينصره وعد بالنصر إن هذه
حاله ونصر الله تعالى للعبد أن يقويه على أعدائه حتى يكون هو الظافر ويكون قائما بإيضاح الأدلة والبينات
ويكون بالإعانة على المعارف والطاعات وفيه ترغيب في الجهاد من حيث وعدهم النصر ثم بين تعالى
أنه قوي على هذه النصرة التي وعدها المؤمنين وأنه لا يجوز عليه المنع وهو معنى قوله عزيز لأن العزيز
هو الذي لا يضام ولا يمنع عما يريده ثم إنه سبحانه وتعالى وصف الذين أذن لهم في القتال في الآية الأولى
فقال الذين إن مكناهم في الأرض والمراد من هذا التمكين السلطنة ونفاذ القول على الخلق لأن المتبادر إلى
الفهم من قوله مكناهم في الأرض ليس إلا هذا ولأنا لو حملناه على أصل القدرة لكان كل العباد كذلك
وحينئذ يبطل ترتيب الأمور الأربعة المذكورة عليه في معرض الجزاء لأنه ليس كل من كان قادرا على
الفعل أتى بهذه الأشياء إذا ثبت هذا فنقول المراد بذلك هم المهاجرون لأن قوله الذين إن مكناهم
صفة لمن تقدم وهو قوله الذين أخرجوا من ديارهم والأنصار ما أخرجوا من ديارهم فيصير معنى الآية
أن الله تعالى وصف المهاجرين بأنه إن مكنهم من الأرض وأعطاهم السلطنة فإنهم أتوا بالأمور الأربعة
وهي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكن قد ثبت أن الله تعالى مكن
الأئمة الأربعة من الأرض وأعطاهم السلطنة عليها فوجب كونهم آتين بهذه الأمور الأربعة وإذا كانوا
آمرين بكل معروف وناهين عن كل منكر وجب أن يكونوا على الحق فمن هذا الوجه دلت هذه الآية
على إمامة الأربعة ولا يجوز حمل الآية على علي رضي الله عنه وحده لأن الآية دالة على الجمع وفي قوله
ولله عاقبة الأمور دلالة على أن الذي تقدم ذكره من سلطنتهم وملكهم كائن لا محالة ثم إن الأمور
ترجع إلى الله تعالى بالعاقبة فإنه سبحانه هو الذي لا يزول ملكه أبدا وهو أيضا تأكيد لما قلناه * قوله تعالى

لا يرجى خلاصهم أو مغلولون يوم القيامة (وأولئك) الموصوفون بما ذكر من الصفات (أصحاب النار هم فيها خالدون) لا ينفكون عنها وتوسيط ضمير الفصل ليس لتخصيص الخلود بمنكري البعث خاصة بل بالجميع المدلول عليه بقوله تعالى أولئك الذين كفروا بربهم (ويستعجلونك بالسيئة) بالعقوبة التي أنذروها وذلك حين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالعذاب استهزاء منهم بإنذاره (قبل الحسنة) أي العافية والاحسان اليهم بالامهال (وقد خلت من قبلهم المثلات) أي عقوبات أمثالهم من المكذبين فما لهم لا يعتبرون بها ولا يحترزون حلول مثلها بهم والجملة الحالية لبيان ركاكة رأيهم في الاستعجال بطريق الاستهزاء أي يستعجلونك بها مستهزئين بإنذارك منكرين لوقوع ما أنذرتهم اياه والحال انه قد مضت العقوبات النازلة على أمثالهم من المكذبين والمستهزئين والمثلة بوزن السمرة العقوبة سميت بها لما بينها وبين المعاقب عليه من المماثلة ومنه المثال للقصاص وقرئ المثلات بضمتين باتباع الفاء العين والمثلات بفتح الميم وسكون الثاء كما يقال السمرة والمثلات بضم الميم وسكون الثاء تخفيف المثلات جمع مثلة كركبة وركبات (وان ربك لذو مغفرة) عظيمة (للناس على ظلمهم) أنفسهم بالذنوب والمعاصي ومحله النصب على الحالية أي ظالمين والعامل فيه المغفرة والمعنى ان ربك لغفور للناس لا يعجل لهم العقوبة وان كانوا ظالمين بل يمهلهم بتأخيرها (وان ربك لشديد العقاب) يعاقب من يشاء منهم حين يشاء فتأخير ما استعجلوه ليس للاهمال وعنه عليه الصلاة والسلام لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ الاحد العيش ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد (ويقول الذين كفروا) وهم المستعجلون أيضا وانما عدل عن الاضمار الى الموصول

﴿وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ اعلم انه تعالى لما بين فيما تقدم اخراج الكفار المؤمنين من ديارهم بغير حق وأذن في مقاتلتهم وضمن للرسول والمؤمنين النصرة وبين ان لله عاقبة الامور أردفه بما يجري مجرى التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم في الصبر على ما هم عليه من أذيته وأذية المؤمنين بالتكذيب وغيره فقال وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم سائر الامم أنبياءهم وذكر الله سبعة منهم * فان قيل ولم قال وكذب موسى ولم يقل قوم موسى * فالجواب من وجهين (الاول) ان موسى عليه السلام ما كذبه قومه بنو اسرائيل وانما كذبه غير قومه وهم القبط (الثاني) كأنه قيل بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم وكذب موسى أيضا مع وضوح آياته وعظم معجزاته فما ظنك بغيره أما قوله تعالى فأمليت للكافرين يعني أمهلتهم الى الوقت المعلوم عندي ثم أخذتهم بالعقوبة فكيف كان نكير استفهام تقرير أي فكيف كان انكاري عليهم بالعذاب أليس كان واقعا قطعا ألم أبدلهم بالنعمة نقمة وبالكثرة قلة وبالحياة موتا وبالعمارة خرابا ألست أعطيت الانبياء جميع ما وعدتهم من النصرة على أعدائهم والتمكين لهم في الارض فينبغي أن تكون عادتك يا محمد الصبر عليهم فانه تعالى انما يمهل للمصلحة فلا بد من الرضا والتسليم وان شق ذلك على القلب واعلم ان بدون ذلك يحصل التسلية لمن حاله دون حال الرسول عليه السلام فكيف بذلك مع منزلته لكنه في كل وقت يصل اليه من جهتهم ما يزيد غما فأجرى الله عادته بأن يصبره حالا بعد حال وقد تقدم ذكر هؤلاء المكذبين وبأي جنس من عذاب الاستئصال هلكوا * وههنا بحث وهو ان هذه الآية تدل على انه سبحانه يفعل به وبقومه كل ما فعل بهم وبقومهم الا عذاب الاستئصال فانه لا يفعله بقوم محمد صلى الله عليه وسلم وان كان قد مكنهم من قتل أعدائهم وثبتهم قال الحسن السبب في تأخير عذاب الاستئصال عن هذه الامة الى ذلك العذاب مشروط بأمرين (أحدهما) ان عند الله حدا من الكفر من بلغه عذبه ومن لم يبلغه لم يعذبه (والثاني) ان الله لا يعذب قوما حتى يعلم ان أحدا منهم لا يؤمن فأما اذا حصل الشرطان وهو أن يبلغوا ذلك الحد من الكفر وعلم الله ان أحدا منهم لا يؤمن فحينئذ يأمر الانبياء فيدعون على أممهم فيستجيب الله دعاءهم فيعذبهم بعذاب الاستئصال وهو المراد من قوله حتى اذا استيأس الرسل أي من اجابة القوم وقوله لنوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن واذا عذبهم الله تعالى فانه ينجي المؤمنين لقوله فلما جاء أمرنا أي بالعذاب نجينا هودا واعلم أن الكلام في هذه المسئلة قد تقدم فلا فائدة في الاعادة فان قيل كيف يوصف ما ينزله بالكفار من الهلاك بالعذاب المعجل بأنه نكير قلنا اذا كان رادعا لغيره وصادعا له عن مثل ما أوجب ذلك صار نكيرا أما قوله فكأين من قرية أهلكناها ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال بعضهم المراد من قوله فكأين فكم على وجه التكثير وقيل أيضا معناه ورب قرية والاول أولى لانه أوكد في الزجر فكأنه تعالى لما بين حال قوم من المكذبين وأنه عجل اهلاكهم أتبعه بما دل على ان لذلك أمثالا وان لم يذكره مفصلا (المسئلة الثانية) قرأ ابن كثير وأهل الكوفة والمدينة أهلكناها بالنون وقرأ أبو عمرو ويعقوب أهلكتها وهو اختيار أبي عبيد لقوله في الآية الاولى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم (المسئلة الثالثة) قوله أهلكناها أي أهلها ودل بقوله وهي ظالمة على ما ذكرنا ويحتمل أن يكون المراد اهلاك نفس القرية فيدخل تحته اهلاك كل من فيها لان العذاب النازل اذا

ذمالهم ونعيا عليهم كفرهم بآيات الله تعالى التي تخر لها صم الجبال حيث لم يرفعوا لها رأسا ولم يعدوها من جنس الآيات (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه) مثل آيات موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام عنادا ومكابرة والا ففي أدنى آية أنزلت عليه عليه الصلاة والسلام غنية وعبرة لأولي الألباب (انما أنت منذر) مرسل للانذار من سوء عاقبة ما يأتون ويذرون كدأب من قبلك من الرسل وليس عليك الا الاتيان بما يعلم به نبوتك وقد حصل ذلك بما لا مزيد عليه ولا حاجة الى الزامهم والقامهم الحجر بالاتيان بما اقترحوا من الآيات (ولكل قوم هاد) معين لا بالذات بل بعنوان الهداية يعني لكل قوم نبي مخصوص له هداية مخصوصة يقتضي اختصاص كل منهم بما يختص به حكم لا يعلمها الا الله أو لكل قوم هاد عظيم الشان قادر على ذلك هو الله سبحانه وما عليك الا انذارهم فلا يهمنك عنادهم وانكارهم للآيات المنزلة عليك وازدراؤهم بها ثم عقبه بما يدل على كمال علمه وقدرته وشمول قضائه وقدره المبني على الحكم والمصالح تنبيها على أن تخصيص كل قوم بنبي وكل نبي بجنس معين من الآيات انما هو للحكم الداعية الى ذلك اظهارا لكمال قدرته على هدايتهم لكن لا يهدي الا من تعلق بهدايته مشيئته التابعة للحكم [illegible] فقال (الله يعلم ما تحمل كل أنثى) أي تحمله فما موصولة أريد بها ما في بطنها من حين العلوق الى زمن الولادة لا بعد تكامل يفسره فقط والعلم متعد الى واحد أو أي شيء تحمل وعلى أي حال هو من الاحوال المتواردة عليه طورا فطورا فهي استفهامية معلقة أو حملها فهي مصدرية (وما تغيض الارحام وما تزداد) أي تنقصه وتزداده في الجثة كالخديج والتام وفي المدة كالمولود في أقل مدة الحمل

بالغ أن يهلك القرية فقصير منهدمة حصل بهلاك من فيها وان كان الاول أقرب أما قوله وهي خاوية على عروشها ففيه سؤالان (السؤال الاول) ما معنى هذه اللفظة فقال صاحب الكشاف كل مرتفع أظلك من سقف بيت أو خيمة أو ظلة فهو عرش والخاوي الساقط من خوى النجم اذا سقط أو الخالي من خوى المنزل اذا خلا من أهله فان فسرنا الخاوي بالساقط كان المعنى انها ساقطة على سقوفها أي خرت سقوفها على الارض ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف وان فسرناه بالخالي كان المعنى انها خالية عن الناس مع بقاء عروشها وسلامتها قال ويمكن أن يكون خبرا بعد خبر كأنه قيل هي خاوية وهي على عروشها بمعنى أن السقوف سقطت على الارض فصارت في قرار الحيطان وبقيت الحيطان قائمة فهي مشرفة على السقوف الساقطة وبالجملة فالآية دالة على انها بقيت محلا للاعتبار (السؤال الثاني) ما محل هاتين الجملتين من الاعراب أعني وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها (الجواب) الاولى في محل النصب على الحال والثانية لا محل لها لانها معطوفة على أهلكناها وهذا الفعل ليس له محل قال أبو مسلم المعنى فكأين من قرية أهلكناها وهي كانت ظالمة وهي الآن خاوية أما قوله وبئر معطلة وقصر مشيد ففيه مسائل (المسألة الاولى) قرأ الحسن معطلة من أعطله بمعنى معطلة ومعنى المعطلة انها عامرة فيها الماء ويمكن الاستقاء منها الا انها عطلت أي تركت لا يستقى منها لهلاك أهلها وفي المشيد قولان (أحدهما) انه المجصص لان الجص بالمدينة يسمى الشيد (والثاني) انه المرفوع المطول والمعنى انه تعالى بين ان القرية مع تكلف بانيهم لها واغتباطهم بها جعلت لاجل كفرهم بهذا الوصف وكذلك البئر التي كلفوها وصارت شربهم صارت معطلة بلا شارب ولا وارد والقصر الذي أحكموه بالجص وطولوه صار ظاهرا انه خال بلا ساكن وجعل ذلك تعالى عبرة لمن اعتبر وتدبر وفيه دلالة على أن تفسير على بمع أولى لان التقدير وهي خاوية مع عروشها ومعلوم أنها اذا كانت كذلك كانت أدخل في الاعتبار وهي كقوله تعالى وانكم لتمرون عليهم مصبحين والله أعلم بالصواب (المسألة الثانية) روى أبو هريرة رضي الله عنه ان هذه البئر نزل عليها صالح مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به ونجاهم الله تعالى من العذاب وهم بحضرموت وانما سميت بذلك لان صالحا حين حضرها مات وثم بلدة عند البئر اسمها حاضوراء بناها قوم صالح وأمروا عليها جلهس بن جلاس وجعلوا وزيره سنحاريب وأقاموا بها زمانا ثم كفروا وعبدوا صنما وأرسل الله تعالى اليهم حنظلة بن صفوان فقتلوه في السوق فأهلكهم الله تعالى وعطل بئرهم وخرب قصورهم قال الامام أبو القاسم الانصاري وهذا عجيب لاني زرت قبر صالح بالشام ببلدة يقال لها عكة فكيف يقال انه بحضرموت أما قوله تعالى أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فالمقصود منه ذكر ما يتكامل به ذلك الاعتبار لان الرؤية لها حظ عظيم في الاعتبار وكذلك استماع الاخبار فيه مدخل ولكن لا يكمل هذان الامران الا بتدبر القلب لان من عاين وسمع ثم لم يتدبر ولم يعتبر لم ينتفع البتة ولو تفكر فيما سمع لانتفع فلهذا قال فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور كأنه قال لا عمى في ابصارهم فانهم يرون بها لكن العمى في قلوبهم حيث لم ينتفعوا بما أبصروه وههنا سؤالات (السؤال الاول) قوله أفلم يسيروا في الارض هل يدل على الامر بالسفر (الجواب) يحتمل أنهم ما سافروا فحثهم على السفر ليروا مصارع من أهلكهم الله بكفرهم ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا ويحتمل أن يكونوا قد سافروا ورأوا ذلك ولكن لم يعتبروا فجعلوا كأن لم يسافروا ولم يروا (السؤال الثاني) ما معنى الضمير في قوله فانها لا تعمى الابصار (والجواب) هذا الضمير ضمير القصة والشأن يجيء مؤنثا ومذكرا وفي قراءة ابن مسعود فانه ويجوز أن يكون ضميرا مبهما

والولد في أكثرها وفيما بينهما قيل ان الضحاك ولد في سنتين وهرم بن حيان في أربع ومن ذلك سمي هرما وفي العدد كالواحد فما فوقه يروى أن شريكا كان رابع أربعة أو يعلم نقصها وازديادها لما فيها اذ الفعلان متعديان كما في قوله تعالى وغيض الماء وقوله تعالى وازدادوا تسعا وقوله ونزداد كيل بعير أو لازمان قد أسندا الى الارحام مجازا وهما لما فيها (وكل شئ)

من الاشياء (عنده بمقدار) بقدر لا يمكن تجاوزه عنه كقوله انا كل شئ خلقناه بقدر فان كل حادث من الاعيان والاعراض له في كل مرتبة من مراتب التكوين ومباديها وقت معين وحال مخصوص لا يكاد يجاوزه والمراد بالعندية الحضور العلمي بل العلم الحضوري فان تحقق الاشياء في أنفسها في أي مرتبة كانت من مراتب الوجود والاستعداد لذلك علم له بالنسبة الى الله عز وجل (عالم الغيب) أي الغائب عن الحس (والشهادة) أي الحاضر له عبر عنهما بهما مبالغة وقيل أريد بالغيب المعدوم وبالشهادة الموجود وهو خبر مبتدأ محذوف أو خبر بعد خبر وقرئ بالنصب على المدح وهذا كالدليل على ما قبله من قوله تعالى الله يعلم الخ (الكبير) العظيم الشأن الذي كل شئ دونه (المتعال) المستعلي على كل شئ بقدرته أو المنزه عن نعوت المخلوقات وبعد ما بين سبحانه أنه عالم بجميع أحوال الانسان في مراتب فطرته ومحيط بعالمي الغيب والشهادة بين انه تعالى عالم بجميع ما يأتون وما يذرون من الافعال والاقوال وانه لا فرق بالنسبة اليه بين السر والعلن فقال (سواء منكم من أسر القول) في نفسه (ومن جهر به) أظهره لغيره (ومن هو مستخف) مبالغ في الاختفاء كأنه مختف (بالليل) وطالب للزيادة (وسارب) بارز يراه كل أحد (بالنهار) من سرب سروبا أي برز وهو عطف على من هو مستخف أو على مستخف ومن عبارة عن الاثنين

يفسره الابصار (السؤال الثالث) أي فائدة في ذكر الصدور مع أن كل أحد يعلم ان القلب لا يكون الا في الصدر (الجواب) ان المتعارف ان العمى مكانه الحدقة فلما أريد اثباته للقلب على خلاف المتعارف احتيج الى زيادة بيان كما تقول ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك فقولك الذي بين فكيك تقرير لما ادعيته للسان وتثبيت لان محل المضاء هو هو لا غير وكأنك قلت ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك سهوا ولكني تعمدته على اليقين وعندي فيه وجه آخر وهو أن القلب قد يجعل كناية عن الخاطر والتدبر كقوله تعالى ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب وعند قوم ان محل التفكر هو الدماغ فالله تعالى بين ان محل ذلك هو الصدر (السؤال الرابع) هل تدل الآية على ان العقل هو العلم وعلى ان محل العلم هو القلب (الجواب) نعم لان المقصود من قوله قلوب يعقلون بها العلم وقوله يعقلون بها كالدلالة على ان القلب آلة لهذا التعقل فوجب جعل القلب محلا للتعقل ويسمى الجهل بالعمى لان الجاهل لكونه متحيرا يشبه الاعمى * قوله تعالى ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها والى المصير قل يا أيها الناس انما أنا لكم نذير مبين﴾ اعلم انه تعالى لما حكى من عظم ما هم عليه من التكذيب أنهم يستهزؤن باستعجال العذاب فقال ويستعجلونك بالعذاب وفي ذلك دلالة على انه عليه السلام كان يخوفهم بالعذاب ان استمروا على كفرهم ولان قولهم لوما تأتينا بالملائكة يدل على ذلك فقال تعالى ولن يخلف الله وعده لان الوعد بالعذاب اذا كان في الآخرة دون الدنيا فاستعجاله يكون كالخلف ثم بين ان العاقل لا ينبغي أن يستعجل عذاب الآخرة فقال وان يوما عند ربك يعني فيما ينالهم من العذاب وشدته كألف سنة لو بقي وعذب في كثرة الآلام وشدتها فبين سبحانه أنهم لو عرفوا حال عذاب الآخرة وأنه بهذا الوصف لما استعجلوه وهذا قول أبي مسلم وهو أولى الوجوه (الوجه الثاني) ان المراد طول أيام الآخرة في المحاسبة ويرجع معناه الى قريب مما تقدم وذلك ان الايام القصيرة اذا مرت في الشدة كانت مستطالة فكيف تكون الايام المستطالة اذا مرت في الشدة ثم ان العذاب الذي يكون طول أيامها الى هذا الحد لا ينبغي للعاقل أن يستعجله (الوجه الثالث) ان اليوم الواحد وألف سنة بالنسبة اليه على السواء لانه القادر الذي لا يعجزه شئ فاذا لم يستبعدوا امهال يوم فلا يستبعدوا أيضا امهال ألف سنة أما قوله وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة فالمراد وكم من قرية أخرت اهلاكهم مع استمرارهم على ظلمهم فاغتروا بذلك التأخير ثم أخذتهم بأن أنزلت العذاب بهم ومع ذلك فعذابهم مدخر اذا صاروا الى وهو تفسير قوله والى المصير فان قيل لم قال فيما قبل فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة وقال ههنا وكأين من قرية أمليت لها الاولى بالفاء وهذه بالواو قلنا الاولى وقعت بدلا عن قوله فكيف كان نكير وأما هذه فحكمها حكم ما تقدمها من الجملتين المعطوفتين بالواو أعني قوله ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون أما قوله قل يا أيها الناس انما أنا لكم نذير مبين فالمعنى انه تعالى أمر رسوله بأن يديم لهم التخويف والانذار وأن لا يصده ما يكون منهم من الاستعجال للعذاب على سبيل الهزؤ عن ادامة التخويف والانذار وأن يقول لهم انما بعثت للانذار فاستهزاؤكم بذلك لا يمنعني منه * قوله تعالى ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم﴾ اعلم انه تعالى لما بين للرسول صلى الله عليه وسلم أنه يجب أن يقول لهم انا نذير مبين أردف ذلك بأن أمره بوعدهم ووعيدهم لان الرجل انما يكون منذرا بذكر الوعد للطائعين والوعيد للعاصين فقال والذين آمنوا وعملوا الصالحات فجمع بين الوصفين وهذا دليل على ان العمل

كما في قوله تعالى فان عاهدتني لا تخونني * تكن مثل من يا ذئب يصطحبان كأنه قيل سواء منكم اثنان مستخف بالليل وسارب بالنهار والاستواء وان أسند الى من أسر ومن جهر والى المستخفي والسارب لكنه في الحقيقة مسند الى ما أسره وما جهر به أو الى الفاعل من حيث هو فاعل كما في الاخيرين وتقديم الاسرار والاستخفاء لاظهار كمال علمه تعالى فكانه في التعلق بالخفيات أقدم منه بالظواهر والا فنسبته الى الكل سواء لما عرفته آنفا (له) أى لكل ممن أسر أو جهر والمستخفي أو السارب (معقبات) ملائكة تتعقب في حفظه جمع معقبة من عقبه مبالغة عقبه اذا جاء على عقبه كان بعضهم يعقب بعضا أو لانهم يعقبون أقواله وأفعاله فيكتبونه أو اعتقب فأدغمت التاء في القاف والتاء للمبالغة أو المراد بالمعقبات الجماعات وقرئ معاقيب جمع معقب أو معقبة على تعويض الياء من احدى القافين (من بين يديه ومن خلفه) من جميع جوانبه أو من الاعمال ما قدم وأخر (يحفظونه من أمر الله) من بأسه حين أذنب بالاستمهال والاستغفار له أو يحفظونه من المضار أو يراقبون أحواله من أجل أمر الله تعالى وقد قرئ به وقيل من بمعنى الباء وقيل من أمر الله صفة ثانية لمعقبات وقيل المعقبات الحراس والجلاوزة حول السلطان يحفظونه في توهمه من قضاء الله تعالى (ان الله لا يغير ما بقوم) من النعمة والعافية (حتى يغيروا ما بأنفسهم) من الاعمال الصالحة أو ملكاتها التي هي فطرة الله التي فطر الناس عليها الى أضدادها (واذا أراد الله بقوم سوأ) لسوء اختيارهم واستحقاقهم لذلك (فلا مرد له) فلا رد له والعامل في اذا ما دل عليه الجواب (وما لهم من دونه من وال) يلي أمرهم ويدفع عنهم السوء الذي أراده الله بهم بما قدمت أيديهم من وهو

الصالح خارج عن مسمى الايمان وبه يبطل قول المعتزلة ويدخل في الايمان كل ما يجب من الاعتقاد بالقلب والاقرار باللسان ويدخل في العمل الصالح أداء كل واجب وترك كل محظور ثم بين سبحانه ان من جمع بينهما فالله تعالى يجمع له بين المغفرة والرزق الكريم أما المغفرة فاما أن تكون عبارة عن غفران الصغائر أو عن غفران الكبائر بعد التوبة أو عن غفرانها قبل التوبة والاولان واجبان عند الخصم وأداء الواجب لا يسمى غفرانا فبقي الثالث وهو دلالة على العفو عن أصحاب الكبائر من أهل القبلة وأما الرزق الكريم فهو اشارة الى الثواب وكرمه يحتمل أن يكون للصفات السلبية وهو ان الانسان هنالك يستغني عن المكاسب وتحمل المشاق والذل فيها وارتكاب المآثم والدناءة بسببها وأن تكون للصفات الثبوتية وهو أن يكون رزقا كثيرا دائما خالصا عن شوائب الضرر مقرونا بالتعظيم والتبجيل والاولى حمل الكريم على كل هذه الصفات فهذا شرح حال المؤمنين * وأما حال الكفار فقال والذين سعوا في آياتنا معاجزين والمراد اجتهدوا في ردها والتكذيب بها حيث سموها سحرا وشعرا وأساطير الاولين ويقال لمن بذل جهده في أمر انه سعى فيه توسعا من حيث بلغ في بذل الجهد النهاية كما اذا بلغ الماشي نهاية طاقته فيقال له سعى وذكر الآيات وأراد التكذيب بها مجازا قال صاحب الكشاف يقال سعى في أمر فلان اذا أصلحه أو أفسده بسعيه أما المعاجز فيقال عاجزته أي طمعت في اعجازه واختلفوا في المراد هل معاجزين لله أو للرسول وللمؤمنين والاقرب هو الثاني لانهم ان أنكروا الله استحال منهم أن يطمعوا في اعجازه وان أثبتوه فيبعد أن يعتقدوا انهم يعجزونه ويغلبونه ويصح منهم أن يظنوا ذلك في الرسول بالحيل والمكايد أما الذين قالوا المراد معاجزين لله فقد ذكروا وجوها (أحدها) المراد معاجزين مغالبين مفوتين لربهم من عذابهم وحسابهم حيث جحدوا البعث (وثانيها) انهم يثبطون غيرهم عن التصديق بالله ويثبطونهم بسبب الترغيب والترهيب (وثالثها) يعجزون الله بادخال الشبه في قلوب الناس (والجواب عن الاول) ان من جحد أصل الشيء لا يوصف بأنه مغالب لمن يفعل ذلك الشيء ومن تأول الآية على ذلك فيجب أن يكون مراده انهم ظنوا مغالبة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما كان يقوله من أمر الحشر والنشر (والجواب عن الثاني والثالث) أن المغالبة في الحقيقة ترجع الى الرسل والامة لا الى الله تعالى أما قوله تعالى أولئك أصحاب الجحيم فالمراد انهم يدومون فيها وشبههم من حيث الدوام بالصاحب فان قيل انه عليه السلام في هذه الآية بشر المؤمنين أولا وأنذر الكافرين ثانيا فكان القياس أن يقال قل يا أيها الناس انما أنا لكم بشير ونذير قلنا الكلام مسوق الى المشركين ويا أيها الناس نداء لهم وهم الذين قيل فيهم أفلم يسيروا في الارض ووصفوا بالاستعجال وانما أقحم ذكر المؤمنين وثوابهم في البين زيادة لغيظهم وايذائهم ❁ قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان الظالمين لفي شقاق بعيد وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وان الله لهادي الذين آمنوا الى صراط مستقيم ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين﴾ أما قوله تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ففيه مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ من الناس من قال الرسول هو الذي حدث وأرسل والنبي هو الذي لم يرسل ولكنه ألهم أو رأى في النوم ومن الناس من قال ان كل رسول نبي وليس كل نبي يكون رسولا

وهو قول الكلبي والفراء وقالت المعتزلة كل رسول نبي وكل نبي رسول ولا فرق بينهما واحتجوا على فساد القول الأول بوجوه (أحدها) هذه الآية فانها دالة على ان النبي قد يكون مرسلا وكذا قوله تعالى وما أرسلنا في قرية من نبي (وثانيها) ان الله تعالى خاطب محمدا مرة بالنبي ومرة بالرسول فدل على انه لا منافاة بين الأمرين وعلى القول الأول المنافاة حاصلة (وثالثها) انه تعالى نص على انه خاتم النبيين (ورابعها) ان اشتقاق لفظ النبي اما من النبأ وهو الخبر أو من قولهم نبأ اذا ارتفع والمعنيان لا يحصلان الا بقبول الرسالة (أما القول الثاني) فاعلم ان شيأ من تلك الوجوه لا يبطله بل هذه الآية دالة عليه لانه عطف النبي على الرسول وذلك يوجب المغايرة وهو من باب عطف العام على الخاص وقال في موضع آخر وكم أرسلنا من نبي في الاولين وذلك يدل على انه كان نبيا فجعله الله مرسلا وهو يدل على قولنا وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم كم المرسلون فقال ثلثمائة وثلاثة عشر فقيل وكم الانبياء فقال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا الجم الغفير اذا ثبت هذا فنقول ذكروا في الفرق بين الرسول والنبي أمورا (أحدها) أن الرسول من الانبياء من جمع الى المعجزة الكتاب المنزل عليه والنبي غير الرسول من لم ينزل عليه كتاب وانما أمر أن يدعو الى كتاب من قبله (والثاني) ان من كان صاحب المعجزة وصاحب الكتاب ونسخ من شرع قبله فهو الرسول ومن لم يكن مستجمعا لهذه الخصال فهو النبي غير الرسول وهؤلاء يلزمهم أن لا يجعلوا اسحق ويعقوب وأيوب ويونس وهرون وداود وسليمان رسلا لانهم ما جاؤا بكتاب ناسخ (والثالث) ان من جاءه الملك ظاهرا وأمره بدعوة الخلق فهو الرسول ومن لم يكن كذلك بل رأى في النوم كونه رسولا أو أخبره أحد من الرسل بانه رسول الله فهو النبي الذي لا يكون رسولا وهذا هو الاولى (المسئلة الثانية) ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية ان الرسول صلى الله عليه وسلم لما رأى اعراض قومه عنه وشق عليه ما رأى من مباعدتهم عما جاءهم به تمنى في نفسه أن يأتيهم من الله ما يقارب بينه وبين قومه وذلك لحرصه على ايمانهم فجلس ذات يوم في نادٍ من أندية قريش كثير أهله وأحب يومئذ أن لا يأتيه من الله شيء ينفروا عنه وتمنى ذلك فأنزل الله تعالى سورة والنجم اذا هوى فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ قوله أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءته فقرأ السورة كلها فسجد وسجد المسلمون لسجوده وسجد جميع من في المسجد من المشركين فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر الا سجد سوى الوليد بن المغيرة وأبي أحيحة سعيد بن العاص فانهما أخذا حفنة من التراب من البطحاء ورفعاها الى جبهتيهما وسجدا عليها لانهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود وتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا وقالوا قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام فقال ماذا صنعت تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله وقلت ما لم أقل لك فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا وخاف من الله خوفا عظيما حتى نزل قوله تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته الآية هذا رواية عامة المفسرين الظاهريين أما أهل التحقيق فقد قالوا هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول أما القرآن فوجوه (أحدها) قوله تعالى ولو تقول علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين (وثانيها) قوله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ان أتبع الا ما يوحى الي (وثالثها) قوله وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى فلو أنه قرأ عقيب هذه الآية تلك الغرانيق العلى لكان قد ظهر كذب الله تعالى في

تفسير ما بهم وفيه دلالة على أن تخلف مراده تعالى محال وايذان بأنهم بما باشروه من انكار البعث واستعجال السيئة واقتراح الآية قد غيروا ما بأنفسهم من الفطرة واستحقوا لذلك حلول غضب الله تعالى وعذابه (هو الذي يريكم البرق خوفا) من الصاعقة (وطمعا) في المطر ووجه تقديم الخوف على الطمع ظاهر لما أن المخوف عليه النفس أو الرزق المقيد والمطموع فيه الرزق المترقب وقيل الخوف أيضا من المطر لكن الخائف منه غير الطامع فيه كالخراف والحراث ويأباه الترتيب اللهم الا أن يتكلف ما أشير اليه من أن المخوف عتيد والمطموع فيه مترقب وانتصابهما اما على المصدرية أي فتخافون خوفا وتطمعون طمعا أو على الحالية من البرق أو المخاطبين باضمار ذوي أو بجعل المصدر بمعنى المفعول أو الفاعل مبالغة أو على العلية بتقدير المضاف أي ارادة خوف وطمع أو بتأويل الاخافة والاطماع ليتحد فاعل العلة والفعل المعلل وأما جعل المعلل هي الرؤية التي تتضمنها الاراءة على طريقة قول النابغة

وحلت بيوتي في يفاع ممنع
تخال به راعي الحمولة طائرا
حذارا على أن لا ينال مغاورى
ولا نسوتي حتى يمتن حرائرا

أي احللت بيوتي حذارا فلا سبيل اليه لان ما وقع في معرض العلة الغائية لا سيما الخوف لا يصلح علة لرؤيتهم (وينشئ السحاب) الغمام المنسحب في الجو (الثقال) بالماء وهي جمع ثقيلة وصف بها السحاب لكونها اسم جنس في معنى الجمع والواحدة سحابة يقال سحابة ثقيلة وسحاب ثقال كما يقال امرأة كريمة ونسوة كرام (ويسبح الرعد) أي سامعوه من العباد الراجين للمطر ملتبسين (بحمده) أي يضجون بسبحان الله والحمد لله واسناده الى الرعد لحمله لهم على ذلك أو يسبح الرعد نفسه على أن تسبيحه عبارة عن دلالته على وحدانيته تعالى

وفضله المستوجب لحمده وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول سبحان من يسبح الرعد بحمده واذا اشتد يقول اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك وعن علي رضي الله عنه سبحان من سبحت له وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان اليهود سألت النبي عليه الصلاة والسلام ١٩٤ عن الرعد فقال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب وعن الحسن خلق من خلق الله تعالى ليس بملك (والملائكة) أي يسبح الملائكة (من خيفته) من هيبته واجلاله جل جلاله وقيل الضمير للرعد (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) فيهلكه بذلك (وهم) أي الكفرة المخاطبون في قوله تعالى هو الذي يريكم البرق وقد التفت الى الغيبة ايذانا باسقاطهم عن درجة الخطاب واعراضا عنهم وتعديدا لجناياتهم لدى كل من يستحق الخطاب كأنه قيل هو الذي يفعل أمثال هذه الافاعيل العجيبة من اراءة البرق وانشاء السحاب الثقال وارسال الصواعق الدالة على كمال علمه وقدرته ويعقلها من يعقلها من المؤمنين أو الرعد نفسه أو الملك الموكل به والملائكة ويعملون بموجب ذلك من التسبيح والحمد والخوف من هيبته تعالى وهم أي الكفرة الذين حكيت هناتهم مع ذلهم وهوانهم وحقارة شأنهم (يجادلون في الله)
أي في شأنه تعالى حيث يفعلون ما يفعلون من انكار البعث واستعجال العذاب استهزاء واقتراح الآيات السلام
فالواو لعطف الجملة على ما قبلها من قوله تعالى هو الذي يريكم البرق الخ أو على قوله الله يعلم ما تحمل الخ وأما العطف على قوله تعالى ويقول الذين كفروا كما قيل فلا مجال له لان قوله تعالى الله يعلم الخ استئناف لبيان بطلان قولهم ذلك ونظائره من استعجال العذاب

الضلال وذلك لا يقوله مسلم (ورابعها) قوله تعالى وان كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا اليك لتفتري علينا غيره واذا لاتخذوك خليلا وكلمة كاد عند بعضهم معناه قرب أن يكون الامر كذلك مع انه لم يحصل (وخامسها) قوله ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيأ قليلا وكلمة لولا تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره فدل على أن ذلك الركون القليل لم يحصل (وسادسها) قوله كذلك لنثبت به فؤادك (وسابعها) قوله سنقرئك فلا تنسى ❊ وأما السنة فهي ماروى عن محمد بن اسحق بن خزيمة انه سئل عن هذه القصة فقال هذا وضع من الزنادقة وصنف فيه كتابا وقال الامام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ثم أخذ يتكلم في أن رواة هذه القصة مطعون فيهم وأيضا فقد روى البخاري في صحيحه ان النبي عليه الصلاة والسلام قرأ سورة والنجم وسجد فيها المسلمون والمشركون والانس والجن وليس فيه حديث الغرانيق وروى هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها البتة حديث الغرانيق ❊ وأما المعقول فمن وجوه (أحدها) ان من جوز على الرسول صلى الله عليه وسلم تعظيم الاوثان فقد كفر لان من المعلوم بالضرورة ان أعظم سعيه كان في نفي الاوثان (وثانيها) انه عليه السلام ما كان يمكنه في أول الامر أن يصلي ويقرأ القرآن عند الكعبة آمنا أذى المشركين له حتى كانوا ربما مدوا أيديهم اليه وانما كان يصلي اذا لم يحضروها ليلا أو في أوقات خلوة وذلك يبطل قولهم (وثالثها) ان معاداتهم للرسول كانت أعظم من أن يقروا بهذا القدر من القراءة دون أن يقفوا على حقيقة الامر فكيف أجمعوا على أنه عظم آلهتهم حتى خروا سجدا مع انه لم يظهر عندهم موافقته لهم (ورابعها) قوله فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته وذلك لان احكام الآيات بازالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول أقوى من نسخه بهذه الآيات التي تبقى الشبهة معها فاذا أراد الله احكام الآيات لئلا يلتبس ما ليس بقرآن قرآنا فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلا أولى (وخامسها) وهو أقوى الوجوه انا لو جوزنا ذلك ارتفع الامان عن شرعه وجوزنا في كل واحد من الاحكام والشرائع أن يكون كذلك ويبطل قوله تعالى يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس فانه لا فرق في العقل بين النقصان عن الوحي وبين الزيادة فيه فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الاجمال ان هذه القصة موضوعة أكثر ما في الباب ان جمعا من المفسرين ذكروها لكنهم ما بلغوا حد التواتر وخبر الواحد لا يعارض الدلائل النقلية والعقلية المتواترة ❊ ولنشرع الآن في التفصيل فنقول التمني جاء في اللغة لامرين (أحدهما) تمني القلب (والثاني) القراءة قال الله تعالى ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني أي الا قراءة لان الامي لا يعلم القرآن من المصحف وانما يعلمه قراءة وقال حسان

تمنى كتاب الله أول ليلة ❊ وآخرها لاقى حمام المقادر

قيل انما سميت القراءة أمنية لان القارئ اذا انتهى الى آية رحمة تمنى حصولها واذا انتهى الى آية عذاب تمنى أن لا يبتلى بها وقال أبو مسلم التمني هو التقدير وتمنى هو تفعل من منيت والمنية وفاة الانسان في الوقت الذي قدره الله تعالى ومنى الله لك أي قدر لك وقال رواة اللغة الامنية القراءة واحتجوا ببيت حسان وذلك راجع الى الاصل الذي ذكرناه فان التالي مقدر للحروف يذكرها شيأ فشيأ فالحاصل من هذا البحث أن الامنية اما القراءة واما الخاطر أما اذا فسرناها بالقراءة ففيه قولان (الاول) انه تعالى أراد بذلك ما يجوز أن يسهو الرسول صلى الله عليه وسلم فيه ويشتبه على القارئ دون ما رووه من قوله تلك الغرانيق العلى (الثاني) المراد منه وقوع هذه الكلمة في قراءته ثم اختلف القائلون بهذا على وجوه (الاول) ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يتكلم بقوله تلك الغرانيق العلى ولا الشيطان تكلم به ولا أحد تكلم به لكنه عليه

وانكار البعث قاطع لعطف ما بعده على ما قبله وقيل للحال أي فيصيب بالصواعق من يشاء وهم في الجدال وقد أريد به ما أصاب
أربد بن ربيعة أخا لبيد فانه أقبل مع عامر بن الطفيل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبغيانه الغوائل فدخلا المسجد وهو عليه الصلاة
والسلام جالس في نفر من الاصحاب رضي الله عنهم فاستشرفوا لجمال عامر ١٩٥ وكان من أجمل الناس وقد كان أوصى الى أربد
انه اذا رأيتني أكلم محمدا
عليه الصلاة والسلام فدر
من خلفه واضربه
بالسيف فجعل يكلمه
عليه الصلاة والسلام
فدار أربد من خلفه
عليه الصلاة والسلام
فاخترط من سيفه شبرا
فحبسه الله تعالى فلم يقدر
على سله وجعل عامر
يومئ اليه فرأى النبي
عليه الصلاة والسلام
الحال فقال اللهم
اكفنيهما بما شئت
فأرسل الله عز وجل
على أربد صاعقة في يوم
صحو صائف فأحرقته وولى
عامر هاربا فنزل في بيت
امرأة سلولية فلما أصبح
ضم عليه سلاحه وتغير
لونه وركب فرسه فجعل
يركض في الصحراء ويقول
ابرز يا ملك الموت ويقول
الشعر ويقول واللات
لئن أصحر لي محمد وصاحبه
يعني ملك الموت
لأنفذتهما برمحي فأرسل
الله تعالى ملكا فلطمه
بجناحه فأرداه في التراب
فخرجت على ركبته في
الوقت غدة عظيمة فعاد
الى بيت السلولية وهو
يقول غدة كغدة البعير
وموت في بيت سلولية ثم
دعا بفرسه فركبه فأجراه حتى مات على ظهره وقيل أريد به ما روي عن الحسن أنه كان رجل من طواغيت العرب فبعث النبي عليه
الصلاة والسلام نفرا من أصحابه يدعونه الى الله عز وجل فقال لهم أخبروني عما تدعونني اليه ما هو ومما هو من ذهب أم من فضة أم من
نحاس أم من حديد أم من در فاستعظموا مقالته فرجعوا الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا ما رأينا رجلا أكفر قلبا ولا أعتى على الله منه

السلام لما قرأ سورة والنجم اشتبه الامر على الكفار فحسبوا بعض ألفاظه ما رووه من قولهم تلك الغرانيق
العلى وذلك على حسب ما جرت العادة به من توهم بعض الكلمات على غير ما يقال وهذا الوجه ذهب اليه
جماعة وهو ضعيف لوجوه (أحدها) أن التوهم في مثل ذلك انما يصح فيما قد جرت العادة بسماعه فأما
غير المسموع فلا يقع ذلك فيه (وثانيها) أنه لو كان كذلك لوقع هذا التوهم لبعض السامعين دون البعض
فان العادة مانعة من اتفاق الجمع العظيم في الساعة الواحدة على خيال واحد فاسد في المحسوسات (وثالثها)
لو كان كذلك لم يكن مضافا الى الشيطان (الوجه الثاني) قالوا ان ذلك الكلام كلام شيطان الجن وذلك بأن
تلفظ بكلام من تلقاء نفسه أوقعه في درج تلك التلاوة في بعض وقفاته ليظن أنه من جنس الكلام
المسموع من الرسول صلى الله عليه وسلم قالوا والذي يؤكده أنه لا خلاف في أن الجن والشياطين متكلمون
فلا يمتنع أن يأتي الشيطان بصوت مثل صوت الرسول عليه السلام فيتكلم بهذه الكلمات في أثناء كلام
الرسول عليه السلام وعند سكوته فاذا سمع الحاضرون تلك الكلمة بصوت مثل صوت الرسول وما رأوا
شخصا آخر ظن الحاضرون أنه كلام الرسول ثم هذا لا يكون قادحا في النبوة لما لم يكن فعلا له وهذا أيضا
ضعيف فانك اذا جوزت أن يتكلم الشيطان في أثناء كلام الرسول صلى الله عليه وسلم بما يشتبه على كل
السامعين كونه كلاما للرسول بقي هذا الاحتمال في كل ما يتكلم به الرسول فيفضي الى ارتفاع الوثوق
عن كل الشرع * فان قيل هذا الاحتمال قائم في الكل ولكنه لو وقع لوجب في حكمة الله تعالى أن يشرح
الحال فيه كما في هذه الواقعة ازالة للتلبيس * قلنا لا يجب على الله ازالة الاحتمالات كما في المتشابهات واذا لم
يجب على الله ذلك تمكن الاحتمال من الكل (الوجه الثالث) أن يقال المتكلم بذلك بعض شياطين
الانس وهم الكفرة فانه عليه السلام لما انتهى في قراءة هذه السورة الى هذا الموضع وذكر أسماء آلهتهم
وقد علموا من عادته أنه يعيبها فقال بعض من حضر تلك الغرانيق العلى فاشتبه الامر على القوم لكثرة لغط
القوم وكثرة صياحهم وطلبهم تغليطه واخفاء قراءته ولعل ذلك كان في صلاته لانهم كانوا يقربون منه في حال
صلاته ويسمعون قراءته ويلغون فيها وقيل انه عليه السلام كان اذا تلا القرآن على قريش توقف في
فصول الآيات فأتى بعض الحاضرين ذلك الكلام في تلك الوقفات فتوهم القوم انه من قراءة الرسول
صلى الله عليه وسلم ثم أضافه الله تعالى الى الشيطان لانه بوسوسته يحصل أولا ولانه سبحانه جعل
ذلك المتكلم في نفسه شيطانا وهذا أيضا ضعيف لوجهين (أحدهما) انه لو كان كذلك لكان يجب على
الرسول صلى الله عليه وسلم ازالة الشبهة وتصريح الحق وتبكيت ذلك القائل واظهار ان هذه الكلمة منه
صدرت (وثانيهما) لو فعل ذلك لكان ذلك أولى بالنقل * فان قيل انما لم يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم
ذلك لانه كان قد أدى السورة بكمالها الى الامة من دون هذه الزيادة فلم يكن ذلك مؤديا الى التلبيس كما لم
يؤد سهوه في الصلاة بعد أن وصفها الى اللبس قلنا ان القرآن لم يكن مستقرا على حالة واحدة في زمان حياته
لانه كان يأتيه الآيات فيلحقها بالسور فلم يكن تأدية تلك السورة بدون هذه الزيادة سببا لزوال اللبس وأيضا
فلو كان كذلك لما استحق العتاب من الله تعالى على ما رواه القوم (الوجه الرابع) هو أن المتكلم بهذا هو
الرسول صلى الله عليه وسلم ثم هذا يحتمل ثلاثة أوجه فانه اما أن يكون قال هذه الكلمة سهوا أو قسرا أو
اختيارا (أما الوجه الاول) وهو أنه عليه السلام قال هذه الكلمة سهوا فكما يروى عن قتادة ومقاتل انهما
قالا انه عليه السلام كان يصلي عند المقام فنعس وجرى على لسانه هاتان الكلمتان فلما فرغ من السورة
سجد وسجد كل من في المسجد وفرح المشركون بما سمعوه وأتاه جبريل عليه السلام فاستقرأه فلما انتهى

فقال عليه الصلاة والسلام ارجعوا اليه فرجعوا اليه فزاد الامتناع الاولى وأخبث فرجعوا اليه عليه الصلاة والسلام وأخبروه بما صنع
فقال عليه الصلاة والسلام ارجعوا اليه فرجعوا اليه فبينما هم عنده ينازعونه اذ ارتفعت سحابة ورعدت وبرقت ورمت بصاعقة فاحترق
الكافر فجاؤا يسعون ليخبروه عليه ١٩٦ الصلاة والسلام بالخبر فاستقبلهم الاصحاب فقالوا احترق صاحبكم قالوا من أين علمتم قالوا أوحى الى
النبي صلى الله عليه وسلم (وهو شديد المحال) أي والحال أنه شديد المماحلة والمكايدة والمماكرة لاعدائه من محله اذا كاده وعرضه للهلاك ومنه تمحل اذا تكلف استعمال الحيل وقيل هو فعال من المحل بمعنى القوة وقيل فعول من الحول أو الحيلة أعل على غير قياس ويعضده أنه قرئ بفتح الميم على انه مفعل من حال يحول اذا احتال ويجوز أن يكون بمعنى الفقار فيكون مثلا في القوة والقدرة كقولهم فساعد الله أشد وموساه أحد (له دعوة الحق) أي الدعوة الثابتة الواقعة في محلها المجابة عند وقوعها والاضافة للايذان بملابستها للحق واختصاصها به وكونه بمعزل من شائبة البطلان والضياع والضلال كما يقال كلمة الحق وقيل له دعوة الله سبحانه أي الدعوة اللائقة بحضرته كما في قوله عليه الصلاة والسلام فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله والتعريض لوصف الحقية لتربية معنى
الاستجابة والاولى هو الاول لقوله تعالى وما دعاء الكافرين الا في ضلال وتعلق الجملتين بما قبلهما من حيث ان اهلاك ثم
أربد وعامر محال من الله تعالى واجابة لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما ان كانت الآية نزلت في شأنهما أو من حيث انه وعيد
للكفرة على مجادلة رسول الله صلى الله عليه وسلم بحلول محاله بهم وتحذير لهم باجابة دعوته عليهم (والذين يدعون) أي الاصنام الذين

الى الغرانيق قال أنا ألم آتك بهذا فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أن نزلت هذه الآية وهذا ضعيف
أيضا لوجوه (أحدها) انه لو جاز هذا السهو لجاز في سائر المواضع وحينئذ تزول الثقة عن الشرع (وثانيها)
ان الساهي لا يجوز أن يقع منه مثل هذه الالفاظ المطابقة لوزن السورة وطريقتها ومعناها فانا نعلم بالضرورة
ان واحدا لو أنشد قصيدة لما جاز أن يسهو حتى يتفق منه بيت شعر في وزنها ومعناها وطريقتها (وثالثها)
هب انه تكلم بذلك سهوا فكيف لم يتنبه لذلك حين قرأها على جبريل عليه السلام وذلك ظاهر {أما الوجه
الثاني} وهو انه عليه السلام تكلم بذلك قسرا وهو الذي قال قوم ان الشيطان أجبر النبي صلى الله عليه وسلم
على أن يتكلم بهذا فهذا أيضا فاسد لوجوه (أحدها) ان الشيطان لو قدر على ذلك في حق النبي عليه السلام
لكان اقتداره علينا أكثر فوجب أن يزيل الشيطان الناس عن الدين ولجاز في أكثر ما يتكلم به الواحد
منا أن يكون ذلك باجبار الشياطين (وثانيها) ان الشيطان لو قدر على هذا الاجبار لارتفع الامان عن
الوحي لقيام هذا الاحتمال (وثالثها) انه باطل بدلالة قوله تعالى حكاية عن الشيطان وما كان لي عليكم
من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم وقال تعالى انه ليس له سلطان على الذين
آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه وقال الا عبادك منهم المخلصين ولا شك انه عليه
السلام كان سيد المخلصين {أما الوجه الثالث} وهو انه عليه السلام تكلم بذلك اختيارا فههنا وجهان
(أحدهما) أن نقول ان هذه الكلمة باطلة (والثاني) أن نقول انها ليست كلمة باطلة أما على الوجه الاول
فذكروا فيه طريقين (الاول) قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء ان شيطانا يقال له الابيض
أتاه على صورة جبريل عليه السلام وألقى عليه هذه الكلمة فقرأها فلما سمع المشركون ذلك أعجبهم فجاء
جبريل عليه السلام فاستعرضه فقرأها فلما بلغ الى تلك الكلمة قال جبريل عليه السلام أنا ما جئتك بهذه
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انه أتاني آت على صورتك فألقاها على لساني {الطريق الثاني} قال
بعض الجهال انه عليه السلام لشدة حرصه على ايمان القوم أدخل هذه الكلمة من عند نفسه ثم رجع عنها
وهذان القولان لا يرغب فيهما مسلم البتة لان الاول يقتضي انه عليه السلام ما كان يميز بين الملك المعصوم
والشيطان الخبيث والثاني يقتضي انه كان خائنا في الوحي وكل واحد منهما خروج عن الدين {أما الوجه
الثاني} وهو ان هذه الكلمة ليست باطلة فههنا أيضا طرق (الاول) أن يقال الغرانيق هم الملائكة وقد
كان ذلك قرآنا منزلا في وصف الملائكة فلما توهم المشركون انه يريد آلهتهم نسخ الله تلاوته (الثاني) أن
يقال المراد منه الاستفهام على سبيل الانكار فكأنه قال أشفاعتهن ترتجى (الثالث) أن يقال انه ذكر
الاثبات وأراد النفي كقوله تعالى يبين الله لكم أن تضلوا أي لا تضلوا كما قد يذكر النفي ويريد به الاثبات
كقوله تعالى قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيأ والمعنى أن تشركوا وهذان الوجهان
الاخيران يعترض عليهما بأنه لو جاز ذلك بناء على هذا التأويل فلم لا يجوز أن يظهروا كلمة الكفر في جملة
القرآن أو في الصلاة بناء على هذا التأويل ولكن الاصل في الدين أن لا يجوز عليهم شيء من ذلك لان الله
تعالى قد نصبهم حجة واصطفاهم للرسالة فلا يجوز عليهم ما يطعن في ذلك أو ينفر ومثل ذلك في التنفير أعظم
من الامور التي جنبه الله تعالى عن تركها كنحو الفظاظة والكتابة وقول الشعر فهذه الوجوه المذكورة في
قوله تلك الغرانيق العلا قد ظهر على القطع كذبها فهذا كله اذا فسرنا التمني بالتلاوة وأما اذا فسرناها
بالخاطر وتمني القلب فالمعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم متى تمنى بعض ما يتمناه من الامور وسوس الشيطان
اليه بالباطل ويدعوه الى ما لا ينبغي ثم ان الله تعالى ينسخ ذلك ويبطله ويهديه الى ترك الالتفات الى وسوسته

ثم اختلفوا في كيفية تلك الوسوسة على وجوه (أحدها) انه يتمنى ما يتقرب به الى المشركين من ذكر آلهتهم بالثناء قالوا انه عليه السلام كان يحب أن يتألفهم وكان يردد ذلك في نفسه فعندما لحقه النعاس زاد تلك الزيادة من حيث كانت في نفسه وهذا أيضا خروج عن الدين وبيانه ما تقدم (وثانيها) ما قال مجاهد من انه عليه السلام كان يتمنى انزال الوحي عليه على سرعة دون تأخير فنسخ الله ذلك بأن عرفه بأن انزال ذلك بحسب المصالح في الحوادث والنوازل وغيرها (وثالثها) يحتمل انه عليه السلام عند نزول الوحي كان يتفكر في تأويله ان كان مجملا فيلقي الشيطان في جملته ما لم يرده فبين تعالى انه ينسخ ذلك بالابطال ويحكم ما أراده الله تعالى بأدلته وآياته (ورابعها) معنى الآية اذا تمنى اذا أراد فعلا مقربا الى الله تعالى ألقى الشيطان في فكره ما يخالفه فيرجع الى الله تعالى في ذلك وهو كقوله تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون وكقوله واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ومن الناس من قال لا يجوز حمل الامنية على تمني القلب لانه لو كان كذلك لم يكن ما يخطر ببال رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنة للكفار وذلك يبطله قوله تعالى ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم (والجواب) لا يبعد انه اذا قوي التمني اشتغل الخاطر به فحصل السهو في الافعال الظاهرة بسببه فيصير ذلك فتنة للكفار فهذا آخر القول في هذه المسألة (المسألة الثالثة) يرجع حاصل البحث الى أن الغرض من هذه الآية بيان ان الرسل الذين أرسلهم الله تعالى وان عصمهم عن الخطأ مع العلم فلم يعصمهم من جواز السهو ووسوسة الشيطان بل حالهم في جواز ذلك كحال سائر البشر فالواجب أن لا يتبعوا الا فيما يفعلونه عن علم فذلك هو المحكم وقال أبو مسلم معنى الآية انه لم يرسل نبيا الا اذا تمنى كأنه قيل وما أرسلنا الى البشر ملكا وما أرسلنا اليهم نبيا الا منهم وما أرسلنا نبيا خلا عند تلاوته الوحي من وسوسة الشيطان وأن يلقي في خاطره ما يضاد الوحي ويشغله عن حفظه فيثبت الله النبي على الوحي وعلى حفظه ويعلمه صواب ذلك وبطلان ما يكون من الشيطان قال وفيما تقدم من قوله قل يا أيها الناس انما أنا لكم نذير مبين تقوية لهذا التأويل فكأنه تعالى أمره أن يقول للكافرين أنا نذير لكم لكني من البشر لا من الملائكة ولم يرسل الله تعالى مثلي ملكا بل أرسل رجالا فقد يوسوس الشيطان اليهم فان قيل هذا انما يصح لو كان السهو لا يجوز على الملائكة قلنا اذا كانت الملائكة أعظم درجة من الانبياء لم يلزم من استيلائهم بالوسوسة على الانبياء استيلاؤهم بالوسوسة على الملائكة * واعلم أنه سبحانه لما شرح حال هذه الوسوسة أردف ذلك ببحثين (الاول) كيفية ازالتها وذلك هو قوله تعالى فينسخ الله ما يلقي الشيطان فالمراد ازالته وازالة تأثيره فهو النسخ اللغوي لا النسخ الشرعي المستعمل في الاحكام أما قوله ثم يحكم الله آياته فاذا حمل التمني على القراءة فالمراد به آيات القرآن والا فيحمل على احكام الادلة التي لا يجوز فيها الغلط (البحث الثاني) انه تعالى بين أثر تلك الوسوسة ثم انه سبحانه شرح أثرها في حق الكفار أولا ثم في حق المؤمنين ثانيا أما في حق الكفار فهو قوله ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة والمراد به تشديد التعبد لان عندما يظهر من الرسول صلى الله عليه وسلم الاشتباه في القرآن سهوا يلزمهم البحث عن ذلك ليميز والسهو من العمد وليعلموا ان العمد صواب والسهو قد لا يكون صوابا أما قوله للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ففيه سؤالان (السؤال الاول) لم قال فتنة للذين في قلوبهم مرض ولم خصهم بذلك (الجواب) لانهم مع كفرهم يحتاجون الى ذلك التدبر وأما المؤمنون فقد تقدم علمهم بذلك فلا يحتاجون الى التدبر (السؤال الثاني) ما مرض القلب (الجواب) انه الشك والشبهة وهم المنافقون كما قال في قلوبهم مرض وأما القاسية قلوبهم فهم المشركون المصرون على جهلهم ظاهرا وباطنا أما قوله

يدعوهم المشركون فحذف العائد (من دونه) من دون الله عز وجل (لا يستجيبون لهم بشيء) من طلباتهم (الا كباسط كفيه الى الماء) أي الا استجابة كائنة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه اليه من بعيد فالاستجابة مصدر من المبني للفاعل على ما يقتضيه الفعل الظاهر أعني لا يستجيبون ويجوز أن يكون من المبني للمفعول ويضاف الى الباسط بناء على استلزام المصدر من المبني للفاعل للمصدر من المبني للمفعول وجودا وعدما فكأنه قيل لا يستجيبون لهم بشيء فلا يستجاب لهم الا استجابة كائنة كاستجابة من بسط كفيه الى الماء كما في قوله

وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع
من المال الا مسحت أو مجلف

أي لم تدع فلم يبق الا مسحت أو مجلف (ليبلغ) أي الماء بنفسه من غير أن يؤخذ بشيء من اناء ونحوه (فاه وما هو) أي الماء (ببالغه) ببالغ فيه أبدا لكونه جمادا لا يشعر بعطشه ولا ببسط يديه اليه فضلا عن الاستطاعة لما أراده من البلوغ الى فيه شبه حال المشركين في عدم حصولهم في دعاء آلهتهم على شيء أصلا وركاكة رأيهم في ذلك بحال عطشان هائم لا يدري ما يفعل قد بسط كفيه من بعيد الى الماء يبغي وصوله الى فيه من غير ملاحظة التشبيه في جميع مفردات الاطراف فان الماء في نفسه شيء نافع بخلاف آلهتهم والمراد نفي الاستجابة رأسا الا أنه قد أخرج الكلام مخرج التهكم بهم فقيل لا يستجيبون لهم شيئا من الاستجابة الا استجابة كائنة في هذه الصورة التي ليست فيها شائبة الاستجابة قطعا فهو في الحقيقة من باب التعليق بالمحال وقرئ تدعون بالتاء وكباسط بالتنوين (وما دعاء الكافرين الا في ضلال) أي ذهاب وضياع وخسار (ولله) وحده (يسجد)

يخضع وينقاد لاشئ غيره استقلالا ولا اشتراكا فالقصر ينتظم القلب والافراد (من فى السموات والأرض) من الملائكة والثقلين (طوعا وكرها) أى طائعين وكارهين أوانقياد طوع وكره أوحال طوع وكره فان خضوع الكل لعظمة الله عزوجل وانقيادهم لاحداث ماأراده فيهم من أحكام التكوين ١٩٨ والاعدام شاؤاأوأبوا وعدم مداخلة حكم غيره بل غير حكمه تعالى فى تلك الشؤن مما لايخفى على أحد (وظلالهم) أى وتنقادله تعالى ظلال من له ظل منهم أعنى الانس حيث تتصرف على مشيئته وتتأتى لارادته فى الامتداد والتقلص والفئ هو الزوال (بالغدو والآصال) ظرف للسجود المقدر أوحال من الظلال وتخصيص الوقتين بالذكر مع أن انقيادها متحقق فى جميع أوقات وجودها الظهور ذلك فيهما والغدو جمع غداة كقنى فى جمع قناة والآصال جمع أصيل وقيل جمع أصل وهو جمع أصيل وهو مابين العصر والمغرب وقيل الغدو مصدر ويؤيده أنه قرئ والايصال أى الدخول فى الاصيل هذا وقد قيل ان المراد حقيقة السجود فان الكفرة حال الاضطرار وهو المعنى بقوله تعالى وكرها يخصون السجود به سبحانه قال تعالى فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ولا يبعد أن يخلق الله تعالى فى الظلال أفهاما وعقولا بها تسجد لله سبحانه كما خلقها للجبال حتى اشتغلت بالتسبيح وظهر فيها آثار التجلى كما قاله ابن الانبارى ويجوزأن يراد بسجودها مايشاهد فيها من هيئة السجود تبعا لاصحابها وانت خبير بأن اختصاص سجود الكافر حالة الضرورة والشدة بالله سبحانه لايجدى فان سجودهم لاصنامهم حالة الرخاء مخل بالقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور فالوجه حمل السجود على الانقياد ولان تحقيق انقياد الكل فى

تعالى وان الظالمين لفى شقاق بعيد يريد أن هؤلاء المنافقين والمشركين فأصله وانهم فوضع الظاهر موضع المضمر قضاء عليهم بالظلم والشقاق والمشاقة والمعاداة والمباعدة سواء وأما فى حق المؤمنين فهو قوله وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك وفى الكناية ثلاثة أوجه (أحدها) انها عائدة الى نسخ ما ألقاه الشيطان عن الكلبى (وثانيها) انه الحق أى القرآن عن مقاتل (وثالثها) ان تمكن الشيطان من ذلك الالقاء هو الحق أما على قولنا فلانه سبحانه وتعالى أى شئ فعل فقد تصرف فى ملكه وملكه فكان حقا وأما على قول المعتزلة فلانه سبحانه حكيم فتكون كل أفعاله صوابا فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم أى تخضع وتسكن لعلمهم بأن المقضى كائن وكل ميسر لما خلق له وان الله لهادى الذين آمنوا الى أن يتأولوا مايتشابه فى الدين بالتأويلات الصحيحة ويطلبوا لما أشكل منه من المجمل الذى تقتضيه الاصول المحكمة حتى لاتلحقهم حيرة ولاتعتريهم شبهة وقرئ لهاد الذين آمنوا بالتنوين ولما بين سبحانه حال الكافرين أولا ثم حال المؤمنين ثانيا عاد الى شرح حال الكافرين مرة أخرى فقال ولايزال الذين كفروا فى مرية منه أى من القرآن أومن الرسول وذلك يدل على أن الاعصار الى قيام الساعة لاتخلو ممن هذا وصفه أما قوله تعالى حتى تأتيهم الساعة بغتة أى فجأة من دون أن يشعروا ثم جعل الساعة غاية لكفرهم وانهم يؤمنون عند أشراط الساعة على وجه الالجاء واختلف فى المراد باليوم العقيم وفيه قولان (أحدهما) انه يوم بدر وانما وصف يوم الحرب بالعقيم لوجوه أربعة (أحدها) ان أولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كأنهن عقم لم يلدن (وثانيها) ان المقاتلين يقال لهم أبناء الحرب فاذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقيم على سبيل المجاز (وثالثها) هو الذى لاخير فيه يقال ريح عقيم اذا لم تنشئ مطرا ولم تلقح شجرا (ورابعها) انه لامثل له فى عظم أمره لقتال الملائكة فيه (القول الثانى) انه يوم القيامة وانما وصف بالعقيم لوجوه (أحدها) انهم لايرون فيه خيرا (وثانيها) انه لاليل فيه فيستمر كاستمرار المرأة على تعطل الولادة (وثالثها) ان كل ذات حمل تضع حملها فى ذلك اليوم فكيف يحصل الحمل فيه وهذا القول أولى لانه لايجوز أن يقول الله تعالى ولايزال الذين كفروا ويكون المراد يوم بدر لان من المعلوم انهم فى مرية بعد يوم بدر * فان قيل لما ذكر الساعة فلو حملتم اليوم العقيم على يوم القيامة لزم التكرار * قلنا ليس كذلك لان الساعة من مقدمات القيامة واليوم العقيم هو نفس ذلك اليوم وعلى ان الامر لو كان كما قاله لم يكن تكرارا لان فى الاول ذكر الساعة وفى الثانى ذكر عذاب ذلك اليوم ويحتمل أن يكون المراد بالساعة وقت موت كل أحد وبعذاب يوم عقيم القيامة أما قوله الملك يومئذ لله فمن أقوى مايدل على أن اليوم العقيم هو ذلك اليوم وأراد بذلك انه لامالك فى ذلك اليوم سواه فهو بخلاف أيام الدنيا التى ملك الله الامور غيره وبين انه الحاكم بينهم لاحاكم سواه وذلك زجر عن معصيته ثم بين كيف يحكم بينهم وانه يصير المؤمنين الى جنات النعيم والكافرين فى العذاب المهين وقد تقدم وصف الجنة والنار فان قيل التنوين فى يومئذ عن أى جملة ينوب قلنا تقديره الملك يوم يؤمنون أويوم تزول مريتهم لقوله تعالى ولايزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة ﴿ قوله تعالى ﴿ والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أوماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا وان الله لهو خير الرازقين ليدخلنهم مدخلا يرضونه وان الله لعليم حليم ذلك ومن عاقب بمثل ماعوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله ان الله لعفو غفور ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وان الله سميع بصير ذلك بأن الله هو الحق وان مايدعون من دونه هو الباطل وان الله هو العلى الكبير ﴾ اعلم أنه تعالى لما ذكر ان الملك له يوم القيامة وانه يحكم بينهم ويدخل المؤمنين الجنات أتبعه بذكر وعده الكريم للمهاجرين وأفردهم بالذكر تفخيما لشأنهم فقال عز من قائل والذين هاجروا

هاجروا واختلفوا فيمن أريد بذلك فقال بعضهم من هاجر إلى المدينة طالبا لنصرة الرسول صلى الله عليه وسلم وتقربا إلى الله تعالى وقال آخرون بل المراد من جاهد فخرج مع الرسول صلى الله عليه وسلم أو في سراياه لنصرة الدين ولذلك ذكر القتل بعده ومنهم من حمله على الأمرين واختلفوا من وجه آخر فقال قوم المراد قوم مخصوصون روى مجاهد أنها نزلت في طوائف خرجوا من مكة إلى المدينة للهجرة فتبعهم المشركون فقاتلوهم وظاهر الكلام للعموم ثم إنه سبحانه وتعالى وصفهم برزقهم ومسكنهم أما الرزق فقوله تعالى ليرزقنهم الله رزقا حسنا وإن الله لهو خير الرازقين وفيه مسائل (المسألة الأولى) لا شبهة في أن الرزق الحسن هو نعيم الجنة وقال الأصم إنه العلم والفهم كقول شعيب عليه السلام ورزقني منه رزقا حسنا فهذا في الدنيا وفي الآخرة الجنة وقال الكلبي رزقا حسنا حلالا وهو الغنيمة وهذان الوجهان ضعيفان لأنه تعالى جعله جزاء على هجرتهم في سبيل الله بعد القتل والموت وبعدهما لا يكون إلا نعيم الجنة (المسألة الثانية) لا بد من شرط اجتناب الكبائر في كل وعد في القرآن لأن هذا المهاجر لو ارتكب كبيرة لكان حكمه في المشيئة على قولنا وخارج عن أن يكون أهلا للجنة قطعا على قول المعتزلة * فإن قيل فما فضله على سائر المؤمنين في الوعد إن كان كما قلتم قلنا فضلهم يظهر لأن ثوابهم أعظم وقد قال تعالى لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل فمعلوم أن من هاجر مع الرسول صلى الله عليه وسلم وفارق دياره وأهله لتقويته ونصرة دينه مع شدة قوة الكفار وظهور صولتهم صار فعله كالسبب لقوة الدين وعلى هذا الوجه عظم محل الأنصار حتى صار ذكرهم والثناء عليهم تاليا لذكر المهاجرين لما آووه ونصروه (المسألة الثالثة) اختلفوا في معنى قوله وإن الله لهو خير الرازقين مع العلم بأن كل الرزق من عنده على وجوه (أحدها) التفاوت إنما كان بسبب أنه سبحانه مختص بأن يرزق بما لا يقدر عليه غيره (وثانيها) أن يكون المراد أنه الأصل في الرزق وغيره إنما يرزق بما تقدم من الرزق من جهة الله تعالى (وثالثها) أن غيره ينقل الرزق من يده إلى يد غيره لا أنه يفعل نفس الرزق (ورابعها) أن غيره إذا رزق فإنما يرزق لانتفاعه به إما لأجل أن يخرج عن الواجب وإما لأجل أن يستحق به حمدا أو ثناء وإما لأجل دفع الرقة الجنسية فكان الواحد منا إذا رزق فقد طلب العوض أما الحق سبحانه فإن كماله صفة ذاتية له فلا يستفيد من شيء كمالا زائدا فكان الرزق الصادر منه لمحض الإحسان (وخامسها) أن غيره إنما يرزق لو حصل في قلبه إرادة ذلك الفعل وتلك الإرادة من الله فالرازق في الحقيقة هو الله تعالى (وسادسها) أن المرزوق يكون تحت منة الرازق ومنة الله تعالى أسهل تحملا من منة الغير فكان هو خير الرازقين (وسابعها) أن الغير إذا رزق فلولا أن الله تعالى أعطى ذلك الإنسان أنواع الحواس وأعطاه السلامة والصحة والقدرة على الانتفاع بذلك الرزق لما أمكنه الانتفاع به فرزق الغير لا بد وأن يكون مسبوقا برزق الله وملحوقا به حتى يحصل الانتفاع وأما رزق الله تعالى فإنه لا حاجة به إلى رزق غيره فثبت أنه سبحانه خير الرازقين (المسألة الرابعة) قالت المعتزلة الآية تدل على أمور ثلاثة (أحدها) أن الله تعالى قادر (وثانيها) أن غير الله يصح منه أن يرزق ويملك ولولا كونه قادرا فاعلا لما صح ذلك (وثالثها) أن الرزق لا يكون إلا حلالا لأن قوله خير الرازقين دلالة على كونهم ممدوحين (والجواب) لا نزاع في كون العبد قادرا فإن عندنا القدرة مع الداعي مؤثرة في الفعل بمعنى الاستلزام وأما الثالث فبحث لفظي وقد سبق الكلام فيه (المسألة الخامسة) لما قال تعالى ثم قتلوا أو ماتوا فسوى بينهما في الوعد ظن قوم أن حال المقتول في الجهاد والميت على فراشه سواء وهذا إن أخذوه من الظاهر فلا دلالة فيه لأن الجمع بينهما في الوعد لا يدل على تفضيل ولا تسوية كما أن الجمع بين المؤمنين لا يدل على ذلك وإن أخذوه من دليل آخر

الإبداع والإعدام له تعالى أدخل في التوبيخ على اتخاذ أولياء من دونه من تحقيق سجودهم له تعالى وتخصيص انقياد العقلاء بالذكر مع كون غيرهم أيضا كذلك لأنهم العمدة وانقيادهم دليل انقياد غيرهم على أنه بين ذلك بقوله عز وجل (قل من رب السموات والأرض) فإنه التحقيق أن خالقهما ومتولي أمرهما مع ما فيهما على الإطلاق هو الله سبحانه وقوله تعالى (قل الله) أمر بالجواب من قبله عليه الصلاة والسلام إشعارا بأنه متعين للجوابية فهو والخصم في تقريره سواء أو أمره بحكاية اعترافهم إيذانا بأنه أمر لا بد لهم من ذلك كأنه قيل احك اعترافهم فبكتهم بما يلزمهم من الحجة وألقمهم الحجر أو أمر بتلقينهم ذلك إن تلعثموا في الجواب حذرا من الإلزام فإنهم لا يتمالكون إذ ذاك ولا يقدرون على إنكاره (قل) إلزاما لهم وتبكيتا (أفاتخذتم) لأنفسكم والهمزة لإنكار الواقع كما في قولك أضربت أباك لا لإنكار الوقوع كما في قولك أضربت أبي والفاء للعطف على مقدر بعد الهمزة أي أعلمتم أن ربهما هو الله الذي ينقاد لأمره من فيهما كافة فاتخذتم عقيبه (من دونه أولياء) عاجزين (لا يملكون لأنفسهم نفعا) يستجلبونه (ولا ضرا) يدفعونه عن أنفسهم فضلا عن القدرة على جلب النفع لغيره ودفع الضر عنه لا على أن يكون الإنكار متوجها إلى المعطوفين معا كما في قوله تعالى أفلا تعقلون إذا قدر المعطوف عليه ألا تسمعون بل إلى ترتب الثاني على الأول مع وجوب أن يترتب عليه نقيضه كما إذا قدر أتسمعون والمعنى أبعد أن علمتم أن ربهما هو الله جل جلاله اتخذتم من دونه أولياء عجزة والحال أن قضية العلم بذلك إنما هو الاقتصار على توليه فعكستم الأمر كما في قوله تعالى كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني ووصف الأولياء بما هو شأنهم

فهو حق فانه روى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال المقتول في سبيل الله تعالى والمتوفى في سبيل الله بغير قتل هما في الخير والاجر شريكان ولفظ الشركة مشعر بالتسوية والا فلا يبقى لتخصيصهما بالذكر فائدة وروى أيضا أن طوائف من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا يا رسول الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فما لنا ان متنا معك فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين وهذا يدل على التسوية لانهم لما طلبوا مقدار الاجر فلولا التسوية لم يكن الجواب مفيدا أما المسكن فقوله تعالى ليدخلنهم مدخلا يرضونه وان الله لعليم حليم وفيه مسائل (المسألة الاولى) قرئ مدخلا بضم الميم وهو من الادخال ومن قرأ بالفتح فالمراد الموضع (المسألة الثانية) قيل في المدخل الذي يرضونه انه خيمة من درة بيضاء لا فصم فيها ولا وصم لها سبعون ألف مصراع وقال أبو القاسم القشيري هو أن يدخلهم الجنة من غير مكروه تقدم وقال ابن عباس رضي الله عنهما انما قال يرضونه لانهم يرون في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فيرضونه ولا يبغون عنها حولا ونظيره قوله تعالى ومساكن ترضونها وقوله في عيشة راضية وقوله ارجعي الى ربك راضية مرضية وقوله ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر (المسألة الثالثة) ان قيل ما معنى وان الله لعليم حليم وما تعلقه بما تقدم قلنا يحتمل أنه عليم بما يستحقونه فيفعله بهم ويزيدهم ويحتمل أن يكون المراد أنه عليم بما يرضونه فيعطيهم ذلك في الجنة وأما الحليم فالمراد أنه لحلمه لا يعجل بالعقوبة فمن يقدم على المعصية بل يمهل ليقع منه التوبة فيستحق منه الجنة أما قوله ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله ان الله لعفو غفور ففيه مسائل (المسألة الاولى) قوله ذلك قد مضى الكلام فيه في هذه الآية في هذه السورة وقال الزجاج أي الامر ما قصصنا عليك من انجاز الوعد للمهاجرين الذين قتلوا أو ماتوا (المسألة الثانية) قوله ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه معناه قاتل من كان يقاتله ثم كان المقاتل مبغيا عليه بأن اضطر الى الهجرة ومفارقة الوطن وابتدئ بالقتال قال مقاتل نزلت في قوم من المشركين لقوا قوما من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم فقال بعضهم لبعض ان أصحاب محمد يكرهون القتال في الشهر الحرام فاحملوا عليهم فناشدهم المسلمون أن يكفوا عن قتالهم لحرمة الشهر فأبوا وقاتلوهم فذلك بغيهم عليهم وثبت المسلمون لهم فنصروا عليهم فوقع في أنفس المسلمين من القتال في الشهر الحرام ما وقع فأنزل الله تعالى هذه الآية وعفا عنهم وغفر لهم وههنا سؤالات (السؤال الاول) أي تعلق لهذه الآية بما قبلها (الجواب) كأنه سبحانه وتعالى قال مع اكرامي لهم في الآخرة بهذا الوعد لا أدع نصرتهم في الدنيا على من بغي عليهم (السؤال الثاني) هل يرجع ذلك الى المهاجرين خاصة أو اليهم والى المؤمنين (الجواب) الاقرب أنه يعود الى الفريقين فانه تقدم ذكرهما وبين ذلك قوله تعالى لينصرنه الله وبعد القتل والموت لا يمكن ذلك في الدنيا (السؤال الثالث) ما المراد بالعقوبة المذكورة (الجواب) فيه وجهان (أحدهما) المراد ما فعله مشركو مكة مع المهاجرين بمكة من طلب آثارهم وردهم بعضهم الى غير ذلك فبين تعالى أن من عاقب هؤلاء الكفار بمثل ما فعلوا فسينصره عليهم وهذه النصرة المذكورة تقوي تأويل من تأوله على مجاهدة الكفار لا على القصاص لان ظاهر النص لا يليق الا بذلك (والجواب الثاني) أن هذه الآية في القصاص والجراحات وهي آية مدنية عن الضحاك (السؤال الرابع) لم سمى ابتداء فعلهم بالعقوبة (الجواب) أطلق اسم العقوبة على الاول للتعلق الذي بينه وبين الثاني كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها يخادعون الله وهو خادعهم (السؤال الخامس) أي تعلق لقوله تعالى وان الله لعفو غفور بما تقدم (الجواب) فيه وجوه (أحدها) ان الله تعالى ندب المعاقب

الحاكمة للنفع والضر في ترشيح الانكار وتأكيده كتقييد الاتخاذ هنالك بالجملة الحالية أعني قوله تعالى وهم لكم عدو فان كلا منهما مما يقوي الاتخاذ المذكور ويؤكد انكاره (قل) تصويرا لآرائهم الركيكة بصورة المحسوس (هل يستوي الاعمى) الذي هو المشرك الجاهل بالعبادة ومستحقها (والبصير) ٢٠٠ الذي هو الموحد العالم بذلك أو الاول عبارة عن المعبود الغافل والثاني اشارة الى المعبود العالم بكل شئ (أم هل تستوي الظلمات) التي هي عبارة عن الكفر والضلال (والنور) الذي هو عبارة عن التوحيد والايمان وقرئ بالياء وانما دل النظم الكريم على أن الكفرة فيما فعلوا من اتخاذ الاصنام أولياء من دون الله سبحانه في الضلال المحض والخطأ البحت بحيث لا يخفى بطلانه على أحد وانهم في ذلك كالاعمى الذي لا يهتدي الى شئ أصلا وليس لهم في ذلك شبهة تصلح أن تكون منشأ لغلطهم وخطئهم فضلا عن الحجة أكد ذلك فقيل (أم جعلوا لله) أي بل أجعلوا له (شركاء خلقوا كخلقه) سبحانه والهمزة لانكار الوقوع لا لانكار الواقع مع وقوعه وقوله خلقوا كخلقه هو الذي يتوجه اليه الانكار وأما نفس الجعل فهو واقع لا يتعلق به الانكار بهذا المعنى والمعنى انهم لم يجعلوا لله تعالى شركاء خلقوا كخلقه (فتشابه الخلق عليهم) بسبب ذلك وقالوا هؤلاء خلقوا كخلقه تعالى فاستحقوا بذلك العبادة كما استحقها ليكون ذلك منشأ لخطئهم بل انما جعلوا له شركاء ما هو بمنزل من ذلك بالمرة وفيه ما لا يخفى من التعريض بركاكة رأيهم والتهكم بهم (قل) تحقيقا للحق وارشادا لهم اليه (الله خالق كل شئ) كافة لا خالق سواه فيشاركه في استحقاق العبادة (وهو الواحد) المتوحد بالالوهية المتفرد بالربوبية (القهار) لكل ما سواه فكيف يتوهم أن يكون له شريك وبعد ما مثل المشرك والشرك بالاعمى والظلمات

الى

والوحدة والتوحيد بالبصير والنور مثل الحق الذي هو القرآن العظيم في فيضانه من جناب القدس على قلوب خالية عنه متفاوتة
الاستعداد أو في جريانه عليها ملاحظة وحفظا وتلاوة هنا ذكره أو في ثباته فيها مع كونه ممدا لحياتها الروحانية وما يتلوها من
الملكات السنية والأعمال المرضية بالماء النازل من السماء السائل في أودية يابسة ٢٠١ لم تجر عادتها بذلك سيلا تاما مقدرا بمقدار

الى العفو عن الجاني بقوله فمن عفا وأصلح فأجره على الله وأن تعفوا أقرب للتقوى ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور فلما لم يأت بهذا المندوب فهو نوع اساءة فكأنه سبحانه قال اني قد عفوت عن هذه الاساءة وغفرتها فاني أنا الذي أذنت لك فيه (وثانيها) أنه سبحانه وان ضمن له النصر على الباغي لكنه عرض مع ذلك بما كان أولى به من العفو والمغفرة فلوح بذكر هاتين الصفتين (وثالثها) أنه سبحانه دل بذكر العفو والمغفرة على أنه قادر على العقوبة لانه لا يوصف بالعفو الا القادر على ضده (السؤال السادس) أي تعلق لقوله ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل بما قبله (والجواب) من وجهين (أحدهما) ذلك أي ذلك النصر بسبب أنه قادر ومن آيات قدرته البالغة كونه خالق الليل والنهار ومتصرفا فيهما فوجب أن يكون قادرا عالما بما يجري فيهما واذا كان كذلك كان قادرا على النصر مصيبا فيه (وثانيها) المراد أنه سبحانه مع ذلك النصر ينعم في الدنيا بما يفعله من تعاقب الليل والنهار وولوج أحدهما في الآخر (السؤال السابع) ما معنى ايلاج الليل في النهار وايلاج النهار في الليل (الجواب) فيه وجهان (أحدهما) يحصل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك بغيبوبة الشمس وضياء ذلك في مكان ظلمة هذا بطلوعها كما يضيء البيت بالسراج ويظلم بفقده (وثانيهما) أنه سبحانه يزيد في أحدهما ما ينقص من الآخر من الساعات (السؤال الثامن) أي تعلق لقوله وان الله سميع بصير بما تقدم (الجواب) المراد أنه كما يقدر على ما لا يقدر عليه غيره فكذلك يدرك المسموع والمبصر ولا يجوز المنع عليه ويكون ذلك كالتحذير من الاقدام على ما لا يجوز في المسموع والمبصر (السؤال التاسع) ما معنى قوله ذلك بأن الله هو الحق وأي تعلق له بما تقدم (الجواب) فيه وجهان (أحدهما) المراد أن ذلك الوصف الذي تقدم ذكره من القدرة على هذه الامور انما حصل لاجل أن الله هو الحق أي هو الموجود الواجب لذاته الذي يمتنع عليه التغير والزوال فلا جرم أتى بالوعد والوعيد (ثانيهما) أن ما يفعل من عبادته هو الحق وما يفعل من عبادة غيره فهو الباطل كما قال ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة (السؤال العاشر) أي تعلق لقوله تعالى وأن الله هو العلي الكبير بما تقدم (والجواب) معنى العلي القاهر المقتدر الذي لا يغلب فنبه بذلك على أنه القادر على الضر والنفع دون سائر من يعبد مرغبا بذلك في عبادته زاجرا عن عبادة غيره فأما الكبير فهو العظيم في قدرته وسلطانه وذلك أيضا يفيد كمال القدرة (المسألة الثالثة) قوله لينصرنه الله اخبار عن الغيب فانه وجد مخبره كما أخبر فكان من المعجزات (المسألة الرابعة) قال الشافعي رحمه الله من حرق حرقناه ومن غرق غرقناه وقال أبو حنيفة رحمه الله بل يقتل بالسيف واحتج الشافعي رحمه الله بهذه الآية فان الله تعالى جوز للمظلوم أن يعاقب بمثل ما عوقب به ووعده النصر عليه (المسألة الخامسة) قرأ نافع وابن عامر تدعون بالتاء ههنا وفي لقمان وفي المؤمنين وفي العنكبوت وقرأ ابن كثير وأبو عمرو كلها بالياء على الخبر والعرب قد تنصرف من الخطاب الى الاخبار ومن الاخبار الى الخطاب ﴿ قوله تعالى ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة ان الله لطيف خبير له ما في السموات وما في الارض وان الله لهو الغني الحميد ألم تر أن الله سخر لكم ما في الارض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الارض الا باذنه ان الله بالناس لرؤف رحيم وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ان الانسان لكفور ﴾ اعلم أنه تعالى لما دل على قدرته من قبل بما ذكره من ولوج الليل في النهار ونبه به على نعمه أتبعه بأنواع أخر من الدلائل على قدرته ونعمته وهي ستة (أولها) قوله تعالى ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة ان الله لطيف خبير وفيه مسائل (المسألة الاولى) ذكروا في قوله ألم تر وجوها ثلاثة

اقتضته الحكمة في احياء الارض وما عليها والباقي فيها حسبما يدور عليه منافع الناس وفي كونه حلية تتحلى به النفوس وتصل الى البهجة الابدية ومتاعا يتمتع به في المعاش والمعاد بالذهب والفضة وسائر الفلزات التي يتخذ منها أنواع الآلات والادوات وتبقى منتفعا بها مدة طويلة ومثل الباطل الذي ابتلي به الكفرة لقصور نظرهم بما يظهر فيهما من غير مداخلة له فيهما واخلال بصفائهما من الزبد الرابي فوقهما المضمحل سريعا فقيل (أنزل من السماء) أي من جهتها (ماء) أي كثيرا أو نوعا منه وهو ماء المطر (فسالت) بذلك (أودية) واقعة في مواقعه لا جميع الاودية اذ الامطار لا تستوعب الاقطار وهو جمع واد وهو منفرج بين جبال أو تلال أو آكام على الشذوذ كناد وأندية وناج وأنجية قالوا وجهه أن فاعلا يجيء بمعنى فعيل كناصر ونصير وشاهد وشهيد وعالم

وعليم وحيث جمع فعيل على أفعلة كجريب وأجربة جمع فاعل أيضا على أفعلة فان أريد بها
ما يسيل فيها مجازا فاسناد السيلان اليها حقيقي وان أريد بها معناها الحقيقي فالاسناد مجازي كما في جرى النهر وايثار التمثيل بها على الانهار
المستمرة الجريان لوضوح المماثلة بين شأنها وشأن ما مثل بها كما أشير اليه (بقدرها) أي سالت ملتبسة بمقدارها الذي عينه الله تعالى

واقتضته حكمته في نفع الناس أو بمقدارها المتفاوت قلة وكثرة بحسب تفاوت محالها صغرا وكبرا لا بكونها مالئة لها منطبقة عليها بل بمجرد
قلتها بصغرها المنزلة منزلة موارد الماء وكثرتها بكبرها المستدعي لكثرة المراد فإن مورد السيل الجاري في الوادي الصغير أقل من مورد
السيل الجاري في الوادي الكبير هذا إن أريد بالأودية ما يسيل فيها أما إن أريد بها معناها الحقيقي فالمعنى سالت مياهها

(أحدها) أن المراد هو الرؤية الحقيقية قالوا لأن الماء النازل من السماء يرى بالعين واخضرار النبات على الأرض مرئي وإذا أمكن حمل الكلام على حقيقته فهو أولى (وثانيها) أن المراد ألم تخبر على سبيل الاستفهام (وثالثها) المراد ألم تعلم والقول الأول ضعيف لأن الماء وإن كان مرئيا إلا أن كون الله منزلا له من السماء غير مرئي إذا ثبت هذا وجب حمله على العلم لأن المقصود من تلك الرؤية هو العلم لأن الرؤية إذا لم يقترن بها العلم كانت كأنها لم تحصل ﴿المسألة الثانية﴾ قرئ مخضرة كمبقلة ومسبعة أي ذات خضرة وههنا سؤالات ﴿السؤال الأول﴾ لم قال فتصبح الأرض ولم يقل فأصبحت (الجواب) لنكتة فيه وهي إفادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان كما تقول أنعم علي فلان عام كذا فأروح وأغدو شاكرا له ولو قلت فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع ﴿السؤال الثاني﴾ لم رفع ولم ينصب جوابا للاستفهام (والجواب) لو نصب لأعطى عكس ما هو الغرض لأن معناه إثبات الاخضرار فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار مثاله أن تقول لصاحبك ألم تر أني أنعمت عليك فتشكر إن نصبته فأنت ناف لشكره شاك لتفريطه وإن رفعته فأنت مثبت للشكر ﴿السؤال الثالث﴾ لم أورد تعالى ذلك دلالة على قدرته على الإعادة كما قال أبو مسلم (الجواب) يحتمل ذلك ويحتمل أنه نبه به على عظيم قدرته وواسع نعمته ﴿السؤال الرابع﴾ ما تعلق قوله إن الله لطيف خبير بما تقدم (الجواب) من وجوه (أحدها) أراد أنه رحيم بعباده ولرحمته فعل ذلك حتى عظم انتفاعهم به لأن الأرض إذا أصبحت مخضرة والسماء إذا أمطرت كان ذلك سببا لعيش الحيوانات على اختلافها أجمع ومعنى خبير أنه عالم بمقادير مصالحهم فيفعل على قدر ذلك من دون زيادة ونقصان (وثانيها) قال ابن عباس لطيف بأرزاق عباده خبير بما في قلوبهم من القنوط (وثالثها) قال الكلبي لطيف في أفعاله خبير بأعمال خلقه (ورابعها) قال مقاتل لطيف باستخراج النبت خبير بكيفية خلقه ﴿الدلالة الثانية﴾ قوله تعالى له ما في السموات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد والمعنى أن كل ذلك منقاد له غير ممتنع من التصرف فيه وهو غني عن الأشياء كلها وعن حمد الحامدين أيضا لأنه كامل لذاته والكامل لذاته غني عن كل ما عداه في كل الأمور ولكنه لما خلق الحيوان فلا بد في الحكمة من قطر ونبات فخلق هذه الأشياء رحمة للحيوانات وإنعاما عليهم لا لحاجة به إلى ذلك وإذا كان كذلك كان إنعامه خاليا عن غرض عائد إليه فكان مستحقا للحمد فكأنه قال إنه لكونه غنيا لم يفعل ما فعله إلا للإحسان ومن كان كذلك كان مستحقا للحمد فوجب أن يكون حميدا فلهذا قال وإن الله لهو الغني الحميد ﴿الدلالة الثالثة﴾ قوله ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض أي ذلل لكم ما فيها فلا أصلب من الحجر ولا أحد من الحديد ولا أكثر هيبة من النار وقد سخرها لكم وسخر الحيوانات أيضا حتى ينتفع بها من حيث الأكل والركوب والحمل عليها والانتفاع بالنظر إليها فلولا أن سخر الله تعالى الإبل والبقر مع قوتهما حتى يذللها الضعيف من الناس ويتمكن منهما لما كان ذلك نعمة ﴿الدلالة الرابعة﴾ قوله تعالى والفلك تجري في البحر بأمره والأقرب أن المراد وسخر لكم الفلك لتجري في البحر وكيفية تسخيره الفلك هو من حيث سخر الماء والرياح لجريها فلولا صفتهما على ما هما عليه لما جرت بل كانت تغوص أو تقف أو تعطب فنبه تعالى على نعمه بذلك وبأن خلق ما تعمل منه السفن وبأن بين كيف تعمل وإنما قال بأمره لأنه سبحانه لما كان هو المجري لها بالرياح نسب ذلك إلى أمره توسعا لأن ذلك يفيد تعظيمه بأكثر مما يفيد لو أضافه إلى فعله بناء على عادة الملوك في مثل هذه اللفظة ﴿الدلالة الخامسة﴾ قوله تعالى ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم واعلم أن النعم المتقدمة لا تكمل إلا بهذه لأن السماء مسكن الملائكة فوجب أن يكون صلبا ووجب أن يكون ثقيلا

بقدر تلك الأودية على نحو ما عرفته آنفا أو يراد بضميرها مياهها بطريق الاستخدام ويراد بقدرها ما ذكر أولا من المعنيين (فاحتمل السيل) الجاري في تلك الأودية أي حمل معه (زبدا) أي غثاء ورغوة وإنما وصف ذلك بقوله تعالى (رابيا) أي عاليا منتفخا فوقه بيانا لما أريد بالاحتمال المحتمل لكون الحمل غير طاف كالأشجار الثقيلة وإنما لم يدفع ذلك الاحتمال بأن يقال فاحتمل السيل فوقه للإيذان بأن تلك الفوقية مقتضى شأن الزبد لا من جهة المحتمل تحقيقا للمماثلة بينه وبين ما مثل به من الباطل الذي شأنه الظهور في بادي الرأي من غير مداخلة في الحق (ومما يوقدون عليه في النار) أي يفعلون الإيقاد عليه كائنا في النار والضمير للناس أضمر مع عدم سبق الذكر لظهوره وقرئ بالخطاب (ابتغاء حلية أو متاع) أي لطلب اتخاذ حلية وهي ما يتزين ويتجمل به كالحلي المتخذة من الذهب والفضة أو
اتخاذ متاع وهو ما يتمتع به من الأواني والآلات المتخذة من الرصاص والحديد وغير ذلك من الفلزات وما
(زبد) خبث (مثله) مثل ما ذكر من زبد الماء في كونه رابيا فوقه فقوله زبد مبتدأ خبره الظرف المقدم ومن ابتدائية دالة على مجرد
كونه مبتدأ وناشئا منه لا تبعيضية معربة عن كونه بعضا منه كما قيل لإخلاله بالتمثيل وفي التعبير عن ذلك بالموصول والتعرض لما في

وما كان كذلك فلا بد له من الهوى لولا مانع يمنع منه وهذه الحجة مبنية على ظاهر الاوهام وقوله تعالى أن تقع قال الكوفيون كي لا تقع وقال البصريون كراهية أن تقع وهذا بناء على مسئلة كلامية وهي أن الارادات والكراهات هل تتعلق بالعدم فمن منع من ذلك صار الى التأويل الاول والمعنى أنه أمسكها لكي لا تقع فتبطل النعم التي أنعم بها أما قوله تعالى ان الله بالناس لرؤف رحيم فالمعنى أن المنعم بهذه النعم الجامعة لمنافع الدنيا والدين قد بلغ الغاية في الاحسان والانعام فهو اذن رؤف رحيم (الدلالة السادسة) قوله وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ان الانسان لكفور والمعنى أن من سخر له هذه الامور وأنعم عليه بها فهو الذي أحياه فنبه بالاحياء الاول على انعام الدنيا علينا بكل ما تقدم ونبه بالاماتة والاحياء الثاني على نعم الدين علينا فانه سبحانه وتعالى خلق الدنيا بسائر أحوالها للآخرة والا لم يكن للنعم على هذا الوجه معنى يبين ذلك أنه لولا أمر الآخرة لم يكن للزراعات وتكلفها ولا لركوب الحيوان وذبحها الى غير ذلك معنى بل كان تعالى يخلقه ابتداء من غير تكلف الزرع والسقي وانما أجرى الله العادة بذلك ليعتبر به في باب الدين ولما فصل تعالى هذه النعم قال ان الانسان لكفور وهذا كما قد يعدد المرء نعمه على ولده ثم يقول ان الولد لكفور لنعم الوالد زجرا له عن الكفران وبعثا له على الشكر فلذلك أورد تعالى ذلك في الكفار فبين أنهم دفعوا هذه النعم وكفروا بها وجهلوا خالقها مع وضوح أمرها ونظيره قوله تعالى وقليل من عبادي الشكور وقال ابن عباس رضي الله عنهما الانسان ههنا هو الكافر وقال أيضا هو الاسود بن عبد الاسد وأبو جهل والعاص وأبي بن خلف والاولى تعميمه في كل المنكرين ❁ قوله تعالى ﴿لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك في الامر وادع الى ربك انك لعلى هدى مستقيم وان جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون﴾ اعلم أنه تعالى لما قدم ذكر نعمه وبين أنه رؤف رحيم بعباده وان كان منهم من يكفر ولا يشكر أتبعه بذكر نعمه بما كلف فقال لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انما حذف الواو في قوله لكل أمة لانه لا تعلق لهذا الكلام بما قبله فلا جرم حذف العاطف (المسئلة الثانية) في المنسك أقوال (أحدها) قال ابن عباس عيدا يذبحون فيه (وثانيها) قربانا والفظ المنسك مختص بالذبائح عن مجاهد (وثالثها) مألفا يألفونه اما مكانا معينا أو زمانا معينا لاداء الطاعات (ورابعها) المنسك هو الشريعة والمنهاج وهو قول ابن عباس في رواية عطاء واختيار القفال وهو الاقرب لقوله تعالى لكل أمة جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولان المنسك مأخوذ من النسك وهو العبادة واذا وقع الاسم على كل عبادة فلا وجه للتخصيص ❁ فان قيل هلا حملتموه على الذبح لان المنسك في العرف لا يفهم منه الا الذبح وهلا حملتموه على موضع العبادة أو على وقتها (الجواب عن الاول) لا نسلم أن المنسك في العرف مخصوص بالذبح والدليل عليه أن سائر ما يفعل في الحج يوصف بأنه مناسك ولاجله قال عليه السلام خذوا عني مناسككم (وعن الثاني) أن قوله هم ناسكوه أليق بالعبادة منه بالوقت والمكان (المسئلة الثالثة) زعم قوم أن المراد من قوله هم ناسكوه من كان في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم متمسكا بشرع كاليهود والنصارى ولا يمتنع أن يريد كل من تعبد من الامم سواء بقيت آثارهم أو لم تبق لان قوله هم ناسكوه كالوصف للامم وان لم يتعبدوا في الحال أما قوله تعالى فلا ينازعنك في الامر فقرئ فلا ينزعنك أي اثبت في دينك ثباتا لا يطمعون أن يخدعوك ليزيلوك عنه وأما قوله فلا ينازعنك ففيه قولان (أحدهما) وهو قول الزجاج انه نهى لهم عن منازعتهم كما تقول لا يضاربنك فلان أي لا تضاربه (والثاني) أن المراد أن عليهم اتباعك وترك مخالفتك وقد استقر الامر الآن على شرعك

جزالصلة من ايقاد النار عليه جرى على سنن الكبرياء باظهار التهاون به كما في قوله تعالى فأوقد لي ياهامان على الطين واشارة الى كيفية حصول الزبد منه بذوبانه وفي زيادة في النار اشعار بالمبالغة في الاعتمال للاذابة وحصول الزبد كما أشير اليه وعدم التعرض لاخراجه من الارض لعدم دخل ذلك العنوان في التمثيل كما أن لعنوان انزال الماء من السماء ٢٠٣ دخلا فيه حسبما فصل فيما سلف

بل له اخلال بذلك (كذلك) أي مثل ذلك الضرب البديع المشتمل على نكت رائقة (يضرب الله الحق والباطل) أي مثل الحق ومثل الباطل والحذف للانباء عن كمال التماثل بين الممثل والممثل به كأن المثل المضروب عين الحق والباطل وبعد تحقيق التمثيل مع الامعان في تضاعيف ذلك الى وجوه المماثلة على أبدع وجوه وآنقها حسبما أشير اليه في مواقعها بين عاقبة كل من المثلين على وجه التمثيل مع التصريح ببعض ما به المماثلة من الذهاب والبقاء تتمة للغرض من التمثيل من الحث على اتباع الحق الثابت والردع عن الباطل الزائل فقيل (فأما الزبد) من كل منهما (فيذهب جفاء) أي مرميا به وقرئ جفالا والمعنى واحد (وأما ما ينفع الناس) منهما كالماء الصافي والفلز الخالص (فيمكث في الارض) أما الماء فيثبت بعضه في منافعه ويسلك بعضه في عروق الارض الى العيون والقنا والآبار وأما الفلز فيصاغ من بعضه أنواع الحلي ويتخذ من بعضه أصناف الآلات والادوات فينتفع بكل من ذلك أنواع الانتفاعات مدة طويلة فالمراد بالمكث في الارض ما هو أعم من المكث في نفسها ومن البقاء في أيدي المتقلبين فيها وتغيير ترتيب اللف الواقع في الفذلكة الموافق لترتيب الواقع في التمثيل لمراعاة الملاءمة بين حالتي الذهاب والبقاء وبين ذكر يهما فان المتعبر انما هو

وعلى انه ناسخ لكل ما عداه فكأنه تعالى نهى كل أمة بقيت منها بقية أن تستمر على تلك العادة وألزمها أن تتحول الى اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فلذلك قال وادع الى ربك أى لا تخص بالدعاء أمة دون أمة فكلهم أمتك فادعهم الى شريعتك فانك على هدى مستقيم والهدى يحتمل نفس الدين ويحتمل أدلة الدين وهو أولى كأنه قال ادعهم الى هذا الدين فانك من حيث الدلالة على طريقة واضحة ولهذا قال وان جادلوك والمعنى فان عدلوا عن النظر فى هذه الادلة الى طريقة المراء والتمسك بالعادة فقد بينت وأظهرت ما يلزمك فقل الله أعلم بما تعملون لانه ليس بعد ايضاح الادلة الا هذا الجنس الذى يجرى مجرى الوعيد والتحذير من حكم يوم القيامة الذى يتردد بين جنة وثواب لمن قبل وبين نار وعقاب لمن رد وانكر فقال الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون فتعرفون حينئذ الحق من الباطل والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والارض ان ذلك فى كتاب ان ذلك على الله يسير ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير واذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير﴾ اعلم أنه تعالى لما قال من قبل الله يحكم بينكم يوم القيامة أتبعه عمايه يعلم أنه سبحانه عالم بما يستحقه كل أحد منهم فيقع الحكم منه بينهم بالعدل لا بالجور فقال لرسوله ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والارض وههنا مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قوله ألم تعلم هو على لفظ الاستفهام لكن معناه تقوية قلب الرسول صلى الله عليه وسلم والوعد له وايعاد الكافرين بأن كل فعلهم محفوظ عند الله لا يضل عنه ولا ينسى ﴿المسئلة الثانية﴾ الخطاب مع الرسول صلى الله عليه وسلم والمراد سائر العباد ولان الرسالة لا تثبت الا بعد العلم بكونه تعالى عالما بكل المعلومات اذ لو لم يثبت ذلك لجاز أن يشتبه عليه الكاذب بالصادق فحينئذ لا يكون اظهار المعجز دليلا على الصدق واذا كان كذلك استحال أن لا يكون الرسول عالما بذلك فثبت أن المراد أن يكون خطابا مع الغير أما قوله ان ذلك فى كتاب ففيه قولان (أحدهما) وهو قول أبى مسلم ان معنى الكتاب الحفظ والضبط والشد يقال كتبت المزادة أكتبها اذا خرزتها فحفظت بذلك ما فيها ومعناه ومعنى الكتاب بين الناس حفظ ما يتعاملون به فالمراد من قوله ان ذلك فى كتاب انه محفوظ عنده (والثانى) وهو قول الجمهور ان كل ما يحدثه الله فى السموات والارض فقد كتبه فى اللوح المحفوظ قالوا وهذا أولى لان القول الاول وان كان صحيحا نظرا الى الاشتقاق لكن الواجب حمل اللفظ على المتعارف ومعلوم ان الكتاب هو ما تكتب فيه الامور فكان حمله عليه أولى * فان قيل فقد يوهم ذلك ان علمه مستفاد من الكتاب وأيضا فأى فائدة فى ذلك الكتاب (والجواب عن الاول) ان كتبه تلك الاشياء فى ذلك الكتاب مع كونها مطابقة للموجودات من أدل الدلائل على انه سبحانه غنى فى علمه عن ذلك الكتاب (وعن الثانى) ان الملائكة ينظرون فيه ثم يرون الحوادث داخلة فى الوجود على وفقه فصار ذلك دليلا لهم زائدا على كونه سبحانه عالما بكل المعلومات أما قوله ان ذلك على الله يسير فمعناه ان كتبه جملة الحوادث مع انها من الغيب مما يتعذر على الخلق لكنها بحيث متى أرادها الله تعالى كانت فعبر عن ذلك بأنه يسير وان كان هذا الوصف لا يستعمل الا فينا من حيث تسهل وتصعب علينا الامور وتعالى الله عن ذلك ثم بين سبحانه ما يقدم الكفار عليه مع عظيم نعمه ووضوح دلائله فقال ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم فبين ان عبادتهم لغير الله تعالى ليست مأخوذة عن دليل سمعى وهو المراد من قوله ما لم ينزل به سلطانا ولا عن دليل عقلى وهو المراد من قوله وما ليس لهم به علم

بقاءا للباقى بعد ذهاب الذاهب لا قبله (كذلك يضرب الله) أى مثل ذلك الضرب العجيب يضرب الله (الامثال) فى كل باب اظهارا لكمال اللطف والعناية فى الارشاد والهداية وفيه تفخيم لشأن هذا التمثيل وتأكيد لقوله كذلك يضرب الله الحق والباطل اما باعتبار ابتناء هذا على التمثيل الاول أو بجعل ذلك اشارة اليهما جميعا وبعدما بين شأن كل من الحق والباطل حالا ومآلا أكمل بيان شرع فى بيان حال أهل كل منهما حالا ومآلا تكميلا للدعوة ترغيبا وترهيبا فقيل (للذين استجابوا لربهم) اذ دعاهم الى الحق بفنون الدعوة التى من جملتها ضرب الامثال فانه ألطف ذريعة الى تفهيم القلوب الغبية وأقوى وسيلة الى تسخير النفوس الابية كيف لا وهو تصوير للمعقول بصورة المحسوس وابراز لاوابد المعانى فى هيئة المأنوس فأى دعوة أولى منه بالاستجابة والقبول (الحسنى) أى المثوبة الحسنى وهى الجنة (والذين لم يستجيبوا له) وعاندوا الحق الجلى (لو أن لهم ما فى الارض) من أصناف الاموال (جميعا) بحيث لم يشذ منه شاذ فى أقطارها أو مجموعا غير متفرق بحسب الازمان (ومثله معه لافتدوا به) أى بما فى الارض ومثله معه جميعا ليتخلصوا عما بهم وفيه من تهويل ما يلقاهم ما لا يحيط به البيان فالموصول مبتدأ والشرطية كما هى خبره لكن لا على أنها وضعت موضع السوأى فوقعت فى مقابلة الحسنى الواقعة فى القرينة الاولى لمراعاة حسن المقابلة واذا صار كأنه قيل وللذين لم يستجيبوا السوأى كما توهم فان الشرطية وان دلت على كمال سوء حالهم لكنها بمعزل من القيام مقام لفظ السوأى مصحوبا باللام الداخلة على الموصول أو ضميره وعليه يدور حصول المرام وانما الواقع فى تلك المقابلة سوء الحساب فى قوله تعالى

وإذا لم يكن كذلك فهو عن تقليد أو جهل أو شبهة فوجب في كل قول هذا شأنه أن يكون باطلا فمن هذا الوجه يدل على أن الكافر قد يكون كافرا وإن لم يعلم كونه كافرا ويدل أيضا على فساد التقليد أما قوله وما للظالمين من نصير ففيه وجهان (أحدهما) أنهم ليس لهم أحد ينصرهم من الله كما قد تتفق النصرة في الدنيا (والثاني) ما لهم في كفرهم ناصر بالحجة فإن الحجة ليست إلا للحق واحتجت المعتزلة بهذه الآية في نفي الشفاعة والكلام عليه معلوم أما قوله تعالى وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات يعني من تقدم ذكره وهذه الآيات هي القرآن ووصفها بأنها بينات لكونها متضمنة للدلائل العقلية وبيان الأحكام فبين أنهم مع جهلهم إذا نبهوا على الأدلة وعرضت عليهم المعجزة ظهر في وجوههم المنكر والمراد دلالة الغيظ والغضب قال صاحب الكشاف المنكر الفظيع من التجهم والبسور والنشوز أو الإنكار كالمكرم بمعنى الإكرام وقرئ تعرف على ما لم يسم فاعله وللمفسرين في المنكر عبارات (أحدها) قال الكلبي تعرف في وجوههم الكراهية للقرآن (وثانيها) قال ابن عباس رضي الله عنهما التجبر والترفع (وثالثها) قال مقاتل أنكروا أن يكون من الله تعالى أما قوله تعالى يكادون يسطون فقال الخليل والفراء والزجاج السطو شدة البطش والوثوب والمعنى يهمون بالبطش والوثوب تعظيما لإنكار ما خوطبوا به فحكى تعالى عظيم تمردهم على الأنبياء والمؤمنين ثم أمر رسوله بأن يقابلهم بالوعيد فقال قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار قال صاحب الكشاف قوله من ذلكم أي من غيظكم على التالين وسطوكم عليهم أو مما أصابكم من الكراهة والضجر بسبب ما تلي عليكم فقوله من ذلكم فيه وجهان (أحدهما) المراد أن الذي ينالكم من النار التي تكادون تقتحمونها سوءا لكم أعظم مما ينالكم عند تلاوة هذه الآيات من الغضب ومن هذا الغم (والثاني) أن يكون المراد بشر من ذلكم ما تهمون به من عذابكم فإن أكبر ما يمكنكم فيه الإهلاك ثم بعده مصيرهم إلى الجنة وأنتم تصيرون إلى النار الدائمة التي لا فرج لكم عنها وأما النار فقال صاحب الكشاف قرئ النار بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف كأن قائلا يقول ما شر من ذلك فقيل النار أي هو النار وبالنصب على الاختصاص وبالجر على البدل من شر ثم بين سبحانه أنه وعدها الذين كفروا إذا ماتوا على كفرهم وهو بئس المصير قال صاحب الكشاف وعدها الله استئناف كلام ويحتمل أن تكون النار مبتدأ ووعدها خبرا ﴿ قوله تعالى ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز﴾ اعلم أنه سبحانه لما بين من قبل أنهم يعبدون من دون الله ما لا حجة لهم فيه ولا علم ذكر في هذه الآية ما يدل على إبطال قولهم أما قوله تعالى ضرب مثل ففيه سؤالات (السؤال الأول) الذي جاء به ليس بمثل فكيف سماه مثلا (والجواب) لما كان المثل في الأكثر نكتة عجيبة غريبة جاز أن يسمى كل ما كان كذلك مثلا (السؤال الثاني) قوله ضرب يفيد فيما مضى والله تعالى هو المتكلم به ابتداء (الجواب) إذا كان ما ورد من الوصف معلوما من قبل جاز ذلك فيه ويكون ذكره بمنزلة إعادة أمر قد تقدم أما قوله فاستمعوا له أي تدبروه حق تدبره لأن نفس السماع لا ينفع إنما ينفع التدبر واعلم أن الذباب لما كان في غاية الضعف احتج الله تعالى به على إبطال قولهم من وجهين (الأول) قوله إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له قرئ يدعون بالياء والتاء ويدعون مبنيا للمفعول ولن أصل في نفي المستقبل إلا أنه تنفيه نفيا مؤكدا فكأنه سبحانه قال إن هذه الأصنام وإن اجتمعت لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها فكيف يليق بالعاقل جعلها معبودا فقوله ولو اجتمعوا له نصب على الحال كأنه

(أولئك لهم سوء الحساب) وحيث كان اسم الإشارة الواقع مبتدأ في هذه الجملة عبارة عن الموصول الواقع مبتدأ في الجملة السابقة كان خبرها أعني الجملة الظرفية خبرا عن الموصول في الحقيقة ومبينا لإبهام مضمون الشرطية الواقعة خبرا عنه أولا ولذلك ترك العطف فصار كأنه قيل والذين لم يستجيبوا له لهم سوء الحساب وذلك في قوة أن يقال وللذين لم يستجيبوا له ٢٠٥ سوء الحساب مع زيادة تأكيد وتم حسن المقابلة على أبلغ وجه وآكده ثم بين مؤدى ذلك فقيل (ومأواهم) أي مرجعهم (جهنم) وفيه نوع تأكيد لتفسير الحسنى بالجنة (وبئس المهاد) أي المستقر والمخصوص بالذم محذوف وقيل اللام في قوله تعالى للذين استجابوا لربهم متعلقة بقوله يضرب الله الأمثال أي الأمثال السالفة وقوله الحسنى صفة لمصدر أي استجابوا الاستجابة الحسنى وقوله والذين لم يستجيبوا له معطوف على الموصول الأول وقوله لو أن لهم الخ كلام مستأنف مسوق لبيان ما أعد لغير المستجيبين من العذاب والمعنى كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين المستجيبين والكافرين المعاندين أي هما مثلا الفريقين وأنت خبير بأن عنوان الاستجابة وعدمها لا مناسبة بينه وبين ما يدور عليه أمر التمثيل وأن الاستعمال المستفيض دخول اللام على من يقصد تذكيره بالمثل نعم قد يستعمل في هذا المعنى أيضا كما في قوله سبحانه ضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ونظائره على أن بعض الأمثال المضروبة لا سيما المثل الأخير الموصول بالكلام ليس مثل الفريقين بل مثل للحق والباطل ولا مساغ لجعل الفريقين مضروبا لهم أيضا بأن يجعل في حكم أن يقال كذلك يضرب الله الأمثال للناس إذ لا وجه حينئذ لتنويعهم إلى المستجيبين وغير المستجيبين فتأمل (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من

قال يستحيل أن يخلقوا الذباب حال اجتماعهم فكيف حال انفرادهم (والثاني) أن قوله وان يسلبهم الذباب شيأ لا يستنقذوه منه كأنه سبحانه قال أترك أمر الخلق والايجاد وأتكلم فيما هو أسهل منه فان الذباب ان سلب منها شيأ فهي لا تقدر على استنقاذ ذلك الشيء من الذباب واعلم أن الدلالة الاولى صالحة لان يتمسك بها في نفي كون المسيح والملائكة آلهة أما الثانية فلا فان قيل هذا الاستدلال اما أن يكون لنفي كون الاوثان خالقة عالمة حية مدبرة أو لنفي كونها مستحقة للتعظيم (والاول) فاسد لان نفي كونها كذلك معلوم بالضرورة فأي فائدة في اقامة الدلالة عليه (وأما الثاني) فهذه الدلالة لا تفيده لانه لا يلزم من نفي كونها حية أن لا تكون معظمة فان جهات التعظيم مختلفة فالقوم كانوا يعتقدون فيها انها طلسمات موضوعة على صورة الكواكب أو انها تماثيل الملائكة والانبياء المتقدمين وكانوا يعظمونها على ان تعظيمها يوجب تعظيم الملائكة وأولئك الانبياء المتقدمين (والجواب) اما كونها طلسمات موضوعة على الكواكب بحيث يحصل منها الاضرار والانتفاع فهو يبطل بهذه الدلالة فانها لما لم تنفع نفسها في هذا القدر وهو تخليص النفس عن الذبابة فلأن لا تنفع غيرها أولى وأما انها تماثيل الملائكة والانبياء المتقدمين فقد تقرر في العقل ان تعظيم غير الله تعالى ينبغي أن يكون أقل من تعظيم الله تعالى والقوم كانوا يعظمونها غاية التعظيم وحينئذ كان يلزم التسوية بينها وبين الخالق سبحانه في التعظيم فمن ههنا صاروا مستوجبين للذم واللوم أما قوله تعالى ضعف الطالب والمطلوب ففيه قولان (أحدهما) المراد منه الصنم والذباب فالصنم كالطالب من حيث انه لو طلب أن يخلقه ويستنقذ منه ما استلبه لعجز عنه والذباب بمنزلة المطلوب (الثاني) أن الطالب من عبد الصنم والمطلوب نفس الصنم أو عبادتها وهذا أقرب لان كون الصنم طالبا ليس حقيقة بل هو على سبيل التقدير أما ههنا فعلى سبيل التحقيق لكن المجاز فيه حاصل لان الوثن لا يصح أن يكون ضعيفا لان الضعف لا يجوز الا على من يصح أن يقوى وههنا وجه ثالث وهو أن يكون معنى قوله ضعف لا من حيث القوة ولكن لظهور قبح هذا المذهب كما يقال للرجل عند المناظرة ما أضعف هذا المذهب ما أضعف هذا الوجه أما قوله ما قدروا الله حق قدره أي ما عظموه حق تعظيمه حيث جعلوا هذه الاصنام على نهاية خساستها شريكا له في المعبودية وهذه الكلمة مفسرة في سورة الانعام وهو قوي لا يتعذر عليه فعل شيء وعزيز لا يقدر أحد على مغالبته فأي حاجة الى القول بالشريك قال الكلبي في هذه الآية ونظيرها في سورة الانعام انها نزلت في جماعة من اليهود وهم مالك بن الصيف وكعب بن الاشرف وكعب بن أسد وغيرهم لعنهم الله حيث قالوا انه سبحانه لما فرغ من خلق السموات والارض أعيا من خلقها فاستلقى واستراح ووضع احدى رجليه على الاخرى فنزلت هذه الآية تكذيبا لهم ونزل قوله تعالى وما مسنا من لغوب واعلم أن منشأ هذه الشبهات هو القول بالتشبيه فيجب تنزيه ذات الله تعالى عن مشابهة سائر الذوات خلاف ما يقوله المشبهة وتنزيه صفاته عن مشابهة سائر الصفات خلاف ما يقوله الكرامية وتنزيه أفعاله عن مشابهة سائر الافعال أعني الغرض والداعي واستحقاق المدح والذم خلاف ما تقوله المعتزلة قال الامام أبو القاسم الانصاري رحمه الله فهو سبحانه جبار النعت عزيز الوصف فالاوهام لا تصوره والافكار لا تقدره والعقول لا تمثله والازمنة لا تدركه والجهات لا تحويه ولا تحده صمدي الذات سرمدي الصفات

قوله تعالى ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس ان الله سميع بصير يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم والى الله ترجع الامور﴾ اعلم أنه سبحانه لما قدم ما يتعلق بالالهيات ذكر ههنا ما يتعلق بالنبوات قال مقاتل قال الوليد بن المغيرة أأنزل عليه الذكر من بيننا فأنزل الله تعالى هذه الآية وههنا سؤالان (السؤال الاول)

ربك) من القرآن الذي مثل بالماء المنزل من السماء والابريز الخالص في المنفعة والجدوى (الحق) الذي لا حق وراءه أو الحق الذي أشير اليه بالامثال المضروبة فيستجيب له (كمن هو أعمى) عمي القلب لا يشاهده وهو نار على علم ولا يقدر قدره وهو في أقصى مراتب العلوم والعظم فيبقى حائرا في ظلمات الجهل ٢٠٦ وغياهب الضلال أو لا يتذكر بما ضرب من الامثال أي كمن لا يعلم ذلك الا أنه أريد زيادة تقبيح حاله فعبر عنه بالاعمى وايراد الفاء بعد الهمزة لتوجيه الانكار الى ترتب توهم المماثلة على ظهور حال كل منهما بما ضرب من الامثال وبين المصير والمآل كأنه قيل أبعد ما بين حال كل من الفريقين وما لهما يتوهم المماثلة بينهما ثم استؤنف فقيل (انما يتذكر) بما ذكر من المذكرات فيقف على ما بينهما من التفاوت والتنائي (أولو الالباب) أي العقول الخالصة المبرأة عن مشايعة الالف ومعارضة الوهم (الذين يوفون بعهد الله) بما عقدوا على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته تعالى حين قالوا بلى أو ما عهد الله عليهم في كتبه (ولا ينقضون الميثاق) ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه من الايمان بالله وغيره من المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد وهو تعميم بعد تخصيص وفيه تأكيد للاستمرار المفهوم من صيغة المستقبل (والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) من الرحم وموالاة المؤمنين والايمان بجميع الانبياء المجمعين على الحق من غير تفريق بين أحد منهم ويندرج فيه مراعاة جميع حقوق الناس بل حقوق كل ما يتعلق بهم من الهرة والدجاج (ويخشون ربهم) خشية جلال وهيبة ورهبة فلا يعصونه فيما أمر به (ويخافون سوء الحساب) فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا وفيه دلالة على كمال فظاعته حسبما ذكر فيما قبل (والذين صبروا) على

الاول) كلمة من للتبعيض فقوله الله يصطفي من الملائكة رسلا يقتضي أن تكون الرسل بعضهم لا كلهم وقوله جاعل الملائكة رسلا يقتضي كون كلهم رسلا فوقع التناقض (والجواب) جاز أن يكون المذكور ههنا من كان رسلا الى بني آدم وهم أكابر الملائكة كجبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل والحفظة صلوات الله عليهم وأما كل الملائكة فبعضهم رسل الى البعض فزال التناقض (السؤال الثاني) قال في سورة الزمر لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء فدل على أن ولده يجب أن يكون مصطفى وهذه الآية دلت على أن بعض الملائكة وبعض الناس من المصطفين فيلزم بمجموع الآيتين اثبات الولد (والجواب) أن قوله لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى يدل على أن كل ولد مصطفى ولا يدل على أن كل مصطفى ولد فلا يلزم من دلالة هذه الآية على وجود مصطفى كونه ولدا وفي هذه الآية وجه آخر وهو أن المراد تبكيت من عبد غير الله تعالى من الملائكة كأنه سبحانه أبطل في الآية الاولى قول عبدة الاوثان وفي هذه الآية أبطل قول عبدة الملائكة فبين أن علو درجة الملائكة ليس لكونهم آلهة بل لان الله تعالى اصطفاهم لمكان عبادتهم فكأنه تعالى بين أنهم ما قدروا الله حق قدره أن جعلوا الملائكة معبودين مع الله ثم بين سبحانه بقوله ان الله سميع بصير أنه يسمع ما يقولون ويرى ما يفعلون ولذلك أتبعه بقوله يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم فقال بعضهم ما تقدم في الدنيا وما تأخر وقال بعضهم ما بين أيديهم أمر الآخرة وما خلفهم أمر الدنيا ثم أتبعه بقوله والى الله ترجع الامور فقوله يعلم ما بين أيديهم اشارة الى العلم التام وقوله والى الله ترجع الامور اشارة الى القدرة التامة والتفرد بالالهية والحكم ومجموعهما يتضمن نهاية الزجر عن الاقدام على المعصية ﴿قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾ اعلم أنه سبحانه لما تكلم في الالهيات ثم في النبوات أتبعه بالكلام في الشرائع وهو من أربعة أوجه (أولها) تعيين المأمور (وثانيها) أقسام المأمور به (وثالثها) ذكر ما يوجب قبول تلك الاوامر (ورابعها) تأكيد ذلك التكليف ﴿أما النوع الاول﴾ وهو تعيين المأمور فهو قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا وفيه قولان (أحدهما) المراد منه كل المكلفين سواء كان مؤمنا أو كافرا لان التكليف بهذه الاشياء عام في كل المكلفين فلا معنى لتخصيص المؤمنين بذلك (والثاني) ان المراد بذلك المؤمنون فقط أما أولا فلان اللفظ صريح فيه وأما ثانيا فلان قوله بعد ذلك هو اجتباكم وقوله هو سماكم المسلمين وقوله وتكونوا شهداء على الناس كل ذلك لا يليق الا بالمؤمنين أقصى ما في الباب أن يقال لما كان ذلك واجبا على الكل فأي فائدة في تخصيص المؤمنين لكنا نقول تخصيصهم بالذكر لا يدل على نفي ذلك عما عداهم بل قد دلت هذه الآية على كونهم على التخصيص مأمورين بهذه الاشياء ودلت سائر الآيات على كون الكل مأمورين بها ويمكن أن يقال فائدة التخصيص انه لما جاء الخطاب العام مرة بعد أخرى ثم انه ما قبله الا المؤمنون خصهم الله تعالى بهذا الخطاب ليكون ذلك كالتحريض لهم على المواظبة على قبوله وكالتشريف لهم في ذلك الاقرار والتخصيص ﴿أما النوع الثاني﴾ وهو المأمور به فقد ذكر الله أمورا أربعة (الاول) الصلاة وهو المراد من قوله اركعوا واسجدوا وذلك لان أشرف أركان الصلاة هو الركوع والسجود والصلاة هي المختصة بهذين الركنين فكان ذكرهما جاريا مجرى ذكر الصلاة وذكر ابن عباس رضي الله عنهما أن الناس في أول اسلامهم كانوا يركعون ولا يسجدون

كل ما تكرهه النفس من الافعال والتروك (ابتغاء وجه ربهم) طلبا لرضاه خاصة من غير أن ينظروا الى جانب الخلق رياء وسمعة ولا الى جانب النفس زينة وعجبا وحيث كان الصبر على الوجه المذكور ملاك الامر في كل ما ذكر من الصلات السابقة واللاحقة أورد على صيغة الماضي اعتناء بشأنه ودلالة على وجوب تحققه فان ذلك مما لابد منه أما في نفس ٢٠٧ الصلاة كما فيما عدا الاولى والرابعة والخامسة أو في اظهار أحكامها كما في الصلات الثلاث المذكورات فانها وان استغنت عن الصبر في أنفسها حيث لا مشقة على النفس في الاعتراف بالربوبية والخشية والخوف لكن اظهار أحكامها والجري على موجبها غير خال عن الاحتياج اليه (وأقاموا الصلاة) المفروضة (وأنفقوا مما رزقناهم) أي بعضه الذي يجب عليهم انفاقه (سرا) لمن لم يعرف بالمال أو لمن لم لا يتهم بترك الزكاة أو عند انفاقه واعطائه من تغنه المروءة من أخذه ظاهرا (وعلانية) لمن لم يكن كما ذكر أو الاول في التطوع والثاني في الفرض (ويدرؤن بالحسنة السيئة) أي يجازون الاساءة بالاحسان أو يتبعون الحسنة السيئة فتمحوها عن ابن عباس رضي الله عنهما يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيء غيرهم وعن الحسن اذا حرموا أعطوا واذا ظلموا عفوا واذا قطعوا وصلوا وعن ابن كيسان اذا أذنبوا تابوا وقيل اذا رأوا منكرا أمروا بتغييره وتقديم المجرور على المنصوب لاظهار كمال العناية بالحسنة (أولئك) المنعوتون بالنعوت الجليلة والملكات الجميلة وهو مبتدأ خبره الجملة الظرفية أعني قوله تعالى (لهم عقبى الدار) أي عاقبة الدنيا وما ينبغي أن يكون مآل أمر أهلها وهي الجنة وقيل الجار والمجرور خبر لاولئك وعقبى الدار فاعل الاستقرار وأياما

حتى نزلت هذه الآية (الثاني) قوله واعبدوا ربكم وذكروا فيه وجوها (أحدها) اعبدوه ولا تعبدوا غيره (وثانيها) واعبدوا ربكم في سائر المأمورات والمنهيات (وثالثها) افعلوا الركوع والسجود وسائر الطاعات على وجه العبادة لأنه لا يكفي أن يفعل فانه ما لم يقصد به عبادة الله تعالى لا ينفع في باب الثواب فلذلك عطف هذه الجملة على الركوع والسجود (الثالث) قوله تعالى وافعلوا الخير قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد به صلة الرحم ومكارم الاخلاق والوجه عندي في هذا الترتيب أن الصلاة نوع من أنواع العبادة والعبادة نوع من أنواع فعل الخير لان فعل الخير ينقسم الى خدمة المعبود الذي هو عبارة عن التعظيم لامر الله والى الاحسان الذي هو عبارة عن الشفقة على خلق الله ويدخل فيه البر والمعروف والصدقة على الفقراء وحسن القول للناس فكأنه سبحانه قال كلفتكم بالصلاة بل كلفتكم بما هو أعم منها وهو العبادة بل كلفتكم بما هو أعم من العبادة وهو فعل الخيرات أما قوله تعالى لعلكم تفلحون فقيل معناه اتفعلوا والفلاح الظفر بنعيم الآخرة وقال الامام أبو القاسم الانصاري لعل كلمة الترجية فان الانسان قلما يخلو في أداء فريضة من تقصير وليس هو على يقين من أن الذي أتى به هل هو مقبول عند الله تعالى والعواقب أيضا مستورة وكل ميسر لما خلق له (الرابع) قوله تعالى وجاهدوا في الله حق جهاده قال صاحب الكشاف في الله أي في ذات الله ومن أجله يقال هو حق عالم وجد عالم أي عالم حقا وجدا ومنه حق جهاده وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما وجه هذه الاضافة وكان القياس حق الجهاد فيه أو حق جهادكم فيه كما قال وجاهدوا في الله حق جهاده (والجواب) الاضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص فلما كان الجهاد مختصا بالله من حيث انه مفعول لوجهه ومن أجله صحت الاضافة اليه (السؤال الثاني) ما هذا الجهاد (الجواب) فيه وجوه (أحدها) أن المراد قتال الكفار خاصة ومعنى حق جهاده أن لا يفعل الا عبادة لا رغبة في الدنيا من حيث الاسم أو الغنيمة (والثاني) أن يجاهدوا آخرا كما جاهدوا أولا فقد كان جهادهم في الاول أقوى وكانوا فيه أثبت نحو صنعهم يوم بدر روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال لعبد الرحمن بن عوف أما علمت أنا كنا نقرأ وجاهدوا في الله حق جهاده في آخر الزمان كما جاهدتم في أوله فقال عبد الرحمن ومتى ذلك يا أمير المؤمنين قال اذا كانت بنو أمية الامراء وبنو المغيرة الوزراء واعلم أنه يبعد أن تكون هذه الزيادة من القرآن والا لنقل كنقل نظائره ولعله ان صح ذلك عن الرسول فانما قاله كالتفسير للآية وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ وجاهدوا في الله حق جهاده كما جاهدتم أول مرة فقال عمر من الذي أمرنا بجهاده فقال قبيلتان من قريش مخزوم وعبد شمس فقال صدقت (والثالث) قال ابن عباس حق جهاده لا تخافوا في الله لومة لائم (والرابع) قال الضحاك واعملوا لله حق عمله (والخامس) استفرغوا وسعكم في احياء دين الله واقامة حقوقه بالحرب باليد واللسان وجميع ما يمكن وردوا أنفسكم عن الهوى والميل (والوجه السادس) قال عبد الله بن المبارك حق جهاده مجاهدة النفس والهوى ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك قال رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر والاولى أن يحمل ذلك على كل التكاليف فكل ما أمر به ونهى عنه فالمحافظة عليه جهاد (السؤال الثالث) هل يصح ما نقل عن مقاتل والكلبي ان هذه الآية منسوخة بقوله فاتقوا الله ما استطعتم كما أن قوله اتقوا الله حق تقاته منسوخ بذلك (الجواب) هذا بعيد لان التكليف مشروط بالقدرة لقوله تعالى لا يكلف الله نفسا الا وسعها فكيف يقول الله وجاهدوا في الله على وجه لا تقدرون عليه وكيف وقد كان الجهاد في الاول مضيقا حتى لا يصح أن يفر الواحد من عشرة ثم خففه الله بقوله الآن خفف الله عنكم أفيجوز مع ذلك أن يوجبه على وجه

كان فليس فيه قصر حتى يرد أن بعض ما في حيز الصلة ليس من العزائم التي يخل الاخلال بها بالوصول الى حسن العاقبة والجملة خبر للموصولات المتعاطفة أو استئناف لبيان ما استوجبوه بتلك الصفات ان جعلت الموصولات المتعاطفة صفات لاولي الالباب على طريقة المدح من غير أن يقصد أن يكون للصلات المذكورة مدخل في التذكر (جنات عدن) بدل من عقبى الدار أو مبتدأ خبره (يدخلونها) والعدن الاقامة ثم صار علما لجنة من الجنات أي جنات يقيمون فيها وقيل هو بطنان الجنة (ومن صلح من آبائهم) جمع أبوي كل واحد منهم فكأنه قيل من آبائهم وأمهاتهم (وأزواجهم وذرياتهم) وهو عطف على المرفوع في يدخلون وانما ساغ ذلك للفصل بالضمير الآخر أو مفعول معه والمعنى أنه يلحق بهم من صلح من أهلهم وان لم يبلغ مبلغ فضلهم تبعا لهم تعظيما لشأنهم وهو دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة وأن الموصوف بتلك الصفات يقرن بعضهم ببعض لما بينهم من القرابة والوصلة في دخول الجنة زيادة في أنسهم وفي التقييد بالصلاح قطع للاطماع الفارغة لمن يتمسك بمجرد حبل الانساب (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) من أبواب المنازل أو من أبواب الفتوح والتحف قائلين (سلام عليكم) بشارة لهم بدوام السلامة (بما صبرتم) متعلق بعليكم أو بمحذوف أي هذه الكرامة العظمى بما صبرتم أي لا بسبب صبركم أو بدل ما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه والمعنى لئن تعبتم في الدنيا لقد استرحتم الساعة وتخصيص الصبر بالذكر من بين الصلات السابقة لما فيه من أن له دخلا في كل منها ومزية زائدة من حيث انه ملاك الامر في كل منها وأن شيأ منها لا يعتد به الا بأن

يكون لا بتغاء وجه الرب تعالى وتقدس (فنعم عقبى الدار) أي فنعم عقبى الدار الجنة وقرئ فتح النون والاصل نعم فسكن العين بنقل حركتها الى النون تارة وبدونه أخرى وعن النبي عليه السلام انه كان يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وكذا عن الخلفاء الاربعة رضوان الله عليهم أجمعين (والذين ينقضون عهد الله) أريد بهم من يقابل الاولين ويعاندهم في الاتصاف بنقائض صفاتهم (من بعد ميثاقه) من بعدما أوثقوه من الاعتراف والقبول (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) من الايمان بجميع الانبياء المجمعين على الحق حيث يؤمنون ببعضهم ويكفرون ببعضهم ومن حقوق الارحام وموالاة المؤمنين وغير ذلك مما لا يراعون حقوقه من الامور المعدودة فيما سلف واغما لم يتعرض لنفي الخشية والخوف عنهم صريحا لدلالة النقض والقطع على ذلك وأما عدم التعرض لنفي الصبر المذكور فلانه انما اعتبر تحققه في ضمن الحسنات المعدودة ليقعن معتدا بهن فلا وجه لنفيه عمن بينه وبين الحسنات بعد المشرقين كما لا وجه لنفي الصلاة والزكاة عمن لا يحوم حول أصل الايمان بالله تعالى فضلا عن فروع الشرائع وان اريد بالانفاق التطوع فنفيه مندرج تحت قطع ما أمر الله تعالى بوصله

وأما درء السيئة بالحسنة فانتفاؤه عنهم ظاهر مما سبق ولحق فان من يجازي احسانه عز وجل بنقض العهد ومخالفة الامر ويباشر الفساد بدأ حسبما يحكيه قوله عز وعلا (ويفسدون في الارض) أي بالظلم وتهييج الفتن كيف يتصور منه مجازاة الاساءة بالاحسان على أن ذلك يشعر بأن له دخلا في الافضاء الى العقوبة التي ينبئ عنها قوله تعالى (أولئك) الخ أي أولئك

لا يطاق حتى يقال انه منسوخ (النوع الثالث) بيان ما يوجب قبول هذه الاوامر وهو ثلاثة (الاول) قوله هو اجتباكم ومعناه أن التكليف تشريف من الله تعالى للعبد فلما خصكم بهذا التشريف فقد خصكم بأعظم التشريفات واختاركم لخدمته والاشتغال بطاعته فأي رتبة أعلى من هذا وأي سعادة فوق هذا ويحتمل في اجتباكم خصكم بالهداية والمعونة والتيسير أما قوله تعالى وما جعل عليكم في الدين من حرج فهو كالجواب عن سؤال يذكر وهو أن التكليف وان كان تشريفا واجبا كما ذكرتم لكنه شاق شديد على النفس فأجاب الله تعالى عنه بقوله وما جعل عليكم في الدين من حرج روى أن أبا هريرة رضي الله عنه قال كيف قال الله تعالى وما جعل عليكم في الدين من حرج مع أنه منعنا عن الزنا والسرقة فقال ابن عباس رضي الله عنهما بلى ولكن الاصر الذي كان على بني اسرائيل وضع عنكم وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما الحرج في أصل اللغة (الجواب) روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لبعض هذيل ما تعدون الحرج فيكم قال الضيق وعن عائشة رضي الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال الضيق (السؤال الثاني) ما المراد من الحرج في الآية (الجواب) قيل هو الاتيان بالرخص فمن لم يستطع أن يصلي قائما فليصل جالسا ومن لم يستطع ذلك فليوم وأباح للصائم الفطر في السفر والقصر فيه وأيضا فانه سبحانه لم يبتل عبده بشيء من الذنوب الا وجعل له مخرجا منها اما بالتوبة أو بالكفارة وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه من جاءته رخصة فرغب عنها كلف يوم القيامة أن يحمل ثقل تنين حتى يقضي بين الناس وعن النبي صلى الله عليه وسلم اذا اجتمع أمران فأحبهما الى الله تعالى أيسرهما وعن كعب أعطى الله هذه الامة ثلاثا لم يعطهن الا الانبياء جعلهم شهداء على الناس وما جعل عليهم في الدين من حرج وقال ادعوني أستجب لكم (السؤال الثالث) استدلت المعتزلة بهذه الآية في المنع من تكليف ما لا يطاق فقالوا لما خلق الله الكفر والمعصية في الكافر والعاصي ثم نهاهما عنهما كان ذلك من أعظم الحرج وذلك منفي بصريح هذا النص (والجواب) لما أمره بترك الكفر وترك الكفر يقتضي انقلاب علمه جهلا فقد أمر الله المكلف بقلب علم الله جهلا وذلك من أعظم الحرج ولما استوى القدمان زال السؤال (الموجب الثاني) لقبول التكليف قوله ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي نصب الملة وجهان (أحدهما) وهو قول الفراء أنها منصوبة بمضمون ما تقدمها كأنه قيل وسع دينكم توسعة ملة أبيكم ابراهيم ثم حذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه (والثاني) أن يكون منصوبا على المدح والتعظيم أي أعني بالدين ملة أبيكم ابراهيم واعلم أن المقصود من ذكره التنبيه على أن هذه التكاليف والشرائع هي شريعة ابراهيم عليه الصلاة والسلام والعرب كانوا محبين لابراهيم عليه السلام لانهم من أولاده فكان التنبيه على ذلك كالسبب لصيرورتهم منقادين لقبول هذا الدين وههنا سؤالات (السؤال الاول) لم قال ملة أبيكم ابراهيم ولم يدخل في الخطاب المؤمنون الذين كانوا في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يكونوا من ولده (والجواب) من وجهين (أحدهما) لما كان أكثرهم من ولده كالرسول ورهطه وجميع العرب جاز ذلك (وثانيهما) وهو قول الحسن ان الله تعالى جعل حرمة ابراهيم عليه السلام على المسلمين كحرمة الوالد على ولده ومنه قوله تعالى النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم فجعل حرمته كحرمة الوالد على الوالد وحرمة نسائه كحرمة الوالدة على ما قال تعالى وأزواجه أمهاتهم (السؤال الثاني) هذا يقتضي أن تكون ملة محمد كملة ابراهيم عليهما السلام سواء فيكون الرسول ليس له شرع مخصوص ويؤكده قوله تعالى أن اتبع ملة ابراهيم (الجواب) هذا الكلام انما وقع مع عبدة الاوثان فكأنه تعالى قال عبادة الله وترك الاوثان هي ملة

ابراهيم فأما تفاصيل الشرائع فلا تعلق لها بهذا الموضع (السؤال الثالث) ما معنى قوله تعالى هو سماكم المسلمين من قبل (الجواب) فيه قولان (أحدهما) أن الكناية راجعة الى ابراهيم عليه السلام فان لكل نبي دعوة مستجابة وهو قول ابراهيم عليه الصلاة والسلام ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك فاستجاب الله تعالى له فجعلها أمة محمد صلى الله عليه وسلم وروى أنه عليه الصلاة والسلام أخبر بأن الله تعالى سيبعث محمدا على ملته وأنه سيسمى أمته بالمسلمين (والثاني) أن الكناية راجعة الى الله تعالى في قوله هو اجتباكم فروى عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال ان الله سماكم المسلمين من قبل أى في كل الكتب وفي هذا أى في القرآن وهذا الوجه أقرب لانه تعالى قال ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فبين أنه سماهم بذلك لهذا الغرض وهذا لا يليق الا بالله ويدل عليه أيضا قراءة أبي بن كعب الله سماكم والمعنى أنه سبحانه في سائر الكتب المتقدمة على القرآن وفي القرآن أيضا بين فضلكم على الامم وسماكم بهذا الاسم الاكرم لاجل الشهادة المذكورة فلما خصكم الله بهذه الكرامة فاعبدوه ولا تردوا تكاليفه وهذا هو العلة الثالثة الموجبة لقبول التكليف وأما الكلام في أنه كيف يكون الرسول شهيدا علينا وكيف تكون أمته شهداء على الناس فقد تقدم في سورة البقرة وبينا أنه أخذ منه ما يدل على أن الاجماع حجة (النوع الرابع) شرح ما يجرى مجرى المؤكد لما مضى وهو قوله فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وجب صرفها الى المفروضات لانها هي المعهودة واعتصموا بالله أى بدلائله العقلية والسمعية والطافه وعصمته قال ابن عباس سلوا الله العصمة عن كل المحرمات وقال القفال اجعلوا الله عصمة لكم مما تحذرون هو مولاكم سيدكم والمتصرف فيكم فنعم المولى ونعم النصير كأنه سبحانه قال أنا مولاك بل أنا ناصرك وحسبك واعلم أن المعتزلة احتجوا بهذه الآيات من وجوه (أحدها) أن قوله وتكونوا شهداء على الناس يدل على أنه سبحانه أراد الايمان من الكل لانه تعالى لا يجعل الشهيد على عباده الا من كان عدلا مرضيا فاذا أراد أن تكونوا شهداء على الناس فقد أراد أن تكونوا جميعا صالحين عدولا وقد علمنا أن منهم فساقا فدل ذلك على أن الله تعالى أراد من الفاسق كونه عدلا (وثانيها) قوله واعتصموا بالله وكيف يمكن الاعتصام به مع أن الشر لا يوجد الا منه (وثالثها) قوله فنعم المولى لانه لو كان كما يقوله أهل السنة من أنه خلق أكثر عباده ليخلق فيهم الكفر والفساد ثم يعذبهم لما كان نعم المولى بل كان لا يوجد من شرار الموالي أحد الا وهو شر منه فكان يجب أن يوصف بأنه بئس المولى وذلك باطل فدل على أنه سبحانه ما أراد من جميعهم الا الصلاح فان قيل لم لا يجوز أن يكون نعم المولى للمؤمنين خاصة كما أنه نعم النصير لهم خاصة قلنا انه تعالى مولى المؤمنين والكافرين جميعا فيجب أن يقال انه نعم المولى للمؤمنين وبئس المولى للكافرين فان ارتكبوا ذلك فقد ردوا القرآن والاجماع وصرحوا بشتم الله تعالى (ورابعها) أن قوله سماكم المسلمين من قبل يدل على اثبات الاسماء الشرعية وانها من قبل الله تعالى لانها لو كانت لغة لما أضيفت الى الله تعالى على وجه الخصوص (والجواب عن الاول) وهو قوله كونه تعالى مريدا لكونه شاهدا يستلزم كونه مريدا لكونه عدلا فنقول ان كانت ارادة الشئ مستلزمة لارادة لوازمه فارادة الايمان من الكافر توجب أن تكون مستلزمة لارادة جهل الله تعالى فيلزم كونه تعالى مريدا للجهل نفسه وان لم يكن ذلك واجبا سقط الكلام وأما قوله واعتصموا بالله فيقال هذا أيضا وارد عليكم فانه سبحانه خلق الشهوة في قلب الفاسق وأكدها وخلق المشتهى وقربه منه ورفع المانع ثم سلط عليه الشياطين من الانس والجن وعلم أنه لا محالة يقع في الفجور والضلال وفي الشاهد كل من فعل ذلك فانه يكون بئس المولى فان صح قياس الغائب على

الشاهد

الموصوفون بما ذكر من القبائح (لهم) بسبب ذلك (اللعنة) أي الابعاد من رحمة الله تعالى (ولهم) مع ذلك (سوء الدار) أي سوء عاقبة الدنيا أو عذاب جهنم فانها دارهم لان ترتيب الحكم على الموصول مشعر بعلية الصلة له ولا يخفى أنه لا دخل له في ذلك على أكثر التفاسير فان مجازاة السيئة بمثلها مأذون فيه اودفع الكلام السيء بالحسن وكذا الاعطاء عند المنع والعفو عند الظلم والوصل عند القطع ليس مما يورث تركه تبعة وأما اعتبار اندراجه تحت الصلة الثانية من الاخلال ببعض الحقوق المندوبة فلا ضير في ذلك لان اعتباره من حيث انه من مستتمات الاخلال بالعزائم بالكفر ببعض الانبياء وعقوق الوالدين وترك سائر الحقوق الواجبة وتكريرلهم للتأكيد والايذان باختلافهما واستقلال كل منهما في الثبوت (الله يبسط الرزق) أى يوسعه (لمن يشاء) من عباده (ويقدر) أى يضيقه على من يشاء حسبما تقتضيه الحكمة من غير أن يكون لاحد مدخل في ذلك ولا شعور بحكمته فربما يبسطه للكافر املاء واستدراجا وربما يضيقه على المؤمن زيادة لاجره فلا يغتر ببسطه الكافر كما لا يقنط بقدره المؤمن (وفرحوا) أى أهل مكة فرح أشر وبطر لا فرح سرور بفضل الله تعالى (بالحيوة الدنيا) وما بسط لهم فيها من نعيمها (وما الحيوة الدنيا) وما يتبعها من النعيم (في الآخرة) أى في جنب نعيم الآخرة (الامتاع) الاشئ يتمتع به كعجالة الراكب وزاد الراعي والمعنى انهم رضوا بحظ الدنيا معرضين عن نعيم الآخرة والحال ان ما أشروا به في جنب ما أعرضوا عنه شئ قليل النفع سريع النفاد (ويقول الذين كفروا) أى أهل مكة وايثار هذه الطريقة على الاضمار مع ظهور ارادتهم عقيب ذكر فرحهم بالحياة الدنيا لذمهم

والتسجيل عليهم بالكفر فيما حكى عنهم من قولهم (لولا أنزل عليه آية من ربه) فان ذلك فى أقصى مراتب المكابرة والعناد كأن ما أنزل عليه عليه السلام من الآيات العظام الباهرة ليس بآية حتى اقترحوا ما لا تقتضيه الحكمة من الآيات المحسوسة التى لا يبقى لأحد بعد ذلك طاقة بعدم القبول ولذلك أمر فى الجواب بقوله تعالى (قل ان الله يضل من يشاء)

اضلاله مشيئة تابعة للحكمة الداعية اليها أى يخلق فيه الضلال لصرفه اختياره الى تحصيله ويدعه منهمكا فيه لعلمه بأنه لا ينجع فيه اللطف ولا ينفعه الارشاد كمن كان على صفتكم فى المكابرة والعناد وشدة الشكيمة والغلو فى الفساد فلا سبيل له الى الاهتداء ولو جاءته كل آية (ويهدى اليه) أى الى جنابه العلى الكبير هداية موصلة اليه لا دلالة مطلقة على ما يوصل اليه فان ذلك غير مختص بالمهتدين وفيه من تشريفهم ما لا يوصف (من أناب) أقبل الى الحق وتأمل فى تضاعيف ما نزل من دلائله الواضحة وحقيقة الانابة الدخول فى نوبة الخير وايثار ايرادها فى الصلة على ايراد المشيئة كما فى الصلة الأولى للتنبيه على الداعى الى الهداية بل الى مشيئتها والاشعار بما دعا الى المشيئة الأولى المكابرة وفيه حث للكفرة على الاقلاع عما هم عليه من العتو والعناد وايثار صيغة الماضى للايماء الى استدعاء الهداية السابقة الانابة كما أن ايثار صيغة المضارع فى الصلة الأولى للدلالة على استمرار المشيئة حسب استمرار مكابرتهم (الذين آمنوا) بدل من أناب فان أريد بالهداية الهداية المستمرة فالأمر ظاهر لظهور كون الايمان مؤديا اليها وان أريد احداثها فالمراد بالذين آمنوا الذين صار أمرهم الى الايمان كما فى قوله تعالى هدى للمتقين أى الصائرين الى التقوى والا فالايمان لا يؤدى الى الهداية نفسها أو خبر مبتدأ محذوف

الشاهد فهذا لازم عليكم وان بطل سقط كلامكم بالكلية * تم تفسير سورة الحج ويتلوه تفسير سورة المؤمنين والحمد لله رب العالمين

﴿سورة المؤمنون مائة وثمان عشرة آية مكية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾ اعلم أنه سبحانه حكم بحصول الفلاح لمن كان مستجمعا لصفات سبع وقبل الخوض فى شرح تلك الصفات لا بد من بحثين (البحث الأول) أن قد نقيضة لما فقد تثبت المتوقع ولما تنفيه ولا شك أن المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة وهى الاخبار بثبات الفلاح لهم فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه (البحث الثانى) الفلاح الظفر بالمراد وقيل البقاء فى الخير وأفلح دخل فى الفلاح كأبشر دخل فى البشارة ويقال أفلحه صيره الى الفلاح وعليه قراءة طلحة بن مصرف أفلح على البناء للمفعول وعنه أفلحوا على لغة أكلونى البراغيث أو على الابهام والتفسير (الصفة الأولى) قوله المؤمنون وقد تقدم القول فى الايمان فى سورة البقرة (الصفة الثانية) قوله الذين هم فى صلاتهم خاشعون واختلفوا فى الخشوع فمنهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف والرهبة ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات ومنهم من جمع بين الأمرين وهو الأولى فالخاشع فى صلاته لا بد أن يحصل له مما يتعلق بالقلب من الأفعال نهاية الخضوع والتذلل للمعبود ومن التروك أن لا يكون ملتفت الخاطر الى شئ سوى التعظيم ومما يتعلق بالجوارح أن يكون ساكنا مطرقا ناظرا الى موضع سجوده ومن التروك أن لا يلتفت يمينا ولا شمالا ولكن الخشوع الذى يرى على الانسان ليس الا ما يتعلق بالجوارح فان ما يتعلق بالقلب لا يرى قال الحسن وابن سيرين كان المسلمون يرفعون أبصارهم الى السماء فى صلاتهم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك فلما نزلت هذه الآية طأطأ وكان لا يجاوز بصره مصلاه فان قيل فهل تقولون ان ذلك واجب فى الصلاة قلنا انه عندنا واجب ويدل عليه أمور (أحدها) قوله تعالى أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها والتدبر لا يتصور بدون الوقوف على المعنى وكذا قوله تعالى ورتل القرآن ترتيلا معناه قف على عجائبه ومعانيه (وثانيها) قوله تعالى وأقم الصلاة لذكرى وظاهر الأمر للوجوب والغفلة تضاد الذكر فمن غفل فى جميع صلاته كيف يكون مقيما الصلاة لذكره (وثالثها) قوله تعالى ولا تكن من الغافلين وظاهر النهى للتحريم (ورابعها) قوله حتى تعلموا ما تقولون تعليل لنهى السكران وهو مطرد فى الغافل المستغرق الهم بالدنيا (وخامسها) قوله عليه السلام انما الخشوع لمن تمكن وتواضع وكلمة انما للحصر وقوله عليه السلام من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعدا وصلاة الغافل لا تمنع من الفحشاء وقال عليه السلام كم من قائم حظه من قيامه التعب والنصب وما أراد به الا الغافل وقال أيضا ليس للعبد من صلاته الا ما عقل (وسادسها) قال الغزالى رحمه الله المصلى يناجى ربه كما ورد به الخبر والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة البتة وبيانه ان الانسان اذا أدى الزكاة حال الغفلة فقد حصل المقصود منها على بعض الوجوه وهو كسر الحرص واغناء الفقير وكذا الصوم قاهر للقوى كاسر

اى هم الذين آمنوا أو منصوب على المدح (وتطمئن قلوبهم) أى تستقر وتسكن (بذكر الله) بكلامه المعجز الذى لا ريب فيه كقوله تعالى وهذا ذكر مبارك أنزلناه وقوله انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون و يعلمون أن لا آية أعظم منه فيقترحوها والعدول الى صيغة المضارع لافادة دوام الاطمئنان وتجدده حسب تجدد الآيات وتعددها (ألا بذكر الله) وحده (تطمئن القلوب) دون غيره من الامور التى تميل اليها النفوس من الدنياويات وهذا ظاهر وأما سائر المعجزات فالقصر من حيث انها ليست فى افادة الطمأنينة بالنسبة الى من لم يشاهدها بمثابة القرآن المجيد فانه معجزة باقية الى يوم القيامة يشاهدها كل أحد وتطمئن به القلوب كافة وفيه اشعار بأن الكفرة ليست لهم قلوب وأفئدتهم هواء حيث لم يطمئنوا بذكر الله تعالى ولم يعدوه آية وهو أظهر الآيات وأبهرها وقيل تطمئن قلوبهم بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته كقوله تعالى ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله أو بذكر دلائله الدالة على وحدانيته أو بذكره جل وعلا أنسا به وتبتلا اليه فالمراد بالهداية دوامها واستمرارها (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) بدل من القلوب على حذف المضاف بدل الكل حسبما رمز اليه أى قلوب الذين آمنوا وفيه ايماء الى أن الانسان انما هو القلب أو مبتدأ خبره الجملة الدعائية على التأويل أعنى قوله (طوبى لهم) أو خبر بشر مبتدأ مضمر أو نصب على المدح فقط وطوبى لهم حال عاملها الفعلان وطوبى مصدر من طاب كبشرى وزلفى والواو منقلبة من الياء كموقن وموسر وقرأ مكوزة الأعرابى طيبى لتسلم الياء والمعنى أصابوا خيرا وطيبا ومحلها النصب كسلاما أو الرفع على الابتداء وان كانت نكرة لكونها

السطوة الهوى التى هى عدوة الله تعالى فلا يبعد أن يحصل منه مقصوده مع الغفلة وكذا الحج أفعال شاقة وفيه من المجاهدة ما يحصل به الابتلاء سواء كان القلب حاضرا أو لم يكن اما الصلاة فليس فيها الا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود أما الذكر فانه مناجاة مع الله تعالى فاما أن يكون المقصود منه كونه مناجاة او المقصود مجرد الحروف والاصوات ولا شك فى فساد هذا القسم فان تحريك اللسان بالهذيان ليس فيه غرض صحيح فثبت ان المقصود منه المناجاة وذلك لا يتحقق الا اذا كان اللسان معبرا عما فى القلب من التضرعات فأى سؤال فى قوله اهدنا الصراط المستقيم وكان القلب غافلا عنه بل أقول لو حلف انسان وقال والله لاشكرن فلانا وأثنى عليه وأسأله حاجة ثم جرت الالفاظ الدالة على هذه المعانى على لسانه فى النوم لم يبر فى يمينه ولو جرى على لسانه فى ظلمة الليل وذلك الانسان حاضر وهو لا يعرف حضوره ولا يراه لا يصير بارا فى يمينه ولا يكون كلامه خطابا معه ما لم يكن حاضرا فى قلبه ولو جرت هذه الكلمات على لسانه وهو حاضر فى بياض النهار الا أن المتكلم غافل لكونه مستغرق الهم بفكر من الافكار ولم يكن له قصد توجه الخطاب عليه عند نطقه لم يصر بارا فى يمينه ولا شك ان المقصود من القراءة والاذكار الحمد والثناء والتضرع والدعاء والمخاطب هو الله تعالى فاذا كان القلب محجوبا بحجاب الغفلة وكان غافلا عن جلال الله وكبريائه ثم ان لسانه يتحرك بحكم العادة فما أبعد ذلك عن القبول وأما الركوع والسجود فالمقصود منهما التعظيم ولو جاز أن يكون تعظيما لله تعالى مع أنه غافل عنه لجاز أن يكون تعظيما للصنم الموضوع بين يديه وهو غافل عنه ولانه اذا لم يحصل التعظيم لم يبق الا مجرد حركة الظهر والرأس وليس فيهما من المشقة ما يصير لاجله عماد الدين وفاصلا بين الكفر والايمان ويقدم على الحج والزكاة والجهاد وسائر الطاعات الشاقة ويجب القتل بسببه على الخصوص وبالجملة فكل عاقل يقطع بأن مشاهدة الخواص العظيمة ليس لأعمالها الظاهرة الا أن ينضاف اليها مقصود هذه المناجاة فدلت هذه الاعتبارات على ان الصلاة لا بد فيها من الحضور (وسادسها) ان الفقهاء اختلفوا فيما ينويه بالسلام عند الجماعة والانفراد هل ينوى الحضور أو الغيبة والحضور فاذا احتيج الى التدبر فى معنى السلام الذى هو آخر الصلاة فلأن يحتاج الى التدبر فى معنى التكبير والتسبيح التى هى الاشياء المقصودة من الصلاة بالطريق الاولى واحتج المخالف بان اشتراط الخضوع والخشوع على خلاف اجماع الفقهاء فلا يلتفت اليه (والجواب) من وجوه (أحدها) أن الحضور عندنا ليس شرطا للاجزاء بل شرط للقبول والمراد من الاجزاء أن لا يجب القضاء والمراد من القبول حكم الثواب والفقهاء انما يبحثون عن حكم الاجزاء لا عن حكم الثواب وغرضنا فى هذا المقام هذا ومثاله فى الشاهد من استعار من غيره ثوبا ثم رده على الوجه الاحسن فقد خرج عن العهدة واستحق المدح ومن رماه اليه على وجه الاستخفاف خرج عن العهدة ولكنه استحق الذم كذا من عظم الله تعالى حال أدائه العبادة صار مقيما للفرض مستحقا للثواب ومن استهان بها صار مقيما للفرض ظاهرا لكنه استحق الذم (وثانيها) أنا نمنع هذا الاجماع أما المتكلمون فقد اتفقوا على انه لا بد من الحضور والخشوع واحتجوا عليه بأن السجود لله تعالى طاعة وللصنم كفر وكل واحد منهما يماثل الآخر فى ذاته ولوازمه فلا بد من أمر لاجله صار السجود فى احدى الصورتين طاعة وفى الاخرى معصية قالوا وما ذاك الا القصد والارادة والمراد من القصد ايقاع تلك الافعال لداعية الامتثال وهذه الداعية لا يمكن حصولها الا عند الحضور فلهذا اتفقوا على انه لا بد من الحضور وأما الفقهاء فقد ذكر الفقيه أبو الليث رحمه الله فى تنبيه الغافلين أن تمام القراءة أن يقرأ بغير لحن وان يقرأ بالتفكر وأما الغزالى رحمه الله فانه نقل عن أبى طالب المكى عن

في معنى الدعاء كسلام عليك يدل على ذلك القراءة في قوله تعالى (وحسن مآب) بالنصب والرفع واللام في لهم للبيان مثلها في سقيالك (كذلك) مثل ذلك الارسال العظيم الشأن المصحوب بهذه المعجزة الباهرة (أرسلناك في أمة قد خلت) أى مضت (من قبلها أمم) كثيرة وقد أرسل اليهم رسل (لتتلو) لتقرأ (عليهم الذى أوحينا اليك) ٢١٣ من الكتاب العظيم الشأن وتهديهم الى الحق رحمة لهم وتقديم المجرور على المنصوب من قبيل الابهام ثم البيان كما في قوله تعالى ووضعنا عنك وزرك وفيه ما لا يخفى من ترقب النفس الى ما سيرد وحسن قبولها له عند وروده عليها (وهم) أى والحال أنهم (يكفرون بالرحمن) بالبليغ الرحمة الذى وسعت كل شئ رحمته وأحاطت به نعمته والعدول الى المظهر المتعرض لوصف الرحمة من حيث ان الارسال ناشئ منها كما قال تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين فلم يقدروا قدره ولم يشكروا نعمه لاسيما ما أنعم به عليهم بارسال مثلك اليهم وانزال القرآن الذى هو مدار المنافع الدينية والدنيوية عليهم وقيل نزلت في مشركى مكة حين أمروا بالسجود فقالوا وما الرحمن (قل هو) أى الرحمن الذى كفرتم به وأنكرتم معرفته (ربى) الرب في الاصل بمعنى التربية وهى تبليغ الشئ الى كماله شيأ فشيأ ثم وصف به مبالغة كالصوم والعدل وقيل هو نعت أى خالقى ومبلغى الى مراتب الكمال وايراده قبل قوله (لا اله الا هو) أى لا مستحق للعبادة سواه تنبيه على أن استحقاق العبادة منوط بالربوبية وقيل ان أبا جهل سمع النبى عليه السلام يقول يا ألله يا رحمن فرجع الى المشركين فقال ان محمدا يدعو الهين فنزلت ونزل قوله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن الآية (عليه توكلت) في جميع أمورى لاسيما في النصرة عليكم لا على أحد سواه (واليه) خاصة (متاب) أى توبتى كقوله

رشوا الحاق انه قال من لم يخشع فسدت صلاته وعن الحسن رحمه الله كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهى الى العقوبة أسرع وعن معاذ بن جبل من عرف من على يمينه وشماله متعمدا وهو في الصلاة فلا صلاة له وروى أيضا مسندا قال عليه السلام ان العبد ليصلى الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها وانما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها وقال عبد الواحد بن زيد أجمعت العلماء على انه ليس للعبد من صلاته الا ما عقل وادعى فيه الاجماع اذا ثبت هذا فنقول هب ان الفقهاء بأسرهم حكموا بالجواز أليس الاصوليون وأهل الورع ضيقوا الامر فيها فهلا أخذت بالاحتياط فان بعض العلماء اختار الامامة فقيل له في ذلك فقال أخاف ان تركت الفاتحة أن يعاتبنى الشافعى وان قرأتها مع الامام أن يعاتبنى أبو حنيفة فاخترت الامامة طلبا للخلاص عن هذا الاختلاف والله أعلم (الصفة الثالثة) قوله تعالى والذين هم عن اللغو معرضون وفى اللغو أقوال (أحدها) أنه يدخل فيه كل ما كان حراما أو مكروها أو كان مباحا ولكن لا يكون بالمرء اليه ضرورة وحاجة (وثانيها) انه عبارة عن كل ما كان حراما فقط وهذا التفسير أخص من الاول (وثالثها) انه عبارة عن المعصية في القول والكلام خاصة وهذا أخص من الثانى (ورابعها) انه المباح الذى لا حاجة اليه واحتج هذا القائل بقوله تعالى لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم فكيف يحمل ذلك على المعاصى التى لا بد فيها من المؤاخذة واحتج الاولون بأن اللغو انما سمى لغوا بما انه يلغى وكل ما يقتضى الدين الغاءه كان أولى باسم اللغو فوجب أن يكون كل حرام لغوا ثم اللغو قد يكون كفرا لقوله لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه وقد يكون كذبا لقوله لا تسمع فيها لاغية وقوله لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما ثم انه سبحانه وتعالى مدحهم بأنهم معرضون عن هذا اللغو والاعراض عنه هو بأن لا يفعله ولا يرضى به ولا يخالط من يأتيه وعلى هذا الوجه قال تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما واعلم انه سبحانه وتعالى لما وصفهم بالخشوع في الصلاة أتبعه الوصف بالاعراض عن اللغو ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الانفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف والله أعلم (الصفة الرابعة) قوله تعالى والذين هم للزكاة فاعلون وفى الزكاة قولان (أحدهما) قول أبى مسلم ان فعل الزكاة يقع على كل فعل محمود مرضى كقوله قد أفلح من تزكى وقوله فلا تزكوا أنفسكم ومن جملته ما يخرج من حق المال وانما سمى بذلك لانها تطهر من الذنوب لقوله تعالى تطهرهم وتزكيهم بها (والثانى) وهو قول الاكثرين انه الحق الواجب في الاموال خاصة وهذا هو الاقرب لان هذه اللفظة قد اختصت في الشرع بهذا المعنى فان قيل انه لا يقال في الكلام الفصيح انه فعل الزكاة قلنا قال صاحب الكشاف الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى فالعين القدر الذى يخرجه المزكى من النصاب الى الفقير والمعنى فعل المزكى الذى هو التزكية وهو الذى أراده الله تعالى فجعل المزكين فاعلين له ولا يسوغ فيه غيره لانه ما من مصدر الا يعبر عن معناه بالفعل ويقال لمحدثه فاعل يقال للضارب فاعل الضرب وللقاتل فاعل القتل وللمزكى فاعل الزكاة وعلى هذا الكلام كله يجوز أن يراد بالزكاة العين ويقدر مضاف محذوف وهو الاداء فان قيل ان الله تعالى هناك لم يفصل بين الصلاة والزكاة فلم فصل ههنا بينهما بقوله والذين هم عن اللغو معرضون قلنا لان الاعراض عن اللغو من متممات الصلاة (الصفة الخامسة) قوله تعالى والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين وفيه سؤالات (السؤال الاول) لم لم يقل الا عن أزواجهم (الجواب) قال الفراء معناه الا من أزواجهم وذكر صاحب الكشاف فيه ثلاثة أوجه (أحدها) انه في موضع الحال أى الا والين على أزواجهم أو قوامين عليهن من قولك فلان على فلانة ونظيره كان زياد على البصرة أى واليا عليها ومنه قولهم فلانة تحت فلان ومن ثم سميت المرأة فراشا والمعنى

تعالى واستغفر لذنبك أمر عليه السلام بذلك ابانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله تعالى وأنها صفة الانبياء وبعثا للكفرة على الرجوع
عما هم عليه بأبلغ وجه وألطفه فانه عليه السلام حيث أمر بها وهو منزه عن شائبة اقتراف ما يوجبها من الذنب وان قل فتوبتهم وهم
عاكفون على أنواع الكفر والمعاصي مما لابد منه أصلا وقد فسر المتاب بمطلق الرجوع فقيل مرجعي ومرجعكم وزيد فيحكم
بيني وبينكم وقد قيل
فيثيبني على مصابرتكم
فتأمل (ولو أن قرآنا)
أي قرآنا ما وهو اسم
أن والخبر قوله تعالى
(سيرت به الجبال)
وجواب لو محذوف
لانسياق الكلام اليه
حيث يتلقفه السامع من
التالي والمقصود اما بيان
عظم شأن القرآن العظيم
وفساد رأي الكفرة حيث
لم يقدروا قدره العلي ولم
يعدوه من قبيل الآيات
فاقترحوا غيره مما أوتي
موسى وعيسى عليهما
السلام واما بيان غلوهم
في المكابرة والعناد وتماديهم
في الضلال والفساد
فالمعنى على الأول لو أن
قرآنا سيرت به الجبال أي
بانزاله أو بتلاوته عليها
وزعزعت عن مقارها كما
فعل ذلك بالطور لموسى
عليه الصلاة والسلام
(أو قطعت به الارض) أي
شققت وجعلت أنهارا
وعيونا كما فعل بالحجر
حين ضربه عليه السلام
بعصاه أو جعلت قطعا
متصدعة (أو كلم به الموتى)
أي بعد أن أحييت بقراءته
عليها كما أحييت لعيسى
عليه السلام لكان ذلك
هذا القرآن لكونه الغاية القصوى في الانطواء على عجائب آثار قدرة الله تعالى وهيبته عز وجل
كقوله تعالى لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله لا في الاعجاز اذ لا مدخل له في هذه الآثار ولا في التذكير
والانذار والتخويف لاختصاصها بالعقلاء مع أنه لا علاقة لها بتكليم الموتى واعتباره في المقول اليهم مخل بالمبالغة المقصودة وتقديم

أنهم لفروجهم حافظون في كافة الاحوال الا في حال تزوجهم أو تسريهم (وثانيها) انه يتعلق بمحذوف يدل
عليه غير ملومين كأنه قيل يلامون الا على أزواجهم أي يلامون على كل مباشرة الا على ما أطلق لهم فانهم
غير ملومين عليه وهو قول الزجاج (وثالثها) أن تجعله صلة لحافظين (السؤال الثاني) هلا قيل من ملكت
(الجواب) لانه اجتمع في السرية وصفان أحدهما الانوثة وهي مظنة نقصان العقل والآخر كونها بحيث
تباع وتشترى كسائر السلع فلاجتماع هذين الوصفين فيها جعلت كأنها ليست من العقلاء (السؤال
الثالث) هذه الآية تدل على تحريم المتعة على ما يروى عن القاسم بن محمد (الجواب) نعم وتقريره
انها ليست زوجة له فوجب أن لا تحل له وانما قلنا انها ليست زوجة له لانهما لا يتوارثان بالاجماع ولو كانت
زوجة له لحصل التوارث لقوله تعالى ولكم نصف ما ترك أزواجكم واذا ثبت أنها ليست بزوجة له وجب أن
لا تحل له لقوله تعالى الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم والله أعلم (السؤال الرابع) أليس لا يحل له في
الزوجة وملك اليمين الاستمتاع في أحوال كحال الحيض وحال العدة وفي الامة حال تزويجها من الغير وحال
عدتها وكذا الغلام داخل في ظاهر قوله تعالى أو ما ملكت أيمانهم (والجواب) من وجهين (أحدهما)
ان مذهب أبي حنيفة رحمه الله ان الاستثناء من النفي لا يكون اثباتا واحتج عليه بقوله عليه السلام لا صلاة
الا بطهور ولا نكاح الا بولي فان ذلك لا يقتضي حصول الصلاة بمجرد حصول الطهور وحصول النكاح
بمجرد حصول الولي وفائدة الاستثناء صرف الحكم لا صرف المحكوم به فقوله والذين هم لفروجهم حافظون
الا على أزواجهم معناه انه يجب حفظ الفروج عن الكل الا في هاتين الصورتين فاني ما ذكرت حكمهما
لا بالنفي ولا بالاثبات (والثاني) أنا ان سلمنا ان الاستثناء من النفي اثبات فغايته انه عام دخله التخصيص
بالدليل فيبقى فيما وراءه حجة أما قوله تعالى فأولئك هم العادون يعني الكاملون في العدوان المتناهون
فيه (الصفة السادسة) قوله تعالى والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون قرأ نافع وابن كثير لامانتهم واعلم
انه يسمى الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه أمانة وعهدا ومنه قوله تعالى ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى
أهلها وقال وتخونوا أماناتكم وانما تؤدى العيون دون المعاني فكان المؤتمن عليه الامانة في نفسها والعهد
ما عقده على نفسه فيما يقربه الى ربه ويقع أيضا على ما أمر الله تعالى به كقوله الذين قالوا ان الله عهد الينا
والراعي القائم على الشيء بحفظ واصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية ويقال من راعي هذا الشيء أي متوليه
واعلم أن الامانة تتناول كل ما تركه يكون داخلا في الخيانة وقد قال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله
والرسول وتخونوا أماناتكم فمن ذلك العبادات التي المرء مؤتمن عليها وكل العبادات تدخل في ذلك لانها اما
أن تخفى أصلا كالصوم وغسل الجنابة واسباغ الوضوء أو تخفى كيفية اتيانه بها وقال عليه السلام أعظم
الناس خيانة من لم يتم صلاته وعن ابن مسعود رضي الله عنه أول ما تفقدون من دينكم الامانة وآخر
ما تفقدون الصلاة ومن جملة ذلك ما يلزمه بفعل أو قول فيلزمه الوفاء به كالودائع والعقود وما يتصل بهما
ومن ذلك الاقوال التي يحرم بها العبيد والنساء لانه مؤتمن في ذلك ومن ذلك أن يراعي أمانته فلا يفسدها
بغصب أو غيره وأما العهد فانه يدخل فيه العقود والايمان والنذور فبين سبحانه أن مراعاة هذه الامور والقيام
بها معتبر في حصول الفلاح (الصفة السابعة) قوله والذين هم على صلواتهم يحافظون وانما أعاد تعالى ذكرها
لان الخشوع والمحافظة متغايران غير متلازمين فان الخشوع صفة للمصلي في حال الاداء للصلاة والمحافظة
انما تصح حال ما لم يؤدها بكمالها المراد بالمحافظة التعهد لشروطها من وقت وطهارة وغيرهما والقيام على
أركانها واتمامها حتى يكون ذلك دأبه في كل وقت ثم لما ذكر الله تعالى مجموع هذه الامور قال أولئك هم

الوارثون

المجرور في المواضع الثلاثة على المرفوع لما مر غير مرة من قصد الابهام ثم التفسير لزيادة التقرير لان بتقديم ما حقه التأخير تبقى النفس مستشرفة ومترقبة الى المؤخر أنه ماذا فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن وكلمة أو في الموضعين لمنع الخلو لا لمنع الجمع واقتراحهم وان كان متعلقا بمجرد ظهور مثل هذه الافاعيل العجيبة على يده عليه السلام لا بظهورها بواسطة القرآن لكن ذلك حيث كان مبنيا على عدم اشتماله في زعمهم على الخوارق نيط ظهورها به مبالغة في بيان اشتماله عليها وانه حقيق بأن يكون مصدرا لكل خارق وابانة لركاكة رأيهم في شأنه الرفيع كأنه قيل لو ان ظهور أمثال ما اقترحوه من مقتضيات الحكمة لكان مظهرها هذا القرآن الذي لم يعدوه آية وفيه من تفخيم شأنه العزيز ووصفهم بركاكة العقل ما لا يخفى (بل لله الامر جميعا) أي له الامر الذي عليه يدور فلك الاكوان وجودا وعدما يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لما يدعو اليه من الحكم البالغة وهو اضراب عما تضمنته الشرطية من معنى النفي لا بحسب منطوقه بل باعتبار موجبه ومؤداه أي لو أن قرآنا فعل به ما ذكر لكان ذلك هذا القرآن ولكن لم يفعل بل فعل ما عليه الشأن الآن لان الامر كله له وحده فالاضراب ليس بتوجه الى كون الامر لله سبحانه بل الى ما يؤدي اليه ذلك من كون الشأن على ما كان لما تقتضيه الحكمة من بناء التكليف على الاختيار (أفلم ييأس الذين آمنوا) أي أفلم يعلموا على لغة هوازن أو قوم من النخع أو على استعمال اليأس في معنى العلم لتضمنه له ويؤيده قراءة علي وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أفلم يتبين بطريق التفسير والمراد

الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون وههنا سؤالات (السؤال الاول) لم سمى ما يجدونه من الثواب والجنة بالميراث مع انه سبحانه حكم بأن الجنة حقهم في قوله ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة (الجواب) من وجوه (الاول) ما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو أبين على ما يقال فيه وهو أنه لا مكلف الا أعد الله له في النار ما يستحقه ان عصى وفي الجنة ما يستحقه ان أطاع وجعل لذلك علامة فاذا آمن منهم البعض ولم يؤمن البعض صار منزل من لم يؤمن كالمنقول الى المؤمنين وصار مصيرهم الى النار الذي لا بد معه من حرمان الثواب لكونهم فسمى ذلك ميراثا لهذا الوجه وقد قال الفقهاء انه لا فرق بين ما ملكه الميت وبين ما يقدر فيه الملك في أنه يورث عنه كذلك قالوا في الدية التي تجب بالقتل انها تورث مع انه ما ملكها على التحقيق وذلك يشهد بما ذكرنا فان قيل انه تعالى وصف كل الذي يستحقونه ارثا وعلى ما قلتم يدخل في الارث ما كان يستحقه غيرهم لو أطاع قلنا لا يمتنع انه تعالى جعل ما هو منزلة لهذا المؤمن بعينه منزلة لذلك الكافر لو أطاع لانه عند ذلك كان يزيد في المنازل فاذا آمن هذا عدل بذلك اليه (وثانيها) ان انتقال الجنة اليهم بدون محاسبة ومعرفة مقاديره يشبه انتقال المال الى الوارث (وثالثها) ان الجنة كانت مسكن أبينا آدم عليه السلام فاذا انتقلت الى أولاده صار ذلك شبيها بالميراث (السؤال الثاني) كيف حكم على الموصوفين بالصفات السبع بالفلاح مع انه تعالى ما تمم ذكر العبادات الواجبة كالصوم والحج والطهارة (والجواب) لان قوله والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون يأتي على جميع الواجبات من الافعال والتروك كما قدمنا والطهارات دخلت في جملة المحافظة على الصلوات الخمس لكونها من شرائطها (السؤال الثالث) أفيدل قوله تعالى أولئك هم الوارثون على انه لا يدخلها غيرهم (الجواب) ان قوله هم الوارثون يفيد الحصر لكنه يجب ترك العمل به لانه ثبت ان الجنة يدخلها الاطفال والمجانين والولدان والحور العين ويدخلها الفساق من أهل القبلة بعد العفو لقوله تعالى ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء (السؤال الرابع) أفكل الجنة هو الفردوس (الجواب) الفردوس هو الجنة بلسان الحبشة وقيل بلسان الروم وروى أبو موسى الاشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال الفردوس مقصورة الرحمن فيها الانهار والاشجار وروى أبو أمامة عنه عليه السلام أنه قال سلوا الله الفردوس فانها أعلى الجنان وان أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش (السؤال الخامس) هل تدل الآية على ان هذه الصفات هي التي لها ولاجلها يكونون مؤمنين أم لا (الجواب) ادعى القاضي ان الامر كذلك بناء على مذهبه ان الايمان اسم شرعي موضوع لاداء كل الواجبات وعندنا ان الآية لا تدل على ذلك لان قوله قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون مثل قد أفلح الناس الأزكياء العدول فان هذا لا يدل على أن الزكاة والعدالة داخلان في مسمى الناس فكذا ههنا (السؤال السادس) روي أنه عليه الصلاة والسلام قال لما خلق الله تعالى جنة عدن قال لها تكلمي فقالت قد أفلح المؤمنون وقال كعب خلق الله آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده ثم قال لها تكلمي فقالت قد أفلح المؤمنون وروي أنه عليه السلام قال اذا أحسن العبد الوضوء وصلى الصلاة لوقتها وحافظ على ركوعها وسجودها ومواقيتها قالت حفظك الله كما حافظت علي وشفعت لصاحبها واذا أضاعها قالت أضاعك الله كما ضيعتني وتلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها (الجواب) أما كلام الجنة فالمراد به انها أعدت للمؤمنين فصار ذلك كالقول منها وهو كقوله تعالى قالتا أتينا طائعين وأما انه تعالى خلق الجنة بيده فالمراد تولى خلقها لا انه وكلها الى غيره وأما ان الصلاة تثني على من قام بحقها فهو في الجواز أبعد من كلام الجنة لان الصلاة حركات وسكنات ولا يصح عليها أن تتصور وتتكلم

فالمراد منه ضرب المثل كما يقول القائل للنعم ان احسانك الى ينطق بالشكر (السؤال السابع) هل تدل الآية على ان الفردوس مخلوقة (الجواب) قال القاضي دل قوله تعالى أكلها دائم على أنها غير مخلوقة فوجب تأويل هذه الآية كأنه تعالى قال اذا كان يوم القيامة يخلق الله الجنة ميراثا للمؤمنين أو واذا خلقها تقول على مثال ما تأولنا عليه قوله تعالى ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة وهذا ضعيف لانه ليس اضمار ما ذكره في هذه الآية أولى من ان يضمر في قوله أكلها دائم ان أكلها دائم يوم القيامة واذا تعارض هذان الظاهران فنحن نتمسك في ان الجنة مخلوقة بقوله تعالى أعدت للمتقين ﴿قوله تعالى ﴿ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون﴾ اعلم أنه سبحانه لما أمر بالعبادات في الآية المتقدمة والاشتغال بعبادة الله تعالى لا يصح الا بعد معرفة الاله الخالق لا جرم عقبها بذكر ما يدل على وجوده واتصافه بصفات الجلال والوحدانية فذكر من الدلائل أنواعا (النوع الاول) الاستدلال بتقلب الانسان في أدوار الخلقة وأكوان الفطرة وهي تسعة (المرتبة الاولى) قوله سبحانه وتعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين والسلالة الخلاصة لانها تسل من بين الكدر فعالة وهو بناء يدل على القلة كالقلامة والقمامة واختلف أهل التفسير في الانسان فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومقاتل المراد منه آدم عليه السلام فآدم سل من الطين وخلقت ذريته من ماء مهين ثم جعلنا الكناية راجعة الى الانسان الذي هو ولد آدم والانسان شامل لآدم عليه السلام ولولده وقال آخرون الانسان ههنا ولد آدم والطين ههنا اسم آدم عليه السلام والسلالة هي الاجزاء الطينية المبثوثة في أعضائه التي لما اجتمعت وحصلت في أوعية المني صارت منيا وهذا التفسير مطابق لقوله تعالى وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين وفيه وجه آخر وهو ان الانسان انما يتولد من النطفة وهي انما تتولد من فضل الهضم الرابع وذلك انما يتولد من الاغذية وهي اما حيوانية واما نباتية والحيوانية تنتهي الى النباتية والنبات انما يتولد من صفو الارض والماء فالانسان بالحقيقة يكون متولدا من سلالة من طين ثم ان تلك السلالة بعد ان تواردت على أطوار الخلقة وأدوار الفطرة صارت منيا وهذا التأويل مطابق للفظ ولا يحتاج فيه الى التكلفات (المرتبة الثانية) قوله تعالى ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ومعنى جعل الانسان نطفة أنه خلق جوهر الانسان أولا طينا ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة في أصلاب الآباء فقذفه الصلب بالجماع الى رحم المرأة فصار الرحم قرارا مكينا لهذه النطفة والمراد بالقرار موضع القرار وهو المستقر فسماه بالمصدر ثم وصف الرحم بالمكانة التي هي صفة المستقر فيها كقولك طريق سائر أو لمكانتها في نفسها لانها مكنت من حيث هي وأحرزت (المرتبة الثالثة) قوله تعالى ثم خلقنا النطفة علقة أي حولنا النطفة عن صفاتها الى صفات العلقة وهي الدم الجامد (المرتبة الرابعة) قوله تعالى فخلقنا العلقة مضغة أي جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة أي قطعة لحم كأنها مقدار ما يمضغ كالغرفة وهي مقدار ما يغترف وسمى التحويل خلقا لانه سبحانه يفني بعض أعراضها ويخلق أعراضا غيرها فسمى خلق الاعراض خلقا لها وكأنه سبحانه وتعالى يخلق فيها أجزاء زائدة (المرتبة الخامسة) قوله فخلقنا المضغة عظاما أي صيرناها كذلك وقرأ ابن عامر عظما والمراد منه الجمع كقوله والملك صفا صفا (المرتبة السادسة) قوله تعالى فكسونا العظام لحما وذلك لان اللحم يستر العظم فجعله كالكسوة لها (المرتبة السابعة) قوله تعالى ثم أنشأناه خلقا آخر أي خلقا مباينا للخلق الاول مباينة

للعطف على مقدر أي أغفلوا عن كون الامر جميعا لله تعالى فلم يعلموا (أن لو يشاء الله) على حذف ضمير الشأن وتخفيف أن (لهدى الناس جميعا) بظهور أمثال تلك الآثار العظيمة فالانكار متوجه الى المعطوفين جميعا أو أعلموا كون الامر جميعا لله فلم يعلموا ما يوجبه ذلك العلم مما ذكر فهو متوجه الى ترتب المعطوف على المعطوف عليه أي تخلف العلم الثاني عن العلم الاول وعلى التقديرين فالانكار انكار الوقوع كما في قوله تعالى ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا لا الانكار الواقع كما في قولك ألم تخف الله حتى عصيته ثم ان مناط الانكار ليس عدم علمهم بمضمون الشرطية فقط بل مع عدم علمهم بعدم تحقق مقدمها كأنه قيل ألم يعلموا أن الله تعالى لو شاء هدايتهم لهداهم وانه لم يشأها وذلك لانهم كانوا يودون أن يظهر ما اقترحوا من الآيات ليجتمعوا على الايمان وعلى الثاني لو أن قرآنا فعل به ما فصل من التعاجيب لما آمنوا به كقوله تعالى ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى الآية فالاضراب حينئذ متوجه الى ما سلف من اقتراحهم مع كونهم في العناد على ما شرح أي فليس لهم ذلك بل لله الامر جميعا ان شاء أتى بما اقترحوا وان شاء لم يأت به حسبما تستدعيه داعية الحكمة من غير أن يكون لاحد عليه تحكم أو اقتراح واليأس بمعنى القنوط أي ألم يعلم الذين آمنوا حالهم هذه فلم يقنطوا من ايمانهم حتى أحبوا ظهور مقترحاتهم فالانكار متوجه الى المعطوفين أو أعلموا ذلك فلم يقنطوا من ايمانهم فهو متوجه الى وقوع المعطوف بعد المعطوف عليه أي الى تخلف القنوط عن العلم المذكور والانكار على التقديرين انكار الواقع كما في قوله تعالى أفلا تتقون ونظائره لا انكار الوقوع فان عدم قنوطهم منهم مما لا مرد له وقوله تعالى أن لو يشاء الله الخ متعلق

محذوف أي أفلم ييأسوا من ايمانهم علماً منهم أو عالمين بأنه لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً وانه لم يشأ ذلك أو يا منوا أي أفلم يقنط الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً على معنى أفلم ييأس من ايمانهم المؤمنون بمضمون الشرطية وبعدم تحقق مقدمها المنفهم من مكابرتهم حسبما تحكيه كلمة لو فالوصف المذكور من دواعي انكار يأسهم وقيل ان أبا جهل وأضرابه قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان كنت نبيا فسير بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا ونتخذ فيها البساتين والقطائع وقد سخرت لداود عليه السلام فلست بأهون على الله منه ان كنت نبيا كما زعمت أو سخر لنا به الريح كما سخرت لسليمان عليه السلام لنتجر عليها الى الشام فقد شق علينا قطع الشقة البعيدة أو ابعث لنا به رجلين أو ثلاثة ممن مات من آبائنا فنزلت فمعنى تقطيع الارض حينئذ قطعها بالسير ولا حاجة حينئذ الى الاعتذار في اسناد الافاعيل المذكورة الى القرآن كما احتيج اليه في الوجهين الاولين وعن الفراء أنه متعلق بما قبله من قوله وهم يكفرون بالرحمن وما بينهما اعتراض وهو بالحقيقة دال على الجواب والتقدير ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى لكفروا بالرحمن والتذكير في كلم به الموتى لتغليب المذكر من الموتى على غيره (ولا يزال الذين كفروا) من أهل مكة (تصيبهم بما صنعوا) أي بسبب ما صنعوه من الكفر والتمادي فيه وعدم بيانه اما بالقصد ويله أو اسم بيانه وهو تصريح بما أشعر به بناء الحكم على الموصول من علية الصلة له مع ما في صيغة الصنع من الايذان برسوخهم (قارعة) داهية تقرعهم وتقلقهم وهو ما كان يصيبهم من أنواع البلايا والمصائب من القتل والاسر والنهب والسلب وتقديم المجرور

ما أبدعها حيث جعله حيوانا وكان جمادا وناطقا وكان أبكم وسميعا وكان أصم وبصيرا وكان أكمه وأودع باطنه وظاهره بل كل عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه عجائب فطرة وغرائب حكمة لا يحيط بها وصف الواصفين ولا شرح الشارحين وروى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال هو تصريف الله اياه بعد الولادة في أطواره في زمن الطفولية وما بعدها الى استواء الشباب وخلق الفهم والعقل وما بعده الى أن يموت ودليل هذا القول أنه عقبه بقوله ثم انكم بعد ذلك لميتون وهذا المعنى مروي أيضا عن ابن عباس وابن عمر وانما قال أنشأناه لانه جعل انشاء الروح فيه واتمام خلقه انشاء له قالوا في الآية دلالة على بطلان قول النظام في ان الانسان هو الروح لا البدن فانه سبحانه بين ان الانسان هو المركب من هذه الصفات وفيها دلالة أيضا على بطلان قول الفلاسفة الذين يقولون ان الانسان شيء لا ينقسم وانه ليس بجسم أما قوله فتبارك الله أي فتعالى الله فان البركة يرجع معناها الى الامتداد والزيادة وكل ما زاد على الشيء فقد علاه ويجوز أن يكون المعنى والبركات والخيرات كلها من الله تعالى وقيل أصله من البروك وهو الثبات فكأنه قال والبقاء والدوام والبركات كلها منه فهو المستحق للتعظيم والثناء وقوله أحسن الخالقين أي أحسن المقدرين تقديرا فترك ذكر المميز لدلالة الخالقين عليه وههنا مسائل (المسألة الاولى) قالت المعتزلة لولا أن غير الله تعالى قد يكون خالقا لفعله اذا قدره لما جاز القول بأنه أحسن الخالقين كما لو لم يكن في عباده من يحكم ويرحم لم يجز أن يقال فيه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين والخلق في اللغة هو كل فعل وجد من فاعله مقدرا لا على سهو وغفلة والعباد قد يفعلون ذلك على هذا الوجه قال الكعبي هذه الآية وان دلت على أن العبد خالق الا أن اسم الخالق لا يطلق الا على العبد الا مع التقييد كما انه يجوز أن يقال رب الدار ولا يجوز أن يقال رب بلا اضافة ولا يقول العبد لسيده هو ربي ولا يقال انما قال الله تعالى ذلك لانه سبحانه وصف عيسى عليه السلام بانه يخلق من الطين كهيئة الطير لانا نجيب عنه من وجهين (أحدهما) ان ظاهر الآية يقتضي انه سبحانه أحسن الخالقين الذين هم جمع فحمله على عيسى خاصة لا يصح (الثاني) أنه اذا صح وصف عيسى بانه يخلق صح وصف غيره من المصورين أيضا بأنه يخلق وأجاب أصحابنا بان هذه الآية معارضة بقول الله تعالى الله خالق كل شيء فوجب حمل هذه الآية على انه أحسن الخالقين في اعتقادكم وظنكم كقوله تعالى وهو أهون عليه أي هو أهون عليه في اعتقادكم وظنكم (والجواب الثاني) هو أن الخالق هو المقدر لان الخلق هو التقدير والآية تدل على انه سبحانه أحسن المقدرين والتقدير يرجع معناه الى الظن والحسبان وذلك في حق الله سبحانه محال فتكون الآية من المتشابهات (والجواب الثالث) ان الآية تقتضي كون العبد خالقا بمعنى كونه مقدرا لكن لم قلت بانه خالق بمعنى كونه موجدا (المسألة الثانية) قالت المعتزلة الآية تدل على ان كل ما خلقه حسن وحكمة وصواب والا لما جاز وصفه بأنه أحسن الخالقين واذا كان كذلك وجب ان لا يكون خالقا للكفر والمعصية فوجب أن يكون العبد هو الموجد لهما (والجواب) من الناس من حمل الحسن على الاحكام والاتقان في التركيب والتأليف ثم لو حملناه على ما قالوه فعندنا أنه يحسن من الله تعالى كل الاشياء لانه ليس فوقه أمر ونهي حتى يكون ذلك مانعاله عن فعل شيء (المسألة الثالثة) روى الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما ان عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب هذه الآيات لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انتهى الى قوله تعالى خلقا آخر عجب من ذلك فقال فتبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب فهكذا نزلت فشك عبد الله وقال ان كان محمد صادقا فيما يقول فانه يوحى الي كما يوحى اليه وان كان كاذبا فلا خير في دينه فهرب

على الفاعل لما مر مرارا من ارادة التفسير اثر الابهام لزيادة التقرير والاحكام مع ما فيه من بيان أن مدار الاصابة من جهتهم آثر ذى أثير
(أوتحل) تلك القارعة (قريبا) أى مكانا قريبا (من دارهم) فيفزعون منها ويتطاير اليهم شرارها شبهت القارعة بالعدو المتوجه اليهم
فأسند اليها الاصابة تارة والحلول أخرى ففيه استعارة بالكناية وتخييل وترشيح (حتى يأتى وعد الله) أى موتهم أو القيامة

فان كلا منهما وعد محتوم لا مرد له وفيه دلالة على أن ما يصيبهم عند ذلك من العذاب فى غاية الشدة وأن ما ذكر سابقة نفحة يسيرة بالنسبة اليه ثم حقق ذلك بقوله تعالى (ان الله لا يخلف الميعاد) أى الوعد كالميلاد والميثاق بمعنى الولادة والتوثقة لاستحالة ذلك على الله سبحانه وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أراد بالقارعة السرايا التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعثها وكانوا بين اغارة واختطاف وتخويف بالهجوم عليهم فى دارهم فالاصابة والحلول حينئذ من أحوالهم ويجوز على هذا أن يكون قوله تعالى أوتحل قريبا من دارهم خطابا للرسول صلى الله عليه وسلم مرادا به حلوله الحديبية والمراد بوعد الله ما وعد به من فتح مكة (ولقد استهزئ برسل) كثيرة خلت (من قبلك فأمليت للذين كفروا) أى تركتهم ملاوة من الزمان فى أمن ودعة كما يملى للبهيمة فى المرعى وهذا
تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما لقى من المشركين من التكذيب والاقتراح على طريقة الاستهزاء به ما
ووعيد لهم والمعنى ان ذلك ليس مختصا بك بل هو أمر مطرد قد فعل ذلك برسل كثيرة كائنة من قبلك فأمهلت الذين فعلوه بهم والا
فى الصلة الى وصف الكفر ليس لان المملى لهم غير المستهزئين بل لارادة الجمع بين الوصفين أى فأمليت للذين كفروا مع استهزائهم

الى مكة فقيل انه مات على الكفر وقيل انه أسلم يوم الفتح وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما نزلت
هذه الآية قال عمر بن الخطاب فتبارك الله أحسن الخالقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا
نزلت يا عمر وكان عمر يقول وافقنى ربى فى أربع فى الصلاة خلف المقام وفى ضرب الحجاب على النسوة
وقولى لهن لتنتهن أو ليبدلنه الله خيرا منكن فنزل قوله تعالى عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا
منكن والرابع قلت فتبارك الله أحسن الخالقين فقال هكذا نزلت قال العارفون هذه الواقعة كانت سبب
السعادة لعمر وسبب الشقاوة لعبد الله كما قال تعالى يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا فان قيل فعلى كل الروايات
قد تكلم البشر ابتداء بمثل نظم القرآن وذلك يقدح فى كونه معجزا كما ظنه عبد الله (والجواب) هذا غير
مستبعد اذا كان قدره القدر الذى لا يظهر فيه الاعجاز فسقطت شبهة عبد الله (المرتبة الثامنة) قوله ثم انكم
بعد ذلك لميتون قرأ ابن أبى عبلة وابن محيصن لمائتون والفرق بين الميت والمائت ان الميت كالحى صفة ثابتة
وأما المائت فيدل على الحدوث تقول زيد ميت الآن ومائت غدا كقولك يموت ونحوهما ضيق وضائق
فى قوله وضائق به صدرك (المرتبة التاسعة) قوله ثم انكم يوم القيامة تبعثون فالله سبحانه جعل الاماتة التى
هى اعدام الحياة والبعث الذى هو اعادة ما يفنيه ويعدمه دليلين أيضا على اقتدار عظيم بعد الانشا
والاختراع وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما الحكمة فى الموت وهلا وصل نعيم الآخرة وثوابها بنعيم
الدنيا فيكون ذلك فى الانعام أبلغ (والجواب) هذا كالمفسدة فى حق المكلفين لانه متى عجل للمرء الثواب فيما
يتحمله من المشقة فى الطاعات صار اتيانه بالطاعات لاجل تلك المنافع لا لاجل طاعة الله يبين ذلك أنه لو
قيل لمن يصلى ويصوم اذا فعلت ذلك أدخلناك الجنة فى الحال فانه لا يأتى بذلك الفعل الا لطلب الجنة فلا
جرم أخره الله تعالى ووعده بالاماتة ثم الاعادة ليكون العبد عابدا لربه بطاعته لا لطلب الانتفاع (السؤال
الثانى) هذه الآية تدل على نفى عذاب القبر لانه قال ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون ولم
يذكر بين الامرين الاحياء فى القبر والاماتة (والجواب) من وجهين (الاول) أنه ليس فى ذكر الحياتين
نفى الثالثة (والثانى) ان الغرض من ذكر هذه الاجناس الثلاثة الانشاء والاماتة والاعادة والذى
ترك ذكره فهو من جنس الاعادة (النوع الثانى) من الدلائل الاستدلال بخلقة السموات ﴿و﴾ هو
قوله تعالى ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين﴾ فقوله سبع طرائق أى سبع
سموات وانما قيل لها طرائق لتطارقها بمعنى كون بعضها فوق بعض يقال طارق الرجل نعليه اذا أطبق
نعلا على نعل وطارق بين ثوبين اذا لبس ثوبا فوق ثوب هذا قول الخليل والزجاج والفراء قال الزجاج
هو كقوله سبع سموات طباقا وقال على بن عيسى سميت بذلك لانها طرائق للملائكة فى العروج والهبوط
والطيران وقال آخرون لانها طرائق الكواكب فيها مسيرها والوجه فى انعامه علينا بذلك انه تعالى جعلها
موضع الارزاق بانزال الماء منها وجعلها مقر الملائكة ولانها موضع الثواب ولانها مكان ارسال الانبياء
ونزول الوحى أما قوله تعالى وما كنا عن الخلق غافلين ففيه وجوه (أحدها) ما كنا غافلين بل كنا للخلق
حافظين من أن تسقط عليهم الطرائق السبع فتهلكهم وهذا قول سفيان بن عيينة وهو كقوله تعالى
ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا (وثانيها) انما خلقناها فوقهم لننزل عليهم الارزاق والبركات
عن الحسن (وثالثها) انا خلقنا هذه الاشياء فدل خلقنا لها على كمال قدرتنا ثم بين كمال العلم بقوله وما
عن الخلق غافلين يعنى عن أعمالهم وأقوالهم وضمائرهم وذلك يفيد نهاية الزجر (ورابعها) وما كنا
خلق السموات غافلين بل نحن لها حافظون لئلا تخرج عن التقدير الذى أردنا كونها عليه كقوله تع

لا بأسمائهم فقط (ثم أخذتهم فكيف كان عقاب) أي عقابي اياهم وفيه من الدلالة على تناهي كيفيته في الشدة والفظاعة ما لا يخفى (أفمن هو قائم) أي رقيب مهيمن (على كل نفس) كائنة من كانت (بما كسبت) من خير أو شر لا يخفى عليه شئ من ذلك بل يجازي كلا بعمله وهو الله تعالى والخبر محذوف أي كمن ليس كذلك انكارا لذلك وادخال الفاء لتوجيه الانكار الى توهم المماثلة غب ما علم مما فعل تعالى بالمستهزئين من الاملاء المديد والاخذ الشديد ومن كون الامر كله لله تعالى وكون هداية الناس جميعا منوطة بمشيئته تعالى ومن تواتر القوارع على الكفرة الى أن يأتي وعد الله كأنه قيل أالامر كذلك فمن هذا شأنه كما ليس في عداد الاشياء حتى تشركوه به فالانكار متوجه الى ترتب المعطوف أعني توهم المماثلة على المعطوف عليه المقدر أعني كون الامر كما ذكر كما في قولك أتعلم الحق فلا تعمل به لا الى المعطوفين جميعا كما اذا قلت ألا تعلمه فلا تعمل به وقوله تعالى (وجعلوا لله شركاء) جملة مستقلة جيء بها للدلالة على الخبر أو حالية أي أفمن هذه صفاته كما ليس كذلك وقد جعلوا له شركاء لا شريكا واحدا أو معطوفة على الخبر ان قدر ما يصلح لذلك أي أفمن هذا شأنه لم يوحدوه وجعلوا لله شركاء ووضع المظهر موضع المضمر للتنصيص على وحدانيته ذاتا واسما والتنبيه على اختصاصه باستحقاق العبادة مع ما فيه من البيان بعد الابهام بايراده موصولا للدلالة على التفخيم وقوله تعالى (قل سموهم) تبكيت لهم أي سموهم من هم وماذا أسماؤهم أو صفوهم وانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة (أم تنبئونه) أي بل أتنبئون الله (بما لا يعلم في الارض) أي بشركاء مستحقين للعبادة لا يعلمهم الله تعالى ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والارض وقرئ

ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ واعلم أن هذه الآية دالة على كثير من المسائل (أحدها) انها دالة على وجود الصانع فان انقلاب هذه الاجسام من صفة الى صفة أخرى تضاد الاولى مع امكان بقائها على تلك الصفة يدل على انه لا بد من محول ومغير (وثانيها) أنها تدل على فساد القول بالطبيعة فان شيأ من تلك الصفات لو حصل بالطبيعة لوجب بقاؤها وعدم تغيرها ولو قالوا انما تغيرت تلك الصفات لتغير تلك الطبيعة افتقرت تلك الطبيعة الى خالق وموجد (وثالثها) تدل على ان المدبر قادر عالم لان الموجب والجاهل لا يصدر عنهما هذه الافعال العجيبة (ورابعها) تدل على انه عالم بكل المعلومات قادر على كل الممكنات (وخامسها) تدل على جواز الحشر والنشر نظرا الى صريح الآية ونظرا الى أن الفاعل لما كان قادرا على كل الممكنات وعالما بكل المعلومات وجب أن يكون قادرا على اعادة التركيب الى تلك الاجزاء كما كانت (وسادسها) ان معرفة الله تعالى يجب أن تكون استدلالية لا تقليدية والا لكان ذكر هذه الدلائل عبثا

﴿النوع الثالث﴾ الاستدلال بنزول الامطار وكيفية تأثيراتها في النبات ﴿ قوله تعالى ﴿وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الارض وانا على ذهاب به لقادرون فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين﴾ اعلم أن الماء في نفسه نعمة وانه مع ذلك سبب لحصول النعم فلا جرم ذكره الله تعالى أولا ثم ذكر ما يحصل به من النعم ثانيا أما قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء بقدر فقد اختلفوا في السماء فقال الاكثرون من المفسرين انه تعالى ينزل الماء في الحقيقة من السماء وهو الظاهر من اللفظ ويؤكده قوله وفي السماء رزقكم وما توعدون وقال بعضهم المراد السحاب وسماه سماء لعلوه والمعنى ان الله تعالى أصعد الاجزاء المائية من قعر الارض الى البحار ومن البحار الى السماء حتى صارت عذبة صافية بسبب ذلك التصعيد ثم ان تلك الذرات تأتلف وتتكون ثم ينزله الله تعالى على قدر الحاجة اليه ولولا ذلك لم ينتفع بتلك المياه لتفرقها في قعر الارض ولا بماء البحار لملوحته ولانه لا حيلة في اجراء مياه البحار على وجه الارض لان البحار هي الغاية في العمق واعلم أن هذه الوجوه انما يتحملها من ينكر الفاعل المختار فاما من أقر به فلا حاجة به الى شئ منها أما قوله تعالى بقدر فمعناه بتقدير يسلمون معه من المضرة ويصلون الى المنفعة في الزرع والغرس والشرب أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم ومصالحهم أما قوله فأسكناه في الارض قيل معناه جعلناه ثابتا في الارض قال ابن عباس رضي الله عنهما أنزل الله تعالى من الجنة خمسة أنهار سيحون وجيحون ودجلة والفرات والنيل ثم يرفعها عند خروج يأجوج ومأجوج ويرفع أيضا القرآن أما قوله وانا على ذهاب به لقادرون أي كما قدرنا على انزاله فكذلك نقدر على رفعه وازالته قال صاحب الكشاف وقوله على ذهاب به من أوقع النكرات وأحزها للمفصل والمعنى على وجه من وجوه الذهاب به وطريق من طرقه وفيه ايذان بكمال اقتدار المذهب وانه لا يتعسر عليه شئ وهو أبلغ في الايعاد من قوله قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ثم انه سبحانه لما نبه على عظيم نعمته بخلق الماء ذكر بعده النعم الحاصلة من الماء فقال فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب وانما ذكر تعالى النخيل والاعناب لكثرة منافعهما فانهما يقومان مقام الطعام ومقام الادام ومقام الفواكه رطبا ويابسا وقوله لكم فيها فواكه كثيرة أي في الجنات فكما أن فيها النخيل والاعناب ففيها الفواكه الكثيرة وقوله ومنها تأكلون قال صاحب الكشاف يجوز أن يكون هذا من قولهم فلان يأكل من حرفة يحترفها ومن صنعة يعملها يعنون انها طعمته وجهته التي منها يحصل رزقه كأنه قال وهذه الجنات وجوه أرزاقكم ومعايشكم منها تتعيشون أما قوله تعالى وشجرة تخرج من طور سيناء فهو عطف على جنات

وقرئت مرفوعة على الابتداء أي ومما أنشأنا لكم شجرة قال صاحب الكشاف طور سيناء وطور سينين لا يخلو اما أن يضاف فيه الطور الى بقعة اسمها سيناء وسينون واما أن يكون اسما للجبل مركبا من مضاف ومضاف اليه كامرئ القيس وبعلبك فمن أضاف فمن كسر سين سيناء فقد منع الصرف للتعريف والعجمة أو التأنيث لانها بقعة وفعلاء لا يكون ألفه للتأنيث كعلباء وحرباء ومن فتح لم يصرفه لان ألفه للتأنيث كصحراء وقيل هو جبل فلسطين وقيل بين مصر وأيلة ومنه نودي موسى عليه السلام وقرأ الاعمش سينا على القصر أما قوله تعالى تنبت بالدهن فهو في موضع الحال أي تنبت وفيها الدهن كما يقال ركب الامير بجنده أي ومعه الجند وقرئ تنبت وفيه وجهان (أحدهما) ان أنبت بمعنى نبت قال زهير

رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم * قطينا لهم حتى اذا أنبت البقل

(والثاني) ان مفعوله محذوف أي تنبت زيتونها وفيه الزيت قال المفسرون وانما أضافها الله تعالى الى هذا الجبل لان منها تشعبت في البلاد وانتشرت ولان معظمها هنالك أما قوله وصبغ للآكلين فعطف على الدهن أي ادام للآكلين والصبغ والصباغ ما يصطبغ به أي يصبغ به الخبز وجملة القول انه سبحانه وتعالى نبه على احسانه بهذه الشجرة لانها تخرج هذه الثمرة التي يكثر بها الانتفاع وهي طرية ومدخرة وبأن تعصر فيظهر الزيت منها ويعظم وجوه الانتفاع به ﴿النوع الرابع﴾ الاستدلال بأحوال الحيوانات ۞ قوله تعالى ﴿وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ اعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر ان فيها عبرة مجملا ثم أردفه بالتفصيل من أربعة أوجه (أحدها) قوله نسقيكم مما في بطونها والمراد منه جميع وجوه الانتفاع بألبانها ووجه الاعتبار فيه انها تجتمع في الضروع وتتخلص من بين الفرث والدم باذن الله تعالى فتستحيل الى طهارة والى لون وطعم موافق للشهوة وتصير غذاء فمن استدل بذلك على قدرة الله وحكمته كان ذلك معدودا في النعم الدينية ومن انتفع به فهو في نعمة الدنيا وأيضا فهذه الالبان التي تخرج من بطونها الى ضروعها تجدها شرابا طيبا واذا ذبحتها لم تجد لها أثرا وذلك يدل على عظيم قدرة الله تعالى قال صاحب الكشاف وقرئ تسقيكم بتاء مفتوحة أي تسقيكم الانعام (وثانيها) قوله ولكم فيها منافع كثيرة وذلك بيعها والانتفاع بأثمانها وما يجري مجرى ذلك (وثالثها) قوله ومنها تأكلون يعني كما تنتفعون بها وهي حية تنتفعون بها بعد الذبح أيضا بالاكل (ورابعها) قوله وعليها وعلى الفلك تحملون لان وجه الانتفاع بالابل في المحمولات على البر بمنزلة الانتفاع بالفلك في البحر ولذلك جمع بين الوجهين في انعامه لكي يشكر على ذلك ويستدل به واعلم أنه سبحانه وتعالى لما بين دلائل التوحيد أردفها بالقصص كما هو العادة في سائر السور وهي ههنا ﴿القصة الاولى﴾ قصة نوح عليه السلام ۞ قوله تعالى ﴿ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لانزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين ان هو الا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين﴾ قال قوم اسمه نوحا كان اسمه يشكر ثم سمي نوحا لوجوه (أحدها) لكثرة ما ناح على نفسه حين دعا على قومه بالهلاك فأهلكهم بالطوفان فندم على ذلك (وثانيها) لمراجعته ربه في شأن ابنه (وثالثها) انه مر بكلب مجذوم فقال له اخسأ يا قبيح فعوتب على ذلك فقال الله أعبتني اذ خلقته أم عبت الكلب وهذه الوجوه متكلفة لما ثبت ان الاعلام لا تفيد صفة في المسمى أما قوله اعبدوا الله فالمعنى انه سبحانه أرسله بالدعاء الى عبادة الله تعالى وحده ولا يجوز أن يدعوهم الى ذلك الا وقد دعاهم الى معرفته أولا لان عبادة من لا يكون معلوما غير جائزة

بالتخفيف (أم بظاهر من القول) أي بل أتسمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون له معنى وحقيقة كتسمية الزنجي كافورا كقوله تعالى ذلك قولهم بأفواههم وهاتيك الاساليب البديعة التي وردت عليها الآية الكريمة منادية على أنها خارجة عن قدرة البشر من كلام خلاق القوى والقدر فتبارك الله رب العالمين (بل زين للذين كفروا) وضع الموصول موضع المضمر ذما لهم وتسجيلا عليهم بالكفر (مكرهم) تمويههم الا باطيل أو كيدهم للاسلام بشركهم (وصدوا عن السبيل) أي سبيل الحق من صده صدا وقرئ بكسر الصاد على نقل حركة الدال اليها وقرئ بفتحها أي صدوا الناس أو من صد صدودا (ومن يضلل الله) أي يخلق فيه الضلال بسوء اختياره أو يخذله (فما له من هاد) يوفقه للهدى (لهم عذاب) شاق (في الحياة الدنيا) بالقتل والاسر وسائر ما يصيبهم من المصائب فانها انما تصيبهم عقوبة على كفرهم (ولعذاب الآخرة أشق) من ذلك بالشدة والمدة (وما لهم من الله) من عذابه المذكور (من واق) من حافظ يعصمهم من ذلك فمن الاولى صلة للوقاية والثانية مزيدة للتأكيد (مثل الجنة) أي صفتها العجيبة الشأن التي في الغرابة كالمثل (التي وعد المتقون) عن الكفر والمعاصي وهذا مبتدأ خبره محذوف عند سيبويه أي فيما قصصنا عليك مثل الجنة وقوله تعالى (تجري من تحتها الانهار) تفسير لذلك المثل على انه حال من الضمير المحذوف من الصلة العائد الى الجنة أي وعدها وانما وهو الخبر عند غيره كقولك شأن زيد يأتيه الناس ويعظمونه أو على حذف موصوف أي مثل الجنة جنة تجري الخ (أكلها) ثمرها (دائم) لا ينقطع (وظلها) أيضا كذلك لا تنسخه الشمس كما تنسخ ظلال الدنيا (تلك) الجنة المنعوتة بما ذكر (عقبى الذين اتقوا) الكفر والمعاصي أي مآل

ما آلهم ومنتهى أمرهم (وعقبى الكافرين النار) لا غير وفيه مالا يخفى من اطماع المتقين واقناط الكافرين (والذين آتيناهم الكتاب) هم المسلمون من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما ومن آمن من النصارى وهم ثمانون رجلا أربعون بنجران وثمانية باليمن واثنان وثلاثون بالحبشة (يفرحون بما أنزل اليك) اذ هو الكتاب ٢٢١ الموعود في التوراة والانجيل (ومن الاحزاب) أي من أحزابهم وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة نحو كعب بن الاشرف والسيد والعاقب أسقفي نجران وأتباعهما (من ينكر بعضه) وهو الشرائع الحادثة انشاء أو نسخا لا ما يوافق ما حرفوه والا فنعي عليهم من أول الامر أن مدار ذلك انما هو جنايات أيديهم وأما ما وافق كتبهم فلم ينكروه وان لم يفرحوا به وقيل يجوز أن يراد بالموصول الاول عامتهم فانهم أيضا يفرحون به لكونه مصدقا لكتبهم في الجملة فحينئذ يكون قوله تعالى ومن الاحزاب الخ بمنزلة أن يقال ومنهم من ينكر بعضه (قل) الزاما لهم وردا لانكارهم (انما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به) أي شيأ من الاشياء أو لا أفعل الاشراك به والمراد قصر الامر بالعبادة على الله تعالى لا قصر الامر مطلقا على عبادته تعالى خاصة أي قل لهم انما أمرت فيما أنزل الي بعبادة الله وتوحيده وظاهر أن لا سبيل لكم الى انكاره لاطباق جميع الانبياء والكتب على ذلك كقوله تعالى قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيأ فما لكم تشركون به عزيرا والمسيح وقرئ ولا أشرك به بالرفع على الاستئناف أي وأنا لا أشرك به (اليه) الى الله تعالى خاصة على النهج المذكور من التوحيد أو الى ما أمرت به من التوحيد (أدعو):

وانما يجوز ويجب بعد المعرفة أما قوله ما لكم من اله غيره فالمراد أن عبادة غير الله لا تجوز اذ لا اله سواه ومن حق العبادة أن تحسن لمن أنعم بالخلق والاحياء وما بعدهما فاذا لم يصح ذلك الا منه تعالى فكيف يعبد ما لا يضر ولا ينفع وقرئ غيره بالرفع على المحل وبالجر على اللفظ ثم انه لما لم ينفع فيهم هذا الدعاء واستمروا على عبادة غير الله تعالى حذرهم بقوله أفلا تتقون لان ذلك زجر ووعيد باتقاء العقوبة لينصرفوا عما هم عليه ثم انه سبحانه حكى عنهم شبههم في انكار نبوة نوح عليه السلام (الشبهة الاولى) قولهم ما هذا الا بشر مثلكم وهذه الشبهة تحتمل وجهين (أحدهما) أن يقال انه لما كان مساويا لسائر الناس في القوة والفهم والعلم والغنى والفقر والصحة والمرض امتنع كونه رسولا لله لان الرسول لا بد أن يكون عظيما عند الله تعالى وحبيبا له والحبيب لا بد وأن يختص عن غير الحبيب بمزيد الدرجة والمعزة فلما فقدت هذه الاشياء علمنا انتفاء الرسالة (والثاني) أن يقال هذا الانسان مشارك لكم في جميع الامور ولكنه أحب الرياسة والمتبوعية فلم يجد اليهما سبيلا الا بادعاء النبوة فصار ذلك شبهة لهم في القدح في نبوته فهذا الاحتمال متأكد بقوله تعالى خبرا عنهم يريد أن يتفضل عليكم أي يريد أن يطلب الفضل عليكم ويرأسكم كقوله تعالى وتكون لكما الكبرياء في الارض (الشبهة الثانية) قولهم ولو شاء الله لانزل ملائكة وشرحه أن الله تعالى لو شاء ارشاد البشر لوجب أن يسلك الطريق الذي يكون أشد افضاء الى المقصود ومعلوم أن بعثة الملائكة أشد افضاء الى هذا المقصود من بعثة البشر لان الملائكة لعلو شأنهم وشدة سطوتهم وكثرة علومهم فالخلق ينقادون اليهم ولا يشكون في رسالتهم فلما لم يفعل ذلك علمنا انه ما أرسل رسولا البتة (الشبهة الثالثة) قولهم ما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين وقوله بهذا اشارة الى نوح عليه السلام أو الى ما كلمهم به من الحث على عبادة الله تعالى أي ما سمعنا بمثل هذا الكلام أو بمثل هذا الذي يدعي وهو بشر أنه رسول الله وشرح هذه الشبهة انهم كانوا أقواما لا يعولون في شيء من مذاهبهم الا على التقليد والرجوع الى قول الآباء فلما لم يجدوا في نبوة نوح عليه السلام هذه الطريقة حكموا بفسادها قال القاضي يحتمل أن يريدوا بذلك كونه رسولا مبعوثا لانه لا يمتنع فيما تقدم من زمان آبائهم أنه كان زمان فترة ويحتمل أن يريدوا بذلك دعاءهم الى عبادة الله تعالى وحده لان آباءهم كانوا على عبادة الاوثان (الشبهة الرابعة) قولهم ان هو الا رجل به جنة والجنة الجنون أو الجن فان جهال العوام يقولون في المجنون زال عقله بعمل الجن وهذه الشبهة من باب الترويج على العوام فانه عليه الصلاة والسلام كان يفعل أفعالا على خلاف عاداتهم فأولئك الرؤساء كانوا يقولون للعوام انه مجنون ومن كان مجنونا فكيف يجوز أن يكون رسولا (الشبهة الخامسة) قولهم فتربصوا به حتى حين وهذا يحتمل أن يكون متعلقا بما قبله أي انه مجنون فاصبروا الى زمان حتى يظهر عاقبة أمره فان أفاق والا قتلتموه ويحتمل أن يكون كلاما مستأنفا وهو أن يقولوا لقومهم اصبروا فانه ان كان نبيا حقا فالله ينصره ويقوي أمره فنحن حينئذ نتبعه وان كان كاذبا فالله يخذله ويبطل أمره فحينئذ نستريح منه فهذه مجموع الشبه التي حكاها الله تعالى عنهم واعلم أنه سبحانه ما ذكر الجواب عنها لركاكتها ووضوح فسادها وذلك لان كل عاقل يعلم ان الرسول لا يصير رسولا لانه من جنس الملك وانما يصير كذلك بان يتميز من غيره بالمعجزات فسواء كان من جنس الملك أو من جنس البشر فعند ظهور المعجز عليه يجب أن يكون رسولا بل جعل الرسول من جملة البشر أولى لما مر بيانه في السور المتقدمة وهو أن الجنسية مظنة الالفة والمؤانسة وأما قولهم يريد أن يتفضل عليكم فان أرادوا به ارادته لاظهار فضله حتى يلزمهم الانقياد لطاعته فهذا واجب على الرسول وان أرادوا به أن يرتفع عليهم على سبيل التجبر والتكبر والانقياد فالانبياء منزهون عن ذلك

الناس لا الى غيره أولا الى شئ آخر مما لم يطابق عليه الكتب الالهية والانبياء عليهم الصلاة والسلام فما وجه انكاركم (واليه) الى الله تعالى وحده (مآب) مرجعى للجزاء وحيث كانت هذه الحجة الباهرة لازمة لهم لا يجدون عنها محيصا أمر عليه الصلاة والسلام بأن يخاطبهم بذلك الزاما وتبكيتا لهم ثم شرع ٢٢٣ فى رد انكارهم لفروع الشرائع الواردة ابتداء أو بدلا من الشرائع المنسوخة ببيان الحكمة فى ذلك فقيل (وكذلك أنزلناه) أى ما أنزل اليك وذلك اشارة الى مصدر أنزلناه أو أنزل اليك ومحله النصب على المصدرية أى مثل ذلك الانزال البديع المنتظم لاصول مجمع عليها وفروع متشعبة الى موافقة ومخالفة حسبما تقتضيه قضية الحكمة والمصلحة أنزلناه (حكما) حاكما يحكم فى القضايا والواقعات بالحق أو يحكم به كذلك والتعرض لذلك العنوان مع أن بعضه ليس بحكم لتربية وجوب مراعاته وتحتم المحافظة عليه (عربيا) مترجما بلسان العرب والتعرض لذلك للاشارة الى أن ذلك احدى مواد المخالفة للكتب السابقة مع أن ذلك مقتضى الحكمة اذ بذلك يسهل فهمه وادراك اعجازه والاقتصار على اشتمال الانزال على أصول الديانات المجمع عليها حسبما يفيده قوله تعالى قل انما أمرت أن أعبد الله الخ يأباه التعرض لاتباع أهوائهم وحديث المحو والاثبات وان لكل أجل كتاب فان المجمع عليه لا يتصور فيه الاستتباع والاتباع (ولئن اتبعت أهواءهم) التى يدعونك اليها من تقرير الامور المخالفة لما أنزل اليك من الحق كالصلاة الى بيت المقدس بعد التحويل (بعد ما جاءك من العلم) العظيم الشأن الفائض ذلك الحكم العربى أراد العلم بمضمونه (مالك من الله) من جنابه العزيز والالتفات من التكلم الى الغيبة وايراد الاسم الجليل لتربية المهابة

وأما قولهم ما سمعنا بهذا فهو استدلال بعدم التقليد على عدم وجود الشئ وهو فى غاية السقوط لان وجود التقليد لا يدل على وجود الشئ فعدمه من أين يدل على عدمه وأما قولهم به جنة فقد كذبوا لانهم كانوا يعلمون بالضرورة كمال عقله وأما قولهم فتربصوا به فضعيف لانه ان ظهرت الدلالة على نبوته وهى المعجزة وجب عليهم قبول قوله فى الحال ولا يجوز توقيف ذلك الى ظهور دولته لان الدولة لا تدل على الحقية وان لم يظهر المعجز لم يجز قبول قوله سواء ظهرت الدولة أو لم تظهر ولما كانت هذه الاجوبة فى نهاية الظهور لاجرم تركها الله سبحانه ﴿ قوله تعالى ﴿قال رب انصرنى بما كذبون فأوحينا اليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فاذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ان فى ذلك لآيات وان كنا لمبتلين﴾ أما قوله رب انصرنى بما كذبون ففيه وجوه (أحدها) ان فى نصره اهلاكهم فكأنه قال أهلكهم بسبب تكذيبهم اياى (وثانيها) انصرنى بدل ما كذبونى كما تقول هذا بذاك أى بدل ذاك ومكانه والمعنى أبدلنى من غم تكذيبهم سلوة النصر عليهم (وثالثها) انصرنى بانجاز ما وعدتهم من العذاب وهو ما كذبوه فيه حين قال لهم انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ولما أجاب الله دعاءه قال فأوحينا اليه أن اصنع الفلك بأعيننا أى بحفظنا وكلائنا كأن معه من الله حافظا يكلؤه بعينه لئلا يتعرض له ولا يفسد عليه مفسد عمله ومنه قولهم عليه من الله عين كالئة وهذه الآية دالة على فساد قول المشبهة فى تمسكهم بقوله عليه السلام ان الله خلق آدم على صورته لان ثبوت الاعين يمنع من ذلك واختلفوا فى أنه عليه السلام كيف صنع الفلك فقيل انه كان نجارا وكان عالما بكيفية اتخاذها وقيل ان جبريل عليه السلام علمه عمل السفينة ووصف له كيفية اتخاذها وهذا هو الاقرب لقوله بأعيننا ووحينا أما قوله فاذا جاء أمرنا فاعلم أن لفظ الامر كما هو حقيقة فى طلب الفعل بالقول على سبيل الاستعلاء فكذا هو حقيقة فى الشأن العظيم والدليل عليه انك اذا قلت هذا أمر بقى الذهن مترددا بين المفهومين وذلك يدل على كونه حقيقة فيهما وتمام تقريره مذكور فى كتاب المحصول فى الاصول ومن الناس من قال انما سماه أمرا على سبيل التعظيم والتفخيم مثل قوله فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها أما قوله وفار التنور فاختلفوا فى التنور فالاكثرون على انه هو التنور المعروف روى انه قيل لنوح اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت ومن معك فى السفينة فلما نبع الماء من التنور أخبرته امرأته فركب وقيل كان تنور آدم وكان من حجارة فصار الى نوح واختلف فى مكانه فعن الشعبى فى مسجد الكوفة عن يمين الداخل مما يلى باب كندة وكان نوح عليه السلام عمل السفينة فى وسط المسجد وقيل بالشام بموضع يقال له عين وردة وقيل بالهند (والقول الثانى) أن التنور وجه الارض عن ابن عباس رضى الله عنهما (والثالث) انه أشرف موضع فى الارض أى أعلاه عن قتادة (والرابع) وفار التنور أى طلع الفجر عن على عليه السلام وقيل ان فوران التنور كان عند طلوع الفجر (والخامس) هو مثل قولهم حمى الوطيس (والسادس) انه الموضع المنخفض من السفينة الذى يسيل الماء اليه عن الحسن رحمه الله والقول الاول هو الصواب لان العدول عن الحقيقة الى المجاز من غير دليل لا يجوز واعلم أن الله تعالى جعل فوران التنور علامة لنوح عليه السلام حتى يركب عنده السفينة طلبا لنجاته ونجاة من معه من قومه أما قوله فاسلك فيها أى ادخل فيها يقال سلك فيه أى دخل فيه وسلك غيره وأسلكه من كل زوجين اثنين أى من كل زوجين من الحيوان الذى يحضره فى الوقت اثنين الذكر والانثى لكى لا ينقطع

نسل ذلك الحيوان وكل واحد منهما زوج لا كما تقوله العامة من أن الزوج هو الاثنان روى انه لم يحمل الا ما يلد ويبيض وقرئ من كل بالتنوين أي من كل أمة زوجين واثنين تأكيد وزيادة بيان أما قوله وأهلك الا من سبق عليه القول منهم أي وأدخل أهلك ولفظ على انما يستعمل في المضار قال تعالى لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت واعلم أن هذه الآية تدل على أمرين (أحدهما) انه سبحانه أمره بادخال سائر من آمن به وان لم يكن من أهله وقيل المراد بأهله من آمن دون من يتصل به نسبا أو سببا وهذا ضعيف والا لما جاز استثناء قوله الا من سبق عليه القول (والثاني) انه قال ولا تخاطبني في الذين ظلموا يعني كنعان فانه سبحانه لما أخبر باهلاكهم وجب أن ينهاه عن أن يسأله في بعضهم لانه ان أجابه اليه فقد صير خبره الصدق كذبا وان لم يجبه اليه كان ذلك تحقيرا لشأن نوح عليه السلام فلذلك قال انهم مغرقون أي الغرق نازل بهم لا محالة اما قوله فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك قال ابن عباس رضي الله عنهما كان في السفينة ثمانون انسانا نوح وامرأته سوى التي غرقت وثلاثة بنين سام وحام ويافث وثلاث نسوة لهم واثنان وسبعون انسانا فكل الخلائق نسل من كان في السفينة ٭ أما قوله فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين ففيه مسائل (المسئلة الاولى) انما قال فقل ولم يقل فقولوا لان نوحا كان نبيا لهم واماما لهم فكان قوله قولا لهم مع ما فيه من الاشعار بفضل النبوة واظهار كبرياء الربوبية وأن رتبة تلك المخاطبة لا يترقى اليها الا ملك أو نبي (المسئلة الثانية) قال قتادة علمكم الله أن تقولوا عند ركوب السفينة بسم الله مجراها ومرساها وعند ركوب الدابة سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وعند النزول وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين قال الانصاري وقال لنبينا وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق وقال فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم كأنه سبحانه أمرهم أن لا يكونوا عن ذكره وعن الاستعاذة به في جميع أحوالهم غافلين (المسئلة الثالثة) هذا مبالغة عظيمة في تقبيح صورتهم حيث أتبع النهي عن الدعاء لهم الامر بالحمد على اهلاكهم والنجاة منهم كقوله تعالى فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين وانما جعل سبحانه استواءهم على السفينة نجاة من الغرق لانه سبحانه كان عرفه انه بذلك ينجيه ومن تبعه فيصح أن يقول نجانا من حيث جعله آمنا بهذا الفعل ووصف قومه بأنهم الظالمون لان الكفر منهم ظلم لانفسهم لقوله ان الشرك لظلم عظيم ثم انه سبحانه بعد أن أمره بالحمد على اهلاكهم أمره بأن يدعو لنفسه فقال وقل رب أنزلني منزلا مباركا وقرئ منزلا بمعنى انزالا أو موضع انزال كقوله ليدخلنهم مدخلا يرضونه واختلفوا في المنزل على قولين (أحدهما) ان المراد هو نفس السفينة فمن ركبها خلصه مما جرى على قومه من الهلاك (والثاني) ان المراد أن ينزله الله بعد خروجه من السفينة من الارض منزلا مباركا والاول أقرب لانه أمر بهذا الدعاء في حال استقراره في السفينة فيجب أن يكون المنزل ذلك دون غيره ثم بين سبحانه بقوله وأنت خير المنزلين ان الانزال في الامكنة قد يقع من غير الله كما يقع من الله تعالى وان كان هو سبحانه خير من أنزل لانه يحفظ من أنزله في سائر أحواله ويدفع عنه المكاره بحسب ما يقتضيه الحكم الحكمة ثم بين سبحانه ان فيما ذكر من قصة نوح وقومه لآيات ودلالات وعبرا في الدعاء الى الايمان والزجر عن الكفر فان اظهار تلك المياه العظيمة ثم الاذهاب بها لا يقدر عليه الا القادر على كل المقدورات وظهور تلك الواقعة على وفق قول نوح عليه السلام يدل على المعجز العظيم وافناء الكفار وبقاء الارض لاهل الدين والطاعة من أعظم أنواع العبر أما قوله وان كنا لمبتلين فيمكن أن يكون المراد وان كنا لمبتلين فيما قبل ويحتمل أن يكون وان كنا لمبتلين فيما بعد وهذا هو الاقرب لانه كالحقيقة في الاستقبال واذا حمل

قال الازهري لا يكون الها حتى يكون معبودا وحتى يكون خالقا ورازقا ومدبرا (من ولي) يلي أمرك وينصرك على من يبغيك الغوائل (ولا واق) يقيك من مصارع السوء وحيث لم يستلزم نفي الناصر على العدو نفي الواقي من نكايته أدخل على المعطوف حرف النفي للتأكيد كقولك مالي دينار ولا درهم أو مالك من بأس الله من ناصر وواق لاتباعك أهواءهم وأمثال هاتيك القوارع انما هي لقطع أطماع الكفرة وتهييج المؤمنين على الثبات في الدين واللام في لئن موطئة وما لك ساد مسد جوابي الشرط والقسم (ولقد أرسلنا رسلا) كثيرة كائنة (من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية) نساء وأولادا كما جعلناها لك وهو رد لما كانوا يعيبونه صلى الله عليه وسلم بالازواج والاولاد كما كانوا يقولون مال هذا الرسول يأكل الطعام الخ (وما كان لرسول) منهم أي ما صح وما استقام ولم يكن في وسعه (أن يأتي بآية) مما اقترح عليه وحكم مما التمس منه (الا باذن الله) ومشيئته المبنية على الحكم والمصالح التي عليها يدور أمر الكائنات لا سيما مثل هذه الامور العظام والالتفات لما قاسمنا ولتحقيق مضمون الجملة بالايماء الى العلة (لكل أجل) أي لكل مدة ووقت من المدد والاوقات (كتاب) حكم معين يكتب على العباد حسبما تقتضيه الحكمة فان الشرائع كلها لاصلاح أحوالهم المبدأ والمعاد ومن قضية ذلك انه يختلف حسب اختلاف أحوالهم المتغيرة حسب تغير الاوقات كاختلاف العلاج حسب اختلاف أحوال المرضى بحسب الاوقات (يمحو الله ما يشاء) أي ينسخ ما يشاء نسخه من الاحكام لما تقتضيه الحكمة بحسب الوقت (ويثبت) بدله ما المصلحة أو يبقيه على حاله غير منسوخ أو يثبت ما شاء اثباته مطلقا أعم منهما ومن الانشاء ابتداء أو يمحو من ديوان الحفظة الذين

على ذلك احتمل وجوها (أحدها) أن يكون المراد المكلفين فى المستقبل أى فيجب فيمن كلفناه أن يعتبر بهذا الذى ذكرناه (وثانيها) أن يكون المراد لعاقبين لمن سلك فى تكذيب الانبياء مثل طريقة قوم نوح (وثالثها) أن يكون المراد كنا معاقبين من كذب بالغرق وغيره فقد نمتحن بالغرق من لم يكذب على وجه المصلحة لا على وجه التعذيب لكى لا يقدر ان كل الغرق يجرى على وجه واحد ﴿القصة الثانية﴾ قصة هود أو صالح عليهما السلام ﴿قوله تعالى ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحيوة الدنيا ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون أيعدكم أنكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيى وما نحن بمبعوثين ان هو الا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين قال رب انصرنى بما كذبون قال عما قليل ليصبحن نادمين فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين﴾ اعلم أن هذه القصة هى قصة هود عليه السلام فى قول ابن عباس رضى الله عنهما وأكثر المفسرين واحتجوا عليه بحكاية الله تعالى قول هود عليه السلام واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ومجىء قصة هود عقيب قصة نوح فى سورة الاعراف وسورة هود والشعراء وقال بعضهم المراد بهم صالح وثمود لان قومه الذين كذبوه هم الذين هلكوا بالصيحة اما كيفية الدعوة فكما تقدم فى قصة نوح عليه السلام وههنا سؤالات ﴿السؤال الاول﴾ حق أرسل أن يتعدى بالى كأخواته التى هى وجه وأنفذ وبعث فلم عدى فى القرآن بالى تارة وبفى أخرى كقوله تعالى كذلك أرسلناك فى أمة وما أرسلنا فى قرية فأرسلنا فيهم رسولا أى فى عاد وفى موضع آخر والى عاد أخاهم هودا (الجواب) لم يعد بفى كما عدى بالى ولكن الامة أو القرية جعلت موضعا للارسال وعلى هذا المعنى جاء بعث فى قوله ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا ﴿السؤال الثانى﴾ هل يصح ما قاله بعضهم ان قوله أفلا تتقون غير موصول بالاول وانما قاله لهم بعد أن كذبوه وردوا عليه بعد اقامة الحجة عليهم فعند ذلك قال لهم مخوفا مما هم عليه أفلا تتقون هذه الطريقة مخافة العقاب الذى أنذرتكم به (الجواب) يجوز أن يكون موصولا بالكلام الاول بأن رآهم معرضين عن عبادة الله مشتغلين بعبادة الاوثان فدعاهم الى عبادة الله وحذرهم من العقاب بسبب اقبالهم على عبادة الاوثان ثم اعلم أن الله تعالى حكى صفات أولئك القوم ثم حكى كلامهم أما الصفات فثلاثة هى شر الصفات (أولها) الكفر بالخالق سبحانه وهو المراد من قوله كفروا (وثانيها) الكفر بيوم القيامة وهو المراد من قوله وكذبوا بلقاء الآخرة (وثالثها) الانغماس فى حب الدنيا وشهواتها وهو المراد من قوله وأترفناهم فى الحياة الدنيا أى نعمناهم فان قيل ذكر الله مقالة قوم هود فى جوابه فى سورة الاعراف وسورة هود بغير واو قال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنراك فى سفاهة قالوا ما نراك الا بشرا مثلنا وههنا مع الواو فأى فرق بينهما قلنا الذى بغير واو على تقدير سؤال سائل قال فما قال قومه فقيل له كيت وكيت وأما الذى مع الواو فعطف لما قالوه على ما قاله ومعناه انه اجتمع فى هذه الواقعة هذا الكلام الحق وهذا الكلام الباطل ﴿ وأما شبهات القوم فشيئان (أولهما) قولهم ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما يأكلون منه ويشرب مما تشربون وقد مر شرح هذه الشبهة فى القصة الاولى وقوله مما تشربون أى من مشروبكم أو له حذف منه لدلالة ما قبله عليه وهو قوله ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون فجعلوا اتباع الرسول له خسرانا ولم يجعلوا عبادة الاصنام خسرانا أى لئن كنتم أعطيتموه الطاعة من غير أن يكون لكم بازائها نفع

ديدنهم كتب كل قول وعمل مالا يتعلق به الجزاء ويثبت الباقى أو يمحو سيآت التائب ويثبت مكانها الحسنة أو يمحو قرنا ويثبت آخرين أو يمحو الفاسدات من العالم الجسمانى ويثبت الكائنات أو يمحو الرزق ويزيد فيه أو يمحو الاجل أو السعادة والشقاوة وبه قال ابن مسعود وابن عمر رضى الله عنهم والقائلون به يتضرعون الى الله تعالى ان يجعلهم سعداء وهذا رواه جابر عن النبى عليه الصلاة والسلام والانسب تعميم كل من المحو والاثبات ليشمل الكل ويدخل فى ذلك مواد الانكار دخولا أوليا وقرئ بالتشديد (وعنده أم الكتاب) أى أصله وهو اللوح المحفوظ اذ ما من شىء من الذاهب والثابت الا وهو مكتوب فيه كما هو (واما نرينك) أصله ان نرك وما مزيدة لتأكيد معنى الشرط ومن ثمة ألحقت النون بالفعل (بعض الذى نعدهم) أى وعدناهم من انزال العذاب عليهم والعدول الى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية أو نعدهم وعدا متجددا حسبما تقتضيه الحكمة من انذار غب انذار وفى ايراد البعض رمز الى اراءة بعض الموعود (أو نتوفينك) قبل ذلك (فانما عليك البلاغ) أى تبليغ أحكام الرسالة بتمامها لا تحقيق مضمون ما بلغته من الوعيد الذى هو من جملتها (وعلينا) لا عليك (الحساب) محاسبة أعمالهم السيئة والمؤاخذة بها أى كيفما دارت الحال أريناك بعض ما وعدناهم من العذاب الدنيوى أولم نرك فعلينا ذلك وما عليك الا تبليغ الرسالة فلا تهتم بما وراء ذلك فنحن نكفيكه ونتم ما وعدناك من الظفر ولا يضجرك تأخره فان ذلك لما نعلم من المصالح الخفية ثم طيب نفسه عليه الصلاة والسلام بطلوع تباشيره فقال (أولم يروا) استفهام انكارى والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أى أأنكروا نزول ما وعدناهم أو

منفعة فذلك هو الخسران (وثانيهما) انهم طعنوا في صحة الحشر والنشر ثم طعنوا في نبوته بسبب اتيانه بذلك أما الطعن في صحة الحشر فهو قولهم أيعدكم أنكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما انكم مخرجون معادون أحياء للمجازاة ثم لم يقتصروا على هذا القدر حتى قرنوا به الاستبعاد العظيم وهو قولهم هيهات هيهات لما توعدون ثم أكدوا الشبهة بقولهم ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ولم يريدوا بقولهم نموت ونحيا الشخص الواحد بل أرادوا ان البعض يموت والبعض يحيا وأنه لا اعادة ولا حشر فلذلك قالوا وما نحن بمبعوثين ولما فرغوا من الطعن في صحة الحشر بنوا عليه الطعن في نبوته فقالوا لما أتى بهذا الباطل فقد افترى على الله كذبا ثم لما قرروا الشبهة الطاعنة في نبوته قالوا وما نحن له بمؤمنين لان القوم كالتبع لهم واعلم أن الله تعالى ما أجاب عن هاتين الشبهتين لظهور فسادهما (أما الشبهة الاولى) فقد تقدم بيان ضعفها (وأما الثانية) فلانهم استبعدوا الحشر ولا استبعاد في الحشر لوجهين (الاول) انه سبحانه لما كان قادرا على كل الممكنات عالما بكل المعلومات وجب أن يكون قادرا على الحشر والنشر (والثاني) وهو انه لولا الاعادة لكان تسليط القوي على الضعيف في الدنيا ظلما وهو غير لائق بالحكيم على ما قرره سبحانه في قوله ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى وههنا مسائل (المسئلة الاولى) ثنى انكم للتوكيد وحسن ذلك الفصل ما بين الاول والثاني بالظرف ومخرجون خبر عن الاول وفي قراءة ابن مسعود وكنتم ترابا وعظاما مخرجون (المسئلة الثانية) قرئ هيهات بالفتح والكسر كلها بتنوين وبلا تنوين وبالسكون على لفظ الوقف (المسئلة الثالثة) هي في قوله ان هي الا حياتنا الدنيا ضمير لا يعلم ما يعني به الا بما يتلوه من بيانه وأصله ان الحياة الا حياتنا الدنيا ثم وضع هي موضع الحياة لان الخبر يدل عليه ومنه ❊ هي النفس ما حملتها تتحمل ❊ والمعنى لا حياة الا هذه الحياة ولان ان النافية دخلت على هي التي في معنى الحياة الدالة على الجنس فنفتها فوازنت لا التي نفت ما بعدها نفي الجنس واعلم أن ذلك الرسول لما يئس من قبول الاكابر والاصاغر فزع الى ربه وقال رب انصرني بما كذبون وقد تقدم تفسيره فأجابه الله تعالى فيما سأل وقال عما قليل ليصبحن نادمين والاقرب أن يكون المراد بأن يظهر لهم علامات الهلاك فعند ذلك يحصل منهم الحسرة والندامة على ترك القبول ويكون الوقت وقت اعيان البأس فلا ينتفعون بالندامة وبين تعالى الهلاك الذي أنزله عليهم بقوله فأخذتهم الصيحة بالحق وذكروا في الصيحة وجوها (أحدها) ان جبريل عليه السلام صاح بهم وكانت الصيحة عظيمة فماتوا عندها (وثانيها) الصيحة هي الرجفة عن ابن عباس رضي الله عنهما (وثالثها) الصيحة هي نفس العذاب والموت كما يقال فيمن يموت دعي فأجاب عن الحسن (ورابعها) انه العذاب المصطلم قال الشاعر

صاح الزمان بآل برمك صيحة ❊ خروا لشدتها على الاذقان

والاول أولى لانه هو الحقيقة وأما قوله بالحق فمعناه أنه دمرهم بالعدل من قولك فلان يقضي بالحق اذا كان عادلا في قضاياه وقال المفضل بالحق أي بما لا يدفع كقوله وجاءت سكرة الموت بالحق أما قوله فجعلناهم غثاء فالغثاء حميل السيل مما بلي واسود من الورق والعيدان ومنه قوله تعالى فجعله غثاء أحوى وأما قوله تعالى فبعدا للقوم الظالمين ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قوله بعدا وسحقا ودمرا ونحوها مصادر موضوعة مواضع أفعالها وهي من جملة المصادر التي قال سيبويه نصبت بأفعال لا يستعمل اظهارها ومعنى بعدا بعدوا أي هلكوا يقال بعد بعدا وبعدا نحو رشد رشدا ورشدا والله أعلم (المسئلة الثانية) قوله بعدا بمنزلة اللعن الذي هو التبعيد من الخير والله تعالى ذكر ذلك على وجه الاستخفاف والاهانة لهم وقد نزل

أو اشكوا أو ألم ينظروا في ذلك ولم يروا (أنا نأتي الارض) أي أرض الكفر (ننقصها من أطرافها) بأن نفتحها على المسلمين شيأ فشيأ ونلحقها بدار الاسلام ونذهب منها أهلها بالقتل والاسر والاجلاء أليس هذا من ذلك ومثله قوله عز سلطانه أفلا يرون أنا نأتي الارض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون وقوله ننقصها حال من فاعل نأتي أو من مفعوله وقرئ ننقصها بالتشديد وفي لفظ الاتيان المؤذن بالاستواء المحتوم والاستيلاء العظيم من الفخامة ما لا يخفى كما في قوله عز وجل وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا (والله يحكم) ما يشاء كما يشاء وقد حكم للاسلام بالعزة والاقبال وعلى الكفرة بالذلة والادبار حسبما يشاهد من المخايل والآثار وفي الالتفات من التكلم الى الغيبة وبناء الحكم على الاسم الجليل من الدلالة على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالاشارة الى العلة ما لا يخفى وهي جملة اعتراضية جيء بها لتأكيد فحوى ما تقدمها وقوله تعالى (لا معقب لحكمه) اعتراض في اعتراض لبيان علو شأن حكمه جل جلاله وقيل نصب على الحالية كأنه قيل والله يحكم نافذا حكمه كما تقول جاء زيد لا عمامة على رأسه أي حاسرا والمعقب من يكر على الشيء فيبطله وحقيقته من يعقبه ويقفيه بالرد والابطال ومنه قيل لصاحب الحق معقب لانه يقفي غريمه بالاقتضاء والطلب (وهو سريع الحساب) فعما قليل يحاسبهم ويجازيهم في الآخرة بأفانين العذاب غب ما عذبهم بالقتل والاسر والاجلاء حسبما يرى وقال ابن عباس رضي الله عنهما سريع الانتقام (وقد مكر) الكفار (الذين خلوا) (من قبلهم) من قبل كفار مكة بأنبيائهم والمؤمنين كما مكر هؤلاء وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه لا عبرة

بهم العذاب دالا بذلك على أن الذي ينزل بهم في الآخرة من البعد من النعيم والثواب أعظم مما حل بهم حالا ليكون ذلك عبرة لمن يجيء بعدهم ﴿القصة الثالثة﴾ قوله تعالى ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون﴾ اعلم أنه سبحانه يقص القصص في القرآن تارة على سبيل التفصيل كما تقدم وأخرى على سبيل الاجمال كههنا وقيل المراد قصة لوط وشعيب وأيوب ويوسف عليهم السلام فأما قوله ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين فالمعنى أنه ما أخلى الديار من مكلفين أنشأهم وبلغهم حد التكليف حتى قاموا مقام من كان قبلهم في عمارة الدنيا أما قوله ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون فيحتمل في هذا الاجل أن يكون المراد آجال حياتها وتكليفها ويحتمل آجال موتها وهلاكها وان كان الاظهر في الاجل اذا أطلق أن يراد به وقت الموت فبين أن كل أمة لها آجال مكتوبة في الحياة والموت لا يتقدم ولا يتأخر منها بذلك على أنه عالم بالاشياء قبل كونها فلا توجد الا على وفق العلم ونظيره قوله تعالى ان أجل الله اذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون وههنا مسئلتان (المسئلة الاولى) قال أصحابنا هذه الآية تدل على أن المقتول ميت بأجله اذ لو قتل قبل أجله لكان قد تقدم الاجل أو تأخر وذلك ينافيه هذا النص (المسئلة الثانية) قال الكعبي المراد من قوله ما تسبق من أمة أي لا يتقدمون الوقت المؤقت لعذابهم ان لم يؤمنوا ولا يتأخرون عنه ولا يستأصلهم الا اذا علم منهم أنهم لا يزدادون الا عنادا وأنهم لا يلدون مؤمنا وأنه لا نفع في بقائهم لغيرهم ولا ضرر على أحد في هلاكهم وهو كقول نوح عليه السلام انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا أما قوله تعالى ثم أرسلنا رسلنا تترى فالمعنى أنه كما أنشأنا بعضهم بعد بعض أرسل اليهم الرسل على هذا الحد قرأ ابن كثير تترى منونة والباقون بغير تنوين وهو اختيار أكثر أهل اللغة لانها فعلى من المواترة وهي المتابعة وفعلى لا تنون كالدعوى والتقوى والتاء بدل من الواو فانه مأخوذ من الوتر وهو الفرد قال الواحدي تترى على القراءتين مصدر أو اسم أقيم مقام الحال لان المعنى متواترة أما قوله تعالى كلما جاء أمة رسولها كذبوه يعني أنهم سلكوا في تكذيب أنبيائهم مسلك من تقدم ذكره ممن أهلكه الله بالغرق والصيحة فلذلك قال فأتبعنا بعضهم بعضا أي بالهلاك وجعلناهم أحاديث يمكن أن يكون المراد جمع الحديث ومنه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى أنه سبحانه بالغ في اهلاكهم مبلغا صاروا معه أحاديث فلا يرى منهم عين ولا أثر ولم يبق منهم الا الحديث الذي يذكر ويعتبر به ويمكن أيضا أن يكون جمع أحدوثة مثل الاضحوكة والاعجوبة وهي ما يتحدث به الناس تلهيا وتعجبا ثم قال فبعدا لقوم لا يؤمنون على وجه الدعاء والذم والتوبيخ ودل بذلك على أنهم كما أهلكوا عاجلا فهلاكهم بالتعذيب آجلا على التأبيد مترقب وذلك وعيد شديد (القصة الرابعة) قصة موسى عليه السلام ﴿قوله تعالى ﴿ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وملائه فاستكبروا وكانوا قوما عالين فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون فكذبوهما فكانوا من المهلكين ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون﴾ اختلفوا في الآيات فقال ابن عباس رضي الله عنهما هي الآيات التسع وهي العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وانفلاق البحر والسنون ونقص من الثمرات وقال الحسن قوله بآياتنا أي بديننا واحتج بأن المراد بالآيات لو كانت هي المعجزات والسلطان المبين أيضا هو المعجز فحينئذ يلزم عطف الشيء على نفسه والاقرب هو الاول لان لفظ الآيات اذا ذكر في الرسل فالمراد منها المعجزات وأما الذي احتجوا به فالجواب عنه من وجوه (أحدها) أن المراد بالسلطان المبين يجوز أن يكون أشرف معجزاته وهو العصا لانه قد تعلقت بها

بمكرهم ولا تأثير بل لا وجود له في الحقيقة ولم يصرح بذلك اكتفاء بدلالة القصر المستفاد من تعليله أعني قوله تعالى (فلله المكر) أي جنس المكر (جميعا) لا وجود لمكرهم أصلا اذ هو عبارة عن ايصال المكروه الى الغير من حيث لا يشعر به وحيث كان جميع ما يأتون وما يذرون بعلم الله تعالى وقدرته وانما لهم مجرد الكسب من غير فعل ولا تأثير حسبما يبينه قوله عز وجل (يعلم ما تكسب كل نفس) ومن قضيته عصمة أوليائه وعقاب الماكرين بهم توفية لكل نفس جزاء ما تكسبه ظهر أن ليس لمكرهم بالنسبة الى من مكروا بهم عين ولا أثر وأن المكر كله لله تعالى حيث يؤاخذهم بما كسبوا من فنون المعاصي التي من جملتها مكرهم من حيث لا يحتسبون أو لله المكر الذي باشروه جميعا لا لهم على معنى أن ذلك ليس مكرا منهم بالانبياء بل هو بعينه مكر من الله تعالى بهم وهم لا يشعرون حيث لا يحيق المكر السيء الا بأهله (وسيعلم الكفار) حين يقضي بمقتضى علمه فيوفى كل نفس جزاء ما تكسبه (لمن عقبى الدار) أي العاقبة الحميدة من الفريقين وان جهلوا ذلك يومئذ وقيل السين لتأكيد وقوع ذلك وعلمهم به حينئذ وقرئ سيعلم الكافر على ارادة الجنس والكافرون والكفر أي أهله والذين كفروا وسيعلم على صيغة المجهول من الاعلام أي سيخبر (ويقول الذين كفروا لست مرسلا) قيل قاله رؤساء اليهود وصيغة الاستقبال لاستحضار صورة كلمتهم الشنعاء تهجينا لهم أو للدلالة على تجدد ذلك واستمراره منهم (قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم) فانه قد أظهر على رسالتي من الحجج القاطعة والبينات الساطعة ما فيه مندوحة عن شهادة شاهد آخر (ومن عنده علم الكتاب) أي علم القرآن وما عليه من النظم المعجز أو من هو من علماء

معجزات

معجزات شتى من انقلابها حية وتلقفها ما أفكته السحرة وانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربهما بها وكونها حارسا وشمعة وشجرة مثمرة ودلوا ورشاء فلاجل انفراد العصا بهذه الفضائل أفردت بالذكر كقوله جبريل وميكائيل (وثانيها) يجوز أن يكون المراد بالآيات نفس تلك المعجزات وبالسلطان المبين كيفية دلالتها على الصدق وذلك لانها وان شاركت سائر آيات الانبياء في كونها آيات فقد فارقتها في قوة دلالتها على قول موسى عليه السلام (وثالثها) أن يكون المراد بالسلطان المبين استيلاء موسى عليه السلام عليهم في الاستدلال على وجود الصانع واثبات النبوة وانه ما كان يقيم لهم قدرا ولا وزنا واعلم أن الآية تدل على أن معجزات موسى عليه السلام كانت معجزات هرون عليه السلام أيضا وان النبوة كما أنها كانت مشتركة بينهما فكذلك المعجزات ثم انه سبحانه حكى عن فرعون وقومه صفتهم ثم ذكر شبهتهم أما صفتهم فأمران (أحدهما) الاستكبار والانفة (والثاني) أنهم كانوا قوما عالين أي رفيعي الحال في أمور الدنيا ويحتمل الاقتدار بالكثرة والقوة وأما شبهتهم فهي قوله أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون قال صاحب الكشاف لم يقل مثلينا كما قال انكم اذا مثلهم ولم يقل أمثالهم وقال كنتم خير أمة ولم يقل أخيار أمة كل ذلك لان الايجاز أحب الى العرب من الاكثار والشبهة مبنية على أمرين (أحدهما) كونهما من البشر وقد تقدم الجواب عنه (والثاني) أن قوم موسى وهرون كانوا كالخدم والعبيد لهم قال أبو عبيدة العرب تسمي كل من دان الملك عابدا له ويحتمل أن يقال انه كان يدعي الالهية فادعى أن الناس عباده وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة ثم بين سبحانه انه لما خطرت هذه الشبهة بالهم صرحوا بالتكذيب وهو المراد من قوله فكذبوهما ولما كان ذلك التكذيب كالعلة لكونهم من المهلكين لا جرم رتبه عليه بفاء التعقيب فقال وكانوا من حكم الله عليهم بالغرق فان حصول الغرق لم يكن حاصلا عقيب التكذيب انما الحاصل عقيب التكذيب حكم الله تعالى بكونهم كذلك في الوقت اللائق به أما قوله ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون فقال القاضي معناه انه سبحانه خص موسى عليه السلام بالكتاب الذي هو التوراة لا لذلك التكذيب لكن لكي يهتدوا به فلما أصروا على الكفر مع البيان العظيم استحقوا أن يهلكوا واعترض صاحب الكشاف عليه فقال لا يجوز أن يرجع الضمير في لعلهم الى فرعون وملائه لان التوراة انما أوتيها بنو اسرائيل بعد اغراق فرعون وملائه بدليل قوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى بل المعنى الصحيح ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يعملون بشرائعها ومواعظها فذكر موسى والمراد آل موسى كما يقال هاشم وثقيف والمراد قومهما ﴿القصة الخامسة﴾ قصة عيسى وقصة مريم عليهما السلام ﴿قوله تعالى ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين﴾ اعلم أن ابن مريم هو عيسى عليه السلام جعله الله تعالى آية بان خلقه من غير ذكر وأنطقه في المهد في الصغر وأجرى على يديه ابراء الاكمه والابرص واحياء الموتى وأما مريم فقد جعلها الله تعالى آية لانها حملته من غير ذكر وقال الحسن تكلمت مريم في صغرها كما تكلم عيسى عليه السلام وهو قولها هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب ولم تلقم ثديا قط قال القاضي ان ثبت ذلك فهو معجزة لزكريا عليه السلام لانها لم تكن نبية قلنا القاضي انما قال ذلك لان عنده الارهاص غير جائز وكرامات الاولياء غير جائزة وعندنا هما جائزان فلا حاجة الى ما قال والاقرب انه جعلهما آية بنفس الولادة لانه ولد من غير ذكر وولدته من دون ذكر فاشتركا جميعا في هذا الامر العجيب الخارق للعادة والذي يدل على ان هذا التفسير أولى وجهان (أحدهما) انه تعالى قال وجعلنا ابن مريم وأمه آية لان نفس الاعجاز

أهل الكتاب الذين أسلموا لانهم يشهدون بنعته عليه الصلاة والسلام في كتبهم والاية مدنية بالاتفاق أو من عنده علم اللوح المحفوظ وهو الله سبحانه أي كفى به شاهدا بيننا بالذي يستحق العبادة فانه قد شحن كتابه بالدعوة الى عبادته وأيدني بانواع التأييد وبالذي يختص بعلم ما في اللوح من الاشياء الكائنة الثابتة التي من جملتها رسالتي وقرئ من عنده بالكسر وعلم الكتاب على الاول مرتفع بالظرف المعتمد على الموصول أو مبتدأ خبره الظرف وهو متعين على الثاني ومن عنده علم الكتاب بالكسر وبناء المفعول ورفع الكتاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الرعد أعطي من الاجر عشر حسنات بوزن كل سحاب مضى وكل سحاب يكون الى يوم القيامة وبعث يوم القيامة من الموفين بعهد الله عز وجل والله أعلم بالصواب

﴿سورة ابراهيم عليه السلام مكية وهي احدى وخمسون آية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

(الر) مر الكلام فيه وفي محله غير مرة وقوله تعالى (كتاب) خبر له على تقدير كونه مبتدأ أو لمبتدأ مضمر على تقدير كونه خبرا لمبتدأ محذوف أو مسرودا على نمط التعديد ويجوز أن يكون خبرا ثانيا لهذا المبتدأ المحذوف وقوله تعالى (أنزلناه اليك) صفة له وقوله تعالى (لتخرج الناس) متعلق بأنزلناه أي لتخرجهم كافة بما في تضاعيفه من البينات الواضحة المفصحة عن كونه من عند الله عز وجل الكاشفة عن العقائد الحقة وقرئ ليخرج الناس (من الظلمات) أي ليخرج به الناس من عقائد الكفر والضلال التي كلها ظلمات محضة وجهالات صرفة (الى النور) الى الحق الذي هو نور بحت لكن لا كيفما كان فانك لا تهدي من أحببت بل (باذن ربهم) أي بتيسيره وتوفيقه وللانباء عن كون ذلك منوطا باقبالهم الى

الحق كما يفصح عنه قوله تعالى ويهدى اليه من أناب استعير له الاذن الذى هو عبارة عن تسهيل الحجاب لمن يقصد الورود وأضيف الى ضميرهم اسم الرب المفصح عن التربية التى هى عبارة عن تبليغ الشئ الى كماله المتوجه اليه وشمول الاذن بهذا المعنى للكل واضح وعليه يدور كون الانزال لاخراجهم جميعا وعدم تحقق الاذن بالفعل فى بعضهم لعدم تحقق شرطه المستند الى سوء اختيارهم غير مخل بذلك والباء متعلقة بتخرج أو بمضمر وقع حالا من مفعوله أى ملتبسين باذن ربهم وجعله حالا من فاعله يأباه اضافة الرب اليهم لا اليه وحيث كان الحق مع وضوحه فى نفسه وايضاحه لغيره موصلا الى الله عز وجل استعير له النور تارة والصراط أخرى فقيل (الى صراط العزيز الحميد) على وجه الابدال بتكرير العامل كما فى قوله تعالى للذين استضعفوا لمن آمن منهم وانما لا البدل والبيان بالاستعارة انما هو فى الحقيقة لا فى المجاز كما فى قوله سبحانه حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر وقيل هو استئناف مبنى على سؤال كأنه قيل الى أى نور فقيل الى صراط العزيز الحميد واضافة الصراط اليه تعالى لانه مقصده أو المبين له وتخصيص الوصفين بالذكر للترغيب فى سلوكه ببيان ما فيه من الامن والعاقبة الحميدة (الله) بالجر عطف بيان للعزيز الحميد لجريانه مجرى الاعلام الغالبة بالاختصاص بالمعبود بالحق كالنجم فى الثريا وقرئ بالرفع على هو الله أى العزيز الحميد الذى أضيف اليه الصراط الله كما (الذى له) ملكا وملكا (ما فى السموات وما فى الارض) أى ما وجد فيهما داخلا فيهما أو خارجا عنهما متمكنا فيهما كما مر فى آية الكرسى ففيه على القراءتين بيان لكمال فخامة شأن الصراط واظهار لتحتم سلوكه على الناس قاطبة وتجويز الماء

ظهر فيهما الا انه ظهر على يدهما وهذا أولى من أن يحمل على الآيات التى ظهرت على يده نحو احياء الموتى وذلك لان الولادة فيه وفيها آية فيهما وكذلك ان نطقا فى المهد وما عدا ذلك من الآيات ظهر على يده لانه آية فيه (الثانى) انه تعالى قال آية ولم يقل آيتين وحمل هذا اللفظ على الامر الذى لا يتم الا بهما وعهما أولى وذلك هو أمر الولادة لا المعجزات التى كان عيسى عليه السلام مستقلا بها أما قوله تعالى وآويناهما الى ربوة ذات قرار أى جعلنا مأواهما الربوة والربوة والرباوة فى رائها الحركات الثلاث وهى الارض المرتفعة ثم قال قتادة وأبو العالية هى ايلياء أرض بيت المقدس وقال أبو هريرة رضى الله عنه انها الرملة وقال الكلبى وابن زيد هى مصر وقال الاكثرون انها دمشق وقال مقاتل والضحاك هى غوطة دمشق والقرار المستقر من أرض مستوية مبسوطة وعن قتادة ذات ثمار وماء يعنى انه لاجل الثمار يستقر فيها ساكنوها والمعين الماء الظاهر الجارى على وجه الارض فنبه سبحانه على كمال نعمه عليهما بهذا اللفظ على اختصاره ثم فى المعين قولان (أحدهما) انه مفعول لانه لظهوره يدرك بالعين من عانه اذا أدركه بعينه وقال الفراء والزجاج ان شئت جعلته فعيلا من الماعون ويكون أصله من المعن والماعون فاعول منه قال أبو على والمعين السهل الذى ينقاد ولا يتعاصى والماعون ما سهل على معطيه ثم قالوا وسبب الايواء انها فرت بابنها عيسى الى الربوة وبقيت بها اثنتى عشرة سنة وانما ذهب بهما ابن عمها يوسف ثم رجعت الى أهلها بعد أن مات ملكهم وههنا آخر القصص والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون فذرهم فى غمرتهم حتى حين أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾ اعلم ان ظاهر قوله يا أيها الرسل خطاب مع كل الرسل وذلك غير ممكن لان الرسل انما أرسلوا متفرقين فى أزمنة متفرقة مختلفة فكيف يمكن توجيه هذا الخطاب اليهم فلهذا الاشكال اختلفوا فى تأويله على وجوه (أحدها) ان المعنى الاعلام بأن كل رسول فهو فى زمانه نودى بهذا المعنى ووصى به ليعتقد السامع ان أمرا نودى له جميع الرسل ووصوا به حقيق بأن يؤخذ به ويعمل عليه (وثانيها) ان المراد نبينا عليه الصلاة والسلام لانه ذكر ذلك بعد انقضاء أخبار الرسل وانما ذكر على صيغة الجمع كما يقال للواحد أيها القوم كفوا عنى أذاكم ومثله الذين قال لهم الناس وهو نعيم بن مسعود كأنه سبحانه لما خاطب محمدا صلى الله عليه وسلم بذلك بين أن الرسل بأسرهم لو كانوا حاضرين مجتمعين لما خوطبوا الا بذلك ليعلم رسولنا ان هذا التثقيل ليس عليه فقط بل هو لازم على جميع الانبياء عليهم السلام (وثالثها) وهو قول محمد بن جرير ان المراد به عيسى عليه السلام لانه انما ذكر ذلك بعد ما ذكر مكانه الجامع للطعام والشراب ولانه روى ان عيسى عليه السلام كان يأكل من غزل أمه والقول الاول أقرب لانه أوفق للفظ الآية ولانه روى عن أم عبد الله اخت شداد بن أوس انها بعثت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح من لبن فى شدة الحر عند فطره وهو صائم فرده الرسول اليها وقال من أين لك هذا فقالت من شاة لى ثم رده وقال من أين هذه الشاة فقالت اشتريتها بمالى فأخذه ثم انها جاءته وقالت يا رسول الله لم رددته فقال عليه السلام بذلك أمرت الرسل أن لا يأكلوا الا طيبا ولا يعملوا الا صالحا أما قوله تعالى من الطيبات ففيه وجهان (الاول) انه الحلال وقيل طيبات الرزق حلال وصاف وقوام فالحلال الذى لا يعصى الله فيه والصافى الذى لا ينسى الله فيه والقوام ما يمسك النفس ويحفظ العقل (والثانى) انه المستطاب المستلذ من المأكل والفواكه فبين تعالى انه وان ثقل عليهم بالنبوة وبما ألزمهم القيام بحقها فقد أباح لهم أكل الطيبات كما أباح لغيرهم واعلم انه سبحانه

الرفع على الابتداء بجعل الموصول خبرا مبنيا لما نقول عن هذه النكتة وقوله عز وجل (وويل للكافرين) وعيد لمن كفر بالكتاب ولم يخرج به من الظلمات الى النور بالويل وهو نقيض الوال وهو النجاة وأصله النصب كسائر المصادر ثم رفع رفعها للدلالة على الثبات كسلام عليك (من عذاب شديد) متعلق بويل على معنى يولولون ويضجون منه قائلين يا ويلاه كقوله تعالى دعوا هنالك ثبورا (الذين يستحبون الحيوة الدنيا) أي يؤثرونها استفعال من المحبة فان المؤثر للشئ على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحب اليها وأفضل عندها من غيره (على الآخرة) أي الحياة الآخرة الأبدية (ويصدون) الناس (عن سبيل الله) التي بين شأنها والاقتصار على الاضافة الى الاسم الجليل المنطوي على كل وصف جميل لزوم الاختصار وهو من صد صدا وقرئ يصدون من أصد المنقول من صد صدودا اذا نكب وهو غير فصيح كاوقف فان في صده ووقفه لمندوحة عن تكلف النقل (ويبغونها) أي يبغون لها فحذف الجار وأوصل الفعل الى الضمير أي يطلبون لها (عوجا) أي زيغا واعوجاجا وهي أبعد شئ من ذلك أي يقولون لمن يريدون صده واضلاله انها سبيل ناكبة وزائغة غير مستقيمة وتحل موصول هذه الصلات الجر على أنه بدل من الكافرين أو صفة له فيعتبر كل وصف من أوصافهم بازاء ما يناسبه من المعتبر في الصراط فالكفر المنبئ عن الستر بازاء كونه نورا واستحباب الحياة الدنيا الفانية المفصحة عن وخامة العاقبة بمقابلة كونه محمود العاقبة والصد عنه بازاء كونه مأمونا وفيه من الدلالة على تماديهم في الغي ما لا يخفى أو النصب على الذم أو الرفع على خبرقوله تعالى (أولئك في ضلال بعيد) وعلى الاول جملة مستأنفة وقعت معللة لما سبق من لحوق الويل بهم ثانيا كما أشير به

كما قال للرسلين يا أيها الرسل كلوا من الطيبات فقال للمؤمنين يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واعلم أن تقديم قوله كلوا من الطيبات على قوله واعملوا صالحا كالدلالة على ان العمل الصالح لابد وان يكون مسبوقا بأكل الحلال فاما قوله اني بما تعملون عليم فهو تحذير من مخالفة ما أمرهم به واذا كان ذلك تحذيرا للرسل مع علو شأنهم فبان يكون تحذيرا لغيرهم أولى أما قوله وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون فقد فسرناه في سورة الانبياء وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) المعنى انه كما يجب اتفاقهم على أكل الحلال والاعمال الصالحات فكذلك هم متفقون على التوحيد وعلى الاتقاء من معصية الله تعالى فان قيل لما كانت شرائعهم مختلفة فكيف يكون دينهم واحدا قلنا المراد من الدين ما لا يختلفون فيه من معرفة ذات الله تعالى وصفاته وأما الشرائع فان الاختلاف فيها لا يسمى اختلافا في الدين فكما يقال في الحائض والطاهر من نساء ان دينهن واحد وان افترق تكليفهما فكذا ههنا ويدل على ذلك قوله وأنا ربكم فاتقون فكأنه نبه بذلك على ان دين الجميع واحد فيما يتصل بمعرفة الله تعالى واتقاء معاصيه فلا مدخل للشرائع وان اختلفت في ذلك (المسئلة الثانية) قرئ وان بالكسر على الاستئناف وان بمعنى ولان وان مخففة من الثقيلة وأمتكم مرفوعة معها أما قوله تعالى فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا فالمعنى فان أمم الانبياء عليهم السلام تقطعوا أمرهم بينهم وفي قوله تعالى فتقطعوا معنى المبالغة في شدة اختلافهم والمراد بامرهم ما يتصل بالدين أما قوله زبرا فقرئ زبرا جمع زبور أي كتبا مختلفة يعني جعلوا دينهم أديانا وزبرا قطعا استعيرت من زبر الفضة والحديد وزبرا مخففة الباء كرسل في رسل قال الكلبي ومقاتل والضحاك يعني مشركي مكة والمجوس واليهود والنصارى أما قوله تعالى كل حزب بما لديهم فرحون فمعناه ان كل فريق منهم مغتبط بما اتخذه دينا لنفسه معجب به يرى أنه المحق الرابح وان غيره المبطل الخاسر ولما ذكر الله تعالى تفرق هؤلاء في دينهم أتبعه بالوعيد وقال فذرهم في غمرتهم حتى حين الخطاب لنبينا صلى الله عليه وسلم يقول فدع هؤلاء الكفار في جهلهم والغمرة الماء الذي يغمر القامة فكان ما هم فيه من الجهل والحيرة صار غامرا ساترا لعقولهم وعن علي عليه السلام في غمراتهم حتى حين وذكروا في الحين وجوها (أحدها) الى حين الموت (وثانيها) الى حين المعاينة (وثالثها) الى حين العذاب والفائدة في ذلك أن يذكر في الكلام والمراد به الحالة التي تقترن بها الحسرة والندامة وذلك يحصل اذا عرفهم الله بطلان ما كانوا عليه وعرفهم سوء منقلبهم ويحصل أيضا عند المحاسبة في الآخرة ويحصل عند عذاب القبر والمساءلة فيجب أن يحمل على كل ذلك ولما كان القوم في نعم عظيمة في الدنيا جاز أن يظنوا أن تلك النعم كالثواب المعجل لهم على أديانهم فبين سبحانه ان الامر بخلاف ذلك فقال أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات قرئ يمدهم ويسارع بالياء والفاعل هو الله سبحانه وفي المعنى وجهان (أحدهما) ان هذا الامداد ليس الا استدراجا لهم في المعاصي واستجرارا لهم في زيادة الاثم وهم يحسبونه مسارعة في الخيرات وبل للاستدراك لقوله أيحسبون يعني بل هم أشباه البهائم لا فطنة لهم ولا شعور حتى يتفكروا في ذلك أهو استدراج أم مسارعة في الخير وهذه الآية كقوله ولا تعجبك أموالهم وأولادهم روى عن يزيد بن ميسرة وحي الله تعالى الى نبي من الانبياء أيفرح عبدي أن أبسط له الدنيا وهو أبعد له مني ويجزع ان أقبض منه الدنيا وهو أقرب له مني ثم تلا أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين وعن الحسن لما أتي عمر بسوار كسرى فأخذه ووضعه في يد سراقة فبلغ منكبه فقال عمر اللهم اني قد علمت ان نبيك عليه الصلاة والسلام كان يحب أن يصيب مالا لينفقه في سبيلك فزويت ذلك عنه نظرا ثم ان أبا بكر كان يحب ذلك اللهم لا يكن

بناء الحكم على الموصول أى أولئك الموصوفون بالقبائح المذكورة من استحباب الحياة الدنيا على الآخرة وصد الناس عن سبيل الله المستقيمة ووصفها بالاعوجاج وهى منه بمنزه فى ضلال عن طريق الحق بعيد بالغ فى ذلك غاية الغايات القاصية والبعد وان كان من احوال الضال الا أنه قد وصف به وصفه مجازا للمبالغة كجد جده وداهية دهياء ويجوز أن يكون المعنى فى ضلال ذى بعد أو فيه بعد فان الضال قد يضل عن الطريق مكانا قريبا وقد يضل بعيدا وفى جعل الضلال محيطا بهم احاطة الظرف بما فيه ما لا يخفى من المبالغة (وما أرسلنا) أى فى الامم الخالية من قبلك كما سيذكر اجمالا (من رسول الا) ملتبسا (بلسان قومه) متكلما بلغة من أرسل اليهم من الامم المتفقة على لغة سواء بعث فيهم أولا وقرئ بلسن وهو لغة فيه كريش ورياش وبلسن بضمتين وضمة وسكون كعمد وعمد (ليبين لهم) ما أمروا به فيتلقوه منه بيسر وسرعة ويعملوا بموجبه من غير حاجة الى الترجمة ممن لم يؤمر به وحيث لم يمكن مراعاة هذه القاعدة فى شأن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين لعموم بعثته الثقلين كافة على اختلاف لغاتهم وكان تعدد نظم الكتاب المنزل اليه حسب تعدد ألسنة الامم أدعى الى التنازع واختلاف الكلمة وتطرق أيدى التحريف مع ان استقلال بعض من ذلك بالاعجاز دون غيره مئنة لقادح القادحين واتفاق الجميع فيه أمر قريب من الالجاء وحصر البيان بالترجمة والتفسير اقتضت الحكمة اتحاد النظم المنبئ عن العزة وجلالة الشأن المستتبع لفوائد غنية عن البيان على أن الحاجة الى الترجمة تتضاعف عند التعدد اذ لا بد لكل أمة من معرفة توافق الكل وتحاذيه بحذو القذة بالقذة من غير مخالفة ولو فى خصلة فذة وانما يتم ذلك بمن يترجم عن الكل واحدا أو متعددا وفيه من التعذر
عليه

ذلك مكرا منك بهم ثم قال أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين (الوجه الثانى) وهو أنه سبحانه انما أعطاهم هذه النعم ليكونوا فارغى البال متمكنين من الاشتغال بطلب الحق فاذا أعرضوا عن الحق والحالة هذه كان لزوم الحجة عليهم أقوى فلذلك قال بل لا يشعرون ﴿قوله تعالى ﴿ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون﴾ اعلم انه تعالى لما ذم من تقدم ذكره بقوله أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات ثم قال بل لا يشعرون بين بعده صفات من يسارع فى الخيرات ويشعر بذلك وهى أربعة (الصفة الاولى) قوله ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون والاشفاق يتضمن الخشية مع زيادة رقة وضعف فمنهم من قال جمع بينهما للتأكيد ومنهم من حمل الخشية على العذاب والمعنى الذين هم من عذاب ربهم مشفقون وهو قول الكلبى ومقاتل ومنهم من حمل الاشفاق على أثره وهو الدوام فى الطاعة والمعنى الذين هم من خشية ربهم دائمون فى طاعته جادون فى طلب مرضاته والتحقيق أن من بلغ فى الخشية الى حد الاشفاق وهو كمال الخشية كان فى نهاية الخوف من سخط الله عاجلا ومن عقابه آجلا فكان فى نهاية الاحتراز عن المعاصى (الصفة الثانية) قوله والذين هم بآيات ربهم يؤمنون واعلم أن آيات الله تعالى هى المخلوقات الدالة على وجوده والايمان بها هو التصديق بها والتصديق بها ان كان بوجودها فذلك معلوم بالضرورة وصاحب هذا التصديق لا يستحق المدح وان كان بكونها آيات ودلائل على وجود الصانع فذلك مما لا يتوصل اليه الا بالنظر والفكر وصاحبه لا بد وأن يصير عارفا بوجود الصانع وصفاته واذا حصلت المعرفة بالقلب حصل الاقرار باللسان ظاهرا وذلك هو الايمان (الصفة الثالثة) قوله والذين هم بربهم لا يشركون وليس المراد منه الايمان بالتوحيد ونفى الشريك لله تعالى لان ذلك داخل فى قوله والذين هم بآيات ربهم يؤمنون بل المراد منه نفى الشرك الخفى وهو أن يكون مخلصا فى العبادة لا يقدم عليها الا لوجه الله تعالى وطلب رضوانه والله أعلم (الصفة الرابعة) قوله والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة معناه يعطون ما أعطوا فدخل فيه كل حق يلزم ايتاؤه سواء كان ذلك من حق الله تعالى كالزكاة والكفارة وغيرهما أو من حقوق الآدميين كالودائع والديون وأصناف الانصاف والعدل وبين أن ذلك انما ينفع اذا فعلوه وقلوبهم وجلة لان من يقدم على العبادة وهو وجل من تقصيره واخلاله بنقصان أو غيره فانه يكون لاجل ذلك الوجل مجتهدا فى أن يوفيها حقها فى الاداء وسألت عائشة رضى الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أهو الذى يزنى ويشرب الخمر ويسرق وهو على ذلك يخاف الله تعالى فقال عليه الصلاة والسلام لا يا ابنة الصديق ولكن هو الرجل يصلى ويصوم ويتصدق وهو على ذلك يخاف الله تعالى واعلم أن ترتيب هذه الصفات فى نهاية الحسن لان الصفة الاولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز عما لا ينبغى (والصفة الثانية) دلت على ترك الرياء فى الطاعات (والصفة الثالثة) دلت على ان المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتى بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير وذلك هو نهاية مقامات الصديقين رزقنا الله سبحانه الوصول اليها فان قيل أفتقولون ان قوله وقلوبهم وجلة يرجع الى يؤتون أو يرجع الى كل ما تقدم من الخصال قلنا بل الاولى أن يرجع الى الكل لان العطية ليست بذلك أولى من سائر الاعمال اذ المراد أن يؤدى ذلك على وجل من تقصيره فيكون مبالغا فى توفيته حقه فاما اذا قرئ والذين يأتون ما أتوا فالقول فيه أظهر اذ المراد بذلك أى شئ أتوه وفعلوه من تحرز عن معصية واقدام على ايمان وعمل فانهم يقدمون

عليهم مع الوجل ثم انه سبحانه بين علة ذلك الوجل وهي علمهم بانهم الى ربهم راجعون أي للمجازاة والمساءلة ونشر الصحف وتتبع الاعمال وان هناك لا تنفع الندامة فليس الا الحكم القاطع من جهة مالك الملك ثم انه سبحانه لما ذكر هذه الصفات للمؤمنين المخلصين قال بعده أولئك يسارعون في الخيرات وفيه وجهان (أحدهما) أن المراد يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها لئلا تفوت عن وقتها ولكيلا تفوتهم دون الاخترام (والثاني) انهم يتعجلون في الدنيا أنواع النفع ووجوه الاكرام كما قال فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة وآتيناه أجره في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين لانهم اذا سورع لهم بها فقد سارعوا في نيلها وتعجلوها وهذا الوجه أحسن طباقا للآية المتقدمة لان فيه اثبات ما نفي عن الكفار للمؤمنين وقرئ يسرعون في الخيرات أما قوله وهم لها سابقون فالمعنى فاعلون السبق لاجلها أو سابقون الناس لاجلها أو وهم لها سابقون أي ينالونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم في الدنيا ويجوز أن يكون خبرا بعد خبر والمعنى وهم لها كما يقال أنت لها وهي لك ثم قال سابقون أي وهم سابقون ﴿قوله تعالى ولا نكلف نفسا الا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون لا تجأروا اليوم انكم منا لا تنصرون﴾ اعلم أنه سبحانه لما ذكر كيفية أعمال المؤمنين المخلصين ذكر حكمين من أحكام أعمال العباد (فالاول) قوله ولا نكلف نفسا الا وسعها وفي الوسع قولان (أحدهما) انه الطاقة عن المفضل (والثاني) انه دون الطاقة وهو قول المعتزلة ومقاتل والضحاك والكلبي واحتجوا عليه بأن الوسع انما سمي وسعا لانه يتسع عليه فعله ولا يصعب ولا يضيق فبين ان أولئك المخلصين لم يكلفوا أكثر مما عملوا قال مقاتل من لم يستطع أن يصلي قائما فليصل جالسا ومن لم يستطع جالسا فليوم ايماء لانا لا نكلف نفسا الا وسعها واستدلت المعتزلة به في نفي تكليف ما لا يطاق وقد تقدم القول فيه (الثاني) قوله ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون ونظيره قوله هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق وقوله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها واعلم انه تعالى شبه الكتاب بمن يصدر عنه البيان فان الكتاب لا ينطق لكنه يعرب بما فيه كما يعرب وينطق الناطق اذا كان محقا فان قيل هؤلاء الذين يعرض عليهم ذلك الكتاب اما أن يكونوا محيلين الكذب على الله تعالى أو يجوزون ذلك عليه فان أحالوه عليه فانهم يصدقونه في كل ما يقول سواء وجد الكتاب أو لم يوجد وان جوزوه عليه لم يثقوا بذلك الكتاب لتجويزهم انه سبحانه كتب فيه خلاف ما حصل فعلى التقديرين لا فائدة في ذلك الكتاب قلنا يفعل الله ما يشاء وعلى انه لا يبعد أن يكون ذلك مصلحة للمكلفين من الملائكة وأما قوله وهم لا يظلمون فنظيره قوله ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا فقالت المعتزلة الظلم اما أن يكون بالزيادة في العقاب أو بالنقصان من الثواب أو بأن يعذب على ما لم يعلم أو بأن يكلفهم ما لا يطيقون فتكون الآية دالة على كون العبد موجدا لفعله والا لكان تعذيبه عليه ظلما ودالة على أنه سبحانه لا يكلف ما لا يطاق (والجواب) انه لما كلف أبا لهب أن يؤمن والايمان يقتضي تصديق الله تعالى في كل ما أخبر عنه ومما أخبر عنه ان أبا لهب لا يؤمن فقد كلفه بأن يؤمن بانه لا يؤمن فيلزمكم كل ما ذكرتموه وأما قوله تعالى بل قلوبهم في غمرة من هذا ففيه قولان (أحدهما) انه راجع الى الكفار وهم الذين يليق بهم قوله بل قلوبهم في غمرة من هذا ولا يليق ذلك بالمؤمنين اذا المراد في غمرة من هذا الذي بيناه في القرآن أو من هذا الكتاب الذي ينطق بالحق أو من هذا الذي هو وصف المشفقين ولهم أي لهؤلاء الكفار أعمال من دون ذلك أي أعمال سوى ذلك أي سوى جهلهم وكفرهم ثم

مما يتلقاهم الامتناع ثم لما كان أشرف الاقوام وأولاهم بدعوته عليه الصلاة والسلام قومه الذين بعث فيهم ولغتهم أفضل اللغات نزل الكتاب المتين بلسان عربي مبين وانتشرت أحكامه فيما بين الامم أجمعين وقيل الضمير في قومه لمحمد صلى الله عليه وسلم فانه تعالى أنزل الكتب كلها عربية ثم ترجمها جبريل عليه الصلاة والسلام أو كل من نزل عليه من الانبياء عليهم السلام بلغة من نزل عليهم ويرده قوله تعالى ليبين لهم فانه ضمير القوم وظاهر أن جميع الكتب لم ينزل لتبيين العرب وفي رجعه الى قوم كل نبي كانه قيل وما أرسلنا من رسول الا بلسان قوم محمد عليه الصلاة والسلام ليبين الرسول لقومه الذين ارسل اليهم ما لا يخفى من التكلف (فيضل الله من يشاء) اضلاله أي يخلق فيه الضلال لمباشرة أسبابه المؤدية اليه أو يخذله ولا يلطف به لما يعلم انه لا ينجع فيه الالطاف (ويهدي) بالتوفيق ومنح الالطاف (من يشاء) هدايته لما فيه من الانابة والاقبال الى الحق والالتفات باسناد الفعلين الى الاسم الجليل المنطوي على الصفات لتفخيم شأنهما وترشيح مناط كل منهما والفاء فصيحة مثلها في قوله تعالى فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفلق كانه قيل فبينوه لهم فاضل الله منهم من شاء اضلاله لما لا يليق الا به وهدى من شاء هدايته لاستحقاقه لها والحذف للايذان بأن مسارعة كل رسول الى ما أمر به وجريان كل من أهل الخذلان والهداية على سننه أمر محقق غني عن الذكر والبيان والعدول الى صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة أو للدلالة على التجدد والاستمرار حسب تجدد البيان من الرسل المتعاقبة عليهم السلام وتقديم الاضلال على الهداية اما لانه ابقاء ما كان على ما كان والهداية انشاء ما لم يكن أو للمبالغة في بيان أن لا تأثير للتبيين والتذكير من قبل الرسل وأن مدار الامر انما هو

مشيئته تعالى بإيهام أن ترتب الضلال له على ذلك أسرع من ترتب الاهتداء وهذا محقق لما سلف من تقييد الاخراج من الظلمات الى
النور باذن الله تعالى (وهو العزيز) فلا يغالب في مشيئته (الحكيم) الذي لا يفعل شيأ من الاضلال والهداية الا لحكمة بالغة وفيه أن
ما فوض الى الرسل انما هو تبليغ الرسالة وتبيين طريق الحق وأما الهداية والارشاد اليه فذلك بيد الله سبحانه
يفعل ما يشاء ويحكم
ما يريد (ولقد أرسلنا
موسى) شروع في تفصيل
ما أجمل في قوله عز وجل
وما أرسلنا من رسول
الا بلسان قومه ليبين لهم
الآية (بآياتنا) أي
ملتبسا بها وهي معجزاته
التي أظهرها لبني
اسرائيل (أن أخرج
قومك) بمعنى أي
أخرج لان الارسال فيه
معنى القول أو بأن
أخرج كما في قوله تعالى
وأن أقم وجهك فان
صيغ الافعال في الدلالة
على المصدر سواء وهو
المدار في صحة الوصل
والمراد بذلك اخراج بني
اسرائيل بعد هلاك
فرعون (من الظلمات)
من الكفر والجهالات
التي ادتهم الى أن يقولوا
يا موسى اجعل لنا الها
كما لهم آلهة (الى النور)
الى الايمان بالله وتوحيده
وسائر ما أمروا به (وذكرهم
بأيام الله) أي بنعمائه
وبلائه كما ينبئ عنه قوله
اذكروا نعمة الله عليكم
لكن لا بما جرى عليهم
فقط بل عليهم وعلى من
قبلهم من الامم في الايام
الخالية حسبما ينبئ عنه
قوله تعالى ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم الآيات أو بأيامه المنطوية على ذلك كما يلوح الله
به قوله تعالى اذ أنجاكم والالتفات من التكلم الى الغيبة باضافة الايام الى الاسم الجليل للايذان بفخامة شأنها والاشعار بعدم اختصاص
ما فيها من المعاملة بالمخاطب وقومه كما توهمه الاضافة الى ضمير المتكلم أي عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد وقيل أيام الله

قال بعضهم أراد أعمالهم في الحال وقال بعضهم بل أراد المستقبل وهذا أقرب لان قوله هم لها عاملون
الى الاستقبال أقرب وانما قال هم لها عاملون لانها مثبتة في علم الله تعالى وفي حكم الله وفي اللوح المحفوظ
فوجب أن يعملوها ليدخلوا بها النار لما سبق لهم من الله من الشقاوة (القول الثاني) وهو اختيار أبي
مسلم ان هذه الآيات من صفات المشفقين كأنه سبحانه قال بعد وصفهم ولا نكلف نفسا الا وسعها ونهاية
ما أتى به هؤلاء المشفقون ولدينا كتاب يحفظ أعمالهم ينطق بالحق وهم لا يظلمون بل نوفر عليهم ثواب كل
أعمالهم بل قلوبهم في غمرة من هذا هو أيضا وصف لهم بالحيرة كأنه قال وهم مع ذلك الوجل والخوف
كالمتحيرين في جعل أعمالهم مقبولة أو مردودة ولهم أعمال من دون ذلك أي لهم أيضا من النوافل
ووجوه البر سوى ما هم عليه اما أعمالا قد عملوها في الماضي أو سيعملونها في المستقبل ثم انه سبحانه رجع
بقوله حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب الى وصف الكفار واعلم ان قول أبي مسلم أولى لانه اذا أمكن رد
الكلام الى ما يتصل به من ذكر المشفقين كان أولى من رده الى ما بعد منه خصوصا وقد يرغب المرء في فعل
الخير بان يذكر ان أعماله محفوظة كما قد يحذر بذلك من الشر وقد يوصف المرء لشدة فكره في أمر آخرته
بان قلبه في غمرة ويراد انه قد استولى عليه الفكر في قبول عمله أو رده وفي انه هل أداه كما يجب أو قصر فان قيل
فما المراد بقوله من هذا وهو اشارة الى ماذا قلنا هو اشارة الى اشفاقهم ووجلهم مع انهما مستوليان على
قلوبهم أما قوله تعالى حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب فقال صاحب الكشاف حتى هذه هي التي يبتدأ
بعدها الكلام والكلام الجملة الشرطية واعلم انه لا شبهة ان الضمير في مترفيهم راجع الى من تقدم ذكره من
الكفار لان العذاب لا يليق الا بهم وفي هذا العذاب وجهان (أحدهما) أراد بالعذاب ما نزل بهم يوم بدر
(والثاني) انه عذاب الآخرة ثم بين سبحانه ان المنعمين منهم اذا نزل بهم العذاب يجأرون أي يرتفع
صوتهم بالاستغاثة والضجيج لشدة ما هم عليه ويقال لهم على وجه التبكيت لا تجأروا اليوم انكم منا
لا تنصرون فلا يدفع عنكم ما يريد انزاله بكم دل بذلك سبحانه على انهم سيجأرون يوم القيامة الى هذه
الدرجة من الحسرة والندامة وهو كالباعث لهم في الدنيا على ترك الكفر والاقدام على الايمان والطاعة
فانهم الآن ينتفعون بذلك ﴿ قوله تعالى ﴿قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون
مستكبرين به سامرا تهجرون أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين أم لم يعرفوا رسولهم
فهم له منكرون أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت
السموات والارض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون أم تسألهم خرجا فخراج
ربك خير وهو خير الرازقين﴾ اعلم أنه سبحانه لما بين فيما قبل انه لا ينصر أولئك الكفار أتبعه بعلة ذلك
وهي انه متى تليت آيات الله عليهم أتوا بأمور ثلاثة (أحدها) انهم كانوا على أعقابهم ينكصون وهذا مثل
يضرب فيمن تباعد عن الحق كل التباعد وهو قوله فكنتم على أعقابكم تنكصون أي تنفرون عن تلك
الآيات وعمن يتلوها كما يذهب الناكص على عقبيه بالرجوع الى ورائه (وثانيها) قوله مستكبرين به
والهاء في به الى ماذا تعود فيه وجوه (أولها) الى البيت العتيق أو الحرم كانوا يقولون لا يظهر علينا أحد
لانا أهل الحرم والذي يسوغ هذا الاضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت وان لم يكن لهم مفخرة الا انهم ولاته
والقائمون به (وثانيها) المراد مستكبرين بهذا التراجع والتباعد (وثالثها) أن تتعلق الباء بسامرا أي
يسمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه وهذا هو الامر الثالث الذي يأتون به عند تلاوة القرآن عليهم وكانوا
يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحرا وشعرا وسب رسول
الله

وقائعها التي وقعت على الامم قبلهم وأيام العرب وقائعها وحروبها وملاحمها أي أنذرهم وقائعه التي دهمت الامم الدارجة ويرده ما تصدى له عليه الصلاة والسلام بصدد الامتثال من التذكير بكل من السراء والضراء مما جرى عليهم وعلى غيرهم حسبما تلي عليك (ان في ذلك) أي في التذكير بها أو في مجموع تلك النعماء والبلاء أو في أيامها (لآيات) عظيمة ٢٣٣ أو كثيرة دالة على وحدانية الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته فهي على الاول عبارة عن الايام سواء أريد بها أنفسها أو ما فيها من النعماء والبلاء ومعنى ظرفية التذكير لها كونه مناطا لظهورها وعلى الثالث عن تلك النعماء والبلاء ومعنى الظرفية ظاهر وأما على الثاني وهو كونه اشارة الى مجموع النعماء فمن كل واحدة من تلك النعماء والبلاء والمشار اليه المجموع المشتمل عليهما من حيث هو مجموع أو كلمة في تجريدية مثلها في قوله تعالى لهم فيها دار الخلد (لكل صبار) على بلائه (شكور) لنعمائه وقيل لكل مؤمن والتعبير عنهم بذلك للاشعار بأن الصبر والشكر عنوان المؤمن أي لكل من يليق بكمال الصبر والشكر أو الايمان ويصير أمره اليها لا لمن اتصف بها بالفعل لانه تعليل للامر بالتذكير المذكور السابق عليه التذكر المؤدي الى تلك المرتبة فان من تذكر ما فاض أو نزل عليه أو على من قبله من النعماء والبلاء وتنبه لعاقبة الشكر والصبر أو الايمان

لا يكاد يفارقها وتخصيص الآيات بهم لانهم المنتفعون بها لا لانها خافية عن غيرهم فان التبيين حاصل النسبة الى الكل وتقديم الصبار على الشكور لتقدم متعلق الصبر أعني البلاء على متعلق الشكر أعني النعماء وكون الشكر عاقبة الصبر (واذ قال موسى لقومه) شروع في بيان تصديه عليه الصلاة والسلام لما أمر به من التذكير للاخراج المذكور واذ منصوب على

الله صلى الله عليه وسلم ويهجرون والسامر نحو الحاضر في الاطلاق على الجمع وقرئ سمرا وسامرا يهجرون من أهجر في منطقه اذا أفحش والهجر بالفتح الهذيان والهجر بالضم الفحش أو من هجر الذي هو مبالغة في هجر اذا هذى ثم انه سبحانه لما وصف حالهم رد عليهم بأن بين أن اقدامهم على هذه الامور لا بد وأن يكون لاحد أمور أربعة (أحدها) أن لا يتأملوا في دليل نبوته وهو المراد من قوله أفلا يتدبرون القرآن فبين أن القول الذي هو القرآن كان معروفا لهم وقد مكنوا من التأمل فيه من حيث كان مباينا لكلام العرب في الفصاحة ومبرأ عن التناقض في طول عمره ومن حيث ينبه على ما يلزمهم من معرفة الصانع ومعرفة الوحدانية فلم لا يتدبرون فيه ليتركوا الباطل ويرجعوا الى الحق (وثانيها) أن يعتقدوا ان مجيء الرسل أمر على خلاف العادة وهو المراد من قوله أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الاولين وذلك لانهم عرفوا بالتواتر أن الرسل كانت تتواتر على الامم وتظهر المعجزات عليهم وكانت الامم بين مصدق ناج وبين مكذب هالك بعذاب الاستئصال أفما دعاهم ذلك الى تصديق الرسول (وثالثها) أن لا يكونوا عالمين بديانته وحسن خصاله قبل ادعائه للنبوة وهو المراد من قوله أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون نبه سبحانه بذلك على انهم عرفوا منه قبل ادعائه الرسالة كونه في نهاية الامانة والصدق وغاية الفرار من الكذب والاخلاق الذميمة فكيف كذبوه بعد أن اتفقت كلمتهم على تسميته بالامين (ورابعها) أن يعتقدوا فيه الجنون فيقولوا انما حمله على ادعائه الرسالة جنونه وهو المراد من قوله أم يقولون به جنة وهذا أيضا ظاهر الفساد لانهم كانوا يعلمون بالضرورة انه أعقل الناس والمجنون كيف يمكنه أن يأتي بمثل ما أتى به من الدلائل القاطعة والشرائع الكاملة ولقد كان من المعترضين له عليه السلام من سماه بذلك وفيه وجهان (أحدهما) انهم نسبوه الى ذلك من حيث كان يطمع في انقيادهم له وكان ذلك من أبعد الامور عندهم فنسبوه الى الجنون لذلك (والثاني) أنهم قالوا ذلك ايهاما لعوامهم لكي لا ينقادوا له فاوردوا ذلك مورد الاستحقار له ثم انه سبحانه بعد أن عدد هذه الوجوه ونبه على فسادها قال بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون من حيث تمسكوا بالتقليد ومن حيث علموا أنهم لو أقروا بمحمد صلى الله عليه وسلم لزالت مناصبهم ولاختلت رياساتهم فلذلك كرهوه فان قيل قوله وأكثرهم فيه دليل على ان أقلهم لا يكرهون الحق قلنا كان فيهم من يترك الايمان أنفة من توبيخ قومه وأن يقولوا ترك دين آبائه لا كراهة للحق كما يحكى عن أبي طالب ثم بين سبحانه أن الحق لا يتبع الهوى بل الواجب على المكلف أن يطرح الهوى ويتبع الحق فبين سبحانه أن اتباع الهوى يؤدي الى الفساد العظيم فقال ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن وفي تفسيره وجوه (الاول) أن القوم كانوا يرون أن الحق في اتخاذ آلهة مع الله تعالى لكن لو صح ذلك لوقع الفساد في السموات والارض على ما قررناه في دليل التمانع في قوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا (والثاني) ان أهواءهم في عبادة الاوثان وتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وهما منشأ المفسدة والحق هو الاسلام فلو اتبع الاسلام قولهم لعلم الله حصول المفاسد عند بقاء هذا العالم وذلك يقتضي تخريب العالم وافناءه (والثالث) ان آراءهم كانت متناقضة فلو اتبع الحق اهواءهم لوقع التناقض ولاختل نظام العالم عن القفال أما قوله بل أتيناهم بذكرهم فقيل انه القرآن والادلة وقيل بل شرفهم وفخرهم بالرسول وكلا القولين متقارب لان بمجيء الرسول بيان الادلة وفي مجيء الادلة بيان الرسول فأحدهما مقرون بالآخر وقيل الذكر هو الوعظ والتحذير وقيل هو الذي كانوا يتمنونه ويقولون لو أن عندنا ذكرا من الاولين لكنا عباد الله المخلصين وقرئ بذكراهم ثم بين سبحانه أنه عليه الصلاة والسلام لا يطمع فيهم حتى يكون ذلك سببا للنفرة فقال أم تسألهم

المفعولية عشر رخوطب به النبي عليه الصلاة والسلام وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر مرة غير مرة أي اذكر لهم وقت قوله عليه الصلاة والسلام لقومه (اذكروا نعمة الله عليكم) بدأ عليه الصلاة والسلام بالترغيب لانه عند النفس أقبل وهي اليه أميل والظرف متعلق بنفس النعمة ان جعلت مصدرا أو بمحذوف وقع حالا منها ان جعلت اسما أي اذكروا انعامه عليكم أو اذكروا نعمته كائنة عليكم وكذلك كلمة اذ في قوله تعالى (اذ أنجاكم من آل فرعون) أي اذكروا انعامه عليكم وقت انجائه اياكم من آل فرعون أو اذكروا نعمة الله مستقرة عليكم وقت انجائه اياكم منهم أو بدل اشتمال من نعمة الله مرادا بها الانعام أو العطية (يسومونكم) يبغونكم من سامه خسفا اذا أولاه ظلما وأصل السوم الذهاب في طلب الشئ (سوء العذاب) السوء مصدر ساءه يسوء والمراد به جنس العذاب السيئ أو استعبادهم واستعمالهم في الاعمال الشاقة والاستهانة بهم وغير ذلك مما لا يحصر ونصبه على أنه مفعول ليسومونكم (ويذبحون أبناءكم) المولودين وانما عطفه على يسومونكم اخراجا له عن مرتبة العذاب المعتاد وانما فعلوا ذلك لان فرعون رأى في المنام أو قال له الكهنة انه سيولد منهم من يذهب بملكه فاجتهدوا في ذلك فلم يغن عنهم من قضاء الله شيأ (ويستحيون نساءكم) أي يبقونهن في الحياة مع الذل والصغار ولذلك عادة عد من جملة البلاء والجمل أحوال من آل فرعون أو من ضمير المخاطبين أو منهما جميعا لان فيها ضمير كل منهما (وفي ذلكم) أي فيما ذكر من أفعالهم الفظيعة (بلاء من ربكم) أي ابتلاء عظيم لا أن البلاء عين تلك الافعال اللهم الا أن تحمل في تجريد به فنسبته الى الله تعالى

خرجا فخراج ربك خير وقرئ خراجا قال أبو عمرو بن العلاء الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك أداؤه والوجه أن الخرج أخص من الخراج كقولك خراج القرية وخرج الكردة زيادة اللفظ لزيادة المعنى ولذلك حسنت قراءة من قرأ خرجا فخراج ربك يعني أم تسألهم على هدايتهم قليلا من عطاء الخلق فالكثير من عطاء الخالق خير فقد بين سبحانه بذلك على أن هذه التهمة بعيدة عنه فلا يجوز أن ينفروا عن قبول قوله لاجلها فنبه سبحانه بهذه الآيات على انهم غير معذورين البتة وانهم محجوجون من جميع الوجوه قال الجبائي دل قوله تعالى وهو خير الرازقين على أن أحدا من العباد لا يقدر على مثل نعمه ورزقه ولا يساويه في الافضال على عباده ودل أيضا على أن العباد قد يرزق بعضهم بعضا ولولا ذلك لما جاز أن يقول وهو خير الرازقين ۞ قوله تعالى ﴿وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون﴾ اعلم أنه سبحانه وتعالى لما زيف طريقة القوم أتبعه ببيان صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فقال وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم لان ما دل الدليل على صحته فهو في باب الاستقامة أبلغ من الطريق المستقيم وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون أي لعادلون عن هذا الطريق لان طريق الاستقامة واحدة وما يخالفه فكثير أما قوله تعالى ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر ففيه وجوه (أحدها) المراد ضرر الجوع وسائر مضار الدنيا (وثانيها) المراد ضرر القتل والسبي (وثالثها) أنه ضرر الآخرة وعذابها فبين أنهم قد بلغوا في التمرد والعناد المبلغ الذي لا مرجع فيه الى دار الدنيا وانهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه لشدة لجاجهم فيما هم عليه من الكفر أما قوله تعالى للجوا في طغيانهم يعمهون فالمعنى لتمادوا في ضلالهم وهم متحيرون ۞ قوله تعالى ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون حتى اذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد اذا هم فيه مبلسون وهو الذي أنشأ لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون وهو الذي ذرأكم في الارض واليه تحشرون وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون﴾ اختلفوا في قوله ولقد أخذناهم بالعذاب على وجوه (أحدها) انه لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي ولحق باليمامة منع الميرة عن أهل مكة فأخذهم الله بالسنين حتى أكلوا الجلود والجيف فجاء أبو سفيان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ألست تزعم انك بعثت رحمة للعالمين ثم قتلت الآباء بالسيف والابناء بالجوع فادع الله يكشف عنا هذا القحط فدعا فكشف عنهم فأنزل الله هذه الآية والمعنى أخذناهم بالجوع فما أطاعوا (وثانيها) هو الذي نالهم يوم بدر من القتل والاسر يعني ان ذلك مع شدته ما دعاهم الى الايمان عن الاصم (وثالثها) المراد من عذب من الامم الخوالي فما استكانوا أي مشركو العرب لربهم عن الحسن (ورابعها) ان شدة الدنيا أقرب الى المكلف من شدة الآخرة فاذا لم تؤثر فيهم شدة الدنيا فشدة الآخرة كذلك وهذا يدل على انهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه أما قوله تعالى حتى اذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد ففيه وجهان (أحدهما) حتى اذا فتحنا عليهم باب الجوع الذي هو أشد من القتل والاسر (والثاني) اذا عذبوا بنار جهنم فحينئذ يبلسون كقوله ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون والابلاس اليأس من كل خير وقيل السكون مع التحير وههنا سؤالات ﴿السؤال الاول﴾ ما وزن استكان (الجواب) استفعل من الكون أي انتقل من كون الى كون كما قيل استحال اذا انتقل من حال الى حال ويجوز أن يكون افتعل من السكون أشبعت فتحة عينه ﴿السؤال الثاني﴾ لم جاء استكانوا بلفظ الماضي ويتضرعون بلفظ المستقبل (الجواب) لان المعنى امتحناهم فما وجدنا منهم عقيب المحنة استكانة وما من

عادة هؤلاء أن يتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد وقرئ فتحنا ﴿السؤال الثالث﴾ العطف لا يحسن الا مع المجانسة فأى مناسبة بين قوله وهو الذى أنشأ لكم السمع والابصار وبين ما قبله (الجواب) كأنه سبحانه لما بين مبالغة أولئك الكفار فى الاعراض عن سماع الادلة ورؤية العبر والتأمل فى الحقائق قال للمؤمنين وهو الذى أعطاكم هذه الاشياء ووقفكم عليها تنبيها على ان من لم يستعمل هذه الاعضاء فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها كما قال تعالى فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ اذ كانوا يجحدون بآيات الله تنبيها على ان حرمان أولئك الكفار ووجدان هؤلاء المؤمنين ليس الا من الله واعلم أنه سبحانه بين عظيم نعمه من وجوه (أحدها) باعطاء السمع والابصار والافئدة وخص هذه الثلاثة بالذكر لان الاستدلال موقوف عليها ثم بين أنه يقل منهم الشاكرون قال أبو مسلم وليس المراد أن لهم شكرا وان قل لكنه كما يقال للكفور الجاحد للنعمة ما أقل شكر فلان (وثانيها) قوله وهو الذى ذرأكم فى الارض قيل فى التفسير خلقكم قال أبو مسلم ويحتمل بسطكم فيها ذرية بعضكم من بعض حتى كثرتم كقوله تعالى ذرية من حملنا مع نوح فنقول هو الذى جعلكم فى الارض متناسلين ويحشركم يوم القيامة الى دار لا حاكم فيها سواه فجعل حشرهم الى ذلك الموضع حشرا اليه لا بمعنى المكان (وثالثها) قوله وهو الذى يحيى ويميت أى نعمة الحياة وان كانت من أعظم النعم فهى منقطعة وانه سبحانه وان أنعم بها فالمقصود منها الانتقال الى دار الثواب (ورابعها) قوله وله اختلاف الليل والنهار ووجه النعمة بذلك معلوم ثم انه سبحانه حذر من ترك النظر فى هذه الامور فقال أفلا تعقلون لان ذلك دلالة الزجر والتهديد وقرئ أفلا يعقلون

﴿قوله تعالى﴾ ﴿بل قالوا مثل ما قال الاولون قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ان هذا الا أساطير الاولين﴾ اعلم أنه سبحانه لما أوضح القول فى دلائل التوحيد عقبه بذكر المعاد فقال بل قالوا مثل ما قال الاولون فى انكار البعث مع وضوح الدلائل ونبه بذلك على انهم انما أنكروا ذلك تقليدا للاولين وذلك يدل على فساد القول بالتقليد ثم حكى الشبهة عنهم من وجهين (أحدهما) قولهم أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون وهو مشهور (وثانيهما) قولهم لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل كأنهم قالوا ان هذا الوعد كما وقع منه عليه الصلاة والسلام فقد وقع قديما من سائر الانبياء ثم لم يوجد مع طول العهد فظنوا أن الاعادة تكون فى دار الدنيا ثم قالوا لما كان كذلك فهو من أساطير الاولين والاساطير جمع اسطار والاسطار جمع سطر أى ما كتبه الاولون مما لا حقيقة له وجمع أسطورة أوفق

﴿قوله تعالى﴾ ﴿قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون بل أتيناهم بالحق وانهم لكاذبون﴾ اعلم أنه يمكن أن يكون المقصود من هذه الآيات الرد على منكرى الاعادة وأن يكون المقصود الرد على عبدة الاوثان وذلك لان القوم كانوا مقرين بالله تعالى فقالوا نعبد الاصنام لتقربنا الى الله زلفى ثم انه سبحانه احتج عليهم بأمور ثلاثة (أحدها) قوله قل لمن الارض ومن فيها ووجه الاستدلال به على الاعادة انه تعالى لما كان خالقا للارض ولمن فيها من الاحياء وخالقا لحياتهم وقدرتهم وغيرها فوجب أن يكون قادرا على أن يعيدهم بعد ان أفناهم ووجه الاستدلال به على نفى عبادة الاوثان من حيث ان عبادة من خلقكم وخلق الارض وكل ما فيها من النعم هى الواجبة دون عبادة ما لا يضر ولا ينفع وقوله أفلا تذكرون معناه الترغيب فى التدبر ليعلموا بطلان ما هم عليه (وثانيها) قوله من رب السموات السبع ورب

أما من حيث الخلق أو الاقدار والتمكين (عظيم) لا يطاق ويجوز أن يكون المشار اليه الانجاء من ذلك والبلاء الابتلاء بالنعمة وهو الانسب كما يلوح به التعرض لوصف الربوبية وعلى الاول يكون ذلك باعتبار المآل الذى هو الانجاء أو باعتبار أن بلاء المؤمن تربية له (واذ تأذن ربكم) من جملة مقال موسى عليه الصلاة والسلام لقومه معطوف على نعمة الله أى اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم أى آذن ايذانا بليغا لا تبقى معه شائبة شبهة لما فى صيغة التفعل من معنى التكلف المحمول فى حقه سبحانه على غايته التى هى الكمال وقيل هو معطوف على قوله تعالى اذ أنجاكم أى اذكروا نعمته تعالى فى هذين الوقتين فان هذا التأذن أيضا نعمة من الله تعالى عليهم ينالون بها خيرى الدنيا والآخرة وفى قراءة ابن مسعود رضى الله تعالى عنه واذ قال ربكم ولقد ذكرهم عليه الصلاة والسلام أولا بنعمائه تعالى عليهم صريحا وضمنه تذكير ما أصابهم قبل ذلك من الضراء ثم أمرهم ثانيا بذكر ما جرى من الله سبحانه من الوعد بالزيادة على تقدير الشكر والوعيد بالعذاب على تقدير الكفر والمراد بتذكير الاوقات تذكير ما وقع فيها من الحوادث مفصلة اذ هى محيطة بذلك فاذا ذكرت ذكر ما فيها كأنه مشاهد معاين (لئن شكرتم) يا بنى اسرائيل ما خولتكم من نعمة الانجاء واهلاك العدو وغير ذلك من النعم والآلاء الفائتة للحصر وقابلتموه بالايمان والطاعة (لأزيدنكم) نعمة الى نعمة (ولئن كفرتم) ذلك وغمطتموه (ان عذابى لشديد) فعسى يصيبكم منه ما يصيبكم ومن عادة الكرام التصريح بالوعد والتعريض بالوعيد فما ظنك بأكرم الاكرمين ويجوز أن يكون المذكور تعليلا للجواب المحذوف أى لأعذبنكم واللام فى الموضعين

العرش العظيم ووجه الاستدلال على الامرين كما تقدم وانما قال أفلا تتقون تنبيها على أن اتقاء عذاب الله لا يحصل الا بترك عبادة الاوثان والاعتراف بجواز الاعادة (وثالثها) قوله تعالى قل من بيده ملكوت كل شئ اعلم أنه سبحانه لما ذكر الارض أولا والسماء ثانيا عمم الحكم ههنا فقال من بيده ملكوت كل شئ ويدخل في الملكوت الملك والملك على سبيل المبالغة وقوله وهو يجير ولا يجار عليه يقال أجرت فلانا على فلان اذا أغثته منه ومنعته يعني وهو يغيث من يشاء ممن يشاء ولا يغيث أحد منه أحدا أما قوله تعالى فأنى تسحرون فالمعنى أنى تخدعون عن توحيده وطاعته والخادع هو الشيطان والهوى ثم بين تعالى بقوله بل أتيناهم بالحق انه قد بالغ في الحجاج عليهم بهذه الآيات وغيرها وهم مع ذلك كاذبون وذلك كالتوعد والتهديد وقرئ أتيتهم وأتيتهم بالضم والفتح وههنا سؤالات (السؤال الاول) قرئ قل لله في الجواب الاول باللام لا غير وقرئ الله في الاخيرين بغير اللام في مصاحف أهل الحرمين والكوفة والشأم وباللام في مصاحف أهل البصرة فما الفرق (الجواب) لا فرق في المعنى لأن قولك من ربه ولمن هو في معنى واحد (السؤال الثاني) كيف قال ان كنتم تعلمون ثم حكى عنهم سيقولون الله وفيه تناقض (الجواب) لا تناقض لان قوله ان كنتم تعلمون لا ينفي علمهم بذلك وقد يقال مثل ذلك في الحجاج على وجه التأكيد لعلمهم والبعث على اعترافهم بما يورد من ذلك ﴿قوله تعالى ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون قل رب اما تريني ما يوعدون رب فلا تجعلني في القوم الظالمين وانا على أن نريك ما نعدهم لقادرون ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون﴾ اعلم أنه سبحانه ادعى أمرين (أحدهما) قوله ما اتخذ الله من ولد وهو كالتنبيه على ان ذلك من قول هؤلاء الكفار فان جماعة منهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله (والثاني) قوله وما كان معه من اله وهو قولهم باتخاذ الاصنام آلهة ويحتمل أن يريد به ابطال قول النصارى والثنوية ثم انه سبحانه وتعالى ذكر الدليل المعتمد بقوله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض والمعنى لانفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذي خلقه واستبد به ولرأيتم ملك كل واحد منهم متميزا عن ملك الآخر ولغلب بعضهم على بعض كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متميزة وهم متغالبون وحيث لم تروا أثر التمايز في الممالك والتغالب فاعلموا أنه اله واحد بيده ملكوت كل شئ فان قيل اذا لا تدخل الا على كلام هو جزاء وجواب فكيف وقع قوله لذهب جزاء وجوابا ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل قلنا الشرط محذوف وتقديره ولو كان معه آلهة وانما حذف لدلالة قوله وما كان معه من اله عليه ثم انه سبحانه نزه نفسه عن قولهم بقوله سبحان الله عما يصفون من اثبات الولد والشريك أما قوله عالم الغيب والشهادة فقرئ بالجر صفة لله وبالرفع خبر مبتدا محذوف والمعنى انه سبحانه هو المختص بعلم الغيب والشهادة فغيره وان علم الشهادة فلن يعلم معها الغيب والشهادة التي يعلمها لا يتكامل بها النفع الا مع العلم بالغيب وذلك كالوعيد لهم فلذلك قال فتعالى عما يشركون ثم أمره سبحانه بالانقطاع اليه وان يدعوه بقوله رب اما تريني ما يوعدون رب فلا تجعلني في القوم الظالمين قال صاحب الكشاف ما والنون مؤكدتان أي ان كان ولا بد من أن تريني ما تعدهم من العذاب في الدنيا أو في الآخرة فلا تجعلني قرينا لهم ولا تعذبني بعذابهم فان قيل كيف يجوز أن يجعل الله نبيه المعصوم مع الظالمين حتى يطلب أن لا يجعله معهم قلنا يجوز أن يسأل العبد ربه ما علم أنه يفعله وان يستعيذ به مما علم أنه لا يفعله اظهارا للعبودية وتواضعا لربه وما أحسن قول الحسن في قول الصديق وليتكم ولست بخيركم مع انه كان يعلم أنه خيرهم

موطئة للقسم وكل من الجوابين ساد مسد جوابي الشرط والقسم والجملة تمام مقول اذ تأذن لانه ضرب من القول أو لقول مقدر بعده كأنه قيل واذ تأذن ربكم فقال الخ (وقال موسى ان تكفروا) نعمه تعالى ولم تشكروها (أنتم) يابني اسرائيل (ومن في الارض) من الخلائق (جميعا فان الله لغني) عن شكركم وشكر غيركم (حميد) مستوجب للحمد بذاته لكثرة ما يوجبه من أياديه وان لم يحمده أحد أو محمود يحمده الملائكة بل كل ذرة من ذرات العالم ناطقة بحمده والحمد حيث كان بمقابلة النعمة وغيرها من الفضائل كان أدل على كماله سبحانه وهو تعليل لما حذف من جواب ان أي ان تكفروا لم يرجع وباله الا عليكم فان الله تعالى لغني عن شكر الشاكرين ولعله عليه الصلاة والسلام انما قاله عندما عاين منهم دلائل العناد ومخايل الاصرار على الكفر والفساد وتيقن أنه لا ينفعهم الترغيب ولا التعريض بالترهيب أو قاله غب تذكيرهم بما ذكر من قول الله عز سلطانه تحقيقا لمضمونه وتحذيرا لهم من الكفران ثم شرع في الترهيب بتذكير ما جرى على الامم الخالية فقال (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم) ليتدبروا ما أصاب كل واحد من حزبي المؤمن والكافر فيقلعوا عما هم عليه من الشر وينيبوا الى الله تعالى وقيل هو ابتداء كلام من الله تعالى خطابا للكفرة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فيختص تذكير موسى عليه الصلاة والسلام بما اختص ببني اسرائيل من السراء ولكن والضراء والايام بالايام الجارية عليهم فقط وفيه ما لا يخفى من البعد وأيضا لا يظهر حينئذ وجه تخصيص تذكير الكفرة الذين في عهد النبي عليه الصلاة والسلام بما أصاب أولئك المعدودين مع أن غيرهم أسوة لهم في الخلو قبل هؤلاء (قوم نوح) بدل من الموصول أو عطف بيان

والكن المؤمن يهضم نفسه وأعاذ كرر رب مرتين مرة قبل الشرط ومرة قبل الجزاء مبالغة في التضرع أما قوله تعالى وانا على أن نريك ما نعدهم لقادرون ففيه قولان (أحدهما) انهم كانوا ينكرون الوعد بالعذاب ويضحكون منه فقيل لهم ان الله قادر على انجاز ما وعد ويحتمل عذابا في الدنيا مؤخرا عن أيامه عليه السلام فلذلك قال بعضهم هو في أهل البغي وبعضهم في الكفار الذين قوتلوا بعد الرسول صلى الله عليه وسلم (والثاني) ان المراد عذاب الآخرة أما قوله ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون فالمراد منه ان الاولى به عليه السلام أن يعامل به الكفار فأمر باحتمال ما يكون منهم من التكذيب وضروب الاذى وأن يدفعه بالكلام الجميل كالسلام وبيان الادلة على أحسن الوجوه وبين له انه أعلم بحالهم منه عليه السلام وانه سبحانه لما لم يقطع نعمه عنهم فينبغي أن يكون هو عليه السلام مواظبا على هذه الطريقة قال صاحب الكشاف قوله ادفع بالتي هي أحسن السيئة أبلغ من أن يقال بالحسنة السيئة لما فيه من التفضيل والمعنى الصفح عن اساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الاحسان حتى اذا اجتمع الصفح والاحسان وبذل الطاقة فيه كانت حسنة مضاعفة بازاء السيئة وقيل هذه الآية منسوخة بآية السيف وقيل محكمة لان المداراة محثوث عليها ما لم تؤد الى نقصان دين أو مروءة ﴿قوله تعالى ﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت كلا انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون﴾ اعلم انه سبحانه لما أدب رسوله بقوله ادفع بالتي هي أحسن السيئة أتبعه بما به يقوى على ذلك وهو الاستعاذة بالله من أمرين (أحدهما) من همزات الشياطين والهمزات جمع الهمزة وهو الدفع والتحريك الشديد وهو كالهز والاز ومنه مهماز الرائض وهمزاته هو كيده بالوسوسة ويكون ذلك منه في الرسول بوجهين (أحدهما) بالوسوسة (والآخر) بان يبعث أعداءه على ايذائه وكذلك القول في المؤمنين لان الشيطان يكيدهم بهذين الوجهين ومعلوم ان من ينقطع الى الله تعالى ويسأله أن يعيذه من الشيطان فانه يجب أن يكون متذكرا متيقظا فيما يأتي ويذر فيكون نفس هذا الانقطاع الى الله تعالى داعية الى التمسك بالطاعة وزاجرا عن المعصية قال الحسن كان عليه السلام يقول بعد استفتاح الصلاة لا اله الا الله ثلاثا الله أكبر ثلاثا اللهم انى أعوذ بك من همزات الشياطين همزه ونفثه ونفخه فقيل يا رسول الله وما همزه قال الموتة التي تأخذ ابن آدم أي الجنون الذي يأخذ ابن آدم قيل فما نفثه قال الشعر قيل فما نفخه قال الكبر (وثانيها) قوله وأعوذ بك رب أن يحضرون وفيه وجهان (أحدهما) أن يحضرون عند قراءة القرآن لكي يكون متذكرا فيقل سهوه وقال آخرون بل استعاذ بالله من نفس حضورهم لانه الداعي الى وسوستهم كما يقول المرء أعوذ بالله من خصومتك بل أعوذ بالله من لقائك وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد اشتكى اليه رجل أرقا يجده فقال اذا أردت النوم فقل أعوذ بالله وبكلمات الله التامات من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون * أما قوله حتى اذا جاء أحدهم الموت ففيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال صاحب الكشاف حتى متعلق بيصفون أي لا يزالون على سوء الذكر الى هذا الوقت والآية فاصلة بينهما على وجه الاعتراض والتأكيد للاغضاء عنهم مستعينا بالله على الشيطان ان يستزله عن الحلم والله أعلم ﴿المسئلة الثانية﴾ اختلفوا في قوله حتى اذا جاء أحدهم الموت فالاكثرون على انه راجع الى الكفار وقال الضحاك كنت جالسا عند ابن عباس فقال من لم يزك ولم يحج سأل الرجعة عند الموت فقال واحد انما يسأل ذلك الكفار فقال ابن عباس رضي الله عنهما أنا أقرأ عليك به قرآنا وأنفقوا مما رزقناكم من قبل

(وعاد) معطوف على قوم نوح (وثمود والذين من بعدهم) أي من بعد هؤلاء المذكورين عطف عام على قوم نوح وما عطف عليه وقوله تعالى (لا يعلمهم الا الله) اعتراض أو الموصول مبتدأ ولا يعلمهم الى آخره خبره والجملة اعتراض والمعنى انهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم الا الله سبحانه وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بين عدنان واسمعيل ثلاثون أبا لا يعرفون وكان ابن مسعود رضي الله تعالى عنه اذا قرأ هذه الآية قال كذب النسابون يعني انهم يدعون علم الانساب وقد نفى الله تعالى علمها عن العباد (جاءتهم رسلهم) استئناف لبيان نبئهم (بالبينات) بالمعجزات الظاهرة والبينات الباهرة فبين كل رسول لامته طريق الحق وهداهم اليه ليخرجهم من الظلمات الى النور (فردوا أيديهم في أفواههم) مشيرين بذلك الى ألسنتهم وما يصدر عنها من المقالة اعتناء منهم بشأنها وتنبيها للرسل على تلقيها والمحافظة عليها واقناطا لهم عن التصديق والايمان باعلام أن لا جواب لهم سواه (وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به) أي على زعمكم وهي البينات التي أظهروها حجة على صحة رسالتهم كقوله تعالى ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ومرادهم بالكفر بها الكفر بدلالتها على صحة رسالتهم أو فعضوها غيظا وضجرا مما جاءت به الرسل كقوله تعالى عضوا عليكم الانامل من الغيظ أو وضعوها عليها تعجبا منه واستهزاء به كمن غلبه الضحك أو اسكاتا للانبياء عليهم السلام وأمرا لهم باطباق الافواه أو ردوها في أفواه الانبياء عليهم الصلاة والسلام يمنعونهم من التكلم تحقيقا أو تمثيلا أو جعلوا أيدي الانبياء في أفواههم تعجبا من عتوهم وعنادهم كما ينبئ عنه تعجبهم بقوله أفي الله شك الخ وقيل الايدي بمعنى الايادي عبر بها عن مواعظهم ونصائحهم وشرائعهم التي

هي مدار النعم الدينية والدنيوية لانهم لما كذبوها فلم يقبلوها فكانهم ردوها الى حيث جاءت منه (وانا لفي شك) عظيم (مما تدعوننا اليه) من الايمان بالله والتوحيد فلا ينافي شكهم في ذلك كفرهم القطعي بما أرسل به الرسل من البينات فانهم كفروا بها قطعا حيث لم يعتدوا بها ولم يجعلوها من جنس ٢٣٨ المعجزات ولذلك قالوا فأتونا بسلطان مبين وقرئ تدعونا بالادغام (مريب) موقع في الريبة من ارابه أوذي ريبة من أراب الرجل وهي قلق النفس وعدم اطمئنانها بالشيء (قالت رسلهم) استئناف مبني على سؤال ينساق اليه المقال كانه قيل فماذا قالت لهم رسلهم فأجيب بانهم قالوا منكرين عليهم ومتعجبين من مقالتهم الحمقاء (أفي الله شك) بادخال الهمزة على الظرف للايذان بأن مدار الانكار ليس نفس الشك بل وقوعه فيما لا يكاد يتوهم فيه الشك أصلا متفادين عن تطبيق الجواب على كلام الكفرة بان يقولوا أأنتم في شك مريب من الله تعالى مبالغة في تنزيه ساحة السبحان عن شائبة الشك وتسجيلا عليهم بسخافة العقول أي أفي شأنه سبحانه من وجوده ووحدته ووجوب الايمان به وحده شك ما وهو أظهر من كل ظاهر وأجلى من كل جلي حتى تكونوا من قبله في شك مريب وحيث كان مقصدهم الاقصى الدعوة الى الايمان والتوحيد وكان اظهار البينات وسيلة الى ذلك لم يتعرضوا للجواب عن قول الكفرة انا كفرنا انه بما أرسلتم به واقتصروا على بيان ما هو الغاية القصوى ثم عقبوا ذلك الانكار بما يوجبه من الشواهد الدالة على انتفاء المنكر فقالوا (فاطر السموات والارض) أي مبدعهما وما فيهما من المصنوعات على نظام أنيق شاهد بتحقق ما أنتم منه في شك وهو صفة للاسم الجليل

أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني الى أجل قريب فاصدق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حضر الانسان الموت جمع كل شيء كان يمنعه من حقه بين يديه فعنده يقول رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت والاقرب هو الاول اذا عرف المؤمن منزلته في الجنة فاذا شاهدها لا يتمنى أكثر منها ولولا ذلك لكان أدونهم ثوابا يغتم بفقدما يفقده من منزلة غيره وأما ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما من قوله وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فهو اخبار عن حال الحياة في الدنيا لا عن حال الثواب فلا يلزم على ما ذكرنا (المسئلة الثالثة) اختلفوا في وقت مسئلة الرجعة فالاكثرون على انه يسأل في حال المعاينة لانه عندها يضطر الى معرفة الله تعالى والى انه كان عاصيا او يصير ملجأ الى أنه لا يفعل القبيح بان يعلمه الله تعالى انه لو رامه لمنع منه ومن هذا حاله يصير كالممنوع من القبائح بهذا الالجاء فعند ذلك يسأل الرجعة ويقول رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت وقال آخرون بل يقول ذلك عند معاينة النار في الآخرة ولعل هذا القائل انما ترك ظاهر هذه الآية لما أخبر الله تعالى في كتابه عن أهل النار في الآخرة انهم يسألون الرجعة لكن ذلك مما لا يمنع أن يكونوا سائلين الرجعة في حال المعاينة والله تعالى يقول حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون فعلق قولهم هذا بحال حضور الموت وهو حال المعاينة فلا وجه لترك هذا الظاهر (المسئلة الرابعة) اختلفوا في قوله سبحانه وتعالى ارجعون من المراد به فقال بعضهم الملائكة الذين يقبضون الارواح وهم جماعة فلذلك ذكره بلفظ الجمع وقال آخرون بل المراد هو الله تعالى لان قوله رب بمنزلة أن يقول يا رب وانما ذكر بلفظ الجمع للتعظيم كما يخاطب العظيم بلفظه فيقول فعلنا وصنعنا وقال الشاعر ❊ فان شئت حرمت النساء سواكم ❊ ومن يقول بالاول يجعل ذكر الرب للقسم فكانه عند المعاينة قال بحق الرب ارجعون وههنا سؤالات (السؤال الاول) كيف يسألون الرجعة وقد علموا صحة الدين بالضرورة ومن الدين ان لا رجعة (الجواب) انه وان كان كذلك فلا يمتنع ان يسألوه لان الاستغاثة بهذا الجنس من المسئلة تحسن وان علم انه لا يقع فأما ارادته للرجعة فلا يمتنع أيضا على سبيل ما يفعله المتمني (السؤال الثاني) ما معنى قوله لعلي أعمل صالحا فيجوز أن يسأل الرجعة مع الشك (الجواب) ليس المراد بلعل الشك فانه في هذا الوقت باذل للجهد في العزم على الطاعة ان أعطي ما سأل بل هو مثل من قصر في حق نفسه وعرف سوء عاقبة ذلك التقصير فيقول مكنوني من التدارك لعلي أتدارك فيقول هذه الكلمة مع كونه جازما بانه سيتدارك ويحتمل أيضا أن الامر المستقبل اذا لم يعرفوه أوردوا الكلام الموضوع للترجي والظن دون اليقين فقد قال تعالى ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه (السؤال الثالث) ما المراد بقوله فيما تركت (الجواب) قال بعضهم فيما خلفت من المال ليصير عند الرجعة مؤديا لحق الله تعالى منه والمعقول من قوله تركت التركة وقال آخرون بل المراد أعمل صالحا فيما قصرت فيدخل فيه العبادات البدنية والمالية والحقوق وهذا أقرب كانهم تمنوا الرجعة ليصلحوا ما أفسدوه ويطيعوا في كل ما عصوا (السؤال الرابع) ما المراد بقوله كلا (الجواب) فيه قولان (أحدهما) أنه كالجواب لهم في المنع مما طلبوا كما يقال لطالب الامر المستبعد هيهات روي انه عليه السلام قال لعائشة رضي الله عنها اذا عاين المؤمن الملائكة قالوا نرجعك الى دار الدنيا فيقول الى دار الهموم والاحزان لا بل قدوما على الله وأما الكافر فيقال نرجعك فيقول ارجعون فيقال له الى أي شيء ترغب الى جمع المال أو غرس الغراس أو بناء البنيان أو شق الانهار فيقول لعلي أعمل صالحا فيما تركت فيقول الجبار كلا (الثاني) يحتمل أن يكون على وجه الاخبار بانهم يقولون ذلك وان هذا الخبر حق فكانه قال حقا انها كلمة هو قائلها والاقرب الاول أما قوله انها كلمة هو قائلها ففيه وجهان (الاول)

أو بدل منه وشك مرتفع بالظرف لاعتماده على الاستفهام وجعله مبتدأ على أن الظرف خبره يفضي الى الفصل بين الموصوف والصفة بالأجنبي أعني المبتدأ أما الفاعل فليس بأجنبي من رافعه وقد جوز ذلك أيضا (يدعوكم) الى الايمان بارساله ايانا لا أنا ندعوكم اليه من تلقاء أنفسنا كما يوهمه قولكم مما تدعوننا اليه (ليغفر لكم) بسببه أو يدعوكم لأجل المغفرة كقولك دعوته ليأكل معي (من ذنوبكم) أي بعضها وهو ما عدا المظالم مما بينهم وبينه تعالى فان الاسلام يجبه قيل هكذا وقع في جميع القرآن في وعد الكفرة دون وعد المؤمنين تفرقة بين الوعدين ولعل ذلك لما أن المغفرة حيث جاءت في خطاب الكفرة مرتبة على محض الايمان وفي شأن المؤمنين مشفوعة بالطاعة والتجنب عن المعاصي ونحو ذلك فيتناول الخروج من المظالم وقيل المعنى ليغفر لكم بدلا من ذنوبكم (ويؤخركم الى أجل مسمى) الى وقت سماه الله تعالى وجعله منتهى أعماركم على تقدير الايمان (قالوا) استئناف كما سبق (ان أنتم) أي ما أنتم (الا بشر مثلنا) من غير فضل يؤهلكم لما تدعونه من النبوة (تريدون) صفة ثانية لبشر حملا على المعنى كقوله تعالى أبشر يهدوننا أو كلام مستأنف أي تريدون بما تتصدون له من الدعوة والارشاد (أن تصدونا) بتخصيص العبادة بالله سبحانه (عما كان يعبد آباؤنا) أي عن عبادة ما استمر آباؤنا على عبادته من غير شيء يوجبه والا (فأتونا) أي وان لم يكن الامر كما قلنا بل كنتم رسلا من جهة الله تعالى كما تدعونه فأتونا (بسلطان مبين) يدل على فضلكم واستحقاقكم لتلك الرتبة أو على صحة ما تدعونه من النبوة حتى نترك ما لم نزل نعبده أبا عن جد ولقد كانوا آتوهم من الآيات الظاهرة والبينات الباهرة ما تخر له صم الجبال ولكنهم انما يقولون ما يقولون من

انه لا يخليها ولا يسكت عنها لاستيلاء الحسرة عليه (الثاني) أنه قائلها وحده ولا يجاب اليها ولا يسمع منه أما قوله تعالى ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون فالبرزخ هو الحاجز والمانع كقوله في البحرين بينهما برزخ لا يبغيان أي فهؤلاء صائرون الى حالة مانعة من التلاقي حاجزة عن الاجتماع وذلك هو الموت وليس المعنى انهم يرجعون يوم البعث انما هو اقناط كلي لما علم انه لا رجعة يوم البعث الا الى الآخرة ﴿قوله تعالى ﴿فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون﴾ اعلم أنه سبحانه لما قال ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون ذكر أحوال ذلك اليوم فقال فاذا نفخ في الصور وفيه ثلاثة أقوال (أحدها) أن الصور آلة اذا نفخ فيها ظهر صوت عظيم جعله الله تعالى علامة لخراب الدنيا ولاعادة الأموات روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قرن ينفخ فيه (وثانيها) أن المراد من الصور مجموع الصور والمعنى فاذا نفخ في الصور أرواحها وهو قول الحسن فكان يقرأ بفتح الواو والفتح والكسر عن أبي رزين وهو حجة لمن فسر الصور بجمع صورة (وثالثها) أن النفخ في الصور استعارة والمراد منها البعث والحشر والاول أولى للخبر وفي قوله ثم نفخ فيه أخرى دلالة على انه ليس المراد نفخ الروح والاحياء لان ذلك لا يتكرر أما قوله فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن المعلوم أنه سبحانه اذا أعادهم فالأنساب ثابتة لان المعاد هو الولد والوالد فلا يجوز أن يكون المراد نفي النسب في الحقيقة بل المراد نفي حكمه وذلك من وجوه (أحدها) أن من حق النسب أن يقع به التعاطف والتراحم كما يقال في الدنيا أسألك بالله والرحم أن تفعل كذا فنفى سبحانه ذلك من حيث ان كل أحد من أهل النار يكون مشغولا بنفسه وذلك يمنعه من الالتفات الى النسب وهكذا الحال في الدنيا لان الرجل متى وقع في الأمر العظيم من الآلام ينسى ولده ووالده (وثانيها) أن من حق النسب أن يحصل به التفاخر في الدنيا وأن يسأل بعضهم عن كيفية نسب البعض وفي الآخرة لا يتفرغون لذلك (وثالثها) أن يجعل ذلك استعارة عن الخوف الشديد فكل امرئ مشغول بنفسه عن بنيه وأخيه وفصيلته التي تؤويه فكيف بسائر الامور قال ابن مسعود رضي الله عنه يؤخذ العبد والأمة يوم القيامة على رؤس الاشهاد وينادي مناد ألا ان هذا فلان فمن له عليه حق فليأت الى حقه فتفرح المرأة حينئذ أن يثبت لها حق على أمها أو أختها أو أبيها أو أخيها أو ابنها أو زوجها فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون وعن قتادة لا شيء أبغض الى الانسان يوم القيامة من أن يرى من يعرفه مخافة أن يثبت له عليه شيء ثم تلا يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وعن الشعبي قال قالت عائشة رضي الله عنها يا رسول الله أما نتعارف يوم القيامة أسمع الله تعالى يقول فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فقال عليه الصلاة والسلام ثلاث مواطن تذهل فيها كل نفس حين يرمى الى كل انسان كتابه وعند الموازين وعلى جسر جهنم وطعن بعض الملحدة فقال قوله ولا يتساءلون وقوله لا يسأل حميم حميما يناقض قوله وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون وقوله يتعارفون بينهم (الجواب) عنه من وجوه (أحدها) أن يوم القيامة مقداره خمسون ألف سنة وفيه أزمنة وأحوال مختلفة فيتعارفون ويتساءلون في بعضها ويتحيرون في بعضها لشدة الفزع (وثانيها) أنه اذا نفخ في الصور نفخة واحدة شغلوا بأنفسهم عن التساؤل فاذا نفخ فيه أخرى أقبل بعضهم على بعض وقالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن (وثالثها) المراد لا يتساءلون بحقوق النسب (ورابعها) أن قوله لا يتساءلون صفة للكفار وذلك لشدة خوفهم وأما قوله فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون فهو صفة أهل الجنة اذا دخلوها واعلم أنه سبحانه قد بين أن

اله طائم مكابرة وعنادا أو ارادة أن وراءهم أن ذلك ليس من جنس ما يطلق عليه السلطان المبين (قالت لهم رسلهم) مجاراة لهم في أول مقالتهم وانما قيل لهم لاختصاص الكلام بهم حيث أريد الزامهم بخلاف ما سلف من انكار وقوع الشك في الله سبحانه فان ذلك عام وان اختص بهم ما يعقبه (ان نحن الا بشر مثلكم) كما تقولون (ولكن الله يمن) بالنبوة (على من يشاء من عباده) يعنون أن ذلك عطية من الله تعالى يعطيها من يشاء من عباده بمحض الفضل والامتنان من غير داعية توجبه قالوه تواضعا وهضما للنفس أو ما نحن من الملائكة بل نحن بشر مثلكم في الصورة أو في الدخول تحت الجنس ولكن الله يمن بالفضائل والكمالات والاستعدادات على من يشاء المن بها وما يشاء ذلك الا لعلمه باستحقاقه لها وتلك الفضائل والكمالات والاستعدادات هي التي يدور عليها ذلك الاصطفاء للنبوة (وما كان) وما صح وما استقام (لنا أن نأتيكم بسلطان) أي بحجة من الحجج فضلا عن السلطان المبين بشيء من الاشياء وسبب من الاسباب (الا باذن الله) فانه أمر يتعلق بمشيئته تعالى ان شاء كان والا فلا (وعلى الله) وحده دون ما عداه مطلقا (فليتوكل المؤمنون) أمر منهم للمؤمنين بالتوكل ومقصودهم حمل أنفسهم عليه آثر ذي أثير الا ترى الى قوله عز وجل (وما لنا) أي أي عذر لنا (أن لا نتوكل على الله) أي في أن لا نتوكل عليه والانظار الى اظهار النشاط بالتوكل عليه والاستلذاذ بذكر اسمه تعالى وتعليل التوكل (وقد هدانا) أي والحال انه قد فعل بنا ما يوجبه ويستدعيه حيث هدانا (سبلنا) أي أرشد كلا منا سبيله ومنهاجه الذي شرع له وأوجب عليه سلوكه في الدين وحيث كانت أذية الكفار مما يوجب القلق والاضطراب القادح في التوكل قالوا على سبيل التوكيد القسمي مظهرين لكمال العزيمة (ولنصبرن على

بعد النفخ في الصور تكون المحاسبة وشرح أحوال السعداء والاشقياء وقيل لما بين سبحانه أنه ليس في الآخرة الا ثقل الموازين وخفتها وجب أن يكون كل مكلف لابد وأن يكون من أهل الجنة وأهل الفلاح أو من أهل النار فيبطل بذلك القول بان فيهم من لا يستحق الثواب والعقاب أو من يتساوى له الثواب والعقاب ثم انه سبحانه شرح حال السعداء بقوله فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون وفي الموازين أقوال (أحدها) أنه استعارة من العدل (وثانيها) أن الموازين هي الاعمال الحسنة فمن أتى بما له قدر وخطر فهو الفائز الظافر ومن أتى بما لا وزن له كقوله تعالى والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيأ فهو خالد في جهنم قال ابن عباس رضي الله عنهما الموازين جمع موزون وهي الموزونات من الاعمال أي الصالحات التي لها وزن وقدر عند الله تعالى من قوله فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا أي قدرا (وثالثها) أنه ميزان له لسان وكفتان يوزن فيه الحسنات في أحسن صورة والسيآت في أقبح صورة فمن ثقلت حسناته سيق الى الجنة ومن ثقلت سيآته فالى النار وتمام الكلام في هذا الباب قد تقدم في سورة الانبياء عليهم السلام وأما الاشقياء فقد وصفهم الله تعالى بأمور أربعة (أحدها) أنهم خسروا أنفسهم قال ابن عباس رضي الله عنهما غبنوها بأن صارت منازلهم للمؤمنين وقيل امتنع انتفاعهم بانفسهم لكونهم في العقاب (وثانيها) قوله في جهنم خالدون ودلالته على خلود الكفار في النار بينة قال صاحب الكشاف في جهنم خالدون بدل من خسروا أنفسهم أو خبر بعد خبر لاولئك أو خبر مبتدأ محذوف (وثالثها) قوله تلفح وجوههم النار قال ابن عباس رضي الله عنهما أي تضرب وتأكل لحومهم وجلودهم قال الزجاج اللفح والنفح واحد الا أن اللفح أشد تأثيرا (ورابعها) قوله وهم فيها كالحون والكلوح أن تتقلص الشفتان ويتباعدا عن الاسنان كما ترى الرؤس المشوية وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال تشويه النار فتتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرته وقرئ كلحون ثم انه سبحانه لما شرح عذابهم حكى ما يقال لهم عند ذلك تقريعا وتوبيخا وهو قوله تعالى ألم تكن آياتي تتلى عليكم ثم انكم كنتم تكذبون بها وبمضمونها فلا جرم صرتم مستحقين لما أنتم فيه من العذاب الاليم قالت المعتزلة الآية تدل على أنهم انما وقعوا في ذلك العذاب لسوء أفعالهم ولو كان فعل العباد بخلق الله تعالى لما صح ذلك (والجواب) أن القادر على الطاعة والمعصية ان صدرت المعصية عنه لا لمرجح البتة كان صدورها عنه اتفاقيا لا اختياريا فوجب أن لا يستحق العقاب وان كان لمرجح فذلك المرجح ليس من فعله والا لزم التسلسل فحينئذ يكون صدور تلك الطاعة عنه اضطراريا لا اختياريا فوجب أن لا يستحق الثواب

۞ قوله تعالى ﴿قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون قال اخسئوا فيها ولا تكلمون انه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون اني جزيتهم اليوم بما صبروا انهم هم الفائزون﴾ اعلم أنه سبحانه لما قال ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ذكروا ما يجري مجرى الجواب عنه وهو من وجوه (الاول) قولهم ربنا غلبت علينا شقوتنا وفيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ قال صاحب الكشاف غلبت علينا ملكتنا من قولك غلبني فلان على كذا اذا أخذه منك والشقاوة سوء العاقبة قرئ شقوتنا وشقاوتنا بفتح الشين وكسرها فيهما قال أبو مسلم الشقوة من الشقاء كجرية الماء والمصدر الجري وقد يجيء لفظ فعلة والمراد به الهيئة والحال فيقول جلسة حسنة وركبة وقعدة وذلك من الهيئة وتقول عاش فلان عيشة طيبة ومات ميتة كريمة وهذا هو الحال والهيئة فعلى هذا المراد من الشقوة حال الشقاء ﴿المسئلة

الثانية﴾

على ما آذيتمونا بالعناد واقتراح الآيات وغير ذلك مما لا خير فيه (وعلى الله) خاصة (فليتوكل المتوكلون) أى فليثبت المتوكلون على ما أحدثوه من التوكل والمراد هو والمراد مما سبق من ايجاب التوكل على أنفسهم والمراد بالمتوكلين المؤمنون والتعبير عنهم بذلك لسبق ذكر اتصافهم به ويجوز أن يراد وعليه فليتوكل من يتوكل دون غيره (وقال الذين كفروا)

لعل هؤلاء القائلين بعض المتمردين العاتين الغالين فى الكفر من أولئك الأمم الكافرة التى نقلت مقالاتهم الشنيعة دون جميعهم كقوم شعيب وأضرابهم ولذلك لم يقل وقالوا (لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا) لم يقنعوا بعصيانهم الرسل ومعاندتهم الحق بعد ما رأوا البينات الفائتة للحصر حتى اجترؤا على مثل هاتيك العظيمة التى لا يكاد يحيط بها دائرة الامكان حلفوا على أن يكون أحد الحالين والعود اما بمعنى مطلق الصيرورة أو باعتبار تغليب المؤمنين على الرسل وقد مر فى الأعراف وسيأتى فى الكهف (فأوحى اليهم) أى الى الرسل (ربهم) مالك أمرهم عند تناهى كفر الكفرة وبلوغهم من العتو الى غاية لا مطمع بعدها فى ايمانهم (لنهلكن الظالمين) على اضمار القول أو على اجراء الايحاء مجراه لكونه ضربا منه (ولنسكننكم الأرض) أى أرضهم وديارهم عقوبة لهم بقولهم لنخرجنكم من أرضنا كقوله تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها (من بعدهم) أى من بعد اهلاكهم وقرئ ليهلكن وليسكننكم بالياء اعتبارا لاوحى كقولهم حلف زيد ليخرجن غدا (ذلك) اشارة الى الموحى به وهو اهلاك الظالمين واسكان المؤمنين ديارهم أى ذلك الأمر محقق ثابت (لمن خاف مقامى) موقفى وهو الموقف الذى يقف

الثانية) قال الجبائى المراد ان طلبنا اللذات المحرمة وحرصنا على العمل القبيح ساقنا الى هذه الشقاوة فاطلق اسم المسبب على السبب وليس هذا باعتذار منهم لعلمهم بأن لا عذر لهم فيه ولكنه اعتراف بقيام حجة الله تعالى عليهم فى سوء صنيعهم قلنا انك حملت الشقاوة على طلب تلك اللذات المحرمة وطلب تلك اللذات حصل باختيارهم أو لا باختيارهم فان حصل باختيارهم فذلك الاختيار محدث فان استغنى عن المؤثر فلم لا يجوز فى كل الحوادث ذلك وحينئذ ينسد عليك باب اثبات الصانع وان افتقر الى محدث فمحدثه اما العبد أو الله تعالى فان كان هو العبد فذلك باطل لوجوه (أحدها) أن قدرة العبد صالحة للفعل والترك فان توقف صدور تلك الارادة عنها الى مرجح آخر عاد الكلام فيه ولزم التسلسل وان توقف على المرجح فقد جوزت رجحان أحد طرفى الممكن على الآخر لا لمرجح وذلك يسد باب اثبات الصانع (وثانيها) أن العبد لا يعلم كمية تلك الافعال ولا كيفيتها والجاهل بالشئ لا يكون محدثا له والا لبطلت دلالة الاحكام والاتقان على العلم (والثانى) أن أحدا فى الدنيا لا يرضى أن يختار الجهل بل لا يقصد الا تحصيل العلم فالكافر ما قصد الا تحصيل العلم فان كان الموجب لفعله هو فوجب أن لا يحصل الا ما قصد ايقاعه لكنه لم يقصد الا بالعلم فكيف حصل الجهل فثبت أن الموجد للدواعى والبواعث هو الله تعالى ثم ان الداعية ان كانت سائقة الى الخير كانت سعادة وان كانت سائقة الى الشر كانت شقاوة (الوجه الثانى) لهم فى الجواب قولهم وكنا قوما ضالين وهذا الضلال الذى جعلوه كالعلة فى اقدامهم على التكذيب ان كان هو نفس ذلك التكذيب لزم تعليل الشئ بنفسه ولما بطل ذلك لم يبق الا أن يكون ذلك الضلال عبارة عن شئ آخر ترتب عليه فعلهم وما ذاك الا خلق الدواعى الى الضلال ثم ان القوم لما أوردوا هذين العذرين قال لهم سبحانه اخسؤا فيها ولا تكلمون وهذا هو صريح قولنا فى أن المناظرة مع الله تعالى غير جائزة بل لا يسأل عما يفعل قال القاضى فى قوله ربنا غلبت علينا شقوتنا دلالة على أنهم لا عذر لهم الا الاعتراف فلو كان كفرهم من خلقه تعالى وبارادته وعلموا ذلك لكانوا بأن يذكروا ذلك أجدر والى العذر أقرب فنقول قد بينا أن الذى ذكروه ليس الا ذلك ولكنهم مقرون أن لا عذر لهم فلا جرم قال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون أما قوله ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون فالمعنى أخرجنا من هذه الدار الى دار الدنيا فان عدنا الى الاعمال السيئة فانا ظالمون فان قيل كيف يجوز أن يطلبوا ذلك وقد علموا أن عقابهم دائم قلنا يجوز أن يلحقهم السهو عن ذلك فى أحوال شدة العذاب فيسألون الرجعة ويحتمل أن يكون مع علمهم بذلك يسألون ذلك على وجه الغوث والاسترواح أما قوله اخسؤا فيها فالمعنى ذلوا فيها وانزجروا كما يزجر الكلاب اذا زجرت يقال خسأ الكلب وخسأ بنفسه أما قوله ولا تكلمون فليس هذا نهيا لانه لا تكليف فى الآخرة بل المراد لا تكلمون فى رفع العذاب فانه لا يرفع ولا يخفف قيل هو آخر كلام يتكلمون به ثم لا كلام بعد ذلك الا الشهيق والزفير والعواء كعواء الكلاب لا يفهمون ولا يفهمون وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن لهم ست دعوات اذا دخلوا النار قالوا ألف سنة ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا فيجابون حق القول منى فينادون ألف سنة ثانية ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فيجابون ذلك بأنه اذا دعى الله وحده كفرتم فينادون ألفا ثالثة يا مالك ليقض علينا ربك فيجابون انكم ماكثون فينادون ألفا رابعة ربنا أخرجنا فيجابون أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال فينادون ألفا خامسة أخرجنا نعمل صالحا فيجابون أولم نعمركم فينادون ألفا سادسة رب ارجعون فيجابون اخسؤا فيها ثم بين سبحانه وتعالى أن فزعهم بأمر يتصل بالمؤمنين وهو قوله انه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا فوصف تعالى أنهم لاجله عذبوا

وبعدوا من الخير وهو ما عاملوا به المؤمنين وفي حرف أبي انه كان فريق بالفتح بمعنى لانه وقرأ نافع وأهل المدينة وأهل الكوفة عن عاصم بضم السين في جميع القرآن وقرأ الباقون بالكسر ههنا وفي ص قال الخليل وسيبويه هما لغتان كدري ودري وقال الكسائي والفراء الكسر بمعنى الاستهزاء بالقول والضم بمعنى السخرية قال مقاتل ان رؤساء قريش مثل أبي جهل وعتبة وأبي بن خلف كانوا يستهزؤن بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويضحكون بالفقراء منهم مثل بلال وخباب وعمار وصهيب والمعنى اتخذتموهم هزوا حتى أنسوكم بتشاغلكم بهم على تلك الصفة ذكري وأكد ذلك بقوله وكنتم منهم تضحكون ثم بين سبحانه ما يقتضي فيهم الاسف والحسرة بأن وصف ما جازى به أولئك المؤمنين فقال اني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون قرأ حمزة والكسائي انهم بالكسر والباقون بالفتح فالكسر استئناف أي قد فازوا حيث صبروا فجوزوا بصبرهم أحسن الجزاء والفتح على انه في موضع المفعول الثاني من جزيت ويجوز أن يكون نصبا باضمار الخافض أي جزيتهم الجزاء الوافر لانهم هم الفائزون ۞ قوله تعالى ﴿قال كم لبثتم في الارض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسئل العادين قال ان لبثتم الا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم﴾ اعلم أن في هذه الآية مسائل (المسألة الاولى) قال صاحب الكشاف في مصاحف أهل الكوفة قال وهو ضمير الله أو المأمور بسؤالهم من الملائكة وقل في مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام وهو ضمير الملك أو بعض رؤساء أهل النار (المسألة الثانية) الغرض من هذا السؤال التبكيت والتوبيخ فقد كانوا ينكرون اللبث في الآخرة أصلا ولا يعدون اللبث الا في دار الدنيا ويظنون ان بعد الموت يدوم الفناء ولا اعادة فلما حصلوا في النار وأيقنوا انها دائمة وهم فيها مخلدون سألهم كم لبثتم في الارض تنبيها لهم على ان ما ظنوه دائما طويلا فهو يسير بالاضافة الى ما أنكروه فحينئذ تحصل لهم الحسرة على ما كانوا يعتقدونه في الدنيا من حيث أيقنوا خلافه فليس الغرض السؤال بل الغرض ما ذكرنا * فان قيل فكيف يصح في جوابهم أن يقولوا لبثنا يوما أو بعض يوم ولا يقع من أهل النار الكذب * قلنا لعلهم نسوا ذلك لكثرة ما هم فيه من الاهوال وقد اعترفوا بهذا النسيان حيث قالوا فاسأل العادين قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنساهم ما كانوا فيه من العذاب بين النفختين وقيل مرادهم بقولهم لبثنا يوما أو بعض يوم تصغير لبثهم وتحقيره بالاضافة الى ما وقعوا فيه وعرفوه من أليم العذاب والله أعلم (المسألة الثالثة) اختلفوا في أن السؤال عن أي لبث وقع فقال بعضهم لبثهم أحياء في الدنيا ويكون المراد انهم أمهلوا حتى تمكنوا من العلم والعمل فأجابوا بأن قدر لبثهم كان يسيرا بناء على ان الله تعالى أعلمهم ان الدنيا متاع قليل وأن الآخرة هي دار القرار وهذا القائل احتج على قوله بأنهم كانوا يزعمون أن لا حياة سواها فلما أحياهم الله تعالى في النار وعذبوا سئلوا عن ذلك توبيخا لانه الى التوبيخ أقرب وقال آخرون بل المراد اللبث في حال الموت واحتجوا على قولهم بأمرين (الاول) ان قوله في الارض يفيد الكون في القبر ومن كان حيا فالاقرب أن يقال انه على الارض وهذا ضعيف لقوله ولا تفسدوا في الارض (الثاني) قوله تعالى ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ثم بين سبحانه انهم كذبوا في ذلك وأخبر عن المؤمنين قولهم لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث (المسألة الرابعة) احتج من أنكر عذاب القبر بهذه الآية فقال قوله كم لبثتم في الارض يتناول زمان كونهم أحياء فوق الارض وزمان كونهم أمواتا في بطن الارض فلو كانوا معذبين في القبر لعلموا ان مدة مكثهم في الارض طويلة فما كانوا يقولون لبثنا يوما أو بعض يوم (والجواب) من وجهين (أحدهما)

فيه العباد يوم يقوم الناس لرب العالمين أو قيامي عليه وحفظي لاعماله وقيل لفظ المقام مقحم (وخاف وعيد) وعيدي بالعذاب أو عذابي الموعود للكفار والمعنى أن ذلك حق للمتقين كقوله والعاقبة للمتقين (واستفتحوا) أي استنصروا الله على أعدائهم كقوله تعالى ان تستفتحوا فقد جاءكم الفتح أو استحكموا وسألوه القضاء بينهم من الفتاحة وهي الحكومة كقوله تعالى ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق فالضمير للرسل وقيل للكفرة وقيل للفريقين فانهم سألوا أن ينصر المحق ويهلك المبطل وهو معطوف على أوحى اليهم وقرئ بلفظ الامر عطفا على لنهلكن أي أوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين وقال لهم استفتحوا (وخاب) أي خسر وهلك (كل جبار عنيد) متصف بضد ما اتصف به المتقون أي فنصروا عند استفتاحهم وظفروا بما سألوا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد وهم قومهم المعاندون فالخيبة بمعنى مطلق الحرمان دون الحرمان عن المطلوب أو ذلك باعتبار أنهم كانوا يزعمون أنهم على الحق أو استفتح الكفار على الرسل وخابوا ولم يفلحوا وانما قيل وخاب كل جبار عنيد ذما لهم وتسجيلا عليهم بالتجبر والعناد لا أن بعضهم ليسوا كذلك وأنه لم تصبهم الخيبة أو استفتحوا جميعا فنصر الرسل وأنجز لهم الوعد وخاب كل عات متمرد فالخيبة بمعنى الحرمان عن الطلب وفي اسناد الخيبة الى كل منهم ما لا يخفى من المبالغة (من ورائه جهنم) أي بين يديه فانه مرصد لها واقف على شفيرها في الدنيا مبعوث اليها في الآخرة ان وقيل من وراء حياته وحقيقته ما توارى عنك (ويسقى) معطوف على مقدر جوابا عن سؤال سائل كأنه قيل فماذا يكون اذن فقيل يلقى فيها ويسقى (من ماء) مخصوص لا كالمياه المعهودة (صديد) وهو قيح أو دم مختلط بمدة يسيل من الجرح قال مجاهد وغيره هو

ان الجواب لابد وأن يكون بحسب السؤال وانما سئلوا عن موت لا حياة بعده الا في الآخرة وذلك لا يكون
الا بعد عذاب القبر (والثاني) يحتمل أن يكونوا سئلوا عن قدر اللبث الذي اجتمعوا فيه فلا يدخل في ذلك
تقدم موت بعضهم على بعض فيصح أن يكون جوابهم لبثنا يوما أو بعض يوم عند أنفسنا أما قوله فاسأل
العادين ففيه وجوه (أحدها) المراد بهم الحفظة فانهم كانوا يحصون الاعمال وأوقات الحياة ويحسبون
أوقات موتهم وتقدم من تقدم وتأخر من تأخر وهو معنى قول عكرمة فاسأل العادين أي الذين يحسبون
(وثانيها) فاسأل الملائكة الذين يعدون أيام الدنيا وساعاتها (وثالثها) أن يكون المعنى سل من يعرف عدد
ذلك فانا قد نسيناه (ورابعها) قرئ العادين بالتخفيف أي الظلمة فانهم يقولون مثل ما قلنا (وخامسها) قرئ
العاديين أي القدماء المعمرين فانهم يستقصرونها فكيف بمن دونهم أما قوله ان لبثتم الا قليلا فالمعنى انهم
قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم على معنى إنا لبثنا في الدنيا قليلا فكأنه قيل لهم صدقتم ما لبثتم فيها الا قليلا الا انها
انقضت ومضت فظاهر أن الغرض من هذا السؤال تعريف قلة أيام الدنيا في مقابلة أيام الآخرة فأما قوله
تعالى لو أنكم كنتم تعلمون ففيه في هذا الوجه انه أراد انه قليل لو علمتم البعث والحشر لكنكم لما أنكرتم ذلك كنتم
تعدونه طويلا ثم بين تعالى ما هو في التوبيخ أعظم بقوله أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون
وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف عبثا حال أي عابثين كقوله لاعبين أو مفعول
به أي ما خلقناكم للعبث (المسئلة الثانية) انه سبحانه لما شرح صفات القيامة ختم الكلام فيها باقامة
الدلالة على وجودها وهي انه لولا القيامة لما تميز المطيع من العاصي والصديق من الزنديق وحينئذ يكون
خلق هذا العالم عبثا وأما الرجوع الى الله تعالى فالمراد الى حيث لا مالك ولا حاكم سواه لا انه رجوع من
مكان الى مكان لاستحالة ذلك على الله تعالى ثم انه تعالى نزه نفسه عن العبث بقوله تعالى فتعالى الله الملك
الحق والملك هو المالك للاشياء الذي لا يبيد ولا يزول ملكه وقدرته وأما الحق فهو الذي يحق له الملك لان كل
شئ منه واليه وهو الثابت الذي لا يزول ولا يزول ملكه وبين انه لا اله سواه وأن ما عداه فمصيره الى الفناء وما
يفنى لا يكون الها وبين انه تعالى رب العرش الكريم قال أبو مسلم والعرش ههنا السموات بما فيها من العرش
الذي تطوف به الملائكة ويجوز أن يعني به الملك العظيم وقال الاكثرون المراد هو العرش حقيقة وانما
وصفه بالكريم لان الرحمة تنزل منه والخير والبركة ولنسبته الى أكرم الاكرمين كما يقال بيت كريم اذا كان
ساكنوه كراما وقرئ الكريم بالرفع ونحوه ذو العرش المجيد ۞ قوله تعالى ﴿ومن يدع مع الله الها آخر
لا برهان له به فانما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾ اعلم أنه
سبحانه لما بين انه هو الملك الحق لا اله الا هو أتبعه بأن من ادعى الها آخر فقد ادعى باطلا من حيث
لا برهان لهم فيه ونبه بذلك على ان كل ما لا برهان فيه لا يجوز اثباته وذلك يوجب صحة النظر وفساد التقليد
ثم ذكر ان من قال بذلك فجزاؤه العقاب العظيم بقوله فانما حسابه عند ربه كأنه قال ان عقابه بلغ الى حيث
لا يقدر أحد على حسابه الا الله تعالى وقرئ أنه لا يفلح بفتح الهمزة ومعناه حسابه عدم الفلاح جعل فاتحة
السورة قد أفلح المؤمنون وخاتمتها انه لا يفلح الكافرون فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة ثم أمر الرسول صلى الله
عليه وسلم بأن يقول رب اغفر وارحم ويثني عليه بأنه خير الراحمين وقد تقدم بيان انه سبحانه خير الراحمين
فان قيل كيف تتصل هذه الخاتمة بما قبلها قلنا لانه سبحانه لما شرح أحوال الكفار في جهلهم في الدنيا
وعذابهم في الآخرة أمر بالانقطاع الى الله تعالى والالتجاء الى دلائل غفرانه ورحمته فانهما العاصمان
عن كل الآفات والمخافات وروى ان أول سورة قد أفلح المؤمنون وآخرها من كنوز العرش من عمل

ما يسيل من أجساد أهل النار وهو عطف بيان لما أبهم أولا ثم بين بالصديد تهويلا لامره وتخصيصه بالذكر من بين عذابها يدل على أنه
من أشد أنواعه (يتجرعه) قيل هو صفة لماء أو حال منه والاظهر أنه استئناف مبني على السؤال كأنه قيل فماذا يفعل به فقيل يتجرعه
أي يتكلف جرعته مرة بعد أخرى لغلبة العطش واستيلاء الحرارة عليه (ولا يكاد يسيغه) أي لا يقارب أن يسيغه فضلا عن
الاساغة بل يغص به
فيشربه بعد اللتيا والتي
جرعة غب جرعة فيطول
عذابه تارة بالحرارة
والعطش وأخرى بشربه
على تلك الحال فان
السوغ انحدار الشراب
في الحلق بسهولة وقبول
نفس ونفيه لا يوجب
نفي ما ذكر جميعا وقيل
لا يكاد يدخله في جوفه
وعبر عنه بالاساغة لما
أنها المعهودة في الاشربة
وهو حال من فاعل
يتجرعه أو من مفعوله
أو منهما جميعا (ويأتيه
الموت) أي أسبابه من
الشدائد (من كل مكان)
ويحيط به من جميع
الجهات أو من كل مكان
من جسده حتى من
أصول شعره وابهام رجله
(وما هو بميت) أي والحال
أنه ليس بميت حقيقة كما
هو الظاهر من مجئ
أسبابه لاسيما من جميع
الجهات حتى لا يتألم بما
غشيه من أصناف
الموبقات (ومن ورائه)
من بين يديه (عذاب
غليظ) يستقبل كل
وقت عذابا أشد وأشق
مما كان قبله فيه دفع
ما يتوهم من الخفة بحسب
الاعتياد كما في عذاب الدنيا وقيل هو الخلود في النار وقيل هو حبس الانفاس وقيل المراد بالاستفتاح والخيبة استسقاء أهل مكة في
سنيهم التي أرسلها الله تعالى عليهم بدعوته عليه الصلاة والسلام وخيبتهم في ذلك وقد وعد لهم بدل ذلك صديد أهل النار (مثل الذين
كفروا بربهم) أي صفتهم وحالهم العجيبة الشأن التي هي كالمثل في الغرابة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (أعمالهم كرماد) كقولك صفة

زيد عرضه مهتوك وماله منهوب وهو استئناف مبنى على سؤال من قال ما بال أعمالهم التى عملوها فى وجوه البر من صلة الارحام واعتاق الرقاب وفداء الاسارى واغاثة الملهوفين وقرى الاضياف وغير ذلك مما هو من باب المكارم حتى آل أمرهم الى هذا المآل فأجيب بأن ذلك كرماد (اشتدت به الريح) حملته وأسرعت الذهاب به (فى يوم عاصف) العصف اشتداد الريح وصف به زمانها مبالغة كقولك ليلة ساكرة وانما السكور لريحها شبهت صنائعهم المعدودة لابتنائها على غير أساس من معرفة الله تعالى والايمان به والتوجه بها اليه تعالى برماد طيرته الريح العاصفة أو استئناف مسوق لبيان أعمالهم للاصنام أو مبتدأ خبره محذوف كما هو رأى سيبويه أى فيما يتلى عليك مثلهم وقوله أعمالهم جملة مستأنفة مبنية على سؤال من يقول كيف مثلهم فقيل أعمالهم كيت وكيت سواء أريد بها صنائعهم أو أعمالهم لاصنامهم وقيل أعمالهم بدل من مثل الذين وقوله كرماد خبره (لا يقدرون) أى يوم القيامة (مما كسبوا) من تلك الاعمال (على شئ) ما أى لا يرون له أثرا من ثواب أو تخفيف عذاب كدأب الرماد المذكور وهو فذلكة التمثيل والاكتفاء ببيان عدم رؤية الاثر لاعمالهم للاصنام مع أن لها عقوبات هائلة للتصريح ببطلان اعتقادهم وزعمهم أنها شفعاء لهم عند الله تعالى وفيه تهكم بهم (ذلك) أى ما دل عليه التمثيل دلالة واضحة من ضلالهم مع والحدوث حسبانهم أنهم على شئ (هو الضلال البعيد) عن طريق الحق والصواب أو عن نيل الثواب (ألم تر) خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته وقيل لكل أحد من الكفرة لقوله تعالى يذهبكم والرؤية رؤية القلب وقوله تعالى (أن الله خلق السموات والارض) بالد

ثلاث آيات من أولها وانعظ بأربع من آخرها فقد نجا وأفلح والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب والحمد لله وحده وصلاته على خير خلقه سيدنا محمد وآله وأصحابه وأزواجه وعترته وأهل بيته

﴿سورة النور مدنية كلها وهى ثنتان وقيل أربع وستون آية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون﴾ قرأ العامة سورة بالرفع وقرأ طلحة ابن مصرف بالنصب أما الذين قرؤا بالرفع فالجمهور قالوا الابتداء بالنكرة لا يجوز والتقدير هذه سورة أنزلناها أو نقول سورة أنزلناها مبتدأ موصوف والخبر محذوف أى فيما أوحينا اليك سورة أنزلناها وقال الاخفش لا يبعد الابتداء بالنكرة فسورة مبتدأ وأنزلناها خبره ومن نصب فعلى معنى الفعل يعنى اتبعوا سورة أو اتل سورة أو أنزلنا سورة وأما معنى السورة ومعنى الانزال فقد تقدم * فان قيل الانزال انما يكون من صعود الى نزول فهذا يدل على انه تعالى فى جهة * قلنا الجواب من وجوه (أحدها) ان جبريل عليه السلام كان يحفظها من اللوح المحفوظ ثم ينزلها عليه صلى الله عليه وسلم فلهذا جاز أن يقال أنزلناها توسعا (وثانيها) ان الله تعالى أنزلها من أم الكتاب الى السماء الدنيا دفعة واحدة ثم أنزلها بعد ذلك نجوما على لسان جبريل عليه السلام (وثالثها) معنى أنزلناها أى أعطيناها الرسول كما يقول العبد اذا كلم سيده رفعت اليه حاجتى كذلك يكون من السيد الى العبد الانزال قال الله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه أما قوله وفرضناها فالمشهور قراءة التخفيف وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتشديد أما قراءة التخفيف فالفرض هو القطع والتقدير قال الله تعالى فنصف ما فرضتم أى قدرتم ان الذى فرض عليك القرآن أى قدرتم ان السورة لا يمكن فرضها لانها قد دخلت فى الوجود وتحصيل الحاصل محال فوجب أن يكون المراد وفرضنا ما بين فيها وانما قال ذلك لان أكثر ما فى هذه السورة من باب الاحكام والحدود فلذلك عقبها بهذا الكلام وأما قراءة التشديد فقال الفراء التشديد للمبالغة والتكثير أما المبالغة فمن حيث انها حدود وأحكام فلا بد من المبالغة فى ايجابها ليحصل الانقياد لقبولها وأما التكثير فلوجهين (أحدهما) ان الله تعالى بين فيها أحكاما مختلفة (والثانى) أنه سبحانه وتعالى أوجبها على كل المكلفين الى آخر الدهر أما قوله وأنزلنا فيها آيات بينات ففيه وجوه (أحدها) انه سبحانه ذكر فى أول السورة أنواعا من الاحكام والحدود وفى آخرها دلائل التوحيد فقوله وفرضناها اشارة الى الاحكام التى بينها أولا ثم قوله وأنزلنا فيها آيات بينات اشارة الى ما بين من دلائل التوحيد والذى يؤكد هذا التأويل قوله لعلكم تذكرون فان الاحكام والشرائع ما كانت معلومة لهم ليؤمروا بتذكرها أما دلائل التوحيد فقد كانت كالمعلومة لهم لظهورها فأمروا بتذكرها (وثانيها) قال أبو مسلم يجوز أن تكون الآيات البينات ما ذكر فيها من الحدود والشرائع كقوله رب اجعل لى آية قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا سأل ربه أن يفرض عليه عملا (وثالثها) قال القاضى ان السورة كما اشتملت على عمل الواجبات فقد اشتملت على كثير من المباحات بأن بينها الله تعالى ولما كان بيانه سبحانه لها مفصلا وصف الآيات بأنها بينات أما قوله تعالى لعلكم تذكرون فقرئ بتشديد الذال وتخفيفها ومعنى لعل قد تقدم فى سورة البقرة قال القاضى لعل بمعنى كى وهذا يدل على انه سبحانه أراد من جميعهم أن يتذكروا (والجواب) أنه سبحانه لو أراد ذلك من الكل لما قوى دواعيهم الى جانب المعصية ولو لم توجد تلك التقوية لزم وقوع الفعل لا لمرجح ولو جاز ذلك لما جاز الاستدلال بالامكان

والحدوث على وجود المرجح ويلزم نفي الصانع وإذا كان كذلك وجب حمل لعل على سائر الوجوه المذكورة في سورة البقرة واعلم أنه سبحانه ذكر في هذه السورة أحكاما كثيرة (الحكم الاول) قوله تعالى ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ اعلم أن قوله تعالى الزانية والزاني رفعهما على الابتداء والخبر محذوف عند الخليل وسيبويه على معنى فيما فرض الله عليكم الزانية والزاني أي فاجلدوهما ويجوز أن يكون الخبر فاجلدوا وإنما دخلت الفاء لكون الالف واللام بمعنى الذي وتضمنه معنى الشرط تقديره التي زنت والذي زنى فاجلدوهما كما تقول من زنا فاجلدوه وقرئ بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر وقرئ والزان بلا ياء واعلم أن الكلام في هذه الآية على نوعين (أحدهما) ما يتعلق بالشرعيات (والثاني) ما يتعلق بالعقليات ونحن نأتي على البابين بقدر الطاقة إن شاء الله تعالى ﴿النوع الاول﴾ الشرعيات واعلم أن الزنا حرام وهو من الكبائر ويدل عليه أمور (أحدها) أن الله تعالى قرنه بالشرك وقتل النفس في قوله تعالى والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما وقال ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا (وثانيها) أنه تعالى أوجب المائة فيه بكمالها بخلاف حد القذف وشرب الخمر وشرع فيه الرجم ونهى المؤمنين عن الرأفة وأمر بشهود الطائفة للتشهير وأوجب كون تلك الطائفة من المؤمنين لأن الفاسق من صلحاء قومه أخجل (وثالثها) روى حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يا معشر الناس اتقوا الزنا فإن فيه ست خصال ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة أما التي في الدنيا فيذهب البهاء ويورث الفقر وينقص العمر وأما التي في الآخرة فسخط الله سبحانه وتعالى وسوء الحساب وعذاب النار وعن عبد الله قال قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم عند الله قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أي قال وأن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك قلت ثم أي قال وأن تزني بحليلة جارك فأنزل الله تعالى تصديقها والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون واعلم أنه يجب البحث في هذه الآية عن أمور (أحدها) عن ماهية الزنا (وثانيها) عن أحكام الزنا (وثالثها) عن الشرائط المعتبرة في كون الزنا موجبا لتلك الاحكام (ورابعها) عن الطريق الذي به يعرف حصول الزنا (وخامسها) أن المخاطبين بقوله فاجلدوا من هم (وسادسها) أن الرجم والجلد المأمور بهما في الزنا كيف يكون حالهما ﴿البحث الاول﴾ عن ماهية الزنا قال بعض أصحابنا إنه عبارة عن إيلاج فرج في فرج مشتهى طبعا محرم قطعا وفيه مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ اختلفوا في أن اللواطة هل ينطلق عليها اسم الزنا أم لا فقال قائلون نعم واحتج عليه بالنص والمعنى أما النص فما روى أبو موسى الاشعري رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان وأما المعنى فهو أن اللواط مثل الزنا صورة ومعنى أما الصورة فلأن الزنا عبارة عن إيلاج فرج في فرج مشتهى طبعا محرم قطعا والدبر أيضا فرج لأن القبل إنما سمي فرجا لما فيه من الانفراج وهذا المعنى حاصل في الدبر أكثر ما في الباب أن في العرف لا تسمى اللواطة زنا ولكن هذا لا يقدح في أصل اللغة كما يقال هذا طبيب وليس بعالم مع أن الطب علم وأما المعنى فلأن الزنا قضاء للشهوة من محل مشتهى طبعا على جهة الحرام المحض وهذا موجود في اللواط لأن القبل والدبر يشتهيان لأنهما يشتركان في المعاني التي هي متعلق الشهوة من الحرارة واللين وضيق المدخل ولذلك فإن من يقول بالطبائع لا يفرق بين المحلين وإنما المفرق هو الشرع في التحريم والتحليل فهذا حجة من قال اللواط داخل تحت اسم الزنا وأما الاكثرون من أصحابنا

مسند مفعولي ألم أي ألم تعلم أنه تعالى خلقهما (بالحق) ملتبسة بالحكمة والوجه الصحيح الذي يحق أن تخلق عليه وقرئ خالق السموات والارض (إن يشأ يذهبكم) يعدمكم بالمرة (ويأت بخلق جديد) أي يخلق بدلكم خلقا آخر مستأنفا لا علاقة بينكم وبينهم رتب قدرته تعالى على ذلك على قدرته تعالى على خلق السموات والارض على هذا النمط البديع إرشادا إلى طريق الاستدلال فإن من قدر على خلق مثل هاتيك الاجرام العظيمة كان على تبديل خلق آخر بهم أقدر ولذلك قال (وما ذلك) أي ذهابكم والاتيان بخلق جديد مكانكم (على الله بعزيز) بمتعذر أو متعسر فإنه قادر لذاته على جميع الممكنات لا اختصاص له بمقدور دون مقدور ومن هذا شأنه حقيق بأن يؤمن به ويرجى ثوابه ويخشى عقابه (وبرزوا لله جميعا) أي يبرزون يوم القيامة وإيثار صيغة الماضي للدلالة على تحقق وقوعه كما في قوله سبحانه ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أو لأنه لا مضي ولا استقبال بالنسبة إليه سبحانه والمراد بروزهم من قبورهم لأمر الله تعالى ومحاسبته أو لله على ظنهم فإنهم كانوا يظنون عند ارتكابهم الفواحش سرا أنها تخفى على الله سبحانه فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم (فقال الضعفاء) الاتباع جمع ضعيف والمراد ضعف الرأي وإنما كتب بالواو على لفظ من يفخم الالف قبل الهمزة (للذين استكبروا) لرؤسائهم الذين استتبعوهم واستغووهم (إنا كنا) في الدنيا (لكم تبعا) في تكذيب الرسل عليهم السلام والاعراض عن نصائحهم وهو جمع تابع كغيب في جمع غائب أو مصدر نعت به مبالغة أو على إضمار أي ذوي تبع (فهل أنتم مغنون) دافعون (عنا) والفاء للدلالة على سببية الاتباع للاغناء والمراد التوبيخ والعتاب والتقريع والتبكيت

(من عذاب الله من شئ) من الاولى للبيان واقعة موقع الحال والثانية للتبعيض واقعة موقع المفعول أي بعض الشئ الذي هو عذاب الله تعالى ويجوز كونهما للتبعيض أي بعض شئ هو بعض عذاب الله والاعراب كما سبق ويجوز أن تكون الاولى مفعولا والثانية مصدرا أي فهل أنتم مغنون عنا بعض العذاب بعض الاغناء ويعضد الاول قوله تعالى فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار (قالوا) أي المستكبرون جوابا عن معاتبة الاتباع واعتذارا عما فعلوا بهم (لو هدانا الله) أي للايمان ووفقنا له (لهديناكم) ولكن ضللنا فأضللناكم أي اخترنا لكم ما اخترناه لانفسنا أو لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم وأغنيناعنكم كما عرضناكم له ولكن سد دوننا طريق الخلاص ولات حين مناص (سواء علينا أجزعنا) مما لقينا (أم صبرنا) على ذلك أي مستو علينا الجزع والصبر في عدم الانجاء والهمزة وأم لتأكيد التسوية كما في قوله تعالى سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم وانما أسندوهما ونسبوا استواءهما الى ضمير المتكلم المنتظم للمخاطبين أيضا مبالغة في النهي عن التوبيخ باعلام أنهم شركاؤهم فيما ابتلوا به وتسلية لهم ويجوز أن يكون قوله سواء علينا الخ من كلام الفريقين على منوال قوله تعالى ذلك ليعلم أني لم أخنه ويؤيده ما روى أنهم يقولون تعالوا نجزع فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم فيقولون تعالوا نصبر فيصبرون كذلك فلا ينفعهم فعند ذلك يقولون ذلك ولما كان عتاب الاتباع من باب الجزع ذيلوا جوابهم ببيان أن لا جدوى في ذلك فقالوا (ما لنا من محيص) من منجى ومهرب من العذاب من حاص الحمار اذا عدل بالفرار وهو اما اسم مكان كالمبيت والمصيف أو مصدر كالمغيب والمشيب وهي جملة مفسرة لاجمال ما فيه

فقد سلموا أن اللواط غير داخل تحت اسم الزنا واحتجوا عليه بوجوه (أحدها) العرف المشهور من أن هذا لواط وليس بزنا وبالعكس والاصل عدم التغيير (وثانيها) لو حلف لا يزني فلاط لا يحنث (وثالثها) أن الصحابة اختلفوا في حكم اللواط وكانوا عالمين باللغة فلو سمى اللواط زنا لاغناهم نص الكتاب في حد الزنا عن الاختلاف والاجتهاد وأما الحديث فهو محمول على الاثم بدليل قوله عليه الصلاة والسلام اذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان وقال عليه الصلاة والسلام اليدان تزنيان والعينان تزنيان وأما القياس فبعيد لان الفرج وان كان سمى فرجا لما فيه من الانفراج فلا يجب أن يسمى كل ما فيه انفراج بالفرج والا لكان الفم والعين فرجا وأيضا فهم سموا النجم نجما لظهوره ثم ما سموا كل ظاهر نجما وسموا الجنين جنينا لاستتاره وما سموا كل مستتر جنينا اعلم أن للشافعي رحمه الله في فعل اللواط قولان (أصحهما) عليه حد الزنا ان كان محصنا يرجم وان لم يكن محصنا يجلد مائة ويغرب عاما (وثانيهما) يقتل الفاعل والمفعول به سواء كان محصنا أو لم يكن محصنا لما روى ابن عباس رضي الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام قال من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به ثم في كيفية قتله أوجه (أحدها) تحز رقبته كالمرتد (وثانيها) يرجم بالحجارة وهو قول مالك وأحمد واسحق (وثالثها) يهدم عليه جدار يروى ذلك عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه (ورابعها) يرمى من شاهق جبل حتى يموت يروى ذلك عن علي عليه السلام وانما ذكروا هذه الوجوه لان الله تعالى عذب قوم لوط بكل ذلك فقال تعالى فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل وعند أبي حنيفة رحمه الله لا يحد اللوطي بل يعزر أما المفعول به فان كان عاقلا بالغا طائعا فان قلنا على الفاعل القتل فيقتل المفعول به على صفة قتل الفاعل للخبر وان قلنا على الفاعل حد الزنا فعلى المفعول به مائة جلدة وتغريب عام محصنا كان أو غير محصن وقيل ان كانت امرأة محصنة فعليها الرجم وليس بصحيح لانها لا تصير محصنة بالتمكين في الدبر فلا يلزمها حد المحصنات كما لو كان المفعول به ذكرا حجة الشافعي رحمه الله على وجوب الحد من وجوه (الاول) أن اللواط اما أن يساوي الزنا في الماهية أو يساويه في لوازم هذه الماهية واذا كان كذلك وجب الحد (بيان الاول) قوله عليه الصلاة والسلام اذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان فاللفظ دل على كون اللائط زانيا واللفظ الدال بالمطابقة على ماهية دال بالالتزام على حصول جميع لوازمها ودلالة المطابقة والالتزام مشتركان في أصل الدلالة فاللفظ الدال على حصول الزنا دال على حصول جميع اللوازم ثم بعد هذا ان تحقق مسمى الزنا في اللواط دخل تحت قوله الزانية والزاني فاجلدوا وان لم يتحقق مسمى الزنا وجب أن يتحقق لوازم مسمى الزنا لما ثبت أن اللفظ الدال على تحقق ماهية دال على تحقق جميع تلك اللوازم ترك العمل به في حق الماهية فوجب أن يبقى معمولا به في الدلالة على جميع تلك اللوازم لكن من لوازم الزنا وجوب الحد فوجب أن يتحقق ذلك في اللواط أكثر ما في الباب أنه ترك العمل بذلك في قوله عليه الصلاة والسلام اذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان لكن لا يلزم من ترك العمل هناك تركه ههنا (الثاني) أن اللائط يجب قتله فوجب أن يقتل رجما (بيان الاول) قوله عليه السلام من عمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل منهما والمفعول به (وبيان الثاني) أنه لما وجب قتله وجب أن يكون زانيا والا لما جاز قتله لقوله عليه السلام لا يحل دم امرئ مسلم الا باحدى ثلاث وههنا لم يوجد كفر بعد ايمان ولا قتل نفس بغير حق فلو لم يوجد الزنا بعد الاحصان لوجب أن لا يقتل واذا ثبت أنه وجد الزنا بعد الاحصان وجب الرجم لهذا الحديث (الثالث) نقيس اللواط على الزنا والجامع أن الطبع داع اليه لما فيه من الالتذاذ وهو قبيح فيناسب الزاجر والحد يصلح زاجرا عنه قالوا الفرق من وجهين (أحدهما) أنه وجد في

الاستوة فلا محل لهما من الاعراب أو حال مؤكدة أو بدل منه (وقال الشيطان) الذى أضل كلا الفريقين واستتبعهم ما عند باعتنائه بما قاله الاتباع للمستكبرين (لما قضى الامر) أى أحكم وفرغ منه وهو الحساب ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار خطيبا فى محفل الاشقياء من الثقلين (ان الله وعدكم وعد الحق) أى وعدا من حقه أن ينجز أو وعدا أنجزه وهو الوعد بالبعث ٢٤٧ والجزاء (ووعدتكم) أى وعد الباطل وهو أن لا بعث ولا جزاء ولئن كان فالاصنام شفعاؤكم ولم يصرح ببطلانه لما دل عليه قوله (فأخلفتكم) أى موعدى على حذف المفعول الثانى أى نقضته جعل خلف وعده كالاخلاف منه كأنه كان قادرا على انجازه وأنى له ذلك (وما كان لى عليكم من سلطان) أى تسلط أو حجة تدل على صدق (الا أن دعوتكم) الا دعائى اياكم اليه وتسويلى وهو وان لم يكن من باب السلطان لكنه أبرزه فى معرض على طريقة

تحية بينهم ضرب وجيع

مبالغة فى نفى السلطان عن نفسه كأنه قال انما يكون لى عليكم سلطان اذا كان مجرد الدعاء من بابه ويجوز كون الاستثناء منقطعا (فاستجبتم لى) فأسرعتم اجابتى (فلا تلومونى) بوعدى اياكم حيث لم يكن ذلك على طريقة القسر والالجاء كما يدل عليه الفاء وقرئ بالياء على وجه الالتفات كما فى قوله تعالى حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم (ولوموا أنفسكم) حيث استجبتم لى باختياركم حين دعوتكم بلا حجة ولا دليل بمجرد تزيين وتسويل ولم تستجيبوا ربكم اذ دعاكم دعوة الحق المقرونة بالبينات والحجج وليس مراده التنصل عن توجه الائمة اليه بالمرة بل بيان أنهم أحق بها منه وليس فيه دلالة على استقلال العبد فى أفعاله كما زعمت المعتزلة بل يكفى فى ذلك أن يكون

الزنا داعيات فكان وقوعه أكثر فسادا فكانت الحاجة الى الزواجر أتم (الثانى) أن الزنا يقتضى فساد الانساب (والجواب) انه وهم بوطء العجوز الشوهاء واحتج أبو حنيفة رحمه الله بوجوه (أحدها) اللواط ليس بزنا على ما تقدم فوجب أن لا يقتل لقوله عليه الصلاة والسلام لا يحل دم امرئ مسلم الا باحدى ثلاث (وثانيها) أن اللواط لا يساوى الزنا فى الحاجة الى شرع الزاجر ولا فى الجناية فلا يساويه فى الحد بيان عدم المساواة فى الحاجة أن اللواطة وان كانت يرغب فيها الفاعل لكن لا يرغب فيها المفعول طبعا بخلاف الزنا فان الداعى حاصل من الجانبين وأما عدم المساواة فى الجناية فلان فى الزنا اضاعة النسب ولا كذلك اللواط اذا ثبت هذا فوجب أن لا يساويه فى العقوبة لان الدليل ينفى شرع الحد لكونه ضررا تركنا العمل به فى الزنا فوجب أن يبقى فى اللواط على الاصل (وثالثها) أن الحد كالبدل عن المهر فلما لم يتعلق باللواط المهر فكذا الحد (والجواب) عن الاول أن اللواط وان لم يكن مساويا للزنا فى ماهيته لكن يساويه فى الاحكام وعن الثانى أن اللواط وان كان لا يرغب فيه المفعول لكن ذلك يسبب اشتداد رغبة الفاعل لان الانسان حريص على ما منع وعن الثالث انه لا بد من الجامع والله أعلم (المسئلة الثانية) أجمعت الامة على حرمة اتيان البهائم وللشافعى رحمه الله فى عقوبته أقوال (أحدها) يجب به حد الزنا فيرجم المحصن ويجلد غير المحصن ويغرب (والثانى) انه يقتل محصنا كان أو غير محصن لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه فقيل لابن عباس ما شأن البهيمة فقال ما أراه قال ذلك الا انه كره أن يؤكل لحمها وقد عمل بها ذلك العمل (والقول الثالث) وهو الاصح وهو قول أبى حنيفة ومالك والثورى وأحمد رحمهم الله ان عليه التعزير لان الحد شرع للزجر عما تميل النفس اليه وهذا الفعل لا تميل النفس اليه وضعفوا حديث ابن عباس رضى الله عنهما لضعف اسناده وان ثبت فهو معارض بما روى انه عليه السلام نهى عن ذبح الحيوان الا لاكله (المسئلة الثالثة) السحق من النسوان واتيان الميتة والاستمناء باليد لا يشرع فيها الا التعزير (البحث الثانى) عن أحكام الزنا اعلم انه كان فى أول الاسلام عقوبة الزانى الحبس الى الممات فى حق الثيب والاذى بالكلام فى حق البكر قال الله تعالى واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فامسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فان تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما ثم نسخ ذلك فجعل حد الزنى على الثيب الرجم وحد البكر الجلد والتغريب ولنذكر ها تين المسئلتين (المسئلة الاولى) الخوارج أنكروا الرجم واحتجوا فيه بوجوه (أحدها) قوله تعالى فعليهن نصف ما على المحصنات فلو وجب الرجم على المحصن لوجب نصف الرجم على الرقيق لكن الرجم لا نصف له (وثانيها) أن الله سبحانه ذكر فى القرآن أنواع المعاصى من الكفر والقتل والسرقة ولم يستقص فى أحكامها كما استقصى فى بيان أحكام الزنا الا ترى أنه تعالى نهى عن الزنا بقوله ولا تقربوا الزنا ثم توعد عليه ثانيا بالنار كما فى كل المعاصى ثم ذكر الجلد ثالثا ثم خص الجلد بوجوب احضار المؤمنين رابعا ثم خصه بالنهى عن الرأفة عليه بقوله ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله خامسا ثم أوجب على من رمى مسلما بالزنا ثمانين جلدة سادسا ولم يجعل ذلك على من رماه بالقتل والكفر وهما أعظم منه ثم قال سابعا ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ثم ذكر ثامنا من رمى زوجته بما يوجب التلاعن واستحقاق غضب الله تعالى ثم ذكر تاسعا أن الزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك ثم ذكر عاشرا أن ثبوت الزنا مخصوص بالشهود الاربعة فمع المبالغة فى استقصاء أحكام الزنا قليلا وكثيرا لا يجوز اهمال ما هو أجل أحكامها وأعظم آثارها ومعلوم أن الرجم لو كان مشروعا لكان أعظم

لقدرته الكاسبة التي عليها مدار التكليف مدخل فيه فإنه سبحانه إنما خلق أفعاله حسبما يختاره وعليه تترتب السعادة والشقاوة وما قيل من أنه يستدعي أن يقال فلا تلوموني ولا أنفسكم فإن الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه مبني على عدم الفرق بين مذهب أهل الحق وبين مسلك الجبرية

(ما أنا بمصرخكم) أي بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب (وما أنتم بمصرخي) مما أنا فيه وإنما تعرض لذلك مع أنه لم يكن في حيز الاحتمال مبالغة في بيان عدم إصراخه إياهم وإيذانا بأنه أيضا مبتلى بمثل ما ابتلوا به ومحتاج إلى الإصراخ فكيف من إصراخ الغير ولذلك آثر الجملة الاسمية فكأن ما مضى كان جوابا منه عن توبيخهم وتقريعهم وهذا جواب عن استغاثتهم واستعانتهم به في استدفاع ما دهمهم من العذاب وقرئ بكسر الياء (إني كفرت) اليوم (بما أشركتموني من قبل) أي بإشراككم إياي يعني تبرأت منه واستنكرته كقوله تعالى ويوم القيامة يكفرون بشرككم يعني أن إشراككم لي بالله سبحانه هو الذي يطمعكم في نصرتي لكم بأن كان لكم علي حق حيث جعلتموني معبودا وكنت أود ذلك وأرغب فيه فاليوم كفرت بذلك ولم أحمده ولم أقبله منكم بل تبرأت منه ومنكم فلم يبق بيني وبينكم علاقة أو كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذي أشركتمونيه وهو الله تعالى كما في قوله سبحانه [illegible] فيكون تعليلا لعدم إصراخه فإن الكافر بالله سبحانه بمعزل من الإغاثة والإعانة سواء كان ذلك بالمدافعة أو الشفاعة وأما جعله تعليلا لعدم إصراخهم إياه فلا وجه له إذ لا احتمال له حتى يحتاج إلى التعليل ولأن تعليل عدم إصراخهم بكفرهم يوهم أنهم بسبيل من ذلك لولا المانع من جهته (إن الظالمين لهم عذاب أليم) تتمة كلامه أو ابتداء

قال

الآثار بحيث لم يذكره الله تعالى في كتابه دل على أنه غير واجب (وثالثها) قوله تعالى الزانية والزاني فاجلدوا يقتضي وجوب الجلد على كل الزناة وإيجاب الرجم على البعض بخبر الواحد يقتضي تخصيص عموم الكتاب بخبر الواحد وهو غير جائز لأن الكتاب قاطع في متنه وخبر الواحد غير قاطع في متنه والمقطوع راجح على المظنون واحتج الجمهور من المجتهدين على وجوب رجم المحصن لما ثبت بالتواتر أنه عليه الصلاة والسلام فعل ذلك قال أبو بكر الرازي روى الرجم أبو بكر وعمر وعلي وجابر بن عبد الله وأبو سعيد الخدري وأبو هريرة وبريدة الأسلمي وزيد بن خالد في آخرين من الصحابة وبعض هؤلاء الرواة روى خبر رجم ماعز وبعضهم خبر اللخمية والغامدية وقال عمر رضي الله عنه لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لأثبته في المصحف (والجواب عما احتجوا به أولا) أنه مخصوص بالجلد فإن قيل فيلزم تخصيص القرآن بخبر الواحد قلنا بل بالخبر المتواتر لما بينا أن الرجم منقول بالتواتر وأيضا فقد بينا في أصول الفقه أن تخصيص القرآن بخبر الواحد جائز (والجواب عن الثاني) أنه لا يستبعد تجدد الأحكام الشرعية بحسب تجدد المصالح فلعل المصلحة التي تقتضي وجوب الرجم حدثت بعد نزول تلك الآيات (والجواب عن الثالث) أنه نقل عن علي عليه السلام أنه كان يجمع بين الجلد والرجم وهو اختيار أحمد وإسحق وداود واحتجوا عليه بوجوه (أحدها) أن عموم هذه الآية يقتضي وجوب الجلد والخبر المتواتر يقتضي وجوب الرجم ولا منافاة فوجب الجمع (وثانيها) قوله عليه السلام البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة (وثالثها) روى أبو بكر الرازي في أحكام القرآن عن ابن جريج عن ابن الزبير عن جابر أن رجلا زنى بامرأة فأمر به النبي صلى الله عليه وسلم فجلد ثم أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان محصنا فأمر به فرجم (ورابعها) روي أن عليا رضي الله عنه جلد شراحة الهمدانية ثم رجمها وقال جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم واعلم أن أكثر المجتهدين متفقون على أن المحصن يرجم ولا يجلد واحتجوا عليه بأمور (أحدها) قصة العسيف فإنه عليه السلام قال يا أنيس اغد إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها ولم يذكر الجلد ولو وجب الجلد مع الرجم لذكره (وثانيها) أن قصة ماعز رويت من جهات مختلفة ولم يذكر في شيء منها مع الرجم جلد ولو كان الجلد معتبرا مع الرجم لجلده النبي عليه السلام ولو جلده لنقل كما نقل الرجم إذ ليس أحدهما بالنقل أولى من الآخر وكذا في قصة الغامدية حين أقرت بالزنا فرجمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن وضعت ولو جلدها لنقل ذلك (وثالثها) ما روى الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس رضي الله عنهم قال قال عمر رضي الله عنه قد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل لا نجد الرجم في كتاب الله تعالى فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله تعالى وقد قرأنا الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده فأخبر أن الذي فرضه الله تعالى هو الرجم ولو كان الجلد واجبا مع الرجم لذكره (أما الجواب عن التمسك بالآية) فهو أنها مخصوصة في حق المحصن وتخصيص عموم القرآن بالخبر المتواتر غير ممتنع وأما قوله عليه السلام الثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة فلعل ذلك كان قبل قوله يا أنيس اغد إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها وأما أنه عليه السلام جلد امرأة ثم رجمها فلعله عليه السلام ما علم إحصانها فجلدها ثم لما علم إحصانها رجمها وهو الجواب عن فعل علي عليه السلام فهذا ما يمكن من التكلف في هذه الأجوبة والله أعلم (المسألة الثانية) قال الشافعي رحمه الله يجمع بين الجلد والتغريب في حد البكر وقال أبو حنيفة رحمه الله يجلد وأما التغريب فمفوض إلى رأي الإمام وقال مالك يجلد الرجل ويغرب وتجلد المرأة ولا تغرب حجة الشافعي رحمه الله حديث عبادة أنه عليه السلام

كلام من جهة الله عز وجل وفي حكاية أمثاله لطف للسامعين وإيقاظ لهم حتى يحاسبوا أنفسهم ويتدبروا عواقبهم (وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم) أي بأمره أو بتوفيقه وهدايته وفي التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم إظهار مزيد اللطف بهم والمدخلون هم الملائكة عليهم السلام وقرئ على صيغة التكلم فيكون قوله تعالى بإذن ربهم متعلقا بقوله تعالى (تحيتهم فيها سلام) أي تحييهم الملائكة بالسلام بإذن ربهم (ألم تر) الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم وقد علق بما بعده من قوله تعالى (كيف ضرب الله مثلا) أي كيف اعتمده ووضعه في موضعه اللائق به (كلمة طيبة) منصوب بمضمر أي جعل كلمة طيبة هي كلمة التوحيد أو كل كلمة حسنة كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة (كشجرة طيبة) أي حكم بأنها مثلها لأنه تعالى صيرها مثلها في الخارج وهو تفسير لقوله ضرب الله مثلا كقولك شرف الأمير زيدا كساه حلة وحمله على فرس ويجوز أن يكون كلمة بدلا من مثلا وكشجرة صفتها أو خبر مبتدأ محذوف أي هي كشجرة وأن يكون أول مفعولي ضرب إجراء له مجرى جعل قد أخر عن ثانيهما أعني مثلا لئلا يبعد عن صفته التي هي كشجرة وقد قرئت بالرفع على الابتداء (أصلها ثابت) أي ضارب بعروقه في الأرض وقرأ أنس بن مالك رضي الله عنه كشجرة طيبة ثابت أصلها وقراءة الجماعة أقوى سبكا وأنسب بقرينتها أعني قوله تعالى (وفرعها) أي أعلاها (في السماء) في جهة العلو ويجوز أن يراد وفروعها على الاكتفاء بلفظ الجنس عن الجمع (تؤتي أكلها) تعطي ثمرها (كل حين) وقته الله تعالى لإثمارها (بإذن

قال خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة ويدل أيضا عليه ما روى أبو هريرة رضي الله عنه وزيد بن خالد أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إن ابني كان عسيفا على هذا وزنى بامرأته فافتديت منه بوليدة ومائة شاة ثم أخبرني أهل العلم أن على ابني جلد مائة وتغريب عام وأن على امرأة هذا الرجم فاقض بيننا فقال عليه الصلاة والسلام والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله أما الغنم والوليدة فرد عليك وأما ابنك فإن عليه جلد مائة وتغريب عام ثم قال لرجل من أسلم اغد يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها واحتج أبو حنيفة رحمه الله على نفي التغريب بوجوه (أحدها) أن إيجاب التغريب يقتضي نسخ الآية ونسخ القرآن بخبر الواحد لا يجوز وقرروا النسخ من ثلاثة أوجه (الأول) أنه سبحانه رتب الجلد على فعل الزنا بالفاء وحرف الفاء للجزاء إلا أن أئمة اللغة قالوا اليمين بغير الله ذكر شرط وجزاء وفسروا الشرط بالذي دخل عليه كلمة إن والجزاء بالذي دخل عليه حرف الفاء والجزاء اسم لما يقع به الكفاية مأخوذ من قولهم جازيناه أي كافأناه وقال عليه السلام تجزيك ولا تجزي أحدا بعدك أي تكفيك ومنه قول القائل اجتزت الإبل بالعشب عن الماء وإنما تقع الكفاية بالجلد إذا لم يجب معه شيء آخر فإيجاب شيء آخر يقتضي نسخ كونه كافيا (الثاني) أن المذكور في الآية لما كان هو الجلد فقط كان ذلك هو كمال الحد فلو جعلنا النفي معتبرا مع الجلد لكان الجلد بعض الحد لا كل الحد فيفضي إلى نسخ كونه كل الحد (الثالث) أن بتقدير كون الجلد كمال الحد فإنه يتعلق به رد الشهادة ولو جعلناه بعض الحد لزال ذلك الحكم فثبت أن إيجاب التغريب يقتضي نسخ الآية (وثانيها) قال أبو بكر الرازي لو كان النفي مشروعا مع الجلد لوجب على النبي صلى الله عليه وسلم عند تلاوة الآية توقيف الصحابة عليه لئلا يعتقدوا عند سماع الآية أن الجلد هو كمال الحد ولو كان كذلك لكان اشتهاره مثل اشتهار الآية فلما لم يكن خبر النفي بهذه المنزلة بل كان وروده من طريق الآحاد علم أنه غير معتبر (وثالثها) ما روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في الأمة إذا زنت فاجلدوها فإن زنت فاجلدوها ثم بيعوها ولو بضفير وفي رواية أخرى فليجلدها الحد ولا تثريب عليها ووجه الاستدلال به أنه لو كان النفي ثابتا لذكره مع الجلد (ورابعها) أنه إما أن يشرع التغريب في حق الأمة أو لا يشرع ولا جائز أن يكون مشروعا لأنه يلزم منه الإضرار بالسيد من غير جناية صدرت منه وهو غير جائز ولأنه قال صلى الله عليه وسلم بيعوها ولو بضفير ولو وجب نفيها لما جاز بيعها لأن المكنة من تسليمها إلى المشتري لا تبقى بالنفي ولا جائز أن لا يكون مشروعا لقوله تعالى فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب (وخامسها) أن التغريب لو كان مشروعا في حق الرجل لكان إما أن يكون مشروعا في حق المرأة أو لا يكون والثاني باطل لأن التساوي في الجناية قد وجد في حقهما وإن كان مشروعا في حق المرأة فإما أن يكون مشروعا في حقها وحدها أو مع ذي محرم والأول غير جائز للنص والمعقول أما النص فقوله عليه السلام لا يحل لامرأة أن تسافر من غير ذي محرم وأما المعقول فهو أن الشهوة غالبة في النساء والانزجار بالدين إنما يكون في الخواص من الناس فإن الغالب لعدم الزنا من النساء وجود الحفاظ من الرجال وحياؤهن من الأقارب وبالتغريب تخرج المرأة من أيدي الأقرباء والحفاظ ثم يقل حياؤها لبعدها عن معارفها فينفتح عليها باب الزنا فربما كانت فقيرة فيشتد فقرها في السفر فيصير مجموع ذلك سببا لفتح باب هذه الفاحشة العظيمة عليها ولا جائز أن يقال إنا نغربها مع الزوج أو المحرم لأن عقوبة غير الجاني لا تجوز لقوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى (وسادسها) ما روي عن عمر أنه

غرب ربيعة بن أمية بن خلف في الخمر إلى خيبر فلحق بهرقل فقال عمر لا أغرب بعدها أحدا ولم يستثن الزنا
وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال في البكرين إذا زنيا يجلدان ولا ينفيان وأن نفيهما من الفتنة وعن ابن
عمر أن أمة له زنت فجلدها ولم ينفها ولو كان النفي معتبرا في حد الزنا لما خفي ذلك على أكابر الصحابة
(وسادسها) ما روي أن شيخا وجد على بطن جارية يخنث بها في خربة فأتي به إلى النبي صلى الله عليه وسلم
فقال اجلدوه مائة فقيل إنه أضعف من ذلك فقال خذوا عثكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه بها وخلوا سبيله
ولو كان النفي واجبا لنفاه فإن قيل إنما لم ينفه لأنه كان ضعيفا عاجزا عن الحركة قلنا كان ينبغي أن يكترى
له دابة من بيت المال ينفى عليها فإن قيل كان عجزه بضعف عن الركوب قلنا من قدر على الزنا كيف
لا يقدر على الاستمساك (وثامنها) أن التغريب نظير القتل لقوله تعالى أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من
دياركم فجعلهما بمنزلة واحدة فإذا لم يشرع القتل في زنا البكر وجب أن لا يشرع أيضا نظيره وهو التغريب
(والجواب عن الأول) أنه ليس في كلام الله تعالى إلا إدخال حرف الفاء على الأمر بالجلد فأما أن الذي
دخل عليه هذا الحرف فإنه يسمى جزاء فليس هذا من كلام الله ولا من كلام رسوله بل هو قول بعض الأدباء
فلا يكون حجة أما قوله ثانيا لو كان النفي مشروعا لما كان الجلد كل الحد فنقول لا نزاع في أنه زال أمر ما لأن
إثبات كل شيء لا أقل من أن يقتضي زوال عدمه الذي كان إلا أن الزائل ههنا ليس حكما شرعيا بل الزائل
محض البراءة الأصلية ومثل هذه الإزالة لا يمتنع إثباتها بخبر الواحد وإنما قلنا إن الزائل محض العدم الأصلي
وذلك لأن إيجاب الجلد مفهوم مشترك بين إيجاب الجلد مع إيجاب التغريب وبين إيجابه مع نفي التغريب
والقدر المشترك بين القسمين لا إشعار له بواحد من القسمين فإذن إيجاب الجلد لا إشعار فيه البتة لا بإيجاب
التغريب ولا بعدم إيجابه إلا أن نفي التغريب كان معلوما بالعقل نظرا إلى البراءة الأصلية فإذا جاء خبر
الواحد ودل على وجوب التغريب فما أزال البتة شيئا من مدلولات اللفظ الدال على وجوب الجلد بل
أزال البراءة الأصلية فأما كون الجلد وحده مجزيا وكونه وحده كمال الحد وتعلق رد الشهادة عليه فكل
ذلك تابع لنفي وجوب الزيادة فلما كان ذلك النفي معلوما بالعقل جاز قبول خبر الواحد فيه كما أن الفروض
لو كانت خمسا لتوقف على أدائها الخروج عن عهدة التكليف وقبول الشهادة ولو زيد فيها شيء آخر
لتوقف الخروج عن العهدة وقبول الشهادة على أداء تلك الزيادة مع أنه يجوز إثباته بخبر الواحد والقياس
فكذا ههنا أما لو قال الله تعالى الجلد كمال الحد وعلمنا أنه وحده متعلق رد الشهادة فلا يقبل ههنا في إثبات
الزيادة خبر الواحد لأن نفي وجوب الزيادة ثبت بدليل شرعي متواتر (والجواب عن الثاني) أنه لو صح
ما ذكره لوجب في كل ما خصص آية عامة أن يبلغ في الاشتهار مبلغ تلك الآية ومعلوم أنه ليس كذلك
(والجواب عن الثالث) أن قوله ثم بيعوها لا يفيد التعقيب فلعلها تنفى ثم بعد النفي تباع (والجواب
عن الرابع) أنه معارض بما روى الترمذي في جامعه أنه عليه السلام جلد وغرب وأن أبا بكر جلد وغرب
(والجواب عن الخامس) أن للشافعي رحمه الله في تغريب العبد قولين (أحدهما) لا يغرب لأنه عليه
السلام قال إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولم يأمر بالتغريب ولأن التغريب للمعرة ولا معرة على
العبد فيه لأنه ينقل من يد إلى يد ولأن منافعه للسيد ففي نفيه إضرار بالسيد (والثاني) وهو الأصح أنه
يغرب لقوله تعالى فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ولا ينظر إلى ضرر المولى كما يقتل العبد بسبب
الردة ويحد العبد في الزنا والقذف وإن تضرر به المولى فعلى هذا كم يغرب فيه قولان (أحدهما) يغرب
نصف سنة لأنه يقبل التنصيف كما يحد نصف حد الأحرار (والثاني) يغرب سنة لأن التغريب المقصود

ربها) بإرادة خالقها والمراد بالشجرة المنعوتة اما النخلة كما روي مرفوعا أو شجرة في الجنة (ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون)
لأن في ضربها زيادة إفهام وتذكير فإنه تصوير للمعاني بصور المحسوسات (ومثل كلمة خبيثة) هي كلمة الكفر والدعاء إليه أو تكذيب
الحق أو ما يعم الكل أو كل كلمة قبيحة (كشجرة خبيثة) أي كمثل شجرة خبيثة قيل هي كل شجرة لا يطيب ثمرها كالحنظل
والكشوث ونحوهما وتغيير الأسلوب للإيذان بأن ذلك غير مقصود الضرب والبيان وإنما ذلك أمر ظاهر يعرفه كل أحد (اجتثت) استؤصلت وأخذت جثتها بالكلية (من فوق الأرض) لكون عروقها قريبة منه (ما لها من قرار) استقرار عليها (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) الذي ثبت بالحجة عندهم وتمكن في قلوبهم وهو الكلمة الطيبة التي ذكرت صفتها العجيبة (في الحياة الدنيا) فلا يزالون عنه إذا افتتنوا في دينهم كزكريا ويحيى وجرجيس وشمسون والذين فتنهم أصحاب الأخدود (وفي الآخرة) فلا يتلعثمون إذا سئلوا عن معتقدهم في الموقف ولا تدهشهم أهوال القيامة أو عند سؤال القبر * روي أنه عليه الصلاة والسلام ذكر قبض روح المؤمن فقال ثم يعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه في قبره فيقولان من ربك وما دينك ومن نبيك
فيقول ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم فينادي مناد من السماء أنه صدق عبدي فذلك قوله تعالى يثبت منه
الله الذين آمنوا بالقول الثابت وهذا امتثال إيتاء الشجرة المذكورة أكلها كل حين قال الثعلبي في تفسيره أخبرني أبو القاسم بن حبيب في
سنة ست وثمانين وثلثمائة قال سمعت أبا الطيب محمد بن علي الخياط يقول سمعت سهل بن عمار العتكي يقول رأيت يزيد بن هرون في منامي

بمدعوته فقالت ما فعل الله بك قال أتاني في قبري ملكان فظان فقالا من ربك وما دينك ومن نبيك فأخذت بلحيتي البيضاء فقلت لهما أ لمثلي يقال هذا وقد علمت الناس جوابكما ثمانين سنة فذهبا (ويضل الله الظالمين) أي يخلق فيهم الضلال عن الحق الذي ثبت المؤمنين عليه بحسب ارادتهم واختيارهم والمراد بهم الكفرة لدليل ما يقابله ووصفهم بالظلم اما باعتبار وضعهم للشيء في غير موضعه واما باعتبار ظلمهم لانفسهم حيث بدلوا فطرة الله التي فطر الناس عليها فلم يهتدوا الى القول الثابت أو كل من ظلم نفسه بالاقتصار على التقليد والاعراض عن البينات الواضحة فلا يثبت في مواقف الفتن ولا يهتدي الى الحق فالمراد بالذين آمنوا حينئذ المخلصون في الايمان الراسخون في الايقان كما ينبئ عنه التثبيت لكنه يوهم كون كلمة التوحيد اذا كانت لا عن ايقان داخلة تحت ما لا قرار له من الشجرة المضروبة مثلا (ويفعل الله ما يشاء) من تثبيت بعض واضلال آخرين حسبما توجبه مشيئته التابعة للحكم البالغة المقتضية لذلك وفي اظهار الاسم الجليل في الموضعين من الفخامة وتربية المهابة ما لا يخفى مع ما فيه من الايذان بالتفاوت في مبدأ التثبيت والاضلال فان مبدأ صدور كل منهما عنه سبحانه وتعالى من صفاته العلا غير ما هو مبدأ صدور الآخر

(ألم تر) تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد مما صنع الكفرة من الاباطيل التي لا تكاد تصدر عمن له أدنى ادراك أي ألم تنظر (الى الذين بدلوا نعمة الله) أي شكر نعمته تعالى بأن وضعوا موضعه (كفرا) عظيما وغمطا لها أو بدلوا نفس النعمة كفرا فانهم لما كفروها سلبوها فصاروا مبدلين بها كفرا كأهل مكة حيث خلقهم الله سبحانه وأسكنهم حرمه الآمن الذي يجبى اليه ثمرات كل شيء

منه الايحاش وذلك معنى يرجع الى الطبع فيستوي فيه الحر والعبد كمدة الايلاء والعنة (والجواب عن السادس) ان المرأة لا تغرب وحدها بل مع محرم فان لم يتبرع المحرم بالخروج معها أعطي أجرته من بيت المال وان لم يكن لها محرم تغرب مع النساء الثقات كما يجب عليها الخروج الى الحج معهن قوله التغريب يفتح عليها باب الزنا قلنا لا نسلم فان أكثر الزنا بالالف والمؤانسة وفراغ القلب وأكثر هذه الاشياء تبطل بالغربة فان الانسان يقع في الوحشة والتعب والنصب فلا يتفرغ للزنا (والجواب عن السابع) أي استبعاد في ان يكون الانسان الذي يعجز عن ركوب الدابة يقدر على الزنا (والجواب عن الثامن) انه ينتقض بالتغريب اذا وقع على سبيل التعزير والله أعلم (المسألة الثالثة) اتفقت الامة على ان قوله سبحانه وتعالى الزانية والزاني يفيد الحكم في كل الزناة لكنهم اختلفوا في كيفية تلك الدلالة فقال قائلون لفظ الزاني يفيد العموم والمختار أنه ليس كذلك ويدل عليه أمور (أحدها) ان الرجل اذا قال لبست الثوب أو شربت الماء لا يفيد العموم (وثانيها) انه لا يجوز تأكيده بما يؤكد به الجمع فلا يقال جاءني الرجل أجمعون (وثالثها) لا ينعت بنعوت الجمع فلا يقال جاءني الرجل الفقراء وتكلم الفقيه الفضلاء فأما قولهم أهلك الناس الدرهم البيض والدينار الصفر فمجاز بدليل انه لا يطرد وأيضا فان كان الدينار الصفر حقيقة وجب أن يكون الدينار الاصفر مجازا كما ان الدنانير الصفر لما كانت حقيقة كان الدنانير الاصفر مجازا (ورابعها) ان الزاني جزئي من هذا الزاني فايجاب جلد هذا الزاني ايجاب جلد الزاني فلو كان ايجاب جلد الزاني ايجابا لجلد كل زان لزم أن يكون ايجاب جلد هذا الزاني ايجاب الجلد كل زان ولما لم يكن كذلك بطل ما قالوه فان قيل لم لا يجوز أن يقال اللفظ المطلق انما يفيد العموم بشرط العراء عن لفظ التعيين أو يقال اللفظ المطلق وان اقتضى العموم الا ان لفظ التعيين يقتضي الخصوص قلنا أما الاول فباطل لان العدم لا دخل له في التأثير أما الثاني فلانه يقتضي التعارض وهو خلاف الاصل (وخامسها) ان يقال الانسان هو الضحاك فلو كان المفهوم من قولنا الانسان هو كل الانسان لنزل ذلك منزلة ما يقال كل انسان هو الضحاك وذلك متناقض لانه يقتضي حصر الانسانية في كل واحد من الناس ومعنى الحصر وأن يثبت فيه لا في غيره فيلزم ان يصدق على كل واحد من أشخاص الناس انه هو الضحاك لا غير واحتج المخالف بوجهين (الاول) انه يجوز الاستثناء منه لقوله تعالى ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل تحته (الثاني) ان الالف واللام للتعريف وليس ذلك لتعريف الماهية فان ذلك قد حصل بأصل الاسم ولا لتعريف واحد بعينه فانه ليس في اللفظ دلالة عليه ولا لتعريف بعض مراتب الخصوص فانه ليس بعض المراتب أولى من بعض فوجب حمله على تعريف الكل (والجواب عن الاول) أن ذلك الاستثناء مجاز بدليل انه لا يصح أن يقال رأيت الانسان الا المؤمنين (وعن الثاني) انه يشكل بدخول الالف واللام على صيغة الجمع فان جعلتموه هنالك للتأكيد فكذا ههنا ومن الناس من قال ان قوله تعالى الزانية والزاني وان كان لا يفيد العموم بحسب اللفظ لكنه يفيده بحسب القرينة وذلك من وجهين (الاول) أن ترتيب الحكم على الوصف المشتق يفيد كون ذلك الوصف علة لذلك الحكم لا سيما اذا كان الوصف مناسبا وههنا كذلك فيدل ذلك على أن الزنا علة لوجوب الجلد فيلزم أن يقال أينما تحقق الزنا تحقق وجوب الجلد ضرورة ان العلة لا تنفك عن المعلول (الثاني) ان المراد من قوله الزانية والزاني اما أن يكون كل الزناة أو البعض فان كان الثاني صارت الآية مجملة وذلك يمنع من امكان العمل به لكن العمل به مأمور وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب فوجب حمله على العموم حتى يمكن العمل به والله أعلم (البحث الثالث) في الشرائط

المعتبرة فى كون الزنا موجبا للرجم تارة وللجلد أخرى فنقول اجمعوا على ان كون الزنا موجبا للحدين الحكمين مشروط بالعقل وبالبلوغ فلا يجب الرجم والحد على الصبى والمجنون وهذان الشرطان ليسا من خواص هذين الحكمين بل هما معتبران فى كل العقوبات أما كونهما موجبين للرجم فلابد مع العقل والبلوغ من أمور أخر (الشرط الاول) الحرية وأجمعوا على أن الرقيق لا يجب عليه الرجم البتة (الشرط الثانى) التزوج بنكاح صحيح فلا يحصل الاحصان بالاصابة بملك اليمين ولا بوطء الشبهة ولا بالنكاح الفاسد (الشرط الثالث) الدخول ولا بد منه لقوله عليه السلام الثيب بالثيب وانما تصير ثيبا بالوطء وههنا مسئلتان (المسئلة الاولى) هل يشترط أن تكون الاصابة بالنكاح بعد البلوغ والحرية والعقل فيه وجهان (أحدهما) لا يشترط حتى لو أصاب عبد أمة بنكاح صحيح أو فى حال الجنون والصغر ثم كمل حاله فزنى يجب عليه الرجم لانه وطء يحصل به التحليل للزوج الاول فيحصل به الاحصان كالوطء فى حال الكمال ولان عقد النكاح يجوز أن يكون قبل الكمال فكذلك الوطء (والثانى) وهو الاصح وهو ظاهر النص وقول أبى حنيفة رحمه الله يشترط أن تكون الاصابة بالنكاح بعد البلوغ والحرية والعقل لانه لما شرط أكمل الاصابات وهو أن يكون بنكاح صحيح شرط أن يكون تلك الاصابة فى حال الكمال (المسئلة الثانية) هل يعتبر الكمال فى الطرفين أو يعتبر فى كل واحد منهما كماله بنفسه دون صاحبه فيه قولان (أحدهما) معتبر فى الطرفين حتى لو وطئ الصبى بالغة حرة عاقلة فانه لا يحصنها وهو قول أبى حنيفة ومحمد (والثانى) يعتبر فى كل واحد منهما كماله بنفسه وهو قول أبى يوسف رحمه الله (حجة القول الاول) انه وطء لا يفيد الاحصان لاحد الواطئين فلا يفيد فى الآخر كوطء الامة (حجة القول الثانى) انه لا يشترط كونهما على صفة الاحصان وقت النكاح وكذا عند الدخول (الشرط الرابع) الاسلام ليس شرطا فى كون الزنا موجبا للرجم عند الشافعى رحمه الله وأبى يوسف وقال أبو حنيفة رحمه الله شرط احتج الشافعى بامور (أحدها) قوله عليه السلام فاذا قبلوا الجزية فاعلموهم ان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ومن جملة ما على المسلم كونه بحيث يجب عليه الرجم عند الاقدام على الزنا فوجب أن يكون الذمى كذلك تحصيلا للتسوية (وثانيها) حديث مالك عن نافع عن ابن عمر أنه عليه السلام رجم يهوديا ويهودية زنيا فاما أن يقال انه عليه السلام حكم بذلك بشريعته أو بشريعة من قبله فان كان الاول فالاستدلال به بين وان كان الثانى فكذلك لانه صار شرعا له (وثالثها) ان زنا الكافر مثل زنا المسلم فيجب عليه مثل ما يجب على المسلم وذلك لان الزنا محرم قبيح فيناسب الزجر وايجاب الرجم يصلح زاجرا له ولا يبقى الا التفاوت بالكفر والايمان والكفر وان كان لا يوجب تغليظ الجناية فلا يوجب تخفيفها واحتج أبو حنيفة رحمه الله بوجوه (أحدها) التمسك بعموم قوله الزانية والزانى وجب العمل به فى حق المسلم ولا يجب فى الذمى لمعنى مفقود فى الذمى ووجه الفرق ان القتل بالاحجار عقوبة عظيمة فلا يجب الا بجناية عظيمة والجناية تعظم بكفران النعم فى حق الجانى عقلا وشرعا أما العقل فلان المعصية كفران النعمة وكلما كانت النعم أكثر وأعظم كان كفرانها أعظم وأقبح وأما الشرع فلان الله تعالى قال فى حق نساء النبى صلى الله عليه وسلم يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين فلما كانت نعم الله تعالى فى حقهن أكثر كان العذاب فى حقهن أكثر وقال فى حق الرسول لقد كدت تركن اليهم شيأ قليلا اذا لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات وانما عظمت معصيته لان النعمة فى حقه أعظم وهى نعمة النبوة ومن المعلوم أن نعم الله تعالى فى حق المسلم المحصن أكثر منها فى حق الذمى فكانت معصية المسلم أعظم فوجب أن تكون عقوبته أشد (وثانيها) ان الذمى لم يزن بعد الاحصان

فلا

وجعلهم قوام بيته وشرفهم بمحمد عليه الصلاة والسلام فكفروا ذلك فقحطوا سبع سنين وقتلوا وأسروا يوم بدر فصاروا أذلاء مسلوبى النعمة باقين بالكفر بدلها وعن عمر وعلى رضى الله عنهما هم الافجران من قريش بنو المغيرة وبنو أمية أما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر وأما بنو أمية فمتعوا الى حين كانهما يتأولان ما سيتلى من قوله عز وجل قل تمتعوا الآية (وأحلوا) أى أنزلوا (قومهم) بارشادهم اياهم الى طريقة الشرك والضلال وعدم التعرض لحلولهم لدلالة الاحلال عليه اذ هو فرع الحلول كقوله تعالى يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار (دار البوار) دار الهلاك الذى لا هلاك وراءه (جهنم) عطف بيان لها وفى الابهام ثم البيان ما لا يخفى من التهويل (يصلونها) حال منها أو من قومهم أى داخلين فيها مقاسين لحرها أو استئناف لبيان كيفية الحلول أو مفسر لفعل يقدر ناصبا لجهنم فالمراد بالاحلال المذكور حينئذ تعريضهم للهلاك بالقتل والاسر لكن قوله تعالى قل تمتعوا فان مصيركم الى النار أنسب بالتفسير الاول (وبئس القرار) على حذف المخصوص بالذم أى بئس المقر جهنم أو بئس القرار قرارهم فيها وفيه بيان أن حلولهم وصليهم على وجه الدوام والاستمرار (وجعلوا) عطف على أحلوا وما عطف عليه داخل معهما فى حيز الصلة وحكم التعجيب أى جعلوا فى اعتقادهم وحكمهم (لله) الفرد الصمد الذى ليس كمثله شئ وهو الواحد القهار (أندادا) أشباها فى التسمية أو فى العبادة (ليضلوا) قومهم الذين يشايعونهم حسبما ضلوا (عن سبيله) القويم الذى هو التوحيد ويوقعوهم فى ورطة الكفر والضلال ولعل تغيير الترتيب مع أن مقتضى ظاهر النظم أن يذكر كفرانهم نعمة الله تعالى ثم كفرهم بذاته تعالى باتخاذ الانداد ثم

اضلالهم لقومهم المؤدي الى احلالهم دار البوار لتثنية التعجيب وتكريره والايذان بان كل واحد من وضع الكفر موضع الشكر واحلال
القوم دار البوار واتخاذ الانداد للاضلال أمر يقضي منه العجب ولو سيق النظم على نسق الوجود لربما فهم التعجب من مجموع الهنات
الثلاث كما في قصة البقرة وقرئ ليضلوا بالفتح وأيا ما كان فليس ذلك غرضا حقيقيا لهم من اتخاذ الانداد لكن لما كان
ذلك نتيجة له شبه
بالغرض وأدخل عليه
اللام بطريق الاستعارة
التبعية (قل) تهديدا
لا ولئك الضالين المضلين
ونعيا عليهم وايذانا بأنهم
لشدة اباءهم قبول الحق
وفرط انهماكهم في
الباطل وعدم ارعوائهم
عن ذلك بحال أحقاء
بأن يضرب عنهم صفحا
ويعطف عنهم عنان
العظة ويخلوا وشأنهم
ولا ينهوا عنه بل يؤمروا
بمباشرته مبالغة في
التخلية والخذلان
ومسارعة الى بيان
عاقبة الوخيمة ويقال
لهم (تمتعوا) بما أنتم عليه
من الشهوات التي من
جملتها كفران النعم
العظام واستتباع الناس
في عبادة الاصنام (فان
مصيركم الى النار) ليس
الا فلا بد لكم من تعاطي
ما يوجب ذلك ويقتضيه
من أحوالكم بل هي في
الحقيقة صورة الخروج
ومثال له حسبما يلوح
به قوله سبحانه وأحلوا
قومهم دار البوار الخ فهو
تعليل للامر المأمور وفيه
من التهديد الشديد
والوعيد الاكيد ما لا
يوصف أو قل لهم تمتعوا ايذانا لهم وتعبيرا عما يلجئهم الى ذلك تمتعوا ايذانا بأنهم لفرط انهماكهم في التمتع بما هم فيه من غير صارف يلويهم
ولا عاطف يثنيهم مأمورون بذلك من قبل آمر الشهوة مذعنون لحكمه منقادون لامره كدأب مأمور ساع في خدمة آمر مطاع فليس
قوله تعالى فان مصيركم الى النار حينئذ تعليلا للامر بل هو جواب شرط ينسحب عليه الكلام كأنه قيل هذه حالكم فان دمتم عليه فان

فلا يجب عليه القتل (بيان الاول) قوله عليه السلام من أشرك بالله فليس بمحصن (بيان
الثاني) ان المسلم الذي لا يكون محصنا لا يجب عليه القتل لقوله عليه السلام لا يحل دم امرئ مسلم الا باحدى
ثلاث واذا كان المسلم كذلك وجب أن يكون الذمي كذلك لقوله عليه السلام اذا قبلوا عقد الجزية فأعلمهم
ان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين (وثالثها) أجمعنا على ان احصان القذف يعتبر فيه الاسلام فكذا
احصان الرجم والجامع ما ذكرنا من كمال النعمة (والجواب عن الاول) أنه مخصوص عنه الثيب المسلم فكذا
الثيب الذمي وما ذكروه من حديث زيادة النعمة على المؤمنين فنقول نعمة الاسلام حصلت بكسب العبد
فيصير ذلك كالخدمة الزائدة وزيادة الخدمة ان لم تكن سببا للعذر فلا أقل من أن لا تكون سببا لزيادة
العقوبة (وعن الثاني) لا نسلم ان الذمي مشرك سلمناه لكن الاحصان قد يراد به التزوج لقوله تعالى والذين
يرمون المحصنات وفي التفسير فاذا أحصن يعني فاذا تزوجن اذا ثبت هذا فنقول الذمي الثيب محصن بهذا
التفسير فوجب رجمه لقوله صلى الله عليه وسلم أو زنا بعد احصان رتب الحكم في حق المسلم على هذا الوصف
فدل على كون الوصف علة والوصف قائم في حق الذمي فوجب كونه مستلزما للحكم بالرجم وعن الثالث ان
حد القذف لدفع العار كرامة للمقذوف والكافر لا يكون محلا للكرامة وصيانة العرض بخلاف ما ههنا والله
أعلم أما ما يتعلق بالجلد ففيه مسائل (المسألة الاولى) اتفقوا على ان الرقيق لا يرجم واتفقوا على انه يجلد
وثبت بنص الكتاب ان على الاماء نصف ما على المحصنات من العذاب فلا جرم اتفقوا على ان الامة تجلد
خمسين جلدة أما العبد فقد اتفق الجمهور على انه يجلد أيضا خمسين الا أهل الظاهر فانهم قالوا عموم قوله
الزانية والزاني يقتضي وجوب المائة على العبد والامة الا أنه ورد النص بالتنصيف في حق الامة فلو قسنا
العبد عليها كان ذلك تخصيصا لعموم الكتاب بالقياس وانه غير جائز ومنهم من قال الامة اذا تزوجت
فعليها خمسون جلدة واذا لم تتزوج فعليها المائة لظاهر قوله تعالى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة
وذكروا ان قوله فاذا أحصن أي تزوجن فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب (المسألة الثانية)
قال الشافعي وأبو حنيفة رحمهما الله الذمي يجلد وقال مالك رحمه الله لا يجلد لنا وجوه (أحدها) عموم قوله
الزانية والزاني (وثانيها) قوله عليه السلام اذا زنت أمة أحدكم فليجلدها وقوله أقيموا الحدود على ما ملكت
أيمانكم ولم يفرق بين الذمي والمسلم (وثالثها) انه عليه السلام رجم اليهوديين فذلك الرجم ان كان من
شرع محمد صلى الله عليه وسلم فقد حصل المقصود وان كان من شرعهم فلما قرره الرسول صلى الله عليه
وسلم صار ذلك من شرعه وحقيقة هذه المسألة ترجع الى ان الكفار مخاطبون بفروع الشرائع (البحث
الرابع فيما يدل على صدور الزنا منه) اعلم ان ذلك لا يحصل الا من أحد ثلاثة أوجه اما بأن يراه الامام
بنفسه أو بأن يقر أو بأن يشهد عليه الشهود أما الوجه الاول وهو ما اذا رآه الامام قال الامام محيي
السنة في كتاب التهذيب لا خلاف ان على القاضي أن يمتنع عن القضاء بعلم نفسه مثل ما اذا ادعى رجل
على آخر حقا وأقام عليه بينة والقاضي يعلم أنه قد أبرأه أو ادعى انه قتل أباه وقت كذا وقد رآه القاضي حيا
بعد ذلك أو ادعى نكاح امرأة وقد سمعه القاضي طلقها لا يجوز أن يقضي به وان أقام عليه شهودا وهل
يجوز للقاضي أن يقضي بعلم نفسه مثل ان ادعى عليه ألفا وقد رآه القاضي أقرضه أو سمع المدعى عليه
أقر به فيه قولان أصحهما وبه قال أبو يوسف ومحمد والمزني رحمهم الله انه يجوز له أن يقضي بعلمه لانه لما جاز
له أن يحكم بشهادة الشهود وهو من قولهم على ظن فلأن يجوز بما رآه وسمعه وهو منه على علم أولى قال
الشافعي رحمه الله في كتاب الرسالة أقضي بعلمي وهو أقوى من شاهدين أو بشاهدين وشاهد وامرأتين

وهو أقوى من شاهد ويمين أو شاهد ويمين وهو أقوى من النكول ورد اليمين (والقول الثاني) لا يقضى بعلمه وهو قول ابن أبي ليلى لان انتفاء التهمة شرط في القضاء ولم يوجد هذا في المال أما في العقوبات فينظر ان كان ذلك من حقوق العباد كالقصاص وحد القذف فهل يحكم فيه بعلم نفسه يرتب على المال ان قلنا هنالك لا يقضي فههنا أولى والا فقولان والفرق ان مبنى حقوق الله تعالى على المساهلة والمسامحة ولا فرق على القولين أن يحصل العلم للقاضي في بلد ولايته وزمان ولايته أو في غيره وقال أبو حنيفة رحمه الله ان حصل له العلم في بلد ولايته أو في زمان ولايته له أن يقضي بعلمه والا فلا فنقول العلم لا يختلف باختلاف هذه الاحوال فوجب أن لا يختلف الحكم باختلافها والله أعلم (الطريق الثاني) الاقرار قال الشافعي رحمه الله الاقرار بالزنا مرة واحدة يوجب الحد وقال أبو حنيفة رحمه الله بل لا بد من الاقرار أربع مرات في أربع مجالس وقال أحمد لا بد من الاقرار أربع مرات لكن لا فرق بين أن يكون في أربع مجالس أو في مجلس واحد حجة الشافعي رحمه الله أمران (الاول) قصة العسيف فانه قال عليه السلام فان اعترفت فارجمها وذلك دليل على أن الاعتراف مرة واحدة كاف (الثاني) انه لما أقر بالزنا وجب الحد عليه لقوله عليه السلام أقضي بالظاهر والاقرار مرة واحدة يوجب الظهور ولا سيما ههنا وذلك لان الصارف عن الاقرار بالزنا قوي لما أنه سبب العار في الحال والالم الشديد في المآل والصارف عن الكذب أيضا قائم وعند اجتماع الصارفين يقوى الانصراف فثبت انه انما أقدم على هذا الاقرار لكونه صادقا واذا ظهر اندرج تحت الحديث وتحت الآية أو نقيسه على الاقرار بالقتل والردة واحتج أبو حنيفة رحمه الله بوجوه (أحدها) قصة ماعز والاستدلال بها من وجوه (الاول) انه عليه الصلاة والسلام أعرض عنه في المرة الاولى ولو وجب عليه الحد لم يعرض عنه لان الاعراض عن اقامة حد الله تعالى بعد كمال الحجة لا يجوز (الثاني) انه عليه السلام قال انك شهدت على نفسك أربع مرات ولو كان الواحد مثل الاربع في ايجاب الحد كان هذا القول لغوا (والثالث) روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه انه قال لماعز بعدما أقر ثلاث مرات لو أقررت الرابعة لرجمك رسول الله صلى الله عليه وسلم (والرابع) عن بريدة الاسلمي قال كنا معشر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم نقول لو لم يقر ماعز أربع مرات ما رجمه رسول الله صلى الله عليه وسلم (وثانيها) انهم قاسوا الاقرار على الشهادة فكما أنه لا يقبل في الزنا الا أربع شهادات فكذا في الاقرار به والجامع السعي في كتمان هذه الفاحشة (وثالثها) ان الزنا لا يثبت الا بأربع شهادات أو بأربع أيمان في اللعان فجاز أيضا أن لا يثبت الا بالاقرار أربع مرات وبه يفارق سائر الحقوق فانها تثبت بيمين واحدة فجاز أيضا أن يثبت باقرار واحد (والجواب عن الاول) انه ليس في الحديث الا أنه عليه السلام حكم بالشهادات الاربع وذلك لا ينافي جواز الحكم بالشهادة الواحدة (وعن الثاني) ان الفرق بينهما ان المقذوف لو أقر بالزنا مرة لسقط الحد عن القاذف ولولا أن الزنا ثبت لما سقط كما لو شهد اثنان بالزنا لا يسقط الحد عن القاذف حيث لم يثبت به الزنا والله أعلم (والطريق الثالث) الشهادة وقد أجمعوا على انه لا بد من أربع شهادات ويدل عليه قوله تعالى فاستشهدوا عليهن أربعة منكم والكلام فيه سيأتي ان شاء الله تعالى في قوله ثم لم يأتوا بأربعة شهداء (البحث الخامس) في أن المخاطب بقوله تعالى فاجلدوا من هو أجمعت الامة على أن المخاطب بذلك هو الامام ثم احتجوا بهذا على وجوب نصب الامام قالوا لانه سبحانه أمر باقامة الحد وأجمعوا على انه لا يتولى اقامته الا الامام وما لا يتم الواجب المطلق الا به وكان مقدورا للمكلف فهو واجب فكان نصب الامام واجبا وقد مر بيان هذه الدلالة في قوله والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ويتفرع ههنا ثلاث مسائل (المسألة الاولى)

مصيركم الى النار وفيه التهديد والوعيد لا في الامر (قل لعبادي الذين آمنوا) خصهم بالاضافة اليه تنويها لهم وتنبيها على أنهم المقيمون لوظائف العبودية الموفون بحقوقها وترك العاطف بين الامرين للايذان بتباين حالهما باعتبار المقول تهديدا وتشريفا والمقول ههنا محذوف دل عليه الجواب أي قل لهم أقيموا وأنفقوا (يقيموا الصلوة وينفقوا مما رزقناهم) أي يداوموا على ذلك وفيه ايذان بكمال مطاوعتهم الرسول صلى الله عليه وسلم وغاية مسارعتهم الى الامتثال بأوامره وقد جوزوا أن يكون المقول يقيموا وينفقوا بحذف لام الامر عنهما وانما حسن ذلك دون الحذف في قوله محمد تفد نفسك كل نفس اذا ما خفت من أمر تبالا لدلالة قل عليه وقيل هما جوابا أقيموا وأنفقوا قد أقيما مقامهما وليس بذلك (سرا وعلانية) منتصبان على المصدرية من الامر المقدر لا من جواب الامر المذكور أي أنفقوا انفاق سر وعلانية والاحب في الانفاق اخفاء المتطوع به واعلان الواجب والمراد حث المؤمنين على الشكر لنعم الله سبحانه بالعبادة البدنية والمالية وترك التمتع بمتاع الدنيا والركون اليها كما هو صنيع الكفرة (من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه) فيبتاع المقصر ما يتلافى به تقصيره أو يفتدي به نفسه والمقصود نفي عقد المعاوضة بالمرة وتخصيص البيع بالذكر للايجاز مع المبالغة في نفي العقد اذ انتفاء البيع يستلزم انتفاء الشراء على أبلغ وجه وانتفاؤه رعاية وقوع تحقق الايجاب من قبل البائع (ولا خلال) ولا مخالة فيشفع له خليل أو يسامحه بمال يفتدي به نفسه أو من قبل أن يأتي يوم لا أثر فيه لما ألفوه وتعاطوه من البيع والمخالة ولا انتفاع بذلك وانما الانتفاع والارتفاق فيه بالانفاق لوجه

الله سبحانه والظاهر أن من متعلقة بأنفقوا وتذكير اتيان ذلك اليوم لتأكيد مضمونه كما في سورة البقرة من حيث أن كلا من فقدان الشفاعة وما يتدارك به التقصير معاوضة وتبرعا وانقطاع آثار البيع والخلال الواقعين في الدنيا وعدم الانتفاع بهما من أقوى الدواعي الى الاتيان بما تبقى عوائده وتدوم فوائده من الانفاق في سبيل الله عز وجل ٢٥٥ أو من حيث ان ادخار المال وترك انفاقه انما يقع غالبا للتجارات والمهاداة حيث لا يمكن ذلك في الآخرة فلا وجه لادخاره الى وقت الموت وتخصيص التأكيد بذلك لميل الطباع الى المال وكونها مجبولة على حبه والضنة به ولا يبعد أن يكون تأكيدا لمضمون الامر باقامة الصلاة أيضا من حيث ان تركها كثيرا ما يكون بالاشتغال بالبياعات والخلالات كما في قوله تعالى واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها وقرئ بالفتح فيهما على ارادة النفي العام ودلالة الرفع على ذلك باعتبار خطابي هو وقوعه في جواب هل فيه بيع أو خلال (الله) مبتدأ خبره (الذي خلق السموات) وما فيها من الاجرام العلوية (والارض) وما فيها من أنواع المخلوقات لما ذكر أحوال الكافرين لنعم الله تعالى وأمر المؤمنين باقامة مراسم الطاعة شكرا لنعمه شرع في تفصيل ما يستوجب على كافة الانام المثابرة على الشكر والطاعة من النعم العظام والمنن الجسام حثا للمؤمنين عليها وتقريعا للكفرة المخلين بها الواضعين موضعها الكفر والمعاصي وفي جعل المبتدأ الاسم الجليل والخبر الاسم الموصول بتلك الافاعيل العظيمة من خلق هذه الاجرام العظام وانزال الامطار واخراج الثمرات وما يتلوها من الآثار العجيبة ما لا يخفى من تربية المهابة والدلالة على قوة السلطان (وأنزل من السماء) أي السحاب فان كل ما علاك سماء أو من

الاولى) قال الشافعي رحمه الله السيد يملك اقامة الحد على مملوكه وهو قول ابن مسعود وابن عمر وفاطمة وعائشة وعند أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد وزفر رحمهم الله لا يملك وقال مالك يحده المولى في الزنا وشرب الخمر والقذف ولا يقطعه في السرقة وانما يقطعه الامام وهو قول الليث واحتج الشافعي رحمه الله بوجوه (أحدها) قوله عليه الصلاة والسلام أقيموا الحدود على ما ملكت أيمانكم وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال عليه السلام اذا زنت أمة أحدكم فليجلدها وفي رواية أخرى فليجلدها الحد قال أبو بكر الرازي لا دلالة في هذه الاخبار لان قوله أقيموا الحدود على ما ملكت أيمانكم هو كقوله الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ومعلوم أن المراد منه رفعه الى الامام لاقامة الحد والمخاطبون باقامة الحد هم الائمة وسائر الناس مخاطبون برفع الامر اليهم حتى يقيموا عليهم الحدود فكذلك قوله أقيموا الحدود على ما ملكت أيمانكم على هذا المعنى وأما قوله اذا زنت أمة أحدكم فليجلدها فانه ليس كل جلد حدا لان الجلد قد يكون على وجه التعزير فاذا عزرنا فقد وفينا بمقتضى الحديث (والجواب) ان قوله أقيموا الحدود أمر باقامة الحد فحمل هذا اللفظ على رفع الواقعة الى الامام عدول عن الظاهر أقصى ما في الباب انه ترك الظاهر في قوله فاجلدوا لكن لا يلزم من ترك الظاهر هناك تركه ههنا أما قوله فليجلدها فالمراد هو التعزير فباطل لان الجلد المذكور عقيب الزنا لا يفهم منه الا الحد (وثانيها) ان السلطان انما ملك اقامة الحد عليه فسيده به أولى لان تعلق السيد بالعبد أقوى من تعلق السلطان به لان الملك أقوى من عقد البيعة وولاية السادة على العبيد فوق ولاية السلطان على الرعية حتى اذا كان للامة سيد وأب فان ولاية النكاح للسيد دون الاب ثم ان الاب مقدم على السلطان في ولاية النكاح فيكون السيد مقدما على السلطان بدرجات فكان أولى ولان السيد يملك من التصرفات في هذا المحل ما لا يملكه الامام فثبت أن المولى أولى (وثالثها) أجمعنا على أن السيد يملك التعزير فكذا الحد لان كل واحد نظير الآخر وان كان أحدهما مقدرا والآخر غير مقدر واحتج أبو بكر الرازي على مذهب أبي حنيفة بوجوه (أحدها) قال قوله تعالى الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة لا شك انه خطاب مع الائمة دون عامة الناس فالتقدير فاجلدوا أيها الائمة والحكام كل واحد منهما مائة جلدة ولم يفرق في هذه الآية بين المحدودين من الاحرار والعبيد فوجب أن تكون الائمة هم المخاطبون باقامة الحدود على الاحرار والعبيد دون الموالي (وثانيها) انه لو جاز للمولى أن يسمع شهادة الشهود على عبده بالسرقة فيقطعه فلو رجعوا عن شهادتهم لوجب أن يتمكن من تضمين الشهود لان تضمين الشهود يتعلق بحكم الحاكم بالشهادة لانه لو لم يكن يحكم بشهادتهم لم يضمنوا شيئا فكان يصير حاكما لنفسه بايجاب الضمان عليهم وذلك باطل لانه ليس لاحد من الناس أن يحكم لنفسه فعلمنا ان المولى لا يملك استماع البينة على عبده بذلك ولا قطعه (وثالثها) ان المالك ربما لا يستوفي الحد بكماله لشفقته على ملكه واذا كان متهما وجب أن لا يفوض اليه (والجواب عن الاول) ان قوله فاجلدوا ليس بصريح في كونه خطابا مع الامام لكن لو سلمنا انه لما انعقد الاجماع على ان غير الامام لا يتولاه حملنا ذلك الخطاب على الامام وههنا لم ينعقد الاجماع على أن غير الامام لا يتولاه لانه عين النزاع (والجواب عن الثاني) قال محيي السنة في كتاب التهذيب هل يجوز للمولى قطع يد عبده بسبب السرقة أو قطع الطريق فيه وجهان أصحهما أنه يجوز نص عليه في رواية البويطي لما روي عن ابن عمر أنه قطع عبدا له سرق وكما يجلده في الزنا وشرب الخمر والثاني لا بل القطع الى الامام بخلاف الجلد لان المولى يملك جنس الجلد وهو التعزير ولا يملك جنس القطع ثم قال وكل حد يقيمه المولى على عبده انما يقيمه اذا ثبت باعتراف العبد فان كانت عليه بينة فهل يسمع المولى

فلذلك فان المطر منه يبتدأ الى السحاب ومنه الى الارض على ما دلت عليه ظواهر النصوص او من أسباب سماوية تثير الاجزاء الرطبة من أعماق الارض الى الجو فينعقد سحابا ماطرا او بأما كان فمن ابتدائية (ماء) أي نوعا منه وهو المطر وتقديم المجرور على المنصوب اما باعتبار كونه مبدأ النزوله أو لتشويقه كما في قولك ٢٥٦ أعطاه السلطان من خزانته مالا أو لما مر مرارا من التشويق الى المؤخر (فأخرج به) بذلك الماء (من الثمرات) الفائتة للحصر اما لان صيغ الجموع يتعاور بعضها موضع بعض واما لانه أريد بمفردها جماعة الثمرة التي في قولك أدركت ثمرة بستان فلان (رزقا لكم) تعيشون به وهو بمعنى المرزوق شامل للمطعوم والملبوس مفعول لاخرج ومن للتبيين كقولك أنفقت من الدراهم ألفا ويجوز أن يكون من الثمرات مفعولا ورزقا حالا منه أو مصدرا من أخرج بمعنى رزق أو للتبعيض بدليل قوله تعالى فأخرجنا به ثمرات كأنه قيل أنزل من السماء بعض الماء فأخرج به بعض الثمرات ليكون بعض رزقكم اذ لم ينزل من السماء كل الماء ولا أخرج بالمطر كل الثمار ولا جعل كل الرزق ثمرا وخروج الثمرات وان كان بمشيئته عز وجل وقدرته لكن جرت عادته تعالى بافاضة صورها وكيفياتها على المواد الممتزجة من الماء والتراب أو أودع في الماء قوة فاعلة وفي الارض قوة قابلة يتولد من اجتماعهما انواع الثمار وهو قادر على ايجاد الاشياء بلا اسباب ومواد كما أبدع نفوس انفطار الاسباب كذلك لما أن له تعالى في انشائها مدرجا من طور الى طور صنائع وحكما يجدد فيها لاولي الابصار عبرا وسكونا الى عظيم قدرته ليس ذلك في ابداعها دفعة وقوله لكم صفة لقوله رزقا ان أريد به المرزوق ومفعول به ان أريد به المصدر كأنه قيل رزقا اياكم (ولهذا لكم

الشهادة فيه وجهان (أحدهما) يسمع لانه ملك الاقامة بالاعتراف فيملك بالبينة كالامام (والثاني) لا يسمع بل ذلك الى الحكام (والجواب عن الثالث) انه منقوض بالتعزير (المسئلة الثانية) اذا فقد الامام فليس لآحاد الناس اقامة هذه الحدود بل الاولى أن يعينوا واحدا من الصالحين ليقوم به (المسئلة الثالثة) الخارجي المتغلب هل له اقامة الحدود قال بعضهم له ذلك وقال آخرون ليس له ذلك لان اقامة الحد من جهة من لم يلزمنا الانقياد له ولا يمنعه من أن نفوض ذلك الى رجل من الصالحين (البحث السادس في كيفية اقامة الحد) أما الجلد فاعلم أن المذكور في الآية هو الجلد وهذا مشترك بين الجلد الشديد والجلد الخفيف والجلد على كل الاعضاء أو على بعض الاعضاء فحينئذ لا يكون في الآية اشعار بشيء من هذه القيود بل مقتضى الآية أن يكون الآتي بالجلد كيف كان خارجا عن العهدة لانه أتى بما أمر به فوجب أن يخرج عن العهدة قال صاحب الكشاف وفي لفظ الجلد اشارة الى أنه لا ينبغي أن يتجاوز الالم الى اللحم ولان الجلد ضرب الجلد يقال جلده كقولك ظهره وبطنه ورأسه الا أنا لما عرفنا أن المقصود منه الزجر والزجر لا يحصل الا بالجلد الخفيف لا جرم تكلم العلماء في صفة الجلد على سبيل القياس ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولى) المحصن يجلد مع ثيابه ولا يجرد ولكن ينبغي أن يكون بحيث يصل الالم اليه وينزع من ثيابه الحشو والفرو روى أن أبا عبيدة بن الجراح أتى برجل في حد فذهب الرجل ينزع قميصه وقال ما ينبغي لجسدي هذا المذنب أن يضرب وعليه قميص فقال أبو عبيدة لا تدعوه ينزع قميصه فضربه عليه أما المرأة فلا خلاف في أنه لا يجوز تجريدها بل يربط عليها ثيابها حتى لا تنكشف ويلي ذلك منها امرأة (المسئلة الثانية) لا يمد ولا يربط بل يترك حتى يتقي بيديه ويضرب الرجل قائما والمرأة جالسة قال أبو يوسف رحمه الله ضرب ابن أبي ليلى المرأة قائمة فخطأه أبو حنيفة (المسئلة الثالثة) يضرب بسوط وسط لا جديد يجرح ولا خلق لم يؤلم أو يضرب ضربا بين ضربين لا شديد ولا واه روى أبو عثمان النهدي قال أتى عمر برجل في حد فجيء بسوط فيه شدة فقال أريد ألين من هذا فأتي بسوط فيه لين فقال أريد أشد من هذا فأتي بسوط بين السوطين فرضي به (المسئلة الرابعة) تفرق السياط على أعضائه ولا يجمعها في موضع واحد واتفقوا على أنه يتقي المهالك كالوجه والبطن والفرج ويضرب على الرأس عند الشافعي رحمه الله وقال أبو حنيفة رحمه الله لا يضرب على الرأس وهو قول على حجة الشافعي رحمه الله قال أبو بكر اضرب على الرأس فان الشيطان فيه وعن عمر انه ضرب صبيغ بن عسيل على رأسه حين سأل عن الذاريات على وجه التعنت حجة أبي حنيفة رحمه الله أجمعنا على انه لا يضرب على الوجه فكذا الرأس والجامع الحكم والمعنى أما الحكم فلان الشين الذي يلحق الرأس بتأثير الضرب كالذي يلحق الوجه بدليل ان الموضحة وسائر الشجاج حكمها في الرأس والوجه واحد وفارقا سائر البدن لان الموضحة فيما سوى الرأس والوجه انما يجب فيها حكومة ولا يجب فيها أرش الموضحة الواقعة في الرأس والوجه فوجب استواء الرأس والوجه في وجوب صونهما عن الضرب وأما المعنى فهو انما منع من ضرب الوجه لما كان فيه من الجناية على البصر وذلك موجود في الرأس لان ضرب الرأس يظلم منه البصر وربما حدث منه الماء في العين وربما حدث منه اختلاط العقل * أجاب أصحابنا عنه بأن الفرق بين الوجه والرأس ثابت لان الضربة اذا وقعت على الوجه فعظم الجبهة رقيق فربما انكسر بخلاف عظم القحف فانه في نهاية الصلابة وأيضا فالعين في نهاية اللطافة فالضرب عليها يورث العمى وأيضا فالضرب على الوجه يكسر الانف لانه من غضروف لطيف ويكسر الاسنان لانها عظام لطيفة ويقع على الخدين وهما لحمان قريبان من الدماغ والضربة عليهما في نهاية

الخطار لسرعة وصول ذلك الأثر الى جرم الدماغ وكل ذلك لم يوجد في الضرب على الرأس (المسألة الخامسة) لو فرق سياط الحد تفريقا لا يحصل به التنكيل مثل أن يضرب كل يوم سوطا أو سوطين لا يحسب وإن ضرب كل يوم عشرين أو أكثر يحسب والأولى أن لا يفرق (المسألة السادسة) إن وجب الحد على الحبلى لا يقام حتى تضع روى عمران بن الحصين أن امرأة من جهينة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي حبلى من الزنا فقالت يا نبي الله أصبت حدا فأقمه علي فدعا نبي الله وليها فقال أحسن إليها فإذا وضعت فأتني بها ففعل فأمر بها نبي الله صلى الله عليه وسلم فشدت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها ولأن المقصود التأديب دون الإتلاف (المسألة السابعة) إن وجب الحد على المريض نظر فإن كان به مرض يرجى زواله من صداع أو ضعف أو ولادة يؤخر حتى يبرأ كما لو أقيم عليه حد أو قطع لا يقام عليه حد آخر حتى يبرأ من الأول وإن كان به مرض لا يرجى زواله كالسل والزمانة فلا يؤخر ولا يضرب بالسياط فإنه يموت وليس المقصود موته وذلك لا يختلف سواء كان زناه في حال الصحة ثم مرض أو في حال المرض بل يضرب بعثكال عليه مائة شمراخ فيقوم ذلك مقام مائة جلدة كما قال تعالى في قصة أيوب عليه السلام وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث وعند أبي حنيفة رحمه الله يضرب بالسياط دليلنا ما روي أن رجلا مقعدا أصاب امرأة فأمر النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ مائة شمراخ فضربه بها ضربة واحدة ولأن الصلاة وإن كانت تختلف باختلاف حاله فالحد أولى بذلك (المسألة الثامنة) يقام الحد في وقت اعتدال الهواء فإن كان في حال شدة حر أو برد نظر إن كان الحد رجما يقام عليه كما يقام في المرض لأن المقصود قتله وقيل إن كان الرجم ثبت عليه بإقراره فيؤخر إلى اعتدال الهواء وزوال المرض الذي يرجى زواله لأنه ربما رجع عن إقراره في خلال الرجم وقد أثر الرجم في جسمه فتعين شدة الحر والبرد والمرض على إهلاكه بخلاف ما لو ثبت بالبينة لأنه لا يسقط وإن كان الحد جلدا لم يجز إقامته في شدة الحر والبرد كما لا يقام في المرض أما الرجم ففيه مسائل (المسألة الأولى) قال الشافعي رحمه الله ومالك رحمه الله يجوز للإمام أن يحضر رجمه وأن لا يحضر وكذا الشهود لا يلزمهم الحضور وقال أبو حنيفة رحمه الله إن ثبت الزنا بالبينة وجب على الشهود أن يبدؤوا بالرجم ثم الإمام ثم الناس وإن ثبت بإقراره بدأ الإمام ثم الناس حجة الشافعي رحمه الله أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر برجم ماعز والغامدية ولم يحضر رجمهما (المسألة الثانية) إن ثبت الزنا بإقراره فمتى رجع ترك وقع به بعض الحد أو لم يقع وبه قال أبو حنيفة رحمه الله والثوري وأحمد وإسحق وقال الحسن وابن أبي ليلى وداود لا يقبل رجوعه وعن مالك رحمه الله روايتان حجة القول الأول أن ماعزا لما مسته الحجارة هرب فقال عليه الصلاة والسلام هلا تركتموه (المسألة الثالثة) يحفر للمرأة إلى صدرها حتى لا تنكشف ويرمى إليها ولا يحفر للرجل لما روى أبو سعيد الخدري أن ماعزا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إني أصبت فاحشة فأقم علي الحد فرده النبي عليه الصلاة والسلام مرارا ثم سأل قومه فقالوا لا نعلم به بأسا فأمرنا أن نرجمه فانطلقنا به إلى بقيع الغرقد فما أوثقناه ولا حفرنا له قال فرميناه بالعظام والمدر والخزف قال فاشتد واشتددنا خلفه حتى أتى عرض الحرة فانتصب لنا فرميناه بجلاميد الحرة حتى سكت وجه الاستدلال أنه قال فما أوثقناه ولا حفرنا له ولأنه هرب ولو كان في حفرة لما أمكنه ذلك (المسألة الرابعة) إذا مات في الحد يغسل ويكفن ويصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين فهذا ما أردنا ذكره من بيان الأحكام الشرعية المتعلقة بهذه الآية (أما المباحث العقلية) فاعلم أن من الناس من قال لا شك أن البدن مركب من أجزاء كثيرة فإما أن يقوم بكل جزء حياة وعلم وقدرة على حدة أو يقوم بكل الأجزاء حياة واحدة وعلم واحد وقدرة واحدة والثاني

الفلك) بأن أقدركم على صنعها واستعمالها بأن ألهمكم كيفية ذلك (لتجري في البحر) جريا تابعا لارادتكم (بأمره) بمشيئته التي نيط بها كل شيء وتخصيصه بالذكر للتنصيص على أن ذلك ليس بمزاولة الأعمال واستعمال الآلات كما يتراءى من ظاهر الحال (وسخر لكم الانهار) إن أريد بها المياه العظيمة الجارية في الانهار العظام كالنيل والفرات ذكرها عند البحر فتسخيرها جعلها معدة لانتفاع الناس حيث يتخذون منها جداول يسقون بها زروعهم وجناتهم وما أشبه ذلك وإن أريد بها نفس الانهار فتسخيرها تيسيرها لهم (وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) دائبات في سيرهما وإنارتهما أصالة وخلافة وإصلاح ما نيط بهما صلاحه من المكونات (وسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان خلفة لمنامكم ومعاشكم ولعقد الثمار وإنضاجها ذكر سبحانه وتعالى أنواع النعم الفائضة عليهم وأبرز كل واحدة منها في جملة مستقلة تنويها لشأنها وتنبيها على رفعة مكانها وتنصيصا على كون كل منها نعمة جليلة مستوجبة للشكر وفي التعبير عن التصرف المتعلق بما ذكر من الفلك والانهار والشمس والقمر والليل والنهار بالتسخير من الاشعار بما فيها من صعوبة المأخذ وعزة المنال والدلالة على عظم السلطان وشدة المحال ما لا يخفى وتأخير تسخير الشمس والقمر عن تسخير ما تقدم من الامور المعدودة مع ما بينه وبين خلق السموات من المناسبة الظاهرة لاستتباع ذكرها الذكر الارض المستدعي لذكر إنزال الماء منها اليها الموجب لذكر إخراج الرزق الذي من جملته ما يحصل بواسطة الفلك والانهار أو للتفادي عن توهم كون الكل أعني خلق السموات والارض وتسخير الشمس والقمر نعمة واحدة كما مر في قصة البقرة (وآتاكم من كل ما سألتموه)

أي أعطاكم بعض جميع ما سألتموه حسبما تقتضيه مشيئته التابعة للحكمة والمصلحة كقوله سبحانه من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها
ما نشاء لمن نريد أو آتاكم من كل ذلك ما احتجتم اليه ونيط به انتظام أحوالكم على الوجه المقدر فكأنكم سألتموه أو كل ما طلبتموه بلسان
الاستعداد أو كل ما سألتموه على أن من للبيان وكلمة كل للتكثير كقولك فلان يعلم كل شيء وأتاه كل الناس وعليه

محال لاستحالة قيام العرض الواحد بالمحال الكثيرة فتعين الاول واذا كان كذلك كان كل جزء من أجزاء
البدن حيا على حدة وعالما على حدة وقادرا على حدة واذا ثبت هذا فنقول الزاني هو الفرج لا الظهر
فكيف يحسن من الحكيم أن يأمر بجلد الظهر ولانه ربما كان الانسان حال اقدامه على الزنا نحيفا ضعيفا
ثم يسمن بعد ذلك فكيف يجوز ايلام تلك الاجزاء الزائدة مع انها كانت بريئة عن فعل الزنا فان قال قائل
هذا مدفوع من وجهين (الاول) وهو انه ليس كل واحد من أجزاء البدن فاعلا على حدة وحيا على
حدة وذلك محال بل الحياة والعلم والقدرة تقوم بالجزء الواحد ثم توجب حكم الحيية والعالمية والقادرية
لمجموع الاجزاء فيكون المجموع حيا واحدا عالما واحدا قادرا واحدا وعلى هذا التقدير يزول السؤال
(الثاني) أن يقال الذي هو الفاعل والمحرك والمدرك شيء ليس بجسم ولا جسماني وانما هو مدبر لهذا البدن
وعلى هذا التقدير أيضا يزول السؤال (والجواب) أما الاول فضعيف وذلك لان العلم اذا قام بجزء واحد فاما
أن يحصل لمجموع الاجزاء عالمية واحدة فيلزم قيام الصفة الواحدة بالمحال الكثيرة وهو محال أو يقوم بكل
جزء عالمية على حدة فيعود المحذور المذكور وأما الثاني ففي نهاية البعد لانه اذا كان الفاعل للقبيح هو
ذلك المباين فلم يضرب هذا الجسد واعلم أن المقصود من أحكام الشرع رعاية المصالح ونحن نعلم أن شرع
الحد يفيد الزجر فكان المقصود حاصلا والله أعلم * أما قوله تعالى ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ففيه
مسئلتان (المسئلة الاولى) الرأفة الرقة والرحمة وقراءة العامة بسكون الهمزة وقرئ رأفة بفتح الهمزة ورآفة
على فعالة (المسئلة الثانية) يحتمل أن يكون المراد أن لا تأخذكم رأفة بأن يعطل الحد أو ينقص منه والمعنى
لا تعطلوا حدود الله ولا تتركوا اقامتها للشفقة والرحمة وهذا قول مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير واختيار
الفراء والزجاج ويحتمل أن لا تأخذكم رأفة بأن يخفف الجلد وهو قول سعيد بن المسيب والحسن وقتادة
ويحتمل كلا الامرين والاول أولى لان الذي تقدم ذكره الامر بنفس الجلد ولم يذكر صفته فما يعقبه يجب
أن يكون راجعا اليه وكفى برسول الله أسوة في ذلك حيث قال لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها وقوله
بقوله في دين الله على أن الدين اذا أوجب أمرا لم يصح استعمال الرأفة في خلافه أما قوله تعالى ان كنتم
تؤمنون بالله واليوم الآخر فهو من باب التهييج والتهاب الغضب لله تعالى ولدينه قال الجبائي تقدير الآية
ان كنتم مؤمنين فلا تتركوا اقامة الحدود وهذا يدل على أن الاشتغال باداء الواجبات من الايمان بخلاف
ما تقوله المرجئة (والجواب) ان الرأفة لا تحصل الا اذا حكم الانسان بطبعه ان الاولى أن لا تقام تلك
الحدود وحينئذ يكون منكر الدين فيخرج عن الايمان في الحديث يؤتى بوال نقص من الحد سوطا فيقال
له لم فعلت ذاك فيقول رحمة لعبادك فيقال له أنت أرحم بهم مني فيؤمر به الى النار ويؤتى بمن زاد سوطا
فيقال له لم فعلت ذلك فيقول لينتهوا عن معاصيك فيقول أنت أحكم به مني فيؤمر به الى النار أما قوله تعالى
وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى وليشهد عذابهما طائفة أمر
وظاهره للوجوب لكن الفقهاء قالوا يستحب حضور الجمع والمقصود اعلان اقامة الحد لما فيه من مزيد الردع
ولما فيه من رفع التهمة عمن يجلد وقيل أراد بالطائفة الشهود لانه يجب حضورهم ليعلم بقاؤهم على الشهادة
(المسئلة الثانية) اختلفوا في أقل الطائفة على أقوال (أحدها) انه رجل واحد وهو قول النخعي ومجاهد
واحتجا بقوله تعالى وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا (وثانيها) انه اثنان وهو قول عكرمة وعطاء واحتجا
بقوله تعالى فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين وكل ثلاثة فرقة والخارج من الثلاثة واحد
واثنان والاحتياط يوجب الاخذ بالاكثر (وثالثها) انه ثلاثة وهو قول الزهري وقتادة قالوا الطائفة هي

قوله عز وجل فتحنا عليهم أبواب كل شيء وقيل الاصل وآتاكم من كل ما سألتموه وما لم تسألوه فحذف الثاني لدلالة ما أبقي على ما ألقي وقرئ بتنوين كل على أن ما نافية ومحل ما سألتموه النصب على الحالية أي آتاكم من كل غير سائليه (وان تعدوا نعمة الله) التي أنعم بها عليكم (لا تحصوها) لا تطيقوا حصرها ولو اجمالا فانها غير متناهية وأصل الاحصاء أن الحاسب اذا بلغ عقدا معينا من عقود الاعداد وضع حصاة ليحفظ بها فمعناه لا تبلغوا مرتبة معتدا بها من مراتبها فضلا عن بلوغ غايتها كيف لا وما من فرد من أفراد الناس وان كان في أقصى مراتب الفقر والافلاس ممنوا بأصناف العنا مبتلى بأنواع الرزايا فهو بحيث لو تأمله ألفيته متقلبا في نعم لا تعد ومنن لا تحصى ولا تعد كأنه قد أعطى كل ساعة وآن من النعماء ما حواه حيطة الامكان

وان كنت في ريب من ذلك فقدر انه ملك ملك اقطار العالم ودانت له كافة الامم وأذعنت لطاعته
السحرة وخضعت لهيبته رقاب العتاة وفاز بكل مرام ونال كل منال وحاز جميع ما في الدنيا من أصناف الاموال من غير مزاحم ولا شريك
يساهمه بل قدر أن جميع ما فيها من حجر ومدر يواقيت غالية ونفائس درر ثم قدر انه قد وقع من فقد مشروب أو مطعوم في حالة بلغت نفسه

الفرقة التي يمكن أن تكون حلقة كأنها الجماعة الحافة حول الشيء وهذه الصورة أقل ما لابد في حصولها هو الثلاثة (ورابعها) انه أربعة بعدد شهود الزنا وهو قول ابن عباس والشافعي رضي الله تعالى عنهم (وخامسها) انه عشرة وهو قول الحسن البصري لان العشرة هي العدد الكامل (المسئلة الثالثة) تسميته عذابا يدل على انه عقوبة ويجوز أن يسمى عذابا لانه يمنع المعاودة كما سمي نكالا لذلك ونبه تعالى بقوله من المؤمنين على ان الذين يشهدون يجب أن يكونوا بهذا الوصف لانهم اذا كانوا كذلك عظم موقع حضورهم في الزجر وعظم موقع اخبارهم عما شاهدوا فيعظم الخوف من حضورهم الشهرة فيكون ذلك أقوى في الانزجار والله أعلم ﴿(الحكم الثاني)﴾ قوله تعالى ﴿الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾ قرئ لا ينكح بالجزم على النهي وقرئ وحرم بفتح الحاء ثم ان في الآية سؤالات (السؤال الاول) قوله الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة ظاهره خبر ثم انه ليس الامر كما يشعر به هذا الظاهر لانا نرى ان الزاني قد ينكح المؤمنة العفيفة والزانية قد ينكحها المؤمن العفيف (السؤال الثاني) أنه قال وحرم ذلك على المؤمنين وليس كذلك فان المؤمن يحل له التزوج بالمرأة الزانية (والجواب) اعلم أن المفسرين لاجل هذين السؤالين ذكروا وجوها (أحدها) وهو أحسنها ما قاله القفال وهو ان اللفظ وان كان عاما لكن المراد منه الاعم الاغلب وذلك لان الفاسق الخبيث الذي من شأنه الزنا والفسق لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء وانما يرغب في فاسقة خبيثة مثله أو في مشركة والفاسقة الخبيثة لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها وانما يرغب فيها من هو من جنسها من الفسقة والمشركين فهذا على الاعم الاغلب كما يقال لا يفعل الخير الا الرجل التقي وقد يفعل بعض الخير من ليس بتقي فكذا ههنا وأما قوله وحرم ذلك على المؤمنين فالجواب من وجهين (أحدهما) أن نكاح المؤمن الممدوح عند الله الزانية ورغبته فيها وانخراطه بذلك في سلك الفسقة المتسمين بالزنا محرم عليه لما فيه من التشبه بالفساق وحضور مواضع التهمة والتسبب لسوء المقالة فيه والغيبة ومجالسة الخاطئين كم فيها من التعرض لاقتراف الآثام فكيف بمزاوجة الزواني والقحاب (الثاني) وهو ان صرف الرغبة بالكلية الى الزواني وترك الرغبة في الصالحات محرم على المؤمنين لان قوله الزاني لا ينكح الا زانية معناه ان الزاني لا يرغب الا في الزانية فهذا الحصر محرم على المؤمنين ولا يلزم من حرمة هذا الحصر حرمة التزوج بالزانية فهذا هو المعتمد في تفسير الآية (الوجه الثاني) ان الالف واللام في قوله الزاني وفي قوله وحرم ذلك على المؤمنين وان كان للعموم ظاهرا لكنه ههنا مخصوص بالاقوام الذين نزلت هذه الآية فيهم قال مجاهد وعطاء بن أبي رباح وقتادة قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء ليس لهم أموال ولا عشائر وبالمدينة نساء بغايا يكرين أنفسهن وهن يومئذ أخصب أهل المدينة ولكل واحدة منهن علامة على بابها كعلامة البيطار ليعرف أنها زانية وكان لا يدخل عليها الا زان أو مشرك فرغب في كسبهن ناس من فقراء المسلمين وقالوا نتزوج بهن الى أن يغنينا الله عنهن فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية فنفرت الآية أولئك الزواني لا ينكحهن الا تلك الزانيات وتلك الزانيات لا ينكحهن الا أولئك الزواني وحرم نكاحهن بأعيانهن على المؤمنين (الوجه الثالث في الجواب) أن قوله الزاني لا ينكح الا زانية وان كان خبرا في الظاهر لكن المراد النهي والمعنى ان كل من كان زانيا فلا ينبغي أن ينكح الا زانية وحرم ذلك على المؤمنين وهكذا كان الحكم في ابتداء الاسلام وعلى هذا الوجه ذكروا قولين (أحدهما) ان ذلك الحكم باق الى الآن حتى يحرم على الزاني والزانية التزوج بالعفيفة والعفيف وبالعكس ويقال هذا

الملقوم فهل يشتري وهو في تلك الحال بجميع ماله من الملك والمال لقمة تغذيه عن رواه أو شربة ترويه من ظماء أم يختار الهلاك فتذهب الاموال والاملاك بغير بدل يبقى عليه ولا نفع يعود اليه كلا بل يبذل لذلك كل ما تحويه اليدان كائنا ما كان وليس في صفقته شائبة الخسران فاذن تلك اللقمة والشربة خير مما في الدنيا بألف رتبة مع أنهما في طرف الثمام ينالهما في شاء من الليالي والايام أوقدرانه قد احتبس عليه النفس فلا دخل منه ما خرج ولا خرج منه ما ولج والحين قد حان وأتاه الموت من كل مكان أما يعطي ذلك كله بمقابلة نفس واحد بل يعطيه وهو لربه حامد فاذن هو خير من أموال الدنيا بجملتها ومطالبها برمتها مع أنه قد أبيح له كل آن من آنات الليالي والايام حال اليقظة والمنام هذا من الظهور والجلاء بحيث لا يكاد يخفى على أحد من العقلاء وان رمت العثور على حقيقة الحق والوقوف على كل ما جل من السر ودق فاعلم أن الانسان بمقتضى حقيقته الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجود وما يتبعه من الكمالات اللائقة والملكات الرائقة بحيث لو انقطع ما بينه وبين العنايات الالهية من العلاقة لما استقر له القرار ولا اطمأنت به الدار الا في مطمورة العدم والبوار ومهاوي الهلاك والدمار لكن يفيض عليه من الجناب الاقدس تعالى شأنه وتقدس في كل زمان يمضي وكل آن يمر وينقضي من أنواع الفيوض المتعلقة بذاته ووجوده وسائر صفاته الروحانية والنفسانية والجسمانية ما لا يحيط به نطاق التعبير ولا يعلمه الا العليم الخبير وتوضيحه أنه كما لا يستحق الوجود ابتداء لا يستحقه بقاء وانما ذلك من جناب المبدئ الاول عز وجل فكما لا يتصور وجوده ابتداء ما لم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه

مذهب أبي بكر وعمر وعلي وابن مسعود وعائشة ثم في هؤلاء من يسوى بين الابتداء والدوام فيقول كما لا يحل للمؤمن أن يتزوج بالزانية فكذلك لا يحل له اذا زنت تحته أن يقيم عليها ومنهم من يفصل لان في جملة ما يمنع من التزويج ما لا يمنع من دوام النكاح كالاحرام والعدة (والقول الثاني) ان هذا الحكم صار منسوخا واختلفوا في ناسخه فعن الجبائي ان ناسخه هو الاجماع وعن سعيد بن المسيب أنه منسوخ بعموم قوله تعالى فانكحوا ما طاب لكم من النساء وأنكحوا الايامى قال المحققون هذان الوجهان ضعيفان (أما الاول) فلانه ثبت في أصول الفقه ان الاجماع لا ينسخ ولا ينسخ به وأيضا فالاجماع الحاصل عقيب الخلاف لا يكون حجة والاجماع في هذه المسئلة مسبوق بمخالفة أبي بكر وعمر وعلي فكيف يصح وأما قوله تعالى فانكحوا ما طاب لكم فهو لا يصلح أن يكون ناسخا لانه لا بد من أن يشترط فيه أن لا يكون هنالك مانع من النكاح من سبب أو نسب أو غيرهما ولقائل أن يقول لا يدخل فيه تزويج الزانية من المؤمن كما لا يدخل فيه تزويجها من الاخ وابن الاخ ونقول ان للزنا تأثيرا في الفرقة ما ليس لغيره ألا ترى أنه اذا قذفها بالزنا لاعنها بالفرقة على بعض الوجوه ولا يجب مثل ذلك في سائر ما يوجب الحد ولان من حق الزنا أن يورث العار ويؤثر في الفراش ففارق غيره ثم احتج هؤلاء الذين يدعون هذا النسخ بأنه سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن رجل زنى بامرأة فهل له أن يتزوجها فأجازه ابن عباس وشبهه بمن سرق ثمرة ثم اشتراه وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن ذلك فقال أوله سفاح وآخره نكاح والحرام لا يحرم الحلال (الوجه الرابع) أن يحمل النكاح على الوطء والمعنى ان الزاني لا يطأ حين يزني الا زانية أو مشركة وكذا الزانية وحرم ذلك على المؤمنين أي وحرم الزنا على المؤمنين وعلى هذا تأويل أبي مسلم قال الزجاج هذا التأويل فاسد من وجهين (الاول) أنه ما ورد النكاح في كتاب الله تعالى الا بمعنى التزويج ولم يرد البتة بمعنى الوطء (الثاني) ان ذلك يخرج الكلام عن الفائدة لانا لو قلنا المراد ان الزاني لا يطأ الا الزانية فالاشكال عائد لانا نرى ان الزاني قد يطأ العفيفة حين يتزوج بها ولو قلنا المراد ان الزاني لا يطأ الا الزانية حين يكون وطؤه زنا فهذا الكلام لا فائدة فيه وهذا آخر الكلام في هذا المقام (السؤال الثالث) أي فرق بين قوله الزاني لا ينكح الا زانية وبين قوله والزانية لا ينكحها الا زان (الجواب) الكلام الاول يدل على أن الزاني لا يرغب الا في نكاح الزانية وهذا لا يمنع من أن يرغب في نكاح الزانية غير الزاني فلا جرم بين ذلك بالكلام الثاني (السؤال الرابع) لم قدمت الزانية على الزاني في الآية المتقدمة وههنا بالعكس (الجواب) سيقت تلك الآية لعقوبتهما على جنايتهما والمرأة هي المادة في الزنا وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه لانه هو الراغب والطالب (الحكم الثالث) القذف ﴿قوله تعالى ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم﴾ اعلم أن ظاهر الآية لا يدل على الشيء الذي به رموا المحصنات وذكر الرمي لا يدل على الزنا اذ قد يرميها بسرقة وشرب خمر وكفر بل لا بد من قرينة دالة على التعيين وقد أجمع العلماء على أن المراد الرمي بالزنا وفي الآية أقوال تدل عليه (أحدها) تقدم ذكر الزنا (وثانيها) أنه تعالى ذكر المحصنات وهن العفائف فدل ذلك على أن المراد بالرمي رميهن بضد العفاف (وثالثها) قوله ثم لم يأتوا بأربعة شهداء يعني على صحة ما رموهن به ومعلوم أن هذا العدد من الشهود غير مشروط الا في الزنا (ورابعها) انعقاد الاجماع على أنه لا يجب الجلد بالرمي بغير الزنا فوجب أن يكون المراد هو الرمي بالزنا اذا عرفت هذا فالكلام في هذه الآية يتعلق بالرمي والرامي والمرمي (البحث

الاول

الاصلي لا يتصور بقاؤه على الوجود بعد تحققه بذاته ما لم ينسد عليه جميع أنحاء عدمه الطارئ لان الاستمرار والدوام من خصائص الوجود الواجبي وأنت خبير بأن ما يتوقف عليه وجوده من الامور الوجودية التي هي علله وشرائطه وان وجب كونها متناهية لوجوب تناهي ما دخل تحت الوجود لكن الامور العدمية التي لها دخل في وجوده ليست كذلك اذ لا استحالة في أن يكون لشيء واحد موانع غير متناهية وانما الاستحالة في دخولها تحت الوجود فارتفاع تلك الموانع التي لا تتناهى أعني بقاءها على العدم مع امكان وجودها في أنفسها في كل آن من آنات وجوده نعم غير متناهية حقيقة لا ادعاء وكذلك الحال في وجودات علله وشرائطه القريبة والبعيدة ابتداء وبقاء وكذا في كمالاته التابعة لوجوده فاتضح أنه يفيض عليه كل آن نعما لا تتناهى من وجوه شتى فسبحانك سبحانك ما أعظم سلطانك لا تلاحظك العيون بأنظارها ولا تطالعك العقول بأفكارها شأنك لا يضاهى واحسانك لا يتناهى ونحن في معرفتك حائرون وفي اقامة مراسم شكرك قاصرون نسألك الهداية الى مناهج معرفتك والتوفيق لاداء حقوق نعمتك لا نحصي ثناء عليك لا اله الا أنت نستغفرك ونتوب اليك (ان الانسان لظلوم) يظلم النعمة باغفال شكرها أو بوضعه اياها في غير موضعها أو يظلم نفسه بتعريضها للحرمان (كفار) شديد الكفران وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع كفار في النعمة يجمع ويمنع واللام في الانسان للجنس ومصداق الحكم بالظلم والكفران بعض من وجدا فيه من أفراده ويدخل في ذلك الذين بدلوا نعمة الله كفرا الخ دخولا أوليا (واذ قال ابراهيم) أي واذكر وقت قوله عليه الصلاة والسلام والمقصود من تذكيره تذكير ما وقع

الاول في الرمي) وفيه مسائل (المسألة الاولى) الفاظ القذف تنقسم الى صريح وكناية وتعريض فالصريح أن يقول يا زانية أو زنيت أو زنى قبلك أو دبرك ولو قال زنى بدنك ففيه وجهان (أحدهما) انه كناية كقوله زنى يدك لان حقيقة الزنا من الفرج فلا يكون من سائر البدن الا المعونة (والثاني) وهو الاصح انه صريح لان الفعل انما يصدر من جملة البدن والفرج آلة في الفعل أما الكنايات فمثل أن يقول يا فاسقة يا فاجرة يا خبيثة يا مؤاجرة يا ابنة الحرام أو امرأتي لا ترد يد لامس و بالعكس فهذا لا يكون قذفا الا أن يريده وكذلك لو قال لعربي يا نبطي فهذا لا يكون قذفا الا أن يريده فان أراد به القذف فهو قذف لام المقول له والا فلا فان قال عنيت به نبطي الدار واللسان وادعت أم المقول له انه أراد القذف فالقول قوله مع يمينه أما التعريض فليس بقذف وان أراده وذلك مثل قوله يا ابن الحلال أما أنا فما زنيت وليست أمي زانية وهذا قول الشافعي وأبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد وزفر وابن شبرمة والثوري والحسن بن صالح رحمهم الله وقال مالك رحمه الله يجب الحد فيه وقال أحمد واسحق هو قذف في حال الغضب دون حال الرضا لنا ان التعريض بالقذف محتمل للقذف ولغيره فوجب أن لا يجب الحد لان الاصل براءة الذمة فلا يرجع عنه بالشك وأيضا فلقوله عليه السلام ادرؤا الحدود بالشبهات ولان الحدود شرعت على خلاف النص النافي للضرر والايذاء الحاصل بالتصريح فوق الحاصل بالتعريض واحتج المخالف بما روى الاوزاعي عن الزهري عن سالم عن ابن عمر قال كان عمر يضرب الحد في التعريض وروى أيضا ان رجلين استبا في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال أحدهما للآخر والله ما أنا بزان ولا أمي بزانية فاستشار عمر الناس في ذلك فقال قائل مدح أباه وأمه وقال آخرون قد كان لابيه وأمه مدح غير هذا فجلده عمر ثمانين جلدة (والجواب) ان في مشاورة عمر الصحابة في حكم التعريض دلالة على انه لم يكن عندهم فيه توقيف وانهم قالوا رأيا واجتهادا (المسألة الثانية) في تعدد القذف اعلم انه اما أن يقذف شخصا واحدا مرارا أو يقذف جماعة فان قذف واحدا مرارا نظران كان أراد بالكل زنية واحدة بأن قال زنيت بعمرو قاله مرارا لا يجب الا حد واحد ولو أنشأ الثاني بعد ما حد للاول عزر للثاني وان قذفها بزنيات مختلفة بأن قال زنيت بزيد ثم قال زنيت بعمرو فهل يتعدد الحد أم لا فيه قولان (أحدهما) يتعدد اعتبارا باللفظ ولانه من حقوق العباد فلا يقع فيه التداخل كالديون (والثاني) وهو الاصح يتداخل فلا يجب فيه الا حد واحد لانهما حدان من جنس واحد لمستحق واحد فوجب أن يتداخل كحدود الزنا ولو قذف زوجته مرارا فالاصح انه يكتفي بلعان واحد سواء قلنا يتعدد الحد أو لا يتعدد أما اذا قذف جماعة معدودين نظران قذف كل واحد بكلمة يجب عليه لكل واحد حد كامل وعند أبي حنيفة رحمه الله لا يجب عليه الا حد واحد واحتج أبو بكر الرازي على قول أبي حنيفة بالقرآن والسنة والقياس أما القرآن فهو قوله تعالى والذين يرمون المحصنات والمعنى ان كل أحد يرمي المحصنات وجب عليه الجلد وذلك يقتضي ان قاذف جماعة من المحصنات لا يجلد أكثر من ثمانين فمن أوجب على قاذف جماعة المحصنات أكثر من حد واحد فقد خالف الآية وأما السنة فما روى عكرمة عن ابن عباس ان هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سمحاء فقال النبي عليه السلام البينة أو حد في ظهرك فلم يوجب النبي صلى الله عليه وسلم على هلال الا حدا واحدا مع قذفه لامرأته ولشريك بن سمحاء الى أن نزلت آية اللعان فأقيم اللعان في الزوجات مقام الحد في الاجنبيات وأما القياس فهو ان سائر ما يوجب الحد اذا وجد منه مرارا لم يجب الا حد واحد كمن زنى مرارا أو شرب مرارا أو سرق مرارا فكذا ههنا والمعنى الجامع دفع مزيد الضرر (والجواب عن الاول) ان قوله والذين صيغة

فيه من مقالاته عليه السلام على نهج التفصيل والمراد به تأكيد ما سلف من تعجيبه عليه السلام ببيان فن آخر من جناياتهم حيث كفروا بالنعم الخاصة بهم بعد ما كفروا بالنعم العامة وعصوا أباهم ابراهيم عليه السلام حيث أسكنهم بمكة شرفها الله تعالى لاقامة الصلاة والاجتناب عن عبادة الاصنام والشكر لنعم الله تعالى وسأله تعالى أن يجعله بلدا آمنا ويرزقهم من الثمرات وتهوي قلوب الناس اليهم من كل أوب سحيق فاستجاب الله تعالى دعاءه وجعله حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شئ فكفروا بتلك النعم العظام واستبدلوا بالبلد الحرام دار البوار وجعلوا لله أندادا وفعلوا ما فعلوا (رب اجعل هذا البلد) يعني مكة شرفها الله سبحانه (آمنا) أي ذا أمن أو آمنا أهله بحيث لا يخاف فيه على ما مر في سورة البقرة والفرق بينه وبين ما فيها من قوله رب اجعل هذا بلدا آمنا أن المسؤل هناك البلدية والامن معا وههنا الامن فقط حيث جعل هو المفعول الثاني للجعل وجعل البلدية صفة للمفعول الاول فان حمل على تعدد السؤال فلعله عليه السلام سأل أولا كلا الامرين فاستجيب له في أحدهما وتأخر الآخر الى وقته المقدر لما يقتضيه من الحكمة الداعية اليه ثم كرر السؤال كما هو المعتاد في الدعاء والابتهال أو كان المسؤل أولا مجرد الامن المصحح للسكنى كما في سائر البلاد وقد أجيب اليه وثانيا الامن المعهود أو كان هو المسؤل فيهما وقد أجيب اليه أيضا لكن السؤال الثاني للاستدامة والاقتصار على ذلك لانه المقصود والاصل أولا ان المعتاد في البلدية الاستمرار بعد التحقق بخلاف الامن وان حمل على وحدة السؤال وتكرر الحكاية كما هو المتبادر فالظاهر ان المسؤل كلا الامرين وقد حكي أولا واقتصر ههنا على حكاية سؤال الامن لا لمجرد أن نعمة الامن أدخل في استيجاب الشكر فذكره أنسب بمقام تقريع

جمع وقوله المحصنات صيغة جمع والجمع اذا قوبل بالجمع يقابل الفرد بالفرد فيصير المعنى كل من رمى محصنا واحدا اوجب عليه الحد وعند ذلك يظهر وجه تمسك الشافعي رحمه الله بالآية ولان قوله والذين يرمون المحصنات فاجلدوهم يدل على ترتيب الجلد على رمي المحصنات وترتيب الحكم على الوصف لاسيما اذا كان مناسبا فانه مشعر بالعلية فدلت الآية على ان رمي المحصن من حيث انه هذا المسمى يوجب الجلد اذا ثبت هذا فنقول اذا قذف واحدا صار ذلك القذف موجبا للحد فاذا قذف الثاني وجب أن يكون القذف الثاني موجبا للحد أيضا ثم موجب القذف الثاني لا يجوز أن يكون هو الحد الاول لان ذلك قد وجب بالقذف الاول وايجاب الواجب محال فوجب أن يحد بالقذف الثاني حدا ثانيا أقصى ما في الباب أن يورد على هذه الدلالة حدود الزنا لكنا نقول ترك العمل هناك بهذا الدليل لان حد الزنا أغلظ من حد القذف وعند ظهور الفارق يتعذر الجمع وأما السنة فلا دلالة فيها على هذه المسئلة لانه قذفهما بلفظ واحد ولنا في هذه المسئلة تفصيل سيأتي ان شاء الله وأما القياس ففاسد لان حد القذف حق الآدمي بدليل أنه لا يحد الا بمطالبة المقذوف وحقوق الآدمي لا تتداخل بخلاف حد الزنا فانه حق الله تعالى هذا كله اذا قذف جماعة كل واحد منهم بكلمة على حدة أما اذا قذفهم بكلمة واحدة فقال أنتم زناة أوزنيتم ففيه قولان أصحهما وهو قوله في الجديد يجب لكل واحد حد كامل لانه من حقوق العباد فلا يتداخل ولانه أدخل على كل واحد منهم معرة فصار كما لو قذفهم بكلمات وفي القديم لا يجب للكل الا حد واحد اعتبارا باللفظ فان اللفظ واحد والاول أصح لانه أوفق لمفهوم الآية فعلى هذا لو قال لرجل يا ابن الزانيين يكون قذفا لابويه بكلمة واحدة فعليه حدان (المسئلة الثالثة) فيما يبيح القذف القذف ينقسم الى محظور ومباح وواجب وجملة الكلام انه اذا لم يكن ثم ولد يريد نفيه فلا يجب وهل يباح أم لا ينظر ان رآها بعينه تزني أو اقرت هي على نفسها ووقع في قلبه صدقها أو سمع ممن يثق بقوله أو لم يسمع لكنه استفاض فيما بين الناس ان فلانا يزني بفلانة وقد رآه الزوج يخرج من بيتها أو رآهما في بيت فانه يباح له القذف لتأكد التهمة ويجوز أن يمسكها ويستر عليها لما روي ان رجلا قال يارسول الله ان لي امرأة لا ترد يد لامس قال طلقها قال اني أحبها قال فامسكها أما اذا سمعه ممن لا يوثق بقوله أو استفاض من بين الناس ولكن الزوج لم يرهما أو بالعكس لم يحل له قذفها لانه قد يذكره من لا يكون ثقة فينتشر ويدخل بيتها اخوفا من قاصد أو لسرقة أو لطلب فجور فتأبى المرأة قال الله تعالى ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم أما اذا كان ثم ولد يريد نفيه نظر فان تيقن انه ليس منه بان لم يكن وطئها الزوج أو وطئها لكنها أتت به لاقل من ستة أشهر من وقت الوطء أو لاكثر من أربع سنين يجب عليه نفيه باللعان لانه ممنوع من استلحاق نسب الغير كما هو ممنوع من نفي نسبه لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شئ ولم يدخلها الله جنته فلما حرم على المرأة أن تدخل على قوم من ليس منهم كان الرجل أيضا كذلك أما ان احتمل أن يكون منه بان أتت به لاكثر من ستة أشهر من وقت الوطء ولدون أربع سنين نظر ان لم يكن قد استبرأها بحيضة أو استبرأها وأتت به لدون ستة أشهر من وقت الاستبراء لا يحل له القذف والنفي وان اتهمها بالزنا قال النبي صلى الله عليه وسلم أيما رجل جحد ولده وهو ينظر اليه احتجب الله منه يوم القيامة وفضحه على رؤس الاولين والآخرين فان استبرأها وأتت به لاكثر من ستة أشهر من وقت الاستبراء يباح له القذف والنفي والاولى ان لا يفعل لانها قد ترى الدم على الحبل وان أتت امرأته بولد لا يشبهه بأن كانا أبيضين فاتت به أسود نظر ان لم يكن يتهمها بالزنا فليس له نفيه لما روى أبو هريرة

الكفرة على اغفاله كما قيل بل لان سؤال الهداية قد حكى بقوله تعالى فاجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم اذ المسؤل هو بيتها اليهم لساكنيه منهم لا للحج فقط وهو عين سؤال الهداية قد حكى بعبارة أخرى وكان ذلك أول ما قدم عليه السلام مكة كما روى سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ٢٦٢ أنه عليه الصلاة والسلام لما أسكن اسمعيل وهاجر هنالك وعاد متوجها الى الشام تبعته هاجر وجعلت تقول الى من تكلنا في هذا البلقع وهو لا يرد عليها جوابا حتى قالت آلله أمرك بهذا فقال نعم قالت اذا لا يضيعنا فرضيت ومضى حتى اذا استوى على ثنية كداء أقبل على الوادي فقال ربنا اني أسكنت الآية وانما فصل ما بينهما تثنية للاستدعاء وايذانا بأن كلا منهما نعمة جليلة مستدعية لشكر كثير كما في قصة البقرة (واجنبني وبني) بعدني واياهم (أن نعبد الاصنام) واجعلنا منها في جانب بعيد أي ثبتنا على ما كنا عليه من التوحيد وملة الاسلام والبعد عن عبادة الاصنام وقرئ وأجنبني من الافعال وهما لغة أهل نجد يقولون جنبني شره وأجنبني شره وأما أهل الحجاز فيقولون جنبني شره وفيه دليل على أن عصمة الانبياء عليهم السلام بتوفيق الله تعالى والظاهر أن المراد بنيه أولاده الصلبية فلا احتجاج به لابن عيينة رضي الله عنه على أن أحدا من أولاد اسمعيل عليه السلام لم يعبد الصنم وانما كان لكل قوم حجر نصبوه وقالوا هو حجر والبيت حجر فكانوا يدورون به ويسمونه الدوار فاستحب أن يقال طاف بالبيت ولا يقال دار بالبيت وليت شعري كيف ذهب عليه ما في القرآن العظيم من قوارع تنعي على قريش عبادة الاصنام على أن فيما ذكره كراعا على ما فر منه (رب انهن) أي الاصنام (أضللن كثيرا من الناس) أي تسببن له كقوله تعالى وغرتهم الحياة الدنيا وهو

رضي

تعليل لدعائه وإنما صدره بالنداء إظهارا للاعتناء به ورغبة في استجابته (فمن تبعني) منهم فيما أدعو إليه من التوحيد وملة الإسلام (فإنه مني) أي بعضي قاله عليه السلام مبالغة في بيان اختصاصه به أو متصل بي لا ينفك عني في أمر الدين (ومن عصاني) أي لم يتبعني والتعبير عنه بالعصيان للإيذان بأنه عليه السلام مستمر على الدعوة وأن عدم اتباع من لم يتبعه إنما هو لعصيانه لا لأنه لم يبلغه الدعوة (فإنك غفور رحيم) قادر على أن تغفر له وترحمه ابتداء أو بعد توبته وفيه أن كل ذنب فلله تعالى أن يغفره حتى الشرك خلا أن الوعيد قضى بالفرق بينه وبين غيره (ربنا) آثر عليه السلام ضمير الجماعة لا لما قيل من تقدم ذكره وذكر بنيه والالراعاة في قوله رب اجنبني الخ لأن الدعاء المصدر به وما أورده بصدد تمهيد مبادي إجابته من قوله (إني أسكنت) الآية متعلق بذريته فالتعرض لوصف ربوبيته تعالى لهم أدخل في القبول وإجابة المسؤول (من ذريتي) أي بعضهم أو ذرية من ذريتي فحذف المفعول وهو إسمعيل عليه السلام وما سيولد له فإن إسكانه حيث كان على وجه الاطمئنان متضمن لإسكانهم روي أن هاجر أم إسمعيل عليه السلام كانت لسارة فوهبتها من إبراهيم عليه السلام فلما ولدت له إسمعيل عليه السلام غارت عليهما فناشدته أن يخرجهما من عندها فأخرجهما إلى أرض مكة فأظهر الله تعالى عين زمزم (بواد غير ذي زرع) لا يكون فيه زرع أصلا وهو وادي مكة شرفها الله تعالى (عند بيتك) ظرف لأسكنت كقولك صليت بمكة عند الركن لا أنه صفة لواد أو بدل منه إذ المقصود إظهار كون ذلك الإسكان مع فقدان مباديه بالمرة لمحض التقرب إلى الله تعالى والالتجاء إلى جواره الكريم كما ينبئ عنه التعرض لعنوان المحرمية المؤذن بعزة الملتجا وعصمته عن المكاره في قوله

رضي الله عنه أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم إن امرأتي ولدت غلاما أسود فقال هل لك من إبل قال نعم قال ما ألوانها قال حمر قال فهل فيها أورق قال نعم قال فكيف ذلك قال نزعه عرق قال فلعل هذا نزعه عرق وإن كان يتهمها بزنا أو يتهمها برجل فأتت بولد يشبهه هل يباح له نفيه فيه وجهان (أحدهما) لا لأن العرق ينزع (والثاني) له ذلك لأن التهمة قد تأكدت بالشبه {البحث الثاني في الرامي} وفيه مسائل {المسألة الأولى} إذا قذف الصبي أو المجنون امرأته أو أجنبيا فلا حد عليهما ولا لعان لا في الحال ولا بعد البلوغ لقوله عليه الصلاة والسلام رفع القلم عن ثلاث ولكن يعزران للتأديب إن كان لهما تمييز فلو لم تتفق إقامة التعزير على الصبي حتى بلغ قال القفال يسقط التعزير لأنه كان للزجر عن إساءة الأدب وقد حدث زاجر أقوى وهو البلوغ {المسألة الثانية} الأخرس إذا كانت له إشارة مفهومة أو كتابة معلومة وقذف بالإشارة أو بالكتابة لزمه الحد وكذلك يصح لعانه بالإشارة والكتابة وعند أبي حنيفة رحمه الله لا يصح قذف الأخرس ولا لعانه وقول الشافعي رحمه الله أقرب إلى ظاهر الآية لأن من كتب أو أشار إلى القذف فقد رمى المحصنة وألحق العار بها فوجب اندراجه تحت الظاهر ولأنا نقيس قذفه ولعانه على سائر الأحكام {المسألة الثالثة} اختلفوا فيما إذا قذف العبد حرا فقال الشافعي وأبو حنيفة ومالك وأبو يوسف ومحمد وزفر وعثمان البتي عليه أربعون جلدة وروى الثوري عن جعفر بن محمد عن أبيه أن عليا عليه السلام قال يجلد العبد في القذف أربعين وعن عبد الله بن عمر أنه قال أدركت أبا بكر وعمر وعثمان ومن بعدهم من الخلفاء وكلهم يضربون المملوك في القذف أربعين وقال الأوزاعي يجلد ثمانين وهو مروي عن ابن مسعود وروي أنه جلد عمر بن عبد العزيز العبد في الفرية ثمانين ومدار المسألة على حرف واحد وهو أن هذه الآية صريحة في إيجاب الثمانين فمن رده إلى الحد إلى أربعين فطريقه أن الله تعالى قال فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب فنص على أن حد الأمة في الزنا نصف حد الحرة ثم قاسوا العبد على الأمة في تنصيف حد الزنا ثم قاسوا تنصيف حد قذف العبد على تنصيف حد الزنا في حقه فرجع حاصل الأمر إلى تخصيص عموم الكتاب بهذا القياس {المسألة الرابعة} اتفقوا على دخول الكافر تحت عموم قوله والذين يرمون المحصنات لأن الاسم يتناوله ولا مانع فاليهودي إذا قذف المسلم يجلد ثمانين والله أعلم {البحث الثالث} في المرمي وهي المحصنة قال أبو مسلم اسم الإحصان يقع على المتزوجة وعلى العفيفة وإن لم تتزوج لقوله تعالى في مريم والتي أحصنت فرجها وهو مأخوذ من منع الفرج فإذا تزوجت منعته إلا من زوجها وغير المتزوجة تمنعه كل أحد ويتفرع عليه مسائل {المسألة الأولى} ظاهر الآية يتناول جميع العفائف سواء كانت مسلمة أو كافرة وسواء كانت حرة أو رقيقة إلا أن الفقهاء قالوا شرائط الإحصان خمسة الإسلام والعقل والبلوغ والحرية والعفة من الزنا وإنما اعتبرنا الإسلام لقوله عليه السلام من أشرك بالله فليس بمحصن وإنما اعتبرنا العقل والبلوغ لقوله عليه السلام رفع القلم عن ثلاث وإنما اعتبرنا الحرية لأن العبد ناقص الدرجة فلا يعظم عليه التعيير بالزنا وإنما اعتبرنا العفة عن الزنا لأن الحد مشروع لتكذيب القاذف فإذا كان المقذوف زانيا فالقاذف صادق في القذف وكذلك إذا كان المقذوف وطئ امرأة بشبهة أو نكاح فاسد لأن فيه شبهة الزنا كما فيه شبهة الحل فكما أن إحدى الشبهتين أسقطت الحد عن الواطئ فكذا الأخرى تسقطه عن قاذفه أيضا ثم نقول من قذف كافرا أو مجنونا أو صبيا أو مملوكا أو من قد رمى امرأة فلا حد عليه بل يعزر للأذى حتى لو زنى في عنفوان شبابه مرة ثم تاب وحسن حاله وشاخ في الصلاح لا يحد قاذفه وكذلك لو زنى كافر أو رقيق ثم أسلم وعتق وصلح حاله فقذفه قاذف لا حد عليه بخلاف ما لو زنى

في حال صغره أو جنونه ثم بلغ أو أفاق فقذفه قاذف يحد لان فعل الصبي والمجنون لا يكون زنا ولو قذف محصنا فقبل أن يحد القاذف زنى المقذوف سقط الحد عن قاذفه لان صدور الزنا يورث ريبة في حاله فيما مضى لان الله تعالى كريم لا يهتك ستر عبده في أول ما يرتكب المعصية فبظهوره يعلم أنه كان متصفا به من قبل روى أن رجلا زنى في عهد عمر فقال والله ما زنيت الا هذه فقال عمر كذبت ان الله لا يفضح عبده في أول مرة وقال المزني وأبو ثور الزنا الطارئ لا يسقط الحد عن القاذف (المسئلة الثانية) قال الحسن البصري قوله والذين يرمون المحصنات يقع على الرجال والنساء وسائر العلماء أنكروا ذلك لان لفظ المحصنات جمع المؤنث فلا يتناول الرجال بل الاجماع دل على أنه لا فرق في هذا الباب بين المحصنين والمحصنات (المسئلة الثالثة) رمي غير المحصنات لا يوجب الجلد بل يوجب التعزير الا أن يكون المقذوف معروفا بما قذف به فلا حد هنالك ولا تعزير فهذا مجموع الكلام في تفسير قوله سبحانه والذين يرمون المحصنات * أما قوله سبحانه ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ففيه بحثان (البحث الاول) اعلم أن الله تعالى حكم في القاذف اذا لم يأت بأربعة شهداء بثلاثة أحكام (أحدها) جلد ثمانين (وثانيها) بطلان الشهادة (وثالثها) الحكم بفسقه الى أن يتوب واختلف أهل العلم في كيفية ثبوت هذه الاحكام بعد اتفاقهم على وجوب الحد عليه بنفس القذف عند عجزه عن اقامة البينة على الزنا فقال قائلون قد بطلت شهادته ولزمه سمة الفسق قبل اقامة الحد عليه وهو قول الشافعي والليث بن سعد وقال أبو حنيفة ومالك وأبو يوسف ومحمد وزفر شهادته مقبولة ما لم يحد قال أبو بكر الرازي وهذا يقتضي قولهم انه غير موسوم بسمة الفسق ما لم يقع به الحد لانه لو لزمته سمة الفسق لما جازت شهادته اذ كانت سمة الفسق مبطلة لشهادة من وسم بها ثم احتج أبو بكر على صحة قول أبي حنيفة رحمه الله بأمور (أحدها) قوله سبحانه والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة فظاهر الآية يقتضي ترتب وجوب الحد على مجموع القذف والعجز عن اقامة الشهادة فلو علقنا هذا الحكم على القذف وحده قدح ذلك في كونه معلقا على الامرين وذلك خلاف الآية وأيضا فوجوب الجلد حكم مرتب على مجموع أمرين فوجب أن لا يحصل بمجرد حصول أحدهما كما لو قال لامرأته ان دخلت الدار وكلمت فلانا فأنت طالق فأتت بأحد الامرين دون الآخر لم يوجد الجزاء فكذا ههنا (وثانيها) أن القاذف لا يحكم عليه بالكذب بمجرد قذفه واذا كان كذلك وجب أن لا ترد شهادته بمجرد القذف * بيان الاول من ثلاثة أوجه (الاول) أن مجرد قذفه لو أوجب كونه كاذبا لوجب أن لا تقبل بعد ذلك بينته على الزنا اذ قد وقع الحكم بكذبه والحكم بكذبه في قذفه حكم ببطلان شهادة من شهد بصدقه في كون المقذوف زانيا ولما أجمعوا على قبول بينته ثبت أنه لم يحكم عليه بالكذب بمجرد قذفه (الثاني) أن قاذف امرأته بالزنا لا يحكم بكذبه بنفس قذفه والا لما جاز ايجاب اللعان بينه وبين امرأته ولما أمر أن يشهد بالله انه لصادق فيما رماها به من الزنا مع الحكم بكذبه ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم بعدما لاعن بين الزوجين الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب فأخبر أن أحدهما لا بعينه هو الكاذب ولم يحكم بكذب القاذف وفي ذلك دليل على أن نفس القذف لا يوجب كونه كاذبا (الثالث) قوله تعالى لولا جاؤا عليه بأربعة شهداء فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون فلم يحكم بكذبهم بنفس القذف فقط فثبت بهذه الوجوه أن القاذف غير محكوم عليه بكونه كاذبا بمجرد القذف واذا كان كذلك وجب أن لا تبطل شهادته بمجرد القذف لانه كان عدلا ثقة والصادر عنه غير معارض ولما كان يجب أن يبقى على عدالته فوجب أن يكون مقبول الشهادة (وثالثها) قوله عليه السلام المسلمون عدول بعضهم على بعض الا محدودا في قذف أخبر النبي صلى

تعالى (المحرم) حيث حرم التعرض له والتهاون به ولم يزل معظما ممنعا يهابه الجبابرة في كل عصر أو منع منع الطوفان فلم يستول عليه ولذلك سمي عتيقا وتسميته اذ ذاك بيتا ولم يكن له بناء وانما كان نشزا مثل الرابية تأتيه السيول فتأخذ ذات اليمين وذات الشمال ليست باعتبار ما سيؤول اليه الامر من بنائه عليه السلام فانه ينزع الى اعتبار عنوان المحرمية أيضا كذلك بل انما هي باعتبار ما كان من قبل فان تعدد بناء الكعبة المعظمة مما لا ريب فيه وانما الاختلاف في كمية عدده وقد ذكرناه في سورة البقرة بفضل الله تعالى (ربنا ليقيموا الصلوة) متوجهين اليه متبركين به وهو متعلق بأسكنت وتخصيصها بالذكر من بين سائر شعائر الدين لفضلها وتكرير النداء وتوسيطه لاظهار كمال العناية باقامة الصلاة والاهتمام بعرض أن الغرض من اسكانهم بذلك الوادي البلقع ذلك المقصد الاقصى والمطلب الاسنى وكل ذلك لتمهيد مبادي اجابة دعائه واعطاء مسؤله الذي لا يتسنى ذلك المرام الا به ولذلك أدخل عليه الفاء فقال (فاجعل أفئدة من الناس) أي أفئدة من أفئدتهم فمن للتبعيض ولذلك قيل لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليهم فارس والروم وأما ما زيد عليه من قولهم ولحجت اليهود والنصارى فغير مناسب للمقام اذ المسؤل توجيه القلوب اليهم للمساكنة معهم لا توجيهها الى البيت للحج والا لقيل تهوي اليه فانه عين الدعاء بالبلد فقد حكى بعبارة أخرى كما مر أولا لابتداء الغاية كقولك الله

القلب مني سقيم أي أفئدة ناس وقرئ آفدة على القلب كآدر في أدور أو على انه اسم فاعل من أفدت الرحلة أي عجلت أي جماعة من الناس وأفدة بطرح الهمزة من الافئدة أو على النعت من أفد (تهوي اليهم) تسرع اليهم شوقا ووادا وقرئ على البناء للمفعول

الله عليه وسلم ببقاء عدالة القاذف مالم يحد (ورابعها) ماروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما في قصة هلال بن امية لما قذف امرأته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله يجلد هلال وتبطل شهادته في المسلمين فاخبران بطلان شهادته متعلق بوقوع الجلد به وذلك يدل على ان مجرد القذف لا يبطل الشهادة (وخامسها) ان الشافعي رحمه الله زعم ان شهود القذف اذا جاؤا متفرقين قبلت شهادتهم فان كان القذف قد أبطل شهادته فواجب أن لا يقبلها بعد ذلك وان شهد معه ثلاثة لانه قد فسق بقذفه ووجب الحكم بكذبه وفى قبول شهادتهم اذا جاؤا متفرقين ما يلزمه أن لا تبطل شهادتهم بنفس القذف وأما وجه قول الشافعي رحمه الله فهو ان الله تعالى رتب على القذف مع عدم الاتيان بالشهداء الاربعة أمورا ثلاثة معطوفا بعضها على بعض بحرف الواو وحرف الواو لا يقتضى الترتيب فوجب أن لا يكون بعضها مرتبا على البعض فوجب أن لا يكون رد الشهادة مرتبا على اقامة الحد بل يجب أن يثبت رد الشهادة سواء أقيم الحد عليه أوما أقيم والله أعلم (البحث الثاني) في كيفية الشهادة على الزنا قال الله تعالى واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم وقال تعالى والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء وقال سعد بن عبادة يارسول الله أرأيت ان وجدت مع امرأتى رجلا أمهله حتى آتى بأربعة شهداء قال نعم * ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولى) الاقرار بالزنا هل يثبت بشهادة رجلين فيه قولان (أحدهما) لا يثبت الا بأربعة كفعل الزنا (والثاني) يثبت بخلاف فعل الزنا لان الفعل يغمض الاطلاع عليه فاحتيط فيه باشتراط الاربع والاقرار أمر ظاهر فلا يغمض الاطلاع عليه (المسئلة الثانية) اذا شهدوا على فعل الزنا يجب أن يذكروا الزانى ومن زنى بها لانه قد يراه على جارية له فيظن أنها أجنبية ويجب أن يشهدوا انا رأينا ذكره يدخل في فرجها دخول الميل في المكحلة فلو شهدوا مطلقا أنه زنى لا يثبت لانهم ربما يرون المفاخذة زنا بخلاف مالو قذف انسانا فقال زنيت يجب الحد ولا يستفسر ولو أقر على نفسه بالزنا هل يشترط أن يستفسر فيه وجهان (أحدهما) نعم كالشهود (والثاني) لا يجب كما في القذف (المسئلة الثالثة) قال الشافعي رحمه الله لا فرق بين أن يجيء الشهود متفرقين أو مجتمعين وقال أبو حنيفة رحمه الله اذا شهدوا متفرقين لا يثبت وعليهم حد القذف حجة الشافعي رحمه الله من وجوه (الاول) أن الاتيان بأربعة شهداء قدر مشترك بين الاتيان بهم مجتمعين أو متفرقين واللفظ الدال على ما به الاشتراك لا اشعار له بما به الامتياز فالآتى بهم متفرقين يكون عاملا بالنص فوجب أن يخرج عن العهدة (الثاني) كل حكم يثبت بشهادة الشهود اذا جاؤا مجتمعين يثبت اذا جاؤا متفرقين كسائر الاحكام بل هذا أولى لانهم اذا جاؤا متفرقين كان أبعد عن التهمة وعن أن يتلقن بعضهم من بعض فلذلك قلنا اذا وقعت ريبة للقاضى في شهادة الشهود فرقهم ليظهر على عورة ان كانت في شهادتهم (الثالث) أنه لا يشترط أن يشهدوا معا في حالة واحدة بل اذا اجتمعوا عند القاضى وكان يتقدم واحد بعد آخر ويشهد فانه تقبل شهادتهم فكذا اذا اجتمعوا على بابه ثم كان يدخل واحد بعد واحد حجة أبى حنيفة رحمه الله من وجهين (الاول) أن الشاهد الواحد لما شهد فقد قذفه ولم يأت بأربعة من الشهداء فوجب عليه الحد لقوله تعالى والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء أقصى ما في الباب أنهم عبروا عن ذلك القذف بلفظ الشهادة وذلك لا عبرة به لانه يؤدى الى اسقاط حد القذف رأسا لان كل قاذف لا يعجزه لفظ الشهادة فيجعل ذلك وسيلة الى اسقاط الحد عن نفسه ويحصل مقصوده من القذف (الثاني) ماروى أن المغيرة بن شعبة شهد عليه بالزنا عند عمر بن الخطاب أربعة أبو بكرة ونافع ونفيع وقال زياد وكان رابعهم رأيت استا تنبو ونفسا يعلو ورجلاها على عاتقه كاذنى حمار ولا أدرى

من أهواه غيره وتهوى من باب علم أى تحب وتعديته بالى لتضمنه معنى الشوق والنزوع وأول آثار هذه الدعوة ماروى أنه مرت رفقة من جرهم تريد الشام فرأوا الطير تحوم على الجبل فقالوا ان هذا الطائر لعائف على الماء فأشرفوا فاذا هم بهاجر فقالوا لها ان شئت كنا معك وآنسناك والماء ماؤك فأذنت لهم وكانوا معها الى أن شب اسمعيل عليه السلام وماتت هاجر فتزوج اسمعيل منهم كما هو المشهور (وارزقهم) أى ذريتى الذين أسكنتهم هنالك أومع من ينحاز اليهم من الناس وانما لم يخص الدعاء بالمؤمنين منهم كما في قوله وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر اكتفاء بذكر اقامة الصلاة (من الثمرات) من أنواعها بأن يجعل بقرب منه قرى يحصل فيها ذلك أو يجبى اليه من الاقطار الشاسعة وقد حصل كلاهما حتى انه يجتمع فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد * روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الطائف كانت من أرض فلسطين فلما دعا ابراهيم عليه السلام بهذه الدعوة رفعها الله تعالى ووضعها حيث وضعها رزقا للحرم وعن الزهرى رضى الله عنه أنه تعالى نقل قرية من قرى الشام فوضعها بالطائف لدعوة ابراهيم عليه السلام (لعلهم يشكرون) تلك النعمة باقامة الصلاة وأداء سائر مراسم العبودية وقيل اللام في ليقيموا لام الامر والمراد أمرهم باقامة الصلاة والدعاء من الله تعالى بتوفيقهم لها ولا يناسبه الفاء في قوله تعالى فاجعل الخ وفى دعائه عليه السلام من مراعاة حسن الأدب والمحافظة على قوانين الضراعة وعرض الحاجة واستنزال الرحمة واستجلاب الرأفة ما لا يخفى فانه عليه السلام بذكر كون الوادى غير ذى زرع بين كمال افتقارهم الى المسؤل وبذكر كونه

سكانهم عند البيت المحرم أشار الى أن بجوار الكريم يستوجب افاضة النعيم وبعرض كون ذلك الاسكان مع كمال اعواز مرافق المعاش لمحض اقامة الصلاة وأداء حقوق البيت مهد جميع مبادى اجابة السؤال ولذلك قرنت دعوته عليه السلام بحسن القبول (ربنا انك تعلم ما نخفى وما نعلن) من الحاجات وغيرها والمراد بما نخفى ما يقابل ما نعلن سواء تعلق به الاخفاء أولا أى تعلم ما نظهره وما لا نظهره فان علمه تعالى متعلق بما لا يخطر بباله مما فيه من الاحوال الخفية فضلا عن اخفائه وتقديم ما نخفى على ما نعلن لتحقيق المساواة بينهما فى تعلق العلم بهما على أبلغ وجه فكأن تعلقه بما يخفى أقدم منه بما يعلن أولان مرتبة السر والخفاء متقدمة على مرتبة العلن اذ ما من شئ يعلن الا وهو قبل ذلك خفى فتعلق علمه سبحانه بحالته الاولى أقدم من تعلقه بحالته الثانية وقصده عليه السلام أن اظهار هذه الحاجات وما هو من مباديها وتتماتها ليس لكونها غير معلومة لك بل اعناها لاظهار العبودية والتخشع لعظمتك والتذلل لعزتك وعرض الافتقار الى ما عندك والاستعجال لنيل أياديك وتكرير النداء للمبالغة فى الضراعة والابتهال وضمير الجماعة لان المراد ليس مجرد علمه تعالى بسره وعلنه بل بجميع خفايا الملك والملكوت وقد حققه بقوله على وجه الاعتراض (وما يخفى على الله من شئ فى الارض ولا فى السماء) لما أنه العالم بالذات فما من أمر يدخل تحت الوجود كائنا ما كان فى زمان من الازمان الا ووجوده فى ذاته علم بالنسبة اليه سبحانه وانما قال وما يخفى على الله الخ دون أن يقول ويعلم ما فى السموات والارض تحقيقا لما عناه بقوله تعلم ما نخفى من أن علمه تعالى بذلك ليس على وجه يكون فيه شائبة خفاء بالنسبة الى مثل

ما وراء ذلك بخلاف عمر الثلاثة ولم يسأل هل معهم شاهد آخر فلو قبل بعد ذلك شهادة غيرهم لتوقف لان الحد ودمما يتوقف فيها ويحتاط (المسئلة الرابعة) لو شهد على الزنا أقل من أربعة لا يثبت الزنا وهل يجب حد القذف على الشهود فيه قولان (أحدهما) لا يجب لانهم جاؤا مجىء الشهود ولانا لو حددنا لانسد باب الشهادة على الزنا لان كل واحد لا يأمن أن لا يوافقه صاحبه فيلزمه الحد (والقول الثانى) وهو الاصح وبه قال أبو حنيفة رحمه الله يجب عليهم الحد والدليل عليه الوجهان اللذان ذكرناهما فى المسئلة الثالثة (المسئلة الخامسة) اذا قذف رجل رجلا فجاء بأربعة فساق فشهدوا على المقذوف بالزنا قال أبو حنيفة رحمه الله يسقط الحد عن القاذف ولا يجب الحد على الشهود وقال الشافعى رحمه الله فى أحد قوليه يحدون وجه قول أبى حنيفة قوله والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء وهذا قد أتى بأربعة شهداء فلا يلزمه الحد ولان الفاسق من أهل الشهادة وقد وجدت شرائط شهادة الزنا من اجتماعهم عند القاضى الا أنه لم تقبل شهادتهم لاجل التهمة فكما اعتبرنا التهمة فى نفى الحد عن الشهود عليه فكذلك وجب اعتبارها فى نفى الحد عنهم ووجه قول الشافعى رحمه الله أنهم غير موصوفين بالشرائط المعتبرة فى قبول الشهادة فخرجوا عن أن يكونوا شاهدين فبقوا محض القاذفين وههنا آخر الكلام فى تفسير قوله تعالى ثم لم يأتوا بأربعة شهداء أما قوله تعالى فاجلدوهم ثمانين جلدة ففيه مسائل (المسئلة الاولى) المخاطب بقوله فاجلدوهم هو الامام على ما بيناه فى آية الزنا أو المالك على مذهب الشافعى أو رجل صالح ينصبه الناس عند فقد الامام (المسئلة الثانية) خص من عموم هذه الآية صور (أحدها) الوالد يقذف ولده أو أحدا من نوافله فلا يجب عليه الحد كما لا يجب عليه القصاص بقتله (الثانية) القاذف اذا كان عبدا فالواجب جلده أربعين وكذلك المكاتب وأم الولد ومن بعضه حر وبعضه رقيق فحدهم حد العبيد (الثالثة) من قذف رقيقة عفيفة أو من زنت فى قديم الايام ثم تابت فهى بموجب اللغة محصنة ومع ذلك لا يجب الحد بقذفها (المسئلة الثالثة) قالوا أشد الضرب فى الحدود ضرب الزنا ثم ضرب شرب الخمر ثم ضرب القاذف لان سبب عقوبته محتمل للصدق والكذب الا أنه عوقب صيانة للاعراض وزجرا عن هتكها (المسئلة الرابعة) قال مالك والشافعى حد القذف يورث فاذا مات المقذوف قبل استيفاء الحد وقبل العفو يثبت لوارثه حد القذف وكذلك اذا كان الواجب بقذفه التعزير فانه يورث عنه وكذا لو أنشأ القذف بعد موت المقذوف ثبت لوارثه طلب الحد وعند أبى حنيفة رحمه الله حد القذف لا يورث ويسقط بالموت حجة الشافعى رحمه الله أن حد القذف هو حق الآدمى لانه يسقط بعفوه ولا يستوفى الا بطلبه ويحلف فيه المدعى عليه اذا أنكروا اذا كان حق الآدمى وجب أن يورث لقوله عليه السلام ومن ترك حقا فلورثته حجة أبى حنيفة رحمه الله أنه لو كان موروثا لكان للزوج أو الزوجة فيه نصيب ولانه حق ليس فيه معنى المال والوثيقة فلا يورث كالوكالة والمضاربة (والجواب عن الاول) أن الاصح عند الشافعية أنه يرثه جميع الورثة كالمال وفيه وجه ثان أنه يرثه كلهم الا الزوج والزوجة لان الزوجية ترتفع بالموت ولان المقصود من الحد دفع العار عن النسب وذلك لا يلحق الزوج والزوجة (المسئلة الخامسة) اذا قذف انسان انسانا بين يدى الحاكم أو قذف امرأته برجل بعينه والرجل غائب فعلى الحاكم أن يبعث الى المقذوف ويخبره بأن فلانا قذفك وثبت لك حد القذف عليه كما لو ثبت له مال على آخر وهو لا يعلمه يلزمه اعلامه وعلى هذا المعنى بعث النبى صلى الله عليه وسلم أنيسا ليخبرها بأن فلانا قذفها بابنه ولم يبعثه ليتفحص عن زناها قال الشافعى رحمه الله وليس للامام اذا رمى رجل بزنا أن يبعث اليه فيسأله عن ذلك لان الله تعالى قال ولا تجسسوا وأراد به اذا لم يكن القاذف معينا

مثل أن قال رجل بين يدي الحاكم الناس يقولون ان فلانا زنى فلا يبعث الحاكم اليه فيسأله أما قوله تعالى ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا فاختلف الفقهاء فيه فقال أكثر الصحابة والتابعين انه اذا تاب قبلت شهادته وهو قول الشافعي رحمه الله وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والحسن بن صالح رحمهم الله لا تقبل شهادة المحدود في القذف اذا تاب وهذه المسئلة مبنية على أن قوله الا الذين تابوا هل عاد الى جميع الأحكام المذكورة أو اختص بالجملة الاخيرة فعند أبي حنيفة رحمه الله الاستثناء المذكور عقيب الجمل الكثيرة مختص بالجملة الاخيرة وعند الشافعي رحمه الله يرجع الى الكل وهذه المسئلة قد لخصناها في أصول الفقه ونذكر ههنا ما يليق بهذا الموضع ان شاء الله تعالى احتج الشافعي رحمه الله على ان شهادته مقبولة بوجوه (أحدها) قوله عليه السلام التائب من الذنب كمن لا ذنب له ومن لا ذنب له مقبول الشهادة فالتائب يجب أن يكون أيضا مقبول الشهادة (وثانيها) ان الكافر يقذف فيتوب عن الكفر فتقبل شهادته بالاجماع فالقاذف المسلم اذا تاب عن القذف وجب أن تقبل شهادته لان القذف مع الاسلام أهون حالا من القذف مع الكفر فان قيل المسلمون لا يألمون بسبب الكفار لانهم شهروا بعداوتهم والطعن فيهم بالباطل فلا يلحق المقذوف بقذف الكافر من الشين والشنآن ما يلحقه بقذف مسلم مثله فشدد على القاذف من المسلمين زجرا عن الحاق العار والشنآن وأيضا فالتائب من الكفر لا يجب عليه الحد والتائب من القذف لا يسقط عنه الحد قلنا هذا الفرق ملغى بقوله عليه السلام أنبئهم ان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين (وثالثها) أجمعنا على ان التائب عن الكفر والقتل والزنا مقبول الشهادة فكذا التائب عن القذف لان هذه الكبيرة ليست أكبر من نفس الزنا (ورابعها) أن أبا حنيفة رحمه الله يقبل شهادته اذا تاب قبل الحد مع أن الحد حق المقذوف فلا يزول بالتوبة فلأن تقبل شهادته اذا تاب بعد اقامة الحد وقد حسنت حالته وزال اسم الفسق عنه كان أولى (وخامسها) ان قوله الا الذين تابوا استثناء مذكور عقيب جمل فوجب عوده اليها بأسرها ويدل عليه أمور (أحدها) أجمعنا على انه لو قال عبده حر وامرأته طالق ان شاء الله فانه يرجع الاستثناء الى الجميع فكذا فيما نحن فيه فان قيل الفرق ان قوله ان شاء الله مدخل لرفع حكم الكلام حتى لا يثبت فيه شيء والاستثناء المذكور بحرف الاستثناء لا يجوز دخوله لرفع حكم الكلام رأسا ألا ترى انه يجوز أن يقول أنت طالق ان شاء الله فلا يقع شيء ولو قال أنت طالق الا طلاقا كان الطلاق واقعا والاستثناء باطلا لاستحالة دخوله لرفع حكم الكلام بالكلية فثبت انه لا يلزم من رجوع قوله ان شاء الله الى جميع ما تقدم صحة رجوع الاستثناء بحرفه الى جميع ما تقدم قلنا هذا فرق في غير محل الجمع لان ان شاء الله جاز دخوله لرفع حكم الكلام بالكلية فلا جرم جاز رجوعه الى جميع الجمل المذكورة والا جاز دخوله لرفع بعض الكلام فوجب جواز رجوعه الى جميع الجمل على هذا الوجه حتى يقتضي أن يخرج من كل واحد من الجمل المذكورة بعضه (وثانيها) ان الواو للجمع المطلق فقوله فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون صار الجميع كانه ذكر معا لا تقدم للبعض على البعض فلما دخل عليه الاستثناء لم يكن رجوع الاستثناء الى بعضها أولى من رجوعه الى الباقي اذ لم يكن لبعضها على بعض تقدم في المعنى البتة فوجب رجوعه الى الكل ونظيره على قول أبي حنيفة رحمه الله قوله تعالى اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم فان فاء التعقيب ما دخلت على غسل الوجه بل على مجموع هذه الامور من حيث ان الواو لا تفيد الترتيب فكذا ههنا كلمة الا ما دخلت على واحدة بعينه لان حرف الواو لا يفيد الترتيب بل دخلت على المجموع * فان قيل الواو قد تكون للجمع على ما ذكرت وقد تكون للاستئناف وهي في قوله فأولئك هم

علمه تعالى كما يكون ذلك بالنسبة الى علوم المخلوقات وكلمة في متعلقة بمحذوف وقع صفة لشيء أي من شيء كائن فيهما أعم من أن يكون ذلك على وجه الاستقرار فيهما أو على وجه الجزئية منهما أو يخفى وتقديم الارض على السماء مع توسط لا بينهما باعتبار القرب والبعد منها المستدعيين للتفاوت بالنسبة الى علومنا والالتفات من الخطاب الى اسم الذات المستجمعة للصفات لتربية المهابة والاشعار بدلالة الحكم على نوع قوله تعالى الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير والايذان بعمومه لانه ليس بشأن يختص به أو بمن يتعلق به بل شامل لجميع الاشياء فالمناسب ذكره تعالى بعنوان مصحح لمبدا الكل وقيل هو من كلام الله عز وجل وارد بطريق الاعتراض لتصديقه عليه السلام كقوله سبحانه وكذلك يفعلون ومن للاستغراق على الوجهين (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر) أي مع كبري ويأسي عن الولد قيد الهبة به استعظاما للنعمة واظهارا لشكرها (اسمعيل واسحق) روي انه ولد له اسمعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة وولد له اسحق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة أو مائة وسبع عشرة سنة (ان ربي) ومالك أمري (لسميع الدعاء) لمجيبه من قولهم سمع الملك كلامه اذا اعتد به وهو من أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل أضيف الى مفعوله أو فاعله باسناد السماع الى دعاء الله تعالى مجازا وهو مع كونه من تتمة الحمد والشكر اذ هو وصف له تعالى بأن ذلك الجميل سنته المستمرة تعليل على طريقة التذييل للهبة المذكورة وفيه ايذان بتضاعف النعمة فيها حيث وقعت بعد الدعاء بقوله رب هب لي من الصالحين فاقترنت الهبة بقبول الدعوة وتوحيد ضمير المتكلم وان كان عقيب ذكرهما لما أن نعمة الهبة فائضة عليه خاصة وهما من النعم لا من المنعم عليهم (رب

اجعلني مقيم الصلاة) مشابرا عليها معدلا لها وتوحيد ضمير المتكلم مع شمول دعوته لذريته أيضا حيث قال (ومن ذريتي) أي بعضهم من
المذكورين ومن يسير سيرتهم من أولادهم للاشعار بأنه المقتدى في ذلك وذريته أتباع له وأن ذكرهم بطريق الاستطراد لا كما في
قوله ربنا اني أسكنت الخ فان اسكانه مع عدم تحققه بلا ملابسة لمن أسكنه انما هو مذكور بطريق التمهيد للدعاء الذي هو
مخصوص بذريته وانما
خص هذا الدعاء ببعض
ذريته لعلمه من جهة الله
تعالى أن بعضا منهم
لا يكون مقيم الصلاة
كقوله تعالى ربنا واجعلنا
مسلمين لك ومن ذريتنا
أمة مسلمة لك (ربنا
وتقبل دعاء) أي دعائي
هذا المتعلق بجعلي وجعل
بعض ذريتي مقيمي
الصلاة ثابتين على ذلك
مجتنبين عن عبادة
الاصنام ولذلك جيء بضمير
الجماعة (ربنا اغفر لي)
أي ما فرط مني من ترك
الاولى في باب الدين
وغير ذلك مما لا يسلم منه
البشر (ولوالدي) وقرئ
بالتوحيد ولابوي وهذا
الاستغفار منه عليه السلام
انما كان قبل تبين الامر
له عليه السلام وقيل أراد
بوالديه آدم وحواء وقيل
بشرط الاسلام ويرده
قوله تعالى الا قول ابراهيم
الآية وقد مر في سورة
التوبة نوع تحقيق للمقام
وسيأتي تمامه في سورة
مريم بفضل الله تعالى
(وللمؤمنين) كافة من
ذريته وغيرهم وللايذان
باشتراك الكل في الدعاء
بالمغفرة جيء بضمير الجماعة (يوم يقوم الحساب) أي يثبت ويتحقق محاسبة أعمال المكلفين على وجه العدل استعير
له من ثبوت القائم على الرجل بالاستقامة ومنه قامت الحرب على ساق والمراد تهويله وقيل أسند اليه قيام أهله مجازا أو حذف
المضاف كما في واسئل القرية واعلم أن ما حكي عنه عليه السلام من الادعية والاذكار وما يتعلق بها ليس بصادر عنه على الترتيب المحكي
ولا على وجه المعية بل صدر عنه في أزمنة متفرقة حكي مرتبا للدلالة على سوء حال الكفرة بعد ظهور أمره في الملة وارشاد الناس اليها

الفاسقون لانها انما تكون للعموم فيما لا يختلف معناه ونظمه جملة واحدة فيصير الكل كالمذكور معا مثل
آية الوضوء فان الكل أمر واحد كانه قال فاغسلوا هذه الاعضاء فان الكل قد تضمنه لفظ الامر وأما آية
القذف فان ابتداءها أمر وآخرها خبر فلا يجوز أن ينظمهما جملة واحدة وكان الواو للاستئناف فيختص
الاستثناء به (وثانيها) أنا لما قلنا لم لا يجوز أن تجعل الجمل الثلاث بمجموعها جزاء الشرط كانه قيل ومن قذف المحصنات
فاجلدوهم وردوا شهادتهم وفسقوهم أي فاجمعوا لهم الجلد والرد والفسق الا الذين تابوا عن القذف وأصلحوا
فان الله يغفر لهم فينقلبون غير مجلودين ولا مردودين ولا مفسقين (وثالثها) ان قوله وأولئك هم الفاسقون
عقيب قوله ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا يدل على ان العلة في عدم قبول تلك الشهادة كونه فاسقا لان ترتيب
الحكم على الوصف مشعر بالعلية لا سيما اذا كان الوصف مناسبا وكونه فاسقا يناسب أن لا يكون مقبول
الشهادة اذا ثبت ان العلة لرد الشهادة ليست الا كونه فاسقا ودل الاستثناء على زوال الفسق فقد زالت العلة
فوجب أن يزول الحكم لزوال العلة (ورابعها) ان مثل هذا الاستثناء موجود في القرآن قال الله تعالى
انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله الى قوله الا الذين تابوا ولا خلاف ان هذا الاستثناء راجع الى ما تقدم
من أول الآية وان التوبة حاصلة لهؤلاء جميعا وكذلك قوله لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى الى قوله فلم
تجدوا ماء فتيمموا وصار التيمم لمن وجب عليه الاغتسال كما انه مشروع لمن وجب عليه الوضوء وهذا الوجه
ذكره أبو عبيد في اثبات مذهب الشافعي رحمه الله واحتج أصحاب أبي حنيفة على ان حكم الاستثناء مختص
بالجملة الاخيرة بوجوه (أحدها) ان الاستثناء من الاستثناء يختص بالجملة الاخيرة فكذا في جميع الصور
طردا للباب (وثانيها) ان المقتضي لعموم الجمل المتقدمة قائم والمعارض وهو الاستثناء يكفي في تصحيحه
تعلقه بجملة واحدة لان بهذا القدر يخرج الاستثناء عن أن يكون لغوا فوجب تعليقه بالجملة الواحدة
فقط (وثالثها) ان الاستثناء لو رجع الى كل الجمل المتقدمة لوجب انه اذا تاب ان لا يجلد وهذا باطل
بالاجماع فوجب أن يختص الاستثناء بالجملة الاخيرة (والجواب عن الاول) ان الاستثناء من النفي
اثبات ومن الاثبات نفي فالاستثناء عقيب الاستثناء لو رجع الى الاستثناء الاول والى المستثنى فيقدر ما نفي
من أحدهما اثبت في الآخر فيصير الناقص بالزائد ويصير الاستثناء الثاني عديم الفائدة فلهذا السبب قلنا
في الاستثناء من الاستثناء انه يختص بالجملة الاخيرة (والجواب عن الثاني) انا بينا ان واو العطف لا تقتضي
الترتيب فلم يكن بعض الجمل متأخرا في التقدير عن البعض فلم يكن تعليقه بالبعض أولى من تعليقه بالباقي
فوجب تعلقه بالكل (والجواب عن الثالث) انه ترك العمل به في حق البعض فلم يترك العمل به في حق
الباقي واحتج أصحاب أبي حنيفة رحمه الله في المسئلة بوجوه من الاخبار (أحدها) ما روى ابن عباس رضي
الله عنهما في قصة هلال بن أمية حين قذف امرأته بشريك بن سحماء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
يجلد هلال وتبطل شهادته في المسلمين فاخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان وقوع الجلد به يبطل شهادته
من غير شرط التوبة في قبولها (وثانيها) ان قوله عليه السلام المسلمون عدول بعضهم على بعض الا محدود
في قذف ولم يشترط فيه وجود التوبة منه (وثالثها) ما روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال لا تجوز شهادة محدود في الاسلام قالت الشافعية هذا معارض بوجوه (أحدها) قوله
عليه السلام اذا علمت مثل الشمس فاشهد والامر للوجوب فاذا علم المحدود وجبت عليه الشهادة ولو لم تكن
مقبولة لما وجبت لانها تكون عبثا (وثانيها) قوله عليه السلام نحن نحكم بالظاهر وههنا قد حصل الظهور
لان دينه وعقله وعفته الحاصلة بالتوبة تفيد ظن كونه صادقا (وثالثها) ما روي عن عمر بن الخطاب

والتضرع الى الله تعالى لمصالحهم الدينية والدنياوية (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد تثبيته على ما كان عليه من عدم حسبانه عز وجل كذلك نحو قوله ولا تكونن من المشركين ونظائره مع ما فيه من الايذان بكونه واجب الاحتراز عنه في الغاية حتى نهي عنه من لا يمكن تعاطيه أو تهييجه عليه السلام عن حسبانه تعالى تاركا لعقابهم على طريقة العفو والتعبير عنه بذلك للمبالغة في النهي والايذان بأن ذلك الحسبان بمنزلة حسبانه تعالى غافلا عن أعمالهم اذ العلم بذلك مستوجب لعقابهم لا محالة فتركه لو كان لكان للغفلة عما يوجبه من أعمالهم الخبيثة وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ووعد له أكيد ووعيد للكفرة وسائر الظالمين شديد أو لكل أحد ممن يستعجل عذابهم أو يتوهم اهمالهم للجهل بصفاته تعالى والاغترار بامهاله وقيل معناه لا تحسبنه تعالى يعاملهم معاملة الغافل عما عملوا بل معاملة من يحافظ على أعمالهم ويجازيهم بذلك نقيرا وقطميرا والمراد بالظالمين أهل مكة ممن عددت مساويهم من تبديل نعمة الله تعالى كفرا واحلال قومهم دار البوار واتخاذ الانداد كما يؤذن به التعرض لحكمة التأخير المنبئ عنه قوله تعالى قل تمتعوا الآية أو جنس الظالمين وهم داخلون في الحكم دخولا أوليا (انما يؤخرهم) بهلاكهم متمتعين بالحظوظ الدنياوية ولا يعجل عقوبتهم حسبما يشاهده وهو استئناف وقع تعليلا للنهي السابق أي دم على ما كنت عليه من عدم حسبانه تعالى غافلا عن أعمالهم ولا تحزن بتأخير ما تستوجبه من العذاب الأليم اذ تأخيره للتشديد والتغليظ أو لا تحسبنه تعالى تاركا لعقوبتهم لما ترى من تأخيرها انما ذلك لأجل هذا أو لا تحسبنه تعالى يعاملهم معاملة الغافل ولا يؤاخذهم بما عملوا لما ترى من

أنه ضرب الذين شهدوا على المغيرة بن شعبة وهم أبو بكرة ونافع ونفيع ثم قال لهم من أكذب نفسه قبلت شهادته ومن لا يفعل لم أجز شهادته فأكذب نافع ونفيع أنفسهما وتابا وكان يقبل شهادتهما وأما أبو بكرة فكان لا يقبل شهادته وما أنكر عليه أحد من الصحابة فيه فهذا تمام الكلام في هذه المسألة * أما قوله تعالى وأولئك هم الفاسقون فاعلم انه يدل على أمرين (الاول) ان القذف من جملة الكبائر لان اسم الفسق لا يقع الا على صاحب الكبيرة (الثاني) انه اسم لمن يستحق العقاب لانه لو كان مشتقا من فعله لكانت التوبة لا تمنع من دوامه كما لا تمنع من وصفه بأنه ضارب وبأنه رام الى غير ذلك وأما قوله تعالى الا الذين تابوا فاعلم انهم اختلفوا في ان التوبة عن القذف كيف تكون قال الشافعي رحمه الله التوبة منه اكذابه نفسه واختلف أصحابه في معناه فقال الاصطخري يقول كذبت فيما قلت فلا أعود لمثله وقال أبو اسحق لا يقول كذبت لانه ربما يكون صادقا فيكون قوله كذبت كذبا والكذب معصية والاتيان بالمعصية لا يكون توبة عن معصية أخرى بل يقول القذف باطل ندمت على ما قلت ورجعت عنه ولا أعود اليه * أما قوله وأصلحوا فقال أصحابنا انه بعد التوبة لابد من مضي مدة عليه في حسن الحال حتى تقبل شهادته وتعود ولايته ثم قدروا تلك المدة بسنة حتى تمر عليه الفصول الاربع التي تتغير فيها الاحوال والطباع كما يضرب للعنين أجل سنة وقد علق الشرع أحكاما بالسنة من الزكاة والجزية وغيرهما * وأما قوله تعالى فان الله غفور رحيم فالمعنى انه لكونه غفورا رحيما يقبل التوبة وهذا يدل على ان قبول التوبة غير واجب عقلا اذ لو كان واجبا لما كان في قبوله غفورا رحيما لانه اذا كان واجبا فهو انما يقبله خوفا وقهرا للعلم بأنه لو لم يقبله لصار سفيها ولخرج عن حد الالهية أما اذا لم يكن واجبا فقبله فهنالك تتحقق الرحمة والاحسان وبالله التوفيق (الحكم الرابع) حكم اللعان * قوله تعالى ﴿والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها ان كان من الصادقين ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم﴾ اعلم انه سبحانه لما ذكر أحكام قذف الاجنبيات عقبه بأحكام قذف الزوجات ثم هذه الآية مشتملة على أبحاث (البحث الاول) في سبب نزوله وذكروا فيه وجوها (أحدها) قال ابن عباس رحمهما الله لما نزل قوله تعالى والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء قال عاصم بن عدي الانصاري ان دخل منا رجل بيته فوجد رجلا على بطن امرأته فان جاء بأربعة رجال يشهدون بذلك فقد قضى الرجل حاجته وخرج وان قتله قتل به وان قال وجدت فلانا مع تلك المرأة ضرب وان سكت سكت على غيظ اللهم افتح وكان لعاصم هذا ابن عم يقال له عويمر وله امرأة يقال لها خولة بنت قيس فأتى عويمر عاصما فقال لقد رأيت شريك بن سحماء على بطن امرأتي خولة فاسترجع عاصم وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ما أسرع ما ابتليت بهذا في أهل بيتي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما ذاك فقال أخبرني عويمر ابن عمي بأنه رأى شريك بن سحماء على بطن امرأته خولة وكان عويمر وخولة وشريك كلهم بنو عم عاصم فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم جميعا وقال لعويمر اتق الله في زوجتك وابنة عمك ولا تقذفها فقال يا رسول الله أقسم بالله اني رأيت شريكا على بطنها واني ما قربتها منذ أربعة أشهر وانها حبلى من غيري فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم اتقي الله ولا تخبري الا بما صنعت فقالت يا رسول الله ان عويمرا رجل غيور وانه رأى شريكا يطيل النظر الي ويتحدث فحملته الغيرة على ما قال فأنزل الله تعالى هذه الآية فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نودي الصلاة جامعة فصلى العصر ثم قال لعويمر

التأخير اغاهو لهذه الحكمة وقرئ بالنون وايقاع التأخير عليهم مع أن المؤخر اغاهو عذابهم لتهويل الخطب وتفظيع الحال ببيان أنهم متوجهون الى العذاب مرصدون لامر ما الا أنهم باقون باختيارهم وللدلالة على أن حقهم من العذاب هو الاستئصال بالمرة وأن لا يبقى منهم في الوجود عين ولا أثر وللايذان بأن المؤخر له من جملة العذاب وعنوانه ولو قيل انما يؤخر عذابهم الخ لما فهم ذلك (ليوم) هائل (تشخص فيه الابصار) ترتفع أبصار أهل الموقف فيدخل في زمرتهم الكفرة المعهودون دخولا أوليا أي تبقى مفتوحة لا تتحرك أجفانهم من هول ما يرونه واعتبار عدم قرارها في أماكنها اما باعتبار الارتفاع الحسي في جرم العين واما بحمل الصيغة من شخص من بلد الى بلد وسار في ارتفاع (مهطعين) مسرعين الى الداعي مقبلين عليه بالخوف والذل والخشوع أو مقبلين بأبصارهم عليه لا يقلعون عنه ولا يطرفون هيبة وخوفا وحيث كان ادامة النظر ههنا بالنظر الى الداعي قيل (مقنعي رؤسهم) أي رافعيها مع ادامة النظر من غير التفات الى شئ قاله العتبي وابن عرفة او ناكسيها ويقال أقنع رأسه أي طأطأها ونكسها فهو من الاضداد وهما حالان مما دل عليه الابصار من أصحابها او الثاني حال متداخلة من الضمير في الاول واضافته غير حقيقية فلا ينافي الحالية (لا يرتد اليهم طرفهم) أي لا يرجع اليهم تحريك أجفانهم حسبما كان يرجع اليهم كل لحظة بل تبقى أعينهم مفتوحة لا تطرف أو لا ترجع اليهم أجفانهم التي هي آلة الطرف فيكون اسناد الرجوع الى الطرف مجازا أو هو نفس الجفن قال الفيروزابادي الطرف العين لا يجمع لانه مصدر في الاصل أو اسم جامع للعين أو لا يرجع نظرهم الى أنفسهم فضلا عن أن يرجع الى شئ

ثم وقل أشهد بالله ان خولة لزانية واني لمن الصادقين ثم قال في الثانية قل أشهد بالله اني رأيت شريكا على بطنها واني لمن الصادقين ثم قال في الثالثة قل أشهد بالله انها حبلى من غيري واني لمن الصادقين ثم قال في الرابعة قل أشهد بالله انها زانية واني ما قربتها منذ أربعة أشهر واني لمن الصادقين ثم قال في الخامسة قل لعنة الله على عويمر يعني نفسه ان كان من الكاذبين فيما قال ثم قال اقعد وقال لخولة قومي فقامت وقالت أشهد بالله ما أنا بزانية وان زوجي عويمرا لمن الكاذبين وقالت في الثانية أشهد بالله ما رأى شريكا على بطني وانه لمن الكاذبين وقالت في الثالثة أشهد بالله اني حبلى منه وانه لمن الكاذبين وقالت في الرابعة أشهد بالله انه ما رآني على فاحشة قط وانه لمن الكاذبين وقالت في الخامسة غضب الله على خولة ان كان عويمر من الصادقين في قوله ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما (وثانيها) قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية الكلبي ان عاصما ذات يوم رجع الى أهله فوجد شريك بن سحماء على بطن امرأته فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمام الحديث كما تقدم (وثالثها) ما روى عكرمة عن ابن عباس لما نزل والذين يرمون المحصنات قال سعد بن عبادة وهو سيد الانصار لو وجدت رجلا على بطنها فاني ان جئت بأربعة من الشهداء يكون قد قضى حاجته وذهب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معشر الانصار أما تسمعون ما يقول سيدكم فقالوا يا رسول الله لا تلمه فانه رجل غيور فقال سعد يا رسول الله والله اني لأعرف انها من الله وأنها حق ولكني عجبت منه فقال عليه الصلاة والسلام فان الله يأبى الا ذلك قال فلم يلبثوا الا يسيرا حتى جاء ابن عم له يقال له هلال بن أمية وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم فقال يا رسول الله اني وجدت مع امرأتي رجلا رأيت بعيني وسمعت بأذني فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء به فقال هلال والله يا رسول الله اني لأرى الكراهة في وجهك مما أخبرتك به والله يعلم اني لصادق وما قلت الا حقا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اما البينة واما اقامة الحد عليك فاجتمعت الانصار فقالوا ابتلينا بما قال سعد فبيناهم كذلك اذ نزل عليه الوحي وكان اذا نزل عليه الوحي اربد وجهه وعلا جسده حمرة فلما سرى عنه قال عليه الصلاة والسلام أبشر يا هلال فقد جعل الله لك فرجا قال قد كنت أرجو ذلك من الله تعالى فقرأ عليهم هذه الآيات فقال عليه الصلاة والسلام ادعوها فدعيت فكذبت هلالا فقال عليه الصلاة والسلام الله يعلم ان أحدكما كاذب فهل منكما تائب وأمر بالملاعنة فشهد هلال أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين فقال عليه الصلاة والسلام له عند الخامسة اتق الله يا هلال فان عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة فقال والله لا يعذبني الله عليها كما لم يجلدني رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد الخامسة ثم قال رسول الله أتشهدين فشهدت أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين فلما أخذت في الخامسة قال لها اتقي الله فان الخامسة هي الموجبة فتفكرت ساعة وهمت بالاعتراف ثم قالت والله لا أفضح قومي وشهدت الخامسة أن غضب الله عليها ان كان من الصادقين ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما ثم قال انظروها ان جاءت به أثيبج أصيهب أحمش الساقين فهو لهلال وان جاءت به خدلج الساقين أورق جعدا فهو لصاحبه فجاءت به أورق خدلج الساقين فقال عليه الصلاة والسلام لولا الايمان لكان لي ولها شأن قال عكرمة لقد رأيته بعد ذلك أميرا مصر من الامصار ولا يدري من أبوه (البحث الثاني) ما يتعلق بالقراءة قرئ ولم تكن بالتاء لان الشهداء جماعة أو لانهم في معنى الانفس ووجه من قرأ أربع أن ينصب لانه في حكم المصدر والعامل فيه المصدر الذي هو فشهادة أحدهم وهي مبتدأ محذوف الخبر تقديره فواجب شهادة أحدهم أربع شهادات وقرئ ان لعنة الله وان غضب الله على تخفيف ان ورفع ما بعدها وقرئ ان غضب الله على فعل الغضب وقرئ بنصب الخامستين على معنى

ويشهد له الخامسة (البحث الثالث) ما يتعلق بالاحكام والنظر فيه يتعلق بأطراف (الطرف الاول) في موجب اللعان وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أنه اذا رمى الرجل امرأته بالزنا يجب عليه الحد ان كانت محصنة والتعزير ان لم تكن محصنة كما في رمي الاجنبية لا يختلف موجبهما غير انهما يختلفان في المخلص ففي قذف الاجنبي لا يسقط الحد عن القاذف الا باقرار المقذوف أو بينة تقوم على زناها وفي قذف الزوجة يسقط عنه الحد بأحد هذين الامرين أو باللعان وانما اعتبر الشرع اللعان في هذه الصورة دون الاجنبيات لوجهين (الاول) انه لا معرة عليه في زنا الاجنبية والاولى له ستره أما اذا زنى بزوجته فيلحقه العار والنسب الفاسد فلا يمكنه الصبر عليه وتوقيفه على البينة كالمتعذر فلا جرم خص الشرع هذه الصورة باللعان (الثاني) ان الغالب في المتعارف من أحوال الرجل مع امرأته انه لا يقصدها بالقذف الا عن حقيقة فاذا رماها فنفس الرمي يشهد بكونه صادقا الا أن شهادة الحال ليست بكاملة فضم اليها ما يقويها من الايمان كشهادة المرأة لما ضعفت قويت بزيادة العدد والشاهد الواحد يتقوى باليمين على قول كثير من الفقهاء (المسئلة الثانية) قال أبو بكر الرازي كان حد قاذف الاجنبيات والزوجات الجلد والدليل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم لهلال بن أمية حين قذف امرأته بشريك بن سحماء ائتني بأربعة يشهدون لك والا فحد في ظهرك فثبت بهذا ان حد قاذف الزوجات كان كحد قاذف الاجنبيات الا أنه نسخ عن الازواج الجلد باللعان وروى نحو ذلك في الرجل الذي قال أرأيتم لو أن رجلا وجد مع امرأته رجلا فان تكلم جلدتموه وان قتل قتلتموه وان سكت سكت على غيظ فدلت هذه الاخبار على أن حد قاذف الزوجة كان الجلد وان الله نسخه باللعان (المسئلة الثالثة) قال الشافعي رحمه الله اذا قذف الزوج زوجته فالواجب هو الحد ولكن المخلص منه باللعان كما أن الواجب بقذف الاجنبية الحد والمخلص منه بالشهود فاذا نكل الزوج عن اللعان لزمه الحد للقذف فاذا لاعن ونكلت عن اللعان يلزمها حد الزنا وقال أبو حنيفة رحمه الله اذا نكل الزوج عن اللعان حبس حتى يلاعن وكذا المرأة اذا نكلت حبست حتى تلاعن حجة الشافعي وجوه (أحدها) ان الله تعالى قال في أول السورة والذين يرمون المحصنات يعني غير الزوجات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ثم عطف عليه حكم الازواج فقال والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهم الآية فكما أن مقتضى قذف الاجنبيات الاتيان بالشهود أو الجلد فكذا موجب قذف الزوجات الاتيان باللعان أو الحد (وثانيها) قوله تعالى ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله والالف واللام الداخلان على العذاب لا يفيدان العموم لانه لم يجب عليها جميع أنواع العذاب فوجب صرفهما الى المعهود السابق والمعهود السابق هو الحد لانه تعالى ذكر في أول السورة وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين والمراد منه الحد واذا ثبت ان المراد من العذاب في قوله ويدرأ عنها العذاب هو الحد ثبت انها لو لم تلاعن لحدت وانها باللعان دفعت الحد فان قيل المراد من العذاب هو الحبس قلنا قد بينا ان الالف واللام للمعهود المذكور وأقرب المذكورات في هذه السورة العذاب بمعنى الحد وأيضا فلو حملناه على الحد لا تصير الآية مجملة أما لو حملناه على الحبس تصير الآية مجملة لان مقدار الحبس غير معلوم (وثالثها) قال الشافعي رحمه الله ومما يدل على بطلان الحبس في حق المرأة انها تقول ان كان الرجل صادقا فحدوني وان كان كاذبا فخلوني فما بالي والحبس وليس حبسي في كتاب الله ولا سنة رسوله ولا الاجماع ولا القياس (ورابعها) ان الزوج قذفها ولم يأت بالمخرج من شهادة غيره أو شهادة نفسه فوجب عليه الحد لقوله تعالى والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم واذا ثبت ذلك في حق الرجل ثبت في حق المرأة لانه لا قائل

آخر فيبقون مبهوتين ودوا أيضا حال أو بدل من مقنعي الخ أو استئناف والمعنى لا يزول ما اعتراهم من شخوص الابصار وتأخيره عما هو من تتمته من الاهطاع والاقناع مع ما بينه وبين الشخوص المذكور من المناسبة لتربية هذا المعنى (وأفئدتهم هواء) خالية من العقل والفهم لفرط الحيرة والدهش كأنها نفس الهواء الخالي من كل شاغل ومنه قيل للجبان والاحمق قلبه هواء أي لا قوة ولا رأي فيه واعتبار خلوها عن كل خير لا يناسب المقام وهو اما حال عاملها لا يرتد مفيدة لكون شخوص أبصارهم وعدم ارتداد طرفهم بلا فهم ولا اختيار أو جملة مستقلة (وأنذر الناس) خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد اعلامه أن تأخيرهم لماذا وأمر له بانذارهم وتخويفهم منه والمراد بالناس الكفار المعبر عنهم بالظالمين كما يقتضيه ظاهر اتيان العذاب والعدول اليه من الاضمار للاشعار بأن المراد بالانذار هو الزجر عما هم عليه من الظلم شفقة عليهم لا التخويف للازعاج والايذاء فالمناسب عدم ذكرهم بعنوان الظلم أو الناس جميعا فان الانذار عام للفريقين كقوله تعالى انما تنذر من اتبع الذكر والاتيان يعمهما من حيث كونهما في الموقف وان كان لحوقه بالكفار خاصة أي أنذرهم وخوفهم (يوم يأتيهم العذاب) المعهود وهو اليوم الذي وصف بما لا يوصف من الاوصاف الهائلة أعني يوم القيامة وقيل هو يوم موتهم معذبين بالسكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى أو يوم هلاكهم بالعذاب العاجل ويأباه القصر السابق (فيقول الذين ظلموا) أي فيقولون والعدول عنه الى ما عليه النظم الكريم للتسجيل عليهم بالظلم وللاشعار بأن ما لقوه من الشدة انما هو لظلمهم وايثاره على صيغة الفاعل حسبما ذكر أولا للايذان بأن الظلم في الجملة كاف في الافضاء الى ما ذكر من الاهوال من غير حاجة الى الاستمرار عليه

بالفرق (وخامسها) قوله عليه [illegible] غضب الله وهو نص في الباب حجة أبي حنيفة رحمه الله أما في حق المرأة فلأنها ما فعلت سوى أنها تركت اللعان وهذا الترك ليس بينة على الزنا ولا إقرارا منها به فوجب أن لا يجوز رجمها لقوله عليه السلام لا يحل دم امرئ مسلم الحديث وإذا لم يجب الرجم إذا كانت محصنة لم يجب الجلد في غير المحصن لأنه لا قائل بالفرق وأيضا فالنكول ليس بصريح في الإقرار فلم يجز إثبات الحد به كاللفظ المحتمل للزنا ولغيره (المسألة الرابعة) قال الجمهور إذا قال لها يا زانية وجب اللعان وقال مالك رحمه الله لا يلاعن إلا أن يقول رأيتك تزني أو ينفي حملا لها أو ولدا منها حجة الجمهور أن عموم قوله والذين يرمون المحصنات يتناول الكل ولأنه لا تفاوت في قذف الأجنبية بين الكل فكذا في حق قذف الزوجة (الطرف الثاني) الملاعن قال الشافعي رحمه الله من صح يمينه صح لعانه فيجري اللعان بين الرقيقين والذميين والمحدودين وكذا إذا كان أحدهما رقيقا أو كان الزوج مسلما والمرأة ذمية وقال أبو حنيفة رحمه الله لا يصح في صورتين (أحداهما) أن تكون الزوجة ممن لا يجب على قاذفها الحد إذا كان أجنبيا بأن تكون الزوجة مملوكة أو ذمية (والثاني) أن يكون أحدهما من غير أهل الشهادة بأن يكون محدودا في قذف أو عبدا أو كافرا ثم زعم أن الفاسق والأعمى مع أنهما ليسا من أهل الشهادة يصح لعانهما وجه قول الشافعي رحمه الله أن ظاهر قوله تعالى والذين يرمون أزواجهم يتناول الكل ولا معنى للتخصيص والقياس أيضا ظاهر من وجهين (الأول) أن المقصود دفع العار عن النفس ودفع ولد الزنا عن النفس وكما يحتاج غير المحدود إليه فكذا المحدود محتاج إليه (والثاني) أجمعنا على أنه يصح لعان الفاسق والأعمى وإن لم يكونا من أهل الشهادة فكذا القول في غيرهما والجامع هو الحاجة إلى دفع عار الزنا ووجه قول أبي حنيفة رحمه الله النص والمعنى أما النص فما روى عبد الله بن عمرو بن العاص أنه عليه السلام قال أربع من النساء ليس بينهن وبين أزواجهن ملاعنة اليهودية والنصرانية تحت المسلم والحرة تحت المملوك والمملوكة تحت الحر أما المعنى فنقول أما في الصورة الأولى فلأنه كان الواجب على قاذف الزوجة والأجنبية الحد بقوله والذين يرمون المحصنات ثم نسخ ذلك عن الأزواج وأقيم اللعان مقامه فلما كان اللعان مع الأزواج قائما مقام الحد في الأجنبيات لم يجب اللعان على من لا يجب عليه الحد لو قذفها أجنبي وأما في الصورة الثانية فالوجه فيه أن اللعان شهادة فوجب أن لا يصح إلا من أهل الشهادة وإنما قلنا إن اللعان شهادة لوجهين (الأول) قوله تعالى ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله فسمى الله تعالى لعانهما شهادة كما قال واستشهدوا شهيدين من رجالكم وقال فاستشهدوا عليهن أربعة منكم (الثاني) أنه عليه السلام حين لاعن بين الزوجين أمرهما باللعان بلفظ الشهادة ولم يقتصر على لفظ اليمين وإذا ثبت أن اللعان شهادة وجب أن لا تقبل من المحدود في القذف لقوله تعالى ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وإذا ثبت ذلك في المحدود ثبت في العبد والكافر إما للإجماع على أنهما ليسا من أهل الشهادة أو لأنه لا قائل بالفرق أجاب الشافعي رحمه الله بأن اللعان ليس شهادة في الحقيقة بل هو يمين لأنه لا يجوز أن يشهد الإنسان لنفسه ولأنه لو كان شهادة لكانت المرأة تأتي بثمان شهادات لأنها على النصف من الرجل ولأنه يصح من الأعمى والفاسق ولا يجوز شهادتهما فإن قيل الفاسق والفاسقة قد يتوبان قلنا وكذلك العبد قد يعتق فتجوز شهادته ثم أكد الشافعي رحمه الله ذلك بأن العبد إذا عتق تقبل شهادته في الحال والفاسق إذا تاب لا تقبل شهادته في الحال ثم ألزم أبا حنيفة رحمه الله بأن شهادة أهل الذمة مقبولة بعضهم على بعض فينبغي أن يجوز اللعان بين الذمي والذمية وهذا كله كلام الشافعي رحمه الله ثم قال بعد ذلك

وتختلف

كما ينبئ عنه صيغة الفاعل وعلى تقدير كون المراد بالناس من يعم المسلمين أيضا فالمعنى الذين ظلموا منهم وهم الكفار أو يقول كل من ظلم بالشرك والتكذيب من المنذرين وغيرهم من الأمم الخالية فإن إتيان العذاب يعمهم كما يشعر بذلك وعدهم باتباع الرسل (ربنا أخرنا) ردنا إلى الدنيا وأمهلنا (إلى أجل قريب) إلى أمد وحد من الزمان قريب (نجب دعوتك) أي الدعوة إليك وإلى توحيدك أو دعوتك لنا على ألسنة الرسل ففيه إيماء إلى أنهم صدقوهم في أنهم مرسلون من عند الله تعالى (ونتبع الرسل) فيما جاؤونا به أي نتدارك ما فرطنا فيه من إجابة الدعوة واتباع الرسل والجمع إما باعتبار اتفاق الجميع على التوحيد وكون عصيانهم للرسول صلى الله عليه وسلم عصيانا لهم جميعا وإما باعتبار أن المحكي كلام ظالمي الأمم جميعا والمقصود بيان وعد كل أمة باتباع رسولها (أولم تكونوا أقسمتم من قبل) على إضمار القول معطوفا على فيقول أي فيقال لهم توبيخا وتبكيتا ألم تؤخروا في الدنيا ولم تكونوا أقسمتم إذ ذاك بألسنتكم بطرا وأشرا وجهلا وسفها (ما لكم من زوال) مما أنتم عليه من التمتع بالحظوظ الدنيوية أو بألسنة الحال حيث بنيتم مشيدا وأملتم بعيدا ولم تحدثوا أنفسكم بالانتقال منها إلى هذه الحالة وفيه إشعار بامتداد زمان التأخير وبعد مداه أو ما لكم من زوال من هذه الدار إلى دار أخرى للجزاء كقوله تعالى وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت وصيغة الخطاب في جواب القسم لمراعاة حال الخطاب في أقسمتم كما في قوله حلف بالله ليخرجن وهو أدخل في التوبيخ من أن يقال ما لنا مراعاة لحال المقسم ذكر البيهقي عن محمد بن كعب القرظي أنه قال لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله تعالى

ويختلف الحدود بمن وقعت له ومعناه ان الزوج ان لم يلاعن تنصف حد القذف عليه لرقه وان لاعن ولم تلاعن اختلف حدها باحصانها وعدم احصانها وحريتها ورقها (الطرف الثالث) الاحكام المرتبة على اللعان قال الشافعي رحمه الله يتعلق باللعان خمسة أحكام درء الحد ونفي الولد والفرقة والتحريم المؤبد ووجوب الحد عليها وكلها تثبت بمجرد لعانه ولا يفتقر فيه الى لعانها ولا الى حكم الحاكم فان حكم الحاكم به كان تنفيذا منه لا ايقاعا للفرقة فلنتكلم في هذه المسائل (المسئلة الاولى) اختلف المجتهدون في وقوع الفرقة باللعان على أربعة أقوال (أحدها) قال عثمان البتي لا أرى ملاعنة الزوج امرأته تقتضي شيأ يوجب أن يطلقها (وثانيها) قال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد لا تقع الفرقة بفراغهما من اللعان حتى يفرق الحاكم بينهما (وثالثها) قال مالك والليث وزفر رحمهم الله اذا فرغا من اللعان وقعت الفرقة وان لم يفرق الحاكم (ورابعها) قال الشافعي رحمه الله اذا أكمل الزوج الشهادة والالتعان فقد زال فراش امرأته ولا تحل له أبدا التعنت أو لم تلتعن حجة عثمان البتي وجوه (أحدها) ان اللعان ليس بصريح ولا كناية عن الفرقة فوجب أن لا يفيد الفرقة كسائر الاقوال التي لا اشعار لها بالفرقة لان أكثر ما فيه أن يكون الزوج صادقا في قوله وهو لا يوجب تحريما ألا ترى أنه لو قامت البينة عليها لم يوجب ذلك تحريما فاذا كان كاذبا والمرأة صادقة يثبت انه لا دلالة فيه على التحريم (وثانيها) لو تلاعنا فيما بينهما لم يوجب الفرقة فكذا لو تلاعنا عند الحاكم (وثالثها) ان اللعان قائم مقام الشهود في قذف الاجنبيات فكما أنه لا فائدة في احضار الشهود هناك الا اسقاط الحد فكذا اللعان لا تأثير له الا اسقاط الحد (ورابعها) اذا كذب الزوج نفسه في قذفه اياها تم حد لم يوجب ذلك فرقة فكذا اذا لاعن لان اللعان قائم مقام درء الحد قال وأما تفريق النبي صلى الله عليه وسلم بين المتلاعنين فكان ذلك في قصة العجلاني وكان قد طلقها ثلاثا بعد اللعان فلذلك فرق بينهما وأما قول أبي حنيفة وهو أن الحاكم يفرق بينهما فلا بد من بيان أمرين (أحدهما) انه يجب على الحاكم أن يفرق بينهما ودليله ماروى سهل بن سعد في قصة العجلاني مضت السنة في المتلاعنين أن يفرق بينهما ثم لا يجتمعان أبدا (والثاني) أن الفرقة لا تحصل الا بحكم الحاكم واحتجوا عليه بوجوه (أحدها) روى في قصة عويمر انهما لما فرغا قال عويمر كذبت عليها يارسول الله ان أمسكتها هي طالق ثلاثا فطلقها ثلاثا قبل أن يأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم والاستدلال بهذا الخبر من وجوه (أحدها) انه لو وقعت الفرقة باللعان لبطل قوله كذبت عليها ان أمسكتها لان امساكها غير ممكن (وثانيها) ماروى في هذا الخبر انه طلقها ثلاث تطليقات فأنفذه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنفيذ الطلاق انما يمكن لو لم تقع الفرقة بنفس اللعان (وثالثها) ما قال سعد بن سهل في هذا الخبر مضت السنة في المتلاعنين أن يفرق بينهما ولا يجتمعان أبدا ولو كانت الفرقة واقعة باللعان لاستحال التفريق بعدها (وثانيها) قال أبو بكر الرازي قول الشافعي رحمه الله خلاف الآية لانه لو وقعت الفرقة بلعان الزوج للاعنت المرأة وهي أجنبية وذلك خلاف الآية لان الله تعالى انما أوجب اللعان بين الزوجين (وثالثها) ان اللعان شهادة لا يثبت حكمها الا عند الحاكم فوجب أن لا يوجب الفرقة الا بحكم الحاكم كما لا يثبت المشهود به الا بحكم الحاكم (ورابعها) اللعان تستحق به المرأة نفسها كما يستحق المدعي بالبينة فلما لم يجز أن يستحق المدعي مدعاه الا بحكم الحاكم وجب مثله في استحقاق المرأة نفسها (وخامسها) ان اللعان لا اشعار فيه بالتحريم لان أكثر ما فيه انها زنت ولو قامت البينة على زناها أو هي أقرت بذلك فذلك لا يوجب التحريم فكذا اللعان واذا لم يوجد فيه دلالة على التحريم وجب أن لا تقع الفرقة به فلا بد من احداث التفريق اما من قبل الزوج أو من قبل الحاكم أما

في أربع منها فاذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا يقولون ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل الى خروج من سبيل فيجيبهم الله تعالى ذلكم بأنه اذا دعي الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير ثم يقولون ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون فيجيبهم الله تعالى فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ٢٧٣ الآية ثم يقولون ربنا أخرنا الى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل فيجيبهم الله تعالى أولم تكونوا أقسمتم الآية ثم يقولون ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل فيجيبهم الله تعالى أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير فيقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين فيجيبهم الله تعالى اخسؤا فيها ولا تكلمون فلا يتكلمون بعدها أبدا ان هو الا زفير وشهيق وعند ذلك انقطع رجاؤهم وأقبل بعضهم ينبح في وجه بعض واطبقت عليهم جهنم اللهم انا بك نعوذ وبكنفك نلوذ عز جارك وجل ثناؤك ولا اله غيرك (وسكنتم) من السكنى بمعنى التبوؤ والايطان وانما استعمل بكلمة في حيث قيل (في مساكن الذين ظلموا أنفسهم) جريا على الاصل لانه منقول عن مطلق السكون الذي حقه التعدية بها أو من السكون واللبث أي قررتم في مساكنهم مطمئنين

سائرين سيرتهم في الظلم بالكفر والمعاصي غير محدثين لانفسكم بما لقوا بسبب ما اجترحوا من الموبقات وفي ايقاع الظلم على أنفسهم بعد اطلاقه فيما سلف ايذان بأن غائلة الظلم آيلة الى صاحبه والمراد بهم اما جميع من تقدم من الامم الهالكة على تقدير اختصاص الاستعمال وانذار خطاب السابق بالمنذرين واما أوائلهم من قوم نوح وهود على تقدير عمومه لكل

وهذا الخطاب وما يتلوه باعتبار حال أواخرهم (وتبين لكم) بمشاهدة الآثار وتواتر الأخبار (كيف فعلنا بهم) من الإهلاك والعقوبة بما فعلوا من الظلم والفساد وكيف منصوب بما بعده من الفعل وليس الجملة فاعلا لتبين كما قاله بعض الكوفيين بل فاعله ما دلت هي عليه دلالة واضحة أي فعلنا العجيب بهم وفيه من المبالغة ما ليس في أن يقال ما فعلنا بهم كما مر في قوله ليسجننه وقرئ ونبين

(وضربنا لكم الأمثال) أي بينا لكم في القرآن العظيم على تقدير اختصاص الخطاب بالمنذرين أو على ألسنة الأنبياء عليهم السلام على تقدير عمومه لجميع الظالمين صفات ما فعلوا وما فعل بهم من الأمور التي هي في الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم لتعتبروا بها وتقيسوا أعمالكم على أعمالهم ومآلكم على مآلهم وتنتقلوا من حلول العذاب العاجل إلى حلول العذاب الآجل فترتدعوا عما كنتم فيه من الكفر والمعاصي أو بينا لكم أنكم مثلهم في الكفر واستحقاق العذاب والجمل الثلاث في موقع الحال من ضمير أقسمتم أي أقسمتم بالخلود والحال أنكم سكنتم في مساكن المهلكين بظلمهم وتبين لكم فعلنا العجيب بهم ونبهناكم على جلية الحال بضرب الأمثال وقوله عز وجل (وقد مكروا مكرهم) حال من الضمير الأول في فعلنا بهم أو من الثاني أو منهما جميعا وإنما قدم عليه قوله تعالى وضربنا لكم الأمثال لشدة ارتباطه بما قبله أي فعلنا بهم ما فعلنا والحال أنهم قد مكروا في إبطال الحق وتقرير الباطل مكرهم العظيم الذي استفرغوا في عمله المجهود وجاوزوا فيه كل حد معهود بحيث لا يقدر عليه غيرهم فالمراد بيان تناهيهم في استحقاق ما فعل بهم أو قد مكروا مكرهم المذكور في ترتيب مبادي البقاء ومدافعة أسباب الزوال فالمقصود إظهار عجزهم

المشرك

قول مالك وزفر بعينه أنهما لو تراضيا على البقاء على النكاح لم يخليا بل يفرق بينهما فدل على أن اللعان قد أوجب الفرقة أما قول الشافعي رحمه الله فله دليلان (الأول) قوله تعالى ويدرأ عنها العذاب أن تشهد الآية فدل هذا على أنه لا تأثير للعان المرأة إلا في دفع العذاب عن نفسها وأن كل ما يجب باللعان من الأحكام فقد وقع بلعان الزوج (الثاني) أن لعان الزوج وحده مستقل بنفي الولد فوجب أن يكون الاعتبار بقوله في الإلحاق لا بقولها ألا ترى أنها في لعانها ألحقت الولد به ونحن ننفيه عنه فيعتبر بنفي الزوج لا إلحاق المرأة ولهذا إذا أكذب الزوج نفسه ألحق به الولد وما دام يبقى مصرا على اللعان فالولد منفي عنه إذا ثبت أن لعانه مستقل بنفي الولد وجب أن يكون مستقلا بوقوع الفرقة لأن الفرقة لو لم تقع لم ينتف الولد لقوله عليه السلام الولد للفراش فما دام يبقى الفراش التحق به فلما انتفى الولد عنه بمجرد لعانه وجب أن يزول الفراش عنه بمجرد لعانه وأما الأخبار التي استدل بها أبو حنيفة رحمه الله فالمراد بها أن النبي عليه السلام أخبر عن وقوع الفرقة وحكم بها وذلك لا ينافي أن يكون المؤثر في الفرقة شيئا آخر وأما الأقيسة التي ذكرها فمدارها على أن اللعان شهادة وليس الأمر كذلك بل هو يمين على ما بينا وأما قوله اللعان لا إشعار فيه بوقوع الحرمة قلنا بينته على نفي الولد مقبولة ونفي الولد يتضمن نفي حلية النكاح والله أعلم (المسألة الثانية) قال مالك والشافعي وأبو يوسف والثوري وإسحق والحسن المتلاعنان لا يجتمعان أبدا وهو قول علي وعمر وابن مسعود وقال أبو حنيفة ومحمد إذا أكذب نفسه وحد زال تحريم العقد وحلت له بنكاح جديد حجة الشافعي رحمه الله أمور (أحدها) قوله عليه السلام للملاعن بعد اللعان لا سبيل لك عليها ولم يقل حتى تكذب نفسك ولو كان الإكذاب غاية لهذه الحرمة لردها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذه الغاية كما قال في المطلقة بالثلاث فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره (وثانيها) ما روي عن علي وعمر وابن مسعود أنهم قالوا لا يجتمع المتلاعنان أبدا وهذا قد روي أيضا مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (وثالثها) ما روى الزهري عن سهل بن سعد في قصة العجلاني مضت السنة أنهما إذا تلاعنا فرق بينهما ثم لا يجتمعان أبدا حجة أبي حنيفة رحمه الله قوله تعالى وأحل لكم ما وراء ذلكم وقوله فانكحوا ما طاب لكم (المسألة الثالثة) اتفق أهل العلم على أن الولد قد ينفى عن الزوج باللعان وحكي عن بعض من شذ أنه للزوج ولا ينتفي نسبه باللعان واحتج بقوله عليه السلام الولد للفراش وهذا ضعيف لأن الأخبار الدالة على أن النسب ينتفي باللعان كالمتواترة فلا يعارضها هذا الواحد (المسألة الرابعة) قال الشافعي رحمه الله لو أتى أحدهما ببعض كلمات اللعان لا يتعلق به الحكم وقال أبو حنيفة رحمه الله أكثر كلمات اللعان تعمل عمل الكل إذا حكم به الحاكم والظاهر مع الشافعي لأنه يدل على أنها لا تدرأ العذاب عن نفسها إلا بتمام ما ذكره الله تعالى ومن قال بخلاف ذلك فإنما يقوله بدليل منفصل (الطرف الرابع) في كيفية اللعان والآية دالة عليها صريحا فالرجل يشهد أربع شهادات بالله بأن يقول أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنا ثم يقول من بعد وعليه لعنة الله إن كان من الكاذبين ويتعلق بلعان الزوج تلك الأحكام الخمسة على قول الشافعي رحمه الله ثم المرأة إذا أرادت إسقاط حد الزنا عن نفسها عليها أن تلاعن ولا يتعلق بلعانها إلا هذا الحكم الواحد * ثم ههنا فروع (الفرع الأول) أجمعوا على أن اللعان كالشهادة فلا يثبت إلا عند الحاكم (الثاني) قال الشافعي رحمه الله يقام الرجل حتى يشهد والمرأة قاعدة وتقام المرأة حتى تشهد والرجل قاعد ويأمر الإمام من يضع يده على فيه عند الانتهاء إلى اللعنة والغضب ويقول له إني أخاف إن لم تك صادقا أن تبوء بلعنة الله (الثالث) اللعان بمكة بين المقام والركن وبالمدينة عند المنبر وببيت المقدس في مسجده وفي غيرها في المواضع المعظمة ولعان

المشركين كثير في الكيفية وأما الزمان فيوم الجمعة بعد العصر ولا بد من حضور جماعة من الأعيان أقلهم أربعة ﴿الفارق الخامس﴾ في سائر الفوائد وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على بطلان قول الخوارج في أن الزنا والقذف كفر من وجهين (الاول) ان الرامي ان صدق فهي زانية وان كذب فهو قاذف فلا بد على قولهم من وقوع الكفر من أحدهما وذلك يكون ردة فيجب على هذا ان تقع الفرقة ولا لعان أصلا وان تكون فرقة الردة حتى لا يتعلق بذلك توارث البتة (الثاني) ان الكفر اذا ثبت عليها باللعان فالواجب ان تقتل لا أن تجلد أو ترجم لان عقوبة المرتد مباينة للحد في الزنا ﴿المسئلة الثانية﴾ الآية دالة على بطلان قول من يقول ان وقوع الزنا يفسد النكاح وذلك لانه يجب اذا رماها بالزنا أن يكون قوله هذا كأنه معترف بفساد النكاح حتى يكون سبيله سبيل من يقر بانها أخته من الرضاع أو بانها كافرة ولو كان كذلك لوجب أن تقع الفرقة بنفس الرمي من قبل اللعان وقد ثبت بالاجماع فساد ذلك ﴿المسئلة الثالثة﴾ قالت المعتزلة دلت الآية على أن القاذف مستحق للعن الله تعالى اذا كان كاذبا وأنه قد فسق وكذلك الزاني والزانية يستحقان غضب الله تعالى وعقابه والا لم يحسن منهما أن يلعنا أنفسهما كما لا يجوز أن يدعو واحد ربه أن يلعن الاطفال والمجانين واذا صح ذلك فقد استحق العقاب والعقاب يكون دائما كالثواب ولا يجتمعان فثوابهما أيضا محبط فلا يجوز اذا لم يتوبا أن يدخلا الجنة لان الامة مجمعة على أن من دخل الجنة من المكلفين فهو مثاب على طاعاته وذلك يدل على خلود الفساق في النار قال أصحابنا لا نسلم ان كونه مغضوبا عليه بفسقه ينافي كونه مرضيا عنه لجهة ايمانه ثم لو سلمناه فلم نسلم أن الجنة لا يدخلها الا مستحق الثواب والاجماع ممنوع ﴿المسئلة الرابعة﴾ انما خصت الملاعنة بأن تخمس بغضب الله تغليظا عليها لانها هي أصل الفجور ومنبعه بخلابتها واطماعها ولذلك كانت مقدمة في آية الجلد واعلم أنه سبحانه لما بين حكم الرامي للمحصنات والازواج على ما ذكرنا وكان في ذلك من الرحمة والنعمة ما لا خفاء فيه لانه تعالى جعل باللعان للمرء سبيلا الى مراده ولها سبيلا الى دفع العذاب عن نفسها ولهما السبيل الى التوبة والانابة فلاجل هذا بين تعالى بقوله ولولا فضل الله عليكم ورحمته عظم نعمه فيما بينه من هذه الاحكام وفيما أمهل وأبقى ومكن من التوبة ولا شبهة في أن في الكلام حذفا اذ لا بد من جواب الا أن تركه يدل على أنه أمر عظيم لا يكتنه ورب مسكوت عنه أبلغ من منطوق به ﴿الحكم الخامس﴾ قصة الافك ﴿قوله تعالى ﴿ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم﴾ الكلام في هذه الآية من وجهين (أحدهما) تفسيره (والثاني) سبب نزوله أما التفسير فاعلم أن الله تعالى ذكر في هذه الآية ثلاثة أشياء (أولها) انه حكى الواقعة وهو قوله ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم والافك أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء وقيل هو البهتان وهو الامر الذي لا تشعر به حتى يفجأك وأصله الافك وهو القلب لانه قول مأفوك عن وجهه وأجمع المسلمون على أن المراد ما أفك به على عائشة وانما وصف الله تعالى ذلك الكذب بكونه افكا لان المعروف من حال عائشة خلاف ذلك لوجوه (أحدها) ان كونها زوجة للرسول صلى الله عليه وسلم المعصوم يمنع من ذلك لان الانبياء مبعوثون الى الكفار ليدعوهم ويستعطفوهم فيجب أن لا يكون معهم ما ينفرهم عنهم وكون الانسان بحيث تكون زوجته مسافحة من أعظم المنفرات فان قيل كيف جاز أن تكون امرأة النبي كافرة كامرأة نوح ولوط ولم يجز أن تكون فاجرة وأيضا فلو لم يجز ذلك لكان الرسول أعرف الناس بامتناعه ولو عرف ذلك لما ضاق قلبه ولما سأل عائشة عن كيفية الواقعة قلنا (الجواب) عن الاول أن

واضمحلال قدرتهم وحقارتها عند قدرة الله تعالى (وعند الله مكرهم) أي جزاء مكرهم الذي فعلوه على أن المكر مضاف الى فاعله أو أخذه تعالى بهم على أنهم مضاف الى مفعوله وتسميته مكرا لكونه بمقابلة مكرهم وجودا وذكرا أو لكونه في صورة المكر في الاتيان من حيث لا يشعرون وعلى التقديرين فالمراد به ما أفاده قوله عز وجل كيف فعلنا بهم لا أنه وعيد مستأنف والجملة حال من الضمير في مكروا أي مكروا مكرهم وعند الله جزاؤه أو ما هو أعظم منه والمقصود بيان فساد رأيهم حيث باشروا فعلا مع تحقق ما يوجب تركه (وان كان مكرهم) في العظم والشدة (لتزول منه الجبال) أي وان كان مكرهم في غاية المتانة والشدة وعبر عن ذلك بكونه مسوى ومعدا لازالة الجبال عن مقارها لكونه مثلا في ذلك والجملة المصدرة بان الوصلية معطوفة على جملة مقدرة والمعنى وعند الله جزاء مكرهم أو المكر الذي يحيق بهم ان لم يكن مكرهم لتزول منه الجبال وان كان الخ وقد حذف ذلك حذفا مطردا لدلالة المذكور عليه دلالة واضحة فان الشيء اذا تحقق عند وجود المانع القوي فلأن يتحقق عند عدمه أولى وعلى هذه النكتة يدور ما في ان الوصلية من التأكيد المعنوي والجواب محذوف دل عليه ما سبق وهو قوله تعالى وعند الله مكرهم وقيل ان نافية واللام لتأكيدها كما في قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم ويعضده قراءة ابن مسعود رضي الله عنه وما كان مكرهم فالجملة حينئذ حال من الضمير في مكروا لا من قوله تعالى وعند الله مكرهم أي مكروا مكرهم والحال أن مكرهم لم يكن لتزول منه الجبال على أنها عبارة عن آيات الله تعالى وشرائعه ومعجزاته الظاهرة على أيدي الرسل السالفة عليهم السلام التي هي بمنزلة الجبال الراسيات في الرسوخ وأما كونها عبارة عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم وأمر القرآن العظيم كما

الكذر ليس من المنفرات أما كونها فاجرة فمن المنفرات (والجواب) عن الثاني أنه عليه السلام كثيرا ما كان يضيق قلبه من أقوال الكفار مع علمه بفساد تلك الأقوال قال تعالى ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فكان هذا من هذا الباب (وثانيها) أن المعروف من حال عائشة قبل تلك الواقعة إنما هو الصون والبعد عن مقدمات الفجور ومن كان كذلك كان اللائق إحسان الظن به (وثالثها) أن القاذفين كانوا من المنافقين وأتباعهم وقد عرف أن كلام العدو المفتري ضرب من الهذيان فلمجموع هذه القرائن كان ذلك القول معلوم الفساد قبل نزول الوحي أما العصبة فقيل إنها الجماعة من العشرة إلى الأربعين وكذلك العصابة واعصوصبوا اجتمعوا وهم عبد الله بن أبي ابن سلول رأس النفاق وزيد بن رفاعة وحسان ابن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم أما قوله منكم فالمعنى أن الذين أتوا بالكذب في أمر عائشة جماعة منكم أيها المؤمنون لأن عبد الله كان من جملة من حكم له بالإيمان ظاهرا (ورابعها) أنه سبحانه شرح حال المقذوفة وما يتعلق بها بقوله لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم والصحيح أن هذا الخطاب ليس مع القاذفين بل مع من قذفوه وآذوه فإن قيل هذا مشكل لوجهين (أحدهما) أنه لم يتقدم ذكرهم (والثاني) أن المقذوفين هما عائشة وصفوان فكيف تحمل عليهما صيغة الجمع في قوله لا تحسبوه شرا لكم (والجواب عن الأول) أنه تقدم ذكرهم في قوله منكم (وعن الثاني) أن المراد من لفظ الجمع كل من تأذى بذلك الكذب واغتم ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم تأذى بذلك وكذلك أبو بكر ومن يتصل به فإن قيل فمن أي جهة يصير خيرا لهم مع أنه مضرة في العاجل قلنا لوجوه (أحدها) أنهم صبروا على ذلك الغم طلبا لمرضاة الله تعالى فاستوجبوا به الثواب وهذه طريقة المؤمنين عند وقوع الظلم بهم (وثانيها) أنه لولا إظهارهم للإفك كان يجوز أن تبقى التهمة كامنة في صدور البعض وعند الإظهار انكشف كذب القوم على مر الدهر (وثالثها) أنه صار خيرا لهم لما فيه من شرفهم وبيان فضلهم من حيث نزلت ثمان عشرة آية كل واحدة منها مستقلة ببراءة عائشة وشهد الله تعالى بكذب القاذفين ونسبهم إلى الإفك وأوجب عليهم اللعن والذم وهذا غاية الشرف والفضل (ورابعها) صيرورتها بحال تعلق الكفر والإيمان بقدحها ومدحها فإن الله تعالى لما نص على كون تلك الواقعة إفكا وبالغ في شرحه فكل من يشك فيه كان كافرا قطعا وهذه درجة عالية ومن الناس من قال قوله تعالى لا تحسبوه شرا لكم خطاب مع القاذفين وجعله الله تعالى خيرا لهم من وجوه (أحدها) أنه صار ما نزل من القرآن مانعا لهم من الاستمرار عليه فصار مقطعة لهم عن إدامة هذا الإفك (وثانيها) صار خيرا لهم من حيث كان هذا الذكر عقوبة معجلة كالكفارة (وثالثها) صار خيرا لهم من حيث تاب بعضهم عنده واعلم أن هذا القول ضعيف لأنه تعالى خاطبهم بالكاف ولما وصف أهل الإفك جعل الخطاب بالهاء بقوله تعالى لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ومعلوم أن نفس ما اكتسبوه لا يكون عقوبة فالمراد لهم جزاء ما اكتسبوه من العقاب في الآخرة والمذمة في الدنيا والمعنى أن قدر العقاب يكون مثل قدر الخوض أما قوله والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم ففيه مسائل (المسألة الأولى) قرئ كبره بالضم والكسر وهو عظمه (المسألة الثانية) قال الضحاك الذي تولى كبره حسان ومسطح فجلدهما صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله عذرها وجلد معهما امرأة من قريش وروي أن عائشة رضي الله عنها ذكرت حسانا وقالت أرجو له الجنة فقيل أليس هو الذي تولى كبره فقالت إذا سمعت شعره في مدح الرسول رجوت له الجنة وقال عليه الصلاة والسلام إن الله يؤيد حسانا بروح القدس في شعره وفي رواية أخرى وأي عذاب أشد من العمى ولعل الله جعل ذلك العذاب

قيل فلا تعجل له إذا الماكرون هم المهلكون لا الساكنون في مساكنهم من المخاطبين وإن خص الخطاب بالمنذرين وقيل هي مخففة من أن والمعنى أنه كان مكرهم ليزول منه ما هو كالجبال في الثبات مما ذكر من الآيات والشرائع والمعجزات والجملة كما هي حال من ضمير مكروا أي مكروا مكرهم المعهود وإن الشأن كان مكرهم لإزالة الآيات والشرائع على معنى أنه لم يكن يصح أن يكون منهم مكر كذلك وكان شأن الآيات والشرائع مانعا من مباشرة المكر لإزالته وقد قرأ الكسائي لتزول بفتح اللام على أنها الفارقة والمعنى تعظيم مكرهم فالجملة حال من قوله تعالى وعند الله مكرهم أي عنده تعالى جزاء مكرهم أو المكر بهم والحال أن مكرهم بحيث تزول منه الجبال أي في غاية الشدة وقرئ بالفتح والنصب على لغة من يفتح لام كي وقرئ وإن كان مكرهم هذا هو الذي يقتضيه النظم الكريم وينساق إليه الطبع السليم وقد قيل أن الضمير في مكروا للمنذرين والمراد بمكرهم ما أفاده قوله عز وجل وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك الآية وغيره من أنواع مكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ولعل الوجه حينئذ أن يكون قوله تعالى وقد مكروا الخ حالا من القول المقدر أي فيقال لهم ما يقال والحال أنهم مع ما فعلوا من الإقسام المذكور مع ما ينافيه من السكون في مساكن المهلكين وتبين أحوالهم وضرب الأمثال قد مكروا مكرهم العظيم أي لم يكن الصادر عنهم مجرد الإقسام الذي يخوا به بل اجترؤوا على مثل هذه العظيمة وقوله تعالى وعند الله مكرهم حال من ضمير مكروا حسبما ذكرنا من قبل وقوله تعالى وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال مسوق لبيان عدم تفاوت الحال في تحقيق الجزاء بين كون مكرهم قويا أو ضعيفا كما مر هنالك وعلى تقدير كون أن

العظيم ذهاب بصره والاقرب في الرواية ان المراد به عبد الله بن أبي ابن سلول فانه كان منافقا يطلب ما يكون قدحا في الرسول عليه الصلاة والسلام وغيره كان تابعا له فيما كان يأتي وكان فيهم من لا يتهم بالنفاق (المسألة الثالثة) المراد من اضافة الكبر اليه أنه كان مبتدئا بذلك القول فلا جرم حصل له من العقاب مثل ما حصل لكل من قال ذلك لقوله عليه الصلاة والسلام من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة وقيل سبب تلك الاضافة شدة الرغبة في اشاعة تلك الفاحشة وهو قول أبي مسلم (المسألة الرابعة) قال الجبائي قوله تعالى لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم أي عقاب ما اكتسب ولو كانوا لا يستحقون على ذلك عقابا لما جاز أن يقول تعالى ذلك وفيه دلالة على أن من لم يتب منهم صار الى العذاب الدائم في الآخرة لأن مع استحقاق العذاب لا يجوز استحقاق الثواب (والجواب) أن الكلام في المحابطة قد مر غير مرة فلا وجه للاعادة والله أعلم أما سبب النزول فقد روى الزهري عن سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن أبي وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود كلهم رووا عن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج اسمها خرج بها معه قالت فأقرع بيننا في غزوة غزاها قبل غزوة بني المصطلق فخرج فيها اسمي فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بعد نزول آية الحجاب فحملت في هودج فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرب من المدينة نزل منزلا ثم أذن بالرحيل فقمت حين أذنوا بالرحيل ومشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني وأقبلت الى رحلي فلمست صدري فاذا عقد لي من جزع أظفار قد انقطع فرجعت والتمست عقدي وحبسني طلبه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلوني فحملوا هودجي وهم يحسبون أني فيه لخفتي فاني كنت جارية حديثة السن فظنوا أني في الهودج وذهبوا بالبعير فلما رجعت لم أجد في المكان أحدا فجلست وقلت لعلهم يعودون في طلبي فنمت وقد كان صفوان بن المعطل مكث في العسكر يتتبع أمتعة الناس فيحمله الى المنزل الآخر لئلا يذهب منهم شيء فلما رآني عرفني وقال ما خلفك عن الناس فأخبرته الخبر فنزل وتنحى حتى ركبت ثم قاد البعير وافتقدني الناس حين نزلوا وماج الناس في ذكري فبينا الناس كذلك اذ هجمت عليهم فتكلم الناس وخاضوا في حديثي وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ولحقني وجع ولم أر منه عليه السلام ما عهدته من اللطف الذي كنت أعرف منه حين اشتكي انما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقول كيف تيكم فذاك الذي يريبني ولا أشعر بعد بما جرى حتى نقهت فخرجت في بعض الليالي مع أم مسطح لمهم لنا ثم أقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت تعس مسطح فأنكرت ذلك وقلت أتسبين رجلا شهد بدرا فقالت وما بلغك الخبر فقلت وما هو فقالت أشهد انك من المؤمنات الغافلات ثم أخبرتني بقول أهل الافك فازددت مرضا على مرضي فرجعت أبكي ثم دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال كيف تيكم فقلت ائذن لي أن آتي أبوي فأذن لي فجئت أبوي وقلت لامي يا أمه ماذا يتحدث الناس قالت يا بنية هوني عليك فوالله قلما كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر الا أكثرن عليها ثم قالت ألم تكوني علمت ما قيل حتى الآن فأقبلت أبكي فبكيت تلك الليلة ثم أصبحت أبكي فدخل علي أبي وأنا أبكي فقال لامي ما يبكيها قالت لم تكن علمت ما قيل فيها حتى الآن فأقبل يبكي ثم قال اسكتي يا بنية ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي ابن أبي طالب عليه السلام وأسامة بن زيد واستشارهما في فراق أهله فقال أسامة يا رسول الله هم أهلك ولا نعلم الا خيرا وأما علي فقال لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وان تسأل الجارية تصدقك فدعا

ناقية فهو حال من ضمير مكروا والجبال عبارة عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم أي وقد مكروا والحال أن مكرهم ما كان لتزول منه هاتيك الشرائع والآيات التي هي في القوة كالجبال وعلى تقدير كونها مخففة من الثقيلة واللام مكسورة يكون حالا منه أيضا على معنى أن ذلك المكر العظيم منهم كان لهذا الغرض على معنى أنهم لم يكن يصح أن يكون منهم مكر كذلك الا أن شأن الشرائع أعظم من أن يمكر بها ماكر وعلى تقدير فتح اللام فهو حال من قوله تعالى وعند الله مكرهم كما ذكرنا من قبل فليتأمل (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) لم يرد به والله سبحانه أعلم ما وعده بقوله تعالى انا لننصر رسلنا الآية وقوله كتب الله لأغلبن أنا ورسلي كما قيل فانه لا اختصاص له بالتعذيب لا سيما الاخروي بل ما سلف آنفا من وعده بتعذيب الظالمين بقوله تعالى انما يؤخرهم الآية كما يفصح عنه الفاء الداخلة على النهي الذي أريد به تثبيته عليه الصلاة والسلام على ما كان عليه من الثقة بالله تعالى والتيقن بانجاز وعده المذكور المقرون بالامر بانذارهم يوم اتيان العذاب المتضمن لذكر تعذيب الامم السالفة بسبب كفرهم وعصيانهم رسلهم بعد ما وعدهم بذلك كما فصلت قصة كل منهم في القرآن العظيم فكأنه قيل واذ قد وعدناك بعذاب الظالمين يوم القيامة وأخبرناك بما يلقونه من الشدائد وبما يسألونه من الرد الى الدنيا وبما أجبناهم به وقرعناهم بعدم تأملهم في أحوال من سبقهم من الامم الذين أهلكناهم لظلمهم بعد ما وعدنا رسلهم باهلاكهم فدم على ما كنت عليه من اليقين بعدم اخلافنا رسلنا وعدنا (ان الله عزيز) غالب لا يماكر وقادر لا يقادر (ذو انتقام) لأوليائه من أعدائه والجملة تعليل للنهي المذكور وتذييل له وحيث كان الوعد عبارة عما ذكرنا من

تعذيبهم خاصة لم يذيل بأن يقال ان الله لا يخلف الميعاد بل تعرض لوصف العزة والانتقام المشعرين بذلك والمراد بالانتقام ما أشير اليه بالفعل وعبر عنه بالمكر (يوم تبدل الارض غير الارض) ظرف لمضمر مستأنف ينسحب عليه النهي المذكور أي يخزيه يوم الخ أو معطوف عليه نحو وارتقب يوم تبدل الارض غير الارض أو لانتقام وهو يوم يأتيهم العذاب بعينه ولكن له أحوال جمة

رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة وسألها عن أمري قالت بريرة يا رسول الله والذي بعثك بالحق ان رأيت عليها أمرا قط أكثر من انها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها حتى تأتي الداجن فتأكله قالت فقام النبي صلى الله عليه وسلم خطيبا على المنبر فقال يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي يعني عبد الله بن أبي فوالله ما علمت على أهلي الا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا وما كان يدخل على أهلي الا معي فقام سعد بن معاذ فقال أعذرك يا رسول الله منه ان كان من الاوس ضربت عنقه وان كان من اخواننا من الخزرج فما أمرتنا فعلناه فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن أخذته الحمية فقال لسعد بن معاذ كذبت والله لا تقدر على قتله فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ وقال كذبت لعمر الله لنقتلنه وانك لمنافق تجادل عن المنافقين فثار الحيان الاوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا قالت ومكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي اذ دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس قالت ولم يجلس عندي منذ قيل في ما قيل ولقد لبث شهرا لا يوحى الله اليه في شأني شيأ ثم قال أما بعد يا عائشة فانه بلغني عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى وان كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي اليه فان العبد اذا تاب تاب الله عليه قالت فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي ثم قلت لابي أجب عني رسول الله فقال والله ما أدري ما أقول فقلت لامي أجيبي عني رسول الله فقالت والله لا أدري ما أقول فقلت وأنا جارية حديثة السن ما أقرأ من القرآن كثيرا اني والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به فان قلت لكم اني بريئة لا تصدقوني وان اعترفت لكم بأمر والله يعلم اني بريئة لتصدقوني والله لا أجد لي ولكم مثلا الا كما قال العبد الصالح أبو يوسف ولم أذكر اسمه فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون قالت ثم تحولت واضطجعت على فراشي وأنا والله أعلم أن الله تعالى يبرئني ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحيا يتلى فشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله في بأمر يتلى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله في النوم رؤيا يبرئني الله بها قالت فوالله ما قام رسول الله من مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله الوحي على نبيه فأخذه ما كان يأخذه عند نزول الوحي حتى انه ليتحدر عنه مثل الجمان من العرق في اليوم الشاتي من ثقل الوحي فسجي بثوب ووضعت وسادة تحت رأسه فوالله ما فزعت وما باليت لعلمي ببراءتي وأما أبواي فوالله ما سري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننت أن نفسي أبوي ستخرجان فرقا من أن يأتي الله بتحقيق ما قال الناس فلما سري عنه وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها ان قال أبشري يا عائشة أما والله لقد برأك الله فقلت بحمد الله لا بحمدك ولا بحمد أصحابك فقالت أمي قومي اليه فقلت والله لا أقوم اليه ولا أحمد أحدا الا الله الذي أنزل براءتي فأنزل الله تعالى ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم العشر آيات فقال أبو بكر والله لا أنفق على مسطح بعد هذا وكان ينفق عليه لقرابته منه وفقره فأنزل الله تعالى ولا يأتل أولوا الفضل منكم الى قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم فقال أبو بكر بلى والله اني لاحب أن يغفر الله لي فرجع النفقة على مسطح قالت فلما نزل عذري قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فذكر ذلك وتلا القرآن فلما نزل ضرب عبد الله بن أبي ومسطحا وحمنة وحسان الحد واعلم أنه سبحانه وتعالى لما ذكر القصة وذكر حال المقذوفين والقاذفين عقبها بما يليق بها من الآداب والزواجر وهي أنواع (الاول) قوله تعالى ﴿لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون

يذكر كل مرة بعنوان مخصوص والتقييد به مع عموم انتقامه للاوقات كلها للافصاح عما هو المقصود من تعذيب الكفرة المؤخر الى ذلك اليوم بموجب الحكمة الداعية اليه وقيل بدل من يوم يأتيهم العذاب أو نصب باذكر أو باضمار لا يخلف وعده يوم تبدل الخ وفيه أيضا ما في الوجه الثالث من الحاجة الى الاعتذار ولا يجوز أن ينتصب بقوله مخلف وعده لان ما قبل أن لا يعمل فيما بعده وقيل وغير مانع لان قوله تعالى ان الله عزيز ذو انتقام جملة اعتراضية فلا يبالى بها فاصلا واعلم أن التبديل قد يكون في الذات كما في بدلت الدراهم دنانير وعليه قوله عز وجل بدلناهم جلودا غيرها وقد يكون في الصفات كما في قولك بدلت الحلقة خاتما اذا غيرت شكلها ومنه قوله تعالى يبدل الله سيئاتهم حسنات على بعض الاقوال والآية الكريمة ليست بنص في أحد الوجهين فعن علي رضي الله عنه تبدل أرضا من فضة وسموات من ذهب وعن ابن مسعود رضي الله عنه تبدل الارض بأرض كالفضة بيضاء نقية لم يسفك فيها دم ولم يعمل عليها خطيئة وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي تلك الارض وانما تغير صفاتها وأنشد

وما الناس بالناس الذين عهدتهم ۞ وما الدار بالدار التي كنت تعلم

وتبدل السموات بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف

والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين﴾ وهذا من جملة الآداب التي كان يلزمهم الاتيان بها ولولا معناه هلا وذلك كثير في اللغة اذا كان يليه الفعل كقوله لولا أخرتني وقوله فلولا كانت قرية آمنت فاما اذا وليه الاسم فليس كذلك كقوله لولا أنتم لكنا مؤمنين وقوله ولولا فضل الله عليكم ورحمته والمراد كان الواجب على المؤمنين اذ سمعوا قول القاذف أن يكذبوه ويشتغلوا باحسان الظن ولا يسرعوا الى التهمة فيمن عرفوا فيه الطهارة وههنا سؤالات (السؤال الاول) هلا قيل لولا اذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيرا وقلتم ولم عدل عن الخطاب الى الغيبة وعن المضمر الى الظاهر (الجواب) ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات وفي التصريح بلفظ الايمان دلالة على أن الاشتراك فيه يقتضي أن لا يظن بالمسلمين الا خيرا لان دينه يحكم بكون المعصية منشأ للضرر وعقله يهديه الى وجوب الاحتراز عن الضرر وهذا يوجب حصول الظن باحترازه عن المعصية فاذا وجدت القرينة المقتضية للاحتراز ولم يوجد في مقابلته راجح يساويه في القوة وجب احسان الظن وحرم الاقدام على الطعن (السؤال الثاني) ما المراد من قوله بأنفسهم (الجواب) فيه وجهان (الاول) المراد أن يظن بعضهم ببعض خيرا ونظيره قوله ولا تلمزوا أنفسكم وقوله فاقتلوا أنفسكم وقوله فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم ومعناه أي بأمثالكم من المؤمنين الذين هم كأنفسكم روى أن أبا أيوب الانصاري رضي الله عنه قال لام أيوب ألا ترين ما يقال فقالت لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرم رسول الله سوأ قال لا قالت ولو كنت بدل عائشة ما خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعائشة خير مني وصفوان خير منك وقال ابن زيد ذلك معاتبة للمؤمنين اذ المؤمن لا يفجر بأمه ولا الام بابنها وعائشة رضي الله عنها هي أم المؤمنين (والثاني) أنه جعل المؤمنين كالنفس الواحدة فيما يجري عليها من الامور فاذا جرى على أحدهم مكروه فكأنه جرى على جميعهم عن النعمان بن بشير قال عليه السلام مثل المسلمين في تواصلهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا وجع بعضه بالسهر والحمى وجع كله وعن أبي بردة قال عليه السلام المؤمنون للمؤمنين كالبنيان يشد بعضه بعضا (السؤال الثالث) ما معنى قوله هذا افك مبين وهل يحل لمن يسمع ما لا يعرفه أن يقول ذلك (الجواب) من وجهين (الاول) كذلك يجب أن يقول لكنه يخبر بذلك عن قول القاذف الذي لا يستند الى امارة ولا عن حقيقة الشئ الذي لا يعلمه (الثاني) أن ذلك واجب في أمر عائشة لان كونها زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم المعصوم عن جميع المنفرات كالدليل القاطع في كون ذلك كذبا قال أبو بكر الرازي هذا يدل على أن الواجب فيمن كان ظاهره العدالة أن يظن به خيرا ويوجب أن يكون عقود المسلمين وتصرفاتهم محمولة على الصحة والجواز ولذلك قال أصحابنا فيمن وجد رجلا مع امرأة أجنبية فاعترفا بالتزويج انه لا يجوز تكذيبهما بل يجب تصديقهما وزعم مالك أنه يحدهما ان لم يقيما بينة على النكاح ومن ذلك أيضا ما قال أصحابنا رضي الله عنهم فيمن باع درهما ودينارا بدرهمين ودينارين أنه يخالف بينهما لانا قد أمرنا بحسن الظن بالمؤمنين فوجب حمله على ما يجوز وهو المخالفة بينهما وكذلك اذا باع سيفا محلى فيه مائة درهم بمائتي درهم أن تجعل المائة بالمائة والفضل بالسيف وهو يدل أيضا على قول أبي حنيفة رحمه الله في أن المسلمين عدول ما لم يظهر منهم ريبة لانا مأمورون بحسن الظن وذلك يوجب قبول الشهادة ما لم يظهر منه ريبة توجب التوقف عنها أو ردها قال تعالى ان الظن لا يغني من الحق شيأ (النوع الثاني) قوله تعالى ﴿لولا جاؤا عليه بأربعة شهداء فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾ وهذا من باب الزواجر والمعنى هلا أتوا على ما ذكروه بأربعة شهداء يشهدون على معاينتهم فيما رموها به فاذ لم يأتوا بالشهداء أي فحين لم يقيموا بينة على ما قالوا فأولئك عند الله أي في حكمه هم الكاذبون

قعرها وانشقاقها او كونها أبوابا ويدل عليه ما روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال تبدل الارض غير الارض فتبسط وتمد مد الاديم العكاظي لا ترى فيها عوجا ولا أمتا (والسموات) أي وتبدل السموات غير السموات حسبما مر من التفصيل وتقديم تبديل الارض لقربها منا ولكون تبديلها أعظم أثرا بالنسبة الينا (وبرزوا) أي الخلائق أو الظالمون المدلول عليهم بمعونة السياق والمراد بروزهم من أجداثهم التي في بطون الارض أو ظهورهم بأعمالهم التي كانوا يعملونها سرا ويزعمون أنها لا تظهر أو يعملون عمل من يزعم ذلك ولعل اسناد البروز اليهم مع أنه لاعمالهم للايذان بتشكلهم بأشكال تناسبها وهو معطوف على تبدل والعدول الى صيغة الماضي للدلالة على تحقق وقوعه أو حال من الارض بتقدير قد والرابط بينها وبين صاحبها الواو (لله الواحد القهار) للحساب والجزاء والتعرض للوصفين لتهويل الخطب وتربية المهابة واظهار بطلان الشرك وتحقيق الانتقام في ذلك اليوم على تقدير كونه ظرفا له وتحقيق اتيان العذاب الموعود على تقدير كونه بدلا من يوم يأتيهم العذاب فان الامر اذا كان لواحد غلاب لا يغالب وقادر لا يضار ولا يغار كان في غاية ما يكون من الشدة والصعوبة (وترى المجرمين) عطف على برزوا والعدول الى صيغة المضارع لاستحضار الصورة أو للدلالة على الاستمرار وأما البروز فدفعي لا استمرار فيه وعلى تقدير حالية برزوا فهو معطوف على تبدل ويجوز عطفه على عامل الظرف المقدم على تقدير كونه بدلا (يومئذ) يوم اذ برزوا لله عز وجل أو يوم اذ تبدل الارض أو يوم اذ يجزوا وعده (مقرنين) قرن بعضهم مع بعض حسب اقترانهم في الجرائم والجرائر أو قرنوا مع الشياطين الذين أغووهم أو قرنوا مع ما اقترفوا من العقائد الزائغة والملكات الرديئة

والاعمال السيئة غب تصور كل منها وتشكلها بما يناسبها من الصورة الموحشة والاشكال الهائلة وأقرنت أيديهم وأرجلهم الى رقابهم وهو حال من المجرمين (في الاصفاد) في القيود أو الاغلال وهو اما متعلق بقوله تعالى مقرنين أو حال من ضميره أي مصفدين (سرابيلهم) أي قمصانهم (من قطران) جملة من مبتدا ٢٨٠ وخبر محلها النصب على الحالية من المجرمين أو من ضميرهم في مقرنين رابطتها

فان قيل أليس اذا لم يأتوا بالشهداء فانه يجوز كونهم صادقين كما يجوز كونهم كاذبين فلم جزم بكونهم كاذبين والجواب من وجهين (الاول) أن المراد بذلك الذين رموا عائشة خاصة وهم كانوا عند الله كاذبين (الثاني) المراد فأولئك عند الله في حكم الكاذبين فان الكاذب يجب زجره عن الكذب والقاذف ان لم يأت بالشهود فانه يجب زجره فلما كان شأنه شأن الكاذب في الزجر لا جرم أطلق عليه لفظ الكاذب مجازا ﴿النوع الثالث﴾ ۞ قوله تعالى ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم﴾ وهذا من باب الزواجر أيضا ولولا ههنا لامتناع الشيء لوجود غيره ويقال أفاض في الحديث واندفع وخاض وفي المعنى وجهان (الاول) ولولا أني قضيت أن أتفضل عليكم في الدنيا بضروب النعم التي من جملتها الامهال للتوبة وأن أترحم عليكم في الآخرة بالعفو والمغفرة لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الافك (والثاني) ولولا فضل الله عليكم ورحمته لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم في الدنيا والآخرة معا فيكون فيه تقديم وتأخير والخطاب للقذفة وهو قول مقاتل وهذا الفضل هو حكم الله تعالى من تأخير العذاب وحكمه بقبول التوبة لمن تاب ﴿النوع الرابع﴾ ۞ قوله تعالى ﴿اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم﴾ وهذا أيضا من الزواجر قال صاحب الكشاف اذ ظرف لمسكم أو لافضتم ومعنى تلقونه يأخذه بعضكم من بعض يقال تلقى القول وتلقنه وتلقفه ومنه قوله تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات وقرئ على الاصل تتلقونه واذ تلقونه بادغام الذال في التاء وتلقونه من لقيه بمعنى لقفه وتلقونه من القائه بعضهم على بعض وتلقونه وتألقونه من الولق والالق وهو الكذب وتلقونه محكية عن عائشة وعن سفيان سمعت أمي تقرأ اذ تثقفونه وكان أبوها يقرأ بحرف عبد الله بن مسعود واعلم أن الله تعالى وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام وعلق مس العذاب العظيم بها (أحدها) تلقي الافك بألسنتهم وذلك أن الرجل كان يلقى الرجل فيقول له ما وراءك فيحدثه بحديث الافك حتى شاع واشتهر فلم يبق بيت ولا ناد الا طار فيه فكأنهم سعوا في اشاعة الفاحشة وهذا من العظائم (وثانيها) انهم كانوا يتكلمون بما لا علم لهم به وذلك يدل على أنه لا يجوز الاخبار الا مع العلم فاما الذي لا يعلم صدقه فالاخبار عنه كالاخبار عما علم كذبه في الحرمة ونظيره قوله ولا تقف ما ليس لك به علم فان قيل ما معنى قوله بأفواهكم والقول لا يكون الا بالفم قلنا معناه أن الشيء المعلوم يكون علمه في القلب فيترجم عنه باللسان وهذا الافك ليس الا قولا يجري على ألسنتكم من غير أن يحصل في القلب علم به كقوله يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم (وثالثها) أنهم كانوا يستصغرون ذلك وهو عظيم من العظائم ويدل على أمور ثلاثة (الاول) يدل على أن القذف من الكبائر لقوله وهو عند الله عظيم (الثاني) نبه بقوله وتحسبونه هينا على أن عظم المعصية لا يختلف بظن فاعلها وحسبانه بل ربما كان ذلك مؤكدا لعظمها من حيث جهل كونها عظيما (الثالث) الواجب على المكلف في كل محرم أن يستعظم الاقدام عليه اذ لا يأمن انه من الكبائر وقيل لا صغيرة مع الاصرار ولا كبيرة مع الاستغفار ﴿النوع الخامس﴾ ۞ قوله تعالى ﴿ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ وهذا من باب الآداب أي هلا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا وانما وجب عليهم الامتناع منه لوجوه (أحدها) أن المقتضي لكونهم تاركين لهذا الفعل قائم وهو العقل والدين ولم يوجد ما يعارضه فوجب أن يكون ظن كونهم تاركين للمعصية أقوى من ظن كونهم فاعلين لها فلو أنه أخبر عن صدور المعصية لكان قد رجح المرجوح على الراجح وهو غير جائز (وثانيها) وهو أنه يتضمن ايذاء الرسول وذلك سبب للعن لقوله تعالى ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله

الضمير فقط كما في كلمه فوه الى في أو مستأنفة والقطران ما يتحلب من الابهل فيطبخ فتهنأ به الابل الجربى فيحرق الجرب بما فيه من الحدة الشديدة وقد تصل حرارته الى الجوف وهو أسود منتن يسرع فيه اشتعال النار يطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤهم كالسرابيل ليجتمع عليهم الالوان الاربعة من العذاب لذعه وحرقته واسراع النار في جلودهم واللون الموحش والنتن على أن التفاوت بينه وبين ما نشاهده وبين النارين لا يكاد يقادر قدره فكأن ما نشاهده منهما أسماء مسمياتها في الآخرة فبكرمه العميم نعوذ وبكنفه الواسع نلوذ ويحتمل أن يكون ذلك تمثيلا لما يحيط بجوهر النفس من الملكات الردية والهيئات الوحشية فتجلب اليها الآلام والغموم بل وأن يكون القطران المذكور عين ما لبسوه في هذه النشأة وجعلوه شعارا لهم من العقائد الباطلة والاعمال السيئة المستجلبة

لفنون العذاب قد تجسدت في النشأة الآخرة بتلك الصورة المستتبعة لاشتداد العذاب عصمنا الله سبحانه عن ذلك بمنه ولطفه وقرئ من قطر آن أي نحاس مذاب متناه حره (وتغشى وجوههم النار) أي تعلوها وتحيط بها النار التي تمس جسدهم المسربل بالقطران وتخصيص الوجوه بالحكم المذكور مع عمومه لسائر أعضائهم لكونها أعز الاعضاء الظاهرة وأشرفها كقوله تعالى

في الدنيا والآخرة (وثالثها) أنه سبب لإيذاء عائشة وإيذاء أبويها ومن يتصل بهم من غير سبب عرف إقدامهم عليه ولا جناية عرف صدورها عنهم وذلك حرام (ورابعها) أنه إقدام على ما يجوز أن يكون سببا للضرر مع الاستغناء عنه والعقل يقتضي التباعد عنه لأن القاذف بتقدير كونه صادقا لا يستحق الثواب على صدقه بل يستحق العذاب لأنه أشاع الفاحشة وبتقدير كونه كاذبا فإنه يستحق العقاب العظيم ومثل ذلك مما يقتضي صريح العقل الاحتراز عنه (وخامسها) أنه تضييع للوقت بما لا فائدة فيه وقال عليه الصلاة والسلام من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه (وسادسها) أن في إظهار محاسن الناس وستر مقابحهم تخلقا بأخلاق الله تعالى وقال عليه السلام تخلقوا بأخلاق الله فبهذه الوجوه توجب على العاقل إذا سمع القذف أن يسكت عنه وأن يجتهد في الاحتراز عن الوقوع فيه فإن قيل كيف جاز الفصل بين لولا وبين قلتم بالظرف قلنا الفائدة فيه أنه كان الواجب عليهم أن يحترزوا أول ما سمعوا بالإفك عن التكلم به أما قوله سبحانك هذا بهتان عظيم ففيه سؤالان (الأول) كيف يليق سبحانك بهذا الموضع (الجواب) من وجوه (الأول) المراد منه التعجب من عظم الأمر وإنما استعمل في معنى التعجب لأنه يسبح الله عند رؤية العجيب من صانعه ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه (الثاني) المراد تنزيه الله تعالى عن أن تكون زوجة نبيه فاجرة (الثالث) أنه منزه عن أن يرضى بظلم هؤلاء الفرقة المفترين (الرابع) أنه منزه عن أن لا يعاقب هؤلاء القذفة الظلمة ﴿السؤال الثاني﴾ لم أوجب عليهم أن يقولوا هذا بهتان عظيم مع أنهم ما كانوا عالمين بكونه كذبا قطعا (والجواب) من وجهين (الأول) أنهم كانوا متمكنين من العلم بكونه بهتانا لأن زوجة الرسول لا يجوز أن تكون فاجرة (الثاني) أنهم لما جزموا به مع أنهم ما كانوا ظانين له بالقلب كان إخبارهم عن ذلك الجزم كذبا ونظيره قوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴿النوع السادس﴾ قوله تعالى ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم﴾ وهذا من باب الزواجر والمعنى يعظكم الله بهذه المواعظ التي بها تعرفون عظم هذا الذنب وأن فيه الحد والنكال في الدنيا والعذاب في الآخرة لكي لا تعودوا إلى مثل هذا الفعل أبدا وأبدا هم ما داموا أحياء مكلفين وقد دخل تحت ذلك من قال ومن سمع فلم ينكر لأن حالهما سواء في أن فعلا ما لا يجوز وإن كان من أقدم عليه أعظم ذنبا فبين أن الغرض بما عرفهم من هذه الطريقة أن لا يعودوا إلى مثل ما تقدم منهم وههنا مسائل ﴿المسألة الأولى﴾ استدلت المعتزلة بقوله إن كنتم مؤمنين على أن ترك القذف من الإيمان وعلى أن فعل القذف لا يبقى معه الإيمان لأن المعلق على الشرط عدم عند عدم الشرط (والجواب) هذا معارض بقوله إن الذين جاؤا بالإفك عصبة منكم أي منكم أيها المؤمنون فدل ذلك على أن القذف لا يوجب الخروج عن الإيمان وإذا ثبت التعارض حملنا هذه الآية على التهييج في الاتعاظ والانزجار ﴿المسألة الثانية﴾ قالت المعتزلة دلت هذه الآية على أنه تعالى أراد من جميع من وعظه مجانبة مثل ذلك في المستقبل وإن كان فيهم من لا يطيع فمن هذا الوجه تدل على أنه تعالى يريد من كلهم الطاعة وإن عصوا لأن قوله يعظكم الله أن تعودوا معناه لكي لا تعودوا لمثله وذلك دلالة الإرادة (والجواب) عنه قد تقدم مرارا ﴿المسألة الثالثة﴾ هل يجوز أن يسمى الله تعالى واعظا لقوله يعظكم الله أن تعودوا الأظهر أنه لا يجوز أن يسمى معلما لقوله الرحمن علم القرآن أما قوله تعالى ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم فالمراد من الآيات ما به يعرف المرء ما ينبغي أن يتمسك به ثم بين أنه لكونه عليما حكيما يأمر بما يجب أن يبينه ويجب أن يطاع لأجل ذلك لأن من لا يكون عالما لا يجب قبول تكليفه لأنه قد يأمر بما لا ينبغي ولأن المكلف إذا أطاعه فقد

أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب الخ ولكونها مجمع المشاعر والحواس التي خلقت لإدراك الحق وقد أعرضوا عنه ولم يستعملوها في تدبره كما أن الفؤاد أشرف الأعضاء الباطنة ومحل المعرفة وقد ملؤها بالجهالات ولذلك قيل تطلع على الأفئدة أو لخلوها عن القطران المغني عن ذكر غشيان النار لهما ولعل تخليتها عنه ليتعارفوا عند انكشاف اللهب أحيانا ٢٨١ ويتضاعف عذابهم بالخزي على رؤس الأشهاد وقرئ تغشى أي تتغشى بحذف إحدى التاءين والجملة نصب على الحالية لا على أن الواو حالية لأنه مضارع مثبت بل على أنها معطوفة على الحال قاله أبو البقاء (ليجزي الله) متعلق بمضمر أي يفعل بهم ذلك ليجزي (كل نفس) مجرمة (ما كسبت) من أنواع الكفر والمعاصي جزاء موافقا لعملها وفيه إيذان بأن جزاءهم مناسب لأعمالهم أو بقوله برزوا على تقدير كونه معطوفا على تبدل والضمير للخلق وقوله وترى المجرمين الخ اعتراض بين المتعلق والمتعلق به أي برزوا للحساب ليجزي الله كل نفس مطيعة أو عاصية ما كسبت من خير أو شر وقد اكتفى بذكر عقاب العصاة تعويلا على شهادة الحال لا سيما مع ملاحظة سبق الرحمة الواسعة (إن الله سريع الحساب) إذ لا يشغله شأن عن شأن فيتمه في أعجل ما يكون من الزمان فيوفي الجزاء بحسبه أو سريع المجيء يأتي عن قريب أو سريع الانتقام (٣٦ - فخر س) كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى وهو سريع الحساب (هذا) أي ما ذكر من قوله سبحانه ولا تحسبن الله غافلا إلى قوله سريع الحساب (بلاغ) كفاية في العظة والتذكير من غير حاجة إلى ما انطوى عليه السورة الكريمة أو كل القرآن المجيد من فنون العظات والقوارع (للناس) للكفار خاصة على تقدير اختصاص الإنذار بهم في قوله تعالى وأنذر الناس أولهم وللمؤمنين

لا يعلم أنه أطاعه وحينئذ لا يبقى للطاعة فائدة وأما من كان عالما لكنه لا يكون حكيما فقد يأمر بما لا ينبغي فاذا أطاعه المكلف فقد يعذب المطيع وقد يثيب العاصي وحينئذ لا يبقى للطاعة فائدة وأما اذا كان عليما حكيما فانه لا يأمر الا بما ينبغي ولا يهمل جزاء المستحقين فلهذا ذكر هاتين الصفتين وخصهما بالذكر وههنا سؤالات (الاول) الحكيم هو الذي لا يأتي بما لا ينبغي وانما يكون كذلك لو كان عالما بقبح القبيح وعالما بكونه غنيا عنه فيكون العليم داخلا في الحكيم فكان ذكر الحكيم مغنيا عنه هذا على قول المعتزلة وأما على قول أهل السنة والجماعة فالحكمة هي العلم فقط فذكر العليم الحكيم يكون تكرارا محضا (الجواب) يحمل ذلك على التأكيد (السؤال الثاني) قالت المعتزلة دلت الآية على أنه انما يجب قبول بيان الله تعالى لمجرد كونه عالما حكيما والحكيم هو الذي لا يفعل القبائح فتدل الآية على أنه لو كان خالقا للقبائح لما جاز الاعتماد على وعده ووعيده (والجواب) الحكيم عندنا هو العليم وانما يجوز الاعتماد على قوله لكونه عالما بكل المعلومات فان الجاهل لا اعتماد على قوله البتة (السؤال الثالث) قالت المعتزلة قوله يبين الله لكم أي لاجلكم وهذا يدل على أن أفعاله معللة بالاغراض ولان قوله لكم لا يجوز حمله على ظاهره لانه ليس الغرض نفس ذواتهم بل الغرض حصول انتفاعهم وطاعتهم وايمانهم فدل هذا على أنه تعالى يريد الايمان من الكل (والجواب) المراد أنه سبحانه فعل بهم ما لو فعله غيره لكان ذلك غرضا (النوع السابع) قوله تعالى ﴿ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ اعلم أنه سبحانه لما بين ما على أهل الافك وما على من سمعه منهم وما ينبغي أن يتمسكوا به من آداب الدين أتبعه بقوله ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة ليعلم أن من أحب ذلك فقد شارك في هذا الذم كما شارك فيه من فعله ومن لم ينكره وليعلم أن أهل الافك كما عليهم العقوبة فيما أظهروه فكذلك يستحقون العقاب بما أسروه من محبة اشاعة الفاحشة في المؤمنين وذلك يدل على وجوب سلامة القلب للمؤمنين كوجوب كف الجوارح والقول عما يضر بهم وههنا مسائل (المسئلة الاولى) معنى الاشاعة الانتشار يقال في هذا العقار سهم شائع اذا كان في الجميع ولم يكن منفصلا وشاع الحديث اذا ظهر في العامة (المسئلة الثانية) لا شك أن ظاهر قوله ان الذين يحبون يفيد العموم وأنه يتناول كل من كان بهذه الصفة ولا شك أن هذه الآية نزلت في قذف عائشة الا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فوجب اجراؤها على ظاهرها في العموم ومما يدل على أنه لا يجوز تخصيصها بقذفة عائشة قوله تعالى في الذين آمنوا فانه صيغة جمع ولو أراد عائشة وحدها لم يجز ذلك والذين خصصوه بقذفة عائشة منهم من حمله على عبد الله بن أبي لانه هو الذي سعى في اشاعة الفاحشة قالوا معنى الآية ان الذين يحبون والمراد عبد الله أن تشيع الفاحشة أي الزنا في الذين آمنوا أي في عائشة وصفوان (المسئلة الثالثة) روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال اني لاعرف قوما يضربون صدورهم ضربا يسمعه أهل النار وهم الهمازون اللمازون الذين يلتمسون عورات المسلمين ويهتكون ستورهم ويشيعون فيهم من الفواحش ما ليس فيهم وعنه عليه الصلاة والسلام لا يستر عبد مؤمن عورة عبد مؤمن الا ستره الله يوم القيامة ومن أقال مسلما صفقته أقال الله عثرته يوم القيامة ومن ستر عورته ستر الله عورته يوم القيامة وعنه عليه الصلاة والسلام المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه وعن عبد الله بن عمر عنه عليه الصلاة والسلام قال من سره أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ويحب أن يؤتى الى الناس ما يحب أن يؤتى اليه وعن أنس قال قال عليه الصلاة والسلام لا يؤمن العبد حتى يحب لاخيه

كافة على تقدير شموله لهم أيضا وان كان ما شرح مختصا بالظالمين (ولينذروا به) عطف على مقدر واللام متعلقة بالبلاغ أي كفاية لهم في أن ينصحوا ولينذروا به أو وهذا بلاغ لهم ليفهموه ولينذروا به على أن البلاغ بمعنى الابلاغ كما في قوله تعالى ما على الرسول الا البلاغ أو متعلقة بمحذوف أي ولينذروا به أنزل أو تلي وقرئ لينذروا به من نذر بالشئ اذا علمه وحذره واستعد له (وليعلموا) بالتأمل فيما فيه من الدلائل الواضحة التي هي اهلاك الامم واسكان آخرين مساكنهم وغيرهما مما سبق ولحق (أنما هو اله واحد) لا شريك له وتقديم الانذار لانه الداعي الى التأمل المؤدي الى ما هو غاية له من العلم المذكور والتذكر في قوله تعالى (وليذكر أولوا الالباب) أي ليتذكروا ما كانوا يعلمونه من قبل من التوحيد وغيره من شؤون الله عز وجل ومعاملته مع عباده فيرتدعوا عما يرديهم من الصفات التي يتصف بها الكفار ويتدرعوا بما يحظيهم من العقائد الحقة والاعمال الصالحة وفي تخصيص التذكر بأولي الالباب تلويح باختصاص العلم بالكفار ودلالة على أن المشار اليه بهذا ما ذكر من القوارع المسوقة لشأنهم لا كل السورة المشتملة عليها وعلى ما سيق للمؤمنين أيضا فان فيه ما يفيدهم فائدة جديدة وحيث كان ما يفيده البلاغ من التوحيد وما يترتب عليه من الاحكام بالنسبة الى الكفرة أمرا حادثا وبالنسبة الى أولي الالباب الثبات على ذلك حسبما أشير اليه عبر عما عن الاول بالعلم وعن الثاني بالتذكر وروعي ترتيب الوجود مع ما فيه من الختم بالحسنى والله سبحانه وتعالى أعلم ختم الله لنا بالسعادة والحسنى ورزقنا الفوز برضاته في الاولى والعقبى آمين * عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة ابراهيم أعطي من الاجر عشر

حسنات بعدد من عبد الاصنام ومن لم يعبدوا الحمد لله وحده

﴿سورة الحجر مكية وهي تسع وتسعون آية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ (الر) قد مر الكلام فيه وفي محله في مطلع سورة الرعد وأخواتها (تلك) اشارة اليه أي تلك السورة العظيمة الشان (آيات الكتاب) الكامل المعهود الغني عن الوصف به ٢٨٣ المشهور بذلك من بين الكتب المتحقق باختصاص اسم الكتاب به على الاطلاق أي بعض منه مترجم مستقل باسم خاص فهو عبارة عن جميع القرآن أو عن الجميع المنزل اذ ذاك اذ هو المتسارع الى الفهم حينئذ عند الاطلاق وعليه يترتب فائدة وصف الآيات بنعت ما أضيفت اليه من نعوت الكمال لا على جعله عبارة عن السورة اذ هي في الاتصاف بذلك ليست بتلك المرتبة من الشهرة حتى يستغنى عن التصريح بالوصف على أنها عبارة عن جميع آياتها فلا بد من جعل تلك اشارة الى كل واحدة منها وفيه من التكلف ما لا يخفى كما ذكر في سورة الرعد (وقرآن) أي قرآن عظيم الشأن (مبين) مظهر لما في تضاعيفه من الحكم والاحكام أو لسبيل الرشد والغي أو فارق بين الحق والباطل والحلال والحرام وتقديم شأنه العظيم مع ما جمع فيه من وصفي الكتابية والقرآنية على طريقتين احداهما اشتماله على صفات كمال جنس الكتب الالهية فكأنه كلها والثانية طريقة كونه ممتازا عن غيره نسيج وحده بديعا في بابه خارجا عن دائرة البيان وأخرت الطريقة الثانية لما أن الاشارة الى امتيازه عن سائر الكتب بعد التنبيه على انطوائه على كمالات غيره من الكتب أدخل في المدح

ما يحب لنفسه من الخير (المسألة الرابعة) اختلفوا في عذاب الدنيا فقال بعضهم اقامة الحد عليهم وقال بعضهم اقامة الحد واللعن والعداوة من الله والمؤمنين ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي وحسانا ومسطحا وقعد صفوان لحسان فضربه ضربة بالسيف فكف بصره وقال الحسن عنى به المنافقين لانهم قصدوا أن يغموا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أراد غم رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر وعذابهم في الدنيا هو ما كانوا يتعبون فيه وينفقون لمقاتلة أوليائهم مع أعدائهم وقال أبو مسلم الذين يحبون هم المنافقون يحبون ذلك فأوعدهم الله تعالى العذاب في الدنيا على يد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمجاهدة لقوله جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم والاقرب أن المراد بهذا العذاب ما استحقوه بافكهم وهو الحد واللعن والذم فأما عذاب الآخرة فلا شك أنه في القبر عذابه وفي القيامة عذاب النار أما قوله والله يعلم وأنتم لا تعلمون فهو حسن الموقع بهذا الموضع لان محبة القلب كامنة ونحن لا نعلمها الا بالامارات أما الله سبحانه فهو لا يخفى عليه شيء فصار هذا الذكر نهاية في الزجر لان من أحب اشاعة الفاحشة وان بالغ في اخفاء تلك المحبة فهو يعلم أن الله تعالى يعلم ذلك منه وان علمه سبحانه بذلك الذي أخفاه كعلمه بالذي أظهره ويعلم قدر الجزاء عليه (المسألة الخامسة) الآية تدل على أن العزم على الذنب العظيم عظيم وان ارادة الفسق فسق لانه تعالى علق الوعيد بمحبة اشاعة الفاحشة (المسألة السادسة) قال الجبائي دلت الآية على أن كل قاذف لم يتب من قذفه فلا ثواب له من حيث استحق هذا العذاب الدائم وذلك يمنع من استحقاق ضده الذي هو الثواب فمن هذا الوجه تدل على ما قوله في الوعيد واعلم أن حاصله يرجع الى مسألة المحابطة وقد تقدم الكلام عليه (المسألة السابعة) قالت المعتزلة ان الله تعالى بالغ في ذم من أحب اشاعة الفاحشة فلو كان تعالى هو الخالق لافعال العباد لما كان مشيع الفاحشة الا هو فكان يجب أن لا يستحق الذم على اشاعة الفاحشة الا هو لانه هو الذي فعل تلك الاشاعة وغيره لم يفعل شيأ منها والكلام عليه أيضا قد تقدم (المسألة الثامنة) قال أبو حنيفة رحمه الله المصابة بالفجور لا تستنطق لان استنطاقها اشاعة للفاحشة وذلك ممنوع منه (النوع الثامن) قوله تعالى ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤف رحيم﴾ وفيه وجوه (أحدها) أن جوابه محذوف وكأنه قال لهلكتم أو لعذبكم الله ولاستأصلكم لكنه رؤف رحيم قال ابن عباس الخطاب لحسان ومسطح وحمنة ويجوز أن يكون الخطاب عاما (والثاني) جوابه في قوله ما زكى منكم من أحد أبدا (والثالث) جوابه لكانت الفاحشة تشيع فتعظم المضرة وهو قول أبي مسلم والاقرب أن جوابه محذوف لان قوله من بعد ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد كالمنفصل من الاول فلا يجب أن يكون جوابا للاول خصوصا وقد وقع بين الكلامين كلام آخر والمراد أنه لولا انعامه بأن بقي وأمهل ومكن من التلافي لهلكوا لكنه لرأفته لا يدع ما هو للعبد أصلح وان جنى على نفسه (النوع التاسع) قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم﴾ قرئ خطوات بضم الطاء وسكونها والخطوات جمع خطوة وهو من خطا الرجل يخطو خطوا فاذا أردت الواحدة قلت خطوة مفتوحة الاول والجمع بفتح أوله وبضم والمراد بذلك السيرة والطريقة والمعنى لا تتبعوا آثار الشيطان ولا تسلكوا مسالكه في الاصغاء الى الافك والتلقي له واشاعته الفاحشة في الذين آمنوا والله تعالى وان خص بذلك المؤمنين فهو نهي لكل المكلفين وهو قوله ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ومعلوم أن كل المكلفين ممنوعون من ذلك وانما قلنا انه تعالى خص المؤمنين بذلك

لانه توعدهم على اتباع خطواته بقوله ومن يتبع خطوات الشيطان وظاهر ذلك أنهم لم يتبعوه ولو كان المراد به الكفار لكانوا قد اتبعوه فكأنه سبحانه لما بين ما على أهل الافك من الوعيد أدب المؤمنين أيضا بأن خصهم بالذكر ليتشددوا في ترك المعصية لئلا يكون حالهم كحال أهل الافك والفحشاء والفاحشة ما أفرط قبحه والمنكر ما تنكره النفوس فتنفر عنه ولا ترتضيه أما قوله ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا فقرأ يعقوب وابن محيصن ما زكى بالتشديد واعلم أن الزكي من بلغ في طاعة الله مبلغ الرضا ومنه يقال زكى الزرع فاذا بلغ المؤمن من الصلاح في الدين الى ما يرضاه الله تعالى سمي زكيا ولا يقال زكى الا اذا وجده زكيا كما لا يقال لمن ترك الهدى هداه الله تعالى مطلقا بل يقال هداه الله فلم يهتد واحتج أصحابنا في مسألة المخلوق بقوله ولكن الله يزكي من يشاء فقالوا التزكية كالتسويد والتحمير فكما أن التسويد تحصيل السواد فكذا التزكية تحصيل الزكاء في المحل قالت المعتزلة ههنا تأويلان (أحدهما) حمل التزكية على فعل الالطاف (والثاني) حملها على الحكم بكون العبد زكيا قال أصحابنا الوجهان على خلاف الظاهر ثم نقيم الدلالة العقلية على بطلانهما أيضا (أما الوجه الاول) فيدل على فساده وجوه (أحدها) أن فعل اللطف هل يرجح الداعي أولا يرجحه فان لم يرجحه البتة لم يكن به تعلق فلا يكون لطفا وان رجحه فنقول المرجح لابد وأن يكون منتهيا الى حد الوجوب فانه مع ذلك القدر من الترجيح اما أن يمتنع وقوع الفعل عنده أو يمكن أو يجب فان امتنع كان مانعا لا داعيا وان أمكن أن يكون وأن لا يكون فكل ما يمكن لا يلزم من فرض وقوعه محال فليفرض تارة واقعا وأخرى غير واقع فامتياز وقت الوقوع عن وقت اللاوقوع اما أن يتوقف على انضمام قيد اليه أولا يتوقف فان توقف كان المرجح هو المجموع الحاصل بعد انضمام هذا القيد فلا يكون الحاصل أولا مرجحا وان لم يتوقف كان اختصاص أحد الوقتين بالوقوع والآخر باللاوقوع ترجيحا للممكن من غير مرجح وهو محال وأما ان كان اللطف مرجحا موجبا كان فاعل اللطف فاعلا للملطوف فيه فكان تعالى فاعلا لفعل العبد (الثاني) أنه تعالى قال ولكن الله يزكي من يشاء علق التزكية على المشيئة وفعل اللطف واجب والواجب لا يتعلق بالمشيئة (الثالث) أنه علق التزكية على الفضل والرحمة وخلق الالطاف واجب فلا يكون معلقا بالفضل والرحمة (وأما الوجه الثاني) وهو الحكم بكونه زكيا فذلك واجب لانه لو لم يحكم به لكان كذبا والكذب على الله تعالى محال فكيف يجوز تعليقه بالمشيئة فثبت أن قوله ولكن الله يزكي من يشاء نص في الباب أما قوله والله سميع عليم فالمراد أنه يسمع أقوالكم في القذف وأقوالكم في اثبات البراءة عليم بما في قلوبكم من محبة اشاعة الفاحشة أو من كراهيتها واذا كان كذلك وجب الاحتراز عن معصيته ﴿قوله تعالى ﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾ اعلم أنه تعالى كما أدب أهل الافك ومن سمع كلامهم كما قدمناه ذكره فكذلك أدب أبا بكر لما حلف أن لا ينفق على مسطح أبدا قال المفسرون نزلت الآية في أبي بكر حيث حلف أن لا ينفق على مسطح وهو ابن خالة أبي بكر وقد كان يتيما في حجره وكان ينفق عليه وعلى قرابته فلما نزلت الآية قال لهم أبو بكر قوموا فلستم مني ولست منكم ولا يدخلن على أحد منكم فقال مسطح أنشدك الله والاسلام وأنشدك القرابة والرحم أن لا تحوجنا الى أحد فما كان لنا في أول الامر من ذنب فقال لمسطح ان لم تتكلم فقد ضحكت فقال قد كان ذلك تعجبا من قول حسان فلم يقبل عذره وقال انطلقوا أيها القوم فان الله لم يجعل لكم عذرا ولا فرجا فخرجوا لا يدرون أين يذهبون وأين يتوجهون من الارض فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم

كي لا يتوهم من اول الامر أن امتيازه عن غيره لاستقلاله باوصاف خاصة به من غير اشتمال على نعوت كمال سائر الكتب الكريمة وهكذا الكلام في فاتحة سورة النمل خلا أنه قدم فيها القرآن على الكتاب لما سيذكر هناك ولما بين كون السورة الكريمة بعضا من الكتاب والقرآن لتوجيه المخاطبين الى حسن تلقي ما فيها من الاحكام والقصص والمواعظ شرع في بيان ما تضمنته فقيل (ربما) بضم الراء وتخفيف الباء المفتوحة وقرئ بالتشديد وبفتح الراء مخففا وبزيادة التاء مشددا وفيه ثماني لغات فتح الراء وضمها مشددا ومخففا وبزيادة التاء أيضا مشددا ومخففا ورب حرف جر لا يدخل الا على الاسم وما كافة مصححة لدخوله على الفعل وحقه الدخول على الماضي ودخوله على قوله تعالى (يود الذين كفروا) لما أن المترقب في اخباره تعالى كالماضي المقطوع في تحقق الوقوع فكأنه قيل ربما ود الذين كفروا والمراد كفرهم بالكتاب والقرآن وبكونه من عند الله تعالى (لو كانوا مسلمين) منقادين لحكمه ومذعنين لامره وفيه ايذان بأن كفرهم انما كان بالجحود بعدما علموا كونه من عند الله تعالى وتلك الودادة يوم القيامة أو عند موتهم أو عند معاينة حالهم وحال المسلمين أو عند رؤيتهم خروج عصاة المسلمين من النار روى عن أبي موسى الاشعري رضي الله عنه أنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم القيامة واجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله تعالى من أهل القبلة قال لهم الكفار ألستم مسلمين قالوا بلى قالوا فما أغنى عنكم اسلامكم وقد صرتم معنا الى النار قالوا كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيغضب الله سبحانه لهم بفضل رحمته فيأمر بكل من كان من أهل القبلة في النار فيخرجون منها فحينئذ يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين وروى مجاهد عن

يخبره

خبره بأن الله تعالى قد أنزل على كتابا ينهاك فيه أن تخرجهم فكبر أبو بكر وسره وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية فلما وصل الى قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم قال بلى يارب انى أحب أن يغفر لى وقد تجاوزت عما كان فذهب أبو بكر الى بيته وأرسل الى مسطح وأصحابه وقال قبلت ما أنزل الله على الرأس والعين وانما فعلت بكم مافعلت اذ سخط الله عليكم أما اذ عفا عنكم فمرحبا بكم وجعل له مثلى ما كان له قبل ذلك اليوم وههنا مسائل (المسألة الاولى) ذكروا فى قوله ولا يأتل وجهين (الاول) وهو المشهور أنه من ائتلى اذا حلف افتعل من الالية والمعنى لا يحلف قال أبو مسلم هذا ضعيف لوجهين (أحدهما) أن ظاهر الآية على هذا التأويل يقتضى المنع من الحلف على الاعطاء وهم أرادوا المنع من الحلف على ترك الاعطاء فهذا المتأول قد أقام النفى مكان الايجاب وجعل المنهى عنه مأمورا به (وثانيهما) أنه قلما يوجد فى الكلام افتعلت مكان أفعلت وانما يوجد مكان فعلت وهنا آليت من الالية افعلت فلا يقال افتعلت كما لا يقال من ألزمت التزمت ومن أعطيت اعتطيت ثم قال فى يأتل ان أصله يأتلى ذهبت الياء للجزم لانه نهى وهو من قولك ما آلوت فلانا نصحا ولم آل فى أمرى جهدا أى ما قصرت ولا يأل ولا يأتل واحد فالمراد لا تقصروا فى أن تحسنوا اليهم ويوجد كثيرا افتعلت مكان فعلت تقول كسبت واكتسبت وصنعت واصطنعت ورضيت وارتضيت فهذا التأويل هو الصحيح دون الاول ويروى هذا التأويل أيضا عن أبى عبيدة أجاب الزجاج عن السؤال الاول بأن لا تحذف فى اليمين كثيرا قال الله تعالى ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم أن تبروا يعنى أن لا تبروا وقال امرؤ القيس

فقلت يمين الله أبرح قاعدا * ولو قطعوا رأسى اليك وأوصالى

اى لا أبرح وأجابوا عن السؤال الثانى ان جميع المفسرين الذين كانوا قبل أبى مسلم فسروا اللفظة باليمين وقول كل واحد منهم حجة فى اللغة فكيف الكل ويعضده قراءة الحسن ولا يتأل (المسألة الثانية) أجمع المفسرون على ان المراد من قوله أولوا الفضل أبو بكر وهذه الآية تدل على أنه رضى الله عنه كان أفضل الناس بعد الرسول صلى الله عليه وسلم لان الفضل المذكور فى هذه الآية اما فى الدنيا واما فى الدين والاول باطل لانه تعالى ذكره فى معرض المدح له والمدح من الله تعالى بالدنيا غير جائز ولانه لو كان كذلك لكان قوله والسعة تكريرا فتعين أن يكون المراد منه الفضل فى الدين فلو كان غيره مساويا له فى الدرجات فى الدين لم يكن هو صاحب الفضل لان المساوى لا يكون فاضلا فلما أثبت الله تعالى له الفضل مطلقا غير مقيد بشخص دون شخص وجب أن يكون أفضل الخلق ترك العمل به فى حق الرسول صلى الله عليه وسلم فيبقى معمولا به فى حق الغير فان قيل نمنع اجماع المفسرين على اختصاص هذه الآية بأبى بكر قلنا كل من طالع كتب التفسير والاحاديث علم ان اختصاص هذه الآية بأبى بكر بالغ الى حد التواتر فلو جاز منعه لجاز منع كل متواتر وأيضا فهذه الآية دالة على ان المراد منها أفضل الناس وأجمعت الامة على ان الافضل اما أبو بكر أو على فاذا بينا انه ليس المراد عليا تعين حمل الآية على أبى بكر وانما قلنا انه ليس المراد منه عليا لوجهين (الاول) ان ماقبل هذه الآية ومابعدها يتعلق بابنة أبى بكر فيكون حديث على فى البين سمجا (الثانى) انه تعالى وصفه بانه من أولى السعة وان عليا لم يكن من أولى السعة فى الدنيا فى ذلك الوقت فثبت ان المراد منه أبو بكر قطعا واعلم ان الله تعالى وصف أبا بكر فى هذه الآية بصفات عجيبة دالة على علو شأنه فى الدين (أحدها) انه سبحانه كنى عنه بلفظ الجمع والواحد اذا كنى عنه بلفظ الجمع دل على علو شأنه كقوله تعالى انا نحن نزلنا الذكر انا أعطيناك الكوثر فانظر ان الشخص الذى كناه الله سبحانه

ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال لا يزال الرب يرحم ويشفع اليه حتى يقول من كان من المسلمين فليدخل الجنة فعند ذلك يتمنون الاسلام والحق أن ذلك محمول على شدة ودادتهم وأما نفس الودادة فليست مختصة بوقت دون وقت بل هى مقررة مستمرة فى كل آن مر عليهم وأن المراد بيان ذلك على ما هو عليه من الكثرة وانما جىء بصيغة التقليل جريا على سنن العرب فيما يقصدون به الافراد فيما يعكسون عنه تقول لبعض قواد العساكر كم عندك من الفرسان فيقول رب فارس عندى أو لا تعدم عندى فارسا وعنده مقانب جمة من الكتائب وقصده فى ذلك التمادى فى تكثير فرسانه ولكنه يريد اظهار براءته من التزيد وابراز أنه ممن يقلل لعلو الهمة كثير ما عنده فضلا عن تكثير القليل وهذه طريقة انما تسلك اذا كان الامر من الوضوح بحيث لا يحوم حوله شائبة ريب فصار اليه هضما للحق فدل النظم الكريم على ودادة الكافرين للاسلام فى كل آن من آنات اليوم الآخر وأن ذلك من الظهور بحيث لا يشتبه على أحد ولو جىء بكلام يدل على ضده وعلى أن تلك الودادة مع كثرتها فى نفسها مما يستقل بالنسبة الى جناب الكبرياء وهذا هو الموافق لمقام بيان حقارة شأن الكفار وعدم الاعتداد بما هم فيه من الكفر والتكذيب كما ينطق به قوله تعالى ذرهم والآية أوذنها بالاشعار بأن من شأن العاقل اذا عن له أمر يكون مظنون الحمد أو قليلا ما يكون كذلك أن لا يفارقه ولا يقارف ضده فكيف اذا كان متيقن الحمد كما فى قولهم لعلك ستندم على ما فعلت وربما ندم الانسان على ما فعل فان المقصود ليس بيان كون الندم مرجو الوجود بلا تيقن به أو قليل الوقوع بل التنبيه على أن العاقل لا يباشر ما يرجى فيه الندم أو يقل وقوعه فيه فكيف بقطعى

الوقوع وأنه يكفي قائل الندم في كونه عاجزاً عن ذلك الفعل فكيف كثيره والمقصود من سلوك هذه الطريقة اظهار الترفع والاستغناء عن التصريح بالغرض بناء على ادعاء ظهوره فالمعنى لو كانوا يودون الاسلام مرة واحدة لوجب عليهم أن لا يفارقوه فكيف وهم يودونه كل آن وهذا أوفق بمقام استغراقهم

عما هم عليه من الكفر وهذان طريقان متمايزان ذاتاً ومقاماً فمن ظنهما واحداً فقد نأى عن توفية المقام حقه (ذرهم) دعهم عن النهي عما هم عليه بالتذكرة والنصيحة اذ لا سبيل الى ارعوائهم عن ذلك وبالغ في تخليتهم وشأنهم بل مرهم بتعاطي ما يتعاطونه (يأكلوا ويتمتعوا) بدنياهم وفي تقديم الاكل ايذان بأن تمتعهم انما هو من قبيل تمتع البهائم بالمأكل والمشارب والمراد دوامهم على ذلك لا احداثه فانهم كانوا كذلك أو تمتعهم بلا استماع ما ينقص عيشهم من القوارع والزواجر فان التمتع على ذلك الوجه أمر حادث يصلح أن يكون مترتباً على تخليتهم وشأنهم (ويلههم) ويشغلهم عن اتباعك أو عن التفكر فيما هم يصيرون اليه أو عن الايمان والطاعة فان الاكل والتمتع يفضيان الى ذلك (الامل) والتوقع لطول الاعمار وبلوغ الاوطار واستقامة الاحوال وأن لا يلقوا في العاقبة والمآل الا خيرا فالافعال الثلاثة مجزومة على الجوابية للامر حسبما عرفت من تضمن الامر بالترك للامر بها على طريقة المجاز أو على أن يكون المراد بالافعال المرقومة مباشرتهم لها غافلين عن وخامة عاقبتها غير سامعين لسوء مغبتها أصلا ولا ريب في ترتب ذلك على الامر بالترك فان النهي عما هم عليه من ارتكاب القبائح مما يشوش عليهم تمتعهم وينغص عليهم عيشهم فأمر عليه السلام ومعلوم

مع دلالته بصيغة الجمع كيف يكون علو شأنه (وثانيها) وصفه بأنه صاحب الفضل على الاطلاق من غير تقييد لذلك بشخص دون شخص والفضل يدخل فيه الافضال وذلك يدل على انه رضي الله عنه كما كان فاضلا على الاطلاق كان مفضلا على الاطلاق (وثالثها) ان الافضال افادة ما ينبغي لا لعوض فمن يهب السكين لمن يقتل نفسه لا يسمى مفضلا لانه أعطى ما لا ينبغي ومن أعطى ليستفيد منه عوضاً اما مالياً أو مدحاً أو ثناء فهو مستفيض والله تعالى قد وصفه بذلك فقال وسيجنبها الاتقى الذي يؤتي ماله يتزكى وما لاحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى وقال في حق علي انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً الآية فخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً فعلي أعطى للخوف من العقاب وأبو بكر ما أعطى الا لوجه ربه الاعلى فدرجة أبي بكر أعلى فكانت عطيته في الافضال أتم وأكمل (ورابعها) انه قال أولوا الفضل منكم فكلمة من للتمييز فكأنه سبحانه ميزه عن كل المؤمنين بصفة كونه أولي الفضل والصفة التي بها يقع الامتياز يستحيل حصولها في الغير والا لما كانت مميزة له بعينه فدل ذلك على ان هذه الصفة حاصلة فيه لا في غيره البتة (وخامسها) أمكن حمل الفضل على طاعة الله تعالى وخدمته وقوله والسعة على الاحسان الى المسلمين فكأنه كان مستجمعا للتعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله وهما من أعلى مراتب الصديقين وكل من كان كذلك كان الله معه لقوله ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ولاجل اتصافه بهاتين الصفتين قال له لا تحزن ان الله معنا (وسادسها) انما يكون الانسان موصوفاً بالسعة لو كان جواداً باذلاً ولقد قال عليه الصلاة والسلام خير الناس من ينفع الناس فدل على انه خير الناس من هذه الجهة ولقد كان رضي الله عنه جواداً باذلاً في كل شيء ومن جوده انه لما أسلم بكرة اليوم جاء بعثمان بن عفان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعثمان بن مظعون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسلموا على يده وكان جوده في التعليم والارشاد الى الدين والبذل بالدنيا كما هو مشهور فيحق له أن يوصف بانه من أهل السعة وأيضاً فيجب ان الناس اختلفوا في انه هل كان اسلامه قبل اسلام علي أو بعده ولكن اتفقوا على ان علياً حين أسلم لم يشتغل بدعوة الناس الى دين محمد صلى الله عليه وسلم وان أبا بكر اشتغل بالدعوة فكان أبو بكر أول الناس اشتغالاً بالدعوة الى دين محمد ولا شك ان أجل المراتب في الدين هذه المرتبة فوجب أن يكون أفضل الناس بعد الرسول صلى الله عليه وسلم هو أبو بكر من هذه الجهة ولانه عليه السلام قال من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة فوجب أن يكون لابي بكر مثل أجر كل من يدعو الى الله فيدل على الافضلية من هذه الجهة أيضاً (وسابعها) ان الظلم من ذوي القربى أشد قال الشاعر

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ✻ على المرء من وقع الحسام المهند

وأيضاً فالانسان اذا أحسن الى غيره فاذا قابله ذلك الغير بالاساءة كان ذلك أشد عليه مما اذا صدرت الاساءة من الاجنبي والبهتان كانتا مجتمعتين في حق مسطح ثم انه آذى أبا بكر بهذا النوع من الايذاء الذي هو أعظم أنواع الايذاء فانظر أين مبلغ ذلك الضرر في قلب أبي بكر ثم انه سبحانه أمره بأن لا يقطع عنه بره وأن يرجع معه الى ما كان عليه من الاحسان وذلك من أعظم أنواع المجاهدات ولا شك ان هذا أصعب من مقاتلة الكفار لان هذا مجاهدة مع النفس وذلك مجاهدة مع الكافر ومجاهدة النفس أشق ولهذا قال عليه الصلاة والسلام رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر (وثامنها) ان الله تعالى لما أمر أبا بكر بذلك لقبه بأولي الفضل وأولي السعة كأنه سبحانه يقول له أنت أفضل من أن تقابل اساءته بشيء وأنت أوسع قلباً من أن تقيم للدنيا وزناً فلا يليق بفضلك وسعة قلبك أن تقطع برك عنه بسبب ما صدر منه من الاساءة

بتركه ليتمتعوا في اهواءهم فيه من حظوظهم فيذهبهم ما بدههم وهم عنه غافلون (فسوف يعلمون) سوء صنيعهم أو وخامة عاقبته أو حقيقة الحال التي ألجأتهم الى التمني المذكور حيث لم يعلموا ذلك من جهتك وهو مع كونه وعيدا أى وعيد وتهديدا غب تهديد تعليل للامر بالترك فان علمهم ذلك علة لترك النهي والنصيحة لهم وفيه الزام للحجة ومبالغة في الانذار اذ لا يتحقق الامر بالضد الا بعد تكرر

الانذار وتقرر الجحود والانكار وكذلك ما ترتب عليه من الاكل والتمتع والالهاء (وما أهلكنا) شروع في بيان سر تأخير عذابهم الى يوم القيامة وعدم نظمهم في سلك الامم الدارجة في تعجيل العذاب أى ما أهلكنا (من قرية) من القرى بالخسف بها وبأهلها كما فعل ببعضها أو باخلائها عن أهلها غب اهلاكهم كما فعل بآخرين (الا ولها) في ذلك الشأن (كتاب) أى أجل مقدر مكتوب في اللوح واجب المراعاة بحيث لا يمكن تبديله لوقوعه حسب الحكمة المقتضية له (معلوم) لا ينسى ولا يغفل عنه حتى يتصور التخلف عنه بالتقدم والتأخر فكتاب مبتدأ خبره الظرف والجملة حال من قرية فانها لعمومها لاسيما بعد تأكيده بكلمة من في حكم الموصوفة كما أشير اليه والمعنى ما أهلكنا قرية من القرى في حال من الاحوال الا حال أن يكون لها كتاب أى أجل موقت لاهلاكها

قد كتبناه لا نهلكها قبل بلوغه معلوم لا يغفل عنه حتى يمكن مخالفته بالتقدم والتأخر أو مرتفع بالظرف والجملة كما هي حال أى ما أهلكنا قرية من القرى في حال من الاحوال الا وقد كان لها في حق هلاكها كتاب أى أجل مقدر مكتوب في اللوح معلوم لا يغفل عنه أو صفة لكن لا للقرية المذكورة بل للمقدرة التي هي بدل من المذكورة على المختار فيكون بمنزلة كونه صفة للمذكورة أى ما أهلكنا قرية من

ومعلوم ان مثل هذا الخطاب يدل على نهاية الفضل والعلو في الدين (وتاسعها) ان الالف واللام يفيدان العموم فالالف واللام في الفضل والسعة يدلان على أن كل الفضل وكل السعة لابي بكر كما يقال فلان هو العالم يعني قد بلغ في الفضل الى أن صار كأنه كل العالم وما عداه كالعدم وهذا أيضا منقبة عظيمة (وعاشرها) قوله وليعفوا وليصفحوا وفيه وجوه (منها) ان العفو قرينة التقوى وكل من كان أقوى في العفو كان أقوى في التقوى ومن كان كذلك كان أفضل لقوله تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم (ومنها) ان العفو والتقوى متلازمان فلهذا السبب اجتمعا فيه أما التقوى فلقوله تعالى وسيجنبها الاتقى وأما العفو فلقوله تعالى وليعفوا وليصفحوا (وحادي عشرها) انه سبحانه قال لمحمد صلى الله عليه وسلم فاعف عنهم واصفح وقال في حق أبي بكر وليعفوا وليصفحوا فمن هذا الوجه يدل على ان أبا بكر كان ثاني اثنين لرسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع الاخلاق حتى في العفو والصفح (وثاني عشرها) قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم فانه سبحانه ذكره بكناية الجمع على سبيل التعظيم وأيضا فانه سبحانه علق غفرانه له على اقدامه على العفو والصفح فلما حصل الشرط منه وجب ترتيب الجزاء عليه ثم قوله يغفر الله لكم بصيغة المستقبل وانه غير مقيد بشئ دون شئ فدلت الآية على انه سبحانه قد غفر له في مستقبل عمره على الاطلاق فكان من هذا الوجه ثاني اثنين للرسول صلى الله عليه وسلم في قوله ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ودليلا على صحة امامته رضي الله عنه فان امامته لو كانت على خلاف الحق لما كان مغفورا له على الاطلاق ودليلا على صحة ما ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم في خبر بشارة العشرة بان أبا بكر في الجنة (وثالث عشرها) انه سبحانه وتعالى لما قال ألا تحبون أن يغفر الله لكم وصف نفسه بكونه غفورا رحيما والغفور مبالغة في الغفران فعظم أبا بكر حيث خاطبه بلفظ الجمع الدال على التعظيم وعظم نفسه سبحانه حيث وصفه بمبالغة الغفران والعظيم اذا عظم نفسه ثم عظم مخاطبه فالعطية الصادرة منه لاجله لابد وأن تكون في غاية العظمة ولهذا قلنا بانه سبحانه لما قال انا أعطيناك الكوثر وجب أن تكون العطية عظيمة فدلت الآية على ان أبا بكر ثاني اثنين للرسول صلى الله عليه وسلم في هذه المنقبة أيضا (ورابع عشرها) انه سبحانه لما وصفه بانه أولو الفضل والسعة على سبيل المدح وجب أن يقال انه كان خاليا عن المعصية لان الممدوح الى هذا الحد لا يجوز أن يكون من أهل النار ولو كان عاصيا لكان كذلك لقوله تعالى ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها واذا ثبت انه كان خاليا عن المعاصي فقوله يغفر الله لكم لا يجوز أن يكون المراد غفران معصية لان المعصية التي لا تكون لا يمكن غفرانها واذا ثبت انه لا يمكن حمل الآية على ذلك وجب حملها على وجه آخر فكأنه سبحانه قال والله أعلم ألا تحبون أن يغفر الله لكم لاجل تعظيمكم هؤلاء القذفة العصاة فيرجع حاصل الآية الى انه سبحانه قال يا أبا بكر ان قبلت هؤلاء العصاة فأنا أيضا أقبلهم وان رددتهم فأنا أيضا أردهم فكأنه سبحانه أعطاه مرتبة الشفاعة في الدنيا فهذا ما حضرنا في هذه الآية والله أعلم فان قيل هذه الآية تقدح في فضيلة أبي بكر من وجه آخر وذلك لانه نهاه عن هذا الحلف فدل على صدور المعصية منه (قلنا) الجواب عنه من وجوه (أحدها) ان النهي لا يدل على وقوعه قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ولا تطع الكافرين والمنافقين ولم يدل ذلك على انه عليه الصلاة والسلام أطاعهم بل دلت الاخبار الظاهرة على صدور هذا الحلف منه ولكن على هذا التقدير لا تكون الآية دالة على قولكم (وثانيها) هب انه صدر عنه ذلك الحلف فلم قلتم انه كان معصية وذلك لان الامتناع من التفضل قد يحسن خصوصا في حق من يسيء الى من أحسن اليه أو في حق من يتخذه ذريعة الى الافعال المحرمة لا يقال فلو لم تكن معصية لما جاز أن ينهى

الله عنه بقوله ولا يأتل أولوا الفضل لأنا نقول هذا النهي ليس نهي زجر وتحريم بل هو نهي عن ترك الأولى كأنه سبحانه قال لأبي بكر لا يليق بفضلك وسعة همتك أن لا تقطع هذا فكان هذا إرشادا إلى الأولى لا منعا عن المحرم (المسألة الثالثة) أجمعوا على أن المراد من قوله أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله مسطح لأنه كان قريبا لأبي بكر وكان من المساكين وكان من المهاجرين واختلفوا في الذنب الذي وقع منه فقال بعضهم قذف كما فعله عبد الله بن أبي فإنه عليه الصلاة والسلام حده وإنه تاب عن ذلك وقال ابن عباس رضي الله عنهما كان تاركا للنكير ومظهرا للرضا وأي الأمرين كان فهو ذنب (المسألة الرابعة) احتج أصحابنا بهذه الآية على بطلان المحابطة وقالوا إنه سبحانه وصفه بكونه من المهاجرين في سبيل الله بعد أن أتى بالقذف وهذه صفة مدح فدل على أن ثواب كونه مهاجرا لم يحبط بإقدامه على القذف (المسألة الخامسة) أجمعوا على أن مسطحا كان من البدريين وثبت بالرواية الصحيحة أنه عليه الصلاة والسلام قال لعل الله نظر إلى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم فكيف صدرت الكبيرة منه بعد أن كان بدريا (والجواب) أنه لا يجوز أن يكون المراد منه اعملوا ما شئتم من المعاصي فيأمر بها أو يبيحها إلا أنا نعلم بالضرورة أن التكليف كان باقيا عليهم فلو حملناه على ذلك لاقتضى زوال التكليف عنهم ولأنه لو كان كذلك لما جاز أن يحد مسطح على ما فعل ويلعن فوجب حمله على أحد أمرين (الأول) أنه تعالى اطلع على أهل بدر وقد علم توبتهم وإنابتهم فقال اعملوا ما شئتم من النوافل من قليل أو كثير فقد غفرت لكم وأعطيتكم الدرجات العالية في الجنة (الثاني) يحتمل أن يكون المراد أنهم يوافون بالطاعة فكأنه قال قد غفرت لكم لعلمي بأنكم تموتون على التوبة والإنابة فذكر حالهم في الوقت وأراد العاقبة (المسألة السادسة) العفو والصفح عن المسيء حسن مندوب إليه وربما وجب ذلك ولو لم يدل عليه إلا هذه الآية لكفى ألا ترى إلى قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم فعلق الغفران بالعفو والصفح وعنه عليه الصلاة والسلام من لم يقبل عذر المتنصل كاذبا كان أو صادقا فلا يرد على حوضي يوم القيامة وعنه عليه الصلاة والسلام أفضل أخلاق المسلمين العفو وعنه أيضا ينادي مناد يوم القيامة ألا من كان له على الله أجر فليقم فلا يقوم إلا أهل العفو ثم تلا فمن عفا وأصلح فأجره على الله وعنه عليه الصلاة والسلام أيضا لا يكون العبد ذا فضل حتى يصل من قطعه ويعفو عمن ظلمه ويعطي من حرمه (المسألة السابعة) في هذه الآية دلالة على أن اليمين على الامتناع من الخير غير جائز وإنما يجوز إذا جعلت داعية للخير لا صارفة عنه (المسألة الثامنة) مذهب جمهور الفقهاء أن من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فإنه ينبغي له أن يأتي الذي هو خير ثم يكفر عن يمينه وقال بعضهم يأتي بالذي هو خير وذلك كفارته واحتج ذلك القائل بالآية والخبر أما الآية فهي أن الله تعالى أمر أبا بكر بالحنث ولم يوجب عليه كفارة وأما الخبر فما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير وذلك كفارته وأما دليل قول الجمهور فأمور (أحدها) قوله تعالى ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته وقوله ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم وذلك عام في الحانث في الخير وغيره (وثانيها) قوله تعالى في شأن أيوب حين حلف على امرأته أن يضربها وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث وقد علم أن الحنث كان خيرا من تركه وأمره الله بضرب لا يبلغ منها ولو كان الحنث فيها كفارتها لما أمر بضربها بل كان يحنث بلا كفارة (وثالثها) قوله عليه الصلاة والسلام من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه (أما الجواب عما ذكروه أولا) فهو أنه تعالى لم يذكر أمر الكفارة في قصة أبي بكر لا نفيا ولا إثباتا لأن حكمه كان معلوما في سائر الآيات (والجواب

عما

التي الأقربية لها كتاب معلوم كما في قوله تعالى ليس لهم طعام إلا من ضريع لا يسمن فإن قوله تعالى لا يسمن صفة لكن لا للطعام المذكور لأنها إنما تدل على انحصار طعامهم الذي لا يسمن في الضريع وليس المراد ذلك بل للطعام المقدر بعد إلا أي ليس لهم طعام من شيء من الأشياء إلا طعام لا يسمن فليس فيه فصل بين الموصوف والصفة بكلمة إلا كما توهم وأما توسيط الواو بينهما وإن كان القياس عدمه فللإيذان بكمال الالتصاق بينهما من حيث أن الواو شأنها الجمع والربط فإن ما نحن فيه من الصفة أقوى لصوقا بالموصوف منها في قوله تعالى وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون فإن امتناع انفكاك الإهلاك عن الأجل المقدر عقلي وعن الإنذار عادي جرى عليه السنة الإلهية ولما بين أن الأمم المهلكة كان لكل منهم وقت معين لهلاكهم وأن هلاكهم لم يكن إلا حسبما كان مكتوبا في اللوح بين أن كل أمة من الأمم منهم ومن غيرهم لها كتاب لا يمكن التقدم عليه ولا التأخر عنه فقيل (ما تسبق من أمة) من الأمم المهلكة وغيرهم (أجلها) المكتوب في كتابها أي لا يجيء هلاكها قبل مجيء كتابها أو لا تمضي أمة قبل مضي أجلها فإن السبق إذا كان واقعا على زماني فمعناه المجاوزة والتخلف فإذا قلت سبق زيد عمرا فمعناه أنه جاوزه وخلفه وراءه وإذا كان واقعا على زمان كان الأمر بالعكس والسر في ذلك أن الزمان يعتبر فيه الحركة والتوجه إلى المتكلم فما سبقه يتحقق قبل تحققه وأما الزماني فإنما يعتبر فيه الحركة والتوجه إلى ما سيأتي من الزمان فالسابق ما تقدم إلى المقصد وإيراده بعنوان الأجل باعتبار ما يقتضيه من السبق كما أن إيراده بعنوان الكتاب المعلوم باعتبار ما يوجبه من الإهلاك (وما

يستأخرون) أي وما يتأخرون وصيغة الاستقبال للاشعار بتنزههم عن ذلك مع طلبهم وايثار صيغة المضارع في الفعلين بعدما ذكر في الاهلاك بصيغة الماضي لان المقصود بيان دوامهما واستمرارهما فيما بين الامم الماضية والباقية واسناده ما الى الامة بعد اسناد الاهلاك الى القرية لما أن السبق والاستئخار حال الامة دون القرية مع ما في الامة من العموم لاهل تلك القرى وغيرهم ممن أخرت عقوباتهم الى الآخرة وتأخير ذكر عدم تأخرهم عن ذكر عدم سبقهم مع كون المقام مقام المبالغة في بيان تحقق عذابهم اما باعتبار تقدم السبق في الوجود واما باعتبار أن المراد بيان سر تأخير عذابهم مع استحقاقهم لذلك وايراد الفعل على صيغة جمع المذكور للحمل على المعنى مع التغليب ولرعاية الفواصل ولذلك حذف الجار والمجرور والجملة مبينة لما سبق والمعنى ان تأخير عذابهم الى يوم القيامة حسبما أشير اليه بيان ودادتهم للاسلام اذذاك وبالامر بتركهم وشأنهم الى أن يعلموا حقيقة الحال انما هو لتأخر أجلهم المقدر لما يقتضيه من الحكم البالغة ومن جملتها ما علم الله تعالى من ايمان بعض من يخرج منهم الى يوم القيامة (وقالوا) شروع في بيان كفرهم بمن أنزل عليه الكتاب بعد بيان كفرهم بالكتاب وما يؤول اليه حالهم والقائلون مشركو مكة لغاية تماديهم في العتو والغي (يا أيها الذي نزل عليه الذكر) خاطبوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسليما لذلك واعتقادا له بل استهزاء به عليه الصلاة والسلام واشعارا بعلة حكمهم الباطل في قولهم (انك لمجنون) كدأب فرعون اذ قال ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون يعنون يا من يدعي مثل هذا الامر البديع الخارق للعادات انك بسبب تلك الدعوى أو بشهادة ما يعتريك عند ما تدعي أنه

عما ذكره ثانيا) في قوله وليأت الذي هو خير وذلك كفارته فمعناه تكفير الذنب لا الكفارة المذكورة في الكتاب وذلك لانه منهي عن نقض الايمان فأمره ههنا بالحنث والتوبة وأخبر ان ذلك يكفر ذنبه الذي ارتكبه بالحلف (المسئلة التاسعة) روى القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها انها قالت فضلت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بعشر خصال تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم بكرا دون غيري وأبواي مهاجران وجاءه جبريل عليه السلام بصورتي في حريرة وأمره أن يتزوج بي وكنت أغتسل معه في اناء واحد وجبريل عليه السلام ينزل عليه بالوحي وأنا معه في لحاف واحد وتزوجني في شوال وبنى بي في ذلك الشهر وقبض بين سحري ونحري وأنزل الله تعالى عذري من السماء ودفن في بيتي وكل ذلك لم يساوني غيري فيه وقال بعضهم برأ الله أربعة بأربعة برأ يوسف عليه السلام بلسان الشاهد وشهد شاهد من أهلها وبرأ موسى عليه السلام من قول اليهود بالحجر الذي ذهب بثوبه وبرأ مريم بانطاق ولدها وبرأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر وروى أنه لما قربت وفاة عائشة جاء ابن عباس يستأذن عليها فقالت يجيء الآن فيثني علي فحجبه ابن الزبير فقال ما أرجع حتى تأذن لي فأذنت له فدخل فقالت عائشة أعوذ بالله من النار فقال ابن عباس يا أم المؤمنين مالك والنار قد أعاذك الله منها وأنزل براءتك تقرأ في المساجد وطيبك فقال الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات كنت أحب نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه ولم يحب صلى الله عليه وسلم الا طيبا وأنزل بسببك التيمم فقال فتيمموا صعيدا طيبا وروى ان عائشة وزينب تفاخرتا فقالت زينب أنا التي أنزل ربي تزويجي وقالت عائشة أنا التي برأني ربي حين حملني ابن المعطل على الراحلة فقالت لها زينب ما قلت حين ركبتيها قالت قلت حسبي الله ونعم الوكيل فقالت قلت كلمة المؤمنين ﴿ قوله تعالى ﴿ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو الحق المبين﴾ وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اختلفوا في قوله ان الذين يرمون المحصنات الغافلات هل المراد منه كل من كان بهذه الصفة أو المراد منه الخصوص أما الاصوليون فقالوا الصيغة عامة ولا مانع من اجرائها على ظاهرها فوجب حملها على العموم فيدخل فيه قذفة عائشة وقذفة غيرها ومن الناس من خالف فيه وذكروا وجوها (أحدها) ان المراد قذفة عائشة قالت عائشة رميت وأنا غافلة وانما بلغني بعد ذلك فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم عندي اذ أوحى الله اليه فقال أبشري وقرأ ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات (وثانيها) ان المراد جملة أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم وانهن لشرفهن خصصن بأن من قذفهن فهذا الوعيد لاحق به واحتج هؤلاء بأمور (الاول) ان قاذف سائر المحصنات تقبل توبته لقوله تعالى في أول السورة والذين يرمون المحصنات الى قوله وأولئك هم الفاسقون الا الذين تابوا وأما القاذف في هذه الآية فانه لا تقبل توبته لانه سبحانه قال لعنوا في الدنيا والآخرة ولم يذكر الاستثناء وأيضا فهذه صفة المنافقين في قوله ملعونين أينما ثقفوا (الثاني) ان قاذف سائر المحصنات لا يكفر والقاذف في هذه الآية يكفر لقوله تعالى يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم وذلك صفة الكفار والمنافقين كقوله ويوم يحشر أعداء الله الى النار الآيات الثلاث (الثالث) انه قال ولهم عذاب عظيم والعذاب العظيم يكون عذاب الكفر فدل على ان عقاب هذا القاذف عقاب الكفر وعقاب قذفة سائر المحصنات لا يكون عقاب الكفر (الرابع) روى عن ابن عباس رضي الله عنهما انه كان بالبصرة يوم عرفة وكان يسئل عن تفسير القرآن فسئل عن تفسير هذه الآية فقال من أذنب ذنبا ثم تاب قبلت توبته الا من خاض في أمر عائشة أصحاب

الاصوليون عندي أن الوعيد المذكور في هذه الآية لابد وأن يكون مشروطا بعدم التوبة لان الذنب سواء
كان كفرا أو فسقا فاذا حصلت التوبة عنه صار مغفورا فزال السؤال ومن الناس من ذكر فيه قولا آخر
وهو أن هذه الآية نزلت في مشركي مكة حين كان بينهم وبين رسول الله عهد فكانت المرأة اذا خرجت الى
المدينة مهاجرة قذفها المشركون من أهل مكة وقالوا انها خرجت لتفجر فنزلت فيهم والقول الاول هو الصحيح
(المسئلة الثانية) ان الله تعالى ذكر فيمن يرمي المحصنات الغافلات المؤمنات ثلاثة أشياء (أحدها) كونهم
ملعونين في الدنيا والآخرة وهو وعيد شديد واحتج الجبائي بأن التقييد باللعن عام في جميع القذفة ومن
كان ملعونا في الدنيا فهو ملعون في الآخرة والملعون في الآخرة لا يكون من أهل الجنة وهو بناء على
المحابطة وقد تقدم القول فيه (وثانيها) قوله يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون
ونظيره قوله وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا وعندنا البنية ليست شرط الحياة فيجوز أن يخلق الله تعالى في
الجوهر الفرد علما وقدرة وكلاما وعند المعتزلة لا يجوز ذلك فلا جرم ذكروا في تأويل هذه الآية وجهين
(الاول) انه سبحانه يخلق في هذه الجوارح هذا الكلام وعندهم المتكلم فاعل الكلام فتكون تلك الشهادة
من الله تعالى في الحقيقة الا أنه سبحانه أضافها الى الجوارح توسعا (الثاني) انه سبحانه يبني هذه الجوارح على
خلاف ما هي عليه ويلجئها أن تشهد على الانسان وتخبر عنه بأعماله قال القاضي وهذا أقرب الى الظاهر لان
ذلك يفيد انها تفعل الشهادة (وثالثها) قوله تعالى يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ولا شبهة في أن نفس دينهم
ليس هو المراد لان دينهم هو عملهم بل المراد جزاء عملهم والدين بمعنى الجزاء مستعمل كقولهم كما تدين تدان
وقيل الدين هو الحساب كقوله ذلك الدين القيم أي الحساب الصحيح ومعنى قوله الحق أي ان الذي يوفيهم
من الجزاء هو القدر المستحق لانه الحق وما زاد عليه هو الباطل وقرئ الحق بالنصب صفة للدين وهو الجزاء
وبالرفع صفة لله وأما قوله ويعلمون أن الله هو الحق المبين فمن الناس من قال انه سبحانه انما سمى بالحق
لان عبادته هي الحق دون عبادة غيره أو لانه الحق فيما يأمر به دون غيره ومعنى المبين يؤيد ما قلناه لان المحق
فيما يخاطب به هو المبين من حيث يبين الصحيح بكلامه دون غيره ومنهم من قال الحق من أسماء الله تعالى
ومعناه الموجود لان نقيضه الباطل وهو المعدوم ومعنى المبين المظهر ومعناه أن بقدرته ظهر وجود
الممكنات فمعنى كونه حقا انه الموجود لذاته ومعنى كونه مبينا انه المعطي وجود غيره ﴿ قوله تعالى
﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرؤن مما
يقولون لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ اعلم أن الخبيثات يقع على الكلمات التي هي القذف الواقع من أهل
الافك ويقع أيضا على الكلام الذي هو كالذم واللعن ويكون المراد من ذلك لا نفس الكلمة التي هي من
قبل الله تعالى بل المراد مضمون الكلمة ويقع أيضا على الزواني من النساء وفي هذه الآية كل هذه الوجوه
محتملة فان حملناها على القذف الواقع من أهل الافك كان المعنى الخبيثات من قول أهل الافك للخبيثين
من الرجال وبالعكس والطيبات من قول منكري الافك للطيبين من الرجال وبالعكس وان حملناها على
الكلام الذي هو كالذم واللعن فالمعنى ان الذم واللعن معدان للخبيثين من الرجال والخبيثون منهم معرضون
للعن والذم وكذا القول في الطيبات وأولئك اشارة الى الطيبين وانهم مبرؤن مما يقول الخبيثون من
خبيثات الكلمات وان حملناه على الزواني فالمعنى الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال وبالعكس
على معنى قوله تعالى الزاني لا ينكح الا زانية والطيبات من النساء للطيبين من الرجال والمعنى أن مثل ذلك
الرمي الواقع من المنافقين لا يليق الا بالخبيثات والخبيثين لا بالطيبات والطيبين كالرسول صلى الله عليه
وسلم وأزواجه * فان قيل فعلى هذا الوجه يلزم أن لا يتزوج الرجل العفيف بالزانية * والجواب ما تقدم

ينزل عليك انك لمجنون وتقديم الجار والمجرور على القائم مقام الفاعل لان انكارهم متوجه الى كون النازل ذكرا من الله تعالى لا الى كون
المنزل عليه رسول الله بعد تسليم كون النازل منه تعالى كما في قوله تعالى لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم فان الانكار
هناك متوجه الى كون المنزل عليه رسول الله تعالى وايراد الفعل على صيغة المجهول لايهام أن ذلك ليس بفعل له فاعل
أولا وتوجيه الانكار الى
كون التنزيل عليه
لا الى استناده الى الفاعل
(لوما تأتينا) كلمة لو عند
تركيبها مع ما تفيد ما تفيده
عند تركيبها مع لا من معنى
امتناع الشئ لوجود
غيره ومعنى التحضيض
خلا أنه عند ارادته
لا يليها الا فعل ظاهر
أو مضمر وعند ارادة
المعنى الاول لا يليها الا
اسم ظاهر أو مقدر عند
البصريين والمراد ههنا
هو الثاني أي هلا تأتينا
(بالملائكة) يشهدون
بصحة نبوتك ويعضدونك
في الانذار كقوله تعالى
لولا أنزل عليه ملك
فيكون معه نذيرا
أو يعاقبوننا على
التكذيب كما تأتي الامم
المكذبة لرسلهم (ان
كنت من الصادقين)
في دعواك فان قدرة
الله تعالى على ذلك مما
لا ريب فيه وكذا
احتياجك اليه في تمشية
أمرك فانا لا نصدقك
بدون ذلك أو ان كنت
من جملة تلك الرسل
الصادقين الذين عذبت
أممهم المكذبة لهم
(ما ننزل الملائكة)
بالنون على بناء الفعل لضمير الجلالة من التنزيل وقرئ من الانزال وقرئ تنزل مضارعا من التنزيل على في
صيغة البناء للمفعول ومن التنزل بحذف احدى التاءين وماضيا منه ومن التنزيل ومن الثلاثي وهو كلام مسوق الى النبي صلى الله عليه
وسلم جوابا لهم عن مقالتهم المحكية ورد لاقتراحهم الباطل ولشدة استدعاء ذلك للجواب قدم رده على ما هو جواب عن أولها أعني

قوله انا نحن نزلنا الذكر الآية كما في قوله تعالى قال انما يأتيكم به الله فانه منع كونه جوابا عن قولهم فأتنا بما تعدنا وقدم على قوله ولا ينفعكم نصحى الآية مع كونه جوابا عن أول كلامهم الذي هو قولهم يا نوح قد جادلتنا لما ذكر من شدة اقتضائه للجواب وليكون أحد الجوابين متصلا بالسؤال وفي العكس يلزم انفصال كل من الجوابين عن سؤاله والعدول عن تطبيقه لظاهر كلامهم بصدد الاقتراح وهو أن يقال ما تأتيهم بهم للايذان بأنهم قد أخطؤا في التعبير حسبما أخطؤا في الاقتراح وأن الملائكة لعلو رتبتهم أعلى من أن ينسب اليهم مطلق الاتيان الشامل للانتقال من أحد الامكنة المتساوية الى الآخر منها بل من الاسفل الى الاعلى وأن يكون مقصد حركاتهم أولئك الكفرة وأن يدخلوا تحت ملكوت أحد من البشر وانما الذي يليق بشأنهم النزول من مقامهم العالي وكون ذلك بطريق التنزيل من جناب الرب الجليل (الا بالحق) أي ملتبسا بالوجه الذي يحق ملابسة التنزيل به مما تقتضيه الحكمة وتجري به السنة الالهية كقوله سبحانه وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق والذي اقترحوه من التنزيل لاجل الشهادة لديهم وهم هم ومنزلتهم في الحقارة والهوان منزلتهم مما لا يكاد يدخل تحت الصحة والحكمة أصلا فان ذلك من باب التنزيل بالوحي الذي لا يكاد يقع على غير الانبياء الكرام من أفراد كمل المؤمنين فكيف على أمثال أولئك الكفرة اللئام وانما الذي يدخل في حقهم تحت الحكمة في الجملة هو التنزيل للتعذيب والاستئصال كما فعل باضرابهم من الامم السالفة ولو فعل ذلك لاستؤصلوا بالمرة (وما كانوا اذا منظرين) جزاء الشرط مقدر وفيه ايذان بانتاج مقدماتهم لنقيض مطلوبهم كما في قوله تعالى واذا لا يلبثون خلافك الا قليلا قال صاحب النظم لفظة

في قوله الزاني لا ينكح الا زانية وقوله أولئك مبرؤن يعني الطيبات والطيبين مما يقوله أصحاب الافك سوى قول من حمله على الكلمات فكأنه قال الطيبون مبرؤن مما يقوله الخبيثون ومتى حمل أولئك على هذا الوجه كان لفظه كمعناه في أنه جمع ومتى حمله على عائشة وصفوان وهما اثنان فكيف يعبر عنهما بلفظ الجمع فجوابه من وجهين (الاول) ان ذلك الرمي قد تعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم وبعائشة وصفوان فبرأ الله تعالى كل واحد منهم من التهمة اللائقة به (الثاني) ان المراد به كل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فكأنه تعالى برأهن من هذا الافك لكي لا يقدح فيهن أحد كما أقدموا على عائشة ونزه الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك عن أمثال هذا الامر وهذا أبين كأنه تعالى بين ان الطيبات من النساء للطيبين من الرجال ولا أحد أطيب ولا أطهر من الرسول فأزواجه اذن لا يجوز أن يكن الا طيبات ثم بين تعالى ان لهم مغفرة يعني براءة من الله ورسوله ورزق كريم في الآخرة ويحتمل أن يكون ذلك خبرا مقطوعا به فيعلم بذلك ان أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام معه في الجنة وقد وردت الاخبار بذلك ويحتمل أن يكون المراد بشرط اجتناب الكبائر والتوبة والاول أولى لانا انما نحتاج الى الشرط اذا لم يمكن حمل الآية عليه أما اذا أمكن فلا وجه لطلب الشرط وهذا يدل على أن عائشة رضي الله عنها تصير الى الجنة بخلاف مذهب الرافضة الذين يكفرونها بسبب حرب يوم الجمل فانهم يردون بذلك نص القرآن * فان قيل القطع بانها من أهل الجنة اغراء لها بالقبيح * قلنا أليس أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعلمه الله تعالى بانه من أهل الجنة ولم يكن ذلك اغراء له بالقبيح وكذا العشرة المبشرة بالجنة فكذا ههنا والله أعلم تمت قصة أهل الافك (الحكم السادس) في الاستئذان * قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ اعلم أنه تعالى عدل عما يتصل بالرمي والقذف وما يتعلق بهما من الحكم الى ما يليق به لان أهل الافك انما وجدوا السبيل الى بهتانهم من حيث اتفقت الخلوة فصارت كأنها طريق التهمة فأوجب الله تعالى أن لا يدخل المرء بيت غيره الا بعد الاستئذان والسلام لان في الدخول لا على هذا الوجه وقوع التهمة وفي ذلك من المضرة ما لا خفاء به فقال يا أيها الذين آمنوا الخ وفي الآية سؤالات (السؤال الاول) الاستئناس عبارة عن الانس الحاصل من جهة المجالسة قال تعالى ولا مستأنسين لحديث وانما يحصل ذلك بعد الدخول والسلام فكان الاولى تقديم السلام على الاستئناس فلم جاء على العكس من ذلك (والجواب) عن هذا من وجوه (أحدها) ما روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير انما هو حتى تستأذنوا فأخطأ الكاتب وفي قراءة أبي حتى تستأذنوا لكم والتسليم خير لكم من تحية الجاهلية والدمور وهو الدخول بغير اذن واشتقاقه من الدمار وهو الهلاك كان صاحبه دامر لعظم ما ارتكب وفي الحديث من سبقت عينه استئذانه فقد دمر * واعلم أن هذا القول من ابن عباس فيه نظر لانه يقتضي الطعن في القرآن الذي نقل بالتواتر ويقتضي صحة القرآن الذي لم ينقل بالتواتر وفتح هذين البابين يطرق الشك الى كل القرآن وانه باطل (وثانيها) ما روي عن الحسن البصري أنه قال ان في الكلام تقديما وتأخيرا والمعنى حتى تسلموا على أهلها وتستأنسوا وذلك لان السلام مقدم على الاستئناس وفي قراءة عبد الله حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا وهذا أيضا ضعيف لانه خلاف الظاهر (وثالثها) ان تجري الكلام على ظاهره ثم في تفسير الاستئناس وجوه (الاول) حتى تستأنسوا بالاذن وذلك لانهم اذا

استأذنوا وسلموا أنس أهل البيت ولو دخلوا بغير اذن لاستوحشوا وشق عليهم (الثاني) تفسير الاستئناس بالاستعلام والاستكشاف استفعال من آنس الشئ اذا أبصره ظاهرا مكشوفا والمعنى حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال هل يراد دخولكم ومنه قولهم استأنس هل ترى أحدا واستأنست فلم أر أحدا أى تعرفت واستعلمت فان قيل واذا حمل على الانس ينبغى أن يتقدمه السلام كما روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول السلام عليكم أأدخل قلنا المستأذن ربما لا يعلم أن أحدا في المنزل فلا معنى لسلامه والحالة هذه والاقرب أن يستعلم بالاستئذان هل هناك من يأذن فاذا أذن ودخل صار مواجها له فيسلم عليه (والثالث) أن يكون اشتقاق الاستئناس من الانس وهو أن يتعرف هل ثم انسان ولا شك ان هذا مقدم على السلام (والرابع) لو سلمنا أن الاستئناس انما يقع بعد السلام ولكن الواو لا توجب الترتيب فتقديم الاستئناس على السلام في اللفظ لا يوجب تقدمه عليه في العمل (السؤال الثانى) ما الحكمة في ايجاب تقديم الاستئذان (والجواب) تلك الحكمة هى التى نبه الله تعالى عليها في قوله ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فدل بذلك على أن الذى لاجله حرم الدخول الا على هذا الشرط هو كون البيوت مسكونة اذ لا يأمن من يهجم عليها بغير استئذان أن يهجم على ما لا يحل له أن ينظر اليه من عورة أو على ما لا يحب القوم أن يعرفه غيرهم من الاحوال وهذا من باب العلل المنبه عليها بالنص ولانه تصرف في ملك الغير فلابد وأن يكون برضاه والا أشبه الغصب (السؤال الثالث) كيف يكون الاستئذان (الجواب) استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أألج فقال عليه الصلاة والسلام لامرأة يقال لها روضة قومى الى هذا فعلميه فانه لا يحسن أن يستأذن قولى له يقول السلام عليكم أأدخل فسمعها الرجل فقالها فقال ادخل فدخل وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء وكان يجيب فقال هل في العلم ما لا تعلمه فقال عليه الصلاة والسلام لقد آتانى الله خيرا كثيرا وان من العلم ما لا يعلمه الا الله وتلا ان الله عنده علم الساعة الى آخره وكان اهل الجاهلية يقول الرجل منهم اذا دخل بيتا غير بيته حييتم صباحا وحييتم مساء ثم يدخل فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف واحد فصد الله تعالى عن ذلك وعلم الاحسن والاجمل وعن مجاهد حتى تستأنسوا هو التنحنح وقال عكرمة هو التسبيح والتكبير ونحوه (السؤال الرابع) كم عدد الاستئذان (الجواب) روى أبو هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستئذان ثلاث بالاولى يستنصتون وبالثانية يستصلحون وبالثالثة يأذنون أو يردون وعن جندب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع وعن أبى سعيد الخدرى قال كنت جالسا في مجلس من مجالس الانصار فجاء أبو موسى فزعا فقلنا له ما أفزعك فقال أمرنى عمر أن آتيه فأتيته فاستأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى فرجعت فقال ما منعك أن تأتينى فقلت قد جئت فاستأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى وقد قال عليه الصلاة والسلام اذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع فقال لتأتينى على هذا بالبينة أو لاعاقبنك فقال أبى لا يقوم معك الا أصغر القوم قال فقام أبو سعيد فشهد له وفي بعض الاخبار أن عمر قال لابى موسى انى لم أتهمك ولكنى خشيت أن يتقول الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن قتادة الاستئذان ثلاثة الاول يسمع الحى والثانى ليتأهبوا والثالث ان شاؤا أذنوا وان شاؤا ردوا واعلم أن هذا من محاسن الآداب لان في أول مرة ربما منعهم بعض الاشغال من الاذن وفي المرة الثانية ربما كان هناك ما يمنع أو يقتضى المنع أو يقتضى التساوى فاذا لم يجب في الثالثة يستدل بعدم الاذن على مانع ثابت وربما أوجب ذلك كراهة قربه من الباب فلذلك يسن له الرجوع ولذلك يقول يجب في الاستئذان ثلاثا

اذن مركبة من اذ وهو اسم بمعنى الحين تقول أتيتك اذ جئتنى أى حين جئتنى ثم ضم اليه أن فصار اذ أن ثم استثقلوا الهمزة فحذفوها فمجئ لفظة أن دليل على اضمار فعل بعدها والتقدير وما كانوا اذ أن كان ما طلبوه منظرين والمعنى لو نزلناهم ما كانوا مؤخرين كدأب سائر الامم المكذبة المستهزئة ومع استحقاقهم لذلك قد جرى قلم القضاء بتأخير عذابهم الى يوم القيامة حسبما أجل في قوله تعالى ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل الخ وحال حائل الحكمة بينهم وبين استئصالهم لتعلق العلم والارادة بازدياد هم عذابا وبما عسى بعض ذراريهم وأما نظم ايمان بعضهم في سمط الحكمة فيأباه مقام بيان تماديهم في الكفر وافساد وتماديهم في المكابرة والعناد هذا هو الذى يستدعيه اعجاز التنزيل الجليل وأما ما قيل في تعليل عدم موافقة التنزيل للحكمة من أنهم حينئذ يكونون مصدقين عن اضطرار أو أنه لا حكمة في أن تأتيكم بصور تشاهدونها فانه لا يزيدكم الا لبسا أو أن انزال الملائكة لا يكون الا بالحق وحصول الفائدة بانزالهم وقد علم الله تعالى من حال هؤلاء الكفار أنه لو أنزل اليهم الملائكة لبقوا مصرين على كفرهم فيصير انزالهم عبثا باطلا ولا يكون حقا مع اخلال كل من ذلك بقطيعة الباقى لا يلزم من فرض وقوع شئ من ذلك تعجيل العذاب الذى يفيده قوله تعالى وما كانوا اذا منظرين هذا على تقدير كون اقتراحهم لاتيان الملائكة لاجل الشهادة أما على تقدير كون ذلك لتعذيبهم فالمعنى انما ننزل الملائكة للتعذيب الا تنزيلا ملتبسا بالحق الذى تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة حتما بحيث لا محيد عنه ولو نزلناهم حسبما اقترحوا اما كان ذلك التنزيل ملتبسا بمقتضى الحكمة الموجبة لتأخير عذابهم الى يوم

ثلاثاً أن لا يكون متصلاً بل يكون بين كل واحدة والأخرى وقت فأما قرع الباب بعنف والصياح بصاحب الدار فذلك حرام لأنه يتضمن الإيذاء والإيحاش وكفى بقصة بني أسد زاجرة وما نزل فيها من قوله تعالى إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون (السؤال الخامس) كيف يقف على الباب (الجواب) روي أن أبا سعيد استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مستقبل الباب فقال عليه الصلاة والسلام لا تستأذن وأنت مستقبل الباب وروي أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول السلام عليكم وذلك لأن الدور لم يكن عليها حينئذ ستور (السؤال السادس) أن كلمة حتى للغاية والحكم بعد الغاية يكون بخلاف ما قبلها فقوله لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا يقتضي جواز الدخول بعد الاستئذان وإن لم يكن من صاحب البيت إذن فما قولكم فيه (الجواب) من وجوه (أحدها) أن الله تعالى جعل الغاية الاستئناس لا الاستئذان والاستئناس لا يحصل إلا إذا حصل الإذن بعد الاستئذان (وثانيها) أنا لما علمنا بالنص أن الحكمة في الاستئذان أن لا يدخل الإنسان على غيره بغير إذنه فإن ذلك مما يسوءه وعلمنا أن هذا المقصود لا يحصل إلا بعد حصول الإذن علمنا أن الاستئذان ما لم يتصل به الإذن وجب أن لا يكون كافياً (وثالثها) أن قوله تعالى فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم حظر الدخول إلا بإذن فدل على أن الإذن مشروط بإباحة الدخول في الآية الأولى فإن قيل إذا ثبت أنه لا بد من الإذن فهل يقوم مقامه غيره أم لا قلنا روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال رسول الرجل إلى الرجل إذنه وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي عليه الصلاة والسلام قال إذا دعي أحدكم فجاء مع الرسول فإن ذلك له إذن وهذا الخبر يدل على معنيين (أحدهما) أن الإذن محذوف من قوله حتى تستأنسوا وهو المراد منه (والثاني) أن الدعاء إذن إذا جاء مع الرسول وأنه لا يحتاج إلى استئذان ثان وقال بعضهم إن من قد جرت العادة له بإباحة الدخول فهو غير محتاج إلى الاستئذان (السؤال السابع) ما حكم من اطلع على دار غيره بغير إذنه (الجواب) قال الشافعي رحمه الله لو فقئت عينه فهي هدر وتمسك بما روى سهل بن سعد قال اطلع رجل في حجرة من حجر النبي صلى الله عليه وسلم ومعه مدرى يحك بها رأسه فقال لو علمت أنك تنظر إلي لطعنت بها في عينك إنما الاستئذان قبل النظر وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال من اطلع في دار قوم بغير إذنهم ففقؤوا عينه فقد هدرت عينه قال أبو بكر الرازي هذا الخبر يرد لوروده على خلاف قياس الأصول فإنه لا خلاف أنه لو دخل داره بغير إذنه ففقأ عينه كان ضامناً وكان عليه القصاص إن كان عامداً والأرش إن كان مخطئاً ومعلوم أن الداخل قد اطلع وزاد على الاطلاع فظاهر الحديث يخالف ما حصل عليه الاتفاق فإن صح فمعناه من اطلع في دار قوم ونظر إلى حرمهم ونسائهم فمونع فلم يمتنع فذهبت عينه في حال الممانعة فهي هدر فأما إذا لم يكن إلا النظر ولم يقع فيه ممانعة ولا نهي ثم جاء إنسان ففقأ عينه فهذا جان يلزمه حكم جنايته لظاهر قوله تعالى العين بالعين إلى قوله والجروح قصاص واعلم أن التمسك بقوله تعالى والعين بالعين في هذه المسألة ضعيف لأنا أجمعنا على أن هذا النص مشروط بما إذا لم تكن العين مستحقة فإنها لو كانت مستحقة لم يلزم القصاص فلم قلت إن من اطلع في دار إنسان لم تكن عينه مستحقة وهذا أول المسألة أما قوله إنه لو دخل لم يجز فقء عينه فكذا إذا نظر قلنا الفرق بين الأمرين ظاهر لأنه إذا دخل علم القوم دخوله عليهم فاحترزوا عنه وتستروا فأما إذا نظر فقد لا يكونون عالمين بذلك فيطلع منهم على ما لا يجوز الاطلاع عليه فلا يبعد في حكم الشرع أن يبالغ ههنا في الزجر حسماً لباب هذه المفسدة

القيامة لا رفقاً بهم بل تشديداً عليهم كما مر من قبل وحيث كان في نسبة تنزيلهم للتعذيب إلى عدم موافقته للحكمة نوع إيهام لعدم استحقاقهم التعذيب عدل عما يقتضيه الظاهر إلى ما عليه النظم الكريم فكأنه قيل لو نزلناهم ما كانوا منظرين وذلك غير موافق الحكمة الموجبة لتأخير عذابهم لتشديد عقابهم وقيل المراد بالحق الوحي وقيل العذاب فتدبر (إنا نحن نزلنا الذكر) رد لإنكارهم التنزيل واستهزائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وتسلية له أي نحن بعظم شأننا وعلو جنابنا نزلنا ذلك الذكر الذي أنكروه وأنكروا نزوله عليك ونسبوك بذلك إلى الجنون وعموا منزله حيث بنوا الفعل للمفعول إيماء إلى أنه أمر لا مصدر له وفعل لا فاعل له (وإنا له لحافظون) من كل ما لا يليق به فيدخل فيه تكذيبهم له واستهزاؤهم به دخولاً أولياً فيكون وعيداً للمستهزئين وأما الحفظ عن مجرد التحريف والزيادة والنقص وأمثالها فليس بمقتضى المقام فالوجه الحمل على الحفظ من جميع ما يقدح فيه من الطعن فيه والمجادلة في حقيته ويجوز أن يراد حفظه بالإعجاز دليلاً على التنزيل من عنده تعالى إذ لو كان من عند غير الله لتطرق عليه الزيادة والنقص والاختلاف وفي سبك الجملتين من الدلالة على كمال الكبرياء والجلالة وعلى فخامة شأن التنزيل ما لا يخفى وفي إيراد الثانية بالجملة الاسمية دلالة على دوام الحفظ والله سبحانه أعلم وقيل الضمير المجرور للرسول صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى والله يعصمك من الناس وتأخير هذا الكلام وإن كان جواباً عن أول كلامهم الباطل لرده لما ذكر آنفاً ولارتباطه بما يعقبه من قوله تعالى (ولقد أرسلنا) أي رسلاً

و بالجملة فرد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا القدر من الكلام غير جائز (السؤال الثامن) لما بينتم أنه لابد من الاذن فهل يكفي الاذن كيف كان أو لابد من اذن مخصوص (الجواب) ظاهر الآية يقتضي قبول الاذن مطلقا سواء كان الآذن صبيا أو امرأة أو عبدا أو ذميا فانه لا يعتبر في هذا الاذن صفات الشهادة وكذلك قبول أخبار هؤلاء في الهدايا ونحوها (السؤال التاسع) هل يعتبر الاستئذان على المحارم (الجواب) نعم عن عطاء بن يسار أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال أستأذن على أختي فقال النبي عليه الصلاة والسلام نعم أتحب أن تراها عريانة وسأل رجل حذيفة أستأذن على أختي فقال ان لم تستأذن عليها رأيت ما يسوءك وقال عطاء سألت ابن عباس رضي الله عنهما أستأذن على أختي ومن أنفق عليها قال نعم ان الله تعالى يقول واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ولم يفرق بين من كان أجنبيا أو ذا رحم محرم واعلم أن ترك الاستئذان على المحارم وان كان غير جائز الا أنه أيسر لجواز النظر الى شعرها وصدرها وساقها ونحوها من الاعضاء والتحقيق فيه أن المنع من الهجوم على الغير ان كان لاجل أن ذلك الغير ربما كان منكشف الاعضاء فهذا دخل فيه الكل الا الزوجات وملك اليمين وان كان لاجل أنه ربما كان مشتغلا بأمر يكره اطلاع الغير عليه وجب أن يعم في الكل حتى لا يكون له أن يدخل على الزوجة والامة الا باذن (السؤال العاشر) اذا عرض أمر في دار من حريق أو هجوم سارق أو ظهور منكر فهل يجب الاستئذان (الجواب) كل ذلك مستثنى بالدليل فهذا جملة الكلام في الاستئذان * وأما السلام فهو من سنة المسلمين التي أمروا بها وأمان للقوم وهو تحية أهل الجنة ومجلبة للمودة وناف للحقد والضغينة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام ونفخ فيه الروح عطس فقال الحمد لله فحمد الله باذن الله فقال له ربه يرحمك ربك يا آدم اذهب الى هؤلاء الملائكة وهم ملأ منهم جلوس فقل السلام عليكم فلما فعل ذلك رجع الى ربه فقال هذه تحيتك وتحية ذريتك وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حق المسلم على المسلم ست يسلم عليه اذا لقيه ويجيبه اذا دعاه وينصح له بالغيب ويشمته اذا عطس ويعوده اذا مرض ويشهد جنازته اذا مات وعن ابن عمر قال قال رسول الله عليه الصلاة والسلام ان سركم أن يسل الغل من صدوركم فأفشوا السلام بينكم أما قوله تعالى ذلكم خير لكم فالمعنى فيه ظاهر اذ المراد أن فعل ذلك خير لكم وأولى لكم من الهجوم بغير اذن لعلكم تذكرون أي لكي تتذكروا هذا التأديب فتتمسكوا به ثم قال فان لم تجدوا فيها أي في البيوت أحدا فلا تدخلوها لان العلة في الصورتين واحدة وهي جواز أن يكون هناك أحوال مكتومة يكره اطلاع الداخل عليها ثم قال وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا وذلك لانه كما يكون الدخول قد يكرهه صاحب الدار فكذا الوقوف على الباب قد يكرهه فلا جرم كان الاولى والازكى له أن يرجع ازالة للايحاش والايذاء ولما ذكر الله تعالى حكم الدور المسكونة ذكر بعده حكم الدور التي هي غير مسكونة فقال ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة وذلك لان المانع من الدخول الا باذن زائل عنها واختلف المفسرون في المراد من قوله بيوتا غير مسكونة على أقوال (أحدها) وهو قول محمد بن الحنفية انها الخانات والرباطات وحوانيت البياعين والمتاع المنفعة كالاستكنان من الحر والبرد وايواء الرجال والسلع والشراء والبيع يروى أن أبا بكر قال يا رسول الله ان الله قد أنزل عليك آية في الاستئذان وانا نختلف في تجارتنا فننزل هذه الخانات أفلا ندخلها الا باذن فنزلت هذه الآية (وثانيها) أنها الخربات يتبرز فيها والمتاع التبرز (وثالثها) الاسواق (ورابعها) أنها الحمامات والاولى أن يقال انه

واغنا لم يذكر لدلالة ما بعده عليه (من قبلك) متعلق بأرسلنا أو بمحذوف هو نعت للمفعول المحذوف أي رسلا كائنة من قبلك (في شيع الاولين) أي فرقهم وأحزابهم جمع شيعة وهي الفرقة المتفقة على طريقة ومذهب من شاعه اذا تبعه واضافته الى الاولين من اضافة الموصوف الى صفته عند الفراء ومن حذف الموصوف عند البصريين أي شيع الامم الاولين ومعنى ارسالهم فيهم جعل كل منهم رسولا فيما بين طائفة منهم ليتابعوه في كل ما يأتي ويذر من أمور الدين (وما يأتيهم من رسول) المراد نفي اتيان كل رسول لشيعته الخاصة به لا نفي اتيان كل رسول لكل واحدة من تلك الشيع جميعا أو على سبيل البدل وصيغة الاستقبال لاستحضار الصورة على طريقة حكاية الحال الماضية فان ما لا تدخل في الاغلب على مضارع الا وهو في معنى الحال ولا على ماض الا وهو قريب من الحال أي ما أتى شيعة من تلك الشيع رسول خاص بها (الا كانوا به يستهزؤن) كما يفعله هؤلاء الكفرة والجملة في محل النصب على أنها حال مقدرة من ضمير المفعول في يأتيهم اذا كان المراد بالاتيان حدوثه أو في محل الرفع على أنها صفة رسول فان محله الرفع على الفاعلية أي الا رسول كانوا به يستهزؤن وأما الجر على أنها صفة باعتبار لفظه فيفضي الى زيادة من الاستغراقية في الاثبات ويجوز أن يكون منصوبا على الوصفية بأن يقدر الموصوف منصوبا على الاستثناء وان كان المختار الرفع على البدلية وهذا كما ترى لا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن هذه عادة الجهال مع الانبياء عليهم السلام وحيث كان الرسول مصحوبا بكتاب من عند الله تعالى تضمن ذكر استهزائهم بالرسول استهزاءهم بالكتاب ولذلك قيل (كذلك) اشارة الى ما دل عليه الكلام السابق من القاء الوحي مقرونا

لا يمتنع دخول الجميع تحت الآية فيحمل على الكل والعلة في ذلك أنها اذا كانت كذلك فهي مأذون بدخولها من جهة العرف فكذلك نقول انها لو كانت غير مسكونة ولكنها كانت مغصوبة فانه لا يجوز للداخل أن يدخل فيها لكن الظاهر من حال الخانات انها موضوعة لدخول الداخل وأما قوله تعالى والله يعلم ما تبدون وما تكتمون فهو وعيد للذين يدخلون الخربات والدور الخالية من أهل الريبة ﴿الحكم السابع﴾ حكم النظر ۞ قوله تعالى ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بني اخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت ايمانهن أو التابعين غير أولي الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ اعلم انه تعالى قال قل للمؤمنين وانما خصهم بذلك لان غيرهم لا يلزمه غض البصر عما لا يحل له وحفظ الفرج عما لا يحل له لان هذه الاحكام كالفرع للاسلام والمؤمنون مأمورون بها ابتداء والكفار مأمورون قبلها بما تصير هذه الاحكام تابعة له وان كان حالهم كحال المؤمنين في استحقاق العقاب على تركها لكن المؤمن يتمكن من هذه الطاعة من دون مقدمة والكافر لا يتمكن الا بتقديم مقدمة من قبله وذلك لا يمنع من لزوم التكاليف له واعلم أنه سبحانه أمر الرجال بغض البصر وحفظ الفرج وأمر النساء بمثل ما أمر به الرجال وزاد فيهن أن لا يبدين زينتهن الا لاقوام مخصوصين ۞ أما قوله تعالى يغضوا من أبصارهم ففيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال الاكثرون من ههنا للتبعيض والمراد غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل وجوز الاخفش أن تكون مزيدة ونظيره قوله ما لكم من اله غيره وما منكم من أحد عنه حاجزين وأباه سيبويه فان قيل كيف دخلت في غض البصر دون حفظ الفرج قلنا دلالة على أن أمر النظر أوسع ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر الى شعورهن وصدورهن وكذا الجواري المستعرضات وأما أمر الفرج فمضيق وكفاك فرقا أن أبيح النظر الا ما استثنى منه وحظر الجماع الا ما استثنى منه ومنهم من قال يغضوا من أبصارهم أي ينقصوا من نظرهم فالبصر اذا لم يمكن من عمله فهو مغضوض ممنوع عنه وعلى هذا من ليست بزائدة ولا هي للتبعيض بل هي من صلة الغض يقال غضضت من فلان اذا نقصت من قدره ﴿المسئلة الثانية﴾ اعلم أن العورات على أربعة أقسام عورة الرجل مع الرجل وعورة المرأة مع المرأة وعورة المرأة مع الرجل وعورة الرجل مع المرأة فاما الرجل مع الرجل فيجوز له أن ينظر الى جميع بدنه الا عورته وعورته ما بين السرة والركبة والسرة والركبة ليستا بعورة وعند أبي حنيفة رحمه الله الركبة عورة وقال مالك الفخذ ليست بعورة والدليل على انها عورة ما روى عن حذيفة أن النبي صلى الله عليه وسلم مر به في المسجد وهو كاشف عن فخذه فقال عليه السلام غط فخذك فانها من العورة وقال لعلي رضي الله عنه لا تبرز فخذك ولا تنظر الى فخذ حي ولا ميت فان كان في نظره الى وجهه أو سائر بدنه شهوة أو خوف فتنة بان كان أمرد لا يحل النظر اليه ولا يجوز للرجل مضاجعة الرجل وان كان كل واحد منهما في جانب من الفراش لما روى أبو سعيد الخدري أنه عليه الصلاة والسلام قال لا يفضي الرجل الى الرجل في ثوب واحد ولا تفضي المرأة الى المرأة في ثوب واحد وتكره المعانقة وتقبيل الوجه الا لولده شفقة وتستحب المصافحة لما روى أنس قال قال رجل يا رسول الله الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحني له قال لا قال أيلتزمه ويقبله

بالاستهزاء أي مثل ذلك السلك الذي سلكناه في قلوب أولئك المستهزئين برسلهم وبما جاؤا به من الكتب (نسلكه) أي الذكر في قلوب المجرمين) أي أهل مكة أو بجنس المجرمين فيدخلون فيه دخولا أوليا ومحله النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أو حال منه أي نسلكه سلكا مثل ذلك السلك أو نسلك السلك حال كونه مثله أي مقرونا بالاستهزاء غير مقبول لما تقتضيه الحكمة فانهم من أهل الخذلان ليس لهم استحقاق لقبول الحق وصيغة المضارع لكون المشبه به مقدما في الوجود وهو السلك الواقع في الامم السالفة أو للدلالة على استحضار الصورة والسلك ادخال الشئ في آخر يقال سلكت الخيط في الابرة والرمح في المطعون (لا يؤمنون به) أي بالذكر حال من ضمير نسلكه أي غير مؤمن به أو بيان للجملة السابقة فلا محل لها وقد جعل الضمير للاستهزاء فيتعين البيانية الا أن يجعل الضمير المجرور رأيضا له على أن الباء للملابسة أي نسلك الاستهزاء في قلوبهم حال كونهم غير مؤمنين بملابسته والحال اما مقدرة أو مقارنة للايمان بأن كفرهم مقارن للالقاء كما في قوله تعالى فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به (وقد خلت سنة الاولين) أي قد مضت طريقتهم التي سنها الله تعالى في اهلاكهم حين فعلوا ما فعلوا من التكذيب والاستهزاء وهو استئناف جيء به تكملة للتسلية وتصريحا بالوعيد والتهديد (ولو فتحنا عليهم) أي على هؤلاء المقترحين المعاندين (بابا من السماء) أي بابا ما لا بابا من أبوابها المعهودة كما قيل ويسرنا لهم الرقي والصعود اليه (فظلوا فيه) في ذلك الباب (يعرجون) بآلة أو بغيرها ويرون ما فيها من العجائب عيانا كما يفيده الظلول أو فظل الملائكة الذين اقترحوا اتيانهم يعرجون في ذلك الباب وهم يرونه عيانا مستوضحين طول نهارهم (لقالوا) لفرط عنادهم وغلوهم

في المكابرة وتماديهم عن قبول الحق (انما سكرت أبصارنا) أي سدت من الاحساس من السكر كما يدل عليه القراءة بالتخفيف أو حيرت كما يعضده قراءة من قرأ سكرت أي حارت (بل نحن قوم مسحورون) قد سحرنا محمد صلى الله عليه وسلم كما قالوه عند ظهور سائر الآيات الباهرة وفي كلمتي الحصر والاضراب دلالة على أنهم يبتون القول بذلك وأن ما يرونه لا حقيقة له وانما هو أمر خيل اليهم بالسحر وفي اسمية الجملة الثانية دلالة على دوام مضمونها وايرادها بعد تسكير الابصار لبيان انكارهم لغير ما يرونه فان عروج كل منهم الى السماء وان كان مرئيا لغيره فهو معلوم بطريق الوجدان مع قطع النظر عن الابصار فهم يدعون أن ذلك نوع آخر من السحر غير تسكير الابصار (ولقد جعلنا في السماء بروجا) قصورا ينزلها السيارات وهي البروج الاثنا عشر المشهورة المختلفة الهيآت والخواص حسبما يدل عليه الرصد والتجربة مع ما اتفق عليه الجمهور من بساطة السماء والجعل ان جعل بمعنى الخلق والابداع وهو الظاهر فالجار متعلق به وان جعل بمعنى التصيير فهو مفعول ثان له متعلق بمحذوف أي جعلنا بروجا كائنة في السماء (وزيناها) أي السماء بتلك البروج المختلفة الاشكال والكواكب سيارات كانت أو ثوابت (للناظرين) اليها فمعنى التزيين ظاهر أو للمتفكرين المعتبرين المستدلين بذلك على قدرة مقدرها وحكمة مدبرها فتزيينها ترتيبها على نظام بديع مستتبع للآثار الحسنة (وحفظناها من كل شيطان رجيم) مرمي بالنجوم فلا يقدر أن يصعد اليها ويوسوس في أهلها ويتصرف فيها ويقف على أحوالها (الا من استرق السمع) محله النصب على الاستثناء المتصل ان فسر الحفظ بمنع الشياطين عن التعرض لها على الاطلاق والوقوف على

اذا

قال لا قال أفما تنظر بيده ويصافحه قال نعم أما عورة المرأة مع المرأة فكعورة الرجل مع الرجل فلها النظر الى جميع بدنها الا ما بين السرة والركبة وعند خوف الفتنة لا يجوز ولا يجوز المضاجعة والمرأة الذمية هل يجوز لها النظر الى بدن المسلمة قيل يجوز كالمسلمة مع المسلمة والاصح أنه لا يجوز لانها أجنبية في الدين والله تعالى يقول أو نسائهن وليست الذمية من نسائنا أما عورة المرأة مع الرجل فالمرأة اما أن تكون أجنبية أو ذات رحم محرم أو مستمتعة فان كانت أجنبية فاما أن تكون حرة أو أمة فان كانت حرة فجميع بدنها عورة ولا يجوز له أن ينظر الى شيء منها الا الوجه والكفين لانها تحتاج الى ابراز الوجه للبيع والشراء والى اخراج الكف للأخذ والعطاء ونعني بالكف ظهرها وبطنها الى الكوعين وقيل ظهر الكف عورة واعلم انا ذكرنا أنه لا يجوز النظر الى شيء من بدنها ويجوز النظر الى وجهها وكفها وفي كل واحد من القولين استثناء أما قوله يجوز النظر الى وجهها وكفها فاعلم أنه على ثلاثة أقسام لانه اما أن لا يكون فيه غرض ولا فيه فتنة واما أن يكون فيه فتنة ولا غرض فيه واما أن يكون فيه فتنة وغرض (أما القسم الاول) فاعلم أنه لا يجوز أن يتعمد النظر الى وجه الاجنبية لغير غرض وان وقع بصره عليها بغتة يغض بصره لقوله تعالى قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم وقيل يجوز مرة واحدة اذا لم يكن محل فتنة وبه قال أبو حنيفة رحمه الله ولا يجوز أن يكرر النظر اليها لقوله تعالى ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا ولقوله عليه السلام يا علي لا تتبع النظرة النظرة فان لك الاولى وليست لك الآخرة وعن جابر قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجأة فأمرني أن أصرف بصري ولان الغالب أن الاحتراز عن الاولى لا يمكن فوقع عفوا قصد أو لم يقصد (أما القسم الثاني) وهو أن يكون فيه غرض ولا فتنة فيه فذلك أمور (أحدها) بان يريد نكاح امرأة فينظر الى وجهها وكفيها روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رجلا أراد أن يتزوج امرأة من الانصار فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم انظر اليها فان في أعين الانصار شيئا وقال عليه الصلاة والسلام اذا خطب أحدكم المرأة فلا جناح عليه أن ينظر اليها اذا كان انما ينظر اليها للخطبة وقال المغيرة بن شعبة خطبت امرأة فقال عليه السلام نظرت اليها فقلت لا قال فانظر فانها أحرى أن يدوم بينكما فكل ذلك يدل على جواز النظر الى وجهها وكفيها للشهوة اذا أراد أن يتزوجها ويدل عليه أيضا قوله تعالى لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن ولا يعجبه حسنهن الا بعد رؤية وجوههن (وثانيها) اذا أراد شراء جارية فله أن ينظر الى ما ليس بعورة منها (وثالثها) أنه عند المبايعة ينظر الى وجهها متأملا حتى يعرفها عند الحاجة اليه (ورابعها) ينظر اليها عند تحمل الشهادة ولا ينظر الى غير الوجه لان المعرفة تحصل به (أما القسم الثالث) وهو أن ينظر اليها للشهوة فذلك محظور قال عليه الصلاة والسلام العينان تزنيان وعن جابر قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجأة فأمرني أن أصرف بصري وقيل مكتوب في التوراة النظرة تزرع في القلب الشهوة ورب شهوة أورثت حزنا طويلا (أما الكلام الثاني) وهو أنه لا يجوز للاجنبي النظر الى بدن الاجنبية فقد استثنوا منه صورا (أحدها) يجوز للطبيب الامين أن ينظر اليها للمعالجة كما يجوز للختان أن ينظر الى فرج المختون لانه موضع ضرورة (وثانيها) يجوز أن يتعمد النظر الى فرج الزانيين لتحمل الشهادة على الزنا وكذلك ينظر الى فرجها لتحمل شهادة الولادة والى ثدي المرضعة لتحمل الشهادة على الرضاع وقال أبو سعيد الاصطخري لا يجوز للرجل أن يقصد النظر في هذه المواضع لان الزنا مندوب الى ستره وفي الولادة والرضاع تقبل شهادة النساء فلا حاجة الى نظر الرجال للشهادة (وثالثها) لو وقعت في غرق أو حرق فله أن ينظر الى بدنها ليخلصها أما

اذا كانت الاجنبية أمة فقال بعضهم عورتها ما بين السرة والركبة وقال آخرون عورتها ما لا يبين للمهنة فخرج منه ان رأسها وساعديها وساقيها ونحرها وصدرها ليس بعورة وفي ظهرها وبطنها وما فوق ساعديها الخلاف المذكور ولا يجوز لمسها ولا لها أن تلمسه بحال لا لحجامة ولا اكتحال ولا غيره لان اللمس أقوى من النظر بدليل ان الانزال باللمس يفطر الصائم وبالنظر لا يفطره وقال أبو حنيفة رحمه الله يجوز أن يمس من الامة ما يحل النظر اليه أما ان كانت المرأة ذات محرم له بنسب أو رضاع أو صهرية فعورتها معه ما بين السرة والركبة كعورة الرجل وقال آخرون بل عورتها ما لا يبدو عند المهنة وهو قول أبي حنيفة رحمه الله فأما سائر التفاصيل فسيأتي ان شاء الله تعالى في تفسير الآية أما اذا كانت المرأة مستمتعة كالزوجة والامة التي يحل له الاستمتاع بها فيجوز له أن ينظر الى جميع بدنها حتى الى فرجها غير أنه يكره أن ينظر الى الفرج وكذا الى فرج نفسه لانه يروى أنه يورث الطمس وقيل لا يجوز النظر الى فرجها ولا فرق بين أن تكون الامة قنة أو مدبرة أو أم ولد أو مرهونة فان كانت مجوسية أو مرتدة أو وثنية أو مشتركة بينه وبين غيره أو متزوجة أو مكاتبة فهي كالاجنبية روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا زوج أحدكم جاريته عبده أو أجيره فلا ينظر الى ما دون السرة وفوق الركبة وأما عورة الرجل مع المرأة فنظر ان كان أجنبيا منها فعورته معها ما بين السرة والركبة وقيل جميع بدنه الا الوجه والكفين كهي معه والاول أصح بخلاف المرأة في حق الرجل لان بدن المرأة في ذاته عورة بدليل انه لا تصح صلاتها مكشوفة البدن وبدن الرجل بخلافه ولا يجوز لها قصد النظر عند خوف الفتنة ولا تكرير النظر الى وجهه لما روى عن أم سلمة أنها كانت عند النبي صلى الله عليه وسلم وميمونة اذ أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليهما فقال عليه الصلاة والسلام احتجبا منه فقلت يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا فقال عليه الصلاة والسلام أفعمياوان أنتما ألستما تبصرانه وان كان محرما لها فعورته معها ما بين السرة والركبة وان كان زوجها أو سيدها الذي يحل له وطؤها فلها أن تنظر الى جميع بدنه غير أنه يكره النظر الى الفرج كهو معها ولا يجوز للرجل أن يجلس عاريا في بيت خال وله ما يستر عورته لانه روى أنه عليه الصلاة والسلام سئل عنه فقال الله أحق أن يستحيا منه وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال اياكم والتعري فان معكم من لا يفارقكم الا عند الغائط وحين يفضي الرجل الى أهله والله أعلم (المسئلة الثالثة) سئل الشبلي عن قوله يغضوا من أبصارهم فقال أبصار الرؤس عن المحرمات وأبصار القلوب عما سوى الله تعالى وأما قوله تعالى ويحفظوا فروجهم فالمراد به عما لا يحل وعن أبي العالية أنه قال كل ما في القرآن من قوله يحفظوا فروجهم ويحفظن فروجهن من الزنا الا التي في النور يحفظوا فروجهم ويحفظن فروجهن أن لا ينظر اليها أحد وهذا ضعيف لانه تخصيص من غير دلالة والذي يقتضيه الظاهر أن يكون المعنى حفظها عن سائر ما حرم الله عليه من الزنا والمس والنظر وعلى انه ان كان المراد حظر النظر فالمس والوطء أيضا مرادان بالآية اذ هما أغلظ من النظر فلو نص الله تعالى على النظر لكان في مفهوم الخطاب ما يوجب حظر الوطء والمس كما ان قوله تعالى ولا تقل لهما أف اقتضى حظر ما فوق ذلك من السب والضرب أما قوله تعالى ذلك أزكى لهم أي تمسكهم بذلك أزكى لهم وأطهر لانه من باب ما يزكون به ويستحقون الثناء والمدح ويمكن أن يقال انه تعالى خص في الخطاب المؤمنين لما أراده من تزكيتهم بذلك ولا يليق ذلك بالكافر أما قوله تعالى وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن فالقول فيه على ما تقدم فان قيل فلم قدم غض الابصار على حفظ الفروج قلنا لان النظر بريد الزنا ورائد الفجور والبلوى فيه أشد وأكثر ولا يكاد يقدر

ما فيها في الجملة او المنقطع ان فسر ذلك بالمنع عن دخولها والتصرف فيها عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم كانوا لا يحجبون عن السموات فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سموات ولما ولد النبي صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها واستراق السمع اختلاسه سرا شبه به خطفتهم اليسيرة من قطان السموات بما بينهم من المناسبة في الجوهر أو بالاستدلال من الاوضاع (فأتبعه) أي تبعه ولحقه (شهاب) لهب محرق وهو شعلة نار ساطعة وقد يطلق على الكواكب والسنان لما فيهما من البريق (مبين) ظاهر أمره للمبصرين قال معمر قلت لابن شهاب الزهري أكان يرمى بالنجوم في الجاهلية قال نعم ولكن النجم ينقض ويرمى به الشيطان فيقتله أو يخبله لئلا يعود الى استراق السمع ثم يعود الى مكانه قال أفرأيت قوله تعالى وانا كنا نقعد منها مقاعد الآية قال غلظت وشدد أمرها حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن قتيبة ان الرجم كان قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام ولكن لم يكن في شدة الحراسة كبعد مبعثه عليه الصلاة والسلام قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ان الشياطين يركب بعضهم بعضا الى السماء الدنيا يسترقون السمع من الملائكة فيرمون بالكواكب فلا تخطئ ابدا فمنهم من يقتله ومنهم من يحرق وجهه وجنبه ويده حيث يشاء الله تعالى ومنهم من يخبله فيصير غولا فيضل الناس في البوادي قال القرطبي اختلفوا في أن الشهاب هل يقتل أم لا قال ابن عباس رضي الله عنهما يجرح ويحرق ويخبل ولا يقتل وقال الحسن وطائفة يقتل قال والاول أصح (والارض مددناها) بسطناها وهو بالنصب على الحذف على شريطة التفسير ولم يقرأ بالرفع لرجحان النصب للعطف على الجملة الفعلية

على الاحتراس منه أما قوله تعالى ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها فمن الاحكام التى تختص بها النساء فى الاغلب وانما قلنا فى الاغلب لانه محرم على الرجل أن يبدى زينته حليا ولباسا الى غير ذلك للنساء الاجنبيات لما فيه من الفتنة وههنا مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اختلفوا فى المراد بزينتهن واعلم أن الزينة اسم يقع على محاسن الخلق التى خلقها الله تعالى وعلى سائر ما يتزين به الانسان من فضل لباس أو حلى وغير ذلك وأنكر بعضهم وقوع اسم الزينة على الخلقة لانه لا يكاد يقال فى الخلقة انها من زينتها وانما يقال ذلك فيما تكتسبه من كحل وخضاب وغيره والاقرب أن الخلقة داخلة فى الزينة ويدل عليه وجهان (الاول) ان الكثير من النساء ينفردن بخلقهن عن سائر ما يعد زينة فاذا حملناه على الخلقة وفينا العموم حقه ولا يمنع دخول ما عدا الخلقة فيه أيضا (الثانى) ان قوله وليضربن بخمرهن على جيوبهن يدل على أن المراد بالزينة ما يعم الخلقة وغيرها فكأنه تعالى منعهن من اظهار محاسن خلقتهن بأن أوجب سترها بالخمار وأما الذين قالوا الزينة عبارة عما سوى الخلقة فقد حصروه فى أمور ثلاثة (أحدها) الاصباغ كالكحل والخضاب بالوسمة فى حاجبيها والغمرة فى خديها والحناء فى كفيها وقدميها (وثانيها) الحلى كالخاتم والسوار والخلخال والدملج والقلادة والاكليل والوشاح والقرط (وثالثها) الثياب قال الله تعالى خذوا زينتكم عند كل مسجد وأراد الثياب ﴿المسئلة الثانية﴾ اختلفوا فى المراد من قوله الا ما ظهر منها أما الذين حملوا الزينة على الخلقة فقال القفال معنى الآية الا ما يظهره الانسان فى العادة الجارية وذلك فى النساء الوجه والكفان وفى الرجل الاطراف من الوجه واليدين والرجلين فأمروا بستر ما لا تؤدى الضرورة الى كشفه ورخص لهم فى كشف ما اعتيد كشفه وأدت الضرورة الى اظهاره اذ كانت شرائع الاسلام حنيفية سهلة سمحة ولما كان ظهور الوجه والكفين كالضرورى لا جرم اتفقوا على انهما ليسا بعورة أما القدم فليس ظهوره بضرورى فلا جرم اختلفوا فى أنه هل هو من العورة أم لا فيه وجهان الاصح أنه عورة كظهر القدم وفى صوتها وجهان أصحهما أنه ليس بعورة لان نساء النبى صلى الله عليه وسلم كن يروين الاخبار للرجال وأما الذين حملوا الزينة على ما عدا الخلقة قالوا انه سبحانه انما ذكر الزينة لانه لا خلاف أنه يحل النظر اليها حال ما لم تكن متصلة بأعضاء المرأة فلما حرم الله سبحانه النظر اليها حال اتصالها ببدن المرأة كان ذلك مبالغة فى حرمة النظر الى أعضاء المرأة وعلى هذا القول يحل النظر الى زينة وجهها من الوسمة والغمرة وزينة بدنها من الخضاب والخواتيم وكذا الثياب والسبب فى تجويز النظر اليها ان تسترها فيه حرج لان المرأة لابد لها من مناولة الاشياء بيديها والحاجة الى كشف وجهها فى الشهادة والمحاكمة والنكاح ﴿المسئلة الثالثة﴾ اتفقوا على تخصيص قوله ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها بالحرائر دون الاماء والمعنى فيه ظاهر وهو ان الامة مال فلا بد من الاحتياط فى بيعها وشرائها وذلك لا يمكن الا بالنظر اليها على الاستقصاء بخلاف الحرة أما قوله تعالى وليضربن بخمرهن على جيوبهن فالخمر واحدها خمار وهى المقانع قال المفسرون ان نساء الجاهلية كن يشددن خمرهن من خلفهن وان جيوبهن كانت من قدام فكان ينكشف نحورهن وقلائدهن فأمرن أن يضربن مقانعهن على الجيوب ليتغطى بذلك أعناقهن ونحورهن وما يحيط به من شعر وزينة من الحلى فى الاذن والنحر وموضع العقدة منها وفى لفظ الضرب مبالغة فى الالقاء والباء للالصاق وعن عائشة رضى الله عنها ما رأيت خيرا من نساء الانصار لما نزلت هذه الآية قامت كل واحدة منهن الى مرطها فصدعت منه صدعة فاختمرت فأصبحن على رؤسهن الغربان وقرئ جيوبهن بكسر الجيم لاجل الياء وكذلك بيوتا غير بيوتكم فأما قوله تعالى ولا يبدين زينتهن فاعلم أنه سبحانه

أعنى قوله تعالى ولقد جعلنا الخ وليوافق ما بعده أعنى قوله تعالى (والقينا فيها رواسى) أى جبالا ثوابت وقد مر بيانه فى أول الرعد (وأنبتنا فيها) أى فى الارض أو فيها وفى رواسيها (من كل شئ موزون) بميزان الحكمة ذاتا وصفة ومقدارا وقيل ما يوزن من الذهب والفضة وغيرهما أو من كل شئ مستحسن مناسب أو ما يوزن ويقدر من أبواب النعمة (وجعلنا لكم فيها معايش) ما تعيشون به من المطاعم والملابس وغيرهما مما يتعلق به البقاء وهى بياء صريحة وقرئ بالهمزة تشبيها له بالشمائل (ومن لستم له برازقين) عطف على معايش أو على محل لكم كأنه قيل جعلنا لكم معايش وجعلنا لكم من لستم برازقيه من العيال والمماليك والخدم والدواب وما أشبهها على طريقة التغليب وذكرهم بهذا العنوان لرد حسبانهم انهم يكفون مؤناتهم والتحقيق أن الله تعالى هو الذى يرزقهم واياهم أو وجعلنا لكم فيها معايش ولمن لستم له برازقين (وان من شئ) ان للنفى ومن مزيدة للتأكيد وشئ فى محل الرفع على الابتداء أى ما من شئ من الاشياء الممكنة فيدخل فيه ما ذكر دخولا أوليا (الا عندنا خزائنه) الظرف خبر للمبتدا وخزائنه مرتفع به على أنه فاعله لاعتماده أو خبر له والجملة خبر للمبتدا الاول والخزائن جمع الخزانة وهى ما يحفظ فيه نفائس الاموال لا غير غلب فى العرف على ما للملوك والسلاطين من خزائن أرزاق الناس شبهت مقدوراته تعالى الفائتة للحصر المندرجة تحت قدرته الشاملة فى كونها مستورة عن علوم العالمين ومصونة عن وصول أيديهم مع كمال افتقارهم اليها ورغبتهم فيها وكونها مهيأة متأتية لايجاده وتكوينه بحيث متى تعلقت الارادة بوجودها وجدت بلا تأخر بنفائس الاموال المخزونة فى الخزائن السلطانية فذكر

لما

الخزائن على طريقة الاستعارة التخييلية (وما ننزله) أي ما نوجده وما نكونه شيأ من تلك الاشياء ملتبسا بشيء من الاشياء (الا بقدر
معلوم) أي الا ملتبسا بمقدار معين تقتضيه الحكمة وتستدعيه المشيئة التابعة لها لا بما تقتضيه القدرة فان ذلك غير متناه فان تخصيص كل
شيء بصفة معينة وقدر معين ووقت محدود دون ما عداه مع استواء الكل في الامكان واستحقاق تعلق القدرة به
لا بد له من حكمة تقتضي
اختصاص كل من ذلك
بما اختص به وهذا
البيان سر عدم تكوين
الاشياء على وجه الكثرة
حسبما هو في خزائن
القدرة وهو اما عطف
على مقدر أي
ننزله وما ننزله الخ أو حال
مما سبق أي عندنا
خزائن كل شيء والحال
أنا ما ننزله الا بقدر معلوم
فالاول لبيان سعة القدرة
والثاني لبيان بالغ
الحكمة وحيث كان
انشاء ذلك بطريق
التفضل من العالم العلوي
الى العالم السفلي كما في
قوله تعالى وأنزل لكم
من الانعام ثمانية أزواج
وكان ذلك بطريق
التدريج عبر عنه
بالتنزيل وصيغة المضارع
للدلالة على الاستمرار
(وأرسلنا الرياح) عطف
على جعلنا لكم فيها
معايش وما بينهما
اعتراض لتحقيق ما سبق
وترشيح ما لحق أي أرسلنا
الرياح (لواقح) أي
حوامل شبهت الريح
التي تجيء بالخير من
انشاء سحاب ماطر
بالحامل كما شبه بالعقيم
ما لا يكون كذلك أو ملقحات بالشجر والسحاب ونظيره الطوائح بمعنى المطيحات في قوله * ومختبط مما تطيح الطوائح * أي المهلكات
وقرئ وأرسلنا الريح على ارادة الجنس (فأنزلنا من السماء) بعد ما أنشأنا بتلك الرياح سحابا ماطرا (ماء فأسقيناكموه) أي جعلناه لكم
سقيا وهو أبلغ من سقيناكموه لما فيه من الدلالة على جعل الماء معدا لهم ينتفعون به متى شاؤا (وما أنتم له بخازنين) نفي عنهم ما أثبته لجنابه

لما تكلم في مطلق الزينة تكلم بعد ذلك في الزينة الخفية التي نهاهن عن ابدائها للاجانب وبين ان هذه
الزينة الخفية يجب اخفاؤها عن الكل ثم استثنى اثنتي عشرة صورة (أحدها) أزواجهن (وثانيها) آباؤهن
وان علوا من جهة الذكران والاناث كآباء الآباء وآباء الامهات (وثالثها) آباء أزواجهن (ورابعها
وخامسها) أبناؤهن وأبناء بعولتهن ويدخل فيه أولاد الاولاد وان سفلوا من الذكران والاناث كبني
البنين وبني البنات (وسادسها) اخوانهن سواء كان من الاب أو من الام أو منهما (وسابعها) بنو اخوانهن
(وثامنها) بنو أخواتهن وهؤلاء كلهم محارم وههنا سؤالات (السؤال الاول) أفيحل لذوي المحرم في
المملوكة والكافرة مالا يحل له في المؤمنة (الجواب) اذا ملك المرأة وهي من محارمه فله أن ينظر منها الى
بطنها وظهرها لا على وجه الشهوة بل لامر يرجع الى مزية الملك على اختلاف بين الناس في ذلك (السؤال
الثاني) كيف القول في العم والخال (الجواب) القول الظاهر انهما كسائر المحارم في جواز النظر وهو قول
الحسن البصري قال لان الآية لم يذكر فيها الرضاع وهو كالنسب وقال في سورة الاحزاب لا جناح عليهن
في آبائهن الآية ولم يذكر فيها البعولة ولا أبناءهم وقد ذكروا ههنا وقد يذكر البعض لينبه على الجملة قال
الشعبي انما لم يذكرهما الله لئلا يصفهما العم عند ابنه والخال كذلك ومعناه ان سائر القرابات تشارك
الاب والابن في المحرمية الا العم والخال وأبناءهما فاذا رآها الاب فربما وصفها لابنه وليس بمحرم فيقرب
تصوره لها بالوصف من نظره اليها وهذا أيضا من الدلالات البليغة على وجوب الاحتياط عليهن في التستر
(السؤال الثالث) ما السبب في اباحة نظر هؤلاء الى زينة المرأة (الجواب) لانهم مخصوصون بالحاجة الى
مداخلتهن ومخالطتهن ولقلة توقع الفتنة بجهاتهن ولما في الطباع من النفرة عن مماسة القرائب وتحتاج
المرأة الى صحبتهم في الاسفار للنزول والركوب (وتاسعها) قوله تعالى أو نسائهن وفيه قولان (أحدهما)
المراد والنساء اللاتي هن على دينهن وهذا قول أكثر السلف قال ابن عباس رضي الله عنهما ليس للمسلمة
أن تتجرد بين نساء أهل الذمة ولا تبدي للكافرة الا ما تبدي للاجانب الا أن تكون أمة لها لقوله تعالى
أو ما ملكت أيمانهن وكتب عمر الى أبي عبيدة أن يمنع نساء أهل الكتاب من دخول الحمام مع المؤمنات
(وثانيهما) المراد بنسائهن جميع النساء وهذا هو المذهب وقول السلف محمول على الاستحباب والاولى
(وعاشرها) قوله تعالى أو ما ملكت أيمانهن وظاهر الكلام يشمل العبيد والاماء واختلفوا فانهم من أجرى
الآية على ظاهرها وزعم أنه لا بأس عليهن في أن يظهرن لعبيدهن من زينتهن ما يظهرن لذوي محارمهن
وهو مروي عن عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما واحتجوا بظاهر الآية وبما روى أنس أنه عليه
الصلاة والسلام أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها وعليها ثوب اذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها واذا غطت به رجليها
لم يبلغ رأسها فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بها قال انه ليس عليك بأس انما هو أبوك وغلامك
وعن مجاهد كان أمهات المؤمنين لا يحتجبن عن مكاتبهن ما بقي عليه درهم وعن عائشة رضي الله عنها
انها قالت لذكوان انك اذا وضعتني في القبر وخرجت فأنت حر وروى ان عائشة رضي الله عنها كانت تمتشط
والعبد ينظر اليها وقال ابن مسعود ومجاهد والحسن وابن سيرين وسعيد بن المسيب رضي الله عنهم ان
العبد لا ينظر الى شعر مولاته وهو قول أبي حنيفة رحمه الله واحتجوا عليه بأمور (أحدها) قوله عليه الصلاة
والسلام لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفرا فوق ثلاث الا مع ذي محرم والعبد ليس
بذي محرم منها فلا يجوز أن يسافر بها واذا لم يجز له السفر بها لم يجز له النظر الى شعرها كالحر الاجنبي
(وثانيها) ان ملكها للعبد لا يحلل ما يحرم عليه قبل الملك اذ ملك النساء للرجال ليس كملك الرجال للنساء

بقوله وان من شئ الا عندنا خزائنه كأنه قيل نحن القادرون على ايجاده وخزنه فى السحاب وانزاله وما أنتم على ذلك بقادرين وقيل ما أنتم بخازنين له بعد ما أنزلناه فى الغدران والآبار والعيون بل نحن نخزنه فيها لنجعلها سقيا لكم مع أن طبيعة الماء تقتضى الغور (وانا لنحن نحيى) بايجاد الحياة فى بعض الاجسام القابلة لها (ونميت) بازالتها عنها وقد يعم الاحياء والاماتة لما يشمل الحيوان والنبات وتقديم الضمير للحصر وهو اما تأكيد للاول أو مبتدأ خبره الفعل والجملة خبر لانا ولا يجوز كونه ضمير الفصل لالان اللام مانعة من ذلك كما قيل فان النحاة جوزوا دخول لام التأكيد على ضمير الفصل كما فى قوله تعالى ان هذا لهو القصص الحق بل لانه لم يقع بين اسمين (ونحن الوارثون) أى الباقون بعد فناء الخلق قاطبة المالكون للملك عند انقضاء زمان الملك المجازى الحاكمون فى الكل أولا وآخرا وليس لهم الا التصرف الصورى والملك المجازى وفيه تنبيه على أن المتأخر ليس بوارث للمتقدم كما يتراءى من ظاهر الحال (ولقد علمنا المستقدمين منكم) من تقدم منكم ولادة وموتا (ولقد علمنا المستأخرين) من تأخر ولادة وموتا أو من خرج عن أصلاب الآباء ومن لم يخرج بعد أو من تقدم فى الاسلام والجهاد وسبق الى الطاعة ومن تأخر فى ذلك لا يخفى علينا شئ من أحوالكم وهو بيان لكمال علمه بعد الاحتجاج على كمال قدرته فان ما يدل عليها دليل عليه وفى تكرير قوله تعالى ولقد علمنا ما لا يخفى من الدلالة على كمال التأكيد وقيل رغب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصف الاول فازدحموا عليه فنزلت وقيل ان امرأة حسناء كانت تصلى خلف رسول الله عليه الصلاة والسلام فتقدم بعض الناس لئلا يراها وتأخر آخرون ليروها فنزلت والاول هو وفى

فانهم لم يختلفوا فى أنها لا تستبيح بملك العبد منه شيأ من التمتع كما يملكه الرجل من الامة (وثالثها) ان العبد وان لم يجز له أن يتزوج بمولاته الا أن ذلك التحريم عارض كمن عنده أربع نسوة فانه لا يجوز له التزوج بغيرهن فلما لم تكن هذه الحرمة مؤبدة كان العبد بمنزلة سائر الاجانب اذا ثبت هذا ظهر أن المراد من قوله أوما ملكت أيمانهن الاماء فان قيل الاماء دخلن فى قوله نسائهن فأى فائدة فى الاعادة قلنا الظاهر انه عنى بنسائهن وما ملكت أيمانهن من فى صحبتهن من الحرائر والاماء وبيانه أنه سبحانه ذكر أولا أحوال الرجال بقوله ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن الى آخر ما ذكر فجاز أن يظن ظان أن الرجال مخصوصون بذلك اذا كانوا ذوى المحارم أو غير ذوات المحارم ثم عطف على ذلك الاماء بقوله أوما ملكت أيمانهن لئلا يظن أن الاباحة مقصورة على الحرائر من النساء اذ كان ظاهر قوله أونسائهن يقتضى الحرائر دون الاماء كقوله شهيدين من رجالكم على الاحرار لاضافتهم الينا كذلك قوله أونسائهن على الحرائر ثم عطف عليهن الاماء فأباح لهن مثل ما أباح فى الحرائر (وحادى عشرها) قوله تعالى أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قيل هم الذين يتبعونكم لينالوا من فضل طعامكم ولا حاجة بهم الى النساء لانهم بله لا يعرفون من أمرهن شيأ أو شيوخ صلحاء اذا كانوا معهن غضوا أبصارهم ومعلوم ان الخصى والعنين ومن شاكلهما قد لا يكون له اربة فى نفس الجماع ويكون له اربة قوية فيما عداه من التمتع وذلك يمنع من أن يكون هو المراد فيجب أن يحمل المراد على من المعلوم منه أنه لا اربة له فى سائر وجوه التمتع اما لفقد الشهوة واما لفقد المعرفة واما للفقر والمسكنة فعلى هذه الوجوه الثلاثة اختلف العلماء فقال بعضهم هم الفقراء الذين بهم الفاقة وقال بعضهم المعتوه والابله والصبى وقال بعضهم الشيخ وسائر من لا شهوة له ولا يمتنع دخول الكل فى ذلك وروى هشام بن عروة عن زينب بنت أم سلمة عن أم سلمة ان النبى صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها مخنث فاقبل على أخى أم سلمة فقال يا عبد الله ان فتح الله لكم غدا الطائف دللتك على بنت غيلان فانها تقبل بأربع وتدبر بثمان فقال عليه الصلاة والسلام لا يدخلن عليكم هذا فأباح النبى عليه الصلاة والسلام دخول المخنث عليهن حين ظن أنه من غير أولى الاربة فلما علم أنه يعرف أحوال النساء وأوصافهن علم أنه من أولى الاربة فحجبه وفى الخصى والمجبوب ثلاثة أوجه (أحدها) استباحة الزينة الباطنة معهما (والثانى) تحريمها عليهما (والثالث) تحريمها على الخصى دون المجبوب (المسئلة الثانية) الاربة الفعلة من الارب كالمشية والجلسة من المشى والجلوس والارب الحاجة والولوع بالشئ والشهوة له والاربة الحاجة فى النساء والاربة العقل ومنه الاريب (المسئلة الثالثة) فى غير قراءتان قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر غير بالنصب على الاستثناء أو الحال يعنى أو التابعين عاجزين عنهن والقراءة الثانية بالخفض على الوصفية (وثانى عشرها) قوله تعالى أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الطفل اسم للواحد لكنه وضع ههنا موضع الجمع لانه يفيد الجنس ويبين ما بعده أنه يراد به الجمع ونظيره قوله تعالى ثم نخرجكم طفلا (المسئلة الثانية) الظهور على الشئ على وجهين (الاول) العلم به كقوله تعالى انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم أى ان يشعروا بكم (والثانى) الغلبة له والصولة عليه كقوله فأصبحوا ظاهرين فعلى الوجه الاول يكون المعنى أو الطفل الذين لم يتصوروا عورات النساء ولم يدروا ما هى من الصغر وهو قول ابن قتيبة وعلى الثانى الذين لم يبلغوا أن يطيقوا اتيان النساء وهو قول الفراء والزجاج (المسئلة الثالثة) ان الصغير الذى لم يتنبه لصغره على عورات النساء فلا عورة للنساء معه وان تنبه لصغره ولمراهقته لزم أن تستر عنه المرأة ما بين سرتها وركبتها

وفي لزوم ستر ما سواه وجهان (أحدهما) لا يلزم لأن القلم غير جار عليه (والثاني) يلزم كالرجل لأنه يشتهي والمرأة قد تشتهيه وهو معنى قوله أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء واسم الطفل شامل له الى أن يحتلم وأما الشيخ فان بقيت له شهوة فهو كالشاب وان لم يبق له شهوة ففيه وجهان (أحدهما) أن الزينة الباطنة معه مباحة والعورة معه ما بين السرة والركبة (الثاني) أن جميع البدن معه عورة الا الزينة الظاهرة وهذا آخر الصور التي استثناها الله تعالى قال الحسن هؤلاء وان اشتركوا في جواز رؤية الزينة الباطنة فهم على أقسام ثلاثة فأولهم الزوج وله حرمة ليست لغيره يحل له كل شيء منها والحرمة الثانية للابن والاب والاخ والجد وأبي الزوج وكل ذي محرم والرضاع كالنسب يحل لهم أن ينظروا الى الشعر والصدر والساقين والذراع وأشباه ذلك والحرمة الثالثة هي للتابعين غير أولي الاربة من الرجال وكذا مملوك المرأة فلا بأس أن تقوم المرأة الشابة بين يدي هؤلاء في درع وخمار صفيق بغير ملحفة ولا يحل لهؤلاء أن يروا منها شعرا ولا بشرا والستر في هذا كله أفضل ولا يحل للشابة أن تقوم بين يدي الغريب حتى تلبس الجلباب فهذا ضبط هؤلاء المراتب* أما قوله تعالى ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن فقال ابن عباس وقتادة كانت المرأة تمر بالناس وتضرب برجلها ليسمع قعقعة خلخالها ومعلوم أن الرجل الذي يغلب عليه شهوة النساء اذا سمع صوت الخلخال يصير ذلك داعية له زائدة في مشاهدتهن وقد علل تعالى ذلك بأن قال ليعلم ما يخفين من زينتهن فنبه به على أن الذي لاجله نهى عنه أن يعلم زينتهن من الحلي وغيره وفي الآية فوائد (الفائدة الاولى) لما نهى عن استماع الصوت الدال على وجود الزينة فلأن يدل على المنع من اظهار الزينة أولى (الثانية) ان المرأة منهية عن رفع صوتها بالكلام بحيث يسمع ذلك الاجانب اذ كان صوتها أقرب الى الفتنة من صوت خلخالها ولذلك كرهوا أذان النساء لانه يحتاج فيه الى رفع الصوت والمرأة منهية عن ذلك (الثالثة) تدل الآية على حظر النظر الى وجهها بشهوة اذ كان ذلك أقرب الى الفتنة* أما قوله سبحانه وتعالى وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) في التوبة وجهان (أحدهما) ان تكاليف الله تعالى في كل باب لا يقدر العبد الضعيف على مراعاتها وان ضبط نفسه واجتهد ولا ينفك من تقصير يقع منه فلذلك وصى المؤمنين جميعا بالتوبة والاستغفار وتأميل الفلاح اذا تابوا واستغفروا (والثاني) قال ابن عباس رضي الله عنهما توبوا عما كنتم تفعلونه في الجاهلية لعلكم تسعدون في الدنيا والآخرة فان قيل قد صحت التوبة بالاسلام والاسلام يجب ما قبله فما معنى هذه التوبة قلنا قال بعض العلماء ان من أذنب ذنبا ثم تاب عنه لزمه كلما ذكره أن يجدد عنه التوبة لانه يلزمه أن يستمر على ندمه الى أن يلقى ربه (المسئلة الثانية) قرئ أيه المؤمنون بضم الهاء ووجهه أنها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الالف فلما سقطت الالف لالتقاء الساكنين اتبعت حركتها حركة ما قبلها والله أعلم (المسئلة الثالثة) تفسير لعل قد تقدم في سورة البقرة في قوله اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون والله أعلم (الحكم الثامن) ما يتعلق بالنكاح * قوله تعالى ﴿وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم﴾ اعلم أنه تعالى لما أمر من قبل بغض الابصار وحفظ الفروج بين من بعد أن الذي أمر به انما هو فيما لا يحل فبين تعالى بعد ذلك طريق الحل فقال وأنكحوا الايامى منكم وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف الايامى واليتامى أصلهما أيائم ويتائم فقلبا وقال النضر بن شميل الايم في كلام العرب كل ذكر لا أنثى معه وكل أنثى لا ذكر معها وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما في رواية الضحاك تقول زوجوا

المناسب لما سبق وما لحق من قوله تعالى (وان ربك هو يحشرهم) أي للجزاء وتوسيط ضمير العظمة للدلالة على أنه هو القادر على حشرهم والمتولي له لا غير لانهم كانوا يستبعدون ذلك ويستنكرونه ويقولون من يحيي العظام وهي رميم أي هو يحشرهم لا غير وفي الالتفات والتعرض لعنوان الربوبية اشعار بعلة الحكم وفي الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام دلالة على اللطف به عليه الصلاة والسلام (انه حكيم) بالغ الحكمة متقن في أفعاله فانها عبارة عن العلم بحقائق الاشياء على ما هي عليه والاتيان بالافعال على ما ينبغي (عليم) وسع علمه كل شيء ولعل تقديم صفة الحكمة للايذان باقتضائها للحشر والجزاء (ولقد خلقنا الانسان) أي هذا النوع بأن خلقنا أصله وأول فرد من أفراده خلقا بديعا منطويا على خلق سائر أفراده انطواء اجماليا كما مر تحقيقه في سورة الانعام (من صلصال) من طين يابس غير مطبوخ يصلصل أي يصوت عند نقره قيل اذا توهمت في صوته مدا فهو صليل وان توهمت فيه ترجيعا فهو صلصلة وقيل هو تضعيف صل اذا أنتن (من حمإ) من طين تغير واسود بطول مجاورة الماء وهو صفة لصلصال أي من صلصال كائن من حمإ (مسنون) أي مصور من سنة الوجه وهي صورته أو مصبوب من سن الماء صبه أي مفرغ على هيئة الانسان كما تفرغ الصور من الجواهر المذابة في القوالب وقيل منتن فهو صفة لحمإ وعلى الاولين حقه أن يكون صفة لصلصال وانما أخر عنه تنبيها على أن ابتداء مسنونيته ليس في حال كونه صلصالا بل في حال كونه حمأ كأنه سبحانه أفرغ الحمأ فصور من ذلك تمثال انسان أجوف فيبس حتى اذا نقر صوت ثم غيره الى جوهر آخر فتبارك الله أحسن الخالقين (والجان) أبا الجن وقيل ابليس ويجوز أن يراد به الجنس

أياما كم بعضكم من بعض وقال الشاعر

فان تنكحي أنكح وان تتأيمي ۞ وان كنت أفتى منكمو أتأيم

(المسألة الثانية) قوله تعالى وأنكحوا الايامى أمر وظاهر الامر للوجوب على ما بيناه مرارا فيدل على أن الولي يجب عليه تزويج موليته واذا ثبت هذا وجب أن لا يجوز النكاح الا بولي اما لان كل من أوجب ذلك على الولي حكم بانه لا يصح من المولية واما لان المولية لو فعلت ذلك لفوتت على الولي التمكن من أداء هذا الواجب وانه غير جائز واما التطابق هذه الآية مع الحديث وهو قوله عليه الصلاة والسلام اذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه الا تفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير قال أبو بكر الرازي هذه الآية وان اقتضت بظاهرها الايجاب الا أنه أجمع السلف على أنه لم يرد به الايجاب ويدل عليه أمور (أحدها) أنه لو كان ذلك واجبا لورد النقل بفعله من النبي صلى الله عليه وسلم ومن السلف مستفيضا شائعا لعموم الحاجة اليه فلما وجدنا عصر النبي صلى الله عليه وسلم وسائر الاعصار بعده قد كان في الناس أيامى من الرجال والنساء فلم ينكروا عدم تزويجهن ثبت أنه ما أريد به الايجاب (وثانيها) أجمعنا على أن الايم الثيب لو أبت التزويج لم يكن للولي اجبارها عليه (وثالثها) اتفاق الكل على أنه لا يجبر على تزويج عبده وأمته وهو معطوف على الايامى فدل على أنه غير واجب في الجميع بل ندب في الجميع (ورابعها) أن اسم الايامى ينتظم فيه الرجال والنساء وهو في الرجال ما أريد به الاولياء دون غيرهم كذلك في النساء (والجواب) أن جميع ما ذكرته تخصيصات تطرقت الى الآية والعام بعد التخصيص يبقى حجة فوجب أن يبقى حجة فيما اذا التمست المرأة الايم من الولي التزويج وجب وحينئذ ينتظم وجه الكلام (المسألة الثالثة) قال الشافعي رحمه الله الآية تقتضي جواز تزويج البكر البالغة بدون رضاها لان الآية والحديث يدلان على أمر الولي بتزويجها ولولا قيام الدلالة على أنه لا يزوج الثيب الكبيرة بغير رضاها لكان جائزا له تزويجها أيضا بغير رضاها لعموم الآية قال أبو بكر الرازي قوله تعالى وأنكحوا الايامى لا يختص بالنساء دون الرجال على ما بيناه فلما كان الاسم شاملا للرجال والنساء وقد أضمر في الرجال تزويجهم باذنهم فوجب استعمال ذلك الضمير في النساء وأيضا فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم باستئمار البكر بقوله البكر تستأمر في نفسها واذنها صماتها وذلك أمر وان كان في صورة الخبر فثبت أنه لا يجوز تزويجها الا باذنها (والجواب) أما الاول فهو تخصيص للنص وهو لا يقدح في كونه حجة والفرق أن الايم من الرجال يتولى أمر نفسه فلا يجب على الولي تعهد أمره بخلاف المرأة فان احتياجها الى من يصلح أمرها في التزويج أظهر وأيضا فلفظ الايامى وان تناول الرجال والنساء فاذا أطلق لم يتناول الا النساء وانما يتناول الرجال اذا قيد ❊ وأما الثاني فتخصيص الآية بخبر الواحد كلام مشهور (المسألة الرابعة) قال أبو حنيفة رحمه الله العم والاخ يليان تزويج البنت الصغيرة ووجه الاستدلال بالآية كما تقدم (المسألة الخامسة) قال الشافعي رحمه الله الناس في النكاح قسمان منهم من تتوق نفسه الى النكاح فيستحب له أن ينكح ان وجد أهبة النكاح سواء كان مقبلا على العبادة أو لم يكن كذلك ولكن لا يجب أن ينكح وان لم يجد أهبة النكاح يكسر شهوته بالصوم لما روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فان الصوم له وجاء أما الذي لا تتوق نفسه الى النكاح فان كان ذلك لعلة به من كبر أو مرض أو عجز يكره له أن ينكح لانه يلتزم ما لا يمكنه القيام بحقه وكذلك اذا كان لا يقدر على النفقة وان لم يكن به عجز وكان قادرا على القيام بحقه لم يكره له

كما هو الظاهر من الانسان لان تشعب الجنس لما كان من فرد واحد مخلوق من مادة واحدة كان الجنس بأسره مخلوقا منها وقرئ بالهمز واتصابه بفعل يفسره (خلقناه) وهو أقوى من الرفع للعطف على الجملة الفعلية (من قبل) من قبل خلق الانسان ومن هذا يظهر جواز كون المراد بالمستقيمين أحد الثقلين وبالمستأخرين الآخر والخطاب بقوله منكم للكل (من نار السموم) من نار الحر الشديد النافذ في المسام ولا امتناع من خلق الحياة في الاجرام البسيطة كالامتناع من خلقها في الجواهر المجردة فضلا عن الاجساد المؤلفة التي غالب أجزائها الجزء النارى فانها أقبل لها من التي غالب أجزائها الجزء الارضي وقوله تعالى من نار باعتبار الغالب كقوله تعالى خلقكم من تراب وسياق الآية الكريمة كما هو للدلالة على كمال قدرة الله تعالى وبيان بدء خلق الثقلين فهو للتنبيه على المقدمة الثانية التي يتوقف عليها امكان الحشر وهو قبول المواد للجمع والاحياء (واذ قال ربك) نصب باضمار اذكر وتذكير الوقت لما مر مرارا من أنه أدخل في تذكير ما وقع فيه من الحوادث وفي التعرض لوصف الربوبية المنبئة عن تبليغ الشئ الى كماله اللائق به شيئا فشيئا مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام اشعار بعلة الحكم وتشريف له عليه الصلاة والسلام أي اذكر وقت قوله تعالى (للملائكة اني خالق) فيما سيأتي وفيه ما ليس في صيغة المضارع من الدلالة على أنه تعالى فاعل له البتة من غير صارف يثنيه ولا عاطف يلويه (بشرا) أي انسانا قيل ليس هذا عين العبارة الجارية وقت الخطاب بل الظاهر أن يكون قد قيل لهم اني خالق خلقا من صفته كيت وكيت ولكن اقتصر عند الحكاية على الاسم وقيل جسما كثيفا يلاقى ويباشر وقيل خلقا بادي البشرة بلا صوف

ولا شعر (من صلصال) متعلق بخالق أو بمحذوف وقع صفة لمفعوله أي بشراً كائناً من صلصال كائن (من حمإ مسنون) تقدم تفسيره ولا ينافي هذا ما في قوله تعالى في سورة ص من قوله بشراً من طين فان عدم التعرض عند الحكاية لوصف الطين من التغير والاسوداد ولما ورد عليه من آثار التكوين لا يستلزم عدم التعرض لذلك عند وقوع المحكي غايته أنه لم يتعرض له هنالك اكتفاء بما شرح ههنا (فاذا سويته) أي صورته بالصورة الانسانية والخلقة البشرية أو سويت أجزاء بدنه بتعديل طبائعه (ونفخت فيه من روحي) النفخ اجراء الريح الى تجويف جسم صالح لامساكها والامتلاء بها وليس ثمة نفخ ولا منفوخ وانما هو تمثيل لافاضة ما به الحياة بالفعل على المادة القابلة لها أي فاذا كملت استعداده وأفضت عليه ما يحيا به من الروح التي هي من أمري (فقعوا له) أمر من وقع يقع وفيه دليل على أن ليس المأمور به مجرد الانحناء كما قيل أي اسقطوا له (ساجدين) تحية له وتعظيما أو اسجدوا لله تعالى على أنه عليه الصلاة والسلام بمنزلة القبلة حيث ظهر فيه تعاجيب آثار قدرته تعالى وحكمته كقول حسان رضي الله تعالى عنه

أليس أول من صلى لقبلتكم ... وأعلم الناس بالقرآن والسنن

(فسجد الملائكة) أي خلقه فسواه فنفخ فيه الروح فسجد الملائكة (كلهم) بحيث لم يشذ منهم أحد (أجمعون) بحيث لم يتأخر في ذلك أحد منهم عن أحد ولا اختصاص لافادة هذا المعنى بالحالية بل يفيده التأكيد أيضا فان الاشتقاق الواضح يرشد الى أن فيه معنى الجمع والمعية بحسب الوضع والاصل في الخطاب التنزيل على أكمل أحوال الشيء ولا ريب في أن السجود معا أكمل أصناف السجود لكن شاع استعماله تأكيدا وأقيم مقام كل

النكاح لكن الافضل أن يتخلى لعبادة الله تعالى وقال أبو حنيفة رحمه الله النكاح أفضل من التخلي للعبادة وحجة الشافعي رحمه الله وجوه (أحدها) قوله تعالى وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين مدح يحيى عليه السلام بكونه حصورا والحصور الذي لا يأتي النساء مع القدرة عليهن ولا يقال هو الذي لا يأتي النساء مع العجز عنهن لان مدح الانسان بما يكون عيبا غير جائز واذا ثبت أنه مدح في حق يحيى وجب أن يكون مشروعا في حقنا لقوله تعالى أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ولا يجوز حمل الهدى على الاصول لان التقليد فيها غير جائز فوجب حمله على الفروع (وثانيها) قوله عليه الصلاة والسلام استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن أفضل أعمالكم الصلاة ويتمسك أيضا بما روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال أفضل أعمال أمتي قراءة القرآن (وثالثها) أن النكاح مباح لقوله عليه الصلاة والسلام أحب المباحات الى الله تعالى النكاح ويحمل الاحب على الاصلح في الدنيا لئلا يقع التناقض بين كونه أحب وبين كونه مباحا والمباح ما استوى طرفاه في الثواب والعقاب والمندوب ما ترجح وجوده على عدمه فتكون العبادة أفضل (ورابعها) أن النكاح ليس بعبادة بدليل أنه يصح من الكافر والعبادة لا تصح منه فوجب أن تكون العبادة أفضل منه لقوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون والاشتغال بالمقصود أولى (وخامسها) أن الله تعالى سوى بين التسري والنكاح ثم التسري مرجوح بالنسبة الى العبادة ومساوي المرجوح مرجوح فالنكاح مرجوح وانما قلنا انه سوى بين التسري والنكاح لقوله تعالى فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم وذكر كلمة أو للتخيير بين الشيئين والتخيير بين الشيئين أمارة التساوي كقول الطبيب للمريض كل الرمان أو التفاح واذا ثبت الاستواء فالتسري مرجوح ومساوي المرجوح مرجوح فالنكاح يجب أن يكون مرجوحا (وسادسها) أن النافلة أشق فتكون أكثر ثوابا بيان أنها أشق أن ميل الطباع الى النكاح أكثر ولولا ترغيب الشرع لما رغب أحد في النوافل واذا ثبت أنها أشق وجب أن تكون أكثر ثوابا لقوله عليه الصلاة والسلام أفضل العبادات أحمزها وقوله صلى الله عليه وسلم لعائشة أجرك على قدر نصبك (وسابعها) لو كان النكاح مساويا للنوافل في الثواب مع أن النوافل أشق منه لما كانت النوافل مشروعة لانه اذا حصل طريقان الى تحصيل المقصود وكانا في الافضاء الى المقصود سيين وكان أحدهما شاقا والآخر سهلا فان العقلاء يستقبحون تحصيل ذلك المقصود بالطريق الشاق مع التمكن من الطريق السهل ولما كانت النوافل مشروعة علمنا أنها أفضل (وثامنها) لو كان الاشتغال بالنكاح أولى من النافلة لكان الاشتغال بالحراثة والزراعة أولى من النافلة بالقياس على النكاح والجامع كون كل واحد منهما سببا لبقاء هذا العالم وتحصيلا لنظامه (وتاسعها) أجمعنا على أنه يقدم واجب العبادة على واجب النكاح فيقدم مندوبها على مندوبه لاتحاد السبب (وعاشرها) أن النكاح اشتغال بتحصيل اللذات الحسية الداعية الى الدنيا والنافلة قطع العلائق الجسمانية واقبال على الله تعالى فأين أحدهما من الآخر ولذلك قال عليه الصلاة والسلام حبب الي من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة فرجح الصلاة على النكاح حجة أبي حنيفة رحمه الله تعالى من وجوه (الاول) أن النكاح يتضمن صون النفس عن الزنا فيكون ذلك دفعا للضرر عن النفس والنافلة جلب النفع ودفع الضرر أولى من جلب النفع (الثاني) أن النكاح يتضمن العدل والعدل أفضل من العبادة لقوله عليه الصلاة والسلام لعدل ساعة خير من عبادة ستين سنة (الثالث) النكاح سنة مؤكدة لقوله عليه الصلاة والسلام من رغب عن سنتي فليس مني وقال في الصلاة انها خير موضوع فمن شاء فليستكثر ومن شاء فليستقلل فوجب أن يكون النكاح

أفصل ﴿المسئلة السادسة﴾ قوله تعالى وأنكحوا الأيامى وإن كانت تتناول جميع الأيامى بحسب الظاهر لكنهم أجمعوا على أنه لابد فيها من شروط وقد تقدم شرحها في قوله وأحل لكم ما وراء ذلكم أما قوله تعالى منكم فقد حمله كثير من المفسرين على أن المراد هم الأحرار لينفصل الحر من العبد وقال بعضهم بل المراد بذلك من يكون تحت ولاية المأمور من الولد أو القريب ومنهم من قال الإضافة تفيد الحرية والإسلام أما قوله تعالى والصالحين من عبادكم وإمائكم ففيه مسائل ﴿المسئلة الأولى﴾ ظاهره أنه أيضا أمر للسادة بتزويج هذين الفريقين إذا كانوا صالحين وأنه لا فرق بين هذا الأمر وبين الأمر بتزويج الأيامى في باب الوجوب لكنهم اتفقوا على أنه إباحة أو ترغيب فأما أن يكون واجبا فلا وفرقوا بينه وبين تزويج الأيامى بأن في تزويج العبد التزام مؤنة وتعطيل خدمة وذلك ليس بواجب على السيد وفي تزويج الأمة استفادة مهر وسقوط نفقة وليس ذلك بلازم على المولى ﴿المسئلة الثانية﴾ إنما خص الصالحين بالذكر لوجوه (الأول) ليحصن دينهم ويحفظ عليهم صلاحهم (الثاني) لأن الصالحين من الأرقاء هم الذين مواليهم يشفقون عليهم ينزلونهم منزلة الأولاد في المودة فكانوا مظنة للتوصية بشأنهم والاهتمام بهم وتقبل الوصية فيهم وأما المفسدون منهم فحالهم عند مواليهم على عكس ذلك (الثالث) أن يكون المراد الصلاح لأمر النكاح حتى يقوم العبد بما يلزم لها وتقوم الأمة بما يلزم للزوج (الرابع) أن كون المراد الصلاح في نفس النكاح بأن لا تكون صغيرة فلا تحتاج إلى النكاح ﴿المسئلة الثالثة﴾ ظاهر الآية يدل على أن العبد لا يتزوج بنفسه وإنما يجوز أن يتولى المولى تزويجه لكن ثبت بالدليل أنه إذا أمره بأن يتزوج جاز أن يتولى تزويج نفسه فيكون توليه بإذنه بمنزلة أن يتولى ذلك نفس السيد فأما الإماء فلا شبهة في أن المولى يتولى تزويجهن خصوصا على قول من لا يجوز النكاح إلا بولي؛ أما قوله تعالى إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ففيه مسئلتان (الأولى) الأصح أن هذا ليس وعدا من الله تعالى بإغناء من يتزوج بل المعنى لا تنظروا إلى فقر من يخطب إليكم أو فقر من تريدون تزويجها ففي فضل الله ما يغنيهم والمال غاد ورائح وليس في الفقر ما يمنع من الرغبة في النكاح فهذا معنى صحيح وليس فيه أن الكلام قصد به وعد الغنى حتى لا يجوز أن يقع فيه خلف وروي عن قدماء الصحابة ما يدل على أنهم رأوا ذلك وعدا عن أبي بكر قال أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى وعن عمر وابن عباس مثله قال ابن عباس التمسوا الرزق بالنكاح وشكا رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحاجة فقال عليك بالباءة وقال طلحة بن مطرف تزوجوا فإنه أوسع لكم في رزقكم وأوسع لكم في أخلاقكم ويزيد الله في مروءتكم فإن قيل فنحن نرى من كان غنيا فيتزوج فيصير فقيرا قلنا الجواب عنه من وجوه (أحدها) أن هذا الوعد مشروط بالمشيئة كما في قوله تعالى وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم والمطلق محمول على المقيد (وثانيها) أن اللفظ وإن كان عاما إلا أنه يكون خاصا في بعض المذكورين دون البعض وهو في الأيامى الأحرار الذين يملكون فيستغنون بما يملكون (وثالثها) أن يكون المراد الغنى بالعفاف فيكون المعنى وقوع الغنى بملك البضع والاستغناء به عن الوقوع في الزنا ﴿المسئلة الثانية﴾ من الناس من استدل بهذه الآية على أن العبد والأمة يملكان لأن ذلك راجع إلى كل من تقدم فتقتضي الآية بيان أن العبد قد يكون فقيرا وقد يكون غنيا فإن دل ذلك على الملك ثبت أنهما يملكان ولكن المفسرون تأولوه على الأحرار خاصة فكأنهم قالوا هو راجع إلى الأيامى أما إذا فسرنا الغنى بالعفاف فالاستدلال به على ذلك

في إفادة معنى الإحاطة من غير نظر إلى الكمال فإذا فهمت الإحاطة من لفظ آخر لم يكن بد من مراعاة الأصل صونا للكلام عن الإلغاء وقيل أكد بتأكيدين مبالغة في التعميم هذا وأما أن سجودهم هذا هل ترتب على ما حكي من الأمر التعليقي كما تقتضيه هذه الآية الكريمة والتي في سورة ص أو على الأمر التنجيزي كما يستدعيه ما في غيرهما فقد خرجنا بفضل الله عز وجل عن عهدة تحقيقه في تفسير سورة البقرة (إلا إبليس) استثناء متصل إما لأنه كان جنيا مفردا مغمورا بألوف من الملائكة فعد منهم تغليبا وإما لأن من الملائكة جنسا يتوالدون وهو منهم وقوله تعالى (أبى أن يكون مع الساجدين) استئناف مبين لكيفية عدم السجود المفهوم من الاستثناء فإن مطلق عدم السجود قد يكون مع التردد وبه علم أنه مع الإباء والاستكبار أو منقطع فيتصل به ما بعده أي لكن إبليس أبى أن يكون معهم وفيه دلالة على كمال ركاكة رأيه حيث أدمج في معصية واحدة ثلاث معاص مخالفة الأمر والاستكبار مع تحقير آدم عليه الصلاة والسلام ومفارقة الجماعة والإباء عن الانتظام في سلك أولئك المقربين الكرام (قال) استئناف مبني على سؤال من قال فماذا قال تعالى عند ذلك فقيل قال (يا إبليس ما لك) أي أي سبب لك لأي غرض لك كما قيل لقوله تعالى ما منعك (أن لا تكون) في أن لا تكون (مع الساجدين) لآدم مع أنهم هم ومنزلتهم في الشرف منزلتهم وما كان التوبيخ عند وقوعه لمجرد تخلفه عنهم ساقط بل لكل من المعاصي الثلاث المذكورة قال تعالى في سورة الأعراف قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك وفي سورة ص قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ولكن اقتصر عند الحكاية في كل موطن على ما ذكر فيه اجتزاء بما ذكر في موطن آخر وإشعارا بأن كل

ساقط أما قوله والله واسع عليم فالمعنى أنه سبحانه في الافضال لا ينتهي الى حد تنقطع قدرته على الافضال دونه لانه قادر على المقدورات التي لا نهاية لها وهو مع ذلك عليم بمقادير ما يصلحهم من الافضال والرزق ﴿قوله تعالى ﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله﴾ اعلم أنه سبحانه لما ذكر تزويج الحرائر والاماء ذكر حال من يعجز عن ذلك فقال وليستعفف أي وليجتهد في العفة كأن المستعفف طالب من نفسه العفاف وحاملها عليه وأما قوله لا يجدون نكاحا فالمعنى لا يتمكنون من الوصول اليه يقال لا يجد المرء الشيء اذا لم يتمكن منه قال الله تعالى فمن لم يجد فصيام شهرين والمراد به بالاجماع من لم يتمكن ويقال في أحد ما هو غير واجد للماء وان كان موجودا اذا لم يمكنه أن يشتريه ويجوز أن يراد بالنكاح ما ينكح به من المال فبين سبحانه وتعالى ان من لا يتمكن من ذلك فليطلب التعفف ولينتظر ان يغنيه الله من فضله ثم يصل الى بغيته من النكاح فان قيل أفليس ملك اليمين يقوم مقام نفس النكاح قلنا لكن من لم يجد المهر والنفقة فبأن لا يجد ثمن الجارية أولى والله أعلم ﴿الحكم التاسع﴾ في الكتابة ﴿قوله تعالى ﴿والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾ اعلم أنه تعالى لما بعث السيد على تزويج الصالحين من العبيد والاماء مع الرق رغبهم في أن يكاتبوهم اذا طلبوا ذلك ليصيروا أحرارا فيتصرفوا في أنفسهم كالاحرار فقال والذين يبتغون الكتاب وههنا مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قوله والذين يبتغون مرفوع على الابتداء أو منصوب بفعل مضمر يفسره فكاتبوهم كقولك زيدا فاضربه ودخلت الفاء لتضمن معنى الشرط ﴿المسئلة الثانية﴾ الكتاب والمكاتبة كالعتاب والمعاتبة وفي اشتقاق لفظ الكتابة وجوه (أحدها) ان أصل الكلمة من الكتب وهو الضم والجمع ومنه الكتيبة سميت بذلك لانها تضم النجوم بعضها الى بعض وتضم ماله الى ماله (وثانيها) يحتمل أن يكون اللفظ مأخوذا من الكتاب ومعناه كتبت لك على نفسي أن تعتق مني اذا وفيت بالمال وكتبت لي على نفسك أن تفي لي بذلك أو كتبت لي كتابا عليك بالوفاء بالمال وكتبت على العتق وهذا ما ذكره الازهري (وثالثها) انما سمي بذلك لما يقع فيه من التأجيل بالمال المعقود عليه لانه لا يجوز أن يقع على مال هو في يد العبد حين يكاتب لان ذلك مال لسيده وله كسبه في حال ما كانت يد السيد غير مقبوضة عن كسبه فلا يجوز لهذا المعنى أن يقع هذا العقد حالا ولكنه يقع مؤجلا ليكون متمكنا من الاكتساب وغيره حين ما انقبضت يد السيد عنه ثم من آداب الشريعة أن يكتب على من عليه المال المؤجل كتاب فسمي لهذا المعنى هذا العقد كتابا لما يقع فيه من الاجل قال تعالى لكل أجل كتاب ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال معنى السنة الكتابة أن يقول لمملوكه كاتبتك على كذا ويسمي مالا معلوما يؤديه في نجمين أو أكثر ويبين عدد النجوم وما يؤدي في كل نجم ويقول اذا أديت ذلك المال فأنت حر أو ينوي ذلك بقلبه ويقول العبد قبلت وفي هذا الضبط أبحاث ﴿البحث الاول﴾ قال الشافعي رحمه الله ان لم يقل بلسانه أو لم ينو بقلبه اذا أديت ذلك المال فأنت حر لم يعتق وقال أبو حنيفة ومالك وأبو يوسف ومحمد وزفر رحمهم الله لا حاجة الى ذلك حجة أبي حنيفة رحمه الله أن قوله تعالى فكاتبوهم خال عن هذا الشرط فوجب أن تصح الكتابة بدون هذا الشرط واذا صحت الكتابة وجب أن يعتق بالاداء للاجماع حجة الشافعي رحمه الله أن الكتابة ليست عقد معاوضة محضة لان ما في يد العبد فهو ملك السيد والانسان لا يمكنه بيع ملكه بملكه بل قوله كاتبتك كناية في العتق فلا بد فيه من لفظ العتق أو نيته ﴿البحث الثاني﴾ لا تجوز الكتابة الحالة عند الشافعي وتجوز عند أبي حنيفة وجه قول الشافعي رحمه الله أن العبد لا يتصور له ملك يؤديه في الحال واذا عقد حالا توجهت

واحدة من تلك المعاصي الثلاث كافية في التوبيخ واظهار بطلان ما ارتكبه وقد تركت حكاية التوبيخ رأسا في سورة البقرة وسورة بني اسرائيل وسورة الكهف وسورة طه (قال) أي ابليس وهو أيضا استئناف مبني على السؤال الذي ينساق اليه الكلام (لم أكن لأسجد) اللام لتأكيد النفي أي ينافي حالي ولا يستقيم مني لاني مخلوق من أشرف العناصر وأعلاها أن أسجد (لبشر) أي جسم كثيف (خلقته من صلصال من حمإ مسنون) اقتصر ههنا على الاشارة الاجمالية الى ادعاء الخيرية وشرف المادة اكتفاء بما صرح به حين قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ولم يكتف اللعين بمجرد ذكر كونه عليه الصلاة والسلام من التراب الذي هو أخس العناصر وأسفلها بل تعرض لكونه مخلوقا منه في أخس أحواله من كونه طينا متغيرا وقد اكتفي في سورة الاعراف وسورة ص بما حكي عنه ههنا فاقتصر على حكاية تعرضه لخلقه عليه الصلاة والسلام من طين وكذا في سورة بني اسرائيل حيث قيل أأسجد لمن خلقت طينا وفي جوابه دليل على أن قوله تعالى مالك ليس استفسارا عن الغرض بل هو استفسار عن السبب وفي عدوله عن تطبيق جوابه على السؤال روم للتفصي عن المناقشة وأنى له ذلك كأنه قال لم امتنع عن امتثال الامر ولا عن الانتظام في سلك الملائكة بل عما لا يليق بشأني من الخضوع للمفضول وقد جرى خذله الله تعالى على سنن قياس عقيم وزال عنه أن ما يدور عليه فلك الفضل والكمال هو التحلي بالمعارف الربانية والتخلي عن الملكات الردية التي أقبحها التكبر والاستعصاء على أمر رب العالمين جل جلاله (قال فاخرج منها) أي من زمرة الملائكة المعززين لا من السماء فان وسوسته لآدم عليه الصلاة

والسلام في الجنة انما كانت بعد هذا الطرد وقوله تعالى فاهبط منها ليس نصا في ذلك فان الخروج من بين الملأ الأعلى هبوط وأي هبوط
أو من الجنة على أن وسوسته كانت بطريق النداء من بابها كما روي عن الحسن البصري أو بطريق المشافهة بعد أن احتال في دخولها
وتوسل اليه بالحية كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ولا ينافي هذا طرده على رؤس الاشهاد لما يقتضيه من
الحكم البالغة (فانك رجيم) مطرود من كل خير وكرامة فان من يطرد يرجم بالحجارة أو شيطان يرجم بالشهب وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته فان من عارض النص بالقياس فهو رجيم ملعون (وان عليك اللعنة) الابعاد عن الرحمة وحيث كان ذلك من جهة الله سبحانه وان كان جاريا على ألسنة العباد قيل في سورة ص وان عليك لعنتي (الى يوم الدين) الى يوم الجزاء والعقوبة وفيه اشعار بتأخير عقابه وجزائه اليه وأن اللعنة مع كمال فظاعتها ليست جزاء لفعله وانما يتحقق ذلك يومئذ وفيه من التهويل ما لا يوصف وجعل ذلك أقصى أمد اللعنة ليس لانها تنقطع هنالك بل لانه عند ذلك يعذب بما ينسى به اللعنة من أفانين العذاب فتصير هي كالزائل وقيل انما حدت به لانه أبعد غاية يضربها الناس كقوله تعالى خالدين فيها ما دامت السموات والأرض وحيث أمكن أن يكون تأخير
العقوبة مع الموت كسائر من أخرت عقوبته الى الآخرة من الكفرة طلب اللعين تأخير موته كما حكى عنه اما
بقوله تعالى (قال رب فأنظرني) أي أمهلني وأخرني ولا تمتني والفاء متعلق بمحذوف ينسحب عليه الكلام أي اذا جعلتني رجيما فأمهلني
(الى يوم يبعثون) أي آدم وذريته للجزاء بعد فنائهم وأراد بذلك أن يجد فسحة لاغوائهم ويأخذ منهم ثاره وينجو من الموت لاستحالته

المطالبة عليه في الحال فاذا عجز عن الاداء لم يحصل مقصود العقد كما لو أسلم في شيء لا يوجد عند المحل لا يصح بخلاف ما لو أسلم الى معسر فانه يجوز لانه حين العقد يتصور أن يكون له ملك في الباطن فالعجز لا يتحقق عن أدائه وحجة قول أبي حنيفة رحمه الله أن قوله تعالى فكاتبوهم مطلق يتناول الكتابة الحالة والمؤجلة وأيضا لما كان مال الكتابة بدلا عن الرقبة كان بمنزلة أثمان السلع المبيعة فيجوز عاجلا وآجلا وأيضا أجمعوا على جواز العتق معلقا على مال حال فوجب أن تكون الكتابة مثله لانه بدل عن العتق في الحالين الا أن في أحدهما العتق معلق على شرط الاداء وفي الآخر معجل فوجب أن لا يختلف حكمهما (البحث الثالث) قال الشافعي رحمه الله تعالى لا تجوز الكتابة على أقل من نجمين يروى ذلك عن علي وعثمان وابن عمر روي ان عثمان رضي الله عنه غضب على عبده فقال لاضيقن الامر عليك ولا كاتبنك على نجمين ولو جاز على أقل من ذلك لكاتبه على الاقل لان التضييق فيه أشد وانما شرطنا التنجيم لانه عقد ارفاق ومن شرط الارفاق التنجيم ليتيسر عليهم الاداء وقال أبو حنيفة رحمه الله تجوز الكتابة على نجم واحد لان ظاهر قوله فكاتبوهم ليس فيه تقييد (المسئلة الرابعة) تجوز كتابة المملوك عبدا كان أو أمة ويشترط عند الشافعي رحمه الله أن يكون عاقلا بالغا فاذا كان صبيا أو مجنونا لا تصح كتابته لان الله تعالى قال والذين يبتغون الكتاب ولا يتصور الابتغاء من الصبي والمجنون وعند أبي حنيفة رحمه الله تجوز كتابة الصبي ويقبل عنه الولي (المسئلة الخامسة) يشترط أن يكون المولى مكلفا مطلقا فان كان صبيا أو مجنونا أو محجورا عليه بالسفه لا تصح كتابته كما لا يصح بيعه ولان قوله فكاتبوهم خطاب فلا يتناول غير العاقل وعند أبي حنيفة رحمه الله تصح كتابة الصبي باذن الولي (المسئلة السادسة) اختلف العلماء في أن قوله فكاتبوهم أمر ايجاب أو أمر استحباب فقال قائلون هو أمر ايجاب فيجب على الرجل أن يكاتب مملوكه اذا سأله ذلك بقيمته أو أكثر اذا علم فيه خيرا ولو كان بدون قيمته لم يلزمه وهذا قول عمرو بن دينار وعطاء واليه ذهب داود بن علي ومحمد بن جرير واحتجوا عليه بالآية والاثر أما الآية فظاهر قوله تعالى فكاتبوهم لانه أمر وهو للايجاب ويدل عليه أيضا سبب نزول الآية فانها نزلت في غلام لحويطب بن عبد العزى يقال له صبيح سأل مولاه أن يكاتبه فأبى عليه فنزلت الآية فكاتبه على مائة دينار ووهب له منها عشرين دينارا وأما الاثر فما روي أن عمر أمر أنسا أن يكاتب سيرين أبا محمد بن سيرين فأبى فرفع عليه الدرة وضربه وقال فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وحلف عليه ليكاتبنه ولو لم يكن ذلك واجبا لكان ضربه بالدرة ظلما وما أنكر على عمر أحد من الصحابة فجرى ذلك مجرى الاجماع وقال أكثر الفقهاء انه أمر استحباب وهو ظاهر قول ابن عباس والحسن والشعبي واليه ذهب مالك وأبو حنيفة والشافعي والثوري واحتجوا عليه بقوله عليه الصلاة والسلام لا يحل مال امرئ مسلم الا بطيب من نفسه ولانه لا فرق أن يطلب الكتابة أو يطلب بيعه ممن يعتقه في الكفارة فكما لا يجب ذلك فكذا الكتابة وهذه طريقة المعاوضات أجمع وههنا سؤالان (السؤال الاول) كيف يصح أن يبيع ماله بماله قلنا اذا ورد الشرع به فيجب أن يجوز كما اذا علق عتقه على مال يكتسبه فيؤديه أو يؤدى عنه صار سببا لعتقه (السؤال الثاني) هل يستفيد العبد بعقد الكتابة ما لا يملكه لولا الكتابة قلنا نعم لانه لو دفع اليه الزكاة ولم يكاتب لم يحل له أن يأخذها واذا صار مكاتبا حل له واذا دفع الى مولاه حل له سواء أدى فعتق أو عجز فعاد الى الرق ويستفيد أيضا ان الكتابة تبعثه على الجد والاجتهاد في الكسب فلولاها لم يكن ليفعل ذلك ويستفيد المولى الثواب لانه اذا باعه فلا ثواب واذا كاتبه ففيه ثواب ويستفيد أيضا الولاء لانه لو عتق من قبل غيره لم يكن له ولاء واذا عتق بالكتابة فالولاء له فورد الشرع بجواز الكتابة لما ذكرناه من الفوائد

بعد يوم البعث (قال فانك من المنظرين) ورود الجواب بالجملة الاسمية مع التعرض لشمول ما سأله لآخرين على وجه يؤذن بكون السائل تبعا لهم في ذلك دليل على أنه اخبار بالانظار المقدر لهم أزلا لا انشاء لانظار خاص به وقع اجابة لدعائه أي انك من جملة الذين أخرت آجالهم أزلا حسبما تقتضيه حكمة التكوين فالفاء ليست لربط نفس الانظار بالاستنظار بل لربط الاخبار المذكور به كما في قوله

فان ترحم فانت لذاك أهل

فانه لا امكان لجعل الفاء فيه لربط ما فيه تعالى من الأهلية التامة للرحمة بوقوع الرحمة وانما هي لربط الاخبار بتلك الاهلية للرحمة بوقوعها وان استنظاره كان طلبا لتأخير الموت اذ به يتحقق كونه من جملتهم لا لتأخير العقوبة كما قيل ونظمه في ذلك في سلك من أخرت عقوبتهم الى الآخرة في علم الله تعالى ممن سبق من الجن ولحق من الثقلين لا يلائم مقام الاستنظار مع الحياة ولان ذلك التأخير معلوم من اضافة اليوم الى الدين مع اضافته في السؤال الى البعث كما عرفته وفي سورة الاعراف قال أنظرني الى يوم يبعثون قال انك من المنظرين بترك التوقيت والنداء والفاء في الاستنظار والانظار تعويلا على ما ذكر ههنا وفي سورة ص فان ايراد كلام واحد على أساليب متعددة غير عزيز في الكتاب العزيز وأما أن كل أسلوب من أساليب النظم الكريم لا بد أن يكون له مقام يقتضيه مغاير لمقام غيره وأن ما حكى من اللعين انما صدر عنه مرة وكذا جوابه لم يقع الا دفعة فمقام المحاورة ان اقتضى أحد الاساليب المذكورة فهو المطابق لمقتضى الحال والبالغ الى طبقة الاعجاز وما عداه قاصر عن رتبة البلاغة فضلا عن الارتقاء الى معالم الاعجاز فقد مر تحقيقه بتوفيق الله تعالى في سورة الاعراف (الى يوم الوقت

أما قوله تعالى ان علمتم فيهم خيرا فذكروا في الخير وجوها (أحدها) ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ان علمتم لهم حرفة فلا تدعوهم كلا على الناس (وثانيها) قال عطاء الخير المال وتلا كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيرا أي ترك مالا قال وبلغني ذلك عن ابن عباس (وثالثها) عن ابن سيرين قال اذا صلى وقال النخعي وفاء وصدقا وقال الحسن صلاحا في الدين (ورابعها) قال الشافعي رحمه الله المراد بالخير الامانة والقوة على الكسب لان مقصود الكتابة قلما يحصل الا بهما فانه ينبغي أن يكون كسوبا يحصل المال ويكون أمينا يصرفه في نجومه ولا يضيعه فاذا فقد الشرطان أو أحدهما لا يستحب أن يكاتبه والاقرب أنه لا يجوز حمله على المال لوجهين (الاول) ان المفهوم من كلام الناس اذا قالوا فلان فيه خير انما يريدون به الصلاح في الدين ولو أراد المال لقال ان علمتم لهم خيرا لانه انما يقال لفلان مال ولا يقال فيه مال (الثاني) أن العبد لا مال له بل المال لسيده فالاولى أن يحمل على ما يعود على كتابته بالتمام وهو الذي ذكره الشافعي رحمه الله وهو أن يتمكن من الكسب ويوثق به بحفظ ذلك لان كل ذلك مما يعود على كتابته بالتمام ودخل فيه تفسير النبي صلى الله عليه وسلم الخير لانه عليه الصلاة والسلام فسره بالكسب وهو داخل في تفسير الشافعي رحمه الله أما قوله وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اختلفوا في المخاطب بقوله وآتوهم على وجوه (أحدها) أنه هو المولى يحط عنه جزأ من مال الكتابة أو يدفع اليه جزأ مما أخذ منه وهؤلاء اختلفوا في قدره فمنهم من جعل الخيار له وقال يجب أن يحط قدرا يقع به الاستغناء وذلك يختلف بكثرة المال وقلته ومنهم من قال يحط ربع المال روى عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن أنه كاتب غلاما له فترك له ربع مكاتبته وقال ان عليا كان يأمر بذلك ويقول هو قول الله تعالى وآتوهم من مال الله الذي آتاكم فان لم يفعل فالسبع لما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كاتب عبدا له بخمس وثلاثين ألفا ووضع عنه خمسة آلاف ويروى ان عمر كاتب عبدا له فجاء بنجمه فقال له اذهب فاستعن به على أداء مال الكتابة فقال المكاتب لو تركته الى آخر نجم فقال اني أخاف أن لا أدرك ذلك ثم قرأ هذه الآية وكان ابن عمر يؤخره الى آخر النجوم مخافة أن يعجز (وثانيها) المراد وآتوهم سهمهم الذي جعله الله لهم من الصدقات في قوله وفي الرقاب وعلى هذا فالخطاب لغير السادة وهو قول الحسن والنخعي ورواية عطاء عن ابن عباس وأجمعوا على أنه لا يجوز للسيد أن يدفع صدقته المفروضة الى مكاتب نفسه (وثالثها) ان هذا أمر من الله تعالى للسادة والناس أن يعينوا المكاتب على كتابته بما يمكنهم وهذا قول الكلبي وعكرمة والمقاتلين والنخعي وقال عليه الصلاة والسلام من أعان مكاتبا على فك رقبته أظله الله تعالى في ظل عرشه وروى أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم علمني عملا يدخلني الجنة قال لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعظمت المسئلة أعتق النسمة وفك الرقبة فقال أليسا واحدا فقال لا عتق النسمة أن تنفرد بعتقها وفك الرقبة أن تعين في ثمنها قالوا ويؤكد هذا القول وجوه (أحدها) أنه أمر باعطائه من مال الله تعالى وما أطلق عليه هذه الاضافة فهو ما كان سبيله الصدقة وصرفه في وجوه القرب (وثانيها) أن قوله من مال الله الذي آتاكم هو الذي قد صح ملكه للمالك وأمر باخراج بعضه ومال الكتابة ليس بدين صحيح لانه على عبده والمولى لا يثبت له على عبده دين صحيح (وثالثها) ان ما آتاه الله فهو الذي يحصل في يده ويمكنه التصرف فيه وما سقط عقيب العقد لم يحصل له عليه يد ملك فلا يستحق الصفة بأنه من مال الله الذي آتاه فان قيل ههنا وجهان يقدحان في صحة هذا التأويل (أحدهما) أنه كيف يحل لمولاه اذا كان غنيا أن يأخذ من مال الصدقة (والثاني) ان قوله وآتوهم معطوف على قوله فكاتبوهم فيجب أن يكون المخاطب في

الموضعين واحدا وعلى هذا التأويل يكون المخاطب في الآية الاولى السادات وفي الثانية سائر المسلمين * قلنا أما الاول فجوابه ان تلك الصدقة تحل لمولاه وكذلك اذا لم تف الصدقة بجميع النجوم وعجز عن أداء الباقي كان للمولى ما أخذه لانه لم يأخذه بسبب الصدقة ولكن بسبب عقد الكتابة كمن اشترى الصدقة من الفقير أو ورثها منه يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام في حديث بريرة هو لها صدقة ولنا هدية (والجواب عن الثاني) أنه قد يصح الخطاب للقوم ثم يعطف عليه بمثل لفظه خطابا لغيرهم كقوله تعالى وإذ طلقتم النساء فالخطاب للازواج ثم خاطب الاولياء بقوله فلا تعضلوهن وقوله مبرؤن مما يقولون والقائلون غير المبرئين فكذا ههنا قال للسادة فكاتبوهم وقال لغيرهم وآتوهم أو قال لهم ولغيرهم ﴿المسألة الثانية﴾ قال الشافعي رحمه الله يجب على المولى ايتاء المكاتب وهو أن يحط عنه جزأ من مال الكتابة أو يدفع اليه جزأ مما أخذ منه وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابه انه مندوب اليه لكنه غير واجب حجة الشافعي رحمه الله ظاهر قوله وآتوهم من مال الله الذي آتاكم والامر للوجوب فقيل عليه ان قوله فكاتبوهم وقوله آتوهم أمران وردا في صورة واحدة فلم جعلت الاول ندبا والثاني ايجابا وأيضا فقد ثبت أن قوله وآتوهم ليس خطابا مع الموالي بل مع عامة المسلمين حجة أبي حنيفة رحمه الله من حيث السنة والقياس أما السنة فروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه عليه الصلاة والسلام قال أيما عبد كاتب على مائة أوقية فأداها الا عشر أواق فهو عبد فلو كان الحط واجبا لسقط عنه بقدره وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت جاءتني بريرة فقالت يا عائشة اني قد كاتبت أهلي على تسع أواق في كل عام أوقية فأعينيني ولم تكن قضت من كتابتها شيأ فقالت عائشة رضي الله عنها ارجعي الى أهلك فان أحبوا أن أعطيهم ذلك جميعا ويكون ولاؤك لي فعلت فأبوا فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال لا يمنعك ذلك منها ابتاعي وأعتقي فانما الولاء لمن أعتق وجه الاستدلال انها ما قضت من كتابتها شيأ وأرادت عائشة أن تؤدي عنها كتابتها بالكلية وذكرته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وترك رسول الله النكير عليها ولم يقل انها تستحق أن يحط عنها بعض كتابتها فثبت قولنا وأما القياس فمن وجهين (الاول) لو كان الايتاء واجبا لكان وجوبه متعلقا بالعقد فيكون العقد موجبا له ومسقطا له وذلك محال لتنافي الاسقاط والايجاب (الثاني) لو كان الحط واجبا لما احتاج الى أن يضع عنه بل كان يسقط القدر المستحق كمن له على انسان دين ثم حصل لذلك الآخر على الاول مثله فانه يصير قصاصا ولو كان كذلك لكان قدر الايتاء اما أن يكون معلوما أو مجهولا فان كان معلوما وجب أن تكون الكتابة بألفين فيعتق اذا أدى ثلاثة آلاف والكتابة أربعة آلاف وذلك باطل لان أداء جميعها مشروط فلا يعتق بأداء بعضها ولانه عليه السلام قال المكاتب عبد ما بقي عليه درهم وان كان مجهولا صارت الكتابة مجهولة لان الباقي بعد الحط مجهول فيصير بمنزلة من كاتب عبده على ألف درهم الا شيأ وذلك غير جائز والله أعلم ﴿الحكم العاشر﴾ الاكراه على الزنا * قوله تعالى ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم﴾ اعلم أنه تعالى لما بين ما يلزم من تزويج العبيد والاماء وكتابتهم أتبع ذلك بالمنع من اكراه الاماء على الفجور وههنا مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ اختلفوا في سبب نزولها على وجوه (الاول) كان لعبد الله بن أبي المنافق ست جوار معاذة ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وقتيلة يكرههن على البغاء وضرب عليهن ضرائب فشكت ثنتان منهن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية (وثانيها) أن عبد الله بن أبي أسر رجلا فراود الاسير جارية عبد الله وكانت الجارية مسلمة فامتنعت الجارية لاسلامها وأكرهها ابن أبي

المعلوم) وهو وقت النفخة الاولى التي علم أنه يصعق عندها من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله تعالى ويجوز أن يكون المراد بالايام واحدا والاختلاف في العبارات لاختلاف الاعتبارات فالتعبير بيوم البعث لان غرض اللعين به يتحقق وبيوم الدين لما ذكر من الجزاء وبيوم الوقت المعلوم لما ذكر أولا استئثاره تعالى بعلمه فلعل كلا من هلاك الخلق جميعا وبعثهم وجزائهم في يوم واحد يموت اللعين في أوله ويبعث في أواسطه ويعاقب في بقيته * يروى أن بين موته وبعثه أربعين سنة من سني الدنيا مقدار ما بين النفختين ونقل عن الاحنف بن قيس رحمه الله تعالى أنه قال قدمت المدينة أريد أمير المؤمنين عمر رضي الله تعالى عنه فاذا أنا بحلقة عظيمة وكعب الاحبار فيها يحدث الناس وهو يقول لما حضر آدم عليه الصلاة والسلام الوفاة قال يارب سيشمت بي عدوي ابليس اذا رآني ميتا وهو منظر الى يوم القيامة فاجيب أن يا آدم انك سترد الى الجنة ويؤخر اللعين الى النظرة ليذوق ألم الموت بعدد الاولين والآخرين ثم قال لملك الموت صف كيف تذيقه الموت فلما وصفه قال يارب حسبي فضج الناس وقالوا يا أبا اسحق كيف ذلك فأبى فألحوا فقال يقول الله سبحانه لملك الموت عقيب النفخة الاولى قد جعلت فيك قوة أهل السموات السبع وأهل الارضين السبع واني ألبستك اليوم أثواب السخط والغضب كلها فانزل بغضبي وسطوتي على رجيمي ابليس فاذقه الموت واحمل عليه فيه مرارة على الاولين والآخرين من الثقلين أضعافا مضاعفة وليكن معك من الزبانية سبعون ألفا قد امتلؤا غيظا وغضبا وليكن مع كل منهم سلسلة من سلاسل جهنم وغل من أغلالها وانزع روحه المنتن بسبعين ألف كلاب من كلاليبها وناد مالكا ليفتح أبواب النيران فينزل ملك الموت

على ذلك رجاء أن تحصل من الاسير فيطلب فداء ولده فنزلت (وثالثها) روى أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال جاء عبد الله بن أبي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جارية من أجمل النساء تسمى معاذة فقال يا رسول الله هذه لايتام فلان أفلا نأمرها بالزنا فيصيبون من منافعها فقال عليه الصلاة والسلام لا فأعاد الكلام فنزلت الآية قال جابر بن عبد الله جاءت جارية لبعض الناس فقالت ان سيدي يكرهني على البغاء فنزلت الآية (المسألة الثانية) الاكراه انما يحصل متى حصل التخويف بما يقتضي تلف النفس فاما باليسير من الخوف فلا تصير مكرهة فحال الاكراه على الزنا كحال الاكراه على كلمة الكفر والنص وان كان مختصا بالاماء الا أن حال الحرائر كذلك (المسألة الثالثة) العرب تقول للمملوك فتى وللمملوكة فتاة قال تعالى فلما جاوزا قال لفتاه وقال تراود فتاها وقال مما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات وفي الحديث ليقل أحدكم فتاي وفتاتي ولا يقل عبدي وأمتي (المسألة الرابعة) البغاء الزنا يقال بغت تبغي بغاء فهي بغي (المسألة الخامسة) الذي نقول به أن المعلق بكلمة ان على الشيء عدم عند عدم ذلك الشيء والدليل عليه اتفاق أهل اللغة على ان كلمة ان للشرط واتفاقهم على ان الشرط ما ينتفي الحكم عند انتفائه ومجموع هاتين المقدمتين النقليتين يوجب الحكم بأن المعلق بكلمة ان على الشيء عدم عند عدم ذلك الشيء واحتج المخالف بهذه الآية فقال انه سبحانه علق المنع من الاكراه على البغاء على ارادة التحصن بكلمة ان فلو كان الامر كما ذكرتموه لزم أن لا ينتفي المنع من الاكراه على الزنا اذا لم توجد ارادة التحصن وذلك باطل فانه سواء وجدت ارادة التحصن أو لم توجد فان المنع من الاكراه على الزنا حاصل (والجواب) لا نزاع ان ظاهر الآية يقتضي جواز الاكراه على الزنا عند عدم ارادة التحصن ولكنه فسد ذلك لامتناعه في نفسه لانه متى لم توجد ارادة التحصن في حقها لم تكن كارهة للزنا وحال كونها غير كارهة للزنا يمتنع اكراهها على الزنا فامتنع ذلك لامتناعه في نفسه وذاته ومن الناس من ذكر فيه جوابا آخر وهو أن غالب الحال أن الاكراه لا يحصل الا عند ارادة التحصن والكلام الوارد على سبيل الغالب لا يكون له مفهوم الخطاب كما أن الخلع يجوز في غير حالة الشقاق ولكن لما كان الغالب وقوع الخلع في حالة الشقاق لا جرم لم يكن لقوله تعالى فان خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به مفهوم ومن هذا القبيل قوله واذا ضربتم في الارض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا والقصر لا يختص بحال الخوف ولكنه سبحانه أجراه على سبيل الغالب فكذا ههنا (والجواب الثالث) معناه اذا أردن تحصنا لان القصة التي وردت الآية فيها كانت كذلك على ما روينا ان جارية عبد الله بن أبي أسلمت وامتنعت عليه طلبا للعفاف فأكرهها فنزلت الآية موافقة لذلك نظيره قوله تعالى وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا أي واذا كنتم في ريب (المسألة السادسة) أنه تعالى لما منع من اكراههن على الزنا فيه ما يدل على أن لهم اكراههن على النكاح فليس لها أن تمتنع على السيد اذا زوجها بل له أن يكرهها على ذلك وهذه الدلالة دلالة دليل الخطاب أما قوله ان أردن تحصنا أي تعففا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا يعني كسبهن وأولادهن أما قوله ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم فاعلم أنه ليس في الآية أنه تعالى غفور رحيم للمكره أو للمكرهة فلا جرم ذكروا فيه وجهين (أحدهما) فان الله غفور رحيم بهن لان الاكراه أزال الاثم والعقوبة لان الاكراه عذر للمكرهة أما المكره فلا عذر له فيما فعل (الثاني) المراد فان الله غفور رحيم بالمكره بشرط التوبة وهذا ضعيف لان على التفسير الاول لا حاجة الى هذا الاضمار وعلى التفسير الثاني يحتاج اليه ﴿ قوله تعالى ﴾ (ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات ومثلا من الذين

بصورة لو نظر اليها أهل السموات والارضين لماتوا بغتة من هولها فيذهب الى ابليس فيقول تف لك يا خبيث لاذيقنك الموت كم من عمر أدركت وقرون أضللت وهذا هو الوقت المعلوم قال فيهرب اللعين الى المشرق فاذا هو بملك الموت بين عينيه فيهرب الى المغرب فاذا هو به بين عينيه فيغوص البحار فتنزوه البحار فلا تقبله فلا يزال يهرب في الارض ولا محيص له ولا ملاذ ثم يقوم في وسط الدنيا عند قبر آدم ويتمرغ في التراب من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق حتى اذا كان في الموضع الذي أهبط فيه آدم عليه الصلاة والسلام وقد نصبت له الزبانية الكلاليب وصارت الارض كالجمرة احتوشته الزبانية وطعنوه بالكلاليب ويبقى في النزع والعذاب الى حيث يشاء الله تعالى ويقال لآدم وحواء اطلعا اليوم الى عدوكما كيف يذوق الموت فيطلعان فينظران الى ما هو فيه من شدة العذاب فيقولان ربنا أتممت علينا نعمتك (قال رب بما أغويتني) الباء للقسم وما مصدرية والجواب (لأزينن لهم) أي أقسم باغوائك اياي لأزينن لهم المعاصي (في الارض) أي في الدنيا التي هي دار الغرور كقوله تعالى أخلد الى الارض واقسامه بعزة الله المفسرة بسلطانه وقهره لا ينافي اقسامه بهذا فانه فرع من فروعها وأثر من آثارها فلعله أقسم بهما جميعا فحكى تارة قسمه بهذا وأخرى بذلك أو للسببية وقوله لأزينن جواب قسم محذوف والمعنى بسبب تسببك لاغوائي أقسم لأفعلن بهم مثل ما فعلت بي من التسبيب لاغوائهم بتزيين المعاصي وتسويل الاباطيل والمعتزلة أولوا الاغواء بالنسبة الى الغي أو التسبيب له بأمره اياه بالسجود لآدم عليه الصلاة والسلام واعتذروا عن امهال الله تعالى وتسليطه له على اغواء بني آدم بأنه تعالى قد علم منه ومن تبعه أنهم يموتون على

الكفرو يصيرون الى النار أم لم يعمل وان في امهاله تعريضا لمن خاله بلا استحقاق مزيد الثواب (ولاغوينهم أجمعين) لاحملنهم على الغواية (الا عبادك منهم المخلصين) الذين أخلصتهم لطاعتك وطهرتهم من الشوائب فلا يعمل فيهم كيدى وقرئ بكسر اللام أى الذين أخلصوا نفوسهم لله تعالى (قال هذا صراط) أى حق (على) أن أراعيه (مستقيم) لاعوج فيه والاشارة الى ما تضمنه الاستثناء وهو تخلص المخلصين من اغوائه أو الاخلاص على معنى أنه طريق يؤدى الى الوصول الى من غير اعوجاج وضلال والاظهر أن ذلك لما وقع فى عبارة ابليس حيث قال لاقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم الآية وقرئ على من علو الشرف (ان عبادى) وهم المشار اليهم بالمخلصين (ليس لك عليهم سلطان) تسلط وتصرف بالاغواء (الا من اتبعك من الغاوين) وفيه مع كونه تحقيقا لما قاله اللعين تفخيم لشأن المخلصين وبيان لمنزلتهم ولانقطاع مخالب الاغواء عنهم وأن اغواءه للغاوين ليس بطريق السلطان بل بطريق اتباعهم له بسوء اختيارهم (وان جهنم لموعدهم) أى موعد المتبعين أو الغاوين والاول أنسب وأدخل فى الزجر عن اتباعه وفيه دلالة على أن جهنم مكان الوعد وأن الموعد لا يوصف فى القطاعة (أجمعين) تأكيد للضمير أو حال والعامل فيه الموعد ان جعل مصدرا على تقدير المضاف أو معنى الاضافة ان جعل اسم مكان (لها سبعة أبواب) يدخلونها لكثرتهم أو سبع طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم فى الغواية والمتابعة وهى جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية (لكل باب منهم) من الاتباع أو الغواة (جزء مقسوم) حزب معين مفرز من غيره حسبما

خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين﴾ اعلم أنه سبحانه لما ذكر فى هذه السورة هذه الاحكام وصف القرآن بصفات ثلاثة (أحدها) قوله ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات أى مفصلات وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم مبينات بكسر الياء على معنى انها تبين للناس كما قال بلسان عربى مبين أو تكون من بين بمعنى تبين ومنه المثل قد بين الصبح لذى عينين (وثانيها) قوله ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وفيه وجهان (أحدهما) أنه تعالى يريد بالمثل ما ذكر فى التوراة والانجيل من اقامة الحدود فأنزل فى القرآن مثله وهو قول الضحاك (والثانى) قوله ومثلا أى شبها من حالهم بحالكم فى تكذيب الرسل يعنى بينا لكم ما أحل بهم من العقاب لتمردهم على الله تعالى فجعلنا ذلك مثلا لكم لتعلموا أنكم اذا شاركتموهم فى المعصية كنتم مثلهم فى استحقاق العذاب وهو قول مقاتل (وثالثها) قوله وموعظة للمتقين والمراد به الوعيد والتحذير من فعل المعاصى ولا شبهة فى أنه موعظة للكل لكنه تعالى خص المتقين بالذكر للعلة التى ذكرناها فى قوله هدى للمتقين وههنا آخر الكلام فى الاحكام ﴿القول فى الالهيات﴾ اعلم أنه تعالى ذكر مثلين (أحدهما) فى بيان أن دلائل الايمان فى غاية الظهور (الثانى) فى بيان أن أديان الكفرة فى نهاية الظلمة والخفاء أما المثل الاول فهو قوله سبحانه وتعالى ﴿الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولاغربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شئ عليم﴾ اعلم أن الكلام فى هذه الآية مرتب على فصول

(الفصل الاول فى اطلاق اسم النور على الله تعالى) اعلم أن لفظ النور موضوع فى اللغة لهذه الكيفية الفائضة من الشمس والقمر والنار على الارض والجدران وغيرهما وهذه الكيفية يستحيل أن تكون اله العالم لوجوه (أحدها) أن هذه الكيفية ان كانت عبارة عن الجسم كان الدليل الدال على حدوث الجسم دالا على حدوثها وان كانت عرضا فمتى ثبت حدوث الجسم لزم حدوث جميع الاعراض القائمة به ولكن هذه المقدمة انما تثبت بعد اقامة الدلالة على أن الحلول على الله تعالى محال (وثانيها) انا سواء قلنا النور جسم أو أمر حال فى الجسم فهو منقسم لانه ان كان جسما فلا شك فى أنه منقسم وان كان حالا فيه فالحال فى المنقسم منقسم وعلى التقديرين فالنور منقسم وكل منقسم فانه يفتقر فى تحققه الى تحقق أجزائه وكل واحد من أجزائه غيره وكل مفتقر فهو فى تحققه مفتقر الى غيره والمفتقر الى الغير ممكن لذاته محدث بغيره فالنور محدث فلا يكون الها (وثالثها) أن هذا النور المحسوس لو كان هو الله لوجب أن لا يزول هذا النور لامتناع الزوال على الله تعالى (ورابعها) أن هذا النور المحسوس يقع بطلوع الشمس والكواكب وذلك على الله محال (وخامسها) أن هذه الانوار لو كانت أزلية لكانت اما أن تكون متحركة أو ساكنة لا جائز أن تكون متحركة لان الحركة معناها الانتقال من مكان الى مكان فالحركة مسبوقة بالحصول فى المكان الاول والازلى يمتنع أن يكون مسبوقا بالغير فالحركة الازلية محال ولا جائز أن تكون ساكنة لان السكون لو كان أزليا لكان يمتنع الزوال لكن السكون جائز الزوال لانا نرى الانوار تنتقل من مكان الى مكان فدل ذلك على حدوث الانوار (وسادسها) أن النور اما أن يكون جسما أو كيفية قائمة بالجسم والاول محال لانا قد نعقل الجسم جسما مع الذهول عن كونه نيرا ولان الجسم قد يستنير بعد أن كان مظلما فثبت الثانى لكن الكيفية القائمة بالجسم محتاجة الى الجسم والمحتاج الى الغير لا يكون الها وبمجموع هذه الدلائل يبطل قول المانوية الذين يعتقدون أن الاله سبحانه هو النور الاعظم وأما المجسمة المعترفون بصحة

يقتضيه استعداده فأعلاها للموحدين والثانية لليهود والثالثة للنصارى والرابعة للصابئين والخامسة للمجوس والسادسة للمشركين
والسابعة للمنافقين وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما الجحيم لمن ادعى الربوبية ولظى لعبدة النار والحطمة لعبدة الاصنام وسقر
لليهود والسعير للنصارى والجحيم للصابئين والهاوية للموحدين ولعل حصرها في السبع لانحصار المهلكات في المحسوسات

القرآن فيحتج على فساد قولهم بوجوه (الاول) قوله ليس كمثله شيء ولو كان نورا لبطل ذلك لان الانوار
كلها متماثلة (الثاني) أن قوله تعالى مثل نوره صريح في أنه ليس ذاته نفس النور بل النور مضاف
اليه وكذا قوله يهدي الله لنوره من يشاء فان قيل قوله الله نور السموات يقتضي ظاهره أنه في ذاته نور
وقوله مثل نوره يقتضي أن لا يكون هو في ذاته نورا وبينهما تناقض قلنا نظير هذه الآية قولك زيد كرم
وجود ثم تقول ينعش الناس بكرمه وجوده وعلى هذا الطريق لا تناقض (الثالث) قوله سبحانه وتعالى
وجعل الظلمات والنور وذلك صريح في أن ماهية النور مجعولة لله تعالى فيستحيل أن يكون الاله نورا
فثبت أنه لا بد من التأويل والعلماء ذكروا فيه وجوها (أحدها) أن النور سبب للظهور والهداية لما
شاركت النور في هذا المعنى صح اطلاق اسم النور على الهداية وهو كقوله تعالى الله ولي الذين آمنوا يخرجهم
من الظلمات الى النور وقوله أفمن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا وقال ولكن جعلناه نورا نهدي به من
نشاء من عبادنا فقوله الله نور السموات والارض أي ذو نور السموات والارض والنور هو الهداية ولا تحصل
الا لاهل السموات والحاصل أن المراد الله هادي أهل السموات والارض وهو قول ابن عباس والاكثرين
رضي الله عنهم (وثانيها) المراد أنه مدبر السموات والارض بحكمة بالغة وحجة نيرة فوصف نفسه بذلك كما
يوصف الرئيس العالم بأنه نور البلد فانه اذا كان مدبرهم تدبيرا حسنا فهو لهم كالنور الذي يهتدى به الى مسالك
الطرق قال جرير * وأنت لنا نور وغيث وعصمة * وهذا اختيار الاصم والزجاج (وثالثها) المراد ناظم
السموات والارض على الترتيب الاحسن فانه قد يعبر بالنور عن النظام يقال ما أرى لهذا الامر نورا
(ورابعها) معناه منور السموات والارض ثم ذكروا في هذا القول ثلاثة أوجه (أحدها) أنه منور السماء
بالملائكة والارض بالانبياء (والثاني) منورها بالشمس والقمر والكواكب (والثالث) أنه زين السماء
بالشمس والقمر والكواكب وزين الارض بالانبياء والعلماء وهو مروي عن أبي بن كعب والحسن وأبي
العالية والاقرب هو القول الاول لان قوله في آخر الآية يهدي الله لنوره من يشاء يدل على أن المراد
بالنور الهداية الى العلم والعمل * واعلم أن الشيخ الغزالي رحمه الله صنف في تفسير هذه الآية الكتاب المسمى
بمشكاة الانوار وزعم أن الله نور في الحقيقة بل ليس النور الا هو وأنا أنقل محصل ما ذكره مع زوائد كثيرة
تقوي كلامه ثم ننظر في صحته وفساده على سبيل الانصاف فقال اسم النور اما وضع للكيفية الفائضة من
الشمس والقمر والنار على ظواهر هذه الاجسام الكثيفة فيقال استنارت الارض ووقع نور الشمس على
الثوب ونور السراج على الحائط ومعلوم أن هذه الكيفية انما اختصت بالفضيلة والشرف لان المرئيات
تصير بسببها ظاهرة منجلية ثم من المعلوم أنه كما يتوقف ادراك هذه المرئيات على كونها مستنيرة فكذا
يتوقف على وجود العين الباصرة اذ المرئيات بعد استنارتها لا تكون ظاهرة في حق العميان فقد ساوى
الروح الباصرة النور الظاهر في كونه ركنا لا بد منه للظهور ثم يترجح عليه في أن الروح الباصرة هي المدركة
وبها الادراك وأما النور الخارج فليس بمدرك ولا به الادراك بل عنده الادراك فكان وصف الاظهار
بالنور الباصر أحق منه بالنور المبصر فلا جرم أطلقوا اسم النور على نور العين المبصرة فقالوا في الخفاش ان نور
عينه ضعيف وفي الاعمش انه ضعف نور بصره وفي الأعمى انه فقد نور البصر اذا ثبت هذا فنقول ان للانسان
بصرا وبصيرة فالبصر هو العين الظاهرة المدركة للاضواء والالوان والبصيرة هي القوة العاقلة وكل واحد
من الادراكين يقتضي ظهور المدرك فكل واحد من الادراكين نور الا أنهم عددوا لنور العين عيوبا لم
يحصل شيء منها في نور العقل والغزالي رحمه الله تعالى ذكر منها سبعة ونحن جعلناها عشرين (الاول) أن

بالحواس الخمس ومقتضيات القوة الشهوية والغضبية وقرئ بضم الزاي وبحذف الهمزة والقاء حركتها الى ما قبلها مع تشديدها في الوقف والوصل ومنهم حال من جزء أو من ضميره في الظرف لا في مقسوم لان الصفة لا تعمل فيما تقدم موصوفها (ان المتقين) من اتباعه في الكفر والفواحش فان غيرها مكفر (في جنات وعيون) أي مستقرون فيها خالدين لكل واحد منهم جنة وعين أو لكل منهم عدة منهما كقوله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان وقرئ بكسر العين حيث وقع في القرآن العظيم (ادخلوها) على ارادة القول أمرا من الله تعالى لهم بالدخول وقرئ أدخلوها أمرا منه تعالى للملائكة بادخالهم وقرأ الحسن أدخلوها مبنيا للمفعول على صيغة الماضي من الادخال (بسلام) ملتبسين بسلام أي سالمين أو مسلما عليكم (آمنين) من الآفات والزوال (ونزعنا ما في
صدورهم من غل) أي حقد كان في الدنيا وعن علي رضي الله تعالى عنه أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم رضوان الله تعالى
عليهم أجمعين (اخوانا) حال من الضمير في قوله تعالى في جنات أو من فاعل ادخلوها أو من الضمير في آمنين أو الضمير المضاف اليه
والعامل فيه معنى الاضافة وكذلك قوله تعالى (على سرر متقابلين) ويجوز كونهما صفتين لاخوانا أو حالين من ضميره لانه بمعنى

متصافين وكون الثاني حالا من المستكن في الاول وعن مجاهد تدور بهم الاسرة حيثما داروا فهم متقابلون في جميع أحوالهم (لا يمسهم فيها نصب) أي تعب بأن لا يكون لهم فيها ما يوجبه من الكد في تحصيل ما لابد لهم منه لحصول كل ما يريدونه من غير مزاولة عمل أصلا أو بأن لا يعتريهم ذلك وإن باشروا الحركات العنيفة لكمال قوتهم وهو استئناف أو حال بعد حال أو حال من الضمير في

القوة الباصرة لا تدرك نفسها ولا تدرك ادراكها ولا تدرك آلتها أما أنها لا تدرك نفسها ولا تدرك ادراكها فلان القوة الباصرة وادراك القوة الباصرة ليسا من الامور المبصرة بالعين المبصرة وأما آلتها فهي العين والقوة الباصرة بالعين لا تدرك العين وأما القوة العاقلة فانها تدرك نفسها وتدرك ادراكها وتدرك آلتها في الادراك وهي القلب والدماغ فثبت أن نور العقل أكمل من نور البصر (الثاني) أن القوة الباصرة لا تدرك الكليات والقوة العاقلة تدركها ومدرك الكليات وهو القلب أشرف من مدرك الجزئيات أما أن القوة الباصرة لا تدرك الكليات فلان القوة الباصرة لو أدركت كل ما في الوجود فهي ما أدركت الكل لان الكل عبارة عن كل ما يمكن دخوله في الوجود في الماضي والحاضر والمستقبل وأما أن القوة العاقلة تدرك الكليات فلانا نعرف أن الاشخاص الانسانية مشتركة في الانسانية ومتمايزة بخصوصياتها وما به المشاركة غير ما به الممايزة فالانسانية من حيث هي انسانية أمر مغاير لهذه المشخصات فقد عقلنا الماهية الكلية وأما أن ادراك الكليات أشرف فلان ادراك الكليات يمتنع التغير وادراك الجزئيات واجب التغير ولان ادراك الكلي يتضمن ادراك الجزئيات الواقعة تحته لان ما ثبت للماهية ثبت لجميع أفرادها ولا ينعكس فثبت أن الادراك العقلي أشرف (الثالث) الادراك الحسي غير منتج والادراك العقلي منتج فوجب أن يكون العقل أشرف أما كون الادراك الحسي غير منتج فلان من أحس بشئ لا يكون ذلك الاحساس سببا لحصول احساس آخر له بل لو استعمل له الحس مرة أخرى لاحس به مرة أخرى ولكن ذلك لا يكون انتاج الاحساس لاحساس آخر وأما أن الادراك العقلي منتج فلانا اذا عقلنا أمورا ثم ركبناها في عقولنا توصلنا بتركيبها الى اكتساب علوم أخر وهكذا كل تعقل حاصل فانه يمكن التوصل به الى تحصيل تعقل آخر الى ما لا نهاية له فثبت أن الادراك العقلي أشرف (الرابع) الادراك الحسي لا يتسع للامور الكثيرة والادراك العقلي يتسع لها فوجب أن يكون الادراك العقلي أشرف أما أن الادراك الحسي لا يتسع لها فلان البصر اذا توالى عليه ألوان كثيرة عجز عن تمييزها فادرك لونا كأنه حاصل من اختلاط تلك الالوان والسمع اذا توالت عليه كلمات كثيرة التبست عليه تلك الكلمات ولم يحصل التمييز وأما أن الادراك العقلي متسع لها فلان كل من كان تحصيله للعلوم أكثر كانت قدرته على كسب الجديد أسهل وبالعكس وذلك يوجب الحكم بأن الادراك العقلي أشرف (الخامس) القوة الحسية اذا أدركت المحسوسات القوية ففي ذلك الوقت تعجز عن ادراك الضعيفة فان من سمع الصوت الشديد في تلك الحالة لا يمكنه أن يسمع الصوت الضعيف والقوة العقلية لا يشغلها معقول عن معقول (السادس) القوى الحسية تضعف بعد الاربعين وتضعف عند كثرة الافكار التي هي موجبة لاستيلاء النفس على البدن الذي هو موجب لخراب البدن والقوى العقلية تقوى بعد الاربعين وتقوى عند كثرة الافكار الموجبة لخراب البدن فدل ذلك على استغناء القوة العقلية عن هذه الآلات واحتياج القوى الحسية اليها (السابع) القوة الباصرة لا تدرك المرئي مع القرب القريب ولا مع البعد البعيد والقوة العقلية لا يختلف حالها بحسب القرب والبعد فانها ترقى الى ما فوق العرش وتنزل الى ما تحت الثرى في أقل من لحظة واحدة بل تدرك ذات الله وصفاته مع كونه منزها عن القرب والبعد والجهة فكانت القوة العقلية أشرف (الثامن) القوة الحسية لا تدرك من الاشياء الا ظواهرها فاذا أدركت الانسان فهي في الحقيقة ما أدركت الانسان لانها ما أدركت الا السطح الظاهر من جسمه والا اللون القائم بذلك السطح وبالاتفاق فليس الانسان عبارة عن مجرد السطح واللون فالقوة الباصرة عاجزة عن النفوذ في الباطن أما القوة العاقلة فان باطن الاشياء

متقابلين (وما هم منها بمخرجين) أبد الآباد لأن تمام النعمة بالخلود (نبئ عبادي) وهم الذين عبر عنهم بالمتقين (أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم) فذلكة لما سلف من الوعد والوعيد وتقرير له وفي ذكر المغفرة إشعار بأن ليس المراد بالمتقين من يتقي جميع الذنوب كبيرها وصغيرها وفي وصف ذاته تعالى بها وبالرحمة على وجه القصر دون التعذيب إيذان بأنهما مما يقتضيهما الذات وأن العذاب إنما يتحقق بما يوجبه من خارج (ونبئهم) عطف على نبئ عبادي والمقصود اعتبارهم بما جرى على إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع أهله من البشرى في تضاعيف الخوف وبما حل بقوم لوط من العذاب ونجاته عليه الصلاة والسلام مع أهله التابعين له في ضمن الخوف وتنبيههم بحلول انتقامه تعالى من المجرمين وعلمهم بأن عذاب الله هو العذاب الأليم (عن ضيف إبراهيم) عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم جبريل عليه الصلاة والسلام وملكان معه وقال محمد وظاهرها
ابن كعب وسبعة معه وقيل جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم الصلاة والسلام وقال الضحاك كانوا تسعة وعن السدي كانوا أحد عشر على صور الغلمان الوضاء وجوههم وعن مقاتل أنهم كانوا اثني عشر ملكا وإنما لم يتعرض لعنوان رسالتهم لأنهم لم يكونوا مرسلين إلى إبراهيم

عليه الصلاة والسلام بل الى قوم لوط حسبما يأتى ذكره (اذ دخلوا عليه) نصب بفعل مضمر معطوف على نبئ أى واذكر وقت دخولهم
عليه أو بخبر مقدر مضاف الى ضيف أى خبر ضيف ابراهيم حين دخولهم عليه أو بنفس ضيف على أنه مصدر فى الاصل (فقالوا) عند ذلك
(سلاما) أى نسلم سلاما أو سلمنا أو سلمت سلاما (قال انا منكم وجلون) أى خائفون فان الوجل اضطراب النفس لتوقع
مكروه قاله عليه الصلاة والسلام حين امتنعوا من أكل ما قربه اليهم من العجل الحنيذ لما أن المعتاد عندهم أنه اذا نزل بهم ضيف فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يجئ بخير لا عند ابتداء دخولهم لقوله تعالى فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة فلا مجال لكون خوفه عليه الصلاة والسلام بسبب دخولهم بغير اذن ولا بغير وقت اذ لو كان كذلك لما أجابوا حينئذ بما أجابوا به ولم يتصد عليه الصلاة والسلام لتقريب الطعام اليهم وانما لم يذكر ههنا اكتفاء بما بين فى غير هذا الموضع ألا يرى الى أنه لم يذكر ههنا رده عليه الصلاة والسلام سلامهم (قالوا لا توجل) لا تخف وقرئ لا تاجل ولا توجل من أوجله أى أخافه ولا تواجل من واجله بمعنى أوجله (انا نبشرك) استئناف لتعليل النهى عن الوجل فان المبشر به لا يكاد يحوم حول ساحته خوف ولا حزن كيف لا وهو بشارة ببقائه وبقاء
أهله فى عافية وسلامة زمانا طويلا (بغلام) هو اسحق عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى فبشرناها
باسحق ولم يتعرض ههنا لبشارة يعقوب عليه الصلاة والسلام اكتفاء بما ذكر فى سورة هود (عليم) اذا بلغ وفى موضع آخر بغلام حليم
(قال أبشرتمونى) بذلك (على أن مسنى الكبر) وأثر فى تعجب عليه الصلاة والسلام من بشارتهم بالولد فى حالة مباينة للولادة وزاد فى ذلك

وظاهرها بالنسبة اليها على السواء فانها تدرك البواطن والظواهر وتغوص فيها وفى أجزائها فكانت القوة
العاقلة نورا بالنسبة الى الباطن والظاهر أما القوة الباصرة فهى بالنسبة الى الظاهر نور وبالنسبة الى
الباطن ظلمة فكانت القوة العاقلة أشرف من القوة الباصرة (التاسع) ان مدرك القوة العاقلة هو الله
تعالى وجميع أفعاله ومدرك القوة الباصرة هو الالوان والاشكال فوجب أن تكون نسبة شرف القوة
العاقلة الى شرف القوة الباصرة كنسبة شرف ذات الله تعالى الى شرف الالوان والاشكال (العاشر)
القوة العاقلة تدرك جميع الموجودات والمعدومات والماهيات التى هى معروضات الموجودات والمعدومات
ولذلك فان أول حكمها أن الوجود والعدم لا يجتمعان ولا يرتفعان وذلك مسبوق لا محالة بتصور ماهية
الوجود وماهية العدم فكأنه بهذين التصورين قد أحاط بجميع الامور من بعض الوجوه وأما القوة
الباصرة فانها لا تدرك الا الاضواء والالوان وهما من أخس عوارض الاجسام والاجسام أخس من
الجواهر الروحانية فكان متعلق القوة الباصرة أخس الموجودات وأما متعلق القوة العاقلة فهو جميع
الموجودات والمعدومات فكانت القوة العاقلة أشرف (الحادى عشر) القوة العاقلة تقوى على توحيد
الكثير وتكثير الواحد والقوة الباصرة لا تقوى على ذلك أما أن القوة العاقلة تقوى على توحيد الكثير فذلك
لانها تضم الجنس الى الفصل فيحدث منهما طبيعة نوعية واحدة وأما أنها تقوى على تكثير الواحد فلانها
تأخذ الانسان وهى ماهية واحدة فتقسمها الى مقوماتها والى عوارضها اللازمة وعوارضها المفارقة ثم
تقسم مقوماته الى الجنس وجنس الجنس والفصل وفصل الفصل وجنس الفصل وفصل الجنس والى سائر
الاجزاء المقومة التى لا تعد من الاجناس ولا من الفصول ثم لا تزال تأتى بهذا التقسيم فى كل واحد من
هذه الاقسام حتى تنتهى من تلك المركبات الى البسائط الحقيقية ثم تعتبر فى العوارض اللازمة أن تلك
العوارض مفردة أو مركبة ولازمة بوسائط أو بوسط أو بغير وسط فالقوة العاقلة كأنها نفذت فى أعماق
الماهيات وتغلغلت فيها وميزت كل واحد من أجزائها عن صاحبه وأنزلت كل واحد منها فى المكان اللائق به
فأما القوة الباصرة فلا تطلع على أحوال الماهيات بل لا ترى الا أمرا واحدا ولا تدرى ما هو وكيف هو فظهر
أن القوة العاقلة أشرف (الثانى عشر) القوة العاقلة تقوى على ادراكات غير متناهية والقوة الحاسة
لا تقوى على ذلك بيان الاول من وجوه (الاول) القوة العاقلة يمكنها أن تتوسل بالمعارف الحاضرة الى
استنتاج المجهولات ثم انها تجعل تلك النتائج مقدمات فى نتائج أخرى لا الى نهاية وقد عرفت أن القوة
الحاسة لا تقوى على الاستنتاج أصلا (الثانى) ان القوة العاقلة تقوى على تعقل مراتب الاعداد ولا نهاية لها
(الثالث) أن القوة العاقلة يمكنها أن تعقل نفسها وان تعقل انها عقلت وكذا الى غير النهاية (الرابع) النسب
والاضافات غير متناهية وهى معقولة لا محسوسة فظهر ان القوة العاقلة أشرف (الثالث عشر) الانسان
بقوته العاقلة يشارك الله تعالى فى ادراك الحقائق وبقوته الحاسة يشارك البهائم والنسبة معتبرة فكانت
القوة العاقلة أشرف (الرابع عشر) القوة العاقلة غنية فى ادراكها العقلى عن وجود المعقول فى الخارج
والقوة الحاسة محتاجة فى ادراكها الحسى الى وجود المحسوس فى الخارج والغنى أشرف من المحتاج
(الخامس عشر) هذه الموجودات الخارجية ممكنة لذواتها وانها محتاجة الى الفاعل والفاعل لا يمكنه
الايجاد على سبيل الاتقان الا بعد تقدم العلم فاذن وجود هذه الاشياء فى الخارج تابع للادراك العقلى وأما
الاحساس بها فلا شك أنه تابع لوجودها فى الخارج فاذن القوة الحاسة تبع لتبع القوة العاقلة
(السادس عشر) القوة العاقلة غير محتاجة فى العقل الى الآلات بدليل أن الانسان لو اختلت حواسه

فقال (فبم تبشرون) أى بأى أعجوبة تبشروننى فان البشارة بما لا يتصور وقوعه عادة بشارة بغير شئ أو بأى طريقة تبشروننى وقرئ بتشديد النون المكسورة على ادغام نون الجمع فى نون الوقاية (قالوا بشرناك بالحق) أى بما يكون لا محالة أو باليقين الذى لا لبس فيه أو بطريقة هى حق وهو أمر الله تعالى وقوله (فلا تكن من القانطين) من الآيسين من ذلك فان الله قادر على أن يخلق بشرا بغير أبوين فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر وقرئ من القنطين وكان مقصده عليه الصلاة والسلام استعظام نعمته تعالى عليه فى ضمن التعجب العادى المبنى على سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده لا استبعاد ذلك بالنسبة الى قدرته سبحانه كما ينبئ عنه قول الملائكة فلا تكن من القانطين دون أن يقولوا من الممترين أو نحوه (قال ومن يقنط) استفهام انكارى أى لا يقنط (من رحمة ربه الا الضالون) المخطئون طريق المعرفة والصواب فلا يعرفون سعة رحمته وكمال علمه وقدرته كما قال يعقوب عليه الصلاة والسلام لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون ومراده نفى القنوط عن نفسه على أبلغ وجه أى ليس بى قنوط من رحمته تعالى وانما الذى أقول لبيان منافاة حالى لفيضان تلك النعمة الجليلة على وفى التعرض لوصف الربوبية والرحمة ما لا يخفى من الجزالة وقرئ بضم النون وبكسرها من قنط بالفتح ولم تكن هذه المفاوضة من الملائكة مع ابراهيم عليه الصلاة والسلام لا خاصة بل مع سارة أيضا حسبما شرح فى سورة هود ولم يذكر ذلك ههنا اكتفاء بما ذكر هنالك كما أنه لم يذكر هذه هنالك اكتفاء بما ذكر ههنا (قال) أى ابراهيم عليه الصلاة والسلام وتوسيطه بين قوله السابق وبين قوله (فما خطبكم) أى أمركم وشأنكم الخطير الذى لاجله

الخمس فانه يعقل أن الواحد نصف الاثنين وأن الاشياء المساوية لشئ واحد متساوية وأما القوة الحساسة فانها محتاجة الى آلات كثيرة والغنى أفضل من المحتاج (السابع عشر) الادراك البصرى لا يحصل الا للشئ الذى فى الجهات ثم انه غير متصرف فى كل الجهات بل لا يتناول الا المقابل أو ما هو فى حكم المقابل واحترزنا بقولنا فى حكم المقابل عن أمور أربعة (الاول) العرض فانه ليس بمقابل لانه ليس فى المكان ولكنه فى حكم المقابل لاجل كونه قائما بالجسم الذى هو مقابل (الثانى) رؤية الوجه فى المرآة فان الشعاع يخرج من العين الى المرآة ثم يرتد منها الى الوجه فيصير الوجه مرئيا وهو من هذا الاعتبار كالمقابل لنفسه (الثالث) رؤية الانسان قفاه اذا جعل احدى المرآتين محاذية لوجهه والاخرى لقفاه (والرابع) رؤية ما لا يقابل بسبب انعطاف الشعاع فى الرطوبات كما هو مشروح فى كتب المناظر وأما القوة العاقلة فانها مبرأة عن الجهات فانها تعقل الجهة والجهة ليست فى الجهة ولذلك تعقل أن الشئ اما أن يكون فى الجهة واما أن لا يكون فى الجهة وهذا الترديد لا يصح الا بعد تعقل معنى قولنا ليس فى الجهة (الثامن عشر) القوة الباصرة تعجز عند الحجاب وأما القوة العاقلة فانها لا يحجبها شئ أصلا فكانت أشرف (التاسع عشر) القوة العاقلة كالامير والحاسة كالخادم والامير أشرف من الخادم وتقرير الامارة والخدمة مشهور (العشرون) القوة الباصرة قد تغلط كثيرا فانها قد تدرك المتحرك ساكنا وبالعكس كالجالس فى السفينة فانه قد يدرك السفينة المتحركة ساكنة والشط الساكن متحركا ولولا العقل لما تميز خطأ البصر عن صوابه والعقل حاكم والحس محكوم فثبت بما ذكرنا أن الادراك العقلى أشرف من الادراك البصرى وكل واحد من الادراكين يقتضى الظهور الذى هو أشرف خواص النور فكان الادراك العقلى أولى بكونه نورا من الادراك البصرى واذا ثبت هذا فنقول هذه الانوار العقلية قسمان (أحدهما) واجب الحصول عند سلامة الاحوال وهى التعقلات الفطرية (والثانى) ما يكون مكتسبا وهى التعقلات النظرية أما الفطرية فليست هى من لوازم جوهر الانسان لانه حال الطفولية لم يكن عالما البتة فهذه الانوار الفطرية انما حصلت بعد أن لم تكن فلا بد لها من سبب وأما النظريات فمعلوم أن الفطرة الانسانية قد يعتريها الزيغ فى الاكثر واذا كان كذلك فلا بد من هاد ومرشد ولا مرشد فوق كلام الله تعالى وفوق ارشاد الانبياء فتكون منزلة آيات القرآن نورا عند عين العقل بمنزلة نور الشمس عند العين الباصرة اذ به يتم الابصار فبالحرى أن يسمى القرآن نورا كما يسمى نور الشمس نورا فنور القرآن يشبه نور الشمس ونور العقل يشبه نور العين وبهذا يظهر معنى قوله فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا وقوله قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا واذا ثبت أن بيان الرسول أقوى من نور الشمس وجب أن يكون نفسه القدسية أعظم فى النورانية من الشمس وكما أن الشمس فى عالم الاجسام تفيد النور لغيره ولا تستفيده من غيره فكذا نفس النبى صلى الله عليه وسلم تفيد الانوار العقلية لسائر الانفس البشرية ولا تستفيد الانوار العقلية من شئ من الانفس البشرية فلذلك وصف الله تعالى الشمس بانها سراج حيث قال وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ووصف محمدا صلى الله عليه وسلم بانه سراج منير اذا عرفت هذا فنقول ثبت بالشواهد العقلية والنقلية أن الانوار الحاصلة فى أرواح الانبياء مقتبسة من الانوار الحاصلة فى أرواح الملائكة قال تعالى ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده وقال نزل به الروح الامين على قلبك وقال قل نزله روح القدس من ربك بالحق وقال تعالى ان هو الا وحى يوحى علمه شديد القوى والوحى لا يكون الا بواسطة الملائكة فاذا جعلنا أرواح الانبياء أعظم استنارة من الشمس فأرواح الملائكة التى هى كالمعادن لانوار عقول الانبياء

أرسلتم سوى البشارة (أيها المرسلون) صريح في أن بينهم مقالة مطوية لهم أشير بها الى مكانها كما في قوله تعالى قال أأسجد لمن خلقت طينا قال أرأيتك هذا الذي كرمت على الآية فان قوله الاخير ليس موصولا بقوله الاول بل هو مبنى على قوله تعالى فاخرج منها فانك رجيم فان توسيط قال بين قوليه للايذان بعدم اتصال الثاني بالاول وعدم ابتنائه عليه بل على غيره ثم خطابه لهم عليهم الصلاة والسلام بعنوان الرسالة بعد ما كان خطابه السابق مجردا عن ذلك مع تصديره بالفاء دليل على أن مقالتهم المطوية كانت متضمنة لبيان أن مجيئهم ليس لمجرد البشارة بل لهم شأن آخر لاجله أرسلوا فكأنه قال عليه الصلاة والسلام ان لم يكن شأنكم مجرد البشارة فماذا هو ولا حاجة الى الالتجاء الى أن علمه عليه الصلاة والسلام بأن كل المقصود ليس البشارة بسبب أنهم كانوا ذوى عدد والبشارة لا تحتاج الى عدد ولذلك اكتفى بالواحد في زكريا عليه الصلاة والسلام ومريم ولا الى أنهم بشروه في تضاعيف الحال لازالة الوجل ولو كانت تمام المقصود لابتدؤا بها فتأمل (قالوا انا أرسلنا الى قوم مجرمين) هم قوم لوط لكن وصفوا بالاجرام وجيء بهم بطريق التنكير ذما لهم واستهانة بهم (الا آل لوط) استثناء متصل من الضمير في مجرمين أي الى قوم أجرموا جميعا الا آل لوط فالقوم والارسال شاملان للمجرمين وغيرهم والمعنى انا أرسلنا الى قوم أجرم كلهم الا آل لوط لنهلك الاولين وننجي الآخرين ويدل عليه قوله تعالى (انا لمنجوهم) أي لوطا وآله (أجمعين) أي مما يصيب القوم فانه استئناف للاخبار بنجاتهم لعدم اجرامهم أو لبيان ما فهم من الاستثناء من مطلق عدم شمول العذاب لهم فان ذلك قد يكون بكون حالهم بين بين أو احتماله فان من تعلق بهم التنجية فهى من شمول العذاب أو

لابد وأن تكون أعظم من أنوار أرواح الانبياء لان السبب لابد وأن يكون أقوى من المسبب ثم نقول ثبت أيضا بالشواهد العقلية والنقلية أن الارواح السماوية مختلفة فبعضها مستفيدة وبعضها مفيدة قال تعالى في وصف جبريل عليه السلام مطاع ثم أمين واذا كان هو مطاع الملائكة فالمطيعون لابد وأن يكونوا تحت أمره وقال وما منا الا له مقام معلوم واذا ثبت هذا فالمفيد أولى بأن يكون نورا من المستفيد للعلة المذكورة ولمراتب الانوار في عالم الارواح مثال وهو أن ضوء الشمس اذا وصل الى القمر ثم دخل في كوة بيت ووقع على مرآة منصوبة على حائط ثم انعكس منها الى حائط آخر نصب عليه مرآة أخرى ثم انعكس منها الى طشت مملوء من الماء موضوع على الارض ثم انعكس منه الى سقف البيت فالنور الاعظم في الشمس التي هي المعدن (وثانيا) في القمر (وثالثا) ما وصل الى المرآة الاولى (ورابعا) ما وصل الى المرآة الثانية (وخامسا) ما وصل الى الماء (وسادسا) ما وصل الى السقف وكل ما كان أقرب الى المنبع الاول فانه أقوى مما هو أبعد منه فكذا الانوار السماوية لما كانت مرتبة لاجرم كان نور المفيد أشد اشراقا من نور المستفيد ثم تلك الانوار لا تزال تكون مترقية حتى تنتهي الى النور الاعظم والروح الذي هو أعظم الارواح منزلة عند الله الذي هو المراد من قوله سبحانه يوم يقوم الروح والملائكة صفا ثم نقول لاشك ان هذه الانوار الحسية ان كانت سفلية كانت كأنوار النيران أو علوية كانت كأنوار الشمس والقمر والكواكب وكذا الانوار العقلية سفلية كانت كالارواح السفلية التي للانبياء والاولياء أو علوية كالارواح العلوية التي هي الملائكة فانها بأسرها ممكنة لذواتها والممكن لذاته يستحق العدم من ذاته والوجود من غيره والعدم هو الظلمة الحاصلة والوجود هو النور فكل ما سوى الله مظلم لذاته مستنير بانارة الله تعالى وكذا جميع معارفها بعد وجودها حاصل من وجود الله تعالى فالحق سبحانه هو الذي أظهرها بالوجود بعد ان كانت في ظلمات العدم وأفاض عليها أنوار المعارف بعد ان كانت في ظلمات الجهالة فلا ظهور لشيء من الاشياء الا باظهاره وخاصة النور اعطاء الاظهار والتجلي والانكشاف وعند هذا ظهر ان النور المطلق هو الله سبحانه وان اطلاق النور على غيره مجاز اذ كل ما سوى الله فانه من حيث هو هو ظلمة محضة لانه من حيث انه هو عدم محض بل الانوار اذا نظرنا اليها من حيث هي هي فهي ظلمات لانها من حيث هي هي ممكنات والممكن من حيث هو هو معدوم والمعدوم مظلم فالنور اذا نظرنا اليه من حيث هو هو ظلمة فأما اذا التفت اليها من حيث ان الحق سبحانه أفاض عليها نور الوجود فبهذا الاعتبار صارت أنوارا فثبت انه سبحانه هو النور وان كل ما سواه فليس بنور الا على سبيل المجاز ثم انه رحمه الله تكلم بعد هذا في أمرين (الاول) انه سبحانه لم أضاف النور الى السموات والارض وأجاب فقال قد عرفت أن السموات والارض مشحونة بالانوار العقلية والانوار الحسية أما الحسية فما نشاهده في السموات من الكواكب والشمس والقمر وما نشاهده في الارض من الاشعة المنبسطة على سطوح الاجسام حتى ظهرت بها الالوان المختلفة ولولاها لم يكن للالوان ظهور بل وجود وأما الانوار العقلية فالعالم الاعلى مشحون بها وهي جواهر الملائكة والعالم الاسفل مشحون بها وهي القوى النباتية والحيوانية والانسانية وبالنور الانساني السفلي ظهر نظام عالم الاسفل كما بالنور الملكي ظهر نظام عالم العلو وهو المعنى بقوله تعالى ليستخلفنهم في الارض وقال ويجعلكم خلفاء الارض فاذا عرفت هذا عرفت ان العالم بأسره مشحون بالانوار الظاهرة البصرية والباطنة العقلية ثم عرفت أن السفلية فائضة بعضها من بعض فيضان النور من السراج فان السراج هو الروح النبوي ثم ان الانوار النبوية القدسية مقتبسة من الارواح العلوية اقتباس السراج من النور وأن العلويات مقتبسة بعضها من بعض

منقطع من قوم وقوله تعالى انا لمنجوهم متصل بآل لوط جار مجرى خبر لكن وعلى هذا فقوله تعالى (الا امرأته) استثناء من آل لوط أو من ضميرهم وعلى الاول من الضمير خاصة لاختلاف الحكمين اللهم الا أن يجعل انا لمنجوهم اعتراضا وقرئ بالتخفيف (قدرنا انها لمن الغابرين) الباقين مع الكفرة ٣١٦ لتهلك معهم وقرئ قدرنا بالتخفيف وانما علق فعل التقدير مع اختصاص ذلك بافعال القلوب لتضمنه معنى العلم ويجوز حمله على معنى قلنا لانه بمعنى القضاء قول وأصله جعل الشئ على مقدار غيره واسنادهم له الى أنفسهم وهو فعل الله سبحانه لما لهم من الزلفى والاختصاص (فلما جاء آل لوط المرسلون) شروع في بيان كيفية اهلاك المجرمين وتنجية آل لوط حسبما أجمل في الاستثناء ثم فصل في التعليل نوع تفصيل ووضع المظهر موضع المضمر للايذان بأن مجيئهم لتحقيق ما أرسلوا به من الاهلاك والتنجية وليس المراد به ابتداء مجيئهم بل مطلق كينونتهم عند آل لوط فان ما حكى عنه عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى (قال انكم قوم منكرون) انما قاله عليه الصلاة والسلام بعد اللتيا والتي حين ضاقت عليه الحيل وعيت به العلل لما لم يشاهد من المرسلين عند مقاساته الشدائد ومعاناته المكايد من قومه الذين يريدون بهم ما يريدون ما هو المعهود والمعتاد من الاعانة والامداد فيما يأتي ويذر عند تجشمه في تخليصهم انكارا لخذلانهم له وترك نصرته في مثل تلك المضايقة اصناف المعتريه له بسببهم حيث لم يكونوا مباشرين معه لاسباب المدافعة والممانعة حتى ألجأته الى أن قال لو أن لي بكم قوة أو آوي الى ركن شديد حسبما فصل في سورة هود لا أنه قاله عند ابتداء ورودهم له خوفا أن يطرقوه بشر كما قيل كيف لا وهم بجوابهم المحكي بقوله تعالى (قالوا بل

وأن بينها ترتيبا في المقامات ثم ترتقي جملتها الى نور الانوار ومعدنها ومنبعها الاول وأن ذلك هو الله وحده لا شريك له فأذن الكل نوره فلهذا قال الله نور السموات والارض (السؤال الثاني) فاذا كان الله هو النور فلم احتيج في اثباته الى البرهان * أجاب فقال ان معنى كونه نور السموات والارض معروف بالنسبة الى النور الظاهر البصري فاذا رأيت خضرة الربيع في ضياء النهار فلست تشك في أنك ترى الالوان فربما ظننت انك لا ترى مع الالوان غيرها فانك تقول لست أرى مع الخضرة غير الخضرة الا أنك عند غروب الشمس تدرك تفرقة ضرورية بين اللون حال وقوع الضوء عليه وحال عدم وقوعه عليه فلا جرم تعرف أن النور معنى غير اللون يدرك مع الالوان الا أنه كان لشدة اتحاده به لا يدرك ولشدة ظهوره يخفى وقد يكون الظهور سبب الخفاء اذا عرفت هذا فاعلم أنه كما ظهر كل شئ للبصر بالنور الظاهر فقد ظهر كل شئ للبصيرة الباطنة بالله ونوره حاصل مع كل شئ لا يفارقه ولكن بقي ههنا تفاوت وهو أن النور الظاهر يتصور أن يغيب بغروب الشمس ويحجب فحينئذ يظهر أنه غير اللون وأما النور الالهي الذي به يظهر كل شئ لا يتصور غيبته بل يستحيل تغيره فيبقى مع الاشياء دائما فانقطع طريق الاستدلال بالتفرقة ولو تصورت غيبته لانهدمت السموات والارض ولادرك عنده من التفرقة ما يحصل العلم الضروري به ولكن لما تساوت الاشياء كلها على نمط واحد في الشهادة على وجود خالقها وان كل شئ يسبح بحمده لا بعض الاشياء وفي جميع الاوقات لا في بعض الاوقات ارتفعت التفرقة وخفي الطريق اذ الطريق الظاهر معرفة الاشياء بالاضداد فما لا ضد له ولا تغير له تتشابه أحواله فلا يبعد أن يخفى ويكون خفاؤه لشدة ظهوره وجلائه فسبحان من اختفى عن الخلق لشدة ظهوره واحتجب عنهم باشراق نوره * واعلم أن هذا الكلام الذي رويناه عن الشيخ الغزالي رحمه الله كلام مستطاب ولكن يرجع حاصله بعد التحقيق الى أن معنى كونه سبحانه نورا انه خالق للعالم وانه خالق للقوى الدراكة وهو المعنى من قولنا معنى كونه نور السموات والارض أنه هادي أهل السموات والارض فلا تفاوت بين ما قاله وبين الذي نقلناه عن المفسرين في المعنى والله أعلم

(الفصل الثاني) في تفسير قوله عليه الصلاة والسلام ان لله سبعين حجابا من نور وظلمة لو كشفها لاحرقت سبحات وجهه كل ما أدرك بصره وفي بعض الروايات سبعمائة وفي بعضها سبعون ألفا فأقول لما ثبت ان الله سبحانه وتعالى متجل في ذاته لذاته كان الحجاب بالاضافة الى المحجوب لا محالة والمحجوب لا بد وأن يكون محجوبا اما بحجاب مركب من نور وظلمة واما بحجاب مركب من نور فقط أو بحجاب مركب من ظلمة فقط أما المحجوبون بالظلمة المحضة فهم الذين بلغوا في الاشتغال بالعلائق البدنية الى حيث لم يلتفت خاطرهم الى أنه هل يمكن الاستدلال بوجود هذه المحسوسات على وجود واجب الوجود أم لا وذلك لانك قد عرفت أن ما سوى الله تعالى من حيث هو هو مظلم وانما كان مستنيرا من حيث استفاد النور من حضرة الله تعالى فمن اشتغل بالجسمانيات من حيث هي هي وصار ذلك الاشتغال حائلا له عن الالتفات الى جانب النور كان حجابه محض الظلمة ولما كانت أنواع الاشتغال بالعلائق البدنية خارجة عن الحد والحصر فكذا أنواع الحجب الظلمانية خارجة عن الحد والحصر (القسم الثاني) المحجوبون بالحجب الممزوجة من النور والظلمة اعلم أن من نظر الى هذه المحسوسات فاما أن يعتقد فيها انها غنية عن المؤثر أو يعتقد فيها انها محتاجة فان اعتقد انها غنية فهذا حجاب ممزوج من نور وظلمة (أما النور) فلانه تصور ماهية الاستغناء عن الغير وذلك من صفات جلال الله تعالى وهو من صفات النور (وأما الظلمة) فلانه اعتقد حصول ذلك الوصف في هذه الاجسام مع ان ذلك الوصف لا يليق بهذا الوصف وهذا ظلمة فثبت ان هذا حجاب ممزوج من نور وظلمة ثم

حينئذ بما كانوا فيه يمترون) أي بالعذاب الذي كنت تتوعدهم به فيمترون فيه ويكذبونك قد قشروا العصا وبينوا له عليه الصلاة والسلام جلية الامر فأنى يمكن أن يمترى بعد ذلك المساءة وضيق الذرع وليست كلمة بل اضرابا عن موجب الخوف المذكور على معنى ما جئناك بما تنكرنا لاجله بل بما يسرك وتقربه عينك بل هي اضراب عما فيه عليه الصلاة والسلام من ترك النصرة له والمعنى ما خذلناك وما خلينا بينك وبينهم بل جئناك بما يدمرهم من العذاب الذي كانوا يكذبونك حين كنت تتوعدهم به ولعل تقديم هذه المقاولة على ما جرى بينه وبين أهل المدينة من المجادلة للمسارعة الى ذكر بشارة لوط عليه الصلاة والسلام باهلاك قومه وتنجية آله عقيب ذكر بشارة ابراهيم عليه الصلاة والسلام بهما وحيث كان ذلك مسارعا لبيان كيفية النجاة وترتيب مباديها أشير الى ذلك اجمالا ثم ذكر ما فعل القوم وما فعل بهم ولم يبال بتغيير الترتيب الوقوعي ثقة بمراعاته في مواقع أخر ونسبة المجيء بالعذاب اليه عليه الصلاة والسلام مع أنه نازل بالقوم بطريق تفويض أمره اليه لا بطريق نزوله عليه كأنهم جاؤه به وفوضوا أمره اليه ليرسله عليهم حسبما كان يتوعدهم به (وأتيناك بالحق) أي باليقين الذي لا مجال فيه للامتراء والشك وهو عذابهم عبر عنه بذلك تنصيصا على نفي الامتراء عنه أو المراد بالحق الاخبار بمجيء العذاب المذكور وقوله تعالى (وانا لصادقون) تأكيد له أي أتيناك فيما قلنا بالخبر الحق أي المطابق للواقع (وانا لصادقون) في ذلك الخبر أو في كل كلام فيكون كالدليل على صدقهم فيه وعلى الاول تأكيد اثر تأكيد وقوله تعالى (فأسر بأهلك) شروع في ترتيب مبادي النجاة أي اذهب بهم في الليل وقرئ بالوصل وكلاهما من السرى وهو السير في الليل وقرئ فسر

أصناف هذا القسم كثيرة فان من الناس من يعتقد أن الممكن غني عن المؤثر ومنهم من يسلم ذلك لكنه يقول المؤثر فيها طبائعها أو حركاتها أو اجتماعها وافتراقها أو نسبتها الى حركات الافلاك أو الى محركاتها وكل هؤلاء من هذا القسم (القسم الثالث) المحجوب بالنور المحضة واعلم أنه لا سبيل الى معرفة الحق سبحانه الا بواسطة تلك الصفات السلبية والاضافية ولا نهاية لهذه الصفات ولمراتبها فالعبد لا يزال يكون مترقيا فيها فان وصل الى درجة وبقي فيها كان استغراقه في مشاهدة تلك الدرجة حجابا له عن الترقي الى ما فوقها ولما كان لا نهاية لهذه الدرجات كان العبد أبدا في السير والانتقال وأما حقيقته المخصوصة فهي محجوبة عن الكل فقد أشرنا الى كيفية مراتب الحجب وأنت تعرف أنه عليه الصلاة والسلام انما حصرها في سبعين ألفا تقريبا لا تحديدا فانها لا نهاية لها في الحقيقة

(الفصل الثالث في شرح كيفية التمثيل) اعلم أنه لا بد في التشبيه من أمرين المشبه والمشبه به واختلف الناس ههنا في أن المشبه أي شيء هو وذكروا وجوها (أحدها) وهو قول جمهور المتكلمين ونصره القاضي أن المراد الهدى التي هي الآيات البينات والمعنى أن هداية الله تعالى قد بلغت في الظهور والجلاء الى أقصى الغايات وصارت في ذلك بمنزلة المشكاة التي تكون فيها زجاجة صافية وفي الزجاجة مصباح يتقد بزيت بلغ النهاية في الصفاء فان قيل لم شبه بذلك وقد علمنا أن ضوء الشمس أبلغ من ذلك بكثير قلنا انه سبحانه أراد أن يصف الضوء الكامل الذي يلوح وسط الظلمة لان الغالب على أوهام الخلق وخيالاتهم انما هو الشبهات التي هي كالظلمات وهداية الله تعالى فيما بينها كالضوء الكامل الذي يظهر فيما بين الظلمات وهذا المقصود لا يحصل من ضوء الشمس لان ضوءها اذا ظهر امتلأ العالم من النور الخالص واذا غاب امتلأ العالم من الظلمة الخالصة فلا جرم كان ذلك المثل ههنا أليق وأوفق واعلم أن الامور التي اعتبرها الله تعالى في هذا المثال مما توجب كمال الضوء (فأولها) المصباح لان المصباح اذا لم يكن في المشكاة تفرقت أشعته أما اذا وضع في المشكاة اجتمعت أشعته فكانت أكثر انارة والذي يحقق ذلك أن المصباح اذا كان في بيت صغير فانه يظهر من ضوئه أكثر مما يظهر في البيت الكبير (وثانيها) أن المصباح اذا كان في زجاجة صافية فان الاشعة المنفصلة عن المصباح تنعكس من بعض جوانب الزجاجة الى البعض لما في الزجاجة من الصفاء والشفافية وبسبب ذلك يزداد الضوء والنور والذي يحقق ذلك أن شعاع الشمس اذا وقع على الزجاجة الصافية تضاعف الضوء الظاهر حتى انه يظهر فيما يقابله مثل ذلك الضوء فان انعكست تلك الاشعة من كل واحد من جوانب الزجاجة الى الجانب الآخر كثرت الانوار والاضواء وبلغت النهاية الممكنة (وثالثها) أن ضوء المصباح يختلف بحسب اختلاف ما يتقد به فاذا كان ذلك الدهن صافيا خالصا كانت حالته بخلاف حالته اذا كان كدرا وليس في الادهان التي توقد ما يظهر فيه من الصفاء مثل الذي يظهر في الزيت فربما يبلغ في الصفاء والرقة مبلغ الماء مع زيادة بياض فيه وشعاع يتردد في أجزائه (ورابعها) أن هذا الزيت يختلف بحسب اختلاف شجره فاذا كانت لا شرقية ولا غربية بمعنى انها كانت بارزة للشمس في كل حالاتها يكون زيتونها أشد نضجا فكان زيته أكثر صفاء وأقرب الى أن يتميز صفوه من كدره لان زيادة الشمس تؤثر في ذلك فاذا اجتمعت هذه الامور الاربعة وتعاونت صار ذلك الضوء خالصا كاملا فيصلح أن يجعل مثلا لهداية الله تعالى (وثانيها) أن المراد من النور في قوله مثل نوره القرآن ويدل عليه قوله تعالى قد جاءكم من الله نور وهو قول الحسن وسفيان بن عيينة وزيد بن أسلم (وثالثها) أن المراد هو الرسول لانه المرشد ولانه تعالى قال في وصفه وسراجا منيرا وهو قول عطاء وهذان القولان داخلان في

من السير (بقطع من الليل) بطائفة منه أو من آخره قال افتحي الباب وانظري في النجوم * كم علينا من قطع ليل بهيم
وقيل هو بعدما مضى منه شئ صالح (واتبع أدبارهم) وكن على أثرهم تذودهم وتسرع بهم وتطلع على أحوالهم ولعل ايثار الاتباع على
السوق مع أنه المقصود بالاسر للمبالغة في ذلك اذ السوق ربما يكون بالتقدم على بعض مع التأخر عن بعض ويلزمه عادة
الغفلة عن حال المتأخر
والالتفات المنهي عنه
بقوله تعالى (ولا يلتفت
منكم) أي منك ومنهم
(أحد) فيرى ما وراءه من
الهول فلا يطيقه أو يصيبه
ما أصابهم أو ولا ينصرف
منكم أحد ولا يتخلف
لغرض فيصيبه العذاب
وقيل نهوا عن ذلك
ليوطنوا أنفسهم على
المهاجرة أو هو نهي عن
ربط القلب بما خلفوه
أو هو للاسراع في السير
فان الملتفت قلما يخلو
عن أدنى وقفة وعدم
ذكر استثناء المرأة من
الاسراء والالتفات
لا يستدعي عدم وقوعه
فان ذلك لما عرفت مرارا
للاكتفاء بما ذكر في
مواضع أخر (وامضوا
حيث تؤمرون) الى حيث
أمركم الله تعالى بالمضي
اليه وهو الشام أو مصر
وحذف الصلتين على
الاتساع المشهور وايثار
المضي الى ما ذكر على
الوصول اليه واللحوق به
للايذان بأهمية النجاة
ولرعاية المناسبة بينه
وبين ما سلف من الغابرين
(وقضينا) أي أوحينا
(اليه) مقضيا ولذلك
عدي بالى (ذلك الامر) مبهم يفسره (أن دابر هؤلاء مقطوع) على أنه بدل منه وايثار اسم الاشارة على الضمير للدلالة
على اتصافهم بصفاتهم القبيحة التي هي مدار ثبوت الحكم أي دابر هؤلاء المجرمين وايراد صيغة المفعول بدل صيغة المضارع لكونها أدخل
في الدلالة على الوقوع وفي لفظ القضاء والتعبير عن العذاب بالامر والاشارة اليه بذلك وتأخيره عن الجار والمجرور وابهامه أولا ثم تفسيره

القول الاول لان من جملة أنواع الهداية انزال الكتب وبعثة الرسل قال تعالى في صفة الكتب وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان وقال في صفة الرسل رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل (ورابعها) أن المراد منه ما في قلب المؤمنين من معرفة الله تعالى ومعرفة الشرائع ويدل عليه أن الله تعالى وصف الايمان بأنه نور والكفر بأنه ظلمة فقال أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه وقال تعالى ليخرج الناس من الظلمات الى النور وحاصله أنه جعل الهدى على الاهتداء والمقصود من التمثيل أن ايمان المؤمن قد بلغ في الصفاء عن الشبهات والامتياز عن ظلمات الضلالات مبلغ السراج المذكور وهو قول أبي بن كعب وابن عباس قال أبي مثل نور المؤمن وهكذا كان يقرأ وقيل انه كان يقرأ مثل نور من آمن به وقال ابن عباس مثل نوره في قلب المؤمن (وخامسها) ما ذكره الشيخ الغزالي رحمه الله وهو أنا بينا أن القوى المدركة أنوار ومراتب القوى المدركة الانسانية خمسة (أحدها) القوة الحساسة وهي التي تتلقى ما تورده الحواس الخمس وكأنها أصل الروح الحيواني وأوله اذ به يصير الحيوان حيوانا وهو موجود للصبي الرضيع (وثانيها) القوة الخيالية وهي التي تستثبت ما أورده الحواس وتحفظه مخزونا عندها لتعرضه على القوة العقلية التي فوقها عند الحاجة اليه (وثالثها) القوة العقلية المدركة للحقائق الكلية (ورابعها) القوة الفكرية وهي التي تأخذ المعارف العقلية فتؤلفها تأليفا فتستنتج من تأليفها علما بمجهول (وخامسها) القوة القدسية التي تختص بها الانبياء عليهم الصلاة والسلام وبعض الاولياء وتتجلى فيها لوائح الغيب وأسرار الملكوت واليه الاشارة بقوله تعالى وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا واذا عرفت هذه القوى فهي بجملتها أنوار اذ بها تظهر أصناف الموجودات وان هذه المراتب الخمسة يمكن تشبيهها بالامور الخمسة التي ذكرها الله تعالى وهي المشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت أما الروح الحساس فاذا نظرت الى خاصيته وجدت أنواره خارجة من عدة أثقب كالعينين والاذنين والمنخرين وأوفق مثال له من عالم الاجسام المشكاة (وأما الثاني) وهو الروح الخيالي فنجد له خواص ثلاثة (الاولى) أنه من طينة العالم السفلي الكثيف لان الشئ المتخيل ذو قدر وشكل وحيز ومن شأن العلائق الجسمانية أن تحجب عن الانوار العقلية المحضة التي هي التعقلات الكلية المجردة (الثانية) أن هذا الخيال الكثيف اذا صفا ورق وهذب صار موازنا للمعاني العقلية ومؤديا لانوارها وغير حائل عن اشراق نورها ولذلك فان المعبر يستدل بالصور الخيالية على المعاني العقلية كما يستدل بالشمس على الملك وبالقمر على الوزير وبمن يختم فروج الناس وأفواههم على أنه مؤذن يؤذن قبل الصبح (والثالثة) أن الخيال في بداية الامر محتاج اليه جدا ليضبط بها المعارف العقلية ولا تضطرب فنعم المثالات الخيالية الجالبة للمعارف العقلية وأنت لا تجد شيأ في الاجسام يشبه الخيال في هذه الصفات الثلاثة الا الزجاجة فانها في الاصل من جوهر كثيف ولكن صفا ورق حتى صار لا يحجب نور المصباح بل يؤديه على وجهه ثم يحفظه عن الانطفاء بالرياح العاصفة (وأما الثالث) وهو القوة العقلية فهي القوية على ادراك الماهيات الكلية والمعارف الالهية فلا يخفى عليك وجه تمثيله بالمصباح وقد عرفت هذا حيث بينا كون الانبياء سرجا منيرة (وأما الرابع) وهو القوة الفكرية فمن خواصها أنها تأخذ ماهية واحدة ثم تقسمها الى قسمين كقولنا الموجود اما واجب واما ممكن ثم تجعل كل قسم مرة أخرى قسمين وهكذا الى أن تكثر الشعب بالتقسيمات العقلية ثم تفضي بالآخرة الى نتائج وهي ثمراتها ثم تعود فتجعل تلك الثمرات بذور الامثالها حتى تتأدى الى ثمرات

ثانيا من الدلالة على فخامة الأمر وفظاعته ما لا يخفى وقرئ بالكسر على الاستئناف والمعنى أنهم يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد (مصبحين) داخلين في الصبح وهو حال من هؤلاء أو من الضمير في مقطوع وجمعه للحمل على المعنى فان دابر هؤلاء بمعنى مدبري هؤلاء (وجاء أهل المدينة) شروع في حكاية ما صدر عن القوم عند وقوفهم على مكان الأضياف من الفعل والقول وما ترتب عليه بعدما أشير إلى ذلك اجمالا حسبما نبه عليه أي جاء أهل سدوم منزل لوط عليه الصلاة والسلام (يستبشرون) أي مستبشرين بأضيافه عليه الصلاة والسلام طمعا فيهم (قال ان هؤلاء ضيفي) الضيف حيث كان مصدرا في الأصل أطلق على الواحد والمتعدد والمذكر والمؤنث وإطلاقه على الملائكة بحسب اعتقاده عليه الصلاة والسلام لكونهم في زي الضيف والتأكيد ليس لانكارهم بذلك بل لتحقيق اتصافهم به واظهار اعتنائه بشأنهم وتشمره لمراعاة حقوقهم وحمايتهم من السوء ولذلك قال (فلا تفضحون) أي عندهم بأن تتعرضوا لهم بسوء فيعلموا أنه ليس لي عندكم قدر وحرمة أو لا تفضحون بفضيحة ضيفي فان من أسيء إلى ضيفه فقد أسيء إليه يقال فضحه فضحا وفضيحة إذا أظهر من أمره ما يلزمه العار (واتقوا الله) في مباشرتكم لما يسوءني (ولا تخزون) أي لا تذلون ولا تهينوني بالتعرض لمن أجرتهم بمثل تلك الفعلة الخبيثة وحيث كان التعرض لهم بعد أن نهاهم عليه الصلاة والسلام عن ذلك بقوله فلا تفضحون أكثر تأثيرا في جانبه عليه الصلاة والسلام وأجلب للعار إليه إذ التعرض للجار قبل شعور المجير بذلك ربما يتسامح فيه وأما بعد الشعور به والمناصبة لحمايته والذب عنه فذلك أعظم العار عبر عليه الصلاة والسلام عما يعتريه من جهتهم بعد النهي المذكور بسبب

لانهاية لها فبالحري أن يكون مثاله من هذا العالم الشجرة وإذا كانت ثمارها مادة لتزايد أنوار المعارف وثباتها فبالحري أن لا تمثل بشجرة السفرجل والتفاح بل بشجرة الزيتون خاصة لأن لب ثمرتها هو الزيت الذي هو مادة المصابيح وله من بين سائر الادهان خاصية زيادة الاشراق وقلة الدخان وإذا كانت الماشية التي يكثر درها ونسلها والشجرة التي تكثر ثمرتها تسمى مباركة فالذي لا يتناهى إلى حد محدود أولى أن يسمى شجرة مباركة وإذا كانت شعب الأفكار العقلية المحضة مجردة عن لواحق الأجسام فبالحري أن تكون لا شرقية ولا غربية (وأما الخامس) وهو القوة القدسية النبوية فهي في نهاية الشرف والصفاء فان القوة الفكرية تنقسم إلى ما يحتاج إلى تعليم وتنبيه وإلى ما لا يحتاج ولا بد من وجود هذا القسم قطعا للتسلسل فبالحري أن يعبر عن هذا القسم بكماله وصفائه وشدة استعداده بأنه يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار فهذا المثال موافق لهذا القسم ولما كانت هذه الأنوار مرتبة بعضها على بعض فالحس هو الأول وهو كالمقدمة للخيال والخيال كالمقدمة للعقل فبالحري أن تكون المشكاة كالظرف للزجاجة التي هي كالظرف للمصباح (وسادسها) ما ذكره أبو علي بن سينا فانه نزل هذه الأمثلة الخمسة على مراتب ادراكات النفس الانسانية فقال لا شك أن النفس الانسانية قابلة للمعارف الكلية والادراكات المجردة ثم إنها في أول الأمر تكون خالية عن جميع هذه المعارف فهناك تسمى عقلا هيولانيا وهي المشكاة (وفي المرتبة الثانية) يحصل فيها العلوم البديهية التي يمكن التوصل بتركيباتها إلى اكتساب العلوم النظرية ثم إن امكان الانتقال ان كانت ضعيفة فهي الشجرة وإن كانت أقوى من ذلك فهي الزيت وإن كانت شديدة القوة جدا فهي الزجاجة التي تكون كأنها الكوكب الدري وان كانت في النهاية القصوى وهي النفس القدسية التي للأنبياء فهي التي يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار (وفي المرتبة الثالثة) يكتسب من العلوم الفطرية الضرورية العلوم النظرية إلا أنها لا تكون حاضرة بالفعل ولكنها تكون بحيث متى شاء صاحبها استحضارها قدر عليه وهذا يسمى عقلا بالفعل وهو المصباح (وفي المرتبة الرابعة) أن تكون تلك المعارف الضرورية والنظرية حاصلة بالفعل ويكون صاحبها كأنه ينظر إليها وهذا يسمى عقلا مستفادا وهو نور على نور لأن الملكة نور وحصول ما عليها الملكة نورا آخر ثم زعم أن هذه العلوم التي تحصل في الأرواح البشرية إنما تحصل من جوهر روحاني يسمى بالعقل الفعال وهو مدبر ما تحت كرة القمر وهو النار (وسابعها) قول بعض الصوفية وهو أنه سبحانه شبه الصدر بالمشكاة والقلب بالزجاجة والمعرفة بالمصباح وهذا المصباح إنما توقد من شجرة مباركة وهي إلهامات الملائكة لقوله تعالى ينزل الملائكة بالروح من أمره وقوله نزل به الروح الأمين على قلبك وإنما شبه الملائكة بالشجرة المباركة لكثرة منافعهم وإنما وصفها بأنها لا شرقية ولا غربية لأنها روحانية وإنما وصفهم بقوله يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار لكثرة علومها وشدة اطلاعها على أسرار ملكوت الله تعالى والظاهر ههنا أن المشبه غير المشبه به (وثامنها) قال مقاتل مثل نوره أي مثل نور الايمان في قلب محمد صلى الله عليه وسلم كمشكاة فيها مصباح فالمشكاة نظير صلب عبد الله والزجاجة نظير جسد محمد صلى الله عليه وسلم والمصباح نظير الايمان في قلب محمد أو نظير النبوة في قلبه (وتاسعها) قال قوم المشكاة نظير إبراهيم عليه السلام والزجاجة نظير اسمعيل عليه السلام والمصباح نظير جسد محمد صلى الله عليه وسلم والشجرة النبوة والرسالة (وعاشرها) أن قوله مثل نوره يرجع إلى المؤمن وهو قول أبي بن كعب وكان يقرؤها مثل نور المؤمن وهو قول سعيد بن جبير والضحاك واعلم أن القول الأول هو المختار لانه تعالى ذكر قبل هذه الآية ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات فاذا كان المراد مثل نوره أي مثل هداه وبيانه كان ذلك مطابقا لما

سفاهتهم وتجاهرهم بتلك الفعلة بالخزي وأمرهم بتقوى الله تعالى في ذلك وانما لم يصرح بالنهي عن نفس تلك الفاحشة لانه كان يعرف أنه لا يفيدهم ذلك وقيل المراد تقوى الله تعالى في ركوب الفاحشة ولا يساعده توسيطه بين النهيين عن أمرين متعلقين بنفسه عليه الصلاة والسلام وكذلك قوله تعالى (قالوا أولم ننهك عن العالمين) أي عن التعرض لهم بمنعهم عنا وضيافتهم والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر أي ألم نتقدم اليك ولم ننهك عن ذلك فانهم كانوا يتعرضون لكل أحد من الغرباء بالسوء وكان عليه الصلاة والسلام ينهاهم عن ذلك بقدر وسعه وكانوا قد نهوه عليه الصلاة والسلام عن أن يجير أحدا فكأنهم قالوا ما ذكرت من الفضيحة والخزي انما جاءك من قبلك لا من قبلنا اذ لولا تعرضك لما تصدى له لما اعترانا تلك الحالة ولما رآهم لا يقلعون عما هم عليه (قال هؤلاء بناتي) يعني نساء القوم فان نبي كل أمة بمنزلة أبيهم أو بناته حقيقة أي فتزوجوهن وقد كانوا من قبل يطلبونهن ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم لا لعدم مشروعية المناكحة بين المسلمات والكفار وقد فصل ذلك في سورة هود (ان كنتم فاعلين) أي قضاء الوطر أو ما أقول لكم (لعمرك) قسم من الله تعالى بحياة النبي عليه الصلاة والسلام أو من الملائكة بحياة لوط عليه الصلاة والسلام والتقدير لعمرك قسمي وهي لغة في العمر يختص به القسم ايثارا للخفة لكثرة دورانه على الالسنة (انهم لفي سكرتهم) غوايتهم وصف أو شدة غلمتهم التي أزالت عقولهم وتمييزهم بين الخطأ والصواب (يعمهون) يتحيرون ويتمادون فكيف يسمعون النصح وقيل الضمير لقريش والجملة اعتراض (فأخذتهم الصيحة) أي الصيحة العظيمة الهائلة وقيل صيحة جبريل عليه الصلاة والسلام (مشرقين) داخلين

قبله ولانا لما فسرنا قوله الله نور السموات والارض بأنه هادي أهل السموات والارض فاذا فسرنا قوله مثل نوره بأن المراد مثل هداه كان ذلك مطابقا لما قبله

(الفصل الرابع في بقية المباحث المتعلقة بهذه الآية) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المشكاة الكوة في الجدار غير النافذة هذا هو القول المشهور وذكروا فيه وجوها أخر (أحدها) قال ابن عباس وأبو موسى الاشعري المشكاة القائم الذي في وسط القنديل الذي يدخل فيه الفتيلة وهو قول مجاهد والقرظي (والثاني) قال الزجاج هي ههنا قصبة القنديل من الزجاجة التي توضع فيها الفتيلة (الثالث) قال الضحاك انها الحلقة التي يعلق بها القنديل والاول هو الاصح (المسئلة الثانية) زعموا أن المشكاة هي الكوة بلغة الحبشة قال الزجاج المشكاة من كلام العرب ومثلها المسكاة وهي الدقيق الصغير (المسئلة الثالثة) قال بعضهم هذه الآية من المقلوب والتقدير مثل نوره كمصباح في مشكاة لان المشبه به هو الذي يكون معدنا للنور ومنبعا له وذلك هو المصباح لا المشكاة (المسئلة الرابعة) المصباح السراج وأصله من الضوء ومنه الصبح (المسئلة الخامسة) قرئ زجاجة الزجاجة بالضم والفتح والكسر (دري) فقرئ بضم الدال وكسرها وفتحها (أما الضم) ففيه ثلاثة أوجه (الاول) ضم الدال وتشديد الراء والياء من غير همز وهو القراءة المعروفة ومعناه أنه يشبه الدر لصفائه ولمعانه وقال عليه الصلاة والسلام انكم لترون أهل الدرجات العلى كما ترون الكوكب الدري في أفق السماء (الثاني) أنه كذلك الا أنه بالمد والهمزة وهو قراءة حمزة وعاصم في رواية أبي بكر وصار بعض أهل العربية الى أنه لحن قال سيبويه وهذا أضعف اللغات وهو مأخوذ من الضوء والتلألؤ وليس بمنسوب الى الدر قال أبو علي ووجه هذه القراءة أنه فعيل من الدرء بمعنى الدفع وانه صفة وانه في الصفة مثل المري في الاسم (والثالث) ضم الدال وتخفيف الراء والياء من غير مد ولا همز (أما الكسر) ففيه وجهان (الاول) دريء بكسر الدال وتشديد الراء والمد والهمز وهي قراءة أبي عمرو والكسائي قال الفراء وهو فعيل من الدرء والدفع كالسكير والفسيق فكأن ضوءه يدفع بعضه بعضا من لمعانه (الثاني) بكسر الدال وتشديد الراء من غير همز ولا مد وهي قراءة ابن خليد وعتبة بن حماد عن نافع (أما الفتح) ففيه وجوه أربعة (الاول) بفتح الدال وتشديد الراء والمد والهمز عن الاعمش (الثاني) بفتح الدال وتشديد الراء من غير مد ولا همز عن الحسن ومجاهد وقتادة (الثالث) بفتح الدال وتخفيف الراء مهموزا من غير مد ولا ياء عن عاصم (الرابع) كذلك الا أنه غير مهموز وبياء مخففة بدل الهمزة أما قوله توقد القراءة المعروفة توقد بالفتحات الاربع مع تشديد القاف بوزن تفعل وعن الحسن ومجاهد وقتادة كذلك الا أنه بضم الدال وذكر صاحب الكشاف يوقد بفتح الياء المنقوطة من تحت بنقطتين والواو والقاف وتشديدها ورفع الدال قال وحذف التاء لاجتماع حرفين زائدين وهو غريب وعن سعيد بن جبير بياء مضمومة واسكان الواو وفتح القاف مخففة ورفع الدال وعن نافع وحفص كذلك الا أنه بالتاء وعن عاصم بياء مضمومة وفتح الواو وتشديد القاف وفتحها وعن أبي عمرو كذلك الا أنه بالتاء وعن طلحة توقد بتاء مضمومة وواو ساكنة وكسر القاف وتخفيفها (المسئلة السادسة) قوله كأنها كوكب دري أي ضخم مضيء ودراري النجوم عظامها واتفقوا على أن المراد به كوكب من الكواكب المضيئة كالزهرة والمشتري والثوابت التي في العظم الاول (المسئلة السابعة) قوله من شجرة مباركة أي من زيت شجرة مباركة أي كثيرة البركة والنفع وقيل هي أول شجرة نبتت بعد الطوفان وقد بارك فيها سبعون نبيا منهم الخليل وقيل المراد زيتون الشام لانها هي الارض المباركة فلهذا جعل الله هذه شجرة مباركة (المسئلة الثامنة) اختلفوا في معنى

في وقت شروق الشمس (فجعلنا عاليها) عالي المدينة أو عالي قراهم وهو المفعول الأول لجعلنا وقوله تعالى (سافلها) مفعول ثان له وهو أدخل في الهول والفظاعة من العكس كما مر (وأمطرنا عليهم) في تضاعيف ذلك قبل تمام الانقلاب (حجارة) كائنة (من سجيل) من طين متحجر أو طين عليه كتاب وقد فصل ذلك في سورة هود (ان في ذلك) أي فيما ذكر من القصة (لآيات) لعلامات

وصف الشجرة بأنها لا شرقية ولا غربية على وجوه (أحدها) قال الحسن انها شجرة الزيت من الجنة اذ لو كانت من شجر الدنيا لكانت اما شرقية أو غربية وهذا ضعيف لانه تعالى انما ضرب المثل بما شاهدوه وهم شاهدوا شجر الجنة (وثانيها) أن المراد شجرة الزيتون في الشام لان الشام وسط الدنيا فلا يوصف شجرها بأنها شرقية أو غربية وهذا أيضا ضعيف لان من قال الارض كرة لم يثبت المشرق والمغرب موضعين معينين بل لكل بلد مشرق ومغرب على حدة ولان المثل مضروب لكل من يعرف الزيت وقد يوجد في غير الشام كوجوده فيها (وثالثها) أنها شجرة تلتف بها الاشجار فلا تصيبها الشمس في شرق ولا غرب ومنهم من قال هي شجرة يلتف بها ورقها التفافا شديدا فلا تصل الشمس اليها سواء كانت الشمس شرقية أو غربية وليس في الشجر ما يورق غصنه من أوله الى آخره مثل الزيتون والرمان وهذا أيضا ضعيف لان الغرض صفاء الزيت وذلك لا يحصل الا بكمال نضج الزيتون وذلك انما يحصل في العادة بوصول أثر الشمس اليه لا بعدم وصوله (ورابعها) قال ابن عباس المراد الشجرة التي تبرز على جبل عال أو صحراء واسعة فتطلع الشمس عليها حالتي الطلوع والغروب وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة واختيار الفراء والزجاج قالا ومعناه لا شرقية وحدها ولا غربية وحدها ولكنها شرقية وغربية وهو كما يقال فلان لا مسافر ولا مقيم اذا كان يسافر ويقيم وهذا القول هو المختار لان الشجرة متى كانت كذلك كان زيتها في نهاية الصفاء وحينئذ يكون مقصود التمثيل أكمل وأتم (وخامسها) المشكاة صدر محمد صلى الله عليه وسلم والزجاجة قلبه والمصباح ما في قلبه صلى الله عليه وسلم من الدين توقد من شجرة مباركة يعني واتبعوا ملة أبيكم ابراهيم صلوات الله عليه فالشجرة هي ابراهيم عليه السلام ثم وصف ابراهيم فقال لا شرقية ولا غربية أي لم يكن يصلي قبل المشرق ولا قبل المغرب كاليهود والنصارى بل كان عليه الصلاة والسلام يصلي الى الكعبة (المسئلة التاسعة) وصف الله تعالى زيتها بأنه يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار لان الزيت اذا كان خالصا صافيا ثم رؤي من بعيد يرى كأن له شعاعا فاذا مسه النار ازداد ضوأ على ضوء كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم فاذا جاءه العلم ازداد نورا على نور وهدى على هدى قال يحيى بن سلام قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يبين له لموافقته له وهو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله وقال كعب الاحبار المراد من الزيت نور محمد صلى الله عليه وسلم أي يكاد نوره يبين للناس قبل أن يتكلم وقال الضحاك يكاد محمد صلى الله عليه وسلم يتكلم بالحكمة قبل الوحي وقال عبد الله بن رواحة

لو لم تكن فيه آيات مبينة ❊ كانت بديهته تنبيك بالخبر

(المسئلة العاشرة) قوله تعالى نور على نور المراد ترادف هذه الانوار واجتماعها قال أبي بن كعب المؤمن بين أربع خلال ان أعطي شكر وان ابتلي صبر وان قال صدق وان حكم عدل فهو في سائر الناس كالرجل الحي الذي يمشي بين الاموات يتقلب في خمس من النور كلامه نور وعمله نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره الى النور يوم القيامة قال الربيع سألت أبا العالية عن مدخله ومخرجه فقال سره وعلانيته (المسئلة الحادية عشرة) قال الجبائي دلت الآية على أن كل من جهل فمن قبله أتي والا فالادلة واضحة ولو نظروا فيها لعرفوا قال أصحابنا هذه الآية صريح مذهبنا فانه سبحانه بعد أن بين أن هذه الدلائل بلغت في الظهور والوضوح الى هذا الحد الذي لا يمكن الزيادة عليه قال يهدي الله لنوره من يشاء يعني وضوح هذه الدلائل لا يكفي ولا ينفع ما لم يخلق الله الايمان ولا يمكن أن يكون المراد من قوله يهدي الله ايضاح الادلة والبيانات لانا لو حملنا النور على ايضاح الادلة لم يجز حمل الهدى عليه أيضا والا لخرج الكلام عن الفائدة فلم يبق الا حمل الهدى ههنا

يستدل بها على حقيقة الحق (للمتوسمين) أي المتفكرين المتفرسين الذين يتثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة الشيء بسمته (وانها) أي المدينة أو القرى (لبسبيل مقيم) أي طريق ثابت يسلكه الناس ويرون آثارها (ان في ذلك) فيما ذكر من المدينة أو القرى أو في كونها بمرأى من الناس يشاهدونها في ذهابهم وايابهم (لآية) عظيمة (للمؤمنين) بالله ورسوله فانهم الذين يعرفون أن ما حاق بهم من العذاب الذي ترك ديارهم بلاقع انما حاق بهم لسوء صنيعهم وأما غيرهم فيحملون ذلك على الاتفاق أو الاوضاع الفلكية وافراد الآية بعد جمعها فيما سبق لما أن المشاهد ههنا بقية الآثار لا كل القصة كما فيما سلف (وان كان) ان مخففة من ان وضمير الشأن الذي هو اسمها محذوف واللام هي الفارقة أي وان الشأن كان (أصحاب الايكة) وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام والايكة

والليكة الشجرة الملتفة المتكاثفة وكان عامة شجرهم المقل وكانوا يسكنونها فبعثه الله تعالى اليهم (لظالمين) متجاوزين عن الحد (فانتقمنا منهم) بالعذاب روي أن الله تعالى سلط عليهم الحر سبعة أيام ثم بعث سحابة فالتجؤا اليها يلتمسون الروح فبعث الله تعالى عليهم منها نارا فأحرقتهم فهو عذاب يوم الظلة (وانهما) يعني سدوم والايكة وقيل الايكة ومدين فانه عليه الصلاة

والسلام كان مهجوراً الهما فذكر أحدهما منبه على الآخر (لبامام مبين) لبطريق واضح والامام اسم ما يؤتم به سمى به الطريق ومطمر البناء واللوح الذى يكتب فيه لانها مما يؤتم به (ولقد كذب أصحاب الحجر) يعنى ثمود (المرسلين) أى صالحاً فان من كذب واحداً من الانبياء عليهم السلام فقد كذب الجميع لاتفاقهم على التوحيد والاصول التى لا تختلف باختلاف الامم والاعصار

وقيل المراد صالح ومن معه من المؤمنين كما قيل الخبيبون لخبيب بن عبد الله بن الزبير وأصحابه والحجر واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه (وآتيناهم آياتنا) وهى الآية المنزلة على نبيهم أو المعجزات من الناقة وسقيها وشربها ودرها أو الادلة المنصوبة لهم (فكانوا عنها معرضين) اعراضاً كلياً بل كانوا معارضين لها حيث فعلوا بالناقة ما فعلوا (وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين) من الانهدام ونقب اللصوص وتخريب الاعداء لوثاقتها أو من العذاب لحسبانهم أن ذلك يحميهم منه * عن جابر رضى الله تعالى عنه أنه قال مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحجر فقال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم الا أن تكونوا باكين حذراً أن يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء ثم زجر رسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته فأسرع حتى خلفها (فأخذتهم الصيحة مصبحين) وهكذا وقع فى سورة هود قيل صاح بهم جبريل عليه الصلاة والسلام وقيل أتتهم من السماء صيحة فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شئ فى الارض فتقطعت قلوبهم فى صدورهم وفى سورة الاعراف فأخذتهم الرجفة أى الزلزلة ولعلها من روادف الصيحة المستتبعة لتموج الهواء تموجاً شديداً يفضى اليها كما مر فى سورة هود (فما أغنى عنهم) ولم يدفع عنهم ما نزل بهم (ما كانوا يكسبون) من بناء البيوت كأنه

على خلق العلم أجاب أبو مسلم بن بحر عنه من وجهين (الاول) أن قوله يهدى الله لنوره من يشاء محمول على زيادات الهدى الذى هو كالضد للخذلان الحاصل للضال (الثانى) أنه سبحانه يهدى لنوره الذى هو طريق الجنة من يشاء وشبهه بقوله يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات وزيف القاضى عبد الجبار هذين الجوابين (أما الاول) فلان الكلام المتقدم هو ذكر الآيات المنزلة فاذا حملناه على الهدى دخل الكل فيه واذا حملناه على الزيادة لم يدخل فيه الا البعض واذا حمل على طريق الجنة لا يكون داخلاً فيه أصلاً الا من حيث المعنى لا من حيث اللفظ ولما زيف هذين الجوابين قال الاولى أن يقال انه تعالى هدى بذلك البعض دون البعض وهم الذين بلغوا حد التكليف واعلم أن هذا الجواب أضعف من الجوابين الاولين لان قوله يهدى الله لنوره من يشاء يفهم منه أن هذه الآيات مع وضوحها لا تكفى وهذا لا يتناول الصبى والمجنون فسقط ما قالوه (المسألة الثانية عشرة) قوله تعالى ويضرب الله الامثال للناس والمراد المكلفين من الناس وهو النبى ومن بعث اليه فانه سبحانه ذكر ذلك فى معرض النعمة العظيمة واستدلت المعتزلة به فقالوا انما يكون ذلك نعمة عظيمة لو أمكنهم الانتفاع به ولو كان الكل بخلق الله تعالى لما تمكنوا من الانتفاع به وجوابه ما تقدم ثم بين أنه سبحانه بكل شئ عليم وذلك كالوعيد لمن لا يعتبر ولا يتفكر فى أمثاله ولا ينظر فى أدلته فيعرف وضوحها وبعدها عن الشبهات ﴿قوله تعالى ﴿فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلوة وايتاء الزكوة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والابصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ اعلم أن فى الآية مسائل (المسألة الاولى) قوله تعالى فى بيوت أذن الله يقتضى محذوفاً يكون فيها وذكروا فيه وجوهاً (أحدها) أن التقدير كمشكاة فيها مصباح فى بيوت أذن الله وهو اختيار كثير من المحققين اعترض أبو مسلم بن بحر الاصفهانى عليه من وجهين (الاول) أن المقصود من ذكر المصباح المثل وكون المصباح فى بيوت أذن الله لا يزيد فى هذا المقصود لان ذلك لا يزيد المصباح انارة واضاءة (الثانى) ان ما تقدم ذكره فيه وجوه تقتضى كونه واحداً كقوله كمشكاة وقوله فيها مصباح وقوله فى زجاجة وقوله كأنها كوكب درى ولفظ البيوت جمع ولا يصح كون هذا الواحد فى كل البيوت (والجواب عن الاول) أن المصباح الموضوع فى الزجاجة الصافية اذا كان فى المساجد كان أعظم وأفخم فكان أضوأ فكان التمثيل به أتم وأكمل (وعن الثانى) أنه لما كان القصد بالمثل هو الذى له هذا الوصف فيدخل تحته كل مشكاة فيها مصباح فى زجاجة تتوقد من الزيت وتكون الفائدة فى ذلك أن ضوأها يظهر فى هذه البيوت بالليالى عند الحاجة الى عبادة الله تعالى ولو أن رجلاً قال الذى يصلح لخدمتى رجل يرجع الى علم وكفاية وقناعة يلزم بيته لكان وان ذكره بلفظ الواحد فالمراد النوع فكذا ما ذكره الله سبحانه فى هذه الآية (وثانيها) التقدير توقد من شجرة مباركة فى بيوت أذن الله أن ترفع (وثالثها) وهو قول أبى مسلم أنه راجع الى قوله ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم أى ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم فى بيوت أذن الله أن ترفع ويكون المراد بالذين خلوا الانبياء والمؤمنين والبيوت المساجد وقد اقتص الله أخبار الانبياء عليهم الصلاة والسلام وذكر أماكنهم فسماها محاريب بقوله اذ تسوروا المحراب ودخل عليها زكريا المحراب فيقول ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات وأنزلنا أقاصيص من بعث قبلكم من الانبياء والمؤمنين فى بيوت أذن الله أن ترفع (ورابعها) قول الجبائى انه كلام مستأنف لا تعلق له بما تقدم والتقدير صلوا فى بيوت أذن الله أن ترفع (وخامسها) وهو قول الفراء والزجاج انه لا حذف فى الآية بل فيه تقديم وتأخير

كأنه قال يسبح في بيوت أذن الله أن ترفع رجال صفتهم كيت وكيت وأما قول أبي مسلم فقد اعترض عليه القاضي من وجهين (الأول) أن قوله ومثلا من الذين خلوا من قبلكم المراد منه من خلا من المكذبين للرسل لتعلقه بما تقدم من الاكراه على الزنا ابتغاء للدنيا فلا يليق ذلك بوصف هذه البيوت لأنها بيوت أذن الله أن يذكر فيها اسمه (الثاني) ان هذه الآية صارت منقطعة عن تلك الآية لما تخلل بينهما من قوله تعالى الله نور السموات والأرض وأما قول الجبائي فقيل الاضمار لا يجوز المصير إليه إلا عند الضرورة وعلى التأويل الذي ذكره الفراء والزجاج لا حاجة إليه فلا يجوز المصير إليه فان قيل على قول الزجاج يتوجه عليه اشكال أيضا لأن على قوله يصير المعنى في بيوت أذن الله يسبح له فيها فيكون قوله فيها تكرارا من غير فائدة فلم قلتم ان تحمل مثل هذه الزيادة أولى من تحمل ذلك النقصان قلنا الزيادة لأجل التأكيد كثيرة فكان المصير إليه أولى (المسألة الثانية) أكثر المفسرين قالوا المراد من قوله في بيوت المساجد وعن عكرمة في بيوت قال هي البيوت كلها والأول أولى لوجهين (الأول) ان في البيوت ما لا يمكن أن يوصف بأن الله تعالى أذن أن ترفع (الثاني) انه تعالى وصفها بالذكر والتسبيح والصلاة وذلك لا يليق إلا بالمساجد ثم القائلين بأن المراد هو المساجد قولان (أحدهما) أن المراد أربع مساجد الكعبة بناها ابراهيم واسمعيل عليهما الصلاة والسلام وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام ومسجد المدينة بناه النبي صلى الله عليه وسلم ومسجد قباء الذي أسس على التقوى بناه نبي الله صلى الله عليه وسلم وعن الحسن هو بيت المقدس يسرج فيه عشرة آلاف قنديل (والثاني) ان المراد هو جميع المساجد والأول ضعيف لأنه تخصيص بلا دليل فالأولى حمل اللفظ على جميع المساجد قال ابن عباس رضي الله عنهما المساجد بيوت الله في الأرض وهي تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض (المسألة الثالثة) اختلفوا في المراد من قوله أن ترفع على أقوال (أحدها) المراد من رفعها بناؤها لقوله بناها رفع سمكها فسواها وقوله وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي المساجد أمر الله أن تبنى (وثانيها) ترفع أي تعظم وتطهر عن الانجاس وعن اللغو من الأقوال عن الزجاج (وثالثها) المراد مجموع الأمرين والقول الثاني أولى لأن قوله في بيوت أذن الله أن ترفع ظاهره أنها كانت بيوتا قبل الرفع فأذن الله أن ترفع (المسألة الرابعة) اختلفوا في المراد من قوله ويذكر فيها اسمه (فالقول الأول) انه عام في كل ذكر (والثاني) أن يتلى فيها كتابه عن ابن عباس (والثالث) لا يتكلم فيها بما لا ينبغي والأول أولى لعموم اللفظ (المسألة الخامسة) قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم يسبح بفتح الباء والباقون بكسرها فعلى القراءة الأولى يكون القول مسندا إلى آخر الظروف الثلاثة أعني له فيها بالغدو والآصال ثم قال الزجاج رجال مرفوع لأنه لما قال يسبح له فيها فكأنه قيل من يسبح فقيل يسبح رجال (المسألة السادسة) اختلفوا في هذا التسبيح فالأكثرون حملوه على نفس الصلاة ثم اختلفوا فمنهم من حمله على كل الصلوات الخمس ومنهم من حمله على صلاتي الصبح والعصر فقال كانتا واجبتين في ابتداء الحال ثم زيد فيهما ومنهم من حمله على التسبيح الذي هو تنزيه الله تعالى عما لا يليق به في ذاته وفعله واحتج عليه بأن الصلاة والزكاة قد عطفهما على ذلك من حيث قال عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهذا الوجه أظهر (المسألة السابعة) الآصال جمع أصل والأصل جمع أصيل وهو العشي وانما وحد الغدو لأنه في الأصل مصدر لا يجمع والأصيل اسم جمع قال صاحب الكشاف بالغدو أي بأوقات الغدو أي بالغدوات وقرئ والايصال وهو الدخول في الأصيل يقال آصل كأعتم وأظهر وقال ابن عباس رحمهما الله ان صلاة الضحى لفي كتاب الله مذكورة

الوثيقة والأموال الوافرة والعدد المتكاثرة وفيه تهكم بهم والفاء لترتيب عدم الاغناء الخاص بوقت نزول العذاب حسبما كانوا يرجونه لا عدم الاغناء المطلق فانه أمر مستمر (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) أي الا خلقا ملتبسا بالحق والحكمة والمصلحة بحيث لا يلائم استمرار الفساد واستقرار الشرور ولذلك اقتضت الحكمة اهلاك أمثال هؤلاء دفعا لفسادهم وارشادا لمن بقي الى الصلاح أو الا بسبب العدل والانصاف يوم الجزاء على الأعمال كما ينبئ عنه قوله تعالى (وان الساعة لآتية) فينتقم الله تعالى لك فيها عن كذبك (فاصفح) أي أعرض عنهم (الصفح الجميل) اعراضا جميلا وتحمل أذيتهم ولا تعجل بالانتقام منهم وعاملهم معاملة الصفوح الحليم وقيل هي منسوخة بآية السيف (ان ربك) الذي يبلغك الى غاية الكمال (هو الخلاق) لك ولهم ولسائر الموجودات على الاطلاق (العليم) بأحوالك وأحوالهم بتفاصيلها فلا يخفى عليه شيء مما جرى بينك وبينهم فهو حقيق بأن تكل جميع الأمور اليه ليحكم بينكم أو هو الذي خلقكم وعلم تفاصيل أحوالكم وقد علم أن الصفح اليوم أصلح الى أن يكون السيف أصلح فهو تعليل للأمر بالصفح على التقديرين وفي مصحف عثمان وأبي رضي الله تعالى عنهما هو الخالق وهو صالح للقليل والكثير والخلاق مختص بالكثير (ولقد آتيناك سبعا) سبع آيات وهي الفاتحة وعليه عمر وعلي وابن مسعود وأبو هريرة رضي الله تعالى عنهم والحسن وأبو العالية ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة رحمهم الله تعالى وقيل سبع سور وهي الطوال التي سابعتها الأنفال والتوبة فانهما في حكم سورة واحدة ولذلك لم يفصل بينهما بالتسمية وقيل يونس أو الحواميم السبع وقيل الصحائف السبع وهي الأسباع (من المثاني) بيان

وتلا هذه الآية وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من أحد يغدو ويروح الى المسجد
يؤثره على ما سواه الا وله عند الله نزل يعد له في الجنة وفي رواية سهل بن سعد مرفوعا من غدا الى المسجد وراح
ليعلم خيرا أو ليتعلمه كان كمثل المجاهد في سبيل الله يرجع غانما (المسئلة الثامنة) اختلفوا في قوله تعالى
لا تلهيهم تجارة فقال بعضهم نفى كونهم تجارا و باعة أصلا وقال بعضهم بل أثبتهم تجارا و باعة و بين أنهم مع
ذلك لا يشغلهم عنها شاغل من ضروب منافع التجارات وهذا قول الاكثرين قال الحسن أما والله ان كانوا
ليتجرون ولكن اذا جاءت فرائض الله لم يلههم عنها شئ فقاموا بالصلاة والزكاة وعن سالم نظر الى قوم من
أهل السوق تركوا بياعاتهم وذهبوا الى الصلاة فقال هم الذين قال تعالى لا تلهيهم تجارة وعن ابن مسعود
مثله واعلم أن هذا القول أولى من الاول لانه لا يقال ان فلانا لا تلهيه التجارة عن كيت وكيت الا وهو تاجر
وان احتمل الوجه الاول وههنا سؤالات (السؤال الاول) لما قال لا تلهيهم تجارة دخل فيه البيع فلم أعاد
ذكر البيع قلنا الجواب عنه من وجوه (الاول) أن التجارة جنس يدخل تحته أنواع الشراء والبيع الا أنه
سبحانه خص البيع بالذكر لانه في الالهاء أدخل لان الربح الحاصل في البيع يقين ناجز والربح الحاصل
في الشراء شك ومستقبل (الثاني) أن البيع يقتضي تبديل العرض بالنقد والشراء بالعكس والرغبة
في تحصيل النقد أكثر من العكس (الثالث) قال الفراء التجارة لاهل الجلب يقال اتجر فلان في كذا اذا
جلبه من غير بلده والبيع ما باعه على يديه (السؤال الثاني) لم خص الرجال بالذكر (والجواب) لان
النساء لسن من أهل التجارات والجماعات (المسئلة التاسعة) اختلفوا في المراد بذكر الله تعالى فقال قوم
المراد الثناء على الله تعالى والدعوات وقال آخرون المراد الصلوات فان قيل فما معنى قوله واقام الصلاة قلنا
عنه جوابان (أحدهما) قال ابن عباس رضي الله عنهما المراد باقام الصلاة اقامتها لمواقيتها (والثاني) يجوز
أن يكون قوله واقام الصلاة تفسيرا لذكر الله فهم يذكرون الله قبل الصلاة وفي الصلاة (المسئلة العاشرة)
قد ذكرنا في أول تفسير سورة البقرة في قوله و يقيمون الصلاة أن اقام الصلاة هو القيام بحقها على
شروطها والوجه في حذف الهاء ما قاله الزجاج يقال أقمت الصلاة اقامة وكان الاصل اقواما ولكن قلبت
الواو ألفا فاجتمع ألفان فحذفت احداهما لالتقاء الساكنين فبقي أقمت الصلاة اقاما فادخلت الهاء عوضا
من المحذوف وقامت الاضافة ههنا في التعويض مقام الهاء المحذوفة قال وهذا اجماع من النحويين
(المسئلة الحادية عشرة) اختلفوا في الصلاة فمنهم من قال هي الفرائض ومنهم من أدخل فيه النفل على
ما حكيناه في صلاة الضحى عن ابن عباس والاول أقرب لانه الى التعريف أقرب وكذلك القول في الزكاة
أن المراد المفروض لانه المعروف في الشرع المسمى بذلك وقال ابن عباس رضي الله عنهما المراد من الزكاة
طاعة الله تعالى والاخلاص وكذا في قوله وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وقوله ما زكا منكم من أحد
وقوله تطهرهم وتزكيهم بها وهذا ضعيف لما تقدم ولانه تعالى علق الزكاة بالايتاء وهذا لا يحمل الا على
ما يعطى من حقوق المال (المسئلة الثانية عشرة) انه سبحانه بين أن هؤلاء الرجال وان تعبدوا بذكر الله
والطاعات فانهم مع ذلك موصوفون بالوجل والخوف فقال يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار وذلك
الخوف انما كان لعلمهم بانهم ما عبدوا الله حق عبادته واختلفوا في المراد بتقلب القلوب والابصار على
أقوال (فالقول الاول) ان القلوب تضطرب من الهول والفزع وتشخص الابصار لقوله واذ زاغت
الابصار وبلغت القلوب الحناجر (الثاني) أنها تتغير أحوالها فتفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعا عليها
لا تفقه وتبصر الابصار بعد أن كانت لا تبصر فكأنهم انقلبوا من الشك الى الظن ومن الظن الى اليقين

السبع من التثنية وهي التكرير فان كان المراد الفاتحة وهو الظاهر فتسميتها مثاني لتكرر قراءتها في الصلاة وأما تكرر قراءتها في غير
الصلاة كما قيل فليس بحيث يكون مدارا للتسمية ولانها تثنى بما يقرأ بعدها في الصلاة وأما تكرر نزولها فلا يكون وجها للتسمية لانها كانت
مسماة بهذا الاسم قبل نزولها الثاني اذ السورة مكية بالاتفاق وان كان المراد غيرها من السور فوجه كونها من المثاني أن
كلا من ذلك تكرر قراءته
وألفاظه أو قصصه
ومواعظه أو من الثناء
لاشتماله على ما هو ثناء
على الله واحدتها مثناة
أو مثنية صفة للآية
وأما الصحائف وهي
الاسباع فلما وقع فيها من
تكرير القصص والمواعظ
والوعد والوعيد وغير
ذلك ولما فيها من الثناء
على الله تعالى كأنها تثني
عليه سبحانه بأفعاله
وصفاته الحسنى ويجوز
أن يراد بالمثاني القرآن
لما ذكر أو لانه مثنى عليه
بالاعجاز أو كتب الله
تعالى كلها فمن للتبعيض
وعلى الاول للبيان
(والقرآن العظيم) ان
أريد بالسبع الآيات
أو السور فمن عطف
الكل على البعض أو
العام على الخاص وان
أريد به الاسباع أو كل
القرآن فهو عطف أحد
الوصفين على الآخر كما
في قوله
الى الملك القرم وابن
الهمام
وليث الكتائب في
المزدحم
أي ولقد آتيناك ما يقال
له السبع المثاني والقرآن
العظيم (لا تمدن عينيك) لا تطمح ببصرك طموح راغب ولا تدم نظرك (الى ما متعنا به) من زخارف الدنيا ومن
وزينتها ومحاسنها وزهرتها (أزواجا منهم) أصنافا من الكفرة فان ما في الدنيا من أصناف الاموال والذخائر بالنسبة الى ما أوتيته مستحقر
لا يعبأ به أصلا وفي حديث أبي بكر رضي الله تعالى عنه من أوتي القرآن فرأى أن أحدا أوتي أفضل مما أوتي فقد صغر عظيما وعظم صغيرا

ومن اليقين الى المعاينة لقوله وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وقوله لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك (الثالث) أن القلوب تتقلب في ذلك اليوم طمعا في النجاة وحذرا من الهلاك والأبصار تتقلب من أي ناحية يؤخذ بهم أمن ناحية اليمين أم من ناحية الشمال ومن أي ناحية يعطون كتابهم أمن قبل الأيمان أم من قبل الشمائل والمعتزلة لا يرضون بهذا التأويل فإنهم قالوا ان أهل الثواب لا خوف عليهم البتة في ذلك اليوم وأهل العقاب لا يرجون العفو لكنا بينا فساد هذا المذهب غير مرة (الرابع) أن القلوب تزول عن أماكنها فتبلغ الحناجر والأبصار تصير زرقا قال الضحاك يحشر الكافر وبصره حديد ويزرق عيناه ثم يعمى ويتقلب القلب من الخوف حيث لا يجد مخلصا حتى يقع في الحنجرة فهو قوله اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين (الخامس) قال الجبائي المراد بتقلب القلوب والأبصار تغيرهما عن هيئة الى هيئة لما نالها من العذاب فتكون مرة بهيئة ما أنضج بالنار ومرة بهيئة ما احترق قال ويجوز أن يريد به تقلبها على جمر جهنم وهو معنى قوله تعالى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة (المسألة الثالثة عشرة) قوله ليجزيهم الله أحسن ما عملوا أي يفعلون هذه القربات ليجزيهم الله ويثيبهم على أحسن ما عملوا وفيه وجوه (الاول) المراد بالاحسن الحسنات أجمع وهي الطاعات فرضها ونفلها قال مقاتل انما ذكر الاحسن تنبيها على انه لا يجازيهم على مساوي أعمالهم بل يغفرها لهم (الثاني) انه سبحانه يجزيهم جزاء أحسن ما عملوا على الواحد عشرا الى سبعمائة (الثالث) قال القاضي المراد بذلك أن تكون الطاعات منهم مكفرة لمعاصيهم وانما يجزيهم الله تعالى باحسن الاعمال وهذا مستقيم على مذهبه في الاحباط والموازنة أما قوله تعالى ويزيدهم من فضله فالمعنى على أنه تعالى يجزيهم باحسن الاعمال ولا يقتصر على قدر استحقاقهم بل يزيدهم من فضله على ما ذكره تعالى في سائر الآيات من التضعيف فان قيل فهذا يدل على أن لفعل الطاعة أثرا في استحقاق الثواب لانه تعالى ميز الجزاء عن الفضل وأنتم لا تقولون بذلك فان عندكم العبد لا يستحق على ربه شيأ قلنا نحن نثبت الاستحقاق لكن بالوعد فذلك القدر هو المستحق والزائد عليه هو الفضل ثم قال والله يرزق من يشاء بغير حساب تنبيها على كمال قدرته وكمال جوده ونفاذ مشيئته وسعة احسانه فكأن سبحانه لما وصفهم بالجد والاجتهاد في الطاعة ومع ذلك يكونون في نهاية الخوف فالحق سبحانه يعطيهم الثواب العظيم على طاعاتهم ويزيدهم الفضل الذي لا حد له في مقابلة خوفهم ﴿قوله تعالى والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيأ ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾ اعلم أنه سبحانه لما بين حال المؤمن وأنه في الدنيا يكون في النور وبسببه يكون متمسكا بالعمل الصالح ثم بين انه في الآخرة يكون فائزا بالنعيم المقيم والثواب العظيم أتبع ذلك بأن بين أن الكافر يكون في الآخرة في أشد الخسران وفي الدنيا في أعظم أنواع الظلمات وضرب لكل واحد منهما مثلا أما المثل الدال على خيبته في الآخرة فهو قوله والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة قال الازهري السراب ما يتراءى للعين وقت الضحى الاكبر في الفلوات شبيه الماء الجاري وليس بماء ولكن الذي ينظر اليه من بعيد يظنه ماء جاريا يقال سرب الماء يسرب سروبا اذا جرى فهو سارب أما الآل فهو ما يتراءى للعين في أول النهار فيرى الناظر الصغير كبيرا وظاهر كلام الخليل أن الآل والسراب واحد وأما القيعة فقال الفراء هو جمع قاع مثل جار وجيرة والقاع المنبسط المستوي من الارض وقال صاحب الكشاف القيعة بمعنى القاع وقال الزجاج الظمآن قد يخفف همزه

وروى أنه وافت من بصرى وأذرعات سبع قوافل ليهود بني قريظة والنضير فيها أنواع البز والطيب والجواهر وسائر الامتعة فقال المسلمون لو كانت هذه الاموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها في سبيل الله فقيل لهم قد أعطيتم سبع آيات وهي خير من هذه القوافل السبع (ولا تحزن عليهم) حيث لم يؤمنوا ولم ينتظموا في سلك أتباعك ليتقوى بهم ضعفاء ٣٣٥ المسلمين وقيل أو أنهم المتمتعون به ويأباه كلمة على فإن تمتعهم به لا يكون مدارا للحزن عليهم (واخفض جناحك للمؤمنين) أي تواضع لهم وارفق بهم وألن جانبك لهم وطب نفسا عن ايمان الاغنياء (وقل اني أنا النذير المبين) أي المنذر المظهر لنزول عذاب الله وحلوله (كما أنزلنا على المقتسمين) قيل انه متعلق بقوله تعالى ولقد آتيناك الخ أي أنزلنا عليك كما أنزلنا على أهل الكتاب (الذين جعلوا القرآن عضين) أي قسموه الى حق وباطل حيث قالوا عنادا وعدوانا بعضه حق موافق للتوراة والانجيل وبعضه باطل مخالف لهما أو اقتسموه لانفسهم استهزاء حيث كان يقول بعضهم سورة البقرة لي وبعضهم سورة آل عمران لي وهكذا أو قسموا ما قرؤا من كتبهم وحرفوه فأقروا ببعضه وكذبوا ببعضه وجعل توسط قوله تعالى لا تمدن عينيك على امتداد ما هو المراد بالكلام من التسلية وعقب ذلك بأنه جعل المقام عن التشبيه وانقطاعه أولى عليه الصلاة والسلام ما لم يؤت أحد قبله ولا بعده مثله وقيل انه متعلق بقوله اني أنا النذير المبين فانه في قوة الامر بالانذار كأنه قيل أنذر قريشا مثل ما أنزلنا على المقتسمين يعني اليهود وهو ما جرى على بني قريظة والنضير بأن جعل المتوقع كالواقع وقد وقع كذلك وأنت خبير بأن ما يشبه به العذاب المنذر لا بد أن يكون محقق الوقوع معلوم الحال عند المنذرين اذ به تحقق فائدة التشبيه وهي تأكيد الانذار وتشديده وعذاب بني

وهو الشديد العطش ثم وجه التشبيه أن الذي يأتي به الكافر ان كان من أفعال البر فهو لا يستحق عليه ثوابا مع أنه يعتقد أن له ثوابا عليه وان كان من أفعال الاثم فهو يستحق عليه عقابا مع أنه يعتقد أنه يستحق عليه ثوابا فكيف كان فهو يعتقد أن له ثوابا عند الله تعالى فاذا وافى عرصات القيامة ولم يجد الثواب بل وجد العقاب العظيم عظمت حسرته وتناهى غمه فيشبه حاله حال الظمآن الذي تشتد حاجته الى الماء فاذا شاهد السراب تعلق قلبه به ويرجو به النجاة ويقوى طمعه فاذا جاءه وأيس مما كان يرجوه فيعظم ذلك عليه وهذا المثال في غاية الحسن قال مجاهد السراب عمل الكافر واتيانه اياه موته ومفارقة الدنيا فان قيل قوله حتى اذا جاءه يدل على كونه شيأ وقوله لم يجده شيأ مناقض له قلنا الجواب عنه من وجوه ثلاثة (الاول) المراد معناه أنه لم يجده شيأ نافعا كما يقال فلان ما عمل شيأ وان كان قد اجتهد (الثاني) حتى اذا جاءه أي جاء موضع السراب لم يجد السراب شيأ فاكتفى بذكر السراب عن ذكر موضعه (الثالث) الكناية للسراب لان السراب يرى من بعيد بسبب الكثافة كأنه ضباب وهباء واذا قرب منه رق وانتثر وصار كالهواء أما قوله ووجد الله عنده فوفاه حسابه أي وجد عقاب الله الذي توعد به الكافر عند ذلك فتغير ما كان فيه من ظن النفع العظيم الى تيقن الضرر العظيم أو وجد زبانية الله عنده يأخذونه فيقبلون به الى جهنم فيسقونه الحميم والغساق وهم الذين قال الله تعالى فيهم عاملة ناصبة ويحسبون أنهم يحسنون صنعا وقدمنا الى ما عملوا من عمل وقيل نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية كان قد تعبد ولبس المسوح والتمس الدين في الجاهلية ثم كفر في الاسلام أما قوله والله سريع الحساب فذلك لانه سبحانه عالم بجميع المعلومات فلا يشق عليه الحساب وقال بعض المتكلمين معناه لا يشغله محاسبة واحد عن آخر كنحن ولو كان يتكلم بآلة كما يقوله المشبهة لما صح ذلك (وأما المثل الثاني) فهو قوله أو كظلمات في بحر لجي وفي لفظة أو ههنا وجوه (أحدها) اعلم أن الله تعالى بين أن أعمال الكفار ان كانت حسنة فمثل السراب وان كانت قبيحة فهي الظلمات (وثانيها) تقدير الكلام أن أعمالهم اما كسراب بقيعة وذلك في الآخرة واما كظلمات في بحر وذلك في الدنيا (وثالثها) الآية الاولى في ذكر أعمالهم وأنهم لا يحصلون منها على شيء والآية الثانية في ذكر عقائدهم فانها تشبه الظلمات كما قال يخرجهم من الظلمات الى النور أي من الكفر الى الايمان يدل عليه قوله تعالى ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور وأما البحر اللجي فهو ذو اللجة التي هي معظم الماء الغمر البعيد القعر وفي اللجي لغتان كسر اللام وضمها وأما تقرير المثل فهو أن البحر اللجي يكون قعره مظلما جدا بسبب غمورة الماء فاذا ترادفت عليه الامواج ازدادت الظلمة فاذا كان فوق الامواج سحاب بلغت الظلمة النهاية القصوى فالواقع في قعر هذا البحر اللجي يكون في نهاية شدة الظلمة ولما كانت العادة في اليد أنها من أقرب ما يراها ومن أبعد ما يظن أنه لا يراها فقال تعالى لم يكد يراها فبين سبحانه بهذا بلوغ تلك الظلمة الى أقصى النهايات ثم شبه به الكافر في اعتقاده وهو ضد المؤمن في قوله تعالى نور على نور وفي قوله يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ولهذا قال أبي بن كعب الكافر يتقلب في خمس من الظلم كلامه وعمله ومدخله ومخرجه ومصيره الى النار وفي كيفية هذا التشبيه وجوه أخر (أحدها) ان الله تعالى ذكر ثلاثة أنواع من الظلمات ظلمة البحر وظلمة الامواج وظلمة السحاب وكذا الكافر له ظلمات ثلاث ظلمة الاعتقاد وظلمة القول وظلمة العمل عن الحسن (وثانيها) شبهوا قلبه وبصره وسمعه بهذه الظلمات الثلاث عن ابن عباس (وثالثها) أن الكافر لا يدري ولا يدري أنه لا يدري ويعتقد أنه يدري فهذه المراتب الثلاث تشبه تلك الظلمات (ورابعها) أن هذه الظلمات متراكمة فكذا الكافر لشدة اصراره على كفره قد تراكمت عليه الضلالات حتى أن أظهر

قريظة والنضير مع عدم وقوعه اذ ذاك لم يسبق به وعد ووعيد فهم منه في غفلة محضة وشك مريب وتنزيل المتوقع منزلة الواقع له موقع جليل من الاعجاز لكن اذا صادف مقاما يقتضيه كما في قوله تعالى انا فتحنا لك فتحا مبينا ونظائره على أن تخصيص الاقتسام باليهود بمجرد اختصاص العذاب المذكور بهم مع شركتهم للنصارى في الاقتسام المتفرع على الموافقة والمخالفة وفي الاقتسام بمعنى التحريف الشامل للكتابين بل تخصيص العذاب المذكور بهم مع كونه من نتائج الاقتسام تخصيص من غير مخصص وقد جعل الموصول مفعولا أول لانذر أي أنذر المعضين الذين يجزؤن القرآن الى سحر وشعر وأساطير مثل ما أنزلنا على المقتسمين وهم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم فقعد كل منهم في مدخل لينفروا الناس عن الايمان برسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعضهم لا تغتروا بالخارج منا فانه ساحر ويقول الآخر شاعر والآخر كذاب فاهلكهم الله تعالى يوم بدر وقبله بآفات وفيه مع ما فيه من الاشتراك لما سبق في عدم كون العذاب الذي شبه به العذاب المنذر واقعا ولا معلوما للمنذرين ولا موعود الوقوع أنه لا داعي الى تخصيص وصف التعضية بهم واخراج المقتسمين من بينهم مع كونهم اسوتهم في ذلك فان وصفهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما وصفوا من السحر والشعر والكذب متفرع على وصفهم للقرآن بذلك وهل هو الا نفس التعضية ولا الى اخراجهم من حكم الانذار على أن ما نزل بهم من العذاب لم يكن من الشدة بحيث يشبه به عذاب غيرهم ولا مخصوصا بهم بل عاما للكل الفريقين وغيرهم مع أن بعض المنذرين كالوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل والاسود بن المطلب قد هلكوا قبل مهلك أكثر المقتسمين يوم بدر ولا الى تقديم المفعول الثاني على

الدلائل اذا ذكرت عنده لا يفهمها (وثانيها) قلب مظلم في صدر مظلم في جسد مظلم * أما قوله ظلمات بعضها فوق بعض فروى عن ابن كثير أنه قرأ سحاب وقرأ ظلمات بالجر على البدل من قوله أو كظلمات وعنه أيضا أنه قرأ سحاب ظلمات كما يقال سحاب رحمة وسحاب عذاب على الاضافة وقراءة الباقين سحاب ظلمات كلاهما بالرفع والتنوين وتمام الكلام عند قوله سحاب ثم ابتدأ ظلمات أي ما تقدم ذكره ظلمات بعضها فوق بعض أما قوله لم يكد يراها ففيه قولان (أحدهما) أن كاد نفيه اثبات واثباته نفي فقوله وما كادوا يفعلون نفي في اللفظ ولكنه اثبات في المعنى لانهم فعلوا ذلك وقوله عليه الصلاة والسلام كاد الفقر أن يكون كفرا اثبات في اللفظ لكنه نفي في المعنى لانه لم يكفر فكذا ههنا قوله لم يكد يراها معناه أنه رآها (والثاني) ان كاد معناه المقاربة فقوله لم يكد يراها معناه لم يقارب الوقوع ومعلوم أن الذي لم يقارب الوقوع لم يقع أيضا وهذا القول هو المختار والاول ضعيف لوجهين (الاول) أن ما يكون أقل من هذه الظلمات فانه لا يرى فيه شيء فكيف مع هذه الظلمات (الثاني) أن المقصود من هذا التمثيل المبالغة في جهالة الكفار وذلك انما يحصل اذا لم توجد الرؤية البتة مع هذه الظلمات أما قوله ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور فقال أصحابنا انه سبحانه لما وصف هداية المؤمن بانها في نهاية الجلاء والظهور عقبها بان قال يهدي الله لنوره من يشاء ولما وصف ضلالة الكافر بانها في نهاية الظلمة عقبها بقوله ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور والمقصود من ذلك أن يعرف الانسان أن ظهور الدلائل لا يفيد الايمان وظلمة الطريق لا تمنع منه فان الكل مربوط بخلق الله تعالى وهدايته وتكوينه وقال القاضي المراد بقوله ومن لم يجعل الله له نورا أي في الدنيا بالالطاف فماله من نور أي لا يهتدي فيتحير ويحتمل ومن لم يجعل الله له نورا أي خلاصا في الآخرة وفوزا بالثواب فماله من نور والكلام عليه تزييفا وتقريرا معلوم * قوله تعالى ﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والارض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون ولله ملك السموات والارض والى الله المصير﴾ اعلم أنه سبحانه لما وصف أنوار قلوب المؤمنين وظلمات قلوب الجاهلين أتبع ذلك بدلائل التوحيد (فالنوع الاول) ما ذكره في هذه الآية ولا شبهة في أن المراد ألم تعلم لان التسبيح لا تتناوله الرؤية بالبصر ويتناوله العلم بالقلب وهذا الكلام وان كان ظاهره استفهاما فالمراد التقرير والبيان فنبه تعالى على ما يلزم من تعظيمه بان من في السموات يسبح له وكذلك من في الارض واعلم أنه اما أن يكون المراد من التسبيح دلالة هذه الاشياء على كونه تعالى منزها عن النقائص موصوفا بنعوت الجلال واما أن يكون المراد منه أنها تنطق بالتسبيح وتتكلم به واما أن يكون المراد منه في حق البعض الدلالة على التنزيه وفي حق الباقين النطق باللسان والقسم الاول أقرب لان القسم الثاني متعذر لان في الارض من لا يكون مكلفا لا يسبح بهذا المعنى والمكلفون منهم من لا يسبح أيضا بهذا المعنى كالكفار أما القسم الثالث وهو أن يقال ان من في السموات وهم الملائكة يسبحون باللسان وأما الذين في الارض فمنهم من يسبح باللسان ومنهم من يسبح على سبيل الدلالة فهذا يقتضي استعمال اللفظ الواحد في الحقيقة والمجاز معا وهو غير جائز فلم يبق الا القسم الاول وذلك لان هذه الاشياء مشتركة في أن أجسامها وصفاتها دالة على تنزيه الله سبحانه وتعالى وعلى قدرته والهيته وتوحيده وعدله فسمى ذلك تنزيها على وجه التوسع * فان قيل فالتسبيح بهذا المعنى حاصل لجميع المخلوقات فما وجه تخصيصه ههنا بالعقلاء * قلنا لان خلقة العقلاء أشد دلالة على وجود الصانع سبحانه لان العجائب والغرائب في خلقهم أكثر وهي العقل والنطق والفهم * أما قوله تعالى والطير صافات فلقائل أن يقول ما وجه اتصال هذا بما قبله (والجواب) انه سبحانه لما ذكر أن أهل السموات

الاول كما ترى وقيل انه وصف لمفعول النذير أقيم مقامه والمقتسمون هم القاعدون في مداخل مكة كما عرفته مع ما مر أن قوله تعالى كما أنزلنا صريح في أنه من قول الله تعالى لا من قول الرسول عليه الصلاة والسلام والاعتذار بأن ذلك من باب ما يقوله بعض خواص الملك أمرنا بكذا وان كان الآمر هو الملك حسبما سلف في قوله تعالى قدرنا انها لمن الغابرين لا يخفى وأن اعمال الوصف الموصوف مما لا يجوزه البصريون فلا بد من المصير الى مسلك الكوفيين أو المصير الى جعله مفعولا غير صريح أي أنا النذير المبين بعذاب مثل عذاب المقتسمين وقيل المراد بالمقتسمين الرهط الذين تقاسموا على أن يبيتوا صالحا عليه الصلاة والسلام فأهلكهم الله تعالى وأنت تدري أن عذابهم حيث كان محققا ومعلوما للمنذرين حسبما نطق به القرآن العظيم صالح لان يقع مشبها به العذاب المنذر لكن الموصول المذكور عقيبه حيث لم يمكن كونه صفة للمقتسمين حينئذ فسواء جعلناه مفعولا أول للنذير أو لما دل هو عليه من أنذر لا يكون للتعرض لعنوان التعضية في حيز الصلة ولا لعنوان الاقتسام بالمعنى المزبور في حيز المفعول الثاني فائدة لما أن ذلك انما يكون للاشعار بعلية الصلة والصفة للحكم الثابت للموصول والموصوف فلا يكون هناك وجه تشبيه يدور عليه تشبيه عذابهم بعذابهم خاصة لعدم اشتراكهم في السبب فان المعتبر بمعزل من التقاسم على التبييت الذي هو السبب لهلاك أولئك كما أن أولئك بمعزل من التعضية التي هي السبب لهلاك هؤلاء ولا علاقة بين السببين مفهوما ولا وجودا لصحة وقوع أحدهما في جانب والآخر في جانب واتفاق الفريقين على مطلق الاتفاق على الشر المفهوم من الاتفاق على الشر المخصوص الذي هو التبييت المدلول عليه بالتقاسم غير

وأهل الأرض يسبحون ذكر ان الذين استقروا في الهواء الذي هو بين السماء والأرض وهو الطير يسبحون وذلك لان اعطاء الجرم الثقيل القوة التي بها يقوى على الوقوف في جو السماء صافة باسطة أجنحتها بما فيها من القبض والبسط من أعظم الدلائل على قدرة الصانع المدبر سبحانه وجعل طيرانها سجودا منها له سبحانه وذلك يؤكد ما ذكرناه من أن المراد من التسبيح دلالة هذه الأحوال على التنزيه لا النطق اللساني أما قوله كل قد علم صلاته وتسبيحه ففيه ثلاثة أوجه (الاول) المراد كل قد علم الله صلاته وتسبيحه قالوا ويدل عليه قوله سبحانه والله عليم بما يفعلون وهو اختيار جمهور المتكلمين (والثاني) أن يعود الضمير في الصلاة والتسبيح على لفظ كل أي أنهم يعلمون ما يجب عليهم من الصلاة والتسبيح (والثالث) أن تكون الهاء راجعة على ذكر الله يعني قد علم كل مسبح وكل مصل صلاة الله التي كلفه اياها وعلى هذين التقديرين فقوله والله عليم استئناف وروى عن أبي ثابت قال كنت جالسا عند محمد بن جعفر الباقر رضي الله عنه فقال لي أتدري ما تقول هذه العصافير عند طلوع الشمس وبعد طلوعها قلت لا قال فانهن يقدسن ربهن ويسألنه قوت يومهن واستبعد المتكلمون ذلك فقالوا الطير لو كانت عارفة بالله تعالى لكانت كالعقلاء الذين يفهمون كلامنا واشارتنا لكنها ليست كذلك فانا نعلم بالضرورة انها أشد نقصانا من الصبي الذي لا يعرف هذه الامور فبأن يمتنع ذلك فيها أولى واذا ثبت انها لا تعرف الله تعالى استحال كونها مسبحة له بالنطق فثبت انها لا تسبح الله الا بلسان الحال على ما تقدم تقريره قال بعض العلماء انا نشاهد ان الله تعالى ألهم الطيور وسائر الحشرات أعمالا لطيفة يعجز عنها أكثر العقلاء واذا كان كذلك فلم لا يجوز أن يلهمها معرفته ودعاءه وتسبيحه وبيان انه سبحانه ألهمها الاعمال اللطيفة من وجوه (أحدها) احتيالها في كيفية الاصطياد فتأمل في العنكبوت كيف يأتي بالحيل اللطيفة في اصطياد الذباب ويقال ان الدب يستلقي في ممر الثور فاذا رام نطحه شبث ذراعيه بقرنيه ولا يزال ينهش ما بين ذراعيه حتى يثخنه وانه يرمي بالحجارة ويأخذ العصا ويضرب الانسان حتى يتوهم انه مات فيتركه وربما عاود يشمه ويتجسس نفسه ويصعد الشجر أخف صعود ويهشم الجوز بين كفيه تعريضا بالواحدة وصدمة بالاخرى ثم ينفخ فيه فيذر قشره ويستف لبه ويحكى عن الفأر في سرقته أمور عجيبة (وثانيها) أمر النحل وما لها من الرياسة وبناء البيوت المسدسة التي لا يتمكن من بنائها أفاضل المهندسين (وثالثها) انتقال الكراكي من طرف من أطراف العالم الى الطرف الآخر طلبا لما يوافقها من الاهوية ويقال ان من خواص الخيل ان كل واحد منها يعرف صوت الفرس الذي قاتله وقتا ما والكلاب تتصايح بالعية المعروفة لها والفهد اذا سقي أو شرب من الدواء المعروف بخانق الفهد عمد الى زبل الانسان فأكله والتماسيح تفتح أفواهها لطائر يقع عليها كالعقعق وينظف ما بين أسنانها وفي رأس ذلك الطائر كالشوك فاذا هم التمساح بالتقام ذلك الطير تأذى من ذلك الشوك فيفتح فاه فيخرج الطائر والسلحفاة تتناول بعد أكل الحية صعترا جبليا ثم تعود وقد عوفيت من ذلك وحكى بعض الثقات المجربين للصيد انه شاهد الحباري تقاتل الافعى وتنهزم عنها الى بقلة تتناول منها ثم تعود ولا تزال كذلك دأبه فكان ذلك الشيخ قاعدا في كن غائر فقلع البقلة وكانت البقلة قريبة من مكمنه فلما اشتغل الحباري بالافعى قلع البقلة فعادت الحباري الى منبتها ففقدته وأخذت تدور حول منبتها دورانا متتابعا حتى خرت ميتا فعلم الشيخ انه كان يتعالج بأكلها من اللسعة وتلك البقلة كانت هي الجرجير البري وأما ابن عرس فيستظهر في قتال الحية بأكل السذاب فان النكهة السذابية مما تنفر منها الافعى والكلاب اذا دودت بطونها أكلت سنبل القمح واذا جرحت اللقالق بعضها بعضا داوت جراحها بالصعتر

بعينه اذ لا دلالة لعنوان القسمة على ذلك وانما يدل عليه اقتسام المداخل وجعل الموصول مبتدأ على أن خبره الجملة القسمية لا يليق بجزالة التنزيل وجلالة شأنه الجليل اذا عرفت هذا فاعلم أن الاقرب من الاقوال المذكورة أنه متعلق بالاول وأن المراد بالمقتسمين أهل الكتابين وأن الموصول مع صلته

صفة مبينة لكيفية اقتسامهم ومحل الكاف النصب على المصدرية وحيث جلالة المقام عن التشبيه من لوائح النظر الجليل والمعنى لقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم ايتاء مماثلا لانزال الكتابين على أهلهما وعدم التعرض لذكر ما أنزل عليهم من الكتابين لان الغرض بيان المماثلة بين الايتاءين لا بين متعلقيهما والعدول عن تطبيق ما في جانب المشبه به على ما في جانب المشبه بأن يقال كما آتينا المقتسمين سبعا وقع في قوله تعالى الذين آتيناهم الكتاب الخ للتنبيه على ما بين الايتاءين من التنائي فان الاول على وجه التكرمة والامتنان وشتان بينه وبين الثاني ولا يقدح ذلك في وقوعه مشبها به فان ذلك انما هو لسبقه عندهم وتقدم وجوده على المشبه زمانا لا لمزية تعود الى ذاته كما في الصلاة الابراهيمية فان التشبيه فيها ليس لكون رحمة الله تعالى الفائضة على ابراهيم عليه الصلاة والسلام وآله أتم وأكمل مما فاض على النبي عليه الصلاة والسلام وانما ذلك للتقدم في الوجود والتنصيص عليه في القرآن العظيم فليس في التشبيه شائبة اشعار بأفضلية المشبه به من المشبه فضلا عن ايهام الجلي أفضلية ما تعلق به الاول مما تعلق به الثاني وانما ذكروا بعنوان الاقتسام انكارا لاتصافهم به مع تحقق ما ينفيه من الانزال المذكور وايذانا بأنه كان من حقهم ان يؤمنوا بكله حسب ايمانهم بما أنزل عليهم بحكم الاشتراك في العلة والاتحاد في الحقيقة التي هي مناط

الجبلي (ورابعها) الفنافسة وهو تحس بالشمال والجنوب قبل الهبوب فتغير المدخل الى بحرها وكان بالقسطنطينية رجل قد أثرى بسبب انه كان ينذر بالرياح قبل هبوبها وينتفع الناس بانذاره وكان السبب فيه قنفذا في داره يفعل الصنيع المذكور فيستدل به (والخطاف) صانع جيد في اتخاذ العش من الطين وقطع الخشب فان أعوزه الطين ابتل وتمرغ في التراب ليحمل جناحاه قدرا من الطين واذا أفرخ بالغ في تعهد الفراخ ويأخذ ذرقها بمنقاره ويرميها عن العش ثم يعلمها القاء الذرق نحو طرف العش واذا دنا الصائد من مكان فراخ القبجة ظهرت له القبجة وقربت منه مطمعة له ليتبعها ثم تذهب الى جانب آخر سوى جانب فراخها وناقب الخشب قلما يقع على الارض بل على الشجر ينقر الموضع الذي يعلم أن فيه دودا والغرانيق تصعد في الجو جدا عند الطيران فان حجب بعضها عن بعض ضباب أو سحاب أحدثت عن أجنحتها حفيفا مسموعا يلزم به بعضها بعضا فاذا نامت على جبل فانها تضع رؤسها تحت أجنحتها الا القائد فانه ينام مكشوف الرأس فيسرع انتباهه واذا سمع جرسا صاح وحال النمل في الذهاب الى مواضعها على خط مستقيم يحفظ بعضها بعضا أمر عجيب واعلم أن الاستقصاء في هذا الباب مذكور في كتاب طبائع الحيوان والمقصود أن الاكياس من العقلاء يعجزون عن أمثال هذه الحيل فاذا جاز ذلك فلم لا يجوز أن يقال انها ملهمة من عند الله تعالى بمعرفته والثناء عليه وان كانت غير عارفة بسائر الامور التي يعرفها الناس ولله در شهاب الاسلام السمعاني حيث قال جل جناب الجلال عن أن يوزن بميزان الاعتزال * أما قوله سبحانه ولله ملك السموات والارض والى الله المصير فهو مع وجازته فيه دلالة على تمام علم المبدا والمعاد فقوله ولله ملك السموات والارض تنبيه على أن الكل منه لان كل ما سواه ممكن ومحدث والممكن والمحدث لا يوجدان الا عند الانتهاء الى القديم الواجب فدخل في هذه القضية جميع الاجرام والاعراض وأفعال العباد وأقوالهم وخواطرهم وأما قوله والى الله المصير فهو عبارة تامة في معرفة المعاد وهو أنه لا بد من مصير الكل اليه سبحانه وله وجه آخر وهو أن الوجود يبدأ من الاشرف فالاشرف نازلا الى الاخس فالاخس ثم يأخذ من الاخس فالاخس مترقيا الى الاشرف فالاشرف فانه يكون جسما ثم يصير موصوفا بالنباتية ثم الحيوانية ثم الانسانية ثم الملكية ثم ينتهي الى واجب الوجود لذاته فالاعتبار الاول هو قوله ولله ملك السموات والارض والثاني هو قوله والى الله المصير * قوله تعالى ﴿ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار يقلب الله الليل والنهار ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار﴾ اعلم أن هذا هو النوع الثاني من الدلائل وفيه مسئلتان ﴿المسئلة الاولى﴾ قوله ألم تر يعني ألم تعلم والمراد التنبيه والازجاء السوق قليلا قليلا ومنه البضاعة المزجاة التي يزجيها كل أحد وازجاء السير في الابل الرفق بها حتى تسير شيئا فشيئا ثم يؤلف بينه قال الفراء بين لا يصلح الا مضافا الى اسمين فما زاد وانما قال بينه لان السحاب واحد في اللفظ ومعناه الجمع والواحد سحابة قال الله تعالى وينشئ السحاب الثقال والتأليف ضم شئ الى شئ أي يجمع بين قطع السحاب فيجعلها سحابا واحدا ثم يجعله ركاما أي مجتمعا والركم جمعك شيئا فوق شئ حتى تجعله مركوما والودق المطر قاله ابن عباس وعن مجاهد القطر وعن أبي مسلم الاصفهاني الماء من خلاله من شقوقه ومخارقه جمع خلل كجبال في جمع جبل وقرئ من خلله ﴿المسئلة الثانية﴾ اعلم أن قوله يزجي سحابا يحتمل أنه سبحانه ينشئه شيئا بعد شئ ويحتمل أن يغيره من سائر الاجسام لا في حالة واحدة فعلى الوجه الاول يكون نفس السحاب محدثا ثم انه سبحانه يؤلف بين أجزائه وعلى الثاني يكون المحدث من قبل الله تعالى تلك الصفات التي باعتبارها

الوحي وتوسيط قوله تعالى لا تمدن الخ لتكميل اتصاله بما قبله وما بعده ببيان حال ما أوتي النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين أولا علو شأنه ورفعة مكانه بحيث يستوجب اغتباطه عليه الصلاة والسلام بمكانه واستغناءه به عما سواه ثم نهى عن الالتفات الى زهرة الدنيا وعبر عن ابتغائها الاماثيا بالتمتيع المنبئ عن وشك زوالها عنهم ثم عن الحزن بعدم ايمان المتمكنين فيها وأمر بمراعاة المؤمنين والاكتفاء بهم عن غيرهم وباظهار قيامه بمواجب الرسالة ومراسم النذارة حسبما فصل في تضاعيف ما أوتي من القرآن العظيم ثم رجع الى كيفية ايتائه على وجه أدمج فيه ما يزيح شبه المنكرين ويستنزلهم عن العناد من بيان مشاركته لما لا ريب لهم في كونه وحيا صادقا فتأمل والله عنده علم الكتاب هذا وقد قيل المعنى قل اني أنا النذير المبين كما قد أنزلنا في الكتب انك ستأتي نذيرا على أن المقتسمين أهل الكتاب انتهى يريد أن ما في كما موصولة والمراد بالمشابهة المستفادة من الكاف الموافقة وهي مع ما في حيزها في محل النصب على الحالية من مفعول قل أي قل هذا القول حال كونه كما أنزلنا على أهل الكتابين أي موافقا لذلك فلا نسب بتخلل الاقتسام على التحريف ليكون وصفهم بذلك تعريضا بما فعلوا من تحريفهم وكتمانهم لنعت النبي صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى عضين جمع عضة وهي الفرقة أصلها عضوة فعلة من عضى الشاة تعضية اذا جعلها أعضاء وانما جمعت جمع السلامة جبرا للمحذوف كسنين وعزين والتعبير عن تجزئة القرآن بالتعضية التي هي تفريق الاعضاء من ذي الروح المستلزم لازالة حياته وابطال اسمه دون مطلق التجزئة والتفريق اللذين ربما يوجدان فيما لا يضره التبعيض من المثليات للتنصيص

على كمال قبح ما فعلوه بالقرآن العظيم وقيل هي فعلة من عضهته إذا بهته وعن عكرمة العضه السحر بلسان قريش فنقصانها على الأول
واو وعلى الثاني هاء (فوربك لنسألنهم أجمعين) أي لنسألن يوم القيامة أصناف الكفرة من المقتسمين وغيرهم سؤال توبيخ وتقريع (عما
كانوا يعملون) في الدنيا من قول ٣٣٠ وفعل وترك فيدخل فيه ما ذكر من الاقتسام والتعضية دخولا أوليا ونجزيهم بذلك
جزاء موفورا وفيه من التشديد وتأكيد الوعيد ما لا يخفى والفاء لترتيب الوعيد على أعمالهم التي ذكر بعضها وفي التعرض لوصف الربوبية مضافا إليه عليه الصلاة والسلام إظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام (فاصدع بما تؤمر) فاجهر به من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارا أو افرق بين الحق والباطل وأصله الإبانة والتمييز وما مصدرية أو موصولة والعائد محذوف أي ما تؤمر به من الشرائع المودعة في تضاعيف ما أوتيته من المثاني السبع والقرآن العظيم (وأعرض عن المشركين) أي لا تلتفت إلى ما يقولون ولا تبال بهم ولا تقصد للانتقام منهم (إنا كفيناك المستهزئين) بقمعهم وتدميرهم قيل كانوا خمسة من أشراف قريش الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والحرث بن قيس بن الطلاطلة والأسود بن عبد يغوث والأسود بن المطلب يبالغون في إيذاء النبي صلى الله عليه
وسلم والاستهزاء به فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام فقال قد أمرت أن أكفيكهم فأومأ إلى ساق الوليد فمر رؤس
بنبال فتعلق بثوبه سهم فلم ينعطف تعظما لأخذه فأصاب عرقا في عقبه فقطعه فمات وأومأ إلى أخمص العاص فدخلت فيه شوكة فقال
لدغت لدغت وانتفخت رجله حتى صارت كالرحى فمات وأشار إلى عيني الأسود بن المطلب فعمي وإلى أنف الحرث فامتخط قيحا فمات

صارت تلك الأجسام سحابا وفي قوله ثم يؤلف بينه دلالة على وجودها متقدما متفرقا إذ التأليف لا يصح
إلا بين موجودين ثم إنه سبحانه يجعله ركاما وذلك بتركب بعضها على البعض وهذا مما لا بد منه لأن السحاب
إنما يحمل الكثير من الماء إذا كان بهذه الصفة وكل ذلك من عجائب خلقه ودلالة ملكه واقتداره قال أهل
الطبائع إن تكون السحاب والمطر والثلج والبرد والطل والصقيع في أكثر الأمر يكون من تكاثف البخار
وفي الأقل من تكاثف الهواء أما الأول فالبخار الصاعد إن كان قليلا وكان في الهواء من الحرارة ما يحلل
ذلك البخار فحينئذ يتحلل وينقلب هواء وأما إن كان البخار كثيرا ولم يكن في الهواء من الحرارة ما يحلل ذلك
البخار فتلك الأبخرة المتصاعدة إما أن تبلغ في صعودها إلى الطبقة الباردة من الهواء أو لا تبلغ فإن بلغت فإما
أن يكون البرد هناك قويا أو لا يكون فإن لم يكن البرد هناك قويا تكاثف ذلك البخار بذلك القدر من البرد
واجتمع وتقاطر فالبخار المجتمع هو السحاب والمتقاطر هو المطر والديمة والوابل إنما يكون من أمثال هذه
الغيوم وأما إن كان البرد شديدا فلا يخلو إما أن يصل البرد إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها وانحلالها
حبات كبارا أو بعد صيرورتها كذلك فإن كان على الوجه الأول نزل ثلجا وإن كان على الوجه الثاني نزل
بردا وأما إذا لم تبلغ الأبخرة إلى الطبقة الباردة فهي إما أن تكون كثيرة أو تكون قليلة فإن كانت كثيرة فهي
قد تنعقد سحابا ماطرا وقد لا تنعقد أما الأول فذاك لأحد أسباب خمسة (أحدها) إذا منع هبوب الرياح
عن تصاعد تلك الأبخرة (وثانيها) أن تكون الرياح ضاغطة إياها إلى الاجتماع بسبب وقوف جبال قدام
الريح (وثالثها) أن تكون هناك رياح متقابلة متصادمة فتمنع صعود الأبخرة حينئذ (ورابعها) أن يعرض
للجزء المتقدم وقوف لثقله وبطء حركته ثم يلتصق به سائر الأجزاء الكثيرة المدد (وخامسها) لشدة برد الهواء
القريب من الأرض وقد نشاهد البخار يصعد في بعض الجبال صعودا يسيرا حتى كأنه مكبة موضوعة على
وهدة ويكون الناظر إليها فوق تلك الغمامة والذين يكونون تحت الغمامة يمطرون والذين يكونون فوقها
يكونون في الشمس وأما إذا كانت الأبخرة القليلة الارتفاع قليلة لطيفة فإذا ضربها برد الليل كثفها
وعقدها ماء محسوسا فنزل نزولا متفرقا لا يحس به إلا عند اجتماع شيء يعتد به فإن لم يجمد كان طلا وإن
جمد كان صقيعا ونسبة الصقيع إلى الطل نسبة الثلج إلى المطر وأما تكون السحاب من انقباض الهواء
فذلك عندما يبرد الهواء وينقبض وحينئذ يحصل منه الأقسام المذكورة (والجواب) أنا لما دللنا على
حدوث الأجسام وتوسلنا بذلك إلى كونه قادرا مختارا يمكنه إيجاد الأجسام لم يمكنا القطع بما ذكرتموه
لاحتمال أنه سبحانه خلق أجزاء السحاب دفعة لا بالطريق الذي ذكرتموه وأيضا فهب أن الأمر كما ذكرتم
ولكن الأجسام بالاتفاق ممكنة في ذواتها فلا بد لها من مؤثر ثم إنها متماثلة فاختصاص كل واحد منها
بصفته المعينة من الصعود والهبوط واللطافة والكثافة والحرارة والبرودة لا بد له من مخصص فإذا كان
هو سبحانه خالقا لتلك الطبائع وتلك الطبائع مؤثرة في هذه الأحوال وخالق السبب خالق المسبب فكان
سبحانه هو الذي يزجي سحابا لأنه هو الذي خلق تلك الطبائع المحركة لتلك الأبخرة من باطن الأرض إلى جو
الهواء ثم إن تلك الأبخرة إذا ترادفت في صعودها والتصق بعضها بالبعض فهو سبحانه هو الذي جعلها ركاما
فثبت على جميع التقديرات أن وجه الاستدلال بهذه الأشياء على القدرة والحكمة ظاهر بين أما قوله
سبحانه وينزل من السماء من جبال فيها من برد ففيه مسئلتان (المسئلة الأولى) في هذه الآية قولان
(أحدهما) أن في السماء جبالا من برد خلقها الله تعالى كذلك ثم ينزل منها ما شاء وهذا القول عليه أكثر
المفسرين قال مجاهد والكلبي جبال من برد في السماء (والقول الثاني) أن السماء هو الغيم المرتفع على

رؤس الناس سمي بذلك لسموه وارتفاعه وأنه تعالى أنزل من هذا الغيم الذي هو سماء البرد وأراد بقوله من
جبال السحاب العظام لأنها اذا عظمت أشبهت الجبال كما يقال فلان يملك جبالا من مال ووصفت بذلك
توسعا وذهبوا الى أن البرد ماء جامد خلقه الله تعالى في السحاب ثم أنزله الى الأرض وقال بعضهم انما سمى الله
ذلك الغيم جبالا لأنه سبحانه خلقها من البرد وكل جسم شديد متحجر فهو من الجبال ومنه قوله تعالى
واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين ومنه فلان مجبول على كذا قال المفسرون والأول أولى لأن السماء اسم
لهذا الجسم المخصوص فجعله اسما للسحاب بطريقة الاشتقاق مجاز وكما يصح أن يجعل الله الماء في السحاب
ثم ينزله بردا فقد يصح أن يكون في السماء جبال من برد واذا صح في القدرة كلا الأمرين فلا وجه لترك
الظاهر (المسألة الثانية) قال أبو علي الفارسي قوله تعالى من السماء من جبال فيها من برد فمن الأولى
لابتداء الغاية لأن ابتداء الانزال من السماء والثانية للتبعيض لأن ما ينزله الله بعض تلك الجبال التي في
السماء والثالثة للتبيين لأن جنس تلك الجبال جنس البرد ثم قال ومفعول الانزال محذوف والتقدير وينزل
من السماء من جبال فيها من بردا الا أنه حذف للدلالة عليه أما قوله فيصيب به من يشاء ويصرفه عن
من يشاء فالظاهر أنه راجع الى البرد ومعلوم من حاله أنه قد يضر بما يقع عليه من حيوان ونبات فبين سبحانه أنه
يصيب به من يشاء على وفق المصلحة ويصرفه أي يصرف ضرره عمن يشاء بأن لا يسقط عليه ومن الناس
من حمل البرد على الحجر وجعل نزوله جاريا مجرى عذاب الاستئصال وذلك بعيد * أما قوله تعالى يكاد سنا
برقه يذهب بالأبصار ففيه مسائل (المسألة الأولى) قرئ يكاد سناء برقه على الادغام وقرئ برقه جمع برقة
وهي المقدار من البرق وبرقه بضمتين للاتباع كما قيل في جمع فعلة فعلات كظلمات وسناء برقه على المد
والمقصور بمعنى الضوء والممدود بمعنى العلو والارتفاع من قولك سنى للمرتفع ويذهب بالأبصار على زيادة
الباء كقوله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة عن أبي جعفر المدني (المسألة الثانية) وجه الاستدلال بقوله
يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار أن البرق الذي يكون صفته ذلك لابد وأن يكون نارا عظيمة خالصة والنار ضد
الماء والبرد فظهوره من البرد يقتضي ظهور الضد من الضد وذلك لا يمكن الا بقدرة قادر حكيم (المسألة
الثالثة) اختلف النحويون في أنك اذا قلت ذهبت بزيد الى الدار فهل يجب أن تكون ذاهبا معه الى الدار
فالمنكرون احتجوا بهذه الآية أما قوله يقلب الله الليل والنهار فقيل فيه وجوه منها تعاقبهما ومجيء أحدهما
بعد الآخر وهو كقوله وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة ومنها ولوج أحدهما في الآخر وأخذ أحدهما
من الآخر ومنها تغير أحوالهما في البرد والحر وغيرهما ولا يمتنع في مثل ذلك أن يريده تعالى بمعاني الكل
لأنه في الانعام والاعتبار أولى وأقوى أما قوله تعالى ان في ذلك لعبرة لأولي الأبصار فالمعنى أن فيما تقدم
ذكره دلالة لمن يرجع الى بصيرة فمن هذا الوجه يدل على أن الواجب على المرء أن يتدبر ويتفكر في هذه
الأمور ويدل أيضا على فساد التقليد ﴿ قوله تعالى ﴿والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه
ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شيء قدير لقد أنزلنا
آيات مبينات والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم﴾ اعلم أن هذا هو النوع الثالث من الدلائل على
الوحدانية وذلك لأنه لما استدل أولا بأحوال السماء والأرض وثانيا بالآثار العلوية استدل ثالثا بأحوال
الحيوانات * واعلم أن على هذه الآية سؤالات (السؤال الأول) لم قال الله تعالى والله خلق كل دابة من ماء
مع أن كثيرا من الحيوانات غير مخلوقة من الماء أما الملائكة فهم أعظم الحيوانات عددا وهم مخلوقون من
النور وأما الجن فهم مخلوقون من النار وخلق الله آدم من التراب لقوله خلقه من تراب وخلق عيسى من

والى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح برأسه الشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات (الذين يجعلون مع الله
الها آخر) وصفهم بذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهوينا للخطب عليه باعلام أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء به عليه الصلاة
والسلام بل اجترؤا على العظيمة التي هي الاشراك بالله سبحانه (فسوف يعلمون) ٢٣١ عاقبة ما يأتون ويذرون (ولقد نعلم أنك
يضيق صدرك بما يقولون) من كلمات الشرك والطعن في القرآن والاستهزاء به وبك وتحلية الجملة بالتأكيد لافادة تحقيق ما تتضمنه من التسلية وصيغة الاستقبال لافادة استمرار العلم حسب استمرار متعلقه باستمرار ما يوجبه من أقوال الكفرة (فسبح بحمد ربك) فافزع الى الله تعالى فيما نابك من ضيق الصدر والحرج بالتسبيح والتقديس ملتبسا بحمده وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى من اظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام والاشعار بعلة الحكم أعني الأمر بالتسبيح والحمد (وكن من الساجدين) أي المصلين يكفك ويكشف الغم عنك أو فنزهه عما يقولون ملتبسا بحمده على أن هداك للحق المبين وعنه عليه الصلاة والسلام أنه كان اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة (واعبد ربك)
دم على ما أنت عليه من عبادته تعالى وايثار الاظهار بالعنوان السالف آنفا لتأكيد ما سبق من اظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام
والاشعار بعلة الأمر بالعبادة (حتى يأتيك اليقين) أي الموت فانه متيقن اللحوق بكل حي مخلوق واسناد الاتيان اليه للايذان بأنه متوجه
الى الحي طالب للوصول اليه والمعنى دم على العبادة ما دمت حيا من غير اخلال بها لحظة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة

الخبر كان له من الاجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والانصار والمستهزئين بمحمد صلى الله عليه وسلم

﴿سورة النحل مائة وثمان وعشرون آية﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ﴿أتى أمر الله﴾ أى الساعة أو ما يعمها وغيرها من

العذاب الموعود للكفرة عبر عن ذلك بأمر الله للتفخيم والتهويل وللايذان بأن تحققه فى نفسه واتيانه منوط بحكمه النافذ

الزج لقوله فنفخنا فيه من روحنا وأيضا نرى ان كثيرا من الحيوانات متولدا لا عن النطفة (والجواب) من وجوه (أحدها) وهو الاحسن ما قاله القفال وهو أن قوله من ماء صلة كل دابة وليس هو من صلة خلق والمعنى أن كل دابة متولدة من الماء فهى مخلوقة لله تعالى (وثانيها) ان أصل جميع المخلوقات الماء على ما روى أول ما خلق الله تعالى جوهرة فنظر اليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم من ذلك الماء خلق النار والهواء والنور ولما كان المقصود من هذه الآية بيان أصل الخلقة وكان الاصل الاول هو الماء لا جرم ذكره على هذا الوجه (وثالثها) ان المراد من الدابة التى تدب على وجه الارض ومسكنهم هنالك فيخرج عنه الملائكة والجن ولما كان الغالب جدا من هذه الحيوانات كونهم مخلوقين من الماء اما لانها متولدة من النطفة واما لانها لا تعيش الا بالماء لا جرم أطلق لفظ الكل تنزيلا للغالب منزلة الكل ﴿السؤال الثانى﴾ لم نكر الماء فى قوله من ماء وجاء معرفا فى قوله وجعلنا من الماء كل شئ حى ﴿والجواب﴾ انما جاء ههنا منكرا لان المعنى أنه خلق كل دابة من نوع من الماء يختص بتلك الدابة وانما جاء معرفا فى قوله وجعلنا من الماء كل شئ حى لان المقصود هنالك كونهم مخلوقين من هذا الجنس وههنا بيان أن ذلك الجنس ينقسم الى أنواع كثيرة ﴿السؤال الثالث﴾ قوله فمنهم ضمير العقلاء وكذلك قوله من فلم استعمله فى غير العقلاء ﴿والجواب﴾ انه تعالى ذكر ما لا يعقل مع من يعقل وهم الملائكة والانس والجن فغلب اللفظ اللائق بمن يعقل لان جعل الشريف أصلا والخسيس تبعا أولى من العكس ويقال فى الكلام من الفيلان لرجل وبعير ﴿السؤال الرابع﴾ لم سمى الزحف على البطن مشيا وبين صحة هذا السؤال أن الصبى قد يوصف بأنه يحبو ولا يقال انه يمشى وان زحف على عدمها تزحف الحية ﴿والجواب﴾ هذا على سبيل الاستعارة كما قالوا فى الامر المستمر قد مشى هذا الامر ويقال فلان لا يتمشى له أمر أو على طريق المشاكلة لذلك الزاحف مع الماشين ﴿السؤال الخامس﴾ انه لم يستوف القسمة لانا نجد ما يمشى على أكثر من أربع مثل العناكب والعقارب والرتيلات بل مثل الحيوان الذى له أربعة وأربعون رجلا الذى يسمى دخال الاذن ﴿والجواب﴾ القسم الذى ذكرتم كالنادر فكان ملحقا بالعدم ولان الفلاسفة يقولون بأن ماله قوائم كثيرة فاعتماده اذا مشى على أربع جهاته لا غير فكأنه يمشى على أربع ولان قوله تعالى يخلق الله ما يشاء كالتنبيه على سائر الاقسام ﴿السؤال السادس﴾ لم جاءت الاجناس الثلاثة على هذا الترتيب ﴿والجواب﴾ قدم ما هو أعجب وهو الماشى بغير آلة مشى من أرجل أو قوائم ثم الماشى على رجلين ثم الماشى على أربع واعلم أن قوله يخلق الله ما يشاء تنبيه على أن الحيوانات كما اختلفت بحسب كيفية المشى فكذا هى مختلفة بحسب أمور أخر فلنذكرها هنا بعض تلك التقسيمات ﴿التقسيم الاول﴾ الحيوانات قد تشترك فى أعضاء وقد تتباين بأعضاء أما الشركة فمثل اشتراك الانسان والفرس فى أن لهما لحما وعصبا وعظما وأما التباين فاما أن يكون فى نفس العضو أو فى صفته أما التباين فى نفس العضو فعلى وجهين (أحدهما) أن لا يكون العضو حاصلا للآخر وان كانت أجزاؤه حاصلة للثانى كالفرس والانسان فان الفرس له ذنب والانسان ليس له ذنب ولكن أجزاء الذنب ليست الا العظم والعصب واللحم والجلد والشعر وكل ذلك حاصل للانسان (والثانى) أن لا يكون ذلك العضو حاصلا للثانى لا بذاته ولا بأجزائه مثل أن للسلحفاة صدفا يحيط به وليس للانسان ذلك وكذا للسمك فلوس وللقنفذ شوك وليس شئ منها للانسان * وأما التباين فى صفة العضو فاما أن يكون من باب الكمية أو الكيفية أو الوضع أو الفعل أو الانفعال أما الذى فى الكم فاما أن يتعلق بالمقدار مثل أن عين البوم كبيرة وعين العقاب صغيرة أو بالعدد مثل ان أرجل ضرب من العناكب ستة وأرجل ضرب آخر ثمانية أو

وقضائه الغالب واتيانه عبارة عن دنوه واقترابه على طريقة نظم المتوقع فى سلك الواقع أو عن اتيان مباديه القريبة على نهج اسناد حال الاسباب الى المسببات وأياما كان ففيه تنبيه على كمال قربه من الوقوع واتصاله وتكميل لحسن موقع التفريع فى قوله عز وجل (فلا تستعجلوه) فان النهى عن استعجال الشئ وان صح تفريعه على قربه ووقوعه أو على وقوع أسبابه القريبة لكنه ليس بمثابة تفريعه على وقوعه اذ بالوقوع يستحيل الاستعجال رأسا لا بما ذكر من قرب وقوعه ووقوع مباديه والخطاب للكفرة خاصة كما تدل عليه القراءة على صيغة نهى الغائب واستعجالهم وان كان بطريق الاستهزاء لكنه حمل على الحقيقة ونهوا عنه بطريق التهكم لا مع المؤمنين سواء أريد بأمر الله ما ذكر أو العذاب الموعود للكفرة خاصة أما الاول فلأنه لا يتصور من المؤمنين استعجال الساعة أو ما يعمها وغيرها من العذاب حتى يعمهم النهى عنه وأما الثانى فلان

عشرة

استعجالهم له بطريق الحقيقة واستعجال الكفرة بطريق الاستهزاء كما عرفته فلا ينتظمهما صيغة واحدة والالتجاء الى ارادة معنى مجازى يعمهما معا من غير أن يكون هناك رعاية نكتة سرية تعسف لا يليق بشأن التنزيل الجليل وما روى من أنه لما نزلت اقتربت الساعة قال

الكفار فيما بينهم ان هذا يزعم أن القيامة قد قربت فامسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن فلما تأخرت قالوا ما نرى شيأ فنزلت اقترب للناس حسابهم فاشفقوا وانتظروا قربها فلما امتدت الايام قالوا يا محمد ما نرى شيأ مما تخوفنا به فنزلت أتى أمر الله فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع الناس رؤسهم فلما نزل فلا تستعجلوه اطمأنوا فليس ٣٣٣ فيه دلالة على عموم الخطاب كما قيل لا لما توهم من أن التصدير بالفاء يأباه فانه بمعزل عن اباء حسبما حققته بل لان مناط الاطمئنان انما هو وقوفهم على أن المراد بالاتيان هو الاتيان الادعائي لا الحقيقي الموجب لاستحالة الاستعجال المستلزمة لامتناع النهي عنه لما أن النهي عن الشئ يقتضي امكانه في الجملة ومدار ذلك الوقوف انما هو النهي عن الاستعجال المستلزم لامكانه المقتضي لعدم وقوع المستعجل بعد ولا يختلف ذلك باختلاف المستعجل كائنا من كان بل فيه دلالة واضحة على عدم العموم لان المراد بامر الله انما هو الساعة وقد عرفت استحالة صدور استعجالها عن المؤمنين نعم يجوز تخصيص الخطاب بهم على تقدير كون أمر الله عبارة عن العذاب الموعود للكفرة خاصة لكن الذي يقتضيه الاعجاز التنزيلي أنه خاص بالكفرة كما ستقف عليه ولما كان استعجالهم ذلك من نتائج اشراكهم المستتبع لنسبة الله عز وجل الى ما لا يليق به من العجز والاحتياج الى الغير واعتقاد ان أحدا يحجزه عن انجاز وعده وامضاء وعيده وقد قالوا في تضاعيفه ان صح مجيء العذاب فالاصنام تخلصنا عنه بشفاعتهم اردف ذلك فقيل بطريق الاستئناف (سبحانه وتعالى عما يشركون) أي تنزه وتقدس بذاته وجل عن اشراكهم المؤدي الى صدور أمثال هذه الاباطيل عنهم أو عن أن يكون له شريك فيدفع ما أراد بهم بوجه من

عشرة والذي في الكيف فكاختلافها في الالوان والاشكال والصلابة واللين والذي في الوضع فمثل اختلاف وضع ثدي الفيل فانه يكون قريبا من الصدر وثدي الفرس فانه عند السرة وأما الذي في الفعل فمثل كون أذن الفيل صالحا للذب مع كونه آلة للسمع وليس كذلك في الانسان وكون أنفه آلة للقبض دون أنف غيره وأما الذي في الانفعال فمثل كون عين الخفاش سريعة التحير في الضوء وعين الخطاف بخلاف ذلك (التقسيم الثاني) الحيوان اما أن يكون مائيا بمعنى ان مسكنه الاصلي هو الماء أو أرضيا أو يكون مائيا ثم يصير أرضيا أما الحيوانات المائية فتغير أحوالها من وجوه (الاول) انها اما أن يكون مكانه وغذاؤه ونفسه مائيا فله بدل التنفس في الهواء التنشق المائي فهو يقبل الماء الى باطنه ثم يرده ولا يعيش اذا فارقه والسمك كله كذلك ومنه ما مكانه وغذاؤه مائي ولكنه يتنفس من الهواء مثل السلحفاة المائية ومنه ما مكانه وغذاؤه مائي وليس يتنفس ولا يستنشق مثل أصناف من الصدف لا تظهر للهواء ولا تستدخل الماء الى باطنها (الوجه الثاني) الحيوانات المائية بعضها مأواها مياه الانهار الجارية وبعضها مياه البطائح مثل الضفادع وبعضها مأواها مياه البحر (الوجه الثالث) منها لجية ومنها شطية ومنها طينية ومنها صخرية (الوجه الرابع) الحيوان المتنقل في الماء منه ما يعتمد في غوصه على رأسه وفي السباحة على أجنحته كالسمك ومنه ما يعتمد في السباحة على رجليه كالضفدع ومنه ما يمشي في قعر الماء كالسرطان ومنه ما يزحف مثل ضرب من السمك لا جناح له وكالدود أما الحيوانات البرية فتغير أحوالها أيضا من وجوه (الاول) أن منها ما يتنفس من طريق واحد كالفم والخيشوم ومنها ما لا يتنفس كذلك بل على نحو آخر من مسامه مثل الزنبور والنحل (الثاني) أن الحيوانات الارضية منها ما له مأوى معلوم ومنها ما مأواه كيف اتفق الا أن يلد فيقيم للحضانة واللواتي لها مأوى فبعضها مأواه شق وبعضها سرب وبعضها مأواه قلل الجبال وبعضها مأواه وجه الارض (الثالث) الحيوان البري كل طائر منه ذو جناح فانه يمشي برجليه ومن جملة ذلك ما مشيه صعب عليه كالخطاف الكبير الاسود والخفاش وأما الذي جناحه جلد أو غشاء فقد يكون عديم الرجل كضرب من الحيات الحبشية يطير (الرابع) الطير يختلف فبعضها يتعايش معا كالكراكي وبعضها يؤثر التفرد كالعقاب وجميع الجوارح التي تتنازع على الطعم لاحتياجها الى الاحتيال للتصيد ومنافستها فيه ومنها ما يتعايش زوجا ويكون معا كالقطا ومنه ما يجتمع تارة وينفرد أخرى والحيوانات المتفردة قد تكون مدنية وقد تكون برية صرفة وقد تكون بستانية والانسان من بين الحيوان هو الذي لا يمكنه أن يعيش وحده فان أسباب حياته ومعيشته تلتئم بالمشاركة المدنية والنحل والنمل وبعض الغرانيق يشارك الانسان في ذلك لكن النحل والكراكي تطيع رئيسا واحدا والنمل لها اجتماع ولا رئيس له (الخامس) الطير منه آكل لحم ومنه لاقط حب ومنه آكل عشب وقد يكون لبعض الطير طعم معين كالنحل فان غذاءه زهر والعنكبوت فان غذاءه الذباب وقد يكون بعضه متفق الطعم (أما القسم الثالث) وهو الحيوان الذي يكون تارة مائيا وأخرى بريا فيقال انه حيوان يكون في البحر ويعيش فيه ثم انه يبرز الى البر ويبقى فيه (التقسيم الثالث) الحيوان منه ما هو انسي بالطبع كالانسان ومنه ما هو انسي بالمولد كالهرة والفرس ومنه ما هو انسي بالقسر كالفهد ومنه ما لا يأنس كالنمر والمستأنس بالقسر منه ما يسرع استئناسه ويبقى مستأنسا كالفيل ومنه ما يبطئ كالاسد ويشبه أن يكون من كل نوع صنف انسي وصنف وحشي حتى من الناس (التقسيم الرابع) من الحيوان ما هو مصوت ومنه ما لا صوت له وكل مصوت فانه يصير عند الاغتلام وحركة شهوة الجماع أشد تصويتا الا الانسان وأيضا لبعض الحيوان شبق يشتد كل وقت

كالديك ومنه عفيف له وقت معين (التقسيم الخامس) بحسب الاخلاق بعض الحيوانات هادئ الطبع
قليل الغضب مثل البقرة وبعضها شديد الجهل حاد الغضب كالخنزير البرى وبعضها حليم خدوع كالبعير
وبعضها ردىء الحركات مغتال كالحية وبعضها جرىء قوى شهم كبير النفس كريم الطبع كالاسد ومنها
قوى مغتال وحشى كالذئب وبعضها محتال مكار ردىء الحركات كالثعلب وبعضها غضوب شديد الغضب
سفيه الا أنه ملق متودد كالكلب وبعضها شديد الكيس مستأنس كالفيل والقرد وبعضها حسود متباه
بجماله كالطاوس وبعضها شديد التحفظ كالجمل والحمار (التقسيم السادس) من الحيوان ما تناسله بان تلد
أنثاه حيوانا وبعضها ما تناسله بان تلد أنثاه دودا كالنحل والعنكبوت فانها تلد دودا ثم ان أعضاءه تستكمل
بعد وبعضها تناسله بان تبيض أنثاه بيضا واعلم أن العقول قاصرة عن الاحاطة باحوال أصغر الحيوانات
على سبيل الكمال ووجه الاستدلال بها على الصانع ظاهر لانه لو كان الامر بتركيب الطبائع الاربع فذلك
بالنسبة الى الكل على السوية فاختصاص كل واحد من هذه الحيوانات باعضائها وقواها ومقادير أبدانها
وأعمارها وأخلاقها لابد وأن يكون بتدبير مدبر قاهر حكيم سبحانه وتعالى عما يقول الجاحدون وأحسن
كلام فى هذا الموضع قوله سبحانه يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شئ قدير لانه هو القادر على الكل والعالم
بالكل فهو المطلع على أحوال هذه الحيوانات فأى عقل يقف عليها وأى خاطر يصل الى ذرة من أسرارها
بل هو الذى يخلق ما يشاء كما يشاء ولا يمنعه منه مانع ولا دافع * وأما قوله لقد انزلنا آيات مبينات فالاولى حمله
على كل الادلة والعبر ولما كان القرآن كالمشتمل على كل ذلك صح أن يكون هو المراد أما قوله والله يهدى من
يشاء الى صراط مستقيم فاستدلال أصحابنا به كما تقدم (والجواب) أجاب القاضى عنه بأن المراد يهدى من
بلغه حد التكليف دون غيره أو يكون المراد من أطاعه واستحق الثواب فيهديه الى الجنة على ما تقدم فى
نظائره وجوابنا عن هذا الجواب أيضا كما تقدم فى نظائره والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿ ويقولون آمنا بالله
وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم
بينهم اذا فريق منهم معرضون وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم
يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون ﴾ اعلم أنه سبحانه لما ذكر دلائل التوحيد
أتبعه بذم قوم اعترفوا بالدين بألسنتهم ولكنهم لم يقبلوه بقلوبهم وفيه مسائل (المسألة الاولى) قال مقاتل
نزلت هذه الآية فى بشر المنافق وكان قد خاصم يهوديا فى أرض وكان اليهودى يجره الى رسول الله صلى
الله عليه وسلم ليحكم بينهما وجعل المنافق يجره الى كعب بن الاشرف ويقول ان محمدا يحيف علينا وقد
مضت قصتهما فى سورة النساء وقال الضحاك نزلت فى المغيرة بن وائل كان بينه وبين على بن أبى طالب
أرض فتقاسما فوقع الى على منها ما لا يصيبه الماء الا بمشقة فقال المغيرة بعنى أرضك فباعها اياه وتقابضا
فقيل للمغيرة أخذت سبخة لا ينالها الماء فقال لعلى اقبض أرضك فانما اشتريتها ان رضيتها ولم أرضها فلا
ينالها الماء فقال على بل اشتريتها ورضيتها وقبضتها وعرفت حالها لا أقبلها منك ودعاه الى أن يخاصمه
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال المغيرة أما محمد فلست آتيه ولا أحاكم اليه فانه يبغضنى وأنا أخاف أن
يحيف على فنزلت هذه الآية فى المنافقين الذين كانوا يظهرون الايمان ويسرون الكفر (المسألة الثانية)
قوله ويقولون آمنا الى قوله وما أولئك بالمؤمنين يدل على أن الايمان لا يكون بالقول اذ لو كان به لما صح
أن ينفى كونهم مؤمنين وقد فعلوا ما هو ايمان فى الحقيقة فان قيل انه تعالى حكى عن كلهم انهم يقولون
آمنا ثم حكى عن فريق منهم التولى فكيف يصح أن يقول فى جميعهم وما أولئك بالمؤمنين مع أن الذى

الوجه وصيغة الاستقبال للدلالة على تجدد اشراكهم واستمراره والالتفات الى الغيبة للايذان باقتضاء ذكر قبائحهم للاعراض عنهم
وطردهم عن رتبة الخطاب وحكاية شنائعهم لغيرهم وعلى تقدير تخصيص الخطاب بالمؤمنين تفوت هذه النكتة كما يفوت ارتباط
المنهى عنه بالمتنزه عنه وقرئ على صيغة الخطاب (ينزل الملائكة) بيان لتحتم التوحيد حسبما نبه عليه تنبيها للجاهلين بان
تقدس جناب الكبرياء
وتعالى عن أن يحوم
حوله شائبة أن يشاركه
شئ فى شئ وايذان بانه
دين أجمع عليه جمهور
الانبياء عليهم الصلاة
والسلام وأمروا بدعوة
الناس اليه مع الاشارة
الى سر البعثة والتشريع
وكيفية القاء الوحى
والتنبيه على طريق علم
الرسول عليه الصلاة
والسلام باتيان ما أوعدهم
به وباقترابه ازاحة
لاستبعادهم اختصاصه
عليه الصلاة والسلام
بذلك واظهارا لبطلان
رأيهم فى الاستعجال
والتكذيب وايثار صيغة
الاستقبال للاشعار بأن
ذلك عادة مستمرة له
سبحانه والمراد بالملائكة
اما جبريل عليه السلام
قال الواحدى يسمى الواحد
بالجمع اذا كان رئيسا أو
هو ومن معه من حفظة
الوحى بأمر الله تعالى
وقرئ ينزل من الانزال
وتنزل بحذف احدى
التاءين وعلى صيغة المبنى
للمفعول من التنزيل
(بالروح) أى بالوحى
الذى من جملته القرآن
على نهج الاستعارة فانه
يحيى القلوب الميتة بالجهل أو يقوم فى الدين مقام الروح فى الجسد والباء متعلقة بالفعل أو بما هو حال من مفعوله تولى
أى ملتبسين بالروح (من أمره) بيان للروح الذى أريد به الوحى فانه أمر بالخير أو حال منه أى حال كونه ناشئا ومبتدأ منه أو صفة له على
رأى من جوز حذف الموصول مع بعض صلته أى بالروح الكائن من أمره الناشئ منه أو متعلق بينزل ومن للسببية كالباء مثل ما فى قوله

تولى منهم هو البعض قلنا ان قوله وما أولئك بالمؤمنين راجع الى الذين تولوا لا الى الجملة الاولى وأيضا فلو رجع الى الاول يصح ويكون معنى قوله ثم يتولى فريق منهم أى يرجع هذا الفريق الى الباقين منهم فيظهر بعضهم لبعض الرجوع عما أظهروه ثم بين سبحانه أنهم اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون وهذا ترك للرضا بحكم الرسول ونبه بقوله تعالى وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين على أنهم انما يعرضون متى عرفوا الحق لغيرهم أو شكوا فأما اذا عرفوه لانفسهم عدلوا عن الاعراض بل سارعوا الى الحكم وأذعنوا ببذل الرضا وفى ذلك دلالة على انه ليس بهم اتباع الحق وانما يريدون النفع المعجل وذلك أيضا نفاق * أما قوله تعالى أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ففيه سؤالات (السؤال الاول) كلمة أم للاستفهام وهو غير جائز على الله تعالى (والجواب) اللفظ استفهام ومعناه الخبر كما قال جرير * ألستم خير من ركب المطايا * (السؤال الثانى) انهم لو خافوا أن يحيف الله عليهم فقد ارتابوا فى الدين واذا ارتابوا ففى قلوبهم مرض فالكل واحد فأى فائدة فى التعديد (الجواب) قوله أفى قلوبهم مرض اشارة الى النفاق وقوله أم ارتابوا اشارة الى أنه حدث هذا الشك والريب بعد تقرير الاسلام فى القلب وقوله أم يخافون أن يحيف الله عليهم اشارة الى أنهم بلغوا فى حب الدنيا الى حيث يتركون الدين بسببه (السؤال الثالث) هب أن هذه الثلاثة متغايرة ولكنها متلازمة فكيف أدخل عليها كلمة أم (الجواب) الاقرب أنه تعالى ذمهم على كل واحد من هذه الاوصاف فكان فى قلوبهم مرض وهو النفاق وكان فيهم شك وارتياب وكانوا يخافون الحيف من الرسول عليه الصلاة والسلام وكل واحد من ذلك كفر ونفاق ثم بين تعالى بقوله بل أولئك هم الظالمون بطلان ما هم عليه لان الظلم يتناول كل معصية كما قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم اذ المرء لا يخلو من أن يكون ظالما لنفسه أو ظالما لغيره ويمكن أن يقال أيضا لما ذكر تعالى فى الاقسام كونهم خائفين من الحيف أبطل ذلك بقوله بل أولئك هم الظالمون أى لا يخافون أن يحيف الرسول عليه الصلاة والسلام عليهم لمعرفتهم بأمانته وصيانته وانما هم ظالمون يريدون أن يظلموا من له الحق عليهم وهم له جاحدون وذلك شئ لا يستطيعونه فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يأبون التحاكم اليه * قوله تعالى ﴿انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة ان الله خبير بما تعملون قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وان تطيعوه تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين﴾ اعلم أنه تعالى لما حكى قول المنافقين وما قالوه وما فعلوه أتبعه بذكر ما كان يجب أن يفعلوه وما يجب أن يسلكه المؤمنون فقال تعالى انما كان قول المؤمنين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ الحسن قول المؤمنين بالرفع والنصب أقوى لان أولى الاسمين بكونه اسما لكان أوغلهما فى التعريف وأن يقولوا أوغل لانه لا سبيل عليه للتنكير بخلاف قول المؤمنين (المسئلة الثانية) قوله انما كان قول المؤمنين معناه كذلك يجب أن يكون قولهم وطريقتهم اذا دعوا الى حكم كتاب الله ورسوله أن يقولوا سمعنا وأطعنا فيكون اتيانهم اليه وانقيادهم له سمعا وطاعة ومعنى سمعنا أجبنا على تأويل قول المسلمين سمع الله لمن حمده أى قبل وأجاب ثم قال ومن يطع الله ورسوله أى فيما ساءه وسره ويخش الله فيما صدر عنه من الذنوب فى الماضى ويتقه فيما بقى من عمره فأولئك هم الفائزون وهذه الآية على ايجازها حاوية لكل ما ينبغى للمؤمنين أن يفعلوه أما قوله وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن فقال مقاتل من حلف

تعالى عما خطأتهم أى ينزلهم بأمره (على من يشاء من عباده) أن ينزلهم به عليهم لاختصاصهم بصفات تأهلهم لذلك (أن أنذروا) بدل من الروح أى ينزلهم ملتبسين بأن أنذروا أى بهذا القول والمخاطبون به الانبياء الذين نزلت الملائكة عليهم والآمر هو الله سبحانه والملائكة نقلة للامر كما يشعر به الباء فى المبدل منه وأن اما مخففة من أن وضمير الشأن الذى هو اسمها محذوف أى ينزلهم ملتبسين بأن الشأن أقول لكم أنذروا أو مفسرة على أن تنزيل الملائكة بالوحى فيه معنى القول كأنه قيل يقول بواسطة الملائكة لمن يشاء من عباده أنذروا فلا محل لها من الاعراب أو مصدرية لجواز كون صلتها انشائية كما فى قوله تعالى وأن أقم وجهك حسبما ذكر فى أوائل سورة هود فمحلها الجر على البدلية أيضا والانذار الاعلام خلا أنه مختص باعلام المحذور من نذر بالشئ اذا علمه فحذره وأنذره بالامر انذارا أى أعلمه وحذره وخوفه فى ابلاغه كذا فى القاموس أى أعلموا الناس (أنه لا اله الا أنا) فالضمير للشأن ومدار وضعه موضعه ادعاء شهرته المغنية عن التصريح به وفائدة تصدير الجملة به الايذان من أول الامر بفخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة تقريره فى الذهن فان الضمير لا يفهم منه ابتداء الا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن لديه عند وروده فضل تمكن كأنه قيل أنذروا أن الشأن الخطير هذا وايراد مضمونه عن المحذور ليس لذاته بل من حيث اتصاف المنذرين بما يضاده من الاشراك وذلك كاف فى كون اعلامه انذارا وقوله سبحانه (فاتقون) خطاب للمستعجلين على طريقة الالتفات والفاء فصيحة أى اذا كان الامر كما ذكر من جريان عادته تعالى بتنزيل الملائكة على الانبياء عليهم السلام وأمرهم بأن ينذروا الناس أنه لا شريك له

في الالوهية فانه نوق في الاخلال بمضمونه ومباشرة ما ينافيه من الاشراك وفروعه التي من جملتها الاستعجال والاستهزاء وبعد تمهيد الدليل السمعي للتوحيد شرع في تحرير الادلة العقلية فقيل (خلق السموات والارض بالحق) اي اوجدهما على ما هما عليه من الوجه الفائق والنمط اللائق (تعالى) وتقدس بذاته لا سيما بأفعاله التي من جملتها ابداع هذين المخلوقين (عما يشركون) عن اشراكهم المعبود أو عن شركة ما يشركونه به من الباطل الذي لا يبدئ ولا يعيد وبعدما نبه على صنعه الكلي المنطوي على تفاصيل مخلوقاته شرع في تعداد ما فيه من خلائقه فبدأ بأفعاله المتعلق بالانفس فقال (خلق الانسان) اي هذا النوع غير الفرد الاول منه (من نطفة) جماد لا حس له ولا حراك سيال لا يحفظ شكلا ولا وضعا (فاذا هو) بعد الخلق (خصيم) منطيق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم (مبين) لحجته لقن بها وهذا انسب بمقام الامتنان باعطاء القدرة على الاستدلال بذلك على قدرته تعالى ووحدته أو مخاصم لخالقه منكر له قائل من يحيي العظام وهي رميم وهذا انسب بمقام تعداد هنات الكفرة روي أن أبي بن خلف الجمحي أتى النبي عليه الصلاة والسلام بعظم رميم فقال يا محمد أترى الله تعالى يحيي هذا بعد ما قد رم فنزلت (والانعام) وهي الازواج الثمانية من الابل والبقر والضأن والمعز وانتصابها بمضمر يفسره قوله تعالى (خلقها) أو بالعطف على الانسان وما بعده بيان ما خلق لا
لاجله والذي بعده تفصيل لذلك وقوله تعالى (لكم) اما متعلق بخلقها وقوله (فيها) خبر مقدم وقوله (دفء) مبتدأ وهو ما يدفأ به فيقي من البرد والجملة حال من المفعول أو الظرف الاول خبر للمبتدا المذكور وفيها حال من دفء اذ لو تأخر لكان صفة (ومنافع) ي

بالله فقد أجهد في اليمين ثم قال لما بين الله تعالى كراهية المنافقين لحكم رسول الله فقالوا والله لئن أمرتنا أن نخرج من ديارنا وأموالنا ونسائنا لخرجنا وان أمرتنا بالجهاد جاهدنا ثم انه تعالى أمر رسوله أن ينهاهم عن هذا القسم بقوله قل لا تقسموا ولو كان قسمهم كما يجب لم يجز النهي عنه لان من حلف على القيام بالبر والواجب لا يجوز أن ينهى عنه واذا ثبت ذلك ثبت أن قسمهم كان لنفاقهم وأن باطنهم خلاف ظاهرهم ومن نوى الغدر لا الوفاء فقسمه لا يكون الا قبيحا* أما قوله طاعة معروفة فهو اما خبر مبتدا محذوف أي المطلوب منكم طاعة معروفة لا أيمان كاذبة أو مبتدا خبره محذوف أي طاعة معروفة أمثل من قسمكم بما لا تصدقون فيه وقيل معناه دعوا القسم ولا تغتروا به وعليكم طاعة معروفة فتمسكوا بها وقرأ اليزيدي طاعة معروفة بالنصب على معنى أطيعوا طاعة ان الله خبير بما تعملون أي بصير لا يخفى عليه شئ من سرائركم وانه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم أما قوله قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم فاعلم انه تعالى صرف الكلام عن الغيبة الى الخطاب على طريقة الالتفات وهو أبلغ في تبكيتهم فان تولوا يعني ان تتولوا عن طاعة الله وطاعة رسوله فانما على الرسول ما حمل من تبليغ الرسالة وعليكم ما حملتم من الطاعة وان تطيعوه تهتدوا أي تصيبوا الحق وان عصيتموه فما على الرسول الا البلاغ المبين والبلاغ بمعنى التبليغ والمبين الواضح والموضح لما بكم اليه الحاجة وعن نافع انه قرأ فانما عليه ما حمل بفتح الحاء والتخفيف أي فعليه اثم ما حمل من المعصية ﴿ قوله تعالى ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيأ ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ اعلم ان تقدير النظم بلغ أيها الرسول وأطيعوه أيها المؤمنون فقد وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات أي الذين جمعوا بين الايمان والعمل الصالح أن يستخلفهم في الارض فيجعلهم الخلفاء والغالبين والمالكين كما استخلف عليها من قبلهم في زمن داود وسليمان عليهما السلام وغيرهما وأنه يمكن لهم دينهم وتمكينه ذلك هو ان يؤيدهم بالنصرة والاعزاز ويبدلهم من بعد خوفهم من العدو أمنا بأن ينصرهم عليهم فيقتلوهم ويأمنوا بذلك شرهم فيعبدونني آمنين لا يشركون بي شيأ ولا يخافون فمن كفر أي من بعد هذا الوعد وارتد فأولئك هم الفاسقون* واعلم ان هذه الآية مشتملة على بيان أكثر المسائل الاصولية الدينية فلنشر الى معاقدها (المسئلة الاولى) قوله تعالى وعد الله الذين آمنوا منكم يدل على أنه سبحانه متكلم لان الوعد نوع من أنواع الكلام والموصوف بالنوع موصوف بالجنس ولانه سبحانه ملك مطاع والملك المطاع لا بد وأن يكون بحيث يمكنه وعد أوليائه ووعيد أعدائه فثبت انه سبحانه متكلم (المسئلة الثانية) الآية تدل على انه سبحانه يعلم الاشياء قبل وقوعها خلافا لهشام بن الحكم فانه قال لا يعلمها قبل وقوعها ووجه الاستدلال به أنه سبحانه أخبر عن وقوع شئ في المستقبل اخبارا على التفصيل وقد وقع المخبر مطابقا للخبر ومثل هذا الخبر لا يصح الا مع العلم (المسئلة الثالثة) الآية تدل على انه سبحانه حي قادر على جميع الممكنات لانه قال ليستخلفنهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا وقد فعل كل ذلك وصدور هذه الاشياء لا يصح الا من القادر على كل المقدورات (المسئلة الرابعة) الآية تدل على انه سبحانه هو المستحق للعبادة لانه قال يعبدونني وقالت المعتزلة الآية تدل على أن فعل الله تعالى معلل بالغرض لان المعنى لكي يعبدوني وقالوا أيضا الآية دالة على انه سبحانه يريد العبادة من الكل لان من فعل فعلا لغرض فلا بد وأن يكون مريدا لذلك الغرض (المسئلة الخامسة) دلت الآية على انه تعالى منزه عن الشريك لقوله

لايشركون بي شيأ وذلك يدل على نفي الاله الثاني وعلى انه لايجوز عبادة غير الله تعالى سواء كان كوكبا كما تقوله الصابئة أو صنما كما تقوله عبدة الاوثان ﴿المسئلة السادسة﴾ دلت الآية على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لانه أخبر عن الغيب في قوله ليستخلفنهم في الارض وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا وقد وجد هذا المخبر موافقا للخبر ومثل هذا الخبر معجز والمعجز دليل الصدق فدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم ﴿المسئلة السابعة﴾ دلت الآية على ان العمل الصالح خارج عن مسمى الايمان خلافا للمعتزلة لانه عطف العمل الصالح على الايمان والمعطوف خارج عن المعطوف عليه ﴿المسئلة الثامنة﴾ دلت الآية على امامة الائمة الاربعة وذلك لانه تعالى وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الحاضرين في زمان محمد صلى الله عليه وسلم وهو المراد بقوله ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وأن يمكن لهم دينهم المرضي وأن يبدلهم بعد الخوف أمنا ومعلوم أن المراد بهذا الوعد بعد الرسول هؤلاء لان استخلاف غيره لا يكون الابعده ومعلوم انه لانبي بعده لانه خاتم الانبياء فاذن المراد بهذا الاستخلاف طريقة الامامة ومعلوم أن بعد الرسول الاستخلاف الذي هذا وصفه انما كان في أيام أبي بكر وعمر وعثمان لان في أيامهم كانت الفتوح العظيمة وحصل التمكين وظهور الدين والامن ولم يحصل ذلك في أيام علي رضي الله عنه لانه لم يتفرغ لجهاد الكفار لاشتغاله بمحاربة من خالفه من أهل الصلاة فثبت بهذا دلالة الآية على صحة خلافة هؤلاء ﴿فان قيل﴾ الآية متروكة الظاهر لانها تقتضي حصول الخلافة لكل من آمن وعمل صالحا ولم يكن الامر كذلك نزلنا عنه لكن لم لايجوز أن يكون المراد من قوله ليستخلفنهم هو انه تعالى يسكنهم في الارض ويمكنهم من التصرف لأن المراد منه خلافة الله تعالى ومما يدل عليه قوله كما استخلف الذين من قبلهم واستخلاف من كان قبلهم لم يكن بطريق الامامة فوجب أن يكون الامر في حقهم أيضا كذلك نزلنا عنه لكن ههنا ما يدل على انه لايجوز حمله على خلافة رسول الله لان من مذهبكم أنه عليه الصلاة والسلام لم يستخلف أحدا وروى عن علي عليه السلام أنه قال أترككم كما ترككم رسول الله نزلنا عنه لكن لم لايجوز أن يكون المراد منه عليا عليه السلام والواحد قد يعبر عنه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم كقوله تعالى انا أنزلناه في ليلة القدر وقال في حق علي عليه السلام والذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون نزلنا عنه ولكن نحمله على الائمة الاثني عشر ﴿والجواب عن الاول﴾ أن كلمة من للتبعيض فقوله منكم يدل أن المراد بهذا الخطاب بعضهم (وعن الثاني) أن الاستخلاف بالمعنى الذي ذكرتموه حاصل لجميع الخلق فالمذكور ههنا في معرض البشارة لابد وأن يكون مغايرا له وأما قوله تعالى كما استخلف الذين من قبلهم فالذين كانوا قبلهم قد كانوا خلفاء تارة بسبب النبوة وتارة بسبب الامامة والخلافة حاصلة في الصورتين (وعن الثالث) انه وان كان من مذهبنا انه عليه الصلاة والسلام لم يستخلف أحدا بالتعيين ولكنه قد استخلف بذكر الوصف والامر بالاختيار فلا يمتنع في هؤلاء الائمة الاربعة انه تعالى يستخلفهم وأن الرسول استخلفهم وعلى هذا الوجه قالوا في أبي بكر ياخليفة رسول الله فالذي قيل انه عليه السلام لم يستخلف أريد به على وجه التعيين واذا قيل استخلف فالمراد على طريقة الوصف والامر (وعن الرابع) أن حمل لفظ الجمع على الواحد مجاز وهو خلاف الاصل (وعن الخامس) انه باطل لوجهين (أحدهما) قوله تعالى منكم يدل على ان هذا الخطاب كان مع الحاضرين وهؤلاء الائمة ما كانوا حاضرين (الثاني) أنه تعالى وعدهم القوة والشوكة والنفاذ في العالم ولم يوجد ذلك فيهم فثبت بهذا صحة امامة الائمة الاربعة وبطل قول الرافضة الطاعنين على أبي بكر وعمر وعثمان وعلى بطلان قول الخوارج الطاعنين على عثمان وعلي * ولنرجع الى التفسير أما قوله

درها وركوبها وسعاها أو لحراثتها أو غير ذلك وانما عبر عنها بالتناول الكل مع أنه الانسب بمقام الامتنان بالنعم وتقديم الدفء على المنافع لرعاية أسلوب الترقي الى الاعلى (ومنها تأكلون) أي تأكلون ما يؤكل منها من اللحوم والشحوم وغير ذلك وتغيير النظم للايماء الى أنها لاتبقى عند الاكل كما في السابق واللاحق فان الدفء والمنافع والجمال يحصل منها وهي باقية على حالها ولذلك جعلت محالا لها بخلاف الاكل وتقديم الظرف للايذان بأن الاكل منها هو المعتاد المعتمد في المعاش وأن الاكل مما عداها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر من قبيل التفكه مع أن فيه مراعاة للفواصل ويحتمل أن يكون معنى الاكل منها أكل ما يحصل بسببها فان الحبوب والثمار المأكولة تكتسب باكراء الابل وأثمان نتاجها وألبانها وجلودها (ولكم فيها) مع ما فصل من أنواع المنافع الضرورية (جمال) أي زينة في أعين الناس ووجاهة عندهم (حين تريحون) تردونها من مراعيها الى مراحها بالعشي (وحين تسرحون) تخرجونها بالغداة من حظائرها الى مسارحها فالمفعول محذوف من كلا الفعلين لرعاية الفواصل وتعيين الوقتين لان ما يدور عليه أمر الجمال من تزين الافنية والاكناف بها وبتجاوب ثغائها ورغائها انما هو عند ورودها وصدورها في ذينك الوقتين وأما عند كونها في المراعي فينقطع اضافتها الحسية الى أربابها وعند كونها في الحظائر لايراها راء ولا ينظر اليها ناظر وتقديم الاراحة على السرح لتقدم الورود على الصدور ولكونها أظهر منه في استتباع ما ذكر من الجمال وأتم في استجلاب الانس والبهجة اذ فيها حضور بعد غيبة واقبال بعد ادبار على أحسن ما يكون ملأى البطون مرتفعة الضلوع حافلة الضروع

ليستخلفنهم فلقائل أن يقول أين القسم المتلقى باللام والنون في ليستخلفنهم قلنا هو محذوف تقديره وعدهم والله ليستخلفنهم أو نزل وعد الله في تحققه منزلة القسم فتلقى بما يتلقى به القسم كأنه قال أقسم بالله ليستخلفنهم أما قوله كما استخلف الذين من قبلهم يعني كما استخلف هرون ويوشع وداود وسليمان وتقدير النظم ليستخلفنهم استخلافا كاستخلاف من قبلهم من هؤلاء الانبياء عليهم السلام وقرئ كما استخلف بضم التاء وكسر اللام وقرئ بالفتح أما قوله تعالى وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم فالمعنى أنه يثبت لهم دينهم الذي ارتضى لهم وهو الاسلام وقرأ ابن كثير وعاصم ويعقوب وليبدلنهم من الابدال بالتخفيف والباقون بالتشديد وقد ذكرنا الفرق بينهما في قوله تعالى بدلناهم جلودا غيرها أما قوله يعبدونني لا يشركون بي شيأ ففيه دلالة على ان الذين عناهم لا يتغيرون عن عبادة الله تعالى الى الشرك وقال الزجاج يجوز أن يكون في موضع الحال على معنى وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات في حال عبادتهم واخلاصهم لله ليفعلن بهم كيت وكيت ويجوز أن يكون استئنافا على طريق الثناء عليهم أما قوله ومن كفر بعد ذلك أي جحد حق هذه النعم فأولئك هم الفاسقون أي العاصون ﴿ قوله تعالى ﴿ وأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الارض ومأواهم النار ولبئس المصير ﴾ أما تفسير اقامة الصلاة وايتاء الزكاة ولفظة لعل ولفظة الرحمة فالكل قد تقدم مرارا وأما قوله لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض فالمعنى لا تحسبن يا محمد الذين كفروا سابقين فائتين حتى يعجزونني عن ادراكهم وقرئ لا يحسبن بالياء المعجمة من تحتها وفيه أوجه (أحدها) أن يكون معجزين في الارض هما المفعولان والمعنى لا يحسبن الذين كفروا أحدا يعجز الله الارض حتى يطمعوا هم في مثل ذلك (وثانيها) أن يكون فيه ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم لتقدم ذكره في قوله وأطيعوا الرسول والمعنى لا يحسبن الذين كفروا معجزين (وثالثها) أن يكون الاصل ولا يحسبنهم الذين كفروا معجزين ثم حذف الضمير الذي هو المفعول الاول وأما قوله ومأواهم النار ولبئس المصير فقال صاحب النظم لا يحتمل أن يكون متصلا بقوله لا تحسبن لان ذلك نفي وهذا ايجاب فهو اذن معطوف بالواو على مضمر قبله تقديره لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الارض بل هم مقهورون ومأواهم النار ﴿ قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم ﴾ اعلم أن في الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال القاضي قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم وان كان ظاهره الرجال فالمراد به الرجال والنساء لان التذكير يغلب على التأنيث فاذا لم يميز فيدخل تحت قوله يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الكل ويبين ذلك قوله تعالى الذين ملكت أيمانكم لان ذلك يقال في الرجال والنساء والاولى عندي أن الحكم ثابت في النساء بقياس جلي وذلك لان النساء في باب حفظ العورة أشد حالا من الرجال فهذا الحكم لما ثبت في الرجال فثبوته في النساء بطريق الاولى كما أنا نثبت حرمة الضرب بالقياس الجلي على حرمة التأفيف (المسئلة الثانية) ظاهر قوله الذين ملكت أيمانكم يدخل فيه البالغون والصغار وحكى عن ابن عباس

وقرئ حين تريحون وحين تسرحون على ان كلا الفعلين وصف لهما بمعنى تريحون فيه وتسرحون فيه (وتحمل أثقالكم) جمع ثقل وهو متاع المسافر وقيل أثقالكم أجرامكم (الى بلد) قال ابن عباس رضي الله عنهما أريد به اليمن ومصر والشام ولعله نظر الى أنها متاجر أهل مكة وقال عكرمة أريد به مكة ولعله نظر ٣٣٨ الى أن أثقالهم وأحمالهم عند القفول من متاجرهم أكثر وحاجتهم الى الحمولة أمس والظاهر أنه عام لكل بلد سحيق (لم تكونوا بالغيه) واصلين اليه بأنفسكم مجردين عن الاثقال لولا الابل (الا بشق الانفس) فضلا عن استصحابها معكم وقرئ بفتح الشين وهما لغتان بمعنى الكلفة والمشقة وقيل المفتوح مصدر من شق الامر عليه شقا وحقيقته راجعة الى الشق الذي هو الصدع والمكسور النصف كأنه ذهب نصف القوة لما ناله من الجهد فالاضافة الى الانفس مجازية أو على تقدير مضاف أي الا بشق قوى الانفس وهو استثناء مفرغ من أعم الاشياء أي لم تكونوا بالغيه بشيء من الاشياء الا بشق الانفس ولعل تغيير النظم الكريم السابق الدال على كون الانعام مدارا للنعم السابقة الى الجملة الفعلية المفيدة لمجرد الحدوث للاشعار بأن هذه النعمة ليست في العموم بحسب المنشأ وبحسب المتعلق وفي الشمول للاوقات والاطراد في الاحيان المعهودة بمثابة النعم السالفة فانها بحسب المنشأ خاصة بالابل وبحسب المتعلق بالضاربين في الارض المتقلبين فيها للتجارة وغيرها في أحايين غير مطردة وأما سائر النعم المعدودة فموجودة في جميع أصناف الانعام وعامة لكافة المخاطبين دائما أو في عامة الاوقات (ان ربكم لرؤف رحيم) ولذلك أسبغ عليكم هذه النعم الجليلة ويسر لكم الامور الشاقة (والخيل) هو اسم جنس للفرس لا واحد له من لفظه

رضي الله عنهما أن المراد الصغار واحتجوا بأن الكبير من المماليك ليس له أن ينظر من المالكة إلا إلى ما يجوز للحر أن ينظر إليه قال ابن المسيب لا يغرنكم قوله وما ملكت أيمانكم لا ينبغي للمرأة أن ينظر عبدها إلى قرطها وشعرها وشيء من محاسنها وقال آخرون بل البالغ من المماليك له أن ينظر إلى شعر مالكته وما شاكله وظاهر الآية يدل على اختصاص عبيد المؤمنين والأطفال من الأحرار بإباحة ما حظره الله تعالى من قبل على جماعة المؤمنين بقوله لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم فإنه أباح لهم إلا في الأوقات الثلاثة وجوّز دخولهم مع من لم يبلغ بغير إذن ودخول الموالي عليهم بقوله تعالى ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم أي يطوف بعضكم على بعض فيما عدا الأوقات الثلاثة وأكد ذلك بأن أوجب على من بلغ الحلم الجري على سنة من قبلهم من البالغين في الاستئذان في سائر الأوقات وألحقهم بمن دخل تحت قوله لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها (المسألة الثالثة) قوله ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم إن أريد به العبيد والإماء إذا كانوا بالغين فغير ممتنع أن يكون أمرا لهم في الحقيقة وإن أريد الذين لم يبلغوا الحلم لم يجز أن يكون أمرا لهم ويجب أن يكون أمرا لنا بأن نأمرهم بذلك ونبعثهم عليه كما أمرنا بأمر الصبي وقد عقل الصلاة أن يفعلها لا على وجه التكليف لهم لكنه تكليف لنا لما فيه من المصلحة لنا ولهم بعد البلوغ ولا يبعد أن يكون لفظ الأمر وإن كان في الظاهر متوجها عليهم إلا أنه يكون في الحقيقة متوجها على المولى كقولك للرجل ليخفك أهلك وولدك فظاهر الأمر لهم وحقيقة الأمر له بفعل ما يخافون عنده (المسألة الرابعة) قال ابن عباس رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث غلاما من الأنصار إلى عمر ليدعوه فوجده نائما في البيت فدفع الباب وسلم فلم يستيقظ عمر فعاد ورد الباب وقام من خلفه وحركه فلم يستيقظ فقال الغلام اللهم أيقظه لي ودفع الباب ثم ناداه فاستيقظ وجلس ودخل الغلام فانكشف من عمر شيء وعرف عمر أن الغلام رأى ذلك منه فقال وددت ان الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا أن يدخلوا علينا في هذه الساعات إلا بإذن ثم انطلق معه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فوجده قد نزل عليه يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم فحمد الله تعالى عمر عند ذلك فقال عليه السلام وما ذاك يا عمر فأخبره بما فعل الغلام فتعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم من صنعه وتعرف اسمه ومدحه وقال ان الله يحب الحليم الحيي العفيف المتعفف ويبغض البذي الجريء السائل الملحف فهذه الآية إحدى الآيات المنزلة بسبب عمر وقال بعضهم نزلت في أسماء بنت أبي مرثد قالت انا لندخل على الرجل والمرأة ولعلهما يكونان في لحاف واحد وقيل دخل عليها غلام لها كبير في وقت كرهت دخوله فيه فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ان خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها فنزلت الآية (المسألة الخامسة) قال ابن عمر ومجاهد قوله ليستأذنكم عنى به الذكور دون الإناث لأن قوله الذين ملكت أيمانكم صيغة الذكور لا صيغة الإناث وعن ابن عباس رضي الله عنهما هي في الرجال والنساء يستأذنون على كل حال بالليل والنهار والصحيح أنه يجب إثبات هذا الحكم في النساء لأن الإنسان كما يكره اطلاع الذكور على أحواله فقد يكره أيضا اطلاع النساء عليها ولكن الحكم يثبت في النساء بالقياس لا بظاهر اللفظ على ما قدمناه (المسألة السادسة) من العلماء من قال الأمر في قوله ليستأذنكم على الندب والاستحباب ومنهم من قال إنه على الإيجاب وهذا أولى لما ثبت ان ظاهر الأمر للوجوب * أما قوله تعالى والذين لم يبلغوا الحلم منكم ففيه مسائل (المسألة الأولى) قرأ ابن عمر الحلم بالسكون (المسألة الثانية) اتفق الفقهاء على أن الاحتلام بلوغ واختلفوا إذا بلغ خمس عشرة سنة ولم يحتلم فقال أبو حنيفة رحمه الله لا يكون

كالإبل وهو عطف على الأنعام أي خلق الخيل (والبغال والحمير لتركبوها) تعليل بمعظم منافعها وإلا فالانتفاع بها بالحمل أيضا مما لا ريب في تحققه (وزينة) عطف على محل لتركبوها وتجريده عن اللام لكونه فعلا لفاعل الفعل المعلل دون الأول وتأخيره لكون الركوب أهم منه أو مصدر لفعل محذوف أي وتتزينوا بها زينة وقرئ بغير واو أي خلقها زينة لتركبوها ويجوز أن يكون مصدرا واقعا موقع الحال من فاعل تركبوها أو مفعوله أي متزينين بها أو متزينا بها (ويخلق ما لا تعلمون) أي يخلق في الدنيا غير ما عدد من أصناف النعم فيكم ولكم ما لا تعلمون كنهه وكيفية خلقه فالعدول إلى صيغة الاستقبال للدلالة على الاستمرار والتجدد أو لاستحضار الصورة أو يخلق لكم في الجنة غير ما ذكر من النعم الدنيوية ما لا تعلمون أي ما ليس من شأنكم أن تعلموه وهو ما أشير إليه بقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ويجوز أن يكون هذا إخبارا بأنه سبحانه يخلق من الخلائق ما لا علم لنا به للدلالة على قدرته الباهرة الموجبة للتوحيد كنعمته الباطنة والظاهرة عن ابن عباس رضي الله عنهما ان عن يمين العرش نهرا من نور مثل السموات السبع والأرضين السبع والبحار السبعة يدخل فيه جبريل عليه السلام كل سحر فيغتسل فيزداد نورا إلى نوره وجمالا إلى جماله وعظما إلى عظمه ثم ينتفض فيخلق الله تعالى من كل قطرة تقع من ريشه كذا وكذا ألف ملك فيدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك البيت المعمور وسبعون ألفا الكعبة لا يعودون إليه إلى يوم القيامة (وعلى الله قصد السبيل) القصد مصدر بمعنى الفاعل يقال سبيل قصد وقاصد أي مستقيم على طريقة الاستعارة أو على نهج إسناد حال سالكه إليه كأنه

يقصد الوجه الذي يؤمه السالك لا يعدل عنه أي حق عليه سبحانه وتعالى بموجب رحمته ووعده المحتوم بيان الطريق المستقيم الموصل لمن سلكه الى الحق الذي هو التوحيد بنصب الادلة وارسال الرسل وانزال الكتب لدعوة الناس اليه أو مصدر بمعنى الاقامة والتعديل قاله أبو البقاء أي عليه عز وجل تقويمها وتعديلها أي جعلها بحيث يصل سالكها الى الحق لكن لا بعد ما كانت في نفسها منحرفة عنه بل ابداعها ابتداء كذلك على نهج قوله سبحانه من صغر البعوض وكبر الفيل وحقيقته راجعة الى ما ذكر من نصب الادلة وقد فصل ذلك حيث أبدع هذه البدائع التي كل واحد منها لاحب يهتدى بمناره وعلم يستضاء بناره وأرسل رسلا مبشرين ومنذرين وانزل عليهم كتبا من جملتها هذا الوحي الناطق بحقيقة الحق الفاحص عن كل ما جل من الاسرار ودق الهادي الى سبيل الاستدلال بتلك الادلة المفضية الى معالم الهدى المنجية عن فيافي الضلالة ومهاوي الردى الا ترى كيف بين أولا تنزه جناب الكبرياء وتعاليه بحسب الذات عن أن يحوم حوله شائبة توهم الاشراك ثم أوضح سر القاء الوحي على الانبياء عليهم الصلاة والسلام وكيفية أمرهم بانذار الناس ودعوتهم الى التوحيد ونهيهم عن الاشراك ثم كر على بيان تعاليه عن ذلك بحسب الافعال مرشدا الى طريقة الاستدلال فعد أفعاله المتعلقة بمحيط العالم الجسماني ومركزه بقوله تعالى خلق السموات والارض بالحق تعالى ويكون عما يشركون ثم فصل أفعاله المتعلقة بما بينهما فعد أفعاله المتعلقة بأنفس المخاطبين ثم ذكر ما يتعلق بما لا بد لهم منه في معايشهم ثم بين قدرته على خلق ما لا يحيط به علم البشر بقوله ويخلق ما لا تعلمون وكل ذلك كما ترى بيان لسبيل التوحيد بحسب بيان وتعديل له أيما تعديل فالمراد

الغلام بالسن حتى يبلغ ثماني عشرة سنة ويستكملها وفي الجارية سبع عشرة سنة وقال الشافعي وأبو يوسف ومحمد رحمهم الله في الغلام والجارية خمس عشرة سنة قال أبو بكر الرازي قوله تعالى والذين لم يبلغوا الحلم منكم يدل على بطلان قول من جعل حد البلوغ خمس عشرة سنة اذا لم يحتلم لان الله تعالى لم يفرق بين من بلغها وبين من قصر عنها بعد أن لا يكون قد بلغ الحلم وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم من جهات كثيرة رفع القلم عن ثلاث عن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتى يفيق وعن الصبي حتى يحتلم ولم يفرق بين من بلغ خمس عشرة سنة وبين من لم يبلغها فان قيل فهذا الكلام يبطل التقدير أيضا بثماني عشرة سنة أجاب بأنا قد علمنا أن العادة في البلوغ خمس عشرة سنة وكل ما كان مبنيا على طريق العادات فقد تجوز الزيادة فيه والنقصان منه وقد وجدنا من بلغ في اثنتي عشرة سنة وقد بينا أن الزيادة على المعتاد جائزة كالنقصان منه فجعل أبو حنيفة رحمه الله الزيادة كالنقصان وهي ثلاث سنين وقد حكي عن أبي حنيفة رحمه الله تسع عشرة سنة للغلام وهو محمول على استكمال ثماني عشرة سنة والدخول في التاسعة عشرة حجة الشافعي رحمه الله ما روى ابن عمر أنه عرض على النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وله أربع عشرة سنة فلم يجزه وعرض عليه يوم الخندق وله خمس عشرة سنة فأجازه اعترض أبو بكر الرازي عليه فقال هذا الخبر مضطرب لان أحدا كان في سنة ثلاث والخندق في سنة خمس فكيف يكون بينهما سنة ثم مع ذلك فان الاجازة في القتال لا تعلق لها بالبلوغ لانه قد يرد البالغ لضعفه ويؤذن غير البالغ لقوته واطاقته حمل السلاح ويدل على ذلك أنه عليه الصلاة والسلام ما سأله عن الاحتلام والسن (البحث الثاني) اختلفوا في الانبات هل يكون بلوغا فأبو حنيفة وأصحابه ما جعلوه بلوغا والشافعي رحمه الله جعله بلوغا قال أبو بكر الرازي رحمه الله ظاهر قوله والذين لم يبلغوا الحلم منكم ينفي أن يكون الانبات بلوغا اذا لم يحتلم كما في كون خمس عشرة سنة بلوغا وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام وعن الصبي حتى يحتلم حجة الشافعي رحمه الله تعالى ما روى عطية القرظي أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل من أنبت من قريظة واستحياء من لم ينبت قال فنظروا الي فلم أكن قد أنبت فاستبقاني قال أبو بكر الرازي هذا الحديث لا يجوز اثبات الشرع بمثله لوجوه (أحدها) أن عطية هذا مجهول لا يعرف الا من هذا الخبر لا سيما مع اعتراضه على الآية والخبر في نفي البلوغ الا بالاحتلام (وثانيها) أنه مختلف الالفاظ في بعضها أنه أمر بقتل من جرت عليه الموسى وفي بعضها من اخضر عذاره ومعلوم أنه لا يبلغ هذه الحال الا وقد تقدم بلوغه ولا يكون قد جرت عليه الموسى الا وهو رجل كبير فجعل الانبات وجري الموسى عليه كناية عن بلوغ القدر الذي ذكرنا من السن وهي ثماني عشرة سنة فأكثر (وثالثها) أن الانبات يدل على القوة البدنية فالامر بالقتل لذلك لا للبلوغ قال الشافعي رحمه الله هذه الاحتمالات مردودة بما روي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه سئل عن غلام فقال هل اخضر عذاره وهذا يدل على أن ذلك كان كالامر المتفق عليه فيما بين الصحابة (البحث الثالث) يروى عن قوم من السلف انهم اعتبروا في البلوغ أن يبلغ الانسان في طوله خمسة أشبار روي عن علي عليه السلام أنه قال اذا بلغ الغلام خمسة أشبار فقد وقعت عليه الحدود ويقتص له ويقتص منه وعن ابن سيرين عن أنس قال أتي أبو بكر بغلام قد سرق فأمر به فشبر فنقص أنملة فخلى عنه وهذا المذهب أخذ به الفرزدق في قوله

ما زال مذ عقدت يداه ازاره * وسما فأدرك خمسة الاشبار

وأكثر الفقهاء لا يقولون بهذا المذهب لان الانسان قد يكون دون البلوغ ويكون طويلا وفوق البلوغ

و يكون قصيرا فلا عبرة به (المسألة الثالثة) قال أبو بكر الرازي دلت هذه الآية على أن من لم يبلغ وقد عقل يؤمر بفعل الشرائع وينهى عن ارتكاب القبائح فان الله أمرهم بالاستئذان في هذه الاوقات وقال عليه السلام مروهم بالصلاة وهم أبناء سبع واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وعن ابن عمر رضي الله عنه قال تعلم الصبي الصلاة اذا عرف يمينه من شماله وعن زين العابدين أنه كان يأمر الصبيان أن يصلوا الظهر والعصر جميعا والمغرب والعشاء جميعا فقيل له يصلون الصلاة لغير وقتها فقال هذا خير من أن يتناهوا عنها وعن ابن مسعود رضي الله عنه اذا بلغ الصبي عشر سنين كتبت له الحسنات ولا تكتب عليه السيآت حتى يحتلم ثم قال أبو بكر الرازي انما يؤمر بذلك على وجه التعليم وليعتاده ويتمرن عليه فيكون أسهل عليه بعد البلوغ وأقل نفورا منه وكذلك يجتنب شرب الخمر ولحم الخنزير و ينهى عن سائر المحظورات لانه لو لم يمنع منه في الصغر لصعب عليه الامتناع بعد الكبر وقال الله تعالى قوا أنفسكم وأهليكم نارا قيل في التفسير أدبوهم وعلموهم (المسألة الرابعة) قال الاخفش يقال في الحلم حلم الرجل بفتح اللام يحلم حلما بضم اللام ومن الحلم حلم بضم اللام يحلم حلما بكسر اللام أما قوله تعالى ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ففيه مسائل (المسألة الاولى) قوله ثلاث مرات يعني ثلاث أوقات لانه تعالى فسرهن بالاوقات وانما قيل ثلاث مرات للاوقات لانه أراد مرة في كل وقت من هذه الاوقات لانه يكفيهم أن يستأذنوا في كل واحد من هذه الاوقات مرة واحدة ثم بين الاوقات فقال من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء يعني الغالب في هذه الاوقات الثلاثة أن يكون الانسان متجردا عن الثياب مكشوف العورة (المسألة الثانية) قوله ثلاث عورات قرأ أهل الكوفة ثلاث بالنصب على البدل من قوله ثلاث مرات وكأنه قال في أوقات ثلاث عورات لكم فلما حذف المضاف أعرب المضاف اليه باعرابه وقراءة الباقين بالرفع أي هي ثلاث عورات فارتفع لانه خبر مبتدا محذوف قال القفال فكان المعنى ثلاث انكشافات والمراد وقت الانكشاف (المسألة الثالثة) العورة الخلل ومنه أعور الفارس وأعور المكان والاعور المختل العين فسمى الله تعالى كل واحد من تلك الاحوال عورة لان الناس يختل تحفظهم وتستترهم فيها (المسألة الرابعة) الآية دالة على ان الواجب اعتبار العلل في الاحكام اذا أمكن لانه تعالى نبه على العلة في هذه الاوقات الثلاثة من وجهين (أحدهما) بقوله تعالى ثلاث عورات لكم (والثاني) بالتنبيه على الفرق بين هذه الاوقات الثلاثة وبين ما عداها بأنه ليس ذلك الا لعلة التكشف في هذه الاوقات الثلاثة وانه لا يؤمن وقوع التكشف فيها وليس كذلك ما عدا هذه الاوقات (المسألة الخامسة) من الناس من قال ان قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها فهذا يدل على ان الاستئذان واجب في كل حال وصار ذلك منسوخا بهذه الآية في غير هذه الاحوال الثلاثة ومن الناس من قال الآية الاولى أريد بها المكلف لانه خطاب لمن آمن وما ذكره الله تعالى في هذه الآية فهو فيمن ليس بمكلف فقيل فيه ان في بعض الاحوال لا يدخل الا باذن وفي بعضها بغير اذن فلا وجه لحمل ذلك على النسخ لان ما تناولته الآية الاولى من المخاطبين لم تتناوله الآية الثانية أصلا فان قيل بتقدير أن يكون قوله تعالى الذين ملكت أيمانكم يدخل فيه من قد بلغ فالنسخ لازم قلنا لا يجب ذلك أيضا لان قوله يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم لا يدخل الا من ملك البيوت على هذه الاضافة واذا صح ذلك لم يدخل تحته العبيد والاماء فلا يجب النسخ أيضا على هذا القول فأما ان حمل الكلام على صغار المماليك فالقول فيه أبين (المسألة السادسة) قال أبو حنيفة رحمه الله لم يصر أحد من العلماء الى أن الامر بالاستئذان

بالسبيل على الاول الجنس بدليل اضافة القصد اليه وقوله تعالى (ومنها) في محل الرفع على الابتداء اما باعتبار مضمونه واما بتقدير الموصوف كما في قوله تعالى ومنا دون ذلك وقد مر في قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر الخ أي بعض السبيل أو بعض من السبيل فانها تؤنث وتذكر (جائر) أي مائل عن الحق منحرف عنه لا يوصل سالكه اليه وهو طرق الضلال التي لا يكاد يحصى عددها المندرج كلها تحت الجائر وعلى الثاني نفس السبيل المستقيم والضمير في منها راجع اليها بتقدير المضاف أي ومن جنسها لما عرفت من أن تعديل السبيل وتقويمه ابداعه ابتداء على وجه الاستقامة والعدالة لا تقويمه بعد انحرافه وأيا ما كان فليس في النظم الكريم تغيير الاسلوب رعاية لامر مطلوب كما قيل فان ذلك انما يكون فيما اقتضى الظاهر سكامعنا ولكن يعدل ذلك لنكتة أهم منه كما في قوله سبحانه الذي يطعمني ويسقين واذا مرضت فهو يشفين فان مقتضى الظاهر أن يقال والذي يسقمني ويشفين ولكن غير الى ما عليه النظم الكريم تأدبا عن اسناد ما تكرهه النفس اليه سبحانه وليس المراد بيان قصد السبيل بجرد اعلام أنه مستقيم حتى يصح اسناد أنه جائر اليه تعالى فيحتاج الى الاعتذار عن عدم ذلك على انه لو أريد ذلك لم يوجد لتغيير الاسلوب نكتة وقد بين ذلك في مواضع غير معدودة بل المراد ما مر من نصب الادلة لهداية الناس اليه ولا امكان لاسناد مثله اليه تعالى بالنسبة الى الطريق الجائر بأن يقال وجائرها حتى يصرف ذلك الاسناد منه تعالى الى غيره لنكتة تستدعيه ولا يتوهمه متوهم حتى يقتضى الحال دفع ذلك بأن يقال لا جائرها ثم يغير سبك النظم عن ذلك لداعية أقوى منه بل

الجملة الظرفية اعتراضية جيء بها لبيان الحاجة الى البيان والتعديد واظهار جلالة قدر النعمة في ذلك والمعنى على الله تعالى بيان الطريق المستقيم الموصل الى الحق وتعديله بما ذكر من نصب الادلة ليسلكه الناس باختيارهم ويصلوا الى المقصد وهذا هو الهداية المفسرة بالدلالة على ما يوصل الى ٣٤٢ المطلوب لا الهداية المستلزمة للاهتداء البتة فان ذلك مما ليس بحق على الله تعالى لا بحسب ذاته ولا بحسب رحمته بل هو مخل بحكمته حيث يستدعي تسوية المحسن والمسيء والمطيع والعاصي بحسب الاستعداد واليه أشير بقوله تعالى (ولو شاء لهداكم أجمعين) أي لو شاء أن يهديكم الى ما ذكر من التوحيد هداية موصلة اليه البتة مستلزمة لاهتدائكم أجمعين لفعل ذلك ولكن لم يشأه لان مشيئته تابعة للحكمة الداعية اليها ولا حكمة في تلك المشيئة لما أن الذي عليه يدور فلك التكليف واليه ينسحب الثواب والعقاب انما هو الاختيار الجزئي الذي عليه يترتب الاعمال التي بها نيط الجزاء هذا هو الذي يقتضيه المقام ويستدعيه حسن الانتظام وقد فسر كون قصد السبيل عليه تعالى بانتهائه اليه على نهج الاستقامة وايثار حرف الاستعلاء على أداة الانتهاء لتأكيد الاستقامة على وجه تمثيلي من غير أن يكون هناك استعلاء لشيء عليه سبحانه وتعالى عنه علوا كبيرا كما في قوله تعالى هذا صراط علي مستقيم فالقصد مصدر بمعنى الفاعل والمراد بالسبيل الجنس كما مر وقوله تعالى ومنها جائر معطوف على الجملة الاولى والمعنى ان قصد السبيل واصل اليه تعالى بالاستقامة وبعضها منحرف عنه ولو شاء لهداكم جميعا الى الاول وأنت خبير بأن هذا حق في نفسه ولكنه بمعزل عن نكتة موجبة

منسوخ وروى عطاء عن ابن عباس انه قال ثلاث آيات من كتاب الله تركهن الناس ولا أرى أحدا يعمل بهن قال عطاء حفظت اثنتين ونسيت واحدة وقرأ هذه الآية وقوله يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وذكر سعيد بن جبير ان الآية الثالثة قوله واذا حضر القسمة أولوا القربى الآية أما قوله تعالى ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض ففيه سؤالات (السؤال الاول) أتقولون في قوله ليس عليكم ولا عليهم جناح انه يقتضي الاباحة على كل حال (الجواب) قد بينا ان ذلك هو في الصغار خاصة فيباح لهم الدخول للخدمة بغير الاذن في غير الاوقات الثلاثة ويباح لنا تمكينهم من ذلك والدخول عليهم أيضا (السؤال الثاني) فهل يقتضي ذلك اباحة كشف العورة لهم (الجواب) لا وانما أباح الله تعالى ذلك من حيث كانت العادة أن لا تكشف العورة في غير تلك الاوقات فمتى كشفت المرأة عورتها مع ظن دخول الخدم اليها فذلك يحرم عليها فان كان الخادم ممن يتناوله التكليف فيحرم عليه الدخول أيضا اذا ظن ان هناك كشف عورة فان قيل أليس من الناس من جوز للبالغ من المماليك أن ينظر الى شعر مولاته قلنا من جوز ذلك أخرج الشعر من أن يكون عورة لحق المالك كما يخرج من أن يكون عورة لحق الرحم اذ العورة تنقسم ففيها ما يكون عورة على كل حال وفيها ما يختلف حاله بالاضافة فيكون عورة مع الاجنبي غير عورة مع غيره على ما تقدم ذكره (السؤال الثالث) أتقولون هذه الاباحة مقصورة على الخدم دون غيرهم (الجواب) نعم وفي قوله ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن دلالة على ان هذا الحكم مختص بالصغار دون البالغين على ما تقدم ذكره وقد نص تعالى على ذلك من بعد فقال واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم والمراد من تجدد منه البلوغ يجب أن يكون بمنزلة من تقدم بلوغه في وجوب الاستئذان فهذا معنى قوله كما استأذن الذين من قبلهم وقد يجوز أن يظن ظان أن من خدم في حال الصغر فاذا بلغ يجوز له أن لا يستأذن ويفارق حاله حال من لم يخدم ولم يملك فبين تعالى أنه كما حظر على البالغين الدخول الا بالاستئذان فكذلك على هؤلاء اذا بلغوا وان تقدمت لهم خدمة أو ثبت فيهم ملك اليمين (السؤال الرابع) الامر بالاستئذان هل هو مختص بالمملوك ومن لم يبلغ الحلم أو يتناول الكل من ذوي الرحم والاجنبي وأيضا لو كان المملوك من ذوي الرحم هل يجب عليه الاستئذان (الجواب) أما الصورة الاولى فنعم أما بالعموم قوله تعالى لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا أو بالقياس على المملوك ومن لم يبلغ الحلم بطريق الاولى وأما الصورة الثانية فيجب عليه الاستئذان لعموم الآية (السؤال الخامس) ما محل ليس عليكم (الجواب) اذا رفعت ثلاث عورات كان ذلك في محل الرفع على الوصف والمعنى هي ثلاث عورات مخصوصة بالاستئذان واذا نصبت لم يكن له محل وكان كلاما مقررا للامر بالاستئذان في تلك الاحوال خاصة (السؤال السادس) ما معنى قوله طوافون عليكم (الجواب) قال الفراء والزجاج انه كلام مستأنف كقولك في الكلام انما هم خدمكم وطوافون عليكم والطوافون الذين يكثرون الدخول والخروج والتردد وأصله من الطواف والمعنى يطوف بعضكم على بعض بغير اذن (السؤال السابع) بم ارتفع بعضكم (الجواب) بالابتداء وخبره على بعض على معنى طائف على بعض وانما حذف لان طوافون يدل عليه وأما قوله والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا ففيه مسائل (المسألة الاولى) قال ابن السكيت امرأة قاعد اذا قعدت عن الحيض والجمع قواعد واذا أردت القعود قلت قاعدة وقال المفسرون القواعد هن اللواتي قعدن عن الحيض والولد من الكبر ولا مطمع لهن في الازواج والاولى أن لا يعتبر قعودهن عن الحيض لان ذلك ينقطع والرغبة فيهن باقية فالمراد قعودهن عن حال

الزوج

الزوج وذلك لا يكون الا اذا بلغن في السن بحيث لا يرغب فيهن الرجال (المسألة الثانية) قوله تعالى في النساء لا يرجون كقوله الآن يئسن (المسألة الثالثة) لا شبهة أنه تعالى لم يأذن في أن يضعن ثيابهن أجمع لما فيه من كشف كل عورة فلذلك قال المفسرون المراد بالثياب ههنا الجلباب والبرد والقناع الذي فوق الخمار وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ أن يضعن جلابيبهن وعن السدي عن شيوخه أن يضعن خمرهن عن رؤسهن وعن بعضهم أنه قرأ أن يضعن من ثيابهن وانما خصهن الله تعالى بذلك لان التهمة مرتفعة عنهن وقد بلغن هذا المبلغ فلو غلب على ظنهن خلاف ذلك لم يحل لهن وضع الثياب ولذلك قال وأن يستعففن خير لهن وانما جعل ذلك أفضل من حيث هو أبعد من المظنة وذلك يقتضي أن عند المظنة يلزمهن أن لا يضعن ذلك كما يلزم مثله في الشابة (المسألة الرابعة) حقيقة التبرج تكلف اظهار ما يجب اخفاؤه من قولهم سفينة بارج لا غطاء عليها والتبرج سعة العين التي يرى بياضها محيطا بسوادها كله لا يغيب منه شيء الا أنه اختص بأن تتكشف المرأة للرجال بابداء زينتها واظهار محاسنها ﴿قوله تعالى ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت اخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ اعلم أن في هذه الآية مسائل (المسألة الاولى) اختلفوا في المراد من رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض فقال ابن زيد المراد أنه لا حرج عليهم ولا اثم في ترك الجهاد وقال الحسن نزلت الآية في ابن أم مكتوم وضع الله الجهاد عنه وكان أعمى وهذا القول ضعيف لانه تعالى عطف عليه قوله أن تأكلوا فنبه بذلك على أنه انما رفع الحرج في ذلك وقال الأكثرون المراد منه أن القوم كانوا يتحرجون الأكل مع هؤلاء الثلاثة في هذه المنازل فالله تعالى رفع ذلك الحظر وأزاله واختلفوا في أنهم لأي سبب اعتقدوا ذلك الحظر أما في حق الأعمى والأعرج والمريض فذكروا فيه وجوها (أحدها) أنهم كانوا لا يأكلون مع الأعمى لانه لا يبصر الطعام الجيد فلا يأخذه ولا مع الأعرج لانه لا يتمكن من الجلوس فالحق أن يأكل لقمة يأكل غيره لقمتين وكذا المريض لانه لا يتأتى له أن يأكل كما يأكل الصحيح قال الفراء فعلى هذا التأويل تكون على بمعنى في يعني ليس عليكم في مؤاكلة هؤلاء حرج (وثانيها) أن العميان والعرجان والمرضى تركوا مؤاكلة الأصحاء أما الأعمى فقال اني لا أرى شيأ فربما آخذ الأجود وأترك الأردأ وأما الأعرج والمريض خافا أن يفسد الطعام على الأصحاء لأمور تعتري المرضى ولابد أن الأصحاء يتكرهون منهم ولابد أن المريض ربما حمله الشره على أن يتعلق نظره وقلبه بلقمة الغير وذلك مما يكرهه ذلك الغير فلهذه الأسباب احترزوا عن مؤاكلة الأصحاء فالله تعالى أطلق لهم في ذلك (وثالثها) روى الزهري عن سعيد ابن المسيب وعبيد الله بن عبد الله في هذه الآية أن المسلمين كانوا اذا غزوا خلفوا زمناهم وكانوا يسلمون اليهم مفاتيح أبوابهم ويقولون لهم قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا فكانوا يتحرجون من ذلك وقالوا لا ندخلها وهم غائبون فنزلت هذه الآية رخصة لهم وهذا قول عائشة رضي الله عنها فعلى هذا معنى الآية نفي الحرج عن الزمنى في أكلهم من بيت من يدفع اليهم المفتاح اذا خرج الى الغزو (ورابعها) نقل عن ابن عباس ومقاتل بن حيان نزلت هذه الآية في الحرث بن عمرو وذلك أنه خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غازيا وخلف مالك بن زيد على أهله فلما رجع وجده مجهودا فسأله عن حاله فقال تحرجت أن

بتوسطه بين ما سبق من أدلة التوحيد وبين ما لحق ※ ولما بين الطريق المؤدي للتوحيد على وجه أجمالي وفصل بعض أدلته المتعلقة بأحوال الحيوانات وعقب ذلك ببيان السر الداعي اليه بهذا المخاطبين على التأمل فيما سبق وحثا على حسن التلقي لما لحق أتبع ذلك ذكر ما يدل عليه من أحوال النبات فقيل (هو الذي أنزل) بقدرته الباهرة (من السماء) أي من السحاب أو من جانب السماء (ماء) أي نوعا منه وهو المطر وتأخيره عن المجرور لما مر مرارا من أن المقصود هو الاخبار بأنه أنزل من السماء شيأ هو الماء لا أنه أنزله من السماء والسر فيه ما سلف من أن عند تأخير ما حقه التقديم يبقى الذهن مترقبا له مشتاقا اليه فيتمكن لديه عند وروده عليه فضل تمكن (لكم منه شراب) أي ما تشربونه وهو اما مرتفع بالظرف الأول أو مبتدأ وهو خبره والجملة صفة لماء والظرف الثاني نصب على الحالية من شراب ومن تبعيضية وليس في تقديمه ايهام حصر المشروب فيه حتى يفتقر الى الاعتذار بأنه لا بأس به لان مياه العيون والآبار منه لقوله تعالى فسلكه ينابيع في الأرض وقوله تعالى فأسكناه في الأرض وقيل الظرف الأول متعلق بأنزل والثاني خبر لشراب والجملة صفة لماء وأنت خبير بأن ما فيه من توسيط المنصوب بين المجرورين وتوسيط الثاني منهما بين الماء وصفته مما لا يليق بجزالة نظم التنزيل الجليل (ومنه شجر) من ابتدائية أي ومنه يحصل شجر ترعاه المواشي والمراد به ما ينبت من الارض سواء كان له ساق أو لا أو تبعيضية مجازا لانه لما كان سقيه من الماء جعل كأنه منه كقوله ※ أسنمة الآبال في ربابه ※ يعني به المطر الذي ينبت به الكلأ الذي تأكله الابل فتسمن أسنمتها وفي حديث عكرمة لا تأكلوا ثمن الشجر فانه سحت يعني الكلأ (فيه

تسيمون) ترعون من سامت الماشية وأسامها صاحبها وأصلها السومة وهي العلامة لانها تؤثر بالرعي علامات في الارض (ينبت) أي الله
عز وجل وقرئ بالنون (لكم به) بما أنزل من السماء (الزرع والزيتون والنخيل والاعناب) بيان للنعم الفائضة عليهم من الارض
بطريق الاستئناف وايثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار وأنها سنته الجارية على مر الدهور أولاستحضار
صورة الانبات وتقديم الظرفين على المفعول الصريح لما مر آنفا مع ما في تقديم أولهما من الاهتمام به لادخال المسرة ابتداء وتقديم الزرع على ما عداه لانه أصل الاغذية وعمود المعاش وتقديم الزيتون لما فيه من الشرف من حيث انه ادام من وجه وفاكهة من وجه وتقديم النخيل على الاعناب لظهور أصالتها وبقائها وجمع الاعناب للاشارة الى ما فيها من الاشتمال على الاصناف المختلفة وتخصيص الانواع المعدودة بالذكر مع اندراجها تحت قوله تعالى (ومن كل الثمرات) للاشعار بفضلها وتقديم الشجر عليها مع كونه غذاء للانعام لحصوله بغير صنع من البشر أو للارشاد الى مكارم الاخلاق فان مقتضاها أن يكون اهتمام الانسان بأمر ما تحت يده أكمل من اهتمامه بأمر نفسه أولان أكثر المخاطبين من أصحاب المواشي ليس لهم زرع ولاثمر وقيل المراد تقديم ما يسام
لا تقديم غذائه فانه غذاء حيواني للانسان وهو أشرف الاغذية وقرئ ينبت من الثلاثي مسندا الى الزرع يريد
وما عطف عليه (ان في ذلك) أي في انزال الماء وانبات ما فصل (لآية) عظيمة دالة على تفرده تعالى بالالوهية لاشتماله على كمال العلم
والقدرة والحكمة (لقوم يتفكرون) فان من تفكر في أن الحبة أو النواة تقع في الارض وتصل اليها نداوة تنفذ فيها فينشق أسفلها

آكل من طعامك بغير اذنك وأما في حق سائر الناس فذكروا وجهين (الاول) كان المؤمنون يذهبون
بالضعفاء وذوي العاهات الى بيوت أزواجهم وأولادهم وقراباتهم وأصدقائهم فيطعمونهم منها فلما نزل
قوله تعالى لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة أي بيعا فعند ذلك امتنع الناس أن
يأكل بعضهم من طعام بعض فنزلت هذه الآية (الثاني) قال قتادة كانت الانصار في أنفسها قزازة وكانت
لا تأكل من هذه البيوت اذا استغنوا قال السدي كان الرجل يدخل بيت أبيه أو بيت أخيه أو أخته فتتحفه
المرأة بشئ من الطعام فيتحرج لانه ليس ثم رب البيت فأنزل الله تعالى هذه الرخصة ﴿المسألة الثانية﴾
قال الزجاج الحرج في اللغة الضيق ومعناه في الدين الاثم ﴿المسألة الثالثة﴾ انه سبحانه أباح الاكل للناس
من هذه المواضع وظاهر الآية يدل على أن اباحة الاكل لا تتوقف على الاستئذان واختلف العلماء فيه
فنقل عن قتادة أن الاكل مباح ولكن لا يحمل وجمهور العلماء أنكروا ذلك ثم اختلفوا على وجوه (الاول)
كان ذلك في صدر الاسلام ثم نسخ ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام لا يحل مال امرئ مسلم الا عن طيب نفس
منه ومما يدل على هذا النسخ قوله لا تدخلوا بيوت النبي الا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه وكان
في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم من لهن الآباء والاخوة والاخوات فعم بالنهي عن دخول بيوتهن
الا بعد الاذن في الدخول وفي الاكل * فان قيل انما أذن تعالى في هذا لان المسلمين لم يكونوا يمنعون قراباتهم
هؤلاء من أن يأكلوا من بيوتهم حضروا أوغابوا فجاز أن يرخص في ذلك * قلنا لو كان الامر كذلك لم يكن
لتخصيص هؤلاء الاقارب بالذكر معنى لان غيرهم كهم في ذلك (الثاني) قال أبو مسلم الاصفهاني المراد من
هؤلاء الاقارب اذا لم يكونوا مؤمنين وذلك لانه تعالى نهى من قبل عن مخالطتهم بقوله لا تجد قوما
يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ثم انه سبحانه أباح في هذه الآية ما حظره هنالك
قال ويدل عليه أن في هذه السورة أمر بالتسليم على أهل البيوت فقال حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها
وفي بيوت هؤلاء المذكورين لم يأمر بذلك بل أمر أن يسلموا على أنفسهم والحاصل أن المقصود من هذه
الآية اثبات الاباحة في الجملة لا اثبات الاباحة في جميع الاوقات (الثالث) انه لما علم بالعادة أن هؤلاء
القوم تطيب أنفسهم بأكل من يدخل عليهم والعادة كالاذن في ذلك فيجوز أن يقال خصهم الله بالذكر
لان هذه العادة في الاغلب توجد فيهم ولذلك ضم اليهم الصديق ولما علمنا أن هذه الاباحة انما حصلت في
هذه الصورة لاجل حصول الرضا فيها فلا حاجة الى القول بالنسخ ﴿المسألة الرابعة﴾ ان الله تعالى ذكر أحد
عشر موضعا في هذه الآية (أولها) قوله ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم * وفيه سؤال وهو أن يقال
أي فائدة في اباحة أكل الانسان طعامه في بيته * وجوابه المراد في بيوت أزواجكم وعيالكم أضافه اليهم لان
بيت المرأة كبيت الزوج وهذا قول الفراء وقال ابن قتيبة أراد بيوت أولادهم فنسب بيوت الاولاد الى
الآباء لان الولد كسب والده وماله كماله قال عليه الصلاة والسلام ان أطيب ما يأكل الرجل من كسبه وان
ولده من كسبه والدليل على هذا أنه سبحانه وتعالى عدد الاقارب ولم يذكر الاولاد لانه اذا كان سبب
الرخصة هو القرابة كان الذي هو أقرب منهم أولى (وثانيها) بيوت الآباء (وثالثها) بيوت الامهات
(ورابعها) بيوت الاخوان (وخامسها) بيوت الاخوات (وسادسها) بيوت الاعمام (وسابعها) بيوت العمات
(وثامنها) بيوت الاخوال (وتاسعها) بيوت الخالات وعاشرها قوله تعالى أو ما ملكتم مفاتحه وقرئ مفتاحه
وفيه وجوه (الاول) قال ابن عباس رضي الله عنهما وكيل الرجل وقيمه في ضيعته وماشيته لا بأس عليه أن
يأكل من ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته وملك المفاتح كونها في يده وفي حفظه (الثاني) قال الضحاك

فيخرج منه عروق تنبسط في أعماق الأرض وينشق أعلاه وإن كانت منتكسة في الوقوع ويخرج منه ساق فينمو ويخرج منه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الأشكال والألوان والخواص والطبائع وعلى نواة قابلة لتوليد الأمثال على النمط المحرر لا إلى نهاية مع اتحاد المواد واستواء نسبة الطبائع السفلية والتأثيرات العلوية بالنسبة إلى الكل علم أن من هذه أفعاله وآثاره لا يمكن أن يشبهه شيء في شيء من صفات الكمال فضلا عن أن يشاركه أخس الأشياء في أخص صفاته التي هي الألوهية واستحقاق العبادة تعالى عن ذلك علوا كبيرا وحيث افتقر سلوك هذه الطريقة إلى ترتيب المقدمات الفكرية قطع الآية الكريمة بالتفكر (وسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان خلفة لمنامكم ومعاشكم ولعقد الثمار وإنضاجها (والشمس والقمر) يدأبان في سيرهما وإنارتهما أصالة وخلافة وإصلاحهما لما نيط بهما صلاحه من المكونات التي من جملتها ما فصل وأجمل كل ذلك لمصالحكم ومنافعكم وليس المراد بتسخيرها لهم تمكينهم من تصرفها كيف شاؤا كما في قوله تعالى سبحان الذي سخر لنا هذا ونظائره بل هو تصريفه تعالى لها حسبما يترتب عليه منافعهم ومصالحهم كأن ذلك تسخير لهم وتصرف من قبلهم حسب إرادتهم وفي التعبير عن ذلك التصريف بالتسخير إيماء إلى ما في المسخرات من صعوبة المأخذ بالنسبة إلى المخاطبين وإيثار صيغة الماضي للدلالة على أن ذلك أمر واحد مستمر وإن تجددت آثاره (والنجوم مسخرات بأمره) مبتدأ وخبر أي سائر النجوم في حركاتها وأوضاعها من التثليث والتربيع ونحوهما مسخرات لله تعالى أو لما خلقن له بإرادته ومشيئته وحيث لم يكن عود منافع النجوم إليهم في الظهور بمثابة ما قبلها من الملوين

يريد الزمنى الذين كانوا يحرسون للغزاة (الثالث) المراد بيوت المماليك لأن مال العبد لمولاه قال الفضل المفاتح واحدها مفتح بفتح الميم وواحد المفاتيح مفتاح بالكسر (الحادي عشر) قوله أو صديقكم والمعنى أو بيوت أصدقائكم والصديق يكون واحدا وجمعا وكذلك الخليط والقطين والعدو ويحكى عن الحسن أنه دخل داره وإذا حلقة من أصدقائه وقد أخرجوا سلالا من تحت سريره فيها الخبيص وأطايب الأطعمة وهم مكبون عليها يأكلون فتهللت أسارير وجهه سرورا وضحك وقال هكذا وجدناهم يريد كبراء الصحابة وعن ابن عباس رضي الله عنهما الصديق أكثر من الوالدين لأن أهل جهنم لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والأمهات بل بالأصدقاء فقالوا فما لنا من شافعين ولا صديق حميم وحكي أن أخا للربيع بن خثيم في الله دخل منزله في حال غيبته فانبسط إلى جاريته حتى قدمت إليه ما أكل فلما عاد أخبرته بذلك فلسروره بذلك قال إن صدقت فأنت حرة (المسألة الخامسة) احتج أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية على أن من سرق من ذي رحم محرم أنه لا يقطع لإباحة الله تعالى لهم بهذه الآية الأكل من بيوتهم ودخولها بغير إذنهم فلا يكون ماله محرزا منهم * فإن قيل فيلزم أن لا يقطع إذا سرق من مال صديقه * قلنا من أراد سرقة ماله لا يكون صديقا له * أما قوله تعالى ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا فقال أكثر المفسرين نزلت الآية في بني ليث بن عمرو وهم حي من كنانة كان الرجل منهم لا يأكل وحده فمكث يومه فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيأ وربما كانت معه الإبل الحفل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه فأعلم الله تعالى أن الرجل إذا أكل وحده فلا حرج عليه هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما وقال عكرمة وأبو صالح رحمهما الله كانت الأنصار إذا نزل بواحد منهم ضيف لم يأكل إلا وضيفه معه فرخص الله لهم أن يأكلوا كيف شاؤا مجتمعين ومتفرقين وقال الكلبي كانوا إذا اجتمعوا ليأكلوا طعاما عزلوا للأعمى طعاما على حدة وكذلك الزمن والمريض فبين الله لهم أن ذلك غير واجب وقال آخرون كانوا يأكلون فرادى خوفا من أن يحصل عند الجمعية ما ينفر أو يؤذي فبين الله تعالى أنه غير واجب وقوله جميعا نصب على الحال وأشتاتا جمع شت وشتى جمع شتيت وشتان تثنية شت قاله المفضل وقيل الشت مصدر بمعنى التفرق ثم يوصف به ويجمع أما قوله تعالى فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم فالمعنى أنه تعالى جعل أنفس المسلمين كالنفس الواحدة على مثال قوله تعالى ولا تقتلوا أنفسكم قال ابن عباس فإن لم يكن أحد فعلى نفسه ليقل السلام علينا من قبل ربنا وإذا دخل المسجد فليقل السلام على رسول الله وعلينا من ربنا قال قتادة وحدثنا أن الملائكة ترد عليه قال القفال وإن كان في البيت أهل الذمة فليقل السلام على من اتبع الهدى وقوله تحية نصب على المصدر كأنه قال فحيوا تحية من عند الله أي مما أمركم الله به قال ابن عباس رضي الله عنهما من قال السلام عليكم معناه اسم الله عليكم وقوله مباركة طيبة قال الضحاك معنى البركة فيه تضعيف الثواب وقال الزجاج أعلم الله سبحانه أن السلام مبارك ثابت لما فيه من الأجر والثواب وأنه إذا أطاع الله فيها أكثر خيره وأجزل أجره كذلك يبين الله لكم الآيات أي يفصل الله شرائعه لكم لعلكم تعقلون لتفهموا عن الله أمره ونهيه وروى حميد عن أنس قال خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لي في شيء فعلته لم فعلته ولا قال لي في شيء تركته لم تركته وكنت واقفا على رأس النبي صلى الله عليه وسلم أصب الماء على يديه فرفع رأسه إلي وقال ألا أعلمك ثلاث خصال تنتفع بهن قلت بأبي وأمي أنت يا رسول الله بلى فقال من لقيت من أمتي فسلم عليهم يطل عمرك وإذا دخلت بيتا فسلم عليهم يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين ﴿ قوله تعالى ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين

يستأذنوك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ألا إن لله ما في السموات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم﴾ وفي الآية مسائل (المسألة الأولى) قرئ على أمر جميع ثم ذكروا في قوله على أمر جامع وجوها (أحدها) أن الأمر الجامع هو الأمر الموجب للاجتماع عليه فوصف الأمر بالجمع على سبيل المجاز وذلك نحو مقاتلة عدو أو تشاور في خطب مهم أو الأمر الذي يعم ضرره ونفعه وفي قوله إذا كانوا معه على أمر جامع إشارة إلى أنه خطب جليل لابد لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أرباب التجارب والآراء ليستعين بتجاربهم فمفارقة أحدهم في هذه الحالة مما يشق على قلبه (وثانيها) عن الضحاك في أمر جامع الجمعة والأعياد وكل شيء تكون فيه الخطبة (وثالثها) عن مجاهد في الحرب وغيره (المسألة الثانية) اختلفوا في سبب نزوله قال الكلبي كان صلى الله عليه وسلم يعرض في خطبته بالمنافقين ويعيبهم فينظر المنافقون يمينا وشمالا فإذا لم يرهم أحد انسلوا وخرجوا ولم يصلوا وإن أبصرهم أحد ثبتوا وصلوا خوفا فنزلت هذه الآية فكان بعد نزول هذه الآية لا يخرج المؤمن لحاجته حتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان المنافقون يخرجون بغير إذن (المسألة الثالثة) قال الجبائي هذا يدل على أن استئذانهم الرسول من إيمانهم ولولا ذلك لجاز أن يكونوا كاملي الإيمان وإن تركوا الاستئذان وذلك يدل على أن كل فرض لله تعالى واجتناب محرم من الإيمان (والجواب) هذا بناء على أن كلمة إنما للحصر وأيضا فالمنافقون إنما تركوا الاستئذان استخفافا ولا نزاع في أنه كفر * أما قوله تعالى إن الذين يستأذنونك إلى قوله إن الله غفور رحيم ففيه مسائل (المسألة الأولى) إن الذين يستأذنونك المعنى تعظيما لك ورعاية للأدب أولئك هم الذين يؤمنون بالله ورسوله أي يعملون بموجب الإيمان ومقتضاه قال الضحاك ومقاتل المراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك لأنه استأذن في غزوة تبوك في الرجوع إلى أهله فأذن له وقال له انطلق فوالله ما أنت بمنافق يريد أن يسمع المنافقين ذلك الكلام فلما سمعوا ذلك قالوا ما بال محمد إذا استأذنه أصحابه أذن لهم وإذا استأذناه لم يأذن لنا فوالله ما نراه يعدل وقال ابن عباس رضي الله عنهما إن عمر استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في العمرة فأذن له ثم قال يا أبا حفص لا تنسنا من صالح دعائك وفي قوله واستغفر لهم الله وجهان (أحدهما) أن يستغفر لهم تنبيها على أن الأولى أن لا يقع الاستئذان منهم وإن أذن لأن الاستغفار يدل على الذنب وربما ذكر عنه بعض الرخص (الثاني) يحتمل أنه تعالى أمره بأن يستغفر لهم مقابلة على تمسكهم بآداب الله تعالى في الاستئذان (المسألة الثانية) قال قتادة نسخت هذه الآية قوله تعالى لم أذنت لهم (المسألة الثالثة) الآية تدل على أنه سبحانه فوض إلى رسوله بعض أمر الدين ليجتهد فيه برأيه * أما قوله تعالى لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ففيه وجوه (أحدها) وهو اختيار المبرد والقفال ولا تجعلوا أمره إياكم ودعاءه لكم كما يكون من بعضكم لبعض إذ كان أمره فرضا لازما والذي يدل على هذا قوله عقيب هذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره (وثانيها) لا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضا يا محمد يا أبا القاسم ولكن قولوا يا رسول الله يا نبي الله عن سعيد بن جبير (وثالثها) لا ترفعوا أصواتكم في دعائه وهو المراد من قوله إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله عن ابن عباس (ورابعها) احذروا دعاء الرسول عليكم إذا أسخطتموه فإن دعاءه موجب ليس كدعاء غيره والوجه الأول أقرب إلى نظم الآية * أما قوله تعالى قد يعلم الله الذين

والقمر بأن لم ينسب تسخيرهما إليه بأداة الاختصاص بل ذكر على وجه يفيد كونها تحت ملكوته تعالى من غير دلالة على شيء آخر ولذلك عدل عن الجملة الفعلية الدالة على الحدوث إلى الاسمية المفيدة للدوام والاستمرار وقرئ برفع الشمس والقمر أيضا وقرئ بنصب النجوم على أنه مفعول أول لفعل مقدر يدل ٣٤٦ عليه الفعل المذكور ومسخرات مفعول ثان له أي وجعل النجوم مسخرات بأمره أو على أنه معطوف على المنصوبات المتقدمة ومسخرات حال من الكل والعامل ما في سخر من معنى نفع أي نفعكم بها حال كونها مسخرات لله الذي خلقها ودبرها كيف شاء أو لما خلقن له بإيجاده وتقديره أو لحكمه أو مصدر ميمي جمع لاختلاف الأنواع أي أنواعا من التسخير وما قيل من أن فيه إيذانا بالجواب عما عسى يقال إن المؤثر في تكوين النبات حركات الكواكب وأوضاعها بأن ذلك إن سلم فلا ريب في أنها أيضا أمور ممكنة الذات والصفات واقعة على بعض الوجوه الممكنة فلا بد لها من موجد مخصص مختار واجب الوجود دفعا للدور والتسلسل فبناه حسبان ما ذكر أدلة على وجود الصانع تعالى وقدرته واختياره وأنت تدري أن ليس الأمر كذلك فإنه ليس مما ينازع فيه الخصم ولا يتلعثم في قبوله قال تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون وقال تعالى ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله الآية وإنما ذلك أدلة التوحيد من حيث إن من هذا شأنه لا يتوهم أن يشاركه شيء في شيء فضلا عن أن يشاركه الجماد في الألوهية (إن في ذلك) أي فيما ذكر من التسخير المتعلق بما ذكر مجملا ومفصلا (لآيات) باهرة متكاثرة (لقوم يعقلون)

يتسللون

وحيث كانت هذه الآثار العلوية متعددة ودلالة ما فيها من عظيم القدرة والعلم والحكمة على الوحدانية أظهر جمع الآيات وعلقت بمجرد العقل من غير حاجة الى التأمل والتفكر ويجوز أن يكون المراد لقوم يعقلون ذلك فالمشار اليه حينئذ ما حجب الدقائق المودعة في العلويات المدلول عليها بالتسخير التي لا يتصدى لمعرفتها الا المهرة من أساطين علماء الحكمة ولا ريب في أن احتياجها الى التفكر أكثر (وما ذرأ) عطف على قوله تعالى والنجوم رفعا ونصبا على أنه مفعول لجعل أي وما خلق (لكم في الأرض) من حيوان ونبات حال كونه (مختلفا ألوانه) أي أصنافه فان اختلافها غالبا يكون باختلاف اللون مسخرا لله تعالى أو لما خلق له من الخواص والأحوال والكيفيات أو جعل ذلك مختلف الألوان أي الأصناف لتتمتعوا من ذلك بأي صنف شئتم وقد عطف على ما فصله من العلويات وعقب بأنه ذكر الخلق لهم مغن عن ذكر التسخير واعتذر بأن الأول لا يستلزم الثاني لزوما عقليا لجواز كون ما خلق لهم عزيز المرام صعب المنال وقيل هو منصوب بفعل مقدر أي خلق وأنت على أن قوله مختلفا ألوانه حال من مفعوله (ان في ذلك) الذي ذكر من التسخيرات ونحوها (لآية) بينة الدلالة على أن من هذا شأنه واحد لا ند له ولا ضد (لقوم يذكرون) فان ذلك غير محتاج الا الى تذكر ما عسى يغفل عنه من العلوم الضرورية وأما ما يقال من أن اختلافها في الطباع والهيآت والمناظر ليس الا بصنع صانع حكيم فمداره ما لوحنا به من حسبان ما ذكر دليلا على اثبات الصانع تعالى وقد عرفت حقيقة الحال فان ايراد ما يدل على اتصافه سبحانه بما ذكر من صفات الكمال ليس بطريق الاستدلال عليه بل من حيث ان ذلك من المقدمات المسلمة في وجه الاستدلال به على

يتسللون منكم لواذا فالمعنى يتسللون قليلا قليلا ونظير تسلل تدرج وتدخل واللواذ الملاوذة وهي أن يلوذ هذا بذاك وذاك بهذا يعني يتسللون عن الجماعة على سبيل الخفية واستتار بعضهم ببعض ولواذا حال أي ملاوذين وقيل كان بعضهم يلوذ بالرجل اذا استأذن فيؤذن له فينطلق الذي لم يؤذن له معه وقرئ لواذا بالفتح ثم اختلفوا على وجوه (أحدها) قال مقاتل كان المنافقون تثقل عليهم خطبة النبي صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة فيلوذون ببعض أصحابه ويخرجون من غير استئذان (وثانيها) قال مجاهد يتسللون من الصف في القتال (وثالثها) قال ابن قتيبة هذا كان في حفر الخندق (ورابعها) يتسللون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن كتابه وعن ذكره وقوله قد يعلم الله معناه التهديد بالمجازاة أما قوله فليحذر الذين يخالفون عن أمره ففيه مسائل (المسألة الاولى) قال الأخفش عن صلة والمعنى يخالفون أمره وقال غيره معناه يعرضون عن أمره ويميلون عن سنته فدخلت عن لتضمين المخالفة معنى الاعراض (المسألة الثانية) كما تقدم ذكر الرسول فقد تقدم ذكر الله تعالى لكن القصد هو الرسول فاليه ترجع الكناية وقال أبو بكر الرازي الأظهر أنها لله تعالى لأنه يليه وحكم الكناية رجوعها الى ما يليها دون ما تقدمها (المسألة الثالثة) الآية تدل على أن ظاهر الامر للوجوب ووجه الاستدلال به أن نقول تارك المأمور به مخالف لذلك الامر ومخالف الامر مستحق للعقاب فتارك المأمور به مستحق للعقاب ولا معنى للوجوب الا ذلك انما قلنا ان تارك المأمور به مخالف لذلك الامر لان موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه والمخالفة ضد الموافقة فكانت مخالفة الامر عبارة عن الاخلال بمقتضاه فثبت أن تارك المأمور به مخالف وانما قلنا ان مخالف الامر مستحق للعقاب لقوله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم فأمر مخالف هذا الامر بالحذر عن العقاب والامر بالحذر عن العقاب انما يكون بعد قيام المقتضي لنزول العقاب فثبت أن مخالف أمر الله تعالى أو أمر رسوله قد وجد في حقه ما يقتضي نزول العذاب فان قيل لا نسلم أن تارك المأمور به مخالف للامر قوله موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه ومخالفته عبارة عن الاخلال بمقتضاه قلنا لا نسلم أن موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه فما الدليل عليه ثم انا نفسر موافقة الامر بتفسيرين (أحدهما) أن موافقة الامر عبارة عن الاتيان بما يقتضيه الامر على الوجه الذي يقتضيه الامر فان الامر لو اقتضاه على سبيل الندب وأنت تأتي به على سبيل الوجوب كان ذلك مخالفة للامر (الثاني) أن موافقة الامر عبارة عن الاعتراف بكون ذلك الامر حقا واجب القبول فمخالفته تكون عبارة عن انكار كونه حقا واجب القبول سلمنا أن ما ذكرته يدل على أن مخالفة الامر عبارة عن ترك مقتضاه لكنه معارض بوجوه أخر وهو أنه لو كان ترك المأمور به مخالفة للامر لكان ترك المندوب لا محالة مخالفة لامر الله تعالى وذلك باطل والا لاستحق العقاب على ما بيناه في المقدمة الثانية سلمنا أن تارك المأمور به مخالف للامر فلم قلت ان مخالف الامر مستحق العقاب لقوله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن أمره قلنا لا نسلم أن هذه الآية دالة على أمر من يكون مخالفا للامر بالحذر بل هي دالة على الامر بالحذر عن مخالفة الامر فلم لا يجوز أن يكون كذلك سلمنا ذلك لكنها دالة على أن المخالف عن الامر يلزمه الحذر فلم قلت ان مخالف الامر لا يلزمه الحذر فان قلت لفظة عن صلة زائدة فنقول الاصل في الكلام لا سيما في كلام الله تعالى أن لا يكون زائدا سلمنا دلالة الآية على أن مخالف أمر الله تعالى مأمور بالحذر عن العذاب فلم قلت انه يجب عليه الحذر عن العذاب أقصى ما في الباب أنه ورد الامر به لكن لم قلت ان الامر للوجوب وهذا أول المسألة فان قلت هب انه لا يدل على وجوب الحذر لكن لا بد وأن يدل على حسن

مايقتضيه ضرورة من وحدانيته تعالى واستحالة أن يشاركه شئ في الالوهية (وهو الذي سخر البحر) شروع في تعداد النعم المتعلقة بالبحر اثر تفصيل النعم المتعلقة بالبر سهولا وأوعارا أي جعله بحيث تتمكنون من الانتفاع به بالركوب والغوص والاصطياد (لتأكلوا منه لحما طريا) هو السمك والتعبير عنه باللحم مع كونه حيوانا للتلويح بانحصار الانتفاع به في الاكل ووصفه بالطراوة للاشعار بلطافته والتنبيه على وجوب المسارعة الى أكله كيلا يتسارع اليه الفساد كما ينبئ عنه جعل البحر مبدأ أكله وللايذان بكمال قدرته تعالى في خلقه عذبا طريا في ماء زعاق ومن اطلاق اللحم عليه ذهب مالك والثوري أن من حلف لا يأكل اللحم حنث بأكله والجواب أن مبنى الايمان العرف ولا ريب في أنه لا يفهم من اللحم عند الاطلاق ولذلك لو أمر خادمه بشراء اللحم فجاء بالسمك لم يكن ممتثلا بالامر ألا يرى الى أن الله تعالى سمى الكافر دابة حيث قال ان شر الدواب عند الله الذين كفروا ولا يحنث بركوبه من حلف لا يركب دابة (وتستخرجوا منه حلية) كاللؤلؤ والمرجان (تلبسونها) عبر في مقام الامتنان عن لبس نسائهم بلبسهم لكونهن منهم أو لكونهن يلبسن لاجلهم (وترى الفلك) السفن (مواخر فيه) جواري فيه مقبلة ومدبرة ومعترضة بريح واحدة تشقه بحيزومها من المخر وهو شق الماء

الحذر وحسن الحذر انما يكون بعد قيام المقتضي لنزول العذاب قلت لا نسلم أن حسن الحذر مشروط بقيام المقتضي لنزول العذاب بل الحذر يحسن عند احتمال نزول العذاب ولهذا يحسن الاحتياط وعندنا مجرد الاحتمال قائم لان هذه المسئلة احتمالية لا قطعية سلمنا دلالة الآية على وجود ما يقتضي نزول العقاب لكن لا في كل أمر بل في أمر واحد لان قوله عن أمره لا يفيد الا أمرا واحدا وعندنا أن أمرا واحدا يفيد الوجوب فلم قلت ان كل أمر كذلك سلمنا أن كل أمر كذلك لكن الضمير في قوله عن أمره يحتمل عوده الى الله تعالى وعوده الى الرسول والآية لا تدل الا على أن الامر للوجوب في حق أحدهما فلم قلتم انه في حق الآخر كذلك (الجواب) قوله لم قلتم ان موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه قلنا الدليل عليه أن العبد اذا امتثل أمر السيد حسن أن يقال ان هذا العبد موافق للسيد ويجري على وفق أمره ولو لم يمتثل أمره يقال انه ما وافقه بل خالفه وحسن هذا الاطلاق معلوم بالضرورة من أهل اللغة فثبت أن موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه قوله الموافقة عبارة عن الاتيان بما يقتضيه الامر على الوجه الذي يقتضيه الامر قلنا لما سلمتم أن موافقة الامر لا تحصل الا عند الاتيان بمقتضى الامر فنقول لا شك أن مقتضى الامر هو الفعل لان قوله افعل لا يدل الا على اقتضاء الفعل واذا لم يوجد الفعل لم يوجد مقتضى الامر فلا توجد الموافقة فوجب حصول المخالفة لانه ليس بين الموافقة والمخالفة واسطة قوله الموافقة عبارة عن اعتقاد كون ذلك الامر حقا واجب القبول قلنا هذا لا يكون موافقة للامر بل يكون موافقة للدليل الدال على ان ذلك الامر حق فان موافقة الشئ عبارة عن الاتيان بما يقتضي تقرر مقتضاه فاذا دل الدليل على حقية الشئ كان الاعتراف بحقيته يقتضي تقرر مقتضى ذلك الدليل أما الامر فلما اقتضى دخول الفعل في الوجود كانت موافقته عبارة عما يقرر ذلك الدخول وادخاله في الوجود يقتضي تقرر دخوله في الوجود فكانت موافقة الامر عبارة عن فعل مقتضاه قوله لو كان كذلك لكان تارك المندوب مخالفا فوجب أن يستحق العقاب قلنا هذا الالزام انما يصح أن لو كان المندوب مأمورا به وهو ممنوع قوله لم لا يجوز أن يكون قوله فليحذر أمرا بالحذر عن المخالف لا أمرا للمخالف بالحذر قلنا لو كان كذلك لصار التقدير فليحذر المتسللون لواذا عن الذين يخالفون أمره وحينئذ يبقى قوله أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ضائعا لان الحذر ليس فعلا يتعدى الى مفعولين قوله كلمة عن ليست بزائدة قلنا ذكرنا اختلاف الناس فيها في المسئلة الاولى قوله لم قلتم ان قوله فليحذر يدل على وجوب الحذر عن العقاب قلنا لا ندعي وجوب الحذر ولكن لا أقل من جواز الحذر وذلك مشروط بوجود ما يقتضي وقوع العقاب قوله لم قلت ان الآية تدل على أن كل مخالف للامر يستحق العقاب قلنا لانه تعالى رتب نزول العقاب على المخالفة فوجب أن يكون معللا به فيلزم عمومه لعموم العلة قوله هب أن أمر الله أو أمر رسوله للوجوب فلم قلتم ان الامر كذلك قلنا لانه لا قائل بالفرق والله أعلم (المسئلة الرابعة) من الناس من قال لفظ الامر مشترك بين الامر القولي وبين الشأن والطريق كما يقال أمر فلان مستقيم واذا ثبت ذلك كان قوله تعالى عن أمره يتناول قول الرسول وفعله وطريقته وذلك يقتضي أن كل مافعله عليه الصلاة والسلام يكون واجبا علينا وهذه المسئلة مبنية على أن الكناية في قوله عن أمره راجعة الى النبي صلى الله عليه وسلم أما لو كانت راجعة الى الله تعالى فالبحث ساقط بالكلية وتمام تقرير ذلك ذكرناه في أصول الفقه والله أعلم أما قوله تعالى أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم فالمراد أن مخالفة الامر توجب أحد هذين الامرين والمراد بالفتنة العقوبة في الدنيا وبالعذاب الاليم عذاب الآخرة وانما ردد الله تعالى حال ذلك المخالف بين هذين الامرين لان ذلك المخالف قد يموت من دون عقاب الدنيا وقد

وقيل هو صوت جري الفلك (ولتبتغوا) عطف على تستخرجوا وما عطف هو عليه وما بينهما اعتراض لتمهيد مبادي يعرض الابتغاء ودفع توهم كونه باستخراج الحلية أو على علة محذوفة أي لتنتفعوا بذلك ولتبتغوا ذكره ابن الانباري أو متعلقة بفعل محذوف أي وفعل ذلك لتبتغوا (من فضله) من سعة رزقه بركوبها للتجارة (ولعلكم تشكرون) أي تعرفون حقوق نعمه الجليلة فتقومون بأدائها

يعرض له ذلك في الدنيا فلهذا السبب أورده تعالى على سبيل الترديد ثم قال الحسن الفتنة هي ظهور
نفاقهم وقال ابن عباس رضي الله عنهما القتل وقيل الزلازل والاهوال وعن جعفر بن محمد يسلط عليهم
سلطان جائر أما قوله تعالى ألا ان لله ما في السموات والارض فذلك كالدلالة على قدرته تعالى عليهما
وعلى ما بينهما وما فيهما واقتداره على المكلف فيما يعامل به من المجازاة بثواب أو عقاب وعلى علمه بما يخفيه
ويعلنه وكل ذلك كالزجر عن مخالفة أمره أما قوله تعالى قد يعلم ما أنتم عليه فانما أدخل قد لتوكيد علمه بما
هم عليه من المخالفة في الدين والنفاق ويرجع توكيد العلم الى توكيد الوعيد وذلك لان قد اذا دخلت على
المضارع كانت بمعنى ربما فوافقت ربما في خروجها الى معنى التكثير كما في قول الشاعر

فان تمس مهجور الفناء فربما * أقام به بعد الوفود وفود

والخطاب والغيبة في قوله تعالى قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون اليه يجوز أن يكونا جميعا للمنافقين على
طريق الالتفات ويجوز أن يكون ما أنتم عليه عاما ويرجعون للمنافقين وقد تقدم في غير موضع أن الرجوع
اليه هو الرجوع الى حيث لا حكم الا له فلا وجه لاعادته والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد النبي الامي
وعلى آله وصحبه وسلم

﴿سورة الفرقان سبع وسبعون آية مكية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

قوله تعالى ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا الذي له ملك السموات والارض
ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا﴾ اعلم أن الله سبحانه وتعالى تكلم في
هذه السورة في التوحيد والنبوة وأحوال القيامة ثم ختمها بذكر صفات العباد المخلصين الموقنين ولما كان
اثبات الصانع واثبات صفات جلاله يجب أن يكون مقدما على الكل لا جرم افتتح الله هذه السورة بذلك
فقال تبارك الذي نزل الفرقان على عبده وفيه مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ قال الزجاج تبارك تفاعل من
البركة والبركة كثرة الخير وزيادته وفيه معنيان (أحدهما) تزايد خيره وتكاثر وهو المراد من قوله وان
تعدوا نعمة الله لا تحصوها (والثاني) تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في ذاته وصفاته وأفعاله وهو المراد من
قوله ليس كمثله شيء وأما تعاليه عن كل شيء في ذاته فيحتمل أن يكون المعنى جل بوجوب وجوده وقدمه عن
جواز الفناء والتغير عليه وأن يكون المعنى جل بفردانيته ووحدانيته عن مشابهة شيء من الممكنات وأما
تعاليه عن كل شيء في صفاته فيحتمل أن يكون المعنى جل أن يكون علمه ضروريا أو كسبيا أو تصورا أو تصديقا
وفي قدرته أن يحتاج الى مادة ومدة ومثال وجلب غرض ومنال وأما في أفعاله فجل أن يكون الوجود
والبقاء وصلاح حال الوجود الا من قبله وقال آخرون أصل الكلمة تدل على البقاء وهو مأخوذ من بروك
البعير ومن بروك الطير على الماء وسميت البركة بركة لثبوت الماء فيها والمعنى أنه سبحانه وتعالى باق في ذاته
أزلا وأبدا ممتنع التغير وباق في صفاته ممتنع التبدل ولما كان سبحانه وتعالى هو الخالق لوجوه المنافع
والمصالح والمبقي لها وجب وصفه سبحانه بأنه تبارك وتعالى ﴿المسألة الثانية﴾ قال أهل اللغة كلمة الذي
موضوعة للاشارة الى الشيء عند محاولة تعريفه بقضية معلومة وعند هذا يتوجه الاشكال وهو أن القوم
ما كانوا عالمين بأنه سبحانه هو الذي نزل الفرقان فكيف حسن ههنا لفظ الذي وجوابه أنه لما قامت الدلالة
على كون القرآن معجزا ظهر بحسب الدليل كونه من عند الله فلقوة الدليل وظهوره أجراه سبحانه وتعالى

بالطاعة والتوحيد ولعل تخصيص هذه النعمة بالتعقيب بالشكر من حيث ان فيها قطع المسافة الطويلة مع احتمال الثقيلة في مدة قليلة من
غير مزاولة أسباب السفر بل من غير حركة أصلا مع أنها في تضاعيف المهالك وعدم توسيط الفوز بالمطلوب بين الاتقاء والشكر للايذان
باستغنائه عن التصريح به وبحصولهما معا (وألقى في الارض رواسي) أي جبالا ثوابت ٣٤٩ وقد مر تحقيقه في أول سورة الرعد (أن
تميد بكم) كراهة أن تميل بكم وتضطرب أو لئلا تميد بكم فان الارض قبل أن تخلق فيها الجبال كانت كرة خفيفة بسيطة الطبع وكان من حقها أن تتحرك بالاستدارة كالافلاك أو تتحرك بأدنى سبب محرك فلما خلقت الجبال تفاوتت جوانبها وتوجهت الجبال بثقلها نحو المركز فصارت كالاوتاد وقيل لما خلق الله تعالى الارض جعلت تمور فقالت الملائكة ما هي بمقر أحد على ظهرها فأصبحت وقد أرسيت بالجبال (وأنهارا) أي وجعل فيها أنهارا لان في ألقى معنى الجعل (وسبلا لعلكم تهتدون) بها الى مقاصدكم (وعلامات) معالم يستدل بها السابلة بالنهار من جبل ومنهل وريح وقد نقل أن جماعة يشمون التراب ويتعرفون به الطرقات (وبالنجم هم يهتدون) بالليل في البراري والبحار حيث لا علامة غيره والمراد بالنجم الجنس وقيل هو الثريا والفرقدان وبنات النعش والجدي وقرئ
بضمتين وبضمة وسكون وهو جمع كرهن ورهن وقيل الاصل بطريق حذف الواو من النجوم للتخفيف ولعل الضمير لقريش فانهم كانوا
كثيري التردد للتجارة مشهورين بالاهتداء بالنجوم في أسفارهم وصرف النظم عن سنن الخطاب وتقديم النجم واقحام الضمير للتخصيص
كأنه قيل وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا يهتدون فالاعتبار بذلك والشكر عليه ألزم لهم وأوجب عليهم (أفمن يخلق) هذه المصنوعات

مجرى المعلوم (المسئلة الثالثة) لا نزاع ان الفرقان هو القرآن وصف بذلك من حيث انه سبحانه فرق به بين الحق والباطل في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم و بين الحلال والحرام أو لانه فرق في النزول كما قال وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث وهذا التأويل أقرب لانه قال نزل الفرقان ولفظة نزل تدل على التفريق وأما لفظة أنزل فتدل على الجمع ولذلك قال في سورة آل عمران نزل عليك الكتاب بالحق وأنزل التوراة والانجيل (واعلم) أنه سبحانه وتعالى لما قال أولا تبارك ومعناه كثرة الخير والبركة ثم ذكر عقيبه أمر القرآن دل ذلك على ان القرآن منشأ الخيرات وأعظم البركات لكن القرآن ليس الا منبعا للعلوم والمعارف والحكم فدل هذا على ان العلم أشرف المخلوقات وأعظم الاشياء خيرا وبركة (المسئلة الرابعة) لا نزاع أن المراد من العبد ههنا محمد صلى الله عليه وسلم عن ابن الزبير على عباده وهم رسول الله وأمته كما قال لقد أنزلنا اليكم قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وقوله ليكون للعالمين نذيرا فالمراد ليكون هذا العبد نذيرا للعالمين وقول من قال انه راجع الى الفرقان فاضاف الانذار اليه كما أضاف الهداية اليه في قوله ان هذا القرآن يهدي فبعيد وذلك لان المنذر والنذير من صفات الفاعل للتخويف واذا وصف به القرآن فهو مجاز وحمل الكلام على الحقيقة اذا أمكن هو الواجب * ثم قالوا هذه الآية تدل على أحكام (الاول) ان العالم كل ما سوى الله تعالى ويتناول جميع المكلفين من الجن والانس والملائكة لكنا أجمعنا أنه عليه السلام لم يكن رسولا الى الملائكة فوجب أن يكون رسولا الى الجن والانس جميعا ويبطل بهذا قول من قال انه كان رسولا الى البعض دون البعض (الثاني) أن لفظ العالمين يتناول جميع المخلوقات فدلت الآية على انه رسول للخلق الى يوم القيامة فوجب أن يكون خاتم الانبياء والرسل (الثالث) قالت المعتزلة دلت الآية على انه سبحانه أراد الايمان وفعل الطاعات من الكل لانه انما بعثه الى الكل ليكون نذيرا للكل وأراد من الكل الاشتغال بالحسن والاعراض عن القبيح وعارضهم أصحابنا بقوله تعالى ولقد ذرأنا لجهنم الآية (الرابع) لقائل أن يقول ان قوله تبارك كما دل على كثرة الخير والبركة لا بد وأن يكون المذكور عقيبه ما يكون سببا لكثرة الخير والمنافع والانذار يوجب الغم والخوف فكيف يليق هذا الموضع (جوابه) ان هذا الانذار يجري مجرى تأديب الولد وكما أنه كلما كانت المبالغة في تأديب الولد أكثر كان الاحسان اليه أكثر لما أن ذلك يؤدي في المستقبل الى المنافع العظيمة فكذا ههنا كلما كان الانذار كثيرا كان رجوع الخلق الى الله أكثر فكانت السعادة الاخروية أتم وأكثر وهذا كالتنبيه على أنه لا التفات الى المنافع العاجلة وذلك لانه سبحانه لما وصف نفسه بأنه الذي يعطي الخيرات الكثيرة لم يذكر الا منافع الدين ولم يذكر البتة شيأ من منافع الدنيا * ثم انه سبحانه وصف ذاته بأربع أنواع من صفات الكبرياء (أولها) قوله الذي له ملك السموات والارض وهذا كالتنبيه على الدلالة على وجوده سبحانه لانه لا طريق الى اثباته الا بواسطة احتياج أفعاله اليه فكان تقديم هذه الصفة على سائر الصفات كالامر الواجب وقوله له ما في السموات والارض اشارة الى احتياج هذه المخلوقات اليه سبحانه في زمان حدوثها وزمان بقائها في ماهيتها وفي وجودها وانه سبحانه هو المتصرف فيها كيف يشاء (وثانيها) قوله ولم يتخذ ولدا فبين سبحانه أنه هو المعبود أبدا ولا يصح أن يكون غيره معبودا ووارثا للملك عنه فتكون هذه الصفة كالمؤكدة لقوله تبارك ولقوله الذي له ملك السموات والارض وهذا كالرد على النصارى (وثالثها) قوله ولم يكن له شريك في الملك والمراد أنه هو المنفرد بالالهية واذا عرف العبد ذلك انقطع خوفه ورجاؤه عن الكل ولا يبقى مشغول القلب الا برحمته واحسانه وفيه الرد على الثنوية والقائلين بعبادة النجوم والقائلين بعبادة الاوثان (ورابعها) قوله وخلق كل شئ فقدره تقديرا

العظيمة وقيل هاتيك الافاعيل البديعة أو يخلق كل شئ (كمن لا يخلق) شيأ أصلا وهو تبكيت للكفرة وابطال لاشراكهم وعبادتهم للاصنام بانكار ما يستلزمه ذلك من المشابهة بينها وبينه سبحانه وتعالى بعد تعداد ما يقتضي ذلك اقتضاء ظاهرا وتعقيب الهمزة بالفاء لتوجيه الانكار الى ترتب توهم المشابهة المذكورة على ما فصل من الامور العظيمة الظاهرة الاختصاص به تعالى المعلومة كذلك فيما بينهم حسبما يؤذن به ما تلوناه من قوله تعالى ولئن سألتهم الآيتين والاقتصار على ذكر الخلق من بينها لكونه أعظمها وأظهرها واستتباعه اياها أو لكون كل منها خلقا مخصوصا أي أبعد ظهور اختصاصه تعالى بمبدئية هذه الشؤون الواضحة الدلالة على وحدانيته تعالى وتفرده بالالوهية واستبداده باستحقاق العبادة يتصور المشابهة بينه وبين ما هو بمعزل من ذلك بالمرة كما هو قضية اشراككم وعمادكم وان كان ذلك تشبيه غير الخالق بالخالق لكن التشبيه حيث كان نسبة تقوم بالمنتسبين اعتبر ما عليه النظم الكريم مراعاة لحق سبق الملكة على العدم وتفاديا عن توسط عدمها بينها وبين جزئياتها المفصلة قبلها وتنبيها على كمال قبح ما فعلوه من حيث أن ذلك ليس مجرد رفع الاصنام عن محلها بل هو حط لمنزلة الربوبية الى مرتبة الجمادات ولا ريب في أنه أقبح من الاول والمراد بمن لا يخلق كل ما هذا شأنه كائنا ما كان والتعبير عنه بما يختص بالعقلاء للمشاكلة وفيه أو العقلاء خاصة ويعرف منه حال غيرهم بدلالة النص فان من يخلق حيث لم يكن كمن لا يخلق وهو من جملة العقلاء فما ظنك بالجماد وأيا ما كان فدخول الاصنام في حكم عدم المماثلة والمشابهة اما بطريق الاندراج تحت الموصول العام واما بطريق الانفهام بدلالة النص

على الطريقة البرهانية لا بانتهاء المرادة بالموصول خاصة (أفلا تذكرون) أي ألا تلاحظون فلا تتذكرون ذلك فانه لوضوحه بحيث لا يفتقر الى شيء سوى التذكر (وان تعدوا نعمت الله) تذكير اجمالي لنعمه تعالى بعد تعداد طائفة منها وكان الظاهر ايراده عقيبها تكملة لها على طريقة قوله تعالى ويخلق ما لا تعلمون ولعل فصل ما بينهما بقوله تعالى أفمن يخلق ٢٥١ كمن لا يخلق أفلا تذكرون للمبادرة الى الزام الحجة والقام الحجر اثر تفصيل ما فصل من الافاعيل التي هي أدلة الوحدانية مع ما فيه من سر تقف عليه ودلالتها عليها وان لم تكن مقصورة على حيثية الخلق ضرورة ظهور دلالتها عليها من حيثية الانعام أيضا لكنها حيث كانت من مستتبعات الحيثية الاولى استغنى عن التصريح بها ثم بين حالها بطريق الاجمال أي ان تعدوا نعمته الفائضة عليكم مما ذكر وما لم يذكر حسبما يعرب عنه قوله تعالى هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا (لا تحصوها) أي لا تطيقوا حصرها وضبط عددها ولو اجمالا فضلا عن القيام بشكرها وقد خرجنا عن عهدة تحقيقه في سورة ابراهيم بفضل الله سبحانه (ان الله لغفور) حيث يستر ما فرط منكم من كفرانها والاخلال بالقيام بحقوقها ولا يعاجلكم بالعقوبة على ذلك (رحيم) حيث يفيضها عليكم مع استحقاقكم للقطع والحرمان بما تأتون وتذرون من أصناف الكفر التي من جملتها عدم الفرق بين الخالق وغيره وكل من ذلك نعمة وأيما نعمة فالجملة تعليل للحكم بعدم الاحصاء وتقديم وصف المغفرة على نعت الرحمة لتقدم التخلية على التحلية (والله يعلم ما تسرون) تضمرونه من العقائد والاعمال (وما تعلنون) أي تظهرونه منهما وحذف العائد لمراعاة الفواصل أي يستوي بالنسبة الى علمه المحيط سركم وعلنكم وفيه من الوعيد والدلالة

وفيه سؤالات (الاول) هل في قوله وخلق كل شيء دلالة على أنه سبحانه خالق لاعمال العباد (والجواب) نعم من وجهين (الاول) ان قوله وخلق كل شيء يتناول جميع الاشياء فيتناول أفعال العباد (والثاني) وهو أنه تعالى بعد ان نفى الشريك ذكر ذلك والتقدير أنه سبحانه لما نفى الشريك كأن قائلا قال ههنا أقوام معترفون بنفي الشركاء والانداد ومع ذلك يقولون انهم يخلقون أفعال أنفسهم فذكر الله تعالى هذه الآية لتكون مبينة في الرد عليهم قال القاضي الآية لا تدل عليه لوجوه (أحدها) أنه سبحانه صرح بكون العبد خالقا في قوله واذ تخلق من الطين كهيئة الطير وقال فتبارك الله أحسن الخالقين (وثانيها) أنه سبحانه تمدح بذلك فلا يجوز أن يريد به خلق الفساد (وثالثها) انه سبحانه تمدح بأنه قدره تقديرا ولا يجوز أن يريد به الا الحسن والحكمة دون غيره فثبت بهذه الوجوه انه لا بد من التأويل لو دلت الآية بظاهرها عليه فكيف ولا دلالة فيها البتة لان الخلق عبارة عن التقدير فهو لا يتناول الا ما يظهر فيه التقدير وذلك انما يظهر في الاجسام لا في الاعراض * والجواب أما قوله واذ تخلق وقوله أحسن الخالقين فهما معارضان بقوله الله خالق كل شيء وبقوله هل من خالق غير الله وأما قوله لا يجوز أن يتمدح بخلق الفساد قلنا لم لا يجوز أن يقع التمدح به نظرا الى تقادير القدرة والى أن صفة الايجاد من العدم والاعدام من الوجود ليست الا لله وأما قوله الخلق لا يتناول الا الاجسام فنقول لو كان كذلك لكان قوله خلق كل شيء خطأ لانه يقتضي اضافة الخلق الى جميع الاشياء مع أنه لا يصح في العقل اضافته اليها (السؤال الثاني) في الخلق معنى التقدير فقوله وخلق كل شيء فقدره تقديرا معناه وقدر كل شيء فقدره تقديرا (والجواب) المعنى أحدث كل شيء احداثا يراعى فيه التقدير والتسوية فقدره تقديرا وهيأه لما يصلح له مثاله أنه خلق الانسان على هذا الشكل المقدر المستوى الذي تراه فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في باب الدين والدنيا وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدرة بامثلة الحكمة والتدبير فقدره لامر ما ومصلحة مطابقة لما قدر غير متخلف عنه (السؤال الثالث) هل في قوله فقدره تقديرا دلالة على مذهبكم (الجواب) نعم وذلك من وجوه (أحدها) أن التقدير في حقنا يرجع الى الظن والحسبان اما في حقه سبحانه فلا معنى له الا العلم به والاخبار عنه وذلك متفق عليه بيننا وبين المعتزلة فما علم في الشيء انه لا يقع فلو وقع ذلك الشيء لزم انقلاب علمه جهلا وانقلاب خبره الصدق كذبا وذلك محال والمفضي الى المحال محال فاذن وقوع ذلك الشيء محال والمحال غير مراد فذلك الشيء غير مراد وانه مأمور به فثبت أن الامر والارادة لا يتلازمان وظهر أن السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقي في بطن أمه (وثانيها) انه عند حصول القدرة والداعية اما أن يجب الفعل كان فعل العبد موجبا فعل الله تعالى وحينئذ يبطل قول المعتزلة وان لم يجب فان استغنى عن المرجح فقد وقع الممكن لا عن مرجح وتجويزه يسد باب اثبات الصانع وان لم يستغن عن المرجح فالكلام يعود في ذلك المرجح ولا ينقطع الا عند الانتهاء الى واجب الوجود (وثالثها) ان فعل العبد لو وقع بقدرته لما وقع الا الشيء الذي أراد تكوينه وايجاده لكن الانسان لا يريد الا العلم والحق فلا يحصل له الا الجهل والباطل فلو كان الامر بقدرته لما كان كذلك فان قيل انما كان لانه اعتقد شبهة أوجبت له ذلك الجهل قلنا ان اعتقد تلك الشبهة لشبهة أخرى لزم التسلسل وهو محال فلا بد من الانتهاء الى جهل أول ووقع في قلب الانسان لا بسبب جهل سابق بل الانسان أحدثه ابتداء من غير موجب وذلك محال لان الانسان قط لا يرضى لنفسه بالجهل ولا يحاول تحصيل الجهل لنفسه بل لا يحاول الا العلم فوجب أن لا يحصل له الا ما قصده وأراده وحيث لم يكن كذلك علمنا أن الكل بقضاء سابق وقدر نافذ وهو المراد

على اختصاصه سبحانه بنعوت الالهية مما لا يخفى وتقديم المسرعلى العلن لما ذكرنا في سورة البقرة وسورة طه من تحقيق المساواة بين
علمه المتعلقين بهما على أبلغ وجه كأن علمه تعالى بالسر أقدم منه بالعلن أو لان كل شئ يعلن فهو قبل ذلك مضمر في القلب فتعلق علمه تعالى
بحالته الاولى أقدم من تعلقه بحالته الثانية (والذين يدعون) شروع في تحقيق كون الاصنام بمعزل من استحقاق العبادة

من قوله وخلق كل شئ فقدره تقديرا ﴿ قوله تعالى ﴿واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيأ وهم يخلقون ولا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا﴾ اعلم أنه سبحانه وتعالى لما وصف نفسه بصفات الجلال والعزة والعلو أردف ذلك بتزييف مذهب عبدة الاوثان وبين نقصانها من وجوه (أحدها) أنها ليست خالقة للاشياء والاله يجب أن يكون قادرا على الخلق والايجاد (وثانيها) أنها مخلوقة والمخلوق محتاج والاله يجب أن يكون غنيا (وثالثها) أنها لا تملك لانفسها ضرا ولا نفعا ومن كان كذلك فهو لا يملك لغيره أيضا نفعا ومن كان كذلك فلا فائدة في عبادته (ورابعها) أنها لا تملك موتا ولا حياة ولا نشورا أي لا تقدر على الاحياء والاماتة في زمان التكليف وثانيا في زمان المجازاة ومن كان كذلك كيف يسمى الها وكيف يحسن عبادته مع ان حق من يحق له العبادة أن ينعم بهذه النعم المخصوصة ❊ وههنا سؤالات (الاول) قوله واتخذوا من دونه آلهة هل يختص بعبدة الاوثان أو يدخل فيه النصارى وعبدة الكواكب وعبدة الملائكة (والجواب) قال القاضي يبعد أن يدخل فيه النصارى لانهم لم يتخذوا من دون الله آلهة على الجمع فالاقرب أن المراد به عبادة الاصنام ويجوز أن يدخل فيه من عبد الملائكة لان لمعبودهم كثرة ولقائل أن يقول قوله واتخذوا صيغة جمع وقوله آلهة جمع والجمع اذا قوبل بالجمع يقابل المفرد بالمفرد فلم يكن كون معبود النصارى واحدا مانعا من دخوله تحت هذا اللفظ (السؤال الثاني) احتج بعض أصحابنا بقوله واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيأ وهم يخلقون على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى فقال ان الله تعالى عاب هؤلاء الكفار من حيث عبدوا ما لا يخلق شيأ وذلك يدل على ان من خلق يستحق أن يعبد فلو كان العبد خالقا لكان معبودا الها (أجاب) الكعبي عنه بانا لا نطلق اسم الخالق الا على الله تعالى وقال بعض أصحابنا في الخلق انه الاحداث لا بعلاج وفكر وتعب ولا يكون ذلك الا لله تعالى ثم قال وقد قال تعالى ألهم أرجل يمشون بها في وصف الاصنام أفيدل ذلك على أن كل من له رجل يستحق أن يعبد فاذا قالوا لا فكذلك ما ذكرتم وقد قال تعالى فتبارك الله أحسن الخالقين هذا كله كلام الكعبي والجواب قوله لا يطلق اسم الخالق على العبد قلنا بل يجب ذلك لان الخلق في اللغة هو التقدير والتقدير يرجع الى الظن والحسبان فوجب أن يكون اسم الخالق حقيقة في العبد مجازا في الله تعالى فكيف يمكنكم منع اطلاق لفظ الخالق على العبد أما قوله تعالى ألهم أرجل يمشون بها فالعيب انما وقع عليهم بالعجز فلا جرم أن كل من تحقق العجز في حقه من بعض الوجوه لم يحسن عبادته وأما قوله تعالى فتبارك الله أحسن الخالقين فقد تقدم الكلام عليه واعلم أن هذه الآية لا تقوى استدلال أصحابنا بها لاحتمال أن العيب لا يحصل الا بمجموع أمرين أحدهما أنهم ليسوا بخالقين والثاني أنهم مخلوقون والعبد وان كان خالقا الا أنه مخلوق فلزم أن لا يكون الها معبودا (السؤال الثالث) هل تدل هذه الآية على البعث (الجواب) نعم لانه تعالى ذكر النشور ومعناه أن المعبود يجب أن يكون قادرا على ايصال الثواب الى المطيعين والعقاب الى العصاة فمن لا يكون كذلك وجب أن لا يصلح للالهية ﴿ قوله تعالى ﴿وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤا ظلما وزورا وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والارض انه كان غفورا رحيما وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا﴾ اعلم أنه سبحانه تكلم أولا في التوحيد وثانيا في الرد على عبدة الاوثان وثالثا في هذه الآية تكلم في مسئلة النبوة وحكى

وتوضيحه بحيث لا يبقى فيه شائبة ريب بتعديد أوصافها وأحوالها المنافية لذلك منافاة ظاهرة وتلك الاحوال وان كانت غنية عن البيان لكنها شرحت للتنبيه على كمال حماقة عبدتها وانهم لا يعرفون ذلك الا بالتصريح أي والآلهة الذين يعبدهم الكفار (من دون الله) سبحانه وقرئ على صيغة المبني للمفعول وعلى الخطاب (لا يخلقون شيأ) من الاشياء أصلا أي ليس من شأنهم ذلك ولما لم يكن بين نفي الخالقية وبين المخلوقية تلازم بحسب المفهوم وان تلازما في الصدق أثبت لهم ذلك صريحا فقيل (وهم يخلقون) أي شأنهم ومقتضى ذاتهم المخلوقية لانها ذوات ممكنة مفتقرة في ماهياتها ووجوداتها الى الموجد وبناء الفعل للمفعول لتحقيق التضاد والتقابل بين ما أثبت لهم وبين ما نفي عنهم من وصفي المخلوقية والخالقية وللايذان بعدم الافتقار الى بيان الفاعل لظهور اختصاص الفعل بفاعله

بل لانه ويجوز أن يجعل الخلق الثاني عبارة عن النحت والتصوير رعاية للمشاكلة بينه وبين الاول ومبالغة في كونهم سبحانه
مصنوعين لعبدتهم وأعجز منهم وايذانا بكمال ركاكة عقولهم حيث أشركوا بخالقهم مخلوقهم وأما جعل الاول أيضا عبارة عن ذلك
كما فعل فلا وجه له اذ المقصود على ثبت ذلك الخلق ليست مما يدور عليه استحقاق العبادة أصلا ولما أن اثبات المخلوقية لهم غير مستدع لنفي

سبحانه شبههم فى انكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (الشبهة الاولى) قولهم ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ونظيره قوله تعالى انما يعلمه بشر واعلم أنه يحتمل أن يريدوا به أنه كذب فى نفسه ويحتمل أن يريدوا به أنه كذب فى اضافته الى الله تعالى ثم ههنا بحثان (الاول) قال أبو مسلم الافتراء افتعال من فريت وقد يقال فى تقدير الاديم فريت الاديم فاذا أريد قطع الافساد قيل أفريت وافتريت وخلقت واختلقت ويقال فيمن شتم امرأ بما ليس فيه افترى عليه (الثانى) قال الكلبى ومقاتل نزلت فى النضر بن الحرث فهو الذى قال هذا القول وأعانه عليه قوم آخرون يعنى عداس مولى حويطب بن عبد العزى ويسار غلام عامر بن الحضرمى وجبر مولى عامر وهؤلاء الثلاثة كانوا من أهل الكتاب وكانوا يقرؤن التوراة ويحدثون أحاديث منها فلما أسلموا وكان النبى صلى الله عليه وسلم يتعهدهم فمن أجل ذلك قال النضر ما قال واعلم أن الله تعالى أجاب عن هذه الشبهة بقوله فقد جاؤا ظلما وزورا وفيه ابحاث (الاول) أن هذا القدر انما يكفى جوابا عن الشبهة المذكورة لانه قد علم كل عاقل أنه عليه السلام تحداهم بالقرآن وهم النهاية فى الفصاحة وقد بلغوا فى الحرص على ابطال أمره كل غاية حتى أخرجهم ذلك الى ما وصفوه به فى هذه الآيات فلو أمكنهم أن يعارضوه لفعلوا ولكان ذلك أقرب الى أن يبلغوا مرادهم فيه مما أوردوه فى هذه الآية وغيرها ولو استعان محمد عليه السلام فى ذلك بغيره لامكنهم أيضا أن يستعينوا بغيرهم لان محمدا صلى الله عليه وسلم كأولئك المنكرين فى معرفة اللغة وفى المكنة من الاستعانة فلما لم يفعلوا ذلك والحالة هذه علم أن القرآن قد بلغ النهاية فى الفصاحة وانتهى الى حد الاعجاز ولما تقدمت هذه الدلالة مرات وكرات فى القرآن وظهر بسببها سقوط هذا السؤال ظهر أن اعادة هذا السؤال بعد تقدم هذه الادلة الواضحة لا يكون الا للتمادى فى الجهل والعناد فلذلك اكتفى الله فى الجواب بقوله فقد جاؤا ظلما وزورا (البحث الثانى) قال الكسائى قوله تعالى فقد جاؤا ظلما وزورا أى أتوا ظلما وكذبا وهو كقوله لقد جئتم شيأ ادا فانتصب بوقوع المجىء عليه وقال الزجاج انتصب بنزع الخافض أى جاؤا بالظلم والزور (البحث الثالث) ان الله تعالى وصف كلامهم بانه ظلم وبانه زور أما انه ظلم فلانهم نسبوا هذا الفعل القبيح الى من كان مبرأ عنه فقد وضعوا الشئ فى غير موضعه وذلك هو الظلم وأما الزور فلانهم كذبوا فيه وقال أبو مسلم الظلم تكذيبهم الرسول والرد عليه والزور كذبهم عليه (الشبهة الثانية لهم) قوله تعالى وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا وفيه أبحاث (البحث الاول) الاساطير ما سطره المتقدمون كأحاديث رستم واسفنديار جمع أسطار أو أسطورة كأحدوثة اكتتبها انتسخها محمد من أهل الكتاب يعنى عامرا ويسارا وجبرا ومعنى اكتتب ههنا أمر أن يكتب له كما يقال احتجم وافتصد اذا أمر بذلك فهى تملى عليه أى تقرأ عليه والمعنى أنها كتبت له وهو أمى فهى تلقى عليه من كتابه ليحفظها لان صورة الالقاء على الحافظ كصورة الالقاء على الكاتب أما قوله بكرة وأصيلا قال الضحاك ما يملى عليه بكرة يقرؤه عليكم عشية وما يملى عليه عشية يقرؤه عليكم بكرة (البحث الثانى) قال الحسن قوله فهى تملى عليه بكرة وأصيلا كلام الله ذكره جوابا عن قولهم كأنه تعالى قال ان هذه الآيات تملى عليه بالوحى حالا بعد حال فكيف ينسب الى أنه أساطير الاولين وأما جمهور المفسرين فقد اتفقوا على أن ذلك من كلام القوم وأرادوا به أن أهل الكتاب أملوا عليه فى هذه الاوقات هذه الاشياء ولا شك أن هذا القول أقرب لوجوه (أحدها) شدة تعلق هذا الكلام بما قبله فكأنهم قالوا اكتتب أساطير الاولين فهى تملى عليه (وثانيها) أن هذا هو المراد بقولهم وأعانه عليه قوم آخرون (وثالثها) أنه تعالى أجاب بعد ذلك عن كلامهم بقوله قل أنزله الذى يعلم السر قال صاحب

الحياة فهم لما أن بعض المخلوقين أحياء صرح بذلك فقيل (أموات) وهو خبر ثان للموصول لا للضمير كما قيل أو خبر مبتدا محذوف وحيث كان بعض الاموات مما يعتريه الحياة سابقا أولاحقا كأجساد الحيوان والنطف التى ينشئها الله تعالى حيوانا احترز عن ذلك فقيل (غير أحياء) أى لا يعتريها الحياة أصلا فهى أموات على الاطلاق وأما قوله تعالى ٣٥٣ (وما يشعرون أيان يبعثون) أى ما يشعر أولئك الآلهة أيان يبعث عبدتهم فعلى طريقة التهكم بهم لان شعور الجماد بالامور الظاهرة بديهى الاستحالة عند كل أحد فكيف بما لا يعلمه الا العليم الخبير وفيه ايذان بأن البعث من لوازم التكليف وأن معرفة وقته مما لا بد منه فى الالوهية (الهكم اله واحد) لا يشاركه شئ فى شئ وهو تصريح بالمدعى وتمهيد للنتيجة عقيب اقامة الحجة (فالذين لا يؤمنون بالآخرة) وأحوالها التى من جملتها ما ذكر من البعث وما يتبعه من الجزاء المستلزم لعقوبتهم وذلتهم (قلوبهم منكرة) للوحدانية جاحدة لها أو للآيات الدالة عليها (وهم مستكبرون) عن الاعتراف بها أو عن الآيات الدالة عليها والفاء للايذان بأن اصرارهم على الانكار واستمرارهم على الاستكبار وقع موقع النتيجة للدلائل الظاهرة والبراهين الباهرة والمعنى أنه قد ثبت بما قرر من الحجج والبينات اختصاص الالهية به سبحانه فكان من نتيجة ذلك اصرارهم على ما ذكر من الانكار والاستكبار وبناء الحكم المذكور على الموصول للاشعار بكونه معللا بما فى حيز الصلة فان الكفر بالآخرة وبما فيها من البعث والجزاء المتنوع الى الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية يؤدى الى قصر النظر على العاجل والاعراض عن الدلائل الموجبة لانكارها وانكار مؤداها والاستكبار

الكشاف وقول الحسن انما يستقيم أن لو فتحت الهمزة للاستفهام الذي في معنى الانكار وحق الحسن أن يقف على الاولين وأجاب الله عن هذه الشبهة بقوله قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والارض انه كان غفورا رحيما وفيه أبحاث (البحث الاول) في بيان ان هذا كيف يصلح أن يكون جوابا عن تلك الشبهة وتقريره ما قدمنا أنه عليه السلام تحداهم بالمعارضة وظهر عجزهم عنها ولو كان عليه السلام أتى بالقرآن بان استعان باحد لكان من الواجب عليهم أيضا أن يستعينوا باحد فيأتوا بمثل هذا القرآن فلما عجزوا عنه ثبت أنه وحي الله وكلامه فلهذا قال قل أنزله الذي يعلم السر وذلك لان القادر على تركيب ألفاظ القرآن لابد وأن يكون عالما بكل المعلومات ظاهرها وخافيها من وجوه (أحدها) أن مثل هذه الفصاحة لا يتأتى الا من العالم بكل المعلومات (وثانيها) أن القرآن مشتمل على الاخبار عن الغيوب وذلك لا يتأتى الا من العالم بكل المعلومات (وثالثها) أن القرآن مبرأ عن النقص وذلك لا يتأتى الا من العالم على ما قال تعالى ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (ورابعها) اشتماله على الاحكام التي هي مقتضية لصالح العالم ونظام العباد وذلك لا يكون الا من العالم بكل المعلومات (وخامسها) اشتماله على أنواع العلوم وذلك لا يتأتى الا من العالم بكل المعلومات فلما دل القرآن من هذه الوجوه على أنه ليس الا كلام العالم بكل المعلومات لا جرم اكتفى في جواب شبههم بقوله قل أنزله الذي يعلم السر (البحث الثاني) اختلفوا في المراد بالسر فمنهم من قال المعنى أن العالم بكل سر في السموات والارض هو الذي يمكنه انزال مثل هذا الكتاب وقال أبو مسلم المعنى انه أنزله من يعلم السر فلو كذب عليه لانتقم منه لقوله تعالى ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين وقال آخرون المعنى انه يعلم كل سر خفي في السموات والارض ومن جملته ما تسرونه أنتم من الكيد لرسوله مع علمكم بأن ما يقوله حق ضرورة وكذلك باطن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبراءته مما تتهمونه به وهو سبحانه يجازيكم ويجازيه على ما علم منكم وعلم منه (البحث الثالث) انما ذكر الغفور الرحيم في هذا الموضع لوجهين (الاول) قال أبو مسلم المعنى انه انما أنزله لاجل الانذار فوجب أن يكون غفورا رحيما غير مستعجل في العقوبة (الثاني) انه تنبيه على أنهم استوجبوا بمكايدتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صبا ولكن صرف ذلك عنهم كونه غفورا رحيما يمهل ولا يعجل (الشبهة الثالثة) وهي في نهاية الركاكة ذكروا له صفات خمسة وزعموا أنها تخل بالرسالة (احداها) قولهم مال هذا الرسول يأكل الطعام (وثانيتها) قولهم ويمشي في الاسواق يعني انه لما كان كذلك فمن أين له الفضل علينا وهو مثلنا في هذه الامور (وثالثتها) قولهم لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيرا يصدقه أو يشهد له ويرد على من خالفه (ورابعتها) قولهم أو يلقى اليه كنز أي من السماء فينفقه فلا يحتاج الى التردد لطلب المعاش (وخامستها) قولهم أو تكون له جنة يأكل منها قرأ حمزة والكسائي نأكل منها بالنون وقرأ الباقون بالياء والمعنى ان لم يكن له كنز فلا أقل من أن يكون كواحد من الدهاقين فيكون له بستان يأكل منه (وسادستها) قولهم ان تتبعون الا رجلا مسحورا وقد تقدمت هذه القصة في آخر سورة بني اسرائيل فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة من وجوه (أحدها) قوله انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا وفيه أبحاث (الاول) أن هذا كيف يصلح أن يكون جوابا عن تلك الشبهة وبيانه أن الذي يتميز الرسول به عن غيره هو المعجزة وهذه الاشياء التي ذكروها لا يقدح شيء منها في المعجزة فلا يكون شيء منها قادحا في النبوة فكأنه تعالى قال انظر كيف اشتغل القوم بضرب هذه

من اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام وتصديقه وأما الايمان بها وبما فيها فأبعد ولا محالة لي التأمل في الآيات والدلائل رغبة ورهبة فيورث ذلك يقينا بالوحدانية وخضوعا لامر الله تعالى (لا جرم) أي حقا وقد مر تحقيقه في سورة هود (ان الله يعلم ما يسرون) من قلوبهم (وما يعلنون) من استكبارهم وقولهم للقرآن أساطير الاولين وغير ذلك من قبائحهم فيجازيهم بذلك (انه لا يحب المستكبرين) تعليل لما تضمنه الكلام من الوعيد أي لا يحب المستكبرين عن التوحيد أو عن الآيات الدالة عليها أو لا يحب جنس المستكبرين فكيف بمن استكبر عما ذكر (واذا قيل لهم) أي لاولئك المنكرين المستكبرين وهو بيان لاضلالهم غب بيان ضلالهم (ماذا أنزل ربكم) القائل الوافدون عليهم والمسلمون أو بعض منهم على طريق التهكم وماذا منصوب بما بعده أو مرفوع أي أي شيء أنزل أو ما الذي أنزله (قالوا أساطير الاولين) أي ما تدعون نزوله أو المنزل بطريق السخرية أحاديث الاولين وأباطيلهم وليس من الانزال في شيء قيل هؤلاء القائلون هم المقتسمون الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند سؤال وفود الحاج عما نزل عليه عليه السلام (ليحملوا) متعلق بقالوا أي قالوا ما قالوا ليحملوا (أوزارهم) الخاصة بهم وهي أوزار ضلالهم (كاملة) لم يكفر منها شيء بنكبة أصابتهم في الدنيا كما يكفر بها أوزار المؤمنين (يوم القيامة) ظرف ليحملوا (ومن أوزار الذين يضلونهم) وبعض أوزار من ضل باضلالهم وهو وزر الاضلال لانهما شريكان هذا يضله وهذا يطاوعه فيتحاملان الوزر واللام للتعليل في نفس الامر من غير أن يكون غرضا وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرار الاضلال أو باعتبار حال

الامثال التي لا فائدة فيها الا جل أنهم لما ضلوا وأرادوا القدح في نبوتك لم يجدوا الى القدح فيه سبيلا البتة اذ الطعن عليه انما يكون بما يقدح في المعجزات التي ادعاها لا بهذا الجنس من القول وفيه وجه آخر وهو أنهم لما ضلوا لم يبق فيهم استطاعة قبول الحق وهذا انما يصح على مذهبنا وتقريره بالعقل ظاهر وذلك لان الانسان اما أن يكون مستوي الداعي الى الحق والباطل واما أن يكون داعيته الى أحدهما أرجح من داعيته الى الثاني فان كان الاول فحال الاستواء ممتنع الرجحان فيمتنع الفعل وان كان الثاني فحال رجحان أحد الطرفين يكون حصول الطرف الآخر ممتنعا فثبت أن حال رجحان الضلالة في قلبه استحال منه قبول الحق وما كان محالا لم يكن عليه قدرة فثبت أنهم لما ضلوا ما كانوا مستطيعين ﴿ قوله تعالى ﴿تبارك الذي ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الانهار ويجعل لك قصورا بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا﴾ اعلم أن هذا هو الجواب الثاني عن تلك الشبهة فقوله تبارك الذي ان شاء جعل لك خيرا من ذلك أي من الذي ذكروه من نعم الدنيا كالكنز والجنة وفسر ذلك الخير بقوله جنات تجري من تحتها الانهار ويجعل لك قصورا فبين بذلك سبحانه على أنه قادر على أن يعطي الرسول كل ما ذكروه ولكنه تعالى يدبر عباده بحسب المصالح أو على وفق المشيئة ولا اعتراض لاحد عليه في شئ من أفعاله فيفتح على واحد أبواب المعارف والعلوم ويسد عليه أبواب الدنيا وفي حق الآخر بالعكس وما ذاك الا انه فعال لما يريد وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن عباس خيرا من ذلك مما عيروك بفقده الجنة لانهم عيروك بفقد الجنة الواحدة وهو سبحانه قادر على أن يعطيك جنات كثيرة وقال في رواية عكرمة خيرا من ذلك أي من المشي في الاسواق وابتغاء المعاش (المسئلة الثانية) قوله ان شاء معناه أنه سبحانه قادر على ذلك لا أنه تعالى شاك لان الشك لا يجوز على الله تعالى وقال قوم ان ههنا بمعنى اذا أي قد جعلنا لك في الآخرة جنات وبنينا لك قصورا وانما أدخل ان تنبيها للعباد على أنه لا ينال ذلك الا برحمته وانه معلق على محض مشيئته وأنه ليس لاحد من العباد على الله حق لا في الدنيا ولا في الآخرة (المسئلة الثالثة) القصور جماعة قصر وهو المسكن الرفيع ويحتمل أن يكون لكل جنة قصر فيكون مسكنا ومتنزها ويجوز أن يكون القصور مجموعة والجنات مجموعة وقال مجاهد ان شاء جعل لك جنات في الآخرة وقصورا في الدنيا (المسئلة الرابعة) اختلف القراء في قوله ويجعل فرفع ابن كثير وابن عامر وعاصم اللام وجزمه الآخرون فمن جزم فلان المعنى ان شاء يجعل لك جنات ويجعل لك قصورا ومن رفع فعلى الاستئناف والمعنى سيجعل لك قصورا هذا قول الزجاج قال الواحدي وبين القراءتين فرق في المعنى فمن جزم فالمعنى ان شاء يجعل لك قصورا في الدنيا ولا يحسن الوقوف على الانهار ومن رفع حسن له الوقوف على الانهار والاستئناف ويجعل أي وسيجعل لك قصورا في الآخرة وفي مصحف أبي وابن مسعود تبارك الذي ان شاء يجعل (المسئلة الخامسة) عن طاوس عن ابن عباس قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وجبريل عليه السلام عنده قال جبريل عليه السلام هذا ملك قد نزل من السماء استأذن ربه في زيارتك فلم يلبث الا قليلا حتى جاء الملك وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان الله يخيرك بين ان يعطيك مفاتيح كل شئ لم يعطها أحدا قبلك ولا يعطيه أحدا بعدك من غير ان ينقصك مما ادخر لك شيأ فقال عليه السلام بل يجمعهما جميعا لي في الآخرة فنزل قوله تبارك الذي ان شاء الآية وعن ابن عباس قال عليه السلام عرض علي جبريل بطحاء مكة ذهبا فقلت بل شبعة وثلاث جوعات وذلك أكثر لذكري ومسئلتي

قولهم لا بطال الحق (بغير علم) حال من الفاعل أي يضلونهم غير عالمين بان ما يدعون اليه طريق الضلال وأما حمله على معنى غير عالمين بانهم يحملون يوم القيامة أوزار الضلال والاضلال على أن يكون العامل في الحال قالوا وتأييده بما سيأتي من قوله تعالى وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون من حيث ان حمل ماذكر من أوزار الضلال والاضلال من قبيل اتيان العذاب من حيث لا يشعرون فيرده أن الحمل المذكور انما هو يوم القيامة والعذاب المذكور انما هو العذاب الدنيوي كما ستقف عليه أو حال من المفعول أي يضلون من لا يعلم انهم ضلال وفائدة التقييد بها الاشعار بان مكرهم لا يروج عند ذي لب وانما يتبعهم الاغبياء والجهلة والتنبيه على أن جهلهم ذلك لا يكون عذرا اذ كان يجب عليهم أن يبحثوا ويميزوا بين المحق الحقيق بالاتباع وبين المبطل (ألا ساء ما يزرون) أي بئس شيأ يزرونه ما ذكر (قد مكر الذين من قبلهم) وعيد لهم برجوع غائلة مكرهم الى أنفسهم كدأب من قبلهم من الامم الخالية الذين أصابهم ما أصابهم من العذاب العاجل أي قد سووا منصوبات ليمكروا بها رسل الله تعالى (فأتى الله) أي أمره وحكمه (بنيانهم) وقرئ بيتهم وبيوتهم (من القواعد) وهي الاساطين التي تعمده أو أساسه فضعضعت أركانه (فخر عليهم السقف من فوقهم) أي سقط عليهم سقف بنيانهم اذ لا يتصور له القيام بعد تهدم القواعد شبهت حال أولئك الماكرين في تسويتهم المكايد والمنصوبات التي أرادوا بها الايقاع برسل الله سبحانه وفي ابطاله تعالى تلك الحيل والمكايد وجعله اياها أسبابا لهلاكهم بحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالاساطين فأتى ذلك من قبل أساطينه بان ضعضعت فسقط عليهم السقف فهلكوا وقرئ فخر عليهم السقف بضمتين (وأتاهم العذاب) أي الهلاك

والدمار (من حيث لا يشعرون) باتيانه منه بل يتوقعون اتيان مقابله مما يريدون ويشتهون والمعنى ان هؤلاء الماكرين القائلين للقرآن العظيم أساطير الاولين سيأتيهم من العذاب مثل ما أتاهم وهم لا يحتسبون والمراد به العذاب العاجل لقوله سبحانه (ثم يوم القيامة يخزيهم) فانه عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى هذا الذى فهم من التمثيل من عذاب هؤلاء أو ما هو أعم منه وعماد (من عذاب أولئك جزاؤهم فى الدنيا ويوم القيامة يخزيهم أى يذلهم بعذاب الخزى على رؤس الاشهاد وأصل الخزى ذل يستحيا منه وثم للايماء الى ما بين الجزاءين من التفاوت مع ما يدل عليه من التراخى الزمانى وتغيير السبك بتقديم الظرف ليس لقصر الخزى على يوم القيامة كما هو المتبادر من تقديم الظرف على الفعل بل لان الاخبار بجزائهم فى الدنيا مؤذن بأن لهم جزاء آخر وبا قتبق النفس مترقبة الى وروده سائلة عنه بأنه ماذا مع تيقنها بأنه فى الآخرة فسيق الكلام على وجه يؤذن بأن المقصود بالذكر اخزاؤهم لا كونه يوم القيامة والضمير اما للمفترين فى حق القرآن الكريم أولهم ولمن مثلوا بهم من الماكرين كما أشير اليه وتخصيصه بهم يأباه السباق والسياق كما ستقف عليه (ويقول) لهم تفضيحا وتوبيخا فهو بيان للاخزاء (أين شركائى) أضافهم اليه سبحانه حكاية لاضافتهم الكاذبة ففيه توبيخ اثر توبيخ مع الاستهزاء بهم (الذين كنتم تشاقون فيهم) أى تخاصمون الانبياء والمؤمنين فى شأنهم بأنهم شركاء حقا حين بينوا لكم بطلانها والمراد بالاستفهام استحضارها للشفاعة أو المدافعة على طريقة الاستهزاء والتبكيت والاستفسار عن مكانهم لا يوجب غيبتهم حقيقة حتى يعتذر بأنه يجوز أن يحال بينهم وبين

قولهم

لربى وفى رواية صفوان بن سليم عن عبد الوهاب قال عليه السلام أشبع يوما وأجوع ثلاثا فاحمدك اذا شبعت وأتضرع اليك اذا جعت وعن الضحاك لما عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفاقة حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك فنزل جبريل عليه السلام معزيا له وقال ان الله يقرئك السلام ويقول وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام الآية قال فبينما جبريل عليه السلام والنبى صلى الله عليه وسلم يتحدثان اذ فتح باب من أبواب السماء لم يكن فتح قبل ذلك ثم قال أبشر يا محمد هذا رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضا من ربك فسلم عليه وقال ان ربك يخيرك بين أن تكون نبيا ملكا وبين أن تكون نبيا عبدا ومعه سفط من نور يتلألأ ثم قال هذه مفاتيح خزائن الدنيا فاقبضها من غير أن ينقصك الله مما أعد لك فى الآخرة جناح بعوضة فنظر النبى صلى الله عليه وسلم الى جبريل كالمستشير فأومأ بيده أن تواضع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نبيا عبدا قال فكان عليه السلام بعد ذلك لم يأكل متكئا حتى فارق الدنيا أما قوله تعالى بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا فهذا جواب ثالث عن تلك الشبهة كأنه سبحانه قال ليس ما تعلقوا به شبهة علمية فى نفس المسألة بل الذى حملهم على تكذيبك تكذيبهم بالساعة استثقالا للاستعداد لها ويحتمل أن يكون المعنى أنهم يكذبون بالساعة فلا يرجون ثوابا ولا عقابا ولا يتحملون كلفة النظر والفكر فلهذا لا ينتفعون بما يورد عليهم من الدلائل ثم قال وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا وفيه مسائل (المسألة الاولى) قال أبو مسلم وأعتدنا أى جعلناها عتيدا ومعدة لهم والسعير النار الشديدة الاستعار وعن الحسن أنه اسم من أسماء جهنم (المسألة الثانية) احتج أصحابنا على أن الجنة مخلوقة بقوله تعالى أعدت للمتقين وعلى أن النار التى هى دار العقاب مخلوقة بهذه الآية وهى قوله وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا وقوله أعتدنا اخبار عن فعل وقع فى الماضى فدلت الآية على أن دار العقاب مخلوقة قال الجبائى يحتمل وأعتدنا النار فى الدنيا وبها نعذب الكفار والفساق فى قبورهم ويحتمل نار الآخرة ويكون معنى وأعتدنا أى سنعتدها لهم كقوله ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار واعلم أن هذا السؤال فى نهاية السقوط لان المراد من السعير اما نار الدنيا واما نار الآخرة فان كان الاول فاما أن يكون المراد أنه تعالى يعذبهم فى الدنيا بنار الدنيا أو يعذبهم فى الآخرة بنار الدنيا والاول باطل لانه تعالى ما عذبهم بالنار فى الدنيا والثانى أيضا باطل لانه لم يقل أحد من الامة انه تعالى يعذب الكفرة فى الآخرة بنيران الدنيا فثبت أن المراد نار الآخرة وثبت أنها معدة وحمل الآية على أن الله سيجعلها معدة ترك للظاهر من غير دليل وعلى أن الحسن قال السعير اسم من أسماء جهنم فقوله وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا صريح فى أنه تعالى أعد جهنم (المسألة الثالثة) احتج أصحابنا بهذه الآية على ان السعيد من سعد فى بطن أمه فقالوا ان الذين أعد الله تعالى لهم السعير وأخبر عن ذلك وحكم به ان صاروا مؤمنين من أهل الثواب انقلب حكم الله بكونهم من أهل السعير كذبا وانقلاب بذلك علمه جهلا وهذا الانقلاب محال والمؤدى الى المحال محال فصيرورة أولئك مؤمنين من أهل الثواب محال فثبت أن السعيد لا ينقلب شقيا والشقى لا ينقلب سعيدا ثم انه سبحانه وتعالى وصف السعير بصفات (احداها) قوله اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وفيه مسائل (المسألة الاولى) السعير مذكر ولكن جاء هنا مؤنثا لانه تعالى قال رأتهم وقال سمعوا لها وانما جاء مؤنثا على معنى النار (المسألة الثانية) مذهب أصحابنا ان البنية ليست شرطا فى الحياة فالنار على ما هى عليه يجوز ان يخلق الله الحياة والعقل والنطق فيها وعند المعتزلة ذلك غير جائز وهؤلاء المعتزلة ليس لهم فى هذا الباب حجة الا استقراء العادات ولو صدق ذلك لوجب التكذيب بانخراق العادات فى حق الرسل فهؤلاء

عدتهم حينئذ ليتفقدوها في ساعة علقوا بها الرجاء فيها أو بأنهم لما لم ينفعوهم فكأنهم غيب بل يكفي في ذلك عدم حضورهم بالعنوان
الذي كانوا يزعمون أنهم متصفون به من عنوان الالهية فليس هناك شركاء ولا أماكنها على أن قوله ليتفقدوها ليس ببعيد فإنه قد تبين
عندهم الامر حينئذ فرجعوا عن ذلك الزعم الباطل فكيف يتصور منهم التفقد وقرئ بكسر النون أي تشاقونني على أن
مشاقة الانبياء عليهم الصلاة والسلام والمؤمنين لاسيما في شأن متعلق به سبحانه مشاقة له عز وجل (قال الذين أوتوا العلم) من أهل الموقف وهم الانبياء والمؤمنون الذين أوتوا علما بدلائل التوحيد وكانوا يدعونهم في الدنيا الى التوحيد فيجادلونهم ويتكبرون عليهم أي يقولون توبيخا لهم واظهارا للشماتة بهم وتقريرا لما كانوا يعظونهم وتحقيقا لما أوعدوهم به وايثار صيغة الماضي للدلالة على تحققه وتقرر وقوعه حسبما هو المعتاد في اخباره سبحانه وتعالى كقوله ونادى أصحاب الجنة ونادى أصحاب الأعراف (ان الخزي) الفضيحة والذل والهوان (اليوم) منصوب بالخزي على رأي من يرى اعمال المصدر المصدر باللام أو بالاستقرار في الظرف وفيه فصل بين العامل والمعمول بالمعطوف الا أنه مغتفر في الظروف وايراده للاشعار بأنهم كانوا قبل
ذلك في عزة وشقاق (والسوء) العذاب (على الكافرين) بالله تعالى وبآياته ورسله (الذين تتوفاهم الملائكة) بتأنيث الفعل وقرئ
بتذكيره وبادغام التاء في التاء والعدول الى صيغة المضارع لاستحضار صورة توفيهم اياهم لما فيها من الهول والموصول في محل الجر على أنه
نعت للكافرين أو بدل منه أو في محل النصب أو الرفع على الذم وفائدته تخصيص الخزي والسوء بمن استمر كفره الى حين الموت دون من

قولهم متناقض بل انكار العادات لا يليق الا بأصول الفلاسفة فعلى هذا قال أصحابنا قول الله تعالى في صفة
النار اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا يجب اجراؤه على الظاهر لأنه لا امتناع في أن تكون
النار حية رائية مغتاظة على الكفار أما المعتزلة فقد احتاجوا الى التأويل وذكروا فيه وجوها (أحدها)
قالوا معنى رأتهم ظهرت لهم من قولهم دورهم تتراءى وتتناظر وقال عليه السلام ان المؤمن والكافر لا تتراءى
ناراهما أي لا تتقابلان لما يجب على المؤمن من مجانبة الكافر والمشرك ويقال دور فلان متناظرة أي
متقابلة (وثانيها) أن النار لشدة اضطرامها وغليانها صارت ترى الكفار وتطلبهم وتتغيظ عليهم (وثالثها)
قال الجبائي ان الله تعالى ذكر النار وأراد الخزنة الموكلة بتعذيب أهل النار لان الرؤية تصح منهم ولا تصح
من النار فهو كقوله واسأل القرية أراد أهلها (المسألة الثالثة) لقائل أن يقول التغيظ عبارة عن شدة
الغضب وذلك لا يكون مسموعا فكيف قال الله تعالى سمعوا لها تغيظا وزفيرا (والجواب) عنه من وجوه
(أحدها) أن التغيظ وان لم يسمع فانه قد يسمع ما يدل عليه من الصوت وهو كقوله رأيت غضب الامير على
فلان اذا رأى ما يدل عليه وكذلك يقال في المحبة فكذا ههنا والمعنى سمعوا لها صوتا يشبه صوت المتغيظ
وهو قول الزجاج (وثانيها) المعنى علموا لها تغيظا وسمعوا لها زفيرا وهذا قول قطرب وهو كقول الشاعر
* متقلدا سيفا ورمحا * (وثالثها) المراد تغيظ الخزنة (المسألة الرابعة) قال عبيد بن عمير ان جهنم لتزفر
زفرة لا يبقى أحد الا ترعد فرائصه حتى ان ابراهيم عليه السلام يجثو على ركبتيه ويقول نفسي نفسي
(الصفة الثانية للسعير) قوله تعالى واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا واعلم أن الله
سبحانه لما وصف حال الكفار حين ما يكونون بالبعد من جهنم وصف حالهم عندما يلقون فيها نعوذ بالله
منها ولا شيء أبلغ منه وفيه مسائل (المسألة الاولى) في ضيقا قراءتان التشديد والتخفيف وهي قراءة ابن
كثير (المسألة الثانية) نقل في تفسير الضيق أمور قال قتادة ذكر لنا عبد الله بن عمرو قال ان جهنم لتضيق
على الكافر كضيق الزج على الرمح وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال والذي نفسي بيده انهم
يستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط قال الكلبي الاسفلون يرفعهم اللهب والاعلون
يخفضهم الداخلون فيزدحمون في تلك الابواب الضيقة قال صاحب الكشاف الكرب مع الضيق كما أن
الروح مع السعة ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السموات والارض وجاء في الاحاديث ان لكل مؤمن
من القصور والجنان كذا وكذا ولقد جمع الله على أهل النار أنواع البلاء حيث ضم الى العذاب الشديد
الضيق (المسألة الثالثة) قالوا في تفسير قوله تعالى مقرنين في الاصفاد ان أهل النار مع ما هم فيه من
العذاب الشديد والضيق الشديد يكونون مقرنين في السلاسل قرنت أيديهم الى أعناقهم وقيل يقرن مع
كل كافر شيطانه في سلسلة وفي أرجلهم الاصفاد ثم انه سبحانه حكى عن أهل النار انهم حين ما يشاهدون
هذا النوع من العقاب الشديد دعوا ثبورا والثبور الهلاك ودعاؤهم أن يقولوا واثبوراه أي يقولوا يا ثبور هذا
حينك وزمانك وروى أنس مرفوعا أول من يكسى حلة من النار ابليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من
خلفه ذريته وهو يقول يا ثبوراه وينادون يا ثبورهم حتى يردوا النار أما قوله لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا أي
يقال لهم ذلك وهم أحقاء بأن يقال لهم ذلك وان لم يكن ثم قول ومعنى وادعوا ثبورا كثيرا انكم وقعتم فيما
ليس ثبوركم منه واحدا انما هو ثبور كثير اما لان العذاب أنواع وألوان لكل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته
أو لانهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها أو لان ذلك العذاب دائم خالص عن الشوب فلهم في كل وقت من
الاوقات التي لا نهاية لها ثبور أو لانهم ربما يجدون بسبب ذلك القول نوعا من الخفة فان المعذب اذا صاح

آمن منهم ولو في آخر عمره أي على الكافرين المستمرين على الكفر الى أن يتوفاهم الملائكة (ظالمي أنفسهم) أي حال كونهم مستمرين
على الكفر فانه ظلم منهم لانفسهم وأي ظلم حيث عرضوها للعذاب المخلد وبدلوا فطرة الله تبديلا (فألقوا السلم) أي فيلقون والعدول الى
صيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع

وهو عطف على قوله تعالى ويقول أين شركائي وما بينهما جملة اعتراضية جيء بها
تحقيقا لما حاق بهم من الخزي على رؤس الاشهاد أي فيسالمون ويتركون المشاقة وينزلون عما كانوا عليه في الدنيا من الكبر وشدة الشكيمة قائلين (ما كنا نعمل) في الدنيا (من سوء) أي من شرك قالوه منكرين لصدوره عنهم كقوله والله ربنا ما كنا مشركين وانما عبروا عنه بالسوء اعترافا بكونه سيئا لا انكارا لكونه كذلك مع الاعتراف بصدوره عنهم ويجوز أن يكون تفسيرا للسلم على أن يكون المراد به الكلام الدال عليه وعلى التقديرين فهو جواب عن قوله سبحانه أين شركائي كما في سورة الانعام لا عن قول أولى العلم ادعاء لعدم استحقاقهم لما دهمهم من الخزي والسوء (بلى) رد عليهم من قبل أولى العلم واثبات لما نفوه أي بلى كنتم تعملون ما تعملون (ان الله عليم بما كنتم تعملون) فهو يجازيكم عليه وهذا أوانه (فادخلوا أبواب جهنم) أي كل صنف بابه المعد له وقيل أبوابها أصناف
عذابها فالدخول عبارة عن الملابسة والمقاساة (خالدين فيها) ان أريد بالدخول حدوثه فالحال مقدرة وان للمتقين
أريد مطلق الكون فيها فهي مقارنة (فلبئس مثوى المتكبرين) عن التوحيد كما قال تعالى قلوبهم منكرة وهم مستكبرون وذكرهم
بعنوان التكبر للاشعار بعليته لثوائهم فيها والمخصوص بالذم محذوف أي جهنم وتأويل قولهم ما كنا نعمل من سوء بأنا ما كنا عاملين

و بكى ووجد بسببه نوعا من الخفة فيزجرون عن ذلك ويخبرون بأن هذا الثبور سيزداد كل يوم ليزداد حزنهم وغمهم نعوذ بالله منه قال الكلبي نزل هذا كله في حق أبي جهل والكفار الذين ذكروا تلك الشبهات ﴿قوله تعالى﴾ ﴿قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا لهم فيها ما يشاؤن خالدين كان على ربك وعدا مسؤلا﴾ في الآية مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ اعلم أنه تعالى لما وصف حال العقاب المعد للمكذبين بالساعة أتبعه بما يؤكد الحسرة والندامة فقال لرسوله قل أذلك خير أم جنة الخلد التي يلتمسوها بالتصديق والطاعة فان قيل كيف يقال العذاب خير أم جنة الخلد وهل يجوز أن يقول العاقل السكر أحلى أم الصبر قلنا هذا يحسن في معرض التقريع كما اذا أعطى السيد عبده مالا فتمرد وأبى واستكبر فيضربه ضربا وجيعا ويقول على سبيل التوبيخ هذا أطيب أم ذاك ﴿المسألة الثانية﴾ احتج أصحابنا بقوله وعد المتقون على أن الثواب غير واجب على الله تعالى لان من قال السلطان وعد فلانا أن يعطيه كذا فانه يحمل ذلك على التفضل فأما لو كان ذلك الاعطاء واجبا لا يقال انه وعده به أما المعتزلة فقد احتجوا به أيضا على مذهبهم قالوا لانه سبحانه أثبت ذلك الوعد للموصوفين بصفة التقوى وترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية فكذا يدل هذا على أن ذلك الوعد انما حصل معللا بصفة التقوى والتفضيل غير مختص بالمتقين فوجب أن يكون المختص بهم واجبا ﴿المسألة الثالثة﴾ قال أبو مسلم جنة الخلد هي التي لا ينقطع نعيمها والخلد والخلود سواء كالشكر والشكور قال الله تعالى لا نريد منكم جزاء ولا شكورا فان قيل الجنة اسم لدار الثواب وهي مخلدة فأي فائدة في قوله جنة الخلد قلنا الاضافة قد تكون للتمييز وقد تكون لبيان صفة الكمال كما يقال الله الخالق البارئ وما ههنا من هذا الباب * أما قوله كانت لهم جزاء ومصيرا ففيه مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ المعتزلة احتجوا بهذه الآية على اثبات الاستحقاق من وجهين (الاول) أن اسم الجزاء لا يتناول الا المستحق فأما الوعد بمحض التفضيل فانه لا يسمى جزاء (والثاني) لو كان المراد من الجزاء الامر الذي يصيرون اليه بمجرد الوعد فحينئذ لا يبقى بين قوله جزاء وبين قوله مصيرا تفاوت فيصير ذلك تكرارا من غير فائدة قال أصحابنا رحمهم الله لا نزاع في كونه جزاء انما النزاع في أن كونه جزاء ثبت بالوعد أو بالاستحقاق وليس في الآية ما يدل على التعيين ﴿المسألة الثانية﴾ قالت المعتزلة الآية تدل على أن الله تعالى لا يعفو عن صاحب الكبيرة من وجهين (الاول) أن صاحب الكبيرة يستحق العقاب فوجب أن لا يكون مستحقا للثواب لان الثواب هو النفع الدائم الخالص عن شوب الضرر والعقاب هو الضرر الدائم الخالص عن شوب النفع والجمع بينهما محال وما كان ممتنع الوجود امتنع أن يحصل استحقاقه فاذن متى ثبت استحقاق العقاب وجب أن يزول استحقاق الثواب فنقول لو عفا الله عن صاحب الكبيرة لكان اما أن يخرجه من النار ولا يدخله الجنة وذلك باطل بالاجماع لانهم أجمعوا على أن المكلفين يوم القيامة اما أن يكونوا من أهل الجنة أو من أهل النار لانه تعالى قال فريق في الجنة وفريق في السعير واما أن يخرجه من النار ويدخله الجنة وذلك باطل لان الجنة حق المتقين لقوله تعالى كانت لهم جزاء ومصيرا جعل الجنة لهم ومختصة بهم وبين انها انما كانت لهم لكونها جزاء لهم على أعمالهم فكانت حقا لهم واعطاء حق الانسان لغيره لا يجوز ولما بطلت الاقسام ثبت أن العفو غير جائز (أجاب) أصحابنا لم لا يجوز أن يقال المتقون يرضون بادخال الله أهل العفو في الجنة فحينئذ لا يمتنع دخولهم فيها (الوجه الثاني) قالوا المتقي في عرف الشرع مختص بمن اتقى الكفر والكبائر وانا وان اختلفنا في أن صاحب الكبيرة هل يسمى مؤمنا أم لا لكنا اتفقنا على أنه لا يسمى متقيا ثم قال في وصف الجنة انها كانت لهم جزاء ومصيرا وهذا للحصر والمعنى انها مصير

ذلك فى اعتقادنا وما للمحافظة على أن لا كذب ثمة يرده الرد المذكور وما فى سورة الانعام من قوله تعالى انظر كيف كذبوا على أنفسهم (وقيل للذين اتقوا) أى المؤمنون وصفوا بالتقوى اشعارا بأن ما صدر عنهم من الجواب ناشئ عن التقوى (ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) سلكوا فى الجواب مسلك السؤال من غير تلعثم ولا تغيير فى الصورة والمعنى أى أنزل خيرا فانه جواب مطابق للسؤال

سبكا وللواقع فى نفس الامر مضمونا وأما الكفرة فانهم خذلهم الله تعالى كما غيروا الجواب عن نهج الحق الواقع الذى ليس له من دافع غيروا صورته وعدلوا بها عن سنن السؤال حيث رفعوا الاساطير وما ذلك الا من انكار النزول روى أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبى عليه الصلاة والسلام فاذا جاء الوافد كفه المقتسمون وأمروه بالانصراف وقالوا ان لم تلقه كان خيرا لك فيقول أنا شر وافد ان رجعت الى قومى دون أن أستطلع أمر محمد وأراه فيلقى أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم فيخبرونه بحقيقة الحال فهم الذين قالوا خيرا (للذين أحسنوا) أى أعمالهم أو فعلوا الاحسان (فى هذه) الدار (الدنيا حسنة) أى مثوبة حسنة مكافأة فيها (ولدار الآخرة) أى مثوبتهم فيها (خير) مما أوتوا فى الدنيا من المثوبة أو خير على الاطلاق فيجوز اسناد

الخير به الى نفس دار الآخرة (ولنعم دار المتقين) أى دار الآخرة حذف لدلالة ما سبق عليه وهذا كلام مبتدأ مدح الله تعالى به المتقين وعد جوابهم المحكى من جملة احسانهم ووعدهم بذلك ثوابى الدنيا والآخرة فلا محل له من الاعراب أو بدل من خيرا أو تفسير له أى أنزل خيرا وهذا الكلام الجامع قالوه ترغيبا للسائل (جنات عدن) خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف أى لهم جنات ويجوز أن يكون

للمتقين لغيرهم واذا كان كذلك وجب أن لا يدخلها أصحاب الكبيرة * قلنا أقصى ما فى الباب أن هذا عموم صريح فى الوعيد فنخصصه بآيات الوعد (المسئلة الثالثة) لقائل أن يقول ان الجنة تصير للمتقين جزاء ومصيرا بعد ما صارت كذلك فلم قال الله تعالى كانت لهم جزاء ومصيرا جوابه من وجهين (الاول) ان ما وعد الله فهو فى تحققه كأنه قد كان (والثانى) انه كان مكتوبا فى اللوح قبل أن يخلقهم الله تعالى بأزمنة متطاولة ان الجنة جزاؤهم ومصيرهم * أما قوله تعالى لهم فيها ما يشاؤن خالدين فهو نظير قوله ولكم فيها ما تشتهى الانفس وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لقائل أن يقول أهل الدرجات النازلة اذا شاهدوا الدرجات العالية لا بد وأن يريدوها فاذا سألوها ربهم فان أعطاهم اياها لم يبق بين الناقص والكامل تفاوت فى الدرجة وان لم يعطها قدح ذلك فى قوله لهم فيها ما يشاؤن وأيضا فالاب اذا كان ولده فى دركات النيران وأشد العذاب اذا اشتهى أن يخلصه الله تعالى من ذلك العذاب فلا بد وأن يسأل ربه أن يخلصه منه فان فعل الله تعالى ذلك قدح فى أن عذاب الكافر مخلد وان لم يفعل قدح ذلك فى قوله ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم وفى قوله لهم فيها ما يشاؤن * وجوابه ان الله تعالى يزيل ذلك الخاطر عن قلوب أهل الجنة بل يكون اشتغال كل واحد منهم بما فيه من اللذات شاغلا عن الالتفات الى حال غيره (المسئلة الثانية) شرط نعيم الجنة أن يكون دائما اذ لو انقطع لكان مشوبا بضرب من الغم ولذلك قال المتنبى

أشد الغم عندى فى سرور * تيقن عنه صاحبه انتقالا

ولذلك اعتبر الخلود فيه فقال لهم فيها ما يشاؤن خالدين (المسئلة الثالثة) قوله تعالى لهم فيها ما يشاؤن كالتنبيه على أن حصول المرادات بأسرها لا يكون الا فى الجنة فأما فى غيرها فلا يحصل ذلك بل لا بد فى الدنيا من أن تكون راحاتها مشوبة بالجراحات ولذلك قال عليه الصلاة والسلام من طلب ما لم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق فقيل وما هو يا رسول الله فقال سرور يوم * أما قوله كان على ربك وعدا مسؤلا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) كلمة على للوجوب قال عليه الصلاة والسلام من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى فقوله كان على ربك يفيد أن ذلك واجب على الله تعالى والواجب هو الذى لو لم يفعل لاستحق تاركه بفعله الذم أو انه الذى يكون عدمه ممتنعا فان كان الوجوب على التفسير الاول كان تركه محالا لان تركه لما استلزم استحقاق الذم واستحقاق الله تعالى الذم محال ومستلزم المحال محال كان ذلك الترك محالا والمحال غير مقدور فلم يكن الله تعالى قادرا على أن لا يفعل فيلزم أن يكون ملجأ الى الفعل وان كان الوجوب على التفسير الثانى وهو أن يقال الواجب ما يكون عدمه ممتنعا يكون القول بالالجاء لازما فلم يكن الله قادرا فان قيل انه ثبت بحكم الوعد فنقول لو لم يفعل لانقلب خبره الصدق كذبا وعلمه جهلا وذلك محال والمؤدى الى المحال محال فالترك محال فيلزم أن يكون ملجأ الى الفعل والملجأ الى الفعل لا يكون قادرا ولا يكون مستحقا للثناء والمدح هذا تمام السؤال (وجوابه) أن فعل الشئ متقدم على الاخبار عن فعله وعن العلم بفعله فيكون ذلك الفعل فعلا لا على سبيل الالجاء فكان قادرا ومستحقا للثناء والمدح (المسئلة الثانية) قوله وعدا يدل على أن الجنة حصلت بحكم الوعد لا بحكم الاستحقاق وقد تقدم تقريره (المسئلة الثالثة) قوله مسؤلا ذكروا فيه وجوها (أحدها) ان المكلفين سألوه بقولهم ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك (وثانيها) أن المكلفين سألوه بلسان الحال لانهم لما تحملوا المشقة الشديدة فى طاعته كان ذلك قائما مقام السؤال قال المتنبى

وفى النفس حاجات وفيك فطانة * سكوتى كلام عندها وخطاب

(وثالثها) الملائكة سألوا الله تعالى ذلك بقولهم ربنا وأدخلهم جنات عدن (ورابعها) وعدا مسؤلا أى واجبا

والدمار (من حيث لا يشعرون) باتيانه منه بل يتوقعون اتيان مقابله مما يريدون ويشتهون والمعنى ان هؤلاء الماكرين القائلين للقرآن العظيم أساطير الاولين سيأتيهم من العذاب مثل ما أتاهم وهم لا يحتسبون والمراد به العذاب العاجل لقوله سبحانه (ثم يوم القيامة يخزيهم) فانه عطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى هذا الذى فهم من التمثيل من عذاب هؤلاء أو ماهو أعم منه ومماذكر من عذاب أولئك جزاؤهم في الدنيا ويوم القيامة يخزيهم أى يذلهم بعذاب الخزى على رؤس الاشهاد وأصل الخزى ذل يستحيا منه وثم للايماء الى ما بين الجزاءين من التفاوت مع ما يدل عليه من التراخى الزمانى وتغيير السبك بتقديم الظرف ليس لقصر الخزى على يوم القيامة كما هو المتبادر من تقديم الظرف على الفعل بل لان الاخبار بجزائهم في الدنيا مؤذن بأن لهم جزاء آخر وبا قتضى النفس مترقبة الى وروده سائلة عنه بأنه ماذا مع تقنها بأنه في الآخرة فسيق الكلام على وجه يؤذن بأن المقصود بالذكر اخزاؤهم لا كونه يوم القيامة والضمير اما للمفترين في حق القرآن الكريم أو لهم ولمن مثلوابهم من الماكرين كما أشير اليه وتخصيصه بهم يأباه السباق والسياق كما ستقف عليه (ويقول) لهم تفضيحا وتوبيخا فهو بيان للاخزاء (أين شركائى) أضافهم اليه سبحانه حكاية لاضافتهم الكاذبة ففيه توبيخ اثر توبيخ مع الاستهزاء بهم (الذين كنتم تشاقون قولهم فيهم) أى تخاصمون الانبياء والمؤمنين في شأنهم بأنهم شركاء حقا حين بينوا لكم بطلانها والمراد بالاستفهام استحضارها للشفاعة أو المدافعة على طريقة الاستهزاء والتبكيت والاستفسار عن مكانهم لا يوجب غيبتهم حقيقة حتى يعتذر بأنه يجوز أن يحال بينهم وبين

لربى وفى رواية صفوان بن سليم عن عبد الوهاب قال عليه السلام أشبع يوما وأجوع ثلاثا فاحمدك اذا شبعت وأتضرع اليك اذا جعت وعن الضحاك لما عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفاقة حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك فنزل جبريل عليه السلام معزياله وقال ان الله يقرؤك السلام ويقول وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام الآية قال فبينما جبريل عليه السلام والنبى صلى الله عليه وسلم يتحدثان اذ فتح باب من أبواب السماء لم يكن فتح قبل ذلك ثم قال أبشر يا محمد هذا رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضا من ربك فسلم عليه وقال ان ربك يخيرك بين أن تكون نبيا ملكا وبين أن تكون نبيا عبدا ومعه سفط من نور يتلألأ ثم قال هذه مفاتيح خزائن الدنيا فاقبضها من غير أن ينقص لك الله مما أعد لك في الآخرة جناح بعوضة فنظر النبى صلى الله عليه وسلم الى جبريل كالمستشير فأومأ بيده أن تواضع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نبيا عبدا قال فكان عليه السلام بعد ذلك لم يأكل متكئا حتى فارق الدنيا أما قوله تعالى بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا فهذا جواب ثالث عن تلك الشبهة كأنه سبحانه قال ليس ما تعلقوا به شبهة علمية في نفس المسئلة بل الذى حملهم على تكذيبك تكذيبهم بالساعة استثقالا للاستعداد لها ويحتمل أن يكون المعنى أنهم يكذبون بالساعة فلا يرجون ثوابا ولا عقابا ولا يتحملون كلفة النظر والفكر فلهذا لا ينتفعون بما يورد عليهم من الدلائل ثم قال وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال أبو مسلم وأعتدنا أى جعلناه عتيدا ومعدة لهم والسعير النار الشديدة الاستعار وعن الحسن أنه اسم من أسماء جهنم (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا على أن الجنة مخلوقة بقوله تعالى أعدت للمتقين وعلى أن النار التى هى دار العقاب مخلوقة بهذه الآية وهى قوله وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا وقوله أعتدنا اخبار عن فعل وقع في الماضى فدلت الآية على أن دار العقاب مخلوقة قال الجبائى يحتمل وأعتدنا النار في الدنيا وبها نعذب الكفار والفساق في قبورهم ويحتمل نار الآخرة ويكون معنى وأعتدنا أى سنعتدها لهم كقوله ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار واعلم أن هذا السؤال في نهاية السقوط لان المراد من السعير اما نار الدنيا واما نار الآخرة فان كان الاول فاما أن يكون المراد أنه تعالى يعذبهم في الدنيا بنار الدنيا أو يعذبهم في الآخرة بنار الدنيا والاول باطل لانه تعالى ما عذبهم بالنار في الدنيا والثانى أيضا باطل لانه لم يقل أحد من الامة انه تعالى يعذب الكفرة في الآخرة بنيران الدنيا فثبت أن المراد نار الآخرة وثبت أنها معدة وحمل الآية على أن الله سيجعلها معدة ترك للظاهر من غير دليل وعلى أن الحسن قال السعير اسم من أسماء جهنم فقوله وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا صريح في أنه تعالى أعد جهنم (المسئلة الثالثة) احتج أصحابنا بهذه الآية على ان السعيد من سعد في بطن أمه فقالوا ان الذين أعد الله تعالى لهم السعير وأخبر عن ذلك وحكم به ان صاروا مؤمنين من أهل الثواب انقلب حكم الله بكونهم من أهل السعير كذبا وانقلب بذلك علمه جهلا وهذا الانقلاب محال والمؤدى الى المحال محال فصيرورة أولئك مؤمنين من أهل الثواب محال فثبت أن السعيد لا ينقلب شقيا والشقى لا ينقلب سعيدا ثم انه سبحانه وتعالى وصف السعير بصفات (احداها) قوله اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) السعير مذكر ولكن جاء ههنا مؤنثا لانه تعالى قال رأتهم وقال سمعوا لها واغا جاء مؤنثا على معنى النار (المسئلة الثانية) مذهب أصحابنا ان البنية ليست شرطا في الحياة فالنار على ما هى عليه يجوز أن يخلق الله الحياة والعقل والنطق فيها وعند المعتزلة ذلك غير جائز وهؤلاء المعتزلة ليس لهم في هذا الباب حجة الا استقراء العادات ولو صدق ذلك لوجب التكذيب بانخراق العادات في حق الرسل فهؤلاء

قولهم متناقض بل انكار العادات لا يليق الا بأصول الفلاسفة فعلى هذا قال أصحابنا قول الله تعالى في صفة النار اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا يجب اجراؤه على الظاهر لانه لا امتناع في أن تكون النار حية رائية مغتاظة على الكفار أما المعتزلة فقد احتاجوا الى التأويل وذكروا فيه وجوها (أحدها) قالوا معنى رأتهم ظهرت لهم من قولهم دورهم تتراءى وتتناظر وقال عليه السلام ان المؤمن والكافر لا تتراءى ناراهما أي لا تتقابلان لما يجب على المؤمن من مجانبة الكافر والمشرك ويقال دور فلان متناظرة أي متقابلة (وثانيها) أن النار اشتد اضطرامها وغليانها صارت ترى الكفار وتطلبهم وتتغيظ عليهم (وثالثها) قال الجبائي ان الله تعالى ذكر النار وأراد الخزنة الموكلة بتعذيب أهل النار لان الرؤية تصح منهم ولا تصح من النار فهو كقوله واسأل القرية أراد أهلها ﴿المسألة الثالثة﴾ لقائل أن يقول التغيظ عبارة عن شدة الغضب وذلك لا يكون مسموعا فكيف قال الله تعالى سمعوا لها تغيظا وزفيرا (والجواب) عنه من وجوه (أحدها) أن التغيظ وان لم يسمع فانه قد يسمع ما يدل عليه من الصوت وهو كقوله رأيت غضب الامير على فلان اذا رأى ما يدل عليه وكذلك يقال في المحبة فكذا ههنا والمعنى سمعوا لها صوتا يشبه صوت المتغيظ وهو قول الزجاج (وثانيها) المعنى علموا لها تغيظا وسمعوا لها زفيرا وهذا قول قطرب وهو كقول الشاعر

* متقلدا سيفا ورمحا * (وثالثها) المراد تغيظ الخزنة ﴿المسألة الرابعة﴾ قال عبيد بن عمير ان جهنم لتزفر زفرة لا يبقى أحد الا ترعد فرائصه حتى ان ابراهيم عليه السلام يجثو على ركبتيه ويقول نفسي نفسي ﴿الصفة الثانية للسعير﴾ قوله تعالى واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا واعلم أن الله سبحانه لما وصف حال الكفار حين ما يكونون بالبعد من جهنم وصف حالهم عندما يلقون فيها نعوذ بالله منها بما الاشئ أبلغ منه وفيه مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ في ضيقا قراءتان التشديد والتخفيف وهي قراءة ابن كثير ﴿المسألة الثانية﴾ نقل في تفسير الضيق أمور قال قتادة ذكر لنا ان عبد الله بن عمر قال ان جهنم لتضيق على الكافر كتضييق الزج على الرمح وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال والذي نفسي بيده انهم يستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط قال الكلبي الاسفلون يرفعهم اللهب والاعلون يخفضهم الداخلون فيزدحمون في تلك الابواب الضيقة قال صاحب الكشاف الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السموات والارض وجاء في الاحاديث ان لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا ولقد جمع الله على أهل النار أنواع البلاء حيث ضم الى العذاب الشديد الضيق ﴿المسألة الثالثة﴾ قالوا في تفسير قوله تعالى مقرنين في الاصفاد ان أهل النار مع ما هم فيه من العذاب الشديد والضيق الشديد يكونون مقرنين في السلاسل قرنت أيديهم الى أعناقهم وقيل يقرن مع كل كافر شيطانه في سلسلة وفي أرجلهم الاصفاد ثم انه سبحانه حكى عن أهل النار انهم حين ما يشاهدون هذا النوع من العقاب الشديد دعوا ثبورا والثبور الهلاك ودعاؤهم أن يقولوا واثبوراه أي يقولوا يا ثبور هذا حينك وزمانك وروى أنس مرفوعا أول من يكسى حلة من النار ابليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته وهو يقول يا ثبوراه وينادون يا ثبورهم حتى يردوا النار أما قوله لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا أي يقال لهم ذلك وهم أحقاء بأن يقال لهم ذلك وان لم يكن ثم قول ومعنى وادعوا ثبورا كثيرا انكم وقعتم فيما ليس ثبوركم منه واحدا انما هو ثبور كثير اما لان العذاب أنواع وألوان لكل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته أو لانهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها أولان ذلك العذاب دائم خالص عن الشوب فلهم في كل وقت من الاوقات التي لا نهاية لها ثبور أولانهم ربما يجدون بسبب ذلك القول نوعا من الخفة فان المعذب اذا صاح

عندهم حينئذ ليتفقدوها في ساعة علقوا بها الرجاء فيها أو بانهم لما لم ينفعوهم فكأنهم غيب بل يكفي في ذلك عدم حضورهم بالعنوان الذي كانوا يزعمون أنهم متصفون به من عنوان الالهية فليس هنالك شركاء ولا أماكنها على أن قوله ليتفقدوها ليس بسديد فانه قد تبين عندهم الامر حينئذ فرجعوا عن ذلك الزعم الباطل فكيف يتصور منهم التفقد وقرئ بكسر النون أي تشاقونني على أن مشاقة الانبياء عليهم الصلاة والسلام والمؤمنين لاسيما في شأن متعلق به سبحانه مشاقة له عز وجل (قال الذين أوتوا العلم) من أهل الموقف وهم الانبياء والمؤمنون الذين أوتوا علما بدلائل التوحيد وكانوا يدعونهم في الدنيا الى التوحيد فيجادلونهم ويتكبرون عليهم أي يقولون توبيخا لهم واظهارا للشماتة بهم وتقريرا لما كانوا يعظونهم وتحقيقا لما أوعدوهم به وايثار صيغة الماضي للدلالة على تحققه وتحتم وقوعه حسبما هو المعتاد في اخباره سبحانه وتعالى كقوله ونادى أصحاب الجنة ونادى أصحاب الاعراف (ان الخزى) الفضيحة والذل والهوان (اليوم) منصوب بالخزى على رأي من يرى اعمال المصدر المصدر باللام أو بالاستقرار في الظرف وفيه فصل بين العامل والمعمول بالمعطوف الا أنه مغتفر في الظروف وايراده للاشعار بأنهم كانوا قبل ذلك في عزة وشقاق (والسوء) العذاب (على الكافرين) بالله تعالى وبآياته ورسله (الذين تتوفاهم الملائكة) بتأنيث الفعل وقرئ بتذكيره وبادغام التاء في التاء والعدول الى صيغة المضارع لاستحضار صورة توفيهم اياهم لما فيها من الهول والموصول في محل الجر على أنه نعت للكافرين أو بدل منه أو في محل النصب أو الرفع على الذم وفائدته تخصيص الخزى والسوء بمن استمر كفره الى حين الموت دون من

آمن منهم ولو في آخر عمره أي على الكافرين المستمرين على الكفر إلى أن يتوفاهم الملائكة (ظالمي أنفسهم) أي حال كونهم مستمرين على الكفر فإنه ظلم منهم لأنفسهم وأي ظلم حيث عرضوها للعذاب الخالد وبدلوا فطرة الله تبديلا (فألقوا السلم) أي فيلقون والعدول إلى صيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع وهو عطف على قوله تعالى ويقول أين شركائي وما بينهما جملة اعتراضية جيء بها

ويبكي ويجد بسببه نوعا من الخفة فيخرجون عن ذلك ويخبرون بأن هذا الثبور سيزداد كل يوم ليزداد حزنهم وغمهم نعوذ بالله منه قال الكلبي نزل هذا كله في حق أبي جهل والكفار الذين ذكروا تلك الشبهات ﴿قوله تعالى ﴿قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا لهم فيها ما يشاؤن خالدين كان على ربك وعدا مسؤلا﴾ في الآية مسائل ﴿المسألة الأولى﴾ اعلم أنه تعالى لما وصف حال العقاب المعد للمكذبين بالساعة أتبعه بما يؤكد الحسرة والندامة فقال لرسوله قل أذلك خير أم جنة الخلد ليلتمسوها بالتصديق والطاعة فإن قيل كيف يقال العذاب خير أم جنة الخلد وهل يجوز أن يقول العاقل السكر أحلى أم الصبر قلنا هذا يحسن في معرض التقريع كما إذا أعطى السيد عبده مالا فتمرد وأبى واستكبر فيضربه ضربا وجيعا ويقول على سبيل التوبيخ هذا أطيب أم ذاك ﴿المسألة الثانية﴾ احتج أصحابنا بقوله وعد المتقون على أن الثواب غير واجب على الله تعالى لأن من قال السلطان وعد فلانا أن يعطيه كذا فإنه يحمل ذلك على التفضل فأما لو كان ذلك الإعطاء واجبا لا يقال إنه وعده به أما المعتزلة فقد احتجوا به أيضا على مذهبهم قالوا لأنه سبحانه أثبت ذلك الوعد للموصوفين بصفة التقوى وترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية فكذا دل هذا على أن ذلك الوعد إنما حصل معللا بصفة التقوى والتفضل غير مختص بالمتقين فوجب أن يكون المختص بهم واجبا ﴿المسألة الثالثة﴾ قال أبو مسلم جنة الخلد هي التي لا ينقطع نعيمها والخلد والخلود سواء كالشكر والشكور قال الله تعالى لا نريد منكم جزاء ولا شكورا فإن قيل الجنة اسم لدار الثواب وهي مخلدة فأي فائدة في قوله جنة الخلد قلنا الإضافة قد تكون للتمييز وقد تكون لبيان صفة الكمال كما يقال الله الخالق البارئ وما هنا من هذا الباب ﴿ أما قوله كانت لهم جزاء ومصيرا ففيه مسائل ﴿المسألة الأولى﴾ المعتزلة احتجوا بهذه الآية على إثبات الاستحقاق من وجهين (الأول) أن اسم الجزاء لا يتناول إلا المستحق فأما الوعد بمحض التفضل فإنه لا يسمى جزاء (والثاني) لو كان المراد من الجزاء الأمر الذي يصيرون إليه بمجرد الوعد فحينئذ لا يبقى بين قوله جزاء وبين قوله ومصيرا تفاوت فيصير ذلك تكرارا من غير فائدة قال أصحابنا رحمهم الله لا نزاع في كونه جزاء إنما النزاع في أن كونه جزاء ثبت بالوعد أو بالاستحقاق وليس في الآية ما يدل على التعيين ﴿المسألة الثانية﴾ قالت المعتزلة الآية تدل على أن الله تعالى لا يعفو عن صاحب الكبيرة من وجهين (الأول) أن صاحب الكبيرة يستحق العقاب فوجب أن لا يكون مستحقا للثواب لأن الثواب هو النفع الدائم الخالص عن شوب الضرر والعقاب هو الضرر الدائم الخالص عن شوب النفع والجمع بينهما محال وما كان ممتنع الوجود امتنع أن يحصل استحقاقه فإذن متى ثبت استحقاق العقاب وجب أن يزول استحقاق الثواب فيقول لو عفا الله عن صاحب الكبيرة لكان إما أن يخرجه من النار ولا يدخله الجنة وذلك باطل بالإجماع لأنهم أجمعوا على أن المكلفين يوم القيامة إما أن يكونوا من أهل الجنة أو من أهل النار لأنه تعالى قال فريق في الجنة وفريق في السعير وإما أن يخرجه من النار ويدخله الجنة وذلك باطل لأن الجنة حق المتقين لقوله تعالى كانت لهم جزاء ومصيرا فخص الجنة لهم ومختصة بهم وبين أنها إنما كانت لهم لكونها جزاء لهم على أعمالهم فكانت حقا لهم وإعطاء حق الإنسان لغيره لا يجوز ولما بطلت الأقسام ثبت أن العفو غير جائز (أجاب) أصحابنا لم لا يجوز أن يقال المتقون يرضون بإدخال الله أهل العفو في الجنة فحينئذ لا يمتنع دخولهم فيها ﴿الوجه الثاني﴾ قالوا المتقي في عرف الشرع مختص بمن اتقى الكفر والكبائر وإذا ثبت أن اختلفنا في أن صاحب الكبيرة هل يسمى مؤمنا أم لا لكنا اتفقنا على أنه لا يسمى متقيا ثم قال في وصف الجنة إنها كانت لهم جزاء ومصيرا وهذا للحصر والمعنى أنها مصير

تحقيقا لما حاق بهم من الخزي على رؤس الأشهاد أي فيسالمون ويتركون المشاقة وينزلون عما كانوا عليه في الدنيا من الكبر وشدة الشكيمة قائلين (ما كنا نعمل) في الدنيا (من سوء) أي من شرك قالوه منكرين لصدوره عنهم كقوله والله ربنا ما كنا مشركين وإنما عبروا عنه بالسوء اعترافا بكونه سيئا لا إنكارا لكونه كذلك مع الاعتراف بصدوره عنهم ويجوز أن يكون تفسيرا للسلم على أن يكون المراد به الكلام الدال عليه وعلى التقديرين فهو جواب عن قوله سبحانه أين شركائي كما في سورة الأنعام لا عن قول أولي العلم ادعاء لعدم استحقاقهم لما دهمهم من الخزي والسوء (بلى) رد عليهم من قبل أولي العلم وإثبات لما نفوه أي بلى كنتم تعملون ما تعملون (إن الله عليم بما كنتم تعملون) فهو مجازيكم عليه وهذا أوانه (فادخلوا أبواب جهنم) أي كل صنف بابها المعد له وقيل أبوابها أصناف

عذابها فالدخول عبارة عن الملابسة والمقاساة (خالدين فيها) إن أريد بالدخول حدوثه فالحال مقدرة وإن أريد مطلق الكون فيها فهي مقارنة (فلبئس مثوى المتكبرين) عن التوحيد كما قال تعالى قلوبهم منكرة وهم مستكبرون وذكرهم بعنوان التكبر للإشعار بعليته لثوائهم فيها والمخصوص بالذم محذوف أي جهنم وتأويل قولهم ما كنا نعمل من سوء بأنا ما كنا عاملين

للتقين

للمتقين لغيرهم وإذا كان كذلك وجب أن لا يدخلها أصحاب الكبيرة * قلنا أقصى ما في الباب أن هذا عموم صريح في الوعيد فنخصه بآيات الوعد (المسألة الثالثة) لقائل أن يقول ان الجنة ستصير للمتقين جزاء ومصيرا بعد ما صارت كذلك فلم قال الله تعالى كانت لهم جزاء ومصيرا جوابه من وجهين (الأول) ان ما وعد الله فهو في تحققه كأنه قد كان (والثاني) انه كان مكتوبا في اللوح قبل أن يخلقهم الله تعالى بأزمنة متطاولة ان الجنة جزاؤهم ومصيرهم * أما قوله تعالى لهم فيها ما يشاؤن خالدين فهو نظير قوله ولكم فيها ما تشتهي الانفس وفيه مسائل (المسألة الاولى) لقائل أن يقول أهل الدرجات النازلة اذا شاهدوا الدرجات العالية لا بد وأن يريدوها فاذا سألوها ربهم فان أعطاهم اياها لم يبق بين الناقص والكامل تفاوت في الدرجة وان لم يعطها قدح ذلك في قوله لهم فيها ما يشاؤن وأيضا فالاب اذا كان ولده في دركات النيران وأشد العذاب اذا اشتهى أن يخلصه الله تعالى من ذلك العذاب فلا بد وأن يسأل ربه أن يخلصه منه فان فعل الله تعالى ذلك قدح في أن عذاب الكافر مخلد وان لم يفعل قدح ذلك في قوله ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم وفي قوله لهم فيها ما يشاؤن * وجوابه ان الله تعالى يزيل ذلك الخاطر عن قلوب أهل الجنة بل يكون اشتغال كل واحد منهم بما فيه من اللذات شاغلا عن الالتفات الى حال غيره (المسألة الثانية) شرط نعيم الجنة أن يكون دائما اذ لو انقطع لكان مشوبا بضرب من الغم ولذلك قال المتنبي

أشد الغم عندي في سرور * تيقن عنه صاحبه انتقالا

ولذلك اعتبر الخلود فيه فقال لهم فيها ما يشاؤن خالدين (المسألة الثالثة) قوله تعالى لهم فيها ما يشاؤن كالتنبيه على أن حصول المرادات بأسرها لا يكون الا في الجنة فأما في غيرها فلا يحصل ذلك بل لا بد في الدنيا من أن تكون راحاتها مشوبة بالجراحات ولذلك قال عليه الصلاة والسلام من طلب ما لم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق فقيل وما هو يا رسول الله فقال سرور يوم * أما قوله كان على ربك وعدا مسؤلا ففيه مسائل (المسألة الاولى) كلمة على للوجوب قال عليه الصلاة والسلام من نذر أن يطيع الله فليطعه أي فعليه الوفاء بما سمى فقوله كان على ربك يفيد أن ذلك واجب على الله تعالى والواجب هو الذي لو لم يفعل لاستحق تاركه الذم أو انه الذي يكون عدمه ممتنعا فان كان الوجوب على التفسير الاول كان تركه محالا لان تركه لما استلزم استحقاق الذم واستحقاق الله تعالى الذم محال ومستلزم المحال محال كان ذلك الترك محالا والمحال غير مقدور فلم يكن الله تعالى قادرا على أن لا يفعل فيلزم أن يكون ملجأ الى الفعل وان كان الوجوب على التفسير الثاني وهو أن يقال الواجب ما يكون عدمه ممتنعا يكون القول بالالجاء لازما فلم يكن الله قادرا فان قيل انه ثبت بحكم الوعد فنقول لو لم يفعل لانقلب خبره الصدق كذبا وعلمه جهلا وذلك محال والمؤدي الى المحال محال فالترك محال فيلزم أن يكون ملجأ الى الفعل والملجأ الى الفعل لا يكون قادرا ولا يكون مستحقا للثناء والمدح هذا تمام السؤال (وجوابه) أن فعل الشيء متقدم على الاخبار عن فعله وعن العلم بفعله فيكون ذلك الفعل فعلا على سبيل الالجاء فكان قادرا ومستحقا للثناء والمدح (المسألة الثانية) قوله وعدا يدل على أن الجنة حصلت بحكم الوعد لا بحكم الاستحقاق وقد تقدم تقريره (المسألة الثالثة) قوله مسؤلا ذكروا فيه وجوها (أحدها) ان المكلفين سألوه بقولهم ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك (وثانيها) أن المكلفين سألوه بلسان الحال لانهم لما تحملوا المشقة الشديدة في طاعته كان ذلك قائما مقام السؤال قال المتنبي

وفي النفس حاجات وفيك فطانة * سكوتي كلام عندها وخطاب

(وثالثها) الملائكة سألوا الله تعالى ذلك بقولهم ربنا وأدخلهم جنات عدن (ورابعها) وعدا مسؤلا أي واجبا

ذلك في اعتقادنا وما للمحافظة على أن لا كذب ثمة يرده الرد المذكور وما في سورة الانعام من قوله تعالى انظر كيف كذبوا على أنفسهم (وقيل للذين اتقوا) أي المؤمنون وصفوا بالتقوى اشعارا بأن ما صدر عنهم من الجواب ناشئ عن التقوى (ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا) سلكوا في الجواب مسلك السؤال من غير تلعثم ولا تغيير في الصورة والمعنى أي أنزل خيرا فانه جواب مطابق للسؤال سبكا وللواقع في نفس الامر مضمونا وأما الكفرة فانهم خذلهم الله تعالى كما غيروا الجواب عن نهج الحق الواقع الذي ليس له من دافع غيروا صورته وعدلوا بها عن سنن السؤال حيث رفعوا الاساطير وما المر من انكار النزول روي أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي عليه الصلاة والسلام فاذا جاء الوافد كفه المقتسمون وأمروه بالانصراف وقالوا ان لم تلقه كان خيرا لك فيقول أنا شر وافد ان رجعت الى قومي دون أن أستطلع أمر محمد وأراه فيلقى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم فيخبرونه بحقيقة الحال فهم الذين قالوا خيرا (للذين أحسنوا) أي أعمالهم أو فعلوا الاحسان (في هذه) الدار (الدنيا حسنة) أي مثوبة حسنة مكافأة فيها (ولدار الآخرة) أي مثوبتهم فيها (خير) مما أوتوا في الدنيا من المثوبة أو خير على الاطلاق فيجوز اسناد الخير به الى نفس دار الآخرة (ولنعم دار المتقين) أي دار الآخرة حذف لدلالة ما سبق عليه وهذا كلام ممتد أمدح الله تعالى به المتقين وعد جوابهم المحكي من جملة احسانهم ووعدهم بذلك ثوابي الدنيا والآخرة فلا محل له من الاعراب أو بدل من خيرا أو تفسير له أي أنزل خيرا وهذا الكلام الجامع قالوه ترغيبا للسائل (جنات عدن) خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ خبره محذوف أي لهم جنات ويجوز أن يكون

هو المخصوص بالمدح (يدخلونها) صفة لجنات على تقدير تنكير عدن وكذلك (تجري من تحتها الانهار) أو كلاهما حال على تقدير علميته (لهم فيها) في تلك الجنات (ما يشاؤن) الظرف الاول خبر لما والثاني حال منه والعامل ما في الاول أو متعلق به أي حاصل لهم فيها ما يشاؤن من أنواع المشتهيات وتقديمه للاحتراز عن توهم تعلقه بالمشيئة أو لما مر مرارا من أن تأخير ما حقه التقديم يوجب ترقب النفس اليه فيتمكن عند وروده عليها فضل تمكن (كذلك) مثل ذلك الجزاء الاوفى (يجزي الله المتقين) اللام للجنس أي كل من يتقي من الشرك والمعاصي ويدخل فيه المتقون المذكورون دخولا أوليا ويكون فيه بعث لغيرهم على التقوى أو للعهد فيكون فيه تحسير للكفرة (الذين تتوفاهم الملائكة) نعت للمتقين وقوله تعالى (طيبين) أي طاهرين عن دنس الظلم لانفسهم حال من الضمير وفائدته الايذان بأن ملاك الامر في التقوى هو الطهارة عما ذكر الى وقت توفيهم ففيه حث للمؤمنين على الاستمرار على ذلك ولغيرهم على تحصيله وقيل فرحين طيبي النفوس ببشارة الملائكة اياهم بالجنة أو طيبين بقبض أرواحهم لتوجه نفوسهم بالكلية الى جناب القدس (يقولون) حال من الملائكة أي قائلين لهم (سلام عليكم) قال القرطبي رحمه الله اذا استنقعت نفس المؤمن جاءه ملك الموت عليه السلام فقال السلام عليك يا ولي الله الله تعالى يقرأ عليك السلام وبشره بالجنة (ادخلوا الجنة) اللام للعهد أي جنات عدن الخ ولذلك جردت عن النعت والمراد دخولهم لها في وقته فان ذلك بشارة عظيمة وان تراخى المبشر به لا دخول القبر الذي هو روضة من رياضها اذ ليس في البشارة به ما في البشارة بدخول نفس الجنة (بما كنتم تعملون) بسبب

يقال لأعطينك ألفا وعدا مسؤلا أي واجبا وان لم تسأل قاله الفراء وسائر الوجوه أقرب من هذا لان سائر الوجوه أقرب الى الحقيقة وما قاله الفراء مجاز (وخامسها) مسؤلا أي من حقه أن يكون مسؤلا لانه حق واجب اما بحكم الاستحقاق على قول المعتزلة أو بحكم الوعد على قول أهل السنة ﴿ قوله تعالى ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا﴾ اعلم أن قوله تعالى ويوم يحشرهم راجع الى قوله واتخذوا من دونه آلهة ثم ههنا مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ يحشرهم فيقول كلاهما بالنون والياء وقرئ يحشرهم بكسر الشين ﴿المسئلة الثانية﴾ ظاهر قوله وما يعبدون انها الاصنام وظاهر قوله فيقول أأنتم أضللتم عبادي انه من عبد من الاحياء كالملائكة والمسيح وغيرهما لان الاضلال وخلافه منهم يصح فلاجل هذا اختلفوا فمن الناس من حمله على الاوثان فان قيل فهم الوثن جماد فكيف يخاطبه الله تعالى وكيف قدر على الجواب فعند ذلك ذكروا وجهين (أحدهما) ان الله تعالى يخلق فيهم الحياة فعند ذلك يخاطبهم فيردون الجواب (وثانيهما) أن يكون ذلك الكلام لا بالقول اللساني بل على سبيل لسان الحال كما ذكر بعضهم في تسبيح الموات وكلام الايدي والارجل وكما قيل سل الارض من شق أنهارك وغرس أشجارك فان لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا وأما الاكثرون فزعموا أن المراد هو الملائكة وعيسى وعزير عليهم السلام قالوا ويتأكد هذا القول بقوله تعالى ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون واذا قيل لهم فلفظة ما لا تستعمل في العقلاء أجابوا عنه من وجهين (الاول) لا نسلم ان كلمة ما لما لا يعقل بدليل انهم قالوا من لما لا يعقل (والثاني) أريد به الوصف كأنه قيل ومعبودهم وقوله تعالى والسماء وما بناها ولا أنتم عابدون ما أعبد لا يستقيم الا على أحد هذين الوجهين وكيف كان فالسؤال ساقط ﴿المسئلة الثالثة﴾ حاصل الكلام ان الله تعالى يحشر المعبودين ثم يقول لهم أأنتم أوقعتم عبادي في الضلال عن طريق الحق أم هم ضلوا عنه بأنفسهم قالت المعتزلة وفيه كسر بين لقول من يقول ان الله يضل عباده في الحقيقة لانه لو كان الامر كذلك لكان الجواب الصحيح أن يقولوا الهنا ههنا قسم ثالث غيرهما هو الحق وهو انك أنت أضللتهم فلما لم يقولوا ذلك بل نسبوا اضلالهم الى أنفسهم علمنا أن الله تعالى لا يضل أحدا من عباده * فان قيل لا نسلم ان المعبودين ما تعرضوا لهذا القسم بل ذكروه فانهم قالوا ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وهذا تصريح بأن ضلالهم انما حصل لاجل ما فعل الله بهم وهو انه سبحانه وتعالى متعهم وآباءهم بنعيم الدنيا * قلنا لو كان الامر كذلك لكان يلزمهم أن يصير الله محجوجا في يد أولئك المعبودين ومعلوم انه ليس الغرض ذلك بل الغرض أن يصير الكافر محجوجا مفحما ملزما هذا تمام تقرير المعتزلة في الآية أجاب أصحابنا بأن القادرة على الضلال ان لم تصلح للاهتداء فالاضلال من الله تعالى وان صلحت له لم يترجح مصدريتها للاضلال على مصدريتها للاهتداء الا لمرجح من الله تعالى وعند ذلك يعود السؤال وأما ظاهر هذه الآية فهو وان كان لهم لكنه معارض بسائر الظواهر المطابقة لقولنا ﴿المسئلة الرابعة﴾ ظاهر الآية يدل على أن هذا السؤال من الله تعالى وان احتمل أن يكون ذلك من الملائكة بأمر الله تعالى * بقي على الآية سؤالان ﴿الاول﴾ ما فائدة أنتم وهم وهلا قيل أأضللتم عبادي هؤلاء أم ضلوا السبيل (الجواب) ليس السؤال عن الفعل ووجوده لانه لولا وجوده لما توجه هذا العتاب وانما هو عن فاعله فلا بد من ذكره وايلائه

حرف الاستفهام حتى يعلم أنه المسؤل عنه (السؤال الثاني) انه سبحانه كان عالما في الازل بحال المسؤل عنه فما فائدة هذا السؤال (الجواب) هذا استفهام على سبيل التقريع للمشركين كما قال لعيسى أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله ولان أولئك المعبودين لما برؤا أنفسهم وأحالوا ذلك الضلال عليهم صار تبرؤ المعبودين عنهم أشد في حسرتهم وحيرتهم (السؤال الثالث) قال تعالى أم هم ضلوا السبيل والقياس أن يقال ضل عن السبيل ﴿الجواب﴾ الاصل ذلك الا أن الانسان اذا كان متناهيا في التفريط وقلة الاحتياط يقال ضل السبيل أما قوله سبحانك فاعلم أنه سبحانه حكى جوابهم وفي قوله سبحانك وجوه (أحدها) أنه تعجب منهم فقد تعجبوا مما قيل لهم لانهم ملائكة وأنبياء معصومون فما أبعدهم عن الاضلال الذي هو مختص بابليس وحزبه (وثانيها) انهم نطقوا بسبحانك ليدلوا على انهم المسبحون المقدسون الموقنون بذلك فكيف يليق بحالهم أن يضلوا عباده (وثالثها) قصدوا به تنزيهه عن الانداد سواء كان وثنا أو نبيا أو ملكا (ورابعها) قصدوا تنزيهه أن يكون مقصوده من هذا السؤال استفادة علم أو ايذاء من كان بريئا عن الجرم بل انما قاله لهم تقريعا للكفار وتوبيخا لهم ﴿أما قوله ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ففيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ القراءة المعروفة أن نتخذ بفتح النون وكسر الخاء وعن أبي جعفر وابن عامر برفع النون وفتح الخاء على ما لم يسم فاعله قال الزجاج أخطأ من قرأ أن نتخذ بضم النون لان من انما تدخل في هذا الباب في الاسماء اذا كانت مفعولا أولا ولا تدخل على مفعول الحال تقول ما اتخذت من أحد وليا ولا يجوز ما اتخذت أحدا من ولي قال صاحب الكشاف اتخذ يتعدى الى مفعول واحد كقولك اتخذ وليا والى مفعولين كقولك اتخذ فلانا وليا قال الله تعالى واتخذ الله ابراهيم خليلا والقراءة الاولى من المتعدي الى واحد وهو من أولياء والاصل أن نتخذ أولياء فزيدت من لتأكيد معنى النفي والثانية من المتعدي الى مفعولين فالاول ما بني له الفعل والثاني من أولياء ومن للتبعيض أي لا نتخذ بعض أولياء وتنكير أولياء من حيث انهم أولياء مخصوصون وهم الجن والاصنام ﴿المسئلة الثانية﴾ ذكروا في تفسير هذه الآية وجوها (أولها) وهو الاصح الاقوى أن المعنى اذا كنا لا نرى أن نتخذ من دونك أولياء فكيف ندعو غيرنا الى ذلك (وثانيها) ما كان ينبغي لنا أن نكون أمثال الشياطين في توليهم الكفار كما يتولاهم الكفار قال تعالى فقاتلوا أولياء الشيطان يريد الكفرة وقال والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت عن أبي مسلم (وثالثها) ما كان لنا أن نتخذ من دون رضاك من أولياء أي لما علمنا أنك لا ترضى بهذا ما فعلناه والحاصل أنه حذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه (ورابعها) قالت الملائكة انهم عبيدك فلا ينبغي لعبيدك أن يتخذوا من دون اذنك وليا ولا حبيبا فضلا عن أن يتخذ عبد عبدا آخر الها لنفسه (وخامسها) أن على قراءة أبي جعفر الاشكال زائل فان قيل هذه القراءة غير جائزة لانه لا مدخل لهم في أن يتخذهم غيرهم أولياء قلنا المراد انا لا نصلح لذلك فكيف ندعوهم الى عبادتنا (وسادسها) ان هذا قول الاصنام وانها قالت لا يصح منا أن نكون من العابدين فكيف يمكننا ادعاء أنا من المعبودين ﴿المسئلة الثالثة﴾ الآية تدل على أنه لا يجوز الولاية والعداوة الا باذن الله فكل ولاية مبنية على ميل النفس ونصيب الطبع فذلك على خلاف الشرع ﴿أما قوله تعالى ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا ففيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ معنى الآية انك يا الهنا أكثرت عليهم وعلى آبائهم من النعم وهي توجب الشكر والايمان لا الاعراض والكفران والمقصود من ذلك بيان أنهم ضلوا من عند أنفسهم لا باضلالنا فانه لولا عنادهم الظاهر والا فمع ظهور هذه الحجة لا يمكن الاعراض عن طاعة الله تعالى وقال آخرون ان هذا الكلام كالرمز فيما صرح به موسى عليه السلام في

اتيانكم على التقوى والافادة أو بالذي كنتم تعملونه من ذلك وقيل المراد بالتوفي التوفي للحشر لان الامر بالدخول حينئذ يتحقق (هل ينظرون) أي ما ينتظر كفار مكة المار ذكرهم (الا أن تأتيهم الملائكة) لقبض أرواحهم بالعذاب جعلوا منتظرين لذلك وشتان بينهم وبين انتظاره لا لانه يلحقهم البتة لحوق الامر المنتظر بل لمباشرتهم لاسبابه الموجبة له المؤدية اليه فكأنهم يقصدون اتيانه ويترصدون لوروده وقرئ بتذكير الفعل (أو يأتي أمر ربك) التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام اشعار بأن اتيانه لطف به عليه الصلاة والسلام وان كان عذابا عليهم والمراد بالامر العذاب الدنيوي لا القيامة لكن لا لان انتظارها يجامع انتظار اتيان الملائكة فلا يلائمه العطف بأو لانها ليست نصا في العناد اذ يجوز أن يعتبر منع الخلو ويراد بأيرادها كفاية كل واحد من الامرين في عذابهم بل لان قوله تعالى فيما سيأتي ولكن كانوا أنفسهم يظلمون فأصابهم الآية صريح في ان المراد به ما أصابهم من العذاب الدنيوي (كذلك) أي مثل فعل هؤلاء من الشرك والظلم والتكذيب والاستهزاء (فعل الذين خلوا) (من قبلهم) من الامم (وما ظلمهم الله) بما سيتلى من عذابهم (ولكن كانوا) بما كانوا مستمرين عليه من القبائح الموجبة لذلك (أنفسهم يظلمون) كان الظاهر أن يقال ولكن كانوا هم الظالمين كما في سورة الزخرف لكنه أوثر ما عليه النظم الكريم لافادة أن غائلة ظلمهم آيلة اليهم وعاقبته مقصورة عليهم مع استلزام اقتصار ظلم كل أحد على نفسه من حيث الوقوع اقتصاره عليه من حيث الصدور وقد مر تحقيقه في سورة يونس (فأصابهم) عطف على قوله تعالى فعل الذين من قبلهم وما بينهما اعتراض لبيان أن فعلهم ذلك

ظلم لانفسهم (سيئات ما عملوا) أى أجزية أعمالهم السيئة على طريقة تسمية المسبب باسم سببه ايذانا بفظاعته لا على حذف المضاف فانه يوهم ان لهم أعمالا غير سيئاتهم (وحاق بهم) أى أحاط بهم من الحيق الذى هو احاطة الشر وهو أبلغ من الاصابة وأفظع (ما كانوا به يستهزؤن) من العذاب ٣٦٢ (وقال الذين أشركوا) أى أهل مكة وهو بيان لفن آخر من كفرهم والعدول عن الاضمار الى الموصول لتقريعهم بما فى حيز الصلة وذمهم بذلك من أول الامر (لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شئ) أى لو شاء عدم عبادتنا الشئ غيره كما تقول لما عبدنا ذلك (نحن ولا آباؤنا) الذين نقتدى بهم فى ديننا (ولا حرمنا من دونه من شئ) من السوائب والبحائر وغيرها وانما قالوا ذلك تكذيبا للرسول عليه الصلاة والسلام وطعنا فى الرسالة رأسا متمسكين بأن ما شاء الله تعالى يجب وما لم يشأ يمتنع فلو أنه شاء ان نوحده ولا نشرك به شيأ ولا نحرم مما حرمنا شيأ كما يقوله الرسل وينقلونه من جهة الله عز وجل لكان الامر كما شاء من التوحيد ونفى الاشراك وما يتبعهما وحيث لم يكن كذلك ثبت أنه لم يشأ شيأ من ذلك وانما يقوله الرسل من تلقاء أنفسهم فأجيب عنه بقوله عز وجل (كذلك) أى مثل ذلك الفعل الشنيع (فعل الذين من قبلهم) من الامم أى أشركوا بالله وحرموا حله وردوا رسله وجادلوهم بالباطل حين نهوهم على الخطا وهدوهم الى الحق (فهل على الرسل) الذين يبلغون رسالات الله وعزائم أمره ونهيه (الا البلاغ المبين) أى ليست وظيفتهم الا تبليغ الرسالة تبليغا واضحا أو موضحا وابانة طريق الحق واظهار احكام سبيل الوحى الذى من جملتها تحتم تعلق مشيئة الله تعالى باهتداء من صرف قدرته واختياره الى تحصيل الحق لقوله تعالى والذين جاهدوا فينا

قوله ان هى الا فتنتك وذلك لان المحب قال الهى أنت الذى أعطيته جميع مطالبه من الدنيا حتى صار كالغريق فى بحر الشهوات واستغراقه فيها صار صادا له عن التوجه الى طاعتك والاشتغال بخدمتك فان هى الا فتنتك (المسألة الثانية) الذكر ذكر الله والايمان به والقرآن والشرائع أو ما فيه حسن ذكرهم فى الدنيا والآخرة (المسألة الثالثة) قال أبو عبيدة يقال رجل بور ورجلان بور ورجال بور وكذلك الانثى ومعناه هالك وقد يقال رجل بائر وقوم بور وهو مثل هائر وهور والبوار الهلاك وقد احتج أصحابنا بهذه الآية فى مسألة القضاء والقدر ولا شك ان المراد منه وكانوا من الذين حكم عليهم فى الآخرة بالعذاب والهلاك فالذى حكم الله عليه بعذاب الآخرة وعلم ذلك وأثبته فى اللوح المحفوظ وأطلع الملائكة عليه لو صار مؤمنا لصار الخبر الصدق كذبا ولصار العلم جهلا ولصارت الكتابة المثبتة فى اللوح المحفوظ باطلة ولصار اعتقاد الملائكة جهلا وكل ذلك محال ومستلزم المحال محال فصدور الايمان منه محال فدل على أن السعيد لا يمكنه أن ينقلب شقيا والشقى لا يمكنه أن ينقلب سعيدا ومن وجه آخر هو انهم ذكروا ان الله تعالى آتاهم أسباب الضلال وهو اعطاء المرادات فى الدنيا واستغراق النفس فيها ودلت الآية على أن ذلك السبب بلغ مبلغا يوجب البوار فان ذكر البوار عقيب ذلك السبب يدل على أن البوار انما حصل لاجل ذلك السبب فرجع حاصل الكلام الى انه تعالى فعل بالكافر ما صار معه بحيث لا يمكنه ترك الكفر وحينئذ ظهر أن السعيد لا ينقلب شقيا وان الشقى لا ينقلب سعيدا ﴿ أما قوله تعالى فقد كذبوكم بما تقولون فاعلم انه قرئ يقولون بالياء والتاء فمعنى من قرأ بالتاء فقد كذبوكم بقولكم انهم آلهة أى كذبوكم فى قولكم انهم آلهة ومن قرأ بالياء المنقوطة من تحت فالمعنى أنهم كذبوكم بقولهم سبحانك ومثاله قولك كتبت بالقلم ﴿ أما قوله فما تستطيعون صرفا ولا نصرا فاعلم انه قرئ يستطيعون بالياء والتاء أيضا يعنى فما تستطيعون أنتم يا أيها الكفار صرف العذاب عنكم وقيل الصرف التوبة وقيل الحيلة من قولهم انه ليتصرف أى يحتال أو فما يستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب وان يحتالوا لكم ﴿ أما قوله تعالى ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا ففيه مسألتان (المسألة الاولى) قرئ يذقه بالياء وفيه ضمير الله تعالى أو ضمير الظلم (المسألة الثانية) أن المعتزلة تمسكوا بهذه الآية فى القطع بوعيد أهل الكبائر قالوا وثبت أن من للعموم فى معرض الشرط وثبت ان الكافر ظالم لقوله ان الشرك لظلم عظيم والفاسق ظالم لقوله ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون فثبت بهذه الآية ان الفاسق لا يعفى عنه بل يعذب لا محالة والجواب انا لا نسلم ان كلمة من فى معرض الشرط للعموم والكلام فيه مذكور فى أصول الفقه سلمنا انه للعموم ولكن قطعا أم ظاهرا ودعوى القطع ممنوعة فانا نرى فى العرف العام المشهور استعمال صيغ العموم مع أن المراد هو الاكثر أو لان المراد أقوام معينون والدليل عليه قوله تعالى ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ثم ان كثيرا من الذين كفروا قد آمنوا فعلمنا ان قوله الذين كفروا وان كان يفيد العموم لكن المراد منه الغالب أو المراد منه أقوام مخصوصون وعلى التقديرين ثبت أن استعمال ألفاظ العموم فى الاغلب عرف ظاهر واذا كان كذلك كانت دلالة هذه الصيغ على العموم دلالة ظاهرة لا قاطعة وذلك لا ينفى تجويز العفو سلمنا دلالته قطعا ولكنا أجمعنا على أن قوله ومن يظلم منكم مشروط بأن لم يوجد ما يزيله وعند هذا نقول هذا مسلم لكن لم قلت بان لم يوجد ما يزيله فان العفو عندنا أحد الامور التى تزيله وذلك هو أحد الثلاثة أول المسألة سلمنا دلالته على ما قال ولكنه معارض بآيات الوعد كقوله ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا فان قيل آيات الوعيد أولى لان السارق يقطع على

سبيل التنكيل ومن لم يكن مستحقاً للعقاب لا يجوز قطع يده على سبيل التنكيل فاذا ثبت أنه مستحق للعقاب ثبت أن استحقاق الثواب أحبط لما بينا أن الجمع بين الاستحقاقين محال قلنا لا نسلم أن السارق يقطع على سبيل التنكيل ألا ترى انه لو تاب فانه يقطع لا على سبيل التنكيل بل على سبيل المحنة تنزلنا عن هذه المقامات ولكن قوله تعالى ومن يظلم منكم انه خطاب مع قوم مخصوصين معينين فهب انه لا يعفو عنهم فلم قلت انه لا يعفو عن غيرهم * أما قوله تعالى وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق ففيه مسائل (المسألة الاولى) هذا جواب عن قولهم مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق بين الله تعالى ان هذه عادة مستمرة من الله في كل رسله فلا وجه لهذا الطعن (المسألة الثانية) حق الكلام ان يقال الا أنهم بفتح الالف لانه متوسط والمكسورة لا تليق الا بالابتداء فلاجل هذا ذكروا وجوها (أحدها) قال الزجاج الجملة بعد الا صفة لموصوف محذوف والمعنى وما أرسلنا قبلك أحدا من المرسلين الا آكلين وماشين وانما حذف لان في قوله من المرسلين دليلا عليه ونظيره قوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم على معنى وما منا أحد (وثانيها) قال الفراء انها صلة لاسم متروك اكتفى بقوله من المرسلين عنه والمعنى الا من أنهم كقوله وما منا الا له مقام معلوم أي من له مقام معلوم وكذلك قوله وان منكم الا واردها أي الا من يردها فعلى قول الزجاج الموصوف محذوف وعلى قول الفراء الموصول هو المحذوف ولا يجوز حذف الموصول وتبقية الصلة عند البصريين (وثالثها) قال ابن الانباري تكسر ان بعد الاستثناء باضمار واو على تقدير الا وانهم (ورابعها) قال بعضهم المعنى الا قيل انهم (المسألة الثالثة) قرئ يمشون على البناء للمفعول أي يمشيهم حوائجهم أو الناس ولو قرئ يمشون لكان أوجه لولا الرواية أما قوله تعالى وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ففيه مسائل (المسألة الاولى) فيه أقوال (أحدها) ان هذا في رؤساء المشركين وفقراء الصحابة فاذا رأى الشريف الوضيع قد أسلم قبله أنف ان يسلم فأقام على كفره لئلا يكون للوضيع السابقة والفضل عليه ودليله قوله تعالى لو كان خيرا ما سبقونا اليه وهذا قول الكلبي والفراء والزجاج (وثانيها) ان هذا عام في جميع الناس روى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ويل للعالم من الجاهل وويل للسلطان من الرعية وويل للرعية من السلطان وويل للمالك من المملوك وويل للشديد من الضعيف وللضعيف من الشديد بعضهم لبعض فتنة وقرأ هذه الآية (وثالثها) ان هذا في أصحاب البلاء والعافية هذا يقول لم لم أجعل مثله في الخلق والخلق وفي العقل وفي العلم وفي الرزق وفي الاجل وهذا قول ابن عباس والحسن (ورابعها) هذا احتجاج عليهم في تخصيص محمد بالرسالة مع مساواته اياهم في البشرية وصفاتها فابتلى المرسلين بالمرسل اليهم وأنواع اذاهم على ما قال ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا والمرسل اليهم يتأذون أيضا من المرسل بسبب الحسد وصيرورته مكلفا بالخدمة وبذل النفس والمال بعد ان كان رئيسا مخدوما والاولى حمل الآية على الكل لان بين الجميع قدرا مشتركا (المسألة الثانية) قال أصحابنا الآية تدل على القضاء والقدر لانه تعالى قال وجعلنا بعضكم لبعض فتنة قال الجبائي هذا الجعل هو بمعنى التعريف كما يقال فيمن سرق ان فلانا لص جعله لصا وهذا التأويل ضعيف لانه تعالى أضاف الجعل الى الوصف بكونه فتنة لا الى الحكم بكونه كذلك بل العقل يدل على أن المراد غير ما ذكره وذلك لان فاعل السبب فاعل للمسبب فمن خلقه الله تعالى على مزاج الصفراء والحرارة وخلق الغضب فيه ثم خلق فيه الادراك الذي يطلعه على الشئ المغضب فمن فعل هذا المجموع كان هو الفاعل للغضب لا محالة وكذا القول في الحسد وسائر الاخلاق والافعال وعند هذا يظهر أنه سبحانه هو الذي جعل

لنهدينهم سبلنا وأما الجاؤهم الى ذلك وتنفيذ قولهم عليهم شاؤا أو أبوا كما هو مقتضى استدلالهم فليس ذلك من وظيفتهم ولا من الحكمة التي عليها يدور أمر التكليف في شئ حتى يستدل بعدم ظهور آثاره على عدم حقية الرسل أو على عدم تعلق مشيئته تعالى بذلك فان ما يترتب عليه الثواب والعقاب من أفعال العباد لا بد في تعلق مشيئته تعالى بوقوعه من مباشرتهم الاختيار به له وصرف اختيارهم الجزئي الى تحصيله والا لكان الثواب والعقاب اضطراريين فالفاء للتعليل كأنه قيل كذلك فعل أسلافهم وذلك باطل فان الرسل ليس شأنهم الا تبليغ أوامر الله تعالى ونواهيه لا تحقيق مضمونهما اجبارا وموجبهما على الناس قسرا والجاء وايراد كلمة على للايذان بانهم في ذلك مأمورون أو بأن ما يبلغونه حق للناس عليهم ايفاؤه وبهذا ظهر أن حمل قولهم لو شاء الله الخ على الاستهزاء لا يلائم الجواب والله تعالى أعلم بالصواب (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا) تحقيق لكيفية تعلق مشيئته تعالى بأفعال العباد بعد بيان ان الالجاء ليس من وظائف الرسالة ولا من باب المشيئة المتعلقة بما يدور عليه الثواب والعقاب من الافعال الاختيارية لهم أي بعثنا في كل أمة من الامم الخالية رسولا خاصا بهم (أن اعبدوا الله) يجوز أن تكون ان مفسرة لما في البعث من معنى القول وان تكون مصدرية أي بعثنا بأن اعبدوا الله وحده (واجتنبوا الطاغوت) هو الشيطان وكل ما يدعو الى الضلالة (فمنهم) أي من تلك الامم والفاء فصيحة أي فبلغوا ما بعثوا به من الامر بعبادة الله وحده واجتناب الطاغوت فتفرقوا فمنهم (من هدى الله) الى الحق الذي هو عبادته واجتناب الطاغوت بعد صرف قدرتهم واختيارهم الجزئي الى تحصيله (ومنهم من حقت عليه الضلالة) أي وجبت وثبتت الى حين الموت

المعض فتنة للبعض سلمنا ان المراد ما قاله الجبائي ان المراد من الجعل هو الحكم ولكن المجعول ان انقلب لزم من انقلابه انقلاب حكم الله تعالى من الصدق الى الكذب وذلك محال فانقلاب ذلك الجعل محال فانقلاب المجعول أيضا محال وعند ذلك يظهر القول بالقضاء والقدر (المسئلة الثالثة) الوجه في تعلق هذه الآية بما قبلها أن القوم لما طعنوا في الرسول صلى الله عليه وسلم بانه يأكل الطعام ويمشي في الاسواق وبأنه فقير كانت هذه الكلمات جارية مجرى المهاترات فانه لما قامت الدلالة على النبوة لم يكن لشيء من هذه الاشياء أثر في القدح فيها فكان النبي صلى الله عليه وسلم يتأذى منهم من حيث انهم كانوا يشتمونه ومن حيث انهم كانوا يذكرون الكلام المعوج الفاسد وما كانوا يفهمون الجواب الجيد فلا جرم صبره الله تعالى على كل تلك الاذية وبين أنه جعل الخلق بعضهم فتنة للبعض ٭ أما قوله تعالى أتصبرون وكان ربك بصيرا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة لو كان المراد من قوله وجعلنا بعضكم لبعض فتنة الخبر لما ذكر عقيبه أتصبرون لان أمر العاجز غير جائز (المسئلة الثانية) المعنى أتصبرون على البلاء فقد علمتم ما وعد الله الصابرين وكان ربك بصيرا أي هو العالم بمن يصبر ومن لا يصبر فيجازي كلا منهم بما يستحقه من ثواب وعقاب (المسئلة الثالثة) قوله أتصبرون استفهام والمراد منه التقرير وموقعه بعد ذكر الفتنة موقع أيكم بعد الابتلاء في قوله ليبلوكم أيكم أحسن عملا ٭ قوله تعالى ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا﴾ اعلم أن قوله تعالى وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا هو الشبهة الرابعة لمنكري نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وحاصلها لم لم ينزل الله الملائكة حتى يشهدوا أن محمدا محق في دعواه أو نرى ربنا حتى يخبرنا بانه أرسله الينا وتقرير هذه الشبهة أن من أراد تحصيل شيء وكان له الى تحصيله طريقان أحدهما يفضي اليه قطعا والآخر قد يفضي وقد لا يفضي فالحكيم يجب عليه في حكمته أن يختار في تحصيل ذلك المقصود الطريق الاقوى والاحسن ولا شك أن انزال الملائكة ليشهدوا بصدق محمد صلى الله عليه وسلم أكثر افضاء الى المقصود فلو أراد الله تعالى تصديق محمد صلى الله عليه وسلم لفعل ذلك وحيث لم يفعل ذلك علمنا انه ما أراد تصديقه هذا حاصل الشبهة ثم ههنا مسائل (الاولى) قال الفراء قوله تعالى وقال الذين لا يرجون لقاءنا معناه لا يخافون لقاءنا ووضع الرجاء في موضع الخوف لغة تهامية اذا كان معه جحد ومنه قوله تعالى ما لكم لا ترجون لله وقارا أي لا تخافون له عظمة وقال القاضي لا وجه لذلك لان الكلام متى أمكن حمله على الحقيقة لم يجز حمله على المجاز ومعلوم أن من حال عباد الاصنام انهم كما لا يخافون العقاب لتكذيبهم بالمعاد فكذلك لا يرجون لقاءنا وعدنا على الطاعة من الجنة والثواب ومعلوم أن من لا يرجو ذلك لا يخاف العقاب أيضا فالخوف تابع لهذا الرجاء (المسئلة الثانية) المجسمة تمسكوا بقوله تعالى لقاءنا في أنه جسم وقالوا اللقاء هو الوصول يقال هذا الجسم لقي ذلك أي وصل اليه واتصل به وقال تعالى فالتقى الماء على أمر قد قدر فدلت الآية على انه سبحانه جسم والجواب على طريقين (الاول) طريق بعض أصحابنا قال المراد من اللقاء هو الرؤية وذلك لان الرائي يصل برؤيته الى حقيقة المرئي فسمي اللقاء أحد أنواع الرؤية والنوع الآخر الاتصال والمماسة فدلت الآية من هذا الوجه على جواز الرؤية (الطريق الثاني) وهو كلام المعتزلة قال القاضي تفسير اللقاء برؤية البصر جهل باللغة فيقال في الدعاء لقاك الله الخير ويقصد بقول القائل ألم ألق الامير وان رآه من بعد أو حجب عنه ويقال

لعناده واصراره عليها وعدم صرف قدرته الى تحصيل الحق وتغيير الاسلوب للاشعار بان ذلك لسوء اختيارهم كقوله تعالى واذا مرضت فهو يشفين فلم يكن كل من مشيئة الهداية وعدمها الا حسب ما حصل منهم من التوجه الى الحق وعدمه الا بطريق القسر والالجاء حتى يستدل بعدمهما على عدم تعلق مشيئته تعالى بعبادتهم له تعالى وحده (فسيروا) يا معشر قريش (في الارض فانظروا) في أكنافها (كيف كان عاقبة المكذبين) من عاد وثمود ومن سار سيرتهم ممن حقت عليه الضلالة لعلكم تعتبرون حين تشاهدون في منازلهم وديارهم آثار الهلاك والعذاب وترتيب الامر بالسير على مجرد الاخبار بثبوت الضلالة عليهم من غير اخبار بحلول العذاب للايذان بانه غني عن البيان وان ليس الخبر كالعيان وترتيب النظر على السير لما انه بعده وأن ملاك الامر في تلك العاقبة هو التكذيب والتعلل بانه لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء (ان تحرص) خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقرئ بفتح الراء وهي لغية (على هداهم) أي ان تطلب هدايتهم بجهدك (فان الله لا يهدي من يضل) أي فاعلم أنه تعالى لا يخلق الهداية جبرا وقسرا فيمن يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره والمراد به قريش وانما وضع الموصول موضع الضمير للتنصيص على انهم ممن حقت عليه الضلالة وللاشعار بعلة الحكم ويجوز أن يكون المذكور علة للجزاء المحذوف أي ان تحرص على هداهم فلست بقادر على ذلك لان الله لا يهدي من يضله وهؤلاء من جملتهم وقرئ لا يهدى على بناء المفعول أي لا يقدر أحد على هداية من يضله الله تعالى وقرئ لا يهدي بفتح الهاء وادغام تاء يهتدي في الدال ويجوز أن يكون يهدي بمعنى يهتدي وقرئ يضل بفتح الياء وقرئ لا هادي لمن يضل ولمن أضل

(وما لهم من ناصرين) ينصرونهم في الهداية أو يدفعون العذاب عنهم وصيغة الجمع في الناصرين باعتبار الجمعية في الضمير فإن مقابلة الجمع بالجمع تقتضي انقسام الآحاد إلى الآحاد لا لأن المراد نفي طائفة من الناصرين من كل منهم (وأقسموا بالله) شروع في بيان فن آخر من أباطيلهم وهو إنكارهم البعث (جهد أيمانهم) مصدر في موقع الحال أي جاهدين في أيمانهم (لا يبعث الله من يموت) وقد رد الله تعالى عليهم أبلغ رد بقوله الحق (بلى) أي يبعثهم (وعدا) مصدر مؤكد لما دل عليه بلى فإن ذلك موعد من الله سبحانه أو لفعل وفي أي وعد بذلك وعدا (عليه) صفة لوعدا أي وعدا ثابتا عليه إنجازه لامتناع الخلف في وعده أو لأن البعث من مقتضيات الحكمة (حقا) صفة أخرى له أو نصب على المصدرية أي حق حقا (ولكن أكثر الناس) لجهلهم بشئون الله عز شأنه من العلم والقدرة والحكمة وغيرها من صفات الكمال وبما يجوز عليه وما لا يجوز وعدم وقوفهم على سر التكوين والغاية القصوى منه وعلى أن البعث مما يقتضيه الحكمة التي جرت عادته سبحانه بمراعاتها (لا يعلمون) أنه يبعثهم فيبتون القول بعدمه أو أنه وعد عليه حق فيكذبونه قائلين لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين (ليبين لهم) غاية لما دل عليه بلى من البعث والضمير لمن يموت إذ التبيين يعم المؤمنين أيضا فإنهم وإن كانوا عالمين بذلك لكنه عند معاينة حقيقة الحال يتضح الأمر فيصل علمهم إلى مرتبة عين اليقين أي يبعثهم ليبين لهم بذلك وبما يحصل لهم من مشاهدة الأحوال كما هي ومعاينتها بصورها الحقيقية الشأن (الذي يختلفون فيه) من الحق المنتظم لجميع ما خالفوه مما جاء به الشرع المبين ويدخل فيه البعث دخولا أوليا (وليعلم الذين كفروا) بالله سبحانه بالإشراك

في الضرير أتى الأمير إذا أذن له ولم يحجب وقد يلقاه في الليلة الظلماء ولا يراه بل المراد من اللقاء ههنا هو المصير إلى حكمه حيث لا حكم لغيره في يوم لا تملك نفس لنفس شيئا إلا أنه رؤية البصر * واعلم أن هذا الكلام ضعيف لأنا لا نفسر اللقاء برؤية البصر بل نفسره بمعنى مشترك بين رؤية البصر وبين الاتصال والمماسة وهو الوصول إلى الشيء وقد بينا أن الرائي يصل برؤيته إلى المرئي واللفظ الموضوع لمعنى مشترك بين معان كثيرة ينطلق على كل واحد من تلك المعاني فيصح قوله لقاء الخبر ويصح قول الأعمى لقيت الأمير ويصح قول البصير لقيته بمعنى رأيته وما لقيته بمعنى ما وصلت إليه وإذا ثبت هذا فنقول قوله وقال الذين لا يرجون لقاءنا مذكور في معرض الذم لهم فوجب أن يكون رجاء اللقاء حاصلا ومسمى اللقاء مشترك بين الوصول المكاني وبين الوصول بالرؤية وقد تعذر الأول فتعين الثاني وقوله المراد من اللقاء الوصول إلى حكمه صرف للفظ عن ظاهره بغير دليل فثبت دلالة الآية على صحة الرؤية بل على وجوبها بل على أن إنكارها ليس إلا من دين الكفار (المسألة الثالثة) قوله لولا أنزل معناه هلا أنزل قال الكلبي ومقاتل نزلت هذه الآية في أبي جهل والوليد وأصحابهم الذين كانوا منكرين للنبوة والبعث * أما قوله تعالى لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا فاعلم أن هذا هو الجواب عن تلك الشبهة وفيه مسائل (المسألة الأولى) في تقرير كونه جوابا وذلك من وجوه (أحدها) أن القرآن لما ظهر كونه معجزا فقد ثبتت دلالة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فبعد ذلك يكون اقتراح أمثال هذه الآيات لا يكون إلا محض الاستكبار والتعنت (وثانيها) أن نزول الملائكة لو حصل لكان أيضا من جملة المعجزات ولا يدل على الصدق لخصوص كونه نزول الملك بل لعموم كونه معجزا فيكون قبول ذلك المعجز ورد ذلك المعجز الآخر ترجيحا لأحد المثلين على الآخر من غير مزيد فائدة ومرجح وهو محض الاستكبار والتعنت (وثالثها) أنهم بتقدير أن يروا الرب ويسألوه عن صدق محمد صلى الله عليه وسلم وهو سبحانه يقول نعم هو رسولي فذلك لا يزيد في التصديق على إظهار المعجز على يد محمد صلى الله عليه وسلم لأنا بينا أن المعجز يقوم مقام التصديق بالقول إذ لا فرق وقد ادعى النبوة بين أن يقول اللهم إن كنت صادقا فأحي هذا الميت فيحييه الله تعالى والعادة لم تجر بمثله وبين أن يقول له صدقت وإذا كان التصديق الحاصل بالقول أو الحاصل بالمعجز سيين في كونه تصديقا للمدعي كان تعيين أحدهما محض الاستكبار والتعنت (ورابعها) وهو أنا نعتقد أن الله سبحانه وتعالى يفعل بحسب المصالح على ما يقوله المعتزلة أو نقول إن الله تعالى يفعل بحسب المشيئة على ما يقوله أصحابنا فإن كان الأول لم يجز لهم أن يعينوا المعجز إذ ربما كان إظهار ذلك المعجز مشتملا على مفسدة لا يعرفها إلا الله تعالى وكان التعيين استكبارا وعتوا من حيث إنه لم يقطع بكونه مصلحة فمن قال ذلك فقد اعتقد في نفسه أنه عالم بكل المعلومات وذلك استكبار عظيم وإن كان الثاني وهو قول أصحابنا فليس للعبد أن يقترح على ربه فإنه سبحانه فعال لما يريد فكان الاقتراح استكبارا وعتوا وخروجا عن حد العبودية إلى مقام المنازعة والمعارضة (وخامسها) وهو أن المقصود من بعثة الأنبياء الإحسان إلى الخلق فالملك الكبير إذا أحسن إلى بعض الضعفاء رحمة عليه فأخذ ذلك الضعيف في اللجاج والنزاع ويقول لا أريد هذا بل أريد ذلك حسن أن يقال إن هذا المكدي قد استكبر في نفسه وعتا عتوا شديدا من حيث لا يعرف قدر نفسه ومنتهى درجته فكذا ههنا (وسادسها) يمكن أن يكون المراد أن الله تعالى قال لو علمت أنهم ما ذكروا هذا السؤال لأجل الاستكبار والعتو الشديد لأعطيتهم مقترحهم ولكني علمت أنهم ذكروا هذا الاقتراح لأجل الاستكبار والتعنت فلو أعطيتهم مقترحهم لما انتفعوا به فلا جرم لا أعطيهم ذلك وهذا التأويل يعرف من اللفظ (وسابعها) لعلهم سمعوا من

أهل الكتاب ان الله تعالى لا يرى في الدنيا وأنه تعالى لا ينزل الملائكة في الدنيا على عوام الخلق ثم انهم علقوا ايمانهم على ذلك على سبيل التعنت أو على سبيل الاستهزاء (المسألة الثالثة) قالت المعتزلة الآية دلت على أن الله تعالى لا تجوز رؤيته لان رؤيته لو كانت جائزة لما كان سؤالها عتوا واستكبارا قالوا وقوله لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا ليس الا لاجل سؤال الرؤية حتى لو انهم اقتصروا على نزول الملائكة لما خوطبوا بذلك والدليل عليه ان الله تعالى ذكر أمر الرؤية في آية أخرى على حدة وذكر الاستعظام وهو قوله لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وذكر نزول الملائكة على حدة في آية أخرى فلم يذكر الاستعظام وهو قولهم لولا أنزل علينا الملائكة وهل نرى الملائكة فثبت بهذا ان الاستكبار والعتو في هذه الآية انما حصل لاجل سؤال الرؤية واعلم أن الكلام على ذلك قد تقدم في سورة البقرة والذي نزيده ههنا انا بينا ان قوله وقال الذين لا يرجون لقاءنا يدل على الرؤية واما الاستكبار والعتو فلا يمكن أن يدل ذلك على أن الرؤية مستحيلة لان من طلب شيأ محالا لا يقال انه عتا واستكبر ألا ترى انهم لما قالوا اجعل لنا الها كما لهم آلهة لم يثبت لهم بطلب هذا المحال عتوا واستكبارا بل قال انكم قوم تجهلون بل العتو والاستكبار لا يثبت الا اذا طلب الانسان ما لا يليق به من فوقه أو كان لا تقاه ولكنه يطلبه على سبيل التعنت وبالجملة فقد ذكرنا وجوها كثيرة في تحقيق معنى الاستكبار والعتو سواء كانت الرؤية ممتنعة أو ممكنة ومما يدل عليه ان موسى لما سأل الرؤية ما وصفه الله تعالى بالاستكبار والعتو لانه عليه الصلاة والسلام طلب الرؤية شوقا وهؤلاء طلبوها امتحانا وتعنتا لا جرم وصفهم بذلك فثبت فساد ما قاله المعتزلة (المسألة الثالثة) انما قال في أنفسهم لانهم أضمروا الاستكبار في قلوبهم واعتقدوه كما قال ان في صدورهم الا كبر ما هم ببالغيه وقوله وعتوا عتوا كبيرا أي تجاوزوا الحد في الظلم يقال عتا فلان وقد وصف العتو بالكبير فبالغ في افراطه يعني انهم لم يجترئوا على هذا القول العظيم الا لانهم بلغوا غاية الاستكبار وأقصى العتو * أما قوله تعالى يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا فهو جواب لقولهم لولا أنزل علينا الملائكة فبين تعالى ان الذي سألوه سيوجد ولكنهم يلقون منه ما يكرهون وههنا مسائل (المسألة الاولى) ذكروا في انتصاب يوم وجهين (الاول) أن العامل ما دل عليه لا بشرى أي يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى ويومئذ للتكرير (الثاني) ان التقدير اذكر يوم يرون الملائكة (المسألة الثانية) اختلفوا في ذلك اليوم فقال ابن عباس يريد عند الموت وقال الباقون يريد يوم القيامة (المسألة الثالثة) انما يقال للكافر لا بشرى لان الكافر وان كان ضالا مضلا الا انه يعتقد في نفسه انه كان هاديا مهتديا فكان يطمع في ذلك الثواب العظيم ولانهم ربما عملوا أعمالا يرجوا فيها النفع كنصرة المظلوم وعطية الفقير وصلة الرحم ولكنه أبطلها بكفره فبين سبحانه انهم في أول الامر يشاهدون ما يدل على نهاية اليأس والخيبة وذلك هو النهاية في الايلام وهو المراد من قوله وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون (المسألة الرابعة) حق الكلام ان يقال يوم يرون الملائكة لا بشرى لهم لكنه قال لا بشرى للمجرمين وفيه وجهان (أحدهما) أنه ظاهر في موضع ضمير (والثاني) انه عام فقد تناولهم بعمومه قالت المعتزلة تدل الآية على القطع بوعيد الفساق وعدم العفو لان قوله لا بشرى للمجرمين نكرة في سياق النفي فيعم جميع أنواع البشرى في جميع الاوقات بدليل أن من أراد تكذيب هذه القضية قال بل له بشرى في الوقت الفلاني فلما كان ثبوت البشرى في وقت من الاوقات يذكر لتكذيب هذه القضية علمنا أن قوله تعالى لا بشرى يقتضي نفي جميع أنواع البشرى في كل الاوقات ثم انه سبحانه أكد هذا النفي بقوله حجرا محجورا والعفو من الله من أعظم البشرى والخلاص من النار بعد دخولها من أعظم

وانكار البعث وتكذيب وعده الحق (انهم كانوا كاذبين) في كل ما يقولون لا سيما في قولهم لا يبعث الله من يموت والتعبير عن الحق بالموصول للدلالة على فخامته وللاشعار بعلية ما ذكر في حيز الصلة للتبيين وما عطف عليه وجعلهما غاية للبعث المشار اليه باعتبار وروده في معرض الرد على المخالفين وابطال مقالة المعاندين المستدعي للتعرض لما يردعهم عن المخالفة ويلجئهم الى الاذعان للحق فان الكفرة اذا علموا أن تحقق البعث اذا كان للتبيين انه حق وليعلموا أنهم كاذبون في انكاره كان ذلك أزجر لهم عن انكاره وأدعى الى الاعتراف به ضرورة أنه يدل على صدق العزيمة على تحقيقه كما تقول لمن ينكر انك تصلي لاصلين رغما لانفك واظهارا لكذبك ولان تكرر الغايات أدل على وقوع الفعل المغيا بها والا فالغاية الاصلية للبعث باعتبار ذاته انما هو الجزاء الذي هو الغاية القصوى للخلق المغيا بمعرفته عز وجل وعبادته وانما لم يذكر ذلك لتكرر ذكره في مواضع أخر وشهرته وانما لم يدرج علم الكفار بكذبهم تحت التبيين بأن يقال وان الذين كفروا كانوا كاذبين بل جيء بصيغة العلم لان ذلك ليس مما تعلق به التبيين الذي هو عبارة عن اظهار ما كان مبهما قبل ذلك بأن يخبر به فيختلف فيه كالبعث الذي نطق به القرآن فاختلف فيه المختلفون وأما كذب الكافرين فليس من هذا القبيل فانما يتعلق به علم ضروري حاصل لهم من قبل أنفسهم وقد مر تحقيقه في سورة التوبة عند قوله تعالى حتى يتبين لك الذين صدقوا وانما خص الاسناد بهم حيث لم يقل وليعلموا ان الكافرين الآية لان علم المؤمنين بذلك حاصل قبل ذلك أيضا (انما قولنا) استئناف لبيان كيفية التكوين على الاطلاق ابداء واعادة بعد التنبيه على أنية البعث ومنه يظهر كيفيته فما كافة وقولنا مبتدأ وقوله

البشرى

(لشيء) أي أي شيء كان مما عز وهان متعلق به على أن اللام للتبليغ كهي في قولك قلت له قم فقام وجعلها الزجاج سببية أي لأجل شيء وليس بواضح والتعبير عنه بذلك باعتبار وجوده عند تعلق مشيئته تعالى به لا أنه كان شيئاً قبل ذلك (إذا أردناه) ظرف لقولنا أي وقت أردنا وجوده (أن نقول له كن) خبر للمبتدأ (فيكون) إما عطف على مقدر يفصح عنه الفاء وينسحب عليه الكلام أي فنقول ذلك فيكون كقوله تعالى إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون وإما جواب لشرط محذوف أي فإذا قلنا ذلك فهو يكون وليس هناك قول ولا مقول له ولا أمر ولا مأمور حتى يقال إنه يلزم منه أحد المحالين إما خطاب المعدوم أو تحصيل الحاصل أو يقال إنما يستدعيه انحصار قوله تعالى كن وليس يلزم منه انحصار أسباب التكوين فيه كما يفيده قوله تعالى إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فإن المراد بالأمر هو الشأن الشامل للقول والفعل ومن ضرورة انحصاره في كلمة كن انحصار أسبابه على الإطلاق فيه بل إنما هو تمثيل لسهولة تأتي المقدورات حسب تعلق مشيئته تعالى بها وتصوير لسرعة حدوثها بما هو علم في ذلك من طاعة المأمور المطيع لأمر الآمر المطاع فالمعنى إنما إيجادنا لشيء عند تعلق مشيئتنا به أن نوجده في أسرع ما يكون ولما عبر عنه بالأمر الذي هو قول مخصوص وجب أن يعبر عن مطلق الإيجاد بالقول المطلق فتأمل وفي الآية الكريمة من الفخامة والجزالة ما يحار فيه العقول والألباب وقرئ بنصب يكون عطفاً على نقول أو تشبيهاً له بجواب الأمر (والذين هاجروا في الله) أي في شأن الله تعالى ورضاه وفي حقه ولوجهه (من بعد ما ظلموا) وا؟؟؟ الذين ظلمهم أهل مكة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرجوهم من ديارهم فهاجروا إلى الحبشة ثم

البشرى وشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم من أعظم البشرى فوجب أن لا يثبت ذلك لأحد من المجرمين والكلام على التمسك بصيغ العموم قد تقدم غير مرة قال المفسرون المراد بالمجرمين ههنا الكفار بدليل قوله إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة (المسألة الخامسة) في تفسير قوله حجراً محجوراً ذكر سيبويه في باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بأفعال متروك إظهارها نحو معاذ الله وقعدك وعمرك وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو وهجوم نازلة ونحو ذلك يضعونها موضع الاستعاذة قال سيبويه يقول الرجل للرجل يفعل كذا وكذا فيقول حجراً وهي من حجره إذا منعه لأن المستعيذ طالب من الله أن يمنع المكروه فلا يلحقه فكان المعنى أسأل الله أن يمنع ذلك منعاً ويحجره حجراً ومجيئه على فعل أو فعل في قراءة الحسن تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد فإن قيل ما ثبت أنه من باب المصادر فما معنى وصفه بكونه محجوراً قلنا جاءت هذه الصفة لتأكيد معنى الحجر كما قالوا ذيل ذائل فالذيل الهوان وموت مائت وحرام محرم (المسألة السادسة) اختلفوا في أن الذين يقولون حجراً محجوراً من هم على ثلاثة أقوال (القول الأول) أنهم هم الكفار وذلك لأنهم كانوا يطلبون نزول الملائكة ويقترحونه ثم إذا رأوهم عند الموت ويوم القيامة كرهوا لقاءهم وفزعوا منهم لأنهم لا يلقونهم إلا بما يكرهون فقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدو ونزول الشدة (القول الثاني) أن القائلين هم الملائكة ومعناه حراماً محرماً عليكم الغفران والجنة والبشرى أي جعل الله ذلك حراماً عليكم ثم اختلفوا على هذا القول فقال بعضهم إن الكفار إذا خرجوا من قبورهم قالت الحفظة لهم حجراً محجوراً وقال الكلبي الملائكة على أبواب الجنة يبشرون المؤمنين بالجنة ويقولون للمشركين حجراً محجوراً وقال عطية إذا كان يوم القيامة يلقى الملائكة المؤمنين بالبشرى فإذا رأى الكفار ذلك قالوا لهم بشرونا فيقولون حجراً محجوراً (القول الثالث) وهو قول القفال والواحدي وروى عن الحسن أن الكفار يوم القيامة إذا شاهدوا ما يخافونه فيتعوذون منه ويقولون حجراً محجوراً فتقول الملائكة لا معاذ من شر هذا اليوم * أما قوله تعالى وقدمنا فقد استدلت المجسمة بقوله وقدمنا لأن القدوم لا يصح إلا على الأجسام وجوابه أنه لما قامت الدلالة على امتناع القدوم عليه لأن القدوم حركة والموصوف بالحركة محدث ولذلك استدل الخليل عليه السلام بأفول الكواكب على حدوثها وثبت أن الله عز وجل لا يجوز أن يكون محدثاً فوجب تأويل لفظ القدوم وهو من وجوه (أحدها) وقدمنا إلى ما عملوا من عمل أي وقصدنا إلى أعمالهم فإن القادم إلى شيء قاصد له فالقصد هو المؤثر في القدوم إليه وأطلق المسبب على السبب مجازاً (وثانيها) المراد قدوم الملائكة إلى موضع الحساب في الآخرة ولما كانوا بأمره يقدمون جاز أن يقول وقدمنا على سبيل التوسع ونظيره قوله فلما آسفونا انتقمنا منهم (وثالثها) أن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها فلما أبطل الله أعمالهم وأفسدها بالكلية صارت شبيهة بالمواضع التي يقدمها الملك فلا جرم قال وقدمنا * أما قوله إلى ما عملوا من عمل يعني الأعمال التي اعتقدوها براً وظنوا أنها تقربهم إلى الله تعالى والمعنى إلى ما عملوا من أي عمل كان * أما قوله فجعلناه هباء منثوراً فالمراد أبطلناه وجعلناه بحيث لا يمكن الانتفاع به كالهباء المنثور الذي لا يمكن القبض عليه ونظيره قوله تعالى كسراب بقيعة كرماد اشتدت به الريح كعصف مأكول قال أبو عبيدة والزجاج الهباء مثل الغبار يدخل من الكوة مع ضوء الشمس وقال مقاتل إنه الغبار الذي يسطع من حوافر الدواب * أما قوله أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً فاعلم أنه سبحانه لما بين حال الكفار في الخسار الكلي والخيبة التامة شرح وصف أهل الجنة تنبيهاً على أن الحظ كل الحظ في طاعة الله تعالى وههنا سؤالات (الأول) كيف يكون أصحاب الجنة خيراً مستقراً من أهل

النار ولا خير في النار ولا يقال في العسل هو أحلى من الخل (والجواب) من وجوه (الاول) ما تقدم في قوله أذلك خير أم جنة الخلد (والثاني) يجوز أن يريد أنهم في غاية الخير لان مستقرهم خير من النار كقول الشاعر

ان الذي سمك السماء بنى لنا * بيتا دعائمه أعز وأطول

(الثالث) التفاضل الذي ذكر بين المنزلتين اعتبار رجع الى الموضع والموضع من حيث انه موضع لا شر فيه (الرابع) هذا التفاضل واقع على هذا التقدير أي لو كان لهم مستقر فيه خير لكان مستقر أهل الجنة خيرا منه (السؤال الثاني) الآية دلت على أن مستقرهم غير مقيلهم فكيف ذلك (والجواب) من وجوه (الاول) أن المستقر مكان الاستقرار والمقيل زمان القيلولة فهذا اشارة الى أنهم من المكان في أحسن مكان ومن الزمان في أطيب زمان (الثاني) ان مستقر أهل الجنة غير مقيلهم فانهم يقيلون في الفردوس ثم يعودون الى مستقرهم (الثالث) أن بعد الفراغ من المحاسبة والذهاب الى الجنة يكون الوقت وقت القيلولة قال ابن مسعود لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وقرأ ابن مسعود ثم ان مقيلهم لالى الجحيم وقال سعيد بن جبير ان الله تعالى اذا أخذ في فصل القضاء قضى بينهم بقدر ما بين صلاة الغداة الى انتصاف النهار فيقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار وقال مقاتل يخفف الحساب على أهل الجنة حتى يكون بمقدار نصف يوم من أيام الدنيا ثم يقيلون من يومهم ذلك في الجنة (السؤال الثالث) كيف يصح القيلولة في الجنة والنار وعندكم أن أهل الجنة في الآخرة لا ينامون وأهل النار أبدا في عذاب يعرفونه وأهل الجنة في نعيم يعرفونه (والجواب) قال الله تعالى ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا وليس في الجنة بكرة وعشي لقوله تعالى لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ولانه اذا لم يكن هناك شمس لم يكن هناك نصف النهار ولا وقت القيلولة بل المراد منه بيان أن ذلك الموضع أطيب المواضع وأحسنها كما أن موضع القيلولة يكون أطيب المواضع والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا لقد أضلني عن الذكر بعد اذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا ﴾ اعلم أن هذا الكلام مبني على ما استدعوه من انزال الملائكة فبين سبحانه أنه يحصل ذلك في يوم له صفات (الصفة الاولى) ان في ذلك اليوم تشقق السماء بالغمام وفيه مسائل (المسألة الاولى) قوله اذا السماء انفطرت يدل على التشقق وقوله هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام يدل على الغمام فقوله تشقق السماء بالغمام جامع لمعنى الآيتين ونظيره قوله تعالى وفتحت السماء فكانت أبوابا وقوله فهي يومئذ واهية (المسألة الثانية) قرأ أبو عمرو وأهل الكوفة بتخفيف الشين ههنا وفي سورة ق والباقون بالتشديد قال أبو عبيدة الاختيار التخفيف كما يخفف تساءلون ومن شدد فمعناه تتشقق (المسألة الثالثة) قال الفراء المراد من قوله بالغمام أي عن الغمام لان السماء لا تتشقق بالغمام بل عن الغمام وقال القاضي لا يمتنع أن يجعل تعالى الغمام بحيث تشقق السماء باعتماده عليه وهو كقوله السماء منفطر به (المسألة الرابعة) لابد من أن يكون لهذا التشقق تعلق بنزول الملائكة فقيل الملائكة في أيام الانبياء عليهم السلام كانوا ينزلون من مواضع مخصوصة والسماء على اتصالها ثم في ذلك اليوم تتشقق السماء فاذا انشقت خرج من أن يكون حائلا بين الملائكة وبين الارض فنزلت الملائكة الى الارض (المسألة الخامسة) قوله ونزل الملائكة صيغة عموم فيتناول الكل ولان السماء مقر الملائكة فاذا تشقق وجب أن ينزلوا الى الارض ثم قال مقاتل تشقق سماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر من سكان

بوأهم الله تعالى المدينة حسبما وعد بقوله سبحانه (لنبوئنهم في الدنيا حسنة) أي مباءة حسنة أو تبوئة حسنة كما قال قتادة وهو الانسب بما هو المشهور من كون السورة غير ثلاث آيات من آخرها مكية وأما ما نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما من أنها نزلت في صهيب وبلال وعمار وخباب وعابس وجبير وأبي جندل بن سهيل أخذهم المشركون بمكة يعذبونهم ليردوهم عن الاسلام فأما صهيب فقال لهم أنا رجل كبير ان كنت معكم لم أنفعكم وان كنت عليكم لم أضركم فافتدى منهم بماله وهاجر فلما رآه أبو بكر رضي الله عنه قال ربح البيع يا صهيب وقال عمر رضي الله عنه نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه فانما يناسب ما حكي عن الاصم من كون كل السورة مدنية وما نقل عن قتادة من كون هذه الآية الى آخر السورة مدنية فيحمل ما نقلناه عنه من نزول الآية في أصحاب الهجرتين على أن يكون نزولها بالمدينة بين الهجرتين وأما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من جملتهم فلا يساعده نظم التنزيل ولا شأنه الجليل وقرئ لنثوينهم ومعناه اثواءة حسنة أو لنتزلنهم في الدنيا منزلة حسنة وهي الغلبة على من ظلمهم من أهل مكة وعلى العرب قاطبة وأهل الشرق والغرب كافة (ولأجر الآخرة) أي أجر أعمالهم المذكورة في الآخرة (أكبر) مما يعجل لهم في الدنيا وعن عمر رضي الله عنه أنه كان اذا أعطى رجلا من المهاجرين عطاء قال له خذ بارك الله تعالى لك فيه هذا ما وعدك الله تعالى في الدنيا وما ادخر في الآخرة أفضل (لو كانوا يعلمون) الضمير للكفار أي لو علموا أن الله تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين خير الدارين لوافقوهم في الدين وقيل للمهاجرين أي لو علموا ذلك لزادوا في الاجتهاد أو لما تألموا لما أصابهم من المهاجرة وشدائدها (الذين صبروا) على الشدائد

الدنيا كذلك تنشق سماء سماء ثم ينزل الكروبيون وحملة العرش ثم ينزل الرب تعالى وروى الضحاك عن ابن عباس قال تنشق كل سماء وينزل سكانها فيحيطون بالعالم ويصيرون سبع صفوف حول العالم واعلم أن نزول الرب بالذات باطل قطعا لأن النزول حركة والموصوف بالحركة محدث والإله لا يكون محدثا وأما نزول الملائكة إلى الأرض فعليه سؤال وذلك لأنه ثبت أن الأرض بالقياس إلى سماء الدنيا كحلقة في فلاة فكيف بالقياس إلى الكرسي والعرش فالملائكة هذه المواضع بأسرها كيف تسع لهم الأرض جميعا فلعل الله تعالى يزيد في طول الأرض وعرضها ويبلغها مبلغا يتسع لكل هؤلاء ومن المفسرين من قال الملائكة يكونون في الغمام معه والله تعالى يسكن الغمام فوق أهل القيامة ويكون ذلك الغمام مقر الملائكة قال الحسن والغمام سترة بين السماء والأرض تعرج الملائكة فيه بنسخ أعمال بني آدم والمحاسبة تكون في الأرض (المسئلة السادسة) أما نزول الملائكة فظاهر ومعنى تنزيلا توكيد للنزول ودلالة على إسراعهم فيه (المسئلة السابعة) الألف واللام في الغمام ليس للعموم فهو للمعهود والمراد ما ذكروه في قوله هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة (المسئلة الثامنة) قرئ ونزل الملائكة وننزل الملائكة ونزل الملائكة ونزلت الملائكة ونزل الملائكة على حذف النون الذي هو فاء الفعل من ننزل قراءة أهل مكة (الصفة الثانية لذلك اليوم) قوله الملك يومئذ الحق للرحمن قال الزجاج الحق صفة للملك وتقديره الملك الحق يومئذ للرحمن ويجوز الحق بالنصب على تقدير أعني ولم يقرأ به ومعنى وصفه بكونه حقا أنه لا يزول ولا يتغير فإن قيل مثل هذا الملك لم يكن قط إلا للرحمن فما الفائدة في قوله يومئذ قلنا لأن في ذلك اليوم لا مالك سواه لا في الصورة ولا في المعنى فتخضع له الملوك وتعنو له الوجوه وتذل له الجبابرة بخلاف سائر الأيام واعلم أن هذه الآية دالة على فساد قول المعتزلة في أنه يجب على الله الثواب والعوض وذلك لأنه لو وجب لاستحق الذم بتركه فكان خائفا من أن لا يفعل فلم يكن ملكه مطلقا وأيضا فقوله الملك يومئذ الحق للرحمن يفيد أنه ليس لغيره ملك وذلك لا يتم على قول المعتزلة لأن كل من استحق عليه شيأ فإنه يكون مالكا له ولا يكون هو سبحانه مالكا لذلك المستحق ولأنه سبحانه إذا استحق على أحد شيأ أمكنه أن يدفعه أما غيره إذا استحق عليه شيأ فإنه لا يصح إبراؤه عنه فكانت العبودية ههنا أتم ولأن من كفر بالله إلى آخر عمره ثم في آخر عمره عرف الله لحظة ومات فهو سبحانه لو أعطاه ألف ألف سنة أنواع الثواب وأراد بعد ذلك أن لا يعطيه لحظة واحدة صار سفيها وهذا نهاية العبودية والذل فكيف يليق بمن هذا حاله أن يقال له الملك يومئذ الحق للرحمن وأيضا فكل من فعل فعلا لو لم يفعله لكان مستوجبا للذم وكان بذلك الفعل مكتسبا للكمال وبتركه مكتسبا للنقصان فلم يكن ملكا بل فقيرا مستحقا فثبت أن قوله سبحانه الملك يومئذ الحق للرحمن غير لائق بأصول المعتزلة (الصفة الثالثة) قوله وكان يوما على الكافرين عسيرا فالمعنى ظاهر لأنه تعالى عالم بالأحوال قادر على كل ما يريده وأما غيره فالكل في ربقة العجز وذل القهر فكان في نهاية العسر على الكافر (الصفة الرابعة) قوله ويوم يعض الظالم على يديه وفيه مسائل (المسئلة الأولى) الألف واللام في الظالم فيه قولان (أحدهما) أنه للعموم (والثاني) أنه للمعهود والقائلون بالمعهود على قولين (الأول) قال ابن عباس المراد عقبة بن أبي معيط بن أمية بن عبد شمس كان لا يقدم من سفر إلا صنع طعاما يدعو إليه جيرته من أهل مكة ويكثر مجالسة الرسول ويعجبه حديثه فصنع طعاما ودعا الرسول فقال صلى الله عليه وسلم ما آكل من طعامك حتى تأتي بالشهادتين ففعل فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم من طعامه فبلغ ذلك أمية بن خلف فقال صبوت يا عقبة وكان خليله فقال إنما ذكرت ذلك ليأكل من طعامي فقال لا أرضى

من أذية الكفار ومفارقة الأهل والوطن وغير ذلك ومحله النصب أو الرفع على المدح (وعلى ربهم) خاصة (يتوكلون) منقطعين إليه تعالى معرضين عما سواه مفوضين إليه الأمر كله والجملة إما معطوفة على الصلة وتقديم الجار والمجرور للدلالة على قصر التوكل على الله تعالى وصيغة الاستقبال للدلالة على دوام التوكل أو حال من ضمير صبروا (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم) وقرئ بالياء مبنيا للمفعول وهو رد لقريش حين قالوا الله أجل من أن يكون له رسول من البشر كما هو مبنى قولهم لو شاء الله ما عبدنا الخ أي جرت السنة الإلهية حسبما اقتضته الحكمة بأن لا يبعث للدعوة العامة إلا بشرا يوحي إليهم بواسطة الملك أوامره ونواهيه ليبلغوها الناس ولما كان المقصود من الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم تنبيه الكفار على مضمونه صرف الخطاب إليهم فقيل (فاسئلوا أهل الذكر) أي أهل الكتاب أو علماء الأخبار أو كل من يذكر بعلم وتحقيق ليعلموكم ذلك (إن كنتم لا تعلمون) حذف جوابه لدلالة ما قبله عليه وفيه دلالة على أنه لم يرسل للدعوة العامة ملكا وقوله تعالى جاعل الملائكة رسلا معناه رسلا إلى الملائكة أو إلى الرسل ولا امرأة ولا صبيا ولا ينافيه نبوة عيسى عليه الصلاة والسلام وهو في المهد لأنها أعم من الرسالة وإشارة إلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يعلم (بالبينات والزبر) بالمعجزات والكتب والباء متعلقة بمقدر وقع جوابا عن سؤال من قال بم أرسلوا فقيل أرسلوا بالبينات والزبر أو بما أرسلنا داخلا تحت الاستثناء مع رجالا عند من يجوزه أي ما أرسلنا إلا رجالا بالبينات كقولك ما ضربت إلا زيدا بالسوط أو على نية التقديم قبل أداة الاستثناء أي

ما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر الا رجالا عنده من يتوزنات صلة ما قبل الا الى ما بعده أو بما وقع صفة للمستثنى أي الا رجالا ملتبسين
بالبينات أو بنوحي على المفعولية أو الحالية من القائم مقام فاعل يوحي وهو اليهم على أن قوله تعالى فاسألوا اعتراض أو بقوله لا تعلمون على
أن الشرط للتبكيت كقول الاجير ان كنت عملت لك فأعطني حقي (وأنزلنا اليك الذكر) أي القرآن وانما سمي به لأنه
تذكير وتنبيه للغافلين (لتبين للناس) كافة ويدخل فيهم أهل مكة دخولا أوليا (ما نزل اليهم) في ذلك الذكر من الاحكام والشرائع وغير ذلك من أحوال القرون المهلكة بأفانين العذاب حسب أعمالهم الموجبة لذلك على وجه التفصيل بيانا شافيا كما ينبئ عنه صيغة التفعيل في الفعلين لاسيما بعد ورود الثاني أولا على صيغة الافعال ولما أن التبيين أعم من التصريح بالمقصود ومن الارشاد الى ما يدل عليه ودل عليه القياس على الاطلاق سواء كان في الاحكام الشرعية أو غيرها ولعل قوله عز وجل (ولعلهم يتفكرون) اشارة الى ذلك أي ارادة أن يتأملوا فيتنبهوا للحقائق وما فيه من العبر ويحترزوا عما يؤدي الى مثل ما أصاب الاولين من العذاب (أفأمن الذين مكروا السيئات) هم أهل مكة الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وراموا صد أصحابه عن الايمان عليهم الرضوان لا الذين احتالوا
لهلاك الانبياء كما قيل ولا من يعم الفريقين لما أن المراد تحذير هؤلاء عن اصابة مثل ما أصاب أولئك من فنون وهم
العذاب المعدودة والسيئات نعت لمصدر محذوف أي مكروا المكرات السيئات التي قصت عنهم أو مفعول به للفعل المذكور على تضمينه
معنى العمل أي عملوا السيئات وقوله تعالى (أن يخسف الله بهم الارض) مفعول لأمن أو السيئات صفة لما هو المفعول أي أفأمن

ابدا حتى تأتيه فتبزق في وجهه وتطأ على عنقه فقال ففعل فقال عليه السلام لا ألقاك خارجا من مكة الا علوت
رأسك بالسيف فنزل ويوم يعض الظالم على يديه فداء فبعتي عقبة يقول ياليتني لم أتخذ أمية خليلا لقد
أضلني عن الذكر أي صرفني عن الذكر وهو القرآن والايمان بعد اذ جاءني مع محمد عليه السلام فأسر عقبة
يوم بدر فقتل صبرا ولم يقتل يومئذ من الاسارى غيره وغير النضر بن الحرث (الثاني) قالت الرافضة هذا
الظالم هو رجل بعينه وان المسلمين غيروا اسمه وكتموه وجعلوا فلانا بدلا من اسمه وذكروا فاضلين من أصحاب
رسول الله واعلم ان اجراء اللفظ على العموم ليس لنفس اللفظ لانا بينا في أصول الفقه أن الالف واللام اذا
دخل على الاسم المفرد لا يفيد العموم بل انما يفيده للقرينة من حيث ان ترتيب الحكم على الوصف مشعر
بعلية الوصف فدل ذلك على ان المؤثر في العض على اليدين كونه ظالما وحينئذ يعم الحكم لعموم علته وهذا
القول أولى من التخصيص بصورة واحدة لان هذا الذي ذكرناه يقتضي العموم ونزوله في واقعة أخرى
خاصة لا ينافي أن يكون المراد هو العموم حتى يدخل فيه تلك الصورة وغيرها ولان المقصود من الآية زجر
الكل عن الظلم وذلك لا يحصل الا بالعموم وأما قول الرافضة فذلك لا يتم الا بالطعن في القرآن واثبات
انه غير وبدل ولا نزاع في أنه كفر (المسألة الثانية) استدلت المعتزلة بقوله ويوم يعض الظالم على يديه قالوا
الظالم يتناول الكافر والفاسق فدل على أن الله تعالى لا يعفو عن صاحب الكبيرة والكلام عليه تقدم
(المسألة الثالثة) قوله يعض الظالم على يديه قال الضحاك يأكل يديه الى المرفق ثم تنبت فلا يزال كذلك
كلما أكلها نبتت وقال أهل التحقيق هذه اللفظة مشعرة بالتحسر والغم يقال عض أنامله وعض على يديه
(المسألة الرابعة) كما بينا ان الظالم غير مخصوص بشخص واحد بل يعم جميع الظلمة فكذا المراد بقوله فلانا
ليس شخصا واحدا بل كل من أطيع في معصية الله واستشهد القفال بقوله وكان الكافر على ربه ظهيرا
ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا يعني به جماعة الكفار (المسألة الخامسة) قرئ ياويلتي بالياء وهو الاصل
لان الرجل ينادي ويلته وهي هلكته يقول لها تعالى فهذا أوانك وانما قلبت الياء ألفا كما في صحارى
وعذارى (المسألة السادسة) قوله عن الذكر أي عن ذكر الله أو القرآن وموعظة الرسول ويجوز أن
يريد نطقه بشهادة الحق وعزيمته على الاسلام والشيطان اشارة الى خليله سماه شيطانا لانه أضله كما يضل
الشيطان ثم خذله ولم ينفعه في العاقبة أو أراد ابليس فانه هو الذي حمله على ان صار خليلا لذلك المضل
ومخالفة الرسول ثم خذله أو أراد الجنس وكل من تشيطن من الجن والانس ويحتمل أن يكون وكان
الشيطان حكاية كلام الظالم وأن يكون كلام الله ﴿قوله تعالى ﴿وقال الرسول يارب ان قومي اتخذوا
هذا القرآن مهجورا وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا﴾ اعلم أن
الكفار لما أكثروا من الاعتراضات الفاسدة ووجوه التعنت ضاق صدر الرسول صلى الله عليه وسلم وشكاهم
الى الله تعالى وقال يارب ان قومي اتخذوا وفيه مسائل (المسألة الاولى) أكثر المفسرين انه قول واقع من
الرسول صلى الله عليه وسلم وقال أبو مسلم بل المراد أن الرسول عليه السلام يقوله في الآخرة وهو كقوله
فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا والاول أولى لانه موافق للظاهر ولان ما ذكره
الله تعالى من قوله وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ولا يليق
الا اذا كان وقع ذلك القول منه (المسألة الثانية) ذكروا في المهجور قولين (الاول) انه من الهجران أي
تركوا الايمان به ولم يقبلوه وأعرضوا عن استماعه (الثاني) أنه من أهجر أي مهجورا فيه ثم حذف الجار
ويؤكده قوله تعالى مستكبرين به سامرا تهجرون ثم هجرهم فيه انهم كانوا يقولون انه سحر وشعر وكذب

ومهجوراً أي هذياناً وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال من تعلم القرآن وعلق مصحفاً لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقاً به يقول يا رب العالمين عبدك هذا اتخذني مهجوراً اقض بيني وبينه ثم انه تعالى قال مسلياً لرسوله عليه الصلاة والسلام ومعزياً له وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين بين بذلك ان له أسوة بسائر الرسل فليصبر على ما يلقاه من قومه كما صبروا ثم فيه مسائل (المسألة الاولى) احتج أصحابنا بهذه الآية على انه تعالى خالق الخير والشر لان قوله تعالى جعلنا لكل نبي عدواً يدل على أن تلك العداوة من جعل الله ولا شك أن تلك العداوة كفر قال الجبائي المراد من الجعل التبيين فانه تعالى لما بين انهم أعداء جاز أن يقول جعلناهم أعداء كما اذا بين الرجل ان فلاناً لص يقال جعله لصاً كما يقال في الحاكم عدل فلاناً وفسق فلاناً وجرحه وقال الكعبي انه تعالى لما أمر الانبياء بعداوة الكفار وعداوتهم للكفار تقتضي عداوة الكفار لهم فلهذا جاز أن يقول وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين لانه سبحانه هو الذي حمله ودعاه الى ما يستعقب تلك العداوة وقال أبو مسلم يحتمل في العدو أنه البعيد لا القريب اذ المعاداة المباعدة كما أن النصرة القرب والمظاهرة وقد باعد الله تعالى بين المؤمنين والكافرين (والجواب) عن الاول ان التبيين لا يسمونه البتة جعلاً لان من بين لغيره وجود الصانع وقدمه لا يقال انه جعل الصانع وجعل قدمه (والجواب) عن الثاني أن الذي أمر الله تعالى به هل له تأثير في وقوع العداوة في قلوبهم أو ليس له تأثير فان كان الاول فقد تم الكلام لان عداوتهم للرسول صلى الله عليه وسلم كفر فاذا أمر الله الرسول بما له أثر في تلك العداوة فقد أمر بما له أثر في وقوع الكفر وان لم يكن فيه تأثير البتة كان منقطعاً عنه بالكلية فيمتنع اسناده اليه وهذا هو الجواب عن قول أبي مسلم (المسألة الثانية) لقائل أن يقول ان قول محمد عليه السلام يا رب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً في المعنى كقول نوح عليه السلام رب اني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي الا فراراً وكأن المقصود من هذا انزال العذاب فكذا ههنا فكيف يليق هذا بمن وصفه الله بالرحمة في قوله وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ❊ جوابه أن نوحاً عليه السلام لما ذكر ذلك دعا عليهم وأما محمد عليه الصلاة والسلام فلما ذكر هذا ما دعا عليهم بل انتظر فلما قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين كان ذلك كالأمر له بالصبر على ذلك وترك الدعاء عليهم فظهر الفرق (المسألة الثالثة) قوله جعلنا صيغة العظماء والعظيم اذا ذكر نفسه في كل معرض من التعظيم وذكر أنه يعطي فلابد وأن تكون تلك العطية عظيمة كقوله ولقد آتيناك سبعاً من المثاني وقوله انا أعطيناك الكوثر فكيف يليق بهذه الصيغة أن تكون تلك العطية هي العداوة التي هي منشأ الضرر في الدين والدنيا وجوابه ان خالق العداوة سبب لازدياد المشقة التي هي موجبة لمزيد الثواب والله أعلم (المسألة الرابعة) يجوز أن يكون العدو واحداً وجمعاً كقوله فانهم عدو لي وجاء في التفسير أن عدو الرسول صلى الله عليه وسلم أبو جهل أما قوله وكفى بربك هادياً ونصيراً فقال الزجاج الباء زائدة يعني كفى ربك هادياً ونصيراً منصوبان على الحال هادياً الى مصالح الدين والدنيا نصيراً على الاعداء ونظيره يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ❊ قوله تعالى ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً﴾ اعلم أن هذا هو الشبهة الخامسة لمنكري نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وذلك أن أهل مكة قالوا تزعم أنك رسول من عند الله أفلا تأتينا بالقرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة جملة على موسى والانجيل على عيسى والزبور على داود وعن ابن جريج بين

الماكرون العقوبات السيئة وقوله أن يخسف الخ بدل من ذلك وعلى كل حال فالفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه النظم الكريم أي أنزلنا اليك الذكر لتبين لهم مضمونه الذي من جملته أنباء الامم المهلكة بفنون العذاب ويتفكروا في ذلك ألم يتفكروا فأمن الذين مكروا السيآت أن يخسف الله بهم الارض كما فعل بقارون على توجيه الانكار الى المعطوفين معاً أو اتفكروا فأمنوا على توجيه الانكار الى المعطوف على ان الامن بعد التفكر مما لا يكاد يفعله أحد وقيل هو عطف على مقدر ينبئ عنه الصلة أي أمكروا فأمن الذين مكروا الخ (أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون) باتيانه أي في حالة غفلتهم أو من مأمنهم أو من حيث يرجون اتيان ما يشتهون كما حكى فيما سلف مما نزل بالماكرين (أو يأخذهم في تقلبهم) أي في حالة تقلبهم في مسايرهم ومتاجرهم (فما هم بمعجزين) بممتنعين أو فائتين بالهرب والفرار على ما يوهمه حال التقلب والسير والفاء لتعليل الاخذ أو لترتيب عدم الاعجاز عليه دلالة على شدته وفظاعته حسبما قال عليه السلام ان الله ليملي للظالم حتى اذا أخذه لم يفلته وايراد الجملة الاسمية للدلالة على دوام النفي لا لنفي الدوام (أو يأخذهم على تخوف) أي مخافة وحذر عن الهلاك والعذاب بأن يهلك قوماً قبلهم فيتخوفوا فيأخذهم العذاب وهم متخوفون وحيث كانت حالتا التقلب والتخوف مظنة للهرب عبر عن اصابة العذاب فيهما بالاخذ وعن اصابته حالة الغفلة المنبئة عن السكون بالاتيان وقيل التخوف التنقص قال قائلهم

تخوف الرحل منها تامكاً قرداً ❊ كما تخوف عود النبعة السفن

أي يأخذهم على أن ينقصهم شيئاً بعد شيء في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا والمراد ذكر الاحوال الثلاث بيان قدرة الله سبحانه على

هلاكهم بأي وجه كان لا الحصر فيها (فان ربكم لرؤف رحيم) حيث لا يعاجلكم بالعقوبة ويحلم عنكم مع استحقاقكم لها (أولم يروا) استفهام انكاري وقرئ على صيغة الخطاب والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي ألم ينظروا ولم يروا متوجهين (الى ما خلق الله من شئ) أي من كل شئ (يتفيأ ظلاله) أي يرجع شيأ فشيأ حسبما يقتضيه ارادة الخالق تعالى فان التفيؤ مطاوع الافاءة وقرئ بتأنيث الفعل (عن اليمين والشمائل) أي الميمن والاشياء التي لها ظلال متفيئة عن أيمانها وشمائلها أي عن جانبي كل واحد منها استعير لهما ذلك من يمين الانسان وشماله (سجدا لله) حال من الظلال كقوله تعالى وظلالهم بالغدو والآصال والمراد بسجودها تصرفها على مشيئة الله سبحانه وتأتيها لارادته تعالى في الامتداد والتقلص وغيرهما غير ممتنعة عليه فيما سخرها له وقوله تعالى (وهم داخرون) أي صاغرون منقادون حال من الضمير في ظلاله والجمع باعتبار المعنى وايراد الصيغة الخاصة بالعقلاء لما أن الدخور من خصائصهم والمعنى ترجع الظلال من جانب الى جانب بارتفاع الشمس وانحدارها أو باختلاف مشارقها ومغاربها فانها كل يوم من أيام السنة تتحرك على مدار معين من المدارات اليومية بتقدير العزيز العليم منقادة لما قدر لها من التفيؤ أو واقعة على الارض ملتصقة بها على هيئة الساجد والحال أن أصحابها من الاجرام داخرة منقادة لحكمه تعالى ووصفها بالدخور مغن عن وصف ظلالها به أو كلاهما حال من الضمير المشار اليه والمعنى ترجع ظلال تلك الاجرام حال كونها منقادة لله تعالى داخرة فوصفها بهما مغن عن وصف ظلالها بهما ولعل المراد بالموصول الجمادات من الجبال والاشجار عليه

أوله وآخره ثنتان أو ثلاث وعشرون سنة وأجاب الله بقوله كذلك لنثبت به فؤادك وبيان هذا الجواب من وجوه (أحدها) أنه عليه السلام لم يكن من أهل القراءة والكتابة فلو نزل عليه ذلك جملة واحدة كان لا يضبطه ولجاز عليه الغلط والسهو وانما نزلت التوراة جملة لانها مكتوبة يقرؤها موسى (وثانيها) أن من كان الكتاب عنده فربما اعتمد على الكتاب وتساهل في الحفظ فالله تعالى ما أعطاه الكتاب دفعة واحدة بل كان ينزل عليه وظيفة ليكون حفظه له أكمل فيكون أبعد له عن المساهلة وقلة التحصيل (وثالثها) أنه تعالى لو أنزل الكتاب جملة واحدة على الخلق لنزلت الشرائع بأسرها دفعة واحدة على الخلق فكان يثقل عليهم ذلك أما لما نزل مفرقا منجما لا جرم نزلت التكاليف قليلا قليلا فكان تحملها أسهل (ورابعها) أنه اذا شاهد جبريل حالا بعد حال يقوى قلبه بمشاهدته فكان أقوى على أداء ما حمل وعلى الصبر على عوارض النبوة وعلى احتمال أذية قومه وعلى الجهاد (وخامسها) أنه لما تم شرط الاعجاز فيه مع كونه منجما ثبت كونه معجزا فانه لو كان ذلك مقدور البشر لوجب أن يأتوا بمثله منجما مفرقا (وسادسها) كان القرآن ينزل بحسب أسئلتهم والوقائع الواقعة لهم فكانوا يزدادون بصيرة لان بسبب ذلك كان ينضم الى الفصاحة الاخبار عن الغيوب (وسابعها) أن القرآن لما نزل منجما مفرقا وهو عليه السلام كان يتحداهم من أول الامر فكأنه تحداهم بكل واحد من نجوم القرآن فلما عجزوا عنه كان عجزهم عن معارضة الكل أولى فبهذا الطريق ثبت في فؤاده أن القوم عاجزون عن المعارضة لا محالة (وثامنها) أن السفارة بين الله تعالى وبين أنبيائه وتبليغ كلامه الى الخلق منصب عظيم فيحتمل أن يقال انه تعالى لو أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم دفعة واحدة لبطل ذلك المنصب على جبريل عليه السلام فلما أنزله مفرقا منجما بقي ذلك المنصب العالي عليه فلاجل ذلك جعله الله سبحانه وتعالى مفرقا منجما أما قوله كذلك ففيه وجهان (الاول) أنه من تمام كلام المشركين أي جملة واحدة كذلك أي كالتوراة والانجيل وعلى هذا الاحتياج الى اضمار في الآية وهو أن يقول أنزلناه مفرقا لنثبت به فؤادك (الثاني) أنه كلام الله تعالى ذكره جوابا لهم أي كذلك أنزلناه مفرقا فان قيل ذلك في كذلك يجب أن يكون اشارة الى شئ تقدمه والذي تقدم فهو انزاله جملة فكيف فسر به كذلك أنزلناه مفرقا قلنا لان قولهم لولا نزل عليه جملة واحدة معناه لم نزل مفرقا فذلك اشارة اليه أما قوله تعالى ورتلناه ترتيلا فمعنى الترتيل في الكلام أن يأتي بعضه على اثر بعض على تؤدة وتمهل وأصل الترتيل في الاسنان وهو تفلجها يقال ثغر رتل ومرتل وهو ضد المتراص ثم انه سبحانه وتعالى لما بين فساد قولهم بالجواب الواضح قال ولا يأتونك بمثل من الجنس الذي تقدم ذكره من الشبهات الا جئناك بالحق الذي يدفع قولهم كما قال تعالى بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق وبين أن الذي يأتي به أحسن تفسيرا لاجل ما فيه من المزية في البيان والظهور ولما كان التفسير هو الكشف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه فقالوا تفسير هذا الكلام كيت وكيت كما قيل معناه كذا وكذا أما قوله الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس على ثلاثة أصناف صنف على الدواب وصنف على الاقدام وصنف على الوجوه وعنه عليه السلام ان الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم (المسئلة الثانية) الاقرب أنه صفة للقوم الذين أوردوا هذه الاسئلة على سبيل التعنت وان كان غيرهم من أهل النار يدخل معهم (المسئلة الثالثة) حمله بعضهم على أنهم يمشون في الآخرة مقلوبين وجوههم الى القرار وأرجلهم الى فوق وروى ذلك عن الرسول صلى الله عليه وسلم وقال آخرون المراد انهم يشرون ويسحبون على وجوههم وهذا أيضا مروي عن الرسول

عليه الصلاة والسلام وهو أولى وقال الصوفية الذين تعلقت قلوبهم بما سوى الله فاذا ماتوا بقى ذلك التعلق فعبر عن تلك الحالة بأنهم يحشرون على وجوههم الى جهنم ثم بين تعالى انهم شر مكانا من أهل الجنة وأضل سبيلا وطريقا والمقصود منه الزجر عن طريقهم والسؤال عليه كما ذكرناه على قوله أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وقد تقدم الجواب عنه * واعلم أنه تعالى بعد أن تكلم في التوحيد ونفي الانداد واثبات النبوة والجواب عن شبهات المنكرين لها وفي أحوال القيامة شرع في ذكر القصص على السنة المعلومة (القصة الاولى) قوله تعالى ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيرا فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا﴾ اعلم أنه تعالى لما قال وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا أتبعه بذكر جماعة من الانبياء وعرفه بما نزل بمن كذب من أممهم فقال ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيرا والمعنى لست يا محمد بأول من أرسلناه فكذب وآتيناه الآيات فرد فقد آتينا موسى التوراة وقوينا عضده بأخيه هرون ومع ذلك فقد رد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كونه وزيرا لا يمنع من كونه شريكاله في النبوة فلا وجه لقول من قال في قوله فقلنا اذهبا انه خطاب لموسى عليه السلام وحده بل يجري مجرى قوله اذهبا الى فرعون انه طغى فان قيل ان كونه وزيرا كالمنافي لكونه شريكا بل يجب أن يقال انه لما صار شريكا خرج عن كونه وزيرا قلنا لا منافاة بين الصفتين لانه لا يمتنع أن يشرك في النبوة ويكون وزيرا وظهيرا ومعينا له (المسئلة الثانية) قال الزجاج الوزير في اللغة الذي يرجع اليه ويتحصن برأيه والوزر ما يعتصم به ومنه كلا لا وزر أى لا منجى ولا ملجأ قال القاضي ولذلك لا يوصف تعالى بأن له وزيرا ولا يقال فيه أيضا انه وزير لان الالتجاء اليه في المشاورة والرأى على هذا الحد لا يصح (المسئلة الثالثة) دمرناهم أهلكناهم اهلاكا فان قيل الفاء للتعقيب والاهلاك لم يحصل عقيب ذهاب موسى وهرون اليهم بل بعد مدة مديدة قلنا التعقيب محمول ههنا على الحكم لا على الوقوع وقيل انه تعالى أراد اختصار القصة فذكر حاشيتيها أولها وآخرها لانهما المقصود من القصة بطولها أعني الزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم (المسئلة الرابعة) قوله تعالى اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا ان حملنا تكذيب الآيات على تكذيب آيات الالهية فلا اشكال وان حملناه على تكذيب آيات النبوة فاللفظ وان كان للماضي الا أن المراد هو المستقبل (القصة الثانية) قصة نوح عليه السلام ﴿قوله تعالى ﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما﴾ اعلم أنه تعالى انما قال كذبوا الرسل اما لانهم كانوا من البراهمة المنكرين لكل الرسل أو لانه كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيبا للجميع لان تكذيب الواحد منهم لا يمكن الا بالقدح في المعجز وذلك يقتضي تكذيب الكل أو لان المراد بالرسل وان كان نوحا عليه السلام وحده ولكنه كما يقال فلان يركب الافراس أما قوله أغرقناهم فقال الكلبي أمطر الله عليهم السماء أربعين يوما وأخرج ماء الارض أيضا في تلك الاربعين فصارت الارض بحرا واحدا وجعلناهم أى وجعلنا اغراقهم أو قصتهم آية وأعتدنا للظالمين أى لكل من سلك سبيلهم في تكذيب الرسل عذابا أليما ويحتمل أن يكون المراد قوم نوح (القصة الثالثة) ﴿قوله تعالى ﴿وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وكلا ضربنا له الامثال وكلا تبرنا تتبيرا﴾ في الآية مسائل (المسئلة الاولى) عطف عادا على هم في وجعلناهم أو على الظالمين لان المعنى ووعدنا الظالمين (المسئلة الثانية) قرئ وثمود على تأويل القبيلة واما على المنصرف فعلى تأويل الحي أو لانه اسم للاب الاكبر (المسئلة الثالثة) قال أبو عبيدة الرس هو البئر غير المطوية قال أبو مسلم في البلاد موضع يقال له الرس فجائز

والاحجار التي لا يظهر لاظلالها أثر سوى التفيؤ بما ذكر من ارتفاع الشمس وانحدارها أو اختلاف مشارقها ومغاربها وأما الحيوان فظلاله يتحرك بتحركه وقيل المراد باليمين والشمائل يمين الفلك وهو جانبه الشرقي لان الكواكب منه تظهر آخذة في الارتفاع والسطوع وشماله وهو جانبه الغربي المقابل له فان الظلال في أول النهار تبتدئ من الشرق واقعة على الربع الغربي من الارض وعند الزوال تبتدئ من الغرب واقعة على الربع الشرقي منها وبعد ما بين سجود الظلال وأصحابها من الاجرام السفلية الثابتة في احيازها ودخورها له سبحانه وتعالى شرع في بيان سجود المخلوقات المتحركة بالارادة سواء كانت لها ظلال أو لا فقيل (ولله يسجد) أى له تعالى وحده يخضع وينقاد لا لشئ غيره استقلالا أو اشتراكا فالقصر ينتظم القلب والافراد الا أن الانسب بحال المخاطبين قصر الافراد كما يؤذن به قوله تعالى وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين (ما في السموات) قاطبة (وما في الارض) كائنا ما كان (من دابة) بيان لما في الارض وتقديمه لقلته ولئلا يقع بين المبين والمبين فصل والافراد مع أن المراد الجمع لافادة وضوح شمول السجود لكل فرد من الدواب قال الاخفش هو كقولك ما أتاني من رجل مثله وما أتاني من الرجال مثله (والملائكة) عطف على ما في السموات عطف جبريل على الملائكة تعظيما واجلالا أو على أن يراد بما في السموات الخلق الذي يقال له الروح أو يراد به ملائكة السموات وبقوله والملائكة ملائكة الارض من الحفظة وغيرهم (وهم) أى الملائكة مع علو شأنهم (لا يستكبرون) عن عبادته عز وجل والسجود له وتقديم الضمير ليس للقصر والجملة اما حال من ضمير الفاعل في يسجد مسند الى الملائكة أو استئناف أخبر عنهم بذلك (يخافون ربهم) أى مالك

أمرهم وفيه تربية للمهابة وإشعار بعلة الحكم (من فوقهم) أي يخافونه جل وعلا خوف هيبة وإجلال وهو فوقهم بالقهر كقوله تعالى وهو القاهر فوق عباده أو يخافون أن يرسل عليهم عذابا من فوقهم والجملة حال من الضمير في لا يستكبرون أو بيان له وتقرير لأن من يخاف الله سبحانه لا يستكبر عن عبادته ٣٧٤ (ويفعلون ما يؤمرون) أي ما يؤمرون به من الطاعات والتدبيرات وإيراد الفعل مبنيا للمفعول جرى على سنن الجلالة وإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بالفاعل لاستحالة استناده إلى غيره سبحانه وفيه أن الملائكة مكلفون مدارون بين الخوف والرجاء وبعدما بين أن جميع الموجودات يخصون له بالخضوع والانقياد الطبيعي وما يجري مجراه من عبادة الملائكة حيث لا يتصور منهم عدم الانقياد أصلا لله عز وجل أردف ذلك بحكاية نهيه سبحانه وتعالى للمكلفين عن الإشراك فقيل (وقال الله) عطفا على قوله ولله يسجد وإظهار الفاعل وتخصيص لفظة الجلالة بالذكر للإيذان بأنه متعين الألوهية وإنما المنهي عنه هو الإشراك به لا أن المنهي عنه مطلق اتخاذ إلهين بحيث يتحقق الانتهاء عنه برفض أيهما كان أي قال تعالى لجميع المكلفين (لا تتخذوا إلهين اثنين) وإنما ذكر العدد مع أن صيغة التثنية مغنية عن ذلك دلالة على أن مساق النهي هي الاثنينية وأنها منافية للألوهية كما أن وصف الإله بالوحدة في قوله تعالى (إنما هو إله واحد) للدلالة على أن المقصود إثبات (الرابعة) الوحدانية وأنها من لوازم الإلهية وأما الإلهية فأمر مسلم الثبوت له سبحانه وإليه أشير حيث أسند إليه القول وفيه التفات من التكلم إلى الغيبة على رأي من اكتفى في تحقق الالتفات بكون الأسلوب الملتفت عنه حق الكلام ولم يشترط سبق الذكر على ذلك الوجه (فإياي

أن يكون ذلك الوادي سكنا لهم والرس عند العرب الدفن ويسمى به الحفر يقال رس الميت إذا دفن وغيب في الحفرة وفي التفسير أنه البئر وأي شيء كان فقد أخبر الله تعالى عن أهل الرس بالهلاك انتهى (المسألة الرابعة) ذكر المفسرون في أصحاب الرس وجوها (أحدها) كانوا قوما من عبدة الأصنام أصحاب آبار ومواش فبعث الله تعالى إليهم شعيبا عليه السلام فدعاهم إلى الإسلام فتمادوا في طغيانهم وفي إيذائه فبينما هم حول الرس خسف الله بهم وبدارهم (وثانيها) الرس قرية بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فهلكوا وهم بقية ثمود (وثالثها) هم أصحاب النبي حنظلة بن صفوان كانوا مبتلين بالعنقاء وهي أعظم ما يكون من الطير سميت بذلك لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له فتخ وهي تنقض على صبيانهم فتخطفهم إن أعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة ثم إنهم قتلوا حنظلة فأهلكوا (ورابعها) هم أصحاب الأخدود والرس هو الأخدود (وخامسها) الرس أنطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار وقيل كذبوه ورسوه في بئر أي دسوه فيها (وسادسها) عن علي عليه السلام أنهم كانوا قوما يعبدون شجرة الصنوبر وإنما سموا بأصحاب الرس لأنهم رسوا نبيهم في الأرض (وسابعها) أصحاب الرس قوم كانت لهم قرى على شاطئ نهر يقال له الرس من بلاد المشرق فبعث الله تعالى إليهم نبيا من ولد يهودا بن يعقوب فكذبوه فلبث فيهم زمانا فشكا إلى الله تعالى منهم فحفروا بئرا ورسوه فيها وقالوا نرجوا أن يرضى عنا إلهنا وكانوا عامة يومهم يسمعون أنين نبيهم يقول إلهي وسيدي ترى ضيق مكاني وشدة كربي وضعف قلبي وقلة حيلتي فعجل قبض روحي حتى مات فأرسل الله تعالى ريحا عاصفة شديدة الحمرة فصارت الأرض من تحتهم حجر كبريت متوقد وأظلتهم سحابة سوداء فذابت أبدانهم كما يذوب الرصاص (وثامنها) روى ابن جرير عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله بعث نبيا إلى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها أحد إلا عبد أسود ثم عدوا على الرسول فحفروا له بئرا فألقوه فيها ثم أطبقوا عليه حجرا ضخما وكان ذلك العبد يحتطب فيشتري له طعاما وشرابا ويرفع الصخرة ويدليه إليه فكان ذلك ما شاء الله فاحتطب يوما فلما أراد أن يحملها وجد نوما فاضطجع فضرب الله على أذنه سبع سنين نائما ثم انتبه وتمطى وتحول لشقه الآخر فنام سبع سنين أخرى ثم هب فحمل حزمته فظن أنه نام ساعة من نهار فجاء إلى القرية فباع حزمته واشترى طعاما وشرابا وذهب إلى الحفرة فلم يجد أحدا وكان قومه قد استخرجوه وآمنوا به وصدقوه وكان ذلك النبي يسألهم عن الأسود فيقولون لا ندري حاله حتى قبض الله النبي وقبض ذلك الأسود فقال عليه السلام إن ذلك الأسود لأول من يدخل الجنة (واعلم) أن القول ما قاله أبو مسلم وهو أن شيئا من هذه الروايات غير معلوم بالقرآن ولا بخبر قوي الإسناد ولكنهم كيف كانوا فقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم أهلكوا بسبب كفرهم (المسألة الخامسة) قال النخعي القرن أربعون سنة وقال علي عليه السلام بل سبعون سنة وقيل مائة وعشرون (المسألة السادسة) قوله بين ذلك أي بين ذلك المذكور وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير إليها بذلك ويحسب الحاسب أعدادا متكاثرة ثم يقول فذلك كيت وكيت على معنى فذلك المحسوب أو المعدود أما قوله وكلا ضربنا له الأمثال فالمراد بينا لهم وأزحنا عللهم فلما كذبوا تبرناهم تتبيرا ويحتمل وكلا ضربنا له الأمثال بأن أجبناهم عما أوردوه من الشبه في تكذيب الرسل كما أورده قومك يا محمد فلما لم ينجع فيهم تبرناهم تتبيرا فحذر تعالى بذلك قوم محمد صلى الله عليه وسلم في الاستمرار على تكذيبه لئلا ينزل بهم مثل الذي نزل بالقوم عاجلا وآجلا (المسألة السابعة) كلا الأول منصوب بما دل عليه ضربنا له الأمثال وهو أنذرنا أو حذرنا والثاني بتبرنا لأنه فارغ له (المسألة الثامنة) التتبير التفتيت والتكسير ومنه التبر وهو كسارة الذهب والفضة والزجاج (القصة

(الرابعة) ﴿قوله تعالى ﴿ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا﴾ واعلم أنه تعالى أراد بالقرية سدوم من قرى قوم لوط عليه السلام وكانت خمسا أهلك الله تعالى أربعا بأهلها وبقيت واحدة ومطر السوء الحجارة يعنى أن قريشا مروا مرارا كثيرة فى متاجرهم الى الشام على تلك القرية التى أهلكت بالحجارة من السماء أفلم يكونوا فى مرورهم ينظرون الى آثار عذاب الله تعالى ونكاله بل كانوا قوما كفرة لا يرجون نشورا وذكروا فى تفسير يرجون وجوها (أحدها) وهو الذى قاله القاضى وهو الاقوى أنه محمول على حقيقة الرجاء لان الانسان لا يتحمل متاعب التكاليف ومشاق النظر والاستدلال الا لرجاء ثواب الآخرة فاذا لم يؤمن بالآخرة لم يرج ثوابها فلا يتحمل تلك المشاق والمتاعب (وثانيها) معناه لا يتوقعون نشورا فوضع الرجاء موضع التوقع لانه انما يتوقع العاقبة من يؤمن (وثالثها) معناه لا يخافون على اللغة التهامية وهو ضعيف والاول هو الحق ﴿قوله تعالى ﴿واذا رأوك ان يتخذونك الا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا﴾ اعلم أنه سبحانه لما بين مبالغة المشركين فى انكار نبوته وفى ايراد الشبهات فى ذلك بين بعد ذلك أنهم اذا رأوا الرسول اتخذوه هزوا فلم يقتصروا على ترك الايمان به بل زادوا عليه بالاستهزاء والاستحقار ويقول بعضهم لبعض أهذا الذى بعث الله رسولا وفيه مسائل (المسألة الاولى) قال صاحب الكشاف ان الاولى نافية والثانية مخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة بينهما (المسألة الثانية) جواب اذا هو ما أضمر من القول يعنى واذا رأوك مستهزئين قالوا أبعث الله هذا رسولا وقوله ان يتخذونك جملة اعترضت بين اذا وجوابها (المسألة الثالثة) اتخذوه هزوا فى معنى استهزؤا به والاصل اتخذوه موضع هزء أو مهزوا به (المسألة الرابعة) اعلم أن الله تعالى أخبر عن المشركين انهم متى رأوا الرسول أتوا بنوعين من الافعال (أحدهما) أنهم يستهزؤن به وفسر ذلك الاستهزاء بقوله أهذا الذى بعث الله رسولا وذلك جهل عظيم لان الاستهزاء اما أن يقع بصورته أو بصفته أما الاول فباطل لانه عليه الصلاة والسلام كان أحسن منهم صورة وخلقة وبتقدير انه لم يكن كذلك لكنه عليه السلام ما كان يدعى التميز عنهم بالصورة بل بالحجة وأما الثانى فباطل لانه عليه السلام ادعى التميز عنهم فى ظهور المعجز عليه دونهم وانهم ما قدروا على القدح فى حجته ودلالته ففى الحقيقة هم الذين يستحقون أن يهزأبهم ثم انهم لوقاحتهم قلبوا القضية واستهزؤا بالرسول عليه السلام وذلك يدل على أنه ليس للمبطل فى كل الاوقات الا السفاهة والوقاحة (وثانيهما) انهم كانوا يقولون فيه ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وذلك يدل على أمور (الاول) أنهم سموا ذلك اضلالا وذلك يدل على انهم كانوا مبالغين فى تعظيم آلهتهم وفى استعظام صنيعه صلى الله عليه وسلم فى صرفهم عنه وذلك يدل على انهم كانوا يعتقدون أن هذا هو الحق فمن هذا الوجه يبطل قول أصحاب المعارف فى انه لا يكفر الا من يعرف الدلائل لانهم جهلوه ثم نسبهم الله تعالى الى الكفر والضلال وقولهم لولا أن صبرنا عليها يدل أيضا على ذلك (الثانى) يدل هذا القول منهم على جد الرسول عليه السلام واجتهاده فى صرفهم عن عبادة الاوثان ولولا ذلك لما قالوا ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وهكذا كان عليه السلام فانه فى أول الامر بالغ فى ايراد الدلائل والجواب عن الشبهات وتحمل ما كانوا يفعلونه من أنواع السفاهة وسوء الادب (الثالث) أن هذا يدل على اعتراف القوم بانهم لم يعترضوا البتة على دلائل الرسول صلى الله عليه وسلم وما عارضوها الا بمحض الجحود والتقليد لان قولهم لولا أن صبرنا عليها اشارة الى الجحود

فارهبون) التفات من الغيبة الى التكلم لتربية المهابة والقاء الرهبة فى القلوب ولذلك قدم المعمول وكرر الفعل أى ان كنتم راهبين شيأ فاياى ارهبوا فارهبون لاغيرفانى ذلك الواحد الذى يسجد له ما فى السموات والارض (وله ما فى السموات والارض) خلقا وملكا تقرير لعلة انقياد ما فيهما له سبحانه خاصة وتحقيق لتخصيص الرهبة به تعالى وتقديم الظرف لتقوية ما فى ٣٧٥ اللام من معنى الاختصاص وكذا فى قوله تعالى (وله الدين) أى الطاعة والانقياد (واصبا) أى واجبا ثابتا لازوال له لما تقرر أنه الاله وحده الحقيق بأن يرهب وقيل واصبا من الوصب أى وله الدين ذا كلفة وقيل الدين الجزاء أى وله الجزاء الدائم بحيث لا ينقطع ثوابه لمن آمن وعقابه لمن كفر (أفغير الله تتقون) الهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه السياق أى أعقيب تقرر الشؤن المذكورة من تخصيص جميع الموجودات لسجوديه تعالى وكون ذلك كله له ونهيه عن اتخاذ الانداد وكون الدين له واصبا المستدعى ذلك لتخصيص التقوى به سبحانه غير الله الذى شأنه ما ذكر تتقون فتطيعون (وما بكم) أى أى شئ يلابسكم ويصاحبكم (من نعمة) أية نعمة كانت (فمن الله) فهى من الله فما شرطية أو موصولة متضمنة لمعنى الشرط باعتبار الاخبار دون الحصول فان ملابسة النعمة بهم سبب للاخبار بأنها منه تعالى لا لكونها منه تعالى (ثم اذا مسكم الضر) مساسا يسيرا (فاليه تجأرون) تتضرعون فى كشفه لا الى غيره والجؤار رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة قال الاعشى يراوح من صلوات المليك طورا سجودا وطورا جؤارا * وقرئ تجرون بطرح الهمزة والقاء حركتها الى ما قبلها وفى ذكر المساس المنبئ عن أدنى اصابة وايراده بالجملة الفعلية المعربة عن الحدوث مع ثم الدالة على وقوعه بعد برهة

من الله وتحليته بلام الجنس المفيد فان مساس أدنى ما ينطلق عليه اسم الجنس مع ايراد النعمة بالجملة الاسمية الدالة على الدوام والتعبير عنه بلا يستم التفاطين باعادة المصاحبة وايراد ما المعربة عن العموم مما لا يخفى من الجزالة والفخامة وادخل الفاء في أداة دون ان للتوسل به الى تحقق وقوع الجواب (ثم اذا كشف الضر عنكم) وقرئ كاشف الضر وكلمة ثم ليست للدلالة على تمادي زمان مساس

الضر ووقوع الكشف بعد برهة مديدة بل للدلالة على تراخي رتبة ما يترتب عليه من مقابلة الاشراك المداول عليها بقوله سبحانه (اذا فريق منكم بربهم يشركون) فان ترتبها على ذلك في أبعد غاية من الضلال ثم ان وجه الخطاب الى الناس جميعا فمن للتبعيض والفريق فريق الكفرة وان وجه الى الكفرة فمن للبيان كأنه قيل اذا فريق كافر وهم أنتم ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر وازدجر كقوله تعالى فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد فمن تبعيضية أيضا والتعرض لوصف الربوبية للايذان بكمال قبح ما ارتكبوه من الاشراك والكفران (ليكفروا بما آتيناهم) من نعمة الكشف عنهم كأنهم جعلوا غرضهم في الشرك كفران النعمة وانكار كونها من الله عز وجل (فتمتعوا) أمر تهديد والالتفات الى الخطاب للايذان بتناهي السخط وقرئ بالياء مبنيا للمفعول عطفا على ليكفروا على أن يكون كفران النعمة والتمتع غرضا لهم من الاشراك ويجوز أن يكون اللام لام الامر الوارد للتهديد (فسوف تعلمون) عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب وفيه وعيد أكيد منبئ عن أخذ شديد حيث لم يذكر المفعول اشعارا بأنه مما لا يوصف العظيم (ويجعلون) اما عطف على ما سبق بحسب المعنى تعدادا لجناياتهم أي يفعلون ما يفعلون من الجؤار الى الله تعالى عند مساس الضر ومن

والتقليد ولو ذكروا اعتراضا في دلائل الرسول عليه السلام لكان ذكر ذلك أولى من ذكر مجرد الجحود والاصرار الذي هو دأب الجهال وذلك يدل على أن القوم كانوا مقهورين تحت حجته عليه السلام وانه ما كان في أيديهم الا مجرد الوقاحة (الرابع) الآية تدل على أن القوم صاروا في ظهور حجته عليه السلام عليهم كالمجانين لانهم استهزؤا به أولا ثم وصفوه بانه كاد يضلنا عن آلهتنا لولا أن قابلناه بالجحود والاصرار فهذا الكلام الاخير يدل على أن القوم سلموا له قوة الحجة وكمال العقل والكلام الاول وهو السخرية والاستهزاء لا يليق الا بالجاهل العاجز فالقوم لما جمعوا بين هذين الكلامين دل ذلك على انهم كانوا كالمتحيرين في أمره فتارة بالوقاحة يستهزؤن منه وتارة يصفونه بما لا يليق الا بالعالم الكامل ثم انه سبحانه لما حكى عنهم هذا الكلام زيف طريقتهم في ذلك من ثلاثة أوجه (أولها) قوله وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا لانهم لما وصفوه بالاضلال في قولهم ان كاد ليضلنا بين تعالى انه سيظهر لهم من المضل ومن الضال عند مشاهدة العذاب الذي لا مخلص لهم منه فهو وعيد شديد لهم على التعامي والاعراض عن الاستدلال والنظر (وثانيها) قوله تعالى أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا والمعنى انه سبحانه بين ان بلوغ هؤلاء في جهالتهم واعراضهم عن الدلائل انما كان لاستيلاء التقليد عليهم وانهم اتخذوا أهواءهم آلهة فكل ما دعاهم الهوى اليه انقادوا له سواء منع الدليل منه أو لم يمنع ثم ههنا أبحاث (الاول) قوله أرأيت كلمة تصلح للاعلام والسؤال وههنا هي تعجيب من جهل من هذا وصفه ونعته (الثاني) قوله اتخذ الهه هواه معناه اتخذ الهه ما يهواه أو الها يهواه وقيل هو مقلوب ومعناه اتخذ هواه الهه وهذا ضعيف لان قوله اتخذ الهه هواه يفيد الحصر أي لم يتخذ لنفسه الها الا هواه وهذا المعنى لا يحصل عند القلب قال ابن عباس الهوى اله يعبد وقال سعيد بن جبير كان الرجل من المشركين يعبد الصنم فاذا رأى أحسن منه رماه واتخذ الآخر وعبده (الثالث) قوله أفأنت تكون عليه وكيلا أي حافظا تحفظه من اتباع هواه أي لست كذلك (الرابع) نظير هذه الآية قوله تعالى لست عليهم بمسيطر وقوله وما أنت عليهم بجبار وقوله لا اكراه في الدين قال الكلبي نسختها آية القتال (وثالثها) قوله أم تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون أم ههنا منقطعة معناه بل تحسب وذلك يدل على أن هذه المذمة أشد من التي تقدمتها حتى حقت بالاضراب عنها اليها وهي كونهم مسلوبي الاسماع والعقول لانهم لشدة عنادهم لا يصغون الى الكلام واذا سمعوه لا يتفكرون فيه فكأنه ليس لهم عقل ولا سمع البتة فعند ذلك شبههم بالانعام في عدم انتفاعهم بالكلام وعدم اقدامهم على التدبر والتفكر واقبالهم على اللذات الحاضرة الحسية واعراضهم عن طلب السعادات الباقية العقلية وههنا سؤالات (السؤال الاول) لم قال أم تحسب أن أكثرهم فحكم بذلك على الاكثر دون الكل (والجواب) لانه كان فيهم من يعرف الله تعالى ويعقل الحق الا انه ترك الاسلام لمجرد حب الرياسة لا للجهل (السؤال الثاني) لم جعلوا أضل من الانعام الجواب من وجوه (أحدها) ان الانعام تنقاد لاربابها وللذي يعلفها ويتعهدها وتميز بين من يحسن اليها وبين من يسيء اليها وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يميزون بين احسانه اليهم وبين اساءة الشيطان اليهم الذي هو عدو لهم ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم المنافع ولا يحترزون من العقاب الذي هو أعظم المضار (وثانيها) ان قلوب الانعام كما انها تكون خالية عن العلم فهي خالية عن الجهل الذي هو اعتقاد المعتقد على خلاف ما هو عليه مع التصميم وأما هؤلاء فقلوبهم كما خلت عن العلم فقد اتصفت بالجهل فانهم لا يعلمون ولا يعلمون انهم لا يعلمون بل هم مصرون على انهم يعلمون (وثالثها) أن عدم علم الانعام لا يضر باحد أما جهل هؤلاء فانه منشأ للضرر

العظيم لانهم يصدون الناس عن سبيل الله ويبغونها عوجا (ورابعها) أن الانعام لا تعرف شيأ ولكنهم عاجزون عن الطلب وأما هؤلاء الجهال فانهم ليسوا عاجزين عن الطلب والمحروم عن طلب المراتب العالية اذا عجز عنه لا يكون في استحقاق الذم كالقادر عليه التارك له لسوء اختياره (وخامسها) أن البهائم لا تستحق عقابا على عدم العلم أما هؤلاء فانهم يستحقون عليه أعظم العقاب (وسادسها) أن البهائم تسبح الله تعالى على مذهب بعض الناس على ما قال وان من شئ الا يسبح بحمده وقال ألم تر أن الله يسجد له من في السموات الى قوله والدواب وقال والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه واذا كان كذلك فضلال الكفار أشد وأعظم من ضلال هذه الانعام (السؤال الثالث) انه سبحانه لما نفى عنهم السمع والعقل فكيف ذمهم على الاعراض عن الدين وكيف بعث الرسول اليهم فان من شرط التكليف العقل (الجواب) ليس المراد انهم لا يعقلون بل انهم لا ينتفعون بذلك العقل فهو كقول الرجل لغيره اذا لم يفهم انما أنت أعمى وأصم

قوله تعالى ﴿ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا﴾

اعلم انه تعالى لما بين جهل المعرضين عن دلائل الله تعالى وفساد طريقهم في ذلك ذكر بعده أنواعا من الدلائل الدالة على وجود الصانع (النوع الاول) الاستدلال بحال الظل في زيادته ونقصانه وتغيره من حال الى حال وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله ألم تر فيه وجهان (أحدهما) انه من رؤية العين (والثانى) انه من رؤية القلب يعنى العلم فان حملناه على رؤية العين فالمعنى ألم تر الى الظل كيف مده ربك وان كان تخريجه على عادة العرب أفصح وان حملناه على العلم وهو اختيار الزجاج فالمعنى ألم تعلم وهذا أولى وذلك أن الظل اذا جعلناه من المبصرات فتأثير قدرة الله تعالى في تمديده غير مرئى بالاتفاق ولكنه معلوم من حيث ان كل متغير جائز وكل جائز فله مؤثر فحمل هذا اللفظ على رؤية القلب أولى من هذا الوجه (المسئلة الثانية) المخاطب بهذا الخطاب وان كان هو الرسول عليه السلام بحسب ظاهر اللفظ ولكن الخطاب عام في المعنى لان المقصود من الآية بيان نعم الله تعالى بالظل وجميع المكلفين مشتركون في انه يجب تنبيههم لهذه النعمة وتمكينهم من الاستدلال بها على وجود الصانع (المسئلة الثالثة) الناس أكثروا في تأويل هذه الآية والكلام الملخص يرجع الى وجهين (الاول) أن الظل هو الامر المتوسط بين الضوء الخالص وبين الظلمة الخالصة وهو ما بين ظهور الفجر الى طلوع الشمس وكذا الكيفيات الحاصلة داخل السقف وأفنية الجدران وهذه الحالة أطيب الاحوال لان الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس وأما الضوء الخالص وهو الكيفية الفائضة من الشمس فهى لقوتها تبهر الحس البصرى وتفيد السخونة القوية وهى مؤذية فاذن أطيب الاحوال هو الظل ولذلك وصف الجنة به فقال وظل ممدود واذا ثبت هذا فنقول انه سبحانه بين انه من النعم العظيمة والمنافع الجليلة ثم ان الناظر الى الجسم الملون وقت الظل كأنه لا يشاهد شيأ سوى الجسم وسوى اللون ونقول الظل ليس أمرا ثالثا ولا يعرف ولا يعرف به الا انه اذا طلعت الشمس ووقع ضوءها على الجسم زال ذلك الظل فلولا الشمس ووقوع ضوئها على الاجرام لما عرف ان للظل وجودا وماهية لان الاشياء انما تعرف باضدادها فلولا الشمس لما عرف الظل ولولا الظلمة لما عرف النور فكأنه سبحانه وتعالى لما أطلع الشمس على الارض وزال الظل فحينئذ ظهر للعقول أن الظل كيفية زائدة على الجسم واللون فلهذا قال سبحانه ثم جعلنا الشمس عليه دليلا أى خلقنا الظل أولا بما فيه من المنافع

الاشراك به عند كشفه ويجعلون (لما لا يعلمون) أى لما لا يعلمون حقيقته وقدره الخسيس من الجمادات التى يتخذونها شركاء لله سبحانه جهالة وسفاهة ويزعمون انها تنفعهم وتشفع لهم على أن ما موصولة والعائد اليها محذوف أو لما لا علم له أصلا وليس من شأنه ذلك فما موصولة أيضا والعائد اليها اما في الفعل من الضمير المستكن وصيغة جمع العقلاء لكون ما عبارة عن آلهتهم التى وصفوها بصفات العقلاء أو مصدرية واللام للتعليل أى لعدم علمهم والمجعول له محذوف للعلم بمكانه (نصيبا مما رزقناهم) من الزرع والانعام وغيرهما تقربا اليها (تالله لتسئلن) سؤال توبيخ وتقريع (عما كنتم تفترون) في الدنيا بانها آلهة حقيقة بأن يتقرب اليها وفي تصدير الجملة بالقسم وصرف الكلام من الغيبة الى الخطاب المنبئ عن كمال الغضب من شدة الوعيد ما لا يخفى (ويجعلون لله البنات) هم خزاعة وكنانة الذين يقولون الملائكة بنات الله (سبحانه) تنزيه وتقديس له عز وجل عن مضمون قولهم ذلك أو تعجيب من جراءتهم على التفوه بمثل تلك العظيمة (ولهم ما يشتهون) من البنين وما مرفوع المحل على أنه مبتدأ والظرف المقدم خبره والجملة حالية وسبحانه اعتراض في حاق موقعه وجعلها منصوبة بالعطف على البنات أى يجعلون لانفسهم ما يشتهون من البنين يؤدى الى جعل الجعل بمعنى يعم الزعم والاختيار (واذا بشر أحدهم بالانثى) أى أخبر بولادتها (ظل وجهه) أى صار أو دام النهار كله (مسودا) من الكآبة والحياء من الناس واسوداد الوجه كناية عن الاغتمام والتشويش (وهو كظيم) ممتلئ حنقا وغيظا (يتوارى) أى يستخفى (من القوم من سوء ما بشر به) من أجل سوئه والتعبير عنها بما لاسقاطها عن درجة العقلاء (أيمسكه) أى مترددا في أمره محدثا نفسه في

والذات ثم انا هدينا العقول الى معرفة وجوده بأن أطلعنا الشمس فكانت الشمس دليلا على وجود هذه النعمة ثم قبضناه أى ازلنا الظل لا دفعة بل يسيرا يسيرا فان كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل فى جانب المغرب ولما كانت الحركات المكانية لا توجد دفعة بل يسيرا يسيرا فكذا زوال الاظلال لا يكون دفعة بل يسيرا يسيرا ولان قبض الظل لو حصل دفعة لاختلت المصالح ولكن قبضها يسيرا يسيرا يفيد معه أنواع مصالح العالم والمراد بالقبض الازالة والاعدام هذا أحد التأويلين (التأويل الثانى) وهو انه سبحانه وتعالى لما خلق الارض والسماء وخلق الكواكب والشمس والقمر وقع الظل على الارض ثم انه سبحانه خلق الشمس دليلا عليه وذلك لان بحسب حركات الاضواء تتحرك الاظلال فانهما متعاقبان متلازمان لا واسطة بينهما فبمقدار ما يزداد أحدهما ينقص الآخر وكما أن المهتدى يهتدى بالهادى والدليل ويلازمه فكذا الاظلال كأنها مهتدية وملازمة للاضواء فلهذا جعل الشمس دليلا عليها وأما قوله ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا فاما أن يكون المراد منه انتهاء الاظلال يسيرا يسيرا الى غاية نقصاناتها فسمى ازالة الاظلال قبضا لها أو يكون المراد من قبضها يسيرا قبضها عند قيام الساعة وذلك بقبض أسبابها وهى الاجرام التى تلقى الاظلال وقوله يسيرا هو كقوله ذلك حشر علينا يسير فهذا هو التأويل الملخص (المسئلة الرابعة) وجه الاستدلال به على وجود الصانع انحسن أن حصول الظل أمر نافع للاحياء والعقلاء وأما حصول الضوء الخالص أو الظلمة الخالصة فهو ليس من باب المنافع فحصول ذلك الظل اما أن يكون من الواجبات أو من الجائزات والاول باطل والالما تطرق التغير اليه لان الواجب لا يتغير فوجب أن يكون من الجائزات فلا بد له فى وجوده بعد العدم وعدمه بعد الوجود من صانع قادر مدبر محسن يقدره بالوجه النافع وما ذاك الا من يقدر على تحريك الاجرام العلوية وتدبير الاجسام الفلكية وترتيبها على الوصف الاحسن والترتيب الاكمل وما هو الا الله سبحانه وتعالى * فان قيل الظل عبارة عن عدم الضوء عما شأنه ان يضىء فكيف استدل بالامر العدمى على ذاته وكيف عده من النعم * قلنا الظل ليس عدما محضا بل هو اضواء مخلوطة بظلم والتحقيق أن الظل عبارة عن الضوء الثانى وهو أمر وجودى وفى تحقيقه وبسطه كلام دقيق يرجع فيه الى كتبنا العقلية (النوع الثانى) قوله تعالى وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا اعلم انه تعالى شبه الليل من حيث انه يستر الكل ويغطى باللباس الساتر للبدن ونبه على ما لنا فيه من النفع بقوله والنوم سباتا والسبات هو الراحة وجعل النوم سباتا لانه سبب للراحة قال أبو مسلم السبات الراحة ومنه يوم السبت لما جرت به العادة من الاستراحة فيه ويقال للعليل اذا استراح من تعب العلة مسبوت وقال صاحب الكشاف السبات الموت والمسبوت الميت لانه مقطوع الحياة قال وهذا كقوله وهو الذى يتوفاكم بالليل وانما قلنا ان تفسيره بالموت أولى من تفسيره بالراحة لان النشور فى مقابلته يأباه قال أبو مسلم وجعل النهار نشورا هو بمعنى الانتشار والحركة كما سمى تعالى نوم الانسان وفاة فقال الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها كذلك وفق بين القيام من النوم والقيام من الموت فى التسمية بالنشور وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها اظهار لنعمه على خلقه لان الاحتجاب بستر الليل كم فيه لكثير من الناس من فوائد دينية ودنيوية والنوم واليقظة شبههما بالموت والحياة وعن لقمان أنه قال لابنه كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتنشر (النوع الثالث) قوله وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وقد تقدم تفسيره فى سورة الاعراف ثم فيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ الريح والرياح قال الزجاج وفى نشرا خمسة أوجه بفتح النون وبضمها وبضم النون والشين وبالباء الموحدة مع ألف المؤنث وبشرا بالتنوين قال أبو مسلم

شأنه أيمسكه (على هون) ذل وقرئ هوان (أم يدسه) يخفيه (فى التراب) بالوأد والتذكير باعتبار لفظ ما وقرئ بالتأنيث (الاساء ما يحكمون) حيث يجعلون ما هذا شأنه عندهم من الهون والحقارة لله المتعالى عن الصاحبة والولد والحال انهم يتحاشون عنه ويختارون لانفسهم البنين فمدار الخطأ جعلهم ذلك لله سبحانه مع ابائهم اياه لا جعلهم البنين لانفسهم ولا عدم جعلهم له سبحانه ويجوز أن يكون مداره التعكيس لقوله تعالى تلك اذا قسمة ضيزى (للذين لا يؤمنون بالآخرة) ممن ذكرت قبائحهم (مثل السوء) صفة السوء الذى هو كالمثل فى القبح وهى الحاجة الى الولد ليقوم مقامهم عند موتهم وايثار الذكور للاستظهار بهم ووأد البنات لدفع العار وخشية الاملاق المنادى كل ذلك بالعجز والقصور والشح البالغ ووضع الموصول موضع الضمير للاشعار بأن مدار اتصافهم بتلك القبائح هو الكفر بالآخرة (ولله) سبحانه وتعالى (المثل الاعلى) أى الصفة العجيبة الشأن التى هى مثل فى العلو مطلقا وهو الوجوب الذاتى والغنى المطلق والجود الواسع والنزاهة عن صفات المخلوقين ويدخل فيه علوه تعالى عما قالوه علوا كبيرا (وهو العزيز) المتفرد بكمال القدرة لا سيما على مؤاخذتهم بذنوبهم (الحكيم) الذى يفعل كل ما يفعل بمقتضى الحكمة البالغة وهذا أيضا من جملة صفاته العجيبة تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس) الكفار (بظلمهم) بكفرهم ومعاصيهم التى من جملتها ما عدد من قبائحهم وهذا تصريح بما أفاده قوله تعالى وهو العزيز الحكيم وايذان بأن ما أتوه من القبائح قد تناهى الى أمد لا غاية وراءه (ما ترك عليها) على الارض المدلول عليها بالناس وبقوله تعالى (من دابة) أى ما ترك عليها شيأ من دابة

من قرأ بشرا أراد جمع بشير مثل قوله تعالى ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وأما بالنون فهو في معنى قوله والناشرات نشرا وهي الرياح والرحمة الغيث والماء والمطر (المسئلة الثانية) قوله وأنزلنا من السماء ماء طهورا نص في أنه تعالى ينزل الماء من السماء لا من السحاب وقول من يقول السحاب سماء ضعيف لان ذلك بحسب الاشتقاق وأما بحسب وضع اللغة فالسماء اسم لهذا السقف المعلوم فصرفه عنه ترك للظاهر (المسئلة الثالثة) اختلفوا في أن الطهور ما هو فقال كثير من العلماء الطهور ما يتطهر به كالفطور ما يفطر به والسحور ما يتسحر به وهو مروي أيضا عن ثعلب وأنكر صاحب الكشاف ذلك وقال ليس فعول من التفعيل في شيء والطهور على وجهين في العربية صفة واسم غير صفة فالصفة قولك ماء طهور كقولك طاهر والاسم قولك طهور لما يتطهر به كالوضوء والوقود لما يتوضأ به ويوقد به النار حجة القول الاول قوله عليه السلام التراب طهور المسلم ولو لم يجد الماء عشر حجج ولو كان معنى الطهور الطاهر لكان معناه التراب طاهر للمسلم وحينئذ لا ينتظم الكلام وكذا قوله عليه السلام طهور اناء أحدكم اذا ولغ الكلب فيه أن يغسله سبعا ولو كان الطهور الطاهر لكان معناه طاهر اناء أحدكم وحينئذ لا ينتظم الكلام ولانه تعالى قال وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به فبين أن المقصود من الماء انما هو التطهر به فوجب أن يكون المراد من كونه طهورا انه هو المطهر به لانه تعالى ذكره في معرض الانعام فوجب حمله على الوصف الاكمل ولا شك أن المطهر أكمل من الطاهر (المسئلة الرابعة) اعلم ان الله تعالى ذكر من منافع الماء أمرين أحدهما ما يتعلق بالنبات والثاني ما يتعلق بالحيوان اما أمر النبات فقوله لنحيي به بلدة ميتا وفيه سؤالات (السؤال الاول) لم قال لنحيي به بلدة ميتا ولم يقل ميتة (الجواب) لان البلدة في معنى البلد في قوله فسقناه الى بلد ميت (السؤال الثاني) ما المراد من حياة البلد وموتها (الجواب) الناس يسمون مالا عمارة فيه من الارض مواتا وسقيها المقتضي لعمارتها احياء لها (السؤال الثالث) ان جماعة الطبائعيين وكذا الكعبي من المعتزلة قالوا ان بطبع الارض والماء وتأثير الشمس فيهما يحصل النبات وتمسكوا بقوله تعالى لنحيي به بلدة ميتا فان الباء في به تقتضي أن للماء تأثيرا في ذلك (الجواب) الظاهر وان دل عليه لكن المتكلمون تركوه لقيام الدلالة على فساد الطبع وأما أمر الحيوان فقوله سبحانه ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا وفيه سؤالات (السؤال الاول) لم خص الانسان والانعام ههنا بالذكر دون الطير والوحش مع انتفاع الكل بالماء (الجواب) لان الطير والوحش تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب بخلاف الانعام لانها قنية الاناسي وعامة منافعهم متعلقة بها فكان الانعام عليهم بسقي انعامهم كالانعام عليهم بسقيهم (السؤال الثاني) ما معنى تنكير الانعام والاناسي ووصفهما بالكثرة (الجواب) معناه ان أكثر الناس يجتمعون في البلاد القريبة من الاودية والانهار ومنابع المياه فهم في غنية في شرب الماء عن المطر وكثير منهم نازلون في البوادي فلا يجدون الماء للشرب الا عند نزول المطر وذلك قوله لنحيي به بلدة ميتا يريد بعض بلاد هؤلاء المتباعدين عن مظان الماء ويحتمل في كثيرا أن يرجع الى قوله ونسقيه لان الحي يحتاج الى الماء حالا بعد حال وهو بخلاف النبات الذي يكفيه من الماء قدر معين حتى لو زيد عليه بعد ذلك لكان الى الضرر أقرب والحيوان يحتاج اليه حالا بعد حال ما دام حيا (السؤال الثالث) لم قدم احياء الارض وسقي الانعام على سقي الاناسي (الجواب) لان حياة الاناسي بحياة أرضهم وحياة أنعامهم فقدم ما هو سبب حياتهم ومعيشتهم على سقيهم لانهم اذا ظفروا بما يكون سقيا لارضهم ومواشيهم فقد ظفروا أيضا بسقياهم وأيضا فقوله تعالى ولقد صرفناه بينهم يعني صرف المطر كل سنة الى جانب آخر واذا كان كذلك فلا يبقى

بل أهلكها بالمرة بشؤم ظلم الظالمين كقوله تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة وعن أبي هريرة رضي الله عنه انه سمع رجلا يقول ان الظالم لا يضر الا نفسه فقال بلى والله حتى ان الحبارى لتموت في وكرها بظلم الظالم وعن ابن مسعود رضي الله عنه كاد الجعل يهلك في جحره بذنب ابن آدم أو من دابة ظالمة وقيل لو أهلك الآباء لم يكن الابناء فيلزم أن لا يكون في الارض دابة لما أنها مخلوقة لمنافع البشر لقوله سبحانه هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا (ولكن) لا يؤاخذهم بذلك بل (يؤخرهم الى أجل مسمى) لاعمارهم أو لعذابهم كي يتوالدوا أو يكثر عذابهم (فاذا جاء أجلهم) المسمى (لا يستأخرون) عن ذلك الاجل أي لا يتأخرون وصيغة الاستفعال للاشعار بعجزهم عنه مع طلبهم له (ساعة) فذة وهي مثل في قلة المدة (ولا يستقدمون) أي لا يتقدمون وانما تعرض لذكره مع أنه لا يتصور الاستقدام عند مجيء الاجل مبالغة في بيان عدم الاستئخار بنظمه في سلك ما يمتنع كما في قوله تعالى وليست التوبة للذين يعملون السيآت حتى اذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار فان من مات كافرا مع أنه لا توبة له رأسا قد نظم في سمط من لم تقبل توبته للايذان بأنهما سيان في ذلك وقد مر في تفسير سورة يونس (ويجعلون لله) أي يثبتون له سبحانه وينسبون اليه في زعمهم (ما يكرهون) لانفسهم مما ذكر وتكرير لما سبق تثنية للتقريع وتوطئة لقوله تعالى (وتصف ألسنتهم الكذب) أي يجعلون له تعالى ما يجعلون ومع ذلك تصف ألسنتهم الكذب وهو (أن لهم الحسنى) العاقبة الحسنى عند الله تعالى كقوله ولئن رجعت الى ربي ان لي عنده للحسنى وقرئ الكذب وهو جمع الكذوب على أنه صفة الالسنة (لا جرم) رد لكلامهم ذلك

الكل منه بل يسقى كل سنة أناسى كثيرا منه ﴿السؤال الرابع﴾ ما الاناسى (الجواب) قال الفراء والزجاج الانسى والاناسى كالكرسى والكراسى ولم يقل كثيرين لانه قد جاء فعيل مفردا ويراد به الكثرة كقوله وقروناً بين ذلك كثيرا وحسن أولئك رفيقا واعلم أن الفقهاء قد استنبطوا أحكام المياه من قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا ونحن نشير الى معاقد تلك المسائل فنقول ههنا نظران (أحدهما) ان الماء مطهر (والثانى) ان غير الماء هل هو مطهر أم لا ﴿النظر الاول﴾ ان نقول الماء اما أن لا يتغير أو يتغير ﴿القسم الاول﴾ وهو الذى لا يتغير فهو طاهر فى ذاته مطهر لغيره الا الماء المستعمل فانه عند الشافعى طاهر وليس بمطهر وقال مالك والثورى يجوز الوضوء به وقال أبو حنيفة فى رواية أبى يوسف انه نجس فههنا مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ فى بيان انه ليس بمطهر ودليلنا قوله عليه الصلاة والسلام لا يغتسل أحدكم فى الماء الدائم وهو جنب ولو بقى الماء كما كان طاهرا مطهرا لما كان للنهى عنه معنى ومن وجه القياس ان الصحابة كانوا يتوضئون فى الاسفار وما كانوا يجمعون تلك المياه مع علمهم باحتياجهم بعد ذلك الى الماء ولو كان ذلك الماء مطهرا لحملوه ليوم الحاجة واحتج مالك بالآية والخبر والقياس * أما الآية فمن وجهين (الاول) قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا وقوله وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به فدلت الآية على حصول وصف الطهرية للماء والاصل فى الثابت بقاؤه فوجب الحكم ببقاء هذه الصفة للماء بعد صيرورته مستعملا وأيضا قوله طهورا يقتضى جواز التطهر به مرة بعد أخرى (والثانى) انه أمر بالغسل مطلقا فى قوله فاغسلوا واستعمال كل المائعات غسل لانه لا معنى للغسل الا امرار الماء على العضو قال الشاعر

* فيا حسنها اذ يغسل الدمع كحلها * فمن اغتسل بالماء المستعمل فقد أتى بالغسل فوجب أن يكون مجزئا له لانه أتى بما أمر به فوجب أن يخرج عن العهدة (وأما السنة) فما روى انه عليه الصلاة والسلام توضأ فمسح رأسه بفضل ما فى يده وعنه عليه الصلاة والسلام أنه توضأ فأخذ من بلل لحيته فمسح به رأسه وعن ابن عباس انه عليه السلام اغتسل فرأى لمعة فى جسده لم يصبها الماء فأخذ شعرة عليها البلل فأمرها على تلك اللمعة (وأما القياس) فانه ماء طاهر لاقى جسدا طاهرا فأشبه ما اذا لاقى حجارة أو حديدا وكذا الماء المستعمل فى الكرة الرابعة والمستعمل فى التبرد والتنظف ولانه لا خلاف انه اذا وضع الماء على أعلى وجهه وسقط به فرض ذلك الموضع ثم نزل ذلك الماء بعينه الى بقية الوجه فانه يجزيه مع أن ذلك الماء صار مستعملا فى أعلى الوجه ﴿المسئلة الثانية﴾ الدليل على أن الماء المستعمل طاهر قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا ومن السنة أنه عليه الصلاة والسلام أخذ من بلل لحيته ومسح به رأسه وقال خلق الماء طهورا لا ينجسه شئ الا ما غير طعمه أو ريحه أو لونه وقال الشافعى انه عليه الصلاة والسلام توضأ ولا شك انه أصابه ما تساقط منه ولم ينقل انه غسل ثوبه ولا انه غسله ولا أحد من المسلمين فعل ذلك فثبت انهم أجمعوا على أنه ليس بنجس ولانه ماء طاهر لاقى جسما طاهرا فأشبه ما اذا لاقى حجارة ﴿المسئلة الثالثة﴾ الماء المستعمل اما أن يكون مستعملا فى أعضاء الوضوء أو فى غسل الثياب أما المستعمل فى أعضاء الوضوء فاما أن يكون مستعملا فيما كان فرضا وعبادة أو فيما كان فرضا ولا يكون عبادة أو فيما كان عبادة ولا يكون فرضا أو فيما لا يكون فرضا ولا عبادة * أما القسم الاول وهو المستعمل فيما كان فرضا وعبادة فهو غير طهور باتفاق أصحاب الشافعى * وأما القسم الثانى فهو كالماء الذى استعملته الذمية التى تحت الزوج المسلم أى فى غسل حيضها لتحل للزوج غشيانها * وأما القسم الثالث فهو كالماء المستعمل فى الكرة الثانية والثالثة والماء المستعمل فى تجديد الوضوء والماء المستعمل فى الاغسال المسنونة فلاصحاب الشافعى فى هذين القسمين وجهان * وأما القسم

واثبات لنقيضه أى حقا (ان لهم) مكان ما أملوا من الحسنى (النار) التى ليس وراء عذابها عذاب وهى علم فى السوأى (وانهم مفرطون) أى مقدمون اليها من أفرطته أى قدمته فى طلب الماء وقيل منسيون من أفرطت فلانا خلفى اذا خلفته ونسيته وقرئ بالتشديد وفتح الراء من فرطته فى طلب الماء وبكسر الراء المشددة من التفريط فى الطاعات وبكسر المخففة من الافراط فى المعاصى فلا يكونان حينئذ من أحوالهم الاخروية كما عطف عليه (تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما يناله من جهالات الكفرة ووعيد لهم على ذلك أى أرسلنا اليهم رسلا فدعوهم الى الحق فلم يجيبوا الى ذلك (فزين لهم الشيطان أعمالهم) القبيحة فعكفوا عليها مصرين (فهو وليهم) أى قرينهم وبئس القرين (اليوم) أى يوم زين لهم الشيطان أعمالهم فيه على طريق حكاية الحال الماضية أو فى الدنيا أو يوم القيامة على طريق حكاية الحال الآتية وهى حال كونهم معذبين فى النار والولى بمعنى الناصر أى فهو ناصرهم اليوم لا ناصر لهم غيره مبالغة فى نفى الناصر عنهم ويجوز أن يكون الضمير عائدا الى مشركى قريش والمعنى زين للامم السالفة أعمالهم فهو ولى هؤلاء لانهم منهم وأن يكون على حذف المضاف أى ولى أمثالهم (ولهم) فى الآخرة (عذاب أليم) هو عذاب النار (وما أنزلنا عليك الكتاب) أى القرآن (الا لتبين) استثناء مفرغ من أعم العلل أى ما أنزلناه عليك لعلة من العلل الا لتبين (لهم) أى للناس (الذى اختلفوا فيه) من التوحيد والقدر وأحكام الافعال وأحوال المعاد (وهدى ورحمة) معطوفان على محل لتبين أى وللهداية والرحمة (لقوم يؤمنون) وانما انتصبا لكونهما أثرى فاعل الفعل المعلل بخلاف التبيين حيث لم ينتصب لفقدان

الرابع

شرطه واول تقديمه على ما تقدمه في الوجود وتخصيص كونه هدى ورحمة بالمؤمنين لانهم المغتنمون آثاره (والله أنزل من السماء) من السحاب أو من جانب السماء حسبما مر وهذا تكرير لما سبق تأكيدا لمضمونه وتوطئة لما يعقبه من أدلة التوحيد (ماء) نوعا خاصا من الماء هو المطر وتقديم المجرور على المنصوب لما مر مرارا من التشويق الى المؤخر (فأحيى به الارض) بما أنبت به فيها من أنواع النباتات (بعد موتها) أي بعد يبسها وما يفيده الفاء من التعقيب العادي لا ينافيه ما بين المعطوفين من المهلة (ان في ذلك) أي في انزال الماء من السماء واحياء الارض الميتة به (لآية) وأية آية دالة على وحدته سبحانه وعلمه وقدرته وحكمته (لقوم يسمعون) هذا التذكير ونظائره سماع تفكر وتدبر فكأن من ليس كذلك أصم (وان لكم في الانعام لعبرة) عظيمة وأي عبرة تحار في دركها العقول وتهيم في فهمها ألباب الفحول (نسقيكم) استئناف لبيان ما أبهم أولا من العبرة (مما في بطونه) أي بطون الانعام والتذكير هنا لمراعاة جانب اللفظ فانه اسم جمع ولذلك عده سيبويه في المفردات المبنية على أفعال كأكياش وأخلاق كما أن تأنيثه في سورة المؤمنين لرعاية جانب المعنى ومن جعله جمع نعم جعل الضمير للبعض فان اللبن ليس لجميعها أو له على المعنى فان المراد به الجنس وقرئ بفتح النون ههنا وفي سورة المؤمنين (من بين فرث ودم لبنا) الفرث فضالة ما يبقى من العلف في الكرش المنهضمة بعض الانهضام وكثيف ما يبقى في المعي وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان البهيمة اذا اعتلفت وانطبخ العلف في كرشها كان أسفله فرثا وأوسطه لبنا وأعلاه دما ولعل المراد به ان أوسطه يكون مادة اللبن وأعلاه مادة الدم الذي يغذو البدن لان عدم تكونهما في الكرش مما لا ريب فيه بل

الرابع فهو كالماء المستعمل في الكرة الرابعة وفي التبرد والتنظف فذلك باتفاق أصحاب الشافعي غير مستعمل وهو طاهر مطهر أما الماء المستعمل في غسل الثياب فاذا غسل ثوبا من نجاسة وطهر بغسلة واحدة يستحب أن يغسله ثلاثا فالمنفصل في الكرة الثانية والثالثة مطهر على الاصح (القسم الثاني) الماء الذي يتغير فنقول الماء اذا تغير فاما أن يتغير بنفسه أو بغيره أما الاول فكالمتغير بطول المكث فيجوز الوضوء به لانه عليه السلام كان يتوضأ من بئر بضاعة وكان ماؤها كأنه نقاعة الحناء أما المتغير بسبب غيره فذلك الغير اما أن لا يكون متصلا به أو يكون متصلا به أما الذي لا يكون متصلا به فهو كما لو وقع بقرب الماء جيفة فصار الماء منتنا بسببها فهو أيضا مطهر وأما اذا تغير بسبب شيء متصل به فذلك المتصل اما أن يكون طاهرا أو نجسا (القسم الاول) اذا كان طاهرا فهو اما أن لا يخالطه أو يخالطه فان لم يخالطه فهو كالماء المتغير بسبب وقوع الدهن والطيب والعود والعنبر والكافور الصلب فيه وهذا أيضا مطهر كما لو كان بقرب الماء جيفة ولان الطهورية ثبتت بقوله وأنزلنا من السماء ماء طهورا والاصل في الثابت بقاؤه وأما المتغير بسبب شيء يخالطه فذلك المخالط اما أن لا يمكن صون الماء عنه أو يمكن أما الذي لا يمكن فكالمتغير بالتراب والحمأة والاوراق التي تقع فيه والطحلب الذي يتولد فيه وهذا أيضا مطهر لان الطهورية ثبتت بالآية والاحتراز عن ذلك عسير فيكون مرفوعا لقوله ما جعل عليكم في الدين من حرج وكذا لو جرى الماء في طريقه على معدن زرنيخ أو نورة أو كحل أو وقع شيء منها فيه أو نبع من معادنها أما اذا تغير الماء بسبب مخالطة ما يستغني الماء عنه بحسب نظر ان كان التغير قليلا بحيث لا يضاف الماء اليه بأن وقع فيه زعفران فاصفر قليلا أو دقيق فابيض قليلا جاز الوضوء به على الصحيح من المذهب لانه لم يسلبه اطلاق اسم الماء وأما ان كان التغير كثيرا فان استحدث اسما جديدا كالمرقة لم يجز الوضوء به بالاتفاق وان لم يستحدث اسما جديدا فعند الشافعي لا يجوز الوضوء به وعند أبي حنيفة يجوز (حجة الشافعي) من وجوه (أحدها) أنه عليه السلام توضأ ثم قال هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة الا به فذلك الوضوء ان كان واقعا بالماء المتغير وجب أن لا يجوز الا به وبالاتفاق ليس الامر كذلك فثبت أنه كان بماء غير متغير وهو المطلوب (وثانيها) انه اذا اختلط ماء الورد بالماء ثم توضأ الانسان به فيحتمل أن بعض الاعضاء قد انغسل بماء الورد دون الماء واذا كان كذلك فقد وقع الشك في حصول الوضوء وكان تيقن الحدث قائما والشك لا يعارض اليقين فوجب أن يبقى على الحدث بخلاف ما اذا كان قليلا لا يظهر أثره فانه صار كالمعدوم أما اذا ظهر أثره علمنا أنه باق فيتوجه ما ذكرناه (وثالثها) أن الوضوء تعبد لا يعقل معناه فانه لو توضأ بماء الورد لا يصح وضوءه ولو توضأ بالماء الكدر المتعفن صح وضوءه وما لا يعقل معناه وجب الاقتصار فيه على مورد النص وترك القياس (حجة أبي حنيفة) وجوه (أحدها) قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا دلت الآية على كون الماء مطهرا والاصل في الثابت بقاؤه فوجب بقاء هذه الصفة بعد التغير بالمخالطة (وثانيها) قوله تعالى فاغسلوا أمر بمطلق الغسل وقد أتى به فوجب أن يخرج عن العهدة وقد بينا تقرير هذا الوجه فيما تقدم (وثالثها) قوله تعالى فلم تجدوا ماء فتيمموا علق جواز التيمم بعدم وجدان الماء وواجد هذا الماء المتغير واجد للماء لان الماء المتغير ماء مع صفة التغير والموصوف موجود حال وجود الصفة فوجب أن لا يجوز له التيمم (ورابعها) قوله عليه السلام في البحر هو الطهور ماؤه وظاهره يقتضي جواز الطهارة به وان خالطه غيره لان النبي صلى الله عليه وسلم أطلق ذلك (وخامسها) أنه عليه السلام أباح الوضوء بسؤر الهرة وسؤر الحائض وان خالطه شيء من لعابهما (وسادسها) لا خلاف في جواز الوضوء بماء المد والسيول مع تغير لونه بمخالطة الطين وما يكون في الصحارى

من الحشيش والنبات ومن أجل مخالطة ذلك له يرى تارة متغيرا الى السواد وأخرى الى الحمرة والصفرة فصار ذلك أصلا في جميع ما خالط الماء اذا لم يغلب عليه فيسلبه اسم الماء (القسم الثاني) اذا كان المخالط للماء شيأ نجسا ففي الناس من زعم أن الماء لا ينجس ما لم يتغير بالنجاسة سواء كان قليلا أو كثيرا وهو قول الحسن البصري والنخعي ومالك وداود واليه مال الشيخ الغزالي في كتاب الاحياء وقال أبو بكر الرازي مذهب أصحابنا أن كل ما تيقنا فيه جزأ من النجاسة أو غلب على الظن ذلك لم يجز استعماله ولا يختلف على هذا الحد ماء البحر وماء البئر والغدير والراكد والجاري لأن ماء البحر لو وقعت فيه نجاسة لم يجز استعمال الماء الذي فيه النجاسة وكذلك الماء الجاري وأما اعتبار أصحابنا للغدير الذي اذا حرك أحد طرفيه لم يتحرك الطرف الآخر فانما هو كلام في جهة تغليب الظن في بلوغ النجاسة الواقعة في أحد طرفيه الى الطرف الآخر وليس هو كلاما منافيا أن بعض المياه الذي فيه النجاسة قد يجوز استعماله وبعضها لا يجوز استعماله هذا كله كلام أبي بكر (وأقول) من الناس من فرق بين القليل والكثير فعن عبد الله بن عمر اذا كان الماء أربعين قلة لم ينجسه شئ وعن ابن عباس رضي الله عنهما الحوض لا يغتسل فيه جنب الا أن يكون فيه أربعون غربا وهو قول محمد بن كعب القرظي وقال مسروق وابن سيرين اذا كان الماء كثيرا لا ينجسه شئ وقال سعيد بن جبير الماء الراكد لا ينجسه شئ اذا كان قدر ثلاث قلال وقال الشافعي اذا كان الماء قلتين بقلال هجر لم ينجسه الا ما غير طعمه أو ريحه أو لونه وان كان أقل ينجس لظهور النجاسة فيه واعلم أنه يمكن التمسك لنصرة قول مالك بوجوه (أحدها) قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا ترك العمل به في الماء الذي تغير لونه أو طعمه أو ريحه لظهور النجاسة فيه فيبقى فيما عداه على الاصل (وثانيها) قوله عليه الصلاة والسلام خلق الله الماء طهورا لا ينجسه شئ الا ما غير طعمه أو لونه أو ريحه وهو نص في الباب (وثالثها) قوله تعالى فاغسلوا وجوهكم والمتوضئ بهذا الماء قد غسل وجهه فيكون آتيا بما أمر به فيخرج عن العهدة (ورابعها) أن من شأن كل مختلطين كان أحدهما غالبا على الآخر أن يتكيف المغلوب بكيفية الغالب فالقطرة من الخل لو وقعت في الماء الكثير بطلت صفة الخلية عنها واتصفت بصفة الماء وكون أحدهما غالبا على الآخر انما يعرف بغلبة الخواص والآثار المحسوسة وهي الطعم أو اللون أو الريح فلا جرم مهما ظهر طعم النجاسة أو لونها أو ريحها كانت النجاسة غالبة على الماء وكان الماء مستهلكا فيها فلا جرم يغلب حكم النجاسة فاذا لم يظهر شئ من ذلك كان الغالب هو الماء وكانت النجاسة مستهلكة فيه فيغلب حكم الطهارة (وخامسها) ما روي عن عمر توضأ من جرة نصرانية مع أن نجاسة أواني النصارى معلومة بظن قريب من العلم وذلك يدل على أن عمر لم يعول الا على عدم التغير (وسادسها) أن تقدير الماء بمقدار معلوم لو كان معتبرا كالقلتين عند الشافعي وعشر في عشر عند أبي حنيفة رضي الله عنه لكان أولى المواضع بالطهارة مكة والمدينة لانه لا تكثر المياه هنالك لا الجارية ولا الراكدة الكثيرة ومن أول عصر الرسول صلى الله عليه وسلم الى آخر عصر الصحابة لم ينقل انهم خاضوا في تقدير المياه بالمقادير المعينة ولا أنهم سألوا عن كيفية حفظ المياه عن النجاسات وكانت أواني مياههم يتعاطاها الصبيان والاماء الذين لا يحترزون عن النجاسات (وسابعها) اصغاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الاناء للهرة وعدم منعهم الهرة من شرب الماء من أوانيهم بعد أن كانوا يرون أنها تأكل الفارة ولم يكن في بلادهم حياض تلغ السنانير فيها وكانت لا تنزل الى الآبار (وثامنها) أن الشافعي نص على أن غسالة النجاسة طاهرة اذا لم تتغير ونجسة اذا تغيرت وأي فرق بين أن يلاقي الماء النجاسة بالورود عليها أو بورودها عليه وأي معنى لقول القائل ان قوة الورود تدفع النجاسة مع أن قوة الورود لم تمنع المخالطة

الكبد تجذب صفارة الطعام المنهضم في الكرش ويبقى ثفله وهو الفرث ثم يمسكها ريثما يهضمها فيحدث أخلاطا أربعة معها مائية فتميز القوة المميزة تلك المائية بما زاد على قدر الحاجة من المرتين الصفراء والسوداء وتدفعها الى الكلية والمرارة والطحال ثم توزع الباقي على الاعضاء بحسبها فتجرى على كل حقه على ما يليق به بتقدير العزيز العليم ثم ان كان الحيوان أنثى زاد أخلاطها على قدر غذائها لاستيلاء البرد والرطوبة على مزاجها فيندفع الزائد أولا لاجل الجنين الى الرحم فاذا انفصل انصب ذلك الزائد أو بعضه الى الضروع فيبيض لمجاورته لحومها الغددية البيض فيطيب طعمه فيصير لبنا ومن تدبر في بدائع صنع الله تعالى فيما ذكر من الاخلاط والالبان واعداد مقارها ومجاريها والاسباب المولدة لها وتسخير القوى المتصرفة فيها كل وقت على ما يليق به اضطر الى الاعتراف بكمال علمه وقدرته وحكمته وتناهي رأفته ورحمته فمن الاولى تبعيضية لما أن اللبن بعض ما في بطونه لانه مخلوق من بعض أجزاء الدم المتولد من الاجزاء اللطيفة التي في الفرث حسبما فصل والثانية ابتدائية كقوله سقيت من الحوض لان بين الفرث والدم مبدأ الاسقاء وهي متعلقة بنسقيكم وتقديمه على المفعول لما مر مرارا من أن تقديم ما حقه التأخير يبعث للنفس شوقا الى المؤخر موجبا لفضل تمكنه عند وروده عليها لاسيما اذا كان المقدم متضمنا لوصف مناف لوصف المؤخر كالذي نحن فيه فان بين وصفي المقدم والمؤخر تنافيا وتنائيا بحيث لا يتراءى ناراهما فان ذلك مما يزيد الشوق والاستشراف الى المؤخر كما في قوله تعالى الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا أو بحال من لبنا قدم عليه لتنكيره وللتنبيه على انه موضع العبرة (خالصا) عن

شائبة ما فى الدم والفرث من الاوصاف ببرزخ من القدرة القاهرة الحاجزة عن بغى أحدهما عليه مع كونهما مكتنفين له (سائغا للشاربين) سهل المرور فى حلقهم قيل لم يغص أحد باللبن وقرئ سيغا بالتشديد و بالتخفيف مثل هين وهين (ومن ثمرات النخيل والاعناب) متعلق بما دل عليه الاسقاء من مطلق الاطعام المنتظم ٣٨٣ لاعطاء المطعوم والمشروب فان اللبن مطعوم كما انه مشروب أى ونطعمكم من ثمرات النخيل ومن الاعناب أى من عصيرهما وقوله تعالى (تتخذون منه سكرا) استئناف لبيان كنه الاطعام وكشفه أو بقوله تتخذون منه وتكرير الظرف للتأكيد أو خبر لمبتدا محذوف صفته تتخذون أى ومن ثمرات النخيل والاعناب ثمر تتخذون منه وحذف الموصوف اذا كان فى الكلام كلمة من سائغ نحو قوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم وتذكير الضمير على الوجهين الاولين لانه للمضاف المحذوف أعنى العصير أو لان المراد هو الجنس والسكر مصدر سمى به الخمر وقيل هو النبيذ وقيل هو الطعم (ورزقا حسنا) كالتمر والدبس والزبيب والخل والآية ان كانت سابقة النزول على تحريم الخمر فدالة على كراهتها والا فجامعة بين العتاب والمنة (ان فى ذلك لآية) باهرة (لقوم يعقلون) يستعملون عقولهم فى الآيات بالنظر والتأمل (وأوحى ربك الى النحل) أى ألهمها وقذف فى قلوبها وعلمها بوجه لا يعلمه الا العليم الخبير وقرئ بفتحتين (أن اتخذى) أى بأن اتخذى على ان أن مصدرية ويجوز أن تكون مفسرة لما فى الايحاء من معنى القول وتأنيث الضمير مع أن النحل مذكر للحمل على المعنى أو لانه جمع نحلة والتأنيث لغة أهل الحجاز (من الجبال بيوتا) أى أوكارا مع ما فيها من الخلايا وقرئ بيوتا بكسر الباء

المخالطة (وتاسعها) انهم كانوا يستنجون على أطراف المياه الجارية القليلة ولا خلاف أن مذهب الشافعى اذا وقع بول فى ماء جار ولم يتغير أنه يجوز الوضوء به وان كان قليلا وأى فرق بين الجارى والراكد ولست شعرى الحوالة على عدم التغير أولى أو على قوة الماء بسبب الجريان (وعاشرها) اذا وقع بول فى قلتين ثم فرقتا فكل كوز يؤخذ منه فهو طاهر على قول الشافعى ومعلوم أن البول منتشر فيه وهو قليل فأى فرق بينه اذا وقع ذلك القليل فى ذلك القدر من الماء ابتداء أو بينه اذا وصل اليه عند اتصال غيره به (وحادى عشرها) أن الحمامات لم تزل فى الاعصار الخالية يتوضأ فيها المتقشفون ويغمسون الايدى والاوانى فى ذلك القليل من الماء من تلك الحياض مع علمهم بأن الايدى الطاهرة والنجسة كانت تتوارد عليها ولو كان التقدير بالقلتين معتبرا لاشتهر ذلك ولبلغ ذلك الى حد التواتر لان الامر الذى تشتد حاجة الجمهور اليه يجب بلوغ نقله الى حد التواتر ولما لم يكن كذلك علمنا أنه غير معتبر (وثانى عشرها) أنا لو حكمنا بنجاسة الماء فلا يمكننا أن نحكم بنجاسة الماء ان كان فى غاية الكثرة مثل ماء الاودية العظيمة والغدران الكبار فان ذلك بالاجماع باطل فلا بد من التقدير بمقدار معين وقد نقلنا عن الناس تقديرات مختلفة فليس بعضها أولى من بعض فوجب التعارض والتساقط أما تقدير أبى حنيفة بعشر فى عشر فمعلوم أنه مجرد تحكم وأما تقدير الشافعى بالقلتين بناء على قوله عليه الصلاة والسلام اذا بلغ الماء القلتين لم يحمل خبثا فضعيف أيضا لان الشافعى لما روى هذا الخبر قال أخبرنى رجل فيكون الراوى مجهولا و يكون الحديث مرسلا وهو عنده ليس بحجة وأيضا زعم كثير من المحدثين أنه موقوف على ابن عمر رضى الله عنه سلمنا صحة الرواية لكنها حالة مجهول على مجهول لان القلة غير معلومة فانها تصلح للكوز والجرة ولكل ما يقل باليد وهو أيضا اسم لهامة الرجل ولقلة الجبل سلمنا كون القلة معلومة لكن فى متن الخبر اضطراب فانه روى اذا بلغ الماء قلتين وروى اذا بلغ قلة وروى أربعين قلة وروى اذا بلغ قلتين أو ثلاثا وروى اذا بلغ كوزين سلمنا صحة المتن ولكنه متروك الظاهر لان قوله لم يحمل خبثا لا يمكن اجراؤه على ظاهره فان الخبث اذا ورد عليه فقد حمله سلمنا امكان اجرائه على ظاهره لكن الخبث على قسمين خبث شرعى وخبث حقيقى والاسم اذا دار بين المسمى اللغوى والمسمى الشرعى كان حمله على المسمى اللغوى أولى لان الاسم حقيقة فى المسمى اللغوى مجاز فى المسمى الشرعى دفعا للاشتراك والنقل واذا كان كذلك وجب حمله عليه والمسمى اللغوى للخبث المستقذر بالطبع قال عليه الصلاة والسلام ما استخبثته العرب فهو حرام اذا ثبت هذا فنقول معنى قوله لم يحمل خبثا أى لا يصير مستقذرا طبعا ونحن نقول بموجبه لكن لم قلت أنه لا ينجس شرعا سلمنا أن المراد من الخبث النجاسة الشرعية لكن قوله لم يحمل خبثا أى يضعف عن حمله ومعنى الضعف تأثره به فيكون هذا دليلا على صيرورته نجسا لا على بقائه طاهرا (لا يقال) الجواب عن هذه الاسئلة أن يقال ان الشافعى وان لم يذكر اسم الراوى فى بعض المواضع فقد ذكره فى سائر المواضع فخرج عن كونه مرسلا ولان سائر المحدثين قد عينوا اسم الراوى قوله انه موقوف على ابن عمر قلنا لا نسلم فان يحيى بن معين قال انه جيد الاسناد فقيل له ان ابن علية وقفه على ابن عمر فقال ان كان ابن علية وقفه فحماد بن سلمة رفعه وقوله القلة مجهولة قلنا لا نسلم لان ابن جريج قال فى روايته بقلال هجر ثم قال وقد شاهدت قلال هجر فكانت القلة تسع قربتين أو قربتين وشيأ قوله فى متنه اضطراب قلنا لا نسلم لانا وانتم توافقنا على أن سائر المقادير غير معتبرة فيبقى ما ذكرناه معتبرا قوله انه متروك الظاهر قلنا اذا حملناه على الخبث الشرعى اندفع ذلك وذلك أولى لان حمل كلام الشرع على الفائدة الشرعية أولى من حمله على المعنى العقلى لا سيما وفى حمله على المعنى العقلى يلزم التعطيل قوله المراد أنه يضعف عن حمله قلنا

صح في بعض الروايات أنه قال إذا كان الماء قلتين لم ينجس ولأنه عليه السلام جعل القلتين شرطا لهذا الحكم والمعلق على الشرط عدم عند عدم الشرط وعلى ما ذكروه لا يبقى للقلتين فائدة (لأنا نقول) لا شك أن هذا الخبر بتقدير الصحة يقتضي تخصيص عموم قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا وعموم قوله ولكن يريد ليطهركم وعموم قوله فاغسلوا وجوهكم وعموم قوله صلى الله عليه وسلم خلق الماء طهورا لا ينجسه شيء وهذا المخصص لا بد وأن يكون بعيدا عن الاحتمال والاشتباه وقلال هجر مجهولة وقول ابن جريج القلة تسع قربتين أو قربتين وشيئا ليس بحجة لأن القلة كما أنها مجهولة فكذا القربة مجهولة فإنها قد تكون كبيرة وقد تكون صغيرة ولأن الروايات أيضا مختلفة فتارة قال إذا بلغ الماء قلتين وتارة أربعين قلة وتارة كرين فإذا تدافعت وتعارضت لم يجز تخصيص عموم الكتاب والسنة الظاهرة المعيدة عن الاحتمال بمثل هذا الخبر هذا تمام الكلام في نصرة قول مالك * واحتج من حكم بنجاسة الماء الذي تقع النجاسة فيه بوجوه (أولها) قوله تعالى ويحرم عليهم الخبائث والنجاسات من الخبائث وقال تعالى إنما حرم عليكم الميتة والدم وقال في الخمر رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ومر عليه الصلاة والسلام بقبرين فقال إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير إن أحدهما كان لا يستبرئ من البول والآخر كان يمشي بالنميمة فحرم الله هذه الأشياء تحريما مطلقا ولم يفرق بين حال انفرادها واختلاطها بالماء فوجب تحريم استعمال كل ما يتيقن فيه جزء من النجاسة أكثر ما في الباب أن الدلائل الدالة على كون الماء مطهرا يقتضي جواز الطهارة به ولكن تلك الدلائل مبيحة والدلائل التي ذكرناها حاظرة والمبيح والحاظر إذا اجتمعا فالغلبة للحاظر ألا ترى أن الجارية بين رجلين لو كان لأحدهما فيها تسعة أجزاء وللآخر جزء واحد أن جهة الحظر فيها أولى من جهة الإباحة وأنه غير جائز لواحد منهما وطؤها فكذا ههنا (وثانيها) قوله عليه السلام لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يغتسل فيه من الجنابة ذكره على الإطلاق من غير فرق بين القليل والكثير (وثالثها) قوله عليه السلام إذا استيقظ أحدكم من منامه فليغسل يده ثلاثا قبل أن يدخلها الإناء فإنه لا يدري أين باتت يده فأمر بغسل اليد احتياطا من نجاسة قد أصابته من موضع الاستنجاء ومعلوم أن مثلها إذا دخلت الماء لم تغيره ولولا أنها تفسده ما كان للأمر بالاحتياط منها معنى (ورابعها) قوله عليه السلام إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا يدل بمفهومه على أنه إذا لم يبلغ قلتين وجب أن يحمل الخبث أجاب مالك عن الوجه الأول فقال لا نزاع في أنه يحرم استعمال النجاسة ولكن الجزء القليل من النجاسة المائعة إذا وقع في الماء لم يظهر فيه لونه ولا طعمه ولا رائحته فلم قلتم إن تلك النجاسة بقيت ولم لا يجوز أن يقال إنها انقلبت عن صفتها وتقريره ما قدمناه وأما قوله عليه السلام لا يبولن أحدكم في الماء الدائم فلم قلتم إن هذا النهي ليس إلا لما ذكرتموه بل لعل النهي إنما كان لأنه ربما تغير به إنسان وذلك مما ينفر طبعه عنه وليس الكلام في نفرة الطبع وأما قوله إذا استيقظ أحدكم من منامه فليغسل يده ثلاثا فقد أجمعنا على أن هذا الأمر استحباب فالمرتب عليه كيف يكون أمر إيجاب ثم بتقدير أن يكون أمر إيجاب فلم قلتم إنه لم يوجد ذلك الإيجاب إلا لما ذكرتموه وأما قوله عليه السلام إذا بلغ الماء قلتين فقد سبق الكلام عليه ثم بعد النزول عن كل ما قلناه فهو تمسك بالمفهوم والنصوص التي ذكرناها منطوقة والمنطوق راجح على المفهوم والله أعلم (النظر الثاني) في أن غير الماء هل هو طهور أم لا فقال الأصم والأوزاعي يجوز الوضوء بجميع المائعات وقال أبو حنيفة يجوز الوضوء بنبيذ التمر في السفر وقال أيضا تجوز إزالة النجاسة بجميع المائعات التي تزيل أعيان النجاسات وقال الشافعي رضي الله عنه الطهورية مختصة بالماء على الإطلاق ودليله في صورة الحدث

(ومن الشجر ومما يعرشون) أي يعرشه الناس أي يرفعه من كرم أو سقف وقيل المراد به ما يرفعه الناس و يبنونه للنحل والمعنى اتخذي لنفسك بيوتا من الجبال والشجر إذا لم يكن لك أرباب وإلا فاتخذي ما يعرشونه لك وإيراد حرف التبعيض لما أنها لا تبني في كل جبل وكل شجر وكل عرش ولا في كل مكان منها (ثم كلي من كل الثمرات) من كل ثمرة تشتهينها حلوها ومرها (فاسلكي) ما أكلت منها (سبل ربك) أي مسالكه التي برأها بحيث يحيل فيها بقدرته القاهرة النور المر عسلا من أجوافك أو فاسلكي الطرق التي ألهمك في عمل العسل أو فاسلكي راجعة إلى بيوتك سبل ربك لا تتوعر عليك ولا تلتبس (ذللا) جمع ذلول وهو حال من السبل أي مذللة غير متوعرة ذللها الله سبحانه وسهلها لك أو من الضمير في اسلكي أي اسلكي منقادة لما أمرت به (يخرج من بطونها) استئناف عدل به عن خطاب النحل لبيان ما يظهر منها من تعاجيب صنع الله تعالى التي هي موضع العبرة بعد ما أمرت بما أمرت (شراب) أي عسل لأنه مشروب واحتج به وبقوله تعالى كلي من زعم أن النحل تأكل الأزهار والأوراق العطرة فتستحيل في بطنها عسلا ثم تقيء ادخارا للشتاء ومن زعم أنها تلتقط بأفواهها أجزاء قليلة حلوة صغيرة متفرقة على الأزهار والأوراق وتضعها في بيوتها فإذا اجتمع فيها شيء كثير يكون عسلا فسر البطون بالأفواه (مختلف ألوانه) أبيض وأسود وأصفر وأحمر حسب اختلاف سن النحل أو الفصل أو الذي أخذت منه العسل (فيه شفاء للناس) إما بنفسه كما في الأمراض البلغمية أو مع غيره كما في سائر الأمراض إذ قلما يكون معجون لا يكون فيه عسل مع أن التكثير

قوله

قوله تعالى فان لم تجدوا ماء فتيمموا أوجب التيمم عند عدم الماء ولو جاز الوضوء بالخل أو بنبيذ التمر لما أوجب التيمم عند عدم الماء وأما في صورة الخبث فلان الخل لو أفاد طهارة الخبث لكان طهورا لانه لا معنى للطهور الا المطهر ولو كان طهورا لوجب أن يجوز به طهارة الحدث لقوله عليه السلام لا يقبل الله صلاة أحدكم حتى يضع الطهور مواضعه وكلمة حتى لانتهاء الغاية فوجب انتهاء عدم القبول عند استعمال الطهور وانتهاء عدم القبول يكون بحصول القبول فلو كان الخل طهورا لحصل باستعماله قبول الصلاة وحيث لم يحصل علمنا أن الطهورية في الخبث أيضا مختصة بالماء * قوله تعالى ﴿ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس الا كفورا ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا﴾ وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ اعلم أنهم اختلفوا في أن الهاء في قوله ولقد صرفناه الى أي شيء يرجع وذكروا فيه ثلاثة أوجه (أحدها) وهو الذي عليه الجمهور انه يرجع الى المطر ثم من هؤلاء من قال معنى صرفناه أنا أجريناه في الانهار حتى انتفعوا بالشرب وبالزراعات وأنواع المعاش به وقال آخرون معناه انه سبحانه ينزله في مكان دون مكان وفي عام دون عام ثم في العام الثاني يقع بخلاف ما وقع في العام الاول قال ابن عباس ما عام بأكثر مطرا من عام ولكن الله يصرفه في الارض ثم قرأ هذه الآية وروى ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما من عام بأمطر من عام ولكن اذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك الى غيرهم فاذا عصوا جميعا صرف الله ذلك الى الفيافي (وثانيها) وهو قول أبي مسلم أن قوله صرفناه راجع الى المطر والرياح والسحاب والاظلال وسائر ما ذكر الله تعالى من الادلة (وثالثها) ولقد صرفناه أي هذا القول بين الناس في القرآن وسائر الكتب والصحف التي أنزلت على الرسل وهو ذكر انشاء السحاب وانزال القطر ليتفكروا ويستدلوا به على الصانع والوجه الاول أقرب لانه أقرب المذكورات الى الضمير ﴿المسئلة الثانية﴾ قال الجبائي قوله تعالى ليذكروا يدل على أنه تعالى مريد من الكل أن يتذكروا ويشكروا ولو أراد منهم أن يكفروا ويعرضوا لما صح ذلك وذلك يبطل قول من قال ان الله تعالى مريد للكفر ممن يكفر قال ودل قوله فأبى أكثر الناس الا كفورا على قدرتهم على فعل هذا التذكر اذ لو لم يقدروا لما جاز أن يقال أبوا أن يفعلوه كما لا يقال في الزمن أبى أن يسعى وقال الكعبي قوله ولقد صرفناه بينهم ليذكروا حجة على من زعم أن القرآن وبال على الكافرين وأنه لم يرد بانزاله أن يؤمنوا لان قوله ليذكروا عام في الكل وقوله فأبى أكثر الناس يقتضي أن يكون هذا الاكثر داخلا في ذلك العام لانه لا يجوز أن يقال أنزلناه على قريش ليؤمنوا فأبى أكثر بني تميم الا كفورا واعلم أن الكلام عليه قد تقدم مرارا ﴿المسئلة الثالثة﴾ قوله فأبى أكثر الناس الا كفورا المراد كفران النعمة وجحودها من حيث لا يتفكرون فيها ولا يستدلون بها على وجود الصانع وقدرته واحسانه وقيل المراد من الكفور هو الكفر وذلك الكفر انما حصل لانهم يقولون مطرنا بنوء كذا لان من جحد كون النعم صادرة من المنعم وأضاف مثل هذه النعمة الى الافلاك والكواكب فقد كفر واعلم أن التحقيق ان من جعل الافلاك والكواكب مستقلة باقتضاء هذه الاشياء فلا شك في كفره وأما من قال الصانع تعالى جبلها على خواص وصفات تقتضي هذه الحوادث فلعله لا يبلغ خطؤه الى حد الكفر ﴿المسئلة الرابعة﴾ قالوا الآية دلت على أن خلاف معلوم الله مقدور له لان كلمة لو دلت على أنه تعالى ما شاء أن يبعث في كل قرية نذيرا ثم انه تعالى أخبر عن كونه قادرا على ذلك فدل ذلك على أن خلاف معلوم الله مقدور له * أما قوله تعالى ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا فالاقوى أن المراد من ذلك تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم وذلك لوجوه (أحدها) كأنه تعالى بين له أنه مع القدرة على بعثة رسول ونذير في كل قرية

فيه مشعر بالتبعيض ويجوز كونه للتفخيم وعن قتادة أن رجلا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان أخي يشتكي بطنه فقال عليه الصلاة والسلام اسقه العسل فذهب ثم رجع فقال قد سقيته فما نفع فقال اذهب فاسقه عسلا فقد صدق الله وكذب بطن أخيك فسقاه فبرئ كأنما أنشط من عقال وقيل الضمير للقرآن أو لما بين الله تعالى من أحوال النحل وعن ابن مسعود رضي الله عنه العسل شفاء لكل داء والقرآن شفاء لما في الصدور فعليكم بالشفاءين العسل والقرآن (ان في ذلك) الذي ذكر من أعاجيب آثار قدرة الله تعالى (لآية) عظيمة (لقوم يتفكرون) فان من تفكر في اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والافعال العجيبة المشتملة على حسن الصنعة وصحة القسمة التي لا يقدر عليها حذاق المهندسين الا بآلات رقيقة وأدوات أنيقة وأنظار دقيقة جزم قطعا بأن له خالقا قادرا حكيما يلهمها ذلك ويهديها اليه جل جلاله (والله خلقكم) لما ذكر سبحانه من عجائب أحوال ما ذكر من الماء والنبات والانعام والنحل أشار الى بعض عجائب أحوال البشر من أول عمره الى آخره وتطوراته فيما بين ذلك وقد ضبطوا مراتب العمر في أربع الاولى سن النشو والنماء والثانية سن الوقوف وهي سن الشباب والثالثة سن الانحطاط القليل وهي سن الكهولة والرابعة سن الانحطاط الكبير وهي سن الشيخوخة (ثم يتوفاكم) حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على حكم بالغة بآجال مختلفة أطفالا وشبابا وشيوخا (ومنكم من يرد) قبل توفيه أي يعاد (الى أرذل العمر) أي أخسه وأحقره وهو خمس وسبعون سنة على ما روي عن علي رضي الله عنه وتسعون سنة على ما نقل عن قتادة رضي الله عنه وقيل خمس وتسعون وايثار الرد على الوصول

تخصيصه بالرسالة وفضله بها على الكل ولذلك أتبعه بقوله فلا تطع الكافرين أي لا توافقهم (وثانيها) المراد ولو
شئنا لخففنا عنك أعباء الرسالة إلى كل العالمين ولبعثنا في كل قرية نذيرا ولكنا قصرنا الأمر عليك
وأجللناك وفضلناك على سائر الرسل فقابل هذا الإجلال بالتشدد في الدين (وثالثها) أن الآية تقتضي
مزج اللطف بالعنف لأنها تدل على القدرة على أن يبعث في كل قرية نذيرا مثل محمد وأنه لا حاجة بالحضرة
الإلهية إلى محمد البتة وقوله ولو يدل على أنه سبحانه لا يفعل ذلك فبالنظر إلى الأول يحصل التأديب وبالنظر
إلى الثاني يحصل الإعزاز أما قوله فلا تطع الكافرين فالمراد نهيه عن طاعتهم ودلت هذه الآية على أن
النهي عن الشيء لا يقتضي كون المنهي عنه مشتغلا به وأما قوله وجاهدهم به جهادا كبيرا فقال بعضهم
المراد بذل الجهد في الأداء والدعاء وقال بعضهم المراد القتال وقال آخرون كلاهما والأقرب الأول لأن
السورة مكية والأمر بالقتال ورد بعد الهجرة بزمان وإنما قال جهادا كبيرا لأنه لو بعث في كل قرية نذيرا
لوجب على كل نذير مجاهدة قريته فاجتمعت على رسول الله تلك المجاهدات وكثر جهاده من أجل
ذلك وعظم فقال له وجاهدهم بسبب كونك نذير كافة القرى جهادا كبيرا جامعا لكل مجاهدة ❁ قوله
تعالى ﴿وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا﴾
اعلم أن هذا هو النوع الرابع من دلائل التوحيد وقوله مرج البحرين أي خلاهما وأرسلهما يقال
مرجت الدابة إذا خليتها ترعى وأصل المرج الإرسال والخلط ومنه قوله تعالى فهم في أمر مريج سمى
الماءين الكثيرين الواسعين بحرين قال ابن عباس مرج البحرين أي أرسلهما في مجاريهما كما ترسل
الخيل في المرج وهما يلتقيان وقوله هذا عذب فرات والمقصود من الفرات البليغ في العذوبة حتى
يصير إلى الحلاوة والأجاج نقيضه وأنه سبحانه بقدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج ويجعل من عظيم
اقتداره برزخا حائلا من قدرته وههنا سؤالات (السؤال الأول) ما معنى قوله وحجرا محجورا (الجواب) هي
الكلمة التي يقولها المتعوذ وقد فسرناها وهي ههنا واقعة على سبيل المجاز كأن كل واحد من البحرين
يتعوذ من صاحبه ويقول له حجرا محجورا كما قال لا يبغيان أي لا يبغي أحدهما على صاحبه بالممازجة
فانتفاء البغي كالتعوذ وههنا جعل كل واحد منهما في صورة الباغي على صاحبه فهو يتعوذ منه وهي من
أحسن الاستعارات (السؤال الثاني) لا وجود للبحر العذب فكيف ذكره الله تعالى ههنا (لا يقال) هذا
مدفوع من وجهين (الأول) أن المراد منه الأودية العظام كالنيل وجيحون (الثاني) لعله جعل في البحار
موضعا يكون أحد جانبيه عذبا والآخر ملحا (لأنا نقول) أما الأول فضعيف لأن هذه الأودية ليس فيها ماء
ملح والبحار ليس فيها ماء عذب فلم يحصل البتة موضع التعجب وأما الثاني فضعيف لأن موضع الاستدلال
لا بد وأن يكون معلوما فأما بمحض التجويز فلا يحسن الاستدلال * لأنا نقول المراد من البحر العذب هذه
الأودية ومن الأجاج البحار الكبار وجعل بينهما برزخا أي حائلا من الأرض ووجه الاستدلال ههنا بين لأن
العذوبة والملوحة إن كانت بسبب طبيعة الأرض أو الماء فلا بد من الاستواء وإن لم يكن كذلك فلا بد من
قادر حكيم يخص كل واحد من الأجسام بصفة خاصة معينة ❁ قوله تعالى ﴿وهو الذي خلق من الماء بشرا
فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا﴾ واعلم أن هذا هو النوع الخامس من دلائل التوحيد وفيه بحثان
(الأول) ذكروا في هذا الماء قولين (أحدهما) أنه الماء الذي خلق منه أصول الحيوان وهو الذي عناه
بقوله والله خلق كل دابة من ماء (والثاني) أن المراد النطفة لقوله خلق من ماء دافق من ماء مهين
(البحث الثاني) المعنى أنه تعالى قسم البشر قسمين ذوي نسب أي ذكورا ينسب إليهم فيقال فلان ابن فلان
وفلانة

والبلوغ ونحوهما للإيذان بأن بلوغه والوصول إليه مرجوع في الحقيقة إلى الضعف بعد القوة كقوله تعالى ومن نعمره ننكسه في الخلق
ولا عبرة وأصالا من عمر الهرم الذي يشبه الطفل في نقصان العقل والقوة (لكيلا يعلم بعد علم) كثير (شيأ) من العلم أو من المعلومات أو
لكيلا يعلم شيأ بعد علم بذلك الشيء وقيل لئلا يعقل بعد عقله الأول شيأ (إن الله عليم) بمقادير أعماركم (قدير) على كل شيء
يميت الشاب النشيط
ويبقي الهرم الفاني وفيه
تنبيه على أن تفاوت
الآجال ليس إلا بتقدير
قادر حكيم ركب أبنيتهم
وعدل أمزجتهم على قدر
معلوم ولو كان ذلك
مقتضى الطبائع لما بلغ
التفاوت هذا المبلغ
(والله فضل بعضكم على
بعض في الرزق) أي
جعلكم متفاوتين فيه
فأعطاكم منه أفضل
مما أعطى مماليككم
(فما الذين فضلوا) فيه
على غيرهم (برادي
رزقهم) الذي رزقهم إياه
(على ما ملكت أيمانهم)
على مماليكهم الذين هم
شركاؤهم في المخلوقية
والمرزوقية (فهم) أي
الملاك والمماليك (فيه)
أي في الرزق (سواء) أي
لا يردونه عليهم بحيث
يساووهم في التصرف
ويشاركونهم في التدبير
والفاء للدلالة على ترتب
التساوي على الرد أي
لا يردونه عليهم ردا مستتبعا
للتساوي وإنما يردون
عليهم منه شيأ يسيرا
فحيث لا يرضون بمساواة
مماليكهم لأنفسهم وهم
أمثالهم في البشرية
والمخلوقية لله عز سلطانه في شيء لا يختص بهم بل يعمهم وإياهم من الرزق الذي هم أسوتهم في استحقاقه فما
بالهم يشركون بالله سبحانه وتعالى فيما لا يليق إلا به من الألوهية والمعبودية الخاصة بذاته تعالى لذاته بعض مخلوقاته الذي هو بمعزل من
درجة الاعتبار وهذا كما ترى مثل ضرب لكمال قباحة ما فعله المشركون تقريعا عليهم كقوله تعالى هل لكم مما ملكت أيمانكم من

وفلانة بنت فلان وذوات صهر أى اناثا يصاهرن ونحوه قوله تعالى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى وكان ربك قديرا حيث خلق من النطفة الواحدة نوعين من البشر الذكر والانثى ﴿قوله تعالى ﴿ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا قل ما أسألكم عليه من أجر الا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا﴾ واعلم أنه تعالى لما شرح دلائل التوحيد عاد الى تهجين سيرتهم فى عبادة الاوثان وفى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قيل المراد بالكافر أبو جهل لان الآية نزلت فيه والاولى حمله على العموم لان خصوص السبب لا يقدح فى عموم اللفظ ولانه أوفق لظاهر قوله ويعبدون من دون الله ﴿المسئلة الثانية﴾ ذكروا فى الظهير وجوها (أحدها) ان الظهير بمعنى المظاهر كالعوين بمعنى المعاون وفعيل بمعنى مفاعل غير غريب والمعنى أن الكافر يظاهر الشيطان على ربه بالعداوة فان قيل كيف يصح فى الكافر أن يكون معاونا للشيطان على ربه بالعداوة قلنا انه تعالى ذكر نفسه وأراد رسوله كقوله ان الذين يؤذون الله (وثانيها) يجوز أن يريد بالظهير الجماعة كقوله والملائكة بعد ذلك ظهير كما جاء الصديق والخليط وعلى هذا التفسير يكون المراد بالكافر الجنس وان بعضهم مظاهر لبعض على اطفاء نور الله تعالى قال تعالى واخوانهم يمدونهم فى الغى (وثالثها) قال أبو مسلم الاصفهانى الظهير من قولهم ظهر فلان بحاجتى اذا نبذها وراء ظهره وهو من قوله تعالى واتخذتموه وراءكم ظهريا ويقال فيمن يستهين بالشئ نبذه وراء ظهره وقياس العربية أن يقال مظهور أى مستخف به متروك وراء الظهر فقيل فيه ظهير فى معنى مظهور ومعناه هين على الله أن يكفر الكافر وهو تعالى مستهين بكفره ﴿اما قوله تعالى وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا فتعلق ذلك بما تقدم هو أن الكفار يطلبون العون على الله تعالى وعلى رسوله والله تعالى بعث رسوله لنفعهم لانه بعثه ليبشرهم على الطاعة وينذرهم على المعصية فيستحقوا الثواب ويحترزوا عن العقاب فلا جهل أعظم من جهل من استفرغ جهده فى ايذاء شخص استفرغ جهده فى اصلاح مهماته دينا ودنيا ولا يسألهم على ذلك البتة أجرا أما قوله الا من شاء فذكروا فيه وجوها متقاربة (أحدها) لا يسألهم على الاداء والدعاء أجرا الا أن يشاؤا أن يتقربوا بالانفاق فى الجهاد وغيره فيتخذوا به سبيلا الى رحمة ربهم ونيل ثوابه (وثانيها) قال القاضى معناه لا أسألكم عليه أجرا لنفسى وأسألكم أن تطلبوا الاجر لانفسكم باتخاذ السبيل الى ربكم (وثالثها) قال صاحب الكشاف مثال قوله الا من شاء والمراد الا فعل من شاء واستثناؤه عن الاجر قول ذى شفقة عليك قد سعى لك فى تحصيل مال ما أطلب منك ثوابا على ما سعيت الا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب ولكن صوره هو بصورة الثواب وسماه باسمه فأفاد فائدتين (احداهما) قلع شبهة الطمع فى الثواب من أصله كأنه يقول لك ان كان حفظك لمالك ثوابا فانى أطلب الثواب (والثانية) اظهار الشفقة البالغة وان حفظك لمالك يجرى مجرى الثواب العظيم الذى توصله الى ومعنى اتخاذهم الى الله سبيلا تقربهم اليه وطلبهم عنده الزلفى بالايمان والطاعة وقيل المراد التقرب بالصدقة والنفقة فى سبيل الله أما قوله وتوكل على الحى الذى لا يموت فالمعنى انه سبحانه لما بين ان الكفار متظاهرون على ايذائه فأمره بأن لا يطلب منهم أجرا البتة أمره بأن يتوكل عليه فى دفع جميع المضار وفى جلب جميع المنافع وانما قال على الحى الذى لا يموت لان من توكل على الحى الذى يموت فاذا مات المتوكل عليه صار المتوكل ضائعا أما هو سبحانه وتعالى فانه حى لا يموت فلا يضيع المتوكل عليه البتة أما قوله وسبح بحمده فمنهم من حمله على نفس التسبيح بالقول ومنهم من حمله على الصلاة ومنهم من حمله على التنزيه لله تعالى عما

شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء الآية (أفبنعمة الله يجحدون) حيث يفعلون ما يفعلون من الاشراك فان ذلك يقتضى أن يضيفوا نعم الله سبحانه الفائضة عليهم الى شركائهم ويجحدوا كونها من عند الله تعالى أو حيث أنكروا أمثال هذه الحجج البالغة بعدما أنعم الله بها عليهم والباء لتضمين الجحود معنى الكفر نحو وجحدوا بها والفاء للعطف على مقدر وهى داخلة فى المعنى على الفعل أى أيشركون به فيجحدون نعمته وقرئ تجحدون على الخطاب أو ليس الموالى برادى رزقهم على مماليكهم بل أنا الذى أرزقهم واياهم فلا يحسبوا أنهم يعطونهم شيأ وانما هو رزقى أجريه على أيديهم فهم جميعا فى ذلك سواء لا مزية لهم على مماليكهم ألا يفهمون ذلك فيجحدون نعمة الله فهو رد على زعم المفضلين أو على فعلهم المؤذن بذلك أو ما المفضلون برادى بعض فضلهم على مماليكهم فيتساووا فى ذلك مع علمهم بأن التفضيل ليس الا ليملوهم أيشكرون أم يكفرون ألا يعرفون ذلك فيجحدون نعمة الله تعالى كأنه قيل فلم يردوه عليهم والجملة الاسمية للدلالة على استمرارهم على عدم الرد يحكى عن أبى ذر رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول انما هم اخوانكم فاكسوهم مما تلبسون وأطعموهم مما تطعمون فما رؤى عبده بعد ذلك الا ورداؤه رداؤه وازاره ازاره من غير تفاوت (والله جعل لكم من أنفسكم) أى من جنسكم (أزواجا) لتأنسوا بها وتقيموا بذلك جميع مصالحكم ويكون أولادكم أمثالكم وقيل هو خلق حواء من ضلع آدم عليه الصلاة والسلام (وجعل لكم من أزواجكم) وضع الظاهر موضع المضمر للايذان بأن المراد جعل لكل منكم من زوجه لا من زوج غيره (بنين) وبأن نتيجة الازواج هو التوالد (وحفدة) جمع حافد وهو الذى يسرع فى الخدمة والطاعة ومنه قول القانت واليك

نسي ويخفدة أي جعل لكم خدما يسرعون في خدمتكم وطاعتكم فقيل المراد بهم أولاد الاولاد وقيل البنات عبر عنهن بذلك ايذانا بوجه المنة فانهن يخدمن البيوت أتم خدمة وقيل أولاد المرأة من الزوج الاول وقيل البنون والعطف لاختلاف الوصفين وقيل الاختان على البنات وتأخير المنصوب في الموضعين عن المجرور لما مر من التشويق وتقديم المجرور باللام على المجرور بمن للايذان من أول الامر بعود منفعة الجعل اليهم امدادا للتشويق وتقوية له أي جعل لمصلحتكم مما يناسبكم ازواجا وجعل لمنفعتكم من جهة مناسبة لكم بنين وحفدة (ورزقكم من الطيبات) من اللذائذ أو من الحلالات ومن للتبعيض اذ المرزوق في الدنيا أنموذج لما في الآخرة (أفبالباطل يؤمنون) وهو أن الاصنام تنفعهم وأن البحائر ونحوها حرام والفاء في المعنى داخلة على الفعل وهي للعطف على مقدر أي أيكفرون بالله الذي شأنه هذا فيؤمنون بالباطل أو أبعد تحقق ما ذكر من نعم الله تعالى بالباطل يؤمنون دون الله سبحانه (وبنعمت الله) تعالى الفائضة عليهم مما ذكروا ومما لا يحيط به دائرة البيان (هم يكفرون) حيث يضيفونها الى الاصنام وتقديم الصلة على الفعل للاهتمام أو لايهام الاختصاص مبالغة أو لرعاية الفواصل والالتفات الى الغيبة للايذان باستيجاب حالهم للاعراض عنهم وصرف الخطاب الى غيرهم من السامعين تعجيبا لهم مما فعلوه (ويعبدون من دون الله) الخ عطف على يكفرون داخل تحت الانكار التوبيخي أي أيكفرون بنعمة الله ويعبدون من دونه (ما لا يملك لهم رزقا من السموات والارض شيأ) ان جعل الرزق مصدرا فشيأ نصب على المفعولية

الله

لا يليق به في توحيده وعدله وهذا هو الظاهر ثم قال وكفى به بذنوب عباده خبيرا وهذه كلمة يراد بها المبالغة يقال كفى بالعلم جمالا وكفى بالادب مالا وهو بمعنى حسبك أي لا تحتاج معه الى غيره لانه خبير بأحوالهم قادر على مكافاتهم وذلك وعيد شديد كأنه قال ان أقدمتم على مخالفة أمره كفاكم علمه في مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة ﴿قوله تعالى ﴿الذي خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا﴾ اعلم أنه سبحانه لما أمر الرسول بأن يتوكل عليه وصف نفسه بامور (أولها) بانه حي لا يموت وهو قوله وتوكل على الحي الذي لا يموت (وثانيها) انه عالم بجميع المعلومات وهو قوله وكفى به بذنوب عباده خبيرا (وثالثها) انه قادر على كل الممكنات وهو المراد من قوله الذي خلق السموات والارض فقوله الذي خلق متصل بقوله الحي الذي لا يموت لانه سبحانه لما كان هو الخالق للسموات والارضين ولكل ما بينهما ثبت انه هو القادر على جميع وجوه المنافع ودفع المضار وان النعم كلها من جهته فحينئذ لا يجوز التوكل الا عليه وفي الآية سؤالات (السؤال الاول) الايام عبارة عن حركات الشمس في السموات فقبل السموات لا أيام فكيف قال الله خلقها في ستة أيام (الجواب) يعني في مدة مقدارها هذه المدة لا يقال الشيء الذي يتقدر بمقدار محدود ويقبل الزيادة والنقصان والتجزئة لا يكون عدما محضا بل لابد وأن يكون موجودا فيلزم من وجوده وجود مدة قبل وجود العالم وذلك يقتضي قدم الزمان * لانا نقول هذا معارض بنفس الزمان لان المدة المتوهمة المحتملة لعشرة أيام لا تحتمل خمسة أيام والمدة المتوهمة التي تحتمل خمسة أيام لا تحتمل عشرة أيام فيلزم أن يكون للمدة مدة أخرى فما هو جوابكم عن هذا يلزم ما قلتموه وعلى هذا نقول لعل الله سبحانه خلق المدة أولا ثم خلق السموات والارض فيها بمقدار ستة أيام ومن الناس من قال في ستة أيام من أيام الآخرة وكل يوم ألف سنة وهو بعيد لان التعريف لابد وأن يكون بأمر معلوم لا بأمر مجهول (السؤال الثاني) لم قدر الخلق والايجاد بهذا التقدير (الجواب) اما على قولنا فالمشيئة والقدرة كافية في التخصيص قالت المعتزلة بل لابد من داعي حكمة وهو أن تخصيص خلق العالم بهذا المقدار أصلح للمكلفين وهذا بعيد لوجهين (أحدهما) ان حصول تلك الحكمة اما أن يكون واجبا لذاته أو جائزا فان كان واجبا وجب أن لا يتغير فيكون حاصلا في كل الازمنة فلا يصلح أن يكون سببا لتخصيص زمان معين وان كان جائزا افتقر حصول تلك الحكمة في ذلك الوقت الى مخصص آخر ويلزم التسلسل (والثاني) أن التفاوت بين كل واحد مما لا يصل اليه خاطر المكلف وعقله فحصول ذلك التفاوت لما لم يكن مشعورا به كيف يقدح في حصول المصالح واعلم أنه يجب على المكلف سواء كان على قولنا أو على قول المعتزلة أن يقطع الطمع عن أمثال هذه الاسئلة فانه بحر لا ساحل له من ذلك تقدير الملائكة الذين هم أصحاب النار بتسعة عشر وحملة العرش بالثمانية وشهور السنة باثني عشر والسموات بالسبع وكذا الارض وكذا القول في عدد الصلوات ومقادير النصب في الزكوات وكذا مقادير الحدود والكفارات فالاقرار بان كل ما قاله الله تعالى حق هو الدين وترك البحث عن هذه الاشياء هو الواجب وقد نص عليه تعالى في قوله وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ثم قال وما يعلم جنود ربك الا هو وهذا هو الجواب أيضا في أنه لم يخلقها في لحظة وهو قادر على ذلك وعن سعيد بن جبير انه انما خلقها في ستة أيام وهو يقدر على أن يخلقها في لحظة تعليما لخلقه الرفق والتثبت قيل ثم خلقها يوم الجمعة فجعلها

الله تعالى عبدا لله سابين (السؤال الثالث) ما معنى قوله ثم استوى على العرش ولا يجوز حمله على الاستيلاء والقدرة لان الاستيلاء والقدرة فى أوصاف الله لم تزل ولا يصح دخول ثم فيه (الجواب) الاستقرار غير جائز لانه يقتضى التغير الذى هو دليل الحدوث ويقتضى التركيب والبعضية وكل ذلك على الله محال بل المراد ثم خلق العرش ورفعه وهو مستول كقوله تعالى ولنبلونكم حتى نعلم فان المراد حتى يجاهد المجاهدون ونحن بهم عالمون فان قيل فعلى هذا التفسير يلزم أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات وليس كذلك لقوله تعالى وكان عرشه على الماء قلنا كلمة ثم ما دخلت على خلق العرش بل على رفعه على السموات (السؤال الرابع) كيف اعراب قوله الرحمن فاسأل به خبيرا (الجواب) الذى خلق مبتدأ والرحمن خبره أو هو صفة للحى أو الرحمن خبر مبتدأ محذوف ولهذا أجاز الزجاج وغيره أن يكون الوقف على قوله على العرش ثم يبتدئ بالرحمن أى هو الرحمن الذى لا ينبغى السجود والتعظيم الا له ويجوز أن يكون الرحمن مبتدأ وخبره قوله فاسأل به خبيرا (السؤال الخامس) ما معنى قوله فاسأل به خبيرا (الجواب) ذكروا فيه وجوها (أحدها) قال الكلبى معناه فاسأل خبيرا به وقوله به يعود الى ما ذكرنا من خلق السماء والارض والاستواء على العرش والباء من صلة الخبير وذلك الخبير هو الله عز وجل لانه لا دليل فى العقل على كيفية خلق الله السموات والارض فلا يعلمها أحد الا الله تعالى وعن ابن عباس أن ذلك الخبير هو جبريل عليه السلام وانما قدم لرؤس الآى وحسن النظم (وثانيها) قال الزجاج قوله به معناه عنه والمعنى فاسأل عنه خبيرا وهو قول الاخفش ونظيره قوله سأل سائل بعذاب واقع وقال علقمة بن عبدة

فان تسألونى بالنساء فاننى ✽ بصير بادواء النساء طبيب

(وثالثها) قال ابن جرير الباء فى قوله به صلة والمعنى فسله خبيرا وخبيرا نصب على الحال (ورابعها) أن قوله به يجرى مجرى القسم كقوله واتقوا الله الذى تساءلون به ✽ أما قوله واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن فهو خبر عن قوم قالوا هذا القول ويحتمل أنهم جهلوا الله تعالى ويحتمل انهم وان عرفوه لكنهم جحدوه ويحتمل انهم وان اعترفوا به لكنهم جهلوا ان هذا الاسم من أسماء الله تعالى وكثير من المفسرين على هذا القول الاخير قالوا الرحمن اسم من أسماء الله مذكور فى الكتب المتقدمة والعرب ما عرفوه قال مقاتل ان أبا جهل قال ان الذى يقول محمد شعر فقال عليه الصلاة والسلام الشعر غير هذا ان هذا الا كلام الرحمن فقال أبو جهل بخ بخ لعمرى والله انه لكلام الرحمن الذى باليمامة هو يعلمك فقال عليه الصلاة والسلام الرحمن الذى هو اله السماء ومن عنده يأتينى الوحى فقال يا آل غالب من يعذرنى من محمد يزعم أن الله واحد وهو يقول الله يعلمنى والرحمن ألستم تعلمون أنهما الهان ثم قال ربكم الله الذى خلق هذه الاشياء أما الرحمن فهو مسيلمة قال القاضى والاقرب أن المراد انكارهم لله لا للاسم لان هذه اللفظة عربية وهم كانوا يعلمون انها تفيد المبالغة فى الانعام ثم ان قلنا بانهم كانوا منكرين لله كان قولهم وما الرحمن سؤال طالب عن الحقيقة وهو يجرى مجرى قول فرعون وما رب العالمين وان قلنا بانهم كانوا مقرين بالله لكنهم جهلوا كونه تعالى مسمى بهذا الاسم كان قولهم وما الرحمن سؤالا عن الاسم ✽ أما قوله أنسجد لما تأمرنا فالمعنى للذى تأمرنا بسجوده على قوله أمرتك بالخير أو لامرك لنا وقرئ يأمرنا بالياء كأن بعضهم قال لبعض أنسجد لما يأمرنا محمد أو يأمرنا المسمى بالرحمن ولا نعرف ما هو وزادهم أمره نفورا ومن حقه أن يكون باعثا على الفعل والقبول قال الضحاك فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى وعثمان بن

منه أى ما لا يقدر على أن يرزقهم شيأ لا من السموات مطرا ولا من الارض نباتا وان جعل اسما للمرزوق فنصب على البدلية منه بمعنى قليلا ومن السموات والارض صفة لرزقا أى كائنا منهما ويجوز أن يكون شيأ مؤكدا لنفى الملك أى لا يملك رزقا ما شيأ من الملك (ولا يستطيعون) أن يملكوه اذ لا استطاعة لهم رأسا لانها موات لا حراك بها فالضمير للآلهة ويجوز أن يكون للكفرة على معنى أنهم مع كونهم أحياء متصرفين فى الامور لا يستطيعون من ذلك شيأ فكيف بالجماد الذى لا حس به (فلا تضربوا لله الامثال) التفات الى الخطاب للايذان بالاهتمام بشأن النهى أى لا تشركوا به شيأ والتعبير عن ذلك بضرب المثل للقصد الى النهى عن الاشراك به تعالى فى شأن من الشؤن فان ضرب المثل مبناه تشبيه حالة بحالة وقصة بقصة أى لا تشبهوا بشأنه تعالى شأنا من الشؤن واللام مثلها فى قوله تعالى ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون لا مثلها فى قوله تعالى واضرب لهم مثلا أصحاب القرية ونظائره والفاء للدلالة على ترتب النهى على ما عدد من النعم الفائضة عليهم من جهته سبحانه وكون ما يشركون به تعالى بمعزل من أن يملك لهم من أقطار السموات والارض شيأ من رزق ما فضلا عما فصل من نعمة الخلق والتفضيل فى الرزق ونعمة الازواج والاولاد (ان الله يعلم) تعليل للنهى المذكور ووعيد على المنهى عنه أى انه تعالى يعلم كنه ما تأتون وما تذرون وانه فى غاية العظم والقبح (وأنتم لا تعلمون) ذلك والا لما فعلتموه أو انه تعالى يعلم كنه الاشياء وأنتم لا تعلمونه فدعوا رأيكم وقفوا مواقف الامتثال لما يرد عليكم من الامر والنهى ويجوز أن يراد فلا تضربوا لله الامثال ان الله يعلم كيف تضرب الامثال وأنتم لا تعلمون ذلك فتقعون فيما

تقعون فيه من مهاوي الردى والضلال ثم علمهم كيفية ضرب الامثال في هذا الباب فقال (ضرب الله مثلا) أي ذكر وأورد شيئا يستدل به على تباين الحال بين جنابه عز وجل وبين ما أشركوا به وعلى تباعدهما بحيث ينادي بفساد ما ارتكبوه نداء جليا (عبدا مملوكا لا يقدر على شئ) بدل من مثلا وتفسير له والمثل في الحقيقة حالته العارضة له من المملوكية والعجز التام وبحسبها ضرب نفسه مثلا ووصف العبد بالمملوكية للتمييز عن الحر لاشتراكهما في كونهما عبد الله سبحانه وقد أدمج فيه أن الكل عبيد له تعالى وبعدم القدرة لتمييزه عن المكاتب والمأذون اللذين لهما تصرف في الجملة وفي ابهام المثل أولا ثم بيانه بما ذكر ما لا يخفى من الفخامة والجزالة (ومن رزقناه) من موصوفة معطوفة على عبدا أي رزقناه بطريق الملك والالتفات الى التكلم للاشعار باختلاف حالي ضرب المثل والرزق (منا) من جنابنا الكبير المتعالي (رزقا حسنا) حلالا طيبا أو مستحسنا عند الناس مرضيا (فهو ينفق منه) تفضلا واحسانا والفاء لترتيب الانفاق على الرزق كأنه قيل ومن رزقناه منا رزقا حسنا فانفق وايثار ما عليه النظم الكريم من الجملة الاسمية الفعلية الخبر للدلالة على ثبات الانفاق واستمراره التجددي (سرا وجهرا) أي حال السر والجهر أو انفاق سر وانفاق جهر والمراد بيان عموم انفاقه للاوقات وشمول انعامه لمن يجتنب عن قبوله جهرا والاشارة الى أصناف نعم الله تعالى الباطنة والظاهرة وتقديم السر ف على الجهر للايذان بفضله عليه والعدول عن تطبيق القرينتين بأن يقال وحرا مالكا للاموال مع كونه أدل على تباين الحال بينه وبين قسيمه لتوخي تحقيق الحق بأن الاحرار أيضا تحت ربقة عبوديته سبحانه وتعالى وان مالكيتهم لما يملكونه ليست الا بأن يرزقهم الله تعالى

مظعون وعمرو بن عنبسة ولما رآهم المشركون يسجدون تباعدوا في ناحية المسجد مستهزئين فهذا هو المراد من قوله وزادهم نفورا أي فزادهم سجودهم نفورا ﴿قوله تعالى ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا﴾ اعلم أنه سبحانه لما حكى عن الكفار مزيد النفرة عن السجود ذكر ما لو تفكروا فيه لعرفوا وجوب السجود والعبادة للرحمن فقال تبارك الذي جعل في السماء بروجا أما تبارك فقد تقدم القول فيه وأما البروج فهي منازل السيارات وهي مشهورة سميت بالبروج التي هي القصور العالية لانها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها واشتقاق البرج من التبرج لظهوره وفيه قول آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما أن البروج هي الكواكب العظام والاول أولى لقوله تعالى وجعل فيها أي في البروج فان قيل لم لا يجوز أن يكون قوله فيها راجعا الى السماء دون البروج قلنا لان البروج أقرب فعود الضمير اليها أولى والسراج الشمس لقوله تعالى وجعل الشمس سراجا وقرئ سرجا وهي الشمس والكواكب الكبار فيها وقرأ الحسن والاعمش وقمرا منيرا وهي جمع ليلة قمراء كأنه قيل وذا قمر منير لان الليالي تكون قمراء بالقمر فأضافه اليها ولا يبعد أن يكون القمر بمعنى القمر كالرشد والرشد والعرب والعرب وأما الخلفة ففيها قولان (الاول) انها عبارة عن كون الشيئين بحيث أحدهما يخلف الآخر ويأتي خلفه يقال فلان خلفة واختلاف اذا اختلف كثيرا الى متبرزه والمعنى جعلهما ذوي خلفة أي ذوي عقبة يعقب هذا ذاك وذاك هذا قال ابن عباس رضي الله عنهما جعل كل واحد منهما يخلف صاحبه فيما يحتاج أن يعمل فيه فمن فرط في عمل في أحدهما قضاه في الآخر قال أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب وقد فاتته قراءة القرآن بالليل يا ابن الخطاب لقد أنزل الله فيك آية وتلا وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر ما فاتك من النوافل بالليل فاقضه في نهارك وما فاتك من النهار فاقضه في ليلك (القول الثاني) وهو قول مجاهد وقتادة والكسائي يقال لكل شيئين اختلفا هما خلفان فقوله خلفة أي مختلفين وهذا أسود وهذا أبيض وهذا طويل وهذا قصير والقول الاول أقرب أما قوله تعالى أن يذكر فقراءة العامة بالتشديد وقراءة حمزة بالتخفيف وعن أبي بن كعب يتذكر والمعنى لينظر الناظر في اختلافهما فيعلم أنه لابد من انتقالهما من حال الى حال من ناقل ومغير وقوله أن يذكر راجع الى كل ما تقدم من النعم بين تعالى أن الذين قالوا وما الرحمن لو تفكروا في هذه النعم وتذكروها لاستدلوا بذلك على عظيم قدرته ولشكر الشاكر على النعمة فيهما من السكون بالليل والتصرف بالنهار كما قال تعالى ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله أو ليكونا وقتين للمتذكرين والشاكرين من فاته في أحدهما ورده من العبادة قام به في الآخر والشكور مصدر شكر يشكر شكورا ﴿قوله تعالى ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما انها ساءت مستقرا ومقاما والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما﴾ اعلم ان قوله وعباد الرحمن مبتدأ خبره في آخر السورة كأنه قيل وعباد الرحمن الذين هذه صفاتهم أولئك يجزون الغرفة ويجوز أن يكون خبره الذين يمشون واعلم أنه سبحانه خص اسم العبودية بالمشتغلين بالعبودية فدل ذلك على أن هذه الصفة من أشرف صفات المخلوقات وقرئ وعباد الرحمن * واعلم أنه سبحانه وصفهم بتسعة أنواع من الصفات (الصفة الاولى) قوله الذين يمشون على الارض هونا وهذا وصف سيرتهم بالنهار وقرئ يمشون هونا حال أو صفة للمشي بمعنى هينين أو بمعنى مشيا هينا الا أن

في وضع المصدر موضع الصفة مبالغة والهون الرفق واللين ومنه الحديث أحبب حبيبك هونا ما وقوله المؤمنون هينون لينون والمعنى أن مشيهم يكون في لين وسكينة ووقار وتواضع ولا يضربون بأقدامهم أشرا وبطرا ولا يتبخترون لأجل الخيلاء كما قال ولا تمش في الأرض مرحا وعن زيد بن أسلم التمست تفسير هونا فلم أجد فرأيت في النوم فقيل لي هم الذين لا يريدون الفساد في الأرض وعن ابن زيد لا يتكبرون ولا يتجبرون ولا يريدون علوا في الأرض (الصفة الثانية) قوله تعالى وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما معناه لا نجاهلكم ولا خير بيننا ولا شر أي نسلم منكم تسليما فأقيم السلام مقام التسليم ثم يحتمل أن يكون مرادهم طلب السلامة والسكوت ويحتمل أن يكون المراد التنبيه على سوء طريقتهم لكي يمتنعوا ويحتمل أن يكون مرادهم العدول عن طريق المعاملة ويحتمل أن يكون المراد إظهار الحلم في مقابلة الجهل قال الأصم قالوا سلاما أي سلام توديع لا تحية كقول إبراهيم لأبيه سلام عليك ثم قال الكلبي وأبو العالية نسختها آية القتال ولا حاجة إلى ذلك لأن الإغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن في العقل والشرع وسبب لسلامة العرض والورع (الصفة الثالثة) قوله والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما (واعلم) أنه تعالى لما ذكر سيرتهم في النهار من وجهين (أحدهما) ترك الإيذاء وهو المراد من قوله يمشون على الأرض هونا (والآخر) تحمل التأذي وهو المراد من قوله وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما فكأنه شرح سيرتهم مع الخلق في النهار فبين في هذه الآية سيرتهم في الليالي عند الاشتغال بخدمة الخالق وهو كقوله تتجافى جنوبهم عن المضاجع ثم قال الزجاج كل من أدركه الليل قيل بات وإن لم ينم كما يقال بات فلان قلقا ومعنى يبيتون لربهم أن يكونوا في لياليهم مصلين ثم اختلفوا فقال بعضهم من قرأ شيئا من القرآن في صلاة وإن قل فقد بات ساجدا وقائما وقيل ركعتين بعد المغرب وأربعا بعد العشاء الآخرة والأولى أنه وصف لهم بإحياء الليل أو أكثره يقال فلان يظل صائما ويبيت قائما قال الحسن يبيتون لله على أقدامهم ويفترشون له وجوههم تجري دموعهم على خدودهم خوفا من ربهم (الصفة الرابعة) قوله والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما قال ابن عباس رضي الله عنهما يقولون في سجودهم وقيامهم هذا القول وقال الحسن خشعوا بالنهار وتعبوا بالليل فرقا من عذاب جهنم وقوله غراما أي هلاكا وخسرانا ملحا لازما ومنه الغريم لإلحاحه وإلزامه ويقال فلان مغرم بالنساء إذا كان مولعا بهن وسأل نافع بن الأزرق ابن عباس عن الغرام فقال هو الموجع وعن محمد بن كعب في غراما أنه سأل الكفار ثمن نعمه فما أدوها إليه فأغرمهم فأدخلهم النار واعلم أنه تعالى وصفهم بإحياء الليل ساجدين وقائمين ثم عقبه بذكر دعوتهم هذه إيذانا بأنهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون إلى الله في صرف العذاب عنهم كقوله والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أما قوله تعالى إنها ساءت مستقرا ومقاما فقوله ساءت في حكم بئست وفيها ضمير مبهم تفسيره مستقرا والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقرا ومقاما هي ومستقرا حال أو تمييز (فإن قيل) دلت الآية على أنهم سألوا الله تعالى أن يصرف عنهم عذاب جهنم لعلتين (أحدهما) أن عذابها كان غراما (وثانيهما) أنها ساءت مستقرا ومقاما فما الفرق بين الوجهين وأيضا فما الفرق بين المستقر والمقام (قلنا) المتكلمون ذكروا أن عقاب الكافر يجب أن يكون مضرة خالصة عن شوائب النفع دائمة فقوله إن عذابها كان غراما إشارة إلى كونه مضرة خالصة عن شوائب النفع وقوله إنها ساءت مستقرا ومقاما إشارة إلى كونها دائمة ولا شك في المغايرة أما الفرق بين المستقر والمقام فيحتمل أن يكون المستقر للعصاة من أهل الإيمان فإنهم يستقرون في النار ولا يقيمون فيها وأما الإقامة فللكفار واعلم أن قوله إنها ساءت مستقرا ومقاما يمكن أن يكون من

إياه من غير أن يكون لهم مدخل في ذلك مع محاولة المبالغة في الدلالة على ما قصد بالمثل من تباين الحال بين الممثلين فإن العبد المملوك حيث لم يكن مثل العبد المالك فما ظنك بالجماد ومالك الملك خلاق العالمين (هل يستوون) جمع الضمير للإيذان بأن المراد بما ذكر من اتصف بالأوصاف المذكورة من الجنسين المذكورين لا فردان معينان منهما أي هل يستوي العبيد والأحرار الموصوفون بما ذكر من الصفات مع أن الفريقين سيان في البشرية والمخلوقية لله سبحانه وأن ما ينفقه الأحرار ليس مما لهم مدخل في إيجاده ولا في تملكه بل هو مما أعطاه الله تعالى إياهم فحيث لم يستو الفريقان فما ظنكم برب العالمين حيث تشركون به ما لا أذل منه وهو الأصنام (الحمد لله) أي كله له لأنه مولى جميع النعم لا يستحقه أحد غيره وإن ظهرت على أيدي بعض الوسائط فضلا عن استحقاق العبادة وفيه إرشاد إلى ما هو الحق من أن ما يظهر على يد من ينفق مما ذكر راجع إلى الله سبحانه كما لوح به قوله تعالى رزقناه (بل أكثرهم لا يعلمون) ما ذكر فيضيفون نعمه تعالى إلى غيره ويعبدونه لأجلها ونفي العلم عن أكثرهم للإشعار بأن بعضهم يعلمون ذلك وإنما لا يعملون بموجبه عنادا كقوله تعالى يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون (وضرب الله مثلا) أي مثلا آخر يدل على ما دل عليه المثل السابق على وجه أوضح وأظهر وبعدما أبهم ذلك لانتظار النفس إلى وروده وترقبها حتى يتمكن لديها عند وروده بين فقيل (رجلين أحدهما أبكم) وهو من ولد أخرس (لا يقدر على شيء) من الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره بحدس أو فراسة لقلة فهمه وسوء إدراكه (وهو كل) ثقل وعيال (على مولاه) على من يلي أمره ويعوله وهذا بيان لعدم قدرته على إقامة مصالح نفسه بعد ذكر عدم قدرته على شيء

مطلقا وقوله تعالى (أينما يوجهه) أى حيث يرسله مولاه فى أمر بيان لعدم قدرته على اقامة مصالح مولاه ولو كانت مصلحة يسيرة وقرئ على البناء للمفعول وعلى صيغة الماضى من التوجه (لا يأت بخير) بنجح وكفاية مهم البتة (هل يستوى هو) مع ما فيه من الاوصاف المذكورة (ومن يأمر بالعدل) أى من هو منطيق فهم ذو رأى وكفاية ورشد ينفع الناس بحثهم على العدل الجامع لمجامع

كلام الله تعالى ويمكن أن يكون حكاية لقولهم (الصفة الخامسة) قوله والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما قرئ يقتروا بكسر التاء وضمها ويقتروا بضم الياء وتخفيف القاف وكسر التاء وأيضا بضم الياء وفتح القاف وكسر التاء وتشديدها وكلها لغات والقتر والاقتار والتقتير التضييق الذى هو نقيض الاسراف والاسراف مجاوزة الحد فى النفقة وذكر المفسرون فى الاسراف والتقتير وجوها (أحدها) وهو الاقوى انه تعالى وصفهم بالقصد الذى هو بين الغلو والتقصير وبمثله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط وعن وهيب بن الورد قال لعالم ما البناء الذى لا سرف فيه قال ما سترك عن الشمس وأكنك من المطر فقال له فما الطعام الذى لا سرف فيه قال ما سد الجوعة فقال له فى اللباس قال ما ستر عورتك وو قاك من البرد وروى أن رجلا صنع طعاما فى املاك فأرسل الى الرسول عليه السلام فقال حق فأجيبوا ثم صنع الثانية فأرسل اليه فقال حق فمن شاء فليجب والا فليقعد ثم صنع الثالثة فأرسل اليه فقال رياء ولا خير فيه (وثانيها) وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك ان الاسراف الانفاق فى معصية الله تعالى والاقتار منع حق الله تعالى قال مجاهد لو أنفق رجل مثل أبى قبيس ذهبا فى طاعة الله تعالى لم يكن سرفا ولو أنفق صاعا فى معصية الله تعالى كان سرفا وقال الحسن لم ينفقوا فى معاصى الله ولم يمسكوا عما ينبغى وذلك قد يكون فى الامساك عن حق الله وهو أقبح التقتير وقد يكون عما لا يجب ولكن يكون مندوبا مثل الرجل الغنى الكثير المال اذا منع الفقراء من أقاربه (وثالثها) المراد بالسرف مجاوزة الحد فى التنعم والتوسع فى الدنيا وان كان من حلال فان ذلك مكروه لانه يؤدى الى الخيلاء والاقتار هو التضييق فالاكل فوق الشبع بحيث يمنع النفس عن العبادة سرف وان أكل بقدر الحاجة فذلك اقتار وهذه الصفة صفة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ولا يلبسون ثوبا للجمال والزينة ولكن كانوا يأكلون ما يسد جوعهم ويعينهم على عبادة ربهم ويلبسون ما يستر عوراتهم ويصونهم من الحر والبرد وههنا مسئلتان (المسئلة الاولى) القوام قال ثعلب القوام بالفتح العدل والاستقامة وبالكسر ما يدوم عليه الامر ويستقر قال صاحب الكشاف القوام العدل بين الشيئين لاستقامة الطرفين واعتدالهما ونظير القوام من الاستقامة السواء من الاستواء وقرئ قواما بالكسر وهو ما يقام به الشئ يقال أنت قوامنا يعنى ما يقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص (المسئلة الثانية) المنصوبان أعنى بين ذلك قواما جائز أن يكونا خبرين معا وأن يجعل بين ذلك لغوا وقواما مستقرا وأن يكون الظرف خبرا وقواما حالا مؤكدة قال الفراء وان شئت جعلت بين ذلك اسم كان كما تقول كان دون هذا كافيا تريد أقل من ذلك فيكون معنى بين ذلك أى كان الوسط من ذلك قواما أى عدلا وهذا التأويل ضعيف لان القوام هو الوسط فيصير التأويل وكان الوسط وسطا وهذا لغو (الصفة السادسة) ﴿قوله تعالى ﴿والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا﴾ اعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر ان من صفة عباد الرحمن الاحتراز عن الشرك والقتل والزنا ثم ذكر بعد ذلك حكم من يفعل هذه الاشياء من العقاب ثم استثنى من جملتهم التائب وههنا سؤالات (السؤال الاول) انه تعالى قبل ذكر هذه الصفة نزه عباد الرحمن عن الامور الخفيفة فكيف يليق بعد ذلك أن يطهرهم عن الامور العظيمة مثل الشرك والقتل والزنا أليس انه لو كان الترتيب بالعكس منه كان أولى (الجواب) ان الموصوف بتلك

الفضائل (وهو) فى نفسه مع ما ذكر من نفعه العام للخاص والعام (على صراط مستقيم) ومقابلة الصفات المذكورة بهذين الوصفين لانهما فى حاق ما يقابلها فان محصل الصفات المذكورة عدم استحقاق المأمورية ومحصل هذين استحقاق كمال الآمرية المستتبع لحيازة المحاسن بأجمعها وتغيير الاسلوب حيث لم يقل والآخر آمر بالعدل الآية لمراعاة الملاءمة بينه وبين ما هو المقصود من بيان التباين بين الفريقين واعلم أن كلا من الفعلين ليس المراد بهما حكاية الضرب الماضى بل المراد انشاؤه بما ذكر عقيبه ولا يبعد أن يقال ان الله تعالى ضرب مثلا لحال الفريقين على ما هما عليه فكان دلالتهما كذلك للاستدلال بعدم تساويهما على امتناع التساوى بينه سبحانه وبين ما يشركون فيكون كل من الفعلين حكاية للضرب الماضى (ولله) تعالى خاصة لا لاحد غيره استقلالا ولا اشتراكا (غيب السموات والارض) أى الامور الغائبة عن علوم المخلوقين قاطبة بحيث لا سبيل لهم اليها لا مشاهدة ولا استدلالا ومعنى الاضافة اليهما التعلق بهما الصفات اما باعتبار الوقوع فيهما حالا أو مآلا واما باعتبار الغيبة عن أهلهما والمراد بيان الاختصاص به تعالى من حيث المعلومية حسبما ينبئ عنه عنوان الغيبة لا من حيث المخلوقية والمملوكية وان كان الامر كذلك فى نفس الامر وفيه اشعار بأن علمه سبحانه حضورى فان تحقق

الغيوب فى أنفسهما علم بالنسبة اليه تعالى ولذلك لم يقل ولله علم غيب السموات والارض (وما أمر الساعة) التى هى أعظم ماوقع فيه المماراة من الغيوب المتعلقة بهما من حيث غيبتها عن أهلهما أوظهورآثارها فيهما عند وقوعها فان وقت وقوعها بعينه من الغيوب المختصة به سبحانه وان كان انيتها من الغيوب التى نصبت عليها الادلة أى ماشأنها فى سرعة المجىء (الا كلمح البصر) أى كرجع الطرف من أعلى الحدقة الى أسفلها (أوهو) أى بل أمرها فيماذكر (أقرب) من ذلك وأسرع زمانا بأن يقع فى بعض من زمانه فان ذلك وان قصر عن حركة انية لها هوية اتصالية منطبقة على زمان له هوية كذلك قابل للانقسام الى أبعاض هى أزمنة أيضا بل فى آن غير منقسم من ذلك الزمان وهو آن ابتداء تلك الحركة أوما أمرها الا كالشىء الذى يستقرب ويقال هو كلمح البصر أو هو أقرب وأياما كان فهو تمثيل لسرعة مجيئها حسبما عبر عنها فى فاتحة السورة الشريفة بالاتيان (ان الله على كل شىء قدير) ومن جملة الاشياء أن يجىء بها أسرع مايكون فهو قادر على ذلك أو وما أمر اقامة الساعة التى كنهها وكنيتها من الغيوب الخاصة به سبحانه وهى اماتة الاحياء واحياء الاموات من الاولين والآخرين وتبديل صورالاكوان أجمعين وقد أنكرها المنكرون

وجعلوها من قبيل مالا يدخل تحت الامكان فى سرعة الوقوع وسهولة التأتى الا كلمح البصر أوهو أقرب على مامر من الوجهين ان الله على كل شىء قدير فهو قادر على ذلك لامحالة وقيل غيب السموات والارض عبارة عن يوم القيامة بعينه لما أن علمه بخصوصه غائب عن أهلهما فوضع الساعة موضع الضمير لتقوية مضمون الجملة (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم) عطف على

الصفات السالفة قد يكون متمسكا بالشرك تدينا ومقدما على قتل الموؤدة تدينا وعلى الزنا تدينا فبين تعالى أن المرء لايصير بتلك الخصال وحدها من عباد الرحمن حتى يضاف الى ذلك كونه مجانبا لهذه الكبائر وأجاب الحسن رحمه الله من وجه آخر فقال المقصود من ذلك التنبيه على الفرق بين سيرة المسلمين وسيرة الكفار كأنه قال وعباد الرحمن هم الذين لايدعون مع الله الها آخر وأنتم تدعون ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق وأنتم تقتلون الموؤدة ولايزنون وأنتم تزنون (السؤال الثانى) مامعنى قوله ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ومعلوم أنه من يحل قتله لايدخل فى النفس المحرمة فكيف يصح هذا الاستثناء (الجواب) المقتضى لحرمة القتل قائم أبدا وجواز القتل انما ثبت بالمعارض فقوله حرم الله اشارة الى المقتضى وقوله الا بالحق اشارة الى المعارض (السؤال الثالث) بأى سبب يحل القتل (الجواب) بالردة وبالزنا بعد الاحصان وبالقتل قودا على مافى الحديث وقيل وبالمحاربة وبالبينة وان لم يكن لما شهدت به حقيقة (السؤال الرابع) منهم من فسر قوله ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق بالردة فهل يصح ذلك (الجواب) لفظ القتل عام فيتناول الكل وعن ابن مسعود قلت يارسول الله أى الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أى قال أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك قلت ثم أى قال ان تزنى بحليلة جارك فأنزل الله تصديقه (السؤال الخامس) ما الاثام (الجواب) فيه وجوه (أحدها) أن الاثام جزاء الاثم بوزن الوبال والنكال (وثانيها) وهو قول أبى مسلم أن الاثام والاثم واحد والمراد ههنا جزاء الاثام فأطلق اسم الشىء على جزائه (وثالثها) قال الحسن الاثام اسم من أسماء جهنم وقال مجاهد أثاما واد فى جهنم وقرأ ابن مسعود أثاما أى شديدا يقال يوم ذو أثام لليوم العصيب أما قوله يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) يضاعف بدل من يلق لانهما فى معنى واحد وقرئ يضعف ونضعف له العذاب بالنون ونصب العذاب وقرئ بالرفع على الاستئناف أوعلى الحال وكذلك يخلد ويخلد على البناء للمفعول مخففا ومثقلا من الاخلاد والتخليد وقرئ وتخلد بالتاء على الالتفات (المسئلة الثانية) سبب تضعيف العذاب أن المشرك اذا ارتكب المعاصى مع الشرك عذب على الشرك وعلى المعاصى جميعا فتضاعف العقوبة لمضاعفة المعاقب عليه وهذا يدل على ان الكفار مخاطبون بفروع الشرائع (المسئلة الثالثة) قال القاضى بين الله تعالى ان المضاعفة والزيادة يكون حالهما فى الدوام كحال الاصل فقوله ويخلد فيه أى ويخلد فى ذلك التضعيف ثم ان ذلك التضعيف انما حصل بسبب العقاب على المعاصى فوجب أن يكون عقاب هذه المعاصى فى حق الكافر دائما واذا كان كذلك وجب أن يكون فى حق المؤمن كذلك لان حاله فيما يستحق به لا يتغير سواء فعل مع غيره أو منفردا (والجواب) لم لايجوز أن يكون للاتيان بالشىء مع غيره أثر فى مزيد القبح ألا ترى أن الشيئين قد يكون كل واحد منهما فى نفسه حسنا وان كان الجمع بينهما قبيحا وقد يكون كل واحد منهما قبيحا ويكون الجمع بينهما أقبح فكذا ههنا (المسئلة الرابعة) قوله ويخلد فيه مهانا اشارة الى ماثبت أن العقاب هو المضرة الخالصة المقرونة بالاذلال والاهانة كما أن الثواب هو المنفعة الخالصة المقرونة بالتعظيم * أما قوله تعالى الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ففيه مسائل (المسئلة الاولى) دلت الآية على ان التوبة مقبولة والاستثناء لايدل على ذلك لانه أثبت أنه يضاعف له العذاب ضعفين فيكفى لصحة هذا الاستثناء أن لايضاعف للتائب العذاب ضعفين وانما الدال عليه قوله فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات (المسئلة

قوله تعالى والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا منتظم معه في سلك أدلة التوحيد من قوله تعالى والله انزل من السماء ماء وقوله تعالى والله خلقكم وقوله تعالى والله فضل بعضكم على بعض والامهات بضم الهمزة وقرئ بكسرها أيضا جمع الام زيدت الهاء فيه كما زيدت في اهراق من أراق وشذت زيادتها في الواحدة قال * أمهتي خندف والياس أبي * (لا تعلمون شيأ) في موقع الحال أي غير عالمين شيأ أصلا (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة) عطف على أخرجكم وليس فيه دلالة على تأخر الجعل المذكور عن الاخراج لما أن مدلول الواو هو الجمع مطلقا لا الترتيب على أن أثر ذلك الجعل لا يظهر قبل الاخراج أي جعل لكم هذه الاشياء آلات تحصلون بها العلم والمعرفة بأن تحسوا بمشاعركم جزئيات الاشياء وتدركوها بأفئدتكم وتتنبهوا لما بينها من المشاركات والمباينات بتكرر الاحساس فيحصل لكم علوم بديهية تتمكنون بالنظر فيها من تحصيل العلوم الكسبية والافئدة جمع فؤاد وهو وسط القلب وهو من القلب كالقلب من الصدر وهو من جموع القلة التي جرت مجرى جموع الكثرة وتقديم المجرور على المنصوبات لما مر من الايذان من أول الامر بكون المجعول نافعا لهم وتشويق النفس الى المؤخر ليتمكن عند وروده عليها فضل تمكن (لعلكم تشكرون) كي تعرفوا ما أنعم به عليكم طورا غب طور فتشكروه وتقديم السمع على البصر لما أنه طريق تلقي الوحي أولان ادراكه أقدم من ادراك البصر وافراده باعتبار كونه مصدرا في الاصل (ألم يروا) وقرئ بالتاء (الى الطير) جمع طائر أي ألم ينظروا اليها (مسخرات) مذللات للطيران بما خلق لها من الاجنحة والاسباب المساعدة

اقوا

الثانية) نقل عن ابن عباس أنه قال توبة القاتل غير مقبولة وزعم أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى ومن يقتل مؤمنا متعمدا وقالوا نزلت الغليظة بعد اللينة بمدة يسيرة وعن الضحاك ومقاتل بثمان سنين وقد تقدم الكلام في ذلك في سورة النساء (المسألة الثالثة) فان قيل العمل الصالح يدخل فيه التوبة والايمان فكان ذكرهما قبل ذكر العمل الصالح حشوا قلنا أفردهما بالذكر لعلو شأنهما ولما كان لابد منهما من سائر الاعمال لاجرم ذكرعقيبهما العمل الصالح (المسألة الرابعة) اختلفوا في المراد بقوله فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات على وجوه (أحدها) قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة أن التبديل انما يكون في الدنيا فيبدل الله تعالى قبائح أعمالهم في الشرك بمحاسن الاعمال في الاسلام فيبدلهم بالشرك ايمانا وبقتل المؤمنين قتل المشركين وبالزنا عفة واحصانا فكأنه تعالى يبشرهم بأنه يوفقهم لهذه الاعمال الصالحة فيستوجبون بها الثواب (وثانيها) قال الزجاج السيئة بعينها لا تصير حسنة ولكن التأويل أن السيئة تمحى بالتوبة وتكتب الحسنة مع التوبة والكافر يحبط الله عمله ويثبت عليه السيآت (وثالثها) قال قوم ان الله تعالى يمحو السيئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة بحكم هذه الآية وهذا قول سعيد بن المسيب ومكحول ويحتجون بما روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ليتمنين أقوام أنهم أكثروا من السيآت قيل من هم يارسول الله قال الذين يبدل الله سيآتهم حسنات وعلى هذا القول التبديل في الآخرة (ورابعها) قال القفال والقاضي انه تعالى يبدل العقاب بالثواب فذكرهما وأراد ما يستحق بهما واذا حمل على ذلك كانت الاضافة الى الله حقيقة لان الاثابة لا تكون الا من الله تعالى * أما قوله تعالى ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا ففيه سؤالان (السؤال الاول) ما فائدة هذا التكرير (الجواب) من وجهين (الاول) أن هذا ليس بتكرير لان الاول لما كان في تلك الخصال بين تعالى أن جميع الذنوب بمنزلتها في صحة التوبة منها (الثاني) أن التوبة الاولى رجوع عن الشرك والمعاصي والتوبة الثانية رجوع الى الله تعالى للجزاء والمكافأة كقوله تعالى عليه توكلت واليه متاب أي مرجعي (السؤال الثاني) هل تكون التوبة الا الى الله تعالى فما فائدة قوله فانه يتوب الى الله متابا (الجواب) من وجوه (الاول) ما تقدم من أن التوبة الاولى الرجوع عن المعصية والثانية الرجوع الى حكم الله تعالى وثوابه (الثاني) معناه أن من تاب الى الله فقد أتى بتوبة مرضية لله مكفرة للذنوب محصلة للثواب العظيم (الثالث) قوله ومن تاب يرجع الى الماضي فانه سبحانه ذكر أن من أتى بهذه التوبة في الماضي على سبيل الاخلاص فقد وعده بأنه سيوفقه للتوبة في المستقبل وهذا من أعظم البشارات (الصفة السابعة) قوله تعالى (والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما) وفيه مسائل (المسألة الاولى) الزور يحتمل اقامة الشهادة الباطلة ويكون المعنى أنهم لا يشهدون شهادة الزور فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه ويحتمل حضور مواضع الكذب كقوله تعالى فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ويحتمل حضور كل موضع يجري فيه ما لا ينبغي ويدخل فيه اعياد المشركين ومجامع الفساق لان من خالط أهل الشر ونظر الى أفعالهم وحضر مجامعهم فقد شاركهم في تلك المعصية لان الحضور والنظر دليل الرضا به بل هو سبب لوجوده والزيادة فيه لان الذي حملهم على فعله استحسان النظارة ورغبتهم في النظر اليه وقال ابن عباس رضي الله عنهما المراد مجالس الزور التي يقولون فيها الزور على الله تعالى وعلى رسوله وقال محمد بن الحنفية الزور الغناء واعلم أن كل هذه الوجوه محتملة ولكن استعماله في الكذب أكثر (المسألة الثانية) الاصح أن اللغو كل ما يجب أن يلغى ويترك ومنهم من فسر اللغو بكل ما ليس بطاعة وهو ضعيف لان المباحات لا تعد

له وفيه مبالغة من حيث ان معنى التسخير جعل الشئ منقادا للآخر يتصرف فيه كيف يشاء كتسخير البحر والفلك والدواب للانسان والواقع ههنا تسخير الهواء للطير لتطير فيه كيف تشاء فكان مقتضى طبيعة الطير السقوط فسخرها الله تعالى للطيران وفيه تنبيه على أن الطيران ليس بمقتضى طبع الطير بل ذلك بتسخير الله تعالى (فى جو السماء) أى فى الهواء المتباعد من الارض

لغوا فقوله واذا مروا باللغو أى بأهل اللغو (المسألة الثالثة) لاشبهة فى قوله مروا كراما معناه أنهم يكرمون أنفسهم عن مثل حال اللغو واكرامهم لها لا يكون الا بالاعراض وبالانكار وبترك المعاونة والمساعدة ويدخل فيه الشرك واللغو فى القرآن وشتم الرسول والخوض فيما لا ينبغى وأصل الكلمة من قولهم ناقة كريمة اذا كانت تعرض عند الحلب تكرما كأنها لا تبالى بما يحلب منها للغزارة فاستعير ذلك للصفح عن الذنب وقال الليث يقال تكرم فلان عما يشينه اذا تنزه وأكرم نفسه عنها ونظير هذه الآية قوله واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين وعن الحسن لم تسفههم المعاصى وقيل اذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا وقيل اذا ذكروا النكاح كنوا عنه (الصفة الثامنة) قوله تعالى ﴿والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا﴾ قال صاحب الكشاف قوله لم يخروا عليها صما وعميانا ليس بنفى للخرور وانما هو اثبات له ونفى للصمم والعمى كما يقال لا يلقانى زيد مسلما هو نفى للسلام لا للقاء والمعنى أنهم اذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصا على استماعها وأقبلوا على المذكر بها وهم فى اكبابهم عليها سامعون بآذان واعية مبصرون بعيون راعية لا كالذين يذكرون بها فتراهم مكبين عليها مقبلين على من يذكر بها مظهرين الحرص الشديد على استماعها وهم كالصم والعميان حيث لا يفهمونها ولا يبصرون ما فيها كالمنافقين (الصفة التاسعة) قوله تعالى ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما﴾ وفيه مسائل (المسألة الاولى) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم ذرياتنا بألف على الجمع وحذفها الباقون على التوحيد والذرية تكون واحدا وجمعا (المسألة الثانية) انه لاشبهة أن المراد أن يكون قرة أعين لهم فى الدين لا فى الامور الدنيوية من المال والجمال ثم ذكروا فيه وجهين (أحدهما) أنهم سألوا أزواجا وذرية فى الدنيا يشاركونهم فأحبوا أن يكونوا معهم فى التمسك بطاعة الله تعالى فيقوى طمعهم فى أن يحصلوا معهم فى الجنة فيتكامل سرورهم فى الدنيا بهذا الطمع وفى الآخرة عند حصول الثواب (والثانى) أنهم سألوا أن يلحق الله أزواجهم وذريتهم بهم فى الجنة ليتم سرورهم بهم (المسألة الثالثة) فان قيل من فى قوله من أزواجنا ما هى قلنا يحتمل أن تكون بيانية كأنه قيل هب لنا قرة أعين ثم بينت القرة وفسرت بقوله من أزواجنا وهو من قولهم رأيت منك أسدا أى أنت أسد وأن تكون ابتدائية على معنى هب لنا من جهتهم ما تقر به عيوننا من طاعة وصلاح فان قيل لم قال قرة أعين فنكر وقلل قلنا أما التنكير فلاجل تنكير القرة لان المضاف لا سبيل الى تنكيره الا بتنكير المضاف اليه كأنه قيل هب لنا منهم سرورا وفرحا وانما قال أعين دون عيون لانه أراد أعين المتقين وهى قليلة بالاضافة الى عيون غيرهم قال تعالى وقليل من عبادى الشكور (المسألة الرابعة) قال الزجاج أقر الله عينك أى صادف فؤادك ما يحبه وقال المفضل فى قرة العين ثلاث أقوال (أحدها) برد دمعتها وهى التى تكون مع الضحك والسرور ودمعة الحزن حارة (والثانى) نومها لانه يكون مع ذهاب الحزن والوجع (والثالث) حصول الرضا (المسألة الخامسة) قوله واجعلنا للمتقين اماما الاقرب أنهم سألوا الله تعالى أن يبلغهم فى الطاعة المبلغ الذى يشار اليهم ويقتدى بهم قال بعضهم فى الآية ما يدل على أن الرياسة فى الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها قال الخليل عليه الصلاة والسلام واجعل لى لسان صدق فى الآخرين وقيل نزلت هذه الآيات فى العشرة المبشرين بالجنة (المسألة السادسة) احتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى قالوا لان الامامة فى الدين لا تكون الا بالعلم والعمل فدل على أن العلم والعمل انما يكون بجعل الله تعالى وخلقه وقال القاضى المراد من السؤال الالطاف التى اذا كثرت

والاسكاك واللوح أبعد منه واضافته الى السماء لما أنه فى جانبها من الناظر ولاظهار كمال القدرة (ما يمسكهن) فى الجو حين قبض أجنحتهن وبسطها ووقوفهن (الا الله) عز وجل بقدرته الواسعة فان ثقل جسدها ورقة قوام الهواء يقتضيان سقوطها ولا علاقة من فوقها ولا دعامة من تحتها وهو اما حال من الضمير المستتر فى مسخرات أو من الطير واما مستأنف (ان فى ذلك) الذى ذكر من تسخير الطير للطيران بأن خلقها خلقة تتمكن بها منه بأن جعل لها أجنحة خفيفة وأذنابا كذلك وجعل أجسادها من الخفة بحيث اذا بسطت أجنحتها وأذنابها لا يطيق ثقلها أن يخرق ما تحتها من الهواء الرقيق القوام وتخرق ما بين يديها من الهواء لانها لا تلاقيه بحجم كبير (لآيات) ظاهرة (لقوم يؤمنون) أى من شأنهم أن يؤمنوا وانما خص ذلك بهم لانهم المنتفعون به (والله جعل لكم) معطوف على ما مر وتقديم لكم على ما سيأتى من المجرور والمنصوب لما مر من الايذان من أول الامر بأنه لمصلحتهم ومنفعتهم لتشويق النفس الى وروده وقوله تعالى (من بيوتكم) أى من بيوتكم المعهودة التى تبنونها من الحجر والمدر تبيين لذلك المجعول المبهم فى الجملة وتأكيد لما سبق من التشويق (سكنا) فعل بمعنى مفعول أى موضعا تسكنون فيه وقت اقامتكم أو تسكنون اليه من غير أن ينتقل من مكانه أى جعل بعض

صاروا مختارين لهذه الاشياء فيصيرون أئمة (والجواب) أن تلك الالطاف مفعولة لا محالة فيكونون أئمة عمنا (المسئلة السابعة) قال الفراء قال اماما ولم يقل أئمة كما قال للاثنين انا رسول رب العالمين ويجوز أن يكون المعنى اجعل كل واحد منا اماما كما قال يخرجكم طفلا وقال الاخفش الامام جمع واحده آم كصائم وصيام وقال القفال وعندي أن الامام اذا ذهب به مذهب الاسم وحد كأنه قيل اجعلنا حجة للمتقين ومثله البينة يقال هؤلاء بينة فلان * واعلم أنه سبحانه وتعالى لما عدد صفات المتقين المخلصين بين بعد ذلك أنواع احسانه اليهم وهي مجموعة في أمرين المنافع والتعظيم ﴿أما المنافع﴾ فهي قوله ﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا﴾ والمراد أولئك يجزون الغرفات والدليل عليه قوله وهم في الغرفات آمنون وقال لهم غرف من فوقها غرف والغرفة في اللغة العلية وكل بناء عال فهو غرفة والمراد به الدرجات العالية وقال المفسرون الغرفة اسم الجنة فالمعنى يجزون الجنة وهي جنات كثيرة وقرأ بعضهم أولئك يجزون في الغرفة وقوله بما صبروا فيه بحثان ﴿البحث الاول﴾ احتج بالآية من ذهب الى أن الجنة بالاستحقاق فقال الباء في قوله بما صبروا تدل على ذلك ولو كان حصولها بالوعد لما صدق ذلك ﴿البحث الثاني﴾ ذكر الصبر ولم يذكر المصبور عنه ليعم كل نوع فيدخل فيه صبرهم على مشاق التفكر والاستدلال في معرفة الله تعالى وعلى مشاق الطاعات وعلى مشاق ترك الشهوات وعلى مشاق أذى المشركين وعلى مشاق الجهاد والفقر ورياضة النفس فلا وجه لقول من يقول المراد الصبر على الفقر خاصة لان هذه الصفات اذا حصلت مع الغنى استحق من يختص بها الجنة كما يستحقه بالفقر ﴿وثانيهما﴾ التعظيم وهو قوله تعالى ﴿ويلقون فيها تحية وسلاما﴾ قرئ يلقون كقوله ولقاهم نضرة وسرورا ويلقون كقوله يلق أثاما والتحية الدعاء بالتعمير والسلام الدعاء بالسلامة فيرجع حاصل التحية الى كون نعيم الجنة باقيا غير منقطع ويرجع السلام الى كون ذلك النعيم خالصا عن شوائب الضرر ثم هذه التحية والسلام يمكن أن يكون من الله تعالى لقوله سلام قولا من رب رحيم ويمكن أن يكون من الملائكة لقوله والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ويمكن أن يكون من بعضهم على بعض ﴿أما قوله﴾ ﴿خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما﴾ فالمراد انه سبحانه لما وعد بالمنافع أولا وبالتعظيم ثانيا بين أن من صفتهما الدوام وهو المراد من قوله خالدين فيها ومن صفتهما الخلوص أيضا وهو المراد من قوله حسنت مستقرا ومقاما وهذا في مقابلة قوله ساءت مستقرا ومقاما أي ما أسوأ ذلك وما أحسن هذا ﴿أما قوله تعالى﴾ ﴿قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما﴾ فاعلم انه سبحانه لما شرح صفات المتقين وشرح حال ثوابهم أمر رسوله أن يقول قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم فدل بذلك على انه تعالى غني عن عباداتهم وأنه تعالى انما كلفهم لينتفعوا بطاعتهم وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال الخليل ما أعبأ بفلان أي ما أصنع به كأنه يستقله ويستحقره وقال أبو عبيدة ما أعبأ به أي وجوده وعدمه عندي سواء وقال الزجاج معناه أي لا وزن لكم عند ربكم والعبء في اللغة الثقل وقال أبو عمرو بن العلاء ما يبالي بكم ربي ﴿المسئلة الثانية﴾ في ما قولان (أحدهما) أنها متضمنة لمعنى الاستفهام وهي في محل النصب وهي عبارة عن المصدر كأنه قيل وأي عبء يعبأ بكم لولا دعاؤكم (والثاني) ان تكون ما نافية ﴿المسئلة الثالثة﴾ ذكروا في قوله لولا دعاؤكم وجهين (أحدهما) لولا دعاؤه اياكم الى الدين والطاعة والدعاء على هذا مصدر مضاف الى المفعول (وثانيهما) أن الدعاء مضاف الى الفاعل وعلى هذا التقدير ذكروا فيه وجوها (أحدها) لولا دعاؤكم لولا ايمانكم (وثانيها) لولا عبادتكم (وثالثها) لولا دعاؤكم اياه في الشدائد كقوله فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله (ورابعها) دعاؤكم يعني لولا شكركم له على احسانه

بيوتكم بحيث تسكنون اليه وتقيمون به (وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا) أي بيوتا أخرى مغايرة لبيوتكم المعهودة هي الخيام والقباب والاخبية والفساطيط (تستخفونها) تجدونها خفيفة سهلة المأخذ (يوم ظعنكم) وقت ترحالكم في النقض والحمل والنقل وقرئ بفتح العين (ويوم اقامتكم) ٣٩٦ وقت نزولكم في الضرب والبناء (ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها) عطف على قوله تعالى من جلود والضمائر للانعام على وجه التنويع أي وجعل لكم من أصواف الضأن وأوبار الابل وأشعار المعز (أثاثا) أي متاع البيت وأصله الكثرة والاجتماع ومنه شعر أثيث (ومتاعا) أي شيأ يتمتع به بفنون التمتع (الى حين) الى أن تقضوا منه أوطاركم أو الى أن يبلى ويفنى فانه في معرض البلى والفناء وقيل الى أن تموتوا والكلام في ترتيب المفاعيل مثل ما مر من قبل (والله جعل لكم مما خلق) من غير صنع من قبلكم (ظلالا) أشياء تستظلون بها من الحر كالغمام والشجر والجبل وغيرها امتن سبحانه بذلك لما أن تلك الديار غالبة الحرارة (وجعل لكم من الجبال أكنانا) مواضع تستكنون فيها من الكهوف والغيران والسروب والكلام في الترتيب الواقع بين المفاعيل كالذي مر غير مرة (وجعل لكم سرابيل) جمع سربال وهو كل ما يلبس أي جعل لكم ثيابا من القطن والكتان والصوف وغيرها (تقيكم الحر) خصه بالذكر اكتفاء بذكر أحد الضدين عن ذكر الآخر أولان وقايته هي الاهم عندهم لما مر آنفا (وسرابيل) من الدروع والجواشن (تقيكم بأسكم) أي البأس الذي يصل الى بعضكم من بعض في الحرب من الضرب والطعن ولقد من الله سبحانه علينا حيث ذكر جميع نعمه الفائضة على جميع الطوائف فبدأ بما يخص المقيمين حيث قال

اقوله ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم (وخامسها) ما خلقتكم وبي اليكم حاجة الا ان تسألوني فأعطيكم وتستغفروني فأغفر لكم *و أما قوله فقد كذبتم فالمعنى اني اذا أعلمتكم أن حكمي اني لا أعتد بعبادي الا لعبادتهم فقد خالفتم بتكذيبكم حكمي فسوف يلزمكم أثر تكذيبكم وهو عقاب الآخرة ونظيره ان يقول الملك لمن استعصى عليه ان من عادتي أن أحسن الى من يطيعني وقد عصيت فسوف ترى ما أحل بك بسبب عصيانك فان قيل الى من يتوجه هذا الخطاب قلنا الى الناس على الاطلاق ومنهم عابدون ومكذبون عاصون فخوطبوا بما وجد في جنسهم من العبادة والتكذيب وقرئ فقد كذب الكافرون فسوف يكون العذاب لزاما وقرئ لزاما بالفتح بمعنى اللزوم كالثبات والثبوت والوجه ان ترك اسم كان غير منطوق به بعد ما علم أنه مما توعد به لاجل الابهام وتناول ما لا يحيط به الوصف ثم قيل هذا العذاب في الآخرة وقيل كان يوم بدر وهو قول مجاهد رحمه الله والله أعلم * تم تفسير هذه السورة والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الامي وآله وصحبه أجمعين

﴿سورة الشعراء مكية الا أربع آيات فانها مدنية وهي والشعراء يتبعهم الغاوون الى آخرها وهي مائتان وست أو سبع وعشرون آية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿طسم تلك آيات الكتاب المبين لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ان نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ الطاء اشارة الى طرب قلوب العارفين والسين سرور المحبين والميم مناجاة المريدين وفيه مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ قرأ قتادة باخع نفسك على الاضافة وقرئ فظلت أعناقهم لها خاضعة ﴿المسألة الثانية﴾ البخع أن يبلغ بالذبح النخاع وهو الخرم النافذ في ثقب الفقرات وذلك أقصى حد الذبح ولعل للاشفاق ﴿المسألة الثالثة﴾ قوله طسم تلك آيات الكتاب المبين معناه آيات هذه السورة تلك آيات الكتاب المبين وتمام تقريره ما مر في قوله تعالى ذلك الكتاب ولا شبهة في أن المراد بالكتاب هو القرآن والمبين وان كان في الحقيقة هو المتكلم فقد يضاف الى الكلام من حيث يتبين به عند النظر فيه فان قيل القوم لما كانوا كفارا فكيف تكون آيات القرآن مبينة لهم ما يلزمهم وانما يتبين بذلك الاحكام قلنا ألفاظ القرآن من حيث تعذر عليهم أن يأتوا بمثله يمكن أن يستدل به على فاعل مخالف لهم كما يستدل بسائر ما لا يقدر العباد على مثله فهو دليل التوحيد من هذا الوجه ودليل النبوة من حيث الاعجاز ويعلم به بعد ذلك أنه اذا كان من عند الله تعالى فهو دلالة الاحكام أجمع واذا ثبت صارت آيات القرآن كافية في كل الاصول والفروع أجمع ولما ذكر الله تعالى أنه بين الامور قال بعده لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين منبها بذلك على أن الكتاب وان بلغ في البيان كل غاية فغير مدخل لهم في الايمان لما أنه سبق حكم الله بخلافه فلا تبالغ في الحزن والاسف على ذلك لانك ان بالغت فيه كنت بمنزلة من يقتل نفسه ثم لا ينتفع بذلك أصلا فصبره وعزاه وعرفه أن غمه وحزنه لا نفع فيه كما أن وجود الكتاب على بيانه ووضوحه لا نفع لهم فيه ثم بين تعالى أنه قادر على أن ينزل آية يذلون عندها ويخضعون فان قيل كيف صح مجيء خاضعين خبرا عن الاعناق قلنا أصل الكلام فظلوا لها خاضعين فذكرت الاعناق لبيان موضع الخضوع ثم ترك الكلام على أصله ولما وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء قيل خاضعين كقوله لي ساجدين وقيل أعناق الناس رؤساؤهم ومقدموهم شبهوا بالاعناق كما يقال هم الرؤس والصدور وقيل هم جماعات الناس يقال جاءنا

والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ثم بما يخص المسافرين ممن لهم قدرة على الخيام وأضرابها حيث قال وجعل لكم من جلود الانعام الخ ثم بما يعمهم ومن لا يقدر على ذلك ولا يأوي به الا الاظلال حيث قال والله جعل لكم مما خلق ظلالا الخ ثم بما لا بد منه لاحد حيث قال وجعل لكم سرابيل الخ ثم بما لا غنى عنه في الحروب حيث قال وسرابيل تقيكم بأسكم ثم قال (كذلك) أي مثل ذلك الاتمام البالغ (يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) أي ارادة أن تنظروا فيما أسبغ عليكم من النعم الظاهرة والباطنة والانفسية والآفاقية فتعرفوا حق منعمها فتؤمنوا به وحده وتذروا ما كنتم به تشركون وتنقادوا لأمره وافراد النعمة اما لان المراد بها المصدر أو لاظهار أن ذلك بالنسبة الى جانب الكبرياء قليل وقرئ تسلمون أي تسلمون من العذاب أو من الشرك وقيل من الجراح بلبس الدروع (فان تولوا) فعل ماض على طريقة الالتفات وصرف الخطاب عنهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلية له أي فان أعرضوا عن الاسلام ولم يقبلوا منك ما ألقي اليهم من البينات والعبر والعظات (فانما عليك البلاغ المبين) أي فلا قصور من جهتك لان وظيفتك هي البلاغ الموضح أو الواضح وقد فعلته بما لا مزيد عليه فهو من باب وضع السبب موضع المسبب (يعرفون نعمت الله) استئناف لبيان أن توليهم واعراضهم عن الاسلام ليس لعدم معرفتهم بما عدد من نعم الله تعالى أصلا فانهم يعرفونها ويعترفون أنها من الله تعالى (ثم ينكرونها) بأفعالهم حيث يعبدون غير منعمها أو بقولهم انها بشفاعة آلهتنا أو بسبب كذا وقيل نعمة الله تعالى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم عرفوها بالمعجزات كما يعرفون أبناءهم ثم أنكروها عنادا ومعنى ثم لاستبعاد الانكار بعد المعرفة لان حق من عرف النعمة

عنق من الناس لفوج منهم (المسئلة الرابعة) نظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الكهف فلعلك باخع نفسك وقوله فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴿ قوله تعالى ﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن أولم يروا الى الارض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين من تمام قوله ان نشأ ننزل عليهم فنبه تعالى على أنه مع قدرته على أن يجعلهم مؤمنين بالالجاء رحيم بهم من حيث يأتيهم حالا بعد حال بالقرآن وهو الذكر ويكرره عليهم وهم مع ذلك على حد واحد في الاعراض والتكذيب والاستهزاء ثم عند ذلك زجر وتوعد لان المرء اذا استمر على كفره فليس ينفع فيه الا الزجر الشديد فلذلك قال فقد كذبوا أي بلغوا النهاية في رد آيات الله تعالى فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن وذلك اما عند نزول العذاب عليهم في الدنيا أو عند المعاينة أو في الآخرة فهو كقوله تعالى ولتعلمن نبأه بعد حين وقد جرت العادة فيمن يسيء أن يقال له ستري حالك من بعد على وجه الوعيد ثم انه تعالى بين أنه مع انزاله القرآن حالا بعد حال قد أظهر أدلة تحدث حالا بعد حال فقال أولم يروا الى الارض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم والزوج هو الصنف والكريم صفة لكل ما يرضى ويحمد في بابه يقال وجه كريم اذا كان مرضيا في حسنه وجماله وكتاب كريم اذا كان مرضيا في فوائده ومعانيه والنبات الكريم هو المرضي فيما يتعلق به من المنافع وفي وصف الزوج بالكريم وجهان (أحدهما) أن النبات على نوعين نافع وضار فذكر سبحانه كثرة ما أنبت في الارض من جميع أصناف النبات النافع وترك ذكر الضار (والثاني) أنه يعم جميع النبات نافعه وضاره ووصفهما جميعا بالكرم ونبه على أنه ما أنبت شيأ الا وفيه فائدة وان غفل عنها الغافلون أما قوله ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين فهو كقوله هدى للمتقين والمعنى ان في ذلك دلالة لمن يتفكر ويتدبر وما كان أكثرهم مؤمنين أي مع كل ذلك يستمر أكثرهم على كفرهم فأما قوله وان ربك لهو العزيز الرحيم فانما قدم ذكر العزيز على ذكر الرحيم لانه لو لم يقدمه لكان ربما قيل انه رحمهم لعجزه عن عقوبتهم فأزال هذا الوهم بذكر العزيز وهو الغالب القاهر ومع ذلك فانه رحيم بعباده فان الرحمة اذا كانت عن القدرة الكاملة كانت أعظم وقعا والمراد انهم مع كفرهم وقدرة الله على أن يعجل عقابهم لا يترك رحمتهم بما تقدم ذكره من خلق كل زوج كريم من النبات ثم من اعطاء الصحة والعقل والهداية (المسئلة الثانية) أنه تعالى وصف الكفار بالاعراض أولا وبالتكذيب ثانيا وبالاستهزاء ثالثا وهذه درجات من أخذ يترقى في الشقاوة فانه يعرض أولا ثم يصرح بالتكذيب ثانيا ثم يبالغ في التكذيب والانكار الى حيث يستهزئ به ثالثا (المسئلة الثالثة) فان قلت ما معنى الجمع بين كم وكل ولم يقل كم أنبتنا فيها من زوج كريم قلت قد دل كل على الاحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل وكم على أن هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة فهذا معنى الجمع وبه نبه على كمال قدرته ﴿ فان قلت فحين ذكر الأزواج ودل عليها بكلمتي الكثرة والاحاطة وكانت بحيث لا يحصيها الا عالم الغيب فكيف قال ان في ذلك لآية وهلا قال لآيات ﴿ قلت فيه وجهان (أحدهما) أن يكون ذلك مشارا به الى مصدر أنبتنا فكأنه قال ان في ذلك الانبات لآية أي آية (والثاني) أن يراد ان في كل واحد من تلك الازواج لآية (المسئلة الرابعة) احتجت المعتزلة على خلق القرآن بقوله تعالى وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث فقالوا الذكر هو القرآن لقوله تعالى وهذا ذكر مبارك وبين في هذه الآية أن الذكر محدث فيلزم من هاتين الآيتين أن القرآن محدث وهكذا الاستدلال بقوله تعالى الله نزل

الاعتراف بها الا انكار واسناد المعرفة والانكار المتفرع عليها الى ضمير المشركين على الاطلاق من باب اسناد حال البعض الى الكل كقولهم بنو فلان قتلوا فلانا وانما القاتل واحد منهم فان بعضهم ليسوا كذلك لقوله سبحانه (وأكثرهم الكافرون) أي المنكرون بقلوبهم غير المعترفين عناد كر والحكم عليهم بمطلق الكفر المؤذن بالكمال من حيث الكمية لا ينافي كمال الفرقة الاولى من حيث الكيفية هذا وقد قيل ذكر الاكثر اما لان بعضهم لم يعرفوا لنقصان العقل أو التفريط في النظر أو لم يقم عليه الحجة لانه لم يبلغ حد التكليف فتدبر (ويوم نبعث من كل أمة شهيدا) يشهد لهم بالايمان والطاعة وعليهم بالكفر والعصيان وهو نبيها (ثم لا يؤذن للذين كفروا) في الاعتذار اذ لا عذر لهم وثم للدلالة على أن ابتلاءهم بالمنع عن الاعتذار المنبئ عن الاقناط الكلي وهو عند ما يقال لهم اخسؤا فيها ولا تكلمون أشد من ابتلائهم بشهادة الانبياء عليهم السلام عليهم وأطم (ولاهم يستعتبون) يسترضون أي لا يقال لهم ارضوا ربكم اذ الآخرة دار الجزاء لا دار العمل وانتصاب الظرف بمحذوف تقديره اذكر أو خوفهم يوم نبعث الخ أو يوم نبعث يحيق بهم ما يحيق مما لا يوصف وكذا قوله تعالى (واذا رأى الذين ظلموا العذاب) الذي يستوجبونه بظلمهم وهو عذاب جهنم (فلا يخفف عنهم) ذلك (ولاهم ينظرون) أي يمهلون كقوله تعالى بل تأتيهم بغتة فتبهتهم (واذا رأى الذين احسن أشركوا شركاءهم) الذين كانوا يدعونهم في الدنيا وهم الاوثان أو الشياطين الذين شاركوهم في الكفر بالحمل عليه وقارنوهم في الغي والضلال (قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك) أي نعبدهم أو نطيعهم واعلهم قالوا ذلك طمعا في توزيع العذاب بينهم كما ينبئ عنه قوله

أحسن الحديث كتاباو بقوله فبأي حديث بعده يؤمنون وإذا ثبت أنه محدث فله خالق فيكون مخلوقا لامحالة (والجواب) أن كل ذلك يرجع الى هذه الالفاظ ونحن نسلم حدوثها انما ندعي قدم أمر آخر وراء هذه الحروف وليس في الآية دلالة على ذلك ﴿قوله تعالى ﴿وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون﴾ اختلف أهل السنة في النداء الذي سمعه موسى عليه السلام من الله تعالى هل هو كلامه القديم أوهو ضرب من الاصوات فقال أبو الحسن الاشعري المسموع هو الكلام القديم وكما أن ذاته تعالى لا تشبه سائر الاشياء مع أن الدليل دل على أنها معلومة ومرئية فكذا كلامه منزه عن مشابهة الحروف والاصوات مع أنه مسموع وقال أبو منصور الماتريدي الذي سمعه موسى عليه السلام كان نداء من جنس الحروف والاصوات وذلك لان الدليل لما دل على أنا رأينا الجوهر والعرض ولابد من علة مشتركة بينهما لصحة الرؤية ولا علة الا الوجود حكمنا بأن كل موجود يصح أن يرى ولم يثبت عندنا أنا نسمع الاصوات والاجسام حتى يحكم بأنه لابد من مشترك بين الجسم والصوت فلم يلزم صحة كون كل موجود مسموعا فظهر الفرق أما المعتزلة فقد اتفقوا على أن ذلك المسموع ما كان الا حروفا وأصواتا فعند هذا قالوا ان ذلك النداء وقع على وجه علم به موسى عليه السلام أنه من قبل الله تعالى فصار معجزا علم به أن الله مخاطب له فلم يحتج مع ذلك الى واسطة وكفى في الوقت أن يحمله الرسالة التي هي أن ائت القوم الظالمين لان في هذه البعثة يجب أن يأمره بالدعاء الى التوحيد ثم بعده يأمره بالاحكام ولا يجوز أن يأمره تعالى بذلك الا وقد عرفه أنه سيظهر عليه المعجزات اذا طولب بذلك أما قوله تعالى أن ائت القوم الظالمين فالمعنى أنه تعالى سجل عليهم بالظلم وقد استحقوا هذا الاسم من وجهين من وجه ظلمهم أنفسهم بكفرهم ومن وجه ظلمهم لبني اسرائيل أما قوله قوم فرعون فقد عطف قوم فرعون على القوم الظالمين عطف بيان كأن القوم الظالمين وقوم فرعون لفظان يدلان على معنى واحد وأما قوله ألا يتقون فقرئ ألا يتقون بكسر النون بمعنى ألا يتقونى فحذفت النون لاجتماع النونين والياء للاكتفاء بالكسرة وقوله ألا يتقون كلام مستأنف أتبعه تعالى ارساله اليهم للانذار والتسجيل عليهم بالظلم تعجيبا لموسى عليه السلام من حالهم في الظلم والعسف ومن أمنهم العواقب وقلة خوفهم ويحتمل أن يكون ألا يتقون حالا من الضمير في الظالمين أي يظلمون غير متقين الله وعقابه فأدخلت همزة الانكار على الحال ووجه ثالث وهو أن يكون المعنى ألا يا ناس اتقون كقوله ألا يا اسجدوا وأما من قرأ ألا تتقون على الخطاب فعلى طريقة الالتفات اليهم وصرف وجوههم بالانكار والغضب عليهم كما نرى من يشكو من ركب جناية والجاني حاضر فاذا اندفع في الشكاية وحمى غضبه قطع مباثة صاحبه وأقبل على الجاني يوبخه ويعنفه ويقول له ألا تتقي الله ألا تستحي من الناس فان قلت فما الفائدة في هذا الالتفات والخطاب مع موسى عليه السلام في وقت المناجاة والملتفت اليهم غائبون لا يشعرون قلت اجراء ذلك في تكليم المرسل اليهم في معنى اجرائه بحضرتهم والقائه الى مسامعهم لانه مبلغه ومنهيه اليهم وله فيه لطف وحث على زيادة التقوى وكم من آية نزلت في شأن الكافرين وفيها أوفر نصيب للمؤمنين تدبرا لها واعتبارا بموردها ﴿قوله تعالى ﴿قال رب اني أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل الى هرون ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون﴾ وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن الله تعالى لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب الى قوم فرعون طلب موسى عليه السلام أن يبعث معه هرون اليهم ثم ذكر الامور الداعية له الى ذلك السؤال وحاصلها أنه لولم يكن هرون لاختلت المصلحة المطلوبة من بعثة موسى عليه السلام وذلك من وجهين (الاول) أن فرعون ربما كذبه

سبحانه (فألقوا) أي شركاؤهم (اليهم القول انكم لكاذبون) فان تكذيبهم اياهم فيما قالوا ليس الا للمدافعة والتخلص عن غائلة مضمونه وانما كذبوهم وقد كانوا يعبدونهم ويطيعونهم لان الاوثان ما كانوا راضين بعبادتهم فكأن عبادتهم لم تكن عبادة لهم كما قالت الملائكة عليهم السلام بل كانوا يعبدون الجن يعنون أن الجن هم الذين كانوا راضين بعبادتهم لانحن أوكذبوهم في تسميتهم شركاء وآلهة تنزيها لله سبحانه عن الشريك والشياطين وان كانوا راضين بعبادتهم لهم لكنهم لم يكونوا حاملين لهم على وجه القسر والالجاء كما قال ابليس وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي فكأنهم قالوا ما عبدتمونا حقيقة بل انما عبدتم أهواءكم (وألقوا) أي الذين أشركوا (الى الله يومئذ السلم) الاستسلام والانقياد لحكمه العزيز الغالب بعد الاستكبار عنه في الدنيا (وضل عنهم) أي ضاع وبطل (ما كانوا يفترون) من أن لله سبحانه شركاء وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم وذلك حين كذبوهم وتبرؤا منهم (الذين كفروا) في أنفسهم (وصدوا) غيرهم (عن سبيل الله) بالمنع عن الاسلام والحمل على الكفر (زدناهم عذابا فوق العذاب) الذي كانوا يستحقونه بكفرهم قيل في زيادة عذابهم حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال تلسع احداهن فيجد صاحبها حمتها أربعين خريفا وقيل يخرجون من النار الى الزمهرير فيبادرون من شدة البرد الى النار (بما كانوا يفسدون) متعلق بقوله زدناهم أي زدناهم عذابا بسبب استمرارهم على الافساد وهو الصد المذكور (ويوم نبعث) تكرير لما سبق تثنية للتهديد (في كل أمة شهيدا عليهم) أي نبيا (من أنفسهم) من جنسهم قطعا لمعذرتهم وفي قوله تعالى عليهم اشعار بأن شهادة أنبيائهم على

والتكذيب سبب لضيق القلب وضيق القلب سبب لتعسر الكلام على من يكون في لسانه حبسة لان
عند ضيق القلب تنقبض الروح والحرارة الغريزية الى باطن القلب واذا انقبضا الى الداخل وخلا منهما
الخارج ازدادت الحبسة في اللسان فالتأذي من التكذيب سبب لضيق القلب وضيق القلب سبب للحبسة
فلهذا السبب بدأ بخوف التكذيب ثم ثنى بضيق الصدر ثم ثلث بعدم انطلاق اللسان وأما هرون فهو أفصح
لسانا مني وليس في حقه هذا المعنى فكان ارساله لائقا (الثاني) أن لهم عندي ذنبا فأخاف أن يبادروا الى
قتلي وحينئذ لا يحصل المقصود من البعثة وأما هرون فليس كذلك فيحصل المقصود من البعثة (المسألة
الثانية) قرئ يضيق وينطلق بالرفع لانهما معطوفان على خبر ان وبالنصب لعطفهما على صلة أن والمعنى
أخاف أن يكذبون وأخاف أن يضيق صدري وأخاف أن لا ينطلق لساني والفرق أن الرفع يفيد ثلاث علل
في طلب ارسال هرون والنصب يفيد علة واحدة وهي الخوف من هذه الامور الثلاثة فان قلت الخوف
غم يحصل لتوقع مكروه سيقع وعدم انطلاق اللسان كان حاصلا فكيف جاز تعلق الخوف به قلت قد بينا أن
التكذيب الذي سيقع يوجب ضيق القلب وضيق القلب يوجب زيادة الاحتباس فتلك الزيادة ما كانت
حاصلة في الحال بل كانت متوقعة فجاز تعلق الخوف عليها أما قوله تعالى فأرسل الى هرون فليس في
الظاهر ذكر من الذي يرسل اليه وفي الخبر أن الله تعالى أرسل موسى عليه السلام اليه قال السدي ان موسى
عليه السلام سار بأهله الى مصر والتقى بهرون وهو لا يعرفه فقال أنا موسى فتعارفا وأمره أن ينطلق معه الى
فرعون لاداء الرسالة فصاحت أمهما لخوفها عليهما فذهبا اليه ويحتمل أن يكون المراد أرسل اليه جبريل
لان رسول الله الى الانبياء جبريل عليه السلام فلما كان هو متعينا لهذا الامر حذف ذكره لكونه معلوما
وأيضا ليس في الظاهر أنه يرسل لماذا لكن فحوى الكلام يدل على أنه طلبه للمعونة فيما سأل كما يقال اذا
نابتك نائبة فأرسل الى فلان أي ليعينك فيها وليس في الظاهر أنه التمس كون هرون نبيا معه لكن قوله
فقولا انا رسول رب العالمين يدل عليه وأما قوله ولهم علي ذنب فأراد بالذنب قتله القبطي وقد ذكر الله تعالى
هذه القصة مشروحة في سورة القصص واعلم أنه ليس في التماس موسى عليه السلام أن يضم اليه هرون
ما يدل على أنه استعفى من الذهاب الى فرعون بل مقصوده فيما سأل أن يقع ذلك الذهاب على أقوى
الوجوه في الوصول الى المراد واختلفوا فقال بعضهم انه وان كان نبيا فهو غير عالم بأنه يبقى حتى يؤدي
الرسالة لانه انما أمر بذلك بشرط التمكين وهذا قول الكعبي وغيره من البغداديين لانهم يجوزون دخول
الشرط في تكليف الله تعالى العبد والذي ذهب اليه الاكثرون أن ذلك لا يجوز لانه تعالى اذا أمر فهو
عالم بما يتمكن منه المأمور وبأوقات تمكنه فاذا علم أنه غير متمكن منه فانه لا يأمره به واذا صح ذلك فالاقرب
في الانبياء أنهم يعلمون اذا حملهم الله تعالى الرسالة أنه تعالى يمكنهم من أدائها وانهم سيبقون الى ذلك الوقت
ومثل ذلك لا يكون اغراء في الانبياء وان جاز أن يكون اغراء في غيرهم (المسألة الثالثة) لقائل أن يقول
قول موسى عليه السلام ولهم علي ذنب هل يدل على صدور الذنب منه جوابه لا والمراد لهم علي ذنب في
زعمهم ﴿قوله تعالى ﴿قال كلا فاذهبا بآياتنا انا معكم مستمعون فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين أن
أرسل معنا بني اسرائيل﴾ اعلم أن موسى عليه السلام طلب أمرين (الاول) أن يدفع عنه شرهم (والثاني)
أن يرسل معه هرون فأجابه الله تعالى الى الاول بقوله كلا ومعناه ارتدع يا موسى عما تظن وأجابه الى
الثاني بقوله فاذهبا أي اذهب أنت والذي طلبته وهو هرون فان قيل علام عطف قوله فاذهبا قلنا على
الفعل الذي يدل عليه كلا كأنه قال ارتدع يا موسى عما تظن فاذهب أنت وهرون وأما قوله انا

معكم

الامم تكون بحضرتهم (وجئنا بك) ايثار لفظ المجيء على البعث لكمال العناية بشأنه عليه السلام وصيغة الماضي للدلالة على تحقق
الوقوع (شهيدا على هؤلاء) الامم وشهدائهم كقوله تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا وقيل على أمتك
والعامل في الظرف محذوف كما مر والمراد به يوم القيامة (ونزلنا عليك الكتاب) الكامل في الكتابية الحقيق بأن يخص
باسم الجنس وهو اما
استئناف أو حال بتقدير
قد (تبيانا) بيانا بليغا
(لكل شيء) يتعلق
بأمور الدين ومن جملة
ذلك أحوال الامم مع
أنبيائهم عليهم السلام
فيكون كالدليل على
كونه عليه السلام شهيدا
عليهم وكذا من جملة
ما أخبر به هذه الآية
الكريمة من بعث
الشهداء وبعثه عليه
السلام شهيدا عليهم
عليهم الصلاة والسلام
والتبيان كاللقاء في
كسر أوله وكونه تبيانا
لكل شيء من أمور الدين
باعتبار ان فيه نصا على
بعضها واحالة لبعضها
على السنة حيث أمر
باتباع النبي عليه السلام
وطاعته وقيل فيه وما
ينطق عن الهوى وحثا
على الاجماع وقد رضي
رسول الله صلى الله عليه
وسلم لامته باتباع أصحابه
حيث قال أصحابي كالنجوم
بأيهم اقتديتم اهتديتم
وقد اجتهدوا وقاسوا
ووطؤا طرق الاجتهاد
فكانت السنة والاجماع
والقياس مستندة الى
تبيان الكتاب ولم يضر
ما في البعض من الخفاء في كونه تبيانا فان المبالغة باعتبار الكمية دون الكيفية كما في قوله تعالى وما أنا
بظلام للعبيد لانه من قولك فلان ظالم لعبيده وظلام لعبيده ومنه قوله سبحانه وما للظالمين من أنصار (وهدى ورحمة) للعالمين فان حرمان
الكفرة من مغانم آثاره من تفريطهم لا من جهة الكتاب (وبشرى للمسلمين) خاصة أو يكون كل ذلك خاصا بهم لانهم المنتفعون بذلك

(ان الله يأمر) أى فيما نزله تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين وايثار صيغة الاستقبال فيه وفيما بعده لافادة التجدد والاستمرار (بالعدل) بمراعاة التوسط بين طرفى الافراط والتفريط وهو رأس الفضائل كلها يندرج تحته فضيلة القوة العقلية الملكية من الحكمة المتوسطة بين الجربزة والبلادة وفضيلة القوة الشهوية البهيمية من العفة المتوسطة بين الخلاعة والجمود وفضيلة القوة الغضبية السبعية من الشجاعة المتوسطة بين التهور والجبن فمن الحكم الاعتقادية التوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما أن العدل هو التوحيد والقول بالكسب المتوسط بين الجبر والقدر ومن الحكم العملية التعبد باداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب ومن الحكم الخلقية الجود المتوسط بين البخل والتبذير (والاحسان) أى الاتيان بما أمر به على الوجه اللائق وهو اما بحسب الكمية كالتطوع بالنوافل أو بحسب الكيفية كما يشير اليه قوله صلى الله عليه وسلم الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك (وايتاء ذى القربى) أى اعطاء الاقارب ما يحتاجون اليه وهو تخصيص اثر تعميم اهتماما بشأنه (وينهى عن الفحشاء) الافراط فى متابعة القوة الشهوية كالزنا مثلا (والمنكر) ما ينكر شرعا أو عقلا من الافراط فى اظهار آثار القوة الغضبية (والبغى) الاستعلاء والاستيلاء على الناس والتجبر عليهم وهو من آثار القوة الوهمية الشيطانية التى هى حاصلة من رذيلتى القوتين المذكورتين الشهوية والغضبية وليس فى البشر شر الا وهو مندرج فى هذه الاقسام صادر عنه بواسطة هذه القوى الثلاث ولذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه هى أجمع آية فى القرآن للخير والشر

معكم مستمعون فمن مجاز الكلام يريد انا لكما ولعدوكما كالناصر الظهير لكما عليه اذا حضر واستمع ما يجرى بينكما فاظهركما عليه وأعليكما وأكسر شوكته عنكما وانما جعلنا الاستماع مجازا لان الاستماع عبارة عن الاصغاء وذلك على الله تعالى محال * واما قوله انا رسول رب العالمين ففيه سؤال وهو انه هلا ثنى الرسول كما ثنى فى قوله انا رسولا ربك * جوابه من وجوه (أحدها) ان الرسول اسم للماهية من غير بيان ان تلك الماهية واحدة أو كثيرة والالف واللام لا يفيدان الا الوحدة لا الاستغراق بدليل انك تقول الانسان هو الضحاك ولا تقول كل انسان هو الضحاك ولا أيضا هذا الانسان هو الضحاك واذا ثبت أن لفظ الرسول لا يفيد الا الماهية وثبت أن الماهية محمولة على الواحد وعلى الاثنين ثبت صحة قوله انا رسول رب العالمين (وثانيها) أن رسول قد يكون بمعنى الرسالة قال الشاعر

لقد كذب الواشون ما فهت عندهم * بسر ولا أرسلتهم برسول

فيكون المعنى انا ذو رسالة رب العالمين (وثالثها) انهما لاتفاقهما على شريعة واحدة واتحادهما بسبب الاخوة كأنهما رسول واحد (ورابعها) المراد كل واحد منا رسول (وخامسها) ما قاله بعضهم انما قال ذلك لا بلفظ التثنية لكونه هو الرسول خاصة وقوله انا فكما فى قوله تعالى انا أنزلناه وهو ضعيف وأما قوله أن أرسل معنا بنى اسرائيل فالمراد من هذا الارسال التخلية والاطلاق كقولك أرسل البازى يريد خلهم يذهبوا معنا ﴿قوله تعالى ﴿قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين﴾ اعلم ان فى الكلام حذفا وهو انهما أتياه وقالا ما أمر الله به فعند ذلك قال فرعون ما قال يروى انهما انطلقا الى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب ان ههنا انسانا يزعم انه رسول رب العالمين فقال ائذن له لعلنا نضحك منه فأديا اليه الرسالة فعرف موسى عليه السلام فعند ذلك عدد عليه نعمه أولا ثم اساءة موسى اليه ثانيا أما النعم فهى قوله ألم نربك فينا وليدا والوليد الصبى لقرب عهده من الولادة ولبثت فينا من عمرك وعن أبى عمرو بسكون الميم سنين قيل لبث عندهم ثلاثين سنة وقيل وكز القبطى وهو ابن اثنتى عشرة سنة وفر منهم والله أعلم بصحيح ذلك وعن الشعبى فعلتك بالكسر وهى قتله القبطى لانه قتله بالوكز وهو ضرب من القتل وأما الفعلة فلانها وكزة واحدة عدد عليه نعمه من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال ووبخه بما جرى على يده من قتل خبازه وعظم ذلك بقوله وفعلت فعلتك التى فعلت وأما قوله وأنت من الكافرين ففيه وجوه (أحدها) يجوز أن يكون حالا أى قتلته وأنت بذاك من الكافرين بنعمتى (وثانيها) وأنت اذ ذاك ممن تكفرهم الساعة وقد افترى عليه أو جهل أمره لانه كان يعاشرهم بالتقية فان الكفر غير جائز على الانبياء قبل النبوة (وثالثها) وأنت من الكافرين معناه وأنت ممن عادته كفران النعم ومن كان هذا حاله لم يستبعد منه قتل خواص ولى نعمته (ورابعها) وأنت من الكافرين بفرعون والهيته أو من الذين يكفرون فى دينهم فقد كانت لهم آلهة يعبدونها يشهد بذلك قوله تعالى ويذرك وآلهتك ﴿قوله تعالى ﴿قال فعلتها اذا وأنا من الضالين ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل﴾ اعلم ان فرعون لما ذكر التربية وذكر القتل وقد كانت تربيته له معلومة ظاهرة لا جرم ان موسى عليه السلام ما أنكرها ولم يشتغل بالجواب عنها لانه تقرر فى العقول ان الرسول الى الغير اذا كان معه معجز وحجة لم يتغير حاله بان يكون المرسل اليه أنعم عليه أو لم يفعل ذلك فصار قول فرعون لما قاله غير مؤثر البتة ومثل هذا الكلام الاعراض عنه أولى ولكن أجاب عن القتل بما لا شئ أبلغ منه فى الجواب وهو قوله فعلتها اذا وأنا من الضالين والمراد بذلك الذاهلين عن معرفة ما يؤل اليه من القتل لانه فعل الوكزة

على وجه التأديب ومثل ذلك ربما حسن وان أدى الى القتل فبين له أنه فعله على وجه لا يجوز معه أن يؤاخذ به أو يعد منه كافرا أو كافرا للنعمة فأما قوله ففررت منكم لما خفتكم فالمراد أني فعلت ذلك الفعل وأنا ذاهل عن كونه مهلكا وكان مني في حكم السهو فلم أستحق التخويف الذي يوجب الفرار ومع ذلك ففررت منكم عند قولكم ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فبين بذلك أنه لا نعمة له عليه في باب تلك الفعلة بل بان يكون مسيئا فيه أقرب من حيث خوف تخويفا أوجب الفرار ثم بين نعمة الله تعالى عليه بعد الفرار فكأنه قال أسأتم وأحسن الله الي بأن وهب لي حكما وجعلني من المرسلين واختلفوا في الحكم والاقرب انه غير النبوة لان المعطوف غير المعطوف عليه والنبوة مفهومة من قوله وجعلني من المرسلين فالمراد بالحكم العلم ويدخل في العلم العقل والرأي والعلم بالدين الذي هو التوحيد وهذا أقرب لانه لا يجوز أن يبعثه تعالى الا مع كماله في العقل والرأي والعلم بالتوحيد وقوله فوهب لي ربي حكما كالتنصيص على أن ذلك الحكم من خلق الله تعالى وقالت المعتزلة المراد منه الالطاف وهو ضعيف جدا لان الالطاف مفعولة في حق الكل من غير تخصيص ولا تقصير والتخصيص لا بد فيه من فائدة فاما قوله وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني اسرائيل فهو جواب قوله ألم نربك فينا وليدا يقال عبدت الرجل وأعبدته اذا اتخذته عبدا فان قيل كيف يكون ذلك جوابه ولا تعلق بين الامرين قلنا بيان التعلق من وجوه (أحدها) أنه انما وقع في يده وفي تربيته لانه قصد تعبيد بني اسرائيل وذبح أبنائهم فكأنه عليه الصلاة والسلام قال له كنت مستغنيا عن تربيتك لو لم يكن منك ذلك الظلم المتقدم علينا وعلى أسلافنا (وثانيها) ان هذا الانعام المتأخر صار معارضا بذلك الظلم العظيم على أسلافنا واذا تعارضا تساقطا (وثالثها) ما قاله الحسن انك استعبدتهم وأخذت أموالهم ومنها أنفقت علي فلا نعمة لك بالتربية (ورابعها) المراد أن الذي تولى تربيتي هم الذين قد استعبدتهم فلا نعمة لك علي لان التربية كانت من قبل أمي وسائر من هو من قومي ليس لك الا انك ما قتلتني ومثل هذا لا يعد انعاما (وخامسها) انك كنت تدعي أن بني اسرائيل عبيدك ولا منة للمولى على العبد في أن يطعمه ويعطيه ما يحتاج اليه واعلم أن في الآية دلالة على ان كفر الكافر لا يبطل نعمته على من يحسن اليه ولا يبطل منته لان موسى عليه السلام انما أبطل ذلك بوجه آخر على ما بينا واختلف العلماء فقال بعضهم اذا كان كافرا لا يستحق الشكر على نعمه على الناس انما يستحق الاهانة بكفره فلو استحق الشكر بانعامه والشكر لا يوجد الا مع التعظيم فيلزم كونه مستحقا للاهانة وللتعظيم معا واستحقاق الجمع بين الضدين محال وقال آخرون لا يبطل الشكر بالكفر وانما يبطل بالكفر الثواب والمدح الذي يستحقه على الايمان والآية تدل على هذا القول الثاني (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف انما جمع الضمير في منكم وخفتكم مع افراده في تمنها وعبدت لان الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ولكن منه ومن ملئه المؤتمرين بقتله بدليل قوله ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك وأما الامتنان فمنه وحده وكذلك التعبيد (فان قلت) تلك اشارة الى ماذا وأن عبدت ما محلها من الاعراب (قلت) تلك اشارة الى خصلة شنعاء مبهمة لا يدرى ما هي الا بتفسيرها وهي أن عبدت فان أن عبدت عطف بيان ونظيره قوله تعالى وقضينا اليه ذلك الامر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين والمعنى تعبيدك بني اسرائيل نعمة تمنها علي وقال الزجاج ويجوز أن يكون أن في موضع نصب والمعنى انما صارت نعمة علي لان عبدت بني اسرائيل أي لو لم تفعل ذلك لكفلني أهلي ﴿ قوله تعالى ﴾ قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين قال لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الاولين قال ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم

تعقلون

ولو لم يكن فيه غير هذه الآية الكريمة لكفت في كونه تبيانا لكل شيء وهدى (يعظكم) بما يأمر وينهى وهو اما استئناف واما حال من الضمير في الفعلين (لعلكم تذكرون) طلبا لان تتعظوا بذلك (وأوفوا بعهد الله) هو البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فانها مبايعة لله سبحانه لقوله تعالى ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله (اذا عاهدتم) أي حافظوا على حدود ما عاهدتم الله عليه وبايعتم به رسوله صلى الله عليه وسلم (ولا تنقضوا الايمان) التي تحلفون بها عند المعاهدة (بعد توكيدها) حسبما هو المعهود في أثناء العهود لا على أن يكون النهي مقيدا بالتوكيد مختصا به (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) شاهدا رقيبا فان الكفيل مراع لحال المكفول به محافظ عليه (ان الله يعلم ما تفعلون) من نقض الايمان والعهود فيجازيكم على ذلك (ولا تكونوا) فيما تصنعون من النقض (كالتي نقضت غزلها) أي ما غزلته مصدر بمعنى المفعول (من بعد قوة) متعلق بنقضت أي كالمرأة التي نقضت غزلها من بعد ابرامه واحكامه (أنكاثا) طاقات نكثت فتلها جمع نكث وانتصابه على الحالية من غزلها أو على أنه مفعول ثان لنقضت فانه بمعنى صيرت والمراد تقبيح حال النقض بتشبيه الناقض بمثل هذه الخرقاء المعتوهة قيل هي ريطة بنت سعد بن تيم وكانت خرقاء اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل اصبع وفلكة عظيمة على قدرها فكانت تغزل هي وجواريها من الغداة الى الظهر ثم تأمرهن فينقضن ما غزلن (تتخذون أيمانكم دخلا بينكم) حال من الضمير في لا تكونوا أو في الجار والمجرور الواقع موقع الخبر أي مشابهين لامرأة شأنها هذا حال كونكم متخذين أيمانكم مفسدة ودخلا بينكم وأصل الدخل ما يدخل الشيء ولم يكن منه (أن تكونوا أمة) أي بأن

تكون جماعة (هي أربى) أي أزيد عددا وأوفر مالا (من أمة) من جماعة أخرى أي لا تغدروا بقوم لكثرتكم وقلتهم أو لكثرة منابذتهم وقوتهم كقريش فإنهم كانوا إذا رأوا شوكة في أعادي حلفائهم نقضوا عهدهم وحالفوا أعداءهم (إنما يبلوكم الله به) أي بأن تكون أمة أربى من أمة أي يعاملكم بذلك معاملة من يختبركم لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وبيعة رسوله عليه السلام أم تغترون بكثرة قريش وشوكتهم وقلة المؤمنين وضعفهم بحسب ظاهر الحال (وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) حين جازاكم بأعمالكم ثوابا وعقابا (ولو شاء الله) مشيئة قسر وإلجاء (لجعلكم أمة واحدة) متفقة على الإسلام (ولكن) لا يشاء ذلك لكونه مزاحما لقضية الحكمة بل (يضل من يشاء) إضلاله أي يخلق فيه الضلال حسبما يصرف اختياره الجزئي إليه (ويهدي من يشاء) هدايته حسبما يصرف اختياره إلى تحصيلها (ولتسئلن) جميعا يوم القيامة (عما كنتم تعملون) في الدنيا وهذا إشارة إلى ما لوح به من الكسب الذي عليه يدور أمر الهداية والضلال (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم) تصريح بالنهي عنه بعد التضمين تأكيدا ومبالغة في بيان قبح المنهي عنه وتمهيدا لقوله سبحانه (فتزل قدم) عن محجة الحق (بعد ثبوتها) عليها ورسوخها فيها بالإيمان وإفراد القدم وتنكيرها للإيذان بأن زلل قدم واحدة أي قدم كانت عزت أو هانت محذور عظيم فكيف بأقدام كثيرة (وتذوقوا السوء) أي العذاب الدنيوي (بما صددتم) بصدودكم أو بصدكم غيركم (عن سبيل الله) الذي ينتظم الوفاء بالعهود والأيمان فإن من نقض البيعة وارتد جعل ذلك سنة لغيره (ولكم) في الآخرة (عذاب عظيم ولا تشتروا بعهد الله) أي لا تأخذوا بمقابلة عهده تعالى

تعقلون قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين قال أولو جئتك بشيء مبين قال فأت به إن كنت من الصادقين﴾ اعلم أن فرعون لم يقل لموسى وما رب العالمين إلا وقد دعاه موسى إلى طاعة رب العالمين يبين ذلك ما تقدم من قوله فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين فلا بد عند دخولهما عليه أنهما قالا ذلك فعند ذلك قال فرعون وما رب العالمين ثم ههنا بحثان (الأول) أن فرعون يحتمل أن يقال إنه كان عارفا بالله ولكنه قال ما قال طلبا للملك والرياسة وقد ذكر الله تعالى في كتابه ما يدل على أنه كان عارفا بالله وهو قوله قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض فإذا قرئ بفتح التاء من علمت فالمراد أن فرعون علم ذلك وذلك يدل على أنه كان عارفا بالله لكنه كان يستأكل قومه بما يظهره من الإلهية والقراءة الأخرى برفع التاء من علمت فهي تقتضي أن موسى عليه السلام هو الذي عرف ذلك وأيضا فإن فرعون إن لم يكن عاقلا لم يجز من الله تعالى بعثة الرسول إليه وإن كان عاقلا فهو يعلم بالضرورة أنه ما كان موجودا ولا حيا ولا عاقلا ثم صار كذلك وبالضرورة يعلم أن كل ما كان كذلك فلا بد له من مؤثر فلا بد وأن يتولد له من هذين العلمين علم ثالث بافتقاره في تركيبه وفي حياته وعقله إلى مؤثر موجد ويحتمل أن يقال إنه كان على مذهب الدهرية من أن الأفلاك واجبة الوجود في ذواتها ومتحركة لذواتها وأن حركاتها أسباب لحصول الحوادث في هذا العالم أو يقال إنه كان من الفلاسفة القائلين بالعلة الموجبة لا بالفاعل المختار ثم اعتقد أنه بمنزلة الإله لأهل إقليمه من حيث استعبدهم وملك ذمامهم وزمام أمرهم ويحتمل أن يقال إنه كان على مذهب الحلولية القائلين بأن ذات الإله يتدرع بجسد إنسان معين حتى يكون الإله سبحانه لذلك الجسد بمنزلة روح كل إنسان بالنسبة إلى جسده وبهذه التقديرات كان يسمي نفسه إلها (البحث الثاني) وهو أنه قال لموسى عليه السلام وما رب العالمين واعلم أن السؤال بما طلب لتعريف حقيقة الشيء وتعريف حقيقة الشيء إما أن يكون بنفس تلك الحقيقة أو بشيء من أجزائها أو بأمر خارج عنها أو بما يتركب من الداخل والخارج أما تعريفها بنفسها فمحال لأن المعرف معلوم قبل المعرف فلو عرف الشيء بنفسه لزم أن يكون معلوما قبل أن يكون معلوما وهو محال وأما تعريفها بالأمور الداخلة فيها فههنا في حق واجب الوجود محال لأن التعريف بالأمور الداخلة لا يمكن إلا إذا كان المعرف مركبا وواجب الوجود يستحيل أن يكون مركبا لأن كل مركب فهو محتاج إلى كل واحد من أجزائه وكل واحد من أجزائه فهو غيره فكل مركب محتاج إلى غيره وكل ما احتاج إلى غيره فهو ممكن لذاته وكل مركب فهو ممكن فما ليس بممكن يستحيل أن يكون مركبا فواجب الوجود ليس بمركب وإذا لم يكن مركبا استحال تعريفه بأجزائه ولما بطل هذان القسمان ثبت أنه لا يمكن تعريف ماهية واجب الوجود إلا بلوازمه وآثاره ثم إن اللوازم قد تكون خفية وقد تكون جلية ولا يجوز تعريف الماهية باللوازم الخفية بل لا بد من تعريفها باللوازم الجلية وأظهر آثار ذات واجب الوجود هو هذا العالم المحسوس وهو السموات والأرض وما بينهما فقد ثبت أنه لا جواب البتة لقول فرعون وما رب العالمين إلا ما قاله موسى عليه السلام وهو أنه رب السموات والأرض وما بينهما فأما قوله إن كنتم موقنين فمعناه إن كنتم موقنين باستناد هذه المحسوسات إلى موجود واجب الوجود فاعرفوا أنه لا يمكن تعريفه إلا بما ذكرته لأنكم لما سلمتم انتهاء هذه المحسوسات إلى الواجب لذاته وثبت أن الواجب لذاته فرد مطلق وثبت أن الفرد المطلق لا يمكن تعريفه إلا بآثاره وثبت أن تلك الآثار لا بد وأن تكون أظهر آثاره وأبعدها عن الخفاء وما ذاك إلا السموات والأرض وما بينهما فإن أيقنتم بذلك لزمكم أن تقطعوا بأنه لا جواب عن ذلك السؤال إلا هذا الجواب ولما ذكر موسى عليه السلام هذا الجواب الحق قال فرعون لمن حوله ألا تستمعون وإنما ذكر ذلك على سبيل

و بيعة رسوله عليه السلام أو آياته الناطقة بايجاب المحافظة على العهود والأيمان (ثمنا قليلا) أي لا تستبدلوا بها عرضا يسيرا وهو ما كانت قريش يعدون ضعفة المسلمين ويشترطون لهم على الارتداد من حطام الدنيا (ان ما عند الله) عز وجل من النصر والتغنيم والثواب الاخروي (هو خير لكم) مما يعدونكم (ان كنتم تعلمون) أي ان كنتم من أهل العلم والتمييز وهو تعليل للنهي على طريقة التحقيق كما أن قوله تعالى (ما عندكم) تعليل للخيرية بطريق الاستئناف أي ما تتمتعون به من نعيم الدنيا وان جل بل الدنيا وما فيها جميعا (ينفد) وان جم عدده وينقضي وان طال أمده (وما عند الله) من خزائن رحمته الدنيوية والاخروية (باق) لا نفاد له اما الاخروية فظاهرة وأما الدنيوية فحيث كانت موصولة بالاخروية ومستتبعة لها فقد انتظمت في سمط الباقيات الصالحات وفي ايثار الاسم على صيغة المضارع من الدلالة على الدوام ما لا يخفى وقوله تعالى (ولنجزين) بنون العظمة على طريقة الالتفات تكرير للوعد المستفاد من قوله تعالى ان ما عند الله هو خير لكم على نهج التوكيد القسمي مبالغة في الحمل على الثبات في الدين والالتفات عما يقتضيه ظاهر الحال من أن يقال ولنجزينكم أجركم بأحسن ما كنتم تعملون للتوسل الى التعرض لاعمالهم والاشعار بعليتها للجزاء أي والله لنجزين (الذين صبروا) على أذية المشركين ومشاق الاسلام التي من جملتها الوفاء بالعهود والفقر وقرئ بالياء من غير التفات (أجرهم) مفعول ثان لنجزين أي لنعطينهم أجرهم الخاص بهم بمقابلة صبرهم على ما منوا به من الامور المذكورة (بأحسن ما كانوا يعملون) أي لنجزينهم بما كانوا يعملونه من الصبر المذكور وانما أضيف اليه الاحسن

التعجب من جواب موسى يعني أنا أطلب منه الماهية وخصوصية الحقيقة وهو يجيبني بالفاعلية والمؤثرية وتمام الاشكال أن تعريف الماهية بلوازمها لا يفيد الوقوف على نفس تلك الماهية وذلك لانا اذا قلنا في الشيء انه الذي يلزمه اللازم الفلاني فهذا المذكور اما أن يكون معرفا لمجرد كونه أمرا ما يلزمه ذلك اللازم أو لخصوصية تلك الماهية التي عرضت لها هذه اللزومية والاول محال لان كونه أمرا يلزمه ذلك اللازم جعلناه كاشفا فلو كان المكشوف هو هذا القدر لزم كون الشيء معرفا لنفسه وهو محال والثاني محال لان العلم بأنه أمر ما يلزمه اللازم الفلاني لا يفيد العلم بخصوصية تلك الماهية الملزومة لانه لا يمتنع في العقل اشتراك الماهيات المختلفة في لوازم متساوية فثبت أن التعريف بالوصف الخارجي لا يفيد معرفة نفس الحقيقة فلم يكن كونه ربا للسموات والارض وما بينهما جوابا عن قوله وما رب العالمين فأجاب موسى عليه السلام بأن قال ربكم ورب آبائكم الاولين وكأنه عدل عن التعريف بخالقية السماء والارض الى التعريف بكونه تعالى خالقا لنا ولآبائنا وذلك لانه لا يمتنع أن يعتقد أحد أن السموات والارضين واجبة لذواتها فهي غنية عن الخالق والمؤثر ولكن لا يمكن أن يعتقد العاقل في نفسه وأبيه وأجداده كونهم واجبين لذواتهم لما أن المشاهد دلت على انهم وجدوا بعد العدم ثم عدموا بعد الوجود وما كان كذلك استحال أن يكون واجبا لذاته وما لم يكن واجبا لذاته استحال وجوده الا لمؤثر فكان التعريف بهذا الاثر أظهر فلهذا عدل موسى عليه السلام من الكلام الاول اليه فقال فرعون ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون يعني المقصود من سؤال ما طلب الماهية وخصوصية الحقيقة والتعريف بهذه الآثار الخارجية لا يفيد البتة تلك الخصوصية فهذا الذي يدعي الرسالة مجنون لا يفهم السؤال فضلا عن أن يجيب عنه فقال موسى عليه السلام رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون فعدل الى طريق ثالث أوضح من الثاني وذلك لانه أراد بالمشرق طلوع الشمس وظهور النهار وأراد بالمغرب غروب الشمس وزوال النهار والامر ظاهر في ان هذا التدبير المستمر على الوجه العجيب لا يتم الا بتدبير مدبر وهذا بعينه طريقة ابراهيم عليه السلام مع نمروذ فانه استدل أولا بالاحياء والاماتة وهو الذي ذكره موسى عليه السلام ههنا بقوله ربكم ورب آبائكم الاولين فأجابه نمروذ بقوله أنا أحيي وأميت فقال ان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر وهو الذي ذكره موسى عليه السلام ههنا بقوله رب المشرق والمغرب وأما قوله ان كنتم تعقلون فكأنه عليه السلام قال ان كنت من العقلاء عرفت انه لا جواب عن سؤالك الا ما ذكرت لانك طلبت مني تعريف حقيقته بنفس حقيقته وقد ثبت انه لا يمكن تعريف حقيقته بنفس حقيقته ولا بأجزاء حقيقته فلم يبق الا أن أعرف حقيقته بآثار حقيقته وأنا قد عرفت حقيقته بآثار حقيقته فقد ثبت أن كل من كان عاقلا يقطع بأنه لا جواب عن هذا السؤال الا ما ذكرته واعلم انا قد بينا في سورة الانعام في تفسير قوله تعالى وهو القاهر فوق عباده ان حقيقة الاله سبحانه من حيث هي هي غير معقولة للبشر واذا كان كذلك استحال من موسى عليه السلام أن يذكر ما تعرف به تلك الحقيقة الا أن عدم العلم بتلك الخصوصية لا يقدح في صحة الرسالة فكان حاصل كلام موسى عليه السلام أن ادعاء رسالة رب العالمين تتوقف صحته على اثبات أن للعالمين ربا والها ولا تتوقف على العلم بخصوصية الرب تعالى وماهيته المعينة فكان موسى عليه السلام يقيم الدلالة على اثبات القدر المحتاج اليه في صحة دعوى الرسالة وفرعون يطالبه ببيان الماهية وموسى عليه السلام كان يعرض عن سؤاله لعلمه بأنه لا تعلق لذلك السؤال نفيا ولا اثباتا في هذا المطلوب فهذا تمام القول في هذا البحث والله أعلم ثم ان موسى عليه السلام لما خشن في آخر الكلام بقوله ان كنتم تعقلون فعند ذلك

قال

قال فرعون لئن اتخذت الها غيرى لاجعلنك من المسجونين فانه لما عجز عن الحجاج عدل الى التخويف فعند ذلك ذكر موسى عليه السلام كلاما مجملا ليعلق قلبه به فيعدل عن وعيده فقال أولو جئتك بشئ مبين أى هل تستجيز أن تسجنني مع اقتدارى على أن آتيك بأمر بين فى باب الدلالة على وجود الله تعالى وعلى انى رسوله فعند ذلك قال فأت به ان كنت من الصادقين * وههنا فروع (الفرع الاول) الآية تدل على انه تعالى ليس بجسم لانه لو كان جسما وله صورة لكان جواب موسى عليه السلام بذكر حقيقته ولكان كلام فرعون لازما له لعدوله عن الجواب الحق (الثانى) الواجب على من يدعو غيره الى الله تعالى أن لا يجيب عن السفاهة لان موسى عليه السلام لما قال له فرعون انه مجنون لم يعدل عن ذكر الدلالة وكذلك لما توعده أن يسجنه (الثالث) انه يجوز للمسؤل أن يعدل فى حجته من مثال الى مثال لايضاح الكلام ولا يدل ذلك على الانقطاع (الرابع) ان قيل كيف قطع الكلام بما لا تعلق له بالاول وهو قوله أولو جئتك بشئ مبين والمعجز لا يدل على الله تعالى كدلالة سائر ما تقدم قلنا بل يدل لما أراد أن يظهره من انقلاب العصا حية على الله تعالى وعلى توحيده وعلى انه صادق فى الرسالة فالذى ختم به كلامه أقوى من كل ما تقدم وأجمع (الخامس) فان قيل كيف قال رب السموات والارض وما بينهما على التثنية والمرجوع اليه مجموع جوابه أريد ما بين الجنسين (فان قيل) ذكر السموات والارض وما بينهما قد استوعب الخلائق كلهم فما معنى ذكرهم وذكر آبائهم بعد ذلك وذكر المشرق والمغرب (جوابه) قد عمم أولا ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم لان أقرب الاشياء من العاقل نفسه ومن ولد منه وما شاهد من انتقاله من وقت ميلاده الى وقت وفاته من حالة الى حالة أخرى ثم خصص المشرق والمغرب لان طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها على تقدير مستقيم فى فصول السنة من أظهر الدلائل (السادس) فان قيل لم قال لاجعلنك من المسجونين ولم يقل لاسجننك مع انه أخصر (جوابه) لانه لو قال لاسجننك لا يفيد الا صيرورته مسجونا أما قوله لاجعلنك من المسجونين فمعناه أنى أجعلك واحدا ممن عرفت حالهم فى سجونى وكان من عادته أن يأخذ من يريد أن يسجنه فيطرحه فى بئر عميقة فردا لا يبصر فيها ولا يسمع فكان ذلك أشد من القتل (السابع) الواو فى قوله أولو جئتك واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام معناه أتفعل بى ذلك ولو جئتك بشئ مبين أى جائيا بالمعجزة * قوله تعالى ﴿فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين قال للملا حوله ان هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم﴾ وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قرأ الاعمش بكل ساحر عليم ﴿المسئلة الثانية﴾ اعلم أن قوله أولو جئتك بشئ مبين يدل على أن الله تعالى قبل أن ألقى العصا عرفه بأنه يصيرها ثعبانا ولولا ذلك لما قال ما قال فلما ألقى عصاه ظهر ما وعده الله به فصار ثعبانا مبينا والمراد انه تبين للناظرين أنه ثعبان بحركاته وبسائر العلامات روى انه لما انقلبت حية ارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة الى فرعون وجعلت تقول يا موسى مرنى بما شئت ويقول فرعون يا موسى أسألك بالذى أرسلك الا أخذتها فعادت عصا * فان قيل كيف قال ههنا ثعبان مبين وفى آية أخرى فاذا هى حية تسعى وفى آية ثالثة كأنها جان والجان مائل الى الصغر والثعبان مائل الى الكبر * جوابه أما الحية فهى اسم الجنس ثم انها لكبرها صارت ثعبانا وشبهها بالجان لخفتها وسرعتها فصح الكلامان ويحتمل انه شبهها بالشيطان لقوله تعالى والجان خلقناه من قبل من نار السموم ويحتمل انها كانت أولا صغيرة كالجان ثم عظمت فصارت ثعبانا ثم ان موسى عليه السلام لما أتى بهذه الآية قال له فرعون هل غيرها قال نعم فأراه

للاشعار بكمال حسنه كما فى قوله سبحانه وحسن ثواب الآخرة لا لافادة قصر الجزاء على الاحسن منه دون الحسن فان ذلك مما لا يخطر ببال أحد لا سيما بعد قوله تعالى أجرهم أو لنجزينهم بحسب أحسن أفراد أعمالهم على معنى لنعطينهم بمقابلة الفرد الادنى من أعمالهم المذكورة ما نعطيه بمقابلة الفرد الاعلى منها من الاجر الجزيل لا أنا نعطى الاجر بحسب أفرادها المتفاوتة فى مراتب الحسن بأن نجزى الحسن منها بالاجر الحسن والاحسن بالاحسن وفيه ما لا يخفى من العدة الجميلة باغتفار ما عسى يعتريهم فى تضاعيف الصبر من بعض جزع ونظمه فى سلك الصبر الجميل أو لنجزينهم بجزاء أحسن من أعمالهم وأما التفسير بما ترجح فعله من أعمالهم كالواجبات والمندوبات أو بما ترجح تركه أيضا كالمحرمات والمكروهات دلالة على أن ذلك هو المدار للجزاء دون ما يستوى فعله وتركه كالمباحات فلا يساعده مقام الحث على الثبات على ما هم عليه من الاعمال الحسنة المخصوصة والترغيب فى تحصيل ثمراتها بل التعرض لاخراج بعض أعمالهم عن مدارية الجزاء من قبيل تحجير الرحمة الواسعة فى مقام توسيع حماها (من عمل صالحا) أى عملا صالحا أى عمل كان وهذا شروع فى تحريض كافة المؤمنين على كل عمل صالح غب ترغيب طائفة منهم فى الثبات على ما هم عليه من عمل صالح مخصوص دفعا لتوهم اختصاص الاجر الموفور بهم وبعملهم المذكور وقوله تعالى (من ذكر أو أنثى) مبالغة فى بيان شموله للكل (وهو مؤمن) قيده به اذ لا اعتداد بأعمال الكفرة فى استحقاق الثواب أو تخفيف العذاب لقوله تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا وايثار ايراده بالجملة الاسمية الحالية على نظمه فى سلك الصلة لافادة وجوب دوامه ومقارنته للعمل الصالح (فلنحيينه حياة طيبة)

بده ثم أدخلها جيبه ثم أخرجها فاذا هي بيضاء بيضاء يغشى الوادي من شدة بياضها من غير برص لها شعاع كشعاع الشمس فعند هذا أراد فرعون تعمية هذه الحجة على قومه فذكر فيها أمورا ثلاثة (أحدها) قوله ان هذا الساحر عليم وذلك لان الزمان كان زمان السحرة وكان عند كثير منهم ان الساحر قد يجوز أن ينتهي بسحره الى هذا الحد فلهذا أروج عليهم هذا القول (وثانيها) قوله يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره وهذا يجري مجرى التنفير عنه لئلا يقبلوا قوله والمعنى يريد أن يخرجكم من أرضكم بما يلقيه بينكم من العداوات فيفرق جمعكم ومعلوم ان مفارقة الوطن أصعب الامور فنفرهم عنه بذلك وهذا نهاية ما يفعله المبطل في التنفير عن المحق (وثالثها) قوله لهم فماذا تأمرون أي فما رأيكم فيه وما الذي أعمله يظهر من نفسه أني متبع لرأيكم ومنقاد لقولكم ومثل هذا الكلام يوجب جذب القلوب وانصرافها عن العدو فعند هذه الكلمات اتفقوا على جواب واحد وهو قوله أرجئه قرئ أرجئه وأرجه بالهمز والتخفيف وهما لغتان يقال أرجأته وأرجيته اذا أخرته والمعنى أخره ومناظرته لوقت اجتماع السحرة وقيل احبسه وذلك محتمل لانك اذا حبست الرجل عن حاجته فقد أخرته روى أن فرعون أراد قتله ولم يكن يصل اليه فقالوا له لا تفعل فانك ان قتلته أدخلت على الناس في أمره شبهة ولكن أرجئه وأخاه الى أن تحشر السحرة ليقاوموه فلا يثبت له عليك حجة ثم أشاروا عليه بانفاذ حاشرين يجمعون السحرة ظنا منهم بأنهم اذا كثروا غلبوه وكشفوا حاله وعارضوا قوله ان هذا الساحر عليم بقولهم بكل سحار عليم فجاؤا بكلمة الاحاطة وصيغة المبالغة ليطيبوا قلبه وليسكنوا بعض قلقه قال صاحب الكشاف فان قلت قوله تعالى قال للملأ حوله ما العامل في حوله قلت هو منصوب نصبين نصب في اللفظ ونصب في المحل والعامل في النصب اللفظي ما يقدر في الظرف والعامل في النصب المحلي هو النصب على الحال ﴿قوله تعالى ﴿فجمع السحرة لميقات يوم معلوم وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين قال نعم وانكم اذا لمن المقربين﴾ وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اليوم المعلوم يوم الزينة وميقاته وقت الضحى لانه الوقت الذي وقته لهم موسى عليه السلام من يوم الزينة في قوله موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى والميقات ما وقت به أي حدد من مكان وزمان ومنه مواقيت الاحرام (المسئلة الثانية) اعلم أن القوم لما أشاروا بتأخير أمره وبأن يجمع له السحرة ليظهر عند حضورهم فساد قول موسى عليه السلام رضي فرعون بما قالوه وعني بما شاهده وتعب الشيء يعني ويعم بجمع السحرة ثم أراد أن تقع تلك المناظرة يوم عيد لهم ليكون ذلك بحضر الخلق العظيم وكان موسى عليه السلام يطلب ذلك لتظهر حجته عليهم عند الخلق العظيم وكان هذا أيضا من لطف الله تعالى في ظهور أمر موسى عليه السلام أما قوله وقيل للناس هل أنتم مجتمعون فالمراد أنهم بعثوا على الحضور ليشاهدوا ما يكون من الجانبين وأما قوله لعلنا نتبع السحرة فالمراد انا نرجو أن يكون الغلبة لهم فنتبعهم فلما جاء السحرة ابتدؤا بطلب الجزاء وهو اما المال واما الجاه فبذل لهم ذلك وأكده بقوله وانكم اذا لمن المقربين لان نهاية مطلوبهم منه البذل ورفع المنزلة فبذل كلا الامرين ﴿قوله تعالى ﴿قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون فألقى موسى عصاه فاذا هي تلقف ما يأفكون فألقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون﴾ اعلم أنهم لما اجتمعوا كان لابد من أن يبدأ موسى أو يبدؤا ثم انهم تواضعوا له فقدموه على أنفسهم وقالوا اما أن تلقي واما أن نكون أول من ألقى فلما تواضعوا له تواضع هو أيضا لهم فقدمهم على نفسه وقال ألقوا ما أنتم ملقون فان قيل كيف جاز لموسى عليه السلام أن يأمر السحرة بالقاء الحبال والعصي وذلك

في الدنيا يعيش عيشا طيبا أما ان كان موسرا فظاهر وأما ان كان معسرا فيطيب عيشه بالقناعة والرضا بالقسمة وتوقع الاجر العظيم كالصائم يطيب نهاره بملاحظة نعيم ليله بخلاف الفاجر فانه ان كان معسرا فظاهر وان كان موسرا فلا يدعه الحرص وخوف الفوات أن يتهنأ بعيشه (ولنجزينهم) في الآخرة (أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) حسبما نفعل بالصابرين فليس فيه شائبة تكرار والجمع في الضمائر العائدة الى الموصول لمراعاة جانب المعنى كما أن الافراد فيما سلف لرعاية جانب اللفظ وايثار ذلك على العكس لما أن وقوع الجزاء بطريق الاجتماع المناسب للمعية ووقوع ما في حيز الصلة وما ترتب عليه بطريق الافتراق والتعاقب الملائم للافراد واذ قد انتهى الامر الى أن مدار الجزاء المذكور هو صلاح العمل وحسنه رتب عليه بالفاء الارشاد الى ما به يحسن العمل الصالح ويخلص عن شوب الفساد فقيل (فاذا قرأت القرآن) أي اذا أردت قراءته عبر بها عن ارادتها على طريقة اطلاق اسم المسبب على السبب ايذانا بان المراد هي الارادة المتصلة بالقراءة (فاستعذ بالله) فاسأله عز جاره أن يعيذك (من الشيطان الرجيم) من وساوسه وخطراته كي لا يوسوسك عند القراءة فان له همة بذلك قال تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته الآية وتوجيه الخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخصيص قراءة القرآن من بين الاعمال الصالحة بالاستعاذة عند ارادتها للتنبيه على انها لغيره عليه الصلاة والسلام وفي سائر الاعمال الصالحة أهم فانه عليه السلام حيث أمر بها عند قراءة القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فما ظنكم بمن عداه عليه السلام فيما عدا القراءة من الاعمال والامر للندب وهذا

سحر

سحر وتلبيس وكفر والامر بمثله لا يجوز فالجواب لا شبهة في أن ذلك ليس بأمر لان مراد موسى عليه السلام منهم كان أن يؤمنوا به ولا يقدموا على ما يجري مجرى المغالبة وإذا ثبت هذا وجب تأويل صيغة الامر وفيه وجوه (أحدها) ذلك الامر كان مشروطا والتقدير ألقوا ما أنتم ملقون ان كنتم محقين كما في قوله فأتوا بسورة من مثله ان كنتم صادقين (وثانيها) لما تعين ذلك طريقا الى كشف الشبهة صار جائزا (وثالثها) أن هذا ليس بأمر بل هو تهديد أي ان فعلتم ذلك أتيناكم بما يبطله كقول القائل لئن رميتني لأفعلن ولأصنعن ثم يفوق له السهم فيقول له ارم فيكون ذلك منه تهديدا (ورابعها) ما ذكرنا أنهم لما تواضعوا له وقدموه على أنفسهم فهو قدمهم على نفسه على رجاء أن يصير ذلك التواضع سببا لقبول الحق ولقد حصل ببركة ذلك التواضع ذلك المطلوب وهذا تنبيه على أن اللائق بالمسلم في كل الاحوال التواضع لان مثل موسى عليه السلام لما لم يترك التواضع مع أولئك السحرة فبأن يفعل الواحد منا أولى أما قوله تعالى فألقوا حبالهم وعصيهم فروى عن ابن عباس أنهم لما ألقوا حبالهم وعصيهم وقد كانت الحبال مطلية بالزئبق والعصي مجوفة مملوءة من الزئبق فلما حميت اشتدت حركتها فصارت كأنها حيات تدب من كل جانب من الارض فهاب موسى عليه السلام ذلك فقيل له ألق ما في يمينك فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين ثم فتحت فاها فابتلعت كل ما رموه من حبالهم وعصيهم حتى أكلت الكل ثم أخذ موسى عصاه فاذا هي كما كانت فلما رأت السحرة ذلك قالت لفرعون كنا نساحر الناس فاذا غلبناهم بقيت الحبال والعصي وكذلك ان غلبونا ولكن هذا حق فسجدوا وآمنوا برب العالمين * واعلم أن في الآثار اختلافا فمنهم من كثر الحبال والعصي ومنهم من توسط والله أعلم بعدد ذلك والذي يدل القرآن عليه أنها كثيرة من حيث حشروا من كل بلد ولان الامر بلغ عند فرعون وقومه في العظم مبلغا يبعد أن يدخر عنه ما يمكن من جمع السحرة وأما قوله وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون فالمراد أنهم أظهروا ما يجري مجرى القطع على أنهم يغلبون وكل ذلك لما ظهر كان أقوى لأمر موسى عليه السلام أما قوله فألقى موسى عصاه فاذا هي تلقف ما يأفكون فالمراد من قوله ما يأفكون ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم وكيدهم فيخيلون في حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى وتسمى تلك الاشياء افكا مبالغة أما قوله فألقي السحرة ساجدين فالمراد خروا سجدا لانهم كانوا في الطبقة العالية من علم السحر فلا جرم كانوا عالمين بمنتهى السحر فلما رأوا ذلك وشاهدوه خارجا عن حد السحر علموا أنه ليس بسحر وما كان ذلك الا ببركة تحقيقهم في علم السحر ثم انهم عند ذلك لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم الى الارض ساجدين كأنهم أخذوا وطرحوا طرحا * فان قيل فاعل الالقاء ما هو لو صرح به * جوابه هو الله تعالى بما حصل في قلوبهم من الدواعي الجازمة الخالية عن المعارضات ولكن الاولى أن لا يقدر فاعلا لان ألقي بمعنى خروا سقط أما قوله رب موسى وهرون فهو عطف بيان لرب العالمين لان فرعون كان يدعي الربوبية فأرادوا عزله ومعنى اضافته اليهما في ذلك المقام أنه الذي دعا موسى وهرون عليهما السلام اليه

❁ قوله تعالى ﴿قال آمنتم له قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين قالوا لا ضير انا الى ربنا منقلبون انا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين﴾ اعلم أنهم لما آمنوا بأجمعهم لم يأمن فرعون أن يقول الناس ان هؤلاء السحرة على كثرتهم وتظاهرهم لم يؤمنوا الا عن معرفة بصحة أمر موسى عليه السلام فيسلكون مثل طريقهم فلبس على القوم وبالغ في التنفير عن موسى عليه السلام من وجوه (أولها) قوله آمنتم له قبل أن آذن لكم وهذا فيه ايهام أن مسارعتكم الى الايمان به دالة على انكم كنتم مائلين اليه وذلك يطرق التهمة اليهم فلعلهم

مذهب الجمهور وعند عطاء أو جرب وقد أخذ بظاهر النظم الكريم فاستعاذ عقيب القراءة أبو هريرة رضي الله عنه ومالك وابن سيرين وداود وحمزة من القراء وعن ابن مسعود رضي الله عنه قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم فقال عليه السلام قل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام عن القلم عن اللوح المحفوظ (انه) الضمير للشأن أو للشيطان (ليس له سلطان) تسلط وولاية (على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) أي اليه يفوضون أمورهم وبه يعوذون في كل ما يأتون وما يذرون فان وسوسته لا تؤثر فيهم ودعوته غير مستجابة عندهم وايثار صيغة الماضي في الصلة الاولى للدلالة على التحقق كما أن اختيار صيغة الاستقبال في الثانية لافادة الاستمرار التجددي وفي التعرض لوصف الربوبية عدة كريمة باعاذة المتوكلين والجملة تعليل للامر بالاستعاذة أو لجوابه المنوي أي يعذك أو نحوه (انما سلطانه) أي تسلطه وولايته بدعوته المستتبعة للاستجابة لا سلطانه بالقسر والالجاء فانه منتف عن الفريقين لقوله سبحانه حكاية عنه وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي وقد أفصح عنه قوله تعالى (على الذين يتولونه) أي يتخذونه وليا ويستجيبون دعوته ويطيعونه فان المقسور بمعزل من ذلك (والذين هم به) سبحانه وتعالى (مشركون) أو بسبب الشيطان مشركون اذ هو الذي حملهم على الاشراك بالله سبحانه وقصر سلطانه عليهم غب نفيه عن المؤمنين المتوكلين دليل على أن لا واسطة في الخارج بين التوكل على الله تعالى وبين تولي الشيطان وان كان بينهما واسطة في المفهوم وأن من لم يتوكل عليه تعالى ينتظم في سلك من يتولى الشيطان من حيث لا يحتسب اذ به يتم

التعليل ففيه مبالغة فى الحمل على التوكل والتحذير عن مقابله وايثار الجملة الفعلية الاستقبالية فى الصلة الاولى لما مر من افادة الاستمرار التجددى كما أن اختيار الجملة الاسمية فى الثانية للدلالة على الثبات وتكرير الموصول للاحتراز عن توهم كون الصلة الثانية حالية مفيدة لعدم دخول غير المشركين من أولياء الشيطان تحت سلطانه وتقديم الاولى على الثانية التى هى بمقابلة الصلة الاولى فيما سلف لرعاية المقارنة بينها وبين ما يقابلها من التوكل على الله تعالى ولو روعى الترتيب السابق لانفصل كل من القرينتين عما يقابلها (واذا بدلنا آية مكان آية) أى اذا أنزلنا آية من القرآن مكان آية منه وجعلناها بدلا منها بأن نسخناها بها (والله أعلم بما ينزل) أولا وآخرا وبأن كلا من ذلك ما نزلت حيثما نزلت الا حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة فان كل وقت له مقتض غير مقتضى الآخر فكم من مصلحة فى وقت تنقلب فى وقت آخر مفسدة وبالعكس لانقلاب الامور الداعية الى ذلك وما الشرائع الا مصالح للعباد فى المعاش والمعاد تدور حسبما تدور المصالح والجملة اما معترضة لتوبيخ الكفرة والتنبيه على فساد رأيهم وفى الالتفات الى الغيبة مع اسناد الخبر الى الاسم الجليل المستجمع للصفات ما لا يخفى من تربية المهابة وتحقيق معنى الاعتراض أو حالية وقرئ بالتخفيف من الانزال (قالوا) أى الكفرة الجاهلون بحكمة النسخ (انما أنت مفتر) أى متقول على الله تعالى تأمر بشئ ثم يبدو لك فتنهى عنه وحكاية هذا القول عنهم ههنا للايذان بأن ذلك كفرة ناشئة من نزغات الشيطان وأنه وليهم (بل أكثرهم لا يعلمون) أى لا يعلمون شيأ أصلا أو لا يعلمون أن فى النسخ حكما بالغة وسناد هذا الحكم الى الاكثر لما أن منهم من يعلم ذلك وانما ينكره

قصروا فى السحر حباله (وثانيها) قوله انه لكبيركم الذى علمكم السحر وهذا تصريح بما رمز به أولا وغرضه منه أنهم فعلوا ذلك عن مواطأة بينهم وبين موسى عليه السلام وقصروا فى السحر ليظهر أمر موسى عليه السلام والا ففى قوة السحرة أن يفعلوا مثل ما فعل موسى عليه السلام وهذه شبهة قوية فى تنفير من يقبل قوله (وثالثها) قوله فلسوف تعلمون وهو وعيد مطلق وتهديد شديد (ورابعها) قوله لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولاصلبنكم أجمعين وهذا هو الوعيد المفصل وقطع اليد والرجل من خلاف هو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى والصلب معلوم وليس فى الاهلاك أقوى من ذلك وليس فى الآية أنه فعل ذلك أولم يفعل ثم انهم أجابوا عن هذه الكلمات من وجهين (الاول) قولهم لاضير انا الى ربنا منقلبون الضر والضير واحد وليس المراد ان ذلك ان وقع لم يضر وانما عنوا بالاضافة الى ما عرفوه من دار الجزاء (واعلم) أن قولهم انا الى ربنا منقلبون فيه نكتة شريفة وهى انهم قد بلغوا فى حب الله تعالى أنهم ما أرادوا شيأ سوى الوصول الى حضرته وأنهم ما آمنوا رغبة فى ثواب أو رهبة من عقاب وانما مقصودهم محض الوصول الى مرضاته والاستغراق فى أنوار معرفته وهذا أعلى درجات الصديقين (الجواب الثانى) قولهم انا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا فهو اشارة منهم الى الكفر والسحر وغيرهما والطمع فى هذا الموضع يحتمل اليقين كقول ابراهيم والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ويحتمل الظن لان المرء لا يعلم ما سيختم به من بعد أما قوله أن كنا أول المؤمنين فالمراد لان كنا أول المؤمنين من الجماعة الذين حضروا ذلك الموقف أو يكون المراد من السحرة خاصة أو من رعية فرعون أو من أهل زمانهم وقرئ ان كنا بالكسر وهو من الشرط الذى يجىء به المدل ونظيره قول القائل لمن يؤخر جعله ان كنت عملت لك فوفنى حقى ﴿ قوله تعالى ﴿ وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادى انكم متبعون فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين ان هؤلاء لشرذمة قليلون وانهم لنا لغائظون وانا لجميع حاذرون فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بنى اسرائيل فأتبعوهم مشرقين فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى انا لمدركون قال كلا ان معى ربى سيهدين ﴾ قرئ أسر بقطع الهمزة ووصلها وسر لما ظهر أمر موسى عليه السلام بما شاهدوه من الآية أمره الله تعالى بأن يخرج بنى اسرائيل لما كان فى المعلوم من تدبير الله تعالى فى موسى وتخليصه من القوم وتمليكه بلادهم وأموالهم ولم يأمن وقد جرت تلك الغلبة الظاهرة أن يقع من فرعون ببنى اسرائيل ما يؤدى الى الاستئصال فلذلك أمره الله تعالى أن يسرى ببنى اسرائيل وهم الذين آمنوا وكانوا من قوم موسى ولا شبهة أن فى الكلام حذفا وهو انه أسرى بهم كما أمره الله تعالى ثم ان قوم موسى عليه السلام قالوا لقوم فرعون ان لنا فى هذه الليلة عيدا ثم استعاروا منهم حليهم وحللهم بهذا السبب ثم خرجوا بتلك الاموال فى الليل الى جانب البحر فلما سمع ذلك فرعون أرسل فى المدائن حاشرين ثم انه قوى نفسه ونفس أصحابه بأن وصف قوم موسى بوصفين من أوصاف الذم ووصف قوم نفسه بصفة المدح أما وصف قوم موسى عليه السلام بالذم (فالصفة الاولى) قوله ان هؤلاء لشرذمة قليلون والشرذمة الطائفة القليلة ومنه قولهم ثوب شراذم الذى بلى وتقطع قطعا ذكرهم بالاسم الدال على القلة ثم جعلهم قليلا بالوصف ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلا واختار جمع السلامة الذى هو للقلة ويجوز أن يريد بالقلة الذلة لا قلة العدد والمعنى انهم لقلتهم لا يبالى بهم ولا يتوقع غلبتهم وعلوهم ثم اختلف المفسرون فى عدد تلك الشرذمة فقال ابن عباس رضى الله عنهما كانوا ستمائة ألف مقاتل لا شاب فيهم دون عشرين سنة ولا شيخ يوفى على الستين سوى الحشم وفرعون يقللهم لكثرة من معه وهذا الوصف قد يستعمل فى الكثير عند الاضافة الى ما هو أكثر منه فروى أن فرعون خرج

عنادا (قل نزله) أى القرآن المدلول عليه بالآية (روح القدس) يعنى جبريل عليه السلام أى الروح المطهر من الادناس البشرية واضافة الروح الى القدس وهو الطهر كاضافة حاتم الى الجود حيث قيل حاتم الجود للمبالغة فى ذلك الوصف كأنه طبع منه وفى صيغة التفعيل فى الموضعين اشعار بان التدريج فى الانزال مما تقتضيه الحكم البالغة (من ربك) فى اضافة الرب الى ضميره صلى الله عليه وسلم من الدلالة على تحقيق افاضة آثار الربوبية عليه صلى الله عليه وسلم ما ليس فى اضافته الى ياء المتكلم المنبئة على التلقين المحض (بالحق) أى ملتبسا بالحق الثابت الموافق للحكمة المقتضية له بحيث لا يفارقها انشاء ونسخا وفيه دلالة على أن النسخ حق (ليثبت الذين آمنوا) على الايمان بانه كلامه تعالى فانهم اذا سمعوا الناسخ وتدبروا ما فيه من رعاية المصالح اللائقة بالحال رسخت عقائدهم واطمأنت قلوبهم وقرئ ليثبت من الافعال (وهدى وبشرى للمسلمين) المنقادين لحكمه تعالى وهما معطوفان على محل ليثبت أى تثبيتا وهداية وبشارة وفيه تعريض بحصول أضداد الامور المذكورة لمن سواهم من الكفار (ولقد نعلم أنهم يقولون) غير ما نقل عنهم من المقالة الشنعاء (انما يعلمه) أى القرآن (بشر) على طريق البت مع ظهور أنه نزله الروح القدس عليه الصلاة والسلام وتحلية الجملة بفنون التأكيد لتحقيق ما تتضمنه من الوعيد وصيغة الاستقبال لافادة استمرار العلم بحسب الاستمرار التجددى فى متعلقه فانهم مستمرون على تلك العظيمة يعنون بذلك جبرا الرومى غلام عامر بن الحضرمى وقيل جبرا ويسارا كانا يصنعان

على فرس أدهم حصان وفى عسكره على لون فرسه ثلثمائة ألف ﴿الصفة الثانية﴾ قوله وانهم لنا لغائظون يعنى يفعلون أفعالا تغيظنا وتضيق صدورنا واختلفوا فى تلك الافعال على وجوه (أحدها) ما تقدم من أمر الحلى وغيره (وثانيها) خروج بنى اسرائيل عن عبودية فرعون واستقلالهم بأنفسهم (وثالثها) مخالفتهم لهم فى الدين وخروجهم عليهم (ورابعها) ليس الا أنهم لم يتخذوا فرعون الها أما الذى وصف فرعون به قومه فهو قوله وانا لجميع حذرون وفيه ثلاث قرا آت حذرون وحاذرون وحادرون بالدال غير المعجمة واعلم ان الصفة اذا كانت جارية على الفعل وهى اسم الفاعل واسم المفعول كالضارب والمضروب أفادت الحدوث واذا لم تكن كذلك وهى المشبهة أفادت الثبوت فمن قرأ حذرون ذهب الى انا قوم من عادتنا الحذر واستعمال الحزم ومن قرأ حاذرون فكأنه ذهب الى معنى انا قوم ما عهدنا أن نحذر الا عصرنا هذا وأما من قرأ حادرون بالدال غير المعجمة فكأنه ذهب الى نفى الحذر أصلا لان الحادر هو المشمر فأراد انا قوم أقوياء أشداء أو أراد انا مدججون فى السلاح والغرض من هذه المعاذير أن لا يتوهم أهل المدائن أنه منكسر من قوم موسى أو خائف منهم أما قوله تعالى فأخرجناهم فالمراد انا خلقنا فى قلوبهم داعية الخروج فاستوجبت الداعية الفعل فكان الفعل مضافا الى الله تعالى لا محالة وأما قوله من جنات وعيون وكنوز فقال مجاهد سماها كنوزا لانهم لم ينفقوا منها فى طاعة الله تعالى والمقام الكريم يريد المنازل الحسنة والمجالس البهية والمعنى انا أخرجناهم من بساتينهم التى فيها عيون الماء وكنوز الذهب والفضة والمواضع التى كانوا يتنعمون فيها فسلمها الى بنى اسرائيل أما قوله كذلك فيحتمل ثلاثة أوجه النصب على أخرجناهم مثل ذلك الاخراج الذى وصفناهم والجر على أنه وصف لمقام كريم أى مقام كريم مثل ذلك المقام الذى كان لهم والرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف أى الامر كذلك أما قوله فأتبعوهم أى فلحقوهم وقرئ فاتبعوهم مشرقين داخلين فى وقت الشروق من شرقت الشمس شروقا اذا طلعت أما قوله فلما تراءى الجمعان أى رأى بعضهم بعضا قال أصحاب موسى انا لمدركون أى لملحقون وقالوا يا موسى أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا كانوا يذبحون أبناءنا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا يدركوننا أى فى هذه الساعة فيقتلوننا وقرئ فلما تراءت الفئتان انا لمدركون بتشديد الدال وكسر الراء من ادرك الشئ اذا تتابع ففنى ومنه قوله تعالى بل ادارك علمهم فى الآخرة قال الحسن جهلوا علم الآخرة والمعنى انا لمتتابعون فى الهلاك على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد فعند ذلك قال لهم كلا وذلك كالمنع مما توهموه ثم قوى نفوسهم بأمرين (أحدهما) ان معى ربى وهذا دلالة النصرة والتكفل بالمعونة (والثانى) قوله سيهدين والهدى هو طريق النجاة والخلاص واذا دله على طريق نجاته وهلاك أعدائه فقد بلغ النهاية فى النصرة

﴿ قوله تعالى ﴿وأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وأزلفنا ثم الآخرين وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم﴾ اعلم أنه تعالى لما حكى عن موسى عليه السلام قوله ان معى ربى سيهدين بين تعالى بعده كيف هداه ونجاه وأهلك أعداءه بذلك التدبير الجامع لنعم الدين والدنيا فقال وأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق ولا شبهة فى أن المراد فضرب فانفلق لانه كالمعلوم من الكلام اذ لا يجوز أن ينفلق من غير ضرب ومع ذلك يأمره بالضرب لانه كالعبث ولانه تعالى جعله من معجزاته التى ظهرت بالعصا ولان انفلاقه بضربه أعظم فى النعمة عليه وأقوى لعلمهم أن ذلك انما حصل لمكان موسى عليه السلام واختلفوا فى البحر روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن موسى عليه السلام لما

السيف بمكة ويقرآن التوراة والانجيل وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يمر عليهما ويسمع ما يقرآنه وقيل عايش غلام حويطب بن عبد العزى قد أسلم وكان صاحب كتب وقيل سلمان الفارسي وانما لم يصرح باسم من زعموا أنه يعلمه مع كونه أدخل في ظهور كذبهم للايذان بأن مدار خطئهم ليس ٤١٠ نسبته عليه السلام الى التعلم من شخص معين بل من البشر كائنا من كان مع كونه عليه السلام معدنا لعلوم الاولين والآخرين (لسان الذي يلحدون اليه أعجمي) الالحاد الامالة من ألحد القبر اذا أمال حفره عن الاستقامة فحفر في شق منه ثم استعير لكل امالة عن الاستقامة فقالوا ألحد فلان في قوله وألحد في دينه أي لغة الرجل الذي يميلون اليه القول عن الاستقامة أعجمية غير بينة وقرئ بفتح الياء والحاء وتعريف اللسان (وهذا) أي القرآن الكريم (لسان عربي مبين) ذو بيان وفصاحة والجملتان مستأنفتان لابطال طعنهم وتقريره أن القرآن معجز بنظمه كما أنه معجز بمعناه فان زعمتم أن بشرا يعلمه معناه فكيف يعلمه هذا النظم الذي أعجز جميع أهل الدنيا والتشبث في أثناء الطعن بأذيال أمثال هذه الخرافات الركيكة دليل على كمال عجزهم (ان الذين لا يؤمنون بآيات الله) أي لا يصدقون أنها من عند الله بل يقولون فيها ما يقولون يسمونها تارة افتراء وأخرى أساطير معلمة من البشر (لا يهديهم الله) الى الحق أو الى سبيل النجاة هداية موصلة الى المطلوب لما علم المقصود أنهم لا يستحقون ذلك لسوء حالهم (ولهم) في الآخرة (عذاب أليم) وهذا تهديد لهم ووعيد على ما هم عليه من الكفر بآيات الله تعالى ونسبة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الافتراء والتعلم من البشر بعد اماطة شبهتهم وردطعنهم وقوله تعالى (انما يفتري الكذب الذين

انتهى الى البحر مع بني اسرائيل أمرهم أن يخوضوا البحر فامتنعوا الا يوشع بن نون فانه ضرب دابته وخاض في البحر حتى عبر ثم رجع اليهم فأبوا أن يخوضوا فقال موسى للبحر انفرق لي فقال ما أمرت بذلك ولا يعبر على العصاة فقال موسى يارب قد أبى البحر أن ينفرق فقيل له اضرب بعصاك البحر فضرب به فانفرق فكان كل فرق كالطود العظيم أي كالجبل العظيم وصار فيه اثنا عشر طريقا لكل سبط منهم طريق فقال كل سبط قتل أصحابنا فعند ذلك دعا موسى عليه السلام ربه فجعلها مناظر كهيئة الطبقات حتى نظر بعضهم الى بعض على أرض يابسة وعن عطاء بن السائب أن جبريل عليه السلام كان بين بني اسرائيل وبين آل فرعون وكان يقول لبني اسرائيل ليلحق آخركم بأولكم ويستقبل القبط فيقول رويدكم ليلحق آخركم وروى أن موسى عليه السلام قال عند ذلك يا من كان قبل كل شئ والمكون لكل شئ والكائن بعد كل شئ فأما قوله فكان كل فرق كالطود العظيم فالفرق الجزء المنفرق منه وقرئ كل فلق والمعنى واحد والطود الجبل المتطاول أي المرتفع في السماء وهو معجز من وجوه (أحدها) ان تفرق ذلك الماء معجز (وثانيها) ان اجتماع ذلك الماء فوق كل طرف منه حتى صار كالجبل من المعجزات أيضا لانه كان لا يمتنع في الماء الذي أزيل بذلك التفريق أن يبدده الله تعالى حتى يصير كأنه لم يكن فلما جمع على الطرفين صار مؤكدا لهذا الاعجاز (وثالثها) أنه ان ثبت ماروي في الخبر أنه تعالى أرسل على فرعون وقومه من الرياح والظلمة ماحيرهم فاحتبسوا القدر الذي يتكامل معه عبور بني اسرائيل فهو معجز ثالث (ورابعها) أن جعل الله في تلك الجدران المائية كوى ينظر منها بعضهم الى بعض فهو معجز رابع (وخامسها) أن أبقى الله تعالى تلك المسالك حتى قرب منها آل فرعون وطمعوا أن يتخلصوا من البحر كما تخلص قوم موسى عليه السلام فهو معجز خامس * أما قوله تعالى وأزلفنا ثم الآخرين ففيه بحثان (البحث الاول) قال ابن عباس وابن جريج وقتادة والسدي وأزلفنا أي وقربنا ثم أي حيث انفلق البحر للآخرين قوم فرعون ثم فيه ثلاثة أوجه (أحدها) قربناهم من بني اسرائيل (وثانيها) قربنا بعضهم من بعض وجمعناهم حتى لا ينجو منهم أحد (وثالثها) قدمناهم الى البحر ومن الناس من قال وأزلفنا أي حبسنا فرعون وقومه عن طلبهم موسى عليه السلام بأن أظلمنا عليهم الدنيا بسحابة وقفت عليهم فوقفوا حيارى وقرئ وأزلقنا بالقاف أي أزللنا أقدامهم والمعنى أذهبنا عزهم ويحتمل أن يجعل الله طريقهم في البحر على خلاف ما جعله لبني اسرائيل يبسا وأزلقهم (البحث الثاني) انه تعالى أضاف ذلك الازلاف الى نفسه مع أن اجتماعهم هنالك في طلب موسى كفر (أجاب) الجبائي عنه من وجهين (الاول) ان قوم فرعون تبعوا بني اسرائيل وبنو اسرائيل انما فعلوا ذلك بأمر الله تعالى فلما كان مسيرهم بتدبيره وهؤلاء تبعوا ذلك أضافه الى نفسه توسعا وهذا كما يتعب أحدنا في طلب غلام له فيجوز أن يقول أتعبني الغلام لما حدث ذلك عند فعله (الثاني) قيل وأزلفنا ثم الآخرين أي أزلفناهم الى الموت لاجل انهم في ذلك الوقت قربوا من آجالهم وأنشد

وكل يوم مضى أو ليلة سلفت * فيها النفوس الى الآجال تزدلف

وأجاب الكعبي عنه من وجهين (الاول) أنه تعالى لما حلم عنهم وترك البحر لهم يبسا وطمعوا في عبوره جازت الاضافة كالرجل يسفه عليه صاحبه مرارا فيحلم عنه فاذا تمادى في غيه وأراد قدرته عليه قال له أنا أحوجتك الى هذا وصيرتك الى السفه بحلمي لا يريد بذلك انه أراد ما فعل (الثاني) يحتمل أنه أزلفهم أي جمعهم ليغرقهم عند ذلك ولكي لا يصلوا الى موسى وقومه (والجواب عن الاول) ان الذي فعله بنو اسرائيل هل له أثر في استجلاب داعية قوم فرعون الى الذهاب خلفهم أو ليس له أثر فيه فان كان الاول فقد حصل

المقصود لان لفعل الله تعالى أثرا في حصول الداعية المستلزمة لذلك الازلاف وان لم يكن له فيه أثر البتة فقد زال السؤال فوجب أن لا تحسن الاضافة وأما اذا تعب أحد نافي طلب غلام له فانما يجوز أن يقول أتعبني ذلك الغلام اما أن فعل ذلك الغلام صار كالمؤثر في حصول ذلك التعب لانه متى فعل ذلك الفعل فالظاهر أنه يصير معلوما للسيد ومتى علمه صار علمه داعيا له الى ذلك التعب ومؤثرا فيه فصحت الاضافة وبالجملة فعندنا القادر لا يمكنه الفعل الا بالداعي فالداعي مؤثر في صيرورة القادر مؤثرا في ذلك الفعل فلا جرم حسنت الاضافة (والجواب عن الثاني) وهو أنه أزلفهم ليغرقهم فهو انه تعالى ما أزلفهم بل هم بأنفسهم ازدلفوا ثم حصل الغرق بعده فكيف يجوز اضافة هذا الازلاف الى الله تعالى أما على قولنا فانه جائز لانه تعالى هو الذي خلق الداعية المستعقبة لذلك الازدلاف (والجواب عن الثالث) وهو أن حمله تعالى عنهم حملهم على ذلك فنقول ذلك الحلم هل له أثر في استجلاب هذه الداعية أم لا وباقي التقرير كما تقدم (والجواب عن الرابع) هو بعينه الجواب عن الثاني والله أعلم * أما قوله تعالى وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين فالمعنى انه تعالى جعل البحر يبسا في حق موسى وقومه حتى خرجوا منه وأغرق فرعون وقومه لانه لما تكامل دخولهم البحر انطبق الماء عليهم فغرقوا في ذلك الماء * أما قوله تعالى ان في ذلك لآية فالمعنى ان الذي حدث في البحر آية عجيبة من الآيات العظام الدالة على قدرته لان أحدا من البشر لا يقدر عليه وعلى حكمته من حيث وقع ما كان مصلحة في الدين والدنيا وعلى صدق موسى عليه السلام من حيث كان معجزة له وعلى اعتبار المعتبرين به أبدا فيصير تحذيرا من الاقدام على مخالفة أمر الله تعالى وأمر رسوله ويكون فيه اعتبار لمحمد صلى الله عليه وسلم فانه قال عقيب ذلك وما كان أكثرهم مؤمنين وفي ذلك تسلية له فقد كان يغتم بتكذيب قومه مع ظهور المعجزات عليه فنبهه الله تعالى بهذا الذكر على أن له أسوة بموسى وغيره فان الذي ظهر على موسى من هذه المعجزات العظام التي تبهر العقول لم يمنع من أن أكثرهم كذبوه وكفروا به مع مشاهدتهم لما شاهدوه في البحر وغيره فكذلك أنت يا محمد لا تعجب من تكذيب أكثرهم لك واصبر على ايذائهم فلعلهم أن يصلحوا ويكون في هذا الصبر تأكيد الحجة عليهم وأما قوله وان ربك لهو العزيز الرحيم فتعلقه بما قبله ان القوم مع مشاهدة هذه الآية الباهرة كفروا ثم انه تعالى كان عزيزا قادرا على أن يهلكهم ثم انه تعالى ما أهلكهم بل أفاض عليهم أنواع رحمته فدل ذلك على كمال رحمته وسعة جوده وفضله له (القصة الثانية) قصة ابراهيم عليه السلام * قوله تعالى ﴿واتل عليهم نبأ ابراهيم اذ قال لابيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون فانهم عدو لي الا رب العالمين﴾ اعلم انه تعالى ذكر في أول السورة شدة حزن محمد صلى الله عليه وسلم بسبب كفر قومه ثم انه ذكر قصة موسى عليه السلام ليعرف محمد صلى الله عليه وسلم ان مثل تلك المحنة كانت حاصلة لموسى ثم ذكر عقيبها قصة ابراهيم عليه السلام ليعرف محمد أيضا أن حزن ابراهيم عليه السلام بهذا السبب كان أشد من حزنه لان من عظيم المحنة على ابراهيم عليه السلام أن يرى أباه وقومه في النار وهو لا يتمكن من انقاذهم الا بقدر الدعاء والتنبيه فقال لهم ما تعبدون وكان ابراهيم عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام ولكنه سألهم ليريهم أن ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة في شئ كما تقول لتاجر الرقيق ما مالك وأنت تعلم أن ماله الرقيق ثم تقول الرقيق جمال وليس بمال فأجابوا ابراهيم عليه السلام بقولهم نعبد أصناما فنظل لها عاكفين والعكوف الاقامة على الشئ وانما قالوا نظل لانهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل وعلم انه كان يكفيهم في

لا يؤمنون بآيات الله) رد لقولهم انما أنت مفتر وقلب للامر عليهم ببيان أنهم هم المفترون بعد رده بتحقيق أنه منزل من عند الله بواسطة روح القدس وانما وسط بينهما قوله تعالى ولقد نعلم الآية لما لا يخفى من شدة اتصاله بالرد الاول والمعنى والله تعالى أعلم أن المفتري هو الذي يكذب بآيات الله ويقول انه افتراء وعلم من البشر أي تكذيبها على الوجه المذكور وهو الافتراء على الحقيقة لان حقيقته الكذب والحكم بأن ما هو كلامه تعالى ليس بكلامه تعالى في كونه كذبا وافتراء كالحكم بأن ما ليس بكلامه تعالى كلامه تعالى والتصريح بالكذب للمبالغة في بيان قبحه وصيغة المضارع لرعاية المطابقة بينه وبين ما هو عبارة عنه أعني قوله لا يؤمنون وقيل المعنى انما يفتري الكذب ويليق ذلك بمن لا يؤمن بآيات الله لانه لا يترقب عقابا عليه ليرتدع عنه وأما من يؤمن بها ويخاف ما نطقت به من العقاب فلا يمكن أن يصدر عنه افتراء البتة (وأولئك) الموصوفون بما ذكر من عدم الايمان بآيات الله (هم الكاذبون) على الحقيقة أو الكاملون في الكذب اذ لا كذب أعظم من تكذيب آياته تعالى والطعن فيها بأمثال هاتيك الاباطيل والسر في ذلك أن الكذب الساذج الذي هو عبارة عن الاخبار بعدم وقوع ما هو واقع في نفس الامر بخلق الله تعالى أو بوقوع ما لم يقع كذلك مدافعة لله تعالى في فعله فقط والتكذيب مدافعة له سبحانه في فعله وقوله المنبئ عنه معا أو الذين عادتهم الكذب لا يزعهم عنه وازع من دين أو مروءة وقيل الكاذبون في قولهم انما أنت مفتر (من كفر بالله) أي تلفظ بكلمة الكفر (من بعد ايمانه) به تعالى وهو ابتداء كلام لبيان حال من كفر بآيات الله بعد ما آمن بها بعد بيان حال من لم يؤمن بها أصلا ومن موصولة ومحلها الرفع على الابتداء والخبر محذوف لدلالة الخبر

الآتي عليه أو هو خبر لهما أو النصب على الذم (الا من أكره) على ذلك بأمر يخاف على نفسه أو على عضو من أعضائه وهو استثناء متصل من حكم الغضب والعذاب أو الذم لان الكفر لغة يتم بالقول كما أشير اليه وقوله تعالى (وقلبه مطمئن بالايمان) حال من المستثنى والعامل هو الكفر الواقع بالاكراه لا نفس الاكراه لان مقارنة اطمئنان القلب بالايمان للاكراه لا تجدى نفعا وانما المجدى مقارنته للكفر الواقع به أى الا من كفر باكراه أو الا من أكره فكفر والحال أن قلبه مطمئن بالايمان لم تتغير عقيدته وانما لم يصرح به ايماء الى أنه ليس بكفر حقيقة وفيه دليل على أن الايمان هو التصديق بالقلب (ولكن من) لم يكن كذلك بل (شرح بالكفر صدرا) أى اعتقده وطاب به نفسا (فعليهم غضب) عظيم لا يكتنه كنهه (من الله) اظهار الاسم الجليل لتربية المهابة وتقوية تعظيم العذاب (ولهم عذاب عظيم) اذ لا جرم أعظم من جرمهم والجمع فى الضميرين المجرورين لمراعاة جانب المعنى كما أن الافراد فى المستكن فى الصلة لرعاية جانب اللفظ روى أن قريشا أكرهوا عمارا وأبويه ياسرا وسمية على الارتداد فأباه أبواه فربطوا سمية بين بعيرين ووجئت بحربة فى قبلها وقالوا انما أسلمت من أجل الرجال فقتلوها وقتلوا ياسرا وهما أول قتيلين فى الاسلام وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوا عليه فقيل يا رسول الله ان عمارا كفر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا ان عمارا ملئ ايمانا من قرنه الى قدمه واختلط الايمان بلحمه ودمه فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال مالك ان عادوا لك فعد لهم بما قلت وهو دليل على جواز التكلم بكلمة الكفر

الجواب أن يقولوا نعبد أصناما ولكنهم ضموا اليه زيادة على الجواب وهى قولهم فنظل لها عاكفين وانما ذكروا هذه الزيادة اظهارا لما فى نفوسهم من الابتهاج والافتخار بعبادة الاصنام فقال ابراهيم عليه السلام منبها على فساد مذهبهم هل يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قال صاحب الكشاف لابد فى يسمعونكم من تقدير حذف المضاف معناه هل يسمعون دعاءكم وقرأ قتادة هل يسمعونكم أى هل يسمعونكم الجواب عن دعائكم وهل يقدرون على ذلك وتقرير هذه الحجة التى ذكرها ابراهيم عليه السلام ان الغالب من حال من يعبد غيره أن يلتجئ اليه فى المسئلة ليعرف مراده اذا سمع دعاءه ثم يستجيب له فى بذل منفعة أو دفع مضرة فقال لهم فاذا كان من تعبدونه لا يسمع دعاءكم حتى يعرف مقصودكم ولو عرف ذلك لما صح أن يبذل النفع أو يدفع الضرر فكيف تستجيزون أن تعبدوا ما هذا وصفه فعند هذه الحجة القاهرة لم يجد أبوه وقومه ما يدفعون به هذه الحجة فعدلوا الى أن قالوا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون وهذا من أقوى الدلائل على فساد التقليد ووجوب التمسك بالاستدلال اذ لو قلبنا الامر فمدحنا التقليد وذممنا الاستدلال لكان ذلك مدحا لطريقة الكفار التى ذمها الله تعالى وذما لطريقة ابراهيم عليه السلام التى مدحها الله تعالى فأجابهم ابراهيم عليه السلام بقوله أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون أراد به أن الباطل لا يتغير بأن يكون قديما أو حديثا ولا بأن يكون فى فاعليه كثرة أو قلة ❊ أما قوله فانهم عدو لى الا رب العالمين ففيه أسئلة (السؤال الاول) كيف يكون الصنم عدوا مع انه جماد (جوابه) من وجوه (أحدها) انه تعالى قال فى سورة مريم فى صفة الاوثان كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا فقيل فى تفسيره ان الله يحيى ما عبدوه من الاصنام حتى يقع منهم التوبيخ لهم والبراءة منهم فعلى هذا الوجه ان الاوثان ستصير أعداء لهؤلاء الكفار فى الآخرة فأطلق ابراهيم عليه السلام لفظ العداوة عليهم على هذا التأويل (وثانيها) أن الكفار لما عبدوها وعظموها ورجوها فى طلب المنافع ودفع المضار نزلت منزلة الاحياء العقلاء فى اعتقاد الكفار ثم انها صارت أسبابا لانقطاع الانسان عن السعادة ووصوله الى الشقاوة فلما نزلت هذه الاصنام منزلة الاحياء وجرت مجرى الدافع للنفعة والجالب للمضرة لا جرم جرت مجرى الاعداء فلا جرم أطلق ابراهيم عليه السلام عليها لفظ العدو (وثالثها) المراد من قوله فانهم عدو لى عداوة من يعبدها ❊ فان قيل فلم لم يقل ان من يعبد الاصنام عدو لى ليكون الكلام حقيقة (جوابه) لان الذى تقدم ذكره ما عبدوه دون العابدين (السؤال الثانى) لم قال فانهم عدو لى ولم يقل فانها عدو لكم (جوابه) انه عليه السلام صور المسئلة فى نفسه على معنى انى فكرت فى أمرى فرأيت عبادتى لها عبادة للعدو فاجتنبتها وأراهم انها نصيحة نصح بها نفسه فاذا تفكروا قالوا ما نصحنا ابراهيم الا بما نصح به نفسه فيكون ذلك أدعى للقبول (السؤال الثالث) لم لم يقل فانهم أعدائى (جوابه) العدو والصديق يجيئان فى معنى الواحد والجماعة قال

وقوم على ذوى مرة ❊ أراهم عدوا وكانوا صديقا

ومنه قوله تعالى وهم لكم عدو وتحقيق القول فيه ما تقدم فى قوله انا رسول رب العالمين (السؤال الرابع) ما هذا الاستثناء (جوابه) انه استثناء منقطع كأنه قال لكن رب العالمين ❊ قوله تعالى ﴿الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقين واذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين﴾ اعلم أنه تعالى لما حكى عنه انه استثنى رب العالمين حكى عنه أيضا ما وصفه به مما يستحق العبادة لاجله ثم حكى عنه ما سأله عنه ❊ أما الاوصاف فأربعة (أولها) قوله الذى خلقنى فهو يهدين

يهدين واعلم أنه سبحانه أثنى على نفسه بهذين الامرين فى قوله الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى * واعلم أن الخلق والهداية بهما يحصل جميع المنافع لكل من يصح الانتفاع عليه فلنتكلم فى الانسان فنقول انه مخلوق من قالب هو من عالم الخلق والجسمانيات ومن قلب هو من عالم الامر والروحانيات وتركيب البدن الذى هو من عالم الخلق مقدم على اعطاء القلب الذى هو من عالم الامر على ما أخبر عنه سبحانه فى قوله فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فالتسوية اشارة الى تعديل المزاج وتركيب الامشاج ونفخ الروح اشارة الى اللطيفة الربانية النورانية التى هى من عالم الامر وأيضا قال ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ولما تمم مراتب تغيرات الاجسام قال ثم أنشأناه خلقا آخر وذلك اشارة الى الروح الذى هو من عالم الملائكة ولا شك أن الهداية انما تحصل من الروح فقد ظهر بهذه الآيات ان الخلق مقدم على الهداية أما تحقيقه بحسب المباحث الحقيقية فهو ان بدن الانسان انما يتولد عند امتزاج المنى بدم الطمث وهما انما يتولدان من الاغذية المتولدة من تركب العناصر الاربعة وتفاعلها فاذا امتزج المنى بالدم فلا يزال ما فيهما من الحار والبارد والرطب واليابس متفاعلا وما فى كل واحد منهما من القوى كاسرا سورة كيفية الآخر فحينئذ يحصل من تفاعلهما كيفية متوسطة تستحر بالقياس الى البارد وتستبرد بالقياس الى الحار وكذا القول فى الرطب واليابس وحينئذ يحصل الاستعداد لقبول قوى مدبرة لذلك المركب فبعضها قوى نباتية وهى التى تجذب الغذاء ثم تمسكه ثم تهضمه ثم تدفع الفضلة المؤذية ثم تقيم تلك الاجزاء بدل ما تحلل منها ثم تزيد فى جوهر الاعضاء طولا وعرضا ثم ينفصل عن تلك المواد فضلة يمكن أن يتولد عنها مثل ذلك ومنها قوى حيوانية بعضها مدركة كالحواس الخمس والخيال والحفظ والذكر وبعضها فاعلة اما آمرة كالشهوة والغضب أو مأمورة كالقوى المركوزة فى العضلات ومنها قوى انسانية وهى اما مدركة أو عاملة والقوى المدركة هى القوى القوية على ادراك حقائق الاشياء الروحانية والجسمانية والعلوية والسفلية ثم انك اذا فتشت عن كل واحدة من مركبات هذا العالم الجسمانى ومفرداتها وجدت لها أشياء تلائمها وتكمل حالها وأشياء تنافرها وتفسد حالها ووجدت فيها قوى جذابة للملائم دفاعة للمنافى فقد ظهر أن صلاح الحال فى هذه الاشياء لا يتم الا بالخلق والهداية أما الخلق فبتصييره موجودا بعد ان كان معدوما وأما الهداية فبتلك القوى الجذابة للمنافع والدفاعة للمضار * فثبت أن قوله خلقنى فهو يهدين كلمة جامعة حاوية لجميع المنافع فى الدنيا والدين * ثم ههنا دقيقة وهو انه قال خلقنى فذكره بلفظ الماضى وقال يهدين ذكره بلفظ المستقبل والسبب فى ذلك ان خلق الذات لا يتجدد فى الدنيا بل لما وقع بقى الى الامد المعلوم أما هدايته تعالى فهى مما يتكرر كل حين وأوان سواء كان ذلك هداية فى المنافع الدنيوية وذلك بأن تحكم الحواس بتمييز المنافع عن المضار أو فى المنافع الدينية وذلك بأن يحكم العقل بتمييز الحق عن الباطل والخير عن الشر فبين بذلك أنه سبحانه هو الذى خلقه بسائر ما تكامل به خلقه فى الماضى دفعة واحدة وانه يهديه الى مصالح الدين والدنيا بضروب الهدايات فى كل لحظة ولمحة (وثانيها) قوله والذى هو يطعمنى ويسقين وقد دخل فيه كل ما يتصل بمنافع الرزق وذلك لانه سبحانه اذا خلق له الطعام وملكه فلو لم يكن معه ما يتمكن به من أكله والاغتذاء به نحو الشهوة والقوة والتمييز لم تكمل هذه النعمة وذكر الطعام والشراب ونبه بذكرهما على ما عداهما (وثالثها) قوله واذا مرضت فهو يشفين * وفيه سؤال وهو أنه لم قال مرضت دون أمرضنى * وجوابه من وجوه (الاول) أن كثيرا من أسباب المرض يحدث بتفريط من الانسان فى مطاعمه ومشاربه وغير ذلك ومن ثم قالت الحكماء لو قيل لاكثر الموتى ما سبب آجالكم لقالوا التخم (الثانى) أن المرض انما يحدث باستيلاء بعض

عند الاكراه الملجئ وان كان الافضل أن يتجنب عنها اعزازا للدين كما فعله أبواه وروى أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين فقال لاحدهما ما تقول فى محمد قال رسول الله قال فما تقول فى قال فأنت أيضا فخلاه وقال للآخر ما تقول فى محمد قال رسول الله قال فما تقول فى قال أنا أصم فأعاد ثلاثا فأعاد جوابه فقتله فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أما الاول فقد أخذ برخصة الله وأما الثانى فقد صدع بالحق (ذلك) اشارة الى الكفر بعد الايمان أو الى الوعيد المذكور (بأنهم) بسبب أنهم (استحبوا الحياة الدنيا) آثروها (على الآخرة وأن الله لا يهدى) الى الايمان والى ما يوجب الثبات عليه هداية قسر والجاء (القوم الكافرين) فى علمه المحيط فلا يعصمهم عن الزيغ وما يؤدى اليه من الغضب والعذاب العظيم ولولا أحد الامرين اما ايثار الحياة الدنيا على الآخرة واما عدم هداية الله سبحانه للكافرين هداية قسر بأن آثروا الآخرة على الدنيا أو بأن هداهم الله تعالى هداية قسر لما كان ذلك لكن الثانى مخالف للحكمة والاول مما لا يدخل تحت الوقوع واليه أشير بقوله تعالى (أولئك) أى أولئك الموصوفون بما ذكر من القبائح (الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم) فأبت عن ادراك الحق والتأمل فيه (وأولئك هم الغافلون) أى الكاملون فى الغفلة اذ لا غفلة أعظم من الغفلة عن تدبر العواقب (لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون) اذ ضيعوا أعمارهم وصرفوها الى ما لا يفضى الا الى العذاب المخلد (ثم ان ربك للذين هاجروا) الى دار الاسلام وهم عمار وأصحابه رضى الله عنهم أى لهم بالولاية والنصر لا عليهم كما يوجبه ظاهر أعمالهم السابقة فالجار والمجرور خبر لان ويجوز أن يكون خبرها محذوفا لدلالة الخبر الآتى عليه ويجوز أن يكون ذلك خبرا لها ويكون ان الثانية

تأكيد الاولى ثم للدلالة على تباعد رتبة حالهم هذه عن رتبة حالهم التي يفيدها الاستثناء من مجرد الخروج عن حكم الغضب والعذاب بطريق الاشارة لا عن رتبة حال الكفرة (من بعد ما فتنوا) أي عذبوا على الارتداد وتلفظوا بما يرضيهم مع اطمئنان قلوبهم بالايمان وقرئ على بناء الفاعل أي عذبوا المؤمنين كالحضرمي أكره مولاه جبرا حتى ارتد ثم أسلما وهاجرا (ثم جاهدوا) في سبيل الله (وصبروا) على مشاق الجهاد (ان ربك من بعدها) من بعد المهاجرة والجهاد والصبر فهو تصريح بما أشعر به بناء الحكم على الموصول من علية الصلة له أو من بعد الفتنة المذكورة فهو لبيان عدم اخلال ذلك بالحكم (لغفور) لما فعلوا من قبل (رحيم) ينعم عليهم مجازاة على ما صنعوا من بعد وفي التعرض لعنوان الربوبية في الموضعين ايماء الى علة الحكم وفي اضافة الرب الى ضميره عليه الصلاة والسلام مع ظهور الاثر في الطائفة المذكورة اظهار لكمال اللطف به عليه الصلاة والسلام واشعار بأن افاضة آثار الربوبية عليهم من المغفرة والرحمة بواسطته عليه الصلاة والسلام ولكونهم أتباعا له (يوم تأتي كل نفس) منصوب برحيم وما رتب عليه أو باذكر وهو يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين (تجادل عن نفسها) عن ذاتها تسعى في خلاصها بالاعتذار لا يهمها شأن غيرها فتقول نفسي نفسي (وتوفى كل نفس) أي تعطى وافيا كاملا (ما عملت) أي جزاء ما عملت بطريق اطلاق المقصود اسم السبب على المسبب اشعارا بكمال الاتصال بين الاجزية والاعمال وايثار الاظهار على الاضمار لزيادة التقرير وللايذان باختلاف وقتي المجادلة والتوفية وان كانتا في يوم واحد (وهم لا يظلمون) لا ينقصون أجورهم أو لا يعاقبون بغير موجب ولا يزاد في عقابهم على

الاخلاط على بعض وذلك الاستيلاء انما يحصل بسبب ما بينها من التنافر الطبيعي أما الصحة فهي انما تحصل عند بقاء الاخلاط على اعتدالها وبقاؤها على اعتدالها انما يكون بسبب قاهر يقهرها على الاجتماع وعودها الى الصحة انما يكون أيضا بسبب قاهر يقهرها على العود الى الاجتماع والاعتدال بعد أن كانت بطباعها مشتاقة الى التفرق والنزاع فلهذا السبب أضاف الشفاء اليه سبحانه وتعالى وما أضاف المرض اليه (والثالث) هو أن الشفاء محبوب وهو من أصول النعم والمرض مكروه وليس من النعم وكان مقصود ابراهيم عليه السلام تعديد النعم ولما لم يكن المرض من النعم لا جرم لم يضفه اليه تعالى فان نقضته بالاماتة فجوابه أن الموت ليس بضرر لان شرط كونه ضررا وقوع الاحساس به وحال حصول الموت لا يقع الاحساس به انما الضرر في مقدماته وذلك هو عين المرض وأيضا فلانك قد عرفت أن الارواح اذا كملت في العلوم والاخلاق كان بقاؤها في هذه الاجساد عين الضرر وخلاصها عنها عين السعادة بخلاف المرض (ورابعها) قوله والذي يميتني ثم يحيين والمراد منه الاماتة في الدنيا والتخلص عن آفاتها وعقوباتها والمراد من الاحياء المجازاة (وخامسها) قوله والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين فهو اشارة الى ما هو مطلوب كل عاقل من الخلاص عن العذاب والفوز بالثواب واعلم أن ابراهيم عليه السلام جمع في هذه الالفاظ جميع نعم الله تعالى من أول الخلق الى آخر الابد في الدار الآخرة ثم ههنا أسئلة (السؤال الاول) لم قال والذي أطمع والطمع عبارة عن الظن والرجاء وأنه عليه السلام كان قاطعا بذلك (جوابه) أن هذا الكلام لا يستقيم الا على مذهبنا حيث قلنا انه لا يجب على الله لاحد شئ وانه يحسن منه كل شئ ولا اعتراض لاحد عليه في فعله وأجاب الجبائي عنه من وجهين (الاول) أن قوله والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي أراد به سائر المؤمنين لانهم الذين يطمعون ولا يقطعون به (الثاني) المراد من الطمع اليقين وهو مروي عن الحسن وأجاب صاحب الكشاف بأنه انما ذكره على هذا الوجه تعليما منه لامته كيفية الدعاء (واعلم) أن هذه الوجوه ضعيفة (أما الاول) فلأن الله تعالى حكى عنه الثناء أولا والدعاء ثانيا ومن أول المدح الى آخر الدعاء كلام ابراهيم عليه السلام بجعل الشئ الواحد وهو قوله والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين كلام غيره مما يبطل نظم الكلام ويفسده (وأما الثاني) وهو أن الطمع هو اليقين فهذا على خلاف اللغة (وأما الثالث) وهو أن الغرض منه تعليم الامة فباطل أيضا لان حاصله يرجع الى أنه كذب على نفسه لغرض تعليم الامة وهو باطل قطعا (السؤال الثاني) لم أسند الى نفسه الخطيئة مع أن الانبياء منزهون عن الخطايا قطعا وفي جوابه ثلاثة وجوه (أحدها) أنه محمول على كذب ابراهيم عليه السلام في قوله فعله كبيرهم وقوله اني سقيم وقوله لسارة انها أختي وهو ضعيف لان نسبة الكذب اليه غير جائز (وثانيها) أنه ذكره على سبيل التواضع وهضم النفس وهذا ضعيف لانه ان كان صادقا في هذا التواضع فقد لزم الاشكال وان كان كاذبا فحينئذ يرجع حاصل الجواب الى الحاق المعصية به لاجل تنزيهه عن المعصية (وثالثها) وهو الجواب الصحيح أن يحمل ذلك على ترك الاولى وقد يسمى ذلك خطأ فان من ملك جوهرة وأمكنه أن يبيعها بألف ألف دينار فان باعها بدينار قيل انه أخطأ وترك الاولى على الانبياء جائز (السؤال الثالث) لم علق مغفرة الخطيئة بيوم الدين وانما تغفر في الدنيا (جوابه) لان أثرها يظهر يوم الدين وهو الآن خفي لا يعلم (السؤال الرابع) ما فائدة لي في قوله يغفر لي خطيئتي (جوابه) من وجوه (أحدها) أن الاب اذا عفا عن ولده والسيد عن عبده والزوج عن زوجته فذلك في أكثر الامر انما يكون طلبا للثواب وهربا من العقاب أو طلبا لحسن الثناء والمحمدة أو دفعا للالم الحاصل من الرقة الجنسية واذا كان كذلك لم يكن

المقصود من ذلك العفو رعاية جانب المعفو عنه بل رعاية جانب نفسه اما لتحصيل ما ينبغى أو لدفع ما لا ينبغى * أما الاله سبحانه فانه كامل لذاته فيستحيل أن تحدث له صفات كمال لم تكن أو يزول عنه نقصان كان واذا كان كذلك لم يكن عفوه الا رعاية لجانب المعفو عنه فقوله والذى أطمع أن يغفر لى يعنى هو الذى اذا غفر كان غفرانه لى ولاجلى لا لاجل أمر عائد اليه البتة (وثانيها) كأنه قال خلقتنى لا لى فانك حين خلقتنى ما كنت موجودا واذا لم أكن موجودا استحال تحصيل شئ لاجلى ثم مع هذا فأنت خلقتنى فأما لو عفوت كان ذلك العفو لاجلى فلما خلقتنى أولا مع أنى ما كنت محتاجا الى ذلك الخلق فلان تغفر لى وتعفو عنى حال ما أكون فى أشد الحاجة الى العفو والمغفرة كان أولى (وثالثها) أن ابراهيم عليه السلام كان اشد استغراقه فى بحر المعرفة شديد الفرار عن الالتفات الى الوسائط ولذلك لما قال له جبريل عليه السلام ألك حاجة قال أما اليك فلا فههنا قال أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين أى بمجرد عبوديتى لك واحتياجى اليك تغفر لى خطيئتى لا ان تغفرها لى بواسطة شفاعة شافع * قوله تعالى ﴿رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين واجعل لى لسان صدق فى الآخرين واجعلنى من ورثة جنة النعيم واغفر لابى انه كان من الضالين ولا تخزنى يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم﴾ اعلم أن الله تعالى لما حكى عن ابراهيم عليه السلام ثناءه على الله تعالى ذكر بعد ذلك دعاءه ومسئلته وذلك تنبيه على أن تقديم الثناء على الدعاء من المهمات وتحقيق الكلام فيه أن هذه الارواح البشرية من جنس الملائكة فكلما كان اشتغالها بمعرفة الله تعالى ومحبته والانجذاب الى عالم الروحانيات أشد كانت مشابهتها للملائكة أتم فكانت أقوى على التصرف فى أجسام هذا العالم وكلما كان اشتغالها باللذات هذا العالم واستغراقها فى ظلمات هذه الجسمانيات أشد كانت مشابهتها بالبهائم أشد فكانت أكثر عجزا وضعفا وأقل تأثيرا فى هذا العالم فمن أراد أن يشتغل بالدعاء يجب أن يقدم عليه ثناء الله تعالى وذكر عظمته وكبريائه حتى انه بسبب ذلك الذكر يصير مستغرقا فى معرفة الله ومحبته وبصير قريب المشابهة من الملائكة فتحصل له بسبب تلك المشابهة قوة الهية سماوية فيصير مبدأ لحدوث ذلك الشئ الذى هو المطلوب بالدعاء فهذا هو الكشف عن ماهية الدعاء وظهر أن تقديم الثناء على الدعاء من الواجبات وظهر به تحقيق قوله عليه السلام حكاية عن الله تعالى من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين * فان قال قائل لم لم يقتصر ابراهيم عليه السلام على الثناء لاسيما ويروى عنه أيضا أنه قال حسبى من سؤالى علمه بحالى (فالجواب) أنه عليه السلام انما ذكر ذلك حين كان مشتغلا بدعوة الخلق الى الحق ألا ترى أنه قال فانهم عدو لى الا رب العالمين ثم ذكر الثناء ثم ذكر الدعاء لان الشارع لا بد له من تعليم الشرع فاما حين ما خلا بنفسه ولم يكن غرضه تعليم الشرع كان يقتصر على قوله حسبى من سؤالى علمه بحالى ﴿البحث الثانى﴾ فى الامور التى طلبها فى الدعاء وهى مطالب ﴿المطلوب الأول﴾ قوله رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين ولقد أجابه الله تعالى حيث قال وانه فى الآخرة لمن الصالحين وفيه مطالب (أحدها) أنه لا يجوز تفسير الحكم بالنبوة لان النبوة كانت حاصلة فلو طلب النبوة لكانت النبوة المطلوبة اما عين النبوة الحاصلة أو غيرها والاول محال لان تحصيل الحاصل محال والثانى محال لانه يمتنع أن يكون الشخص الواحد نبيا مرتين بل المراد من الحكم ما هو كمال القوة النظرية وذلك بادراك الحق ومن قوله وألحقنى بالصالحين كمال القوة العملية وذلك بأن يكون عاملا بالخير فان كمال الانسان أن يعرف الحق لذاته والخير لاجل العمل به وانما قدم قوله رب هب لى حكما على قوله وألحقنى بالصالحين لما أن القوة النظرية مقدمة على القوة العملية بالشرف وبالذات وأيضا فانه يمكنه أن يعلم الحق

ذنوبهم (وضرب الله مثلا قرية) قيل ضرب المثل صنعه واعتماله وقد مر تحقيقه فى سورة البقرة ولا يتعدى الا الى مفعول واحد وانما عدى الى الاثنين لتضمينه معنى الجعل وتأخير قرية مع كونها مفعولا أول لئلا يحول المفعول الثانى بينها وبين صفتها وما يترتب عليها اذ التأخير عن الكل مخل بتجاذب أطراف النظم وتجاوبها ولان تأخير ما حقه التقديم مما يورث النفس ترقبا لوروده وتشوقا اليه لاسيما اذا كان فى المقدم ما يدعو اليه فان المثل مما يدعو الى المحافظة على تفاصيل أحوال ما هو مثل فيتمكن المؤخر عند وروده لديها فضل تمكن والقرية اما محققة فى الغابرين واما مقدرة أى جعلها مثلا لاهل مكة خاصة أو لكل قوم أنعم الله تعالى عليهم فابطرتهم النعمة ففعلوا ما فعلوا فبدل الله تعالى بنعمتهم نقمة ودخل فيهم أهل مكة دخولا أوليا (كانت آمنة) ذات أمن من كل مخوف (مطمئنة) لا يزعج أهلها مزعج (يأتيها رزقها) أقوات أهلها صفة ثانية لقرية وتغيير سبكها عن الصفة الاولى لما أن اتيان رزقها متجدد وكونها آمنة مطمئنة ثابت مستمر (رغدا) واسعا (من كل مكان) من نواحيها (فكفرت) أى كفر أهلها (بأنعم الله) أى بنعمه جمع نعمة على ترك الاعتداد بالتاء كدرع وأدرع أو جمع نعم كبؤس وأبؤس المراد بها نعمة الرزق والامن المستمر وايثار جمع القلة للايذان بان كفران نعمة قليلة حيث أوجب هذا العذاب فما ظنك بكفران نعم كثيرة (فأذاقها الله) أى أذاق أهلها (لباس الجوع والخوف) شبه أثر الجوع والخوف وضررهما المحيط بهم باللباس الغاشى للابس فاستعير له اسمه وأوقع عليه الاذاقة المستعارة لاطلاق الايصال المنبئة عن شدة الاصابة بما فيها من اجتماع ادراكى اللامسة والذائقة على نهج التجريد فانها لشيوع استعمالها فى ذلك وكثرة جريانها على الالسنة

وان لم يعمل بالخير وعكسه غير ممكن ولان العلم صفة الروح والعمل صفة البدن ولما كان الروح أشرف من البدن كان العلم أفضل من العمل وانما فسرنا معرفة الاشياء بالحكم وذلك لان الانسان لا يعرف حقائق الاشياء الا اذا استحضر في ذهنه صور الماهيات ثم نسب بعضها الى بعض بالنفي أو بالاثبات وتلك النسبة هي الحكم ثم ان كانت النسب الذهنية مطابقة للنسب الخارجية كانت النسب الذهنية ممتنعة التغير فكانت مستحكمة قوية فلا جرم مثل هذا الادراك يسمى حكمة وحكما وهو المراد من قوله عليه السلام أرنا الاشياء كما هي وأما الصلاح فهو كون القوة العاقلة متوسطة بين رذيلتي الافراط والتفريط وذلك لان الافراط في أحد الجانبين تفريط في الجانب الآخر وبالعكس فالصلاح لا يحصل الا بالاعتدال ولما كان الاعتدال الحقيقي شيأ واحدا لا يقبل القسمة البتة والافكار البشرية في هذا العالم قاصرة عن ادراك أمثال هذه الاشياء لا جرم لا ينفك البشر عن الخروج عن ذلك الحد وان قل الا أن خروج المقربين عنه يكون في القلة بحيث لا يحس به وخروج العصاة عنه يكون متفاحشا جدا فقد ظهر من هذا تحقيق ما قيل حسنات الابرار سيآت المقربين وظهر احتياج ابراهيم عليه السلام الى أن يقول وألحقني بالصالحين (المطلب الثاني) لما ثبت أن المراد من الحكم العلم ثبت أنه عليه السلام طلب من الله تعالى أن يعطيه العلم بالله تعالى وبصفاته وهذا يدل على أن معرفة الله تعالى لا تحصل في قلب العبد الا بخلق الله تعالى وقوله وألحقني بالصالحين يدل على أن كون العبد صالحا ليس الا بخلق الله تعالى وحمل هذه الاشياء على الالطاف بعيد لان عند الخصم كل ما في قدرة الله تعالى من الالطاف فقد فعله فلو صرفنا الدعاء اليه لكان ذلك طلبا لتحصيل الحاصل وهو فاسد (المطلب الثالث) أن الحكم المطلوب في الدعاء اما أن يكون هو العلم بالله أو بغيره والثاني باطل لان الانسان حال كونه مستحضرا للعلم بالشئ لا يمكنه أن يكون مستحضرا للعلم بشئ آخر فلو كان المطلوب بهذا الدعاء العلم بغير الله تعالى والعلم بغير الله تعالى شاغل عن الاستغراق في العلم بالله كان هذا السؤال طلبا لما يشغله عن الاستغراق في العلم بالله تعالى وذلك غير جائز لانه لا كمال فوق ذلك الاستغراق فاذن المطلوب بهذا الدعاء هو العلم بالله ثم ان ذلك العلم اما أن يكون هو العلم بالله تعالى الذي هو شرط صحة الايمان أو غيره والاول باطل لانه لما وجب أن يكون حاصلا لكل من المؤمنين فكيف لا يكون حاصلا عند ابراهيم عليه السلام واذا كان حاصلا عنده امتنع طلب تحصيله فثبت أن المطلوب بهذا الدعاء درجات في معرفة الله تعالى أزيد من العلم بوجوده وبأنه ليس بمتحيز ولا حال في المتحيز وبأنه عالم قادر حي وما ذاك الا الوقوف على صفات الجلال أو الوقوف على حقيقة الذات أو ظهور نور تلك المعرفة في القلب ثم هنالك أحوال لا يعبر عنها المقال ولا يشرحها الخيال ومن أراد أن يصل اليها فليكن من الواصلين دون السامعين للاثر (المطلوب الثاني) قوله واجعل لي لسان صدق في الآخرين وفيه ثلاث تأويلات (التأويل الاول) أنه عليه السلام ابتدأ بطلب ما هو الكمال الذاتي للانسان في الدنيا والآخرة وهو طلب الحكم الذي هو العلم ثم طلب بعده كمالات الدنيا وبعد ذلك طلب كمالات الآخرة فأما كمالات الدنيا فبعضها داخلية وبعضها خارجية أما الداخلية فهي الخلق الظاهر والخلق الباطن والخلق الظاهر أشد جسمانية والخلق الباطن أشد روحانية فترك ابراهيم عليه السلام الامر الجسماني وهو الخلق الظاهر وطلب الامر الروحاني وهو الخلق الباطن وهو المراد بقوله وألحقني بالصالحين وأما الخارجية فهي المال والجاه والمال أشد جسمانية والجاه أشد روحانية فترك ابراهيم عليه السلام الامر الجسماني وهو المال وطلب الامر الروحاني وهو الجاه الذكر الجميل الباقي على وجه الدهر وهو المراد بقوله واجعل لي لسان صدق في

الآخرين

جرت مجرى الحقيقة كقول كثير * غمر الرداء اذا تبسم ضاحكا * غلقت لضحكته رقاب المال * فان الغمر مع كونه في الحقيقة من أحوال الماء الكثير لما كان كثير الاستعمال في المعروف المشبه بالماء الكثير جرى مجرى الحقيقة فصارت اضافته الى الرداء المستعار للمعروف تجريدا أو شبه أثرهما وضررهما من حيث الاحاطة بهم والكراهة لديهم تارة باللباس الغاشي للابس المناسب للخوف بجامع الاحاطة واللزوم تشبيه معقول بمحسوس فاستعير له اسمه استعارة تصريحية وأخرى بطعم المر البشع اللائم للجوع الناشئ من فقد الرزق بجامع الكراهة فأومئ اليه بأن أوقع عليه الاذاقة المستعارة لايصال الضار المنبئة عن شدة الاصابة بما فيها من اجتماع ادراكي اللامسة والذائقة وتقديم الجوع الناشئ مما ذكر من فقدان الرزق على الخوف المترتب على زوال الامن المقدم فيما تقدم على اتيان الرزق لكونه أنسب بالاذاقة أو لمراعاة المقارنة بينها وبين اتيان الرزق وقد قرئ بتقديم الخوف وبنصبه أيضا عطفا على المضاف أو اقامة له مقام مضاف محذوف وأصله ولباس الخوف (بما كانوا يصنعون) فيما قبل أو على وجه الاستمرار وهو الكفران المذكور أسند ذلك الى أهل القرية تحقيقا للامر بعد اسناد الكفران اليها وايقاع الاذاقة عليها ارادة للمبالغة وفي صيغة الصنعة ايذان بأن كفران النعمة صار صنعة راسخة لهم وسنة مسلوكة (ولقد جاءهم) من تتمة التمثيل جيء بها لبيان أن ما فعلوه من كفران النعم لم يكن مزاحمة منهم لقضية العقل فقط بل كان ذلك معارضة لحجة الله على الخلق أيضا أي ولقد جاء أهل تلك القرية

(رسول منهم) أى من جنسهم يعرفونه بأصله ونسبه فأخبرهم بوجوب الشكر على النعمة وأنذرهم سوء عاقبة ما يأتون وما يذرون (فكذبوه) فى رسالته أو فيما أخبرهم به مما ذكر فالفاء فصيحة وعدم ذكره للايذان بأنه أمر محقق غنى عن البيان (فأخذهم العذاب) المستأصل اشأفتهم غب ما ذاقوا نبذة من ذلك (وهم ظالمون) أى حال التباسهم بما هم عليه من الظلم الذى هو كفران نعم الله تعالى وتكذيب رسوله غير مقلعين عنه بما ذاقوا من مقدماته الزاجرة عنه وفيه دلالة على تماديهم فى الكفر والعناد وتجاوزهم فى ذلك كل حد معتاد وترتيب العذاب على تكذيب الرسول جرى على سنة الله تعالى حسبما يرشد اليه قوله سبحانه وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وبه يتم التمثيل فان حال أهل مكة سواء ضرب المثل لهم خاصة أو لمن سار سيرتهم كافة محاذية لحال أهل تلك القرية حذو القذة بالقذة من غير تفاوت بينهما ولو فى خصلة فذة كيف لا وقد كانوا فى حرم آمن ويتخطف الناس من حولهم وما يمر ببالهم طيف من الخوف وكانت تجبى اليه ثمرات كل شىء ولقد جاءهم رسول منهم وأى رسول يحار فى ادراك سمو رتبته العقول صلى الله عليه وسلم ما اختلف الدبور والقبول فكفروا بأنعم الله وكذبوا رسوله عليه السلام فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف حيث أصابهم بدعائه عليه السلام بقوله اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف ما أصابهم من جدب شديد وأزمة حصت كل شىء حتى اضطرتهم الى أكل الجيف والكلاب الميتة والعظام المحرقة والعلهز وهو لوبر المعالج بالدم وقد ضاقت عليهم الارض بما رحبت من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كانوا يغيرون على مواشيهم وعيرهم وقوافلهم ثم أخذهم

الآخرين قال ابن عباس رضى الله عنهما وقد أعطاه الله ذلك بقوله وتركنا عليه فى الآخرين ❊ فان قيل وأى غرض له فى أن يثنى عليه ويمدح ❊ جوابه من وجهين (الاول) وهو على لسان الحكمة أن الارواح البشرية قد بينا أنها مؤثرة فى الجملة الا أن بعضها قد يكون ضعيفا فيعجز عن التأثير فاذا اجتمعت طائفة منها فربما قوى مجموعها على ما عجزت الآحاد عنه وهذا المعنى مشاهد فى المؤثرات الجسمانية اذا ثبت هذا فالانسان الواحد اذا كان بحيث يثنى عليه الجمع العظيم ويمدحونه ويعظمونه فربما صار انصراف هممهم عند الاجتماع اليه سببا لحصول زيادة كمال له (الثانى) وهو على لسان الكمال أن من صار ممدوحا فيما بين الناس بسبب ما عنده من الفضائل فانه يصير ذلك المدح وتلك الشهرة داعيا لغيره الى اكتساب مثل تلك الفضائل (التأويل الثانى) انه سأل ربه أن يجعل من ذريته فى آخر الزمان من يكون داعيا الى الله تعالى وذلك هو محمد صلى الله عليه وسلم فالمراد من قوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين بعثة محمد صلى الله عليه وسلم (التأويل الثالث) قال بعضهم المراد اتفاق أهل الاديان على حبه ثم ان الله تعالى أعطاه ذلك لانك لا ترى أهل دين الا ويتوالون ابراهيم عليه السلام وقدح بعضهم فيه بأنه لا تقوى الرغبة فى مدح الكافر وجوابه أنه ليس المقصود مدح الكافر من حيث هو كافر بل المقصود أن يكون ممدوح كل انسان ومحبوب كل قلب (المطلوب الثالث) قوله واجعلنى من ورثة جنة النعيم اعلم أنه لما طلب سعادة الدنيا طلب بعدها سعادة الآخرة وهو طلب جنة النعيم وشبهها بما يورث لانه الذى يغتنم فى الدنيا فشبه غنيمة الآخرة بغنيمة الدنيا (المطلوب الرابع) قوله واغفر لابى انه كان من الضالين واعلم أنه لما فرغ عن طلب السعادات الدنيوية والاخروية لنفسه طلبها لاشد الناس التصاقا به وهو أبوه فقال واغفر لابى ثم فيه وجوه (الاول) أن المغفرة مشروطة بالاسلام وطلب المشروط متضمن لطلب الشرط فقوله واغفر لابى يرجع حاصله الى أنه دعا لابيه بالاسلام (الثانى) ان أباه وعده الاسلام كما قال تعالى وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه فدعا له بهذا الشرط ولا يمتنع الدعاء للكافر على هذا الشرط فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه وهذا ضعيف لان الدعاء بهذا الشرط جائز للكافر فلو كان دعاؤه مشروطا لما منعه الله عنه (الثالث) أن أباه قال له انه على دينه باطنا وعلى دين نمروذ ظاهرا تقية وخوفا فدعا له لاعتقاده ان الامر كذلك فلما تبين له خلاف ذلك تبرأ منه ولذلك قال فى دعائه انه كان من الضالين فلولا اعتقاده فيه انه فى الحال ليس بضال لما قال ذلك (المطلوب الخامس) قوله ولا تخزنى يوم يبعثون قال صاحب الكشاف الاخزاء من الخزى وهو الهوان أو من الخزاية وهى الحياء وههنا أبحاث (أحدها) ان قوله ولا تخزنى يدل على انه لا يجب على الله تعالى شىء على ما بيناه فى قوله والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين (وثانيها) ان لقائل أن يقول لما قال أولا واجعلنى من ورثة جنة النعيم وهى حصلت الجنة امتنع حصول الخزى فكيف قال بعده ولا تخزنى يوم يبعثون وأيضا فقد قال تعالى ان الخزى اليوم والسوء على الكافرين فما كان نصيب الكفار فقط فكيف يخافه المعصوم جوابه كما أن حسنات الابرار سيآت المقربين فكذا درجات الابرار دركات المقربين وخزى كل واحد بما يليق به (وثالثها) قال صاحب الكشاف فى يبعثون ضمير العباد لانه معلوم أو ضمير الضالين أما قوله الا من أتى الله بقلب سليم فاعلم أنه تعالى أكرمه بهذا الوصف حيث قال وان من شيعته لابراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم ❊ ثم فى هذا الاستثناء وجوه (أحدها) أنه اذا قيل لك هل لزيد مال وبنون فتقول ماله وبنوه سلامة قلبه تريد نفى المال والبنين عنه واثبات سلامة القلب له بدلا عن ذلك فكذا فى هذه الآية (وثانيها) أن تحمل الكلام على المعنى وتجعل المال والبنين فى معنى الغنى كأنه قيل

يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم لان غنى الرجل فى دينه بسلامة قلبه كما أن غناه فى دنياه بماله وبنيه (وثالثها) أن نجعل من مفعولا لينفع أى لا ينفع مال ولا بنون الا رجلا سلم قلبه مع ماله حيث أنفقه فى طاعة الله تعالى ومع بنيه حيث أرشدهم الى الدين ويجوز على هذا الا من أتى الله بقلب سليم من فتنة المال والبنين أما السليم ففيه ثلاثة أوجه (الاول) وهو الاصح أن المراد منه سلامة القلب عن الجهل والاخلاق الرذيلة وذلك لانه كما أن صحة البدن وسلامته عبارة عن حصول ما ينبغى من المزاج والتركيب والاتصال ومرضه عبارة عن زوال أحد تلك الامور فكذلك سلامة القلب عبارة عن حصول ما ينبغى له وهو العلم والاخلاق الفاضلة ومرضه عبارة عن زوال أحدهما فقوله الا من أتى الله بقلب سليم أى يكون خاليا عن العقائد الفاسدة والميل الى شهوات الدنيا ولذاتها * فان قيل فظاهر هذه الآية يقتضى أن من سلم قلبه كان ناجيا وانه لا حاجة فيه الى سلامة اللسان واليد جوابه أن القلب مؤثر واللسان والجوارح تبع فلو كان القلب سليما لكانا سليمين لا محالة وحيث لم يسلما ثبت عدم سلامة القلب (التأويل الثانى) أن السليم هو اللديغ من خشية الله تعالى (التأويل الثالث) ان السليم هو الذى سلم وأسلم وسالم واستسلم والله أعلم * قوله تعالى ﴿وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين وقيل لهم أينما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم او ينتصرون فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود ابليس أجمعون قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا فى ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين وما أضلنا الا المجرمون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم﴾ اعلم ان ابراهيم عليه السلام ذكر فى وصف هذا اليوم أمورا (أحدها) قوله وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين والمعنى ان الجنة قد تكون قريبة من موقف السعداء ينظرون اليها ويفرحون بأنهم المحشورون اليها والنار تكون بارزة مكشوفة للاشقياء بمرأى منهم يتحسرون على انهم المسوقون اليها قال الله تعالى فى صفة أهل الثواب وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد وقال فى صفة أهل العقاب فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وانما يفعل الله تعالى ذلك ليكون سرورا معجلا للمؤمنين وغما عظيما للكافرين (وثانيها) قوله وقيل لهم أينما كنتم الى قوله وجنود ابليس أجمعون والمعنى أين آلهتكم هل ينفعونكم بنصرتهم لكم أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم لانهم وآلهتهم وقود النار وهو قوله فكبكبوا فيها هم والغاوون أى الآلهة وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم والكبكبة تكرير الكب جعل التكرير فى اللفظ دليلا على التكرير فى المعنى كأنه اذا ألقى فى جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر فى قعرها وجنود ابليس متبعوه من عصاة الانس والجن (وثالثها) قوله قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا لفى ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين * واعلم أن ظاهر ذلك ان من عبد خاصم المعبود وخاطبه بهذا الكلام فليس يخلو حال الاصنام من وجهين اما أن يخلقها الله تعالى فى الآخرة حيا ويعذب بها أهل النار فحينئذ لا يصح أن تخاطب ويجب حمل قولهم اذ نسويكم برب العالمين على انه ليس بخطاب لهم أو يقال انه تعالى يحييها فى النار وذلك أيضا غير جائز لانه لا ذنب لها بان عبدها غيرها فالاقرب انهم ذكروا ذلك لما رأوا صورها على وجه الاعتراف بالخطا العظيم وعلى وجه الندامة لا على سبيل المخاطبة والذى يحمل على أنه خطاب فى الحقيقة قولهم وما أضلنا الا المجرمون وأرادوا بذلك من دعاهم الى عبادة الاصنام من الجن والانس وهو كقولهم ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا فأما قولهم فما لنا من شافعين كما ترى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين ولا صديق كما ترى لهم أصدقاء لانه لا يتصادق فى الآخرة الا المؤمنون وأما أهل النار فبينهم التعادى والتباغض قال تعالى

يوم بدر ما أخذهم من العذاب هذا هو الذى يقتضيه المقام ويستدعيه حسن النظام وأما ما أجمع عليه أكثر أهل التفسير من أن الضمير فى قوله تعالى ولقد جاءهم لاهل مكة قد ذكر حالهم صريحا بعدما ذكر مثلهم وأن المراد بالرسول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالعذاب ما أصابهم من الجدب ووقعة بدر ففيه نزل من التحقيق كيف لا وقوله سبحانه (فكلوا مما رزقكم الله) مفرع على نتيجة التمثيل وصد لهم عما يؤدى الى مثل عاقبته والمعنى واذ قد استبان لكم حال من كفر بأنعم الله وكذب رسوله وما حل بهم بسبب ذلك من اللتيا والتى أولا وآخرا فانتهوا عما أنتم عليه من كفران النعم وتكذيب الرسول عليه السلام كيلا يحل بكم مثل ما حل بهم واعرفوا حق نعم الله تعالى وأطيعوا رسوله عليه السلام فى أمره ونهيه وكلوا من رزق الله حال كونه (حلالا طيبا) وذروا ما تفترون من تحريم البحائر ونحوها (واشكروا نعمة الله) واعرفوا حقها ولا تقابلوها بالكفران والفاء فى المعنى داخلة على الامر بالشكر وانما أدخلت على الامر بالاكل لكون الاكل ذريعة الى الشكر فكأنه قيل فاشكروا نعمة الله غب أكلها حلالا طيبا وقد أدمج فيه النهى عن زعم الحرمة ولا ريب فى أن هذا انما يتصور حين كان العذاب المستأصل متوقعا بعد وقد تمهدت مباديه وبعدما وقع ما وقع فمن ذا الذى يحذرونه من ذا الذى يؤمر بالاكل والشكر وحمل قوله تعالى فأخذهم العذاب وهم ظالمون على الاخبار بذلك قبل الوقوع يأباه التصدى لاستصلاحهم بالامر والنهى وتوجيه خطاب الامر بالاكل الى المؤمنين مع أن ما يتلوه من خطاب النهى متوجه الى الكفار كما فعله الواحدى حيث قال فكلوا أنتم يا معشر المؤمنين مما رزقكم الله من الغنائم مما لا يليق بشأن التنزيل الانجلاء

الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين أو فما لنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء لانهم كانوا يعتقدون في أصنامهم انهم شفعاؤهم عند الله تعالى وكان لهم أصدقاء من شياطين الانس أو أرادوا أنهم ان وقعوا في مهلكة علموا أن الشفعاء والاصدقاء لا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم فقصدوا بنفيهم نفي ما تعلق بهم من النفع لان ما لا ينفع فحكمه حكم المعدوم والحميم من الاحتمام وهو الاهتمام وهو الذي يهمه ما يهمك أو من الحامة بمعنى الخاصة وهو الصديق الخالص وانما جمع الشفعاء ووحد الصديق لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق فان الرجل الممتحن بارهاق ظالم قد ينهض جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته رحمة له وأما الصديق وهو الصادق في ودادك فأعز من بيض الانوق ويجوز أن يريد بالصديق الجمع ثم حكى عنهم قولهم فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين وانهم تمنوا الرجعة الى الدنيا ولو في مثل هذا الموضع في معنى التمني كأنه قيل فليت لنا كرة وذلك لما بين معنى لو وليت من التلاقي في التقدير ويجوز أن تكون على أصلها ويحذف الجواب وهو لفعلنا كيت وكيت قال الجبائي ان قولهم فنكون من المؤمنين ليس بخبر عن ايمانهم لكنه خبر عن عزمهم لانه لو كان خبرا عن ايمانهم لوجب أن يكون صدقا لان الكذب لا يقع من أهل الآخرة وقد أخبر الله تعالى بخلاف ذلك في قوله ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وقد تقدم في سورة الانعام بيان فساد هذا الكلام ثم بين سبحانه أن فيما ذكره من قصة ابراهيم عليه السلام لآية لمن يريد أن يستدل بذلك ثم قال وما كان أكثرهم مؤمنين والاكثرون من المفسرين حملوه على قوم ابراهيم ثم بين تعالى أن مع كل هذه الدلائل فأكثر قومه لم يؤمنوا به فيكون هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم فيما يجده من تكذيب قومه فأما قوله وان ربك لهو العزيز الرحيم فمعناه أنه قادر على تعجيل الانتقام لكنه رحيم بالامهال لكي يؤمنوا ﴿(القصة الثالثة) قصة نوح عليه السلام﴾ قوله تعالى ﴿كذبت قوم نوح المرسلين اذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون اني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجري الا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون قالوا أنؤمن لك واتبعك الارذلون قال وما علمي بما كانوا يعملون ان حسابهم الا على ربي لو تشعرون وما أنا بطارد المؤمنين ان أنا الا نذير مبين قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين قال رب ان قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم﴾ اعلم انه تعالى لما قص على محمد صلى الله عليه وسلم خبر موسى وابراهيم تسلية له فيما يلقاه من قومه قص عليه أيضا نبأ نوح عليه السلام فقد كان نبؤه أعظم من نبأ غيره لانه كان يدعوهم ألف سنة الا خمسين عاما ومع ذلك كذبه قومه فقال كذبت قوم نوح وانما قال كذبت لان القوم مؤنث وتصغيرها قويمة وانما حكى عنهم أنهم كذبوا المرسلين لوجهين (أحدهما) انهم وان كذبوا نوحا لكن تكذيبه في المعنى يتضمن تكذيب غيره لان طريقة معرفة الرسل لا تختلف فمن حيث المعنى حكى عنهم أنهم كذبوا المرسلين (وثانيهما) أن قوم نوح كذبوا بجميع رسل الله تعالى اما لانهم كانوا من الزنادقة أو من البراهمة وأما قوله أخوهم فلانه كان منهم من قول العرب يا أخا بني تميم يريدون يا واحدا منهم ثم انه سبحانه حكى عن نوح عليه السلام انه أولا خوفهم وثانيا أنه وصف نفسه أما التخويف فهو قوله ألا تتقون واعلم أن القوم انما قبلوا تلك الاديان للتقليد والمقلد اذا خوف خاف وما لم يحصل الخوف في قلبه لا يشتغل بالاستدلال فلهذا السبب قدم على جميع كلماته قوله ألا تتقون * وأما وصف نفسه فذلك بأمرين (أحدهما) قوله اني لكم رسول أمين وذلك لانه كان فيهم مشهورا بالامانة كمحمد صلى الله عليه وسلم في

الجليل (ان كنتم اياه تعبدون) أي تطيعون أو ان صح زعمكم أنكم تقصدون بعبادة الآلهة عبادته تعالى (انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به) تعليل لحل ما أمرهم بأكله مما رزقهم أي انما حرم هذه الاشياء دون ما تزعمون حرمته من البحائر والسوائب ونحوها (فمن اضطر) بما اعتراه من الضرورة فتناول شيأ من ذلك (غير باغ) أي على مضطر آخر (ولا عاد) أي متجاوز قدر الضرورة (فان ربك غفور رحيم) أي لا يؤاخذه بذلك فأقيم سببه مقامه وفي التعرض لوصف الربوبية ايماء الى علة الحكم وفي الاضافة الى ضميره عليه السلام اظهار لكمال اللطف به عليه السلام وتصدير الجملة بانما لحصر المحرمات في الاجناس الاربعة الا ما ضم اليه كالسباع والحمر الاهلية ثم أكد ذلك بالنهي عن التحريم والتحليل بأهوائهم فقال (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم) اللام صلة مثلها في قوله تعالى ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات أي لا تقولوا في شأن ما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرمة في قولكم ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا من غير ترتب ذلك الوصف على ملاحظة وفكر فضلا عن استناده الى وحي أو قياس مبني عليه (الكذب) منتصب بلا تقولوا وقوله تعالى (هذا حلال وهذا حرام) بدل منه ويجوز أن يتعلق بتصف على ارادة القول أي لا تقولوا لما تصف ألسنتكم فتقول هذا حلال وهذا حرام وأن يكون القول المقدر حالا من ألسنتكم أي قائلة هذا حلال الخ ويجوز أن ينتصب الكذب بتصف ويتعلق هذا حلال الخ بلا تقولوا واللام للتعليل وما مصدرية أي لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب أي لا تحلوا ولا تحرموا لمجرد وصف ألسنتكم الكذب وتصويرها له بصورة مستحسنة وتزيينها له في

قريش فكأنه قال كنت أمينا من قبل فكيف تتهموني اليوم (وثانيهما) قوله وما أسألكم عليه من أجر أي على ما أنا فيه من ادعاء الرسالة لئلا يظن به أنه دعاهم للرغبة (فان قيل) ولماذا كرر الامر بالتقوى (جوابه) لانه في الاول أراد ألا تتقون مخالفتي وانا رسول الله وفي الثاني ألا تتقون مخالفتي ولست آخذا منكم أجرا فهو في المعنى مختلف ولا تكرار فيه وقد يقول الرجل لغيره ألا تتقي الله في عقوقي وقد ربيتك صغيرا ألا تتقي الله في عقوقي وقد علمتك كبيرا وانما قدم الامر بتقوى الله تعالى على الامر بطاعته لان تقوى الله علة لطاعته فقدم العلة على المعلول ثم ان نوحا عليه السلام لما قال لهم ذلك أجابوه بقولهم أنؤمن لك واتبعك الارذلون قال صاحب الكشاف وقرئ وأتباعك الارذلون جمع تابع كشاهد وأشهاد أو جمع تبع كبطل وابطال و الواو للحال وحقها ان يضمر بعدها قد في واتبعك وقد جمع أرذال على الصحة وعلى التكسير في قولهم الذين هم أراذلنا والرذالة الخسة وانما استرذلوهم لاتضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا وقيل كانوا من أهل الصناعات الخسيسة كالحياكة والحجامة واعلم ان هذه الشبهة في نهاية الركاكة لان نوحا عليه السلام بعث الى الخلق كافة فلا يختلف الحال في ذلك بسبب الفقر والغنى وشرف المكاسب ودناءتها فأجابهم نوح عليه السلام بالجواب الحق وهو قوله وما علمي بما كانوا يعملون وهذا الكلام يدل على انهم نسبوه مع ذلك الى انهم لم يؤمنوا عن نظر و بصيرة وانما آمنوا بالهوى والطمع كما حكى الله تعالى عنهم في قوله الذين هم أراذلنا بادي الرأي ثم قال ان حسابهم الا على ربي معناه لا نعتبر الا الظاهر من أمرهم دون ما يخفى ولما قال ان حسابهم الا على ربي وكانوا لا يصدقون بذلك أردفه بقوله لو تشعرون ثم قال وما أنا بطارد المؤمنين وذلك كالدلالة على ان القوم سألوه ابعادهم لكي يتبعوه أو ليكونوا أقرب الى ذلك فبين أن الذي منعه عن طردهم أنهم آمنوا به ثم بين أن غرضهم بما حمل من الرسالة يمنع من ذلك بقوله ان أنا الا نذير مبين والمراد اني أخوف من كذبني ولم يقبل مني فمن قبل فهو القريب ومن رده فهو البعيد ثم ان نوحا عليه السلام لما تم هذا الجواب لم يكن منهم الا التهديد فقالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين والمعنى انهم خوفوه بأن يقتل بالحجارة فعند ذلك حصل اليأس لنوح عليه السلام من فلاحهم وقال رب ان قومي كذبون فافتح بيني و بينهم فتحا وليس الغرض منه اخبار الله تعالى بالتكذيب لعلمه ان عالم الغيب والشهادة أعلم ولكنه أراد اني لا أدعوك عليهم لما آذوني وانما أدعوك لاجلك ولاجل دينك ولانهم كذبوني في وحيك ورسالتك فافتح بيني وبينهم أي فاحكم بيني وبينهم والفتاحة الحكومة والفتاح الحاكم لانه يفتح المستغلق والمراد من هذا الحكم انزال العقوبة عليهم لانه قال عقيبه ونجني ولولا أن المراد انزال العقوبة لما كان لذكر النجاة بعده معنى وقد تقدم القول في قصته مشروحا في سورة الاعراف وسورة هود ثم قال تعالى فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون قال صاحب الكشاف الفلك السفينة وجمعه فلك قال تعالى وترى الفلك فيه مواخر فالواحد بوزن قفل والجمع بوزن أسد والمشحون المملوء يقال شحنها عليهم خيلا ورجلا فدل ذلك على أن الذين نجوا معه كان فيهم كثرة وأن الفلك امتلأ بهم وبما صحبهم وبين تعالى انه بعد أن أنجاهم أغرق الباقين وأن اغراقه لهم كان كالمتأخر عن نجاتهم (القصة الرابعة) قصة هود عليه السلام ۞ قوله تعالى ﴿ كذبت عاد المرسلين اذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون اني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجري الا على رب العالمين أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بانعام وبنين وجنات وعيون اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ان

المسامع كأن ألسنتهم لكونها منشأ الكذب ومنبعا للزور شخص عالم بكنهه ومحيط بحقيقته يصفه للناس و يعرفه أوضح وصف وأبين تعريف على طريقة الاستعارة بالكناية كما يقال وجهه يصف الجمال وعينه تصف السحر وقرئ بالجر صفة لما مع مدخولها كأنه قيل لوصفها الكذب بمعنى الكاذب كقوله تعالى بدم كذب والمراد بالوصف وصفها البهائم بالحل والحرمة وقرئ الكذب جمع كذوب بالرفع صفة للالسنة وبالنصب على الشتم أو بمعنى الكلم الكواذب أو هو جمع الكذاب من قولهم كذب كذابا ذكره ابن جني (لتفتروا على الله الكذب) فان مدار الحل والحرمة ليس الا امر الله تعالى فالحكم بالحل والحرمة اسناد للتحليل والتحريم الى الله سبحانه من غير ان يكون ذلك منه واللام لام العاقبة (ان الذين يفترون على الله الكذب) في أمر من الامور (لا يفلحون) لا يفوزون بمطالبهم التي ارتكبوا الافتراء للفوز بها (متاع قليل) خبر مبتدأ محذوف أي منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة (ولهم) في الآخرة (عذاب أليم) لا يكتنه كنهه (وعلى الذين هادوا) خاصة دون غيرهم من الاولين والآخرين (حرمنا ما قصصنا عليك) أي بقوله تعالى حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الآية (من قبل) متعلق بقصصنا أو بحرمنا وهو تحقيق لما سلف من حصر المحرمات فيما فصل بابطال ما يخالفه من فرية اليهود وتكذيبهم هذا في ذلك فانهم كانوا يقولون لسنا أول من حرمت عليه وانما كانت محرمة على نوح وابراهيم ومن بعدهما حتى انتهى الامر الينا (وما ظلمناهم) بذلك التحريم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) حيث فعلوا ما عوقبوا به عليه حسبما نعى عليهم قوله تعالى فبظلم من الذين هادوا

هـذا الا اخلاق الاولين) وما نحن بمعذبين فكذبوه فاهلكناهم ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم﴾ اعلم أن فاتحة هذه القصة وفاتحة قصة نوح عليه السلام واحدة فلا فائدة فى اعادة التفسير ثم انه تعالى ذكر الامور التى تكلم فيها هود عليه السلام معهم وهى ثلاثة (فاولها) قوله أتبنون بكل ريع آية تعبثون قرئ بكل ريع بالكسر والفتح وهو المكان المرتفع ومنه قوله كم ريع أرضك وهو ارتفاعها والآية العلم ثم فيه وجوه (أحدها) عن ابن عباس أنهم كانوا يبنون بكل ريع علما يعبثون فيه بمن يمر فى الطريق الى هود عليه السلام (والثانى) أنهم كانوا يبنون فى الاماكن المرتفعة ليعرف بذلك غناهم تفاخرا فنهوا عنه ونسبوا الى العبث (والثالث) انهم كانوا ممن يهتدون بالنجوم فى أسفارهم فاتخذوا فى طريقهم أعلاما طوالا فكان ذلك عبثا لانهم كانوا مستغنين عنها بالنجوم (الرابع) بنوا بكل ريع بروج الحمام (وثانيها) قوله وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون المصانع مآخذ الماء وقيل القصور المشيدة والحصون لعلكم تخلدون ترجون الخلد فى الدنيا أو يشبه حالكم حال من يخلد وفى مصحف أبى كأنكم وقرئ تخلدون بضم التاء مخففا ومشددا واعلم أن الاول انما صار مذموما لدلالته اما على السرف أو على الخيلاء والثانى انما صار مذموما لدلالته على الامل الطويل والغفلة عن أن الدنيا دار ممر لا دار مقر (وثالثها) قوله واذا بطشتم بطشتم جبارين بين انهم مع ذلك السرف والحرص فان معاملتهم مع غيرهم معاملة الجبارين وقد بينا فى غير هذا الموضع ان هـذا الوصف فى العباد ذم وان كان فى وصف الله تعالى مدحا فكان ممن يقدم على الغير لاعلى طريق الحق ولكن على طريق الاستعلاء يوصف بان بطشه بطش جبار وحاصل الامر فى هذه الامور الثلاثة ان اتخاذ الابنية العالية يدل على حب العلو واتخاذ المصانع يدل على حب البقاء والجبارية تدل على حب التفرد بالعلو فيرجع الحاصل الى انهم أحبوا العلو وبقاء العلو والتفرد بالعلو وهذه صفات الالهية وهى ممتنعة الحصول للعبد فدل ذلك على أن حب الدنيا قد استولى عليهم بحيث استغرقوا فيه وخرجوا من حد العبودية وحاموا حول ادعاء الربوبية وكل ذلك ينبه على أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وعنوان كل كفر ومعصية ثم لما ذكر هود عليه السلام هذه الاشياء قال فاتقوا الله وأطيعون زيادة فى دعائهم الى الآخرة وزجرا لهم عن حب الدنيا والاشتغال بالسرف والحرص والتجبر ثم وصل بهذا الوعظ ما يؤكد القبول وهو التنبيه على نعم الله تعالى عليهم بالاجمال أولا ثم التفصيل ثانيا فأيقظهم عن سنة غفلتهم عنها حيث قال أمدكم بما تعلمون ثم فصلها من بعد بقوله أمدكم بانعام وبنين وجنات وعيون انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم فبلغ فى دعائهم بالوعظ والترغيب والتخويف والبيان النهاية فكان جوابهم سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين اظهروا قلة اكتراثهم بكلامه واستخفافهم بما أورده فان قيل لو قال أوعظت أم لم تعظ كان أخصر والمعنى واحد جوابه ليس المعنى بواحد لان المراد سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذى هو الوعظ أم لم تكن أصلا من أهله ومباشرته فهو أبلغ فى قلة اعتدادهم بوعظه من قولك أم لم تعظ ثم احتجوا على قلة اكتراثهم بكلامه بقولهم ان هـذا الا خلق الاولين فمن قرأ خلق الاولين بالفتح فمعناه ان ما جئت به اختلاق الاولين وتخرصهم كما قالوا أساطير الاولين أى ما خلقنا هذا الا خلق القرون الخالية نحيا كما حيوا ونموت كما ماتوا ولا بعث ولا حساب ومن قرأ خلق بضمتين وبواحدة فمعناه ما هـذا الذى نحن عليه من الدين الا خلق الاولين وعادتهم كانوا به يدينون ونحن بهم مقتدون أو ما هذا الذى نحن عليه من الحياة والموت الا عادة لم يزل عليها الناس فى قديم الدهر أو ما هذا الذى جئت به من الكذب الا عادة الاولين كانوا يلفقون مثله ويسطرونه ثم قالوا وما نحن بمعذبين أظهروا بذلك تقوية نفوسهم فيما تمسكوا به من انكار

حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم الآية ولقد ألقمهم الحجر قوله تعالى كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين روى أنه عليه الصلاة والسلام لما قال لهم ذلك بهتوا ولم يجسروا أن يخرجوا التوراة كيف وقد بين فيها أن تحريم ما حرم عليهم من الطيبات لظلمهم وبغيهم عقوبة وتشديدا أوضح بيان وفيه تنبيه على الفرق بينهم وبين غيرهم فى التحريم (ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة) أى بسبب جهالة أو ملتبسين بها ليعم الجهل بالله وبعقابه وعدم التدبر فى العواقب لغلبة الشهوة والسوء يعم الافتراء على الله تعالى وغيره (ثم تابوا من بعد ذلك) أى من بعد ما عملوا والتصريح به مع دلالة ثم عليه للتأكيد والمبالغة (وأصلحوا) أى أصلحوا أعمالهم أو دخلوا فى الصلاح (ان ربك من بعدها) من بعد التوبة (لغفور) لذلك السوء (رحيم) يثيب على طاعته تركا وفعلا وتكرير قوله تعالى ان ربك لتأكيد الوعد واظهار كمال العناية بانجازه والتعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام مع ظهور الاثر فى التائبين للايماء الى أن افاضة آثار الربوبية من المغفرة والرحمة عليهم بتوسطه عليه السلام وكونهم من أتباعه كما أشير اليه فيما مر (ان ابراهيم كان أمة) على حياله لحيازته من الفضائل البشرية ما لا تكاد توجد الا متفرقة فى أمة جمة حسبما قيل

ليس على الله بمستنكر ۞ أن يجمع العالم فى واحد

وهو رئيس أهل التوحيد وقدوة أصحاب التحقيق جادل أهل الشرك وألقمهم الحجر ببينات باهرة لا تبقى ولا تذر وأبطل مذاهبهم الزائغة بالبراهين القاطعة والحجج الدامغة أو لانه عليه السلام كان مؤمنا وحده والناس كلهم كفار وقيل هى فعلة بمعنى مفعول كالرحلة والنخبة من أمه اذا قصده أو اقتدى به فان

المعاد فعند هذا بين الله تعالى انه أهلكهم وقد سبق شرح كيفية الهلاك في سائر السور والله أعلم (القصة الخامسة) قصة صالح عليه السلام ﴿قوله تعالى ﴿كذبت ثمود المرسلين اذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين أتتركون فيما ههنا آمنين في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الارض ولا يصلحون قالوا انما أنت من المسحرين ما أنت الا بشر مثلنا فأت بآية ان كنت من الصادقين قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم﴾ اعلم أن صالحا عليه السلام خاطب قومه بأمور (أحدها) قوله أتتركون فيما ههنا آمنين أى أتظنون انكم تتركون في دياركم آمنين وتطمعون في ذلك وان لا دار للمجازاة وقوله فيما ههنا آمنين في الذى استقر في هذا المكان من النعيم ثم فسره بقوله في جنات وعيون وهذا أيضا اجمال ثم تفصيل * فان قيل لم قال ونخل بعد قوله في جنات والجنة تتناول النخل * جوابه من وجهين (الاول) انه خص النخل بافراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر تنبيها على فضله على سائر الاشجار (والثانى) ان يراد بالجنات غيرها من الشجر لان اللفظ يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل والطلع هو الذى يطلع من النخلة كنصل السيف في جوفه شماريخ والهضيم اللطيف أيضا من قوله كشح هضيم وقيل الهضيم اللين النضيج كأنه قال ونخل قد أرطب ثمره (وثانيها) قوله تعالى وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين وقرأ الحسن وتنحتون بفتح الحاء وقرئ فرهين وفارهين والفراهة الكيس والنشاط فقوله فارهين حال عن الناحتين واعلم أن ظاهر هذه الآية يدل أن الغالب على قوم هود هو اللذات الخيالية وهى طلب الاستعلاء والبقاء والتفرد والتجبر والغالب على قوم صالح هو اللذات الحسية وهى طلب المأكول والمشروب والمساكن الطيبة الحصينة (وثالثها) قوله تعالى ولا تطيعوا أمر المسرفين وهذا اشارة الى انه يجب الاكتفاء من الدنيا بقدر الكفاف ولا يجوز التوسع في طلبها والاستكثار من لذاتها وشهواتها فان قيل ما فائدة قوله ولا يصلحون جوابه فائدته بيان أن فسادهم فساد خالص ليس معه شئ من الصلاح كما يكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح ثم ان القوم أجابوه من وجهين (أحدهما) قولهم انما أنت من المسحرين وفيه وجوه (أحدها) المسحر هو الذى سحر كثيرا حتى غلب على عقله (وثانيها) من المسحرين أى من له سحر وكل دابة تأكل فهى مسحرة والسحر أعلى البطن وعن الفراء المسحر من له جوف أرادوا أنك تأكل الطعام وتشرب الشراب (وثالثها) عن المؤرج المسحر هو المخلوق بلغة بجيلة (وثانيهما) قولهم ما أنت الا بشر مثلنا فأت بآية ان كنت من الصادقين وهذا يحتمل أمرين (الاول) انك بشر مثلنا فكيف تكون نبيا وهذا بمنزلة ما كانوا يذكرون في الانبياء انهم لو كانوا صادقين لكانوا من جنس الملائكة (الثانى) أن يكون مرادهم انك بشر مثلنا فلا بد لنا في اثبات نبوتك من الدليل فقال صالح عليه السلام هذه ناقة لها شرب وقرئ بالضم روى أنهم قالوا نريد ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة فتلد سقبا فقعد صالح يتفكر فقال له جبريل عليه السلام صل ركعتين وسل ربك الناقة ففعل فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم وحصل لها سقب مثلها في العظم ووصاهم صالح عليه السلام بأمرين (الاول) قوله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم قال قتادة اذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله وشربهم في اليوم الذى لا تشرب هى (والثانى) قوله ولا تمسوها بسوء أى بضرب أو عقر أو غيرهما فيأخذكم عذاب يوم عظيم عظم اليوم

الطول

الناس كانوا يقصدونه ويقتدون بسيرته لقوله تعالى انى جاعلك للناس اماما وايراد ذكره عليه السلام عقيب تزييف مذاهب المشركين من الشرك والطعن في النبوة وتحريم ما أحله الله تعالى للايذان بأن حقية دين الاسلام وبطلان الشرك وفروعه أمر ثابت لا ريب فيه (قانتا لله) مطيعا له قائما بأمره (حنيفا) مائلا عن كل دين باطل الى الدين الحق غير زائل عنه بحال (ولم يك من المشركين) في أمر من أمور دينهم أصلا وفرعا صرح بذلك مع ظهوره لا ردا على كفار قريش فقط في قولهم نحن على ملة أبينا ابراهيم بل عليهم وعلى اليهود المشركين بقولهم عزير ابن الله في افترائهم وادعائهم أنه عليه الصلاة والسلام كان على ما هم عليه كقوله سبحانه ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين اذ به ينتظم أمر ايراد التحريم والسبت سابقا ولاحقا (شاكرا لانعمه) صفة ثالثة لامة وانما أوثر صيغة جمع القلة للايذان بانه عليه السلام كان لا يخل بشكر النعمة القليلة فكيف بالكثيرة وللتصريح بكونه عليه السلام على خلاف ما هم عليه من الكفران بانعم الله تعالى حسبما بين ذلك بضرب المثل (اجتباه) للنبوة (وهداه الى صراط مستقيم) موصل اليه سبحانه وهو ملة الاسلام وليست نتيجة هذه الهداية مجرد اهتدائه عليه السلام بل مع ارشاد الخلق أيضا ودعوتهم بمعونة قرينة الاجتباء (وآتيناه في الدنيا حسنة) حالة حسنة من الذكر الجميل والثناء فيما بين الناس قاطبة حتى انه ليس من أهل دين الا وهم يتولونه

وقيل هي الخلة والنبوة وقيل قول المصلي منا كما صليت على ابراهيم والالتفات الى التكلم لاظهار كمال الاعتناء بشأنه وتفخيم مكانه عليه الصلاة والسلام (وانه في الآخرة لمن الصالحين) أصحاب الدرجات العالية في الجنة حسبما سأله بقوله وألحقني بالصالحين واجعل لي لسان صدق في الآخرين واجعلني من ورثة جنة النعيم (ثم أوحينا اليك) مع علو طبقتك وسمو رتبتك (أن اتبع ملة ابراهيم) الملة اسم لما شرعه الله تعالى لعباده على لسان الانبياء عليهم السلام من أمللت الكتاب اذا أمليته وهو الدين بعينه لكن باعتبار الطاعة له وتحقيقه أن الوضع الالهي مهما نسب الى من يؤديه عن الله تعالى يسمى ملة ومهما نسب الى من يقيمه ويعمل به يسمى دينا قال الراغب الفرق بينهما أن الملة لا تضاف الا الى النبي عليه السلام ولا تكاد توجد مضافة الى الله سبحانه ولا الى آحاد الامة ولا تستعمل الا في جملة الشرائع دون آحادها والمراد ملته عليه السلام الاسلام الذي عبر عنه آنفا بالصراط المستقيم (حنيفا) حال من المضاف اليه لما أن المضاف لشدة اتصاله به عليه السلام جرى منه مجرى البعض فعد بذلك من قبيل رأيت وجه هند قائمة والمأمور به الاتباع في الاصول دون الشرائع المتبدلة بتبدل الاعصار وما في ثم من التراخي في الرتبة للايذان بأن هذه النعمة من أجل النعم الفائضة عليه عليه السلام (وما كان من المشركين) تكرير لما سبق لزيادة تأكيد وتقرير نزاهته عليه السلام عما هم عليه من عقد وعمل وقوله تعالى (انما جعل السبت) أي فرض تعظيمه والتخلي فيه للعبادة وترك الصيد فيه تحقيق لذلك النفي الكلي وتوضيح له بابطال ما عسى يتوهم كونه قادحا في كليته حسبما سلف في قوله تعالى وعلى الذين هادوا حرمنا الخ فان اليهود كانوا يدعون أن السبت من شعائر الاسلام وأن

حلول العذاب فيه ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب لان الوقت اذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد ثم ان الله تعالى حكى عنهم انهم عقروها وروى أن مصدعا ألجأها الى مضيق فرماها بسهم فسقطت ثم ضربها قدار فان قيل لم أخذهم العذاب وقد ندموا فجوابه من وجهين (الاول) أنه لم يكن ندمهم ندم التائبين لكن ندم الخائفين من العذاب العاجل (الثاني) أن الندم وان كان ندم التائبين ولكن كان ذلك في غير وقت التوبة بل عند معاينة العذاب وقال تعالى وليست التوبة للذين يعملون السيآت الآية واللام في العذاب اشارة الى عذاب يوم عظيم ﴿القصة السادسة﴾ قصة لوط عليه السلام ﴿ قوله تعالى

﴿كذبت قوم لوط المرسلين اذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون اني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجري الا على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين قال اني لعملكم من القالين رب نجني وأهلي مما يعملون فنجيناه وأهله أجمعين الا عجوزا في الغابرين ثم دمرنا الآخرين وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم﴾ أما قوله تعالى أتأتون الذكران من العالمين فيحتمل عوده الى الآتي أي أنتم من جملة العالمين صرتم مخصوصين بهذه الصفة وهي اتيان الذكران ويحتمل عوده الى المأتي أي أنتم اخترتم الذكران من العالمين لا الاناث منهم وأما قوله تعالى من أزواجكم فيصلح أن يكون تبيينا لما خلق وأن يكون للتبعيض ويراد بما خلق العضو المباح منهن وكأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم والعادي هو المتعدي في ظلمه ومعناه أترتكبون هذه المعصية على عظمها بل انتم قوم عادون في جميع المعاصي فهذا من جملة ذلك أو بل أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا بالعدوان حيث ارتكبتم مثل هذه الفاحشة فقالوا له عليه السلام لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين أي لتكونن من جملة من أخرجناه من بلدنا ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوإ الاحوال فقال لهم لوط عليه السلام اني لعملكم من القالين القلى البغض الشديد كأنه بغض يقلي الفؤاد والكبد وقوله من القالين أبلغ من أن يقول اني لعملكم قال كما يقال فلان من العلماء فهو أبلغ من قولك فلان عالم ويجوز أن يراد من الكاملين في قلاكم ثم قال تعالى فنجيناه وأهله والمراد فنجيناه وأهله من عقوبة عملهم الا عجوزا في الغابرين * فان قيل في الغابرين صفة لها كأنه قيل الا عجوزا غابرة ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم * جوابه معناه الا عجوزا مقدرا غبورها قيل انها هلكت مع من خرج من القرية بما أمطر عليهم من الحجارة * قال القاضي عبد الجبار في تفسيره في قوله تعالى وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم دلالة على بطلان الجبر من جهات (أحدها) أنه لا يقال تذرون الا مع القدرة على خلافه ولذلك لا يقال للمرء لم تذر الصعود الى السماء كما يقال له لم تذر الدخول والخروج (وثانيها) أنه قال ما خلق لكم ولو كان خلق الفعل لله تعالى لكان الذي خلقه لهم ما خلقه فيهم وأوجبه لا ما لم يفعلوه (وثالثها) قوله تعالى بل أنتم قوم عادون فان كان تعالى خلق فيهم ما كانوا يعملون فكيف ينسبون الى أنهم تعدوا وهل يقال للاسود انك متعد في لونك فنقول حاصل هذه الوجوه يرجع الى أن العبد لو لم يكن موجدا لافعال نفسه لما توجه المدح والذم والامر والنهي عليه وليس لهذه الآية في هذا المعنى خاصية أزيد مما ورد من الامر والنهي والمدح والذم في قصة موسى عليه السلام وابراهيم ونوح وسائر القصص فكيف خص هذه القصة بهذه الوجوه دون سائر القصص واذا ثبت بطلان هذه الوجوه بقي ذلك الوجه المشهور ونحن نجيب عنها بالجوابين المشهورين (الاول) أن الله تعالى لما علم وقوع هذه الاشياء فعدمها محال لان عدمها يستلزم

ابراهيم عليه السلام كان محافظا عليه أي ليس السبت من شرائع ابراهيم وشعائر ملته التي أمرت باتباعها حتى يكون بينه عليه الصلاة والسلام وبين بعض المشركين علاقة في الجملة وانما شرع ذلك لبني اسرائيل بعد مدة طويلة وايراد الفعل مبنيا للمفعول جرى على سنن الكبرياء وايذان بعدم الحاجة الى التصريح بالفاعل لاستحالة الاسناد الى الغير وقد قرئ على البناء للفاعل وانما عبر عن ذلك بالجعل موصولا بكلمة على وعنهم بالاسم الموصول باختلافهم فقيل انما جعل السبت (على الذين اختلفوا فيه) للايذان بتضمنه للتشديد والابتلاء المؤدي الى العذاب وبكونه معللا باختلافهم في شأنه قبل الوقوع ايثارا له على ما أمر الله تعالى به واختيارا للعكس لكن لا باعتبار شمول العلية لطرفي الاختلاف وعموم الغائلة للفريقين بل باعتبار حال منشا الاختلاف من الطرف المخالف للحق وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام أمر اليهود أن يجعلوا في الاسبوع يوما واحدا للعبادة وأن يكون ذلك يوم الجمعة فأبوا عليه وقالوا نريد اليوم الذي فرغ الله تعالى فيه من خلق السموات والارض وهو السبت الاشرذمة منهم قد رضوا بالجمعة فأذن الله تعالى لهم في السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه فأطاع أمر الله تعالى الراضون بالجمعة فكانوا لا يصيدون وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله سبحانه قردة دون أولئك المطيعين (وان ربك ليحكم بينهم) أي بين الفريقين المختلفين فيه (يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) أي يفصل ما بينهما من الخصومة والاختلاف فيجازي كل فريق بما يستحقه من الثواب والعقاب وفيه ايماء الى أن ما وقع في الدنيا من مسخ أحد الفريقين وانجاء الآخر بالنسبة الى ما سيقع في الآخرة شئ لا يعتد به هذا هو الذي يستدعيه فعنده

انقلاب العلم جهلا وهو محال والمفضي الى المحال محال واذا كان عدمها محالا كان التكليف بالترك تكليفا بالمحال (الثاني) أن القادر لما كان قادرا على الضدين امتنع أن يترجح أحد المقدورين على الآخر الا لمرجح وهو الداعي أو الارادة وذلك المرجح محدث فله مؤثر وذلك المؤثر ان كان هو العبد لزم التسلسل وهو محال وان كان هو الله تعالى فذلك هو الجبر على قولك فثبت بهذين البرهانين القاطعين سقوط ما قاله والله أعلم (القصة السابعة) قصة شعيب عليه السلام ﴿قوله تعالى ﴿كذب أصحاب الايكة المرسلين اذ قال لهم شعيب الا تتقون اني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجري الا على رب العالمين أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين واتقوا الذي خلقكم والجبلة الاولين قالوا انما أنت من المسحرين وما أنت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين فأسقط علينا كسفا من السماء ان كنت من الصادقين قال ربي أعلم بما تعملون فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم﴾ قرئ أصحاب الايكة بالهمزة وبتخفيفها وبالجر على الاضافة وهو الوجه ومن قرأ بالنصب وزعم أن ليكة بوزن ليلة اسم بلد يعرف فتوهم قاد اليه خط المصحف حيث وجدت مكتوبة في هذه السورة وفي سورة ص بغير ألف لكن قد كتبت في سائر القرآن على الاصل والقصة واحدة على أن ليكة اسم لا يعرف روي أن أصحاب الايكة كانوا أصحاب شجر ملتف وتلك الشجر هي التي حملها المقل فان قيل هلا قال أخوهم شعيب كما في سائر المواضع جوابه أن شعيبا لم يكن من أصحاب الايكة وفي الحديث ان شعيبا أخا مدين أرسل اليهم والى أصحاب الايكة ثم ان شعيبا عليه السلام أمرهم بأشياء (أحدها) قوله أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وذلك لان الكيل على ثلاثة أضرب واف وطفيف وزائد فأمر بالواجب الذي هو الايفاء بقوله أوفوا الكيل ونهى عن المحرم الذي هو التطفيف بقوله ولا تكونوا من المخسرين ولم يذكر الزائد لانه بحيث ان فعله فقد أحسن وان لم يفعله فلا اثم عليه ثم انه لما أمر بالايفاء بين أنه كيف يفعل فقال وزنوا بالقسطاس المستقيم قرئ بالقسطاس مضموما ومكسورا وهو الميزان وقيل القرسطون (وثانيها) قوله تعالى ولا تبخسوا الناس أشياءهم يقال بخسه حقه اذا نقصه اياه وهذا عام في كل حق يثبت لاحد أن لا يهضم وفي كل ملك أن لا يغصب عليه مالكه ولا يتصرف فيه الا باذنه تصرفا شرعيا (وثالثها) قوله تعالى ولا تعثوا في الارض مفسدين يقال عثا في الارض وعثي وعاث وذلك نحو قطع الطريق والغارة واهلاك الزرع وكانوا يفعلون ذلك مع توليتهم أنواع الفساد فنهوا عن ذلك (ورابعها) قوله تعالى واتقوا الذي خلقكم والجبلة الاولين وقرئ الجبلة بوزن الابلة والجبلة بوزن الخلقة ومعناهن واحد أي ذوي الجبلة والمراد أنه المتفضل بخلقهم وخلق من تقدمهم ممن لولا خلقهم لما كانوا مخلوقين فلم يكن للقوم جواب الا ما لو تركوه لكان أولى بهم وهو من وجهين (الاول) قولهم انما أنت من المسحرين وما أنت الا بشر مثلنا فان قيل هل اختلف المعنى بادخال الواو ههنا وتركها في قصة ثمود جوابه اذا دخلت الواو فقد قصد معنيان كلاهما مناف للرسالة عندهم السحر والبشرية واذا تركت الواو فلم يقصد الا معنى واحد وهو كونه مسحرا ثم قرره بكونه بشرا مثلهم (الثاني) قولهم وان نظنك لمن الكاذبين ومعناه ظاهر ثم ان شعيبا عليه السلام كان يتوعدهم بالعذاب ان استمروا على التكذيب فقالوا فأسقط علينا كسفا من السماء قرئ كسفا بالسكون والحركة وكلاهما جمع كسفة وهي القطعة والسماء السحاب أو الظلة وهم انما طلبوا ذلك لاستبعادهم وقوعه فظنوا أنه اذا لم يقع ظهر كذبه

فعنده قال شعيب عليه السلام ربي أعلم بما تعملون فلم يدع عليهم بل فوض الامر فيه الى الله تعالى فلما استمروا على التكذيب أنزل الله عليهم العذاب على نحو ما اقترحوا من عذاب الظلة ان أرادوا بالسماء السحاب وان أرادوا الظلة فقد خالف بهم عن مقترحهم يروى أنه حبس عنهم الريح سبعا وسلط عليهم الرمل فأخذ بأنفاسهم لا ينفعهم ظل ولا ماء فاضطروا الى أن خرجوا الى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها بردا ونسيما فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا وروى أن شعيبا بعث الى أمتين أصحاب مدين وأصحاب الايكة فأهلكت مدين بصيحة جبريل عليه السلام وأصحاب الايكة بعذاب يوم الظلة وههنا آخر الكلام في هذه القصص السبع التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم فيما ناله من الغم الشديد بسبب تكذيب قومه له وههنا سؤالات (السؤال الاول) لم لا يجوز أن يقال ان العذاب النازل بعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ما كان ذلك بسبب كفرهم وعنادهم بل كان ذلك بسبب قرانات الكواكب واتصالاتها على ما اتفق عليه أهل النجوم واذا قام هذا الاحتمال لم يحصل الاعتبار بهذه القصص لان الاعتبار انما يحصل اذا علمنا أن نزول هذا العذاب كان بسبب كفرهم وعنادهم (الثاني) أن الله تعالى قد ينزل العذاب محنة للمكلفين وابتلاء لهم على ما قال ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ولانه تعالى قد ابتلى المؤمنين بالبلاء العظيم في مواضع كثيرة واذا كان كذلك لم يدل نزول البلاء بهم على كونهم مبطلين (والجواب) أن الله تعالى أنزل هذه القصص على محمد صلى الله عليه وسلم تسلية له وازالة للحزن عن قلبه فلما أخبر الله تعالى محمدا أنه هو الذي أنزل العذاب عليهم وأنه انما أنزله عليهم جزاء على كفرهم علم محمد صلى الله عليه وسلم أن الامر كذلك فحينئذ يحصل به التسلي والفرح له عليه السلام ٭ واحتج بعض الناس على القدح في علم الاحكام بأن قال المؤثر في هذه الاشياء اما الكواكب أو البروج أو كون الكوكب في البرج المعين والاول باطل والا لحصلت هذه الآثار أين حصل الكوكب والثاني أيضا باطل والا لزم دوام الاثر بدوام البرج والثالث أيضا باطل لان الفلك على قولهم بسيط لا مركب فيكون طبع كل برج مساويا لطبع البرج الآخر في تمام الماهية فيكون حال الكوكب وهو في برجه كحاله وهو في برج آخر فيلزم أن يدوم ذلك الاثر بدوام الكوكب وللقوم أن يقولوا لم لا يجوز أن يكون صدور الاثر عن الكوكب المعين موقوفا على كونه مسامتا مسامتة مخصوصة لكوكب آخر فاذا فقدت تلك المسامتة فقد شرط التأثير فلا يحصل التأثير ولهم أن يقولوا هذه الدلالة انما تدل على أنها ليست مؤثرة بحسب ذواتها وطبائعها ولكنها لا تدل على أنها ليست مؤثرة بحسب جرى العادة فاذا أجرى الله تعالى عادته بحصول تأثيرات مخصوصة عقيب اتصالات الكواكب وقراناتها وأدوارها لم يلزم من حصول هذه الآثار القطع بأن الله تعالى انما خلقها لاجل زجر الكفار بل لعله تعالى خلقها لتكرر تلك العادات والله أعلم (القول) فيما ذكره الله تعالى من أحوال محمد عليه الصلاة والسلام ﴿قوله تعالى ﴿وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين وانه لفي زبر الاولين﴾ اعلم أنه تعالى لما ختم ما اقتصه من خبر الانبياء ذكر بعد ذلك ما يدل على نبوته وهو من وجهين (الاول) قوله وانه لتنزيل رب العالمين وذلك لانه انما يستقيم معجز فيكون ذلك من رب العالمين أولانه اخبار عن القصص الماضية من غير تعلم البتة فلا يكون ذلك الا بوحي من الله تعالى وقوله بعده وانه لفي زبر الاولين كأنه مؤكد لهذا الاحتمال وذلك لانه عليه السلام لما ذكر هذه القصص السبع على ما هي موجودة في زبر الاولين من غير تفاوت أصلا مع أنه لم يشتغل بالتعلم والاستفادة دل ذلك على أنه ليس الا من عند الله تعالى فهذا هو المقصود من الآية فأما قوله تعالى وانه

الاعجاز التنزيلي وقيل المعنى انما جعل وبال السبت وهو المسخ على الذين اختلفوا فيه أي أحلوا الصيد فيه تارة وحرموه أخرى وكان حتما عليهم أن يتفقوا على تحريمه حسبما أمر الله سبحانه به وفسر الحكم بينهم بالمجازاة باختلاف أفعالهم بالاحلال تارة والتحريم أخرى ووجه ايراده ههنا بأنه أريد به انذار المشركين من سخط الله تعالى على العصاة والمخالفين لاوامره كضرب المثل بالقرية التي كفرت بأنعم الله تعالى ولا ريب في أن كلمة بينهم تحكم بأن المراد بالحكم هو فصل ما بين الفريقين من الاختلاف وان توسط حديث المسخ للانذار المذكور بين حكاية أمر النبي صلى الله عليه وسلم باتباع ملة ابراهيم عليه الصلاة والسلام وبين أمره صلى الله عليه وسلم بالدعوة اليها من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه فتأمل (ادع) أي من بعثت اليهم من الامة قاطبة فحذف المفعول للتعميم أو افعل الدعوة كما في قولهم يعطي ويمنع أي يفعل الاعطاء والمنع فحذفه للقصد الى ايجاد نفس الفعل اشعارا بأن عموم الدعوة غني عن البيان وانما المقصود الامر بايجادها على وجه مخصوص (الى سبيل ربك) الى الاسلام الذي عبر عنه تارة بالصراط المستقيم وأخرى بملة ابراهيم عليه السلام وفي التعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية وتبليغ الشيء الى كماله اللائق شيأ فشيأ مع اضافة الرب الى ضمير النبي عليه الصلاة والسلام في مقام الامر بدعوة الامة على الوجه الحكيم وتكميلهم بأحكام الشريعة الشريفة من الدلالة على اظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام والاعتناء الى وجه بناء الحكم ما لا يخفى (بالحكمة) أي بالمقالة المحكمة الصحيحة وهو الدليل الموضح للحق المزيح للشبهة (والموعظة الحسنة) أي الخطابيات المقنعة والعبر النافعة على وجه

لا يخفى عليهم أنك تناصحهم وتقصد ما ينفعهم فالاولى لدعوة خواص الامة الطالبين للحقائق والثانية لدعوة عوامهم ويجوز أن يكون المراد بهما القرآن المجيد فانه جامع لكلا الوصفين (وجادلهم) أى ناظر معانديهم (بالتى هى أحسن) بالطريقة التى هى أحسن طرق المناظرة والمجادلة من الرفق واللين واختيار الوجه الايسر واستعمال المقدمات المشهورة تسكينا لشغبهم واطفاء للهبهم كما فعل الخليل عليه السلام (ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله) الذى أمرك بدعوة الخلق اليه وأعرض عن قبول الحق بعد ما عاين ما عاين من الحكم والمواعظ والعبر (وهو أعلم بالمهتدين) اليه بذلك وهو تعليل لما ذكر من الامرين والمعنى والله تعالى أعلم اسلك فى الدعوة والمناظرة الطريقة المذكورة فانه تعالى هو أعلم بحال من لا يرعوى عن الضلال بموجب استعداده المكتسب وبحال من يصير أمره الى الاهتداء لما فيه من خير جبلى فما شرعه لك فى الدعوة هو الذى تقتضيه الحكمة فانه كاف فى هداية المهتدين وازالة عذر الضالين أو ما عليك الا ماذكر من الدعوة والمجادلة بالاحسن وأما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما فالى الله سبحانه اذ هو أعلم بمن يبقى على الضلال وبمن يهتدى اليه فيجازى كلا منهما بما يستحقه وتقديم الضالين لما أن مساق الكلام لهم وايراد الضلال بصيغة الفعل الدال على الحدوث لما أنه تغيير لفطرة الله التى فطر الناس عليها واعراض عن الدعوة وذلك أمر عارض بخلاف الاهتداء الذى هو عبارة عن الثبات على الفطرة والجريان على موجب الدعوة ولذلك جىء به على صيغة الاسم المنبئ عن الثبات وتكرير هو أعلم للتأكيد والاشعار بتباين حال المعلومين وما لهما من ومنعها

لتنزيل رب العالمين فالمراد بالتنزيل المنزل ثم قد كان يجوز فى القرآن وهذه القصص أن يكون تنزيلا من الله تعالى الى محمد صلى الله عليه وسلم بلا واسطة فقال نزل به الروح الامين والباء فى قوله نزل به الروح ونزل به الروح على القراءتين للتعدية ومعنى نزل به الروح جعل الله الروح نازلا به على قلبك أى فهمك اياه وأثبته فى قلبك اثبات ما لا ينسى كقوله تعالى سنقرئك فلا تنسى والروح الامين جبريل عليه السلام وسماه روحا من حيث خلق من الروح وقيل لانه نجاة الخلق فى باب الدين فهو كالروح الذى تثبت معه الحياة وقيل لانه روح كله لا كالناس الذين فى أبدانهم روح وسماه أمينا لانه مؤتمن على ما يؤديه الى الانبياء عليهم السلام والى غيرهم وأما قوله على قلبك ففيه قولان (الاول) انه انما قال على قلبك وان كان انما أنزله عليه ليؤكد به أن ذلك المنزل محفوظ للرسول متمكن فى قلبه لا يجوز عليه التغيير فيوثق بالانذار الواقع منه الذى بين الله تعالى أنه هو المقصود ولذلك قال لتكون من المنذرين (الثانى) أن القلب هو المخاطب فى الحقيقة لانه موضع التمييز والاختيار وأما سائر الاعضاء فمسخرة له والدليل عليه القرآن والحديث والمعقول (أما القرآن) فآيات (احداها) قوله تعالى فى سورة البقرة فانه نزله على قلبك وقال ههنا نزل به الروح الامين على قلبك وقال ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب (وثانيها) أنه ذكر أن استحقاق الجزاء ليس الا على ما فى القلب من المساعى فقال لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم وقال لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم والتقوى فى القلب لانه تعالى قال أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى وقال تعالى وحصل ما فى الصدور (وثالثها) قوله حكاية عن أهل النار لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ومعلوم أن العقل فى القلب والسمع منفذ اليه وقال ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا ومعلوم أن السمع والبصر لا يستفاد منهما الا ما يؤديانه الى القلب فكان السؤال عنهما فى الحقيقة سؤالا عن القلب وقال تعالى يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور ولم تخف الاعين الا بما تضمر القلوب عند التحديق بها (ورابعها) قوله وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون فخص هذه الثلاثة بالزام الحجة منها واستدعاء الشكر عليها وقد قلنا لا طائل فى السمع والابصار الا بما يؤديان الى القلب ليكون القلب هو القاضى فيه والمتحكم عليه قال تعالى ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ فجعل هذه الثلاثة تمام ما ألزمهم من حجته والمقصود من ذلك هو الفؤاد القاضى فيما يؤدى اليه السمع والبصر (وخامسها) قوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فجعل العذاب لازما على هذه الثلاثة وقال لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها وجه الدلالة أنه قصد الى نفى العلم عنهم رأسا فلو ثبت العلم فى غير القلب كثباته فى القلب لم يتم الغرض فهذه الآيات وما شاكلها ناطقة بأجمعها أن القلب هو المقصود بالزام الحجة وقد بينا أن ما قرن بذكره من ذكر السمع والبصر فذلك لانهما آلتان للقلب فى تأدية صور المحسوسات والمسموعات (وأما الحديث) فما روى النعمان بن بشير قال سمعته عليه السلام يقول الا ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب (وأما المعقول) فوجوه (أحدها) أن القلب اذا غشى عليه فلو قطع سائر الاعضاء لم يحصل الشعور به واذا أفاق القلب فانه يشعر بجميع ما ينزل بالاعضاء من الآفات فدل ذلك على أن سائر الاعضاء تبع للقلب ولذلك فان القلب اذا فرح أو حزن فانه يتغير حال الاعضاء عند ذلك وكذا القول فى سائر الاعراض النفسانية (وثانيها) أن القلب منبع المشاق الباعثة على الافعال الصادرة من سائر الاعضاء واذا كانت المشاق مبادى للافعال

العقاب والثواب وبعد ما أمره عليه الصلاة والسلام فيما يختص به من شأن الدعوة بما أمره به من الوجه اللائق عقبه بخطاب شامل لهم
ولمن شايعه فيما يعم الكل فقال (وان عاقبتم) أى ان أردتم المعاقبة على طريقة قول الطبيب للمحتمى ان أكلت فكل قليلا (فعاقبوا بمثل
ما عوقبتم به) أى بمثل ما فعل بكم وقد عبر عنه بالعقاب على طريقة اطلاق اسم المسبب على السبب نحو كما تدين تدان أو على
نهج المشاكلة والمقصود
ايجاب مراعاة العدل مع
من يناصبهم من غير
تجاوز حين ما آل الجدال
الى القتال وأدى النزاع
الى القراع فان الدعوة
المأمور بها لا تكاد
تنفك عن ذلك كيف
لا وهى موجبة لصرف
الوجوه عن القبلة
المعبودة وادخال الاعناق
فى قلادة غير معهودة
قاضية عليهم بفساد ما يأتون
وما يذرون وبطلان دين
استمرت عليهم آباؤهم
الاولون وقد ضاقت
عليهم الحيل وعيت بهم
العلل وسدت عليهم
طرق المحاجة والمناظرة
وأرتجت دونهم أبواب
المباحثة والمحاورة وقيل
انه عليه الصلاة والسلام
لما رأى حمزة رضى الله عنه
يوم أحد قد مثل به قال
لئن أظفرنى الله بهم
لأمثلن بسبعين مكانك
فنزلت فكفر عن يمينه
وكف عما أراده وقرئ
وان عقبتم فعقبوا أى
وان قفيتم بالانتصار
فقفوا بمثل ما فعل بكم غير
متجاوزين عنه والامر وان
دل على اباحة المماثلة فى
المثلة من غير تجاوز لكن
فى تقييده بقوله وان عاقبتم حث على العفو تعريضا وقد صرح به على الوجه الآكد فقيل (ولئن صبرتم) أى عن المعاقبة بالمثل (لهو)
أى الصبر كم ذلك (خير) لكم من الانتصار بالمعاقبة وانما قيل (للصابرين) مدحا لهم وثناء عليهم بالصبر أو وصفا لهم بصفة تحصل لهم عند
ترك المعاقبة ويجوز عود الضمير الى مطلق الصبر المدلول عليه بالفعل فيدخل فيه صبرهم كدخول أنفسهم فى جنس الصابرين دخولا

ومنبعها هو القلب لأن الآمر المطلق هو القلب (وثالثها) أن معدن العقل هو القلب واذا كان كذلك
كان الآمر المطلق هو القلب (أما المقدمة الاولى) ففيها النزاع فان طائفة من القدماء ذهبوا الى أن معدن
العقل هو الدماغ والذى يدل على قولنا وجوه (الاول) قوله تعالى أولم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب
يعقلون بها وقوله لهم قلوب لا يفقهون بها وقوله ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أى عقل أطلق عليه
اسم القلب لما أنه معدنه (الثانى) أنه تعالى أضاف أضداد العلم الى القلب وقال فى قلوبهم مرض ختم الله
على قلوبهم وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما
فى قلوبهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم كلا بل ران على قلوبهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب
أقفالها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور وقد دلت هذه الآيات على أن موضع
الجهل والغفلة هو القلب فوجب أن يكون موضع العقل والفهم أيضا هو القلب (الثالث) وهو أنا اذا
جربنا أنفسنا وجدنا علومنا حاصلة فى ناحية القلب ولذلك فان الواحد منا اذا أمعن فى الفكر وأكثر منه
أحس من قلبه ضيقا وضجرا حتى كأنه يتألم بذلك وكل ذلك يدل على أن موضع العقل هو القلب واذا ثبت
ذلك وجب أن يكون المكلف هو القلب لأن التكليف مشروط بالعقل والفهم (الرابع) وهو أن القلب
أول الاعضاء تكونا وآخرها موتا وقد ثبت ذلك بالتشريح ولانه متمكن فى الصدر الذى هو أوسط الجسد
ومن شأن الملوك المحتاجين الى الخدم أن يكونوا فى وسط المملكة لتكتنفهم الحواشى من الجوانب فيكونوا
أبعد من الآفات واحتج من قال العقل فى الدماغ بأمور (أحدها) أن الحواس التى هى الآلات للادراك
نافذة الى الدماغ دون القلب (وثانيها) أن الاعصاب التى هى الآلات فى الحركات الاختيارية نافذة من
الدماغ دون القلب (وثالثها) ان الآفة اذا حلت فى الدماغ اختل العقل (ورابعها) ان فى العرف كل من
أريد وصفه بقلة العقل قيل انه خفيف الدماغ خفيف الرأس (وخامسها) ان العقل أشرف فيكون مكانه
أشرف والاعلى هو الاشرف وذلك هو الدماغ لا القلب فوجب أن يكون محل العقل هو الدماغ (والجواب
عن الاول) لم لا يجوز أن يقال الحواس تؤدى آثارها الى الدماغ ثم ان الدماغ يؤدى تلك الآثار الى القلب
فالدماغ آلة قريبة للقلب والحواس آلات بعيدة فالحس يخدم الدماغ ثم الدماغ يخدم القلب وتحقيقه أنا
ندرك من أنفسنا أنا اذا عقلنا أن الامر الفلانى يجب فعله أو يجب تركه فان الاعضاء تتحرك عند ذلك ونحن
نجد التعقلات من جانب القلب لا من جانب الدماغ (وعن الثانى) انه لا يبعد أن يتأدى الاثر من القلب
الى الدماغ ثم الدماغ يحرك الاعضاء بواسطة الاعصاب النابتة منه (وعن الثالث) لا يبعد أن يكون سلامة
الدماغ شرطا لوصول تأثير القلب الى سائر الاعضاء (وعن الرابع) ان ذلك العرف انما كان لان القلب
انما يعتدل مزاجه بما يستمده من الدماغ من برودته فاذا لحق الدماغ خروج عن الاعتدال خرج القلب عن
الاعتدال اما لزيادة حرارته عن القدر الواجب أو لنقصان حرارته عن ذلك القدر فحينئذ يختل العقل
(وعن الخامس) أنه لو صح ما قالوه لوجب أن يكون موضع العقل هو القحف ولما بطل ذلك ثبت فساد قولهم
والله أعلم (فرع) اعلم أن المعانى التى بينا كونها مختصة بالقلوب قد تضاف الى الصدر تارة والى الفؤاد
أخرى أما الصدر فقوله تعالى وحصل ما فى الصدور وقوله وليبتلى الله ما فى صدوركم وقوله تعالى انه عليم
بذات الصدور وان تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه وأما الفؤاد فقوله ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ومن الناس
من فرق بين القلب والفؤاد فقال القلب هو العلقة السوداء فى جوف الفؤاد دون ما يكتنفها من اللحم
والشحم ومجموع ذلك هو الفؤاد ومنهم من قال القلب والفؤاد لفظان مترادفان وكيف كان فيجب أن يعلم أن

أوليائهم أمر عليه الصلاة والسلام صريحا بما ندب اليه غيره تعريضا من الصبر لانه أولى الناس بعزائم الامور لزيادة علمه بشؤنه سبحانه ووفور وثوقه به فقيل (واصبر) أى على ما أصابك من جهتهم من فنون الآلام والاذية وعاينت من اعراضهم عن الحق بالكلية (وما صبرك الا بالله) استثناء مفرغ من أعم الاشياء أى وما صبرك ملابسا ومصحوبا بشئ من الاشياء الا بالله أى بذكره والاستغراق فى مراقبة شؤنه والتبتل اليه بمجامع الهمة وفيه من تسليته عليه الصلاة والسلام وتهوين مشاق الصبر عليه وتشريفه ما لا مزيد عليه أو الا بمشيئته المبنية على حكم بالغة مستتبعة لعواقب حميدة فالتسلية من حيث اشتماله على غايات جليلة وقيل الا بتوفيقه ومعونته فهى من حيث تسهيله وتيسيره فقط (ولا تحزن عليهم) أى على الكافرين بوقوع اليأس من ايمانهم بك ومتابعتهم لك نحو فلا تأس على القوم الكافرين وقيل على المؤمنين وما فعل بهم والاول هو الانسب بجزالة النظم الكريم (ولا تك فى ضيق) بالفتح وقرئ بالكسر وهما لغتان كالقول والقيل أى لا تكن فى ضيق صدر وحرج ويجوز أن يكون الاول تخفيف ضيق كهين من هين أى فى أمر ضيق (مما يمكرون) أى من مكرهم بك فيما يستقبل فالاول نهى عن التألم بمطلوب من قبلهم فات والثانى عن التألم بمحذور من جهتهم آت والنهى عنهما مع أن انتفاءهما من لوازم الصبر المأمور به لا سيما على الوجه الاول لزيادة التأكيد واظهار او كمال العناية بشأن التسلية والافلا يخطر ببال من توجه الى الله سبحانه بشراشر نفسه متنزها عن كل ما سواه من الشواغل شئ من مطلوب فينهى عن الحزن بفواته أو محذور فيكف عن الخوف من وقوعه (ان الله مع الذين اتقوا) تعليل لما سبق من الامر والنهى والمراد بالمعية

من جملة العضو المسمى قلبا وفؤادا موضعها والموضع فى الحقيقة للعقل والاختيار وان معظم جرم هذا العضو مسخر لذلك الموضع كما أن سائر الاعضاء مسخرة للقلب فان العضو قد تزيد أجزاؤه من غير ازدياد المعانى المنسوبة اليه أعنى العقل والفرح والحزن وقد ينقص من غير نقصان فى تلك المعانى فيشبه أن يكون اسم القلب اسما للاجزاء التى تحل فيها هذه المعانى بالحقيقة واسم الفؤاد يكون اسما لمجموع العضو فهذا هو الكلام فى هذا الباب والله الموفق للصواب * وأما قوله تعالى لتكون من المنذرين فيدخل تحت الانذار الدعاء الى كل واجب من علم وعمل والمنع من كل قبيح لان فى الوجهين جميعا يدخل الخوف من العقاب وأما قوله تعالى بلسان عربى مبين فالباء اما أن تتعلق بالمنذرين فيكون المعنى لتكون من الذين أنذروا بهذا اللسان وهم خمسة هود وصالح وشعيب واسمعيل ومحمد عليهم السلام واما أن تتعلق بنزل فيكون المعنى نزله باللسان العربى لينذر به لانه لو نزله باللسان الاعجمى لقالوا له ما نصنع بما لا نفهمه فيتعذر الانذار به وفى هذا الوجه أن تنزيله بالعربية التى هى لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك لانك تفهمه ويفهمه قومك ولو كان أعجميا لكان نازلا على سمعك دون قلبك لانك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها وأما قوله تعالى وانه لفى زبر الاولين فيحتمل هذه الاخبار خاصة ويحتمل أن يكون المراد صفة القرآن ويحتمل صفة محمد صلى الله عليه وسلم ويحتمل أن يكون المراد وجوه التخويف لان ذكر هذه الاشياء بأسرها قد تقدم * قوله تعالى ﴿أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى اسرائيل ولو نزلناه على بعض الاعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ اعلم أن قوله تعالى أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى اسرائيل المراد منه ذكر الحجة الثانية على نبوته عليه السلام وصدقه وتقريره ان جماعة من علماء بنى اسرائيل أسلموا ونصوا على الكتب فى التوراة والانجيل ذكر فيهم الرسول عليه الصلاة والسلام بصفته ونعته وقد كان مشركو قريش يذهبون الى اليهود يتعرفون منهم هذا الخبر وهذا يدل دلالة ظاهرة على نبوته لان تطابق الكتب الالهية على ذكره ووصفه يدل قطعا على نبوته واعلم أنه قرئ يكن بالتذكير وآية بالنصب على انها خبره وأن يعلمه هو الاسم وقرئ تكن بالتأنيث وجعلت آية اسما وأن يعلمه خبرا وليست كالاولى لوقوع النكرة اسما والمعرفة خبرا ويجوز مع نصب الآية تأنيث يكن كقوله ثم لم تكن فتنتهم الا أن قالوا وأما قوله ولو نزلناه على بعض الاعجمين فاعلم أنه تعالى لما بين بالدليلين المذكورين نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق لهجته بين بعد ذلك أن هؤلاء الكفار لا تنفعهم الدلائل ولا البراهين فقال ولو نزلناه على بعض الاعجمين يعنى انا أنزلنا هذا القرآن على رجل عربى بلسان عربى مبين فسمعوه وفهموه وعرفوا فصاحته وانه معجز لا يعارض بمثله وانضم الى ذلك بشارة كتب الله السالفة به فلم يؤمنوا به وجحدوه وسموه شعرا تارة وسحرا أخرى فلو نزلناه على بعض الاعجمين الذى لا يحسن العربية لكفروا به أيضا واتخذوا لجحودهم عذرا ثم قال كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين أى مثل هذا السلك سلكناه فى قلوبهم وهكذا مكناه وقررناه فيها وكيفما فعل بهم فلا سبيل الى أن يتغير واعما هم عليه من الجحود والانكار وهذا أيضا مما يفيد تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم لانه اذا عرف رسول الله اصرارهم على الكفر وانه قد جرى القضاء الازلى بذلك حصل اليأس وفى المثل اليأس احدى الراحتين (المسئلة الرابعة) قوله كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين يدل على ان الكل بقضاء الله وخلقه قال صاحب الكشاف أراد به انه صار ذلك التكذيب متمكنا فى قلوبهم أشد التمكن فصار ذلك كالشئ الجبلى والجواب انه اما أن يكون قد فعل الله فيهم ما يقتضى رجحان التكذيب على التصديق

بالمعية الولاية الدائمة التي لا تحوم حول صاحبها شائبة شئ من الجزع والحزن وضيق الصدر وما يشعر به دخول كلمة مع من متبوعية المتقين انما هي من حيث انهم المباشرون للتقوى وكذا الحال في قوله سبحانه ان الله مع الصابرين ونظائره ما كافة والمراد بالتقوى المرتبة الثالثة منها الجامعة لما تحتها من مرتبة التوقي عن الشرك ومرتبة التجنب عن كل ما يؤثم من فعل وترك أعني التنزه عن كل ما يشغل سره عن الحق والتبتل اليه بشراشر نفسه وهو التقوى الحقيق المورث لولايته تعالى المقرونة ببشارة قوله سبحانه ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون والمعنى ان الله ولي الذين تبتلوا اليه بالكلية وتنزهوا عن كل ما يشغل سرهم عنه فلم يخطر ببالهم شئ من مطلوب أو محذور فضلا عن الحزن بفواته أو الخوف من وقوعه وهو المعنى عليه الصبر المأمور به حسبما أشير اليه وبه يحصل التقريب ويتم التعليل كما في قوله تعالى فاصبر ان العاقبة للمتقين على أحد التفسيرين كما حقق في مقامه والاقتصار على التوقي عن المعاصي لا يكون مدارا لشئ من العزائم المرخص في تركها فكيف بالصبر المشار اليه ورد فيه وانما مداره المعنى المذكور فكأنه قيل ان الله مع الذين صبروا وانما أوثر ما عليه النظم الكريم مبالغة في الحث على الصبر بالتنبيه على أنه من خصائص أجل النعوت الجليلة وروادفه كما أن قوله تعالى (والذين هم محسنون) للاشعار بأنه من باب الاحسان الذي يتنافس فيه المتنافسون على ما فصل في ذلك حيث قيل واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين وقد نبه على أن كلا من الصبر والتقوى من قبيل الاحسان في قوله تعالى انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين وحقيقة الاحسان الاتيان بالأعمال على الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفي

أو ما فعل ذلك فيهم لأن كان الاول فقد دللنا في سورة الانعام على ان الترجيح لا يتحقق ما لم ينته الى حد الوجوب وحينئذ يحصل المقصود فان لم يفعل فيهم ما يقتضي الترجيح البتة امتنع قوله كذلك سلكناه كان طيران الطائر لما لم يكن له تعلق بكفرهم امتنع اسناد الكفر الى ذلك الطيران (المسألة الخامسة) قال صاحب الكشاف فان قلت ما موقع لا يؤمنون به من قوله سلكناه في قلوب المجرمين قلت موقعه منه موقع الموضح والمبين لانه مسوق لبيانه مؤكد للجحود في قلوبهم فاتبع ما يقرر هذا المعنى من انهم لا يزالون على التكذيب به حتى يعاينوا الوعيد ﴿ قوله تعالى ﴿فيقولوا هل نحن منظرون أفبعذابنا يستعجلون أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون ذكرى وما كنا ظالمين﴾ اعلم أنه تعالى لما بين انهم لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم وانه يأتيهم العذاب بغتة أتبعه بما يكون منهم عند ذلك على وجه الحسرة فقال فيقولوا هل نحن منظرون كما يستغيث المرء عند تعذر الخلاص لانهم يعلمون في الآخرة أن لا امهال لكنهم يذكرون ذلك استرواحا فاما قوله تعالى أفبعذابنا يستعجلون فالمراد أنه تعالى بين انهم كانوا في الدنيا يستعجلون العذاب مع ان حالهم عند نزول العذاب طلب النظرة ليعرف تفاوت الطريقين فيعتبر به ثم بين تعالى ان استعجال العذاب على وجه التكذيب انما يقع منهم ليتمتعوا في الدنيا الا ان ذلك جهل وذلك لان مدة التمتع في الدنيا متناهية قليلة ومدة العذاب الذي يحصل بعد ذلك غير متناهية وليس في العقل ترجيح لذات متناهية قليلة على آلام غير متناهية وعن ميمون بن مهران انه لقي الحسن في الطواف فقال له عظني فلم يزد على تلاوة هذه الآية فقال ميمون لقد وعظت فابلغت وقرئ يمتعون بالتخفيف ثم بين انه لم يهلك قرية الا وهناك نذير يقيم عليهم الحجة أما قوله تعالى ذكرى فقال صاحب الكشاف ذكرى منصوبة بمعنى تذكرة اما لان أنذر وذكر متقاربان فكأنه قيل مذكرون تذكرة واما لانها حال من الضمير في منذرون أي ينذرونهم ذوي تذكرة واما لانها مفعول له على معنى انهم ينذرون لاجل الموعظة والتذكرة أو مرفوعة على انها خبر مبتدأ محذوف بمعنى هذه ذكرى والجملة اعتراضية أو صفة بمعنى منذرون ذوو ذكرى أو جعلوا ذكرى لامعانهم في التذكرة واطنابهم فيها ووجه آخر وهو أن يكون ذكرى متعلقة بأهلكنا مفعولا له والمعنى وما أهلكنا من قرية ظالمين الا بعد ما ألزمناهم الحجة بارسال المنذرين اليهم ليكونوا أهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم وما كنا ظالمين فنهلك قوما غير ظالمين وهذا الوجه عليه المعول فان قلت كيف عزلت الواو عن الجملة بعد الا ولم تعزل عنها في قوله وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم قلت الاصل عزل الواو لان الجملة صفة لقرية واذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف ﴿ قوله تعالى ﴿وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون انهم عن السمع لمعزولون فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين﴾ اعلم أنه تعالى لما احتج على صدق محمد صلى الله عليه وسلم بكون القرآن تنزيل رب العالمين وانما يعرف ذلك لوقوعه من الفصاحة في النهاية القصوى ولانه مشتمل على قصص المتقدمين من غير تفاوت مع أنه عليه السلام لم يشتغل بالتعلم والاستفادة فكان الكفار يقولون لم لا يجوز أن يكون هذا من القاء الجن والشياطين كسائر ما ينزل على الكهنة فأجاب الله تعالى عنه بان ذلك لا يتسهل للشياطين لانهم مرجومون بالشهب معزولون عن استماع كلام أهل السماء ولقائل أن يقول انما يعلم كون الشياطين ممنوعين عن ذلك لا يحصل الا بواسطة خبر النبي الصادق فاذا أثبتنا كون محمد صلى الله عليه وسلم صادقا بفصاحة القرآن واخباره عن الغيب ولا يمكن اثبات كون الفصاحة والاخبار عن الغيب معجزا الا اذا ثبت

كون الشياطين ممنوعين عن ذلك لزم الدور وهو باطل وجوابه لانسلم ان العلم بكون الشياطين ممنوعين عن ذلك لايستفاد الامن قول النبي وذلك لانا نعلم بالضرورة ان الاهتمام بشأن الصديق أقوى من الاهتمام بشأن العدو ونعلم بالضرورة ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان يلعن الشياطين ويأمر الناس بلعنهم فلو كان هذا الغيب انما حصل من القاء الشياطين لكان الكفار أولى بأن يحصل لهم مثل هذا العلم فكان يجب أن يكون اقتدار الكفار على مثله أولى فلما لم يكن كذلك علمنا أن الشياطين ممنوعون عن ذلك وأنهم معزولون عن تعرف الغيوب ثم انه تعالى لما ذكر هذا الجواب ابتدأ بخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم فقال فلا تدع مع الله الها آخر وذلك في الحقيقة خطاب لغيره لان من شأن الحكيم اذا أراد أن يؤكد خطاب الغير أن يوجهه الى الرؤساء في الظاهر وان كان المقصود بذلك هم الاتباع ولانه تعالى أراد أن يتبعه ما يليق بذلك فلهذه العلة أفرده بالمخاطبة ﴿قوله تعالى ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين انه هو السميع العليم﴾ اعلم أنه سبحانه لما بالغ فى تسلية رسوله أولا ثم أقام الحجة على نبوته ثانيا ثم أورد سؤال المنكرين وأجاب عنه ثالثا أمره بعد ذلك بما يتعلق بباب التبليغ والرسالة وهو ههنا أمور ثلاثة (الأول) قوله وأنذر عشيرتك الأقربين وذلك لأنه تعالى بدأ بالرسول فتوعده ان دعا مع الله الها آخر ثم أمره بدعوة الأقرب فالأقرب وذلك لانه اذا تشدد على نفسه أولا ثم بالأقرب فالأقرب ثانيا لم يكن لاحد فيه طعن البتة وكان قوله أنفع وكلامه أنجع وروى أنه لما نزلت هذه الآية صعد الصفا فنادى الأقرب فالأقرب وقال يابني عبد المطلب يابني هاشم يابني عبد مناف يا عباس عم محمد ياصفية عمة محمد انى لا أملك لكم من الله شيأ سلونى من المال ما شئتم وروى أنه جمع بنى عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلا على رجل شاة وقعب من لبن وكان الرجل منهم يأكل الجذعة ويشرب العس فأكلوا وشربوا ثم قال يابنى عبد المطلب لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلا أكنتم مصدقى قالوا نعم قال انى نذير لكم بين يدى عذاب شديد (الثانى) قوله واخفض جناحك واعلم أن الطائر اذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه واذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلا فى التواضع ولين الجانب فان قيل المتبعون للرسول هم المؤمنون وبالعكس فلم قال لمن اتبعك من المؤمنين جوابه لا نسلم أن المتبعين للرسول هم المؤمنون فان كثيرا منهم كانوا يتبعونه للقرابة والنسب لا للدين فأما قوله فان عصوك فقل انى برىء مما تعملون فمعناه ظاهر قال الجبائى هذا يدل على أنه عليه السلام كان بريئا من معاصيهم وذلك يوجب أن الله تعالى أيضا برىء من عملهم كالرسول والا كان مخالفا لله كما لو رضى عمن سخط الله عليه لكان كذلك واذا كان تعالى بريئا من عملهم فكيف يكون فاعلا له ومريدا له والجواب أنه تعالى برىء من المعاصى بمعنى انه ما أمر بها بل نهى عنها فأما بمعنى أنه لا يريدها فلا نسلم والدليل عليه أنه علم وقوعها وعلم أن ما هو معلوم الوقوع فهو واجب الوقوع والا لانقلب علمه جهلا وهو محال والمفضى الى المحال محال وعلم أن ما هو واجب الوقوع فانه لا يراد عدم وقوعه فثبت ما قلناه (والثالث) قوله وتوكل والتوكل عبارة عن تفويض الرجل أمره الى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره وقوله على العزيز الرحيم أى على الذى يقهر أعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته ثم أتبع كونه رحيما على رسوله ما هو كالسبب لتلك الرحمة وهو قيامه وتقلبه فى الساجدين وفيه وجوه (أحدها) المراد ما كان يفعله فى جوف الليل من قيامه للتهجد وتقلبه فى تصفح أحوال المجتهدين ليطلع على أسرارهم

المستلزم لحسنها الذاتى وقد فسره عليه الصلاة والسلام بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك وتكرير الموصول للايذان بكفاية كل من الصلتين فى ولايته سبحانه من غير أن تكون احداهما تتمة للاخرى وايراد الاولى فعلية للدلالة على الحدوث كما أن ايراد الثانية اسمية لافادة كون مضمونها شيمة راسخة لهم وتقديم التقوى على الاحسان لما أن التخلية متقدمة على التحلية والمراد بالموصولين اما جنس المتقين والمحسنين وهو عليه الصلاة والسلام داخل فى زمرتهم دخولا أوليا واما هو عليه الصلاة والسلام ومن شايعه عبر عنهم بذلك مدحا لهم وثناء عليهم بالنعتين الجميلين وفيه رمز الى أن صنيعه عليه الصلاة والسلام مستتبع لاقتداء الامة به كقول من قال لابن عباس رضى الله عنهما عند التعزية

اصبر نكن بك صابرين فانما
صبر الرعية عند صبر الراس

عن هرم بن حيان أنه قيل له حين الاحتضار أوص قال انما الوصية من المال وأوصيكم بخواتيم سورة النحل * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله تعالى بما أنعم عليه فى دار الدنيا وان مات فى يوم تلاها أو ليلته كان له من الاجر كالذى مات وأحسن الوصية والحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسوله وآله أجمعين

﴿سورة بنى اسرائيل مائة واحدى عشرة آية مكية الا آيات فى آخرها﴾ (بسم الله الرحمن الرحيم) ـــــ

(سبحان الذى أسرى بعبده) سبحان علم للتسبيح كعثمان للرجل وحيث كان المسمى معنى لا عينا وجنسا لا شخصا لم تكن اضافته من قبيل ما فى زيد المعارك أو حاتم طيئ وانتصابه بفعل متروك الاظهار تقديره أسبح الله سبحان الخ وفيه ما لا يخفى من الدلالة على التنزيه البليغ

كما يحكى أنه حين نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون لحرصه على ما يوجد منهم من الطاعات فوجدها كبيوت الزنابير لما يسمع منها من دندنتهم بذكر الله تعالى والمراد بالساجدين المصلين (وثانيها) المعنى يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة وتقلبه في الساجدين تصرفه فيما بينهم بقيامه وركوعه وسجوده وقعوده اذا كان امامالهم (وثالثها) انه لا يخفى عليه حالك كلما قمت وتقلبت مع الساجدين في كفاية أمور الدين (ورابعها) المراد تقلب بصره فيمن يصلي خلفه من قوله صلى الله عليه وسلم أتموا الركوع والسجود فوالله انى لأراكم من خلفي ثم قال انه هو السميع أى لما تقوله العليم أى بما تنويه وتعمله وهذا يدل على أن كونه سميعا أمر مغاير لعلمه بالمسموعات والا لكان لفظ العليم مفيدا فائدته واعلم أنه قرئ وتقلبك واعلم أن الرافضة ذهبوا الى أن آباء النبي صلى الله عليه وسلم كانوا مؤمنين وتمسكوا في ذلك بهذه الآية وبالخبر أما هذه الآية فقالوا قوله تعالى وتقلبك في الساجدين يحتمل الوجوه التي ذكرتم ويحتمل أن يكون المراد أن الله تعالى نقل روحه من ساجد الى ساجد كما نقوله نحن واذا احتمل كل هذه الوجوه وجب حمل الآية على الكل ضرورة انه لا منافاة ولا رجحان وأما الخبر فقوله عليه السلام لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين الى أرحام الطاهرات وكل من كان كافرا فهو نجس لقوله تعالى انما المشركون نجس قالوا فان تمسكتم على فساد هذا المذهب بقوله تعالى واذ قال ابراهيم لابيه آزر قلنا الجواب عنه ان لفظ الاب قد يطلق على العم كما قال أبناء يعقوب له نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق فسموا اسمعيل أبا له مع انه كان عما له وقال عليه السلام ردوا على أبي يعني العباس ويحتمل أيضا ان يكون متخذ الاصنام أبا أمه فان هذا قد يقال له الاب قال تعالى ومن ذريته داود وسليمان الى قوله وعيسى فجعل عيسى من ذرية ابراهيم مع أن ابراهيم كان جده من قبل الام واعلم أنا نتمسك بقوله تعالى لابيه آزر وما ذكروه صرف للفظ عن ظاهره وأما حمل قوله وتقلبك في الساجدين على جميع الوجوه فغير جائز لما بينا أن حمل المشترك على كل معانيه غير جائز وأما الحديث فهو خبر واحد فلا يعارض القرآن ﷺ قوله تعالى ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾ اعلم أن الله تعالى أعاد الشبهة المتقدمة وأجاب عنها من وجهين (الاول) قوله تنزل على كل أفاك أثيم وذلك هو الذى قررناه فيما تقدم ان الكفار يدعون الى طاعة الشيطان ومحمد عليه السلام كان يدعو الى لعن الشيطان والبراءة عنه (والثاني) قوله يلقون السمع وأكثرهم كاذبون والمراد انهم كانوا يقيسون حال النبي صلى الله عليه وسلم على حال سائر الكهنة فكأنه قيل لهم ان كان الامر على ما ذكرتم فكما أن الغالب على سائر الكهنة الكذب فيجب أن يكون حال الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك فلما لم يظهر في اخبار الرسول صلى الله عليه وسلم عن المغيبات الا الصدق علمنا أن حاله بخلاف حال الكهنة ثم ان المفسرين ذكروا في الآية وجوها (أحدها) انهم الشياطين روى انهم كانوا قبل أن حجبوا بالرجم يسمعون الى الملا الاعلى فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب ثم يوحون به الى أوليائهم وأكثرهم كاذبون فيما يوحى به اليهم لانهم يسمعونهم ما لم يسمعوا (وثانيها) يلقون الى أوليائهم السمع أى المسموع من الملائكة (وثالثها) الافاكون يلقون السمع الى الشياطين فيلقون وحيهم اليهم (ورابعها) يلقون المسموع من الشياطين الى الناس وأكثر الافاكين كاذبون يفترون على الشياطين ما لم يوحوا اليهم فان قلت يلقون ما محله قلت يجوز أن يكون في محل النصب على الحال أى تنزل ملقين السمع وفي محل الجر صفة لكل أفاك لانه في معنى الجمع وأن لا يكون له محل بأن يستأنف كأن قائلا قال لم تنزل على الافاكين فقيل

من حيث الاشتقاق من السبح الذى هو الذهاب والابعاد في الارض ومنه فرس سبوح أى واسع الجرى ومن جهة النقل الى التفعيل ومن جهة العدول من المصدر الى الاسم الموضوع له خاصة لاسيما وهو علم يشير الى الحقيقة الحاضرة في الذهن ومن جهة قيامه مقام المصدر مع الفعل وقيل هو مصدر كغفران بمعنى التنزه ففيه مبالغة من حيث اضافة التنزه الى ذاته المقدسة ومناسبة تامة بين المحذوف وبين ما عطف عليه في قوله تعالى سبحانه وتعالى كأنه قيل تنزه بذاته وتعالى والاسراء السير بالليل خاصة كالسرى وقوله تعالى (ليلا) لافادة قلة زمان الاسراء لما فيه من التنكير الدال على البعضية من حيث الاجزاء دلالته على البعضية من حيث الافراد فان قولك سرت ليلا كما يفيد بعضية زمان سيرك من الليالى يفيد بعضيته من فرد واحد منها بخلاف ما اذا قلت سرت الليل فانه يفيد استيعاب السير له جميعا فيكون معيارا للسير لا ظرفا له ويؤيده قراءة من الليل أى بعضه وايثار لفظ العبد للايذان بتمحضه عليه الصلاة والسلام في عبادته سبحانه وبلوغه في ذلك غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية حسبما يلوح به مبدأ الاسراء ومنتهاه واضافة التنزيه أو التنزه الى الموصول المذكور للاشعار بعلية ما في حيز الصلة للمضاف فان ذلك من أدلة كمال قدرته وبالغ حكمته ونهاية تنزهه عن صفات المخلوقين (من المسجد الحرام) اختلف في مبدا الاسراء فقيل هو المسجد الحرام بعينه وهو الظاهر فانه روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان اذ أتاني جبريل عليه الصلاة والسلام بالبراق وقيل هو دار أم هانئ بنت أبي طالب والمراد بالمسجد الحرام الحرم لاحاطته بالمسجد والتباسه به أو لان الحرم كله مسجد فانه روى عن ابن

يعملون كيت وكيت فان قلت كيف قال وأكثرهم كاذبون بعدما قضى عليهم ان كل واحد منهم أفاك قلت الافاكون هم الذين يكثرون الكذب لا انهم الذين لا ينطقون الا بالكذب فأراد أن هؤلاء الافاكين قل من يصدق منهم فيما يحكي عن الجن وأكثرهم مفترى عليهم ﴿قوله تعالى ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ اعلم أن الكفار لما قالوا لم لا يجوز أن يقال ان الشياطين تنزل بالقرآن على محمد كما أنهم ينزلون بالكهانة على الكهنة وبالشعر على الشعراء ثم انه سبحانه فرق بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين الكهنة فذكر ههنا ما يدل على الفرق بينه عليه السلام وبين الشعراء وذلك هو أن الشعراء يتبعهم الغاوون أي الضالون ثم بين تلك الغواية بأمرين (الاول) انهم في كل واد يهيمون والمراد منه الطرق المختلفة كقولك أنا في واد وأنت في واد وذلك لانهم قد يمدحون الشيء بعد أن ذموه وبالعكس وقد يعظمونه بعد ان استحقروه وبالعكس وذلك يدل على انهم لا يطلبون بشعرهم الحق ولا الصدق بخلاف أمر محمد صلى الله عليه وسلم فانه من أول أمره الى آخره بقي على طريق واحد وهو الدعوة الى الله تعالى والترغيب في الآخرة والاعراض عن الدنيا (الثاني) انهم يقولون ما لا يفعلون وذلك أيضا من علامات الغواة فانهم يرغبون في الجود ويرغبون عنه وينفرون عن البخل ويصرون عليه ويقدحون في الناس بأدنى شيء صدر عن واحد من أسلافهم ثم انهم لا يرتكبون الا الفواحش وذلك يدل على الغواية والضلالة وأما محمد صلى الله عليه وسلم فانه بدأ بنفسه حيث قال الله تعالى له فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين ثم بالاقرب فالاقرب حيث قال الله تعالى له وأنذر عشيرتك الاقربين وكل ذلك على خلاف طريقة الشعراء فقد ظهر بهذا الذي بيناه ان حال محمد صلى الله عليه وسلم ما كان يشبه حال الشعراء ثم ان الله تعالى لما وصف الشعراء بهذه الاوصاف الذميمة بيانا لهذا الفرق استثنى عنهم الموصوفين بأمور أربعة (أحدها) الايمان وهو قوله الا الذين آمنوا (وثانيها) العمل الصالح وهو قوله وعملوا الصالحات (وثالثها) أن يكون شعرهم في التوحيد والنبوة ودعوة الخلق الى الحق وهو قوله وذكروا الله كثيرا (ورابعها) أن لا يذكروا هجو أحد الا على سبيل الانتصار ممن يهجوهم وهو قوله وانتصروا من بعد ما ظلموا قال الله تعالى لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم ثم ان الشرط فيه ترك الاعتداء لقوله تعالى فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم وقيل المراد بهذا الاستثناء عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير لانهم كانوا يهجون قريشا وعن كعب بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له اهجهم فوالذي نفسي بيده لهو أشد عليهم من رشق النبل وكان يقول لحسان بن ثابت قل وروح القدس معك فأما قوله تعالى وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون فالذي عندي فيه والله أعلم انه تعالى لما ذكر في هذه السورة ما يزيل الحزن عن قلب رسوله صلى الله عليه وسلم من الدلائل العقلية ومن أخبار الانبياء المتقدمين ثم ذكر الدلائل على نبوته عليه السلام ثم ذكر سؤال المشركين في تسميتهم محمدا صلى الله عليه وسلم تارة بالكاهن وتارة بالشاعر ثم انه تعالى بين الفرق بينه وبين الكاهن أولا ثم بين الفرق بينه وبين الشاعر ثانيا ختم السورة بهذا التهديد العظيم يعني ان الذين ظلموا أنفسهم وأعرضوا عن تدبر هذه الآيات والتأمل في هذه البينات فانهم سيعلمون بعد ذلك أي منقلب ينقلبون وقال الجمهور المراد منه الزجر عن الطريقة التي وصف الله بها هؤلاء الشعراء والاول أقرب الى نظم السورة من أولها الى آخرها والله أعلم والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد النبي الامي وآله وصحبه أجمعين وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وعلى

التابعين

عباس رضي الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام كان نائما في بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فكان ما كان فقصه عليها فلما قام ليخرج الى المسجد تشبثت بثوبه عليه الصلاة والسلام لتمنعه خشية أن يكذبه القوم قال عليه الصلاة والسلام وان كذبوني فلما خرج جلس اليه أبو جهل فأخبره صلى الله عليه وسلم بحديث الاسراء فقال أبو جهل يا معشر كعب بن لؤي بن غالب هلم فحدثهم فمن مصفق وواضع يده على رأسه تعجبا وانكارا وارتد ناس ممن كان آمن به وسعى رجال الى أبي بكر فقال ان كان قال ذلك لقد صدق قالوا أتصدقه على ذلك قال اني أصدقه على أبعد من ذلك فسمي الصديق وكان فيهم من يعرف بيت المقدس فاستنعتوه المسجد فجلي له بيت المقدس فطفق ينظر اليه وينعته لهم فقالوا أما النعت فقد أصاب فقالوا أخبرنا عن عيرنا فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها وقال تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية فقال قائل منهم هذه والله الشمس قد أشرقت فقال آخر هذه والله العير قد أقبلت يقدمها جمل أورق كما قال محمد ثم لم يؤمنوا قاتلهم الله أنى يؤفكون * واختلف في وقته أيضا فقيل كان قبل الهجرة بسنة وعن أنس والحسن انه كان قبل البعثة واختلف أيضا أنه في اليقظة أو في المنام فعن الحسن أنه كان في المنام وأكثر الاقاويل بخلافه والحق أنه كان في المنام قبل البعثة وفي اليقظة بعدها واختلف أيضا أنه كان جسمانيا أو روحانيا فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن عرج بروحه وعن معاوية أنه قال انما عرج بروحه والحق انه كان جسمانيا على ما ينبئ عنه التصدير بالتنزيه وما في ضمنه من التعجب فان الروحاني ليس في الاستبعاد

والاستنكار وخرق العادة بهذه المثابة ولذلك تعجبت منه قريش وأحالوه ولا استحالة فيه فانه قد ثبت في الهندسة أن قطر الشمس ضعف قطر الارض مائة ونيفا وستين مرة ثم ان طرفها الاسفل يصل الى موضع طرفها الاعلى بحركة الفلك الاعظم مع معاوقة حركة فلكها الخاص في أقل من ثانية وقد تقرر أن الاجسام متساوية في قبول الاعراض التي من جملتها

الحركة وأن الله سبحانه قادر على كل ما يحيط به حيطة الامكان فيقدر على أن يخلق مثل تلك الحركة بل أسرع منها في جسد النبي صلى الله عليه وسلم أو فيما يحمله ولو لم يكن مستبعدا لم يكن معجزة (الى المسجد الاقصى) أي بيت المقدس سمي به اذ لم يكن حينئذ وراءه مسجد وفي ذلك من تربية معنى التنزيه والتعجب ما لا يخفى (الذي باركنا حوله) ببركات الدين والدنيا لانه مهبط الوحي ومتعبد الانبياء عليهم الصلاة والسلام (لنريه) غاية للاسراء (من آياتنا) العظيمة التي من جملتها ذهابه في برهة من الليل مسيرة شهر ولا يقدح في ذلك كونه قبل الوصول الى المقصد ومشاهدة بيت المقدس وتمثل الانبياء له ووقوفه على مقاماتهم العلية عليهم الصلاة والسلام والالتفات الى التكلم لتعظيم تلك البركات والآيات وقرئ ليريه بالياء (انه هو السميع) لاقواله عليه الصلاة والسلام بلا أذن (البصير) بأفعاله بلا بصر حسبما يؤذن به القصر فيكرمه ويقربه بحسب ذلك وفيه ايماء الى أن الاسراء المذكور ليس الا لتكرمته عليه الصلاة والسلام ورفع منزلته والا فالاحاطة بأقواله وأفعاله حاصلة من غير حاجة الى التقريب والالتفات الى الغيبة لتربية المهابة (وآتينا موسى الكتاب) أي التوراة وفيه ايماء الى دعوته عليه الصلاة والسلام الى الطور وما وقع فيه من المناجاة جمعا بين الامرين المتحدين في

التابعين لهم باحسان الى يوم الدين

﴿سورة النمل تسعون وثلاث أو أربع أو خمس آيات مكية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين هدى وبشرى للمؤمنين الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكوة وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ اعلم أن قوله تلك اشارة الى آيات السورة والكتاب المبين هو اللوح المحفوظ وابانته انه قد خط فيه كل ما هو كائن فالملائكة الناظرون فيه يبينون الكائنات وانما نكر الكتاب المبين ليبهم بالتنكير فيكون أفخم له كقوله في مقعد صدق عند مليك مقتدر وقرأ ابن أبي عبلة وكتاب مبين بالرفع على تقدير وآيات كتاب مبين فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه ❊ فان قلت ما الفرق بين هذا وبين قوله الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ❊ قلت لا فرق لان واو العطف لا تقتضي الترتيب أما قوله هدى وبشرى للمؤمنين فهو في محل النصب او الرفع فالنصب على الحال أي هادية ومبشرة والعامل فيها ما في تلك من معنى الاشارة والرفع على ثلاثة أوجه على معنى هي هدى وبشرى وعلى البدل من الآيات وعلى أن يكون خبرا بعد خبر أي جمعت آياتها أنها آيات الكتاب وأنها هدى وبشرى واختلفوا في وجه تخصيص الهدى بالمؤمنين على وجهين (الاول) المراد أن يهديهم الى الجنة وبشرى لهم كقوله تعالى فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما فلهذا اختص به المؤمنون (الثاني) المراد بالهدى الدلالة ثم ذكروا في تخصيصه بالمؤمنين وجوها (أحدها) انه انما خصه بالمؤمنين لانه ذكر مع الهدى البشرى والبشرى انما تكون للمؤمنين (وثانيها) أن وجه الاختصاص انهم تمسكوا به فخصهم بالذكر كقوله انما أنت منذر من يخشاها (وثالثها) المراد من كونها هدى للمؤمنين انها زائدة في هداهم قال تعالى ويزيد الله الذين اهتدوا هدى أما قوله الذين يقيمون الصلاة فالاقرب انها الصلوات الخمس لان التعريف بالالف واللام يقتضي ذلك واقامة الصلاة أن يؤتى بها بشرائطها وكذا القول في الزكاة فانها هي الواجبة واقامتها وضعها في حقها ❊ أما قوله وهم بالآخرة هم يوقنون ففيه سؤال وهو أن المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة لا بد وأن يكونوا متيقنين بالآخرة فما الوجه في ذكره مرة أخرى جوابه من وجهين (الاول) أن يكون من جملة صلة الموصول ثم فيه وجهان (الاول) أن كمال الانسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لاجل العمل به وأما عرفان الحق فاقسام كثيرة لكن الذي يستفاد منه طريق النجاة معرفة المبدأ ومعرفة المعاد وأما الخير الذي يعمل به فاقسام كثيرة وأشرفها قسمان الطاعة بالنفس والطاعة بالمال فقوله للمؤمنين اشارة الى معرفة المبدأ وقوله يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة اشارة الى الطاعة بالنفس والمال وقوله وهم بالآخرة هم يوقنون اشارة الى علم المعاد فكأنه سبحانه وتعالى جعل معرفة المبدأ طرفا أولا ومعرفة المعاد طرفا أخيرا وجعل الطاعة بالنفس والمال متوسطا بينهما (الثاني) ان المؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة منهم من هو جازم بالحشر والنشر ومنهم من يكون شاكا فيه الا أنه يأتي بهذه الطاعات للاحتياط فيقول ان كنت مصيبا فيها فقد فزت بالسعادة وان كنت مخطئا فيها لم يفتني الا خيرات قليلة في هذه المدة اليسيرة فمن يأتي بالصلاة والزكاة على هذا الوجه لم يكن في الحقيقة مهتديا بالقرآن أما من كان جازما بالآخرة كان مهتديا به فلهذا السبب ذكر هذا القيد (الثاني) أن يجعل قوله وهم بالآخرة هم يوقنون جملة اعتراضية كأنه قيل وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات من اقامة الصلاة وايتاء الزكاة هم

المعنى ولم يذكرههنا العروج بالنبي عليه السلام الى السماء وما كان فيه من الآيات لانه مما نطقت به سورة النجم تقريبا للاسراء الى قبول السامعين أي آتيناه التوراة بعد ما أسرينا به الى الطور (وجعلناه) أي ذلك الكتاب (هدى لبني اسرائيل) يهتدون بما فيه مطاويه (أن لا تتخذوا) أي لا تتخذوا نحو كتبت اليه أن افعل كذا وقرئ بالياء على أن أن مصدرية والمعنى آتيناه موسى الكتاب لهداية بني اسرائيل لئلا يتخذوا (من دوني وكيلا) أي ربا تكلون اليه أموركم والافراد لما أن فعيلا مفرد في اللفظ جمع في المعنى (ذرية من حملنا مع نوح) نصب على الاختصاص أو النداء على قراءة النهي والمراد تأكيد الحمل على التوحيد بتذكير انعامه تعالى عليهم في ضمن انجاء آبائهم من الغرق في سفينة نوح عليه السلام أو على انه أحد مفعولي لا يتخذوا على قراءة النفي ومن دوني حال من وكيلا فيكون كقوله تعالى ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا وقرئ بالرفع على انه خبر مبتدا محذوف أو بدل من واو لا تتخذوا بابدال الظاهر من ضمير المخاطب كما هو مذهب بعض النحاة وقرئ ذرية بكسر الذال (انه) أي ان نوحا عليه الصلاة والسلام (كان عبدا شكورا) كثير الشكر في مجامع حالاته وفيه ايذان بأن انجاءه ومن معه كان ببركة شكره عليه الصلاة والسلام وحث للذرية على الاقتداء به وزجر لهم عن الشرك الذي هو أعظم مراتب الكفران لها وقيل الضمير لموسى عليه الصلاة والسلام (وقضينا) أي أعلمنا وأحكمنا منزلين (الى بني اسرائيل) أو موحين اليهم (في الكتاب) أي في التوراة فان الانزال والوحي الى موسى عليه السلام انزال ووحي اليهم (لتفسدن في الارض) جواب قسم محذوف ويجوز اجراء القضاء

الموقنون بالآخرة وهذا هو الاقرب ويدل عليه انه عقد جملة ابتدائية وكرر فيها المبتدأ الذي هو هم حتى صار معناها وما يوقن بالآخرة حق الايقان الا هؤلاء الجامعون بين الايمان والعمل الصالح لان خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق ﴿ قوله تعالى ﴿ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الاخسرون﴾ اعلم أنه تعالى لما بين ما للمؤمنين من البشرى أتبعه بما على الكفار من سوء العقاب فقال ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم واختلف الناس في أنه كيف أسند تزيين أعمالهم الى ذاته مع أنه أسنده الى الشيطان في قوله فزين لهم الشيطان أعمالهم أما أصحابنا فقد أجروا الآية على ظاهرها وذلك لان الانسان لا يفعل البتة الا اذا دعاه الداعي الى الفعل والمعقول من الداعي هو العلم أو الاعتقاد أو الظن بكون الفعل مشتملا على منفعة وهذا الداعي لابد وأن يكون من فعل الله تعالى لوجهين (الاول) انه لو كان من فعل العبد لافتقر فيه الى داع آخر ويلزم التسلسل وهو محال (الثاني) وهو ان العلم اما أن يكون ضروريا أو كسبيا فان كان ضروريا فلا بد فيه من تصورين والتصور يمتنع أن يكون مكتسبا لان المكتسب ان كان شاعرا به فهو متصور له وتحصيل الحاصل محال وان لم يكن شاعرا به كان غافلا عنه والغافل عن الشيء يمتنع أن يكون طالبا له فان قلت هو مشعور به من وجه دون وجه قلت فالمشعور به غير ما هو غير مشعور به فيعود التقسيم المتقدم في كل واحد من هذين الوجهين واذا ثبت أن التصور غير مكتسب البتة والعلم الضروري هو الذي يكون تصور كل واحد من تصوريه كافيا في حصول التصديق فالتصورات غير كسبية وهي مستلزمة للتصديقات فاذن متى حصلت التصورات حصل التصديق لا محالة ومتى لم تحصل لم يحصل التصديق البتة فحصول هذه التصديقات البديهية ليس بالكسب ثم ان تلك التصديقات البديهية ان كانت مستلزمة للتصديقات النظرية فلم تكن التصديقات النظرية كسبية لان لازم الضروري ضروري وان لم تكن مستلزمة لها لم تكن تلك الاشياء التي فرضناها علوما نظرية كذلك بل هي اعتقادات تقليدية لانه لا معنى لاعتقاد المقلد الا اعتقاد يحصل بفعله ابتداء من غير أن يكون له موجب فثبت بهذا أن العلوم بأسرها ضرورية وثبت أن مبادي الافعال هي العلوم فافعال العباد بأسرها ضرورية والانسان مضطر في صورة مختار فثبت أن الله تعالى هو الذي زين لكل عامل عمله والمراد من التزيين هو أنه يخلق في قلبه العلم بما فيه من المنافع واللذات ولا يخلق في قلبه العلم بما فيه من المضار والآفات فقد ثبت بهذه الدلائل القاطعة العقلية وجوب اجراء هذه الآية على ظاهرها أما المعتزلة فانهم ذكروا في تأويلها وجوها (أحدها) أن المراد زينا لهم أمر الدين وما يلزمهم أن يتمسكوا به وزيناه بان بينا حسنه وما لهم فيه من الثواب لان التزيين من الله تعالى للعمل ليس الا وصفه بانه حسن وواجب وحميد العاقبة وهو المراد من قوله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم ومعنى فهم يعمهون يدل على ذلك لان المراد فهم يعدلون ويتحيرون عما زيناه من أعمالهم (وثانيها) أنه تعالى لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق جعلوا انعام الله تعالى بذلك عليهم ذريعة الى اتباع شهواتهم وعدم الانقياد لما يلزمهم من التكاليف فكأنه تعالى زين بذلك أعمالهم واليه اشارة الملائكة عليهم السلام في قولهم ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر (وثالثها) ان امهاله الشيطان وتخليته حتى يزين لهم ملابسة ظاهرة للتزيين فاسند اليه والجواب عن الاول أن قوله تعالى أعمالهم صيغة عموم توجب أن يكون الله تعالى قد زين لهم كل أعمالهم حسنا كان العمل أو قبيحا ومعنى التزيين قد قدمناه وعن الثاني ان الله تعالى لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق فهل لهذه الامور أثر في ترجيح فاعلية المعصية على تركها أو ليس

المحتوم يجري القسم كأنه قيل وأقسمنا لتفسدن (مرتين) مصدر والعامل فيه من غير جنسه أولاهما مخالفة حكم التوراة وقتل شعياء عليه الصلاة والسلام وحبس أرمياء حين أنذرهم سخط الله تعالى والثانية قتل زكريا ويحيى وقصد قتل عيسى عليه الصلاة والسلام (ولتعلن علوا كبيرا) لتستكبرن عن طاعة الله سبحانه أو لتغلبن الناس بالظلم والعدوان وتفرطن في ذلك افراطا مجاوزا للحدود (فاذا جاء وعد أولاهما) أي أولى كرتي الافساد أي حان وقت حلول العقاب الموعود (بعثنا عليكم) لمؤاخذتكم بجناياتكم (عبادا لنا) وقرئ عبيدا لنا (أولي بأس شديد) ذوي قوة وبطش في الحروب هم سنحاريب من أهل نينوى وجنوده وقيل بختنصر عامل لهراسب وقيل جالوت (فجاسوا) أي ترددوا لطلبكم بالفساد وقرئ بالحاء والمعنى واحد وقرئ وجوسوا (خلال الديار) في أوساطها للقتل والغارة وقرئ خلل الديار فقتلوا علماءهم وكبارهم وأحرقوا التوراة وخربوا المسجد وسبوا منهم سبعين ألفا وذلك من قبيل قوله نولي بعض الظالمين بعضا مما جرت به السنة الالهية (وكان) ذلك (وعدا مفعولا) لا محالة بحيث لا صارف عنه ولا مبدل (ثم رددنا لكم الكرة) أي الدولة والغلبة (عليهم) على الذين فعلوا بكم ما فعلوا بعد مائة سنة حين تبتم ورجعتم عما كنتم عليه من الافساد والعلو وقيل هي قتل بختنصر واستنقاذ بني اسرائيل أسارهم وأموالهم ورجوع الملك اليهم وذلك أنه لما ورث بهمن بن اسفنديار الملك من جده كشتاسف بن لهراسب ألقى الله تعالى في قلبه الشفقة عليهم فرد أساراهم الى الشام وملك عليهم دانيال عليه السلام فاستولوا على من كان فيها من أتباع بختنصر وقيل هي قتل داود عليه السلام لجالوت (وأمددناكم بأموال) كثيرة بعد ما نهبت أموالكم (وبنين) بعد

لما فيه أثر فان كان الاول فقد دللنا على ان الترجيح متى حصل فلابد وان ينتهي الى حد الاستلزام وحينئذ يحصل الغرض وان لم يكن فيه أثر صارت هذه الاشياء بالنسبة الى أعمالهم كحجر الباب ونعيق الغراب وذلك يمنع من استناد فعلهم اليها وهذا بعينه هو الجواب عن التأويل الثالث الذي ذكروه والله أعلم أما قوله تعالى فهم يعمهون فالعمه التحير والتردد كما يكون حال الضال عن الطريق أما قوله أولئك الذين لهم سوء العذاب ففيه وجهان (الاول) انه القتل والاسر يوم بدر (والثاني) مطلق العذاب سواء كان في الدنيا أو في الآخرة والمراد بالسوء شدته وعظمه وأما قوله هم الاخسرون ففيه وجهان (الاول) انه لا خسران أعظم من أن يخسر المرء نفسه بأن يسلب عنه الصحة والسلامة في الدنيا ويسلم في الآخرة الى العذاب العظيم (الثاني) المراد انهم خسروا منازلهم في الجنة لو أطاعوا فانه لا مكلف الا وعين له منزل في الجنة لو أطاع فاذا عصى عدل به الى غيره فيكون قد خسر ذلك المنزل ﴿ قوله تعالى ﴿وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم اذ قال موسى لاهله اني آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين يا موسى انه أنا الله العزيز الحكيم﴾ أما قوله وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم فمعناه لتؤتاه وتلقاه من عند أي حكيم وأي عليم وهذا معنى مجيئهما نكرتين وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الاقاصيص واذ منصوب بمضمر وهو اذكر كأنه قال على أثر ذلك خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى ويجوز أن ينتصب بعليم ﴿ فان قيل الحكمة اما أن تكون نفس العلم واما أن يكون العلم داخلا فيها فلما ذكر الحكمة فلم ذكر العلم ﴿ جوابه الحكمة هي العلم بالامور العملية فقط والعلم أعم منه لان العلم قد يكون عمليا وقد يكون نظريا والعلوم النظرية أشرف من العلوم العملية فذكر الحكمة المشتملة على العلوم العملية ثم ذكر العليم وهو البالغ في كمال العلم وكمال العلم يحصل من جهات ثلاثة وحدته وعموم تعلقه بكل المعلومات وبقاؤه مصونا عن كل التغيرات وما حصلت هذه الكمالات الثلاثة الا في علمه سبحانه وتعالى ﴿ واعلم أن الله تعالى ذكر في هذه السورة أنواعا من القصص ﴿ (القصة الاولى) ﴿ قصة موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ أما قوله اذ قال موسى لاهله فيدل على انه لم يكن مع موسى عليه السلام غير امرأته بنت شعيب عليه السلام وقد كنى الله تعالى عنها بالاهل فتبع ذلك ورود الخطاب على لفظ الجمع وهو قوله امكثوا أما قوله اني آنست نارا فالمعنى انهما كانا يسيران ليلا وقد اشتبه الطريق عليهما والوقت وقت برد وفي مثل هذا الحال تقوى النفس بمشاهدة نار من بعد لما يرجى فيها من زوال الحيرة في أمر الطريق ومن الانتفاع بالنار للاصطلاء فلذلك بشرها فقال اني آنست نارا وقد اختلفوا فقال بعضهم المراد أبصرت ورأيت وقال آخرون بل المراد صادفت ووجدت فآنست به والاول أقرب لانهم لا يفرقون بين قول القائل آنست بصري ورأيت بصري أما قوله سآتيكم منها بخبر فالخبر ما يخبر به عن حال الطريق لانه كان قد ضل ثم في الكلام حذف وهو انه لما أبصر النار توجه اليها وقال سآتيكم منها بخبر يعرف به الطريق أما قوله أو آتيكم بشهاب قبس فالشهاب الشعلة والقبس النار المقبوسة وأضاف الشهاب الى القبس لانه يكون قبسا وغير قبس ومن قرأ بالتنوين جعل القبس بدلا أو صفة لما فيه من معنى القبس ﴿ ثم ههنا أسئلة (السؤال الاول) سآتيكم منها بخبر ولعلي آتيكم منها بخبر كالمتدافعين لان أحدهما ترج والآخر تيقن ﴿ نقول جوابه قد يقول الراجي اذا قوي رجاؤه سأفعل كذا وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة (السؤال الثاني) كيف جاء بسين التسويف ﴿ جوابه عدة منه لاهله انه يأتيهم به وان أبطأ أو كانت

المسافة بعيدة (السؤال الثالث) لماذا أدخل أو بين الامرين وهلا جمع بينهما لحاجته اليهما معا * جوابه
بنى الرجاء على انه ان لم يظفر بهذين المقصودين ظفر بأحدهما اما هداية الطريق واما اقتباس النار ثقة
بعادة الله تعالى لانه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده وأما قوله تعالى لعلكم تصطلون فالمعنى لكى
تصطلوا وذلك يدل على حاجتهم الى الاصطلاء وحينئذ لا يكون كذلك الا فى حال برد * أما قوله تعالى نودى
أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ففيه ابحاث (البحث الاول) أن أن هى المفسرة
لان النداء فيه معنى القول والمعنى قيل له بورك (البحث الثانى) اختلفوا فيمن فى النار على وجوه (أحدها)
أن بورك بمعنى تبارك والنار بمعنى النور والمعنى تبارك من فى النور وذلك هو الله سبحانه ومن حولها يعنى
الملائكة وهو مروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وان كنا نقطع بان هذه الرواية موضوعة مختلقة
(وثانيها) من فى النار هو نور الله ومن حولها الملائكة وهو مروى عن قتادة والزجاج (وثالثها) ان الله تعالى
ناداه بكلام سمعه من الشجرة فى البقعة المباركة فكانت الشجرة محلا للكلام والله هو المكلم له بان فعله فيه
دون الشجرة ثم ان الشجرة كانت فى النار ومن حولها ملائكة فلذلك قال بورك من فى النار ومن حولها
وهو قول الجبائى (ورابعها) من فى النار هو موسى عليه السلام لقربه منها ومن حولها يعنى الملائكة وهذا
أقرب لان القريب من الشئ قد يقال انه فيه (وخامسها) قول صاحب الكشاف بورك من فى النار أى من
فى مكان النار ومن حول مكانها ومكانها هى البقعة التى حصلت فيها وهى البقعة المباركة المذكورة فى قوله
تعالى من شاطئ الواد الايمن فى البقعة المباركة ويدل عليه قراءة أبى تباركت الارض ومن حولها وعنه
أيضا بوركت النار (البحث الثالث) السبب الذى لاجله بوركت البقعة وبورك من فيها وحواليها حدوث
هذا الامر العظيم فيها وهو تكليم الله موسى عليه السلام وجعله رسولا واظهار المعجزات عليه ولهذا جعل الله
أرض الشام موسومة بالبركات فى قوله ونجيناه ولوطا الى الارض التى باركنا فيها للعالمين وحقت أن تكون
كذلك فهى مبعث الانبياء صلوات الله عليهم ومهبط الوحى وكفاتهم أحياء وأمواتا (البحث الرابع) انه
سبحانه جعل هذا القول مقدمة لمناجاة موسى عليه السلام فقوله بورك من فى النار ومن حولها يدل
على أنه قد قضى أمر عظيم تنتشر البركة منه فى أرض الشام كلها وقوله وسبحان الله رب العالمين فيه
فائدتان (احداهما) انه سبحانه نزه نفسه عما لا يليق به فى ذاته وحكمته ليكون ذلك مقدمة فى صحة رسالة
موسى عليه السلام (الثانية) أن يكون ذلك ايذانا بان ذلك الامر مريده ومكونه رب العالمين تنبيها على
أن الكائن من جلائل الامور وعظائم الوقائع * أما قوله انه أنا الله العزيز الحكيم فقال صاحب الكشاف
الهاء فى انه يجوز أن يكون ضمير الشان وأنا الله مبتدأ وخبر والعزيز الحكيم صفتان للخبر وأن
يكون راجعا الى ما دل عليه ما قبله يعنى ان مكلمك أنا والله بيان لانا والعزيز الحكيم صفتان للتبيين وهذا
تمهيد لما أراد أن يظهره على يده من المعجزة يريد أنا القوى القادر على ما يبعد من الاوهام كقلب العصا حية
الفاعل ما أفعله بحكمة وتدبير * فان قيل هذا النداء يجوز أن يكون من عند غير الله تعالى فكيف علم موسى
عليه السلام انه من الله * جوابه لاهل السنة فيه طريقان (الاول) انه سمع الكلام المنزه عن مشابهة
الحروف والاصوات فعلم بالضرورة انه صفة الله تعالى (الثانى) قول أئمة ما وراء النهر وهو انه عليه الصلاة
والسلام سمع الصوت من الشجرة فنقول انما عرف ان ذلك من الله تعالى لامور (أحدها) ان النداء اذا
حصل فى النار أو الشجرة علم أنه من قبل الله تعالى لان أحدا منا لا يقدر عليه وهو ضعيف لاحتمال أن يقال
الشيطان دخل فى النار والشجرة ثم نادى (وثانيها) يجوز فى نفس النداء أن يكون قد بلغ فى العظم مبلغا

ما سبيت أولادكم (وجعلناكم أكثر نفيرا) مما كنتم من قبل أو من عدوكم والنفير من ينفر مع الرجل من قومه وقيل جمع نفر وهم القوم
المجتمعون للذهاب الى العدو كالعبيد والمعنى (ان أحسنتم) أعمالكم سواء كانت لازمة لانفسكم أو متعدية الى الغير أى عملتموها على
الوجه اللائق ولا يتصور ذلك الا بعد أن تكون الاعمال حسنة فى أنفسها أو ان فعلتم الاحسان (أحسنتم لانفسكم) لان ثوابها
لها (وان أسأتم) أعمالكم
بان عملتموها لا على الوجه
اللائق ويلزمه السوء
الذاتى أو فعلتم الاساءة
(فلها) اذ عليها وبالها
وعن على كرم الله وجهه
ما أحسنت الى أحد ولا
أسأت اليه وتلاها (فاذا
جاء وعد الآخرة) حان
وقت ما وعد من عقوبة
المرة الآخرة (ليسوؤا
وجوهكم) متعلق بفعل
حذف لدلالة ما سبق
عليه أى بعثناهم ليسوؤا
ومعنى ليسوؤا وجوهكم
ليجعلوا آثار المساءة
والكآبة بادية فى وجوهكم
كقوله تعالى سيئت
وجوه الذين كفروا
وقرئ ليسوء على أن
الضمير لله تعالى أو للوعد
أو للبعث ولنسوء بنون
العظمة وفى قراءة على
رضى الله عنه لنسوأن
على أنه جواب اذا وقرئ
لنسوأن بالنون الخفيفة
وليسوأن واللام فى قوله
عز وجل (وليدخلوا
المسجد) عطف على
ليسوؤا متعلق بما تعلق
هو به (كما دخلوه أول
مرة) أى فى أول مرة
(وليتبروا) أى يهلكوا
(ما علوا) ما غلبوه واستولوا
عليه أو مدة علوهم (تتبيرا) فظيعا لا يوصف بان سلط الله عز سلطانه عليهم الفرس فغزاهم ملك بابل من لا
ملوك الطوائف اسمه جودرز وقيل جردوس وقيل دخل صاحب الجيش مذبح قرابينهم فوجد فيه دما يغلى فسألهم عنه فقالوا دم قربان
لم يتقبل منا فقال لم تصدقونى فقتل على ذلك ألوفا فلم يهدأ الدم ثم قال ان لم تصدقونى ما تركت منكم أحدا فقالوا انه دم يحيى بن زكريا

عليهما الصلاة والسلام فقال لمثل هذا ينتقم منكم ربكم ثم قال يا بني قد علم ربي ورب ملك ما أصاب قومك من أجلك فاهدأ بإذن الله تعالى
قبل أن لا أبقي منهم أحدا فهدأ (عسى ربكم أن يرحمكم) بعد المرة الآخرة أن تبتم توبة أخرى وانزجرتم عما كنتم عليه من المعاصي
(وإن عدتم) إلى ما كنتم فيه من الفساد مرة أخرى (عدنا) إلى عقوبتكم ولقد عادوا فأعاد الله سبحانه عليهم النقمة بأن سلط
عليهم الأكاسرة ففعلوا بهم ما فعلوا من ضرب الإتاوة ونحو ذلك وعن الحسن عادوا فبعث الله تعالى محمدا عليه الصلاة والسلام فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون وعن قتادة مثله (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) أي محبسا لا يستطيعون الخروج منها أبد الآبدين وقيل بساطا كما يبسط الحصير وإنما عدل عن أن يقال وجعلنا جهنم لكم تسجيلا على كفرهم بالعود وذمّا لهم بذلك وإشعارا بعلة الحكم (إن هذا القرآن) الذي آتيناكه (يهدي) أي الناس كافة لا فرقة مخصوصة منهم كدأب الكتاب الذي آتيناه موسى (للتي) للطريقة التي (هي أقوم) أي أقوم الطرائق وأسدها أعني ملة الإسلام والتوحيد وترك ذكرها ليس لقصد التعميم لها وللحالة والخصلة ونحوها مما يعبر به عن المقصد المذكور بل للإيذان بالغنى عن التصريح بها لغاية ظهورها لا سيما بعد ذكر الهداية
التي هي من روادفها والمراد بهدايته لها كونه بحيث يهتدي إليها من يتمسك به لا تحصيل الاهتداء بالفعل فإنه مخصوص بالمؤمنين حينئذ
(ويبشر المؤمنين) بما في تضاعيفه من الأحكام والشرائع وقرئ بالتخفيف (الذين يعملون الصالحات) التي شرحت فيه (أن لهم) أي
بأن لهم بمقابلة تلك الأعمال (أجرا كبيرا) بحسب الذات وبحسب التضعيف عشر مرات فصاعدا (وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة)

لا يكون إلا معجزا وهو أيضا ضعيف لأنا لا نعرف مقادير قوى الملائكة والشياطين فلا قدر إلا ويجوز صدوره منهم (وثالثها) أنه كما اقترن به معجز دل على ذلك فقيل أن النار كانت مشتعلة في شجرة خضراء لم تحترق فصار ذلك كالمعجز وهذا هو الأصح والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿ وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ اعلم أن أكثر ما في هذه الآيات قد مر شرحه ولنذكر ما هو من خواص هذا الموضع يقال علام عطف قوله وألق عصاك جوابه على بورك لأن المعنى نودي أن بورك من في النار وأن ألق عصاك كلاهما تفسير لنودي أما قوله كأنها جان فالجان الحية الصغيرة سميت جانا لأنها تستتر عن الناس وقرأ الحسن جأن على لغة من يهرب من التقاء الساكنين فيقول شأبة ودأبة ﴿ أما قوله ولم يعقب معناه لم يرجع يقال عقب المقاتل إذا كر بعد الفرار وإنما خاف لظنه أن ذلك لأمر أريد به ويدل عليه إني لا يخاف لدي المرسلون وقال بعضهم المراد أني إذا أمرتهم بإظهار معجز فينبغي أن لا يخافوا فيما يتعلق بإظهار ذلك وإلا فالمرسل قد يخاف لا محالة ﴿ أما قوله تعالى إلا من ظلم معناه لكن من ظلم وهو محمول على ما يصدر من الأنبياء من ترك الأفضل أو الصغيرة ويحتمل أن يكون المقصود منه التعريض بما وجد من موسى وهو من التعريضات اللطيفة قال الحسن رحمه الله كان والله موسى ممن ظلم بقتل القبطي ثم بدل فإنه عليه الصلاة والسلام قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي وقرئ ألا من ظلم بحرف التنبيه ﴿ أما قوله تعالى ثم بدل حسنا بعد سوء فالمراد حسن التوبة وسوء الذنب وعن أبي بكر في رواية عاصم حسنا أما قوله في تسع آيات فهو كلام مستأنف وحرف الجر فيه يتعلق بمحذوف والمعنى اذهب في تسع آيات إلى فرعون ولقائل أن يقول كانت الآيات إحدى عشرة ثنتان منها اليد والعصا والتسع الفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة والجدب في بواديهم والنقصان في مزارعهم ﴿ أما قوله فلما جاءتهم آياتنا مبصرة فقد جعل الإبصار لها وهو في الحقيقة لمتأمليها وذلك بسبب نظرهم وتفكرهم فيها أو جعلت كأنها لظهورها تبصر فتهدي وقرأ علي بن الحسين وقتادة مبصرة وهو نحو مجبنة ومبخلة أي مكانا يكثر فيه التبصر أما قوله واستيقنتها أنفسهم فالواو فيها واو الحال وقد بعدها مضمرة وفائدة ذكر الأنفس أنهم جحدوها بألسنتهم واستيقنوها في قلوبهم وضمائرهم والاستيقان أبلغ من الإيقان أما قوله ظلما وعلوا فأي ظلم أفحش من ظلم من استيقن أنها آيات بينة من عند الله تعالى ثم كابر بتسميتها سحرا مبينا وأما العلو فهو التكبر والترفع عن الإيمان بما جاء به موسى كقوله فاستكبروا وكانوا قوما عالين وقرئ عليا وعليا بالضم والكسر كما قرئ عتيا والله أعلم ﴿ القصة الثانية ﴾ قصة داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام ﴿ قوله تعالى ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ أما قوله تعالى علما فالمراد طائفة من العلم أو علما سنيا عزيزا فإن قيل أليس هذا موضع الفاء دون الواو كقولك أعطيته فشكر جوابه أن الشكر باللسان إنما

يحسن موقعه اذا كان مسبوقا بعمل القلب وهو العزم على فعل الطاعة وترك المعصية وبعمل الجوارح وهو الاشتغال بالطاعات ولما كان الشكر باللسان يجب كونه مسبوقا بهما لاجرم صار كأنه قال ولقد آتيناهما علما فعملا به قلبا وقالبا وقالا باللسان الحمد لله الذي فعل كذا وكذا ❊ وأما قوله تعالى الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ففيه ابحاث (أحدها) ان الكثير المفضل عليه هو من لم يؤت علما أو من لم يؤت مثل علمهما وفيه انهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير (وثانيها) في الآية دليل على علو مرتبة العلم لانهما أوتيا من الملك ما لم يؤت غيرهما فلم يكن شكرهما على الملك كشكرهما على العلم (وثالثها) أنهم لم يفضلوا أنفسهم على الكل وذلك يدل على حسن التواضع (ورابعها) ان الظاهر يقتضي أن تلك الفضيلة ليست الا ذلك العلم ثم العلم بالله وبصفاته أشرف من غيره فوجب أن يكون هذا الشكر ايس الا على هذا العلم ثم ان هذا العلم حاصل لجميع المؤمنين فيستحيل أن يكون ذلك سببا لفضيلتهم على المؤمنين فاذن الفضيلة هو أن يصير العلم بالله وبصفاته جليا بحيث يصير المرء مستغرقا فيه بحيث لا يخطر بباله شئ من الشبهات ولا يغفل القلب عنه في حين من الاحيان ولا ساعة من الساعات ❊ أما قوله تعالى وورث سليمان داود فقد اختلفوا فيه فقال الحسن المال لان النبوة عطية مبتدأة ولا تورث وقال غيره بل النبوة وقال آخرون بل الملك والسياسة ولو تأمل الحسن لعلم أن المال اذا ورثه الولد فهو أيضا عطية مبتدأة من الله تعالى ولذلك يرث الولد اذا كان مؤمنا ولا يرث اذا كان كافرا أو قاتلا لكن الله تعالى جعل سبب الارث فيمن يرث الموت على شرائط وليس كذلك النبوة لان الموت لا يكون سببا لنبوة الولد فمن هذا الوجه يفترقان وذلك لا يمنع من أن يوصف بأنه ورث النبوة لما قام به عند موته كما يرث الولد المال اذا قام به عند موته ومما يبين ما قلناه انه تعالى لو فصل فقال وورث سليمان داود ماله لم يكن لقوله وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير معنى واذا قلنا ورث مقامه من النبوة والملك حسن ذلك لان تعليم منطق الطير يكون داخلا في جملة ما ورثه وكذلك قوله تعالى وأوتينا من كل شئ لان وارث الملك يجمع ذلك ووارث المال لا يجمعه وقوله ان هذا لهو الفضل المبين لا يليق أيضا الا بما ذكرنا دون المال الذي قد يحصل للكامل والناقص وما ذكره الله تعالى من جنود سليمان بعده لا يليق الا بما ذكرناه فبطل بما ذكرنا قول من زعم انه لم يرث الا المال فأما اذا قيل ورث المال والملك معا فهذا لا يبطل بالوجوه التي ذكرناها بل بظاهر قوله عليه الصلاة والسلام نحن معاشر الانبياء لا نورث ❊ فأما قوله يا أيها الناس فالمقصود منه تشهير نعمة الله تعالى والتنويه بها ودعاء الناس الى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير قال صاحب الكشاف المنطق كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد وقد ترجم يعقوب كتابه باصلاح المنطق وما أصلح فيه الا مفردات الكلام وقالت العرب نطقت الحمامة فالذي علم سليمان عليه السلام من منطق الطير هو ما يفهم بعضه من بعض من مقاصده وأغراضه وأما قوله تعالى وأوتينا من كل شئ فالمراد كثرة ما أوتي وذلك لان الكل والبعض الكثير يشتركان في صفة الكثرة والمشاركة سبب لجواز الاستعارة فلا جرم يطلق لفظ الكل على الكثير ومثله قوله وأوتيت من كل شئ ❊ أما قوله ان هذا لهو الفضل المبين فهو تقرير لقوله الحمد لله الذي فضلنا والمقصود منه الشكر والمحمدة كما قال عليه السلام أنا سيد ولد آدم ولا فخر فان قيل كيف قال علمنا وأوتينا وهو من كلام المتكبرين جوابه من وجهين (الاول) أن يريد نفسه وأباه (والثاني) أن هذه النون يقال لها نون الواحد المطاع وكان ملكا مطاعا وقد يتعلق بتعظيم الملك مصالح فيصير ذلك التعظيم واجبا وأما قوله وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فالحشر هو الاحضار والجمع من الاماكن المختلفة والمعنى انه جعل الله تعالى كل هذه

الاصناف

وأحكامها المشروحة فيه من البعث والحساب والجزاء وتخصيصها بالذكر من بين سائرها كفروا به لكونها معظم ما أمروا بالايمان به لمراعاة التناسب بين أعمالهم وجزائها الذي أنبأ عنه قوله عز وجل (أعتدنا لهم عذابا أليما) وهو عذاب جهنم أي أعتدنا لهم فيما كفروا به وأنكروا وجوده من الآخرة عذابا أليما وهو أبلغ في الزجر لما أن اتيان العذاب من حيث لا يحتسب أفظع وأفجع والجملة معطوفة على جملة يبشر باضمار يخبر أو على قوله تعالى أن لهم أجرا داخلة معه تحت التبشير المراد به مجازا مطلق الاخبار المنتظم للاخبار بالخبر السار والنبأ الضار حقيقة فيكون ذلك بيانا لهداية القرآن بالترغيب والترهيب ويجوز كون التبشير بمعناه والمراد تبشير المؤمنين ببشارتين ثوابهم وعقاب أعدائهم وقوله تعالى (ويدعو الانسان بالشر) بيان لحال المهدي اثر بيان حال الهادي واظهار لما بينهما من التباين والمراد بالانسان الجنس أسند اليه حال بعض أفراده أو حكي عنه حاله في بعض أحيانه فالمعنى على الاول ان القرآن يدعو الانسان الى الخير الذي لا خير فوقه من الاجر الكبير ويحذره من الشر الذي لا شر وراءه من العذاب الاليم وهو أي بعض منه وهو الكافر يدعو لنفسه بما هو الشر من العذاب المذكور اما بلسانه حقيقة كدأب من قال منهم اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ومن قال فائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين الى غير ذلك مما حكي عنهم واما بأعمالهم السيئة المفضية اليه الموجبة له مجازا كما هو ديدن كلهم (دعاءه بالخير) أي مثل دعائه بالخير المذكور فرضا لا تحقيقا فانه بمعزل من الدعاء به وفيه رمز الى أنه اللائق بحاله (وكان الانسان) أي من أسند اليه الدعاء المذكور من أفراده (عجولا)

الاصناف جنوده ولا يكون كذلك الا أن يتصرف على مراده ولا يكون كذلك الا مع العقل الذي يصح معه
التكليف أو يكون بمنزلة المراهق الذي قد قارب حد التكليف فلذلك قلنا ان الله تعالى جعل الطير
أيامه مماله عقل وليس كذلك حال الطيور في أيامنا وان كان فيها ما قد ألهمه الله تعالى الدقائق التي خصت
بالحاجة اليها أو خصها الله بها المنافع للعباد كالنحل وغيره وأما قوله تعالى فهم يوزعون معناه يحبسون وهذا
لا يكون الا اذا كان في كل قبيل منها وازع ويكون له تسلط على من يرده ويكفه ويصرفه فالظاهر يشهد
بهذا القدر والذي جاء في الخبر من أنهم كانوا يمنعون من يتقدم ليكون مسيرهم مع جنوده على ترتيب فغير
ممتنع * أما قوله تعالى حتى اذا أتوا على وادي النمل فقيل هو واد بالشام كثير النمل ويقال لم عدى أتوا بعلى
فجوابه من وجهين (الاول) أن اتيانهم كان من فوق فأتى بحرف الاستعلاء (والثاني) أن يراد قطع
الوادي وبلوغ آخره من قولهم أتى على الشيء اذا بلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند منقطع الوادي
وقرئ نملة يا أيها النمل بضم الميم وبضم النون والميم وكان الاصل النمل بوزن الرجل والنمل الذي عليه
الاستعمال تخفيف عنه أما قوله تعالى قالت نملة فالمعنى أنها تكلمت بذلك وهذا غير مستبعد فان الله تعالى
قادر على أن يخلق فيها العقل والنطق وعن قتادة أنه دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال سلوا عما شئتم
وكان أبو حنيفة رحمه الله حاضرا وهو غلام حدث فقال سلوه عن نملة سليمان أكانت ذكرا أم أنثى فسألوه
فأفحم فقال أبو حنيفة رضي الله عنه كانت أنثى فقيل له من أين عرفت فقال من كتاب الله تعالى وهو قوله
قالت نملة ولو كان ذكرا لقال قال نملة وذلك لان النملة مثل الحمامة والشاة في وقوعها على الذكر والانثى
فيميز بينهما بعلامة نحو قولهم حمامة ذكر وحمامة أنثى وهو وهي * أما قوله تعالى ادخلوا مساكنكم فاعلم
أن النملة لما قاربت حد العقل لا جرم ذكرت بما يذكر به العقلاء فلذلك قال تعالى ادخلوا مساكنكم
فان قلت لا يحطمنكم ما هو قلت يحتمل أن يكون جوابا للامر وأن يكون نهيا بدلا من الامر والمعنى لا تكونوا
حيث أنتم فيحطمنكم على طريقة لا أرينك ههنا * وفي هذه الآية تنبيه على أمور (أحدها) أن من يسير
في الطريق لا يلزمه التحرز وانما يلزم من في الطريق التحرز (وثانيها) أن النملة قالت وهم لا يشعرون كأنها
عرفت أن النبي معصوم فلا يقع منه قتل هذه الحيوانات الا على سبيل السهو وهذا تنبيه عظيم على وجوب
الجزم بعصمة الانبياء عليهم السلام (وثالثها) ما رأيته في بعض الكتب أن تلك النملة انما أمرت غيرها
بالدخول لانها خافت على قومها أنها اذا رأت سليمان في جلالته فربما وقعت في كفران نعمة الله تعالى
وهذا هو المراد بقوله لا يحطمنكم سليمان فأمرتها بالدخول في مساكنها لئلا ترى تلك النعم فلا تقع في كفران
نعمة الله تعالى وهذا تنبيه على أن مجالسة أرباب الدنيا محذورة (ورابعها) قرئ مسكنكم ولا يحطمنكم
بتخفيف النون وقرئ لا يحطمنكم بفتح الطاء وكسرها وأصله يحتطمنكم * أما قوله تعالى فتبسم ضاحكا
من قولها يعني تبسم شارعا في الضحك يعني أنه قد تجاوز حد التبسم الى الضحك وانما ضحك لامرين
(أحدهما) اعجابه بما دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وعلى شهرة حاله وحالهم في باب التقوى
وذلك قولها وهم لا يشعرون (والثاني) سروره بما آتاه الله مما لم يؤت أحدا من سماعه لكلام النملة
واحاطته بمعناه * أما قوله تعالى أوزعني فقال صاحب الكشاف حقيقة أوزعني اجعلني أزع شكر نعمتك
عندي وأكفه عن أن ينقلب عني حتى أكون شاكرا لك أبدا وهذا يدل على مذهبنا فان عند المعتزلة كل
ما أمكن فعله من الالطاف فقد صارت مفعولة وطلب تحصيل الحاصل عبث * أما قوله تعالى وعلى والدي
فذلك لان نعم الله تعالى على والديه نعمة عليه ومعنى قوله وأن أعمل صالحا ترضاه طلب الاعانة في

يسارع الى طلب ما يخطر بباله متعاميا عن ضرره أو هو العاقل العجل يستعجل العذاب وهو آتيه لا محالة ففيه نوع تهكم به وعلى تقدير حمل
الدعاء على أعمالهم تحمل العجولية على اللج والتمادي في استجلاب العذاب بتلك الاعمال وعلى الثاني أن القرآن يدعو الانسان الى ما هو
خير وهو في بعض أحيانه كما عند الغضب يدعوه ويدعو الله تعالى لنفسه وأهله وماله بما هو شر وكان الانسان بحسب جبلته
عجولا ضجرا لا يتأنى الى
أن يزول عنه ما يعتريه
روي أنه عليه الصلاة
والسلام دفع الى سودة
أسيرا فأرخت كتافه رحمة
لانينه بالليل من ألم القد
فهرب فلما أخبر به النبي
عليه الصلاة والسلام قال
اللهم اقطع يديها فرفعت
سودة يديها تتوقع الاجابة
فقال عليه السلام اني
سألت الله تعالى أن يجعل
دعائي على من لا يستحق
من أهلي عذابا رحمة
أو يدعو بما هو شر وهو
أن يحسبه خيرا وكان
الانسان عجولا غير
متبصر لا يتدبر في أموره
حق التدبر ليتحقق ما هو
خير حقيق بالدعاء به وما
هو شر جدير بالاستعاذة
منه (وجعلنا الليل والنهار
آيتين) شروع في بيان
بعض وجوه ما ذكر
من الهداية بالارشاد
الى مسلك الاستدلال
بالآيات والدلائل
الآفاقية التي كل
واحدة منها برهان نير
لا ريب فيه ومنهاج بين
لا يضل من ينتحيه فان
الجعل المذكور وما
عطف عليه من محو آية
الليل وجعل آية النهار
مبصرة وان كانت من الهدايات التكوينية لكن الاخبار بذلك من الهدايات القرآنية المنبهة على تلك الهدايات وتقديم الليل لمراعاة
الترتيب الوجودي اذ منه ينسلخ النهار وفيه تظهر غرر الشهور ولو أن الليلة أضيفت الى ما قبلها من النهار لكانت من شهر وصاحبها من شهر
آخر والترتيب غاية آية النهار عليها بلا واسطة أي جعلنا الملوين بهيآتهما وتعاقبهما واختلافهما في الطول والقصر على وتيرة عجيبة تحار

الشكر وفى العمل الصالح ثم قال وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين فلما طلب فى الدنيا الاعانة على الخيرات طلب أن يجعل فى الآخرة من الصالحين وقوله برحمتك يدل على أن دخول الجنة برحمته وفضله لا باستحقاق من جانب العبد * واعلم أن سليمان عليه السلام طلب ما يكون وسيلة الى ثواب الآخرة أولا ثم طلب ثواب الآخرة ثانيا أما وسيلة الثواب فهى أمران (أحدهما) شكر النعمة السابقة (والثانى) الاشتغال بسائر أنواع الخدمة أما الاشتغال بشكر النعمة السابقة فهى قوله تعالى رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على ولما كان الانعام على الآباء انعاما على الابناء لان انتساب الابن الى أب شريف نعمة من الله تعالى على الابن لا جرم اشتغل بشكر نعم الله تعالى على الآباء بقوله وعلى والدى وأما الاشتغال بسائر أنواع الخدمة فقوله وأن أعمل صالحا ترضاه وأما طلب ثواب الآخرة فقوله وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين فان قيل درجات الانبياء أعظم من درجات الاولياء والصالحين فما السبب فى أن الانبياء يطلبون جعلهم من الصالحين فقال يوسف توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين وقال سليمان أدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين جوابه الصالح الكامل هو الذى لا يعصى الله تعالى ولا يهم بمعصية وهذه درجة عالية والله أعلم * قوله تعالى ﴿وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾ اعلم أن سليمان عليه السلام لما تفقد الطير أوهم ذلك أنه انما تفقده لامر يختص به ذلك الطير واختلفوا فيما لاجله تفقده على وجوه (أحدها) قول وهب أنه أخل بالنوبة التى كان ينوبها فلذلك تفقده (وثانيها) أنه تفقده لان مقاييس الماء كانت اليه وكان يعرف الفضل بين قريبه وبعيده فلحاجة سليمان الى ذلك طلبه وتفقده (وثالثها) أنه كان يظله من الشمس فلما فقد ذلك تفقده أما قوله فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين فأم هى المنقطعة نظرا الى مكان الهدهد فلم يبصره فقال مالى لا أراه على معنى أنه لا يراه وهو حاضر لساتر ستره أو غير ذلك ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول أهو غائب كأنه يسأل عن صحة ما لاح له ومثله قولهم انها لابل أم شاء أما قوله لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين فهذا لا يجوز أن يقوله الا فيمن هو مكلف أو فيمن قارب العقل فيصلح لان يؤدب ثم اختلفوا فى قوله لأعذبنه فقال ابن عباس انه نتف الريش والالقاء فى الشمس وقيل أن يطلى بالقطران ويشمس وقيل أن يلقى للنمل فتأكله وقيل ايداعه القفص وقيل التفريق بينه وبين الفه وقيل لالزمنه صحبة الاضداد وعن بعضهم أضيق السجون معاشرة الاضداد وقيل لالزمنه خدمة أقرانه * أما قوله فمكث فقد قرئ بفتح الكاف وضمها غير بعيد غير زمان بعيد كقولك عن قريب ووصف مكثه بقصر المدة للدلالة على اسراعه خوفا من سليمان وليعلم كيف كان الطير مسخرا له أما قوله أحطت بما لم تحط به ففيه تنبيه لسليمان على أن فى أدنى خلق الله تعالى من أحاط علما بما لم يحط به فيكون ذلك لطفا له فى ترك الاعجاب والاحاطة بالشئ علما أن يعلم من جميع جهاته * أما قوله وجئتك من سبإ بنبإ يقين فاعلم أن سبأ قرئ بالصرف ومنعه وقد روى بسكون الباء وعن ابن كثير فى رواية سبا بالالف كقولهم ذهبوا أيدى سبا وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان فمن جعله اسما للقبيلة لم يصرف ومن جعله اسما للحى أو للاب الاكبر صرف ثم سميت مدينة مأرب بسبإ وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام والنبأ الخبر الذى له شأن وقوله من سبإ بنبإ من محاسن الكلام الذى تعلق باللفظ وشرط حسنه

فى قوله المعقول آيتين تدل لان على أن لهما صانعا حكيما قادرا عليما وتهديا الى ما هدى اليه القرآن الكريم من ملة الاسلام والتوحيد (فمحونا آية الليل) والاضافة اما بيانية كما فى اضافة العدد الى المعدود أى محونا الآية التى هى الليل وفائدته تحقيق مضمون الجملة السابقة ومحوها جعلها ممحوة الضوء ٤٤٠ مطموسة لكن لا بعد ان لم يكن كذلك بل ابداعها على ذلك كما فى قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل أى أنشأهما كذلك والفاء تفسيرية لان المحو المذكور وما عطف عليه ليسا مما يحصل عقيب جعل الجديدين آيتين بل هما من جملة ذلك الجعل ومتمماته (وجعلنا آية النهار) أى الآية التى هى النهار على نحو ما مر (مبصرة) أى مضيئة يبصر فيها الاشياء وصفا لها بحال أهلها أو مبصرة للناس من أبصره فبصره واما حقيقية وآية الليل والنهار نيراهما ومحو القمر اما خلقه مطموس النور فى نفسه فالفاء كما ذكروا ما نقص ما استفاده من الشمس شيأ فشيأ الى المحاق على ما هو معنى المحو والفاء للتعقيب وجعل الشمس مبصرة ابداعها مضيئة بالذات ذات أشعة تظهر بها الاشياء المظلمة (لتبتغوا) متعلق بقوله تعالى وجعلنا آية النهار كما أشير اليه أى وجعلناها مضيئة لتطلبوا لانفسكم فى بياض النهار (فضلا من ربكم) أى رزقا اذ لا يتسنى ذلك فى الليل وفى التعبير عن الرزق بالفضل وعن الكسب بالابتغاء والتعرض لصفة الربوبية المنبئة عن التبليغ الى الكمال شيأ فشيأ دلالة على أن ليس للعبد فى تحصيل الرزق تأثير سوى الطلب وانما الاعطاء الى الله سبحانه لا بطريق الوجوب عليه بل تفضلا بحكم الربوبية (ولتعلموا) متعلق بكلا الفعلين أعنى محو آية الليل وجعل آية النهار مبصرة لا بأحدهما فقط اذ لا يكون ذلك بانفراده مدارا للعلم المذكور أى لتعلموا بتفاوت

صحة

صحة المعنى واقعد جاء ههنا زائدا على الصحة فحسن لفظا ومعنى ألا ترى أنه لو وضع مكان بنبأ بخبر لكان المعنى صحيحا ولكن لفظ النبأ أولى لما فيه من الزيادة التي يطابقها وصف الحال أما قوله انى وجدت امرأة تملكهم فالمرأة بلقيس بنت شراحيل وكان أبوها ملك أرض اليمن وكانت هى وقومها مجوسا يعبدون الشمس والضمير فى تملكهم راجع الى سبا فان أريد به القوم فالامر ظاهر وان أريدت المدينة فمعناه تملك أهلها ❊ وأما قوله وأوتيت من كل شئ ففيه سؤال وهو أنه كيف قال وأوتيت من كل شئ مع قول سليمان وأوتينا من كل شئ فكأن الهدهد سوى بينهما ❊ جوابه أن قول سليمان عليه السلام يرجع الى ما أوتى من النبوة والحكمة ثم الى الملك وأسباب الدنيا وأما قول الهدهد فلم يكن الا الى ما يتعلق بالدنيا وأما قوله ولها عرش عظيم ففيه سؤال وهو أنه كيف استعظم الهدهد عرشها مع ما كان يرى من ملك سليمان وأيضا فكيف سوى بين عرش بلقيس وعرش الله تعالى فى الوصف بالعظيم (والجواب عن الاول) يجوز أن يستصغر حالها الى حال سليمان فاستعظم لها ذلك العرش ويجوز أن لا يكون لسليمان مع جلالته مثله كما قد يتفق لبعض الامراء شئ لا يكون مثله عند السلطان وعن الثانى أن وصف عرشها بالعظم تعظيم له بالاضافة الى عروش أبناء جنسها من الملوك ووصف عرش الله بالعظم تعظيم له بالنسبة الى سائر ما خلق من السموات والارض ❊ واعلم أن ههنا بحثين ﴿البحث الاول﴾ أن الملحدة طعنت فى هذه القصة من وجوه (أحدها) أن هذه الآيات اشتملت على أن النملة والهدهد تكلما بكلام لا يصدر ذلك الكلام الا من العقلاء وذلك يجر الى السفسطة فانا لو جوزنا ذلك لما أمنا فى النملة التى نشاهدها فى زماننا هذا أن تكون أعلم بالهندسة من أوقليدس وبالنحو من سيبويه وكذا القول فى القملة والصئبان ويجوز أن يكون فيهم الانبياء والتكاليف والمعجزات ومعلوم أن من جوز ذلك كان الى الجنون أقرب (وثانيها) أن سليمان عليه السلام كان بالشام فكيف طار الهدهد فى تلك اللحظة اللطيفة من الشام الى اليمن ثم رجع اليه (وثالثها) كيف خفى على سليمان عليه السلام حال مثل تلك المملكة العظيمة مع ما يقال أن الجن والانس كانوا فى طاعة سليمان وأنه عليه السلام كان ملك الدنيا بالكلية وكان تحت راية بلقيس على ما يقال اثنا عشر ألف ملك تحت راية كل واحد منهم مائة ألف ومع أنه يقال انه لم يكن بين سليمان وبين بلدة بلقيس حال طيران الهدهد الا مسيرة ثلاثة أيام (ورابعها) من أين حصل للهدهد معرفة الله تعالى ووجوب السجود له وانكار سجودهم للشمس واضافته الى الشيطان وتزيينه (والجواب عن الاول) أن ذلك الاحتمال قائم فى أول العقل وانما يدفع ذلك بالاجماع (وعن البواقى) أن الايمان بافتقار العالم الى القادر المختار يزيل هذه الشكوك ﴿البحث الثانى﴾ قالت المعتزلة قوله يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم يدل على أن فعل العبد من جهته لانه تعالى أضاف ذلك الى الشيطان بعد اضافته اليهم ولانه أورده مورد الذم ولانه بين أنهم لا يهتدون ❊ والجواب من وجوه (أحدها) أن هذا قول الهدهد فلا يكون حجة (وثانيها) انه متروك الظاهر فانه قال فصدهم عن السبيل وعندهم الشيطان ما صد الكافر عن السبيل اذ لو كان صده وداعيه وما سقط عنه التكليف فلم يبق ههنا الا التمسك بفصل المدح والذم والجواب قد تقدم عنه مرارا فلا فائدة فى الاعادة والله أعلم ❊ قوله تعالى ﴿ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والارض ويعلم ما يخفون وما يعلنون الله لا اله الا هو رب العرش العظيم قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين اذهب بكتابى هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون﴾ وفيه مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ اعلم أن فى قوله تعالى ألا يسجدوا قراآت (احداها) قراءة من قرأ بالتخفيف ألا للتنبيه ويا حرف النداء ومناداه محذوف كما حذفه من قال ❊ ألا يا اسلمى يا دارمى على البلى ❊ (وثانيها)

الجديدين أو نيريهما اذا تأمن حيث الاظلام والاضاءة مع تعاقبهما أو حركاتهما وأوضاعهما أو سائر أحوالهما (عدد السنين) التى يتعلق بها غرض على لاقامة مصالح الحكم الدينية والدنيوية (والحساب) أى الحساب المتعلق بما فى ضمنها من الاوقات أى الاشهر والليالى والايام وغير ذلك مما نيط به شئ من المصالح المذكورة ونفس السنة من حيث تحققها مما ينتظمه الحساب وانما الذى تعلق به العدد طائفة منها وتعلقه فى ضمن ذلك بكل واحدة منها ليس من الحيثية المذكورة أعنى حيثية تحققها وتحصلها من عدة أشهر قد تحصل كل واحد منها من عدة أيام قد حصل كل منها بطائفة من الساعات مثلا فان ذلك وظيفة الحساب بل من حيث انها فرد من تلك الطائفة المعدودة بعدها أى بفنيها من غير أن يعتبر فى ذلك تحصل شئ معين وتحقيقه ما مر فى سورة يونس من أن الحساب احصاء ماله كمية منفصلة بتكرير أمثاله من حيث يتحصل بطائفة معينة منها حد معين منه له اسم خاص وحكم مستقل كما أشير اليه آنفا والعد احصاؤه بمجرد تكرير أمثاله من غير أن يتحصل منه شئ كذلك ولما أن السنين لم يعتبر فيها حد معين له اسم خاص وحكم مستقل أضيف اليها العدد وعلق الحساب بما عداها مما اعتبر فيه تحصل مراتب معينة لها أسام خاصة وأحكام مستقلة وتحصل مراتب الاعداد من العشرات والمئات والالوف اعتبارى لا يجدى فى تحصل المعدودات وتقديم العدد على الحساب مع أن الترتيب بين متعلقيهما وجودا وعلما على العكس للتنبيه من أول الامر على أن متعلق الحساب ما فى تضاعيف السنين من الاوقات أو لان العلم المتعلق بعدد السنين علم اجمالى بما تعلق به الحساب تفصيلا أو لان العدد من حيث انه لم يعتبر فيه

بالتشديد أراد فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا فحذف الجار مع أن ويجوز أن تكون لا مزيدة ويكون المعنى فهم لا يهتدون الى أن يسجدوا (وثالثها) وهي حرف عبد الله وقراءة الاعمش هلا بقلب الهمزة هاء وعن عبد الله هلا تسجدون بمعنى ألا تسجدون على الخطاب (ورابعها) قراءة أبي ألا يسجدون لله الذي يخرج الخبء في السموات والارض ويعلم سركم وما تعلنون (المسئلة الثانية) قال أهل التحقيق قوله ألا يسجدوا يجب أن يكون بمعنى الامر لانه لو كان بمعنى المنع من السجود لم يكن لوصفه تعالى بما يوجب أن يكون السجود له وهو كونه قادرا على اخراج الخبء عالما بالاسرار معنى (المسئلة الثالثة) الآية دلت على وصف الله تعالى بالقدرة والعلم أما القدرة فقوله يخرج الخبء في السموات والارض وسمى المخبوء بالمصدر وهو يتناول جميع أنواع الارزاق والاموال واخراجه من السماء بالغيث ومن الارض بالنبات وأما العلم فقوله ويعلم ما يخفون وما يعلنون واعلم ان المقصود من هذا الكلام الرد على من يعبد الشمس وتحرير الدلالة هكذا أن الاله يجب أن يكون قادرا على اخراج الخبء وعالما بالخفيات والشمس ليست كذلك فهي لا تكون الها واذا لم تكن الها لم يجز السجود لها أما انه سبحانه وتعالى يجب أن يكون قادرا عالما على الوجه المذكور فلما أنه واجب لذاته فلا تختص قادريته وعالميته ببعض المقدورات والمعلومات دون البعض وأما أن الشمس ليست كذلك فلانها جسم متناه وكل ما كان متناهيا في الذات كان متناهيا في الصفات واذا كان كذلك فحينئذ لا يعلم كونها قادرة على اخراج الخبء عالمة بالخفيات فاذا لم يعلم من حالها ذلك لم يعلم من حالها كونها قادرة على جلب المنافع ودفع المضار فيرجع حاصل الدلالة الى ما ذكره ابراهيم عليه السلام في قوله لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيأ وفي قوله لله الذي يخرج الخبء في السموات والارض وجه آخر وهو أن هذا اشارة الى ما استدل به ابراهيم عليه السلام في قوله ربي الذي يحيي ويميت وفي قوله ان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب وذلك لانه سبحانه وتعالى هو الذي يخرج الشمس من المشرق بعد أفولها في المغرب فهذا هو اخراج الخبء في السموات وهو المراد من قول ابراهيم عليه السلام لا أحب الآفلين ومن قوله فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ومن قول موسى عليه السلام رب المشرق والمغرب وحاصله يرجع الى أن أفول الشمس وطلوعها يدلان على كونها تحت تدبير مدبر قاهر فكانت العبادة للقاهر لها والمتصرف فيها أولى وأما اخراج الخبء من الارض فهو يتناول اخراج النطفة من الصلب والترائب وتكوين الجنين منه فان قيل ان ابراهيم وموسى عليهما السلام قدما دلالة الانفس على دلالة الآفاق فان ابراهيم قال ربي الذي يحيي ويميت ثم قال فان الله يأتي بالشمس من المشرق وموسى عليه السلام قال ربكم ورب آبائكم الاولين ثم قال رب المشرق والمغرب فلم كان الامر ههنا بالعكس فقدم خبء السموات على خبء الارض (جوابه) أن ابراهيم وموسى عليهما السلام كانا يناظران مع من ادعى الالهية البشرية فلا جرم ابتدآ بابطال الالهية البشرية ثم انتقلا الى ابطال الالهية السموات وههنا المناظرة مع من ادعى الالهية للشمس لقوله وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله فلا جرم ابتدأ بذكر السماويات ثم بالارضيات أما قوله الله لا اله الا هو رب العرش العظيم فالمراد منه أنه سبحانه لما بين افتقار السموات والارض وما بينهما الى المدبر ذكر بعد ذلك أن ما هو أعظم الاجسام فهي مخلوقة ومربوبة وذلك يدل على أنه سبحانه هو المنتهي في القدرة والربوبية الى ما لا مزيد عليه والله أعلم (المسئلة الرابعة) قيل من أحطت الى العظيم كلام الهدهد وقيل كلام رب العزة (المسئلة الخامسة) الحق أن سجدة التلاوة واجبة في القراءتين جميعا وهو قول الشافعي وأبي حنيفة رحمة الله عليهما لانهم

اجمعوا

تحصيل شئ آخر منه حسبما ذكر نازل من الحساب المعتبر فيه ذلك منزلة البسيط من المركب أولان العلم المتعلق بالاول أقصى المراتب فكان جديرا بالتقدير في مقام الامتنان والله سبحانه أعلم (وكل شئ) تفتقرون اليه في المعاش والمعاد سوى ما ذكر من جعل الليل والنهار آيتين وما يتبعه من المنافع الدينية والدنيوية وهو منصوب بفعل يفسره قوله تعالى (فصلناه تفصيلا) أي بيناه في القرآن الكريم بيانا بليغا لا التباس معه كقوله تعالى ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ فظهر كونه هاديا للتي هي أقوم ظهورا بينا (وكل انسان) مكلف (ألزمناه طائره) أي عمله الصادر عنه باختياره حسبما قدر له كأنه طار اليه من عش الغيب ووكر القدر أو ما وقع له في القسمة الازلية الواقعة حسب استحقاقه في العلم الازلي من قولهم طار له سهم كذا (في عنقه) تصويرا لشدة اللزوم وكمال الارتباط أي ألزمناه عمله بحيث لا يفارقه أبدا بل يلزمه لزوم القلادة أو الغل للعنق لا ينفك عنه بحال وقرئ بسكون النون (ونخرج له) بنون العظمة وقد قرئ بالياء مبنيا للفاعل على أن الضمير لله عز وجل وللمفعول والضمير للطائر كما في قراءة يخرج من الخروج (يوم القيامة) والبعث للحساب (كتابا) مسطورا فيه ما ذكر من عمله نقيرا وقطميرا وهو مفعول لنخرج على القراءتين الاوليين أو حال من المفعول المحذوف الراجع الى الطائر وعلى الاخريين حال من المستتر في الفعل من ضمير الطائر (يلقاه) أي يلقى الانسان أو يلقاه الانسان (منشورا) وهما صفتان للكتاب أو الاول صفة والثاني حال منها وقرئ يلقاه من لقيته كذا أي

أجمعوا على أن سجدات القرآن أربع عشرة سجدة وهذا واحدة منها ولان مواضع السجدة اما أمر بها أو مدح لمن أتى بها أو ذم لمن تركها واحدى القراءتين أمر بالسجود والاخرى ذم للتارك فثبت أن الذى ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد غير ملتفت اليه (المسئلة السادسة) يقال هل يفرق الواقف بين القراءتين (جوابه) نعم اذا خفف وقف على فهم لا يهتدون ثم ابتدأ ألا يسجدوا وان شاء وقف على ألا يا ثم ابتدأ اسجدوا واذا شدد لم يقف الا على العرش العظيم أما قوله سننظر فمن النظر الذى هو التأمل وأراد صدقت أم كذبت الا أن أم كنت من الكاذبين أبلغ لانه اذا كان معروفا بالكذب كان متهما بالكذب فيما أخبر به فلم يوثق به وانما قال فألقه اليهم على لفظ الجمع لانه قال وجدتها وقومها يسجدون للشمس فقال فألقه اليهم الى الذين هذا دينهم أما قوله ثم تول عنهم أى تنح عنهم الى مكان قريب تتوارى فيه ليكون ما يقولونه بمسمع منك و يرجعون من قوله تعالى يرجع بعضهم الى بعض القول و يقال دخل عليها من كوة وألقى اليها الكتاب وتوارى فى الكوة ﴿قوله تعالى ﴿قالت يا أيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتونى مسلمين قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والامر اليك فانظرى ماذا تأمرين﴾ اعلم أن قوله قالت يا أيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم يعنى أن يقال ان الهدهد ألقى اليها الكتاب فهو محذوف كأنه ثابت روى أنها كانت اذا رقدت غلقت الابواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهى مستلقية وقيل نقرها فانتبهت فزعة أما قوله كتاب كريم ففيه ثلاثة أوجه (أحدها) حسن مضمونه وما فيه (وثانيها) وصفه بالكريم لانه من عند ملك كريم (وثالثها) أن الكتاب كان مختوما وقال عليه السلام كرم الكتاب ختمه وكان عليه السلام يكتب الى العجم فقيل له انهم لا يقبلون الا كتابا عليه خاتم فاتخذ لنفسه خاتما ﴿أما قوله انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ففيه أبحاث (البحث الاول) انه استئناف وتبيين لما ألقى اليها كأنها لما قالت انى ألقى الى كتاب كريم قيل لها ممن هو وما هو فقالت انه من سليمان وانه كيت وكيت وقرأ عبد الله وانه من سليمان وانه بسم الله عطفا على انى وقرئ أنه من سليمان وانه بالفتح وفيه وجهان (أحدهما) انه بدل من كتاب كأنه قيل ألقى الى أنه من سليمان (وثانيهما) أن يريد انه من سليمان ولانه بسم الله كأنها عللت كرمه بكونه من سليمان وتصديره بسم الله وقرأ أبى ان من سليمان وان بسم الله على أن المفسرة وان فى أن لا تعلوا مفسرة أيضا ومعنى لا تعلوا لا تتكبروا كما تفعل الملوك وقرأ ابن عباس بالغين معجمة من الغلو وهى مجاوزة الحد (البحث الثانى) يقال لم قدم سليمان اسمه على قوله بسم الله الرحمن الرحيم (جوابه) حاشاه من ذلك بل ابتدأ هو بسم الله الرحمن الرحيم وانما ذكرت بلقيس ان هذا الكتاب من سليمان ثم حكت ما فى الكتاب والله تعالى حكى ذلك فالتقديم واقع فى الحكاية (البحث الثالث) ان الانبياء عليهم السلام لا يطيلون بل يقتصرون على المقصود وهذا الكتاب مشتمل على تمام المقصود وذلك لان المطلوب من الخلق اما العلم أو العمل والعلم مقدم على العمل فقوله بسم الله الرحمن الرحيم مشتمل على اثبات الصانع سبحانه وتعالى واثبات كونه عالما قادرا حيا مريدا حكيما رحيما وأما قوله ألا تعلوا على فهو نهى عن الانقياد لطاعة النفس والهوى والتكبر وأما قوله وأتونى مسلمين فالمراد من المسلم اما المنقاد أو المؤمن فثبت أن هذا الكتاب على وجازته يحوى كل ما لا بد منه فى الدين والدنيا فان قيل النهى عن الاستعلاء والامر بالانقياد قبل اقامة الدلالة على كونه رسولا حقا يدل على الاكتفاء بالتقليد جوابه معاذ الله أن يكون هناك تقليد وذلك لان رسول سليمان

يا فتى الانسان اياه قال الحسن بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان فهما عن يمينك وعن شمالك فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك وأما الذى عن شمالك فيحفظ سيآتك حتى اذا مت طويت صحيفتك وجعلت معك فى قبرك حتى تخرج لك يوم القيامة (اقرأ كتابك) أى قائلين لك ذلك عن قتادة يقرأ ذلك اليوم من لم يكن فى الدنيا قارئا وقيل المراد بالكتاب نفسه المنتقشة بآثار أعماله فان كل عمل يصدر من الانسان خيرا أو شرا يحدث منه فى جوهر روحه أمر مخصوص الا أنه يخفى ما دام الروح متعلقا بالبدن مشتغلا بواردات الحواس والقوى فاذا انقطعت علاقته عن البدن قامت قيامته لان النفس كانت ساكنة مستقرة فى الجسد وعند ذلك قامت وتوجهت نحو الصعود الى العالم العلوى فيزول الغطاء و تنكشف الاحوال و يظهر على لوح النفس نقش كل شئ عمله فى مدة عمره وهذا معنى الكتابة والقراءة (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) أى كفى نفسك والباء زائدة واليوم ظرف لكفى وحسيبا تمييز وعلى صلته لانه بمعنى الحاسب كالصريم بمعنى الصارم من حسب عليه كذا أو بمعنى الكافى ووضع موضع الشهيد لانه يكفى المدعى ما أهمه وتذكيره لان ما ذكر من الحساب والكفاية مما يتولاه الرجال أو لانه مبنى على تأويل النفس بالشخص على أنها عبارة عن نفس المذكر كقول جبلة بن حريث

يا نفس انك باللذات مسرور * فاذكر فهل ينفعنك اليوم تذكير

(من اهتدى فانما يهتدى لنفسه) فذلكة لما تقدم من بيان كون القرآن هاديا للاقوم الطرائق ولزوم الاعمال لاصحابها أى من اهتدى بهدايته وعمل بما فى تضاعيفه من الاحكام وانتهى عما نهاه عنه

فإنما تعود منفعة اهتدائه الى نفسه لا تتخطاها الى غيره ممن لا يهتدي (ومن ضل) عن الطريقة التي يهديه اليها (فإنما يضل عليها) أي فإنما وبال ضلاله عليه لا على من عداه ممن لم يباشره حتى يمكن مفارقة العمل صاحبه (ولا تزر وازرة وزر أخرى) تأكيد للجملة الثانية أي لا تحمل نفس حاملة للوزر وزر نفس أخرى حتى يمكن تخلص النفس الثانية عن وزرها ويختل ما بين العامل وعمله من التلازم بل إنما تحمل كل منهما وزرها وهذا تحقيق لمعنى قوله عز وجل وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه وأما ما يدل عليه قوله تعالى من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وقوله تعالى ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم من حمل الغير وزر الغير وانتفاعه بحسنته وتضرره بسيئته فهو في الحقيقة انتفاع بحسنة نفسه وتضرر بسيئته فان جزاء الحسنة والسيئة اللتين يعملهما العامل لازم له وانما الذي يصل الى من يشفع جزاء شفاعته لا جزاء أصل الحسنة والسيئة وكذلك جزاء الضلال مقصور على الضالين وما يحمله المضلون انما هو جزاء الاضلال لا جزاء الضلال وانما خص التأكيد بالجملة الثانية قطعا للأطماع الفارغة حيث كانوا يزعمون أنهم ان لم يكونوا على الحق فالتبعة على أسلافهم الذين قلدوهم (وما كنا معذبين) بيان للعناية الربانية إثر بيان اختصاص آثار الهداية والضلال بأصحابها وعدم حرمان المهتدي من ثمرات هدايته وعدم مؤاخذة النفس بجناية غيرها أي وما صح وما استقام منا بل استحال في سنتنا المبنية على الحكم البالغة أو ما كان في حكمتنا الماضي وقضائنا السابق أن نعذب أحدا من أهل الضلال والأوزار اكتفاء بقضية العقل

الى بلقيس كان الهدهد ورسالة الهدهد معجزا والمعجز يدل على وجود الصانع وعلى صفاته ويدل على صدق المدعي فلما كانت تلك الرسالة دلالة تامة على التوحيد والنبوة لا جرم لم يذكر في الكتاب دليلا آخر أما قوله يا أيها الملأ أفتوني في أمري فالفتوى هي الجواب في الحادثة اشتقت على طريق الاستعارة من الفتى في السن أي أجيبوني في الامر الفتي وقصدت بالانقطاع اليهم واستطلاع رأيهم تطييب قلوبهم ما كنت قاطعة أمرا أي لا أبت أمرا الا بمحضركم أما قوله قالوا نحن أولو قوة فالمراد قوة الاجسام وقوة الآلات والمراد بالبأس النجدة والثبات في الحرب وحاصل الجواب أن القوم ذكروا أمرين (أحدهما) اظهار القوة الذاتية والعرضية لتظهر أنهم ان أرادتهم للدفع والحرب وجدتهم بحيث تريد (والآخر) قولهم والامر اليك فانظري ماذا تأمرين وفي ذلك اظهار الطاعة لها ان أرادت السلم ولا يمكن ذكر جواب أحسن من هذا والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون واني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾ اعلم أنها لما عرضت الواقعة على أكابر قومها وقالوا ما تقدم أظهرت رأيها وهو أن الملوك اذا دخلوا قرية بالقهر أفسدوها أي خربوها وأذلوا أعزتها فذكرت لهم عاقبة الحرب وأما قوله وكذلك يفعلون فقد اختلفوا أهو من كلامها أو من كلام الله تعالى كالتصويب لها والاقرب أنه من من كلامها وأنها ذكرته تأكيدا لما وصفته من حال الملوك فأما الكلام في صفة الهدية فالناس أكثروا فيها لكن لا ذكر لها في الكتاب ردوا بها فناظرة بم يرجع المرسلون فيه دلالة على انها لم تثق بالقبول وجوزت الرد وأرادت بذلك أن ينكشف لها غرض سليمان ولما وصلت الهدايا الى سليمان عليه السلام ذكر أمرين (الاول) قوله أتمدونن بمال فأظهر بهذا الكلام قلة الاكتراث بذلك المال أما قوله بل أنتم بهديتكم تفرحون ففيه ثلاثة أوجه (أحدها) أن الهدية اسم للمهدى كما أن العطية اسم للمعطى فتضاف الى المهدي والى المهدى له والمضاف اليه ههنا هو المهدى اليه والمعنى أن الله تعالى آتاني الدين الذي هو السعادة القصوى وآتاني من الدنيا ما لا مزيد عليه فكيف يستمال مثلي بمثل هذه الهدية بل أنتم تفرحون بما يهدى اليكم لكن حالي خلاف حالكم (وثانيها) بل أنتم بهديتكم هذه التي أهديتموها تفرحون من حيث انكم قدرتم على اهداء مثلها (وثالثها) كأنه قال بل أنتم من حقكم أن تأخذوا هديتكم وتفرحوا بها (الثاني) قوله ارجع اليهم فقيل ارجع خطاب للرسول وقيل للهدهد محملا كتابا آخر أما قوله تعالى لا قبل أي لا طاقة وحقيقة القبل المقاومة والمقابلة أي لا يقدرون أن يقابلوهم وقرأ ابن مسعود لا قبل لهم بهم والضمير في منها للسبا والذل أن يذهب عنهم ما كان عندهم من العز والملك والصغار أن يقعوا في أسر واستعباد ولا يقتصر بهم على أن يرجعوا سوقة بعد ان كانوا ملوكا ﴿ قوله تعالى ﴿قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك واني عليه لقوي أمين قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربي غني كريم﴾ اعلم أن في قوله تعالى قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها دلالة على انها عزمت على اللحوق بسليمان ودلالة على ان أمر ذلك العرش كان مشهورا فأحب أن يحصل عنده قبل حضورها واختلفوا في غرض سليمان عليه السلام من احضار ذلك العرش على وجوه (أحدها) ان المراد أن يكون ذلك دلالة

(حتى نبعث) اليهم (رسولا) يهديهم الى الحق ويردعهم عن الضلال ويقيم الحجج ويمهد الشرائع حسبما في تضاعيف الكتاب المنزل عليه والمراد بالعذاب المنفي اما عذاب الاستئصال كما قاله الشيخ أبو منصور الماتريدي رحمه الله ٤٤٥ وهو المناسب لما بعده أو الجنس الشامل للدنيوي والأخروي وهو من أفراده وأياما كان فالبعث غاية لعدم صحة وقوعه في وقته المقدر له لا لعدم وقوعه مطلقا كيف لا والأخروي لا يمكن وقوعه عقيب البعث والدنيوي أيضا لا يحصل الا بعد تحقق ما يوجبه من الفسق والعصيان ألا ترى الى قوم نوح كيف تأخر عنهم ما حل بهم زهاء ألف سنة وقوله تعالى (واذا أردنا أن نهلك قرية) بيان لكيفية وقوع التعذيب بعد البعثة التي جعلت غاية لعدم صحته وليس المراد بالارادة تحققها بالفعل اذ لا يتخلف عنها المراد ولا الارادة الازلية المتعلقة بوقوع المراد في وقته المقدر له اذ لا يقارنه الجزاء الآتي بل دنو وقتها كما في قوله تعالى أتى أمر الله أي واذا دنا وقت تعلق ارادتنا باهلاك قرية بان نعذب أهلها بما ذكرنا من عذاب الاستئصال الذي بينا أنه لا يصح منا قبل البعثة أو بنوع مما ذكرنا شأنه من مطلق العذاب أعني عذاب الاستئصال لما لهم من الظلم والمعاصي دنوا تقتضيه الحكمة من غير أن يكون له حد معين (أمرنا) بواسطة الرسول المبعوث الى أهلها (مترفيها) متنعميها وجباريها وملوكها خصهم بالذكر مع توجه الامر الى الكل لانهم الاصول في الخطاب والباقي أتباع لهم ولان توجه الامر اليهم آكد وعدم التعرض للمأمور به اما لظهور أن المراد به الحق والخير لان الله لا يأمر بالفحشاء لا سيما بعد ذكر هداية القرآن لما يهدي اليه واما لان المراد وجه تنا الامر كما يقال فلان يعطي ويمنع (ففسقوا فيها) أي خرجوا عن الطاعة وتمردوا (فحق عليها

بلقيس على قدرة الله تعالى وعلى نبوة سليمان عليه السلام حتى تنضم هذه الدلالة الى سائر الدلائل التي سلفت (وثانيها) أراد أن يؤتى بذلك العرش فيغير وينكر ثم يعرض عليها حتى انها هل تعرفه أو تنكره والمقصود اختبار عقلها وقوله تعالى قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي كالدلالة على ذلك (وثالثها) قال قتادة أراد أن يأخذه قبل اسلامها لعلمه انها اذا أسلمت لم يحل له أخذ مالها (ورابعها) ان العرش سرير المملكة فأراد أن يعرف مقدار مملكتها قبل وصولها اليه أما قوله قال عفريت من الجن فالعفريت من الرجال الخبيث المنكر الذي يعفر أقرانه ومن الشياطين الخبيث المارد أما قوله قبل أن تقوم من مقامك فالمعنى من مجلسك ولابد فيه من عادة معلومة حتى يصح أن يؤقت فقيل المراد مجلس الحكم بين الناس وقيل الوقت الذي يخطب فيه الناس وقيل الى انتصاف النهار وأما قوله لقوي أي على حمله أمين آتي به كما هو لا أختزل منه شيأ ✻ أما قوله قال الذي عنده علم من الكتاب ففيه بحثان (الاول) اختلفوا في ذلك الشخص على قولين قيل كان من الملائكة وقيل كان من الانس فمن قال بالاول اختلفوا قيل هو جبريل عليه السلام وقيل هو ملك أيد الله تعالى به سليمان عليه السلام ومن قال بالثاني اختلفوا على وجوه (أحدها) قول ابن مسعود انه الخضر عليه السلام (وثانيها) وهو المشهور من قول ابن عباس انه آصف بن برخيا وزير سليمان وكان صديقا يعلم الاسم الاعظم اذا دعا به أجيب (وثالثها) قول قتادة رجل من الانس كان يعلم اسم الله الاعظم (ورابعها) قول ابن زيد كان رجلا صالحا في جزيرة في البحر خرج ذلك اليوم ينظر الى سليمان (وخامسها) بل هو سليمان نفسه والمخاطب هو العفريت الذي كلمه وأراد سليمان عليه السلام اظهار معجزة فتحداهم أولا ثم بين للعفريت أنه يتأتى له من سرعة الاتيان بالعرش ما لا يتهيأ للعفريت وهذا القول أقرب لوجوه (أحدها) ان لفظة الذي موضوعة في اللغة للاشارة الى شخص معين عند محاولة تعريفه بقصة معلومة والشخص المعروف بأنه عنده علم الكتاب هو سليمان عليه السلام فوجب انصرافه اليه أقصى ما في الباب أن يقال كان آصف كذلك أيضا لكنا نقول ان سليمان عليه السلام كان أعرف بالكتاب منه لانه هو النبي فكان صرف هذا اللفظ الى سليمان عليه السلام أولى (الثاني) أن احضار العرش في تلك الساعة اللطيفة درجة عالية فلو حصلت لآصف دون سليمان لاقتضى ذلك تفضيل آصف على سليمان عليه السلام وانه غير جائز (الثالث) أن سليمان عليه السلام لو افتقر في ذلك الى آصف لاقتضى ذلك قصور حال سليمان في أعين الخلق (الرابع) أن سليمان قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر وظاهره يقتضي أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله تعالى بدعاء سليمان (البحث الثاني) اختلفوا في الكتاب فقيل اللوح المحفوظ والذي عنده علم منه جبريل عليه السلام وقيل كتاب سليمان أو كتاب بعض الانبياء ومعلوم في الجملة أن ذلك مدح وان لهذا الوصف تأثيرا في نقل ذلك العرش فلذلك قالوا انه الاسم الاعظم وان عنده وقعت الاجابة من الله تعالى في أسرع الاوقات ✻ أما قوله تعالى أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك ففيه بحثان (الاول) آتيك في الموضعين يجوز أن يكون فعلا واسم فاعل (الثاني) اختلفوا في قوله قبل أن يرتد اليك طرفك على وجهين (الاول) انه أراد المبالغة في السرعة كما تقول لصاحبك افعل ذلك في لحظة وهذا قول مجاهد (الثاني) أن نجريه على ظاهره والطرف تحريك الاجفان عند النظر فاذا فتحت الجفن فقد يتوهم أن نور العين امتد الى المرئي واذا غمضت الجفن فقد يتوهم أن ذلك النور ارتد الى العين فهذا هو المراد من ارتداد الطرف (وههنا سؤال) وهو أنه كيف يجوز والمسافة بعيدة أن ينقل العرش في هذا القدر من الزمان وهذا يقتضي اما القول بالطفرة أو حصول

القول) أى ثبت وتحقق موجبه بحلول العذاب اثرما ظهر منهم من الفسق والطغيان (فدمرناها) بتدمير أهلها (تدميرا) لا يكتنه كنهه ولا يوصف هذا هو المناسب لما سبق وقيل الامر مجاز عن الحمل على الفسق والتسبب له بأن صب عليهم ما أبطرهم وأفضى بهم الى الفسوق وقيل هو بمعنى التكثير يقال أمرت الشئ فأمر أى كثرته فكثر وفى الحديث خير المال سكة مأبورة ومهرة مأمورة أى كثيرة النتاج ويعضده قراءة آمرنا وأمرنا من الافعال والتفعيل وقد جعلنا من الامارة أى جعلناهم امراء وكل ذلك لا يساعده مقام الزجر عن الضلال والحث على الاهتداء فان مؤدى ذلك أن طغيانهم منوط بارادة الله سبحانه وانعامه عليهم بنعم وافرة أبطرتهم وحملتهم على الفسق حملا حقيقا بأن يعبر عنه بالامر به (وكم أهلكنا) أى وكثيرا ما أهلكنا (من القرون) بيان لكم وتمييز له والقرن مدة من الزمان يخترم فيها القوم وهى عشرون أو ثلاثون أو أربعون أو ثمانون أو مائة وقد أيد ذلك بانه عليه الصلاة والسلام دعا لرجل فقال عش قرنا فعاش مائة سنة أو مائة وعشرون (من بعد نوح) من بعد زمنه عليه الصلاة والسلام كعاد وثمود ومن بعدهم ممن قصت أحوالهم فى القرآن العظيم ومن لم تقص وعدم نظم قومه عليه الصلاة والسلام فى تلك القرون المهلكة لظهور أمرهم على أن ذكره عليه الصلاة والسلام رمز الى ذكرهم (وكفى بربك) أى كفى ربك (بذنوب عباده خبيرا بصيرا) محيطا بظواهرها وبواطنها فيعاقب عليها وتقديم الخبير لتقدم متعلقه من الاعتقادات والنيات التى هى مبادى الاعمال الظاهرة أو لعمومه حيث يتعلق بغير المبصرات أيضا وفيه اشارة الى أن البعث والامر وما يتلوهما من فسقهم ليس لتحصيل العلم بما صدر عنهم من الذنوب فان ذلك حاصل قبل

عن

الجسم الواحد دفعة واحدة فى مكانين (جوابه) أن المهندسين قالوا كرة الشمس مثل كرة الارض مائة وأربعة وستين مرة ثم ان زمان طلوعها زمان قصير فاذا قسمنا زمان طلوع تمام القرص على زمان القدر الذى بين الشام واليمن كانت اللحظة كثيرة فلما ثبت عقلا امكان وجود هذه الحركة السريعة وثبت أنه تعالى قادر على كل الممكنات زال السؤال ثم انه عليه السلام لما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر والكلام فى تفسير الابتلاء قد مر غير مرة ثم انه عليه السلام بين أن نفع الشكر عائد الى الشاكر لا الى الله تعالى أما انه عائد الى الشاكر فلوجوه (أحدها) أنه يخرج عن عهدة ما وجب عليه من الشكر (وثانيها) انه يستمد به المزيد على ما قال لئن شكرتم لازيدنكم (وثالثها) أن المشتغل بالشكر مشتغل بالمنعم والمعرض عن الشكر مشتغل باللذات الحسية وفرق ما بينهما كفرق ما بين المنعم والنعمة فى الشرف ثم قال ومن كفر فان ربى غنى كريم غنى عن شكره لا يضره كفرانه كريم لا يقطع عنه نعمه بسبب اعراضه عن الشكر ﴿قوله تعالى ﴿قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين وصدها ما كانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم كافرين﴾ اعلم أن قوله نكروا معناه اجعلوا العرش منكرا متغيرا عن شكله كما يتنكر الرجل للناس لئلا يعرفوه وذلك لانه لو ترك على ما كان لعرفته لا محالة وكان لا تدل معرفتها به على ثبات عقلها واذا غير دلت معرفتها أو توقفها فيه على فضل عقل ولا يمتنع صحة ما قيل ان سليمان عليه السلام ألقى اليه ان فيها نقصان عقل لكى لا يتزوجها أو لا تحظى عنده على وجه الحسد فأراد عند ذكرنا اختبار عقلها أما قوله ننظر فقرئ بالجزم على الجواب وبالرفع على الاستئناف واختلفوا فى أتهتدى على وجهين (أحدهما) أتعرف انه عرشها أم لا كما قدمنا (الثانى) أتعرف به نبوة سليمان أم لا ولذلك قال أم تكون من الذين لا يهتدون وذلك كالذم ولا يليق الا بطريقة الدلالة فكأنه عليه السلام أحب أن تنظر فتعرف به نبوته من حيث صار متنقلا من المكان البعيد الى هنالك وذلك يدل على قدرة الله تعالى وعلى صدق سليمان عليه السلام ويعرف بذلك أيضا فضل عقلها لاغراض كانت له فعند ذلك سألها أما قوله أهكذا عرشك فاعلم أن هكذا ثلاث كلمات حرف التنبيه وكاف التشبيه واسم الاشارة ولم يقل أهذا عرشك ولكن أمثل هذا عرشك لئلا يكون تلقينا فقالت كأنه هو ولم تقل هو ولا ليس به وذلك من كمال عقلها حيث توقفت فى محل التوقف ﴿ أما قوله وأوتينا العلم من قبلها ففيه سؤالان وهو ان هذا الكلام كلام من وأيضا فعلى أى شئ عطف هذا الكلام وعنه جوابان (الاول) انه كلام سليمان وقومه وذلك لان بلقيس لما سئلت عن عرشها ثم انها أجابت بقولها كأنه هو فالظاهر ان سليمان وقومه قالوا انها قد أصابت فى جوابها وهى عاقلة لبيبة وقد رزقت الاسلام ثم عطفوا على ذلك قولهم وأوتينا نحن العلم بالله وبقدرته قبل علمها ويكون غرضهم من ذلك شكر الله تعالى فى أن خصهم بمزية التقدم فى الاسلام (الثانى) انه من كلام بلقيس موصولا بقولها كأنه هو والمعنى وأوتينا العلم بالله وبصحة نبوة سليمان قبل هذه المعجزة أو قبل هذه الحالة ثم ان قوله وصدها ما كانت تعبد من دون الله الى آخر الآية يكون من كلام رب العزة ﴿ أما قوله تعالى وصدها ما كانت تعبد من دون الله ففيه وجهان (الاول) المراد وصدها عبادتها لغير الله عن الايمان (الثانى) وصدها الله أو سليمان عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار وايصال الفعل وقرئ أنها بالفتح على انه بدل من فاعل صد أو بمعنى لانها واحتجت المعتزلة بهذه الآية فقالوا لو كان تعالى خالق الكفر فيها لم يكن انصدادها كفرها المتقدم ولا كونها من جملة الكفار بل كان يكون انصدادها

عن الايمان تجدد خلق الله الكفر فيها والجواب أما على التأويل الثاني فلا شك في سقوط الاستدلال وأما على الاول فجوابنا أن كونها من جملة الكفار صار سببا لحصول الداعية المستلزمة للكفر وحينئذ يبقى ظاهر الآية موافقا لقولنا والله أعلم ﴿ قوله تعالى ﴿قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال انه صرح ممرد من قوارير قالت رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾ اعلم انه تعالى لما حكى اقامتها على الكفر مع كل ما تقدم من الدلائل ذكر أن سليمان عليه السلام أظهر من الامر ما صار داعيا لها الى الاسلام وهو قوله قيل لها ادخلي الصرح والصرح القصر كقوله ياهامان ابن لى صرحا وقيل صحن الدار وقرأ ابن كثير عن سأقيها بالهمز ووجهه أنه سمع سؤقا فأجرى عليه الواحد والممرد المملس روى أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصر من زجاج أبيض كالماء بياضا ثم أرسل الماء تحته وألقى فيه السمك وغيره ووضع سريره في صدره فجلس عليه وعكف عليه الانس والجن والطير وانما فعل ذلك ليزيدها استعظاما لامره وتحققا لنبوته وزعموا أن الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضى اليه بأسرارهم لانها كانت بنت جنية وقيل خافوا أن يولد له منها ولد فيجتمع له فطنة الجن والانس فيخرجون من ملك سليمان الى ملك هو أشد فقالوا ان في عقلها نقصانا وانها شعراء الساقين ورجلها كحافر حمار فاختبر سليمان عقلها بتنكير العرش واتخذ الصرح ليتعرف ساقها ومعلوم من حال الزجاج الصافى انه يكون كالماء فلما أبصرت ذلك ظنته ماء راكدا فكشفت عن ساقيها لتخوضه فاذا هى أحسن الناس ساقا وقدما وهذا على طريقة من يقول تزوجها وقال آخرون كان المقصود من الصرح تهويل المجلس وتعظيمه وحصل كشف الساق على سبيل التبع فلما قيل انها هو صرح ممرد من قوارير استترت وعجبت من ذلك واستدلت به على التوحيد والنبوة فقالت رب انى ظلمت نفسى فيما تقدم بالثبات على الكفر ثم قالت وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين وقيل حسبت ان سليمان عليه السلام يغرقها في اللجة فقالت ظلمت نفسى بسوء ظني بسليمان واختلفوا في انه هل تزوجها أم لا وانه تزوجها في هذه الحال أو قبل أن كشفت عن ساقيها والاظهر في كلام الناس انه تزوجها وليس لذلك ذكر في الكتاب ولا في خبر مقطوع بصحته ويروى عن ابن عباس انها لما أسلمت قال لها اختارى من قومك من أزوجك منه فقالت مثلى لا ينكح الرجال مع سلطانى فقال النكاح من الاسلام فقالت ان كان كذلك فزوجنى ذا تبع ملك همدان فزوجها اياه ثم ردهما الى اليمن ولم يزل بها ملكا والله أعلم ﴿القصة الثالثة﴾ قصة صالح عليه السلام ﴿ قوله تعالى ﴿ولقد أرسلنا الى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فاذا هم فريقان يختصمون قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الارض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وانا لصادقون ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم انا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ان في ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ قرئ أن اعبدوا الله بالضم على اتباع النون الباء أما قوله فاذا هم فريقان ففيه قولان (أحدهما) المراد فريق مؤمن وفريق كافر (الثانى) المراد قوم صالح قبل أن يؤمن منهم أحد أما قوله يختصمون فالمعنى ان الذين آمنوا انما آمنوا لانهم نظروا في حجته فعرفوا صحتها واذا كان كذلك فلابد وأن يكون خصما لمن لم يقبلها واذا كان هذا الاختصام في باب الدين دل ذلك على أن الجدال في باب الدين حق وفيه ابطال التقليد ﴿ أما قوله ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ففيه

ذلك وانغائها واقطاع الاعذار والزام الحجة من كل وجه (من كان يريد) باعماله التى يعملها سواء كان ترتب المراد عليها بطريق الجزاء كاعمال البر أو بطريق ترتب المعلولات على العلل كالاسباب أو باعمال الآخرة فالمراد بالمريد على الاول الكفرة وأكثر الفسقة وعلى الثانى أهل الرياء والنفاق والمهاجر للدنيا والمجاهد لمحض الغنيمة (العاجلة) فقط ٤٤٧ من غير أن يريد معها الآخرة كما ينبئ عنه الاستمرار المستفاد من زيادة كان ههنا مع الاقتصار على مطلق الارادة في قسيمه والمراد بالعاجلة الدار الدنيا وبارادتها ارادة ما فيها من فنون مطالبها كقوله تعالى ومن كان يريد حرث الدنيا ويجوز أن يراد الحياة العاجلة كقوله عز وجل من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها لكن الاول أنسب بقوله (عجلنا له فيها) أى في تلك العاجلة فان الحياة واستمرارها من جملة ما عجل له فالانسب بذلك كلمة من كما في قوله تعالى ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها (ما نشاء) أى ما نشاء تعجيله له من نعيمها لا كل ما يريد (لمن نريد) تعجيل ما نشاء له وهو بدل من الضمير في له باعادة الجار بدل البعض فانه راجع الى الموصول المنبئ عن الكثرة وقرئ لمن يشاء على أن الضمير لله سبحانه وقيل هو لمن فيكون مخصوصا بمن أراد به ذلك وهو واحد من الدهماء وتقييد المعجل والمعجل له بما ذكر من المشيئة والارادة لما أن الحكمة التى عليها يدور فلك التكوين لا تقتضى وصول كل طالب الى مرامه ولا استيفاء كل واصل لما يطلبه بتمامه وأما ما يتراءى من قوله تعالى من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون من نيل كل مؤمل لجميع آماله ووصول كل عامل الى نتيجة أعماله فقد أشير الى تحقيق القول فيه في سورة هود بفضل الله تعالى (ثم جعلنا له) مكان ما عجلنا

بحثان (الاول) في تفسير استعجال السيئة قبل الحسنة وجهان (أحدهما) ان الذين كذبوا صالحا عليه السلام لما لم ينفعهم الحجاج توعدهم صالح عليه السلام بالعذاب فقالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين على وجه الاستهزاء فعنده قال صالح لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة والمراد أن الله تعالى قد مكنكم من التوصل الى رحمة الله تعالى وثوابه فلماذا تعدلون عنه الى استعجال عذابه (وثانيهما) أنهم كانوا يقولون لجهلهم ان العقوبة التي يعدها صالح ان وقعت على زعمه تبنا حينئذ واستغفرنا فحينئذ يقبل الله توبتنا ويدفع العذاب عنا فخاطبهم صالح على حسب اعتقادهم وقال هلا تستغفرون الله قبل نزول العذاب فان استعجال الخير أولى من استعجال الشر (البحث الثاني) أن المراد بالسيئة العقاب وبالحسنة الثواب فاما وصف العذاب بانه سيئة فهو مجاز وسبب هذا التجوز اما لان العقاب من لوازمه أولانه يشبهه في كونه مكروها وأما وصف الرحمة بانها حسنة فمنهم من قال انه حقيقة ومنهم من قال انه مجاز والاول أقرب ثم ان صالحا عليه السلام لما قرر هذا الكلام الحق أجابوه بكلام فاسد وهو قولهم اطيرنا بك أى تشاءمنا بك لان الذي يصيبنا من شدة وقحط فهو بشؤمك وشؤم من معك قال صاحب الكشاف كان الرجل يخرج مسافرا فيمر بطائر فيزجره فان مر سانحا تيمن وان مر بارحا تشاءم فلما نسبوا الخير والشر الى الطائر استعير لما كان للخير والشر وهو قدر الله وقسمته فأجاب صالح عليه السلام بقوله طائركم عند الله أى السبب الذي منه يجيء خيركم وشركم عند الله وهو قضاؤه وقدره ان شاء رزقكم وان شاء حرمكم وقيل بل المراد ان جزاء الطيرة منكم عند الله وهو العقاب والاقرب الوجه الاول لان القوم أشاروا الى الامر الحاصل فيجب في جوابه ان يكون فيه لافي غيره ثم بين أن هذا جهل منهم بقوله بل أنتم قوم تفتنون فيحتمل أن غيرهم دعاهم الى هذا القول ويحتمل أن يكون المراد ان الشيطان يفتنكم بوسوسته ثم انه سبحانه قال وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الارض والاقرب أن يكون المراد تسعة جمع اذ الظاهر من الرهط الجماعة لا الواحد ثم يحتمل أنهم كانوا قبائل ويحتمل أنهم دخلوا تحت العدد لاختلاف صفاتهم وأحوالهم لا لاختلاف السبب فبين تعالى أنهم يفسدون في الارض ولا يخرجون ذلك الفساد بشيء من الصلاح فلهذا قال يفسدون في الارض ولا يصلحون ثم بين تعالى أن من جملة ذلك ماهموا به من أمر صالح عليه السلام أما قوله تقاسموا بالله فيحتمل أن يكون أمرا أو خبرا في محل الحال باضمار قد أى قالوا متقاسمين والبيات مباغتة العدو ليلا أما قوله ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله يعني لورثته مناقومه حلفنا لهم أنالم نحضر وقرئ مهلك بفتح الميم واللام وكسرها من هلك ومهلك بضم الميم من أهلك ويحتمل المصدر والمكان والزمان ثم انه سبحانه قال ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون وقد اختلفوا في مكر الله تعالى على وجوه (أحدها) أن مكر الله اهلاكهم من حيث لا يشعرون شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة روى انه كان لصالح عليه السلام مسجد في الحجر في شعب يصلي فيه فقالوا زعم صالح أنه يفرغ منا الى ثلاث فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث فخرجوا الى الشعب وقالوا اذا جاء يصلي قتلناه ثم رجعنا الى أهله فقتلناهم فبعث الله تعالى صخرة فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب فهلكوا وهلك الباقون بالصيحة (وثانيها) جاؤا بالليل شاهرين سيوفهم وقد أرسل الله تعالى الملائكة ملء دار صالح فدمغوهم بالحجارة يرون الاحجار ولا يرون راميا (وثالثها) أن الله تعالى أخبر صالحا بمكرهم فتحرز عنهم فذلك مكر الله تعالى في حقهم أما قوله انا دمرناهم استئناف ومن قرأ بالفتح رفعه بدلا من العاقبة أو خبر مبتدا محذوف تقديره هي تدميرهم أو نصبه على معنى لانا أو على انه خبر كان أى كان عاقبة مكرهم الدمار أما قوله خاوية

له (جهنم) وما فيها من أصناف العذاب (يصلاها) يدخلها وهو حال من الضمير المجرور أو من جهنم أو استئناف (مذموما مدحورا) مطرودا من رحمة الله تعالى وقيل الآية في المنافقين كانوا يراؤن المسلمين ويغزون معهم ولم يكن غرضهم الا مساهمتهم في الغنائم ونحوها ويأباه ما يقال ان السورة مكية سوى آيات معينة (ومن أراد) بأعماله (الآخرة) الدار الآخرة وما فيها من النعيم المقيم (وسعى لها سعيها) أى السعي اللائق بها وهو الاتيان بما أمر والانتهاء عما نهى لا التقرب بما يخترعون بآرائهم وفائدة اللام اعتبار النية والاخلاص (وهو مؤمن) ايمانا صحيحا لا يخالطه شئ قادح فيه وايراد الايمان بالجملة الحالية للدلالة على اشتراط مقارنته لما ذكر في حيز الصلة (فأولئك) اشارة الى الموصول بعنوان اتصافه بما في حيز الصلة وما في ذلك من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم والجمع لمراعاة جانب المعنى ايماء الى أن الاثابة المفهومة من الخبر تقع على وجه الاجتماع أى أولئك الجامعون لما مر من الخصال الحميدة أعني ارادة الآخرة والسعي الجميل لها والايمان (كان سعيهم مشكورا) مقبولا عند الله تعالى أحسن القبول مثابا عليه وفي تعليق المشكورية بالسعي دون قرينيه اشعار بأنه العمدة فيها (كلا) التنوين عوض عن

فهو

المضاف اليه أى كل واحد من الفريقين لا الفريق الاخير المريد للخير الحقيق بالاسعاف فقط (نمد) أى نزيد مرة بعد مرة بحيث يكون الآنف مددا للسالف وما به الامداد ما عجل لاحدهما من العطايا العاجلة وما أعد للآخر من العطايا الآجلة المشار اليها بمشكورية السعي وانما لم يصرح به تعويلا على ما سبق تصريحا وتلويحا واتكالا على ما لحق عبارة واشارة كما ستقف

عليه وقوله تعالى (هؤلاء) بدل من كلا (وهؤلاء) عطف عليه أى نمد هؤلاء المعجل لهم وهؤلاء المشكور سعيهم فان الاشارة متعرضة لذات المشار اليه بما له من العنوان لا للذات فقط كالاضمار ففيه تذكير لما به الامداد وتعيين للمضاف اليه المحذوف دفعا لتوهم كونه افراد الفريق الاخير وتأكيد للقصر المستفاد من تقديم المفعول وقوله تعالى (من عطاء ربك) أى من معطاه الواسع الذى لا تناهى له متعلق بنمد ومغن عن ذكر ما به الامداد ومنبه على ان الامداد المذكور ليس بطريق الاستيجاب بالسعى والعمل بل بمحض التفضل (وما كان عطاء ربك) أى دنيويا كان أو أخرويا وانما أظهر اظهارا لمزيد الاعتناء بشأنه واشعارا بعليته للحكم (محظورا) ممنوعا ممن يريده بل هو فائض على من قدر له بموجب المشيئة المبنية على الحكمة وان وجد منه ما يقتضى الحظر كالكافر وهو فى معنى التعليل لشمول الامداد للفريقين والتعرض لعنوان الربوبية فى الموضعين للاشعار بمبدئيتها لما ذكر من الامداد وعدم الحظر (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض) كيف فى محل النصب بفضلنا على الحالية والمراد توضيح ما مر من الامداد وعدم محظورية العطاء بالتنبيه على استحضار مراتب أحد العطاءين والاستدلال بها على مراتب الآخر أى انظر بنظر الاعتبار كيف فضلنا بعضهم على بعض فيما أمددناهم به من العطاء العاجل فمن وضيع ورفيع وظالع وضالع ومالك ومملوك وموسر وصعلوك تعرف بذلك مراتب العطاء الآجلة ودرجات تفاضل أهلها على طريقة الاستشهاد بحال الادنى على حال الاعلى كما أفصح عنه قوله تعالى (وللآخرة أكبر) أى هى وما فيها أكبر من الدنيا وقرئ أكثر (درجات وأكبر

فهو حال عمل فيها ما دل عليه تلك وقرأ عيسى بن عمر خاوية بالرفع على خبر المبتدأ المحذوف والله أعلم

(القصة الرابعة) قصة لوط عليه السلام ﴿قوله تعالى﴾ ﴿ولوطا اذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون فأنجيناه وأهله الا امرأته قدرناها من الغابرين وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين﴾ قال صاحب الكشاف واذكر لوطا أو وأرسلنا لوطا لدلالة ولقد أرسلنا عليه واذ بدل على الاول ظرف على الثانى أما قوله أتأتون الفاحشة فهو على وجه التنكير وان كان بلفظ الاستفهام وربما كان التوبيخ بمثل هذا اللفظ أبلغ * أما قوله وأنتم تبصرون ففيه وجوه (أحدها) انهم كانوا لا يتحاشون من اظهار ذلك على وجه الخلاعة ولا يتكاتمون وذلك أشد ما لاجله عظم ذلك الفعل منهم فذكر فى توبيخهم ما له عظم ذلك الفعل (وثانيها) ان المراد بصر القلب أى تعلمون انها فاحشة لم تسبقوا اليها وان الله تعالى لم يخلق الذكر للذكر فهى مضادة لله فى حكمته (وثالثها) تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم فان قلت فسرت تبصرون بالعلم وبعده بل أنتم قوم تجهلون فكيف يكونون علماء وجهلاء قلت أراد تفعلون فعل الجاهلين بانها فاحشة مع علمكم بذلك أو تجهلون العاقبة أو أراد بالجهل السفاهة والمجانة التى كانوا عليها ثم انه تعالى بين جهلهم بان حكى عنهم انهم أجابوا عن هذا الكلام بما لا يصلح أن يكون جوابا له فقال فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون فعلوا الذى لاجله يخرجون انهم يتطهرون من هذا الصنيع الفاحش وهذا بأن يوجب تعظيمهم أولى لكن فى المفسرين من قال انما قالوا ذلك على وجه الهزؤ ثم بين تعالى أنه نجاه وأهله الا امرأته وأهلك الباقين وقد تقدم كل ذلك مشروحا والله أعلم وههنا آخر القصص فى هذه السورة والله أعلم

(القول) فى خطاب الله عز وجل مع محمد صلى الله عليه وسلم ﴿قوله تعالى﴾ ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون﴾ فى هذه الآية قولان (الاول) انه متعلق بما قبله من القصص والمعنى الحمد لله على اهلاكهم وسلام على عباده الذين اصطفى بأن أرسلهم ونجاهم (الثانى) انه مبتدأ فانه تعالى لما ذكر أحوال الانبياء عليهم السلام وكان محمد صلى الله عليه وسلم كالمخالف لمن قبله فى أمر العذاب لان عذاب الاستئصال مرتفع عن قومه أمره تعالى بأن يشكر ربه على ما خصه بهذه النعم وبأن يسلم على الانبياء عليهم السلام الذين صبروا على مشاق الرسالة فأما قوله آلله خير أما يشركون فهو تبكيت للمشركين وتهكم بحالهم وذلك انهم آثروا عبادة الاصنام على عبادة الله تعالى ولا يؤثر عاقل شيأ على شئ الا لزيادة خير ومنفعة فقيل لهم هذا الكلام تنبيها على نهاية ضلالهم وجهلهم وقرئ يشركون بالياء والتاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان اذا قرأها قال بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم * ثم اعلم أنه سبحانه وتعالى تكلم بعد ذلك فى عدة فصول (الفصل الاول) فى الرد على عبدة الاوثان ومدار هذا الفصل على بيان أنه سبحانه وتعالى هو الخالق لاصول النعم وفروعها فكيف تحسن عبادة ما لا منفعة منه البتة * ثم انه سبحانه وتعالى ذكر أنواعا (النوع الاول) ما يتعلق بالسموات ﴿قوله تعالى﴾ ﴿أمن خلق السموات والارض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون﴾ وفيه مسائل (المسألة الاولى) قال صاحب الكشاف الفرق بين أم وأم فى أما يشركون وأمن خلق ان الاولى متصلة لان المعنى أيهما خير وهذه منقطعة بمعنى بل والحديقة البستان عليه سور من الاحداق وهو الاحاطة وقيل ذات لان المعنى جماعة حدائق ذات بهجة كما يقال النساء ذهبت والبهجة الحسن لان الناظر يبتهج

به آلهة مع الله أغيره يقرن به ويجعل شريكاً له وقرئ أإلهاً مع الله بمعنى تدعون أو تشركون ﴿المسألة الثانية﴾ أنه تعالى بين أنه الذي اختص بأن خلق السموات والأرض وجعل السماء مكاناً للماء والأرض للنبات وذكر أعظم النعم وهي الحدائق ذات البهجة ونبه تعالى على أن هذا الإنبات في الحدائق لا يقدر عليه إلا الله تعالى لأن أحدنا لو قدر عليه لما احتاج إلى غرس ومصابرة على ظهور الثمرة وإذا كان تعالى هو المختص بهذا الإنعام وجب أن يخص بالعبادة ثم قال بل هم قوم يعدلون وقد اختلفوا فيه فقيل يعدلون عن هذا الحق الظاهر وقيل يعدلون بالله سواه ونظيره هذه الآية أول سورة الأنعام ﴿المسألة الثالثة﴾ يقال ما حكمة الالتفات في قوله فأنبتنا جوابه أنه لا شبهة للعاقل في أن خالق السموات والأرض ومنزل الماء من السماء ليس إلا الله تعالى وربما عرضت الشبهة في أن منبت الشجرة هو الإنسان فإن الإنسان يقول أنا الذي ألقي البذر في الأرض الحرة وأسقيها الماء وأسعى في تشميسها وفاعل السبب فاعل للمسبب فإذن أنا المنبت للشجرة فلما كان هذا الاحتمال قائماً لا جرم أزال هذا الاحتمال فرجع من لفظ الغيبة إلى قوله فأنبتنا وقال ما كان لكم أن تنبتوا شجرها لأن الإنسان قد يأتي بالبذر والسقي والتكريب والتشميس ثم لا يأتي على وفق مراده والذي يقع على وفق مراده فإنه يكون جاهلاً بطبعه ومقداره وكيفيته فكيف يكون فاعلاً لها فلهذه النكتة حسن الالتفات ههنا ﴿النوع الثاني﴾ ما يتعلق بالأرض ۞ قوله تعالى ﴿أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ قال صاحب الكشاف أمن جعل وما بعده بدل من أمن خلق فكان حكمها حكمه واعلم أنه تعالى ذكر من منافع الأرض أموراً أربعة ﴿المنفعة الأولى﴾ كونها قراراً وذلك لوجوه (الأول) أنه دحاها وسواها للاستقرار (الثاني) أنه تعالى جعلها متوسطة في الصلابة والرخاوة فليست في الصلابة كالحجر الذي يتألم الإنسان بالاضطجاع عليه وليست في الرخاوة كالماء الذي يغوص فيه (الثالث) أنه تعالى جعلها كثيفة غبراء ليستقر عليها النور ولو كانت لطيفة لما استقر النور عليها ولو لم يستقر النور عليها لصارت من شدة بردها بحيث تموت الحيوانات (الرابع) أنه سبحانه جعل الشمس بسبب ميل مدارها عن مدار منطقة الكل بحيث تبعد تارة وتقرب أخرى من سمت الرأس ولولا ذلك لما اختلفت الفصول ولما حصلت المنافع (الخامس) أنه سبحانه وتعالى جعلها ساكنة فإنها لو كانت متحركة لكانت إما متحركة على الاستقامة أو على الاستدارة وعلى التقديرين لا يحصل الانتفاع بالسكنى على الأرض (السادس) أنه سبحانه جعلها كفاتاً للأحياء والأموات وأنه يطرح عليها كل قبيح ويخرج منها كل مليح ﴿المنفعة الثانية للأرض﴾ قوله وجعل خلالها أنهاراً فاعلم أن أقسام المياه المنبعثة عن الأرض أربعة (الأول) مياه العيون السيالة وهي تنبعث من أبخرة كثيرة المادة قوية الاندفاع تفجر الأرض بقوة ثم لا يزال يستتبع جزء منها جزءاً (الثاني) ماء العيون الراكدة وهي تحدث من أبخرة بلغت من قوتها أن اندفعت إلى وجه الأرض ولم تبلغ من قوتها وكثرة مادتها أن يطرد تاليها سابقها (الثالث) مياه القنى والأنهار وهي متولدة عن أبخرة ناقصة القوة عن أن تشق الأرض فإذا أزيل عن وجهها ثقل التراب صادفت حينئذ تلك الأبخرة منفذاً تندفع إليه بأدنى حركة (الرابع) مياه الآبار وهي نبعية كمياه الأنهار إلا أنه لم يجعل لها ميل إلى موضع يسيل إليه ونسبة القنى إلى الآبار نسبة العيون السيالة إلى العيون الراكدة فقد ظهر أنه لولا صلابة الأرض لما اجتمعت تلك الأبخرة في باطنها ولولا اجتماعها في باطنها لما حدثت هذه العيون في ظاهرها ﴿المنفعة الثالثة للأرض﴾ قوله وجعل لها رواسي والمراد منها الجبال فنقول أكثر العيون والسحب والمعدنيات إنما

تفضيلا) لأن التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها العالية التي لا يقادر قدرها ولا يكتنه كنهها كيف لا وقد عبر عنها بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر هذا ويجوز أن يراد بما به الإمداد العطايا العاجلة فقط ويحمل القصر المذكور على دفع توهم اختصاصها بالفريق الأول فإن تخصيص إرادتهم لها ووصولهم إليها بالذكر من غير تعرض لبيان النسبة بينها وبين الفريق الثاني إرادة ووصولا مما يوهم اختصاصها بالأولين فالمعنى كل واحد من الفريقين نمد بالعطايا العاجلة لا من ذكرنا إرادته لها فقط من الفريق الأول من عطاء ربك الواسع وما كان عطاؤه الدنيوي محظوراً من أحد ممن يريده وممن يريد غيره انظر كيف فضلنا في ذلك العطاء بعض كل من الفريقين على بعض آخر منهما وللآخرة الآتية واعتبار عدم المحظورية بالنسبة إلى الفريق الأول تحقيقاً لشمول الإمداد له كما فعله الجمهور حيث قالوا لا يمنعه من عاص لعصيانه يقتضي كون القصر لدفع توهم اختصاص الإمداد الدنيوي بالفريق الثاني مع أنه لم يسبق في الكلام ما يوهم ثبوته له فضلاً عن إيهام اختصاصه (لا تجعل مع الله إلهاً آخر) الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والمراد منه أمته وهو من باب التهييج والإلهاب أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب (فتقعد) بالنصب جواباً للنهي والقعود بمعنى

تكون

الصيرورة من قولهم شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة أو بمعنى العجز من قعد عنه أي عجز عنه (مذموماً مخذولاً) خبران أو حالان أي جامعاً على نفسك الذم من الملائكة والمؤمنين والخذلان من الله تعالى وفيه إشعار بأن الموحد جامع بين المدح والنصرة (وقضى ربك) أي أمر أمراً مبرماً وقرئ وأوصى ربك ووصى ربك (ألا تعبدوا) أي بأن لا تعبدوا (إلا إياه) على أن أن مصدرية ولا نافية أو أي لا تعبدوا على أنها مفسرة ولا ناهية لأن العبادة غاية التعظيم فلا تحق إلا

لمن له غاية العظمة ونهاية الانعام وهو كالتفصيل للسعي للآخرة (وبالوالدين) أي وبأن تحسنوا بهما أو وأحسنوا بهما (احسانا) لانهما السبب الظاهر للوجود والتعيش (اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما) اما مركبة من ان الشرطية وما المزيدة لتأكيدها ولذلك دخل الفعل نون التأكيد ومعنى عندك في كنفك وكفالتك وتقديمه على المفعول مع أن حقه التأخر عنه للتشويق الى وروده فانه مدار تضاعف الرعاية والاحسان واحدهما فاعل للفعل وتأخيره عن الظرف والمفعول لئلا يطول الكلام به وبما عطف عليه وقرئ يبلغان فاحدهما بدل من ضمير التثنية وكلاهما عطف عليه ولا سبيل الى جعل كلاهما تأكيدا للضمير وتوحيد ضمير الخطاب في عندك وفيما بعده مع أن ما سبق على الجمع للاحتراز عن التباس المراد فان المقصود نهي كل أحد عن تأفيف والديه ونهرهما ولو قوبل الجمع بالجمع أو بالتثنية لم يحصل هذا المرام (فلا تقل لهما) أي لواحد منهما حالتي الانفراد والاجتماع (أف) وهو صوت ينبئ عن تضجر أو اسم فعل هو أتضجر وقرئ بالكسر بلا تنوين وبالفتح والضم منونا وغير منون أي لا تتضجر مما تستقذر منهما أو تستثقل من مؤنهما وبهذا النهي يفهم النهي عن سائر ما يؤذيهما بدلالة النص وقد خص بالذكر بعضه اظهارا للاعتناء بشأنه فقيل (ولا تنهرهما) أي لا تزجرهما عما لا يعجبك باغلاظ قيل النهي والنهر والنهم أخوات (وقل لهما) بدل التأفيف والنهر (قولا كريما) ذا كرم أو هو وصف له بوصف صاحبه أي قولا صادرا عن كرم ولطف وهو القول الجميل الذي يقتضيه حسن الادب ويستدعيه النزول على المروءة مثل أن يقول يا أباه ويا أماه كدأب ابراهيم عليه السلام اذ قال لابيه يا أبت مع ما به من الكفر

تكون في الجبال أو فيما يقرب منها أما العيون فلأن الارض اذا كانت رخوة نشفت الابخرة عنها فلا يجتمع منها قدر يعتد به فاذن هذه الابخرة لا تجتمع الا في الارض الصلبة والجبال أصلب الارض فلا جرم كانت أقواها على حبس هذا البخار حتى يجتمع ما يصلح أن يكون مادة للعيون ويشبه أن يكون مستقر الجبل مملوأ ماء ويكون الجبل في حقنه الابخرة مثل الانبيق الصلب المعد للتقطير لا يدع شيأ من البخار يتحلل ونفس الارض التي تحته كالقرعة والعيون كالاذناب والبخار كالقوابل ولذلك فان أكثر العيون انما تنفجر من الجبال وأقلها في البراري وذلك الاقل لا يكون الا اذا كانت الارض صلبة وأما أن أكثر السحب تكون في الجبال فلوجوه ثلاثة (أحدها) أن في باطن الجبال من النداوات ما لا يكون في باطن الارضين الرخوة (وثانيها) أن الجبال بسبب ارتفاعها أبرد فلا جرم يبقى على ظاهرها من الانداء ومن الثلوج ما لا يبقى على ظهر سائر الارضين (وثالثها) أن الابخرة الصاعدة تكون محبوسة بالجبال فلا تتفرق ولا تتحلل واذا ثبت ذلك ظهر أن أسباب كثرة السحب في الجبال أكثر لان المادة فيها ظاهرا وباطنا أكثر والاحتقان أشد والسبب المحلل وهو الحر أقل فلذلك كانت السحب في الجبال أكثر وأما المعدنيات المحتاجة الى أبخرة يكون اختلاطها بالارضية أكثر والى بقاء مدة طويلة يتم النضج فيها فلا شئ لها في هذا المعنى كالجبال (المنفعة الرابعة للارض) قوله وجعل بين البحرين حاجزا فالمقصود منه أن لا يفسد العذب بالاختلاط وأيضا فلينتفع بذلك الحاجز وأيضا المؤمن في قلبه بحران بحر الايمان والحكمة وبحر الطغيان والشهوة وهو بتوفيقه جعل بينهما حاجزا كي لا يفسد أحدهما بالآخر وقال بعض الحكماء في قوله مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان قال عند عدم البغي يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فعند عدم البغي في القلب يخرج الدين والايمان بالشكر فان قيل ولم جعل البحر ملحا قلنا لولا ملوحته لأجن وانتشر فساد أجونته في الارض وأحدث الوباء العام # واعلم أن اختصاص البحر بجانب من الارض دون جانب أمر غير واجب بل الحق أن البحر ينتقل في مدد لا تضبطها التواريخ المنقولة من قرن الى قرن لان استمداد البحر في الاكثر من الانهار والانهار تستمد في الاكثر من العيون وأما مياه السماء فان حدوثها في فصل بعينه دون فصل ثم لا العيون ولا مياه السماء يجب أن يتشابه أحوالها في بقاع واحدة بأعيانها تشابها مستمرا فان كثيرا من العيون يغور وكثيرا ما تقحط السماء فلا بد حينئذ من نضوب الاودية والانهار فيعرض بسبب ذلك نضوب البحار واذا حدثت العيون من جانب آخر حدثت الانهار هنالك فحصلت البحار من ذلك الجانب ثم انه سبحانه لما بين انه هو المختص بالقدرة على خلق الارض التي فيها هذه المنافع الجليلة وجب أن يكون هو المختص بالالهية ونبه بقوله تعالى بل أكثرهم لا يعقلون على عظيم جهلهم بالذهاب عن هذا التفكر (النوع الثالث) ما يتعلق باحتياج الخلق اليه سبحانه وهو قوله تعالى ﴿أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض أإله مع الله قليلا ما تذكرون﴾ اعلم أنه سبحانه نبه في هذه الآية على أمرين (أحدهما) قوله أمن يجيب المضطر اذا دعاه قال صاحب الكشاف الضرورة الحالة المحوجة الى الالتجاء والاضطرار افتعال منها يقال اضطره الى كذا والفاعل والمفعول مضطر # واعلم أن المضطر هو الذي أحوجه مرض أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر الى التضرع الى الله تعالى وعن السدي الذي لا حول له ولا قوة وقيل المذنب اذا استغفر # فان قيل قد عم المضطرين بقوله أمن يجيب المضطر اذا دعاه وكم من مضطر يدعو فلا يجاب # جوابه قد بينا في أصول الفقه أن المفرد المعرف لا يفيد العموم وانما يفيد الماهية فقط والحكم المثبت للماهية يكفي في صدقه ثبوته في فرد واحد من أفراد الماهية

وأيضاً فانه تعالى وعد بالاستجابة ولم يذكر أنه يستجيب في الحال وتمام القول في شرائط الدعاء والاجابة مذكور في قوله تعالى وقال ربكم ادعوني أستجب لكم فأما قوله تعالى ويكشف السوء فهو كالتفسير للاستجابة فانه لا يقدر أحد على كشف ما دفع اليه من فقر الى غنى ومرض الى صحة وضيق الى سعة الا القادر الذي لا يعجز والقاهر الذي لا ينازع (وثانيهما) قوله ويجعلكم خلفاء الارض فالمراد توارثهم سكناها والتصرف فيها قرناً بعد قرن وأراد بالخلافة الملك والتسلط وقرئ يذكرون بالياء مع الادغام وبالتاء مع الادغام وبالحذف وما مزيدة أي يذكرون تذكراً قليلاً والمعنى نفي التذكر والقلة تستعمل في معنى النفي ﴿النوع الرابع﴾ ما يتعلق أيضاً باحتياج الخلق ولكنه حاجة خاصة في وقت خاص ❁ قوله تعالى ﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون﴾ اعلم انه تعالى نبه في هذه الآية على أمرين (الاول) قوله أمن يهديكم والمراد يهديكم بالنجوم في السماء والعلامات في الارض اذا جن الليل عليكم مسافرين في البر والبحر (الثاني) قوله ومن يرسل الرياح فانه سبحانه هو الذي يحرك الرياح فتثير السحاب ثم تسوقه الى حيث يشاء ﴿فان قيل﴾ لا نسلم انه تعالى هو الذي يحرك الرياح فان الفلاسفة قالت الرياح انما تتولد عن الدخان وليس الدخان كله هو الجسم الاسود المرتفع مما احترق بالنار بل كل جسم أرضي يرتفع بتصعيد الحرارة سواء كانت الحرارة حرارة النار أو حرارة الشمس فهو دخان قالوا وتولد الرياح من الادخنة على وجهين أحدهما الاكثري والآخر الاقلي أما الاكثري فهو انه اذا صعدت أدخنة كثيرة الى فوق فعند وصولها الى الطبقة الباردة اما أن ينكسر حرها ببرد ذلك الهواء أو لا ينكسر فان انكسر فلا محالة يثقل وينزل فيحصل من نزولها تموج الهواء فتحدث الريح وان لم ينكسر حرها ببرد ذلك الهواء فلا بد وأن يتصاعد الى أن يصل الى كرة النار المتحركة بحركة الفلك وحينئذ لا يتمكن من الصعود بسبب حركة النار فتجمع تلك الادخنة وتصير ريحاً لا يقال لو كان اندفاع هذه الادخنة بسبب حركة الهواء العالي لما كانت حركتها الى أسفل بل الى جهة حركة الهواء العالي لانا نقول الجواب من وجهين (أحدهما) انه ربما أوجبت هيئة صعود تلك الادخنة وهيئة لحوق المادة بها أن يتحرك الى خلاف جهة المتحرك المانع كالسهم يصيب جسماً متحركاً فيعطفه تارة الى جهة ان كان المانع كما يقدر على صرف المتحرك عن متوجهه يقدر أيضاً على صرفه الى جهة حركة نفسه وتارة الى خلاف تلك الجهة اذا كان المفارق يقدر على الحبس ولا يقدر على الصرف (الثاني) انه ربما كان صعود بعض الادخنة من تحت مانعاً للادخنة النازلة من فوق الى أن تستفل ذلك فلاجل هذا السبب يتحرك الى سائر الجوانب ❁ واعلم ان لاهل الاسلام ههنا مقامين (الاول) أن يقيم الدلالة على فساد هذه العلة وبيانه من وجهين (الاول) ان الاجزاء الدخانية أرضية فهي أثقل من الاجزاء البخارية المائية ثم ان البخار لما برد ينزل على الخط المستقيم مطراً فالدخان لما برد فلماذا لم ينزل على الخط المستقيم بل ذهب يمنة ويسرة (الثاني) ان حركة تلك الاجزاء الى أسفل طبيعية وحركتها يمنة ويسرة عرضية والطبيعية أقوى من العرضية واذا لم يكن أقوى فلا أقل من المساواة ثم ان الريح عند حركتها يمنة ويسرة ربما تقوى على قلع الاشجار ورمي الجدار بل الجبال فتلك الاجزاء الدخانية عند ما تحركت حركتها الطبيعية التي لها وهي الحركة الى السفل وجب أن تهدم السقف ولكنا نرى الغبار الكثير ينزل من الهواء ويسقط على السقف ولا يحس بنزوله فضلاً عن أن يهدمه فثبت فساد ما ذكروه (المقام الثاني) هب ان الامر كما ذكروه ولكن الاسباب الفاعلية والقابلية لها مخلوقة لله سبحانه وتعالى فانه لولا الشمس وتأثيرها في تصعيد الابخرة والادخنة ولولا طبقات الهواء والا لما حدثت

ولا تدعوهما بأسمائهما فانه من الجفاء وسوء الادب وديدن الدعار وسئل الفضيل بن عياض عن بر الوالدين فقال أن لا تقوم الى خدمتهما عن كسل وقيل أن لا ترفع صوتك عليهما ولا تنظر اليهما شزراً ولا يريا منك مخالفة في ظاهر ولا باطن وأن تترحم عليهما ما عاشا تدعو لهما اذا ماتا وتقوم بخدمة أوداثهما من بعدهما فعن النبي عليه الصلاة والسلام ان من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه (واخفض لهما جناح الذل) عبارة عن الانة الجانب والتواضع والتذلل لهما فان اعزازهما لا يكون الا بذلك فكأنه قيل واخفض لهما جناحك الذليل أو جعل لذله جناحاً كما جعل لبيد في قوله

وغداة ريح قد كشفت وقرة … اذ أصبحت بيد الشمال زمامها

للقرة زماماً وللشمال يداً تشبيهاً له بطائر يخفض جناحه لافراخه تربية لها وشفقة عليها وأما جعل خفض الجناح عبارة عن ترك الطيران كما فعله القفال فلا يناسب المقام (من الرحمة) من فرط رحمتك وعطفك عليهما ورقتك لهما لافتقارهما اليوم الى من كان أفقر خلق الله تعالى اليهما ولا تكتف برحمتك الفانية بل ادع الله لهما برحمته الواسعة الباقية (وقل رب ارحمهما) برحمتك الدنيوية والاخروية التي من جملتها الهداية الى الاسلام فلا ينافي ذلك كفرهما (كما ربياني) الكاف في محل النصب على أنه نعت لمصدر محذوف أي رحمة مثل تربيتهما لي أو مثل رحمتهما لي على أن التربية رحمة ويجوز أن يكون لهما الرحمة والتربية معاً وقد ذكر أحدهما في أحد الجانبين والآخر في الآخر كما يلوح به التعرض لعنوان الربوبية في مطلع الدعاء كأنه قيل رب ارحمهما وربهما كما رحماني وربياني (صغيراً) ويجوز أن تكون الكاف للتعليل

هذه

هذه الامور ومعلوم ان من وضع أسبابا قادته الى منافع عجيبة وحكم بالغة فذلك الواضع هو الذى فعل تلك المنافع فعلى جميع الاحوال لابد من شهادة هذه الامور على مدبر حكيم واجب لذاته قطعا للسلسلة الحاجات

* (النوع الخامس) * ما يتعلق بالحشر والنشر ﴿ قوله تعالى ﴿أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين﴾ اعلم أنه تعالى لما عدد نعم الدنيا أتبع ذلك بنعم الآخرة بقوله أمن يبدأ الخلق ثم يعيده لان نعم الآخرة بالثواب لا تتم الا بالاعادة بعد الابتداء والابلاغ الى حد التكليف فقد تضمن الكلام كل هذه النعم ومعلوم انها لا تتم الا بالارزاق فلذلك قال ومن يرزقكم من السماء والارض ثم قال أإله مع الله منكرا لما هم عليه ثم بين بقوله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين أن لا برهان لكم فاذن هم مبطلون وهذا يدل على انه لابد فى الدعوى من البرهان وعلى فساد التقليد * فان قيل كيف قيل لهم أمن يبدأ الخلق ثم يعيده وهم منكرون للاعادة * جوابه كانوا معترفين بالابتداء ودلالة الابتداء على الاعادة دلالة ظاهرة قوية فلما كان الكلام مقرونا بالدلالة الظاهرة صاروا كأنهم لم يبق لهم عذر فى الانكار وههنا آخر الدلائل المذكورة على كمال قدرة الله تعالى ﴿ قوله تعالى ﴿قل لا يعلم من فى السموات والارض الغيب الا الله وما يشعرون أيان يبعثون بل أدرك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها بل هم منها عمون﴾ اعلم انه تعالى لما بين انه المختص بالقدرة فكذلك بين انه المختص بعلم الغيب واذا ثبت ذلك ثبت انه هو الاله المعبود لان الاله هو الذى يصح منه مجازاة من يستحق الثواب على وجه لا يلتبس بأهل العقاب * فان قيل الاستثناء حكمه اخراج ما لولاه لوجب أو لصح دخوله تحت المستثنى منه ودلت الآية ههنا على استثناء الله سبحانه وتعالى عمن فى السموات والارض فوجب كونه ممن فى السموات والارض وذلك يوجب كونه تعالى فى المكان * والجواب هذه الآية متروكة الظاهر لان من قال انه تعالى فى المكان زعم أنه فوق السموات ومن قال انه ليس فى مكان فقد نزهه عن كل الامكنة فثبت بالاجماع أنه تعالى ليس فى السموات والارض فاذن وجب تأويله فنقول انه تعالى ممن فى السموات والارض كما يقول المتكلمون الله تعالى فى كل مكان على معنى ان علمه فى الاماكن كلها * لا يقال ان كونه فى السموات والارض مجاز وكونهم فيهن حقيقة وارادة المتكلم بعبارة واحدة حقيقة ومجازا غير جائزة لانا نقول كونهم فى السموات والارض كما أنه حاصل حقيقة وهو حصول ذواتهم فى تلك الاحياز فكذلك حاصل مجازا وهو كونهم عالمين بتلك الامكنة فاذا حملنا هذه الغيبة على المعنى المجازى وهو المكون فيها بمعنى العلم دخل الرب سبحانه وتعالى والعبيد فيه فصح الاستثناء أما قوله وما يشعرون فهو صفة لاهل السموات والارض نفى أن يكون لهم علم الغيب وذكر فى جملة الغيب متى البعث بقوله أيان يبعثون فأيان بمعنى متى وهى كلمة مركبة من أى والآن وهو الوقت وقرئ ايان بكسر الهمزة * أما قوله بل أدرك علمهم فى الآخرة فاعلم أن كلام صاحب الكشاف فيه مرتب على ثلاثة أبحاث (البحث الاول) فيها اثنتا عشرة قراءة بل ادرك بل ادرك بل ادارك بل تدارك بل أأدرك بهمزتين بل آأدرك بألف بينهما بل آدرك بالتخفيف والنقل بل ادرك بفتح اللام وتشديد الدال وأصله بل أدرك على الاستفهام بلى ادرك بلى أأدرك أم تدارك أم أدرك (البحث الثانى) ادارك أصله تدارك فأدغمت التاء فى الدال وادرك افتعل (البحث الثالث) معنى أدرك علمهم انتهى وتكامل وادرك تتابع واستحكم ثم فيه وجوه (أحدها) ان أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة كائنة لا ريب فيها قد حصلت لهم ومكنوا من معرفته وهم شاكون جاهلون وذلك قوله بل هم فى شك منها بل هم منها عمون يريد المشركين ممن فى السموات والارض لانهم لما كانوا من

أى لاجل تربيتهما لى كقوله تعالى واذكروه كما هداكم ولقد بالغ عز وجل فى التوصية بهما حيث افتتحها بأن شفع الاحسان اليهما بتوحيده سبحانه ونظمهما فى سلك القضاء بهما معا ثم ضيق الامر فى باب مراعاتهما حتى لم يرخص فى أدنى كلمة تنفلت من المتضجر مع ماله من موجبات الضجر ما لا يكاد يدخل تحت الحصر وختمها بأن جعل رحمته التى وسعت كل شئ مشبهة بتربيتهما وعن النبى عليه الصلاة والسلام رضا الله فى رضا الوالدين وسخطه فى سخطهما وروى يفعل البار ما يشاء أن يفعل فلن يدخل النار ويفعل العاق ما يشاء أن يفعل فلن يدخل الجنة وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ان أبوى بلغا من الكبر أنى ألى منهما ما وليا منى فى الصغر فهل قضيتهما حقهما قال لا فانهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما وروى أن شيخا أتى النبى عليه الصلاة والسلام فقال ان ابنى هذا له مال كثير وانه لا ينفق على من ماله فنزل جبريل عليه السلام وقال ان هذا الشيخ قد أنشأ فى ابنه أبياتا ما قرع سمع مثلها فاستنشدها فأنشدها الشيخ فقال

غذوتك مولودا ومنتك يافعا
تعل بما أجنى عليك وتنهل
اذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت
لسقمك الا باكيا أتململ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى
طرقت به دونى وعينى تهمل
فلما بلغت السن والغاية التى
اليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائى غلظة وفظاظة
كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك اذ لم ترع حق أبوتى
فعلت كما الجار المجاور يفعل

فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أنت ومالك لابيك (ربكم أعلم بما فى نفوسكم) من البر والعقوق (ان تكونوا صالحين) قاصدين

للصلاح والبر دون العقوق والفساد (فانه) تعالى (كان للاوّابين) أى الرجاعين اليه تعالى عما فرط منهم مما لا يكاد يخلو عنه البشر (غفورا) لما وقع منهم من نوع تقصير أو أذية فعلية أو قولية وفيه ما لا يخفى من التشديد فى الامر بمراعاة حقوقهما ويجوز أن يكون عاما لكل تائب ويدخل فيه الجانى ٤٥٤ على أبويه دخولا أوليا (وآت ذا القربى) أى ذا القرابة (حقه) توصية بالاقارب اثر التوصية ببر الوالدين ولعل المراد بهم المحارم وبحقهم النفقة كما ينبئ عنه قوله تعالى (والمسكين وابن السبيل) فان المأمور به فى حقهما المواساة المالية لا محالة أى وآتهما حقهما مما كان مفترضا بمكة بمنزلة الزكاة وكذا النهى عن التبذير وعن الافراط فى القبض والبسط فان الكل من التصرفات المالية (ولا تبذر تبذيرا) نهى عن صرف المال الى من سواهم ممن لا يستحقه فان التبذير تفريق فى غير موضعه مأخوذ من تفريق حبات والقائها كيفما كان من غير تعهد لمواقعه لا عن الاكثار فى صرفه اليهم والا لناسبه الاسراف الذى هو تجاوز الحد فى صرفه وقد نهى عنه بقوله تعالى ولا تبسطها وكلاهما مذموم (ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين) تعليل للنهى عن التبذير ببيان انه يجعل صاحبه ملزوزا فى قرن الشياطين والمراد بالاخوة المماثلة التامة فى كل ما لا خير فيه من صفات السوء التى من جملتها التبذير أى كانوا بما فعلوا من التبذير أمثال الشياطين أو الصداقة والملازمة أى كانوا أصدقاءهم وأتباعهم فيما ذكر من التبذير والصرف فى المعاصى فانهم كانوا ينحرون الابل ويتياسرون عليها ويبذرون أموالهم فى السمعة وسائر ما لا خير فيه من المناهى والملاهى أو المقارنة أى قرناءهم فى النار على سبيل الوعيد (وكان الشيطان لربه كفورا) من تتمة بيان

حالتهم نسب فعلهم الى الجميع كما يقال بنو فلان فعلوا كذا وانما فعله ناس منهم * فان قيل الآية سيقت لاختصاص الله تعالى بعلم الغيب وان العباد لا علم لهم بشئ منه وان وقت بعثهم ونشورهم من جملة الغيب وهم لا يشعرون به فكيف ناسب هذا المعنى وصف المشركين بانكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة * والجواب كأنه سبحانه قال كيف يعلمون الغيب مع انهم شكوا فى ثبوت الآخرة التى دلت الدلائل الظاهرة القاهرة عليها فمن غفل عن هذا الشئ الظاهر كيف يعلم الغيب الذى هو أخفى الاشياء (الوجه الثانى) ان وصفهم باستحكام العلم تهكم بهم كما تقول لأجهل الناس ما أعلمك على سبيل الهزؤ وذلك حيث شكوا فى اثبات ما الطريق اليه واضح ظاهر (الوجه الثالث) أن يكون أدرك بمعنى انتهى وفنى من قولك أدركت الثمرة لان تلك غايتها التى عندها تعدم وقد فسره الحسن باضمحل علمهم وتدارك من تدارك بنو فلان اذا تتابعوا فى الهلاك أما وجه قراءة من قرأ بل أأدرك على الاستفهام فهو انه استفهام على وجه الانكار لادراك علمهم وكذا من قرأ أم أدرك وأم تدارك لانها أم هى التى بمعنى بل والهمزة وأما من قرأ بلى أدرك فانه لما جاء ببلى بعد قوله وما يشعرون كان معناه بلى يشعرون ثم فسر الشعور بقوله أدرك علمهم فى الآخرة على سبيل التهكم الذى معناه المبالغة فى نفى العلم فكأنه قال شعورهم بوقت الآخرة انهم لا يعلمون كونها فيرجع الى نفى الشعور على أبلغ ما يكون وأما من قرأ بلى أأدرك على الاستفهام فمعناه بلى يشعرون متى يبعثون ثم أنكر علمهم بكونها واذا أنكر علمهم بكونها لم يتحصل لهم شعور بوقت كونها فان قلت هذه الاضرابات الثلاث ما معناها قلت ما هى الا بيان درجاتهم وصفهم أولا بانهم لا يشعرون وقت البعث ثم بانهم لا يعلمون أن القيامة كائنة ثم بانهم يخبطون فى شك ومرية ثم بما هو أسوأ حالا وهو العمى وفيه نكتة وهى أنه تعالى جعل الآخرة مبدأ عماهم فلذلك عداه بمن دون عن لان الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذى جعلهم كالبهائم ﴿قوله تعالى﴾ ﴿وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ان هذا الا أساطير الاولين قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ولا تحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون وان ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون وان ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وما من غائبة فى السماء والارض الا فى كتاب مبين﴾ اعلم أنه سبحانه لما تكلم فى حال المبدا تكلم بعده فى حال المعاد وذلك لان الشك فى المعاد لا ينشأ الا من الشك فى كمال القدرة أو فى كمال العلم فاذا ثبت كونه تعالى قادرا على كل الممكنات وعالما بكل المعلومات ثبت أنه تعالى يمكنه تمييز أجزاء بدن كل واحد من المكلفين عن أجزاء بدن غيره وثبت أنه قادر على أن يعيد التركيب والحياة اليها واذا ثبت امكان ذلك ثبت صحة القول بالحشر فلما بين الله تعالى هذين الاصلين فيما قبل هذه الآية لا جرم لم يحكه فى هذه الآية فحكى عنهم انهم تعجبوا من اخراجهم أحياء وقد صاروا ترابا وطعنوا فيه من وجهين (الاول) قولهم لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا أى هذا كلام كما قيل لنا فقد قيل لمن قبلنا ولم يظهر له أثر فهو اذن من أساطير الاولين يريدون ما لا يصح من الاخبار فان قيل ذكر ههنا لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا وفى آية أخرى لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا فما الفرق قلنا التقديم دليل على أن المقدم هو المقصود الاصلى وأن الكلام سيق لاجله ثم انه سبحانه لما كان قد بين الدلالة على هذين الاصلين ومن الظاهر ان كل من أحاط بهما فقد عرف صحة الحشر والنشر ثبت انهم أعرضوا عنها ولم يتأملوها وكان سبب ذلك الاعراض حب الدنيا وحب الرياسة والجاه وعدم الانقياد للغير لا جرم اقتصر على

التعليل أي مبالغا في كفران نعمته تعالى لأن شأنه أن يصرف جميع ما أعطاه الله تعالى من القوى والقدر إلى غير ما خلقت هي له من أنواع المعاصي والإفساد في الأرض وإضلال الناس وحملهم على الكفر بالله وكفران نعمه الفائضة عليهم وصرفها إلى غير ما أمر الله تعالى به وتخصيص هذا الوصف بالذكر من بين سائر أوصافه القبيحة للإيذان بأن التبذير الذي هو عبارة عن صرف نعم الله تعالى إلى غير مصرفها من باب الكفران المقابل للشكر الذي هو عبارة عن صرفها إلى ما خلقت هي له والتعرض لوصف الربوبية للإشعار بكمال عتوه فإن كفران نعمة الرب مع كون الربوبية من أقوى الدواعي إلى شكرها غاية الكفران ونهاية الضلال والطغيان (وإما تعرضن عنهم) أي إن اعتراك أمر اضطرك إلى أن تعرض عن أولئك المستحقين (ابتغاء رحمة من ربك) أي لفقد رزق من ربك إقامة للمسبب مقام السبب فإن الفقد سبب للابتغاء (ترجوها) من الله تعالى لتعطيهم وكان عليه السلام إذا سئل شيئا وليس عنده أعرض عن السائل وسكت حياء فأمر بتعهدهم بالقول الجميل لئلا تعتريهم الوحشة بسكوته عليه السلام فقيل (فقل لهم قولا ميسورا) سهلا لينا وعدهم وعدا جميلا من يسر الأمر نحو سعد أو قل لهم رزقنا الله وإياكم من فضله على أنه دعاء لهم ييسر عليهم فقرهم (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) تمثيلان لمنع الشحيح وإسراف المبذر زجرا لهما عنهما وحملا على ما بينهما من الاقتصاد * كلا طرفي قصد الأمور ذميم * وحيث كان قبح الشح مقارنا له معلوما من أول الأمر روعي ذلك في التصوير بأقبح الصور ولما كان غائلة الإسراف في آخره بين قبحه في أثره فقيل (فتقعد ملوما) أي فتصير ملوما عند الله تعالى وعند

بيان أن الدنيا فانية زائلة فقال قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين وفيه سؤالان (السؤال الأول) لم لم يقل كيف كانت عاقبة المجرمين (جوابه) لأن تأنيثها غير حقيقي ولأن المعنى كيف كان آخر أمرهم (السؤال الثاني) لم لم يقل عاقبة الكافرين (جوابه) الغرض أن يحصل التخويف لكل العصاة ثم إنه تعالى صبر رسوله على ما يناله من هؤلاء الكفار فقال ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون فجمع بين إزالة الغم عنه بكفرهم وبين إزالة الخوف من جانبهم وصار ذلك كالتكفل بنصرته عليهم وقوله ولا تكن في ضيق أي في حرج قلب يقال ضاق الشيء ضيقا وضيقا بالفتح والكسر والضيق تخفيف الضيق ويجوز أن يراد في أمر ضيق من مكرهم (الوجه الثاني للكفار) قولهم متى هذا الوعد إن كنتم صادقين دل على أنهم ذكروا ذلك على سبيل السخرية فأجاب الله تعالى بقوله عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون وهو عذاب يوم بدر فزيدت اللام للتأكيد كالباء في ولا تلقوا بأيديكم أو ضمن معنى فعل يتعدى باللام نحو دنا لكم وأزف لكم ومعناه تبعكم ولحقكم وقرأ الأعرج ردف لكم بوزن ذهب وهما لغتان والكسر أفصح وههنا بحثان (البحث الأول) أن عسى ولعل في وعد الملوك ووعيدهم يدلان على صدق الأمر وإنما يعنون بذلك إظهار وقارهم وأنهم لا يعجلون بالانتقام لوثوقهم بأن عدوهم لا يفوتهم فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده (الثاني) أنه قد ثبت بالدلائل العقلية أن عذاب الحجاب أشد من عذاب النار ولذلك قال كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم فقدم الحجاب على الجحيم ثم إنهم كانوا محجوبين في الحال فكان سبب العذاب بكماله حاصلا إلا أن الاشتغال بالدنيا ولذاتها كالعائق عن إدراك ذلك الألم كما أن العضو الخدر إذا مسته النار فإن سبب الألم حاصل في الحال لكنه لا يحصل الشعور بذلك الألم لقيام العائق فإذا زال العائق عظم البلاء فكذا ههنا إذا زال البدن عظم عذاب الحجاب فقوله سبحانه عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون يعني المقتضي له والمؤثر فيه حاصل وتمامه إنما يحصل بعد الموت ثم إنه سبحانه بين السبب في ترك تعجيل العذاب فقال وإن ربك لذو فضل على الناس والفضل الإفضال ومعناه أنه متفضل عليهم بتأخير العقوبة وأكثرهم لا يعرفون هذه النعمة ولا يشكرونها وهذه الآية تبطل قول من قال إنه لا نعمة لله على الكفار ثم بين سبحانه أنه مطلع على ما في قلوبهم فقال وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون * وههنا بحث عقلي وهو أنه قدم ما تكنه صدورهم على ما يعلنون من العلم والسبب أن ما تكنه صدورهم هو الدواعي والقصود وهي أسباب لما يعلنون وهي أفعال الجوارح والعلم بالعلة علة للعلم بالمعلول فهذا هو السبب في ذلك التقديم وقرئ تكن يقال كننت الشيء وأكننته إذا سترته وأخفيته يعني أنه تعالى يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة الرسول ومكايدهم أما قوله وما من غائبة فقال صاحب الكشاف سمى الشيء الذي يغيب ويخفى غائبة وخافية فكانت التاء فيهما بمنزلتها في العاقبة والعافية والنطيحة والذبيحة والرمية في أنها أسماء غير صفات ويجوز أن يكونا صفتين وتاؤهما للمبالغة كالراوية في قولهم ويل للشاعر من راوية السوء كأنه تعالى قال وما من شيء شديد الغيبوبة والخفاء إلا وقد علمه الله تعالى وأحاط به وأثبته في اللوح المحفوظ والمبين الظاهر البين لمن ينظر فيه من الملائكة ﴿قوله تعالى﴾ ﴿إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين إن ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم فتوكل على الله إنك على الحق المبين إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ اعلم أنه سبحانه لما تمم الكلام في إثبات المبدأ والمعاد ذكر بعد ذلك ما يتعلق بالنبوة ولما كانت العمدة الكبرى في إثبات نبوة محمد

الناس وعند نفسك اذا احتجت وندمت على ما فعلت (محسورا) نادما أو منقطعا بك لا شيء عندك من حسره السفر اذا بلغ منه وما قيل من انه روى عن جابر رضي الله عنه أنه قال بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد اذ أتاه صبي فقال ان أمي تستكسيك درعا فقال عليه السلام من ساعة الى ساعة فعد الينا فذهب ٤٥٦ الى أمه فقالت له قل ان أمي تستكسيك الدرع الذي عليك فدخل صلى الله عليه وسلم داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عريانا وأذن بلال وانتظروا فلم يخرج للصلاة فنزلت فيأباه أن السورة مكية خلا آيات في آخرها وكذا ما قيل انه عليه السلام أعطى الاقرع بن حابس مائة من الابل وكذا عيينة بن حصن الفزاري فجاء عباس بن مرداس فانشأ يقول

أتجعل نهبي ونهب العبيـ * ـد بين عيينة والاقرع
وما كان حصن ولا حابس * يفوقان مرداس في مجمع
وما كنت دون امرئ منهما * ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال عليه السلام يا أبا بكر اقطع لسانه عني أعطه مائة من الابل وكانوا جميعا من المؤلفة القلوب فنزلت (ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) تعليل لما مر أي يوسعه على بعض ويضيقه على آخرين حسبما تتعلق به مشيئته التابعة للحكمة فليس ما يرهقك من الاضاقة التي تحوجك الى الاعراض عن السائلين أو نفاد ما في يدك اذا بسطتها كل البسط الا لمصلحتك (انه كان بعباده خبيرا بصيرا) تعليل لما سبق أي يعلم سرهم وعلنهم فيعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم الترتيب
ويجوز أن يراد أن البسط والقبض من أمر الله العالم بالسرائر والظواهر الذي بيده خزائن السموات والارض وأما العباد فعليهم أن يقتصدوا وأن يراد أنه تعالى يبسط تارة ويقبض أخرى فاستنوا بسنته فلا تقبضوا كل القبض ولا تبسطوا كل البسط وأن يراد أنه تعالى

صلى الله عليه وسلم هو القرآن لا جرم بين الله تعالى أولا كونه معجزة من وجوه (أحدها) ان الاقاصيص المذكورة في القرآن موافقة لما كانت مذكورة في التوراة والانجيل مع العلم بأنه عليه الصلاة والسلام كان أميا وأنه لم يخالط أحدا من العلماء ولم يشتغل قط بالاستفادة والتعلم فاذن لا يكون ذلك الا من قبل الله تعالى واختلفوا فقال بعضهم أراد به ما اختلفوا فيه وتباينوا وقال آخرون أراد به ما حرفه بعضهم وقال بعضهم بل أراد به اخبار الانبياء والاول أقرب (وثانيها) قوله وانه لهدى ورحمة للمؤمنين وذلك لان بعض الناس قال انا لما تأملنا القرآن فوجدنا فيه من الدلائل العقلية على التوحيد والحشر والنبوة وشرح صفات الله تعالى وبيان نعوت جلاله ما لم نجده في شيء من الكتب ووجدنا ما فيه من الشرائع مطابقة للعقول موافقة لها ووجدناه مبرأ عن التناقض والتهافت فكان هدى ورحمة من هذه الجهات ووجدنا القوى البشرية قاصرة عن جمع كتاب على هذا الوجه فعلمنا أنه ليس الا من عند الله تعالى فكان القرآن معجزا من هذه الجهة (وثالثها) أنه هدى ورحمة للمؤمنين لبلوغه في الفصاحة الى حيث عجزوا عن معارضته وذلك معجز ثم انه تعالى لما بين كونه معجزا دالا على الرسالة ذكر بعده أمرين (الاول) قوله ان ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم والمراد أن القرآن وان كان يقص على بني اسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون لكن لا تكن أنت في قيدهم فان ربك هو الذي يقضي بينهم أي بين المصيب والمخطئ منهم وذلك كالزجر للكفار فلذلك قال وهو العزيز أي القادر الذي لا يمنع العليم بما يحكم فلا يكون الا الحق * فان قيل القضاء والحكم شيء واحد فقوله يقضي بحكمه كقوله يقضي بقضائه ويحكم بحكمه * والجواب معنى قوله بحكمه أي بما يحكم به وهو عدله لانه لا يقضي الا بالعدل أو أراد بحكمته ويدل عليه قراءة من قرأ بحكمه جمع حكمة (الثاني) أنه تعالى أمره بعد ظهور حجة رسالته بأن يتوكل على الله ولا يلتفت الى أعداء الله ويشرع في تتمة مهمات الرسالة بقلب قوي فقال فتوكل على الله ثم علل ذلك بأمرين (أحدهما) قوله انك على الحق المبين وفيه بيان أن المحق حقيق بنصرة الله تعالى وأنه لا يخذل (وثانيهما) قوله انك لا تسمع الموتى وانما حسن جعله سببا للامر بالتوكل وذلك لان الانسان ما دام يطمع في أحد أن يأخذ منه شيأ فانه لا يقوى قلبه على اظهار مخالفته فاذا قطع طمعه عنه قوي قلبه على اظهار مخالفته فالله سبحانه وتعالى قطع محمدا صلى الله عليه وسلم عنهم بأن بين له أنهم كالموتى وكالصم وكالعمي فلا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون ولا يلتفتون الى شيء من الدلائل وهذا سبب لقوة قلبه عليه الصلاة والسلام على اظهار الدين كما ينبغي فان قيل ما معنى قوله اذا ولوا مدبرين جوابه هو تأكيد لحال الاصم لانه اذا تباعد عن الداعي بأن تولى عنه مدبرا كان أبعد عن ادراك صوته أما قوله تعالى ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فالمعنى ما يجدي اسماعك الا الذين علم الله أنهم يؤمنون بآياته أي يصدقون بها فهم مسلمون أي مخلصون من قوله بلى من أسلم وجهه لله يعني جعله سالما لله تعالى خالصا له والله أعلم * قوله تعالى ﴿واذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الارض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون حتى اذا جاؤا قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما أماذا كنتم تعملون ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ اعلم أن الله تعالى بين بالدلائل القاهرة كمال القدرة وكمال العلم ثم فرع عليهما القول بامكان الحشر ثم بين بالوجه في كون القرآن معجزا ثم فرع عليه نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ثم تكلم الآن في مقدمات قيام القيامة وانما أخر تعالى الكلام في هذا الباب عن اثبات النبوة لما أن هذه الاشياء لا يمكن معرفتها الا بقول النبي الصادق وهذا هو النهاية في جودة

الترتيب واعلم أنه تعالى ذكر تارة ما يكون كالعلامة لقيام القيامة وتارة الأمور التي تقع عند قيام القيامة فذكر أولا من علامات القيامة دابة الأرض والناس تكلموا فيها من وجوه (أحدها) في مقدار جسمها وفي الحديث أن طولها ستون ذراعا وروي أيضا أن رأسها تبلغ السحاب وعن أبي هريرة ما بين قرنيها فرسخ للراكب (وثانيها) في كيفية خلقتها فروي لها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان وعن ابن جريج في وصفها رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن أيل وصدر أسد ولون نمر وخاصرة هرة وذنب كبش وخف بعير (وثالثها) في كيفية خروجها عن علي عليه السلام أنها تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون فلا يخرج إلا ثلثها وعن الحسن لا يتم خروجها إلا بعد ثلاثة أيام (ورابعها) في موضع خروجها سئل النبي صلى الله عليه وسلم من أين تخرج الدابة فقال من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى المسجد الحرام وقيل تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية (وخامسها) في عدد خروجها فروي أنها تخرج ثلاث مرات تخرج بأقصى اليمن ثم تكمن ثم تخرج بالبادية ثم تكمن دهرا طويلا فبينا الناس في أعظم المساجد حرمة وأكرمها على الله تعالى فما يهولهم إلا خروجها من بين الركن حذاء دار بني مخزوم عن يمين الخارج من المسجد فقوم يهربون وقوم يقفون (واعلم) أنه لا دلالة في الكتاب على شيء من هذه الأمور فإن صح الخبر فيه عن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وإلا لم يلتفت إليه أما قوله تعالى وإذا وقع القول عليهم فالمراد من القول متعلقه وهو ما وعدوا به من قيام الساعة ووقوعه حصوله والمراد مشارفة الساعة وظهور أشراطها أما دابة الأرض فقد عرفتها وأما قوله تكلمهم فقرئ تكلمهم من الكلم وهو الجرح روي أن الدابة تخرج من الصفا ومعها عصى موسى عليه السلام وخاتم سليمان فتضرب المؤمن بين عينيه بعصى موسى عليه السلام فتنكت نكتة بيضاء فتفشو تلك النكتة في وجهه حتى يضيء لها وجهه وتنكت الكافر في أنفه فتفشو النكتة حتى يسود لها وجهه واعلم أنه يجوز أن يكون تكلمهم من الكلم أيضا على معنى التكثير يقال فلان مكلم أي مجرح وقرأ أبي تنبئهم وقرأ ابن مسعود تكلمهم بأن الناس والقراءة بإن مكسورة حكاية لقول الدابة ذلك أو هي حكاية لقول الله تعالى بين به أنه أخرج الدابة لهذه العلة فإن قيل إذا كانت حكاية لقول الدابة فكيف يقول بآياتنا جوابه أن قولها حكاية لقول الله تعالى أو على معنى بآيات ربنا أو لاختصاصها بالله تعالى أضافت آيات الله إلى نفسها كما يقول بعض خاصة الملك خيلنا وبلادنا وإنما هي خيل مولاه وبلاده ومن قرأ بالفتح فعلى حذف الجار أي تكلمهم بأن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون وأما قوله ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فاعلم أن هذا من الأمور الواقعة بعد قيام القيامة فالفرق بين من الأولى والثانية أن الأولى للتبعيض والثانية للتبيين كقوله من الأوثان أما قوله فهم يوزعون معناه يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا فيكبكبوا في النار وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعد أطرافه كما وصف جنود سليمان بذلك وقوله حتى إذا جاءوا قال أكذبتم بآياتي فهذا وإن احتمل معجزات الرسل كما قاله بعضهم فالمراد كل الآيات فيدخل فيه سائر الكفار الذين كذبوا بآيات الله أجمع أو بشيء منها أما قوله ولم تحيطوا بها علما فالواو للحال كأنه قال أكذبتم بها بادي الرأي من غير فكر ولا نظر يؤدي إلى إحاطة العلم بكنهها أما قوله أماذا كنتم تعملون فالمراد لما لم تشتغلوا بذلك العمل المهم فأي شيء كنتم تعملونه بعد ذلك كأنه قال كل عمل سواه فكأنه ليس بعمل ثم قال ووقع القول عليهم يريد أن العذاب الموعود يغشاهم بسبب تكذيبهم بآيات الله فيشغلهم عن النطق والاعتذار كقوله هذا يوم لا ينطقون ثم إنه سبحانه بعد أن خوفهم بأحوال القيامة ذكر كلاما يصلح أن يكون دليلا على التوحيد وعلى الحشر وعلى النبوة مبالغة

يبسط ويقدر حسب مشيئته فلا تبسطوا على من قدر عليه رزقه وأن يكون تمهيدا لقوله (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) أي مخافة فقر وقرئ بكسر الخاء كانوا يئدون بناتهم مخافة الفقر فنهوا عن ذلك (نحن نرزقهم وإياكم) لا أنتم فلا تخافوا الفاقة بناء على علمكم بعجزكم عن تحصيل رزقهم وهو ضمان لرزقهم وتعليل للنهي المذكور بإبطال موجبه في زعمهم وتقديم ضمير الأولاد على المخاطبين على عكس ما وقع في سورة الأنعام للإشعار بأصالتهم في إفاضة الرزق أو لأن الباعث على القتل هناك الإملاق الناجز ولذلك قيل من إملاق وههنا الإملاق المتوقع ولذلك قيل خشية إملاق فكأنه قيل نرزقهم من غير أن ينتقص من رزقكم شيء فيعتريكم ما تخشونه وإياكم أيضا رزقا إلى رزقكم (إن قتلهم كان خطأ كبيرا) تعليل آخر ببيان أن المنهي عنه في نفسه منكر عظيم والخطء الذنب والإثم يقال خطئ خطأ كأثم إثما وقرئ بالفتح والسكون وبفتحتين بمعناه كالحذر والحذر وقيل بمعنى ضد الصواب وبكسر الخاء والمد وبفتحها ممدودا وبفتحها وحذف الهمزة وبكسرها كذلك (ولا تقربوا الزنا) بمباشرة مباديه القريبة أو البعيدة فضلا عن مباشرته وإنما نهى عن قربانه على خلاف ما سبق ولحق من القتل للمبالغة في النهي عن نفسه ولأن قربانه داع إلى مباشرته وتوسيط النهي عنه بين النهي عن قتل الأولاد والنهي عن قتل النفس المحرمة على الإطلاق باعتبار أنه قتل للأولاد لما أنه تضييع للأنساب فإن من لم يثبت نسبه ميت حكما (إنه كان فاحشة) فعلة ظاهرة القبح متجاوزة عن الحد (وساء سبيلا) أي بئس طريقا طريقه فإنه غصب الأبضاع المؤدي إلى اختلال أمر الأنساب وهيجان الفتن كيف لا وقد قال النبي عليه

السلام اذا زنى العبد خرج منه الايمان فيكان على رأسه كالظلة فاذا انقطع رجع اليه وقال عليه السلام لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن وعن حذيفة رضى الله عنه أنه قال عليه السلام اياكم والزنا فان فيه ست خصال ثلاث فى الدنيا وثلاث فى الآخرة فأما التى فى الدنيا فذهاب البهاء ودوام الفقر وقصر العمر وأما التى فى الآخرة فسخط الله تعالى وسوء الحساب والخلود فى النار

فى الارشاد الى الايمان والمنع من الكفر فقال ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا أما وجه دلالته على التوحيد فلما ظهر فى العقول ان التقليب من النور الى الظلمة ومن الظلمة الى النور لا يحصل الا بقدرة عالية قاهرة وأما وجه دلالته على الحشر فلانه لما ثبتت قدرته تعالى فى هذه الصورة على القلب من النور الى الظلمة وبالعكس فأى امتناع فى ثبوت قدرته على القلب من الحياة الى الموت مرة ومن الموت الى الحياة أخرى وأما وجه دلالته على النبوة فلانه تعالى يقلب الليل والنهار لمنافع المكلفين وفى بعثة الانبياء والرسل الى الخلق منافع عظيمة فما المانع من بعثهم الى الخلق لاجل تحصيل تلك المنافع فقد ثبت أن هذه الكلمة الواحدة كافية فى اقامة الدلالة على تصحيح الاصول الثلاثة التى منها منشأ كفرهم واستحقاقهم العذاب ثم فى الآية سؤالان (السؤال الاول) ما السبب فى أن جعل الابصار للنهار وهو لاهله * جوابه تنبيها على كمال هذه الصفة فيه (السؤال الثانى) لما قال جعل لكم الليل لتسكنوا فيه فلم لم يقل والنهار لتبصروا فيه * جوابه لان السكون فى الليل هو المقصود من الليل وأما الابصار فى النهار فليس هو المقصود بل هو وسيلة الى جلب المنافع الدينية والدنيوية وأما قوله ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون خص المؤمنين بالذكر وان كانت أدلة للكل من حيث اختصوا بالقبول والانتفاع على ما تقدم فى نظائره * قوله تعالى ﴿ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله وكل أتوه داخرين﴾ اعلم أن هذا هو العلامة الثانية لقيام القيامة أما قوله ويوم ينفخ فى الصور ففيه وجوه (أحدها) أنه شئ شبيه بالقرن وان اسرافيل عليه السلام ينفخ فيه باذن الله تعالى فاذا سمع الناس ذلك الصوت وهو فى الشدة بحيث لا يحتمله طباعهم يفزعون عنده ويصعقون ويموتون وهو كقوله تعالى فاذا نقر فى الناقور وهذا قول الاكثرين (وثانيها) يجوز أن يكون تمثيلا لدعاء الموتى فان خروجهم من قبورهم كخروج الجيش عند سماع صوت الآلة (وثالثها) أن الصور جمع الصورة وجعلوا النفخ فيها نفخ الروح والاول أقرب لدلالة الظاهر عليه ولا مانع يمنع منه أما قوله ففزع من فى السموات ومن فى الارض فاعلم أنه انما قال ففزع ولم يقل فيفزع للاشعار بتحقيق الفزع وثبوته وأنه كائن لا محالة لان الفعل الماضى يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا به والمراد فزعهم عند النفخة الاولى أما قوله الا من شاء الله فالمراد الا من ثبت الله قلبه من الملائكة قالوا هم جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت وقيل الشهداء وعن الضحاك الحور وخزنة النار وحملة العرش وعن جابر موسى منهم لانه صعق مرة ومثله قوله تعالى ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله وليس فيه خبر مقطوع والكتاب انما يدل على الجملة أما قوله وكل أتوه داخرين فقرئ أتوه وأتاه وداخرين ودخرين فالجمع على المعنى والتوحيد على اللفظ والداخر والدخر الصاغر وقيل معنى الاتيان حضورهم الموقف بعد النفخة الثانية ويجوز أن يراد رجوعهم الى أمر الله تعالى وانقيادهم له * قوله تعالى ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شئ انه خبير بما تفعلون﴾ اعلم أن هذا هو العلامة الثالثة لقيام القيامة وهى تسيير الجبال والوجه فى حسبانهم أنها جامدة فلان الاجسام الكبار اذا تحركت حركة سريعة على نهج واحد فى السمت والكيفية ظن الناظر اليها أنها واقفة مع أنها تمر مرا حثيثا أما قوله صنع الله فهو من المصادر المؤكدة كقوله وعد الله وصبغة الله الا أن مؤكده محذوف وهو الناصب ليوم ينفخ والمعنى أنه لما قدم ذكر هذه الامور التى لا يقدر عليها سواه جعل هذا الصنع من جملة الاشياء التى أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب قال القاضى عبد الجبار فيه دلالة على أن القبائح ليست من خلقه والا وجب وصفها بأنها متقنة ولكن الاجماع مانع منه

(ولا تقتلوا النفس التى حرم الله) قتلها بان عصمها بالاسلام أو بالعهد (الا بالحق) الا باحدى ثلاث كفر بعد ايمان وزنا بعد احصان وقتل نفس معصومة عمدا فالاستثناء مفرغ أى لا تقتلوها بسبب من الاسباب الا بسبب الحق أو ملتبسين أو ملتبسة بشئ من الاشياء ويجوز أن يكون نعتا لمصدر محذوف أى لا تقتلوها قتلا ما الا قتلا ملتبسا بالحق (ومن قتل مظلوما) بغير حق يوجب قتله أو يبيحه للقاتل حتى انه لا يعتبر اباحته لغير القاتل فان من عليه القصاص اذا قتله غير من له القصاص يقتص له ولا يفيد قول الولى أنا أمرته بذلك مالم يكن الامر ظاهرا (فقد جعلنا لوليه) لمن يلى أمره من الوارث أو السلطان عند عدم الوارث (سلطانا) تسلطا واستيلاء على القاتل يؤاخذه بالقصاص أو بالدية حسبما تقتضيه جنايته أوجهة غالبة (فلا يسرف) وقرئ لا تسرف (فى القتل) أى لا يسرف الولى فى أمر القتل بان يتجاوز الحد المشروع بان يزيد عليه المثلة أو بان يقتل غير القاتل والجواب من أقاربه أو بان يقتل الاثنين مكان الواحد كما يفعله أهل الجاهلية أو بان يقتل القاتل فى مادة الدية وقرئ بصيغة النفى مبالغة فى افادة معنى النهى (انه كان منصورا) تعليل للنهى والضمير للولى على معنى أنه تعالى نصره بان أوجب له القصاص أو الدية وأمر الحكام

والجواب أن الاتقان لا يحصل الا في المركبات فيمتنع وصف الاعراض بها والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون الا ما كنتم تعملون﴾ اعلم أنه تعالى لما تكلم في علامات القيامة شرح بعد ذلك أحوال المكلفين بعد قيام القيامة والمكلف اما أن يكون مطيعا أو عاصيا أما المطيع فهو الذي جاء بالحسنة وله أمران (أحدهما) أن له ما هو خير منها وذلك هو الثواب * فان قيل الحسنة التي جاء العبد بها يدخل فيها معرفة الله تعالى والاخلاص في الطاعات والثواب انما هو الاكل والشرب فكيف يجوز أن يقال الاكل والشرب خير من معرفة الله * جوابه من وجوه (أحدها) أن ثواب المعرفة النظرية الحاصلة في الدنيا هي المعرفة الضرورية الحاصلة في الآخرة ولذة النظر الى وجهه الكريم سبحانه تعالى وقد دلت الدلائل على أن أشرف السعادات هي هذه اللذة ولو لم تحمل الآية على ذلك لزم أن يكون الاكل والشرب خيرا من معرفة الله تعالى وانه باطل (وثانيها) أن الثواب خير من العمل من حيث ان الثواب دائم والعمل منقض ولان العمل فعل العبد والثواب فعل الله تعالى (وثالثها) فله خير منها أي له خير حاصل من جهتها وهو الجنة (السؤال الثاني) الحسنة لفظة مفردة معرفة وقد ثبت أنها لا تفيد العموم بل يكفي في تحققها حصول فرد واذا كان كذلك فلنحملها على أكمل الحسنات شأنا وأعلاها درجة وهو الايمان فلهذا قال ابن عباس من أفراد الحسنة كلمة الشهادة وهذا يوجب القطع بأن لا يعاقب أهل الايمان * جوابه ذلك الخير هو أن لا يكون عقابه مخلدا (الامر الثاني) للمطيع هو أنهم آمنون من كل فزع لا كما قال بعضهم ان أهوال القيامة تعم المؤمن والكافر * فان قيل أليس أنه تعالى قال في أول الآية ففزع من في السموات ومن في الارض فكيف نفى الفزع ههنا * جوابه أن الفزع الاول هو ما لا يخلو منه أحد عند الاحساس لشدة تقع وهول يفجأ من رعب وهيبة وان كان المحسن يأمن وصول ذلك الضرر اليه كما قيل يدخل الرجل على الملك بصدر هياب وقلب وجاب وان كانت ساعة اعزاز وتكرمة وأما الثاني فالخوف من العذاب * أما قراءة من قرأ من فزع بالتنوين فهي تحتمل معنيين من فزع واحد وهو خوف العقاب وأما ما يلحق الانسان من الهيبة والرعب عند مشاهدة الاهوال فلا ينفك منه أحد وفي الاخبار ما يدل عليه ومن فزع شديد مفرط الشدة لا يكتنهه الوصف وهو خوف النار وأمن يعدى بالجار وبنفسه كقوله تعالى أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله فهذا شرح حال المطيعين * أما شرح حال العصاة فهو قوله ومن جاء بالسيئة قيل السيئة الاشراك وقوله فكبت وجوههم في النار فاعلم أنه يعبر عن الجملة بالوجه والرأس والرقبة فكأنه قيل فكبوا في النار كقوله فكبكبوا فيها ويجوز أن يكون ذكر الوجوه ايذانا بأنهم يلقون على وجوههم فيها مكبوبين أما قوله هل تجزون الا ما كنتم تعملون فيجوز فيه الالتفات وحكاية ما يقال لهم عند الكب باضمار القول ﴿قوله تعالى ﴿انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل انما أنا من المنذرين وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون﴾ اعلم أنه سبحانه وتعالى لما بين المبدأ والمعاد والنبوة ومقدمات القيامة وصفة أهل القيامة من الثواب والعقاب وذلك كمال ما يتعلق ببيان أصول الدين ختم الكلام بهذه الخاتمة اللطيفة فقال قل يا محمد اني أمرت بأشياء (الاول) اني أمرت أن أخص الله وحده بالعبادة ولا أتخذ له شريكا وان الله تعالى لما قدم دلائل التوحيد فكأنه أمر محمدا بأن يقول لهم هذه الدلائل التي ذكرتها لكم ان لم تفد لكم القول بالتوحيد فقد أفادت لي ذلك

بمعونته في استيفاء حقه فلا يبغ ما وراء حقه ولا يستزد عليه ولا يخرج من دائرة أمر الناصر أو للمقتول ظلما على معنى أنه تعالى نصره بما ذكر فلا يسرف وليه في شأنه أو للذي يقتله الولي ظلما واسرافا ووجه التعليل ظاهر وعن مجاهد أن الضمير في لا يسرف للقاتل الاول ويعضده قراءة فلا تسرفوا والضميران في التعليل عائدان الى الولي أو المقتول فالمراد بالاسراف حينئذ اسراف القاتل على نفسه بتعريضه لها للهلاك العاجل والآجل لا الاسراف وتجاوز الحد في القتل أي لا يسرف على نفسه في شأن القتل كما في قوله تعالى قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم (ولا تقربوا مال اليتيم) نهي عن قربانه لما ذكر من المبالغة في النهي عن التعرض له ومن افضاء ذلك اليه وللتوسل الى الاستثناء بقوله تعالى (الا بالتي هي أحسن) أي الا بالخصلة والطريقة التي هي أحسن الخصال والطرائق وهي حفظه واستثماره (حتى يبلغ أشده) غاية لجواز التصرف على الوجه الاحسن المدلول عليه بالاستثناء لا للوجه المذكور فقط (وأوفوا بالعهد) سواء جرى بينكم وبين ربكم أو بينكم وبين غيركم من الناس والايفاء بالعهد والوفاء به هو القيام بمقتضاه والمحافظة عليه ولا يكاد يستعمل الا بالباء فرقا بينه وبين الايفاء الحسي كايفاء الكيل والوزن (ان العهد) أظهر في مقام الاضمار اظهارا لكمال العناية بشأنه أو لان المراد مطلق العهد المنتظم للعهد المعهود (كان مسؤلا) أي مسؤلا عنه على حذف الجار وجعل الضمير بعد انقلابه مرفوعا مستكنا في اسم المفعول كقوله تعالى وذلك يوم مشهود أي مشهود فيه ونظيره ما في قوله تعالى تلك آيات الكتاب الحكيم على أن أصله الحكيم قائله فحذف المضاف وجعل الضمير مستكنا في الحكيم بعد انقلابه مرفوعا ويجوز

أن يكون تخييلا كأنه يقال للعهد لم نكثت وهلا وفى بك تبكيتا للناكث كما يقال للموؤدة بأى ذنب قتلت (وأوفوا الكيل) أى أتموه ولا تخسروه (إذا كلتم) أى وقت كيلكم للمشترين وتقييد الأمر بذلك لما أن التطفيف هناك يكون وأما وقت الاكتيال على الناس فلا حاجة إلى الأمر بالتعديل قال تعالى إذا اكتالوا على الناس يستوفون الآية (وزنوا بالقسطاس) وهو القرسطون وقيل كل

ميزان صغيرا كان أو كبيرا رومى معرب ولا يقدح ذلك فى عربية القرآن لانتظام المعربات فى سلك الكلام العربية وقرئ بضم القاف (المستقيم) أى العدل السوى ولعل الاكتفاء باستقامته عن الأمر بإيفاء الوزن لما أن عند استقامته لا يتصور الجور غالبا بخلاف الكيل فإنه كثيرا ما يقع التطفيف مع استقامة الآلة كما أن الاكتفاء بإيفاء الكيل عن الأمر بتعديله لما أن إيفاءه لا يتصور بدون تعديل المكيال وقد أمر بتقويمه أيضا فى قوله تعالى أوفوا الكيل والميزان بالقسط (ذلك) أى إيفاء الكيل والوزن بالميزان السوى (خير) فى الدنيا إذ هو أمانة توجب الرغبة فى معاملته والذكر الجميل بين الناس (وأحسن تأويلا) عاقبة تفعيل من آل إذا رجع والمراد ما يؤول إليه (ولا تقف) ولا تتبع من قفا أثره إذا تبعه وقرئ ولا تقف من قاف أثره أى قفاه ومنه القافة فى جمع القائف (ما ليس لك به علم) أى لا تكن فى اتباع ما لا علم لك به من قول أو فعل كمن يتبع مسلكا لا يدرى أنه يوصله إلى مقصده واحتج به من منع اتباع الظن وجوابه أن المراد بالعلم هو الاعتقاد الراجح المستفاد من سند قطعيا كان أو ظنيا واستعماله بهذا المعنى مما لا ينكر شيوعه وقيل إنه مخصوص بالعقائد وقيل بالرمى وشهادة الزور ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام من قفا مؤمنا بما ليس فيه

قسر إعراضهم عن هذه الدعوة وأعرضت عنها فإنى مصر على أعمالى غير مرتاب فيها ثم إنه وصف الله تعالى بأمرين (أحدهما) أنه رب هذه البلدة والمراد مكة وإنما اختصها من بين سائر البلاد بإضافة اسمه إليها لأنها أحب بلاده إليه وأكرمها عليه وأشار إليها إشارة تعظيم لها دالا على أنها موطن نبيه ومهبط وحيه أما قوله الذى حرمها فقرئ التى حرمها وإنما وصفها بالتحريم لوجوه (أحدها) أنه حرم فيها أشياء على من يحج (وثانيها) أن اللاجئ إليها آمن (وثالثها) لا ينتهك حرمتها إلا ظالم ولا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها وإنما ذكر ذلك لأن العرب كانوا معترفين بكون مكة محرمة وعلموا أن تلك الفضيلة ليست من الأصنام بل من الله تعالى فكأنه قال لما علمت وعلمتم أنه سبحانه هو المتولى لهذه النعم وجب على أن أخصه بالعبادة (وثانيهما) وصف الله تعالى بقوله وله كل شئ وهذه إشارة إلى ما تقدم من الدلائل المذكورة فى هذه السورة على التوحيد من كونه تعالى خالقا لجميع النعم فاجمل ههنا تلك المفصلات وهذا كمن أراد صفة بعض الملوك بالقوة فيعد تلك التفاصيل ثم يمد التطاول بل يقول إن كل العالم له وكل الناس فى طاعته (الثانى) أمر بأن يكون من المسلمين (الثالث) أمر بأن يتلو القرآن عليهم لقد قام بكل ذلك صلوات الله عليه أتم قيام فمن اهتدى فى هذه المسائل الثلاث المتقدمة وهى التوحيد والحشر والنبوة فإنما يهتدى لنفسه أى منفعة اهتدائه راجعة إليه ومن ضل فلا على وما أنا إلا رسول منذر ثم إنه سبحانه ختم هذه الخاتمة فى نهاية الحسن وهى قوله وقل الحمد لله على ما أعطانى من نعمة العلم والحكمة والنبوة أو على ما وفقنى من القيام بأداء الرسالة والإنذار سيريكم آياته القاهرة فتعرفونها لكن حين لا ينفعكم الإيمان وما ربك بغافل عما تعملون لأنه من وراء جزاء العاملين والله أعلم تم تفسير السورة والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين

﴿سورة القصص مكية كلها إلا قوله الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون إلى قوله لا نبتغى الجاهلين وقيل إلا آية وهى إن الذى فرض عليك القرآن الآية وهى سبع أو ثمان وثمانون آية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ اعلم أن قوله تعالى طسم كسائر الفواتح وقد تقدم القول فيها وتلك إشارة إلى آيات السورة والكتاب المبين هو اللوح وأما الكتاب الذى وعد الله إنزاله على محمد صلى الله عليه وسلم فبين أن آيات هذه السورة هى آيات ذلك الكتاب ووصفه بأنه مبين لأنه بين فيه الحلال والحرام أو لأنه بين بفصاحته أنه من كلام الله دون كلام العباد أو لأنه يبين صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أو لأنه يبين خبر الأولين والآخرين أو لأنه يبين كيفية التخلص عن شبهات أهل الضلال أما قوله تعالى نتلو عليك أى على لسان جبريل عليه السلام لأنه كان يتلو على محمد حتى يحفظه وقوله من نبإ موسى وفرعون فهو مفعول نتلو عليك أى نتلو عليك بعض خبرهما بالحق محقين كقوله تنبت بالدهن وقوله لقوم يؤمنون فيه وجهان (أحدهما) أنه تعالى قد أراد بذلك من لا يؤمن أيضا لكنه

خص

خص المؤمنين بالذكر لانهم قبلوا وانتفعوا فهو كقوله هدى للمتقين (والثاني) يحتمل أنه تعالى علم أن الصلاح في تلاوته هو ايمانهم وتكون ارادته لمن لا يؤمن كالتبع * قوله تعالى ان فرعون علا في الارض قرئ فرعون بضم الفاء وكسرها والكسر أحسن وهو كالقسطاس والقسطاس علا استكبر وتجبر وتعظم وبغى والمراد به قوة الملك والعلو في الارض يعني أرض مملكته ثم فصل الله تعالى بعض ذلك بقوله وجعل أهلها شيعا أي فرقا يشيعونه على ما يريد ويطيعونه لا يملك أحد منهم مخالفته أو يشيع بعضهم بعضا في استخدامه أو أصنافا في استخدامه أو فرقا مختلفة قد أغرى بينهم العداوة ليكونوا له أطوع أو المراد ما فسره بقوله يستضعف طائفة منهم أي يستخدمهم ويذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم فهذا هو المراد بالشيع * قوله يستضعف طائفة منهم تلك الطائفة بنو اسرائيل وفي سبب ذبح الابناء وجوه (أحدها) ان كاهنا قال له يولد مولود في بني اسرائيل في ليلة كذا يذهب ملكك على يده فولد تلك الليلة اثنا عشر غلاما فقتلهم وعند أكثر المفسرين بقي هذا العذاب في بني اسرائيل سنين كثيرة قال وهب قتل القبط في طلب موسى عليه السلام تسعين ألفا من بني اسرائيل قال بعضهم في هذا دليل على حمق فرعون فانه ان صدق الكاهن لم يدفع القتل الكائن وان كذب فما وجه القتل وهذا السؤال قد يذكر في تزييف علم الاحكام من علم النجوم ونظيره ما يقوله نفاة التكليف ان كان زيد في علم الله وفي قضائه من السعداء فلا حاجة الى الطاعة وان كان من الاشقياء فلا فائدة في الطاعة وأيضا فهذا السؤال لو صح لبطل علم التعبير ومنفعته وأيضا فجواب المنجم ان النجوم دلت على انه يولد ولد لو لم يقتل لصار كذا وكذا وعلى هذا التقدير لا يكون السعي في قتله عبثا واعلم ان هذا الوجه ضعيف لان اسناد مثل هذا الخبر الى الكاهن اعتراف بأنه قد يخبر عن الغيب على سبيل التفصيل ولو جوزناه لبطلت دلالة الاخبار عن الغيب على صدق الرسل وهو باجماع المسلمين باطل (وثانيها) وهو قول السدي ان فرعون رأى في منامه ان نارا أقبلت من بيت المقدس واشتملت على مصر فأحرقت القبط دون بني اسرائيل فسأل عن رؤياه فقالوا يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو اسرائيل منه رجل يكون على يده هلاك مصر فأمر بقتل الذكور (وثالثها) ان الانبياء الذين كانوا قبل موسى عليه السلام بشروا بمجيئه وفرعون كان قد سمع ذلك فلهذا كان يذبح أبناء بني اسرائيل وهذا الوجه هو الاولى بالقبول قال صاحب الكشاف يستضعف حال من الضمير في وجعل أو صفة لشيعا أو كلام مستأنف ويذبح بدل من يستضعف وقوله انه كان من المفسدين يدل على أن ذلك القتل ما حصل منه الا الفساد وانه لا أثر له في دفع قضاء الله تعالى أما قوله ونريد أن نمن فهو جملة معطوفة على قوله ان فرعون علا في الارض لانها نظيرة تلك في وقوعها تفسيرا لنبأ موسى عليه السلام وفرعون واقتصاصا له واللفظ في قوله ونريد للاستقبال ولكن أريد به حكاية حال ماضية ويجوز أن يكون حالا من يستضعف أي يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم فان قيل كيف يجتمع استضعافهم وارادة الله تعالى المن عليهم واذا أراد الله شيئا كان ولم يتوقف الى وقت آخر قلنا لما كانت منة الله عليهم بتخليصهم من فرعون قريبة الوقوع جعلت ارادة وقوعها كأنها مقارنة لاستضعافهم أما قوله ونجعلهم أئمة أي مقدمين في الدنيا والدين وعن مجاهد دعاة الى الخير وعن قتادة ولاة كقوله وجعلكم ملوكا ونجعلهم الوارثين يعني ملك فرعون وأرضه وما في يده أما قوله ونمكن لهم في الارض فاعلم انه يقال مكن له اذا جعل له مكانا يقعد عليه فوطأه ومهده ونظيره أرض له ومعنى التمكين لهم في الارض وهي أرض مصر والشام ان ينفذ أمرهم ويطلق أيديهم وقوله ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون قرئ ويرى فرعون وهامان وجنودهما أي يرون منهم ما كانوا

حسبه الله تعالى في روغة الجبال حتى يأتي بالمخرج ومنه قول الكميت * ولا أرمي البريء بغير ذنب * ولا أقفو الحواصن ان رمينا (ان السمع والبصر والفؤاد) وقرئ بفتح الفاء والواو المقلوبة من الهمزة عند ضم الفاء (كل أولئك) أي كل واحد من تلك الاعضاء فأجريت مجرى العقلاء لما كانت مسؤلة عن أحوالها شاهدة على أصحابها هذا وان أولاء وان غلب في العقلاء لكنه من حيث انه اسم جمع لذا الذي يعم القبيلين جاء لغيرهم أيضا قال ذم المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الايام (كان عنه مسؤلا) أي كان كل من تلك الاعضاء مسؤلا عن نفسه على أن اسم كان ضمير يرجع الى كل وكذا الضمير المجرور وقد جوز أن يكون الاسم ضمير القافي بطريق الالتفات اذ الظاهر أن يقال كنت عنه مسؤلا وقيل الجار والمجرور في محل الرفع قد أسند اليه مسؤلا معللا بأن الجار والمجرور لا يلتبس بالمبتدا وهو السبب في منع تقديم الفاعل وما يقوم مقامه ولكن النحاس حكى الاجماع على عدم جواز تقديم القائم مقام الفاعل اذا كان جارا ومجرورا ويجوز أن يكون من باب الحذف على شريطة التفسير ويحذف الجار من المفسر ويعود الضمير مستكنا كما ذكرنا في قوله تعالى يوم مشهود ويجوز أن يكون مسؤلا مسندا الى المصدر المدلول عليه بالفعل وأن يكون فاعله المصدر وهو السؤال وعنه في محل النصب وسأل ابن جني أبا علي عن قولهم فيك يرغب وقال لا يرتفع بما بعده فأين المرفوع فقال المصدر أي فيك يرغب الرغبة بمعنى تفعل الرغبة كما في قولهم يعطي ويمنع أي يفعل الاعطاء والمنع وجوز أن يكون اسم كان أو فاعله ضمير كل بحذف المضاف أي كان صاحبه عنه مسؤلا أو مسؤلا صاحبه (ولا تمش في الارض) التقييد لزيادة التقرير والاشعار

بأن المشي عليها الا يليق بالمرح (مرحا) تكبرا وبطرا واختيالا وهو مصدر وقع موقع الحال أي ذا مرح أو تمرح مرحا أو لأجل المرح وقرئ بالكسر (انك لن تخرق الارض) تعليل للنهي وفيه تهكم بالمختال وايذان بأن ذلك مفاخرة مع الارض وتكبر عليها أي لن تخرق الارض بدوسك وشدة وطأتك وقرئ بضم الراء (ولن تبلغ الجبال) التي هي بعض أجزاء الارض (طولا) حتى يمكن لك أن تتكبر عليها اذ التكبر انما يكون بكثرة القوة وعظم الجثة وكلاهما مفقود وفيه تعريض بما عليه المختال من رفع رأسه ومشيه على صدور قدميه (كل ذلك) اشارة الى ما علم في تضاعيف ذكر الاوامر والنواهي من الخصال الخمس والعشرين (كان سيئه) الذي نهي عنه وهي اثنتا عشرة خصلة (عند ربك مكروها) مبغضا غير مرضي أو غير مراد بالارادة الاولية لا غير مراد مطلقا لقيام الادلة القاطعة على أن جميع الاشياء واقعة بارادته سبحانه وهو تتمة لتعليل الامور المنهي عنها جميعا ووصف ذلك بمطلق الكراهة مع أن البعض من الكبائر للايذان بأن مجرد الكراهة عنده تعالى كافية في وجوب الانتهاء عن ذلك وتوجيه الاشارة الى الكل ثم تعيين البعض دون توجيهها اليه ابتداء لما أن البعض المذكور ليس بمذكور جملة بل على وجه الاختلاط وفيه اشعار بكون ما عداه مرضيا عنده تعالى وانما لم يصرح بذلك ايذانا بالغنى عنه وقيل الاضافة بيانية كما في آية الليل وآية النهار وقرئ سيئة على أنه خبر كان وذلك اشارة الى ما نهي عنه من الامور المذكورة ومكروها بدل من سيئة أو صفة لها محمولة على المعنى فانه بمعنى سيئا وقد قرئ به أو يجري عليه موصوف مذكر أي أمرا مكروها أو يجري مجرى الاسماء زال عنه معنى الوصفية ويجوز كونه حالا

خائفين منه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود بني اسرائيل ﴿ قوله تعالى ﴿وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين وقالت امرأت فرعون قرت عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون﴾ اعلم انه تعالى لما قال ونريد أن نمن على الذين استضعفوا ذكر أوائل نعمه في هذا الباب بقوله وأوحينا الى أم موسى والكلام في هذا الوحي ذكرناه في سورة طه في قوله ولقد مننا عليك مرة أخرى اذ أوحينا الى أمك ما يوحى وقوله ان أرضعيه كالدلالة على انها أرضعته وليس في القرآن حد ذلك فاذا خفت عليه أن يفطن به جيرانك ويسمعوا صوته عند البكاء فألقيه في اليم قال ابن جريج ان بعد أربعة أشهر صاح فألقي في اليم والمراد باليم ههنا النيل ولا تخافي ولا تحزني والخوف غم يحصل بسبب مكروه يتوقع حصوله في المستقبل والحزن غم يلحقه بسبب مكروه حصل في الماضي فكأنه قيل ولا تخافي من هلاكه ولا تحزني بسبب فراقه فانا رادوه اليك لتكوني أنت المرضعة له وجاعلوه من المرسلين الى أهل مصر والشام وقصة الالقاء في اليم قد تقدمت في سورة طه وقال ابن عباس ان أم موسى عليه السلام لما تقارب ولادها كانت قابلة من القوابل التي وكلهن فرعون بالحبالى مصافية لام موسى عليه السلام فلما حست بالطلق أرسلت اليها وقالت لها قد نزل بي ما نزل ولينفعني اليوم حبك اياي فعالجتها القابلة فلما وقع موسى عليه السلام الى الارض هالها نور بين عينيه فارتعش كل مفصل منها ودخل حب موسى عليه السلام قلبها فقالت يا هذه ما جئتك الا لقتل مولودك ولكني وجدت لابنك هذا حبا شديدا فاحتفظي بابنك فاني أراه عدوا فلما خرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العيون فجاء الى بابها ليدخل على أم موسى فقالت أخته يا أماه هذا الحرس فلفته ووضعته في تنور مسجور فطاش عقلها فلم تعقل ما تصنع فدخلوا فاذا التنور مسجور ورأوا أم موسى لم يتغير لها لون ولم يظهر لها لبن فقالوا لم دخلت القابلة عليك قالت انها حبيبة لي دخلت للزيارة فخرجوا من عندها ورجع اليها عقلها فقالت لاخت موسى أين الصبي قالت لا أدري فسمعت بكاء في التنور فانطلقت اليه وقد جعل الله النار عليه بردا وسلاما فأخذته ثم ان أم موسى عليه السلام لما رأت فرعون جد في طلب الولدان خافت على ابنها فقذف الله في قلبها أن تتخذ له تابوتا ثم تقذف التابوت في النيل فذهبت الى نجار من أهل مصر فاشترت منه تابوتا فقال لها ما تصنعين به فقالت ابن لي أخشى عليه كيد فرعون أخبؤه فيه وما عرفت انه يفشي ذلك الخبر فلما انصرفت ذهب النجار ليخبر به الذباحين فلما جاءهم أمسك الله لسانه وجعل يشير بيده فضربوه وطردوه فلما عاد الى موضعه رد الله عليه نطقه فذهب مرة أخرى ليخبرهم به فضربوه وطردوه فلما عاد الى موضعه رد الله نطقه فذهب مرة أخرى ليخبرهم به فضربوه وطردوه فأخذ الله بصره ولسانه فجعل لله تعالى انه ان رد عليه بصره ولسانه فانه لا يدلهم عليه فعلم الله تعالى منه الصدق فرد عليه بصره ولسانه وانطلقت أم موسى وألقته في النيل وكان لفرعون بنت لم يكن له ولد غيرها وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها الى أبيها وكان بها برص شديد وكان فرعون قد شاور الاطباء والسحرة في أمرها فقالوا أيها الملك لا تبرأ هذه الا من قبل البحر يوجد منه شبه الانسان فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ من ذلك وذلك في يوم كذا في شهر كذا حين تشرق الشمس فلما كان ذلك اليوم غدا فرعون الى مجلس كان له على شفير النيل ومعه آسية بنت مزاحم وأقبلت بنت فرعون في جواريها حتى جلست على الشاطئ اذ أقبل النيل بتابوت تضربه الامواج وتعلق بشجرة فقال فرعون ائتوني به فابتدروه بالسفن من كل جانب حتى وضعوه بين يديه فعالجوا

فتح الباب فلم يقدروا عليه وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه فنظرت آسية فرأت نورا في جوف التابوت لم يره غيرها فعالجته وفتحته فاذا هي بصبي صغير في المهد واذا نور بين عينيه فألقى الله محبته في قلوب القوم وعمدت ابنة فرعون الى ريقه فلطخت به برصها فبرأت وضمته الى صدرها فقالت الغواة من قوم فرعون انا نظن ان هذا هو الذي تحذر منه رمي في البحر فرقا منك فهم فرعون بقتله فاستوهبته امرأة فرعون وتبنته فترك قتله ﴿ أما قوله فالتقطه آل فرعون فالالتقاط اصابة الشئ من غير طلب والمراد بآل فرعون جواريه ﴿ أما قوله ليكون لهم عدوا وحزنا فالمشهور ان هذه اللام يراد بها العاقبة قالوا والا نقض قوله وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك ونقض قوله وألقيت عليك محبة مني ونظير هذه اللام قوله تعالى ولقد ذرأنا لجهنم وقول الشاعر ﴿ لدوا للموت وابنوا للخراب ﴿ واعلم أن التحقيق ما ذكره صاحب الكشاف وهو ان هذه اللام هي لام التعليل على سبيل المجاز وذلك لان مقصود الشئ وغرضه يؤول اليه أمره فاستعملوا هذه اللام فيما يؤول اليه الشئ على سبيل التشبيه كاطلاق لفظ الاسد على الشجاع والبليد على الحمار قرأ حمزة والكسائي حزنا بضم الحاء وسكون الزاي والباقون بالفتح وهما لغتان مثل السقم والسقم اما قوله كانوا خاطئين ففيه وجهان (أحدهما) قال الحسن معنى كانوا خاطئين ليس من الخطيئة بل المعنى وهم لا يشعرون انه الذي يذهب بملكهم وأما جمهور المفسرين فقالوا معناه كانوا خاطئين فيما كانوا عليه من الكفر والظلم فعاقبهم الله تعالى بأن ربى عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم وقرئ خاطين تخفيف خاطئين أي خاطين الصواب الى الخطا وبين تعالى انها التقطته ليكون قرة عين لها ولهما جميعا قال ابن اسحق ان الله تعالى ألقى محبته في قلبها لانه كان في وجهه ملاحة كل من رآه أحبه ولانها حين فتحت التابوت رأت النور ولانها لما فتحت التابوت رأته يمتص اصبعه ولان ابنة فرعون لما لطخت برصها بريقه زال برصها ويقال ما كان لها ولد فأحبته قال ابن عباس لما قالت قرة عين لي ولك قال فرعون يكون لك وأما انا فلا حاجة لي فيه فقال عليه الصلاة والسلام والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت لهداه الله تعالى كما هداها قال صاحب الكشاف قرة عين خبر مبتدأ محذوف ولا يقوى أن يجعل مبتدأ ولا تقتلوه خبرا ولو نصب لكان أقوى وقراءة ابن مسعود دليل على انه خبر قرأ لا تقتلوه قرة عين لي ولك وذلك لتقدم لا تقتلوه ثم قالت المرأة عسى أن ينفعنا فنصيب منه خيرا أو نتخذه ولدا لانه أهل للتبني اما قوله وهم لا يشعرون فأكثر المفسرين على انه ابتداء كلام من الله تعالى أي لا يشعرون ان هلاكهم بسببه وعلى يده وهذا قول مجاهد وقتادة والضحاك ومقاتل وقال ابن عباس يريد لا يشعرون الى ماذا يصير أمر موسى عليه السلام وقال آخرون هذا من تمام كلام المرأة أي لا يشعر بنو اسرائيل وأهل مصر انا التقطناه وهذا قول الكلبي ﴿ قوله تعالى ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين وقالت لاخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ﴾ ذكروا في قوله فؤاد أم موسى فارغا وجوها (أحدها) قال الحسن فارغا من كل هم الا من هم موسى عليه السلام (وثانيها) قال أبو مسلم فراغ الفؤاد هو الخوف والاشفاق كقوله وأفئدتهم هواء (وثالثها) قال صاحب الكشاف فارغا صفرا من العقل والمعنى انها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والخوف (ورابعها) قال الحسن ومحمد بن اسحق فارغا من الوحي الذي أوحينا اليها أن ألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني انا رادوه اليك فجاءها الشيطان فقال لها كرهت ان يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجر فتوليت اهلاكه ولما أتاها خبر موسى عليه السلام انه وقع في يد فرعون فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله اليها (وخامسها) قال أبو عبيدة فارغا من الحزن لعلمها

من المستكن في كان أو في الظرف على انه صفة سيئة وقرئ سيئاته وقرئ شأنه (ذلك) أي الذي تقدم من التكاليف المفصلة (مما أوحى اليك ربك) أي بعض منه أو من جنسه (من الحكمة) التي هي علم الشرائع أو معرفة الحق لذاته والعمل به أو من الاحكام المحكمة التي لا يتطرق اليها النسخ والفساد وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان هذه الآيات الثماني عشرة كانت في ألواح موسى عليه السلام أولها لا تجعل مع الله الها آخر قال تعالى وكتبنا له في الالواح من كل شئ موعظة وهي عشر آيات في التوراة ومن اما متعلقة بأوحى على انها تبعيضية أو ابتدائية واما بمحذوف وقع حالا من الموصول أو من ضميره المحذوف في الصلة أي كائنا من الحكمة واما بدل من الموصول باعادة الجار (ولا تجعل مع الله الها آخر) الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والمراد غيره ممن يتصور منه صدور المنهي عنه وقد كرر للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الامر ومنتهاه وأنه رأس كل حكمة وملاكها ومن عدمه لم ينفعه علومه وحكمه وان بذ فيها أساطين الحكماء وحك بيافوخه عنان السماء وقد رتب عليه ما هو عائدة الاشراك أولا حيث قيل فتقعد مذموما مخذولا ورتب عليه ههنا نتيجته في العقبى فقيل (فتلقى في جهنم ملوما) من جهة نفسك ومن جهة غيرك (مدحورا) مبعدا من رحمة الله تعالى وفي ايراد الالقاء مبنيا للمفعول جري على سنن الكبرياء وازدراء بالمشرك وجعل له من قبيل خشبة يأخذها آخذ بكفه فيطرحها في التنور (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة اناثا) خطاب للقائلين بأن الملائكة بنات الله سبحانه والاصفاء بالشئ جعله خالصا والهمزة للانكار والفاء للعطف على مقدر يفسره المذكور أي أفضلكم على

سبحانه بتخصيصكم بأفضل الأولاد على وجه الخلوص وآثر لذاته أخسها وأدناها كما في قوله سبحانه ألكم الذكر وله الانثى وقوله تعالى أم له البنات ولكم البنون وقد قصد ههنا بالتعرض لعنوان الربوبية تشديد النكير وتأكيده وأشير بذكر الملائكة عليهم السلام وايراد الاناث مكان البنات الى كفرة لهم أخرى وهي وصفهم لهم عليهم السلام بالانوثة التي هي أخس صفات الحيوان كقوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا (انكم لتقولون) بمقتضى مذهبكم الباطل الذي هو اضافة الولد اليه سبحانه (قولا عظيما) لا يقادر قدره في استتباع الاثم وخرقه لقضايا العقول بحيث لا يجترئ عليه أحد حيث تجعلونه تعالى من قبيل الاجسام المتجانسة السريعة الزوال وليس كمثله شئ وهو الواحد القهار الباقي بذاته ثم تضيفون اليه ما تكرهون من أخس الاولاد وتفضلون عليه أنفسكم بالبنين ثم تصفون الملائكة الذين هم من أشرف الخلائق بالانوثة التي هي أخس أوصاف الحيوان فيالها من ضلة ما أقبحها وكفرة ما أشنعها وأفظعها (ولقد صرفنا) هذا المعنى وكررناه (في هذا القرآن) على وجوه من التصريف في مواضع منه وانما ترك الضمير تعويلا على الظهور وقرئ بالتخفيف (ليذكروا) ما فيه ويتفقوا على بطلان ما يقولونه والالتفات الى الغيبة للايذان باقتضاء الحال أن يعرض عنهم ويحكى للسامعين هناتهم وقرئ بالتخفيف من الذكر بمعنى التذكر ويجوز أن يراد بهذا القرآن ما نطق ببطلان مقالتهم المذكورة من الآيات الكريمة الواردة على أساليب مختلفة ومعنى التصريف فيه جعله مكانا له أي أوقعنا فيه التصريف كقوله * يجرح في عراقيبها نصلي * وقد جوز أن يراد به ابطال اضافتهم اليه تعالى

بأنه لا يقتل اعتمادا على تكفل الله بمصلحته قال ابن قتيبة وهذا من العجائب كيف يكون فؤادها فارغا من الحزن والله تعالى يقول لولا أن ربطنا على قلبها وهل يربط الا على قلب الجازع المحزون ويمكن أن يجاب عنه بأنه لا يمتنع انها لشدة ثقتها بوعد الله لم تخف عند اظهار اسمه وأيقنت أنها وان أظهرت فانه يسلم لاجل ذلك الوعد الا انه كان في المعلوم أن الاظهار يضر فربط الله على قلبها ويحتمل قوله ان كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها بالوحي فأمنت وزال عن قلبها الحزن فعلى هذا الوجه يصح ان يتأول على أن قلبها سلم من الحزن على موسى أصلا وفيه وجه ثالث وهو انها لما سمعت ان امرأة فرعون عطفت عليه وتبنته ان كادت لتبدي به بأنه ولدها لانها لم تملك نفسها فرحا بما سمعت لولا انا سكنا ما بها من شدة الفرح والابتهاج لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله تعالى لا بتبني امرأة فرعون اللعين وبعطفها وقرئ فرغا أي خاليا من قولهم أعوذ بالله من صفر الاناء وقرع الفناء وفرغا من قولهم دماؤهم بينهم فرغ أي هدر يعني بطل قلبها من شدة ما ورد عليها أما قوله ان كادت لتبدي به فاعلم ان على قول من فسر الفراغ بالفراغ من الحزن فقد ذكرنا تفسير قوله ان كادت لتبدي وأما على قول من فسر الفراغ بحصول الخوف فذكروا وجوها (أحدها) قال ابن عباس كادت تخبر بأن الذي وجدتموه ابني وقال في رواية عكرمة كادت تقول واابناه من شدة وجدها به وذلك حين رأت الموج يرفع ويضع وقال الكلبي ذلك حين سمعت الناس يقولون انه ابن فرعون وقال السدي لما أخذ ابنها كادت تقول هو ابني فعصمها الله تعالى ثم قال لولا أن ربطنا على قلبها بالهام الصبر كما يربط على الشئ المنفلت ليستقر ويطمئن لتكون من المؤمنين من المصدقين بوعد الله وهو قوله انا رادوه اليك أما قوله وقالت لاخته قصيه أي اتبعي أثره وانظري الى أين وقع والى من صار وكانت أخته لابيه وأمه واسمها مريم فبصرت به قال ابن عباس رضي الله عنهما أبصرته قال المبرد أبصرته وبصرت به بمعنى واحد وقوله عن جنب أي عن بعد وقرئ عن جانب وعن جنب والجنب الجانب أي نظرت نظرة مزورة متجانفة وهم لا يشعرون بحالها وغرضها * قوله تعالى (وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فرددناه الى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم ان وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون) اعلم ان قوله وحرمنا عليه المراضع من قبل يقتضي تحريما من قبله فاذا لم يصح بالتعبد والنهي لتعذر التمييز فلا بد من فعل سواه وذلك الفعل يحتمل انه تعالى مع حاجته الى اللبن أحدث فيه نفار الطبع عن لبن سائر النساء فلذلك لم يرضع أو أحدث في ألبانهن من الطعم ما ينفر عنه طبعه أو وضع في لبن أمه لذة فلما تعودها لا جرم كان يكره لبن غيرها وعن الضحاك كانت أمه قد أرضعته ثلاثة أشهر حتى عرف ريحها والمراضع جمع مرضع وهي المرأة التي ترضع أو جمع مرضع وهو موضع الرضاع أي الثدي أو الرضاع وقوله من قبل أي من قبل أن رددناه الى أمه ومن قبل مجيء أخت موسى عليه السلام ومن قبل ولادته في حكمنا وقضائنا فعند ذلك قالت أخته هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم أي يضمنون رضاعه والقيام بمصالحه وهم له ناصحون لا يمنعونه ما ينفعه في تربيته وغذائه ولا يخونونكم فيه والنصح اخلاص العمل من شائبة الفساد وقال السدي انها لما قالت وهم له ناصحون دل ظاهر ذلك على ان أهل البيت يعرفونه فقال لها هامان قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله فقالت ما أعرفه ولكني انما قلت هم للملك ناصحون ليزول شغل قلبه وكل ما روي في هذا الباب يدل على ان فرعون كان بمنزلة آسية في شدة محبته لموسى عليه السلام لا على ما قال من زعم انها كانت مختصة بذلك فقط ثم قال تعالى فرددناه الى أمه بهذا الضرب من اللطف كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق أي فيما كان وعدها من أنه يرده اليها ولقد كانت عالمة بذلك ولكن ليس الخبر

كالعيان

كالعيان فتحققت بوجود الموعود ولكن أكثرهم لا يعلمون فيه وجوه أربعة (أحدها) ولكن أكثر الناس في ذلك العهد وبعده لا يعلمون لاعراضهم عن النظر في آيات الله (وثانيها) قال الضحاك ومقاتل يعني أهل مصر لا يعلمون أن الله وعدها برده اليها (وثالثها) هذا كالتعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى عليه السلام فجزعت وأصبح فؤادها فارغا (ورابعها) أن يكون المعنى انا انما رددناه اليها لتعلم أن وعد الله حق والمقصود الاصلي من ذلك الرد هذا الغرض الديني ولكن الاكثر لا يعلمون ان هذا هو الغرض الاصلي وان ما سواه من قرة العين وذهاب الحزن تبع قال الضحاك لما قبل ثديها قال هامان انك لامه قالت لا قال فما بالك قبل ثديك من بين النسوة قالت أيها الملك اني امرأة طيبة الريح حلوة اللبن ما شم ريحي صبي الا أقبل على ثديي قالوا صدقت فلم يبق أحد من آل فرعون الا أهدى اليها وأتحفها بالذهب والجواهر ﴿ قوله تعالى ﴿ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين قال رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له انه هو الغفور الرحيم قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين﴾ اعلم أن في قوله بلغ أشده واستوى قولين (أحدهما) انهما بمعنى واحد وهو استكمال القوة واعتدال المزاج والبنية (والثاني) وهو الاصح انهما معنيان متغايران ثم اختلفوا على وجوه (أحدها) وهو الاقرب ان الاشد عبارة عن كمال القوة الجسمانية البدنية والاستواء عبارة عن كمال القوة العقلية (وثانيها) الاشد عبارة عن كمال القوة والاستواء عبارة عن كمال البنية والخلقة (وثالثها) الاشد عبارة عن البلوغ والاستواء عبارة عن كمال الخلقة (ورابعها) قال ابن عباس الاشد ما بين الثمانية عشرة سنة الى الثلاثين ثم من الثلاثين سنة الى الاربعين يبقى سواء من غير زيادة ولا نقصان ومن الاربعين يأخذ في النقصان وهذا الذي قاله ابن عباس رضي الله عنهما حق لان الانسان يكون في أول العمر في النمو والتزايد ثم يبقى من غير زيادة ولا نقصان ثم يأخذ في الانتقاص فغاية مدة الازدياد من أول العمر الى العشرين ومن العشرين الى الثلاثين يكون التزايد قليلا والقوة قوية جدا ثم من الثلاثين الى الاربعين يقف فلا يزداد ولا ينتقص ومن الاربعين الى الستين يأخذ في الانتقاص الخفي ومن الستين الى آخر العمر يأخذ في الانتقاص البين الظاهر ويروى انه لم يبعث نبي الا على رأس أربعين سنة والحكمة فيه ظاهرة لان الانسان يكون الى رأس الاربعين قواه الجسمانية من الشهوة والغضب والحس قوية مستكملة فيكون الانسان منجذبا اليها فاذا انتهى الى الاربعين أخذت القوى الجسمانية في الانتقاص والقوة العقلية في الازدياد فهنالك يكون الرجل أكمل ما يكون فلهذا السر اختار الله تعالى هذا السن للوحي ﴿المسئلة الثانية﴾ اختلفوا في واحد الاشد قال الفراء الاشد واحدها شد في القياس ولم يسمع لها بواحد وقال أبو الهيثم واحدة الاشد شدة كما أن واحدة الانعم نعمة والشدة القوة والجلادة أما قوله آتيناه حكما وعلما ففيه وجهان (الاول) انها النبوة وما قرن بها من العلوم والاخلاق وعلى هذا التقدير ليس في الآية دليل على أن هذه النبوة كانت قبل قتل القبطي أو بعده لان الواو في قوله ودخل المدينة لا تفيد الترتيب (الثاني) آتيناه الحكمة والعلم قال تعالى واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة وهذا القول أولى لوجوه (أحدها) أن النبوة أعلى الدرجات البشرية فلا بد وأن تكون مسبوقة بالكمال في العلم والسيرة المرضية التي هي أخلاق الكبراء والحكماء (وثانيها) ان قوله وكذلك نجزي المحسنين يدل على انه انما أعطاه الحكم

البنات وأنت تعلم أن ابطالها من آثار القرآن ونتائجه (وما يزيدهم) أي والحال انه ما يزيدهم ذلك التصريف البالغ (الا نفورا) عن الحق واعراضا عنه فضلا عن التذكر المؤدي الى معرفة بطلان ما هم عليه من القبائح (قل) في اظهار بطلان ذلك من جهة أخرى (لو كان معه) تعالى (آلهة كما يقولون) أي المشركون قاطبة وقرئ بالتاء خطابا لهم من قبل النبي عليه الصلاة والسلام والكاف في محل النصب على انها نعت لمصدر محذوف أي كونا مشابها لما يقولون والمراد بالمشابهة الموافقة والمطابقة (اذا لابتغوا) جواب عن مقالتهم الشنعاء وجزاء للو أي لطلبوا (الى ذي العرش) أي الى من له الملك والربوبية على الاطلاق (سبيلا) بالمغالبة والممانعة كما هو ديدن الملوك بعضهم مع بعض على طريقة قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وقيل بالتقرب اليه تعالى كقوله تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة والاول هو الاظهر الانسب لقوله (سبحانه) فانه صريح في أن المراد بيان أنه يلزم مما يقولونه محذور عظيم من حيث لا يحتسبون وأما ابتغاء السبيل اليه تعالى بالتقرب فليس مما يختص بهذا التقدير ولا هو مما يلزمهم من حيث لا يشعرون بل هو أمر يعتقدونه رأسا أي تنزه بذاته تنزها حقيقا به (وتعالى) متباعدا (عما يقولون) من العظيمة التي هي ان يكون معه آلهة وأن يكون له بنات (علوا) تعاليا كقوله تعالى والله أنبتكم من الارض نباتا (كبيرا) لا غاية وراءه كيف لا وانه سبحانه في أقصى غايات الوجود وهو الوجوب الذاتي وما يقولونه من أن له تعالى شركاء وأولادا في أبعد مراتب العدم أعني الامتناع

لالانه تعالى فى أعلى مراتب الوجود وهو كونه واجب الوجود لذاته واتخاذ الولد من أدنى مراتبه فانه من خواص ما يمتنع بقاؤه كما قيل
فان ما يقولونه ليس مجرد اتخاذ الولد بل اتخاذه تعالى له وأن يكون معه آلهة ولا ريب فى أن ذلك ليس بداخل فى حد الامكان فضلا عن
دخوله تحت الوجود وكونه من أدنى مراتب الوجود انما هو بالنسبة الى من شأنه ذلك (تسبح) بالفوقانية وقرئ
بالتحتانية وقرئ سبحت
(له السموات السبع
والارض ومن فيهن)
من الملائكة والثقلين
على أن المراد بالتسبيح
معنى منتظم لما ينطق به
لسان المقال ولسان الحال
بطريق عموم المجاز (وان
من شئ) من الاشياء
حيوانا كان أو نباتا
أو جمادا (الا يسبح)
متلبسا (بحمده) أى
ينزهه تعالى بلسان الحال
عما لا يليق بذاته
الاقدس من لوازم
الامكان ولواحق
الحدوث اذ ما من موجود
الا وهو بامكانه وحدوثه
يدل دلالة واضحة على
أن له صانعا عليما قادرا
حكيما واجبا لذاته قطعا
للسلسلة (ولكن
لا تفقهون تسبيحهم)
أيها المشركون لاخلالكم
بالنظر الصحيح الذى به
يفهم ذلك وقرئ
لا يفقهون على صيغة المبنى
للمفعول من باب التفعيل
(انه كان حليما) ولذلك
لم يعاجلكم بالعقوبة مع
ما أنتم عليه من موجباتها
من الاعراض عن
التدبر فى الدلائل الواضحة
الدالة على التوحيد
والانهماك فى الكفر
والاشراك (غفورا) لمن تاب منكم (واذا قرأت القرآن) الناطق بالتسبيح والتنزيه ودعوتهم الى العمل بما فيه من من
التوحيد ورفض الشرك وغير ذلك من الشرائع (جعلنا) بقدرتنا ومشيئتنا المبنية على دواعى الحكم الخفية (بينك وبين الذين لا يؤمنون
بالآخرة) أوثر الموصول على الضمير ذما لهم بما فى حيز الصلة وانما خص بالذكر كفرهم بالآخرة من بين سائر ما كفروا به من التوحيد

والعلم مجازاة على احسانه والنبوة لا تكون جزاء على العمل (وثالثها) ان المراد بالحكم والعلم لو كان هو
النبوة لوجب حصول النبوة لكل من كان من المحسنين لقوله وكذلك نجزى المحسنين لان قوله وكذلك
اشارة الى ما تقدم ذكره من الحكم والعلم ثم بين انعامه عليه فى قتل القبطى وفيه مسائل (المسئلة
الاولى) اختلفوا فى المدينة فالجمهور على انها هى المدينة التى كان يسكنها فرعون وهى قرية على رأس
فرسخين من مصر وقال الضحاك هى عين شمس (المسئلة الثانية) اختلفوا فى معنى قوله على حين غفلة
من أهلها على أقوال (فالقول الاول) ان موسى عليه السلام لما بلغ أشده واستوى وآتاه الله الحكم
والعلم فى دينه ودين آبائه علم ان فرعون وقومه على الباطل فتكلم بالحق وعاب دينهم واشتهر ذلك منه
حتى آل الامر الى أن أخافوه وخافهم وكان له من بنى اسرائيل شيعة يقتدون به ويسمعون منه وبلغ
فى الخوف بحيث ما كان يدخل مدينة فرعون الا خائفا فدخلها يوما على حين غفلة من أهلها ثم الاكثرون
على انه عليه السلام دخلها نصف النهار وقت ما هم قائلون وعن ابن عباس يريد بين المغرب والعشاء
والاول أولى لانه تعالى أضاف الغفلة الى أهلها واذا دخل المرء مستتر الاجل خوف لا تضاف الغفلة الى القوم
(القول الثانى) قال السدى ان موسى عليه السلام حين كبر كان يركب مراكب فرعون ويلبس مثل
ما يلبس ويدعى موسى ابن فرعون فركب يوما فى أثره فأدركه المقيل فى موضع فدخلها نصف النهار وقد
خلت الطرق فهو قوله على حين غفلة (القول الثالث) قال ابن زيد ليس المراد من قوله على حين غفلة
من أهلها حصول الغفلة فى تلك الساعة بل المراد الغفلة من ذكر موسى وأمره فان موسى حين كان صغيرا
ضرب رأس فرعون بالعصا ونتف لحيته فأراد فرعون قتله فجئ بجمر فأخذه وطرحه فى فيه فمنه عقدة
لسانه فقال فرعون لا أقتله ولكن أخرجوه عن الدار والبلد فأخرج ولم يدخل عليهم حتى كبر والقوم
نسوا ذكره فذلك قوله على حين غفلة ولا مطمع فى ترجيح بعض هذه الروايات على بعض لانه ليس فى
القرآن ما يدل على شئ منها (المسئلة الثالثة) قال تعالى فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته
وهذا من عدوه قال الزجاج قال هذا وهذا وهما غائبان على وجه الحكاية أى وجد فيها رجلين يقتتلان
اذا نظر الناظر اليهما قال هذا من شيعته وهذا من عدوه ثم اختلفوا فقال مقاتل الرجلان كانا كافرين
الا أن أحدهما من بنى اسرائيل والآخر من القبط واحتج عليه بأن موسى عليه السلام قال له فى اليوم
الثانى انك لغوى مبين والمشهور أن الذى من شيعته كان مسلما لانه لا يقال فيمن يخالف الرجل فى دينه
وطريقه انه من شيعته وقيل ان القبطى الذى سخر الاسرائيلى كان طباخ فرعون استسخره لحمل الحطب
الى مطبخه وقيل الرجلان المقتتلان أحدهما السامرى وهو الذى من شيعته والآخر طباخ فرعون
والله أعلم بكيفية الحال فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه أى سأله أن يخلصه منه واستنصره
عليه فوكزه موسى عليه السلام الوكز الدفع بأطراف الاصابع وقيل بجمع الكف وقرأ ابن مسعود
فلكزه موسى وقال بعضهم الوكز فى الصدر واللكز فى الظهر وكان عليه السلام شديد البطش وقال
بعض المفسرين فوكزه بعصاه قال المفضل هذا غلط لانه لا يقال وكزه بالعصا فقضى عليه أى أماته وقتله
(المسئلة الرابعة) احتج بهذه الآية من طعن فى عصمة الانبياء عليهم السلام من وجوه (أحدها) ان ذلك
القبطى اما أن يقال انه كان مستحق القتل أو لم يكن كذلك فان كان الاول فلم قال هذا من عمل
الشيطان ولم قال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له ولم قال فى سورة أخرى فعلتها اذا وأنا من الضالين
وان كان الثانى وهو أن ذلك القبطى لم يكن مستحق القتل كان قتله معصية وذنبا (وثانيها) ان قوله وهذا

ونحوه دلالة على أنها معظم ما أمروا بالايمان به في القرآن وتمهيدا لما سينقل عنهم من انكار البعث واستحالته ونحو ذلك (حجابا) يحجبهم من أن يدركوك على ما أنت عليه من النبوة ويفهموا قدرك الجليل ولذلك اجترؤا على تفوه العظيمة التي هي قولهم ان تتبعون الا رجلا مسحورا وحمل الحجاب على ما روي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه ٤٦٧ من أنه لما نزلت سورة تبت أقبلت العوراء أم جميل امرأة أبي لهب وفي يدها فهر والنبي عليه الصلاة والسلام قاعد في المسجد ومعه أبو بكر رضي الله عنه فلما رآها قال يا رسول الله لقد أقبلت هذه وأخاف أن تراك قال عليه الصلاة والسلام انها لن تراني وقرأ قرآنا فوقفت على أبي بكر رضي الله عنه ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يقبله الذوق السليم ولا يساعده النظم الكريم (مستورا) ذا ستر كما في قولهم سيل مفعم أو مستورا عن الحس بمعنى غير حسي أو مستورا في نفسه بحجاب آخر أو مستورا كونه حجابا حيث لا يدرون انهم لا يدرون (وجعلنا على قلوبهم أكنة) أغطية كثيرة جمع كنان (أن يفقهوه) مفعول لاجله أي كراهة أن يفقهوه أو مفعول لما دل عليه الكلام أي منعناهم ان يقفوا على كنهه ويعرفوا أنه من عند الله تعالى (وفي آذانهم وقرا) صمما وثقلا مانعا من سماعه اللائق به وهذه تمثيلات معربة عن كمال جهلهم بشؤن النبي عليه الصلاة والسلام وفرط نبو قلوبهم عن فهم القرآن الكريم ومج أسماعهم له جيء بها بيانا لعدم فقههم لتسبيح لسان المقال اثر بيان عدم فقههم لتسبيح لسان الحال وايذانا بأن هذا التسبيح من الظهور بحيث لا يتصور عدم فقهه الا لمانع قوي يعتري المشاعر فيبطلها تنبيها على أن حالهم هذا أقبح من حالهم السابق لا حكاية لما قالوا وقلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا

من عدو ويدل على أنه كان كافرا حربيا فكان دمه مباحا فلم استغفر عنه والاستغفار عن الفعل المباح غير جائز لانه يوهم في المباح كونه حراما (وثالثها) انه الوكز لا يقصد به القتل ظاهرا فكان ذلك القتل قتل خطا فلم استغفر منه (والجواب) عن الاول لم لا يجوز أن يقال انه كان لكفره مباح الدم أما قوله هذا من عمل الشيطان ففيه وجوه (أحدها) لعل الله تعالى وان أباح قتل الكافر الا أنه قال الاولى تأخير قتلهم الى زمان آخر فلما قتل فقد ترك ذلك المندوب فقوله هذا من عمل الشيطان معناه اقدامي على ترك المندوب من عمل الشيطان (وثانيها) ان قوله هذا اشارة الى عمل المقتول لا الى عمل نفسه فقوله هذا من عمل الشيطان أي عمل هذا المقتول من عمل الشيطان المراد منه بيان كونه مخالفا لله تعالى مستحقا للقتل (وثالثها) أن يكون قوله هذا اشارة الى المقتول يعني أنه من جند الشيطان وحزبه يقال فلان من عمل الشيطان أي من أحزابه أما قوله رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي فعلى نهج قول آدم عليه السلام ربنا ظلمنا أنفسنا والمراد أحد وجهين اما على سبيل الانقطاع الى الله تعالى والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه وان لم يكن هناك ذنب قط أو من حيث حرم نفسه الثواب بترك المندوب أما قوله فاغفر لي أي فاغفر لي ترك هذا المندوب وفيه وجه آخر وهو أن يكون المراد رب اني ظلمت نفسي حيث قتلت هذا الملعون فان فرعون لو عرف ذلك لقتلني به فاغفر لي أي فاستره علي ولا توصل خبره الى فرعون فغفر له أي ستره عن الوصول الى فرعون ويدل على هذا التأويل انه على عقبه قال قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين ولو كانت اعانة المؤمن ههنا سببا للمعصية لما قال ذلك وأما قوله فعلتها اذا وأنا من الضالين فلم يقل اني صرت بذلك ضالا ولكن فرعون لما ادعى انه كان كافرا في حال القتل نفى عن نفسه كونه كافرا في ذلك الوقت واعترف بأنه كان ضالا أي متحيرا لا يدري ما يجب عليه أن يفعله وما يدبر به في ذلك أما قوله ان كان كافرا حربيا فلم استغفر عن قتله قلنا كون الكافر مباح الدم أمر يختلف باختلاف الشرائع فلعل قتلهم كان حراما في ذلك الوقت أو ان كان مباحا لكن الاولى تركه على ما قررناه قوله ذلك القتل كان قتل خطا قلنا لا نسلم فلعل الرجل كان ضعيفا وموسى عليه السلام كان في نهاية الشدة فوكزه كان قاتلا قطعا ثم ان سلمنا ذلك ولكن لعله عليه السلام كان يمكنه أن يخلص الاسرائيلي من يده بدون ذلك الوكز الذي كان الاولى تركه فلهذا أقدم على الاستغفار على أنا وان سلمنا دلالة هذه الآية على صدور المعصية لكنا بينا أنه لا دليل البتة على انه كان رسولا في ذلك الوقت فيكون ذلك صادرا منه قبل النبوة وذلك لا نزاع فيه (المسئلة الخامسة) قالت المعتزلة الآية دلت على بطلان قول من نسب المعاصي الى الله تعالى لانه عليه السلام قال هذا من عمل الشيطان فنسب المعصية الى الشيطان فلو كانت بخلق الله تعالى لكانت من الله لا من الشيطان وهو كقول يوسف عليه السلام من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي وقول صاحب موسى عليه السلام وما أنسانيه الا الشيطان وقوله تعالى لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة أما قوله رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين ففيه وجوه (أحدها) ان ظاهره يدل على انه قال انك لما أنعمت علي بهذا الانعام فاني لا أكون معاونا لاحد من المجرمين بل أكون معاونا للمسلمين وهذا يدل على أن ما أقدم عليه من اعانة الاسرائيلي على القبطي كان طاعة لا معصية اذ لو كانت معصية لنزل الكلام منزلة ما اذا قيل انك لما أنعمت علي بقبول توبتي عن تلك المعصية فاني أكون مواظبا على مثل تلك المعصية (وثانيها) قال القفال كأنه أقسم بما أنعم الله عليه أن لا يظاهر مجرما والباء للقسم أي بنعمتك علي (وثالثها) قال الكسائي والفراء انه خبر ومعناه الدعاء كأنه قال فلا تجعلني ظهيرا قال الفراء

وفي حرف عبد الله فلا تجعلني ظهيرا واعلم أن في الآية دلالة على انه لا يجوز معاونة الظلمة والفسقة وقال ابن عباس لم يستثن ولم يقل فلن أكون ظهيرا ان شاء الله فابتلي به في اليوم الثاني وهذا ضعيف لانه في اليوم الثاني ترك الاعانة وانما خاف منه ذلك العدو وقال ان تريد الا أن تكون جبارا في الارض لانه وقع منه ﴿ قوله تعالى ﴿ فأصبح في المدينة خائفا يترقب فاذا الذي استنصره بالامس يستصرخه قال له موسى انك لغوي مبين فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال ياموسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالامس ان تريد الا أن تكون جبارا في الارض وما تريد أن تكون من المصلحين وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج اني لك من الناصحين فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين ﴾ اعلم أن عند موت ذلك الرجل من القبط أصبح موسى عليه السلام من غد ذلك اليوم خائفا من أن يظهر أنه هو القاتل فيطلب به وخرج على استتار فاذا الذي استنصره وهو الاسرائيلي بالامس يستصرخه يطلب نصرته بصياح وصراخ قال له موسى انك لغوي مبين قال أهل اللغة الغوي يجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعل أي انك لمغوي فاني وقعت بالامس فيما وقعت فيه بسببك ويجوز أن يكون بمعنى الغاوي واحتج به من قدح في عصمة الانبياء عليهم السلام فقال كيف يجوز لموسى عليه السلام أن يقول لرجل من شيعته يستصرخه انك لغوي مبين (والجواب) من وجهين (الاول) ان قوم موسى عليه السلام كانوا غلاظا جفاة ألا ترى الى قولهم بعد مشاهدة الآيات اجعل لنا الها كما لهم آلهة فالمراد بالغوي المبين ذلك (الثاني) أنه عليه السلام انما سماه غويا لان من تكثر منه المخاصمة على وجه يتعذر عليه دفع خصمه عما يرومه من ضرره يكون خلاف طريق الرشد واختلفوا في قوله تعالى قال ياموسى أتريد أن تقتلني كما قتلت أهو من كلام الاسرائيلي أو القبطي فقال بعضهم المخاطب موسى الاسرائيلي بأنه غوي ورآه على غضب ظن لما همّ بالبطش أنه يريده فقال هذا القول وزعموا انه لم يعرف قتله بالامس للرجل الا هو وصار ذلك سببا لظهور القتل ومزيد الخوف وقال آخرون بل هو قول القبطي وقد كان عرف القصة من الاسرائيلي والظاهر هذا الوجه لانه تعالى قال فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال ياموسى فهذا القول اذن منه لا من غيره وأيضا فقوله ان تريد الا أن تكون جبارا في الارض لا يليق الا بأن يكون قولا للكافر واعلم أن الجبار الذي يفعل ما يريده من الضرب والقتل بظلم لا ينظر في العواقب ولا يدفع بالتي هي أحسن وقيل المتعظم الذي لا يتواضع لامر أحد ولما وقعت هذه الواقعة انتشر الحديث في المدينة وانتهى الى فرعون وهموا بقتله أما قوله وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال صاحب الكشاف يسعى يجوز ارتفاعه وصفا لرجل وانتصابه حالا عنه لانه قد تخصص بقوله من أقصى المدينة والائتمار التشاور يقال الرجلان يتآمران لان كل واحد منهما يأمر صاحبه بشيء أو يشير عليه بأمر والمعنى يتشاورون بسببك وأكثر المفسرين على أن هذا الرجل مؤمن آل فرعون فعلى وجه الاشفاق أسرع اليه ليخوفه بأن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك أما قوله فخرج منها خائفا يترقب أي خائفا على نفسه من آل فرعون ينتظر هل يلحقه طلب فيؤخذ ثم التجأ الى الله تعالى لعلمه بأنه لا ملجأ سواه فقال رب نجني من القوم الظالمين وهذا يدل على أن قتله لذلك القبطي لم يكن ذنبا والا لكان هو الظالم لهم وما كانوا ظالمين له بسبب طلبهم اياه ليقتلوه قصاصا ﴿ قوله تعالى ﴿ ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب اني لما أنزلت الي من خير فقير فجاءته احداهما تمشي على استحياء

ويبينك حجاب كيف لا وقصدهم بذلك انما هو الاخبار بما اعتقدوه في حق القرآن والنبي عليه الصلاة والسلام جهلا وكفرا من اتصافهما بأوصاف مانعة من التصديق والايمان ككون القرآن سحرا وشعرا وأساطير وقس عليه حال النبي عليه الصلاة والسلام لا الاخبار بأن هناك أمرا وراء ما أدركوه قد حال بينهم وبين ادراكه حائل من قبلهم ولا ريب في أن ذلك المعنى مما لا يكاد يلائم المقام (واذا ذكرت ربك في القرآن وحده) واحدا غير مشفوع به آلهتهم وهو مصدر وقع موقع الحال أصله يحد وحده (ولوا على أدبارهم) أي هربوا ونفروا (نفورا) أو ولوا نافرين (نحن أعلم بما يستمعون به) ملتبسين به من اللغو والاستخفاف والهزؤ بك وبالقرآن يروى أنه كان يقوم عن يمينه عليه الصلاة والسلام رجلان من بني عبد الدار وعن يساره رجلان فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالاشعار (اذ يستمعون اليك) ظرف لاعلم وفائدته تأكيد الوعيد بالاخبار بأنه كما يقع الاستماع المزبور منهم يتعلق به العلم لا أن العلم يستفاد هناك من أحد وكذا قوله تعالى (واذ هم نجوى) لكن لا من حيث تعلقه بما به الاستماع بل بما به التناجي المدلول عليه بسياق النظم والمعنى نحن أعلم بالذي يستمعون ملتبسين به مما لا خير فيه من الامور المذكورة وبالذي يتناجون به فيما بينهم أو الاول ظرف ليستمعون والثاني ليتناجون والمعنى نحن أعلم بما به الاستماع وقت استماعهم من غير تأخير وبما به التناجي وقت تناجيهم ونجوى مرفوع على الخبرية بتقدير المضاف أي ذوو نجوى أو هو جمع نجي كقتلى جمع قتيل أي متناجون (اذ يقول الظالمون) بدل من اذ هم وفيه دليل على أن ما يتناجون به غير ما يستمعون به وانما وضع الظالمون موضع المضمر اشعارا بأنهم في

قالت

قالت ان أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين قالت احداهما يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الأمين قال اني أريد أن أنكحك احدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني ان شاء الله من الصالحين قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل﴾ اعلم أن الناس اختلفوا في قوله ولما توجه تلقاء مدين فقال بعضهم انه خرج وما قصد مدين ولكنه سلم نفسه الى الله تعالى وأخذ يمشي من غير معرفة فأوصله الله تعالى الى مدين وهذا قول ابن عباس وقال آخرون لما خرج قصد مدين لانه وقع في نفسه أن بينهم وبينه قرابة لانهم من ولد مدين بن ابراهيم عليه السلام وهو كان من بني اسرائيل لكن لم يكن له علم بالطريق بل اعتمد على فضل الله تعالى ومن الناس من قال بل جاءه جبريل عليه السلام وعلمه الطريق وذكر ابن جرير عن السدي لما أخذ موسى عليه السلام في المسير جاءه ملك على فرس فسجد له موسى من الفرح فقال لا تفعل واتبعني فاتبعه نحو مدين واحتج من قال انه خرج وما قصد مدين بأمرين (أحدهما) قوله ولما توجه تلقاء مدين ولو كان قاصدا للذهاب الى مدين لقال ولما توجه الى مدين فلما لم يقل ذلك بل قال توجه تلقاء مدين علمنا انه لم يتوجه الا الى ذلك الجانب من غير أن يعلم أن ذلك الجانب الى أين ينتهي (والثاني) قوله عسى ربي أن يهديني سواء السبيل وهذا كلام شاك لا عالم والاقرب أن يقال انه قصد الذهاب الى مدين وما كان عالما بالطريق ثم انه كان يسأل الناس عن كيفية الطريق لانه يبعد من موسى عليه السلام في عقله وذكائه أن لا يسأل ثم قال ابن اسحق خرج من مصر الى مدين بغير زاد ولا ظهر وبينهما مسيرة ثمانية أيام ولم يكن له طعام الا ورق الشجر أما قوله عسى ربي أن يهديني سواء السبيل فهو نظير قول جده ابراهيم عليه السلام اني ذاهب الى ربي سيهدين وموسى عليه السلام قلما يذكر كلاما في الاستدلال والجواب والدعاء والتضرع الا ما ذكره ابراهيم عليه السلام وهكذا الخلف الصدق للسلف الصالح صلوات الله عليهم وعلى جميع الطيبين الطاهرين ولما ورد ماء مدين وهو الماء الذي يسقون منه وكان بئرا فيما روي وورود مجيئه والوصول اليه وجد عليه أي فوق شفيره ومستقاه أمة جماعة كثيرة العدد من الناس من أناس مختلفين ووجد من دونهم في مكان أسفل من مكانهم امرأتين تذودان والذود الدفع والطرد فقوله تذودان أي تحبسان ثم فيه أقوال (الاول) تحبسان أغنامهما واختلفوا في علة ذلك الحبس على وجوه (أحدها) قال الزجاج لان على الماء من كان أقوى منهما فلا يتمكنان من السقي (وثانيها) كانتا تكرهان المزاحمة على الماء (وثالثها) لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم (ورابعها) لئلا تختلطا بالرجال (القول الثاني) كانتا تذودان عن وجوههما نظر الناظر لتسترهما (والقول الثالث) تذودان الناس عن غنمهما (القول الرابع) قال الفراء تحبسانها عن أن تتفرق وتتسرب قال ما خطبكما أي ما شأنكما وحقيقته ما مخطوبكما أي ما مطلوبكما من الذياد فسمي المخطوب خطبا كما سمي المشؤن شأنا في قولك ما شأنك فقالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير وذلك يدل على ضعفهما عن السقي من وجوه (أحدها) ان العادة في السقي للرجال والنساء يضعفن عن ذلك (وثانيها) ما ظهر من ذودهما الماشية على طريق التأخير (وثالثها) قولهما حتى يصدر الرعاء (ورابعها) انتظارهما لما يبقى من القوم من الماء (وخامسها) قولهما وأبونا شيخ كبير ودلالة ذلك على انه لو كان قويا لحضر ولو حضر لم يتأخر السقي فعند ذلك سقى لهما قبل صدور الرعاء وعادتا الى أبيهما قبل الوقت المعتاد قرأ أبو عمرو وابن عامر وعاصم بفتح الياء وضم الدال وقرأ الباقون بضم

ذلك ظالمون متجاوزون للحد أي يقول كل منهم للآخرين عند تناجيهم (ان تتبعون) ما تتبعون ان وجد منكم الاتباع فرضا أو ما تتبعون باللغو والهزؤ (الا رجلا مسحورا) أي سحر فجن أو رجلا ذا سحر أي رئة يتنفس أي بشرا مثلكم (انظر كيف ضربوا لك الامثال) أي مثلوك بالشاعر والساحر والمجنون (فضلوا) في جميع ذلك عن منهاج المحاجة (فلا يستطيعون سبيلا) الى طعن يمكن أن يقبله أحد فيتهافتون ويخبطون ويأتون بما لا يرتاب في بطلانه أحد أو الى سبيل الحق والرشاد وفيه من الوعيد وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا) استفهام انكاري مفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار للبعث بعد ما آل الحال الى هذا المآل لما بين غضاضة الحي ويبوسة الرميم من التنافي كأن استحالة الامر من الظهور بحيث لا يقدر المخاطب على التكلم به والرفات ما بولغ في دقه وتفتيته وقال الفراء هو التراب وهو قول مجاهد وقيل هو الحطام واذا متمحضة للظرفية وهو الاظهر والعامل فيها ما دل عليه قوله تعالى (أئنا لمبعوثون) لا نفسه لان ما بعد ان والهمزة واللام لا يعمل فيما قبلها وهو نبعث أو نعاد وهو المرجع للانكار وتقييده بالوقت المذكور ليس لتخصيصه به فانهم منكرون للاحياء بعد الموت وان كان البدن على حاله بل لتقوية الانكار للبعث بتوجيهه اليه في حالة منافية له وتكرير الهمزة في قولهم أئنا لتأكيد النكير وتحلية الجملة بان واللام لتأكيد الانكار لا لانكار التأكيد كما عسى يتوهم من ظاهر النظم فان تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة كما في مثل قوله تعالى أفلا تعقلون ونظائره على رأي الجمهور فان المعنى عندهم تعقيب الانكار لا انكار التعقيب كما هو المشهور

وليس مدار إنكارهم كونهم ثابتين في المبعوثية بالفعل في حال كونهم عظاما ورفاتا كما يتراءى من ظاهر الجملة الاسمية بل كونهم بعرضية ذلك واستعدادهم له ومرجعه الى انكار البعث بعد تلك الحالة وفيه من الدلالة على غلوهم في الكفر وتماديهم في الضلال ما لا مزيد عليه (خلقا جديدا) نصب على المصدر من غير لفظه أو الحالية على أن الخلق بمعنى المخلوق (قل) جوابا لهم وتقريبا لما استبعدوه (كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا) آخر (مما يكبر في صدوركم) أي يعظم عندكم عن قبول الحياة لكمال المباينة والمنافاة بينها وبينه فانكم مبعوثون ومعادون لا محالة (فسيقولون من يعيدنا) مع ما بيننا وبين الاعادة من مثل هذه المباعدة والمباينة (قل) لهم تحقيقا للحق وازاحة للاستبعاد وارشادا لهم الى طريقة الاستدلال (الذي) أي يعيدكم القادر العظيم الذي (فطركم) اخترعكم (أول مرة) من غير مثال يحتذيه ولا أسلوب ينتحيه وكنتم ترابا ما شم رائحة الحياة أليس الذي يقدر على ذلك بقادر على أن يعيد العظام البالية الى حالتها المعهودة بلى انه على كل شيء قدير (فسينغضون اليك رؤسهم) أي سيحركونها نحوك تعجبا وانكارا (ويقولون) استهزاء (متى هو) أي ما ذكرته من الاعادة (قل) لهم (عسى أن يكون) ذلك (قريبا) نصب على أنه خبر ليكون أو ظرف على أن كان تامة أي أن يقع في زمان قريب ومحل أن مع ما في حيزها اما نصب على أنه خبر لعسى وهي ناقصة واسمها ضمير عائد الى ما عاد اليه هو أي عسى البعث أن يكون قريبا أو عسى البعث يقع في زمان قريب أو رفع على أنه فاعل لعسى وهي تامة أي عسى كونه قريبا أو وقوعه في زمان قريب (يوم يدعوكم) منصوب بفعل مضمر أي اذكروا أو على أنه بدل

الياء وكسر الدال فالمعنى في القراءة الأولى حتى ينصرفوا عن الماء ويرجعوا عن سقيهم وصدر ضد ورد ومن قرأ بضم الياء فالمعنى في القراءة حتى يصدر القوم مواشيهم * أما قوله فسقى لهما أي سقى غنمهما لاجلهما وفي كيفية السقي أقوال (أحدها) انه عليه السلام سأل القوم أن يسمحوا فسمحوا (وثانيها) قال قوم عمد الى بئر على رأسه صخرة لا يقلها الا عشرة وقيل أربعون وقيل مائة فنحاها بنفسه واستقى الماء من ذلك البئر (وثالثها) ان القوم لما زاحمهم موسى عليه السلام تعمدوا القاء ذلك الحجر على رأس البئر فهو عليه السلام رمى ذلك الحجر وسقى لهما وليس بيان ذلك في القرآن والله أعلم بالصحيح منه لكن المرأة وصفت موسى عليه السلام بالقوة فدل ذلك على انها شاهدت منه ما يدل على فضل قوته وقال تعالى ثم تولى الى الظل وفيه دلالة على انه سقى لهما في شمس وحر وفيه دلالة أيضا على كمال قوة موسى عليه السلام قال الكلبي أتى موسى أهل الماء فسألهم دلوا من ماء فقالوا له ان شئت ائت الدلو فاستق لهما قال نعم وكان يجتمع على الدلو أربعون رجلا حتى يخرجوه من البئر فأخذ موسى عليه السلام الدلو فاستقى به وحده وصب في الحوض ودعا بالبركة ثم قرب غنمهما فشربت حتى رويت ثم سرحهما مع غنمهما فان قيل كيف ساغ لنبي الله الذي هو شعيب أن يرضى لابنتيه بسقي الماشية قلنا ليس في القرآن ما يدل على ان أباهما كان شعيبا والناس مختلفون فيه فقال ابن عباس رضي الله عنهما ان أباهما هو يثرون ابن أخي شعيب وشعيب مات بعدما عمي وهو اختيار أبي عبيدة وقال الحسن انه رجل مسلم قبل الدين عن شعيب على انا وان سلمنا انه كان شعيبا عليه السلام لكن لا مفسدة فيه لان الدين لا يأباه وأما المروءة فالناس فيها مختلفون وأحوال أهل البادية غير أحوال أهل الحضر لا سيما اذا كانت الحالة حالة الضرورة * وأما قوله قال رب اني لما أنزلت الي من خير فقير فالمعنى اني لأي شيء أنزلت الي من خير قليل أو كثير غث أو سمين لفقير وانما عدى فقيرا باللام لانه ضمن معنى سائل وطالب (واعلم) ان هذا الكلام يدل على الحاجة اما الى الطعام أو الى غيره الا ان المفسرين حملوه على الطعام قال ابن عباس يريد طعاما يأكله وقال الضحاك مكث سبعة أيام لم يذق فيها طعاما الا بقل الارض وروي ان موسى عليه السلام لما قال ذلك رفع صوته ليسمع المرأتين ذلك * فان قيل انه عليه السلام لما بقي معه من القوة ما قدر بها على حمل ذلك الدلو العظيم فكيف يليق بهمته العالية أن يطلب الطعام أليس انه عليه السلام قال لا تحل الصدقة لغني ولا لذي قوة سوي * قلنا أما رفع الصوت بذلك لاسماع المرأتين وطلب الطعام فذلك لا يليق بموسى عليه السلام ألبتة فلا تقبل تلك الرواية ولكن لعله عليه السلام قال ذلك في نفسه مع ربه تعالى وفي الآية وجه آخر كأنه قال رب اني بسبب ما أنزلت الي من خير الدين صرت فقيرا في الدنيا لانه كان عند فرعون في ملك وثروة فقال ذلك رضا بهذا البدل وفرحا به وشكرا له وهذا التأويل أليق بحال موسى عليه السلام * أما قوله تعالى فجاءته احداهما تمشي على استحياء فقوله على استحياء في موضع الحال أي مستحيية قال عمر بن الخطاب قد استترت بكم قميصها وقيل ماشية على بعد مائلة عن الرجال وقال عبد العزيز بن أبي حازم على اجلال له ومنهم من يقف على قوله تمشي ثم يبتدئ فيقول على استحياء قالت ان أبي يدعوك يعني انها على الاستحياء قالت هذا القول لان الكريم اذا دعا غيره الى الضيافة يستحيي لا سيما المرأة وفي ذلك دلالة على ان شعيبا لم يكن له معين سواهما وروي انهما لما رجعتا الى أبيهما قبل الناس قال لهما ما أعجلكما قالتا وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا فقال لاحداهما اذهبي فادعيه لي أما الاختلاف في ان ذلك الشيخ كان شعيبا عليه السلام أو غيره فقد تقدم والاكثرون على انه شعيب وقال محمد بن اسحق في البنتين اسم الكبرى صفورا والصغرى ليا وقال غيره

صفورا

صفرا وصفيرا وقال الضحاك صافورا والتي جاءت الى موسى عليه السلام هي الكبرى على قول الاكثرين وقال الكلبي هي الصغرى وليس في القرآن دلالة على شيء من هذه التفاصيل أما قوله قالت ان أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ففيه اشكالات (أحدها) كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يعمل بقول امرأة وأن يمشي معها وهي أجنبية فان ذلك يورث التهمة العظيمة وقال عليه السلام اتقوا مواضع التهم (وثانيها) انه سقى أغنامهما تقربا الى الله تعالى فكيف يليق به أخذ الاجرة عليه فان ذلك غير جائز في المروءة ولا في الشريعة (وثالثها) انه عرف فقرهن وفقر أبيهن وعجزهم وانه عليه السلام كان في نهاية القوة بحيث كان يمكنه الكسب الكثير بأقل سعي فكيف يليق بمروءة مثله طلب الاجرة على ذلك القدر من السقي من الشيخ الفقير والمرأة الفقيرة (ورابعها) كيف يليق بشعيب النبي عليه السلام أن يبعث ابنته الشابة الى رجل شاب قبل العلم بكون ذلك الرجل عفيفا أو فاسقا (والجواب عن الاول) أن نقول أما العمل بقول امرأة فكما نعمل بقول الواحد حرا كان أو عبدا ذكرا كان أو أنثى في الاخبار وما كانت الا مخبرة عن أبيها وأما المشي مع المرأة فلا بأس به مع الاحتياط والتورع (والجواب عن الثاني) ان المرأة وان قالت ذلك فلعل موسى عليه السلام انما ذهب اليهم لا طلبا للاجرة بل للتبرك برؤية ذلك الشيخ وروي انها لما قالت ليجزيك كره ذلك ولما قدم اليه الطعام امتنع وقال انا أهل بيت لا نبيع ديننا بدنيانا ولا نأخذ على المعروف ثمنا حتى قال شعيب عليه السلام هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا وأيضا فليس بمنكر أن الجوع قد بلغ الى حيث ما كان يطيق تحمله فقبل ذلك على سبيل الاضطرار وهذا هو الجواب عن الثالث فان الضرورات تبيح المحظورات (والجواب عن الرابع) انه عليه السلام كان قد علم بالوحي طهارتها وبراءتها فكان يعتمد عليها أما قوله فلما جاءه قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقام يمشي والجارية أمامه فهبت الريح فكشفت عنها فقال موسى عليه السلام اني من عنصر ابراهيم عليه السلام فكوني من خلفي حتى لا ترفع الريح ثيابك فأرى ما لا يحل لي فلما دخل على شعيب فاذا الطعام موضوع فقال شعيب تناول يا فتى فقال موسى عليه السلام أعوذ بالله قال شعيب ولم قال لانا من أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الارض ذهبا فقال شعيب ولكن عادتي وعادة آبائي اطعام الضيف فجلس موسى عليه السلام فأكل وانما كره أكل الطعام خشية أن يكون ذلك أجرة له على عمله ولم يكره ذلك مع الخضر حين قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا والفرق ان أخذ الاجرة على الصدقة لا يجوز أما الاستئجار ابتداء فغير مكروه أما قوله وقص عليه القصص فالقصص مصدر كالعلل سمي به المقصوص قال الضحاك لما دخل عليه قال له من أنت يا عبد الله فقال أنا موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب وذكر له جميع أمره من لدن ولادته وأمر القوابل والمراضع والقذف في اليم وقتل القبطي وأنهم يطلبونه ليقتلوه فقال شعيب لا تخف نجوت من القوم الظالمين أي لا سلطان له بأرضنا فلسنا في مملكته وليس في الآية دلالة على أنه قال ذلك عن الوحي أو على ما تقتضيه العادة * فان قيل المفسرون قالوا ان فرعون يوم ركب خلف موسى عليه السلام ركب في ألف ألف وستمائة ألف فالملك الذي هذا شأنه كيف يعقل أن لا يكون في ملكه قرية على بعد ثمانية أيام من دار مملكته * قلنا هذا وان كان نادرا الا أنه ليس بمحال * أما قوله قالت احداهما يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الامين ففيه مسائل (المسئلة الاولى) وصفته بالقوة لما شاهدت من كيفية السقي وبالامانة لما حكينا من غض بصره حال ذودهما الماشية وحال سقيه لهما وحال مشيه بين يديها الى أبيها (المسئلة الثانية) انما جعل خير من استأجرت اسما والقوي الامين خبرا مع ان العكس أولى لان العناية هي سبب

من قريبا على انه ظرف أو يكون تامة بالاتفاق أو ناقصة عند من يجوز اعمال الناقصة في الظروف أو بضمير المصدر المستكن في عسى أو يكون أعني البعث عند من يجوز اعمال ضمير المصدر كما في قول زهير

وما الحرب الا ما علمتم وذقتم * وما هو عنها بالحديث المرجم

فهو ضمير المصدر وقد تعلق به ما بعده من الجار (فتستجيبون) أي يوم يبعثكم فتبعثون وقد استعير لهما الدعاء والاجابة ايذانا بكمال سهولة التأتي وبان المقصود منهما الاحضار للمحاسبة والجواب (بحمده) حال من ضمير تستجيبون أي منقادين له حامدين لما فعل بكم غير مستعصين أو حامدين لله تعالى على كمال قدرته عند مشاهدة آثارها ومعاينة أحكامها (وتظنون) عطف على تستجيبون أي تظنون عند ما ترون من الامور الهائلة (ان لبثتم) أي ما لبثتم في القبور (الا قليلا) كالذي مر على قرية أو ما لبثتم في الدنيا (وقل لعبادي) أي المؤمنين (يقولوا) عند محاورتهم مع المشركين (التي) أي الكلمة التي (هي أحسن) ولا يخاشنوهم كقوله تعالى ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن (ان الشيطان ينزغ بينهم) أي يفسد ويهيج الشر والمراء ويغري بعضهم على بعض لتقع بينهم المشاقة والمشارة والمعارة والمضارة فلعل ذلك يؤدي الى تأكد العناد وتمادي الفساد فهو تعليل للامر السابق وقرئ بكسر الزاء (ان الشيطان كان) قدما (للانسان عدوا مبينا) ظاهر العداوة وهو تعليل لما سبق من أن الشيطان ينزغ بينهم (ربكم أعلم بكم ان يشأ يرحمكم) بالتوفيق للايمان (أو ان يشأ يعذبكم) بالاماتة على الكفر وهذا تفسير التي هي أحسن وما بينهما اعتراض أي قولوا لهم هذه الكلمة وما يشاكلها ولا تصرحوا بانهم من أهل النار فانه مما يهيجهم على الشر مع

التقديم (المسئلة الثالثة) القوة والامانة لا يكفيان في حصول المقصود ما لم ينضم اليهما الفطنة والكياسة فلم أهمل أمر الكياسة ويمكن أن يقال انها داخلة في الامانة عن ابن مسعود رضي الله عنه أفرس الناس ثلاثة بنت شعيب وصاحب يوسف وأبو بكر في عمر أما قوله قال اني أريد أن أنكحك احدى ابنتي هاتين فلا شبهة في أن هذا اللفظ وان كان على الترديد لكنه عند التزويج عين ولا شبهة في أن العقد وقع على أقل الاجلين فكانت الزيادة كالتبرع والفقهاء ربما استدلوا به على أن العمل قد يكون مهرا كالمال وعلى ان الحاق الزيادة بالثمن والمثمن جائز ولكنه شرع من قبلنا فلا يلزمنا ويدل على أنه قد كان جائزا في تلك الشريعة أن يشرط للولي منفعة وعلى انه كان جائزا في تلك الشريعة نكاح المرأة بغير بدل تستحقه المرأة وعلى ان عقد النكاح لا تفسده الشروط التي لا يوجبها العقد ثم قال على أن تأجرني ثماني حجج تأجرني من أجرته اذا كنت له أجيرا وثماني حجج ظرفه أو من أجرته كذا اذا أثبته اياه ومنه أجركم الله ورحمكم وثماني حجج مفعول به ومعناه رعية ثماني حجج ثم قال وما أريد أن أشق عليك وفيه وجهان (الاول) لا أريد أن أشق عليك بالزام أتم الاجلين فان قيل ما حقيقة قولهم شققت عليه وشق عليه الامر قلنا حقيقته ان الامر اذا تعاظمك فكأنه شق عليك ظنك باثنين تقول تارة أطيقه وتارة لا أطيقه (الثاني) لا أريد أن أشق عليك في الرعي ولكني أساهلك فيها وأسامحك بقدر الامكان ولا أكلفك الاحتياط الشديد في كيفية الرعي وهكذا كان الانبياء عليهم السلام آخذين بالاسمح في معاملات الناس ومنه الحديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شريكي فكان خير شريك لا يداري ولا يشاري ولا يماري ثم قال ستجدني ان شاء الله من الصالحين وفيه وجهان (الاول) يريد بالصلاح حسن المعاملة ولين الجانب (والثاني) يريد الصلاح على العموم ويدخل تحته حسن المعاملة وانما قال ان شاء الله للاتكال على توفيقه ومعونته * فان قيل فالعقد كيف ينعقد مع هذا الشرط فانك لو قلت امرأتي طالق ان شاء الله لا تطلق * قلنا هذا مما يختلف بالشرائع أما قوله تعالى قال ذلك بيني وبينك فاعلم أن ذلك مبتدأ وبيني وبينك خبره وهو اشارة الى ما عاهده عليه شعيب عليه السلام يريد ذلك الذي قلته وعاهدتني عليه قائم بيننا جميعا لا يخرج كلانا عنه لا أنا عما شرطت علي ولا أنت عما شرطت على نفسك ثم قال أيما الاجلين قضيت من الاجلين أطولهما الذي هو العشر أو أقصرهما الذي هو الثمان فلا عدوان علي أي لا يعتدى علي في طلب الزيادة أراد بذلك تقرير أمر الخيار يعني ان شاء هذا وان شاء هذا ويكون اختيار الاجل الزائد موكولا الى رأيه من غير أن يكون لاحد عليه اجبار ثم قال والله على ما نقول وكيل والوكيل هو الذي وكل اليه الامر ولما استعمل الوكيل في معنى الشاهد عدي بعلى لهذا السبب ﴿ قوله تعالى ﴿ فلما قضى موسى الاجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لاهله امكثوا اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الايمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى اني أنا الله رب العالمين وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف انك من الآمنين اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم اليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملائه انهم كانوا قوما فاسقين ﴾ اعلم انه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال تزوج صغراهما وقضى أوفاهما أي قضى أوفى الاجلين وقال مجاهد قضى الاجل عشر سنين ومكث بعد ذلك عنده عشر سنين وقوله فلما قضى موسى الاجل وسار بأهله آنس يدل على ان ذلك الايناس حصل عقيب مجموع الامرين ولا يدل على انه حصل عقيب أحدهما وهو قضاء الاجل فبطل ما قاله القاضي من ان ذلك يدل على انه لم يزد عليه وقوله وسار بأهله

أن العاقبة مما لا يعلمه الا الله سبحانه فيهدي من يهديهم الى الايمان (وما أرسلناك عليهم وكيلا) موكولا اليك أمورهم تقسرهم على الايمان وانما أرسلناك بشيرا ونذيرا فدارهم ومر أصحابك بالمداراة والاحتمال وترك المحاقة والمشاقة وذلك قبل نزول آية السيف وقيل نزلت في عمر رضي الله عنه شتمه رجل فأمر بالعفو وقيل أفرط أذية المشركين بالمؤمنين فشكوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وقيل الكلمة التي هي أحسن أن يقولوا يهديكم الله يرحمكم الله (وربك أعلم بمن في السموات والارض) وتفاصيل أحوالهم الظاهرة والكامنة التي بها يستأهلون الاصطفاء والاجتباء فيختارهم لنبوته وولايته من يشاء عمن يستحقه وهو رد عليهم اذ قالوا بعيد أن يكون يتيم أبي طالب نبيا وأن يكون العراة الجوع أصحابه دون أن يكون ذلك من الاكابر والصناديد وذكر من في السموات لابطال قولهم لولا أنزل علينا الملائكة وذكر من في الارض لرد قولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) بالفضائل النفسانية والتبرؤ عن العلائق الجسمانية لا بكثرة الاموال والاتباع (وآتينا داود زبورا) بيان لحيثية تفضيله عليه الصلاة والسلام فان ذلك ايتاء الزبور لا ايتاء الملك والسلطنة وفيه ايذان بتفضيل النبي عليه الصلاة والسلام فان نعوته الجليلة وكونه خاتم النبيين مسطورة في الزبور وأن المراد بعباد الله الصالحين في قوله تعالى ليس ان الارض يرثها عبادي الصالحون هو النبي عليه الصلاة والسلام وأمته وتعريف الزبور تارة وتنكيره أخرى اما لانه في الاصل فعول بمعنى المفعول كالحلوب أو مصدر بمعناه كالقبول واما لان المراد آتينا داود زبورا من الزبر أو بعضا من الزبور فيه ذكره عليه الصلاة والسلام

وقرئ بضم الزاي على انه جمع زبر بمعنى مزبور (قل ادعوا الذين زعمتم) انها آلهة (من دونه) تعالى من الملائكة والمسيح وعزير (فلا يملكون) فلا يستطيعون (كشف الضر عنكم) بالمرة كالمرض والفقر والقحط ونحو ذلك (ولا تحويلا) أي ولا تحويله الى غيركم (أولئك الذين يدعون) أي أولئك الآلهة الذين يدعوهم المشركون من المذكورين (يبتغون) يطلبون لانفسهم (الى ربهم) ومالك أمورهم (الوسيلة) القربة بالطاعة والعبادة (أيهم أقرب) بدل من فاعل يبتغون وأي موصولة أي يبتغي من هو أقرب اليه تعالى الوسيلة فكيف بمن دونه أو ضمن الابتغاء معنى الحرص فكأنه قيل يحرصون أيهم يكون أقرب اليه تعالى بالطاعة والعبادة (ويرجون رحمته) بها (ويخافون عذابه) بتركها كدأب سائر العباد فأين هم من كشف الضر فضلا عن الالهية (ان عذاب ربك كان محذورا) حقيقا بأن يحذره كل أحد حتى الملائكة والرسل عليهم الصلاة والسلام وهو تعليل لقوله تعالى ويخافون عذابه وتخصيصه بالتعليل لما أن المقام مقام التحذير من العذاب وان بينهم وبين العذاب بونا بعيدا (وان من قرية) بيان لتحتم حلول عذابه تعالى بمن لا يحذره اثر بيان أنه حقيق بالحذر وان أساطين الخلق من الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام على حذر من ذلك وكلمة ان نافية ومن استغراقية والمراد بالقرية القرية الكافرة أي ما من قرية من قرى الكفار (الا نحن مهلكوها) أي نخربوها البتة بالخسف بها أو باهلاك أهلها بالمرة لما ارتكبوا من عظائم الموبقات المستوجبة لذلك وفي صيغة الفاعل وان كانت بمعنى المستقبل ما ليس فيه من الدلالة على التحقق والتقرر وانما قيل (قبل يوم القيامة) لان الاهلاك يومئذ غير

ليس فيه دلالة على انه خرج منفردا معها وقوله امكثوا فيه دلالة على الجمع أما قوله اني آنست نارا فقد مر تفسيره في سورة طه وسورة النمل ﴿ أما قوله لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ففيه أبحاث (الاول) قال صاحب الكشاف الجذوة باللغات الثلاث وقد قرئ بهن جميعا وهو العود الغليظ كانت في رأسه نار أو لم تكن قال الزجاج الجذوة القطعة الغليظة من الحطب (الثاني) قد حكينا في سورة طه انه أظلم عليه الليل في الصحراء وهبت ريح شديدة فرقت ماشيته وضل وأصابهم مطر فوجدوا بردا شديدا فعنده أبصر نارا بعيدة فسار اليها يطلب من يدله على الطريق وهو قوله آتيكم منها بخبر أو آتيكم من هذه النار بجذوة من الحطب لعلكم تصطلون وفي قوله لعلي آتيكم منها بخبر دلالة على انه ضل وفي قوله لعلكم تصطلون دلالة على البرد ﴿ أما قوله فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الايمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى اني أنا الله رب العالمين فاعلم أن شاطئ الوادي جانبه وجاء النداء عن يمين موسى من شاطئ الوادي من قبل الشجرة وقوله من الشجرة بدل من قوله من شاطئ الوادي بدل الاشتمال لان الشجرة كانت نابتة على الشاطئ كقوله لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم وانما وصف البقعة بكونها مباركة لانه حصل فيها ابتداء الرسالة وتكليم الله تعالى اياه وههنا مسائل (المسئلة الاولى) احتجت المعتزلة على قولهم ان الله تعالى متكلم بكلام يخلقه في جسم بقوله من الشجرة فان هذا صريح في أن موسى عليه السلام سمع النداء من الشجرة والمتكلم بذلك النداء هو الله سبحانه وهو تعالى منزه أن يكون في جسم فثبت انه تعالى انما يتكلم بخلق الكلام في جسم (أجاب القائلون بقدم الكلام) فقالوا لنا مذهبان (الاول) قول أبي منصور الماتريدي وأئمة ما وراء النهر وهو أن الكلام القديم القائم بذات الله تعالى غير مسموع انما المسموع هو الصوت والحروف وذلك كان مخلوقا في الشجرة ومسموعا منها وعلى هذا التقدير زال السؤال (الثاني) قول أبي الحسن الاشعري وهو أن الكلام الذي ليس بحرف ولا صوت يمكن أن يكون مسموعا كما أن الذات التي ليست بجسم ولا عرض يمكن أن تكون مرئية فعلى هذا القول لا يبعد أنه سمع الحرف والصوت من الشجرة وسمع الكلام القديم من الله تعالى لا من الشجرة فلا منافاة بين الامرين واحتج أهل السنة بأن محل قوله اني أنا الله رب العالمين لو كان هو الشجرة لكان قد قالت الشجرة اني أنا الله والمعتزلة أجابوا بأن هذا انما يلزم لو كان المتكلم بالكلام هو محل الكلام لا فاعله وهذا هو أصل المسئلة أجاب أهل السنة بأن الذراع المسموم قال لا تأكل مني فاني مسموم ففاعل ذلك الكلام هو الله تعالى فان كان المتكلم بالكلام هو فاعل ذلك الكلام لزم أن يكون الله قد قال لا تأكل مني فاني مسموم وهذا باطل وان كان المتكلم هو محل الكلام لزم أن تكون الشجرة قد قالت اني أنا الله وكل ذلك باطل (المسئلة الثانية) يحتمل أن يقال انه تعالى خلق فيه علما ضروريا بأن ذلك الكلام كلام الله والمعتزلة لا يرضون بذلك قالوا لانه لو علم بالضرورة أن ذلك الكلام كلام الله لوجب أن يعلم بالضرورة وجود الله تعالى لانه يستحيل أن تكون الصفة معلومة بالضرورة والذات معلومة بالنظر ولو علم موسى أنه الله تعالى بالضرورة لزال التكليف ويحتمل أن يقال انه تعالى لما أسمعه الكلام الذي ليس بحرف ولا صوت عرف أن مثل ذلك الكلام لا يمكن أن يكون كلام الخلق ويحتمل أن يقال ان ظهور الكلام من الشجرة كظهور التسبيح من الحصى في انه يعلم أن مثل ذلك لا يكون الا من الله تعالى ويحتمل أن يكون المعجز هو انه رأى النار في الشجرة الرطبة فعلم أنه لا يقدر على الجمع بين النار وبين خضرة الشجرة الا الله تعالى ويحتمل أن يصح ما روي أن ابليس لما قال له كيف عرفت انه نداء الله تعالى قال لاني سمعته بجميع أجزائي فلما وجد حس السمع من جميع الاجزاء

علم أن ذلك مما لا يقدر عليه أحد سوى الله تعالى وهذا انما يصح على مذهبنا حيث قلنا البنية ليست شرطا (المسئلة الثالثة) قال في سورة النمل نودي أن بورك من في النار ومن حولها وقال ههنا نودي اني أنا الله رب العالمين وقال في طه نودي اني أنا ربك ولا منافاة بين هذه الاشياء فهو تعالى ذكر الكل الا أنه حكى في كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداء (المسئلة الرابعة) قال الحسن ان موسى عليه السلام نودي نداء الوحي لا نداء الكلام والدليل عليه قوله تعالى فاستمع لما يوحى قال الجمهور ان الله تعالى كلمه من غير واسطة والدليل عليه قوله تعالى وكلم الله موسى تكليما وسائر الآيات وأما الذي تمسك به الحسن فضعيف لان قوله فاستمع لما يوحى لم يكن بالوحي لانه لو كان ذلك أيضا بالوحي لانتهى آخر الامر الى كلام يسمعه المكلف لا بالوحي والالزم التسلسل بل المراد من قوله فاستمع لما يوحى وصيته بأن يتشدد في الامور التي تصل اليه في مستقبل الزمان بالوحي فأما قوله وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف انك من الآمنين فقد تقدم تفسير كل ذلك وقوله كأنها جان صريح في أنه تعالى شبهها بالجان ولم يقل انه في نفسه جان فلا يكون هذا مناقضا لكونه ثعبانا بل شبهها بالجان من حيث الاهتزاز والحركة لا من حيث المقدار وقد تقدم الكلام في خوفه ومعنى لم يعقب لم يرجع يقال عقب المقاتل اذا كر بعد الفر وقال وهب انها لم تدع شجرة ولا صخرة الا ابتلعتها حتى سمع موسى عليه السلام صرير أسنانها وسمع قعقعة الصخر في جوفها فحينئذ ولى واختلفوا في العصا على وجوه (أحدها) قالوا ان شعيبا كانت عنده عصي الانبياء عليهم السلام فقال لموسى بالليل اذا دخلت ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصي فأخذ عصا هبط بها آدم عليه السلام من الجنة ولم تزل الانبياء تتوارثها حتى وقعت الى شعيب عليه السلام فقال أرني العصا فلمسها وكان مكفوفا فضن بها فقال خذ غيرها فما وقع في يده الا هي سبع مرات فعلم أن له شأنا وروي أيضا أن شعيبا عليه السلام أمر ابنته أن تأتي بعصا لاجل موسى عليه السلام فدخلت البيت وأخذت العصا وأتت بها فلما رآها الشيخ قال ائتيه بغيرها فألقتها وأرادت أن تأخذ غيرها فلم يقع في يدها غيرها فلما رأى الشيخ ذلك رضي به ثم ندم بعد ذلك وخرج يطالب موسى عليه السلام فلما لقيه قال اعطني العصا فقال موسى هي عصاي فأبى أن يعطيها اياه فاختصما ثم توافقا على أن يجعلا بينهما أول رجل يلقاهما فأتاهما ملك يمشي فقضى بينهما فقال ضعوها على الارض فمن حملها فهي له فعالجها الشيخ فلم يطق وأخذها موسى عليه السلام بسهولة فتركها الشيخ له ورعى له عشر سنين (وثانيها) روى أبو صالح عن ابن عباس قال كان في دار يبرون بن أخي شعيب بيت لا يدخله الا يبرون وابنته التي زوجها من موسى عليه السلام وانها كانت تكنسه وتنظفه وكان في ذلك البيت ثلاث عشرة عصا وكان ليبرون أحد عشر ولدا من الذكور فكلما أدرك منهم ولد أمره بدخول البيت واخراج عصا من تلك العصي فرجع موسى ذات يوم الى منزله فلم يجد أهله واحتاج الى عصا لرعيه فدخل ذلك البيت وأخذ عصا من تلك العصي وخرج بها فلما علمت المرأة ذلك انطلقت الى أبيها وأخبرته بذلك فسر بذلك يبرون وقال لها ان زوجك هذا نبي وان له مع هذه العصا لشأنا (وثالثها) في بعض الاخبار أن موسى عليه السلام لما عقد العقد مع شعيب وأصبح من الغد وأراد الرعي قال له شعيب عليه السلام اذهب بهذه الاغنام فاذا بلغت مفرق الطريق فخذ على يسارك ولا تأخذ على يمينك وان كان الكلأ بها أكثر فان بها تنينا عظيما فأخشى عليك وعلى الاغنام منه فذهب موسى بالاغنام فلما بلغ مفرق الطريق أخذت الاغنام ذات اليمين فاجتهد موسى على أن يردها فلم يقدر فسار على أثرها فرأى عشبا كثيرا ثم ان موسى عليه السلام نام والاغنام ترعى واذا بالتنين قد جاء فقامت عصا موسى عليه السلام فقاتلته

تختص بالقرى الكافرة ولا هو بطريق العقوبة وانما هو لانقضاء عمر الدنيا (أو معذبوها) أي معذبو أهلها على الاسناد المجازي (عذابا شديدا) لا بالقتل والسبي ونحوهما من البلايا الدنيوية فقط بل بما لا يكتنه كنهه من فنون العقوبات الاخروية أيضا حسبما يفصح عنه اطلاق التعذيب عما قيد به الاهلاك من قبلية يوم القيامة كيف لا وكثير من القرى العاتية العاصية قد أخرت عقوباتها الى يوم القيامة (كان ذلك) الذي ذكر من الاهلاك والتعذيب (في الكتاب) أي اللوح المحفوظ (مسطورا) مكتوبا لم يغادر منه شئ الا بين فيه بكيفياته وأسبابه الموجبة له ووقته المضروب له هذا وقد قيل الهلاك للقرى الصالحة والعذاب للطالحة وعن مقاتل وجدت في كتاب الضحاك بن مزاحم في تفسيرها أما مكة فيخربها الحبشة وتهلك المدينة بالجوع والبصرة بالغرق والكوفة بالترك والجبال بالصواعق والرواجف وأما خراسان فهلاكها ضروب ثم ذكرها بلدا بلدا وقال الحافظ أبو عمرو الداني في كتاب الفتن انه روي عن وهب بن منبه ان الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب أرمينية وأرمينية آمنة حتى تخرب مصر ومصر آمنة حتى تخرب الكوفة ولا تكون الملحمة الكبرى حتى تخرب الكوفة فاذا كانت الملحمة الكبرى فتحت قسطنطينية على يدي رجل من بني هاشم وخراب الاندلس من قبل الزنج وخراب افريقية من قبل الاندلس وخراب مصر من انقطاع النيل واختلاف الجيوش فيها وخراب العراق من الجوع وخراب الكوفة من قبل عدو من ورائهم يحصرهم حتى لا يستطيعون أن يشربوا من الفرات قطرة وخراب البصرة من قبل الغرق وخراب الايلة من قبل عدو يحصرهم برا وبحرا وخراب الري من الديلم وخراب خراسان من

قبل التبت وخراب التبت من قبل الصين وخراب الهند واليمن من قبل الجراد والسلطان وخراب مكة من الحبشة وخراب المدينة من قبل الجوع وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال آخر قرية من قرى الاسلام خرابا المدينة وقد أخرجه العمري من هذا الوجه وانت خبير بأن تعميم القرية لايساعده السباق ولا السياق (وما منعنا أن نرسل بالآيات) أي الآيات التي اقترحتها قريش من احياء الموتى وقلب الصفا ذهبا ونحو ذلك (الا أن كذب بها الاولون) استثناء مفرغ من أعم الاشياء أي وما منعنا ارسالها شئ من الاشياء الا تكذيب الاولين بها حين جاءتهم باقتراحهم وعدم ارساله تعالى بها وان كان بمشيئته المبنية على الحكم البالغة لا لمنع مانع عن ذلك من التكذيب أو غيره لاستحالة العجز عليه تعالى لكن تكذيبهم المذكور بواسطة استتباعه لاستئصالهم بحكم السنة الالهية واستلزامه لتكذيب الآخرين بحكم الاشتراك في العتو والعناد وافضائه الى أن يحل بهم مثل ما حل بهم بحكم الشركة في الجريرة لما كان منافيا لارسال ما اقترحوه من الآيات لتعين التكذيب المستدعي للاستئصال المخالف لما جرى به قلم القضاء من تأخير عقوبات هذه الامة الى الآخرة لحكم باهرة من جملتها ما يتوهم من ايمان بعض أعقابهم عبر عن تلك المنافاة بالمنع على نهج الاستعارة ايذانا بتعاضد مبادي الارسال لا كما زعموا من عدم ارادته تعالى لتأييده عليه الصلاة والسلام بالمعجزات وهو السر في ايثار الارسال على الايتاء لما فيه من الاشعار بتداعي الآيات الى النزول لولا أن تمسكها يد التقدير واسناد هذا المنع الى تكذيب الاولين لا الى علمه تعالى بما سيكون من الآخرين كما في قوله تعالى ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا

حتى قتلته وعادت الى جنب موسى وهي دامية فلما استيقظ موسى عليه السلام رأى العصا دامية والتنين مقتولا فارتاح لذلك وعلم أن لله تعالى في تلك العصا قدرة وآية وعاد الى شعيب عليه السلام وكان ضريرا فمس الاغنام فاذا هي أحسن حالا مما كانت فسأله عن ذلك فأخبره موسى عليه السلام بالقصة ففرح بذلك وعلم ان لموسى عليه السلام وعصاه شأنا فأراد أن يجازي موسى عليه السلام على حسن رعيه اكراما وصلة لابنته فقال اني وهبت لك من السخال التي تضعها أغنامي في هذه السنة كل أبلق وبلقاء فأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام أن اضرب بعصاك الماء الذي تسقي الغنم منه ففعل ثم سقى الاغنام منه فما أخطأت واحدة منها الا وضعت حملها ما بين أبلق وبلقاء فعلم شعيب أن ذلك رزق ساقه الله تعالى الى موسى عليه السلام وامرأته فوفى له شرطه (ورابعها) قال بعضهم تلك العصا هي عصا آدم عليه السلام وان جبريل عليه السلام أخذ تلك العصا بعد موت آدم عليه السلام فكانت معه حتى لقي بها موسى عليه السلام ليلا (وخامسها) قال الحسن ما كانت الا عصا من الشجر اعترضها اعتراضا أي أخذها من عرض الشجر يقال اعترض اذا لم يتخير وعن الكلبي الشجرة التي منها نودي شجرة العوسج ومنها كانت عصاه ولا مطمع في ترجيح بعض هذه الوجوه على بعض لانه ليس في القرآن ما يدل عليها والاخبار متعارضة والله أعلم بها* أما قوله تعالى اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فاعلم ان الله تعالى قد عبر عن هذا المعنى بثلاث عبارات (أحدها) هذه (وثانيها) قوله في طه واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء (وثالثها) قوله في النمل وأدخل يدك في جيبك قال العزيزي في غريب القرآن اسلك يدك في جيبك أدخلها فيه* أما قوله واضمم اليك جناحك من الرهب فأحسن الناس كلاما فيه صاحب الكشاف قال فيه معنيان (أحدهما) أن موسى عليه السلام لما قلب الله له العصا حية فزع واضطرب فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشئ فقيل له ان اتقاءك بيدك فيه غضاضة عند الاعداء فاذا ألقيتها فكما تنقلب حية فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها ثم أخرجها بيضاء ليحصل الامران اجتناب ما هو غضاضة عليك واظهار معجزة أخرى والمراد بالجناح اليد لان يدي الانسان بمنزلة جناحي الطائر واذا أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضم جناحه اليه (الثاني) أن يراد بضم جناحه اليه تجلده وضبطه نفسه وتشدده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب استعارة من فعل الطائر لانه اذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما والا فجناحاه مضمومان اليه مشمران ومعنى قوله من الرهب من أجل الرهب أي اذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم اليك جناحك وقوله اسلك يدك في جيبك على أحد التفسيرين واحد ولكن خولف بين العبارتين وانما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين وذلك أن الغرض في أحدهما خروج اليد بيضاء وفي الثاني اخفاء الرهب* فان قيل قد جعل الجناح وهو اليد في أحد الموضعين مضموما وفي الآخر مضموما اليه وذلك قوله واضمم اليك جناحك وقوله واضمم يدك الى جناحك فما التوفيق بينهما* قلنا المراد بالجناح المضموم هو اليد اليمنى وبالمضموم اليه اليد اليسرى وكل واحدة من يمنى اليدين ويسراهما جناح هذا كله كلام صاحب الكشاف وهو في نهاية الحسن أما قوله تعالى فذانك قرئ مخففا ومشددا فالمخفف مثنى ذا والمشدد مثنى ذان قوله برهانان من ربك حجتان نيرتان على صدقه في النبوة وصحة ما دعاهم اليه من التوحيد وظاهر الكلام يقتضي أنه تعالى أمره بذلك قبل لقاء فرعون حتى عرف ما الذي يظهره عنده من المعجزات لانه تعالى حكى بعد ذلك عن موسى عليه السلام انه قال اني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون قال القاضي واذا كان كذلك فيجب أن يكون في حال ظهور البرهانين هناك من دعاه الى رسالته من أهله أو غيرهم اذ

وهم معرضون لاقامة الحجة عليهم بابراز الانموذج وللايذان بأن مدار عدم الاجابة الى ايتاء مقترحهم ليس الا صنيعهم (وآتينا ثمود الناقة) عطف على ما يفصح عنه النظم الكريم كأنه قيل وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الاولون حيث آتيناهم ما اقترحوا من الآيات الباهرة فكذبوها وآتينا باقتراحهم ثمود الناقة (مبصرة) على صيغة الفاعل أي بينة ذات ابصار أو بصائر

المعجزات انما تظهر على الرسل في حال الارسال لا قبله وانما تظهر لكي يستدل بها غيرهم على الرسالة وهذا ضعيف لانه ثبت أنه لابد في اظهار المعجز من حكمة ولا حكمة أعظم من أن يستدل بها الغير على صدق المدعي وأما كونه لا حكمة ههنا فلا نسلم فلعل هناك أنواعا من الحكم والمقاصد سوى ذلك لا سيما وهذه الآيات منطابقة على أنه لم يكن هناك مع موسى عليه السلام أحد ﴿ قوله تعالى ﴿قال رب اني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون وأخي هرون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردأ يصدقني اني أخاف أن يكذبون قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا الا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار انه لا يفلح الظالمون﴾ اعلم أنه تعالى لما قال فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملائه تضمن ذلك أن يذهب موسى بهذين البرهانين الى فرعون وقومه فعند ذلك طلب من الله تعالى ما يقوي قلبه ويزيل خوفه فقال رب اني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون وأخي هرون هو أفصح مني لسانا لانه كان في لسانه حبسة اما في أصل الخلقة واما لانه وضع الجمرة في فيه عند ما نتف لحية فرعون ﴿ أما قوله فأرسله معي ردأ يصدقني ففيه أبحاث ﴿ (البحث الاول) الردء اسم ما يستعان به فعل بمعنى مفعول به كما أن الدفء اسم لما يدفأ به يقال ردأت الحائط أردؤه اذا دعمته بخشب أو غيره لئلا يسقط (البحث الثاني) قرأ نافع رداً بغير همز والباقون بالهمز وقرأ عاصم وحمزة يصدقني برفع القاف وروى ذلك أيضا عن أبي عمرو والباقون بجزم القاف وهو المشهور عن أبي عمرو فمن رفع فالتقدير ردأ مصدقا لي ومن جزم كان على معنى الجزاء يعني ان أرسلته صدقني ونظيره قوله فهب لي من لدنك وليا يرثني بجزم الثاء من يرثني وروى السدي عن بعض شيوخه ردأ كيما يصدقني (البحث الثالث) الجمهور على أن التصديق لهرون وقال مقاتل المعنى كي يصدقني فرعون والمعنى أرسل معي أخي حتى يعاضدني على اظهار الحجة والبيان فعند اجتماع البرهانين ربما حصل المقصود من تصديق فرعون (البحث الرابع) ليس الغرض بتصديق هرون أن يقول له صدقت أو يقول للناس صدق موسى وانما هو أن يلخص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل ويجيب عن الشبهات ويجادل به الكفار فهذا هو التصديق المفيد ألا ترى الى قوله وأخي هرون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي وفائدة الفصاحة انما تظهر فيما ذكرناه لا في مجرد قوله صدقت (البحث الخامس) قال الجبائي انما سأل موسى عليه السلام أن يرسل هرون بأمر الله تعالى والا كان لا يدري هل يصلح هرون للبعثة أم لا فلم يكن ليسأل ما لا يأمن أن يجاب أولا يكون حكمة ويحتمل أيضا أن يقال انه سأله لا مطلقا بل مشروطا على معنى ان اقتضت الحكمة ذلك كما يقوله الداعي في دعائه (البحث السادس) قال السدي ان نبيين وآيتين أقوى من نبي واحد وآية واحدة قال القاضي والذي قاله من جهة العادة أقوى فأما من حيث الدلالة فلا فرق بين معجزة ومعجزتين ونبي ونبيين لان المبعوث اليه ان نظر في أيهما كان علم وان لم ينظر فالحالة واحدة هذا اذا كانت طريقة الدلالة في المعجزتين واحدة فأما اذا اختلفت وأمكن في احداهما ازالة الشبهة ما لا يمكن في الاخرى فغير ممتنع أن يختلفا ويصح عند ذلك أن يقال انهما جميعا أقوى من احداهما على ما قاله السدي لكن ذلك لا يتأتى في موسى وهرون عليهما السلام لان معجزتهما كانت واحدة لا متغايرة أما قوله سنشد عضدك بأخيك فاعلم أن العضد قوام اليد وبشدتها تشتد يقال في دعاء الخير شد الله عضدك وفي ضده فت الله في عضدك ومعنى سنشد عضدك بأخيك سنقويك به فاما أن يكون ذلك لان اليد تشتد لشدة العضد والجملة تقوى بشدة اليد على مزاولة

يدركها الناس أو أسند اليها حال من يشاهدها مجازا أو جاعلتهم ذوي بصائر من أبصره جعله بصيرا وقرئ على صيغة المفعول وبفتح الميم والصاد وهي نصب على الحالية وقرئ بالرفع على أنها خبر مبتدأ محذوف (فظلموا بها) فكفروا بها ظالمين أي لم يكتفوا بمجرد الكفر بها بل فعلوا بها ما فعلوا من العقر أو ظلموا أنفسهم وعرضوها للهلاك بسبب عقرها ولعل تخصيصها بالذكر لما أن ثمود عرب مثلهم وأن لهم من العلم بحالهم ما لا مزيد عليه حيث يشاهدون آثار هلاكهم ورودا وصدورا أو لانها من جهة انها حيوان أخرج من الحجر أوضح دليل على تحقق مضمون قوله تعالى قل كونوا حجارة أو حديدا (وما نرسل بالآيات) المقترحة (الا تخويفا) لمن أرسلت هي عليهم مما يعقبها من العذاب المستأصل كالطليعة له وحيث لم يخافوا ذلك فعل بهم ما فعل فلا تفعل بهؤلاء حينئذ من الاعراب

ويجوز أن تكون حالا من ضمير ظلموا أي فظلموا بها ولم يخافوا عاقبته والحال أن ما نرسل بالآيات التي هي من جملتها الامور الاتخويفا من العذاب الذي يعقبها فنزل بهم ما نزل (واذ قلنا لك ان ربك أحاط بالناس) أي علما كما نقله الامام الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما فلا يخفى عليه شيء من أفعالهم الماضية والمستقبلة من الكفر والتكذيب وفي قوله تعالى (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك

الأمور وأما لأن الرجل شبه باليد في اشتدادها باشتداد العضد فجعل كأنه يد مشتدة بعضد شديدة أما قوله ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما فالمقصود أن الله تعالى آمنهما مما كان يحذر فإن قيل بين تعالى أن السلطان هو بالآيات فكيف لا يصلون إليهما لأجل الآيات أوليس فرعون قد وصل إلى صلب السحرة وإن كانت هذه الآيات ظاهرة قلنا إن الآية التي هي قلب العصا حية كما أنها معجزة فهي أيضا تمنع من وصول ضرر فرعون إلى موسى وهرون عليهما السلام لأنهم إذا علموا أنه متى ألقاها صارت حية عظيمة وإن أراد إرسالها عليهم أهلكتهم زجرهم ذلك عن الإقدام عليهما فصارت مانعة من الوصول إليهما بالقتل وغيره وصارت آية معجزة فجمعت بين الأمرين فأما أمر السحرة ففيه خلاف فمنهم من قال ما صلبوا وليس في القرآن ما يدل عليه وإن سلمنا ذلك ولكنه تعالى قال فلا يصلون إليكما فالمقصود أنهم لا يقدرون على إيصال الضرر إليهما وإيصال الضرر إلى غيرهما لا يقدح فيه ثم قال أنتما ومن اتبعكما الغالبون والمراد إما الغلبة بالحجة والبرهان في الحال أو الغلبة في الدولة والمملكة في ثاني الحال والأول أقرب إلى اللفظ أما قوله فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات فقد بينا في سورة طه أنه كيف أطلق لفظ الآيات وهو جمع على العصا واليد أما قوله قالوا ما هذا إلا سحر مفترى فقد اختلفوا في مفترى فقال بعضهم المراد أنه إذا كان سحرا وفاعله يوهم خلافه فهو المفترى وقال الجبائي المراد أنه منسوب إلى الله تعالى وهو من قبله فكأنهم قالوا هو كذب من هذا الوجه ثم ضموا إليه ما يدل على جهلهم وهو قولهم وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين أي ما حدثنا بكونه فيهم ولا يخلو من أن يكونوا كاذبين في ذلك وقد سمعوا أمثاله أو يريدوا أنهم لم يسمعوا أمثاله في فظاعته أو ما كان الكهان يخبرون بظهور موسى عليه السلام ومجيئه بما جاء به واعلم أن هذه الشبهة ساقطة لأن حاصلها يرجع إلى التقليد ولأن حال الأولين لا يخلو من وجهين إما أن لا يورد عليهم مثل هذه الحجة فحينئذ الفرق ظاهر أو أورد عليهم فدفعوه فحينئذ لا يجوز جعل جهلهم وخطئهم حجة فعند ذلك قال موسى عليه السلام وقد عرف منهم العناد ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار فإن من أظهر الحجة ولم يجد من الخصم اعتراضا عليها وإنما وجد منه العناد صح أن يقول ربي أعلم بمن معه الهدى والحجة منا جميعا ومن هو على الباطل ويعظهم بطريقة الوعيد والتخويف وهو قوله ومن تكون له عاقبة الدار من ثواب على تمسكه بالحق أو من عقاب وعاقبة الدار هي العاقبة المحمودة والدليل عليه قوله تعالى أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن وقوله وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار والمراد بالدار الدنيا وعاقبتها وعقباها أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقي الملائكة بالبشرى عند الموت فإن قيل العاقبة المحمودة والمذمومة كلتاهما يصح أن تسمى عاقبة الدار لأن الدنيا قد تكون خاتمتها بخير في حق البعض وبشر في حق البعض الآخر فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر قلنا إنه قد وضع الله سبحانه الدنيا مجازا إلى الآخرة وأمر عباده أن لا يعملوا فيها إلا الخير ليبلغوا خاتمة الخير وعاقبة الصدق فمن عمل فيها خلاف ما وضعها الله له فقد حرف فإذن عاقبتها الأصلية هي عاقبة الخير وأما عاقبة السوء فلا اعتداد بها لأنها من نتائج تحريف الفجار ثم إنه عليه السلام أكد ذلك بقوله إنه لا يفلح الظالمون والمراد أنهم لا يظفرون بالفوز والنجاة والمنافع بل يحصلون على ضد ذلك وهذا نهاية في زجرهم عن العناد الذي ظهر منهم ﴿ قوله تعالى ﴾ ﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة

(إلا فتنة للناس) إلى آخر الآية تنبيه على تحققها بالاستدلال عليها بما صدر عنهم عند مجيء بعض الآيات لاشتراك الكل في كونها أمورا خارقة للعادات منزلة من جانب الله سبحانه لتصديق النبي عليه الصلاة والسلام فتكذيبهم لبعضها مستلزم لتكذيب الباقي كما أن تكذيب الآخرين بغير المقترحة يدل على تكذيبهم بالآيات المقترحة والمراد بالرؤيا ما عاينه عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج من عجائب الأرض والسماء حسبما ذكر في فاتحة السورة الكريمة والتعبير عن ذلك بالرؤيا إما لأنه لا فرق بينها وبين الرؤية أو لأنها وقعت بالليل أو لأن الكفرة قالوا لعلها رؤيا أي وما جعلنا الرؤيا التي أريناك عيانا مع كونها آية عظيمة وأي آية حقيقة بأن لا يتلعثم في تصديقها أحد ممن له أدنى بصيرة (إلا فتنة) افتتن بها الناس حتى ارتد بعضهم (والشجرة الملعونة في القرآن) عطف على الرؤيا والمراد بلعنها لعن طاعميها على الإسناد المجازي أو إبعادها عن الرحمة فإنها تنبت في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة أي وما جعلناها إلا فتنة لهم حيث أنكروا ذلك وقالوا إن محمدا يزعم أن الجحيم يحرق الحجارة ثم يقول ينبت فيها الشجر ولقد ضلوا في ذلك ضلالا بعيدا حيث كابروا قضية عقولهم فإنهم يرون النعامة تبتلع الجمر وقطع الحديد المحماة فلا تضرها ويشاهدون المناديل المتخذة من وبر السمندل تلقى في النار فلا تؤثر فيها ويرون أن في كل شجر نارا وقرئ بالرفع على حذف الخبر كأنه قيل والشجرة الملعونة في القرآن كذلك (ونخوفهم) بذلك وبنظائرها من الآيات فإن الكل للتخويف وإيثار صيغة الاستقبال للدلالة على التجدد والاستمرار (فما يزيدهم) التخويف (إلا طغيانا كبيرا) متجاوزا عن الحد فلو أنا أرسلنا بما اقترحوه من الآيات لفعلوا بها ما فعلوا بنظائرها وفعل بهم ما فعل

أشياعهم وقد قضينا بتأخير العقوبة العامة لهذه الامة الى الطامة الكبرى هذا هو الذي يستدعيه النظم الكريم وقد حمل أكثر المفسرين الاحاطة على الاحاطة بالقدرة تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما عسى يعتريه من عدم الاجابة الى انزال الآيات التي اقترحوها لان انزالها ليس بمصلحة من نوع حزن من طعن الكفرة حيث كانوا يقولون لو كنت رسولا حقا لأتيت بهذه المعجزات كما أتى بها موسى وغيره من الانبياء عليهم الصلاة والسلام فكأنه قيل اذكر وقت قولنا لك ان ربك اللطيف بك قد أحاط بالناس فهم في قبضة قدرته لا يقدرون على الخروج من مشيئته فهو يحفظك منهم فلا تهتم بهم وامض لما أمرتك به من تبليغ الرسالة ألا ترى أن الرؤيا التي أريناك من قبل جعلناها فتنة للناس مورثة للشبهة مع أنها ما أورثت ضعفا لامرك وفتورا في حالك وقد فسر الاحاطة باهلاك قريش يوم بدر وانما عبر عنه بالماضي مع كونه منتظرا حسبما ينبئ عنه قوله تعالى سيهزم الجمع ويولون الدبر وقوله تعالى قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وغير ذلك جريا على عادته سبحانه في أخباره وأولت الرؤيا بما رآه عليه الصلاة والسلام في المنام من مصارعهم لما روى أنه عليه الصلاة والسلام لما ورد ماء بدر قال والله لكأني أنظر الى مصارع القوم وهو يومئ الى الارض هذا مصرع فلان فتسامعت به قريش فاستسخروا منه وبما رآه عليه الصلاة والسلام أنه سيدخل مكة وأخبر به أصحابه فتوجه اليها فصده المشركون عام الحديبية واعتذر عن كون ما ذكر مدنيا بأنه يجوز أن يكون الوحي باهلاكهم وكذا الرؤيا واقعا بمكة وذكر الرؤيا وتعيين المصارع واقعين بعد الهجرة وأنت خبير بأنه يلزم منه أن يكون افتتان الناس بذلك واقعا وان

لا ينصرون وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون ﴾ اعلم ان فرعون كانت عادته متى ظهرت حجة موسى أن يتعلق في دفع تلك الحجة بشبهة يروجها على أغمار قومه وذكر ههنا شبهتين (الاولى) قوله ما علمت لكم من اله غيري وهذا في الحقيقة يشتمل على كلامين (أحدهما) نفي اله غيره (والثاني) اثبات الهية نفسه (فأما الاول) فقد كان اعتماده على أن ما لا دليل عليه لم يجز اثباته أما انه لا دليل عليه فلان هذه الكواكب والافلاك كافية في اختلاف أحوال هذا العالم السفلي فلا حاجة الى اثبات صانع وأما أن ما لا دليل عليه لم يجز اثباته فالامر فيه ظاهر واعلم أن المقدمة الاولى كاذبة فانا لا نسلم انه لا دليل على وجود الصانع وذلك لانا اذا عرفنا بالدليل حدوث الاجسام عرفنا حدوث الافلاك والكواكب وعرفنا بالضرورة ان المحدث لا بد له من محدث فحينئذ نعرف بالدليل ان هذا العالم له صانع والعجب ان جماعة اعتمدوا في نفي كثير من الاشياء على أن قالوا لا دليل عليه فوجب نفيه قالوا وانما قلنا انه لا دليل عليه لانا بحثنا وسبرنا فلم نجد عليه دليلا فرجع حاصل كلامهم بعد التحقيق الى أن كل ما لا نعرف عليه دليلا وجب نفيه وان فرعون لم يقطع بالنفي بل قال لا دليل عليه فلا أثبته بل أظنه كاذبا في دعواه ففرعون على نهاية جهله أحسن حالا من هذا المستدل (أما الثاني) وهو اثباته الهية نفسه فاعلم انه ليس المراد منه انه كان يدعي كونه خالقا للسموات والارض والبحار والجبال وخالقا لذوات الناس وصفاتهم فان العلم بامتناع ذلك من أوائل العقول فالشك فيه يقتضي زوال العقل بل الاله هو المعبود فالرجل كان ينفي الصانع ويقول لا تكليف على الناس الا أن يطيعوا ملكهم وينقادوا لامره فهذا هو المراد من ادعائه الالهية لا ما ظنه الجمهور من ادعائه كونه خالقا للسماء والارض لا سيما وقد دللنا في سورة طه في تفسير قوله فمن ربكما يا موسى على أنه كان عارفا بالله تعالى وانه كان يقول ذلك ترويجا على الاغمار من الناس (الشبهة الثانية) قوله فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع الى اله موسى واني لاظنه من الكاذبين وههنا أبحاث (الاول) تعلقت المشبهة بهذه الآية في أن الله تعالى في السماء قالوا ولولا أن موسى عليه السلام دعاه الى ذلك لما قال فرعون هذا القول * والجواب ان موسى عليه السلام دل فرعون بقوله رب السموات والارض ولم يقل هو الذي في السماء دون الارض فأوهم فرعون انه يقول ان الهه في السماء وذلك أيضا من خبث فرعون ومكره ودهائه (الثاني) اختلفوا في ان فرعون هل بنى هذا الصرح فقال قوم انه بناه قالوا انه لما أمر ببناء الصرح جمع هامان العمال حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الاتباع والاجراء وأمر بطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير فشيدوه حتى بلغ ما لم يبلغه بنيان أحد من الخلق فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام عند غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع قطعة وقعت على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل وقطعة وقعت في البحر وقطعة في المغرب ولم يبق أحد من عماله الا وقد هلك ويروى في هذه القصة أن فرعون ارتقى فوقه ورمى بنشابة نحو السماء فأراد الله أن يفتنهم فردت اليهم وهي ملطوخة بالدم فقال قد قتلت اله موسى فعند ذلك بعث الله تعالى جبريل عليه السلام لهدمه ومن الناس من قال انه لم يبن ذلك الصرح لانه يبعد من العقلاء أن يظنوا انهم بمجرد الصرح يقربون من السماء مع علمهم بأن من علا أعلى الجبال الشاهقة يرى السماء كما كان يراها حين كان على قرار الارض ومن شك في ذلك خرج عن حد العقل وهكذا القول فيما يقال من رمي السهم الى السماء ورجوعه متلطخا بالدم فان كل من كان كامل العقل يعلم انه لا يمكنه ايصال السهم الى السماء

بعد الهجرة وأن يكون أريد بإدهم طغياناً متوقعاً غير واقع عند نزول الآية وقد قيل الرؤيا ما رآه عليه الصلاة والسلام في وقعة بدر من مضمون قوله تعالى اذ يريكهم الله في منامك قليلا ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولا ريب في أن تلك الرؤيا ما وقوعها في المدينة ما جعلت فتنة للناس (واذ قلنا للملائكة) تذكير لما جرى منه تعالى من الأمر ومن الملائكة من الامتثال ٤٧٩ والطاعة من غير تردد وتحقيق لمضمون ما سبق من قوله تعالى أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذوراً ويعلم من حال الملائكة حال غيرهم من عيسى وعزير عليهما السلام في الطاعة وابتغاء الوسيلة ورجاء الرحمة ومخافة العذاب ومن حال ابليس حال من يعاند الحق ويخالف الأمر أي واذكر وقت قولنا لهم (اسجدوا لآدم) تحية وتكريماً لما له من الفضائل المستوجبة لذلك (فسجدوا) له من غير تلعثم امتثالاً للأمر وأداء لحقه عليه الصلاة والسلام (الا ابليس) وكان داخلاً في زمرتهم مندرجاً تحت الأمر بالسجود (قال) أي عندما وبخ بقوله عز سلطانه يا ابليس ما لك أن لا تكون مع الساجدين وقوله ما منعك أن لا تسجد اذ أمرتك وقوله ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي كما أشير اليه في سورة الحجر (أأسجد) وأنا مخلوق من العنصر العالي (لمن خلقت طيناً) نصب على نزع الخافض أي من طين أو حال من الراجع الى الموصول أي خلقته وهو طين أو من نفس الموصول أي أأسجد له وأصله طين والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بالموصول لتعليل انكاره بما في حيز الصلة (قال) أي ابليس لكن لا عقيب كلامه المحكي بل بعد الانظار المترتب على استنظاره المتفرع على الأمر بخروجه من بين الملأ الأعلى باللعن المؤبد وانما لم

وان من حاول ذلك كان من المجانين فلا يليق بالعقل والدين حمل القصة التي حكاها الله تعالى في القرآن على محمل يعرف فساده بضرورة العقل فيصير ذلك مشرعاً قوياً لمن أحب الطعن في القرآن فالأقرب انه كان أوهم البناء ولم يبن أو كان هذا من تتمة قوله ما علمت لكم من اله غيري يعني لا سبيل الى اثباته بالدليل فان حركات الكواكب كافية في تغير هذا العالم ولا سبيل الى اثباته بالحس فان الاحساس به لا يمكن الا بعد صعود السماء وذلك مما لا سبيل اليه ثم قال عند ذلك لهامان ابن لي صرحاً أبلغ به أسباب السموات وانما قال ذلك على سبيل التهكم فمجموع هذه الأشياء قرر انه لا دليل على الصانع ثم انه رتب النتيجة عليه فقال واني لأظنه من الكاذبين فهذا التأويل أولى مما تقدم (الثالث) انما قال أوقد لي يا هامان على الطين ولم يقل اطبخ لي الآجر واتخذه لأنه أول من عمل الآجر فهو يعلمه الصنعة ولأن هذه العبارة أليق بفصاحة القرآن وأشبه بكلام الجبابرة وأمر هامان وهو وزيره بالايقاد على الطين منادى باسمه بيا في وسط الكلام دليل التعظم والتجبر والطلوع والاطلاع الصعود يقال طلع الجبل واطلع بمعنى واحد * أما قوله واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق فاعلم أن الاستكبار بالحق انما هو لله تعالى وهو المتكبر في الحقيقة أي المبالغ في كبرياء الشأن قال عليه السلام فيما حكى عن ربه الكبرياء ردائي والعظمة ازاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق (المسئلة الثانية) قال الجبائي الآية تدل على انه تعالى ما أعطاه الملك والا لكان ذلك بحق وهكذا كل متغلب لا كما ادعى ملوك بني أمية عند تغلبهم ان ملكهم من الله تعالى فان الله تعالى قد بين في كل غاصب لحكم الله انه أخذ ذلك بغير حق واعلم أن هذا ضعيف لأن وصول ذلك الملك اليه اما أن يكون منه أو من الله تعالى أو لا منه ولا من الله تعالى فان كان منه فلم لم يقدر عليه غيره فربما كان العاجز أقوى وأعقل بكثير من المتولي للأمر وان كان من الله تعالى فقد صح الغرض وان كان من سائر الناس فلم اجتمعت دواعي الناس على نصرة أحدهما وخذلان الآخر واعلم أن هذا أظهر من أن يرتاب فيه العاقل * أما قوله وظنوا أنهم الينا لا يرجعون فهذا يدل على أنهم كانوا عارفين بالله تعالى الا انهم كانوا ينكرون البعث فلأجل ذلك تمردوا وطغوا * أما قوله فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فهو من الكلام المفخم الذي دل به على عظم شأنه وكبرياء سلطانه شبههم استحقاراً لهم واستقلالاً لعددهم وان كانوا الكثير والجم الغفير بحصيات أخذهن آخذ في كفه فطرحهن في البحر ونحو ذلك قوله وألقينا فيها رواسي شامخات وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى وليس الغرض منه الا تصوير أن كل مقدور وان عظم فهو حقير بالقياس الى قدرته * أما قوله وجعلناهم أئمة يدعون الى النار فقد تمسك به الأصحاب في كونه تعالى خالقاً للخير والشر قال الجبائي المراد بقوله وجعلناهم أي بينا ذلك من حالهم وسميناهم به ومنه قوله وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثاً وتقول أهل اللغة في تفسير فسقه وبخله جعله فاسقاً وبخيلاً لا أنه خلقهم أئمة لأنهم حال خلقه لهم كانوا أطفالاً وقال الكعبي انما قال وجعلناهم أئمة من حيث خلى بينهم وبين ما فعلوه ولم يعاجل بالعقوبة ومن حيث كفروا ولم يمنعهم بالقسر وذلك كقوله زادتهم رجساً الى رجسهم لما ازدادوا عندها ونظير ذلك أن الرجل يسأل ما يثقل عليه وان أمكنه فاذا بخل به قيل للسائل جعلت فلاناً بخيلاً أي قد بخلته وقال أبو مسلم معنى الامامة التقدم فلما عجل الله تعالى لهم العذاب صاروا متقدمين لمن وراءهم من الكافرين واعلم أن الكلام فيه قد تقدم في سورة مريم في قوله انا أرسلنا الشياطين على الكافرين ومعنى دعوتهم الى النار دعوتهم الى موجباتها من الكفر والمعاصي فان أحداً

يصرح بذلك اكتفاء بذكره في مواضع أخر فان توسط قال بين كلامي اللعين للايذان بعدم اتصال الثاني بالاول وعدم ابتنائه عليه بل على غيره كما في قوله تعالى قال فما خطبكم بعد قوله تعالى قال ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون (أرأيتك هذا الذي كرمت علي) الكاف لتأكيد الخطاب لا محل لها من الاعراب وهذا مفعول أول والموصول صفته والثاني محذوف لدلالة الصلة عليه

أي أخبرني عن هذا الذي كرمته علي بان أمرتني بالسجود له لم كرمته علي وقيل هذا مبتدأ حذف عنه حرف الاستفهام والموصول مع صلته خبره ومقصوده الاستصغار والاستحقار أي أخبرني أهذا من كرمته علي وقيل معنى أرأيتك أتأملت كأن المتكلم ينبه المخاطب على استحضار ما يخاطبه به عقيبه (لئن أخرتن) حيا (الى يوم القيامة) كلام مبتدأ واللام موطئة للقسم وجوابه قوله (لاحتنكن ذريته) أي لاستأصلنهم من قولهم احتنك الجراد الارض اذا جرد ما عليها أكلا أو لأقودنهم حيث شاءت ولاستولين عليهم استيلاء قويا من قولهم حنكت الدابة واحتنكتها اذا جعلت في حنكها الاسفل حبلا تقودها به وهذا كقوله لأزينن لهم في الارض ولأغوينهم أجمعين وانما علم تيسر ذلك المطلب له تلقيا من جهة الملائكة عليهم الصلاة والسلام أو استنباطا من قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء أو توهما من خلقه (الا قليلا) منهم وهم المخلصون الذين عصمهم الله تعالى (قال اذهب) أي امض النعت لشأنك الذي اخترته وهو طرد له وتخلية بينه وبين ما سولت له نفسه (فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم) أي جزاؤك وجزاؤهم فغلب المخاطب على الغائب رعاية لحق المتبوعية (جزاء موفورا) أي جزاء مكملا من قولهم فر لصاحبك عرضه فرة أي وفر وهو نصب على انه مصدر

لا يدعو الى النار البتة وانما جعلهم الله تعالى أئمة في هذا الباب لانهم بلغوا في هذا الباب أقصى النهايات ومن كان كذلك استحق أن يكون اماما يقتدى به في ذلك الباب ثم بين تعالى ان ذلك العقاب سينزل بهم على وجه لا يمكن التخلص منه وهو معنى قوله ويوم القيامة لا ينصرون أو يكون معناه ويوم القيامة لا ينصرون كما ينصر الائمة الدعاة الى الجنة أما قوله وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة معناه لعنة الله والملائكة لهم وأمره تعالى بذلك فيهم المؤمنين وبين أنهم يوم القيامة من المقبوحين أي المبعدين الملعونين والقبح هو الابعاد قال الليث يقال قبحه الله أي نحاه عن كل خير وقال ابن عباس رضي الله عنهما من المشوهين بسواد الوجه وزرقة العين وعلى الجملة فالاولون حملوا القبح على القبح الروحاني وهو الطرد والابعاد من رحمة الله تعالى والباقون حملوه على القبح في الصور وقيل فيه انه تعالى يقبح صورهم ويقبح عليهم عملهم ويجمع بين الفضيحتين ثم بين تعالى ان الذي يجب التمسك به ما جاء به موسى عليه السلام فقال ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى والكتاب هو التوراة ووصفه تعالى بأنه بصائر للناس من حيث يستبصر به في باب الدين وهدى من حيث يستدل به ومن حيث ان المتمسك به يفوز بطلبته من الثواب ووصفه بانه رحمة لانه من نعم الله تعالى على من تعبد به وروى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما أهلك الله تعالى قرنا من القرون بعذاب من السماء ولا من الارض منذ أنزل التوراة غير أهل القرية التي مسخها قردة أما قوله لعلهم يتذكرون فالمراد لكي يتذكروا قال القاضي وذلك يدل على ارادة التذكر من كل مكلف سواء اختار ذلك أو لم يختره ففيه ابطال مذهب المجبرة الذين يقولون ما أراد التذكر الا ممن يتذكر فأما من لا يتذكر فقد كره ذلك منه ونص القرآن دافع لهذا القول * قلنا أليس انكم حملتم قوله تعالى ولقد ذرأنا لجهنم على العاقبة فلم لا يجوز حمله ههنا على العاقبة فان عاقبة الكل حصول هذا التذكر له وذلك في الآخرة * قوله تعالى ﴿وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين﴾ اعلم أن في الآية سؤالات ﴿السؤال الاول﴾ الجانب موصوف والغربي صفة فكيف أضاف الموصوف الى الصفة (الجواب) هذه مسئلة خلافية بين النحويين فعند البصريين لا يجوز اضافة الموصوف الى الصفة الا بشرط خاص سنذكره وعند الكوفيين يجوز ذلك مطلقا حجة البصريين ان اضافة الموصوف الى الصفة تقتضي اضافة الشئ الى نفسه وهذا غير جائز فذاك أيضا غير جائز بيان الملازمة انك اذا قلت جاءني زيد الظريف فلفظ الظريف يدل على شئ معين في نفسه مجهول بحسب هذا اللفظ حصلت له الظرافة واذا نصصت على زيد عرفنا أن ذلك الشئ الذي حصلت له الظرافة هو زيد اذا ثبت هذا فلو أضفت زيدا الى الظريف كنت قد أضفت زيدا الى زيد واضافة الشئ الى نفسه غير جائزة فاضافة الموصوف الى صفته وجب أن لا تجوز الا أنه جاء على خلاف هذه القاعدة ألفاظ وهي قوله تعالى في هذه الآية وما كنت بجانب الغربي وقوله وذلك دين القيمة وقوله حق اليقين ولدار الآخرة ويقال صلاة الاولى ومسجد الجامع وبقلة الحمقاء فقالوا التأويل فيه جانب المكان الغربي ودين الملة القيمة وحق الشئ اليقين ودار الساعة الآخرة وصلاة الساعة الاولى ومسجد المكان الجامع وبقلة الحبة الحمقاء ثم قالوا في هذه المواضع المضاف اليه ليس هو النعت بل المنعوت الا أنه حذف المنعوت وأقيم النعت مقامه فههنا ينظران كان ذلك

النعت كالمتعين لذلك المنعوت حسن ذلك والا فلا ألا ترى انه ليس للشأن تقول عندى جيد على معنى عندى درهم جيد ويحوز مررت بالفقيه على معنى مررت بالرجل الفقيه لان الفقيه يعلم انه لا يكون الا من الناس والجيد قد يكون درهما وقد يكون غيره واذا كان كذلك حسن قوله جانب الغربى لان الشئ الموصوف بالغربى الذى يضاف اليه الجانب لا يكون الا مكانا أو ما يشبهه فلا جرم حسنت هذه الاضافة وكذا القول في البواقى والله أعلم ﴿السؤال الثانى﴾ ما معنى قوله اذ قضينا الى موسى الامر (الجواب) الجانب الغربى هو المكان الواقع فى شق الغرب وهو المكان الذى وقع فيه ميقات موسى عليه السلام من الطور وكتب الله له فى الالواح والامر المقضى الى موسى عليه السلام الوحى الذى أوحى اليه والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم يقول وما كنت حاضر المكان الذى أوحينا فيه الى موسى عليه السلام ولا كنت من جملة الشاهدين للوحى اليه أو على الوحى اليه وهى لان الشاهد لا بد وأن يكون حاضرا وهم نقباؤه الذين اختارهم للميقات ﴿السؤال الثالث﴾ لما قال وما كنت بجانب الغربى ثبت انه لم يكن شاهدا لان الشاهد لا بد أن يكون حاضرا فما الفائدة فى اعادة قوله وما كنت من الشاهدين (الجواب) قال ابن عباس رضى الله عنهما التقدير لم تحضر ذلك الموضع ولو حضرت فما شاهدت تلك الوقائع فانه يجوز أن يكون هناك ولا يشهد ولا يرى ﴿السؤال الرابع﴾ كيف يتصل قوله ولكنا أنشأنا قرونا بهذا الكلام ومن أى وجه يكون استدراكا له (الجواب) معنى الآية ولكنا أنشأنا بعد عهد موسى عليه السلام الى عهدك قرونا كثيرة فتطاول عليهم العمر وهو القرن الذى أنت فيه فاندرست العلوم فوجب ارسالك اليهم فأرسلناك وعرفناك أحوال الانبياء وأحوال موسى فالحاصل كأنه قال وما كنت شاهدا لموسى وما جرى عليه ولكنا أوحيناه اليك فذكر سبب الوحى الذى هو اطالة الفترة ودل به على المسبب فاذن هذا الاستدراك شبيه الاستدراكين بعده واعلم ان هذا تنبيه على المعجز كأنه قال ان فى اخبارك عن هذه الاشياء من غير حضور ولا مشاهدة ولا تعلم من أهله دلالة ظاهرة على نبوتك كما قال أولم تأتهم بينة ما فى الصحف الاولى ＊ أما قوله وما كنت ثاويا فى أهل مدين فالمعنى ما كنت مقيما فيه ＊ وأما قوله تتلو عليهم آياتنا ففيه وجهان (الاول) قال مقاتل يقول لم تشهد أهل مدين فتقرأ على أهل مكة خبرهم ولكنا كنا مرسلين أى أرسلناك الى أهل مكة وأنزلنا عليك هذه الاخبار ولولا ذلك لما علمتها (الثانى) قال الضحاك يقول انك يا محمد لم تكن الرسول الى أهل مدين تتلو عليهم الكتاب وانما كان غيرك ولكنا كنا مرسلين فى كل زمان رسولا فأرسلنا الى أهل مدين شعيبا وأرسلناك الى العرب لتكون خاتم الانبياء ＊ أما قوله وما كنت بجانب الطور اذ نادينا يريد مناداة موسى ليلة المناجاة وتكليمه ولكن رحمة من ربك أى علمناك رحمة وقرأ عيسى بن عمر بالرفع أى هى رحمة وذكر المفسرون فى قوله اذ نادينا وجوها أخر (أحدها) اذ نادينا أى قلنا لموسى ورحمتى وسعت كل شئ الى قوله أولئك هم المفلحون (وثانيها) قال ابن عباس اذ نادينا أمتك فى أصلاب آبائهم يا أمة محمد أجبتكم قبل أن تدعونى وأعطيتكم قبل أن تسألونى وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى قال وانما قال الله تعالى ذلك حين اختار موسى عليه السلام سبعين رجلا لميقات ربه (وثالثها) قال وهب لما ذكر الله لموسى فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال رب أرنيهم قال انك لن تدركهم وان شئت أسمعتك أصواتهم قال بلى يا رب فقال سبحانه يا أمة محمد فأجابوه من أصلاب آبائهم فأسمعه الله تعالى أصواتهم ثم قال أجبتكم قبل أن تدعونى الحديث كما ذكره ابن عباس (ورابعها) روى سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله وما كنت بجانب الطور اذ نادينا قال كتب الله كتابا قبل أن يخلق الخلق بألفى عام ثم وضعه على العرش ثم نادى يا أمة محمد

مؤكد لما فى قوله فان جهنم جزاؤكم من معنى تجازون أو للفعل المقدر أو حال موطئة لقوله موفورا (واستفزز) أى استخف (من استطعت منهم) أن تستفزه (بصوتك) بدعائك الى الفساد (وأجلب عليهم) أى صح عليهم من الجلبة وهى الصياح (بخيلك ورجلك) أى بأعوانك وأنصارك من راكب وراجل من أهل العيث والفساد قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وقتادة ان له خيلا ورجلا من الجن والانس فما كان من راكب يقاتل فى معصية الله تعالى فهو من خيل ابليس وما كان من راجل يقاتل فى معصية الله تعالى فهو من رجل ابليس والخيل الخيالة ومنه قوله عليه الصلاة والسلام يا خيل الله اركبى والرجل اسم جمع للراجل كالصحب والركب وقرئ بكسر الجيم وهى قراءة حفص على أنه فعل بمعنى فاعل كتعب وتاعب وبضمه مثل حدث وحدث وندس وندس ونظائرهما أى جمعك الراجل ليطابق الخيل وقرئ رجالك ورجالك ويجوز أن يكون استفزازه بصوته واجلابه بخيله ورجله تمثيلا لتسلطه على من يغويه فكأنه مغوار أوقع على قوم فصوت بهم صوتا يزعجهم من أماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم (وشاركهم فى الاموال) بحملهم على كسبها وجمعها من الحرام والتصرف فيها على ما لا ينبغى (والاولاد) بالحث على التوصل اليهم بالاسباب المحرمة والاشراك كتسميتهم بعبد العزى والتضليل بالحمل على الاديان الزائغة والحرف الذميمة والافعال القبيحة (وعدهم) المواعيد الباطلة كشفاعة الآلهة والاتكال على كرامة الآباء وتأخير التوبة بتطويل الامل (وما يعدهم الشيطان الا غرورا) اعتراض لبيان شأن مواعيده

والالتفات الى الغيبة لتقوية معنى الاعراض مع ما فيه من صرف الكلام عن خطابه وبيان شأنه للناس ومن الاشعار بعلية شيطنته للغرور وهو تزيين الخطأ بما يوهم أنه صواب (ان عبادى) الاضافة للتشريف وهم المخلصون وفيه أن من تبعه ليس منهم وأن الاضافة لثبوت الحكم فى قوله تعالى (ليس لك عليهم سلطان) أى تسلط وقدرة على اغوائهم كقوله تعالى انه ليس له سلطان على

ان رحمتى سبقت غضبى أعطيتكم قبل أن تسألونى وغفرت لكم قبل أن تستغفرونى من لقينى منكم يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله أدخلته الجنة أما قوله لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك فالانذار هو التخويف بالعقاب على المعصية (واعلم) أنه تعالى لما بين قصة موسى عليه السلام قال لرسوله وما كنت بجانب الغربى وما كنت ثاويا فى أهل مدين وما كنت بجانب الطور فجمع تعالى بين كل ذلك لان هذه الثلاثة هى الاحوال العظيمة التى اتفقت لموسى عليه السلام اذ المراد بقوله اذ قضينا الى موسى الامر انزال التوراة حتى تكامل دينه واستقر شرعه والمراد بقوله وما كنت ثاويا أول أمره والمراد بالنداء وسط أمره وهو ليلة المناجاة ولما بين تعالى أنه عليه السلام لم يكن فى هذه الاحوال حاضرا بين تعالى انه بعثه وعرفه هذه الاحوال رحمة للعالمين ثم فسر تلك الرحمة بأن قال لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك واختلفوا فيه فقال بعضهم لم يبعث اليهم نذير منهم وقال بعضهم حجة الانبياء كانت قائمة عليهم ولكنه ما بعث اليهم من يجدد تلك الحجة عليهم وقال بعضهم لا يبعد وقوع الفترة فى التكاليف فبعثه الله تعالى تقريرا للتكاليف وازالة لتلك الفترة أما قوله ولولا أن تصيبهم مصيبة الآية فقال صاحب الكشاف لولا الاولى امتناعية وجوابها محذوف والثانية تحضيضية والفاء فى قوله فيقولوا للعطف وفى قوله فنتبع جواب لولا لكونها فى حكم الامر من قبل أن الامر باعث على الفعل والباعث والمحضض من واد واحد والمعنى ولولا انهم قائلون اذا عوقبوا بما قدموا من الشرك والمعاصى هلا أرسلت الينا رسولا محتجين علينا بذلك لما أرسلنا اليهم يعنى انما أرسلنا الرسول ازالة لهذا العذر وهو كقوله لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك واعلم أنه تعالى لم يقل ولولا أن يقولوا هذا العذر لما أرسلنا بل قال ولولا أن تصيبهم مصيبة فيقولوا هذا العذر لما أرسلنا وانما قال ذلك لنكتة وهى أنهم لو لم يعاقبوا مثلا وقد عرفوا بطلان دينهم لما قالوا ذلك بل انما يقولون ذلك اذا نالهم العقاب فيدل ذلك على انهم لم يذكروا هذا العذر تأسفا على كفرهم بل لانهم ما أطاقوا العذاب وفيه تنبيه على استحكام كفرهم ورسوخه فيهم كقوله ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) احتج الجبائى على وجوب فعل اللطف قال لو لم يجب ذلك لم يكن لهم أن يقولوا هلا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك اذ من الجائز أن لا يبعث اليهم وان كانوا لا يختارون الايمان الا عنده على قول من خالف فى وجوب اللطف كما أن من الجائز اذا كان فى المعلوم لو خلق لهم لم يمكن الا أن يفعل ذلك (المسئلة الثانية) احتج الكعبى به على أن الله تعالى يقبل حجة العباد وليس الامر كما يقوله أهل السنة من أنه تعالى لا يقبل الحجة وظهر بهذا أنه ليس المراد من قوله لا يسئل عما يفعل ما ظنه أهل السنة واذا ثبت أنه يقبل الحجة وجب أن لا يكون فعل العبد بخلق الله تعالى والا لكان للكافر أعظم حجة على الله تعالى (المسئلة الثالثة) قال القاضى فيه ابطال القول بالجبر من جهات (احداها) أن اتباعهم وايمانهم موقوف على أن يخلق الله تعالى ذلك فيهم سواء أرسل الرسول اليهم أم لا (وثانيتها) أنه اذا خلق القدرة على ذلك فيهم وجب سواء أرسل الرسول أم لا (وثالثتها) اذا أراد ذلك وجب أرسل الرسول اليهم أم لا فأى فائدة فى قولهم هذا لو كانت أفعالهم خلقا لله تعالى فيقال للقاضى هب أنك نازعت فى الخلق والارادة ولكنك وافقت فى العلم فاذا علم الكفر منهم فهل يجب أم لا فان لم يجب أمكن أن لا يوجد الكفر مع حصول العلم بالكفر وذلك جمع بين الضدين وان وجب لزمك ما أوردته علينا واعلم أن الكلام وان كان قويا حسنا الا أنه اذا توجه عليه النقض الذى لا محيص عنه فكيف يرضى العاقل بأن يعول عليه ﴿قوله تعالى﴾ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أولم

الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (وكفى بربك وكيلا) لهم يتوكلون عليه ويستمدون به فى الخلاص عن اغوائك والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن المالكية المطلقة والتصرف الكلى مع الاضافة الى ضمير ابليس للاشعار بكيفية كفايته تعالى لهم أعنى سلب قدرته على اغوائهم (ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر) مبتدأ وخبر والازجاء السوق حالا بعد حال أى هو القادر الحكيم الذى يسوق لمنافعكم الفلك ويجريها فى البحر (لتبتغوا من فضله) من رزقه الذى هو فضل من قبله أو من الربح الذى هو معطيه ومن مزيدة أو تبعيضية وهذا تذكير لبعض النعم التى هى دلائل التوحيد وتمهيد لذكر توحيدهم عند مساس الضر تكملة لما مر من قوله تعالى فلا يملكون الآية (انه كان بكم) أزلا وأبدا (رحيما) حيث هيأ لكم ما تحتاجون اليه وسهل عليكم ما يعسر من مباديه وهذا تذييل فيه تعليل لما سبق من الازجاء لابتغاء الفضل وصيغة الرحيم للدلالة على أن المراد بالرحمة الرحمة الدنيوية والنعمة العاجلة المنقسمة الى الجليلة والحقيرة (واذا مسكم الضر فى البحر) خوف الغرق فيه (ضل من تدعون) أى ذهب عن خواطركم ما كنتم تدعون من دون الله من الملائكة أو المسيح أو غيرهم (الا اياه) وحده من غير أن يخطر ببالكم

يكفروا

أحدهم وتدعوه لكشفه استقلالا أو اشتراكا أي ضل كل من تدعونه عن اغاثتكم وانقاذكم ولم يقدر على ذلك الا الله على الاستثناء المنقطع (فلما نجاكم) من الغرق وأوصلكم (الى البر أعرضتم) عن التوحيد أو اتسعتم في كفران النعمة (وكان الانسان كفورا) تعليل لما سبق من الاعراض (أفأمنتم) الهمزة للانكار والفاء للعطف على محذوف تقديره أنجوتم فأمنتم (أن يخسف بكم جانب البر) الذي هو مأمنكم أي يقلبه ملتبسا بكم أو بسبب كونكم فيه وفي زيادة الجانب تنبيه على تساوي الجوانب والجهات بالنسبة الى قدرته سبحانه وتعالى وقهره وسلطانه وقرئ بنون العظمة (أو يرسل عليكم) من فوقكم وقرئ بالنون (حاصبا) ريحا ترمي بالحصباء (ثم لا تجدوا لكم وكيلا) يحفظكم من ذلك أو يصرفه عنكم فانه لا راد لامره الغالب (أم أمنتم أن يعيدكم فيه) في البحر أوثرت كلمة في على كلمة الى المنبئة عن مجرد الانتهاء للدلالة على استقرارهم فيه (تارة أخرى) اسناد الاعادة اليه تعالى مع أن العود اليه باختيارهم باعتبار خلق الدواعي الملجئة لهم الى ذلك وفيه ايماء الى كمال شدة هول ما لاقوه في التارة الاولى بحيث لولا الاعادة لما عادوا (فيرسل عليكم) وأنتم في البحر وقرئ بالنون (قاصفا من الريح) وهي التي لا تمر بشئ الا كسرته وجعلته كالرميم أو التي لها قصيف وهو الصوت الشديد كأنها تتقصف أي تتكسر (فيغرقكم) بعد كسر فلككم كما ينبئ عنه عنوان القصف وقرئ بالنون وبالتاء على الاسناد الى ضمير الريح (بما كفرتم) بسبب اشراككم أو كفرانكم لنعمة الانجاء (ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا) أي ثائرا يطالبنا بما فعلنا انتصارا منا ودركا للثأر من جهتنا كقوله سبحانه ولا يخاف عقباها (ولقد كرمنا بني آدم) قاطبة تكريما شاملا لبرهم

يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا ساحران تظاهرا وقالوا انا بكل كافرون قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه ان كنتم صادقين فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم عند الخوف قالوا هلا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك بين أيضا أنه بعد الارسال الى أهل مكة قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى فهؤلاء قبل البعثة يتعلقون بشبهة وبعد البعثة يتعلقون بأخرى فظهر أنه لا مقصود لهم سوى الزيغ والعناد، أما قوله فلما جاءهم الحق من عندنا أي جاءهم الرسول المصدق بالكتاب المعجز مع سائر المعجزات قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى من الكتاب المنزل جملة واحدة ومن سائر المعجزات كقلب العصا حية واليد البيضاء وفلق البحر وتظليل الغمام وانفجار الحجر بالماء والمن والسلوى ومن ان الله كلمه وكتب له في الالواح وغيرها من الآيات فجاؤا بالاقتراحات المبنية على التعنت والعناد كما قالوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك وما أشبه ذلك واعلم أن الذي اقترحوه غير لازم لانه لا يجب في معجزات الانبياء عليهم السلام أن تكون واحدة ولا فيما ينزل اليهم من الكتب أن يكون على وجه واحد اذ الصلاح قد يكون في انزاله مجموعا كالتوراة ومفرقا كالقرآن ثم ان تعالى أجاب عن هذه الشبهة بقوله أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل واختلفوا في أن الضمير في قوله أولم يكفروا الى من يعود ذكروا وجوها (أحدها) أن اليهود أمروا قريشا أن يسألوا محمدا أن يؤتى مثل ما أوتي موسى عليه السلام فقال تعالى أولم يكفروا بما أوتي موسى يعني أولم تكفروا يا هؤلاء اليهود الذين استخرجوا هذا السؤال بموسى عليه السلام مع تلك الآيات الباهرة (وثانيها) ان الذين أوردوا هذا الاقتراح كفار مكة والذين كفروا بموسى هم الذين كانوا في زمان موسى عليه السلام الا أنه تعالى جعلهم كالشئ الواحد لانهم في الكفر والتعنت كالشئ الواحد (وثالثها) قال الكلبي ان مشركي مكة بعثوا رهطا الى يهود المدينة ليسألوهم عن محمد وشأنه فقالوا انا نجده في التوراة بنعته وصفته فلما رجع الرهط اليهم وأخبروهم بقول اليهود قالوا انه كان ساحرا كما ان محمدا ساحر فقال تعالى في حقهم أولم يكفروا بما أوتي موسى (ورابعها) قال الحسن قد كان للعرب أصل في أيام موسى عليه السلام فمعناه على هذا أولم يكفر آباؤهم بأن قالوا في موسى وهرون ساحران (وخامسها) قال قتادة أولم يكفر اليهود في عصر محمد بما أوتي موسى من قبل من البشارة بعيسى ومحمد عليهما السلام فقالوا ساحران (وسادسها) وهو الاظهر عندي أن كفار قريش ومكة كانوا منكرين لجميع النبوات ثم انهم لما طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم معجزات موسى عليه السلام قال الله تعالى أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل بل بما أوتي جميع الانبياء من قبل فعلمنا أنه لا غرض لهم من هذا الاقتراح الا التعنت ثم انه تعالى حكى كيفية كفرهم بما أوتي موسى من وجهين (الاول) قولهم ساحران تظاهرا قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأهل المدينة ساحران بالالف وقرأ أهل الكوفة بغير ألف وذكروا في تفسير الساحرين وجوها (أحدها) المراد هرون وموسى عليهما السلام تظاهرا أي تعاونا وقرئ اظاهرا على الادغام وسحران بمعنى ذوي سحر وجعلوهما سحرين مبالغة في وصفهما بالسحر وكثير من المفسرين فسروا قوله سحران بأن المراد هو القرآن والتوراة واختار أبو عبيدة القراءة بالالف لان المظاهرة بالناس وأفعالهم أشبه منها بالكتب * وجوابه انا بينا أن قوله سحران

وفاجرهم أى كرمناهم بالصورة والقامة المعتدلة والتسلط على ما فى الارض والتمتع به والتمكن من الصناعات وغير ذلك مما لا يكاد يحيط به نطاق العبارة ومن جملته ما ذكره ابن عباس رضى الله عنهما من ان كل حيوان يتناول طعامه بفيه الا الانسان فانه يرفعه اليه بيده وما قيل من شركة القرد له فى ذلك مبنى على عدم الفرق بين اليد والرجل فانه متناول له برجله التى يطأ بها القاذورات لا بيده (وحملناهم فى البر والبحر) على الدواب والسفن من حملته اذا حملت له ما يركبه وليس من المخلوقات شئ كذلك وقيل حملناهم فيهما حيث لم نخسف بهم الارض ولم نغرقهم بالماء وانت خبير بأن الاول هو الانسب بالتكريم اذ جميع الحيوانات كذلك (ورزقناهم من الطيبات) أى فنون النعم وضروب المستلذات مما يحصل بصنعهم وبغير صنعهم (وفضلناهم) فى العلوم والادراكات بما ركبنا فيهم من القوى المدركة التى بها يتميز الحق من الباطل والحسن من القبيح (على كثير ممن خلقنا) وهم من عدا الملائكة عليهم الصلاة والسلام (تفضيلا) عظيما فحق عليهم أن يشكروا هذه النعم ولا يكفروها ويستعملوا قواهم فى تحصيل العقائد الحقة ويرفضوا ما هم عليه من الشرك الذى لا يقبله أحد ممن له أدنى تمييز فضلا عمن فضل على من عدا الملأ الاعلى الذين هم العقول المحضة وانما استثنى جنس الملائكة من هذا التفضيل لان علومهم دائمة عارية عن الخطا والخلل وليس فيه دلالة على أفضليتهم بالمعنى المتنازع فيه فان المراد ههنا بيان التفضيل فى أمر مشترك بين جميع أفراد البشر صالحها وطالحها ولا يمكن أن يكون ذلك هو الفضل فى عظم الدرجة وزيادة القربة عند الله سبحانه فان قيل أى حاجة الى تعيين ما فيه التفضيل بعد بيان ما هو

يمكن حمله على الرجلين وبتقدير أن يكون المراد الكتابين لكن لما كان كل واحد من الكتابين يقوى الآخر لم يبعد أن يقال على سبيل المجاز تعاونا كما تقول تظاهرت الاخبار وهذه التأويلات انما تصح اذا حملنا قوله أولم يكفروا بما أوتى موسى اما على كفار مكة أو على الكفار الذين كانوا فى زمان موسى عليه السلام ولا شك أن ذلك أليق بسياق الآية (الثانى) قولهم انا بكل كافرون أى بما أنزل على محمد وموسى وسائر الانبياء عليهم السلام ومعلوم أن هذا الكلام لا يليق الا بالمشركين لا باليهود وذلك مبالغة فى أنهم مع كثرة آيات موسى عليه السلام كذبوه فالذى يمنع من مثله فى محمد صلى الله عليه وسلم وان ظهرت حجته ولما أجاب الله تعالى عن شبههم ذكر الحجة الدالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم فقال قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعه وهذا تنبيه على عجزهم عن الاتيان بمثله قال الزجاج اتبعه بالجزم على الشرط ومن قرأ اتبعه بالرفع فالتقدير أنا اتبعه ثم قال فان لم يستجيبوا لك قال ابن عباس يريد فان لم يؤمنوا بما جئت به من الحجج وقال مقاتل فان لم يمكنهم أن يأتوا بكتاب أفضل منهما وهذا أشبه بالآية فان قيل الاستجابة تقتضى دعاء فأين الدعاء ههنا قلنا قوله فأتوا بكتاب أمر والامر دعاء الى الفعل ثم قال فاعلم انما يتبعون أهواءهم يعنى قد صاروا ملزمين ولم يبق لهم شئ الا اتباع الهوى ثم زيف طريقتهم بقوله ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد وأنه لابد من الحجة والاستدلال ان الله لا يهدى القوم الظالمين وهو عام يتناول الكافر لقوله ان الشرك لظلم عظيم واحتج الاصحاب به فى أن هداية الله تعالى خاصة بالمؤمنين وقالت المعتزلة الالطاف منها ما يحسن فعلها مطلقا ومنها ما لا يحسن الا بعد الايمان والدليل عليه قوله والذين اهتدوا زادهم هدى فقوله ان الله لا يهدى القوم الظالمين محمول على القسم الثانى ولا يجوز حمله على القسم الاول لانه تعالى لما بين فى الآية المتقدمة أن عدم بعثة الرسول جار مجرى العذر لهم فبأن يكون عدم الهداية عذرا لهم أولى ولما بين تعالى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الدلالة قال ولقد وصلنا لهم القول وتوصيل القول هو اتيان بيان بعد بيان وهو من وصل البعض بالبعض وهذا القول الموصل يحتمل أن يكون المراد منه انا أنزلنا القرآن منجما مفرقا يتصل بعضه ببعض ليكون ذلك أقرب الى التذكير والتنبيه فانهم كل يوم يطلعون على حكمة أخرى وفائدة زائدة فيكونون عند ذلك أقرب الى التذكر وعلى هذا التقدير يكون هذا جوابا عن قولهم هلا أوتى محمد كتابه دفعة واحدة كما أوتى موسى كتابه كذلك ويحتمل أن يكون المراد وصلنا أخبار الانبياء بعضها ببعض وأخبار الكفار فى كيفية هلاكهم تكثيرا لمواضع الاتعاظ والانزجار ويحتمل أن يكون المراد بينا الدلالة على كون هذا القرآن معجزا مرة بعد أخرى لعلهم يتذكرون ثم انه تعالى لما أقام الدلالة على النبوة أكد ذلك بأن قال الذين آتيناهم الكتاب من قبله أى من قبل القرآن أسلموا بمحمد فمن لا يعرف الكتب أولى بذلك واختلفوا فى المراد بقوله الذين آتيناهم الكتاب وذكروا فيه وجوها (أحدها) قال قتادة انها نزلت فى أناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة حقة يتمسكون بها فلما بعث الله تعالى محمدا آمنوا به من جملتهم سلمان وعبد الله بن سلام (وثانيها) قال مقاتل نزلت فى أربعين رجلا من أهل الانجيل وهم أصحاب السفينة جاؤا من الحبشة مع جعفر (وثالثها) قال رفاعة بن قرظة نزلت فى عشرة أنا أحدهم وقد عرفت أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فكل من حصل فى حقه تلك الصفة كان داخلا فى الآية ثم حكى عنهم ما يدل على تأكيد ايمانهم وهو قولهم آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين فقوله انه الحق من ربنا يدل على التعليل يعنى أن كونه حقا من عند الله يوجب الايمان به وقوله انا كنا من قبله مسلمين بيان لقوله آمنا به لانه يحتمل أن يكون ايمانا قريب

المراد بالمفضلين فان استثناء الملائكة عليهم الصلاة والسلام من تفضيل جميع أفراد البشر عليهم لا يستلزم استثناءهم من تفضيل بعض أفراده عليهم * قلنا لا بد من تعيينه البتة اذ ليس من الافراد الفاجرة للبشر أحد يفضل على أحد من المخلوقات فيما هو المتنازع فيه أصلا بل هم أدنى من كل دنىء حسبما ينبئ عنه قوله تعالى أولئك كالانعام بل هم أضل وقوله تعالى ان شر الدواب عند الله الذين كفروا (يوم ندعو) نصب على المفعولية باضمار اذكر أو ظرف لما دل عليه قوله تعالى ولا يظلمون وقرئ بالياء على البناء للفاعل وللمفعول ويدعو بقلب الالف واوا على لغة من يقول في أفعى أفعو وقد يجوز كون الواو علامة الجمع كما في قوله تعالى وأسروا النجوى أو ضميره وكل بدلا منه والنون محذوفة لقلة المبالاة بها فانها ليست الا علامة الرفع وقد يكتفى بتقديره كما في يدعى (كل أناس) من بني آدم الذين فعلنا بهم في الدنيا ما فعلنا من التكريم والتفضيل وهذا شروع في بيان تفاوت أحوالهم في الآخرة بحسب أحوالهم وأعمالهم في الدنيا (بامامهم) أى بمن ائتموا به من نبي أو مقدم في الدين أو كتاب أو دين وقيل بكتاب أعمالهم التي قدموها فيقال يا أصحاب كتاب الخير يا أصحاب كتاب الشر أو يا أهل دين كذا يا أهل كتاب كذا وقيل الامام جمع أم كخف وخفاف والحكمة في دعوتهم بأمهاتهم اجلال عيسى عليه السلام وتشريف الحسنين رضي الله عنهما والستر على أولاد الزنا (فمن أوتي) يومئذ من أولئك المدعوين (كتابه) صحيفة أعماله (بيمينه) ابانة لخطر الكتاب المؤتى وتشريفا لصاحبه وتبشيرا له من أول الامر بما في مطاويه (فأولئك) اشارة الى من باعتبار معناه ايذانا بأنهم حزب مجتمعون على شأن جليل أو اشعارا بأن قراءتهم لكتبهم تكون

المهدو بعيد فاخبر وا أن ايمانهم به متقادم وذلك لما وجدوه في كتب الانبياء عليهم السلام المتقدمين من البشارة بمقدمه ثم انه تعالى لما مدحهم بهذا المدح العظيم قال أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا وذكروا فيه وجوها (أحدها) انهم يؤتون أجرهم مرتين بايمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل بعثته وبعد بعثته وهذا هو الاقرب لانه تعالى لما بين انهم آمنوا به بعد البعثة وبين أيضا انهم كانوا مؤمنين به قبل البعثة ثم أثبت الاجر مرتين وجب أن ينصرف الى ذلك (وثانيها) يؤتون الاجر مرتين مرة بايمانهم بالانبياء الذين كانوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم ومرة أخرى بايمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم (وثالثها) قال مقاتل هؤلاء لما آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم شتمهم المشركون فصفحوا عنهم فلهم أجران أجر على الصفح وأجر على الايمان يروى انهم لما أسلموا لعنهم أبو جهل فسكتوا عنه قال السدي اليهود عابوا عبد الله بن سلام وشتموه وهو يقول سلام عليكم ثم قال ويدرؤن بالحسنة السيئة والمعنى بالطاعة المعصية المتقدمة ويحتمل أن يكون المراد دفعوا بالعفو والصفح الاذى ويحتمل أن يكون المراد من الحسنة امتناعهم من المعاصي لان نفس الامتناع حسنة ويدفع به ما لولاه لكان سيئة ويحتمل التوبة والانابة والاستمرار عليها ثم قال ومما رزقناهم ينفقون واعلم أنه تعالى مدحهم أولا بالايمان ثم بالطاعات البدنية في قوله ويدرؤن بالحسنة السيئة ثم بالطاعات المالية في قوله ومما رزقناهم ينفقون (قال) القاضي دل هذا المدح على أن الحرام لا يكون رزقا جوابه ان كلمة من للتبعيض فدل على انهم استحقوا المدح بانفاق بعض ما كان رزقا وعلى هذا التقدير يسقط استدلاله ثم لما بين كيفية اشتغالهم بالطاعات والافعال الحسنة بين كيفية اعراضهم عن الجهال فقال واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه واللغو ما حقه أن يلغى ويترك من العبث وغيره وكانوا يسمعون ذلك فلا يخوضون فيه بل يعرضون عنه اعراضا جميلا فلذلك قال تعالى وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم وما أحسن ما قال الحسن رحمه الله في أن هذه الكلمة تحية بين المؤمنين وعلامة الاحتمال من الجاهلين ونظير هذه الآية قوله تعالى وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ثم أكد تعالى ذلك بقوله حاكيا عنهم لا نبتغي الجاهلين والمراد لا نجازيهم بالباطل على باطلهم قال قوم نسخ ذلك بالامر بالقتال وهو بعيد لان ترك المسافهة مندوب وان كان القتال واجبا ﴿قوله تعالى ﴿انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شئ رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ اعلم أن في قوله تعالى انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ هذه الآية لا دلالة في ظاهرها على كفر أبي طالب ثم قال الزجاج أجمع المسلمون على انها نزلت في أبي طالب وذلك أن أبا طالب قال عند موته يا معشر بني عبد مناف أطيعوا محمدا وصدقوه تفلحوا وترشدوا فقال عليه السلام يا عم تأمرهم بالنصح لانفسهم وتدعها لنفسك قال فما تريد يا ابن أخي قال أريد منك كلمة واحدة فانك في آخر يوم من أيام الدنيا أن تقول لا اله الا الله أشهد لك بها عند الله تعالى قال يا ابن أخي قد علمت انك صادق ولكني أكره أن يقال خرع عند الموت ولولا أن يكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة ومسبة بعدي لقلتها ولاقررت بها عينك عند الفراق لما أرى من شدة وجدك ونصحك ولكني سوف أموت على ملة الاشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف ﴿المسئلة الثانية﴾ انه تعالى قال في هذه الآية انك لا تهدي من أحببت وقال في آية أخرى وانك لتهدي الى صراط مستقيم ولا تنافي بينهما فان الذي أثبته وأضافه اليه الدعوة والبيان والذي نفى عنه هداية التوفيق وشرح الصدور وهو نور يقذف في القلب فيحيا به القلب كما قال

على وجه الاجتماع لا على وجه الانفراد كما في حال الايتاء وما فيه من الدلالة على البعد للاشعار برفعة درجاتهم أى أولئك المختصون بتلك الكرامة التى يشعر بها الايتاء المزبور (يقرؤن كتابهم) الذى أوتوه على الوجه المبين تبجحا بما سطر فيه من الحسنات المستتبعة لفنون الكرامات (ولا يظلمون) ٤٨٦ أى لا ينقصون من أجور أعمالهم المرتسمة فى كتبهم بل يؤتونها مضاعفة (فتيلا) أى قدر فتيل وهو القشرة التى فى شق النواة أو أدنى شئ فان الفتيل مثل فى القلة والحقارة (ومن كان) من المدعوين المذكورين (فى هذه) الدنيا التى فعل بهم فيها ما فعل من فنون التكريم والتفضيل (أعمى) فاقد البصيرة لا يهتدى الى رشده ولا يعرف ما أوليناه من نعمة التكرمة والتفضيل فضلا عن شكرها والقيام بحقوقها ولا يستعمل ما أودعناه فيه من العقول والقوى فيما خلقن له من العلوم والمعارف الحقة (فهو فى الآخرة) التى عبر عنها بيوم ندعو (أعمى) كذلك أى لا يهتدى الى ما ينجيه ولا يظفر بما يجديه لان العمى الاول موجب للثانى وقد يجوز كون الثانى بمعنى التفضيل على أن عماه فى الآخرة أشد من عماه فى الدنيا ولذلك قرأ أبو عمرو الاول ممالا والثانى مفخما (وأضل سبيلا) أى من الاعمى لزوال الاستعداد الممكن وتعطل الآلات بالكلية وهذا بعينه هو الذى أوتى كتابه بشماله بدلالة حال ما سبق من الفريق المقابل له ولعل العدول عن ذكره بذلك العنوان مع انه الذى يستدعيه حسن المقابلة حسبما هو الواقع فى سورة الحاقة وسورة الانشقاق للايذان بالعلة الموجبة له كما فى قوله تعالى وأما ان كان من المكذبين الضالين بعد قوله تعالى فاما ان كان من أصحاب اليمين والرمز الى علة حال الفريق الاول وقد ذكر فى أحد

يتوصل

سبحانه أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا الآية (المسئلة الثالثة) احتج الاصحاب بهذه الآية فى مسئلة الهدى والضلال فقالوا قوله انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء يقتضى أن تكون الهداية فى الموضعين بمعنى واحد لانه لو كان المراد من الهداية فى قوله انك لا تهدى شيأ وفى قوله ولكن الله يهدى من يشاء شيأ آخر لاختل النظم ثم اما أن يكون المراد من الهداية بيان الدلالة أو الدعوة الى الجنة أو تعريف طريق الجنة أو خلق المعرفة فى القلوب على سبيل الالجاء أو خلق المعرفة فى القلوب لا على سبيل الالجاء لا جائز أن يكون المراد بيان الادلة لانه عليه السلام هدى الكل بهذا المعنى فهى غير الهداية التى نفى الله عمومها وكذا القول فى الهداية بمعنى الدعوة الى الجنة وأما الهداية بمعنى تعريف طريق الجنة فهى أيضا غير مرادة من الآية لانه تعالى علق هذه الهداية على المشيئة وتعريف طريق الجنة غير معلق على المشيئة لانه واجب على الله تعالى والواجب لا يكون معلقا على المشيئة فمن وجب عليه أداء عشرة دنانير لا يجوز أن يقول انى أعطى عشرة دنانير ان شئت وأما الهداية بمعنى الالجاء والقسر فغير جائز لان ذلك عندهم قبيح من الله تعالى فى حق المكلف وفعل القبيح مستلزم للجهل أو الحاجة وهما محالان ومستلزم المحال محال فذلك محال من الله تعالى والمحال لا يجوز تعليقه على المشيئة ولما بطلت الاقسام لم يبق الا أن المراد انه تعالى يخص البعض بخلق الهداية والمعرفة ويمنع البعض منها ولا يسئل عما يفعل ومتى أوردت الكلام على هذا الوجه سقط كل ما أورده القاضى عذرا عن ذلك أما قوله وهو أعلم بالمهتدين فالمعنى انه المختص بعلم الغيب فيعلم من يهتدى بعد ومن لا يهتدى ثم انه سبحانه بعد ان ذكر شبههم وأجاب عنها بالاجوبة الواضحة وبين أن وضوح الدلائل لا يكفى ما لم ينضم اليه هداية الله تعالى حكى عنهم شبهة أخرى متعلقة بأحوال الدنيا وهى قولهم ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا قال المبرد الخطف الانتزاع بسرعة روى أن الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انا لنعلم أن الذى تقوله حق ولكن يمنعنا من ذلك تخطف العرب ايانا من أرضنا أى يجتمعون على محاربتنا ويخرجوننا من أرضنا فأجاب الله سبحانه وتعالى عنها من وجوه ثلاثة (الاول) قوله أولم نمكن لهم حرما آمنا أى أعطيناكم مسكنا لا خوف لكم فيه اما لان العرب كانوا يحترمون الحرم وما كانوا يتعرضون البتة لسكانه فانه يروى ان العرب خارج الحرم كانوا مشتغلين بالنهب والغارة وما كانوا يتعرضون البتة لسكان الحرم أو لقوله تعالى ومن دخله كان آمنا أما قوله يجبى اليه ثمرات كل شئ فهو تعالى كما بين كون ذلك الموضع خاليا عن المخاوف والآفات بين كثرة النعم فيه ومعنى يجبى يجمع من قولهم جبيت الماء فى الحوض اذا جمعته قرأ أهل المدينة تجبى بالتاء وأهل الكوفة وأبو عمرو بالياء وذلك أن تأنيث الثمرات تأنيث جمع وليس بتأنيث حقيقى فيجوز تأنيثه على اللفظ وتذكيره على المعنى ومعنى الكلية الكثرة كقوله وأوتيت من كل شئ وحاصل الجواب أنه تعالى لما جعل الحرم آمنا وأكثر فيه الرزق حال كونهم معرضين عن عبادة الله تعالى مقبلين على عبادة الاوثان فلو آمنوا لكان بقاء هذه الحالة أولى قال القاضى ولو أن الرسول قال لهم ان الذى ذكرتم من التخطف لو كان حقا لم يكن عذرا لكم فى أن لا تؤمنوا وقد ظهرت الحجة لانقطعوا أو قال لهم ان تخطفوهم لكم بالقتل وغيره وقد آمنتم كالشهادة لكم فهو نفع عائد عليكم لانقطعوا أيضا ولو قال لهم ما قدر مضرة التخطف فى جنب العقاب الدائم الذى أخوفكم منه ان بقيتم على كفركم لانقطعوا ولكنه تعالى احتج بما هو أقوى من حيث بين كذبهم فى انهم يتخطفون من حيث عرفوا من حال البقعة بالعادة ان ذلك لا يجرى ان آمنوا ومثل ذلك اذا أمكن بيانه للخصم فهو أولى من سائر ما ذكرنا فلذلك قدمه الله تعالى والآية دالة على صحة الحجاج الذى

يتوصل به الى ازالة الشبهة المبطلين بقي ههنا بحثان (الاول) قال صاحب الكشاف في انتصاب رزقا ان
جعلته مصدرا جاز أن ينتصب بمعنى ما قبله لان معنى يجبى اليه ثمرات كل شيء ويرزق ثمرات كل شيء واحد
وأن يكون مفعولا له وان جعلته بمعنى مرزوق كان حالا من الثمرات لتخصصها بالاضافة كما ينتصب عن
النكرة المتخصصة بالصفة (الثاني) احتج الاصحاب بقوله رزقا من لدنا في أن فعل العبد خلق الله تعالى
وبيانه أن تلك الارزاق انما كانت تصل اليهم لان الناس كانوا يحملونها اليهم فلو لم يكن فعل العبد خلقا لله
تعالى لما صحت تلك الاضافة فان قيل سبب تلك الاضافة أنه تعالى هو الذي ألقى تلك الدواعي في قلوب من
ذهب بتلك الارزاق اليهم قلنا تلك الدواعي ان اقتضت الرجحان فقد بينا في غير موضع انه متى حصل
الرجحان فقد حصل الوجوب وحينئذ يحصل المقصود وان لم يحصل الرجحان انقطعت الاضافة بالكلية
واعلم أنه تعالى انما بين أن تلك الارزاق ما وصلت اليهم الا من الله تعالى لاجل انهم متى علموا ذلك صاروا
بحيث لا يخافون أحدا سوى الله تعالى ولا يرجون أحدا غير الله تعالى فيبقى نظرهم منقطعا عن الخلق
متعلقا بالخالق وذلك يوجب كمال الايمان والاعراض بالكلية عن غير الله تعالى والاقبال بالكلية على
طاعة الله تعالى * قوله تعالى ﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم
الا قليلا وكنا نحن الوارثين وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا
مهلكي القرى الا وأهلها ظالمون﴾ اعلم أن هذا هو الجواب الثاني عن تلك الشبهة وذلك لانه تعالى لما بين
لاهل مكة ما خصهم به من النعم أتبعه بما أنزله الله تعالى بالامم الماضية الذين كانوا في نعم الدنيا فلما كذبوا
الرسل أزال الله عنهم تلك النعم والمقصود أن الكفار لما قالوا انا لا نؤمن خوفا من زوال نعمة الدنيا فالله تعالى
بين لهم أن الاصرار على عدم قبول الايمان هو الذي يزيل هذه النعم لا الاقدام على الايمان قال صاحب
الكشاف البطر سوء احتمال الغنى وهو أن لا يحفظ حق الله تعالى فيه وانتصبت معيشتها اما بحذف الجار
وايصال الفعل كقوله واختار موسى قومه أو بتقدير حذف الزمان المضاف وأصله بطرت أيام معيشتها واما
تضمين بطرت معنى كفرت فأما قوله فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا ففي هذا الاستثناء وجوه
(أحدها) قال ابن عباس رضي الله عنهما لم يسكنها الا المسافر ومار الطريق يوما أو ساعة (وثانيها) يحتمل ان
شؤم معاصي المهلكين بقي أثره في ديارهم فكل من سكنها من أعقابهم لم يبق فيها الا قليلا وكنا نحن
الوارثين لها بعد هلاك أهلها واذا لم يبق للشيء مالك معين قيل انه ميراث الله لانه الباقي بعد فناء خلقه ثم انه
سبحانه لما ذكر انه أهلك تلك القرى بسبب بطر أهلها فكأن سائلا أورد السؤال من وجهين (الاول) لماذا
ما أهلك الله الكفار قبل محمد صلى الله عليه وسلم مع انهم كانوا مستغرقين في الكفر والعناد (الثاني) لماذا
ما أهلكهم بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم مع تمادي القوم في الكفر بالله تعالى والتكذيب بمحمد صلى
الله عليه وسلم * فأجاب عن السؤال الاول بقوله وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو
عليهم آياتنا وحاصل الجواب انه تعالى قدم بيان ان عدم البعثة يجري مجرى العذر للقوم فوجب أن لا يجوز
اهلاكهم الا بعد البعثة ثم ذكر المفسرون وجهين (أحدهما) وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها
رسولا أي في القرية التي هي أمها وأصلها وقصبتها التي هي أعمالها وتوابعها رسولا لالزام الحجة وقطع
المعذرة (الثاني) وما كان ربك مهلك القرى التي في الارض حتى يبعث في أم القرى يعني مكة رسولا وهو
محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء ومعنى يتلو عليهم آياتنا يؤدي ويبلغ * وأجاب عن السؤال الثاني بقوله
وما كنا مهلكي القرى الا وأهلها ظالمون أنفسهم بالشرك وأهل مكة ليسوا كذلك فان بعضهم قد آمن

الجانبين المسبب وفي الآخر السبب ودل بالمذكور في كل منهما على المتروك في الآخر تعويلا على شهادة العقل كما في قوله عز وعلا وان
يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله (وان كادوا ليفتنونك) نزلت في ثقيف اذ قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم
لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خصالا نفتخر بها على العرب لا نعشر ولا نحشر ولا نجبي في صلاتنا وكل ربا لنا فهو لنا وكل ربا
علينا فهو موضوع عنا
وأن تمتعنا باللات سنة
وأن تحرم وادينا كما
حرمت مكة فاذا قالت
العرب لم فعلت فقل
ان الله أمرني بذلك وقيل
في قريش حيث قالوا
اجعل لنا آية عذاب آية
رحمة وآية رحمة آية عذاب
أو قالوا لا نمكنك من
استلام الحجر حتى تلم
بآلهتنا فان مخففة من
المثقلة وضمير الشأن
الذي هو اسمها محذوف
واللام هي الفارقة بينها
وبين النافية أي ان
الشأن قاربوا أن يفتنوك
أي يخدعوك فاتنين
(عن الذي أوحينا اليك)
من أوامرنا ونواهينا
ووعدنا ووعيدنا (لتفتري
علينا غيره) لتقول
علينا غير الذي أوحينا
اليك مما اقترحته ثقيف
أو قريش حسبما نقل
(واذن لاتخذوك خليلا)
أي لو اتبعت أهواءهم
لكنت لهم وليا وخرجت
من ولايتي (ولولا أن
ثبتناك) على ما أنت
عليه من الحق بعصمتنا
لك (لقد كدت تركن
اليهم شيئا قليلا) من
الركون الذي هو أدنى
ميل أي لولا تثبيتنا لك لقاربت أن تميل اليهم شيئا يسيرا من الميل اليسير لقوة خدعهم وشدة احتيالهم لكن أدركتك العصمة فمنعتك من
أن تقرب من أدنى مراتب الركون اليهم فضلا عن نفس الركون وهذا صريح في أنه عليه الصلاة والسلام ما هم باجابتهم مع قوة
الداعي اليها ودليل على أن العصمة بتوفيق الله تعالى وعنايته (اذا) لو قاربت أن تركن اليهم أدنى ركنة (لاذقناك ضعف الحيوة

وضعف الممات) أي عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ضعف ما يعذب به في الدارين بمثل هذا الفعل غيرك لأن خطأ الخطير خطير وكان
أصل الكلام عذابا ضعفا في الحياة وعذابا ضعفا في الممات بمعنى مضاعفا ثم حذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ثم أضيفت إضافة
موصوفها وقيل الضعف من أسماء العذاب وقيل المراد بضعف الحياة عذاب الآخرة وبضعف الممات عذاب القبر (ثم
لا تجد لك علينا نصيرا) يدفع عنك العذاب (وإن كادوا) الكلام فيه كما في الأول أي كاد أهل مكة (ليستفزونك) أي ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم (من الأرض) أي الأرض التي أنت فيها وهي أرض مكة (ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون) بالرفع عطفا على خبر كاد وقرئ لا يلبثوا بالنصب بإعمال إذن على أن الجملة معطوفة على جملة وإن كادوا ليستفزونك (خلافك) أي بعدك قال

خلت الديار خلافهم فكأنما
بسط الشواطب بينهن حصيرا

أي ولو خرجت لا يبقون بعد خروجك وقرئ خلفك (إلا قليلا) إلا زمانا قليلا وقد كان كذلك فإنهم أهلكوا ببدر بعد هجرته عليه الصلاة والسلام وقيل نزلت الآية في اليهود حيث حسدوا مقام النبي عليه الصلاة والسلام بالمدينة فقالوا الشام مقام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإن كنت نبيا فالحق بها
حتى نؤمن بك فوقع ذلك في قلبه عليه الصلاة والسلام فخرج مرحلة فنزلت فرجع ثم قتل منهم بنو قريظة غيرهم
وأجلي بنو النضير بقليل (سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) نصب على المصدرية أي سن الله تعالى سنة وهي أن يهلك كل أمة
أخرجت رسولهم من بين أظهرهم فالسنة لله تعالى وإضافتها إلى الرسل لأنها سنت لأجلهم على ما ينطق به قوله عز وجل (ولا تجد لسنتنا

و بعضهم علم الله منهم أنهم سيؤمنون وبعض آخرون علم الله أنهم وإن لم يؤمنوا لكنه يخرج من نسلهم من
يكون مؤمنا ۞ قوله تعالى ﴿وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون
أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾ اعلم أن
هذا هو الجواب الثالث عن تلك الشبهة لأن حاصل شبهتهم أن قالوا تركنا الدين لئلا تفوتنا الدنيا فبين تعالى
أن ذلك خطأ عظيم لأن ما عند الله خير وأبقى أما أنه خير فلوجهين (أحدهما) أن المنافع هناك أعظم
(وثانيهما) أنها خالصة عن الشوائب ومنافع الدنيا مشوبة بالمضار بل المضار فيها أكثر وأما أنها أبقى فلأنها
دائمة غير منقطعة ومنافع الدنيا منقطعة ومتى قوبل المتناهي بغير المتناهي كان عدما فكيف ونصيب كل
أحد بالقياس إلى منافع الدنيا كلها كالذرة بالقياس إلى البحر فظهر من هذا أن منافع الدنيا لا نسبة لها إلى
منافع الآخرة البتة فكان من الجهل العظيم ترك منافع الآخرة لاستبقاء منافع الدنيا ولما نبه سبحانه
على ذلك قال أفلا تعقلون يعني أن من لا يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا كأنه يكون خارجا عن حد
العقل ورحم الله الشافعي حيث قال من أوصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف ذلك الثلث إلى المشتغلين
بطاعة الله تعالى لأن أعقل الناس من أعطى القليل وأخذ الكثير وما هم إلا المشتغلون بالطاعة فكأنه
رحمه الله إنما أخذه من هذه الآية ثم إنه تعالى أكد هذا الترجيح من وجه آخر وهو أنا لو قدرنا أن نعم الله
كانت تنتهي إلى الانقطاع والفناء وما كانت تتصل بالعذاب الدائم لكان صريح العقل يقتضي ترجيح
نعم الآخرة على نعم الدنيا فكيف إذا اتصلت نعم الدنيا بعقاب الآخرة فأي عقل يرتاب في أن نعم الآخرة
راجحة عليها وهذا هو المراد بقوله أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه فهو يكون كمن أعطاه الله قدرا قليلا
من متاع الدنيا ثم يكون في الآخرة من المحضرين للعذاب والمقصود أنهم لما قالوا تركنا الدين للدنيا فقال
الله لهم لو لم يحصل عقيب دنياكم مضرة العقاب لكان العقل يقتضي ترجيح منافع الآخرة على منافع
الدنيا فكيف وهذه الدنيا يحصل بعدها العقاب الدائم وأورد هذا الكلام على لفظ الاستفهام ليكون أبلغ
في الاعتراف بالترجيح وتخصيص لفظ المحضرين بالذين أحضروا للعذاب أمر عرف من القرآن قال تعالى
لكنت من المحضرين فإنهم لمحضرون وفي لفظه إشعار به لأن الإحضار مشعر بالتكليف والإلزام وذلك
لا يليق بمجالس اللذة إنما يليق بمجالس الضرر والمكاره ۞ قوله تعالى ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي
الذين كنتم تزعمون قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك
ما كانوا إيانا يعبدون وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون ويوم
يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون﴾ اعلم أنه سبحانه وتعالى
ذكر في هذه الآية أنه يسأل الكفار يوم القيامة عن ثلاثة أشياء (أحدها) قوله ويوم يناديهم فيقول أين
شركائي الذين كنتم تزعمون لما ثبت أن الكفار يوم القيامة قد عرفوا بطلان ما كانوا عليه وعرفوا صحة
التوحيد والنبوة بالضرورة فيقول لهم أين ما كنتم تعبدونه وتجعلونه شريكا في العبادة وتزعمون أنه يشفع
أين هو لينصركم ويخلصكم من هذا الذي نزل بكم ثم بين تعالى ما يقوله من حق عليه القول والمراد من القول
هو قوله لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ومعنى حق عليه القول أي حق عليه مقتضاه واختلفوا
في أن الذين حق عليهم هذا القول من هم فقال بعضهم الرؤساء الدعاة إلى الضلال وقال بعضهم الشياطين
قوله ربنا هؤلاء الذين أغوينا هؤلاء مبتدأ والذين أغوينا صفته والراجع إلى الموصوف محذوف وأغويناهم
الخبر والكاف صفة محذوف تقديره أغويناهم فغووا غيا مثل ما غوينا والمراد كما أن غينا باختيارنا فكذا

غيهم باختيارهم يعني ان اغواءنا لهم ما ألجأهم الى الغواية بل كانوا مختارين بالاقدام على تلك العقائد والاعمال وهذا المعنى ما حكاه الله عن الشيطان انه قال ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم وقال تعالى لابليس ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين فقوله الا من اتبعك يدل على أن ذلك الاتباع لهم من قبل أنفسهم لا من قبل الجاء الشيطان الى ذلك ثم قال تبرأنا اليك منهم ومن عقائدهم وأعمالهم ما كانوا ايانا يعبدون انما كانوا يعبدون أهواءهم والحاصل انهم يتبرؤن منهم كما قال تعالى اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا وأيضا فلا يمتنع في قوله تعالى أين شركائي ان يريد به هؤلاء الرؤساء والشياطين فانهم لما أطاعوهم فقد صيروهم لمكان الطاعة بمنزلة الشريك لله تعالى واذا حمل الكلام على هذا الوجه كان جوابهم أن يقولوا الهنا هؤلاء ما عبدونا انما عبدوا أهواءهم الفاسدة (وثانيها) قوله تعالى وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم والاقرب أن هذا على سبيل التقريع لانهم يعلمون أنه لا فائدة في دعائهم لهم فالمراد انهم لو دعوهم لم يوجد منهم اجابة في النصرة وأن العذاب ثابت فيهم وكل ذلك على وجه التوبيخ وفي ذكره ردع وزجر في دار الدنيا فاما قوله تعالى لو أنهم كانوا يهتدون فكثير من المفسرين زعموا أن جواب لو محذوف وذكروا فيه وجوها (أحدها) قال الضحاك ومقاتل يعني المتبوع والتابع يرون العذاب ولو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا ما أبصروه في الآخرة (وثانيها) لو أنهم كانوا مهتدين في الدنيا لعلموا أن العذاب حق (وثالثها) ودوا حين رأوا العذاب لو كانوا في الدنيا يهتدون (ورابعها) لو كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل لدفعوا به العذاب (وخامسها) قد آن لهم أن يهتدوا لو أنهم كانوا يهتدون اذا رأوا العذاب ويؤكد ذلك قوله تعالى لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم وعندي أن الجواب غير محذوف وفي تقريره وجوه (أحدها) أن الله تعالى اذا خاطبهم بقوله ادعوا شركاءكم فههنا يشتد الخوف عليهم ويلحقهم شيء كالسدر والدوار ويصيرون بحيث لا يبصرون شيأ فقال تعالى ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون شيأ أما لما صاروا من شدة الخوف بحيث لا يبصرون شيأ لا جرم ما رأوا العذاب (وثانيها) انه تعالى لما ذكر عن الشركاء وهي الاصنام أنهم لا يجيبون الذين دعوهم قال في حقهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون أي هذه الاصنام كانوا يشاهدون العذاب لو كانوا من الاحياء المهتدين ولكنها ليست كذلك فلا جرم ما رأت العذاب فان قيل قوله ورأوا العذاب ضمير لا يليق الا بالعقلاء فكيف يصح عوده الى الاصنام قلنا هذا كقوله فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وانما ورد ذلك على حسب اعتقاد القوم فكذا ههنا (وثالثها) أن يكون المراد من الرؤية رؤية القلب أي والكفار علموا حقيقة هذا العذاب في الدنيا لو كانوا يهتدون وهذه الوجوه عندي خير من الوجوه المبنية على أن جواب لو محذوف فان ذلك يقتضي تفكيك النظم من الآية (الامر الثالث) من الامور التي يسأل الله الكفار عنها قوله ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين فعميت عليهم الانباء أي فصارت الانباء كالعمى عليهم جميعا لا تهتدي اليهم فهم لا يتساءلون لا يسأل بعضهم بعضا كما يتساءل الناس في المشكلات لانهم يتساوون جميعا في عمى الانباء عليهم والعجز عن الجواب وقرئ فعميت واذا كانت الانبياء لهول ذلك يتتعتعون في الجواب عن مثل هذا السؤال ويفوضون الامر الى علم الله تعالى وذلك قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا انك أنت علام الغيوب فما ظنك بهؤلاء الضلال (قال القاضي) هذه الآية تدل على بطلان القول بالجبر لان فعلهم لو كان خلقا من الله تعالى لوجب وقوعه بالقدرة

تحويلا) أي تغييرا (أقم الصلوة لدلوك الشمس) لزوالها كما ينبئ عنه قوله عليه الصلاة والسلام أتاني جبريل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر واشتقاقه من الدلك لان من نظر اليها حينئذ يدلك عينه وقيل لغروبها من دلكت الشمس أي غربت وقيل أصل الدلوك الميل فينتظم كلا المعنيين واللام للتأقيت مثلها في قولك لثلاث خلون (الى غسق الليل) الى اجتماع ظلمته وهو وقت صلاة العشاء وليس المراد اقامتها فيما بين الوقتين على وجه الاستمرار بل اقامة كل صلاة في وقتها الذي عين لها ببيان جبريل عليه السلام كما أن أعداد ركعات كل صلاة موكولة الى بيانه عليه السلام ولعل الاكتفاء ببيان المبدإ والمنتهى في أوقات الصلوات من غير فصل بينها لما أن الانسان فيما بين هذه الاوقات على اليقظة فبعضها متصل ببعض بخلاف أول وقت العشاء والفجر فانه باشتغاله فيما بينهما بالنوم ينقطع أحدهما عن الآخر ولذلك فصل وقت الفجر عن سائر الاوقات وقيل المراد بالصلاة صلاة المغرب والتحديد بالمذكور بيان لمبدئه ومنتهاه واستدل به على امتداد وقته الى غروب الشفق وقوله تعالى (وقرآن الفجر) أي صلاة الفجر نصب عطفا على مفعول أقم أو على الاغراء قاله الزجاج وانما سميت قرآنا لانه ركنها كما تسمى ركوعا وسجودا واستدل به على الركنية وليكن لا دلالة له على ذلك لجواز كون مدار التجوز كون القراءة مندوبة فيها نعم لو فسر بالقراءة في صلاة الفجر لدل الامر باقامتها على الوجوب فيها نصا وفيما عداها دلالة ويجوز أن يكون وقرآن الفجر حثا على تطويل القراءة في صلاة الفجر (ان قرآن الفجر) أظهر في مقام الاضمار ابانة لمزيد الاهتمام به (كان مشهودا) يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار

والارادة فلما عصت عليهم الانبياء وقالوا انما أتيناني تكذيب الرسل من جهة خلقك فينا تكذيبهم والقدرة الموجبة لذلك فكانت حجتهم على الله تعالى ظاهرة وكذلك القول فيما تقدم لان الشيطان كان له أن يقول انما أغويت بخلقك في الغواية واغما قبل من دعوته لمثل ذلك فتكون الحجة لهم في ذلك قوية والعذر ظاهرا (والجواب) ان القاضي لا يترك آية من الآيات المشتملة على المدح والذم والثواب والعقاب الا ويعيد استدلاله بها وكيا أن وجه استدلاله في الكل هذا الحرف فكذا وجه جوابنا حرف واحد وهو أن علم الله تعالى بعدم الايمان مع وقوع الايمان متنافيان لذاتيهما فمع العلم بعدم الايمان اذا أمر بادخال الايمان في الوجود فقد أمر بالجمع بين الضدين والذي اعتمد القاضي عليه في دفع هذا الحرف في كتبه الكلامية قوله خطأ قول من يقول انه يمكن وخطأ قول من يقول انه لا يمكن بل الواجب السكوت ولو أورد الكافر هذا السؤال على ربه لما كان له عنه جواب الا السكوت فتكون حجة الكافر قوية وعذره ظاهرا فثبت أن الاشكال مشترك والله أعلم ﴿قوله تعالى ﴿فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وهو الله لا اله الا هو له الحمد في الاولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون﴾ اعلم أنه تعالى لما بين حال المعذبين من الكفار وما يجرى عليهم من التوبيخ أتبعه بذكر من يتوب منهم في الدنيا ترغيبا في التوبة وزجرا عن الثبات على الكفر فقال فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين وفي عسى وجوه (أحدها) انه من الكرام تحقيق والله أكرم الاكرمين (وثانيها) أن يراد ترجى التائب وطمعه كأنه قال فليطمع في الفلاح (وثالثها) عسى أن يكونوا كذلك ان داموا على التوبة والايمان لجواز أن لا يدوموا واعلم أن القوم كانوا يذكرون شبهة أخرى ويقولون لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم يعنون الوليد بن المغيرة أو أبا مسعود الثقفي فأجاب الله تعالى عنه بقوله وربك يخلق ما يشاء ويختار والمراد انه المالك المطلق وهو منزه عن النفع والضر فله أن يخص من شاء بما شاء لا اعتراض عليه البتة وعلى طريقة المعتزلة لما ثبت أنه حكيم مطلق علم أن كل ما فعله كان حكمة وصوابا فليس لاحد أن يعترض عليه وقوله ما كان لهم الخيرة والخيرة اسم من الاختيار قام مقام المصدر والخيرة أيضا اسم للمختار يقال محمد خيرة الله في خلقه اذا عرفت هذا فنقول في الآية وجهان (الاول) وهو الاحسن أن يكون تمام الوقف على قوله ويختار ويكون ما نفيا والمعنى وربك يخلق ما يشاء ويختار ليس لهم الخيرة اذ ليس لهم أن يختاروا على الله أن يفعل (والثاني) أن يكون ما بمعنى الذي فيكون الوقف عند قوله وربك يخلق ما يشاء ثم يقول ويختار ما كان لهم الخيرة (قال) أبو القاسم الانصاري وهذا متعلق المعتزلة في ايجاب الصلاح والاصلح عليه وأي صلاح في تكليف من علم أنه لا يؤمن ولو لم يكلفه لاستحق الجنة والنعيم من فضل الله فان قيل لما كلفه استوجب على الله ما هو الافضل لان المستحق أفضل من المتفضل به قلنا اذا علم قطعا أنه لا يحصل ذلك الافضل فتوريطه في العقاب الابدي لا يكون رعاية للمصلحة ثم قولهم المستحق خير من المتفضل به جهل لان ذلك التفاوت انما يحصل في حق من يستنكف من تفضله أما الذي ما حصل الذات والصفات الا بخلقه وبفضله واحسانه فكيف يستنكف من تفضله ثم قال سبحان الله وتعالى عما يشركون والمقصود أن يعلم أن الخلق والاختيار والاعزاز والاذلال مفوض اليه ليس لاحد فيه شركة ومنازعة ثم أكد ذلك بأنه يعلم ما تكن صدورهم من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يعلنون من مطاعنهم فيه وقولهم هلا اختير غيره في النبوة ولما بين علمه بما هم عليه من الغل والحسد والسفاهة قال وهو الله لا اله الا هو وفيه

أو شواهد القدرة من تبدل الضياء بالظلمة والانتباه بالنوم الذي هو أخو الموت أو يشهده كثير من المصلين أو من حقه أن يشهده الجم الغفير فالآية على تفسير الدلوك بالزوال جامعة للصلوات الخمس وعلى تفسيره بالغروب لما عدا الظهر والعصر (ومن الليل) قيل هو نصب على الاغراء أي الزم بعض الليل وقيل لا يكون المغرى به حرفا ولا يجدى نفعا كون معناها التبعيض فان واو مع ليست اسما بالاجماع وان كانت بمعنى الاسم الصريح بل هو منصوب على الظرفية بمضمر أي قم بعض الليل (فتهجد به) أي ازل والق الهجود أي النوم فان صيغة التفعل تجيء للازالة كالتحرج والتحنث والتأثم ونظائرها والضمير المجرور للقرآن من حيث هو لا بقيد اضافته الى الفجر أو للبعض المفهوم من قوله تعالى ومن الليل أي تهجد في ذلك البعض على أن الباء بمعنى في وقيل منصوب بتهجد أي تهجد بالقرآن بعض الليل على طريقة واياي فارهبون (نافلة لك) فريضة زائدة على الصلوات الخمس المفروضة خاصة بك دون الامة ولعله هو الوجه في تأخير ذكرها عن ذكر صلاة الفجر مع تقدم وقتها على وقتها أو تطوعا لكن لا لكونها زيادة على الفرائض بل لكونها زيادة له صلى الله عليه وسلم في الدرجات على مقال مجاهد والسدي فانه عليه السلام مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيكون تطوعه زيادة في درجاته بخلاف من عداه من الامة فان تطوعهم لتكفير ذنوبهم وتدارك الخلل الواقع في فرائضهم وانتصابها اما على المصدرية بتقدير تنفل أو بجعل تهجد بمعناه أو بجعل نافلة بمعنى تهجدا فان ذلك عبارة زائدة واما على الحالية من الضمير الراجع الى القرآن أي حال كونها صلاة نافلة واما على المفعولية لتهجد اذا جعل بمعنى صل وجعل الضمير المجرور

تنبيه

للبعث أي فصل في ذلك البعض نافلة لك (عسى أن يبعثك ربك) الذي يبلغك إلى كمالك اللائق بك من بعد الموت الأكبر كما انبعثت
من النوم الذي هو الموت الأصغر بالصلاة والعبادة (مقاما) نصب على الظرفية على إضمار فيقيمك أو تضمين البعث معنى الإقامة إذ
لا بد من أن يكون العامل في مثل هذا الظرف فعلا فيه معنى الاستقرار ويجوز أن يكون حالا بتقدير مضاف أي يبعثك

تنبيه على كونه قادرا على كل الممكنات عالما بكل المعلومات منزها عن النقائص والآفات يجازي
المحسنين على طاعتهم ويعاقب العصاة على عصيانهم وفيه نهاية الزجر والردع للعصاة ونهاية تقوية القلب
للمطيعين ويحتمل أيضا أنه لما بين فساد طريق المشركين من قوله ويوم يناديهم فيقول أين شركائي ختم
الكلام في ذلك باظهار هذا التوحيد وبيان أن الحمد والثناء لا يليق إلا به أما قوله له الحمد في الأولى والآخرة
فهو ظاهر على قولنا لأن الثواب غير واجب عليه بل هو سبحانه يعطيه فضلا وإحسانا فله الحمد في الأولى
والآخرة ويؤكد ذلك قول أهل الجنة الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن الحمد لله الذي صدقنا وعده وآخر
دعواهم أن الحمد لله رب العالمين أما المعتزلة فعندهم الثواب مستحق فلا يستحق الحمد بفعله من أهل الجنة
وأما أهل النار فما أنعم عليهم حتى يستحق الحمد منهم قال القاضي إنه يستحق الحمد والشكر من أهل النار
أيضا بما فعله بهم في الدنيا من التمكين والتيسير والألطاف وسائر النعم لأنهم بإساءتهم لا يخرج ما أنعم الله
عليهم من أن يوجب الشكر وهذا فيه نظر لأن أهل الآخرة مضطرون إلى معرفة الحق فإذا علموا
بالضرورة أن التوبة عن القبائح يجب على الله قبولها وعلموا بالضرورة أن الاشتغال بالشكر الواجب
عليهم يوجب على الله الثواب وهم قادرون على ذلك وعالمون بأن ذلك مما يخلصهم عن العذاب
ويدخلهم في استحقاق الثواب أفترى أن الإنسان مع العلم بذلك والقدرة عليه يترك هذه التوبة كلا بل
لا بد أن يتوبوا وأن يشتغلوا بالشكر ومتى فعلوا ذلك فقد بطل العقاب أما قوله وله الحكم فهو إما في الدنيا
أو في الآخرة فأما في الدنيا فحكم كل أحد سواه إنما نفذ بحكمه فلولا حكمه لما نفذ على العبد حكم سيده
ولا على الزوجة حكم زوجها ولا على الابن حكم أبيه ولا على الرعية حكم سلطانهم ولا على الأمة حكم الرسول
فهو الحاكم في الحقيقة وأما في الآخرة فلا شك أنه هو الحاكم لأنه الذي يتولى الحكم بين العباد في الآخرة
فينتصف للمظلومين من الظالمين أما قوله وإليه ترجعون فالمعنى وإلى محل حكمه وقضائه ترجعون فإن كلمة
إلى لانتهاء الغاية وهو تعالى منزه عن المكان والجهة * قوله تعالى ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل
سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا
إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار
لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ اعلم أنه تعالى لما بين من قبل استحقاقه للحمد على
وجه الإجمال بقوله وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون فصل عقيب
ذلك بعض ما يجب أن يحمد عليه مما لا يقدر عليه سواه فقال لرسوله قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل
سرمدا إلى يوم القيامة فنبه على أن الوجه في كون الليل والنهار نعمتان يتعاقبان على الزمان لأن المرء في
الدنيا وفي حال التكليف مدفوع إلى أن يتعب لتحصيل ما يحتاج إليه ولا يتم له ذلك لولا ضوء النهار ولأجله
يحصل الاجتماع فيمكن المعاملات ومعلوم أن ذلك لا يتم لولا الراحة والسكون بالليل فلا بد منهما والحالة
هذه فأما في الجنة فلا نصب ولا تعب فلا حاجة بهم إلى الليل فلذلك يدوم لهم الضياء واللذات فبين تعالى أنه
لا قادر على ذلك إلا الله تعالى وإنما قال أفلا تسمعون أفلا تبصرون لأن الغرض من ذلك الانتفاع بما
يسمعون ويبصرون من جهة التدبر فلما لم ينتفعوا نزلوا منزلة من لا يسمع ولا يبصر قال الكلبي قوله أفلا
تسمعون معناه أفلا تطيعون من يفعل ذلك وقوله أفلا تبصرون معناه أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ
والضلال قال صاحب الكشاف السرمد الدائم المتصل من السرد وهو المتابعة ومنه قولهم في الأشهر الحرم
ثلاثة سرد وواحد فرد فإن قيل هلا قال بنهار تتصرفون فيه كما قيل بليل تسكنون فيه قلنا ذكر الضياء وهو

ذا مقام (محمودا) عندك وعند جميع الناس وفيه تهوين لمشقة قيام الليل وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال المقام المحمود هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي وعن ابن عباس رضي الله عنهما مقاما يحمدك فيه الأولون والآخرون وتشرف فيه على جميع الخلائق تسأل فتعطى وتشفع فتشفع ليس أحد إلا تحت لوائك وعن حذيفة رضي الله عنه يجمع الناس في صعيد واحد فلا تتكلم فيه نفس فأول مدعو محمد صلى الله عليه وسلم فيقول لبيك وسعديك والشر ليس إليك والمهدي من هديت وعبدك بين يديك وبك وإليك لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت (وقل رب أدخلني) أي القبر (مدخل صدق) أي إدخالا مرضيا (وأخرجني) أي منه عند البعث (مخرج صدق) أي إخراجا
مرضيا ملقى بالكرامة فهو تلقين للدعاء بما وعده من البعث المقرون بالإقامة المحمودة التي لا كرامة فوقها وقيل المراد إدخال المدينة
والإخراج من مكة وتغيير ترتيب الوجود لكون الإدخال هو المقصود وقيل إدخاله عليه السلام مكة ظاهرا عليها وإخراجه منها آمنا من
المشركين وقيل إدخاله الغار وإخراجه منه سالما وقيل إدخاله فيما حمله من أعباء الرسالة وإخراجه منه مؤديا حقه وقيل إدخاله في كل

ضوء الشمس لان المنافع التي تتعلق به متكاثرة ليس التصرف في المعاش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة واغا قرن بالضياء أفلا تسمعون لان السمع يدرك ما لا يدركه البصر من درك منافعه ووصف فوائده وقرن بالليل أفلا تبصرون لان غيرك يدرك من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه ومن رحمته زاوج بين الليل والنهار لاغراض ثلاثة لتسكنوا في أحدهما وهو الليل ولتبتغوا من فضله في الآخر وهو النهار ولاداء الشكر على المنفعتين معا واعلم أنه وان كان السكون في النهار ممكنا وابتغاء فضل الله بالليل ممكنا الا أن الاليق بكل واحد منهما ما ذكره الله تعالى به فلهذا خصه به ﴿ قوله تعالى ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ اعلم أنه سبحانه لما هجن طريقة المشركين أولا ثم ذكر التوحيد ودلائله ثانيا عاد الى تهجين طريقتهم مرة أخرى وشرح حالهم في الآخرة فقال ويوم يناديهم أي في القيامة فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون والمعنى أين الذين ادعيتم الهيتهم لتخلصكم أو أين قولكم تقربنا الى الله زلفى وقد علموا أن لا اله الا الله فيكون ذلك زائدا في غمهم اذا خوطبوا بهذا القول أما قوله تعالى ونزعنا من كل أمة شهيدا فالمراد ميزنا واحدا ليشهد عليهم ثم قال بعضهم هم الانبياء يشهدون بأنهم بلغوا القوم الدلائل وبالغوا في ايضاحها كل غاية ليعلم أن التقصير منهم فيكون ذلك زائدا في غمهم وقال آخرون بل هم الشهداء الذين يشهدون على الناس في كل زمان ويدخل في جملتهم الانبياء وهذا أقرب لانه تعالى عم كل أمة وكل جماعة أن ينزع منهم الشهيد فيدخل فيه الاحوال التي لم يوجد فيها النبي وهي أزمنة الفترات والازمنة التي حصلت بعد محمد صلى الله عليه وسلم فعلموا حينئذ أن الحق لله ولرسله وضل عنهم غاب عنهم غيبة الشيء الضائع ما كانوا يفترون من الباطل والكذب ﴿ قوله تعالى ﴿ ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الارض ان الله لا يحب المفسدين قال انما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ اعلم أن نص القرآن يدل على أن قارون كان من قوم موسى عليه السلام وظاهر ذلك يدل على أنه كان ممن قد آمن به ولا يبعد أيضا حمله على القرابة قال الكلبي انه كان ابن عم موسى عليه السلام لانه كان قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى وموسى بن عمران بن قاهث بن لاوى وقال محمد بن اسحق انه كان عم موسى عليه السلام لان موسى ابن عمران بن يصهر بن قاهث وقارون ابن يصهر بن قاهث وعن ابن عباس انه كان ابن خالته ثم قيل انه كان يسمى المنور لحسن صورته وكان أقرأ بني اسرائيل للتوراة الا أنه نافق كما نافق السامري أما قوله فبغى عليهم ففيه وجوه (أحدها) انه بغى بسبب ماله وبغيه أنه استخف بالفقراء ولم يرع لهم حق الايمان ولا عظمهم مع كثرة أموال (والثاني) انه من الظلم قيل ملكه فرعون على بني اسرائيل فظلمهم (الثالث) قال القفال بغى عليهم أي طلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت يده (الرابع) قال الضحاك طغى عليهم واستطال عليهم فلم يوافقهم في أمر (الخامس) قال ابن عباس تجبر وتكبر عليهم وسخط عليهم (السادس) قال شهر بن حوشب بغيه عليهم انه زاد عليهم في الثياب شبرا وهذا يعود الى التكبر (السابع) قال الكلبي بغيه عليهم انه حسد هرون على الحبورة * يروى ان موسى عليه السلام لما قطع البحر وأغرق الله تعالى فرعون جعل الحبورة لهرون فحصلت له النبوة والحبورة وكان صاحب القربان والمذبح وكان لموسى الرسالة فوجد قارون من ذلك في

ما يلابسه من مكان أو أمر واخراجه منه وقرئ مدخل ومخرج بالفتح على معنى أدخلني فأدخل دخولا وأخرجني فأخرج خروجا كقوله
وعضة دهر يا ابن مروان لم تدع * من المال الا مسحت أو مجلف
أي لم تدع فلم يبق (واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا) حجة تنصرني على من يخالفني أو ملكا وعزا ناصرا للاسلام مظهرا له على الكفر فأجيبت دعوته عليه السلام بقوله عز وعلا والله يعصمك من الناس ألا ان حزب الله هم الغالبون ليظهره على الدين كله ليستخلفنهم في الارض (وقل جاء الحق) أي الاسلام والوحي الثابت الراسخ (وزهق الباطل) أي ذهب وهلك الشرك والكفر وتسويلات الشيطان من زهق روحه اذا خرج (ان الباطل) كائنا ما كان (كان زهوقا) أي شأنه أن يكون مضمحلا غير ثابت وهو عدة كريمة باجابة الدعاء بالسلطان النصير الذي اقترحه عن ابن مسعود رضي الله عنه انه عليه السلام دخل مكة يوم الفتح وحول البيت ثلثمائة وستون صنما فجعل ينكت بمخصرة كانت بيده في عين واحد واحد ويقول جاء الحق وزهق الباطل فينكب لوجهه حتى ألقي جميعها وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من صفر فقال يا علي ارم به فصعد فرمى به فكسره (وننزل من القرآن) وقرئ ننزل من الانزال (ما هو شفاء) لما في الصدور من أدواء الريب واسقام الاوهام (ورحمة للمؤمنين) به العاملين بما فيه تضاعيفه أي ما هو في تقويم دينهم واصلاح نفوسهم كالدواء الشافي للمرضى ومن بيانية قدمت على المبين اعتناء فان كل القرآن كذلك وعن النبي عليه السلام من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله أو تبعيضية لكن لا بمعنى ان بعضه ليس كذلك بل بمعنى انا ننزل منه في كل نوبة ما تستدعي نفسه

الحكمة نزوله حينئذ فيقع ذلك ممن نزل عليهم بسببه وافقته لأحوالهم الداعية إلى نزوله موقع الدواء الشافي المصادف لا بأنه من المرضى المحتاجين إليه بحسب الحال من غير تقديم ولا تأخير فكل بعض منه متصف بالشفاء لكن لا في كل حين بل عند تنزيله وتحقيق التبعيض باعتبار الشفاء الجسماني كما في الفاتحة وآيات الشفاء لا يساعده قوله سبحانه (ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) أي لا يزيد القرآن كله أو كل بعض منه الكافرين المكذبين الواضعين للأشياء في غير مواضعها مع كونه في نفسه شفاء من الأسقام إلا خسارا أي هلاكا بكفرهم وتكذيبهم لا نقصانا كما قيل فإن ما بهم من داء الكفر والضلال حقيق بأن يعبر عنه بالهلاك لا بالنقصان المنبئ عن حصول بعض مبادي الأسقام فيهم وزيادتهم في مراتب الهلاك من حيث إنهم كلما جددوا الكفر والتكذيب بالآيات النازلة تدريجا ازدادوا بذلك هلاكا وفيه إيماء إلى أن ما بالمؤمنين من الشبه والشكوك المعترية لهم في أثناء الاهتداء والاسترشاد بمنزلة الأمراض وما بالكفرة من الجهل والعناد بمنزلة الموت والهلاك وإسناد الزيادة المذكورة إلى القرآن مع أنهم هم المزدادون في ذلك لسوء صنعهم باعتبار كونه سببا لذلك وفيه تعجيب من أمره حيث يكون مدارا للشفاء والهلاك (وإذا أنعمنا على الإنسان) بالصحة والنعمة (أعرض) عن ذكرنا فضلا عن القيام بموجب الشكر (ونأى) تباعد عن طاعتنا (بجانبه) النأي بالجانب أن يلوي عن الشيء عطفه ويوليه عرض وجهه فهو تأكيد للإعراض أو عبارة عن الاستكبار لأنه من ديدن المستكبرين (وإذا مسه الشر) من فقر أو مرض أو نازلة من النوازل وفي إسناد المساس إلى الشر بعد إسناد الإنعام إلى ضمير الجلالة إيذان بأن الخير مراد

نفسه فقال يا موسى لك الرسالة ولهرون الحبورة ولست في شيء ولا أصبر أنا على هذا فقال موسى عليه السلام والله ما صنعت ذلك لهرون ولكن الله جعله له فقال والله لا أصدقك أبدا حتى تأتيني بآية أعرف بها أن الله جعل ذلك لهرون قال فأمر موسى عليه السلام رؤساء بني إسرائيل أن يجيء كل رجل منهم بعصاه فحزموها فألقاها موسى عليه السلام في قبته وكان ذلك بأمر الله تعالى فدعا ربه أن يريهم بيان ذلك فباتوا يحرسون عصيهم فأصبحت عصا هرون تهتز لها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال موسى يا قارون أما ترى ما صنع الله لهرون فقال والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر فاعتزل قارون ومعه ناس كثير وولي هرون الحبورة والمذبح والقربان فكان بنو إسرائيل يأتون بهداياهم إلى هرون فيضعها في المذبح وتنزل النار من السماء فتأكلها واعتزل قارون بأتباعه وكان كثير المال والتبع من بني إسرائيل فما كان يأتي موسى عليه السلام ولا يجالسه وروى أبو أمامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال كان قارون من السبعين المختارة الذين سمعوا كلام الله تعالى * أما قوله وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ففيه أبحاث (الأول) قال الكعبي ألستم تقولون إن الله لا يعطي الحرام فكيف أضاف الله مال قارون إلى نفسه بقوله وآتيناه وأجاب بأنه لا حجة في أنه كان حراما ويجوز أن من تقدمه من الملوك جمعوا وكنزوا فظفر قارون بذلك وكان هذا الظفر طريق التملك أو وصل إليه بالإرث من جهات ثم بالتكسب من جهة المضاربات وغيرها وكان الكل محتملا (البحث الثاني) المفاتح جمع مفتح بكسر الميم وهو ما يفتح به وقيل هي الخزائن وقياس واحدها مفتح بفتح الميم ويقال ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله والعصبة الجماعة الكثيرة والعصابة مثلها والعشرة عصبة بدليل قوله تعالى في إخوة يوسف عليه السلام ونحن عصبة وكانوا عشرة لأن يوسف وأخاه لم يكونا معهم إذا عرفت معنى الألفاظ فنقول ههنا قولان (أحدهما) أن المراد بالمفاتح المفاتيح وهي التي يفتح بها الباب قالوا كانت مفاتحه من جلود الإبل وكل مفتاح مثل إصبع وكان لكل خزانة مفتاح وكان إذا ركب قارون حملت المفاتيح على ستين بغلا ومن الناس من طعن في هذا القول من وجهين (الأول) أن مال الرجل الواحد لا يبلغ هذا المبلغ ولو أنا قدرنا بلدة مملوءة من الذهب والجواهر لكفاها أعداد قليلة من المفاتيح فأي حاجة إلى تكثير هذه المفاتيح (الثاني) أن الكنوز هي الأموال المدخرة في الأرض فلا يجوز أن يكون لها مفاتيح * والجواب عن الأول أن المال إذا كان من جنس العروض لا من جنس النقد جاز أن يبلغ في الكثرة إلى هذا الحد وأيضا فهذا الذي يقال إن تلك المفاتيح بلغت ستين حملا ليس مذكورا في القرآن فلا تقبل هذه الرواية وتفسير القرآن أن تلك المفاتيح كانت كثيرة وكان كل واحد منها معينا لشيء آخر فكان يثقل على العصبة ضبطها ومعرفتها بسبب كثرتها وعلى هذا الوجه يزول الاستبعاد * وعن الثاني أن ظاهر الكنز وإن كان من جهة العرف ما قالوه فقد يقع على المال المجموع في المواضع التي عليها أغلاق (القول الثاني) وهو اختيار ابن عباس والحسن أن تحمل المفاتح على نفس المال وهذا أبين وعن الشعبي أيضا قال ابن عباس كانت خزائنه يحملها أربعون رجلا أقوياء وكانت خزائنه أربعمائة ألف فيحمل كل رجل عشرة آلاف (القول الثالث) وهو اختيار أبي مسلم أن المراد من المفاتح العلم والإحاطة كقوله وعنده مفاتح الغيب والمراد آتيناه من الكنوز ما إن حفظها والاطلاع عليها ليثقل على العصبة أولي القوة والهداية أي هذه الكنوز لكثرتها واختلاف أصنافها تتعب حفظتها والقائمين عليها أن يحفظوها ثم إنه تعالى بين أنه كان في قومه من وعظه بأمور (أحدها) قوله لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين والمراد أن لا يلحقه من البطر والتمسك بالدنيا ما يلهيه عن أمر الآخرة أصلا وقال

بالذات والشراس كذلك (كان يؤسا) شديد اليأس من روحنا وهذا وصف للجنس باعتبار بعض أفراده ممن هو على هذه الصفة ولا ينافيه قوله تعالى واذا مسه الشر فذو دعاء عريض ونظائره فان ذلك شأن بعض آخرين منهم وقيل أريد به الوليد بن المغيرة وقرئ ناء اما على القلب كما يقال راء في رأى واما على انه بمعنى نهض (قل كل) أى كل أحد منكم وممن هو على خلافكم (يعمل عمله (على شاكلته) طريقته التى تشاكل حاله فى الهدى والضلالة أو جوهر روحه وأحواله التابعة لمزاج بدنه (فربكم) الذى برأكم على هذه الطبائع المختلفة (أعلم بمن هو أهدى سبيلا) أى أسد طريقا وأبين منهاجا وقد فسرت الشاكلة بالطبيعة والعادة والدين (ويسألونك عن الروح) الظاهر ان السؤال كان عن حقيقة الروح الذى هو مدبر البدن الانسانى ومبدأ حياته روى أن اليهود قالوا لقريش سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين وعن الروح فان أجاب عنها جميعا أو سكت فليس بنبى وان أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبى فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم فى التوراة (قل الروح) أظهر فى مقام الاضمار اظهارا لكمال الاعتناء بشأنه (من أمر ربى) كلمة من بيانية والأمر بمعنى الشأن والاضافة للاختصاص العلمى لا الايجادى لاشتراك الكل فيه وفيها من تشريف المضاف ما لا يخفى كما فى الاضافة الثانية من تشريف المضاف اليه أى هو من جنس ما استأثر الله بعلمه من الاسرار الخفية التى لا يكاد يحوم حولها عقول البشر (وما أوتيتم من العلم الا قليلا) لا يمكن تعلقه بأمثال ذلك لنا ألهم روى أنه صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا نحن مختصون بهذا الخطاب قال عليه الصلاة والسلام بل نحن وأنتم فقالوا ما أعجب شأنك

بعضهم انه لا يفرح بالدنيا الا من رضى بها واطمأن اليها فاما من يعلم انه سيفارق الدنيا عن قريب لم يفرح بها وما أحسن ما قال المتنبى

أشد الغم عندى فى سرور * تيقن عنه صاحبه انتقالا

وأحسن وأوجز منه ما قال تعالى لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم قال ابن عباس كان فرحه ذلك شركا لانه ما كان يخاف معه عقوبة الله تعالى (وثانيها) قوله وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة والظاهر انه كان مقرا بالآخرة والمراد أن يصرف المال الى ما يؤديه الى الجنة ويسلك طريقة التواضع (وثالثها) قوله ولا تنس نصيبك من الدنيا وفيه وجوه (أحدها) لعله كان مستغرق الهم فى طلب الدنيا فلاجل ذلك ما كان يتفرغ للتنعم والالتذاذ فنهاه الواعظ عن ذلك (وثانيها) لما أمره الواعظ بصرف المال الى الآخرة بين له بهذا الكلام انه لا بأس بالتمتع بالوجوه المباحة (وثالثها) المراد منه الانفاق فى طاعة الله فان ذلك هو نصيب المرء من الدنيا دون الذى يأكل ويشرب قال عليه الصلاة والسلام فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا دار الا الجنة والنار (ورابعها) قوله وأحسن كما أحسن الله اليك لما أمره بالاحسان بالمال أمره بالاحسان مطلقا ويدخل فيه الاعانة بالمال والجاه وطلاقة الوجه وحسن اللقاء وحسن الذكر وانما قال كما أحسن الله اليك تنبيها على قوله ولئن شكرتم لأزيدنكم (وخامسها) قوله ولا تبغ الفساد فى الارض والمراد ما كان عليه من الظلم والبغى وقيل ان هذا القائل هو موسى عليه السلام وقال آخرون بل مؤمنو قومه وكيف كان فقد جمع فى هذا الوعظ ما لو قبل لم يكن عليه مزيد لكنه أبى أن يقبل بل زاد عليه بكفر النعمة فقال انما أوتيته على علم عندى وفيه وجوه (أحدها) قال قتادة ومقاتل والكلبى كان قارون اقرأ بنى اسرائيل للتوراة فقال انما أوتيته لفضل علمى واستحقاقى لذلك (وثانيها) قال سعيد بن المسيب والضحاك كان موسى عليه السلام أنزل عليه علم الكيمياء من السماء فعلم قارون ثلث العلم ويوشع ثلثه وكالب ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما الى علمه فكان يأخذ الرصاص فيجعله فضة والنحاس فيجعله ذهبا (وثالثها) أراد به علمه بوجوه المكاسب والتجارات (ورابعها) أن يكون قوله انما أوتيته على علم عندى أى الله أعطانى ذلك مع كونه عالما بى وبأحوالى فلو لم يكن ذلك مصلحة لما فعل وقوله عندى أى عندى ان الامر كذلك كما يقول المفتى عندى ان الامر كذلك أى مذهبى واعتقادى ذلك * ثم أجاب الله تعالى عن كلامه بقوله أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا وفيه وجهان (الاول) يجوز أن يكون هذا اثباتا لعلمه بأن الله تعالى قد أهلك قبله من القرون من هو أقوى منه وأغنى لانه قد قرأه فى التوراة وأخبر به موسى عليه السلام وسمعه من حفاظ التواريخ كأنه قيل له أولم يعلم فى جملة ما عنده من العلم هذا حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوته (الثانى) يجوز أن يكون نفيا لعلمه بذلك كأنه لما قال أوتيته على علم عندى فتصلف بالعلم وتعظم به قيل أعنده مثل ذلك العلم الذى ادعاه ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة ولم يعلم هذا العلم النافع حتى يقى به نفسه مصارع الهالكين * أما قوله وأكثر جمعا فالمعنى أكثر جمعا للمال أو أكثر جماعة وعددا وحاصل الجواب أن اغتراره بماله وقوته وجموعه من الخطأ العظيم وانه تعالى اذا أراد هلاكه لم ينفعه ذلك ولا ما يزيد عليه أضعافا فأما قوله ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون فالمراد ان الله تعالى اذا عاقب المجرمين فلا حاجة به الى أن يسألهم عن كيفية ذنوبهم وكميتها لانه تعالى عالم بكل المعلومات فلا حاجة به الى السؤال فان قيل كيف الجمع بينه وبين قوله فوربك

لنا أنهم أجمعين قلنا يحمل ذلك على وقتين على ما قررناه وذكر أبو مسلم وجها آخر فقال السؤال قد يكون للمحاسبة وقد يكون للتقرير والتبكيت وقد يكون للاستعتاب وأليق الوجوه بهذه الآية الاستعتاب لقوله ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴿ قوله تعالى ﴿ فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون انه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون فخسفنا به وبداره الارض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾ أما قوله فخرج على قومه في زينته فيدل على انه خرج بأظهر زينته وأكملها وليس في القرآن الا هذا القدر الا أن الناس ذكروا وجوها مختلفة في كيفية تلك الزينة قال مقاتل خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف فارس على الخيول وعليهم الثياب الارجوانية ومعه ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلي والثياب الحمر على البغال الشهب وقال بعضهم بل خرج في تسعين ألفا هكذا وقال آخرون بل على ثلثمائة والاولى ترك هذه التقديرات لانها متعارضة ثم ان الناس لما رأوه على تلك الزينة قال من كان منهم يرغب في الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون من هذه الامور والاموال والراغبون يحتمل أن يكونوا من الكفار وأن يكونوا من المسلمين الذين يحبون الدنيا وأما العلماء وأهل الدين فقالوا للذين تمنوا هذا ويلكم ثواب الله خير من هذه النعم لان الثواب منافع عظيمة وخالصة عن شوائب المضار ودائمة وهذه النعم العاجلة على الضد من هذه الصفات الثلاثة قال صاحب الكشاف ويلك أصله الدعاء بالهلاك ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرتضى * أما قوله ولا يلقاها الا الصابرون فقال المفسرون لا يوفق لها والضمير في يلقاها الى ماذا يعود فيه وجهان (أحدهما) الى ما دل عليه قوله آمن وعمل صالحا يعني هذه الاعمال لا يلقاها الا الصابرون (والثاني) قال الزجاج يعني ولا يلقى هذه الكلمة وهي قولهم ثواب الله خير الا الصابرون على أداء الطاعات والاحتراز عن المحرمات وعلى الرضا بقضاء الله في كل ما قسم من المنافع والمضار * وأما قوله فخسفنا به وبداره الارض ففيه وجهان (أحدهما) أنه لما أشر وبطر وعتا خسف الله به وبداره الارض جزاء على عتوه وبطره والفاء تدل على ذلك لان الفاء تشعر بالعلية (وثانيها) قيل ان قارون كان يؤذي نبي الله موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التي بينهما حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار وعن كل ألف درهم على درهم فحسبه فاستكثره فشحت نفسه فجمع بني اسرائيل وقال ان موسى يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا أنت سيدنا وكبيرنا فمر بما شئت قال نبرطل فلانة البغي حتى تنسبه الى نفسها فيرفضه بنو اسرائيل فجعل لها طشتا من ذهب مملوأ ذهبا فلما كان يوم عيد قام موسى فقال يا بني اسرائيل من سرق قطعناه ومن زنى وهو غير محصن جلدناه وان أحصن رجمناه فقال قارون وان كنت أنت قال وان كنت أنا قال فان بني اسرائيل يقولون انك فجرت بفلانة فأحضرت فناشدها موسى بالله الذي فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق فتداركها الله تعالى فقالت كذبوا بل جعل لي قارون جعلا على أن أقذفك بنفسي فخر موسى ساجدا يبكي وقال يا رب ان كنت رسولك فاغضب لي فأوحى الله عز وجل اليه أن مر الارض بما شئت فانها مطيعة لك فقال يا بني اسرائيل ان الله بعثني الى قارون كما بعثني الى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معي فليعتزل فاعتزلوا جميعا غير رجلين ثم قال يا أرض خذيهم فأخذتهم الى الركب ثم قال خذيهم فأخذتهم الى الاوساط ثم قال خذيهم فأخذتهم الى الاعناق وقارون وأصحابه يتضرعون الى موسى عليه السلام ويناشدونه بالله والرحم وموسى لا يلتفت اليهم لشدة غضبه ثم قال خذيهم فانطبقت الارض عليهم

ساعة تقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وساعة تقول هذه الآيات ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام الآية وانما قالوا ذلك لركاكة عقولهم فان الحكمة الانسانية أن يعلم من الخير ما تسعه الطاقة البشرية بل ما نيط به المعاش والمعاد وذلك بالاضافة الى ما لا نهاية له من معلوماته سبحانه قليل ينال به خير كثير في نفسه أو بالنسبة الى الانسان أو هو من الابداعيات الكائنة بمحض الامر التكويني من غير تحصل من مادة وتولد من أصل كأعضاء الجسد حتى يمكن تعريفه ببعض مباديه ومآله انه من عالم الامر لا من عالم الخلق وليس هذا من قبيل قوله سبحانه انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون فان ذلك عبارة عن سرعة التكوين سواء كان الكائن من عالم الامر أو من عالم الخلق وفيه تنبيه على انه مما لا يحيط بكنهه دائرة ادراك البشر وانما الممكن هذا القدر الاجمالي المندرج تحت ما استثنى بقوله تعالى وما أوتيتم من العلم الا قليلا أي الا علما قليلا تستفيدونه من طرق الحواس فان تعقل المعارف النظرية انما هو من احساس الجزئيات ولذلك قيل من فقد حسا فقد فقد علما ولعل أكثر الاشياء لا يدركه الحس ولا شيأ من أحواله التي يدور عليها معرفة ذاته وأما حمل ما ذكر على السؤال عن قدمه وحدوثه وجعل الجواب اخبارا بحدوثه أي كائن بتكوينه حادث باحداثه بالامر التكويني فمع عدم ملاءمته لحال السائلين لا يساعده التعرض لبيان قلة علمهم فان ما سألوا عنه مما يفي به علمهم حينئذ وقد أخبر عنه وقيل المراد بالروح خلق عظيم روحاني أعظم من الملك وقيل جبريل عليه السلام وقيل القرآن ومعنى من أمر ربي من وحيه وكلامه لا من كلام البشر (ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا اليك) من القرآن الذي هو

فأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام ما أفظك استغاثوا بك مرارا فلم ترحمهم اما وعزتي لو دعوني مرة واحدة لوجدوني قريبا مجيبا فأصبحت بنو اسرائيل يتناجون بينهم انما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله ثم ان قارون يخسف به كل يوم مائة قامة قال القاضي اذا هلك بالخسف فسواء نزل عن ظاهر الارض الى الارض السابعة أو دون ذلك فانه لا يمتنع ما روي على وجه المبالغة في الزجر واما قولهم انه تعالى قال لو استغاث بي لاغثته فان صح حمل على استغاثة مقرونة بالتوبة فأما وهو ثابت على ما هو عليه مع انه تعالى هو الذي حكم بذلك الخسف لان موسى عليه السلام ما فعله الا عن أمره فبعيد وقولهم انه يتجلجل في الارض أبدا فبعيد لانه لا بد له من نهاية وكذا القول فيما ذكر من عدد القامات والذي عندي في أمثال هذه الحكايات انها قليلة الفائدة لانها من باب أخبار الآحاد فلا تفيد اليقين وليست المسئلة مسئلة عملية حتى يكتفى فيها بالظن ثم انها في أكثر الامر متعارضة مضطربة فالاولى طرحها والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن وتفويض سائر التفاصيل الى عالم الغيب اما قوله وما كان من المنتصرين فالمراد من المنتقمين من موسى أو من الممتنعين من عذاب الله تعالى يقال نصره من عدوه فانتصر أي منعه منه فامتنع ﴿ قوله تعالى ﴿ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ﴾ اعلم أن القوم الذين شاهدوا قارون في زينته لما شاهدوا ما نزل به من الخسف صار ذلك زاجرا لهم عن حب الدنيا ومخالفة موسى عليه السلام وداعيا الى الرضا بقضاء الله تعالى وقسمته والى اظهار الطاعة والانقياد لانبياء الله ورسله اما قوله ويكأن الله فاعلم ان وي كلمة مفصولة عن كأن وهي كلمة مستعملة عند التنبه للخطا واظهار التندم فلما قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون ثم شاهدوا الخسف تنبهوا لخطئهم فقالوا وي ثم قالوا كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده بحسب مشيئته وحكمته لا لكرامته عليه ويضيق على من يشاء لا لهوان من يضيق عليه بل لحكمته وقضائه ابتلاء وفتنة قال سيبويه سألت الخليل عن هذا الحرف فقال ان وي مفصولة من كأن وان القوم تنبهوا وقالوا متندمين على ما سلف منهم وي وذكر الفراء وجهين (أحدهما) ان المعنى ويلك فحذف اللام وانما جاز هذا الحذف لكثرتها في الكلام وحمل أن مفتوحة بفعل مضمر كأنه قال ويلك اعلم أن الله وهذا قول قطرب حكاه عن يونس (الثاني) وي منفصلة من كأن وهو للتعجب يقول الرجل لغيره وي أما ترى ما بين يديك فقال لله وي ثم استأنف كأن الله يبسط فالله تعالى انما ذكرها تعجيبا للخلق قال الواحدي وهذا وجه مستقيم غير أن العرب لم تكتبها منفصلة ولو كان على ما قالوه لكتبوها منفصلة وأجاب الاولون بان خط المصحف لا يقاس عليه ثم قالوا لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون وهذا تأكيد لما قبله أما قوله تلك الدار الآخرة فتعظيم لها وتفخيم لشأنها يعني تلك التي سمعت بذكرها وبلغك وصفها ولم يعلق الوعد بترك العلو والفساد ولكن بترك ارادتهما وميل القلب اليهما وعن علي عليه السلام ان الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها قال صاحب الكشاف ومن الطماع من يجعل العلو لفرعون لقوله ان فرعون علا في الارض والفساد لقارون لقوله ولا تبغ الفساد في الارض ويقول من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة ولا يتدبر قوله والعاقبة للمتقين كما تدبره علي بن أبي طالب عليه السلام ﴿ قوله تعالى ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد

شفاعة ورحمة لأمتين ومنبع للعلم التي أوتيتموها ونبينك عليه حين كادوا يفتنونك عنه ولولا الكدت تركن اليهم شيأ قليلا وانما عبر عنه بالموصول تفخيما لشأنه ووصفا له بما في حيز الصلة ابتداء واعلاما بأنه من أول الامر بأنه ليس من قبيل كلام المخلوق واللام موطئة للقسم ولنذهبن جواب للقسم النائب مناب جزاء الشرط وبذلك حسن حذف مفعول المشيئة والمراد من الذهاب به المحو من المصاحف والصدور وهو أبلغ من الاذهاب عن ابن مسعود رضي الله عنه ان أول ما تفقدون من دينكم الامانة وآخر ما تفقدون الصلاة وليصلين قوم ولا دين لهم وان هذا القرآن تصبحون يوما وما فيكم منه شئ فقال رجل كيف ذلك وقد أثبتناه في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا نعلمه أبناءنا ويعلمه أبناؤنا أبناءهم فقال يسرى عليه ليلا فيصبح الناس منه فقراء ترفع المصاحف وينزع ما في القلوب (ثم لا تجد لك به) أي بالقرآن (علينا وكيلا) من يتوكل علينا استرداده مسطورا محفوظا (الا رحمة من ربك) فانها ان نالتك لعلها تسترده عليك ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا بمعنى ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهوب به فيكون امتنانا بابقائه بعد المنة بتنزيله وترغيبا في المحافظة على أداء حقوقه وتحذيرا من أن لا يقدر قدره الجليل ويفرط في القيام بشكره وهو أجل النعم وأعظمها (ان فضله كان عليك كبيرا) كارسالك وانزال الكتاب عليك وابقائه في حفظك وغير ذلك قل

(قل) للذين لا يعرفون جلالة قدر التنزيل ولا يفهمون فخامة شأنه الجليل بل يزعمون أنه من كلام البشر (لئن اجتمعت الانس والجن) أي اتفقوا (على أن يأتوا بمثل هذا القرآن) المنعوت بما لا تدركه العقول من النعوت الجليلة في البلاغة وحسن النظم وكمال المعنى

قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾ اعلم أنه تعالى لما بين أن الدار الآخرة ليست لمن يريد علوا في الأرض ولا فسادا بل هي للمتقين بين بعد ذلك ما يحصل لهم فقال من جاء بالحسنة فله خير منها وفيه وجوه (أحدها) المعنى من جاء بالحسنة فحصل له من تلك الكلمة خير (وثانيها) يحصل له شيء هو أفضل من تلك الحسنة ومعناه أنهم يزادون على ثوابهم وقد مر تفسيره في آخر النمل وأما قوله ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون فظاهره أن لا يزادوا على ما يستحقون وإذا ثبت ذلك في السيئات دل على أن المراد في الحسنات بما هو خير منها ما ذكرناه من مزيد الفضل على الثواب قال صاحب الكشاف تقدير الآية ومن جاء بالسيئة فلا يجزون إلا ما كانوا يعملون لكنه كرر ذلك لأن في إسناد عمل السيئة إليهم مكررا فضل تهجين لحالهم وزيادة تبغيض للسيئة إلى قلوب السامعين وهذا من فضله العظيم أنه لا يجزي بالسيئة إلا مثلها ويجزي بالحسنة عشر أمثالها وههنا سؤالان (السؤال الأول) قال تعالى إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها كرر ذكر الإحسان واكتفى بذكر الإساءة مرة واحدة وفي هذه الآية كرر ذكر الإساءة مرتين واكتفى في ذكر الإحسان بمرة واحدة فما السبب (الجواب) لأن هذا المقام مقام الترغيب في الدار الآخرة فكانت المبالغة في الزجر عن المعصية لائقة بهذا الباب لأن المبالغة في الزجر عن المعصية مبالغة في الدعوة إلى الآخرة وأما الآية الأخرى فهي شرح حالهم فكانت المبالغة في ذكر محاسنهم أولى (السؤال الثاني) كيف قال لا تجزى السيئة إلا بمثلها مع أن المتكلم بكلمة الكفر إذا مات في الحال عذب أبد الآباد (والجواب) لأنه كان على عزم أنه لو عاش أبدا لقال ذلك فعومل بمقتضى عزمه قال الجبائي وهذا يدل على بطلان مذهب من يجوز على الله تعالى أن يعذب الأطفال عقابا بذنب آبائهم لأنه عذاب بغير جرم فقلنا لا يجوز أن يفعله وليس في الآية ما يدل عليه ثم إنه سبحانه لما شرح لرسوله أمر القيامة وأسهب في ذلك شرح له ما يتصل بأحواله فقال إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قال أبو علي الذي فرض عليك أحكامه وفرائضه لرادك بعد الموت إلى معاد وتنكير المعاد لتعظيمه كأنه قال إلى معاد وأي معاد أي ليس لغيرك من البشر مثله وقيل المراد به مكة ووجهه أن يراد رده إليها يوم الفتح ووجه تنكيره أنها كانت في ذلك اليوم معادا له شأن عظيم لاستيلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها وقهره لأهلها وإظهار عز الإسلام وإذلال حزب الكفر والسورة مكية فكأن الله تعالى وعده وهو بمكة في أذى وغلبة من أهلها أنه يهاجر منها ويعيده إليها ظاهرا ظافرا وقال مقاتل إنه عليه السلام خرج من الغار وسار في غير الطريق مخافة الطلب فلما أمن رجع إلى الطريق ونزل بالجحفة بين مكة والمدينة وعرف الطريق إلى مكة واشتاق إليها وذكر مولده ومولد أبيه فنزل جبريل عليه السلام وقال تشتاق إلى بلدك ومولدك فقال عليه السلام نعم فقال جبريل عليه السلام فإن الله تعالى يقول إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد يعني إلى مكة ظاهرا عليهم وهذا أقرب لأن ظاهر المعاد أنه كان فيه وفارقه وحصل العود وذلك لا يليق إلا بمكة وإن كان سائر الوجوه محتملا لكن ذلك أقرب قال أهل التحقيق وهذا أحد ما يدل على نبوته لأنه أخبر عن الغيب ووقع كما أخبر فيكون معجزا ثم قال قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين ووجه تعلقه بما قبله أن الله تعالى لما وعد رسوله الرد إلى معاد قال قل للمشركين ربي أعلم من جاء بالهدى يعني نفسه وما

وتخصيص الثقلين بالذكر لأن المنكر لكونه من عند الله تعالى منهما لا من غيرهما لا لأن غيرهما قادر على المعارضة (لا يأتون بمثله) أوثر الإظهار على إيراد الضمير الراجع إلى المثل المذكور احترازا عن أن يتوهم أن له مثلا معينا وإيذانا بأن المراد في الإتيان بمثل ما أي لا يأتون بكلام مماثل له فيما ذكر من الصفات البديعة وفيهم العرب العاربة أرباب البراعة والبيان وهو جواب للقسم الذي ينبئ عنه اللام الموطئة وساد مسد جزاء الشرط ولولاها لكان جوابا له بغير جزم لكون الشرط ماضيا كما في قول زهير

وإن أتاه خليل يوم مسألة … يقول لا غائب مالي ولا حرم

وحيث كان المراد بالاجتماع على الإتيان بمثل القرآن مطلق الاتفاق على ذلك سواء كان التصدي للمعارضة من كل واحد منهم على الانفراد أو من المجموع بأن يتألبوا على تلفيق كلام واحد بتلاحق الأفكار وتعاضد الأنظار قيل (ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) أي في تحقيق ما يتوخونه من الإتيان بمثله وهو عطف على مقدر أي لا يأتون بمثله لو لم يكن بعضهم ظهيرا لبعض ولو كان الخ وقد حذف المعطوف عليه حذفا مطردا لدلالة المعطوف عليه دلالة واضحة فإن الإتيان بمثله حيث انتفى عند التظاهر فلأن ينتفي عند عدمه أولى وعلى هذه النكتة يدور ما في إن ولو الوصليتين من التأكيد كما مر غير مرة ومحله النصب على الحالية حسبما عطف عليه أي لا يأتون بمثله على كل حال مفروض ولو في هذه الحال المنافية لعدم الإتيان به فضلا عن غيرها وفيه حسم لأطماعهم الفارغة في روم تبديل بعض آياته ببعض ولا مساغ لكون الآية تقريرا لما قبلها من قوله تعالى ثم لا تجد لك به علينا وكيلا كما قيل لكن لا لما قيل من أن الإتيان بمثله أصعب من استرداد عينه ونفي الشيء إنما

بتقريره نفي ما دونه لانفي ما فوقه فان أصعبية الاستبداد بغير أمره تعالى من الاتيان بمثله مع الاشبهة فيه بل لان الجملة القسمية ليست مسوقة
الى النبي صلى الله عليه وسلم بل الى المكابرين من قبله عليه السلام (ولقد صرفنا) كررنا ورددنا على أنحاء مختلفة توجب زيادة تقرير
وبيان وتوكادة رسوخ واطمئنان (للناس في هذا القرآن) المنعوت بما ذكر من النعوت الفاضلة (من كل مثل) من
كل معنى بديع هو في الحسن والغرابة واستجلاب النفس كالمثل استلقوه بالقبول (فأبى أكثر الناس) أوثر الاظهار على الاضمار تأكيدا وتوضيحا (الا كفورا) أي الا جحودا وانما صح الاستثناء من الموجب مع أنه لا يصح ضربت الا زيدا لانه متأول بالنفي كأنه قيل ماقبل أكثرهم الا كفورا وفيه من المبالغة ماليس في أبوا الايمان لان فيه دلالة على أنهم لم يرضوا بخصلة سوى الكفور من الايمان والتوقف في الامر ونحو ذلك وأنهم بالغوا في عدم الرضا حتى بلغوا مرتبة الاباء (وقالوا) عند ظهور عجزهم ووضوح مغلوبيتهم بالاعجاز التنزيلي وغيره من المعجزات الباهرة متعللين بما لا يمكن في العادة وجوده ولا تقتضي الحكمة وقوعه من الامور كما هو ديدن المبهوت المحجوج (لن نؤمن لك حتى تفجر) وقرئ بالتشديد (لنا من الارض) أرض مكة (ينبوعا) عينا لا ينضب ماؤها يفعول من نبع الماء كيعبوب من عب الماء اذا زخر (أو تكون لك جنة) أي بستان تستر أشجاره
ما تحتها من العرصة (من نخيل وعنب فتفجر الانهار) أي تجريها بقوة (خلالها تفجيرا) كثيرا والمراد اما اجراء الانهار خلالها عند
سقيها أو ادامة اجرائها كما ينبئ عنه الفاء لا ابتداؤه (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) جمع كسفة كقطعة وقطع لفظا ومعنى وقرئ

فيستعمل

يستحقه من الثواب في المعاد والاعزاز بالاعادة الى مكة ومن هو في ضلال مبين يعني بهم وما يستحقون من
العقاب في معادهم ثم قال لرسوله وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك ففي كلمة الا
وجهان (أحدهما) انها للاستثناء ثم قال صاحب الكشاف هذا كلام محمول على المعنى كأنه قيل وما ألقى
اليك الكتاب الا رحمة من ربك ويمكن أيضا اجراؤه على ظاهره أي وما كنت ترجو الا أن يرحمك الله برحمة
فينعم عليك بذلك أي ما كنت ترجو الا على هذا (والوجه الثاني) ان الا بمعنى لكن للاستدراك أي ولكن
رحمة من ربك ألقي اليك ونظيره قوله وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك ثم خصصك به
ثم انه كلفه بأمور (أحدها) كلفه بأن لا يكون مظاهرا للكفار فقال فلا تكونن ظهيرا للكافرين (وثانيها)
ان قال ولا يصدنك عن آيات الله بعد اذ أنزلت اليك الميل الى المشركين قال الضحاك وذلك حين دعوه الى
دين آبائه ليزوجوه ويقاسموه شطرا من مالهم أي لا تلتفت الى هؤلاء ولا تركن الى قولهم فيصدوك عن
اتباع آيات الله (وثالثها) قوله وادع الى ربك أي الى دين ربك وأراد التشدد في دعاء الكفار والمشركين
فلذلك قال ولا تكونن من المشركين لان من رضي بطريقتهم أو مال اليهم كان منهم (ورابعها) قوله ولا
تدع مع الله الها آخر وهذا وان كان واجبا على الكل الا أنه تعالى خاطبه به خصوصا لاجل التعظيم * فان
قيل الرسول كان معلوما منه أن لا يفعل شيأ من ذلك البتة فما فائدة هذا النهي * قلنا الخطاب معه
ولكن المراد غيره ويجوز أن يكون المعنى لا تعتمد على غير الله ولا تتخذ غيره وكيلا في أمورك فان من وثق
بغير الله تعالى فكأنه لم يكمل طريقه في التوحيد ثم بين أنه لا اله الا هو أي لا نافع ولا ضار ولا معطي ولا مانع
الا هو كقوله رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا فلا يجوز اتخاذ اله سواه * ثم قال كل شيء هالك الا
وجهه وفيه مسائل (المسألة الاولى) اختلفوا في قوله كل شيء هالك فمن الناس من فسر الهلاك بالعدم
والمعنى ان الله تعالى يعدم كل شيء سواه ومنهم من قال فسر الهلاك باخراجه عن كونه منتفعا به اما بالاماتة
أو بتفريق الاجزاء وان كانت أجزاؤه باقية فانه يقال هلك الثوب وهلك المتاع ولا يريدون به فناء أجزائه
بل خروجه عن كونه منتفعا به ومنهم من قال معنى كونه هالكا كونه قابلا للهلاك في ذاته فان كل ما عداه
ممكن الوجود لذاته وكل ما كان ممكن الوجود كان قابلا للعدم فكان قابلا للهلاك فأطلق عليه اسم الهلاك
نظرا الى هذا الوجه واعلم أن المتكلمين لما أرادوا اقامة الدلالة على أن كل شيء سوى الله تعالى يقبل العدم
والهلاك قالوا ثبت ان العالم محدث وكل ما كان محدثا فان حقيقته قابلة للعدم والوجود وكل ما كان كذلك
وجب أن يبقى على هذه الحالة أبدا لان الامكان من لوازم الماهية ولازم الماهية لا يزول قط الا أنا لما نظرنا
في هذه الدلالة وجدناها وافية بهذا الغرض لانهم انما أقاموا الدلالة على حدوث الاجسام والاعراض
فلو قدروا على اقامة الدلالة على أن ما سوى الله تعالى اما متحيز أو قائم بالمتحيز لتم غرضهم الا أن الخصم يثبت
موجودات لا متحيزة ولا قائمة بالمتحيز فالدليل الذي يبين حدوث المتحيز والقائم بالمتحيز لا يبين حدوث كل
ما سوى الله تعالى الا بعد قيام الدلالة على نفي ذلك القسم الثالث ولهم في نفي هذا القسم الثالث طريقان
(أحدهما) قولهم لا دليل عليه فوجب نفيه وهذه طريقة ركيكة بينا سقوطها في الكتب الكلامية
(والثاني) قولهم لو وجد موجود هكذا لكان مشاركا لله تعالى في نفي المكان والزمان والامكان ولو كان
كذلك لكان مثلا لله تعالى وهو ضعيف لاحتمال أن يقال انهما وان اشتركا في هذا السلب الا أنه يتميز كل
واحد منهما عن الآخر بماهيته وحقيقته واذا كان كذلك ظهر أن دليلهم العقلي لا يفي باثبات ان كل
شيء هالك الا وجهه والذي يعتمد عليه في هذا الباب أن نقول ثبت ان صانع العالم واجب الوجود لذاته

بالسكون كسدرة وسدر وهي حال من السماء والكاف في كما في محل النصب على أنه صفة مصدر محذوف أي اسقاطا مماثلا لما زعمت يعنون بذلك قوله تعالى أو نسقط عليهم كسفا من السماء (أو تأتي بالله والملائكة قبيلا) أي مقابلا كالعشير والمعاشر أي كفيلا يشهد بصحة ما تدعيه وهو حال من الجلالة وحال الملائكة محذوفة لدلالتها عليها أي والملائكة قبيلا كما حذف الخبر في قوله ☆فإني وقيار بها لغريب☆ أو جماعة فيكون حالا من الملائكة (أو يكون لك بيت من زخرف) من ذهب وقد قرئ به وأصله الزينة (أو ترقى في السماء) أي في معارجها فحذف المضاف يقال رقي في السلم وفي الدرجة (ولن نؤمن لرقيك) أي لأجل رقيك فيها وحده أو لن نصدق رقيك فيها (حتى تنزل) منها (علينا كتابا) فيه تصديقك (نقرؤه) نحن من غير أن يتلقى من قبلك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال عبد الله بن أبي أمية لن نؤمن لك حتى تتخذ إلى السماء سلما ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بصك منشور معه أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول وما كانوا يقصدون بهاتيك الاقتراحات الباطلة إلا العناد واللجاج ولو أنهم أوتوا أضعاف ما اقترحوا من الآيات ما زادهم ذلك إلا مكابرة وإلا فقد كان يكفيهم بعض ما شاهدوا من المعجزات التي تخر لها صم الجبال (قل) تعجبا من شدة شكيمتهم وتنزيها لساحة السبحان عما لا يكاد يليق بها من مثل هذه الاقتراحات الشنيعة التي تكاد السموات يتفطرن منها أو عن طلبك ذلك وتنبيها على بطلان ما قالوه (سبحان ربي) وقرئ قال سبحان ربي (هل كنت إلا بشرا) لا ملكا حتى يتصور مني الرقي في السماء ونحوه (رسولا) مأمورا من قبل ربي بتبليغ الرسالة من غير أن يكون لي تخيرة في الأمر كسائر الرسل وكانوا لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله على أيديهم حسبما يلائم حال قومهم ولم يكن أمر الآيات

لو فرضنا موجودا آخر واجبا لذاته لاشتركا في الوجوب وامتاز كل واحد منهما عن الآخر بخصوصيته وما به المشاركة غير ما به الممايزة فيكون كل واحد منهما مركبا مما به المشاركة ومما به الممايزة وكل مركب ممكن مفتقر إلى جزئه ثم ان الجزأين ان كانا واجبين كانا مشتركين في الوجوب ومتمايزين باعتبار آخر فيلزم تركب كل واحد منهما أيضا ويلزم التسلسل وهو محال وان لم يكونا واجبين فالمركب عنهما المفتقر إليهما أولى أن لا يكون واجبا فثبت أن واجب الوجود واحد وان كل ما عداه فهو ممكن وكل ممكن فلا بد له من مرجح وافتقاره إلى المرجح اما حال عدمه أو حال وجوده فان كان الأول ثبت انه محدث وان كان الثاني فافتقار الموجود إلى المؤثر اما حال حدوثه أو حال بقائه والثاني باطل لانه يلزم ايجاد الموجود وهو محال فثبت أن الافتقار لا يحصل الا حال الحدوث وثبت أن كل ما سوى الله تعالى محدث سواء كان متحيزا أو قائما بالمتحيز أو لا متحيزا ولا قائما بالمتحيز فان نقضت هذه الدلالة بذات الله وصفاته فاعلم أن هذا النقض قائم ما واذا ثبت حدوث كل ما سواه وثبت أن كل ما كان محدثا كان قابلا للعدم ثبت بهذا البرهان الباهر أن كل شيء هالك الا وجهه بمعنى كونه قابلا للهلاك والعدم ثم ان الذين فسروا الآية بذلك قالوا هذا أولى وذلك لانه سبحانه حكم بكونها هالكة في الحال وعلى ما قلناه فهي هالكة في الحال وعلى ما قالوه فانها ستهلك لا أنها هالكة في الحال فكان قولنا أولى وأيضا فالممكن اذا وجد من حيث هو لم يكن مستحقا لا للوجود ولا للعدم من ذاته فهذه الاستحقاقية مستحقة له من ذاته وأما الوجود فوارد عليه من الخارج فالوجود له كالثوب المستعار له وهو من حيث هو كالانسان الفقير الذي استعار ثوبا من رجل غني فان الفقير لا يخرج بسبب ذلك عن كونه فقيرا كذا الممكنات عارية عن الوجود من حيث هي هي وانما الوجود ثوب حصل لها بالعارية فصح انها أبدا هالكة من حيث هي هي أما الذين حملوه على انها ستعدم فقد احتجوا بأن قالوا الهلاك في اللغة له معنيان (أحدهما) خروج الشيء عن أن يكون منتفعا به (والثاني) الفناء والعدم لا جائز حمل اللفظ على الأول لان هلاكها بمعنى خروجها عن حد الانتفاع محال لانها وان تفرقت أجزاؤها فانها منتفع بها لان النفع المطلوب كونها بحيث يمكن أن يستدل بها على وجود الصانع القديم وهذه المنفعة باقية سواء بقيت متفرقة أو مجتمعة وسواء بقيت موجودة أو صارت معدومة واذا تعذر حمل الهلاك على هذا الوجه وجب حمله على الفناء أجاب من حمل الهلاك على التفرق قال هلاك الشيء خروجه عن المنفعة التي يكون الشيء مطلوبا لأجلها فاذا مات الانسان قيل هلك لان الصفة المطلوبة منه حياته وعقله واذا تمزق الثوب قيل هلك لان المقصود منه صلاحيته للبس فاذا تفرقت أجزاء العالم خرجت السموات والكواكب والجبال والبحار عن صفاتها التي لأجلها كانت منتفعا بها انتفاعا خاصا فلا جرم صح اطلاق اسم الهالك عليها وأما صحة الاستدلال بها على الصانع سبحانه فهذه المنفعة ليست منفعة خاصة بالشمس من حيث هي شمس والقمر من حيث هو قمر فلم يلزم من بقائها أن لا يطلق عليها اسم الهالك ثم احتجوا على بقاء أجزاء العالم بقوله يوم تبدل الأرض غير الأرض وهذا صريح بأن تلك الأجزاء باقية الا أنها صارت متصفة بصفة أخرى فوجب ما قلنا في هذا الموضع (المسألة الثانية) احتج أهل التوحيد بهذه الآية على أن الله تعالى شيء قالوا لانه استثنى من قوله كل شيء استثناء مخرجا ولولا انه لو وجب أو لصح دخوله تحت اللفظ فوجب كونه شيئا أثركذ ما ذكرناه في سورة الانعام وهو قوله قل أي شيء أكبر شهادة قل الله واحتجاجهم على انه ليس بشيء بقوله ليس كمثله شيء والكاف معناه المثل فتقدير الآية ليس مثل مثله شيء ومثل مثل الله هو الله فوجب أن لا يكون الله شيئا جوابه ان الكاف صلة زائدة (المسألة الثالثة)

اليهم ولا لهم أن يتحكموا على الله سبحانه بشئ منها وقوله بشرا خبرا كنت ورسولا صفته (وما منع الناس) أى الذين حكيت أباطيلهم (أن يؤمنوا) مفعول ثان لمنع وقوله (اذ جاءهم الهدى) أى الوحى ظرف لمنع أو يؤمنوا أى وما منعهم وقت مجئ الوحى المقرون بالمعجزات المستدعية للايمان ... أن يؤمنوا بالقرآن وبنبوتك أو ما منعهم أن يؤمنوا بذلك وقت مجئ ماذكر (الا أن قالوا) فى محل الرفع على أنه فاعل منع أى الا قولهم (أبعث الله بشرا رسولا) منكرين أن يكون رسول الله تعالى من جنس البشر وليس المراد أن هذا القول صدر عن بعضهم فمنع بعضا آخر منهم بل المانع هو الاعتقاد الشامل للكل المستتبع لهذا القول منهم وانما عبر عنه بالقول ايذانا بأنه مجرد قول يقولونه بأفواههم من غير أن يكون له مفهوم ومصداق وحصر المانع من الايمان فيما ذكر مع أن لهم موانع شتى لما أنه معظمها أو لانه هو المانع بحسب الحال أعنى عند سماع الجواب بقوله تعالى هل كنت الا بشرا رسولا اذ هو الذى يتشبثون به حينئذ من غير أن يخطر ببالهم شبهة أخرى من شبههم الواهية وفيه ايذان بكمال عنادهم حيث يشير الى أن الجواب المذكور مع كونه حاسما لمواد شبههم ملجئا الى الايمان يعكسون الامر ويجعلونه مانعا منه (قل) لهم أولا من قبلنا تبيينا للحكمة وتحقيقا للحق المزيح للريب (لو كان) أى لو وجد واستقر (فى الارض) بدل البشر (ملائكة يمشون مطمئنين) قارين فيها من غير أن يعرجوا فى السماء ويعلموا ما يجب أن يعلم (لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) يهديهم الى الحق ويرشدهم الى الخير لتمكنهم على

استدلت المجسمة بهذه الآية على أن الله تعالى جسم من وجهين (الاول) قالوا الآية صريحة فى اثبات الوجه وذلك يقتضى الجسمية (والثانى) قوله واليه ترجعون وكلمة الى لانتهاء الغاية وذلك لا يعقل الا فى الاجسام (والجواب) لو صح هذا الكلام يلزم أن يفنى جميع أعضائه وأن لا يبقى منه الا الوجه وقد التزم ذلك بعض المشبهة من الرافضة وهو بيان بن سمعان وذلك لا يقول به عاقل ثم من الناس من قال الوجه هو الوجود والحقيقة يقال وجه هذا الامر كذا أى حقيقته ومنهم من قال الوجه صلة والمراد كل شئ هالك الا هو وأما كلمة الى فالمعنى والى موضع حكمه وقضائه ترجعون (المسئلة الرابعة) استدلت المعتزلة به على أن الجنة والنار غير مخلوقتين قالوا لان الآية تقتضى فناء الكل فلو كانتا مخلوقتين لفنيتا وهذا يناقض قوله تعالى فى صفة الجنة أكلها دائم (والجواب) هذا معارض بقوله تعالى فى صفة الجنة أعدت للمتقين وفى صفة النار وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ثم اما أن يحمل قوله كل شئ هالك على الاكثر كقوله وأوتيت من كل شئ أو يحمل قوله أكلها دائم على أن زمان فنائهما لما كان قليلا بالنسبة الى زمان بقائهما لا جرم أطلق لفظ الدوام عليه (المسئلة الخامسة) قوله كل شئ هالك يدل على أن الذات ذات بالفعل لانه حكم بالهلاك على الشئ فدل على أن الشئ فى كونه شيأ قابل للهلاك فوجب أن لا يكون المعدوم شيأ والله أعلم والحمد لله رب العالمين

﴿سورة العنكبوت مكية وقيل مدنية وقيل نزلت من أولها الى رأس عشر بمكة وباقيها بالمدينة أو نزل الى آخر العشر بالمدينة وباقيها بمكة بالعكس وهى سبعون أو تسع وستون آية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ فى تفسير الآية وفيما يتعلق بالتفسير مسائل (المسئلة الاولى) فى تعلق أول هذه السورة بما قبلها وفيه وجوه (الاول) لما قال الله تعالى قبل هذه السورة ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد وكان المراد منه أن يرده الى مكة ظاهرا غالبا على الكفار ظافرا طالبا للثأر وكان فيه احتمال مشاق القتال صعب على البعض ذلك فقال الله تعالى الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا ولا يؤمروا بالجهاد (الوجه الثانى) هو أنه تعالى لما قال فى أواخر السورة المتقدمة وادع الى ربك وكان فى الدعاء اليه الطعان والحراب والضراب لان النبى عليه الصلاة والسلام وأصحابه كانوا مأمورين بالجهاد ان لم يؤمن الكفار بمجرد الدعاء فشق على البعض ذلك فقال أحسب الناس أن يتركوا (الوجه الثالث) هو أنه تعالى لما قال فى آخر السورة المتقدمة كل شئ هالك الا وجهه ذكر بعده ما يبطل قول المنكرين للحشر فقال له الحكم واليه ترجعون يعنى ليس كل شئ هالكا من غير رجوع بل كل هالك وله رجوع الى الله اذا تبين هذا فاعلم أن منكرى الحشر يقولون لا فائدة فى التكاليف فانها مشاق فى الحال ولا فائدة لها فى المآل اذ لا مآل ولا مرجع بعد الهلاك والزوال فلا فائدة فيها فلما بين الله أنهم اليه يرجعون بين أن الامر ليس على ما حسبوه بل حسن التكاليف ليثيب الشكور ويعذب الكفور فقال أحسب الناس أن يتركوا غير مكلفين من غير عمل يرجعون به الى ربهم (المسئلة الثانية) فى حكمة افتتاح هذه السورة بحروف من التهجى وانقدم عليه كلاما كليا فى افتتاح السور بالحروف فنقول الحكيم اذا خاطب من يكون محل الغفلة أو من يكون مشغول البال بشغل من الاشغال يقدم على الكلام المقصود شيأ غيره ليلتفت المخاطب بسببه اليه ويقبل بقلبه عليه ثم يشرع فى المقصود واذا ثبت هذا فنقول ذلك المقدم

من الاجتماع والتلقي منه وأما عامة البشر فهم بمعزل من استحقاق المفاوضة الملكية كيف لا وهي منوطة بالتناسب والتجانس فبعث الملك اليهم مزاحم للحكمة التي عليها مبنى التكوين والتشريع وانما يبعث الملك من بينهم الى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقين بكلا العالمين الروحاني والجسماني ليتلقوا من جانب ٥٠١ ويلقوا الى جانب وقوله تعالى ملكا يحتمل أن يكون حالا من رسول وأن يكون موصوفا به وكذلك بشرا في قوله تعالى أبعث الله بشرا رسولا والاول أولى (قل) لهم ثانيا من جهتك بعد ما قلت لهم من قبلنا ما قلت وبينت لهم ما تقتضيه الحكمة في البعثة ولم يرفعوا اليه رأسا (كفى بالله) وحده (شهيدا) على انى اديت ما علي من مواجب الرسالة أكمل أداء وانكم فعلتم ما فعلتم من التكذيب والعناد وتوجيه الشهادة الى كونه عليه السلام رسولا باظهار المعجزة على وفق دعواه كما اختير لا يساعده قوله تعالى (بيني وبينكم) وما بعده من التعليل وانما لم يقل بيننا تحقيقا للمفارقة وابانة للمباينة وشهيدا اما حال أو تمييز (انه كان بعباده) من الرسل والمرسل اليهم (خبيرا بصيرا) محيطا بظواهر أحوالهم وبواطنها فيجازيهم على ذلك وهو تعليل للكفاية وفيه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتهديد للكفار (ومن يهد الله) كلام مبتدأ يفصل ما أشار اليه الكلام السابق من مجازاة العباد اشارة اجمالية أي من يهده الله الى الحق بما جاء من قبله من الهدى (فهو المهتد) اليه والى ما يؤدي اليه من الثواب أو المهتدي الى كل مطلوب (ومن يضلل) أي يخلق فيه الضلال بسوء اختياره كهؤلاء المعاندين (فلن تجد لهم) أوثر ضمير الجماعة اعتبارا لمعنى من غب ما أوثر في مقابله الافراد نظرا الى لفظها تلويحا بوحدة طريق الحق وقلة سالكيه وتعدد سبل الضلال

على المقصود قد يكون كلاما له معنى مفهوم كقول القائل اسمع واجعل بالك الي وكن لي وقد يكون شيأ هو في معنى الكلام المفهوم كقول القائل أزيد ويا زيد والا يا زيد وقد يكون ذلك المتقدم على المقصود صوتا غير مفهوم كمن يصفر خلف انسان ليلتفت اليه وقد يكون ذلك الصوت بغير الفم كما يصفق الانسان بيديه ليقبل السامع عليه ثم ان موقع الغفلة كلما كان أتم والكلام المقصود كان أهم كان المقدم على المقصود أكثر ولهذا ينادى القريب بالهمزة فيقال أزيد والبعيد بيا فيقال يا زيد والغافل ينبه أولا فيقال الا يا زيد اذا ثبت هذا فنقول ان النبي صلى الله عليه وسلم وان كان يقظان الجنان لكنه انسان يشغله شأن عن شأن فكان يحسن من الحكيم أن يقدم على الكلام المقصود حروفا هي كالمنبهات ثم ان تلك الحروف اذا لم تكن بحيث يفهم معناها تكون أتم في افادة المقصود الذي هو التنبيه من تقديم الحروف التي لها معنى لان تقديم الحروف اذا كان لاقبال السامع على المتكلم لسماع ما بعد ذلك فاذا كان ذلك المقدم كلاما منظوما وقولا مفهوما فاذا سمعه السامع ربما ظن أنه كل المقصود ولا كلام له بعد ذلك فيقطع الالتفات عنه أما اذا سمع منه صوتا لا معنى له يقبل عليه ولا يقطع نظره عنه ما لم يسمع غيره لجزمه بأن ما سمعه ليس هو المقصود فاذن تقديم الحروف التي لا معنى لها في الوضع على الكلام المقصود فيه حكمة بالغة فان قال قائل فما الحكمة في اختصاص بعض السور بهذه الحروف فنقول عقل البشر عن ادراك الاشياء الجزئية على تفاصيلها عاجز والله أعلم بجميع الاشياء لكن نذكر ما يوفقنا الله له فنقول كل سورة في أوائلها حروف التهجي فان في أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن كقوله تعالى الم ذلك الكتاب الم الله لا اله الا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب المص كتاب أنزل اليك يس والقرآن ص والقرآن ق والقرآن الم تنزيل الكتاب حم تنزيل الكتاب الا ثلاث سور كهيعص الم أحسب الناس الم غلبت الروم والحكمة في افتتاح السور التي فيها القرآن أو التنزيل أو الكتاب بالحروف هي ان القرآن عظيم والانزال له ثقل والكتاب له عبء كما قال تعالى انا سنلقي عليك قولا ثقيلا وكل سورة في أولها ذكر القرآن والكتاب والتنزيل قدم عليها منبه يوجب ثبات المخاطب لاستماعه لا يقال كل سورة قرآن واستماعه استماع القرآن سواء كان فيها ذكر القرآن لفظا أو لم يكن فكان الواجب أن يكون في أوائل كل سورة منبه وأيضا فقد وردت سور فيها ذكر الانزال والكتاب ولم يذكر قبلها حروف كقوله تعالى الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب وقوله سورة أنزلناها وقوله تبارك الذي نزل الفرقان وقوله انا أنزلناه في ليلة القدر لانا نقول جوابا عن الاول لا ريب في ان كل سورة من القرآن لكن السورة التي فيها ذكر القرآن والكتاب مع أنها من القرآن تنبه على كل القرآن فان قوله تعالى طه ما أنزلنا عليك القرآن مع انها بعض القرآن فيها ذكر جميع القرآن فيصير مثاله مثال كتاب يرد من ملك على مملوكه فيه شغل ما وكتاب آخر يرد منه عليه فيه انا كتبنا اليك كتابا فيه أوامرنا فامتثلها لا شك أن عبء الكتاب الآخر أكثر من ثقل الاول وعن الثاني ان قوله الحمد لله وتبارك الذي تسبيحات مقصودة وتسبيح الله لا يغفل عنه العبد فلا يحتاج الى منبه بخلاف الاوامر والنواهي وأما ذكر الكتاب فيها فلبيان وصف عظمة من له التسبيح وسورة أنزلناها قد بينا انها بعض من القرآن فيها ذكر انزالها وفي السورة التي ذكرناها ذكر جميع القرآن فهو أعظم في النفس وأثقل وأما قوله تعالى انا أنزلناه فنقول هذا ليس واردا على مشغول القلب بشيء غيره بدليل انه ذكر الكناية فيها وهي ترجع الى مذكور سابق أو معلوم وقوله انا أنزلناه الهاء راجع الى معلوم عند النبي صلى الله عليه وسلم فكان متنبها له فلم ينبه واعلم أن التنبيه قد حصل في القرآن بغير الحروف التي لا يفهم معناها كما في قوله تعالى يا أيها

وكثرة الضلال (أولياء من دونه) من دون الله تعالى أي أنصارا يهدونهم الى طريق الحق أو الى طريق يوصلهم الى مطالبهم الدنيوية والاخروية أو الى طريق النجاة من العذاب الذي يستدعيه ضلالهم على معنى ان تجد لاحد منهم وليا على ما تقتضيه قضية مقابلة الجمع بالجمع من انقسام الآحاد الى الآحاد (ونحشرهم) التفات من الغيبة الى التكلم ايذانا بكمال الاعتناء بأمر الحشر (يوم القيامة على وجوههم) حال من الضمير المنصوب أي كائنين عليها سحبا كقوله تعالى يوم يسحبون في النار على وجوههم أو مشيا فقد روى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يمشون على وجوههم قال ان الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم (عميا) حال من الضمير المجرور في الحال السابقة (وبكما وصما) لا يبصرون ما يقر أعينهم ولا ينطقون ما يقبل منهم ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم لما قد كانوا في الدنيا لا يستبصرون بالآيات والعبر ولا ينطقون بالحق ولا يستمعونه ويجوز أن يحشروا بعد الحساب من الموقف الى النار مؤفي القوى والحواس وان يحشروا كذلك ثم يعاد اليهم قواهم وحواسهم فان ادراكاتهم بهذه المشاعر في بعض المواطن مما لا ريب فيه (مأواهم جهنم) اما حال أو استئناف وكذا قوله تعالى (كلما خبت زدناهم سعيرا) أي كلما سكن لهبها بأن أكلت جلودهم ولحومهم ولم يبق فيهم ما يتعلق به النار وتحرقه زدناهم توقدا بأن بدلناهم جلودا غيرها فعادت ملتهبة ومستعرة ولعل ذلك عقوبة لهم على انكارهم الاعادة بعد الفناء بتكريرها مرة بعد أخرى ليروها عيانا حيث لم يعلموها برهانا كما يفصح عنه قوله تعالى (ذلك) أي ذلك العذاب (جزاؤهم بأنهم) أي بسبب أنهم (كفروا بآياتنا) العقلية والنقلية الدالة على صحة الاعادة دلالة

الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شئ عظيم وقوله يا أيها النبي اتق الله ويا أيها النبي لم تحرم لانها أشياء هائلة عظيمة فان تقوى الله حق تقاته أمر عظيم فقدم عليها النداء الذي يكون للبعيد الغافل عنها تنبيها وأما هذه السورة افتتحت بالحروف وليس فيها الابتداء بالكتاب والقرآن وذلك لان القرآن ثقله وعبؤه بما فيه من التكاليف والمعاني وهذه السورة فيها ذكر جميع التكاليف حيث قال أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا يعني لا يتركون بمجرد ذلك بل يؤمرون بأنواع من التكاليف فوجد المعنى الذي في السورة التي فيها ذكر القرآن المشتمل على الاوامر والنواهي فان قيل مثل هذا الكلام ورد في سورة التوبة وهو قوله تعالى أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يقدم عليه حروف التهجي فنقول الجواب عنه في غاية الظهور وهو أن هذا ابتداء كلام ولهذا وقع الاستفهام بالهمزة فقال أحسب وذلك وسط كلام بدليل وقوع الاستفهام بأم والتنبيه يكون في أول الكلام لا في أثنائه وأما الم غلبت الروم فسيجيء في موضعه ان شاء الله تعالى هذا تمام الكلام في الحروف (المسئلة الثالثة) في اعراب الم وقد ذكرنا ذلك في سورة البقرة مع الوجوه المنقولة في تفسيره ونزيد ههنا على ما ذكرنا ان الحروف لا اعراب لها لانها جارية مجرى الاصوات المنبهة (المسئلة الرابعة) في سبب نزول هذه الآيات وفيه أقوال (الاول) انها نزلت في عمار بن ياسر وعياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وسلمة بن هشام وكانوا يعذبون بمكة (الثاني) انها نزلت في أقوام بمكة هاجروا وتبعهم الكفار فاستشهد بعضهم ونجا الباقون (الثالث) انها نزلت في مهجع بن عبد الله قتل يوم بدر (المسئلة الخامسة) في التفسير قوله أحسب الناس أن يتركوا يعني أظنوا انهم يتركون بمجرد قولهم آمنا وهم لا يفتنون لا يبتلون بالفرائض البدنية والمالية واختلف أئمة النحو في قوله أن يقولوا فقال بعضهم أن يتركوا بأن يقولوا وقال بعضهم أن يتركوا يقولون آمنا ومقتضى ظاهر هذا انهم يمنعون من قولهم آمنا كما يفهم من قول القائل تظن انك تترك أن تضرب زيدا أي تمنع من ذلك وهذا بعيد فان الله لا يمنع أحدا من أن يقول آمنت ولكن مراد هذا القائل هو أنهم لا يتركون يقولون آمنا من غير ابتلاء فيمنعون من هذا المجموع بايجاب الفرائض عليهم (المسئلة السادسة) في الفوائد المعنوية وهي أن المقصود الاقصى من الخلق العبادة والمقصد الاعلى في العبادة حصول محبة الله كما ورد في الخبر لا يزال العبد يتقرب الى بالعبادة حتى أحبه وكل من كان قلبه أشد امتلاء من محبة الله فهو أعظم درجة عند الله لكن للقلب ترجمان وهو اللسان وللسان مصدقات هي الاعضاء ولهذه المصدقات مزكيات فاذا قال الانسان آمنت باللسان فقد ادعى محبة الله في الجنان فلا بد له من شهود فاذا استعمل الاركان في الاتيان بما عليه بنيان الايمان حصل له على دعواه شهود مصدقات فاذا بذل في سبيل الله نفسه وماله وزكى بترك ما سواه أعماله زكى شهوده الذين صدقوه فيما قاله فحينئذ يكتب في جرائد المحبين اسمه ويفرد في أقسام المقربين قسمه واليه الاشارة بقوله أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا يعني أظنوا أن تقبل منهم دعواهم بلا شهود وشهودهم بلا مزكين بل لا بد من ذلك جميعه ليكونوا من المحبين (فائدة ثانية) وهي ان أدنى درجات العبد أن يكون مسلما فان ما دونه دركات الكفر فالاسلام أول درجة تحصل للعبد فاذا حصل له هذه المرتبة كتب اسمه وأثبت قسمه لكن المستخدمين عند الملوك على أقسام منهم من يكون ناهضا في شغله ماضيا في فعله فينتقل من خدمة الى خدمة أعلى منها مرتبة ومنهم من يكون كسلانا متخلفا فينقل من خدمة الى خدمة أدنى منها ومنهم من يترك على شغله من غير تغيير ومنهم من يقطع رسمه ويمحى من الجرائد اسمه فكذلك عباد الله قد يكون المسلم عابدا مقبلا على العبادة مقبولا للسعادة فينتقل من مرتبة المؤمنين الى

واضحة فذلك مبتدأ أو جزاؤهم خبره ويجوز أن يكون مبتدأ ثانيا وبآياتنا خبره والجملة خبر الذلك وأن يكون جزاؤهم بدلا من ذلك أو بيانا له والخبر هو الظرف (وقالوا) منكرين أشد الانكار (أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) اما مصدر مؤكد من غير لفظه أى لمبعوثون بعثا جديدا واما حال أى مخلوقين مستأنفين (أولم يروا) أى ألم يتفكروا ولم يعلموا (أن الله الذى خلق السموات والارض) من غير مادة مع عظمهم (قادر على أن يخلق مثلهم) فى الصغر على أن المثل مقحم والمراد بالخلق الاعادة كما عبر عنها بذلك حيث قيل خلقا جديدا (وجعل لهم أجلا لا ريب فيه) عطف على أولم يروا فانه فى قوة قد رأوا المعنى قد علموا أن من قدر على خلق السموات والارض فهو قادر على خلق أمثالهم من الانس وجعل لهم ولبعثهم أجلا محققا لا ريب فيه هو يوم القيامة (فأبى الظالمون) وضع موضع الضمير تسجيلا عليهم بالظلم وتجاوزا لحد بالمرة (الا كفورا) أى جحودا (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى) خزائن رزقه التى أفاضها على كافة الموجودات وأنتم مرتفع بفعل يفسره المذكور كقول حاتم لو ذات سوار لطمتنى وفائدة ذلك المبالغة والدلالة على الاختصاص (اذن لأمسكتم) لبخلتم (خشية الانفاق) مخافة النفاد بالانفاق اذ ليس فى الدنيا أحد الا وهو يختار النفع لنفسه ولو آثر غيره بشئ فانما يؤثره لعوض يفوقه فاذن هو بخيل بالاضافة الى جود الله سبحانه (وكان الانسان قتورا) مبالغا فى البخل لان مبنى أمره على الحاجة والضنة بما يحتاج اليه وملاحظة العوض بما يبذله (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) واضحات الدلالة على نبوته وصحة ما جاء به من عند الله وهى العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم والطوفان والسنون ونقص الثمرات وقيل انفجار الماء من الحجر ونتق الطور

درجة الموقنين وهى درجة المقربين ومنهم من يكون قليل الطاعة مشتغلا بالبطالة فينقل الى مرتبة دونه وهى مرتبة العصاة وهم بمنزلة القساة وقد يستصغر العيوب ويستكثر الذنوب فيخرج من العباد محروما ويلحق بأهل العناد مرجوما ومنهم من يبقى فى أول درجة الجنة وهم البله فقال الله بشارة للمطيع الناهض أحسب الناس أن يتركوا يعنى أظنوا أنهم يتركون فى أول المقامات لا بل ينقلون الى أعلى الدرجات كما قال تعالى والذين أوتوا العلم درجات فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة وقال تهديدا للكسلان أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا يعنى اذا قال آمنت ويتخلف بالعصيان ويترك ويرضى منه لا بل ينقل الى مقام أدنى وهو مقام العاصى أو الكافر ﴿ ثم قال تعالى ﴿ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ ذكر الله ما يوجب تسليتهم فقال كذلك فعل الله بمن قبلكم ولم يتركهم بمجرد قولهم آمنا بل فرض عليهم الطاعات وأوجب عليهم العبادات وفى قوله فليعلمن الله الذين صدقوا وجوه (الاول) قول مقاتل فليرين الله (الثانى) فليظهرن الله (الثالث) فليميزن الله والحاصل على هذا وأن المفسرين ظنوا أن حمل الآية على ظاهرها يوجب تجدد علم الله والله عالم بالصادق والكاذب قبل الامتحان فكيف يمكن أن يقال يعلمه عند الامتحان فنقول الآية محمولة على ظاهرها وذلك أن علم الله صفة يظهر فيها كل ما هو واقع كما هو واقع فقبل التكليف كان الله يعلم أن زيدا مثلا سيطيع وعمرا سيعصى ثم وقت التكليف والاتيان يعلم أنه مطيع والآخر عاص وبعد الاتيان يعلم أنه أطاع والآخر عصى ولا يتغير علمه فى شئ من الاحوال وانما المتغير المعلوم ونبين هذا بمثال من المحسوسات ولله المثل الاعلى وهو أن المرآة الصافية الصقيلة اذا علقت من موضع وقوبل بها وجه فاذا جهة ولم تحرك ثم عبر عليها زيد لابسا ثوبا أبيض ظهر فيه زيد فى ثوب أبيض واذا عبر عليها عمرو فى لباس أصفر يظهر فيها كذلك فهل يقع فى ذهن أحد أن المرآة فى كونها حديدة تغيرت أو يقع له أنها تدور بها دلت أو يذهب فهمه الى أنها فى صقالتها اختلفت أو يخطر بباله أنها عن مكانها انتقلت لا يقع لاحد شئ من هذه الاشياء ويقطع بأن المتغير الخارجات فافهم علم الله من هذا المثال بل أعلى من هذا المثال فان المرآة ممكنة التغير وعلم الله غير ممكن عليه ذلك فقوله فليعلمن الله الذين صدقوا يعنى يقع من يعلم الله أن يطيع الطاعة فيعلم أنه مطيع بذلك العلم وليعلمن الكاذبين يعنى من قال أنا مؤمن وكان صادقا عند فرض العبادات يظهر منه ذلك ويعلم ومن قال ذلك وكان منافقا كذلك يبين وفى قوله الذين صدقوا بصيغة الفعل وقوله الكاذبين باسم الفاعل فائدة مع ان الاختلاف فى اللفظ أدل على الفصاحة وهى ان اسم الفاعل يدل فى كثير من المواضع على ثبوت المصدر فى الفاعل ورسوخه فيه والفعل الماضى لا يدل عليه كما يقال فلان شرب الخمر وفلان شارب الخمر وفلان نفذ أمره وفلان نافذ الامر فانه لا يفهم من صيغة الفعل التكرار والرسوخ ومن اسم الفاعل يفهم ذلك اذا ثبت هذا فنقول وقت نزول الآية كانت الحكاية عن قوم قريبى العهد بالاسلام فى أوائل ايجاب التكاليف وعن قوم مستديمين للكفر مستمرين عليه فقال فى حق المؤمنين الذين صدقوا بصيغة الفعل أى وجد منهم الصدق وقال فى حق الكافر الكاذبين بالصيغة المنبئة عن الثبات والدوام ولهذا قال يوم ينفع الصادقين صدقهم بلفظ اسم الفاعل وذلك لان فى اليوم المذكور الصدق قد رسخ فى قلب المؤمن وهو اليوم الآخر ولا كذلك فى أوائل الاسلام ﴿ ثم قال تعالى ﴿أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون﴾ لما بين حسن التكليف بقوله أحسب الناس أن يتركوا بين أن من كلف بشئ ولم يأت به يعذب وان لم يعذب فى الحال فسيعذب فى الاستقبال ولا يفوت الله

شئ فى الحال ولا فى المآل وهذا ابطال مذهب من يقول التكاليف ارشادات والايعاد عليه ترغيب وترهيب ولا يوجد من الله تعذيب ولو كان يعذب ما كان عاجزا عن العذاب عاجلا فلم كان يؤخر العقاب فقال تعالى أم حسب الذين يعملون السيآت أن يسبقونا يعنى ليس كما قالوا بل يعذب من يعذب ويثيب من يثيب بحكم الوعد والايعاد والله لا يخلف الميعاد وأما الامهال فلا يفضى الى الاهمال والتعجيل فى جزاء الاعمال شغل من يخاف الفوت لولا الاستعجال ثم قال تعالى ساء ما يحكمون يعنى حكمهم بانهم يعصون ويخالفون أمر الله ولا يعاقبون حكم سيئ فان الحكم الحسن لا يكون الا حكم العقل أو حكم الشرع والعقل لا يحكم على الله بذلك فان الله له أن يفعل ما يريد والشرع حكمه بخلاف ما قالوه فحكمهم حكم فى غاية السوء والرداءة ثم قال تعالى ﴿من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت وهو السميع العليم﴾ لما بين بقوله أحسب الناس أن العبد لا يترك فى الدنيا سدى وبين فى قوله أم حسب الذين يعملون السيآت أن من ترك ما كلف به يعذب كذا بين أن من يعترف بالآخرة ويعمل لها لا يضيع عمله ولا يخيب أمله وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) انا ذكرنا فى مواضع أن الاصول الثلاثة وهى الاول وهو الله تعالى ووحدانيته والاصل الآخر وهو اليوم الآخر والاصل المتوسط وهو النبى المرسل من الاول الموصل الى الآخر لا يكاد ينفصل فى الذكر الالهى بعضها عن بعض فقوله أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا فيه اشارة الى الاصل الاول يعنى أظنوا أنه يكفى الاصل الاول وقوله وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم يعنى بارسال الرسل وايضاح السبل فيه اشارة الى الاصل الثانى وقوله أم حسب الذين يعملون السيآت مع قوله من كان يرجو لقاء الله فيه اشارة الى الاصل الثالث وهو الآخر (المسئلة الثانية) ذكر بعض المفسرين فى تفسير لقاء الله انه الرؤية وهو ضعيف فان اللقاء والملاقاة بمعنى وهو فى اللغة بمعنى الوصول حتى ان جمادين اذا تواصلا فقد لاقى أحدهما الآخر (المسئلة الثالثة) قال بعض المفسرين المراد من الرجاء الخوف والمعنى من قوله من كان يرجو لقاء الله من كان يخاف الله وهو أيضا ضعيف فان المشهور فى الرجاء هو توقع الخير لا غير ولانا أجمعنا على أن الرجاء ورد بهذا المعنى يقال أرجو فضل الله ولا يفهم منه أخاف فضل الله واذا كان وارد الهذا فلا يكون لغيره دفعا للاشتراك (المسئلة الرابعة) يمكن أن يكون المراد بأجل الله الموت ويمكن أن يكون هو الحياة الثانية بالحشر فان كان هو الموت فهذا ينبئ عن بقاء النفوس بعد الموت كما ورد فى الاخبار وذلك لان القائل اذا قال من كان يرجو الخير فان السلطان واصل يفهم منه أن متصلا بوصول السلطان يكون هو الخير حتى انه لو وصل هو وتأخر الخير يصح أن يقال للقائل أما قلت ما قلت ووصل السلطان ولم يظهر الخير فلو لم يحصل اللقاء عند الموت لما حسن ذلك كما ذكرنا فى المثال واذا تبين هذا فلولا البقاء لما حصل اللقاء (المسئلة الخامسة) قوله من كان يرجو شرط وجزاؤه فان أجل الله لآت والمعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط فمن لا يرجو لقاء الله لا يكون أجل الله آتيا له وهذا باطل فما الجواب عنه نقول المراد من ذكر اتيان الاجل وعد المطيع بما بعده من الثواب يعنى من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت بثواب الله يثاب على طاعته عنده ولا شك أن من لا يرجوه لا يكون أجل الله آتيا على وجه يثاب هو (المسئلة السادسة) قال وهو السميع العليم ولم يذكر صفة غيرهما كالعزيز الحكيم وغيرهما وذلك لانه سبق القول فى قوله أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا وسبق الفعل بقوله وهم لا يفتنون وبقوله فليعلمن الله الذين صدقوا وبقوله أم حسب الذين يعملون السيآت ولا شك أن القول يدرك بالسمع والعمل منه ما لا يدرك بالبصر ومنه ما يدرك به كالمقصود والعلم يشملهما فقال وهو السميع يسمع ما قالوه وهو العليم يعلم من

على بنى اسرائيل وانفلاق البحر بدل الثلاث الاخيرة ويأباه أن هذه الثلاث لم تكن منزلة اذ ذاك وأن الاوليين لا تعلق لهما بفرعون وانما أوتيهما بنو اسرائيل وعن صفوان بن عسال ان يهود يا سأل النبى عليه الصلاة والسلام عنها فقال أن لا تشركوا به شيأ ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ولا تسحروا ولا تأكلوا الربا ولا تمشوا ببرىء الى ذى سلطان ليقتله ولا تقذفوا محصنة ولا تفروا من الزحف وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا فى السبت فقبل اليهودى يده ورجله عليه السلام ولا يساعده أيضا ما ذكر ولعل جوابه عليه السلام بذلك لما أنه المهم للسائل وقبوله لما أنه كان فى التوراة مسطورا وقد علم أنه ما علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم الا من جهة الوحى (فاسأل بنى اسرائيل) وقرئ فسل أى فقلنا له سلهم عن فرعون وقل له أرسل معى بنى اسرائيل أو سلهم عن ايمانهم أو عن حال دينهم أو سلهم أن يعاضدوك وتؤيده قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم على صيغة الماضى وقيل خطاب للنبى عليه الصلاة والسلام أى فاسألهم عن تلك الآيات لتزداد يقينا وطمأنينة أو ليظهر صدقك (اذ جاءهم) متعلق بقلنا أو بسأل على القراءة المذكورة وبآتينا أو بمضمر هو يخبروك أو اذكر على تقدير كون الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام (فقال له فرعون) الفاء فصيحة أى فأظهر عند فرعون ما آتيناه من الآيات البينات وبلغه ما أرسل به فقال له فرعون (انى لأظنك يا موسى مسحورا) سحرت فتخبط عقلك (قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء) يعنى الآيات التى أظهرها (الا رب السموات والارض) خالقهما ومدبرهما والتعرض لربوبيته تعالى لهما للايذان بانه لا يقدر على ايجاد مثل هاتيك الآيات العظام الا خالقهما

صدق

صدق فيما قال ممن كذب وأيضا عالم يعلم ما يعمل فيثيب ويعاقب * وههنا لطيفة وهي أن العبد له ثلاثة أمور هي أصناف حسناته أحدها عمل قلبه وهو التصديق وهو لا يرى ولا يسمع وإنما يعلم وعمل لسانه وهو يسمع وعمل أعضائه وجوارحه وهو يرى فإذا أتى بهذه الأشياء يجعل الله لمسموعه ما لا أذن سمعت ولمرئيه ما لا عين رأت ولعمل قلبه ما لا خطر على قلب أحد كما وصف في الخبر في وصف الجنة * ثم قال تعالى ﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين﴾ لما بين أن التكليف حسن واقع وأن عليه وعدا وإيعادا ليس لهما دافع بين أن طلب الله ذلك من المكلف ليس لنفع يعود إليه فإنه غني مطلقا ليس شيء غيره يتوقف كماله عليه ومثل هذا كثير في القرآن كقوله تعالى من عمل صالحا فلنفسه وقوله تعالى ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وفي الآية مسائل (المسألة الأولى) الآية السابقة مع هذه الآية توجبان إكثار العبد من العمل الصالح وإتقانه له وذلك لأن من يفعل فعلا لأجل ملك ويعلم أن الملك يراه ويبصره يحسن العمل ويتقنه وإذا علم أن نفعه له وهو قدر ما يعمله يكثر منه فإذا قال الله إنه سميع عليم فالعبد يتقن عمله ويخلصه له وإذا قال بأن جهاده لنفسه يكثر منه (المسألة الثانية) لقائل أن يقول هذا يدل على أن الجزاء على العمل لأن الله تعالى لما قال من جاهد فإنما يجاهد لنفسه فهم منه أن من جاهد ربح بجهاده ما لولاه لما ربح فنقول هو كذلك ولكن بحكم الوعد لا بالاستحقاق وبيانه هو أن الله تعالى لما بين أن المكلف إذا جاهد بقيه فإذا أتى به يكون جهادا نافعا له ولا نزاع فيه وإنما النزاع في أن الله يجب عليه أن يثيب على العمل لولا الوعد ولا يجوز أن يحسن إلى أحد إلا بالعمل ولا دلالة للآية عليه (المسألة الثالثة) قوله فإنما يقتضي الحصر فينبغي أن يكون جهاد المرء لنفسه فحسب ولا ينتفع به غيره وليس كذلك فإن من جاهد ينتفع به ومن يريد هو نفعه حتى أن الوالد والولد ببركة المجاهد وجهاده ينتفعان فنقول ذلك نفع له فإن انتفاع الولد انتفاع للأب والحصر ههنا معناه أن جهاده لا يصل إلى الله منه نفع ويدل عليه قوله تعالى ان الله لغني عن العالمين وفيه مسائل (المسألة الأولى) تدل الآية على أن رعاية الأصلح لا تجب على الله لأنه بالأصلح لا يستفيد فائدة وإلا لكان مستكملا بتلك الفائدة وهي غيره وهي من العالم فيكون مستكملا بغيره فيكون محتاجا إليه وهو غني عن العالمين وأيضا أفعاله غير معللة لما بينا (المسألة الثانية) تدل الآية على أنه ليس في مكان وليس على العرش كما يزعمون فإنه من العالم والله غني عنه والمستغني عن المكان لا يمكن دخوله في مكان لأن الداخل في المكان يشار إليه بأنه ههنا أو هناك على سبيل الاستقلال وما يشار إليه بأنه ههنا أو هناك يستحيل أن لا يوجد لا ههنا ولا هناك والا لجوز العقل إدراك جسم لا في مكان وأنه محال (المسألة الثالثة) لو قال قائل ليست قادريته بقدرة ولا عالميته بعلم وإلا لكان هو في قادريته محتاجا إلى قدرة هي غيره وكل ما هو غيره فهو من العالم فيكون محتاجا وهو غني * نقول لم قلتم إن قدرته من العالم وهذا لأن العالم كل موجود سوى الله بصفاته أي كل موجود هو خارج عن مفهوم الإله الحي القادر المريد العالم السميع البصير المتكلم والقدرة ليست خارجة عن مفهوم القادر والعلم ليس خارجا عن مفهوم العالم (المسألة الرابعة) الآية فيها إشارة وفيها إنذار أما الإنذار فلأن الله إذا كان غنيا عن العالمين فلو أهلك عباده بعذابه فلا شيء عليه لغناه عنهم وهذا يوجب الخوف العظيم وأما الإشارة فلأنه إذا كان غنيا فلو أعطى جميع ما خلقه لعبد من عباده لا شيء عليه لاستغنائه عنه وهذا يوجب الرجاء التام * ثم قال تعالى ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيآتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون﴾ لما بين إجمالا أن من يعمل صالحا فلنفسه بين مفصلا بعض التفصيل أن جزاء المطيع الصالح عمله فقال

ومدبرهما (بصائر) حال من الآيات أي بينات مكشوفات تبصرك صدقي ولكنك تعاند وتكابر نحو وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ومن ضرورة ذلك العلم العلم بأنه عليه الصلاة والسلام على كمال رصانة العقل فضلا عن توهم المسحورية وقرئ علمت على صيغة التكلم أي لقد علمت بيقين أن هذه الآيات الباهرة أنزلها الله عز سلطانه فكيف يتوهم أن يحوم حولي سحر (واني لأظنك يا فرعون مثبورا) مصروفا عن الخير مطبوعا على الشر من قولهم ما ثبرك عن هذا أي ما صرفك أو هالكا ولقد قارع عليه السلام ظنه بظنه وشتان بينهما كيف لا وظن فرعون إفك مبين وظنه عليه الصلاة والسلام يتاخم اليقين (فأراد) أي فرعون (أن يستفزهم) أي يستخفهم ويزعجهم (من الأرض) أي أرض مصر أو من الأرض مطلقا بالقتل كقوله سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم (فأغرقناه ومن معه جميعا) فعكسنا عليه مكره واستفززناه وقومه بالإغراق (وقلنا من بعده) من بعد إغراقهم (لبني إسرائيل اسكنوا الأرض) التي أراد أن يستفزكم منها (فإذا جاء وعد الآخرة) الكرة الآخرة أو الحياة أو الساعة أو الدار الآخرة أي قيام القيامة (جئنا بكم لفيفا) مختلطين إياكم وإياهم ثم نحكم بينكم ونميز سعداءكم من أشقيائكم واللفيف الجماعات من قبائل شتى (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل) أي وما أنزلنا القرآن إلا ملتبسا بالحق المقتضي لإنزاله وما نزل إلا ملتبسا بالحق الذي اشتمل عليه أو ما أنزلناه من السماء إلا محفوظا وما نزل على الرسول إلا محفوظا من تخليط الشياطين ولعل المراد بيان عدم اعتراء البطلان له أول الأمر وآخره (وما أرسلناك إلا مبشرا) للمطيع بالثواب (ونذيرا) للعاصي من العقاب وهو تحقيق لحقية بعثته

عليه الصلاة والسلام اثر تحقيق حقية انزال القرآن (وقرآنا) منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى (فرقناه) وقرئ بالتشديد دلالة على كثرة نجومه (لتقرأه على الناس على مكث) على مهل وتثبت فانه أيسر للحفظ وأعون على الفهم وقرئ بالفتح وهو لغة فيه (ونزلناه تنزيلا) حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ويقع من الحوادث والواقعات (قل) للذين كفروا (آمنوا به أولا تؤمنوا) فان ايمانكم به لا يزيده كمالا وامتناعكم لا يورثه نقصا (ان الذين أوتوا العلم من قبله) أى العلماء الذين قرؤا الكتب السالفة من قبل تنزيله وعرفوا حقيقة الوحى وأمارات النبوة وتمكنوا من التمييز بين الحق والباطل والمحق والمبطل ورأوا فيها نعتك ونعت ما أنزل اليك (اذا يتلى) أى القرآن (عليهم يخرون للاذقان) أى يسقطون على وجوههم (سجدا) تعظيما لامر الله تعالى أو شكرا لانجاز ما وعد به فى تلك الكتب من بعثتك وتخصيص الاذقان بالذكر للدلالة على كمال التذلل اذ حينئذ يتحقق الخرور عليها وايثار اللام للدلالة على اختصاص الخرور بها كما فى قوله

فخر صريعا لليدين وللفم

وهو تعليل لما يفهم من قوله تعالى آمنوا به أو لا تؤمنوا من عدم المبالاة بذلك أى ان لم تؤمنوا به فقد آمن به أحسن ايمان من هو خير منكم ويجوز أن يكون تعليلا لقل على سبيل التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قيل تسل بايمان العلماء عن ايمان الجهلة ولا تكترث بايمانهم واعراضهم (ويقولون) فى سجودهم (سبحان ربنا) عما يفعل الكفرة من التكذيب أو عن خلف وعده (ان كان وعد ربنا لمفعولا) ان مخففة من المثقلة واللام فارقة أى ان الشأن هذا (ويخرون للاذقان يبكون) كرر الخرور للاذقان لاختلاف السبب فان الاول لتعظيم أمر الله تعالى أو الشكر لانجاز الوعد وذلك

والذين آمنوا وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) انها تدل على أن الاعمال مغايرة للايمان لان العطف يوجب التغاير (المسئلة الثانية) انها تدل على أن الاعمال داخلة فيما هو المقصود من الايمان لان تكفير السيآت والجزاء بالاحسن معلق عليها وهى ثمرة الايمان ومثال هذا شجرة مثمرة لا شك فى أن عروقها وأغصانها منها والماء الذى يجرى عليها والتراب الذى حواليها غير داخل فيها لكن الثمرة لا تحصل الا بذلك الماء والتراب الخارج فكذلك العمل الصالح مع الايمان وأيضا الشجرة لو احتفت بها الحشائش المفسدة والاشواك المضرة ينقص ثمرة الشجرة وان غلبتها عدمت الثمرة بالكلية وفسدت فكذلك الذنوب تفعل بالايمان (المسئلة الثالثة) الايمان هو التصديق كما قال وما أنت بمؤمن لنا أى بمصدق واختص فى استعمال الشرع بالتصديق بجميع ما قال الله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل التفصيل ان علم مفصلا انه قول الله أو قول الرسول أو على سبيل الاجمال فيما لم يعلم والعمل الصالح عندنا كل ما أمر الله به صار صالحا بأمره ولو نهى عنه لما كان صالحا فليس الصلاح والفساد من لوازم الفعل فى نفسه وقالت المعتزلة ذلك من صفات الفعل ويترتب عليه الامر والنهى فالصدق عمل صالح فى نفسه ويأمر الله به لذلك فعندنا الصلاح والفساد والحسن والقبح يترتب على الامر والنهى وعندهم الامر والنهى يترتب على الحسن والقبح والمسئلة بطولها فى الاصول (المسئلة الرابعة) العمل الصالح باق لان الصالح فى مقابلة الفاسد والفاسد هو الهالك التالف يقال فسد الزروع اذا هلكت أو خرجت عن درجة الانتفاع ويقال هى بعد صالحة أى باقية على ما ينبغى اذا علم هذا فنقول العمل الصالح لا يبقى بنفسه لانه عرض ولا يبقى بالعامل أيضا لانه هالك كما قال تعالى كل شئ هالك فبقاؤه لا بد من أن يكون بشئ باق لكن الباقى هو وجه الله لقوله كل شئ هالك الا وجهه فينبغى أن يكون العمل لوجه الله حتى يبقى فيكون صالحا وما لا يكون لوجهه لا يبقى لا بنفسه ولا بالعامل ولا بالمعمول له فلا يكون صالحا فالعمل الصالح هو الذى أتى به المكلف لوجه الله (المسئلة الخامسة) هذا يقتضى أن تكون النية شرطا فى الصالحات من الاعمال وهى قصد الايقاع لله ويندرج فيها النية فى الصوم خلافا لزفر وفى الوضوء خلافا لابى حنيفة رحمه الله (المسئلة السادسة) العمل الصالح مرفوع لقوله تعالى والعمل الصالح يرفعه لكنه لا يرتفع الا بالكلم الطيب فانه يصعد بنفسه كما قال تعالى اليه يصعد الكلم الطيب وهو يرفع العمل فالعمل من غير المؤمن لا يقبل ولهذا قدم الايمان على العمل (وههنا لطيفة) وهى أن أعمال المكلف ثلاثة عمل قلبه وهو فكره واعتقاده وتصديقه وعمل لسانه وهو ذكره وشهادته وعمل جوارحه وهو طاعته وعبادته فالعبادة البدنية لا ترتفع بنفسها وانما ترتفع بغيرها والقول الصادق يرتفع بنفسه كما بين فى الآية وعمل القلب وهو الفكر ينزل اليه كما قال النبى صلى الله عليه وسلم ان الله ينزل الى السماء الدنيا ويقول هل من تائب والتائب النادم بقلبه وكذلك قوله عليه السلام يقول الله عز وجل أنا عند المنكسرة قلوبهم يعنى بالفكرة فى عجزه وقدرتى وحقارته وعظمتى ومن حيث العقل من تفكر فى آلاء الله وجد الله وحضر فى ذهنه فعلم ان لعمل القلب أتى الله وعمل اللسان يذهب الى الله وعمل الاعضاء يوصل الى الله وهذا تنبيه على فضل عمل القلب (المسئلة السابعة) ذكر الله من أعمال العبد شيئين الايمان والعمل الصالح وذكر فى مقابلتهما من أفعال الله أمرين تكفير السيآت والجزاء بالاحسن حيث قال لنكفرن عنهم سيآتهم ولنجزينهم أحسن فتكفير السيآت فى مقابلة الايمان والجزاء بالاحسن فى مقابلة العمل الصالح وهذا يقتضى أمورا (الاول) المؤمن لا يخلد فى النار لان بايمانه تكفر سيآته فلا يخلد فى العذاب (الثانى) الجزاء الاحسن المذكور ههنا غير الجنة

والثاني لما أثر فيهم من مواعظ القرآن حال كونهم باكين من خشية الله (ويزيدهم) أي القرآن بسماعهم (خشوعا) كما يزيدهم علما
ويقينا بالله تعالى (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) نزل حين سمع المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يا الله يا رحمن فقالوا انه
ينهانا عن عبادة الهين وهو يدعو الها آخر وقالت اليهود انك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثره الله تعالى في التوراة والمراد على

وذلك لان المؤمن بإيمانه يدخل الجنة اذ تكفر سيآته ومن كفرت سيآته أدخل الجنة فالجزاء الاحسن
يكون غير الجنة وهو مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ولا يبعد أن يكون هو الرؤية (الامر
الثالث) هو ان الايمان يستر قبح الذنوب في الدنيا فيستر الله عيوبه في الاخرى والعمل الصالح يحسن حال
الصالح في الدنيا فيجزيه الله الجزاء الاحسن في العقبى فالايمان اذن لا يبطله العصيان بل هو يغلب
المعاصي ويسترها ويحمل صاحبها على الندم والله أعلم (المسئلة الثامنة) قوله لنكفرن عنهم سيآتهم
يستدعي وجود السيآت حتى تكفر والذين آمنوا وعملوا الصالحات بأسرها من أين يكون لهم سيئة
فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن وعد الجميع بأشياء لا يستدعي وعد كل واحد بكل واحد
من تلك الاشياء مثاله اذا قال الملك لاهل بلد اذا أطعتموني أكرم آباءكم واحترم أبناءكم وأنعم عليكم وأحسن
اليكم لا يقتضي هذا انه يكرم آباء من توفي أبوه أو يحترم ابن من لم يولد له ولد بل مفهومه انه يكرم أب من له
أب ويحترم ابن من له ابن فكذلك يكفر سيئة من له سيئة (الجواب الثاني) ما من مكلف الا وله سيئة أما
غير الانبياء فظاهر وأما الانبياء فلان ترك الافضل منهم كالسيئة من غيرهم ولهذا قال تعالى عفا الله عنك لم
أذنت لهم (المسئلة التاسعة) قوله ولنجزينهم أحسن يحتمل وجهين (أحدهما) لنجزينهم بأحسن أعمالهم
(وثانيهما) لنجزينهم أحسن من أعمالهم وعلى الوجه الاول معناه نقدر أعمالهم أحسن ما تكون
ونجزيهم عليها الا أنه يختار منها أحسنها ويجزي عليه ويترك الباقي وعلى الوجه الثاني معناه قريب من معنى
قوله تعالى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وقوله فله خير منها (المسئلة العاشرة) ذكر حال المسيء مجملا
بقوله أم حسب الذين يعملون السيآت أن يسبقونا اشارة الى التعذيب مجملا وذكر حال المحسن مجملا بقوله
ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ومفصلا بهذه الآية لما يكون ذلك اشارة الى أن رحمته أتم من غضبه وفضله أعم
من عدله ۞ ثم قال تعالى ﴿ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا
تطعهما الي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) ما وجه تعلق الآية
بما قبلها نقول لما بين الله حسن التكاليف ووقوعها وبين ثواب من حقق التكاليف أصولها وفروعها
تحريضا للمكلف على الطاعة ذكر المانع ومنعه من أن يختار اتباعه فقال الانسان ان انقاد لاحد ينبغي أن
ينقاد لابويه ومع هذا لو أمراه بالمعصية لا يجوز اتباعهما فضلا عن غيرهما فلا يمنعن أحدكم شيء من طاعة
الله ولا يتبعن أحد من يأمر بمعصية الله (المسئلة الثانية) في القراءة قرئ حسنا واحسانا وحسنا أظهرها هنا
ومن قرأ احسانا فمن قوله تعالى وبالوالدين احسانا والتفسير على القراءة المشهورة هو أن الله تعالى وصى
الانسان بأن يفعل مع والديه حسن التأتي بالفعل والقول ونكر حسنا ليدل على الكمال كما يقال ان لزيد
مالا (المسئلة الثالثة) في قوله ووصينا الانسان بوالديه حسنا دليل على أن متابعتهم في الكفر لا تجوز وذلك
لان الاحسان بالوالدين وجب بأمر الله تعالى فلو ترك العبد عبادة الله تعالى بقول الوالدين لترك طاعة
الله تعالى فلا ينقاد لما وصاه به فلا يحسن الى الوالدين فاتباع العبد أبويه لا يحصل الاحسان اليهما يفضي الى
ترك الاحسان اليهما وما يفضي وجوده الى عدمه باطل فالاتباع باطل وأما اذا امتنع من الشرك بقي على
الطاعة والاحسان اليهما من الطاعة فيأتي به فترك هذا الاحسان صورة يفضي الى الاحسان حقيقة
(المسئلة الرابعة) الاحسان بالوالدين مأمور به لانهما سبب وجود الولد بالولادة وسبب بقائه بالتربية
المعتادة فهما سبب مجازا والله تعالى سبب له في الحقيقة بالارادة وسبب بقائه بالاعادة للسعادة فهو أولى بأن
يحسن العبد حاله ۞ ثم قال تعالى وان جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما فقوله ما ليس لك

الاول هو التسوية بين اللفظين بأنهما عبارتان عن ذات واحدة وان اختلف الاعتبار والتوحيد انما هو للذات الذي هو المعبود وعلى الثاني انهما اسمان في حسن الاطلاق والافضاء الى المقصود وهو أوفق لقوله تعالى (أياما تدعوا فله الاسماء الحسنى) والدعاء بمعنى التسمية وهو يتعدى الى مفعولين حذف أولهما استغناء عنه وأو للتخيير والتنوين في أيا عوض عن المضاف اليه وما مزيدة لتأكيد ما في أي من الابهام والضمير في له للمسمى لان التسمية له لا للاسم وكان أصل الكلام أياما تدعو فهو حسن فوضع موضعه فله الاسماء الحسنى للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل عليه اذ حسن جميع أسمائه يستدعي حسن ذينك الاسمين وكونها حسنى لدلالتها على صفات الكمال من الجلال والجمال والاكرام (ولا تجهر بصلاتك) أي بقراءة صلاتك بحيث تسمع المشركين فان ذلك
يحملهم على السب واللغو فيها (ولا تخافت بها) أي بقراءتها بحيث لا تسمع من خلفك من المؤمنين (وابتغ بين ذلك) أي بين الجهر
والمخافتة على الوجه المذكور (سبيلا) أمرا وسطا وقصدا فان خير الامور أوساطها والتعبير عن ذلك بالسبيل باعتبار انه أمر يتوجه
اليه المتوجهون ويؤمه المقتدون ويوصلهم الى المطلوب وروي أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه كان يخفت ويقول أناجي ربي وقد علم

به علم يعني التقليد في الايمان ليس بجيد فضلا عن التقليد في الكفر فاذا امتنع الانسان من التقليد فيه ولا يطيع بغير العلم لا يطيعه مع أصلا لان العلم بصحة قولهما محال الحصول فاذا لم يشرك تقليدا ويستعمل الشرك مع العلم فالشرك لا يحصل منه قط ثم قال تعالى الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون يعني عاقبتكم ومآلكم الى وان كان اليوم مخالطتكم ومجالستكم مع الآباء والاولاد والاقارب والعشائر ولا شك ان من يعلم أن مجالسته مع واحد خالية منقطعة وحضوره بين يدي غيره دائم غير منقطع لا يترك مراضي من تدوم معه صحبته لرضا من يتركه في زمان آخر ثم قوله تعالى فأنبئكم فيه لطيفة وهي أن الله تعالى يقول لا تظنوا انى غائب عنكم وآباؤكم حاضرون فتوافقون الحاضرين في الحال اعتمادا على غيبتي وعدم علمي بمخالفتكم اياي فاني حاضر معكم أعلم ما تفعلون ولا أنسى فأنبئكم بجميعه ﴿ثم قال تعالى ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين﴾ وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ ما الفائدة في اعادة الذين آمنوا وعملوا الصالحات مرة أخرى * نقول الله تعالى ذكر من المكلفين قسمين مهتديا وضالا بقوله فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين وذكر حال الضال مجملا وحال المهتدي مفصلا بقوله والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيآتهم ولما تمم ذلك ذكر قسمين آخرين هاديا ومضلا فقوله ووصينا الانسان بوالديه حسنا يقتضي أن يهتدي بهما وقوله وان جاهداك لتشرك بيان اضلالهما وقوله الى مرجعكم فأنبئكم بطريق الاجمال تهديد المضل وقوله والذين آمنوا على سبيل التفصيل وعد الهادي فذكر الذين آمنوا وعملوا الصالحات مرة لبيان حال المهتدي ومرة أخرى لبيان حال الهادي والذي يدل عليه هو أنه قال أولا لنكفرن عنهم سيآتهم وقال ثانيا لندخلنهم في الصالحين والصالحون هم الهداة لانه مرتبة الانبياء ولهذا قال كثير من الانبياء ألحقني بالصالحين ﴿المسئلة الثانية﴾ قد ذكرنا أن الصالح والذي والصالحون باقون وبقاؤهم ليس بأنفسهم بل بأعمالهم الباقية فأعمالهم باقية والمعمول له وهو وجه الله باق والعاملون باقون ببقاء أعمالهم وهذا على خلاف الامور الدنيوية فان في الدنيا بقاء الفعل بالفاعل وفي الآخرة بقاء الفاعل بالفعل ﴿المسئلة الثالثة﴾ قيل في معنى قوله لندخلنهم في الصالحين لندخلنهم في الطيب الصالحين أو في دار الصالحين والاولى أن يقال لا حاجة الى الاضمار بل يدخلهم في الصالحين أي يجعلهم منهم ويدخلهم في عدادهم كما يقال الفقيه داخل في العلماء ﴿المسئلة الرابعة﴾ قال الحكماء عالم المتضادة عالم الكون والفساد وما فيه يتطرق اليه الفساد فان الماء يخرج عن كونه ماء ويفسد ويتكون منه هواء وعالم السموات لا كون فيه ولا فساد بل يوجد من عدم ولا يعدم ولا يصير الملك ترابا بخلاف الانسان فانه يصير ترابا أو شيأ آخر وعلى هذا فالعالم العلوي ليس بفاسد فهو صالح فقوله تعالى لندخلنهم في الصالحين أي في المجردين الذين لا فساد لهم ﴿ثم قال تعالى ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾ نقول أقسام المكلفين ثلاثة * مؤمن ظاهر بحسن اعتقاده * وكافر مجاهر بكفره وعناده * ومذبذب بينهما يظاهر الايمان بلسانه ويضمر الكفر في فؤاده * والله تعالى لما بين القسمين بقوله تعالى فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين وبين أحوالهما بقوله أم حسب الذين يعملون السيئات الى قوله والذين آمنوا وعملوا الصالحات بين القسم الثالث وقال ومن الناس من يقول آمنا بالله وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال ومن الناس من يقول آمنا ولم يقل آمنت مع انه واحد

حاجتي وعمر رضي الله عنه كان يجهر بها ويقول أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان فلما نزلت أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يرفع قليلا وعمر أن يخفض قليلا وقيل المعنى لا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها بأسرها وابتغ بين ذلك سبيلا بالمخافتة نهارا والجهر ليلا وقيل بصلاتك بدعائك وذهب قوم الى أنها منسوخة بقوله تعالى ادعوا ربكم تضرعا وخفية (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا) كما زعم اليهود والنصارى وبنو مليح حيث قالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا (ولم يكن له شريك في الملك) أي الالوهية كما يقوله الثنوية القائلون بتعدد الآلهة (ولم يكن له ولي من الذل) ناصر ومانع منه لاعتزازه به أو لم يوال أحدا من أجل مذلة ليدفعها به وفي التعرض في أثناء الحمد لهذه الصفات الجليلة ايذان بأن المستحق للحمد من له هذه ويتعدون غيره اذ بذلك يتم الكمال والقدرة التامة على الايجاد وما يتفرع عليه من افاضة أنواع النعم وما عداه ناقص مملوك نعمة أو منعم عليه ولذلك عطف عليه قوله تعالى (وكبره تكبيرا) وفيه تنبيه على أن العبد وان بالغ في التنزيه والتمجيد واجتهد في الطاعة والتحميد ينبغي أن يعترف بالقصور في ذلك * روي أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه هذه الآية الكريمة وعنه عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة بني اسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار في الجنة والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية والحمد لله سبحانه وله الكبرياء والعظمة والجبروت

﴿سورة الكهف مكية وقيل الا قوله تعالى واصبر نفسك الآية وهي مائة واحدى عشرة آية﴾

الافعال التي بعده كقوله تعالى فاذا أوذي في الله وقوله جعل فتنة الناس وذلك لان المنافق كان يشبه
نفسه بالمؤمن ويقول ايماني كايمانك فقال آمنا يعني أنا والمؤمن حقا آمنا اشعارا بأن ايمانه كايمانه
وهذا كما أن الجبان العنيف اذا خرج مع الابطال في القتال وهزموا خصومهم يقول الجبان خرجنا
وقاتلناهم وهزمناهم فيقبح من السامع لكلامه أن يقول وماذا كنت أنت فيهم حتى تقول خرجنا
وقاتلنا وهذا الرد يدل على انه يفهم من كلامه ان خروجه وقتاله كخروجهم وقتالهم لانه لا يصح الانكار
عليه في دعوى نفس الخروج والقتال وكذا قول القائل انا والملك ألقينا فلانا واستقبلناه منكر لان المفهوم
منه المساواة فهم لما أرادوا اظهار كون ايمانهم كايمان المحقين كان الواحد يقول آمنا أي أنا والمحق
(المسألة الثانية) قوله فاذا أوذي في الله هو في معنى قوله وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي غير أن
المراد بتلك الآية الصابرون على أذية الكافرين والمراد ههنا الذين لم يصبروا عليها اذ قال هناك أوذوا في
سبيلي وقال ههنا أوذي في الله ولم يقل في سبيل الله واللطيفة فيه أن الله أراد بيان شرف المؤمن الصابر
وخسة المنافق الكافر فقال هناك أوذي المؤمن في سبيل الله ليترك سبيله ولم يتركه وأوذي المنافق
الكافر فترك الله بنفسه وكان يمكنه أن يظهر موافقتهم ان بلغ الايذاء الى حد الاكراه ويكون قلبه مطمئنا
بالايمان فلا يترك الله ومع هذا لم يفعله بل ترك الله بالكلية والمؤمن أوذي ولم يترك سبيل الله بل أظهر
كلمتي الشهادة وصبر على الطاعة والعبادة (المسألة الثالثة) قوله جعل فتنة الناس كعذاب الله قال
الزمخشري جعل فتنة الناس صارفة عن الايمان كما أن عذاب الله صارف عن الكفر وقيل جزعوا من
عذاب الناس كما جزعوا من عذاب الله وبالجملة معناه انهم جعلوا فتنة الناس مع ضعفها وانقطاعها كعذاب
الله الاليم الدائم حتى ترددوا في الامر وقالوا ان آمنا نتعرض للتأذي من الناس وان تركنا الايمان نتعرض
من عذابه محمد عليه الصلاة والسلام واختاروا الاحتراز عن التأذي العاجل ولا يكون التردد الا عند
التساوي ومن أين الى أين تعذيب الناس لا يكون شديدا ولا يكون مديدا لان العذاب ان كان شديدا
عاقب النار وغيره يموت الانسان في الحال فلا يدوم التعذيب وان كان مديدا كالحبس والحصر لا يكون
شديدا وعذاب الله شديد وزمانه مديد وأيضا عذاب الناس له دافع وعذاب الله ماله من دافع وأيضا
عذاب الناس عليه ثواب عظيم وعذاب الله بعده عذاب أليم والمشقة اذا كانت مستعقبة للراحة العظيمة
تطيب ولا تعد عذابا كما تقطع السلعة المؤذية ولا تعد عذابا (المسألة الرابعة) قال فتنة الناس ولم يقل
عذاب الناس لان فعل العباد ابتلاء وامتحان من الله وفتنة تسليط بعض الناس على من أظهر كلمة الايمان
ليؤذيه فتبين منزلته كما جعل التكاليف ابتلاء وامتحانا وهذه اشارة الى أن الصبر على البلية الصادرة ابتلاء
وامتحانا من الانسان كالصبر على العبادات (المسألة الخامسة) لو قال قائل هذا يقتضي منع المؤمن من
اظهار كلمة الكفر بالاكراه لان من أظهر كلمة الكفر بالاكراه احترازا عن التعذيب العاجل يكون قد جعل
فتنة الناس كعذاب الله فنقول ليس كذلك لان من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالايمان لم يجعل فتنة
الناس كعذاب الله لان عذاب الله يوجب ترك ما يعذب عليه ظاهرا وباطنا وهذا المؤمن المكره لم يجعل
فتنة الناس كعذاب الله بحيث يترك ما يعذب عليه ظاهرا وباطنا بل في باطنه الايمان ثم قال تعالى ولئن
جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم يعني دأب المنافق انه ان رأى اليد للكافر أظهر ما أضمر وأظهر
المعية وادعى التبعية وفيه فوائد نذكرها في مسائل (الاولى) قال ولئن جاء نصر من ربك ولم يقل من الله
مع أن ما تقدم كان كله بذكر الله كقوله أوذي في الله وقوله كعذاب الله وذلك لان الرب اسم مدلوله

(بسم الله الرحمن الرحيم) (الحمد لله الذي أنزل على عبده) محمد صلى الله عليه وسلم (الكتاب) أي الكتاب الكامل
الغني عن الوصف بالكمال المعروف بذلك من بين الكتب الحقيق باختصاص اسم الكتاب به وهو عبارة عن جميع القرآن
أو عن جميع المنزل حينئذ كما مر مرارا وفي وصفه تعالى بالموصول اشعار بعلية ما في حيز الصلة لاستحقاق الحمد وايذان
بعظم شأن التنزيل الجليل كيف لا وعليه يدور فلك سعادة الدارين وفي التعبير عن الرسول عليه الصلاة والسلام بالعبد مضافا الى ضمير الجلالة تنبيه على بلوغه عليه الصلاة والسلام الى أعلى معارج العبادة وتشريف له أي تشريف واشعار بأن شأن الرسول أن يكون عبدا للمرسل لا كما زعمت النصارى في حق عيسى عليه السلام وتأخير المفعول الصريح عن الجار والمجرور مع أن حقه التقديم عليه ليتصل به قوله تعالى (ولم يجعل له عوجا) أي شيئا من العوج بنوع اختلال في النظم وتناف في المعنى أو انحراف عن الدعوة الى الحق وهو في المعاني كالعوج في الاعيان وأما قوله تعالى لا ترى فيها عوجا ولا أمتا مع كون الجبال من الاعيان فللدلالة على انتفاء ما لا يدرك من العوج بحاسة
البصر بل انما يوقف عليه بالبصيرة بواسطة استعمال المقاييس الهندسية ولما كان ذلك مما لا يشعر به بالمشاعر الظاهرة
عد من قبيل ما في المعاني وقيل الفتح في اعوجاج المنتصب كالعود والحائط والكسر في اعوجاج غيره عينا كان أو معنى
(قيما) بالمصالح الدينية والدنيوية للعباد على ما ينبئ عنه ما بعده من الانذار والتبشير فيكون وصفا له بالتكميل

الخاص به الشفقة والرحمة والله اسم مدلوله الهيبة والعظمة فعند النصر ذكر اللفظ الدال على الرحمة والعطف
وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة ﴿المسألة الثانية﴾ لم يقل ولئن جاءكم أو جاءك بل قال ولئن جاء
نصر من ربك والنصر لو جاءهم ما كانوا يقولون انا كنا معكم وهذا يقتضي ان يكونوا قائلين انا معكم اذا جاء
نصر سواء جاءهم أو جاء المؤمنين فنقول هذا الكلام يقتضي أن يكونوا قائلين انا معكم اذا جاء النصر لكن
النصر لا يجيء الا للمؤمن كما قال تعالى وكان حقا علينا نصر المؤمنين ولان غلبة الكافر على المسلم ليس بنصر
لان النصر ما يكون عاقبته سليمة بدليل ان أحد الجيشين ان انهزم في الحال ثم كر المنهزم كرة اخرى وهزموا
الغالبين لا يطلق اسم المنصور الا على من كان له العاقبة فكذلك المسلم وان كسر الدال فالعاقبة للمتقين
فالنصر لهم في الحقيقة ﴿المسألة الثالثة﴾ في ليقولن قراءتان (احداهما) الفتح حملا على قوله من يقول
آمنا يعني من يقول آمنا اذا أوذي يترك ذلك القول واذا جاء النصر يقول انا كنا معكم (وثانيتهما) الضم
على الجمع اسنادا للقول الى الجمع الذين دل عليهم المفهوم فان المنافقين كانوا جماعة ثم بين الله تعالى انهم
أرادوا التلبيس ولا يصح ذلك لهم لان التلبيس انما يكون عند ما يخالف القول القلب فالسامع يبني الامر على
قوله ولا يدري ما في قلبه فيلتبس الامر عليه وأما الله تعالى فهو عليم بذات الصدور وهو أعلم بما في صدر
الانسان من الانسان فلا يلتبس عليه الامر وهذا اشارة الى أن الاعتبار بما في القلب فالمنافق الذي يظهر
الايمان ويضمر الكفر كافر والمؤمن المكره الذي يظهر الكفر ويضمر الايمان مؤمن والله أعلم بما في
صدور العالمين ولما بين أنه أعلم بما في قلوب العالمين بين انه يعلم المؤمن الحق وان لم يتكلم والمنافق وان
تكلم فقال وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين وقد سبق تفسيره لكن فيه مسألة واحدة وهي ان
الله قال هناك فليعلمن الذين صدقوا وقال ههنا وليعلمن الله الذين آمنوا فنقول لما كان الذكر هناك للمؤمن
والكافر والكافر في قوله كاذب فانه يقول الله أكثر من واحد والمؤمن في قوله صادق فانه كان يقول الله
واحد ولم يكن هناك ذكر من يضمر خلاف ما يظهر فكان الحاصل هناك قسمين صادق وكاذب وكان ههنا
المنافق صادقا في قوله فانه كان يقول الله واحد فاعتبر أمر القلب في المنافق فقال وليعلمن المنافقين واعتبر
أمر القلب في المؤمن وهو التصديق فقال وليعلمن الله الذين آمنوا ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿وقال الذين كفروا للذين
آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء انهم لكاذبون﴾ لما بين الله تعالى
الفرق الثلاثة وأحوالهم وذكر أن الكافر يدعو من يقول آمنت الى الكفر بالفتنة وبين أن عذاب الله
فوقها وكان الكافر يقول للمؤمن تصبر في الذل وعلى الايذاء لاي شيء ولم لا تدفع عن نفسك الذل والعذاب
بموافقتنا فكان جواب المؤمن أن يقول خوفا من عذاب الله على خطيئة مذهبكم فقالوا لا خطيئة فيه
وان كان فيه خطيئة فعلينا وفي الآية مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ ولنحمل صيغة أمر والمأمور غير الآمر
فكيف يصح أمر النفس من الشخص * فنقول الصيغة أمر والمعنى شرط وجزاء أي ان اتبعتمونا حملنا خطاياكم
قال صاحب الكشاف هو في معنى قول من يريد اجتماع أمرين في الوجود فيقول ليكن منك العطاء وليكن
مني الدعاء فقوله ولنحمل أي ليكن منا الحمل وليس هو في الحقيقة أمر طلب وايجاب ﴿المسألة الثانية﴾
قال وما هم بحاملين من خطاياهم وقال بعد هذا وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم فهناك نفي الحمل ثم
وههنا اثبت الحمل فكيف الجمع بينهما فنقول قول القائل فلان حمل عن فلان يفيد ان حمل فلان خف واذا
لم يخف حمله فلا يكون قد حمل منه شيأ فكذلك ههنا ما هم بحاملين من خطاياهم يعني لا يرفعون عنهم خطيئة
وهم يحملون أوزارا بسبب اضلالهم ويحملون أوزارا بسبب ضلالهم كما قال النبي عليه الصلاة والسلام

بعد وصفه بالكمال أو على ما قبله من الكتب السماوية شاهدا بصحتها ومهيمنا عليها أو متناهيا في الاستقامة فيكون تأكيدا لما دل عليه
نفي العوج مع افادة كون ذلك من صفاته الذاتية اللازمة له حسبما تنبئ عنه الصيغة لا انه نفي عنه العوج مع كونه من شأنه وانتصابه
على تقدير كون الجملة المتقدمة معطوفة على الصلة بمضمر ينبئ عنه نفي العوج تقديره جعله قيما وأما على تقدير كونها حالية
فهو على الحالية من الكتاب اذ لا فصل حينئذ بين أبعاض المعطوف عليه بالمعطوف وقرئ قيما (لينذر) متعلق بأنزل والفاعل ضمير الجلالة كما في الفعلين المعطوفين عليه والاطلاق عن ذكر المفعول الاول للايذان بأن ما سيق له الكلام هو المفعول الثاني وأن الاول ظاهر لا حاجة الى ذكره أي أنزل الكتاب لينذر بما فيه الذين كفروا به (بأسا) أي عذابا (شديدا من لدنه) أي صادرا من عنده نازلا من قبله بمقابلة كفرهم وتكذيبهم وقرئ من لدنه بسكون الدال مع اشمام الضمة وكسر النون لالتقاء الساكنين وكسر الهاء للاتباع (ويبشر) بالتشديد وقرئ بالتخفيف (المؤمنين) أي المصدقين به (الذين يعملون الصالحات) الاعمال الصالحة التي بينت في تضاعيفه وايثار صيغة الاستقبال في الصلة للاشعار بتجدد الاعمال الصالحة واستمرارها واجراء
الموصول على موصوفه المذكور لما أن مدار قبول الاعمال هو الايمان (أن لهم) أي بأن لهم بمقابلة ايمانهم وأعمالهم المذكورة من
(أجرا حسنا) هو الجنة وما فيها من المثوبات الحسنى (ماكثين) حال من الضمير المجرور في لهم (فيه) أي في ذلك الاجر (أبدا) من غير
انتهاء أي خالدين فيه وهو ناصب على الظرفية لماكثين وتقديم الانذار على التبشير لاظهار كمال العناية بزجر الكفار عما هم عليه مع مراعاة

تقديم التخلية على التحلية وتكرير الإنذار بقوله تعالى (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) متعلقا بفرقة خاصة ممن عمه الإنذار السابق من مستحقي البأس الشديد للإيذان بكمال فظاعة حالهم لغاية شناعة كفرهم وضلالهم أي وينذر من بين سائر الكفرة هؤلاء المتفوهين بمثل هاتيك العظيمة خاصة وهم كفار العرب الذين يقولون الملائكة بنات الله تعالى واليهود القائلون عزير ابن الله والنصارى القائلون المسيح ابن الله وترك إجراء الموصول على الموصوف كما فعل في قوله تعالى ويبشر المؤمنين للإيذان بكفاية ما في حيز الصلة في الكفر على أقبح الوجوه وإيثار صيغة الماضي في الصلة للدلالة على تحقق صدور تلك الكلمة القبيحة عنهم فيما سبق وجعل المفعول المحذوف فيما سلف عبارة عن هذه الطائفة يؤدي إلى خروج سائر أصناف الكفرة عن الإنذار والوعيد وتعميم الإنذار هنالك للمؤمنين أيضا بحمله على معنى مجرد الإخبار بالخبر الضار من غير اعتبار حلول المنذر به على المنذر كما في قوله تعالى أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا يفضي إلى خلو النظم الكريم عن الدلالة على حلول البأس الشديد على من عدا هذه الفرقة ويجوز أن يكون الفاعل في الأفعال الثلاثة ضمير الكتاب أو ضمير الرسول عليه الصلاة والسلام (ما لهم به) أي باتخاذه سبحانه وتعالى ولدا (من علم) مرفوع على الابتداء أو الفاعلية لاعتماد الظرف ومن مزيدة لتأكيد النفي والجملة حالية أو مستأنفة لبيان حالهم في مقالهم أي ما لهم بذلك شيء من علم أصلا لا لإخلالهم بطريقه مع تحقق المعلوم أو إمكانه بل لاستحالته في نفسه (ولا لآبائهم) الذين قلدوهم فتاهوا جميعا في تيه الجهالة والضلالة أو ما لهم علم بما قالوه أهو صواب أم خطأ بل إنما قالوه رميا عن عمى وجهالة من غير فكر وروية كما في قوله تعالى وخرقوا له

من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزره شيء (المسألة الثالثة) الصيغة أمر والأمر لا يدخله التصديق والتكذيب فكيف يفهم قوله إنهم لكاذبون؟ نقول قد تبين أن معناه شرط وجزاء فكأنهم قالوا إن تتبعونا نحمل خطاياكم وهم كذبوا في هذا فإنهم لا يحملون شيئا ﴿ثم قال تعالى ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾ في الذي كانوا يفترونه يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) كان قولهم ولنحمل خطاياكم صادرا عن اعتقادهم أن لا خطيئة في الكفر ثم يوم القيامة يظهر لهم خلاف ذلك فيسألون عن ذلك الافتراء (وثانيها) أن قولهم ولنحمل خطاياكم كان عن اعتقاد أن لا حشر فإذا جاء يوم القيامة ظهر لهم خلاف ذلك فيسألون ويقال لهم أما قلتم أن لا حشر (وثالثها) أنهم لما قالوا إن تتبعونا نحمل يوم القيامة خطاياكم يقال لهم فاحملوا خطاياهم فلا يحملون فيسألون ويقال لهم لم افتريتم ﴿ثم قال تعالى ﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما﴾ وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما بين التكليف وذكر أقسام المكلفين ووعد المؤمن الصادق بالثواب العظيم وأوعد الكافر والمنافق بالعذاب الأليم وكان قد ذكر أن هذا التكليف ليس مختصا بالنبي وأصحابه وأمته حتى صعب عليهم ذلك بل قبله كان كذلك كما قال تعالى ولقد فتنا الذين من قبلهم ذكر من جملة من كلف جماعة منهم نوح النبي عليه السلام وقومه ومنهم إبراهيم عليه السلام وغيرهما ثم قال تعالى فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما وفي الآية مسائل (الأولى) ما الفائدة في ذكر مدة لبثه؟ نقول كان النبي عليه الصلاة والسلام يضيق صدره بسبب عدم دخول الكفار في الإسلام وإصرارهم على الكفر فقال إن نوحا لبث ألف سنة تقريبا في الدعاء ولم يؤمن من قومه إلا قليل وصبر وما ضجر فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة عدد أمتك وأيضا كان الكفار يغترون بتأخير العذاب عنهم أكثر ومع ذلك ما نجوا فبهذا المقدار من التأخير لا ينبغي أن يغتروا فإن العذاب يلحقهم (المسألة الثانية) قال بعض العلماء الاستثناء في العدد تكلم بالباقي فإذا قال القائل لفلان علي عشرة إلا ثلاثة فكأنه قال علي سبعة فإذا علم هذا فقوله ألف سنة إلا خمسين عاما كقوله تسعمائة وخمسين سنة فما الفائدة في العدول عن هذه العبارة إلى غيرها؟ فنقول قال الزمخشري فيه فائدتان (إحداهما) أن الاستثناء يدل على التحقيق وتركه قد يظن به التقريب فإن من قال عاش فلان ألف سنة يمكن أن يتوهم أن يقول ألف سنة تقريبا لا تحقيقا فإذا قال إلا شهرا أو إلا سنة يزول ذلك التوهم ويفهم منه التحقيق (الثانية) هي أن ذكر لبث نوح عليه السلام في قومه كان لبيان أنه صبر كثيرا فالنبي عليه السلام أولى بالصبر مع قصر مدة دعائه وإذا كان كذلك فذكر العدد الذي في أعلى مراتب الأعداد التي لها اسم مفرد موضوع فإن مراتب الأعداد هي الآحاد إلى العشرة والعشرات إلى المائة والمئات إلى الألف ثم بعد ذلك يكون التكثير بالتكرير فيقال عشرة آلاف ومائة ألف وألف ألف (المسألة الثالثة) قال بعض الأطباء العمر الإنساني لا يزيد على مائة وعشرين سنة والآية تدل على خلاف قولهم والعقل يوافقها فإن البقاء على التركيب الذي في الإنسان ممكن لذاته وإلا لما بقي ودوام تأثير المؤثر فيه ممكن لأن المؤثر فيه إن كان واجب الوجود فظاهر الدوام وإن كان غيره فله مؤثر وينتهي إلى الواجب وهو دائم فتأثيره يجوز أن يكون دائما فإذا البقاء ممكن في ذاته فإن لم يكن فلعارض لكن العارض ممكن العدم وإلا لما بقي هذا المقدار لوجوب وجود العارض المانع فظاهر أن كلامهم على خلاف العقل والنقل (ثم نقول) لا نزاع بيننا وبينهم لأنهم يقولون العمر الطبيعي لا يكون أكثر من مائة وعشرين سنة ونحن نقول هذا العمر ليس طبيعيا بل هو عطاء إلهي وأما العمر الطبيعي فلا يدوم عندنا ولا لحظة فضلا عن

ماثة أو أكثر ﴿ قوله تعالى ﴿فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾ فيه إشارة إلى لطيفة وهي أن الله لا يعذب على مجرد وجود الظلم وإلا لعذب من ظلم وتاب فإن الظلم وجد منه وإنما يعذب على الإصرار على الظلم فقوله وهم ظالمون يعني أهلكهم وهم على ظلمهم ولو كانوا تركوه لما أهلكهم ﴿ قوله تعالى ﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين﴾ في الراجع إليه الهاء في قوله جعلناها وجهان (أحدهما) أنها راجعة إلى السفينة المذكورة وعلى هذا في كونها آية وجوه (أحدها) أنها اتخذت قبل ظهور الماء ولولا إعلام الله نوحا وإنباؤه إياه به لما اشتغل بها فلا تحصل لهم النجاة (وثانيها) أن نوحا أمر بأخذ قوم معه ورفع قدر من القوت والبحر العظيم لا يتوقع أحد نضوبه ثم إن الماء غيض قبل نفاد الزاد ولولا ذلك لما حصل النجاة فهو بفضل الله لا بمجرد السفينة (وثالثها) أن الله تعالى كتب سلامة السفينة عن الرياح المرجفة والحيوانات المؤذية ولولا ذلك لما حصلت النجاة (والثاني) أنها راجعة إلى الواقعة أو إلى النجاة أي جعلنا الواقعة أو النجاة آية للعالمين ﴿ ثم قال تعالى ﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ لما فرغ من الإشارة إلى حكاية نوح ذكر حكاية إبراهيم وفي إبراهيم وجهان من القراءة (أحدهما) النصب وهو المشهور (والثاني) الرفع على معنى ومن المرسلين إبراهيم والأول فيه وجهان (أحدهما) أنه منصوب بفعل غير مذكور وهو معنى اذكر إبراهيم (والثاني) أنه منصوب بمذكور وهو قوله ولقد أرسلنا فيكون كأنه قال وأرسلنا إبراهيم وعلى هذا في الآية مسائل ﴿المسألة الأولى﴾ قوله إذ قال لقومه ظرف أرسلنا أي أرسلنا إبراهيم إذ قال لقومه لكن قوله لقومه اعبدوا الله دعوة والإرسال يكون قبل الدعوة فكيف يفهم قوله وأرسلنا إبراهيم حين قال لقومه مع أنه يكون مرسلا قبله نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن الإرسال أمر ممتد فهو حال قوله لقومه اعبدوا الله كان مرسلا وهذا كما يقول القائل وقفنا للأمير إذ خرج من الدار وقد يكون الوقوف قبل الخروج لكن لما كان الوقوف ممتدا إلى ذلك الوقت صح ذلك (الوجه الثاني) هو أن إبراهيم بمجرد ما بلغ ابتداء كان يعلم فساد قول المشركين وكان يهديهم إلى الرشاد قبل الإرسال ولما كان هو مشتغلا بالدعاء إلى الإسلام أرسله الله تعالى وقوله اعبدوا الله واتقوه إشارة إلى التوحيد لأن التوحيد إثبات الإله ونفي غيره فقوله اعبدوا الله إشارة إلى الإثبات وقوله واتقوه إشارة إلى نفي الغير لأن من يشرك مع الملك غيره في ملكه يكون قد أتى بأعظم الجرائم ويمكن أن يقال اعبدوا الله إشارة إلى الإتيان بالواجبات وقوله واتقوه إشارة إلى الامتناع عن المحرمات ويدخل في الأول الاعتراف بالله وفي الثاني الامتناع من الشرك ثم قوله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يعني عبادة الله وتقواه خير والأمر كذلك لأن خلاف عبادة الله تعالى تعطيل وخلاف تقواه تشريك وكلاهما شر عقلا واعتبارا أما عقلا فلأن الممكن لا بد له من مؤثر لا يكون ممكنا قطعا للتسلسل وهو واجب الوجود فلا تعطيل إذا إنما الإله وأما التشريك فبطلانه عقلا وكونه خلافه ظاهر أما أن شريك الواجب إن لم يكن واجبا فكيف يكون شريكا وإن كان واجبا لزم وجود واجبين فيشتركان في الوجوب ويتباينان في الإلهية وما به الاشتراك غير ما به الامتياز فيلزم التركيب فيهما فلا يكونان واجبين لكونهما مركبين فيلزم التعطيل وأما اعتبارا فلأن الشرف لمن يكون ملكا أو قريبا من ملك لكن الإنسان لا يكون ملكا للسموات والأرضين فأعلى درجاته أن يكون قريب الملك لكن القربة بالعبادة كما قال تعالى واسجد واقترب وقال لن يتقرب المتقربون إلى بمثل أداء ما افترضت عليهم وقال لا يزال العبد يتقرب بالعبادة إلى فالمعطل لا ملك ولا قريب ملك لعدم اعتقاده ملكا فلا مرتبة له أصلا وأما المشرك فلأن من يكون سيده لا نظير له يكون أعلى رتبة ممن يكون سيده له شركاء

بنين وبنات بغير علم أو حقيقة ما قالوه ويعظم رتبته في الشناعة كما في قوله تعالى وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا تكاد السموات يتفطرن منه الآيات وهو الأنسب بقوله تعالى (كبرت كلمة) أي عظمت مقالتهم هذه في الكفر والافتراء لما فيها من نسبته سبحانه إلى ما لا يكاد يليق بجناب كبريائه والفاعل في كبرت إما ضمير المقالة المدلول عليها بقالوا وكلمة نصب على التمييز أو ضمير مبهم مفسر بما بعده من النكرة المنصوبة تمييزا كبئس رجلا والمخصوص بالذم محذوف تقديره كبرت هي كلمة خارجة من أفواههم وقرئ كبرت بإسكان الباء مع إشمام الضم وقرئ كلمة بالرفع (تخرج من أفواههم) صفة للكلمة مفيدة لاستعظام اجترائهم على التفوه بها وإسناد الخروج إليها مع أن الخارج هو الهواء المتكيف بكيفية الصوت لملابسته بها (إن يقولون) ما يقولون في ذلك الشأن (إلا كذبا) أي إلا قولا كذبا لا يكاد يدخل تحت إمكان الصدق أصلا والضمائر لهم ولآبائهم مثل حاله عليه الصلاة والسلام في شدة الوجد على إعراض القوم وتوليهم عن الإيمان بالقرآن وكمال التحسر عليهم بحال من يتوقع منه إهلاك نفسه إثر فوت ما يحبه عند مفارقة أحبته تأسفا على مفارقتهم وتلهفا على مهاجرتهم فقيل على طريقة التمثيل حملا له عليه الصلاة والسلام على الحذر والإشفاق من ذلك (فلعلك باخع) أي مهلك (نفسك على آثارهم) غما ووجدا على فراقهم وقرئ بالإضافة (إن لم يؤمنوا بهذا الحديث) أي القرآن الذي عبر عنه في صدر السورة بالكتاب وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ما سبق عليه وقرئ بأن المفتوحة أي لأن لم يؤمنوا فالعامل باخع حمله على حكاية حال ماضية لاستحضار الصورة كما في قوله عز وجل باسط ذراعيه (أسفا)

مفعول له لباخع أي افرط الحزن والتغضب أو حال مما فيه من الضمير أو متأسفا عليهم ويجوز حمل النظم الكريم على الاستعارة التبعية بجعل التشبيه بين أجزاء الطرفين لا بين الهيئتين المنتزعتين منهما كما في التمثيل وقد مر تحقيقه في تفسير قوله تعالى ختم الله على قلوبهم (انا جعلنا ما على الارض) استئناف وتعليل لما في لعل من معنى الاشفاق أي انا جعلنا

ما عليها من عدا من وجه اليه التكليف من الزخارف حيوانا كان أو نباتا أو معدنا كقوله تعالى هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا (زينة) مفعول ثان للجعل ان حمل على معنى التصيير أو حال ان حمل على معنى الابداع واللام في (لها) اما متعلقة بزينة أو بمحذوف هو صفة لها أي كائنة لها أي ليتمتع بها الناظرون من المكلفين وينتفعوا بها نظرا واستدلالا فان الحيات والعقارب من حيث تذكيرهما لعذاب الآخرة من قبيل المنافع بل كل حادث داخل تحت الزينة من حيث دلالته على وجود الصانع ووحدته فان الازواج والاولاد أيضا من زينة الحياة الدنيا بل أعظمها ولا يمنع ذلك كونهم من جملة المكلفين فانهم من جهة انتسابهم الى أصحابهم داخلون تحت الزينة ومن جهة كونهم مكلفين داخلون تحت الابتلاء (لنبلوهم) متعلق بجعلنا أي جعلنا ما جعلنا لنعاملهم معاملة من يختبرهم (أيهم أحسن عملا) فنجازيهم بالثواب والعقاب حسبما تبين المحسن من المسيء وامتازت طبقات أفراد كل من الفريقين حسب امتياز مراتب علومهم المرتبة على أنظارهم وتفاوت درجات أعمالهم المتفرعة على ذلك كما قررناه في مطلع سورة هود وأي اما استفهامية مرفوعة بالابتداء وأحسن خبرها والجملة في محل النصب معلقة لفعل البلوى لما فيه من معنى العلم باعتبار عاقبته كالسؤال

خسيسة فاذن من يقول ان ربي لا عبادة له شيء أعلى مرتبة ممن يقول معبودي صنم منحوت عاجز مثله فثبت أن عبادة الله وتقواه خير وهو خير لكم أي خير للناس ان كانوا يعلمون ما ذكرناه من الدلائل والاعتبارات ثم قال تعالى ﴿إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا﴾ ذكر بطلان مذهبهم بأبلغ الوجوه وذلك لان المعبود انما يعبد لاحد أمور اما لكونه مستحقا للعبادة بذاته كالعبد يخدم سيده الذي اشتراه سواء أطعمه من الجوع أو منعه من الجوع واما لكونه نافعا في الحال كمن يخدم غيره لخير يوصله اليه كالمستخدم بأجرة واما لكونه نافعا في المستقبل كمن يخدم غيره متوقعا منه أمرا في المستقبل واما لكونه خائفا منه فقال ابراهيم انما تعبدون من دون الله أوثانا اشارة الى انها لا تستحق العبادة لذاتها لكونها أوثانا لا شرف لها ثم قوله تعالى ﴿إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون﴾ اشارة الى عدم المنفعة في الحال وفي المآل وهذا لان النفع اما في الوجود واما في البقاء لكن ليس منهم نفع في الوجود لان وجودهم منكم حيث تخلقونها وتنحتونها ولا نفع في البقاء لان ذلك بالرزق وليس منهم ذلك ثم بين ان ذلك كله حاصل من الله فقال فابتغوا عند الله الرزق فقوله الله اشارة الى استحقاق عبوديته لذاته وقوله الرزق اشارة الى حصول النفع منه عاجلا وآجلا وفي الآية مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ قال لا يملكون لكم رزقا نكره وقال فابتغوا عند الله الرزق معرفا فما الفائدة فيه فنقول قال الزمخشري قال لا يملكون رزقا نكرة في معرض النفي أي لا رزق عندهم أصلا وقال معرفة عند الاثبات عند الله أي كل الرزق عنده فاطلبوه منه وفيه وجه آخر وهو أن الرزق من الله معروف بقوله وما من دابة في الارض الا على الله رزقها والرزق من الاوثان غير معلوم فقال لا يملكون لكم رزقا لعدم حصول العلم به وقال فابتغوا عند الله الرزق الموعود به ثم قال فاعبدوه أي اعبدوه لكونه مستحقا للعبادة لذاته واشكروا له أي لكونه سابق النعم بالخلق وواصلها بالرزق واليه ترجعون أي اعبدوه لكونه مرجعا منه يتوقع الخير لا غير ثم قال تعالى ﴿وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول الا البلاغ المبين﴾ لما فرغ من بيان التوحيد أتى بعده بالتهديد فقال وان تكذبوا وفي المخاطب في هذه الآية وجهان (أحدهما) أنه قوم ابراهيم والآية حكاية عن قوم ابراهيم كأن ابراهيم قال لقومه ان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وأنا أتيت بما علي من التبليغ فان الرسول ليس عليه الا البلاغ والبيان (والثاني) أنه خطاب مع قوم محمد عليه السلام ووجهه ان الحكايات أكثرها انما تكون لمقاصد لكن اذا تمت الحكاية ولهذا كثيرا ما يقول القائل لأي شيء حكيت هذه الحكاية فالنبي عليه السلام كان مقصوده تذكير قومه بحال من مضى حتى يمتنعوا من التكذيب ويرتدعوا خوفا من التعذيب فقال في أثناء حكايتهم يا قوم ان تكذبوا فقد كذب قبلكم أقوام وأهلكوا فان كذبتم أخاف عليكم ما جاء على غيركم وعلى الوجه الاول في الآية مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ ان قوله فقد كذب أمم كيف يفهم مع ان ابراهيم لم يسبقه الا قوم نوح وهم أمة واحدة والجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان قبل نوح كان أقوام كقوم ادريس وقوم شيث وآدم (والثاني) ان نوحا عاش ألفا وأكثر وكان القرن يموت ويجيء أولاده والآباء يوصون الابناء بالامتناع عن الاتباع فكفى بقوم نوح أمما ﴿المسألة الثانية﴾ ما البلاغ وما المبين فنقول البلاغ هو ذكر المسائل والابانة هي اقامة البرهان عليه ﴿المسألة الثالثة﴾ الآية تدل على ان تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز لان الرسول اذا بلغ شيأ ولم يبينه فانه لم يأت بالبلاغ المبين فلا يكون آتيا بما عليه ثم قال تعالى ﴿أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير﴾ لما بين الاصل الاول وهو التوحيد وأشار الى الاصل الثاني وهو الرسالة

قوله وما على الرسول الا البلاغ المبين شرع في بيان الاصل الثالث وهو الحشر وقد ذكرنا مرارا ان الاصول الثلاثة لا يكاد ينفصل بعضها عن بعض في الذكر الالهي فأينما ذكر الله تعالى منها اثنين ذكر الثالث وفي الآية مسائل (المسألة الاولى) الانسان متى رأى بدء الخلق حتى يقال أولم يروا كيف يبدئ الله فنقول المراد العلم الواضح الذي كالرؤية والعاقل يعلم أن البدء من الله لان الخلق الاول لا يكون من مخلوق والا لما كان الخلق الاول خلقا أول فهو من الله هذا ان قلنا ان المراد اثبات نفس الخلق وان قلنا ان المراد بالبدء خلق الآدمي أولا وبالاعادة خلقه ثانيا فنقول العاقل لا يخفى عليه ان خالق نفسه ليس الا قادرا حكيما يصور الاولاد في الارحام ويخلقه من نطفة في غاية الاتقان والاحكام فذلك الذي خلق أولا معلوم ظاهر فاطلق على ذلك العلم لفظ الرؤية وقال أولم يروا أي ألم يعلموا علما ظاهرا واضحا كيف يبدئ الله الخلق يخلقه من تراب يجمعه فكذلك يجمع أجزاءه من التراب وينفخ فيه روحه بل هو أسهل بالنسبة اليكم فان من نحت حجارات ووضع شيأ بجنب شئ ففرقه أمر ما فانه يقول وضعه شيأ بجنب شئ في هذه النوبة أسهل علي لان الحجارات منحوتة ومعلوم ان آية واحدة منها تصلح لان تكون بجنب الاخرى وعلى هذا المخرج خرج كلام الله في قوله وهو أهون واليه الاشارة بقوله ان ذلك على الله يسير (المسألة الثانية) قال أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق علق الرؤية بالكيفية لا بالخلق وما قال أولم يروا أن الله خلق أو بدأ الخلق والكيفية غير معلومة فنقول هذا القدر من الكيفية معلوم وهو أنه خلقه ولم يك شيأ مذكورا وانه خلقه من نطفة هي من غذاء هو من ماء وتراب وهذا القدر كاف في حصول العلم بامكان الاعادة فان الاعادة مثله (المسألة الثالثة) لم قال ثم يعيده ان ذلك على الله يسير فأبرز اسمه مرة أخرى ولم يقل ان ذلك عليه يسير كما قال ثم يعيده من غير ابراز نقول مع اقامة البرهان على أنه يسير أكده باظهار اسمه فانه يوجب المعرفة أيضا بكون ذلك يسيرا فان الانسان اذا سمع لفظ الله وفهم معناه انه الحي القادر بقدرة كاملة لا يعجزه شئ العالم بعلم محيط بذرات كل جسم نافذ الارادة لا راد لما أراده يقطع بجواز الاعادة ثم قال تعالى (قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ان الله على كل شئ قدير) الآية المتقدمة كانت اشارة الى العلم الحدسي وهو الحاصل من غير طلب فقال أولم يروا على سبيل الاستفهام بمعنى استبعاد عدمه وقال في هذه الآية ان لم يحصل لكم هذا العلم فتفكروا في أقطار الارض لتعلموا بالعلم الفكري وهذا لان الانسان له مراتب في الادراك بعضهم يدرك شيأ من غير تعلم واقامة برهان له وبعضهم لا يفهم الا بابانة وبعضهم لا يفهمه أصلا فقال ان كنتم لستم من القبيل الاول فسيروا في الارض أي سيروا فكركم في الارض وأجيلوا ذهنكم في الحوادث الخارجة عن أنفسكم لتعلموا بدء الخلق وفي الآية مسائل (المسألة الاولى) قال في الآية الاولى بلفظ الرؤية وفي هذه بلفظ النظر فما الحكمة فيه فنقول العلم الحدسي أتم من العلم الفكري كما بين والرؤية أتم من النظر لان النظر يفضي الى الرؤية يقال نظرت فرأيت والمفضي الى الشئ دون ذلك الشئ فقال في الاول أما حصلت لكم الرؤية فانظروا في الارض لتحصل لكم الرؤية (المسألة الثانية) ذكر هذه الآية بصيغة الامر وفي الآية الاولى بصيغة الاستفهام لان العلم الحدسي ان حصل فالامر به تحصيل الحاصل وان لم يحصل فلا يحصل الا بالطلب لان بالطلب يصير الحاصل فكريا فيكون الامر به تكليف ما لا يطاق وأما العلم الفكري فهو مقدور فورد الامر به (المسألة الثالثة) أبرز اسم الله في الآية الاولى عند البدء حيث قال كيف يبدئ الله وأضمره عند الاعادة وفي هذه الآية أضمره عند البدء وأبرزه عند الاعادة حيث قال ثم الله ينشئ لان في الآية الاولى لم يسبق ذكر الله بفعل حتى يسند اليه البدء فقال

كيف

والنظار ولذلك أجري مجراه بطريق التمثيل أو الاستعارة التبعية وأيهم موصولة بمعنى الذي وأحسن خبر مبتدأ مضمر والجملة صلة لها وهي في حيز النصب بدل من مفعول ابلوهم والتقدير لنبلو الذي هو أحسن عملا فحينئذ يحتمل أن تكون الضمة في أيهم للبناء كما في قوله عز وجل ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا على أحد الاقوال لتحقق شرط البناء الذي هو الاضافة لفظا وحذف صدر الصلة وأن تكون للاعراب لان ما ذكر شرط لجواز البناء لا لوجوبه وحسن العمل الزهد فيها وعدم الاغترار بها والقناعة باليسير منها وصرفها على ما ينبغي والتأمل في شأنها وجعلها ذريعة الى معرفة خالقها والتمتع بها حسبما أذن له الشرع وأداء حقوقها والشكر لها لا اتخاذها وسيلة الى الشهوات والاغراض الفاسدة كما يفعله الكفرة وأصحاب الاهواء وايراد صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شامل للفريقين باعتبار أعمالهم المنقسمة الى الحسن والقبيح أيضا لا الى الحسن والاحسن فقط للاشعار بأن الغاية الاصلية للخلق انما هو ظهور كمال احسان المحسنين على ما حقق في تفسير قوله تعالى ليبلوكم أيكم أحسن عملا (وانا لجاعلون) فيما سيأتي عند تناهي عمر الدنيا (ما عليها) من المخلوقات قاطبة بافنائها بالكلية وانما أظهر في مقام الاضمار لزيادة التقرير أو لادراج المكلفين فيه (صعيدا) مفعول ثان للجعل والصعيد التراب أو وجه الارض قال أبو عبيدة هو المستوي من الارض وقال الزجاج هو الطريق الذي لا نبات فيه (جرزا) ترابا لا نبات فيه بعد ما كان يتعجب من بهجته النظار وتتشرف بمشاهدته الابصار يقال أرض جرز لا نبات فيها وسنة جرز لا مطر فيها قال الفراء جرزت الارض فهي مجروزة أي ذهب نباتها بقحط أو جراد ويقال

كيف يبدئ الله ثم قال ثم يعيده كما يقول القائل ضرب زيد عمرا ثم ضرب بكرا ولا يحتاج الى اظهار اسم زيد اكتفاء بالاول وفي الآية الثانية كان ذكر البدء مسندا الى الله فاكتفى به ولم يبرزه كقول القائل أما علمت كيف خرج زيد ثم من أين دخل ولا يظهر اسم زيد وأما الاظهار عند الانشاء ثانيا حيث قال ثم الله ينشئ مع انه كان يكفي أن يقول ثم ينشئ النشأة الآخرة فلحكمة بالغة وهي ما ذكرنا ان مع اقامة البرهان على امكان الاعادة أظهر اسمه حتى يفهم السامع انه يعني به من صفات كماله ونعوت جلاله يقطع بجواز الاعادة فقال الله مظهرا مبرزا ليقع في ذهن الانسان من اسمه كمال قدرته وشمول علمه ونفوذ ارادته ويعترف بوقوع بدئه وجواز اعادته فان قيل فلم لم يقل ثم الله يعيده لعين ما ذكرت من الحكمة والفائدة نقول لوجهين (أحدهما) ان الله كان مظهرا مبرزا بقربه منه وهو في قوله كيف يبدئ الله الخلق ولم يكن بينهما الا لفظ الخلق وأما ههنا فلم يكن مذكورا عند البدء مظهرا (وثانيهما) ان الدليل ههنا تم على جواز الاعادة لان الدلائل منحصرة في الآفاق وفي الأنفس كما قال تعالى سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم وفي الآية الاولى أشار الى الدليل النفسي الحاصل للانسان من نفسه وفي الآية الثانية أشار الى الدليل الحاصل من الآفاق بقوله قل سيروا في الأرض وعندهما تم الدليلان فأكده باظهار اسمه وأما الدليل الاول فأكده بالدليل الثاني فلم يقل ثم الله يعيده (المسئلة الرابعة) في الآية الاولى ذكر بلفظ المستقبل فقال أولم يروا كيف يبدئ وههنا قال بلفظ الماضي فقال فانظروا كيف بدأ ولم يقل كيف يبدأ فنقول الدليل الاول هو الدليل النفسي الموجب للعلم الحدسي وهو في كل حال يوجب العلم ببدء الخلق فقال ان كان ليس لكم علم بأن الله في كل حال يبدأ خلقا فانظروا الى الاشياء المخلوقة ليحصل لكم علم بأن الله بدأ خلقا ويحصل المطلوب من هذا القدر فانه يعني كما بدأ ذلك (المسئلة الخامسة) قال في هذه الآية ان الله على كل شيء قدير وقال في الآية الاولى ان ذلك على الله يسير وفيه فائدتان (احداهما) ان الدليل الاول هو الدليل النفسي وهو وان كان موجبا للعلم الحدسي التام ولكن عند انضمام دليل الآفاق اليه يحصل العلم العام لانه بالنظر في نفسه علم نفسه وحاجته الى الله ووجوده منه وبالنظر الى الآفاق علم حاجة غيره اليه ووجوده منه فتم علمه بأن كل شيء من الله فقال عند تمام ذكر الدليلين ان الله على كل شيء قدير وقال عند الدليل الواحد ان ذلك وهو اعادته على الله يسير (الثانية) هي انا بينا ان العلم الاول أتم وان كان الثاني أعم وكون الامر يسيرا على الفاعل أتم من كونه مقدورا له بدليل أن القائل يقول في حق من يحمل مائة من انه قادر عليه ولا يقول انه سهل عليه فاذا سئل عن حمل عشرة أمنان يقول ان ذلك عليه سهل يسير فنقول قال الله تعالى ان لم يحصل لكم العلم التام بأن هذه الامور عند الله سهل يسير فهو في الأرض أنه مقدور ونفس كونه مقدورا كاف في امكان الاعادة ثم قال تعالى ﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء واليه تقلبون وما أنتم بمعجزين في الارض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ لما ذكر النشأة الآخرة ذكر ما يكون فيه وهو تعذيب أهل التكذيب عدلا وحكمة واثابة أهل الانابة فضلا ورحمة وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قدم التعذيب في الذكر على الرحمة مع ان رحمته سابقة كما قال عليه السلام حكاية عنه سبقت رحمتي غضبي فنقول ذلك لوجهين (أحدهما) أن السابق ذكر الكفار فذكر العذاب لسبق ذكر مستحقيه بحكم الايعاد وعقبه بالرحمة كما ذكر بعد اثبات الاصل الاول وهو التوحيد التهديد بقوله وان تكذبوا فقد كذب أمم وأهلكوا بالتكذيب كذلك ذكر بعد اثبات الاصل الآخر التهديد بذكر التعذيب وذكر الرحمة وقع تبعا لئلا يكون العذاب مذكورا وحده وهذا تحقيق قوله سبقت رحمتي غضبي وذلك لان الله حيث كان

جرزها الجراد والشاة والابل اذا أكلت ما عليها وهذه الجملة لتكميل ما في السابقة من التعليل والمعنى لا تحزن بما عاينت من القوم من تكذيب ما أنزلنا عليك من الكتاب فانا قد جعلنا ما على الارض من فنون الاشياء زينة لها لنختبر أعمالهم فنجازيهم بحسبها وانا لمفنون جميع ذلك عن قريب ومجازون لهم بحسب أعمالهم (أم حسبت) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد انكار حسبانه أمته وأم منقطعة مقدرة ببل التي هي للانتقال من حديث الى حديث لا للابطال وبهمزة الاستفهام عند الجمهور وببل وحدها عند غيرهم أي بل أحسبت (أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا) في بقائهم على الحياة مدة طويلة من الدهر (من آياتنا) من بين آياتنا التي من جملتها ما ذكرناه من جعل ما على الارض زينة لها للحكمة المشار اليها ثم جعل ذلك كله صعيدا جرزا كأن لم تغن بالامس (عجبا) أي آية ذات عجب وضعا له موضع المضاف أو وصفا لذلك بالمصدر مبالغة وهو خبر لكانوا ومن آياتنا حال منه والمعنى ان قصتهم وان كانت خارقة للعادات ليست بعجيبة بالنسبة الى سائر الآيات التي من جملتها ما ذكر من تعاجيب خلق الله تعالى بل هي عندها كالنزر الحقير والكهف الغار الواسع في الجبل والرقيم كلبهم قال أمية بن أبي الصلت

وليس بها الا الرقيم مجاورا ... وصيدهم والقوم في الكهف همد

وقيل هو لوح رصاصي أو حجري رقمت فيه أسماؤهم وجعل على باب الكهف وقيل هو الوادي الذي فيه الكهف فهو من رقمة الوادي أي جانبه وقيل الجبل وقيل قريتهم وقيل مكانهم بين غضبان وايلة دون فلسطين وقيل أصحاب الرقيم آخرون وكانوا ثلاثة انطبق عليهم الغار فنجوا بذكر كل منهم أحسن عمله على ما فصل في الصحيحين (اذ أوى) ظرف لعجبا لا لحسبت أو

مفعول لاذكر أى حين التجأ (الفتية) أى أصحاب الكهف أوثر الاظهار على الاضمار لتحقيق ما كانوا عليه فى أنفسهم من حال الفتوة فانهم كانوا فتية من أشراف الروم أرادهم دقيانوس على الشرك فهربوا منه بدينهم ولان صاحبية الكهف من فروع التجائهم الى الكهف فلا يناسب اعتبارها معهم قبل بيانه (الى الكهف) يجعلوه للجلوس واتخذوه مأوى (فقالوا ربنا آتنا من لدنك) من خزائن رحمتك الخاصة المكنونة عن عيون أهل العادات فمن ابتدائية متعلقة بآتنا أو بمحذوف وقع حالا من مفعوله الثانى قدمت عليه لكونه نكرة ولو تأخرت لكانت صفة له أى آتنا كائنة من لدنك (رحمة) خاصة تستوجب المغفرة والرزق والامن من الاعداء (وهيئ لنا من أمرنا) الذى نحن عليه من مهاجرة الكفار والمثابرة على طاعتك وأصل التهيئة احداث هيئة الشئ أى أصلح ورتب وأتم لنا من أمرنا (رشدا) اصابة للطريق الموصل الى المطلوب واهتداء اليه وكلا الجارين متعلق بهيئ لاختلافهما فى المعنى وتقديم المجرورين على المفعول الصريح لاظهار الاعتناء بهما وابراز الرغبة فى المؤخر بتقديم أحواله فان تأخير ما حقه التقديم عما هو من أحواله المرغبة فيه كما يورث شوق السامع الى وروده ينبئ عن كمال رغبة المتكلم فيه واعتنائه بحصوله لامحالة وكذا الكلام فى تقديم قوله تعالى من لدنك على تقدير تعلقه بآتنا وتقديم لنا على من أمرنا للايذان من أول الامر بين يكون المسؤل مرغوبا فيه لديهم أو اجعل أمرنا رشدا كله على أن من تجريدية مثلها فى قولك رأيت منك أسدا (فضربنا على آذانهم) أى أنمناهم على طريقة التمثيل المبنى على تشبيه الانامة الثقيلة المانعة عن وصول الاصوات الى الآذان بضرب الحجاب عليها وتخصيص

المقصود ذكر العذاب لم يحسنه فى الذكر بل ذكر الرحمة معه (المسئلة الثانية) اذا كان ذكر هذا التخويف العاصى وتفريح المؤمن فلو قال يعذب الكافر ويرحم المؤمن لكان أدخل فى تحصيل المقصود وقوله يعذب من يشاء لا يزجر الكافر لجواز أن يقول لعلى لا أكون ممن يشاء الله عذابه فنقول هذا أبلغ فى التخويف وذلك لان الله أثبت بهذا انفاذ مشيئته اذا أراد تعذيب شخص فلا يمنعه منه مانع ثم كان من المعلوم للعباد بحكم الوعد والايعاد أنه شاء تعذيب أهل العناد فلزم منه الخوف التام بخلاف ما لو قال يعذب العاصى فانه لا يدل على كمال مشيئته لانه لا يفيد أنه لو شاء عذاب المؤمن لعذبه فاذا لم يفد هذا فيقول الكافر اذا لم يحصل مراده فى تلك الصورة يمكن أن يحصل فى صورة أخرى ولنضرب له مثلا فنقول اذا قيل ان الملك يقدر على ضرب كل من فى بلاده وقال من خالفنى أضربه يحصل الخوف التام لمن يخالفه واذا قيل انه قادر على ضرب المخالفين ولا يقدر على ضرب المطيعين فاذا قال من خالفنى أضربه يقع فى وهم المخالف أنه لا يقدر على ضرب فلان المطيع فلا يقدر على أيضا الكونى مثله وفى هذا فائدة أخرى وهو الخوف العام والرجاء العام لان الامن الكلى من الله يوجب الجراءة فيفضى الى صيرورة المطيع عاصيا (المسئلة الثالثة) قال ثم اليه تقلبون مع أن هذه المسئلة قد سبق اثباتها وتقريرها فلم أعادها فنقول لما ذكر الله التعذيب والرحمة وهما قد يكونان عاجلين فقال تعالى فان تأخر عنكم ذلك فلا تظنوا أنه فات فان الينا ايابكم وعلينا حسابكم وعنده يدخر ثوابكم وعقابكم ولهذا قال بعدها وما أنتم بمعجزين يعنى لا تفوتون الله بل الانقلاب اليه ولا يمكن الانفلات منه وفى تفسير هذه الآية لطائف (احداها) هى اعجاز المعذب عن التعذيب اما بالهرب منه أو بالثبات له والمقاومة معه للدفع وذكر الله القسمين فقال وما أنتم بمعجزين فى الارض ولا فى السماء يعنى بالهرب لو صعدتم الى محل السماك فى السماء أو هبطتم الى موضع السموك فى الماء لا تخرجون من قبضة قدرة الله فلا مطمع فى الاعجاز بالهرب وأما بالثبات فكذلك لان الاعجاز اما أن يكون بالاستناد الى ركن شديد يشفع ولا يمكن للمعذب مخالفته فيفوته المعذب ويعجز عنه أو بالانتصار بقوم يقوم معه بالدفع وكلاهما محال فانكم ما لكم من دون الله ولى يشفع ولا نصير يدفع فلا اعجاز لا بالهروب ولا بالثبات (الثانية) قال ما أنتم بمعجزين ولم يقل لا تعجزون بصيغة الفعل وذلك لان نفى الفعل لا يدل على نفى الصلاحية فان من قال ان فلانا لا يخيط لا يدل على ما يدل عليه قوله انه ليس بخياط (الثالثة) قدم الارض على السماء والولى على النصير لان هربهم الممكن فى الارض فان كان يقع منهم هرب يكون فى الارض ثم ان فرضنا لهم قدرة غير ذلك فيكون لهم صعود فى السماء وأما الدفع فان العاقل ما أمكنه الدفع بأجمل الطرق فلا يرتقى الى غيره والشفاعة أجمل ولان ما من أحد فى الشاهد الا ويكون له شفيع يتكلم فى حقه عند ملك ولا يكون كل أحد له ناصر يعادى الملك لاجله ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم﴾ لما بين الاصلين التوحيد والاعادة وقررهما بالبرهان وهدد من خالفه على سبيل التفصيل فقال والذين كفروا بآيات الله ولقائه اشارة الى الكفار بالله فان لله فى كل شئ آية دالة على وحدانيته فاذا أشرك كفر بآيات الله واشارة الى المنكر للحشر فان من أنكره كفر بلقاء الله فقال أولئك يئسوا من رحمتى لما أشركوا أخرجوا أنفسهم عن محل الرحمة لان من يكون له جهة واحدة تدفع حاجته لا غير يرحم واذا كان له جهات متعددة لا يبقى محلا للرحمة واذا جعلوا لهم آلهة لم يعترفوا بالحاجة الى طريق متعين فيئسوا من رحمة الله ولما أنكروا الحشر وقالوا لا عذاب فناسب تعذيبهم تحقيقا للامر عليهم وهذا كما ان الملك اذا قال أعذب من يخالفنى فأنكره بعيد عنه وقال هو لا يصل الى فاذا أحضره

بين يديه يحسن منه أن يعذبه ويقول هل قدرت وهل عذبت أم لا فاذن تبين أن عدم الرحمة يناسب الاشراك والعذاب الأليم يناسب انكار الحشر ثم ان في الآية فوائد (احداها) قوله أولئك يئسوا حتى يكون مبنيا عن حصر الناس فيهم وقال أيضا وأولئك لهم عذاب أليم لذلك ولو قال أولئك الذين كفروا بآيات الله ولقائه يئسوا من رحمتي ولهم عذاب أليم ما كان يحصل هذه الفائدة فان قال قائل لو اكتفى بقوله أولئك مرة واحدة كان يكفي في افادة ما ذكرتم قلنا لا وذلك لانه لو قال أولئك يئسوا ولهم عذاب كان يذهب وهم أحد الى أن هذا المجموع منحصر فيهم فلا يوجد المجموع الا فيهم ولكن واحد منهما وحده يمكن أن يوجد في غيرهم فاذا قال أولئك يئسوا وأولئك لهم عذاب أفاد أن كل واحد لا يوجد الا فيهم (الثانية) عند ذكر الرحمة اضافها الى نفسه فقال رحمتي وعند العذاب لم يضفه لسبق رحمته واعلاما لعباده بعمومها لهم ولزومها له (الثالثة) أضاف اليأس اليهم بقوله أولئك يئسوا فعيرهم بما عليهم ولو طمعوا لا يأسهم فلو قال قائل ما ذكرت من مقابلة الامرين وهما اليأس والعذاب بأمرين وهما الكفر بالآيات والكفر باللقاء يقتضي أن لا يكون العذاب الأليم لمن كفر بالله واعترف بالحشر أو لا يكون اليأس لمن كفر بالحشر وآمن بالله فنقول معنى الآية انهم يئسوا ولهم عذاب أليم زائد بسبب كفرهم بالحشر ولا شك أن التعذيب بسبب الكفر بالحشر لا يكون الا للكافر بالحشر وأما الآخر فالكافر بالحشر لا يكون مؤمنا بالله لان الايمان به لا يصح الا اذا صدقه فيما قال والحشر من جملة ذلك ﴿ثم قال تعالى فما كان جواب قومه الا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ لما أتى ابراهيم عليه السلام ببيان الاصول الثلاثة وأقام البرهان عليه بقي الامر من جانبهم اما الاجابة أو الاتيان بما يصلح أن يكون جوابا فلم يأتوا الا بقولهم اقتلوه أو حرقوه وفي الآية مسائل (المسألة الاولى) كيف سمى قولهم اقتلوه جوابا مع أنه ليس بجواب * فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أنه خرج منهم مخرج كلام المتكبر كما يقول الملك لرسول خصمه جوابكم السيف مع أن السيف ليس بجواب وانما معناه لا أقابله بالجواب وانما أقابله بالسيف فكذلك قالوا لا تجيبوا عن براهينه واقتلوه أو حرقوه (الثاني) هو أن الله أراد بيان ضلالتهم وهو أنهم ذكروا في معرض الجواب هذا مع أنه ليس بجواب فتبين أنهم لم يكن لهم جواب أصلا وذلك لان من لا يجيب غيره ويسكت لا يعلم أنه لا يقدر على الجواب لجواز أن يكون سكوته لعدم الالتفات أما اذا أجاب بجواب فاسد علم أنه قصد الجواب وما قدر عليه (المسألة الثانية) القائلون الذين قالوا اقتلوه هم قومه والمأمورون بقولهم اقتلوه أيضا هم فيكون الآمر نفس المأمور فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان كل واحد منهم قال لمن عداه اقتلوه فحصل الامر من كل واحد وصار المأمور كل واحد ولا اتحاد لان كل واحد أمر غيره (وثانيهما) هو أن الجواب لا يكون الا من الاكابر والرؤساء فاذا قال الاعيان كلاما يقال اتفق أهل البلدة على هذا ولا يلتفت الى عدم قول العبيد والارذال فكان جواب قومه وهم الرؤساء أن قالوا لاتباعهم وأعوانهم اقتلوه لان الجواب لا يباشره الا الاكابر والقتل لا يباشره الا الاتباع (المسألة الثالثة) أو يذكر بين أمرين الثاني منهما ينفك عن الاول كما يقال زوج أو فرد ويقال هذا انسان أو حيوان يعني ان لم يكن انسانا فهو حيوان ولا يصح أن يقال هذا حيوان أو انسان اذ يفهم منه أنه يقول هو حيوان فان لم يكن حيوانا فهو انسان وهو محال لكن التحريق مشتمل على القتل فقوله اقتلوه أو حرقوه كقول القائل حيوان أو انسان الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان الاستعمال على خلاف ما ذكرتم شائع ويكون أو مستعملا في موضع بل كما يقول القائل أعطيته دينارا أو دينارين وكما يقول القائل اعطه دينارا بل دينارين قال الله

الآذان بالذكر مع اشتراك سائر المشاعر لها في الحجب عن الشعور عند النوم لما أنها المحتاج الى الحجب عادة اذ هي الطريقة للتيقظ غالبا لاسيما عند انفراد النائم واعتزاله عن الخلق وقيل الضرب على الآذان كناية عن الانامة الثقيلة وحمله على تعطيلها كما في قولهم ضرب الامير على يد الرعية أي منعهم من التصرف مع عدم ملاءمته لما سيأتي من البعث لا يدل على النوم مع أنه المراد قطعا والفاء في فضربنا كما في قوله عز وجل فاستجبنا له بعد قوله تعالى اذ نادى فان الضرب المذكور وما ترتب عليه من التقليب ذات اليمين وذات الشمال والبعث وغير ذلك ايتاء رحمة لدنية خافية عن أبصار المتمسكين بالاسباب العادية استجابة لدعوتهم (في الكهف) ظرف مكان لضربنا (سنين) ظرف زمان له باعتبار بقائه لا ابتدائه (عددا) أي ذوات عدد أو تعد عددا على أنه مصدر أو معدودة على أنه بمعنى المفعول ووصف السنين بذلك اما للتكثير وهو الانسب باظهار كمال القدرة أو للتقليل وهو الاليق بمقام انكار كون القصة عجبا من بين سائر الآيات العجيبة فان مدة لبثهم كبعض يوم عنده عز وجل (ثم بعثناهم) أي أيقظناهم من تلك النومة الثقيلة الشبيهة بالموت (لنعلم) بنون العظمة وقرئ بالياء مبنيا للفاعل على طريق الالتفات وأياما كان فهو غاية للبعث لكن لا بجعل العلم مجازا من الاظهار والتمييز أو حمله على ما يصح وقوعه غاية للبعث الحادث من العلم الحالي الذي يتعلق به الجزاء كما في قوله تعالى الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وقوله تعالى وليعلم الله الذين آمنوا ونظائرهما التي يتحقق فيها العلم بتحقق متعلقه قطعا فان تحويل القبلة قد ترتب عليه تحزب الناس الى متبع ومنقلب وكذا مداولة الايام بين الناس ترتب عليه تحزبهم الى

تعالى قم الليل الا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه فكذلك ههنا اقتلوه أو زيدوا على القتل وحرقوه (الجواب الثاني) هو انا نسلم ماذكرتم والامر هنا كذلك لان التحريق فعل يفضى الى القتل وقد يتخلف عنه القتل فان من ألقى غيره فى النار حتى احترق جلده بأسره وأخرج منها حيا يصح أن يقال احترق فلان وأحرقه فلان وما مات فكذلك ههنا قالوا اقتلوه أولا تقتلوه بل عذبوه بالنار وان تركتم مقالته فخلوا سبيله وان أصر فخلوا فى النار مقيله ثم قال تعالى فأنجاه الله من النار اختلف العقلاء فى كيفية الانجاء بعضهم قال برد النار وهو الاصح الموافق لقوله تعالى يا نار كوني بردا وبعضهم قال خلق فى ابراهيم كيفية استبرد منها النار وقال بعضهم ترك ابراهيم على ما هو عليه والنار على ما كانت عليه ومنع أذى النار عنه والكل ممكن والله قادر عليه وأنكر بعض الاطباء الكل أما سلب الحرارة عن النار فلان الحرارة فى النار ذاتية كالزوجية فى الاربعة لا يمكن أن تفارقها وأما خلق كيفية تستبرد النار فلان المزاج الانسانى له طرفا تفريط وافراط فلو خرج عنهما لا يبقى انسانا أو لا يعيش مثلا المزاج ان كان البارد فيه عشرة أجزاء يكون انسانا فان صار أحد عشر لا يكون انسانا وان صارت الاجزاء الباردة خمسة يبقى انسانا فاذا صارت أربعة لا يبقى انسانا لكن البرودة التى يستبرد معها النار مزاج المعتدل فلو حصل فى الانسان لمات أولا كان ذلك فان النفس تابعة للمزاج وأما الثالث فمحال أن تكون القطنة فى النار والنار كما هى والقطنة كما هى ولا تحترق فنقول الآية رد عليهم والمنقول موافق للنقل (اما الاول) فلوجهين (أحدهما) أن الحرارة فى النار تقبل الاشتداد والضعف فان النار فى الفحم اذا نفخ فيه يشتد حتى يذيب الحديد وان لم ينفخ لا يشتد لكن الضعف هو عدم بعض من الحرارة كانت فى النار فاذا أمكن عدم البعض جاز عدم بعض آخر من ذلك عليها الى أن ينتهى الى حد لا يؤذى الانسان ولا كذلك الزوجية فانها لا تشتد ولا تضعف (والثاني) هو أن فى أصول الطب ذكر أن النار لها كيفية حارة كما أن الماء له كيفية باردة لكن رأينا أن الماء تزول عنه البرودة وهو ماء فكذلك النار تزول عنها الحرارة وتبقى نارا وهو نور غير محرق (وأما الثاني) فأيضا ممكن وقولهم مدفوع من وجهين (أحدهما) منع أصلهم من كون النفس تابعة للمزاج بل الله قادر على أن يخلق النفس الانسانية فى المزاج الذى مثل مزاج الجمد (وثانيهما) انا نقول على أصلكم لا يلزم المحال لان الكيفية التى ذكرناها تكون فى ظاهر الجلد كالاجزاء الرشية عليه ولا يتأدى الى القلب والاعضاء الرئيسة الا ترى ان الانسان اذا مس الجمد زمانا ثم مس جمرة نار لا تؤثر النار فى احراق يده مثل ما تؤثر فى احراق يد من أخرج يده من جيبه ولهذا تحترق يده فاذا جاز وجود كيفية فى ظاهر جلد الانسان تمنع تأثير النار فيه بالاحراق زمانا فيجوز أن تتجدد تلك الكيفية لحظة فلحظة حتى لا تحترق (وأما الثالث) فمجرد استبعاد بيان عدم الاعتياد ونحن نسلم أن ذلك غير معتاد لانه معجز والمعجز ينبغى أن يكون خارقا للعادة ثم قال تعالى ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون يعنى فى انجائه من النار لآيات وهنا مسائل (المسئلة الاولى) قال فى انجاء نوح وأصحاب السفينة وجعلناها آية وقال ههنا لآيات بالجمع لان الانجاء بالسفينة شئ تسع له العقول فلم يكن فيه من الآية الا بسبب اعلام الله اياه بالاتخاذ وقت الحاجة فانه لولا علمه لما اتخذه لعدم حصول علمه بما فى الغيب وبسبب ان الله صان السفينة عن المهلكات كالرياح العاصفة وأما الانجاء من النار فعجيب فقال فيه آيات (المسئلة الثانية) قال هناك آية للعالمين وقال ههنا لقوم يؤمنون خص الآيات بالمؤمنين لان السفينة بقيت أعواما حتى مر عليها الناس ورأوها فحصل العلم بها لكل أحد وأما تبريد النار لم يبق فلم يظهر لمن بعده الا بطريق الايمان به والتصديق وفيه لطيفة وهى أن الله لما برد النار على ابراهيم بسبب اهتدائه فى نفسه

الثابت على الايمان والمتزلزل فيه وتعلق بكل من الفريقين العلم الحالى والاظهار والتمييز وأما بعث هؤلاء فلم يترتب عليه تفرقهم الى المحصى وغيره حتى يتعلق بها العلم أو الاظهار والتمييز ويتبنى نظام شئ من ذلك فى سلك الغاية وانما الذى ترتب عليه تفرقهم الى مقدر تقديرا غير مصيب ومفوض

الى العلم الربانى وليس شئ منهما من الاحصاء فى شئ بل يحمل النظم الكريم على التمثيل المبنى على جعل العلم عبارة عن الاختبار مجازا بطريق اطلاق اسم المسبب على السبب وليس من ضرورة الاختبار صدور الفعل المختبر به عن المختبر قطعا بل قد يكون لاظهار عجزه عنه على سنن التكاليف التعجيزية كقوله تعالى فأت بها من المغرب وهو المراد ههنا فالمعنى بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبرهم (أى الحزبين) أى الفريقين المختلفين فى مدة لبثهم بالتقدير والتفويض كما سيأتى (أحصى) أى أضبط (لما لبثوا) أى للبثهم (أمدا) أى غاية فيظهر لهم عجزهم ويفوضوا ذلك الى العليم الخبير ويتعرفوا حالهم وما صنع الله تعالى بهم من حفظ أبدانهم وأدياتهم فيزدادوا يقينا بكمال قدرته وعلمه ويستبصروا به أمر البعث ويكون ذلك لطفا لمؤمنى زمانهم وآية بينة لكفارهم وقد اقتصر ههنا من تلك الغايات الجليلة على ذكر مبدئها الصادر عنه عز وجل وفيما سيأتى على ما صدر عنهم من التساؤل المؤدى اليها وهذا أولى من تصوير التمثيل بأن يقال بعثناهم بعث من يريد وهدايته أن يعلم الخ حسبما وقع فى تفسير قوله تعالى وليعلم الله الذين آمنوا على أحد الوجوه حيث حمل على معنى فعلنا ذلك فعل من يريد أن يعلم من الثابت على الايمان من غير الثابت اذ ربما يتوهم منه استلزام الارادة لتحقق المراد فيعود المحذور فيصار الى جعل ارادة العلم عبارة عن

وهداية لا يناسب نفسه وقد قال الله للمؤمنين بأن لهم أسوة حسنة في ابراهيم فحصل للمؤمنين بشارة بأن الله يبرد عليهم النار يوم القيامة فقال ان في ذلك التبريد لآيات لقوم يؤمنون (المسألة الثالثة) قال هنالك جعلناها وقال ههنا جعلناه لأن السفينة ما صارت آية في نفسها ولولا خلق الله الطوفان لبقي فعل نوح سفها فالله تعالى جعل السفينة بعد وجودها آية وأما تبريد النار فهو في نفسه آية اذا وجدت لا يحتاج الى أمر آخر كخلق الطوفان حتى يصير آية ﴿ ثم قال تعالى ﴿وقال انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾ لما خرج ابراهيم من النار عاد الى عذل الكفار وبيان فساد ما هم عليه وقال اذا بينت لكم فساد مذهبكم وما كان لكم جواب ولا ترجعون عنه فليس هذا الا تقليدا فان بين بعضكم وبعض مودة فلا يريد أحدكم أن يفارقه صاحبه في السيرة والطريقة أو بينكم وبين آبائكم مودة فورثتموهم وأخذتم مقالتهم ولزمتم ضلالهم وجهالتهم فقوله انما اتخذتم مودة بينكم يعني ليس بدليل أصلا وفيه وجه آخر وهو تحقيق دقيق وهو أن يقال قوله انما اتخذتم مودة بينكم أي مودة بين الأوثان وبين عبدتها وتلك المودة هي ان الانسان مشتمل على جسم وعقل ولجسمه لذات جسمانية ولعقله لذات عقلية ثم ان من غلب فيه الجسمية لا يلتفت الى اللذات العقلية ومن غلبت عليه العقلية لا يلتفت الى اللذات الجسمانية كالمجنون اذا احتاج الى قضاء حاجة من أكل أو شرب أو اراقة ماء وهو بين قوم من الأكابر يحصل ما فيه لذة جسمه من الأكل واراقة الماء وغيرهما ولا يلتفت الى اللذة العقلية من حسن السيرة وحميد الأوصاف ومكرمة الأخلاق والعاقل يحمل الألم الجسماني ويحصل اللذة العقلية حتى لو غلبت قوته الدافعة على قوته الماسكة وخرج منه ريح أو قطرة ماء يكاد يموت من الخجالة والألم العقلي اذا ثبت هذا فهم كانوا قليلي العقل غلبت الجسمية عليهم فلم يتسع عقلهم لمعبود لا يكون فوقهم ولا تحتهم ولا يمينهم ولا يسارهم ولا قدامهم ولا وراءهم ولا يكون جسما من الاجسام ولا شيأ يدخل في الأوهام ورأوا الاجسام المناسبة للغالب فيهم من بنية جواهرهم فعبدوها فاتخاذهم الأوثان كان مودة بينهم وبين الأوثان ثم قال تعالى ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض يعني يوم تزول عمى القلوب وتتبين الأمور للعيوب والعقول يكفر بعضكم ببعض ويعلم فساد ما كان عليه فيقول العابد ما هذا معبودي ويقول المعبود ما هؤلاء عبدتي ويلعن بعضكم بعضا يقول هذا لذاك أنت أوقعتني في العذاب حيث عبدتني ويقول ذاك لهذا أنت أوقعتني فيه حيث أضللتني بعبادتك ويريد كل واحد أن يبعد صاحبه باللعن ولا يتباعدون بل هم مجتمعون في النار كما كانوا مجتمعين في هذه الدار كما قال تعالى ومأواكم النار ثم قال تعالى وما لكم من ناصرين يعني ليس تلك النار مثل ناركم التي أنجى الله منها ابراهيم ونصره فأنتم في النار ولا ناصر لكم وههنا مسائل (المسألة الأولى) قال قبل هذا وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير على لفظ الواحد وقال ههنا على لفظ الجمع وما لكم من ناصرين والحكمة فيه أنهم لما أرادوا احراق ابراهيم عليه السلام قالوا نحن ننصر آلهتنا كما حكى الله تعالى عنهم حرقوه وانصروا آلهتكم فقال أنتم ادعيتم ان لأوثانكم ناصرين فما لكم ولهم أي للأوثان وعبدتها من ناصرين وأما هنالك ما سبق منهم دعوى الناصرين فنفى الجنس بقوله ولا نصير (المسألة الثانية) قال هنالك ما لكم من دون الله من ولي ولا نصير وما ذكر الولي ههنا فنقول قد بينا ان المراد بالولي الشفيع يعني ليس لكم شافع ولا نصير دافع وههنا لما كان الخطاب دخل فيه الأوثان أي ما لكم كلكم لم يقل شفيع لأنهم كانوا معترفين أن كلهم ليس لهم شافع لأنهم كانوا يدعون أن آلهتهم شفعاؤهم كما قال تعالى عنهم هؤلاء شفعاؤنا والشفيع لا يكون له شفيع فما نفى عنهم الشفيع لعدم الحاجة الى نفيه

الاختيار فاختبر واشرحه هذا وقد قرئ ليعلم مبنيا للمفعول ومبنيا للفاعل من الاعلام على أن المفعول الأول محذوف والجملة المصدرة بأي في موقع المفعول الثاني فقط ان جعل العلم عرفانيا أو في موقع المفعولين ان جعل يقينيا أي ليعلم الله الناس أي الحزبين أحصى الخ وروى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أحد الحزبين الفتية والآخر الملوك الذين تداولوا المدينة ملكا بعد ملك وقيل كلاهما من غيرهم والأول هو الأظهر فان اللام للعهد ولا عهد لغيرهم والأمد بمعنى المدى كالغاية في قولهم ابتداء الغاية وانتهاء الغاية وهو مفعول لأحصى والجار والمجرور حال منه قدمت عليه لكونه نكرة وليس معنى احصاء تلك المدة ضبطها من حيث كميتها المتصلة الذاتية فانه لا يسمى احصاء بل ضبطها من حيث كميتها المنفصلة العارضة لها باعتبار قسمتها الى السنين وبلوغها من تلك الحيثية الى مراتب الاعداد على ما يرشدك اليه كون تلك المدة عبارة عما سبق من السنين ويجوز أن يراد بالأمد معناه الوضعي بتقدير المضاف أي لزمان لبثهم وبدونه أيضا فان اللبث عبارة عن الكون المستمر المنطبق على الزمان المذكور فباعتبار الامتداد العارض له بسببه يكون له أمد لا محالة لكن ليس المراد به ما ينتهي غاية ومنتهى لذلك الكون المستمر باعتبار كميته المتصلة العارضة له بسبب انطباقه على الزمان الممتد بالذات وهو آن انبعاثهم من نومهم فان معرفته من تلك الحيثية لا تخفى على أحد ولا تسمى احصاء كما مر بل باعتبار كميته المنفصلة العارضة له بسبب عروضها لزمانه المنطبق هو عليه باعتبار انقسامه الى السنين ووصوله الى مرتبة معينة من مراتب العدد كما حقق في الصورة الأولى والفرق بين الاعتبارين أن ما تعلق به الاحصاء في الصورة السابقة نفس المدة المنقسمة

لاعترافهم به وأما هنالك فكان الكلام معهم وهم كانوا يدعون أن لأنفسهم شفعاء فقال ﴿المسألة الثالثة﴾ قال هنالك ما لكم من دون الله فذكر على معنى الاستثناء فيفهم أن لهم ناصرا ووليا هو الله وليس لهم غيره ولي وناصر وقال ههنا ما لكم من ناصرين من غير استثناء فنقول كان ذلك واردا على أنهم في الدنيا فقال لهم في الدنيا ألا تتقون وأنكم تحذرون الله فما لكم أحد ينصركم بل الله تعالى ينصركم ان تبتم فهو ناصر معد لكم متى أردتم استنصرتموه بالتوبة وهذا يوم القيامة كما قال تعالى ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض وعدم الناصر عام لأن التوبة في ذلك اليوم لا تقبل فسواء تابوا أو لم يتوبوا لا ينصرهم الله ولا ناصر لهم غيره فلا ناصر لهم مطلقا ۞ ثم قال تعالى ﴿فآمن له لوط﴾ يعني لما رأى لوط معجزته آمن ﴿وقال﴾ ابراهيم ﴿اني مهاجر الى ربي﴾ أي الى حيث أمرني بالتوجه اليه ﴿انه هو العزيز الحكيم﴾ عزيز يمنع أعدائي عن ايذائي بعزته وحكيم لا يأمرني الا بما يوافق لكمال حكمته وفي الآية مسائل ﴿المسألة الأولى﴾ قوله آمن له لوط أي بعد ما رأى منه المعجز القاهر ودرجة لوط كانت عالية وبقاؤه الى هذا الوقت مما ينقص من الدرجة ألا ترى أن أبا بكر لما قبل دين محمد صلى الله عليه وسلم وكان نير القلب قبله قبل الكل من غير سماع تكلم الحصى ولا رؤية انشقاق القمر فنقول ان لوطا لما رأى معجزته آمن برسالته وأما بالوحدانية فآمن حيث سمع حسن مقالته واليه أشار بقوله فآمن له لوط وما قال فآمن لوط ﴿المسألة الثانية﴾ ما تعلق قوله وقال اني مهاجر الى ربي بما تقدم فنقول لما بالغ ابراهيم في الارشاد ولم يهتد قومه وحصل اليأس الكلي حيث رأى القوم الآية الكبرى ولم يؤمنوا وجبت المهاجرة لأن الهادي اذا هدى قومه ولم ينتفعوا فبقاؤه فيهم مفسدة لأنه ان دام على الارشاد كان اشتغالا بما لا ينتفع به مع علمه فيصير كمن يقول للحجر صدق وهو عبث أو يسكت والسكوت دليل الرضا فيقال بأنه صار منا ورضي بأفعالنا واذا لم يبق الا الاقامة وجه وجبت المهاجرة ﴿المسألة الثالثة﴾ قال مهاجر الى ربي ولم يقل مهاجر الى حيث أمرني ربي مع أن المهاجرة الى الرب توهم الجهة فنقول قوله مهاجر الى حيث أمرني ربي ليس في الاخلاص كقوله الى ربي لأن الملك اذا صدر منه أمر برواح الأجناد الى الموضع الفلاني ثم ان واحدا منهم سافر اليه لغرض في نفسه يصيبه فقد هاجر الى حيث أمره الملك ولكن لا لأجله فقال مهاجر الى ربي يعني توجهي الى الجهة المأمور بالهجرة اليها ليس طلبا للجهة انما هو طلب لله ۞ ثم قال تعالى ﴿ووهبنا له اسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين﴾ قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى لنكفرن عنهم سيآتهم ولنجزينهم ان أرحم الله في أمرين في الأمان من سوء العذاب والامتنان بحسن الثواب وهو واصل الى المؤمن في الدار الآخرة قطعا لحكم وعد الله نفي العذاب عنه لنفيه الشرك واثبات الثواب لاثباته الواحد ولكن هذا ليس بواجب الحصول في الدنيا فان كثيرا ما يكون الكافر في رغد والمؤمن جائع في يومه متفكر في أمر غده لكنهما مطلوبان في الدنيا أما دفع العذاب العاجل فلأنه ورد في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم قوله وقنا عذاب القبر والنار فعذاب القبر اشارة الى دفع العذاب العاجل وأما الثواب العاجل ففي قوله ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة اذا علم هذا فنقول ان ابراهيم عليه السلام لما أتى ببيان التوحيد أولا دفع الله عنه عذاب الدنيا وهو عذاب النار واتى به مرة بعد مرة مع اصرار القوم على التكذيب واضرارهم به بالتعذيب أعطاه الجزاء الآخرة والثواب العاجل وعدد عليه بقوله ووهبنا له اسحق ويعقوب وفي الآية لطيفة وهي ان الله بدل جميع أحوال ابراهيم في الدنيا بأضدادها لما أراد القوم تعذيبه بالنار وكان وحيدا فريدا فبدل وحدته بالكثرة حتى ملأ الدنيا من ذريته ولما كان أولاد قومه وأقاربه

الى السنين فهو مجموع ثلثمائة وتسع سنين وفي الصورة الاخيرة منتهى تلك المدة المنقضية اليها أعني السنة التاسعة بعد الثلثمائة وتعلق الاحصاء بالأمد بالمعنى الأول ظاهر وأما تعلقه به بالمعنى الثاني فباعتبار انتظامه لما تحته من مراتب العدد واشتماله عليها هذا على تقدير كون ما في قوله تعالى لما لبثوا مصدرية ويجوز أن تكون موصولة حذف عائدها من الصلة أي للذي لبثوا فيه من الزمان الذي عبر عنه فيما قبل بسنين عددا فالأمد بمعناه الوضعي على ما تحققته وقيل اللام مزيدة والموصول مفعول وأمدا نصب على التمييز وأما ما قيل من أن أحصى اسم تفضيل لأنه الموافق لما وقع في سائر الآيات الكريمة نحو أيهم أحسن عملا أيهم أقرب لكم نفعا الى غير ذلك مما لا يحصى ولأن كونه فعلا ماضيا يشعر بأن غاية البعث هو العلم بالاحصاء المتقدم على البعث لا بالاحصاء المتأخر عنه وليس كذلك وادعاء أن مجيء أفعل التفضيل من المزيد عليه غير قياسي مدفوع بأنه عند سيبويه قياسي مطلقا وعند ابن عصفور فيما ليست همزته للنقل ولا ريب في أن ما نحن فيه من ذلك القبيل وامتناع عمله انما هو في غير التمييز من المعمولات وأما أن التمييز يجب كونه فاعلا في المعنى فلمانع أن يمنعه بعد أن يقال أيهم أحفظ لهذا الشعر وزنا أو تقطيعا أو يقال ان العامل في أمدا فعل محذوف يدل عليه المذكور أي يحصي لما لبثوا أمدا كما في قوله ✽ واضرب منا بالسيوف القوانسا ✽ وحديث القرينة الواقع في المحذور بلا فائدة مدفوع بما أشير اليه من فائدة الموافقة للنظائر فيما فيه من الاعتساف والخلل بمعزل من السداد لأن مؤداه أن يكون المقصود بالاختبار اظهار أفضل الحزبين وتمييزه عن الأدنى مع تحقق أصل الاحصاء فيهما ومن البين أن لا تحقق له

القريبة ضالين مضلين من جملتهم آزر بدل الله أقاربه بأقارب مهتدين هادين وهم ذريته الذين جعل فيهم النبوة والكتاب وكان أولا لا جاه له ولا مال وهما غاية اللذة الدنيوية آتاه الله أجره من المال والجاه فكثر ماله حتى كان له من المواشي ما علم الله عدده حتى قيل انه كان له اثنا عشر ألف كلب حارس بأطواق ذهب وأما الجاه فصار بحيث يقرن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الانبياء الى يوم القيامة فصار معروفا بشيخ المرسلين بعد ان كان خاملا حتى قال قائلهم سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم وهذا الكلام لا يقال الا في مجهول بين الناس ثم ان الله تعالى قال وانه في الآخرة لمن الصالحين يعني ليس له هذا في الدنيا فحسب كما يكون لمن قدم له ثواب حسناته أو أملى له استدراجا لمكثره من سيآته بل هذا له عجالة وله في الآخرة ثواب الدلالة والرسالة وهو كونه من الصالحين فان كون العبد صالحا أعلى مراتبه لما بينا أن الصالح هو الباقي على ما ينبغي يقال الطعام بعد صالح أي هو باق على ما ينبغي ومن بقي على ما ينبغي لا يكون في عذاب ويكون له كل ما يريد من حسن ثواب وفي الآية مسئلتان (احداهما) ان اسمعيل كان من أولاده الصالحين وكان قد أسلم لامر الله بالذبح وانقاد لحكم الله فلم يذكر فقال هو مذكور في قوله وجعلنا في ذريته النبوة ولكن لم يصرح باسمه لانه كان غرضه تبيين فضله عليه بهبة الاولاد والاحفاد فذكر من الاولاد واحدا وهو الاكبر ومن الاحفاد واحدا وهو الاظهر كما يقول القائل ان السلطان في خدمته الملوك والامراء الملك الفلاني والامير الفلاني ولا يعدد الكل لان ذكر ذلك الواحد لبيان الجنس لا لخصوصيته ولو ذكر غيره لفهم منه التعديد واستيعاب الكل بالذكر فيظن انه ليس معه غير المذكورين (المسئلة الثانية) أن الله تعالى جعل في ذريته النبوة اجابة لدعائه والوالد يستحب منه أن يسوي بين ولديه فكيف صارت النبوة في أولاد اسحق أكثر من النبوة في أولاد اسمعيل * فنقول الله تعالى قسم الزمان من وقت ابراهيم الى القيامة قسمين والناس جميعين فالقسم الاول من الزمان بعث الله فيه أنبياء فيهم فضائل جمة وجاؤا تترى واحدا بعد واحد ومجتمعين في عصر واحد كلهم من ورثة اسحق عليه السلام ثم في القسم الثاني من الزمان أخرج من ذرية ولده الآخر وهو اسمعيل واحدا جمع فيه ما كان فيهم وأرسله الى كافة الخلق وهو محمد صلى الله عليه وسلم وجعله خاتم النبيين وقد دام الخلق على دين أولاد اسحق أكثر من أربعة آلاف سنة فلا يبعد أن يبقى الخلق على دين ذرية اسمعيل مثل ذلك المقدار * ثم قال تعالى ﴿ولوطا اذ قال لقومه انكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه الا أن قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين قال رب انصرني على القوم المفسدين﴾ الاعراب في لوطا والتفسير كما ذكرنا في قوله وابراهيم اذ قال لقومه وههنا مسائل (الاولى) قال ابراهيم لقومه اعبدوا الله وقال عن لوط ههنا انه قال لقومه لتأتون الفاحشة * فنقول لما ذكر الله لوطا عند ذكر ابراهيم وكان لوط في زمان ابراهيم لم يذكر عن لوط أنه أمر قومه بالتوحيد مع ان الرسول لا بد من أن يقول ذلك فنقول حكاية لوط وغيرها ههنا ذكرها الله على سبيل الاختصار فاقتصر على ما اختص به لوط وهو المنع من الفاحشة ولم يذكر عنه الامر بالتوحيد وان كان قاله في موضع آخر حيث قال اعبدوا الله ما لكم من اله غيره لان ذلك كان قد أتى به ابراهيم وسبقه فصار كالمختص به ولوط يبلغ ذلك عن ابراهيم وأما المنع من عمل قوم لوط فكان مختصا بلوط فان ابراهيم لم يظهر ذلك ولم يمنعهم منه فذكر كل واحد بما اختص به وسبق به غيره (المسئلة الثانية) لم سمى ذلك الفعل فاحشة * فنقول الفاحشة هو القبيح الظاهر قبحه ثم ان الشهوة والغضب صفتا قبح لولا مصلحة ما كان يخلقهما الله في الانسان فمصلحة الشهوة الفرجية هي بقاء

أصلا وأن المقصود بالاختبار اظهار عجز الكل عنه رأسا فهو فعل ماض قطعا وتوهم ابدائه بان غاية البعث هو العلم بالاحصاء المتقدم عليه مردود بان صيغة الماضي باعتبار حال الحكاية والله تعالى أعلم (نحن نقص عليك) شروع في تفصيل ما أجمل فيما سلف من قوله تعالى اذ أوى الفتية الخ أي نحن نخبرك بتفاصيل أخبارهم وقد مر بيان اشتقاقه في مطلع سورة يوسف عليه السلام (نبأهم) النبأ الخبر الذي له شأن وخطر (بالحق) اما صفة لمصدر محذوف أو حال من ضمير نقص أو من نبأهم أو صفة له على رأي من يرى حذف الموصول مع بعض صلته أي نقص قصصا ملتبسا بالحق أو نقصه ملتبسين به أو نقص نبأهم ملتبسا به أو نبأهم الملتبس به ونبأهم حسبما ذكره محمد بن اسحق بن يسار أنه قد مرج أهل الانجيل وعظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم فعبدوا الاصنام وذبحوا للطواغيت وكان ممن بالغ في ذلك وعتا عتوا كبيرا دقيانوس فانه غلا فيه غلوا شديدا فجاس خلال الديار والبلاد بالعيث والفساد وقتل من خالفه من المتمسكين بدين المسيح عليه السلام وكان يتتبع الناس فيخيرهم بين القتل وعبادة الاوثان فمن رغب في الحياة الدنيا الدنية يصنع ما يصنع ومن آثر عليها الحياة الابدية قتله وقطع آرابه وعلقها في سور المدينة وأبوابها فلما رأى الفتية ذلك وكانوا عظماء أهل مدينتهم وقيل كانوا من خواص الملك قاموا فتضرعوا الى الله عز وجل واشتغلوا بالصلاة والدعاء فبينما هم كذلك اذ دخل عليهم أعوان الجبار فأحضروهم بين يديه فقال لهم ما قال وخيرهم بين القتل وبين عبادة الاوثان فقالوا ان لنا الها ملأ السموات والارض عظمته وجبروته لن ندعو من دونه أحدا ولن نقر بما تدعونا اليه أبدا فاقض ما أنت

النوع بتوليد الشخص وهذه المصلحة لا تحصل الا بوجود الولد وبقائه بعد الاب فانه لو وجد ومات قبل الاب كان يفنى النوع بفناء القرن الاول لكن الزنا تضاعف شهوة ولا يفضي الى بقاء النوع لانا بينا ان البقاء بالوجود وبقاء الولد بعد الاب لكن الزنا وان كان يفضي الى وجود الولد ولكن لا يفضي الى بقائه لان المياه اذا اشتبهت لا يعرف الوالد ولده فلا يقوم بتربيته والانفاق عليه فيضيع ويهلك فلا يحصل مصلحة البقاء فاذا الزنا شهوة قبيحة خالية عن المصلحة التي لاجلها خلقت فهو قبيح ظاهر قبحه حيث لا تستر المصلحة فهو فاحشة واذا كان الزنا فاحشة مع انه يفضي الى وجود الولد ولكن لا يفضي الى بقائه فاللواطة التي لا تفضي الى وجوده أولى بان تكون فاحشة (المسألة الثانية) الآية دالة على وجوب الحد في اللواطة لان اسم الزنا اشتركت في كونهما فاحشة حيث قال الله تعالى ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة واشتراكهما في الفاحشة باسم الزجر عنه فما شرع زاجرا هناك يشرع زاجرا ههنا وهذا وان كان قياسا الا أن جامعه مستفاد من الآية ووجه آخر وهو أن الله جعل عذاب من أتى بها امطار الحجارة حيث أمطر عليهم حجارة عاجلا فوجب أن يعذب من أتى بها بامطار الحجارة به عاجلا وهو الرجم * قوله ما سبقكم بها من احد يحتمل وجهين (أحدهما) أن قبلهم لم يأت أحد بهذا القبيح وهذا ظاهر (والثاني) ان قبلهم ربما أتى به واحد في الندرة لكنهم بالغوا فيه فقال لهم ما سبقكم بها من أحد كما يقال ان فلانا سبق البخلاء في البخل وسبق اللئام في اللؤم اذا زاد عليهم ثم قال تعالى أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل بيانا لما ذكرنا يعني تقضون الشهوة بالرجال مع قطع السبيل المعتاد مع النساء المشتمل على المصلحة التي هي بقاء النوع حتى يظهر انه قبيح لم يستر قبحه مصلحة وحينئذ يصير هذا كقوله تعالى أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء يعني اتيان النساء شهوة قبيحة مستترة بالمصلحة فالكم دافع لحاجتكم لا فاحشة فيه وتتركونه وتأتون الرجال شهوة مع الفاحشة وقوله وتأتون في ناديكم المنكر يعني ما كفاكم قبح فعلكم حتى تضمون اليه قبح الاظهار وقوله فما كان جواب قومه في التفسير كقوله في قصة ابراهيم وما كان جواب قومه وفي الآية مسائل (المسألة الاولى) قال قوم ابراهيم اقتلوه أو حرقوه وقال قوم لوط ائتنا بعذاب الله مع ما هددوه مع أن ابراهيم كان أعظم من لوط فان لوطا كان من قومه فنقول ان ابراهيم كان يقدح في دينهم ويشتم آلهتهم بتعديد صفات نقصهم بقوله لا يسمع ولا يبصر ولا يغني والقدح في الدين صعب فجعلوا جزاءه القتل والتحريق ولوط كان ينكر عليهم فعلهم وينسبهم الى ارتكاب المحرم وهم ما كانوا يقولون ان هذا واجب من الدين فلم يصعب عليهم مثل ما صعب على قوم ابراهيم قول ابراهيم فقالوا انك تقول ان هذا حرام والله يعذب عليه ونحن نقول لا يعذب فان كنت صادقا فأتنا بالعذاب فان قيل ان الله تعالى قال في موضع آخر فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم وقال ههنا فما كان جواب قومه الا ان قالوا ائتنا فكيف الجمع فنقول لوط كان ثابتا على الارشاد مكررا عليهم التغيير والنهي والوعيد فقالوا أولا ائتنا ثم لما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا أخرجوا ثم ان لوطا لما يئس منهم طلب النصرة من الله وذكرهم بما لا يحب الله فقال انصرني على القوم المفسدين فان الله لا يحب المفسدين حتى ينجز النصرة واعلم ان نبيا من الانبياء ما طلب هلاك قوم الا اذا علم ان عدمهم خير من وجودهم كما قال نوح انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا يعني المصلحة اما فيهم حالا أو بسببهم مآلا ولا مصلحة فيهم فانهم يضلون في الحال وفي المآل فانهم يوصون الاولاد من صغرهم بالامتناع من الاتباع فكذلك لوط لما رأى انهم يفسدون في الحال واشتغلوا بما لا يرجى معه منهم ولد صالح يعبد الله بطلت المصلحة

قاض فأمر بنزع ما عليهم من الثياب الفاخرة وأخرجهم من عنده وخرج هو الى مدينة نينوى لبعض شأنه وأمهلهم الى رجوعه لينأملوا في أمرهم فان تبعوه والا فعل بهم ما فعل بسائر المسلمين فأزمعت الفتية على الفرار بالدين والالتجاء الى الكهف الحصين فأخذ كل منهم من بيت أبيه شيأ فتصدقوا بعضه ونزودوا بالباقي فأووا الى الكهف فجعلوا يصلون فيه آناء الليل وأطراف النهار ويبتهلون الى الله سبحانه بالانين والجؤار وفوضوا أمر نفقتهم الى تمليخا فكان اذا أصبح يضع عنه ثيابه الحسان ويلبس لباس المساكين ويدخل المدينة ويشتري ما يهمهم ويتجسس ما فيها من الاخبار ويعود الى أصحابه فلبثوا على ذلك الى أن قدم الجبار المدينة فطلبهم وأحضر آباءهم فاعتذروا بانهم عصوهم ونهبوا أموالهم وبذروها في الاسواق وفروا الى الجبل فلما رأى تمليخا ما رأى من الشر رجع الى أصحابه وهو يبكي ومعه قليل من الزاد فأخبرهم بما شاهده من الهول ففزعوا الى الله عز وجل وخروا له سجدا ثم رفعوا رؤسهم وجلسوا يتحدثون في أمرهم فبينما هم كذلك اذ ضرب الله تعالى على آذانهم فناموا ونفقتهم عند رؤسهم فخرج دقيانوس في طلبهم بخيله ورجله فوجدوهم قد دخلوا الكهف فأمر باخراجهم فلم يطق أحد أن يدخله فلما ضاق بهم ذرعا قال قائل منهم أليس لو كنت قدرت عليهم قتلتهم قال بلى قال فابن عليهم باب الكهف ودعهم يموتوا جوعا وعطشا وليكن كهفهم قبرا لهم ففعل ثم كان من شأنهم ما قص الله عز وجل عنهم (انهم فتية) استئناف تحقيقي مبني على تقدير السؤال من قبل المخاطب والفتية جمع قلة للفتى كالصبية للصبي (آمنوا بربهم) أوثر الالتفات للاشعار بعلية وصف الربوبية لايمانهم ولمراعاة ما صدر عنهم من

حالا

المقالة حسبما سيحكى عنهم (وزدناهم هدى) بأن ثبتناهم على ما كانوا عليه من الدين وأظهرنا لهم مكنونات محاسنه وفيه التفات من الغيبة الى ما عليه سبك النظم سباقا وسياقا من التكلم (وربطنا على قلوبهم) أى قويناها حتى اقتحموا مضايق الصبر على هجر الاهل والاوطان والنعيم والاخوان واجترؤا على الصدع بالحق من غير خوف وحذار والرد على دقيانوس الجبار (اذ قاموا) منصوب بربطنا والمراد بقيامهم انتصابهم لاظهار شعار الدين قال مجاهد خرجوا من المدينة فاجتمعوا على غير ميعاد فقال أكبرهم انى لاجد فى نفسى شيأ ان ربى رب السموات والارض فقالوا نحن ايضا كذلك فقاموا جميعا (فقالوا ربنا رب السموات والارض) ضمنوا دعواهم ما يحقق فحواها ويقتضى مقتضاها فان ربوبيته عز وجل لهما تقتضى ربوبيته لما فيهما أى اقتضاء وقيل المراد قيامهم بين يدى الجبار من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الاصنام فحينئذ يكون ما سيأتى من قوله تعالى هؤلاء الخ منقطعا عما قبله صادرا عنهم بعد خروجهم من عنده (لن ندعو) لن نعبد أبدا (من دونه الها) معبودا آخر لا استقلالا ولا اشتراكا والعدول عن أن يقال ربا للتنصيص على رد المخالفين حيث كانوا يسمون أصنامهم آلهة وللاشعار بأن مدار العبادة وصف الالوهية وللايذان بأن ربوبيته تعالى بطريق الالوهية لا بطريق المالكية المجازية (لقد قلنا اذا شططا) أى قولا ذا شطط أى تجاوز عن الحد أو قولا هو عين الشطط على انه وصف بالمصدر مبالغة ثم اقتصر على الوصف مبالغة على مبالغة وحيث كانت العبادة مستلزمة للقول لما انها الاعتراف بالوهية المعبود والتضرع اليه قيل لقد قلنا اذا جواب وجزاء أى لو دعونا من دونه الها والله لقد قلنا قولا خارجا عن حد العقول مفرطا

حالا وما لا فعدهم صار خير افطأب العقاب ﴿ ثم قال تعالى ﴿ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكوا أهل هذه القرية ان أهلها كانوا ظالمين قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين﴾ لما دعا لوط على قومه بقوله رب انصرنى استجاب الله دعاءه وأمر ملائكته باهلاكهم وأرسلهم مبشرين ومنذرين فجاؤا ابراهيم وبشروه بذرية طيبة وقالوا انا مهلكوا أهل هذه القرية يعنى أهل سدوم وفى الآية لطيفتان (احداهما) ان الله جعلهم مبشرين ومنذرين لكن البشارة أثر الرحمة والانذار بالاهلاك أثر الغضب ورحمته سبقت غضبه فقدم البشارة على الانذار وقال جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى ثم قال انا مهلكو (الثانية) حين ذكر البشرى ما عللها وقال انا نبشرك لانك رسول أو لانك مؤمن أو لانك عادل وحين ذكر الاهلاك عللها وقالوا ان أهلها كانوا ظالمين لان ذا الفضل لا يكون فضله بعوض والعادل لا يكون عذابه الا على جرم وفيه مسائل (احداها) لو قال قائل أى تعلق لهذه البشرى بهذا الانذار نقول لما أراد الله اهلاك قوم وكان فيه اخلاء الارض عن العباد قدم على ذلك اعلام ابراهيم بانه تعالى يملأ الارض من العباد الصالحين حتى لا يتأسف على اهلاك قوم من أبناء جنسه (والثانية) قال فى قوم نوح فأخذهم الطوفان وقد قلنا ان ذلك اشارة الى أنهم كانوا على ظلمهم حين أخذهم ولم يقل فأخذهم وكانوا ظالمين وههنا قال ان أهلها كانوا ظالمين ولم يقل وانهم ظالمون فنقول لا فرق فى الموضعين فى كونهم مهلكين وهم مصرون على الظلم لكن هناك الاخبار من الله وعن الماضى حيث قال فأخذهم وكانوا ظالمين فقال أخذهم وهم عند الوقوع فى العذاب ظالمون وههنا الاخبار من الملائكة وعن المستقبل حيث قالوا انا مهلكو فالملائكة ذكروا ما يحتاجون اليه فى ابانة حسن الامر من الله بالاهلاك فقالوا انا مهلكوهم لان الله أمرنا وحال ما أمرنا به كانوا ظالمين فحسن أمر الله عند كل أحد وأما نحن فلا نغير ما لا حاجة لنا اليه فان الكلام عن الملك بغير اذنه سوء أدب فنحن ما احتجنا الا الى هذا القدر وهو انهم كانوا ظالمين حيث أمرنا الله باهلاكهم بيانا لحسن الامر وأما انهم ظالمون فى وقتنا هذا أو يتوبون كذلك فلا حاجة لنا اليه ثم ان ابراهيم لما سمع قولهم قال لهم ان فيها لوطا اشفاقا عليه ليعلم حاله أو لان الملائكة لما قالوا انا مهلكو وكان ابراهيم يعلم ان الله لا يهلك قوما وفيهم رسوله فقال تعجبا ان فيهم لوطا فكيف يهلكون فقالت الملائكة نحن أعلم بمن فيها يعنى نعلم ان فيهم لوطا فننجيه وأهله ونهلك الباقين (وههنا لطيفة) وهو ان الجماعة كانوا أهل الخير أعنى ابراهيم والملائكة وكل واحد كان يزيد على صاحبه فى كونه خيرا أما ابراهيم فلما سمع قول الملائكة انا مهلكو أظهر الاشفاق على لوط ونسى نفسه وما بشروه ولم يظهر بها فرحا وقال ان فيها لوطا ثم ان الملائكة لما رأوا ذلك منه زادوا عليه وقالوا انك ذكرت لوطا وحده ونحن ننجيه وننجى معه أهله ثم استثنوا من الاهل امرأته وقالوا الا امرأته كانت من الغابرين أى من المهلكين وفى استعمال الغابر فى المهلك وجهان وذلك لان الغابر لفظ مشترك فى الماضى وفى الباقى يقال فيما غبر من الزمان أى فيما مضى ويقال الهمل ماض وغابر أى باق فعلى الوجه الاول نقول انه ذكر الظالمين سبق فى قولهم انا مهلكو أهل هذه القرية ان أهلها كانوا ظالمين ثم جرى ذكر لوط بتذكير ابراهيم وجواب الملائكة فقالت الملائكة انها من الغابرين أى الماضى ذكرهم لا من الذين نتحدث عنهم أو نقول المهلك يفنى ويمضى زمانه والناجى هو الباقى فقالوا انها من الغابرين أى من الرائحين الماضين لا من الباقين المستمرين وأما على الوجه الثانى فنقول لما قضى الله على القوم بالاهلاك كان الكل فى الهلاك الا من ننجى منه فقالوا انا ننجى لوطا وأهله وأما امرأته فهى من الباقين فى الهلاك ﴿ ثم قال تعالى ﴿ولما أن جاءت رسلنا لوطا سىء

في الظلم (هؤلاء) هو مبتدأ وفي اسم الاشارة تحقير لهم (قومنا) عطف بيان له (اتخذوا من دونه آلهة) خبره وفيه معنى الانكار (لولا يأتون) تحضيض فيه معنى الانكار والتعجيز أي هلا يأتون (عليهم) على ألوهيتهم أو على صحة اتخاذهم لها آلهة (بسلطان بين) بحجة ظاهرة الدلالة على مدعاهم وهو ٥٢٤ تبكيت لهم والقام حجر (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) بنسبة الشريك اليه تعالى عن ذلك علوا كبيرا والمعنى انه أظلم من كل ظالم وان كان سبك النظم على انكار الاظلمية من غير تعرض لانكار المساواة كما مر تحقيقه في سورة هود (واذ اعتزلتموهم) أي فارقتموهم في الاعتقاد أو أردتم الاعتزال الجسماني (وما يعبدون الا الله) عطف على الضمير المنصوب وما موصولة أو مصدرية أي اذا اعتزلتموهم ومعبوديهم الا الله أو وعبادتهم الا عبادة الله وعلى التقديرين فالاستثناء متصل على تقدير كونهم مشركين كأهل مكة ومنقطع على تقدير تمحضهم في عبادة الاوثان ويجوز كون ما نافية على انه اخبار من الله تعالى عن الفتية بالتوحيد معترض بين اذ وجوابه (فأووا) أي التجؤا (الى الكهف) قال الفراء هو جواب اذ كما تقول اذ فعلت فافعل كذا وقيل هو دليل على جوابه أي اذ اعتزلتموهم اعتزالا اعتقاديا فاعتزلوهم اعتزالا جسمانيا أو اذا أردتم اعتزالهم فافعلوا ذلك بالالتجاء الى الكهف (ينشر لكم) يبسط لكم ويوسع عليكم (ربكم) مالك أمركم (من رحمته) في الدارين (ويهيئ لكم) يسهل لكم (من أمركم) الذي أنتم بصدده من الفرار بالدين (مرفقا) ما ترتفقون وتنتفعون به وقرئ بفتح الميم وكسر الفاء مصدرا كالمرجع وتقديم لكم في الموضعين

بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن انا منجوك وأهلك الا امرأتك كانت من الغابرين انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون﴾ ثم انهم جاؤا من عند ابراهيم الى لوط على صورة البشر فظنهم بشرا فخاف عليهم من قومه لانهم كانوا على أحسن صورة خلق الله والقوم كما عرف حالهم فسيء بهم أي جاءه ما ساءه وخاف ثم عجز عن تدبيرهم فحزن وضاق بهم ذرعا كناية عن العجز في تدبيرهم قال الزمخشري يقال طال ذرعه وذراعه للقادر وضاق للعاجز وذلك لان من طال ذراعه يصل الى ما لا يصل اليه قصير الذراع والاستعمال يحتمل وجها معقولا غير ذلك وهو أن الخوف والحزن يوجبان انقباض الروح ويتبعه اشتمال القلب عليه فينقبض هو أيضا والقلب هو المعتبر من الانسان فكأن الانسان انقبض واجتمع وما يكون كذلك يقل ذرعه ومساحته فيضيق ويقال في الحزين ضاق ذرعه والغضب والفرح يوجبان انبساط الروح فينبسط مكانه وهو القلب ويتسع فيقال اتسع ذرعه ثم ان الملائكة لما رأوا خوفه في أول الامر وحزنه بسبب تدبيرهم في ثاني الامر قالوا لا تخف علينا ولا تحزن بسبب التفكر في أمرنا ثم ذكروا ما يوجب زوال خوفه وحزنه فان مجرد قول القائل لا تخف لا يوجب زوال الخوف فقالوا معرضين بحالهم انا منجوك وأهلك وانا منزلون عليهم العذاب حتى يتبين له انهم ملائكة فيطول ذرعه ويزول روعه وفي الآية مسائل (الاولى) انه تعالى قال من قبل ولما جاءت رسلنا ابراهيم وقال ههنا ولما أن جاءت رسلنا فما الحكمة فيه فنقول هي أن الواقع في وقت المجيء هنالك قول الملائكة انا مهلكو وهو لم يكن متصلا بمجيئهم لانهم بشروا أولا وابتوا ثم قالوا انا مهلكو وأيضا فالتأني واللبث بعد المجيء ثم الاخبار بالاهلاك حسن فان من جاء ومعه خبر هائل يحسن منه أن لا يفاجئ به والواقع ههنا هو خوف لوط عليهم والمؤمن حين ما يشعر بمضرة تصل بريئا من الجناية ينبغي أن يحزن ويخاف عليه من غير تأخير اذا علم هذا فقوله ههنا ولما أن جاءت رسلنا يفيد الاتصال يعني خاف حين المجيء فان قلت هذا باطل بما أن هذه الحكاية جاءت في سورة هود وقال ولما جاءت رسلنا لوطا من غير أن فنقول هنالك جاءت حكاية ابراهيم بصيغة أخرى حيث قال هنالك ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى فقوله هنالك ولقد جاءت لا يدل على أن قولهم انا أرسلنا كان في وقت المجيء وقوله ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم دل على أن خوفه كان وقت المجيء اذا علم هذا فنقول هنالك قد حصل ما ذكرنا من المقصود بقوله في حكاية ابراهيم ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى ثم جرى أمور من الكلام وتقديم الطعام ثم قالوا لا تخف ولا تحزن انا أرسلنا الى قوم لوط فحصل تأخير الانذار وبقوله في حكاية لوط ولما جاءت رسلنا حصل بيان تعجيل الحزن وأما ههنا لما قال في قصة ابراهيم ولما جاءت قال في حكاية لوط ولما أن جاءت لما ذكرنا من الفائدة (المسألة الثانية) قال ههنا انا منجوك وأهلك وقال لابراهيم لننجينه بصيغة الفعل فهل فيه فائدة قلنا ما من حرف ولا حركة في القرآن الا وفيه فائدة ثم ان العقول البشرية تدرك بعضها ولا تصل الى أكثرها وما أوتي البشر من العلم الا قليلا والذي يظهر لعقلي الضعيف أن هنالك لما قال لهم ابراهيم ان فيها لوطا وعدوه بالتنجية ووعد الكريم حتم وههنا لما قالوا للوط وكان ذلك بعد سبق الوعد مرة أخرى قالوا انا منجوك أي ذلك واقع منا كقوله تعالى انك ميت لضرورة وقوعه (المسألة الثالثة) قولهم لا تخف ولا تحزن لا يناسبه انا منجوك لان خوفه ما كان على نفسه فنقول بينهما مناسبة في غاية الحسن وهي ان لوطا لما خاف عليهم وحزن لاجلهم قالوا له لا تخف علينا ولا تحزن لاجلنا فانا ملائكة ثم قالوا له يا لوط خفت علينا وحزنت لاجلنا ففي مقابلة خوفك وقت الخوف نزيل خوفك وننجيك وفي مقابلة حزنك نزيل حزنك ولا نتركك تفجع في أهلك فقالوا انا منجوك وأهلك

وأهلك (المسئلة الرابعة) القوم عذبوا بسبب ما صدر منهم من الفاحشة وامرأته لم يصدر منها تلك فكيف كانت من الغابرين معهم فنقول الدال على الشر له نصيب كفاعل الشر كما أن الدال على الخير كفاعله وهي كانت تدل القوم على ضيوف لوط حتى كانوا يقصدونهم فبالدلالة صارت واحدة منهم ثم انهم بعد بشارة لوط بالتنجية ذكروا انهم منزلون على أهل هذه القرية العذاب فقالوا انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء واختلفوا في ذلك فقال بعضهم حجارة وقيل نار وقيل خسف وعلى هذا فلا يكون عينه من السماء وانما يكون الامر بالخسف من السماء أو القضاء به من السماء ثم اعلم أن كلام الملائكة مع لوط جرى على نمط كلامهم مع ابراهيم قدموا البشارة على الانذار حيث قالوا انا منجوك ثم قالوا انا منزلون على أهل هذه القرية ولم يعللوا التنجية فما قالوا انا منجوك لانك نبي أو عابد وعللوا الاهلاك بقولهم بما كانوا يفسقون وقالوا انا كما قالوا هناك ان أهلها كانوا ظالمين ثم قال تعالى ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون أي من القرية فان القرية معلومة وفيها الماء الاسود وهي بين القدس والكرك وفيها مسائل (احداها) جعل الله الآية في نوح وابراهيم بالنجاة حيث قال فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية وقال فأنجاه الله من النار ان في ذلك لآيات وجعل ههنا الهلاك آية فهل عندك فيه شئ نقول نعم أما ابراهيم فلأن الآية كانت في النجاة لان في ذلك الوقت لم يكن اهلاك وأما في نوح فلان الانجاء من الطوفان الذي علا الجبال بأسرها أمر عجيب الهي وما به النجاة وهو السفينة كان باقيا والغرق لم يبق لمن بعده أثره فجعل الباقي آية وأما ههنا فنجاة لوط لم يكن بأمر يبقى أثره للحس والهلاك أثره محسوس في البلاد فجعل الآية الامر الباقي وهو ههنا البلاد وهناك السفينة وههنا لطيفة وهي ان الله تعالى آية قدرته موجودة في الانجاء والاهلاك فذكر من كل باب آية وقدم آيات الانجاء لانها أثر الرحمة وأخر آيات الاهلاك لانها أثر الغضب ورحمته سابقة (المسئلة الثانية) قال في السفينة وجعلناها آية ولم يقل بينة وقال ههنا آية بينة نقول لان الانجاء بالسفينة أمر يسع له كل عقل وقد يقع في وهم جاهل ان الانجاء بالسفينة لا يفتقر الى أمر آخر وأما الآية ههنا الخسف وجعل ديار معمورة عاليها سافلها وهو ليس بمعتاد وانما ذلك بارادة قادر يخصصه بمكان دون مكان وفي زمان دون زمان فهي بينة لا يمكن لجاهل أن يقول هذا أمر يكون كذلك وكان له أن يقول في السفينة انجاؤها أمر يكون كذلك الى أن يقال له فمن أين علم انه يحتاج اليها ولو دام الماء حتى ينفد زادهم كيف كان يحصل لهم النجاة ولو سلط الله عليهم الريح العاصفة كيف يكون أحوالهم (المسئلة الثالثة) قال هناك للعالمين وقال ههنا لقوم يعقلون قلنا لان السفينة موجودة في جميع أقطار العالم فعند كل قوم مثال لسفينة نوح يتذكرون بها حاله واذا ركبوها يطلبون من الله النجاة ولا يثق أحد بمجرد السفينة بل يكون دائما مرتجف القلب متضرعا الى الله تعالى طالبا للنجاة وأما أثر الهلاك في بلاد لوط ففي موضع مخصوص لا يطلع عليه الا من يمر بها ويصل اليها ويكون له عقل يعلم ان ذلك من الله المريد بسبب اختصاصه بمكان دون مكان ووجوده في زمان بعد زمان ﴿ثم قال تعالى ﴿والى مدين أخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الارض مفسدين فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ لما أتم الحكاية الثانية على وجه الاختصار لفائدة الاعتبار شرع في الثالثة وقال والى مدين أخاهم واختلف المفسرون في مدين فقال بعضهم انه اسم رجل في الاصل وحصل له ذرية فاشتهر في القبيلة كتميم وقيس وغيرهما وقال بعضهم اسم ماء نسب القوم اليه واشتهر في القوم والاول كأنه أصح وذلك لان الله أضاف الماء الى مدين حيث قال ولما ورد ماء مدين ولو كان اسم الماء لكانت الاضافة غير صحيحة أو غير حقيقية والاصل

لما مر مرارا من الايذان من أول الامر بكون المؤخر من منافعهم والتشويق الى وروده (وترى الشمس) بيان لحالهم بعدما أووا الى الكهف ولم يصرح به ايذانا بعدم الحاجة اليه لظهور جريانهم على موجب الامر به لكونه صادرا عن رأى صائب وتعويلا على ما سلف من قوله سبحانه اذ أوى الفتية الى الكهف وما لحق من اضافة الكهف اليهم وكونهم في فجوة منه والخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب وليس المراد به الاخبار بوقوع الرؤية تحقيقا بل الانباء بكون الكهف بحيث لو رأيته ترى الشمس (اذا طلعت تزاور) أي تتزاور وتتنحى بحذف احدى التاءين وقرئ بادغام التاء في الزاي وتزور كتحمر وتزوار كتحمار وتزوئر وكلها من الزور وهو الميل (عن كهفهم) الذي أووا اليه فالاضافة لادنى ملابسة (ذات اليمين) أي جهة ذات يمين الكهف عند توجه الداخل الى قعره أي جانبه الذي يلي المغرب فلا يقع عليهم شعاعها فيؤذيهم (واذا غربت) أي تراها عند غروبها (تقرضهم) أي تقطعهم من القطيعة والصرم ولا تقربهم (ذات الشمال) أي جهة ذات شمال الكهف أي جانبه الذي يلي المشرق وكان ذلك بتصريف الله سبحانه على منهاج خرق العادة كرامة لهم وقوله تعالى (وهم في فجوة منه) جملة حالية مبينة لكون ذلك أمرا بديعا أي تراها تميل عنهم يمينا وشمالا ولا تحوم حولهم مع أنهم في متسع من الكهف معرض لاصابتها لولا أن صرفتها عنهم يد التقدير (ذلك) أي ما صنع الله بهم من تزاور الشمس وقرضها حالتي الطلوع والغروب مع كونهم في موقع شعاعها (من آيات الله) العجيبة الدالة على كمال علمه وقدرته وحقية التوحيد وكرامة أهله عنده سبحانه وتعالى وهذا قبل أن سد دقيانوس باب الكهف وقيل كان باب الكهف شماليا مستقبل

بنات نعش وأقرب المشارق والمغارب الى محاذاته رأس مشرق السرطان ومغربه والشمس اذا كان مدارها مداره تطلع مائلة عنه مقابلة لجانبه الايمن وهو الذي يلي المغرب وتغرب محاذية لجانبه الايسر فيقع شعاعها على جنبيه وتحلل عفونته وتعدل هواءه ولا يقع عليهم فيؤذي أجسادهم ويبلي ثيابهم

ولعل ميل الباب الى جانب المغرب كان أكثر ولذلك أوقع التزاور على كهفهم والقرض على أنفسهم فذلك حينئذ اشارة الى ايوائهم الى كهف هذا شأنه وأما جعله اشارة الى حفظ الله سبحانه اياهم في ذلك الكهف تلك المدة الطويلة أو الى اطلاعه سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم على اخبارهم فلا يساعده ايراده في تضاعيف القصة (من يهد الله) الى الحق بالتوفيق له (فهو المهتد) الذي أصاب الفلاح والمراد اما الثناء عليهم والشهادة لهم باصابة المطلوب والاخبار بتحقيق ما أملوه من نشر الرحمة وتهيئة المرافق أو التنبيه على ان أمثال هذه الآية كثيرة ولكن المنتفع بها من وفقه الله تعالى للاستبصار بها (ومن يضلل) أي يخلق فيه الضلال لصرف اختياره اليه (فلن تجد له) أبدا وان بالغت في التتبع والاستقصاء (وليا) ناصرا (مرشدا) يهديه الى ما ذكر من الفلاح لاستحالة وجوده في نفسه لا أنك لا تجده مع وجوده أو امكانه (وتحسبهم) بفتح السين وقرئ بكسرها أيضا والخطاب فيه كما سبق (أيقاظا) جمع يقظ بكسر القاف ونحوه واليقظان ومدار الحسبان انفتاح عيونهم على هيئة الناظر وقيل كثرة تقلبهم ولا يلائمه قوله تعالى ونقلبهم (وهم رقود) أي نيام وهو تقرير لما لم يذكر فيما سلف اعتمادا على ذكره السابق من الضرب على آذانهم (ونقلبهم) في رقدتهم (ذات اليمين) نصب على الظرفية أي جهة تلي أيمانهم (وذات

في الاضافة الى غيرهم حقيقة وقوله أخاهم قيل لان شعيبا كان منهم نسبا وفي الآية مسائل (المسألة الاولى) قال الله تعالى في نوح ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقدم نوحا في الذكر وعرف القوم بالاضافة اليه وكذلك في ابراهيم ولوط وههنا ذكر القوم أولا وأضاف اليهم أخاهم شعيبا فنقول الاصل في جميع المواضع أن يذكر القوم ثم يذكر رسولهم لان المرسل لا يبعث رسولا الى غير معين وانما يحصل قوم أو شخص يحتاجون الى انباء من المرسل فيرسل اليهم من يختاره غير أن قوم نوح وابراهيم ولوط لم يكن لهم اسم خاص ولا نسبة مخصوصة يعرفون بها فعرفوا بالنبي فقيل قوم نوح وقوم لوط وأما قوم شعيب وهود وصالح فكان لهم نسب معلوم اشتهروا به عند الناس فجرى الكلام على أصله وقال الله والى مدين أخاهم شعيبا وقال والى عاد أخاهم هودا (المسألة الثانية) لم يذكر عن لوط أنه أمر قومه بالعبادة والتوحيد وذكر عن شعيب ذلك فنقول قد ذكرنا أن لوطا كان من قوم ابراهيم وفي زمانه وابراهيم سبقه بذلك واجتهد فيه حتى اشتهر الامر بالتوحيد عند الخلق من ابراهيم فلم يذكر عن لوط وانما ذكر منه ما اختص به من المنع عن الفاحشة وغيرها وان كان هو أيضا يأمر بالتوحيد اذ ما من رسول الا ويكون أكثر كلامه في التوحيد وأما شعيب فكان بعد انقراض القوم فكان هو أصلا أيضا في التوحيد فبدأ به وقال اعبدوا الله (المسألة الثالثة) الايمان لا يتم الا بالتوحيد والامر بالعبادة لا يفيده لان من يعبد الله ويعبد غيره فهو مشرك فكيف اقتصر على قوله اعبدوا الله فنقول هذا الامر يفيد التوحيد وذلك لان من يرى غيره يخدم زيدا وعمرا وهناك هو أكبر أو هو سيدهما اذا قال له اخدم عمرا يفهم منه أنه يأمره بصرف الخدمة اليه وكذا اذا كان لواحد دينار واحد وهو يريد أن يعطيه زيدا فاذا قيل له أعطه عمرا يفهم منه لا تعطه زيدا فنقول هم كانوا مشتغلين بعبادة غير الله والله مالك ذلك الغير فقال لهم شعيب اعبدوا الله فهم منه ترك عبادة غيره أو نقول لكل واحد نفس واحدة ويريد صرفها الى عبادة غير الله فقال لهم شعيب اصرفوها الى موضعها وهو عبادة الله فهم منه التوحيد ثم قال وارجوا اليوم الآخر قال الزمخشري معناه افعلوا ما ترجون به العاقبة اذ قد يقول القائل لغيره كن عاقلا ويكون معناه افعل فعل من يكون عاقلا وقوله وارجوا اليوم الآخر فيه مسائل (المسألة الاولى) هذا يدل على صحة مذهبنا فان عندنا من عبد الله طول عمره يثيبه الله تفضلا ولا يجب عليه ذلك لان العابد قد وصل اليه من النعم ما لو زاده على ما أتى به لما خرج عن عهدة الشكر ومن شكر المنعم على نعم سبقت لا يلزم المنعم أن يزيده وان زاده يكون احسانا منه اليه وانعاما عليه فنقول قوله وارجوا اليوم الآخر بعد قوله اعبدوا الله يدل على التفضل لا على الوجوب فان الفضل يرجى والواجب من العادل يقطع به (المسألة الثانية) قال وارجوا اليوم الآخر ولم يقل وخافوه مع أن ذلك اليوم مخوف عند الكل وغير مرجو عند كثير من الناس لفسقه وفجوره وحبه الدنيا ولا يرجوه الا قليل من عباده فنقول لما ذكر التوحيد بطريق الاثبات وقال اعبدوا ولم يذكره بطريق النفي وما قال ولا تعبدوا غيره قال بلفظ الرجاء لان عبادة الله يرجى منها الخير في الدارين وفيه وجه آخر وهو أن الله حكى في حكاية ابراهيم أنه قال انكم اتخذتم الاوثان مودة بينكم في الحياة الدنيا أما في الآخرة فتكفرون بها قال ههنا لا تكونوا كالذين سبق ذكرهم لم يرجوا اليوم الآخر فاقتصروا على مودة الحياة الدنيا وارجوا اليوم الآخر واعملوا له ثم قال ولا تعثوا في الارض مفسدين يمكن أن يقال نصب مفسدين على المصدر كما يقال قم قائما أي قياما ويكون قوله ولا تعثوا في الارض مفسدين كقول القائل اجلس قعودا الا ان العثو والفساد بمعنى وجميع الاوامر والنواهي في قوله اعبدوا الله وقوله ولا تعثوا اذ قوله كذبوه بعدما بلغ وبين حكى الله عنهم ذلك بقوله فكذبوه

فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين * وفي الآية مسائل (المسألة الاولى) ما حكى عن شعيب أمر ونهي والامر لا يصدق ولا يكذب فان من قال لغيره قم لا يصح أن يقول له كذبت * فنقول كان شعيب يقول الله واحد فاعبدوه والحشر كائن فارجوه والفساد محرم فلا تفسدوا وهذه الاشياء فيها اخبارات فكذبوه فيما أخبرهم به (المسألة الثانية) قال ههنا وفي الاعراف فأخذتهم الرجفة وقال في هود فأخذتهم الصيحة والحكاية واحدة * نقول لا تعارض بينهما فان الصيحة كانت سببا للرجفة اما لرجفة الارض ان قلنا ان جبريل صاح فتزلزلت الارض من صيحته واما لرجفة الافئدة فان قلوبهم ارتجفت منها والاضافة الى السبب لا تنافي الاضافة الى سبب السبب اذ يصح أن يقال روي فقوي وأن يقال شرب فقوي في صورة واحدة (المسألة الثالثة) حيث قال فأخذتهم الصيحة قال في ديارهم وحيث قال فأخذتهم الرجفة قال في دارهم * فنقول المراد من الدار هو الديار والاضافة الى الجمع يجوز أن تكون بلفظ الجمع وأن تكون بلفظ الواحد اذا أمن الالتباس وانما اختلف اللفظ للطيفة وهي ان الرجفة هائلة في نفسها فلم يحتج الى مهول وأما الصيحة فغير هائلة في نفسها لكن تلك الصيحة لما كانت عظيمة حتى أحدثت الزلزلة في الارض ذكر الديار بلفظ الجمع حتى تعلم هيبتها والرجفة بمعنى الزلزلة عظيمة عند كل أحد فلم يحتج الى معظم لامرها وقيل ان الصيحة كانت أعم حيث عمت الارض والجو والزلزلة لم تكن الا في الارض فذكر الديار هناك غير أن هذا ضعيف لان الدار والديار موضع الجثوم لا موضع الصيحة والرجفة فهم ما أصبحوا جاثمين الا في ديارهم * ثم قال تعالى ﴿وعادا وثمود﴾ أي وأهلكنا عادا وثمود لان قوله تعالى فأخذتهم الرجفة دل على الاهلاك ﴿وقد تبين لكم من مساكنهم﴾ الامر وما تعتبرون منه * ثم بين سبب ما جرى عليهم فقال ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل﴾ فقوله وزين لهم الشيطان أعمالهم يعني عبادتهم لغير الله وصدهم عن السبيل يعني عبادة الله ﴿وكانوا مستبصرين﴾ يعني بواسطة الرسل يعني فلم يكن لهم في ذلك عذر فان الرسل أوضحوا السبل * ثم قال تعالى ﴿وقارون وفرعون وهامان﴾ عطفا عليهم أي وأهلكنا قارون وفرعون وهامان * ثم قال تعالى ﴿ولقد جاءهم موسى بالبينات﴾ كما قال في عاد وثمود وكانوا مستبصرين أي بالرسل * ثم قال تعالى ﴿فاستكبروا﴾ أي عن عبادة الله وقوله ﴿في الارض﴾ اشارة الى ما يوضح قلة عقلهم في استكبارهم وذلك لان من في الارض أضعف أقسام المكلفين ومن في السماء أقواهم ثم ان من في السماء لا يستكبر على الله وعن عبادته فكيف من في الارض * ثم قال تعالى ﴿وما كانوا سابقين﴾ أي ما كانوا يفوتون الله لانا بينا في قوله تعالى وما أنتم بمعجزين في الارض ان المراد أن أقطار الارض في قبضة قدرة الله * ثم قال تعالى ﴿فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ ذكر الله أربعة أشياء العذاب بالحاصب وقيل انه كان حجارة محماة يقع على واحد منهم وينفذ من الجانب الآخر وفيه اشارة الى النار والعذاب بالصيحة وهو هواء متموج فان الصوت قيل سببه تموج الهواء ووصوله الى الغشاء الذي على منفذ الاذن وهو الصماخ فيقرعه فيحس والعذاب بالخسف وهو الغمر في التراب والعذاب بالاغراق وهو بالماء فحصل العذاب بالعناصر الاربعة والانسان مركب منها وبها قوامه وبسببها بقاؤه ودوامه فاذا أراد الله هلاك الانسان جعل ما منه وجوده سببا لعدمه وما به بقاؤه سببا لفنائه * ثم قال تعالى وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون يعني لم يظلمهم بالهلاك وانما هم ظلموا أنفسهم بالاشراك وفيه وجه آخر ألطف وهو أن الله

الشمال) أي جهة التي تلي شمالهم كي لا تأكل الارض ما يليها من أبدانهم قال ابن عباس رضي الله عنهما لو لم يقلبوا لأكلتهم الارض قيل لهم تقليبتان في السنة وقيل تقليبة واحدة في يوم عاشوراء وقيل في كل تسع سنين وقرئ يقلبهم على الاسناد الى ضمير الجلالة وتقلبهم على المصدر منصوبا بفعل مضمر ينبئ عنه وتحسبهم أي وترى تقلبهم (وكلبهم) قيل هو كلب مروا به

فتبعهم فطردوه مرارا فلم يرجع فأنطقه الله تعالى فقال لا تخشوا جانبي فاني أحب أحباء الله تعالى فناموا حتى أحرسكم وقيل هو كلب راع قد تبعهم على دينهم ويؤيده قراءة كالبهم اذ الظاهر لحوقه بهم وقيل هو كلب صيد أحدهم أو زرعه أو غنمه واختلف في لونه فقيل كان أنمر وقيل أصفر وقيل أصهب وقيل غير ذلك وقيل كان اسمه قطمير وقيل ريان وقيل تتوه وقيل قطمور وقيل ثور قال خالد بن معدان ليس في الجنة من الدواب الا كلب أصحاب الكهف وحمار بلعم وقيل لم يكن ذلك من جنس الكلاب بل كان أسدا (باسط ذراعيه) حكاية حال ماضية ولذلك أعمل اسم الفاعل وعند الكسائي وهشام وأبي جعفر من البصريين يجوز اعماله مطلقا والذراع من المرفق الى رأس الاصبع الوسطى (بالوصيد) أي موضع الباب من الكهف (لو اطلعت عليهم) أي لو عاينتهم وشاهدتهم وأصل الاطلاع الاشراف على الشيء بالمعاينة والمشاهدة وقرئ بضم الواو (لوليت منهم فرارا) هربا مما شاهدت منهم وهو اما نصب على المصدر لانه نوع من التولية والفرار من واد واحد واما على الحالية بجعل المصدر بمعنى الفاعل أي فارا أو بجعل الفاعل مصدرا مبالغة كما في قولها * فانما هي اقبال وادبار * واما على انه مفعول له (ولملئت منهم رعبا) وقرئ بضم العين أي خوفا يملأ الصدر ويرعبه وهو اما مفعول ثان أو تمييز وذلك لما ألبسهم الله عز وجل

ما كان يظلمهم أي ما كان يضعهم في غير موضعهم فانه وضعهم موضع الكرامة كما قال تعالى ولقد كرمنا بني آدم لكنهم ظلموا أنفسهم حيث وضعوها مع شرفهم في عبادة الوثن مع خسته ﴿ثم قال تعالى ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا﴾ لما بين الله تعالى انه أهلك من أشرك عاجلا وعذب من كذب آجلا ولم ينفعه في الدارين معبوده ولم يدفع ذلك عنه ركوعه وسجوده مثل اتخاذه ذلك معبودا باتخاذ العنكبوت بيتا لا يجير آويا ولا يريح ثاويا وفي الآية لطائف نذكرها في مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ ما الحكمة في اختياره هذا المثل من بين سائر الامثال فنقول فيه وجوه (الاول) ان البيت ينبغي أن يكون له أمور حائط حائل وسقف مظل وباب يغلق وأمور ينتفع بها ويرتفق وان لم يكن كذلك فلابد من أحد أمرين اما حائط حائل يمنع من البرد واما سقف مظل يدفع عنه الحر فان لم يحصل منهما شيء فهو كالبيداء ليس ببيت لكن بيت العنكبوت لا يجنها ولا يكنها وكذلك المعبود ينبغي أن يكون منه الخلق والرزق وجر المنافع وبه دفع المضار فان لم تجتمع هذه الامور فلا أقل من دفع ضر أو جر نفع فان من لا يكون كذلك فهو والمعدوم بالنسبة اليه سواء فاذا كما لم يحصل للعنكبوت باتخاذ ذلك البيت من معاني البيت شيء كذلك الكافر لم يحصل له باتخاذ الاوثان أولياء من معاني الاولياء شيء (الثاني) هو أن أقل درجات البيت أن يكون للظل فان البيت من الحجر يفيد الاستظلال ويدفع أيضا الهواء والماء والنار والتراب والبيت من الخشب يفيد الاستظلال ويدفع الحر والبرد ولا يدفع الهواء القوي ولا الماء ولا النار والخباء الذي هو بيت من الشعر أو الخيمة التي هي من ثوب ان كان لا يدفع شيأ يظل ويدفع حر الشمس لكن بيت العنكبوت لا يظل فان الشمس بشعاعها تنفذ فيه فكذلك المعبود أعلى درجاته أن يكون نافذ الامر في الغير فان لم يكن كذلك فيكون نافذ الامر في العابد فان لم يكن فلا أقل من أن لا ينفذ أمر العابد فيه لكن معبودهم تحت تسخيرهم ان أرادوا أجلوه وان أحبوا أذلوه (الثالث) أدنى مراتب البيت انه ان لم يكن سبب ثبات وارتفاق لا يصير سبب شتات وافتراق لكن بيت العنكبوت يصير سبب انزعاج العنكبوت فان العنكبوت لو دام في زاوية مدة لا يقصد ولا يخرج منها فاذا نسج على نفسه واتخذ بيتا يتبعه صاحب الملك بتنظيف البيت منه والمسح بالمسوح الخشنة المؤذية لجسم العنكبوت فكذلك العابد بسبب العبادة ينبغي أن يستحق الثواب فان لم يستحقه فلا أقل من أن لا يستحق بسببها العذاب والكافر يستحق بسبب العبادة العذاب ﴿المسئلة الثانية﴾ مثل الله اتخاذهم الاوثان أولياء باتخاذ العنكبوت نسجه بيتا ولم يمثله بنسجه وذلك لوجهين (أحدهما) أن نسجه فيه فائدة له لولاه لما حصل وهو اصطياده الذباب به من غير أن يفوته ما هو أعظم منه واتخاذهم الاوثان وان كان يفيدهم ما هو أقل من الذباب من متاع الدنيا لكن يفوتهم ما هو أعظم منها وهو الدار الآخرة التي هي خير وأبقى فليس اتخاذهم كنسج العنكبوت (الوجه الثاني) هو أن نسجه مفيد لكن اتخاذه ذلك بيتا أمر باطل فكذلك هم لو اتخذوا الاوثان دلائل على وجود الله وصفات كماله وبراهين على نعوت اكرامه وأوصاف جلاله لكان حكمة لكنهم اتخذوها أولياء كجعل العنكبوت النسج بيتا وكلاهما باطل ﴿المسئلة الثالثة﴾ كما أن هذا المثل صحيح في الاول فهو صحيح في الآخر فان بيت العنكبوت اذا هبت ريح لا يرى منه عين ولا أثر بل يصير هباء منثورا فكذلك أعمالهم للاوثان كما قال تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴿المسئلة الرابعة﴾ قال مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء ولم يقل آلهة اشارة الى ابطال الشرك الخفي أيضا فان من عبد الله رياء لغيره فقد

اتخذ

من الهيبة والهيئة كانت أعينهم مفتحة كالمستيقظ الذي يريد أن يتكلم وقيل لطول أظفارهم وشعورهم ولا يساعده قولهم لبثنا يوما أو بعض يوم وقوله ولا يشعرن بكم أحدا فان الظاهر من ذلك عدم اختلاف أحوالهم في أنفسهم وقيل لعظم أجرامهم ولعل تأخير هذا عن ذكر التولية للايذان باستقلال كل منهما في الترتب على الاطلاع اذلو روعي ترتيب الوجود لتبادر الى الفهم ترتب المجموع من حيث هو هو عليه وللاشعار بعدم زوال الرعب بالفرار كما هو المعتاد وعن معاوية انه غزا الروم فمر بالكهف فقال لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا اليهم فقال له ابن عباس رضي الله عنهما ليس لك ذلك قد منع الله تعالى من هو خير منك حيث قال لو اطلعت عليهم الآية فقال معاوية لا أنتهي حتى أعلم علمهم فبعث ناسا وقال لهم اذهبوا فانظروا ففعلوا فلما دخلوا الكهف بعث الله تعالى ريحا فأحرقتهم وقرئ بتشديد اللام على التكثير وبابدال الهمزة ياء مع التخفيف والتشديد ﴿وكذلك بعثناهم﴾ أي كما أنمناهم وحفظنا أجسادهم من البلى والتحلل آية دالة على كمال قدرتنا بعثناهم من النوم ﴿ليتساءلوا بينهم﴾ أي ليسأل بعضهم بعضا فيترتب عليه ما فصل من الحكم البالغة وجعله غاية للبعث المعلل فيما سبق بالاختبار من حيث انه من أحكامه المترتبة عليه والاقتصار على ذكره لاستتباعه لسائر آثاره (قال) استئناف لبيان تساؤلهم (قائل منهم) هو رئيسهم واسمه مكسلمينا (كم لبثتم) في منامكم لعله قاله لما رأى من مخالفة حالهم لما هو المعتاد في الجملة (قالوا) أي بعضهم (لبثنا يوما أو بعض يوم) قيل انما قالوا لانهم دخلوا الكهف غدوة وكان انتباههم آخر النهار فقالوا لبثنا يوما فلما رأوا أن الشمس لم تغرب بعد قالوا أو بعض يوم وكان ذلك بناء على

الظن الغالب فلم يعزوا الى الكذب (قالوا) أى بعض آخر منهم بما سنح لهم من الادلة أو بالهام من الله سبحانه (ربكم أعلم بما لبثتم) أى أنتم لا تعلمون مدة لبثكم وانما يعلمها الله سبحانه وهذا رد منهم على الاولين بأجمل ما يكون من مراعاة حسن الادب وبه يتحقق التحزب الى الحزبين المعهودين فيما سبق وقد قيل القائلون جميعهم ولكن في حالتين ولا يساعده النظم الكريم فان الاستئناف في الحكاية والخطاب في المحكي يقضي بان الكلام جار على منهاج المحاورة والمجاوبة والا قيل ثم قالوا ربنا أعلم بما لبثنا (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة) قالوه اعراضا عن التعمق في البحث واقبالا على ما يهمهم بحسب الحال كما ينبئ عنه الفاء والورق الفضة مضروبة أو غير مضروبة ووصفها باسم الاشارة يشعر بأن القائل ناولها بعض أصحابه ليشترى بها قوت يومهم ذلك وقرئ بسكون الراء وبادغام القاف في الكاف وبكسر الواو وبسكون الراء مع الادغام وحملهم لها دليل على أن التزود لا ينافي التوكل على الله تعالى (فلينظر أيها) أى أهلها (أزكى) أحل وأطيب أو أكثر وأرخص (طعاما فليأتكم برزق منه) أى من ذلك الازكى طعاما (وليتلطف) وليتكلف اللطف في المعاملة كي لا يغبن أو في الاستخفاء لئلا يعرف (ولا يشعرن بكم أحدا) من أهل المدينة فانه يستدعي شيوع أخباركم أى لا يفعلن ما يؤدي الى ذلك فالنهي على الاول تأسيس وعلى الثاني تأكيد للامر بالتلطف (انهم) تعليل لما سبق من الامر والنهي أى ليبالغ في التلطف وعدم الاشعار لانهم (ان يظهروا عليكم) أى يطلعوا عليكم أو يظفروا بكم والضمير للاهل المقدر في أيها (يرجموكم) ان ثبتم على ما أنتم عليه (أو يعيدوكم في ملتهم) أى يصيروكم اليها

اتخذوا اولياء غيره فمثله مثل العنكبوت يتخذ نسجه بيتا ثم انه تعالى قال ﴿وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾ اشارة الى ما بينا ان كل بيت ففيه اما فائدة الاستظلال أو غير ذلك وبيته يضعف عن افادة ذلك لانه يخرب بأدنى شئ ولا يبقى منه عين ولا أثر فكذلك عملهم لو كانوا يعلمون ثم قال تعالى ﴿ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شئ وهو العزيز الحكيم﴾ قال الزمخشري هذا زيادة توكيد على التمثيل حيث انهم لا يدعون من دونه من شئ يعني ما يدعون ليس بشئ وهو عزيز حكيم فكيف يجوز للعاقل أن يترك القادر الحكيم ويشتغل بعبادة ما ليس بشئ أصلا وهذا يفهم منه أنه جعل ما نافية وهو صحيح والعلم يتعلق بالجملة كما يقول القائل اني أعلم أن الله واحد حق يعني أعلم هذه الجملة وان كنا نجعل ما خبرية فيكون معناه ما يدعون من شئ فالله يعلمه وهو العزيز الحكيم قادر على اعدامه واهلاكهم لكنه حكيم يمهلهم ليكون الهلاك عن بينة والحياة عن بينة ومن ههنا يكون الخطاب مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى هذا لو قال قائل ما وجه تعلق هذه الآية بالتمثيل السابق فنقول لما قال ان مثلهم كمثل العنكبوت فكان للكافر أن يقول أنا لا أعبد هذه الاوثان التي أتخذها وهي تحت تسخيري وانما هي صورة كوكب أنا تحت تسخيره ومنه نفعي وضري وخيري وشري ووجودي ودوامي فله سجودي واعظامي فقال الله تعالى ان الله يعلم ان كل ما تعبدون من دون الله هو مثل بيت العنكبوت لان الكوكب والملك وكل ما عدا الله لا ينفع ولا يضر الا باذن الله فعبادتكم للغائب كعبادتكم للحاضر ولا معبود الا الله ولا اله سواه ثم قال تعالى ﴿وتلك الامثال نضربها للناس﴾ قال الكافرون كيف يضرب خالق الارض والسموات الامثال بالهوام والحشرات كالبعوض والذباب والعنكبوت فقال الامثال تضرب للناس ان لم تكونوا كالانعام يحصل لكم منه ادراك ما يوجب نفرتكم مما أنتم فيه وذلك لان التشبيه يؤثر في النفس تأثيرا مثل تأثير الدليل فاذا قال الحكيم لمن يغتاب انك بالغيبة كأنك تأكل لحم ميت لانك وقعت في هذا الرجل وهو غائب لا يفهم ما تقول ولا يسمع حتى يجيب كمن يقع في ميت يأكل منه وهو لا يعلم ما يفعله ولا يقدر على دفعه ان كان يعلمه فينفر طبعه منه كما ينفر اذا قال له انه يوجب العقاب ويورث العتاب ثم قال تعالى ﴿وما يعقلها الا العالمون﴾ يعني حقيقتها وكون الامر كذلك لا يعلمها الا من حصل له العلم ببطلان ما سوى الله وفساد عبادة ما عداه وفيه معنى حكمي وهو ان العلم الحدسي يعلمه العاقل والعلم الفكري الدقيق يعقله العالم اذا عرض عليه أمر ظاهر أدركه كما هو بكنهه لكون المدرك ظاهرا وكون المدرك عاقلا ولا يحتاج الى كونه عالما بأشياء قبله وأما الدقيق فيحتاج الى علم سابق فلا بد من عالم ثم انه قد يكون دقيقا في غاية الدقة فيدركه ولا يدركه بتمامه ويعقله اذا كان عالما اذا اعلم هذا فقوله وما يعقلها الا العالمون يعني هو ضرب للناس أمثالا وحقيقتها وما فيها من الفوائد بأسرها فلا يدركها الا العلماء * ثم انه تعالى لما أمر الخلق بالايمان وأظهر الحق بالبرهان ولم يأت الكفار بما أمرهم به وقص عليهم قصصا فيها عبر وأنذرهم على كفرهم بالهلاك من غير وبين ضعف دليلهم بالتمثيل ولم يهتدوا بذلك الى سواء السبيل وحصل يأس الناس عنهم سلى المؤمنين بقوله ﴿خلق الله السموات والارض بالحق ان في ذلك لآية للمؤمنين﴾ يعني ان لم يؤمنوا هم لا يورث كفرهم شكا في صحة دينكم ولا يؤثر شكهم في قوة يقينكم فان خلق الله السموات والارض بالحق للمؤمنين بيان ظاهر وبرهان باهر وان لم يؤمن به على وجه الارض كافر * وفي الآية مسئلة يتبين بها تفسير الآية وهي أن الله تعالى كيف خص الآية في خلق السموات والارض بالمؤمنين مع ان في خلقهما آية لكل عاقل كما قال الله تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله وقال

الله تعالى ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار الى أن قال لآيات لقوم يعقلون فنقول خلق السموات والارض آية لكل عاقل وخلقهما بالحق آية للمؤمنين فحسب وبيانه من حيث النقل والعقل أما النقل فقوله تعالى ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون أخرج أكثر الناس عن العلم بكون خلقهما بالحق مع انه أثبت علم الكل بانه خلقهما حيث قال ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله وأما العقل فهو ان العاقل أول ما ينظر الى خلق السموات والارض ويعلم أن لهما خالقا وهو الله ثم من يهديه الله لا يقطع النظر عنهما عند مجرد ذلك بل يقول انه خلقهما متقنا محكما وهو المراد بقوله بالحق لان ما لا يكون على وجه الاحكام يفسد ويبطل فيكون باطلا واذا علم انه خلقهما متقنا يقول انه قادر كامل حيث خلق وعالم علمه شامل حيث أتقن فيقول لا يعزب عن علمه أجزاء الموجودات في الارض ولا في السموات ولا يعجز عن جمعها كما جمع اجزاء الكائنات والمبدعات فيجوز بعث من في القبور وبعثة الرسول ويعلم وحدانية الله لانه لو كان أكثر من واحد لفسدتا ولما خلقهما بالحق موجودات فيحصل له الايمان بتمامه من خلق ما خلقه على أحسن نظامه ﴿ ثم ان الله تعالى لما سلى المؤمنين بهذه الآية سلى رسوله بقوله تعالى ﴿اتل ما أوحي اليك من الكتاب وأقم الصلوة ان الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ يعني ان كنت تأسف على كفرهم فاتل ما أوحي اليك لتعلم أن نوحا ولوطا وغيرهما كانوا على ما أنت عليه بلغوا الرسالة وبالغوا في اقامة الدلالة ولم ينقذوا قومهم من الضلالة والجهالة ولهذا قال اتل وما قال عليهم لان التلاوة ما كانت بعد اليأس منهم الا لتسلية قلب محمد عليه الصلاة والسلام وفي الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ ان الرسول اذا كان معه كتاب وقرأ كتابه مرة ولم يسمع لم يبق له فائدة في قراءته لنفسه فنقول الكتاب المنزل مع النبي المرسل ليس كذلك فان الكتب المسيرة مع الرسل على قسمين قسم يكون فيه سلام وكلام مع واحد يحصل بقراءته مرة تمام المرام وقسم يكون فيه قانون كلي تحتاج اليه الرعية في جميع الاوقات كما اذا كتب الملك كتابا فيه انا رفعنا عنكم البدعة الفلانية ووضعنا فيكم السنة الفلانية وبعثنا اليكم هذا الكتاب فيه جميع ذلك فلمكن ذلك كالمثال يتسع عليه والى بعد وال فمثل هذا الكتاب لا يقرأ ويترك بل يعلق من مكان عال وكثيرا ما تكتب نسخته على لوح ويثبت فوق المحاريب ويكون نصب الاعين فكذلك كتاب الله مع رسوله محمد قانون كلي فيه شفاء للعالمين فوجب تلاوته مرة بعد مرة ليبلغ الى حد التواتر وينقله قرن الى قرن ويأخذه قوم من قوم ويثبت في الصدور على مرور الدهور ﴿الوجه الثاني﴾ هو ان الكتب على ثلاثة أقسام كتاب لا تتكرر قراءته الا للغير كالقصص فان من قرأ حكاية مرة لا يقرؤها مرة أخرى الا لغيره ثم اذا سمعه ذلك الغير لا يقرؤها الا لآخر لم يسمعه ولو قرأه عليه لسئم وملّ وكتاب لا يتكرر عليه الا النفس كالنحو والفقه وغيرهما وكتاب يتلى مرة بعد مرة للنفس وللغير كالمواعظ الحسنة فانها تتكرر للغير وكلما سمعها يلتذ بها ويرق لها قلبه ويستعيدها وكلما تدخل السمع يخرج الوسواس مع الدمع وتتكرر أيضا للنفس المتكلم فان كثيرا ما يلتذ المتكلم بكلمة طيبة وكلما يعيدها يكون أطيب والذ وأثبت في القلب وأنفع حتى يكاد يبكي من رقته دما ولو أورثه البكاء عمى اذا علم هذا فالقرآن من القبيل الثالث مع أن فيه القصص والفقه والنحو فكان في تلاوته في كل زمان فائدة ﴿المسئلة الثانية﴾ لم خص بالامر هذين الشيئين تلاوة الكتاب واقامة الصلاة فنقول لوجهين (أحدهما) ان الله لما أراد تسلية قلب محمد عليه السلام قال له الرسول واسطة بين طرفين من الله الى الخلق فاذا لم يتصل به الطرف الواحد ولم يقبلوه فالطرف الآخر متصل ألا ترى ان الرسول اذا لم تقبل رسالته توجه نحو مرسله

ويدخلوكم فيما كرهاه من العود بعين الصيرورة كقوله تعالى أو لتعودن في ملتنا وقيل كانوا أولا على دينهم وايثار كلمة في على كلمة الى للدلالة على الاستقرار الذي هو أشد شئ عندهم كراهة وتقديم احتمال الرجم على احتمال الاعادة لان الظاهر من حالهم هو الثبات على الدين المؤدي اليه وضمير الخطاب في المواضع الاربعة للمبالغة في حمل المبعوث على الاستخفاء وحث الباقين على الاهتمام بالتوصية فان امحاض النصح أدخل في القبول واهتمام الانسان بشأن نفسه أكثر وأوفر (ولن تفلحوا اذا) اي ان دخلتم فيها ولو بالكره والالجاء لن تفوزوا بخير (أبدا) لا في الدنيا ولا في الآخرة وفيه من التشديد في التحذير ما لا يخفى (وكذلك) أي وكما أنمناهم وبعثناهم لما مر من ازدياد هم في مراتب اليقين (أعثرنا) اي أطلعنا الناس (عليهم ليعلموا) اي الذين أعثرناهم عليهم بما عاينوا من أحوالهم العجيبة (أن وعد الله) اي وعده بالبعث أو موعوده الذي هو البعث أو ان كل وعده أو كل موعوده فيدخل فيه وعده بالبعث أو البعث الموعود دخولا أوليا (حق) صادق لا خلف فيه أو ثابت لا مرد له لان نومهم وانتباههم كحال من يموت ثم يبعث (وان الساعة) اي القيامة التي هي عبارة عن وقت بعث الخلائق جميعا للحساب والجزاء (لا ريب فيها) لا شك في قيامها فان من شاهد أنه جل وعلا توفى نفوسهم وأمسكها ثلثمائة سنة وأكثر حافظا أبدانها من التحلل والتفتت ثم أرسلها فاذا اليها لا يبقى له شائبة شك في أن وعده تعالى حق وانه يبعث من في القبور فيرد اليهم أرواحهم فيحاسبهم ويجزيهم بحسب أعمالهم (اذ يتنازعون) ظرف لقوله أعثرنا قدم عليه الغاية اظهارا لكمال العناية بذكرها لا لقوله ليعلموا كما قيل للدلالة على أن التنازع يحدث

بعد الاعثار وليس كذلك أي أعثرناهم عليهم حين يتنازعون (بينهم أمرهم) ليرتفع الخلاف ويتبين الحق قيل المتنازع فيه أمر دينهم حيث كانوا مختلفين في البعث فمن مقر له وجاحد به وقائل يقول ببعث الارواح دون الاجساد وآخر يقول ببعثهما معا قيل كان ملك المدينة حينئذ رجلا صالحا مؤمنا وقد اختلف أهل مملكته في البعث حسبما فصل قد دخل الملك بيته وأغلق بابه ولبس مسحا وجلس على رماد وسأل ربه أن يظهر الحق فألقى الله عز وجل في نفس رجل من رعيانهم فهدم ما سد به دقيانوس باب الكهف ليتخذه حظيرة لغنمه فعند ذلك بعثهم الله تعالى فجرى بينهم من التقاول ما جرى روي أن المبعوث لما دخل المدينة أخرج الدرهم ليشتري به الطعام وكان على ضرب دقيانوس فاتهموه بأنه وجد كنزا فذهبوا به الى الملك فقص عليه القصة فقال بعضهم ان آباءنا أخبرونا بان فتية فروا بدينهم من دقيانوس فلعلهم هؤلاء فانطلق الملك وأهل المدينة من مسلم وكافر وأبصروهم وكلموهم ثم قالت الفتية للملك نستودعك الله ونعيذك به من شر الانس والجن ثم رجعوا الى مضاجعهم فماتوا فألقى الملك عليهم ثيابه وجعل لكل منهم تابوتا من ذهب فرآهم في المنام كارهين للذهب فجعلها من الساج وبنى على باب الكهف مسجدا وقيل لما انتهوا الى الكهف قال لهم الفتى مكانكم حتى أدخل أولا لئلا يفزعوا فدخل فعمي عليهم المدخل فبنوا ثمة مسجدا وقيل المتنازع فيه أمر الفتية قبل بعثهم أي أعثرنا عليهم حين يتذاكرون بينهم أمرهم وما جرى بينهم وبين دقيانوس من الاحوال والاهوال ويتلقون ذلك من الاساطير وأفواه الرجال وعلى التقديرين فالفاء في قوله عز وجل (فقالوا) فصيحة أي أعثرناهم عليهم فرأوا ما رأوا فقالوا أي قال بعضهم

فاذا تلوت كتابك ولم يقبلوك فوجه وجهك الى وأقم الصلاة لوجهي (الوجه الثاني) هو ان العبادات المختصة بالعبد ثلاثة قلبية وهي الاعتقاد الحق ولسانية وهي الذكر الحسن وبدنية خارجية وهي العمل الصالح لكن الاعتقاد لا يتكرر فان من اعتقد شيأ لا يمكنه أن يعتقده مرة أخرى بل ذلك يدوم مستمرا والنبي عليه السلام كان ذلك حاصلا له عن عيان أكمل مما يحصل عن بيان فلم يؤمر به لعدم امكان تكراره لكن الذكر يمكن التكرار والعبادة البدنية كذلك فأمر بهما فقال اتل الكتاب وأقم الصلاة (المسئلة الثانية) كيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر * نقول قال بعض المفسرين المراد من الصلاة القرآن وهو ينهى أي فيه النهي عنهما وهو بعيد لان ارادة القرآن من الصلاة في هذا الموضع الذي قال قبله اتل ما أوحي اليك بعيد من الفهم وقال بعضهم أراد به نفس الصلاة وهي تنهى عنهما ما دام العبد في الصلاة لانه لا يمكنه الاشتغال بشئ منهما * فنقول هذا كذلك لكن ليس المراد هذا والا لا يكون مدحا كاملا للصلاة لان غيرها من الاشغال كثيرا ما يكون كذلك كالنوم في وقته وغيره * فنقول المراد ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر مطلقا وعلى هذا قال بعض المفسرين الصلاة هي التي تكون مع الحضور وهي تنهى حتى نقل عنه صلى الله عليه وسلم من لم تنهه صلاته عن المعاصي لم يزدد بها الا بعدا ونحن نقول الصلاة الصحيحة شرعا تنهى عن الامرين مطلقا وهي التي أتى بها المكلف لله حتى لو قصد بها الرياء لا تصح صلاته شرعا وتجب عليه الاعادة وهذا ظاهر فان من نوى بوضوئه الصلاة والتبرد قيل لا يصح فكيف من نوى بصلاته الله وغيره اذا ثبت هذا فنقول الصلاة تنهى من وجوه (الاول) هو ان من كان يخدم ملكا عظيم الشان كثير الاحسان ويكون عنده بمنزلة ويرى عبدا من عباده قد طرده طردا لا يتصور قبوله وفاته الخير بحيث لا يرجى حصوله يستحيل من ذلك المقرب عرفا ان يترك خدمة الملك ويدخل في طاعة ذلك المطرود فكذلك العبد اذا صلى لله صار عبدا له وحصل له منزلة المصلي يناجي ربه فيستحيل منه أن يترك عبادة الله ويدخل تحت طاعة الشيطان المطرود ولكن مرتكب الفحشاء والمنكر تحت طاعة الشيطان فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر (الثاني) هو أن من يباشر القاذورات كالزبال والكناس يكون له لباس نظيف اذا لبسه لا يباشر معه القاذورات وكلما كان ثوبه أرفع يكون امتناعه وهو لابسه عن القاذورات أكثر فاذا لبس واحد منهم ثوب ديباج مذهب يستحيل منه مباشرة تلك الاشياء عرفا فكذلك العبد اذا صلى لبس لباس التقوى لانه واقف بين يدي الله واضع يمينه على شماله على هيئة من يقف بمرأى ملك ذي هيبة ولباس التقوى خير لباس يكون نسبته الى القلب أعلى من نسبة الديباج المذهب الى الجسم فاذن من لبس هذا اللباس يستحيل منه مباشرة قاذورات الفحشاء والمنكر ثم ان الصلوات متكررة واحدة بعد واحدة فيدوم هذا اللبس فيدوم الامتناع (الثالث) من يكون أمير نفسه يجلس حيث يريد فاذا دخل في خدمة ملك وأعطاه منصبا له مقام خاص لا يجلس صاحب ذلك المنصب الا في ذلك الموضع فلو أراد أن يجلس في صف النعال لا يترك فكذلك العبد اذا صلى دخل في طاعة الله ولم يبق بحكم نفسه وصار له مقام معين اذ صار من أصحاب اليمين فلو أراد أن يقف في غير موضعه وهو موقف أصحاب الشمال لا يترك لكن مرتكب الفحشاء والمنكر من أصحاب الشمال وهذا الوجه اشارة الى عصمة الله يعني من صلى عصمه الله عن الفحشاء والمنكر (الرابع) وهو موافق لما وردت به الاخبار وهو ان من يكون بعيدا عن الملك كالسوقي والبادي والمتعيش لا يبالي بما يفعل من الافعال يأكل في دكان الهراس والرواس ويجلس مع أحباش الناس فاذا صارت له قربة يسيرة من الملك كما اذا صار واحدا من الجندارية والقواد والسواس عند الملك لا تمنعه تلك القربة من

تعاطى ما كان يفعله فاذا ازدادت قربته وارتفعت منزلته حتى صار أميرا حينئذ تمنعه هذه المنزلة عن الاكل في ذلك المكان والجلوس مع أولئك الغلمان كذلك العبد اذا صلى وسجد صار له قربة ما لقوله تعالى واسجد واقترب فاذا كان ذلك القدر من القربة تمنعه من المعاصي والمناهي فبتكرار الصلاة والسجود تزداد مكانته حتى يرى على نفسه من آثار الكرامة ما يستقذر معه من نفسه الصغائر فضلا عن الكبائر وفي الآية وجه آخر معقول يؤكده المنقول وهو ان المراد من قوله ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر هو انها تنهى عن التعطيل والاشراك والتعطيل هو انكار وجود الله والاشراك اثبات ألوهية لغير الله فنقول التعطيل عقيدة فحشاء لان الفاحش هو القبيح الظاهر القبح لكن وجود الله أظهر من الشمس وما من شئ الا وفيه آية على الله ظاهرة وانكار الظاهر ظاهر الانكار فالقول بان لا اله قبيح والاشراك منكر وذلك لان الله تعالى لما أطلق اسم المنكر على من نسب نفسه الى غير الوالد مع جواز أن يكون له ولد حيث قال ان أمهاتهم الا اللائي ولدنهم وانهم ليقولون منكرا من القول فالمشرك الذي يقول الملائكة بنات الله وينسب الى من لم يلد ولا يجوز أن يكون له ولد ولدا كيف لا يكون قوله منكرا فالصلاة تنهى عن هذه الفحشاء وهذا المنكر وذلك لان العبد أول ما يشرع في الصلاة يقول الله أكبر فبقوله الله ينفي التعطيل وبقوله أكبر ينفي التشريك لان الشريك لا يكون أكبر من الشريك الآخر فيما فيه الاشتراك فاذا قال بسم الله نفى التعطيل واذا قال الرحمن الرحيم نفى الاشراك لان الرحمن من يعطي الوجود بالخلق بالرحمة والرحيم من يعطي البقاء بالرزق بالرحمة فاذا قال الحمد لله رب العالمين أثبت بقوله الحمد لله خلاف التعطيل وبقوله رب العالمين خلاف الاشراك فاذا قال اياك نعبد بتقديم اياك نفى التعطيل والاشراك وكذا بقوله واياك نستعين فاذا قال اهدنا الصراط نفى التعطيل لان طالب الصراط له مقصد والمعطل لا مقصد له وبقوله المستقيم نفى الاشراك لان المستقيم هو الاقرب والمشرك يعبد الاصنام حتى يعبد صورة صورها اله العالمين ويظنون أنهم يشفعون لهم وعبادة الله من غير واسطة أقرب وعلى هذا الى آخر الصلاة يقول فيها أشهد أن لا اله الا الله فينفي الاشراك والتعطيل (وههنا لطيفة) وهي أن الصلاة أولها لفظة الله وآخرها لفظة الله في قوله أشهد أن لا اله الا الله ليعلم المصلي انه من أول الصلاة الى آخرها مع الله فان قال قائل فقد بقي من الصلاة قوله وأشهد أن محمدا رسول الله والصلاة على الرسول والتسليم فنقول هذه الاشياء في آخرها دخلت لمعنى خارج عن ذات الصلاة وذلك لان الصلاة ذكر الله لا غير لكن العبد اذا وصل بالصلاة الى الله وحصل مع الله لا يقع في قلبه انه استقل واستبد واستغنى عن الرسول كمن تقرب من السلطان فيغتر بذلك ولا يلتفت الى النواب والحجاب فقال أنت في هذه المنزلة الرفيعة بهداية محمد صلى الله عليه وسلم وغير مستغن عنه فقل مع ذكري محمد رسول الله ثم اذا علمت أن هذا كله ببركة هدايته فاذكر احسانه بالصلاة عليه ثم اذا رجعت من معراجك وانتهيت الى اخوانك فسلم عليهم وبلغهم سلامي كما هو ترتيب المسافرين * واعلم أن هيئة الصلاة هيئة فيها هيبة فان أولها وقوف بين يدي الله كوقوف المملوك بين يدي السلطان ثم ان آخرها جثو بين يدي الله كما يجثو بين يدي السلطان من أكرمه بالاجلاس كأن العبد لما وقف وأثنى على الله أكرمه الله وأجلسه جثيا وفي هذا الجثو لطيفة وهي ان من جثا في الدنيا بين يدي ربه هذا الجثو لا يكون له جثو في الآخرة ولا يكون من الذين قال الله في حقهم ونذر الظالمين فيها جثيا ۞ ثم قال تعالى ﴿ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون﴾ لما ذكر أمرين وهما تلاوة الكتاب واقامة الصلاة بين ما يوجب أن يكون الاتيان بهما على أبلغ وجوه التعظيم فقال ولذكر الله أكبر وأنتم اذا ذكرتم آباءكم بما فيهم من الصفات الحسنة

(ابنوا عليهم) أي على باب كهفهم (بنيانا) لئلا يتطرق اليهم الناس ضنا بتربتهم ومحافظة عليها وقوله تعالى (ربهم أعلم بهم) من كلام المتنازعين كأنهم لما رأوا عدم اهتدائهم الى حقيقة حالهم من حيث النسب ومن حيث العدد ومن حيث اللبث في الكهف قالوا ذلك تفويضا للامر الى علام الغيوب أو من كلام الله تعالى رد القول الخائضين في حديثهم من أولئك المتنازعين وقيل هو أمرهم وتدبيرهم عند وفاتهم أو شأنهم في الموت والنوم حيث اختلفوا في أنهم ماتوا أو ناموا كما في أول مرة فاذ حينئذ متعلق بقوله تعالى (قال الذين غلبوا على أمرهم) وهو الملك والمسلمون (لنتخذن عليهم مسجدا) وقوله تعالى فقالوا معطوف على يتنازعون وايثار صيغة الماضي للدلالة على أن هذا القول ليس مما يستمر ويتجدد كالتنازع وقيل متعلق باذكر مضمرا وأما تعلقه بأعثرنا فيأباه أن اعثارهم ليس في زمان تنازعهم فيما ذكر بل قبله وجعل وقت التنازع ممتدا يقع في بعضه الاعثار وفي بعضه التنازع تعسف لا يخفى مع أنه لا مخصص لاضافته الى التنازع وهو مؤخر في الوقوع (سيقولون) الضمير في الافعال الثلاثة للخائضين في قصتهم في عهد النبي عليه الصلاة والسلام من أهل الكتاب والمسلمين لكن لا على وجه اسناد كل منها الى كلهم بل الى بعضهم (ثلاثة رابعهم كلبهم) أي هم ثلاثة أشخاص رابعهم أي جاعلهم أربعة بانضمامه اليهم كلبهم قيل قالته اليهود وقيل قاله السيد من نصارى نجران وكان يعقوبيا وقرئ ثلاث بادغام الثاء في التاء (ويقولون خمسة سادسهم كلبهم) قيل قالته النصارى أو العاقب منهم وكان نسطوريا (رجما بالغيب) رميا بالخبر الخفي الذي لا مطلع عليه أو ظنا بالغيب من قولهم رجم بالظن اذا

تنبشوا

ظن وانتصابه على الحالية من الضمير في الفعلين جميعا أي راجين أو على المصدرية منهما فان الرجم والقول واحد أي من محذوف
مستأنف واقع موقع الحال من ضمير الفعلين معا أي يرجمون رجما وعدم ايراد السين للاكتفاء بعطفه على مافيه ذلك (ويقولون سبعة
وثامنهم كلبهم) هو ما يقوله المسلمون بطريق التلقي من هذا الوحي ومافيه مما يرشدهم الى ذلك من عدم نظمه في سلك
الرجم بالغيب وتغيير سبكه بزيادة الواو المفيدة لزيادة وكادة النسبة فيما بين طرفيها الا بوحي آخر كما قيل (قل) تحقيقا للحق وردا على الاولين (ربي أعلم) أي أقوى علما (بعدتهم) بعددهم (ما يعلمهم) أي ما يعلم عدتهم أو ما يعلمهم فضلا عن العلم بعدتهم (الا قليل) من الناس قد وفقهم الله تعالى للاستشهاد بتلك الشواهد قال ابن عباس رضي الله عنهما حين وقعت الواو انقطعت العدة وعليه مدار قوله رضي الله عنه أنا من ذلك القليل ولو كان في ذلك وحي آخر لما خفي عليه ولما احتاج الى الاستشهاد بالواو ولكان المسلمون أسوة له في العلم بذلك وعن علي كرم الله وجهه أنهم سبعة نفر أسماؤهم يمليخا ومكشلمينا ومشلمينا هؤلاء أصحاب يمين الملك وكان عن يساره مرنوش ودبرنوش وشاذنوش وكان يستشير هؤلاء الستة في أمره والسابع الراعي الذي وافقهم حين
هربوا من ملكهم دقيانوس واسمه كفشيططيوش (فلا تمار) الفاء لتفريع النهي على ما قبله أي اذ قد عرفت جهل أصحاب القولين
الاولين فلا تجادلهم (فيهم) في شأن الفتية (الا مراء ظاهرا) قدر ما تعرض له الوحي من وصفهم بالرجم بالغيب وعدم العلم على الوجه
الاجمالي وتفويض العلم الى الله سبحانه من غير تصريح بجهلهم وتفضيح لهم فانه مما يخل بمكارم الاخلاق (ولا تستفت فيهم) في شأنهم

تخشوا الذلك وتذكروهم بملء أفواهكم وقلوبكم لكن ذكر الله أكبر فينبغي أن يكون على أبلغ وجوه التعظيم
وأما الصلاة فكذلك لان الله يعلم ما تصنعون وهذا أحسن صنعكم فينبغي أن يكون على وجه التعظيم وفي
قوله ولذكر الله أكبر مع حذف بيان ماهو أكبر منه لطيفة وهي ان الله لم يقل أكبر من ذكر فلان لان
ما ينسب الى غيره بالكبر فله اليه نسبة اذ لا يقال الجبل أكبر من خردلة وانما يقال هذا الجبل أكبر من ذلك
الجبل فأسقط المنسوب كأنه قال ولذكر الله له الكبر لا لغيره وهذا كما يقال في الصلاة الله أكبر أي له الكبر
لا لغيره ﴿ثم قال تعالى ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا
بالذي أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون وكذلك أنزلنا اليك الكتاب فالذين
آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا الا الكافرون﴾ لما بين الله
طريقة ارشاد المشركين ونفع من انتفع وحصل اليأس ممن امتنع بين طريقة ارشاد أهل الكتاب فقال
ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن قال بعض المفسرين المراد منه لا تجادلوهم بالسيف وان لم
يؤمنوا الا اذا ظلموا وحاربوا أي اذا ظلموا زائدا على كفرهم وفيه معنى ألطف منه وهو ان المشرك جاء بالمنكر
على ما بيناه فكان اللائق أن يجادل بالاخشن ويبالغ في تهجين مذهبه وتوهين شبهه ولهذا قال تعالى في
حقهم صم بكم عمي وقال لهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها الى غير ذلك وأما أهل الكتاب
فجاؤا بكل حسن الا الاعتراف بالنبي عليه السلام فوحدوا وآمنوا بانزال الكتب وارسال الرسل والحشر
فلمقابلة احسانهم يجادلون أولا بالاحسن ولا تستخف آراؤهم ولا ينسب الى الضلال آباؤهم بخلاف المشرك
ثم على هذا فقوله الا الذين ظلموا تبين له حسن آخر وهو أن يكون المراد الا الذين أشركوا منهم باثبات الولد
لله والقول بثالث ثلاثة فانهم ضاهوهم في القول المنكر فهم الظالمون لان الشرك لظلم عظيم فيجادلون
بالاخشن من تهجين مقالتهم وتبيين جهالتهم ثم انه تعالى بين ذلك الاحسن فقدم محاسنهم بقوله وقولوا
آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون فيلزمنا اتباع ما قاله لكنه بين رسالتي
في كتبكم فهو دليل مضي ثم بعد ذلك ذكر دليلا قياسيا فقال وكذلك أنزلنا اليك الكتاب يعني كما أنزلنا
على من تقدمك أنزلنا عليك وهذا قياس ثم قال فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به لوجود النص ومن
هؤلاء كذلك واختلف المفسرون فقال بعضهم المراد بالذين آتيناهم الكتاب من آمن بنبينا من أهل
الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره وبقوله ومن هؤلاء أي من أهل مكة وقال بعضهم المراد بالذين آتيناهم
الكتاب هم الذين سبقوا محمدا صلى الله عليه وسلم زمانا من أهل الكتاب ومن هؤلاء الذين هم في زمان محمد
صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب وهذا أقرب فان قوله هؤلاء صرفه الى أهل الكتاب أولى لان الكلام
فيهم ولا ذكر للمشركين ههنا اذ كان هذا الكلام بعد الفراغ من ذكرهم والاعراض عنهم لاصرارهم على
الكفر وههنا وجه آخر أولى وأقرب الى العقل والنقل وأقرب الى الاحسن من الجدال المأمور به وهو أن
نقول المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم الانبياء وبقوله ومن هؤلاء أي من أهل الكتاب وهو أقرب لان
الذين آتاهم الكتاب في الحقيقة هم الانبياء فان الله ما آتى الكتاب الا للانبياء كما قال تعالى أولئك الذين
آتيناهم الكتاب وقال وآتينا داود زبورا وقال وآتاني الكتاب واذا حملنا الكلام على هذا لا يدخله
التخصيص لان كل الانبياء آمنوا بكل الانبياء واذا قلنا بما قالوا به يكون المراد من الذين آتيناهم الكتاب
عبد الله بن سلام واثنين أو ثلاثة معه أو عددا قليلا ويكون المراد بقوله ومن هؤلاء غير المذكورين وعلى
ما ذكرنا يكون مخرج الكلام كأنه قسم القوم قسمين أحدهما المشركون وتكلم فيهم وفرغ منهم والثاني

(منهم) من الخائضين (أحدا) فإن فيما قص عليك لمندوحة عن ذلك مع أنه لا علم لهم بذلك وقال عطاء الأقاويل من أهل الكتاب فالضمائر
الثلاثة في الأفعال الثلاثة لهم وما ذكر من الشواهد لارشاد المؤمنين إلى صحة القول الثالث وفيه محيص عما في الأول من التكلف في
جعل أحد الأقوال المحكية ٥٣٤ المنظومة في سمط واحد ناشئا عن الحكاية مع كون الأخيرين مخالفه ووضوح في سبب

أهل الكتاب وهو بعد في بيان أمرهم والوقت وقت جريان ذكرهم فإذا قال هؤلاء يكون منصرفا إلى أهل
الكتاب الذين هو في وصفهم وإذا قال أولئك يكون منصرفا إلى المشركين الذين سبق ذكرهم وتحقق أمرهم
وعلى هذا التفسير يكون الجدال على أحسن الوجوه وذلك لأن الخلاف في الأنبياء والأئمة قريب من
الخلاف في فضيلة الرؤساء والملوك فإذا اختلف حزبان في فضيلة ملكين أو رئيسين وأدى الاختلاف
إلى الاقتتال يكون أقوى كلام يصلح بينهم أن يقال لهم هذان الملكان متوافقان متصادقان فلا معنى
لنزاعكم فكذلك ههنا قال النبي صلى الله عليه وسلم نحن آمنا بالأنبياء وهم آمنوا بي فلا معنى لتعصبكم لهم
وكذلك أكابركم وعلماؤكم آمنوا ثم قال تعالى وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون تنفيرا لهم عما هم عليه يعني
إنكم آمنتم بكل شيء وامتزتم عن المشركين بكل فضيلة إلا هذه المسألة الواحدة وبإنكارها تلتحقون بهم
وتبطلون مزاياكم فإن الجاحد بآية يكون كافرا ﴿ثم قال تعالى ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب
ولا تخطه بيمينك﴾ هذه درجة أخرى بعد ما تقدم على الترتيب وذلك لأن المجادل إذا ذكر مسألة مختلفا
فيها كقول القائل الزكاة تجب في مال الصغير فإذا قيل له لم فيقول كما تجب النفقة في ماله ولا يذكر أولا
الجامع بينهما فإن قنع الطالب بمجرد التشبيه ويدرك من نفسه الجامع فذاك وإن لم يدرك أو لم يقنع يبدي
الجامع فيقول كلاهما مال فضل عن الحاجة فيجب فكذلك ههنا ذكر أولا التمثيل بقوله وكذلك
أنزلنا إليك ثم ذكر الجامع وهو المعجزة فقال ما علم كون تلك الكتب منزلة إلا بالمعجزة وهذا القرآن ممن
لم يكتب ولم يقرأ عين المعجزة فيعرف كونه منزلا ﴿وقوله تعالى ﴿إذا لارتاب المبطلون﴾ فيه معنى
لطيف وهو أن النبي إذا كان قارئا كاتبا ما كان يوجب كون هذا الكلام كلامه فإن جميع كتبة الأرض
وقرائها لا يقدرون عليه لكن على ذلك التقدير يكون للمبطل وجه ارتياب وعلى ما هو عليه لا وجه
لارتيابه فهو أدخل في الإبطال وهذا كقوله تعالى وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة
من مثله أي من مثل محمد عليه السلام وكقوله الم ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴿ثم قال تعالى ﴿بل هو آيات
بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾ قوله في صدور الذين أوتوا العلم إشارة إلى أنه ليس من مخترعات
الآدميين لأن من يكون له كلام مخترع يقول هذا من قلبي وخاطري وإذا حفظه من غيره يقول إنه في
قلبي وصدري فإذا قال في صدور الذين أوتوا العلم لا يكون من صدر أحد منهم والجاهل يستحيل منه ذلك
فلا بد وله من المصدر والمحقون عنده هذه الآية بالمشركين فظهوره من الله ﴿ثم قال تعالى ﴿وما
يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾ قال ههنا الظالمون ومن قبل قال الكافرون مع أن الكافر ظالم ولا تنافي
بين الكلامين وفيه فائدة وهي أنهم قبل بيان المعجزة قيل لهم إن لكم المزايا فلا تبطلوها بإنكار محمد فتكونوا
كافرين فلفظ الكافر هناك كان بليغا يمنعهم من ذلك لاستنكافهم عن الكفر ثم بعد بيان المعجزة قال لهم
إن جحدتم هذه الآية لزمكم إنكار إرسال الرسل فتلتحقون في أول الأمر بالمشركين حكما وتلتحقون عند هذه
الآية بالمشركين حقيقة فتكونوا ظالمين أي مشركين كما قال إن الشرك لظلم عظيم فهذا اللفظ ههنا أبلغ
وذلك اللفظ هناك أبلغ ﴿ثم قال تعالى ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما
أنا نذير مبين﴾ لما فرغ من ذكر دليل من جانب النبي عليه السلام ذكر شبهتهم وهي بذكر الفرق بين المقيس
عليه والمقيس فقالوا إنك تقول إنه أنزل إليك كتاب كما أنزل إلى موسى وعيسى وليس كذلك لأن موسى
أوتي تسع آيات علم بها كون الكتاب من عند الله وأنت ما أوتيت شيئا منها ثم إن الله تعالى أرشد نبيه إلى
أجوبة هذه الشبهة منها قوله إنما الآيات عند الله ووجهه أن النبي صلى الله عليه وسلم ادعى الرسالة وليس

حذف المفعول في الأخبار
والمعنى حينئذ وإذ قد
وقفت على أن كلهم ليسوا
على خطأ في ذلك فلا
تجادلهم إلا جدالا ظاهرا
ناطقا به الوحي المبين من
غير تجهيل لجميعهم فإن
فيهم مصيبا وإن قيل
والنهي عن الاستفتاء
لدفع ما عسى يتوهم من
احتمال جوازه أو احتمال
وقوعه بناء على إصابة
بعضهم فالمعنى لا ترجع
إليهم في شأن الفتية ولا
تصدق القول الثالث
من حيث صدوره عنهم
بل من حيث التلقي من
الوحي (ولا تقولن لشيء)
أي لأجل شيء تعزم عليه
(إني فاعل ذلك) الشيء
(غدا) أي فيما يستقبل
من الزمان مطلقا
فيدخل فيه الغد دخولا
أوليا فإنه نزل حين قالت
اليهود لقريش سلوه
عن الروح وعن أصحاب
الكهف وذي القرنين
فسألوه عليه الصلاة
والسلام فقال ائتوني
غدا أخبركم ولم يستثن
فأبطأ عليه الوحي حتى
شق عليه وكذبته
قريش وما قيل من أن
المدلول بالعبارة هو
الغد وما عداه ثابت بذلك مفهوم بطريق دلالة النص يرده أن ما بعده ليس بمعناه في مناط النهي فإن وسعة المجال
من
دليل القدرة فليتأمل (إلا أن يشاء الله) استثناء مفرغ من النهي أي لا تقولن ذلك في حال من الأحوال إلا حال ملابسته بمشيئته تعالى
على الوجه المعتاد وهو أن يقال إن شاء الله أو في وقت من الأوقات إلا وقت أن يشاء الله أن تقوله لا مطلقا بل مشيئة إذن فإن النسيان

أيضا بمشيئته تعالى ولا مساغ لتعليقه بفاعل لعدم سداد استثناء اقتران المشيئة بالفعل ومنافاة استثناء اعتراضه النهي وقيل الاستثناء جار مجرى التأبيد كأنه قيل لا تقولنه أبدا كقوله تعالى وما كان لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله (واذكر ربك) بقولك إن شاء الله متداركا له (إذا نسيت) إذا فرط منك نسيان ثم ذكرته وعن ابن عباس رضي الله عنهما ولو بعد سنة ما لم تحنث ولذلك جوز تأخير الاستثناء وعامة الفقهاء على خلافه إذ لو صح ذلك لما تقرر إقرار ولا طلاق ولا عتاق ولم يعلم صدق ولا كذب قال القرطبي هذا في تدارك التبرك والتخلص عن الإثم وأما الاستثناء المغير للحكم فلا يكون إلا متصلا ويجوز أن يكون المعنى واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت الاستثناء مبالغة في الحث عليه أو اذكر ربك وعقابه إذا تركت بعض ما أمرك به ليبعثك ذلك على التدارك أو اذكره إذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسي وقد حمل على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها (وقل عسى أن يهدين ربي) أي يوفقني (لأقرب من هذا) أي لشيء أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف من الآيات والدلائل الدالة على نبوتي (رشدا) أي إرشادا للناس ودلالة على ذلك وقد فعل عز وجل ذلك حيث آتاه من البينات ما هو أعظم من ذلك وأبين كقصص الأنبياء المتباعدة أيامهم والحوادث النازلة في الأعصار المستقبلة إلى قيام الساعة أو لأقرب رشدا وأدنى خيرا من المنسي (ولبثوا في كهفهم) أحياء مضروبا على آذانهم (ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا) وهي جملة مستأنفة مبينة لما أجمل فيما سلف وأشير إلى عزة مناله وقيل إنه حكاية كلام أهل الكتاب فإنهم اختلفوا في مدة لبثهم كما اختلفوا في عدتهم فقال بعضهم هكذا وبعضهم ثلاثمائة وروي عن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال عند أهل الكتاب أنهم لبثوا

من شرط الرسالة الآية المعجزة لأن الرسول يرسل أولا ويدعو إلى الله ثم إن توقف الخلق في قبوله أو طلبوا منه دليلا فالله إن رحمهم بين رسالته وإن لم يرحمهم لا يبين فقال أنا الساعة رسول وأما الآية فالله إن أراد ينزلها وإن لم يرد لا ينزلها وهذا لأن ما هو من ضروريات الشيء إذا خلق الله الشيء لا بد من أن يخلقه كالمكان من ضروريات الإنسان فلا يخلق الله إنسانا إلا ويكون قد خلق مكانا أو يخلقه معه لكن الرسالة والمعجزة ليستا كذلك فالله إذا خلق رسولا وجعله رسولا ليس من ضرورياته أن تعلم له معجزة ولهذا علم وجود رسل كشيث وإدريس وشعيب ولم تعلم لهم معجزة فإن قيل علم رسالتهم بقول من تقدمت رسالته بالمعجزة فنقول كذلك لا حاجة له إلى معجزة لأن رسالته علمت بقول موسى وعيسى فتبين بطلان قولهم لم ينزل عليه آية وهذا لأنهم طلبوا ما سبق الآية وليست شرطا في تثبيتها بل إن كان لهم سؤال فطريقه أن يقولوا يا أيها المدعي نحن لا نكذبك ولا نصدقك لكنا نريد أن يبين الله لنا آية تفصلنا من تصديق المتنبي وتكذيب النبي ونعلم بها كونك نبيا ونؤمن بك فعند ذلك ما كان يعلمه من رحمة الله أن ينزل آية * ثم قوله وإنما أنا نذير مبين معناه أن الآية عند الله ينزلها أو لا ينزلها لا تعلق لي بها أنا إلا نذير وليس لي عليه حكم في شيء ثم إنه بعد بيان فساد شبهتهم من وجه بين فسادها من وجه آخر وقال هب أن إنزال الآية شرط لكنه وجد وهو في نفس الكتاب * فقال تعالى ﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾ يعني إن كان إنزال الآية شرطا فلا يشترط إلا إنزال آية وقد أنزل وهو القرآن فإنه معجزة ظاهرة باقية وقوله أولم يكفهم عبارة تنبئ عن كون القرآن آية فوق الكفاية وذلك لأن القائل إذا قال أما يكفي المسيء أن لا يضرب حتى يتوقع الإكرام ينبئ عن أن ترك الضرب في حقه كثير وكذلك قوله أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب وهذا لأن القرآن معجزة أتم من كل معجزة تقدمها لوجوه (أحدها) أن تلك المعجزات وجدت وما دامت قلب العصا ثعبانا وإحياء الميت لم يبق لنا منه أثر فلو لم يكن واحد يؤمن بكتب الله ويكذب بوجود هذه الأشياء لا يمكن إثباتها معه بدون الكتاب وأما القرآن فهو باق لو أنكره واحد فنقول له فأت بآية من مثله (الثاني) هو أن قلب العصا ثعبانا كان في مكان واحد ولم يره من لم يكن في ذلك المكان وأما القرآن فقد وصل إلى المشرق والمغرب وسمعه كل واحد وههنا لطيفة وهي أن آيات النبي عليه السلام كانت أشياء لا تختص بمكان دون مكان لأن من جملتها انشقاق القمر وهو يعم الأرض لأن الخسوف إذا وقع عم وذلك لأن نبوته كانت عامة لا تختص بقطر دون قطر وغاضت بحيرة ساوة في قطر وسقط إيوان كسرى في قطر وانهدمت الكنيسة بالروم في قطر آخر إعلاما بأنه يكون أمرا عاما (الثالث) هو أن غير هذه المعجزة الكافر المعاند يقول إنه سحر عمل بدواء والقرآن لا يمكن هذا القول فيه * ثم إنه تعالى قال ﴿إن في ذلك لرحمة﴾ إشارة إلى أنا جعلناه معجزة رحمة على العباد ليعلموا بها الصادق وهذا لأن إظهار المعجزة على يد الصادق رحمة من الله وكان له أن لا يظهر فيبقى الخلق في ورطة تكذيب الصادق أو تصديق الكاذب لأن الذي لا يميز عن المتنبي لولا المعجزة لكن الله لذلك يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وقوله ﴿وذكرى﴾ إشارة إلى أنه معجزة باقية لقوم يتذكر بها كل من يكون ما بقي الزمان * ثم قال تعالى ﴿لقوم يؤمنون﴾ يعني هذه الرحمة مختصة بالمؤمنين لأن المعجزة كانت غضبا على الكافرين لأنها قطعت أعذارهم وغلقت أبواب إنكارهم * ثم قال تعالى ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا﴾ لما ظهرت رسالته وبهرت دلالته ولم يؤمن به المعاندون من أهل الكتاب قال كما يقول الصادق إذا كذب وأتى بكل ما يدل على صدقه ولم يصدق الله يعلم صدقي وتكذيبك أيها المعاند وهو على ما أقول شهيد يحكم بيني وبينكم كل ذلك إنذارا وتهديدا يفيده تقريرا وتأكيدا * ثم بين

كونه كافيا بكونه عالما بجميع الاشياء فقال ﴿يعلم ما في السموات والارض﴾ وههنا مسئلة وهي ان الله تعالى قال في آخر الرعد ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾ فأخر شهادة أهل الكتاب وفي هذه السورة قدمها حيث قال ﴿فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به﴾ أي من أهل الكتاب فنقول الكلام هناك مع المشركين فاستدل عليهم بشهادة غيرهم ثم ان شهادة الله أقوى في الزامهم من شهادة غير الله وههنا الكلام مع أهل الكتاب وشهادة المرء على نفسه هو اقراره وهو أقوى الحجج عليه فقدم ما هو الزم عليهم ﴿ثم انه تعالى لما بين الطريقين في ارشاد الفريقين المشركين وأهل الكتاب عاد الى الكلام الشامل لهما والانذار العام فقال تعالى ﴿والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾ أي الذين آمنوا بما سوى الله لان ما سوى الله باطل لانه هالك بقوله كل شئ هالك الا وجهه وكل ما هو هالك فقد بطل فكل هالك باطل وكل ما سوى الله باطل فمن آمن بما سوى الله فقد آمن بالباطل وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله أولئك هم الخاسرون يقتضي الحصر أي من أتى بالايمان بالباطل والكفر بالله فهو خاسر فمن يأتي بأحدهما دون الآخر ينبغي أن لا يكون خاسرا فنقول يستحيل أن يكون الآتي بأحدهما لا يكون آتيا بالآخر أما الآتي بالايمان بما سوى الله فلانه أشرك بالله جعل غير الله مثله وجعل الله مثل غيره لكن غيره عاجز جاهل ممكن باطل فيكون الله كذلك فيكون انكارا لله وكفرا به وأما من كفر به وأنكره فيكون قائلا بان العالم ليس له اله موجد فوجود العالم من نفسه فيكون قائلا بان العالم واجب والواجب اله فيكون قائلا بان غير الله اله فيكون اثباتا لغير الله وايمانا به (المسئلة الثانية) اذا كان الايمان بما سوى الله كفرا به فيكون كل من آمن بالباطل فقد كفر بالله فهل لهذا العطف فائدة غير التأكيد الذي هو في قول القائل قم ولا تقعد واقرب مني ولا تبعد نقول نعم فيه فائدة غيرها وهو أنه ذكر الثاني لبيان قبح الاول كقول القائل أتقول بالباطل وتترك الحق لبيان أن القول بالباطل قبيح (المسئلة الثالثة) هل يتناول هذا أهل الكتاب أي هل هم آمنوا بالباطل وكفروا بالله نقول نعم لانهم لما صح عندهم أن معجزة النبي من عند الله وقطعوا بها وعاندوا وقالوا انها من عند غير الله يكون كمن رأى شخصا يرمي حجارة فقال ان رامي الحجارة زيد يقطع بأنه قائل بأن هذا الشخص زيد حتى لو سئل عن عين ذلك الشخص وقيل له من هذا الرجل يقول زيد فكذلك هم لما قطعوا بان مظهر المعجزة هو الله وقالوا بان محمدا مظهرها هذا يلزمهم أن يقولوا محمد هو الله تعالى فيكون ايمانا بالباطل واذا قالوا بان من اظهر المعجزة ليس باله مع انهم قطعوا واعتقدوا ان مظهر المعجزة يكونوا قائلين بان ذلك المخصوص الذي هو ليس باله فيكون كفرا به وهذا لا يرد علينا فمن يقول فعل العبد مخلوق الله تعالى أو مخلوق العبد فانه أيضا ينسب فعل الله الى الغير كما أن المعجزة فعل الله وهم نسبوها الى غيره لان هذا القائل يجهل النسبة كمن يرى حجارة رميت ولم يعين راميها فيظن أن راميها زيد فيقول زيد هو رامي هذه الحجارة ثم اذا رأى راميها بعينه و يكون غير زيد لا يقطع بان يقول هو زيد وأما اذا رأى عينه ورميه للحجارة وقال رامي الحجارة زيد يقطع بانه يقول هذا الرجل زيد فظهر الفرق من حيث انهم كانوا معاندين عالمين بان الله مظهر تلك المعجزة و يقولون بانها من عند غير الله ثم قوله هم الخاسرون كذلك بأتم وجوه الخسران وهذا لان من يخسر رأس المال ولا تركبه ديون يطالب بها دون من يخسر رأس المال وتركبه تلك الديون فهم لما عبدوا غير الله أفنوا العمر ولم يحصل لهم في مقابلته شئ ما أصلا من المنافع واجتمع عليهم ديون ترك

...ثمانمائة سنة شمسية والله تعالى ذكر السنة القمرية والتفاوت بينهما في كل مائة سنة ثلاث سنين فيكون ثلثمائة وتسع سنين وسنين عطف بيان لثلثمائة وقيل بدل وقرئ على الاضافة وضعا للجمع موضع المفرد ومما يحسنه ههنا أن علامة الجمع فيه جبر لما حذف في الواحد وأن الاصل في العدد اضافته الى الجمع (قل الله أعلم بما لبثوا) أى بالزمان الذي لبثوا فيه (له غيب السموات والارض) أى ماغاب فيهما وخفي من أحوال أهلهما واللام للاختصاص العلمي دون التكويني فانه غير مختص بالغيب (أبصر به وأسمع) دل بصيغة التعجب على أن شأن علمه سبحانه بالمبصرات والمسموعات خارج عما عليه ادراك المدركين لا يحجبه شئ ولا يحول دونه حائل ولا يتفاوت بالنسبة اليه اللطيف والكثيف والصغير والكبير والخفي والجلي والهاء ضمير الجلالة ومحله الرفع على الفاعلية والباء مزيدة عند سيبويه وكان أصله أبصر أي صار ذا بصر ثم نقل الى صيغة الامر للانشاء فبرز الضمير لعدم لياقة الصيغة له أو لزيادة الباء كما في كفى به والنصب على المفعولية عند الاخفش والفاعل ضمير المأمور وهو كل أحد والباء مزيدة ان كانت الهمزة للتعدية ومعدية ان كانت للصيرورة ولعل تقديم أمر ابصاره تعالى لما أن الذي نحن بصدده من قبيل المبصرات (ما لهم) لاهل السموات والارض (من دونه) تعالى (من ولي) يتولى أمورهم وينصرهم استقلالا (ولا يشرك في حكمه) في قضائه أو في علم الغيب (أحدا) منهم ولا يجعل له فيه مدخلا وهو كما ترى أبلغ في نفي الشريك من أن يقال من ولي ولا شريك وقرئ على صيغة نهي الحاضر على أن الخطاب لكل أحد ولما دل اشتمال القرآن الكريم على قصة أصحاب الكهف من حيث انها بالنسبة الى النبي صلى الله عليه وسلم من المغيبات على انه وحي

محذرا أمره عليه الصلاة والسلام بالمداومة على دراسته فقال (واتل ما أوحي اليك من كتاب ربك) ولا تسمع لقولهم ائت بقرآن غير هذا أو بدله (لا مبدل لكلماته) لا قادر على تبديله وتغييره غيره (ولن تجد) أبد الدهر وان بالغت في الطلب (من دونه ملتحدا) ملجأ تعدل اليه عند الملم ملمة (واصبر نفسك) احبسها وثبتها مصاحبة (مع الذين يدعون ربهم ٥٢٧ بالغداة والعشي) أي دائبين على الدعاء في جميع الاوقات وقيل في طرفي النهار وقرئ بالغدوة على أن ادخال اللام عليها وهي علم في الاغلب على تأويل التنكير والمراد بهم فقراء المؤمنين مثل صهيب وعمار وخباب ونحوهم رضي الله عنهم وقيل أصحاب الصفة وكانوا نحو سبعمائة رجل قيل انه قال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم نح هؤلاء الموالي الذين كأن ريحهم ريح الضأن حتى نجالسك كما قال قوم نوح عليه السلام أنؤمن لك واتبعك الارذلون فنزلت والتعبير عنهم بالموصول لتعليل الامر بما في حيز الصلة من الخصلة الداعية الى ادامة الصحبة (يريدون) بدعائهم ذلك (وجهه) حال من المستكن في يدعون أي مريدين لرضاه تعالى وطاعته (ولا تعد عيناك عنهم) أي لا يجاوزهم نظرك الى غيرهم من عدا أي جاوزه واستعماله بعن لتضمينه معنى النبو أو لا تصرف عيناك النظر عنهم الى غيرهم من

عدوته عن الامر أي صرفته عنه على أن المفعول محذوف لظهوره وقرئ ولا تعد عينيك ولا تعدّ عينيك من الاعداء والتعدية والمراد نهيه عليه السلام عن الازدراء بهم لرثاثة زيهم طموحا الى زي الاغنياء (تريد زينة الحياة الدنيا) أي تطلب مجالسة الاشراف والاغنياء وأصحاب الدنيا وهي حال من الكاف على الوجه الاول من القراءة المشهورة ومن الفاعل على الوجه الثاني

الواجبات يطالبون بها حيث لا طاقة لهم بها ﴿ ثم قال تعالى ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب﴾ لما أنذرهم الله بالخسران وهو أتم وجوه الانذار لان من خسر لا يحصل له في مقابلة قدر الخسران شيء من المنافع والا لما كان الخسران ذلك القدر بل دونه مثاله اذا خسر واحد من العشرة درهما لا ينبغي أن يكون حصل له في مقابلة الدرهم ما يساوي نصف درهم والا لا يكون الخسران درهما بل نصف درهم فاذن هم لما خسروا أعمارهم لا تحصل لهم منفعة تخفيف عذاب والا يكون ذلك القدر من العمر له منفعة فيكون للخاسر عذاب أليم فقوله وأولئك هم الخاسرون تهديد عظيم فقالوا ان كان علينا عذاب فأتنا به اظهارا لقطعهم بعدم العذاب ثم انه أجاب بان العذاب لا يأتيكم بسؤالكم ولا يعجل باستعجالكم لانه أجله الله لحكمة ورحمة فلكونه حكيما لا يكون متغيرا منقلبا ولكونه رحيما لا يكون غضوبا منزعجا ولولا ذلك الاجل المسمى الذي اقتضته حكمته وارتضته رحمته لما كان له رحمة وحكمة فيكون غضوبا منقلبا فيتأثر باستعجالكم ويتغير من سؤالكم فيعجل وليس كذلك فلا يأتيكم بالعذاب وأنتم تسألونه ولا يدفع عنكم العذاب حين تستعيذون به منه كما قال تعالى كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴿ ثم قال تعالى ﴿وليأتينهم بغتة﴾ اختلف المفسرون فيه فقال بعضهم ليأتينهم العذاب بغتة لان العذاب أقرب المذكورين ولان سؤالهم كان العذاب فقال انه ليأتينهم وقال بعضهم ليأتينهم بغتة أي الاجل لان الآتي بغتة هو الاجل وأما العذاب بعد الاجل يكون معاينة وقد ذكرنا أن في كون العذاب أو الاجل آتيا بغتة حكمة وهي أنه لو كان وقته معلوما لكان كل أحد يتكل على بعده وعلمه بوقته فيفسق ويفجر معتمدا على التوبة قبل الموت ﴿ وقوله تعالى ﴿وهم لا يشعرون﴾ يحتمل وجهين (أحدهما) تأكيد معنى قوله بغتة كما يقول القائل أتيته على غفلة منه بحيث لم يدر فقوله بحيث لم يدر أكد معنى الغفلة (والثاني) هو كلام يفيد فائدة مستقلة وهي أن العذاب يأتيهم بغتة وهم لا يشعرون هذا الامر ويظنون أن العذاب لا يأتيهم أصلا ﴿ ثم قال تعالى ﴿يستعجلونك بالعذاب وان جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ ذكر هذا للتعجب وهذا لان من توعد بأمر فيه ضرر يسير كلطمة أو لكمة فيرى من نفسه الجلد ويقول باسم الله هات وأما من توعد باغراق أو احراق ويقطع بان المتوعد قادر لا يخلف الميعاد لا يخطر ببال العاقل أن يقول له هات ما تتوعدني به فقال هنا يستعجلونك بالعذاب والعذاب بنار جهنم المحيطة بهم فقوله ويستعجلونك أولا اخبار عنهم وثانيا تعجب منهم ﴿ ثم ذكر كيفية احاطتها بهم فقال تعالى ﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) لم خص الجانبين بالذكر ولم يذكر اليمين والشمال وخلف وقدام؟ فنقول لان المقصود ذكر ما تتميز به نار جهنم عن نار الدنيا ونار الدنيا تحيط بالجوانب الاربع فان من دخلها تكون الشعلة خلفه وقدامه ويمينه ويساره وأما النار من فوق فلا تنزل وانما تصعد من أسفل في العادة العاجلة وتحت الاقدام لا تبقى الشعلة بل تنطفئ الشعلة التي تحت القدم ونار جهنم تنزل من فوق ولا تنطفئ بالدوس موضع القدم (المسئلة الثانية) قال من فوقهم ومن تحت أرجلهم ولم يقل من فوق رؤسهم ولا قال من فوقهم ومن تحتهم بل ذكر المضاف اليه عند ذكر تحت ولم يذكره عند ذكر فوق؟ فنقول لان نزول النار من فوق سواء كان من سمت الرؤس وسواء كان من موضع آخر عجيب فلهذا لم يخصه بالرأس وأما بقاء النار تحت القدم فعجيب والا فمن جوانب القدم في الدنيا يكون شعل وهي تحت فذكر العجيب وهو ما تحت الارجل حيث لم ينطفئ بالدوس وما فوق على الاطلاق ﴿ ثم قال تعالى ﴿ونقول ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ لما بين عذاب أجسامهم

منها أو ضمير للعينين تريد واسناد الارادة اليه مجاز وتوحيده للتلازم كما في قوله لمن زحلوفة زل * بها العينان تنهل ومن استكن في
الفعل على القراءتين الاخيرتين (ولا تطع) في تنحية الفقراء عن مجالسك (من أغفلنا قلبه) أي جعلناه غافلا لبطلان استعداده للذكر
بالمرة أو وجدناه غافلا كقولك أجبنته وأبخلته اذا وجدته كذلك أو هو من أغفل ابله أي لم نسمه بالذكر (عن ذكرنا)
كأولئك الذين يدعونك الى طرد الفقراء عن مجالسك فانهم غافلون عن ذكرنا على خلاف ما عليه المؤمنون من الدعاء في مجامع الاوقات وفيه تنبيه على أن الباعث له على ذلك الدعاء غفلة قلبه عن جناب الله سبحانه وجهته وانهماكه في الحسيات حتى خفي عليه أن الشرف بحلية النفس لا بزينة الجسد وقرئ أغفلنا قلبه على اسناد الفعل الى القلب أي حسبنا غافلين عن ذكرنا اياه بالمؤاخذة من أغفلته اذا وجدته غافلا (واتبع هواه وكان أمره فرطا) ضياعا وهلاكا أو متقدما للحق والصواب نابذا له وراء ظهره من قولهم فرس فرط أي متقدم للخيل أو هو بمعنى الافراط والتفريط فان الغفلة عن ذكره سبحانه تؤدي الى اتباع الهوى المؤدي الى التجاوز والتباعد عن الحق والصواب والتعبير عنهم بالموصول للايذان بعلية ما في حيز الصلة للنهي عن الاطاعة
(وقل) لأولئك الغافلين المتبعين هواهم (الحق من ربكم) أي ما أوحي الي الحق لا غير كائنا من ربكم أو الحق المقتضى
المعهود من جهة ربكم لا من جهتي حتى يتصور فيه التبديل أو يمكن التردد في اتباعه وقوله تعالى (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) اما
من تمام القول المأمور به والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها بطريق التهديد لا لتفريعه عليه كما في قوله تعالى هذا عطاؤنا فامنن

بين عذاب أرواحهم وهوان يقال لهم على سبيل التنكيل والاهانة ذوقوا عذاب ما كنتم تعملون وجعل ذلك عين ما كانوا يعملون للمبالغة بطريق اطلاق اسم المسبب على السبب فان عملهم كان سببا لجعل الله اياه سببا لعذابهم وهذا كثير النظير في الاستعمال ﴿ثم قال تعالى ﴿ياعبادي الذين آمنوا﴾ وجه التعلق هو أن الله تعالى لما ذكر حال المشركين على حدة وحال أهل الكتاب على حدة وجمعهما في الانذار وجعلهما من أهل النار اشتد عنادهم وزاد فسادهم وسعوا في ايذاء المؤمنين ومنعوهم من العبادة فقال مخاطبا للمؤمنين ياعبادي الذين آمنوا ﴿ان أرضي واسعة فاياي فاعبدون﴾ ان تعذرت العبادة عليكم في بعضها فهاجروا ولا تتركوا عبادتي بحال وبهذا علم أن الجلوس في دار الحرب حرام والخروج منها واجب حتى لو حلف بالطلاق انه لا يخرج لزمه الخروج ودفع حتى يقع الطلاق ثم في الآية مسائل ﴿احداها﴾ ياعبادي لم يرد الا المخاطبة مع المؤمنين مع أن الكافر داخل في قوله ياعبادي أو نقول ليس داخلا في قوله ياعبادي لوجوه (أحدها) أن من قال في حقه عبادي ليس للشيطان عليهم سلطان بدليل قوله تعالى ان عبادي ليس لك عليهم سلطان والكافر تحت سلطنة الشيطان فلا يكون داخلا في قوله ياعبادي (الثاني) هو أن الخطاب بعبادي أشرف منازل المكلف وذلك لان الله تعالى لما خلق آدم آتاه اسما عظيما وهو اسم الخلافة كما قال تعالى اني جاعل في الارض خليفة والخليفة أعظم الناس مقدارا وأتم ذوي البأس اقتدارا ثم ان ابليس لم يرهب من هذا الاسم ولم ينهزم بل أقدم عليه بسببه وعاداه وغلبه كما قال تعالى فأزلهما الشيطان ثم ان من أولاده الصالحين من سمي بعبادي فانخنس عنهم الشيطان وتضاءل كما قال تعالى ان عبادي ليس لك عليهم سلطان وقال هو بايأسه لأغوينهم أجمعين الا عبادك فعلم أن المكلف اذا كان عبد الله يكون أعلى درجة مما اذا كان خليفة لوجه الارض ولعل آدم كداود الذي قال الله تعالى في حقه انا جعلناك خليفة في الارض لم يتخلص من يد الشيطان الا وقت ما قال الله في حقه عبدي وعندما ناداه بقوله ربنا ظلمنا أنفسنا واجتباه بهذا النداء كما قال في حق داود واذكر عبدنا داود ذا الايد اذا علم هذا فالكافر لا يصلح للخلافة فكيف يصلح لما هو أعظم من الخلافة فلا يدخل في قوله ياعبادي الا المؤمن (الثالث) هو ان هذا الخطاب يحصل للمؤمن بسعيه بتوفيق الله وذلك لان الله تعالى قال ادعوني أستجب لكم فالمؤمن دعا ربه بقوله ربنا اننا سمعنا مناديا ينادي للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا فأجابه الله تعالى بقوله ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله فالاضافة بين الله وبين العبد بقول العبد الهي وقول الله عبدي تأكدت بدعاء العبد لكن الكافر لم يدع فلم يجب فلا يتناول ياعبادي غير المؤمنين (المسئلة الثانية) اذا كان عبادي لا يتناول الا المؤمنين فما الفائدة في قوله الذين آمنوا مع أن الوصف انما يذكر لتمييز الموصوف كما يقال يا أيها المكلفون المؤمنون و يا أيها الرجال العقلاء تمييزا عن الكافرين والجهال * فنقول الوصف يذكر لا للتمييز بل لمجرد بيان ان فيه الوصف كما يقال الانبياء المكرمون والملائكة المطهرون مع ان كل نبي مكرم وكل ملك مطهر وانما يقال لبيان ان فيهم الاكرام والطهارة ومثل هذا قولنا الله العظيم وزيد الطويل فههنا ذكر لبيان أنهم مؤمنون (المسئلة الثالثة) اذا قال ياعبادي فهم يكونون عابدين فما الفائدة في الامر بالعبادة بقوله فاعبدون * فنقول فيه فائدتان (احداهما) المداومة أي يامن عبدتموني في الماضي اعبدوني في المستقبل (الثانية) الاخلاص أي يامن تعبدني أخلص العمل لي ولا تعبد غيري (المسئلة الرابعة) الفاء في قوله فاياي تدل على انه جواب الشرط فما ذلك * فنقول قوله ان أرضي واسعة اشارة الى عدم المانع من عبادته فكأنه قال اذا كان لا مانع من عبادتي فاعبدوني وأما الفاء في قوله تعالى فاعبدون فهو لترتيب

أو أمسك بغير حساب وقوله تعالى الحق من ربك فلا تكونن من الممترين أي عقيب تحقق أن ما أوحي إليك حق لا ريب فيه وأن ذلك الحق من جهة ربكم فمن شاء أن يؤمن به فليؤمن كسائر المؤمنين ولا يتعلل بما لا يكاد يصلح للتعلل ومن شاء أن يكفر به فليفعل وفيه من التهديد وإظهار الاستغناء عن متابعتهم وعدم المبالاة بهم وبإيمانهم وجودا وعدما ما لا يخفى وأما تهديد من جهة الله تعالى والفاء لترتيب ما بعدها من التهديد على الأمر لا على مضمون المأمور به والمعنى قل لهم ذلك وبعد ذلك من شاء أن يؤمن به أو أن يصدقك فيه فليؤمن ومن شاء أن يكفر به أو يكذبك فيه فليفعل فقوله تعالى (إنا أعتدنا) وعيد شديد وتأكيد للتهديد وتعليل لما يفيده من الزجر عن الكفر أو لما يفهم من ظاهر التخيير من عدم المبالاة بكفرهم وقلة الاهتمام بزجرهم عنه فإن إعداد جزائه من دواعي الإملاء والإمهال وعلى الوجه الأول هو تعليل للأمر بما ذكر من التخيير التهديدي أي قل لهم ذلك إنا أعتدنا (للظالمين) أي هيأنا للكافرين بالحق بعد ما جاء من الله سبحانه والتعبير عنهم بالظالمين للتنبيه على أن مشيئة الكفر واختياره تجاوز عن الحد ووضع للشيء في غير موضعه (نارا) عظيمة عجيبة (أحاط بهم) أي يحيط بهم وإيثار صيغة الماضي للدلالة على التحقق (سرادقها) أي فسطاطها شبه به ما يحيط بهم من النار وقيل السرادق الحجرة التي تكون حول الفسطاط وقيل سرادقها دخانها وقيل حائط من نار (وإن يستغيثوا) من العطش (يغاثوا بماء كالمهل) كالحديد المذاب وقيل كدردي الزيت وهو على طريقة قوله فأعتبوا بالصيلم (يشوي الوجوه) إذا قدم ليشرب انشوى الوجه من حرارته عن النبي عليه الصلاة والسلام هو كعكر الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه (بئس

المقتضي على المقتضى كما يقال هذا عالم فأكرموه فكذلك ههنا لما أعلم نفسه بقوله فإياي وهو لنفسه يستحق العبادة قال فاعبدون (المسألة الخامسة) قال العبد مثل هذا في قوله إياك نعبد وقال عقيبه وإياك نستعين والله تعالى وافقه في قوله فإياي فاعبدون ولم يذكر الإعانة بقول بل هي مذكورة في قوله يا عبادي لأن المذكور بعبادي لما كان الشيطان مسدود السبيل عليه مسدود السبيل عنه كان في غاية الإعانة (المسألة السادسة) قدم الله الإعانة وأخر العبد الاستعانة قلنا لأن العبد فعله لغرض وكل فعل لغرض فإن الغرض سابق على الفعل في الإدراك وذلك لأن من يبني بيتا للسكنى يدخل في ذهنه أولا فائدة السكنى فيحمله على البناء لكن الغرض في الوجود لا يكون إلا بعد فعل الواسطة فنقول الاستعانة من العبد لغرض العبادة فهي سابقة في إدراكه وأما الله تعالى فليس فعله لغرض فراعى ترتيب الوجود فإن الإعانة قبل العبادة ﴿ ثم قال تعالى ﴿كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون﴾ لما أمر الله تعالى المؤمنين بالمهاجرة صعب عليهم ترك الأوطان ومفارقة الإخوان فقال لهم إن ما تكرهون لا بد من وقوعه فإن كل نفس ذائقة الموت والموت مفرق الأحباب فالأولى أن يكون ذلك في سبيل الله فيجازيكم عليه فإن إلى الله مرجعكم وفيه وجه أرق وأدق وهو أن الله تعالى قال كل نفس إذا كانت غير متعلقة بغيرها فهي تموت ثم إلى الله ترجع فلا تموت كما قال تعالى لا يذوقون فيها الموت إذا ثبت هذا فمن يريد أن لا يذوق الموت لا يبقى مع نفسه فإن النفس ذائقته بل يتعلق بغيره وذلك الغير إن كان غير الله فهو ذائق الموت ومورد الهلاك بقوله كل نفس ذائقة الموت وكل شيء هالك إلا وجهه فإذا التعلق بالله يريح من الموت فقال تعالى فإياي فاعبدون أي تعلقوا بي ولا تتبعوا النفس فإنها ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون أي إذا تعلقتم بي فموتكم رجوع إلي وليس بموت كما قال تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء وقال عليه الصلاة والسلام المؤمنون لا يموتون بل ينقلون من دار إلى دار فعلى هذا الوجه أيضا يتبين وجه التعلق ﴿ ثم قال تعالى ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين﴾ بين ما يكون للمؤمنين وقت الرجوع إليه كما بين من قبل ما يكون للكافرين بقوله وإن جهنم لمحيطة بالكافرين فبين أن للمؤمنين الجنان في مقابلة ما أن للكافرين النيران وبين أن فيها غرفا تجري من تحتها الأنهار في مقابلة ما بين أن تحت الكافرين النار وبين أن ذلك أجر عملهم بقوله تعالى نعم أجر العاملين في مقابلة ما بين أن ما تقدم جزاء عمل الكفار بقوله ذوقوا ما كنتم تعملون ثم في الآيتين اختلافات فيها لطائف (منها) أنه تعالى ذكر في العذاب أن فوقهم عذابا أي نارا ولم يذكر ههنا فوقهم شيئا وإنما ذكر ما فوق من غير إضافة وهو الغرف وذلك لأن المذكور في الموضعين العقاب والثواب الجسمانيان لكن الكافر في الدرك الأسفل من النار فيكون فوقه طبقات من النار فأما المؤمنون فيكونون في أعلى عليين فلم يذكر فوقهم شيئا إشارة إلى علو مرتبتهم وارتفاع منزلتهم وأما قوله تعالى لهم غرف من فوقها غرف لا ينافي لأن الغرف فوق الغرف لا فوقهم والنار فوق النار وهي فوقهم (ومنها) أن هناك ذكر من تحت أرجلهم النار وههنا ذكر من تحت غرفهم الماء وذلك لأن النار لا تؤلم إذا كانت تحت مطلقا ما لم تكن في مسامتة الأقدام ومتصلة بها أما إذا كانت الشعلة مائلة عن سمت القدم وإن كانت تحتها أو تكون مسامتة ولكن تكون غير ملاصقة بل تكون أسفل في وهدة لا تؤلم وأما الماء إذا كان تحت الغرفة في أي وجه كان وعلى أي بعد كان يكون ملتذا به فقال في النار من تحت أرجلهم ليحصل الألم بها وقال ههنا من تحت الغرف لحصول اللذة به كيف كان (ومنها) أن هناك قال ذوقوا بالإيلام قلوبهم بلفظ الأمر وقال ههنا نعم أجر العاملين لتفريح قلوبهم لا بصيغة الأمر وذلك لأن لفظ الأمر يدل على انقطاع

الشراب) ذلك (وساءت) النار (مرتفقا) متكأ وأصل الارتفاق نصب المرفق تحت الخد وأنى ذلك في النار وانما هو بمقابلة قوله تعالى
حسنت مرتفقا (ان الذين آمنوا) في محل التعليل للحث على الايمان المنفهم من التخيير كأنه قيل وللذين آمنوا ولعل تغيير سبكه للايذان
بكمال تنافي مآلى الفريقين أي

ان الذين آمنوا بالحق الذي أوحي اليك (وعملوا الصالحات) حسبما بين في تضاعيفه
(انا لانضيع أجر من أحسن عملا) خبران الاولى هي الثانية مع ما في حيزها والراجع محذوف أي من أحسن منهم عملا أو مستغنى عنه كما في قولك نعم الرجل زيد أو واقع موقعه الظاهر فان من أحسن عملا في الحقيقة هو الذي آمن وعمل الصالحات (أولئك) المنعوتون بالنعوت الجليلة (لهم جنات عدن تجري من تحتهم الانهار) استئناف لبيان الاجر أو هو الخبر وما بينهما اعتراض أو هو خبر بعد خبر (يحلون فيها من أساور من ذهب) من الاولى ابتدائية والثانية بيانية صفة لاساور والتنكير للتفخيم وهو جمع أسورة أو اسوار جمع سوار (ويلبسون ثيابا خضرا) خصت الخضرة بثيابهم لانها أحسن الالوان وأكثرها طراوة (من سندس واستبرق) أي مما رق من الديباج وما غلظ جمع بين النوعين للدلالة على أن فيها ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين (متكئين فيها على الارائك) على السرر على ماهو شأن المتنعمين (نعم الثواب) ذلك (وحسنت) أي الارائك (مرتفقا) أي
الى
متكأ (واضرب لهم) أي للفريقين الكافر والمؤمن (مثلا رجلين) مفعولان لاضرب أولهما ثانيهما لانه المحتاج الى التفصيل والبيان
أي اضرب للكافرين والمؤمنين لا من حيث أحوالهما المستفادة مما ذكر آنفا من أن للاولين في الآخرة كذا وللآخرين كذا بل

التعلق بعد ه فان من قال لاجيره خذ أجرتك يفهم منه انه بذلك ينقطع تعلقه عنه واما اذا قال ما أتم أجرتك عندي أو نعم مالك من الاجر يفهم منه ان ذلك عنده ولم يقل ههنا خذوا أجرتكم أيها العاملون وقال هناك ذوقوا ما كنتم تعملون فان قال قائل ذوقوا اذا كان يفهم منه الانقطاع فعذاب الكافر ينقطع قلنا ليس كذلك لان الله اذا قال ذوقوا دل على انه أعطاهم جزاءهم وانقطع ما بينه وبينهم لكن يبقى عليهم ذلك دائما ولا ينقص ولا يزداد وأما المؤمن اذا أعطاه شيأ فلا يتركه مع ما أعطاه بل يزيد له كل يوم في النعم واليه الاشارة بقوله للذين أحسنوا الحسنى وزيادة أي الذي يصل الى الكافر يدوم من غير زيادة والذي يصل الى المؤمن يزداد على الدوام وأما الخلود وان لم يذكره في حق الكافر لكن ذلك معلوم بغيره من النصوص ﴿ ثم قال تعالى ﴿الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾ ذكر أمرين الصبر والتوكل لان الزمان ماض وحاضر ومستقبل لكن الماضي لا تدارك له ولا يؤمر العبد فيه بشئ بقي الحاضر واللائق به الصبر والمستقبل واللائق به التوكل فيصبر على ما يصيبه من الاذى في الحال ويتوكل فيما يحتاج اليه في الاستقبال واعلم أن الصبر والتوكل صفتان لا يحصلان الا مع العلم بالله والعلم بما سوى الله فمن علم ما سواه علم انه زائل فيهون عليه الصبر اذ الصبر على الزائل هين واذا علم الله علم انه باق يأتيه بأرزاق فان فاته شئ فانه يتوكل على حي باق وذكر الصبر والتوكل ههنا مناسب فان قوله يا عبادي كان لبيان أنه لا مانع من العبادة ومن يؤذى في بقعة فليخرج منها فحصل الناس على قسمين قادر على الخروج وهو متوكل على ربه يترك الاوطان ويفارق الاخوان وعاجز وهو صابر على تحمل الاذى ومواظب على عبادة الله تعالى ﴿ ثم قال تعالى ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم وهو السميع العليم﴾ لما ذكر الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ذكر ما يعين على التوكل وهو بيان حال الدواب التي لا تدخر شيأ لغد ويأتيها كل يوم برزق رغد وفي الآية مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ في كأين لغات أربع غير هذه كائن على وزن راع وكأين على وزن ربع وكئ على رع ولم يقرأ الا كأين وكائن قراءة ابن كثير ﴿المسألة الثانية﴾ كأين كلمة مركبة من كاف التشبيه وأي التي تستعمل استعمال من وما ركبتا وجعل المركب بمعنى كم ولم تكتب الا بالنون ليفصل بين المركب وغير المركب لان كأي يستعمل غير مركب كما يقول القائل رأيت رجلا لا كأي رجل يكون فقد يحذف المضاف اليه ويقال رأيت رجلا لا كأي رجل وحينئذ لا يكون كأي مركبا فاذا كان كأي ههنا مركبا كتبت بالنون لتميز كما تكتب معديكرب وبعلبك موصولا للفرق وكما تكتب ثمة بالهاء تميزا بينها وبين ثمت ﴿المسألة الثالثة﴾ كأين بمعنى كم لم تستعمل مع من الا نادرا وكم يستعمل كثيرا من غير من يقال كم رجلا وكم من رجل وذلك لما بينا من الفرق بين كأين بمعنى كم وكأي التي ليست مركبة وذلك لان كأي اذا لم تكن مركبة لا يجوز ادخال من بعدها اذ لا يقال رأيت رجلا لا كأي من رجل والمركبة بمعنى كم يجوز ذلك فيها فالتزم للفرق * قوله تعالى لا تحمل رزقها قيل لا تحمل لضعفها وقيل هي كالقمل والبرغوث والدود وغيرها وقيل لا تدخر الله يرزقها واياكم بطريق القياس أي لا شك في أن رزقها ليس الا بالله فكذلك يرزقكم فتوكلوا فان قال قائل من قال بأن الله يرزق الدواب بل النبات في الصحراء بسبب والحيوان يسعى اليه ويرعى فنقول الدليل عليه من ثلاثة أوجه نظرا الى الرزق والى المرتزق والى مجموع الرزق والمرتزق أما بالنظر الى الرزق فلأن الله تعالى لو لم يخلق النبات لم يكن للحيوان رزق وأما بالنظر الى المرتزق فلأن الاغتذاء ليس بمجرد الابتلاع بل لابد من تشبثه بالاعضاء حتى يصير الحشيش عظما ولحما وشحما وما ذاك الا بحكمة الله تعالى حيث خلق الله فيه جاذبة وماسكة وهاضمة ودافعة وغيرها من القوى وبعض قدرة الله وارادته فهو الذي يرزقها وأما بالنظر

الى المرتزق والرزق فلأن الله لو لم يهد الحيوان الى الغذاء لم يعرفه ومن الشم ما كان يحصل له اغتذاء ألا ترى أن من الحيوان ما لا يعرف نوعا من أنواع الغذاء حتى يوضع في فمه بالشدة لذوق فيأكله بعد ذلك فان كثيرا ما يكون البعير لا يعرف الخبز ولا الشعير حتى يلقم مرتين أو ثلاثة فيعرفه فيأكله بعد ذلك فان قال قائل كيف يصح قياس الانسان على الحيوان فيما يوجب التوكل والحيوان رزقه لا يتعرض اليه اذا أكل منه اليوم شيأ وترك بقية يجدها غدا ما مدا اليه أحد يدا والانسان ان لم يأخذ اليوم لا يبقى له غدا شئ وأيضا حاجات الانسان كثيرة فانه يحتاج الى أجناس اللباس وأنواع الاطعمة ولا كذلك الحيوان وأيضا قوت الحيوان مهيأ وقوت الانسان يحتاج الى كلف كالزرع والحصاد والطحن والخبز فلو لم يجمعه قبل الحاجة ما كان يجده وقت الحاجة فنقول نحن لا نقول ان الجمع يقدح في التوكل بل قد يكون الزارع الحاصد متوكلا والراكع الساجد غير متوكل لان من يزرع يكون اعتماده على الله واعتقاده في الله انه ان كان يريد يرزقه من غير زرع وان كان يريد لا يرزق من ذلك الزرع فيعمل وقلبه مع الله فهو متوكل حق التوكل ومن يصلي وقلبه مع ما في يد زيد وعمرو فهو غير متوكل وأما قوله حاجات الانسان كثيرة فنقول مكاسبه كثيرة أيضا فانه يكتسب بيده كالخياط والنساج وبرجله كالساعي وغيرهم وبعينه كالناطور وبلسانه كالحادي والمنادي وبفهمه كالمهندس والتاجر وبعلمه كالطبيب والفقيه وبقوة جسمه كالعتال والحمال والحيوان لا مكاسب له فالرغيف الذي يحتاج اليه الانسان غدا أو بعد غد بعد أن لا يرزقه الله مع هذه المكاسب فهو أولى بالتوكل وأيضا الله تعالى خلق الانسان بحيث يأتيه الرزق وأسبابه فان الله ملك الانسان عمائر الدنيا وجعلها بحيث تدخل في ملكه شاء أم أبى حتى ان نتاج الانعام وثمار الاشجار تدخل في الملك وان لم يرده مالك النعم والشجر واذا مات قرن ينتقل ذلك الى قرن آخر فهو شاء أم أبى وليس كذلك حال الحيوان أصلا فان الحيوان ان لم يأت الرزق لا يأتيه رزقه فاذن الانسان لو توكل كان أقرب الى العقل من توكل الحيوان ثم قال وهو السميع العليم سميع اذا طلبتم الرزق يسمع ويجيب عليم ان سكتم لا يخفى عليه حاجتكم ومقدار حاجتكم ﴿ ثم قال تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾ نقول لما بين الله الامر للمشرك خاطبا معه ولم ينتفع به وأعرض عنه وخاطب المؤمن بقوله يا عبادي الذين آمنوا وأتم الكلام معه ذكر معه ما يكون ارشادا للمشرك بحيث يسمعه وهذا طريق في غاية الحسن فان السيد اذا كان له عبدان أو الوالد اذا كان له ولدان وأحدهما رشيد والآخر مفسد ينصح أولا المفسد فان لم يسمع يقول معرضا عنه ملتفتا الى الرشيد ان هذا لا يستحق الخطاب فاسمع أنت ولا تكن مثل هذا المفسد فيتضمن هذا الكلام نصيحة المصلح وزجر المفسد فان قوله هذا لا يستحق الخطاب يوجب نكاية في قلبه ثم اذا ذكر مع المصلح في أثناء الكلام والمفسد يسمعه ان هذا كذلك العجب منه أنه يعلم قبح فعله ويعرف الفساد من الصلاح وسبيل الرشاد والفلاح ويشتغل بضده يكون هذا الكلام أيضا داعيا له الى سبيل الرشاد مانعا له من ذلك الفساد فكذلك الله تعالى قال مع المؤمن العجب منهم انهم ان سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله ثم لا يؤمنون وفي الآية لطائف (احداها) ذكر في السموات والارض الخلق وفي الشمس والقمر التسخير وذلك لان مجرد خلق الشمس والقمر ليس حكمة فان الشمس لو كانت مخلوقة بحيث تكون في موضع واحد لا تتحرك ما حصل الليل والنهار ولا الصيف ولا الشتاء فاذا الحكمة في تحريكهما وتسخيرهما (الثانية) في لفظ التسخير وذلك لان التحريك يدل على مجرد الحركة وليس مجرد الحركة كافية لانهما لو كانت تتحرك مثل حركتنا لما كانت تقطع الفلك بألوف من السنين

من حيث عصيان الاولين مع تقلبهم في نعم الله تعالى وطاعة الآخرين مع مكابدتهم مشاق الفقر مثلا حال رجلين مقدرين أو محققين هما اخوان من بني اسرائيل أو شريكان كافر اسمه قطروس ومؤمن اسمه يهوذا اقتسما ثمانية آلاف دينار فاشترى الكافر بنصيبه ضياعا وعقارا وصرف المؤمن نصيبه الى وجوه المبار فآل أمرهما الى ما حكاه الله تعالى وقيل هما اخوان من بني مخزوم كافر هو الاسود بن عبد الاسد ومسلم هو أبو سلمة عبد الله بن عبد الاسد زوج أم سلمة رضي الله عنها أولا (جعلنا لاحدهما) وهو الكافر (جنتين) بستانين (من أعناب) من كروم متنوعة والجملة بتمامها بيان للتمثيل أو صفة لرجلين (وحففناهما بنخل) أي جعلنا النخل محيطة بهما مؤزرا بها كرومهما يقال حفه القوم اذا أطافوا به وحففته بهم جعلتهم حافين حوله فتزيده الباء مفعولا آخر كغشيته به (وجعلنا بينهما) وسطهما (زرعا) ليكون كل منهما جامعا للاقوات والفواكه متواصل العمارة على الهيئة الرائقة والوضع الانيق (كلتا الجنتين آتت أكلها) ثمرها وبلغت مبلغا صالحا للاكل وقرئ بسكون الكاف وقرئ كل الجنتين آتى أكله (ولم تظلم منه) لم تنقص من أكلها (شيأ) كما يعهد ذلك في سائر البساتين فان الثمار غالبا تكثر في عام وتقل في آخر وكذا بعض الاشجار يأتي بالثمر في بعض الاعوام دون بعض (وفجرنا خلالهما) فيما بين كل من الجنتين (نهرا) على حدة ليدوم شربهما ويزيد بهاؤهما وقرئ بالتخفيف ولعل تأخير ذكر تفجير النهر عن ذكر ايتاء الاكل مع ان الترتيب الخارجي على العكس للايذان باستقلال كل من ايتاء الاكل وتفجير النهر في تكميل محاسن الجنتين كما في قصة البقرة ونحوها ولو عكس لانفهم ان المجموع

نصلتا واحدة بعد واحدة مترتبة على بعض فإن إيتاء الأكل متفرع على السقي عادة وفيه إيماء إلى أن إيتاء الأكل لا يتوقف على السقي كقوله تعالى يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار (وكان له) لصاحب الجنتين (ثمر) أنواع من المال غير الجنتين من ثمر ماله إذا كثره قال ابن عباس رضي الله عنهما هو جميع المال من الذهب والفضة والحيوان وغير ذلك وقال مجاهد هو الذهب والفضة خاصة (فقال لصاحبه) المؤمن (وهو) أي القائل (يحاوره) أي صاحبه المؤمن وإن جاز العكس أي يراجعه في الكلام من حار إذا رجع (أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا) حشما وأعوانا أو أولادا ذكورا لأنهم الذين ينفرون معه (ودخل جنته) التي شرحت أحوالها وعددها وصفاتها وهيآتها وتوحيدها إما لعدم تعلق الغرض بتعددها وإما لاتصال إحداهما بالأخرى وإما لأن الدخول يكون في واحدة فواحدة (وهو ظالم لنفسه) ضار لها بعجبه وكفره (قال) استئناف مبني على سؤال نشأ من ذكر دخول جنته حال ظلمه لنفسه كأنه قيل فماذا قال إذ ذاك فقيل قال (ما أظن أن تبيد هذه) الجنة أي تفنى (أبدا) لطول أمله وتمادي غفلته واغتراره بمهلته ولعله إنما قاله بمقابلة موعظة صاحبه وتذكيره بفناء جنتيه ونهيه عن الاغترار بهما وأمره بتحصيل الباقيات الصالحات (وما أظن الساعة قائمة) كائنة فيما سيأتي (ولئن رددت) بالبعث عند قيامها كما تقول (إلى ربي لأجدن) يومئذ (خيرا منها) أي من هذه الجنة وقرئ منهما أي من الجنتين (منقلبا) مرجعا وعاقبة ومدار هذا الطمع واليمين الفاجرة اعتقاده أنه تعالى إنما أولاه ما أولاه في الدنيا لاستحقاقه الذاتي وكرامته عليه سبحانه ولم يدر أن ذلك استدراج (قال له صاحبه) استئناف كما سبق (وهو

فالحكمة في تسخيرهما تحركهما في قدر ما يتنفس الإنسان آلافا من الفراسخ ثم لم يجعل لهما حركة واحدة بل حركات إحداها حركتهما من المشرق إلى المغرب في كل يوم وليلة مرة والأخرى حركتهما من المغرب إلى المشرق والدليل عليه أن الهلال يرى في جانب الغرب على بعد مخصوص من الشمس ثم يبعد منه إلى جانب الشرق حتى يرى القمر في نصف الشهر في مقابلة الشمس والشمس على أفق المغرب والقمر على أفق المشرق وحركة أخرى حركة الأوج وحركة المائل والتدوير في القمر ولولا الحركة التي من المغرب إلى المشرق لما حصلت الفصول ثم اعلم أن أصحاب الهيئة قالوا الشمس في الفلك مركوزة والفلك يديرها بدورانه وأنكره المفسرون الظاهريون ونحن نقول لا بعد في ذلك إن لم يقولوا بالطبيعة فإن الله تعالى فاعل مختار إن أراد أن يحركهما في الفلك والفلك ساكن يجوز وإن أراد أن يحركهما بحركة الفلك وهما ساكنان يجوز ولم يرد فيه نص قاطع أو ظاهر وسنذكر تمام البحث في قوله تعالى وكل في فلك يسبحون (الثالثة) ذكر أمرين أحدهما خلق السموات والأرض والآخر تسخير الشمس والقمر لأن الإيجاد قد يكون للذوات وقد يكون للصفات فخلق السموات والأرض إشارة إلى إيجاد الذوات وتسخير الشمس والقمر إشارة إلى إيجاد الصفات وهي الحركة وغيرها فكأنه ذكر من القبيلين مثالين ثم قال تعالى فأنى يؤفكون يعني هم يعتقدون هذا فكيف يصرفون عن عبادة الله مع أن من علمت عظمته وجبت خدمته ولا عظمة فوق عظمة خالق السموات والأرض ولا حقارة فوق حقارة الجماد لأن الجماد دون الحيوان والحيوان دون الإنسان والإنسان دون سكان السموات والأرض فكيف يتركون عبادة أعظم الموجودات ويشتغلون بعبادات أخس الموجودات ﴿ ثم قال تعالى ﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده﴾ لما بين الخلق ذكر الرزق لأن كمال الخلق ببقائه وبقاء الإنسان بالرزق فقال المعبود إما أن يعبد لاستحقاقه العبادة وهذه الأصنام ليست كذلك والله مستحقها وإما لكونه على الشأن والله الذي خلق السموات على الشأن جلي البرهان فله العبادة وإما لكونه ولي الإحسان والله يرزق الخلق فله الطول والإحسان والفضل والامتنان فله العبادة من هذا الوجه أيضا وقوله لمن يشاء إشارة إلى كمال الإحسان وذلك لأن الملك إذا أمر الخازن بإعطاء شخص شيئا فإذا أعطاه يكون له منة يسيرة حقيرة لأن الآخذ يقول هذا ليس بإرادته وإنما هو بأمر الملك وأما إن كان مختارا بأن يقال له الملك إن شئت فأعطه وإن شئت فلا تعطه فإن أعطاه يكون له منة جليلة لا قليلة فقال الله تعالى الرزق منه وبمشيئته فهو إحسان تام يستوجب شكرا تاما ﴿ قوله تعالى ﴿ويقدر له﴾ أي يضيق له إن أراد ﴿ ثم قال تعالى ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ أي يعلم مقادير الحاجات ومقادير الأرزاق وفي إثبات العلم ههنا لطائف (إحداها) أن الرازق الذي هو كامل المشيئة إذا رأى عبده محتاجا وعلم جوعه لا يؤخر عنه الرزق ولا يؤخر الرازق الرزق إلا لنقصان في نفوذ مشيئته كالملك إذا رأى الإطعام والطعام لا يكون بعد قد استوى أو لعدم علمه بجوع العبد (الثانية) وهي أن الله بإثبات العلم استوعب ذكر الصفات التي هي صفات الإله ومن أنكرها كفر وهي أربعة الحياة والقدرة والإرادة والعلم وأما السمع والبصر والكلام القائم به فمن ينكرها يكون مبتدعا لا كافرا وقد استوفى الأربع لأن قوله خلق السموات والأرض إشارة إلى كمال القدرة وقوله يبسط الرزق لمن يشاء إشارة إلى نفوذ مشيئته وإرادته وقوله إن الله بكل شيء عليم إشارة إلى شمول علمه والقادر المريد العالم لا يتصور إلا حيا ﴿ ثم إنه تعالى لما قال الله يبسط الرزق ذكر اعترافهم بذلك فقال ﴿ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله﴾ يعني هذا سبب الرزق وموجد السبب موجد المسبب فالرزق من الله ﴿ ثم قال تعالى ﴿قل الحمد لله﴾ وهو

يحتمل

يحاوره) جملة حالية كما مر فائدتها التنبيه من أول الامر على أن ما يتلوه كلام معتنى بشأنه مسوق للمحاورة (أكفرت) حيث قلت ما أظن الساعة قائمة (بالذي خلقك) في ضمن خلق أصلك (من تراب) فان خلق آدم عليه السلام منه متضمن لخلقه منه لما أن خلق كل فرد من افراد البشر له حظ من خلقه عليه السلام اذ لم تكن فطرته الشريفة مقصورة على نفسه بل كانت أنموذجا منطويا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه السلام من التراب خلقا للكل منه وقيل خلقك منه لانه أصل مادتك اذ به يحصل الغذاء الذي منه تحصل النطفة فتدبر (ثم من نطفة) هي مادتك القريبة فالمخلوق واحد والمبدأ متعدد (ثم سواك رجلا) أي عدلك وكملك انسانا ذكرا أو صيرك رجلا والتعبير عنه تعالى بالموصول للاشعار بعلية ما في حيز الصلة لانكار الكفر والتلويح بدليل البعث الذي نطق به قوله عز من قائل يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب الخ (لكنا هو الله ربي) أصله لكن أنا وقد قرئ كذلك فحذفت الهمزة فتلاقت النونان فكان الادغام وهو ضمير الشأن وهو مبتدأ خبره الله ربي وتلك الجملة خبر أنا والعائد منها اليه الضمير وقرئ باثبات الف أنا في الوصل والوقف جميعا وفي الوقف خاصة وقرئ لكنه بالهاء ولكن بطرح أنا ولكن أنا لا اله الا هو ربي ومدار الاستدراك قوله تعالى أكفرت كأنه قال أنت كافر لكني مؤمن موحد (ولا أشرك بربي أحدا) فيه ايذان بأن كفره كان بطريق الاشراك (ولولا اذ دخلت جنتك قلت) أي هلا قلت عند دخولها وتقديم الظرف على المحضض عليه للايذان بتحتم القول في آن الدخول من غير ريث لا للقصر (ما شاء الله) أي الامر ما شاء الله أو ما شاء الله كائن على أن

يحتمل وجوها (أحدها) أن يكون كلاما معترضا في أثناء كلام كأنه قال فأحيا به الارض من بعد موتها {بل أكثرهم لا يعقلون} فذكر في أثناء هذا الكلام الحمد لله لذكر النعمة كما قال القائل

ان الثمانين وبلغتها ❊ قد أحوجت سمعي الى ترجمان

(الثاني) أن يكون المراد منه كلاما متصلا وهو أنهم يعترفون بأن ذلك من الله ويعترفون ولا يعملون بما يعلمون وأنت تعلم وتعمل فكذلك المؤمنون بك فقل الحمد لله وأكثرهم لا يعقلون أن الحمد كله لله فيحمدون غير الله على نعمة هي من الله (الثالث) أن يكون المراد أنهم يقولون انه من الله ويقولون بالهة غير الله فظهر تناقض كلامهم وتهافت مذهبهم فقل الحمد لله على ظهور تناقضهم وأكثرهم لا يعقلون هذا التناقض أو فساد هذا التناقض ❊ ثم قال تعالى {وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون} لما بين أنهم يعترفون بكون الله هو الخالق وكونه هو الرزاق وهم يتركون عبادته ولا يتركونها الا لزينة الحياة الدنيا بين أن ما يميلون اليه ليس بشئ بقوله وما هذه الحياة الدنيا الا لهو وفي الآية مسائل {المسئلة الاولى} ما الفرق بين اللهو واللعب حتى يصح عطف أحدهما على الآخر فنقول الفرق من وجهين (أحدهما) ان كل شغل يفرض فان المكلف اذا أقبل عليه لزمه الاعراض عن غيره ومن لا يشغله شأن عن شأن هو الله تعالى فالذي يقبل على الباطل للذة يسيرة زائلة فيه يلزمه الاعراض عن الحق فالاقبال على الباطل لعب والاعراض عن الحق لهو فالدنيا لعب أي اقبال على الباطل ولهو أي اعراض عن الحق (الثاني) هو أن المشتغل بشئ يرجح ذلك الشئ على غيره لا محالة حتى يشتغل به فاما أن يكون ذلك الترجيح على وجه التقديم بأن يقول أقدم هذا وذلك الآخر آتي به بعده أو يكون على وجه الاستغراق فيه والاعراض عن غيره بالكلية فالاول لعب والثاني لهو والدليل عليه هو أن الشطرنج والحمام وغيرهما مما يقرب منهما لا تسمى آلات الملاهي في العرف والعود وغيره من الاوتار تسمى آلات الملاهي لانها تلهي الانسان عن غيرها لما فيها من اللذة الحالية فالدنيا للبعض لعب يشتغل به ويقول بعد هذا الشغل أشتغل بالعبادة والآخرة وللبعض لهو يشتغل به وينسى الآخرة بالكلية (المسئلة الثانية) قال الله تعالى في سورة الانعام وما الحياة الدنيا ولم يقل وما هذه الحياة وقال ههنا وما هذه فنقول لان المذكور من قبل ههنا أمر الدنيا حيث قال تعالى فأحيا به الارض من بعد موتها فقال هذه والمذكور قبلها هنالك الآخرة حيث قال يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم فلم تكن الدنيا في ذلك الوقت في خاطرهم فقال وما الحياة الدنيا {المسئلة الثالثة} قال هنالك الا لعب ولهو وقال ههنا الا لهو ولعب فنقول لما كان المذكور هنالك من قبل الآخرة واظهارهم للحسرة ففي ذلك الوقت يبعد الاستغراق في الدنيا بل نفس الاشتغال بها فأخر الابعد وأما ههنا لما كان المذكور من قبل الدنيا وهي خداعة تدعو النفوس الى الاقبال عليها والاستغراق فيها اللهم الا لمانع يمنعه من الاستغراق فيشتغل بها من غير استغراق فيها والعاصم بعصمه فلا يشتغل بها أصلا فكان ههنا الاستغراق أقرب من عدمه فقدم اللهو {المسئلة الرابعة} قال هنالك وللدار الآخرة خير وقال ههنا وان الدار الآخرة لهي الحيوان فنقول لما كان الحال هنالك حال اظهار الحسرة ما كان المكلف يحتاج الى رادع قوي فقال الآخرة خير ولما كان ههنا الحال حال الاشتغال بالدنيا احتاج الى رادع قوي فقال لا حياة الا حياة الآخرة وهذا كما أن العاقل اذا عرض عليه شيآن فقال في أحدهما هذا خير من ذلك يكون هذا ترجيحا فحسب ولو قال هذا جيد وهذا الآخر ليس بشئ يكون ترجيحا مع المبالغة فكذلك ههنا بالغ لكون المكلف متوغلا فيها {المسئلة الخامسة} قال

هنالك خير للذين يتقون ولم يقل ههنا الا لمن الحيوان لان الآخرة خير للمتقى فحسب أى المتقى عن الشرك وأما الكافر فالدنيا جنته فهي خير له من الآخرة وأما كون الآخرة باقية فيها الحياة الدائمة فلا يختص بقوم دون قوم ﴿المسئلة السادسة﴾ كيف أطلق الحيوان على الدار الآخرة مع أن الحيوان نام مدرك فنقول الحيوان مصدر حي كالحياة لكن فيها مبالغة ليست في الحياة والمراد بالدار الآخرة هي الحياة الثانية فكأنه قال الحياة الثانية هي الحياة المعتبرة أو نقول لما كانت الآخرة فيها الزيادة والنمو كما قال تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة وكانت هي محل الادراك التام الحق كما قال تعالى يوم تبلى السرائر أطلق عليها الاسم المستعمل في النامي المدرك ﴿المسئلة السابعة﴾ قال في سورة الانعام أفلا تعقلون وقال ههنا لو كانوا يعلمون وذلك لان المثبت هنالك كون الآخرة خيرا وانه ظاهر لا يتوقف الا على العقل والمثبت ههنا ان لا حياة الا حياة الآخرة وهذا دقيق لا يعرف الا بعلم نافع ﴿ ثم قال تعالى ﴿فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون﴾ اشارة الى أن المانع من التوحيد هو الحياة الدنيا وبيان ذلك هو انهم اذا انقطع رجاؤهم عن الدنيا رجعوا الى الفطرة الشاهدة بالتوحيد ووحدوا وأخلصوا فاذا أنجاهم وأرجاهم عادوا الى ما كانوا عليه من حب الدنيا وأشركوا ﴿ ثم قال تعالى ﴿ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون﴾ وفيه وجهان (أحدهما) أن اللام لام كي أى يشركون ليكون اشراكهم كفرا بنعمة الانجاء وليتمتعوا بسبب الشرك فسوف يعلمون وبال عملهم حين زوال أملهم (والثاني) أن تكون اللام لام الامر ويكون المعنى ليكفروا على التهديد كما قال تعالى اعملوا ما شئتم وكما قال اعملوا على مكانتكم انى عامل فسوف تعلمون فساد ما تعملون ﴿ ثم قال تعالى ﴿أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾ التفسير ظاهر وانما الدقيق وجه تعلق الآية بما قبلها فنقول الانسان في البحر يكون على أخوف ما يكون وفي بيته يكون على آمن ما يكون لا سيما اذا كان بيته في بلد حصين فلما ذكر الله المشركين حالهم عند الخوف الشديد ورأوا أنفسهم في تلك الحالة راجعة الى الله تعالى ذكرهم حالهم عند الامن العظيم وهي كونهم في مكة فانها مدينتهم وبلدهم وفيها سكناهم ومولدهم وهي حصن حصين بحصن الله حيث كل من حولها يمتنع من قتال من حصل فيها والحصول فيها يدفع الشرور عن النفوس ويكفيها يعني انكم في أخوف ما كنتم دعوتم الله وفي آمن ما حصلتم عليه كفرتم بالله وهذا متناقض لان دعاءكم في ذلك الوقت على سبيل الاخلاص ما كان الا لقطعكم بأن النعمة من الله لا غير فهذه النعمة العظيمة التي حصلت وقد اعترفتم بأنها لا تكون الا من الله كيف تكفرون بها والاصنام التي قطعتم في حال الخوف أن لا أمن منها كيف آمنتم بها في حال الامن ﴿ ثم قال تعالى ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾ لما بين الله الامور على الوجه المذكور ولم يؤمن به أحد بين أنهم أظلم من يكون لان الظلم على ما بين وضع الشيء في غير موضعه فاذا وضع واحد شيأ في موضع ليس هو موضعه يكون ظالما فاذا وضعه في موضع لا يمكن أن يكون ذلك موضعه يكون أظلم لان عدم الامكان أقوى من عدم الحصول لان كل ما لا يمكن لا يحصل وليس كل ما لا يحصل لا يمكن فالله تعالى لا يمكن أن يكون له شريك وجعلوا له شريكا فلو كان ذلك في حق ملك مستقل في الملك لكان ظلما يستحق من الملك العقاب الاليم فكيف اذا جعل الشريك لمن لا يمكن أن يكون له شريك وأيضا من كذب صادقا يجوز عليه الكذب يكون ظالما فمن يكذب صادقا لا يجوز عليه الكذب كيف يكون حاله فاذا ليس أظلم ممن يكذب على الله بالشرك ويكذب الله في تصديق نبيه والنبي

ما موصولة مرفوعة المحل أو أي شيء شاء الله كان على انها شرطية منصوبة والجواب محذوف والمراد تحضيضه على الاعتراف بانها وما فيها بمشيئة الله تعالى ان شاء أبقاها وان شاء أفناها (لا قوة الا بالله) أى هلا قلت ذلك اعترافا بعجزك وبأن ما تيسر لك من عمارتها وتدبير أمرها انما هو بمعونته تعالى واقداره عن النبي صلى الله عليه وسلم من رأى شيأ فأعجبه فقال ما شاء الله لا قوة الا بالله لم يضره (ان ترن أنا أقل منك مالا وولدا) أنا اما مؤكد لياء المتكلم أو ضمير فصل بين مفعولي الرؤية ان جعلت علمية وأقل ثانيهما وحال ان جعلت بصرية فيكون أنا حينئذ تأكيدا لا غير لان شرط كونه ضمير فصل توسطه بين المبتدا والخبر أو ما أصله المبتدا والخبر وقرئ أقل بالرفع خبرا لانا والجملة مفعول ثان للرؤية أو حال وفي قوله تعالى وولدا نصرة لمن فسر النفر بالولد (فعسى ربي أن يؤتيني خيرا من جنتك) هو جواب الشرط والمعنى ان ترن أفقر منك فانا أتوقع من صنع الله سبحانه أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى فيرزقني لايماني جنة خيرا من جنتك ويسلبك لكفرك نعمته ويخرب جنتك (ويرسل عليها حسبانا) هو مصدر بمعنى الحساب كالبطلان والغفران أى مقدارا قدره الله تعالى وحسبه وهو الحكم بتخريبها وقيل عذاب حسبان وهو حساب ما كسبت يداه وقيل مرامي جمع حسبانة وهي الصواعق ومساعدة النظم الكريم فيما سيأتي للاولين أكثر (من السماء فتصبح صعيدا زلقا) مصدر أريد به المفعول مبالغة أى أرضا ملساء يزلق عليها لاستئصال ما عليها من البناء والشجر والنبات (أو يصبح) عطف على قوله تعالى فتصبح وعلى الوجه الثالث على يرسل (ماؤها غورا) أى غائرا في الارض أطلق عليه المصدر مبالغة (فلن تستطيع له) أبدا (له) أى للماء الغائر

في رسالة ربه والقرآن المنزل من الله الى الرسول والعجب من المشركين انهم قبلوا المتخذ من خشب منحوت بالالهية ولم يقبلوا ذا حسب منعوت مبعوث بالرسالة والآية تحتمل وجها آخر وهو ان الله تعالى لما بين التوحيد والرسالة والحشر وقررها ووعظ وزجر قال لنبيه ليقول للناس ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أى انى جئت بالرسالة وقلت انها من الله وهذا كلام الله وأنتم كذبتمونى فالحال دائر بين أمرين اما انا مفتر متنبئ ان كان هذا من عند غير الله أو أنتم مكذبون بالحق ان كان من عنده لكنى معترف بالعذاب الدائم عارف به فلا أقدم على الافتراء لان جهنم مثوى للكافرين والمتنبئ كافر وأنتم كذبتمونى فجهنم مثواكم اذهى مثوى للكافرين وهذا حينئذ يكون كقوله تعالى وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴿ ثم قال تعالى ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين﴾ لما فرغ من التقرير والتقريع ولم يؤمن الكفار سلى قلوب المؤمنين بقوله والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا أى من جاهد بالطاعة هديناه سبل الجنة وان الله لمع المحسنين اشارة الى ما قال للذين أحسنوا الحسنى وزيادة فقوله لنهدينهم اشارة الى الحسنى وقوله وان الله لمع المحسنين اشارة الى المعية والقربة التى تكون للمحسن زيادة على حسناته وفيه وجه آخر حكمى وهو أن يكون المعنى والذين جاهدوا فينا أى الذين نظروا فى دلائلنا لنهدينهم سبلنا أى لنحصل فيهم العلم بنا ولنبين هذا فنقول بيان فنقول أصحابنا المتكلمون قالوا ان النظر كالشرط للعلم الاستدلالى والله يخلق فى الناظر علما عقيب نظره ووافقهم الفلاسفة على ذلك فى المعنى وقالوا النظر معد للنفس لقبول الصورة المعقولة واذا استعدت النفس حصل لها العلم من فيض واهب الصور الجسمانية والعقلية وعلى هذا يكون الترتيب حسنا أيضا وذلك لان الله تعالى لما ذكر الدلائل ولم تفدهم العلم والايمان قال انهم لم ينظروا فلم يهتدوا وانما هو هدى للمتقين الذين يتقون التعصب والعناد فينظرون فيهديهم وقوله وان الله لمع المحسنين اشارة الى درجة أعلى من الاستدلال كأنه تعالى قال من الناس من يكون بعيدا لا يتقرب وهم الكفار ومنهم من يتقرب بالنظر والسلوك فيهديهم ويقربهم ومنهم من يكون الله معه ويكون قريبا منه يعلم الاشياء منه ولا يعلمه من الاشياء ومن يكون مع الشئ كيف يطلبه فقوله ومن أظلم اشارة الى الاول وقوله والذين جاهدوا فينا اشارة الى الثانى وقوله وان الله لمع المحسنين اشارة الى الثالث والله أعلم بأسرار كتابه والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد النبى وآله وصحبه أجمعين

﴿سورة الروم ستون آية مكية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين﴾ وجه تعلق أول هذه السورة بما قبلها يتبين من سبب النزول فنقول لما قال الله تعالى فى السورة المتقدمة ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن وكان يجادل المشركين بنسبتهم الى عدم العقل كما فى قوله صم بكم عمى فهم لا يعقلون وكان أهل الكتاب يوافقون النبى فى الاله كما قال والهنا والهكم واحد وكانوا يؤمنون بكثير مما يقوله بل كثير منهم كانوا مؤمنين به كما قال والذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به أبغض المشركون أهل الكتاب وتركوا مراجعتهم وكانوا من قبل يراجعونهم فى الامور فلما وقعت الكرة عليهم حين قاتلهم الفرس المجوس فرح المشركون بذلك فأنزل الله تعالى هذه الآيات لبيان أن الغلبة لا تدل على الحق بل الله تعالى قد يريد مزيد ثواب فى المحب فيبتليه ويسلط عليه الاعادى وقد يختار تعجيل العذاب الادنى دون العذاب الاكبر قبل

(طلبا) فضلا عن وجدانه ورده (وأحيط بثمره) أهلك أمواله المعهودة من جنتيه وما فيهما واصله من احاطة العدو وهو عطف على مقدر كأنه قيل فوقع بعض ما توقع من المحذور وأهلك أمواله وانما حذف لدلالة السباق والسياق عليه كما فى المعطوف عليه بالفاء الفصيحة (فأصبح يقلب كفيه) ظهرا لبطن وهو كناية عن الندم كأنه قيل فأصبح يندم (على ما أنفق فيها) أى فى عمارتها من المال ولعل تخصيص الندم به دون ما هلك الآن من الجنة لما انه انما يكون على الافعال الاختيارية ولان ما أنفق فى عمارتها كان مما يمكن صيانته عن طوارق الحدثان وقد صرفه الى مصالحها رجاء أن يتمتع بها أكثر مما يتمتع به وكان يرى انه لا تنالها أيدى الردى ولذلك قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا فلما ظهر له انها مما يعتريه الهلاك ندم على ما صنع بناء على الزعم الفاسد من انفاق ما يمكن ادخاره فى مثل هذا الشئ السريع الزوال (وهى) أى الجنة من الاعناب المحفوفة بنخل (خاوية) ساقطة (على عروشها) أى دعائمها المصنوعة للكروم لسقوطها قبل سقوطها وتخصيص حالها بالذكر دون النخل والزرع اما لانها العمدة وهما من متمماتها واما لان ذكر هلاكها مغن عن ذكر هلاك الباقى لانها حيث هلكت وهى مشيدة بعروشها فهلاك ما عداها بالطريق الاولى واما لان الانفاق فى عمارتها أكثر وقيل أرسل الله تعالى عليها نارا فأحرقتها وغار ماؤها (ويقول) عطف على يقلب أو حال من ضميره أى وهو يقول (يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا) كأنه تذكر موعظة أخيه وعلم أنه انما أتى من قبل شركه فتمنى لو لم يكن مشركا فلم يصبه ما أصابه قيل ويحتمل أن يكون ذلك توبة من الشرك وندما على ما فرط منه (ولم تكن له) وقرئ بالياء التحتانية

(فهم ينصرونه) يقدرون على نصره بدفع الاهلاك أو على رد المهلك أو الاتيان بمثله وجمع الضمير باعتبار المعنى كما في قوله عز وعلا يرونهم
مثليهم (من دون الله) فانه القادر على ذلك وحده (وما كان) في نفسه (منتصرا) ممتنعا بقوته عن انتقامه سبحانه (هنالك) في ذلك
المقام وفي تلك الحال (الولاية لله الحق) أي النصرة له وحده لا يقدر عليها أحد فهو تقرير لما قبله أو ينصر فيها أولياءه
المؤمنين على الكفرة كما
نصر بما فعل بالكافر
أخاه المؤمن ويعضده
قوله تعالى (هو خير ثوابا
وخير عقبا) أي لاوليائه
وقرئ الولاية بكسر الواو
ومعناها الملك والسلطان
أي هنالك السلطان له
عز وجل لا يغلب ولا
يمتنع منه أو لا يعبد غيره
كقوله تعالى واذا ركبوا
في الفلك دعوا الله مخلصين
له الدين فيكون تنبيها
على أن قوله يا ليتني لم
أشرك الخ كان عن
اضطرار وجزع عما
دهاه على أسلوب قوله
تعالى آلآن وقد عصيت
قبل وكنت من
المفسدين وقيل هنالك
اشارة الى الآخرة
كقوله تعالى لمن الملك
اليوم لله الواحد القهار
وقرئ برفع الحق على انه
صفة للولاية وبنصبه
على انه مصدر مؤكد
وقرئ عقبا بضم القاف
وعقبى كرجعى والكل
بمعنى العاقبة (واضرب
لهم مثل الحيوة الدنيا)
أي واذكر لهم ما يشبهها
في زهرتها ونضارتها
وسرعة زوالها لئلا
يطمئنوا بها ولا يعكفوا
عليها ولا يضربوا عن الآخرة صفحا بالمرة أو بين لهم صفتها العجيبة التي هي في الغرابة كالمثل (كماء)
استئناف لبيان المثل أي هي كماء (أنزلناه من السماء) ويجوز كونه مفعولا ثانيا لاضرب على انه بمعنى صير (فاختلط به) اشتبك بسببه نبات
(الارض) فالتف وخالط بعضه بعضا من كثرته وتكاثفه أو نجع الماء في النبات حتى روي ورف فيقتضي الظاهر حينئذ فاختلط بنبات

يوم المعاد للمعادي وفي الآية مسائل ﴿الاولى﴾ ما الحكمة في افتتاح هذه السورة بحروف التهجي
فنقول قد سبق منا أن كل سورة افتتحت بحروف التهجي فان في أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن
كما في قوله تعالى الم ذلك الكتاب المص كتاب طه ما أنزلنا عليك القرآن الم تنزيل الكتاب حم
تنزيل من الرحمن الرحيم يس والقرآن ص والقرآن الا هذه السورة وسورتين أخريين ذكرناهما
في العنكبوت وقد ذكرنا الحكمة فيهما في موضعهما فنقول ما يتعلق بهذه السور وهو أن السورة التي
في أوائلها التنزيل والكتاب والقرآن في أوائلها ذكر ما هو معجزة فقدمت عليها الحروف على ما تقدم
بيانه في العنكبوت وهذه ذكر في أولها ما هو معجزة وهو الاخبار عن الغيب فقدمت الحروف التي لا يعلم
معناها لينتبه السامع فيقبل بقلبه على الاستماع ثم ترد عليه المعجزة وتقرع الاسماع ﴿المسئلة الثانية﴾
قوله تعالى في أدنى الارض أي أرض العرب لان الالف واللام للتعريف والمعهود عندهم أرضهم وقوله
تعالى وهم من بعد غلبهم أية فائدة في ذكره مع أن قوله سيغلبون بعد قوله غلبت الروم لا يكون الا من بعد
الغلبة فنقول الفائدة فيه اظهار القدرة وبيان أن ذلك بأمر الله لان من غلب بعد غلبه لا يكون الا ضعيفا
فلو كان غلبتهم لشوكتهم لكان الواجب أن يغلبوا قبل غلبهم فاذا غلبوا بعدما غلبوا دل على أن ذلك بأمر
الله فذكر من بعد غلبهم ليتفكروا في ضعفهم ويتذكروا انه ليس بزحفهم وانما ذلك بأمر الله تعالى وقوله
في أدنى الارض لبيان شدة ضعفهم أي انتهى ضعفهم الى أن وصل عدوهم الى طريق الحجاز وكسروهم
وهم في بلادهم ثم غلبوا حتى وصلوا الى المدائن وبنوا هنالك الرومية لبيان أن هذه الغلبة العظيمة بعد ذلك
الضعف العظيم باذن الله ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال تعالى في بضع سنين قيل هي ما بين الثلاثة والعشرة أبهم
الوقت مع أن المعجزة في تعيين الوقت أتم فنقول السنة والشهر واليوم والساعة كلها معلومة عند الله تعالى
وبينها النبي وما أذن له في اظهارها لان الكفار كانوا معاندين والامور التي تقع في البلاد النائية تكون
معلومة الوقوع بحيث لا يمكن انكارها لكن وقتها يمكن الاختلاف فيه فالمعاند كان يتمكن من أن يرجف
بوقوع الواقعة قبل الوقوع ليحصل الخلف في كلامه ولما وردت الآية ذكر أبو بكر رضي الله عنه أن
الروم ستغلب وأنكره أبي بن خلف وغيره وناحبوا أبا بكر أي خاطروه على عشر قلائص الى ثلاث سنين
فقال عليه الصلاة والسلام لابي بكر البضع ما بين الثلاثة والعشرة فزايده في الابل ومادة في الاجل فجعلا
القلائص مائة والاجل سبعا وهذا يدل على علم النبي عليه الصلاة والسلام بوقت الغلبة ﴿ ثم قال تعالى ﴿لله
الامر من قبل ومن بعد﴾ أي من قبل الغلبة ومن بعدها أو من قبل هذه المدة ومن بعدها يعني ان أراد غلبهم
غلبهم قبل بضع سنين وان أراد غلبهم غلبهم بعدها وما قدر هذه المدة لعجز وانما هي ارادة نافذة وبناء على
الضم لما قطعا عن الاضافة لان غير الضمة من الفتحة والكسرة يشتبه بما يدخل عليهما وهو النصب والجر
اما النصب ففي قولك جئت قبله أو بعده وأما الجر ففي قولك من قبله ومن بعده فبنيا على الضم لعدم
دخول مثلهما عليه في الاعراب وهو الرفع ﴿ ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون﴾ قيل يفرحون بغلبة الروم على
الفرس كما فرح المشركون بغلبة الفرس على الروم والاصح انهم يفرحون بغلبتهم المشركين وذلك لان غلبة
الروم كانت يوم غلبة المسلمين المشركين ببدر ولو كان المراد ما ذكروه لما صح لان في ذلك اليوم بعينه لم يصل
اليهم خبر الكسر فلا يكون فرحهم يومئذ بل الفرح يحصل بعده ﴿ ثم قال تعالى ﴿بنصر الله ينصر من يشاء﴾
قدم المصدر على الفعل حيث قال بنصر الله ينصر وقدم الفعل على المصدر في قوله وأيدك بنصره وذلك لان
المقصود هنا بيان أن النصرة بيد الله ان أراد نصر وان لم يرد لا ينصر وليس المقصود النصرة ووقوعها
والمقصود هنالك اظهار النعمة عليه بأنه نصره فالمقصود هنالك الفعل ووقوعه فقدم هنالك الفعل ثم بين ان

ذلك الفعل مصدره عند الله والمقصود ههنا كون المصدر عند الله ان أراد فعل فقدم المصدر ﴿ ثم قال تعالى
تعالى ﴿وهو العزيز الرحيم﴾ ذكر من أسمائه هذين الاسمين لانه ان لم ينصر المحب بل سلط العدو عليه
فذلك لعزته وعدم افتقاره وان نصر المحب فذلك لرحمته عليه أو نقول ان نصر الله المحب فلعزته واستغنائه
عن العدو ورحمته على المحب وان لم ينصر المحب فلعزته واستغنائه عن المحب ورحمته في الآخرة واصلة اليه
﴿ ثم قال تعالى ﴿وعد الله لا يخلف الله وعده﴾ يعني سيغلبون وعدهم الله وعدا ووعد الله لا خلف فيه ﴿ قوله
تعالى ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي لا يعلمون وعده وانه لا خلف في وعده ﴿ ثم قال تعالى ﴿يعلمون
ظاهرا من الحياة الدنيا﴾ يعني علمهم منحصر في الدنيا وأيضا لا يعلمون الدنيا كما هي وانما يعلمون ظاهرها
وهي ملاذها وملاعبها ولا يعلمون باطنها وهي مضارها ومتاعبها ويعلمون وجودها الظاهر ولا يعلمون فناءها
﴿وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ والمعنى هم عن الآخرة غافلون وذكرت هم الثانية لتفيد أن الغفلة منهم
والا فأسباب التذكر حاصلة وهذا كما يقول القائل لغيره غفلت عن أمري فاذا قال شغلني فلان فيقول
ما شغلك ولكن أنت اشتغلت ﴿ ثم قال تعالى ﴿أولم يتفكروا في أنفسهم﴾ لما صدر من الكفار الانكار
بالله عند انكار وعد الله وعدم الخلف فيه كما قال تعالى ولكن أكثر الناس لا يعلمون والانكار بالحشر كما قال
تعالى وهم عن الآخرة هم غافلون بين أن الغفلة وعدم العلم منهم بتقدير الله والا فأسباب التذكر حاصلة
وهو أنفسهم لو تفكروا فيها لعلموا وحدانية الله وصدقوا بالحشر أما الوحدانية فلان الله خلقهم على أحسن
تقويم ولنذكر من حسن خلقهم جزأ من ألف ألف جزء وهو ان الله تعالى خلق للانسان معدة فيها يهضم
غذاؤه ليقوى به أعضاؤه ولها منفذان أحدهما لدخول الطعام فيه والآخر لخروج الطعام منه فاذا دخل
الطعام فيها انطبق المنفذ الآخر بعضه على بعض بحيث لا يخرج منه ذرة ولا بالرشح وتمسكه الماسكة الى
أن ينضج نضجا صالحا فيخرج من المنفذ الآخر وخلق تحت المعدة عرقا قاطعا كالمصفاة التي يصفى
بها الشيء فينزل منها الصافي الى الكبد وينصب الثفل الى معى مخلوق تحت المعدة مستقيم متوجها الى
الخروج وما يدخل في الكبد من العروق المذكورة يسمى الماساريقا بالعبرية والعبرية عربية مفسودة
في الأكثر يقال لوى ميشا ولالاليل الى غير ذلك فالماساريقا معناها ماساريق اشتمل عليها الكبد
وانضجه نضجا آخر ويكون مع الغذاء المتوجه من المعدة الى الكبد فضل ماء مشروب ليرق وينسرب
في العروق الدقاق المذكورة وفي الكبد يستغنى عن ذلك الماء فيتميز عنه ذلك الماء وينصب من جانب
حدبة الكبد الى الكلية ومعه دم يسير تتغذى به الكلية وغيرها ويخرج الدم الخالص من الكبد في عرق
كبير ثم يتشعب ذلك النهر الى جداول والجداول الى سواق والسواقي الى رواضع ويصل فيها الى جميع
البدن فهذه حكمة واحدة في خلق الانسان وهذه كفاية في معرفة كون الله فاعلا مختارا قادرا كاملا عالما
شاملا علمه ومن يكون كذلك يكون واحدا والا لكان عاجزا عند ارادة شريكه ضد ما أراده وأما دلالة
الانسان على الحشر فذلك لانه اذا تفكر في نفسه يرى قواه صائرة الى الزوال وأجزاءه مائلة الى الانحلال
فله فناء ضروري فلو لم يكن له حياة أخرى لكان خلقه على هذا الوجه للفناء عبثا واليه أشار بقوله أفحسبتم
أنما خلقناكم عبثا وهذا ظاهر لان من يفعل شيئا للعبث فلو بالغ في احكامه واتقانه يضحك منه فاذا خلقه
للبقاء ولا بقاء دون اللقاء فالآخرة لا بد منها ﴿ ثم انه تعالى ذكر بعد دليل الانفس دليل الآفاق فقال
﴿ما خلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى﴾ فقوله الا بالحق اشارة الى وجه دلالتها
على الوحدانية وقد بينا ذلك في قوله خلق الله السموات والارض بالحق ان في ذلك لآية للمؤمنين ونعيده

الارض وايثار ما عليه النظم الكريم عليه للمبالغة في الكثرة فان كلا من المختلطين موصوف بصفة صاحبه (فاصبح) ذلك النبات الملتف
اثر بهجته ورفيفها (هشيما) مهشوما مكسورا (تذروه الرياح) تفرقه وقرئ تذريه من أذراه وتذروه الريح وليس المشبه به نفس
الماء بل هو الهيئة المنتزعة من الجملة وهي حال النبات المنبت بالماء يكون أخضر وارفا ثم هشيما تطيره الرياح كان لم يغن
بالامس (وكان الله على كل شيء) من الاشياء التي من جملتها الانشاء والافناء (مقتدرا) قادرا على الكمال (المال والبنون زينة الحيوة الدنيا) بيان لشأن ما كانوا يفتخرون به من محسنات الحياة الدنيا كما قال الاخ الكافر أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا اثر بيان شأن نفسها بما مر من المثل وتقديم المال على البنين مع كونهم أعز منه كما في الآية المحكية آنفا وقوله تعالى وأمددناكم بأموال وبنين وغير ذلك من الآيات الكريمة لعراقته فيما نيط به من الزينة والامداد وغير ذلك وعمومه بالنسبة الى الافراد والاوقات فانه زينة وممد لكل أحد من الآباء والبنين في كل وقت وحين وأما البنون فزينتهم وامدادهم انما يكون بالنسبة الى من بلغ مبلغ الابوة ولان المال مناط لبقاء النفس والبنين لبقاء النوع ولان الحاجة اليه أمس
من الحاجة اليهم ولانه أقدم منهم في الوجود ولانه زينة بدونهم من غير عكس فان من له بنون بلا مال فهو في ضيق حال
ونكال وافراد الزينة مع انها مسندة الى الاثنين لما أنها مصدر في الاصل أطلق على المفعول مبالغة كأنها نفس الزينة والمعنى أن
ما يفتخرون به من المال والبنين شيء يتزين به في الحياة الدنيا وقد علم شأنها في سرعة الزوال وقرب الاضمحلال فكيف بما هو من

أوصافها التي شأنها أن تزول قبل زوالها (والباقيات الصالحات) هي أعمال الخير وقيل هي الصلوات الخمس وقيل سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وقيل كل ما أريد به وجه الله تعالى وعلى كل تقدير يدخل فيه أعمال فقراء المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه دخولا أوليا أما صلاحها فظاهر وأما بقاؤها فبقاء عوائدها عند فناء كل ما تطمح اليه النفس من حظوظ الدنيا (خير) أي مما نعت شأنه من المال والبنين واخراج بقاء تلك الاعمال وصلاحها مخرج الصفات المفروغ عنها مع أن حقهما أن يكونا مقصودي الافادة لاسيما في مقابلة اثبات الفناء لما يقابلها من المال والبنين على طريقة قوله تعالى ما عندكم ينفد وما عند الله باق للايذان بان بقاءها أمر محقق لا حاجة الى بيانه بل لفظ الباقيات اسم لها لا وصف ولذلك لم يذكر الموصوف وانما الذي يحتاج الى التعرض له خيريتها (عند ربك) أي في الآخرة وهو بيان لما يظهر فيه آثار خيريتها بمنزلة اضافة الزينة الى الحياة الدنيا لا لافضليتها فيها من المال والبنين مع مشاركة الكل في الاصل اذ لا مشاركة لهما في الخيرية في الآخرة (ثوابا) عائدة تعود الى صاحبها (وخير أملا) حيث ينال بها صاحبها في الآخرة كل ما كان يؤمله في الدنيا وأما ما مر من المال والبنين فليس لصاحبه أمل يناله وتكرير خير للاشعار باختلاف حيثيتي الخيرية والمبالغة فيها (ويوم نسير الجبال) منصوب بمضمر أي اذكر حين نقلعها من أماكنها ونسيرها في الجو على هيآتها كما ينبئ عنه قوله تعالى وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب أو نسير أجزاءها بعد أن نجعلها هباء منبثا والمراد بتذكيره تحذير المشركين مما فيه من الدواهي وقيل هو معطوف على ما قبله من قوله تعالى عند الجسم

فان التكرير في الذهن يفيد التقرير لذي الذهن فنقول اذا كان بالحق لا يكون فيها بطلان فلا يكون فيهما فساد لان كل فاسد باطل واذا لم يكن فيها فساد لا تكون آلهة والا لكان فيها فساد كما قال تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وقوله وأجل مسمى يذكر بالاصل الآخر الذي أنكروه ﴿ثم قال تعالى ﴿وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون﴾ يعني لا يعلمون أنه لا بد بعد هذه الحياة من لقاء وبقاء اما في اسعاد أو شقاء وفي الآية مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ قدم ههنا دلائل الانفس على دلائل الآفاق وفي قوله تعالى سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم قدم دلائل الآفاق وذلك لان المفيد اذا أفاد فائدة يذكرها على وجه جيد يختاره فان فهمه السامع المستفيد فذاك والا يذكرها على وجه أبين منه وينزل درجة فدرجة وأما المستفيد فانه يفهم أولا الابين ثم يرتقي الى فهم ذلك الاخفى الذي لم يكن فهمه فيفهمه بعد فهم الابين المذكور آخرا فالمذكور من المفيد آخرا مفهوم عند السامع أولا اذا علم هذا فنقول ههنا الفعل كان منسوبا الى السامع حيث قال أولم يتفكروا في أنفسهم يعني فيما فهموه أولا ولم يرتقوا الى ما فهموه ثانيا وأما في قوله سنريهم الامر منسوب الى المفيد المسمع فذكر أولا الآفاق فان لم يفهموه فالانفس لان دلائل الانفس لا ذهول للانسان عنها وهذا الترتيب مراعى في قوله تعالى الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم أي يعلمون الله بدلائل الانفس في سائر الاحوال ويتفكرون في خلق السموات والارض بدلائل الآفاق ﴿المسألة الثانية﴾ وجه دلالة الخلق بالحق على الوحدانية ظاهر وأما وجه دلالته على الحشر فكيف هو فنقول وقوع تخريب السموات وعدمها لا يعلم بالعقل الا امكانه وأما وقوعه فلا يعلم الا بالسمع لان الله قادر على ابقاء الحادث أبدا كما أنه يبقي الجنة والنار بعد احداثهما أبدا والخلق دليل امكان العدم لان المخلوق لم يجب له القدم فجاز عليه العدم فاذا أخبر الصادق عن أمر له امكان وجب على العاقل التصديق والاذعان ولان العالم لما كان خلقه بالحق فينبغي أن يكون بعد هذه الحياة حياة أخرى باقية لان هذه الحياة ليست الا لعبا ولهوا كما بين بقوله تعالى وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وخلق السموات والارض للهو واللعب عبث والعبث ليس بحق وخلق السموات والارض بالحق فلا بد من حياة بعد هذه ﴿المسألة الثالثة﴾ قال ههنا كثيرا من الناس وقال من قبل ولكن أكثر الناس وذلك لان من قبل لم يذكر دليلا على الاصلين وههنا قد ذكر الدلائل الواضحة والبراهين اللائحة ولا شك في أن الايمان بعد الدليل أكثر من الايمان قبل الدليل فبعد الدلائل لا بد من أن يؤمن من ذلك الاكثر جمع فلا يبقى الاكثر كما هو فقال بعد اقامة الدليل وان كان كثيرا وقبله ولكن أكثرهم ثم بعد الدليل الذي لا يمكن الذهول عنه والدليل الذي لا يقع الذهول عنه وان أمكن هو السموات والارض لان من النعمة أن يذهل الانسان عن السماء التي فوقه والارض التي تحته ذكر ما يقع الذهول عنه وهو أمر امثالهم وحكاية اشكالهم فقال تعالى ﴿أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ وقال في الدليلين المتقدمين أولم يروا ولم يقل أولم يسيروا اذ لا حاجة هنالك الى السير بحضور النفس والسماء والارض وقال ههنا أولم يسيروا فينظروا ذكرهم بحال أمثالهم ووبال أشكالهم ثم ذكر أنهم أولى بالهلاك لان من تقدم من عاد وثمود كانوا أشد منهم قوة ولم ينفعهم قواهم وكانوا أكثر مالا وعمارة ولم يمنع عنهم الهلاك أموالهم وحصونهم واعلم أن اعتماد الانسان على ثلاثة أشياء قوة جسمية فيه أو في أعوانه اذ بها المباشرة وقوة مالية اذ بها التأهب للمباشرة وقوة ظهر به يستند اليها عند الضعف والفتور وهي بالحصون والعمائر فقال تعالى كانوا أشد منهم قوة في

ربك أي الباقيات الصالحات خير عند الله ويوم القيامة وقرئ تسير على صيغة البناء للمفعول من التفعيل جريا على سنن الكبرياء وايذانا
بالاستغناء عن الاسناد الى الفاعل لتعينه وقرئ تسير (وترى الارض) أي جميع جوانبها والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو
لكل أحد ممن يتأتى منه الرؤية وقرئ ترى على صيغة البناء للمفعول (بارزة) أما بروز ما تحت الجبال فظاهر وأما ما عداه
فكانت الجبال تحول بينه
وبين الناظر قبل ذلك
فالآن أضحى قاعا
صفصفا لا ترى فيها عوجا
ولا أمتا (وحشرناهم)
جمعناهم الى الموقف من
كل أوب وايثار صيغة
الماضي بعد تسير وترى
للدلالة على تحقق الحشر
المتفرع على البعث الذي
ينكره المنكرون وعليه
يدور أمر الجزاء وكذا
الكلام فيما عطف عليه
منفيا وموجبا وقيل هو
للدلالة على أن حشرهم
قبل التسيير والبروز
ليعاينوا تلك الاهوال
كأنه قيل وحشرناهم
قبل ذلك (فلم نغادر) أي
لم نترك (منهم أحدا)
يقال غادره وأغدره اذا
تركه ومنه الغدر الذي هو
ترك الوفاء والغدير الذي
هو ماء يتركه السيل في
الارض الغائرة وقرئ
بالياء وبالفوقانية على
اسناد الفعل الى ضمير
الارض كما في قوله تعالى
وألقت ما فيها وتخلت
(وعرضوا على ربك)
شبهت حالهم بحال جند
عرضوا على السلطان
ليأمر فيهم بما يأمر وفي
الالتفات الى الغيبة وبناء
الفعل للمفعول مع التعرض لعنوان الربوبية والاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام من تربية المهابة والجري على سنن الكبرياء
واظهار اللطف به عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى (صفا) أي غير متفرقين ولا مختلطين فلا تعرض فيه لوحدة الصف وتعدده وقد ورد في
الحديث الصحيح يجمع الله الاولين والآخرين في صعيد واحد صفوفا (لقد جئتمونا) على اضمار القول على وجه يكون حالا من ضمير

الجسم وأكثر منهم مالا لانهم أثاروا الارض أي حرثوها ومنه بقرة تثير الارض وقيل منه سمي ثورا وأنتم
لا حراثة لكم فما لهم كان أكثر وعمارتهم كانت أكثر لان أبنيتهم كانت رفيعة وحصونهم منيعة وعمارة أهل
مكة كانت يسيرة ثم هؤلاء جاءتهم رسلهم بالبينات وأمروهم ونهوهم فلما كذبوا أهلكوا فكيف أنتم وقوله
فما كان الله ليظلمهم يعني لم يظلمهم بالتكليف فان التكليف شريف لا يؤثر له الا عاقل شريف ولكن هم
ظلموا أنفسهم بوضعها في موضع خسيس وهو عبادة الاصنام واتباع ابليس فكان الله بالتكليف وضعهم
فيما خلقوا له وهو الربح لانه تعالى قال خلقتكم لتربحوا علي لا لاربح عليكم والوضع في موضع كان الخلق له
ليس بظلم وأما هم فوضعوا أنفسهم في مواضع الخسران ولم يكونوا خلقوا الا للربح فهم كانوا الظالمين وهذا
الكلام منا وان كان في الظاهر يشبه كلام المعتزلة لكن العاقل يعلم كيف يقوله أهل السنة وهو أن هذا
الوضع كان بمشيئة الله وارادته لكنه كان منهم ومضافا اليهم ﴿ثم قال تعالى ﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤا
السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن﴾ كما قال للذين أحسنوا الحسنى وقوله تعالى أن كذبوا
قيل معناه بأن كذبوا أي كان عاقبتهم ذلك بسبب انهم كذبوا وقيل معناه أساؤا وكذبوا فكذبوا يكون تفسيرا
لاساؤا وفي هذه الآية لطائف (أحداها) قال في حق الذين أحسنوا للذين أحسنوا الحسنى وقال في حق
من أساء ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى اشارة الى أن الجنة لهم من ابتداء الامر فان الحسنى اسم الجنة
والسوأى اسم النار فاذا كانت الجنة لهم من الابتداء ومن له شئ كلما يزداد ويتوفيه فهو له لان ملك الاصل
يوجب ملك الثمرة فالجنة من حيث خلقت تربو وتنمو للمحسنين وأما الذين أساؤا فالسوأى وهي جهنم في
العاقبة مصيرهم اليها (الثانية) ذكر الزيادة في حق المحسن ولم يذكر الزيادة في حق المسيء لان جزاء
سيئة سيئة مثلها (الثالثة) لم يذكر في المحسن أن له الحسنى بأنه صدق وذكر في المسيء أن له السوأى بأنه
كذب لان الحسنى للمحسنين فضل والمتفضل لو لم يكن تفضله لسبب يكون أبلغ وأما السوأى للمسيء عدل
والعادل اذا لم يكن تعذيبه لسبب لا يكون عدلا فذكر السبب في التعذيب وهو الاصرار على التكذيب
ولم يذكر السبب في الثواب ﴿ثم قال تعالى ﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم اليه ترجعون﴾ لما ذكر أن
عاقبتهم الى الجحيم وكان في ذلك اشارة الى الاعادة والحشر لم يتركه دعوى بلا بينة فقال يبدأ الخلق يعني
من خلق بالقدرة والارادة لا يعجز عن الرجعة والاعادة فاليه ترجعون ﴿ثم بين ما يكون وقت الرجوع
اليه فقال تعالى ﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم
كافرين﴾ في ذلك اليوم يتبين افلاسهم ويتحقق ابلاسهم والابلاس يأس مع حيرة يعني يوم تقوم الساعة
يكون للمجرم يأس متحير لا يأس هو واحد من الراجين وهذا لان الطمع اذا انقطع باليأس فاذا كان المرجو
أمرا غير ضروري يستريح الطامع من الانتظار وان كان ضروريا بالابقاء له بدونه ينفطر فؤاده أشد انفطار
ومثل هذا اليأس هو الابلاس ولنبين حال المجرم والابلاس بمثال وهو أن نقول مثله مثل من يكون في بستان
وحواليه الملاعب والملاهي ولديه ما يفتخر به ويباهي فيخبره صادق بمجيء عدو لا يرده راد ولا يصده صاد
اذا جاءه لا يبقى له مربقا ولا يترك له الى الخلاص طريقا فيتحتم عليه الاشتغال بسلوك طريق الخلاص فيقول
له طفل أو مجنون ان هذه الشجرة التي أنت تحتها لها من الخواص دفع الاعادي عمن يكون تحتها فيقبل
ذلك الغافل على استيفاء ملاذه معتمدا على الشجرة بقول ذلك الصبي فيجيئه العدو ويحيط به فأول ما يريه
من الاهوال قلع تلك الشجرة فيبقى متحيرا آيسا مفتقرا بائسا فكذلك المجرم في دار الدنيا أقبل على
استيفاء اللذات وأخبره النبي الصادق بان الله يجزيه ويأتيه عذاب يخزيه فقال له الشيطان والنفس

عرضوا أى مقولا لهم أو وقلنا لهم وأما كونه عاملا فى يوم نسير كما قيل فبعيد من جزالة التنزيل الجليل كيف لا ويلزم منه أن هذا القول هو المقصود بالاصالة دون سائر القوارع مع أنه خاص التعلق بما قبله من العرض والحشر دون تسيير الجبال وبروز الارض (كما خلقناكم) نعت لمصدر مقدر أى مجيئا كائنا كمجيئكم عند خلقنا لكم (أول مرة) أو حال من ضمير جئتمونا أى كائنين كما خلقناكم أول مرة حفاة عراة غرلا أو ما معكم شئ مما تفتخرون به من الاموال والانصار كقوله تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم (بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا) اضراب وانتقال من كلام الى كلام كلاهما للتوبيخ والتقريع أى زعمتم فى الدنيا أنه لن نجعل لكم أبدا وقتا ننجز فيه ما وعدنا من البعث وما يتبعه وأن مخففة من المثقلة فصل بحرف النفى بينها وبين خبرها لكونه جملة فعلية متصرفة غير دعاء والظرف اما مفعول ثان للجعل وهو بمعنى التصيير والاول هو موعدا أو حال من موعدا وهو بمعنى الخلق والابداع (ووضع الكتاب) عطف على عرضوا داخل تحت الامور الهائلة التى أريد تذكيرها بتذكير وقتها أورد فيه ما أورد فى أمثاله من صيغة الماضى دلالة على التقرر أيضا أى وضع صحائف الاعمال وايثار الافراد للاكتفاء بالجنس والمراد بوضعها اما وضعها فى أيدى أصحابها يمينا وشمالا واما فى الميزان (فترى المجرمين) قاطبة فيدخل فيهم الكفرة المنكرون يتضمن البعث دخولا أوليا (مشفقين) خائفين (مما فيه) من الجرائم والذنوب (ويقولون) عند وقوفهم على ما فى تضاعيفه نقيرا وقطميرا (يا ويلتنا) منادين لهلكتهم التى هلكوها من بين الهلكات مستدعين لها ليهلكوا ولا يروا هول ما لاقوه أى يا ويلتنا احضرى فهذا

الامارة بالسوء ان هذه الاخشاب التى هى الاوثان دافعة عنك كل بأس وشافعة لك عند خمود الحواس فاشتغل بما هو فيه واستمر على غيه حتى اذا حاقته الطامة الكبرى فأول ما أرته القاء الاصنام فى النار فلا يجد الى الخلاص من طريق ويحيق عليه عذاب الحريق فيبأس حينئذ أى ايأس ويبلس أشد ابلاس واليه الاشارة بقوله تعالى ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين يعنى يكفرون بهم ذلك اليوم ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾ ثم بين أمرا آخر يكون فى ذلك اليوم وهو الافتراق كما قال تعالى فى آية أخرى وامتازوا اليوم أيها المجرمون فكأن هذه الحالة مترتبة على الابلاس فكأنه أولا يبلس ثم يميز ويجعل فريق فى الجنة وفريق فى السعير وأعاد قوله ويوم تقوم الساعة لان قيام الساعة أمر هائل فكرره تأكيدا للتخويف ومنه اعتاد الخطباء تكرير يوم القيامة فى الخطب لتذكير أهواله ﴿ثم بين كيفية التفرق فقال تعالى﴾ ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون﴾ أى فى جنة يسرون بكل مسرة ﴿وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون﴾ يعنى لا غيبة لهم عنه ولا فتور له عنهم كما قال تعالى كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقال لا يفتر عنهم العذاب وفى الآيتين مسائل فيها لطائف ﴿المسألة الاولى﴾ بدأ بذكر حال الذين آمنوا مع أن الموضع موضع ذكر المجرمين وذلك لان المؤمن يوصل اليه الثواب قبل أن يوصل الى الكافر العقاب حتى يرى ويتحقق أن المؤمن وصل الى الثواب فيكون أنكى ولو أدخل الكافر النار أولا لكان يظن أن الكل فى العذاب مشتركون فقدم ذلك زيادة فى ايلامهم ﴿المسألة الثانية﴾ ذكر فى المؤمن العمل الصالح ولم يذكر فى الكافر العمل السيئ لان العمل الصالح معتبر مع الايمان فان الايمان المجرد مفيد للنجاة دون رفع الدرجات ولا يبلغ المؤمن الدرجة العالية الا بايمانه وعمله الصالح وأما الكافر فهو فى الدركات بمجرد كفره فلو قال والذين كفروا وعملوا السيئات فى العذاب محضرون لكان العذاب لمن يصدر منه المجموع فان قيل فمن يؤمن ويعمل السيئات غير مذكور فى القسمين فنقول له منزلة بين المنزلتين لا على ما يقوله المعتزلة بل هو فى الاول فى العذاب ولكن ليس من المحضرين دوام الحضور وفى الآخرة هو فى الرياض ولكنه ليس من المحبورين غاية الحبور كل ذلك بحكم الوعد ﴿المسألة الثالثة﴾ قال فى الاول فى روضة على التنكير وقال فى الآخر فى العذاب على التعريف لتعظيم الروضة بالتنكير كما يقال لفلان مال وجاه أى كثير وعظيم ﴿المسألة الرابعة﴾ قال فى الاول يحبرون بصيغة الفعل ولم يقل محبورون وقال فى الآخر محضرون بصيغة الاسم ولم يقل يحضرون لان الفعل ينبئ عن التجدد والاسم لا يدل عليه فقوله يحبرون يعنى يأتيهم كل ساعة أمر يسرون به وأما الكفار فهم اذا دخلوا العذاب يبقون فيه محضرين ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والارض وعشيا وحين تظهرون يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الارض بعد موتها وكذلك تخرجون﴾ لما بين الله تعالى عظمته فى الابتداء بقوله ما خلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق وعظمته فى الانتهاء وهو حين تقوم الساعة ويفترق الناس فريقين ويحكم على البعض بأن هؤلاء للجنة ولا أبالى وهؤلاء الى النار ولا أبالى أمر بتنزيهه عن كل سوء وبحمده على كل حال فقال فسبحان الله أى سبحوا الله تسبيحا وفى الآية مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ فى معنى سبحان الله ولفظه أما لفظه ففعلان اسم للمصدر الذى هو التسبيح سمى التسبيح بسبحان وجعل علما له وأما المعنى فقال بعض المفسرين المراد منه الصلاة أى صلوا وذكروا أنه أشار الى الصلوات الخمس وقال بعضهم أراد به التنزيه أى نزهوه عن صفات النقص وصفوه بصفات الكمال وهذا أقوى والمصير اليه أولى لانه

أو أن حضورك (مال هذا الكتاب) أي أي شيء له وقوله تعالى (لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها) أي حواها وضبطها جملة حالية محققة لما في الجملة الاستفهامية من التعجب أو استئنافية مبنية على سؤال نشأ من التعجب كأنه قيل ما شأنه حتى يتعجب منه فقيل لا يغادر سيئة صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها (ووجدوا ما عملوا) في الدنيا من السيئات أو جزاء ما عملوا (حاضرا) مسطورا عتيدا (ولا يظلم ربك أحدا) فيكتب ما لم يعمل من السيئات أو يزيد في عقابه المستحق فيكون إظهارا لمعدلة القلم الأزلي (وإذ قلنا للملائكة) أي اذكر وقت قولنا لهم (اسجدوا لآدم) سجود تحية وتكريم وقد مر تفصيله (فسجدوا) جميعا امتثالا بالأمر (إلا إبليس) فإنه لم يسجد بل أبى واستكبر وقوله تعالى (كان من الجن) كلام مستأنف سيق مساق التعليل لما يفيده استثناء اللعين من الساجدين كأنه قيل ماله لم يسجد فقيل كان أصله جنيا (ففسق عن أمر ربه) أي خرج عن طاعته كما ينبئ عنه الفاء أو صار فاسقا كافرا بسبب أمر الله تعالى إذ لولاه لما أبى والتعرض لوصف الربوبية المنافية للفسق لبيان كمال قبح ما فعله والمراد بتذكير قصته تشديد النكير على المتكبرين المفتخرين بأنسابهم وأموالهم المستنكفين عن الانتظام في سلك فقراء المؤمنين ببيان أن ذلك من صنيع إبليس وأنهم في ذلك تابعون لتسويله كما ينبئ عنه قوله تعالى (أفتتخذونه) الخ فإن الهمزة للإنكار والتعجيب والفاء للتعقيب أي أعقيب علمكم بصدور تلك القبائح عنه تتخذونه (وذريته) أي أولاده وأتباعه جعلوا ذريته مجازا قال قتادة يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وقيل يدخل ذنبه في دبره فيبيض فتنفلق البيضة عن جماعة من الشياطين (أولياء من دوني) فتستبدلونهم

يتضمن الأول وذلك لأن التنزيه المأمور به يتناول التنزيه بالقلب وهو الاعتقاد الجازم وباللسان مع ذلك وهو الذكر الحسن وبالأركان معهما جميعا وهو العمل الصالح والأول هو الأصل والثاني ثمرة الأول والثالث ثمرة الثاني وذلك لأن الإنسان إذا اعتقد شيئا ظهر من قلبه على لسانه وإذا قال ظهر صدقه في مقاله من أحواله وأفعاله واللسان ترجمان الجنان والأركان برهان اللسان لكن الصلاة أفضل أعمال الأركان وهي مشتملة على الذكر باللسان والقصد بالجنان وهو تنزيه في التحقيق فإذا قال نزهوني وهذا نوع من أنواع التنزيه والأمر المطلق لا يختص بنوع دون نوع فيجب حمله على كل ما هو تنزيه فيكون أيضا هذا أمرا بالصلاة ثم إن قولنا يناسب ما تقدم وذلك لأن الله تعالى لما بين أن المقام الأعلى والجزاء الأوفى لمن آمن وعمل الصالحات حيث قال فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون قال إذا علمتم أن ذلك المقام لمن آمن وعمل الصالحات والإيمان تنزيه بالجنان وتوحيد باللسان والعمل الصالح استعمال الأركان والكل تنزيهات وتحميدات فسبحان الله أي فأتوا بذلك الذي هو الوسيلة إلى الحبور في الرياض والحضور على الحياض (المسألة الثانية) خص بعض الأوقات بالأمر بالتسبيح وذلك لأن أفضل الأعمال أدومها لكن أفضل الملائكة ملازمون للتسبيح على الدوام كما قال تعالى يسبحون الليل والنهار لا يفترون والإنسان ما دام في الدنيا لا يمكنه أن يصرف جميع أوقاته إلى التسبيح لكونه محتاجا إلى أكل وشرب وتحصيل مأكول ومشروب وملبوس ومركوب فأشار الله تعالى إلى أوقات إذا أتى العبد بتسبيح الله فيها يكون كأنه لم يفتر وهي الأول والآخر والوسط أول النهار وآخره ووسطه فأمر بالتسبيح في أول الليل ووسطه ولم يأمر بالتسبيح في آخر الليل لأن النوم فيه غالب والله من على عباده بالاستراحة بالنوم كما قال ومن آياته منامكم بالليل فإذا صلى في أول النهار تسبيحتين وهما ركعتان حسب له صرف ساعتين إلى التسبيح ثم إذا صلى أربع ركعات وقت الظهر حسب له صرف أربع ساعات أخر فصارت ست ساعات وإذا صلى أربعا أواخر النهار وهو العصر حسب له أربع أخرى فصارت عشر ساعات فإذا صلى المغرب والعشاء سبع ركعات أخر حصل له صرف سبع عشرة ساعة إلى التسبيح وبقي من الليل والنهار سبع ساعات وهي ما بين نصف الليل وثلثيه لأن ثلثيه ثمان ساعات ونصفه ست ساعات وما بينهما السبع وهذا القدر لو نام الإنسان فيه لكان كثيرا وإليه أشار تعالى بقوله قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه وزيادة القليل على النصف هي ساعة فيصير سبع ساعات مصروفة إلى النوم والنائم مرفوع عنه القلم فيقول الله عبدي صرف جميع أوقات تكليفه في تسبيحي فلم يبق لكم أيها الملائكة عليهم المزية التي ادعيتم بقولكم نحن نسبح بحمدك ونقدس لك على سبيل الانحصار بل هم مثلكم فمقامهم مثل مقامكم في أعلى عليين * واعلم أن في وضع الصلاة في أوقاتها وعدد ركعاتها واختلاف هيئاتها حكمة بالغة أما في عدد الركعات فما تقدم من كون الإنسان يقظان في سبع عشرة ساعة ففرض عليه سبع عشرة ركعة وأما على مذهب أبي حنيفة حيث قال بوجوب الوتر ثلاث ركعات وهو أقرب للتقوى فنقول هو مأخوذ من أن الإنسان ينبغي أن يقلل نومه فلا ينام إلا ثلث الليل مأخوذا من قوله تعالى إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه ويفهم من هذا أن قيام ثلثي الليل مستحسن مستحب مؤكد باستحباب ولهذا قال عقيبه علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ذكر بلفظ التوبة وإذا كان كذلك يكون الإنسان يقظان في عشرين ساعة فأمر بعشرين ركعة وأما النبي عليه الصلاة والسلام فلما كان من شأنه أن لا ينام أصلا كما قال تنام عيناي ولا ينام قلبي جعل له كل الليل كالنهار فزيد له التهجد فأمر به وإلى

في قتطيعونهم بدل طاعتي (وهم) أي والحال أن ابليس وذريته (لكم عدو) أي أعداء كما في قوله تعالى فانهم عدو لي الارب العالمين وقوله تعالى هم العدو وأغا فعل به ذلك تشبيها له بالمصادر نحو القبول والولوع وتقييد الاتخاذ بالجملة الحالية لتأكيد الانكار وتشديده فان مضمونها مانع من وقوع الاتخاذ ومناف له قطعا (بئس للظالمين) أي الواضعين الشيء في غير موضعه (بدلا) من الله سبحانه ابليس وذريته وفي الالتفات الى الغيبة مع وضع الظالمين موضع الضمير من الايذان بكمال السخط والاشارة الى ان مافعلوه ظلم قبيح مالا يخفى (ما أشهدتهم) استئناف مسوق لبيان عدم استحقاقهم للاتخاذ المذكور في أنفسهم بعد بيان الصوارف عن ذلك من خباثة المحتد والفسق والعداوة أي ما أحضرت ابليس وذريته (خلق السموات والارض) حيث خلقتهما قبل خلقهم (ولا خلق أنفسهم) أي ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله تعالى ولا تقتلوا أنفسكم هذا ما أجمع عليه الجمهور حذارا من تفكيك الضميرين ومحافظة على ظاهر لفظ الانفس ولك أن ترجع الضمير الثاني الى الظالمين وتلتزم التفكيك بناء على عود المعنى اليه فان نفي اشهاد الشياطين خلق الذين يتولونهم هو الذي يدور عليه انكار اتخاذهم أولياء بناء على ان أدنى ما يصحح التولي حضور الولي خلق المتولي وحيث لا حضور لا مصحح للتولي قطعا وأما نفي اشهاد بعض الشياطين خلق بعض منهم فليس من مداريه الانكار المذكور يقول في شيء على أن اشهاد بعضهم خلق بعض ان كان مصححا لتولي الشاهد بناء على دلالته على كماله باعتبار أن له مدخلا في خلق المشهود فهو مخل بتولي المشهود بناء على قصوره عن شهود خلقه فلا يكون نفي الاشهاد المذكور متمحضا في نفي الكمال المصحح للتولي عن

هذا أشار تعالى في قوله ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا أي كل الليل لك للتسبيح قصاره وفي أربع وعشرين ساعة سبحا فصار من الذين لا يفترون طرفة عين وأما في أوقاته فما تقدم أيضا ان الاول والآخر والوسط هو المعتبر فشرع التسبيح في أول النهار وآخره وأما الليل فاعتبر أوله ووسطه كما اعتبر أول النهار ووسطه وذلك لان الظهر وقته نصف النهار والعشاء وقته نصف الليل لانا بينا أن الليل المعتبر هو المقدار الذي يكون الانسان فيه يقظان وهو مقدار خمس ساعات بخمل وقته في نصف هذا القدر وهو الثلاثة من الليل وأما أبو حنيفة لما رأى وجوب الوتر كان زمان النوم عنده أربع ساعات وزمان اليقظة بالليل ثمان ساعات وأخر وقت العشاء الآخر الى الرابعة والخامسة لكون في وسط الليل المعتبر كما أن الظهر في وسط النهار وأما النبي صلى الله عليه وسلم لما كان ليله نهارا ونومه انتباها قال لولا أن أشق على أمتي لامرتهم بالسواك وتأخير العشاء الى نصف الليل ليكون الاربع في نصف الليل كما كان الاربع في نصف النهار وأما التفصيل فالذي يتبين لي أن النهار اثنتا عشرة ساعة زمانية والصلاة المؤداة فيها عشر ركعات فيبقى على المكلف ركعتان يؤديهما في أول الليل ويؤدي ركعة من صلاة الليل ليكون ابتداء الليل بالتسبيح كما كان ابتداء النهار بالتسبيح ولما كان المؤدى من تسبيح النهار في أوله ركعتين كان المؤدى من تسبيح الليل في أوله ركعة لان تسبيح النهار طويل مثل ضعف تسبيح الليل لان المؤدى في النهار عشرة والمؤدى في الليل من تسبيح الليل خمس (المسئلة الثالثة) في فضيلة السبحلة والحمدلة في المساء والصباح ولنذكرها من حيث النقل والعقل * أما النقل فأخبرني الشيخ الورع الحافظ الاستاذ عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان بحلب مسندا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لبعض أصحابه أتعجز عن أن تأتي وقت النوم بألف حسنة فتوقف فقال النبي عليه الصلاة والسلام قل سبحان الله والحمد لله والله أكبر مائة مرة يكتب لك بها ألف حسنة وسمعته يقول رحمه الله مسندا من قال خلف كل صلاة مكتوبة عشر مرات سبحان الله وعشر مرات الحمد لله وعشر مرات الله أكبر أدخل الجنة * وأما العقل فهو ان الله تعالى له صفات لازمة لا من فعله وصفات ثابتة له من فعله * أما الاولى فهي صفات كمال وجلال خلافها نقص فاذا أدرك المكلف الله بانه لا يجوز أن يخفى عليه شيء لكونه عالما بكل شيء فقد نزهه عن الجهل ووصفه بضده واذا عرفه بانه لا يعجز عن شيء لكونه قادرا على كل شيء فقد نزهه عن العجز واذا علم انه لا يجري في ملكه الا ما يشاء لكونه مريد الكل كائن فقد وصفه ونزهه واذا ظهر له انه لا يجوز عليه الفناء لكونه واجب البقاء فقد نزهه واذا بان له انه لا يسبقه العدم لاتصافه بالقدم فقد نزهه واذا لاح له انه لا يجوز أن يكون عرضا أو جسما أو في مكان لكونه واجبا بريئا عن جهات الامكان فقد نزهه لكن صفاته السلبية والاضافية لا يعدها عاد ولو اشتغل بها واحد لافنى فيها عمره ولا يدرك كنهها فاذا قال قائل مستحضرا بقلبه سبحان الله متنبها لما يقوله من كونه منزها له عن كل نقص فاتيانه بالتسبيح على هذا الوجه من الاجمال يقوم مقام اتيانه به على سبيل التفصيل لكن لا ريب في أن من أتى بالتسبيح عن كل واحد على حدته مما لا يجوز على الله يكون قد أتى بما لا يأتي به الاعمار فيقول هذا العبد أتى بتسبيحي طول عمره ومدة بقائه فأجازيه بأن أطهره عن كل ذنب وألبسه خلع الكرامة وأنزله بدار المقامة مدة لا انتهاء لها وكما أن العبد ينزه الله في أول النهار وآخره ووسطه فان الله تعالى يطهره في أوله وهو دنياه وفي آخره وهو عقباه وفي وسطه وهو حالة كونه في قبره الذي يحويه الى أوان حشره وهو معناه * وأما الثانية وهي صفات الفعل فالانسان اذا نظر الى خلق الله السموات يعلم أنها نعمة وكرامة فيقول الحمد لله فاذا رأى الشمس فيها بازغة فيعلم انها نعمة وكرامة فيقول الحمد لله وكذلك القمر وكل كوكب والارض وكل نبات وكل حيوان

الكل وهو المناط للانكار المذكور (وما كنت متخذ المضلين) أي متخذهم وانما وضع موضعه المظهر ذما لهم وتسجيلا عليهم بالاضلال
وتأكيدا لما سبق من انكار اتخاذهم أولياء (عضدا) أعوانا في شأن الخلق أو في شأن من شؤوني حتى يتوهم شركتهم في التولي بناء على
الشركة في بعض أحكام الربوبية وفيه تهكم بهم وايذان بكمال ركاكة عقولهم وسخافة آرائهم حيث لا يفهمون هذا الامر
الجلي الذي لا يكاد يشتبه على البله والصبيان فيحتاجون الى التصريح به وايثار نفي الاشهاد على نفي شهودهم ونفي اتخاذهم اعوانا على نفي كونهم كذلك للاشعار بانهم مقهورون تحت قدرته تعالى تابعون لمشيئته وارادته فيهم وانهم بمعزل من استحقاق الشهود والمعونة من تلقاء أنفسهم من غير احضار واتخاذ وانما قصارى ما يتوهم في شأنهم ان يبلغوا ذلك المبلغ بامر الله عز وجل ولم يكد ذلك يكون وقيل الضمير للمشركين والمعنى ما أشهدتهم خلق ذلك وما اطلعتهم على اسرار التكوين وما خصصتهم بفضائل لا يحويها غيرهم حتى يكونوا قدوة للناس فيؤمنوا بايمانهم كما يزعمون فلا يلتفت الى قولهم طمعا في نصرتهم للدين فانه لا ينبغي لي أن اعتضد بالمضلين ويعضده القراءة بفتح التاء خطابا لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى ما صح لك الاعتضاد بهم
ووصفهم بالاضلال لتعليل نفي الاتخاذ وقرئ متخذا المضلين على الاصل
وقرئ عضدا بضم العين وسكون الضاد وبفتح وسكون بالتخفيف وبضمتين بالاتباع وبفتحتين على انه جمع عاضد كرصد وراصد (ويوم
يقول) أي الله عز وجل للكافرين توبيخا وتعجيزا وقرئ بنون العظمة (نادوا شركائي الذين زعمتم) انهم شفعاؤكم ليشفعوا لكم والمراد

يقول الحمد لله لكن الانسان لو حمد الله على كل شئ على حدة لا يفي عمره به فاذا استحضر في ذهنه النعم التي
لا تعد كما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ويقول الحمد لله على ذلك فهذا الحمد على وجه الاجمال
يقوم منه مقام الحمد على سبيل التفصيل ويقول عبدي استغرق عمره في حمدي وأنا وعدت الشاكر
بالزيادة فله على حسنة التسبيح الحسنى وله على حمده الزيادة ثم ان الانسان اذا استغرق في صفات الله قد
يدعوه عقله الى التفكر في الله تعالى بعد التفكر في آلاء الله فكل ما يقع في عقله من حقيقته فينبغي ان
يقول الله أكبر مما أدركه لان المدركات وجهات الادراكات لا نهاية لها فان اراد أن يقول على سبيل
التفصيل الله أكبر من هذا الذي أدركته من هذا الوجه وأكبر مما أدركته من ذلك الوجه وأكبر مما أدركه
من وجه آخر يفني عمره ولا يفي بادراك جميع الوجوه التي يظن الظان انه مدرك لله بذلك الوجه فاذا قال
مع نفسه الله أكبر أي من كل ما أتصوره بقوة عقلي وطاقة ادراكي يكون متوغلا في العرفان واليه الاشارة
بقوله العجز عن درك الادراك ادراك فقول القائل المستيقظ سبحان الله والحمد لله والله أكبر مفيد لهذه
الفوائد لكن شرطه أن يكون كلامه معتبرا وهو الذي يكون من صميم القلب لا الذي يكون من طرف
اللسان (المسألة الرابعة) قوله وعشيا عطف على حين أي سبحوه حين تمسون وحين تصبحون وعشيا وقوله
وله الحمد في السموات والارض كلام معترض بين المعطوف والمعطوف عليه وفيه لطيفة وهو ان الله تعالى لما
أمر العباد بالتسبيح كأنه بين لهم أن تسبيحهم لله لنفعهم لا لنفع يعود على الله فعليهم أن يحمدوا الله اذا سبحوه
وهذا كما في قوله تعالى يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان
(المسألة الخامسة) قدم الامساء على الاصباح ههنا وأخره في قوله وسبحوه بكرة وأصيلا وذلك لان ههنا أول
الكلام ذكر الحشر والاعادة من قوله الله يبدأ الخلق ثم يعيده الى قوله فأولئك في العذاب محضرون وآخر
هذه الآية أيضا ذكر الحشر والاعادة بقوله وكذلك تخرجون والامساء آخر فذكر الآخر ليذكر الآخرة
(المسألة السادسة) في تعلق اخراج الحي من الميت والميت من الحي بما تقدم عليه هو ان عند الاصباح
يخرج الانسان من شبه الموت وهو النوم الى شبه الوجود وهو اليقظة وعند العشاء يخرج الانسان من
اليقظة الى النوم واختلف المفسرون في قوله يخرج الحي من الميت فقال أكثرهم يخرج الدجاجة من
البيضة والبيضة من الدجاجة وكذلك الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان وقال بعضهم المؤمن من
الكافر والكافر من المؤمن ويمكن أن يقال المراد يخرج الحي من الميت أي اليقظان من النائم والنائم من
اليقظان وهذا يكون قد ذكره لتمثيل أي احياء الميت عنده كاماتة الحي كتنبيه النائم وتنويم المتنبه ثم قال
تعالى ويحيي الارض بعد موتها وكذلك تخرجون وفي هذا معنى لطيف وهو ان الانسان بالموت تبطل
حيوانيته وأما نفسه الناطقة فتفارقه وتبقى بعده كما قال تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا لكن
الحيوان نام متحرك حساس لكن النائم لا يتحرك ولا يحس والارض الميتة لا يكون فيها نماء ثم ان النائم
بالانتباه يتحرك ويحس والارض الميتة بعد موتها تنمو بنباتها فكما أن تحريك ذلك الساكن وانماء هذا
الواقف سهل على الله تعالى كذلك احياء الميت سهل عليه والى هذا أشار بقوله وكذلك تخرجون ثم قال
تعالى ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون﴾ لما أمر الله تعالى بالتسبيح عن الاسواء وذكر
ان الحمد له على خلق جميع الاشياء وبين قدرته على الاماتة والاحياء بقوله فسبحان الله الى قوله وكذلك
تخرجون ذكر ما هو حجة ظاهرة وآية باهرة على ذلك ومن جملتها خلق الانسان من تراب وتقريره هو أن
التراب أبعد الاشياء عن درجة الاحياء وذلك من حيث كيفيته فانه بارد يابس والحياة بالحرارة والرطوبة

يهم كل ما عبد من دونه تعالى وقيل ابليس وذريته (فدعوهم) أى نادوهم للاغاثة وفيه بيان لكمال اعتنائهم باغاثتهم على طريقة الشفاعة اذ معلوم أن لا طريق الى المدافعة (فلم يستجيبوا لهم) فلم يغيثوهم اذ لا امكان لذلك وفى ايراده مع ظهوره تهكم بهم وايذان بأنهم فى الحماقة بحيث لا يفهمونه الا بالتصريح به (وجعلنا بينهم) بين الداعين والمدعوين (موبقا) اسم مكان أو مصدر من وبق وبوقا كوثب وثوبا أو وبق وبقا كفرح فرحا اذا هلك أى مهلكا يشتركون فيه وهو النار أو عداوة هى فى الشدة نفس الهلاك كقول عمر رضى الله عنه لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا وقيل البين الوصل أى وجعلنا تواصلهم فى الدنيا هلاكا فى الآخرة ويجوز أن يكون المراد بالشركاء الملائكة وعزيرا وعيسى عليهم السلام ومريم وبالموبق البرزخ البعيد أى جعلنا بينهم أمدا بعيدا يهلك فيه الاشواط لفرط بعده لانهم فى قعر جهنم وهم فى أعلى الجنان (ورأى المجرمون النار) وضع المظهر مقام المضمر تصريحا باجرامهم وذما لهم بذلك (فظنوا) أى فأيقنوا (أنهم مواقعوها) مخالطوها واقعون فيها أو ظنوا اذ رأوها من مكان بعيد أنهم مواقعوها الساعة (ولم يجدوا عنها مصرفا) انصرافا أو معدلا ينصرفون اليه (ولقد صرفنا) أى كررنا وأوردنا على وجوه كثيرة من النظم (فى هذا القرآن للناس) لمصلحتهم ومنفعتهم (من كل مثل) من جملته ما مر من مثل الرجلين ومثل الحياة الدنيا أو من كل نوع من أنواع المعانى البديعة الداعية الى الايمان التى هى فى الغرابة والحسن واستجلاب النفس كالمثل ليتلقوه بالقبول فلم يفعلوا (وكان الانسان) بحسب جبلته (أكثر شئ جدلا) أى أكثر الاشياء التى يتأتى منها الجدل وهو ههنا شدة الخصومة بالباطل والمماراة من الجدل الذى هو الفتل فالامر

ومن حيث لونه فانه كدر والروح نير ومن حيث فعله فانه ثقيل والارواح التى بها الحياة خفيفة ومن حيث السكون فانه بعيد عن الحركة والحيوان يتحرك يمنة ويسرة والى خلف والى قدام والى فوق والى أسفل وفى الجملة فالتراب أبعد من قبول الحياة عن سائر الاجسام لان العناصر أبعد من المركبات لان المركب بالتركيب أقرب درجة من الحيوان والعناصر أبعدها التراب لان الماء فيه الصفاء والرطوبة والحركة وكلها على طبع الارواح والنار أقرب لانها كالحرارة الغريزية منضجة جامعة مفرقة ثم المركبات وأول مراتبها المعدن فانه ممتزج وله مراتب أعلاها الذهب وهو قريب من أدنى مراتب النبات وهى مرتبة النبات التى ينبت فى الارض ولا يبرز ولا يرتفع ثم النبات وأعلى مراتبها وهى مرتبة الاشجار التى تقبل التطعيم ويكون لثمرها حب يؤخذ منه مثل تلك الشجرة كالبيضة من الدجاجة والدجاجة من البيضة قريبة من أدنى مراتب الحيوانات وهى مرتبة الحشرات التى ليس لها دم سائل ولا هى الى المنافع الجليلة وسائل كالنباتات ثم الحيوان وأعلى مراتبها قريبة من مرتبة الانسان فان الانعام ولا سيما الفرس تشبه العتال والجمال والساعى ثم الانسان وأعلى مراتب الانسان قريبة من مرتبة الملائكة المسبحين لله الحامدين له فالله الذى خلق من أبعد الاشياء عن مرتبة الاحياء حيا هو فى أعلى المراتب لا يكون الا منزها عن العجز والجهل ويكون له الحمد على انعام الحياة ويكون له كمال القدرة ونفوذ الارادة فيجوز منه الابداء والاعادة وفى الآية لطيفتان (احداهما) قوله اذا وهى للمفاجأة يقال خرجت فاذا أسد بالباب وهو اشارة الى أن الله تعالى خلقه من تراب بكن فكان لا أنه صار معدنا ثم نباتا ثم حيوانا ثم انسانا وهذا اشارة الى مسئلة حكمية وهى ان الله تعالى يخلق أولا انسانا فينفخ فيه روحه فيحيى فيصير حيوانا ونامبا وغير ذلك لا أنه خلق أولا حيوانا ثم يجعله انسانا فخلق الانواع هو المراد الاول ثم تكون الانواع فيها الاجناس بتلك الارادة الاولى فالله تعالى جعل المرتبة الاخيرة فى الشئ البعيد غاية من غير انتقال من مرتبة الى مرتبة من المراتب التى ذكرناها (اللطيفة الثانية) قوله بشر اشارة الى القوة المدركة لان البشر بشر لا بحركته فان غيره من الحيوانات أيضا كذلك وقوله تنتشرون اشارة الى القوة المحركة وكلاهما من التراب عجيب أما الادراك فلكثافته وجموده وأما الحركة فلثقله وجموده وقوله تنتشرون اشارة الى أن العجيبة غير مختص بخلق الانسان من التراب بل خلق الحيوان المنتشر من التراب الساكن عجيب فضلا عن خلق البشر وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) وهى ان الله خلق آدم من تراب وخلقنا منه فكيف قال خلقكم من تراب نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ما قيل ان المراد من قوله خلقكم انه خلق أصلكم (والثانى) أن تقول ان كل بشر مخلوق من التراب أما آدم فظاهر وأما نحن فلانا خلقنا من نطفة والنطفة من صالح الغذاء الذى هو بالقوة بعض من الاعضاء والغذاء اما من لحوم الحيوانات وألبانها وأسمانها واما من النبات والحيوان أيضا له غذاء والنبات تكون النبات من التراب فان الحبة من الحنطة والنواة من الثمرة لا تصير شجرة الا بالتراب وينضم اليها أجزاء مائية ليصير ذلك النبات بحيث يغذو (المسئلة الثانية) قال تعالى فى موضع آخر وخلق من الماء بشرا وقال من ماء مهين وههنا قال من تراب فكيف الجمع قلنا اما على الجواب الاول فالسؤال زائل فان المراد منه آدم وأما على الثانى فنقول ههنا قال ما هو أصل أول وفى ذلك الموضع قال ما هو أصل ثان لان ذلك التراب الذى صار غذاء يصير مائعا وهو المنى ثم ينعقد ويتكون يخلق الله منه انسانا أو تقول الانسان له أصلان ظاهران الماء والتراب فان التراب لا ينبت الا بالماء ففى النبات الذى هو أصل غذاء الانسان تراب وماء فان جعل التراب أصلا والماء لجمع أجزائه المتفتتة فالامر كذلك وان جعل الاصل هو الماء والتراب لتثبيت أجزائه الرطبة من السيلان

والمجادلة الملاواة لان كلا من المجادلين يلتوى على صاحبه وانتصابه على التمييز والمعنى ان جدله أكثر من جدل كل مجادل (ومامنع الناس) أى أهل مكة الذين حكيت أباطيلهم (أن يؤمنوا) من أن يؤمنوا بالله تعالى ويتركوا ماهم فيه من الاشراك (اذ جاءهم الهدى) أى القرآن العظيم الهادى الى الايمان بما فيه من فنون المعانى الموجبة له ٥٥٥ (ويستغفروا ربهم) عما فرط منهم من أنواع الذنوب التى من جملتها مجادلتهم الحق بالباطل (الا أن تأتيهم سنة الاولين) أى الا طلب اتيان سنتهم أو الا انتظار اتيانها أو الا تقديره فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه وسنتهم الاستئصال (أو يأتيهم العذاب) أى عذاب الآخرة (قبلا) أى أنواعا جمع قبيل أو عيانا كما فى قراءة قبلا بكسر القاف وفتح الباء وقرئ بفتحتين أى مستقبلا يقال أقبله قبلا وقبلا وقبلا وانتصابه على الحالية من الضمير أو العذاب والمعنى ان ما تضمنه القرآن الكريم من الامور المستوجبة للايمان بحيث لو لم يكن مثل هذه الحكمة القوية لما امتنع الناس من الايمان وان كانوا مجبولين على الجدل المفرط (وما نرسل المرسلين) الى الامم ملتبسين بحال من الاحوال (الا) حال كونهم (مبشرين) للمؤمنين بالثواب (ومنذرين) للكفرة والعصاة بالعقاب (ويجادل الذين كفروا بالباطل) باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات والسؤال عن قصة أصحاب الكهف ونحوها تعنتا (ليدحضوا به) أى بالجدال (الحق) أى ليزيلوه عن مركزه ويبطلوه من ادحاض القدم وهو ازلاقها وذلك قولهم للرسل عليهم الصلاة والسلام ما أنتم الا بشر مثلنا ولو شاء الله لانزل ملائكة ونحوهما (واتخذوا آياتى) التى تخر لها صم الجبال (وما أنذروا) أى أنذروه من القوارع الناعية

فالامر كذلك (فان قال قائل) الله تعالى يعلم كل شئ فهو يعلم ان الاصل ماذا هو منهما وانما الامر عندنا مشتبه يجوز هذا أو ذاك فان كان الاصل هو التراب فكيف قال من الماء بشرا وان كان الماء فكيف قال خلقكم من تراب وان كانا هما أصلين فلم يقل خلقكم منهما (فنقول) فيه لطيفة وهى أن كون التراب أصلا والماء أصلا ليس لذاتيهما وانما هو بجعل الله تعالى فان الله تعالى نظرا الى قدرته كان له أن يخلق أول ما يخلق الانسان ثم يفنيه ويحصل منه التراب ثم يذوبه ويحصل منه الماء لكن الحكمة اقتضت أن يكون الناقص وسيلة الى الكامل لا الكامل يكون وسيلة الى الناقص فخلق التراب والماء أولا وجعلهما أصلين لمن هو أكمل منهما بل للذى هو أكمل من كل كائن وهو الانسان فاذا كان كونهما أصلين ليس أمرا ذاتيا لهما بل بجعل جاعل فتارة جعل الاصل التراب وتارة الماء ليعلم انه بارادته واختياره فان شاء جعل هذا أصلا وان شاء جعل ذاك أصلا وان شاء جعلهما أصلين (المسئلة الثالثة) قال الحكماء ان الانسان مركب من العناصر الاربعة وهى التراب والماء والهواء والنار وقالوا التراب فيه لثباته والماء لاستمساكه فان التراب يتفتت بسرعة والهواء لاستقلاله كالزق المنفوخ يقوم بالهواء ولولاه لما كان فيه استقلال ولا انتصاب والنار للنضج والالتئام بين هذه الاشياء فهل هذا صحيح أم لا فان كان صحيحا فكيف اعتبر الامرين فحسب ولم يقل فى موضع آخر انه خلقكم من نار ولا من ريح (فنقول) أما قولهم فلا مفسدة فيه من حيث الشرع فلا ننازعهم فيه الا اذا قالوا انه بالطبيعة كذلك وأما ان قالوا ان الله بحكمته خلق الانسان من هذه الاشياء فلا ننازعهم فيه وأما الآيات فنقول ماذكرتم لا يخالف هذا لان الهواء جعلتموه للاستقلال والنار للنضج فهما يكونان بعد امتزاج الماء بالتراب فالاصل الموجود أولا هما لا غير فلذلك خصهما ولان المحسوس من العناصر فى الغالب هو التراب والماء ولاسيما كونهما فى الانسان ظاهر لكل أحد فخص الظاهر المحسوس بالذكر * ثم قال تعالى ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ لما بين الله خلق الانسان بين أنه لما خلق الانسان ولم يكن من الاشياء التى تبقى وتدوم سنين متطاولة أبقى نوعه بالاشخاص وجعله بحيث يتوالد فاذا مات الاب يقوم الابن مقامه لئلا يجب فقد الواحد مثله فى العمارة لاتنسد وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله خلق لكم دليل على أن النساء خلقن كخلق الدواب والنبات وغير ذلك من المنافع كما قال تعالى خلق لكم ما فى الارض وهذا يقتضى أن لا تكون مخلوقة للعبادة والتكليف فنقول خلق النساء من النعم علينا وخلقهن لنا وتكليفهن لاتمام النعمة علينا لا لتوجيه التكليف نحوهن مثل توجيهه الينا وذلك من حيث النقل والحكم والمعنى أما النقل فهذا وغيره وأما الحكم فلأن المرأة لم تكلف بتكاليف كثيرة كما كلف الرجل بها وأما المعنى فلان المرأة ضعيفة الخلق سخيفة فشابهت الصبى لكن الصبى لم يكلف فكان يناسب أن لا تؤهل المرأة للتكليف لكن النعمة علينا ما كانت تتم الا بتكليفهن لتخاف كل واحدة منهن العذاب فتنقاد للزوج وتمتنع عن المحرم ولولا ذلك لظهر الفساد (المسئلة الثانية) قوله من أنفسكم قال بعضهم المراد منه ان حواء خلقت من جسم آدم والصحيح أن المراد منه من جنسكم كما قال تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم ويدل عليه قوله لتسكنوا اليها يعنى ان الجنسين المختلفين لايسكن أحدهما الى الآخر أى لا تثبت نفسه معه ولا يميل قلبه اليه (المسئلة الثالثة) يقال سكن اليه للسكون القلبى ويقال سكن عنده للسكون الجسمانى لان كلمة عند جاءت لظرف المكان وذلك للاجسام والى للغاية وهى للقلوب (المسئلة الرابعة) قوله وجعل بينكم مودة ورحمة فيه أقوال قال بعضهم مودة بالمجامعة ورحمة بالولد تمسكا بقوله تعالى ذكر رحمة ربك عبده زكريا

عليهم العقاب والعذاب أو انذارهم (هزوا) استهزاء وقرئ بسكون الزاى وهو ما يستهزأ به (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه) وهو القرآن العظيم (فأعرض عنها) ولم يتدبرها ولم يتذكر بها وهذا السبك وان كان مدلوله الوضعى نفى الاظلمية من غير تعرض لنفى المساواة فى الظلم الا أن مفهومه العرفى انه أظلم من كل ظالم وبناء الاظلمية على ما فى حيز الصلة من الاعراض عن القرآن للاشعار بأن ظلم من يجادل فيه ويتخذه هزوا خارج عن الحد (ونسى ما قدمت يداه) أى عمله من الكفر والمعاصى التى من جملتها ماذكر من المجادلة بالباطل والاستهزاء بالحق ولم يتفكر فى عاقبتها (انا جعلنا على قلوبهم أكنة) أغطية كثيرة جمع كنان وهو تعليل لاعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم (أن يفقهوه) مفعول لما دل عليه الكلام أى منعناهم أن يقفوا على كنهه أو مفعول له أى كراهة أن يفقهوه (وفى آذانهم) أى جعلنا فيها (وقرا) ثقلا يمنعهم من استماعه (وان تدعهم الى الهدى فلن يهتدوا اذا أبدا) أى فلن يكون منهم اهتداء البتة مدة التكليف واذن جزاء للشرط وجواب عن سؤال النبى عليه الصلاة والسلام المدلول عليه بكمال عنايته باسلامهم كأنه قال عليه الصلاة والسلام مالى لا أدعوهم فقيل ان تدعهم الخ وجمع الضمير الراجع الى الموصول فى هذه المواضع الخمسة باعتبار معناه كما أن افراده فى المواطن الخمسة المتقدمة باعتبار لفظه (وربك) مبتدأ وقوله تعالى (الغفور) خبره وقوله تعالى (ذو الرحمة) أى الموصوف بها خبر بعد خبر وايراد المغفرة على صيغة المبالغة دون الرحمة للتنبيه على كثرة الذنوب ولان المغفرة ترك المضار وهو سبحانه قادر على ترك ما لا يتناهى من العذاب وأما الرحمة فهى فعل وايجاد

وقال بعضهم محبة حالة حاجة نفسه ورحمة حالة حاجة صاحبه اليه وهذا لان الانسان يحب مثلا ولده فاذا رأى عدوه فى شدة من جوع وألم قد يأخذ من ولده ويصلح به حال ذلك وما ذلك لسبب المحبة وانما هو لسبب الرحمة ويمكن أن يقال ذكر من قبل أمرين أحدهما كون الزوج من جنسه والثانى ما تفضى اليه الجنسية وهو السكون اليه فالجنسية توجب السكون وذكر ههنا أمرين أحدهما يفضى الى الآخر فالمودة تكون أولا ثم انها تفضى الى الرحمة ولهذا فان الزوجة قد تخرج عن محل الشهوة بكبر أو مرض ويبقى قيام الزوج بها وبالعكس وقوله ان فى ذلك يحتمل أن يقال المراد ان فى خلق الازواج لآيات ويحتمل أن يقال فى جعل المودة بينهم آيات ﴿أما الاول﴾ فلا بد له من فكر لان خلق الانسان من الوالدين يدل على كمال القدرة ونفوذ الارادة وشمول العلم لمن يتفكر ولو فى خروج الولد من بطن الام فان دون ذلك لو كان من غير الله لافضى الى هلاك الام وهلاك الولد أيضا لان الولد لو سل من موضع ضيق بغير اعانة الله لمات ﴿وأما الثانى﴾ فكذلك لان الانسان يجد بين القرينين من التراحم ما لا يجده بين ذوى الارحام وليس ذلك بمجرد الشهوة فانها قد تنتفى وتبقى الرحمة فهو من الله ولو كان بينهما مجرد الشهوة والغضب كثير الوقوع وهو مبطل للشهوة والشهوة غير دائمة فى نفسها لكان كل ساعة بينهما فراق وطلاق فالرحمة التى بها يدفع الانسان المكاره عن حريم حرمه هى من عند الله ولا يعلم ذلك الا بفكر ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين﴾ لما بين دلائل الانفس ذكر دلائل الآفاق وأظهرها خلق السموات والارض فان بعض الكفار يقول فى خلق البشر وغيره من المركبات انه بسبب ما فى العناصر من الكيفيات وما فى السموات من الحركات وما فيها من الاتصالات فاذا قيل له فالسماء والارض لم تكن لامتزاج العناصر واتصالات الكواكب فلا يجد بدا من أن يقول ذلك بقدرة الله وارادته ثم لما أشار الى دلائل الانفس والآفاق ذكر ما هو من صفات الانفس بالاختلاف الذى بين ألوان الانسان فان واحدا منهم مع كثرة عددهم وصغر حجمهم خدودهم وقدودهم لا يشتبه بغيره والسموات مع كبرها وقلة عددها مشتبهات فى الصورة والثانى اختلاف كلامهم فان عربيين هما أخوان اذا تكلما بلغة واحدة يعرف أحدهما من الآخر حتى أن من يكون محجوبا عنهما لا يبصرهما يقول هذا صوت فلان وهذا صوت فلان الآخر وفيه حكمة بالغة وذلك لان الانسان يحتاج الى التمييز بين الاشخاص ليعرف صاحب الحق من غيره والعدو من الصديق ليحترز قبل وصول العدو اليه وليقبل على الصديق قبل أن يفوته الاقبال عليه وذلك قد يكون بالبصر فخلق اختلاف الصور وقد يكون بالسمع فخلق اختلاف الاصوات وأما اللمس والشم والذوق فلا يفيد فائدة فى معرفة العدو والصديق فلا يقع بها التمييز ومن الناس من قال المراد اختلاف اللغة كالعربية والفارسية والرومية وغيرها والاول أصح ثم قال تعالى لآيات للعالمين لما كان خلق السموات والارض لم يحتمل الاحتمالات البعيدة التى يقولها أصحاب الطبائع واختلاف الالوان كذلك واختلاف الاصوات كذلك قال للعالمين لعموم العلم بذلك ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ لما ذكر بعض العرضيات اللازمة وهو الاختلاف ذكر الاعراض المفارقة ومن جملتها النوم بالليل والحركة طلبا للرزق بالنهار فذكر من اللوازم أمرين ومن المفارقة أمرين وفى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قوله منامكم بالليل والنهار قيل أراد به النوم بالليل والنوم بالنهار وهى القيلولة ثم قال وابتغاؤكم أى فيهما فان كثيرا ما يكتسب الانسان بالليل وقيل أراد منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار فلف البعض بالبعض ويدل عليه آيات أخر منها قوله تعالى وجعلنا آية النهار

مبصرة

ولا يدخل تحت الوجود الا ما يتناهى وتقديم الوصف الاول لان التخلية قبل التحلية أولانه أهم بحسب الحال اذ المقام مقام بيان تأخير العقوبة عنهم بعد استيجابهم لها كما يعرب عنه قوله عز وجل (لو يؤاخذهم) أى لو يريد مؤاخذتهم (بما كسبوا) من المعاصى التى من جملتها ما حكى عنهم من مجادلتهم بالباطل واعراضهم عن آيات ربهم وعدم المبالاة بما اجترحوا من الموبقات (لعجل لهم العذاب) لاستيجاب أعمالهم لذلك وايثار المؤاخذة المنبئة عن شدة الاخذ بسرعة على التعذيب والعقوبة ونحوهما للايذان بأن النفى المستفاد من مقدم الشرطية متعلق بوصف السرعة كما ينبئ عنه تاليها وايثار صيغة الاستقبال وان كان المعنى على المضى لافادة أن انتفاء تعجيل العذاب لهم بسبب استمرار عدم ارادة المؤاخذة فان المضارع الواقع موقع الماضى يفيد استمرار انتفاء الفعل فيما مضى كما حقق فى موضعه (بل لهم موعد) اسم زمان هو يوم بدر أو يوم القيامة والجملة معطوفة على مقدر كأنه قيل لكنهم ليسوا بمؤاخذين بغتة (لن يجدوا) البتة (من دونه موئلا) منجى أوملجأ يقال وأل أى نجا ووأل اليه أى لجأ اليه (وتلك القرى) أى قرى عاد وثمود وأضرابها وهى مبتدأ على تقدير المضاف أى وأهل تلك القرى خبره قوله تعالى (أهلكناهم) أومفعول مضمر مفسر به (لما ظلموا) أى وقت ظلمهم كما فعلت قريش بما حكى عنهم من القبائح وترك المفعول اما لتعميم الظلم أولتنزيله منزلة اللازم أى لما فعلوا الظلم ولما اما حرف كما قال ابن عصفور واما ظرف استعمل للتعليل وليس المراد به الوقت المعين الذى عملوا فيه الظلم بل زمان ممتد من ابتداء الظلم الى آخره (وجعلنا لمهلكهم) (موعدا) أى وقتا معينا لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون أى عينا لاهلاكهم (موعدا) أى وقتا معينا لا محيد لهم عن ذلك وهذا

مبصرة لتبتغوا فضلا وقوله وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا ويكون التقدير هكذا ومن آياته منامكم وابتغاؤكم بالليل والنهار من فضله فأخر الابتغاء وقرنه فى اللفظ بالفضل اشارة الى أن العبد ينبغى أن لا يرى الرزق من كسبه وبحذقه بل يرى كل ذلك من فضل ربه ولهذا قرن الابتغاء بالفضل فى كثير من المواضع منها قوله تعالى فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله وقوله ولتبتغوا من فضله (المسئلة الثانية) قدم المنام بالليل على الابتغاء بالنهار فى الذكر لان الاستراحة مطلوبة لذاتها والطلب لا يكون الا لحاجة فلا يتعب الا محتاج فى الحال أوخائف من المآل (المسئلة الثالثة) قال آيات لقوم يسمعون وقال من قبل لقوم يتفكرون وقال للعالمين فنقول المنام بالليل والابتغاء من فضله يظن الجاهل أوالغافل انهما مما يقتضيه طبع الحيوان فلا يظهر لكل أحد كونهما من نعم الله فلم يقل آيات للعالمين ولان الامرين الاولين وهو اختلاف الالسنة والالوان من اللوازم والمنام والابتغاء من الامور المفارقة فالنظر اليهما لا يدوم لزوالهما فى بعض الاوقات ولا كذلك اختلاف الالسنة والالوان فانهما يدومان بدوام الانسان فجعلهما آيات عامة وأما قوله لقوم يتفكرون فاعلم أن من الاشياء ما يعلم من غير تفكر ومنها ما يكفى فيه مجرد الفكر ومنها ما لا يخرج بالفكر بل يحتاج الى موقف يوقف عليه ومرشد يرشد اليه فيفهمه اذا سمعه من ذلك المرشد ومنها ما يحتاج الى بعض الناس فى تفهمه الى أمثلة حسية كالاشكال الهندسية لكن خلق الازواج لا يقع لاحد أنه بالطبع الا اذا كان جامدا الفكر خامد الذكر فاذا تفكر علم كون ذلك الخلق آية وأما المنام والابتغاء فقد يقع لكثير أنهما من أفعال العباد وقد يحتاج الى مرشد بغير فكرة فقال لقوم يسمعون ويجعلون بالهم الى كلام المرشد ﴿ ثم قال تعالى ﴿ ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الارض بعد موتها ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ لما ذكر العرضيات التى للانفس اللازمة والمفارقة ذكر العرضيات التى للآفاق وقال يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء وفى الآية مسائل (احداها) لما قدم دلائل الانفس ههنا قدم العرضيات التى للانفس وأخر العرضيات التى للآفاق كما أخر دلائل الآفاق بقوله ومن آياته خلق السموات والارض (المسئلة الثانية) قدم لوازم الانفس على العوارض المفارقة حيث ذكر أولا اختلاف الالسنة والالوان ثم المنام والابتغاء وقدم فى الآفاق العوارض المفارقة على اللوازم حيث قال يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل وذلك لان الانسان متغير الحال والعوارض له غير بعيدة وأما اللوازم فيه فقريبة وأما السموات والارض فقليلة التغير فالعوارض فيها أغرب من اللوازم فقدم ما هو أعجب لكونه أدخل فى كونه آية وتبيانا فنقول الانسان يتغير حاله بالكبر والصغر والصحة والسقم وله صوت يعرف به لا يتغير وله لون يتميز به عن غيره وهو يتغير فى الاحوال وذلك لا يتغير وهو آية عجيبة والسماء والارض ثابتان لا يتغيران ثم يرى فى بعض الاحوال أمطارا هاطلة وبروقا هائلة والسماء كما كانت والارض كذلك فهو آية دالة على فاعل مختار يديم أمرا مع تغير المحل ويزيل أمرا مع ثبات المحل (المسئلة الثالثة) كما قدم السماء على الارض قدم على ما هو من السماء وهو البرق والمطر على ما هو من الارض وهو الانبات والاحياء (المسئلة الرابعة) كما أن فى انزال المطر وانبات الشجر منافع كذلك فى تقدم البرق والرعد على المطر منفعة وذلك لان البرق اذا لاح فالذى لا يكون تحت كن يخاف الابتلال فيستعد له والذى له صهريج أومصنع يحتاج الى الماء أوزرع يسوى مجارى الماء وأيضا العرب من أهل البوادى فلا يعلمون البلاد المعشبة ان لم يكونوا قد رأوا البروق اللائحة من جانب دون جانب واعلم أن

فوائد البرق وان لم تظهر للمقيمين بالبلاد فهي ظاهرة للبادين ولهذا جعل تقديم البرق على تنزيل الماء من السماء نعمة وآية وأما كونه آية فظاهر فان في السحاب ليس الا ماء وهواء وخروج النار منهما بحيث تحرق الجبال في غاية البعد فلا بد له من خالق هو الله قالت الفلاسفة السحاب فيه كثافة ولطافة بالنسبة الى الهواء والماء فالهواء ألطف منه والماء أكثف فاذا هبت ريح قوية تخرق السحاب بعنف فيحدث صوت الرعد ويخرج منه النار كمساس جسم جسما بعنف وهذا كما ان النار تخرج من وقوع الحجر على الحديد فان قال قائل الحجر والحديد جسمان صلبان والسحاب والريح جسمان رطبان فيقولون لكن حركة يد الانسان ضعيفة وحركة الريح قوية تقلع الأشجار فنقول لهم البرق والرعد أمران حادثان لا بد لهما من سبب وقد علم بالبرهان كون كل حادث من الله فهما من الله ثم انا نقول هب أن الامر كما تقولون فهبوب تلك الريح القوية من الامور الحادثة العجيبة لا بد له من سبب وينتهي الى واجب الوجود فهو آية للعاقل على قدرة الله كيفما فرضتم ذلك (المسألة الخامسة) قال ههنا لقوم يعقلون لما كان حدوث الولد من الوالد أمرا عاديا مطردا قليل الاختلاف كان يتطرق الى الاوهام العامية أن ذلك بالطبيعة لان المطرد أقرب الى الطبيعة من المختلف لكن البرق والمطر ليس أمرا مطردا غير متخلف اذ يقع بسلدة دون بلدة وفي وقت دون وقت وتارة تكون قوية وتارة تكون ضعيفة فهو أظهر في العقل دلالة على الفاعل المختار فقال هو آية لمن له عقل اذا لم يتفكر تفكرا تاما ثم قال تعالى ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون﴾ لما ذكر من العوارض التي للسماء والارض بعضها ذكر من لوازمها البعض وهي قيامها فان الارض لثقلها يتعجب الانسان من وقوفها وعدم نزولها وكون السماء يتعجب من علوها وثباتها من غير عمد وهذا من اللوازم فان الارض لا تخرج عن مكانها الذي هي فيه والسماء كذلك لا تخرج عن مكانها الذي هي فيه (فان قيل) انها تتحرك في مكانها كالرحى ولكن اتفق العقلاء على انها في مكانها لا تخرج عنه وهذه آية ظاهرة لان كونهما في الموضع الذي هما فيه وعلى الموضع الذي هما عليه من الامور الممكنة وكونهما في غير ذلك الموضع جائز فكان يمكن أن يخرجا منه فلما لم يخرجا كان ذلك ترجيحا للجائز على غيره وذلك لا يكون الا بفاعل مختار والفلاسفة قالوا كون الارض في المكان الذي هي فيه طبيعي لها لانها أثقل الاشياء والثقيل يطلب المركز والخفيف يطلب المحيط والسماء كونها في مكانها ان كانت ذات مكان فلذاتها فقيامهما فيهما بطبيعتهما (فنقول) قد تقدم مرارا ان القول بالطبيعة باطل والذي نزيده ههنا انكم وافقتمونا بأن ما جاز على أحد المثلين جاز على المثل الآخر لكن مقعر الفلك لا يخالف محدبه في الطبع فيجوز حصول مقعره في موضع محدبه وذلك بالخروج والزوال فاذن الزوال عن المكان ممكن لا سيما على السماء الدنيا فانها محددة الجهات على مذهبكم أيضا والارض كانت تجوز عليها الحركة الدورية كما تقولون على السماء فعدمها وسكونها ليس الا بفاعل مختار وفي الآية مسائل (المسألة الاولى) ذكر الله من كل باب أمرين أما من الانفس فقوله خلق لكم استدل بخلق الزوجين ومن الآفاق السماء والارض في قوله خلق السموات والارض ومن لوازم الانسان اختلاف اللسان واختلاف الالوان ومن عوارضه المنام والابتغاء ومن عوارض الآفاق البروق والامطار ومن لوازمها قيام السماء وقيام الارض لان الواحد يكفي للاقرار بالحق والثاني يفيد الاستقرار بالحق ومن هذا اعتبر شهادة شاهدين فان قول أحدهما يفيد الظن وقول الآخر يفيد تأكيده ولهذا قال ابراهيم عليه السلام بلى ولكن ليطمئن قلبي (المسألة الثانية) قوله بأمره أي بقوله قوما أو بارادته قيامهما وذلك لان الامر عند المعتزلة موافق للارادة

استشهاد على ما فعل بقريش من تعيين الموعد ليتنبهوا لذلك ولا يغتروا بتأخر العذاب وقرئ بضم الميم وفتح اللام أي اهلاكهم وبفتحهما ﴿واذ قال موسى﴾ نصب باضمار فعل أي اذكر وقت قوله عليه الصلاة والسلام ﴿لفتاه﴾ وهو يوشع بن نون بن افرايم بن يوسف عليه السلام سمي فتاه اذا كان يخدمه ويتبعه وقيل كان يتعلم منه ويسمى التلميذ فتى وان كان شيخا ولعل المراد بتذكيره عقيب بيان أن لكل أمة موعدا تذكير ما في القصة من موعد الالاقاة مع ما فيها من سائر المنافع الجليلة ﴿لا أبرح﴾ من برح الناقص كزال يزال أي لا أزال أسير فحذف الخبر اعتمادا على قرينة الحال اذا كان ذلك عند التوجه الى السفر واتكالا على ما يعقبه من قوله ﴿حتى أبلغ﴾ فان ذلك غاية تستدعي ذا غاية تؤدي اليها ويجوز أن يكون أصل الكلام لا يبرح مسيري حاصلا حتى أبلغ فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه فانقلب الضمير البارز المجرور والمحل مرفوعا مستكنا والفعل من صيغة الغيبة الى التكلم ويجوز أن يكون من برح التام كزال يزول أي لا أفارق ما أنا بصدده حتى أبلغ ﴿مجمع البحرين﴾ هو ملتقى بحر فارس والروم مما يلي المشرق وقيل طنجة وقيل هما الكر والرس بارمينية وقيل افريقية وقرئ بكسر الميم كمشرق ﴿أو أمضي حقبا﴾ أسير زمانا طويلا أتيقن معه فوات المطلب والحقب الدهر أو ثمانون سنة وكان منشأ هذه العزيمة أن موسى عليه السلام لما ظهر على مصر مع بني اسرائيل واستقروا بها بعد هلاك القبط أمره الله عز وجل أن يذكر قومه النعمة فقام فيهم خطيبا بخطبة بديعة رقت بها القلوب وذرفت العيون فقالوا له من أعلم الناس قال أنا فعتب الله تعالى عليه اذ لم يرد العلم اليه عز وجل فأوحى اليه بل أعلم منك عبد لي عند مجمع البحرين وعندنا

وعندنا ليس كذلك ولكن النزاع في الامر الذي للتكليف لا في الامر الذي للتكوين فانا لا ننازعهم في أن قوله كن وكونوا ويا نار كوني موافق للارادة (المسألة الثالثة) قال ههنا ومن آياته أن تقوم وقال قبله ومن آياته يريكم ولم يقل أن يريكم وان قال بعض المفسرين ان أن مضمر هنالك معناه من آياته أن يريكم ليصير كالمصدر بأن وذلك لان القيام لما كان غير متغير أخرج الفعل بأن عن الفعل المستقبل وجعله مصدرا لان المستقبل ينبئ عن التجدد وفي البرق لما كان ذلك من الامور التي تتجدد في زمان دون زمان ذكره بلفظ المستقبل ولم يذكر معه شيأ من الحروف المصدرية (المسألة الرابعة) ذكر ستة دلائل وذكر في أربعة منها ان في ذلك لآيات ولم يذكر في الاول وهو قوله ومن آياته أن خلقكم من تراب ولا في الآخر وهو قوله ومن آياته أن تقوم السماء والارض أما في الاول فلان قوله بعده ومن آياته أن خلق لكم أيضا دليل الانفس فخلق الانفس وخلق الازواج من باب واحد على ما بينا غير انه تعالى ذكر من كل باب أمرين للتقرير بالتكرير فلما قال ان في ذلك لآيات كان عائدا اليهما واما في قيام السماء والارض فنقول في الآيات السماوية ذكر انها آيات للعالمين ولقوم يعقلون لظهورها فلما كان في أول الامر ظاهرا ففي آخر الامر بعد سرد الدلائل يكون أظهر فلم يميز أحدا عن أحد في ذلك وذكر ما هو مدلوله وهو قدرته على الاعادة * وقال ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون وفيه مسائل (المسألة الاولى) ما وجه العطف بثم وبم تعلق ثم * فنقول معناه والله أعلم انه تعالى اذا بين لكم كمال قدرته بهذه الآيات بعد ذلك يخبركم ويعلمكم انه اذا قال للعظام الرميمة اخرجوا من الاجداث تخرجون أحياء (المسألة الثانية) قول القائل دعا فلان فلانا من الجبل يحتمل أن يكون الدعاء من الجبل كما يقول القائل يا فلان اصعد الى الجبل فيقال دعاه من الجبل ويحتمل أن يكون المدعو يدعى من الجبل كما يقول القائل يا فلان انزل من الجبل فيقال دعاه من الجبل ولا يخفى على العاقل أن الدعاء لا يكون من الارض اذا كان الداعي هو الله فالمدعو يدعى من الارض يعني أنتم تكونون في الارض فيدعوكم منها فتخرجون (المسألة الثالثة) قوله تعالى اذا أنتم قد بينا أنه للمفاجأة يعني يكون ذلك بكن فيكون * (المسألة الرابعة) قال ههنا اذا أنتم تخرجون وقال في خلق الانسان أولا ثم اذا أنتم بشر تنتشرون فنقول هنالك يكون خلق وتقدير وتدريج وتراخ حتى يصير التراب قابلا للحياة فينفخ فيه روحه فاذا هو بشر وأما في الاعادة لا يكون تدريج وتراخ بل يكون نداء وخروج فلم يقل ههنا ثم * ثم قال تعالى (وله من في السموات والارض كل له قانتون) لما ذكر الآيات وكان مدلولها القدرة على الحشر التي هي الاصل الآخر والوحدانية التي هي الاصل الاول أشار اليها بقوله وله من في السموات والارض يعني لا شريك له أصلا لان كل من في السموات وكل من في الارض ونفس السموات والارض له وملكه فكل له منقادون قانتون والشريك يكون منازعا مماثلا فلا شريك له أصلا * ثم ذكر المدلول الآخر فقال تعالى (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) أي في نظركم الاعادة أهون من الابداء لان من يفعل فعلا أولا يصعب عليه ثم اذا فعل بعد ذلك مثله يكون أهون وقيل المراد وهو هين عليه كما قيل في قول القائل الله أكبر أي كبير وقيل المراد هو أهون عليه أي الاعادة أهون على الخالق من الابداء لان في البدء يكون علقة ثم مضغة ثم لحما ثم عظاما ثم يخلق بشرا ثم يخرج طفلا يترعرع الى غير ذلك فيصعب عليه ذلك كله وأما في الاعادة فيخرج بشرا سويا بكن فيكون أهون عليه والوجه الاول أصح وعليه نتكلم فنقول هو أهون يحتمل أن يكون ذلك لان في البدء خلق الاجزاء وتأليفها والاعادة تأليف ولا شك أن الامر الواحد أهون من أمرين ولا يلزم من هذا أن يكون غيره فيه صعوبة وانمين هذا

وهو الخضر عليه السلام وكان في أيام افريذون قبل موسى عليه السلام وكان على مقدمة ذي القرنين الاكبر وبقي الى أيام موسى وقيل ان موسى عليه السلام سأل ربه أي عبادك أحب اليك قال الذي يذكرني ولا ينساني قال فأي عبادك أقضى قال الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى قال فأي عبادك أعلم قال الذي يبتغي علم الناس الى علمه عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى فقال ان كان في عبادك من هو أعلم مني فدلني عليه قال أعلم منك الخضر قال أين أطلبه قال على ساحل البحر عند الصخرة قال يا رب كيف لي به قال تأخذ حوتا في مكتل فحيثما فقدته فهو هنالك فأخذ حوتا فجعله في مكتل فقال لفتاه اذا فقدت الحوت فأخبرني فذهبا يمشيان (فلما بلغا) الفاء فصيحة كما أشير اليه (مجمع بينهما) أي مجمع البحرين وبينهما ظرف أضيف اليه اتساعا أو بمعنى الوصل (نسيا حوتهما) الذي جعل فقدانه أمارة وجدان المطلوب أي نسيا تفقد أمره وما يكون منه وقيل نسي يوشع أن يقدمه وموسى عليه السلام أن يأمره فيه بشئ روي أنهما لما بلغا مجمع البحرين وفيه الصخرة وعين الحياة التي لا يصيب ماؤها ميتا الا حيي وضعا رؤسهما على الصخرة فناما فلما أصاب الحوت برد الماء وروحه عاش وقد كانا أكلا منه وكان ذلك بعدما استيقظ يوشع عليه السلام وقيل توضأ عليه الصلاة والسلام من تلك العين فانتضح الماء على الحوت فعاش فوقع في الماء (فاتخذ سبيله في البحر سربا) مسلكا كالسرب وهو النفق قيل أمسك الله عز وجل جرية الماء على الحوت فصار كالطاق عليه معجزة لموسى أو للخضر عليهما السلام وانتصاب سربا على أنه مفعول ثان لاتخذ وفي البحر حال منه أو من السبيل ويجوز أن يتعلق باتخذ (فلما جاوزا) أي مجمع البحرين الذي

فنقول الهين هو ما لا يتعب فيه الفاعل والأهون ما لا يتعب فيه الفاعل بالطريق الأولى فاذا قال قائل ان الرجل القوي لا يتعب من نقل شعيرة من موضع الى موضع وسلم السامع له ذلك فاذا قال فكونه لا يتعب من نقل خردلة يكون أولى يكون ذلك كلاما معقولا مبقى على حقيقته ﴿ثم قال تعالى ﴿وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ أي قولنا هو أهون عليه يفهم منه أمران (أحدهما) هو ما يكون في الآخر تعب كما يقال ان نقل الخفيف أهون من نقل الثقيل (والآخر) هو ما ذكرنا من الأولوية من غير لزوم تعب في الآخر فقوله وله المثل الأعلى اشارة الى أن كونه أهون بالمعنى الثاني لا يفهم منه الأول ﴿ وههنا فائدة ذكرها صاحب الكشاف وهي ان الله تعالى قال في موضع آخر هو على هين وقال ههنا وهو أهون عليه فقدم هنالك كلمة على وأخرها ههنا وذلك لأن المعنى الذي قال هنالك انه هين هو خلق الولد من العجوز وانه صعب على غيره وليس بهين الا عليه فقال هو على هين يعني لا على غيري وأما ههنا المعنى الذي ذكر انه أهون هو الاعادة والاعادة على كل مبدئ أهون فقال وهو أهون عليه لا على سبيل الحصر فالتقديم هنالك كان للحصر ﴿ قوله تعالى وله المثل الأعلى في السموات والأرض على الوجه الأول وهو قولنا أهون عليه بالنسبة اليكم له معنى وعلى الوجه الذي ذكرناه له معنى اما على الوجه الأول فلما قال وله المثل الأعلى وكان ذلك مثلا مضروبا لمن في الأرض من الناس فمفيد ذلك أن له المثل الأعلى من أمثلة الناس وهم أهل الأرض ولا يفيد أن له المثل الأعلى من أمثلة الملائكة فقال وله المثل الأعلى في السموات والأرض يعني هذا مثل مضروب لكم وله المثل الأعلى من هذا المثل ومن كل مثل يضرب في السموات وأما على الوجه الثاني فمعناه أن له المثل الأعلى أي فعله وان شبه بفعلكم ومثل به لكن ذاته ليس كمثله شيء فله المثل الأعلى وهو منقول عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقيل المثل الأعلى أي الصفة العليا وهي لا اله الا الله وقوله تعالى وهو العزيز الحكيم أي كامل القدرة على الممكنات شامل العلم بجميع الموجودات فيعلم الأجزاء في الأمكنة ويقدر على جمعها وتأليفها ﴿ ثم قال تعالى ﴿ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون﴾ لما بين الاعادة والقدرة عليها بالمثل بعد الدليلين بين الوحدانية أيضا بالمثل بعد الدليل ومعناه أن من يكون له مملوك لا يكون شريكه في ماله ولا يكون له حرمة مثل حرمة سيده فكيف يجوز أن يكون عباد الله شركاء له وكيف لا يجوز أن يكون لهم عظمة مثل عظمة الله تعالى حتى يعبدوا وفي الآية مسائل (المسألة الأولى) ينبغي أن يكون بين المثل والممثل به مشابهة ما ثم ان كان بينهما مخالفة فقد يكون مؤكدا لمعنى المثل وقد يكون موهنا له وههنا وجه المشابهة معلوم وأما المخالفة فموجودة أيضا وهي مؤكدة وذلك من وجوه (أحدها) قوله من أنفسكم يعني ضرب لكم مثلا من أنفسكم مع حقارتها ونقصانها وعجزها وقاس نفسه عليكم مع عظمها وكمالها وقدرتها (وثانيها) قوله مما ملكت أيمانكم يعني عبيدكم لكم عليهم ملك اليد وهو طار قابل للنقل والزوال أما النقل فبالبيع وغيره والزوال بالعتق ومملوك الله لا خروج له من ملك الله بوجه من الوجوه فاذا لم يجز أن يكون مملوك عبيدكم شريكا لكم مع انه يجوز أن يصير مثلكم من جميع الوجوه بل هو في الحال مثلكم في الآدمية حتى انكم ليس لكم تصرف في روحه وآدميته بقتل وقطع وليس لكم منعهم من العبادة وقضاء الحاجة فكيف يجوز أن يكون مملوك الله الذي هو مملوكه من جميع الوجوه شريكا له (وثالثها) قوله من شركاء فيما رزقناكم يعني الذي لكم هو في الحقيقة ليس لكم بل هو من الله ومن رزقه والذي من الله فهو في الحقيقة له فاذا لم يجز أن يكون لكم شريك في مالكم من حيث الاسم

فكيف

بجعله موعدا للإلقاء قيل أدلجا وسارا الليلة والغد الى الظهر وألقي على موسى عليه السلام الجوع فعند ذلك (قال لفتاه آتنا غداءنا) أي ما نتغدى به وهو الحوت كما ينبئ عنه الجواب (لقد لقينا من سفرنا هذا) اشارة الى مسارا به بعد مجاوزة الموعد (نصبا) تعبا واعياء قيل لم ينصب ولم يجع قبل ذلك والجملة في محل التعليل للأمر بإيتاء الغداء اما باعتبار أن النصب انما يعتري بسبب الضعف الناشئ عن الجوع واما باعتبار ما في أثناء التغدي من استراحة ما (قال) أي فتاه عليه السلام (أرأيت اذ أوينا الى الصخرة) أي التجأنا اليها وأقمنا عندها وذكر الايواء اليها مع أن المذكور فيما سبق مرتين بلوغ مجمع البحرين لزيادة تعيين محل الحادثة فان المجمع محل متسع لا يمكن تحقيق المراد المذكور بنسبة الحادثة اليه ولتمهيد العذر فان الايواء اليها والنوم عندها مما يؤدي الى النسيان عادة والرؤية مستعارة للمعرفة التامة والمشاهدة الكاملة ومراده بالاستفهام تعجيب موسى عليه السلام مما اعتراه هناك من النسيان مع كون ما شاهده من العظائم التي لا تكاد تنسى وقد جعل فقدانه علامة لوجدان المطلوب وهذا أسلوب معتاد فيما بين الناس يقول أحدهم لصاحبه اذا نابه خطب أرأيت ما نابني يريد بذلك تهويله وتعجيب صاحبه منه وانه مما لا يعهد وقوعه لا استخباره عن ذلك كما قيل والمفعول محذوف اعتمادا على ما يدل عليه من قوله عز وجل (فاني نسيت الحوت) وفيه تأكيد للتعجيب وتربية لاستعظام المنسي وايقاع النسيان على اسم الحوت دون ضمير الغداء مع أنه المأمور بإتيانه للتنبيه من أول الأمر على أنه ليس من قبيل نسيان المسافر زاده في المنزل وان ما شاهده ليس من قبيل الأحوال المتعلقة بالغداء من حيث هو غداء وطعام بل

فكيف يجوز أن يكون له شريك فيما له من حيث الحقيقة وقوله فأنتم فيه سواء أى هل أنتم وعبيدكم فى شىء مما تملكون سواء ليس كذلك فلا يكون لله شريك فى شىء مما يملكه لكن كل شىء فهو لله فما تدعون الهيته لا يملك شيأ أصلا ولا مثقال ذرة من خردل فلا يعبد لعظمته ولا لمنفعة تصل اليكم منه وأما قولكم هؤلاء شفعاؤنا فليس كذلك لان المملوك هل له عندكم حرمة كحرمة الاحرار واذا لم يكن للمملوك مع مساواته اياكم فى الحقيقة والصفة عندكم حرمة فكيف يكون حال المماليك الذين لا مساواة بينهم وبين المالك بوجه من الوجوه والى هذا أشار بقوله تخافونهم كخيفتكم أنفسكم (المسألة الثانية) بهذا نفى جميع وجوه حسن العبادة عن الغير لان الغير اذا لم يصلح والتشرك وليس لهم ملك ولا ملك فلا عظمة لهم حتى يعبدوا لعظمتهم ولا يرتجى منهم منفعة لعدم ملكهم حتى يعبدوا النفع وليس لهم قوة ولا قدرة لانهم عبيد والعبيد المملوك لا يقدر على شىء فلا تخافوهم كما تخافون أنفسكم فكيف تخافونهم خوفا أكثر من خوفكم بعضا من بعض حتى تعبدوهم للخوف ثم قال تعالى كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون أى نبينها بالدلائل والبراهين القطعية والامثلة والمحكيات الاقناعية لقوم يعقلون يعنى لا يخفى الامر بعد ذلك الا على من لا يكون له عقل ﴿ ثم قال تعالى ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين﴾ أى لا يجوز أن يشرك بالمالك مملوكه ولكن الذين أشركوا اتبعوا أهواءهم من غير علم وأثبتوا شركاء من غير دليل ثم بين أن ذلك بارادة الله بقوله فمن يهدى من أضل الله أى هؤلاء أضلهم الله فلا هادى لهم فينبغى أن لا يحزنك قولهم * وههنا لطيفة وهى ان قوله فمن يهدى من أضل الله مقول لما تقدم وذلك لانه لما قال لان الله لا شريك له بوجه ما ثم قال تعالى بل المشركون يشركون من غير علم يقال فيه أنت أثبت لهم تصرفا على خلاف رضاه والسيد العزيز هو الذي لا يقدر عبده على تصرف يخالف رضاه فقال ان ذلك ليس باستقلاله بل بارادة الله وما لهم من ناصرين لما تركوا الله تركهم الله ومن أخذوه لا يغنى عنهم شيأ فلا ناصر لهم ﴿ ثم قال تعالى ﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ أى اذا تبين الامر وظهرت الوحدانية ولم يهتد المشرك فلا تلتفت أنت اليهم وأقم وجهك للدين وقوله فأقم وجهك للدين أى أقبل بكلك على الدين عبر عن الذات بالوجه كما قال تعالى كل شىء هالك الا وجهه أى ذاته بصفاته وقوله حنيفا أى مائلا عن كل ما عداه أى أقبل على الدين ومل عن كل شىء أى لا يكن فى قلبك شىء آخر فتعود اليه وهذا قريب من معنى قوله ولا تكونوا من المشركين ثم قال تعالى فطرت الله أى الزم فطرة الله وهى التوحيد فان الله فطر الناس عليه حيث أخذهم من ظهر آدم وسألهم ألست بربكم فقالوا بلى وقوله تعالى لا تبديل لخلق الله فيه وجوه قال بعض المفسرين هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم عن الحزن حيث لم يؤمن قومه فقال هم خلقوا للشقاوة ومن كتب شقيا لا يسعد وقيل لا تبديل لخلق الله أى الوحدانية مترسخة فيهم لا تغيرها حتى ان سألتهم من خلق السموات والارض يقولون الله لكن الايمان الفطرى غير كاف ويحتمل أن يقال خلق الله الخلق لعبادته وهم كلهم عبيده لا تبديل لخلق الله أى ليس كونهم عبيدا مثل كون المملوك عبدا للانسان فانه ينتقل عنه الى غيره ويخرج عن ملكه بالعتق بل لا خروج للخلق عن العبادة والعبودية وهذا لبيان فساد قول من يقول العبادة لتحصيل الكمال والعبد يكمل بالعبادة فلا يبقى عليه تكليف وقول المشركين ان الناقص لا يصلح لعبادة الله وانما الانسان عبد الكواكب والكواكب عبيد الله وقول النصارى ان عيسى كان يحل الله فيه وصار الها فقال لا تبديل لخلق الله بل كلهم عبيد لا خروج لهم عن ذلك ﴿ ثم قال تعالى ﴿ذلك الدين القيم﴾ الذى لا عوج فيه ﴿ولكن أكثر الناس

من حيث هو حوت كسائر الحيتان مع زيادة أى نسيت أن أذكر لك أمره وما شاهدت منه من الامور العجيبة (وما أنسانيه الا الشيطان) بوسوسته الشاغلة عن ذلك وقوله تعالى (أن أذكره) بدل اشتمال من الضمير أى ما أنسانى أن أذكره لك وفى تعليق الانساء بضمير الحوت أولا وبذكره ثانيا على طريق الابدال المنبئ عن تنحية المبدل منه اشارة الى أن متعلق النسيان أيضا ليس نفس الحوت بل ذكر أمره وقرئ أن أذكره وايثار أن أذكره على المصدر للمبالغة فان مدلوله نفس الحدث عند وقوعه والحال وان كانت غريبة لا يعهد نسيانها لكنه لما تعود بمشاهدة أمثالها عند موسى عليه السلام وألفها قل اهتمامه بالمحافظة عليها (واتخذ سبيله فى البحر عجبا) بيان لطرف من أمر الحوت منبئ عن طرف آخر منه وما بينهما اعتراض قدم عليه للاعتناء بالاعتذار كأنه قيل حيى واضطرب ووقع فى البحر واتخذ سبيله فيه سبيلا عجبا فعجبا ثانى مفعولى اتخذ والظرف حال من أولهما أو ثانيهما أو هو المفعول الثانى وعجبا صفة مصدر محذوف أى اتخاذا عجبا وهو كون مسلكه كالطاق والسرب أو مصدر فعل محذوف أى أتعجب منه عجبا وقد قيل انه من كلام موسى عليه الصلاة والسلام وليس بذاك (قال) أى موسى عليه الصلاة والسلام (ذلك) الذى ذكرت من أمر الحوت (ما كنا نبغ) وقرئ باثبات الياء والضمير العائد الى الموصول محذوف أصله نبغيه أى نطلبه لكونه أمارة للفوز بالمرام (فارتدا) أى رجعا (على آثارهما) طريقهما الذى جاآ منه (قصصا) يقصان قصصا أى يتبعان آثارهما اتباعا أو مقتصين حتى أتيا الصخرة (فوجدا عبدا من عبادنا) التنكير للتفخيم والاضافة للتشريف والجمهور على أنه الخضر واسمه بليا بن

ملكان وقيل اليسع وقيل الياس عليهم الصلاة والسلام (آتيناه رحمة من عندنا) هي الوحي والنبوة كما يشعر به تنكير الرحمة واختصاصها بجناب الكبرياء (وعلمناه من لدنا علما) خاصا لا يكتنه كنهه ولا يقادر قدره وهو علم الغيوب (قال له موسى) استئناف مبني على سؤال نشأ من السياق كأنه قيل فماذا جرى بينهما من الكلام فقيل قال له موسى (هل أتبعك على أن تعلمن) استئذانا منه في اتباعه له على وجه التعلم (مما علمت رشدا) أي علما ذا رشد أرشد به في ديني والرشد إصابة الخير وقرئ بفتحتين وهو مفعول تعلمن ومفعول علمت محذوف وكلاهما منقول من علم المتعدي إلى مفعول واحد ويجوز كونه علة لاتبعك أو مصدرا بإضمار فعله ولا ينافي نبوته وكونه صاحب شريعة أن يتعلم من نبي آخر ما لا تعلق له بأحكام شريعته من أسرار العلوم الخفية ولقد راعى في سوق الكلام غاية التواضع معه عليهما السلام (قال) أي الخضر (إنك لن تستطيع معي صبرا) نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد كأنه مما لا يصح ولا يستقيم وعلله بقوله (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا) إيذانا بأنه يتولى أمورا خفية المدار منكرة الظواهر والرجل الصالح لا سيما صاحب الشريعة لا يتمالك أن يشمئز عند مشاهدتها وفي صحيح البخاري قال الخضر يا موسى إني على علم من علم الله تعالى علمنيه لا تعلمه وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه وخبرا تمييز أي لم يحط به خبرك (قال) البحر
موسى عليه الصلاة والسلام (ستجدني إن شاء الله صابرا) معك غير معترض عليك وتوسيط الاستثناء بين مفعولي الوجدان لكمال الاعتناء بالتيمن ولئلا يتوهم تعلقه بالصبر (ولا أعصي لك أمرا) عطف على صابرا أي ستجدني صابرا وغير عاص وفي وعد هذا الوجدان

لا يعلمون﴾ أن ذلك هو الدين المستقيم ۞ ثم قال تعالى ﴿منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلوة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون﴾ لما قال حنيفا أي مائلا عن غيره قال منيبين إليه أي مقبلين عليه والخطاب في قوله فأقم وجهك مع النبي والمراد جميع المؤمنين وقوله واتقوه يعني إذا أقبلتم عليه وتركتم الدنيا فلا تأمنوا فتتركوا عبادته بل خافوه وداوموا على العبادة وأقيموا الصلاة أي كونوا عابدين عند حصول القربة كما كنتم قبل ذلك ثم إنه تعالى قال ولا تكونوا من المشركين قال المفسرون يعني ولا تشركوا بعد الإيمان أي ولا تقصدوا بذلك غير الله وههنا وجه آخر وهو أن الله بقوله منيبين أثبت التوحيد الذي هو مخرج عن الإشراك الظاهر وبقوله ولا تكونوا من المشركين أراد إخراج العبد عن الشرك الخفي أي لا تقصدوا بعملكم إلا وجه الله ولا تطلبوا به إلا رضاء الله فإن الدنيا والآخرة تحصل وإن لم تطلبوها إذا حصل رضا الله وعلى هذا فقوله من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا يعني لم يجتمعوا على الإسلام وذهب كل أحد إلى مذهب ويحتمل أن يقال وكانوا شيعا يعني بعضهم عبد الله للدنيا وبعضهم للجنة وبعضهم للخلاص من النار وكل واحد بما في نظره فرح وأما المخلص فلا يفرح بما يكون لديه وإنما يكون فرحه بأن يحصل عند الله ويقف بين يديه وذلك لأن كل ما لدينا نافد لقوله تعالى ما عندكم ينفد وما عند الله باق فلا مطلوب لكم فيما لديكم حتى تفرحوا به وإنما المطلوب ما لدى الله وبه الفرح كما قال تعالى بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله جعلهم فرحين بكونهم عند ربهم وبكون ما أوتوا من فضله الذي لا نفاد له ولذلك قال تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا لا بما عندهم فإن كل ما عند العبد فهو نافد أما في الدنيا فظاهر وأما في الآخرة فلأن ما وصل إلى العبد من الالتذاذ بالمأكول والمشروب فهو يزول ولكن الله يجدد له مثله إلى الأبد من فضله الذي لا نفاد له فالذي لا نفاد له هو فضله ۞ ثم قال تعالى ﴿وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون﴾ لما بين التوحيد بالدليل وبالمثل بين أن لهم حالة يعرفون بها وإن كانوا ينكرونها في وقت وهي حالة الشدة فإن عند انقطاع رجائه عن الكل يرجع إلى الله ويجد نفسه محتاجة إلى شيء ليس كهذه الأشياء طالبة به النجاة ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون يعني إذا خلصناه يشرك بربه ويقول تخلصت بسبب اتصال الكوكب الفلاني بفلان وبسبب الصنم الفلاني لا بل ينبغي أن لا يعتقد أنه تخلص بسبب فلان إذا كان ظاهرا فإنه شرك خفي مثاله رجل في بحر أدركه الغرق فيهيئ الله له لوحا يسوقه إليه ريح فيتعلق به وينجو فيقول تخلصت بلوح أو رجل أقبل عليه سبع فيرسل الله إليه رجلا فيعينه فيقول تخلصت بزيد فهذا إذا كان عن اعتقاد فهو شرك خفي وإن كان يعني أن الله خلصني على يد زيد فهو أخفى وفيه مسائل (الأولى) قوله تعالى أذاقهم فيه لطيفة وذلك لأن الذوق يقال في القليل فإن في العرف من أكل مأكولا كثيرا لا يقول ذقت ويقال في النفي ما ذقت في بيته طعاما نفيا للقليل ليلزم نفي الكثير بالأولى ثم إن تلك الرحمة لما كانت خالية منقطعة ولم تكن مستمرة في الآخرة إذ لهم في الآخرة عذاب قال أذاقهم ولهذا قال في العذاب ذوقوا مس سقر ذوقوا ما كنتم تعملون ذق إنك أنت العزيز الكريم لأن عذاب الله الواصل إلى العبد بالنسبة إلى الرحمة الواصلة إلى عبيد آخرين في غاية القلة (المسألة الثانية) قوله تعالى منه أي من الضر وفي هذا التخصيص ما ذكرنا من الفائدة وهي أن الرحمة غير مطلقة لهم إنما هي عن ذلك الضر وحده وأما الضر المؤخر فلا يذوقون منه رحمة (المسألة الثالثة) قال ههنا إذا فريق منهم وقال في العنكبوت فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ولم يقل فريق وذلك لأن المذكور هناك ضر معين وهو ما يكون من هول

من المبالغة ما ليس في الوعد بنفس الصبر وترك العصيان أو على ستجدني فلا محل له من الاعراب والاول هو الأولى لما عرفته ولظهور تعلقه بالاستثناء حينئذ وفيه دليل على أن أفعال العباد بمشيئة الله سبحانه وتعالى (قال فان اتبعتني) أذن له في الاتباع بعد اللتيا والتي والفاء لتفريع الشرطية على ما مر من التزام موسى عليه الصلاة والسلام للصبر ٥٦٣ والطاعة (فلا تسألني عن شئ) تشاهده من أفعالي أي لا تفاتحني بالسؤال عن حكمته فضلا عن المناقشة والاعتراض (حتى أحدث لك منه ذكرا) أي حتى أبتدئ ببيانه وفيه ايذان بأن كل ما صدر عنه فله حكمة وغاية حميدة البتة وهذا من أدب المتعلم مع العالم والتابع مع المتبوع وقرئ فلا تسألني بالنون المثقلة (فانطلقا) أي موسى والخضر عليهما الصلاة والسلام على الساحل يطلبان السفينة وأما يوشع فقد صرفه موسى عليه الصلاة والسلام الى بني اسرائيل قيل انهما مرا بسفينة فكلما أهلها فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نول (حتى اذا ركبا في السفينة) استعمال الركوب في أمثال هذه المواقع بكلمة في مع تجريده عنها في مثل قوله عز وجل لتركبوها وزينة على ما يقتضيه تعديته بنفسه لما أشرنا اليه بقوله تعالى وقال اركبوا فيها الا ما قيل من أن في ركوبها معنى الدخول

البحر والخلاص منه بالنسبة الى الخلق قليل والذي لا يشرك به بعد الخلاص فرقة منهم في غاية القلة فلم يجعل المشركين فريقا لقلة من خرج من المشركين وأما المذكور ههنا الضر مطلقا فيتناول ضر البر والبحر والامراض والاهوال والمتخلص من أنواع الضر خلق كثير بل جميع الناس يكونون قد وقعوا في ضر ما وتخلصوا منه والذي لا يبقى بعد الخلاص مشركا من جميع الانواع اذا جمع فهو خلق عظيم وهو جميع المسلمين فانهم تخلصوا من ضر ولم يبقوا مشركين وأما المسلمون فلم يتخلصوا من ضر البحر بأجمعهم فلما كان الناجي من الضر من المؤمنين جمعا كثيرا جعل الباقي فريقا ﴿ثم قال تعالى ﴿ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ قد تقدم تفسيره في العنكبوت بقي بيان فائدة الخطاب ههنا في قوله فتمتعوا وعدمه هنالك في قوله وليتمتعوا فسوف يعلمون فنقول لما كان الضر المذكور هنالك ضرا واحدا جاز أن لا يكون في ذلك الموضع من المخلصين من ذلك الضر أحد فلم يخاطب ولما كان المذكور ههنا مطلق الضر ولا يخلو موضع من المخلصين عن الضر فالحاضر يصح خطابه بأنه منهم فخاطب ﴿ثم قال تعالى ﴿أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون﴾ لما سبق قوله تعالى بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم أي المشركون يقولون ما لا علم لهم به بل هم عالمون بخلافه فانهم وقت الضر يرجعون الى الله حقق ذلك بالاستفهام بمعنى الانكار أي ما أنزلنا بما يقولون سلطانا وفيه مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ أم للاستفهام ولا يقع الا متوسطا كما قال قائلهم

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل ٭ وبين النقا آأنت أم أم سالم

فالاستفهام الذي قبله مفهوم تقديره اذا ظهرت هذه الحجج على عنادهم فماذا نقول أهم يتبعون الاهواء من غير علم أم لهم دليل على ما يقولون وليس الثاني فتعين الاول ﴿المسألة الثانية﴾ قوله فهو يتكلم مجاز كما يقال ان كتابه لينطق بكذا وفيه معنى لطيف وهو ان المتكلم من غير دليل كأنه لا كلام له لان الكلام هو المسموع وما لا يقبل فكأنه لم يسمع فكأن المتكلم لم يتكلم به وما لا دليل عليه لا يقبل فاذا جاز سلب الكلام عن المتكلم عند عدم الدليل وحسن جاز اثبات التكلم للدليل وحسن ﴿ثم قال تعالى ﴿واذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها﴾ لما بين حال المشرك الظاهر شركه بين حال المشرك الذي دونه وهو من تكون عبادته الله للدنيا فاذا آتاه رضي واذا منعه سخط وقنط ولا ينبغي أن يكون العبد كذلك بل ينبغي أن يعبد الله في الشدة والرخاء فمن الناس من يعبد الله في الشدة كما قال تعالى واذا مس الناس ضر دعوا ربهم ومن الناس من يعبده اذا آتاه نعمة كما قال تعالى واذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها والاول كالذي يخدم مكرها لمخافة العذاب والثاني كالذي يخدم أجيرا لتوقع الاجر وكلاهما لا يكون من المثبتين في ديوان المرتبين في الجرائد الذين يأخذون رزقهم سواء كان هنالك شغل أو لم يكن فكذلك القسمان لا يكونان من المؤمنين الذين لهم رزق عند ربهم ﴿وفيه مسألة﴾ وهي أن قوله تعالى فرحوا بها اشارة الى دنو همتهم وقصور نظرهم فان فرحهم يكون بما وصل اليهم لا بمن وصل منه اليهم فان قال قائل الفرح بالرحمة مأمور به في قوله تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا وههنا ذمهم على الفرح بالرحمة فكيف ذلك فنقول هنالك قال فرحوا برحمة الله من حيث انها مضافة الى الله تعالى وههنا فرحوا بنفس الرحمة حتى لو كان المطر من غير الله لكان فرحهم به مثل فرحهم بما اذا كان من الله وهو كما ان الملك لو حط عند أمير رغيفا على السماط أو أمر الغلمان بان يحطوا عنده زبدية طعام يفرح ذلك الامير به ولو أعطى الملك فقيرا غير ملتفت اليه رغيفا أو زبدية طعام أيضا يفرح لكن فرح الامير يكون ذلك من الملك وفرح الفقير يكون ذلك رغيفا وزبدية ﴿ثم

(خرقها) قيل خرقها بعد ما لججوا حيث أخذ فأسا فقلع من ألواحها لوحين مما يلي الماء فعند ذلك (قال) موسى عليه السلام (أخرقتها لتغرق أهلها) من الاغراق وقرئ بالتشديد من التغريق وليغرق أهلها من الثلاثي (لقد جئت) أتيت وفعلت (شيئا امرا) أي عظيما هائلا من أمر الامر اذا عظم قيل الاصل امر انخفف (قال) أي الخضر عليه السلام (ألم أقل انك لن تستطيع معي صبرا) تذكيرا لما

في صحيح البخاري من أن الاول كان من موسى عليه السلام نسيانا قال لا تؤاخذني بما نسيت) بنسياني أو بالذي نسيته أو بشيء نسيته وهو وصيته بأن لا يسأله عن حكمة ما صدر عنه من الافعال الخفية قبل بيانه أراد أنه نسي وصيته ولا مؤاخذة على الناسي كما ورد في الاسباب المؤاخذة بالنسيان يوهمه أنه قد نسي ليبسط عذره في الانكار وهو من معاريض الكلام التي يتقى بها الكذب مع التوصل الى الغرض أو أراد بالنسيان الترك أي لا تؤاخذني بما تركت من وصيتك أول مرة (ولا ترهقني) أي لا تغشني ولا تحملني (من أمري) وهو اتباعه اياه (عسرا) أي لا تعسر على متابعتك ويسرها على بالاغضاء وترك المناقشة وقرئ عسرا بضمتين (فانطلقا) الفاء فصيحة أي فقبل عذره فخرجا من السفينة فانطلقا (حتى اذا لقيا غلاما فقتله) قيل كان الغلام يلعب مع الغلمان فقتل عنقه وقيل ضرب برأسه الحائط وقيل أضجعه فذبحه بالسكين (قال) أي موسى عليه الصلاة والسلام (أقتلت نفسا زكية) طاهرة من الذنوب وقرئ زاكية (بغير نفس) أي بغير قتل نفس محرمة وتخصيص نفي هذا المبيح بالذكر من بين سائر المبيحات من الكفر بعد الايمان والزنا بعد الاحصان لانه الاقرب الى الوقوع نظرا الى حال الغلام ولعل تغيير النظم الكريم بجعل ما صدر عن الخضر عليه الصلاة والسلام ههنا من جملة الشرط وابراز ما صدر عن موسى عليه الصلاة والسلام في معرض الجزاء المقصود افادته مع أن الحقيق بذلك انما هو ما صدر عن الخضر عليه الصلاة والسلام من الخوارق البديعة لاستشراف النفس الى ورود خبرها لقلة وقوعها في

قال تعالى ﴿وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم﴾ لم يذكر عند النعماء أو أخرج الكلام في معرض النهي عن سببالان الاول يزيد في الاحسان والثاني يحقق العدل ﴿ قوله تعالى سببا لها التفضل بها وذكر عند العذاب لا يصبرون على ذلك قل لا امل الله يفرج عنهم وانه يذكرهم به ﴾ ثم قال تعالى ﴿اذا هم يقنطون﴾ اذا للمفاجأة أي لمن يشاء ويقدر ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ أي الم يعلموا أن الكل من ﴿أولم يروا أن الله يبسط الرزق نظره على ما يوجد بل الى من يوجد وهو الله فلا يكون له تبدل حال وانما يكون عنده فالمحقق ينبغي أن لا يكون ذلك مرتبة المؤمن الموحد المحقق ولذلك قال ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴿ ثم هذه الفرح الدائم ولكن ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون ﴾ قال تعالى ﴿فآت تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما بين أن العبادة لا ينبغي أن تكون مقصورة على حالة المفلحون﴾ وجه واذا مس الناس ضر دعوا ربهم ولا أن تكون مقصورة على حالة أخذ شيء من الدنيا كما هو حالة الشدة بقوله المتلمس بعبد الله اذا كان في الضوائق والرباطات للرغيف والزبدية واذا خلا بنفسه لا يذكر الله عادة الدكر اذقنا الناس رحمة فرحوا بها وبين أنه ينبغي أن يكون في حالة بسط الرزق وقدره عليه نظره بقوله واذا الى الرزاق لحصل الارشاد الى تعظيم الله والايمان قسمان تعظيم لامر الله وشفقة على خلق الله بعد ذلك فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل وفيه وجه آخر هو أن الله تعالى لما بين أنه فقال يبسط الرزق ويقدر فلا ينبغي أن يتوقف الانسان في الاحسان فان الله اذا بسط الرزق لا ينقص بالانفاق ان الله واذا قدر لا يزداد بالامساك وفيه مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ في تخصيص الاقسام الثلاثة بالذكر دونهم وبكر لاتفاق مع أن الله ذكر الاصناف الثمانية في الصدقات فنقول أراد ههنا بيان من يجب الاحسان اليه على من له مال سواء كان زكويا أو لم يكن وسواء كان بعد الحول أو قبله لان المقصود ههنا الشفقة العامة والثلاثة يجب الاحسان اليهم وان لم يكن للمحسن مال زائد أما القريب فتجب نفقته وان كان لم تجب عليه زكاة كعقار أو مال لم يحل عليه الحول والمسكين كذلك فان من لا شيء له اذا بقي في ورطة الحاجة حتى بلغ الشدة يجب على من له مقدرة دفع حاجته وان لم يكن عليه زكاة وكذلك من انقطع في مفازة ومع آخر دابة يمكنه بها ايصاله الى مأمن يلزمه ذلك وان لم تكن عليه زكاة والفقير داخل في المسكين لان من أوصى للمساكين شيئا يصرف الى الفقراء أيضا واذا نظرت الى الباقين من الاصناف رأيتهم لا يجب صرف المال اليهم الا على الذين وجبت الزكاة عليهم واعتبر ذلك في العامل والمكاتب والمؤلفة والمديون ثم اعلم أن على مذهب أبي حنيفة رحمه الله حيث قال المسكين من له شيء فنقول وان كان الامر كذلك لكن لا نزاع في أن اطلاق المسكين على من لا شيء له جائز فيكون الاطلاق ههنا بذلك الوجه والفقير يدخل في ذلك بالطريق الاولى ﴿المسألة الثانية﴾ في تقديم البعض على البعض فنقول لما كان دفع حاجة القريب واجبا سواء كان في شدة ومخمصة أو لم يكن كان مقدما على من لا يجب دفع حاجته من غير مال الزكاة الا اذا كان في شدة ولما كان المسكين حاجته ليست مختصة بموضع كان مقدما على من حاجته مختصة بموضع دون موضع ﴿المسألة الثالثة﴾ ذكر الاقارب في جميع المواضع كذا اللفظ وهو ذو القربى ولم يذكر المسكين بلفظ ذي المسكنة وذلك لان القرابة لا تتجدد فهي شيء ثابت وذو كذا لا يقال الا في الثابت فان من صدر منه رأي صائب مرة أو حصل له جاه يوما واحدا أو وجد منه فضل في وقت لا يقال ذو رأي وذو جاه وذو فضل واذا دام ذلك له أو وجد منه ذلك كثيرا يقال له ذو الرأي وذو الفضل فقال ذا القربى اشارة الى أن هذا حق متأكد ثابت وأما المسكنة فتطرأ أو تزول ولهذا المعنى قال مسكينا ذا متربة فان المسكين يدوم له كونه ذا متربة

نفس الامر وندرة وصول خبرها الى الاذهان ولذلك روعيت تلك النكتة فى الشرطية الاولى لما أن صدور الخوارق منه عليه الصلاة والسلام خرج بوقوعه مرة مخرج العادة فانصرفت النفس عن ترقبه الى ترقب أحوال موسى عليه الصلاة والسلام هل يحافظ على مراعاة شرطه بموجب وعده الاكيد عند مشاهدة خارق آخر أو يسارع الى المناقشة كما مر فى المرة الاولى فكان المقصود افادة ما صدر عنه عليه الصلاة والسلام فقيل ما قيل ولله در شأن التنزيل وأما ما قيل من أن القتل أقبح والاعتراض عليه أدخل فكان جديرا بأن يجعل عمدة فى الكلام فليس من دفع الشبهة فى شئ بل هو مؤيد لها فان كون القتل أقبح من مبادى قلة صدوره عن المؤمن العاقل وندرة وصول خبره الى الاسماع وذلك مما يستدعى جعله مقصودا بالذات وكون الاعتراض عليه أدخل من موجبات كثرة صدوره عن كل عاقل وذلك مما لا يقتضى جعله كذلك (لقد جئت شيأ نكرا) قيل معناه أنكر من الاول اذ لا يمكن تداركه كما يمكن تدارك الاول بالسد ونحوه وقيل الامر أعظم من النكر لان قتل نفس واحدة أهون من اغراق أهل السفينة (قال ألم أقل لك انك لن تستطيع معى صبرا) زيد لك لزيادة المكافحة بالعتاب على رفض الوصية وقلة التثبت والصبر لما تكرر منه الاشمئزاز والاستنكار ولم يرعو بالتذكير حتى زاد فى النكير فى المرة الثانية (قال) أى موسى عليه الصلاة والسلام (ان سألتك عن شئ بعدها) أى بعد هذه المرة (فلا تصاحبنى) وقرئ من الافعال أى لا تجعلنى صاحبك (قد بلغت من لدنى عذرا) أى قد أعذرت ووجدت من قبلى عذرا حيث خالفتك ثلاث مرات * عن النبى صلى الله عليه وسلم رحم الله أخى موسى استحيا فقال ذلك لو لبث مع صاحبه لابصر أعجب

ما دامت مسكنته أو يكون كذلك فى أكثر الامر (المسئلة الرابعة) قال فآت ذا القربى حقه ثم عطف المسكين وابن السبيل ولم يقل فآت ذا القربى والمسكين وابن السبيل حقهم لان العبارة الثانية تكون صدور الكلام أولا للتشريك والاولى تكون التشريك واردا على الكلام كأنه يقول أعط ذا القربى حقه ثم يذكر المسكين وابن السبيل بالتبعية ولهذا المعنى اذا قال الملك خل فلانا يدخل وفلانا أيضا يكون فى التعظيم فوق ما اذا قال خل فلانا وفلانا يدخلان والى هذا أشار النبى عليه الصلاة والسلام بقوله بئس خطيب القوم أنت حيث قال الرجل من أطاع الله ورسوله فقد اهتدى ومن عصاهما فقد غوى ولم يقل ومن عصى الله ورسوله (المسئلة الخامسة) قوله ذلك خير يمكن أن يكون معناه ذلك خير من غيره ويمكن أن يقال ذلك خير فى نفسه وان لم يقس الى غيره لقوله تعالى وافعلوا الخير وقوله فاستبقوا الخيرات والثانى أولى لعدم احتياجه الى اضمار ولكونه أكثر فائدة لان الخير من الغير قد يكون نازل الدرجة عند نزول درجة ما يقاس اليه كما يقال السكوت خير من الكذب وما هو خير فى نفسه فهو حسن ينفع وفعل صالح يرفع (المسئلة السادسة) قوله تعالى للذين يريدون وجه الله اشارة الى أن الاعتبار بالقصد لا بنفس الفعل فان من أنفق جميع أمواله رياء الناس لا ينال درجة من يتصدق برغيف لله وقوله وجه الله أى يكون عطاؤه لله لا غير فمن أعطى للجنة لم يرد به وجه الله وانما أراد مخلوق الله (المسئلة السابعة) كيف قال وأولئك هم المفلحون مع أن للافلاح شرائط أخر وهى المذكورة فى قوله قد أفلح المؤمنون فنقول كل وصف مذكور هناك يفيد الافلاح فقوله والذين هم للزكاة فاعلون وقوله والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون الى غير ذلك عطف على المفلح أى هذا مفلح وذاك مفلح وذلك الآخر مفلح لا يقال لا يحصل الافلاح لمن يتصدق ولا يصلى فنقول هذا كقول القائل العالم مكرم أى نظرا الى علمه ثم اذا حصل فى الزنا على سبيل الشكال وقطعت يده فى السرقة لا يبطل ذلك القول حتى يقول القائل انما كان ذلك لانه أتى بالفسق فكذلك ايتاء المال لوجه الله يفيد الافلاح اللهم الا اذا وجد مانع من ارتكاب محظور أو ترك واجب (المسئلة الثامنة) لم لم يذكر غيره من الافعال كالصلاة وغيرها فنقول الصلاة مذكورة من قبل لان الخطاب ههنا بقوله فآت مع النبى صلى الله عليه وسلم وغيره تبع وقد قال له من قبل فأقم وجهك للدين حنيفا وقال منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة (المسئلة التاسعة) قوله تعالى وأولئك هم المفلحون يفهم منه الحصر وقد قال فى أول سورة البقرة وأولئك هم المفلحون اشارة الى ... فلو كان المفلح من أقام الصلاة وآتى الزكاة وآمن بما أنزل على رسوله وبما أنزل من قبله وبالآخرة فكيف يكون مفلحا ... واقع حصرا فى أولئك المذكورين فى سورة البقرة فهذا خارج عنهم ... يكون ... وذلك لانا بينا أن قوله فأقم وجهك للدين متصل بهذا الكلام فاذا أتى بالصلاة وآتى المال وأراد وجه الله فقد ثبت أنه ممن يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ومعترف بالآخرة فصار مثل المذكور فى البقرة ﴿ثم قال تعالى ﴿وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله﴾ ذكر هذا تحريضا يعنى أنكم اذا طلب منكم واحد باثنين ترغبون فيه وتؤتونه وذلك لا يربو عند الله والزكاة تنمو عند الله كما أخبر النبى عليه الصلاة والسلام ان الصدقة تقع فى يد الرحمن فتربو حتى تصير مثل الجبل فينبغى أن يكون اقدامكم على الزكاة أكثر ﴿وقوله تعالى ﴿وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾ أى أولئك ذوو الاضعاف كالموسر لذى اليسار وأقل ذلك عشرة أضعاف لكل مثل لما آتى فى كونه حسنة لا فى المقدار فلا يفهم أن من أعطى رغيفا يعطيه الله عشرة أرغفة بل معناه أن ما يقتضيه فعله من الثواب على وجه الرحمة يضاعفه الله عشر مرات على وجه التفضل فبالرغيف الواحد يكون له

قصر في الجنة فيه من كل شيء ثوابا نظرا إلى الرحمة وعشر قصور مثله نظرا إلى الفضل مثاله في الشاهد ملك عظيم قبل من عبده هدية قيمتها درهم لو عوضه بعشرة دراهم لا يكون كرما بل إذا جرت عادته بأنه يعطي على مثل ذلك ألفا فإذا أعطى له عشرة آلاف فقد ضاعف له الثواب ﴿ثم قال تعالى ﴿الله الذي خلقكم﴾ أي أوجدكم ﴿ثم رزقكم﴾ أي أبقاكم فإن العرض مخلوق وليس بباق ﴿ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء﴾ جمع في هذه الآية بين إثبات الأصلين الحشر والتوحيد أما الحشر فبقوله ثم يحييكم والدليل قدرته على الخلق ابتداء وأما التوحيد فبقوله هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ﴿ثم قال تعالى ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ فقوله سبحانه أي سبحوه تسبيحا أي نزهوه ولا تصفوه بالإشراك وقوله وتعالى أي لا يجوز عليه ذلك وهذا لأن من لا يتصف بشيء قد يجوز عليه فإذا قال سبحوه أي لا تصفوه بالإشراك وإذا قال وتعالى فكأنه قال ولا يجوز عليه ذلك ﴿ثم إنه تعالى قال ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾ وجه تعلق هذه الآية بما قبلها هو أن الشرك سبب الفساد كما قال تعالى لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا وإذا كان الشرك سببه جعل الله إظهارهم الشرك مورثا لظهور الفساد ولو فعل بهم ما يقتضيه قولهم لفسدت السموات والأرض كما قال تعالى تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا وإلى هذا أشار بقوله تعالى ليذيقهم بعض الذي عملوا واختلفت الأقوال في قوله في البر والبحر فقال بعض المفسرين المراد خوف الطوفان في البر والبحر وقال بعضهم عدم إنبات بعض الأراضي وملوحة مياه البحار وقال آخرون المراد من البحر المدن فإن العرب تسمي المدائن بحورا لكون مبنى عمارتها على الماء ويمكن أن يقال إن ظهور الفساد في البر قلة مياه العيون فإنها من البحار ﴿واعلم أن كل فساد يكون فهو بسبب الشرك لكن الشرك قد يكون في العمل دون القول والاعتقاد فيسمى فسقا وعصيانا وذلك لأن المعصية فعل لا يكون لله بل يكون للنفس فالفاسق مشرك بالله بفعله غاية ما في الباب أن الشرك بالفعل لا يوجب الخلود لأن أصل المرء قلبه ولسانه فإذا لم يوجد منهما إلا التوحيد يزول الشرك البدني بسببهما وقوله تعالى ليذيقهم بعض الذي عملوا قد ذكرنا أن ذلك ليس تمام جزائهم وعلى موجب افترائهم وقوله لعلهم يرجعون يعني كما يفعله المتوقع رجوعهم مع أن الله يعلم أن من أضله لا يرجع لكن الناس يظنون أنه لو فعل بهم شيء من ذلك لكان يوجد منهم الرجوع كما أن السيد إذا علم من عبده أنه لا يرتدع بالسوط والمواعظ يترك الكلام فيقول القائل لماذا لا تؤدبه بالكلام فإذا قال لا ينفع ربما يقع في وهمه أنه لا يمتنع عن نفع فإذا زجره ولم يرتدع يظهر له صدق كلام السيد ويطمئن قلبه ﴿ثم قال تعالى ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل﴾ لما بين حالهم بظهور الفساد في أحوالهم بسبب فساد أقوالهم بين لهم هلاك أمثالهم وأشكالهم الذين كانت أفعالهم كأفعالهم فقال قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل أي قوم نوح وعاد وثمود وهذا ترتيب في غاية الحسن وذلك لأنه في وقت الامتنان والإحسان قال الله الذي خلقكم ثم رزقكم أي آتاكم الوجود ثم البقاء ووقت الخذلان بالطغيان قال ظهر الفساد في البر والبحر أي قلل رزقكم ثم قال تعالى سيروا في الأرض أي هو أعدمكم كما أعدم من قبلكم فكأنه قال أعطاكم الوجود والبقاء ويسلب منكم الوجود والبقاء أما سلب البقاء فبإظهار الفساد وأما سلب الوجود فبالإهلاك وعند الإعطاء قدم الوجود على البقاء لأن الوجود أولا ثم البقاء وعند السلب قدم البقاء وهو الاستمرار ثم الوجود ﴿وقوله تعالى ﴿كان أكثرهم مشركين﴾ يحتمل وجوها ثلاثة (أحدها) أن الهلاك في الأكثر كان بسبب الشرك الظاهر وإن

كان

الأعاجم وقرئ لدني بتخفيف النون وقرئ بسكون الدال كعضد في عضد (فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية) هي أنطاكية وقيل أبلة وهي أبعد أرض الله من السماء وقيل هي برقة وقيل هي بلدة بأندلس وعن النبي صلى الله عليه وسلم كانوا أهل قرية لئاما وقيل شر القرى التي لا يضاف فيها الضيف ولا يعرف لابن السبيل حقه وقوله تعالى (استطعما أهلها) في محل الجر على أنه صفة لقرية وإنما العدول عن استطعامهم على أن يكون صفة للأهل لزيادة تشنيعهم على سوء صنيعهم فإن الإباء من الضيافة وهم أهلها قاطنون بها أقبح وأشنع روي أنهما طافا في القرية فاستطعماهم فلم يطعموهما واستضافاهم (فأبوا أن يضيفوهما) بالتشديد وقرئ بالتخفيف من الإضافة يقال ضافه إذا كان له ضيفا وأضافه وضيفه أنزله وجعله ضيفا له وحقيقة ضاف مال إليه من ضاف السهم عن الغرض ونظيره زاره من الازورار (فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض) أي يداني أن يسقط فاستعيرت الإرادة للمشارفة للدلالة على المبالغة في ذلك والانقضاض الإسراع في السقوط وهو انفعال من القض يقال قضضته فانقض ومنه انقضاض الطير والكوكب لسقوطه بسرعة وقيل هو افعلال من النقض كاحمر من الحمرة وقرئ أن ينقض من النقض وأن ينقاص من انقاصت السن إذا انشقت طولا (فأقامه) قيل مسحه بيده فقام وقيل نقضه وبناه وقيل أقامه بعمود عمده به قيل كان سمكه مائة ذراع (قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا) تحريضا له على أخذ الجعل لينتعشا به أو تعريضا بأنه فضول لما في لومه من النفي كأنه لما رأى الحرمان ومساس الحاجة واشتغاله بما لا يعنيه لم يتمالك الصبر واتخذ

كان بغيره أيضا كالاهلاك بالفسق والمخالفة كما كان على أصحاب السبت (الثانى) أن كل كافر أهلك لم يكن مشركا بل منهم من كان معطلا نافيا لكنهم قليلون وأكثر الكفار مشركون (الثالث) أن العذاب العاجل لم يختص بالمشركين بل أتى كما قال تعالى واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة بل كان على الصغار والمجانين ولكن أكثرهم كانوا مشركين ۞ ثم قال تعالى ﴿فأقم وجهك للدين القيم﴾ لما نهى الكافر عما هو عليه أمر المؤمن بما هو عليه وخاطب النبى عليه السلام ليعلم المؤمن فضيلة ما هو مكلف به فانه أمر به أشرف الانبياء وللمؤمنين فى التكليف مقام الانبياء كما قال عليه الصلاة والسلام ان الله أمر عباده المؤمنين بما أمر به عباده المرسلين وقد ذكرنا معناه. ۞ وقوله تعالى ﴿من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله﴾ يحتمل وجهين (الاول) أن يكون قوله من الله متعلقا بقوله يأتى (والثانى) أن يكون المراد لامرد له من الله أى الله لا يرده وغيره عاجز عن رده فلابد من وقوعه ﴿يومئذ يصدعون﴾ أى يتفرقون ۞ ثم أشار الى التفرق بقوله ﴿من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون﴾ وفى الآية مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قال من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا ولم يقل ومن آمن وذلك لان العمل الصالح به يكمل الايمان فذكره تحريضا للمكلف عليه وأما الكفر اذا جاء فلا زيادة للعمل معه ووجه آخر وهو أن الكفر قسمان (أحدهما) فعل وهو الاشراك والقول به (والثانى) ترك وهو عدم النظر والايمان فالعاقل البالغ اذا كان فى مدينة الرسول ولم يأت بالايمان فهو كافر سواء قال بالشرك أولم يقل لكن الايمان لابد له من العمل الصالح فان الاعتقاد الحق عمل القلب وقول لا اله الا الله عمل اللسان وشئ منه لابد منه ﴿المسئلة الثانية﴾ قال فعليه فوحد الكناية وقال فلانفسهم جمعها اشارة الى أن الرحمة أعم من الغضب فتشمله وأهله وذريته اما الغضب فمسبوق بالرحمة لازم لمن أساء ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال فعليه كفره ولم يبين وقال فى المؤمن فلانفسهم يمهدون تحقيقا لكمال الرحمة فانه عند الخير بين وفصل بشارة وعند غيره أشار اليه اشارة ۞ ثم قال تعالى ﴿ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله﴾ ذكر زيادة تفصيل لما يمهده المؤمن لفعله الخير وعمله الصالح وهو الجزاء الذى يجازيه به الله والملك اذا كان كبيرا كريما ووعد عبدا من عباده بأنى أجازيك يصل اليه منه أكثر مما يتوقعه ثم أكده بقوله من فضله يعنى انا المجازى فكيف يكون الجزاء ثم انى لا أجازيك من العدل وانما أجازيك من الفضل فيزداد الرجاء ۞ ثم قال تعالى ﴿انه لايحب الكافرين﴾ أوعدهم بوعيد ولم يفصله لما بينا وان كان عند المحقق هذا الاجمال فيه كالتفصيل فان عدم المحبة من الله غاية العذاب وافهم ذلك ممن يكون له معشوق فانه اذا أخبر العاشق بأنه وعدك بالدراهم والدنانير كيف تكون مسرته واذا قيل له انه قال انى أحب فلانا كيف يكون سروره وفيه لطيفة وهى أن الله عندما أسند الكفر والايمان الى العبد قدم الكافر فقال من كفر فعليه كفره وعندما أسند الجزاء الى نفسه قدم المؤمن فقال ليجزى الذين آمنوا ثم قال تعالى انه لايحب الكافرين لان قوله من كفر فى الحقيقة لمنع الكافر عن الكفر بالوعيد ونهيه عن فعله بالتهديد وقوله من عمل صالحا لتحريض المؤمن فالنهى كالابعاد والتحريض للتقريب والابعاد مقدم عند العظيم الرحيم. وأما عندما ذكر الجزاء بدأ بالاحسان اظهارا للكرم والرحمة فان قال قائل هذا انما يصح أن لو كان الذكر فى كل موضع كذلك وليس كذلك فان الله فى كثير من المواضع قدم ايمان المؤمن على كفر الكافر وقدم التعذيب على الاثابة فنقول ان كان الله يوفقنا لبيان ذلك نبين ما اقتضى تقديمه ونحن نقول بأن كل كلمة وردت فى القرآن فهى لمعنى وكل ترتيب وجد فهو لحكمة وماذكر على خلافه لايكون فى درجة ماورد به القرآن فلنبين من جملته مثالا

افتعل من تخذ بمعنى اخذ كاتبع من تبع وليس من الاخذ عند البصريين وقرئ لتخذت اى لاخذت وقرئ بادغام الذال فى التاء (قال) أى الخضر عليه الصلاة والسلام (هذا فراق بينى وبينك) على اضافة المصدر الى الظرف اتساعا وقد قرئ على الاصل والمشار اليه اما نفس الفراق كما فى هذا أخوك أوالوقت الحاضر أى هذا الوقت وقت فراق بينى وبينك أوالسؤال الثالث أى هذا سبب ذلك الفراق حسبما هو الموعود (سأنبئك) السين للتأكيد لعدم تراخى التنبئة (بتأويل مالم تستطع عليه صبرا) التأويل رجع الشىء الى مآله والمراد به ههنا المآل والعاقبة اذهو المنبأ به دون التأويل وهو خلاص السفينة من اليد العادية وخلاص أبوى الغلام من شره مع الفوز بالبدل الاحسن واستخراج اليتيمين للكنز وفى جعل صلة الموصول عدم استطاعة موسى عليه الصلاة والسلام للصبر دون أن يقال بتأويل مافعلت أو بتأويل مارأيت ونحوهما نوع تعريض به عليه الصلاة والسلام وعتاب (أما السفينة) التى خرقتها (فكانت لمساكين) لضعفاء لايقدرون على مدافعة الظلمة وقيل كانت لعشرة اخوة خمسة منهم زمنى وخمسة (يعملون فى البحر) واسناد العمل الى الكل حينئذ انما هو بطريق التغليب أولان عمل الوكلاء بمنزلة عمل الموكلين (فأردت أن أعيبها) أى أجعلها ذات عيب (وكان وراءهم ملك) أى امامهم وقد قرئ به أوخلفهم وكان رجوعهم عليه لامحالة واسمه جلندى بن كركر وقيل منولة ابن جلندى الازدى (يأخذ كل سفينة) أى صالحة وقد قرئ كذلك (غصبا) من أصحابها وانتصابه على أنه مصدر مبين لنوع الاخذ ولعل تفريع ارادة تعييب السفينة على مسكنة أصحابها قبل بيان خوف الغصب مع أن مدارها كلا الامرين للاعتناء بشأنها اذهى المحتاجة

وهو قوله تعالى يومئذ يتفرقون فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة فقدم المؤمن على الكافر وههنا ذكر مثل ذلك المعنى في قوله يومئذ يصدعون أي يتفرقون فقدم الكافر على المؤمن فنقول هنالك أيضا قدم الكافر في الذكر لانه قال من قبل ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون فذكر الكافر وابلاسه ثم قال تعالى ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون فكان ذكر المؤمن وحده لابد منه ليبين كيفية التفرق بمجموع قوله يبلس المجرمون وقوله في حق المؤمن في روضة يحبرون لكن الله تعالى أعاد ذكر المجرمين مرة أخرى للتفصيل فقال وأما الذين كفروا ﴿ ثم قال تعالى ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات﴾ لما ذكر أن ظهور الفساد والهلاك بسبب الشرك ذكر ظهور الصلاح ولم يذكر أنه بسبب العمل الصالح لما ذكرنا غير مرة أن الكريم لا يذكر لاحسانه عوضا ويذكر لاضراره سببا لئلا يتوهم به الظلم فقال يرسل الرياح مبشرات قيل بالمطر كما قال تعالى نشرا بين يدي رحمته أي قبل المطر ويمكن أن يقال مبشرات بصلاح الاهوية والاحوال فان الرياح لو لم تهب لظهر الوباء والفساد ﴿ ثم قال تعالى ﴿وليذيقكم من رحمته﴾ عطف على ما ذكرنا أي ليبشركم بصلاح الهواء وصحة الابدان وليذيقكم من رحمته بالمطر وقد ذكرنا أن الاذاقة تقال في القليل ولما كان أمر الدنيا قليلا وراحتها نزرا قال وليذيقكم وأما في الآخرة فيرزقهم ويوسع عليهم ويديم لهم ﴿ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ لما أسند الفعل الى الفلك عقبه بقوله بأمره أي الفعل ظاهر عليه ولكنه بأمر الله ولذلك لما قال ولتبتغوا مسندا الى العباد ذكر بعده من فضله أي لا استقلال لشيء بشيء وفي الآية مسائل ﴿الاولى﴾ في الترتيب فنقول في الرياح فوائد منها اصلاح الهواء ومنها اثارة السحاب ومنها جريان الفلك بها فقال مبشرات باصلاح الهواء فان اصلاح الهواء يوجد من نفس الهبوب ثم الامطار بعده ثم جريان الفلك فانه موقوف على اختيار من الآدمي باصلاح السفن والقائها على البحر ثم ابتغاء الفضل بركوبها ﴿المسألة الثانية﴾ قال في قوله تعالى ظهر الفساد ليذيقهم بعض الذي عملوا وقال ههنا وليذيقكم من رحمته فخاطب ههنا تشريفا ولان رحمته قريب من المحسنين فالمحسن قريب فيخاطب والمسيء بعيد فلم يخاطبهم وأيضا قال هنالك بعض الذي عملوا وقال ههنا من رحمته فأضاف ما أصابهم الى أنفسهم وأضاف ما أصاب المؤمن الى رحمته وفيه معنيان (أحدهما) ما ذكرنا أن الكريم لا يذكر لاحسانه ورحمته عوضا وان وجد فلا يقول أعطيتك لانك فعلت كذا بل يقول هذا لك مني وأما ما فعلت من الحسنة فجزاؤه بعد عندي (وثانيهما) ان ما يكون بسبب فعل العبد قليل فلو قال أرسلت الرياح بسبب فعلكم لا يكون بشارة عظيمة وأما اذا قال من رحمته كان غاية البشارة ومعنى ثالث وهو أنه لو قال بما فعلتم لكان ذلك موهما لنقصان ثوابهم في الآخرة وأما في حق الكفار فاذا قال بما فعلتم ينبئ عن نقصان عقابهم وهو كذلك ﴿المسألة الثالثة﴾ قال هنالك لعلهم يرجعون وقال ههنا ولعلكم تشكرون فالواو اشارة الى أن توفيقهم للشكر من النعم فعطف على النعم ﴿المسألة الرابعة﴾ انما أخر هذه الآية لان في الآيات التي قد سبق ذكرها قلنا انه ذكر من كل باب آيتين فذكر من المنذرات يريكم البرق والحادث في الجو لا كثر الامر نادر ثم ذكر الرياح ههنا تذكيرا وتقريرا للدلائل ولما كانت الريح فيها فائدة غير المطر وليس في البرق فائدة ان لم يكن مطر ذكر هنالك خوفا وطمعا أي قد يكون وقد لا يكون وذكر ههنا مبشرات لان تعديل الهواء أو تصفيته بالريح أمر لازم وحكمه به حكم جازم ﴿ ثم قال تعالى ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاؤهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾ لما بين الاصلين ببراهين ذكر الاصل الثالث وهو النبوة فقال ولقد أرسلنا من

الى التأويل وللايذان بان الاقوى في المدار به هو الامر الاول ولذلك لا يبالي بتخليص سفن سائر الناس مع تحقق خوف الغصب في حقهم أيضا ولان في التأخير فصلا بين السفينة وضميرها مع توهم رجوعه الى الاقرب (وأما الغلام) الذي قتله (فكان أبواه مؤمنين) لم يصرح بكفرانه أو بكفره اشعارا بعدم الحاجة الى الذكر لظهوره (فخشينا أن يرهقهما) فخفنا أن يغشى الوالدين المؤمنين (طغيانا) عليهما (وكفرا) لنعمتهما بعقوقه وسوء صنيعه ويلحق بهما شرا وبلاء أو يقرن بايمانهما طغيانه وكفره فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر أو يعديهما بدائه ويضلهما بضلاله فيرتدا بسببه وانما خشي الخضر عليه الصلاة والسلام منه ذلك لان الله سبحانه أعلمه بحاله وأطلعه على سر أمره وقرئ فخاف ربك أي كره سبحانه كراهة من خاف سوء عاقبة الامر فغيره ويجوز أن تكون القراءة المشهورة على الحكاية بمعنى فكرهنا كقوله تعالى لأهب لك (فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه) بان يرزقهما بدله ولدا خيرا (منه) وفي التعرض لعنوان الربوبية والاضافة اليهما ما لا يخفى من الدلالة على ارادة وصول الخير اليهما (زكاة) طهارة من الذنوب والاخلاق الرديئة (وأقرب رحما) أي رحمة وعطفا قيل ولدت لهما جارية تزوجها نبي فولدت نبيا هدى الله تعالى على يده أمة من الامم وقيل ولدت سبعين نبيا وقيل أبدلهما ابنا مؤمنا مثلهما وقرئ يبدلهما بالتشديد وقرئ رحما بضم الحاء أيضا وانتصابه على التمييز مثل زكوة (وأما الجدار) المعهود (فكان لغلامين يتيمين في المدينة) هي القرية المذكورة فيما سبق ولعل التعبير عنها بالمدينة لاظهار نوع اعتداد بها باعتداد ما فيها من اليتيمين وأبيهما الصالح قيل اسمهما أصرم وصريم واسم المقتول جيسور (وكان

قبلك

تحته كنز لهما) من فضة وذهب كما روى مرفوعا والذم على كنزهما في قوله عز وجل والذين يكنزون الذهب والفضة لمن لا يؤدي زكاتهما
وسائر حقوقهما وقيل كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب
وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها

قبلك رسلا أي ارسالهم دليل رسالتك فانهم لم يكن لهم شغل غير شغلك ولم يظهر عليهم غير ما ظهر عليك ومن
كذبهم أصابهم البوار ومن آمن بهم كان لهم الانتصار وله وجه آخر يبين تعلق الآية بما قبلها وهو أن الله لما
بين البراهين ولم ينتفع بها الكفار سلى قلب النبي صلى الله عليه وسلم وقال حال من تقدمك كان كذلك
وجاؤا أيضا بالبينات وكان في قومهم كافر ومؤمن كما في قومك فانتقمنا من الكافرين ونصرنا المؤمنين
وفي قوله تعالى وكان حقا وجهان (أحدهما) فانتقمنا وكان الانتقام حقا واستأنف وقال علينا نصر المؤمنين
وعلى هذا يكون هذا بشارة للمؤمنين الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم أي علينا نصركم أيها المؤمنون
(والوجه الثاني) وكان حقا علينا أي نصر المؤمنين كان حقا علينا وعلى الأول لطيفة وعلى الآخر أخرى
* أما على الأول فهو أنه لما قال فانتقمنا بين أنه لم يكن ظلما وانما كان عدلا حقا وذلك لأن الانتقام لم يكن
الا بعد كون بقائهم غير مفيد الا زيادة الاثم وولادة الكافر الفاجر وكان عدمهم خيرا من وجودهم الخبيث
* وعلى الثاني تأكيد البشارة لأن كلمة على تفيد معنى اللزوم يقال على فلان كذا ينبئ عن اللزوم فاذا قال
حقا أكد ذلك المعنى وقد ذكرنا أن النصر هو الغلبة التي لا تكون عاقبتها وخيمة فان احدى الطائفتين
اذا انهزمت أولا ثم عادت آخرا لا يكون النصر الا للمنهزم وكذلك موسى وقومه لما انهزموا من فرعون
ثم أدركه الغرق لم يكن انهزامهم الا نصرة فالكافر ان هزم المسلم في بعض الأوقات لا يكون ذلك نصرة اذ
لا عاقبة له ۞ ثم قال تعالى ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله
كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون وان كانوا من
قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر الى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ان ذلك لمحيي
الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ بين دلائل الرياح على التفصيل الأول في ارسالها قدرة وحكمة أما
القدرة فظاهرة فان الهواء اللطيف الذي يشقه البق يصير بحيث يقلع الشجر وهو ليس بذاته كذلك
فهو بفعل فاعل مختار وأما الحكمة ففي نفس الهبوب فيما يفضي اليه من اثارة السحب ثم ذكر أنواع
السحب فمنه ما يكون متصلا ومنه ما يكون منقطعا ثم المطر يخرج منه والماء في الهواء أعجب علامة للقدرة
وما يفضي اليه من انبات الزرع وادرار الضرع حكمة بالغة ثم انه لا يعم بل يختص به قوم دون قوم وهو
علامة المشيئة وقوله تعالى وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله اختلف المفسرون فيه فقال بعضهم
هو تأكيد كما في قوله تعالى فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وقال بعضهم من قبل التنزيل من
قبل المطر والأولى أن يقال من قبل أن ينزل عليهم من قبله أي من قبل ارسال الرياح وذلك لأن بعد
الارسال يعرف الخبير أن الريح فيها مطر أو ليس فقبل المطر اذا هبت الريح لا يكون مبلسا فلما قال من
قبل أن ينزل عليهم لم يقل انهم كانوا مبلسين لأن من قبله قد يكون راجيا غالبا على ظنه المطر برؤية السحب
وهبوب الرياح فقال من قبله أي من قبل ما ذكرنا من ارسال الريح وبسط السحاب ثم لما فصل قال
فانظر الى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ان ذلك لمحيي الموتى لما ذكر الدلائل قال لمحيي
باللام المؤكدة وباسم الفاعل فان الانسان اذا قال ان الملك يعطيك لا يفيد ما يفيد قوله انه معطيك
لأن الثاني يفيد أنه أعطاك فكان وهو معط متصفا بالعطاء والأول يفيد أنه سيتصف به ويتبين هذا
بقوله انك ميت فانه آكد من قوله انك تموت وهو على كل شيء قدير تأكيد لما يفيد الاعتراف ۞ ثم قال
تعالى ﴿ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون فانك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم
الدعاء اذا ولوا مدبرين وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم﴾ لما بين أنهم عند توقف الخير يكونون

كيف يطمئن اليها
لا اله الا الله محمد رسول
الله وقيل صحف فيها علم
(وكان أبوهما صالحا)
تنبيه على أن سعيه في
ذلك كان لصلاحه قيل
كان بينهما وبين الأب
الذي حفظا فيه سبعة
آباء (فأراد ربك) أي
مالكك ومدبر أمورك
في اضافة الرب الى
ضمير موسى عليه
الصلاة والسلام دون
ضميرهما تنبيه له عليه
الصلاة والسلام على
تحتم كمال الانقياد
والاستسلام لارادته
سبحانه ووجوب
الاحتراز عن المناقشة
فيما وقع بحسبها من
الأمور المذكورة (أن
يبلغا أشدهما) أي
حلمهما وكمال رأيهما
(ويستخرجا كنزهما) من
تحت الجدار ولولا أني
أقمته لانقض وخرج
الكنز من تحته قبل
اقتدارهما على حفظ
المال وتنميته وضاع
بالكلية (رحمة من
ربك) مصدر في موقع
الحال أي مرحومين منه
عز وجل أو مفعول له
أو مصدر مؤكد لاراد

 فان ارادة الخير رحمة وقيل متعلق بمضمر أي فعلت ما فعلت من الأمور التي شاهدتها رحمة من ربك
ويعضده اضافة الرب الى ضمير المخاطب دون ضميرهما فيكون قوله عز وجل (وما فعلته عن أمري) أي عن رأيي واجتهادي تأكيدا
لذلك (ذلك) اشارة الى العواقب المنظومة في سلك البيان وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد درجتها في الفخامة (تأويل ما لم تسطع)

أي لم تستطع فحذف التاء للتخفيف (عليه صبرا) من الأمور التي رأيتها أي مآله وعاقبته فيكون انجازا للتنبئة الموعودة أو الى البيان نفسه فيكون التأويل بمعناه وعلى كل حال فهو فذلكة لما تقدم وفي جعل الصلة غير ما مر تكرير للتذكير وتشديد للعتاب (تنبيه) اختلفوا في حياة الخضر عليه الصلاة والسلام فقيل انه حي وسببه انه كان على مقدمة ذي القرنين فلما دخل الظلمات أصاب الخضر عين الحياة فنزل واغتسل منها وشرب من مائها وأخطأ ذو القرنين الطريق فعاد قالوا والياس أيضا في الحياة يلتقيان كل سنة بالموسم وقيل انه ميت لما روي ان النبي عليه الصلاة والسلام صلى العشاء ذات ليلة ثم قال أرأيتكم ليلتكم هذه فان رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد ولو كان الخضر حينئذ حيا لما عاش بعد مائة عام وروي أن موسى عليه الصلاة والسلام لما أراد أن يفارقه قال له أوصني قال لا تطلب العلم لتحدث به واطلبه لتعمل به (ويسألونك عن ذي القرنين) هم اليهود سألوه على وجه الامتحان أو سأله قريش بتلقينهم وصيغة الاستقبال للدلالة على استمرارهم على ذلك الى ورود الجواب وهو ذو القرنين الأكبر واسمه الاسكندر بن فيلفوس اليوناني وقال ابن اسحق اسمه مرزبان بن مردويه من ولد يافث بن نوح عليه الصلاة والسلام وكان أسود وقيل اسمه عبد الله بن الضحاك وقيل مصعب بن عبد الله بن قينان بن منصور بن عبد الله بن الأزد بن عون بن زيد بن كهلان بن سبا بن يعرب بن قحطان قال وقال السهيلي قيل ان اسمه مرزبان بن مدركة ذكره ابن هشام وهو أول التبابعة وقيل انه افريدون بن النعمان الذي قتل الضحاك وذكر أبو الريحان البيروني في كتابه المسمى بالآثار الباقية عن القرون

مبلسين آيسين وعند ظهوره يكونون مستبشرين بين ان تلك الحالة أيضا لا يدومون عليها بل لو أصاب زرعهم ريح مصفر لكفروا فهم منقلبون غير ثابتين لنظرهم الى الحال لا الى المآل وفي الآية مسائل (المسئلة الأولى) قال في الآية الأولى يرسل الرياح على طريقة الاخبار عن الارسال وقال ههنا ولئن أرسلنا الا على طريقة الاخبار عن الارسال لأن الرياح من رحمته وهي متواترة والريح من عذابه وهو تعالى رؤف بالعباد يمسكها ولذلك نرى الرياح النافعة تهب في الليالي والأيام في البراري والآكام وريح السموم لا تهب الا في بعض الأزمنة وفي بعض الأمكنة (المسئلة الثانية) سمى النافعة رياحا والضارة ريحا لوجوه (أحدها) النافعة كثيرة الأنواع كثيرة الأفراد فجمعها فان كل يوم وليلة تهب نفحات من الرياح النافعة ولا تهب الريح الضارة في أعوام بل الضارة في الغالب لا تهب في الدهور (الثاني) هو ان النافعة لا تكون الا رياحا فان ما يهب مرة واحدة لا يصلح الهواء ولا ينشئ السحاب ولا يجري السفن وأما الضارة بنفخة واحدة تقتل كريح السموم (الثالث) هو ان الريح المضرة اما ان تضر بكيفيتها أو بكميتها أما الكيفية فهي اذا كانت حارة أو متكيفة بكيفية سم وهذا لا يكون للريح في هبوبها وانما يكون بسبب ان الهواء الساكن في بقعة فيها حشائش رديئة أو في موضع غائر وهو حار جدا أو تكون متكونة في أول تكونها كذلك وكيفما كان فتكون واحدة لأن ذلك الهواء الساكن اذا سخن ثم ورد عليه ريح تحركه وتخرجه من ذلك المكان فتهب على مواضع كالهب ثم ما يخرج بعد ذلك من ذلك المكان لا يكون حارا ولا متكيفا لأن المكث الطويل شرط التكيف ألا ترى انك لو أدخلت اصبعك في نار وأخرجتها بسرعة لا تتأثر والحديد اذا مكث فيها يذوب فاذا تحرك ذلك الساكن وتفرق لا يوجد في ذلك الوقت غيره من جنسه وأما المتولدة كذلك فنادرة وموضع ندرتها واحد وأما الكمية فالرياح اذا اجتمعت وصارت واحدة صارت كالخلجان ومياه العيون اذا اجتمعت تصير نهرا عظيما لا تسده السدود ولا ترده الجلمود ولا شك أن في ذلك تكون واحدة مجتمعة من كثير فلهذا قال في المضرة ريح وفي النافعة رياح ثم انه تعالى لما علم رسوله أنواع الأدلة وأصناف الأمثلة ووعد وأوعد ولم يزدهم دعاؤه الا فرارا وإباؤه الا كفرا واصرارا قال له فانك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وفيه مسائل (المسئلة الأولى) في الترتيب فنقول ارشاد الميت محال والمحال أبعد من الممكن ثم ارشاد الأصم صعب فانه لا يسمع الكلام وانما يفهم ما يفهمه بالاشارة لا غير والافهام بالاشارة صعب ثم ارشاد الأعمى أيضا صعب فانك اذا قلت له الطريق على يمينك يدور الى يمينه لكنه لا يبقى عليه بل يحيد عن قريب وارشاد الأصم أصعب فلهذا تكون المباشرة مع الأعمى أسهل من المباشرة مع الأصم الذي لا يسمع شيئا لأن غاية الافهام بالكلام فان ما لا يفهم بالاشارة يفهم بالكلام وليس كل ما يفهم بالكلام يفهم بالاشارة فان المعدوم والغائب لا اشارة اليهما فقال أولا لا تسمع الموتى ثم قال ولا الأصم ولا تهدي الأعمى الذي دون الأصم (المسئلة الثانية) قال في الصم اذا ولوا مدبرين ليكون أدخل في الامتناع وذلك لأن الأصم وان كان يفهم فانما يفهم بالاشارة فاذا ولى ولا يكون نظره الى المشير فانه يسمع ولا يفهم (المسئلة الثالثة) قال في الأصم لا تسمع الصم الدعاء ولم يقل في الموتى ذلك لأن الأصم قد يسمع الصوت الهائل كصوت الرعد القوي ولكن صوت الداعي لا يبلغ ذلك الحد فقال انك داع لست بملجئ الى الايمان والداعي لا يسمع الأصم الدعاء (المسئلة الرابعة) قال وما أنت بهادي العمي أي ليس شغلك هداية العميان كما يقول القائل فلان ليس بشاعر وانما ينظم بيتا وبيتين أي ليس شغله ذلك فقوله انك لا تسمع الموتى نفي ذلك عنه وقوله وما أنت بهادي العمي يعني ليس شغلك ذلك وما أرسلت له ۞ ثم

قال تعالى ﴿ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ لما نفى اسماع الميت والاصم وأثبت اسماع المؤمن بآياته لزم أن يكون المؤمن حيا سميعا وهو كذلك لان المؤمن ترد على قلبه أمطار البراهين فتنبت في قلبه العقائد الحقة ويسمع زواجر الوعظ فتظهر منه الافعال الحسنة وهذا يدل على خلاف مذهب المعتزلة فانهم قالوا الله يريد من الكل الايمان غير ان بعضهم يخالف ارادة الله وقوله ان تسمع الا من يؤمن دليل على أنه يؤمن فيسمعه النبي صلى الله عليه وسلم ما يجب أن يفعل فهم مسلمون مطيعون كما قال تعالى عنهم قالوا سمعنا وأطعنا ۞ ثم قال تعالى ﴿الله الذي خلقكم من ضعف﴾ لما أعاد من الدلائل التي مضت دليلا من دلائل الآفاق وهو قوله الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا وذكر أحوال الريح من أوله الى آخره أعاد دليلا من دلائل الانفس وهو خلق الآدمي وذكر أحواله فقال خلقكم من ضعف أي مبناكم على الضعف كما قال تعالى خلق الانسان من عجل ومن ههنا كما تكون في قول القائل فلان زين فلانا من فقره وجعله غنيا أي من حالة فقره ۞ ثم قال تعالى ﴿ثم جعل من بعد ضعف قوة﴾ فقوله من ضعف اشارة الى حالة كان فيها جنينا وطفلا مولودا ورضيعا ومفطوما فهذه أحوال غاية الضعف وقوله ثم جعل من بعد ضعف قوة اشارة الى حالة بلوغه وانتقاله وشبابه واكتهاله وقوله ﴿ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾ اشارة الى ما يكون بعد الكهولة من ظهور النقصان والشيبة هي تمام الضعف ثم بين بقوله يخلق ما يشاء أن هذا ليس طبعا بل هو بمشيئة الله تعالى كما قال تعالى في دلائل الآفاق فيبسطه في السماء كيف يشاء وقوله وهو العليم القدير لم قدم العلم على القدرة وقال من قبل وهو العزيز الحكيم فالعزة اشارة الى تمام القدرة والحكمة الى العلم فقدم القدرة هنالك وقدم العلم على القدرة ههنا فنقول هنالك المذكور الاعادة بقوله وهو أهون عليه وله المثل الاعلى في السموات والارض وهو العزيز الحكيم لان الاعادة تكون بكن فيكون فالقدرة هنالك أظهر وههنا المذكور الابداء وهو أطوار وأحوال والعلم بكل حال حاصل فالعلم ههنا أظهر ثم ان قوله تعالى وهو العليم القدير تبشير وانذار لانه اذا كان عالما بأعمال الخلق كان عالما بأحوال المخلوقات فان عملوا خيرا علمه وان عملوا شرا علمه ثم اذا كان قادرا فاذا علم الخير أثاب واذا علم الشر عاقب ولما كان العلم بالاحوال قبل الاثابة والعقاب اللذين هما بالقدرة قدم العلم وأما في الآخرة فالعلم بتلك الاحوال مع العقاب فقال وهو العليم الحكيم والى مثل هذا أشار في قوله فتبارك الله أحسن الخالقين عقيب خلق الانسان فنقول أحسن اشارة الى العلم لان حسن الخلق بالعلم والخلق المفهوم من قوله الخالقين اشارة الى القدرة ثم لما بين ذكر الابداء والاعادة كالابداء ذكره بذكر أحوالها وأوقاتها ۞ فقال تعالى ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾ قيل ما لبثوا في الدنيا غير ساعة وقيل ما لبثوا في القبور وقيل ما لبثوا من وقت فناء الدنيا الى وقت النشور ﴿كذلك كانوا يؤفكون﴾ يصرفون من الحق الى الباطل ومن الصدق الى الكذب ﴿وقال الذين أوتوا العلم والايمان﴾ من الملائكة وغيرهم ﴿لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث﴾ ونحن نبين ما هو المعنى اللطيف في هاتين الآيتين فنقول الموعود بوعد اذا ضرب له أجل يستكثر الاجل ويريد تعجيله والموعد بوعيد اذا ضرب له أجل يستقل المدة ويريد تأخيرها لكن المجرم اذا حشر علم أن مصيره الى النار فيستقل مدة اللبث ويختار تأخير الحشر والابقاء في القبر والمؤمن اذا حشر علم ان مصيره الى الجنة فيستكثر المدة ولا يريد التأخير فيختلف الفريقان ويقول أحدهما ان مدة لبثنا قليل واليه الاشارة بقوله يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ويقول الآخر لبثنا مديدا واليه الاشارة بقوله تعالى وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث يعني

الثالثة أن ذا القرنين هو أبو كرب سمي بن عمير بن افريقيس الحميري وأن ملكه بلغ مشارق الارض ومغاربها وهو الذي افتخر به التبع اليماني حيث قال

قد كان ذو القرنين جدي مسلما * ملكا علا في الارض غير مفند
بلغ المشارق والمغارب يبتغي * أسباب أمر من حكيم مرشد

وجعل هذا القول أقرب لان الاذواء كانوا من اليمن كذي المنار وذي نواس وذي النون وذي رعين وذي يزن وذي جدن قال الامام الرازي والاول هو الاظهر لان من بلغ ملكه من السعة والقوة الى الغاية التي نطق بها التنزيل الجليل انما هو الاسكندر اليوناني كما تشهد به كتب التواريخ يروى انه لما مات أبوه جمع ملك الروم بعد ان كان طوائف ثم قصد ملوك العرب وقهرهم ثم أمعن حتى انتهى الى البحر الاخضر ثم عاد الى مصر فبنى الاسكندرية وسماها باسمه ثم دخل الشام وقصد بني اسرائيل وورد بيت المقدس وذبح في مذبحه ثم انعطف الى ارمينية وباب الابواب ودان له العراقيون والقبط والبربر ثم توجه نحو دارا بن دارا وهزمه مرارا الى أن قتله صاحب حرسه واستولى على ممالك الفرس وقصد الهند وفتحه وبنى مدينة سرنديب وغيرها من المدن العظام ثم قصد الصين وغزا الامم البعيدة ورجع الى خراسان وبنى بها مدائن كثيرة ورجع الى العراق ومرض بشهرزور ومات انتهى كلام الامام وروى أن أهل النجوم قالوا له انك لا تموت الا على أرض من حديد وتحت سماء من خشب وكان يدفن كنز كل بلدة فيها ويكتب ذلك بصفته وموضعه فبلغ بابل فرعف وسقط عن دابته فبسطت له دروع فنام عليها فآذته الشمس فاظلوه بترس فنظر فقال هذه أرض

كان فى كتاب الله ضرب الاجل الى يوم البعث وتحن صبرنا الى يوم البعث ﴿فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾ يعنى طلبكم التأخير لانكم كنتم لا تعلمون البعث ولا تعرفون به فصار مصيركم الى النار فتطلبون التأخير ۞ ثم قال تعالى ﴿فيومئذ لا تنفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾ أى لا يطلب منهم الاعتاب وهو ازالة العتب يعنى التوبة التى تزيل آثار الجريمة لا تطلب منهم لانها لا تقبل منهم ۞ ثم قال تعالى ﴿ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل﴾ اشارة الى ازالة الاعذار والاتيان بما فوق الكفاية من الانذار والى انه لم يبق من جانب الرسول تقصير فان طلبوا شيأ آخر فذلك عناد ومن هان عليه تكذيب دليل لا يصعب عليه تكذيب الدلائل بل لا يجوز للمستدل أن يشرع فى دليل آخر بعد ماذكر دليلا جيدا مستقيما ظاهر الاعتبار عليه وعانده الخصم لانه اما أن يعترف بورود سؤال الخصم عليه أو لا يعترف فان اعترف يكون انقطاعا وهو يقدح فى الدليل أو المستدل اما أن الدليل فاسد واما بان المستدل جاهل بوجه الدلالة والاستدلال وكلاهما لا يجوز الاعتراف به من العالم فكيف من النبى عليه الصلاة والسلام وان لم يعترف يكون الشروع فى غيره موهما ان الخصم ليس معاندا فيكون اجترأه على العناد فى الثانى أكثر لانه يقول العناد أفاد فى الاول حيث التزم ذكر دليل آخر فان قيل فالانبياء عليهم السلام ذكروا أنواعا من الدلائل نقول سردوها سردا ثم قرروها فردا فردا كمن يقول الدليل عليه من وجوه الاول كذا والثانى كذا والثالث كذا وفى مثل هذا الواجب عدم الالتفات الى عناد المعاند لانه يريد بعناده حتى يضيع الوقت فلا يتمكن المستدل من الاتيان بجميع ما وعد من الدلائل فتنحط درجته فاذن لكل مكان مقال ۞ والى هذا وقعت الاشارة بقوله تعالى ﴿ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا ان أنتم الا مبطلون﴾ وفى توحيد الخطاب بقوله ولئن جئتهم والجمع فى قوله ان أنتم لطيفة وهى ان الله تعالى قال ولئن جئتهم بكل آية جاءت بها الرسل ويمكن أن يجاءبها يقولون أنتم كلكم أيها المدعون للرسالة مبطلون ۞ ثم بين تعالى ان ذلك بطبع الله على قلوبهم بقوله ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون﴾ فان قيل من لا يعلم شيأ أية فائدة فى الاخبار عن الطبع على قلبه نقول المعنى هو أن من لا يعلم الآن فقد طبع الله على قلبه من قبل ۞ ثم انه تعالى سلى قلب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله ﴿فاصبر ان وعد الله حق﴾ أى ان صدقك بين وقوله ﴿ولا يستخفنك الذين لا يوقنون﴾ اشارة الى وجوب مداومة النبى عليه الصلاة والسلام على الدعاء الى الايمان فانه لو سكت لقال الكافر انه متقلب الرأى لا ثبات له والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على سيد المرسلين وآله وصحبه أجمعين

﴿سورة لقمان عليه السلام مكية كلها الا آيتين نزلتا بالمدينة وهما ولو أن ما فى الارض من شجرة الآيتين أو الا آية نزلت بالمدينة وهى الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة لان الصلاة والزكاة نزلتا بالمدينة وهى ثلاث وقيل أربع وثلاثون آية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الم تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ وجه ارتباط أول هذه السورة بآخر ما قبلها هو أن الله تعالى لما قال ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل اشارة الى كونه معجزة وقال ولئن جئتهم بآية اشارة الى أنهم يكفرون بالآيات بين ذلك بقوله الم تلك آيات الكتاب الحكيم أى هذه آيات ولم يؤمنوا بها والى هذا أشار بعد هذا بقوله واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا ۞ وقوله ﴿هدى ورحمة للمحسنين الذين يقيمون الصلوة ويؤتون

من حديد وبعضه من خشب فأيقن بالموت فمات وهو ابن ألف وستمائة سنة وقيل ثلاثة آلاف سنة قال ابن كثير وهذا غريب وأغرب منه ما قاله ابن عساكر من أنه بلغنى أنه عاش ستا وثلاثين سنة أو ثنتين وثلاثين سنة وانه كان بعد داود وسليمان عليهما السلام فان ذلك لا ينطبق الا على ذى القرنين الثانى كما سنذكره (قلت) وكذا ماذكره الامام من قصد بنى اسرائيل وورود بيت المقدس والذبح فى مذبحه فانه مما لا يكاد يتأتى نسبته الى الاول واختلف فى نبوته بعد الاتفاق على اسلامه وولايته فقيل كان نبيا لقوله تعالى انا مكناله فى الارض وظاهر أنه متناول للتمكين فى الدين وكماله بالنبوة ولقوله تعالى وآتيناه من كل شئ سببا ومن جملة الاشياء النبوة ولقوله تعالى قلنا ياذا القرنين ونحو ذلك وقيل كان ملكا لما روى أن عمر رضى الله عنه سمع رجلا يقول لآخر ياذا القرنين فقال اللهم غفرا أما رضيتم أن تتسموا بأسماء الانبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة قال ابن كثير والصحيح انه ما كان نبيا ولا ملكا وانما كان ملكا صالحا عادلا ملك الاقاليم وقهر أهلها من الملوك وغيرهم ودانت له البلاد وانه كان داعيا الى الله تعالى سائرا فى الخلق بالمعدلة التامة والسلطان المؤيد المنصور وكان الخضر على مقدمة جيشه بمنزلة المستشار الذى هو من الملك بمنزلة الوزير وقد ذكر الازرقى وغيره انه أسلم على يدى ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فطاف معه بالكعبة هو واسمعيل عليهم السلام وروى أنه حج ماشيا فلما سمع ابراهيم عليه الصلاة والسلام بقدومه تلقاه ودعا له وأوصاه بوصايا ويقال انه أتى بفرس ليركب فقال لا أركب فى بلد فيه الخليل فعند ذلك سخر له السحاب وطوى له الاسباب وبشره ابراهيم عليه الصلاة والسلام بذلك فكانت السحاب تحمله وعساكره

و يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ فقوله هدى
أي بيانا وفرقانا وأما التفسير فمثل تفسير قوله تعالى الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى وكما قيل هناك ان
المعنى بذلك هذا كذلك قيل بأن المراد بتلك هذه ويمكن ان يقال كما قلنا هناك ان تلك اشارة الى الغائب
معناه آيات القرآن آيات الكتاب الحكيم وعند انزال هذه الآيات التي نزلت مع الم تلك آيات الكتاب
الحكيم لم تكن جميع الآيات نزلت فقال تلك اشارة الى الكل أي آيات القرآن تلك آيات وفيه مسائل
﴿ المسئلة الاولى ﴾ قال في سورة البقرة ذلك الكتاب ولم يقل الحكيم وههنا قال الحكيم فلما زاد ذكر وصف
الكتاب زاد ذكر أمر في أحواله فقال هدى ورحمة وقال هناك هدى للمتقين فقوله هدى في مقابلة قوله
الكتاب وقوله رحمة في مقابلة قوله الحكيم ووصف الكتاب بالحكيم على معنى ذي الحكمة كقوله تعالى
في عيشة راضية أي ذات رضا ﴿ المسئلة الثانية ﴾ قال هناك للمتقين وقال ههنا للمحسنين لانه لما ذكر انه
هدى ولم يذكر شيأ آخر قال للمتقين أي يهتدي به من يتقي الشرك والعناد والتعصب وينظر فيه من غير
عناد ولما زاد ههنا رحمة قال للمحسنين أي المتقين الشرك والعناد الآتين بكلمة الاحسان فالمحسن هو
الآتي بالايمان والمتقي هو التارك للكفر كما قال تعالى ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ومن جانب
الكفر كان متقيا وله الجنة ومن أتى بحقيقة الايمان كان محسنا وله الزيادة لقوله تعالى للذين أحسنوا
الحسنى وزيادة ولانه لما ذكر أنه رحمة قال للمحسنين لان رحمة الله قريب من المحسنين ﴿ المسئلة الثالثة ﴾
قال هناك الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وقال ههنا الذين يقيمون الصلاة ولم يقل يؤمنون لما بينا
أن المتقي هو التارك للكفر ويلزمه أن يكون مؤمنا والمحسن هو الآتي بحقيق الايمان ويلزمه أن لا يكون
كافرا فلما كان المتقي دالا على المؤمن في الالتزام صرح بالايمان هناك تبيينا ولما كان المحسن دالا على
الايمان بالتنصيص لم يصرح بالايمان وقوله تعالى الذين يقيمون الصلاة قد ذكرنا ما في الصلاة واقامتها
مرارا وما في الزكاة والقيام بها وذكرنا في تفسير الانفال في أوائلها أن الصلاة ترك التشبه بالسيد فانها عبادة
صورة وحقيقة والله تعالى تجب له العبادة ولا تجوز عليه العبادة وترك التشبه لازم على العبد أيضا في أمور
فلا يجلس عند جلوسه ولا يتكئ عند اتكائه والزكاة تشبه بالسيد فانها دفع حاجة الغير والله دافع الحاجات
والتشبه لازم على العبد أيضا في أمور كما أن عبد العالم لا يلبس لباس الاجناد وعبد الجندي لا يلبس
لباس الزهاد وبهما تتم العبودية ﴾ ثم قال تعالى ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل
الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ﴾ لما بين أن القرآن كتاب حكيم يشتمل على آيات
حكمية بين من حال الكفار انهم يتركون ذلك ويشتغلون بغيره ثم ان فيه ما يبين سوء صنيعهم من وجوه
(الاول) أن ترك الحكمة والاشتغال بحديث آخر قبيح (الثاني) هو ان الحديث اذا كان لهوا ولا فائدة فيه
كان أقبح (الثالث) هو ان اللهو قد يقصد به الاحماض كما ينقل عن ابن عباس انه قال أحمضوا ونقل عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال روحوا القلوب ساعة فساعة رواه الديلمي عن أنس مرفوعا ويشهد له ما في
مسلم يا حنظلة ساعة وساعة والعوام يفهمون منه الامر بما يجوز من المطايبة والخواص يقولون هو أمر
بالنظر الى جانب الحق فان الترويح به لا بغير فلما لم يكن قصدهم الا الاضلال لقوله ليضل عن سبيل الله كان
فعله أدخل في القبح ثم قوله تعالى بغير علم عائد الى الشراء أي يشتري بغير علم ويتخذها أي يتخذ السبيل هزوا
أولئك لهم عذاب مهين قوله مهين اشارة الى أمر يفهم منه الدوام وذلك لان الملك اذا أمر بتعذيب عبد من
عبيده فالجلاد ان علم انه ممن يعود الى خدمة الملك ولا يتركه الملك في الحبس يكرمه ويخفف من تعذيبه وان

القرنين وقيل لانه كان له ذؤابتان وقيل لانه كانت صفحتا رأسه من النحاس وقيل لانه دعا الناس الى الله عز وجل فضرب بقرنه الايمن فمات ثم بعثه الله فضرب بقرنه الايسر فمات ثم بعثه الله تعالى وقيل لانه رأى في منامه أنه صعد الفلك فأخذ بقرني الشمس وقيل لانه انقرض في عهده قرنان وقيل لانه سخر له النور والظلمة فاذا سرى يهديه النور من أمامه وتحوطه الظلمة من ورائه وقيل لقب به لشجاعته هذا ابوأما ذو القرنين الثاني فقد قال ابن كثير انه الاسكندر بن فيلبس بن مصريم بن هرمس بن مطيون بن رومي بن لطي بن يونان بن يافث ابن يونه بن شرخون بن رومة بن تونط بن نوفيل ابن رومي بن الاصفر بن العيص بن اسحاق بن ابراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام كذا نسبه ابن عساكر المقدوني اليوناني المصري باني الاسكندرية الذي يؤرخ بأيامه الروم وكان متأخرا عن الاول بدهر

طويل أكثر من ألفي سنة كان هذا قبل المسيح عليه السلام بنحو من ثلثمائة سنة وكان وزيره ارسطاطاليس الفيلسوف وهو الذي
قتل دارا بن دارا وأذل ملوك الفرس ووطئ أرضهم ثم قال ابن كثير وانما بينا هذا لان كثيرا من الناس يعتقد أنهما واحد وان المذكور
في القرآن العظيم هو هذا المتأخر فيقع بذلك خطأ كبير وفساد كثير كيف لا والاول كان عبدا صالحا مؤمنا وملكا عادلا وزيره الخضر

علم انه لا يعود الى ما كان عليه وأمره قد انقضى فانه لا يكرمه فقوله عذاب مهين اشارة الى هذا وبه يفرق بين عذاب المؤمن وعذاب الكافر فان عذاب المؤمن ليطهر فهو غير مهين ﴿ ثم قال تعالى ﴿واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا﴾ أي يشترى الحديث الباطل والحق الصراح يأتيه مجانا يعرض عنه واذا نظرت فيه فهمت حسن هذا الكلام من حيث ان المشترى يطلب المشترى مع أنه يطلبه ببذل الثمن ومن يأتيه الشئ لا يطلبه ولا يبذل شيأ ثم ان الواجب أن يطلب العاقل الحكمة بأي شئ يجده ويشتريها وهم ما كانوا يطلبونها واذا جاءتهم مجانا ما كانوا يسمعونها ثم ان فيه أيضا مراتب (الاولى) التولية عن الحكمة وهو قبيح (والثاني) الاستكبار ومن يشترى حكاية رستم وبهرام ويحتاج اليها كيف يكون مستغنيا عن الحكمة حتى يستكبر عنها وانما يستكبر الشخص عن الكلام اذا كان يقول أنا أقول مثله فمن لا يقدر يصنع مثل تلك الحكايات الباطلة كيف يستكبر على الحكمة البالغة التي من عند الله (الثالث) قوله تعالى كأن لم يسمعها شغل المتكبر الذي لا يلتفت الى الكلام ويجعل نفسه كأنها غافلة (الرابع) قوله كأن في أذنيه وقرا أدخل في الاعراض ﴿ ثم قال تعالى ﴿فبشره بعذاب أليم﴾ أي له عذاب مهين فبشره أنت به وأوعده أو يقال اذا كان حاله هذا فبشره بعذاب أليم ﴿ وقوله تعالى ﴿ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم﴾ لما بين حال من اذا تتلى عليه الآيات ولى بين حال من يقبل على تلك الآيات ويقبلها وكما أن ذلك له مراتب من التولية والاستكبار فهذا له مراتب من الاقبال والقبول والعمل به فان من سمع شيأ وقبله قد لا يعمل به فلا تكون درجته مثل من يسمع ويطيع ثم ان هذا له جنات النعيم ولذلك عذاب مهين وفيه لطائف (احداها) توحيد العذاب وجمع الجنات اشارة الى أن الرحمة واسعة أكثر من الغضب (الثانية) تنكير العذاب وتعريف الجنة بالاضافة الى المعرف اشارة الى أن الرحيم يبين النعمة ويعرفها ايصالا للراحة الى القلب ولا يبين النقمة وانما ينبه عليها تنبيها (الثالثة) قال عذاب ولم يصرح بأنهم فيه خالدون وانما أشار الى الخلود بقوله مهين وصرح في الثواب بالخلود بقوله خالدين فيها (الرابعة) أكد ذلك بقوله وعد الله حقا ولم يذكره هناك (الخامسة) قال هناك لغيره فبشره بعذاب وقال ههنا بنفسه وعد الله ثم لم يقل أبشركم به لان البشارة لا تكون الا بأعظم ما يكون لكن الجنة دون ما يكون للصالحين بشارة من الله وانما تكون بشارتهم منه برحمته ورضوانه كما قال تعالى يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ولولا قوله منه لما عظمت البشارة ولو كانت منه مقرونة بأمر دون الجنة لكان ذلك فوق الجنة من غير اضافة فان قيل فقد بشر بنفس الجنة بقوله وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نقول البشارة هنالك لم تكن بالجنة وحدها بل بها وبما ذكر بعدها الى قوله تعالى نزلا من غفور رحيم والنزل ما يهيأ عند النزول والاكرام العظيم بعده وهو العزيز الحكيم كامل القدرة يعذب المعرض ويثيب المقبل كامل العلم يفعل الافعال كما ينبغي فلا يعذب من يؤمن ولا يثيب من يكفر ﴿ ثم قال تعالى ﴿خلق السموات بغير عمد ترونها﴾ بين عزته وحكمته بقوله خلق السموات بغير عمد اختلف قول العلماء في السموات فمنهم من قال انها مبسوطة كصفحة مستوية وهو قول أكثر المفسرين ومنهم من قال انها مستديرة وهو قول جميع المهندسين والغزالي رحمه الله قال نحن نوافقهم في ذلك فان لهم عليها دليلا من المحسوسات ومخالفة الحس لا تجوز وان كان في الباب خبر نؤوله بما يحتمله فضلا عن أن ليس في القرآن والخبر ما يدل على ذلك صريحا بل فيه ما يدل على الاستدارة كما قال تعالى كل في فلك يسبحون والفلك اسم لشئ مستدير بل الواجب أن

عليه الصلاة والسلام وقد قيل انه كان نبيا وأما الثاني فقد كان كافرا وزيره ارسطاطاليس الفيلسوف وقد كان ما بينهما من الزمان أكثر من ألفي سنة فأين هذا من ذاك انتهى (قلت) المقدونى نسبة الى بلدة من بلاد الروم غربي دار السلطنة السنية قسطنطينية المحمية لازالت مشحونة بالشعائر الدينية بينهما من المسافة مسيرة خمسة عشر يوما أو نحو ذلك عند مدينة سيروز اسمها بلغة اليونانيين مقدونيا كانت سرير ملك هذا الاسكندر وهي اليوم بلقع لا يقيم بها أحد ولكن فيها علائم تحكي كمال عظمها في عهد عمرانها ونهاية شوكة واليها وسلطانها ولقد مررت بها عند القفول من بعض المغازي السلطانية فعاينت فيها من تعاجيب الآثار ما فيه عبرة لأولي الابصار (قل) لهم في الجواب (سأتلو عليكم) أي سأذكر لكم (منه) أي من ذي القرنين (ذكرا) أي نبأ مذكورا وحيث كان ذلك بطريق الوحي المتلو حكاية عن جهة الله عز وجل قيل سأتلو وسأتلو في شأنه من جهته تعالى ذكرا أي قرآنا والسين للتأكيد والدلالة على التحقق المناسب لمقام تأييده عليه الصلاة والسلام وتصديقه بانجاز وعده أي لا أترك التلاوة البتة كما في قول من قال

سأشكر عمرا ان تراخت منيتي
أيادي لم تمنن وان هي جلت

لا للدلالة على أن التلاوة ستقع فيما يستقبل كما قيل لان هذه الآية ما نزلت بانفرادها قبل الوحي بتمام القصة بل موصولة بما بعدها ريثما سألوه عليه الصلاة والسلام بقال عنه وعن الروح وعن أصحاب الكهف فقال لهم عليه الصلاة والسلام ائتوني غدا أخبركم فأبطأ عليه الوحي خمسة عشر يوما أو أربعين كما ذكر فيما سلف وقوله عز وجل (انا مكنا له في الارض) شروع في تلاوة الذكر المعهود حسبما هو المعهود والتمكين ههنا الاقدار وتمهيد

الاسباب يقال مكنه ومكن له ومعنى الاول جعله قادرا وقويا ومعنى الثاني جعل له قدرة وقوة ولتلازمهما في الوجود وتقاربهما في المعنى يستعمل كل منهما في محل الآخر كما في قوله عز وعلا مكناهم في الارض ما لم نمكن لكم أي جعلناهم قادرين من حيث القوى والاسباب والآلات على أنواع التصرفات فيها ما لم نجعله لكم من القوة والسعة في المال والاستظهار بالعدد والاسباب

بقال بأن السموات سواء كانت مستديرة أو مصفحة فهي مخلوقة بقدرة الله لا موجودة بإيجاب وطبع اذا علم هذا فنقول السماء في مكان وهو فضاء والفضاء لا نهاية له وكون السماء في بعضه دون بعض ليس الا بقدرة مختار واليه الاشارة بقوله بغير عمد أي ليس على شيء يمنعها الزوال من موضعها وهي لا تزول الا بقدرة الله تعالى وقال بعضهم المعنى ان السموات بأسرها ومجموعها لا مكان لها لان المكان ما يعتمد عليه ما فيه فيكون متمكنا والحيز ما يشار الى ما فيه بسببه يقال ههنا وهنالك وعلى هذا قالوا ان من يقع من شاهق جبل فهو في الهواء في حيز اذ يقال له هو ههنا وهنالك وليس في مكان اذ لا يعتمد على شيء فاذا حصل على الارض حصل في مكان اذا علم هذا فالسموات ليست في مكان تعتمد عليه فلا عمد لها وقوله ترونها فيه وجهان (أحدهما) انه راجع الى السموات أي ليست هي بعمد وأنتم ترونها كذلك بغير عمد (والثاني) أنه راجع الى العمد أي بغير عمد مرئية وان كان هناك عمد غير مرئية فهي قدرة الله وارادته ثم قال تعالى ﴿وألقى في الارض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ أي جبالا راسية ثابتة أن تميد أي كراهة أن تميد وقيل المعنى أن لا تميد واعلم أن الارض ثباتها بسبب ثقلها والا كانت تزول عن موضعها بسبب المياه والرياح ولو خلقها مثل الرمل لما كانت تثبت للزراعة كما نرى الاراضي الرملة ينتقل الرمل الذي فيها من موضع الى موضع ثم قال تعالى وبث فيها من كل دابة أي سكون الارض فيه مصلحة حركة الدواب فأسكنا الارض وحركنا الدواب ولو كانت الارض متزلزلة وبعض الاراضي يناسب بعض الحيوانات لكانت الدابة التي لا تعيش في موضع تقع في ذلك الموضع فيكون فيه هلاك الدواب أما اذا كانت الارض ساكنة والحيوانات متحركة تتحرك في المواضع التي تناسبها وترعى فيها وتعيش فيها ثم قال تعالى وأنزلنا من السماء ماء هذه نعمة أخرى أنعمها الله على عباده وتمامها بسكون الارض لان البذر اذا لم يثبت الى أن ينبت لم يكن يحصل الزرع ولو كانت أجزاء الارض متحركة كالرمل لما حصل الثبات ولما كمل النبات والعدول من المغايبة الى النفس فيه فصاحة وحكمة أما الفصاحة فمذكورة في باب الالتفات من أن السامع اذا سمع كلاما طويلا من نمط واحد ثم ورد عليه نمط آخر يستطيبه ألا ترى أنك اذا قلت قال زيد كذا وكذا وقال خالد كذا وكذا وقال عمرو كذا ثم ان بكرا قال قولا حسنا يستطاب لما قد تكرر القول مرارا وأما الحكمة فمن وجهين (أحدهما) أن خلق الارض ثقيلا والسماء في غير مكان قد يقع لجاهل انه بالطبع وبث الدواب يقع لبعضهم انه باختيار الدابة لان لها اختيارا فنقول الاول طبيعي والآخر اختياري للحيوان ولكن لا يشك أحد في أن الماء في الهواء من جهة فوق ليس طبعا فان الماء لا يكون بطبعه فوق ولا اختيارا اذ الماء لا اختيار له فهو بارادة الله تعالى فقال وأنزلنا من السماء (الثاني) هو أن انزال الماء نعمة ظاهرة متكررة في كل زمان متكثرة في كل مكان فأسنده الى نفسه صريحا ليتنبه الانسان لشكر نعمة فيزيد له من رحمته وقوله تعالى فأنبتنا فيها من كل زوج أي من كل جنس وكل جنس فتحته زوجان لان النبات اما أن يكون شجرا واما أن يكون غير شجر والذي هو الشجر اما أن يكون مثمرا واما أن يكون غير مثمر والمثمر كذلك ينقسم قسمين وقوله تعالى كريم أي ذي كرم لانه يأتي كثيرا من غير حساب أو مكرم مثل بغيض للمبغض ثم قال تعالى ﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه﴾ يعني الله خالق وغيره ليس بخالق فكيف تتركون عبادة الخالق وتشتغلون بعبادة المخلوق ثم قال تعالى ﴿بل الظالمون في ضلال مبين﴾ أي بين أو مبين للعاقل انه ضلال وهذا لان ترك الطريق والحيد عنه ضلال ثم ان كان الحيد عنه أو يسيرة فهو لا يبعد عن الطريق

فكأنه قيل ما لم نمكنكم فيها أي ما لم نجعلكم قادرين على ذلك فيها أو مكناهم في الارض ما لم نمكن لكم وهكذا اذا كان التمكين مأخوذا من المكان بناء على توهم ميمه أصلية كما أشير اليه في سورة يوسف عليه الصلاة والسلام والمعنى انا جعلنا له مكنة وقدرة على التصرف في الارض من حيث التدبير والرأي والاسباب حيث سخر له السحاب ومد له في الاسباب وبسط له النور وكان الليل والنهار عليه سواء وسهل عليه السير في الارض وذللت له طرقها (وآتيناه من كل شيء) أراده من مهمات ملكه ومقاصده المتعلقة بسلطانه (سببا) أي طريقا يوصله اليه وهو كل ما يتوصل به الى المقصود من علم أو قدرة أو آلة (فأتبع) بالقطع أي فأراد بلوغ المغرب فأتبع (سببا) يوصله اليه ولعل قصد بلوغ المغرب ابتداء لمراعاة الحركة الشمسية وقرئ فاتبع من الافتعال والفرق أن الاول فيه معنى الادراك والاسراع دون الثاني (حتى اذا بلغ مغرب الشمس) أي منتهى الارض من جهة المغرب بحيث لا يتمكن أحد من مجاوزته ووقف على حافة البحر المحيط الغربي الذي يقال له أوقيانوس الذي فيه الجزائر المسماة بالخالدات التي هي مبدأ الاطوال على أحد القولين (وجدها) أي الشمس (تغرب في عين حمئة) أي ذات حمأة وهي الطين الاسود من حمئت البئر اذا كثرت

المستقيم مثل ما يكون القصد الى وراء فانه يكون غاية الضلال فالمقصد هو الله تعالى فمن يطلبه و يلتفت الى غيره من الدنيا وغيرها فهو ضال لكن من وجهه الى الله قد يصل الى المقصود ولكن بعد تعب وطول مدة ومن يطلبه ولا يلتفت الى ما سواه يكون كالذى على الطريق المستقيم يصل عن قريب من غير تعب وأما الذى تولى لا يصل الى المقصود أصلا وان دام فى السفر والمراد بالظالمين المشركون الواضعون لعبادتهم فى غير موضعها أو الواضعون أنفسهم فى عبادة غير الله ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله﴾ لما بين أن الله فساد اعتقادهم بسبب عنادهم باشراك من لا يخلق شيأ بمن خلق كل شئ بقوله هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه وبين أن المشرك ظالم ضال ذكر ما يدل على ان ضلالهم وظلمهم بمقتضى الحكمة وان لم يكن هناك نبوة وهذا اشارة الى معنى وهو ان اتباع النبى عليه السلام لازم فيما لا يعقل معناه اظهارا للتعبد فكيف ما لا يختص بالنبوة بل يدرك بالعقل معناه وما جاء به النبى عليه الصلاة والسلام مدرك بالحكمة وذكر حكاية لقمان وانه أدركه بالحكمة وقوله ولقد آتينا لقمان الحكمة عبارة عن توفيق العمل بالعلم فكل من أوتى توفيق العمل بالعلم فقد أوتى الحكمة وان أردنا تحديدها بما يدخل فيه حكمة الله تعالى فنقول حصول العمل على وفق المعلوم والذى يدل على ما ذكرنا ان من تعلم شيأ ولا يعلم مصالحه ومفاسده لا يسمى حكيما وانما يكون مبخوتا ألا ترى ان من يلقى نفسه من مكان عال ووقع على موضع فانخسف به وظهر له كنز وسلم لا يقال انه حكيم وان ظهر لفعله مصلحة وخلو عن مفسدة لعدم علمه به أولا ومن يعلم ان الالقاء فيه اهلاك النفس ويلقى نفسه من ذلك المكان وتنكسر أعضاؤه لا يقال انه حكيم وان علم ما يكون فى فعله ثم الذى يدل على ما ذكرنا قوله تعالى أن اشكر لله فان أن فى مثل هذا تسمى المفسرة فسر الله ايتاء الحكمة بقوله أن اشكر لله وهو كذلك لان من جملة ما يقال ان العمل موافق للعلم لان الانسان اذا علم أمرين أحدهما أهم من الآخر فان اشتغل بالاهم كان موافقا للعلم وكان حكمة وان أهمل الاهم كان مخالفا للعلم ولم يكن من الحكمة فى شئ لكن شكر الله أهم الاشياء فالحكمة أول ما تقتضى ذلك ﴿ثم ان الله تعالى بين أن بالشكر لا ينتفع الا الشاكر بقوله﴾ ﴿ومن يشكر فانما يشكر لنفسه﴾ وبين أن بالكفران لا يتضرر غير الكافر بقوله ﴿ومن كفر فان الله غنى حميد﴾ أى الله غير محتاج الى شكر حتى يتضرر بكفران الكافر وهو فى نفسه محمود سواء شكره الناس أو لم يشكروه وفى الآية مسائل ولطائف ﴿الاولى﴾ فسر الله ايتاء الحكمة بالامر بالشكر لكن الكافر والجاهل مأموران بالشكر فينبغى ان يكون قد أوتى الحكمة ﴿والجواب﴾ ان قوله تعالى أن اشكر لله أمر تكوين معناه آتيناه الحكمة بأن جعلناه من الشاكرين وفى الكافر الامر بالشكر أمر تكليف ﴿المسئلة الثانية﴾ قال فى الشكر ومن يشكر بصيغة المستقبل وفى الكفران ومن كفر فان الله غنى وان كان الشرط يجعل الماضى والمستقبل فى معنى واحد كقول القائل من دخل دارى فهو حر ومن يدخل دارى فهو حر ﴿فنقول﴾ فيه اشارة الى معنى وارشاد الى أمر وهو ان الشكر ينبغى أن يتكرر فى كل وقت لتكرر النعمة فمن شكر ينبغى أن يكرر والكفر ينبغى ان ينقطع فمن كفر ينبغى ان يترك الكفران ولان الشكر من الشاكر لا يقع بكماله بل أبدا يكون منه شئ فى العدم يريد الشاكر ادخاله فى الوجود كما قال رب أوزعنى أن اشكر نعمتك وكما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها فأشار اليه بصيغة المستقبل تنبيها على ان الشكر بكماله لم يوجد وأما الكفران فكل جزء يقع منه تام فقال بصيغة الماضى ﴿المسئلة الثالثة﴾ قال تعالى هنا ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر بتقديم الشكر على الكفران وقال فى سورة الروم من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون ﴿فنقول﴾

جأتها وقرئ حامية أى حارة وروى أن معاوية رضى الله عنه قرأ حامية وعنده ابن عباس رضى الله عنهما فقال حمئة فقال معاوية لعبد الله بن عمرو بن العاص كيف تقرأ قال كما يقرأ أمير المؤمنين ثم وجه الى كعب الاحبار كيف تجد الشمس تغرب قال فى ماء وطين وروى فى ثأط فوافق قول ابن عباس رضى الله عنهما وليس بينهما منافاة قطعية لجواز كون العين جامعة بين الوصفين وكون الياء فى الثانية منقلبة عن الهمزة لانكسار ما قبلها وأما رجوع معاوية الى قول ابن عباس رضى الله عنهم بما سمعه من كعب مع أن قراءته أيضا مسموعة قطعا فلكون قراءة ابن عباس رضى الله عنهما قطعية فى مدلولها وقراءته محتملة ولعله لما بلغ ساحل المحيط رآها كذلك اذ ليس فى مطمح بصره غير الماء كما يلوح به قوله تعالى وجدها تغرب (ووجد عندها) عند تلك العين (قوما) قيل كان لباسهم جلود الوحوش وطعامهم ما لفظه البحر وكانوا كفارا فخيره الله جل ذكره بين أن يعذبهم بالقتل وأن يدعوهم الى الايمان وذلك قوله تعالى (قلنا ياذا القرنين اما أن تعذب) بالقتل من أول الامر (واما أن تتخذ فيهم حسنا) أى أمرا ذا حسن على حذف المضاف أو على طريقة اطلاق المصدر على موصوفه مبالغة وذلك بالدعوة الى الاسلام والارشاد الى الشرائع ومحل أن مع صلته اما الرفع على الابتداء أو الخبرية واما النصب على المفعولية أى اما تعذيبك واقع أو اما أمرك تعذيبك أو اما تفعل تعذيبك وهكذا الحال فى الاتخاذ ومن لم يقل بنبوته قال كان ذلك الخطاب بواسطة نبى فى ذلك العصر أو كان ذلك الهاما لا وحيا بعد أن كان ذلك التخيير موافقا لشريعة ذلك النبى (قال) أى ذو القرنين لذلك النبى

هنالك

أو أن عنده من خواصه بعدما تلقى أمره تعالى مختار الشق الأخير (أما من ظلم) أي نفسه ولم يقبل دعوتي وأصر على ما كان عليه من الظلم العظيم الذي هو الشرك (فسوف نعذبه) بالقتل وعن قتادة أنه كان يطبخ من كفر في القدور ومن آمن أعطاه وكساه (ثم يرد إلى ربه) في الآخرة (فيعذبه) فيها (عذابا نكرا) أي منكرا فظيعا وهو عذاب النار وفيه دلالة ظاهرة على أن الخطاب لم يكن

هنالك كان الذكر للترهيب لقوله تعالى من قبل فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون وههنا الذكر للترغيب لأن وعظ الأب للابن يكون بطريق اللطف والوعد وقوله ومن عمل صالحا يحقق ما ذكرنا أولا لأن المذكور في سورة الروم لما كان بعد اليوم الذي لا مرد له تكون الأعمال قد سبقت فقال بلفظ الماضي ومن عمل وههنا لما كان المذكور في الابتداء قال ومن يشكر بلفظ المستقبل وقوله ومن كفر فإن الله غني عن حمد الحامدين حميد في ذاته من غير حمدهم وإنما الحامد ترتفع مرتبته بكونه حامدا لله تعالى ۞ ثم قال تعالى ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾ عطف على معنى ما سبق وتقديره آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكرا في نفسه وحين جعلناه واعظا لغيره وهذا لأن علو مرتبة الإنسان بأن يكون كاملا في نفسه ومكملا لغيره فقوله أن اشكر إشارة إلى الكمال وقوله وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه إشارة إلى التكميل وفي هذا لطيفة وهي أن الله تعالى ذكر لقمان وشكر سعيه حيث أرشد ابنه ليعلم منه فضيلة النبي عليه السلام الذي أرشد الأجانب والأقارب فإن إرشاد الولد أمر معتاد وأما تحمل المشقة في تعليم الأباعد فلا ثم إنه في الوعظ بدأ بالأهم وهو المنع من الإشراك وقال إن الشرك لظلم عظيم أما إنه ظلم فلأنه وضع للنفس الشريفة المكرمة بقوله تعالى ولقد كرمنا بني آدم في عبادة الخسيس أو لأنه وضع العبادة في غير موضعها وهي غير وجه الله وسبيله وأما إنه عظيم فلأنه وضع في موضع ليس موضعه ولا يجوز أن يكون موضعه وهذا لأن من يأخذ مال زيد ويعطي عمرا يكون ظالما من حيث إنه وضع مال زيد في يد عمرو ولكن جائز أن يكون ذلك ملك عمرو أو يصير ملكه ببيع سابق أو بتمليك لاحق وأما الإشراك فوضع المعبودية في غير الله تعالى ولا يجوز أن يكون غيره معبودا أصلا ۞ ثم قال تعالى ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير﴾ لما منعه من العبادة لغير الله والخدمة قريبة منها في الصورة بين أنها غير ممتنعة بل هي واجبة لغير الله في بعض الصور مثل خدمة الأبوين ثم بين السبب فقال حملته أمه يعني لله على العبد نعمة الإيجاد ابتداء بالخلق ونعمة الإبقاء بالرزق وجعل بفضله للأم ما له صورة ذلك وإن لم يكن لها حقيقة فإن الحمل به يظهر الوجود وبالرضاع تحصل التربية والبقاء فقال حملته أمه أي صارت بقدرة الله سبب وجوده وفصاله في عامين أي صارت بقدرته أيضا سبب بقائه فإذا كان منهما ما له صورة الوجود والبقاء وجب عليه ما له شبه العبادة من الخدمة فإن الخدمة لها صورة العبادة فإن قال قائل وصى الله بالوالدين وذكر السبب في حق الأم فنقول خص الأم بالذكر وفي الأب ما وجد في الأم فإن الأب حمله في صلبه سنين ورباه بكسبه سنين فهو أبلغ وقوله أن اشكر لي ولوالديك لما كان الله تعالى بفضله جعل من الوالدين صورة ما من الله فإن الوجود في الحقيقة من الله وفي الصورة يظهر من الوالدين جعل الشكر بينهما فقال أن اشكر لي ولوالديك ثم بين الفرق وقال إلي المصير يعني نعمتهما مختصة بالدنيا ونعمتي في الدنيا والآخرة فإن إلي المصير أو نقول لما أمر بالشكر لنفسه وللوالدين قال الجزاء علي وقت المصير إلي ۞ ثم قال تعالى ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ يعني أن خدمتهما واجبة وطاعتهما لازمة ما لم يكن فيها ترك طاعة الله أما إذا أفضى إليه فلا تطعهما وقد ذكرنا تفسير الآية في العنكبوت وقال ههنا واتبع سبيل من أناب إلي يعني صاحبهما بجسمك فإن حقهما على جسمك واتبع سبيل النبي عليه الصلاة والسلام بعقلك فإنه مربي عقلك كما أن الوالد مربي جسمك ۞ ثم قال تعالى ﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت

بطريق الوحي إليه وأن مقاولته كانت مع النبي أو مع من عنده من أهل مشورته (وأما من آمن) بموجب دعوتي (وعمل) عملا (صالحا) حسبما يقتضيه الإيمان (فله) في الدارين (جزاء الحسنى) أي فله المثوبة الحسنى أو الفعلة الحسنى أو الجنة جزاء على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة قدم على المبتدأ اعتناء به أو منصوب بمضمر أي نجزي بها جزاء والجملة حالية أو معترضة بين المبتدأ والخبر المتقدم عليه أو حال أي مجزيا بها أو تمييز وقرئ منصوبا غير منون على أنه سقط تنوينه لالتقاء الساكنين أو مرفوعا منونا على أنه المبتدأ والحسنى بدله والخبر الجار والمجرور وقيل خير بين القتل والأسر والجواب من باب الأسلوب الحكيم لأن الظاهر التخيير بينهما وهم كفار فقال أما الكافر فيراعى في حقه قوة الإسلام وأما المؤمن فلا يتعرض له إلا بما يجب ويجوز أن تكون إما وإما للتوزيع دون التخيير

أي وليكن شأنك إما التعذيب وإما الإحسان فالأول لمن بقي على حاله والثاني لمن تاب (وسنقول له من أمرنا) أي مما نأمر به (يسرا) أي سهلا متيسرا غير شاق وتقديره ذا يسر أو أطلق عليه المصدر مبالغة وقرئ بضمتين (ثم أتبع سببا) أي طريقا راجعا من مغرب الشمس موصلا إلى مشرقها (حتى إذا بلغ مطلع الشمس) يعني الموضع الذي تطلع عليه الشمس أولا من معمورة الأرض

بها الله ان الله لطيف خبير﴾ لما قال فانبئكم بما كنتم تعملون وقع لابنه ان ما يفعل في خفية يخفى فقال يا بني انها أي الحسنة والسيئة ان كانت في الصغر مثل حبة خردل وتكون مع ذلك الصغر في موضع حريز كالصخرة لا تخفى على الله وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ قوله فتكن بالفاء لافادة الاجتماع يعني ان كانت صغيرة ومع صغرها تكون خفية في موضع حريز كالصخرة لا تخفى على الله لان الفاء للاتصال بالتعقيب ﴿المسئلة الثانية﴾ لو قيل الصخرة لا بد من أن تكون في السموات أو في الارض فما الفائدة في ذكرها ولان القائل لو قال هذا رجل أو امرأة أو ابن عمرو لا يصح هذا الكلام لكون ابن عمرو داخلا في أحد القسمين فكيف يفهم هذا فنقول الجواب عنه من أوجه (أحدها) ما قاله بعض المفسرين وهو ان المراد بالصخرة صخرة عليها الثور وهي لا في الارض ولا في السماء (والثاني) ما قاله الزمخشري وهو ان فيه اضمارا تقديره فتكن في صخرة أو في موضع آخر في السموات أو في الارض (والثالث) أن نقول تقديم الخاص وتأخير العام في مثل هذا التقسيم جائز وتقديم العام وتأخير الخاص غير جائز أما الثاني فلما بينتم أن من قال هذا في دار زيد أو في غيرها أو في دار عمرو لا يصح لكون دار عمرو داخلة في قوله أو في غيرها وأما الاول فلان قول القائل هذا في دار زيد أو في دار عمرو أو في غيرها صحيح غير قبيح فكذلك ههنا قدم الاخص أو نقول خفاء الشيء يكون بطرق منها أن يكون في غاية الصغر ومنها أن يكون بعيدا ومنها أن يكون في ظلمة ومنها أن يكون من وراء حجاب فان انتفت الامور بأسرها بأن يكون كبيرا قريبا في ضوء من غير حجاب فلا يخفى في العادة فأثبت الله الرؤية والعلم مع انتفاء الشرائط فقوله انها ان تك مثقال حبة اشارة الى الصغر وقوله فتكن في صخرة اشارة الى الحجاب وقوله أو في السموات اشارة الى البعد فانها أبعد الابعاد وقوله أو في الارض اشارة الى الظلمات فان جوف الارض أظلم الاماكن وقوله يأت بها الله أبلغ من قول القائل يعلمها الله لان من يظهر له الشيء ولا يقدر على اظهاره لغيره يكون حاله في العلم دون حال من يظهر له الشيء ويظهره لغيره فقوله يأت بها الله أي يظهرها الله للاشهاد وقوله ان الله لطيف أي نافذ القدرة خبير أي عالم ببواطن الامور ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الامور﴾ لما منعه من الشرك وخوفه بعلم الله وقدرته أمره بما يلزمه من التوحيد وهو الصلاة وهي العبادة لوجه الله مخلصا وبهذا يعلم أن الصلاة كانت في سائر الملل غير أن هيئتها اختلفت ﴿ثم قال تعالى﴾ وأمر بالمعروف وانه عن المنكر أي اذا كملت أنت في نفسك بعبادة الله فكمل غيرك فان شغل الانبياء وورثتهم من العلماء هو أن يكملوا في أنفسهم ويكملوا غيرهم ﴿فان قال قائل﴾ كيف قدم في وصيته لابنه الامر بالمعروف على النهي عن المنكر وقيل قدم النهي عن المنكر على الامر بالمعروف فانه أول ما قال يا بني لا تشرك بالله ثم قال يا بني أقم الصلاة ﴿فنقول﴾ هو كان يعلم من ابنه أنه معترف بوجود الله فما أمره بهذا المعروف ونهاه عن المنكر الذي يترتب على هذا المعروف فان المشرك بالله لا يكون نافيا لله في الاعتقاد وان كان يلزمه نفيه بالدليل فكان كل معروف في مقابلته منكر والمعروف في معرفة الله اعتقاد وجوده والمنكر اعتقاد وجود غيره معه فلم يأمره بذلك المعروف لحصوله ونهاه عن المنكر لانه ورد في التفسير أن ابنه كان مشركا فوعظه ولم يزل يعظه حتى أسلم وأما ههنا فأمره أمرا مطلقا والمعروف مقدم على المنكر ﴿ثم قال تعالى﴾ واصبر على ما أصابك يعني ان من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يؤذى فأمره بالصبر عليه وقوله ان ذلك من عزم الامور أي من الامور الواجبة المعزومة أي المقطوعة ويكون المصدر بمعنى المفعول كما تقول أكلي في النهار رغيف خبز أي مأكولي ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الارض مرحا ان الله لا يحب

وقرئ بفتح اللام على تقدير مضاف أي مكان طلوع الشمس فانه مبدأ المعمورة وقيل بلغه في اثنتي عشرة سنة وقيل في أقل من ذلك بناء على ما ذكر من أنه سخر له السحاب وطوى له الاسباب (وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا) من اللباس والبناء قيل هم الزنج وعن كعب ان أرضهم لا تمسك الابنية وبها أسراب ٥٧٨ فاذا طلعت الشمس دخلوا الاسراب أو البحر فاذا ارتفع النهار خرجوا الى معايشهم وعن بعضهم خرجت حتى جاوزت الصين فسألت عن هؤلاء فقالوا بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة فبلغتهم فاذا أحدهم يفرش أذنه ويلبس الاخرى ومعي صاحب يعرف لسانهم فقالوا له جئتنا تنظر كيف تطلع الشمس قال فبينما نحن كذلك اذ سمعنا كهيئة الصلصلة فغشي علي ثم أفقت وهم يمسحونني بالدهن فلما طلعت الشمس على الماء اذا هي فوق الماء كهيئة الزيت فأدخلونا سربا لهم فلما ارتفع النهار خرجوا الى البحر يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضج لهم وعن مجاهد من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الارض (كذلك) أي أمر ذي القرنين كما وصفناه لك في رفعة المحل وبسطة الملك أو أمره فيهم كأمره في أهل المغرب من التخيير والاختيار ويجوز أن يكون صفة مصدر محذوف لوجد أو نجعل أو صفة قوم أي على قوم مثل ذلك القبيل الذي تغرب عليهم الشمس في الكفر والحكم أو سترا مثل ستركم من اللباس والاكنان والجبال وغير ذلك (وقد أحطنا بما لديه) من الاسباب والعدد والعدد (خبرا) يعني ان ذلك من الكثرة بحيث لا يحيط به الا علم اللطيف الخبير هذا على الوجه الاول وأما على الوجوه الباقية فالمراد بما لديه ما يتناول ما جرى عليه وما صدر عنه وما لاقاه فتأمل (ثم أتبع

كل مختال فخور ﴾ لما أمره بأن يكون كاملا في نفسه مكملا لغيره وكان يخشى بعدهما من أمرين (أحدهما) التكبر على الغير بسبب كونه مكملا له (والثاني) التبختر في النفس بسبب كونه كاملا في نفسه فقال ولا تصعر خدك للناس تكبرا ولا تمش في الارض مرحا تبخترا ان الله لا يحب كل مختال يعني من يكون به خيلاء وهو الذي يرى الناس عظمة نفسه وهو التكبر فخور يعني من يكون مفتخرا بنفسه وهو الذي يرى عظمة لنفسه في عينه وفي الآية لطيفة وهو أن الله تعالى قدم الكمال على التكميل حيث قال أقم الصلاة ثم قال وأمر بالمعروف وفي النهي قدم ما يورثه التكميل على ما يورثه الكمال حيث قال ولا تصعر خدك ثم قال ولا تمش في الارض مرحا لان في طرف الاثبات من لا يكون كاملا لا يمكن أن يصير مكملا فقدم الكمال وفي طرف النفي من يكون متكبرا على غيره يكون متبخترا لانه لا يتكبر على الغير الا عند اعتقاده أنه أكبر منه من وجه وأما من يكون متبخترا في نفسه قد لا يتكبر و يتوهم انه يتواضع للناس فقدم نفي التكبر ثم نفي التبختر لانه لو قدم نفي التبختر لزم منه نفي التكبر فلا يحتاج الى النهي عنه ومثاله أنه لا يجوز أن يقال لا تفطر ولا تأكل لان من لا يفطر لا يأكل ويجوز أن يقال لا تأكل ولا تفطر لان من لا يأكل قد يفطر بغير الاكل ولقائل أن يقول ان مثل هذا الكلام يكون للتفسير فيقول لا تفطر ولا تأكل أي لا تفطر بأن تأكل ولا يكون نهيين بل واحدا ۞ ثم قال تعالى ﴿ واقصد في مشيك واغضض من صوتك ان أنكر الاصوات لصوت الحمير ﴾ لما قال ولا تمش في الارض مرحا وعدم ذلك قد يكون بضده وهو الذي يخالف غاية الاختلاف وهو مشي المتماوت الذي يرى من نفسه الضعف تزهدا فقال واقصد في مشيك أي كن وسطا بين الطرفين المذمومين وفي الآية مسائل ﴿ الاولى ﴾ هل للامر بالغض من الصوت مناسبة مع الامر بالقصد في المشي فنقول نعم سواء علمناها نحن أو لم نعلمها وفي كلام الله من الفوائد ما لا يحصره حد ولا يحصيه عد ولا يعلمه واحد والذي يظهر وجوه (الاول) هو أن الانسان لما كان شريفا تكون مطالبه شريفة فيكون فواتها خطرا فاقدر الله الانسان على تحصيلها بالمشي فان عجز عن ادراك مقصوده ينادي مطلوبه فيقف له أو يأتيه مشيا اليه فان عجز عن ابلاغ كلامه اليه يكتب اليه وبعض الحيوانات يشارك الانسان في تحصيل المطلوب بالصوت كما أن الغنم تطلب السخلة والبقرة العجل والناقة الفصيل بالثغاء والخوار والرغاء ولكن لا تتعدى الى غيرها والانسان يميز البعض عن البعض فاذا كان المشي والصوت مفضيين الى مقصود واحد لما أرشده الى أحدهما أرشده الى الآخر (الثاني) هو أن الانسان له ثلاثة أشياء عمل بالجوارح يشاركه فيه الحيوانات فانه حركة وسكون وقول باللسان ولا يشاركه فيه غيره وعزم بالقلب وهو لا اطلاع عليه الا لله وقد أشار اليه بقوله انها ان تك مثقال حبة من خردل أي أصلح ضميرك فان الله خبير بقي الامران فقال واقصد في مشيك واغضض من صوتك اشارة الى التوسط في الافعال والاقوال (الثالث) هو أن لقمان أراد ارشاد ابنه الى السداد في الاوصاف الانسانية والاوصاف التي هي للملك الذي هو أعلى مرتبة منه والاوصاف التي للحيوان الذي هو أدنى مرتبة منه فقوله وأمر بالمعروف وانه عن المنكر اشارة الى المكارم المختصة بالانسان فان الملك لا يأمر ملكا آخر بشئ ولا ينهاه عن شئ وقوله ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الارض مرحا الذي هو اشارة الى عدم التكبر والتبختر اشارة الى المكارم التي هي صفة الملائكة فان عدم التكبر والتبختر صفتهم وقوله واقصد في مشيك واغضض من صوتك اشارة الى المكارم التي هي صفة الحيوان ۞ ثم قال تعالى ان أنكر الاصوات لصوت الحمير وفيه مسائل ﴿ الاولى ﴾ لم ذكر المانع من رفع الصوت ولم يذكر المانع من سرعة المشي نقول اما على قولنا ان المشي والصوت كلاهما موصلان الى شخص

سببا) أي طريقا ثالثا معترضا بين المشرق والمغرب آخذا من الجنوب الى الشمال (حتى اذا بلغ بين السدين) بين الجبلين اللذين سد ما بينهما وهو منقطع أرض الترك مما يلي المشرق لا جبلا أرمينية واذربيجان كما توهم وقرئ بالضم قيل ما كان من خلق الله تعالى فهو مضموم وما كان من عمل الخلق فهو مفتوح وانتصاب بين على المفعولية لانه مبلوغ وهو من الظروف التي تستعمل أسماء أيضا كما ارتفع في قوله تعالى لقد تقطع بينكم وانجر في قوله تعالى هذا فراق بيني وبينك (وجد من دونهما) أي من ورائهما مجاوزا عنهما (قوما) أي أمة من الناس (لا يكادون يفقهون قولا) لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم وقرئ من باب الافعال أي لا يفهمون السامع كلامهم واختلفوا في أنهم من أي الاقوام فقال الضحاك هم جيل من الترك وقال السدي الترك سرية من يأجوج ومأجوج خرجت فضرب ذو القرنين السد فبقيت خارجة فجميع الترك منهم وعن قتادة أنهم اثنتان وعشرون قبيلة سد ذو القرنين على احدى وعشرين قبيلة منهم وبقيت واحدة فسموا الترك لانهم تركوا خارجين قال أهل التاريخ أولاد نوح عليه السلام ثلاثة سام وحام ويافث فسام أبو العرب والعجم والروم وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة ويافث أبو الترك والخزر والصقالبة ويأجوج ومأجوج (قالوا) أي بواسطة مترجمهم أو بالذات على أن يكون فهم ذي القرنين كلامهم وافهام كلامه اياهم من جملة ما آتاه الله تعالى من الاسباب (ياذا القرنين ان يأجوج ومأجوج) قد ذكرنا أنهما من أولاد يافث بن نوح عليه السلام وقيل يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل واختلف في صفاتهم فقيل في غاية صغر الجثة وقصر القامة لا يزيد قدهم على شبر واحد

وقيل في نهاية عظم الجسم وطول القامة تبلغ قدودهم ثمانمائة وعشرين ذراعا وفيهم من عرضه كذلك وقيل لهم مخالب وأضراس كالسباع وهما اسمان أعجميان بدليل منع الصرف وقيل عربيان من أج الظليم اذا أسرع وأصلهما الهمزة كما قرأ عاصم وقد قرئ بغير همزة ومنع صرفهما للتعريف والتأنيث (مفسدون في الارض) أي في أرضنا بالقتل والتخريب واتلاف الزروع قيل

قيل كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون أخضر الا أكلوه ولا يابسا الا احتملوه وقيل كانوا يأكلون الناس أيضا (فهل نجعل لك خرجا) أي جعلا من أموالنا والفاء لتفريع العرض على افسادهم في الارض وقرئ خراجا وكلاهما واحد كالنول والنوال وقيل الخراج ما على الارض والذمة والخرج المصدر وقيل الخرج ما كان على كل رأس والخراج ما كان على البلد وقيل الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك أداؤه (على أن تجعل بيننا وبينهم سدا) وقرئ بالضم (قال ما مكني) بالادغام وقرئ بالفك أي ما مكنني (فيه ربي) وجعلني فيه مكينا قادرا من الملك والمال وسائر الاسباب (خير) أي مما تريدون أن تبذلوا الي من الخرج فلا حاجة بي اليه (فأعينوني بقوة) أي فعلة وصناع يحسنون البناء والعمل وبالآلات لابد منها في البناء والفاء لتفريع الامر بالاعانة على خيرية ما مكنه الله تعالى فيه من مالهم أو على عدم قبول خرجهم (أجعل) جواب للامر (بينكم وبيانه وبينهم) تقديم اضافة الظرف الى ضمير المخاطبين على اضافته الى ضمير يأجوج ومأجوج لاظهار كمال العناية بمصالحهم كما راعوه في قولهم بيننا وبينهم (ردما) أي حاجزا حصينا وبرزخا متينا وهو أكبر من السد وأوثق يقال ثوب مردم أي فيه رقاع فوق رقاع وهذا اسعاف بمرامهم

مطلوب ان أدركه بالمشي اليه فذاك والا فيوقفه بالنداء فنقول رفع الصوت يؤذي السامع ويقرع الصماخ بقوة وربما يخرق الغشاء الذي داخل الاذن وأما السرعة في المشي فلا تؤذي أو ان كانت تؤذي فلا تؤذي غير من في طريقه والصوت يبلغ من على اليمين واليسار ولان المشي يؤذي آلة المشي والصوت يؤذي آلة السمع وآلة السمع على باب القلب فان الكلام ينتقل من السمع الى القلب ولا كذلك المشي وأما على قولنا الاشارة بالمشي والصوت الى الافعال والاقوال فلان القول قبيحه أقبح من قبيح الفعل وحسنه أحسن لان اللسان ترجمان القلب والاعتبار يصحح الدعوى (المسألة الثانية) كيف يفهم كونه أنكر مع أن مس المنشار بالمبرد وحت النحاس بالحديد أشد تنفيرا نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان المراد أن أنكر أصوات الحيوانات صوت الحمير فلا يرد ما ذكرتم وما ذكرتم في أكثر الامر لمصلحة وعمارة فلا ينكر بخلاف صوت الحمير وهذا هو الجواب الثاني (المسألة الثالثة) أنكر هو أفعل التفضيل فمن أي باب هو نقول يحتمل أن يكون من باب أطوع له من بنانه بمعنى أشد طاعة فان أفعل لا يجيء في مفعل ولا في مفعول ولا في باب العيوب الا ما شذ كقولهم أطوع من كذا للتفضيل على المطيع وأشغل من ذات النحيين للتفضيل على المشغول وأحمق من فلان من باب العيوب وعلى هذا فهو في باب أفعل كأشغل في باب مفعول فيكون للتفضيل على المنكر أو نقول هو من باب أشغل مأخوذا من نكر الشيء فهو منكر وهذا أنكر منه وعلى هذا فله معنى لطيف وهو أن كل حيوان قد يفهم من صوته بأنه يصيح من ثقل أو تعب كالبعير أو غير ذلك والحمار لو مات تحت الحمل لا يصيح ولو قتل لا يصيح وفي بعض أوقات عدم الحاجة يصيح وينهق فصوته منكر ويمكن أن يقال هو من نكير كجدير من جدر ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الارض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ لما استدل بقوله تعالى خلق السموات بغير عمد على الوحدانية وبين بحكاية لقمان ان معرفة ذلك غير مختصة بالنبوة بل ذلك موافق للحكمة وما جاء به النبي عليه السلام من التوحيد والصلاة ومكارم الاخلاق كلها حكمة بالغة ولو كان تعبدا محضا للزم قبوله فضلا عن انه على وفق الحكمة استدل على الوحدانية بالنعمة لانا بينا مرارا أن الملك يخدم لعظمته وان لم ينعم ويخدم لنعمته أيضا فلما بين انه المعبود لعظمته بخلقه السموات بلا عمد والقائه في الارض الرواسي وذكر بعض النعم بقوله وأنزلنا من السماء ماء ذكر بعده عامة النعم فقال سخر لكم ما في السموات أي سخر لاجلكم ما في السموات فان الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله وفيها فوائد لعباده وسخر ما في الارض لاجل عباده وقوله وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وهي ما في الاعضاء من السلامة وباطنة وهي ما في القوى فان العضو ظاهر وفيه قوة باطنة ألا ترى أن العين والاذن شحم وغضروف ظاهر واللسان والانف لحم وعظم ظاهر وفي كل واحد معنى باطن من الابصار والسمع والذوق والشم وكذلك كل عضو وقد تبطل القوة ويبقى العضو قائما وهذا أحسن مما قيل فان على هذا الوجه يكون الاستدلال بنعمة الآفاق وبنعمة الانفس فقوله ما في السموات وما في الارض يكون اشارة الى النعم الآفاقية وقوله وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة يكون اشارة الى النعم الانفسية وفيهما أقوال كثيرة مذكورة في جميع كتب التفاسير ولا يبعد أن يكون ما ذكرناه مقولا وان لم يكن فلا يخرج من أن يكون سائغا معقولا ثم قال تعالى ومن الناس من يجادل في الله يعني لما ثبتت الوحدانية بالخلق والانعام فمن الناس من يجادل في الله ويثبت غيره اما الها أو منعما بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير هذه أمور ثلاثة مرتبة العلم والهدى والكتاب والعلم أعلى من الهدى والهدى من الكتاب

فوق ما يرجونه (آتوني زبر الحديد) جمع زبرة كغرف في غرفة وهي القطعة الكبيرة وهذا الايتاء في رد خراجهم لان المأمور به الايتاء
بالثمن أو المناولة كما ينبئ عنه القراءة بوصل الهمزة أي جيئوني بزبر الحديد على حذف الباء كما في أمرتك الخير ولان ايتاء الآلة من
قبيل الاعانة بالقوة دون الخراج على العمل ولعل تخصيص الامر بالايتاء بها دون سائر الآلات من الصخور والحطب

و بيانه هو أن العلم تدخل فيه الاشياء الواضحة اللائحة التي تعلم من غير هداية هاد ثم الهدى يدخل فيه الذي
يكون في كتاب والذي يكون من إلهام و وحي فقال تعالى يجادل ذلك المجادل لا من علم واضح ولا من هدى
أتاه من هاد ولا من كتاب وكأن الاول اشارة الى من أوتي من لدنه علماً كما قال تعالى وعلمك ما لم تكن تعلم
والثاني اشارة الى مرتبة من هدى الى صراط مستقيم بواسطة كما قال تعالى علمه شديد القوى والثالث
اشارة الى مرتبة من اهتدى بواسطتين ولهذا قال تعالى الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين وقال في
هذه السورة هدى ورحمة للمحسنين وقال في السجدة ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني اسرائيل
فالكتاب هدى لقوم النبي عليه السلام والنبي هداه من الله تعالى من غير واسطة أو بواسطة الروح الامين
فقال تعالى يجادل من يجادل لا بعلم آتيناه من لدنا كشفاً ولا بهدى أرسلناه اليه وحياً ولا بكتاب يتلى عليه
وعظاً ثم فيه لطيفة أخرى وهو أنه تعالى قال في الكتاب ولا كتاب منير لان المجادل منهم من كان يجادل عن
كتاب ولكن محرف مثل التوراة بعد التحريف فلو قال ولا كتاب لكان لقائل أن يقول لا يجادل من
غير كتاب فان بعض ما يقولون فهو في كتابهم ولان المجوس والنصارى يقولون بالتثنية والتثليث عن
كتابهم فقال ولا كتاب منير فان ذلك الكتاب مظلم ولما لم يحصل في المرتبة الاولى والثانية التحريف
والتبديل لم يقل بغير علم ولا هدى منير أو حق أو غير ذلك ۞ ثم قال تعالى ﴿ واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله
قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ بين أن مجادلتهم مع كونها من غير علم فهي في غاية القبح فان النبي
عليه السلام يدعوهم الى كلام الله وهم يأخذون بكلام آبائهم وبين كلام الله تعالى وكلام العلماء بون عظيم
فكيف ما بين كلام الله وكلام الجهلاء ثم ان ههنا شيأ آخر وهو أنهم قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا يعني
نترك القول النازل من الله ونتبع الفعل والقول أدل من الفعل لان الفعل يحتمل أن يكون جائزاً ويحتمل
أن يكون حراماً وهم تعاطوه ويحتمل أن يكون واجباً في اعتقادهم والقول بين الدلالة فلو سمعنا قول قائل
افعل ورأيناه فعله يدل على خلاف قوله لكان الواجب الاخذ بالقول فكيف والقول من الله والفعل من
الجهال ۞ ثم قال تعالى ﴿ أولو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير ﴾ استفهاماً على سبيل التعجب في
الانكار يعني الشيطان يدعوهم الى العذاب والله يدعو الى الثواب وهم مع هذا يتبعون الشيطان ۞ ثم
قال تعالى ﴿ ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الامور ﴾ لما
بين حال المشرك والمجادل في الله بين حال المسلم المستسلم لامر الله فقوله ومن يسلم وجهه الى الله اشارة الى
الايمان وقوله وهو محسن اشارة الى العمل الصالح فيكون الآية في معنى قوله تعالى من آمن وعمل صالحاً
وقوله فقد استمسك بالعروة الوثقى أي تمسك بحبل لا انقطاع له وترقى بسببه الى أعلى المقامات وفي الآية
مسائل ﴿ الاولى ﴾ قال ههنا ومن يسلم وجهه الى الله وقال في سورة البقرة بلى من أسلم وجهه لله فعدى ههنا
بالى وهناك باللام قال الزمخشري معنى قوله أسلم لله أي جعل نفسه لله سالماً أي خالصاً والوجه بمعنى النفس
والذات ومعنى قوله يسلم وجهه الى الله يسلم نفسه الى الله كما يسلم واحد متاعاً الى غيره ولم يزد على هذا ويمكن
أن يزاد عليه ويقال من أسلم لله أعلى درجة ممن يسلم الى الله لان الى للغاية واللام للاختصاص يقول
القائل أسلمت وجهي اليك أي توجهت نحوك وينبئ هذا عن عدم الوصول لان التوجه الى الشيء قبل
الوصول وقوله أسلمت وجهي لك يفيد الاختصاص ولا ينبئ عن الغاية التي تدل على المسافة وقطعها
للوصول اذا علم هذا فنقول في البقرة قالت اليهود والنصارى لن يدخل الجنة الا من كان هوداً أو نصارى
فقال الله رداً عليهم تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ثم بين فساد قولهم بقوله تعالى بلى من أسلم وجهه لله أي

ونحوهما لما أن الحاجة
اليها أمس اذ هي الركن
في السد ووجودها أعز
قيل حفر للاساس حتى
بلغ الماء وجعل الاساس
من الصخر والنحاس
المذاب والبنيان من زبر
الحديد بينها الحطب
والفحم حتى سد ما بين
الجبلين الى أعلاهما
وكان مائة فرسخ وذلك
قوله عز قائلاً (حتى اذا
ساوى بين الصدفين)
أي آتوه اياها فأخذ
يبني شيأ فشيأ حتى اذا
جعل ما بين ناحيتي
الجبلين من البنيان
مساوياً لهما في السمك
على النهج المحكي قيل
كان ارتفاعه مائتي ذراع
وعرضه خمسين ذراعاً
وقرئ سوى من التسوية
وسوى على البناء للمجهول
(قال) للعملة (انفخوا)
أي بالكيران في الحديد
المبني ففعلوا (حتى اذا
جعله) أي المنفوخ فيه
(ناراً) أي كالنار في
الحرارة والهيئة واسناد
الجعل المذكور الى ذي
القرنين مع انه فعل الفعلة
للتنبيه على انه العمدة
في ذلك وهم بمنزلة الآلة
(قال) للذين يتولون أمر
النحاس من الاذابة ونحوها (آتوني أفرغ عليه قطراً) أي آتوني قطراً أي نحاساً مذاباً أفرغ عليه قطراً فحذف الاول لدلالة الثاني عليه
وقرئ بالوصل أي جيئوني كأنه يستدعيهم للاعانة باليد عند الافراغ واسناد الافراغ الى نفسه للسر الذي وقفت عليه آنفاً وكذا
الكلام في قوله تعالى ساوى وقوله تعالى أجعل (فما اسطاعوا) بحذف تاء الافتعال تخفيفاً وحذراً عن تلاقي المتقاربين وقرئ بالادغام

أنتم مع أنكم تتركون الله الدنيا وتولون عنه الباطل وتشترون بآياته ثمنا قليلا لا تدخلون ومن كان بكليته لله لا يدخلها هذا كلام باطل فأورد عليهم من أسلم لله ولا شك أن النقض بالصورة التي هي ألزم أولى فأورد عليهم المخلص الذي ليس له أمر الا الله وقال أنتم تدخلون الجنة وهذا لا يدخلها ثم بين كذبهم وقال بلى و بين أن له فوق الجنة درجة وهي العندية بقوله فله أجره عند ربه وأما ههنا أراد وعد المحسن بالثواب والوصول الى الدرجة العالية فوعد من هو دونه ليدخل فيه من هو فوقه بالطريق الاولى ويعم الوعد وهذا من الفوائد الجليلة ﴿ ثم قال تعالى ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ أوثق العرى جانب الله لان كل ما عداه هالك منقطع وهو باق لا انقطاع له ﴿ ثم قال تعالى ﴿والى الله عاقبة الامور﴾ يعني استمسك بعروة توصله الى الله وكل شئ عاقبته اليه فاذا حصل في الحال ما اليه عاقبته تكون عاقبته في غاية الحسن وذلك لان من يعلم أن عاقبة الامور الى واحد ثم يقدم اليه الهدايا قبل الوصول اليه يجد فائدته عند القدوم عليه والى هذا وقعت الاشارة بقوله وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله ﴿ ثم قال تعالى ﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ان الله عليم بذات الصدور نمتعهم قليلا ثم نضطرهم الى عذاب غليظ﴾ لما بين حال المسلم رجع الى بيان حال الكافر فقال ومن كفر فلا يحزنك أي لا تحزن اذا كفر كافر فان من يكذب وهو قاطع بأن صدقه يتبين عن قريب لا يحزن بل قد يؤنب المكذب على الزيادة في التكذيب اذا لم يكن من الهداة ويكون المكذب من العداة ليخجله غاية التخجيل وأما اذا كان لا يرجو ظهور صدقه يتألم من التكذيب فقال فلا يحزنك كفره فان المرجع الى فأنبئهم بما عملوا فيخجلون وقوله ان الله عليم بذات الصدور أي لا يخفى عليه سرهم وعلانيتهم فينبئهم بما أضمرته صدورهم وذات الصدور هي المهلك ثم ان الله تعالى فصل ما ذكرنا وقال نمتعهم قليلا أي بقاؤهم مدة قليلة ثم بين لهم وبال تكذيبهم وكفرهم بقوله ثم نضطرهم أي نسلط عليهم أغلظ عذاب حتى يدخلوا بانفسهم عذابا غليظا فيضطرون الى عذاب النار فرارا من الملائكة الغلاظ الشداد الذين يضربونهم بمقامع من نار وفيه وجه آخر لطيف وهو أنهم لما كذبوا الرسل ثم تبين لهم الامر وقع عليهم من الخجالة ما يدخلون النار ولا يختارون الوقوف بين يدي ربهم بمحضر الانبياء وهو يتحقق بقوله تعالى فلا يحزنك كفره الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ﴿ ثم قال تعالى ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ الآية متعلقة بما قبلها من وجهين (أحدهما) انه تعالى لما استدل بخلق السموات بغير عمد وبنعمه الظاهرة والباطنة بين انهم معترفون بذلك غير منكرين له وهذا يقتضي أن يكون الحمد كله لله لان خالق السموات والارض يحتاج اليه كل ما في السموات والارض وكون الحمد كله لله يقتضي أن لا يعبد غيره لكنهم لا يعلمون هذا (والثاني) ان الله تعالى لما سلى قلب النبي صلى الله عليه وسلم بقوله فلا يحزنك كفره الينا مرجعهم فننبئهم أي لا تحزن على تكذيبهم فان صدقك وكذبهم يتبين عن قريب عند رجوعهم الينا قال وليس لا يتبين الا ذلك اليوم بل هو يتبين قبل يوم القيامة لانهم معترفون بأن خالق السموات والارض من الله وهذا يصدقك في دعوى الوحدانية ويبين كذبهم في الاشراك فقل الحمد لله على ظهور صدقك وكذب مكذبيك بل أكثرهم لا يعلمون أي ليس لهم علم يمنعهم من تكذيبك مع اعترافهم بما يوجب تصديقك وعلى هذا يكون لا يعلمون استعمالا للفعل مع القطع عن المفعول بالكلية كما يقول القائل فلان يعطي ويمنع ولا يكون في ضميره من يعطي بل يريد ان له عطاء ومنعا فكذلك ههنا قال لا يعلمون أي ليس لهم علم وعلى الاول يكون لا يعلمون له مفعول مفهوم وهو أنهم لا يعلمون ان الحمد كله لله والثاني أبلغ لان قول القائل فلان لا علم له بكذا

وفيه جمع بين الساكنين على غير حده وقرئ بقلب السين صادا والفاء فصيحة أي فعلوا ما أمروا به من ايتاء القطر أو الاتيان فأفرغه عليه فاختلط والتصق بعضه ببعض فصار جبلا صلدا فجاء يأجوج ومأجوج فقصدوا أن يعلوه وينقبوه فما استطاعوا (أن يظهروه) أي يعلوه ويرقوا فيه لارتفاعه وملاسته (وما استطاعوا له نقبا) لصلابته وثخانته وهذه معجزة عظيمة لان تلك الزبر الكثيرة اذا أثرت فيها حرارة النار لا يقدر الحيوان على أن يحوم حولها فضلا عن النفخ فيها الى أن تكون كالنار أو عن افراغ القطر عليها فكأنه سبحانه وتعالى صرف تأثير تلك الحرارة العظيمة عن أبدان أولئك المباشرين للاعمال فكان ما كان والله على كل شئ قدير وقيل بناه من الصخور مرتبطا بعضها ببعض بكلاليب من حديد ونحاس مذاب في تجاويفها بحيث لم يبق هناك فرجة أصلا (قال) أي ذو القرنين لمن عنده من أهل تلك الديار وغيرهم (هذا) اشارة الى السد وقيل الى تمكنه من بنائه والفضل للتقدم أي هذا الذي ظهر على يدي وحصل بمباشرتي من السد الذي شأنه ما ذكر من المتانة وصعوبة المنال (رحمة) أي أثر رحمة عظيمة عبر عنه بها مبالغة (من ربي) على كافة العباد لا سيما على مجاوريه وفيه ايذان بأنه ليس من قبيل الآثار الحاصلة بمباشرة الخلق عادة بل هو احسان الهي محض وان ظهر بمباشرتي والتعرض لوصف الربوبية لتربية معنى الرحمة (فاذا جاء وعد ربي) مصدر بمعنى المفعول وهو يوم القيامة لا خروج يأجوج ومأجوج كما قيل اذ لا يساعده النظم الكريم والمراد بمجيئه ما ينتظم مجيء مباديه من خروجهم وخروج الدجال ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام ونحو ذلك لا دنو وقوعه فقط كما قيل فان بعض الامور التي ستحكى يقع بعد مجيئه حتما (جعله) دون

دون قوله فلان لا علم له وكذا قوله فلان لا ينفع زيدا ولا يضره دون قوله فلان لا يضر ولا ينفع ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿لله ما في السموات والارض ان الله هو الغني الحميد﴾ ذكر بما يلزم منه وهو أنه يكون له ما فيهما والامر كذلك عقلا وشرعا أما عقلا فلان ما في السموات المخلوقة مخلوق واضافة خلقه الى من منه خلق السموات والارض لازم عقلا لانها ممكنة والممكن لا يقع ولا يوجد الا بواجب من غير واسطة كما هو مذهب أهل السنة أو بواسطة كما يقوله غيرهم وكيفما فرض فكله من الله لان سبب السبب سبب وأما شرعا فلان من يملك أرضا وحصل منها شئ ثمّا يكون ذلك لمالك الارض فكذلك كل ما في السموات والارض حاصل فيهما ومنهما فهو لمالك السموات والارض واذا كان الامر كذلك تحقق ان الحمد كله لله ثم قوله تعالى ان الله هو الغني الحميد فيه معان لطيفة (أحدها) ان الكل لله وهو غير محتاج اليه غير منتفع به وفيه لمنافع فهي لكم خلقها فهو غني لعدم حاجته حميد مشكور لدفعه حوائجكم بها (وثانيها) أن بعد ذكر الدلائل على ان الحمد كله لله ولا تصلح العبادة الا لله افترق المكلفون فريقين مؤمن وكافر والكافر لم يحمد الله والمؤمن حمده فقال انه غني عن حمد الحامدين فلا يلحقه نقص بسبب كفر الكافرين وحميد في نفسه فتبين به اصابة المؤمنين وتكمل بحمده الحامدون (وثالثها) هو أن السموات وما فيها والارض وما فيها اذا كانت لله ومخلوقة له فالكل محتاجون فلا غني الا الله فهو الغني المطلق وكل محتاج فهو حامد لاحتياجه الى من يدفع حاجته فلا يكون الحميد المطلق الا الغني المطلق فهو الحميد وعلى هذا الحميد بمعنى المحمود والله اذا قيل له الحميد لا يكون معناه الا الواصف أي وصف نفسه أو عباده بأوصاف حميدة والعبد اذا قيل له حامد يحتمل ذلك المعنى ويحتمل كونه عابدا شاكرا له ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾ لما قال تعالى لله ما في السموات والارض وكان ذلك موهما لتناهي ملكه لانحصار ما في السموات وما في الارض فيهما وحكم العقل الصريح بتناهيهما بين أن في قدرته وعلمه عجائب لا نهاية لها فقال ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام ويكتب بها والابحر مداد لا تفنى عجائب صنع الله وعلى هذا فالكلمة مفسرة بالعجيبة ووجهه ان العجائب بقوله كن وكن كلمة واطلاق اسم السبب على المسبب جائز يقول الشجاع لمن يبارزه أنا موتك ويقال للدواء في حق المريض هذا شفاؤك ودليل صحة هذا هو أن الله تعالى سمى المسيح كلمة لانه كان أمرا عجيبا وصنعا غريبا لوجوده من غير أب فان قال قائل الآية واردة في اليهود حيث قالوا الله ذكر كل شئ في التوراة ولم يبق شئ لم يذكره فقال الذي في التوراة بالنسبة الى كلام الله تعالى ليس الا قطرة من بحار وأنزل هذه الآية وقيل أيضا انها نزلت في واحد قال للنبي عليه السلام انك تقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا وتقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا فنزلت الآية دالة على انه خير كثير بالنسبة الى العباد وبالنسبة الى الله وعلومه قليل وقيل أيضا انها نزلت ردا على الكفار حيث قالوا بأن ما يورده محمد سينفد فقال انه كلام الله وهو لا ينفد وما ذكر من أسباب النزول ينافي ما ذكرتم من التفسير لانها تدل على أن المراد الكلام فنقول ما ذكرتم من اختلاف الاقوال فيه يدل على جواز ما ذكرنا لانه اذا صلح جوابا لهذه الاشياء التي ذكرتموها وهي متباينة علم أنها عامة وما ذكرنا لا ينافي هذا لان كلام الله عجيب معجز لا يقدر أحد على الاتيان بمثله واذا قلنا بأن عجائب الله لا نهاية لها دخل فيها كلامه لا يقال انك جعلت الكلام مخلوقا لانا نقول المخلوق هو الحرف والتركيب وهو عجيب وأما الكلمات فهي من صفات الله تعالى واعلم ان الآية وان كانت نازلة على ترتيب غير الذي هو مكتوب ولكن الترتيب المكتوب عليه القرآن بأمر الله فانه بأمر الرسول كتب كذلك وأمر الرسول من أمر

أي السد المشار اليه مع متانته ورصانته وفيه من ابانة ما ليس في توجيه الاشارة السابقة الى التمكين المذكور (دكاء) أي أرضا مستوية وقرئ دكا أي مدكوكا مسوى بالارض وكل ما انبسط بعد ارتفاع فقد اندك ومنه الجمل الادك أي المنبسط السنام وهذا الجعل وقت مجيء الوعد بمجيء بعض مباديه وفيه بيان لعظم قدرته عز وجل بعد بيان سعة رحمته (وكان وعد ربي) أي وعده المعهود أو كل ما وعد به فيدخل فيه ذلك دخولا أوليا (حقا) ثابتا لا محالة واقعا البتة وهذه الجملة تذييل من ذي القرنين لما ذكره من الجملة الشرطية ومقرر مؤكد لمضمونها وهو آخر ما حكي من قصته وقوله عز وجل (وتركنا بعضهم) كلام مسوق من جنابه تعالى معطوف على قوله تعالى جعله دكاء ومحقق لمضمونه أي جعلنا بعض الخلائق (يومئذ) أي يوم اذ جاء الوعد بمجيء بعض مباديه (يموج في بعض) آخر منهم يضطربون اضطراب أمواج البحر ويختلط انسهم وجنهم حيارى من شدة الهول ولعل ذلك قبل النفخة الاولى أو تركنا بعض يأجوج ومأجوج يموج في بعض آخر منهم حين يخرجون من السد مزدحمين في البلاد روي انهم يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه ثم يأكلون الشجر ومن ظفروا به ممن لم يتحصن منهم من الناس ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس ثم يبعث الله عز وجل نغفا في أقفائهم فيدخل آذانهم فيموتون موت نفس واحدة فيرسل الله تعالى عليهم طيرا فتلقيهم في البحر ثم يرسل مطرا يغسل الارض ويطهرها من نتنهم حتى يتركها كالزلفة ثم يوضع فيها البركة وذلك بعد نزول عيسى عليه الصلاة والسلام وقتل الدجال (ونفخ في الصور) هي النفخة الثانية بقضية الفاء في قوله تعالى (فجمعناهم) ولعل عدم التعرض لذكر النفخة الاولى لانها داهية عامة ليس فيها حالة مختصة

بالكفار واثلا يقع الفصل بين ما يقع في النشأة الاولى من الاحوال والاهوال وبين ما يقع منها في النشأة الآخرة أي جمعنا الخلائق بعد ما تفرقت أوصالهم وتمزقت أجسادهم في صعيد واحد للحساب والجزاء (جمعا) أي جمعا عجيبا لا يكتنه كنهه (وعرضنا جهنم) أي أظهرناها وأبرزناها (يومئذ) أي يوم اذ جمعنا الخلائق كافة (للكافرين) منهم حيث جعلناها بحيث يرونها ويسمعون لها تغيظا وزفيرا (عرضا) أي عرضا فظيعا هائلا لا يقادر قدره وتخصيص العرض بهم مع أنها بمرأى من أهل الجمع قاطبة لان ذلك لاجلهم خاصة (الذين كانت أعينهم) وهم في الدنيا (في غطاء) كثيف وغشاوة غليظة محاطة بذلك من جميع الجوانب (عن ذكرى) عن الآيات المؤدية لاولى الابصار المتدبرين فيها الى ذكرى بالتوحيد والتمجيد أو كانت أعين بصائرهم في غطاء عن ذكري على وجه يليق بشأني أو عن القرآن الكريم (وكانوا) مع ذلك (لا يستطيعون) لفرط تصامهم عن الحق وكمال عداوتهم للرسول عليه الصلاة والسلام (سمعا) استماعا لذكري وكلامي الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهذا تمثيل لاعراضهم عن الادلة السمعية كما أن الاول تصوير لتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالابصار والموصول نعت للكافرين أو بدل منه أو بيان جيء به لذمهم بما في حيز الصلة وللاشعار
هو
بعليته لاصابة ما أصابهم من عرض جهنم لهم فان ذلك انما هو لعدم استعمال مشاعرهم فيما عرض لهم في الدنيا من الآيات واعراضهم عنها مع كونها أسبابا منجية عما ابتلوا به في الآخرة (أفحسب الذين كفروا) أي كفروا بي كما يعرب عنه قوله

الله وذلك محقق متيقن من سنن الترتيب الذي فيه ثم ان الآية فيها لطائف ﴿الاولى﴾ قال ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام وحد الشجرة وجمع الاقلام ولم يقل ولو أن ما في الارض من الاشجار أقلام ولا قال ولو أن ما في الارض من شجرة قلم اشارة الى التكثير يعني ولو أن بعدد كل شجرة أقلاما ﴿الثانية﴾ قوله والبحر يمده تعريف البحر باللام لاستغراق الجنس وكل بحر مداد ثم قوله يمده من بعده سبعة أبحر اشارة الى بحار غير موجودة يعني لو مدت البحار الموجودة بسبعة أبحر أخر وقوله سبعة ليس لانحصارها في سبعة وانما الاشارة الى المدد والكثرة ولو بألف بحر والسبعة خصصت بالذكر من بين الاعداد لانها عدد كثير يحصر المعدودات في العادة والذي يدل عليه وجوه (الاول) هو أن ما هو معلوم عند كل أحد لحاجته اليه هو الزمان والمكان لان المكان فيه الاجسام والزمان فيه الافعال لكن المكان منحصر في سبعة أقاليم والزمان في سبعة أيام ولان الكواكب السيارة سبعة وكان المنجمون ينسبون اليها الامور فصارت السبعة كالعدد الحاصر للكثرات الواقعة في العادة فاستعملت في كل كثير (الثاني) هو أن الآحاد الى العشرة وهي العقد الاول وما بعده يبتدأ من الآحاد مرة أخرى فيقال أحد عشر واثنا عشر ثم المئات من العشرات والالوف من المئات اذا علم هذا فنقول أقل ما يلتئم منه أكثر المعدودات هو الثلاثة لانه يحتاج الى طرفين مبتدأ ومنتهى ووسط ولهذا قال أقل ما يكون الاسم والفعل منه هو ثلاثة أحرف فاذا كانت الثلاثة هو القسم الاول من العشرة التي هو العدد الاصلي تبقى السبعة القسم الاكثر فاذا أريد بيان الكثرة ذكرت السبعة ولهذا فان المعدودات في العبادات من التسبيحات في الانتقالات في الصلوات ثلاثة والمرار في الوضوء ثلاثة تيسيرا للامر على المكلف اكتفاء بالقسم الاول اذا ثبت هذا فنقول قوله عليه الصلاة والسلام المؤمن يأكل في معى والكافر يأكل في سبعة أمعاء اشارة الى قلة الاكل وكثرته من غير ارادة السبعة بخصوصها ويحتمل أن يقال ان لجهنم سبعة أبواب بهذا التفسير ثم على هذا فقولنا للجنة ثمانية أبواب اشارة الى زيادتها فان فيها الحسنى وزيادة فلها أبواب كثيرة وزائدة على كثرة غيرها والذي يدل على ما ذكرنا في السبعة أن العرب عند الثامن يزيدون واوا يقول الفراء انها واو الثمانية وليس ذلك الا للاستئناف لان العدد بالسبعة يتم في العرف ثم بالثامن استئناف جديد ﴿اللطيفة الثالثة﴾ لم يقل في الاقلام المداد لوجهين (أحدهما) هو أن قوله ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام يفيد أن المراد منه هو أن يكون بعدد كل شجرة موجودة أقلام فتكون الاقلام أكثر من الاشجار الموجودة وقوله في البحر والبحر يمده سبعة أبحر اشارة الى أن البحر لو كان أكثر من الموجود لا يستوي القلم والبحر في المعنى (والثاني) هو أن النقصان بالكتابة يلحق المداد أكثر فانه هو النافذ والقلم الواحد يمكن أن يكتب به كتب كثيرة فذكر المدد في البحر الذي هو كالمداد ثم قال تعالى ﴿ان الله عزيز حكيم﴾ لما ذكر أن ملكوته كثير أشار الى ما يحقق ذلك فقال انه عزيز حكيم أي كامل القدرة فيكون له مقدورات لا نهاية لها والا لانتهت القدرة الى حيث لا تصلح للايجاد وهو حكيم كامل العلم ففي علمه ما لا نهاية له فتحقق أن البحر لو كان مدادا لما نفد ما في علمه وقدرته ثم قال تعالى ﴿ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة﴾ لما بين كمال قدرته وعلمه ذكر ما يبطل استبعادهم للحشر وقال ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة ومن لا نفاد لكلماته يقول للموتى كونوا فيكونوا ثم قال تعالى ﴿ان الله سميع بصير﴾ سميع لما يقولون بصير بما يعملون فاذا كونه قادرا على البعث ومحيطا بالاقوال والافعال يوجب ذلك الاجتناب التام والاحتراز الكامل ثم قال تعالى ﴿ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري الى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير﴾ يحتمل أن يقال ان وجه الترتيب

هو ان الله تعالى لما قال ألم تر أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الارض على وجه العموم ذكر منها بعض ما هو فيهما على وجه الخصوص بقوله يولج الليل في النهار وقوله وسخر الشمس والقمر اشارة الى ما في السموات وقوله بعد هذا ألم تر أن الفلك تجرى في البحر بنعمة الله اشارة الى ما في الارض ويحتمل أن يقال ان وجهه هو أن الله تعالى لما ذكر البعث وكان من الناس من يقول وما يهلكنا الا الدهر والدهر هو بالليالى والايام قال الله تعالى هذه الليالى والايام التى تنسبون اليها الموت والحياة هى بقدرة الله تعالى فقال ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ثم ان قائلا لو قال ان ذلك اختلاف مسير الشمس تارة تكون القوس التى هى فوق الارض أكثر من التى تحت الارض فيكون الليل أقصر والنهار أطول وتارة تكون بالعكس فيكون بالعكس وتارة يتساويان فيتساويان فقال تعالى وسخر الشمس والقمر يعنى ان كنتم لا تعترفون بأن هذه الاشياء كلها في أوائلها من الله فلا بد من الاعتراف بأنها بأسرها عائدة الى الله تعالى فالاحوال ان كانت بالمدد والمدد بسير الكواكب فسير الكواكب ليس الا بالله وقدرته وفي الآية مسائل (الاولى) ايلاج الليل في النهار يحتمل وجهين (أحدهما) ان يقال المراد ايلاج الليل في زمان النهار أى يجعل في الزمان الذى كان فيه النهار الليل وذلك لان الليل اذا كان مثلا اثنتى عشرة ساعة ثم يطول يصير الليل موجودا في زمان كان فيه النهار (وثانيهما) أن يقال المراد ايلاج زمان الليل في النهار أى يجعل زمان الليل في النهار وذلك لان الليل اذا كان كما ذكرنا اثنتى عشرة ساعة اذا قصر صار زمان الليل موجودا في النهار ولا يمكن غير هذا لان ايلاج الليل في النهار محال الوجود فما ذكرنا من الاضمار لا بد منه لكن الاول أولى لان الليل والنهار أفعال والافعال في الازمنة لان الزمان ظرف فقولنا الليل في زمان النهار أقرب من قولنا زمان الليل في النهار لان الثانى يجعل الظرف مظروفا اذا ثبت هذا فنقول قوله تعالى يولج الليل في النهار أى يوجده في وقت كان فيه النهار والله تعالى قدم ايجاد الليل على ايجاد النهار في كثير من المواضع كما في قوله تعالى وجعلنا الليل والنهار آيتين وقوله وجعل الظلمات والنور وقوله واختلاف الليل والنهار ومن جنسه قوله خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهذا اشارة الى مسئلة حكمية وهى أن الظلمة قد يظن بها انها عدم النور والليل عدم النهار والحياة عدم الموت وليس كذلك انه في الازل لم يكن نهار ولا نور ولا حياة لم يكن ولا يمكن أن يقال كان فيه موت أو ظلمة أو ليل فهذه الامور كالاعمى والاصم فالعمى والصمم ليس مجرد عدم البصر وعدم السمع اذ الحجر والشجر لا يبصرهما ولا يسمع ولا يقال لشئ منهما انه أصم أو أعمى اذا علم هذا فنقول ما يتحقق فيه العمى والصمم لا بد من أن يكون فيه اقتضاء لخلافهما والا لما كان يقال له أعمى وأصم وما يكون فيه اقتضاء شئ ويترتب عليه مقتضاه لا تطلب النفس له سببا الا ان من يرى المتعيش في السوق لا يقول لم دخل السوق وما يثبت على خلاف المقتضى تطلب النفس له سببا كمن يرى ملكا في السوق يقول لم دخل السوق فاذن سبب العمى والصمم يطلبه كل واحد فيقول لم صار فلان أعمى ولا يقول لم صار فلان بصيرا واذا كان كذلك قدم الله تعالى ما تطلب النفس سببه وهو الليل الذى هو على وزان العمى والظلمة والموت لكون كل واحد طالبا سببه ثم ذكر بعده الامر الآخر (المسئلة الثانية) قال يولج بصيغة المستقبل وقال في الشمس والقمر سخر بصيغة الماضى لان ايلاج الليل في النهار أمر يتجدد كل فصل بل كل يوم وتسخير الشمس والقمر أمر مستمر كما قال تعالى حتى عاد كالعرجون القديم (المسئلة الثالثة) قدم الشمس على القمر مع تقدم الليل الذى فيه سلطان القمر على النهار الذى فيه سلطان الشمس لما بينا ان تقديم الليل كان لان الانفس تطلب سببه أكثر مما تطلب سبب النهار وههنا كذلك لان الشمس لما كانت أكبر

تعالى عبادى والحسبان بمعنى الظن وقد قرئ أفظن والهمزة للانكار والتوبيخ على معنى انكار الواقع واستقباحه كما في قولك أضربت أباك لا انكار الوقوع كما في قوله أأضرب أبى والفاء للعطف على مقدر يفصح عنه الصلة على توجيه الانكار والتوبيخ الى المعطوفين جميعا كما اذا قدر المعطوف عليه في قوله تعالى فلا تعقلون منفيا أى ألا تسمعون فلا تعقلون لا الى المعطوف فقط كما اذا قدر مثبتا أى أتسمعون فلا تعقلون والمعنى أكفروا بى مع جلالة شأنى فحسبوا (أن يتخذوا عبادى من دونى) من الملائكة وعيسى وعزير عليهم السلام وهم تحت سلطانى وملكوتى (أولياء) معبودين ينصرونهم من بأسى وما قيل انها للعطف على ما قبلها من قوله تعالى كانت الخ وكانوا الخ دلالة على أن الحسبان ناشئ من التعامى والتصام وأدخل عليها همزة الانكار ذما على ذم وقطعا له عن المعطوف عليهما لفظا لا معنى للايذان بالاستقلال المؤكد للذم يأباه ترك الاضمار والتعرض لوصف آخر غير التعامى والتصام على أنهما أخرجا مخرج الاحوال الجبلية لهم ولم يذكرا من حيث انهما من أفعالهم الاختيارية الحادثة بحسب اختيارهم ليحسن تفريعه عليهما وأيضا فانه دين قديم لهم لا يمكن جعله ناشئا عن تصامهم عن كلام الله عز وجل وتخصيص الانكار بحسبانهم المتأخر عن ذلك تعسف لا يخفى وما في حيز صلتها ساد مسد مفعولى حسب كما في قوله تعالى وحسبوا أن لا تكون فتنة أى أفحسبوا انهم يتخذونهم أولياء على معنى أن ذلك ليس من الاتخاذ في شئ لما انه انما يكون من الجانبين وهم عليهم الصلاة والسلام منزهون عن ولايتهم بالمرة لقولهم سبحانك أنت ولينا من دونهم وقيل مفعوله الثانى محذوف أى أفحسبوا اتخاذهم نافعا لهم والوجه هو الاول لان في

هذا تسليه النفس الاتخاذ واعتداده فى الجملة وقرئ أفحسب الذين كفروا أى أكافيهم أن يتخذوهم أولياء على الابتداء والخبر أو الفعل والفاعل فان النعت اذا اعتمد الهمزة ساوى الفعل فى العمل فالهمزة حينئذ بمعنى انكار الوقوع (انا أعتدنا جهنم) أى هيأناها (للكافرين) المعهودين عدل عن الاضمار ذما لهم واشعارا بأن ذلك الاعتاد بسبب كفرهم المتضمن لحسبانهم الباطل (نزلا) أى شيأ يتمتعون به عند ورودهم وهو ما يقام للنزيل أى الضيف مما حضر من الطعام وفيه تخطئة لهم فى حسبانهم وتهكم بهم حيث كان اتخاذهم اياهم أولياء من قبيل اعتاد العتاد واعداد الزاد ليوم المعاد فكأنه قيل انا أعتدنا لهم مكان ما أعدوا لانفسهم من العدة والذخر جهنم عدة وفى ايراد النزل ايماء الى أن لهم وراء جهنم من العذاب ما هو أنموذج له وقيل النزل موضع النزول ولذلك فسره ابن عباس رضى الله عنهما بالمثوى (قل هل ننبئكم) الخطاب الثانى للكفرة على وجه التوبيخ والجمع فى صيغة المتكلم لتعيينه من أول الامر وللايذان بمعلومية النبأ للمؤمنين أيضا (بالاخسرين أعمالا) نصب على التمييز والجمع للايذان بتنوعها وهذا بيان لحال الكفرة باعتبار ما صدر عنهم من الاعمال الحسنة فى أنفسها وفى حسبانهم أيضا حيث كانوا معجبين بها واثقين بنيل ثوابها ومشاهدة آثارها غب بيان حالهم باعتبار أعمالهم السيئة فى أنفسها مع كونها حسنة فى حسبانهم (الذين ضل سعيهم) فى اقامة تلك الاعمال أى ضاع وبطل بالكلية (فى الحيوة الدنيا) متعلق بالسعى لا بالضلال لان بطلان سعيهم غير مختص بالدنيا قيل المراد بهم أهل الكتابين قاله ابن عباس وسعد بن أبى وقاص

نقمة

وأعظم كانت أعجب والنفس تطلب سبب الامر العجيب أكثر مما تطلب سبب الامر الذى لا يكون عجيبا (المسئلة الرابعة) ما تعلق قوله تعالى وان الله بما تعملون خبير بما تقدم * نقول لما كان الليل والنهار محل الافعال بين ان ما يقع فى هذين الزمانين اللذين هما بتصرف الله لا يخفى على الله (المسئلة الخامسة) قوله تعالى ألم تر يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون الخطاب مع النبى صلى الله عليه وسلم وعليه الاكثرون وكأنه ترك الخطاب مع غيره لان من هو غيره من الكفار لا فائدة للخطاب معهم لاصرارهم ومن هو غيره من المؤمنين فهم مؤتمرون بأمر النبى عليه الصلاة والسلام ناظرون اليه (الوجه الثانى) أن يقال المراد منه الوعظ والواعظ يخاطب ولا يعين أحدا فيقول لجمع عظيم يا مسكين الى الله مصيرك فمن نصيرك ولماذا تقصيرك فقوله ألم تر يكون خطابا مع ذلك القبيل أى يا أيها الغافل ألم تر هذا الامر الواضح * ثم قال تعالى ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير﴾ ولما ذكر تعالى أوصاف الكمال بقوله ان الله هو الغنى الحميد وقوله ان الله عزيز حكيم وقوله ان الله سميع بصير وأشار الى الارادة والكمال بقوله ما نفدت كلمات الله وبقوله يولج الليل فى النهار وعلى الجملة فقوله هو الغنى اشارة الى كل صفة سلبية فانه اذا كان غنيا لا يكون عرضا محتاجا الى الجوهر فى القوام ولا جسما محتاجا الى الحيز فى الدوام ولا شيأ من الممكنات المحتاجة الى الموجد وذكر بعده جميع الاوصاف الثبوتية صريحا وتضمنا فان الحياة فى ضمن العلم والقدرة قال ذلك بأن الله هو الحق أى ذلك الاتصاف بأنه هو الحق والحق هو الثبوت والثابت الله وهو الثابت المطلق الذى لا زوال له وهو الثبوت فان المذهب الصحيح ان وجوده عين حقيقته فكل ما عداه فله زوال نظرا اليه والله له الثبوت والوجود نظرا اليه فهو الحق وما عداه الباطل لان الباطل هو الزائل يقال بطل ظله اذا زال واذا كان له الثبوت من كل وجه يكون تاما لا نقص فيه ثم اعلم أن الحكماء قالوا الله تام وفوق التمام وجعلوا الاشياء على أربعة أقسام ناقص ومكتف وتام وفوق التمام (فالناقص) ما ليس له ما ينبغى أن يكون له كالصبى والمريض والاعمى (والمكتفى) وهو الذى أعطى ما يدفع به حاجته فى وقته كالانسان والحيوان الذى له من الآلات ما يدفع به حاجته فى وقتها لكنها فى التحلل والزوال (والتام) ما حصل له كل ما جاز له وان لم يحتج اليه كالملائكة المقربين لهم درجات لا تزداد ولا ينتقص الله منها لهم شيأ كما قال جبريل عليه السلام لو دنوت أنملة لاحترقت لقوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم (وفوق التمام) هو الذى حصل له ما جاز له وحصل لما عداه ما جاز له أو احتاج اليه لكن الله تعالى حاصل له كل ما يجوز له من صفات الكمال ونعوت الجلال فهو تام وحصل لغيره كل ما جاز له أو احتاج اليه فهو فوق التمام اذا ثبت هذا فنقول قوله هو الحق اشارة الى التمام وقوله وأن الله هو العلى الكبير أى فوق التمام وقوله هو العلى أى فى صفاته وقوله الكبير أى فى ذاته وذلك ينافى أن يكون جسما فى مكان لانه يكون حينئذ جسما مقدرا بمقدار فيمكن فرض ما هو أكبر منه فيكون صغيرا بالنسبة الى المفروض لكنه كبير مطلقا أكبر من كل ما يتصور * ثم قال تعالى ﴿ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمت الله ليريكم من آياته﴾ لما ذكر آية سماوية بقوله ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر وأشار الى السبب والمسبب ذكر آية أرضية وأشار الى السبب والمسبب فقوله والفلك تجرى اشارة الى المسبب وقوله بنعمت الله اشارة الى السبب أى الى الريح التى هى بأمر الله ليريكم من آياته يعنى يريكم باجرائها نعمته من آياته أى بعض آياته * ثم قال تعالى ﴿ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ صبار فى الشدة شكور فى الرخاء وذلك لان المؤمن متذكر عند الشدة والبلاء وعند النعم والآلاء فيصبر اذا أصابته

ومجاهد رضي الله عنهم ويدخل في الأعمال حينئذ ما عملوه من الاحكام المنسوخة المتعلقة بالعبادات وقيل الرهابنة الذين حبسوا
أنفسهم في الصوامع ويحملونها على الرياضات الشاقة ولعله ما يعمهم وغيرهم من الكفرة ومحل الموصول الرفع على أنه خبر مبتدأ
محذوف لانه جواب للسؤال كأنه قيل من هم فقيل الذين الخ وجعله مجرورا على أنه نعت للاخسرين أو بدل منه

نقمة ويشكر اذا أتته نعمة وورد في كلام النبي صلى الله عليه وسلم الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر
اشارة الى أن التكاليف أفعال وتروك والتروك صبر عن المألوف كما قال عليه الصلاة والسلام الصوم صبر
والافعال شكر على المعروف. ﴿ثم قال تعالى ﴿واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما
نجاهم الى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور﴾ لما ذكر الله ان في ذلك لآيات ذكر
ان الكل معترفون به غير ان البصير يدركه أولا ومن في بصيرته ضعف لا يدركه أولا فاذا غشيه موج ووقع
في شدة اعترف بان الكل من الله ودعاه مخلصا أي يترك كل من عداه وينسى جميع من سواه فاذا نجاه
من تلك الشدة قد يبقى على تلك الحالة وهو المراد بقوله فمنهم مقتصد وقد يعود الى الشرك وهو المراد بقوله
وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور وفي الآية مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ قوله موج كالظلل وحد الموج
وجمع الظلل وقيل في معناه كالجبال وقيل كالسحاب اشارة الى عظم الموج ويمكن أن يقال الموج الواحد
العظيم يرى فيه طلوع ونزول واذا نظرت في الجرية الواحدة من النهر العظيم تبين لك ذلك فيكون ذلك
كالجبال المتلاصقة ﴿المسألة الثانية﴾ قال في العنكبوت فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله ثم قال فلما نجاهم
الى البر اذا هم يشركون وقال ههنا فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد فنقول لما ذكر ههنا أمرا عظيما وهو
الموج الذي كالجبال بقي أثر ذلك في قلوبهم فخرج منهم مقتصد أي في الكفر وهو الذي انزجر بعض الانزجار
أو مقتصد في الاخلاص فبقي معه شيء منه ولم يبق على ما كان عليه من الاخلاص وهناك لم يذكر مع
ركوب البحر معاينة مثل ذلك الامر فذكر اشراكهم حيث لم يبق عندهم أثر ﴿المسألة الثالثة﴾ قوله
وما يجحد بآياتنا في مقابلة قوله تعالى ان في ذلك لآيات يعني يعترف بها الصبار الشكور ويجحدها الختار
الكفور والصبار في موازنة الختار لفظا ومعنى والكفور في موازنة الشكور أما لفظا فظاهر وأما معنى
فلان الختار هو الغدار الكثير الغدر أو الشديد الغدر والغدر لا يكون الا من قلة الصبر لان الصبور ان لم
يعهد مع أحد لا يعهد منه الاضرار فانه يصبر ويفوض الامر الى الله وأما الغدار فيعهد ولا يصبر على العهد
فينقضه وأما أن الكفور في مقابلة الشكور معنى فظاهر ﴿ثم قال تعالى ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم
واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيأ﴾ لما ذكر الدلائل من أول السورة
الى آخرها وعظ بالتقوى لانه تعالى لما كان واحدا أوجب التقوى البالغة فان من يعلم ان الامر بيد اثنين
لا يخاف أحدهما مثل ما يخاف لو كان الامر بيد أحدهما لا غير ثم أكد الخوف بذكر اليوم الذي يحكم
الله فيه بين العباد وذلك لان الملك اذا كان واحدا ويعهد منه أنه لا يعلم شيأ ولا يستعرض عباده لا يخاف
منه مثل ما يخاف اذا علم أن له يوم استعراض واستكشاف ثم أكده بقوله لا يجزي والد عن ولده وذلك
لان المجرم اذا علم أن له عند الملك من يتكلم في حقه ويقضي ما يخرج عليه من كسبه لا يخاف مثل
ما يخاف اذا علم أنه ليس له من يقضي عنه ما يخرج عليه ثم ذكر شخصين في غاية الشفقة والمحبة وهما
الوالد والولد ليستدل بالادنى على الاعلى وذكر الولد والوالد جميعا فيه لطيفة وهي ان من الامور ما يبادر
الاب الى التحمل عن الولد كدفع المال وتحمل الآلام والولد لا يبادر الى تحمله عن الوالد مثل ما يبادر
الوالد الى تحمله عن الولد ومنها ما يبادر الولد الى تحمله عن الوالد ولا يبادر الوالد الى تحمله عن الولد كالاهانة
فان من يريد احضار والد أحد عند وال أو قاض يهون على الابن أن يدفع الاهانة عن والده ويحضر هو
بدله واذا انتهى الامر الى الايلام يهون على الاب أن يدفع الايلام عن ابنه ويتحمله هو بنفسه فقوله
لا يجزي والد عن ولده في دفع الآلام ولا مولود هو جاز عن والده شيأ في دفع الاهانة وفي قوله لا يجزي وقوله

أو منصوبا على الذم على
أن الجواب ما سيأتي من
قوله تعالى أولئك الآية
يأباه أن صدره ليس
منبئا عن خسران
الاعمال وضلال السعي
كما يستدعيه مقام الجواب
والتفريع الاول وان
دل على حبوطها لكنه
ساكت عن أنساه ماهو
العمدة في تحقيق معنى
الخسران من الوثوق
بترتب الربح واعتقاد
النفع فيما صنعوا على
أن التفريع الثاني مما
يقطع ذلك الاحتمال
رأسا اذ لا مجال لادراجه
تحت الامر بقضية نون
العظمة (وهم يحسبون
أنهم يحسنون صنعا)
الاحسان الاتيان بالاعمال
على الوجه اللائق وهو
حسنها الوصفي المستلزم
لحسنها الذاتي أي
يحسبون أنهم يعملون
ذلك على الوجه اللائق
وذلك لاعجابهم بأعمالهم
التي سعوا في اقامتها
وكابدوا في تحصيلها
والجملة حال من فاعل
ضل أي بطل سعيهم
المذكور والحال أنهم
يحسبون أنهم محسنون
في ذلك وينتفعون بآثاره

أو المضاف اليه لكونه في محل الرفع نحو قوله تعالى السمر جعكم جميعا أي بطل سعيهم والحال انهم الخ والفرق بينهما أن المقارن لحال
حسبانهم المذكور في الاول ضلال سعيهم وفي الثاني نفس سعيهم والاول أدخل في بيان خطئهم (أولئك) كلام مستأنف من جنابه
تعالى مسوق لتكميل تعريف الاخسرين وتبيين سبب خسرانهم وضلال سعيهم وتعيينهم بحيث ينطبق التعريف على المخاطبين غير

داخل تحت الامر أى أولئك المنعوتون بما ذكر من ضلال السعى مع الحسبان المزبور (الذين كفروا بآيات ربهم) بدلائله الداعية الى التوحيد عقلا ونقلا والتعرض لعنوان الربوبية لزيادة تقبيح حالهم فى الكفر المذكور (ولقائه) بالبعث وما يتبعه من أمور الآخرة على ما هى عليه (فحبطت) لذلك (أعمالهم) المعهودة حبوطا كليا (فلا نقيم لهم) أى لاولئك الموصوفين بما مر من حبوط الاعمال وقرئ بالياء (يوم القيامة وزنا) أى فنزدريهم ولا نجعل لهم مقدارا واعتبارا لان مداره الاعمال الصالحة وقد حبطت بالمرة وحيث كان هذا الازدراء من عواقب حبوط الاعمال عطف عليه بطريق التفريع وأما ما هو من أجزية الكفر فسيجىء بعد ذلك أو لا نضع لاجل وزن أعمالهم ميزانا لانه انما يوضع لاهل الحسنات والسيآت من الموحدين ليتميز به مقادير الطاعات والمعاصى ليترتب عليه التكفير أو عدمه لان ذلك فى الموحدين بطريق الكمية وأما الكفر فاحباطه للحسنات بحسب الكيفية دون الكمية فلا يوضع لهم الميزان قطعا (ذلك) بيان لمآل كفرهم وسائر معاصيهم اثر بيان مآل أعمالهم المحبطة بذلك أى الامر ذلك وقوله عز وجل (جزاؤهم جهنم) جملة مبينة له أو ذلك مبتدأ والجملة خبره والعائد محذوف أى جزاؤهم به أو جزاؤهم بدله وجهنم خبره أو جزاؤهم خبره وجهنم عطف بيان للخبر (بما كفروا) تصريح بأن ما ذكر جزاء لكفرهم المتضمن لسائر القبائح التى أنباعنها ما قوله تعالى (واتخذوا آياتى ورسلى هزوا) أى مهزوا بهما فانهم لم يقتنعوا بمجرد الكفر بالآيات والرسل بل ارتكبوا مثل تلك العظيمة أيضا (ان الذين آمنوا) بيان بطريق الوعد لمآل الذين اتصفوا بأضداد ما اتصف به الكفرة اثر بيان مآلهم بطريق الوعيد أى آمنوا

ولا مولود هو جاز لطيفة أخرى وهى انا ذكرنا أن الفعل يتأتى وان كان ممن لا ينبغى ولا يكون من شأنه لان الملك اذا كان يخيط شيأ يقال انه يخيط ولا يقال هو خياط وكذلك من يحيك شيأ ولا يكون ذلك صنعته يقال هو يحيك ولا يقال هو حائك اذا علمت هذا فنقول الابن من شأنه أن يكون جازيا عن والده لما له عليه من الحقوق والوالد يجزى لما فيه من الشفقة وليس بواجب عليه ذلك فقال فى الوالد لا يجزى وقال فى الولد ولا مولود هو جاز ﴿ ثم قال تعالى ﴿ان وعد الله حق﴾ وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تحقيقا لليوم يعنى اخشوا يوما هذا شأنه وهو كائن لوعد الله به ووعده حق (والثانى) أن يكون تحقيقا لعدم الجزاء يعنى لا يجزى والد عن ولده لان الله وعد بأن لا تزر وازرة وزر أخرى ووعد الله حق فلا يجزى والاول أحسن وأظهر ﴿ ثم قال تعالى ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ يعنى اذا كان الامر كذلك فلا تغتروا بالدنيا فانها زائلة لوقوع اليوم المذكور بالوعد الحق ﴿ ثم قال تعالى ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ يعنى الدنيا لا ينبغى أن تغركم بنفسها ولا ينبغى أن تغتروا وان حملكم على محبتها غار من نفس أمارة أو شيطان فكان الناس على أقسام منهم من تدعوه الدنيا الى نفسها فيميل اليها ومنهم من يوسوس فى صدره الشيطان ويزين فى عينه الدنيا ويؤمله ويقول انك تحصل بها الآخرة أو تلتذ بها ثم تتوب فتجتمع لك الدنيا والآخرة فنهاهم عن الامرين وقال كونوا قسما ثالثا وهم الذين لا يلتفتون الى الدنيا ولا الى من يحسن الدنيا فى الاعين ﴿ ثم قال تعالى ﴿ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الارحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت ان الله عليم خبير﴾ يقول بعض المفسرين ان الله تعالى نفى علم أمور خمسة بهذه الآية عن غيره وهو كذلك لكن المقصود ليس ذلك لان الله يعلم الجوهر الفرد الذى كان فى كثيب رمل فى زمان الطوفان ونقله الريح من المشرق الى المغرب كم مرة ويعلم أنه أين هو ولا يعلمه غيره ولانه يعلم أنه يوجد بعد هذه السنين ذرة فى برية لا يسلكها أحد ولا يعلمه غيره فلا وجه لاختصاص هذه الاشياء بالذكر وانما الحق فيه أن نقول لما قال الله اخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده وذكر أنه كائن بقوله ان وعد الله حق كأن قائلا قال فمتى يكون هذا اليوم فأجيب بأن هذا العلم مما لم يحصل لغير الله ولكن هو كائن ثم ذكر الدليلين اللذين ذكرناهما مرارا على البعث (أحدهما) احياء الارض بعد موتها كما قال تعالى وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيى الارض بعد موتها ان ذلك لمحيى الموتى وقال تعالى ويحيى الارض بعد موتها وكذلك تخرجون وقال ههنا يا أيها السائل انك لا تعلم وقتها ولكنها كائنة والله قادر عليها كما هو قادر على احياء الارض حيث قال وهو الذى ينزل الغيث وقال ويحيى الارض (وثانيهما) الخلق ابتداء كما قال وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وقال تعالى قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة الى غير ذلك فقال ههنا ويعلم ما فى الارحام اشارة الى أن الساعة وان كنت لا تعلمها لكنها كائنة والله قادر عليها وكما هو قادر على الخلق فى الارحام كذلك يقدر على الخلق من الارحام ثم قال لذلك الطالب علمه يا أيها السائل انك تسأل عن الساعة أيان مرساها فان من الاشياء ما هو أهم منها لا تعلمها فانك لا تعلم معاشك ومعادك ولا تعلم ماذا تكسب غدا مع أنه فعلك وزمانك ولا تعلم أين تموت مع أنه شغلك ومكانك فكيف تعلم قيام الساعة متى تكون فالله ما أعلمك كسب غدك مع أن لك فيه فوائد تبنى عليها الامور من يومك ولا أعلمك أين تموت مع أن لك فيه أغراضا تهيئ أمورك بسبب ذلك العلم وانما لم يعلمك لكى تكون فى كل وقت بسبب الرزق راجعا الى الله تعالى متوكلا على الله ولا أعلمك الارض التى تموت فيها كى لا تأمن الموت وأنت فى غيرها فاذا لم يعلمك

ما تحتاج إليه كيف يعلمك ما لا حاجة لك إليه وهي الساعة وإنما الحاجة إلى العلم بأنها تكون وقد أعلمك الله على لسان أنبيائه ثم قال تعالى ان الله عليم خبير لما خصص أولا علمه بالاشياء المذكورة بقوله ان الله عنده علم الساعة ذكر أن علمه غير مختص بها بل هو عليم مطلقا بكل شئ وليس علمه علما بظاهر الاشياء فحسب بل هو خبير علمه واصل الى بواطن الاشياء والله أعلم بالصواب

﴿سورة السجدة وتسمى سورة المضاجع مكية عند أكثرهم
وهي تسع وعشرون آية وقيل ثلاثون آية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ لما ذكر الله تعالى في السورة المتقدمة دليل الوحدانية وذكر الاصل الآخر وهو الحشر وختم السورة بهما بدأ ببيان الرسالة في هذه السورة فقال الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه وقد علم ما في قوله الم وفي قوله لا ريب فيه من سورة البقرة وغيرها غير أن ههنا قال من رب العالمين وقال من قبل هدى ورحمة للمحسنين وقال في البقرة هدى للمتقين وذلك لان من يرى كتابا عند غيره فأول ما تصير النفس طالبة تطلب ما في الكتاب فيقول ما هذا الكتاب فاذا قيل هذا فقه أو تفسير فيقول بعد ذلك تصنيف من هو ولا يقول أولا هذا الكتاب تصنيف من ثم يقول فيماذا هو واذا علم هذا فقال أولا هذا الكتاب هدى ورحمة ثم قال ههنا هو كتاب الله تعالى وذكره بلفظ رب العالمين لان كتاب من يكون رب العالمين يكون فيه عجائب العالمين فتدعو النفس الى مطالعته ۞ ثم قال تعالى ﴿أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون﴾ يعني أتعترفون به أم تقولون هو مفترى ثم أجاب وبين أن الحق أنه حق من ربه ثم بين فائدة التنزيل وهو الانذار وفيه مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ كيف قال لتنذر قوما ما أتاهم من نذير مع أن النذر سبقوه الجواب من وجهين (أحدهما) معقول والآخر منقول أما المنقول فهو أن قريشا كانت أمة أمية لم يأتهم نذير قبل محمد صلى الله عليه وسلم وهو بعيد فانهم كانوا من أولاد ابراهيم وجميع أنبياء بني اسرائيل من أولاد أعمامهم وكيف كان الله يترك قوما من وقت آدم الى زمان محمد بلا دين ولا شرع وان كنت تقول بأنهم ما جاءهم رسول بخصوصهم يعني ذلك القرن فلم يكن ذلك مختصا بالعرب بل أهل الكتاب أيضا لم يكن ذلك القرن قد أتاهم رسول وانما أتى الرسل آباءهم وكذلك العرب أتى الرسل آباءهم كيف والذي عليه الاكثرون ان آباء محمد عليه الصلاة والسلام كانوا كفارا ولان النبي أوعدهم وأوعد آباءهم بالعذاب وقال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وأما المعقول وهو أن الله تعالى أجرى عادته على ان أهل عصر اذا ضلوا بالكلية ولم يبق فيهم من يهديهم يلطف بعباده ويرسل رسولا ثم انه اذا أراد طهرهم بازالة الشرك والكفر من قلوبهم وان أراد طهر وجه الارض باهلاكهم ثم أهل العصر ضلوا بعد الرسل حتى لم يبق على وجه الارض عالم هاد ينتفع بهدايته قوم وبقوا على ذلك سنين متطاولة فلم يأتهم رسول قبل محمد عليه الصلاة والسلام فقال لتنذر قوما ما أتاهم أي بعد الضلال الذي كان بعد الهداية لم يأتهم نذير (المسألة الثانية) لو قال قائل التخصيص بالذكر يدل على نفي ما عداه فقوله لتنذر قوما ما أتاهم يوجب أن يكون انذاره مختصا بمن لم يأته نذير لكن أهل الكتاب قد أتاهم نذير فلا يكون الكتاب منزلا الى الرسول لينذر أهل الكتاب فلا يكون رسولا اليهم نقول هذا فاسد من وجوه (أحدها) ان التخصيص لا يوجب نفي ما عداه (والثاني) انه وان قال به

بآيات ربهم ولقائه (وعملوا الصالحات) من الاعمال (كانت لهم) فيما سبق من حكم الله تعالى ووعده وفيه ايماء الى أن أثر الرحمة يصل اليهم بمقتضى الرأفة الازلية بخلاف ما مر من جعل جهنم للكافرين نزلا فانه بموجب ما حدث من سوء اختيارهم (جنات الفردوس) عن مجاهد ان الفردوس هو البستان بالرومية وقال عكرمة هو الجنة بالحبشية وقال الضحاك هو الجنة الملتفة الاشجار وقيل هي الجنة التي تنبت ضروبا من النبات وقيل هي الجنة من الكرم خاصة وقيل ما كان غالبه كرما وقال المبرد هو فيما سمعت من العرب الشجر الملتف والاغلب عليه أن يكون من العنب وعن كعب أنه ليس في الجنان أعلى من جنة الفردوس وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين مسيرة مائة عام والفردوس أعلاها وفيها الانهار الاربعة فاذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فان فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة (نزلا) خبر كانت والجار والمجرور متعلق بمحذوف على أنه حال من نزلا أو على أنه بيان أو حال من جنات الفردوس والخبر هو الجار والمجرور فان جعل النزل بمعنى ما يهيأ للنازل فالمعنى كانت لهم ثمار جنات الفردوس نزلا أو جعلت نفس الجنات نزلا مبالغة في الاكرام وفيه ايذان بأنها عند ما أعد الله لهم على ما جرى على لسان النبوة من قوله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بمنزلة النزل بالنسبة الى الضيافة وان جعل بمعنى المنزل فالمعنى ظاهر (خالدين فيها) نصب على الحالية (لا يبغون عنها حولا) مصدر كالعوج والصغر أي لا يطلبون تحولا عنها اذ لا يتصور أن يكون شئ أعز عندهم وأرفع منها حتى تنازعهم اليه

أنفسهم وتطامح نحوه أبصارهم ويجوز أن يراد نفي التحوّل وتأكيد الخلود والجملة حال من صاحب خالدين أو ضمير فيه فيكون حالا متداخلة
(قل لو كان البحر) أي جنس البحر (مدادا) وهو ما تمد به الدواة من الحبر (لكلمات ربي) لتحرير كلمات علمه وحكمته التي من جملتها
ما ذكر من الآيات الداعية الى التوحيد المحذرة من الاشراك (لنفد البحر) مع كثرته ولم يبق منه شيء لتناهيه (قبل أن
تنفد) وقرئ بالياء
والمعنى من غير أن تنفد
(كلمات ربي) لعدم
تناهيها فلا دلالة للكلام
على نفادها بعد نفاد البحر
وفي اضافة الكلمات الى
اسم الرب المضاف الى
ضميره صلى الله عليه
وسلم في الموضعين من
تفخيم المضاف وتشريف
المضاف اليه ما لا يخفى
واظهار البحر والكلمات
في موضع الاضمار
لزيادة التقرير (ولو
جئنا) كلام من جهته
تعالى غير داخل في
الكلام الملقن جيء به
لتحقيق مضمونه
وتصديق مدلوله مع
زيادة مبالغة وتأكيد
والواو لعطف الجملة على
نظيرتها المستأنفة المقابلة
لها المحذوفة لدلالة
المذكورة عليها دلالة
واضحة أي لنفد البحر من
غير نفاد كلماته تعالى لو لم
نجيء بمثله مددا ولو جئنا
بقدرتنا الباهرة (بمثله
مددا) عونا وزيادة لان
مجموع المتناهيين متناه
بل مجموع ما يدخل تحت
الوجود من الاجسام
لا يكون الا متناهيا لقيام
الادلة الناطقة على
تناهي الابعاد وقرئ مددا جمع مدة وهي ما يستمده الكاتب وقرئ مدادا (قل) لهم بعد ما بينت لهم شأن كلماته الحاجة
تعالى (انما أنا بشر مثلكم) لا أدعي الاحاطة بكلماته التامة (يوحى الي) من تلك الكلمات (انما الهكم اله واحد) لا شريك له في الخلق
ولا في سائر أحكام الالوهية وانما تميزت عنكم بذلك (فمن كان يرجو لقاء ربه) الرجاء توقع وصول الخير في المستقبل والمراد بلقائه تعالى

قائل لكنه وافق غيره في أن التخصيص ان كان له سبب غير نفي ما عداه لا يوجب نفي ما عداه وههنا وجد
ذلك لان انذارهم كان أولى ألا ترى أنه تعالى قال وأنذر عشيرتك الاقربين ولم يفهم منه انه لا ينذر غيرهم أو لم
يؤمر بانذار غيرهم وانذار المشركين كان أولى لان انذارهم كان بالتوحيد والحشر وأهل الكتاب لم ينذروا
الا بسبب انكارهم الرسالة فكانوا أولى بالذكر فوقع التخصيص لاجل ذلك (الثالث) هو ان على ما ذكرنا
لا يرد ما ذكره أصلا لان أهل الكتاب كانوا قد ضلوا ولم يأتهم نذير من قبل محمد بعد ضلالهم فلزم أن يكون
مرسلا الى الكل على درجة سواء وبهذا يتبين حسن ما اخترناه وقوله لعلهم يهتدون يعني تنذرهم راجيا
أنت اهتداءهم ﴿ ثم قال تعالى ﴿الله الذي خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام﴾ لما ذكر
الرسالة بين ما على الرسول من الدعاء الى التوحيد واقامة الدليل فقال الله الذي خلق السموات والارض
الله مبتدأ وخبره الذي خلق يعني الله هو الذي خلق السموات والارض ولم يخلقهما الا واحد فلا اله الا
واحد وقد ذكرنا ان قوله تعالى في ستة أيام اشارة الى ستة أحوال في نظر الناظرين وذلك لان السموات
والارض وما بينهما ثلاثة أشياء ولكل واحد منها ذات وصفة فنظرا الى خلقه ذات السموات حالة ونظرا الى
خلقه صفاتها أخرى ونظرا الى ذات الارض والى صفاتها كذلك ونظرا الى ذوات ما بينهما والى صفاتها
كذلك فهي ستة أشياء في ستة أحوال وانما ذكر الايام لان الانسان اذا نظر الى الخلق رآه فعلا والفعل ظرفه
الزمان والايام أشهر الازمنة والا فقبل السموات لم يكن ليل ولا نهار وهذا مثل ما يقول القائل لغيره

ان يوما ولدت فيه ٭ كان يوما مباركا

وقد يجوز أن يكون ذلك قد ولد ليلا ولا يخرج عن مراده لان المراد هو الزمان الذي هو ظرف ولادته ﴿ ثم
قال تعالى ﴿ثم استوى على العرش﴾ اعلم أن مذهب العلماء في هذه الآية وأمثالها على وجهين
(أحدهما) ترك التعرض الى بيان المراد (وثانيهما) التعرض اليه والاول أسلم والى الحكمة أقرب أما انه
أسلم فذلك لان من قال أنا لا أتعرض الى بيان هذا ولا أعرف المراد من هذا لا يكون حاله الا حال من
لا يتكلم عند عدم وجوب الكلام أولا يعلم شيئا لم يجب عليه أن يعلمه وذلك لان الاصول ثلاثة التوحيد
والقول بالحشر والاعتراف بالرسل لكن الحشر أجمعنا واتفقنا أن العلم به واجب والعلم بتفصيله انه متى
يكون غير واجب ولهذا قال تعالى في آخر السورة المتقدمة ان الله عنده علم الساعة فكذلك الله يجب
معرفة وجوده ووحدانيته واتصافه بصفات الجلال ونعوت الكمال على سبيل الاجمال وتعاليه عن
وصمات الامكان وصفات النقصان ولا يجب أن يعلم جميع صفاته كما هي وصفة الاستواء مما لا يجب العلم بها
فمن ترك التعرض اليه لم يترك واجبا وأما من يتعرض اليه فقد يخطئ فيه فيعتقد خلاف ما هو عليه فالاول
غاية ما يلزمه أنه لا يعلم والثاني يكاد أن يقع في أن يكون جاهلا مركبا وعدم العلم والجهل المركب كالسكوت
والكذب ولا يشك أحد في أن السكوت خير من الكذب وأما انه أقرب الى الحكمة فذلك لان من يطالع
كتابا صنفه انسان وكتب له شرحا والشارح دون المصنف فالظاهر أنه لا يأتي على جميع ما أتى عليه المصنف
ولهذا كثيرا ما نرى ان الانسان يورد الاشكالات على المصنف المتقدم ثم يجيء من ينصر كلامه ويقول لم يرد
المصنف هذا وانما أراد كذا وكذا واذا كان حال الكتب الحادثة التي تكتب عن علم قاصر كذلك فما ظنك
بالكتاب العزيز الذي فيه كل حكمة يجوز أن يدعي جاهل أني علمت كل سر في هذا الكتاب وكيف ولو
ادعى عالم اني علمت كل سر وكل فائدة يشتمل عليه الكتاب الفلاني يستقبح منه ذلك فكيف من يدعي انه
علم كل ما في كتاب الله ثم ليس لقائل أن يقول بأن الله تعالى بين كل ما أنزله لان تأخير البيان الى وقت

كرامته وادخال الماضي على المستقبل للدلالة على أن اللائق بحال المؤمن الاستمرار والاستدامة على رجاء اللقاء أي فمن استمر على رجاء كرامته تعالى (فليعمل) لتحصيل تلك الطلبة العزيزة (عملا صالحا) في نفسه لائقا بذلك المرجو كما فعله الذين آمنوا وعملوا الصالحات (ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) اشراكا جليا كما فعله الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ولا اشراكا خفيا كما يفعله أهل الرياء ومن يطلب به أجرا وايثار وضع المظهر موضع المضمر في الموضعين مع التعرض لعنوان الربوبية لزيادة التقرير وللاشعار بعلية العنوان للامر والنهي ووجوب الامتثال فعلا وتركا روي ان جندب بن زهير رضي الله عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم اني لاعمل العمل لله تعالى فاذا اطلع عليه سرني فقال عليه الصلاة والسلام ان الله لا يقبل ما شورك فيه فنزلت تصديقا له وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال له لك أجران أجر السر وأجر العلانية وذلك اذا قصد أن يقتدى به وعنه عليه الصلاة والسلام اتقوا الشرك الاصغر قيل وما الشرك الاصغر قال الرياء وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نورا من قرنه الى قدمه ومن قرأها كلها كانت له نورا من الارض الى السماء وعنه صلى الله عليه وسلم من قرأ عند مضجعه قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى الخ كان له من مضجعه نورا يتلألأ الى مكة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم وان كان مضجعه بمكة كان له نورا يتلألأ من مضجعه الى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ الحمد لله سبحانه على نعمه العظام

﴿سورة مريم عليها السلام مكية الا آية السجدة وهي ثمان أو تسع وتسعون آية﴾

الحاجة جائز واما في القرآن ما لا يحتاج اليه أحد غير نبيه فبين له لا لغيره اذا ثبت هذا علم أن في القرآن ما لا يعلم وهذا أقرب الى ذلك الذي لا يعلم للتشابه البالغ الذي فيه لكن هذا المذهب له شرط وهو أن ينفي بعض ما يعلم قطعا أنه ليس بمراد وهذا لان قائلا اذا قال ان هذه الايام أيام قرء فلانة نعلم انه لا يريد أن هذه الايام أيام موت فلانة ولا يريد أن هذه الايام أيام سفر فلانة وانما المراد منحصر في الطهر أو الحيض فكذلك ههنا نعلم أن المراد ليس ما يوجب نقصا في ذاته لاستحالة ذلك والجلوس والاستقرار المكاني من ذلك الباب فيجب القطع بنفي ذلك التوقف فيما يجوز بعده (والمذهب الثاني) نظر ومن ذهب اليه فريقان (أحدهما) من يقول المراد ظاهره وهو القيام والانتصاب أو الاستقرار المكاني (وثانيهما) من يقول المراد الاستيلاء والاول جهل محض والثاني يجوز أن يكون جهلا والاول مع كونه جهلا هو بدعة وكاد يكون كفرا والثاني وان كان جهلا فليس بجهل يورث بدعة وهذا كما أن واحدا اذا اعتقد أن الله يرحم الكفار ولا يعاقب أحدا منهم يكون جهلا وبدعة وكفرا واذا اعتقد انه يرحم زيدا الذي هو مستور الحال لا يكون بدعة غاية ما يكون انه اعتقاد غير مطابق (ومما قيل فيه) أن المراد منه استوى على ملكه والعرش يعبر به عن الملك يقال الملك قعد على سرير المملكة بالبلدة الفلانية وان لم يدخلها وهذا مثل قوله تعالى وقالت اليهود يد الله مغلولة اشارة الى البخل مع انهم لم يقولوا بأن على يد الله غلا على طريق الحقيقة ولو كان مراد الله ذلك لكان كذبا بحل كلام الله عنه ثم لهذا فصل تقرير وهو أن الملوك على درجات فمن ملك مدينة صغيرة أو بلادا يسيرة ما جرت العادة بأن يجلس أول ما يجلس على سرير ومن يكون سلطانا يملك البلاد الشاسعة والديار الواسعة وتكون الملوك في خدمته يكون له سرير يجلس عليه وقدامه كرسي يجلس عليه وزيره فالعرش والكرسي في العادة لا يكون الا عند عظمة المملكة فلما كان ملك السموات والارض في غاية العظمة عبر عنه بما ينبئ في العرف عن العظمة ومما ينبهك لهذا قوله تعالى انا خلقنا وانا زينا ونحن أقرب ونحن نزلنا أيظن أو يشك مسلم في أن المراد ظاهره من التشريك وهل يجد له محملا غير ان العظيم في العرف لا يكون واحدا وانما يكون معه غيره فكذلك الملك العظيم في العرف لا يكون الا ذا سرير يستوي عليه فاستعمل ذلك مريدا للعظمة ومما يؤيد هذا ان المقهور المغلوب المهزوم يقال له ضاقت به الارض حتى لم يكن له مكان أيظن انهم يريدون به انه صار لا مكان له وكيف يتصور الجسم بلا مكان ولا سيما من يقول بان الهمّ في مكان كيف يخرج الانسان عن المكان فكما يقال للمقهور الهارب لم يبق له مكان مع أن المكان واجب له يقال للقادر القاهر هو متمكن وله عرش وان كان المنزه عن المكان واجماله وعلى هذا كلمة ثم معناها خلق السموات والارض ثم القصة انه استوى على الملك وهذا كما يقول القائل فلان أكرمني وأنعم علي مرارا ويحكي عنه أشياء ثم يقول انه ما كان يعرفني ولا كنت فعلت معه ما يجازيني بهذا فنقول ثم للحكاية لا للمحكي (الوجه الآخر) قيل استوى جاء بمعنى استولى على العرش واستوى جاء بمعنى استولى نقلا واستعمالا أما النقل فكثير مذكور في كتب اللغة مثل ديوان الادب وغيره مما يعتبر النقل عنه وأما الاستعمال فقول القائل

قد استوى بشر على العراق ❊ من غير سيف ودم مهراق

وعلى هذا فكلمة ثم معناها ما ذكرنا كأنه قال خلق السموات والارض ثم ههنا ما هو أعظم منه استوى على العرش فانه أعظم من الكرسي والكرسي وسع السموات والارض (والوجه الثالث) قيل ان المراد الاستقرار وهذا القول ظاهر ولا يفيد انه في مكان وذلك لان الانسان يقول استقر رأي فلان على الخروج

(بسم الله الرحمن الرحيم) (كهيعص) بامالة الهاء والياء واظهار الدال وقرئ بفتح الهاء وامالة الياء وبتفخيمهما وباخفاء النون قبل الصاد لتقاربهما وقد سلف أن ما لا يكون من هذه الفواتح مفردة ولا موازنة لمفرد فطريق التلفظ بها الحكاية فقط ساكنة الاعجاز على الوقف سواء جعلت أسماء السور أو مسرودة على نمط التعديد وان لزمها التقاء الساكنين لكونه مغتفرا في باب الوقف قطعا فحق هذه الفاتحة الكريمة أن يوقف عليها جريا على الاصل وقرئ بادغام الدال فيما بعدها لتقاربهما في المخرج فان جعلت اسما للسورة على ما عليه اطباق الاكثر فمحله الرفع اما على انه خبر لمبتدا محذوف والتقدير هذا كهيعص أي مسمى به وانما صحت الاشارة اليه مع عدم جريان ذكره لانه باعتبار كونه على جناح الذكر صار في حكم الحاضر الشاهد كما يقال هذا ما اشترى فلان أو على انه مبتدأ خبره (ذكر رحمة ربك) أي المسمى به ذكر رحمة الخ فان ذكرها لما كان مطلع السورة الكريمة ومعظم ما انطوت هي عليه جعلت كأنها نفس ذكرها والاول هو الاولى لان ما يجعل عنوانا للموضوع حقه أن يكون معلوم الانتساب اليه عند المخاطب واذ لا علم بالتسمية من قبل فحقها الاخبار بها كما في الوجه الاول وان جعلت مسرودة على نمط التعديد حسبما جنح اليه أهل التحقيق فذكر الخ خبر لمبتدا محذوف هو ما ينبئ عنه تعديد الحروف كانه قيل المؤلف من جنس هذه الحروف المبسوطة مرادا به السورة ذكر رحمة الخ أو اسم اشارة أشير به اليه تنزيلا لحضور المادة منزلة حضور المؤلف منها أي هذا ذكر رحمة الخ وقيل هو مبتدأ قد حذف خبره أي فيما يتلى عليك ذكرها وقرئ ذكر رحمة ربك على صيغة الماضي من التذكير

ولا يشك أحد أنه لا يريد ان الرأى في مكان وهو الخروج لما أن الرأى لا يجوز فيه أن يقال انه متمكن أو هو مما يدخل في مكان اذا علم هذا فنقول فهم التمكن عند استعمال كلمة الاستقرار مشروط بجواز التمكن حتى اذا قال قائل استقر زيد على الفلك أو على التخت يفهم منه التمكن وكونه في مكان واذا قال قائل استقر الملك على فلان لا يفهم أن الملك في فلان فقول القائل الله استقر على العرش لا ينبغي أن يفهم كونه في مكان مالم يعلم أنه هل يجوز عليه أن يكون في مكان أو لا يجوز فاذن فهم كونه في مكان من هذه اللفظة مشروط بجواز أن يكون في مكان فجواز كونه في مكان ان استفيد من هذه اللفظة يلزم تقدم الشئ على نفسه وهو محال ثم الذي يدل على انه لا يجوز أن يكون على العرش بمعنى كون العرش مكانا له وجوه من القرآن (أحدها) قوله تعالى وان الله لهو الغني وهذا يقتضي أن يكون غنيا على الاطلاق وكل ما هو في مكان فهو في بقائه محتاج الى مكان لان بديهة العقل حاكمة بان الحيز ان لم يكن لا يكون المتحيز باقيا فالمتحيز ينتفي عند انتفاء الحيز وكل ما ينتفي عند انتفاء غيره فهو محتاج اليه في استمراره فالقول باستقراره يوجب احتياجه في استمراره وهو غني بالنص (الثاني) قوله تعالى كل شئ هالك الا وجهه فالعرش يهلك وكذلك كل مكان فلا يبقى وهو يبقى فاذن لا يكون في ذلك الوقت في مكان فجاز عليه أن لا يكون في مكان وما جاز له من الصفات وجب له فيجب أن لا يكون في مكان (الثالث) قوله تعالى وهو معكم ووجه التمسك به هو أن على اذا استعمل في المكان يفهم كونه عليه بالذات كقولنا فلان على السطح وكلمة مع اذا استعملت في متمكنين يفهم منها اقترانهما بالذات كقولنا زيد مع عمرو واذا استعمل هذا فان كان الله في مكان ونحن متمكنون فقوله ان الله معنا وقوله وهو معكم كان ينبغي أن يكون للاقتران وليس كذلك فان قيل كلمة مع تستعمل لكون ميله اليه وعلمه معه أو نصرته يقال الملك الفلاني مع الملك الفلاني أي بالاعانة والنصر فنقول كلمة على تستعمل لكون حكمه على الغير يقول القائل لولا فلان على فلان لا شرف في الهلاك ولا شرف على الهلاك وكذلك يقال لولا فلان على املاك فلان أو على أرضه لما حصل له شئ منها ولا أكل حاصلها بمعنى الاشراف والنظر فكيف لا نقول في استوى على العرش انما استوى عليه بحكمه كما نقول هو معنا بعلمه (الرابع) قوله تعالى لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار ولو كان في مكان لاحاط به المكان وحينئذ فاما أن يرى واما أن لا يرى لا سبيل الى الثاني بالاتفاق لان القول بأنه في مكان ولا يرى باطل بالاجماع وان كان يرى فيرى في مكان أحاط به فتدركه الابصار وأما اذا لم يكن في مكان فسواء يرى أو لا يرى لا يلزم أن تدركه الابصار أما اذا لم ير فظاهر وأما اذا رؤى فلان البصر لا يحيط به فلا يدركه وانما قلنا ان البصر لا يحيط به لان كل ما أحاط به البصر فله مكان يكون فيه وقد فرضنا عدم المكان ولو تدبر الانسان القرآن لوجده مملوأ من عدم جواز كونه في مكان كيف وهذا الذي يتمسك به هذا القائل يدل على انه ليس على العرش بمعنى كونه في المكان وذلك لان كلمة ثم للتراخي فلو كان عليه بمعنى المكان لكان قد حصل عليه بعد ما لم يكن عليه فقبله اما أن يكون في مكان أو لا يكون فان كان يلزم محالان (أحدهما) كون المكان أزليا ثم ان هذا القائل يدعي مضادة الفلسفي فيصير فلسفيا يقول بقدم سماء من السموات (والثاني) جواز الحركة والانتقال على الله تعالى وهو يفضي الى حدوث الباري أو بطلان دلائل حدوث الاجسام وان لم يكن في مكان وما حصل في مكان يحيل العقل وجوده بلا مكان ولو جاز لما أمكن أن يقال بان الجسم لو كان أزليا فاما أن يكون في الازل ساكنا أو متحركا لانهما فرعا الحصول في مكان واذا كان كذلك فيلزمه القول بحدوث الله أو عدم القول بحدوث العالم لانه ان سلم انه قبل المكان لا يكون فهو القول بحدوث الله تعالى وان لم يسلم فيجوز أن يكون الجسم

في الازل لم يكن في مكان ثم حصل في مكان فلا يتم دليله في حدوث العالم فيلزمه أن لا يقول بحدوثه ثم ان هذا القائل يقول إنك تشبه الله بالمعدوم فانه ليس في مكان ولا يعلم انه جعله معدوما وساحث أحوجه الى مكان وكل محتاج نظرا الى عدم ما يحتاج اليه معدوم ولو كتبنا ما فيه لطال الكلام ﴿ ثم قال تعالى ﴿ ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾ لما ذكر أن الله خالق السموات والارض قال بعضهم نحن معترفون بأن خالق السموات والارض واحد هو الله السموات وهذه الاصنام صور الكواكب منها نصرتنا وقوتنا وقال آخرون هذه صور الملائكة عند الله هم شفعاؤنا فقال الله تعالى لا اله غير الله ولا نصرة من غير الله ولا شفاعة الا باذن الله فعبادتكم لهذه الاصنام باطلة ضائعة لاهم خالقوكم ولا ناصروكم ولا شفعاؤكم ثم قال تعالى أفلا تتذكرون ما علمتموه من أنه خالق السموات والارض وخالق هذه الاجسام العظام لا يقدر عليه مثل هذه الاصنام حتى تنصركم والملك العظيم لا يكون عنده لهذه الاشياء الحقيرة احترام وعظمة حتى تكون لها شفاعة ﴿ ثم قال تعالى ﴿ يدبر الامر من السماء الى الارض ﴾ لما بين الله تعالى الخلق بين الامر كما قال تعالى ألا له الخلق والامر والعظمة تتبين بهما فان من علك عالما كثيرين عظماء تكون له عظمة ثم اذا كان أمره نافذا فيهم يزداد في أعين الخلق وان لم يكن له نفاذ أمر ينقص من عظمته ﴿ وقوله تعالى ﴿ ثم يعرج اليه ﴾ معناه والله أعلم أن أمره ينزل من السماء على عباده وتعرج اليه أعمالهم الصالحة الصادرة على موافقة ذلك الامر فان العمل اثر الامر ﴿ وقوله تعالى ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ فيه وجوه (أحدها) أن نزول الامر وعروج العمل في مسافة ألف سنة مما تعدون وهو في يوم فان بين السماء والارض مسيرة خمسمائة سنة فينزل في مسيرة خمسمائة سنة ويعرج في مسيرة خمسمائة سنة فهو مقدار ألف سنة. (ثانيها) هو أن ذلك اشارة الى امتداد نفاذ الامر وذلك لان من نفذ أمره غاية النفاذ في يوم أو يومين وانقطع لا يكون مثل من ينفذ أمره في سنين متطاولة فقوله تعالى في يوم كان مقداره ألف سنة يعني يدبر الامر في زمان يوم منه ألف سنة فكم يكون شهر منه وكم تكون سنة منه وكم يكون دهر منه وعلى هذا الوجه لا فرق بين هذا وبين قوله مقداره خمسين ألف سنة لأن تلك اذا كانت اشارة الى دوام نفاذ الامر فسواء يعبر بالالف أو بالخمسين ألفا لا يتفاوت الا أن المبالغة تكون في الخمسين أكثر وسنبين فائدتها في موضعها ان شاء الله تعالى (وفي هذه لطيفة) وهو أن الله ذكر في الآية المتقدمة عالم الاجسام والخلق وأشار الى عظمة الملك وذكر في هذه الآية عالم الارواح والامر بقوله يدبر الامر والروح من عالم الامر كما قال تعالى ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وأشار الى دوامه بلفظ يوم الزمان والمراد دوام البقاء كما يقال في العرف طال زمان فلان والزمان لا يطول وانما الواقع في الزمان يمتد فيوجد في أزمنة كثيرة فيطول ذلك فيأخذ أزمنة كثيرة فأشار هناك الى عظمة الملك بالمكان وأشار الى دوامه ههنا بالزمان فالمكان من خلقه وملكه والزمان بحكمه وأمره (واعلم) أن ظاهر قوله يدبر الامر في يوم يقتضي أن يكون أمره في يوم واليوم له ابتداء وانتهاء فيكون أمره في زمان حادث فيكون حادثا وبعض من يقول بأن الله على العرش استوى يقول بأن أمره قديم حتى الحروف وكانه كان فكيف فهم من كلامه على كونه في مكان ولم يفهم من كلمة في كون أمره في زمان ثم بين أن هذا الملك العظيم النافذ الامر غير غافل فان الملك اذا كان آمرا ناهيا يطاع في أمره ونهيه ولكن يكون غافلا لا يكون مهيبا عظيما كما يكون مع ذلك خبيرا يقظا لا تخفى عليه أمور المماليك والمماليك فقال ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة ﴾ ولما ذكر من قبل عالم الاشباح بقوله خلق السموات وعالم الارواح بقوله يدبر الامر من السماء الى الارض قال عالم الغيب يعلم ما في الارواح والشهادة يعلم ما في الاجسام أو

أي هذا المتلو ذكرها وقرئ ذكر على صيغة الامر والتعرض لوصف الربوبية المنبئة عن التبليغ الى الكمال مع الاضافة الى ضميره عليه السلام للايذان بأن تنزيل السورة عليه عليه الصلاة والسلام تكميل له عليه السلام وقوله تعالى (عبده) مفعول لرحمة ربك على أنها مفعول لما أضيف اليها وقيل للذكر على أنه مصدر أضيف الى فاعله على الاتساع ومعنى ذكر الرحمة بلوغها واصابتها كما يقال ذكرني معروف فلان أي بلغني وقوله عز وعلا (زكريا) بدل منه أو عطف بيان له (اذ نادى ربه نداء خفيا) ظرف لرحمة ربك وقيل لذكر على أنه مضاف الى فاعله اتساعا لا على الوجه الاول لفساد المعنى وقيل هو بدل اشتمال من زكريا كما في قوله واذكر في الكتاب مريم اذ انتبذت ولقد راعى عليه الصلاة والسلام حسن الادب في اخفاء دعائه فانه مع كونه بالنسبة اليه عز وجل كالجهر أدخل في الاخلاص وأبعد من الرياء وأقرب الى الخلاص عن لائمة الناس على طلب الولد لتوقفه على مباد لا يليق به تعاطيها في أوان الكبر والشيخوخة وعن غائلة مواليه الذين كان يخافهم وقيل كان ذلك منه عليه السلام لضعف الهرم قالوا كان سنه حينئذ ستين وقيل خمسا وستين وقيل سبعين وقيل خمسا وسبعين وقيل ثمانين وقيل أكثر منها كما مر في تفسير سورة آل عمران (قال) جملة مفسرة لنادى لا محل لها من الاعراب (رب اني وهن العظم مني) اسناد الوهن الى العظم لما أنه عماد البدن ودعام الجسد فاذا أصابه الضعف والرخاوة أصاب كله أو لانه أشد أجزائه صلابة وقواما وأقلها تأثرا من العلل فاذا وهن كان ما وراءه أوهن وافراده للقصد الى الجنس المنبئ عن شمول الوهن لكل فرد من أفراده ومني متعلق بمحذوف هو

حال من العظم وقرئ وهن بكسر الهاء وبضمها أيضا وتأكيد الجملة لابراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونها (واشتعل الرأس شيبا) شبه عليه الصلاة والسلام الشيب في البياض والانارة بشواظ النار وانتشاره في الشعر وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعالها ثم أخرجه مخرج الاستعارة ثم أسند الاشتعال ٥٩٤ الى محل الشعر ومنبته وأخرجه مخرج التمييز وأطلق الرأس اكتفاء بما قيد به العظم وفيه من فنون البلاغة وكمال الجزالة ما لا يخفى حيث كان الاصل اشتعل شيب رأسي فأسند الاشتعال الى الرأس كما ذكر لافادة شموله لكلها فان وزانه بالنسبة الى الاصل وزان اشتعل بيته نارا بالنسبة الى اشتعل النار في بيته ولزيادة تقريره بالاجمال أولا والتفصيل ثانيا ولمزيد تفخيمه بالتنكير وقرئ بادغام السين في الشين (ولم أكن بدعائك رب شقيا) أي ولم أكن بدعائي اياك خائبا في وقت من أوقات هذا العمر الطويل بل كلما دعوتك استجبت لي والجملة معطوفة على ما قبلها أو حال من ضمير المتكلم اذ المعنى واشتعل رأسي شيبا وهذا توسل منه عليه الصلاة والسلام بما سلف منه من الاستجابة عند كل دعوة اثر تمهيد ما يستدعي الرحمة ويستجلب الرأفة من كبر السن وضعف الحال فانه تعالى بعدما عوده بالاجابة دهرا طويلا لا يكاد يخيبه أبدا لا سيما عند اضطراره وشدة افتقاره والتعرض في الموضعين لوصف الربوبية المنبئة عن اضافة ما فيه صلاح المربوب مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام لا سيما توسيطه بين كان وخبرها لتحريك سلسلة الاجابة بالمبالغة في التضرع ولذلك قيل اذا أراد العبد أن يستجاب له دعاؤه فليدع الله تعالى بما يناسبه من أسمائه وصفاته (واني خفت الموالي) عطف على قوله تعالى اني وهن العظم مني

نقول قال عالم الغيب اشارة الى ما لم يكن بعد والشهادة اشارة الى ما وجد وكان وقدم العلم بالغيب لانه أقوى وأشد انباء عن كمال العلم ۞ ثم قال تعالى ﴿العزيز الرحيم﴾ لما بين أنه عالم ذكر أنه عزيز قادر على الانتقام من الكفرة رحيم واسع الرحمة على البررة ۞ ثم قال تعالى ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين﴾ لما بين الدليل الدال على الوحدانية من الآفاق بقوله خلق السموات والارض وما بينهما وأتمه بتوابعه وهي كملاته ذكر الدليل الدال عليها من الانفس بقوله الذي أحسن كل شيء يعني أحسن كل شيء مما ذكره وبين أن الذي بين السموات والارض خلقه وهو كذلك لانك اذا نظرت الى الاشياء رأيتها على ما ينبغي صلابة الارض للنبات والثبات وسلاسة الهواء للاستنشاق وقبول الانشقاق لسهولة الاستطراق وسيلان الماء ليقدر عليه في كل موضع وحركة النار الى فوق لانها لو كانت مثل الماء تتحرك يمنة ويسرة لاحترق العالم فخلقت طالبة لجهة فوق حيث لا شيء هناك يقبل الاحتراق وقوله وبدأ خلق الانسان من طين قيل المراد آدم عليه السلام فانه خلق من طين ويمكن أن يقال بأن الطين ماء وتراب مجتمعان والآدمي أصله مني والمني أصله غذاء والاغذية اما حيوانية واما نباتية والحيوانية بالآخرة ترجع الى النباتية والنبات وجوده بالماء والتراب الذي هو طين ۞ وقوله تعالى ﴿ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾ على التفسير الاول ظاهر لان آدم كان من طين ونسله من سلالة من ماء مهين هو النطفة وعلى التفسير الثاني هو أن أصله من الطين ثم يوجد من ذلك الاصل سلالة هي من ماء مهين فان قال قائل التفسير الثاني غير صحيح لان قوله بدأ خلق الانسان ثم جعل نسله دليل على أن جعل النسل بعد خلق الانسان من طين فنقول لا بل التفسير الثاني أقرب الى الترتيب اللفظي فانه تعالى بدأ بذكر الامر من الابتداء في خلق الانسان فقال بدأه من طين ثم جعله سلالة ثم سواه ونفخ فيه من روحه وعلى ما ذكرتم يكون قوله ﴿ثم سواه ونفخ فيه من روحه﴾ عائدا الى آدم أيضا لان كلمة ثم للتراخي فتكون التسوية بعد جعل النسل من سلالة وذلك بعد خلق آدم واعلم أن دلائل الآفاق أدل على كمال القدرة كما قال تعالى لخلق السموات والارض أكبر ودلائل الانفس أدل على نفاذ الارادة فان التغيرات فيها كثيرة واليها الاشارة بقوله ثم جعل نسله ثم سواه أي كان طينا فجعله منيا ثم جعله بشرا سويا وقوله تعالى ونفخ فيه من روحه اضافة الروح الى نفسه كاضافة البيت اليه للتشريف واعلم أن النصارى يفترون على الله الكذب ويقولون بأن عيسى كان روح الله فهو ابن ولا يعلمون أن كل أحد روحه روح الله بقوله ونفخ فيه من روحه أي الروح التي هي ملكه كما يقول القائل داري وعبدي ولم يقل أعطاه من جسمه لان الشرف بالروح فأضاف الروح دون الجسم على ما يترتب على نفخ الروح من السمع والبصر والعلم فقال تعالى ﴿وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون﴾ وفيه مسائل (الاولى) قال وجعل لكم خاطبا ولم يخاطب من قبل وذلك لان الخطاب يكون مع الحي فلما قال ونفخ فيه من روحه خاطبه من بعده وقال جعل لكم فان قيل الخطاب واقع قبل ذلك كما في قوله تعالى ومن آياته أن خلقكم من تراب فنقول هنالك لم يذكر الامور المرتبة وانما أشار الى تمام الخلق وههنا ذكر الامور المرتبة وهي كون الانسان طينا ثم ماء مهينا ثم خلقا مسوى بأنواع القوى مقوى فخاطب في بعض المراتب دون البعض (المسئلة الثانية) الترتيب في السمع والابصار والافئدة على مقتضى الحكمة وذلك لان الانسان يسمع أولا من الابوين أو الناس أمورا فيفهمها ثم يحصل له بسبب ذلك بصيرة فيبصر الامور ويجربها ثم يحصل له بسبب ذلك ادراك تام وذهن كامل فيستخرج الاشياء من قلبه ومثاله شخص يسمع من أستاذ شيأ ثم يصير له أهلية مطالعة الكتب وفهم معانيها ثم يصير له أهلية التصنيف

فيكتب

مترتب مضمونه على مضمونه فان ضعف القوى وكبر السن من مبادي خوفه عليه الصلاة والسلام من يلي أمره بعد موته ومواليه بنو عمه وكانوا أشرار بني اسرائيل فخاف أن لا يحسنوا خلافته في أمته و يبدلوا عليهم دينهم وقوله (من ورائي) أي بعد موتي متعلق بمحذوف ينساق اليه الذهن أي فعل الموالي من بعدي أو جور الموالي وقد قرئ كذلك أو بما في الموالي من معنى الولاية أي خفت

فيكتب من قلبه كتابا فكذلك الانسان يسمع ثم يطالع صحائف الموجودات ثم يعلم الامور الخفية ﴿المسئلة الثالثة﴾ ذكر في السمع المصدر وفي البصر والفؤاد الاسم ولهذا جمع الابصار والافئدة ولم يجمع السمع لان المصدر لا يجمع وذلك لحكمة وهو أن السمع قوة واحدة ولها فعل واحد فان الانسان لا يضبط في زمان واحد كلامين والاذن محله ولا اختيار لها فيه فان الصوت من أي جانب كان يصل اليه ولا قدرة لها على تخصيص القوة بادراك البعض دون البعض وأما الابصار فمحله العين ولها فيه شبه اختيار فانها تتحرك الى جانب مرئي دون آخر وكذلك الفؤاد محل الادراك وله نوع اختيار يلتفت الى ما يريد دون غيره واذا كان كذلك فلم يكن للمحل في السمع تأثير والقوة مستبدة فذكر القوة في الاذن وفي العين والفؤاد للمحل نوع اختيار فذكر المحل لان الفعل يسند الى المختار ألا ترى أنك تقول سمع زيد ورأى عمرو ولا تقول سمع أذن زيد ولا رأى عين عمرو الا نادرا لما بينا ان المختار هو الاصل وغيره آلته فالسمع أصل دون محله لعدم الاختيار له والعين كالاصل وقوة الابصار آلتها والفؤاد كذلك وقوة الفهم آلته فذكر في السمع المصدر الذي هو القوة وفي الابصار والافئدة الاسم الذي هو محل القوة ولان السمع له قوة واحدة ولها فعل واحد ولهذا لا يسمع الانسان في زمان واحد كلامين على وجه يضبطهما ويدرك في زمان واحد صورتين وأكثر ويستبينهما ﴿المسئلة الرابعة﴾ لم قدم السمع ههنا والقلب في قوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم فنقول ذلك يحقق ما ذكرناه وذلك لان عند الاعطاء ذكر الادنى وارتقى الى الاعلى فقال أعطاكم السمع ثم أعطاكم ما هو أشرف منه وهو القلب وعند السلب قال ليس لهم قلب يدركون به ولا ما هو دونه وهو السمع الذي يسمعون به من له قلب يفهم الحقائق ويستخرجها وقد ذكرناه هنالك ما هو السبب في تأخير الابصار مع أنها في الوسط فيما ذكرناه من الترتيب وهو أنا قلب والسمع سلب قوتهما بالطبع فجمع بينهما وسلب قوة البصر بجعل الغشاوة عليه فذكره متأخرة ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿وقالوا أئذا ضللنا في الارض﴾ لما قال قليلا ما تشكرون بين عدم شكرهم باتيانهم بضده وهو الكفر وانكار قدرته على احياء الموتى وقد ذكرنا أن الله تعالى في كلامه القديم كلما ذكر أصلين من الاصول الثلاث لم يترك الاصل الثالث وههنا كذلك لما ذكر الرسالة بقوله تنزيل الكتاب الى قوله لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك وذكر الوحدانية بقوله الله الذي خلق الى قوله وجعل لكم السمع والابصار ذكر الاصل الثالث وهو الحشر بقوله تعالى وقالوا أئذا ضللنا في الارض وفيه مسائل ﴿المسئلة الاولى﴾ الواو للعطف على ما سبق منهم فانهم قالوا محمد ليس برسول والله ليس بواحد وقالوا الحشر ليس بممكن ﴿المسئلة الثانية﴾ ان الله تعالى قال في تكذيبهم الرسول في الرسالة أم يقولون بلفظ المستقبل وقال في تكذيبهم اياه في الحشر وقالوا بلفظ الماضي وذلك لان تكذيبهم اياه في رسالته لم يكن قبل وجوده وانما كان ذلك حالة وجوده فقال يقولون يعني هم فيه وأما انكارهم الحشر كان سابقا صادرا منهم ومن آبائهم فقال وقالوا ﴿المسئلة الثالثة﴾ انه تعالى صرح بذكر قولهم في الرسالة حيث قال أم يقولون وفي الحشر حيث قال وقالوا أئذا ولم يصرح بذكر قولهم في الوحدانية وذلك لانهم كانوا مصرين في جميع الاحوال على انكار الحشر والرسول وأما الوحدانية فكانوا يعترفون بها في المعنى ألا ترى أن الله تعالى قال ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله فلم يقل قالوا ان الله ليس بواحد وان كانوا قالوه في الظاهر ﴿المسئلة الرابعة﴾ لو قال قائل لما ذكر الرسالة ذكر من قبل دليلها وهو التنزيل الذي لا ريب فيه ولما ذكر الوحدانية ذكر دليلها وهو خلق السموات والارض وخلق الانسان من طين ولما ذكر انكارهم الحشر لم يذكر الدليل نقول في الجواب ذكر دليله أيضا وذلك لان خلق

الذين يلون الامر من ورائي لا يحسنون لفساد المعنى وقرئ وراي بالقصر وفتح الياء وقرئ خفت الموالي من ورائي أي قلوا وعجزوا عن القيام بأمور الدين بعدي أو خفت الموالي القادرون على اقامة مراسم الملة ومصالح الامة من خف القوم أي ارتحلوا مسرعين أي درجوا قدامي ولم يبق منهم من به تقو واعتضاد فالظرف حينئذ متعلق بخفت (وكانت امرأتي عاقرا) أي لا تلد من حين شبابها (فهب لي من لدنك) كلا الجارين متعلق بهب لاختلاف معنييهما فاللام صلة له ومن لابتداء الغاية مجازا وتقديم الاول لكون مدلوله أهم عنده ويجوز تعلق الثاني بمحذوف وقع حالا من المفعول ولدن في الاصل ظرف بمعنى أول غاية زمان أو مكان أو غيرهما من الذوات وقد مر تفصيله في أوائل سورة آل عمران أي أعطني من محض فضلك الواسع وقدرتك الباهرة بطريق الاختراع لا بواسطة الاسباب العادية (وليا) أي ولدا من صلبي وتأخيره عن الجارين لاظهار كمال الاعتناء بكون الهبة له على ذلك الوجه البديع على ما فيه من التشويق الى المؤخر فان ما حقه التقديم اذا أخر تبقى النفس مستشرفة له فعند وروده لها يتمكن عندها فضل تمكن ولان فيه نوع طول بما بعده من الوصف فتأخيرهما عن الكل أو توسيطهما بين الموصوف والصفة مما لا يليق بجزالة النظم الكريم والفاء لترتيب ما بعدها

على ماقبلها فان ماذكره عليه الصلاة والسلام من كبر السن وضعف القوى وعقر المرأة موجب لانقطاع رجائه عليه الصلاة والسلام عن حصول الولد بتوسط الاسباب العادية واستيهابه على الوجه الخارق للعادة ولا يقدح في ذلك أن يكون هناك داع آخر الى الاقبال على الدعاء المذكور من مشاهدته عليه الصلاة والسلام للخوارق الظاهرة في حق مريم كما يعرب عنه قوله تعالى هنالك دعا زكريا ربه الآية وعدم ذكره ههنا التعويل على ذكره هنالك كما أن عدم ذكر مقدمة الدعاء هنالك للاكتفاء بذكره ههنا فان الاكتفاء بما ذكر في موطن عما ترك في موطن آخر من النكت التنزيلية وقوله تعالى (يرثني) صفة لوليا وقرئ هو وما عطف عليه بالجزم جوابا للدعاء أي يرثني من حيث العلم والدين والنبوة فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام لا يورثون المال قال صلى الله عليه وسلم نحن معاشر الانبياء لا نورث ما تركنا صدقة وقيل يرثني الحبورة وكان عليه الصلاة والسلام حبرا (ويرث من آل يعقوب) يقال ورثه وورث منه لغتان وآل الرجل خاصته الذين يؤول اليه أمرهم للقرابة أو الصحبة أو الموافقة في الدين وكانت زوجة زكريا أخت أم مريم أي ويرث منهم الملك قيل هو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام وقال الكلبي ومقاتل هو يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان من نسل سليمان عليه السلام وكان آل يعقوب أخوال يحيى بن زكريا قال الكلبي كان بنو ماثان رؤس بني اسرائيل وملوكهم وكان زكريا رئيس الاحبار يومئذ فأراد أن يرثه ولده حبورته ويرث من بني ماثان ملكهم وقرئ ويرث وارث آل يعقوب على انه حال من المستكن في يرث وقرئ أو يرث آل يعقوب بالتصغير ففيه ايماء الى وراثته عليه الصلاة والسلام لما

الانسان ابتداء دليل على قدرته على اعادته ولهذا استدل الله على امكان الحشر بالخلق الاول كما قال ثم يعيده وهو أهون عليه وقوله قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وكذلك خلق السموات كما قال تعالى أوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى ۞ وقوله تعالى ﴿أئنا لفي خلق جديد﴾ أي أئنا كائنون في خلق جديد أو واقعون فيه ﴿بل هم بلقاء ربهم كافرون﴾ اضراب عن الاول يعني ليس انكارهم لمجرد الخلق ثانيا بل يكفرون بجميع أحوال الآخرة حتى لو صدقوا بالخلق الثاني لما اعترفوا بالعذاب والثواب أو نقول معناه لم ينكروا البعث لنفسه بل لكفرهم فانهم أنكروه فأنكروا المفضي اليه ۞ ثم بين ما يكون لهم من الموت الى العذاب فقال تعالى ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾ يعني لابد من الموت ثم من الحياة بعده واليه الاشارة بقوله ﴿ثم الى ربكم ترجعون﴾ وقوله الذي وكل بكم اشارة الى أنه لا يغفل عنكم واذا جاء أجلكم لا يؤخركم اذ لا شغل له الا هذا وقوله يتوفاكم ملك الموت ينبئ عن بقاء الارواح فان التوفي الاستيفاء والقبض هو الاخذ والاعدام المحض ليس بأخذ ثم ان الروح الزكي الطاهر يبقى عند الملائكة مثل الشخص بين أهله المناسبين له والخبيث الفاجر يبقى عندهم كاسير بين قوم لا يعرفهم ولا يعرف لسانهم والاول ينمو ويزيد و يزداد صفاؤه وقوته والآخر يذبل و يضعف و يزداد شقاؤه وكدورته والحكماء يقولون ان الارواح الطاهرة تتعلق بجسم سماوي خير من بدنها وتكمل به والارواح الفاجرة لا كمال لها بعد التعلق الثاني فان أرادوا ما ذكرنا فقد وافقونا والا فتغير النظر في ذلك بحسب اراداتهم فقد يكون قولهم حقا وقد يكون غير حق فان قيل هم أنكروا الاحياء والله ذكر الموت وبينهما مباينة نقول فيه وجهان (أحدهما) أن ذلك دليل الاحياء ودفع استبعاد ذلك فانهم قالوا ما عدم بالكلية كيف يكون الموجود عين ذلك فقال الملك يقبض الروح والاجزاء تتفرق فجمع الاجزاء لا بعد فيه وأمر الملك برد ما قبضه لا صعوبة فيه أيضا فقوله قل يتوفاكم ملك الموت أي الارواح معلومة فترد الى أجسادها ۞ ثم قال تعالى ﴿ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون﴾ لما ذكر أنهم يرجعون الى ربهم بين ما يكون عند الرجوع على سبيل الاجمال بقوله ولو ترى اذ المجرمون ناكسوا رؤسهم يعني لو ترى حالهم وتشاهد استخجالهم لترى عجبا وقوله ترى يحتمل أن يكون خطابا مع الرسول صلى الله عليه وسلم تشفيا لصدره فانهم كانوا يؤذونه بالتكذيب ويحتمل أن يكون عاما مع كل أحد كما يقول القائل ان فلانا كريم ان خدمته ولو لحظة يحسن اليك طول عمرك ولا يريد به خاصا وقوله عند ربهم لبيان شدة الخجالة لان الرب اذا أساء اليه المربوب ثم وقف بين يديه يكون في غاية الخجالة ۞ ثم قال تعالى ربنا أبصرنا وسمعنا يعني يقولون أو قائلين ربنا أبصرنا وحذف يقولون اشارة الى غاية خجالتهم لان الخجل العظيم الخجالة لا يتكلم وقوله ربنا أبصرنا وسمعنا أي أبصرنا الحشر وسمعنا قول الرسول فارجعنا الى الدنيا نعمل صالحا وقولهم انا موقنون معناه انا في الحال آمنا ولكن النافع الايمان والعمل الصالح ولكن العمل الصالح لا يكون الا عند التكليف به وهو في الدنيا فارجعنا للعمل وهذا باطل منهم فان الايمان لا يقبل في الآخرة كالعمل الصالح أو نقول المراد منه انهم ينكرون الشرك كما قالوا وما كنا مشركين فقالوا ان هذا الذي جرى علينا ما جرى الا بسبب ترك العمل الصالح وأما الايمان فانا موقنون وما أشركنا ۞ ثم قال تعالى ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ جوابا عن قولهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا وبيانه هو أنه تعالى قال اني لو أرجعتكم الى الايمان لهديتكم في الدنيا ولما لم أهدكم تبين اني ما أردت وما شئت ايمانكم فلا أردكم وقوله ولو شئنا لآتينا صريح في ان مذهبنا صحيح حيث نقول ان الله ما أراد

الايمان

يرثه في حالة صغره وقرئ وارث من آل يعقوب على أنه فاعل يرثني على طريقة التجريد أي يرثني به وارث وقيل من للتبعيض اذ لم يكن كل آل يعقوب عليه السلام أنبياء ولا علماء (واجعله رب رضيا) مرضيا عندك قولا وفعلا وتوسيط رب بين مفعولي اجعل للمبالغة في الاعتناء بشأن ما يستدعيه (يا زكريا) على ارادة القول أي قال تعالى يا زكريا ٥٩٧ (انا نبشرك بغلام اسمه يحيى) لكن لا بأن يخاطبه عليه الصلاة والسلام بذلك بالذات بل بواسطة الملك على أن يحكي له عليه الصلاة والسلام هذه العبارة عنه عز وجل على نهج قوله تعالى قل يا عبادي الذين أسرفوا الآية وقد مر تحقيقه في سورة آل عمران وهذا جواب لندائه عليه الصلاة والسلام ووعد باجابة دعائه لكن لا كلا كما هو المتبادر من قوله تعالى فاستجبنا له ووهبنا له يحيى الخ بل بعضا حسبما تقتضيه المشيئة الالهية المبنية على الحكم البالغة فان الانبياء عليهم الصلاة والسلام وان كانوا مستجابي الدعوة لكنهم ليسوا كذلك في جميع الدعوات ألا ترى الى دعوة ابراهيم عليه الصلاة والسلام في حق أبيه والى دعوة النبي عليه الصلاة والسلام حيث قال وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها وقد كان من قضائه عز وعلا أن يهبه يحيى نبيا مرضيا ولا يرثه فاستجيب دعاؤه في الاول دون الثاني حيث قتل قبل موت أبيه عليهما الصلاة والسلام على ما هو المشهور وقيل بقي بعده برهة فلا اشكال حينئذ وفي تعيين اسمه عليه الصلاة والسلام تأكيد للوعد وتشريف له عليه الصلاة والسلام وفي تخصيصه به عليه السلام حسبما يعرب عنه قوله تعالى (لم نجعل له من قبل سميا) أي شريكا له في الاسم حيث لم يسم أحد قبله يحيى مزيد تشريف وتفخيم له عليه الصلاة والسلام فان التسمية بالاسامي البديعة الممتازة عن أسماء سائر الناس تنويه بالمسمى لا محالة

الايمان من الكافر وما شاء منها الا الكفر ﴿ ثم قال تعالى ﴿ ولكن حق القول مني لاملأن جهنم ﴾ أي وقع القول وهو قوله تعالى لابليس لاملأن جهنم منك وممن تبعك هذا من حيث النقل وله وجه في العقل وهو ان الله تعالى لم يفعل فعلا خاليا عن حكمة وهذا متفق عليه والخلاف في انه هل قصد الفعل للحكمة أو فعل الفعل ولزمته الحكمة لا بحيث تحمله تلك الحكمة على الفعل واذا علم أن فعله لا يخلو عن الحكمة فقال الحكماء حكمة أفعاله بأسرها لا تدرك على سبيل التفصيل لكن تدرك على سبيل الاجمال فكل ضرب يكون في العالم وفساد فحكمته تخرج من تقسيم عقلي وهو أن الفعل اما أن يكون خيرا محضا أو شرا محضا أو خيرا مشوبا بالشر وهذا القسم على ثلاثة أقسام قسم خيره غالب وقسم شره غالب وقسم خيره وشره متماثلان اذا علم هذا فخلق الله عالما فيه الخير المحض وهو عالم الملائكة وهو العالم العلوي وخلق عالما فيه خير وشر وهو عالمنا وهو العالم السفلي ولم يخلق عالما فيه شر محض ثم ان العالم السفلي الذي هو عالمنا وان كان الخير والشر موجودين فيه لكنه من القسم الاول الذي خيره غالب فانك اذا قابلت النافع بالضار والنافع بالضار تجد المنافع أكثر واذا قابلت الشرير بالخير تجد الخير أكثر وكيف لا والمؤمن يقابله الكافر ولكن المؤمن قد يمكن وجوده بحيث لا يكون فيه شر أصلا من أول عمره الى آخره كالانبياء عليهم الصلاة والسلام والاولياء والكافر لا يمكن وجوده بحيث لا يكون فيه خير أصلا لان غاية ما في الباب ان الكفر يحبط خيره ولا ينفعه انما يستحيل نظرا الى العادة أن يوجد كافر لا يسقي العطشان شربة ماء ولا يطعم الجائع لقمة خبز ولا يذكر به في عمره وكيف لا وهو في زمن صباه كان مخلوقا على الفطرة المقتضية للخيرات اذا ثبت هذا فنقول قالوا لولا الشر في هذا العالم لكانت مخلوقات الله تعالى منحصرة في الخير المحض ولا يكون قد خلق القسم الذي فيه الخير الغالب والشر القليل ثم ان ترك خلق هذا القسم ان كان لما فيه من الشر فترك الخير الكثير لاجل الشر القليل لا يناسب الحكمة ألا ترى أن التاجر اذا طلب منه درهم بدينار فلو امتنع وقال في هذا شر وهو زوال الدرهم عن ملكي فيقال له لكن في مقابلته خير كثير وهو حصول الدينار في ملكك وكذلك الانسان لو ترك الحركة اليسيرة لما فيها من المشقة مع علمه بأنه تحصل له راحة مستمرة ينسب الى مخالفة الحكمة فاذا نظر الى الحكمة كان وقوع الخير الكثير المشوب بالشر القليل من اللطف فخلق العالم الذي يقع فيه الشر والى هذا أشار بقوله اني جاعل في الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك فقال الله تعالى في جوابهم اني أعلم ما لا تعلمون أي أعلم أن هذا القسم يناسب الحكمة لان الخير فيه كثير ثم بين لهم خيره بالتعليم كما قال تعالى وعلم آدم الاسماء كلها يعني أيها الملائكة خلق الشر المحض والشر الغالب والشر المساوي لا يناسب الحكمة وأما الخير الكثير المشوب بالشر القليل مناسب فقوله تعالى أتجعل فيها من يفسد فيها اشارة الى الشر وأجابهم الله بما فيهم من الخير بقوله وعلم آدم الاسماء فان قال قائل فالله تعالى قادر على تخليص هذا القسم من الشر بحيث لا يوجد فيه شر فيقال له ما قاله الله تعالى ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها يعني لو شئنا لخلصنا الخير من الشر لكن حينئذ لا يكون الله تعالى خلق الخير الكثير المشوب بالشر القليل وهو قسم معقول فما كان يجوز تركه للشر القليل وهو لا يناسب الحكمة لان ترك الخير الكثير للشر القليل غير مناسب للحكمة وان كان لا كذلك فلا مانع من خلقه فخلقه لما فيه من الخير الكثير وهذا الكلام يعبر عنه من يقول برعاية المصالح ان الخير في القضاء والشر في القدر فالله قضى بالخير ووقع الشر في القدر بفعله المنزه عن القبح والجهل ﴿ وقوله ﴿من الجنة والناس﴾ لانه تعالى قال لابليس لاملأن جهنم منك وممن تبعك وهذا اشارة الى أن النار لمن في العالم السفلي والذين في العالم

العلوي مبرؤون عن دخول النار وهم الملائكة وهذا يقتضي أن لا يكون ابليس من الملائكة وهو الصحيح ۞ وقوله ﴿أجمعين﴾ يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تأكيدا وهو الظاهر (والثاني) أن يكون حالا أي مجموعين فان قيل كيف جعل جميع الانس والجن مما يملأ بهم النار نقول هذا لبيان الجنس أي جهنم تملأ من الجن والانس لا غير أمن الملائكة ولا يقتضي ذلك دخول الكل كما يقول القائل ملأت الكيس من الدراهم لا يلزم أن لا يبقى درهم خارج الكيس فان قيل فهذا يقتضي أن تكون جهنم ضيقة تملأ ببعض الخلق نقول هو كذلك وانما الواسع الجنة التي هي من الرحمة الواسعة والله أعلم ، ولما بين الله تعالى بقوله ولو شئنا لآتينا أنهم لا رجوع لهم قال لهم اذا علمتم انكم لا رجوع لكم ﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا انا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون﴾ وفي تفسير الآية مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ قوله فذوقوا بما نسيتم لقاء يحتمل أن يكون منصوبا بذوقوا أي ذوقوا لقاء يومكم بما نسيتم وعلى هذا يحتمل أن يكون النسي هو الميثاق الذي أخذه منهم بقوله ألست بربكم قالوا بلى أو بما في الفطرة من الوحدانية فنسي بالاقبال على الدنيا والاشتغال بها ويحتمل أن يكون منصوبا بقوله نسيتم أي بما نسيتم لقاء هذا اليوم ذوقوا وعلى هذا لو قال قائل النسيان لا يكون الا في المعلوم أولا اذا جهل آخرا نقول لما ظهرت براهينه فكأنه ظهر وعلم ولما تركوه بعد الظهور ذكر بلفظ النسيان اشارة الى كونهم منكرين لامر ظاهر لكن ينكر أمرا كان قد علمه ﴿المسألة الثانية﴾ قوله تعالى هذا يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون اشارة الى اليوم أي فذوقوا بما نسيتم لقاء هذا اليوم (وثانيها) أن يكون اشارة الى اللقاء اليوم أي فذوقوا بما نسيتم هذا اللقاء (وثالثها) أن يكون اشارة الى العذاب أي فذوقوا هذا العذاب بما نسيتم لقاء يومكم ثم قال انا نسيناكم أي تركناكم بالكلية غير ملتفت اليكم كما يفعله الناسي قطعا لرجائكم ثم ذكر ما يلزم من تركه اياهم كما ترك الناسي وهو خلود العذاب لان من لا يخلصه الله فلا خلاص له فقال وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ۞ ثم قال تعالى ﴿انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون﴾ اشارة الى أن الايمان بالآيات كالحاصل وانما يتبعه البعض فاذا ذكر بها خر ساجدا له يعني انقادت أعضاؤه له وسبح بحمده يعني وتحرك لسانه بتنزيهه عن الشرك وهم لا يستكبرون يعني وكان قلبه خاشعا لا يتكبر ومن لا يستكبر عن عبادته فهو المؤمن حقا ۞ ثم قال تعالى ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون﴾ يعني بالليل قليلا ما يهجعون وقوله يدعون ربهم أي يصلون فان الدعاء والصلاة من باب واحد في المعنى أو يطلبونه وهذا لا ينافي الاول لان الطالب قد يكون بالصلاة والحمل على الاول أولى لانه قال بعده ومما رزقناهم ينفقون وفي أكثر المواضع التي ذكر فيها الزكاة ذكر الصلاة قبلها كقوله تعالى ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون وقوله خوفا وطمعا يحتمل أن يكون مفعولا له ويحتمل أن يكون حالا أي خائفين طامعين كقولك جئتك زورا أي زائرين وكأن في الآية الاولى اشارة الى المرتبة العالية وهي العبادة لوجه الله تعالى مع الذهول عن الخوف والطمع بدليل قوله تعالى اذا ذكروا بها خروا فانه يدل على ان عند مجرد الذكر يوجد منهم السجود وان لم يكن خوف وطمع وفي الآية الثانية اشارة الى المرتبتين الاخيرتين وهي العبادة خوفا كمن يخدم الملك الجبار مخافة معاقبته أو يخدم الملك الجواد طمعا في بره ۞ ثم بين ما يكون لهم جزاء فعلهم فقال ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ يعني مما تقر أعينهم عنده ولا تلتفت الى غيره يقال ان هذا لا يدخل في عيني يعني عيني تطمح الى غيره فاذا لم يبق تطلع للعين الى شيء آخر لم يبق للعين مسرح الى غيره فتقر ضرورة بحكم الوعد وهذا فيه لطيفة

وقيل سماه به تيمنا في الفضل والكمال كما في قوله تعالى هل تعلم له سميا فان المتشاركين في الوصف بمنزلة المتشاركين في الاسم قالوا لم يكن له عليه الصلاة والسلام مثل في أنه لم يعص الله تعالى ولم يهم بمعصية قط وانه ولد من شيخ فان وعجوز عاقر وانه كان حصورا فيكون هذا اجمالا لما نزل بعده من قوله تعالى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين والاظهر انه اسم أعجمي وان كان عربيا فهو منقول عن الفعل كيعمر ويعيش قيل سمي به لانه حيي به رحم أمه أو حيي دين الله تعالى بدعوته (قال) استئناف مبني على السؤال كأنه قيل فماذا قال عليه الصلاة والسلام حينئذ فقيل قال (رب) ناداه تعالى بالذات مع وصول خطابه تعالى اليه بتوسط الملك للمبالغة في التضرع والمناجاة والجد في التبتل اليه تعالى والاحتراز عما عسى يوهم خطابه للملك من توهم أن علمه تعالى بما يصدر عنه متوقف على توسطه كما أن علم البشر بما يصدر عنه سبحانه متوقف على ذلك في عامة الاوقات (أنى يكون لي غلام) كلمة أنى بمعنى كيف أو من أين وكان اما تامة وأنى واللام متعلقتان بها وتقديم الجار على الفاعل لما مر مرارا من الاعتناء بما قدم والتشويق الى ما أخر أي كيف أو من أين يحدث لي غلام ويجوز أن تتعلق اللام بمحذوف وقع حالا من غلام اذ لو تأخر لكان صفة له أي أنى يحدث كائنا لي غلام أو ناقصة اسمها ظاهر وخبرها اما أنى ولي متعلق بمحذوف كما مر أو هو الخبر وأنى نصب على الظرفية وقوله تعالى (وكانت امرأتي عاقرا) حال من ضمير المتكلم بتقدير قد وكذا قوله تعالى (وقد بلغت من الكبر عتيا) حال منه مؤكدة للاستبعاد اثر تأكيد أي كانت امرأتي عاقرا لم تلد في شبابها وشبابي فكيف وهي الآن عجوز وقد بلغت أنا من أجل كبر السن جساوة وقحولا في المفاصل

والعظام أو بلغت من مدارج الكبر ومراتبه ما يسمى عتيا من عتا يعتو وأصله عتوو كقعود فاستثقل توالي الضمتين والواوين فكسرت التاء فانقلبت الاولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ثم قلبت الثانية أيضا لاجتماع الواو والياء وسبق احداهما بالسكون وكسرت العين اتباعا لما بعدها وقرئ بضمها ولعل البداءة هنا بذكر حال امرأته على عكس ما في سورة آل عمران لما أنه قد ذكر

وهي ان من العبد شيأ وهو الايمان والعمل الصالح ومن الله أشياء سابقة من الخلق والرزق وغيرهما وأشياء لاحقة من الثواب والاكرام فلله تعالى أن يقول جزاء الاحسان احسان وأنا احسنت أولا والعبد أحسن في مقابلته فالثواب تفضل ومنحة من غير عوض وله أن يقول جعلت الاول تفضلا لا أطلب عليه جزاء فاذا أتى العبد بالعمل الصالح فاسس عليه شئ لانى ابرأته مما عليه من النعم فكان هو آتيا بالحسنة ابتداء وجزاء الاحسان احسان فاجعل الثواب جزاء كلاهما جائز لكن غاية الكرم أن يجعل الاول هبة ويجعل الثاني مقابلا وعوضا لان العبد ضعيف لو قيل له بان ذلك جزاء فلا تستحق جزاء وانما الله يتفضل يثق ولكن لا يطمئن قلبه واذا قيل له الاول غير محسوب عليك والذي أتيت به أنت به بادولك عليه استحقاق ثواب يثق ويطمئن ثم اذا عرف انه من فضل الله فالواجب من جانب العبد أن يقول فعلى جزاء نعم الله السابقة ولا استحق به جزاء فاذا أثابه الله تعالى يقول الذي أتيت به كان جزاء وهذا ابتداء احسان من الله تعالى يستحق به حمدا وشكرا فاذا أتى بحسنة فيقول الله اني أحسنت اليه جزاء فعله الاول وما فعلت أولا لا أطلب له جزاء فيجازيه ثانيا فيشكر العبد ثانيا فيجازيه رابعا وعلى هذا لا تنقطع المعاملة بين العبد والرب ومثاله في المشاهد اثنان تحابا فاهدى أحدهما الى الآخر هدية ونسيها أو المهدى اليه يتذكرها فاهدى الى المهدى عوضا فرآه المهدى الاول ابتداء لنسيانه ما أهداه اليه فجازاه بهدية فقال المحب الآخر ما أهديته كان جزاء لهديته السابقة وهذه هدية ما عوضتها فيعوض ويعوض عنه المحب الآخر ويتسلسل الامر بينهما ولا ينقطع التهادي والتحابب بخلاف من أرسل الى واحد هدية وهو يتذكرها فاذا بعث اليه المهدى اليه عوضا يقول المهدى هذا عوض ما أهديت اليه فيسكت ويترك الاهداء فينقطع واعلم أن التكاليف يوم القيامة وان ارتفعت لكن الذكر والشكر والعبادة لا ترتفع بل العبد يعبد ربه في الجنة أكثر مما يعبده في الدنيا وكيف لا وقد صار حاله مثل حال الملائكة الذين قال في حقهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون غاية ما في الباب ان العبادة ليست عليهم بتكاليف بل هي بمقتضى الطبع ومن جملة الاسباب الموجبة لدوام نعيم الجنة هذا وكيف لا وخدمة الملوك لذة وشرف فلا تترك وان قرب العبد منهم بل تزداد لذتها ﴿ ثم قال تعالى ﴿ أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾ لما بين حال المجرم والمؤمن قال للعاقل هل يستوي الفريقان ثم بين انهما لا يستويان ثم بين عدم الاستواء على سبيل التفصيل فقال أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى اشارة الى ما ذكرنا أن الله أحسن ابتداء لا لعوض والى غرض فلما آمن العبد وعمل صالحا قبله منه كأنه ابتداء فجازاه بان أعطاه الجنة ثم قال تعالى نزلا اشارة الى أن بعدها أشياء لان النزل ما يعطى الملك النازل وقت نزوله قبل أن يجلس له راتبا أو يكتب له جزاء وقوله بما كانوا يعملون يحقق ما ذكرنا وقوله تعالى وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها اشارة الى حال الكافر وقد ذكرنا مرارا ان العمل الصالح لهم مع الايمان أثر أما الكفر اذا جاء فلا التفات الى الاعمال فلم يقل وأما الذين فسقوا وعملوا السيآت لان المراد من فسقوا كفروا ولو جعل العقاب في مقابلة الكفر والعمل لظن أن مجرد الكفر لا عقاب عليه وقوله في حق المؤمنين لهم بلام التمليك زيادة اكرام لان من قال لغيره اسكن هذه الدار يكون ذلك محمولا على العارية وله استرداده واذا قال هذه الدار لك يكون ذلك محمولا على نسبة المالكية اليه وليس له استرداده بحكم قوله وكذلك في قوله لهم جنات ألا ترى انه تعالى لما أسكن آدم الجنة وكان في علمه انه يخرجه منها قال اسكن

حاله في تضاعيف دعائه وانما المذكور ههنا بلوغه أقصى مراتب الكبر تتمة لما ذكر قبل وأما هنالك فلم يسبق في الدعاء ذكر حاله فلذلك قدمه على ذكر حال امرأته لما أن المسارعة الى بيان قصور شأنه أنسب وانما قاله عليه الصلاة والسلام مع سبق دعائه بذلك وقوة يقينه بقدرة الله لا سيما بعد مشاهدته للشواهد المذكورة في سورة آل عمران استعظاما لقدرة الله تعالى وتعجيبا منها واعتدادا بنعمته تعالى عليه في ذلك باظهار انه من محض لطف الله عز وعلا وفضله مع كونه في نفسه من الامور المستحيلة عادة لا استبعادا له وقيل انما قاله ليجاب بما أجيب به فيزداد المؤمنون ايقانا ويرتدع المبطلون وقيل كان ذلك منه عليه الصلاة والسلام استفهاما عن كيفية حدوثه وقيل بل كان ذلك بطريق الاستبعاد حيث كان بين الدعاء والبشارة ستون سنة وكان قد نسي دعاءه وهو بعيد (قال) استئناف

كامر مبني على سؤال نشأ مما سلف والكاف في قوله تعالى (كذلك قال ربك) مقحمة كما في مثلك لا يبخل محلها النصب على انه مصدر تشبيهي لقال الثاني وذلك اشارة الى مصدره الذي هو عبارة عن الوعد السابق لا الى قول آخر شبه هذا به وقد مر تحقيقه في تفسير قوله تعالى وكذلك جعلناكم امة وسطا وقوله تعالى (هو علي هين) جملة مقررة للوعد المذكور دالة على انجازه داخلة في حيز قال الاول كأنه قيل

قال الله عز وجل مثل ذلك القول البديع قلت أي مثل ذلك الوعد الخارق للعادة وعدت هو علي خاصة هين وإن كان في العادة مستحيلا
وقرئ وهو علي هين فالجملة حينئذ حال من ربك والياء عبارة عن ضميره كما ستعرفه أو اعتراض وعلى كل حال فهي مؤكدة ومقررة لما
قبلها ثم أخرج القول الثاني مخرج ٦٠٠ الالتفات جريا على سنن الكبرياء لتربية المهابة وإدخال الروعة كقول الخلفاء أمير
المؤمنين يرسم لك مكان أنا أرسم ثم أسند إلى اسم الرب المضاف إلى ضميره عليه السلام تشريفا له وإشعارا بعلة الحكم فإن تذكير جريان أحكام ربوبيته تعالى عليه عليه الصلاة والسلام من إيجاده من العدم وتصريفه في أطوار الخلق من حال إلى حال شيئا فشيئا إلى أن يبلغ كماله اللائق به مما يقلع أساس استبعاده عليه الصلاة والسلام لحصول الموعود ويورثه عليه الصلاة والسلام الاطمئنان بإنجازه لا محالة ثم التفت من ضمير الغائب العائد إلى الرب إلى ياء العظمة إيذانا بأن مدار كونه هينا عليه سبحانه هو القدرة الذاتية لا ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام خاصة وتمهيدا لما يعقبه وقيل ذلك إشارة إلى مبهم يفسره قوله تعالى هو علي هين على طريقة قوله تعالى وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ولا يخرج هذا الوجه على القراءة بالواو لأنها لا تدخل بين المفسر والمفسر وأما
الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف وذلك إشارة إلى ما تقدم من وعده تعالى أي قال عز وعلا الأمر كما لا
وعدت وهو واقع لا محالة وقوله تعالى قال ربك الخ استئناف مقرر لمضمونه والجملة المحكية على القراءة الثانية معطوفة على المحكية الأولى
أو حال من المستكن في الجار والمجرور وأياما كان فتوسيط قال بينهما مشعر بمزيد الاعتناء بكل منهما والكلام في إسناد القول إلى الرب

أنت وزوجك الجنة ولم يقل لكما الجنة وفي الآخرة لما لم يكن للمؤمنين خروج عنها قال لكم الجنة ولهم جنات
وقوله كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا إشارة إلى معنى حكمي وهو أن المؤلم إذا
تمكن والألم إذا امتد لم يبق به شعور تام ولهذا قال الأطباء إن حرارة حمى الدق بالنسبة إلى حرارة الحمى
البلغمية نسبة النار إلى الماء المسخن ثم إن المدقوق لا يحس من الحرارة بما يحس به من به الحمى البلغمية
لتمكن الدق وقرب العهد بظهور حرارة الحمى البلغمية وكذلك الإنسان إذا وضع يده في ماء بارد يتألم من البرد
فإذا صبر زمانا طويلا تتخدر يده ويبطل عنه ذلك الألم الشديد بعد فساد مزاجه إذا علمت هذا فقوله كلما أرادوا
أن يخرجوا منها أعيدوا فيها إشارة إلى أن الألم لا يسكن عنهم بل يرد عليهم في كل حال أمر مؤلم يجدد وقوله
ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون يقرر ما ذكرنا ومعناه أنهم في الدنيا كانوا يكذبون بعذاب النار فلما
ذاقوه كان أشد إيلاما لأن من لا يتوقع شيئا فيصيبه يكون أشد تأثيرا إنهم في الآخرة كما هم في الدنيا
يجزمون أن لا عذاب إلا وقد وصل إليهم ولا يتوقعون شيئا آخر من العذاب فيرد عليهم عذاب أشد من
الأول وكانوا يكذبون به بقولهم لا عذاب فوق ما نحن فيه فإذن معنى قوله تعالى ذوقوا عذاب النار الذي كنتم
به تكذبون ليس مقتصرا على تكذيبهم الذي كان في الدنيا بل كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها
وقيل لهم ذوقوا عذابا كذبتم به من قبل أما في الدنيا فبقولكم لا عذاب في الآخرة وأما في الآخرة فبقولكم
لا عذاب فوق ما نحن فيه ﴿ثم لما هددهم قال تعالى ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر
لعلهم يرجعون﴾ يعني قبل عذاب الآخرة نذيقهم عذاب الدنيا فإن عذاب الدنيا لا نسبة له إلى عذاب
الآخرة لأن عذاب الدنيا لا يكون شديدا ولا يكون مديدا فإن العذاب الشديد في الدنيا يهلك فيموت
المعذب ويستريح منه فلا يمتد وإن أراد المعذب أن يمد عذاب المعذب لا يمكنه تعذيب في غاية الشدة وأما
عذاب الآخرة فشديد ومديد وفي الآية مسئلتان (إحداهما) قوله تعالى ولنذيقنهم من العذاب الأدنى
العذاب الأدنى في مقابلته العذاب الأقصى والعذاب الأكبر في مقابلته العذاب الأصغر فما الحكمة في
مقابلة الأدنى بالأكبر فنقول حصل في عذاب الدنيا أمران (أحدهما) أنه قريب والآخر أنه قليل صغير
وحصل في عذاب الآخرة أيضا أمران أحدهما أنه بعيد والآخر أنه عظيم كثير لكن القرب في عذاب
الدنيا هو الذي يصلح للتخويف به فإن العذاب العاجل وإن كان قليلا قد يحترز منه بعض الناس أكثر مما
يحترز من العذاب الشديد إذا كان آجلا وكذا الثواب العاجل قد يرغب فيه بعض الناس ويستبعد الثواب
العظيم الآجل وأما في عذاب الآخرة فالذي يصلح للتخويف به هو العظيم والكبير لا البعد لما بينا فقال
في عذاب الدنيا العذاب الأدنى ليحترز العاقل عنه ولو قال لنذيقنهم من العذاب الأصغر ما كان يحترز عنه
لصغره وعدم فهم كونه عاجلا وقال في عذاب الآخرة الأكبر لذلك المعنى ولو قال دون العذاب الأبعد
الأقصى لما حصل التخويف به مثل ما يحصل بوصفه بالكبر وبالجملة فقد اختار الله تعالى في العذابين
الوصف الذي هو أصلح للتخويف من الوصفين الآخرين فيهما لحكمة بالغة (المسئلة الثانية) قوله تعالى
لعلهم يرجعون لعل للترجي والله تعالى محال ذلك عليه فما الحكمة فيه نقول فيه وجهان (أحدهما)
معناه لنذيقنهم إذاقة الراجين كقوله تعالى إنا نسيناكم يعني تركناكم كما يترك الناسي حيث لا يلتفت إليه
أصلا فكذلك ههنا نذيقهم على الوجه الذي يفعل بالراجي من التدريج (وثانيهما) معناه نذيقهم العذاب
إذاقة يقول القائل لعلهم يرجعون بسببه ونزيد وجها آخر من عندنا وهو أن كل فعل يتلوه أمر مطلوب من
ذلك الفعل يصح تعليل ذلك الفعل بذلك الأمر كما قال فلان اتجر ليربح ثم إن هذا التعليل إن كان في موضع

لا يحصل الجزم بحصول الامر من الفعل نظرا الى نفس الفعل وان حصل الجزم والعلم بناء على أمر من خارج فانه يصح أن يقال يفعل كذا رجاء كذا كما يقال يتجر رجاء أن يربح وان حصل للتاجر جزم بالربح لا يقدح ذلك في صحة قولنا يرجو لما أن الجزم غير حاصل نظرا الى التجارة وان كان الجزم حاصلا نظرا الى الفعل لا يصح أن يقال يرجو وان كان ذلك الجزم يحتمل خلافه كقول القائل فلان جز رقبته عدو رجاء أن يموت لا يصح لحصول الجزم بالموت عقيب الجز نظرا اليه وان أمكن أن لا يموت نظرا الى قدرة الله تعالى ويصحح قولنا قوله تعالى في حق ابراهيم والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي مع انه كان عالما بالمغفرة لكن لما لم يكن الجزم حاصلا من نفس الفعل أطلق عليه الطمع وكذلك قوله تعالى وارجوا اليوم الآخر مع أن الجزم به لازم اذا علم ما ذكرنا فنقول في كل صورة قال الله تعالى لعلهم فان نظرنا الى الفعل لا يلزم الجزم فان من التعذيب لا يلزم الرجوع لزوما ينافي قولنا يرجو وان كان عند الله حاصلا انما يكون نهاية ما في الباب ان الرجاء في أكثر الامر استعمل فيما لا يكون الامر معلوما فأوهم أن لا يجوز الاطلاق في حق الله تعالى وليس كذلك بل الترجي يجوز في حق الله تعالى ولا يلزم منه عدم العلم وانما يلزم عدم الجزم بناء على ذلك الفعل وعلم الله ليس مستفادا من الفعل فيصح حقيقة الترجي في حقه على ما ذكرنا من المعنى ﴿ ثم قال تعالى ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها﴾ يعني لنذيقنهم ولا يرجعون فيكونون قد ذكروا بآيات الله من النعم أولا والنقم ثانيا ولم يؤمنوا فلا أظلم منهم أحد لان من يكفر بالله ظالم فان الله لذوي البصائر ظاهر لا يحتاج المستنير الباطن الى شاهد يشهد عليه بل هو شهيد على كل شيء كما قال تعالى أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد أي دلائل الله لا تحتاج بأنير الباطن الى دليل على الله ولهذا قال بعض العارفين رأيت الله قبل كل شيء فمن لم يكفه الله فسائر الموجودات سواء كان فيها نفع أو ضر كافية في معرفة الله كما قال تعالى سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم فان لم يكفهم ذلك فنسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة فالاول الذي لا يحتاج الى غير الله هو عدل والثاني الذي يحتاج الى دليل فهو متوسط والثالث الذي لم تكفه الآفاق ظالم والرابع الذي لم تنفعه النعم أظلم من ذلك الظالم وقد يكون أظلم منه آخر وهو الذي اذا أذيق العذاب لا يرجع عن ضلالته فان الاكثر كان من قبيل انهم اذا مسهم ضر دعوا ربهم منيبين اليه فهذا المعذب ولم يرجع فلا أظلم منه أصلا فقال ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ثم قال تعالى ﴿انا من المجرمين منتقمون﴾ يعني لما لم ينفعهم العذاب الادنى فانا منتقمون منهم بالعذاب الاكبر ثم قال تعالى ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ لما قرر الاصول الثلاثة على ما بيناه عاد الى الاصل الذي بدأ به وهو الرسالة المذكورة في قوله لتنذر قوما ما أتاهم من نذير وقال قل ما كنت بدعا من الرسل بل كان قبلك رسل مثلك واختار من بينهم موسى لقربه من النبي صلى الله عليه وسلم ووجود من كان على دينه الزاما لهم وانما لم يختر عيسى عليه السلام للذكر والاستدلال لان اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته وأما النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى عليه السلام فتمسك بالمجمع عليه ﴿ وقوله ﴿فلا تكن في مرية من لقائه﴾ قيل معناه فلا تكن في شك من لقائه موسى فانك تراه وتلقاه وقيل انه رآه ليلة المعراج وقيل معناه فلا تكن في شك من لقاء الكتاب فانك تلقاه كما لقي موسى الكتاب ويحتمل أن تكون الآية واردة للتقرير بل لتسلية النبي عليه الصلاة والسلام فانه لما أتى بكل آية وذكر بها وأعرض عنها قومه حزن عليهم فقيل له تذكر حال موسى ولا تحزن فانه لقي ما لقيت وأوذي كما أوذيت وعلى هذا فاختيار موسى عليه السلام لحكمة وهي ان أحدا من الانبياء لم يؤذه قومه الا الذين لم يؤمنوا به وأما الذين آمنوا به فلم يخالفوه غير قوم موسى فان من لم يؤمن به آذاه

ثم الالتفات الى التكلم كالذي مر آنفا وقيل ذلك اشارة الى ما قاله زكريا عليه الصلاة والسلام أي قال تعالى الامر كما قلت تصديقا له فيما حكاه من الحالة المباينة للولادة في نفسه وفي امرأته وقوله تعالى قال ربك الخ استئناف مسوق لازالة استبعاده بعد تقريره أي قال تعالى هو مع بعده في نفسه على هين والقراءة الثانية أدخل في افادة هذا المعنى على أن الواو للعطف وأما جعلها للحال فمخل بسداد المعنى لان ما ذكر له تقرير صعوبته حال سهولته عليه تعالى مع أن المقصود بيان سهولته عليه سبحانه مع صعوبته في نفسه وقوله تعالى (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيأ) جملة مستأنفة مقررة لما قبلها والمراد به ابتداء خلق البشر اذ هو الواقع اثر العدم المحض لا ما كان بعد ذلك بطريق التوالد المعتاد وانما لم ينسب ذلك الى آدم عليه الصلاة والسلام وهو المخلوق من العدم حقيقة بان يقال وقد خلقت أباك آدم من قبل ولم يك شيأ مع كفايته في ازالة الاستبعاد بقياس حال ما بشر به على حاله عليه الصلاة والسلام لتأكيد الاحتجاج وتوضيح منهاج القياس حيث نبه على أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من انشائه عليه الصلاة والسلام من العدم اذ لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه بل كانت انموذجا منطويا على فطرة سائر آحاد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان ابداعه عليه الصلاة والسلام على ذلك الوجه ابداعا لكل أحد من فروعه كذلك ولما كان خلقه عليه الصلاة والسلام على هذا النمط الساري الى جميع أفراد ذريته أبدع من أن يكون ذلك مقصورا على نفسه كما هو المفهوم من نسبة الخلق المذكور اليه وأدل على عظم قدرته تعالى وكمال علمه وحكمته وكان عدم زكريا حينئذ أظهر عنده وأجلى وكانت حاله

مثل فرعون وغيره ومن آمن به من بنى اسرائيل أيضا آذاه بالمخالفة وطلب أشياء منه مثل طلب رؤية الله جهرة ومثل قولهم اذهب أنت وربك فقاتلا ﴿ ثم بين له ان هدايته غير خالية عن المنفعة كما أنه لم تخل هداية موسى فقال ﴿ وجعلناه هدى لبنى اسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾ بحيث جعل الله كتاب موسى هدى وجعل منهم أئمة يهدون كذلك يجعل كتابك هدى ويجعل من أمتك صحابة يهدون كما قال عليه الصلاة والسلام أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ﴿ ثم بين ان ذلك يحصل بالصبر فقال ﴿ لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ فكذلك اصبروا وآمنوا بأن وعد الله حق ﴿ ثم قال تعالى ﴿ إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ هذا يصلح جوابا لسؤال وهو انه لما قال تعالى وجعلنا منهم أئمة يهدون كان لقائل أن يقول كيف كانوا يهدون وهم اختلفوا وصاروا فرقا وسبيل الحق واحد فقال فيهم هداة والله يفصل بين المبتدع من المتبع كما يبين المؤمن من الكافر يوم القيامة وفيه وجه آخر وهو ان الله تعالى بين انه يفصل بين المختلفين من أمة واحدة كما يفصل بين المختلفين من الامم فينبغى أن لا يأمن من آمن وان لم يجتهد فان المبتدع معذب كالكافر غاية ما فى الباب ان عذاب الكافر أشد وآلم وأمد وأدوم ﴿ ثم قال تعالى ﴿ أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون ﴾ قد ذكرنا ان قوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب تقرير لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم واعادة لبيان ما سبق فى قوله لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك ولما أعاد ذكر الرسالة أعاد ذكر التوحيد فقال تعالى أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم ﴿ وقوله تعالى ﴿ يمشون فى مساكنهم ﴾ زيادة بيان أى مساكن المهلكين دالة على حالهم وأنتم تمشون فيها وتبصرونها ﴿ وقوله تعالى ﴿ ان فى ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾ اعتبر فيه السمع لانهم ما كان لهم قوة الادراك بأنفسهم والاستنباط بعقولهم فقال أفلا يسمعون يعنى ليس لهم درجة المتعلم الذى يسمع الشئ ويفهمه ﴿ ثم قال تعالى ﴿ أولم يروا أنا نسوق الماء الى الارض الجرز ﴾ لما بين الاهلاك وهو الاماتة بين الاحياء ليكون اشارة الى أن الضر والنفع بيد الله والجرز الارض اليابسة التى لا نبات فيها والجرز هو القطع وكأنها المقطوع عنها الماء والنبات ﴿ ثم قال تعالى ﴿ فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم ﴾ قدم الانعام على الانفس فى الاكل لوجوه (أحدها) ان الزرع أول ما ينبت يصلح للدواب ولا يصلح للانسان (والثانى) وهو ان الزرع غذاء الدواب وهو لابد منه وأما غذاء الانسان فقد يحصل من الحيوان فكان الحيوان يأكل الزرع ثم الانسان يأكل من الحيوان (الثالث) اشارة الى أن الاكل من ذوات الدواب والانسان يأكل بحيوانيته أو بما فيه من القوة العقلية فكمالها بالعبادة ﴿ ثم قال تعالى ﴿ أفلا يبصرون ﴾ لان الامر يرى بخلاف حال الماضين فانها كانت مسموعة ﴿ ثم لما بين الرسالة والتوحيد بين الحشر بقوله تعالى ﴿ ويقولون متى هذا الفتح ان كنتم صادقين ﴾ الى آخر السورة فصار ترتيب آخر السورة كترتيب أولها حيث ذكر الرسالة فى أولها بقوله لتنذر قوما وفى آخرها بقوله ولقد آتينا موسى الكتاب وذكر التوحيد بقوله الذى خلق السموات والارض وقوله الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الانسان من طين وفى آخر السورة ذكره بقوله أولم يهد لهم وقوله أولم يروا أنا نسوق وذكر الحشر فى أولها بقوله وقالوا أئذا ضللنا فى الارض وفى آخرها بقوله ويقولون متى هذا الفتح ﴿ وقوله تعالى ﴿ قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا ايمانهم ولا هم ينظرون ﴾ أى لا يقبل ايمانهم فى تلك الحالة لان الايمان المقبول هو الذى يكون فى دار الدنيا ولا ينظرون أى لا يمهلون بالاعادة الى الدنيا ليؤمنوا فيقبل ايمانهم ﴿ ثم لما بين المسائل واتقن الدلائل ولم ينفعهم قال تعالى ﴿ فأعرض عنهم ﴾ أى لا تنتظرهم بعد ذلك وانما الطريق بعد هذا القتال ﴿ وقوله

أولى بأن يكون معيار الحال ما يشير به نسب الخلق المذكور اليه كما نسب الخلق والتصوير الى المخاطبين فى قوله تعالى ولقد خلقناكم ثم صورناكم توفية لمقام الامتنان حقه فكأنه قيل وقد خلقتك من قبل فى تضاعيف خلق آدم ولم تكن اذ ذاك شيأ أصلا بل عدما بحتا ونفيا صرفا هذا وأما حمل الشئ على المعتد به أى ولم تكن شيأ معتدا به فيأباه المقام ويرده نظم الكلام وقرئ خلقناك (قال رب اجعل لى آية) أى علامة تدلنى على تحقق المسؤل ووقوع الحبل ولم يكن هذا السؤال منه عليه الصلاة والسلام لتأكيد البشارة وتحقيقها كما قيل فان ذلك مما لا يليق بمنصب الرسالة وانما كان ذلك لتعريف وقت العلوق حيث كانت البشارة مطلقة عن تعيينه وهو أمر خفى لا يوقف عليه فأراد أن يطلعه الله تعالى عليه ليتلقى تلك النعمة الجليلة بالشكر من حين حدوثها ولا يؤخره الى أن تظهر ظهورا معتادا وقد مرت الاشارة فى تفسير سورة آل عمران الى أن هذا السؤال ينبغى أن يكون بعد ما مضى بعد البشارة برهة من الزمان لما روى أن يحيى كان أكبر من عيسى عليهما الصلاة والسلام بستة أشهر أو بثلاث سنين ولا ريب فى أن دعاء زكريا عليه الصلاة والسلام كان فى صغر مريم لقوله تعالى هنالك دعا زكريا ربه وهى انما ولدت عيسى عليه الصلاة والسلام وهى بنت عشر سنين أو بنت ثلاث عشرة سنة والجعل ابداعى واللام متعلقة به وتقديمها على المفعول به لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر أو بمحذوف وقع حالا من آية اذ لو تأخر لكان صفة لها وقيل بمعنى التصيير المستدعى لمفعولين أولهما آية وثانيهما الظرف وتقديمه لانه لا مسوغ لكون آية مبتدأ عند انحلال الجملة الى مبتدأ وخبر سوى تقديم الظرف فلا يتغير

وانتظر

﴿وانتظر انهم منتظرون﴾ يحتمل وجوها (أحدها) وانتظر هلاكهم فإنهم ينتظرون هلاكك وعلى هذا فرق بين الانتظارين لأن انتظار النبي صلى الله عليه وسلم بأمر الله تعالى بعد وعده وانتظارهم بتسويل أنفسهم والتعويل على الشيطان (وثانيها) وانتظر النصر من الله فإنهم ينتظرون الظفر من آلهتهم وفرق بين الانتظارين (وثالثها) وانتظر عذابهم بنفسك فإنهم ينتظرونه بلفظهم استهزاء كما قالوا فأتنا بما تعدنا وقالوا متى هذا الوعد إن كنتم صادقين إلى غير ذلك والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب والحمد لله رب العالمين وصلاته وسلامه على سيد المرسلين محمد النبي وآله وصحبه أجمعين وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين

﴿سورة الأحزاب سبعون وثلاث آيات وهي مدنية بإجماع﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

﴿قوله تعالى ﴿يا أيها النبي اتق الله﴾ في تفسير الآية مسائل (الأولى) في الفرق بين النداء والمنادى بقوله يا رجل ويا أيها الرجل وقد قيل فيه ما قيل ونحن نقول قول القائل يا رجل يدل على النداء وقوله يا أيها الرجل يدل على ذلك أيضا وينبئ عن خطر خطب المنادى له أو غفلة المنادى أما الثاني فذكروا وأما الأول فلأن قوله يا أي جعل المنادى غير معلوم أولا فيكون كل سامع متطلعا إلى المنادى فإذا خص واحدا كان في ذلك إنباء الكل لتطلعهم إليه وإذا قال يا زيد أو يا رجل لا يلتفت إلى جانب المنادى إلا المذكور وإذا علم هذا فنقول يا أيها لا يجوز حمله على غفلة النبي لأن قوله النبي ينافي الغفلة لأن النبي عليه السلام خبير فلا يكون غافلا فيجب حمله على خطر الخطب (المسألة الثانية) الأمر بالشيء لا يكون إلا عند عدم اشتغال المأمور بالمأمور به إذ لا يصلح أن يقال للجالس اجلس وللساكت اسكت والنبي عليه السلام كان متقيا فما الوجه فيه نقول فيه وجهان (أحدهما) منقول وهو أنه أمر بالمداومة فإنه يصح أن يقول القائل للجالس اجلس ههنا إلى أن أجيئك ويقول القائل للساكت قد أصبت فاسكت تسلم أي دم على ما أنت عليه (والثاني) وهو معقول لطيف وهو أن الملك يتقي منه عباده على ثلاثة أوجه بعضهم يخاف من عقابه وبعضهم يخاف من قطع ثوابه وثالث يخاف من احتجابه فالنبي لم يؤمر بالتقوى بالمعنى الأول ولا بالمعنى الثاني وأما الثالث فالمخلص لا يأمنه ما دام في الدنيا وكيف والأمور الدنيوية شاغلة والآدمي في الدنيا تارة مع الله وأخرى مقبل على ما لا بد منه وإن كان معه الله وإلى هذا أشار بقوله إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي يعني يرفع الحجاب عني وقت الوحي ثم أعود إليكم كأني منكم فالأمر بالتقوى يوجب استدامة الحضور (الوجه الثاني) هو أن النبي عليه الصلاة والسلام كل لحظة كان يزداد علمه ومرتبته حتى كان حاله فيما مضى بالنسبة إلى ما هو فيه تركا للأفضل فكان له في كل ساعة تقوى متجددة فقوله اتق الله على هذا أمر بما ليس فيه وإلى هذا أشار عليه الصلاة والسلام بقوله من استوى يوماه فهو مغبون ولأنه طلب من ربه بأمر الله إياه زيادة العلم حيث قال وقل رب زدني علما وأيضا إلى هذا وقعت الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة يعني يتجدد له مقام يقول الذي أتيت به من الشكر والعبادة لم يكن شيئا إذا علم هذا فالنبي صلى الله عليه وسلم كما أنا بشر مثلكم كان قد وقع له تخوف ما بسبب من جهة ألسنة الكفار والمنافقين ومن أيديهم بدليل قوله تعالى وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فأمره الله بتقوى أخرى فوق ما يتقيه بحيث تنسيه الخلق ولا يريد إلا الحق وزاده الله به درجته

نطالهما بعد ورود الناسخ (قال آيتك أن لا تكلم الناس) أي أن لا تقدر على أن تكلمهم بكلام الناس مع القدرة على الذكر والتسبيح (ثلاث ليال) مع أيامهن للتصريح بها في سورة آل عمران (سويا) حال من فاعل تكلم مفيد لكون انتفاء التكلم بطريق الاضطرار دون الاختيار أي تمنع الكلام فلا تطيق به حال كونك سوي الخلق سليم الجوارح ٦٠٣ ما بك شائبة بكم ولا خرس (فخرج على قومه من المحراب) أي من المصلى أو من الغرفة وكانوا من وراء المحراب ينتظرونه أن يفتح لهم الباب فيدخلوه ويصلوا إذ خرج عليهم متغيرا لونه فأنكروه وقالوا مالك (فأوحى إليهم) أي أومأ إليهم لقوله تعالى إلا رمزا وقيل كتب على الأرض وأن في قوله تعالى (أن سبحوا) إما مفسرة لأوحى أو مصدرية والمعنى أي صلوا أو بأن صلوا (بكرة وعشيا) هما ظرفا زمان للتسبيح عن أبي العالية أن المراد بهما صلاة الفجر وصلاة العصر أو نزهوا ربكم طرفي النهار ولعله كان مأمورا بأن يسبح شكرا ويأمر قومه بذلك (يا يحيى) استئناف طوى قبله جمل كثيرة مسارعة إلى الإنباء بإنجاز الوعد الكريم أي قلنا يا يحيى (خذ الكتاب) أي التوراة (بقوة) أي بجد واستظهار بالتوفيق (وآتيناه الحكم صبيا) قال ابن عباس رضي الله عنهما الحكم النبوة استنبأه وهو ابن ثلاث سنين وقيل الحكم الحكمة وفهم التوراة والفقه في الدين روي أنه دعاه الصبيان إلى اللعب فقال ما للعب خلقنا (وحنانا من لدنا) عطف على الحكم وتنوينه للتفخيم وهو التحنن والاشتياق ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة له مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أي وآتيناه رحمة عظيمة عليه كائنة من جنابنا أو رحمة في قلبه ورقة على أبويه وغيرهما (وزكاة) أي طهارة من الذنوب أو صدقة تصدقنا به على

أبويه أو وفقناه للتصدق على الناس (وكان تقيا) مطيعا متجنبا عن المعاصي (وبرا بوالديه) عطف على تقيا أي بارا بهما لطيفا بهما محسنا اليهما (ولم يكن جبارا عصيا) متكبرا عاقا لهما أو عاصيا لربه (وسلام عليه) من الله عز وجل (يوم ولد) من أن يناله الشيطان بما ينال به بني آدم (ويوم يموت) من عذاب القبر (ويوم يبعث حيا) من هول القيامة وعذاب النار (واذكر في الكتاب) كلام مستأنف خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام وأمر بذكر قصة مريم اثر قصة زكريا لما بينهما من كمال الاشتباك والمراد بالكتاب السورة الكريمة لا القرآن اذ هي التي صدرت بقصة زكريا المستتبعة لذكر قصتها وقصص الانبياء المذكورين فيها أي واذكر للناس (مريم) أي نبأها فان الذكر لا يتعلق بالاعيان وقوله تعالى (اذ انتبذت) ظرف لذلك المضاف لكن لا على أن يكون المأمور به ذكر نبئها عند انتباذها فقط بل كل ما عطف عليه وحكي بعده بطريق الاستئناف داخل في حيز الظرف متمم للنبا وقيل بدل اشتمال من مريم على أن المراد بها نبؤها فان الظروف مشتملة على ما فيها وقيل بدل الكل على أن المراد بالظرف ما وقع فيه وقيل اذ بمعنى أن المصدرية كما في قولك أكرمتك اذ لم تكرمني أي لان لم تكرمني فهو بدل الاشتمال لا محالة وقوله تعالى (من أهلها) متعلق بانتبذت وقوله (مكانا شرقيا) مفعول له باعتبار ما في ضمنه من معنى الاتيان المترتب وجودا واعتبارا على أصل معناه العامل في الجار والمجرور وهو السرف مثل تأخيره عنه أي اعتزلت أو انفردت عنهم وأتت مكانا شرقيا من بيت المقدس أو من دارها لتتخلى هنالك للعبادة وقيل قعدت في مشرفة للاغتسال من الحيض محتجبة بحائط أو بشيء يسترها وذلك قوله تعالى (فاتخذت من دونهم حجابا) وكان موضعها المسجد فاذا حاضت

فكان ذلك بشارة له أي يا أيها النبي أنت ما بقيت في الدرجة التي يقنع منك بتقوى مثل تقوى الآحاد أو تقوى الاوتاد بل لا يقنع منك الا بتقوى تنسيك نفسك ألا ترى ان الانسان اذا كان يخاف فوت مال ان هجم عليه غاشم يقصد قتله يذهل عن المال ويهرب ويتركه فكذلك النبي عليه الصلاة والسلام أمر بمثل هذه التقوى ومع هذه التقوى لا يبقى الخوف من أحد غير الله وخرج هذا مخرج قول القائل لمن يخاف زيدا وعمرا خف عمرا فان زيدا لا يقدر عليك اذا كان عمرو معك فلا يكون ذلك أمرا بالخوف من عمرو فانه يخافه وانما يكون ذلك نهيا عن الخوف من زيد في ضمن الامر بزيادة الخوف من عمرو حتى ينسيه زيدا ﴿ثم قوله تعالى﴾ ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ يقرر قولنا أي اتق الله تقوى تمنعك من طاعتهم (المسئلة الثالثة) لم خص الكافرين والمنافقين بالذكر مع ان النبي صلى الله عليه وسلم ينبغي أن لا يطيع أحدا غير الله فنقول لوجهين (أحدهما) ان ذكر الغير لا حاجة اليه لان غيرهما لا يطلب من النبي عليه الصلاة والسلام الاتباع ولا يتوقع أن يصير النبي عليه الصلاة والسلام مطيعا له بل يقصد اتباعه ولا يكون عنده الا مطاعا (والثاني) هو انه تعالى لما قال ولا تطع الكافرين والمنافقين منعه من طاعة الكل لان كل من طلب من النبي عليه الصلاة والسلام طاعته فهو كافر أو منافق لان من يأمر النبي عليه الصلاة والسلام بأمر ايجابا معتقدا على انه لو لم يفعله يعاقبه يحق يكون كافرا ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿ان الله كان عليما حكيما﴾ اشارة الى أن التقوى ينبغي أن تكون عن صميم قلبك لا تخفي في نفسك تقوى غير الله كما يفعله الذي يرى من نفسه الشجاعة حيث يخاف في نفسه ويتجلد فان التقوى من الله وهو عليم وقوله حكيما اشارة الى دفع وهم متوهم وهو وأن متوهما لو قال اذا قال الله شيأ وقال جميع الكافرين والمنافقين مع انهم أقارب النبي عليه الصلاة والسلام شيأ آخر ورأوا المصلحة فيه وذكروا وجها معقولا فاتباعهم لا يكون الا مصلحة فقال الله تعالى انه حكيم ولا تكون المصلحة الا في قول الحكيم فاذا أمرك الله بشيء فاتبعه ولو منعك أهل العالم عنه ﴿وقوله تعالى﴾ ﴿واتبع ما يوحى اليك من ربك﴾ يقرر ما ذكرنا من انه حكيم فاتباعه هو الواجب ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿ان الله كان بما تعملون خبيرا﴾ لما قال انه عليم بما في قلوب العباد بين انه عالم خبير بأعمالكم فسووا قلوبكم وأصلحوا أعمالكم ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا﴾ يعني اتق الله وان توهمت من أحد فتوكل على الله فانه كفى به دافعا ينفع ولا يضر معه شيء وان ضر لا ينفع معه شيء ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾ قال بعض المفسرين الآية نزلت في أبي معمر كان يقول لي قلبان أعلم وأفهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد فرد الله عليه بقوله ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴿وقال الزمخشري قوله﴾ ﴿وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم﴾ أي ما جعل لرجل قلبين كما لم يجعل لرجل أمين ولا لابن أبوين وكلاهما ضعيف بل الحق أن يقال ان الله تعالى لما أمر النبي عليه الصلاة والسلام بالاتقاء بقوله يا أيها النبي اتق الله فكان ذلك أمرا له بتقوى لا يكون فوقها تقوى ومن يتقي ويخاف شيأ خوفا شديدا لا يدخل في قلبه شيء آخر ألا ترى أن الخائف الشديد الخوف ينسى مهماته حالة الخوف فكان الله تعالى قال يا أيها النبي اتق الله حق تقاته ومن حقها أن لا يكون في قلبك تقوى غير الله فان المرء ليس له قلبان حتى يتقي بأحدهما الله وبالآخر غيره فان اتقى غيره فلا يكون ذلك الا بصرف القلب عن جهة الله الى غيره وذلك لا يليق بالمتقي الذي يدعي انه يتقي الله حق تقاته ثم ذكر للنبي عليه الصلاة والسلام انه لا ينبغي أن يتقي أحدا ولا مثل ما اتقيت في حكاية زينب زوجة زيد حيث قال الله تعالى وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه يعني

تحولت الى بيت خالتها واذا طهرت عادت الى المسجد فبيناهي في مغتسلها أتاها الملك عليه الصلاة والسلام في صورة آدمي شاب أمرد
وضيء الوجه جعد الشعر وذلك قوله تعالى (فأرسلنا اليها روحنا) أي جبريل عليه الصلاة والسلام عبر عنه بذلك توفية للمقام حقه وقرئ
بفتح الراء لكونه سببا لما فيه روح العباد الذي هو عدة المقربين في قوله تعالى فأما ان كان من المقربين فروح وريحان

(فتمثل لها بشرا سويا) سوي الخلق كامل البنية لم يفقد من حسان نعوت الآدمية شيأ وقيل تمثل في صورة ترب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس وذلك لتستأنس بكلامه وتتلقى منه ما يلقى اليها من كلماته تعالى اذ لو بدا لها على الصورة الملكية لنفرت منه ولم تستطع مفاوضته وأما ما قيل من أن ذلك لتهيج شهوتها فتنحدر نطفتها الى رحمها فمع مخالفته للمقام بيان آثار القدرة الخارقة للعادة يكذبه قوله تعالى (قالت اني أعوذ بالرحمن منك) فانه شاهد عدل بانه لم يخطر ببالها شائبة ميل ما اليه فضلا عما ذكر من الحالة المترتبة على أقصى مراتب الميل والشهوة نعم كان تمثله على ذلك الحسن الفائق والجمال الرائق لابتلائها وسبر عفتها ولقد ظهر منها من الورع والعفاف ما لا غاية وراءه وذكره تعالى بعنوان الرحمانية للمبالغة في العياذ به تعالى واستجلاب آثار الرحمة الخاصة التي هي العصمة مما دهمها وقوله
تعالى (ان كنت تقيا) أي تتقي الله تعالى وتبالي بالاستعاذة به وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة السباق عليه أي فاني عائذة به أو فتتعظ
بتعوذي أو فلا تتعرض لي (قال انما أنا رسول ربك) يريد عليه الصلاة والسلام أني لست ممن يتوقع منه ما توهمت من الشر وانما أنا
رسول ربك الذي استعذت به (لأهب لك غلاما) أي لأكون سببا في هبته بالنفخ في الدرع ويجوز أن يكون ذلك حكاية لقوله

مثل تلك التقوى لا ينبغي أن تدخل في قلبك * ثم لما ذكر النبي عليه الصلاة والسلام بتلك الحالة ذكر
ما يدفع عنه السوء فقال ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم﴾ أي وما جعل الله دعي المرء ابنه ثم قدم عليه ما هو
دليل قوي على اندفاع القبح وهو قوله وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم أي انكم اذا قلتم
لأزواجكم أنت علي كظهر أمي لا تصير هي أما باجماع الكل أما في الاسلام فلأنه ظهار لا يحرم الوطء
وأما في الجاهلية فلأنه كان طلاقا حتى كان يجوز للزوج أن يتزوج بها من جديد فاذا كان قول القائل
لزوجته أنت أمي أو كظهر أمي لا يوجب صيرورة الزوجة أما كذلك قول القائل للدعي أنت ابني لا يوجب
كونه ابنا فلا تصير زوجته زوجة الابن فلم يكن لأحد أن يقول في ذلك شيأ فلم يكن خوفك من الناس له وجه
كيف ولو كان أمرا مخوفا ما كان يجوز أن تخاف غير الله أوليس لك قلبان وقلبك مشغول بتقوى الله
فما كان ينبغي أن تخاف أحدا * ثم قال تعالى ﴿ذلكم قولكم بأفواهكم﴾ فيه لطيفة وهو أن الكلام
المعتبر على قسمين (أحدهما) كلام يكون عن شيء كان فيقال (والثاني) كلام يقال فيكون كما قيل
والأول كلام الصادقين الذين يقولون ما يكون والآخر كلام الصديقين الذين اذا قالوا شيأ جعله الله كما
قالوه وكلاهما صادر عن قلب والكلام الذي يكون بالفم فحسب هو مثل نهيق الحمار أو نباح الكلب لأن
الكلام المعتبر هو الذي يعتمد عليه والذي لا يكون عن قلب وروية لا اعتماد عليه والله تعالى لما كرم ابن آدم
وفضله على سائر الحيوانات ينبغي أن يحترز عن التحاق باخلافها فقول القائل هذا ابن فلان مع أنه ليس
ابنه ليس كلاما فان الكلام في الفؤاد وهذا في الفم لا غير واللطيفة هي أن الله تعالى ههنا قال ذلكم قولكم
بأفواهكم وقال في قوله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يعني نسبة الشخص الى غير الأب
قول لا حقيقة له ولا يخرج من قلب ولا يدخل أيضا في قلب فهو قول بالفم مثل أصوات البهائم * ثم قال
تعالى ﴿والله يقول الحق﴾ اشارة الى معنى لطيف وهو أن العاقل ينبغي أن يكون قوله اما عن عقل
أو عن شرع فاذا قال فلان ابن فلان ينبغي أن يكون عن حقيقة أو يكون عن شرع بأن يكون ابنه شرعا
وان لم يعلم الحقيقة كمن تزوج بامرأة فولدت لستة أشهر ولدا وكانت الزوجة من قبل زوجة شخص آخر
يحتمل أن يكون الولد منه فانا نلحقه بالزوج الثاني لقيام الفراش ونقول انه ابنه وفي الدعي لم توجد الحقيقة
ولا ورد الشرع به لأنه لا يقول الا الحق وهذا خلاف الحق لأن أباه مشهور ظاهر ووجه آخر فيه وهو أنهم
قالوا هذه زوجة الابن فتحرم وقال الله تعالى هي لك حلال وقولهم لا اعتبار به فانه بأفواههم كأصوات
البهائم وقول الله حق فيجب اتباعه وقوله وهو يهدي السبيل يؤكد قوله والله يقول الحق يعني يجب اتباعه
لكونه حقا ولكونه هاديا وقوله تعالى ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق فيه لطيفة وهو أن الكلام
الذي بالفم فحسب يشبه صوت البهائم الذي يوجد لا عن قلب ثم ان الكلام الذي بالقلب قد يكون حقا
وقد يكون باطلا لأن من يقول شيأ عن اعتقاد قد يكون مطابقا فيكون حقا وقد لا يكون فيكون باطلا
فالقول الذي بالقلب وهو المعتبر من أقوالكم قد يكون حقا وقد يكون باطلا لأنه يتبع الوجود وقول الله حق
لأنه يتبعه الوجود فانه يقول عما كان أو يقول فيكون فاذن قول الله خير من أقوالكم التي عن قلوبكم
فكيف تكون نسبته الى أقوالكم التي بأفواهكم فاذن لا يجوز أن تأخذوا بقولكم الكاذب اللاغي وتتركوا
قول الله الحق فمن يقول بأن تزوج النبي عليه الصلاة والسلام بزينب لم يكن حسنا يكون قد ترك قول الله
الحق وأخذ بقول خرج عن الفم * ثم قال تعالى ﴿وهو يهدي السبيل﴾ اشارة الى أن اتباع ما أنزل
الله خير من الأخذ بقول الغير * ثم بين الهداية وقال ﴿ادعوهم لآبائهم﴾ أرشد وقال ﴿هو أقسط عند

تعالى ويؤيده القراءة بالياء والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرها لتشريفها وتسليتها والاشعار بعلة الحكم فان هبة الغلام لها من أحكام تربيتها وفي بعض المصاحف أمرني أن أهب لك غلاما (زكيا) طاهرا من الذنوب أو ناميا على الخير أي مترقيا من سن الى سن على الخير والصلاح (قالت أنى يكون لي غلام) كما وصفت (ولم يمسسني بشر) أي والحال أنه لم يباشرني بالنكاح رجل وانما قيل بشر مبالغة في بيان تنزهها من مبادي الولادة (ولم أك بغيا) عطف على لم يمسسني داخل معه في حكم الحالية مفصح عن كون المساس عبارة عن المباشرة بالنكاح أي ولم أكن فاجرة تبغي الرجال وهي فعول بمعنى الفاعل أصلها بغوي فأدغمت الواو بعد قلبها ياء في الياء وكسرت الغين للياء وقيل هي فعيل بمعنى الفاعل والا لقيل بغوة كما يقال فلان نهو عن المنكر وانما لم تلحقها التاء لانه من باب النسب كطالق أو بمعنى المفعول أي بغتها الرجال للفجور بها (قال) أي الملك مقررا لمقالته ومحققا لها (كذلك) أي الامر كما قلت لك وقوله تعالى (قال ربك) الخ استئناف مقرر له أي قال ربك الذي أرسلني اليك (هو) أي ما ذكرت لك من هبة الغلام من غير أن يمسك بشر أصلا (علي) خاصة (هين) وان كان مستحيلا عادة لما أني لا أحتاج الى الاسباب والوسائط وقوله تعالى (ولنجعله آية للناس) اما علة لمعلل محذوف أي ولنجعله وهب الغلام آية لهم وبرهانا يستدلون به على كمال قدرتنا فعلنا ذلك أو معطوف على علة أخرى مضمرة أي لنبين به عظم قدرتنا ولنجعله آية الخ والواو على الاول اعتراضية والالتفات الى نون العظمة لاظهار كمال الجلالة (ورحمة) عظيمة كائنة (منا) عليهم يهتدون بهدايته ويسترشدون بارشاده (وكان) ذلك (أمرا مقضيا) محكما قد تعلق به قضاؤنا الازلي أو

الله ﴾ أي أعدل فانه وضع الشيء في موضعه وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون ترك الاضافة للعموم أي أعدل كل كلام كقول القائل الله أكبر (وثانيهما) أن يكون ما تقدم منويا كأنه قال ذلك أقسط من قولكم هو ابن فلان ۞ ثم تمم الارشاد وقال ﴿ فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين ومواليكم ﴾ يعني قولوا لهم اخوانا وأخو فلان فان كانوا محررين فقولوا مولى فلان ۞ ثم قال تعالى ﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ﴾ يعني قول القائل لغيره يا بني بطريق الشفقة وقول القائل لغيره يا أبي بطريق التعظيم فانه مثل الخطا ألا ترى أن اللغو في اليمين مثل الخطا وسبق اللسان فكذلك سبق اللسان في قول القائل ابني والسهو في قوله ابني من غير قصد الى اثبات النسب سواء ۞ وقوله ﴿ ولكن ما تعمدت قلوبكم ﴾ مبتدأ خبره محذوف يدل عليه ما سبق وهو الجناح يعني ما تعمدت قلوبكم فيه جناح ﴿ وكان الله غفورا رحيما ﴾ يغفر الذنوب ويرحم المذنب وقد ذكرنا كلاما شافيا في المغفرة والرحمة في مواضع ونعيد بعضها ههنا فنقول المغفرة هو أن يستر القادر القبيح الصادر ممن تحت قدرته حتى ان العبد اذا ستر عيب سيده مخافة عقابه لا يقال انه غفر له والرحمة هو أن يميل اليه بالاحسان لعجز المرحوم اليه لا لعوض فان من مال الى انسان قادر كالسلطان لا يقال رحمه وكذا من أحسن الى غيره رجاء في خيره أو عوضا عما صدر منه آنفا من الاحسان لا يقال رحمه اذا علم هذا فالمغفرة اذا ذكرت قبل الرحمة يكون معناها أنه ستر عيبه ثم رآه مفلسا عاجزا فرحمه وأعطاه ما كفاه واذا ذكرت المغفرة بعد الرحمة وهو قليل يكون معناه أنه مال اليه لعجزه فترك عقابه ولم يقتصر عليه بل ستر ذنوبه ۞ ثم قال تعالى ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ تقرير لصحة ما صدر منه عليه الصلاة والسلام من التزوج بزينب وكأن هذا جواب عن سؤال وهو أن قائلا لو قال هب أن الادعياء ليسوا بأبناء كما قلت لكن من سماه غيره ابنا اذا كان لدعيه شيء حسن لا يليق بمروءته أن يأخذه منه ويطعن فيه عرفا فقال الله تعالى النبي أولى بالمؤمنين جوابا عن ذلك السؤال وتقريره هو أن دفع الحاجات على مراتب دفع حاجة الاجانب ثم دفع حاجة الاقارب الذين على حواشي النسب ثم دفع حاجة الاصول والفصول ثم دفع حاجة النفس والاول عرفا دون الثاني وكذلك شرعا فان العاقلة تتحمل الدية عنهم ولا تتحملها عن الاجانب والثاني دون الثالث أيضا وهو ظاهر بدليل النفقة والثالث دون الرابع فان النفس تقدم على الغير واليه أشار النبي عليه الصلاة والسلام بقوله ابدأ بنفسك ثم بمن تعول اذا علمت هذا فالانسان اذا كان معه ما يغطي به احدى الرجلين أو يدفع به حاجة عن أحد شقي بدنه فلو أخذ الغطاء من أحدهما وغطى به الآخر لا يكون لاحد أن يقول له لم فعلت فضلا عن أن يقول بئسما فعلت اللهم الا أن يكون أحد العضوين أشرف من الآخر مثل ما اذا وقى الانسان عينه بيده ويدفع البرد عن رأسه الذي هو معدن حواسه ويترك رجله تبرد فانه الواجب عقلا فان يعكس الامر يقال له لم فعلت واذا تبين هذا فالنبي صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمن من نفسه فلو دفع المؤمن حاجة نفسه دون حاجة نبيه يكون مثله مثل من يدهن شعره ويكشف رأسه في برد مفرط قاصدا به تربية شعره ولا يعلم أنه يؤذي رأسه الذي لا نبات لشعره الا منه فكذلك دفع حاجة النفس لفراغها الى عبادة الله تعالى ولا علم بكيفية العبادة الا من الرسول عليه الصلاة والسلام فلو دفع الانسان حاجته لا للعبادة فهو ليس دفعا للحاجة لان دفع الحاجة ما هو فوق تحصيل المصلحة وهذا ليس فيه مصلحة فضلا عن أن يكون حاجة واذا كان للعبادة فترك النبي الذي منه يتعلم كيفية العبادة في الحاجة ودفع حاجة النفس مثل تربية الشعر مع اهمال أمر الرأس فتبين أن النبي صلى الله عليه وسلم اذا أراد شيئا حرم على الامة التعرض اليه في الحكمة الواضحة ۞ ثم قال تعالى ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾

أمهاتهم﴾ تقريرا آخر وذلك لأن زوجة النبي صلى الله عليه وسلم ما جعلها الله تعالى في حكم الأم إلا لقطع نظر الأمة عما تعلق به غرض النبي عليه الصلاة والسلام فإذا تعلق خاطره بامرأة شاركت الزوجات في التعلق فحرمت مثل ما حرمت أزواجه على غيره فلو قال قائل كيف قال وأزواجه أمهاتهم وقال من قبل وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم إشارة إلى أن غير من ولدت لا تصير أما بوجه ولذلك قال تعالى في موضع آخر إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم فنقول قوله تعالى في الآية المتقدمة والله يقول الحق وهو يهدي السبيل جواب عن هذا معناه أن الشرع مثل الحقيقة ولهذا يرجع العاقل عند تعذر اعتبار الحقيقة إلى الشريعة كما أن امرأتين إذا ادعت كل واحدة ولدا بعينه ولم يكن لهما بينة وحلفت إحداهما دون الأخرى حكم لها بالولد وإن تبين أن التي حلفت دون البلوغ أو بكر بينة لا يحكم لها بالولد فعلم أن عند عدم الوصول إلى الحقيقة يرجع إلى الشرع لا بل في بعض المواضع على الندور تغلب الشريعة الحقيقة فإن الزاني لا يجعل أبا لولد الزنا إذا ثبت هذا فالشارع له الحكم فقول القائل هذه أمي قول يفهم لا عن حقيقة ولا يترتب عليه حقيقة وأما قول الشارع حق والذي يؤيده هو أن الشارع به الحقائق حقائق فله أن يتصرف فيها ألا ترى أن الأم ما صارت أما إلا بخلق الله الولد في رحمها ولو خلقه في جوف غيرها لكانت الأم غيرها فإذا كان هو الذي يجعل الأم الحقيقية أما فله أن يسمي امرأة أما ويعطيها حكم الأمومة والمعقول في جعل أزواجه صلى الله عليه وسلم أمهاتنا هو أن الله تعالى جعل زوجة الأب محرمة على الابن لأن الزوجة محل الغيرة والتنازع فيها فإن تزوج الابن بمن كانت تحت الأب يفضي ذلك إلى قطع الرحم والعقوق لكن النبي عليه الصلاة والسلام أشرف وأعلى درجة من الأب وأولى بالإرضاء فإن الأب يربي في الدنيا فحسب والنبي عليه الصلاة والسلام يربي في الدنيا والآخرة فوجب أن تكون زوجاته مثل زوجات الآباء فإن قال قائل فلم يقل إن النبي أبوكم ويحصل هذا المعنى أو لم يقل إن أزواجه أزواج أبيكم فنقول لحكمة وهي أن النبي لما بينا أنه إذا أراد زوجة واحد من الأمة وجب عليه تركها لتتزوج بها النبي عليه الصلاة والسلام فلو قال أنت أبوهم لحرم عليه زوجات المؤمنين على التأبيد ولأنه لما جعله أولى بهم من أنفسهم والنفس مقدم على الأب لقوله عليه الصلاة والسلام ابدأ بنفسك ثم بمن تعول ولذلك فإن المحتاج إلى القوت لا يجب عليه صرفه إلى الأب ويجب عليه صرفه إلى النبي عليه الصلاة والسلام ثم إن أزواجه لهن حكم زوجات الأب حتى لا تحرم أولادهن على المؤمنين ولا أخواتهن ولا أمهاتهن وإن كان الكل يحرمن في الأم الحقيقية والرضاعية﴾ ثم قال تعالى ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا كان ذلك في الكتاب مسطورا﴾ إشارة إلى الميراث وقوله إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا إشارة إلى الوصية يعني إن أوصيتم فغير الوارثين أولى وإن لم توصوا فالوارثون أولى بميراثكم وبما تركتم فإن قيل فعلى هذا أي تعلق للميراث والوصية بما ذكرت فنقول تعلق قوي خفي لا يتبين إلا لمن هداه الله بنوره وهو أن غير النبي عليه الصلاة والسلام في حال حياته لا يصير له مال الغير وبعد وفاته لا يصير ماله للغير ورثته والنبي عليه الصلاة والسلام في حال حياته كان يصير له مال الغير إذا أراده ولا يصير ماله لورثته بعد وفاته كأن الله تعالى عوض النبي عليه الصلاة والسلام عن قطع ميراثه بقدرته على تملك مال الغير وعوض المؤمنين بأن ما تركه يرجع إليهم حتى لا يكون حرج على المؤمنين في أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد شيئا يصير له ثم يموت ويبقى لورثته فيفوت عليهم ولا يرجع إليهم فقال تعالى وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض يعني بينكم التوارث فيصير مال أحدكم لغيره بالإرث والنبي لا توارث بينه وبين أقاربه فينبغي أن

قدر وسطر في اللوح لا بد من جريانه عليك البتة أو كان أمرا حقيقا بأن يتقضى ويفعل لتضمنه حكما بالغة (فحملته) بأن نفخ جبريل عليه الصلاة والسلام في درعها فدخلت النفخة في جوفها وقيل إنه عليه الصلاة والسلام رفع درعها فنفخ في جيبه فحملت وقيل نفخ عن بعد فوصل الريح إليها فحملت في الحال وقيل إن النفخة كانت في فيها وكانت مدة حملها سبعة أشهر وقيل ثمانية ولم يعش مولود وضع لثمانية أشهر غيره وقيل تسعة أشهر وقيل ثلاث ساعات وقيل ساعة كما حملت وضعته وسنها حينئذ ثلاث عشرة سنة وقيل عشر سنين وقد حاضت حيضتين (فانتبذت به) أي فاعتزلت وهو في بطنها كما في قوله

* تدوس بنا الجماجم والتريبا *

فالجار والمجرور في حيز النصب على الحالية أي أي فانتبذت ملتبسة به (مكانا قصيا) بعيدا من أهلها وراء الجبل وقيل أقصى الدار وهو الأنسب بقصر مدة الحمل (فأجاءها المخاض) أي فألجأها وهو في الأصل منقول من جاء لكنه لم يستعمل في غيره كآتى في أعطى وقرئ المخاض بكسر الميم وكلاهما مصدر مخضت المرأة إذا تحرك الولد في بطنها للخروج (إلى جذع النخلة) لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة وهو ما بين العرق والغصن وكانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا خضرة وكان الوقت شتاء والتعريف إما للجنس أو للعهد إذ لم يكن ثمة غيرها وكانت كالمتعالم عند الناس ولعله تعالى ألهمها ذلك ليريها من آياته ما يسكن روعتها ويطعمها الرطب الذي هو خرسة النفساء الموافقة لها (قالت يا ليتني مت) بكسر الميم من مات يمات كخفت وقرئ بضمها من مات يموت (قبل هذا) أي هذا الوقت الذي لقيت فيه ما لقيت وإنما قالته مع أنها كانت تعلم ما جرى بينها وبين جبريل عليه السلام من الوعد الكريم استحياء من

يكون له بدل هذا أنه أولى في حياته بما في أيديكم (الثاني) هو أن الله تعالى ذكر دليلا على أن النبي عليه الصلاة والسلام أولى بالمؤمنين وهو أن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض ثم إذا أراد أحد برا مع صديق فيوصي له بشيء فيصير أولى من قريبه وكأنه بالوصية قطع الإرث وقال هذا مالي لا ينتقل عني إلا إلى من أريده فكذلك الله تعالى جعل لصديقه من الدنيا ما أراده ثم ما يفضل منه يكون لغيره وقوله كان ذلك في الكتاب مسطورا فيه وجهان (أحدهما) في القرآن وهو آية المواريث والوصية (والثاني) في اللوح المحفوظ ۞ ثم قال تعالى ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا﴾ وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما أمر النبي عليه الصلاة والسلام بالاتقاء بقوله يا أيها النبي اتق الله وأكده بالحكاية التي خشي فيها الناس لكي لا يخشى فيها أحدا غيره وبين أنه لم يرتكب أمرا يوجب الخشية بقوله النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم أكده بوجه آخر وقال وإذ أخذنا من النبيين كأنه قال اتق الله ولا تخف أحدا واذكر أن الله أخذ ميثاق النبيين في أنهم يبلغون رسالات الله ولا يمنعهم من ذلك خوف ولا طمع وفيه مسائل (المسألة الأولى) المراد من الميثاق المأخوذ من النبيين إرسالهم وأمرهم بالتبليغ (المسألة الثانية) خص بالذكر أربعة من الأنبياء وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى لأن موسى وعيسى كان لهما في زمان نبينا قوم وأمة فذكرهما احتجاجا على قومهما وإبراهيم كان العرب يقولون بفضله وكانوا يتبعونه في الشعائر بعضها ونوحا لأنه كان أصلا ثانيا للناس حيث وجد الخلق منه بعد الطوفان وعلى هذا لو قال قائل فآدم كان أولى بالذكر من نوح فنقول خلق آدم كان للعمارة ونبوته كانت مثل الإرشاد للأولاد ولهذا لم يكن في زمانه إهلاك قوم ولا تعذيب وأما نوح فكان مخلوقا للنبوة وأرسل للإنذار ولهذا أهلك قومه وأغرقوا (المسألة الثالثة) في كثير من المواضع يقول الله عيسى بن مريم والمسيح بن مريم إشارة إلى أنه لا أب له إذ لو كان لوقع التعريف به وقوله وأخذنا منهم ميثاقا غليظا تغليظ الميثاق هو سؤالهم عما فعله أممهم في الإرسال كما قال تعالى ولنسألن المرسلين وهذا لأن الملك إذا أرسل رسولا وأمره بشيء وقبله فهو ميثاق فإذا أعلمه بأنه يسأل عن حاله في أفعاله وأقواله يكون ذلك تغليظا للميثاق عليه حتى لا يزيد ولا ينقص في الرسالة وعلى هذا يمكن أن يقال بأن المراد من قوله تعالى وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا هو الإخبار بأنهم مسؤولون عنها كما قال النبي عليه الصلاة والسلام كلكم راع وكلكم مسؤول وكما أن الله تعالى جعل الرجال قوامين على النساء جعل الأنبياء قائمين بأمور أممهم وإرشادهم إلى سبيل الرشاد ۞ ثم قال تعالى ﴿ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا أليما﴾ يعني أرسل الرسل وعاقبة المكلفين إما حساب وإما عذاب لأن الصادق محاسب والكافر معذب وهذا كما قال علي عليه السلام الدنيا حلالها حساب وحرامها عذاب وهذا مما يوجب الخوف العام فيتأكد قوله يا أيها النبي اتق الله ۞ ثم قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا﴾ تحقيقا لما سبق من الأمر بتقوى الله بحيث لا يبقى معه خوف من أحد وذلك لأن في واقعة اجتماع الأحزاب واشتداد الأمر على الأصحاب حيث اجتمع المشركون بأسرهم واليهود بأجمعهم ونزلوا على المدينة وعمل النبي عليه السلام الخندق كان الأمر في غاية الشدة والخوف بالغا إلى الغاية والله دفع القوم عنهم من غير قتال وآمنهم من الخوف فينبغي أن لا يخاف العبد غير ربه فإنه كاف أمره ولا يأمن مكره فإنه قادر على

الناس وخوفا من لائمتهم أو حذارا من وقوع الناس في المعصية بما تكلموا فيها أو جريا على سنن الصالحين عند اشتداد الأمر عليهم كما روي عن عمر رضي الله عنه أنه أخذ تبنة من الأرض فقال يا ليتني هذه التبنة ولم أك شيئا وعن بلال أنه قال ليت بلالا لم تلده أمه (وكنت نسيا) أي شيئا تافها شأنه أن ينسى ولا يعتد به أصلا وقرئ بالكسر قيل هما لغتان في ذلك كالوتر والوتر وقيل هو بالكسر اسم لما ينسى كالنقض اسم لما ينقض وبالفتح مصدر سمي به المفعول مبالغة وقرئ بهما مهموزا من نسأت اللبن إذا صببت عليه الماء فصار مستهلكا فيه وقرئ نسا كعصا (منسيا) لا يخطر ببال أحد من الناس وهو نعت للمبالغة وقرئ بكسر الميم اتباعا له بالسين (فناداها) أي جبريل عليه السلام (من تحتها) قيل إنه كان يقبل الولد وقيل من تحتها أي من مكان أسفل منها تحت الأكمة وقيل من تحت النخلة وقيل ناداها عيسى عليه السلام وقرئ فخاطبها من تحتها بفتح الميم (أن لا تحزني) أي لا تحزني على أن أن مفسرة أو بأن لا تحزني على أنها مصدرية قد حذف عنها الجار (قد جعل ربك تحتك) أي بمكان أسفل منك وقيل تحت أمرك إن أمرته بالجري جرى وإن أمرته بالإمساك أمسك (سريا) أي نهرا صغيرا حسبما روي مرفوعا قال ابن عباس رضي الله عنهما إن جبريل عليه السلام ضرب برجله الأرض فظهرت عين ماء عذب فجرى جدولا وقيل فعله عيسى عليه السلام وقيل كان هنالك نهر يابس أجرى الله عز وجل فيه الماء حينئذ كما فعل مثله بالنخلة فإنها كانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا ورق فضلا عن الثمر وكان الوقت شتاء فجعل الله لها إذ ذاك رأسا وخوصا وثمرا وقيل كان هنالك ماء جار والأول هو الأوفق لمقام بيان ظهور الخوارق والمتبادر

النظم الكريم وقيل سريا أي سيدا نبيلا رفيع الشأن جليلا وهو عيسى عليه السلام فالتنوين للتفخيم والجملة تعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهي عنه والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميرها لتشريفها وتأكيد التعليل وتكميل التسلية (وهزى) هز الشئ تحريكه الى الجهات المتقابلة تحريكا عنيفا متداركا والمراد ههنا ما كان منه بطريق الجذب ٦٠٩ والدفع لقوله تعالى (اليك) أى الى جهتك والباء فى قوله عز وعلا (بجذع النخلة) صلة للتأكيد كما فى قوله تعالى ولا تلقوا بأيديكم الخ قال الفراء تقول العرب هزه وهز به وأخذ الخطاب وأخذ بالخطاب أو لالصاق الفعل بمدخولها أى افعلى الهز بجذعها أوهزى الثمرة بهزه وقيل هى متعلقة بمحذوف وقع حالا من مفعول الهز أى هزى اليك الرطب كائنا بجذعها (تساقط) أى تسقط النخلة (عليك) اسقاطا متواترا حسب تواتر الهز وقرئ تسقط ويسقط من الاسقاط بالتاء والياء وتتساقط باظهار التاءين وتساقط بطرح الثانية وتساقط بادغامها فى السين ويساقط بالياء كذلك وتسقط ويسقط من السقوط على أن التاء فى الكل للنخلة والياء للجذع وقوله تعالى (رطبا) على القرآت الثلاث الاول مفعول وعلى الست البواقى تمييز وقوله تعالى (جنيا) صفة له وهو ما قطع قبل يبسه فعيل بمعنى مفعول أى رطبا مجتنيا أى صالحا للاجتناء وقيل بمعنى فاعل أى طريا طيبا وقرئ جنيا بكسر الجيم للاتباع (فكلى واشربى) أى ذلك الرطب وماء السرى أومن الرطب وعصيره (وقرى عينا) وطيبى نفسا وارفضى عنها ما أحزنك وأهمك فانه تعالى قد نزه ساحتك عما اختلج فى صدور المتعبدين بالاحكام العادية بأن أظهر لهم من البسائط العنصرية والمركبات النباتية ما يخرق العادات التكوينية ويرشدهم الى

كل ممكن فكان قادرا على أن يقهر المسلمين بالكفار مع انهم كانوا ضعفاء كما قهر الكافرين بالمؤمنين مع قوتهم وشوكتهم وقوله فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها اشارة الى ما فعل الله بهم من ارسال ريح باردة عليهم فى ليلة شاتية وارسال الملائكة وقذف الرعب فى قلوبهم حتى كان البعض يلتزق بالبعض من خوف الخيل فى جوف الليل والحكاية مشهورة وقوله وكان الله بما تعملون بصيرا اشارة الى أن الله علم التجاءكم اليه ورجاءكم فضله فنصركم على الاعداء عند الاستعداء وهذا تقرير لوجوب الخوف وعدم جواز الخوف من غير الله فان قوله فارسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها أى الله يقضى حاجتكم وأنتم لا ترون فان كان لا يظهر لكم وجه الامن فلا تلتفتوا الى عدم ظهوره لكم لانكم لا ترون الاشياء فلا تخافون غير الله والله بصير بما تعملون فلا تقولوا انا نفعل شيأ وهو لا يبصره فانه بكل شئ بصير وقوله اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم بيان لشدة الامر وغاية الخوف وقيل من فوقكم أى من جانب الشرق ومن أسفل منكم من جانب الغرب وهم أهل مكة وزاغت الابصار أى مالت عن سننها فلم تلتفت الى العدو لكثرته وبلغت القلوب الحناجر كناية عن غاية الشدة وذلك لان القلب عند الغضب يندفع وعند الخوف يجتمع فيتقلص فيلتصق بالحنجرة وقد يفضى الى أن يسد مجرى النفس فلا يقدر المرء يتنفس ويموت من الخوف ومثله قوله تعالى حتى اذا بلغت الحلقوم وقوله وتظنون بالله الظنونا الالف واللام يمكن أن يكونا بمعنى الاستغراق مبالغة يعنى تظنون كل ظن لان عند الامر العظيم كل أحد يظن شيأ ويمكن أن يكون المراد ظنونهم المعهودة لان المعهود من المؤمن ظن الخير بالله كما قال عليه السلام ظنوا بالله خيرا ومن الكافر الظن السوء كما قال تعالى ذلك ظن الذين كفروا وقوله ان يتبعون الا الظن فان قال قائل المصدر لا يجمع فما الفائدة فى جمع الظنون فنقول لا شك فى انه منصوب على المصدر ولكن الاسم قد يجعل مصدرا كما يقال ضربته سياطا وأدبته مرارا فكأنه قال ظننتم ظنا بعد ظن أى ما ثبتم على ظن فالفائدة هى ان الله تعالى لو قال تظنون ظنا جاز أن يكونوا مصيبين فاذا قال ظنونا تبين أن فيهم من كان ظنه كاذبا لان الظنون قد تكذب كلها وقد يكذب بعضها اذا كانت فى أمر واحد مثاله اذا رأى جمع من بعيد جسما وظن بعضهم أنه زيد وآخرون أنه عمرو وقوم ثالث انه بكر ثم ظهر لهم الحق قد يكون الكل مخطئين والمرئى شجرا أو حجرا وقد يكون أحدهم مصيبا ولا يمكن أن يكونوا كلهم مصيبين فقوله الظنونا أفاد أن فيهم من أخطأ الظن ولو قال تظنون بالله ظنا ما كان يفيد هذا ثم قال تعالى ﴿هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا﴾ أى عند ذلك امتحن الله المؤمنين فتميز الصادق عن المنافق والامتحان من الله ليس لاستبانة الامر له بل لحكمة أخرى وهى ان الله تعالى عالم بما هم عليه لكنه أراد اظهار الامر لغيره من الملائكة والانبياء كما ان السيد اذا علم من عبده المخالفة وعزم على معاقبته على مخالفته وعنده غيره من العبيد وغيرهم فيأمره بأمر عالما بأنه يخالفه فيبين الامر عند الغير فتقع المعاقبة على أحسن الوجوه حيث لا يقع لاحد أنها بظلم أو من قلة حلم وقوله وزلزلوا أى أزعجوا وحركوا فمن ثبت منهم كان من الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا ذكر الله تطمئن مرة أخرى وهم المؤمنون حقا ثم قال تعالى ﴿واذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون ان بيوتنا عورة وما هى بعورة ان يريدون الا فرارا﴾ فسر الظنون وبين ان المنافقين ظنوا ان ما قال الله ورسوله كان زورا ووعدهما كان غرورا حيث قطعوا بأن الغلبة واقعة وقوله واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم أى لا وجه لاقامتكم مع محمد كما يقال لا اقامة على الذل والهوان أى لا وجه لها ويثرب اسم للبقعة التى هى المدينة

الوقوف على سريرة أمرك وقرئ وقرّي بكسر القاف وهي لغة نجد واشتقاقه من القرار فان العين اذا رأت ما يسر النفس سكنت اليه من النظر الى غيره أو من القر فان دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارة ولذلك يقال قرة العين وسخنة العين للمحبوب والمكروه (فاما ترين من البشر أحدا) أي آدميا كائنا من كان وقرئ ترئن على لغة من يقول لبأت بالحج لما بين الهمزة والياء من التآخي (فقولي) له ان استنطقك (انى نذرت للرحمن صوما) أي صمتا وقد قرئ كذلك أو صياما وكان صيامهم بالسكوت (فلن أكلم اليوم انسيا) أي بعد أن أخبرتكم بنذري وانما أكلم الملائكة وأناجي ربي وقيل أمرت بان تخبر بنذرها بالاشارة وهو الاظهر قال الفراء العرب تسمي كل ما وصل الى الانسان كلاما بأي طريق وصل ما لم يؤكد بالمصدر فاذا أكد لم يكن الا حقيقة الكلام وانما أمرت بذلك لكراهة مجادلة السفهاء ومناقلتهم والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام فانه نص قاطع في قطع الطعن (فأتت به قومها) أي جاءتهم مع ولدها راجعة اليهم عندما طهرت من نفاسها (تحمله) أي حاملة له (قالوا) مؤنبين لها (يا مريم لقد جئت) أي فعلت (شيئا فريا) أي عظيما بديعا منكرا من فري الجلد أي قطعه أي جئت مجيئا عجيبا عبر عنه بالشئ تحقيقا للاستغراب (يا أخت هرون) استئناف لتجديد التعيير وتأكيد التوبيخ عنوا به هرون النبي عليه السلام وكانت من أعقاب من كان معه في طبقة الاخوة وقيل كانت من نسله وكان بينهما ألف سنة وقيل هو رجل صالح أو طالح كان في زمانهم شبهوها به أي كنت عندنا مثله في الصلاح أو شتموها به (ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) تقرير لكون ما جاءت به فريا منكرا وتنبيه على أن ارتكاب الفواحش

فارجعوا أي عن محمد واتفقوا مع الاحزاب تخرجوا من الاحزان ثم السامعون عزموا على الرجوع واستأذنوه وتعللوا بان بيوتنا عورة أي فيها خلل لا يأمن صاحبها السارق على متاعه والعدو على أتباعه ثم بين الله كذبهم بقوله وما هي بعورة وبين قصدهم وما تكن صدورهم وهو الفرار وزوال القرار بسبب الخوف ﴿ ثم قال تعالى ﴿ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها الا يسيرا﴾ اشارة الى أن ذلك الفرار والرجوع ليس لحفظ البيوت لان من يفعل فعلا لغرض فاذا فاته الغرض لا يفعله كمن يبذل المال لكي لا يؤخذ منه بيته فاذا أخذ منه البيت لا يبذله فقال الله تعالى هم قالوا بأن رجوعنا عنك لحفظ بيوتنا ولو دخلها الاحزاب وأخذوها منهم لرجعوا أيضا وليس رجوعهم عنك الا بسبب كفرهم وحبهم الفتنة وقوله ولو دخلت عليهم احتمل أن يكون المراد المدينة واحتمل أن يكون البيوت وقوله وما تلبثوا بها يحتمل أن يكون المراد الفتنة الا يسيرا فانها تزول وتكون العاقبة للمتقين ويحتمل أن يكون المراد المدينة أو البيوت أي ما تلبثوا بالمدينة الا يسيرا فان المؤمنين يخرجونهم ﴿ ثم قال تعالى ﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار وكان عهد الله مسؤلا قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل﴾ بيانا لفساد سريرتهم وقبح سيرتهم لنقضهم العهود فانهم قبل ذلك تخلفوا وأظهروا عذرا وندما وذكروا أن القتال لا يزل لهم قدما ثم هددهم بقوله وكان عهد الله مسؤلا وقوله قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل اشارة الى أن الامور مقدرة لا يمكن الفرار مما وقع عليه القرار وما قدره الله كائن فمن أمر بشئ اذا تخلفه يبقى في ورطة العقاب آجلا ولا ينتفع بالمخالفة عاجلا ﴿ ثم قال تعالى ﴿واذا لا تمتعون الا قليلا﴾ كأنه يقول ولو فررتم منه في يومكم مع انه غير ممكن لمادمتم بل لا تمتعون الا قليلا فالعاقل لا يرغب في شئ قليل مع انه يفوت عليه شيأ كثيرا فلا فرار لكم ولو كان لما متعتم بعد الفرار الا قليلا ﴿ ثم قال تعالى ﴿قل من ذا الذي يعصمكم من الله ان أراد بكم سوأ أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا﴾ بيانا لما تقدم من قوله لن ينفعكم الفرار وقوله ولا يجدون لهم من دون الله تقرير لقوله من ذا الذي يعصمكم أي ليس لكم ولي يشفع لمحبته اياكم ولا نصير ينصركم ويدفع عنكم السوء اذا أتاكم ﴿ ثم قال تعالى ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس الا قليلا أشحة عليكم﴾ أي الذين يثبطون المسلمين ويقولون تعالوا الينا ولا تقاتلوا مع محمد صلى الله عليه وسلم وفيهم وجهان (أحدهما) أنهم المنافقون الذين كانوا يقولون للانصار لا تقاتلوا وأسلموا محمدا الى قريش (وثانيهما) اليهود الذين كانوا يقولون لاهل المدينة تعالوا الينا وكونوا معنا وهلم بمعنى تعال أو احضر ولا تجمع في لغة الحجاز وتجمع في غيرها فيقال للجماعة هلموا وللنساء هلممن وقوله ولا يأتون البأس الا قليلا يؤيد الوجه الاول وهو أن المراد منهم المنافقون وهو يحتمل وجهين (أحدهما) لا يأتون البأس بمعنى يتخلفون عنكم ولا يخرجون معكم وحينئذ قوله تعالى أشحة عليكم أي بخلاء حيث لا ينفقون في سبيل الله شيأ (وثانيهما) لا يأتون البأس بمعنى لا يقاتلون معكم ويتعللون عن الاشتغال بالقتال وقت الحضور معكم وقوله أشحة عليكم أي بأنفسهم وأبدانهم ﴿ ثم قال تعالى ﴿فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير﴾ اشارة الى غاية جبنهم ونهاية روعهم واعلم أن البخل شبيه الجبن فلما ذكر البخل بين سببه وهو الجبن والذي يدل عليه هو أن الجبان يبخل بماله ولا ينفقه في سبيل الله لانه لا يتوقع الظفر فلا يرجو الغنيمة فيقول هذا انفاق لا بدل له فيتوقف فيه وأما الشجاع فيتيقن الظفر والاغتنام فيهون عليه اخراج المال في القتال طمعا فيما هو أضعاف ذلك وأما بالنفس والبدن فكذلك

من أولاد الصالحين أغش (فأشارت اليه) أى الى عيسى عليه السلام أن كلموه والظاهر أنها حينئذ بينت نذرها وأنها بمعزل من محاورة الانس حسبما أمرت ففيه دلالة على أن المأمور به بيان نذرها بالاشارة لا بالعبارة والجمع بينهما أعما لا عهد به (قالوا) منكرين لجوابها (كيف نكلم من كان فى المهد صبيا) ولم نعهد فيما سلف صبيا يكلمه عاقل وقيل كان لايقاع مضمون الجملة فى زمان ماض مبهم صالح للقريبه والبعيد وهو ههنا للقريبة خاصة بدليل انه مسوق للتعجب وقيل هى زائدة والظرف صلة من وصبيا حال من المستكن فيه أو هى تامة أو دائمة كما فى قوله تعالى وكان الله عليما حكيما (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من سياق النظم الكريم كأنه قيل فماذا كان بعد ذلك فقيل قال عيسى عليه السلام (انى عبد الله) أنطقه الله عز وجل بذلك أولا لأنه أول المقامات وللرد على من يزعم ربوبيته قيل كان المستنطق لعيسى زكريا عليهما الصلاة والسلام وعن السدى رضى الله عنه لما أشارت اليه غضبوا وقالوا لسخريتها بنا أشد علينا مما فعلت وروى أنه عليه السلام كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار اليهم بسبابته فقال ما قال الخ وقيل كلمهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان (آتانى الكتاب) أى الانجيل (وجعلنى نبيا وجعلنى) مع ذلك (مباركا) نفاعا معلما للخير والتعبير بلفظ الماضى فى الافعال الثلاثة اما باعتبار ما سبق فى القضاء المحتوم أو بجعل ما فى شرف الوقوع لا محالة واقعا وقيل أكمله الله عقلا واستنبأه طفلا (أينما كنت) أى حيثما كنت (وأوصانى بالصلوة) أى أمرنى بها أمرا مؤكدا (والزكوة) زكاة المال ان ملكته أو بتطهير النفس عن الرذائل (مادمت حيا) فى الدنيا (وبرا بوالدتى) عطف على مباركا

فان الجبان يخاف قرنه ويتصور القتل فيجبن ويترك الاقدام وأما الشجاع فيحكم بالغلبة والنصر فيقدم وقوله تعالى فاذا ذهب الخوف سلقوكم أى غلبوكم بالسنة وآذوكم بكلامهم يقولون نحن الذين قاتلنا وبنا انتصرتم وكسرتم العدو وقهرتم ويطالبونكم بالقسم الاوفر من الغنيمة وكانوا من قبل راضين من الغنيمة بالاياب وقوله أشحة على الخير قيل الخير المال ويمكن أن يقال معناه انهم قليلو الخير فى الحالتين كثير والشر فى الوقتين فى الاول يبخلون وفى الآخر كذلك ﴿ ثم قال تعالى ﴿أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا﴾ يعنى لم يؤمنوا حقيقة وان أظهروا الايمان لفظا فأحبط الله أعمالهم التى كانوا يأتون بها مع المسلمين وقوله وكان ذلك على الله يسيرا اشارة الى ما يكون فى نظر الناظر كما فى قوله تعالى وهو أهون عليه وذلك لان الاحباط اعدام واهدار واعدام الاجسام اذا نظر الناظر يقول الجسم اعدامه بتفريق أجزائه فان من أحرق شيئا يبقى منه رماد وذلك لان الرماد ان فرقته الريح يبقى منه ذرات وهذا مذهب بعض الناس والحق هو ان الله يعدم الاجسام ويعيد ما يشاء منها وأما العمل فهو فى العين معدوم وان كان يبقى يبقى حكمه وآثاره فاذا لم يكن له فائدة واعتبار فهو معدوم حقيقة وكذا العمل اذا لم يعتبر فهو معدوم فى الحقيقة بخلاف الجسم ﴿ ثم قال تعالى ﴿يحسبون الاحزاب لم يذهبوا وان يأت الاحزاب يودوا لو انهم بادون فى الاعراب يسئلون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ أى من غاية الجبن عند ذهابهم كانوا يخافون ويتهم وعند مجيئهم كانوا يودون لو كانوا فى البوادى ولا يكونون بين المقاتلين مع انهم عند حضورهم كأنهم غائبون حيث لا يقاتلون كما قال تعالى ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا ﴿ ثم قال تعالى ﴿ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الا ايمانا وتسليما﴾ لما بين حال المنافقين ذكر حال المؤمنين وهو انهم قالوا هذا ما وعدنا الله من الابتلاء ثم قالوا وصدق الله ورسوله فى مقابلة قولهم ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا وقولهم وصدق الله ورسوله ليس اشارة الى ما وقع فانهم كانوا يعرفون صدق الله قبل الوقوع وانما هى اشارة الى بشارة وهو انهم قالوا هذا ما وعدنا الله وقد وقع وصدق الله فى جميع ما وعد فيقع الكل مثل فتح مكة وفتح الروم وفارس وقوله ما زادهم الا ايمانا بوقوعه وتسليما عند وجوده ﴿ ثم قال تعالى ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين ان شاء أو يتوب عليهم ان الله كان غفورا رحيما ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا﴾ اشارة الى وفائهم بعهدهم الذى عاهدوا الله انهم لا يفارقون نبيه الا بالموت فمنهم من قضى نحبه أى قاتل حتى قتل فوفى بنذره والنحب النذر ومنهم من هو بعد فى القتال ينتظر الشهادة وفاء بالعهد وما بدلوا تبديلا بخلاف المنافقين فانهم قالوا لا نولى الادبار فبدلوا قولهم وولوا أدبارهم وقوله ليجزى الله الصادقين بصدقهم أى بصدق ما وعدهم فى الدنيا والآخرة كما صدقوا ما وعدهم ويعذب المنافقين الذين كذبوا وأخلفوا وقوله ان شاء ذلك فيمنعهم من الايمان أو يتوب عليهم ان أرادوا وانما قال ذلك حيث لم يكن قد حصل يأس النبى عليه السلام عن ايمانهم وآمن بعد ذلك ناس منهم وقوله وكان الله غفورا حيث ستر ذنوبهم ورحيما حيث رحمهم ورزقهم الايمان فيكون حفظا لمن آمن بعده أو نقول ويعذب المنافقين مع انه كان غفورا رحيما لكثرة ذنوبهم وقوة جرمهم ولو كان دون ذلك لغفر لهم ثم بين بعض ما جازاهم الله به على صدقهم فقال ورد الله الذين كفروا بغيظهم أى مع غيظهم لم يشفوا صدرا ولم يحققوا أمرا وكفى الله المؤمنين القتال أى لم يحوجهم الى قتال

أى جعلنى بارا بها وقرئ بالكسر على أنه مصدر وصف به مبالغة أو منصوب بمضمر دل عليه أوصانى أى وكلفنى برا ويؤيده القراءة بالكسر والجر عطفا على الصلاة والزكاة والتنكير للتفخيم (ولم يجعلنى جبارا شقيا) عند الله تعالى لفرط تكبره (والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) كما هو على يحيى على أن التعريف للعهد والاظهر أنه للجنس والتعريض باللعن على أعدائه فان اثبات جنس السلام لنفسه تعريض باثبات ضده لاضداده كما فى قوله تعالى والسلام على من اتبع الهدى فانه تعريض بأن العذاب على من كذب وتولى (ذلك) اشارة الى من فصلت نعوته الجليلة وما فيه من معنى البعد للدلالة على علو مرتبته وبعد منزلته وامتيازه بتلك المناقب الحميدة عن غيره ونزوله منزلة المشاهد المحسوس (عيسى ابن مريم) لا ما يصفه النصارى وهو تكذيب لهم فيما يزعمونه على الوجه الابلغ والمنهاج البرهانى حيث جعله موصوفا باضداد ما يصفونه (قول الحق) بالنصب على أنه مصدر مؤكد لقال انى عبد الله الخ وقوله تعالى ذلك عيسى ابن مريم اعتراض مقرر لمضمون ما قبله وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أى هو قول الحق الذى لا ريب فيه والاضافة للبيان والضمير للكلام السابق أو لتمام القصة وقيل صفة عيسى أو بدله أو خبر ثان ومعناه كلمة الله وقرئ قال الحق وقول الحق فان القول والقول والقال فى معنى واحد (الذى فيه يمترون) أى يشكون أو يتنازعون فيقول اليهود ساحر والنصارى ابن الله وقرئ بتاء الخطاب (ما كان لله) أى ما صح وما استقام له تعالى (أن يتخذ من ولد سبحانه) تكذيب للنصارى وتنزيه له تعالى عما بهتوه وقوله تعالى (اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون) تبكيت لهم ببيان أن شأنه تعالى اذا قضى

وكان الله قويا غير محتاج الى قتالهم عزيزا قادرا على استئصال الكفار واذلالهم ۞ ثم قال تعالى ﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا﴾ أى عاونوهم من أهل الكتاب وهم بنو قريظة من صياصيهم من قلاعهم وقذف فى قلوبهم الرعب حتى سلموا أنفسهم للقتل وأولادهم ونساءهم للسبى فريقا تقتلون وهم الرجال وتأسرون فريقا وهم الصبيان والنسوان فان قيل هل فى تقديم المفعول حيث قال فريقا تقتلون وتأخيره حيث قال وتأسرون فريقا فائدة قلت قد أجبنا ان ما من شئ من القرآن الا وله فوائد منها ما يظهر ومنها ما لا يظهر والذى يظهر من هذا والله أعلم ان القائل يبدأ بالاهم فالاهم والاعرف فالاعرف والاقرب فالاقرب والرجال كانوا مشهورين فكان القتل واردا عليهم والاسرى كانوا هم النساء والصغار ولم يكونوا مشهورين والسبى والاسر أظهر من القتل لانه يبقى فيظهر لكل أحد انه أسير فقدم من المحلين ما هو أشهر على الفعل القائم به وما هو أشهر من الفعلين قدمه على المحل الاخفى وان شئنا نقول بعبارة توافق المسائل النحوية فنقول قوله فريقا تقتلون فعل ومفعول والاصل فى الجمل الفعلية تقديم الفعل على المفعول والفاعل أما انها جملة فعلية فلانها لو كانت اسمية لكان الواجب فى فريق الرفع وكان يقول فريق منهم تقتلونهم فلما نصب كان ذلك بفعل مضمر يفسره الظاهر تقديره تقتلون فريقا تقتلون والعامل على مثل هذا الكلام شدة الاهتمام ببيان المفعول وههنا كذلك لانه تعالى لما ذكر حال الذين ظاهروهم وانه قذف فى قلوبهم الرعب فلو قال تقتلون الى أن يسمع السامع مفعول تقتلون يمكن زمان وقد يمنعه مانع فيفوته فلا يعلم انهم هم المقتولون فأما اذا قال فريقا مع سبق فى قلوبهم الرعب الى سمعه يستمع الى اتمام الكلام واذا كان الاول فعلا ومفعولا قدم المفعول لفائدة عطف الجملة الثانية عليها على الاصل فعدم تقديم الفعل لزوال موجب التقديم اذا عرف حالهم وما يجىء بعده يكون مصروفا اليهم ولو قال بعد ذلك وفريقا تأسرون فمن سمع فريقا ربما يظن أن يقال فيهم يطلقون أولا يقدرون عليهم فكان تقديم القتل ههنا أولى وكذلك الكلام فى قوله وأنزل الذين ظاهروهم وقوله وقذف فان قذف الرعب قبل الانزال لان الرعب صار سبب الانزال ولكن لما كان الفرح فى انزالهم أكثر قدم الانزال على قذف الرعب والله أعلم ۞ ثم قال تعالى ﴿وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤها وكان الله على كل شئ قديرا﴾ فيه ترتيب على ما كان فان المؤمنين أولا تملكوا أرضهم بالنزول فيها والاستيلاء عليها ثم تملكوا ديارهم بالدخول عليهم وأخذ قلاعهم ثم أموالهم التى كانت فى بيوتهم وقوله وأرضا لم تطؤها قيل المراد القلاع وقيل المراد الروم وأرض فارس وقيل كل ما يؤخذ الى يوم القيامة وكان الله على كل شئ قديرا هذا يؤكد قول من قال ان المراد من قوله وأرضا لم تطؤها ما سيؤخذ بعد بنى قريظة ووجهه هو ان الله تعالى لما ملكهم تلك البلاد ووعدهم بغيرها دفع استبعاد من لا يكون قوى الاتكال على الله تعالى وقال أليس الله ملككم هذه فهو على كل شئ قدير يملككم غيرها ۞ ثم قال تعالى ﴿يا أيها النبى قل لازواجك ان كنتن تردن الحيوة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما﴾ وجه التعلق هو ان مكارم الاخلاق منحصرة فى شيئين التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله والى هذا أشار عليه الصلاة والسلام بقوله الصلاة وما ملكت أيمانكم ثم ان الله تعالى لما أرشد نبيه الى ما يتعلق بجانب التعظيم لله بقوله يا أيها النبى اتق الله ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة وبدأ بالزوجات فانهن أولى الناس بالشفقة ولهذا قدمهن فى النفقة وفى الآية مسائل فقهية منها أن التخيير هل كان واجبا على النبى عليه الصلاة والسلام أم لا فنقول التخيير

أمرا من الامور أن يتعلق به ارادته فيكون حينئذ بلا تأخير فمن هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد وقرئ فيكون بالنصب على الجواب وقوله تعالى (وان الله ربي وربكم فاعبدوه) من تمام كلام عيسى عليه السلام قيل هو عطف على قوله اني عبد الله داخل تحت القول وقد قرئ بغير واو وقرئ بفتح الهمزة على حذف اللام أي ولانه تعالى ربي وربكم ٦١٣ فاعبدوه كقوله تعالى وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا وقيل معطوف على الصلاة (هذا) أي الذي ذكرته من التوحيد (صراط مستقيم) لا يضل سالكه والفاء في قوله تعالى (فاختلف الاحزاب من بينهم) لترتيب ما بعدها على ما قبلها تنبيها على سوء صنيعهم بجعلهم ما يوجب الاتفاق منشأ للاختلاف فان ما حكي من مقالات عيسى عليه السلام مع كونها نصوصا قاطعة في كونه عبده تعالى ورسوله قد اختلفت اليهود والنصارى بالتفريط والافراط أو فرق النصارى فقالت النسطورية هو ابن الله وقالت اليعقوبية هو الله هبط الى الارض ثم صعد الى السماء تعالى عن ذلك علوا كبيرا وقالت الملكانية هو عبد الله ونبيه (فويل للذين كفروا) وهم المختلفون عبر عنهم بالموصول ايذانا بكفرهم جميعا واشعارا بعلة الحكم (من مشهد يوم عظيم) أي من شهود يوم عظيم الهول والحساب والجزاء وهو يوم القيامة أو من وقت شهوده أو من مكان الشهود فيه أو من شهادة ذلك اليوم عليهم وهو أن يشهد عليهم الملائكة والانبياء عليهم السلام وألسنتهم وآذانهم وأيديهم وأرجلهم وسائر آرابهم بالكفر والفسوق أو من وقت الشهادة أو من مكانها وقيل هو ما شهدوا به في حق عيسى وأمه عليهما السلام (أسمع بهم وأبصر) تعجب من حدة سمعهم وابصارهم يومئذ ومعناه ان أسماعهم وأبصارهم (يوم يأتوننا) للحساب

قولا كان واجبا من غير شك لانه ابلاغ الرسالة لان الله تعالى لما قال له قل لهم صار من الرسالة وأما التخيير معنى فيبنى على ان الامر للوجوب أم لا والظاهر انه للوجوب ومنها ان واحدة منهن لو اختارت الفراق هل كان يصير اختيارها فراقا والظاهر انه لا يصير فراقا وانما تبين المختارة نفسها بابانة من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ※ ومنها ان واحدة منهن ان اختارت نفسها وقلنا بانها لا تبين الا بابانة من جهة النبي عليه الصلاة والسلام فهل كان يجب على النبي عليه السلام الطلاق أم لا الظاهر نظرا الى منصب النبي عليه الصلاة والسلام أنه كان يجب لان الخلف في الوعد من النبي غير جائز بخلاف واحد منا فانه لا يلزمه شرعا الوفاء بما يعد ※ ومنها ان المختارة بعد البينونة هل كانت تحرم على غيره أم لا والظاهر انها لا تحرم والا لا يكون التخيير ممكنا لها من التمتع بزينة الدنيا ومنها ان من اختارت الله ورسوله كان يحرم على النبي عليه الصلاة والسلام طلاقها أم لا الظاهر الحرمة نظرا الى منصب الرسول عليه الصلاة والسلام على معنى ان النبي عليه السلام لا يباشره أصلا بمعنى انه لو أتى به لعوقب أو عوتب ※ وفيها لطائف لفظية ※ منها تقديم اختيار الدنيا اشارة الى أن النبي عليه الصلاة والسلام غير ملتفت الى جانبهن غاية الالتفات وكيف وهو مشغول بعبادة ربه ※ ومنها قوله عليه السلام أسرحكن سراحا جميلا اشارة الى ما ذكرنا فان السراح الجميل مع التأذي القوي لا يجتمع في العادة فعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام ما كان يتأثر من اختيارهن فراقه بدليل ان التسريح الجميل منه ※ ومنها قوله وان كنتن تردن الله اعلاما لهن بأن في اختيار النبي عليه السلام اختيار الله ورسوله والدار الآخرة وهذه الثلاثة هي الدين وقوله أعد للمحسنات منكن أي لمن عمل صالحا منكن وقوله تردن الله ورسوله والدار الآخرة فيه معنى الايمان وقوله للمحسنات لبيان الاحسان حتى تكون الآية في المعنى كقوله تعالى ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن وقوله تعالى من آمن وعمل صالحا وقوله الذين آمنوا وعملوا الصالحات والاجر العظيم الكبير في الذات الحسن في الصفات الباقي في الاوقات وذلك لان العظيم في الاجسام لا يطلق الا على الزائد في الطول وفي العرض وفي العمق حتى لو كان زائدا في الطول يقال له طويل ولو كان زائدا في العرض يقال له عريض وكذلك العميق فاذا وجدت الامور الثلاثة قيل عظيم فيقال جبل عظيم اذا كان عاليا ممتدا في الجهات وان كان مرتفعا فحسب يقال جبل عال اذا عرفت هذا فأجر الدنيا في ذاته قليل وفي صفاته غير خال عن جهة قبح لما في مأكوله من الضرر والثقل وكذلك في مشروبه وغيره من اللذات وغير دائم وأجر الآخرة كثير خال عن جهات القبح دائم فهو عظيم ※ ثم قال تعالى ﴿يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا﴾ لما خيرهن النبي صلى الله عليه وسلم واخترن الله ورسوله أدبهن الله وهددهن للتوقي عما يسوء النبي عليه السلام ويقبح بهن من الفاحشة التي هي أصعب على الزوج من كل ما تأتي به زوجته وأوعدهن بتضعيف العذاب وفيه حكمتان (أحداهما) ان زوجة الغير تعذب على الزنا بسبب ما في الزنا من المفاسد وزوجة النبي تعذب ان أتت به لذلك ولايذاء قلبه والازراء بمنصبه وعلى هذا بنات النبي عليه السلام كذلك ولان امرأة لو كانت تحت النبي صلى الله عليه وسلم وأتت بفاحشة تكون قد اختارت غير النبي عليه السلام ويكون ذلك الغير خيرا عندها من النبي وأولى والنبي أولى من النفس التي هي أولى من الغير فقد نزلت منصب النبي مرتبتين فتعذب من العذاب ضعفين (ثانيهما) ان هذا اشارة الى شرفهن لان الحرة عذابها ضعف عذاب الامة اظهارا لشرفها ونسبة النبي الى غيره من الرجال نسبة السادات الى العبيد لكونه أولى بهم من أنفسهم فكذلك زوجاته وقرائبه اللاتي هن أمهات المؤمنين وأم

والجزاء أي يوم القيامة جدير بان يتعجب منهما بعد أن كانوا في الدنيا صما عميا أو تهديد بما سيسمعون ويبصرون يومئذ وقيل أمر بأن يسمعهم ويبصرهم مواعيد ذلك اليوم وما يحيق بهم فيه والجار والمجرور على الاول في موقع الرفع وعلى الثاني في حيز النصب (لكن الظالمون اليوم) أي في الدنيا

(في ضلال مبين) لا تدرك غايته حيث أغفلوا الاستماع والنظر بالكلية ووضع الظالمين

الشخص امرأة حاكمة عليه واجبة الطاعة وزوجته مأمورة محكومة له وتحت طاعته فصارت زوجة الغير بالنسبة الى زوجة النبي عليه السلام كالامة بالنسبة الى الحرة واعلم أن قول القائل من يفعل ذلك في قوة قوله لئن أشركت ليحبطن عملك من حيث أن ذلك ممكن الوقوع في أول النظر ولا يقع في بعض الصور جزما وفي بعض يقع جزما من مات فقد استراح وفي البعض يتردد السامع في الامرين فقوله تعالى من يأت منكن بفاحشة عند نا من القبيل الاول فان الانبياء صان الله زوجاتهم عن الفاحشة وقوله تعالى وكان ذلك على الله يسيرا أي ليس كونكن تحت النبي عليه السلام وكونكن شريفات جليلات مما يدفع العذاب عنكن وليس أمر الله كامر الخلق حيث يتعذر عليهم تعذيب الاعزة بسبب كثرة أوليائهم وأعوانهم أو شفعائهم واخوانهم ۞ ثم قال تعالى ﴿ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا﴾ بيانا لزيادة ثوابهن كما بين زيادة عقابهن ﴿نؤتها أجرها مرتين﴾ في مقابلة قوله تعالى يضاعف لها العذاب ضعفين مع لطيفة وهي ان عند ايتاء الاجر ذكر المؤتي وهو الله وعند العذاب لم يصرح بالمعذب فقال يضاعف اشارة الى كمال الرحمة والكرم كما أن الكريم الحي عند النفع يظهر نفسه وفعله وعند الضر لا يذكر نفسه ۞ وقوله تعالى ﴿وأعتدنا لها رزقا كريما﴾ وصف رزق الآخرة بكونه كريما مع أن الكريم لا يكون الا وصفا للرازق اشارة الى معنى لطيف وهو ان الرزق في الدنيا مقدر على أيدي الناس التاجر يسترزق من السوقة والعاملين والصناع من المستعملين والملوك من الرعية والرعية منهم فالرزق في الدنيا لا يأتي بنفسه وانما هو مسخر للغير يمسكه ويرسله الى الاغيار واما في الآخرة فلا يكون له مرسل وممسك في الظاهر فهو الذي يأتي بنفسه فلاجل هذا لا يوصف في الدنيا بالكريم الا الرازق وفي الآخرة يوصف بالكريم نفس الرزق ۞ ثم قال تعالى ﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء﴾ لما ذكر أن عذابهن ضعف عذاب غيرهن واجرهن مثلا أجر غيرهن صرن كالحرائر بالنسبة الى الاماء فقال لستن كأحد ومعنى قول القائل ليس فلان كآحاد الناس يعني ليس فيه مجرد كونه انسانا بل وصف أخص موجود فيه وهو كونه عالما أو عاملا أو نسيبا أو حسيبا فان الوصف الاخص اذا وجد لا يبقى التعريف بالاعم فان من عرف رجلا ولم يعرف منه غير كونه رجلا يقول رأيت رجلا فان عرف علمه يقول رأيت زيدا أو عمرا فكذلك قوله تعالى لستن كاحد من النساء يعني فيكن غير ذلك أمر لا يوجد في غيركن وهو كونكن أمهات جميع المؤمنين وزوجات خير المرسلين وكما أن محمدا عليه السلام ليس كاحد من الرجال كما قال عليه السلام لست كاحدكم كذلك قرائبه اللاتي يشرفن به وبين الزوجين نوع من الكفاءة ۞ ثم قوله تعالى ﴿ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول﴾ يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون متعلقا بما قبله على معنى لستن كأحد ان اتقيتن فان الاكرم عند الله هو الاتقى (وثانيهما) أن يكون متعلقا بما بعده على معنى ان اتقيتن فلا تخضعن والله تعالى لما منعهن من الفاحشة وهي الفعل القبيح منعهن من مقدماتها وهي المحادثة مع الرجال والانقياد في الكلام للفاسق ۞ وقوله تعالى ﴿فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ أي فسق ۞ وقوله تعالى ﴿وقلن قولا معروفا﴾ أي ذكر الله وما يحتجن اليه من الكلام والله تعالى لما قال فلا تخضعن بالقول ذكر بعده وقلن اشارة الى أن ذلك ليس أمرا بالايذاء والمنكر بل القول المعروف عند الحاجة هو المأمور به لا غيره ۞ ثم قال تعالى ﴿وقرن في بيوتكن﴾ من القرار واسقاط أحد حرفي التضعيف كما قال تعالى فظلتم تفكهون وقيل بأنه من الوقار كما يقال وعد يعد عد ۞ وقوله ﴿ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى﴾ قيل معناه لا تتكسرن ولا تتغنجن ويحتمل أن يكون المراد لا تظهرن زينتكن وقوله تعالى الجاهلية الاولى فيه

موضع الضمير للايذان بأنهم في ذلك ظالمون لانفسهم (وأنذرهم يوم الحسرة) أي يوم يتحسر الناس قاطبة أما المسيء فعلى اساءته وأما المحسن فعلى قلة احسانه (اذ قضي الامر) أي فرغ من الحساب وتصادر الفريقان الى الجنة والنار روي أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك فقال حين يجاء بالموت على صورة كبش أملح فيذبح والفريقان ينظرون فينادي المنادي يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت فيزداد أهل الجنة فرحا الى فرح وأهل النار غما الى غم واذبدل من يوم الحسرة أو ظرف للحسرة فان المصدر المعرف باللام يعمل في المفعول الصريح عند بعضهم فكيف بالظرف (وهم في غفلة) أي عما يفعل بهم في الآخرة (وهم لا يؤمنون) وهما جملتان حاليتان من الضمير المستتر في قوله تعالى في ضلال مبين أي مستقرون في ذلك وهم

في تينك الحالتين وما بينهما اعتراض أو من مفعول أنذرهم أي أنذرهم غافلين غير مؤمنين فيكون وجهان حالا متضمنة لمعنى التعليل (انا نحن نرث الارض ومن عليها) لا يبقى لاحد غيرنا عليها وعليهم ملك ولا ملك أو نتوفى الارض ومن عليها بالافناء والاهلاك توفي الوارث لارثه (والينا يرجعون) أي يردون للجزاء لا الى غيرنا استقلالا أو اشتراكا (واذكر) عطف على أنذرهم

(فى الكتاب) أى فى السورة أو فى القرآن (ابراهيم) أى اتل على الناس قصته وبلغها اياهم كقوله تعالى واتل عليهم نبأ ابراهيم فانهم ينتمون اليه عليه السلام فعساهم باستماع قصته يقلعون عماهم فيه من القبائح (انه كان صديقا) ملازما للصدق فى كل ما يأتى ويذر أو كثير التصديق لكثرة ما صدق به من غيوب الله تعالى وآياته وكتبه ورسله والجملة استئناف مسوق لتعليل موجب الامر فان

وصفه عليه السلام بذلك من دواعى ذكره (نبيا) خبرا آخر لكان مقيد للاول مخصص له كما ينبئ عنه قوله تعالى من النبيين والصديقين الآية أى كان جامعا بين الصديقية والنبوة ولعل هذا الترتيب للمبالغة فى الاحتراز عن توهم تخصيص الصديقية بالنبوة فان كل نبى صديق (اذ قال) بدل اشتمال من ابراهيم وما بينهما اعتراض مقرر لما قبله أو متعلق بكان أو نبيا وتعليق الذكر بالاوقات مع أن المقصود تذكير ما وقع فيها من الحوادث قد مر سره مرارا اى كان جامعا بين الاثرتين حين قال (لابيه) آزر متلطفا فى الدعوة مستميلا له (يا ابت) أى يا أبى فان التاء عوض عن ياء الاضافة ولذلك لا يجتمعان وقد قيل يا أبتا لكون الالف بدلا من الياء (لم تعبد ما لا يسمع) ثناءك عليه عند عبادتك له وجؤارك اليه (ولا يبصر) خضوعك وخشوعك بين يديه أو لا يسمع ولا يبصر شيأ

من المسموعات والمبصرات فيدخل فى ذلك ما ذكر دخولا أوليا (ولا يغنى) اى لا يقدر على أن يغنى (عنك شيأ) فى جلب نفع أو دفع ضر ولقد سلك عليه السلام فى دعوته أحسن منهاج وأقوم سبيل واحتج عليه أبدع احتجاج بحسن أدب وخلق جميل لئلا يركب متن المكابرة والعناد ولا ينكب بالكلية عن محجة الرشاد حيث طلب منه علة عبادته لما يستخف به عقل كل عاقل من عالم وجاهل ويأبى

وجهان (أحدهما) أن المراد من كان فى زمن نوح والجاهلية الاخرى من كان بعده (وثانيهما) ان هذه ليست أولى تقتضى أخرى بل معناه تبرج الجاهلية القديمة كقول القائل أين الاكاسرة الجبابرة الاولى ۞ ثم قال تعالى ﴿وأقمن الصلوة وآتين الزكوة وأطعن الله ورسوله﴾ يعنى ليس التكليف فى النهى فقط حتى يحصل بقوله تعالى لا تخضعن ولا تبرجن بل فيه وفى الاوامر فأقمن الصلاة التى هى ترك التشبه بالجبار المتكبر وآتين الزكاة التى هى تشبه بالكريم الرحيم وأطعن الله أى ليس التكليف منحصرا فى المذكور بل كل ما أمر الله به فأتين به وكل ما نهى الله عنه فانتهين عنه ۞ ثم قال تعالى ﴿انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ يعنى ليس المنتفع بتكليفكن هو الله ولا تنفعن الله فيما تأتين به وانما نفعه لكن وأمره تعالى اياكن لمصلحتكن وقوله تعالى ليذهب عنكم الرجس ويطهركم فيه لطيفة وهى ان الرجس قد يزول عينا ولا يطهر المحل فقوله تعالى ليذهب عنكم الرجس أى يزيل عنكم الذنوب ويطهركم أى يلبسكم خلع الكرامة . ثم ان الله تعالى ترك خطاب المؤنثات وخاطب بخطاب المذكرين بقوله ليذهب عنكم الرجس ليدخل فيه نساء أهل بيته ورجالهم واختلف الاقوال فى أهل البيت والاولى أن يقال هم أولاده وأزواجه والحسن والحسين منهم وعلى منهم لانه كان من أهل بيته بسبب معاشرته بنت النبى عليه السلام وملازمته للنبى صلى الله عليه وسلم ۞ ثم قال تعالى ﴿واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله﴾ أى القرآن ﴿والحكمة﴾ أى كلمات النبى عليه الصلاة والسلام اشارة الى ما ذكرنا من أن التكاليف غير منحصرة فى الصلاة والزكاة وما ذكر الله فى هذه الآية فقال واذكرن ما يتلى ليعلمن الواجبات كلها فيأتين بها والمحرمات بأسرها فينتهين عنها ﴿ان الله كان لطيفا خبيرا﴾ اشارة الى أنه خبير بالبواطن لطيف فعلمه يصل الى كل شئ ومنه اللطيف الذى يدخل فى المسام الضيقة ويخرج من المسالك المسدودة ۞ ثم قال تعالى ﴿ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات﴾ لما أمرهن ونهاهن بين ما يكون لهن وذكر لهن عشر مراتب (الاولى) الاسلام والانقياد لامر الله (والثانية) الايمان بما يرد به أمر الله فان المكلف أولا يقول كل ما يقوله أقبله فهذا الاسلام فاذا قال الله شيأ وقبله صدق مقالته وصحح اعتقاده فهو ايمان ثم اعتقاده يدعوه الى الفعل الحسن والعمل الصالح فيقنت ويعبد وهو المرتبة الثالثة المذكورة بقوله ﴿والقانتين والقانتات﴾ ثم اذا آمن وعمل صالحا كمل فيكمل غيره ويأمر بالمعروف وينصح أخاه فيصدق فى كلامه عند النصيحة وهو المراد بقوله ﴿والصادقين والصادقات﴾ ثم ان من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يصيبه أذى فيصبر عليه كما قال تعالى ﴿والصابرين والصابرات﴾ ثم انه اذا كمل وكمل قد يفتخر بنفسه ويعجب بعبادته فمنعه منه بقوله ﴿والخاشعين والخاشعات﴾ أو نقول لما ذكر هذه الحسنات أشار الى ما يمنع منها وهو اما حب الجاه أو حب المال من الامور الخارجية أو الشهوة من الامور الداخلة والغضب منهما يكون لانه يكون بسبب نقص جاه أو فوت مال أو منع من أمر مشتهى فقوله والخاشعين والخاشعات أى المتواضعين الذين لا يميل بهم الجاه عن العبادة ۞ ثم قال تعالى ﴿والمتصدقين والمتصدقات﴾ أى الباذلين الاموال الذين لا يكنزونها لشدة محبتهم اياها ۞ ثم قال تعالى ﴿والصائمين والصائمات﴾ اشارة الى الذين لا تمنعهم الشهوة البطنية من عبادة الله ثم قال تعالى ﴿والحافظين فروجهم والحافظات﴾ أى الذين لا تمنعهم الشهوة الفرجية ۞ ثم قال تعالى ﴿والذاكرين الله كثيرا والذاكرات﴾ يعنى هم فى جميع هذه الاحوال يذكرون الله ويكون اسلامهم وايمانهم وقنوتهم وصدقهم وصبرهم وخشوعهم وصدقتهم وصومهم بنية صادقة لله * واعلم أن الله تعالى فى أكثر المواضع حيث ذكر

الذكر قرنه بالكثرة ههنا وفى قوله بعد هذا يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وقال من قبل لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا لان الاكثار من الافعال البدنية غير ممكن أو عسر فان الانسان أكله وشربه وتحصيل ما كوله ومشروبه يمنعه من أن يشتغل دائما بالصلاة ولكن لا مانع له من أن يذكر الله تعالى وهو آكل ويذكره وهو شارب أو ماش أو بائع أو شار والى هذا أشار بقوله تعالى الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ولان جميع الاعمال صحتها بذكر الله تعالى وهى النية * ثم قال تعالى ﴿أعد الله لهم مغفرة﴾ تمحو ذنوبهم وقوله ﴿وأجرا عظيما﴾ ذكرناه فيما تقدم * ثم قال تعالى ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا﴾ قيل بان الآية نزلت فى زينب حيث أراد النبى صلى الله عليه وسلم تزويجها من زيد بن حارثة فكرهت الا النبى عليه السلام وكذلك أخوها امتنع فنزلت الآية فرضيا به والوجه أن يقال ان الله تعالى لما أمر نبيه بان يقول لزوجاته انهن مخيرات فهم منه ان النبى صلى الله عليه وسلم لا يريد ضرر الغير فمن كان ميله الى شئ يمكنه النبى عليه السلام من ذلك ويترك النبى عليه السلام حق نفسه لحظ غيره فقال فى هذه الآية لا ينبغى أن يظن ظان ان هوى نفسه متبعه وان زمام الاختيار بيد الانسان كما فى الزوجات بل ليس لمؤمن ولا مؤمنة أن يكون له اختيار عند حكم الله ورسوله فما أمر الله هو المتبع وما أراد النبى هو الحق ومن خالفهما فى شئ فقد ضل ضلالا مبينا لان الله هو المقصد والنبى هو الهادى الموصل فمن ترك المقصد ولم يسمع قول الهادى فهو ضال قطعا * ثم قال تعالى ﴿واذ تقول للذى أنعم الله عليه﴾ وهو زيد أنعم الله عليه بالاسلام ﴿وأنعمت عليه﴾ بالتحرير والاعتاق ﴿أمسك عليك زوجك﴾ هم زيد بطلاق زينب فقال له النبى أمسك أى لا تطلقها ﴿واتق الله﴾ قيل فى الطلاق وقيل فى الشكوى من زينب فان زيدا قال فيها انها تتكبر على بسبب النسب وعدم الكفاءة ﴿وتخفى فى نفسك ما الله مبديه﴾ من أنك تريد التزوج بزينب ﴿وتخشى الناس﴾ من أن يقولوا أخذ زوجة الغير أو الابن ﴿والله أحق أن تخشاه﴾ ليس اشارة الى أن النبى خشى الناس ولم يخش الله بل المعنى الله أحق أن تخشاه وحده ولا تخشى أحدا معه وأنت تخشاه وتخشى الناس أيضا فاجعل الخشية له وحده كما قال تعالى الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله * ثم قال تعالى ﴿فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها﴾ أى لما طلقها زيد وانقضت عدتها وذلك لان الزوجة ما دامت فى نكاح الزوج فهى تدفع حاجته وهو محتاج اليها فلم يقض منها الوطر بالكلية ولم يستغن وكذلك اذا كان فى العدة له بها تعلق لامكان شغل الرحم فلم يقض منها بعد وطره وأما اذا طلق وانقضت عدتها استغنى عنها ولم يبق له معها تعلق فيقضى منها الوطر وهذا موافق لما فى الشرع لان التزوج بزوجة الغير أو بمعتدته لا يجوز ولهذا قال فلما قضى وكذلك قوله ﴿لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا﴾ أى اذا طلقوهن وانقضت عدتهن وفيه اشارة الى أن التزويج من النبى عليه السلام لم يكن لقضاء شهوة النبى عليه السلام بل لبيان الشريعة بفعله فان الشرع يستفاد من فعل النبى * وقوله ﴿وكان أمر الله مفعولا﴾ أى مقضيا ما قضاه كائن * ثم بين أن تزوجه عليه السلام بها مع انه كان مبينا للشرع مشتمل على فائدة كان خاليا عن المفاسد فقال ﴿ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله سنة الله فى الذين خلوا من قبل﴾ يعنى كان شرع من تقدمه كذلك كان يتزوج الانبياء بنسوة كثيرة أبكار ومطلقات الغير ﴿وكان أمر الله قدرا مقدورا﴾ أى كل شئ بقضاء وقدر والقدر والتقدير وبين المفعول والمقدور فرق معقول بين القضاء والقدر

الركون اليه فضلا عن عبادته التى هى الغاية القاصية من التعظيم مع أنها لا تحق الا لمن له الاستغناء التام والانعام العام الخالق الرازق المحيى المميت المثيب المعاقب ونبه على أن العاقل يجب أن يفعل كل ما يفعل لداعية صحيحة وغرض صحيح والشئ لو كان حيا مميزا سميعا بصيرا قادرا على النفع والضر مطيقا بايصال الخير والشر لكن كان ممكنا لاستنكف العقل السليم عن عبادته وان كان أشرف الخلائق لما يراه مثله فى الحاجة والانقياد للقدرة القاهرة الواجبة فما ظنك بجماد مصنوع من حجر أو شجر ليس له من أوصاف الأحياء عين ولا أثر ثم دعاه الى أن يتبعه ليهديه الى الحق المبين لما أنه لم يكن محظوظا من العلم الالهى مستقلا بالنظر السوى مصدرا لدعوته بما مر من الاستمالة والاستعطاف حيث قال (يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك) ولم يسم أباه بالجهل المفرط وان كان فى أقصاه ولا نفسه بالعلم الفائق وان كان كذلك بل أبرز نفسه فى صورة رفيق له أعرف بأحوال ما سلكاه من الطريق فاستماله برفق حيث قال (فاتبعنى أهدك صراطا سويا) أى مستقيما موصلا الى أسنى المطالب منجيا عن الضلال المؤدى الى مهاوى الردى والمعاطب ثم ثبطه عما كان عليه بتصويره بصورة يستنكرها كل عاقل ببيان أنه مع عرائه عن النفع بالمرة مستجلب لضرر عظيم فانه فى الحقيقة عبادة الشيطان لما أنه الآمر به فقال (يا أبت لا تعبد الشيطان) فان عبادتك للاصنام عبادة له اذ هو الذى يسولها لك ويغريك عليها وقوله (ان الشيطان كان للرحمن عصيا) تعليل لموجب النهى وتأكيد له ببيان أنه مستعص على ربك الذى أنعم عليك بفنون النعم ولا ريب فى أن المطيع للعاصى عاص وكل من هو عاص حقيق بأن يسترد منه

فالقضاء

فالقضاء ما كان مقصودا في الاصل والقدر ما يكون تابعا له مثاله من كان يقصد مدينة فنزل بطريق تلك المدينة بخان أو قرية يصح منه في العرف أن يقول في جواب من يقول لم جئت الى هذه القرية اني ما جئت الى هذه القرية وانما قصدت المدينة الفلانية وهذه وقعت في طريقي وان كان قد جاءها ودخلها اذا عرفت هذا فان الخير كله بقضائه وما في العالم من الضرر بقدره فالله تعالى خلق المكلف بحيث يشتهي ويغضب ليكون اجتهاده في تغليب العقل والدين عليهما مثابا عليه بأبلغ وجه فافضى ذلك في البعض الى أن زنى وقتل فالله لم يخلق هما فيه مقصودا منه القتل والزنا وان كان ذلك بقدر الله اذا علمت هذا ففي قوله تعالى أولا وكان أمر الله مفعولا وقوله ثانيا وكان أمر قدرا مقدورا لطيفة وهي انه تعالى لما قال زوجناكها قال وكان أمر الله مفعولا أي تزوجنا زينب اياك كان مقصودا متبوعا مقضيا مراعى ولما قال سنة الله في الذين خلوا اشارة الى قصة داود عليه السلام حيث افتتن بامرأة أوريا قال وكان أمر الله قدرا مقدورا أي كان ذلك حكما تبعيا فلو قال قائل هذا قول المعتزلة بالتوليد والفلاسفة بوجوب كون الاشياء على وجوه مثل كون النار تحرق حيث قالوا الله تعالى أراد أن يخلق ما ينضج الاشياء وهو لا يكون الا محرقا بالطبع فخلق النار للنفع فوقع اتفاق أسباب أوجبت احتراق دار زيد أو دار عمرو فنقول معاذ الله أن نقول بأن الله غير مختار في أفعاله أو يقع شيء لا باختياره ولكن أهل السنة يقولون أجرى الله عادته بكذا أي وله أن يخلق النار بحيث عند حاجة انضاج اللحم تنضج وعند مساس ثوب العجوز لا تحرق ألا ترى انها لم تحرق ابراهيم عليه السلام مع قوتها وكثرتها لكن خلقها على غير ذلك الوجه بمحض ارادته أو لحكمة خفية ولا يسئل عما يفعل فنقول ما كان في مجرى عادته تعالى على وجه تدركه العقول البشرية نقول بقضاء وما يكون على وجه يقع لعقل قاصر أن يقول لم كان ولماذا لم يكن على خلافه نقول بقدر ﴿ ثم بين الذين خلوا بقوله ﴿الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه﴾ يعني كانوا هم أيضا مثلك رسلا ﴿ ثم ذكر حالهم انهم جردوا الخشية ووحدوها بقوله ﴿ولا يخشون أحدا الا الله﴾ فصار كقوله فبهداهم اقتده ﴿ وقوله ﴿وكفى بالله حسيبا﴾ أي محاسبا فلا تخش غيره أو محسوبا فلا تلتفت الى غيره ولا تجعله في حسابك ﴿ ثم قال تعالى ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾ لما بين الله ما في تزوج النبي عليه السلام بزينب من الفوائد بين انه كان خاليا من وجوه المفاسد وذلك لان ما كان يتوهم من المفسدة كان منحصرا في التزوج بزوجة الابن فانه غير جائز فقال الله تعالى ان زيدا لم يكن ابنا له لا بل أحد من الرجال لم يكن ابن محمد ﴿ فان قال قائل النبي كان أبا أحد من الرجال لان الرجل اسم الذكر من أولاد آدم قال تعالى وان كانوا اخوة رجالا ونساء والصبي داخل فيه ﴿ فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن الرجل في الاستعمال يدخل في مفهومه الكبر والبلوغ ولم يكن للنبي عليه السلام ابن كبير يقال انه رجل (والثاني) هو أنه تعالى قال من رجالكم ووقت الخطاب لم يكن له ولد ذكر ﴿ ثم انه تعالى لما نفى كونه أبا عقبه بما يدل على ثبوت ما هو في حكم الابوة من بعض الوجوه فقال ﴿ولكن رسول الله﴾ فان رسول الله كالاب للامة في الشفقة من جانبه وفي التعظيم من طرفهم بل أقوى فان النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم والاب ليس كذلك ﴿ ثم بين ما يفيد زيادة الشفقة من جانبه والتعظيم من جهتهم بقوله ﴿وخاتم النبيين﴾ وذلك لان النبي الذي يكون بعده نبي ان ترك شيئا من النصيحة والبيان يستدركه من يأتي بعده وأما من لا نبي بعده يكون أشفق على أمته وأهدى لهم وأجدى اذ هو كوالد لولده الذي ليس له غيره من أحد ﴿ وقوله تعالى ﴿وكان الله بكل شيء عليما﴾ يعني علمه بكل شيء دخل فيه أن لا نبي بعده فعلم أن من الحكمة اكمال شرع محمد صلى الله عليه وسلم

النعم وينتقم منه والاظهار في موضع الاضمار لزيادة التقرير والاقتصار على ذكر عصيانه من بين سائر جناياته لانه ملاكها أو لانه نتيجة معاداته لآدم عليه السلام وذريته فتذكيره داع لابيه الى الاحتراز عن موالاته وطاعته والتعرض لعنوان الرحمانية لاظهار كمال شناعة عصيانه وقوله (يا أبت اني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن) تحذير من سوء عاقبة ما كان عليه من عبادة الشيطان وهو ابتلاؤه بما ابتلي به معبوده من العذاب الفظيع وكلمة من متعلقة بمضمر وقع صفة للعذاب مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية واظهار الرحمن للاشعار بان وصف الرحمانية لا يدفع حلول العذاب كما في قوله عز وجل ما غرك بربك الكريم (فتكون للشيطان وليا) أي قرينا له في اللعن المخلد وذكر الخوف للمجاملة وابراز الاعتناء بامره (قال) استئناف مبني على سؤال نشأ من صدر الكلام كأنه قيل فماذا قال أبوه عندما سمع منه عليه السلام هذه النصائح الواجبة القبول فقيل قال مصرا على عناده (أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم) أي أمعرض ومنصرف أنت عنها بتوجيه الانكار الى نفس الرغبة مع ضرب من التعجب كأن الرغبة عنها مما لا يصدر عن العاقل فضلا عن ترغيب الغير عنها وقوله (لئن لم تنته لارجمنك) تهديد وتحذير عما كان عليه من العظة والتذكير أي والله لئن لم تنته عما كنت عليه من النهي عن عبادتها لارجمنك بالحجارة وقيل باللسان (واهجرني) أي فاحذرني واتركني (مليا) أي زمانا طويلا أو مليا بالذهاب مطيقا به (قال) استئناف كما سلف (سلام عليك) توديع ومتاركة على طريقة مقابلة السيئة بالحسنة أي لا أصيبك بمكروه بعد ولا أشافهك بما يؤذيك ولكن

بتزوجه بزوجة دعيه تكميلا للشرع وذلك من حيث ان قول النبي صلى الله عليه وسلم يفيد شرعا لكن اذا امتنع هو عنه يبقى في بعض النفوس نفرة الا ترى انه ذكر بقوله مافهم منه حل أكل الضب ثم لما لم يأكله بقى في النفوس شئ ولما أكل لحم الجمل طاب أكله مع انه في بعض الملل لا يؤكل وكذلك الارنب ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا﴾ وجه تعلق الآية بما قبلها هو ان السورة أصلها ومبناها على تأديب النبي صلى الله عليه وسلم وقد ذكرنا أن الله تعالى بدأ بذكر ما ينبغي أن يكون عليه النبي عليه السلام مع الله وهو التقوى وذكر ما ينبغي أن يكون عليه النبي عليه السلام مع أهله وأقاربه بقوله يا أيها النبي قل لأزواجك والله تعالى يأمر عباده المؤمنين بما يأمر به أنبياءه المرسلين فأرشد عباده كما أدب نبيه وبدأ بما يتعلق بجانبه من التعظيم فقال يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا كما قال لنبيه يا أيها النبي اتق الله ﴿ثم ههنا لطيفة﴾ وهي ان المؤمن قد ينسى ذكر الله فأمر بدوام الذكر اما النبي لكونه من المقربين لا ينسى ولكن قد يغتر المقرب من الملك بقربه منه فيقل خوفه فقال اتق الله فان المخلص على خطر عظيم وحسنة الاولياء سيئة الانبياء وقوله ذكرا كثيرا قد ذكرنا ان الله في كثير من المواضع لما ذكر الذكر وصفه بالكثرة اذ لا مانع من الذكر على ما بينا ﴿وقوله تعالى﴾ ﴿وسبحوه بكرة وأصيلا﴾ أى اذا ذكرتموه فينبغي أن يكون ذكركم اياه على وجه التعظيم والتنزيه عن كل سوء وهو المراد بالتسبيح وقيل المراد منه الصلاة وقيل للصلاة تسبيحة بكرة وأصيلا اشارة الى المداومة وذلك لان مريد العموم قد يذكر الطرفين ويفهم منهما الوسط كقوله عليه السلام لوأن أولكم وآخركم ولم يذكر وسطكم ففهم منه المبالغة في العموم ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما﴾ يعنى هو يصلى عليكم ويرحمكم وأنتم لا تذكرونه فذكر صلاته تحريضا للمؤمنين على الذكر والتسبيح ليخرجكم من الظلمات الى النور يعنى يهديكم برحمته والصلاة من الله رحمة ومن الملائكة استغفار وقيل بان اللفظ المشترك يجوز استعماله في معنييه معا وكذلك الجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظ جائز وينسب هذا القول الى الشافعي رضى الله عنه وهو غير بعيد فان أريد تقريبه بحيث يصير في غاية القرب نقول الرحمة والاستغفار يشتركان في العناية بحال المرحوم والمستغفر له والمراد هو القدر المشترك فتكون الدلالة تضمنية لكون العناية جزأ منهما وكان بالمؤمنين رحيما اشارة لجميع المؤمنين واشارة الى أن قوله يصلى عليكم غير مختص بالسامعين وقت الوحي ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾ لما بين الله عنايته في الاولى بين عنايته في الآخرة وذكر السلام لانه هو الدليل على الخيرات فان من لقى غيره وسلم عليه دل على المصافاة بينهما وان لم يسلم دل على المنافاة وقوله يوم يلقونه أى يوم القيامة وذلك لان الانسان في دنياه غير مقبل بكليته على الله وكيف وهو طالة يومه غافل عنه وفي أكثر أوقاته مشغول بتحصيل رزقه واما في الآخرة فلا شغل لاحد يلهيه عن ذكر الله فهو حقيقة اللقاء ﴿ثم قال تعالى﴾ ﴿وأعد لهم أجرا كريما﴾ لو قال قائل الاعداد انما يكون ممن لا يقدر عند الحاجة الى الشئ عليه وأما الله تعالى فلا حاجة ولا عجز فحيث يلقاه الله يؤتيه ما يرضى به وزيادة فما معنى الاعداد من قبل فنقول الاعداد للاكرام لا للحاجة وهذا كما أن الملك اذا قيل له فلان واصل فاذا أراد اكرامه يهيئ له بيتا وأنواعا من الاكرام ولا يقول بأنه اذا وصل نفتح باب الخزانة ونؤتيه ما يرضيه فكذلك الله لكمال الاكرام أعد للذاكر أجرا كريما والكريم قد ذكرناه في الرزق أى أعد له أجرا يأتيه من غير طلبه بخلاف الدنيا فانه يطلب الرزق ألف مرة ولا يأتيه الا بقدر وقوله تحيتهم يوم يلقونه سلام مناسب لحالهم لانهم لما ذكروا الله في دنياهم حصل لهم معرفة ولما سبحوه تأكدت المعرفة

(سأستغفر لك ربي) أى أستدعيه أن يغفر لك بأن يوفقك للتوبة ويهديك الى الايمان كما يلوح به تعليل قوله تعالى واغفر لابي بقوله تعالى انه كان من الضالين والاستغفار بهذا المعنى للكافر قبل تبين أنه يموت على الكفر مما لا ريب في جوازه وانما المحظور استدعاء المغفرة له مع بقائه على الكفر فانه مما لا مساغ له عقلا ولا نقلا وأما الاستغفار له بعد موته على الكفر فلا تأباه قضية العقل وانما الذي يمنعه السمع الا يرى الى أنه عليه السلام قال لعمه أبي طالب لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنه فنزل قوله تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية والاشتباه في أن هذا الوعد من ابراهيم عليه السلام وكذا قوله لاستغفرن لك وما ترتب عليهما من قوله واغفر لابي الآية انما كان قبل انقطاع رجائه عن ايمانه لعدم تبين أمره لقوله تعالى فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه كما مر في تفسير سورة التوبة واستثناؤه عما يؤتسى به في قوله تعالى الا قول ابراهيم لابيه لاستغفرن لك لا يقدح في جوازه لكن لا لان ذلك كان قبل ورود النهي أو لموعدة وعدها اياه كما قيل لما أن النهي انما ورد في شأن الاستغفار بعد تبين الامر وقد كان استغفاره عليه السلام قبل التبين فلم يتناوله النهي أصلا وان الوعد بالمحظور لا يرفع حظره بل لان المراد بما يؤتسى به ما يجب الائتساء به حتما لورود الوعيد على الاعراض عنه بقوله تعالى لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فان الله هو الغنى الحميد فاستثناؤه عن ذلك انما يفيد عدم وجوب استدعاء الايمان للكافر المرجو ايمانه لاسيما وقد انقطع ذلك عند ورود الاستثناء وذلك مما لا يتردد فيه أحد من العقلاء وأما عدم جوازه قبل تبين الامر

فلا دلالة للاستثناء عليه قطعا وتوجيه الاستثناء الى العدة بالاستغفار لا الى نفس الاستغفار بقوله واغفر لأبي الآية لأنها كانت هي
الحاملة له عليه السلام عليه وتخصيص تلك العدة بالذكر دون ما وقع ههنا لورودها على نهج التأكيد القسمي وأما جعل الاستغفار دائرا
عليها وترتيب التبرؤ على تبين الأمر فقد مر تحقيقه في تفسير سورة التوبة وقوله ٦١٩ (انه كان بي حفيا) أي بليغا في البر والالطاف

حيث عرفوه كما ينبغي بصفات الجلال ونعوت الكمال والله يعلم حالهم في الدنيا فأحسن اليهم بالرحمة كما قال
تعالى هو الذي يصلي عليكم وقال وكان بالمؤمنين رحيما والمتعارفان اذا التقيا وكان أحدهما شفيقا بالآخر
والآخر معظما له غاية التعظيم لا يتحقق بينهما الا السلام وأنواع الاكرام * ثم قال تعالى ﴿ يا أيها النبي انا
أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ﴾ قد ذكرنا أن السورة فيها تأديب
للنبي عليه السلام من ربه فقوله في ابتدائها يا أيها النبي اتق الله اشارة الى ما ينبغي أن يكون عليه مع ربه
وقوله يا أيها النبي قل لازواجك اشارة الى ما ينبغي أن يكون عليه مع أهله وقوله يا أيها النبي انا أرسلناك
اشارة الى ما ينبغي أن يكون عليه مع عامة الخلق * وقوله تعالى شاهدا يحتمل وجوها (أحدها) انه شاهد على
الخلق يوم القيامة كما قال تعالى ويكون الرسول عليكم شهيدا وعلى هذا فالنبي بعث شاهدا أي متحملا
للشهادة ويكون في الآخرة شهيدا أي مؤديا لما تحمله (ثانيها) انه شاهد أن لا اله الا الله (وعلى هذا لطيفة)
وهو أن الله جعل النبي شاهدا على الوحدانية والشاهد لا يكون مدعيا فالله تعالى لم يجعل النبي في مسئلة
الوحدانية مدعيا لها لأن المدعي من يقول شيأ على خلاف الظاهر والوحدانية أظهر من الشمس والنبي
عليه السلام كان ادعى النبوة فجعل الله نفسه شاهدا له في مجازاة كونه شاهدا لله فقال تعالى والله يشهد
انك لرسوله (وثالثها) انه شاهد في الدنيا بأحوال الآخرة من الجنة والنار والميزان والصراط وشاهد في
الآخرة بأحوال الدنيا بالطاعة والمعصية والصلاح والفساد وقوله ومبشرا ونذيرا وداعيا فيه ترتيب حسن
وذلك من حيث ان النبي عليه السلام أرسل شاهدا بقول لا اله الا الله ويرغب في ذلك بالبشارة فان لم يكف
ذلك يرهب بالانذار ثم لا يكتفي بقولهم لا اله الا الله بل يدعوهم الى سبيل الله كما قال تعالى ادع الى سبيل ربك
وقوله وسراجا منيرا أي مبرهنا على ما يقول مظهرا له بأوضح الحجج وهو المراد بقوله تعالى بالحكمة والموعظة
الحسنة (وفيه لطائف * احداها) قوله تعالى وداعيا الى الله باذنه حيث لم يقل وشاهدا باذنه ومبشرا باذنه
وعند الدعاء قال وداعيا باذنه وذلك لأن من يقول عن ملك انه ملك الدنيا لا غيره لا يحتاج فيه الى اذن منه
فانه وصفه بما فيه وكذلك اذا قال من يطيعه يسعد ومن يعصيه يشقى يكون مبشرا ونذيرا ولا يحتاج الى اذن
من الملك في ذلك وأما اذا قال تعالوا الى سماطه واحضروا على خوانه يحتاج فيه الى اذنه فقال تعالى وداعيا
الى الله باذنه ووجه آخر وهو أن النبي يقول اني أدعو الى الله والولي يدعو الى الله والأول لا اذن له فيه من
أحد والثاني مأذون من جهة النبي عليه السلام كما قال تعالى قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن
اتبعني وقال عليه الصلاة والسلام رحم الله عبدا سمع مقالتي فأداها كما سمعها والنبي عليه السلام هو المأذون
من الله في الدعاء اليه من غير واسطة (اللطيفة الثانية) قال في حق النبي عليه السلام سراجا ولم يقل انه
شمس مع أنها أشد اضاءة من السراج لفوائد منها أن الشمس نورها لا يؤخذ منه شئ والسراج يؤخذ منه أنوار
كثيرة فاذا انطفأ الأول يبقى الذي أخذ منه وكذلك ان غاب والنبي عليه السلام كان كذلك اذ كل صحابي
أخذ منه نور الهداية كما قال عليه السلام أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم * وفي الخبر لطيفة وان كانت
ليست من التفسير ولكن الكلام يجر الكلام وهي ان النبي عليه السلام لم يجعل أصحابه كالسرج وجعلهم
كالنجوم لأن النجم لا يؤخذ منه نور بل له في نفسه نور اذا غرب هو لا يبقى نور مستفاد منه وكذلك الصحابي اذا
مات فالتابعي يستنير بنور النبي عليه السلام ولا يأخذ منه الا قول النبي عليه السلام وفعله فأنوار المجتهدين
كلهم من النبي عليه السلام ولو جعلهم كالسرج والنبي عليه السلام أيضا سراج كان للمجتهد أن يستنير بمن
أراد منهم ويأخذ النور ممن اختار وليس كذلك فان مع نص النبي عليه السلام لا يعمل بقول الصحابي فيؤخذ

تعليل لمضمون ما قبله (وأعتزلكم) أي أتباعد عنك وعن قومك (وما تدعون من دون الله) بالمهاجرة بديني حيث لم تؤثر فيكم نصائحي (وأدعو ربي) أعبده وحده وقد جوز أن يراد به دعاؤه المذكور في تفسير سورة الشعراء ولا يبعد أن يراد به استدعاء الولد أيضا بقوله رب هب لي من الصالحين حسبما يساعده السباق والسياق (عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا) أي خائبا ضائع السعي وفيه تعريض بشقائهم في عبادة آلهتهم وفي تصدير الكلام بعسى من اظهار التواضع ومراعاة حسن الأدب والتنبيه على حقيقة الحق من أن الاجابة والاثابة بطريق التفضل منه عز وجل لا بطريق الوجوب وأن العبرة بالخاتمة وذلك من الغيوب المختصة بالعليم الخبير ما لا يخفى (فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله) بالمهاجرة الى الشام (وهبنا له اسحق ويعقوب) بدل من
فارقهم من أقربائه الكفرة لكن لا عقيب المهاجرة فان المشهور أن الموهوب حينئذ اسمعيل عليه السلام لقوله تعالى فبشرناه بغلام
حليم اثر دعائه بقوله رب هب لي من الصالحين ولعل ترتيب هبتهما على اعتزاله ههنا لبيان كمال عظم النعم التي أعطاها الله تعالى اياه
بمقابلة من اعتزلهم من الأهل والأقرباء فانهما شجرتا الأنبياء لهما أولاد وأحفاد أولو شأن خطير وذوو عدد كثير هذا وقد روي انه عليه

السلام لما قصد الشام أتى أولا حران وتزوج بسارة وولدت له اسحق وولد لاسحق يعقوب والاول هو الاقرب الاظهر (وكلا) أى كل واحد منهما أومنهم وهو مفعول أول لقوله تعالى (جعلنا نبيا) قدم عليه للتخصيص لكن لا بالنسبة الى من عداهم بل بالنسبة الى بعضهم أى كل واحد منهم جعلنا نبيا لا بعضهم

دون بعض (ووهبنا لهم من رحمتنا) هى النبوة وذكرها بعد ذكر جعلهم نبيا للايذان بانها من باب الرحمة وقيل هى المال والاولاد وما بسط لهم من سعة الرزق وقيل هو الكتاب والاظهر انها عامة لكل خير دينى ودنيوى أوتوه مما لم يؤته أحد من العالمين (وجعلنا لهم لسان صدق عليا) يفتخر بهم الناس ويثنون عليهم استجابة لدعوته بقوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين والمراد باللسان ما يوجد به من الكلام ولسان العرب لغتهم واضافته الى الصدق ووصفه بالعلو للدلالة على انهم أحقاء بما يثنون عليهم وأن محامدهم لا تخفى على تباعد الاعصار وتبدل الدول وتحول الملل والنحل (واذكر فى الكتاب موسى) قدم ذكره على ذكر اسمعيل لئلا ينفصل عن ذكر يعقوب عليهما السلام (انه كان مخلصا) موحدا أخلص عبادته عن الشرك والرياء أو أسلم وجهه لله تعالى وأخلص نفسه عما سواه وقرئ مخلصا على ان الله تعالى أخلصه (وكان رسولا نبيا) أرسله الله تعالى الى الخلق فأنبأهم عنه ولذلك قدم رسولا مع كونه أخص وأعلى (وناديناه من جانب الطور الايمن) الطور جبل بين مصر ومدين والايمن صفة للجانب أى ناديناه من ناحيته اليمنى من اليمين وهى التى تلى يمين موسى عليه السلام أو من جانبه الميمون من اليمن ومعنى ندائه منه انه تمثل له الكلام من تلك الجهة (وقربناه نجيا) تقريب تشريف مثل حاله عليه السلام بحال من

من النبى النور ولا يؤخذ من الصحابى فلم يجعله سراجا وهذا يوجب ضعفا فى حديث سراج الامة والمحدثون ذكروه * وفى تفسير السراج وجه آخر وهو ان المراد منه القرآن وتقديره انا أرسلناك وسراجا منيرا عطفا على محل الكاف أى وأرسلنا سراجا منيرا وعلى قولنا انه عطف على مبشرا ونذيرا يكون معناه وذا سراج لان الحال لا يكون الا وصفا للفاعل أو المفعول والسراج ليس وصفا لان النبى عليه السلام يكون سراجا حقيقة أو يكون كقول القائل رأيته أسدا أى شجاعا فقوله سراجا أى هاديا مبينا كالسراج يرى الطريق ويبين الامر * وقوله تعالى ﴿وبشر المؤمنين﴾ عطف على مفهوم تقديره انا أرسلناك شاهدا ومبشرا فاشهد وبشر ولم يذكر فاشهد للاستغناء عنه وأما البشارة فانها ذكرت ابانة للكرم ولانها غير واجبة لولا الامر * وقوله تعالى ﴿بأن لهم من الله فضلا كبيرا﴾ هو مثل قوله وأعد لهم أجرا عظيما فالعظيم والكبير متقاربان وكونه من الله كبير فكيف اذا كان مع ذلك كبارة أخرى * وقوله تعالى ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ اشارة الى الانذار يعنى خالفهم ورد عليهم وعلى هذا فقوله تعالى ﴿ودع أذاهم﴾ أى دعه الى الله فانه يعذبهم بأيديكم وبالنار ويبين هذا قوله تعالى ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا﴾ أى الله كاف عبده قال بعض المعتزلة لا يجوز تسمية الله بالوكيل لان الوكيل أدون من الموكل وقوله تعالى وكفى بالله وكيلا حجة عليه وشبهته واهية من حيث ان الوكيل قد يوكل للترفع وقد يوكل للعجز والله وكيل عباده لعجزهم عن التصرف وقوله تعالى وكفى بالله وكيلا يتبين اذا نظرت فى الامور التى لاجلها لا يكفى الوكيل الواحد منها أن لا يكون قويا قادرا على العمل كالملك الكثير الاشغال يحتاج الى وكلاء لعجز الواحد عن القيام بجميع أشغاله ومنها أن لا يكون عالما بما فيه التوكيل ومنها أن لا يكون غنيا والله تعالى عالم قادر غير محتاج فيكفى وكيلا * ثم قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا﴾ وجه تعلق الآية بما قبلها هو ان الله تعالى فى هذه السورة ذكر مكارم الاخلاق وأدب نبيه على ما ذكرناه لكن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بما أمر به نبيه المرسل فكلما ذكر للنبى مكرمة وعلمه أدبا ذكر للمؤمنين ما يناسبه فكما بدأ الله فى تأديب النبى عليه الصلاة والسلام بذكر ما يتعلق بجانب الله بقوله يا أيها النبى اتق الله وثنى بما يتعلق بجانب من تحت يده من أزواجه بقوله بعد يا أيها النبى قل لازواجك وثلث بما يتعلق بجانب العامة بقوله يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا كذلك بدأ فى ارشاد المؤمنين بما يتعلق بجانب الله فقال يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ثم ثنى بما يتعلق بجانب من تحت أيديهم بقوله يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم كما ثلث فى تأديب النبى بجانب الامة ثلث فى حق المؤمنين بما يتعلق بجانب نبيهم فقال بعد هذا يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى وبقوله يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وفى الآية مسائل (احداها) اذا كان الامر على ما ذكرت من أن هذا ارشاد الى ما يتعلق بجانب من هو من خواص المرء فلم خص المطلقات اللاتى طلقن قبل المسيس بالذكر فنقول هذا ارشاد الى أعلى درجات المكرمات ليعلم منها ما دونها وبيانه هو ان المرأة اذا طلقت قبل المسيس لم يحصل بينهما تأكد العهد ولهذا قال الله تعالى فى حق الممسوسة وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا واذا أمر الله بالتمتيع والاحسان مع من لا مودة بينه وبينها فما ظنك بمن حصلت المودة بالنسبة اليها بالافضاء أو حصل تأكدها بحصول الولد بينهما والقرآن فى الحجم صغير ولكن لو استنبطت معانيه لا تفى بها الاقلام ولا تكفى لها الاوراق وهذا مثل قوله تعالى فلا تقل لهما أف لو قال لا تضربهما أو لا تشتمهما ظن أنه حرام لمعنى مختص بالضرب أو الشتم أما

قربه الملك لمناجاته واصطفاه لمصاحبته ونجيا أى مناجيا حال من أحد الضميرين فى ناديناه أو قربناه وقيل مرتفعا لما روى أنه عليه السلام رفع فوق السموات حتى سمع صريف القلم (ووهبنا له من رحمتنا) أى من أجل رحمتنا ورأفتنا له أو بعض رحمتنا (أخاه) أى معاضدة أخيه وموازرته اجابة لدعوته بقوله واجعل لى وزيرا من أهلى هرون أخى لا لنفسه ٦٢١ لانه كان أكبر منه عليهما السلام

وهو على الاول مفعول لوهبنا وعلى الثانى بدل وقوله تعالى (هرون) عطف بيان له وقوله تعالى (نبيا) حال منه (واذكر فى الكتاب اسمعيل) فصل ذكره عن ذكر أبيه وأخيه لابراز كمال الاعتناء بأمره بايراده مستقلا وقوله تعالى (انه كان صادق الوعد) تعليل لموجب الامر وايراده عليه السلام بهذا الوصف لكمال شهرته به وناهيك انه وعد الصبر على الذبح بقوله ستجدنى ان شاء الله من الصابرين فوفى (وكان رسولا نبيا) فيه دلالة على أن الرسول لا يجب أن يكون صاحب شريعة فان أولاد ابراهيم عليه السلام كانوا على شريعته (وكان يأمر أهله بالصلوة والزكوة) اشتغالا بالاهم وهو أن يقبل الرجل بالتكميل على نفسه ومن هو أقرب الناس اليه قال تعالى وأنذر عشيرتك الاقربين وأمر أهلك بالصلوة قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقصدا الى تكميل الكل بتكميلهم

لانهم قدوة يؤتسى بهم وقيل أهله أمته فان الانبياء عليهم السلام آباء الامم (وكان عند ربه مرضيا) لاتصافه بالنعوت الجليلة التى من جملتها ما ذكر من خصاله الحميدة (واذكر فى الكتاب ادريس) وهو سبط شيث وجد أبى نوح فانه نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو ادريس عليه السلام واشتقاقه من الدرس يرده منع صرفه نعم لا يبعد أن يكون معناه فى تلك اللغة قريبا من ذلك فلقب به لكثرة

اذا قال لا تقل لهما أف علم منه معان كثيرة وكذلك ههنا لما أمر بالاحسان مع من لا مودة معها علم منه الاحسان مع الممسوسة ومن لم تطلق بعد ومن ولدت عنده منه وقوله اذا نكحتم المؤمنات التخصيص بالذكر ارشادا الى ان المؤمن ينبغى أن ينكح المؤمنة فانها أشد تحصينا لدينه وقوله ثم طلقتموهن يمكن التمسك به فى ان تعليق الطلاق بالنكاح لا يصح لان التطليق حينئذ لا يكون الا بعد النكاح والله تعالى ذكره بكلمة ثم وهى للتراخى وقوله فما لكم عليهن من عدة بين ان العدة حق الزوج فيها غالب وان كان لا يسقط باسقاطه لما فيه من حق الله تعالى وقوله تعتدونها أى تستوفون أنتم عددها فمتعوهن قيل بأنه مختص بالمفوضة التى لم يسم لها اذا طلقت قبل المسيس وجب لها المتعة وقيل بانه عام وعلى هذا فهو أمر وجوب أو أمر ندب باختلاف العلماء فيه فمنهم من قال للوجوب فيجب مع نصف المهر المتعة أيضا ومنهم من قال للاستحباب فيستحب أن يمتعها مع الصداق بشئ وقوله تعالى وسرحوهن سراحا جميلا الجمال فى التسريح أن لا يطالبها بما آتاها ثم قال تعالى ﴿ يا أيها النبى انا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى ان أراد النبى ان يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما ﴾ ذكر للنبى عليه السلام ما هو الاولى فان الزوجة التى أوتيت مهرها أطيب قلبا من التى لم تؤت والمملوكة التى سباها الرجل بنفسه أطهر من التى اشتراها الرجل لانها لا يدرى كيف حالها ومن هاجرت من أقارب النبى عليه السلام معه أشرف ممن لم تهاجر ومن الناس من قال بان النبى عليه الصلاة والسلام كان يجب عليه اعطاء المهر أولا وذلك لان المرأة لها الامتناع الى أن تأخذ مهرها والنبى عليه السلام ما كان يستوفى ما لا يجب له والوطء قبل ايتاء الصداق غير مستحق وان كان حلالا لنا وكيف والنبى عليه السلام اذا طلب شيأ حرم الامتناع على المطلوب والظاهر أن الطالب فى المرة الاولى انما يكون هو الرجل لحياء المرأة فلو طلب النبى عليه السلام من المرأة التمكين قبل المهر لزم أن يجب وأن لا يجب وهذا محال ولا كذلك أحدنا وقال ويؤكد هذا قوله تعالى وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى يعنى حينئذ لا يبقى لها صداق فتصير كالمستوفية مهرها وقوله تعالى ان أراد النبى أن يستنكحها اشارة الى أن هبتها نفسها لا يدمتها من قبول وقوله تعالى خالصة لك من دون المؤمنين قال الشافعى رضى الله عنه معناه اباحة الوطء بالهبة وحصول التزوج بلفظها من خواصك وقال أبو حنيفة تلك المرأة صارت خالصة لك زوجة ومن أمهات المؤمنين لا تحل لغيرك أبدا والترجيح يمكن ان يقال بأن على هذا التخصيص بالواهبة لا فائدة فيه فان أزواجه كلهن خالصات له وعلى ما ذكرنا يتبين للتخصيص فائدة وقوله قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم معناه ان ما ذكرنا فرضك وحكمك مع نسائك وأما حكم أمتك فعندنا علمه ونبينه لهم وانما ذكر هذا لئلا يحمل واحد من المؤمنين نفسه على ما كان للنبى عليه الصلاة والسلام فان له فى النكاح خصائص ليست لغيره وكذلك فى السرارى وقوله تعالى لكيلا يكون عليك حرج أى تكون فى فسحة من الامر فلا يبقى لك شغل قلب فينزل الروح الامين بالآيات على قلبك الفارغ وتبلغ رسالات ربك بجدك واجتهادك وقوله تعالى وكان الله غفورا رحيما يغفر الذنوب جميعا ويرحم العبيد ثم قال تعالى ﴿ ترجى من تشاء منهن وتؤوى اليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ﴾ لما بين انه أحل له ما ذكر من الازواج بين أنه أحل له وجوه المعاشرة بهن حتى يجتمع كيف يشاء ولا يجب عليه القسم وذلك لان النبى عليه السلام بالنسبة الى أمته نسبة

كرامته روى انه تعالى أنزل عليه ثلاثين صحيفة وانه أول من خط بالقلم ونظر في علم النجوم والحساب (انه كان صديقا) ملازما للصدق في جميع أحواله (نبيا) خبر آخر لكان مخصص للاول اذ ليس كل صديق نبيا (ورفعناه مكانا عليا) هو شرف النبوة والزلفى عند الله عز وجل وقيل علو الرتبة بالذكر الجميل في الدنيا كما في قوله تعالى ورفعنا لك ذكرك وقيل الجنة وقيل السماء السادسة أو الرابعة

روى عن كعب وغيره في سبب رفع ادريس عليه السلام انه سئل ذات يوم في حاجة فأصابه وهج الشمس فقال يارب اني قد مشيت فيها يوما وقد أصابني منها ما أصابني فكيف من يحملها مسيرة خمسمائة عام في يوم واحد اللهم خفف عنه من ثقلها وحرها فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس وحرها مالا يعرف فقال يارب ما الذي قضيت فيه قال ان عبدي ادريس سألني أن أخفف عنك حملها وحرها فأجبته قال يارب اجعل بيني وبينه خلة فاذن الله تعالى له فرفعه الى السماء (أولئك) اشارة الى المذكورين في السورة الكريمة وما فيه من معنى البعد للاشعار بعلو رتبتهم وبعد منزلتهم في الفضل وهو مبتدأ وقوله تعالى (الذين أنعم الله عليهم) صفته أي أنعم عليهم بفنون النعم الدينية والدنيوية حسبما أشير اليه مجملا وقوله تعالى (من النبيين) بيان للموصول وقوله تعالى (من ذرية آدم) بدل منه باعادة الجار ويجوز أن تكون كلمة من فيه للتبعيض لان المنعم عليهم أعم من الانبياء وأخص من الذرية (وممن الله حملنا مع نوح) أي ومن ذرية من حملنا معه خصوصا وهم من عدا ادريس عليه السلام فان ابراهيم كان من ذرية سام بن نوح (ومن ذرية ابراهيم) وهم الباقون (واسرائيل) عطف على ابراهيم أي ومن ذرية اسرائيل وكان منهم موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى

السيد المطاع والرجل وان لم يملك نيفا فالزوجة في ملك نكاحه والنكاح عليها رق فكيف زوجات النبي عليه السلام بالنسبة اليه فاذن هن كالمملوكات له ولا يجب القسم بين المملوكات والارجاء التأخير والايواء الضم ومن ابتغيت ممن عزلت يعني اذا طلبت من كنت تركتها فلا جناح عليك في شيء من ذلك ومن قال بان القسم كان واجبا مع انه ضعيف بالنسبة الى المفهوم من الآية قال المراد ترجي من تشاء أي تؤخرهن اذا شئت اذ لا يجب القسم في الاول وللزوج أن لا ينام عند أحد منهن وان ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك فابدأ بمن شئت وتمم الدور والاول أقوى ثم قال تعالى ﴿ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن﴾ يعني اذا لم يجب عليك القسم وأنت لا تترك القسم تقر أعينهن بتسويتك بينهن ولا يحزن بخلاف مالو وجب عليك ذلك فليلة تكون عند احداهن تقول ما جاءني لهوى قلبه انما جاءني لامر الله وايجابه عليه ويرضين بما آتيتهن من الارجاء والايواء اذ ليس لهن عليك شيء حتى لا يرضين ثم قال تعالى ﴿والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليما حليما﴾ أي ان أضمرن خلاف ما أظهرن فالله يعلم ضمائر القلوب فانه عليم فان لم يعاتبهن في الحال فلا يغترن فانه حليم لا يعجل ثم قال تعالى ﴿لا تحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن﴾ لما لم يوجب الله على نبيه القسم وأمره بتخييرهن فاخترن الله ورسوله ذكر لهن ما جازاهن به من تحريم غيرهن على النبي عليه السلام ومنعه من طلاقهن بقوله ولا أن تبدل بهن وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله لا تحل لك النساء من بعد قال المفسرون من بعدهن والاولى أن يقال لا تحل لك النساء من بعد اختيارهن الله ورسوله ورضاهن بما يؤتيهن من الوصل والهجران والنقص والحرمان (المسئلة الثانية) قوله ولا أن تبدل بهن يفيد حرمة طلاقهن اذ لو كان جائزا لجاز أن يطلق الكل وبعدهن اما أن يتزوج بغيرهن أولا يتزوج فان لم يتزوج يدخل في زمرة العزاب والنكاح فضيلة لا يتركها النبي وكيف وهو يقول النكاح سنتي وان تزوج بغيرهن يكون قد تبدل بهن وهو ممنوع من التبدل (المسئلة الثالثة) من المفسرين من قال بان الآية ليس فيها تحريم غيرهن ولا المنع من طلاقهن بل المعنى أن لا يحل لك النساء غير اللاتي ذكرنا لك من المؤمنات المهاجرات من بنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك وأما غيرهن من الكتابيات فلا يحل لك التزوج بهن وقوله ولا أن تبدل بهن منع من فعل الجاهلية فانهم كانوا يبادلون زوجة بزوجة فينزل أحدهم عن زوجته ويأخذ زوجة صديقه ويعطيه زوجته وعلى التفسيرين وقع خلاف في مسئلتين احداهما حرمة طلاق زوجاته والثانية حرمة تزوجه بالكتابيات فمن فسر على الاول حرم الطلاق ومن فسر على الثاني حرم التزوج بالكتابيات (المسئلة الرابعة) قوله ولو أعجبك حسنهن أي حسن النساء قال الزمخشري قوله ولو أعجبك في معنى الحال ولا يجوز أن يكون ذو الحال قوله من أزواج لغاية التنكير فيه ولكون ذي الحال لا يحسن أن يكون نكرة فاذن هو والنبي عليه السلام يعني لا تحل لك النساء ولا أن تبدل بهن من أزواج وأنت معجب بحسنهن (المسئلة الخامسة) ظاهر هذا يأبى لما كان قد ثبت له عليه السلام من انه اذا رأى واحدة فوقعت في قلبه موقعا كانت تحرم على الزوج ويجب عليه طلاقها وهذه المسئلة حكمية وهي ان النبي عليه السلام وسائر الانبياء في أول النبوة تشتد عليهم برحاء الوحي ثم يستأنسون به فينزل عليهم وهم يتحدثون مع أصحابهم لا يمنعهم من ذلك مانع ففي أول الامر أحل الله من وقع في قلبه تفريغا لقلبه وتوسيعا لصدره لئلا يكون مشغول القلب بغير الله ثم لما استأنس بالوحي وبمن على لسانه الوحي نسخ ذلك اما لقوته عليه السلام للجمع بين الامرين واما انه بدوام الانزال لم يبق له مألوف من أمور الدنيا فلم يبق له التفات الى غير

عليهم السلام وفيه دليل على أن أولاد البنات من الذرية (وممن هدينا واجتبينا) أي ومن جملة من هديناهم الى الحق واجتبيناهم للنبوة والكرامة وقوله تعالى (اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا) خبر لأولئك ويجوز أن يكون الخبر والموصول وهذا استئناف مسوق لبيان خشيتهم من الله تعالى واخباتهم له مع ما لهم من علو الرتبة وسمو الطبقة في شرف النسب وكمال النفس والزلفى من الله عز سلطانه

وسجدا وبكيا حالان من ضمير خروا أي ساجدين باكين عن النبي صلى الله عليه وسلم اتلوا القرآن وابكوا فان لم تبكوا فتباكوا والبكي جمع باك كالسجد جمع ساجد واصله بكوى فاجتمعت الواو والياء وسبقت احداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وادغمت الياء في الياء وحركت الكاف بالكسر المجانس للياء وقرئ يتلى بالياء التحتانية لان التأنيث غير حقيقي وقرئ بكيا بكسر الباء للاتباع قالوا ينبغي أن يدعو الساجد في سجدته بما يليق بآيتها فههنا يقول اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم المهديين الساجدين لك الباكين عند تلاوة آياتك وفي آية الاسراء يقول اللهم اجعلني من الباكين اليك الخاشعين لك وفي آية تنزيل السجدة يقول اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك من أن أكون من المستكبرين عن أمرك (فخلف من بعدهم خلف) يقال لعقب الخير خلف بفتح اللام ولعقب الشر خلف بالسكون أي فعقبهم وجاء بعدهم عقب سوء (أضاعوا الصلاة) وقرئ الصلوات أي تركوها أو أخروها عن وقتها (واتبعوا الشهوات) من شرب الخمر واستحلال نكاح الاخت من الاب والانهماك في فنون المعاصي وعن علي رضي الله عنه هم من بنى المشيد وركب المنظور ولبس المشهور (فسوف يلقون غيا) أي شرا فان كل شر عند العرب

الله فلم يبق له حاجة الى احلال التزوج بمن وقع بصره عليها (المسألة السادسة) اختلف العلماء في أن تحريم النساء عليه هل نسخ أم لا فقال الشافعي نسخ وقد قالت عائشة ما مات النبي الا واحل له النساء وعلى هذا فالناسخ قوله يا أيها النبي انا أحللنا لك أزواجك الى أن قال وبنات عمك وقال وامرأة مؤمنة على قول من يقول لا يجوز نسخ الكتاب بخبر الواحد اذا الناسخ غير متواتر ان كان خبرا ﴿ ثم قال تعالى ﴿الا ما ملكت يمينك﴾ لم يحرم عليه المملوكات لان الايذاء لا يحصل بالمملوكة ولهذا لم يجز للرجل أن يجمع بين ضرتين في بيت لحصول التسوية بينهما وامكان المخاصمة ويجوز أن يجمع الزوجة وجماعة من المملوكات لعدم التساوي بينهن ولهذا لا قسم لهن على أحد ﴿ ثم قال تعالى ﴿وكان الله على كل شئ رقيبا﴾ أي حافظا عالما بكل شئ قادرا عليه لان الحفظ لا يحصل الا بهما ﴿ ثم قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي الا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه﴾ لما ذكر الله تعالى في النداء الثالث يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا بيانا لحاله مع أمته العامة قال للمؤمنين في هذا النداء لا تدخلوا ارشادا لهم وبيانا لحالهم مع النبي عليه السلام من الاحترام ثم ان حال الامة مع النبي على وجهين (أحدهما) في حال الخلوة والواجب هناك عدم ازعاجه وبين ذلك بقوله لا تدخلوا بيوت النبي (وثانيهما) في الملا والواجب هناك اظهار التعظيم كما قال تعالى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما وقوله الى طعام غير ناظرين اناه أي لا تدخلوا بيوت النبي الى طعام الا أن يؤذن لكم ﴿ ثم قال تعالى ﴿ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ان ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ان ذلكم كان عند الله عظيما﴾ لما بين من حال النبي انه داع الى الله بقوله وداعيا الى الله قال ههنا لا تدخلوا الا اذا دعيتم يعني كما انكم ما دخلتم الدين الا بدعائه فكذلك لا تدخلوا عليه الا بعد دعائه وقوله غير ناظرين منصوب على الحال والعامل فيه على ما قاله الزمخشري لا تدخلوا قال وتقديره لا تدخلوا بيوت النبي الا مأذونين غير ناظرين وفي الآية مسائل ﴿الاولى﴾ قوله الا أن يؤذن لكم الى طعام اما أن يكون فيه تقديم وتأخير تقديره ولا تدخلوا الى طعام الا أن يؤذن لكم فلا يكون منعا من الدخول في غير وقت الطعام بغير الاذن واما ان لا يكون فيه تقديم وتأخير فيكون معناه ولا تدخلوا الا أن يؤذن لكم الى طعام فيكون الاذن مشروطا بكونه الى الطعام فان لم يؤذن لكم الى طعام فلا يجوز الدخول فلو أذن لواحد في الدخول لاستماع كلام لا لأكل طعام لا يجوز نقول المراد هو الثاني ليعم النهي عن الدخول وأما قوله فلا يجوز الا بالاذن الذي الى طعام نقول قال الزمخشري الخطاب مع قوم كانوا يتحينون حين الطعام ويدخلون من غير اذن فمنعوا من الدخول في وقته بغير اذن والاولى أن يقال المراد هو الثاني لان التقديم والتأخير خلاف الاصل وقوله الى طعام من باب التخصيص بالذكر فلا يدل على نفي ما عداه لاسيما اذا علم أن غير مثله فان من جاز دخول بيته باذنه الى طعامه جاز دخوله الى غير طعامه باذنه فان غير الطعام ممكن وجوده مع الطعام فان من الجائز أن يتكلم معه وقت ما يدعوه الى طعام ويستقضيه في حوائجه ويعلمه مما عنده من العلوم مع زيادة الاطعام فاذا رضي بالكل فرضاه بالبعض أقرب الى الفعل فيصير من باب لا تقل لهما أف وقوله غير ناظرين يعني أنتم لا تنتظروا وقت الطعام فانه ربما لا يتهيأ (المسألة الثانية) قوله تعالى ولكن اذا دعيتم فادخلوا فيه لطيفة وهي أن في العادة اذا قيل لمن كان يعتاد دخول دار من غير اذن لا تدخلها الا باذن يتأذى وينقطع بحيث لا يدخلها أصلا ولا بالدعاء فقال

غي وكل خير رشاد كقوله فمن يلق خيرا يحمد الناس أمره * ومن يغو لا يعدم على الغي لائما وعن الضحاك جزاء غي كقوله تعالى يلق أثاما أي جزاء أثام أو غيا عن طريق الجنة وقيل غي واد في جهنم تستعيذ منه أوديتها وقوله تعالى (إلا من تاب وآمن وعمل صالحا) يدل على أن الآية في حق الكفرة ٦٢٤ (فأولئك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة وما فيه من معنى البعد لما مر مرارا أي فأولئك المنعوتون بالتوبة والايمان والعمل الصالح (يدخلون الجنة) بموجب الوعد المحتوم وقرئ يدخلون على البناء للمفعول (ولا يظلمون شيأ) أي لا ينقصون من جزاء أعمالهم شيأ ولا ينقصون شيأ من النقص وفيه تنبيه على أن كفرهم السابق لا يضرهم ولا ينقص أجورهم (جنات عدن) بدل من الجنة بدل البعض لاشتمالها عليها وما بينهما اعتراض أو نصب على المدح وقرئ بالرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف أي هي أو تلك جنات الخ أو مبتدأ خبره التي وعد الخ وقرئ جنة عدن نصبا ورفعا وعدن علم لمعنى العدن وهو الاقامة كما أن فينة وسحر وأمس فيمن لم يصرفها أعلام لمعاني الفينة وهي الساعة التي أنت فيها والسحر والامس فجرى لذلك مجرى العدن أو هو علم لارض الجنة خاصة ولولا ذلك لما ساغ ابدال ما أضيف اليه من الجنة بلا وصف عند غير البصريين ولا وصفه بقوله تعالى (التي وعد الرحمن عباده) وجعله بدلا منه خلاف الظاهر فإن الموصول في حكم المشتق وقد نصوا على أن البدل بالمشتق ضعيف والتعرض لعنوان الرحمة للايذان بأن وعدها وانجازه لكمال سعة رحمته تعالى والباء في قوله تعالى (بالغيب) متعلقة بمضمر هو حال من المضمر العائد الى الجنات أو من عباده أي وعدها اياهم

لا تفعلوا مثل ما يفعله المستنكفون بل كونوا طائعين سامعين اذا قيل لكم لا تدخلوا لا تدخلوا واذا قيل لكم ادخلوا فادخلوا وإناه قيل وقته وقيل استواؤه وقوله الا أن يؤذن يفيد الجواز وقوله ولكن اذا دعيتم فادخلوا يفيد الوجوب فقوله ولكن اذا دعيتم ليس تأكيدا بل هو يفيد فائدة جديدة (المسألة الثالثة) لا يشترط في الاذن التصريح به بل اذا حصل العلم بالرضا جاز الدخول ولهذا قال الا أن يؤذن من غير بيان فاعل فالآذن ان كان الله أو النبي أو العقل المؤيد بالدليل جاز والنقل دال عليه حيث قال تعالى أو صديقكم وحد الصداقة لما ذكرنا فلو جاء أبو بكر وعلم أن لا مانع في بيت عائشة من بيوت النبي عليه الصلاة والسلام من تكشف أو حضور غير محرم عندها أو علم خلو الدار من الاهل أو هي محتاجة الى اطفاء حريق فيها أو غير ذلك جاز الدخول (المسألة الرابعة) قوله فاذا طعمتم فانتشروا كان بعض الصحابة أطال المكث يوم وليمة النبي عليه الصلاة والسلام في عرس زينب والنبي عليه الصلاة والسلام لم يقل له شيأ فوردت الآية جامعة لآداب منها المنع من اطالة المكث في بيوت الناس وفي معنى البيت موضع مباح اختاره شخص لعبادته أو اشتغاله بشغل فيأتيه أحد ويطيل المكث عنده وقوله ولا مستأنسين لحديث قال الزمخشري هو عطف على غير ناظرين مجرور ويحتمل أن يكون منصوبا عطفا على المعنى فان معنى قوله تعالى لا تدخلوا بيوت النبي الا أن يؤذن لكم لا تدخلوها هاجمين فعطف عليه ولا مستأنسين ثم ان الله تعالى بين كون ذلك أدبا وكون النبي حليما بقوله ان ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق اشارة الى أن ذلك حق وأدب وقوله كان اشارة الى تحمل النبي عليه الصلاة والسلام ثم ذكر الله أدبا آخر وهو قوله واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب لما منع الله الناس من دخول بيوت النبي عليه الصلاة والسلام وكان في ذلك تعذر الوصول الى الماعون بين ان ذلك غير ممنوع منه فليسأل وليطلب من وراء حجاب وقوله ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن يعني العين روزنة القلب فاذا لم تر العين لا يشتهي القلب أما ان رأت العين فقد يشتهي القلب وقد لا يشتهي فالقلب عند عدم الرؤية أطهر وعدم الفتنة حينئذ أظهر ثم ان الله تعالى لما علم المؤمنين الادب أكده بما يحملهم على محافظته فقال وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله وكل ما منعتم عنه مؤذ فامتنعوا عنه وقوله تعالى ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا قيل سبب نزوله ان بعض الناس قيل هو طلحة ابن عبيد الله قال لئن عشت بعد محمد لأنكحن عائشة وقد ذكرنا ان اللفظ العام لا يغير معناه سبب النزول فان المراد ان ايذاء الرسول حرام والتعرض لنسائه في حياته ايذاء فلا يجوز ثم قال لا بل ذلك غير جائز مطلقا ثم أكده بقوله ان ذلكم كان عند الله عظيما أي ايذاء الرسول ﴿ثم قال تعالى ﴿ان تبدوا شيأ أو تخفوه فان الله كان بكل شيء عليما﴾ يعني ان كنتم لا تؤذونه في الحال وتعزمون على ايذائه أو نكاح أزواجه بعده فالله عليم بذات الصدور﴾ ثم ان الله تعالى لما أنزل الحجاب استثنى المحارم بقوله ﴿لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا اخوانهن ولا أبناء اخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن﴾ وفي الآية مسائل (الاولى) في الحجاب أوجب السؤال من وراء الحجاب على الرجال فلم يستثن الرجال عن الحجاب ولم يقل لا جناح على آبائهن * فنقول قوله تعالى فاسألوهن من وراء حجاب أمر يسدل الستر عليهن وذلك لا يكون الا بكونهن مستورات محجوبات وكان الحجاب وجب عليهن ثم أمر الرجال بتركهن كذلك ونهوا عن هتك أستارهن فاستثنين عند الآباء والابناء (وفيه لطيفة) وهي ان عند الحجاب أمر الله الرجال بالسؤال من وراء حجاب ويفهم منه كون المرأة محجوبة عن الرجل بالطريق الاولى وعند الاستثناء قال تعالى لا جناح عليهن عند رفع الحجاب عنهن فالرجال أولى بذلك (المسألة الثانية) قدم الآباء لأن اطلاعهم

على

ملتبسة أو ملتبسين بالغيب أي غائبة عنهم غير حاضرة أو غائبين عنها لا يرونها وانما آمنوا بها بمجرد الاخبار أو بتصورهو سبب للوعد أي وعدها اياهم بسبب ايمانهم (انه كان وعده) أي موعوده كائنا ما كان فيدخل فيه الجنات الموعودة دخولا أوليا ولما كانت هي مثابة يرجع اليها قيل (مأتيا) أي يأتيه من وعد له لا محالة بغير خلاف وقيل هو مفعول بمعنى فاعل وقيل مأتيا أي مفعولا منجزا من أتى اليه احسانا أي فعله (لا يسمعون فيها لغوا) أي فضول كلام لا طائل تحته وهو كناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها وفيه تنبيه على أن اللغو مما ينبغي أن يجتنب عنه في هذه الدار ما أمكن (الا سلاما) استثناء منقطع أي لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم أو تسليم بعضهم على بعض أو متصل بطريق التعليق بالمحال أي لا يسمعون لغوا ما الا سلاما فحيث استحال كون السلام لغوا استحال سماعهم له بالكلية كما في قوله

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائب

أو على أن معناه الدعاء بالسلامة وهم أغنياء عنه فهو من باب اللغو ظاهرا وانما فائدته الاكرام وقوله تعالى (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) وارد على عادة المتنعمين في هذه الدار وقيل المراد دوام رزقهم ودروره والافليس فيها بكرة ولا عشي (تلك الجنة) مبتدأ وخبر جيء به

 لتعظيم شأن الجنة وتعيين أهلها فان ما في اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلتها وعلو رتبتها (التي نورث) أي نورثها (من عبادنا من كان تقيا) أي نبقيها عليهم بتقواهم ونمتعهم بها كما نبقي على الوارث مال مورثه ونمتعه به والوراثة أقوى ما يستعمل في التملك والاستحقاق من الالفاظ من حيث انها لا تعقب بفسخ ولا استرجاع ولا ابطال وقيل يورث المتقون من الجنة

على بناتهم أكثر وكيف وهم قد رأوا جميع بدن البنات في حال صغرهن ثم الابناء ثم الاخوة وذلك ظاهر انما الكلام في بني الاخوة حيث قدمهم الله تعالى على بني الاخوات لان بني الاخوات آباؤهم ليسوا بمحارم انما هم أزواج خالات أبنائهم وبني الاخوة آباؤهم محارم أيضا ففي بني الاخوات مفسدة ما وهي ان الابن ربما يحكي خالته عند أبيه وهو ليس بمحرم ولا كذلك بنو الاخوة (المسئلة الثالثة) لم يذكر الله من المحارم الاعمام والاخوال فلم يقل ولا اعمامهن ولا اخوالهن لوجهين (أحدهما) ان ذلك علم من بني الاخوة وبني الاخوات لان من علم ان بني الاخ للعمات محارم علم ان بنات الاخ للاعمام محارم وكذلك الحال في أمر الخال (ثانيهما) ان الاعمام ربما يذكرون بنات الاخ عند أبنائهم وهم غير محارم وكذلك الحال في ابن الخال (المسئلة الرابعة) ولا نسائهن مضافة الى المؤمنات حتى لا يجوز التكشف للكافرات في وجه (المسئلة الخامسة) ولا ما ملكت ايمانهن ذكر بعد الكل فان المفسدة في التكشف لهم ظاهرة ومن الائمة من قال المراد من كان دون البلوغ ثم قوله تعالى ﴿واتقين الله﴾ عند المماليك دليل على أن التكشف لهم مشروط بشرط السلامة والعلم بعدم المحذور وقوله ﴿ان الله كان على كل شيء شهيدا﴾ في غاية الحسن في هذا الموضع وذلك لان ما سبق اشارة الى جواز الخلوة بهم والتكشف لهم فقال ان الله شاهد عند اختلاء بعضكم ببعض فخلوتكم مثل ملئكم بشهادة الله تعالى فاتقوا الله ثم قال تعالى ﴿ان الله وملائكته يصلون على النبي﴾ لما أمر الله المؤمنين بالاستئذان وعدم النظر الى وجوه نسائه احتراما كمل بيان حرمته وذلك لان حالته منحصرة في اثنتين حالة خلوته وذكر ما يدل على احترامه في تلك الحالة بقوله لا تدخلوا بيوت النبي وحالة يكون في ملا والملأ اما الملأ الاعلى واما الملأ الادنى أما في الملأ الاعلى فهو محترم فان الله وملائكته يصلون عليه وأما في الملأ الادنى فذلك واجب الاحترام بقوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾ وفي الآية مسائل (الاولى) الصلاة الدعاء يقال في اللغة صلى عليه أي دعا له وهذا المعنى غير معقول في حق الله تعالى فانه لا يدعو له لان الدعاء للغير طلب نفعه من ثالث فقال الشافعي رضي الله عنه استعمل اللفظ بمعان وقد تقدم في تفسير قوله هو الذي يصلي عليكم وملائكته والذي نزيد ههنا هو أن الله تعالى قال هناك هو الذي يصلي عليكم وملائكته جعل الصلاة لله وعطف الملائكة على الله وههنا جمع نفسه وملائكته وأسند الصلاة اليهم فقال يصلون وفيه تعظيم النبي عليه الصلاة والسلام وهذا لان افراد الواحد بالذكر وعطف الغير عليه يوجب تفضيلا للمذكور على المعطوف كما ان الملك اذا قال يدخل فلان وفلان أيضا يفهم منه تقديم لا يفهم لو قال فلان وفلان يدخلان اذا علمت هذا فقال في حق النبي عليه السلام انهم يصلون اشارة الى انه في الصلاة على النبي عليه السلام كالاصل وفي الصلاة على المؤمنين الله يرحمهم ثم ان الملائكة يوافقونه فهم في الصلاة على النبي عليه السلام يصلون بالاضافة كانها واجبة عليهم أو مندوبة سواء صلى الله عليه أو لم يصل وفي المؤمنين ليس كذلك (المسئلة الثانية) هذا دليل على مذهب الشافعي لان الامر للوجوب فتجب الصلاة على النبي عليه السلام ولا تجب في غير التشهد فتجب في التشهد (المسئلة الثالثة) سئل النبي عليه السلام كيف نصلي عليك يا رسول الله فقال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد (المسئلة الرابعة) اذا صلى الله وملائكته عليه فأي حاجة الى صلاتنا نقول الصلاة عليه ليس لحاجته اليها والا فلا حاجة الى صلاة الملائكة مع صلاة الله عليه وانما هو لاظهار تعظيمه كما ان الله تعالى أوجب علينا ذكر نفسه ولا حاجة له اليه وانما هو لاظهار تعظيمه منا شفقة علينا ليثيبنا عليه ولهذا قال عليه السلام

من صلى علي مرة صلى الله عليه عشرا ﴿المسألة الخامسة﴾ لم يترك الله النبي عليه السلام تحت منة أمته بالصلاة حتى عوضهم منه بأمره بالصلاة على الامة حيث قال وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم وقوله وسلموا تسليما أمر فيجب ولم يجب في غير الصلاة فيجب فيها وهو قولنا السلام عليك أيها النبي في التشهد وهو حجة على من قال بعدم وجوبه وذكر المصدر للتأكيد ليكمل السلام عليه ولم يؤكد الصلاة بهذا التأكيد لانها كانت مؤكدة بقوله ان الله وملائكته يصلون على النبي ﴿ثم قال تعالى ﴿ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا﴾ فصل الاشياء تتبين ببعض اضدادها فبين حال مؤذي النبي ليبين فضيلة المسلم عليه واللعن أشد المحذورات لان البعد من الله لا يرجى معه خير بخلاف التعذيب بالنار وغيره ألا ترى ان الملك اذا اتعبه على مملوك ان كان تأذيه غير قوي يزجره ولا يطرده ولو خير المجرم أن يضرب أو يطرد عندما يكون الملك في غاية العظمة والكرم يختار الضرب على الطرد ولا سيما اذا لم يكن في الدنيا ملك غير سيده وقوله في الدنيا والآخرة اشارة الى بعد لا رجاء للقرب معه لان المبعد في الدنيا يرجو القربة في الآخرة فاذا أبعد في الآخرة فقد خاب وخسر لان الله اذا أبعده وطرده فمن الذي يقربه يوم القيامة ثم انه تعالى لم يحصر جزاءه في الابعاد بل أوعده بالعذاب بقوله وأعد لهم عذابا مهينا وفيه مسائل ﴿المسألة الاولى﴾ ذكر ايذاء الله وايذاء الرسول وذكر عقيبه أمرين اللعن والتعذيب فاللعن جزاء ايذاء الله لان من آذى الملك يبعده عن بابه اذا كان لا يأمر بعذابه والتعذيب جزاء ايذاء الرسول لان الملك اذا آذى بعض عبيده كبير يستوفي منه قصاصه لا يقال فعلى هذا من يؤذي الله ولا يؤذي الرسول لا يعذب لانا نقول انفكاك أحدهما على هذا الوجه عن الآخر محال لان من آذى الله فقد آذى الرسول وأما على الوجه الآخر وهو ان من يؤذي النبي عليه السلام ولا يؤذي الله كمن عصى من غير اشراك كمن فسق أو فجر من غير ارتداد وكفر فقد آذى النبي عليه السلام غير ان الله تعالى صبور غفور رحيم فيجزيه بالعذاب ولا يلعنه بكونه يبعده عن الباب ﴿المسألة الثانية﴾ أكد العذاب بكونه مهينا لان من تأذى من عبده وأمر بحبسه وضربه فان أمر بحبسه في موضع مميز أو أمر بضربه رجلا كبيرا دل على أن الامر هين وان أمر بضربه على ملأ وحبسه بين المفسدين ينبئ عن شدة الامر فمن آذى الله ورسوله من المخلدين في النار فيعذب عذابا مهينا وقوله أعد لهم للتأكيد لان السيد اذا عذب عبده حالة الغضب من غير اعداد يكون دون ما اذا أعد له قيدا وغلا فان الاول يمكن أن يقال هذا أثر الغضب فاذا سكت الغضب يزول ولا كذلك الثاني ﴿ثم قال تعالى ﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا﴾ لما كان الله تعالى مصليا على نبيه لم ينفك ايذاء الله عن ايذائه فان من آذى الله فقد آذى الرسول فبين الله للمؤمنين انكم ان أتيتم بما أمرتكم وصليتم على النبي كما صليت عليه لا ينفك ايذاؤكم عن ايذاء الرسول فيأثم من يؤذيكم لكون ايذائكم ايذاء الرسول كما أن ايذائي ايذاؤه وبالجملة لما حصلت الصلاة من الله والملائكة والرسول والمؤمنين صار لا يكاد ينفك ايذاء أحدهم عن ايذاء الآخر كما يكون حال الاصدقاء الصادقين في الصداقة وقوله بغير ما اكتسبوا احتراز عن الامر بالمعروف من غير عنف زائد فان من جلد مائة على شرب الخمر أو حد أربعين على لعب النرد آذى بغير ما اكتسب أيضا ومن جلد على الزنا أو حد على الشرب لم يؤذ بغير ما اكتسب ويمكن ان يقال لم يؤذ أصلا لان ذلك اصلاح حال المضروب وقوله فقد احتملوا بهتانا البهتان هو الزور وهو لا يكون الا في القول والايذاء قد يكون بغير القول فمن آذى مؤمنا بالضرب أو أخذ ماله لا يكون قد احتمل بهتانا فنقول المراد والذين يؤذون المؤمنين بالقول وهذا لان الله تعالى أراد اظهار شرف المؤمن فلما ذكر أن من

المساكن التي كانت لاهل النار لو آمنوا وأطاعوا زيادة في كرامتهم وقرئ نورث بالتشديد (وما نتنزل الا بأمر ربك) حكاية لقول جبريل حين استبطأه رسول الله عليهما الصلاة والسلام لما سئل عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح فلم يدر كيف يجيب ورجا أن يوحى اليه فيه فأبطأ عليه أربعين يوما أو خمسة عشر فشق ذلك عليه مشقة شديدة وقال المشركون ودعه ربه وقلاه ثم نزل ببيان ذلك وأنزل الله عز وجل هذه الآية وسورة والضحى والتنزل النزول على مهل لانه مطاوع للتنزيل وقد يطلق على مطلق النزول كما يطلق التنزيل على الانزال والمعنى وما نتنزل وقتا غب وقت الا بأمر الله تعالى على ما تقتضيه حكمته وقرئ وما يتنزل بالياء والضمير للوحي (له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك) وهو ما نحن فيه من الاماكن والازمنة ولا ننتقل من مكان الى مكان ولا ننزل في زمان دون زمان الا بأمره ومشيئته (وما كان ربك نسيا) أي تاركا لك يعني أن عدم النزول لم يكن الا لعدم الامر به لحكمة بالغة فيه ولم يكن لتركه تعالى لك وتوديعه اياك كما زعمت الكفرة وفي اعادة اسم الرب المعرب عن التبليغ الى الكمال اللائق مضافا الى ضميره عليه السلام من تشريفه والاشعار بعلة الحكم ما لا يخفى وقيل أول الآية حكاية قول المتقين حين يدخلون الجنة مخاطبا بعضهم بعضا بطريق التبجح والابتهاج والمعنى وما ننزل الجنة الا بأمر الله تعالى ولطفه وهو مالك الامور كلها سالفها ومترقبها وحاضرها فما وجدناه وما نجده من لطفه وفضله وقوله تعالى وما كان ربك نسيا تقرير لقولهم من جهة الله تعالى أي وما كان ناسيا لاعمال العاملين وما وعدهم من الثواب عليها وقوله تعالى (رب السموات والارض وما بينهما) بيان لاستحالة النسيان عليه تعالى فان من

آذى الله ورسوله لعن وإيذاء الله بأن ينكر وجود الله بعد معرفة دلائل وجوده أو يشرك به من لا يبصر ولا يسمع أو من لا يقدر ولا يعلم أو من هو محتاج في وجوده إلى موجده وهو قول ذكر إيذاء المؤمن بالقول وعلى هذا خص الإيذاء القولي بالذكر لأنه أعم وأتم وذلك لأن الإنسان لا يقدر أن يؤذي الله بما يؤلمه من ضرب أو أخذ ما يحتاج إليه فيؤذيه بالقول ولأن الفقير الغائب لا يمكن إيذاؤه بالفعل ويمكن إيذاؤه بالقول بأن يقول فيه ما يصل إليه فيتأذى (والوجه الثاني في الجواب) هو أن نقول قوله بعد ذلك وإثما مبينا مستدرك فكأنه قال احتمل بهتانا إن كان بالقول وإثما مبينا كيفما كان الإيذاء وكيفما كان فإن الله خص الإيذاء القولي بالذكر لما بينا أنه أعم ولأنه أتم لأنه يصل إلى القلب فإن الكلام يخرج من القلب واللسان دليله ويدخل في القلب والآذان سبيله ﴿ثم قال تعالى ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن﴾ لما ذكر أن من يؤذي المؤمنين يحتمل بهتانا وكان فيه منع المكلف عن إيذاء المؤمن أمر المؤمن باجتناب المواضع التي فيها التهم الموجبة للتأذي لئلا يحصل الإيذاء الممنوع منه ولما كان الإيذاء القولي مختصا بالذكر اختص بالذكر ما هو سبب الإيذاء القولي وهو النساء فإن ذكرهن بالسوء يؤذي الرجال والنساء بخلاف ذكر الرجال فإن من ذكر امرأة بالسوء تأذت وتأذى أقاربها أكثر من تأذيها ومن ذكر رجلا بالسوء تأذى ولا يتأذى نساؤه وكان في الجاهلية تخرج الحرة والأمة مكشوفات يتبعهن الزناة وتقع التهم فأمر الله الحرائر بالتجلبب ﴿وقوله ﴿ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾ قيل يعرفن أنهن حرائر فلا يتبعن ويمكن أن يقال المراد يعرفن أنهن لا يزنين لأن من تستر وجهها مع أنه ليس بعورة لا يطمع فيها أنها تكشف عورتها فيعرفن أنهن مستورات لا يمكن طلب الزنا منهن ﴿وقوله ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾ يغفر لكم ما قد سلف برحمته ويثيبكم على ما تأتون به راحما عليكم ﴿وقوله تعالى ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا﴾ لما ذكر حال المشرك الذي يؤذي الله ورسوله والمجاهر الذي يؤذي المؤمنين ذكر حال المسر الذي يظهر الحق ويضمر الباطل وهو المنافق ولما كان المذكور من قبل أقواما ثلاثة نظرا إلى اعتبار أمور ثلاثة وهم المؤذون الله والمؤذون الرسول والمؤذون المؤمنين ذكر من المسرين ثلاثة نظرا إلى اعتبار أمور ثلاثة (أحدها) المنافق الذي يؤذي الله سرا (والثاني) الذي في قلبه مرض الذي يؤذي المؤمن باتباع نسائه (والثالث) المرجف الذي يؤذي النبي عليه السلام بالإرجاف بقوله غلب محمد وسيخرج من المدينة وسيؤخذ وهؤلاء وإن كانوا قوما واحدا إلا أن لهم ثلاث اعتبارات وهذا في مقابلة قوله تعالى إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات حيث ذكر أصنافا عشرة وكلهم يوجد في واحد فهم واحد بالشخص كثير بالاعتبار وقوله لنغرينك بهم أي لنسلطنك عليهم لتخرجهم من المدينة ثم لا يجاورونك وتخلو المدينة منهم بالموت أو الإخراج ويحتمل أن يكون المراد لنغرينك بهم فإذا أغريناك لا يجاورونك والأول كقول القائل لئن يخرج فلان ويقر إشارة إلى أمرين والثاني كقوله يخرج فلان ويدخل السوق ففي الأول يقر وإن لم يخرج وفي الثاني لا يدخل إلا إذا خرج والاستثناء فيه لطيفة وهي أن الله تعالى وعد النبي عليه السلام أنه يخرج أعداءه من المدينة وينفيهم على يده إظهارا لشوكته ولو كان النفي بإرادة الله من غير واسطة النبي لأخلى المدينة عنهم في ألطف آن كن فيكون ولكن لما أراد الله أن يكون على يد النبي لا يقع ذلك إلا بزمان وإن لطف فقال ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا وهو أن يتهيؤوا ويتأهبوا للخروج ﴿ثم قال تعالى ﴿ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا﴾ أي في ذلك القليل الذي يجاورونك فيه يكونون ملعونين مطرودين من باب الله وبابك وإذا خرجوا لا ينفكون

بيده ملكوت السموات والأرض وما بينهما كيف يتصور أن يحوم حول ساحة سبحانه الغفلة والنسيان وهو خبر مبتدأ محذوف أو بدل من ربك والفاء في قوله تعالى (فاعبده واصطبر لعبادته) لترتيب ما بعدها من موجب الأمرين على ما قبلها من كونه تعالى رب السموات والأرض وما بينهما وقيل من كونه تعالى غير تارك له عليه الصلاة والسلام أو غير ناس لأعمال العاملين والمعنى حين عرفته تعالى بما ذكر من الربوبية الكاملة فاعبده الخ فإن إيجاب معرفته تعالى كذلك لعبادته مما لا ريب فيه أو حين عرفت أنه تعالى لا ينساك أو لا ينسى أعمال العاملين كائنا من كان فأقبل على عبادته واصطبر على مشاقها ولا تحزن بإبطاء الوحي وهزء الكفرة فإنه يراقبك ويراعيك ويلطف بك في الدنيا والآخرة وتعدية الاصطبار باللام لا بحرف الاستعلاء كما في قوله تعالى واصطبر عليها لتضمنه معنى الثبات للعبادة فيما تورد عليه من الشدائد والمشاق كقولك للمبارز اصطبر لقرنك أي اثبت له فيما يورد عليك من شدائده (هل تعلم له سميا) السمي هو الشريك في الاسم والظاهر أن يراد به ههنا الشريك في اسم خاص قد عبر عنه تعالى بذلك وهو رب السموات والأرض وما بينهما والمراد بإنكار العلم ونفيه إنكار المعلوم ونفيه على أبلغ وجه وآكده فالجملة تقرير لما أفاده الفاء من علية ربوبيته العامة لوجوب عبادته بل لوجوب تخصيصها به تعالى ببيان استقلاله عز وجل بذلك الاسم وانتفاء إطلاقه على الغير بالكلية حقا أو باطلا وقيل المراد هو الشريك في الاسم الجليل فإن المشركين مع غلوهم في المكابرة لم يسموا الصنم بالجلالة أصلا وقيل هو الشريك في اسم الإله والمراد بالتسمية التسمية على الحق فالمعنى هل تعلم شيئا يسمى بالاستحقاق إلها وأما التسمية على الباطل فهي كلا تسمية فتقرير

عن الذلة ولا يجدون ملجأ بل انما يكونون يطلبون و يؤخذون و يقتلون ﴾ ثم قال تعالى ﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ يعنى هذا ليس بدعا منكم بل هو سنة جارية وعادة مستمرة تفعل بالمكذبين ولن تجد لسنة الله تبديلا أى ليست هذه السنة مثل الحكم الذى يبدل وينسخ فان النسخ يكون فى الاحكام أما الافعال والاخبار فلا تنسخ ﴾ ثم قال تعالى ﴿ يسئلك الناس عن الساعة قل انما علمها عند الله ﴾ لما بين حالهم فى الدنيا أنهم يلعنون ويهانون ويقتلون أراد أن يبين حالهم فى الآخرة فذكرهم بالقيامة وذكر ما يكون لهم فيها فقال يسئلك الناس عن الساعة أى عن وقت القيامة قل انما علمها عند الله لا يتبين لكم فان الله أخفاها لحكمة هى امتناع المكلف عن الاجتراء وخوفهم منها فى كل وقت ﴾ ثم قال تعالى ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ﴾ اشارة الى التخويف وذلك لان قول القائل الله يعلم متى يكون الامر الفلانى ينبئ عن ابطاء الامر ألا ترى أن من يطالب مديونا بحقه فان استمهله شهرا أو شهرين ربما يصبر ذلك وان قال له اصبر الى أن يقدم فلان من سفره يقول الله يعلم متى يجيء فلان ويمكن أن يكون مجيء فلان قبل انقضاء تلك المدة فقال ههنا وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا يعنى هى فى علم الله فلا تستبطؤها فربما تقع عن قريب والقريب فعيل يستوى فيه المذكر والمؤنث قال تعالى ان رحمة الله قريب من المحسنين ولهذا لم يقل لعل الساعة تكون قريبة ﴾ ثم قال تعالى ﴿ ان الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا خالدين فيها أبدا ﴾ يعنى كما انهم ملعونون فى الدنيا عندكم فكذلك ملعونون عند الله وأعد لهم سعيرا كما قال تعالى لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا خالدين فيها أبدا مطيلين المكث فيها مستمرين لا أمد لوجودهم ﴾ وقوله ﴿ لا يجدون وليا ولا نصيرا ﴾ لما ذكر خلودهم بين تحققه وذلك لان المعذب لا يخلصه من العذاب الا صديق يشفع له أو ناصر يدفع عنه ولا ولى لهم يشفع ولا نصير يدفع ﴾ ثم قال تعالى ﴿ يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كثيرا ﴾ لما بين أنه لا شفيع لهم يدفع عنهم العذاب بين ان بعض أعضائهم أيضا لا يدفع العذاب عن البعض بخلاف عذاب الدنيا فان الانسان يدفع عن وجهه الضربة اتقاء بيده فان من يقصد رأسه ووجهه تجده يجعل يده جنة أو يطاطئ رأسه كى لا يصيب وجهه وفى الآخرة تقلب وجوههم فى النار فما ظنك بسائر أعضائهم التى تجعل جنة للوجه ووقاية له يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا فيتحسرون ويندمون حيث لا تنفعهم الندامة والحسرة لحصول علمهم بأن الخلاص ليس الا للمطيع ثم يقولون انا أطعنا سادتنا وكبراءنا يعنى بدل طاعة الله تعالى أطعنا السادة وبدل طاعة الرسول أطعنا الكبراء وتركنا طاعة سيد السادات وأكبر الاكابر فبدلنا الخير بالشر فلاجرم فاتنا خير الجنان وأوتينا شر النيران ثم انهم يطلبون بعض التشفى بتعذيب المضلين ويقولون ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كثيرا أى بسبب ضلالهم واضلالهم ٭ وفى قوله تعالى ضعفين ولعنا كثيرا معنى لطيف وهو ان الدعاء لا يكون الا عند عدم حصول الامر المدعو به والعذاب كان حاصلا لهم واللعن كذلك فطلبوا ما ليس بحاصل وهو زيادة العذاب بقولهم ضعفين وزيادة اللعن بقولهم لعنا كثيرا ﴾ ثم قال تعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ﴾ لما بين الله تعالى ان من يؤذى الله ورسوله يلعن ويعذب وكان ذلك اشارة الى ايذاء هو كفر أرشد المؤمنين الى الامتناع من ايذاء هو دونه وهو لا يورث كفرا وذلك مثل من لم يرض

الجملة لوجوب العبادة حينئذ باعتبار ما فى الاسمين الكريمين من الاشعار باستحقاق العبادة فتدبر (و يقول الانسان) المراد به اما الجنس بأسره واسناد القول الى الكل لوجود القول فيما بينهم وان لم يقله الجميع كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا وانما القاتل واحد منهم واما البعض المعهود منهم وهم الكفرة أو أبى بن خلف فانه أخذ عظاما بالية ففتها وقال يزعم محمد أنا نبعث بعد ما نموت ونصير الى هذه الحال أى يقول بطريق الانكار والاستبعاد (أئذا مامت لسوف أخرج حيا) أى أبعث من الارض أو من حال الموت وتقديم الظرف وايلاؤه حرف الانكار لما أن المنكر كون ما بعد الموت وقت الحياة وانتصابه بفعل دل عليه أخرج لابه فان ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها وهى ههنا مخلصة للتوكيد مجردة عن معنى الحال كما خلصت الهمزة واللام للتعويض فى يا ألله فساغ اقترانها بحرف الاستقبال وقرئ اذا ما مت بهمزة واحدة مكسورة على الخبر (أولا يذكر الانسان) من الذكر الذى يراد به التفكر والاظهار فى موقع الاضمار لزيادة التقرير والاشعار بان الانسانية من دواعى التفكر فيما جرى عليه من شؤن التكوين المنجية بالقلع عن القول المذكور وهو السر فى اسناده الى الجنس أو الى الفرد بذلك العنوان والهمزة للانكار التوبيخى والواو لعطف الجملة المنفية على مقدر يدل عليه يقول أى أيقول ذلك ولا يذكر (أنا خلقناه من قبل) أى من قبل الحالة التى هو فيها وهى حالة بقائه (ولم يك شيأ) أى والحال انه لم يكن حينئذ شيأ أصلا فحيث خلقناه وهو فى تلك الحالة المنافية للخلق بالكلية مع كونه أبعد من الوقوع فلأن نبعثه بجمع المواد المتفرقة وايجاد مثل ما كان فيها من الاعراض أولى وأظهر فماله لا يذكره فيقع فيما يقع

بقية

فهو من التنكير وقرئ يذكر ويتذكر على الأصل (فوربك) اقسامه باسمه عزت أسماؤه مضافا الى ضميره عليه السلام لتحقيق الأمر بالاشعار بعليته وتفخيم شأنه عليه الصلاة والسلام ورفع منزلته (لنحشرنهم) لنجمعن القائلين بالسوق الى المحشر بعد ما أخرجناهم من الارض أحياء ففيه اثبات للبعث بالطريق البرهاني على أبلغ وجه وآكده كأنه

أمر واضح غني عن التصريح به وانما المحتاج الى البيان مابعد ذلك من الاهوال (والشياطين) معطوف على الضمير المنصوب أو مفعول معه روى ان الكفرة يحشرون مع قرنائهم من الشياطين التي كانت تغويهم كل منهم مع شيطانه في سلسلة وهذا وان كان مختصا بهم لكن ساغ نسبته الى الجنس باعتبار أنهم لما حشروا وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين فقد حشروا معهم جميعا كما ساغ نسبة القول المحكي اليه مع كون القائل بعض أفراده (ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا) ليرى السعداء مانجاهم الله تعالى منه فيزدادوا غبطة وسرورا وينال الاشقياء ما ادخروا لمعادهم عدة ويزدادوا غيظا من رجوع السعداء عنهم الى دار الثواب وشماتتهم بهم والجثي جمع جاث من جثا اذا قعد على ركبتيه وأصله جثوو بواوين فاستثقل اجتماعهما بعد ضمتين فكسرت الثاء للتخفيف فانقلبت الواو الاولى ياء لسكونها وانكسار ماقبلها فاجتمعت واو وياء وسبقت احداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت فيها الياء الاولى وكسرت الجيم اتباعا لما بعدها وقرئ بضمها ونصبه على الحالية من الضمير البارز أي لنحضرنهم حول جهنم جاثين على ركبهم لما يدهمهم من هول المطلع أو لانه من توابع التواقف للحساب قبل التواصل الى الثواب والعقاب فان أهل الموقف جاثون كما ينطق به قوله

بقسمة النبي عليه الصلاة والسلام وبحكمه بالفيء لبعض وغير ذلك فقال ياأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين آذوا موسى وحديث ايذاء موسى مختلف فيه قال بعضهم هو ايذاؤهم اياه بنسبته الى عيب في بدنه وقال بعضهم قارون قرر مع امرأة فاحشة حتى تقول عند بني اسرائيل ان موسى زنى بي فلما جمع قارون القوم والمرأة حاضرة ألقى الله في قلبها انها صدقت ولم تقل مالقنت وبالجملة الايذاء المذكور في القرآن كاف وهو أنهم قالوا اذهب أنت وربك فقاتلا وقولهم لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة وقولهم لن نصبر على طعام واحد الى غير ذلك فقال للمؤمنين لاتكونوا أمثالهم اذا طلبكم الرسول الى القتال أي لاتقولوا اذهب أنت وربك فقاتلا ولاتسألوا مالم يؤذن لكم فيه واذا أمركم الرسول بشيء فأتوا منه مااستطعتم وقوله فبرأه الله مما قالوا على الاول ظاهر لانه أبرز جسمه لقومه فرأوه وعلموا فساد اعتقادهم ونطقت المرأة بالحق وأمر الملائكة حتى عبروا به مرون عليهم فرأوه غير مجروح فعلموا براءة موسى عليه السلام عن قتله الذي رموه به وعلى ماذكرنا فبرأه الله مما قالوا أي أخرجه عن عهدة ماطلبوا باعطائه البعض اياهم واظهاره عدم جواز البعض وبالجملة قطع الله حججهم ثم ضرب عليهم الذلة والمسكنة وغضب عليهم ﴿ وقوله ﴿وكان عند الله وجيها﴾ أي ذا وجاهة ومعرفة والوجيه هو الرجل الذي يكون له وجه أي يكون معروفا بالخير وكل أحد وان كان عند الله معروفا لكن المعرفة المجردة لاتكفي في الوجاهة فان من عرف غيره لكونه خادما له وأجيرا عنده لايقال هو وجيه عند فلان وانما الوجيه من يكون له خصال حميدة تجعل من شأنه أن يعرف ولا ينكر وكان كذلك ﴿ ثم قال تعالى ﴿ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم﴾ أرشدهم الى ماينبغي أن يصدر منهم من الافعال والاقوال اما الافعال فالخير واما الاقوال فالحق لان من أتى بالخير وترك الشر فقد اتقى الله ومن قال الصدق قال قولا سديدا ثم وعدهم على الامرين بامرين على الخيرات باصلاح الاعمال فان بتقوى الله يصلح العمل والعمل الصالح يرفع ويبقى فيبقى فاعله خالدا في الجنة وعلى القول السديد بمغفرة الذنوب ﴿ ثم قال تعالى ﴿ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما﴾ فطاعة الله هي طاعة الرسول ولكن جمع بينهما بيانا لشرف فعل المطيع فانه بفعله الواحد اتخذ عند الله عهدا وعند الرسول يدا وقوله فقد فاز فوزا عظيما جعله عظيما من وجهين (أحدهما) انه نجا من عذاب عظيم والنجاة من العذاب تعظم بعظم العذاب حتى ان من أراد أن يضرب غيره سوطا ثم نجا منه لايقال فاز فوزا عظيما لان العذاب الذي نجا منه لو وقع بها كان يتفاوت الامر تفاوتا كثيرا (والثاني) انه وصل الى ثواب كثير وهو الثواب الدائم الابدي ﴿ ثم قال تعالى ﴿انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا﴾ لما أرشد الله المؤمنين الى مكارم الاخلاق وأدب النبي عليه الصلاة والسلام باحسن الآداب بين أن التكليف الذي وجهه الله الى الانسان أمر عظيم فقال انا عرضنا الامانة أي التكليف وهو الامر بخلاف مافي الطبيعة واعلم أن هذا النوع من التكليف ليس في السموات ولا في الارض لان الارض والجبل والسماء كلها على ماخلقت عليه الجبل لايطلب منه السير والارض لايطلب منها الصعود ولا من السماء الهبوط ولا في الملائكة لان الملائكة وان كانوا مأمورين منهيين عن أشياء لكن ذلك لهم كالاكل والشرب لنا فيسبحون الليل والنهار لايفترون كما يشتغل الانسان بأمر موافق لطبعه وفي الآية مسائل (المسألة الاولى) في الامانة وجوه كثيرة منهم من قال هو التكليف وسمي أمانة لان من قصر فيه فعليه الغرامة ومن وفر فله الكرامة ومنهم من قال هو قول لا اله الا

توالى ويرى كل أمة جاثية على ما هو المعتاد في مواقف التقاول وإن كان المراد بالإنسان الكفرة فلعلهم يساقون من الموقف إلى شاطئ جهنم جثاة إهانة بهم أو لعجزهم عن القيام لما اعتراهم من الشدة (ثم لننزعن من كل شيعة) أي من كل أمة شاعت دينا من الأديان (أيهم أشد على الرحمن عتيا) أي من كان منهم أعصى وأعتى فنطرحهم فيها وفي ذكر الأشد تنبيه على أنه تعالى يعفو عن بعض من أهل العصيان وعلى تقدير تفسير الإنسان بالكفرة فالمعنى أنا نميز من كل طائفة منهم أعصاهم فأعصاهم وأعتاهم فأعتاهم فنطرحهم في النار على الترتيب أو ندخل كلا منهم طبقتها اللائقة به وأيهم مبني على الضم عند سيبويه لأن حقه أن يبنى كسائر الموصولات لكنه أعرب حملا على كل وبعض للزوم الإضافة وإذا حذف صدر صلته زاد نقصه فعاد إلى حقه ومنصوب المحل بننزعن ولذلك قرئ منصوبا ومرفوع عند غيره بالابتداء على أنه استفهامي وخبره أشد والجملة محكية والتقدير لننزعن من كل شيعة الذين يقال لهم أيهم أشد أو معلق عنها لننزعن لتضمنه معنى التمييز اللازم للعلم أو مستأنفة والفعل واقع على كل شيعة على زيادة من أو على معنى لننزعن بعض كل شيعة كقوله تعالى ووهبنا لهم من رحمتنا وعلى للبيان فيتعلق بمحذوف كأن سائلا قال على من عتوا فقيل على الرحمن أو متعلق بأفعل وكذا الباء في قوله تعالى (ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا) أي هم أولى بصليها أو صليهم أولى بالنار لم
وهم المنتزعون ويجوز أن يراد بهم وبأشدهم عتيا رؤساء الشيع فإن عذابهم مضاعف لضلالهم وإضلالهم والصلي كالعتي صيغة وإعلالا
وقرئ بضم الصاد (وإن منكم) التفات لإظهار مزيد الاعتناء بمضمون الكلام وقيل هو خطاب للناس من غير التفات إلى المذكور

الله وهو بعيد فإن السموات والأرض والجبال بألسنتها ناطقة بأن الله واحد لا إله إلا هو ومنهم من قال
الأعضاء فالعين أمانة ينبغي أن يحفظها والأذن كذلك واليد كذلك والرجل والفرج واللسان ومنهم من
قال معرفة الله بما فيها والله أعلم (المسألة الثانية) في العرض وجوه منهم من قال المراد العرض ومنهم من
قال الحشر ومنهم قال المقابلة أي قابلنا الأمانة على السموات فرجحت الأمانة على أهل السموات والأرض
(المسألة الثالثة) في السموات والأرض وجهان (أحدهما) أن المراد هي بأعيانها (والثاني) المراد
أهلوها ففيها إضمار تقديره إنا عرضنا الأمانة على أهل السموات والأرض (المسألة الرابعة) قوله فأبين أن
يحملنها لم يكن إباؤهن كإباء إبليس في قوله تعالى فأبى أن يكون مع الساجدين من وجهين (أحدهما)
أن هناك السجود كان فرضا وههنا الأمانة كانت عرضا (وثانيهما) أن الإباء كان هناك استكبارا وههنا
استصغارا استصغرن أنفسهن بدليل قوله وأشفقن منها (المسألة الخامسة) ما سبب الإشفاق نقول الأمانة
لا تقبل لوجوه (أحدها) أن يكون عزيزا صعب الحفظ كالأواني من الجواهر التي تكون عزيزة سريعة
الانكسار فإن العاقل يمتنع عن قبولها ولو كانت من الذهب والفضة لقبلها ولو كانت من الزجاج لقبلها في
الأول لأمانه من هلاكها وفي الثاني لكونها غير عزيزة الوجود والتكليف كذلك (والثاني) أن يكون
الوقت زمان نهب وغارة فلا يقبل العاقل في ذلك الوقت الودائع والأمر كان كذلك لأن الشيطان وجنوده
كانوا في قصد المكلفين إذ الأرض كان بعد خروج آدم من الجنة (الثالث) مراعاة الأمانة والإتيان بما
يجب كإيداع الحيوانات التي تحتاج إلى العلف والسقي وموضع مخصوص يكون بربعها فإن العاقل يمتنع
من قبولها بخلاف متاع يوضع في صندوق أو في زاوية بيت والتكليف كذلك فإنه يحتاج إلى تربية وتنمية
(المسألة السادسة) كيف حملها الإنسان ولم تحملها هذه الأشياء فيه جوابان (أحدهما) بسبب جهله
بما فيها وعلمهن ولهذا قال تعالى إنه كان ظلوما جهولا (والثاني) أن الأشياء نظرت إلى أنفسهن فرأين
ضعفهن فامتنعن والإنسان نظر إلى جانب المكلف وقال المودع عالم قادر لا يعرض الأمانة إلا على أهلها
وإذا أودع لا يتركها بل يحفظها بعينه وعونه فقبلها وقال إياك نعبد وإياك نستعين (المسألة السابعة) قوله
تعالى إنه كان ظلوما جهولا فيه وجوه (أحدها) أن المراد منه آدم ظلم نفسه بالمخالفة ولم يعلم ما يعاقب عليه
من الإخراج من الجنة (ثانيها) المراد الإنسان يظلم بالعصيان ويجهل ما عليه من العقاب (ثالثها) أنه كان
ظلوما جهولا أي كان من شأنه الظلم والجهل يقال فرس شموس ودابة جموح وماء طهور أي من شأنه ذلك
فكذلك الإنسان من شأنه الظلم والجهل فلما أودع الأمانة بقي بعضهم على ما كان عليه وبعضهم ترك الظلم
كما قال تعالى الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم وترك الجهل كما قال تعالى في حق آدم عليه الصلاة والسلام
وعلم آدم الأسماء كلها وقال في حق المؤمنين عامة والراسخون في العلم يقولون آمنا به وقال تعالى إنما يخشى
الله من عباده العلماء (رابعها) أنه كان ظلوما جهولا في ظن الملائكة حيث قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها
وبين علمه عندهم حيث قال تعالى أنبئوني بأسماء هؤلاء وقال بعضهم في تفسير الآية أن المخلوق على قسمين
مدرك وغير مدرك والمدرك منه من يدرك الكلي والجزئي مثل الآدمي ومنه من يدرك الجزئي كالبهائم
تدرك الشعير الذي تأكله ولا تتفكر في عواقب الأمور ولا تنظر في الدلائل والبراهين ومنه من يدرك
الكلي ولا يدرك الجزئي كالملك يدرك الكليات ولا يدرك لذة الجماع والأكل قالوا وإلى هذا أشار الله تعالى
بقوله ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء فاعترفوا بعدم علمهم بتلك الجزئيات والتكليف

لم يكن الاعلى مدرك الامرين اذ له لذات بأمور جزئية فنع منها التحصيل لذات حقيقة هي مثل لذة الملائكة بعبادة الله ومعرفته واما غيره فان كان مكلفا يكون مكلفا لا بمعنى الامر بما فيه عليهم كلفة ومشقة بل بمعنى الخطاب فان المخاطب يسمى مكلفا لما ان المكلف مخاطب فسمى المخاطب مكلفا وفي الآية لطائف (الاولى) الامانة كان عرضها على آدم فقبلها فكان أمينا عليها والقول قول الامين فهو فاز بقى أولاده أخذوا الامانة منه والآخذ من الامين ليس بمؤتمن ولهذا وارث المودع لا يكون القول قوله ولم يكن له بد من تجديد عهد وائتمان فالمؤمن اتخذ عند الله عهدا فصار أمينا من الله فصار القول قوله فكان له ما كان لآدم من الفوز ولهذا قال تعالى ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات أي كما تاب على آدم في قوله تعالى فتاب عليه والكافر صار آخذا للامانة من المؤتمن فبقى في ضمانه ثم ان المؤمن اذا أصاب الامانة في يده شئ بقضاء الله وقدره كان ذلك من غير تقصير منه والامين لا يضمن ما فات بغير تقصير والكافر اذا أصاب الامانة في يده شئ ضمن وان كان بقضاء الله وقدره لانه يضمن ما فات وان لم يكن بتقصير (اللطيفة الثانية) خص الاشياء الثلاثة بالذكر لانها أشد الامور وأحملها للاثقال اما السموات فلقوله تعالى وبنينا فوقكم سبعا شدادا والارض والجبال لا تخفى شدتها وصلابتها ثم ان هذه الاشياء لما كانت لها شدة وصلابة عرض الله تعالى الامانة عليها واكتفى بشدتهن وقوتهن فامتنعن لانهن وان كن اقوياء الا أن أمانة الله تعالى فوق قوتهن وحملها الانسان مع ضعفه الذي قال الله تعالى فيه وخلق الانسان ضعيفا ولكن وعده بالاعانة على حفظ الامانة بقوله ومن يتوكل على الله فهو حسبه فان قيل فالذي يعينه الله تعالى كيف يعذب فلم يعذب الكافر نقول قال الله تعالى انا أعين من يستعين بي ويتوكل علي والكافر لم يرجع الى الله تعالى فتركه مع نفسه فبقى في عهدة الامانة (اللطيفة الثالثة) قوله تعالى فابين أن يحملنها وقوله تعالى وحملها الانسان اشارة الى أن فيه مشقة بخلاف مالو قال فأبين أن يقبلنها وقبلها الانسان ومن قال لغيره افعل هذا الفعل فان لم يكن في الفعل تعب يقابل بأجرة فاذا فعله لا يستحق أجرة فقال تعالى وحملها اشارة الى انه مما يستحق الاجر عليه أي على مجرد حمل الامانة واما على رعايتها حق الرعاية فيستحق الزيادة فان قيل فالكل حملوها غاية ما في الباب ان الكافر لم يأت بشئ زائد على الحمل فينبغي أن يستحق الاجر على الحمل فنقول الفعل اذا كان على وفق الاذن من المالك الآمر يستحق الفاعل الاجرة ألا ترى انه لو قال احمل هذا الى الضيعة التي على الشمال فحمل ونقلها الى الضيعة التي على الجنوب لا يستحق الاجرة ويلزمه ردها الى الموضع الذي كان فيه كذلك الكافر حملها على غير وجه الاذن فغرم وزالت حسناته التي عملها بسببه ﴿ ثم قال تعالى ﴿ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ﴾ أي حملها الانسان ليقع تعذيب المنافق والمشرك فان قال قائل لم قدم التعذيب على التوبة نقول لما سمى التكليف امانة والامانة من حكمها اللازم ان الخائن يضمن وليس من حكمها اللازم ان الامين الباذل جهده يستفيد أجرة فكان التعذيب على الخيانة كاللازم والاجر على الحفظ احسان والعدل قبل الاحسان وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) لم عطف المشرك على المنافق ولم يعد اسمه تعالى فلم يقل ويعذب الله المشركين وعند التوبة أعاد اسمه وقال يتوب الله ولو قال ويتوب على المؤمنين كان المعنى حاصلا نقول أراد تفضيل المؤمن على المنافق فجعله كالكلام المستأنف ويجب هنالك ذكر الفاعل فقال ويتوب الله ويحقق هذا قراءة من قرأ ويتوب الله بالرفع (المسئلة الثانية) ذكر الله في الانسان وصفين الظلوم والجهول وذكر من أوصافه

ويؤيد الاول انه قرئ وان منهم أي ما منكم أيها الانسان (الا واردها) أي واصلها وحاضرها تمر بها المؤمنون وهي خامدة وتنهار بغيرهم وعن جابر انه صلى الله عليه وسلم سئل عنه فقال اذا دخل أهل الجنة الجنة قال بعضهم لبعض أليس قد وعدنا ربنا أن نرد النار فيقال لهم قد وردتموها وهي خامدة وأما قوله تعالى أولئك عنها مبعدون فالمراد به الابعاد عن عذابها وقيل ورودها الجواز على الصراط الممدود عليها (كان) أي ورودهم اياها (على ربك حتما مقضيا) أي أمرا محتوما أوجبه الله عز وجل على ذاته وقضى أنه لابد من وقوعه البتة وقيل اقسم عليه (ثم ننجي الذين اتقوا) الكفر والمعاصي مما كانوا عليه من حال الجثو على الركب على الوجه الذي سلف فيساقون الى الجنة وقرئ ننجي بالتخفيف وينجي وينجى على البناء للمفعول وقرئ ثمة ننجي بفتح الثاء أي هناك ننجيهم (ونذر الظالمين) بالكفر والمعاصي (فيها جثيا) منهارا بهم كما كانوا قيل فيه دليل على أن المراد بالورود الجثو حواليها وان المؤمنين يفارقون الفجرة بعد تجاثيهم حولها ويلقى الفجرة فيها على هيآتهم وقوله تعالى (واذا تتلى عليهم) الآية الى آخرها حكاية لما قالوا عند سماع الآيات الناعية عليهم فظاعة حالهم ووخامة مآلهم أي واذا تتلى على المشركين (آياتنا) التي من جملتها هاتيك الآيات الناطقة بحسن حال المؤمنين وسوء حال الكفرة وقوله تعالى (بينات) أي مرتلات الالفاظ مبينات المعاني بنفسها أو ببيان الرسول عليه الصلاة والسلام أو بينات الاعجاز حال مؤكدة من آياتنا (قال الذين كفروا) أي قالوا ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه على انهم قالوا ما قالوا كافرين بما يتلى عليهم رادين له أو قال الذين مردوا منهم على الكفر ومرنوا على العتو والعناد وهم النضر بن الحرث وأتباعه الفجرة واللام في قوله تعالى (للذين آمنوا) للتبليغ كما في مثل قوله تعالى

وقال لهم نبيهم وقيل لام الاجل كما في قوله تعالى وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه أى قالوا لاجلهم وفى حقهم والاول هو الاولى لان قولهم ليس فى حق المؤمنين فقط كما ينطق به قوله تعالى (أى الفريقين) أى المؤمنين والكافرين كأنهم قالوا أينا (خير) نحن أو أنتم (مقاما) أى مكانا وقرئ بضم الميم أى موضع اقامة ومنزلا (وأحسن نديا) أى مجلسا ومجتمعا يروى انهم كانوا يرجلون شعورهم ويدهنونها ويتطيبون ويتزينون بالزين الفاخرة ثم يقولون ذلك الفقراء المؤمنين يريدون بذلك أن خيرتهم حالا وأحسنيتهم منالا مما لا يقبل الانكار وأن ذلك لكرامتهم على الله سبحانه وزلفاهم عنده اذ هو المعيار على الفضل والنقصان والرفعة والضعة وأن من ضرورته هوان المؤمنين عليه تعالى لقصور حظهم العاجل وما هذا القياس العقيم والرأى السقيم الا لكونهم جهلة لا يعلمون الا ظاهرا من الحياة الدنيا وذلك مبلغهم من العلم فرد عليهم ذلك من جهته تعالى بقوله (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورئيا) أى كثيرا من القرون التى كانت أفضل منهم فيما يفتخرون به من الحظوظ الدنيوية كعاد وثمود وأضرابهم من الامم العاتية قبل هؤلاء أهلكناهم بفنون العذاب ولو كان ما آتيناهم لكرامتهم علينا لما فعلنا بهم ما فعلنا وفيه من التهديد والوعيد ما لا يخفى كأنه قيل فلينتظر هؤلاء أيضا مثل ذلك فكم مفعول أهلكنا ومن قرن بيان لابهامها وأهل كل عصر قرن لمن بعدهم لانهم يتقدمونهم مأخوذ من قرن الدابة وتقدمها وقوله تعالى هم أحسن أثاثا فى حيز النصب على أنه صفة لكم وأثاثا تمييز النسبة وهو متاع البيت وقيل هو ما جد منه والخرثى ما لبس منه ورث والرئى المنظر فعل من الرؤية لما يرى كالطحن لما يطحن وقرئ ريا على قلب الهمزة ياء وادغامها أو على انه من الرى وهو النعمة والترفه وقرئ ريئا على القلب وريا بحذف الهمزة وزيا بالزاى المعجمة من الزاى وهو الجمع فانه عبارة عن المحاسن المجموعة

ونصفين ﴿ فقال ﴿وكان الله غفورا رحيما﴾ أى كان غفورا للظلوم رحيما على الجهول وذلك لان الله تعالى وعد عباده بانه يغفر الظلم جميعا الا الظلم العظيم الذى هو الشرك كما قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم واما الوعد فقوله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء واما الرحمة على الجهل فلان الجهل محل الرحمة ولذلك يعتذر المسيء بقوله ما علمت (وههنا لطيفة) وهى ان الله تعالى اعلم عبده بأنه غفور رحيم وبصره بنفسه فرآه ظلوما جهولا ثم عرض عليه الامانة فقبلها لعلمه بظلمه وجهله لعلمه فيما يجبرهما من الغفران والرحمة والله أعلم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد النبى الامى وعلى آله وصحبه وسلم .

﴿تم الجزء السادس ويليه الجزء السابع أوله سورة سبأ﴾